

المرا و المرازين

تَصَنيَثُ الإِمَّامِ أَجْرِبُ حَكَامِ ذَبِيْ عَكَدَبْرِ حَكَمَّدُ الْغَزَالِمِيُّ (٥٠٠-٥٠٥ م

> ومعه المغنى عدحَمَل لاُستَفَارَ في الاُستَفارَ في تخرَّرِى مَا في الإحْمَدَا ومِتِه الاُرْحِبَارَ لِلعَلْمَهُ ذَرِّينَ الدِّرِينَ أَيْ الفَصَّلُ العِلْمَقِينَ لِلعَلْمَهُ ذَرِينَ الدِّينَ الْفَصَّلُ العِلْمَقِينَ (٣٢٠-٧٢٥)

> > دار ابن حزم

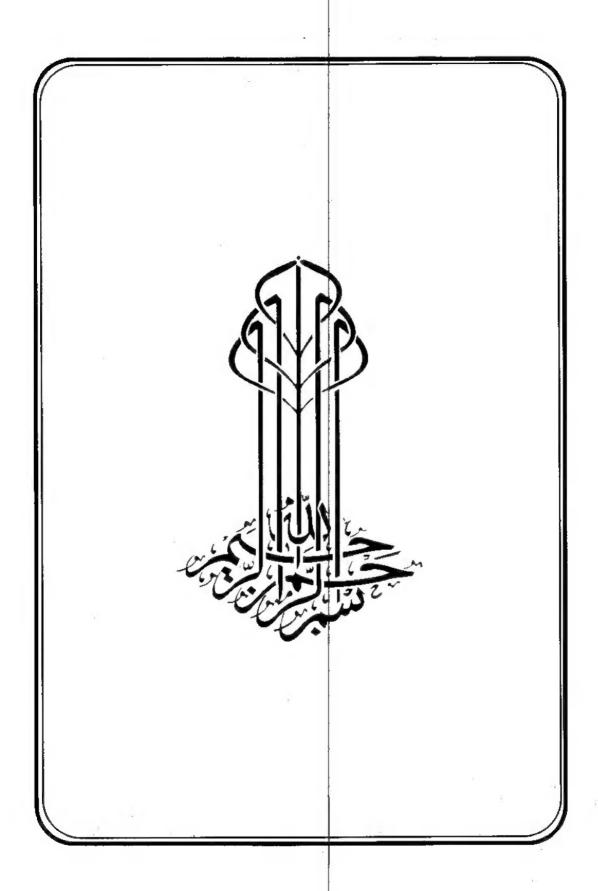
حُقُوقُ الطّبع بَحَفُوطَةً الطّب دَالْاول ١٤٢٦ه - ٢٠٠٥م ١٤٤١ه - ١٥٠٥م

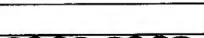


ISBN 9953-81-190-3

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

كَارَ أَمِنَ حَزْمِ لَلْمُلْبَاعِةُ وَالنَّسْرِ وَالتَّونَ المَّعْنِ الْمُلْبَاعِةُ وَالنَّسْرِ وَالتَّونَ المُعْدِوت - لبنان - ص.ب: 14/6366 ماتف وفاكس: 701974 - 701976 (009611) بريد إلكتروني: fbnhazim@cyberia.net.lb







ترجمة الإمام أبي حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ١١١١م)

هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف.

مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس، بخراسان)، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته.

نسبته إلى صناعة الغزّل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غَزَالة من قرى طوس (لمن قال بالتخفيف)(١).

قرأ الفقه في صباه في بلده ولازم إمام الحرمين فجد واجتهد حتى برع في الجدل والمنطق والمذهب والخلاف، وقرأ الفلسفة والحكمة وتمكن من ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وصنّف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها.

كانَ شديد الذَّكاء والفطنة، وناظر العلماء والأئمة في مجالسه حتى أصبح أنظر أهل زمانه وأوحد أقوانه. وقصد الوزير نظام الملك فلازم مجلسه وحدّث وناظر وتصدى.

أشهر كتبه «إحياء علوم الدين» الذي يعتبر من أعظم التصانيف التي صُنّفت في معرفة قواعد الأحكام، وبيّن الحلال والحرام وجمع فيه دقائق الأسرار.

له الكثير من المصنفات نذكر منها:

- تهافت الفلاسفة.
- الاقتصاد في الاعتقاد.
- الوقف والابتداء ـ وهو في التفسير ـ..
 - ـ البسيط ـ وهو في الفقه ـ.
 - . بداية الهداية.
- فضائح الباطنية ـ ويُعرف بالمستظهري، وبفضائح المعتزلة.
- التبر المسبوك في نصيحة الملوك وهو بالفارسية وتُرجم إلى العربية.
 - منهاج العابدين ـ قيل: هو آخر تآليفه ـ..
 - شفاء العليل ـ وهو في أصول الفقه _.
 - المستصفى من علم الأصول.
- ياقوت الناويل في تفسير التنزيل ـ كبير، قيل: في نحو أربعين مجلداً ـ.
 - . الإملاء عن إشكالات الإحياء.

توفي رحمه الله سنة ٥٠٥هـ في بلدته طوس ـ رحمه الله رحمة واسعة ...

⁽١) في اللباب ٢٠٠٢ ما يستفاد منه أن تخفيف الزاي في الغزالي، خلاف المشهور. الأعلام للزركلي ٣٣/٧.



ترجمة العلامة الحافظ العراقي (٢٥٥ ـ ١٣٢٥ م)

هو عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمْ ، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي: بحاثة، من كبار حفاظ الحديث.

أصله من الكرد ومولده في رازنان (من أعمال إربل)، وتحوّل صغيراً مع أبيه إلى مصر، فتعلم ونبغ فيها.

كان صالحاً ومتواضعاً، وشرع في إملاء اللحديث، وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين، وعاد إلى مصر فتوفى في القاهرة.

له العديد من المؤلفات نذكر منها:

- الألفية ـ وهي أشهر كتبه، وهي في مصطلح الحديث، وشرحها ـ..
- _ المغني عن حمل الأسفار في الأسفار _ وهو في تخريج أحاديث الإحياء _.
 - _ نكت منهاج البيضاوي ـ وهو في الأصول ـ.
 - _ ذيل على الميزان.
 - ي فتح المغيث.
 - _ التحرير ـ وهو في أصول الفقه ـ.
 - نظم الدرر السنية ـ وهي منظومة في السيرة النهوية ـ..
 - الألفية _ وهي في غريب القرآن _.
 - _ ذيل على ذيل العبر ـ للذهبي ـ.
 - معجم ـ ترجم به جماعة من أهل القرن الثامن للهجرة ـ.
 - تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد.
 - _ التقييد والإيضاح ـ وهو في مصطلح الحديث ـ.
 - _ طرح التثريب في شرح التقريب،

توفى رحمه الله سنة ٨٠٦ه في القاهرة _ إحمه الله رحمة واسعة ..

2 () ()



أحمد الله أولاً، حمداً كثيراً متوالياً؛ وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين. وأصلي وأسلم على رسله ثانياً، صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين. وأستخيره تعالى ثالثاً فيما انبعث له

خطبة كتاب المغنى عن حمل الأسفار

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها، وأعيا فهوم الملحدين عن دركها فرجعت بكلالها، أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها، وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعضالها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها، واقية من حلول الدركات وأهوالها، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به فجر الإيمان من ظلمة القلوب وضلالها، وأسمع به وقر الآذان وجلاً به زين القلوب بصفالها،

وبعد: فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث الحياء علوم الدين في سنة إحدى وخمسين تعذر الوقوف على بعض أحاديثه فأخرت تبييضه إلى سنة ستين، فظفرت بكثير مما عزب عني علمه ثم شرعت في تبييضه في مصنف متوسط حجمه وأنا مع ذلك متباطىء في إكماله غير متعرض لتركه وإهماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه وتكرَّر السؤال من جماعة في إكماله فأجبت وبادرت إليه ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار، فافتصرت فيه على ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ما ليس له أصل في كتب الأصول، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسؤول.

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه وإلا عزوته إلى من خرَّجه من بقية الستة وحيث كان في أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لفرض صحيح بأن يكون في كتاب النزم مخرّجه الصحة أو يكون أقرب إلى لفظه في الإحياء، وحيث كرر المصنف ذكر الحديث، فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لغرض أو لذهول عن كونه تقدم، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه، وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأثمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يغني عنه غالباً وربما لم أذكره. وسميته:

«المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار،
 جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ووسيلة إلى النميم المقيم.

عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين. وأنتدب لقطع تعجبك رابعاً أيها العاذل المتغالي في العذل من بين زمرة الجاحدين، المسرف في التقريع والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين؛ فلقد حل عن لساني عقدة الصمت وطوّقني عهدة الكلام وقلادة النطق: ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل، والتشغيب على من آثر النزوع قليلاً عن مراسم الخلق ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تعبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب، وتداركاً لبعض ما فرط من إضاعة العمر يائساً عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه: ﴿أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَتْفَعُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بُعِلْمِهِ ١١٠)، ولعمري إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجم الغفير، بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إدّ والخطب جدّ والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سدٌّ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير ردّ وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكدّ: فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظلَّ علم الدين مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطعام، أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام؛ إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام.

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه: فقهاً وحكمة وعلماً وضياء ونوراً وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً.

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً وخطباً مدلهماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً، إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأثمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين.

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات.

وصدرت الجملة بكتاب العلم، لأنه غاية المهم لأكشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله ﷺ الأعيان بطلبه؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ العِلْم فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُل مُسْلِم (٢٠) وأميز فيه العلم النافع من الضارّ؛ إذ قال ﷺ: «تَعُوذُ بِالله مِنْ عِلْم لا يَنْفَعُه (٢٠)، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب.

أحاديث الخطبة

 ⁽١) حديث: «أشد الناس عداباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»، رواه الطبراني في الصغير، والبيهقي في شعب
الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

 ⁽٧) حديث: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه، أحمد والبيهقي وغيرهما.

 ⁽٣) حديث: انعوذ بالله من علم لا يتقع، رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن.

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب:

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات.

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النّكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب العلال والحرام، وكتاب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب السّماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس، وكتاب آفات الشهوتين: شهوة البطن وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد، وكتاب ذم الدنيا، وكتاب ذم المال والبخل، وكتاب ذم الحباه والرياء، وكتاب ذم الكبر والعجب، وكتاب ذم الغرور.

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب:

كتاب النوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخوف والرجاء، وكتاب الفقر والزهد، وكتاب التوحيد والتوكل، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب النية والصدق والإخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكر، وكتاب ذكر الموت.

فأما ربع العبادات، فأذكر فيه من خفايا آدابها، ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهيات.

وأما ربع العادات، فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق، وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغني عنها متدين.

وأما ربع المهلكات، فأذكر فيه كل خُلُقٍ مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حدّه وحقيقته، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد، ثم الآفات التي عليها تترتب ثم العلامات التي بها تتعرف، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص، كل ذلك مقروناً بشواهد الآيات والأخبار والآثار.

وأما ربع المنجيات، فأذكر فيه كل خُلُتٍ محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدّها وحقيقتها، وسببها الذي به تجنلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل؛ ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور؛

الأول: حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه.

الثاني: ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه.

الثالث: إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه.

الرابع: حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه.

الخامس: تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام، لم يتعرض لها في الكتب أصلاً إذ الكل وإن

تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرّد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه، أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده في الكتب، أو لا يسهو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف؛ فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم.

وإنما حملني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران:

أحدهما: _ وهو الباعث الأصلي _ أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضرورة لأن العلم الذي يتوجّه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة ، وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط، وأعني بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به ، والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق الا في علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال ، علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال ـ والعلماء ورثة الأنبياء ـ فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسي والاقتداء ، ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعني العلم بأعمال الجوارح - وإلى علم باطن ـ أعني العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم ، فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن . والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم فكان المجموع أربعة أقسام ولا بشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام .

الباعث الثاني: أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى، المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات، وهو مرتب على أربعة أرباع والمتزيي بزي المحبوب محبوب، فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب، ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم، موضوعاً في الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسهم بذلك الجنس، جاذباً لهم إلى المطالعة والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى حياة الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد، فشرة هذا العلم طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد.



کتاب العلم

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول: في فضل العلم والتعليم والتعلم.

الباب الثاني: في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم، وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا.

الباب الثالث: فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره. الباب الرابع: في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل.

الباب الخامس: في آداب المعلم والمتعلم.

الباب السادس: في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة.

الباب السابع: في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار.

* * *

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من الفرآن قوله عز وجل: ﴿ وَتَهِدُ اللهُ أَنَهُ لَآ إِلّهُ هُو وَالْمَلَتِكُةُ وَأَوْلُوا الْفِرْ قَايِنًا وَنَاهِمُ ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة، وثلّ بأهل العلم؛ وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاء ونبلاً. وقال الله تعالى: ﴿ وَيَغَيْ اللهُ الّذِينَ ءَامُوا يَنكُمْ وَالّذِينَ أُولُوا اللهٰ وَنَاهِيكُ بِهِ اللهُ عَلَى اللهُ وَقَا المؤمنين بسعمائة درحة، ما بين المدرجنين مسيرة خمسمائة عام. وقال عز وجلّ: ﴿ فَلَ يَسْتَوى اللّذِينَ يَقَلَيْنَ وَاللّذِينَ اللّهُ وَلَا يَعْلَمُونُ ﴾ [الزَّمَد: ١٥] وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ تعالى: ﴿ وَقَالَ تعالى: ﴿ وَقَالَ اللّهِ عِنْهُ عِلَمُ اللّهُ اللّهُ اللهُ ا

﴿ وَلَقَدَّ جِثْنَهُم بِكِنَتِ فَصَّلْتَهُ عَلَىٰ عِلْمِ﴾ [الاعزاف: ٥٦] وقال تعالى: ﴿ فَلَنَقُصَّنَ عَلَيْهِم بِعِلَٰمِ﴾ [الاعزاف: ٧] وقال عزّ وجلّ : ﴿ بَلَ هُوَ مَايَتُ فِي صُدُودِ ٱلَّذِيكَ أُونُوا ٱلْعِلْمُ﴾ [العنكبوت: ٤٩] وقال تبعالى: ﴿ خَلَفَ الْإِسْدَنَ ﴾ عَلَمَهُ ٱلبّيَانَ ۞﴾ [الرّحلن: ٣٤] وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

وأما الأخبار فقال رسول الله على: "هَنْ يُرِو اللّه بِهِ خَيْراً يُفَقّهُهُ في الدّينِ وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ". وقال على: "المُعْلَمَاءُ وَرَقُهُ الأنبياءِ"، ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة. وقال على: "وقال على: "وقال المُعْنِينَ السّمُواتِ وَالأَرْضِ"، وأي منصب يزيد على منصب من تشتخل ملائكة السسموات والأرض بالاستغفار له. وقال على: "إنّ الحجكمة تَزِيدُ الشّرِيفَ شَرَفا وَتَرَفَعَ المَمْلُوكَ حَتَىٰ يُعْرِكَ مَعَارِكَ المُلُوكِ"، وقد نبه بهذا على ثمراته في الدنيا، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى. وقال على: "حَصْلتانِ لا يَكُونَانِ فِي مُنَافِيّ: حُسُنُ سَمْتِ وَقِفْهُ فِي الدّينِ"، ولا تشكّن في المحديث لمفاق بعض فقهاء الزمان، فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننته، وسيأتي معنى الفقه. وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء. وقال على: "المُومِنُ العَالِمُ الّذِي إِنْ احْتِيجَ إِلَيهِ نَفَعَ، وَإِن السُتُفْنِيّ عَنْهُ النفاق والرياء. وقال على: "الإيمَانُ عُرْبَانُ وَلِبَاسُهُ الثَقْوَى وَزِينَتُهُ الحَتِيجَ إِلَيهِ نَفَعَ، وَإِن السُتُفْنِيّ عَنْهُ النفاق والرياء. وقال على: "أن الحَدِيثُ العَلْمُ اللّذِي إِنْ احْتِيجَ إِلَيهِ نَفَعَ، وَإِن السُتُفْنِيّ عَنْهُ النفاق والرياء. وقال على: "أن المُؤمِنُ العَالِمُ النُفْوَى وَزِينَتُهُ الحَتِيءَ وَلَمْرَتُهُ العِلْمُ ". وقال على: "أن المُؤمِنُ العَلْمُ وَلِيتُهُ المُؤمِنُ العَلْمُ وَلِيتُهُ مِلْهُ وَلَالُ الْعِلْمُ وَلَالُ الْعِلْمُ وَلَالُ الْعَلْمُ وَلَالًا المُلْمَاءِ وَلَالُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا" ("). وقال عَنْ مِورَنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِدَادُ المُلْمَاءُ وَلَا المُلْمَاءُ وَلَالًى الْمَلْمُ وَقِعُ الْمُلْمَاءُ وَلَالُومُ وَقَالُ وَلَا المُلْمَاءُ وَلَالًا المُلْمَاءُ وَلَالُهُمْ وَلِلْتُهُ مِدَادُ المُلْمَاءُ وَلَالُ الْعَلْمُ فِي الجُمْلِيَةِ عِدَادُ المُلْمَاءُ وَلَالُ الْعَلْمُ وَلِي عَلَيْ مَا جَاءَتُ فِي السُلُومُ وَلَالُ الْعَلْمُ وَلَا المُلْمَاءُ وَلَا المُلْمَاءُ وَلَالُومُ الْمَاسُلُهُ المُنْ المُعْرَاقُ المُلْمَاءُ وَلَا المُلْمَاءُ وَلَالُومُ الْمُؤْلُولُ الْمُلْمُولُ وَلِيَا اللْمُعْمُ وَلَا اللْمَاهُ وَلَالُولُ الْمُؤْلُولُولُ الْمَالِمُ الْم

كتاب العلم: الباب الأول

احدیث: "من یرد الله به خیراً یفقهه في الدین ویلهمه رشده" منفق علیه من حدیث معاویة دون قوله: «ویلهمه رشده" و هذه الزیادة عند الطبرانی فی الکبیر.

 ⁽٢) حديث: «العلماه ورثة الأنبياء» أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماحه، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء.

 ⁽٣) حديث: «يستغفر للعالم ما في السموات والأرض» هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم.

 ⁽³⁾ حديث: «الحكمة تزيد الشريف شرفاً...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن عبدالبر في بيان العلم،
 وعبدالغني الأزدي في آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضميف.

⁽٥) حديث: «خصلتان لا تجتمعان في منافق. . . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حديث غريب.

 ⁽١) حديث. • أفضل الناس المؤمن العالم. . • الحديث. أخرجه البيهفي في شعب الإيمان موثوفاً على أبي الدرداء بإستاد ضعيف ولم أره مرفوعاً.

⁽٧) حديث: "الإيمان عريان. . . . • الحديث. أحرجه الحاكم في تاريخ نيسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

 ⁽٨) حديث: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد. . . ١ الحديث. أخرجه أبو نعيم في فصل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

 ⁽٩) حديث: «لموت قبيلة أيسر من موت عالم» أخرجه الطبراي، وابن عبدالبر من حديث أبي الدرداء، وأصل الحديث عند أبي الدرداء.

⁽١٠) حديث: «الناس معادن. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الشُّهِدَاءِه (١). وقال ﷺ: همَن حَفِظَ عَلَىٰ أُمْتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثاً مِنَ السُّنَةِ حَتَىٰ يُؤَدِّبَها إِلَيْهِمْ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً يَوْمَ القِيَامَةِ فَقِيها وَمَنْ حَمَلَ مِنْ أُمْتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثاً لَقِيَ اللَّهُ عَرَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ فَقِيها عَلَيْها اللَّهُ تَعَالَىٰ مَا أَهَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا عَلَيْمِهُ (١). وقال ﷺ: همَنْ تَفَفَّه فِي دِينِ اللَّهِ صَرَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مَا أَهَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَخْتَسِبُه (١). وقال ﷺ: العَالِمُ أَمِينَ اللَّهِ سُبْحَاتُهُ فِي الأَرْضِ (١). وقال ﷺ: المُعالِمُ أَمِينَ اللَّهِ سُبْحَاتُهُ فِي الأَرْضِ (١). وقال ﷺ: المُعالِمُ أَمْتِي إِذَا صَلْحُوا عَلَيْمُ اللَّهُ اللهُ اللهِ عَلَّ وَجَلَّ فَلا بُورِكَ لِي فَي طُلُوعِ شَمْسِ ذَٰلِكَ اليَوْمِ (١)، وقال ﷺ في تفضيل العلم على العبادة والشهادة: فقضلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَالِمِ عَلَىٰ الْمُوعِ شَمْسِ ذَٰلِكَ المَيْوِمِ (١)، وقال ﷺ في تفضيل العلم على العبادة والشهادة: فقضلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَالِمِ عَلَىٰ المُعالِمِ عَلَىٰ العَالِمِ عَلَىٰ العَلَمْ وَلَى اللهِ العَلَمِ عَلَىٰ العَلِمُ عَلَىٰ العَلَمُ وَاللَّهُ الْمُ الْعَلَمُ وَاللَّهُ اللَّهُ المُعْلَمُ وَاللَّهُ المُ الْمَقْعُ عَنْ مَ الْقِيَامَةِ قَلَاكُةُ: الاَتَبِيَاءُ ثُمُّ المُلْمَاءُ ثُمُّ الشَّهَ عَلَىٰ الْعَلَمُ وَاللَّهُ المُلْمَاءُ وَلَى اللهُ الْمُنْ عَلَىٰ الْعَلَمُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَىٰ الفَقْمُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ المُلْمَاءُ وَلَمُ الشَّهُ وَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الْعَلَمُ المُلْمُ اللهُ ا

⁽١) حديث: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء» أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

 ⁽٢) حديث: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى بؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة؛ أخرجه ابن
عبدالبر في العلم من حديث ابن عمر وضعفه.

 ⁽٣) حديث: «من حمل من أمني أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فقيهاً عالماً» أخرجه ابن عبدالبر من حديث أنس وضعفه.

 ⁽٤) حديث المن تفقه في دين الله كفاه الله ما أهمه. أ.٩ الحديث رواه الحطيب في التاريخ من حديث عبدالله بن جزء الزبيدي بإسناد ضعيف.

حدیث ، أوحى الله إلى إبراهیم: یا إبراهیم إني علیم أحب كل علیم، دكره ابن عبدالبر تعلیقاً ولم أظهر له بإساد.

 ⁽٦) حديث: «العالم أمين الله في الأرض؛ أخرجه ابن عبدالبر من حديث معاد بسند ضعيف.

⁽٧) حديث. اصنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس. . ؟ الحديث. أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

 ⁽٨) حديث: ﴿إِذَا أَتِى حَلَيْ يُوم لا أَزْدَادَ فَيِهُ حَلْماً بِقَرْبِنِي... الْحَدَيث. أَخْرَحُهُ الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، وأبن عبدالبر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

 ⁽٩) حديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي؛ أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال:
 حسن صحيح.

 ⁽١٠) حديث " ففضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على مناثر الكواكب؟ أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي،
وابن حبان، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم.

⁽١١) حديث: فيشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء، رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عقان بإسناد ضعيف.

⁽١٢) حديث، قما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين. . . ٤ الحديث. رواه الطبراني في الأوسط، وأبو بكر الآجري في كتاب فصل العلم، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هويرة بإسناد ضعيف. وعند الترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف: «فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد».

⁽١٣) حديث: «خير دينكم أيسره وأقضل العبادة الفقهه أخرجه ابن عبدالبر من حديث أنس بسند ضعيف، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع بإسناد جيد، والشطر الثاني عند الطرائي من حديث ابن عمر سند ضعيف

المُؤْمِنُ العالِمُ حَلَىٰ المُؤْمِنِ المَايِدِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةٍ (١٠). وقال ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ أَصْبَحْتُم فِي زَمَنِ كَثِيرٍ نُقَهَاؤُهُ قَلِيلٍ قُوَّاؤُهُ وَخُطْبَاؤُهُ قَلِيلَ سَاتِلُوَّهُ كَثِيرٍ مُغَطُوهُ، العَمَلُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ العِلْمَ. وَشَيَأْتِي عَلَىٰ اَلنَاسُ زَمَانَ قَلِيلُ فُقَهَاؤُهُ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ مُغطُوهُ كَثِيرٌ سَائِلُوهُ، والعِلْمُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الخَيَلِ» '''. وقال ﷺ: «بَيْنَ العَالِمِ والعَابِدِ مِاثَةُ دَرَجَةٍ، بَيْنَ كُلُّ دَرَجَتَيْنَ خُضْرُ الجَوَادِ المُضَمَّرِ صَبْعِينَ سَنَةً اللهُ وَقِيل: يا رسول الله، أي الأعُمال أَفَضل؟ فقال: «العِلْمُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» فقيل: أي العلم تريد؟ قال ﷺ: «العِلْمُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ» فقيل له: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم! فقال ﷺ: ﴿إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ يَنْفَعُ مَعَ الْعِلْم بِاللَّهِ وَإِنَّ كَثِيرَ الْعَمَلِ لا يَنْفَعُ مَعَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ» (*) وقال ﷺ : اليَهْعَتُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ العِبَادَ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَهْمَتُ الْعُلَمَاءَ ثُمَّ يَقُولُ: يا مُغِشَرَ الْعُلَمَاءِ، إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ إِلاَّ لِعِلْمِي بِكُمْ، وَلَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ لاَّعَذَّبُكُمْ، اذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، (°) نسأل أَلَهُ حسن الخاتمة.

وأما الآثار: فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل: يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النهقة، والعلم يزكو بالإنفاق. وقال عليٌّ أيضاً رضي الله عنه: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلَّا خلف منه، وقال رضي الله تعالى عنه نظماً:

ما الفخررُ إلا لأهل السعِلْم إنَّهم على المهدى لمن المستهدى أولاً ع وَقَــذُرُ كــلِّ امــرىءِ مــا كــان يُــخــســئــه والـــجــاهِـــلُــونَ لأهـــل الـــعـــلـــم أغـــداء السنساسُ مسؤتسى وأحسلُ السجسلُسم أخسيساءُ

فَفُرُ بِعِلْمَ تَجِسُ حِيثًا بِهِ أَبِاداً

وقال أبو الأسود: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه، وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال. الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين. ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بِعِظَمِهِ فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا

حديث: «قضل المؤمن العالم على المؤمن العابد يسبعين درحة اأخرجه الن عدي من حديث أبي هريرة بإسناد (1) ضعيف، ولأبي يعلى نحوه من حديث عبدالبر بن عوف.

حديث: النكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه. . . ؟ الحديث. أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمّه، **(Y)** وقيل: عن أبيه وإسناده ضعيف.

حديث: ابين العالم والعابد مانة درجة؛ الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال. اسبعون **(Y)** درجمة» بسند ضعيف، وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبي هريرة.

حديث: قيل: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ فقال: «العلم بالله. . . ا الحديث. أخرجه ابن عبدالبر من حديث (1) أنس بسند ضعيف.

حديث: «يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء...» الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي موسى بسند

للعلم. وقال بعض العلماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فاته من أدرك العلم. وقال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ أُوثِيَ القُرْآنَ فَرَأَىٰ أَنَّ أَحَداً أُوتِيَ خَيْراً مِنْهُ فَقَدْ حَقَرَ ما عَظُمَ اللَّهُ تَعَالَىٰ». وقال فتح الموصلي رحمه الله: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا: بلي قال: كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت. ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته، كما أن غذاء الحسد الطعام، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به؛ إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعاً، فإذا حطُّ الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسّر تحسّراً عظيماً ثم لا ينفعه، وذلك كإحساس الآمن من حوفه والمفيق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الحوف، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وقال الحسن رحمه الله: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذي نفسي بيده ليوذن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها، وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٓ ءَانِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَضِرَةِ حَسَنَةً﴾ [النَّقَرَة: ٢٠١] إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعمادة، وفي الآخرة هي الجنة. وقيل لبعض الحكماء: أي الأشياء تقتني؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك، يعني العلم. وقيل: أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت. وقال بعضهم: من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار. وقال الشافعي رحمة الله عليه: من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن رفع عنه حزن. وقال عمر رضي الله عنه: يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه، فمن طلب باباً من العلم ردَّاه الله عزَّ وجلَّ بردائه، فإن أذنب ذنباً استعتبه ثلاث مرات لثلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت. وقال الأحنف رحمه الله: كاد العلماء أن يكونوا أرباباً، وكل عزُّ لم يوطد بعلم فإلى ذلَّ مصيره. وقال سالم بن أبي الجعد: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني، فقلت: بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم، فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له، وقال الزبير بن أبي بكر: كتب إليّ أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً. وحكي ذلك في وصايا لقمان لابنه قال: يا بنيَّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء. وقال بعض الحكماء: إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى دكره. وقال الزهري رحمه الله: العلم ذِكْرٌ ولا تحبه إلا ذكران الرجال.

فضيلة التعلم:

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿ فَلَوَلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْفَةِ مِنْهُمٌ مَلَآلِفَةً لِيَـنَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾ [النوية: ١٣٣] وقوله عزّ وجل: ﴿ فَسَتَكُواْ أَهْـنَ ٱلذِّكْرِ إِن كُشُنْدُ لَا نَعْلَمُونَّ﴾ [التحل: ٤٣].

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ مِلْماً سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَىٰ الجَنَّةِ"(١٠

⁽١) حديث: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً...؟ الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الْمَلائِكَةَ نَتَضَعُ أَجْبَحْتِها لِطَالِبِ العِلْم رضاة بِمَا يَصْنَعُ (') وقال ﷺ: ﴿ لأَنْ تَعْلُمُ فَتَتَعَلَّم بَالِهُ مِنَ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّي مِائَةَ رَكْعَةٍ ('') وقال ﷺ: ﴿ قَبَالٌ مِنَ الْعِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ الْعُلْمِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّي مِائَةً رَكْعَةٍ ('') وقال ﷺ: ﴿ وقال ﷺ: ﴿ وَقال ﷺ: ﴿ وَقَالَ ﷺ: ﴿ وَقَالَ اللهِ اللهُ وَالْ اللهُ وَاللهِ اللهُ وَاللهِ اللهِ اللهُ وَاللهِ اللهُ وَاللهِ اللهُ وَاللهِ اللهُ وَاللهِ اللهُ وَاللهِ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهِ اللهُ وَاللهُ اللهِ اللهُ وَاللهُ اللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ

وأما الأثار؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالباً فعززت مطلوباً. وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله: ما رأيت مثل ابن عباس، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجهاً، وإذا تكلم فأعرب الناس لساناً، وإذا أفتى فأكثر الناس علماً. وقال ابن المبارك رحمه الله: عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة؟ وقال بعض الحكماء: إني لا أرحم رجالاً كرحمتي لأحد رجلين: رجل يطلب العلم ولا يفهم، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لأن أتعلم مسألة أحب المياس فيام ليلة. وقال أيضاً: كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك. وقال عطاء مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو، وقال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه، وقال الشافعي رضي الله عنه: طلب العلم أفضل من النافلة، وقال ابن عبدالحكم رحمه الله: كنت عند مالك أقرأ عليه العلم، فدخل الظهر

⁽۱) حديث: «إن الملائكة لتضع أجتحتها لطالب العلم رضاه بما يصنع» أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال.

 ⁽٣) حديث: «أن تغدو فتنعلم باباً من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة» أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذاك، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر.

⁽٣) حديث: الباب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا، أخرجه ابن حيان في روضة العقلاء، وابن عبدالبر موقوماً على الحسن البصري، ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ: اخير له من مائة ركمة، رواه الطبرائي في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبى ذر.

 ⁽٤) حديث «اطلبوا العلم وثو بالصين» أخرجه ابن عدي، والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس، وقال
البيهقي: مثنه مشهور وأسانيده ضعيفة.

 ⁽٥) حديث «العلم حزائن مفاتيحها السؤال.. ٤ الحديث. رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعاً بإسناد ضعيف.

 ⁽٦) حديث: «لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله» أحرجه الطبراني في الأوسط، وابن مردويه في التفسير، وابن
 السني، وأبو نعيم في رياصة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف.

 ⁽٧) حديث أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة. . .» الحديث. ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر.

 ⁽A) حديث: قمن جاءه الموت وهو يطلب العلم. . . ٩ الحديث. أخرجه الدارمي وابن السبي في رياضة المتعلمين من حديث الحسن، فقيل: هو أبن علي، وقيل: هو ابن يسار البصري مرسلاً.

فجمعت الكتب لأصلي فقال: يا هذا ما الذي قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحَّت النية. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: من رأى أن الغدرّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

فضيلة التعليم:

أما الآيات فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِيْمَنِذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجُعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ بَعَدُرُوكَ ﴾ [القوبَّة: ١٣٢] والمراد هو التعليم والإرشاد. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَنَ ٱلَّذِينَ أُونُّوا ۚ ٱلْكِتَنَبَ لَتُهَيِّئُتُم لِلنَّاسِ وَلَا تَكُتُنُونَهُ ﴾ [آل عِمزان: ١٨٧] وهو إبجاب للتعليم. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ وَبِقًا يَنْهُمْ لَيَكُنُّدُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦] وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالى في الشهادة: ﴿وَمَن يَعِكُنُّهُ فَإِنَّهُۥ مَائِثٌمٌ فَلَبُتُّو ﴾ [البَقَزة: ٢٨٣]، وقال ﷺ: هما آتَني اللَّهُ عَالِماً عِلْماً إِلاَّ وَأَخَذَ عَلْيَهِ مِنَ المِينَاقِ ما أَخَذَ عَلَىٰ النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُوهُ الأَنْ . وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا يِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَهٰلِمُنا﴾ [فضلت: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ لَخْسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ رَبُعَلِمُهُمُ الْكِنَابَ وَالْجِكُمَةُ ﴾ [البَقَرَة: ١٢٩]. وأما الأخبار فقوله ﷺ لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن: الآن يَهْدِيَ اللَّهُ مِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنَ اللُّنيا وَمَا فِيها (٢٠) وقال ﷺ: قَمَنْ تَعَلَّمَ بَاباً مِنَ العِلْم لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أَعْطِي ثُوَابَ سَبْعِينَ صِدِّيقاً (٣) وقال عيسى ﷺ: من عَلِم وعمل وعلْم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السموات. وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَابِدِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ: ادْخُلُوا الجَنَّةُ، فَيَقُولُ الْمُلَمَاءُ: بِفَصْلِ عِلْمِنَا تَعَبَّدُوا وَجَاهِلُوا، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْتُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلاتِكْتِي اشْفَعُوا تُشَفَّعُوا فَيَشْفَعُونَ ثُمَّ يُذَخَلُونَ الجَنَّةَ الأَ وهذا إنما يكون بالعلم المتعدِّي بالتعليم لا العلم اللازم الدي لا يتعدَّى. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَنْتَزعُ العِلْمَ الْتِرَّاعاً مِنَ النَّاس بَمْدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ وَلَٰكِنْ يَذْهَبُ مِذْهَابِ الْمُلَمَاءِ ، فَكُلِّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذُهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا رُوْسَاءَ جُهَّالاً إِنَّ سُئِلُوا أَفْتُوا بِغَيْرٍ عِلْمَ فَيضِلُونَ وَيُضِلُونَ * . وقالَ ﷺ : " هَنْ عَلِمَ عِلْما أَفْكَتَمَهُ ٱلنَّجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَام مِنْ نَارٍ ١٠٠٠ . وقَال مَعْلِيَّةُ أَ ايغمَ العطيَّةُ وَيْعُمَ الهديَّةُ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَسْمَعُها فَتَطْوِي عَلَيْها ثُمَّ تَحْمِلُها إِلَىٰ أَخِ لَكَ مُشْلِمٍ تُعَلِّمُهُ إِيَّاهَا تَمَدَلُ صِبَادَةَ سَنَةٍ عَ^(٧). وقال ﷺ: «الدُّنْيا مَلْمُونَةٌ مَلْمُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ

 ⁽١) حديث: اما أتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخد على النبيين. . . ٩ الحديث. أحرجه أبو نعيم في فصل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه، وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث قاله لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: الأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك. . . ٤ الحديث. أخرجه أحمد من حديث معاذ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلي.

 ⁽٣) حديث: «من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطي ثواب سيعين صديقاً» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

 ⁽³⁾ حديث: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمِ القَيَامَةُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَلْعَابِدِينَ والمتجاهدين: ادخلوا اللجنة. . .) الحديث ـ أخرجه أبو العباس اللهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

 ⁽a) حديث: (إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس . » الحديث. متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو.

 ⁽٦) حديث: امن علم علماً فكتمه ألجم بوم القيامة بلجام من قارا رواه أبو داود، والترمدي، وابي ماجه، وابي حبان،
 والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، قال الترمذي: حديث حسن.

 ⁽٧) حديث: «نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها. ، . ١٠ الحديث. أحرجه الطبراني من حديث ابن عباس نحوه
بإسناد ضعيف.

وَمَا وَالاهُ أَوْ مُعَلَّما أَوْ مُتَعَلَّما أَوْ مُتَعَلَّما أَوْ مُتَعَلَّما أَوْ مُعَلِّما أَوْ مُعَلِّما أَفَاهُ اللّهُ سُبْحَانَهُ وَمَلائِكَتُهُ وَأَهْلَ سَلْوَاتِهِ وَأَرْضِهِ حَتَىٰ النّهْلَة فَي جُخرِهَا حَتْىٰ الحُوت فِي البَحْر لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّم النّاسِ الحَيْرِيَسْمَهُها المُؤْمِنُ فَيَعَلَّمُها وَيَعْمَلُ بِهَا خَيْرٌ لَهُ أَفْضَلُ مِنْ حَبِيثِ حَسَنٍ بَلَغَهُ فَبَلْقَهُ أَنْ وَقَال ﷺ: وَكَلِّمَةٌ مِنَ الحَيْرِيَسْمَهُها المُؤْمِنُ فَيَعَلَّمُها وَيَعْمَلُ بِهَا خَيْرٌ لَهُ مِن عِبَادَةٍ سَنَةٍ (**) و وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين ، أحدهما يدعون الله عزّ وجل ويرغبون إليه ، والثاني يعلّمون الناس ، فقال : "أَمَّا لَمُؤلاءِ فَيَسْأَلُونَ اللّهَ تَعَالَىٰ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنْعَهُمْ ، وَأَمَّا لَمُؤلاءٍ فَيَسْأَلُونَ اللّهُ عَزْ وَجَلّ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ والعلم كَمَثلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا بُقْمَةٌ قَبِلْتِ المَاءَ فَأَنْبَتَ الكَلاَ وَالعُسْبَ وَجَلّ بِهِ النَّاسَ مَشْهَا بُقْمَةٌ قَبِلْتِ المَاءَ فَأَنْبَتَ الكَلاَ وَالعُسْبَ وَجَلّ بِهِ النَّاسَ فَشَوْرُوا مِنْها وَسَقُوا وَزَرَعُوا ، وَكَانَتْ مِنْها النَّامِ وَكَانَتْ مِنْها بُقْمَةٌ قَبِلْتِ المَاءَ فَالْمُ اللهُ عَرْ المُعْرَبُ وَكَانَتْ مِنْها بُقْمَةٌ قَبْونَ مِنْها أَنْهُ اللّهُ عَرْ وَجَلْ بِهِ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْولُوهُ وَلَا عَلَى اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلَى الْمُعْرَبُ وَلَا عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلْمَه النّاسَ ، وَاللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى الْمُعْرَبُ وَاللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى الْمُعْرَبُونَ اللّهِ عَلَى الْمُعْرَبُونَ اللّهِ عَلَى الْمُعْرَبُونَ اللّهُ اللّهُ عَلَى الْمُعْرَبُونَ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ ال

وأما الآثار: فقد قال عمر رضى الله عنه: من حدَّث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك

⁽۱) حديث: «المدنيا ملعونة ملعون ما فيها...» الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، قال الترمذي: حسن غريب

 ⁽٢) حديث: اإن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على
 معلم الناس الخيرة أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: غريب، وفي نسخة: حسن صحيح.

⁽٣) حديث: اما أفاد المسلم أخاه فاتدة أفضل من حديث حسن. ١٠ الحديث. أحرجه ابن عبدالبر من رواية محمد بن المنكدر مرسلاً نحوه، ولأبي نعيم من حديث عبدالله بن عمرو: اما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى».

⁽٤) حديث: «كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها. . .» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسالاً نحوه، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة».

حدیث: «خرح رسول الله ﷺ ذات یوم علی أصحابه قرأی مجلسین أحدهما بدعون الله. . . ٩ الحدیث . أخرجه ابن ماجه من حدیث عبدالله بن عمرو بسند ضعیف .

 ⁽٦) حليث: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى...» الحديث. متفق عليه من حديث أبي موسى.

 ⁽٧) حديث: ﴿إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث. . . الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هربرة وتمامه: ﴿علم ينتفع به ، أو صدقة جارية أو ولد صالح يدهو لهه.

 ⁽A) حديث: «المدال على الخير كفاعله» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال: غريب. ورواه مسلم، وأبو داود،
 والترمدي وصححه عن أبي مسعود البدري بلفظ، "من دل على خير قله مثل أجر قاعله».

 ⁽٩) حديث: «لا حسد إلا في اثنتين. . . ؟ الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسمود.

 ⁽١٠) حديث: العلى خلفائي رحمة الله. . . الحديث، رواه ابن عبدالبر في العلم، والهووي في ذم الكلام من حديث الحس، فقيل، هو ابن علي وقبل: ابن يسار البصري فيكون مرسلاً، ولابن السني وأبي نعيم في رياضة المتعلمين من حديث علي تحوه.

العمل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر. وقال بعض العلماء: العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل.

وروي: أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان، فقال: اكروا لي لأخرج من هذا البلد، هذا بلد يموت فيه العلم. وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به. وقال عطاء رضى الله عنه: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألني عن شيء. وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره، وقال الحسن رحمه الله. لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم، أي: أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية. وقال عكرمة: إن لهذا العلم ثمناً. قيل: وما هو؟ قال: أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه. وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة. وقيل: أول العلم الصَّمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره. وقيل: علَّم علمك من يجهل وتعلُّم ممن يعلم ما تجهل؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت. وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأيته أيضاً مرفوعاً: «تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنَّ تَعَلَّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ، وَطَلَبَهُ عِبَادَةً، وَمُدَارَسَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالبَحْث عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ مَنْ لا يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَلْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ، وَهُوَ الأَنْيِسُ فِي الوَحْدَةِ، وَالْصَّاحِبُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدُّلِيلُ عَلَىٰ الدِّينِ، وَالمُصَبِّرُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالوَزِيرُ عِنْدَ الأخِلاْءِ، وَالقَريبُ عِنْدَ الغُرَبَاءِ، وَمَنَارُ سَبِيلِ الجَنَّةِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَاماً فَيَجْعَلُهُمْ فِي الخَيْرِ قَادَةُ سادَةً هُدَاةً، يُقْتَدَىٰ بِهِمْ، أَدِلَةً فِي الخَيْرِ تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ وَتُرْمَقُ أَفْمَالُهُمْ وَتَرْغَبُ المَلائِكَةُ فَي خَلَّتِهِمْ وَبِأَجْنِحَتِها تَمْسَحُهُمْ، وَكُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسِ لَهُمْ يَسْتَغْفِرُ حَتَّىٰ حِيثانُ البَحْرِ وَهَوَامُهُ وَسِبَاعُ البّرْ وَأَلْمَامُهُ وَالسَّمَاءُ وَنُجُومُهَا إِذَا ﴾ لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله عزّ وجلّ وبه يعبد، وبه يوحد وبه يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء. نسأل الله تعالى حسن التوفيق.

في الشواهد العقلية:

اعلم: أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته، وما لم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لا يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداً حكيم أم لا، وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها. والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة؛ فإذا تشارك شيئان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال: فَضَله، وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء، كما يقال: الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكرّ والفرّ وشدة العدو وحسن الصورة، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل؛ لأنّ تلك زيادة في الجسم ونقصان في المعنى ولبست من الكمال في

 ⁽۱) حديث معاذ: «تعلموا العلم فإن تعلمه نه خشية وطلبه عبادة. . » الحديث بطوله رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب
الثواب، وابن عبدالبر وقال: لبس له إسناد قوي.

شيء، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه، فإذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات؛ بل شدة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة؛ فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء، بل الكيس من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة. واعلم: أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً، فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره، والمطلوب لغيره: الدراهم والدنانير فإنهما حجران لا منفعة لهما، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة. والذي يطلب لذاته: فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى. والذي يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن، فإن سلامة الرجل مثلاً مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للمشى بها والتوصل إلى المآرب والحاجات.

وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لديذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته! وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى، هذا في الآخرة، وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم محبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتمييز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها. هذه فضيلة العلم مطلقاً، ثم بخلف العلوم كما سيأتي بيانه وتتفاوت لا محالة فضائلها بتفاوتها، وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل، وبيانه: أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الذنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة أم مستقراً ووطناً، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين. وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام:

أحدها: أصول لا قوام للعالم دونها، وهي أربعة: الزراعة، وهي للمطعم. والحياكة، وهي للملبس. والبناء، وهو للمسكن. والسياسة، وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسياب المعيشة وضبطها.

الثاني: ما هي مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها: كالحدادة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلاجة، والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها.

الثالث: ما هي مندمة للأصول ومزينة، كالطحن والخبز للزراعة؛ وكالقصارة والخياطة للحياكة؛ وذلك بالإضافة إلى جملته فإنها ثلاثة أضرب وذلك بالإضافة إلى جملته فإنها ثلاثة أضرب أيضاً: إما أصول كالقلب والكبد والدماغ، وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين، وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح، ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات، ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة

في استصلاح الخُلْقِ وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجِّي في الدنيا والآخرة على أربع مراتب:

الأولى: وهي العليا: سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً في طاهرهم وباطنهم.

والثانية: الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً، ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم.

والثالثة: العلماء بالله عزّ وجلّ وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء، وحكمهم على باطن الخاصة فقط، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمتع والشرع.

والرابعة: الوقاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم؛ وإنما قلنا: إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور: إما بالالتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية؛ إذ تدرك الحكمة بالعقل، واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع؛ وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة، وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة؛ إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة؛ وليس يخفى أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتي بيانه؛ إذ به تقبل أمانة الله، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه. وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة، وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس وأشرف جزء من جواهر الإنسان قله، والمعلم مشغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عزّ وجلّ، فتعليم على موجه: عبادة لله تعالى، ومن وجه خلافة الله تعالى قد فتح على قلب العلم الذي هو أخص صفاته، فهو كالخازن لأنفس خزائه، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه؛ فأي رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى على كل محتاج إليه؛ فأي رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه صبحانه وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى، جعلنا الله منهم بكرمه؛ وصلى الله على كل عبد مصطفى.

الباب الثاني

في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ما هو فَرْضُ عَيْنِ وما هو فرض كفاية، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة.

بيان العلم الذي هو فرض عين:

قال رسول الله ﷺ: ﴿ طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةً عَلَىٰ كُلُّ مُسْلِمٍ ۚ وقال أيضاً ﷺ. ﴿ اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَوْ بِالصَّينِ ۗ واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ، فتفرّقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزّل الوجوب على العلم الذي هو بصدده ، فقال المتكلمون: هو علم الكلام؛ إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال المفسرون والمحدّثون: هو علم الكتاب والسنّة؛ إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها. وقال المتصوّفة: المراد به هذا العلم، فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عزّ وجلّ. وقال بعضهم: هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمّة الملك من لمّة الشيطان. وقال بعضهم: هو علم الباطن، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن عمومه. وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام، وهو قوله على: "بُني الإسلام عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلْهَ إِلاَ اللهُ. . . هذا الحديث الذي فيه مباني الإسلام، وهو قوله على الغمس ويجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب.

والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره: وهو أن العلم كما قدّمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة وعلم مكاشفة، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة. والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد، وفعل، وترك؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً فأوّل واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول: الا إله إلا الله، محمد رسول الله. وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، بل يكفيه أن يصدّق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرّد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان؛ إذ اكتفى رسول الله على من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل (٢٠). فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو قرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطبعاً لله عز وجلّ غير عاص له، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض، وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد.

أما الفعل: فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتحدّ عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم، فلا يبعد أن يقال: الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت. ويحتمل أن يقال: وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات، فإن عاش إلى رمضان تجدّد سببه وجوب تعلم الصوم: وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس؛ وأن الواجب فيه النية والإمسائ عن الأكل والشرب والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين؛ فإن تجدّد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة، ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام؛ فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف، فإذا دخل في أشهر

الباب الثاني

⁽١) حديث: (بني الإسلام على خمس. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر.

 ⁽٢) حديث: «اكتفى رسول الله ﷺ من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل» مشهور هي كتب السير والحديث؛ فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة.

الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخي عل كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكاً حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة، فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، فإن فعل ذلك تَفَلَّ فعلمه أيضاً نقل فلا يكون تعلمه فرض عين، وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه، وهكذا التدريج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين.

وأما التروك: فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال، قما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لابساً للحرير، أو جالساً في الغصب، أو ناظراً إلى عير ذي محرم، فيجب تعريقه بذلك وما ليس ملابساً له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه.

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب: فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك. فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقد مات على الإسلام إجماعاً، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق، فإنه لو ألقي إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وريما عسر ذلك، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العلم الواحب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرص عين، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضاً ولكن في حق العلم من يتصدى له، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا يفك عن دواعي الشر والرباء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المُهْلِكَاتُ ما يرى نفسه محتاجاً إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله على: "فلاتُ علم ربع المُهْلِكَاتُ ما يرى نفسه محتاجاً إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله على: "فلاتُ مه فيكاتُ ما يرى نفسه محتاجاً إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله على المثرة بنقيعه ".". ولا ينفك عنها بشر.

وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات، وإزالتها فرض عين، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها؛ فإن من لا يعرف الشريقع فيه، والعلاح هو مقابلة السبب بضده، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب، وأكثر ما ذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافة اشتخالاً بما لا يعني، ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى: الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق، وهو من تتمة كلمتى الشهادة، فإنه بعد

 ⁽١) حديث: فثلاث مهلكات: شع مطاع... الحديث. أخرجه البزار، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد صعيف.

التصديق بكونه عليه السلام رسولاً ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها: وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة، ومن عصاهما فله النار، فإذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا، وتحققت أن كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليلته لا يخلو من وقائع في عبادته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من النوادر، ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً؛ فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرّف بالألف واللام في قوله ﷺ: «طَلَبُ العِلْم فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلمٌ ؛ علم العمل الذي هو مشهور الوجوه على المسلمين لا غير؛ فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه، والله أعلم.

بيان العلم الذي هو فرض كفاية:

اعلم: أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم، والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية؛ وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب، ولا التجربة مثل الطب، ولا السماع مثل اللغة. فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة. أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب؛ إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما. وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين. فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله. وأما ما يعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه. وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتابيسات. وأما المباح منه فالعلم المحتاج إليه. وأما المذموم فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبذة والتابيسات. وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا شُخفُ فيها، وتواريخ الأخبار وما يجري مجره.

أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان: فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظ أنها شرعية وتكون مذمومة فتنقسم إلى المحمودة والمذمومة، أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات وهي أربعة أضرب:

الضرب الأول: الأصول: وهي أربعة: كتاب الله عزّ وجلّ، وسنّة رسول الله عليه السلام، وإجمع الأمة وآثار الصحابة، والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة، وكذا الأثر فإنه أيضاً يدل على السنة؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه، وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق بيانه بهذا الفنّ.

الضرب الثاني: الفروع: وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام: الا

يَقْضِي القَاضِي وَهُوَ غَضْبَانُ ١٠٠ أنه لا يقضي إذا كان خائفاً أو جائعاً أو متألماً بمرض. وهذا على ضربين:

أحدهما: يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا.

والثاني: ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة، وما هو مرضي عند الله تعالى، وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب.

والضرب الثالث: المقدمات: وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو؛ فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه على وليست اللغة والدحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوص فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تطهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة، ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضرورياً إذ كان رسول الله على أمياً أن ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة، ولكنه صار بحكم العجز في الغالب ضرورياً.

الضرب الرابع: المتممات: وذلك في علم القرآن؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفط كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير، فإن اعتماده أيضاً على النقل؛ إذ اللغة بمجردها لا تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض، وهو العلم الذي يسمى: أصول الفقه، ويتناول السنة أيضاً. وأما المتممات في الآثار والأحبار: عالعلم بالرجال وأسماتهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواة، والعلم بأحوالهم ليميز الصعيف عن القوي، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند وكذلك ما يتعلق به؛ فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات.

فإن قلت: لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا؟ فاعلم: أن الله عزّ وجلّ أخرج آدم عليه السلام من التراب، وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر، ثم إلى العرض، ثم إلى الجنة أو النار؛ فهذا مبدؤهم وهذه غايتهم وهذه منازلهم، وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود؛ فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به؛ فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم تنازعوا بحكم الشهوات؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم

حدیث: الا یقضی القاضی و هو غضبان متفق علیه من حدیث أبی بكرة.

⁽٢) حديث: «كان رسول ﷺ أسباً» أي: لا يحسن الكتابة: أخرجه أبن مردويه في التفسير من حديث عبدائه بن عمر مرفوعاً: «أنا محمد اثنبي الأمي» وفيه ابن لهيمة، ولابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن مسعود: «قولوا: اللهم صل هلى محمد النبي الأمي» وللبحاري من حديث البراء: «وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب».

باستقامتهم أمورهم في الدنيا، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا؛ فإن الدنيا مزرعة الآحرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا. والملك والدين توأمان؛ قالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه. وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى؛ بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به، فكذلك معرفة طريق السياسة فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس من العرب في الطريق، ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع، وحاصل فن المقه معرفة طرق السياسة والحراسة، ويدل على ذلك ما روي مسنداً: ولا يفتي الناس إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو متكلف أن العهدة من غير حاجة، وقد كانوا هم المفتون، والمأمور نائبه، والمتكلف غيرهما: وهو الذي يتقلد تلك العهدة من غير حاجة، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحترزون عن الفتوى، حتى الذي يحيل كل واحد منهم على صاحبه، وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة، كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه، وكانوا لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة، وفي بعض الروايات بدل المتكلف: المرائي؛ فإن من تقلد حطر الفتوى وهو عير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال.

قإن قلت: هذا إن استقام لك في أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام، فاعلم: أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام؛ فإذا تأملت منهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر. أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه ولبس يلتفت فيه إلا إلى اللسان. وأما القلب فخارح عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله على أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال: «هَلاَ شَقَفْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟»(٢٠). للذي قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً بأنه قال ذلك من خوف السيف، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة، ولكنه مشير على صاحب السيف، فإن السيف ممتد إلى رقبته والبد ممتذة إلى ماله، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله ما دام له رقبة ومال، وذلك في الدنيا، ولذلك قال في: «أمرنت وهذه الكلمة باللسان مقل الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها، وليس ذلك في الدم والمال. وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها، وليس ذلك من الفقه، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب وكان خارجاً عن فه. وأما الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مم ظاهر الشروط، وإن كان خافلاً في جميع صلاته الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مم ظاهر الشروط، وإن كان خافلاً في جميع صلاته الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مم ظاهر الشروط، وإن كان خافلاً في جميع صلاته الصلاة فالفقية ولم المؤلة فلا تنفع فيه كان كما لو عاص عم ظاهر الشروط، وإن كان غافلاً في جميع صلاته الصلاة فالفقية ولم المؤلة على المؤلة والفيه وكان خارجاً عن فه وأما السيفة وكان خارجاً عن فه وأما الصلاة فالفقية وكان كان غافلاً في جميع صلاته المؤلة وكان خارجاً عن فه وأما السيفة وكان خارجاً عن فه وأما المؤلة وكان خارجاً عن

 ⁽١) حديث: «لا يفتي الناس إلا ثلاثة. . . » الحديث. أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعبب عن أبيه عن جده بلفظ:
 ولا يقضى على الناس، وإسناده حسن.

 ⁽۲) حديث: الهلا شققت عن قلبه؛ أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد.

 ⁽٣) حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله . . » الحديث، متمق عليه من حديث أبي هويرة، وعمر،
 وابن عمر.

من أولها إلى آخرها مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة، كما أن القول باللسان في الإسلام لا ينفع، ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عن القتل والتعزير، فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجاً عن فنه، وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته.

وحكي: أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آحر الحول ويستوهب مالها إسقاطاً للزكاة، فحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال: ذلك من فقهه. وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا، ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية، ومثل هذا هو العلم الضار. وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من اللهين، ولكن الورع له أربع مراتب:

الأولى: الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة: وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر.

الثانية: ورع الصالحين: وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات. قال ﷺ: ﴿ وَعُ مَا يُرِيبُكَ ﴾ [أني ما لا يُريبُكَ ﴾ (١). وقال ﷺ: ﴿ الإِنْهُمُ حَزَّازُ القُلُوبِ ﴿ ٢ ﴾.

المثالثة: ورع المتقين: وهو ترك الحلال المحض الذّي يخاف منه أداؤه إلى الحرام. قال على: الا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنَ المُتَقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ ما لا يَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مِمًّا بِهِ بَأْسُه (٢)، وذلك مثل التورع عن التحدّث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة، والتورّع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات.

الرابعة: ورع الصدّيقين: وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد ريادة قرب عند الله عزّ وجلّ، وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام، فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى: وهو ورع الشهود والقضاء وما يقدح في العدالة، والقيام بذلك لا ينفي الإثم في الآخرة، قال رسول الله ﷺ لوابصة السّتفت قلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكُ وَإِنْ أَفْتَوْكُ وَإِنْ أَفْتَوْكُ وَإِنْ أَفْتَوْكُ وَإِنْ أَفْتَوْكُ وَإِنْ أَفْتُوكُ وَالله وَلَيْ الله وَلَى الله والله وكيفية العمل بها، بل فيما يقدح في العدالة فقط، فإن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام، وكما تدخل الحكمة في النحو والشعر. وكان سفيان الشوري وهو إمام في علم الظاهر يقول: (إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة)، كيف وقد اتفقوا على الشوري وهو إمام في علم الظاهر يقول: (إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة)، كيف وقد اتفقوا على

⁽١) حديث: اهع ما يربيك إلى ما لا يربيك أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وأبن حيان من حديث الحسن بن علي.

 ⁽۲) حديث: «الإثم حزاز القلوب» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود، ورواه العدني في مسنده موقوفاً عليه.

 ⁽٣) حديث: الا يكون الرجل من المعتقين حتى يدع ما لا بأس به... الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي.

⁽٤) حديث: الستفت قلبك وإن أفتوك...١ الحديث أخرجه أحمد من حديث وابصة.

أن الشرف في العلم العمل به، فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات، والشرف هو تلك الأعمال.

فإن قلت: لِمَ سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه علم شرعي إذ هو مستفاد من النبوّة، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع.

والثاني: أنه لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض، وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون.

والثالث: أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة؛ لأنه نظر في أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب، فالمحمود من الأعمال يصدر من الأخلاق المحمودة المنجبة في الآخرة، والمذموم يصدر من المداموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب، وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء في المزاج والأخلاط، وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب، فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة.

قإن قلت: فضّل لي علم طريق الآخرة تفصيلاً يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله. فاعلم أنه قسمان: علم مكاشفة وعلم معاملة.

فالقسم الأول: علم المكاشفة: وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم: بدعة، أو كبر، وقيل: من كان محماً للدنيا أو مصراً على هوًى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شبئاً وينشد على قوله:

وارض لسمسن غساب عسنسك غسيسته فسنداك ذنسب عسقسابسه فسيسه

وهو علم الصدّيقين والمقرّبين، أعني: علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتنضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه، وبصفاته الباقيات التامات، وبأفعاله، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا، والمعرفة بمعنى النبوّة والنبوّ، ومعنى الوحي، ومعنى الشيطان، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية وصول الوحي إليهم، والمعرفة بملكوت السموات والأرض، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَ الدَّارَ وَهِهُ اللَّيْخِرَةُ لَهِي الْمَيْكِ كَبِيا ﴿ المُنكبوت: ١٤]. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَ الدَّارَ وجهه الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الكريم، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة

الملائكة والنبيين، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرّي في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله؛ إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعدَّه الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء، وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عزّ وجلّ الاعتراف بالعجز عن معرفته، وبعضهم يدّعي أموراً عظيمة في المعرفة بالله عزّ وجلّ، وبعضهم يقول: حدُّ معرفة الله عزُّ وجلُّ ما انتهى إليه اعتفاد جميع العوام: وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم، فنعني بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لمولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا، وإنما نعني بعلم طريق الآخرة: العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهُوات والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم، فبقدر ما ينجلي من القلب ويحاذي به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه، ولا سبيل إليه إلا بالرباضة التي يأتي تفصيلها في موضعها، وبالعلم والتعليم، وهذه هي العلوم التي لا تُسَطَّر في الكتب ولا يتحدَّث بها من أنعم الله عليه ىشيء منها إلا مع أهله، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة، وبطريق الأسرار، وهذا هو العلم الخفي الذي أراده ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لا يَعْلَمُهُ إِلاَّ أَهْلُ المَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يَجْهَلُهُ إِلاَّ أَهْلُ الاخْتِرَادِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، فَلا تُحقرُوا حَالِماً آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِلْماً مِنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ غَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحَقَرُهُ إِذْ آتَاهُ إِيَّاهُ»^(١).

وأما القسم الثاني: وهو علم المعاملة، فهو علم أحوال القلب. أما ما يحمد منها فكالصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والرضاء والزهد، والتقوى، والقناعة، والسخاء، ومعرفة المئة لله تعالى في جميع الأحوال، والإحسان، وحسن الظن، وحسن المخلق وحسن المعاشرة، والصدق، والإخلاص؛ فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب وثمرتها وعلامتها ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة. وأما ما يذم، فخوف الفقر، وسخط المقدور، والغل، والحقد، والحسد، والغش، وطلب العلو، وحب الثناء، وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع، والكبر، والرياء، والغضب، والأنفة، والعداوة، والبغضاء والطمع، والبخل، والرغبة، والبذخ، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء، والاستهائة بالفقراء، والفخر، والخيلاء، والتنافس، والمباهاة، والاستكبار عن والبطر، وتعظيم الأغنياء، والاستهائة بالفقراء، والفخر، والخيلاء، والتزين للخلق، والمداهنة، والاستكبار عن الحق، والخوض فيما لا يعني، وحب كثرة الكلام، والصلف، والتزين للخلق، والمداهنة والعجب، والاستعال عن عيوب النفس بعيوب الناس، وزوال الحن، من القلب، وخروج الخشية منه، وشلة الانتصار للنفس إذا نالها الذل، وضعف الانتصار للحق، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر، والأمن وطول الأمل، والقسوة، والفظاظة، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها، والأنس بالمخلوقين والوحشة وطول الأمل، والقسوة، والفظاظة، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها، والأنس بالمخلوقين والوحشة

 ⁽١) حديث: (إن من العلم كهيئة المكنون...) الحديث. رواه أبو عبدالرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف.

لفراقهم، والجفاء، والطيش، والعجلة، وقلة الحياء، وقلة الرحمة. فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحطورة. وأضدادها . وهي الأخلاق المحمودة . منبع الطاعات والقربات، فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة، فالمُعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أنَّ المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا، فنظر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة. ولو سئل فقيه عن معنَّى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها لَيلاً ونهاراً وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين، بل قدّم عليه كثيراً من فروض الكفايات؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهاداتُهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع؛ فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدّم به على الأقران والتسلط به على الأعداء؟ هيهات هيهات، قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء؛ فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يعيدُنا من هذا الغرور الذي يُسخِطُ الرّحمٰن ويضحك الشيطان، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرّين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب: كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله: كيف يفعل في كذا وكذا؟ فيقال له: مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول: إنَّ هذا وُفقَ لما أغفلناه وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه، وكيف وقد قال رسول الله ﷺ لما قيل له: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب ولا سنة؟ فقال ﷺ: "سَلُوا الصَّالِحِينَ وَاجْعَلُوهُ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ" (١) ولذلك قيل: علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت.

وقال الجنيد رحمه الله. قال لي السري شيخي يوماً: إذا قمت من عندي فمن تجالس؟ قلت: المحاسبي، فقال: نعم خذ من علمه وأدبه، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين، ثم لما وليت سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث، أشار إلى أنّ من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه.

فإن قلت: فلم لم تُورد في أقسام العلوم: الكلام والفلسفة، وتبين أنهما مذمومان أو محمودان؟

 ⁽١) حديث: «قيل له كيف تفعل إذا جاء أمر لم نجده في كتاب الله ولا سنة رسوله؟. . • الحديث. رواه الطبراتي من
 حديث ابن عباس وفيه عبدالله بن كيسان ضعفه الجمهور.

فاعلم: أنّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيامات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع، وبعضها حوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة، ونبغت جماعة لفَقوا لها شبها ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً، فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذوناً فيه، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة، وذلك إلى حدّ محدود ـ سنذكره في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى ـ وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء:

أحدها: الهندسة والحساب؛ وهما مباحان كما سبق، ولا يمنع عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة، فإن أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع، فيصان الضعيف عنهما - لا لعينهما - كما يصان الصبيّ عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر، وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خواً عليه، مع أن القوي لا يندب إلى مخالطتهم.

الثاني: المنطق؛ وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه، ووجه لحدّ وشروطه، وهما داخلان في علم الكلام.

الثالث: الإلهيات؛ وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته؛ وهو داخل في الكلام أيضاً، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم، بل انفردوا بمذاهب: بعضها كفر وبعضها بدعة، وكما أنّ الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين، وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة، فكذلك الفلاسفة.

والرابع: الطبيعيات، وبعضها مخالف للشرع والدين والحق، فهو جهل وليس بعلم حتى نورده في أقسام العلوم، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وحواصها وكيفية استحالتها وتغيرها، وهو شبيه بنظر الأطباء؛ إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح، وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرّك؛ ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه، وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها، فإذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيّلات المبتدعة، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الإسمان إلى استئجار البذرقة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق، ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج؟ فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضي الله عنهم؛ فليعلم المتكلم حدَّه من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج، فإذا تجرّد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج، والمتكلم إذا تجرّد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الأخرة ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان، وإنما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام، بل يكاد أن يكون الكلام حجاباً عليه ومانعاً عنه، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا نَهُدِيَتُهُمْ شُبُلَنَأٌ وَإِنَّ أَلَقَهَ لَمَعُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞﴾ [العَنكبوت: ٦٩].

فإن قلت: فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة، كما أن حد البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين، وعلماء الأمة المشهورون بالغضل هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين؟ فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم، فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها، وما فضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام، ولكن بشيء وقر في صدره (١٠)، كما شهد له سيد المرسلين ﷺ، فليكن حرصك في طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المكنون، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها، فلقد قبض رسول الله عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله، أثني عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام، ولا نصُّب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلاً، ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل: اذهب إلى فلان الأمير الذي تقلد أمور الناس، وضعها في عنقه، إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة، ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود: مات تسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟ فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى، أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل، فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره، وهو الذي سد باب الكلام والجدل وضرب ضبيغاً بالدرة لما أورد عليه سؤالاً في تعارض آيتين في كتاب الله، وهجره وأمر الناس بهجره.

وأما قولك: إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون، فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر؛ فلقد كانت شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذي وقر في قلبه، وكانت شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته، وبقصده التقرب إلى الله عزّ وجلّ في ولايته وعدله وشفقه على خلقه، وهو أمر باطن في سره، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب في الشهرة، فتكون الشهرة فيما هو المهلك، والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد، فالمقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء، وقد انقسموا، فمنهم من أراد الله سبحانه معلمه وقتراه وذبه عن سنة نبيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة، فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب، وليس كل عمل علماً، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثاباً على علمه من حيث إله عامل نه سبحانه وتعالى به، والسلطان يتوسط بين الخلق نه فيكون مرضياً عند الله سبحانه ومثاباً، لا

⁽١) حديث: (ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا كثرة صيام. . .) الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبدالله المزنى ولم أجده مرفوعاً.

من حيث إنه متكفل بعلم الدين، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عزّ وجلّ بعلمه. وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة: علم مجرد وهو علم المكاشفة، وعمل مجرّد وهو كعدل السلطان مثلاً وضبطه للناس، ومركّب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعاً، فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة في حزب علماء الله، أو عمال الله تعالى، أو في حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما، فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قبل:

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعُ شَيْتُ أَسَمِ عَتْ بِعِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم، وأنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة، فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى، وقد شوهد من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة، فإنهم ما كانوا متجردين لعلم النقه، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه، مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى والصوارف والدواعي متيقنة، ولا حاجة إلى ذكرها.

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعناً فيهم، بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلاً مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق - أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب - خمسة: الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وأبو حنيفة، وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى. وكل واحد منهم كان عابداً وزاهداً وعالماً بعلوم الآخرة وفقيها في مصالح الخلق في الدنيا ومريداً بفقهه وجه الله تعالى، فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه، لأن الخصال الأربع لا العصر من جملتها على خصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة، إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة، وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدادين، فلنورد الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة.

أما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابداً: ما روي أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً للعلم، وثلثاً للعبادة، وثلثاً للنوم. قال الربيع: كان الشافعي رحمه الله يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة. وكان البويطي أحد أصحابه يختم القرآن في رمضان في كل يوم مرة. وقال الحسن الكرابيسي: بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة آية، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين. وكأنما جمع له الرجاء والحوف معاً، فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها. وقال الشافعي رحمه الله: ما شبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة. فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع، ثم في جده في العبادة؛ إذ طرح الشبع لأجلها، ورأس التعبد تقليل الطعام. وقال الشافعي رحمه الله: ما حلفت بالله العبادة؛ وظرح الشبع رضي الله عنه عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى سبحانه. وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى سبحانه. وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى سبحانه. وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى

أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي؟ فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطاً على الفقهاء وأعصاها عن الضبط والقهر، وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب. وقال أحمد بن يحيى بن الوزير: خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوماً من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلينا وقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخناكما تنزهون ألسنتكم عن البطق به، فإن المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي بها قائلها. وقال الشافعي رضي الله عنه: كتب حكيم إلى حكيم: قد أوتيت علماً فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وأما زهده رضي الله عنه: فقد قال الشافعي رحمه الله: من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب. وقال الحميدي: خرح الشافعي رحمه الله إلى البمن مع بعض الولاة، فانصرف إلى مكة بعشرة الآف درهم فضرب له خباء في موضع خارجاً من مكة فكان النَّاس يأتونه، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها. وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامي مالاً كثيراً. وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان إليه فأعطاه جزاء عليه خمسين ديناراً. وسخاوة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى، ورأس الزهد السخاء، لأن من أحب شيئاً أمسكه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد. ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة: ما روّي أنه روى سفيان بن عيينة حديثاً في الرقائق فغشي على الشافعي فقيل له: قد مات، فقال: إن مات فقد مات أفضل زمانه. وما روى عبدالله بن محمد البلوي قال: كنت أنا وعمر بن نباتة جلوساً متذاكر العباد والزهاد فقال لي عمر: ما رأيت أورع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه؛ خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا وكان الحارث تلميذاً لصالح المري فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت، فقرأ هذه الآبة عليه ﴿ هَٰذَا بَوْمُ لَا بَطِئُونَ ١٠٠ وَلَا يُؤْذَنُ لَئُمْ فَيَعَنَذِنُونَ ١٣٥ ﴾ [المرسالات ٢٠، ٣٦] فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطراباً شديداً وخرَّ مغشياً عليه فلما أفاق جعل يقول: أعود بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين، وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهي هب لي جودك وجللني بسترك واعف عن تفصيري بكرم وجهك. قال: ثم مشى والصرفنا، فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مرٌّ بي رجل فقال لي: يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة، فالتفت فإذا أنا برجل يتبعه جماعة، فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفو أثره، فالتفت إليَّ فقال: هل لك من حاجة؟ فقلت: نعم، تعلمني مما علمك الله شيئاً، فقال لي: اعلم أن من صدق الله نجا، ومن أشفق على دينه سلم من الردى، ومن زهد في الدنيا قرّت عيناه مما يراه من ثواب الله تعالى غداً، أفلا أزيدك؟ قلت: نعم، قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان: من أمر بالمعروف واثتمر، ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ على حدود الله تعالى، ألا أزيدك؟ قلت: بلى، فقال: كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغباً واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين، ثم مصى، فسألت: من هذا؟ فقالوا: هو الشافعي. فانظر إلى سقوطه مغشياً عليه ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه! ولا يحصل هذا الحنوف والزهد إلا من معرفة الله عزَّ وجلَّ فإنَّهُ: ﴿ إِنَّمَا يَغْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْفُلَمَتُؤَّا﴾ [قاطِر: ٢٨] ولـم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه، بل هو

من علوم الأخرة المستخرجة من القرآن والأحبار إذ جكّم الأولين والآخرين مودعة فيهما.

وأما كونه عالماً بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه، روي أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة: الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء، فنظروا إليها بسوء احتيار النفوس فأحبطت أعمالهم، وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب؟ وفي أي ثواب ترغب؟ ومن أي عقاب ترهب؟ وأي عافية تشكر؟ وأي بلاء تذكر؟ فإنك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينك عملك، فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب! وقال الشافعي رضي الله عنه: من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. وقال رحمه الله: من أطاع الله تعالى بالعلم بفعه سره، وقال: ما من أحد إلا له محب ومبغض، فإذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عزّ وجلّ.

وروي: أن عبدالقاهر بن عبدالعزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع، والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه، وقال للشافعي يوماً: أيما أفضل الصبر أو الممحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكن؛ ألا ترى أن الله عزّ وجلّ امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه، وامتحن معيه السلام ثم مكنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآته مُلكاً، والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكّناً لِيُوسُكَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [بُوسُك، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن، قال الله تعالى: ﴿وَمَانَيْنَهُ أَهْلَمُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمُ ﴾ [الأنبياء: ٤٤] الآية. فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء، وكل ذلك من علوم الآخرة. وقيل للشافعي رحمه الله: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقق في علم الدين فعلمه، وتعرض لسائر العلوم فنظر رحمه الله: متى يكون الرجل عالماً، فإنه قيل لجالينوس: إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة! فقال: إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الإفراد قاتل، فهذا وأمثاله مما لا يعصى يدل على على رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة.

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى؛ فيدل عليه ما روي عنه أنه قال: وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلي شيء منه. فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له، وكيف كان منزه القلب عن الالتفات إليه مجرد النية فيه لوجه الله تعالى. وقال الشافعي رضي الله عنه: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يُوفق ويُسدد ويُعان ويكون عليه أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه. وقال: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على وقال: ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت محبته، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عبني ورفضته. فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط، ثم كيف خالفوه فبها أيضاً، ولهذا قال أبو ثور رحمه الله: ما رأيت ولا رأى الراؤون مثل الشافعي رحمه الله تعالى. وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى. فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجة المدعو له وقس به الأقران والأمثال من العلماء رحمه الله تعالى. فانظر إلى إنصاف الداعي وإلى درجة المدعو له وقس به الأقران والأمثال من العلماء

في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء، ولكثرة دعائه له قال له ابنه: أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال أحمد: يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف. وكان أحمد رحمه الله يقول: ما مس أحد بيده محبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه مئة. وقال يحيى بن سعيد القطان: ما صليت صلاة مند أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسداد فيه. ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله فإن ذلك خارج عن الحصر، وأكثر هذه المناقب نقلناها من الكتاب الذي صنّفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدمي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضى الله عنه وعن جميع المسلمين.

وأما الإمام مالك رضي الله عنه؛ فإنه كان أيضاً متحلياً بهذه الخصال الخمس، فإنه قيل له: ما تقول يا مالك في طلب العلم؟ فقال: حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حبن تصبح إلى حين تمسي قالزمه. وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغاً، حتى كان إذا أراد أن يحدّث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدّث، فقيل له في ذلك فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله على قوة معرفته بجلال الله تعالى.

وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم؛ فيدل عليه قوله: الجدل في الدين ليس بشيء. ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله: إني شهدت مالكاً وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري. ومن يرد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقرّ على نفسه بأنه لا يدري، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه: إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، وما أحد أمنَ عليّ من مالك. وروي: أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله، فروى على ملاً من الناس: ليس على مستكره طلاق، فضريه بالسياط، ولم يترك رواية الحديث. وقال مالك رحمه الله: ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

وأما زهده في الدنيا؛ فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له: هل لك من دار؟ فقال: لا ولكن أحدُنك: سمعت ربيعة بن أبي عبدالرحمٰن يقول: نسب المرء داره، وسأله الرشيد: هل لك دار؟ فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفقها، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله: ينبغي أن تخرج معنا فإني عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن، فقال له: أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل، لأن أصحاب رسول الله في الأمصار فحدُنوا، فعند كل أهل مصر علم وقد قال في المخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله في المأسلة والسلام: «الممدينة تنفي

 ⁽١) حديث: «اختلاف أمتي رحمة» ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقاً وأسنده في المدخل من حديث امن عباس بلفظ: «اختلاف أصحابي لكم رحمة» وإسناده ضعيف.

 ⁽٢) حديث: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير.

خَيَثَهَا كَما يَنْفِي الْكِيرُ خَبِنَ الْعَلِيلِا (١)، وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها. يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إليَّ فلا أؤثر الدنيا على مدينة رسول الله ﷺ فهكذا كان زهد مالك في الدنيا. ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال؛ وإنما الزهد فراغ القلب عنه. ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد. ويدل على احتقاره وإنما الزهد فراغ القلب عنه. ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد. ويدل على احتفاره ويقال: مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمائك رحمه الله: ما أحسنه فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبدالله، فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها، فقال: إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبي الله ﷺ بحافر دابة. فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة، وإلى توقيره لتربة المدينة. ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا: ما روي أنه قال: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أبا عدالله ينغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ، قال: فقلت: أعز الله مولانا الأمير، إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعززتموه عزّ، وإن أنتم أذللتموه ذلّ، والعلم يؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى؛ فلقد كان أيصاً عابداً زاهداً عارفاً بالله تعالى، خائفاً منه، مريداً وجه الله تعالى بعلمه، فأما كونه عابداً فيعرف بما روي عن ابن المبارك أنه قال: كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة. وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله. وروي أنه كان يحيي نصف الليل فمر يوماً في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشي فقال لآخر: هذا هو الذي يحيي الليل كله، فقال : أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته.

وأما زهده؛ فقد روي عن الربيع بن عاصم قال: أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه، فأراده أن يكون حاكماً على بيت المال فأبي، فضربه عشرين سوطاً. فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب! قال الحكم بن هشام الثقفي: حدثت بالشام حديثاً في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة، وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره، فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى. وروي أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك، فقال: أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها. وروي عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة: قد أمر لك أمير المومنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم. قال: فما رضي أبو حنيفة، قال: فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال، فدخل عليه، فلم يكلمه، فلم يكلمه بعد الكلمة، أي: هذه عادته. فقال: ضعوا المال في هذا المجراب في زاوية البيت، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه: إذا مت ودفتتموني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له: خذ وديعتك التي لابنه: إذا مت ودفتتموني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له: خذ وديعتك التي أودعتها أبا حنيفة. قال ابنه: ففعلت ذلك، فقال الحسن: رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحاً على أودعتها أبا حنيفة. قال ابنه: ففعلت ذلك، فقال الحسن: رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحاً على

⁽١) حليث: اللملينة تشي خبثها. . المحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

دينه. وروي أنه دعي إلى ولاية القضاء فقال: أنا لا أصلح لهذا، فقيل له: لم؟ فقال: إن كنت صادقاً فما أصلح لها، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء. وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عزّ وجلّ؛ فيدل عليه شدّة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا، وقد قال ابن جريج: قد بلغني عن كوفيكم هذا النعمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى. وقال شريك النخعي: كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس، فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطني والاشتغال بمهمات الدين، فمن أوتي الصمت والزهد فقد أوتي العلم كله، فهذه نبذة من أحوال الأثمة الثلاثة.

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى؛ فأتباعهما أقل من أتباع هؤلاء، وسفيان أقل أتباعاً من أحمد، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر، وجميع هذا الكتاب مشحون محكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن، فانظر الآن في غير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بقروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان؟ أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا في دعواهم أم لا؟.

* * *

الباب الثالث

فيما يُعِدُّهُ العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم، وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها.

بيان علة ذم العلم المذموم:

لعلك تقول: العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى، فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة:

الأول: أن يكون مؤدياً إلى ضرر إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق؛ إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين، وقد سُجر (۱) رسول الله على ومرض سببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بثر، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر ويأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور، ومعرفة هذه الأسباب

المياب الثالث

١) حديث: اسحر رسول الله ﷺ متفق عليه من حديث عائشة.

من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً ملموماً، يل من اتبع ولياً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه؛ بل وجب الكذب فيه؛ وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشيء على ما هو عليه، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر.

الثاني: أن يكون مضراً بصاحبه في خالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير ملموم لذاته؛ إذ هو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب؛ إذ قال عزّ وجلّ: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمْرُ بِحُسْبَانِ ﴿ السَّرَّحَمَٰنَ ٥ السَّرَحَمَٰنَ ٥ السَّرَحَمَٰنَ ٥ السَّرَحَمَٰنَ ٥ السَّرَحَمَٰنَ وَاللَّهُونُونِ الْقَدِيرِ ﴿ السَّدَلال على الحوادث بالأسباب وهو الْقَدِيرِ ﴿ السَّدَلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبص على ما سيحدث من المرض، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه ولكن قد ذمه الشرع. قال ﷺ: قَإِذَا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النَّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ الْقَدَرُ الْقَدَرُ الْقَدَرُ عَلَى النَّهُومُ وَالْإِيمَانَ وَإِلَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَلَى أُمْتِي بَعْدِي ثَلاثاً: حَيْفَ الأَرْبَدِ، وَالإِيمَانَ وَإِلَّا أَدْبَعُومُ وَاللَّهُ وَاللَّالَةُ وَلَى اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّالَةُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَكُونُهُ وَاللَّهُ وَاللّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللّهُ وَاللّ

أحدها: أنه مضر تأكثر الخلق، فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سمارية، ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتاً إليها، ويرى الخير والشر محذوراً أو مرجواً من جهتها، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى، ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس، مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد، فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى في نظرها إلى مشاهدة الأصابع، ثم منها إلى البد، ثم منها إلى البد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة؛ إلى الإرادة المحركة البد، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة؛ فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب. فهذا أحد أسباب النهى عن التجوم.

وثانيها: أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر أخطأ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم بجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم، وربما يكون

⁽١) حديث: «إذا ذكر القدر فأمسكوا. . .) الحديث. رواه الطبرائي من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

 ⁽٢) حديث: (أخاف على أمني بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة. ١٠ الحديث. أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي محجن بإسناد ضعيف.

بخلافه، ومجرّد الغيم ليس كافياً في مجيء المطر وبقية الأسباب لا تدرى، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة في الرياح ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطىء، ولهذه العلة يمنع القول عن النجوم أيضاً.

وثالثها: أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة وذلك غاية الخسران؛ فقد مر رسول الله على برجل والناس مجتمعون عليه فقال: «ما هذا؟» فقالوا: رجل علامة. فقال: «علم لا فقال: «علم لا يضره (۱). وقال على: «إنّما العِلْمُ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فُريضَةٌ عَادِلَةٌ». فإذن: الخوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة، فإن ما قدر كائن، والاحتراز منه غير ممكن، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطلع عليه، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطر فيه.

السبب الثالث: الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية؛ إذ يَطَّلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردّهم إلى ما نطق به الشرع، ففي ذلك مقنع للموفق، فكم من شخص خاض في العلوم واستضر بها ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدينُّ مما صار إليه، ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوي اللطيفة بالصبي الرضيع، بل رُبِّ شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور، فلقد حكى: أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لا تلد، فجسّ الطبيب نبضها وقال: لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوماً، وقد دل النبض عليه، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها، وأخرجت أموالها وفرقتها، وأوصت، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له: لم تمت، فقال الطبيب: قد علمت ذلك فجامعها الآن فإنها ثلد، فقال: كيف ذاك؟ قال: رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها، فعلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت، فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة. فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله ﷺ: "تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْم لا يَنْفَعُه(٢). فاعتبر بهذه الحكاية ولا تكن بحاثاً عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها، ولازم الاقتداء بالصحّابة رضي الله عنهم، واقتصر على اتباع السنة، فالسلامة في الاتباع، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أنى أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه، فأي ضور في التفكّر في العلم فإن ما يعود عليك من ضوره أكثر، وكم من شيء تطلع عليه فيضوك اطلاعك عليه ضوراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته.

⁽١) حديث: امر رسول الله ﷺ برجل والناس مجتمعون فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة. . . ٤ الحديث أخرجه ابن عبدالبر من حديث أبي هريرة وضعفه. وفي آخر الحديث: النما العلم آية محكمة. . . ٤ إلى آخره. وهذه القطعة عند أبي داود، وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمرو.

 ⁽٢) حديث: انعوذ بالله من علم لا ينفع أخرجه إبن عبدالبر من حديث جابر بسند حسن، وهو عند ابن ماجه بلفظ:
 انعوذوا وقد نقده.

واصلم: أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعدها من لا يعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية، فلا تتحكم على سننهم بمعقولك فتهلك، فكم من شخص يصيبه عارض في أصبعه فيقتضي عقله أن يطليه، حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه بِطَلِّي الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن؟ فهكذا الأمر في طريق الآخرة، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة مها، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد. فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال، وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما هي الأدوية والعقاقير. وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجرمة سبيل إليها؛ فالعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة إليها، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لو رحع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفي وعن الأعمال المبعدة عنه، وكذا عن العقائد، وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبيّ ﷺ ويفهمك موارد إشاراته، فاعزل العقل بعد ذلك عن النصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام؛ ولذلك قال ﷺ: •إنَّ مِنَ العِلْم جَهْلاً وَإنَّ مِنَ القَوْلِ عِيتًا (١٠٠)، ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولِكنه يؤثر تأثير الجهل في الإضرارُ. وقال أيضاً ﷺ: ﴿ قَلِيلٌ مِنَ التَّوْفِيقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ العِلْم^(۲)، وقال عيسى عليه السلام: ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر وليس كلها بطيب، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع!

بيان ما بدل من ألفاظ العلوم:

اعلم: أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة؛ فهذه أسام محمودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم.

اللفظ الأول: الفقه، فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل؛ إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها. فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء المخوف على القلب. ويدلك عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ لَهُ مَنْفَقَهُوا فِي ٱلدِّينِ

 ⁽١) حديث: «إن من العلم جهلاً...» الحديث. رواه أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجهل.

 ⁽٢) حديث: «قليل من التوفيق خير من كثبر من العلم» لم أجد له أصلاً، وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي
الدرداء، وقال: «العقل» بدل «العلم»، ولم يخرجه ولده في مسنده.

وَلِشُنْذِنُواً مُوَّمَهُمْرٌ إِذَا رَجَعُوٓاً إِلَيْهِمْ﴾ [النوبة: ١٣٧] وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة؛ فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسّي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى: ﴿ لَمُمَّ قُلُوبٌ لَا يْفَقُّونَ بِهَا﴾ [الأعرَاف: ١٧٩] وأراد به معانى الإيمان دون الفتاوي، ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنَى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديماً وحديثاً. قال تعالى: ﴿لَأَشَّدُ أَشَدُّ رَفَبَكُ نِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [العَشر: ١٣] الآية؛ فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه. فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوي، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم. وقال ﷺ: ﴿عُلَمَاء حُكَمَاء فُقَهَاء ﴾ [أ للذين وفدوا عليه. وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله: أي أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى؛ فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه، والتقوى ثمرة العلم الباطني دون الفتاري والأقضية. وقال ﷺ: وُأَلاَّ أُنْبِئُكُمْ بِالفَقِيهِ كُلِّ الفَقِيهِ؟» قالوا: بلي، قال: «مَنْ لَمْ يُقُنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَيِّسُهُم مِنْ رَوحِ اللَّهِ، وَلَمْ يَدَع المُفْرَآنَ زُخْبَةَ صَنْهُ إِلَيْ مَا سِوَاهُ" (للهُ رَوْى أنس بن مالكَ قوله ﷺ: ﴿ لأَنْ أَتْهُدَ مَعَ قَوَّمَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ مِنْ غَدُوةٍ إِلَىٰ طُلُوع الشَّمْس أَحَبُ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَ رِقابٍ^{٣)} قال: فالتفتّ إلىّ زيد الرقاشي وزياد النميري وقال: لمّ تكن مُجالس الذَّكر مثل مجالسكم هذه يقُص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سرداً، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين ونعد نعم الله علينا تفقهاً، فسمى تدبر القرآن وعدّ النعم تفقهاً. قال ﷺ: ﴿ لا يَفْقَهُ العَبْدُ كُلِّ الفِقْهِ حَتَّىٰ يَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَحَتَّىٰ يَرَىٰ لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً⁽¹⁾ وروي أيضاً موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه مع قُوله: «ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتاً» وقد سأل فرقد السبخي الحسن عن الشيء فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك؛ فقال الحسن رحمه الله: تكلتك أمك فُريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم، ولَم يقل في جميع ذلكُ الحافظ لفروع الفتاوى، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولاً للفتاوي في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر. قبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرّد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب، ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر، فوجد الشيطان مجالاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع.

 ⁽١) حديث: «هلماء حكماء فقهاء» رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد، والخطيب في التاريخ من حديث مويد بن الحارث بإسناد ضعيف.

 ⁽۲) حديث. «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه. . . » الحديث. رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأحلاق، وأبو بكر بن السني وابن عبدالبر من حديث علي.

 ⁽٣) حديث أنس: (الأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من خدوة إلى طلوع الشمس. . . » الحديث. رواه أبو داود بإسناد حسن.

⁽٤) حديث: «لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله...» الحديث، أخرجه ابن عبدالبر من حديث شداد بن أوس وقال: لا يصح مرفوعاً.

اللفظ الثاني: العلم؛ وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى أنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله: لقد مات تسعة أعشار العلم. فعرّقه بالألف واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال: هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة أهل العلم، وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته. وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية، فيعد بذلك من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم.

اللفظ الثالث: التوحيد؛ وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة، وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد، مع أن جميع ما هو حاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة. فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به: وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله، فهذا مقام شريف إحدى شمراته التوكل كما سيأتي بيانه في كتاب التوكل. ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية المخلق، وترك المغضب عليهم، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى. وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر المحلق، وترك المغضب عليهم، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى. وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر المحلق، وترك المغضب عليهم، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى. وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الموض فقيل له: ماذا قال لك الطبيب في مرضك؟ فقال: قال لي: إني فعال لما أريد. وسيأتي هي كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك.

والتوحيد جوهر نفيس، وله قشران: أحدهما أبعد عن اللب من الآخر، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصعة الحراسة للقشر وأهملوا اللب بالكلية؛ فالقشر الأوّل: هو أن تقول بلسانك: لا إله إلا لله، وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به النصارى، ولكنه قد يصدر من المنافق الذي يخالف سره جهره. والقشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده، وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق، والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة. والثالث: وهو - اللباب - أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده. قال الله تعالى في المَهنيَا: ١٩٤٣. وقال الله تعالى هو الهوى المنافق إله في الأرض عِنْد الله تعالى هو الهوى الهوى المنافق المنافق

 ⁽١) حديث: قابغض إله عبد في الأرض عند الله هو الهوى، أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف.

الصمم وإنما يعبد هواه؛ إذ نفسه ماثلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى، ويخرج من هذا التوحيد التسخّط على الخلق والالتفات إليهم، فإنّ من يرى الكل من الله عزّ وجلّ كيف يتسخط على غيره، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين، فانظر إلى ماذا حوّل وبأي قشر قنع منه، وكيف اتخذوا هذا معتصماً في التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي، وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول: ﴿وَجَهَتُ وَجْهِيَ لِلّذِي فَظَرَ السَّنَوْتِ وَالْأَرْضَ حَبِيفاً ﴾ [الانتام: ٧] وهو أوّل كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجها إلى الله تعالى على الخصوص، فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صوفه إلا عن سائر الجهات، والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه إليها متوجها إليه، تعالى عن أن تحدّه الجهات والأقطار. وإن أراد ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب، ومتوجه بالكلية إليها، فمتى وجه ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب، ومتوجه بالكلية إليها، فمتى وجه الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه، وهو امتثال قوله تعالى: ﴿فَي اللّهُ ثُمّ مَن خُوضِهم يَلْمَونَ والأنمام: ١٩] وليس المراد به القول باللسان، فإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى. وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب، وهو معدن التوحيد ومنبعه.

اللفظ الرابع: الذكر والتذكير، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَذَكِّرَ فَإِنَّ الْفَكْرِينَ فَكُ الْمُوْمِينَ فَكَ الْمُومِاتِ. وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخار كثيرة كقوله على: ﴿ إِذَا مَرْتُمْ بِرِياضِ الْجَنّةِ قَارَتُعُوا ٩٠ وَيَ الحديث: ﴿ إِنَّ لِلّٰهِ تَعَالَىٰ مَلائِكَةٌ الْجَنّةِ عَلَىٰ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَى اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ وَاللّهُ وَدَكُوا اللّهُ عَلَىٰ اللهُ اللهِ عَلَى اللهُ المعلم والمامات، أما القصص فهي بدعة، وقد ورد هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص وقالوا: لم يكن ذلك في زمن رسول الله على الله القصاص وقالوا: لم يكن ذلك في زمن رسول الله على الله على الله الله الله المعروفي الله على المعروفي الله على المعروفي الله على المعروفي الله عنه المعروفي وقال المعروفي الله عنه المعروفي الله على المعروفي المعروفي الله على المعروفي المعر

⁽١) حديث: ﴿إِذَا مَرَتُم بِرِياضَ الْجِنَّةَ فَارْتَعُوا . . . الحديث. أَخْرَجُهُ التَرَمَذِي مَنْ حديث أنس وحسنه.

 ⁽٢) حديث: (إن له ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أبي هربرة دون قوله: في الهواء، والترمذي: «سياحين في الأرض، وقال مسلم: «سيارة».

⁽٣) حديث: «لم تكن القصص في زمن رسول الله ﷺ. رواه ابن ماجه مي حديث عمر بإسناد حسن.

البصرة، فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرجه إذ كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكّر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره، ويعرّف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها. فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذي روي الحث عليه في حديث أبي ذِرّ رضي الله عنه حيث قال: الحُضُور مَجْلِسِ ذِكْرِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفٍ رَكْعَةٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْـــَمْ أَفْضَلُ مِنْ عِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ، وَحُضُورُ مَجْلِسٌ عِلْسُم أَنْضُلُ مِنْ شُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ، فَفِيلَ: يَا رَسُولَ اللهُ، ومِنْ قِرَاءَةِ الْقُرآنِ قَالَ: وَهَلْ تْنْفَعُ قِرَاءَةُ القُرَآنِ إِلاَّ بِٱلْعِلْمِهُ(١). وقال عطاء رحمه الله: مجلس ذكر يكفر سبعين محلساً من مجالس اللهو، فقد اتخذ المرخرفونُ هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود، واشتغلوا بالقصص التي تتطرّق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها، فإن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صدقاً. ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضارّ، فمن هذا نهى عنه، ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله: ما أحوج الناس إلى قاص صادق، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقاً صحيح الرواية فلست أرى به بأساً، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتفكيرات متدراكة بحسنات تغطي عليها، فإن العامي يعتصم بذلك ني مساهلاته وهفواته، ويمهد لنفسه عذراً فيه، ويحتج بأنه حكي كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر، فكلنا بصدد المعاصي، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جرأة على الله تعالى من حيث لا يدري، فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار. ومن لناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق، فهذه من نزعات الشيطان، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع في الوعظ، كيف وقد كره تكلف السجع وعدّ ذلك من التصنع. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر ـ وقد سمعه يسجع ـ: هذا الذي يبغضك إلي، لا قضيت حاجتك أُبدأ حتى تتوب _ وقد كان جاءه في حاجة _ وقد قال ﷺ لعبدالله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات: ﴿إِيَّاكُ وَالسَّجْعَ يَا الْبِنَّ رَوَاحَةًا (٢) فَكَانَ السجع المحذور المتكلف ما زاد على كلمتين؛ ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح ولا استهل، ومثل ذلك يطل، فقال النَّبي ﷺ وأَسَجْعٌ كَسَجْع الأَعْرَابِ واللهُ وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم. قال الله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاةُ يَلِّمُهُمْ ۖ ٱلْمَاؤُنَ ۚ إِنَّ أَنَّهُمْ فِ كُلِّ وَاوِ يَهِيثُونَ ﴿ ۖ [الشُّمَرَاء: ٢٢٥، ٢٢٤] وقال تعالى:

⁽١) حديث أبي ذر: هحضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركمة» تقدم مي الباب الأول.

 ⁽۲) حديث: فإياك والسجع با ابن رواحة، لم أجده هكذا، ولأحمد، وأبي يعلى، وابن السني، وأبي نعيم في كتاب
الرياضة من حديث عائشة بإسناد صحيح أنها قالت للسائب: إياك والسجع فإن النبي على وأصحابه كانوا لا يسجعون،
ولابن حبان: قواجتنب السجع، وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس.

 ⁽٣) حديث: السجع كسجع الأعراب أخرجه مسلم من حديث المغيرة.

﴿ وَمَا عَلَيْنَهُ ٱلشِّفَرَ وَمَا يَلْبَغِي لَهُ ﴾ [يس: ١٩]، وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار: ما ينعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق، والمجلس لا يحوي إلا أجلاف العوام، وبواطنهم مشحونة بالشهوات، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة؛ فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها فتشتعل فيها نيران الشهوات، فيزعقون ويتواجدون. وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس. وقد قال على الشغر أبي من الشغر لَجِحُمة أن ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استعراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولي على قلبه، كما سيأتي تحقيق ذلك في كتاب السماع، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلاً، فإن كثروا لم يتكلم، وما تم أهل السماع، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلاً، فإن كثروا لم يتكلم، وما تم أهل مجلسه قط عشرين. وحضر جماعة باب دار ابن سالم، فقيل له: تكلم فقد حضر أصحابك، فقال: لا، منفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

أحدهما: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق، ودما حكي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحاني سبحاني، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدال، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق، فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه الحق، فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه وإن سمع ذلك منه، فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه، كما لو سمع وهو يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ لا إِلهَ إِلاً أَذَا فَاعْتُلْ ﴾ [طه: ١٤] فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على عبيل الحكاية.

الصنف الثاني: من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، إما أن تكون عير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره؛ لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه. وقد قال ﷺ: «ما

⁽١) حليث: إن من الشعر لحكمة أخرجه البخاري من حديث أبي بن كعب.

حَدَّتَ أَحَدُكُمْ قَوْماً بِحَدِيثِ لا يَفْقَهُونَهُ إِلاَّ كَانَ فِئْنَةً عَلَيْهِمْ (')، وقال ﷺ: «كَلَّمُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا ما يُنْكِرُونَ أَثْرِيدُونَ أَنْ يُكَدَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ ('')، وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قاثله. فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره، وقال عبسى عليه السلام: لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء، وفي لفظ آخر: من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل، ومن منعها أهلها فقد ظلم؛ إن للحكمة حقاً وإن لها أهلاً، فأعط كل ذي حق حقه.

وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه في الشطح، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشُّرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات؛ فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم؛ فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، فإن ما يستق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى، وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب؛ لأن النفوس ماثلة إلى الغريب ومستلذة له، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب «المستظهر» المصنف في الرد على الباطنية. ومثال تأويل أهل الطامات: قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿أَذَهُبُّ إِنَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَنَ ﴿ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ إِلَّالُهُ إِلَّى قَلْبُهُ وَقَالَ هُوَ الْمُرَادُ بِفُرْعُونَ وَهُو الطَّاغِي عَلَى كُلَّ إنسان. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الفَصَص: ٣١]، أي: ما يتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عزّ رجلَ فينبغي أن يلقيه. وفي قوله ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنْ فِي السُّحورِ بَرَكَةً» (٣) أراد به الاستغفار في الأسحار، وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء، وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً، كتنزيل فرعون على القلب، فإن فرعون شخص محسوس تواثر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له، وكأبي جهل وأبي لهب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحسُّ حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه، وكذا حمل السحور على الاستعمار، فإنه كان على يتناول الطعام ويقول: اتَسَحَّرُوا (١٥) واهَلُمُوا إِلَىٰ الْغِذَاء المُبَارَكِ» (*). فهذه أمور يُذرَك بالتواتر والحس بطلانها نقلاً، وبعضها يعلم بغالب الظن، وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس، فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن

حديث: الما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهما رواه العقيلي في الضعفاء، وابن السني، وأبو
نعيم في الرياه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف، ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود.

 ⁽٣) حديث: «كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما يتكرون. . .» الحديث. رواه البخاري مرقوفاً على علي، ورقعه أبو
 متصور الديلمي في مستد الفردوس من طريق أبي نعيم.

 ⁽٣) حديث: السحروا فإن في السحور بركة؛ منفق عليه من حديث أنس.

⁽٤) حديث: «تناول الطعام في السحور» رواه البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ وزيد بن ثابت تسحرا.

حديث: «هلموا إلى الغذاء المبارك رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبانٌ من حديث العرباض بن سارية وضعفه ابن
 القطان

الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم، فلا يظهر لقوله ﷺ: "مَنْ فَسَّرَ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِه" (١٠)، معنى إلا هذا النمط: وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه، فيستجر شهادة القرآن إليه، ويحمله عليه، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية، ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة، ونعلم أن جميعها غير مسموع من النسي ﷺ فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر، ولهذا قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: اللَّهُمَّ أَلْقُهُهُ فِي الدِّينِ وَعَلَّمُهُ التَّأْوِيلَ (٢٠). ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ، ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخالق يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله ﷺ، لما هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع، كمن يضع في كل مسألة يراها حقاً حديثاً عن النبي ﷺ فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله ﷺ: قمَنْ كَذَبّ هَلَيّ متعمَّداً فَلْيَتَهَوّا مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِه (٣) بل الشر في تأويل هذه الألفاظ أطمُّ وأعظم؛ لأنها مبطلة للثقة بالألفاظ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكلية، فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة، فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامي، فإن اتبعت هؤلاء اعتماداً على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيماً، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم في هذا العصر، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ.

اللفظ المخامس: وهو الحكمة، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجّم حتى على الذي يدحرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق. والحكمة هي التي أثنى الله عزّ وجلّ عليها فقال تعالى: ﴿ يُوْتِي الْمِحْمَةُ مَن يَشَاءً وَمَن يُؤْتَ الْمِحْمَةُ فَقَدْ أُونِي خَيْرا حَيْمِاً ﴾ [البَقرة: ٢٦٩] عليها فقال تعالى: ﴿ يُوْتِي الْمِحْمَةِ يَتَعَلّمُها الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ اللّهْيا وَمَا فِيها) ، فانظر ما الذي كانت الحكمة عارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقِسُ به بقية الألفاظ واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من شو الشياطين ؛ إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق ، ولهذا لما سئل وسول الله عن شر الخلق أبى وقال: اللّهم أففِره حتى كرّدوا عليه فقال: "هم هُلَمَاهُ ولهذا لما سئل وسول الله عن شر الخلق أبى وقال: الالتباس وإليك الخبرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي السلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما

 ⁽۱) حديث: «من قسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه، وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد، وعند النسائي في الكبرى.

 ⁽٣) حديث: «اللهم فقهه في الدين وهلمه التأويل» قاله لابن عباس رواه المخاري من حديث ابن عباس دون قوله: «وهلمه التأويل» وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

⁽٣) حديث: امن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» منفق عليه من حديث أبي هريرة وعلي وأنس.

 ⁽٤) حديث: اكلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا انقدم بنحوه.

⁽ه) حديث: لما سئل عن شر الخلق أبى وقال: «اللهم اغفر» الحديث، ورواه الدارمي بنحوه من رواية الأحوص س حكيم عن أبيه مرسلاً وهو ضعيف، ورواه البزار في مسئده من حديث معاذ بسئد ضعيف.

أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث، وقد صح قول رسول الله ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً وَسَيَعُوهُ خَرِيباً كَمَا بَدَأَ، فَطُويَىٰ لِلْغُرْبَاءِ، فقيل: ومن الغرباء؟ قال: «الَّلِينَ يُصْلِحُونَ ما أَفْسَدُهُ النَّاسُ مِنْ سُنَتِي وَالَّذِينَ يُحْيُونَ مِا أَمْسَدُهُ النَّاسُ مِنْ سُنَتِي وَالَّذِينَ يُحْيُونَ ما أَمَاتُوهُ مِنْ سُنْتِي، ('' وفي حديث آخر: «المُعَمَّدُ عَنَى الخَلْقِ أَكْثَرُ مِثْنَ يُحِبُّهُمْ ('' وفي حديث آخر: «المُعَرَبّاءُ مَاسُ قَلِيلٌ صَالِحُونَ بَيْنَ تَاسِ كَثِيرٍ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ فِي الخَلْقِ أَكْثَرُ مِثْنَ يُحِبُّهُمْ (" وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يُمْفَتُ ذاكرها، ولَذنك قال الثوري رحمه الله: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه يخلط، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه.

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة:

اعلم: أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام: فسم هو مذموم قليله وكثيره، وقسم هو محمود قليله وكثيره، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الهاضل عليه والاستقصاء فيه، وهو مثل أحوال الدن، فإن منها ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال، ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق، ومنها ما يحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فإن التبذير لا يحمد فيه وهو بذل، وكالشجاعة فإن التهور لا يحمد فيها، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم.

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو ما لا قائدة فيه في دين ولا دنيا؛ إذ فيه ضرر يغلب نقعه كعلم السّحر والطلسمات والنجوم، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة، وإضاعة النفيس مذمومة. ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، فإنّ ذلك لا يعتدّ به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه.

وأما القسم المحمود إلى أقصى عايات الاستقصاء: فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرفه بقدر ما يشر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى في حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذي لا يسطر في الكتب، ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة، كما سيأتي علامتهم، هذا في أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء، لبتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الرزق

وأما العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص: فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علم منها اقتصاراً وهو الأقل، واقتصاداً وهو الوسط، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لا مردَّ له إلى آخر العمر، فكن أحد رجلين إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ

 ⁽١) حديث: قبدأ الإسلام قريباً... الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً، وهو بتمامه عند الترمذي من حديث عمرو بن عوف وحسته.

⁽٢) حديث: (هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم؛ يقوله في وصف الغرباء؛ لم أر له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: الغرباء ناس قليل صالحون، أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو.

من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يُصلِح غيرك قبل إصلاح نفسك، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم، وإنما الأهم الذي أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم؛ إذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وحميع ذلك مهلكات، وإهمالها من الواجبات، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدماميل والتهاون بإخراج المادة بالفصد والإسهال، وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع مغارسها من القلب، وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرّة، فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد وتتضاعف به الأمراض. فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهارباً من الهلاك الأبدي فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه في ربع المهلكات، ثم ينجرَ بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربع المنجيات لا محالة، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلاً بالمحمود، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذاك، فلا تشتغل بفروض الكفاية لا سيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به.

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدناً لك وعادة متيسرة فيك _ وما أبعد ذلك منك _ فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها، فابتدى، بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسول الله ﷺ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمتشابه وكذلك في الشنة، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف، ثم بأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت؛ ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء؛ فإن العلم كثير والعمر قصير، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه؛ فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتبطق به، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب المحديث ودع التعمق فيه، واقتصار في التفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها، فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه على الواحدي النيسابوري وهو الوجيز؛ والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه، وما وراء ذلك استقصاء مستغلى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر.

وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن حديث.

وأما حفظ أسامي الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك، ولك أن تعول على كتبهم، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلاً تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة؛ وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة. وأما الاستقصاء فما وراء دلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي، والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم.

وأما الفقه: فالاقتصار فيه على ما يحويه المختصر المزني؛ رحمه الله وهو الذي رتبناه في خلاصة المختصر، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذي أوردناه في «الوسيط» من المذهب، والاستقصاء ما أوردناه في «البسيط» إلى ما وراء ذلك من المطولات.

وأما الكلام: فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير؛ وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصاد في بمعتقد مختصر؛ وهو القدر الذي أوردناه في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد»، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذي أوردناه في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد»، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقلما ينفع معه الكلام؛ فإنك إن أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره حواباً ما وهو عاجز عنه، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة. وأما العامي إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء، فإذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم؛ إذ التعصب سبب يرضخ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء؛ فإنهم يبالغون في التعصب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة، وتتوفر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التعسك بما نسبوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة و لا يستميل الاتباع معرص التعصب واللعن والشتم للحصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسمّوه ذبّاً عن الدين ونضالاً مثل التعصب واللعن والشتم للحصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسمّوه ذبّاً عن الدين ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس.

وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يُعهد مثلها في السلف فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها والماء العضال وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها. وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك، فعلى الخبير سقطت. فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه. فلا يغرّنك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف، فإن على المذهب مذكورة في المذهب، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأوّلون ولا الصحابة وكانوا أعلم معلل الفتاوى من غيرهم، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه، فإن الذي يشهد له حدس المفتي إذا صح ذوقه في مفيدة في علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتعلل بأنه يطلب علل المذهب، وقد ينقضي عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب، فكن من شياطين الجن في أمان، واحترز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال، وبالجملة فالمرضيّ عند العقلاء أن تقدّر نفسك في العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والإضلال، وبالجملة فالمرضيّ عند العقلاء أن تقدّر نفسك في العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت

والعرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك، ودع عنك ما سواه والسلام.

وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء في المنام فقال له: ما خبر ثلك العلوم التي كنت تجادل فيها وتناظر عليها؟ فبسط يده وتفخ فيها وقال: طاحت كلها هباء منثوراً وما انتفعت إلا بركعتين خلصتا لي في جوف الليل، وفي الحديث: «مَا ضَلَ قَوْمُ بَعْدَ هُدَى كَاتُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ، (') ثم قرأ: ﴿مَا صَرَيُوهُ جُوف الليل، وفي الحديث في معنى قوله تعالى: ﴿فَامَّا الَّذِينَ فِي غُلُوبِهِمُ لِللّهُ بِقِولِهِ تَعَالَى: ﴿فَامَّا اللّهِينَ فِي غُلُوبِهِمُ لِللّهُ بِقِولِهِ تَعَالَى: ﴿فَامَا اللّهِ المِن فِي نَعْمُ اللّهُ اللّهُ بِقِولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَامَدُرُهُمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَقَالَىٰ: ﴿فَامَدُرُهُمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ بِقِولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَامَدُرُهُمُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ الل

**

الباب الرابع

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم: أن الخلافة بعد رسول الله على تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أثمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرّغ العلماء لعلم الآخرة وتجرّدوا لها، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا، وأقبلوا على الله تعالى بكته اجتهادهم كما نقل من سيرهم، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام، اضطرّوا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمرّ على الطّراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا؛ فاضطر الخلقاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال

الباب الرابع

⁽١) حديث: ﴿مَا ضَلَ قَوْمَ بِمَدَ هَدَى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَ أُوتُوا الْجِدَلُّ وَوَاهُ الْتَرْمَذِي، وَابِنَ مَاجِهُ مِنْ حَدَيْثُ أَبِي أَمَامَةً. قال الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽٢) حديث: «هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله: فاحذرهم» متفق عليه من حديث عائشة.

٣) حديث: اإنكم في زمان ألهمتم فبه العمل وسيأتي قوم بلهمون الجدل؛ لم أجده.

 ⁽٤) حديث: «أبغض الخلق إلى الله الأقد الخمسم» متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٥) حديث: «ما أوتي قوم المنطق إلا منعوا العمل» لم أجد له أصلاً.

الأثمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم، فاشرأبُوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة؛ فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة، وتعرفوا إليهم، وطلبوا الولايات والصلات منهم، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح، والمنجح لم يحل من ذل الطلب ومهانة الابتذال، فأصبح الفقهاء ـ بعد أن كانوا مطلوبين ـ طالبين، ويعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين، أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله. وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوي والأقضية لشدّة الحاجة إليها في الولايات والمحكومات، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعلمت رغمته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام، فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، ورعموا أن غرصهم الذبّ عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين، إشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم. ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه؛ لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص، فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوي، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبو فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرّون عليه إلى الآن، ولسنا ندري ما الذي يُحْدِثُ الله فيما بعدنًا من الأعصار، فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأثمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم، ولم يسكنوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرّب إلى رب العالمين.

بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف:

اعلم: أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر، هكذا كان عادة الصحابة رضي الله عنهم في مشاوراتهم كتشاورهم في مسألة الجدّ والأخوة وحدّ شرب الخمر ووجوب الغرم على الإمام إذا أخطأ، كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفاً من عمر رضي الله عنه، وكما نقل من مسائل القرائض وغيرها وما نقل عن الشافعي وأحمد ومحمد بن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى، ويطلعك على هذا التلبيس ما أذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان:

الأول: أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب. ومثاله: من يترك الصلاة في نفسه وبتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول: غرضي أستر عورة من يصلي عرياناً ولا يجد ثوباً؛ فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع النوادر التي عنها البحث في الخلاف ممكن. والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالاتفاق، ومن توجه عليه رد وديعة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به، فلا يكفي في كون الشخص مطيعاً كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب.

الثاني: أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وقعل غيره عصى بفعله وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها لهلك الناس، وإذا قيل له: في البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية، فيقول: هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية. فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها، فأما الفتوى فقد قام بها المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهملة لا قائم بها، فأما الفتوى فقد قام بها أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعوّل فيه على قول الطبيب شرعاً ولا يرغب أحد من أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعوّل فيه على قول الطبيب شرعاً ولا يرغب أحد من المقتهاء في الاستغال به، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات، وربما يكون وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض المناكر؟ فقال عليه السلام: فإذا ظَهَرَتِ المُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَالقَاحِشَةُ فِي شِرَارِكُمْ وَتَحَوّلُ المُذَكُ فِي المنكر؟ فقال عليه السلام: فإذا ظَهَرَتِ المُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَالقَاحِشَةُ فِي شِرَارِكُمْ وَتَحَوّلُ المُذَكُ فِي المنكر؟ فقال عليه السلام: فإذا ظَهَرَتِ المُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَالقَاحِشَةُ فِي شَرَارِكُمْ وَتَحَوّلُ المُدَكُ فِي المنكر؟ فقال عليه السلام: فإذا ظَهَرَتِ المُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَالقَاحِشَةُ فِي شَرَادِكُمْ وَتَحَوّلُ المُذَكُ فِي

الثالث: أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا ممذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما، حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ما يوافق رأي الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم والأثمة. فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلاً عن مذهب صاحبه، فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه، فأي فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول: لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإني لست مستقلاً بالاجتهاد في أصل الشرع، ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلاً إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتاً.

الرابع: أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً، فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها، بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما

 ⁽۱) حديث أنس: "قبل: با رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..» الحديث. أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن.

كان الأمر، وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون: هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطبوليات، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الإخبار! أو لأنها ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام. والمقصود في الحقّ أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول.

الخامس: أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين، فإن الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أو مبطلاً، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه، وربما يفترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر في قوس الاحتيال منزعاً حتى يكون هو المتخصص بالكلام.

السادس: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضائة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فنهه صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به و فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم، حتى أن امرأة ردّت على عمر رضي الله عنه ونبهته على الحق وهو في خطبته على مم الناس فقال: أصابت امرأة وأخطأ رجل. وسأل رجل علياً رضي الله عنه فأجابه فقال: ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال: أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم. واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم، وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال: هو في الجنة ـ وكان أمير الكوفة ـ فقام ابن مسعود فقال: أعده على الأمير فلعله لم يفهم؟ فأعادوا عليه فأعاد الحواب، فقال ابن مسعود: وأنا أقول: إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة. فقال أبو موسى: الحق ما قال. وهكذا يكون إنصاف طالب الحق. ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال: لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد. عانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق عل لسان خصمه وكيف يخجل به، وكيف يجتهد في مجاحدته بأقصى قدرته وكيف يذم من أفحمه طول عمره، ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحانة رضي الله عنهم بأقصى قدرته وكيف يذم من أفحمه طول عمره، ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحانة رضي الله عنهم به يتم النظر في الحق!

السابع: أن لا يمتع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال، فهكذا كانت مناظرات السلف، ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه كقوله: هذا لا يلزمني ذكره، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك؛ فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويحب قبوله. وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المدافعات والمجادلات حتى يقيس المستدل على أصل بعلة يظنها فيقال له: ما الدليل على أن الحكم في الأصل معلل بهذه العلة؟ فيقول: هذا ما ظهر لي؛ فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه، فيصر المعترض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمني ذكرها، ويقول المستدل: عليك إيراد ما تدّعيه وراء هذا، ويصر المعترض على أنه لا يلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله، ولا يعرف هذا المسكين أن قوله: إني أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمني، كذب على الشرع، فإنه إن كان لا يعرف معناه

وإنما يدعيه ليُعْجِزُ خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرّض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها، وإن كان صادقاً فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع، وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه، فإن كان قوياً رجع إليه، وإن كان ضعيفاً أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم. ولا خلاف أن إظهار ما عُلِمَ من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم فمعنى قوله لا يلزمني: أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشهي والرغبة في طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمني وإلا فهو لازم بالشرع، فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق. فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضي الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهي هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما يخطر وكانوا ينظرون فيه.

الثامن: أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم. والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفاً من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دونهم طمعاً في ترويج الباطل عليهم، ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة، ولكن في هذه الشروط الثمانية ما يهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلة. واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستولي على قلبه وهو أعدى عدو له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التي المجتهد فيها مصيب، أو مساهم للمصيب في الأجر فهو ضحكة للشيطان وعبرة للمخلصين، ولذلك شمّت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التي نعدها ونذكر تفاصيلها، فنسأل الله حسن العون والتوفيق.

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق:

اعلم: وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل والشرف والتشدّق عند الله الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المدمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسرقة، وكما أن الذي خُيْرَ بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره، فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المدمومة. وهذه الأخلاق ستأتي أدلة مذمتها من الأخبار والآيات في ربع المهلكات، ولكنا نشير الآن إلى مجامع ما تهيجه الماظرة.

فمنها: الحسد، وقد قال رسول الله ﷺ: اللَّحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ (()، ولا ينفك المناظر عن الحسد فإنه تارة يغلب وتارة يُغلب وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره. فما دام يبقى في الدنيا واحد يذكره بقوّة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاماً رأقوى نظراً، فلا بدّ أن يحسده ويحب زوال النعم عنه واتصراف القلوب والوجوه عنه إليه. والحسد نارٌ محرقةٌ فمن بلي به فهو

 ⁽۱) حديث: «الحسد بأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» أخرجه أبو داود من حديث أبي هويرة، وقال البخاري: لا يصح. وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن.

في العذاب في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأعظم؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون كما تتغاير التيوس في الزريبة.

ومنها: التكبر والترفع على الناس، فقد قال على: «المَنْ تُكَبُر وَضَعَهُ اللّهُ وَمَنْ تُوَاضَعَ رَفَعَهُ اللّهُ (۱)، ولا وقال على الله تعالى: «العَظَمَةُ إِزَارِي وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاتِي فَمَنْ نَازَعْنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ (۱)، ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال والترفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر، والبعد منها والنقدم في الدخول عند مضايق الطرق، وربما يتعلل الغبي والمكّار الخدّاع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم، «وأن المؤمن منهيّ عن الإذلال لنفسه» (۱)، فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما.

ومنها: الحقد، فلا يكاد المناظر يخلو عنه. وقد قال على: اللمُؤمِنُ لَيْسَ بِحَقُودِه (٤)، وورد في ذم الحقد ما لا يخفى. ولا ترى مناظراً يقدر على أن لا يضمر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه وغاية تماسكه الإحفاء بالنفاق ويترشح منه إلى الظاهر لا محالة في غالب الأمر. وكيف ينفك عن هذا ولا يتصوّر اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه، انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر.

ومنها: الغيبة، وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فإنه لا ينقك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه، فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة.

فأما الكذب، فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرّض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغي إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة.

ومنها: تزكية النفس، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّواْ أَشُكُمُ ۚ هُو أَعْلَا بِمَنِ اتَّقَيَ ﴾ [النجم: ٢٧] وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه. ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم على الأقران ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله: لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور، وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدّح به تارة

 ⁽١) حديث: (من تكبر وضعه الله. . . ٩ الحديث أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح وقال: فريب من حديث الثوري. ولابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن.

 ⁽٢) حديث: «الكيرياء ردائي والعظمة إزاري. . . • الحديث. أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وابن حيان من حديث أبي هريرة، وهو عند مسلم بلفظ: «الكيرياء وداؤه» من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

 ⁽٣) حديث: (نهي المؤمن عن إذلال نفسه) أخرجه الترملي وصححه، وابن ماجه من حديث حليفة: (لا يتبغي للمؤمن أن بذل نفسه).

⁽٤) حديث: «المؤمن ليس بحقود» لم أقف له على أصل.

إحياء غلوم الذين

على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه. ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعاً وعقلاً.

ومنها: التجسس وتتبع عورات الناس، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ بَمَّتَسُوا﴾ [الحُجرَات: ١٢] والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده، فيطلب من يخبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها دخيرة لنفسه في إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكاً، ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحاً بالسفاهة والاستهراء، كما حكي عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم.

ومنها: الفرح لمساءة الناس والغم لمسارّهم، ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل، ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر، فكما أنّ إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها، فكذا ترى المناظر إذا رأى مناظراً تغير لونه واضطرب عليه فِكُرُهُ فكأنه يشاهد شيطاناً مارداً أو سبعاً ضارياً، فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم في السرّاء والضرّاء حتى قال الشافعي رضي الله عنه: العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل؟ فلا أدري كيف يدعي الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة! فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة؟ هيهات هيهات، وناهيك بالشر شراً أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين.

ومنها: النفاق، فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه، فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بداً من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم، ويعلم ذلك المخاطِب والمخاطَب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور، فإنهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منهم؛ فقد قال على وتَبَافَضُوا بِالقُلُوبِ وَتَقَاطَعُوا فِي قَالَ المُنْ وَتَبَافَضُوا بِالقُلُوبِ وَتَقَاطَعُوا فِي الأَرْحَامِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَٰلِكَ فَأَصَمَهُمْ وَآَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (١٦). رواه الحسن، وقد صح ذلك مشاهدة هذه الحالة.

ومنها: الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه، حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق، ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية، فلا يسمع كلاماً إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه، حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع، فيضرب البعض منها بالبعض، والمراء في مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله على ترك المراء بالحق على

⁽١) حديث: ﴿إِذَا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباقضوا بالمقلوب... الحديث. أخرجه الطبراني من حديث سلمان بإسناد ضعيف.

الباطل. قال ﷺ: قمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَىٰ اللّهُ لَهُ بَيْتاً فِي رَبْضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُجِقٌّ بَنَىٰ اللّهُ لَهُ بَيْتاً فِي رَبْضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَىٰ اللّهُ لَهُ بَيْناً فِي رَبْضِ اللّهَ كذباً وبين من كذب بالحق فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلُمُ مِنَىٰ آفَتُهُ عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْفَقِ لَمَّا جَآءَةً المَنكبوت: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَنَنْ أَظْلُمُ مِنَىٰ أَلْلَهِ وَكُذَّبَ بِالْقِمَدْقِ إِذْ جَآءَهُ ۖ [الزَّمَ: ٢٧].

ومنها: الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلومهم وصرف وجوههم. والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر _ كما سيأتي في كتاب الرياء _ والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه؛ فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدى إلى الضرب واللكم واللطم وتمزيق الثياب والأخذ باللحي وسب الوالدين وشتم الأستاذين والقذف الصريح، فإن أولئك ليسوا معدودين في زمرة الناس المعتبرين، وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا يتفكون عن هذه الخصال العشر، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الانحطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة. ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل: الأنفة، والغضب، والبغضاء، والطمع، وحب طلب المال والجاه للتمكن من الغلبة، والمباهاة، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة، والاستحقار للناس بالفخر والحيلاء، والخوض فيما لا يعنى، وكثرة الكلام، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب، واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري المصلى منهم في صلاته ما صلى وما الذي يقرأ ومن الذي يناجيه؟ ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الأخرة: من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ وحفظ النوادر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى. والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها.

واعلم: أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة النجاه ونيل الثروة والعزة، وهي لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدّم على الأقران. وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة، فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحييه حياة الأبد، ولذلك قال على: «أشد الناسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لا يَتْفَعُهُ اللّهُ بِعِلْمِهِ فلقد ضره مع أنه لم ينفعه؛ وليته نجا منه رأساً برأس، وهيهات هيهات فحطر العلم عظيم، وطالبه طالب الملك المؤبد، والنعيم السرمد، فلا ينفك عن الملك أو الهلك؛ وهو كطالب الملك في الدنيا، فإن لم يتفق له الإصابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال مل لا بدّ من لزوم أفضح الأحوال.

فإن قلت: في الرخصة في المُنَاظَرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم، فقد صدقت فيما ذكرته من وجه، ولكنه غير مفيد إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب

 ⁽١) حديث: امن ترك المراء وهو مبطل. . . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف. قال الترمذي: حسن.

بالعصافير ما رغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة، ولو لا حب الرياسة لاندرس العلم. ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج، بل هو من الذين قال ﷺ فيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَيُوَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ (''). فطالب الرياسة في الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ (''). فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا، وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف، ولكنه يضمر قصد الجاه، فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه، فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيره فعمدا في هلاكه، فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له؟ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له؟ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل وسيأتيك في كتاب الرياء بل في جميع ربع المهلكات ما ينفي عنك الريبة فيه إن شاء الله تعالى .

* * *

الباب الخامس

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل:

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف. قال ﷺ: ﴿ بُنِيَ الدِّينُ عَلَىٰ النَظَافَةِ» (٣) وهو كذلك باطناً وظاهراً قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ رَكُرُكَ خَسُ ﴾ [التوبة: ٢٨] تنبيها للعقول على أنَّ الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر، أي باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يُجتنبُ ويُطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب، فإنها مع خلها في الحال مهلكات في المآل. ولذلك قال ﷺ: ﴿ لاَ تَذْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كُلْبُهُ * أَنْ القلب بيت

في آداب المتعلم والمعلم

 ⁽١) حديث: (إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح.

 ⁽٢) حديث: (إن الله بؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الباب الخامس:

 ⁽٣) حديث: (بني الدين على النظافة) لم أحده هكذا, وفي الضعفاء لابن حيان من حديث عائشة: (تنظفوا فإن الإسلام نظيف وللطبراني في الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود: (النظافة تدعو إلى الإيمان).

 ⁽٤) حديث: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب، منفق عليه من حديث أبي طلحة الأنصاري.

هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، ﴿ وَمَا كَانَ لِيَشَرِ أَن يُكَلِّمَهُ أَللهُ إِلّا وَحَيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِابِ أَوْ يَعْنِ لَرَسِل مِن رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المُقدسون المُطهرون المُبرؤون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طبباً ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طبباً طاهراً. ولست أقول المراد بلفظ «البيت» هو القلب و«بالكلب» هو الغضب والصفات المذمومة، ولكني أقول هو تنبيه عليه، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر، ففارق الباطنية بهذه الدقيقة، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار؛ إذ معنى الاعتبار أن يَعْبُر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبه لكونه أيضاً عرضة للمصائب وكون الدنيا يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى اصل الدنيا عبرة محمودة، فاعبر أنت أيضاً من المبيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى، ومن الكلب الذي ذم لصفته للسيت الذي هو ما فيه من سبعية ونجاسة إلى الوح الكلبة وهي السبعية.

واعلم: أن القلب المشحون بالغصب والشَّرَو إلى الدنيا والتكلّب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور، والصور في هذا العالم غالبة على المعاني والمعاني باطنة فيها، وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتغلب المعاني. فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية: «فيحشر الممزق لأعراض الناس كلباً ضارباً، والشره إلى أموالهم ذئباً عادياً، والمتكبر عليهم في صورة معر، وطالب الرئاسة في صورة أسد»(١). وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار.

فإن قلت: كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم؟ فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة، وهل رأيت من يتناول سماً مع علمه بكونه سماً قاتلاً؟ إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بالسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء. قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب. وقال بعضهم: إنما العلم الخشية لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا يَخْشَى اللهُ مِنْ عِبَادِهِ ٱلمُلكَوَّا ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم. ولذلك قال بعض المحققين: معنى قولهم: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، أن العلم أبى وامتنع علينا، فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاطه.

فإن قلت: إني أرى جماعة من العلماء، الفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعُدّوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها؟ فيقال: إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علماً، وإنما غناؤه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى، وقد سبقت إلى هذا إشارة، وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى.

⁽١) حديث الحُشِرُ المُمَرَق الأعراض الناس في صورة كلب ضار . . . الحديث . أخرجه الثعلبي في التفسير من حديث البراء بسند ضعيف .

الوظيفة الثانية: أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإنّ العلائق شاغلة وصارفة ﴿مَّا حَمَلَ أَلَمُ لِرَجُلِ مِن كُلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الاحزاب: ٤]، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قبل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرّق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمّر على معلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق، وينبعي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته، قال الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله على فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبًل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا الله (١٠) وقال على العلم أن يتكبر على وقال على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين المحملة، فإن العلم سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهرباً من سبع ضارً يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهّال بالله تعالى أشدٌ من ضراوة كل سبع، والحكمة ضالة المؤمن ينتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المئة لمن ساقها إليه كائناً من كان؛ فلذلك قبل:

التعليمُ حربٌ للفني المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتراضع وإلقاء السمع. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلِحَرَىٰ لِمَن كَانَ لَمُ قَلَّ أَوْ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ الله

 ⁽۱) حديث: «أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت» وقوله "هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء» أخرجه الطبرائي والحاكم
 والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا "هكذا نفعل» قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم.

 ⁽٢) حديث: اليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم؛ أخرجه ابن عدي من حديث معاذ، وأبي أمامة بإسنادين صعيفين.

فإن قلت: فقد قال الله تعالى: ﴿ مَتَنَاوًا أَهْلَ ٱلذِّكِّ إِن كُشُتُمْ لَا تَعَافُونَ ﴾ [التحل: ٤٤٦، فالسؤال مأمور به؟ فاعلم: أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال؛ أي دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف. وما لم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراقي الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه. وقد قال عليَّ رضي الله عنه: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعتبه في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سراً ولا تعتابن أحداً عنده ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.

الوظيفة الرابعة: أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه، ثم بعد ذلك يصغى إلى المذاهب والشبه. وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه، فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم، ومن هذا حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل، ومنع المبتدى، عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار، وندب القوي إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوي على مخالطة الكفار؛ ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاع له. ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عن المساهلات جائز، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء. وفي ذلك قال بعضهم: من رآني في البداية صار صديقاً، ومن رآني في النهاية صار زنديقاً؛ إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض؛ فيترامى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال، وهيهات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام، وتشبه الضعيف بالقوي قيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهي اعتذار من يلقى نجاسة يسيرة في كوز ماء ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى في البحر، والبحر أعظم من الكوز فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز، ولا يدري المسكين أن البحر بقوّته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته، ولمثل هذا حُوّز للنبي على ما لم يجوز لغيره حتى أبيح له تسع نسوة (١٠٠. إذ كان له من القوَّة ما يتعدَّى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما بينهن من الضرار إليه حتى ينجر إلى معصية الله تعالى في طلبه رضاهن. فما أفلح من قاس الملائكة

الوظيفة الخامسة: أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطّلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طلب التبحّر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه في الحال الانفكاك

⁽۱) حديث: «أبيع له 難 تسع نسوة» وهو معروف، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: اكان عند النبي 難 تسع...» الحديث.

عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْـنَدُواْ بِهِـ فَسَيَقُرُلُونَ هَنَدَا ۚ إِنْكُ يَدِيثُ﴾ [الأحقاف: 11]. قال الشاعر:

ومَـــنْ يَـــكُ ذا فــــم مُــــرٌ مـــريـــض _ يـــجـــد مـــرّاً بـــه الــــمــــاء الـــزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة، ولها منازل مرتَّبة في القرب والبعد من المقصود، والقوّام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى.

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمه ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة، أعني قسمي المعاملة والمكاشفة، فغاية المعاملة المكاشفة، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى، ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة أو تلقفاً، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهلة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي إلى رثبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح (۱)، كما شهد له به سيد البشر عليه، فما عندي أن ما يعتقده العامي ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العامي إلا في صنعة الكلام، ولأجله سميت صناعته كلاماً، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذي وقر في عمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذي وقر في صدره، والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع _ صلوات الله وسلامه عليه _ ثم يزدري ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول؛ فينبغي أن تتئد في هذا فعنده ضبعت رأس المال، فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب.

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عزّ وجلّ وهو بحر لا يُدْرَكُ منتهى غوره، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم، وقد روي أنه رئي صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها: إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء، وفي يد الآخر: كنت قبل أن أعرف الله أشرب وأظمأ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

الوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج. قال الله تعالى: ﴿اللَّذِينَ وَالْكَنْتُهُمُ الْكَلِّئَبُ يَتُلُونَةٌ حَقَّ تِلاَوَرَدِهِ ﴾ [البَقَرَة: ١٣١] أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملاً، وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه، فينبغي ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل، فترى جماعة تركوا

 ⁽¹⁾ حديث: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجع» أخرجه ابن عدي من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه البيهةي في الشعب موقوفاً على عمر بإسناد صحيع.

كتاب العلم

النظر في العقليات والفقهيات، متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها، وقد مضي كشف هذه الشبه في كتاب (معيار العلم)، وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر. والكل خطأ، بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص، ولذلك قال علي رضى الله عنه: لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

الوظيفة الثامنة: أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان: أحدهما: شرف الثمرة، والثاني: وثاقة الدليل وقوته، وذلك كعلم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية، فيكون علم الدين أشرف. ومثل علم الحساب وعلم النجوم، فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى؛ ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين. وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عزّ وجلّ وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم، فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه.

الوظيفة التاسعة: أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملا الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة، ومع هذا فلا يتبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدّمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي قرض تتفاية، ولا تفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم الردء، ومنهم الذي يسقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم، فكذلك العلماء قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ · أَلَّذِينَ ءَامُوُا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْمِلْرَ دَرَيَحَتْ ﴾ [المخادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَنتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل جمرَان: ١٦٣] والفضيلة نسبية. واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظنّ أنّ ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر، بل الرتبة العليا للأنبياء، ثم الأولياء، ثم العلماء الراسخين في العلم، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم، وبالحملة: ﴿فَمَن يَمْـمَلْ مِنْفَكَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَسَرُمُ ۞ وَمَن يَمْسَمَلْ مِثْقَكَالَ ذَرَّةِ شَكًّا بَـرَمُ ۞﴾ [الزّلزَلة: ٨٠٧]، ومن قصد الله تعالى بالعلم أي علم كان نفعه ورفعه لا محالة.

الوظيفة العاشرة: أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ـ ومعنى المهم ما يهمك ـ ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة. وإذا لم يمكنك الجمع مين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد، وعند ذلك نصير الدنيا منزلاً والبدن مركباً والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله، وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأقلون. والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ـ أعني النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه دون ما سبق إلى فهم العوام والمتكلمين ـ على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال، وهو أن العبد الذي علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له: إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً، وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك في الطريق مانع ضروري فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل؛ الأول: تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة. والثاني: السلوك ومقارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل. والثالث: الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركن ثم بعد الفواغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة، وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره، ومن أول سلوك البوادي إلى آخره، ومن أول أركان الحج إلى آخره. وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه، فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام: قسم يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء النافة، وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا. وقسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين، فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله، وكما لا يغني علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن. وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم المكاشفة، وههنا نجاة وفور بالسعادة، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة.

وأما الفوز بالسعادة فلا يباله إلا العارفون بالله تعالى، وهم المقربون المُنعَمون في جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم، وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِن ٱلْمُقَرِّبِينَ ﴿ فَا المَمْ وَرَجَانٌ وَجَنَتُ نَعِيمِ ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِن ٱلْمُقَيِّبِينَ ﴿ فَا اللّهِ فَسَلَدٌ لَكُ مِن أَصَّبِ ٱلْمَينِ فَلَهُ الرافِعَة: ٨٨ ـ ٩١]، وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية، بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم.

واعلم: أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين؛ أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار، وترقّوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع، وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد فحقق، وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان. فالسعادة وراء علم المكاشفة، وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات، وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات، وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة، وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن وهو منوط بالسلطان وقاتونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الفقيه، وأما أسباب الصحة ففي ناصية الطبيب، ومن قال. «العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان؛ وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة.

فإن قلت: لِمَ شبَّهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والراحلة؟ فاعلم: أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سرّ من أسرار الله عزّ وجلّ لا يدركه الحس، ولطيقة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة، والشرع يعبر عنه بالقلب، لأنه المطية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة، وكشف الخطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون به بل لا رخصة في ذكره، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودرّ عزيز أشرف من هذه الأجرام المرثية وإنما هو أمر إلهي كما قال تعالى: ﴿ وَيَسَالُونَكَ عَنِ الرَّبِحُ مِنْ أَشْرِ رَبِي ﴾ [الإسرّاء: ١٥٥]، وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن، فلله المخلق والأمر جميعاً، والأمر أعلى من الخلق. وهذه المجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقلمة بهذه الرتبة على السموات والأرض والجبال إذ أَبْيَنَ أن يحملنها وأشفقن منها من عالم الأمر، ولا يقهم من هذا أنه تعريض بقدمها، فإن القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول فلنقبض عنان البيان عن هذا الفنّ فهو وراء ما تحن بصده.

والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فمنه مصدرها وإليه مرجعها، وأما البدن فمطيتها التي تركبها وتسعى بواسطتها، فالبدن لها في طريق الله تعالى كالناقة للبدن في طريق الحج وكالراوية الخازنة للماء الذي يفتقر إليه البدن، فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية. ولا يخفى أن الطب كذلك فإنه قد يُختُاج إليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لا يحتاج إليه؛ والفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغني عنه، ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل ىالسعي وحده في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والطبخ وفي تحصيل الملبس والمسكن، وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة. ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخلاط المتنازعة من داخل، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه، وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية، فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج، والمستغرق عمره في دَائق الكلمات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكي طريق الحج أو ملابسي أركانه. فتأمل هذا أوَّلاً واقبل النصيحة مجاناً ممن قام عليه ذلك غالباً ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والحاصة في النروع من تقليدهم بمجرد الشهوة، فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم.

بيان وظائف المرشد المعلم:

اعلم: أن للإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال: إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً، وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله. فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال فله حال طلب واكتساب، وحال تحصيل يغني عن السؤال، وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال، فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعى عظيماً في ملكوت السموات،

فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مصيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطبُّب غيره وهو طيب. والذي يعلم ولا يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، وكالمِسَنُ الذي يشحذ غيره ولا يقطع، والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية، وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق كما قيل:

مــــا هـــــو إلا ذبــــالـــــة وقـــــدت تـــفــــيء لـــلــنـــاس وهــــي تـــحـــــــرقُ ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلَّد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه.

الوظيفة الثانية: أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرّب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض، فكيف تقلده منة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَيَعَوْرِ لاَ أَسْتُلُكُمُ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَسْتُلُكُمُ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ المال وما في الدنيا خادم البدن، والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه، فجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً وذلك هو الانتكاس على أم الرأس، ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم. وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم. فناظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم فانقه و الكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما؟ فإنهم يبدلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة النقه والكلام والتدريس فيهما وفي غيرهما؟ فإنهم يبدلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة

⁽١) حديث: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» أخرجه أبو داود والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي هريرة.

السلاطين لاستطلاق الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائبة وينصر وليه ويعادي عدوه وينتهض جهاراً له في حاجاته، ومسخراً بين يديه في أوطاره، فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه. فأخسس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول: غرضي من التدريس نشر العلم تقرّباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات.

الوظيفة الثالثة: أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدّي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلي، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده؛ فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فإن كان هو علم الخلاف في الفقه، والجدل في الكلام، والفتاوي في الخصومات والأحكام، فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها: «تعلمنا العلم لغير الله فأبي العلم أن يكون إلا شه؛، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأوَّلون يشتغلون به من علم الأخرة، ومعرفة أخلاق النفس، وكيفية تهذيبها، فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يثمر له طمعاً في الوعظ والاستتباع، ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم الممخوفة من الله تعالى المحقرة للدبيا المعظمة للآخرة، وذلك يوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره. ويجري حب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالي الفخ ليقتنص به الطير، وقد فعل الله ذلك بعباده إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل، وخلق أيضاً حب الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم وهذا متوقع في هذه العلوم، فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة، فلا يزيد النجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوةً في القلب وغفلةً عن الله تعالى وتماديًا في الضلال وطلباً للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية. ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة، فانظر واعتمر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان. وقد رؤي سفيان الثوري رحمه الله حزيناً فقيل له: ما لَك؟ فقال: صرنا متجراً لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرماناً.

الوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم أن يُزَجَرَ المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيح الحرص على الإصرار إذ قال على وهو مرشد كل معلم: «لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتُ البَعْرِ لَقَنُّوهُ وَقَالُوا: ما نُهِينا عَنْهُ إِلاَ وَفِيهِ شَيْءً (١٠). وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمراً بل لتتنبه بها على سبيل العبرة، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معاليه، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته.

الوظيفة المخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وأن ذلك مقل

⁽١) حديث: فلو منع الناس هن فت البعر لفتوه. . . ؟ الحديث، لم أجده.

محص وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفّر عن الفقه ويقول: ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلاً بعلوم، فينبغى أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رشة.

الوظيفة السادسة: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر على حيث قال: «تَحَنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيّاءِ أَمِزنا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازَلَهُمْ وَتُكَلّمهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ (1) عليبَ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقال على: «ما أَخَد يُحَدّثُ قَوْماً بِحَدِيثِ لا تَبَلَّغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ فِئْتَةَ عَلَىٰ يَعْضِهِمْ ه. وقال على رضى الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ: إن همنا لعلوماً جمة لو وجدت لها حملة. وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار، به فلا ينبغي أن يهشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟ وقال عيسى عليه السلام: لا تعلقوا الجواهر في أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير. ولذلك قيل: كِلْ لَكُلُ عبد بمعيار عقله وَزِنْ له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار، وسثل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل: أما سمعت رسول الله على قال: "من كَتَمَ عِلْما نَافِعاً جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامُ عِنْ اللهام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني فقد قال الله تعالى ﴿وَلا تَوْقُ النَّهُ عَلَى المستحق بأقل من الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق:

أأسشر دراً بين سيارحة السنعيم لأنهم أمرسوا بجمهل ليقيده فإن ليطف الله السلطيف بيلطف نشرت مفيداً واستفدت مودة فحمن منح الجهال علماً أضاعه

فأصبح مخزوناً بسراعية الغنم فلا أنا أضحي أن أطوّقه البهم وصادفت أهلاً للعلعلوم وللجكم وإلاً فمخزون لدي ومُكنت

الوظيفة السابعة: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقّى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر أن له وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق. فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله. وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده، بل ينبغي أن يخلى وحرفته، فإنه لو ذكر

 ⁽١) حديث: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس متازلهم. . . ١ الحديث. رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن
 الشّخير من حديث عمر أخصر منه. وعند أبي داود من حديث عائشة. «أنزلوا الناس منازلهم».

 ⁽۲) حديث: «من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلعام من نار» أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف؛ وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه.

له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخوض فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره؛ بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصاعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن، ولا يحرّك عليهم شبهة، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك. وبالجملة: لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المعلم عاملاً بعلمه قلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر. فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وكل من تناول شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سمّ مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج؟ ولذلك قيل في المعنى:

لا تسنسة عَسِن خُسلُتِ وتسأنسيَ مسئسله عسارٌ عسلسِك إِذَا فَسَعَسلُتَ عسطسِيمُ

وقال الله تعالى: ﴿ أَتَأْثُرُونَ النَّاسَ بِالْهِرِ وَمَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البَشَرَة: ٤٤] ولذلك كان وزر العَالِم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عَالَمٌ كثير ويقتدون به، ومن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك. فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرَّهم بتهتكه. والله أعلم.

* * *

الباب السادس

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة. فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، ونعني بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاء والمنزلة عند أهلها، قال ﷺ: «إِنْ أَشَدُ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْقَعُهُ اللَّهُ بِمِلْمِهِ». وعنه ﷺ أنه قال: الا يَكُونُ المَرْءُ عَالِماً حَتَّىٰ يَكُونَ بِعِلْمِهِ عَامِلاً الْأَانِ الْعَلْمُ اللَّهُ وَعَلْمُ عِلْمَ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَعِلْمٌ فِي القَلْبِ فَلْلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ اللَّهُ وَقَال ﷺ: «يَكُونُ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَعِلْمٌ فِي القَلْبِ فَلْلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ اللَّهُ وقال ﷺ: «يَكُونُ عَلَىٰ خَلْقِهِ وَعِلْمٌ فِي القَلْبِ فَلْلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ اللَّهُ وقال اللهِ اللهِ المَالِمُ النَّافِعُ اللهُ المَالِمُ النَّافِعُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ

الياب السادس

 ⁽١) حديث: الا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء، والبيهقي في
المدخل موقوفاً على أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً.

 ⁽٢) حديث: «العلم علمان علم على اللسان. . . ٩ الحديث. إخرجه الترمدي الحكيم في النوادر، وابن عبدالبر من حديث
الحسن مرسلاً بإسناد صحيح، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي.

فِي آخِرِ الزَّمَانِ عِبَادٌ جُهَالٌ وَعُلَمَاءُ قُسَّاقٌ»(١)، وقال ﷺ: ﴿لا تَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِثَبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ وَلِتُمَارُوا بِهِ السَّفَهَاءَ وَلِتَصْرِفُوا بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذَٰلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ»(١)، وقال ﷺ: ﴿مَنْ كَتَمَ عِلْمَا عِنْدَهُ ٱلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامِ مِنْ قَارِ»، وقال ﷺ: ﴿لاَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَّالِ». فقيل، وما ذلك؟ فقال: ﴿مِنَ الأَيْمَةِ المُضِلِّينَ (١)، وقال ﷺ: ﴿مَنِ ازْدَادَ عِلْما وَلَمْ يَزْدَدُ هُدَى لَمْ يَزْدَدُ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ فَلَا؟ فقال: ﴿مِنَ الأَيْمَةِ المُضِلِّينَ (١)، وقال ﷺ: ﴿مَنِ ازْدَادَ عِلْما وَلَمْ يَزْدَدُ هُدَى لَمْ يَزْدَدُ مِنَ اللّهِ إِلاَّ بُعْداً ﴿١٠)، وقال عيسى عليه السلام: إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين. فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم، فإن العالم إما متعرّض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد، وإنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة.

وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه: إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم، قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل. وقال الحسن رحمه الله: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجري في العمل مجرى السفهاء. وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال: كمى بترك العلم إضاعة له، وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندماً؟ قال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما عند الموت فعالم مفرط. وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري ولا يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري قذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري قذلك جاهل فارفضوه. وقال لا يدري وذلك عسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يال أنه المراع عليه الماء العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: إني لأرحم عليماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: إني لأرحم القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا:

صحبتُ للمستاع النصلالة باللهدى ومن يستري دنياه بالدين أصحبُ وأعلجبُ من هذين من بناع دينه بدنيا سواه فسهو من ذَيْنِ أعلجبُ

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الْعَالِمَ لَيُعَذَّبُ هَذَاباً يُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ اسْتِمْظَاماً لِشِدَّةِ عَذَابِهِه (٥)، أراد به العالم الفاجر. وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يُؤْتَىٰ بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ فَيَقُولُونَّ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِها كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَىٰ فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَّ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُ

 ⁽۱) حليث: ايكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق؛ أخرجه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف.

⁽٢) حديث: الا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح.

⁽٣) حديث: «لأنّا من غير الدَّجال أخوف عليكم من الدجال. .؛ الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي ذر بإمساد جيد

⁽٤) حديث: «من ازداد علماً ولم يردد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث على بإساد ضعيف إلا أنه قال: «زهداً»، وروى ابن حيان في روضة العقلاء موقوفاً على الحسن «من ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بعداً» وروى أبو العتج الأزدي في الصعفاء من حديث علي: «من ازداد بالله علماً ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضباً».

⁽a) حديث: إن العالم يعلب علاب علاية يطيف به أهل النار. ، الحديث. لم أجده بهذا اللفظ رهو معنى حديث أسامة المذكور بعده.

بِالخَيْرِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِ وَآتِيهِ اللَّهُ وَإِنَما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ التَّادِ ﴾ [النَّساء: 160]، لأنهم جحدوا بعد لعلم، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولدا ولا قالوا: إنه ثالث ثلاثة، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله: ﴿يَمْرِنُونَهُ كُمَا يَمْرِفُونَ أَيْنَاتَهُمُ ﴾ [البَقْرَة: 187]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْهُمُ مَا عَرَفُوا كَفُولًا مِنْ فَلَمَّا أَلَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ وَلَمْ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ الله الشهوات فشبّه بالكلب أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات.

وقال عيسى عليه السلام: مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، ومثل لمقبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى. فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالاً وأشدّ عذاباً من الجاهل. وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات:

فمنها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالصرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر. فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل، فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا فهو أسير الشيطان قد بينهما طمع في غير مطمع؟ فهو حاهل بشرائع الأنبياء كلهم، بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخره، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟.

وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي، يا داود، لا تسأل عني عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي، يا داود، إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً؛ يا داود، من رد إلي هارباً كتبته جهبذاً ومن كتبته جهبذاً لم أعذبه أبداً. ولذلك قال الحسن رحمه الله: عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة. ولذلك قال يحيى بن معاذ: إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا. وقال سعيد بن المسيب رحمه الله الذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص. وقال عمر رضي الله عنه: إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب.

⁽١) حديث أسامة بن زيد: «يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى في النار فتندلق أقتابه، . ، الحديث. متفق عليه بلفظ: «الرجل» بدل «العالم».

وقال مالك بن دينار رحمه الله: قرأت في بعض الكتب السالفة أن الله تعالى يقول: إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا: أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه. وكتب رجل إلى أخ له: إنك قد أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم، وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم طاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية؟ قال الشاعر:

وراعيي السماة يسحممي المذشب عنها فكسيف إذا السرعماة لسهما ذئماب؟ وقال الآخر:

يا معشر النقراء ينا مبليخ البياسة منا يتصلح المِلْخ إذا التمليخ فنسدُ ع

وقيل لبعض العارفين: أترى أن من تكون المعاصى قرة عينه لا يعرف الله؟ قال: لا شك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى. وهذا دون ذلك بكثير ولا تظنن أن ترك المال يكفي في اللحوق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضرُّ من المال. ولذلك قال بشر: «حدثنا» باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول: «حدّثنا» فإنما يقول: أوسعوا لي. ودفن بشر بن الحارث بضعة عشر ما بين قمطرة وقوصرة من الكتب، وكان يقول: أنا أشتهي أن أحدث، ولو ذهبت عني شهوة الحديث لحدثت، وقال هو وغيره: إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته فحدث. وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا. ولذلك قال الثوري: فتنة الحديث أشدّ من فتنة الأهل والمال والولد، وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن تُبَنِّنُكَ لَقَدْ كِدِتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيَّعًا قَلِيلًا ۞ [الإسرَاء: ٧٤]. وقال سهل رحمه الله: العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص. وقال: الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء سكاري إلا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وَجُل حتى يدري ماذا يختم له به. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: إذا طلب الرحل الحديث أو تزوجُ أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا، وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذي لا يحتاج إليه في طلب الآخرة. وقال عيسى عليه السلام: كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟ وقال صالح بن كيسان البصري: أدركت الشيوخ وهم يتعوِّذون بالله من الفاجر العالم بالسنة.

وروى أَبُو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ طَلَبَ عِلْماً مِنْمَا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» (١).

وقد وصَف الله علماء السوء بأكُل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد، فقال عزّ وجلّ في علماء المدنيا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَقَ الّذِينَ أُونُواْ الْكِتَنَبَ لَتُبَيِّنُتُمُّ لِلنّاسِ وَلَا تَكَثَّمُونَهُمْ فَنَمَدُّوهُ وَرَاّة ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرُواْ بِعِد ثَمْنَا قَلِيلًا ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٧]، وقال تعالى في علماء الآخرة: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَمْلِ الْكِتَبِ

⁽۱) حديث أبي هريرة المن طلب هلماً مما يبتغي به وجه الله ليصيب به هرضاً. . . ا الحديث. أخرجه أبو داود، وابن ماجه بإسناد جيد.

لَمَن يُؤْمِنُ بِأَفَّهِ وَمَا أَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَنشِمِينَ لِلَهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايِكِتِ ٱللَّهِ لَايَكُمْ وَمَا أَنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَنشِمِينَ لِلَهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايِكِتِ ٱللَّهِ ثَمَانًا وَلَوْفَاهُ أَوْلَتَهِكَ لَهُمْ عَندَ رَبِّهِمْ ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٩]، وقال بعض السلف: العلماء يحشرون في زمرة السلاطين. وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدبيا بعلمه.

وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبع عِين أنه قال: ﴿ أَوْحَىٰ اللَّهُ هَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ بَعْضِ الأَنْبِيَاءِ: قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ وَيَتَمَلِّمُونَ لِغَيْرِ العَمَلِ وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآجِرَةِ يَلْبَسُونِ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الكِباشِ وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذُّنَابِ. أَلْسِنَتُهُمْ أَخَلَىٰ مِنَّ العَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ إِيَّايَ يُخَادِغُونَ وَبِي يَسْتَهْزِئُونَ لأَفْتَحْنَ لَهُمْ فِثْنَةً تَذَرُّ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ الْأَوْلِيمَ وَروى الْضحاك عن ابن عباس رضِي الله عنهما قال: قال رَسُولَ الله عِنْهِ: ﴿ عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رُجُلانِ: رَجُلٌ آنَاهُ اللَّهُ عِلْمَا فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَمْ يَأْخُذُ عَلَيْهِ طَمَعاً وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَناً ، فَذَٰلِكَ يُصَلِّي عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ وَحِيتَانُ المَاءِ وَدَوَابُ الأَرْضِ وَالكِرَامُ الْكَاتِبُونَ يُقْدِمُ عَلَىٰ اللَّهِ عَرٌّ وَجِّلَ يَوْمَ القِيَامَةِ سَيِّداً شَرِيفاً حَتَّىٰ يُوافِقَ المُرْسَلِينَ، وَرَجُلْ آتاهُ اللَّهُ عِلْما فِي الدُّنْيا فَضَنَّ بِهِ عَلَىٰ عبَادِ اللَّهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً وَاشْتَرَىٰ بِهِ ثَمَناً فَلْلِكَ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَام مِنْ نَارٍ يُنَادِي مُنَادٍ عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلاثِقِ هَٰذَا فُلانُ بْنُ قُلانٍ آتَاهُ اللَّهُ عِلْماً فِي الدُّنْيا فَضَنَّ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَأَخَذَ بِهِ طَمَعا وَاشْتَرَىٰ بِهِ لَمَناً فَيُعَذَّبُ حَتَّىٰ يُفْرَغُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ (٢٠). وأشد من هذا ما روي: «أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول: حدَّثني مُوسى صفي الله، حدَّثني موسى نجي الله، حدثني موسى كليم الله حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم. قال: هو هذاً الخنزير، فقال موسى: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عزّ وجلَّ إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين». وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً في رواية عن النبي على قال: المِنْ فِتْنَةِ العَالِمِ أَنْ يَكُونَ الكَلامُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الاسْتِمَاعِ»(٣)، وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ، وفي الصمت سلامة وعلم.

ومن العلماء من يُخَزِّن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأوّل من النار. ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان إن رُدَّ عليه شيء من علمه أو تُهُوونَ بشيء من حقه غضب، فذلك في اللرك الثاني من النار. ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً، فذلك في الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ والله تعالى يبغض المتكلفين، فذلك في الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتخلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه، فذلك في الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة وبالأ وذكراً في الناس فذلك في الدرك السادس من البار. ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فإن

⁽١) حديث أبي الدرداء: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء: قل لللين يتقفهون لغير اللدين. . » الحديث. أخرجه ابن عبدالبر بإسناد ضعف.

⁽۲) حديث ابن عباس: اطماء هذه الأمة رجلان. . ٩ الحديث. أخرجه الطبراي في الأوسط بإسناد ضعيف.

 ⁽٣) حديث معاد «من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع. .) الحديث. أخرجه أبو نعيم وابن الجوري في الموضوعات.

وَعظ عنَّف وإن وُعظ أنَّف، فذلك في الدرك السابع من النار. فعليك يا أخي بالصمت فبه تغلب الشبطان. وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشي في غير أرب،

وقال الأوزاعي رحمه الله: شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها: بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه. وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات. وقال الشعبي: يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم: ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الحنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله وننهى عن الشر ونفعله. وقال حاتم الأصم رحمه الله: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم

⁽١) حديث: فإن العبد لينتشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة؛ لم أجد، هكذا، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: فإنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة،

 ⁽٢) حديث جابر. الا تجلسوا عند كل عالم. . ١ الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية، وابن الحوزي في الموضوعات.

 ⁽٣) حديث: «مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شقاههم بمقاريض من تار. .» الحديث. أحرجه ابن حبان من حديث أسر.

 ⁽³⁾ حديث: اهلاك أمني عالم فاجر وشر الشرار شوار العلماء. . ٤ الحديث. أخرجه الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم
 عن أبيه مرسلاً بآخر الحديث تحوه وقد تقدم، ولم أجد صدر الحديث.

الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو. وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفاء وأنشدوا:

يا واعظ السَّاسِ قد أصبحت مسَّهماً أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً تعيب دنيا وناساً راغبين لها

إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها فالموبقات لعمري أنت جانيها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر : رد د ر م ا

لا تسنسة عسل خُسلُسق وتسأتسي مستسلمه العسار عسلسيك إذا فسعسلست عسطسيسم

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: مررت بححر بمكة مكتوب عليه ﴿اقلبني تُعتبرُ ﴿ فَقَلْبُنَّهُ فَإِذَا عَلَيه مكتوب «أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلمه؟ وقال ابن السماك رحمه الله: كم من مذكر بالله ناس لله! وكم من مخوّف بالله جريء على الله! وكم من مقرّب إلى الله بعيد عن الله! وكم من داع إلى الله فارّ من الله! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله! وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولحنا في أعمالنا فلم تعرب. وقال الأوزّاعي: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع. وروى مكحول عن عبدالرحمن بن غنم أنه قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: ﴿ تَعَلَّمُوا مَا شِثْتُمُ أَنْ تَعْلَمُوا فَلَنْ يَأْجُرَكُمُ اللَّهُ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا اللَّهُ . وقال عيسى عليه السلام: مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت، فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد. وقال معاذ رحمه الله: احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته. وقال عمر رضي الله عنه: إذا زل العالم زل بزلته عَالَمٌ من الخَلْقِ. وقال عمر رضي الله عنه: ثلاث بهن ينهدم الزمان إحداهن زلة العالم. وقال ابن مسعود: سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومثذ عالمه ولا متعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها علوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومثذِ وما أجدب القلوب! فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى. وفي التوراة والإنجيل مكتوب: لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم. وقال حذيفة رضي الله عنه: إنكم في زمان من ترك فيه عُشْرَ ما يعلم هلك، وسيأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين.

واعلم: أن مثل العالم مثل القاضي وقد قال ﷺ: ﴿القُضَاةُ ثَلاثَةٌ: قَاضَ قَضَىٰ بَالحَقُّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَلْلِكَ فِي الجَنَّةِ، وَقَاضٍ قَضَىٰ بِالجُوْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَوْ لا يَعْلَمُ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قُضَىٰ بِغَيْرِ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ فِي

⁽١) حديث عبدالرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة · «تعلموا ما شئتم أن تعلموا قلن يأجركم الله حتى تعملوا» علقه ابن عبدالبر، وأسنده ابن عدي وأبو نعيم والخطيب ـ في كتاب اقتضاه العلم للعمل ـ من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمي موقوقاً على معاذ بسند صحيح.

ومنها: أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغّب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال. فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغراثب الطب وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به، وذلك محض السفه. وقد روي اأنّ رجلاً جاء رسول الله على فقال: عَلَمْ عَلَانِبِ الْعِلْم، فقال له: مَا صَنَعْتَ فِي حَقْه؟ قال: مَا شاءَ اللّه، العِلْم؟ فقال على خقال على خقال: فَمَا صَنَعْتَ فِي حَقْه؟ قال: ما شاءَ اللّه، فقال على خقال على خقال الله المؤت المؤت؟ قال: نَعْم، قال: فَمَا أَصْدَفْتَ لَهُ؟ قال: ما شاءَ اللّه، فال الله فقال على المؤلف مِنْ عَرَائِبِ العِلْم؛ فقال له شقيق: منذ كم صحبتني؟ قال حاتم: مذ خاتم الأصم - تلميذ شقيق البلخي رضي الله عنهما - أنه قال له شقيق: منذ كم صحبتني؟ قال حاتم: مذ ثلاث وثلاثين سنة، قال: فما تعلم مني في هذه المدّة؟ قال: ثماني مسائل، قال شقيق له: إما لله وإلى المهون ذهب عمري معك ولم تتعلم إلا ثماني مسائل؟ قال: يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإني لا أحب أن أكذب، فقال: هات هذه الثماني مسائل حتى أسمعها.

⁽١) حديث: «القضاة ثلاثة. ٢٠ الحديث. أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح.

 ⁽٢) حديث: فإن الشيطان ربما يسوقكم بالعلم. ٤٠ الحديث. في الجامع من حديث أنس بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: اإنما أخاف على أمني زلة عالم. » الحديث. أخرجه الطرائي من حديث أبي الدرداء، والابن حيان نحوه من حديث عمران بن حصين.

⁽٤) حديث: «أن رجلاً حاء إلى رسول الله ﷺ فقال: علمني من غرائب العلم. . . » الحديث. رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبدالبر من حديث عبدالله بن المسور مرسلاً وهو ضعيف جداً.

قال حاتم: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إلى القبر فاؤذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبي، فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي. فقال: أحسنت يا حاتم، فما الثانية؟

فُقال: نطرت في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ. وَنَهَى ٱلنَّنْسَ عَنِ ٱلْمَوَىٰ ۚ ﴿ فَإِنَّ ٱلْمِئْتَةَ هِى َ ٱلْمَاوَىٰ ۞﴾ [النَّازعَات: ٤١،٤٠]، فعلمت أنْ قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرّت على طاعة الله تعالى.

الثالثة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم مطرت إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنَفَدُّ وَمَا عِـدَ أَشَهِ بَاقِه﴾ [النحل: ٩٦]، فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظاً.

الرابعة: أني نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمُكُمْ عِدَ اللَّهِ أَنْقَدُكُمْ ﴾ [الحُجزات: ١٣]، فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً.

الخامسة: أني نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله عز وجلّ: ﴿نَكُنُ قَسَمْنَا بَيْهُم مَّعِيشَتُهُمْ فِي ٱلْحَيْوَةِ ٱلدُّنَا﴾ [الزّحرُف ٣٣]، عتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عني.

السادسة: نظرت إلى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الشَّيْطُانَ لَكُرُ عُلُوً ۖ فَأَيْخِذُوهُ عَدُوًا ﴾ [قاطر: ٦]، فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حلري مه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدوٌ لي فتركت عداوة الخلق غيره.

السابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كُل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن نَاتِئَةِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [مُود: ٦]، فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها، فاشتغلت بما لله تعالى علي وتركت مالي عنده.

الثامنة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق . هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صناعته، وهذا على صحة بدنه .. وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنَوَكُلُ عَلَى اللهِ عَهُو حَسَبُهُ ﴾ [الطّلَاق ٣]، فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي. قال شقيق: يا حاتم، وفقك الله تعالى، فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم، فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة، فهذا الفن من العلم لا يهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة، فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه، ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام. وقال الضحاك من مزاحم: أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع وهم اليوم ما يتعلمون إلا بالكلام.

ومنها: أن يكون غير ماثل إلى الترفه في المطعم والمشرب والتنعم في الملس والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى، ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك، وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه وارتفع في علماء الآحرة حزبه.

ويشهد لذلك ما حكي عن أبي عبدالله الخواص ـ وكان من أصحاب حاتم الأصم ـ قال: دخلت مع حاتم إلى الريّ ومعنا ثّلاثمائة وعشرون رجلاً يريدون الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام، قدخلنا على رجل من التجار متقشف يحب المساكير فأصافنا تلك الليلة، فلما كان من الغد قال لحاتم: ألك حاجة فإني أريد أن أعود فقيهاً لنا هو عليل؟ قال حاتم: عيادة المريض فيها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضاً أجيء معك. وكان العليل محمد بن مقاتل ـ قاضي الري ـ فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حس، فبقي حاتم متفكراً يقول: باب عالم على هذه الحالة؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حسناء فوراء واسعة تزهة وإذا بزة وستور، فبقي حاتم متفكراً ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفرش وطيئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مِذَّبَّة، فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فاوماً إليه ابن مقاتل أن اجلس، فقال: لا أجلس. فقال: لعل لك حاجة. فقال: نعم، قال: وما هي؟ قال: مسألة أسألك عنها. قال: سل، قال: قم فاستو جالساً حتى أسألك، فاستوى جالساً. قال حاتم. علمك هذا من أين أخذته؟ فقال: من الثقات حدثوني به، قال: عمن؟ قال: عن أصحاب رسيول الله على، قيال: وأصبحياب رسيول الله على عبدن؟ قيال: عين رسيول الله ﷺ قيال. ورسول الله ﷺ عمن؟ قال: عن جبرائيل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ. قال حاتم: ففيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عزَّ وجلَّ إلى رسول الله ﷺ وأداه رسول الله ﷺ إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات، وأداه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان في داره إشراف وكانت سعتها أكثر كان له عند الله عرّ وجلّ المنزلة أكبر؟ قال: لا. قال: فكيف سمعت؟ قال: سمعت أنه من زهد في الدنيا ورغب في الأخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كانت له عند الله المنزلة، قال له حاتم: فأنت بمن اقتديتُ أبالنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم والصالحين رحمهم الله، أم بفرعون ونمرود أول من بني بالجص والآجر؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول: العالم على هذه الحالة أفلا أكون أنا شراً منه؟ وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضاً. وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له: إن الطنافسي بقزوين أكثر توسعاً منه. فسار حاتم متعمداً فدخل عليه فقال: رحمك الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة؟ قال: نعم وكرامة، يا غلام، هات إنَّاء فيه ماء. فأتى بَّه فقعد الطَّىافسي فتوضأ ثُلاثاً ثلاثاً ثم قال: هكذا فتوضأ. فقال حاتم: مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد، فقام الطنافسي وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً أربعاً فقال الطنافسي: يا هذا أسرفت. قال له حاتم: فبماذا؟ قال: فسلت ذراعيك أربعاً. فقال حاتم: يا سبحان الله العظيم أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف؟ فعلم الطافسي أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً، فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا: يا أبا عبدالرحمٰن أنت رجل ولكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته، قال: معى ثلاث خصال أظهر بهن على خصمي: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه. فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه، فلما دخلوا عليه قال له: يا أبا عبدالرحمن ما السلامة من الدنيا؟ قال: يا أبا عبدالله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال: تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك منهم، وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيئهم آيساً، فإذا كنت هكذا سلمت. ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال: يا قوم أية مدينة هذه؟ قالوا: مدينة رسول الله ﷺ قال: فأين قصر رسول الله ﷺ حتى أصلي فيه؟ قالوا: ما

كان له قصر إنما كان له بيت لاطيء بالأرض، قال: فأين قصور أصحابه رضي الله عنهم؟ قالوا: ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض، قال حاتم: يا قوم، فهذه مدينة فرعون، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا: هذا العجمي يقول: هذه مدينة فرعون، قال الوالي: ولم ذلك؟ قال حاتم: لا تعجل عليَّ أنا رجل أعجمي غريب دخلت البلد فقلت: مدينة من هذه؟ فقالوا: مدينة رسول الله تعلى فقلت: فأين قصر... وقص القصة، ثم قال. وقد قال الله تعالى: ﴿ لَقَدَ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أَسُوةً كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أَسُوةً كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عن بالجص والآجر؟ وفخلوا عنه وتركوه. فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى. وسيأتي من سيرة السلف في البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه.

والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بحرام، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة، ومراعاة الخلق ومراءاتهم وأمور أخرى هي محظورة، والحزم اجتناب ذلك؛ لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها البتة، ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان ﷺ لا يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم (۱)، ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة (۲)، إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

وقد حكي: أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك بن أنس رضي الله عنهما: "بسُّم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين، من يحيى بن يزيد بن عبدالملك إلى مالك بن أنس، أما بعد: فقد بلغني أنك تلبس الدقاق، وتأكل الرقاق، وتجلس على الوطيء، وتجعل على بانك حاجباً، وقد جلست مجلس العلم، وقد ضربت إليك المطي، وارتحل إليك الناس، واتحذوك إماماً ورضوا بقولك؛ فاتق الله تعالى يا مالك وعليك بالتواضع. كتبت إليك بالنصيحة مني كتاباً ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام؛ فكتب إليه مالك: "بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سبدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك، أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك فوقع مني موقع النصيحة والشفقة والأدب. أمتعك الله بالتقوى وجزاك بالنصيحة خيراً، وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فأما ما ذكرت لى أبي آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطيء، فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فَقَد قَالَ الله تَعالَى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّذِيَّ أَخْرَجَ لِيبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّذْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وإنسى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه. ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام». فانظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعاً، ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالإنصاف والاعتراف في مثل هذه النصيحة فتقوى أيضاً نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكروهات، وأما غيره فلا يقدر عليه، فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية، وخاصية علماء الله تعالى الخشية، وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر.

ومنها: أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً،

⁽١) حديث: فنزع القبيص المعلمة متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٢) حديث: «نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة» متفق عليه من حديث ابن عمر.

بل ينبعي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاؤوا إليه، فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم، فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم، أو يتكلف في كلامه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت، وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجور من الإدرار والجواثز وغيرها. وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط. وقد قال ﷺ : "مَنْ بَدا جَفاء يعني من سكن البادية جفا ـ وَمَن اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفِلَ وَمَنْ أَتَىٰ السُّلْطَانَ افْتُشِن "(١) وقال ﷺ : ﴿سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أَمَرًاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ آلْنَكَرَ فَقَدْ بَرِيءَ وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ أَبْعَدَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ٣. قيل: أفلا نقاتلهم؟ قال ﷺ: ﴿لا مَا صَلُّوا﴾ ``. وقالَ سفيان: في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك. وقال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه. وقال رسول الله ﷺ: «العُلْمَاءُ أُمْنَاءُ الرُّسُل عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلاطِينَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَاغْتَزِلُوهُمُ اللهُ . رواه أنس. وقيل للأعمش: لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك فقال: لا تعجلوا، ثلث يموتون قبل الإدراك، وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق، والثلث الباقي لا يفلح منه إلا القليل. ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص.

وقال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً. وقال رسول الله الشرارُ العُلَمَاءُ أنّا وقال مكحول الدمشقي الشرارُ العُلَمَاءُ أنا وقال مكحول الدمشقي رحمه الله: من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صَجبَ السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه. وقال سمنون: ما أسمج بالعالم أن يؤتي إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال: هو عند الأميرا قال: وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت فذك؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه، ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافاً مع أني لا آخذ منه شيئاً ولا أشرب له شربة ماء. ثم قال: وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يخبرون المسلطان بالرخص وبما يوافق هواه، ولو أخبروه بالذي عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاة لهم عد ربهم، وقال الحسن: كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم في الإسلام وصحبة لرسول الله على - قال عدالله بن المبارك: عنى به سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - قال: وكان لا

⁽١) حديث: "من بدا جفا. . • الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسته والنسائي من حديث ابن عباس.

 ⁽۲) حديث: «سيكون عليكم أمراء تعرفون عنهم وتنكرون. . » الحديث. أخرجه مسلم من حديث أم سلمة.

 ⁽٣) حديث أنس «العلماء أمناء الرسل على عباد الله. . » الحديث. أخرجه العقيلي في الضعفاء، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

⁽٤) حديث: «شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء» أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول نحوه عن حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

يغشى السلاطين وينفر عنهم، فقال له بنوه: يأتي هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الإسلام فلو أتبتهم، فقال: يا بني آتي جيفة قد أحاط بها قوم، والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها؛ قالوا: يا أبانا إذن نهلك هزالاً، قال: يا بني: لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إليَّ من أن أموت منافقاً سميناً. قال الحسن: حصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان. وفي هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلم من النفاق ألبتة وهو مضاد للإيمان. وقال أبو ذرّ لسلمة: يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه. وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لا سيما من له لهحة مقبولة وكلام حلو؛ إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه: أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين. وكان يقال: العلماء إذا علموا غإذا عملوا فإذا شغلوا فإذا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا.

وكتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى الحسن: أما بعد؛ فأشر عليَّ بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى. فكتب إليه أما أهل الدبن فلا يريدونك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة. هذا في عمر بن عبدالعزيز رحمه الله وكان أرهد أهل زمانه! فإذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستنسب طلب غيرهم ومخالطته؟ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثوري وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط، يتكلمون في علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما لميلهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين.

ومنها: أن لا يكون مسارعاً إلى الفتيا، بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بسص حديث أو إجماع أو قياس جلي أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال: لا أدري، وإن سئل عما يظنه ماجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية. هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم، وفي الخبر: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري» (1). قال الشعبي: لا أدري نصف العلم، ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجراً ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس. فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضي الله عنهم، كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال: اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلد أمور الناس في عنه، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون، وقال: جنة العالم «لا أدرى» فإن أخطأها فقد أصيب مقاتله.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم، يقول: انظروا إلى هذا سكوته أشد عليّ من كلامه. ووصف بعضهم الأبدال فقال: أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة؛ أي لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا، فإن اضطروا أجابوا، وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام. ومرّ علي وعبدالله رضي الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال: هذا يقول اعرفوني. وقال بعضهم: إنما العالم الذي إذا سئل عن المسألة وكأنما يقلع ضرسه. وكان ابن عمر يقول: تريدون أن تجعلونا جسراً تعبرون علينا إلى

حديث: اللعلم ثلاثة: كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري، أخرجه الحطيب في أسماء من روى عن مالك موقوفاً على
 ابن عمر، ولأبي داود، وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً نحوه مع اختلاف، وقد تقدم.

جهنم. وقال أبو حفص النيسابوري: العالم هو الذي يحاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة: من أين أجبت؟ وكان إبراهيم التيمي إذا سئل عن مسألة يبكي ويقول: لم تجدوا غيري حتى احتجتم إليّ. وكان أبو العالمية الرياحي وإبراهيم بن أدهم والثوري يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير، فإذا كثروا انصرفوا. وقال على أثري أَعْزَيْرٌ نَبِيّ أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي أُمَّزِيْرٌ نَبِيّ أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي أُمْزَيْرٌ نَبِيّ أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي أُمْزِيْرٌ نَبِيّ أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي أُمْزِيْرٌ نَبِي أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي أَمْزَيْرٌ نَبِيّ أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي أَمْ لا؟ وَمَا أَدْرِي بَعِي المعلمة الله عن ولحل الله أن المساجد وشرها أمّ لا؟ وكان ابن عمر رضي الله عنهما يُسلُ عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس رضي الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة. وكان في الفقهاء من يقول: "لا أدري» أكثر ممن يقول: "أدري» منهم سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، والفضيل بن أدري» أكثر ممن يقول: "أدري» منهم سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، والفضيل بن أصحاب رسول الله على أمنهم أحد يسأل عن حديث أو فتيا إلا وذ أن أخاه كفاه ذلك. وفي لفظ آخر: أصحاب رسول الله على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول. وروي أن أصحاب الصفة أهدي إلى واحد منهم رأس مشوي وهو في غاية الضر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر، هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول.

ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأي من أهل الكوفة في المنام فقال: ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأي؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال: ما وجدناه شيئاً وما حمدنا عاقبته. وقال ابن حصين: إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر. فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة. وفي الحديث: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلُ قَدْ أُوتِيَ صَمْتاً وَرُهُداً السكون في أَنْ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الحِكْمَةُ اللهِ وقيل: العالم إما عالم عامة وهو المفتي وهم أصحاب السلاطين، أو

⁽١) حديث: العا أدري أعزير نبي أم لا. . ؟ الحديث. أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حديث: الما سئل عن خير البقاع وشرها قال: لا أدري حتى نزل جبريل. . الحديث. أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه وتحوه من حديث ابن عمر.

 ⁽٣) حديث اكل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة... الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماحه من حديث أم حبيبة. قال
الترمذي: حديث غريب.

 ⁽٤) حديث: فإذا رأيتم الرجل قد أوثي صمتاً وزهداً. . الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث ابن خلاد بإسناد ضميف.

كتاب العلم

عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون. وكان يقال: مثل أحمد من حنبل مثل دجلة كل أحد يغترف منها، ومثل بشر بن الحارث مثل بئر عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد. وكانوا يقولون: فلان عالم وفلان متكلم وفلان أكثر كلاماً وفلان أكثر عملاً. وقال أبو سليمان: المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام. وقيل: إذا كثر العلم قل الكلام، وإذا كثر الكلام قل العلم. وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما ـ وكان قد آخي بينهما رسول الله ﷺ (١) ـ: يا أخى بلغني أنك قعدت طبيباً تداوي المرضى، فانظر فإن كنت طبيباً فتكلم فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطبباً فالله الله لا تقتل مسلماً. فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل. وكان أنس رضي الله عنه إذا سئل يقول: سلوا مولانا الحسن، وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا سئل يقول: سلوا حارثة بن زيد، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: سلوا سعيد بن المسيب.

وحكى أنه روى صحابي في حضرة الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال: ما عندي إلا ما رويت، فأخد الحسن في تفسيرها حديثاً حديثاً، فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه، فأخذ الصحابي كفاً من حصى ورماهم به وقال: تسألوني عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم.

ومنها: أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء مي الكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تفضى إلى المشاهدة، ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بدلك، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعدّ إنما تتفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والحلوس مع الله عزّ وجلِّ في الخلوة مع حضور القلب بصافي الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة، وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة الفلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب، ولذلك قال ﷺ: امَّنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرُثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمُهُ (٢٠)، وفي بعض الكتب السالفة: "يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من بنزل به إلى الأرض، ولا في تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر يأتي به، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا لى بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم». وقال سهل بن عبدالله التستري رحمه الله: خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا ۚ إِلَّا هُوَّ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية. ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال ﷺ: ﴿اسْتَفْتِ قُلْبُكُ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ، وِقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: ﴿لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِل حَتَّىٰ أُحِبُّهُ فَإِذَا أُخْبَبُتُهُ كُنْتُ سَمْمَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ. . . »^(١٢) الحديث. فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتحرِّدين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير، ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين، وإذا

حديث: امؤاخاته ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء؛ أخرحه المخاري من حديث أبي جعفة.

حديث المن عمل مما علم ورثه الله علم ما لم يعلمه أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه. (1)

حديث: الا يزال العبد يتقرب إلى بالتوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً عنفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ · «سمعه وبصره» وهو في الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أس بسند ضعيف.

انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه. وكذلك في علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب، فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه، وإنما يخوضه كل طالب بقدر ما رزق منه وبحسب ما وفق له من حسن العمل. وفي وصف هؤلاء العلماء قال على رضي الله عنه في حديث طويل: القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: عالم رباني ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق، والعلم دين يدان به تكتسب به الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، العلم حاكم والممال محكوم عليه، ومنفعة المال تزول بزواله، مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر، ثم تنفس الصعداء وقال: هاه إن ههنا علماً جمّاً لو وجدت له حملة، بل أجد طالباً غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه، أو منقاداً لأهل الحق، لكن ينزرع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك أو منهوماً باللذات سلس القياد في طلب الشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة، اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور؛ لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته وكم وأين أولئك؟ هم الأقلون عدداً الأعظمون قدراً، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الغافلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله عزّ وجلّ من خلقه وأمناؤه وعماله في أرضه والدعاة إلى دينه، ثم بكى وقال: واشوقاه إلى رؤيتهم. فهذا الذي ذكره أخيراً هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة.

ومنها؛ أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأس مال الدين. قال رسول الله على التبقيث الإيمَانُ كُلُهُ (١) فلا بد من تعلم علم اليقين أعني أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه، ولذلك قال على التبقين التبقين التبقين التبقين وواطبوا على الاقتداء بهم ليقوى وتَعَلَّمُوا التبقينَ والمعلل المعلل وقال التبقين له: رجل حسن يقيمكم كما قوي يقينهم وقليلٌ من اليقين خيرٌ من كثير من العمل، وقال الله لما قيل له: رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين، فقال الله المناقب والمتغفر وَلَهُ ذُنُوبُ وَلَكِن مَن كَانَ غَرِيزَتُهُ المَقْل وَمَجِئتُهُ المَقِينَ لَمْ تَضُرُهُ الذُنُوبُ؛ الأَنْهُ كُلُمَا أَذْتَبَ تَابَ وَاسْتَغْفَرُ وَنَالِمَ فَتُكَفَّر ذُنُوبُ وَلَكِن وَيَبْقَىٰ لَهُ فَضُلٌ يَذْخُلُ بِهِ الجَنْهَ التَقِينَ لَمْ تَضُرُهُ الذُنُوبُ؛ الأَنْهُ كُلُمَا أُوتِيتُم: البَقِينَ وَعَزِيمَةَ الصَّبْرِ، وَمَن وَيَرْهُمَةً الصَّبْرِ، وَمَنْ فَلْ مَا أُوتِيتُم: البَقِينَ وَعَزِيمَةً الصَّبْرِ، وَمَن

⁽١) حديث: «اليقين الإيمان كله» أخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

 ⁽٣) حديث: «تعلموا البقين» أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلاً وهو معضل. رواه ابن أبي الدنيا في البقين من
قول خالد بن معدان.

 ⁽٣) حليث: «قيل له: رجل حسن اليقين كثير الذموب.. » الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في الموادر من حديث أنس
 بإسناد مظلم.

أُعْطِيَ حُظَّهُ مِنْهُما لَمْ يُبَالِ ما فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وُصِيَامِ النَّهَارِ (١٠). وفي وصية لقمان لابه: يا بني لا يستطاع العمل إلا بالبقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه، وقال يحيى بن معاذ: إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين. وأراد به اليقين، وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن البقين هو الرابطة للخبرات والسعادات.

قإن قلت: فما معنى اليقين وما معنى قوّته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً، ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه وإن ما لا تفهم صورته لا يمكن طلبه؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين. أما النظار والمتكلمون فيعرون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات:

الأول: أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك، كما إذا سئلت عن شخص معين، أن الله تعالى يعاقبه أم لا؟ وهو مجهول الحال عندك فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي، بل يستوي عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً.

الثاني: أن نميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول، كما إذا سئلت عن رحل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح. ومع هذا فأنت تجوّز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريرته، فهذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه، فهذه الحالة تسمى ظناً.

الثالث: أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع، حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله.

الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يُشك فيه ولا يتصوّر الشك فيه، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء، ومثاله أنه إذا قيل للعاقل: هل في الوجود شيء هو قديم؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس، وليس العلم بوجوده شيء قديم أزلي ضرورياً مثل العلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد، ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فإن هذا أيضاً ضروري فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزماً ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام، ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له: إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة، فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال، فالمؤدي إلى المحال محال، فيلزم في العقل حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال، فالمؤدي إلى المحال محال، فيلزم في العقل حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال، فالمؤدي إلى المحال محال، فيلزم في العقل حادثة بلا سبب أو فيها حادث على الأقسام ثلاثة: وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة: وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة: وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها

المن أولى ما أوتيتم اليقين وهزيمة الصبر . . ٩ الحديث . لم أقف له على أصل . وروى ابن عدالير من حديث معاذ : اما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من الحلم الحديث .

حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة، فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم، وإن كان الكل حادثاً فهو محال إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب، فيثبت القسم الثائث أو الأول. وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب، أو بتواتر كالعلم بوجود مكة، أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل، أو بدليل كما ذكرنا. فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء، وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت في نقي الشك.

الاصطلاح الثاني: اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء؛ وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل حتى يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه؛ ويقال: فلان قوي اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه، فمهما مالت النفُّس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجويز والمنع سمى ذلك يقيناً، ولا شك في أن الناس يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعاً لغيره فيعبّر عن مثل هذه الحالة بقوّة اليقين؟ ولذلك قال بعضهم: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت، وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليفين بالصعف والقوّة، ونحن إنما أردنا بقولنا: «إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين، بالمعنيين جميعاً وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها. فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا: «إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام» بالقوّة والضعف والكثرة والقلة والخفاء والجلاء، فأما بالقوّة والضعف فعلى الاصطلاح الثاني وذلك في الغلبة والاستيلاء على القلب، ودرجات معاني اليقين في القوّة والضعف لا تتناهى، وتفاوت الخلق في الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى. وأما التفارت بالخفاء والجلاء في الاصطلاح الأوَّل فلا ينكر أيضاً، أما فيما يتطرِّق إليه التجويز فلا ينكر _ أعنى الاصطلاح الثاني _ وفيما انتفى الشك أيضاً عنه لا سبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكَّة ووجود فدك مثلاً، وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام، مع أنك لا تشك في الأمرين جميعاً فمستندهما جميعاً التواتر، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح في قلبك من الثاني؛ لأن السبب في أحدهما أفوى وهو كثرة المخبرين، وكذلك يدرك الناظر هذا في النظريات المعروفة بالأدلة فإنه ليس وضوح ما لاح له مدليل واحد كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما في نفي الشك، وهذا قد ينكره المتكلم الذي يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال. وأما القلة والكثرة؛ فذلك بكثرة متعلقات اليقين، كما يقال: فلان أكثر علماً من فلان، أي معلوماته أكثر. ولذلك قد يكون العالم قوي اليقين في جميع ما ورد الشرع به وقد يكون قوي اليقين في بعضه.

فإن قلت: قد فهمت اليقين وقرّته وضعفه وكثرته وقلته وجلاءه وخفاءه بمعنى نفي الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب، فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفي ماذا يطلب اليقين فإني ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه؟ فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجاري اليقين، فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقه المعلومات التي وردت بها الشرائع فلا مطمع في إحصائها ولكني أشير إلى بعضها وهي أمهاتها: فمن ذلك: التوحيد. . . وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها فالمصدق بهذا موقن، فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم، وبزلت الوسائط في قلبه منزلة القلم واليد في حتى المنعم بالتوقيع، فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثاني وهو الإشراف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته. ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجمادات والنبات والحيوان وكل محلوق فهي مسخّرات بأمره حسب تسخير القلم في يد الكاتب، وأن القدرة الأزلية هي المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم، وصار موقناً بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق، فهذا أحد أبواب اليقين.

ومن ذلك: الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَتَةِ فِي اَلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللّهِ رِرَقَهَا ﴿ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ عَلَى اللّهِ وَأَن مَا قَذَر له سيساق إليه، ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملاً في الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما فانه، وأثمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة.

ومن ذلك: أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع، ونسبة المعاصي إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعي إلى الهلاك، فكما يحرص على التحصيل للخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها، فكذلك يجتنب المعاصي قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة في التقوى والتحرّز عن كل السبئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ.

ومن ذلك: اليقين بأن الله تعالى مطّلعٌ عليك في كل حال، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأوّل وهو عدم الشك، وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدباً في جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يزال مطرقاً متأدباً في جميع أعماله متماسكاً محترزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب، ويكون في فكرته الباطنة كهو في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع المخلق على ظاهره، فتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة، وهذه الأخلاق ثورث أنواعاً من الطاعات رفيعة، فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة، وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها، وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان، فالبقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه. وسيأتي ذلك في ربع المنجيات إن شاء الله تعالى، وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن.

ومنها: أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته

وسكونه ونطقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكِّراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله، فالجواد عينه مرآته، وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والذلة والتواضع، وقد قيل: ما ألبس الله عبداً لبسة أحسن من خشوع في سكينة، فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء، وأما التهافت في الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق، فكل دلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله: عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله وهم المفتون في المحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية، وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة، فمن أحاط علمه بذلك عَظُمَ خوفه وظهر خشوعه. وقال عمر رضي الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم. ويقال: ما أتى الله عبداً علماً إلا آتاه معه حلماً وتواضعاً وحسن خلق ورفقاً فذلك هو العلم النافع. وفي الأثر: من آتاه الله علماً وزهداً وتواضعاً وحسن خلق فهو إمام المتقين. وفي الخبر: «إن من خيار أمتي قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويبكون سراً من خوف عذابه، أبداتهم في الأرض وقلوبهم في السماء، أرواحهم في اللنيا وعقولهم في الآخرة، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلةه(أ). وقال الحسن: الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله. وقال بشر بن الحارث: من طلب الرئاسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فإنه ممقوت في السماء والأرض. ويروى في الإسرائيليات: أن حكيماً صنف ثلاثماثة وستين مصنفاً في الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقاً ولم تزدني من ذلك بشيء وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً. فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة في الأسواق وواكل بني إسرائيل وتواضع مي نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له الآن وفقت لرضاي. وحكم الأوزاعي رحمه الله عن بلال بن سعد أنه كان يقول: ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعيذ بالله منه، وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوقين إلى الرئاسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطي. وروي أنه قيل: "يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: اجْتِنَابُ المُحَارِم وَلاَ يَزَالُ فُوكَ رَطْباً مِنْ ذِكْرِ اللّهِ تَعَالَىٰ، قيل: فأي الأصحاب خير؟ قال على الله عَاجِب إنْ ذَكَرْتَ اللَّهَ أَعَاتَكَ وَإِنْ نَسِيتَهُ ذَكَّرَكَ، قيل: فأي الأصحاب شر؟ قال ﷺ: صَاحِبٌ إِنْ نَسِيتَ لَمْ يُذَكِّرْكُ وَإِنْ ذَكَرْتَ لَمْ يُعِنْكَ، قيل: فأي الناس أعلم؟ قال: أَشَلْهُمْ لِلَّهِ حَشْيَةً، قيل: فأخبرنا بحيارنا نجالسهم؟ قال ﷺ: اللَّهِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ، قيل: فأي الناس شر؟ قال: اللَّهُمَّ غُفْراً، قالوا: أخبرنا يا رسول الله، قال: العُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا، (٢)، وقال ﷺ: «إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أَمَاناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ فِكْراً فِي اللُّنْيا، وَأَكْثَرَ النَّاسِ ضَحِكاً فِي الآخِرَةِ أَكْثَرُهُمْ بُكَاءَ فِي

 ⁽۱) حديث وإن من خيار أمني قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله ويبكون سراً من خوف عذايه. .» الحديث أخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان.

 ⁽٢) حديث: «قبل: يا رسول أنه أي الأعمال أفضل؟ قال: اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله. ٤٠ الحديث.
 لم أجده هكذا بطوله، وفي ريادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلاً: «سئل النبي ﷺ أي الأعمال=

المنتيا، وأشد الناس فرحاً في الآخِرة أطولهم حرناً في المنتياه (١). وقال على رضي الله عنه في خطبة له: دمتي رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظمأ على الهدى سنخ أصل، وإنّ أجهل الناس من لا يعرف قدره، وإنّ أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش علماً أغار به في أغباش المفتنة سماه أشباه، له من الناس وأرذالهم عالماً ولم يعش في العلم يوماً سالماً، تكثّر واستكثر فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى، حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلماً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيه حشو الرأي فهو من قطع الشبهات في مئل نسج العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب؟ ركّاب جهالات خباط عشوات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعضُ على المعلم بضرس قاطع فيغنم، تبكي منه الدماء وتستحل بقضائه الفروج الحرام لا ملىء والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوّض إليه، أولئك الذين حلت عليهم المثلات وحقت عليهم النباحة والبكاء أيام حياة الدنيا. وقال على رضي الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخطوه بهزل فتمجه القلوب. وقال بعض السلف: العالم إذا ضحك ضحكة مج من العلم مجة. وقيل: تخطوه بهزل فتمجه القلوب. وقال بعض السلف: العالم إذا ضحك ضحكة مج من العلم مجة. وقيل: إذا جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المنعلم: العبل وحسن الفهم. وعلى الحملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينقك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرئاسة.

أفضل؟ قال: أن تموت يوم تموت ولمانك رطب من ذكر الله تعالى، وللدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه
 مرسلاً: «ألا إن شر الشر شرار العلما، وإن خير الخير خيار العلما، وقد تقدم.

⁽١) حديث: ﴿إِنْ أَكْثُرُ النَّاسُ أَمْنَا يُومُ اللَّيَامَةُ أَكْثُرُهُمْ خُوفًا فِي اللَّمْيَا. . ٤ الحديث، لم أجد له أصلاً.

 ⁽Y) حديث ابن عمو: القد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن. . . الحديث. أخرحه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهتي.

 ⁽٣) حديث: (كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن. (الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث جندب مختصراً مم اختلاف.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّذِي أُوتُوا اللَّهِ مَرْلَكُمْ فَوَابُ اللَّهِ فَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَيلَ مَذَابِكُمْ اللَّهَ اللَّهَ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْ لَكُنْ ءَامَنَ وَعَيلَ مَذَابِهُ اللَّهَ اللَّهُ وَالنَّفَامِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّ

ومنها: أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر، فإن أصل الدين التوقي من الشر، ولذلك قيل:

عرفتُ السُرُ لا للشرّ لكن لتوقّيه ومَن لا يعرفِ الشرُّ مِنَ النَّاسِ يقع فيهِ

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وإنما الشأن في معرفة ما لا يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة، وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضية ويتعبون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تقع أبدًا، وإن وقعت فإنما تقع لغبرهم لا لهم، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف البهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم، وما أبعد عن السعادة من باع مُهمَّ نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثاراً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه وشُرَهاً في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق، وجزاؤه من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق، بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين، ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة رصى الله عنهم، اتفقت الكلمة في حقه على ذلك، وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النهس، وقد قيل له: يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته؟ قال: من حذيفة بن اليمان. وقيل لحذيفة: نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته؟ قال: خصني به رسول الله ﷺ، كان الناس يسألونه عن الخيّر وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أنَّ الخير لا يسبقني علمه (٢). وقال مرة: فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير. وفي لفط آخر: كانوا يقولون: يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا؟ يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول: يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رآني أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم. وكان حذيفة رضي الله عنه أيضاً قد خُصّ بعلم المنافقين وأَفرِدَ بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن، فكان عمر وعشمان وأكابر الصحابة رضي الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، وكان يُسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم ولا يخبر بأسمائهم، وكان عمر رضى الله عنه يسأل عن نفسه هل

 ⁽١) حديث: الما تلا رسول الله ﷺ: ﴿ فَنَن يُرِدِ أَنَّهُ أَن يَهْدِينُهُ يَشَحُ صَدْرَةٌ لِلْإِسْلَيْرِ ﴾ [الأنقام: ١٧٥] .. المحديث. أخرجه الحاكم والبيهني في الزهد من حديث ابن مسعود.

⁽٣) حديث حذيفة: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر. . ، الحديث أخرجاه مختصراً.

يعلم فيه شيئاً من النفاق؟ فبرَّأه من ذلك، وكان عمر رضي الله عنه إذا دعي إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك، وكان يسمى صاحب السر. فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة؛ لأن القلب هو الساعي إلى قرب الله تعالى، وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد. وقيل: هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق؟ ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات، ولقد صدق من قال:

السطسرق شستُسى وطسرق السحسَّ مسفسردة لا يُسعسرفسون ولا تُسدرى مسقساصسدهسم والسنساس فسي غسفسلمة عسمسا يُسواد بسهسم

والسسال كون طريق السحق أخرادُ فسهاد فسهاد مسلون قُسطاد فسعاد فسعل السحق دُفّاهُ

وعلى الجملة؛ فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم، فإن الحق مرّ والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة، فإن ذلك نزع للروح على الدوام، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء، وينزل منزلة من جعل مدّة العمر صومه فهو يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت، ومتى تكثر الرغة في هذا الطريق؟ ولذلك قيل إنه كان في البصرة مائة وعشرون متكلماً في الوعظ والتذكير ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة: منهم - سهل التستري والصبيحي وعبدالرحيم - وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذي لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير والمبيحي وعبدالرحيم - وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذي لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة، لأن النقيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يبذل للعموم فأمره قريب.

ومنها: أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله، وإنما يقلد الصحابة رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله على، ثم إذا قلد صاحب الشرع في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع في فعله، وفعله لا بد وأن يكون لسر فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الفعل لأن صاحب الشرع المن بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً. ولذلك كان يقال: فلال من أوعية العلم؛ فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسوار. ومن كشف عن قلبه أوعية العلم؛ فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسوار. ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعاً مقلداً فلا يشغي أن يقلد غيره. ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله في أبيّ بن كعب ثم خالفهما في الفقه والقراءة جميعاً. وقال بعض السلف: ما جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم فنأخذ منه ونترك، وما رسول الله في قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة رضي الله عنهم فنأخذ منه ونترك، وما جاءنا عن الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله في واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن، فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في رسول الله في واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرائن، فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبؤة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ. وإذا كان الاعتماد على الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبؤة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ. وإذا كان الاعتماد على

حديث ابن عباس «ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله على أخرجه الطبراني من حديثه برفعه بلفظه:
 امن قوله ويدع.

المسموع من الغير تقليداً غير مرضي فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد، بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضي الله عنهم، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين، بل كان الأؤلون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس مها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا: احفظوا كما كنا نحفظ. ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم تصحيف القرآن في مصحف وقالوا: كيف نفعل شيئاً ما فعله رسول الله على وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا: نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم، حتى المصاحف وقالوا: نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم، حتى أشار عمر رضي الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفاً من تخاذل الناس وتكاسلهم، وحذراً من أن يقع فراع فلا يوجد أصل يرحع إليه في كلمة أو قراءة من المتشابهات، فانشرح صدر أبي بكر رضي الله عنه لذلك فجمع القرآن في مصحف واحد.

وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك في تصنيفه الموطأ ويقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضي الله عنهم. وقيل: أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضي الله عنهم بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سننا مأثورة نبوية، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس، ثم جامع سفيان الثوري. ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدال والغوص في إبطال المقالات، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها، فأخذ علم اليقين في الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكائد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون، فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً؛ وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم، فكان لا يتمير لهم حقيقة العلم من غيره، ولم تكن سيرة الصحابة رضي الله عنهم علم من غيره علم أهلاء عنهم الما والكلام إلا عن وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم، فاستمرّ عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطوياً، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قبل لهم: فلان أعلم أم فلان؟ يقولون: فلان أكثر علماً وفلان أكثر كلاماً، فكان الخواص منهم كانوا إذا قبل لهم: فلان أعلم أم فلان؟ يقولون: فلان أكثر علماً وفلان أكثر كلاماً، فكان الخواص يدركون القرق بين العلم وبين القدرة على الكلام.

هكِذا ضعف الدين في قرون سالفة، فكيف الظن بزمانك هذا؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون، فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت.

ومنها: أن يكون شديد التوقي من مُخدِثاتِ الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم، وما كان فيه أكثر همهم أكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولي الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة؟ أم كان في الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن، واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكائد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن؟ واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين، ولذلك قال علي رضي الله عنه: خيرنا أتبعنا لهذا الدين، لما قيل له: خالفت فلاناً. فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل المصر في موافقة أهل عصر رسول الله منه فإن الناس رأوا رأياً فيما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم

تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه. ولذلك قال الحسن: محدثان أحدثا في الإسلام: رجل ذو رأي سيّى إزعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب فارفضوهما إلى النار. وإن رجلاً أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه، وصاحب هوّى يدعوه إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتمي آثارهم متعرّض لأجر عظيم وكذلك كونوا.

وقد روي عن ابن مسعود موقوفا ومسندا أنه قال: «إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ الْكَلامُ وَالْهَدْيُ، فَأَحْسَنُ الْكَلامُ كَلاَمُ الله تَعَالَىٰ، وَأَحْسَنُ الْهَدْي هَدْيَ رَسُولِ الله تَعَالَىٰ ﷺ، أَلاَ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتُ الأُمُورِ، فَإِنَّ شَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَإِنَّ كُلِّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةً، وَإِنْ كُلْ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةً، أَلاَ لاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأُمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ، أَلاَ كُلُّ مَا هُوَ آتِ قَرِيبٌ، أَلا إِنَّ البَعِيدَ مَا لَيْسَ بِآتٍ، (۱).

وَفِي خَطِبَة رَسُولَ الله يَنِهِمَّ: ﴿ طُوبَىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْنُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، وَٱنْفَقَ مِنْ مَالِ اكْتَسَبَهُ مِنْ خَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَخَالَطَ أَهْلَ الفِقْهِ وَالْحِكُمِ وَجَانَبَ أَهْلَ الزُّلَلِ وَالْمَعْصِيَةُ. طُوبَىٰ لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ. طُوبَىٰ لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَأَنْفَقَ الفَصْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الفَصْلَ مِنْ الشَّهُ وَلَمْ يَعْدُهَا إِلَىٰ بِدُعَةٍ ﴿ '''.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: حسن الهدى في آخر الزمان خيرٌ من كثير من العمل، وقال: أنتم في زمان خيركم فيه المسارع في الأمور وسيأتي بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات. وقد صدق فمن لم يتوقف في هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا. وقال حذيفة رضي الله عنه: أعجب من هذا أنَّ معروفكم اليوم مبكر زمانٍ قد مضى، وأنّ منكركم اليوم معروف زمانٍ قد أتى، وإنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به. ولقد صدق فإنّ أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات في عصر الصحابة رضي الله عنهم؛ إذ من غرر المعروفات في زماننا تزيين المساجد وتنجيدها وإنفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها، ولقد كان يعدُّ فرش البواري في المسجد بدعة، وقيل إنه من محدثات الحجاج. فقد كان الأوّلون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً. وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمون أنه من أعظم القربات، وقد كان من المنكرات. ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان، ومن ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب، مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك. ولقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى. وقد كان أحمد بن حنبل يقول: تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم فيهم والله المستعان. وقال مالك بن أنس رحمه الله: لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم، ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال، ولكن أدركتهم

⁽١) حديث ابن مسعود (إنما هما اثنتان الكلام والهدى؛ الحديث. أخرجه ابن ماجه.

 ⁽٢) حديث: «طوبى لمن شغله هيبه عن عيوب الناس وأنفق مالاً اكتسبه . . ١ الحديث. أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف، والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره، والطبراني والبيهقي من حديث ركب المصري وسط الحديث وكلها ضعيفة.

يقولون: مستحب ومكروه (ومعناه أنهم كانو! ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان فحشه ظاهراً). وكان هشام بن عروة يقول: لا تسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قد أعدوا له جواباً، ولكن سلوهم عن السنة، فإنهم لا يعرفونها. وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول: لا ينبغي لمن أَلْهِمَ شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما في نفسه، وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب، وربعا يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقاً فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار. ولهذا لما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال: يا مروان ما هذه البدعة؟ فقال: إنها ليست ببدعة إنها خير مما تعلم، إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت، فقال أبو سعيد: والله لا تأتون بخير مما أعلم أبداً ووالله لا صليت وراءك اليوم، وإنما أنكر ذلك عليه الأن رسول الله ﷺ كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر،(١٠). وفي الحديث المشهور: «مَنْ أَحْدَثَ فِي دِيننا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدُّه") وفي خبر آخر: «مَنْ غَشَّ أُمَّتِي فَعَلَيْهِ لَغَنَّةُ اللَّهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسَ أَجْمَعِينَ، قَيل: يا رسول الله وما غش أمتك؟ قال: أَنْ يَبْتَدِعَ بدْعَةً يَخْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا،(٣)، وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ لِلَّهِ عَزُّ وَجَلُّ مَلَكًا يُنَادِي كُلُّ يَوْم مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ رَسُوكِ اللَّهِ ﷺ لَمْ قَتَلْهُ شَفَاعَتُهُ*(*⁾، ومثال الجاني على الدين بإبداع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب دُنبًا، مثال من عصى الملك في قلب دولته بالسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة، وذلك قد يغفر له فأما في قلب الدولة فلا. وقال بعض العلماء: ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف. وقال غيره: الحق ثقيل من جاوزه ظلم ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى. وقال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالنَّمَطِ الأَوْسَطِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ العَالَي وَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ النَّالِي،(٥٠)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما. الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها، قال الله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِيكَ ٱتَّخَـٰذُوا دِينَهُمْ لَعِمًا وَلَهَوَا﴾ [الانتمام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿أَنْهَنَ زُيِّنَ لَلَّرْ سُوَّهُ عَمَالِهِ. فَرَمَاهُ حَسَنًا ﴾ [قابلر: ٨]، فكل ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم مما حاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو. وحكي عن إبليس لعمه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئاً وقد أتعبونا! فقال: إنكم لا تقدرون عليهم قد صحبوا

⁽١) حديث: «كان يتوكأ في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا» أخرجه الطبراني من حديث البراء ونحوه في يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف، رواه في الصغير من حديث سعد القرظي: «كان إذا خطب في العيديس خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا» وهو عند ابن ماجه بلفظ: «كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس. » العديث.

 ⁽٢) حديث: المن أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو ردة متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: الفي أمرنا ما ليس منه وعمد
أبى دارد افيه».

 ⁽٣) حديث: «من غش أمتي قعليه لعتة الله. . ٩ الحديث. أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جداً.

 ⁽٤) حديث: اإن لله ملكاً ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله ﷺ لم تناه شفاعته الم أجد له أصلاً.

 ⁽٥) حديث: اعليكم بالنمط الأوسط. .٩ الحديث. أخرجه أبو عبيد في غربب الحديث موقوفاً على على بن أبي طالب
ولم أجده مرتوعاً.

نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم، ولكن سيأتي بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم. فلما جاء التابعون بث جنوده هرجعوا إليه منكسين فقالوا: ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات! فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم واتباعهم لسئة نبيهم، ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقرّ أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم، إن استغفروا لم يغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات، فال. فجاء قوم بعد القرن الأوّل فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها، فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاؤوا.

فإن قلت: من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدَّثه بذلك؟ فاعلم أنَّ أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة، وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني ممشاهدة الأمثلة ـ كما يكون في المنام ـ وهذا أعلى الدرجات، وهي من درجات النبوّة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة. فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك، ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول، فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجاً عن الدين بالكلية. قال بعض العارفين: إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء. قال سهل التستري رضي الله عنه: إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة. وكل عالم خاض في الدنيا فلا ينبغي أن يصغى إلى قوله، بل ينبغي أن يتهم في كل ما يقول لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه، ولذلك قال الله عزَّ وجلُّ: ۚ ﴿ وَلَا نُطِيعٌ مَنْ أَغْنَلْنَا قَلْبَكُمْ عَن ذِكْرِنَا وَأَتَّبَعٌ هَوَنهُ وَكَاكَ أَمْرُهُ فَرُكَّا﴾ [الكهف: ٢٨]. والعوام العصاة أسعدُ حالاً من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء؛ لأن العامي العاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب، وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلُّوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر؛ بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت. وإد غلب هذا على أكثر الناس إلاَّ من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لذي الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم ـ كما سيأتي في كتاب العزلة بيانه إنَّ شاء الله تعالى ـ ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشى: ما ظنك بمن بقى لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آثماً أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله؟ ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيده، ولو تأمَّل هذا المسكين وعلم أنَّ إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرئاسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر، فيكون هو معيناً له على ذلك وردءاً وظهيراً ومهيئاً لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق. فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو، ولذلك لا يرخص له في البيع ممن يعلم بقراش أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق.

فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة، تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف؛ فكن أحد رجلين إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين. نعوذ بالله من خدع الشيطان، فبها هلك الجمهور. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور.

* * *

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل:

اعلم: أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إطهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمبيزها تحتشم العقل؟ حتى إن أعظم البهائم بدناً وأشدّها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلاته عليه لما خص به من إدراك الحيل. ولذلك قال ﷺ: ﴿ الشَّيخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ ۚ (١) وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزّيادة قرّته، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله. ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع. ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتلُّ رسول الله ﷺ فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرّته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوَّة، وإن كَان ذلك باطناً في نفسه بطون العقل فشرف العقل ما يدرك بالضرورة. وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه، وقد سماه الله نوراً في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَتِ وَاللَّرُضِ مَثَلُ نُورِهِ- كَيْشَكُوٰهِ﴾ [النُّور: ٣٥]، وسمي العلم المستفاد منه روحاً ووحياً وحياة فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِياً﴾ [الشّوري: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْسَنَا فَأَحْيَيْنَكُ وَجَمَلْنَا لَمُ ثُورًا يَشْفِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الانعام: ١٢٢]، وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله: ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلطُّلُكَتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البَقَرة: ٢٥٧]، وقال ﷺ: «يَا أَيُّها النَّاسُ افقِلُوا عَنْ رَبُّكُمْ وِتَوَاصَوْا بَالْمَقْلِ تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَمَا نُهِيتُمْ حَنْهُ وَاخْلَمُوا أَنَّهُ يُنْجِدُكُمْ حِنْدٍ رَبُّكُمْ، وَاخْلَمُوا أَنْ العَاقِلَ مِنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ دَمِيمَ المَنْظَرِ حَقِيرَ الخَطرِ دَنِيءَ المَنْزِلَةِ رَثُّ الْهَيْئَةِ، وَأَنْ الجَاهِلَ مَنْ عَصَىٰ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَإِنْ كَانَ جَمِيلُ المُنْظَرِ عَظِيمَ الْخَطْرِ شَرِيفَ أَلمَنْزِلَةِ حَسَنَ الهَيْئَةِ فَصِيحاً نَطُوقاً فَالقِرَدَةُ وَالمَخْتَازِيرُ أَعْقَلُ عِنْدَ

الباب السابع

في العقل

 ⁽١) حديث: الشيخ في قومه كالنبي في أمته، أخرجه ابن حمان في الضعفاء من حديث ابن عمرو، وأبو منصور الديلمي
 من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

اللَّهِ تَعَالَىٰ مِمْنَ عَصَاهُ، وَلا تَغْتَرُ بِتَعْظِيمِ أَهْلِ الدُّنْيا إِيَّاهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ»(''. وقال ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ المَقْلَ، فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلُ فَأَفْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَذْبِرْ فَأَذْبَرْ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّا: وَعِزْتِي وَجَلَالِي ما خَلَقْتُ خَلْقاً أَكْرَمَ عَلَيْ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ وبِكَ أُغطِي وَبِكَ أُئِيبُ وَبِكَ أُعَاقِبُ»('').

فإن قلت: فهدا العقل إن كان عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام؟ وإن كان جوهراً فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز؟ فاعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: أثنى قوم على رحل عند النبي ﷺ حتى بالغوا فقال ﷺ: اكيفَ عَقْلُ الرَّجُلِ؟ فقالوا: عن عقله؟ فقال ﷺ: الإِنَّ عَقْلُ الرَّجُلِ؟ فقالوا: نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال ﷺ: الأَحْمَقَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فُجُورِ الفَاجِرِ، وَإِنَّمَا يَوْتَفِعُ الْعِبَادُ غَداً فِي الدَّرَجَاتِ الزُّلْفَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ (٣).

 ⁽١) حديث: «يا أيها الناس احقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل..» الحديث. أخرجه داود بن المجبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة، وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود.

 ⁽٣) حديث: قاول ما خلق الله العقل فقال له أقبل. ٤ الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأمو نعيم من حديث عائشة بإستادين ضعيفين.

 ⁽٣) حديث أنس "أثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا في الثناء فقال. كيف عقل الرجل. . الحديث. أخرجه
 ابن المجبر في العقل بتمامه والترمذي والحكيم في النوادر مختصراً.

⁽٤) حديث عمر: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل. . » الحديث. أخرجه ابن المجبر في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة.

حديث: (ان الرجل لبدرك يحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله. ١٠ الحديث.
 أخرجه ابن المجبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمدي مختصر دون قوله: (ولا يتم) من حديث عائشة وصححه.

⁽٢) حديث: أبي سعيد «لكلّ شيء دهامة ودهامة المؤمن عقله. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث.

⁽٧) حديث عمر أنه قال لتميم الداري: «ما السؤدد فيكم، قال: العقل قال: صدقت سألت رسول الله 選. . . ؟ الحديث . أخرجه ابن المجير وعنه الحارث.

 ⁽٩) حديث البراء اكثرت المسائل على رسول الله في فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية. . • الحديث. أخرجه ابن المجبر وعنه الحارث

رسول الله ﷺ من غزوة أُحُد سمع الناس يقولون: فلان أشجع من فلان، وقلان أبلي ما لم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله ﷺ: ﴿أَمَّا هٰذَا فَلا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ﴾، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ﴿إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَىٰ قَدْرِ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَقْلُ وَكَانَتُ نُصْرَتُهُمْ وَنِيثُهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ عَقُولِهِمْ فَأَصِيبٍ مِنْهُمْ مَنُ أُصِيبُ عَلَىٰ مَنَازِلُ شَتَّىٰ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ٱلْتَسَمُوا المَنَازِلُ عَلَىٰ قَلْرِ نِيَاتِهِمْ وَقَدْرِ عُقُولِهِمْ ۖ ٢٠٠. وعن البراء بن عازب أنه َ ﷺ قال: ۗ ﴿ جَدَّ المَلَائِكَةُ وَاجْتَهَدُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِالْمَقْلِ وَجَدُّ المُؤْمِنُونَ مِنْ يَنِي آدَمَ طَلَىٰ قَدْرِ صُّفُولِهِمْ فَأَصْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْفَرُهُمْ عَقْلاً (٢٠)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله بم يتفاضلَ الناس في الدنيا؟ قال: ﴿بِالْعَقْلِ»، قلت: وفي الآخُرة؟ قال: «بِالْمَقْلِ»، قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ: «يَا عَائِشَةً وَهَلٌ عَمِلُوا إِلاَّ بِقَدْرِ ما أَعْطَاهُمْ هَزّ وَجَلَّ مِنَ الْعَقْلِ؟ فَبِقَلْرِ مَا أَعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ وَبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ ۖ (٣)، وعن ابن عباس رضي الله عنهمًا قالَ: قَال رسول الله ﷺ: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَغُذَّةٌ وَإِنَّ آلَةَ الْمُؤْمِنِ العَقْلُ، وَلِكُلُّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ المَرْءِ الْمَقْلُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الدِّينَ المَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْم خَايَةٌ وَخَايَةُ الْمُبَّادِ الْمَقْلُ، وَلِكُلِّ قَوْم دَاع وَدَاعِي الْعَابِدِينَ الْمَقْلُ، وَلِكُلْ تَاجِر بِضَاعَةٌ وَبِضَاعَةُ الْمُجْتَهِدِينَ أَلْمَقْلُ، وَلِكُلُ أَهْل بَيْتِ قَيْمٌ وَقَيْمٌ بُيُوْتِ ٱلصَّدّيقِينَ العَقْلُ، وَلِكُلُّ خَرَابٍ عِمَازَةٌ وَعِمَارَةُ الآخِرَةِ العَقْلُ، وَلِكُلّ امْرِيءِ عَقِبٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُ بِهِ وَحَقِبُ الصَّدِّبقِينَ الَّذِي يُتْسَبُونَ ۚ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُونَ بِهِ العَقْلُ، وَلِكُلُّ سَفَر فَسْطَاطٌ وَفُسْطَاطُ المُؤْمِنِينَ اَلْمَقْلُ»(٤)، وقال ﷺ: ﴿إِنْ أَحَبُ المُؤْمِنِينَ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلِّ مِنْ نَصِبَ نِي طَاعَةِ اللّهِ عَزّ وَجَلٍّ وَنَصَحَ لِمِبَادِهِ وَكُمُلَ عَفْلُهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ فَأَنِصَرَ وَعَمِلَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَأَلْلَحَ وَأَنْجَحَهِ (**)، وقال ﷺ: ﴿أَتُمُكُمْ عَفْلًا أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ خَوْفاً وَٱخْسَتُكُمْ فِيما أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ نَظَراً وَإِنْ كَانَ أَقَلْكُمْ تَطَوْعاً (**).

بيان حقيقة العقل وأقسامه:

اعلم: أن الناس اختلفوا في حدّ العقل وحقيقته وذُهِلَ الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة قصار ذلك سبب اختلافهم. والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ـ كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدّة ـ وما يجري هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حدّ واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

 ⁽۱) حديث أبي هربرة: الما رجع رسول الله على من غزوة أحد سمع الناس يقولون: كان قلان أشجع من قلان، ١٠ الحديث. أخرجه ابن المجير،

⁽٢) حديث البراء بن عازب: "جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل. ١٠ الحديث. أخرجه ابن المجبر كذلك وعنه الحارث في مسنده، ورواه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة عبر البراء وهو بالسند الذي رواه ابن المجبر.

 ⁽٣) حديث عائشة: (قالت: قلت: يا رسول الله، بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل. .» الحديث، أخرجه
 ابن المجبر والترمذي الحكيم في النوادر نحوه.

 ⁽٤) حديث ابن عباس: (لكل شيء آلة وهذة وإن آلة المؤمن العقل. . » الحديث. أخرجه ابن المجبر وعنه الحارث.

 ⁽٥) حديث وإن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله... الحديث، أخرجه ابن المجر من حديث ابن عمره
 ورواه أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس بإسناد آخر ضعيف.

⁽٦) حديث: «أتمكم عقلاً أشدكم لله خوفاً..» الحديث. أخرجه ابن المجبر من حديث أبي نتادة.

كتاب العلم

فالأوَّل: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعدُّ به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حدّ العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا، ورد العقل إلى مجرّد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه العريزة فيهما مع فقد العلوم. وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوّى سين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية، فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار والبهائم لجاز أن يسوي بين الحمار والحماد في الحياة، ويقال: لا فرق إلا أن الله عزِّ وجلِّ يخلق في الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة، فإنه لو قدر الحمار جماداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه، فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد. وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقته للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة، فكذا مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بغريزةٍ يُعَبِّر عنها بالعقل وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة. وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية، فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسة نور الشمس إلى البصر، فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة.

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد، وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو أيضاً صحيح في نفسه؛ لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإنَّ مَنْ حَنَّكَتْهُ التجاربُ وهذبتُهُ المذاهبُ يقال إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غير جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القرة سمى صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإححامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان، فالأول: هو الأس والسنخ والمنبع. والثاني: هو الفرع الأقرب إليه. والثالث: قرع الأول والثاني؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب. والرابع: هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب. ولذلك قال على كرّم الله وجهه:

فسمسطسبسوغ ومسسمسوغ إذا لــــم يـــك مـــطــــبوعُ وضَــــؤءُ الــــعـــيــــن مــــمـــنـــوعُ

رأيستُ السعسقسلُ عسقسلسيسن ولا يستنسفسع مسسسورة كسمسا لا تسنسفسغ السشسمسس

والأول: هو المراد بقوله ﷺ: قما خَلَق الله عَزْ وَجَلَّ خَلْقا أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِن العَقْلِ (1) والأخير هو المراد بقوله ﷺ: قالَتَ بِعَقْبِكَ (1) والأخير الصّالِحَةِ فَتَقَرّبُ أَنْتَ بِعَقْبِكَ (1) وهو المراد مقول رسول الله ﷺ بنايي الدراء رضي الله عنه: الأَذْذَ عَقَلاً تَوْدَذُ مِنْ رَبُكَ قُرْباً، فقال: بأبي أنت وأمي مقول رسول الله ﷺ فقال: اجْتَنِبُ مَحَارِمَ الله تَعَالَى وَأَدُّ فَرَائِضَ الله سُبْحَانَهُ تَكُنْ عَاقِلاً، وَاعْمَلُ بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الأَعْمَالِ مَزْدُدُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَافَةً وَتَتَلَ فِي آجِلِ المُفْتَىٰ بِهَا مِنْ رَبُكَ عَزْ وَجَلَ الْقُرْبَ مِنَ الْخَمَالِ مَزْدُدُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَافَةً وَتَتَلَ فِي آجِلِ الْمُفْتَىٰ بِهَا مِنْ رَبُكَ عَزْ وَجَلَ الْقُرْبَ وَالْمَوْبَ (2) وعن سعيد بن المسيب: أن عمر وأبيّ بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: «المَاقِلُ» والماقال من تمت مروءته وظهرت والماقل الذاس؟ قال: الماقاقل من تمت مروءته وظهرت فضاحته وجادت كفه وعظمت منزلته؟ فقال ﷺ: ﴿ وَإِن صَكُلُ دَلِكَ لَنَا مَتَعَ لَلْيَاقِلُ اللهُ اللهُ فَي المُتَقِينَ وَإِنْ كَانَ فَي الدُّنِي عَلَى اللهُ فَعَلَى اللهُ وصَدَى رُسُلُهُ وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ (6) ويشه أن يكون أصل الاسم في أصل الله المي المنوف المنتي بشمرته فيقال: العلم هو الخشية والعالم من بخشى الله تعالى، فإن الخشية ثمرة العلم فتكون الشيء بثمرته فيقال: العلم هو الخشية والعالم من بخشى الله تعالى، فإن الخشية ثمرة العلم فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة ، ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة .

والمقصود: أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها، ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأوّل، والصحيح وجودها بل هي الأصل. وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت، ومثاله الماء في الأرض فإنه يظهر بحفر البئر ويجتمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شيء جديد، وكذلك الدهن في اللوز، وماء الورد في الورد، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي مَادَمٌ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِيَّتُهُمْ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْشُومِمْ أَلَسْتُ بِرَيِّكُمْ فَاللهُ الله الله الله الله الله الله وجدت الألسنة ، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة عَلَى الله عنه والمن عالم عنه والمناه عنه المناه عنه والمناه عنه الشمور والي جاحد، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتُهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَونِ وَالْوَرُضَ لَلْقُورُمْنَ لَلْقُولُنَ اللهُ الله الله الله الله عنه وبواطمهم المناه إلى المتورث أحوالهم شهدت بدلك نفوسهم وبواطمهم المناه إلى المتورث أحوالهم شهدت بدلك نفوسهم وبواطمهم المناه المناه المناك نفوسهم وبواطمهم المناه الله المناه المناك الله الله الله المناك المناه الله الله الله المناك المناه الله المناه المناه المناه الله المناك المناك المناك المناك المناه المناه المناك المناه المناه المناك المناه المناك المناه المناك المناه المناك المناك المناك المناك المناه المناك المناك

⁽١) حديث: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل» أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحس عن عدة من الصحابة.

 ⁽۲) حديث: "إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بمقلك؛ أحرجه أبو نعيم في الحلية من حديث على: "إذا اكتسب
الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع المقل تسبقهم بالزلفة والقرب؛ وإسناده
ضعف.

 ⁽٣) حديث: «ازدد عقلاً تزدد من ريك قرباً..» الحديث. قاله لأبي الدرداء. أخرجه ابن المجبر ومن طريقه الحارث بن
 أبى أسامة والترمذي الحكيم في النوادر.

 ⁽³⁾ حديث ابن المسيس: «أن عمر وأبي بن كعب وأما هريرة دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، من أعلم
 الناس فقال: العاقل. . * الحديث، أخرجه ابن المحبر.

 ⁽a) حديث: «إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته» أخرجه ابن المجبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلاً وفيه قصة.

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الرُّوم: ٣٠]، أي كل آدمي فُطِرَ على الإيمان بالله عزّ وجلّ، بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه، أعني أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك. ثم لما كان الإيمان مركوزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسي وهم الكفار، وإلى من ِأجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها. ولذلك قال عزَّ وجلِّ: ﴿لَمُلَّهُمْ يَتَذَكُّونَ ﴾ (البَقَرَة: ٢٢١]. ﴿ وَلِمَنَذَكَّرَ أُولُواْ ٱلْأَلْتِ ﴾ [س: ٢٩]، ﴿ وَٱذْكُرُواْ يَصْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَنْقُهُ ٱلَّذِى وَالْقَكُم مِيهِ ﴾ [المَائِدة / ٧] . ﴿وَلَقَدْ يَشَرُنَا ٱلْقُرِّيَانَ لِلِذِكْرِ فَهَلُ مِن مُّذَّكِرِ ۞ ﴾ [القَمَر: ١٧]، وتسمية هذا النمط تذكراً ليس ببعيد، فكأنَّ التذكر ضربان: أحمدهما: أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود. والآخر: أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة. وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه (١٦) السماع والتقليد دون الكشف والعيان، ولذلك تراه يتخبط في مثل هذه الآيات، ويتعسف في تأويل التذكر بإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات، ويتخايل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهافت. ومثاله مثال الأعمى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول: ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها؟ فيقال له: إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصرك. فكذلك خلل البصيرة يجري مجراه وأطم منه وأعظم؛ إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر من عمى الفرس ولمشائهة بصيرة الباطن ليصيرة الظاهر. قال الله تعالى: ﴿ أَكْنَبُ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَيْ ١٠٠ ﴿ الشَّجْمِ: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَالِكَ نُرِيَ إِنْزِهِيمَ مَلْكُوتَ ٱلسَّمَانَةِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الانغام. ٧٥]، الآية، وسمى ضده عمى فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا نَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْنَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُودِ ﴾ [الحَجّ: ٤٦]، وقال تعالمي: ﴿وَمَن كَاكَ فِي هَايِهِ: أَغَمَن مَهُوَ فِي ٱلْكَجِمَعَ أَعْمَىٰ وَأَصَلُّ سَبِيلًا ۞﴾ [الإسزاء: ٧٧]، وهذه الأمور النبي كشفت للأنبياء معضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية. وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين إلا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه. فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها.

بيان تفاوت النفوس في العقل:

قد اختلف الناس في تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قلَّ تحصيله، بل الأولى والأهم المعادرة إلى التصريح بالحق. والحق الصريح فيه أن يقال: إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني: وهو العلم الضروري بجوار الجائزات واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً، وكذا سائر النظائر وكل ما يدركه إدراكاً محققاً من غير شك، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها، أما القسم الرابع وهو استبلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرئاسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفاً. وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرف لغائلة عليه، وشهوة الرياء والرئاسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفاً. وقد يكون سببه التفاوت في العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة وقد لا يقدر من يساويه في تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة وقد لا يقدر من يساويه في

⁽١) - قوله: ايستروجه، من الرواج أي يكون السماع والنقليد رائجاً عنده، فتأمل. اهـ. مصححه.

العقل على ذلك إذا لم يكن طبيباً وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة، لكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جنداً للعقل وعدة له في قمع الشهوات وكسرها. وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوّة علمه بضرر المعاصي، وأعني به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالمة وأصحاب الهذيان. فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلاً أيضاً، فإنه يقوي غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه، وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشدً.

وأما القسم الثالث: وهو علوم النجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر، فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة وإما تفاوتاً في الممارسة، فأما الأوّل وهو الأصل أعني الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده فإنه مثل نور يشرق عل النفس ويطلع صبحه ومبادئ إشراقه عند سن التميير، ثم لا يزال ينمو ويزداد نمواً خفي التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس. وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر، بل سنَّة الله عزَّ وجلَّ جارية في جميع خلقه بالتدريج في الإيجاد، حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدريج، وكذلك جميع القوى والصفات، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل، ومن ظن أن عقل النبي ﷺ مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفيهم إلا بعد تعب طويل من المعلم، وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة، وإلي كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيُّتُهُ يُعِينَهُ وَلَقَ لَدَ تَمْسَسُهُ نَارُّ ثُورًا عَلَى نُورِّ ﴿ [النُّور: ٣٥]، وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام، وعن مثله عبر النبي ﷺ حيث قال: ﴿إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَتَ فِي رَوْحِي: أَحْبِبُ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقَه وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنْكَ مَئِتْ وَاصْمَلْ مًا شِئْتُ فَإِنَّكُ مُجْزِئُي بِهِ، (١٦). وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنسياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروع. ودرجات الوحي كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة. ولا تظنن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يبعد أن يعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خالياً عنها، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبياً ولا ولياً، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقياً. وانقسام الناس إلى من يتبُّه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتنبيهِ وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضاً ولا التنبيه، كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسهُ عبوناً وإلى ما يحتاج إلى

 ⁽١) حديث: فإن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحبب قإنك مفارقه . ٩ الحديث. أخرجه الشيرازي في الألقاب
 من حديث سهل بن سعد نحوه، والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف.

الحفر لبخرج إلى القنوات وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو البابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل. ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل، ما روي: أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه سأل النبي بِيَّئِيَّة في حديث طويل في آخره وصف عِظَم العرش وأن الملائكة قالت: فيَا رَبِّنَا هَلْ خَلَقْتَ شَيْئاً أَعْظَمَ مِنَ العَرْشِ؟ قَالَ: نَعَمْ، الْعَقْلَ، قَالُوا: وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالَ: فَعَمْ، الْعَقْلَ، قَالُوا: وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالَ: فَعَمْ، الْعَقْلَ، قَالُوا: وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالَ: فَعَمْ، الْعَقْلَ، قَالُوا: وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ؟ قَالُوا: لا، قَالَ اللهُ عَزْ وَجَلَّ: فَإِنِي خَلَقْتُ المُعْقَلُ أَصْنَافاً شَتَّى كَمَدَدِ الرَّمْلِ؟ قَالُوا: كَمْ عِلْمُ مِنْ أَعْطِيَ الثلاثَ اللهُ عَرْ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْطِيَ الثلاثَ وَالْمَانِعَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْطِي وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْلَى اللّهُ اللهَامُ اللهَ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ المُعْلِي اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ المُعْلِي اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ

قإن قلت: فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات، وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان ذلك لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب، فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم. فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله، فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه، وإن ذم فما الذي بعده يحده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع فيم علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضاً مذموماً ولا يلتقت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإنا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور، وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ. فهذا القدر كاف في بيان العقل والله أعلم.

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنّه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أوّلاً وآخراً



⁽١) حديث ابن سلام: "سئل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت: "يا رب خلقت شيئاً أعظم من العرش. " الحديث. أخرجه ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر محتصراً.

بسسير ألله ألزَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

کتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقول وبالله التوفيق: الحمد لله المبدىء المعيد الفعال لما يريد ذي العرش المجيد والبطش الشديد، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلي لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرّف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له صمد لا ضدّ له منفرد لا ندّ له، وأنه واحد قديم لا أول له أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل ﴿ هُوَ ٱلْأَوْلُ وَٱلْكِيرُ وَٱلنَّالِيمُ وَٱلْمَالِيمُ السَّديد. ١٣.

التنزيه: وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل الأجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا بعرض ولا تحله الأعراض، بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود ﴿ لَيْسَ كَمِشْلِهِ شَى الشّرِي . ١٦]، ولا هو مثل شيء وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات. وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون ملطف قدرته ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثريا، فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ﴿ وَهُو عَلَىٰ كُلُ شَيْهِ شَهِيدٌ ﴾ [شبًا الله شيء . تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن يَخلِق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان. وأنه بائن عن خلقه بصفاته لبس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته، وأنه مقدّس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزهاً عن الزوال عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزهاً عن الزوال

وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال. وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرثي الذات بالأبصار نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار وإتماماً منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

الحياة والقدرة: وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر، والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخلائق مقهورون في قبضته. وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيحاد والإبداع. خلق الخلق وأعمالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدوراته ولا تتباهى معلوماته.

العلم: وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة الذرّ في جو الهواء ويعلم السر وأخفى، ويطلع عل هواجس الضماثر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.

الإرادة: وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات فلا يجري في الملك والملكوت قليلٌ أو كثيرٌ، صغيرٌ أو كبيرٌ، خيرٌ أو شرّ، نفعٌ أو ضرّ، إيمانٌ أو كفرٌ، عرفانٌ أو نكرٌ، فوزٌ أو خسرانٌ، زيادةٌ أو نقصانٌ، طاعةٌ أو عصبانٌ إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشبئته. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشبئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبدىء المعيد الفعال لما يريد لا رادً لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن معصبته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوّة له على طاعته إلا بمشبئته وإرادته، فلو اجتمع الإنس والحن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشبئته لعحزوا عن ذلك. وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفاً بها مريداً في أزله لعجود الأشياء في أوقاتها التي قدّرها فوجدت في أوقاتها كما أراده في أزله من غير تقدّم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدّل ولا تغير. دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

السمع والبصر: وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ولا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته طلام. ويرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير ألمحة وآذان، كما يعلم بغير قلب ويبطش بعير جارحة ويخلق بغير آلة؛ إذ لا تشبه صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

الكلام: وأنه تعالى متكلم آمر، ناه واعد متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان. وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام. وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق. وأن موسى على سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات كان حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً، متكلماً بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرّد الذات.

الأفعال: وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم في أفعاله عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد؛ إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئاً إذ كان فيه موجوداً وحده ولم يكن معه غيره، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهاراً لقدرته والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتطوّل بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك لكان منه عدلاً ولم يكن منه قبيحاً ولا ظلماً. وأنه عزّ وجلّ يثبت عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق. وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبياته عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة، فبلغوا ألمنة وبهه ووعده ووعده، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤوا به.

معنى الكلمة الشافية: وهي الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً على ساتر الأنبياء وجعله سيد البشر، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول: «لا إله وفضله على ساتر الأنبياء وجعله سيد البشر، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول: «لا إله إلا الله» ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك: «محمد رسول الله» وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة. وأنه لا يتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، وأوّله: سؤال منكر ونكير وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سوياً ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ (الهما فتانا القبر (الهورالهما أوّل فتنة بعد الموت (الموت على ما يشاء الموت على الجسم والروح على ما يشاء وأن يؤمن بعذاب القبر (اللهورالهما أو له حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء وأن يؤمن بالكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى، والصنج يومئذ مثاقيل الذرّ والخردل تحقيقاً لتمام العدل، وتوضع صحائف

كتاب قواعد العقائد

 ⁽۲) حديث: "إنهما فتانا القبر" أخرحه أحمد وابن حبان من حديث عبداته بن عمرو: "أن رسول الله ﷺ ذكر فناني القبر فقال عمر: أثرد علينا عقولها؟... الحديث.

⁽٣) حديث: «إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت؛ لم أجده.

⁽٤) حديث: «عذاب القبر» أخرجاه من حديث عائشة: «إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم. . » الحديث، ولهما من حديث أبي هريرة وعائشة: «استعاذته ﷺ من عذاب القبر».

الحسنات في صورة حسنة في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله، وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله⁽¹⁾. وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو حسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوي بهم إلى البار، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار (¹⁾. وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد على يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط (¹⁾. من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر ماؤه أشذ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل. حوله أباريق عددها بعدد تجوم السماء (²⁾. فيه ميزابان يصيان فيه من الكوثر (⁶⁾. وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير عساب وهم المقرّبون (¹⁾. فيسأل الله تعالى من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن

- (۱) حديث: «الإيمان بالميزان ذي الكفتين واللسان وصعته في العظم أنه مثل طباق السموات والأرض» أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر: «قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وتؤمن بالجحة والنار والميزان. . .) الحديث. وأصله عند مسلم لبس فيه ذكر الميزان، ولأن داود من حديث عائشة: «أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزاته أم يثقل؟ زاد ابن مردويه في تفسيره «قالت عائشة: أي حتى قد علمنا الموارين هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء فترجح إحداهما وتخف الأخرى» والترمذي وحسه من حديث أنس: «واطلبني عند الميزان» ومن حديث عبدالله بن عمر في حديث البطاقة: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كتاب السنة عن ابن عباس؛ «كفة الميزان كأطباق الفنيا كلها».
- (٢) حديث: «الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: «ويضرب العبراط بين ظهرائي جهنم» ولهما من حديث أبي سعيد: «ثم يضرب الجسر على جهنم» زاد مسلم: «قال أبو سعيد: «إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف» ووقعه أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب، والبعث من حديث أنس وضعفه، وفي البعث من رواية عبدالله بن عمير مرسلاً، ومن قول ان مسعود: «الصراط كحد السيف» وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرقوع.
- (٣) حديث الإيمان بالحوض وأنه يشرب منه المؤمنون أخرجه مسلم من حديث أنس في نزول: ﴿إِنَّا أَعْلَيْنَكَ الْكُوثَرَ﴾ [الكُوثَرَ ﴾ [الكُوثَرَ ﴾ [الكُوثَر ﴾ [الكُوثر ؛ وأما بين جرباء وأدرج » وهو الصواب، وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبدالله بن عمر وحديثة وأبي ذر وحابس بن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء.
- (٤) حديث: (من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً) حرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء من حديث عبدائه بن عمرو. ولهما من حديث أنس: (قيه من الأباريق كعدد نجوم السماء) وفي رواية لمسلم: (أكثر من عدد النجوم).
- حدیث: «فیه میزابان بصبان من الکوثر» أخرجه مسلم من حدیث ثوبان: «بغت فیه میزابان بمثانه من الجنة أحلهما من ذهب والآخر من ورق».
- خديث: «الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش في الحساب ومسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر فقال " فيا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت والبعث من بعد الموت والحساب والمجنة والنار والقدر كله . . ٤ الحديث وهو عند مسلم دون ذكر " «الحساب» وللشيخين من حديث عائشة " «من نوقش الحساب عذب، قالت: قلت: يقول الله تعالى: ﴿ فَمَوْقَ لَكُونَ مَنْ حَدَيث عائشة الله عنه العرض .
 يُمَانَتُ حِسَابًا بَرِيرًا في الانشقاق: الآية ٨] ، قال: «ذلك العرض» ولهما من حديث ابن عباس " «عرضت على =

تكذيب المرسلين (١) ويسأل المبتدعة عن السنة (٢) ويسأل المسلمين عن الأعمال (٣) وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحّدٌ بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحد (٤) وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى، ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عزّ وجلّ فلا يخلد في النار مؤمن، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرّة من الإيمان (٥) وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأنّ أفضل الناس بعد النبيّ ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم (١) وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثنى الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ عليهم أجمعين (١)

- الأمم فقبل: هذه أمتك وممهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا هذاب، ولمسلم من حديث أبي هربرة وعمران بن حصين: (بدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب». زاد البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حزم: (وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً». زاد أحمد من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر بعده هذه الزيادة فقال: (فهلا استزدته قال: قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً» قال عمر: فهلا استزدته قال: (قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً» قال عمر: فهلا استزدته قال: (قد استزدته فالنارحمن بن أبي بكر بين يديه» الحديث.
- ا) حديث: «سوال من شاء من الأبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكمار عن تكذيب المرسلين» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد. «يدعى نوح يوم القيامة فيقول. لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت؟ فيقول نعم، فيقال لأمته فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك فيقول: محمد وأمته..» الحديث. ولابن ماجه: «يجيء النبي يوم القيامة...» الحديث.
- (۲) حديث: «سؤال المبتدعة عن السنة» رواه ابن ماجه من حديث عائشة: «من تكلم بشيء من المقدر سئل هنه يوم القيامة»
 ومن حديث أبي هريرة: «ما من داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لازماً لدعوة ما دعا إليه وإن دعا رجل رجلاً»
 وإسنادهما ضميف.
- (٣) حديث: اسؤال المسلمين عن الأعمال؛ أخرجه أصحاب السنن، من حديث أبي هربرة: قإن أول ما يحاسب به العبد
 يوم القيامة من عمله صلاته. .» الحديث، وسيأتي في الصلاة.
- (3) حليث: "إخراج الموحدين من النارحتى لا ينقى فيها موحد بفضل الله سبحانه أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة مي حديث طويل: "حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من الدار من كان لا يشرك بالله شيئًا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول. لا إله إلا الله . . » الحديث .
- (٥) حديث: «شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بمضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يحرج منها مل كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان» أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان: «يشهع يوم القيامة ثلاثة: الأثبياء ثم العلماء ثم الشهداء» وقد تقدم في العلم، وللشيخين من حديث أبي سعيد الحدري: «من وجدتم في قلبه مثقال حية من خردل من الإيمان فأخرجوه» وفي رواية: امن حير» وفيه: افيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط..» الحديث.
- (٣) حديث: "أفضل الناس بعدرسول الله ﷺ أبو يكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي "أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال: "كنا نخير مبن الناس في زمن النبي ﷺ فَنُخَيِّر أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان الأبي داود: "كنا نقول ورسول الله ﷺ حي: أفضل أمة النبي ﷺ ولا ينكره".
 أفضل أمة النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم" زاد الطبراني: "ويسمع ذلك النبي ﷺ ولا ينكره".
- (٧) حديث: "إحسان النفل بحميع الصحامة والثناء عليهم» أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن مغفل: "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، وللشيخين من حديث أبي سعيد: "لا تسبوا أصحابي، وللطبرائي من حديث ابن مسعود: "إذا ذكر أصحابي فأمسكوا».

فكل دلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موفناً به كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهط الضلال وحزب البدعة. فنسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى.

الفصل الثاني

في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم: أنَّ ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أوَّل نشؤه ليحفظه حفظاً ثم لا يرَالُ يَكُشُفُ لَهُ مَعْنَاهُ فِي كَبْرِهُ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَابْتَدَاؤُهُ الْحَفَظُ ثُمُ الْفَهُم ثُمُ الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان. فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أَوْل نشؤه للإيمان من غير حاجةٍ إلى حُجَّةٍ وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المجرّد والتقليد المحض؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرّد التقليد غير خال عن نوع من الصعف في الابتداء على معنى، أنه يقبل الإزالة بنقبصه لو ألقي إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل. وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بثلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيئاتهم في الخضوع لله عزّ وجلّ والخوف منه والاستكانة له، فيكون أوّل التلقين كإلفاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقى والنربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة؛ فإنَّ ما يشوَّشه الجدل أكثر مما يمهده وما يفسره أكثر مما يصلحه، بن تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب. والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً فناهيك بالعيان برهاناً، فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين، فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشامخ لا تحرّكه الدواهي والصواعق وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء تعيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذاء إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً؛ إذ لا فرق في التقليد بين تعليم الدّليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه. ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ولكنه يسلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق؛ إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً. وإن أراد أن يكون من سالكي طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عزّ وجلّ إذ قال: ﴿ وَالَّذِينَ جَهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِينَمُ شَبُلناً وَإِنَّ اللهُ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ وَالمَعْرَبِينَ وَلَا اللهُ وقر في صدر أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حيث فضل به الخلق. وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم؛ إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة، وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

مسألة: فإن قلت، تعلم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟ فاعلم: أنّ للنّاس في هذا غلواً وإسرافاً في أطراف، فمن قائل إنه بدعة أو حرام وأنّ العبد إن لقي الله عزّ وجلّ بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى. وإلى التحريم دهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف قال ابن عبدالأعلى رحمه الله: سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصاً الفرد وكان من متكلمي المعتزلة _ يقول: لأن يلقى الله عز وجلّ العبد مكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام، ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه، وقال أيضاً: قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام.

وحكى الكرابيسي: أنَّ الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال: سل عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه، أخزاهم الله، ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حقص الفرد فقال له: من أنا؟ فقال: حفص الفرد، لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه. وقال أيضاً: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد، وقال أيضاً: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى؟ فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له. قال الزعفراني: قال الشافعي: حكمي في أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد ويُطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبدًا، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام. إلا وفي قلبه دغل، وبالع في ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً في الردُّ على المبتدعة وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أوَّلاً ثم ترد عليهم، ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر في تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث؟ وقال أحمد رحمه الله: علماء الكلام زنادقة. وقال مالك رحمه الله: أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت. وقال مالك رحمه الله أيصاً: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، فقال بعض أصحابه ـ في تأويله ـ إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا. وقال أبو يوسف: من طلب العلم بالكلام تزندق. وقال الحسن: لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم. وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا؛ ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلاّ لعلمهم بما يتولد منه من الشر. ولذلك قال النبي ﷺ:

«هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» (١٠). أي المتعمقون في البحث والاستقصاء.

واحتجوا أيضاً مأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أربابه، فقد علمهم الاستنجاء (٢٠)، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم (٢٠)، ونهاهم عن الكلام في القدر وقال: «أمسكوا (٤٠) عن القدر». وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طغيان وطلم، وهم الأستاذون والقدوة وبحن الأتباع والتلامذة.

وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا: إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم فالأمر فيه قريب؛ إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه، ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه، فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة حديدة لاستعمالها في مباح. وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل؟ وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضي إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه، كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرئاسة مما يفضي إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلُّ هَكَاتُواْ بُرَهَنَكِحُمْ﴾ [البَقَرَة: ١١١]، وقال عزّ وجلُّ: ﴿ لِيُمَالِكُ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِنَاتُر وَيَكُمِّى مَنْ حَرَىٰ عَنْ بَيِّنَةً﴾ [الانقال: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِندَكُمْ مِن سُلْطُنَيْ بَهَنذَاً﴾ [لبونس: ٦٨]، أي حجة ويرهان، وقال تعالى: ﴿فُلْ فَلِيَّهِ ٱلْمُنْجَنُّهُ ٱلْبَالِغَةُ﴾ [الانغام: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَسَرَ إِلَى ٱلَّذِي خَلَجَّ إِنزَهِمْتُمْ فِي رَبِّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿فَنُوتَ ٱلَّذِي كُمَرُّ﴾ [البَقَرَة. ٨٥٨]، إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه في معرض الثناء عليه وقال عزّ وجلّ : ﴿وَيَلْكَ خُخُشُنّا ٓ ءَاتَيْتُهَمّاۤ ۚ إِبْرَهِيمَ عَلَىٰ قَوْيُوبً ۗ [الانعام: ٨٣]، وقال تعالَى: ﴿قَالُواْ يَكُنُومُ قَدْ جَكَدَلْتَنَا فَأَحَـٰتُرَتَ جِدَالَنَا﴾ [لمود: ٣٧]، وقال تعالى في قصة فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ أَلْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوَلُوْ جِمْتُكَ لِشَيْمَ شَبِينِ﴾ [الشُّمَرَاء: ٣٣ ـ ٣٠].

وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجَّة مع الكفار، فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى: ﴿ لَوَ كَانَ فِيهِمَ ءَالِمَةُ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتًا ﴾ [الأنبيّاء: ٢٧]، وفي النبوّة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَبِّ مِتَا نَزَلنا عَلَى عَبْدِنا فَأَنْتُما بِسُورَةٍ مِن يَشْلِمِه ﴾ [البقرّة: ٢٣]، وفي البعث: ﴿ قُلْ يُغْيِبا اللّذِيّةَ أَنشَاها أَوْلَ مَرَوِّ إِلى الإلاء الإله عير ذلك من الآيات والأدلة، ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى: ﴿ وَجَدِلْهُم بِاللّهِ عَنهم أَيضاً كانوا يحاجون المنكرين ويجادلونه من الله عنهم أيضاً كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون من سنَّ دعوة المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة، وكانت الحاجة إليه قلبلة في زمانهم، وأوّل من سنَّ دعوة

⁽١) حديث: اهلك المنتطعون؛ أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

 ⁽٢) حديث: (أن النبن ﷺ علمهم الاستنجاء) أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسي.

 ⁽٣) حديث: «ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم» أخرجه ابن ماحه من حديث أبي هريرة: «تعلموا الفرائض وهلموها الناس، . . » الحديث، وللترمذي من حديث أنس: «وأفرضهم زيد بن ثابت».

 ⁽٤) حديث: (نهاهم عن الكلام في القدر وقال: أمسكوا) تقدم في العلم.

المبتدعة بالمجادلة إلى الحق: على بن أبي طالب رضى الله عنه؛ إذ بعث ابن عباس رضى الله عنهما إلى المخوارج فكلمهم فقال: ما تنقمون على إمامكم؟ قالوا: قاتل ولم يَسْب ولم يغتم، فقال: ذلك في قتال الكفار! أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها في يوم الجمل فوقعت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب؟ فقالوا: لا، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان. وروي أن الحسن ناظر قدرياً فرجع عن القدر. وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلاً من القدرية. وناظر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يزيد بن عميرة في الإيمان، قال عبدالله: لو قلت إنى مؤمن لقلت إنى في الجنة؟ فقال له يزيد بن عميرة: يا صاحب رسول الله هذه زلمة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة؟ ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة، فقال ابن مسعود: صدقت والله إنها مني زلة. فينبغي أن يقال: كان خوضهم فيه قليلاً لا كثيراً، وقصيراً لا طويلاً وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة، فيقال: أما قلة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان، وأما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة، فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم، وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها، وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضاً، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على الندور إما اذخاراً ليوم وقوعها وإن كان نادراً أو تشحيذاً للخواطر فنحن أيضاً نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هبجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال، كمن يعد السلاح قبل القتال. ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يدكر للفريقين.

فإن قلت: فما المختار عندك فيه؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل. فاعلم أوّلاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة، وأعني بقولي «لذاته» أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت. وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار، وإباحة تحرّع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر، وإلى ما يحرم لعيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار والبيع وقت النداء، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار، وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره فيطلق القول عليه بالإباحة عليه بأمه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور، وكأكل الطين، وكأن إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل المنفات إلى أغلب الأحوال. فإن تصدّى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن على العسل النفات إلى أغلب الأحوال. فإن تصدّى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام. أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزائتها عن الجزم والتصميم، فذلك مما الحق، وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتذ بحرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل، ولذلك ترى حصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يشور من الجدل، ولذلك ترى

المبتدع العامي يمكن أن يزول اعتقاده باللطف في أسرع زمان إلا إذا كان نشوه ه في بلد يظهر فيه الجدل والتعصب، فإنه لو اجتمع عليه الأوّلون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي على قلبه ويمنعه من إدراك الحق، حتى لو قبل له: هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرّفك بالعيان أنَّ الحق مع خصمك؟ لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه، وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره.

وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعمل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدّث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الرجه مسدود. ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الدور في أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام، بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامي ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه. والناس متعمدون بهذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها، والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب، وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنعته، فينبغي أن يكون كالطبيب الحافق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا في موضعه وذلك في وقت المحاجة وعلى قدر الحاجة. وتفصيله: أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه، فإن تعليمهم الكلام ضرر محض سلامة عقائدهم التي اعتقدوها مهما تلقنوا والاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح.

وأما العامي المعتقد للبدعة، فينبغي أن يُدْعَى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف الممفنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير، فإن ذلك أنفع من الجلل الموضوع على شرط المتكلمين؛ إذ العامي إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدّر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضاً يقدرون على دفعه، فالجدل مع هذا ومع الأوّل حرام، وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام، واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض عامي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه، فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه، وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي دكرناه ولا يتعرّض للأدلة ويتربص وقوع شبهة، فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة، فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب (الرسالة القدسية) لبكون ذلك سبباً لدفع تأثير محادلات المبتدعة بأس أن يعلموا القدر الذي أودعناه كتاب (الرسالة القدسية) لبكون ذلك سبباً لدفع تأثير محادلات المبتدعة إلى وقعت إليهم، وهذا مقدار مختصر، وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه

لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء، فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) _ وهو قدر خمسين ورقة _ وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين. فإن أقنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالباً والمرض سارياً، فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له، فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه.

فأما الخارج منه فقسمان: أحدهما: بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الإدراكات وعن الخوض في الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى؟ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرثي يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات.

والقسم الثاني: زيادة تقرير لتلك الأدلة في غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة، وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالاً وجهلاً في حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضاً. ولو قال قائل: البحث عن حكم الإدراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر، والحاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضاً، وذلك هوس فإن الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة، فقد عرفت بهذا القدر المدمود من الكلام والحال التي يذم فيها والحال التي يحمد فيها والشخص الذي ينتفع به والشخص الذي الته والشخص الذي التفارة والشخص الذي الته والشعر والقدر المدالة والشعرة والمستشعرة والشعرة والشعرة والشعرة والشعرة والشعرة والسعرة والشعرة والشعرة

فإن قلت: مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوي وأرهقت الحاجة، فلا بد أن يصبر القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما؟ وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم، ولو ترك بالكلية لأندرس وليس في مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلم، فينبغي أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضي الله عنهم، فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه. فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي ثارت في تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير، فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر. فالعالم ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال:

إحداها: التجرد للعلم والحرص عليه، فإن المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت.

الثانية: الذكاء والفطنة والفصاحة، فإن البليد لا ينتفع بفهمه والفدم لا ينتفع بحجاحه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه.

الثالثة: أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه، فإن الفاسق بأدنى شبهة يتخلع عن الدين، فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع السَّد الدي بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه.

وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام، إنما هي من جنس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس دون التغلغل في التقسيمات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس، وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها لنتلبيس، فإذا قابله مثله في الصنعة قاومه. وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرّد له لما فيه من الضرر الذي نبهنا عليه. وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة المخوارج، وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة، وذلك محمود في كل حال. نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاحة وقلتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك، فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفطها، فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشباء على ما هي عليه وإدراك الأسراد التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعلى، وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله يتعرض لنقحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يتعرض لنقحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يتعرض لنقحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يتعرض لنقحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا

مسألة: فإن قلت: هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها، جلي يبدو أولاً وبعضها خفي يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافي واليسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب، وهذا يكاد يكون مخالفاً للشرع إد ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه؟ فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما يتكرها القاصرون الذين تلقفوا في أوائل الصها شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلماء والأولياء، وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال على: "إنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَحَدَا وَمَعَلَمُهُ "أَنَّ وَقَالُ عَلَى اللهُ عَلَى عَلَى عَلَى اللهُ المَاسِيّة المَّاسِّق وَاللهُ وَحَدًا وَقَال على وقيل اللهُ وَحَدًا وَقَال اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ وَحَدًا اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عنها أَن اللهُ اللهُ اللهُ عنها اللهُ اللهُ عنها أَن اللهُ عنها أَن اللهُ اللهُ عنها اللهُ عنها اللهُ عنها أَن اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عنها اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عنها اللهُ ا

 ⁽١) حديث: «إن للقرآن ظاهراً وباطناً..» الحديث، أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بتحوه.

 ⁽٢) حديث: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم. .» الحديث، تقدم في باب العلم.

 ⁽٣) حديث الحدث أحد قوماً بحديث لم تبلغه عقولهم. . ١ الحديث. تقدم في باب العلم.

⁽٤) حديث: ﴿إِن من العلم كهيئة المكنون. . ٤ الحديث. تقدم في العلم.

⁽o) حديث الو تعلمون ما أعلم لضحكتم ثليلاً ولبكيتم كثيراً» أخرجاه من حديث عائشة وأنس.

حفظت من رسول الله على إعامين أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم. وقال في: «مَا فَضَلَكُمْ أَبُو بَكُو بِكَثْرَة صِيَامٍ وَلا صَلاةٍ وَلْكِنْ بِسرٌ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ (' رضي الله عنه، ولا شك في أن ذلك السركان متعلقاً مقواعد الدين غير خارج منها، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافياً بظواهره على غيره، وقال سهل التستري رضي الله عنه: للعالم ثلاثة علوم: علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد، وقال بعض العارفين: إفشاء سر الربوبية كفر، وقال بعضهم: للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوّة، وللنبوّة سر لو تُشهن لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوّة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق، بل الصحيح أنه لا تناقض فيه وأن الكامل من لا يطفىء نور محرفته نور ورعه، وملاك الورع النبوة.

مسألة: فإن قلت: هذه الآيات والأخبار يتطرّق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن، فإنّ الساطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع، وهو قول من قال: إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن، وإد كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو، فيزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحد؟ فاعلم: أن هدا السؤال يحرّك خطباً عظيماً، وينجر إلى علوم المكاشفة، ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب، فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق، ولولا أنه مر الأعمال لما أوردناه في الشطر الأول من المنا أوردناه في هذا الكتاب، ولولا أنه عمل ظاهر القلب وباطنه، ولكن إذا انجرّ الكلام إلى تحريك خبال في مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله. فمن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن مناقضة الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان، بل الأسرار التي يختص بها المقرّبون بدركها ولا يناركهم الأكثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام:

القسم الأولى: أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكلّ أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك. وإخفاء سر الروح وكف رسول الله على عن بيانه (٢) من هذا القسم فإن حقيقته بما تكلّ الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصوّر كنهه. ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله على فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ ولا يبعد أن يكون دلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنباء ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه، على في صفات الله عزّ وجلّ من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه، ولم يذكر رسول الله على منها إلا الطواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم؛ إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة. ولو ذكر م

⁽١) حديث: قما فضلكم أبو بكر يكثرة صيام. . • الحديث. تقدم في باب العلم.

 ⁽۲) حديث: اكف رسول الله عن بيان الروح، أخرجه الشبخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال: «فأمسك النبي عليه فلم يرد عليهم شيئاً. . . » الحديث,

صفاته ما ليس للخلق معا يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه، بل لذة الجماع إذا ذكرت للصبي أو العِنْين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المطعوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهماً على التحقيق، والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل. وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه معا هي حاضرة له في الحال أو معا كانت له من قبل ثم بالمقايسة إليه يفهم ذلك لغيره، ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتاً في الشرف والكمال فليس في قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنعسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف، فيكون معظم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال. ولذلك قال على المعنى أني أعجز الجلال. ولذلك قال على المعنى أني أعجز عن التعمير عما أدركته بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله. ولذلك قال بعضهم ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل. وقال الصديق رضي الله عنه . الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد معرفته إلا بالعجز عن معرفته. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط ولنرجع إلى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن إدراكه ومن جملته الروح ومن جملته بعض صفات الله نعالى. ولعل الإشارة على مثله في قوله على قوله أن أبله سُبْحَانه سَبُعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ لَوْ كَشَفَها لاَّحُرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجُهِهِ كُلُ مَنْ أَدِنَ مَنْ عَنْ وَلَهُ الله مَنْ وَرَا لَا كُمْ مَنْ الله الله عَنْ الله الله عَنْ وَلَهُ الله مُنْ وَلَا المُنْ وَلَا الله الله عَنْ وَلَا الله وَلَا الله وَلَا اله وَلَا الله الله وَلَا الله ولَا الله ولم اله ولم الهول الله ولم الهول اله ولم الهول الله ولم الهول الهول الهول الهول الهول الهول الهول الله ولم الهول الهول ا

القسم الثاني: من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها، ما هو معهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه لكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين، وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم، فلا يبعد أن يكون ذكر يعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما نضر رياح الورد بالجعل، وكيف يبعد هذا وقولنا: إن الكفر والزن والمعاصي والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق في نفسه، وقد أضر سماعه بقوله إذ أوهم من المخدولين بمثل ذلك على السقه ونقيض الحكمة والرصا بالقبيح والظلم؟ وقد ألحد ابن الراوندي وطائفة من المخدولين بمثل ذلك. وكذلك سر القدر لو أفشي لأوهم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم، ولو قال قائل: إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوماً، ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفاً من الضرر، فلعل المدة إليها بعيدة فيطول الأمد، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قلَّ اكتراثها ولعلها كانت قريبة في علم الله سبحانه، ولو ذكرت لعظم الخوف، وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون فئلاً لهذا القسم.

⁽۱) حدیث: «لا أحصي ثناء علیك أنت كما أثنیت على نفسك» أحرجه مسلم من حدیث عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك في سجوده.

⁽٣) حديث: "إن أله سبعين حجاياً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره؟ أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة: "بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاياً من نور؟ وإسناده ضعيف. وفيه أيضاً من حديث أنس قال: قال رسول الله على لحريل: "هل ترى ربك؟ قال: إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور؟ وفي الأكبر للطبرائي من حديث سهل بن سعد: "دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة". ولمسلم من حديث أبي موسى: "حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه؟ ولابن ماجه: "شيء أدركه بصره"

القسم الثالث: أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحاً لفهم ولم يكن فيه ضرر، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب، وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه، كما لو قال قائل: رأيت فلاناً يقلد الدرّ في أعناق الخنازير، فكنى به عن إقشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ، والمحقق إذا نظر وعلم أنَّ ذلك الإنسان لم يكن معه درّ ولا كان في موضعه خنزير تقطن لدرك السر والباطل فيتفاوت الناس في دلك، ومن هذا قال الشاعر:

رجسلان خسيساط وآخسر حسائسك منقابلان على السماك الأعزل لا زال يستسبخ ذاك خسرقسة مسلبسر ويخيط صاحبه ثبياب المعقبل

فإنه عبر عن سبب سماوي في الإقبال والإدبار برجلين صانعين، وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله، ومنه قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الْمَسْجِدَ لَيَنْزُوي مِنَ النُّخَامَةِ كَمَا تَنْزَوِي الجِلْدَةُ عَلَىٰ النَّارِهُ (١)، وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة، ومعناه أن روح المسجد كونه معَّظماً ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة، وكذلك قوله ﷺ: "أَمَا يَخْشَىٰ الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإمَامِ أَنْ يُحَوَّلَ رَأْسُهُ رَأْسَ حِمَارِ؟، (٢٠)، وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون، ولكن من حيثُ الْمعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة والحمق، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى؛ إذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان. وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلي أو شرعي، أما العقلي فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله ﷺ: «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ» (٣). إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فعلم أنها كنَّاية عن القدرةُ التي هي ُسر الأصَّابع وروحها الخفي، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعاً في تفهم تمام الاقتدار. ومن هذا القبيل في كنايته عن الاقتدار قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِتَوَىٰ ۚ إِذَا ۚ أَرَدُنَّهُ أَن تَقُولَ لَهُ كُن فَبَكُونُ ۞﴾ [التحل: ٤٠]، فإن ظاهره ممتنع إذ قوله: ﴿ كُن﴾ إن كان خطاباً للشيء قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين، ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهيم غاية الاقتدار عدل إليها. وأما المدرك بالشرع، فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكناً، ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَرْلَ مِنَ ٱلسَّنَاءِ مَاهُ مَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ مِقَدْرِهَا﴾ [الزعد: ١٧] الآية. وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هي القلوب وأنّ بعضها احتملت شيئاً كثيراً وبعضها قليلاً وبعضها لم يحتمل، والزبد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن ظهر وطفًا على رأس الماء، فإنه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمكث. وفي هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراط

⁽١) حديث: (إن المسجد لينزوي من النخامة . . ٤ الحديث. لم أجد له أصلاً.

⁽٢) حليث: «أما بخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام. .» الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

⁽٣) حديث: قلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن، أخرحه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو.

وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر.

القسم الرابع: أن يدرك الإسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والذوق بأن يصير حالاً ملابساً له فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب، والأول كالظاهر والثاني كالباطن، وذلك كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم، فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما، ولا يكون الأخير ضدّ الأول بل هو استكمال له. فكذلك العلم والإيمان والتصديق؛ إذ قد يصدّق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه، ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع، بل للإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة: الأول: تصديقه بوجوده قبل وقوعه، والثاني: عند وقوعه، والثالث: بعد تصرمه، فإن تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقيق به قبل الزوال، وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها، ففي هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس في شيء منها باطل يناقض الظاهر بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر والسلام.

القسم الخامس: أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقاً، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القاتل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال: سل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي؟ فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الشَّوَى إِلَى السَّلَةِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَما وَلِلْرَضِ الْقِيا طَرَعًا أَوْ كُرها أَلْنَا أَلْيَنا طَآبِينَ ﴿ الْمَعَلَى السَّمَةِ فِي فَهِمه إلى أن يقدر لهما حياة وعقلاً وفهما للخطاب وخطاباً هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان: ﴿أَلْينا طَآبِينَ الله التسخير، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلِن بِن شَيْم إِلّا يُسَيّعُ عِيْدِه ﴾ [الإسراء: 33]، فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلاً ونطقاً بصوت وحرف حتى يقول: «سبحان الله البنحق تسبيحه. والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان ونطقاً بصوت وحرف حتى يقول: «سبحان الله البنحق تسبيحه. والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبّحاً بوجوده ومقدّساً بذاته وشاهداً بوحدانية الله سبحانه كما يقال:

وفسي كسل شيء لسه آيسة تسدل عسلسي أنسه السواحسة

وكما يقال: هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول اشهد بالقول ولكن بالذات والحال. وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصاقه ويردده في أطواره، فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَكِن لا نَفْقَهُونَ نَسْبِحَهُم الإسرَاه ٤٤٠]، وأما القاصرون فلا يفقهون أصلاً، وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة. فهذا الفن أيضاً مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر. وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن مسرف في رفع الظواهر انتهى إلى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حملوا قوله تعالى: ﴿وَتُكُلِّنُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَنْجُلُهُم ﴾ [يس: 10]،

كتاب قواعد العقائد

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُمْ عَلَيْناً فَالْوَا أَنْطَفَنَا اللَّهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [لمُصلت: ٢١]، وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير، وفي الميزانِ والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم: ﴿ أَفِيشُوا عَلَيْكَ مَا الْمَاءِ أَوْ مِنَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ [الاعزاف ٥٠]، زعموا أن ذلك كله بلسان الحالي. وغلا أخرون في حسم الباب منهم أحمد بن حبل رضي الله عنه، حتى منع تأويل قوله. ﴿حَمَّن فِيَكُونُ ﴾ [الأمام: ٧٣]، وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل مكوّن، حتى سمعت بعض أصحابه يقول: إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ: قوله ﷺ: «الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ اللَّهِ عَلَيْ اللَّهُ وَمِنْ اللَّهُ الْمُؤْمِنِ بَيْنِ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمُنِ»، وقوله ﷺ: ﴿ إِنِّي لأَجِدُ نَفْسَ الرَّحْمَٰنِ مِنْ جَانِبِ الْبَمَنِ (٢) ، ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر. والظل بأحمد بن حنبلٌ رضي الله عنه أنه عُلم أنَّ الاُستواء ليس هو الاستقرار، والنزول ليس هو الانتقال، ولكنه منع من التأويل حسماً للباب ورعاية لصلاح الخلق، فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وحاوز حدّ الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط فلا بأس بهذا الزحر، ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون: أمروها كما جاءت، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء: الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالأخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية. وزاد المعتزلة عليهم حتى أوّلوا من صفاته تعالى الرؤية وأوّلوا كونه سميعاً بصيراً، وأوّلوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد، وأوّلوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة، ولكنَّ أقروا بحشر الأجساد وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس يحرق الجلود ويذيب الشحوم. ومن ترقيهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأوَّلوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون. وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسماع، ثم إدا انكشفت لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرَّروه وما خالف أوَّلوه. فأما من يأخذ معرفة هذه الأُمور من السمع المجرَّد فلا يستقرّ له فيها قدم ولا يتعين له موقف. والألَّينُّ بالمقتصر على السمع المجرّد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله، والآن فكشف الغطاء عن حدّ الاقتصاد في هذه الأمور داخلّ في علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه، والغرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له، فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة. وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حررناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق. فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها

حديث: «الحجر يمين الله في الأرض» أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمر. (1)

حديث: ﴿إِنِّي لأَجِد نَفْس الرحمن من جانب اليمن الخرجه أحمد من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه: ﴿وأجد (1) نفس ربكم من قبل اليمن، ورجاله ثقات.

على ما حرّرناه لأهل القدس وسميناه «الرسالة القدسية في قواعد العقائد» وهي مودعة في هذا القصل الثالث من هذا الكتاب.

* * *

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس

فنقول:

بنسم أَقَو النَّكَانِ الرَّكِينَ الرَّكِينَ عِنْ

الحمد لله الذي ميز عصابة السنة بأنوار اليقين، وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين، وجنبهم زيغ الزائعين وضلال الملحدين، ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين، وسدّدهم للتأسّي بصحبه الأكرمين، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين، فجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ليس له طائل ولا محصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إبجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول، وعلموا أن بناء الإيماد على هذه الأركان وهي أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول:

الركن الأوّل: في معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول: وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وأنه سبحانه ليس مختصاً بجهة ولا مستقرّاً على مكان وأنه يرى وأنه واحد.

الركن الثاني: في صفاته ويشتمل على عشرة أصول: وهو العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً منزهاً عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة.

الركن الثالث: في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول: وهي أنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى، وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأنّ له تعالى تكليف ما لا يطاق، وأنّ له إيلام البري، ولا يجب عليه رعاية الأصلح، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأنّ بعثه الأنبياء جائز، وأنّ نبوّة نبينا محمد عليه ثابتة مؤيدة بالمعجزات.

الركن الرابع: في السمعيات ومداره على عشرة أصول: وهي إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأنّ فصل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة.

فأما الركن الأول من أركان الإيمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأنّ الله تعالى واحد، ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول: معرفة وجوده تعالى وأوّل ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان، وقد قال تعالى: ﴿أَلَوْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَنَّدَا ۞ وَأَلْجَالَ أَوْمَاهَا ﴾ وَخَلَقَنْكُو أَزْوَبَنَا ﴾ وَجَمَلُنَا نَوْمَكُو شُبِهَا ﴾ وَجَمَلُنَا الْجَلَ إِلَىٰمَا ۞ وَجَمَلُنَا الْجَلَوْ مَمَافًا ۞ وَجَمَلُنَا الْجَلَوْ مَمَافًا ۞ وَجَمَلُنَا الْجَلَا سَنَا شِنَادًا ﴾ وَجَمَلُنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ النَّفْصِرَتِ مَّاء نَجَّاجًا ﴾ [يُشْبَح بِد خَبًّا وَبَناتًا ﴾ وَخَشَّتِ أَلْفَاقًا (النَّذِ: ٦ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ النَّكَمَوْتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّذِلِ وَالنَّهَادِ وَالْفُلْكِ الَّتِي جَدْرِى فَ ٱلْبَخِرِ بِمَا يَنفَتُرُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّكَمَاءِ مِن مَّآءِ فَأَخْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَّوْيَهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآتِكُمْ وَنَصْرِيفِ ٱلْهَدِجِ وَٱلشَّحَابِ ٱلْمُسَخَّدِ بَيْنَ ٱلسَّمَاآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَتِ لِقَوْمِ يَمْقِلُونَ ۞﴾ [البَقَرَة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ الْرَ نَرُوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْهَمَ سَتَنَوَنِ مِلْبَافًا ﴿ لَيْ وَحَمَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُولً وَجَمَلَ الشَّمْسَ سِرَابًا ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَنَّكُمْ مِنْ ٱلأَرْسُ بَانَا ﴾ ثُمُّ يُمِينَكُو فَيَّا وَنُتُوْحُكُمْ إِخْرَاهُا ۞﴾ [تُوح: ١٥-١٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْمُ مَا تُشْنُونَ ۞ ءَأَشْرُ غَنْلُفُونَهُ ۚ أَمَّ نَحْنُ ٱلْخَيَلَةُونَ ﴿ إِلَّى قُولُهُ: ﴿ لِلْمُقُرِينَ ﴾ [الواقِعَة: ٥٨ ـ ٧٣]، فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نطره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أنَّ هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكُّ فَاطِيرِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضُ﴾ [ايراهيم: ١٠]. ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا: «لا إله إلا الله» وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله، فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشؤهم وفي عنفوان شبابهم. ولذلك قال عزّ وجلّ : ﴿ وَلَهِن سَالَتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لغمناه: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ فَأَقِدْ وَحُهَكَ لِللِّهِنِ حَسِيفًا فِطْرَبَتَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي فَطَدَّرِ ٱلنَّاسَ عَلَيَّما لَا بَدِيلَ لِغَلْقِ ٱللَّهِ ذَلِكَ ٱلذِّيثِ ٱلْفَيْدُ ﴾ [الرُّوم: ٣٠]، فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغنى عن إقامة البرهان. ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول من بدائة العقول: إن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب يحدثه، والعالم حادث فإذاً لا يستغني في حدوثه عن سبب. أما قولنا: ﴿إِن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب، فجلي فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلى المخصص. وأما قولنا: «العالم حادث»، فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ففي هذا البرهان ثلاث دعاوي:

الأولى: قولنا: «إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون»، وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار، فإن من عقل جسماً لا ساكناً ولا متحرّكاً كان لمتن الجهل راكباً وعن نهج العقل ناكباً.

الثانية: قولنا: «إنهما حادثان»، ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض، وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته،

وما من متحرّك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارىء منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ـ على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس ـ.

الثالثة: قولنا: "ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث"، ويرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أوّل لها، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلى وجود الحادث العاضر في الحال وانقضاء ما لا نهاية له محال؛ ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعاً أو وتراً أو شفعاً ووتراً جميعاً أو لا شفعاً ولا وتراً، ومحال أن تكون شفعاً ووتراً جميعاً أو لا شفعاً ولا يربات أحدهما نفي الآخر ووتراً جميعاً لأن الشفع يصير وتراً بزيادة واحد، وكيف يعوز وفي نفي أحدهما إثبات الآخر. ومحال أن يكون شفعاً لأن الشفع يصير وتراً بزيادة واحد، وكيف يعوز ما لا نهاية له: واحد؟ ومحال أن يكون وتراً إذ الوتر يصير شفعاً بواحد فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها؟ ومحال أن يكون لا شفعاً ولا وتراً إذ له نهاية. فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث. وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المحردث بالضرورة.

الأصل الثاني: العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل، أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحي. وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث وافتقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية، وما تسلسل لم يتحصّل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأوّل، وذلك هو المطلوب الذي سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه.

الأصل الثالث: العلم بأنه تعالى مع كونه أزلياً أبدياً ليس لوجوده آخر فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه. وبرهائه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده، ولو جاز أن ينعدم شيء يتصوّر دوامه لجاز أن يوجد شيء يتصوّر عدمه بنفسه فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب. وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده؛ لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصوّر الوجود معه. وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه، فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضدّه؟ فإن كان الضدّ المعدم حادثاً كان محالاً؛ إذ ليس الحادث في مضادته للقديم حتى يدفع وجوده، بل الدفع أهون من القديم أولى من الحادث.

الأصل الرابع: العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز بل يتعالى ويتقدّس عن مناسبة الحيز. وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيّزه ولا يحلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحرّكاً عنه، فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. ولو تصوّر جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم، فإن سماه مُسَمِّ جوهراً ولم يرد به المتحيز كان مخطئاً من حيث اللفظ لا من حيث المعنى.

الأصل الخامس: العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر. إذ الجسم عبارة عن المؤلف من المجواهر، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصاً بحيز بطل كونه جسماً؛ لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث. ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم حسم لحاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو

لشيء آخر من أقسام الأجسام، فإن تجاسر متجاسر على تسميته تعالى جسماً من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطاً في الاسم مع الإصابة في نفي معنى الجسم.

الأصل السادس؛ العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل لأن العرض ما يحل في الجسم، فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكون محدّئه موجّوداً قبله. فكيف يكون حالاً في الجسم وقد كان موجوداً في الأزل وحده وما معه غيره، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق ـ كما سيأتي بيانه ـ وهده الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تعقل إلا لموجود قائم سنفسه مستقل بذاته. وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم ينفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فإذاً لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء بل هو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، وأنى يشبه المحلوق خالقه والمقدور مقدّره والمصوّر مصوّره والأجسام والأعراص كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته.

الأصل السابع: العلم بأنَّ الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات، فإن الجهة إما فوق وإما أسفل وإما يمين وإما شمال أو قدّام أو خلف، وهذه الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلاً، والآخر يقابله ويسمى رأساً. محدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس واسم السفل لما يلى جهة الرجل، حتى إنّ النملة التي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتاً وإن كان في حقنا فوقاً. وخلق للإنسان البدين وإحداهما أقوى من الأخرى في الغالب، فحدث اسم اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التي تلى اليمين يميناً والأخرى شمالاً. وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرَّك إليه فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلها. فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقة بل خلق مستديراً كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود البتة. فكيف كان في الأزل مختصاً بجهة والجهة حادثة؟ وكيف صار مختصاً بجهة بعد أن لم يكن له؟ أبأن خلق العالم فُوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس، والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس، أو خلق العالم تحته، فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل، وكل ذلك مما يستحيل في العقل ولأن المعقول من كونه محتصاً بجهة أنه مختص بحير اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص العرض، وقد ظهر استحالة كونه جوهراً أو عرضاً فاستحال كونه مختصاً بالجهة. وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطاً في الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذياً له، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدّر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر. فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة الدعاء، وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيهاً بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر

الأصل الثامن: العلم بأنه تعالى مستوعلى عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء، وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن: ﴿ثُمَّ السَّوَى إِلَى السَّرَةِ وَهِى دُخَانٌ ﴾ [فضلت ١١]، وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر:

قد استدوى بسشر عسلسى السعسراق مسن غسيسر سيني ودّم مسهسراق

الأصل التاسع: العلم بأنه تعالى مع كونه منزهاً عن الصورة والمقدار مقدّساً عن الجهات والأقطار مريّاً بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى: ﴿وَهُوهٌ بِوَيَهِ كَامِرةٌ ﴿ إِلَّ يَهِ كَالِمَ اللهُ وَهُو يُدِيكُ الْمَرَاكُ وَهُو يُدِيكُ الْمَرْتُ الله الله الله الله الله الله الله السلام: ﴿ لَا تُدَرِيكُهُ اللهُ عَالَى وَي خطاب موسى عليه السلام؟ وكيف سأل موسى عليه كيف عرف المعتزل من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالاً؟ ولعل الجهل بذوي البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم، وأما وجه إحراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال، فإن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم، فإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة، وكما يجور أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة، وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك.

الأصل العاشر: العلم بأنّ الله عزّ وجلّ واحد لا شريك له فرد لا ندّ له انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإبجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضدّ له فينازعه ويناويه. وبرهانه قوله تعالى: ﴿ لَوَ كَانَ فِهِمَا ءَلِهَ أَنَهُ لَهُ لَسَدُناً ﴾ [الانبياء: ٢٢]، وببانه أنه لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمراً فالثاني إن كان مضطراً إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهوراً عاجزاً ولم يكن إلها قادراً، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته كان الثاني قوياً قاهراً والأول ضعيفاً قاصراً ولم يكن إلها قادراً.

张恭恭

الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى، ومداره على عشرة أصول

الأصل الأوّل: العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى في قوله: ﴿وَهُو عَلَىٰ كُلِ مَنْ وَقِيرٌ﴾ [المَائدة: ١٢٠]، صادق لأن العالم محكم في صنعته مرتب في خلقته، ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم توهم صدور سبجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان منخلعاً عن غريزة العقل ومنخرطاً في سلك أهل الغباوة والجهل.

الأصل الثاني: العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموحودات ومحيط بكل المخلوقات، لا يعزب عن علمه مثقال فرة في الأرض ولا في السماء، صادق في قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البَقَرَة: ٢٩] ومرشد

إلى صدقه بقوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْلَمُ مَنْ عَنَى وَهُوَ اللَّطِيفُ اَلْمَالِكِ: ١٤]، أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب، ولو في الشيء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف.

الأصل الثالث: العلم بكونه عزّ وجلّ حياً فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدير دون أن يكون حياً لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند ترددها في المحركات والسكنات، بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انغماس في غمرة الجهالات والضلالات.

الأصل الرابع: العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدىء المعيد والفعال لما يريد، وكيف لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضدّه، وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده؟ والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين. ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال: إنما وجد في الوقت الذي سبق العلم بوجوده لجاز أن يغني عن القدرة حتى يقال: وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه.

الأصل الخامس: العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. وكيف لا يكون سميعاً بصيراً والسمع والبصر كمال لا محالة وليس بنقص؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنعته؟ أو كيف تستقيم حجة إبراهيم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلاً وغياً فقال له: ﴿لِهُ مَنْ يَسْمُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمَعُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمَعُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمَعُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمِرُ وَلَا يُسْمَعُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا مَا يَسْمَعُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا وَلَا يَعْلَى الله ودماغ فليعقل كونه بصيراً بلا حدقة وسميعاً بلا أدن إذ فرق بينهما.

الأصل السادس: أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف، بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره. والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفاً للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء حيث قال قائلهم:

إنَّ السكسلامُ لسفسي السفسؤادِ وإنَّسمسا ﴿ جُعِسلَ السَّلسَانُ حَمْلَ السَّفَوَادِ دلسِّلاً

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول: لساني حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتي المحادثة قديم، فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطابه لسانك. ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء، وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديماً، فنزه عن الالتفات إليه قلمك، فلله سبحانه سر في إبعاد بعض العباد ﴿وَمَن يُعْلِل اللهُ فَمَا أَمُ مِنْ هَاوِ﴾ [الرّعد: ٣٣]، ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاماً ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن

يرى في الآخرة موجوداً ليس بجسم ولا لون، وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر. وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه من العبارات. وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والمار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوظة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحدقة والقلب والورقة، فليعقل كون الكلام مقروءاً بالألسنة محفوظاً في القلوب مكتوباً في المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها؛ إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق، وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق ولاحترق.

الأصل السابع: أنَّ الكلام القَائم بنفسه قديم، وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون محلاً للحوادث داخلاً تحت التغير، بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتريه النغيرات ولا تحله الحادثات، بل لم يزل في قدمه موصوفاً بمحامد الصفات ولا يزل في أبده كذلك منزهاً عن تغير الحالات، لأن ما كان محل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث. وإنما ثبت بعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف، فكيف يكون خالقها مشاركاً لها في قبول النغير؟ وينبني على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه، وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علماً متعلقاً بما في قلب أبيه من الطلب صار مأموراً بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له، فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَأَخُلُعُ نَعْلَيُكُ ﴾ [ش. ١٢]، بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطباً به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب، وسمع لذلك الكلام القديم.

الأصل الثامن: أنَّ علمه قديم فلم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي؛ إذ لو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس معلوماً عند طلوع الشمس أخد طلوع الشمس معلوماً لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر. فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى.

الأصل التاسع: أنَّ إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريداً لها كما لا تكون أنت متحركاً بحركة ليست في ذاتك وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى، وكذلك الإرادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية، ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة.

الأصل العاشر: أنَّ الله تعالى عالم بعلم، حي بحياة، قادر بقدرة، ومريد بإرادة، ومتكلم بكلام، وسميع بسمع، وبصير ببصر، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة. وقول القائل: عالم بلا علم كقوله: غَنِيَّ بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قتيل، ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل، كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم، بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا ينفك

بعض منها عن البعض، قمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف.

* * *

الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى، ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول: العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث له إلا إياه. خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم، فجميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقاً له في قوله تعالى: ﴿ وَاللّهُ خَلِقٌ كُلّ نَوَهِ وَالرّعد: ٢٦]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَاللّهُ عَلَيْكُ وَمَا تَعْمَلُونَ فِي وَله تعالى: ﴿ وَاللّهُ عَلَيْكُ وَمَا تَعْمَلُونَ فِي وَله تعالى: ﴿ وَاللّهُ عَلَيْكُ اللّهُ عَلِيدٌ اللّهُ عَلَيْكُ وَمَا تَعْمَلُونَ فِي وَله تعالى: ﴿ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ عَلَيْكُ عَلِيدٌ اللّهُ عَلَيْكُ وَمَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَلَيْكُ وَلَهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ

الأصل الثاني: أنّ انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار والمختار جميعاً. فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب سبحانه وليست بكسب له. وأما الحركة فخلق للرب تعالى ووصف للعبد وكسب له، فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً. وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية؟ أو كيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها؟ وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر من التعلق يعبر عنه بالاكتساب. وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط؛ إذ قدرة الله تعالى في الأزل قد كانت متعلقة بالعالم، ولم يكن الاختراع حاصلاً بها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعاً آخر من التعلق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها.

الأصل الثالث: أنّ فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه، فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا فلتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته. ومنه الشر والخير، والنفع والضرّ، والإسلام والكفر، والعرفان والنكر، والفوز والخسران، والغوابة

كتاب قرامد المقائد

والرشدُ، والطاعة والعصيان، والشرك والإيمان. لا راد لقصائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴿لَا يُشْتُلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْتَلُونَ ﷺ﴾ [الانتياء: ٢٣]، ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة: «ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ُ وقول الله عَزْ وجلِّ: ﴿ أَن لَّوْ يَشَآلُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلمَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [الرّعد: ٣١]، رقوله تعالى: ﴿وَلَقِ شِنْنَا لَآنَيْنَا كُلُّ نَفْسٍ هُدَنهَا﴾ [السُّجذة ١٣]، ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها، وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو إبليس لعنه الله مع أنه عدوَّ لله سبحانه، والجاري على وفق إرادة العدرِّ أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى، فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الحبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رئاسة زعيم ضيعة لاستنكف منها؛ إذ لو كان ما يستمرّ لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته. والمعصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والعجز، تعالى ربُّ الأرباب عن قول الظالمين علوًّا كبيراً. ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له.

فإن قيل: فكيف ينهي عما يريد ويأمر بما لا يريد؟ قلنا: الأمر غير الإرادة. ولذلك إذا ضرب السيد عبده فعاتبه السلطان عليه فاعتذر يتمرد عبده عليه فكذبه السلطان _ فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويخالفه بين يديه ـ فقال له: أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان، فهو يأمره بما لا يريد امتثاله، ولو لم يكن آمراً لما كان عذره عند السلطان ممهداً، ولو كان مريداً لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال.

الأصل الرابع: أنَّ الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومنطوِّل بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه. وقالت المعتزلة: وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد، وهو محال؛ إذ هو الموجب والآمر والناهي وكيف يتهدف لإيجاب أو يتعرّض للزوم وخطاب؟ والمراد بالواجب أحد أمرين: إما الفعل الذي في تركه ضرر إما آجل، كما يقال: يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه هي الآخرة بالنار، أو ضور عاجل، كما يقال: يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت. وإما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال: وجود المعلوم واحب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلاً. فإن أراد الخصم بأنَّ الخلق واجب على الله بالمعنى الأوَّل فقد عرَّضه للضرر، وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم؛ إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم، وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم. وقوله: "يجب لمصلحة عباده"، كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى. ثم إنَّ مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلايا ويعرضهم للخطابا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غبطة عند ذوي

الأصل الخامس: أنَّه يجوِّز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه ـ خلافاً للمعتزلة ـ ولو لم يجز ذلك لاستحال سؤال دفعه وقد سألوا ذلك فقالوا: ﴿ رَبُّنَا وَلا تُعَيِّمُكُنَا مَا لَا طَافَّةٌ لَنَا بِدِّ ﴾ اللِّقزة: ٢٨٦]، ولأنَّ الله تعالى أخبر نبيه ﷺ بأنَّ أبا جهل لا يصدقه، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدِّقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدُّقه، فكيف يصدَّقه في أنه لا يصدُّقه وهل هذا إلا محال وجوده؟

الأصل السادس: أنَّ لله عزَّ وجلِّ إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق ـ خلافاً للمعتزلة ـ، لأنه متصرف في ملكه ولا يتصوّر أن يعدو تصرفه ملكه، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً، ويدل على جوار ذلك وجوده، فإنّ ذبح البهائم إيلام لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة.

فإن قيل: إنّ الله تعالى بحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الألام ويجب ذلك على الله سبحانه؟ فقول: من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وُطِئَت وكل بقة عُرِكَتُ حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل؛ إذ يقال: وصف الثواب والحشر بكونه واجباً عليه إن كان المراد به أنه يتضرر بتركه فهو محال، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعاني المذكورة للواحب.

الأصل السابع: أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء، بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه: ﴿لا يُشْلُ عَنَا يَعْمَلُ وَهُمْ يُسْتَلُوك﴾ [الانبيّاء: ٢٣]، وليت شعري بما يجيب المعتزلي في قوله: ﴿إنّ الأصلح واجب عليه، في مسألة نعرضها عليه: وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ماتا مسلمين، فإنّ الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي، لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ، ويجب عليه ذلك - عند المعتزلي _ فلو قال الصبي: يا رب لِمَ رفعت منزلته عليّ؟ فيقول: لأنه بلع واجتهد في الطاعات، ويقول الصبي: أنت أمتني في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد، فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضلته؟ فيقول الله تعالى: لأني علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا _ هذا عذر المعتزلي عن ألله عزّ وجلّ _ وعند هذا ينادي الكفار من دركات لظي ويقولون: يا رب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا، فهلا أمتنا في الصبا فإنًا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم؟ فيماذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال؟

فإن قيل: مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبحاً لا يليق بالحكمة؟ قلنا: القبح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر حتى يستقبح قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه. فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصوّر منه قبح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصوّر منه التصرف في ملك الغير. وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فليم قلتم إن ذلك عليه محال؟ وهل هذا إلا مجرد تشبه يشهد بخلافه ما قد فرضناه من مخاصمة أهل النار؟ ثم الحكيم معناه العالم بحقائق الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته، وهذا من أين يوجب رعاية الأصلح؟ وأما الحكيم منا يراعي الأصلح نظراً لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثواباً أو يدفع به عن نفسه آفة. وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى.

الأصل الثامن: أنَّ معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل م خلافاً للمعتزلة _ لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب العبث، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى، فإنه يتقدّس عن الأغراض والفوائد بل الكفر، والإيمان والطاعة والعصيان في حقّه تعالى سيّان، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضاً محال لأنه لا غرض له في الحال، بل يتعب به ويتصرف عن الشهوات لسببه وليس في المال إلا الثواب والعقاب. ومن أبن يعلم أن الله تعالى يثيب

على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان؛ إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع، ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاهتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر .

فإن قيل: فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع، والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه، فإذا المكلف للنبي: إن العقل ليس يوجب علي النظر والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر ولست أقدم على النظر، أدى ذلك إلى إفحام الرسول على، قلنا: هذا يضاهي قول القائل للواقف في موضع من المحاضع: إن وراءك سبعاً ضارياً فإن لم تبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدقي، فيقول الواقف: لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ولا ألتفت ورائي، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك، فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدفه للهلاك ولا ضرر فيه على الهادي المرشد، فكذلك النبي على يقول: إِنَّ وَرَاءَكُمُ المَوْتَ وَدُونَهُ السَّبَاعُ الضَّارِيَةُ وَالنِّيرَانُ المُحْرِقَةُ إِنْ لَمْ تَأَخُذُوا مِنْها حِذْرَكُمُ وَتَغْرِفًوا لِي صِدْقِي بِالالْتِفَاتِ إِلَىٰ مُعْجِزَتِي وَإِلاَ هَلَكْتُمْ، فَمَنِ الْتَفَتَ عَرَفَ وَاحْتَرَزَ وَنَجَا، وَمَنْ لَمْ يَلْتَفِتُ وَأَصَرَ هَلَيْ البَلاعُ المُبينُ. فالشرع وَتَعْرِفًا لِي صِدْقِي بِالالْتِفَاتِ إِلَىٰ مُعْجِزَتِي وَإِلاَ هَلَكْتُمُ، فَمَنِ الْتَفَتَ عَرَفَ وَاحْتَرَزَ وَنَجَا، وَمَنْ لَمْ يَلْتَفِتُ وَتَحْرُفُوا لِي صِدْقِي بِالالْتِفَاتِ إِلَى مُعْجِزَتِي وَإِلاَ هَلَكُمُمُ أَجْمَعُونَ، وَإِنْما عَلَيُ البَلاعُ المُبينُ. فالشرع وجود السباع الضارية بعد الموت، والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت، والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في كون الشرع موجباً أن في تركه ضرراً، ومعنى كون الشرع موجباً أن في تركه ضرراً، ومعنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب، ولولا خوف العقاب على ترك ما يتواع من الموت، فهذا معنى الموجوب ثابتاً؛ إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة.

الأصل التاسع: أنه ليس يستحيل بعثه الأنبياء عليهم السلام - خلافاً للبراهمة - حيث قالوا: لا فائدة في بعثتهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما لا يهدي إلى الأدوية المفيدة للصحة، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبيّ بالمعجزة.

الأصل العاشر: أن الله سبحانه قد أرسل محمداً على خاتماً للنبيين وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر^(۱)، وتسبيح الحصى^(۲)، وإنطاق العجماء^(۳)، وما تفجر من بين أصابعه من الماء. ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها مع كافة العرب المقرآن العظيم فإنهم مع تمييزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبه ونهيه وقتله وإخراجه ما خبر الله عزّ وجلّ عنهم ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن؛ إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أميًا غير ممارس للكتب والإنباء عن الغيب

 ⁽١) حديث: «انشقاق القمر) متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس.

 ⁽٢) حديث: السبيح الحصي أخرجه البيهةي في دلائل النبوة من حديث أبي ذر. وقال صالح بن أبي الأخضر: ليس بالحافظ والمحفوظ رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أبي ذر.

 ⁽٣) حديث: النظاق العجماء أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في البعير الذي شكا إلى
 النبي ﷺ أهله وقد ورد في كلام الضب والذهب والحمرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل.

في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى: ﴿ لَنَدَخُلُنَ ٱلْسَعِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَاءَ ٱللهُ عَلِيبِ عُلِقِينَ وَمُوسَكُمْ وَمُفَيِّرِينَ ﴾ [الفَتح: ٢٧] وكقوله تعالى: ﴿ اللّهِ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِي آذَنَ ٱلأَرْضِ وَهُم مِنَ بَعْدِ غَلِيهِم سَيَعْلِيوُنُ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الرُّوم: ١-٤]، ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلاً للله تعالى، فمهما كان مفروناً بتحدي النبي على ينزل منزلة قوله: اصدقت، وذلك مثل القائم بين يدي الملك المدعي على رعيته أنه رسول الملك إليهم فإنه مهما قال للملك: إن كنت صادقاً فقم على سريرك ثلاثاً واقعد على خلاف عادتك عفعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله: اصدقت،

**

الركن الرابع في السمعيات وتصليقه ﷺ فيما أخبر عنه، ومداره على عشرة أصول:

الأصل الأوّل: الحشر والنشر (1)، وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن، ومعناه الإعادة بعد الإفناء وذلك مقدور شه تعالى كابتداء الإنشاء، قال الله تعالى: ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِطَانَمَ وَهِي رَوِيكُ ﴿ قُلْ بُعْيِيهَا الّذِي أَنْتَأَهَا أَوْلَ مَرَةً ﴾ [يس: ٧٨، ٧٨]، فاستدل بالابتداء على الإعادة. وقال عز وجل : ﴿ قَا خَلَقُكُمُ وَلَا بَعَثُكُمُ إِلّا كَنَقْسِ وَعِدَةً ﴾ [تقمان: ٢٨]، والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأوّل.

الأصل الثاني: سؤال منكر ونكير (٢)، وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعي إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذي به فهم الخطاب، وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا للسؤال له، فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام واللذات ما يحس بتأثيره عند التنبه، وقد كان رسول الله على يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه (٣)، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه.

⁽١) حديث: «الحشر والنشر»، أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس: "إتكم لمحشورون إلى الله ، ، الحديث، ومن حديث سهل: ايحشرون يوم القيامة حديث سهل: اليحشرون يوم القيامة حديث سهل: اليحشر الناس على أرض بيضاء . ، الحديث، ومن حديث عائشة: اليحشرون يوم القيامة حفاة، ومن حديث أبي هريرة: اليحشر الناس على ثلاث طرائق. . » الحديث، ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبن عليه: "أفتنا في بيت المقدس وأرض المحشر والمنشر. » الحديث، وإسناده جيد،

⁽٢) حديث: «سؤال منكر ونكير» تقدم.

٣) حديث: اكان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لا يسمعونه ولا يرونه أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت: اقال رسول الله ﷺ يوماً با عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى قلت: وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى حبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبدالله وكعب بن مالك وغيرهم.

كتاب تواعد العقائد

الأصل الثالث: هذاب القبر، وقد ورد الشرع به قال الله تعالى: ﴿ اَلنَّادُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْبَكَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۞﴾ [غانر: ٤٦]، واشتهر عن رسول الله ﷺ والسلف الصالح الاستعادة من عذاب القبر(١٠). وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور؛ فإن المدرك لألم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها.

الأصل الرابع: العيزان، وهو حق، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوْنِينَ ٱلْقِسْطَ لِيُؤْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [الانبياء: ٤٧]. وقىال تسعمالىي: ﴿فَهَن ثَقُلَتُ مَوَذِيثُتُمُ فَأَوْلَكَيِكَ هُمُ ٱلْمُقْلِحُونَ ﴿ وَمَنْ حَفَّتُ ۚ ٱلنَّارُ﴾ [الأعراف: ٩٠٨]، الآيــة ووجهها أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزناً بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب.

الأصل الخامس: الصراط، وهو جسر ممدود على متن جهم أرق من الشعرة وأحدّ من السيف. قال الله تعالى: ﴿ فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْهَمِيرِ ۞ وَقِفُوكُمْرَ إِنَّهُم تَسْقُولُونَ ۞﴾ [الصّافات: ٢٤،٢٣]، وهذا ممكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسيّر الإنسان على الصراط.

الأصل السادس: أن المجنة والنار مخلوقتان، قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مُعْـفِرَةٍ مِّن رَّبِيكُمْ وَحَنَّةٍ عَهُمُهَا ٱلسَّمَوْتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ آنَ عِمرَان: ١٣٣]، فقوله تعالى: ﴿أُعِنَّتُ وليل على أنها مخلوقة فيجب إجراؤه على الظاهر إذ لا استحالة فيه، ولا يقال لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى: ﴿لَا يُسْئُلُ عَنَا يَفَعَلُ وَهُمْ يُسْتُلُونَ ۗ ﴿ الْانْبِيَاء: ٢٣].

الأصل السابع: أنَّ الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ولم يكن نص رسول الله ﷺ على إمام أصلاً؛ إذ لو كان لكان أوْلَى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمراء على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفي هذا؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا؟ فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالاختيار والسيعة، وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة للصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله ﷺ وخرق الإجماع، وذلك مما لا يستجرىء على اختراعه إلا الروافض، واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وما جرى بين معاوية وعلي رصي الله عنهما كان مبنياً على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة؛ إذ ظن علي رصي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب، وظن معاوية أنَّ تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالأئمة ويعرض الدماء للسفك. وقد قال أفاضل العلماء: كل مجتهد مصيب. وقال القائلون: المصيب واحد ولم يذهب إلى تخطئة على ذو تحصيل أصلاً.

الأصل الثامن: أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على حسب ترتيبهم في الخلافة؛ إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عزّ وجلّ وذلك لا يطُّلع عليه إلا رسول الله ﷺ، وقد ورد مي الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة^(٢)، وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحي والتنزيل بقرائن

حديث: «الاستعاذة من عذاب القبر» أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائشة، وقد تقدم.

حديث: «الثناء على الصحابة» تقدم من حديث ابن عمر.

الأحوال ودقائق التفصيل، فلولا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا تأخذهم في الله لومة لاثم ولا يصرفهم عن الحق صارف.

الأصلُ التاسع: أنّ شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة: الذكورة، والورع، والعلم، والكفاية، ونسبة قريش؛ لقوله على: «الأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْشٍ» (١) وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق.

الأصل العاشر: أنه لو تعذر وجود الورع والعلم فيمن يتصدَّى للإمامة وكان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق حكمنا بانعقاد إمامته؛ لأنا بين أن نحرِّك فتنة بالاستبدال، فما يلقى المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهدم أصل المصلحة شغفا بمزاياها كالذي يبني قصراً ويهدم مصراً، وبين أن تحكم بخلو البلاد عن الإمام وبفساد الأقضية ودلك محال. ونحن نقضي بنفوذ قضاء أهل البغي في بلادهم لمسيس حاجتهم، فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة؟ فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هي قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقاً لأهل السنة ومبايناً لرهط البدعة. فالله تعالى يسدّدنا بتوفيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بمنّه وسعة جوده وفضله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى.

* * *

الفصل الرابع

من قواعد العقائد في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرّق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه، وفيه ثلاث مسائل

مسألة:

اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره؟ وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلازمه؟ فقيل: إنهما شيء واحد، وقيل: إنهما شيئان لا يتواصلان، وقيل: إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر. وقد أورد أبو طالب المكي في هذا كلاماً شديد الاضطراب كثير التطويل، فلنهجم الآن على التصريح بالحق من غير تعريج على نقل ما لا تحصيل له، فنقول: في هذا ثلاثة مباحث: بحث عن موجب اللهظين في اللغة، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة، والبحث الأوّل لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي.

البحثُ الأول: في موجب اللغة، والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا اللهِ عَالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُوْمِنٍ لَنا﴾ [يُوسُف: ١٧]، أي: بمصدق، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرَّد والإباء والعباد. وللتصديق محل خاص وهو القلب، واللسان ترجمان، وأما التسليم فإنه

⁽١) حديث: الأثمة من قريش، أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكم.

عامً في القلب واللسان والجوارح، فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود، وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح. فموجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام؛ فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً.

البحث الثاني: عن إطلاق الشرع؛ والحق فيه أنَّ الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجُنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِنَّ فَمَا وَمَدَّنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتِ مِنَ ٱلْشَهِلِينَ ﴿ ﴾ [المذاريات: ٣٥، ٣٦]، ولم يكن بالاتفاق إلا سيت واحد، وقال تعالى: ﴿ يَقَرُمُ إِن كُنُمُ مَا مَنهُم إِللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوْكُلُوا إِن كُنهُم شَلِيبِنَ ﴾ [يُونس: ١٨٤، وقال عليه المنه عن الإيمان فأجاب بهذه وقال عليه المنه الله عليه الإيمان فأجاب بهذه الخمس(٢)، وأما الاختلاف، فقوله تعالَى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنّاً قُل لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسَلَمْنا ﴾ [المحجزات: ١٤]، ومعناه استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلِّب فقط وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال: ﴿أَنْ تَوْمِنَ بِاللَّهُ وَمَلائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره، فقال: فما الإسلام؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس الاسمال عن تسليم الظاهر بالقول والعمل. وفي الحديث عن سعد أنه ﷺ: "أعطى رجلاً عطاء ولم يعط الآخر، فقال له سعد: يا رسول الله تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن؟ فقال ﷺ: ﴿أَوَ مُسلِّمُ فَأَعَادُ عَلَيْهِ فَأَعَادُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ وَأَمَا التَّدَاخُلُ فَمَا رَوِي أَيْضًا أَنَّهُ سئل فقيل: أي الأعمال أفضل؟ فقال على: "الإسلام، فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال على: «الإيمان»(°) وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات في اللغة؛ لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيماناً والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة.

أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضاً موافق للغة، فإنّ التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم

 ⁽۱) حديث: ابني الإصلام على خمس أخرجاه من حديث ابن عمر.

⁽Y) حديث: «سئل عن الإيمان فأجاب بهده الخمس؛ أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وقد عبد القيس: «تدرون ما الإيمان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتوتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام؛ والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج، وزاد: «وأن تؤتوا خمساً من المغتم».

 ⁽٣) حديث جبريل لما سأله عن الإيمان عقال: •أن تؤمن بالله وملائكته. . » الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة ومسلم
 من حديث عمر دون ذكر •الحساب، فرواه البيهقي في البعث وقد تقدم.

⁽٤) حديث سمد: فأعطى رجلاً عطاء ولم يعط الأَخْر فقال له سمد: يا وسول الله، تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن فقال: أو مسلم... الحديث. أخرجاه بنحوه.

حديث: «سئل أي الأعمال أفضل؟ فقال: الإسلام. فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال: الإيمان» أخرجه أحمد
 والطبرائي من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الأخير: «فقال: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان»
 وإسناده صحيح.

التسليم، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه، فإنّ من لمس غيره ببعض بدنه يسمى لامساً وإن لم يستغرق جميع بدنه، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الطاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للمسان، وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْآخَرَاتُ اَلَمَّاتُ الْمَحْرَاتُ اللهُ وَقُوله عَلَيْهُ في حديث سعد: «أَوْ مُسْلِم» لأنه فضًل أحدهما على الآخر، ويريد بالاختلاف تفاضل المسلمين. وأما التداخل فموافق أيضاً للغة في خصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل في الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الدي عنيناه بالتداخل وهو موافق للغة في خصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل، وعلى هذا خرج قوله: الإيمان» في جواب قول السائل أي الإسلام أفضل» لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام فأدخله فيه، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم والظاهر جميعاً فإنْ كل ذلك تسليم وكذا الإيمان ويكود التصرف في الإيمان على الحصوص بتعميمه وإدخال الظاهر في معناه وهو جائز؛ لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة على الحصوص بتعميمه وإدخال الظاهر في معناه وهو جائز؛ لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشحر مع ثمره على سبيل النسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفاً لاسم الإسلام ومطابقاً له فلا يزيد عليه ولا ينقص، وعليه خرّج قوله ﴿ ﴿ فَا وَبُدُنَ اللَّهُ لِيْ الشَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّهُ ال

البحث الثالث: عن الحكم الشرعي والإسلام والإيمان حكمان أخروي ودنيوي. أما الأخروي: فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله ﷺ: "يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذُرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ (). وقد اختلفوا في أن هذا الحكم على ماذا يترتب؟ وعبَّروا عنه بأن الإيمان ماذا هو؟ فمن قائل إنه مجرد العقد، ومن قائل يقول: إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان، ومن قائل يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان، ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول: من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف في أن مستقره الجنة وهذه درجة.

الدرجة الثانية: أن يوجد اثنان وبعض الثالث ـ وهو القول والعقد وبعض الأعمال ـ ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر، فعند هذا قالت المعتزلة: خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل في الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخلد في النار، وهذا باطل كما سنذكره.

الدرجة الثالثة: أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح، وقد اختلفوا في حكمه، فقال أبو طالب المكي: العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه، وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تشعر بنقيض غرضه كقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَكِيلُواْ اَلفَكِلِكَتِ ﴾ [البَقْرَة: ٢٥]، إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان وإلا فيكون العمل في حكم المعاد، والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله ﷺ: ﴿لا يَكْفُرُ أَخَذَ إِلاَّ بَعْدَ جُحُودِهِ لِمَا أَقَرَّ بِهِ (٢٠) وينكر

⁽١) حديث: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان» أخرجاه من حديث أبي سعيد الخدري في الشفاعة ، ومبه: «اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه..» الحديث. ولهما من حديث أنس: «فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة _ أو خردلة _ من إيمان» لعظ البخاري: «منهما» وله تعليقاً من حديث أنس: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان» وهو عندهما متصل بلفظ: «خير» مكان «إيمان».

 ⁽٢) حديث: الا تكفروا أحداً إلا يجحود بما أثر به الخرحه الطيراني في الأوسط من حديث أبي سعيد: (فن يخرج أحد من الإيمان إلا بجحود ما دخل فيه وإسناده ضعيف.

على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر، والقائل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة؛ إذ يقال له: من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة؟ فلا بد أن يقول: نعم، وفيه حكم بوحود الإيمان دون العمل، فنزيد ونقول: لو بقي حياً حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات، فهل يخلد في النار؟ فإن قال: نعم فهو مراد المعترلة، وإن قال: لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركناً من نفس الإيمان ولا شرطاً في وجوده ولا في استحقاق الجنة به، وإن قال: أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلي ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية، فنقول: فما ضبط تلك المدة، وما عدد تلك الطاعات التي نتركها يبطل الإيمان، وما عدد الكبائر التي بارتكابها يبطل الإيمان؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلاً.

الدرجة الرابعة: أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشتغل بالأعمال ومات، فهل نقول مات مؤمناً بينه ويين الله تعالى؟ وهذا مما اختلف فيه، ومن شرط القول لتمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال الله وينحرُجُ مِنَ النّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الإيمان به وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلد في النار؟ ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق.

المدرجة المخامسة: أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة النطق بكلمتي الشهادة وعلم وجوبها، ولكنه لم ينطق بها فيحتمل أن يحعل امتناعه عن النطق كامتناعه عن الصلاة، ونقول هو مؤمن غير مخلد في النار، والإيمان هو التصديق المحض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكول الإيمان موجوداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر؛ إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب. وقد قال على المتخرّجُ مِنَ النارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةِه، ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب، وقال يتعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب، وقال قائلون: القول ركن إذ ليس كلمتا الشهادة إخباراً عن القلب، بل هو إنشاء عقد آخر وابتداء شهادة والتزام والأول أظهر، وقد غلا في هذا طائفة المرجئة فقالوا: هذا لا يدخل النار أصلاً وقالوا: إن المؤمن وإن عصى فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم.

العرجة السادسة: أن يقول بلسانه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ولكن لم يصدق بقلبه، فلا نشك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلد في النار، ولا نشك في أنه في حكم الدنيا للذي يتعلق بالأثمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه، وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطو عليه في قلبه وإنما سلك في أمر ثالث وهو الحكم الدنيوي فيما ببنه وبين الله تعالى، وذلك بأن يموت له في الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتي ويقول: كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقله هل تلزمه إعادة النكاح؟ هذا محل نظر فيحتمل أن يقال. أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهراً وباطناً، ويحتمل أن يقال: تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه وباطناً، ويحتمل أن يقال: تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه وباطناً ويحتمل أن يقال: تناط بالظاهر عند الله تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويلزمه إعادة النكاح، ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين، وعمر رضي الله عنه كان ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه لا يحضر حذيفة رضي الله عنه، والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كانت من العبادات. والتوقي عن الحرام أيضاً من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله ﷺ: «طلبُ الحَلالِ فَرِيضَةً من يموت، والصلاة لقوله ﷺ: «طلبُ الحَلالِ فَرِيضَةً من العبادات. والتوقي عن الحرام أيضاً من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله المقالية الحَلالِ فَرِيضَةً عن العبادات. والتوقي عن الحرام أيضاً من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله المقال المحراء أله المحراء أله المحراء أله المحراء أله العبادات. والتوقي عن الحرام أيضاً من جملة ما يجب لله كالصلاة لقوله المحراء المحراء أله أله المحراء أله المحراء أله المحراء أله المحراء أله المحراء أله أله المحراء أله المحر

بَعْدَ فريضة»، وليس هذا مناقضاً لقولنا: إن الإرث حكم الإسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام النام هو ما يشمل الظاهر والباطن، وهذه مباحث فقهية ظنية تبنى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغي أن يظنّ القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإيراده في فن الكلام الذي يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى العادات والمراسم في العلوم.

فإن قلت: فما شبهة المعترلة والمرجئة وما خُجَّة بطلان قولهم؟ فأقول: شبهتهم عمومات القرآن، أما المرجئة فقالوا: لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصي لقوله عز وجلَّ: ﴿ فَنَن يُؤْينُ بِرَيِّهِ، فَلَا عَنَاتُ بَغَسُنَا وَلَا رَهَقَا﴾ اللحن: ١٣]، ولقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَّ ءَامَنُواْ بِآلَةٍ وَرُسُلِهِ: أَوْلَتِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَّ﴾ [التحديد: ١٩] الآية، ولقوله تعالى: ﴿ كُلُّمَا أَلْقِيَ فِيهَا فَرْجٌ سَأَلْهُمْ خَزَنَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَذَّبُنَا وَقُلْنَا مَا زَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [المُلك: ٨، ٩]، فقوله: ﴿ كُلْمَا أَلْقِيَ فِهَا فَوْجٌ﴾ عام فينبغي أن يكون من ألقي في النار مكذباً، ولقوله تعالى: ﴿ لَا بَسُلَهُمْ إِلَّا ٱلْأَنْقَى ١ ٱلَّذِي كُذَّبَ وَتُولُقُ ١ اللَّيْلِ: ١٦،١٥)، وهذا حُصر وإثبات ونفي، ولقوله تعالى: ﴿مَن جَاءً ۚ بِٱلْمَسَنَةِ فَلَمُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُم مِن فَرَعٍ يَوْمَهِذٍ مَامِنُونَ ۞﴾ [النَّسل: ٨٩]، فالإيسمان رأس الحسنات، ولقوله تعالى: ﴿وَأَلَلَهُ يُحِبُّ ٱلْتُعْيِنِينَ﴾ [آل جمزان: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُفِييعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ولا حجة لهم في ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل؛ إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل، ودليل هذا الْتَأْوِيلِ أَخْبَارِ كَثْيَرَةَ فِي مَعَاقِبَةِ الْعَاصِينِ وَمَقَادِيرِ الْعَقَابِ، وقوله ﷺ: "يَغْرُجُ مِنَ الْنَارِ مَنْ كَانَ فِي قُلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرْةٍ مِنْ إِيمَانِ». فكيف يخرج إذا لم يدخل؟ ومن القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِّكَ يَهِم وَيُغْفِرُ مَا يُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآةً﴾ [النَّساء: ٤٨]، والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتْسِ ٱللَّهَ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّهُ خَلِدِينَ فِيهَا﴾ [الجن: ٢٧]، وتخصيصه بالكفر تحكم، وقوله تعالى: ﴿ أَلَا ۚ إِنَّ ٱلطَّنزلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشّورى: 10]، وقال تعالى ﴿ وَمَن جَآءَ وَٱلسَّيِّكَةِ فَكُبَّتْ وُيُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ [التَّمل: ٩٠]، فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بدُّ من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأنّ العصاةً يعذبون (١٠) بل قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُرُ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريّم: ٧١]، كالصريح في أنَّ ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرنكبه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَشَلَهُما إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَوَلَٰلَى ١٣٠٤) الليْل: ١٦٠١٥)، أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقى شخصاً معيناً أيضاً، وقوله تعالَى: ﴿ كُلَّمَا أَلْنِي فِهَا فَرْمٌ سَأَلَمُم خَرَّنَهَا ﴾ [الملك: ١٨، أي فوج من الكفار، وتخصيص العمومات قريب. ومن هذه الآية وقع للأشعري وطائفة من المتكلمين إنكار صيع العموم وأنّ هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدلُّ على معناها. وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالَى: ﴿وَإِنَّ لَعَمَّارُ لَيَن تَابَ وَمَامَنَ رَغِيلَ مَسْلِمًا ثُمَّ ٱهْنَدَىٰ ۞﴾ [له: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَيِلُوا الطَّيْلِكُتِ﴾ [الغصر: ٣٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُنكُرُ إِلَّا وَادِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مُّقْفِينًا ﴿﴾ [مريَم ٢٠]، ثم قال: ﴿ثُمُّ نُنَيِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ [مريَم: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشِي ٱللَّهَ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَلْمُ مُأْرَ جَهَنَّدَ﴾ [الجنّ: ٢٣] وكل آيةً ذكر الله عزّ وجلّ العمل الصالح فيها مقروناً بالإيمان، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقَتُلُ مُؤْمِنَا مُتَعَمِدًا فَجَرَآؤُو جَهَنَّدُ خَيَالِنَا فِيهَا﴾ [النِّساء: ٩٣]، وهذه العمومات أيضاً

⁽۱) حديث: «تعذيب العصافه أخرجه البخاري من حديث أنس: «ليصيبن أقواماً صفع من النار بلنوب أصابوها. ١٠ الحديث، ويأتي في ذكر الموت عدة أحاديث.

مخصوصة بدليل قوله تعالى: ﴿وَنَفِيْرُ مَا ذُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاّةُ ﴾ [النّساء: ٤٨]، فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ما سوى الشرك. وكذلك قوله عليه السلام: "يَخْرُجُ مِنَ النّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانِه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُقِيبِعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف. ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف. ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهُ فَي مَل هذا السبب. وقوله تعالى: ﴿ وَهُ مَن يَقْتُلُ مُؤْمِنَكَ اللّهُ وَاللّه الله عليه واحدة؟

فإن قلت: فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل، وقد اشتهر عن السلف تولهم: الإيمان عقد وقول وعمل، فما معناه؟ قلنا: لا يبعد أن يعدّ العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان، ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنساناً بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد، وكذلك يقال: التسبيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل يقدها، فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعدمه وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض، وقد قال على الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير والصحابة رضي الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقاً إيماناً تاماً كاملاً، كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الإنسانية.

مسألة:

فإن قلت: فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ـ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ـ فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصوّر فيه زيادة ولا نقصان؟ فأقول: السلف هم الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده، بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشيء لا يريد بذاته، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود، بل تزيد بالآداب والسنن، فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان.

فإن قلت: فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة؟ فأقول: إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول: الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلاً. ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان، وكذلك النصراني والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع

⁽١) حديث: الا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن؛ منفق عليه من حديث أبي هريرة.

أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدّة التصميم. وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضاً، والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَاَدَارُمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهِ اللّهُ قَالَ الله تعالى: ﴿ وَلِلْاَادُمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ يَعمُ يوى في بعض الأخبار: «الإيمان يَزِيدُ وَيَتْقُصُه (1) وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرّد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال، حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك، مل من يعتقد في اليتم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أورك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجب عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحس من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة. وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها، وسيأتي هذا في ربع المنجبات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالعقائد والقلوب، فإن ذلك من جنس تعلق الملك عند بيان وجه تعلق الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة، والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك، ولطف الارتباط ودقته بين العالميس انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة. ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال:

رقَ السرجاجُ ورقَبِ السخيم ث وتشابها فيتبشاكل الأمرُ في السرجاجُ ورقب المسرّ ولا خسم ولا قيدحُ ولا خسم ر

ولنرجع إلى المقصود، فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العلمين أيضاً اتصال وارتباط، فلذلك ترى علوم المكاشفة تتسلق كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تنكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإطلاق، ولهذا قال على كرّم الله وجهه: إن الإيمان ليبدو لمعة بيضاء فإدا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه، فذلك هو المختم وتلا قوله تعالى: ﴿ كُلُّ بِلُّ رَانَ عَلَى قُلُوجِم ﴾ [المطفين: 18] الآية.

الإطلاق الثاني: أن يراد به التصديق والعمل جميعاً كما قال على: «الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَاباً» (٢٠)، وقال على: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن»، وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه، وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق؟ هذا فيه نظر، وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه.

⁽۱) حديث: «الإيمان يزيد وينقص» أخرجه ان عدي في الكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة وقال ابن عدي: باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحي يتعمد الكذب، وهو عند ان ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبى الدرداء.

 ⁽٣) حديث: الإيمان مضع وسيمون باباً»، وذكر بعد هذا فراد فيه: «أدناها إماطة الأذي عن الطريق» أخرجه المخاري
ومسلم من حديث أبي هريرة: «الإيمان بضع وسيعون»، زاد مسلم في رواية: «وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها»
فذكره ورواه بلفظ المصنف الترمذي وصححه.

الإطلاق الثالث: أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة، وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكني أقول: الأمر اليقيني الذي لا شك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه، فليس طمأنينة النفس إلى أنَّ الاثنين أكثر من الواحد كطمأنينتها إلى أن العالم مصنوع حادث، وإن كان لا شك في واحد منهما فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها، وقد تعرّضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة، وقد طهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق، وكيف لا وفي الأخبار: "أنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانِ؟. وفي بعض المواضع في خبر آخر «مِثْقَالُ دِينارِ» (١)، فأي معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت؟.

مسألة:

فإن قلت: ما وجه قول السلف: «أنا مؤمن إن شاء الله»، والاستثناء شك والشك في الإيمان كفر، وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الحواب بالإيمان ويحترزون عنه. فقال سفيان الثوري رحمه الله: من قال: أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال: أنا مؤمن حقاً فهو بدعة، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه، ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله؟ كما أن من كان طويلاً وسخياً في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله، وكذا من كان مسروراً أو حزيناً أو سميعاً أو بصيراً، ولو قيل نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله، وكذا من كان مسروراً أو حزيناً أو سميعاً أو بصيراً، ولو قيل للإنسان: هل أنت حيوان لم يحسن أن يقول: أنا حيوان إن شاء الله. ولما قال سفيان ذلك قبل له: فماذا نقول؟ قال: قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وأي فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن؟ وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ فقال: إن شاء الله، فقيل له: لم تستثني يا أبا سعيد في لايمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق عليً الكلمة. وكان يقول: عا يؤمني أن يكون الله سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني وقال: اذهب لا قبلت لك عملاً، مؤانا أعمل في غير معمل. وقال إبراهيم بن أدهم: إذا قيل لك: أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله، وقال مرة: قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة. وقيل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ قال: أرجو إن شاء الله. وقال الثوري: نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندري ما نحن عند الله تعالى. فما معنى هذه الاستثناءات؟ فالجواب: أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوحه: وجهان مستندان إلى الشك معنى هذه الاستثناءات؟ فالجواب: أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوحه: وجهان مستندان إلى الشك.

الوجه الأول: الذي لا يستند إلى معارضة الشك: الاحتراز من الجرم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُرَكُّونَ النفسَكُمُ ﴾ [الشّجم: ٣٧]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى اللَّذِينَ يُزَكُّونَ الفُسَهُمُ ﴾ [السّاء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿ أَنظُر كَيْكَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ ﴾ [السّاء: ٥٠]، وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟: فقال: تناء المرء على نفسه. والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها ثقل من عرف التزكية، كما يقال للإنسان: أنت طبيب أو فقيه أو مفسر؟ فيقول: نعم إن شاء الله، لا في معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة الترديد والتضعيف لنفس الحبر

 ⁽۱) حديث: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار»، منفق عليه من حديث أبي سعيد، وسيأتي ذكر الموت وما

ومعناه التضعيف للازم من لوازم الخبر وهو التزكية. وبهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء.

الوجه الثاني: التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه، فقد أدب الله سبحانه نبيه على فقال تعالى: ﴿ وَلَا نَقُولَنَ لِشَائَعُ إِنِي فَاعِلُّ دَلِكَ عَدًا ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّهُ الله الله سبحانه نبيه على فقال تعالى: ﴿ لَنَخُنُ الْسَجِدَ الْحَوَامَ إِن اللّه الله عَلَي اللّهُ عَلَيْكُمُ وَمُقَمِّرِينَ ﴾ [النّع: ٢٧]، وكان الله سبحانه عالماً بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاءه، ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله على في كل ما كان يخبر عنه معلوماً كان أو مشكوكاً، حتى قال على لما دخل المقابر: «السّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْم مُؤْمِنِينَ وَإِنّا إِنْ شَاءَ اللّهُ بِكُمْ للإجقُونَ» (١٠)، واللحوق بهم عير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر ألله تعالى وربط الأمور به، وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار بعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والنمني، فإذا قيل لك: إن فلان عمول مرضه يموت سريماً فتقول: إن شاء الله بمعنى الرغبة، فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى ويصح فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة، فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة، وكذلك العدول إلى معنى التأدب بذكر الله تعالى كيف كان الأمر.

الوجه الثالث: مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقاً إن شاء الله؛ إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأعيانهم: ﴿ أَوْلَيِّكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾ [الانفال: ٤]، فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر. والشك في كمال الأيمان حق من وجهين: أحدهما: من حيث إن النفاق يزيل كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه. والثاني: أنه يكمل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال. أما العمل فقد قال الله تـــعـــالـــى: ﴿ إِنَّمَا ٱلشُّؤُونُونَ ٱلَّذِينَ مَاسَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ بَرْتَابُواْ وَجَنهَدُواْ بِأَمْوَلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَكِيلِ ٱللَّهُ أُوْلَيِّكَ هُمُ ٱلصَّدِيقُونَ ﴿ إِللَّهُ وَالمُجرَاتِ: ١٥]، فيكون الشك في هذا الصدق، وكذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَكِنَ ٱلْهِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَةِكَةِ وَٱلْكِئَبِ وَالنَّبِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد ثم قال تعالى: ﴿ أَوْلَتِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوًّا ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧]، وقد قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُونُواْ ٱلْمِلْرَ دَرَجَنتِ﴾ [السجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِى مِنكُمْ مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْجِ وَقَائَلُ﴾ [المحديد: ١٠] الآية. وقد قال تحالى: ﴿ هُمْ دَرَجَنتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ [ال عِمرَان ١٦٣]، وقال عِنْ الإِيمَانُ عُزِيانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَىٰ (٢) الحديث. وقال عِنْ: الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَاباً أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَّىٰ عَنِ الطَّريقِ»، فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال، وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي فقوله على: الزَّبَع مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُتَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَصَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَحَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا الثّنبِنَ خَانَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَه (٣٠، وفي بعض الروايات: ﴿وَإِذَا غَاهَدَ غَدَرٌ ۗ وَفِي حَدَيثُ أَبِي سَعِيدُ الْخَدْرِي: ﴿الْقُلُوبِ أَرْبِعَةُ: قُلْبِ أَجِرَهُ وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها

⁽١) حديث: «لما دخل المقابر قال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين. ، » الحديث، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة،

⁽٢) حديث: «الإيمان عريان» تقدم في العلم.

 ⁽٣) حديث: اأربع من كن فيه فهو منافق. . . ٤ الحديث. متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو.

الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة بمدها القيح والصديد فأي المادتين غلب عليه حكم له بهاه(١٠)، وفي لفظ آخِر: «فلبت عليه نعبت به»، وقال عليه السلام: «أَكْثَرُ مُنَافِقِي هُذِهِ الأُمَّةِ قُرَّاؤُهاهُ(٢٠ وفي حديثُ: «الشَّرْكُ أَخْفَىٰ فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ صَلَىٰ الصَّفَا»(٣)، وقال حذيفة رضي الله عنه: «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله على يُصير بها منافقاً إلى أن يموت وإني الأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات الله عن وقال بعض العلماء: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه بريء من النفاق. وقال حديفة: المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبتي ﷺ فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه، وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكماله وهو خفى، وأبعد الناس منه من يتخوفه وأقربهم منه من يرى أنه بريء منه. فقد قبل للحسن البصري: يقولون أن لا نفاق اليوم، فقال: يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق. وقال هو أو غيره: لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا. وسمع ابن عمر رصى الله عنه رجلاً يتعرّض للحجاج فقال: أرأيت لو كان حاضراً يسمع أكنت تتكلم فيه؟ فقال: لا، فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رَسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْن فِي الدُّنْيَا جَعَلَهُ اللَّهُ ذَا لِسَانَيْنِ فِي الآخِرَةِ»، وقال أيضاً ﷺ: ﴿شَرُّ النَّاسِ ذُو الوَجْهَيْنِ الْذِي يَأْتِي هَوُلاءِ بَوَجْهِ وَيَأْتِي هُؤُلاءِ بِوَجْهِهِ. وقيلَ للحسن: إنْ قوماً يقولون إما لا نخاف النفاق، فقال: والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحب إليَّ من تلاع الأرض دهباً. وقال الحسن: إنَّ من النفاق اختلاف اللسان والقلب، والسر والعلانية، والمدخل والمخرج. وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً، فقال: لو كنت منافقاً ما خفت النفاق إنّ المنافق قد أمن من النفاق. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين ومائة ـ وفي رواية خمسين ومائة ـ من أصحاب النبيّ ﷺ كلهم يخافون النفاق. وروي «أنّ رسول الله ﷺ كان جالساً فى جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا: يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه، فقال ﷺ: أَرَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ سُفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، فجاء الرجِل حتى سلم وجلس مع القوم، فقال ﷺ: نَشَلْنُكَ اللَّهَ هَلْ حَلَّثْتَ نَفْسَكَ حِينَ أَشْرَفْتَ عَلَىٰ القَوْم أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ مِنْكَ؟ فقال: اللهم نعم (١٠)، فقال ﷺ في دعائه: اللَّهُمَّ إِنِّي

⁽١) حديث: «القلوب أربعة: قلب أجرد. ٢٠ الحديث، أخرحه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه لبث بن أبي سليم مختلف فيه.

 ⁽٣) حديث: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر.

 ⁽٣) حديث، فالشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفاء، أخرجه أبو يعلى وابن عدي وابن حبان في الضعفاء من
 حديث أبي بكر ولأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى، وسيأتي في ذم الجاه والرياء.

 ⁽٤) حديث حذيفة: "كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله يهي بصير بها منافقاً.." الحديث. أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة، وحديث حذيفة: "المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله يهي ..." الحديث. أخرجه البخاري إلا أنه قال: "شر" بدل أكثر.

 ⁽ه) حديث: السمع ابن عمر رجلاً يتعرض للحجاح فقال: أرأيت لو كان حاضراً أكنت تتكلم فيه قال: لاء قال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ واه أحمد والطيراني ينحوه وليس فيه ذكر الحجاح.

 ⁽٦) حديث: «كان حالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً فأكثروا الثناء عليه فبينما هم كذلك إذ طلع رحل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء. ٤٠ الحديث. أخرجه أحمد والنزار والدارقطني من حديث أنس.

أَسْتَغْفِرُكَ لِمَا عَلِمْتُ وَلِمَا لَمْ أَعْلَمْ، فقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ فقال: وَمَا يُؤْمِنُنِي وَالقُلُوبُ بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمُنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ وقد قال سبحانه: ﴿وَيَدَا لَمُمْ قِنَ اللَّهِ مَا لَمُ يَكُونُواْ يَمْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: ٤٧])(١)، قيل في التفسير: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات.

وقال سري السقطي: لو أنّ إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور فخاطبه كل طير منها بلغة، فقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً في يديها، فهذه الأخبار والآثار تعرّفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه، حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين؟ وقال أبو سليمان الداراني: سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره فخفت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحي فكففت. وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه لا أصله، قالنفاق نفاقان: أحدهما: يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخلدين في النار، والثاني: يفضي بصاحبه إلى النار مدّة أو ينقص من درجات عليين ويحط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه، ولذلك حسن الاستثناء فيه، وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية، والأمن من مكر الله والعجب، وأمور أحر لا يخلو عنها إلا الصديقون.

الوجه الرابع: وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدري أيسلم له الإيمان عند الموت أم لا؟ فإن ختم له الكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال: أنا صائم قطعاً، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التمام إلى غروب الشمس من آخر النهار. وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه، والعاقبة مخوفة ولأجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشيئة الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور المقضى به ولا مطلع عليه لأحد من البشر، فخوف الخاتمة كخوف السابقة وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بنقيضه، فمن الذي يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسني؟ وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَبَاآدَتْ سَكَّرَةُ ٱلْمَوْتِ بِلَلْنَ ﴾ [ق: ١٩]، أي بالسابقة يعني أظهرتها. وقال بعض السلف: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه. وقيل: من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك. وقيل: هي عقوبات دعوي الولاية والكرامة بالافتراء، وقال بعض العارفين: لو عُرضَتْ عليَّ الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأني لا أدري ما بعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار. وقال بعضهم لو عرفت واحداً بالتوحيد خمسين سنة، ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد. وفي الحديث:

⁽١) حديث: «اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أصلم. .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل» ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل: «وشر ما أعلم وشر ما لا أعلم».

المَن قَالَ أَنَا مُؤْمِنَ فَهُوَ كَافِرٌ وَمَن قَالَ أَنَا عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ () وقيل في قوله تعالى: ﴿وَنَسَتُ كِلَكَ مِدْفًا وَعَدَلاً لَمِن مات على الإيمان وعدلاً لمن مات على الإيمان وعدلاً لمن مات على الشرك، وقد قال تعالى: ﴿وَيَهَ عَنِبَهُ الْأَمُولِ اللَّمَةِ: ١٤]، فمهما كان الشك بهذه المثابة كان السرك، وقد قال تعالى: ﴿وَيَهَ عَنِبَهُ الْأَمُولِ اللَّهِ الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرى الذمة، وما فسد قبل الغروب لا يبرى الذمة فيحرج عن كونه صوماً، فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال: أصمت بالأمس؟ فيقول: نعم إن شاء الله تعالى، إذ الصوم الحقيقي هو المقول والمقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى، فمن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر ويكون ذلك شكاً في القبول؛ إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه، فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به «كتاب الشك فيه، فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به «كتاب المشك فيه، فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به «كتاب الشك فيه، فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به «كتاب المشك فيه، فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به «كتاب

تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى



⁽١) حديث: قمن قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال: أنا عالم فهو جاهل؟ أخرجه الطبراني في الأوسط بالشطر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سليم تقدم، والشطر الأول روي من قول يحيى بن أبي كثير رواه الطرائي في الأصغر بلفظ: قمن قال أنا في المجتة فهو في النار؟ وسنده ضعيف.

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات

بنسيد الله النخف التحسير

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرنبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصدّيقين، والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها فإن الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته، ولن تحل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ما سوى الله تعالى عنه. ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَيْ اللّهُ ثُدَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْفِهِمْ يُلْعَبُونَ ﴾ [الانتام: ١٩]، لأنهما لا يجتمعان في قلب ﴿ مَا جَمَلُ اللّهُ لِرَجُلِ مِن قُلْبَرْتِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الاحزاب: ٤]، وأما عمل القلب، فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد المشاهدة والرذائل الممقوتة، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني،

كتاب الطهارة

⁽١) حديث: «بني اللدين على النظافة» لم أجده هكذا، وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: «تنظفوا فإن الإسلام نظيف»، والطبراني في الأرسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود: «النظافة تدهو إلى الإيمان».

 ⁽٢) حديث: «مثتاح المصلاة الطهور»، أخرحه أبو داود والترمذي من حديث علي، قال الترمذي: هذا أصح شيء في هذا الباب وأحسن.

 ⁽٣) حديث: «الطهور نصف الإيمان»، أخرجه الترمذي من حديث رجل من بني سليم وقال: حسن، ورواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ «شطر» كما في الإحياء.

فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى، وكذلك تطهير الجوارح عن المناهى أحد الشطرين وهو الشطر الأوَّل الذي هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأوَّل وعمارتها بالطاعات الشطر الثاني، فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات، وكلما عزَّ المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته، فلا تظنَّ أنَّ هذا الأمر يدرك وينال بالهويني، نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب، فصار يمعن فيها ويستقصي مي مجاريها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظناً منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل أنَّ الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأوَّلين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب، وتساهلهم في أمر الظاهر، حتى إنَّ عمر رضي الله عنه مع علوٌّ منصبه توضأ من ماء في جرّة نصرانية، وحتى إنهم ما كانوا يغسلون اليد من الدسومات والأطعمة، بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخمص أقدامهم وعدّوا الأشنان من البدع المحدثة، ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات، ومن كان لا يجعل بينه وبين الأرض حاجزاً في مضجعه كان من أكابرهم، وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء. وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة: «كنا نأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى ثم تفركها بالتراب ونكبر؟(١)، وقال عمر رضي الله عنه: «ما كنا نعرف الأشنان في عصر رسول الله ﷺ وإنما كانت مناديلنا بطون أرجلنا. كنا إذا أكلنا الغمر مسحنا بهاه(٢٠)، ويقال: أوّل ما ظهر من البدع بعد رسول الله ﷺ أربع: المناخل والأشنان والموائد والشبع. فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم: الصلاة في النعلين أفضل؛ لأن رسول الله على لما نزع نعليه في صلاته بإخبار جبريل عليه السلام له أنَّ بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال ﷺ: ﴿لِمَ خَلَعْتُمْ تِعَالَكُمْ؟﴾(٣) وقال النخعي في الذين يخلمون نعالهم: وددت لو أنّ محتاجاً جاء إليها فأخذها، منكراً لخلم النعال. فهكذا كان تساهلهم في هذه الأمور، بل كانوا يمشون في طين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون في المساجد على الأرض، ويأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالدواب وتبول عليه، ولا يحترزون من عرق الإبل والخيل مع كثرة تمرّغها في النجاسات، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق النجاسات، فهكذا كان تساهلهم فيها. وقد انتهت النُّوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هي مبنى الدين فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر، كفعل الماشطة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر

الحديث: «كنا تأكل الشواء فتقام الصلاة فندخل أصابعنا في الحصاء...» الحديث. أخرجه من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء ولم أره من حديث أبى هريرة.

حدیث عمر: (ما کنا نعرف الأشنان علی عهد رسول الله ﷺ وإنما کانت منادیلنا باطن أرجلنا. . الحدیث. لم أحده من حدیث عمر ولابن ماجه نحوه مختصراً من حدیث جابر.

٣) حديث اخلع نعليه في الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري.

والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون دلك ولا يتعجبون منه ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر، أو مشى على الأرض حافياً، أو صلى على الأرض، أو على بواري المسجد من غير سجادة مفروشة، أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من أدم، أو توضأ من آنية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدّوا عليه النكير ولقبوه بالقدر وأخرجوه من زمرتهم واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته. فسموا البدادة التي هي من الإيمان قدارة والرعونة نظافة، فانظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه.

فإن قلت: أفنقول: إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات؟ فأقول: حاشا لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل، ولكني أقول: إنّ هذا التنظيف والتكلف وإعداد الأواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المقنع به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التحرّد فهي من المباحات، وقد يقترن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمعروفات وتارة بالمنكرات، فأما كونها مباحة في نفسها فلا يخفى أنّ صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف، وأما مصيرها منكراً فبأن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله ﷺ: "بُنيَ اللّينُ عَلَى النّظافية، حتى ينكر به على من يتساهل فيه تساهل الأولين أو يكون ويفسر به قوله تلق: المحظور فيصير منكراً بهذين القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرهم، فإن ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكراً بهذين الاعتبارين، أما كونه معروفاً فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين، وأن لا ينكر على من ترك ذلك، ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات، ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره، فإذا لم يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات، ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره، فإذا لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتعلوا بنوم أو حديث فيما لا يعني فيصير شغلهم به أولكي الأن الاشتغال يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتعلوا بنوم أو حديث فيما لا يعني فيصير شغلهم به أولكي الأن الاشتغال بالطهارات يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات، قلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف.

وأما أهل العلم والعمل، فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر في حقهم وتضييع العمر الذي هو أنفس الجواهر وأعزها في حق من قدر على الانتفاع به، ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا ينبغي للبطال أن يترك النظافة وينكر على المتصوّفة ويزعم أنه يتشبه بالصحامة؛ إذ التشبه بهم في أن لا يتفرّغ إلا لما هو أهم منه، كما قيل لداود الطائي: لم لا تسرح لحيتك؟ قال: إني إذن لفارغ. فلهذا لا أرى للعالم ولا للمتعلم ولا للعامل أن يضيع وقته في غسل الثياب احترازاً من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهماً بالقصار تقصيراً في الغسل، فقد كانوا في العصر الأوّل يصلّون في الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرّق بين المقصورة والمدبوغة في الطهارة والنجاسة، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدققون نظرهم في استنباط الاحتمالات الدقيقة، بل كانوا يتأملون في دقائق الرباء والظلم، حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يمشي معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور: لا تفعل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف. فالناظر إليه معين له على الإسراف. فكانوا يعدون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا في فالناظر إليه معين له على الإسراف. فكانوا يعدون جمام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لا في النساهل خير، وذلك العامي يتنفع بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمارة بالسوء بعمل المباح في نفسه فيمتنع عليه المعاصي في تلك الحال، والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها، وإذا قصد به التقرّب إلى العالم المعاصي في تلك الحال، والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها، وإذا قصد به التقرّب إلى العالم المعاصي في تلك الحال، والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها، وإذا قصد به التقرّب إلى العالم المعاصي في تلك مده من أفضل القربات، فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظاً عليه،

وأشرف وقت العامي أن يشتغل بمثله فيتوقر الخير عليه من الجوانب كلها، وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على بعض، فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق في أمور الدنيا محذافيرها. وإذا عرفت هذه المقدمة واستبئت أن الطهارة لها أربع مراتب فاعلم: أنّا في هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا في المرتبة الرابعة وهي نظافة الظاهر لأنا في الشطر الأول من الكتاب لا نتعرض قصداً إلا للظواهر. فيقول: طهارة الظاهر ثلاثة أقسام: طهارة عن المخبث، وطهارة عن الحدث، وطهارة عن فضلات البدن، وهي التي تحصل بالقلم والاستحداد واستعمال النورة والختان وغيره.

* * *

القسم الأوّل: في طهارة الخبث، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة

الطرف الأوّل: في المزال:

وهي النجاسة والأعيان ثلاثة: جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات. أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر وكل منتبذ مسكر. والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما، فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة: الآدمي والسمك والجراد ودود التفاح ـ وفي معناه كل ما يستحيل من الأطعمة ـ وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه. وأما أجزاء الحيوانات فقسمان: أحدهما: ما يقطع منه وحكمه حكم الميت. والشعر لا ينجس بالجزء والموت والعظم ينجس. الثاني: الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلاً ولا له مقرّ فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط، وما له مقرّ وهو مستحيل فنجس، إلا ما هو مادة الحيوان كالمني والبيض. والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها. ولا يعفي عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة: الأول: أثر النجو بعد الاستجمار بالأحجار يعفي عنه ما لم يَعْدُ المَخْرَجُ. والثاني: طين الشوارع وغبار الروث في الطريق يعفي عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعذر الاحتراز عنه، وهو الذي لا ينسب المتلطخ به إلى تفريط أو سقطة. الثالث: ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعفى عنه بعد الدلك للحاجة. الرابع: دم البراغيث ما قلّ منه أو كثر إلا إذا جاوز حدّ العادة سواء كان في ثوبك أو في ثوب غيرك فلبسته. الخامس: دم البثرات وما ينفصل منها من قيح وصديد. ودَلُّكَ ابن عمر رضي الله عنه بثرة على وجهه فخرج منها الدم وصلى ولم يغتسل. وفي معناه ما يترشح من لطخات الدماميل التي تدوم غالباً، وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادراً من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة، ولا يكون في معنى البثرات التي لا يحلو الإنسان عنها في أحواله. ومسامحة الشرع في هذه النجاسات الخمس تعرَّفك أن أمر الطهارة على التساهل وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها.

الطرف الثاني: في المزال به:

وهو إما جامد وإما مائع: أما الجامد؛ فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون

صلباً طاهراً منشفاً غير محترم. وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشيء منها إلا الماء، ولا كل ماء بل الطاهر الدي لم يتفاحش تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه. ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه. فإن لم يتغير وكان قريباً من ماثتين وخمسين منّاً ـ وهو خمسمائة رطل برطل العراق ـ لم ينجس لقوله عِين الإِذَا بَلَغَ المَّاءُ قُلْقَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا (١) وإن كان دونه صار نجساً عند الشافعي رضى الله عنه. هذا في الماء الراكد. وأما الماء الجاري إذا تغير بالنجاسة فالجَرِّية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها لأن جريات الماء متفاصلات. وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين. وإن كان جري الماء أقوى من جري النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنجس وإن تباعد وكثر، إلا إذا اجتمع في حوض قدر قلتين. وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجساً بالتفريق. هذا هو مذهب الشافعي رضي الله عنه. وكنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضي الله عنه في أن الماء وإن قل لا ينجس إلا بالتغير إذ الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشتراط القلتين، ولأجله شق على الناس ذلك، وهو لعمري سبب المشقة ويعرفه من يجربه ويتأمله. ومما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطاً لكان أولى المواضع بتعسر الطهارة: مكة والمدينة؛ إذ لا يكثر فيهما المباه الجارية ولا الراكدة الكثيرة. ومن أوّل عصر رسول الله ﷺ إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة مي الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات، وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات. وقد توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية، وهذا كالصريح في أنه لم يعوّل إلا على عدم تغير الماء وإلا فنجاسة النصرائية وإنائها غالبة تعلم بظن قريب. فإذاً عسر القيام بهذا المذهب، وعدم وقوع السؤال في تلك الأعصار دليل أوَّل. وفعل عمر رضى الله عنه دليل ثان. والدليل الثالث: إصغاء رسول الله ﷺ الإناء للهرة(٢٠)، وعدم تغطية الأواني منها: بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الآبار. والرابع: أن الشافعي رضي الله عنه نصُّ على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت، وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه؟ وأي معنى لقول القائل: إنّ قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة؟ وإن أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضاً ماسة إلى هذا، فلا فرق بين طرح الماء في إجانة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس في الإجانة وفيها ماء وكل ذلك معتاد في غسل الثباب والأواني. والخامس: أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة، ولا خلاف في مذهب الشافعي رضي الله عنه أنه إذا وقع بول في ماءٍ جار ولم يتغير أنه يجوز التوضُّر به وإن كان قليلاً. وأي فرق بين الجاري والراكد؟ وليت شعري هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوّة الماء بسبب الجريان؟ ثم ما حدّ تلك القوة أتجري في المياه الجارية في أنابيب الحمامات أم لا؟ فإن لم تجر فما الفرق، وإن جرت فما الفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع في مجرى الماء من الأواني على الأبدان وهي أيضاً جارية؟ ثم البول أشد اختلاطاً بالماء الجاري من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن ما يجري عليها وإن

 ⁽۱) حديث: •إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً. أخرحه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث انن عد.

 ⁽٣) حديث: قاصفاء الإناء للهرة، أخرجه الطبراني في الأوسط والدارقطني من حديث عائشة، وروى أصحاب السنن ذلك من فعل أبى تنادة.

لم يتغير نجس أن يجتمع في مستنقع قلتان، فأي فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجاورة؟ والسادس: أنه إذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز يغترف منه طاهر، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل، وليت شعري هل تعليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوَّة الماء بعد انقطاع الكثرة وروالها مع تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها؟ والسابع: أن الحمامات لم تزل في الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدي والأواني في تلك الحياض مع قلة الماء، ومع العلم بأن الأيدي النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها. فهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوّي في النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معوَّلين على قوله ﷺ: ﴿ تُحَلِقَ المَاءُ طَهُوراً لا يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلاَّ مَا غَيْرَ طَعْمَهُ أَوْ لُؤنَّهُ أَوْ رِيحُهُ ۗ ``، وهذا فيه تحقيق، وهو أن طبِع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل ما يقع فيه وكان مغلوباً من جهته، فكما ترى الكلب يقع في المملحة فيستحيل ملحاً ويحكم بطهارته بصيرورته ملحاً وزوال صفة الكلبية عنه، فكذلك الخل يقع في الماء، وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب، وتعرف غلبته بغلبة طعمه أو لونه أو ريحه فهذا المعيار. وقد أشار الشرع إليه في الماء القوي على إزالة النجاسة وهو حدير بأن يعوّل عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهوراً إذ يغلب عليه فيطهره، كما صار كذلك فيما بعد القلتين، وفي الغسالة، وفي الماء الجاري، وفي إصغاء الإناء للهرة، ولا تظن ذلك عفوا إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقي له سجساً ولا ينجس بالغسالة ولا بولوغ السنور في الماء القليل. وأما قوله ﷺ: ﴿لا يَحْمِلُ خَبَثاً ﴾، فهو في نفسه مبهم فإنه يحمل إذا تغير.

قإن قيل: أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال: إنه أراد به أنه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة. ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التي دكرناها ممكن وقوله: الا يحمل خبثًا»، ظاهره نفي الحمل أي يقلبه إلى صفة نفسه، كما يقال للمملحة لا تحمل كلباً ولا غيره أن ينقلب، وذلك لأن الناس قد يستنجون في المباه القليلة وفي الغدران ويغمسون الأواني النجسة فيها، ثم يترددون في أنها تغيرت تغيراً مؤثراً أم لا؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لا يتغير بهذه النجاسة المعتادة.

فإن قلت: فقد قال النبي ﷺ: ﴿لا يَحُمِلُ خَبَثاً»، ومهما كثرت حملها، فهذا ينقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها، فهذا ينقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها، حكماً كما حملها حساً، فلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعاً. وعلى الجملة: فميلي في أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فهماً من سيرة الأولين وحسماً لمادة الوسواس، وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه في مثل هذه المسائل.

الطرف الثالث: في كيفية الإزالة:

والنجاسة إن كانت حكمية وهي التي ليس لها جرم محسوس فيكفي إجراء الماء على جميع

⁽١) حديث: «خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه». أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف. وقد رواه بدون الاستثناء أبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث أبي سعيد، وصححه أبو داود وغيره.

مواردها، وإن كانت عينية فلا بد من إزالة العين، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا يقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحت والقرص. أما الرائحة: فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يعفى عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يعسر إزالتها، فالدلك والعصر مرات متواليات يقوم مقام الحت والقرص في اللون. والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها يقيناً يصلي معه، ولا ينبغى أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات.

* * *

القسم الثاني: طهارة الأحداث، ومنها الوضوء والغسل والتيمم، ويتقدمها الاستنجاء

فلنورد كيفيتها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى.

باب

آداب قضاء الحاجة

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء وأن يستتر بشيء إن وجده، وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء إلى موضع الجلوس، وأن يستقبل الشمس والقمر، وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلا إذا كان في بناء، والعدول أيضاً عنها في البناء أحب، وإن استتر في الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله، وأن يتقي الجلوس في متحدّث الناس، وأن لا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الححر، وأن يتقي الموضع الصلب ومهاب الرياح في البول استنزاها من رشاشه، وأن يتكىء في جلوسه على الرجل اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج ولا يبول قائماً. قالت عائشة رضي الله عنها: "من حدّثكم أن النبي على كان يبول قائماً فلا تصدّقوه" (١)، وقال عمر رضي الله عنه: رآني وسول الله الله وأنا أبول قائماً فقال: فيا عُمَرُ لا تَبُلُ قَائِماً» أن قال عمر: فما بلت قائماً بعد، وفيه رخصة إذ روى حذيفة رضي الله عنه: «أنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً فأتيته بوضوء فتوضاً ومسح على خفيه (١)، ولا يبول في المغتسل، قال منه: "عَامَةُ المؤسّؤاس مِنْهُ (١)، وقال بوضوء فتوضاً ومسح على خفيه (١)، ولا يبول في المغتسل، قال منه: "عَامَةُ المؤسّؤاس مِنْهُ (١)، وقال

⁽١) حديث عائشة: «من حدثكم أن النبي ﷺ كان يبول قائماً فلا تصدقوه». أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه. قال الترمذي: هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح.

 ⁽٣) حديث عمر: الرأني النبي ﷺ وأنا أبول قائماً فقال: يا عمر لا تبل قائماً. أخرجه ابن ماجه بإسناد ضعيف، رواه ابن
 حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر.

 ⁽٣) حديث: فأنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً... العديث. متفق عليه.

⁽٤) حديث: «قال في البول في المغتسل: عامة الوسواس منه». أخرجه أصحاب السنن من حديث عبدالله بن مغفل. قال الترمذي: غريب. قلت: وإسناده صحيح.

كتاب أسرار الطهارة

ابن المبارك: قد وسع في البول في المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذي. وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي مُسْتَحَمِّهِ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ فِيهِ فَإِنَّ عَامَّةَ الوَسْواس مِنْهُۥ وقال ابن المسارك: إن كان الماء جارياً فلا بأس به ولا يستصحب شيئاً عليه اسم الله تعالى أو رسوله ﷺ ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس. وأن يقول عند الدخول: «بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم،، وعند الخروج: ٥الحمد لله الذي أذهب عنى ما يؤذيني وأبقى على ما ينفعني، ويكون ذلك خارجاً عن بيت الماء، وأن يعد النبل قبل الجلوس، وأن لا يستنجى بالماء في موضع الحاجة، وأن يستبرىء من البول بالتنحنح والنثر _ ثلاثاً _ وإمرار اليد على أسفل القضيب، ولا يكثر التفكر في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء، فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى في نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس. وفي الخبر: أنه ﷺ فعله أعنى رش الماء(١)، وقد كان أخفهم استبراء أفقههم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه. وفي حديث سلمان رضي الله عنه: «علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة فأمرنا أن لا نستنجي بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو يول (٣)، وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه: لا أحسبك تحسن الخراء قال: بلى وأبيك إني لأحسنها وإني بها لحاذق أبعد الأثر وأعد المدر وأستقبل الشبيح وأستدبر الربيح وأقعي إقعاء الظبي وأحفل إجفال النعام ـ الشبيح: نبت طيب الرائحة بالبادية، والإقعاء لههنا: أن يستوفز على صدور قدميه، والإجفال: أن يرفع عجزه .. ومن الرخصة أن يبول الإنسان قريباً من صاحبه مستتراً عنه (٣). فعل ذلك رسول لله ﷺ مع شدة حيائه ليبين للناس ذلك.

كنفنة الاستنجاء:

ثم يستنجي لمقعدته بثلاثة أحجار، فإن أبقى وإلا استعمل رابعاً، فإن أنقى وإلا استعمل خامساً لأن الإنقاء واجب والإيتار مستحب. قال عليه السلام: «مَنِ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرَهُ (٤)، ويأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدّم المقعدة قبل موضع النجاسة ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر، ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدّمة، ويأخذ الثالث فيديره حول المسرنة إدارة فإن عسرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزأه، ثم يأخذ حجراً كبيراً بيمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه ويحرك اليسار فيمسح ثلاثاً في ثلاثة مواضع أو في ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الرطوبة في محل المسح، فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة، ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإيتار. ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ويستنجي بالماء بأن يفيضه باليمني على محل النجو ويدلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس ويستنجي بالماء بأن يفيضه باليمني على محل النجو ويدلك منبع الوسواس، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه اللمس، ويترك الاستقصاء فيه بالتعرص للباطن فإن ذلك منبع الوسواس، وليعلم أن كل ما لا يصل إليه

 ⁽١) حديث: قرش الماء بعد الوضوء، وهو الانتضاح أحرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث سميال بن الحكم
 الثقفي أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قاله الترمذي وابن عبدالبر.

 ⁽۲) حديث سلمان: «علمنا رسول الله علي كل شيء حتى الخراءة...» الحديث. أخرجه مسلم وقد تقدم في قواعد العقائد.

 ⁽٣) حديث: االبول قريباً من صاحبه. متفق عليه من حديث حذيفة.

 ⁽٤) حديث: امن استجمر فليوتر، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة فحد ظهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس. ويقول عند الفراغ من الاستنجاء: «اللهم طهر قلبي من النفاق وحصن فرجي من الفواحش» ويذلك يده محائط أو بالأرض إزالة للرائحة إن بقبت. والجمع بين الماء والحجر مستحب، فقد روي: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿فِيهِ بِبَالٌ يُجِبُّوكَ أَن يُطَهَرُونُ وَاللّهُ يَجُبُّونُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُوا اللهُ ال

كيفية الوضوء:

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء، فلم يُرَ رسول الله ﷺ قط خارجاً من الغائط إلا توضأ. ويبتدىء بالسواك، فقد قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقُ القُرْآنِ فَطَيْبُوها بِالسَّوَاكِ، (٢) عنبعي أن ينوي عند السواك تطهير فمه لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة، وقال ﷺ: «صَلاةٌ عَلَىٰ أَشِي لِأَمَرْتُهُمْ سِوَاكِ أَفْضُلُ مِنْ خَمْسِ وَمَيْعِينَ صَلاةٌ بِغَيْرِ سِوَاكِ، (٢) وقال ﷺ: ﴿لَوْلا أَنْ أَشُقَ عَلَىٰ أُمْتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلُّ صَلاّةٍ، (٤) ، وقال ﷺ: ﴿مَا لِي أَرَاكُمْ تَذْخُلُونَ عَلَيْ قُلْحاً اسْتاكُوا، (٥) . أي: صفر بالسنان. وكان عليه الصلاة والسلام يستاك في الليلة مراراً (١) . وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: المسالم: ﴿عَلَيْكُمْ فِللهُ عَلْمُ وَمُرْضَاةً لِلرَّبِ، (٨) ، وقال عليه فيه شيء، (٧) ، وقال عليه السلام: ﴿عَلَيْكُمْ بِالسَّوَاكِ فَإِنَّهُ مَطْهَرَةً لِلْقَمِ وَمَرْضَاةً لِلرَّبِ، (٨) ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم. ومَرْضَاةً لِلرَّبُ، (٨) ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم. ومَرْضَاةً لِلرَّبُ (٨) ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم. ومَرْضَاة لِلرَّبُ (١٠) ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: السواك يزيد في الحفظ ويذهب البلغم. و واكان أصحاب النبي ﷺ يورحون والسواك على آذانهم، (٩) .

⁽١) حديث: «لما نزل قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِبَّالٌ يُحِبُّرِكَ أَن يَكُلُهُ رُأً﴾ [الثوبة: الآبة ١٠٨] الحديث في أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء؟٥. أخرجه المزار من حديث أبن عباس بسند ضعيف، ورواه اس ماجه والحاكم وصححه من حديث أبني أيوب وحابر وأنس في الاستنجاء بالماء ليس فيه ذكر: «الحجر» وقول النووي تبعاً لابن الصلاح «إن الجمع بين الماء والحجر في أهل قباء لا يعرف» مردود بما تقدم.

 ⁽٣) حديث: قان أقواهكم طرق القرآن، أخرجه أبو تعيم في الحلية من حديث علي ورواه ابن ماجه موقوفاً على علي
 وكلاهما ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك»، رواه أبو تعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر
 بإسناد ضميف، ورواه أبو داود، والحاكم وصححه والبيهتي وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ: «من سبعين صلاة».

 ⁽٤) حديث: (الولا أن أشق على أمني لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة)، منفق عليه من حديث أبي هريرة.

حديث: «ما لي أراكم تدخلون علي قلحاً استاكوا»، أخرجه البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبدالمطلب وأبو
 داود والبغوي من حديث تمام بن العباس، والبيهقي من حديث عبدالله بن عباس وهو مضطرب.

⁽٦) حديث: «كان يستاك من الليل مراراً»، أخرجه مسلم من حديث ابن عباس.

⁽٧) - حديث ابن عباس الم يزل يأمرنا رسول الله ﷺ بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء، رواه أحمد.

 ⁽A) حديث: «عليكم بالسواك فإنه مطهرة للقم مرضاة للرب»، أخرجه البخاري تعليقاً مجزوماً من حديث عائشة والنسائي
وابن خزيمة موصولاً، قلت: وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذي قبله وقد رواه من حديث اس
عباس الطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان.

 ⁽٩) حديث: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يروحون والسواك على آذانهم»، أخرجه الخطيب في كتاب أسماء من روى عن مالك، وعند
أبي داود، والترمذي وصححه «أن زيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب».

وكيفيته: أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يخشن ويزيل القلح ويستاك عرضاً وطولاً وإن اقتصر فعرضاً. ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يصل عقيبه، وعند تغير النكهة بالنوم أو طول الأزم أو كل ما تكره رائحته. ثم عند الفراغ من السواك يُجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول: «بسم الله الرحمن الرحيم». قال ﷺ: ﴿لا وُضُوءَ لِّمَنْ لَمْ يُسَمُّ اللَّهَ تَعَالَىٰ، (١٠)، أي ٰ لا وضوء كامل. ويقول عند ذلك: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكُ رَبُّ أَنْ يَحْضُرُونِ٩، ثم يغسل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلهما الإناء، ويقول: «اللُّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ اليُمْنَ وَالبِّرَكَةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشُّؤم وَالهَلَكَةِ، ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة، ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجهَ لم يجزه، ثم يأخذ غَرْفَة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ويغرغر ىأن يرد الماء إلى الغلصمة إلا أن يكون صائماً فيرفق ويقول: «اللُّهُمُّ أعِنِّي عَلَىٰ ثِلاوَةٍ كِتَابِكَ وَكَثْرَةِ الذُّكْرِ لَكَ»، ثم يأخذ غرفة لأنفه ويستنشق ثلاثاً ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول في الاستنشاق: ﴿اللَّهُمُّ أَوْجِدْ لِي رَائِحَةَ الجَنَّةِ وَأَنْتَ عَنْي رَاضٍ؟ وفي الاستنثار: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ رَوَائِح النَّارِ وَمِنْ سُوءِ الدَّارِ»؛ لأن الاستنشاق إيصال والاستنثار إزالة. ثم يغرف غرفة لوجهه فيغسله من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول، ومن الأذن إلى الأذن في العرض، ولا يدخل في حدّ الوجه النزعتان اللتان على طرفي الجبينين فهما من الرأس، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه، مهما وضع طرف الخيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة: الحاجبان والشاربان والعذاران والأهداب؛ لأنها خفيفة في الغالب. والعذاران هما ما يوازيان الأذنين من مبدأ اللحية. ويجب إيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة، أعني: ما يقبل من النوجه وأما الكثيفة فلا، وحكم العنفقة حكم اللحية في الكثافة والخفة، ثم يفعل ذلك ثلاثاً ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية، ويدخل الأصابع في محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما. فقد روي: أنه عليه السلام فعل ذلك^(٢)، ويأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو، ويقول عنده: «اللهم بيُّض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليانك ولا تسوّد وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك، ويخلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب، ثم يغسل يديه إلى مرفقيه ثلاثاً ويحرك الخاتم ويطيل الغرة ويرفع الماء إلى أعلى العضد فإنهم يحشرون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، كذلك ورد الخبر.

قال عليه السلام: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُطِيلَ غُرْتُهُ فَلْيَفْعَلْ (٣)، وروي أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء (٤)، ويبدأ باليمنى ويقول: «اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حساباً يسيراً»، ويقول عند غسل الشمال: «اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري»، ثم يستوعب رأسه بالمسح؛

 ⁽۱) حديث: الا وضوء لمن لم يسم الله. أخرجه الترمذي، وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة ومقل الترمذي عن البخاري أنه أحسن شيء في هذا الياب.

 ⁽۲) حديث. (إدخاله الأصبع في محاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحلى، أحرجه أحمد من حديث أبي أمامة،
 كان يتعاهد المنافقين. ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف: «أشربوا الماء أهينكم».

 ⁽٣) حديث: قمن استطاع منكم أن يطيل فرته فليفعل؟، أخرجاه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٤) حديث: البلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماه الوضودا، أخرجاه من حديثه.

بأن يبل يديه ويلصق رؤوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعهما على مقدمة الرأس ويمدهما إلى القفا ثم يردهما إلى المقدمة، وهذه مسحة واحدة، يمعل ذلك ثلاثاً ويقول: «اللهم غشني برحمتك وأنزل على من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك»، ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد؛ بأن يدخل مسبحتيه في صماخي أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهاراً، ويكرره ثلاثاً ويقول: «اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعني منادي الجنة مع الأبرار»، ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله ﷺ: المُسْحُ الرَّقَبَةِ أَمَانُ مِنَ الغِلُّ يَوْم القِيَامَةِه(١)، ويقول: «اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال»، ثم يغسل رجليه، اليمني ثلاثاً ويخلل باليد اليسرى من أسقل أصابع الرجل اليمني ويبدأ بالخنصر من الرجل اليمني ويختم بالخنصر من الرجل اليسرى ويقول: «اللهم ثبُّت قدمي على الصراط المستقيم يوم نزل الأقدام في النار»، ويقول عند غسل البسرى: «أعوذ بك أن تزل قدمي على الصراط يوم تزل فيه أقدام المسافقين، ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين. فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. سبحانك اللهم ويحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي أستغفرك اللهم وأتوب إليك فاغفر لي وتب عليُّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين، واجعلني من عبادك الصالحين، واجعلني عبداً صيوراً شكوراً، واجعلني أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلاً؛ يقال: إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه بخاتم ورقع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

ويكره في الوضوء أمور: منها: أن يزيد على الثلاث فمن زاد فقد ظلم، وأن يسرف في الماء، توضأ عليه السلام ثلاثاً وقال: «مَنْ زَادَ فَقَدْ ظَلَمْ وَأَسَاءَه (٢)، وقال: «مَنِكُونُ قَوْمٌ مِنْ هَٰذِهِ الأُمَّةِ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطَّهُورِ (٢)، ويقال: من وهن علم الرجل ولوعه بالماء في الطهور (٤). وقال إبراهيم بن أدهم: يقال: إن أول ما يبتدىء الوسواس من قبل الطهور. وقال الحسن: إن شيطاناً يضحك بالناس في الوضوء بقال له الولهان. ويكره أن يفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم في أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطماً. وكره قوم التنشيف وقالوا: الوضوء يوزن، قاله سعيد بن المسبب والزهري، لكن روى معاذ رضي الله عنه: «أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه (٥)، وروت عائشة رضي الله عنها: «أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه (٤)، وروت عائشة رضي الله عنها: «أنه عليه المن في هذه الرواية عن عائشة. ويكره أن يتوضأ من إناء صفر وأن

⁽١) حديث: "مسلح الرقبة أمان من الغل»، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف.

 ⁽٧) حديث: «توضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال: من زاد ققد أساء وظلم» أخرجه أبو دارد، والنسائي، واللفظ له وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

 ⁽٣) حديث: "سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في المدعاء والطهور"، أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وابن حان، والحاكم من حديث عبدالله بن مغمل.

 ⁽٤) حديث: امن وهن علم الرجل ولوعه في الماء في التطهير، لم أجد له أصلاً.

⁽ه) حديث معاذ قأن النبيِّ ﷺ مسح وجهه بطرف ثوبه؛ . أخرجه الترمذي وقال: غريب وإسناده ضعيف.

حديث عائشة: ﴿أَن النبي عَشْحُ كَانَ لَه مَنشْفَة ﴾. أخرجه الترمذي وقال: ليس بالقائم، قال: ولا يصح عن النبي عشى في هذا الباب شيء.

يتوضأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطب. وقد روي عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما كراهية إناء الصفر. وقال بعضهم: أخرجت لشعبة ماء في إناء صفر فأبى أن يتوضأ منه. ونقل كراهية ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما. ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطر بباله أنه طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موصع نظر الرب سبحانه، وليحقق أن طهارة القلب بالتوبة والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى، وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فتركه مشحوناً بالقاذورات واشتغل بتجصيص ظاهر الباب البراني من الدار، وما أجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للمقت والبوار، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فضيلة الوضوء:

قال رسول الله ﷺ: ﴿ مَنْ تَوَضَّا فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ وَصَلَّىٰ رَكَمَتُيْنِ لَمْ يُحَلَّفُ نَفْسَهُ فِيهِما بِشَيْءٍ مِنَ اللَّنْيَا خَرَجَ مِنْ ذُفُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتُهُ أُمُهُ ﴿) ، وفي لفظ آخر: ﴿ وَلَمْ يَسِهُ فِيهِما عُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمُ مِن ذُفْيِهِ ، وقال ﷺ أيضاً. ﴿ أَلَا أَنْيِئُكُمْ بِما يُكَفُّرُ اللَّهُ بِهِ الخَطَايا وَيَرْفَعُ بِهِ الشَّرَجَاتِ ؟ إِسْبَاعُ الوُضُوءِ عَلَىٰ المَكَادِهِ وقللُ الْقَدَامُ إِلَىٰ المَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ المَصْلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ فَلْلِكُمُ الرَّبَاطُ ﴾ وثلاث مرات ﴿ ` ` وَقَلْ الْمُعَلِّ فَلْلِكُمُ الرَّبَاطُ ﴾ وثلاث مرات ﴿ ` ` وَقَلْ اللَّهُ الْمُعْلَى وَوَضُوءُ الأَنْيَاءِ مِن قَبْلِي وَوُضُوءُ الأَنْيَاءِ مِن قَبْلِي وَوُضُوءً مُرَتَيْنِ النَّهُ الْمُعْلَى وَلَوْسُوءُ اللَّهُ الْمُعْلَى وَوُضُوءُ الأَنْيَاءِ مِن قَبْلِي وَوُضُوءُ الْمُعْلَى وَوُضُوءُ اللَّهُ الْمُوعُ وَلَى اللَّهُ الْمُعْلَى وَوَضُوءُ اللَّهُ الْمُعْلَى وَوَضُوءُ اللَّهُ الْمُعْلَى وَوَضُوءُ اللَّهُ الْمُعْلَى وَوَضُوءُ اللَّهُ الْمُعْلَى وَوُضُوءُ اللَّهُ الْمُوعُ مَنْ اللَّهُ الْمُوعُ وَلَى اللَّهُ اللَّهُ الْمُعْلَى اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ اللَّهُو

⁽١) حديث: «من توضأ وأسبخ الوضوء وصلى ركعتين لم بعدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وفي لفظ آخر: «لم يسه فيهما ظفر له ما تقدم من ذنبه أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد والرقائق باللفظين معا وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله البشيء من الدنياه ودون قوله: «لم يسه فيهما» وأخرجه أبو داود من حديث زيد بن خالد: «لم صلى ركعتين لا يسهو فيهما» الحديث.

⁽٢) حديث: «ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرقع به الدرجات. . ٤ الحديث. أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: •توضأ مرة مرة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به. . • الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد صعيف.

 ⁽٤) حديث: (من ذكر الله عند وضوئه ظهر الله جسده كله. .) الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

حديث: قمن توضأ على ظهر كتب الله له عشر حسنات. أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

⁽٢) حديث: الوضوء على الوضوء نور على نور». لم أجد له أصلاً.

أَظْفَارِ رِجْلَيْهِ ثُمَّ كَانَ مَشْيُهُ إِلَىٰ المَشْجِدِ وَصَلاتُهُ نَافِلَةً لَهُ اللّهُ ويروى: «إِنَّ الطَّاهِرَ كَالصَّائِمِ ('' قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تَوَضَّا فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ وَحُدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنْةِ الثَّمَانِيَةُ يَذْخُلُ مِنْ أَبُهَا شَاءَهُ '' وقال لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان. وقال مجاهد: من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغمراً فليفعل فإنّ الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

كيفية الغسل:

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمي الله تعالى ويفسل يديه ثلاثاً، ثم يستنجي كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما، فإن غسلهما ثم وضعهما على الأرص كان إضاعة للماء، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً، ثم يدلك ما أقبل من بدنه ويخلل شعر الرأس واللحية ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أنّ الماء لا يصل إلى خلال الشعر، ويتعهد معاطف البدن وليتق أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوصوء، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل.

فهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها ما لابد لسائك طريق الآخرة من علمه وعمله، وما عداه من المسائل التي يحتاج إليها في عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه. والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران: النية واستيعاب البدن بالغسل.

وفروض الوضوء: النية، وغسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح ما ينطلق عليه الاسم من الرأس، وغسل الرجليس إلى الكعبين، والترتيب، وأما الموالاة فليست بواجبة، والغسل الواجب بأربعة: بخروج المني، والتقاء الختانين، والحيض، والنفاس، وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة، وثلاثة أغسال أيام التشريق، ولطواف الوداع ـ على قول ـ والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولمن غسل ميتاً، فكل ذلك مستحب.

كيفية التيمم:

من تعذر عليه استعمال الماء ـ لفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبع أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو لعطش رفيقه، أو كان ملكاً لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من ثمن

⁽١) حديث: (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه. . . ٩ الحديث. أخرجه أبو داود، وابن ماجه من حديث الصنابحي. إستاده صحيح، ولكن اختلف في صحته، وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن عنبسة نحوه مختصراً.

 ⁽۲) حديث: «الطاهر الثائم كالصائم». أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث: «الطاهر الثائم كالصائم
 القائم» وسنده ضعيف.

⁽٣) حديث: امن توضأ فأحسن الوضوء ثم رقع طرفه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله . . . الحديث - أخرجه أبو داود من حديث عقية بن عامر وهو عند مسلم دون قوله: اثم رفع! هكذا عزاه المزي في الأطراف وقد رواه النسائي في اليوم والليلة من رواية عقبة بن عامر، وكذا رواه الدارمي في مسئده.

المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا _ فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة، ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غباره ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة، وينوي عند ذلك استباحة الصلاة، ولا يكلف إيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت، ويجتهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار _ ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فإن عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين _ ويكفي في الاستبعاب غالب الظنّ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية يفرج فيها بين أصابعه، ثم يلصق ظهور أصابع يده اليسرى _ بحبث لا يجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض أصابع يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق، ثم المسبحة من الأخرى _ ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمرها إلى الكوع، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى، ثم يفعل باليسرى كذلك، ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه. وغرض هذا التكليف تحصيل الاستبعاب إلى المرفقين بضربة واحدة، فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة. وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء، فإن جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم وزيادة. وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء، فإن جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم وزيادة. وإذا على دك المرفقة بتيمم والله أعلم.

* * *

القسم الثالث من النظافة: التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نوعان: أوساخ وأجزاء

النوع الأوّل: الأوساخ والرطوبات المترشحة وهي ثمانية:

الأول: ما يجتمع في شعر الرأس من اللون والقمل، فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للشعث عنه، وكان على يدهن الشعر ويرجله غبا ويأمر به (١)، ويقول عليه الصلاة والسلام: «ادهنوا غباً» (٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرَةٌ فَلْيُكُومُها» (٢). أي: ليصنها عن الأوساخ. ودخل عليه رجل ثاثر الرأس أشعث اللحية فقال: «أما كَانَ لِهْذَا ذَهْنَ يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ؟ » ثم قال: «يَذْخُلُ أَحَدُكُمْ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ» (٤).

 ⁽١) حديث: «كان يدهن الشعر ويرجله». أخرجه الترمذي في الشمائل بإسناد ضعيف من حديث أنس: «كان يكثر دهن رأسه
وتسريح لحيته». وفي الشمائل أيضاً بإسناد حسن من حديث صحابي لم يسم: «أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غباً».

حديث. «ادهنوا هَباً». قال ابن الصلاح: لم أجد له أصلاً» وقال النووي: عير معروف. وعند أبي داود والتومدي والنساني من حديث عبدالله بن مغفل: «النهي عن الترجل إلا غباً» بإسناد صحيح.

 ⁽٣) حديث: (من كانت له شعرة فليكرمها). من حديث أبي هريرة وقال: (به شعر فليكرمه) وليس إسناده بالقوي.

⁽٤) حديث: «دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال: أما كان فهذا دهن يسكن به شعره. . الحديث. أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد.

الثاني: ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر الصماخ، فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام؛ فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع.

الثالث: ما يحتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة الملتصقة بجوائبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار.

الرابع: ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القلح فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناهما.

الخامس: ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتعهد ويستحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط. وفي الخبر المشهور: أنه ﷺ: "كان لا يفارقه المشط والمدرى والمرآة في سفر ولا حضر»(١) وهي سنَّة العبرب، وفي خبر غريب: «أنه ﷺ كان يسرح لحيته في اليوم مرتين؛ (٢) وكان ﷺ كث اللحية (٣)، وكذلك كان أبو بكر، وكان عثمان طويل اللحية رقيقها، وكان علي عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه. وفي حديث أغرب منه: قالت عائشة رضي الله عنها: الاجتمع قُوم بباب رسول الله ﷺ فخرج إليهم فرأيته يطلع في الحب يسوّي من رأسه ولحيته (٤)، فقلت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: تَعَمَّ، إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْلِهِ أَنْ يَتَجَمَّلَ لإخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ؟، والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياساً على أخلاق غيره وتشبيهاً للملائكة بالحدادين وهيهات! فقد كان رسول الله ﷺ مأموراً بالدعوة، وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم؟ كيلا تزدريه نفوسهم ويحسّن صورته في أعينهم كبلا تستصغره أعينهم فينفرهم ذلك، ويتعلق المنافقون بذلك في تنفيرهم. وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو أن يراعي من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه. والاعتماد في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود، فالتزين على هذا القصد محبوب وترك الشعث في اللحية إطهاراً للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلاً بما هو أهم منه محبوب. وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عزّ وجلّ، والناقد بصير والتلبيس غير رائج عليه بحال، وكم من جاهل يتعاطى هذه الأمور التفاتأ إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويزعم أن قصده الخير، فترى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الماخرة ويزعمون أن قصدهم إرغام المبتدعة والمجادلين والتقرّب إلى الله تعالى به. وهذا أمر ينكشف يوم تبلى السرائر، ويوم يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور، فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من البهرحة، فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر.

⁽١) حديث: «كان لا يفارقه المشط والمدرى في سفر ولا حضر» أخرجه ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سميد: «كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه». ورواه الطبرائي في الأوسط من حديث عائشة وإسنادهما ضعيف. وسيأتى في آداب السفر مطولاً.

 ⁽۲) حديث: «كان يسرح لحيته كل يوم مرتين». تقدم حديث أنس: «كان يكثر تسريح لحيته» وللخطيب في الجامع من حديث الحكم مرسلاً: «كان يسرح لحيته بالمشط».

 ⁽٣) حديث الكان كث اللحية اخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث على وأصله عند الترمذي.

 ⁽٤) حديث عائشة «اجتمع قوم بباب رسول الله ﷺ خرج إليهم فرأيته يطلع في الحب يسوي من رأسه ولحيته أخرجه ابن عدي وقال: حديث منكر.

السادس: وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأنامل، كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام، فيجتمع في تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله ﷺ بغسل البراجم(١٠).

السابع: تنظيف الرواجب (٢). أمر رسول الله على العرب يتنظيفها وهي رؤوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ؛ لأنها كانت لا يحضرها المقراض في كل وقت فتجتمع فيها أوساخ، فوقت لهم رسول الله على قلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوما (٢)، لكنه أمر رسول الله على بتنطيف ما تحت الأظفار (٤)، وجاء في الأثر: «أن النبي الله استبطأ الوحي فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له: كيف ننزل عليكم وأنتم لا تغسلون براجمكم ولا تنظفون رواجبكم (٥)، وقلحاً لا تستاكون. مُرْ أمتك بذلك، والأف وسنح الظفر، والتف وسخ الأذن، وقوله عزْ وجلّ: ﴿ وَلَلَّ نَقُلُ أَمْنًا أُونِ ﴾ [الإسرّاء ٢٣]، تعبهما أي بما تحت الظفر من الوسخ، وقيل: لا تتأذ بهما كما تتأدى بما تحت الظفر.

الثامن: الدن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الحمام ولا مأس بدخول الحمام، دخل أصحاب رسول الله على حمامات الشام وقال بعضهم: نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار. روي ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهما. وقال بعضهم: بئس البيت بيت الحمام يبدي العورة ويذهب الحياء. فهذا تعرض لآفته وذاك تعرص لفائدته ولا بأس بطلب فائدته عند الاحتراز من آفته. ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات، فعليه واجبان في عورته وواجبان في عورة غيره. أما الواجبان في عورته: فهو أن يصونها عن مس الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيله، ويمنع الدلاك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة، وفي إباحة مس ما ليس بسوأة لإزالة الوسخ احتمال، ولكن الأقيس التحريم إدا ألحق مس السوأتين في التحريم بالنظر، فكذلك ينهي عن كشهها لأن النهي عن المنكر واجب، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجري وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجري عليه مما هو حرام في نفسه، فليس عليه أن ينكر حراماً يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر. فأما قوله: اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به، فهذا لا يكون عذراً بل لا بد من الذكر، فلا يخلو قلب عن المنار في عينه التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه التأثر من سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه التأثر من سماع الإنكر، واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي، وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه

⁽١) حديث: «الأمر بغسل البراجم». أخرجه الترمذي الحكيم في التوادر من حديث عبدالله بن يسر. «نقوا براجمكم»، ولابن عدي في حديث عائشة: «عشر من القطرة ولابن عدي في حديث عائشة: «عشر من القطرة وقيه = وقيه = وقسل البراجم».

 ⁽۲) «الأمر بتنطيف الرواجب» أخرجه أحمد من حديث ابن عباس: «أنه قبل له. يا رسول الله، لقد أبطأ عنك جيريل،
 فقال: ولم لا يبطى، وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظافركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون رواجبكم، وفيه إسماعيل بن عباش.

 ⁽٣) حديث: «التوقيت في قلم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً» أخرجه مسلم من حديث أنس.

 ⁽³⁾ حديث: «الأمر بتنظيف ما تحت الأظافر». أخرجه الطراني من حديث وابصة بن سميد: «سألت النبي على عن كل شيء حتى سألته عن الرسخ الذي يكون بين الأظافر فقال: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

حدیث: ااستبطاء الوحي: فلما هبط علیه جبریل قال له: کیف ننزل علیکم وأنشم لا تغسلون براجمکم ولا تنظفون رواجیکم، تقدم قبل هذا بحدیثین.

وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه، ولمثل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات؛ إذ لا تحلو عن عورات مكشوفة لا سيما ما تحت السرة إلى ما فوق العانة؛ إذ الناس لا يعلونها عورة وقد ألحقها الشرع بالعورة وجعلها كالحريم لها ولهذا يستحب تخلية الحمام. وقال بشر بن الحارث: ما أعنف رجلاً لا يملك إلا درهما دفعه ليخلى له الحمام. ورؤي ابن عمر رضي الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصب عينيه بعصابة. وقال بعضهم: لا بأس بدخول الحمام ولكن بإزارين: إزار للعورة وإزار للرأس يتقنع به ويحفظ عينيه.

وأما السنن فعشرة: قالأوِّل: النية وهو أن لا يدخل لعاجل دنيا ولا عابثاً لأجل هوى بل يقصد به التنظف المحبوب تزيناً للصلاة، ثم يعطي الحمامي الأجرة قبل الدخول قإن ما يستوقيه مجهول وكذا ما ينتظره الحمامي، فتسليم الأجرة قبل الدخول دفع للجهالة من أحد العوضين وتطييب لنفسه، ثم يقدّم رجله اليسرى عند الدخول ويقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم؛ ثم يدخل وقت الخلوة أو يتكلف تخلية الحمام؛ فإنه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمحتاطين للعورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر في العورات، ثم لا يخلو الإنسان في الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف في أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لا يدري، ولأجله عصب ابن عمر رضي الله عنهما عينيه. ويغسل الجناحين عند الدخول ولا يعجل بدخول البيت الحار حتى يعرق في الأوّل، وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو علمه الحمامي لكرهه، لا سيما الماء الحار قله مؤونة وفيه تعب، وأن يتذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدّر نفسه محبوساً في البيت الحارّ ساعة ويقيسه إلى جهتم، فإنه أشبه بيت بجهنم: النار من تحت والظلام من فوق نعوذ بالله من ذلك، بل العاقل لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة فإنها مصيره ومستقرّه، فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة، فإن المرء ينظر بحسب همته. فإذا دخل بزازً ونجارً وبناءً وحائكً داراً معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البزاز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها، والحائك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها، والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها، والبناء ينظر إلى الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئاً إلا ويكون له موعظة وذكرى للآخرة، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عزَّ وجلَّ له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جَهنم، وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكراً ونكيراً والزبانية، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة، وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول، وما أجدر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا! فإذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استحقرها إن لم يكن ممن أغفل قلبه وأعميت بصيرته.

ومن السنن: أن لا يسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام، بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال: «عافاك الله»، ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول: «عافاك الله» لابتداء الكلام، ثم لا يكثر الكلام في الحمام ولا يقرأ القرآن إلا سراً ولا بأس بإظهار الاستعاذة من الشيطان، ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريباً من الغروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين، ولا بأس أن يدلكه غيره، فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال: إنه دلكني في الحمام

مرة فأردت أن أكافئه بما يفرح به وإنه ليفرح بذلك، ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة: «أن رسول الله على خزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره فقلت: ما هذا يا رسول الله على فقال: إنّ النّاقة تَقَحّمت بي (()) ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عزّ وجلّ على هذه النعمة. فقد قبل: الماء الحار في الشناء من النميم الذي يسأل عنه، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الحمام من النعيم الذي أحدثوه، هذا من جهة الشرع، أما من جهة الطب: فقد قبل: الحمام بعد النورة أمان من الجذام. وقبل: النورة في كل شهر مرة تطفىء المرة الصفراء وتنقي اللون وتزيد في الجماع، وقبل: بولة في الحمام قائماً في الشناء أنفع من شربة دواء، وقبل: نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء، وقبل: نومة في الصيف بعد الحمام تعدل على الرأس عند الخروج وكذا شربه، هذا حكم الرجال، وأما النساء؛ فقد قال على الرجال دخول الحمام إلا يُخلَّ حَلِي المناء الإلى المناء الإلى وحرام على الرجال دخول الحمام إلا نفساء أو مريضة، ودخلت عائشة رضي الله عنها حماماً من سقم بها، فإن دخلت لضرورة فلا تدخل إلا بمئزر سابغ، ويكره للرجل أن يعطيها أجرة الحمام فيكون معيناً لها على المكروه.

النوع الثاني: فيما يحدث في البدن من الأجزاء، وهي ثمانية:

الأول: شعر الرأس ولا بأس بحلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قزعاً، أي قطعاً وهو دأب أهل الشطارة، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاراً لهم، فإنه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تلبيساً.

الثاني: شعر الشارب، وقد قال ﷺ: ﴿ قُصُوا الشَّوارِبَ ﴾ وفي لفط آخر: ﴿ جُزُوا الشَّوارِبَ ﴾ وفي لفظ آخر: ﴿ جُؤُوا الشَّوارِبَ ﴾ وفي لفظ آخر: ﴿ حُفُوا الشَّوارِبَ ﴾ أي اجعلوها حفاف الشيه أي حولها، وحفاف الشيه: حوله. ومنه ﴿ وَنَرَى الْمَلْتَبِكَةَ مَا فِينِ مَنْ مَوْلِ الْمَرْشِ ﴾ [الزُّمَر: ٧٥] وفي لفظ آخر: ﴿ أَخُفُوا ﴾ وهذا يشعر بالاستثصال وقوله: ﴿ حَفُوا ﴾ يدل على ما دون ذلك. وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن بَسَالَكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ بَبَغَلُوا ﴾

 ⁽١) حديث: «نزل منزلاً في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يغمز ظهره ٤٠٠ الحديث. أخرجه الطبراتي في الأوسط من حديث عمر بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «لا يحل لرجل أن يدخل حليلته الحمام. . ٩ الحديث. يأتي في الذي يليه مع اختلاف.

⁽٣) حديث: «حرام على الرجال دحول الحمام إلا بمئزر..؛ الحديث. أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر قلا يدخل الحمام إلا بمئزد، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر قلا يدخل حليلته الحمام» وللحاكم من حديث عائشة: «الحمام حرام على نساء أمتي» قال: صحيح الإسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر: «فلا يدخلها الرجال إلا بإزار وامنعوها النساء إلا من مريضة أو نفساء».

 ⁽٤) حديث: قصواً وفي لفظ: «جزواً وفي لفظ: «احقوا الشوارب وأعفوا اللحي، متفق عليه من حديث ابن عمر بلفظ:
 «أحقواً ولمسلم من حديث أبي هويرة: «جزوا» والأحمد من حديثه: قصواً».

[محمد: ٢٧]، أي يستقصي عليكم، وأما الحلق فلم يرد. والإحفاء القريب من الحلق، نقل عن الصحابة: نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربه فقال: ذكرتني أصحاب رسول الله على وقال المغيرة بن شعبة: «نظر إليَّ رسول الله على وقد طال شاربي فقال: تعال فقصه لي على سواك (۱)، ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب، فعل ذلك عمر وعيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه. وقوله على: «أَعْفُوا اللَّحَىٰ» أي كثروها، وفي الخبر: «إِنَّ اليَهُودَ يُغَفُونَ شَوَارِبَهُمْ ويَقَعُونَ لِيحَاهُمْ فَتَعَالِفُوهُمْ» (۲)، وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة.

الثالث: شعر الإبط ويستحب نتفه في كل أربعين يوماً مرة وذلك سهل على من تعوّد ننفه في الابتداء، فأما من تعوّد النظافة وأن لا يجتمع الوسخ في خللها ويحصل ذلك بالحلق.

الرَّابع: شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحلق أو بالنورة ولا ينبغي أن تتأخر عن أربعين يوماً.

المخامس: الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ. قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَلُمْ أَظْفَارَكَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقْعُدُ هَلَىٰ ما طَالَ مِنها ""، ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمنع ذلك صحة الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء، ولأنه يتساهل فيه للحاجة لاسيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأبدي من العرب وأهل السواد، وكان رسول الله ﷺ يأمرهم بالقلم وينكر عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة، ولو أمر به لكان فيه فائلة أخرى وهو التغليط والزجر عن ذلك. ولم أر في الكتب خبراً مروياً في ترتيب قلم الأظفار، ولكن سمعت: «أنه ﷺ بدأ بمسبحته اليمني وختم بإبهامه اليمني وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام "أن ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أنّ الرواية فيه من العلى بعد نقل المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوة، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل المعنى لا ينكشف ابتداء إلا بنور النبوة، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه والرجل، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فببدأ بها، ثم الممنى المهنى أشرف من اليسرى فببدأ بها، ثم بعدها ينبغي والرجل، واليد أشرفها؛ إذ هي المشيرة في كلمتي الشهادة من جملة الأصابع، ثم بعدها ينبغي على الأرض فالإبهام هو اليمين، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمني، والد إذا تركت بطبعها على الأرض فالإبهام هو اليمين، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمنى، واليد إذا تركت بطبعها

⁽١) حديث المغيرة بن شعبة: "نظر إلي رسول الله ﷺ وقد طال شاربي فقال: تعالى فقصه لي على سواك، أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي في الشمائل.

⁽٣) حديث: «إن اليهود يعفون شواريهم ويقصون لحاهم فخالفوهم». أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة: «قلنا: يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالهم فقال: قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب». قلت: والمشهور أن هذا فعل المجوس ففي صحيح ابن عمر في المجوس: «أنهم يوفرون سبالهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم».

 ⁽٣) حديث: (1) أبا هريرة قلم ظفرك (إن الشيطان يقعد على ما طال منها). أخرجه الخطيب في الحامع بإسناد ضعيف من حديث حابر: (قصوا أظافيركم) فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفرا.

⁽٤) حديث: «البداءة في قلم الأظافر بمسبحة اليمنى والختم بإبهامها وفي اليسرى بالخنصر إلى الإمهام»، لم أجد له أصلاً وقد أنكره أبو عبدالله المازري في الرد على الغزالي وشنع عليه به.

كان الكف ماثلاً إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستتمام الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عالياً فما يقتضيه الطبع أولى، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة، فيقتضي ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بإبهامها ويبقى إبهام اليمني فيختم به التقليم. وإنما قدّرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها. وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع. وأما أصابع الرجل: فالأولى عندي ـ إن لم يثبت فيها نقل ـ أن يبدأ بخنصر اليمني ويختم بخنصر اليسري كما في التخليل، فإنّ المعاني التي ذكرناها في اليد لا تتجه ههنا إذ لا مسبحة في الرجل. وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرص فيبدأ من جانب اليمني فإنّ تقديرها حلقة بوضع الأخمص على الأخمص يأباه الطبع بخلاف اليدين. وهذه الدقائق في الترتيب تنكشف بنور النبوّة في لحظة واحدة وإنما يطول التعب عليناً. ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب في ذلك ربما لم يخطر لنا. وإذا ذكرنا فعله ﷺ وترتيبه ربما تيسر لنا بما عاينه ﷺ بشهادة الحكم وتنبيهه على المعنى استنباط المعنى، ولا تظنن أنَّ أفعاله ﷺ في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب، بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لا يقدّم على واحد معين بالاتفاق، بل بمعنى يقتضي الإقدام والتقديم، فإنّ الاسترسال مهملاً ـ كما يتفق ـ سجية البهائم، وضبط الحركات بموازين المعاني سجية أولياء الله تعالى. وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه سدى أبعد، كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عزَّ وجلَّ أظهر؛ إذ القريب من النبي ﷺ هو القريب من الله عزَّ وجلٌ، والقريب من الله لا بد أن يكون قريباً، فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره، فنعوذ بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا في يد الشيطان بواسطة الهوى. واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله ﷺ ﴿فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتَحَلُ فَي عَيْنُهُ اليَّمَنِي ثُلاثًا وَفِي اليِّسرِي اثْنَيْنِ (١١) فيبدأ باليمني لشرفها. وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وتراً، فإنَّ للوتر فضلاً عن الزوج؛ فإنَّ الله سبحانه وتر يحب الوتر، فلا ينبغي أنْ يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى؛ ولذلك استحب الإيتار في الاستجمار. وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر؛ لأنّ اليسري لا يخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكحل، وإنما خصص اليمين بالثلاث؛ لأنَّ التَّفضيل لا بدَّ منه للإيتار واليمين أفضل فهي بالزيادة أحق.

فإن قلت: فلم اقتصر على اثنين للبسرى وهي زوج؟ فالجواب: أنَّ ذلك ضرورة؛ إذ لو جعل لكل واحدة وتراً لكان المجموع زوجاً إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعايته الإيتار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد. ولذلك أيضاً وجه وهو أن يكتحل في كل واحدة ثلاثاً على قياس الوضوء(٢)، وقد نقل ذلك في الصحيح وهو الأولى. ولو ذهبت أستقصي دقائق ما راعاه على عركاته لطال الأمر فقس بما سمعته ما لم تسمعه. واعلم أنّ العالم لا يكون وارثاً للنبيّ على إلا إذا اطلع

⁽١) حديث: «كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنين؟. أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

 ⁽٣) حديث (الاكتحال في كل عين ثلاثاً). قال الغزالي: ونقل ذلك في الصحيح، قلت: هو عند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس. قال الترمذي: حديث حسن.

على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي ﷺ إلا درجة واحدة وهي درجة النبؤة، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث؛ إذ الموروث: هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه، والوارث: هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له، فأمثال هذه المعاني مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء، ولا يستقل باستنباطها تلقياً بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

السادس والسابع: زيادة السرة وقلفة الحشفة؛ أما السرة فتقطع في أوّل الولادة، وأما التطهير بالختان فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يثغر الولد أحب وأبعد عن الحطر. قال على: «المختانُ سُنة لِلرِّجَالِ وَمَكُرُمَةً لِلنَّسَاءِه (١٠)، وينبغي أن لا يبالغ في خفض المرأة. قال على لام عطية وكانت تخفض: «يا أمّ عَطِيّة أَشِمْي وَلا تُنْهِكِي فَإِنّهُ أَسْرَى لِلْوَجْهِ وَأَخْطَىٰ عِنْدُ الرَّوْجِه (٢٠)، أي: أكثر لماء الوجه ودمه وأحسن في جماعها، فانظر إلى جزالة لفظه على في الكناية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التي هي أهم مقاصد النبوة إلى مصالح الدنيا، حتى انكشف له وهو أمي من هذا الأمر النازل قدره ما لو وقعت الغفلة عنه خيف ضرره، فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم بيمن بعثته مصالح الدنيا والدين على.

الثامن: ما طال من اللحبة وإنما أخرناها لنلحق بها ما في اللحبة من السنن والبدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها، وقد اختلفوا فيما طال منها فقيل: إن قبض الرجل على لحبته وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس فقد فعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين، وكرهه الحسن وقتادة وقالا: تركها عافية أحب لقوله ﷺ: «أَعْفُوا اللَّحَيْ»، والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب، فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة ويطلق ألسنة المغتابين بالنبذ إلى اليه فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية. وقال النخعي: عجبت لرحل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحبته ويجعلها بين لحبتين فإن التوسط في كل شيء حسن، ولذلك قيل: كلما طالت اللحية تشمر العقل.

安安帝

فصل

في اللحية

وفي اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشدّ كراهة من بعض: خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت ونتفها ونتف الشيب منها، والنقصان منها والزيادة وتسريحها تصنعاً لأجل الرياء، وتركها شعثة

⁽١) حديث: اللغتان سنة الرجال مكرمة النسامة. أخرجه أحمد، والبيهةي من رواية أبي المليح بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعف.

 ⁽٣) حديث: قام عطية أشمي ولا تنهكي. . ٩. الحديث. أخرجه الحاكم، والبيهقي من حديث الضحاك بن قيس، ولأبي داود ونحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف.

إظهاراً للزهد، والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب وإلى بياضها تكبراً بعلو السن وخضابها بالحمرة والصفرة من غير نية تشبهاً بالصالحين.

أما الأوّل: وهو الخضاب بالسواد فهو منهي عنه لقوله ﷺ: «خَيْرُ شَبَابِكُمْ مَنُ تَشَبَّة بِشَيُوخِكُمْ وَشَرُ شُيُوخِكُمْ مَنْ تَشَبّة بِشَيْوخِكُمْ وَنهى عن شُيُوخِكُمْ مَنْ تَشَبّة بِشَبَابِكُمْ الله والمراد بالنشبه بالشيوخ في الوقار لا في تبييض الشعر، ونهى عن الخضاب بالسواد (الخِضَابُ وقال: هم خَضَابُ أَهْلِ النّارِه (الله على الله عنه عمر رضي الله عنه وكان يخضب بالسواد فنصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه فرد نكاحه وأوجعه ضرباً وقال: غرّرت القوم بالشباب ولبست عليهم شيبتك، ويقال: أوّل من خضب بالسواد فرعون لعنه الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ أنه قال: (يَكُونُ فِي آخِرِ الزّمَانِ قَوْمٌ يُخَطّبُونَ بِالسّوادِ كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ لا يَريحُونَ رَائِحَةَ النّبيّ الله عنهما عن النبيّ الله الله المراقبة إلى المراقبة أنه قال: (يَكُونُ فِي آخِرِ الزّمَانِ قَوْمٌ يُخَطّبُونَ بِالسّوادِ كَحَوَاصِلِ الحَمَامِ لا يَريحُونَ رَائِحَة النّبيّ الله الله الله المراقبة إلى المراقبة الله الله المراقبة الله الله المراقبة الله الله المراقبة المراقبة الله المراقبة الله المراقبة ال

الثاني: الخضاب بالصفرة والحمرة، وهو جائز تلبيساً للشيب على الكفار في الغزو والجهاد، فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم، وقد قال رسول الله على: «الصُفْرَةُ خِضَابُ المُوْمِنِينَه (*)، وكانوا يخضبون بالحناء للحمرة وبالخلوق والكتم للصفرة، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لا بأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة.

الثالث: تبييضها بالكبريت استعجالاً؛ لإظهار علو السن توصلاً إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشبوخ وترفعاً عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم ظناً بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً، وهيهات قلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلاً فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشبب فيها، ومن كانت غريزته الحمق فطول المدة يؤكد حماقته، وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم، وقال ابن عباس رضي الله عهما: ما أتى الله عز وجل عبداً علماً إلا شاباً والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله عز وجلّ: ﴿ وَالله الله عَهما فَقَى يَدُكُوهُمْ يُقَالُ لللهُ وَلِهم الله عن الله الله عنه الله عنه الله الله عنه الشباب، ثم تلا قوله عز وجلّ عبداً علماً إلا شاباً والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله عز وجلّ وبني أنس وجلّ الانبيّاء الله عنه يقول: ﴿ وَالله عنه علم والله عنه وليه تعالى: ﴿ وَالله عنه عنه ول الله عنه يقول: قبض رسول الله على وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، فقيل له: يا أبا

⁽١) حديث: الخير شبابكم من تشبه بكهولكم. ١٠ الحديث. أخرجه الطبراني من حديث واثلة بإسناد ضعيف.

 ⁽٢) حديث: «نهى عن الخضاب بالسواد» أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن العاص بإستاد منقطع،
 ولمسلم من حديث جابر: «وفيروا هذا بشيء واجتبوا السواد» قاله حين رأى بياض شعر أبي قحافة.

 ⁽٣) حديث: «الخضاب بالسواد خضاب أهل النار» وفي لفظ: «خضاب الكفار» أخرجه الطبراني، والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ: «الكافر» قال ابن أبي حاتم منكر.

 ⁽٤) حديث: البكون في آخر الزمان قوم بخضبون بالسواد. . . ٥ الحديث. أخرجه أبو داود، والنسائي من حديث ابن عباس باسناد جيد.

حديث: «الصفرة خضاب المسلمين والحمرة خضاب المؤمنين» أخرجه الطبراني، والحاكم بلفظ الإفراد من حديث
ابن عمر. قال ابن أبي حاتم: منكر.

حمزة فقد أسن، فقال: لم يشنه الله بالشيب فقيل: أهو شين؟ فقال: كلكم يكرهه (١٠) ويقال: إن يحجله يحيى بن أكثم ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة، فقال له رجل في مجلسه يريد أن يخجله بصغر سنه: كم سن القاضي أيده الله؟ فقال: مثل سن عتاب بن أسيد حين ولأه رسول الله الله المحمدة وقضاءها، فأفحمه (١٠) وروي عن مالك رحمه الله أنه قال: قرأت في بعض الكتب: لا تغربكم اللحي فإن التيس له لحية. وقال أبو عمرو بن العلاء: إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية، فاقضٍ عليه بالحمق ولو كان أمية بن عبد شمس، وقال أيوب السختياني: أدركت الشيخ ابن الملحية، فاقضٍ عليه بالحمق ولو كان أمية بن الحسين: من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه. وقال علي بن العلاء: أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير؟ فقال. إن كان أصغر سنا منك. وقيل لأبي عمرو بن العلاء: أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير؟ فقال. إن كان الجهل يقبع به فالتعلم يحسن به. وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بغلة الشامي وتسمع منه؟ فقال له أحمد: لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر، إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول وإن عقل أحمد: لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر، إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول وإن عقل أحمد: لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر، إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركته بنزول وإن عقل أحمد: لو أن فاتني بعلو أدركه بعلو ولا نزول.

الرابع: نتف بياضها استنكافاً من الشيب، وقد نهى عليه السلام عن نتف الشيب وقال: الهُو تُورُ اللهُ وَمِن المُؤْمِنِ (٢٠)، وهو في معنى الخضاب بالسواد وعلة الكراهية ما سبق، والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور.

الخامس: نتفها أو نتف بعضها بحكم العبث والهوس وذلك مكروه ومشوّه للخلقة ونتف الفنيكين بدعة وهما جانبا العنفقة. شهد عند عمر بن عبدالعزيز رجل كان ينتف فنيكيه فرد شهادته. ورد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن أبي ليلى قاضي المدينة شهادة من كان ينتف لحيته. وأما نتفها في أول النبات تشبها بالمرد فمن المنكرات الكمار فإن اللحية زينة الرجال، فإن لله سبحانه ملائكة يقسمون: والذي زين بني آدم باللحى، وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء، وقبل في غريب التأويل: اللحية هي المراد بقوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي الْفَانِي مَا يَشَاقُ الْفَاطِر: ١]. قال أصحاب الأحنف بن قيس: وددنا أن نشتري للأحنف لحبة ولو بعشرين ألفاً. وقال شريح القاضي: وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف، وكيف تكره اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إلبه بعين العلم والوقار والرفع في المجالس

⁽١) حديث: «نَبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له: يا آبا حمزة وقد أسن فقال: لم يشنه الله بالشيب». متفق عليه من حديث أنس دون فوله: «فقيل... الخ» ولمسلم من حديثه: "وسئل هن شيب رسول الله ﷺ قال: ما شانه الله بيضاء».

⁽٢) حديث يحيى بن أكثم «ولي القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له: كم سن القاضي؟ فقال: مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله على إمارة مكة وقضاءها يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله على قاضياً على أهل اليمن أخرجه الخطيب في التاريخ بإسناده فيه نظر وما ذكره ابن أكثم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عشرين، وأما بالنسبة إلى معاذ فإنما يتم له ذلك على قول يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حائم إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمان عشرة والله أعلم.

 ⁽٣) حديث: «نهى عن نتف الشيب وقال؛ هو نور المؤمن». أخرجه أبو داود، والترمذي، وحسته النسائي، وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض؟ فإنّ من يشتم يعرض باللحية إن كان للمشتوم لحية. وقد قيل: إنّ أهل الجنة مرد إلا هارون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم، فإن له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفضيلاً.

السادس: تقصيصها كالتعبية طاقة على طاقة للتزين للنساء والتصنع. قال كعب: يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقبون نعالهم كالمناجل أولئك لا خلاق لهم.

السابع: الزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصدغين وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم اللحى وينتهي إلى نصف الخدّ وذلك يباين هيئة أهل الصلاح.

الثامن: تسريحها لأجل الىاس. قال بشر: في اللحية شركان: تسريحها لأجل الىاس وتركها متفتلة لإظهار الزهد.

المتاسع والمعاشر: النظر في سوادها أو في بياضها بعين العجب، وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن، بل في جميع الأخلاق والأفعال على ما سيأتي بيانه. فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنطافة، وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس(1)، والمضمضة، والاستنشاق(٢)، وقص الشارب، والسواك، وثلاثة في اليد والرجل وهي القلم وخسل البراجم وتنظيف الرواجب (٢)، وأربعة في الجسد وهي نتف الإبط والاستحداد والختان والاستنجاء بالماء، فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك، وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض المطهارة والاستنجاء بالماء، فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك، وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض الطهارة الظاهرة دون الباطنة، فلنقتصر على هذا وليتحقق أنّ فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتي تفصيلها في ربع المهلكات مع تعريف الطرق في إذالتها وتطهير القلب منها إن شاء الله عزّ وجلّ.

تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى



⁽۱) حدیث • فرق شعر الرأس. ، الخ، من حدیث ابن عباس «أن رسول الله ﷺ كان یسدل شعره إلى أن قال: ثم فرق رسول الله ﷺ رأسه.

⁽٣) حديث: «عشر من الفطرة..» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة ولفظه: «قص الشارب وإعقاء اللحية والسواك واستنشاقه الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق المائة وانتقاص الماء» - قال وكيع: يعني الاستنجاء - قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. ضعفه النسائي، ولأبي داود، وابن ماجه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء. قال أبو داود: روي نحوه عن ابن عباس قال: «خمس كلها في الرأس». وذكر منها «الفرق» ولم يذكر «إعفاء اللحية» وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «المفطرة خمس؛ المختان..» الحديث.

⁽٣) حديث: النظيف الرواجب، تقدم.

﴿ كتاب أسرار الصلاة ومهماتها



ينسب أنو الكنب التتسير

الحمد لله الذي غمر العباد بلطائفه، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه، فارق الملوك مع التفرّد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق في السؤال والدعاء فقال: هل من داع فأستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له؟ وباين السلاطين بفتح الباب، ورفع الحجاب فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات، ولم يقتصر على الرخصة بل تلطف بالمرغيب والدعوة، وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه، وأتم لطفه، وأعم إحسانه، والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليه المجتبى وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليماً.

أما بعد: فإن الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، ورأس القربات، وغرّة الطاعات، وقد استقصينا في فن الفقه _ في بسبط المذهب ووسيطه ووجيزه _ أصولها وفروعها، صارفين جمام العناية إلى تفاريعها النادرة. ووقائمها الشاذة لتكون خزانة للمفتي منها يستمدّ ومعوّلاً له إليها يفزع ويرجع ـ ونحن الآن في هذا الكتاب نقتصر على ما لا بدّ للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والنية ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه، ومرتبون الكتاب على سبعة أبواب:

الباب الأوّل: في فضائل الصلاة.

الباب الثاني: في تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة.

الباب الثالث: في تفضيل الأعمال الباطنة منها.

الياب الرابع: في الإمامة والقدوة.

الباب الخامس: في صلاة الجمعة وآدابها.

الباب المسادس: في مسائل متفرّقة تعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها.

الباب السابع: في التطوعات وغيرها.

* * *

الباب الأول

في فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان:

تَالَ ﷺ: ﴿ قَلَاثَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَلَىٰ كَثْبِ مِنْ مِسْكِ أَسْوَهَ لَا يَهُولُهُمْ حِسَابٌ وَلا يَثَالُهُمْ فَزَعٌ حَتَّىٰ يُفْرَغَ مِمَّا بَيْنَ النَّاسِ: رَجُلٌ قَرَأَ القُرْآنَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ عَزْ وَجَلٌّ وَأَمَّ بِقَوْمٍ وَهُمْ بِهِ رَاضُونَ، وَرَجُلُ أَذَنَ فِي

مُسْجِدٍ وَدَعَا إِلَىٰ اللّٰهِ عَرُّ وَجَلُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللّٰهِ، وَرَجُلُ ابْتُلِيَ بِالرَّزِقِ فِي الدُّنيا فَلَمْ يَشْغَلْهُ ذَٰلِكَ عَنْ عَمَلِ الاَجْرَةِهِ('')، وَفَالَ ﷺ وَقَالَ ﷺ وَلَا يَسْمَعُ نِدَاءَ المُؤَذِّنِ جِنْ وَلا إِنْسَ وَلا شَيْءً إِلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِهِ ''')، وقيل في تفسير قوله عز وجلّ وقال ﷺ: وقال ﷺ: وقال المُؤذُّن حَتَى يَفْرَعَ مِنْ أَذَٰلِهِه ''')، وقيل في تفسير قوله عز وجلّ فَوَانُ المُؤذُّن مَنْ المُؤذُّن عَنْ مَنْ الْمُؤذُّن وَقَالَ اللهِ وَمَعِلَ مَنْلِعًا ﴾ (تُصَلَّت. ٣٣] نزلت في المؤذنين، وقال ﷺ: وإذا من المُؤنُّن مَنَ المُؤذُّن المُؤذُّن أَنْ وأقام الله وأدامها ما دامت السموات والأرض، وفي ولا قوّة إلا بالله، وفي قوله: قد قامت الصلاة: أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض، وفي التثويب صدقت وبررت ونصحت، وعند الفراغ يقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت التثويب صدقت وبررت ونصحت، وعند الفراغ يقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد. وقال سعيد بن المسيب: من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك، فإن أذَن وأقام صلى وراءه أمثال الجبال من الملائكة.

فضيلة المكتوبة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوَةَ كَانَتَ عَلَ ٱلنُّوْمِنِ كِتَبُا مُوْفُوتَا﴾ [السَّاء: ١٠٣]، وقال ﷺ: الحَمْسُ صَلَوَاتِ كَنَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنْ وَلَمْ يُضَيْعْ مِنْهُنَّ شَيْتاً اسْتِخْفَاناً بِحَقِّهِنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللّهِ عَهْدُ إِنْ شَاءَ عَلَيْهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْحَلُهُ الجَنْةَ (*)، أَنْ يُلْحِلُهُ الجَنْقَةَ (*) وَقَالَ ﷺ: "مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْحُمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ عَلْبٍ غَمْرٍ بِبَابٍ أَحَدِكُمْ يَقْتَحِمُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ وَقَالَ ﷺ: "مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ثَلْهِمِ عَلْمَ مَوَّاتِ لَمَاءَ أَرْفُ الصَّلُواتِ الْخَمْسِ ثَلْهِمِ عَلْمَ مَوَّاتِ لَمُعَالِقُونِ كَمَا ثَرُونَ ذَٰلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لا شيء، قَالَ ﷺ: قَبِلُ الصَّلُواتِ الْخَمْسِ ثُلْهِمِ اللّهُ لَوْمَ الْمُنَافِقِينَ الْمُعَلِقِينِ اللّهَ الْمُعَلِقِينَ اللّهُ الْمُلُواتِ كَفَارَةً لِمَا أَبْنِنَهُنَ مَا الْجَنْبَتِ الْكَبَائِرُهُ (*)، وقال ﷺ: الْمُعَلِقِينَ الْمُعَلِقِينَ شُهُودُ الْمَتَعَلِيعُونَهُمَا أَلُولَ السَّلُواتِ كَفَارَةً لِمَا أَبْنِنَهُنَ مِاللّهُ الْمُعَلِقِينَ اللّهُ وَهُو مُطَلِقًا لَهُ الصَّلُواتِ عَمَادُ اللّهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ (*)، وقال ﷺ: «الصَّلَاةُ عِمَادُ الدُينِ فَمَنْ قَرَكُها فَقَدْ هَدَمُ لِللّهُ اللّهُ اللّهُ إِنْ الصَّلَاةُ عِمَادُ الدُينِ فَمَنْ قَرَكُها فَقَدْ هَدَمَ لِلْمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ (*)، وقال ﷺ: «الصَّلَاةُ عِمَادُ الدُينِ فَمَنْ قَرَكُها فَقَدْ هَدَمُ لِلْمُولُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ السَلَوةُ عَلَى اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ الْمُعَالِقُولُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ اللّهُ الللّهُ اللللللّهُ الللللللّهُ الللّهُ الللللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللللللللللّهُ الللللللللللللللللللللللللللللللل

ياب أسرار الصلاة

⁽١) حديث: «ثلاثة يوم القيامة هلى كثيب من مسك. . ، الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف.

⁽٢) حديث: ﴿لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة؛ أخرجه البخاري من حديث أبي سعبد.

 ⁽٣) حديث: فيد الرحمٰن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه أخرجه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسئله من حديث أنس بإسناد ضعيف.

 ⁽٤) حديث: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن» منفق عليه من حديث أبي سعيد.

⁽ه) حديث: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد. . . » الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبال من حديث عبادة بن الصامت وصححه ابن عبدالبر.

 ⁽٦) حديث: المثل خمس صلوات كمثل نهر . ٤ الحديث . أخرجه مسلم من حديث جابر ولهما نحوه من حديث أبي هريرة .

 ⁽٧) حديث: «الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽A) حديث: قبيتنا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح؛ أخرجه مالك من رواية صعيد بن المسيب مرسلاً

 ⁽٩) حديث: (من لقي الله مضيعاً للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته) وفي معناه حديث: (أول ما يحاسب به العبد الصلاة) وفيه الفإن فسدت فسد سائر عمله) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس.

الدِّينَ (١)، وسئل عَنَّى: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الصَّلاةُ لِمَوَاقِيتِهَا» (٢)، وقال عَنَّى: هَمَنَ حَافَظَ عَلَىٰ الحَمْسِ بِإِكْمَالُ طُهُورِها وَمَوَالِيتِهَا كَاتَتْ لَهُ نُوراً وَيُرْهاناً يَوْمُ القِيَامَةِ، وَمَنْ ضَيَّعَها حُشِرَ مَعَ فِرْعُونَ وَهَامَانَ (٢)، وقال الله عَلَىٰ خَلْقِهِ يَعْدَ النُّوجِيدِ أَحَبُ إِلَيْهِ مِنْها لَتَعَبَّدَ بِهِ مَلاَئِكَتَهُ فَيِشْهُمْ رَاكِعٌ وَمِنْهُمْ سَاجِدٌ وَمِنْهُمْ قَائِمٌ وَقَاعِدَه (٥) وقال النبي يَشِيُّة: همَنْ تَرَكَ صَلاةً مُتَعَمِّداً فَقَدْ كَفَرَه (١) أي قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها، وقال عَنْهُ: همَنْ تَرَكَ صَلاةً مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَوْهُ وَهُوهُ وَاللهُ عَنْهُ: همَنْ تَرَكَ صَلاةً مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَى وقال أَلِهُ عنه عنه الإعان فاحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وأنه يكتب له بإحدى خطرتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم وتمحى عنه بالأخرى سيئة، فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم عمله وقال يَشِيْ: «يًا أبًا هُريْرَةٌ مُنْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ فَإِنَّ الله يَأْتِيكَ بِالرَّزْقِ مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِهُ (١٠)، وقال يعمله وقال يَشِيْ: «يًا أبًا هُرَيْرَةٌ مُنْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ فَإِنَّ اللّه يَأْتِيكَ بِالرَّرْقِ مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِهُ (١٠)، وقال يعض العلماء: مثل المصلي مثل التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال، وكذلك بعض العلماء: مثل المصلي مثل التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال، وكذلك المصلي لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فأطفتوها.

فضيلة إتمام الأركان:

قال ﷺ: "مَثَلُ الصَّلاةِ المَكْتُوبَةِ كَمَثَلِ العِيزَانِ مَنْ أَوْفَىٰ اسْتَوْفَىٰ" (١٠)، وقال يزيد الرقاشي: "كانت

 ⁽١) حديث: «الصلاة عماد الدين». رواه البيهةي في الشعب بسند ضعفه من حديث عمر. قال الحاكم عكرمة لم يسمع من عمر قال ورواه ابن عمر لم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشكل الوسيط: إنه غير معروف.

 ⁽٣) حديث: «سئل أي الأعمال أفصل؟ فقال: الصلاة لمواقبتها». متفق عليه من حديث ابن مسعود.

 ⁽٣) حديث: قمن حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً ويرهاناً. .٣ الحديث. أخرجه أحمد وابن
 حيان من حديث عبدالله بن عمرو.

⁽٤) حَدَيث: «مَفَاتَمِع الْجَنَة الْصَلَامَة. رواه أبو داود الطيالسي من حديث جابر وهو عند الترمدي ولكن ليس داخلاً في الرواية.

 ⁽a) حديث: «ما اقترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة. . ٤ الحديث. لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر.

⁽٦) حديث: قمن ترك صلاة متعمداً فقد كفر". أخرجه البزار من حديث أبي الدرداء بإسناد فيه مقال.

حديث: امن ترك صلاة متعمداً فقد تبرأ من ذمة محمد ﷺ أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أم أيمن بنحوه ورجاله
 ثقات.

 ⁽A) حديث: قاول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من صمل العبد الصلاة. . ٤ الحديث. رويناه في الطيوريات من حديث أمي سعيد بإسناد ضعيف والأصحاب السنن الحاكم وصحح إسناده نحوه من حديث أبي هريرة وسيأتي.

جديث: «با أبا هريرة، مر أهلك بالصلاة فإن الله بأتيك الرزق من حيث لا تحتسب لم أقف له على أصل.

 ⁽١٠) حديث العمال المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى أخرجه ابن الممارك في الزهد من حديث الحسن مرسلاً وأسنده البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة.

صلاة رسول الله على مستوية كأنها موزونة (() وقال على: ﴿ إِنَّ الرَّجُلَيْنِ مِنَ أُمَّتِي لَيَقُومَانِ إِلَىٰ الصَّلاةِ وَرُكُومُهُمَا وَسَجُودُهُمَا وَاحِدٌ وَإِنَّ مَا بَيْنَ صَلاَتَهِهِمَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (() وأشار إلى الخشوع، وقال على: ﴿ لا يُغْفِرُ اللّهُ يَوْمُ القِيَامَةِ إِلَىٰ العَبْدِ لا يُقِيمُ صُلْبَهُ بَيْنَ رُكُومِهِ وَسُجُودِهِ (() ، وقال على: ﴿ أَمَّا يَخَانُ اللّهُ وَجُهَهُ وَجُهَ وَجَارٍ ؟ (أ) ، وقال على: ﴿ وَقَالَ اللّهُ وَجُهَهُ وَجُهَ حِمَارٍ ؟ (أ) ، وقال على: ﴿ وَقَالَ اللّهُ صَلاةً لِوَقْتِهَا وَأَسْبَغَ وُصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وُصُوءَهَا وَلِمْ يُسْبِغُ وَضُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَضُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَضُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسِمُ وَلَا عُشُومَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَمُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسْبِغُ وَصُوءَهَا وَلَمْ يُسِمُ وَلَا يَسْبُونَ وَهِي بَيْضَاءُ مُسْفِرَةٌ تَقُولُ: حَفِظُكَ اللّهُ فَتَى كَمَا حَيْطُتَنِي، وَمَنْ صَلَّا لِللهُ لَقْتُ كُمَا صَيْعُتَنِي، حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ حَيْثُ شَاءَ اللّهُ لَقَتْ كُمَا عَيْمُ اللّهُ وَلَى اللّهُ وَلَى اللّهُ وَلَا يَسْبُونُ اللّهُ وَلَى السَوْقَ اللّهُ وَلَى اللّهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ مَا اللهُ وَمِي اللهُ عَنه، وسلمان رضي الله عنه: الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى، ومن طفف وقل علم ما قال الله في المعلففين.

فضيلة الجماعة:

قال ﷺ: "صَلاةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلاةَ الفَذْ بِسَبْعِ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً" (وروى أبو هويرة أنه ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات فقال. "لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمْرَ رَجُلاً يُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ أَخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالِ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَأَكْرَ بِهِمْ فَتُحَرَّقَ عَلَيْهِمْ فَلُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ أَنْهُ وَفِي رواية أخرى: "ثُمَّ أَخَالِفَ إِلَىٰ رِجَالِ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا فَآمَرَ بِهِمْ فَتُحَرَّقَ عَلَيْهِمْ فَلُحَرِقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتُهُمْ بِحُزَمِ الْحَطَبِ وَلَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَظْماً سَمِيناً أَوْ مَرْمَاتَيْنِ لَشَهِدَها، يعني صلاة العشاء. وقال بيُوتُهُمْ بِحُزَمِ الحَدْءِ من شهد الصبح فكأنما قام ليلة (الله عنه ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة (الله عنه العنه عنه العنه العنه العنه العنه العنه العنه العنه الله عنه عنه العنه الع

حديث يزيد الرقاشي اكانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة». رواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو
 الوليد الصفار في كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف.

 ⁽٢) حديث (إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد. . 1 الحديث . أخرجه ابن المجبر في
 العقل من حديث أبي أبوب الأنصاري بتحوه وهو موضوع ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن ابن المجبر

⁽٣) حديث: الا ينظر ألله إلى عبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده؛ أحرجه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

٤) حديث: «أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار». أخرجه ابن عدي في عوالي مشايخ مصر من حديث جابر: «ما يؤمنه إذا التفت في صلاته أن يحول الله عز وجل وجهه وجه كلب أو وجه خنزير». قال: منكر بهذا الإسناد، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله وجهه وجه حمار».

 ⁽٥) حديث: «من صلى المصلاة لوقتها فأسبغ وضوءها وأتم ركوهها وسجودها وخشوهها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول:
 حفظك الله كما حفظتني، ٨٠ الحديث. أخرجه الطبراني في الأرسط من حديث أنس بسند ضعيف والطيالسي والبيهةي
 في الشعب من حديث عبادة بن الصامت بسند ضعيف تحوه.

⁽٣) حديث: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته». أخرجه أحمد والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي تنادة.

٧٪) - حديث: «صلاة الجماعة تقضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ متفق عليه من حديث ابن عمر.

٨) - حديث أبي هربرة: القد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون. ١٠ الحديث. متفق عليه.

٩) حديث عشمان: امن شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة.. > الحديث. أخرجه مسلم من حديثه مرفوعاً. قال الترمذي: وروي عن عثمان موقوقاً.

وقال ﷺ: "مَنْ صَلَّىٰ صَلاَّة فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ مَلاَّ نَحْرَهُ عِبَادَةًه (١٠)، وقال سعيد بن المسيب: ما أذَّن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد. وقال محمد بن واسع: ما أشتهي من الدنيا إلا ثلاثة: أخاً إنه إن تعوجت قوّمني، وقوتاً من الرزق عفواً من غير تبعة، وصلاة في جماعة يرفع عني سهوها ويكتِب لي فضلها. وروي أن أبا عبيدة بن الجراح أمُّ قوماً مرة فلما انصرف قال: ما رال الشيطان بي آنفاً حتى أُريتُ أنَّ لي فضلاً عن غيري لا أؤم أبداً. وقال الحسن: لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء. وقال النخعي: مثل الذي يؤم الناس بغير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدري زيادته من نقصانه. وقال حاتم الأصم: فاتتني الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشر آلاف، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سمع المنادي فلم يجب لم يرد خيراً ولم يرد به خير . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لئن تملأ أذن ابن آدم رصَّاصاً مذاباً خير له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب. وروي أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا فقال: ﴿إِنَّا بِلَهِ وَلِإِنَّا إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ [البَقْرَة: ١٥٦]، لفضل هذه الصلاة أحب إليَّ من ولاية العراق. وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ أَرْبَعِينَ يَوْماً الصلوات فِي جَمَاعَةٍ لا تَفُوتُهُ فِيهَا تَكْبِيرَةُ الإِحْرَام كَتَبَ اللّهُ لَهُ بَرَاءَتَيْنِ: بَرَاءَةُ مِنَ التُّفَاقِ وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ، (٢٠)، ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوهُهم كالكوكب الدري فتقول لهم الملائكة: ما كانت أعمالكم؟ فيقولون: كنا إدا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال: كنا نتوضأ قبل الوقت، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون: كنا نسمع الأذان في المسجد. وروي أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة.

فضيلة السجود:

قال رسول الله ﷺ: "مَا تَقَرَّبَ العبدُ إِلَىٰ اللَّهِ بِشَىٰءَ أَفْضَلَ مِنْ سُجُودِ خَفِيّ (""، وقال رسول الله ﷺ: "مَا مِنْ مُسْلِم يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيْئَةً " ، وروي: أَنَ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة، فقال ﷺ: "أَعِنِّي بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» (ق) وقيل: "إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ سَاجِداً (").

 ⁽١) حديث: (من صلى في جماعة فقد ملأ تحره عبادة لم أجده مرفوعاً وإنما من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن
مصر في كتاب الصلاة.

 ⁽٢) حديث: قمن صلى أربعين يوماً الصلوات في جماعة لا تقوته تكبيرة الإحرام. . ٤ الحديث. آخرجه الترمذي من حديث أنس بإسناد رجاله ثقات.

 ⁽٣) حديث: (ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي؛. رواه ابن المبارك في الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً.

 ⁽³⁾ حديث: قما من مسلم يسجد أله سجدة إلا رقعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة، أخرجه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح. ولمسلم نحوه من حديث ثربان وأبي الدرداء.

 ⁽٥) حديث: •إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يحعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مرافقتك في الجنة . ١٠ الحديث. أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك.

حديث: (إن أقرب ما يكون العبد إلى الله أن يكون ساجداً». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وهو معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَالْسِينَةِ وَاقْتَبِ ﴾ [النان: ١٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وَجُوبِهِم مِن الْرَضِ عند السجود، وقيل: هو نور النحشوع، فإنه يشرق من الباطن على الظاهر، وهو الأصح. وقيل: هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء، وقال ﷺ: ﴿ إِذَا قُرَا الله السّجْدَةُ قَسَجَدَ أَعْتَزَلَ الله عِلْمُ السّجْدَةُ وَالْمِرْثُ أَنَا بِالسّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِي يَبْكِي وَيَقُولُ: يا وَيْلاهُ أُمِرَ هُذَا بِالسّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنّةُ وَأُمِرْثُ أَنَا بِالسّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِي ين عبدالله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد. ويروى أن عمر بن عبدالله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا وكان يوسف بن أسباط يقول: يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسده أيلا رجل يتم ركوعه وسجوده، وقد حيل بيني وبين ذلك. وقال سعيد بن جبير: ما آسى على شيء من المنيا إلا على السجود، وقال عقبة بن مسلم: ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عزّ وجلّ من رجل يحب لفاء الله عزّ وجلّ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عزّ وجلّ منه حيث يخر ساجداً. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أقرب ما يكون العبد إلى الله عزّ وجلّ منه سجد، فأكثروا الدعاء عند ذلك.

فضيلة الخشوع:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيهِ الصَّلَوْةَ لِذِحَيْنَ ﴾ [له: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنُ بِنَ ٱلْنَفِانِينَ ﴾ [الاعراف: ٢٠٥] وقال عزّ وجلّ: ﴿لَا تَغْرَبُوا اللهَ المَهَاوَةَ وَأَنتُهُ شُكْرَىٰ حَقَّ تَعَلَمُوا مَا نَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] قيل: سكارى من كثرة الهم وقيل: من حب الدنيا. وقال وهب: المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال: ﴿حَقَّ تَعْلَمُوا مَا نَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] وكم من مصل لم يشرب خمراً وهو لا يعلم ما يقول في صلاته. وقال النبي على : «مَنْ صَلَىٰ رَكْعَنَيْنِ لَمْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ مَا يَقَدُمُ مِنْ ذَنْهِهِ أَنَ وقال النبي عَلَى : «مَنْ صَلَىٰ رَكْعَنَيْنِ لَمْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ مَا يَقَدُمُ مِنْ ذَنْهِهِمَا مِشَيْءٍ مِنَ الدُّيْنَا غُفِرَ لَهُ مَا اللهُمُ اللهُمُ قَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهِيَ حِدَاجٌ * وروي عن الله سبحانه في الكتب السالفة أنه قال: «ليس كل مصل أتقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على عبادي وأطعم الفقير الجائع مصل أتقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتكبر على عبادي وأطعم الفقير الجائع لوجهيه، وقال عَيْدَ فَمَا قَبِمَةُ ذِكْرِكَ اللهِ عَمْ وَالمُتَعَلَىٰ عَظَمَةً وَلا هَيْدَةً فَمَا قِيمَةً ذِكْرِكَ اللهِ عَمْ وَالمُنْفَى عَظَمَةً وَلا هَيْهُ فَمَا قِيمَةً ذِكْرِكَ اللهُ عَلَىٰ عَظَمَةً وَلا هَيْهَ فَمَا قِيمَةً ذِكْرِكَ الْهُ عَلَىٰ عَظَمَةً وَلا هَيْهُ فَمَا قِيمَةً ذِكْرِكَ النَّسِينَةً فَمَا قِيمَةً فَرَا لَهُ عَلَىٰ عَظَمَةً وَلا هَيْهَةً فَمَا قِيمَةً ذِكْرِكَ أَلَىٰ الْعَلَىٰ عَظَمَةً وَلا هَيْهَ قَمَا قِيمَةً ذِكْرِكَ الْمُ

١) حديث: ﴿إِذَا قرأ أبن آدم السجدة قسجد احتزل الشيطان يبكي..» الحديث. أحرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث: «من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا خفر قه ما تقدم من ذنبه أخرجه ابن أبي شيبة في
المصنف من حديث صلة بن أشيم مرسلاً وهو في الصحيحين من حديث عثمان بزيادة في أوله دون قوله: «بشيء من
المدنيا» وزاد الطيالس: «إلا بخير».

٣١) حديث: «إنما الصلاة تمسكن ودهاء وتضرع..» الحديث. أخرجه الترمذي والنسائي بتحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب.

خدیث الإنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك الإقامة ذكر الله أخرجه أبو داود والترمذي من حدیث عائشة نحوه دون ذكر: «الصلاة» قال الترمذي: حسن صحیح.

وقال ﷺ للذي أوصاه: ﴿وَإِذَا صَلَيْتَ فَصَلَّ صَلاةً مُؤدِّعٍ (١)، أي مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه، كما قال عز وجل: ﴿يَكَأَيُّهُ ٱلإِنسَانُ إِلَّكَ كَارِحٌ إِلَىٰ رَبِكَ كَدَمًا فَمُلْفِيهِ ۖ ﴾ [الانشفاق: ٢]، وِقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَشَّقُواْ اللَّهُ ۗ وَلِيُكِلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البَقْرَة: ٢٨٧] وقال تعالى: ﴿ وَأَشَّقُواْ اللَّهُ وَأَعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلَنَتُوهَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣]، وقال ﷺ: قمَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلائُهُ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلاًّ بُعْداً» (الصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة؟ وقال بكر بن عبدالله: يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت، قيل: وكيف ذلك؟ قال: تسبغ وضوءك وتدخل محرابك قإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه (٣٠) اشتغالاً بعظمة الله عزّ وجلّ. وقال ﷺ: الاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَىٰ صَلاةٍ لا يُحْضِرُ الرَّجُلُ فِيهَا قَلْبهُ مَعَ بَدَنِهِ (٤). وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وَجيب قلبه على ميلين. وكان سعيد التنوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته. ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصَّلاة فقال: ﴿ لَوْ خَشَعٌ قَلْبُ هَٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ ۚ (). ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يعبث بالحصى ويقول: «اللهم زوجني الحور العين» فقال: بئس الخاطب أنت تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصى. وقيل لخلف بن أيوب: ألا يؤديك الذباب في صلاتك فتطردها قال: لا أعود نفسي شيئاً يفسد عليَّ صلاتي، قيل له: وكيف تصبر على ذلك؟ قال: بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان لبقال فلان صبور ويفتخرون بذلك، فأنا قائم بين يدي ربي أفأتحرك لذبابة؟ ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله: تحدَّثوا أنتم فإني لست أسمعكم. ويروى عنه أنه كان يصلي يوماً في جامع البصرة فسقطت باحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة. وكان على بن أبي طالب رضى الله عنه وكرّم وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلوّن وجهه فقيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله

 ⁽١) حديث: اإذا صليت فصل صلاة مودع، أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أبوب. والحاكم من حديث سعد بن أبي
 وقاص، وقال: صحيح الإسناد، والبيهتي في الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث أنس بنحوه.

⁽٢) حليث: امن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً». أخرجه على بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحديث الحديث الحديث الحديث الحديث العباد لين والطبراني من قول ابن مسعود: امن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر .» الحديث وإسناده صحيح.

 ⁽٣) حديث عائشة اكان رسول الله چ يحدثنا و يحدثه فإدا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه أخرجه الأزدي في الصعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلاً: "كان النبي چ إدا سمع الأذان كأبه لا يعرف أحداً من الناس".

⁽³⁾ حديث: الا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدئه. لم أجده بهذا اللفظ. وروى محمد بن نصر في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: الا يقبل الله من عبد عملاً حتى بشهد قلبه مع بدئه. ورواه أمو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف.

 ⁽٥) حديث: ارأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه. أخرجه الترمذي المحكيم
 في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف أنه من قول سعيد بن المسيب. رواه امن أبي شيبة في المصنف وفيه
 رجل لم يسم.

على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها. ويروى عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أندرون بين يدي من أريد أن أقوم؟ ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: فقال داود ينه في مناجاته: إلهي من يسكن بيتك وممن تتقبل الصلاة؟ فأوحى الله إليه: يا داود إنما يسكن بيتي وأقبل الصلاة منه من تواصع لعظمتي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي، يطعم الحاثع ويؤوي الغريب ويرحم المصاب، فذلك الذي يضيء نوره في السموات كالشمس إن دعاني لبيته وإن سألني أعطيته، أجعل له في الجهل حلماً وفي الغفلة ذكراً وفي الظلمة نوراً، وإنما مثله في الناس كالفردوس في أعلى الجنان لا تبيس أنهارها ولا تتغير ثمارها ، ويروى عن حاتم الأصم رضي الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال: إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل الكعبة بين حاجبي والصراط تحت قدمي والجنة عن يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي أظنها تخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف وأكبر تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواصع وأسجد سجوداً بتخشع، وأقعد على الورك الأيسر وأفرش ظهر قدمها وأنصب القدم اليمني على الإبهام وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

فضيلة المسجد وموضع الصلاة:

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَعْشُرُ مَسَحِدَ اللّهِ مَنْ مَامَرَ عِاللّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [التوبّة: ١٦، وقال ﷺ:
همَنْ بَنَىٰ لِلّهِ مَسْجِداً وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَىٰ اللّهُ لَهُ قَصْراً فِي الْجَنّةِ، ('') وقال ﷺ: همَنْ أَلِفُ المَسْجِدَ الْمَهْ اللّهُ تَعَالَىٰ ('') وقال ﷺ: همَنْ أَلِفُ المَسْجِدَ فَلْيَرْكُعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ ('') وقال ﷺ: «المَلاثِكَةُ تُصلّي فَيهِ تَقُولُ: اللّهُمَّ صَلْ عَلَيْهِ اللّهُمَّ الْحَمْهُ اللّهُمَّ اخْفِرْ لَهُ مَا لَمْ يُحْدِثُ أَوْ يَخُرُخُ مِنَ المَسْجِدِ» (في مُصَلاة اللّهُمَّ الْحَمْهُ اللّهُمَّ الْحَمْهُ اللّهُمَّ الْحَدِثُ أَوْ يَخُرُخُ مِنَ المَسْجِدِ» (في وقال ﷺ: «يَقُولُ: اللّهُمَّ صَلْ عَلَيْهِ اللّهُمَّ الرّحَمْهُ اللّهُمَّ الْحَمْهُ الْفَهُمُ اخْفِرْ لَهُ مَا لَمْ يُحْدِثُ أَوْ يَخُرُخُ مِنَ المَسْجِدِ» (في وقال ﷺ: «قَالَ اللّهُ عَزْ وَجَلّ فِي المَسْجِدِ» (في وقال ﷺ: «قَالَ اللّهُ عَزْ وَجَلّ فِي الْمَسْجِدِ» (في وقال ﷺ: «قَالَ اللّهُ عَزْ وَجَلّ فِي الْمُسْجِدِ» (في وقال ﷺ: «قَالَ اللّهُ عَزْ وَجَلّ فِي الْمُسْجِدِ» (في المُسْجِدِةُ وَاللّهُمُ اللّهُمُ الللّهُ عَلْمُ الللّهُ عَلْمُ اللّهُمُ اللللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ اللّهُمُ الللّهُمُ اللّهُمُ الللللّهُ اللّهُمُ اللللّهُ عَلْ اللّهُمُ اللّهُمُ اللللّهُ اللّهُمُ اللللّهُ عَلْ الللللّهُ عَلْمُ اللللّهُ اللللّهُ اللّهُمُ الللّهُ اللّهُمُ اللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ الللللللّهُ الللّهُ الللللّهُ اللللّهُ اللللللّهُ الللللللللهُ اللللللهُ اللللهُ اللللهُ الللللهُ اللللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللهُ الللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ ا

۲) حدیث: «من بنی نه مسجداً ولو مثل مفحص قطاة. .» الحدیث أحرجه ابن ماجه من حدیث جابر بسند صحیح
وابن حبان من حدیث أبی ذر وهو متفق علیه من حدیث عثمان دود قوله: «ولو مثل مفحص القطاق».

 ⁽٢) حديث: (من ألف المسجد ألفه الله تعالى؛ أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: اإذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركمتين قبل أن يجلس متفى عليه من حديث أبي قتادة.

 ⁽٤) حديث: الا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد، أخرجه الدارقطني من حديث جابر وأبي هريرة بإستادين ضعيفين والحاكم من حديث أبى هريرة.

 ⁽٥) حديث: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه...» الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

حديث: «يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً حلقاً ذكرهم الدنيا. . > الحديث اخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح الإسناد.

فِي بَيْتِي فَحَقٌ حَلَىٰ الْمَزُورِ أَنْ يُكُرِمَ زَائِرَهُ (١)، وقال ﷺ: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ (٢)، وقال سعيد بن المسيب: من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيراً. ويروى في الأثر أو الخبر: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش» (٣) وقال النخعي: كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة.

وقال أنس بن مالك: من أسرج في المسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوءه. وقال علي كزم الله وجهه: إذا مات العبد يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، ثم قرأ ﴿ فَنَ بَكَتَ عَلَيْمٍ مُ السَّمَاةُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَيِّنَ ﴿ آللَّ اللهُ اللهُ وَاللهُ وَلِهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَلِهُ وَاللهُ وَاللهُ

**

الباب الثاني

في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

ينبغي للمصلي إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث في البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة، أن ينتصب قائماً متوجهاً إلى القبلة ويراوح بين قدميه ولا يضمهما، فإن ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد «نهى على عن الصفن والصفد في الصلاة» (أ) والصفد: هو اقتران القدمين معاً ومنه قوله تعالى: ﴿ تُقَرَّيْنَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [براهبم: ٤٩]، والصفن: هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل: ﴿ الصَّنَفِنَتُ لَبُّكِادُ ﴾ [س: ٣١]، هذا ما يراعيه في رجليه عند القيام ويراعي في

⁽١) حديث: قال الله تعالى: إن بيوثي في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها. . الحديث. أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف: فيقول الله عز وجل يوم المقيامة: أبن جبراني؟ فتقول الملائكة: من هذا اللهي ينبغي له أن يجاورك؟ فيقول: أبن قراء القرآن وعمار المساجد؟». وهو في الشعب نحوه موقوماً على أصحاب رسول الله على بإسناد صحيح، وأسند ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه.

 ⁽۲) حديث: اإذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان». رواه الترمذي وحسنه. وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد.

 ⁽٣) حديث: اللحديث في المسجد بأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش؛. لم أقف له على أصل.
 الباب الثاني

 ⁽٤) حديث: «النهي عن الصفن والصفد في الصلاة». عزاه رزين إلى الترمذي ولم أحده عنده ولا عند غيره وإنما ذكره أصحاب الغريب كابن الأثير في النهاية. وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلاً صافاً أو صافناً قدميه فقال: أخطأ هذا السنة.

ركبتيه ومعقد نطاقه الانتصاب، وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق؛ والإطراق أقرب للخشوع وأغض للبصر ولْيَكُن بصره محصوراً على مصلاه الذي يصلي عليه، فإن لم يكن له مصلى فليقرب من جدار الحائط أو ليخط خطأ، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفوق الفكر، وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصلى وحدود الخط، وليدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات. هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستقباله وإطراقه كذلك فليقرأ: ﴿قُلُّ أُعُودُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿ ﴾ [النَّاس: ١] تحصناً به من الشيطان، ثم ليأت بالإقامة، وإن كان يرجو حضور من يقتدي به فليؤذن أوْلاً، ثم ليحضر النبة وهو أن ينوى في الظهر مثلاً ويقول بقلبه: أؤدي فريضة الظهر لله، ليميزها بقوله أؤدي عن القضاء وبالفريضة عن النفل وبالظهر عن العصر وغيره، ولتكن معاني هذه الألفاظ حاضرةً في قلبه فإنه هو النية، والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها، ويجتهد أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب، فإدا حضر في قلبه دلك فليرفع يديهِ إلى حذو منكبيه بعد إرسالهما بحيث يحاذي نكفيه منكبيه وبإبهاميه شحمتي أذنيه وبرؤوس أصابعه رؤوس أذنيه (١)، ليكون جامعاً بين الأخبار الواردة فيه، ويكون مقبلاً بكفيه وإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها، ولا يتكلف فيها تفريجاً ولا ضماً بل يتركها على مقتضى طبعها؛ إذ نقل في الأثر النشر والضم^(٢)، وهذا بينهما فهو أولى. وإذا استقرّت اليدان في مقرهما ابتدأ التكبير مع إرسالهما وإحضار النية، ثم يضع اليدين على ما فوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمني على اليسرى إكراماً لليمني بأن تكون محمولة، وينشر المسبحة والوسطى من اليمني على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى، وقد روي أن التكبير مع رفع اليدين (٣) ومع استقرارهما (٤) ومع الإرسال (٥)، فكل ذلك لا حرَّج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلمة العقد، ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآحر، الوضع، ومبدأ التكبير الألف وآخره الراء فيليق مراعاة التطابق بين الفعل والعقد، وأما رفع اليد فكالمقدمة لهذه البداية. ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفعاً عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما عن يمين وشمال نفضاً إذا فرغ من التكبير ويرسلهما إرسالاً خفيفاً رفيقاً ويستأنف وضع اليمين على الشمال بعد الإرسال، وفي بعض الروايات أنه ﷺ «كان إذا كبُّر أرسل يديه وإذا أراد

 ⁽۱) حديث: «رقع اليدين إلى حلو المنكبين» وورد: «إلى شحمة أذنيه» وورد: «إلى رؤوس أذنيه» متفق عليه من حديث
ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث واثل بن حجر بإسناد ضعيف: «إلى شحمة أذنيه» ولمسلم من حديث
مالك بن الحويرث: «فروع أذنيه».

 ⁽٣) حديث: «بشر الأصابع عند الافتتاح». ونقل: «ضمها» وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هريرة والبيهقي: «ولم يفرج بين أصابعه ولم يضمها». ولم أجد التصريح بصم الأصابع.

 ⁽٣) حديث: «التكبير مع رفع البدين». أخرجه البخاري من حديث ابن عمر: اكان يرفع يديه حين يكبر، ولأبي داود من حديث وائل: ايرفع يديه مع التكبير».

 ⁽٤) حديث: «التكبير مع استقرار اليدين». أي مرفوعتين أخرجه مسلم من حديث ابن عمر: «كان إذا قام إلى الصلاة رفع
 يديه حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبره. زاد أبو داود: «وهما كذلك».

 ⁽٥) حديث: «التكبير مع إرسال البدين». أخرجه أبو داود من حديث أبي حميد: «كان إذا قام إلى الصلاة برفع يديه حتى
يحاذي بهما منكبيه ثم كبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلاً» قال ابن الصلاح في المشكل فكلمة: «حتى» التي
هي للغاية ثدل بالمعنى على ما ذكره أي من ابتداء التكبير مع الإرسال.

أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى (١٠)، فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه. وأما التكبير فينبغي أن يضم الهاء من قوله «الله» ضمة خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شمه الواو، وذلك ينساق إليه بالمبالغة، ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفاً، كأنه يقول «أكبار» ويجزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه.

القراءة:

ثم يبتدىء بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر: قالله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً وجهت وجهي _ إلى قوله _ وأنا من المسلمين (٣)، ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَلُك وجل ثناؤك ولا إله غيرك (٤)، وليكون جامعاً بين متفزقات ما ورد في الأخبار، وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم يقرأ الفاتحة يبتدى، فيها بعبسم الله الرحمن الرحيم، بتمام تشديدانها وحروقها ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول «آمين» في آخر الفاتحة ويمدّها مذاً، ولا يصل «آمين» بقوله الولا الضالين» وصلاً. ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموماً، ويجهر بالتأمين. ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما فوقها، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوي بأن يفصل بينهما بقدر قوله: «سبحان الله» ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره، وفي بقدر ولهذ والعصر والعشاء نحو: ﴿وَالنّهُ وَنَلُ هُو اللّهُ أَحَدُ ﴿ وَالْخُورِينَ اللهِ وَالْكُورُونَ المَا وَفَع السفر: ﴿وَلَ لَهُ وَاللّهُ وَلَا هُو اللّهُ أَحَدُ ﴿ وَالطواف والتحية، وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أوّل الصلاة.

الركوع ولواحقه:

ثم يركع ويراعي فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمدّ التكبير مدّاً إلى الانتهاء إلى الركوع، وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق، وأن يكون عنقه ورأسه على طول الساق، وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه.

 ⁽١) حديث: «كان إذا كبر أرسل يديه فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على البسرى». أخرجه الطبراني من حديث معاذ بإسناد صعيف.

⁽٣) حديث: «دعاء الاستفتاح وجهت وجهي. . . » الحديث. أخرجه مسلم من حديث علي.

 ⁽٤) حديث: اسبحانك اللهم وبحمدك. . الحديث. في الاستفتاح أيضاً أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث عائشة وضعفه الترمذي والدارقطني ورواه مسلم موقوفاً على عمر، وعند البهقي من حديث جابر الحمع بين: وجهت وبين: (سبحانك اللهم).

وتضم المرأة مرفقيها إلى جنبيها. وأن يقول: «سبحان ربي العظيم» ثلاثاً والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن إن لم يكن إماماً، ثم يرتفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول: «سمع الله لمن حمده»، ويطمئن في الاعتدال ويقول: «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد»، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسبيح والكسوف والصبح. ويَقْنُتُ في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود (١).

السجود:

ثم يهوي إلى السجود مكبّراً فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوي ولا يرفع يديه في غير ركوع، وينبغي أن يكون أوّل ما يقع منه على الأرض ركبتاه وأن يضع بعدهما يديه، ثم يضع بعدهما وجهه وأن يضع جبهته وألفه على الأرض وأن يجافى مرفقيه عن جنبيه ولا تفعل المرأة ذلك، وأن يفرّج بين رجليه، ولا تفعل المرأة ذلك، وأن يكون في سجوده مخوياً على الأرض، ولا تكون المرأة مخوية. والتخوية: رفع البطن عن الفخذين والتفريج بين الركبتين. وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرّج بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس، ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب(٢) فإنه منهي عنه. وأن يقول: «سبحان ربي الأعلى» ثلاثاً فإن زاد فحسن إلا أن يكون إماماً. ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً معتدلاً فيرفع رأسه مكبرأ ويحلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمني ويضع يديه على فخذيه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها، ويقول: «رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني واجبرني وعافني واعم عني» ولا يطوّل هذه الجلسة إلا في سجود التسبيح. ويأتي بالسجدة الثانية كذلك ويستوي منها جالساً جلسة خفيمة للاستراحة في كل ركعة لا تشهد عقيبها. ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدّم إحدى رجليه في حال الارتفاع، ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام، بحيث تكون الهاء من قوله: «الله» عند استوائه جالساً، وكاف «أكبر» عند اعتماده على اليد للقيام، وراء «أكبر» في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدىء في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله، ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم. ويصلى الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعوّد كالابتداء.

التشهد:

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأوّل. ثم يصلي على رسول الله على آله ويضع يده اليمنى على فخذه الأيمن ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبحة، ولا بأس بإرسال الإبهام أيضاً، ويشير بمسبحة يمناه وحدها عند قوله: «إلا الله» لا عند قوله: «لا إله» ويجلس في هذا التشهد على رجله

 ⁽١) حديث: «الفنوت في الصبح بالكلمات المأثورة» أحرجه البيهقي من حديث ابن عباس: «كان النبي ﷺ يقنت في
صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات: اللهم أهدني فيمن هديث. . . . الحديث. أخرجه أبو داود والترمدي
وحسنه والسائي من حديث الحسن: «أن النبي ﷺ كان يعلمه هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر» وإسناده صحيح.

 ⁽۲) حديث «النهي عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب» منفق عليه من حديث أنس.

البسري كما بين السجدتين. وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور(١٠) بعد الصلاة على النبي ﷺ وسننه كسنن التشهد الأوّل، لكن يجلس في الأخير على وركه الأيسر؛ لأنه ليس مستوفزاً للقيام بل هو مستقر، ويضجع رجله البسري خارجة من تحته وينصب اليمني ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يشق عليه. ثم يقول: «السلام عليكم ورحمة الله» ويلتفت يميناً بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب اليمين ويلتفت شمالاً كذلك. ويسلم تسليمة ثانية وينوي الخروج من الصلاة بالسلام وينوي بالسلام من على يمينه الملائكة والمسلمين في الأولى، وينوي مثل ذلك في الثانية. ويحزم التسليم (٢) ولا يمده مداً فهو السنة. وهذه هيئة صلاة المنفرد، ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه. وينوي الإمام الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نووا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد، ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأوليي العشاء والمغرب، وكذلك المنفرد. ويجهر بقوله: "آمين" في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم. ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لا تعقيباً. ويسكت الإمام سكنة عقيب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكتة ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام. ولا يقرأ المأموم السورة في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام. ويقول الإمام: «سمع الله لمن حمده عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم. ولا يزيد الإمام على الثلاث في تسبيحات الركوع والسجود، ولا يزيد في التشهد الأوَّل بعد قوله: «اللهم صلَّ على محمد وعلى آل محمد؛ ويقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطوّل على القوم ولا يزيد على دعائه في التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله ﷺ وينوي عند السلام السلام على القوم والملائكة، وينوي القوم بتسليمهم جوابه، ويثبت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام ويقبل على الناس بوجهه. والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال نساء لينصرفن قبله، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم. وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى. ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول: «اللهم اهدنا» ويحهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور، ويمسح الوجه عند ختم الدعاء لحديث نقل فيه، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما في آخر التشهد.

المنهيات:

نهى رسول الله ﷺ عن الصفن في الصلاة والصفد وقد ذكرناهما، وعن الإقعاء(٣٠)، وعن السدل(٤٠)

⁽١) حديث: «الدعاء المأثور بعد التشهد» أخرجه مسلم من حديث علي في دعاء الاستفتاح قال: «ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللهم اففر لي ما قدمت..» الحديث. وفي الصحيحين من حديث عائشة: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع: من هذاب جهنم...» الحديث. وفي الباب غير ذلك جميعها في الأصل.

⁽٣) حديث: ﴿جزم السلام سنةٌ﴾. أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وقال ٬ حسن. وضعفه ابن القطان.

 ⁽٣) حديث: «النهي عن الإقعاء» أخرحه الترمذي وانن ماجه من حديث علي بسند ضعيف: «لا يقع بين السجائين»
ومسلم من حديث عائشة: فكان ينهى عن عشة الشيطان». والحاكم من حديث سمرة وصححه: «نهى عن الإقعاء».

 ⁽٤) حديث: «النهي عن السدل في الصلاة» أخرجه أبو داود، والترمذي، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.

والكفت (١)، وعن الاختصار (٣) وعن الصلب (٣)، وعن المواصلة (٤)، وعن صلاة الحاقن (٥)، والحاقب (١)، والحاق (١)، وعن صلاة الجائع والغضبان والمتلئم (٨) وهو ستر الوجه، أما الإقعاء: فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه وينصب ركبتيه ويجعل يديه على الأرض كالكلب. وعند أهل الحديث أن يحلس على ساقيه جاثياً وليس على الأرض منه إلا رؤوس أصابع الرجلين والركبتين. وأما السدل: فمذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داحل فيركع ويسجد كذلك، وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبه بهم، والقميص في معناه فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويداه في بدن القميص، وقيل: معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه، والأول أقرب. وأما الكف: فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود. وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهي للرجال. وفي الحديث: «أَمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ وَلاَ أَكُفُ شَعْراً وَلاَ تُؤيلًا (٩)، وكره أحمد بن حنبل رصي الله عنه أن يأتزر فوق القميص في الصلاة ورآه من الكفت. وأما الاختصار: فأن يضع يديه على خاصرتيه، وأما الصلب: فأن يضع يديه على خاصرتيه في القيام ويجافي بين عضديه في القيام، وأما المواصلة: فهي خمسة: اثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيرة الإحرام ولا ركوعه بقراءته، واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ولا تسليمه بتسليمه، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمة الفائية الشيق، فإنّ كل ذلك يمنع من الحاقن: فمن البول، والحاقب: من الغائط، والحازق: صاحب الخف الضيق، فإنّ كل ذلك يمنع من الحاقن: فمن البول، والحاقب: من الغائط، والحازة: صاحب الخف الضيق، فإنّ كل ذلك يمنع من

 ⁽١) حديث: اللهي عن الكفت في الصلاة ا. متفق عليه من حديث ابن عباس: (أمرنا النبي ﷺ أن تسجد على سبعة أعظم ولا نكفت شعراً ولا ثوباً».

 ⁽۲) حديث: «النهي عن الاختصار». أخرجه أبو داود، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وهو متفق هليه بلفظ:
 «نهى أن يصلي الرجل مختصراً».

 ⁽٣) حديث: «النهي عن الصلب في الصلاة». أخرجه أبو داود، والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح.

⁽٤) حديث: «النهي عن المواصلة». عزاء رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده، وقد فسره الغزالي بوصل القراءة بالتكبير ووصل القراءة بالركوع وغير ذلك. وقد روى أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماحه من حديث سمرة "سكتتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ إذا دخل في صلاته: إذا قرغ من قراءته ورذا فرغ من قراءة القرآن» وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: لاكان يسكت بين التكبير والقراءة إسكانة..» الحديث.

⁽٥) حديث: «النهي عن صلاة المحاقر». أخرجه ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يصلي وهو يصلي الرجل وهو حاقن»، وأبو داود من حديث أبي هريرة: «لا يحل لرجل يؤمن بالله والليوم الأخر أن يصلي وهو حاقن» وله وللترمذي وحسنه نحوه من حديث ثوبان ومسلم من حديث عائشة: «لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان».

 ⁽٣) حديث. «النهي عن صلاة الحاقب». لم أجده بهذا اللفظ وقسره المصنف تبعاً للأزهري بمدافعة الغائط وقيه حديث عائشة الذي قبل هذا.

 ⁽٧) حديث: «النهي عن صلاة الحازق». عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده والذي ذكره أصحاب الغريب حديث: «لا رأي لحازق»، وهو صاحب الخف الضيق.

حديث: «النهي عن التلثم في الصلاة». أخرحه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند حسن: «نهى أن يغطي الرحل فاء في الصلاة» رواء الحاكم وصححه قال الخطابي على الأقواء.

 ⁽٩) حديث: «أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكف شعراً ولا ثوياً» منفق عليه من حديث ابن عباس.

الخشوع. وفي معاه الجائع والمهتم، وفهم نهي الجائع من قوله ﷺ: فإذا حَضَرَ العَشَاءُ وَأَقِيمَتِ الصَّلاةُ وَهُوَ فَابِدَوُوا بِالعَشاءِ إِلاَّ أَنْ يَضِينَ الوَقْتُ أَوْ يَكُونَ سَاكِنَ القَلْبِ ('')، وفي الخبر: «لاَ يَدْخُلَنُ أَحَدُكُمُ الصَّلاةَ وَهُوَ مُقَطَّبُ وَلا يُصَلِّتُ أَحَدُكُم وَهُو خَضَبَانٌ (''). وقال الحسن: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وفي الحديث: «سَبْعَةُ أَشْيَاءُ فِي الصَّلاةِ مِنَ الشَّبْطَانِ: الرُّعَافُ والنُّعَاسُ وَالوَسُوسَةُ وَالنَّفَاوُبُ وَالمُحْكَاكُ وَالالْبَقَاتُ وَالْعَبْثُ بِالشَّيْءِ ("")، وزاد بعضهم: «السَّهُوُ وَالشَّكُ وقال بعض السلف: أربعة في الصلاة من الجفاء: الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلي بطريق من يمرّ بين يديك. «ونهى الصلاة من أن يشبك أصابعه (أ)، أو يفرقع أصابعه (أ)، أو يستر وجهه (")، أو يضع إحدى كفيه على الأخرى يدخلهما بين فخذيه في الركوع ("")، وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: كنا نفحل ذلك فنهينا عنه. ويكره أيضا أن ينفخ في الأرض عند السجود للتنظيف وأن يسوِّي الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها، ولا يرفع إحدى قدميه فيضمها على فخذه، ولا يستند في قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسقط فالأظهر بطلان صلاته، والله أعلم.

تمييز الفرائض والسنن:

جملة ما ذكر يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيئات مما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعي جميعها. فالفرض من جملتها اثنتا عشرة خصلة: النية والتكبير والقيام والفاتحة، والانحناء في الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائماً، والسجود مع الطمأنينة، ولا يجب وضع البدين والاعتدال عنه قاعداً، والجلوس للتشهد الأخير، والتشهد الأخير، والصلاة على النبي عليه والسلام الأول. فأما نية الخروج فلا تجب وما عدا هذا فليس بواجب بل هي سنن وهيئات فيها وفي الفرائض.

 ⁽١) حديث: (إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء). متمق عليه من حديث ابن عمر وعائشة.

 ⁽٧) حديث: ﴿لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو فضبان﴾ لم أجده.

⁽٣) حديث: «سبعة أشياء من الشبطان في المسلاة: الرحاف والنعاس والوسوسة والتناؤب والالتفات»، وزاد بعصهم: «السهو والشك» أخرجه الترمذي من رواية عدي بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والنعاس والتناؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال: حديث غريب، ولمسلم من حديث عثمان بن أبي العاص: «يا وسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي» الحديث، وللبخاري من حديث عائشة في الالتفات في الصلاة: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم». وللشيخين من حديث أبي هريرة «التناؤب من الشيطان» ولهما من حديث أبي هريرة: «إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فيلس عليه صلاة حتى لا يدري كم صلى».

 ⁽٤) حديث: النهي عن تشبيك الأصابع». أخرجه أحمد، وامن حبان، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة، وأبو
 داود والشرمذي وابن ماجه وابن حبان نحوه من حديث كعب بن عحرة.

 ⁽٥) حليث: «النهي عن تفقيع الأصابع في الصلاة». أخرجه ابن ماجه من حليث على بإسناد ضعيف: «لا تفقع أصابعك
 في الصلاة».

 ⁽٦) حديث: النهي عن ستر الوجه. أخرجه أبو داود وابن ماحه والحاكم من حديث أبي هويرة.

حديث: التهي عن التطبيق في الركوعا. متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص: كما نفعله فنهيئا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب.

أما السنن فمن الأمعال أربعة: رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوي إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام، والجلسة للتشهد الأوّل. فأما ما ذكرناه من كيفية نشر الأصابع وحدّ رفعها فهي هيئات تابعة للجلسة، والإطراق وترك الالتفات هيئات تابعة للجلسة، والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته، وجلسة الاستراحة لم نعدّها من أصول السنة في الأفعال لأنها كالتحسين لهيئة الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم تفرد بذكر.

وأما السنن من الأذكار: فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله: «آمين» فإنه سنّة مؤكدة، ثم قراءة السورة، ثم تكبيرات الانتقالات، ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عهما، ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبي على ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير، ثم التسليمة الثانية. وإن جمعناها في اسم السنّة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو، وأما من الأفعال فواحدة: وهي الجلسة الأولى للتشهد الأول فإنها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في أعين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا، بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تغيير النظم فعبر عن دلك بالبعض. وقيل. الأبعاض تجبر بالسجود.

وأما الأذكار فكلها لا نقتضي سجود السهو إلا ثلاثة: الفنوت، والتشهد الأول، والصلاة على النبي ﷺ فيه، بخلاف تكبيرات الانتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما، لأنّ الركوع والسجود في صورتهما مخالفان للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقالات فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة. وأما الجلسة للتشهد الأوّل ففعل معتاد وما زيدت إلا للشهد فتركها ظاهر التأثير.

وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركهما لا يؤثر مع أنّ القيام صار معموراً بالفاتحة ومميزاً عن العادة بها، وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والقنوت أبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مدّ الاعتدال في الصبح لأجله، فكان كمدٌ جلسة الاستراحة إذ صارت بالمدّ مع التشهد جلسة للتشهد الأوّل، فبقي هذا قياماً ممدوداً معتاداً ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصبح وفي خلوّه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام في الصلاة.

فإن قلت: تمييز السنن عن الفرائض معفول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها، فأما تمييز سنّة عن سنّة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب في ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه؟ فاعلم أنّ اشتراكهما في الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما، ولنكشف ذلك لك بمثال: وهو أنّ الإنسان لا يكون إنساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة، فالمعنى الباطن هو الحياة والروح، والظاهر أجسام أعضائه. ثم بعض تلك الأعضاء ينعدم الإنسان بعدمها كالقلب والكبد والدماغ، وكل عضو تفوت الحياة بفواته، وبعضها لا تفوت بها الحياة ولا الحياة ولكن يفوت بها الحياة كالعين واليد والرجل واللسان، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا أصل الجمال ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون، وبعضها لا يفوت بها أصل الجمال ولكن كماله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر اللحية والأهداب وتناسب خلقة الأعضاء وامتزاج الحمرة بالبياض في اللون فهذه درجات متفاوتة، فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبدنا

باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والنية وحضور القلب والإخلاص ـ كما سيأتي ـ ونحن الآن في أجزائها الظاهرة، فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجري منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها. والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأؤل تجري منها مجرى اليدين والعينين والرجلين، ولا تفوت الصحّة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء، ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوّه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه، فكذلك من اقتصر على أقل ما يجري من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك عبداً حياً مقطوع الأطراف. وأما الهيئات وهي ما وراء السنن فتجري مجرى أسباب الحسن من الحاجبين واللحية والأهداب وحسن اللون، وأما وظائف الأذكار في تلك السنن فهي مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرها. فالصلاة عندلة قربة وتحفة تتقرّب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عزّ وجلٌّ، ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة في تحسين صورتها وتقبيحها، فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها. ولا ينبغي أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتتركها فإن ذلك يضاهي قول الطبيب: إن فقء العين لا يبطل وجود الإنسان، ولكن يخرجه عن أن يصدّق رحاء المتقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية، فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب، فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها تقول: ضيعك الله كما ضيعتني. فطالع الأخبار التي أوردناها في كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها.

* * *

الباب الثالث

في الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب. ثم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها. ثم لنذكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة.

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب:

اعلم: أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الشَّلُوةَ لِنِكْوِئَة﴾ [طه: ١٤]، وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن يَنَ النَّفِلِينَ﴾ [الاعراب: ٢٠٥]، نهي وظاهره التحريم وقوله عزّ وجلّ: ﴿حَقَّ تَعَلَّمُواْ مَا لَعُلُونَ﴾ [الساء: ٤٣]، تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا وقوله ﷺ: ﴿إِنِّمَا الصَّلاةُ تَمَسُكُن وَتَوَاضُعٌ». حصر بالألف واللام وكلمة ﴿إنما المتحقيق والتوكيد، وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام: ﴿إِنَّمَا الشَّفْعَةُ فِيما لَمْ يُقَصَّرُهُ، الحصر والإثبات والنفي، وقوله ﷺ: هم الفحشاء في الفَحشاء وَالمُنْكِر لَمْ يَرْدَدُ مِنَ اللهِ إِلاَ بُعْداًه، وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء

والممنكر، وقال ﷺ: «كُمْ مِنْ قَائِسِم حَظَّهُ مِنْ صَلاتِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ،(١)، وما أراد به إلا الغافل. وقال ﷺ: ﴿ لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ إِلاَّ مَّا عَقَلَ مِنْهَا ۗ (٢٠) ، والتحقيق فيه أن المصلي مناج ربه عزّ وجلّ (٣٠) ، كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة، وبيانه أن الزكاة إن غفل الإنسّان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن، أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، فأما الذكر فإنه محاورة ومناجاة مع الله عزَّ وجلَّ، فإما أن يكون المقصود منه كونه خطاباً ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم، وكما يمتحن البدن بمشاق الحج، ويمتحن القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المعشوق. ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث إنه عمل، بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق، ولا يكون نِطَقاً إِلاَ إِذَا أُعِرِبِ عَمَا فِي الصَّميرِ ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب، فأي سؤال في قوله: ﴿أَهدِنا الْصِّيرَاطُ ٱلْمُسْتَقِيدَ ۞﴾ [الفاتِعَة: ٦]، إذا كان القلب غافلاً؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاء، فأي مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتياد؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال: لأشكرنَ فلاناً وأثنَّي عليه وأسأله حاجة، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه، ولو جرت على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه ما لم يكن هو حاضراً في قلبه، فلو كانت تجري هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه. ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله عزّ وجلّ وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده، بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عزّ وجلّ ورسوخ عقد الإيمان به! هذا حكم القراءة والذكر. وبالجملة فهذه الخاصيَّة لا سبيل إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل.

وأما الركوع والسجود، فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظّماً لله عزّ وجلّ بفعله وهو غافل عنه، أو يكون معظماً للحائط وهو غافل عنه، أو يكون معظماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه، الظهر والرأس وليس الذي بين يديه وهو غافل عنه، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس

الباب الثالث

 ⁽١) حديث: ٥كم من قائم حطه من صلاته التعب والتصب». أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة: ٥رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر» ولأحمد. ورب قائم حظه من صلاته السهر، وإسناده حسن.

⁽٢) حديث: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل» لم أجده مرفرعاً. وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: «لا يقبل الله من عبد صملاً حتى يشهد قلبه مع بدئمه. ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب. ولابن العبارك في الزهد موقوفاً على عمار الا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه.

⁽٣) حديث: االمصلي يناجي ربه المتفق عليه من حديث أنس.

فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره، بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال. قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالُ اللهُ لَن يَنَالُهُ النَّقُوعُ مِنكُم ﴾ [العج: ٢٧]، أي الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة، فكيف الأمر هي الصلاة ولا أرب في أفعالها؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب.

فإن قلت: إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها خالفت إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير؟ فاعلم أنه قد تفدم في كتاب العلم: أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الديس على ظاهر أعمال الجوارح، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القُتل وتعزير السلطان، فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعي الإجماع. فقد نقل عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته. وروى عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وعن معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو في الصلاة فلا صلاة له. وروي أيضاً مسنداً قال رسول الله ﷺ؛ ﴿إِنَّ الْعَيْدَ لَيُصَلِّي الصَّلاةَ لا يَكْتَبُ لَهُ سُلُسُهَا وَلا عُشْرُهَا وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا ۚ (١)، وهذا لو نُقِلَ عن غيره لُجُعِلَ مذهباً فكيف لا يتمسك به؟ وقال عبدالواحد بن زيد: أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها، فجعله إجماعاً، وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورّعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى. والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار، والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق. فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأقلين، وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرة له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقتصرنا على التكليف بذلك. ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فإنه على الحملَّة أقدم على العمل ظاهراً وأحضر القلب لحظة. وكيف لا، والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا، والذي يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالاً من الذي يعرض عن الخدمة؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مخطراً في نفسه فإليك الخيرة بعده في الاحتياط والتساهل. ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتواً به من الصحة مع الغفلة، فإن ذلك من ضرورة الفتوى ـ كما سبق التنبيه عليه ـ ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها.

 ⁽١) حديث: ﴿إِن العبد لميصلي الصالاة لا يكتب له سفسها ولا عشرها. . .» الحديث، أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان
 من حديث عمار بن ياسر بنحوه.

ولكن قد ذكرنا في باب _ الفرق بين العلم الباطن والطاهر _ في كتاب (قواعد العقائد) أن قصور المخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع. فلنقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنعاً للمريد الطالب لطريق الآخرة، وأما المجادل المشغب فلسنا نقصد مخاطبته الآن. وحاصل الكلام: أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبقى به رمق الروح الحضور عند التكبير، فالنقصان منه هلاك وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة. وكم من حي لا حراك به قريب من مبت؟ فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حراك به نسأل الله حسن العون.

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة:

اعلم: أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن يجمعها ست جمل وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء. فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاج في اكتسابها.

أما التفاصيل: فالأوّل: حضور القلب ونعني به أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم مه، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب. ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم، وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات. وكم من معان لطيفة يفهمها المصلى في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أموراً، تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة. وأما التعظيم، فهو أمر وراء حصور القلب والفهم إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظماً له فالتعظيم زائد عليهما. وأما الهيبة، فزائدة على التعظيم، بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة، والهيبة خوف مصدرها الإجلال. وأما الرجاء، فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو مثوبته. والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عزّ وجلّ كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عزّ وجلُّ. وأما الحياء، فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، ويتصوّر التعظيم والمخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

وأما أسباب هذه المعاني الستة: فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك، ومهما أهمك أمرٌ حضر القلب فيه شاء أم أبى، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه. والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور

القلب في الصلاة، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حصرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضرر فلا تظنن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان، فاجتهد الآن في تقوية الإيمان ـ وطريقه يستقصى في غير هذا الموضع ـ وأما التفهم: فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر. وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر. وأما التعظيم، فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين، إحداهما: معرفة جلال الله عزَّ وجلَّ وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعطيمه. الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغني عن غيره الأمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة، ولا يكون الخشوع والتعطيم حاَّله؛ لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه. وأما الهيبة: والخوف، فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأوَّلين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما بشاهد من ملوك الأرض. وبالجملة، كلما زاد العلم بالله رادت الخشية والهيبة . وسيأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربع المنجيات _. وأما الرجاء: فسببه معرفة لطف الله عزَّ وجلَّ وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعهما الرجاء لا محالة. وأما الحياء: فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عزّ وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وأفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عزّ وجلّ، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء. فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج. ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين أعني به هذه المعارف التي ذكرناها، ومعنى كونها يقيناً انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم، وبقدر اليقين يخشع القلب، ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها: ﴿كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَدَّثْنَا وَنَحَدُّتُهُ فَإِذَا حَضَرَت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه). وقد روي أنّ الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يديُّ فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلبٍ وجلٍ ولسانٍ صادق، وروي أنَّ الله تعالى أوحى إليه: ﴿قُل لَعَصَاةَ أَمَنَّكَ لَا يَذَكُرُونِي فَإِنِي آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي ۚ أَنَّ من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة؛ هذا في عاص غير غافل في ذكره، فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان؟ وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القُلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في

لحظة منها، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه. ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأسطوانة في المسجد عندما اجتمع الناس عليها. وبعضهم كان يحضر الجماعة ملة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. ووجيب قلب إسراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على ميلين. وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم. وكل ذلك غير مستبعد، فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم، حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدّثه بمهمته ثم يخرج، ولو سئل عمن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همة به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ﴿وَلِحَمُّلُ مَرَجَنَتُ مِّمًا عَمَولُوا ﴾ [الانتام: ١٩٣٦]، فحظ كل واحدٍ من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات. من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات. ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة. ولقد صدق فإنه يحشر كلَّ على ما مات عليه ويموت على ما عاش عليه، ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان الدواء النافع في حضور القلب:

اهلم: أن المؤمن لا بد أن يكون معظّماً لله عزّ وجلّ وخائفاً منه وراجياً له ومستحيباً من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه، وإن كانت قرّتها بقدر قرّة يقينه فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرّق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة. ولا يلهي عن الصلاة الا الخواطر الواردة الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه. وسب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً.

أما الخارج؛ فما يقرع السمع أو يطهر للبصر فإنّ ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سبباً للافتكار، ثم تصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض. ومن قويت ثيته وعَلَتْ همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بدّ وأن يتفرق به فكره. وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلي في بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواصع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة. ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع لهم. والأقوياء منهم كانوا يحضرون في بيت صغير مظلم سعته قدر السجود ليكون ذلك أجمع لهم. والأقوياء منهم كانوا يحضرون على المساجد ويغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة في أن لا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم، وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعه ولا كتاباً إلا محاه.

وأما الأسباب الباطنة؛ فهي أشدّ فإنّ من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحدٍ بل لا يزال يطير من جالب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه، فإن ما وقع في القلب من قبل كافي للشغل، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره، فإن كان لا يسكن هواتج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا المسهل الدي يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضدُّ دينه وجند إبليس عدوَّه فإمساكه أضر عليه من إخراجه فيتخلص منه بإخراجه، كما روي أنه ﷺ: «لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد صلاته، وقال ﷺ: «اذْهَبُوا بِها إِلَىٰ أَبِي جَهْم فَإِنَّهَا ٱلْهَنْنِي آنِهَا عَنْ صَلاتِي وَالْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، (٣٠). وأمر رسول الله ﷺ: بتجديد شراك نعله ثمّ نظر إليه في صلاته إذ كان جديداً فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك المخلق(٣). وكان ﷺ قد احتذى نعلاً فأعجبه حسنها فسجد وقال: "تَوَاضَغْتُ لِرَبِّي عَرٌّ وَجَلْ كَيْ لا يَمْقُتَنِيٌّ، ثم خرج بها فدفعها إلى أوَّل سائل لقيه، ثم أمر عليّاً رضي الله عنه أن يشتري له نعليس سبتيتين جرداوين فلبسهما(٤). وكان على في يده حاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال: قشغلني هذا، نظرةً إليه ونظرةً إليكمه (٥٠). وروي: أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسي طار في الشجر يلتمس مخرجاً فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدر كم صلى؟ فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة ثم قال: يا رسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت(٢). وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والنخل مطوّقة بشمرها فنظر إليها فأعجبته ولم يدرِ كم صلى؟ فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال: هو صدقة فاجعله في سبيل الله عزّ وجلّ فباعه عثمان بخمسين ألفاً. فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة، وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ولا يغني غيره.

فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهمم التي لا نشغل إلا حواشي القلب. فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال

 ⁽۱) حديث الإني نسبت أن أقول لك تخمر القربتين اللتين في البيت » الحديث أخرجه أبو داود من حديث عثمان الحجبي وهو عثمان بن طلحة كما في مسند أحمد ووقع للمصنف أنه قال ذلك لعثمان بن أبي شيبة وهو وهم.

 ⁽٢) حديث: «نزع الحميصة وقال: التنوني بأثيجانية أبي جهم». متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم في العلم.

 ⁽٣) حديث. ٥أمره بنزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق إذ نطر إليه في صلاته الخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث أبي النضر مرسلاً بإسناد صحيح.

 ⁽٤) حديث: «احتذى نعلاً فأصحبه حسنها فسجد وقال: تواضعت لربي. ١٠ الحديث، أخرجه أبو عبدالله بن حقيق في شرف الفقواء من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

 ⁽٥) حديث: قرميه بالخاتم الذهب من يده وقال: شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم. أخرجه النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهباً ولا فضة إنما هر مطلق.

 ⁽٩) حديث: «إن أبا طلحة صلى في حائط له فيه شجر فأعجبه ريش طائر في الشجر. . » الحديث. أخرجه في سهوه في الصلاة وتصدقه بالحائط مالك عن عبدالله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصاري فذكره بنحوه.

تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله: رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوّش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنقير بالخشبة، فقيل له: إنّ هذا أسير السواني ولا ينقطع فإن أردت الخلاص فاقطع الشحرة. فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرّعت أغصائها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار والشغل يطول في دفعها فإنّ الذباب كلما ذُبّ آب ولأجله سمي ذباباً، فكذلك الخواطر، وهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد.

ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة، فإنّ من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته. وهمة الرجل مع قرّة عينه، فإن كانت قرّة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه، ولكن مع هذا لا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة. فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً، حتى إنّ الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدّثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجروا عن ذلك فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بخل فبقدر ما ندخل فيه من الماء يخرج منه من الخل لا محالة ولا يجتمعان.

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب ـ عند كل ركن وشرط ـ من أعمال الصلاة:

فنقول: حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أوّلاً عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها. أما الشروط السوابق: فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائماً والنية. فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة؛ فإنّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فاعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم. أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء. ولذلك قال ﷺ: «أرحنا يا بلال»(١٠)، أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه فيها ﷺ.

وأما الطهارة، فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد ثم عي ثيابك وهي غلافك الأقرب، ثم في بشابك وهي غلافك الأقرب، ثم في بشرتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فرّطت، وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك.

⁽١) حديث: ابها أرحمنا ها بالال» أخرجه الدارقطني في العلل من حديث بالال، والأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح.

وأما ستر العورة؛ فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإنّ ظاهر بدنك موقع لنظر المخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عزّ وجلّ؟ فأحضر نلك الفضائح بالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر. وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما، فتذل بها نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدي الله عزّ وجلّ قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وأما الاستقبال؛ فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أنّ صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عزّ وجلّ ليس مطلوباً منك هيهات فلا مطلوب سواه. وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عزّ وجلّ فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك. فاعلم: أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عزّ وجلّ إلا بالتفرغ عما سواه، وقد قال على الله عزّ وجلّ الفَرَف كما شواه، وقد قال على الله عز وجلً المَهرَف كيوم وله وَهُمهُ وَقَلْبُهُ إِلَىٰ اللّهِ عَزْ وَجَلّ الْمَورَف كَيَوْم وَلَدَهُ أَمُهُهُ اللهِ عَزْ وَجَلّ الْمَورَف كَيَوْم وَلَدَهُ أَمُهُهُ اللهِ عَلْ وَجَلّ الْمَورَف كَيَوْم وَلَدَهُ أَمُهُهُ اللهِ عَزْ وَجَلّ الْمَورَف كَيَوْم وَلَدَهُ أَمُهُ اللّهُ عَزْ وَجَلّ الْمَورَف كَيَوْم وَلَدَهُ أَهُهُ اللهِ عَلْ وَجَلّ الْمَورَف كَيَوْم وَلَدَهُ أَمُهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ عَزْ وَجَلّ الْمَورَف كيوم وَلَا اللهُ اللهُ اللهِ عَزْ وَجَلّ الْمَورَف كيوم وَلَدَهُ أَمُهُ اللهُ الله عَلْ وَاللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلْ اللهُ اللهُ عَلْ اللهُ عَلْ وَاللهُ اللهُ ا

وأما الاعتدال قائماً؛ فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عزّ وجلّ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطاطئاً متنكساً، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن التروس والتكبر، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عزّ وجلّ وهو وجلّ هي هول المطلع عند العرض للسؤال. واعلم في الحال: ألك قائم بين يدي الله عزّ وجلّ وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، بل قدّر في دوام قيامك في صلاتك ألك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فإنه نهداً عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنك تذعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟ ولذلك لما قال أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ فقال ﷺ: «تَسْتَجِي مِنْ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ» وروي: «مِنْ أَهْلِكَ».

وأما النية؛ فاعزم على إجابة الله عزَّ وجلَّ في امتثال أمره بالصلاة وإتعامها، والكف عن نواقضها

⁽١) حديث: ﴿إِذَا قَامَ الْعَبِدُ إِلَى صَلاتُه وَكَانَ وَجَهِهُ وَهُواهُ إِلَى اللهُ انْصَرَفَ كَيُومُ وَلَدْتُهُ أَمَّهُ لَمُ أَجِدُهُ.

⁽Y) حديث: قال أبو هربرة: كيف الحياء من الله؟ قال: تستعي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك؟. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب من حديث سعيد من زيد مرسلاً بنحوه، وأرسله البيهقي مزيادة ابن عمر في السند وفي العلل للدارقطني عن ابن عمر له وقال: إنه أشبه شيء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد: أحد العشرة المبشرين بالجنة.

ومفسداتها، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة منه متقلداً للمنة منه بإذنه. إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك، وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجي وكيف تناجي ويماذا تناجي؟ وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف.

وأما التكبير؛ فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد أنك لكاذب، وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم: إنه وسرل الله. فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عزّ وجلّ فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك «الله أكبره كلاماً باللسان المجرّد وقد تخلف القلب عن مساعدته؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه.

وأما دعاء الاستفتاح؛ فأول كلماته قولك: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض»، وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة، والله سبحانه يتقدس عن أن تحدُّه الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه. وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أُمتُوَجَّهُ هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبلٌ على فاطر السموات؟ وإياك أن تكون أوَّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق. ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه، وإن عحزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقًا. وإذا قلت: «حتيفاً مسلماً» فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت: «وما أنا من المشركين» فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى: ﴿فَنَ كَانَ يَرْمُواْ لِفَآدُ رَبِّهِ فَلَيْمُلُ عَمَلًا صَلِكًا وَلَا يُشْرِلُه بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٦١٠]، نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس، وكن حذراً مشفقاً من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه. وإذا قلت: "محياي ومماتي لله" فاعلم: أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال. وإذا قلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فاعلم: أنه عدوَّك مترصد لصرف قلبك عن الله عزَّ وجلَّ حسداً لك على مناجاتك مع الله عزَّ وجلَّ وسجودك له مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وأن استعادتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عزّ وجلّ لا بمجرد قولك، فإن من قصده سبع أو عدوّ ليفترسه أو يقتله فقال: أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عزَّ وجلُّ عن شر الشيطان، وحصنه الا إلَّه إلا الله؛ إذ قال عزَّ وجلّ فيما أخبر عنه نبينا ﷺ: ﴿لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي،(¹¹، والمتحصن به لا

 ⁽۱) حديث: قال الله تعالى: لا إله إلا الله حصني. أخرجه الحاكم في التاريخ، وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل
 البيت من حديث علي بإسناد ضعيف جداً، وقول أبي منصور الديلمي: إنه حديث ثابت، مردود عليه.

معبود له سوى الله سبحانه، فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عزّ وجلّ. واعلم: أن من مكائده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ. فاعلم: أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها. فأما القراءة؛ فالناس فيها ثلاثة، رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب اليمين، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه. ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقرّبون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب. وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت: «بسم الله الرحمن الرحيم» فانو به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه، وافهم أنَّ معناها أنَّ الأمور كلها بالله سبحانه، وأنَّ المراد بالاسم ههنا هو المسمى. وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان «الحمد لله» ومعناه أنّ الشكر لله إذ النعم من الله. ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عزّ وجلّ، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى. فإذا قلت: «الرحمن الرحيم» فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك. ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك: «مالكّ يوم الدين» أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه. ثم جدّد الإخلاص بقولك: ﴿إِياكُ نَعَبَدُۗ﴾. وجدَّد العجز والاحتياج والنبري من الحول والقوّة بقولك: «وإياكُ نستعين، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأنَّ له البُّنَّة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين. ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك: «بسم الله الرحمن الرحيم» ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل: «اهدنا الصراط المستقيم؛ الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضى بنا إلى مرضاتك. وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصاري والصابئين، ثم التمس الإجابة وقل: «آمين» فإذا تلوت الفانحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي على: «قسمتُ الصَّلاةَ بَيني وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ نِصْفُها لِي وَنِصْفُها لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، يقول العبد: «الحمد أنه رب العالمين؟ فيقول الله عز وجلّ: حمدتي عبدي وأثنى عليّ. وهو معنى قوله: «سمع الله لمن حمده. . . » (١٠) الحديث إلخ، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى دكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور ــ كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن _ فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه. ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد، والخوف حق الوعيد، والعزم حق الأمر والنهي، والاتعاظ حق الموعظة، والشكر حق ذكر المنة، والاعتبار حق إخبار الأنبياء. وروى أن زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ هَاذَا نُقِرَ بِنِ ٱلنَّاقُرْزِ ﴿ ﴾ [المدَّثَّر: ٨]، خرّ ميناً. وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى: ﴿ إذَا ٱلنَّمَاتُهُ أَنشَقْتُ ∰ [الانشفاق: ١]، اضطرب حتى تضطرب أوصاله. وقال عبدالله بن واقد: رأيت ابن عمر يصلي مغلوباً عليه. وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر، وتكون هذه

⁽١) حديث: اقسمت الصلاة بيني وبين عبدي تصفين. . . ٩ الحديث، أخرجه مسلم عن أبي هريرة،

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها

المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر.

والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً. ثم يراعي الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل. ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد. كان النخعي إذا مرَّ بمثل كالمستحى عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به. وروى أنه يقال لقارىء القرآن: «اقرأ وارق ورتل كما كنت ترقل في الدنياء(١). وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عزّ وجلّ على نعت واحد من الحضور. قال ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلٌ عَلَىٰ المُصَلِّى مَا لَمْ يَلْتَفِثُه (٣)، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة. فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجي عند غفلة المناجي ليعود إليه. وألزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر. قال ﷺ وقد رأى رجلاً مصلياً يعبث بلحيته: ﴿أَمُّا هٰذَا لَوْ خَشَعَ قُلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»، فإنَّ الرعية بحكم الراعي. ولهذا ورد في الدعاء: «اللهم أصلح الراعي والرعية»^(٣). وهو القلب والجوارح. وكان الصدّيق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد. وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عود. وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد. وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك؟ وكل من يطمئن بين يدي غير الله عزَّ وجلَّ خاشعاً وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابئاً فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عزَّ وجلَّ وعن اطلاعه على سره وضميره. وقال عكرمة في قوله عزَّ وجلُّ: ﴿الَّذِي بَرَيْكَ حِينَ نَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبُكَ فِي ٱلسَّنجِينِ ۞﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٩،٢١٨]، قال: قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه.

وأما الركوع والسجود فينبغي أن تجدّد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيراً بعفو الله عزَّ وجلُّ من عقابه بتجديد نية ومتبعاً سنة نبيه ﷺ، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك. وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم، وتكرّر ذلك على قلبك لتؤكله بالتكرار. ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم لك ومؤكداً للرجاء في نفسك بقولك: «سمع الله لمن حمده؛ أي أجاب لمن شكره. ثم تردف ذلك الشكر المتقاضى للمزيد فتقول: «ربنا لك الحمد؛ وتكثر الحمد بقولك: «ملء السموات وملء الأرص». ثم تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل. وإذا وضعت نفسك موضع الذل

حديث: «يقال لصاحب القرآن اقرأ واوق. . t الحديث. أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث عبدالله بن عمر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

[﴿]إِنْ اللَّهِ يَقْبِلُ عَلَى الْمُصَّلِّي مَا لَمْ يَلْتَفْتُهُ، أَخْرِجِهُ أَبُو دَاوَدَ، والنَّسَائي، والحاكم وصحح إسناده أبو ذر. **(Y)**

حديث: «اللهم أصلح الراعي والرعية» لم أقف له على أصل، فسره المصنف بالقلب والجوارح.

هاعلم: أنك وضعتها موضعها ورددت ألفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت وإليه تعود، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل: «سبحان ربي الأعلى»، وأكده بالتكرار فإنّ الكرّة الواحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدق رجاءك في رحمة الله، فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبراً وسائلاً حاجتك وقائلاً: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم» أو ما أردت من الدعاء. ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانياً كذلك.

وأما التشهد؛ فإذا جلست له فاجلس متأدباً وصرح بأن جميع ما تدلي به من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة شه. وكذلك الملك شه وهو معسى "التحبات» وأحضر في قلبك النبي على وشخصه الكريم وقل: "سلام عليك أبها النبي ورحمة الله وبركاته» وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه. ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصالحين. ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه على بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفاً للتحصن بها. ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة، وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين. واقصد عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانو ختم الصلاة به. واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة. وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها. وقال بي لله للذي أوصاه: "صَلَّ صَلاةً مُودّع»، ثم أشعر قلبك الوجل والحياء من التقصير في الصلاة، وخَفْ أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهرٍ أو باطنٍ فترد صلاتك في التقصير في الصلاة، و رَفْلُ أن لا تقبل صلاتك وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهرٍ أو باطنٍ فترد صلاتك في وجهك، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله.

كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كآبة الصلاة. وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض. فهذا تفصيل الخاشعين، الذين هم في صلاتهم خاشعون. . . والذين هم على صلواتهم بحافظون والذين هم على صلاتهم دائمون، والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية. فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة، فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينمغي أن يتحسر وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد. وأما صلاة الغافلين فهي مخطرة إلا أن يتغمده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض، فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته. واعلم: أنَّ تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عزّ وجلّ وأداءها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة، فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لا سيما في السجود إذ يتقرّب العبد من ربه عزِّ وجلِّ بالسجود. ولذلك قال تعالى: ﴿ يُلْسِّئُذُ وَاقْتَرِبَ ۗ [النَّلَق: ١٩]، وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقوّة والضعف والقلة والكثرة وبالجلاء والخفاء، حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة، والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها. ويختلف أيضاً بما فيه المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله، ولبعضهم من أفعاله ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة. ويكون لتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى وأشدِّها مناسبة الهمة،

فإنها إذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف، ولما كانت هذه الأمور لا تتراءى المراثي الصقيلة، وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لخبث متراكم الصدأ على مصب الهداية تسارعت الألسة إلى إنكار مثل ذلك؛ إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر، ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء، ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما بعده. ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوة، وقد خلق الخفل أطواراً فلا ينبغي أن ينكر كل واحد ما وراء درجته، نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عزّ وجلّ فقدوه فأنكروه. ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغيب ويصدّق به إلى أن يشاهد بالتجربة ففي الخبر: «إنّ العبد أقل أن يأل الهواء يصلّون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى منكبيه إلى الهواء يصلّون بصلاته ويؤمنون على دعائه، وإن المصلي لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادي مناد: لو علم هذا المناجي من يناجي ما التفت. وإن أبواب السماء ومواجهة الله تعالى مفرق رأسه وينادي مناد: لو علم هذا المناجي من يناجي ما التفت. وإن أبواب السماء ومواجهة الله تعالى عليه عزه كناية عن الكشف الذي ذكرناه.

وفي التوراة مكتوب: يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يديُّ مصلياً باكياً فأنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري، قال: فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذي يجده المصلي في قلبه من دنو الرب سبحانه من القلب. وإذا لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب. ويقال: إن العبد إذا صلى ركعتين عَجِبَ منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وباهي الله به مائة ألف ملك. وذلك أن العبد قد جمع في الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقد فرّق الله ذلك على أربعين ألف ملك، فالقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الراكعون والقاعدون، فإن ما رزق الله تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم مستمرّ على حال واحد لا يزيد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿وَمَا يِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّقَارُمٌ ۞﴾ [الصَّافات: ١٦٤]، وفارق الإنسان الملائكة في الترقى من درجة إلى درجة، فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد مزيد قربه وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التي هي وقف عليها. وعبادته التي هو مشغول بها لا ينتقل إلى غيرها ولا يفتر عنها ﴿لَا يَسْتَكْبُرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. وَلَا بِسَتَحْسِرُونَ ۚ ۞ بُسَبِحُونَ ٱلْتِلَ وَٱلنِّهَارَ لَا يَفَثُرُكُنَ ۞﴾ [الاسبياء: ١٩، ١٠]، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفَلَع المُنْهِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهُم غَنْمِعُونَ ١ السومنون: الأينان ١، ٢]، فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع. ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُرِّ عَلَىٰ صَلَوَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞﴾ [الموسون: ١٩]، ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات ﴿أَوْلَتِكَ مُمُ ٱلْوَرِقُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدُوسَ هُمْ فِيهَا خَلِنُونَ ۞﴾ [السومنون: ١٠، ١١]، فوصفهم بالفلاح أوّلاً وبوراثة الفردوس آخراً، وما عندي أن هذرمة اللسان مع غفلة القلب تنتهي إلى هذا الحدّ، ولذلك قال الله عزّ

 ⁽١) حديث: اإن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده. . ٩ الحديث, لم أجده.

وجلّ في أضدادهم: ﴿مَا سَلَكُمُ فِي سَقَرَ ۞ فَالْوَا لَا نَكُ مِنَ ٱلنَّمَلِينَ ۞ [المدَّثّر: ٤٣،٤٢]، فالمصلون هم ورثة الفردوس، وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوّه من قلوبهم. نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى.

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم:

اعلم: أنّ الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عزّ وجلّ، ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعاً في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد. فمن هذه المعارف يتولّد الخشوع وليست مختصة بالصلاة، ولذلك روي عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وخشوعاً له، وكان الربيع بن خيثم من شدّة غضة لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإدا رأته جاريته قالت لابن مسعود: صديقك الأعمى قد جاء، فكان يضحك ابن مسعود من قولها، وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقاً غاضاً بصره، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول: ﴿ وَبَرْشِرِ ٱلمُحْيِنِينَ الله فتراه مطرقاً غاضاً محمد الشخ لفرح بك، وفي لفظ آخر: لأحبك، وفي لفظ آخر: لضحك.

ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلتهب صعق وسقط مغشياً عليه، وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يفق فحمله على ظهره إلى منزله، فلم يزل مغشياً عليه إلى مثل الساعة التي صعق فيها ففاتته خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول: هذا والله هو الخوف. وكان الربيع يقول: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها إلا ما أقول وما يقال لي، وكان عامر بن عبدالله من خاشعي المصلين، وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدَّث الساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله، وقيل له ذات يوم: هل تحدَّثك نفسك في الصلاة بشيء؟ قال: نعم بوقوفي بين يدّي الله عزّ وجلّ ومنصرفي إلى إحدى الدارين، قيل: فهل تجد شيئاً مما نجد من أمور الدنيا؟ فقال: لئن تختلف الأسنَّة فيَّ أحب إليَّ من أن أجد في صلاتي ما تجدون وكان يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وقد كان مسلم بن يسار منهم، وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة. وتأكل طرف من أطراف بعضهم واحتيج فيه إلى القطع فلم يكن منه فقيل: إنه في الصلاة لا بحس بما يجري عليه؛ فقطع وهو في الصلاة. وقال بعضهم: الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا. وقيل لآخر: هُل تحدُّث نفسك بشيء من الدنيًّا في الصلاة؟ فقال: لا في الصلاة ولا في غيرها. وسئل بعضهم: هل تذكر في الصلاة شيئاً؟ فقال: وهل شيء أحب إلىّ من الصلاة فأذكره فيها؟ وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ. وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس، وروي أنّ عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفّها فقيل له: خففت يا أبا اليقظان فقال: هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً؟ قالوا: لا، قال: إني بادرت سهو الشيطان، إن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ الْعَبْدَ لَيْصَلِّي الصَّلاةَ لا يُكْتَبُ لَهُ يَصْفُهَا، وَلا ثُلُثْهَا، وَلا رُبْعُها، وَلا خُمْسُهَا، وَلا سُدُسُهَا، وَلا عُشْرُها،، وكان يقول:

﴿إِنَّمَا يُكُتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا اللهُ ويقال: إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة، وقالوا: نبادر بها وسوسة الشيطان.

وروي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر: إنَّ الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عزّ وجلّ فيها. وسئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمَّ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞﴾ [المَاعون: ◘]، قال: هو الذي يسهو في صلاته فلا يدري على كم ينصرف أعلى شفع أم على وتر؟ وقال الحسن: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج. وقال بعضهم: هو الذي إنّ صلاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخّرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيراً ولا تأحيرها إثماً. واعلم: أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كما دلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول: إن الصلاة في الصحة لا تتجزأ، ولكن ذلك له معنى أخر ذكرناه، وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل(٢٠). وفي الخبر: «قال عيسي عليه السلام: يقول الله تعالى بالفرائض نجا مني عبدي، وبالنوافل تقرّب إلىّ عبدي" وقال النبي ﷺ: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: لا يَنْجُو مِنْي عَبْدِي إِلاَّ بِأَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ"، وروى "أن النبي ﷺ: صلَّى صلاة فترك من قراءتها آية، فلما انفتل قال: ماذا قرأت، فسكت القوم، فسأل أبيّ بن كعبِ رضي الله عنه فقال: قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فما ندري أنسخت أم رفعت؟ فقال: أنْتَ لَهَا يَا أَبَيُّ، ثُمُ أَقْبَلُ عَلَى الآخرين فقال: مَا يَالُ أقوام يَحْضُرُونَ صَلاتَهُمْ وَيُتِنُّونَ صُفُوفَهُمْ وَنَبِئِهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لا يَذْرُونَ مَا يَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ ٱلاَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَذَا فَعَلُوا فَأَوْحَىٰ اللَّهُ عَزٌّ وَجَلَّ إِلَىٰ نَبيُّهِمْ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ : تُحْضِرُونِي أَبْدَانَكُمْ وَتُعْطُونِي ٱلْسِنَتَكُمْ وَتَغِيبُونَ عَنِي بِقُلُوبِكُمْ بَاطِلٌ مَا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ (٤٠)، وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه بَدَلُ عن قراءة السورة بنفسه. وقال بعضهم: إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرّب بها إلى الله عزّ وجلّ ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل: وكيف يكون ذلك؟ قال: يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغ إلى هوَّى ومشاهد لباطل قد استولى عليه. فهذه صفة الخاشعين. فدلت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد والله أعلم. نسأل الله حسن التوفيق.

安泰米

حديث: «أن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقيل له 'خففت يا أما اليقظان... الحديث. وفيه: «إن العبد ليصلي صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها...»، إلى آخره أخرجه أحمد بإسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند أبي داود والنسائي.

⁽٢) حديث: «جبر نقصان المرافض بالنوافل»، رواه أصحاب السنر، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة. «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته» وفيه: «فإن انتقص من فرضه شيئاً قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما نقص من الفريضة».

٣) حديث: (قال الله تعالى: لا ينجو منى عبدي إلا بأداء ما افترضت عليه) لم أجده.

⁽٤) حديث: (صلى صلاة فترك من قراءتها آية قلما التفت قال: ماذا قرأت نسكت القوم فسأل أبي بن كعب. ٣ الحديث. رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة مرسلاً وأبو منصور الديلسي من حديث أبي بن كعب، ورواه النسائي مختصراً من حديث هبدالرحمن بن أبزى بإسناد صحيح.

الباب الرابع

في الإمامة والقدوة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فستة:

أولها: أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى وفي الحديث: «ثَلاثَةٌ لا تُجَاوِزُ صَلاتُهُمْ رُوُوسَهُمْ: العَبْدُ الآبِقُ، وَامْرَأَةٌ زَوْجُهَا سَاخِطٌ عَلَيْهَا، وَإِمَامٌ أَمْ قَوْماً وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ (')، وكما ينهى عن تقدمه مع الآبِق، وَامْرَأَةٌ زَوْجُهَا سَاخِطٌ عَلَيْهَا، وَإِمَامٌ أَمْ قَوْماً وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ (')، وكما ينهى عن تقدمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدم، فإن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم، فإن لم يكن شيء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة. ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل: إن قوماً تدافعوا الإمامة بعد إقامة الصلاة فخسف بهم، وما روي من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضي الله عنهم فسببه إيثارهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم، فإن الأئمة ضمناء، وكأن من لم يتعود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص في صلاته حياء من المقتدين لا سيما في جهره بالقراءة، فكان لاحتراز من احترز أسباب من هذا الجنس.

الثانية: إذا خُيرُ المرء بين الأذان والإمامة، فينبغي أن يختار الإمامة فإن لكل واحد منهما فضلاً، ولكن الجمع مكروه بل ينبغي أن يكون الإمام غير المؤذن، وإذا تعذر الجمع فالإمامة أولى. وقال قاتلون: الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان ولقوله ﷺ: «الإَمَامُ ضَامِنٌ وَالمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ (٢٠). فقالوا: فيها خطر الضمان، وقال ﷺ: «الإِمَامُ أُمِينٌ فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَمُوا وَإِذَا سَجَدُ فَاسْجُدُوا (٣٠)، وفي الحديث: «فَإِنْ أَتِمْ فَلَهُ وَلِهُمْ وَإِنْ نَقَصَ فَعَلَيْهِ لا فَلَيْهِمْ (٤٠)، ولأنه ﷺ قال: «اللَّهُمُ أَرْشِدِ الأَيْمَة وَاغْفِرْ للمَغْورة، وفي الخبر: «مَنْ أَمْ فِي مَسْجِدِ سَنِعَ لِلْمُؤَذِّئِينَ (٥٠)، والمغفرة أولى بالطلب فإن الرشد يراد للمغفرة، وفي الخبر: «مَنْ أَمْ فِي مَسْجِدِ سَنِعَ

الباب الرابع

 ⁽١) حديث: ﴿ثلاثة لا تجاوز صلاتهم رؤوسهم: العبد الآبق. . . ، الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال:
 حسن غريب وضعفه البيهقي.

 ⁽٣) حديث: «الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن». أخرجه أبو داود، والترمذي من حديث أبي هريرة، وحكي عن ابن المديني
 أنه لم يثبته ورواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن.

 ⁽٣) حديث: «الإمام أمين فإذا ركع فاركموا..» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله: «الإمام أمين»
 وهو بهذه الزيادة في مسئد الحميري وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة.

⁽٤) حديث: «فإن أتم قله ولهم وإن انتقص فعليه ولا هليهم» أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم وصححه من حديث عقبة بن عامر والبخاري من حديث أبي هريرة: «بصلون بكم فإن أصابوا فلكم وإن أخطؤوا فلكم وعديم».

 ⁽٥) حديث: «اللهم أرشد الأثمة واففر للمؤذنين؛ هو نقية حديث: «الإمام ضامن» رتقدم قبل بحديثين.

سِنِينَ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنّةُ بِلا حِسَابٍ، وَمَنْ أَنْنَ أَرْبَعِينَ عَاماً دَحَلَ الْجَنّةُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، (')، ولذلك نقل عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون الإمامة. والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واظب عليها رسول الله في وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما والأثمة بعدهم. نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر، كما أن رتبة الإمارة أفضل لقوله في: المَوْمُ مِنْ سُلْطَانِ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةٍ سَبْعِينَ سَتَةُ (') الخطر، كما أن رتبة الإمارة أفضل لقوله في: المَوْمُ مِنْ سُلُطَانِ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةٍ سَبْعِينَ سَتَةً (الله المناء) وجب تقديم الأفضل والأفقه فقد قال في: الله الملف: ليس بعد الأنبياء أفضل من المملين، لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله النبياء أفضل من المملئة. وبهذه الحجة احتج عز وجلّ وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بعماد الدين وهو الصلاة. وبهذه الحجة احتج الصحابة في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنهم للخلاقة؛ إذ قالوا: نظرنا فإذا الصلاة عماد الدين، فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله في لديننا أنا، وما قدموا بلالاً احتجاجاً بأنه رضيه للأذان (')، وما روي (أنه قال له رجل: يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة قال: كُنْ مُؤذّناً، قال: لا أستطيع، قال: صُلُّ بِإِزَاءِ الإِمَامِ (')، فلعله ظن أنه لا يرضى بإمامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له، ثم بعد ذلك توهم أنه ربما يقدر عليها.

الثالثة: أن يراعي الإمام أوقات الصلوات فيصلي في أوائلها ليدرك رضوان الله سبحانه، ففضل أول

حدیث: ‹من أذن في مسجد سبع ستین وجبت له البحنة ومن أذن أربعین هاماً دخل البحنة بغیر حسابه. أخرجه
الترمذي وابن ماجه من حدیث ابن عباس بالشطر الأول نحوه قال الترمذي: حدیث غریب.

 ⁽۲) حديث: «ليوم من سلطان هادل أفضل من هيادة سبعين سنة». أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ: «ستين».

⁽٣) حديث: «أثمتكم وقدكم إلى الله تعالى فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم فقدموا خياركم» أخرجه الدارقطني والبيهشي وضعف إسناده من حديث ابن عمر، والمغوي وابن قانع والطرائي في معاجمهم، والحاكم من حديث مرثد بن أبي مرثد نحوه وهو منقطع وفيه يحيى بن يحيى الأسلمي وهو ضعيف.

⁽٤) حديث: القديم الصحابة أبا بكر وقولهم: اخترنا لدنياتا من اختاره رسول الله الله الديناء، أحرجه ابن شاهين في شرح مذهب أهل السنة من حديث علي قال: «لقد أمر رسول الله الله الله بكر أن يصلي بالناس وإني شاهد ما أنا بغائب ولا بي مرض موضينا لدنيانا ما رضي به النبي الله لديننا، والمرفوع منه متفق عليه من حديث عائشة وأبي موسى في حديث: اقال: مروا أبا بكر قليصل بالناس!.

⁽٥) حديث: "تقديم الصحابة بالآلاً احتجاجاً بأن رسول الله في رضيه للأذان أما المرفوع منه فرواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن خيمة وابن حبان من حديث عبدالله بن زيد في بده الأذان وفيه: "قم مع بالال فألق عليه ما وأبت فيؤذن يه. . الحديث. وأما تقديمهم له بعد موت النبي في فروى الطبراني: "أن بالالا جاء إلى أبي بكر فقال: يا خليفة رسول الله في أردت أن أربط نفسي في سيل الله حتى أموت فقال أبو بكر: أتشدك بالله با بلال وحرمتي وحقي لقد كبرت سني وضعفت قرتي وافترب أحلي فأقام بالال معه، فلما توفي أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأمي مكر عليه فقال عمر: فمن يا بالال، فقال: إلى سعد فإنه قد أذن بقباء على عهد رسول الله في فيجعل عمر الأذان إلى سعد وعقبة وفي إسناده حهالة.

 ⁽٩) حديث: قال له رجل: يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة فقال: كن مؤذناً... الحديث. أخرجه البخاري في التاريخ والعقيلي في الضعفاء والطرائي في الأوسط من حديث ان عباس بإسناد ضعيف.

الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا(۱) ، هكذا روي عن رسول الله على . وفي الحديث: «إنّ العَبْدُ لَيْصَلّي الصَّلاةَ فِي آخِرِ وَقْبَها وَلَمْ نَفُتُه ، وَلَمَا فَاتَهُ مِنْ أَوّلِ وَقَتِهَا خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيهَا (۱) ، ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة ، بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة. وقد قيل: كانوا إذا حضر اثنان في الجماعة لم ينتظروا الثالث، وإذا حضر أربعة في الجماعة لم ينتظروا الثالث، وإذا حضر أربعة في الجنازة لم ينتظروا الخامس. وقد تأخر رسول الله ولا عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر، وقدم عبدالرحمن بن عوف فصلي بهم حتى فاتت رسول الله وقد تأخر في يقضيها، قال: فأشفقنا من ذلك، فقال رسول الله على على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره.

الرابعة: أن يوم مخلصاً لله عزّ وجلّ ومؤدياً أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته. أما الإخلاص؛ فبأن لا يأخذ عليها أجرة، فقد أمر رسول الله على عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال: «التّخِذْ مُؤَذّناً لا يَأْخُذُ عَلَىٰ الأَذَانِ أَجْراً» ، فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أولى بأن لا يؤخذ عليها أجر، فإن أخذ رزقاً من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه. والكراهية في الفرائض أشد منها في التراويح، وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة. وأما الأمانة؛ فهي الطهارة باطناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر، فالمترشح للإمامة ينبغي أن يحترر عن ذلك بجهده فإمه كالوفد والشفيع للقوم، فينبغي أن يكون خير القوم وكذا الطهارة ظاهراً عن الحدث والخبث فإنه لا يطلع عليه سواه، فإن تذكر وسول الله يَعِيُّ الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في منه ويستخلفه، وفقد تذكر وسول الله يَعِيُّ الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واغتسل ثم رجع ودخل في ماصحب بدعة أو عبد آبق.

الخامسة: أن لا يكبر حتى تستوي الصفوف فليلتفت يميناً وشمالاً فإن رأى خللاً أمر بالتسوية.

 ⁽١) حديث: الفضل أول الوقت على آخره كفضل الآحرة على الدنيا" أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند المردوس مى
 حديث ابن عمر بسند صعيف.

 ⁽٢) حديث: (إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفته..) الحديث. أخرجه الدارقطتي من حديث أبي هريرة نحوه
 راسناد ضعف.

 ⁽٣) حديث: «تأخر رسول الله على يوماً عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبدالرحمن بن عوف..» الحديث. متفق عليه من حديث المغيرة.

 ⁽٤) حديث: «تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر... الحديث. متفق عليه من حديث سهل بن سعد.

 ⁽٥) حليث: «التخذ مؤذناً لا يأخذ على أذاته أجرة» أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي
 العاص الثقفي.

⁽٩) حديث: الذكر النبي على الجنابة في صلاته فاستخلف واغتسل ثم رجع أخرجه أبو داود من حديث أبي بكرة بإسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وإنما قال: الم أوماً إليهم أن مكانكم . الحديث. وورد الاستخلاف من فعل عمر وعلي وعند البخاري استخلاف عمر في قصة طعه.

قبل: كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب، ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة، والمؤذن يفرغ المؤذن من الإقامة. يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة، ففي الخبر: «ليتمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الأكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره (۱)، وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخبثين (۱)، وأمر تقديم العَشَاءِ على العِشَاءِ (۱)؛ طلباً لفراغ القلب.

السادسة: أن يرفع صوته متكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات، ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه. وينوي الإمامة لينال الفضل فإن لم يُنو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نووا الاقتداء، ونالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة، وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبيرة الإمام فيبتدىء بعد فراغه، والله أعلم.

وأما وظائف القراءة فثلاثة:

أولها: أن يُسِرُّ بدعاء الاستفتاح والتعوِّذ كالمنفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأوليي العشاء والمغرب وكذلك المنفرد. ويجهر بقوله: «آمير» في الصلاة الجهرية، وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمين الإمام معاً لا تعقيباً، ويجهر بالبسم الله الرحمن الرحيم، (3) والأخبار فيه متعارضة (۵)، واختيار الشافعي رضي الله عنه الجهر،

الثانية: أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكتات (١٠). هكذا رواه سمرة بن جندب وعمران بن الحصين عن رسول الله ﷺ أولاهن: إذا كبر وهي الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح، فإنه إن لم يسكت يفوتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من

⁽١) حديث "يمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الأكل من طعامه والمعتصر من اعتصاره أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر: فيا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الأكل من أكله والشارب من شريه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته". قال الترمذي: إسناده مجهول، وقال الحاكم: ليس في إسناده مطعون فيه غير عمرو بن قايد. قلت: بل فيه عبدالمنعم الدياجي منكر الحديث قاله البخاري وغيره.

⁽Y) حديث: «النهي عن مدافعة الأخبثين». أحرجه مسلم من حديث عائشة بلفظ: «صلاة» وللبيهقي: «لا بصلين أحدكم... الحديث.

 ⁽٣) حديث: «الأمر بتقديم العشاء على العشاء» نقدم من حديث ابن عمر وعائشة: «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء عنفق عليه.

⁽٤) حديث الجهر بابسم الله الرحمن الرحيم. أخرجه الدارقطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس.

 ⁽٥) حديث: «ترك الجهر بها». أخرجه مسلم من حديث أنس: «صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحداً منهم يقرأ ببسم الله الرحمن الرحيم».

٣) حديث سمرة بن حندت وعمران بن حصين في سكتات الإمام رواه الإمام أحمد من حديث سمرة قال الكانت لرسول الله على سكتات في صلاته. وقال عمران: أنا أحفظها عن رسول الله على فكتبوا في ذلك إلى أبي بن كعب؟ فكتب: إن سمرة فد حفظه، هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من المسند والمعروف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا في غير موضع من المسند رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان، وروى الترمذي: «فأبكر ذلك عمران وقال: حفظنا سكتة» وقال حديث حسن انتهى، وليس في حديث سمرة إلا سكتتان، ولكن اختلف عنه في محل الثابية فروى عنه بعد الفاتحة وروي عنه بعد السورة، وللدارقطني من حديث أبي هريرة وضعفه: «من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سكتاته».

صلاتهم، فإن لم يقرؤوا الفاتحة في سكوته واشتغلوا بغيرها فذلك عليه لا عليهم. السكتة الثانية: إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة في السكتة الأولى فاتحته وهي كنصف السكتة الأولى. السكتة الثالثة: إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهي أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهي عن الوصل فيه. ولا يقرأ المأموم وراء الإمام إلا الفاتحة فإن لم يسكت الإمام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصر هو الإمام، وإن لم يسمع المأموم في الجهرية لبعده أو كان في السرية فلا بأس بقراءة السورة.

الوظيفة الثالثة: أن يقرأ في الصبح سورتين من المثاني ما دون المائة فإن الإطالة في قراءة الفجر والتغليس بها سنة، ولا يضره الخروج منها مع الإسهار، ولا بأس بأن يقرأ في الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يختمها لأنّ ذلك لا يتكرّر على الأسماع كثيراً فيكون أبلغ في الوعظ وأدعى إلى التفكر، وإنما كُرة بعض العلماء قراءة بعض أوّل السور وقطعها. وقد روي أنه على قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع (١)، وروي أنه قلى قرأ في الفجر آية من البقرة (١٩٦١)، وفي الثانية: في الفجر آية من البقرة (١ وهي قوله: ﴿ وَلُولًا عَامَكَا بِاللّهِ وَمَا أَنِلُ إِلْتَنَا﴾ [البَقرة: ١٣٦١]، وفي الثانية: ﴿ وَلَوْلًا عَامَكَا بِاللّهِ يقرأ من ههنا وههنا، فسأله عن ذلك فقال: أخلط الطيب بالطيب، فقال: ﴿ أحسنت (١). ويقرأ في الظهر بطوال المفصل إلى ثلاثين آية، وفي العصر بنصف ذلك، وفي المغرب بأواخر المفصل. وآخر صلاة صلاها رسول الله على المغرب، قرأ فيها سورة المرسلات ما صلى بعدها حتى قبض (١).

وبالجملة، التخفيف أولى لا سيما إذا كثر الجمع، قال ﷺ في هذه الرخصة: وإِذَا صَلَّىٰ أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفُ فَإِنَّ قِيهِمُ الضَّعِيفُ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ، وَإِذَا صَلَّىٰ لِنَفْسِهِ فَلْيُطُولُ مَا شَاءَهُ (٥٠)، وقد كان معاذ بن جبل يصلي بقوم العشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه، فقالوا: نافق الرجل، فتشاكيا إلى رسول الله ﷺ فزجر رسول الله ﷺ معاذاً فقال: ﴿أَفَتُانَ أَنْتَ يَا مُعَادُ، اقْرَأُ شُورَةَ سَبّح وَالشّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَالشّمْسِ وَضُحَاهاه (٦٠).

⁽١) حديث. •قرأ بعض سورة يونس، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع •. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن السائب وقال: سورة المؤمنين، وقال: موسى وهارون، وعلقه البخاري.

 ⁽٢) حديث: قرأ في الفجر ﴿ فُولُوا مَامَكَا بِالْقَوِ﴾ [البَقْرَة: ١٣٦] الآية، وفي الثانية ﴿ رَبُّنَا مَامَكا بِمَا أَرَاتَ ﴾ [آل عِمرَان: ٣٥]، أحرجه مسلم من حديث ابن عباس: كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منها. ﴿ فُولُوا مَامَنَا بِأَقَو وَمَا أَنْزِلَ إِلَيْهَا ﴾ [البَقْرَة: ١٣٦] الآية التي في البقرة وفي الآخرة منها: ﴿ مَامَنًا بِأَقِو وَاللّهِ وَاللّهِ مَامَنًا بِأَقُو وَمَا أَنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ [البَقْرَة: ١٣٦] الآية التي في البقرة وفي الآخرة منها: ﴿ وَامَنّا بِأَنْهِ وَاللّهِ مَامَنا ﴾ [آل عِمرَان: ٨٤] الآية وفي الركعة الآخرة: ﴿ وَاللّهُ مَامَنا بِأَنْهَ ﴾ [البقرة: ١٩٤].
 ﴿ وَرُئْنَا مَاكَ بِمَا أَرْلُكُ ﴾ [آل عِمرَان: ٣٥] أو ﴿ إِلَىٰ أَرْسَلْنَكُ بِالْمَقِيّة ﴾ [البقرة: ١٩٩].

 ⁽٣) حديث: «سمع بالالا يقرأ من ههنا ومن ههنا». فسأله عن ذلك فقال: «أخلط الطيب بالطيب فقال: أحسشت» أخرجه
 أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح نحوه.

⁽٤) حديث: اقراءته في المغرب بالمرسلات وهي آخر صلاة صلاها؛ متفق عليه من حديث أم الفضل.

⁽a) حديث «إذا صلى أحدكم بالناس فلبخفف. » الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: قصلى معاد بقوم العشاء فقرأ البقرة مخرج رجل من الصلاة. . ٢ الحديث. متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر ﴿وَلَنْتُلَةٍ وَاللَّهِ ◘﴾ [الطّارق: ١] وهي عند البيهقي.

وأما وظائف الأركان فثلاثة:

أولها: أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسبيحات على ثلاث، فقد روي عن أنس أنه قال: «ما رأيت أخف صلاة من رسول الله على تمامه". نعم روي أيضاً: «أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبدالعزيز وكان أميراً بالمدينة قال: «ما صليت وراء أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله على من هذا الشاب قال: وكنا نسبح وراءه عشراً عشراً» " وروي مجملاً أنهم قالوا: «كنا نسبح وراء رسول الله في في الركوع والسجود عشراً عشراً» وذلك حسن، ولكن الثلاث إذا كثر الجمع أحسن. فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر، هذا وجه الجمع بين الروابات. وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع «سمع الله لمن حمده».

الثالثة: لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حدراً من التطويل، ولا يخصُّ نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول: «اللهم اغفر لنا» ولا يقول: «اغفر لي» فقد كره للإمام أن يخص نفسه، ولا بأس أن يستعبذ في التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله ﷺ فيقول: «نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَدَابٍ جَهَنَّمَ وَعَدَابٍ القَبْرِ وَتَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدُّجَالِ، وَإِذَا أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَاقْبِضْنا إِلَيْكَ غَيْرَ مَقْتُونِينَ (٥٠)، وقيل: سمي مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها. وقيل: لأنه ممسوح العين أي مطموسها.

⁽١) حديث أنس: «ما رأيت أخف صلاة من رسول الله ﷺ في تمام؛ متفق عليه.

 ⁽۲) حديث أنس: «أنه صلى خلف عمر بن عبدالعزيز فقال. ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله على من هذا الشاب..» الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد جيد وضعفه ابن القطان.

 ⁽٣) حديث: (كنا نسبح وراء رسول الله ﷺ في الركوع والسجود عشراً). لم أجد له أصلاً في الحديث الذي قبله وفيه:
 (فخررنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات».

 ⁽٤) حديث: «كان الصحابة لا يهوون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبي ﷺ إلى الأرض. متفق عليه من حديث البراء بن
 عازب.

⁽٥) حديث: «التعوذ في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر..» الحديث. تقدم، وزاد فيه الغزالي هنا: «وإذا أودت يقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين» ولم أجده مقيداً بآخر الصلاة، وللترمذي من حديث ابن عباس: «وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون» روى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبدالرحمن بن عباش وصححهما، وسبأتي في الدعاء.

وأما وظائف التحلل فثلاثة:

أولها: أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة.

الثانية: أن يثبت عقيب السلام. كذلك فعل رسول الله هي وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصلي النافلة في موضع آخر. فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرون (١)، وفي الحبر المشهور: «أنه هي لم يكن يقعد إلا قدر قوله: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، (٢).

الثالثة: إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس، ويكره للمأموم القيام قبل انتقال الإمام. فقد روي عن طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما صليا خلف إمام، فلما سلما قالا للإمام: ما أحسن صلاتك وأتمها إلا شيئاً واحداً أنك لما سلمت لم تنفتل بوجهك، ثم قالا للناس: ما أحس صلاتكم إلا أمكم انصرفتم قبل أن ينفتل إمامكم، ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب. هذه وطيفة الصلوات، وأما الصبح فزيد فيها القنوت فيقول الإمام: «اللهم اهدنا» ولا يقول: «اللهم اهدني» ويؤمن المأموم فإذا انتهى إلى قوله: «إنك تقضي ولا يقضى عليك» فلا يليق به التأمين وهو ثناء، فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول على وأنا على ذلك من الشاهدين» أو «صدقت وبررت» وما أشبه ذلك. وقد روي حديث في رفع اليدين في القنوت (٢٠)، فإذا صح الحديث استحب ذلك، وإن كان على خلاف الدعوات في حديث في رفع اليدين في رفع البدين وظيفة في التشهد إذ لا يرفع بسببها اليد، بل التعويل على التوقيف، وببنهما أيضاً قرق أن للأبدي وظيفة في التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما ههنا، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما ههنا، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة في القنوت، فإنه لائق بالدعاء والله أعلم. فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق.

* * *

الباب الخامس

فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة:

اعلم: أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخصص به المسلمين. قال الله تعالى: ﴿ إِذَا تُودِكَ لِلصَّلَوْةِ بِن بَوْرِ ٱلْجُمْعَةِ فَاسْتَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ [الجُمُنة: ١] محرَّم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَرُّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُم الجُمُعَةَ فِي يَوْمِي هٰذَا فِي مقامِي هٰذَا اللهُ عَرُّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُم الجُمُعَةَ فِي يَوْمِي هٰذَا فِي مقامِي هٰذَا اللهُ عَرُّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُم الجُمُعَة فِي يَوْمِي هٰذَا فِي مقامِي هٰذَا اللهُ عَرُّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُم الجُمُعَة فِي يَوْمِي هٰذَا فِي مقامِي هٰذَا اللهُ عَرُّ وَجَلًا فَرَضَ عَلَيْكُم الجُمُعَة فِي يَوْمِي هٰذَا فِي مقامِي هٰذَا اللهُ عَرْ

ألباب الخامس

⁽١) حديث: «المكث بعد السلام». أخرجه البحاري من حديث أم سلمة.

⁽Y) حديث: «إنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام». أخرجه مسلم من حديث عائشة.

 ⁽٣) حديث: «رفع اليدين في القنوت». أخرجه البيهفي من حديث أنس بسند جيد في قصة قتل القراء: «ولقد رأيت رسول الله ﷺ كلما صلى الغذاة رفع يديه» يدعو عليهم.

 ⁽٤) حديث: (إن أفة فرض عليكم الجمعة في يومي هذا. ٤٠ الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد ضعيف.

وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ ثَلاثاً مِنْ غَيْرِ عُلْرٍ طَبِعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلْبِهِ (١٠)، وفي لفظ آخر: •فَقَدْ نَبَذَ الإِسْلاَمُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، (٢٠)، واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة، فقال: في النار، فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول: في النار. وفي الخبر: «إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه وهدانا الله تعالى له وأخَّره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم، فهم أولى الناس به سبقاً وأهل الكتابين لهم تبع»(٣٠). وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلامُ فِي كَفْهِ مِزْآةٌ بَيْضَاءُ وَقَالَ: هٰنِهِ الجُمْعَةُ يَقْرِضُها عَلَيْكَ رَبُّكَ لِتكُونَ لَكَ عِيداً وَلأَمَّتِكَ مِنْ بَعْلِكَ. قُلْتُ: فَمَا لَنَا فِيهِا؟ قَالَ: لَكُمْ فِيهَا خَيْرُ مَاعَةٍ مَنْ دَعَا فِيهَا بِخَيْرِ قُسِمَ لَهُ أَعْطَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِيَّاهُ أَوْ لَيْسَ لَهُ قِسْمٌ ذَخَرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظُمُ منْهُ، أَوْ تَعَوَّذَ مِنْ شَرِّ هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلاَّ أَعَانَهُ اللَّهُ عَزْ وَجَلَّ مِنْ أَغْظَمَ مِنْهُ، وَهُوَ سَيِّذُ الأَيَّام مِنْدَنَا وَنَحْنُ نَدُهُوهُ فِي الآخِرَةِ يَوْمَ الْمَزِيدِ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: إِنَّ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَ فِي الجئَّةِ وَادِياً أَفْيَحُ مِنَ الْمِسْكِ ٱبْيَضَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ تَزَلَ تَعَالَىٰ مِنْ عَلَيْسِنَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ فَيَتَجَلَّىٰ لَهُمْ حَتَّىٰ يَنْظَرُوا إِلَىٰ وَجُهِهِ الكَريم،(٠٤) ، وفال ﷺ: «خَيْرُ يَوْم طَلَعَتْ عليهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَفِيهِ أَذْخِلَ الجُنَّةَ، وَفِيهِ أَهْبِطَ إِلَىٰ الأرْضِ، وَّفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَهُوَ جِنْدُ اللَّهِ يَوْمُ الْمَزِيدِ كَذَٰلِكَ تُسَمَّيهِ الْمَلاثِكَةُ فِي الشَّمَاءِ وَهُوَ يَوْمُ النَّظْرِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الجَنْةِه^(*). وفي الخبر: ﴿إِنْ لللهُ عَزْ وجَلّ في كل جمعة ستماثة ألفُ عتبق من النارُ (١٠) ، وَفي حديث أنسٍ رضي الله عنه أنه ﷺ قال: ﴿إِذَا سَلِمَتِ الجُمُعَةُ سَلِمَتِ الأَيَّامُ ۗ (٧) ، وقال ﷺ : ﴿إِنَّ الجَحِيمَ تُسَغِّرُ فِي كُلِّ يَوْم قَبْلَ الزَّوَالِ حِنْدَ اسْتِوَاجِ الشَّمْسِ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ فَلَا تُصَلُّوا فِي هٰذِهِ السَّاعَةِ إِلاَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَإِنَّهُ صَلاةً كُلَّهُ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لا تُسَمَّرُ فِيهِ الْأَهُ ﴿ وَقَالَ كَعَبِ : إن الله عزَّ وجلَّ فضَّل من البلدان مكة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر. ويقال: إن الطير والهوام يلقى بعضها بعضاً في يوم الجمعة فتقول. سلام سلام يوم صالح. وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَوْ لَيَلَةَ الجُمُعَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ وَوْقِيَ فِتْنَةَ القَبْرِ ⁽⁴⁾.

 ⁽۱) حديث: امن توك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه، أخرجه أحمد واللفظ له وأصحاب السنن ورواه الحاكم وصححه من حديث أبي الجعد الضمري.

⁽٢) - حديث: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره» . أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ،

 ⁽٣) حديث: (إن أهل الكتابين أهطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه. . » الحديث. متمق عليه من حديث أبي هريرة بنحره.

⁽٤) حديث أنس: «أتناني جبريل في كفه مرآة بيضاء فقال: هذه الجمعة. . • الحديث، أخرجه الشافعي في المستد والطبراني في الأوسط وابن مردويه في التنسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف.

 ⁽a) حديث: اخير يوم طلعث عليه الشمس يوم الجمعة. .) الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٦) حديث: (إن لله في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار» أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء وفي الشعب من حديث أنس، قال الدارقطني في العلل: والحديث غير ثابت.

 ⁽٧) حديث أنس: «إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام؛ أخرجه ابن حبان في الصعفاء، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أنس.

 ⁽A) حديث: (إن الجحيم تسعر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس _ إلى أن قال _ إلا يوم الجمعة. . ٤ الحديث .
 أخرجه أبو داود من حديث أبى قتادة وأعله بالانقطاع .

 ⁽٩) حديث: «من مات يوم الجمعة كتب الله أجر شهيد ووقي فتنة القبره أخرجه أبو نميم في الحلية من حديث حابر، روى الزندي نحوه مختصراً من حديث عدائة بن عمر وقال: غريب ليس إسناده بمتصل. قلت: وصله الترمذي الحكيم في النوادر.

بيان شروط الجمعة:

اعلم: أنها تشارك جميع الصلوات في الشروط وتتميز عنها بستة شروط:

الأوّل: الوقت؛ فإن وقعت تسليمة الإمام في وقت العصر فاتت الجمعة وعليه أن يتمها ظهراً أربعاً، والمسبوق إذا وقعت ركعته الأخيرة خارجاً من الوقت ففيه خلاف.

الثاني: المكان؛ فلا تصح في الصحاري والبراري وبين الخيام، بل لا بد من بقعة جامعة لأبنية لا تنقل، يجمع أربعين ممن تلزمهم الجمعة والقرية فيه كالبلد، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحب استئذانه.

الثالث: العدد؛ فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين لا يظعنون عنها شتاء ولا صيفاً، فإن انفضوا حتى نقص العدد إما في الخطبة أو في الصلاة لم تصح الجمعة، بل لا بد منهم من الأوّل إلى الآخر.

الرابع: الجماعة؛ فلو صلى أربعون في قرية أو في بلد متفرّقين لم تصح جمعتهم، ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد بالركعة الثانية، وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر، وإذا سلم الإمام تممها ظهراً.

الخامس: أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى في ذلك البلد. فإن تعذر اجتماعهم في جامع واحد جاز في جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة، وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التي يقع بها التحريم أولاً. وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين، فإن تساويا فالمسجد الأقدم، فإن تساويا ففي الأقرب، ولكثرة الناس أيضاً فضل يراعي.

السادس: الخطبتان؛ فهما فريضتان والقيام فيهما فريضة والجلسة بينهما فريضة. وفي الأولى أربع فرائض: التحميد وأقله الحمد لله. والثانية: الصلاة على النبي الله الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى. والرابعة: قراءة آية من القرآن. وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة. واستماع الخطبتين واجب من الأربعين.

وأما السنن: فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة. ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام، فإذا فرغ المؤذن قام مقبلاً على الناس بوجهه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ويشغل يديه بقائم السيف أو المعنزة والمنبر كي لا يعبث بهما أو يضع إحداهما على الأخرى. ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة. ولا يستعمل غريب اللغة ولا يمطط ولا يتغنى، وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة. ويستحب أن يقرأ آية في الثانية أيضاً. ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جواباً، والإشارة بالجواب حسن، ولا يشمت العاطسين أيضاً. هذه شروط الصحة.

فأما شروط الوجوب: فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حرّ مقيم في قرية تشتمل على أربعين جامعين لهذه الصفات، أو في قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى: ﴿إِنَا نُودِئَ لِلصَّلَوْةِ مِن يَوْمِ المَّمُعُمَّةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرٍ الْأَصُوات المُعْمُعَةِ وَالْمَوْق إِلَى فَرْمِ وَلَا الْجَمْعَة لَعَذْر المطر والوحل والفزع والمرض المَّهِ وَذَرُوا أَلْبَيْعُ ﴾ [الجُمُعَة: ٩]، ويرخص لهؤلاء في ترك الجمعة لعذر المطر والوحل والفزع والمرض والتمريض إذا لم يكن للمريض قيم غيره. ثم يستحب لهم ـ أعني أصحاب الأعذار ـ تأخير الظهر إلى

أن يفرغ الناس من الجمعة، فإن حضر الجمعة مريض أو مسافرٌ أو عبدٌ أو امرأةٌ صحت جمعتهم وأجزأت عن الظهر، والله أعلم.

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر جمل:

الأول: أن يستعد لها يوم الخميس عزماً عليها واستقبالاً لفضلها، فيشتغل بالدعاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس؛ لأنها ساعة قوبلت بالساعة المبهمة في يوم الجمعة. قال بعض السلف: إنّ لله عزّ وجلّ فضلاً سوى أرزاق العباد لا يعطي من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة، ويغسل في هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده، ويفرغ قلبه من الأشغال التي تمنعه من البكور إلى الجمعة، وينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلاً وليكن مضمونا إلى يوم الخميس أو السبت لا مفرداً فإنه مكروه ويشتغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة، ويجامع أهله في هذه الليلة أو في يوم الجمعة فقد استحب فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة. ويجامع أهله في هذه الليلة أو في يوم الجمعة فقد استحب ذلك قوم حملوا عليه قوله وي وي مالتخفيف واغتسل لجسده، وبهذا تتم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا: ما هذا اليوم؟ قال بعض السلف: أوفي الناس نصيباً من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأمس، وأخفهم نصيباً من إذا أصبح يقول: أيش اليوم؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لأجلها.

الثاني: إذا أصبح ابتدأ بالغسل بعد طلوع الفجر، وإن كان لا يبكر فأقربه إلى الرواح أحب ليكون أقرب عهداً بالنظافة، فالغسل مستحب استحباباً مؤكداً، وذهب بعض العلماء إلى وجوبه، قال على أغسلُ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلُ مُحْتَلِم (٢)، والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: «مَنْ أَتَىٰ الجُمُعَة فَلْيَغْتَسِلُ (٣)، وقال على (هَنْ شَهِدَ الجُمُعَة مِنَ الرِّجَالِ وَالنَّسَاءِ فَلْيَغْتَسِلُ (١)، وكان أهل المدينة إذا تساب المتسابان يقول أحدهما للآخر: لأنت أشر ممن لا يغتسل يوم الجمعة، وقال عمر لعثمان رضي الله عنهما لما دخل وهو يخطب: «أهذه الساعة؟ منكراً عليه ترك البكور منقال: ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت، فقال: والوضوء أيضاً، وقد علمت أن رسول الله على كان يأمرنا بالغسل (٥). وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضي الله تعالى عنه، وبما روي أنه على أن يأمرنا بالغسل "وه، وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضي الله تعالى عنه، وبما روي أنه على قال: «مَنْ تَوَضَّا يَوْمَ الجُمُعَةِ فَيها وَيَعْمَتْ وَمَن اغتسل فَالغُسُلُ أَفْضَلُ *(٢)، ومن اغتسل وبما روي أنه على الله المناه الله المناه المنا

 ⁽۱) حديث: ارحم الله من بكر وابتكر وغسل واغتسل... الحديث. رواه أصحاب السن وابن حبان والحاكم وصححه
 من حديث أوس بن أوس: امن غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر... الحديث وحسنه الترمذي.

 ⁽۲) حديث: «ضل يوم الجمعة واجب على كل محتلم» متفق عليه من حديث أبي سعيد.

 ⁽٣) حديث نافع عن ابن عمر: «من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغسل؛ متمق عليه، وهذا لعظ ابن حبان.

 ⁽٤) حديث: «من شهد الجمعة من الرجال والنساء فلينشلوا». أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث ابن عمر.

 ⁽a) حديث: «قال عمر لعثمان لما دخل وهو يخطب: أهذه الساعة. . . الحديث ـ إلى أن قال ـ والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالفسل» متفق عليه من حديث أبى هريرة ولم يسم المخاري عثمان.

 ⁽٦) حديث: «من توضأ يوم المجمعة فيها ونعمت. . . > الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، ورواه النسائي من حديث سمرة.

للجنابة فليفض الماء على بدنه مرة أخرى على نية غسل الجمعة، فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفصل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة. وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له: أللجمعة؟ فقال: بل عن الجنابة، فقال: أعد غسلاً ثانياً، وروي الحديث في غسل الجمعة على كل محتلم. وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه. وكان لا يبعد أن يقال: المقصود النظافة وقد حصلت دون النية، ولكن هذا ينقدح في الوضوء أيصاً وقد جعل في الشرع قربة فلا بدّ من طلب فضلها. ومن اعتسل ثم أحدث توضأ ولم يبطل غسله والأحب أن يحترز عن ذلك.

الثالث: الزينة؛ وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة: الكسوة والنظافة وتطبيب الواتحة. أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة. قال ابن مسعود: من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عز وجلّ منه داء وأدخل فيه شفاء. فإن كان قد دخل الحمام في الخميس أو الأربعاء فقد حصل المقصود، فليتطيب في هذا اليوم بأطبب طيب عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره "وَأَحَبُ طِيبِ الرُجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِي رِيحُهُ"، وروي ذلك في الأثر، وقال الشافعي ريحُهُ وَخَفِي ريحُهُ"، وروي ذلك في الأثر، وقال الشافعي رضي الله عنه: من نظف ثوبه قل مَمَهُ، ومن طاب ريحه زاد عقله. وأما الكسوة فأحبها البياض من الشبة ولا الثباب إلى الله تعالى البيض ـ ولا يلبس ما فيه شهرة. ولبس السواد ليس من الشنة ولا اليوم ـ روى واثلة بن الأسقع أن رسول الله يش قال: "إنّ اللّه وَمَلائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ أَصْحَابِ المُمَائِم اليوم . روى واثلة بن الأسقع أن رسول الله يش قال: "إنّ اللّه وَمَلائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ أَصْحَابِ المُمَائِم مَن السَنو وقت السعي من المنزل إلى الجمعة ولا في وقت السعل ولا عند صعود الإمام المنبر وفي خطبته.

الرابع: البكور إلى الحامع؛ ويستحب أن يقصد الجامع من فرسخين وثلاث وليبكر، ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر، وفضل البكور عظيم، وينبغي أن يكون في سعيه إلى الجمعة خاشعاً متواضعاً ناوياً للاعتكاف في المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للمبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة إياه والمسارعة إلى مغفرته ورضوانه، وقد قال عَنَيَّة: قمن رَاحَ إلى الجُمْعَة فِي السَّاعَةِ الثَّالِيَةِ النَّائِيةِ فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَقْرَة، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِيةِ فَكَأَنَّما قَرَّبَ بَقْرَة، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِيةِ فَكَأَنَّما أَهْدَىٰ دَجَاجَة، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِيةِ فَكَأَنَّما أَهْدَىٰ دَجَاجَة، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِيةِ فَكَأَنَّما أَهْدَىٰ بَيْضَة، فَإِذَا وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعةِ فَكَأَنَّما أَهْدَىٰ دَجَاجَة، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ التَّالِية فَكَأَنَّما أَهْدَىٰ بَيْضَة، فَإِذَا وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ المُعْرِقِ الشَّعَةِ الأَولَى إلى طلوع الشمس، والثانية ذُلِكُ فَإِنَّما جَاءَ لِحَقِ الصَّاعة إلى السَّاعة الأولى إلى طلوع الشمس، والثانية ألى ارتفاعها، والثائنة إلى انساطها حين ترمص الأقدام، والرابعة والحامسة بعد الضحى الأعلى إلى الى الفصى الأعلى إلى التفاعها، والثائنة إلى انساطها حين ترمص الأقدام، والرابعة والحامسة بعد الضحى الأعلى إلى

حدیث: قطیب الرجال ما طهر ریحه وحفی لونه وطیب النساء ما طهر لونه وحفی ریحه». أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي من حدیث أبي هریرة.

 ⁽۲) حديث واثلة بن الأسقع: اإن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة». أخرجه الطبرائي وعدي،
 وقال: متكر من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث واثلة.

 ⁽٣) حديث: امن راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدئة. . ١ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وأنس وفيه: اورفعت الأقلام، وهذه اللفظة عند البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

الزوال وفضلها قليل؛ ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه. وقال ﷺ: ﴿ فَلَاثُ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِيهِ فَرَكُشُوا رَكُضَ الإبلِ فِي طَلَبِهِنّ : الْأَذَانُ وَالصّفُّ الْأَوْلُ وَالْفُلُو إِلَىٰ الْجُمُعَةِ ثَمَدَتِ الْمَلائِكَةُ عَلَى حبل رضي الله عنه : أفضلهن الغدو إلى الجمعة . وفي الخبر : ﴿ إِذَا كَانَ يَومُ الجُمُعَةِ قَعَدَتِ الْمَلائِكَةُ عَلَى مَوَاتِبِهِمْ ﴿ ` ` وجاء أَبُوابِ الْمَسَاجِدِ بِأَيْدِيهِمْ صَحُفٌ مِن فِضَةٍ وَأَقْلاَمُ مِنْ ذَهَبٍ يَكْتُبُونَ الْأَوْلُ فَالأَوْلُ عَلَىٰ مَوَاتِبِهِمْ هُ ` ` وجاء في الخبر : ﴿ إِنَّ الْمَلائِكَةُ عَلَى مَوَاتِبِهِمْ هُ ` ` وجاء في الخبر : ﴿ إِنَّ الْمَلائِكَةُ يَتَفَقَدُونَ الرَّجُلُ إِذَا تَأَخَرُ مَنْ وَقَتِهِ فَيَشَالُ بَعْضُهُمْ بَعْضُا صَتُهُ : مَا فَعَلَ فَي الْحَبر : ﴿ إِنَّ الْمَلائِكَةُ وَلَى الْمُجْوَلُونَ : اللّهُمُ إِنْ كَانَ أَخْرَهُ فَقَرْ قَلْقَنِهِ إِلَى طَاعَتِكَ هُ وَإِنْ أَخْرَهُ مَوْضُ فَاشْفِهِ ، وَإِنْ كَانَ أَخْرَهُ فَقُولُونَ : اللّهُمُ إِنْ كَانَ أَخْرَهُ فَقَرْ قَلْقَوْلُونَ ! اللّهُمُ إِنْ كَانَ أَخْرَهُ فَقَرْ قَلْفَيْهِ إِلَى طَاعَتِكَ هُ وَإِنْ أَغُوهُ مَوْضُ فَاشْفِهِ ، وَإِنْ كَانَ أَخْرَهُ مُقُولُونَ : اللّهُمُ إِنْ كَانَ أَخْرَهُ فَقَرْ قَلْقَولُونَ ! اللّهُمُ إِنْ كَانَ أَخْرَهُ فَقَلْ إِلَى الْمَعْلُ عَلْمُ اللّهِ اللّهُ الْمُعْلَى الْعَلَى الْمُعِد الْفَجِر الطرقات مملوء قمن الناس يمشون في السرج ويزدحمون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل: أو للمناسلمون من اليهود والنسارى وهم يبكرون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحرة ؟ ويقال: إنّ الناس كيف يبكرون أيل وجه الله صبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة . ودخل ابن مسعود رضي الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فاغتم لذلك وجعل يقول في نفسه معتب النظر أربع أربعة من البعور بهيد.

الخامس: في هيئة الدخول، ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم، والبكور يسهل ذلك عليه، فقد ورد وعيد شديد في تخطي الرقاب وهو أنه يجعل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس (1) وروى ابن جريح مرسلاً: «أن رسول الله ﷺ بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس حتى تقدم فجلس، فلما قضى النبي ﷺ صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال: «يا قلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا؟» قال: يا نبي الله قد جمعت معكم: فقال النبي ﷺ ألم نوك تتخطى رقاب الناس» (٥).

⁽١) حديث: «ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا ركض الإبل في طلبهن: الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة» أخرجه أبو الشيح في ثواب الأعمال من حديث أبي هريرة: «ثلاث ثو يعلم الناس ما فيهن ما أخذتهن إلا بالاستهام عليهن حرصاً على ما فيهن من المخير والبركة. .» الحديث. قال: «والتهجير إلى الجمعة» وفي الصحيحين من حديثه: الو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه».

⁽٢) حديث. ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجَمِّعَةُ قَعَدُتُ الْمَلَاتَكَةُ عَلَى أَبُوابِ الْمَسْجِدُ بِأَيْدِيهِمْ صَحَفُ مِنْ قَضَةً وَأَقَلَامُ مِنْ ذَهِبٍ. . ٩ الصديث. أحرجه ابن مردويه في التفسير من حديث على بإسناد ضميف: ﴿إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجَمِّعَةُ نَزْلُ جَبِرِيلُ فَرَكُوْ لُواءُ بِالْمُسْجِدُ الْحَرَامُ وَقَدَا سَائِرُ الْمَلَاتُكَةَ إِلَى الْمُسْاجِدُ التي يَجْمِعُ فَيِهَا يَوْمُ الْجِمِّمَةُ فَرَكُوْوا ٱلْوَيْتُهُمْ وَرَايَاتُهُمْ بِبَابِ الْمُسْاجِدُ ثُمُ نَشُووا قَرَاطِيسَ مِن فَضَةً وَأَقَلَاماً مِن فَهِبٍ».

⁽٣) حديث: إن الملاتكة يفتقدون العبد إذا تأخر هن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً ما فعل قلائه، أخرجه البيهةي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زبادة ونقص بإسناد حسن. واعلم أن المصنف ذكر هذا فإن لم يرد به حديثاً مرقوعاً قليس من شرطنا وإنما ذكرناه احتياطاً.

 ⁽٤) حديث المن تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم. أخرجه النرمذي وضعفه، وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس.

 ⁽٥) حديث ابن جريج مرسلاً «أن اللبي ﷺ بينما هو يخطب إذ رأى رجلاً بتخطى رقاب الناس. . الحديث. وفيه: «ما منعك أن تجمع معنا اليوم» أخرجه ابن المبارك في الرقائق.

أشار به إلى أنه أحبط عمله، وفي حديث مسند أنه قال: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّي مَعَنَا؟ قال: أو لم ترني يا رسول الله؟ فقال ﷺ: رَأَيْتُكَ تَأْنَيْتُ وَآذَيْتُهُ (١) ، أي تأخرت عن البكور وآذيت الحضور، ومهما كان الصف الأوّل متروكاً خالياً فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة، قال الحسن: تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم، وإذا لم يكن في المسجد إلا من يصلي فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير محله.

السادس: أن لا يمرّ بين الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمرون بين يديه، أعنى بين يدي المصلي، فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهى عنه. قال على: «لأَنْ يَكُونَ الرّجُلُ رَمَاداً أَوْ رميماً تَذْرُوهُ الرّيَاحُ عَما خَيْرٌ لِهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَي المُصَلِّي (٢)، وقال على خير مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَي المُصَلِّي (يميماً تَذْرُوهُ الرّيَاحُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَي المُصَلِّي المُصَلِّي المُصَلِّي وَلَمُ المَارُ بَيْنَ يَدِي المُصَلِّي وَالمُصَلِّي وَالمُصَلِّي مَا عَلَيْهِمَا فِي ذٰلِكَ لَكَانَ أَنْ الطريق أَو قصر في الدفع فقال: «لَوْ يَمُلُمُ المَارُّ بَيْنَ يَدِيهِ المُصَلِّي وَالمُصَلِّي وَالمُصَلِّي مَا عَلَيْهِمَا فِي ذٰلِكَ لَكَانَ أَنْ يَجْوفُ أَرْبُعِينَ مَنَةً خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدِيهِ (٤)، والأسطوانة والحائط والمصلى المفروش حدّ يَقِفَ أَرْبُعِينَ مَنْ أَنْ يَمُرُّ بَيْنَ يَدِيهِ (٤)، والأسطوانة والحائط والمصلى المفروش حدّ للمصلى، فمن اجتاز به فينبغي أن يدفعه. قال على: "لِينْفَعَهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيَدْفَعُهُ فَإِنْ أَبَى فَلْيَقَاتِلُهُ فَإِنْ أَبِى فَلْيَدُفَعُهُ فَإِنْ أَبِى فَلْيَقَاتِلُهُ فَإِنْ أَبِي فَلْيَقَاتِلُهُ فَإِنْ أَبِى فَلْيَدُونَ أَبِى فَلْيَقَاتِلُهُ فَإِنْ أَبِى فَلْيَقَاتِلُهُ فَإِنْ أَبِي فَلْيَدُونَ أَبِي المُصَلِّي المُعَلِّي وَلِي المُعَلِيقِيقِ أَنْ أَبِى فَلْيَقَاتِلُهُ فَإِنْ أَبِي فَلْيَعْتِهِ اللهُ عَنْ يَدِيهِ مِن يمر بَين يديه حتى يصرعه، فربما تعلق به الرجل فاستعدى عليه عند مروان فيخبره أن النبي عَلَيْ أمره بذلك. فإن لم يجد أسطوانة فلينصب بين يديه شيئاً طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحدّه.

السابع: أن يطلّب الصف الأول فإنّ فضله كثير كما رويناه، وفي الحديث: «مَنْ غَسَلَ وَاغْتَسَلَ وَيَكُرَ وَابْتَكُرَ وابْتَكُرَ ودنا مِنَ الإمَامِ وَاسْتَمَعَ كَانَ ذَٰلِكَ لَه كَفَّارَةً لِمَا يَئِنَ الْجُمُعَتَيْنِ وَزِيَادَةَ ثَلَاثَةٍ أَيَامٍ⁽⁷⁾ وفي لفظ آخر: «ففر الله له إلى الجمعة الأخرى ـ وقد اشترط في بعضها ـ وَلَمْ يَتَخَطُّ رِقَابَ النَّاسِ» ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور:

أولها: أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكراً يعجز عن تغييره . من لبس حرير من الإمام أو غيره

ديث: الما منعك أن تصلي ممنا؟ فقال٬ أو لم ترني؟ قال: رأيتك آنيت وآذيت، أخرجه أبو داود والنسائي وابن
 حبان والحاكم من حديث عبدالله بن بسر مختصراً.

 ⁽٣) حديث: «لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين بدي المصلي». أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد، ودي
الصحيحين من حديث أبي جهم: «أن يقف أربعين» قال أبو النضر: «لا أدري أربعين يوماً أو شهراً أو سنة» رواه أبو
داود وابن حبان من حديث أبي هريرة: اهائة هام».

 ⁽٣) حديث: الأن يكون الرجل رماداً تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدي المعملي». أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان، وابن عبدالبر في التمهيد موقوفاً على عبدالله بن همر وزاد: المتعملاً».

 ⁽³⁾ حديث: الو يعلم المار بين يدي المصلي والمصلي ما عليهما في ذلك. .؟ الحديث. رواه هكذا أبر العباس محمد بن يحيى السراج في مسئله من حديث زيد بن خالد بإسناد صحيح.

حدیث أبي سعید: افلیدفعه فإن أبی فلیقاتله فإنما هو شیطان؟ متفق علیه.

حدیث: امن غسل واغتسل ویکو وایتکر ودنا من الإمام واستمع. ۱ الحدیث. أخرجه الحاکم من حدیث أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن.

 ⁽٧) حديث: «أنه اشترط في بعضها: قولم يتخط رقاب الناس» أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك ـ مما يجب فيه الإنكار فالتأخر له أسلم وأجمع للهم، فعل ذلك جماعة من العلماء طلباً للسلامة. قيل لبشر بن الحارث: نراك تبكر وتصلي في آخر الصفوف، فقال: إنما يراد قرب القلوب لا قرب الأجساد. وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه. ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبي جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال: شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أنَّ تسمع كلاماً يجب عليك إنكاره فلا تقوم به؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال: يا أبا عبدالله أليس في الخبر: «ادْنُ واسْتَمِعْ» (١٠ فقال: ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين، فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عزَّ وجلَّ. وقال سعيد بن عامر: صليت إلى جنب أبي الدرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف، فلما صلينا قلت له: أليس يقال: خير الصفوف أولها؟ قال: نعلم، إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم(٣)، فإن الله تعالى إذا نظر إلى عبدٍ في الصلاة غفر له ولمن وراءه من الناس، فإنما تأحرت رجاء أن يغفر لي بواحد منهم ينظر الله إليه. وروى بعض الرواة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك، فمن تأخر على هذه النية إيثاراً وإظهاراً لحسن الخلق فلا بأس، وعند هذا يقال: «الأعمال بالنيات».

& YIV }

ثانيها: إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلاطين فالصف الأول محبوب، وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة. كان الحسن وبكر المزنى لا يصليان في المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلاطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله ﷺ في المساجد، والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافه. وصلى أنس بن مالك وعمران بن حصين في المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب. ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجب كراهة.

وثالثها: أنَّ المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع. وكان الثوري يقول: الصف الأول هو الخارج بين يدي المئبر وهو متجه لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه. ولا يبعد أن يقال: الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعي هذا المعنى. وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب.

الثامن: أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضاً، بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع المخطبة. وقد حرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذّنين، ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر، ولكنه إن وافق سجود ثلاوة فلا بأس بها للدعاء لأنه وقت فاضل، ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لتحريمه. وقد روي عن على وعثمان رضي الله عنهما أنهما قالا: من استمع وأنصت فله أجران، ومن لم يستمع وأنصت فله أجر، ومن سمع ولغا فعليه وزران، ومن لم يسمع ولغا

حديث: «ادن فاستمع». أخرجه أبو داود من حديث سمرة: «احضروا الذكر وادنوا من الإمام»، وتقدم بلفظ: «من هجر ودنا واستمعه وهو عند أصحاب السنن من حديث شداد.

حديث أبي الدرداه: «إن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد في الصلاة غقر له ولمن وراءه من الناس؛ لم أجده.

فعليه وزر واحد. وقال ﷺ: "مَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ: أَنْصِتْ أَوْ مَهْ فَقَدْ لَغَا وَمَنْ لَغَا وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَلاَ جُمُعَةً لَهُ")، وهذا يدل على أن الإسكات ينبغي أن يكون بإشارة أو رمي حصاة لا بالنطق. وفي حديث أبي فرز: "أنه لما سأل أُبيّاً والنبي ﷺ يخطب فقال: متى أنزلت هذه السورة؟ فأوماً إليه أن اسكت: فلما نزل رسول الله ﷺ قال له أبي: اذهب فلا جمعة لك، فشكاه أبو ذرّ إلى النبي ﷺ فقال: صَدَقَ أَبيٍّ " وإن كان بعيداً من الإمام فلا ينبغي أن يتكلم في العلم وغيره، بل يسكت لأن كل ذلك يتسلل ويفضي إلى هينمة حتى ينتهي إلى المستمعين، ولا يجلس في حلقة من يتكلم فمن عجز عن يتسلل ويفضي إلى هينمة حتى ينتهي إلى المستمعين، ولا يجلس في حلقة من يتكلم فمن عجز عن الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب. وإذا كان تكره الصلاة في وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية. وقال علي كرم الله وجهه: تكره الصلاة في أربع ساعات: بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطب.

التاسع: أن يراعي في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة. فإذا فرغ من الجمعة قرأ «الحمد شه» سبع مرات قبل أن يتكلم «وقل هو الله أحد والمعوذتين» سعاً سبعاً، وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان. ويستحب أن يقول بعد الجمعة «اللهم يا غني يا حميد يا مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك». يقال: من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب، ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه على كان يصلي بعد الجمعة ركعتين "، وروى أبو هريرة أربعاً () وروى على وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما رضي الله عنهما أنه عنهما متاً ()، والكل صحيح في أحوال مختلفة، والأكمل أفضل.

المعاشر: أن يلازم المسجد حتى يصلي العصر، فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل. يقال: من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج، ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمرة، فإن لم يأمن النصبع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيما لا يعني، فالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكراً الله عزّ وجل مفكراً في آلائه شاكراً الله تعالى على توفيقه خائفاً من تقصيره مراقباً لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تفوته الساعة الشريفة. ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من

⁽١) حديث: المن قال لصاحبه والإمام يخطب أنصت نقد لغا ومن لغا لا جمعة له. أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة. روى الترمذي قوله: الومن لغا فلا جمعة له» قال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ: المن قلل صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له.

⁽٣) حديث أبي ذر: «لما سأل أبياً والنبي على يخطب وقال: متى أنزلت هذه السورة . ٤ الحديث. أخرجه البيهقي وقال في الممرفة: إساده صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بسند صحيح أن السائل له أبو الدرداء وأبو ذر، ولأحمد من حديث أبي الدرداء أنه سأل أبياً ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عبدالله بن مسعود ولأبي يعلى من حديث جابر قال: «قال سعد بن أبي وقاص لرجل: لا جمعة لك فقال له النبي على المعد؟ فقال: لأنه كان يتكلم وأنت تخطب. فقال: صحف سعد».

⁽٣) حديث ابن عمر في الركمتين بعد الجمعة. متفق عليه.

⁽٤) حديث أبي هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم: ﴿إِذَا صِلَى أَحِدُكُم الجِمعة فليصل بعلها أربعاً».

حدیث علي وعبدالله في صلاة ست ركمات بعد الحمعة أخرجه البیهتي مرفوعاً عن علي، وله موقوفاً على ابن مسعود
 أربعاً وأبو داود من حدیث ابن عمر: «كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستاً».

المساجد بحديث الدنيا. قال ﷺ: النَّاتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ حَدِيثُهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ لَيْسَ لِلَّهِ تَمَالَىٰ فِيهِمْ حَاجَةٌ فَلا تُجَالِسُوهُمْ، (۱).

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعمّ جميع النهار، وهي سبعة أمور:

الأوَّل: أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر، ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير في كلامهم. ولا ينبغي أن يخلو المريد في جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير، ولا ينبغي أن يحضر الجلُّق قبل الصلاة. وروى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أن السبي ﷺ نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة»(٢)، إلا أن يكون عالماً بالله يذكر بأيام الله ويفقه في دين الله يتكلم في الجامع بالغداة فيجلس إليه فيكون جامعاً بين البكور وبين الاستماع. واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالنوافل فقد روى أبو ذرّ: «إن حضور مجلس علم أفضل من صلاةً ألف ركعة»(٣). قال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تُصِنِيَتِ ٱلصَّلَوْةُ فَأَنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْنَغُواْ مِن فَضَّلِي ٱللَّهِ﴾ [الجُمُمَة: ١٠]: أما إنه ليس بطلب دنيا ولكن عيادة مريض وشهود جنازةٍ وتعلم علم وزيارة أح فِي الله عزَ وجلّ. وقد سمى الله عزّ وجلّ العلم فضلاً في مواضع.ٌ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَاكَ فَشُلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَالَيْنَا دَارُهَ مِنَّا فَشَلَّا﴾ [سَبَها: ١٠]، يعني العلم فتعلم العلم في هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات. والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع. بكّر ابن عمر رضي الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع، فإذا قاص يقص في موضعه فقال: قم عن مجلسي فقال: لا أقوم وقد جلست وسبقتك إليه، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه. فلو كان ذلك من السنة لما جازت إقامته، فقد قال ﷺ: ﴿لا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمٌّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلْكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا﴾ (١٠)، وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لـم يجلس فيه حتى يعود إليه. وروي أن قاصًا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضي الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر: إن هذا قد أذاني بقصصه وشغلني عن سبحتي، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده.

الثاني: أن يكون حسنُ المراقبة للساعة الشريفة، ففي الخبر المشهور: «إِنَّ فِي الجُمُعَةِ صَاعَةً لا يُوَافِقُها عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيه شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُه^(ه)، وفي خبر آخر: «لا يصادفها عبد

⁽١) حديث: «يأتي على أمتي زمن يكون حديثهم في مساجدهم أمر دنياهم. . .٤ الحديث، أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود حديث الحديث ابن مسعود وأخرج ابن حبان نحوه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث: «عبدالله بن عمر في النهي عن التحلق يوم الجمعة». أخرجه أبو داود والنسائي، ورواه ابن ماحه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من حديث ابن عمر.

 ⁽٣) حديث أبي ذر: "حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ثقدم في العلم.

 ⁽٤) حديث: (لا يقيمن أحدكم أخاه من مجلسه. > الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر.

 ⁽a) حديث اإن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطامه. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزني.

يصلى،(١)، واختلف فيها فقيل: إنها عند طلوع الشمس، وقيل: عند الزوال، وقيل: مع الأذان، وقيل: إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة، وقيل: إذا قام الناس إلى الصلاة، وقيل: آخر وقت العصر ـ أعنى وقت الاختيار ـ وقيل: قبل غروب الشمس. «وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعي ذلك الوقت وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس، وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أبيها ﷺ وعليها؛(٢). وقال بعض العلماء: هي مبهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر حتى تتوفر الدواعي على مراقبتها. وقيل: إنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كتنقل ليلة القدر، وهذا هو الأشبه، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره، ولكن ينبغي أن يصدق بما قال ﷺ: ﴿إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أيَّام دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا؛ ^(٣)، ويوم الجمعة منّ جملة تلك الأيام فينبغي أنّ يكون العبدّ فيَ جميع نهاره متعرضاً لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا فعساء يحظى بشيء من تلك النفحات. وقد قال كعب الأحبار: إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب، فقال أبو هريرة: وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿لا يُوَاقِقُها عَبْدُ بُصَلِّي وَلاتَ حِينَ صَلاةٍ ٤! فقال كعب: ألم يقل رسول الله ﷺ: "من قعد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة الله قال: بلي، قال: فذلك صلاة، فسكت أبو هريرة. وكان كعب ماثلاً إلى أنها رحمة من الله سنحانه للقائمين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل. وبالجملة، هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيهما.

الثالث: يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله ﷺ في هذا اليوم، فقد قال ﷺ: امن صَلَىٰ عَلَىٰ فِي يَوْمِ الجُمْعَةِ ثَمَانِينَ مَرَّةً غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَ ثَمَانِينَ مَنَةً، قيل: يا رسول الله كيف الصلاة عليك؟ قال: تَقُولُ: اللَّهُمُّ صَلَّ عَلَىٰ مُحَمَّدِ عَبْدِكَ وَنَبِيكَ وَرَسُولِكَ النَّبِيِّ الأَمُّيِّ، وَتَمْقِدُ وَاحِدَةً، وَإِنْ قُلْتَ: اللَّهُمُّ صَلَّ عَلَىٰ مُحَمَّدِ صَلاةً تَكُونُ لَكَ رِضَاءً وَلِحَقَّهِ أَدَاءً وَأَعْطِهِ الوَسِيلَةَ وَابْعَثْهُ المَقَامَ اللَّهُمُّ صَلَّ عَلَىٰ مُحَمِّدِ وَعَلَىٰ آله محمد صَلاةً تَكُونُ لَكَ رِضَاءً وَلِحَقَّهِ أَدَاءً وَأَعْطِهِ الوَسِيلَةَ وَابْعَثْهُ المَقَامَ المُحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ وَاجْزِهِ عَنَا مَا هُو أَعْلَىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ المَقامَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ جَبِيعً إِخْوَائِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ» والمُعالِحِينَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَاللها هذا سبع مرات فقد قيل: من قالها

 ⁽۱) حدیث: الا بصادفها عبد مصلی متفق علیه من حدیث أبی هریرة.

 ⁽٢) حديث فاطمة: (في ساعة الجمعة) أخرجه الدارقطني في العلل والبيهتي في الشعب وعلته الاختلاف.

⁽٣) حديث: فإن لربكم في أيام دهركم نفحات. . . ٤ الحديث. أخرجه الحكيم في النوادر والطبرائي في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة، ولابن عبدالبر في التمهيد نحوه من حديث أنس، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبي هريرة واختلف في إسناده.

٤) حديث: ااختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله على يقول: لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة فقال كعب: ألم يقل عليه الصلاة والسلام: من قعد ينتظر المصلاة فهو في صلاة، قلت: في الإحياء أن كعباً هو الفائل إنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبدالله بن سلام، وأما كعب فإنما قال: إنها في كل سنة مرة ثم رجع، والحديث رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث أبي هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبدالله بن سلام.

حدیث: «من صلی علی فی یوم الجمعة ثمانین مرة. . . ٩ الحدیث. أحرجه الدارقطنی من روایة ابن المسیب قال:
 أظنه عن أبي هریرة وقال: حدیث غریب، وقال ابن النعمان: حدیث حسن.

في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال: «اللهم اجعل فضائل صلواتك ونوامي بركاتك وشرائف زكواتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين، قائد المخير وفاتح البر ونبي الرحمة وسيد الأمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً تزلف به قربه وتقرّ به عينه يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم أعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة المنيقة، اللهم أعط محمداً سؤله وبلغه مأموله واجعله أول شافع وأول مشفع، اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلج حجته وارفع في أعلى المقرّبين درجته، اللهم احشرنا في زمرته واجعلنا من أهل شفاعته وأحينا على سنته وتوفنا على ملته وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فاتنين ولا مفتونين آمين يا رب العالمين (1). وعلى الجملة فكل ما أتى به من ألفاظ الصلاة ولو بالمشهورة في التشهد كان مصلياً. وينبغي أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضاً مستحب في هذا اليوم.

الرابع: قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة. فقد روي عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما: قان من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطي نوراً من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام، وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وعوفي من الداء والدبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفتنة الدجال ""، ويستحب أن يختم القرآن في يوم الجمعة وليلتها إن قدر، وليكن ختمه للقرآن في ركعتي الفجر إن قرأ بالليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم. وكان العابدون يستحبون أن يقرؤوا يوم الجمعة: ﴿قَلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ ﴿ وَ اللهُ واللهُ واللهُ والحمد لله ولا إله مس ختمة، وكانوا يقولون: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» ألف مرة، وإن قرأ المسبعات الست في يوم الجمعة أو ليلتها فحسن. وليس يروى عن النبي في أنه كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة النبي في أنه كان يقرأ من صلاة المغرب ليلة الجمعة العشاء الأخرة ليلة الجمعة: سورة الجمعة والمنافقين "". وروي أنه بي كان يقرؤهما في ركعتي العشاء الأخرة ليلة الجمعة: سورة الجمعة والمنافقين "". وروي أنه بي كان يقرؤهما في ركعتي العشاء الأخرة ليلة الجمعة: سورة الجمعة والمنافقين "". وروي أنه بي كان يقرأ هي الإنسان "أ.

الخامس: الصلوات، يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلي أربع ركعات يقرأ فيهن ﴿ أَلُ هُو اللَّهُ أَحَدُ لَ إل

 ⁽۱) حديث: اللهم اجعل قضائل صلواتك. . • الحديث. أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة على النبي ﷺ من حديث ابن مسعود نحوه بسند ضميف وقفه على ابن مسعود.

 ⁽٢) حديث أبن عباس وأبي هريرة: «من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة. .» المحديث. لم أجده من حديثهما.

 ⁽٣) حديث: «القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد، وفي عشائها الجمعة والمنافقين». أخرجه
 ابن حمان والبيهقي من حديث سمرة، وفي ثقات ابن حبان المحفوظ عن سماك مرسلاً. قلت: لا يصح مسئلاً ولا مرسلاً.

 ⁽٤) حديث: القراءة في الحمعة بالجمعة والمنافقين، وفي صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى». أخرحه مسلم من حديث
ابن عباس وأبي هريرة.

 ⁽ه) حديث: (من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركمات بقرأ فيها قل هو الله أحد مائتي مرة. . ٩ الحديث . أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال: غريب جداً.

رسول الله على: «أَنْ مَنْ فَعَلَهُ لَمْ يَمُتْ حَتَىٰ يَرَىٰ مَفْعَدَهُ مِنَ الجَنّةِ أَوْ يُرَىٰ لَهُ». ولا يدع ركعتي التحبة وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف، أمر رسول الله على بذلك (۱)، وفي حديث ضريب: «أنه على سكت للداخل حتى صلاهما» (۱)، فقال الكوفيون: إن سكت له الإمام صلاهما، ويستحب في هذا اليوم أو في ليلته أن يصلي أربع ركعات بأربع سور: الأنعام والكهف وطه ويس. فإن لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك، ولا يدع قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة ففيها فضل كثير، ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة المختمة، ويكثر من قراءة سورة الإخلاص، ويستحب أن يصلي صلاة التسبيع - كما سيأتي في باب التطوّعات كيفيتها - لأنه على قال لعمه العباس: ﴿ مَلْهُ اللهُ عَلْ جُمُعَةٍ ﴾ (٢٠)، وكان ابن عباس رضي الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال وكان يخبر عن جلالة فضلها، والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد صلاة الجمعة إلى العصر لاستماع العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستعفار،

السادس: الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فإنها تتضاعف، إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم في كلام الإمام فهذا مكروه، وقال صالح بن محمد: سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب يخطب وكان إلى جانب أبي و فأعطى رجل أبي قطعة لبناوله إياها فلم يأخلها منه أبي، وقال ابن مسعود: إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه، ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال في الجامع الذين يتخطون رقاب الناس، إلا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكانه من غير تخط، وقال كعب الأحبار: من شهد الحمعة ثم انصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة، ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما وسجودهما وخشوعهما ثم يقول: اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، لم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه، وقال بعض السلف: من أطعم مسكيناً يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام: "بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم أسألك أن تغفر لي وترحمني يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام: "بسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم أسألك أن تغفر لي وترحمني وتعافيني من النار» ثم دعا بما بدا له استجيب له.

السابع: أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فيكف فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدىء فيه السفر فقد روي أنه: «من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه»(٤)، وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت. وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء ليشربه أو يسبله

⁽١) حديث: «الأمر بالتخفيف في التحية إذا دخل والإمام يخطب». أخرجه مسلم من حديث جابر والبخاري: «الأمر بالركعتين» ولم يذكر التخفيف.

 ⁽٢) حديث: السكوته ﷺ عن الخطبة للداخل حتى فرغ من التحبة الفرجه الدارقطني من حديث أنس وقال: أسناء
 عبيد بن محمد ووهم فيه والصواب عن معتمر عن أبيه مرسلاً.

 ⁽٣) حديث الصلاة التسبيح وقوله لعمه العباس: صلها في كل جمعة الخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس، وقال العقيلي وغيره: ليس فيها حديث صحيح.

 ⁽³⁾ حديث العن سافر يوم النجمعة دها عليه ملكانه. أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عمر وفيه ابن لهيعة
وقال: غريب، والخطيب في الرواة عن مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد فإن البيع والشراء في المسجد مكروه. وقالوا: لا بأس لو أعطي القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد. وبالجملة ينبغي أن يزيد في الجمعة في أوراده وأنواع خيرانه، فإن الله سبحانه إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيىء الأعمال، ليكون ذلك أوجع في عقابه وأشد لمقته لحرمانه بركة الوقت وانتهاكه حرمة الوقت. ويستحب في الجمعة دعوات، وسيأتي ذكرها في كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى. وصلى الله على كل عبد مصطفى.

* * *

الباب السادس

في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأما المسائل التي تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه:

مسألة الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا لحاجة، وذلك في دفع المار وقتل العقرب التي تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثاً فقد كثرت وبطلت الصلاة، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بهما كان له دفعهما، وكذلك حاجته إلى الحك الذي يشوّش عليه الخشوع. كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة. وابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده. وقال النخعي: يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها. وقال ابن المسيب: يأخذها ويخدّرها ثم يطرحها. وقال امجاهد: الأحب إليّ أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قدر ما لا تؤذي ثم يلقيها. وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل. ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب يلقيها. وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل. ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب وقال: لا أعرّد نفسي ذلك فيفسد عليّ صلاتي، وقد سمعت أن الفساق بين يدي الملوك يصرون على أذى كثير ولا يتحركون. ومهما نثاءب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأولى. وإن عطس حمد الله عزّ وجلّ في نفسه ولا يحرّك لسانه. وإن تجشأ فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء وإن سقط رداؤه فلا ينبغي أن يسوّيه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة.

مسألة: الصلاة في النعلين جائزة وإن كان نزع النعلين سهلاً، وليست الرخصة في الخُفّ لعسر النزع بل هذه النجاسة معفق عنها. وفي معناه المداس «صلى رسول الله ﷺ في نعليه، ثم نزع فنزع الناس نعالهم فقال: لم خلعتم نعالكم؟ قالوا: رأيناك خلعت فخلعنا فقال ﷺ: إِنَّ جِبْرَاثِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ بِهِمَا خَبَناً، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُم المَسْجِدَ فَلْيَقْلِبْ نَعْلَيْهِ وَلْيَنْظُرْ فِيهِمَا فَإِنْ رَأَى خَبَناً فَلْيَمْسَحَهُ بِالأَرْضِ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا قَال: "لِمَ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ؟» بِالأَرْضِ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا اللهِ اللهُ عَلَيْهُ نِعَالَكُمْ؟»

الباب السادس

⁽١) حديث: قصلى في نعليه ثم نزع فنزع الناس نعالهم. . الحديث. أخرحه أحمد واللفظ لابن ماجه وأبو هاود والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد.

وهذه مبالغة فإنه على سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته. وقد روى عبدالله بن السائب «أن النبي على خلع نعليه» (۱) ، فإذن قد فعل كليهما فمن خلع فلا ينبغي أن يضعهما عن يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف بل يضعهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتا إليهما. ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راعى هذا المعنى وهو التفات القلب إليهما. روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي على قال: «إِذَا صَلَّىٰ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْعَلْ نَعْلَيْهِ بَيْنَ رِجْلَيْهِ» (۱) ، وقال أبو هريرة لغيره: اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلماً. ووضعهما رسول الله على يساره وكان إماماً (۱۱) ، فللإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره. والأولى أن لا يضعهما بين قدميه فيشغلانه ولكن قدام قدميه، ولعله المراد بالحديث، وقد قال جبير بن مطعم: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

مسألة: إذا بزق في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل، وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاماً وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه، فينبغي أن يحترز منه إلا كما أذن رسول الله على فيه إذ روى بعض الصحابة: «أن رسول الله على أن مكروه، فينبغي أن يحترز منه إلا كما أذن رسول الله على في العبد وي بعض الصحابة: «أن رسول الله على أرها بزعفران ثم التفت إلينا وقال: أَيْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُبُرقَ فِي كان في يده وقال: أَيْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُبُرقَ فِي وَجْهِهِ؟ فقلنا: لا أحد، قال: فَإِنَّ أَحَدُكُمْ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلاةِ فَإِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَ بَيْنَهُ وَبُينَ القِبْلَةِ (أَنَّ)، وفي لفظ آخر: «وَاجَهَهُ الله تَعَالَىٰ فَلاَ يَبْرُقَنُ أَحَدُكم تِلْقَاءَ وَجْهِهِ وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ وَلْكِنْ عَنْ شِمَالِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ النِسْرَىٰ، فَإِنْ بَدَرَتُهُ بَادِرَةً فَلْيَبْصُقْ فِي ثَوْبِهِ وَلْبَقُلُ بِهِ مَكُذَا ل وَذَلَكَ بَعْضَهُ بِبَعْض .».

مسألة: لوقوف المقتدي: سنة وفرض. أما السنة: فأن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخراً عنه قليلاً، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام، فإن وقفت بجنب الإمام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة، فإن كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الإمام وهي خلف الرجل. ولا يقف أحد خلف الصف منفرداً بل يدخل في الصف أو يحرّ إلى نفسه واحداً من الصف، فإن وقف منفرداً صحت صلاته مع الكراهية. وأما الفرض: فاتصال الصف وهو أن يكون بين المقتدي والإمام رابطة جامعة فإنهما في جماعة فإن كانا في مسجد كفي ذلك جامعاً لأنه بني له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الإمام. صلى أبو هريرة رضي الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الإمام. وإدا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيكفي القرب بقدر غلوة سهم وكفي بها رابطة إذ وصحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيكفي القرب بقدر غلوة سهم وكفي بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر. وإنها يشترط إذا وقف في صحن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطيء في المسجد فالشرط أن يمد صف المسجد في دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن، ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدّم عليه وهكذا حكم الأبنية المختلفة، فأما البناء الواحد والعرصة الواحدة فكالصحراء.

⁽١) حديث عبدالله بن السائب في: ﴿خَلَّعِ النَّبِيُّ ﷺ نَعْلَيْهِۥ أَخْرِجِهِ مُسلَّمٍ.

 ⁽۲) حديث أبي هريرة: «إذا صلى أحدكم فليجعل تعليه بين رجليه»، أخرجه أبو داود بسند صحيح وضعفه المنذري وليس يجيد.

⁽٣) حديث: الوضعه تعليه على بساره، أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن السائب.

 ⁽٤) حديث: الرأى في القبلة تخامة فغضب. .٤ الحديث. أخرجه مسلم من حديث جابر واتفقا عليه مختصراً من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر.

مسائة: المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أوّل صلاته فليوافق الإمام وليبن عليه وليقنت في الصبح في آخر صلاة نفسه. وإن قنت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها، فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم، فإن عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عبه بالسبق، وإن ركع الإمام وهو في السورة فليقطعها، وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد كبر للإحرام، ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانياً في الهوي لأن ذلك انتقال محسوب له، والتكبيرات لملائتقالات الأصلية في الصلاة لا للعوارض بسبب القدوة. ولا يكون مدركاً للركعة ما لم يطمئن راكعاً في الركوع والإمام بعد في حدّ الراكعين، فإن لم يتم طمأنيته إلا بعد مجاوزة الإمام حدّ الراكعين فاتته تلك الركعة.

مسألة: من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فلبصل الظهر أوّلاً ثم العصر، فإن ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأولى واقتحم شهة الخلاف. فإن وجد إماماً فليصل العصر، ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة بالأداء أولى. فإن صلى منفرداً في أوّل الوقت ثم أدرك جماعة صلى في الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحتسب أيهما شاء، فإن نوى فائتة أو تطوّعاً جاز. وإن كان قد صلى في الجماعة فأدرك جماعة أخرى فلينو الفائتة أو النافلة فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له، وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة.

مسألة: من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه. ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رمى بالثوب وأتم والأحب الاستئناف. وأصل هذا قصة خلع المعلين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله ﷺ بأن عليهما نجاسة، فإنه ﷺ لم يستأنف الصلاة.

مسألة: من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله على التشهد الأول أو فعل فعلاً سهواً وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلم يدر أصلّى ثلاثاً أو أربعاً، أخذ باليقين وسجد سجدتي السهو قبل السلام، فإن نسي فبعد السلام مهما تذكر على القرب. فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث بطلت صلاته، فإنه لما دخل في السجود كأنه جعل سلامه نسياناً في غير محله فلا يحصل التحلل به وعاد إلى الصلاة، فلذلك يستأنف السلام بعد السجود. فإن تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات.

مسألة: الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل أو جهل بالشرع؛ لأن امتثال أمر الله عز وجلّ مثل امتثال أمر غيره وتعظيمه كتعظيم غيره في حق القصد. ومن دخل عليه عالم فقام له قلو قال: نويت أن أنتصب قائماً تعظيماً لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلاً عليه بوجهي، كان سفهاً في عقله بل كما يراه ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتقيمه ويكون معظماً إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة واشتراط كون الصلاة ظهراً أداء فرضاً في كونه امتثالاً كاشتراط كون القيام مقروناً بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواه، وقصد التعظيم به ليكون تعظيماً، فإنه لو قام مدبراً عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدّة لم يكن معظماً. ثم هذه الصفات لا بدّ وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة، وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظاً باللسان وإما تفكراً بالقلب، فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية. فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقمت فالوسوسة محض الجهل فإن هذه القصود وهذه العلوم تجتمع في النفس في حالة واحدة ولا تكون مفصلة الآحاد في الذهن بحيث تطالعها النفس وتتأملها.

وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر. والحضور مضاد للعزوب والغفلة، وإن لم يكن مفصلاً. فإن من علم الحادث مثلاً فيعلمه بعلم واحد في حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوماً هي حاضرة وإن لم تكن مفصلة، فإن من علم الحادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدم والتأخر والزمان، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود، فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحادث، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له: هل علمت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدّم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدِّم والمتأخر؟ فقال: ما عرفته قط، كان كاذباً وكان قوله مناقضاً لقوله: إني أعلم الحادث. ومن الجهل بهذه الدقيقة يثور الوسواس فإن الموسوس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظهرية والأدائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال، ولو كلف نفسه ذلك في القيام لأجل العالم لتعذر عليه. فبهذه المعرفة يندفع الوسواس وهو أن يعلم أنَّ امتثال أمر الله سبحانه في النية كامتثال أمر غيره. ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول: لو لم يفهم الموسوس النية إلا بإحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمثل في نفسه الامتثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك في أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كفاه ذلك، ولا نكلفه أن يقرن الجميع بأوّل التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شطط، ولو كان مأموراً به لوقع للأولين سؤال عنه ولوسوس واحد من الصحابة في النية، فعدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل، فكيفما تيسرت النية للموسوس ينبغي أن يقنع به حتى يتعوَّد ذلك وتفارقه الوسوسة، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة. وقد ذكرنا في الفتاوي وجوهاً من التحقيق في تحقيق العلوم والقصود المتعلقة بالنية تفتقر العلماء إلى معرفتها. أما العامة فربما ضرها سماعها ويهيج عليها الوسواس فلذلك تركناها.

مسألة: يبغي أن لا يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال، ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقفو أثره فهذا معنى الاقتداء، فإن ساواه عمداً لم تبطل صلاته كما لو وقف بجنبه غير متأخر عنه. فإن تقدّم عليه ففي بطلان صلاته خلاف، ولا يبعد أن يقضي بالبطلان تشبيها بما لو تقدّم في الموقف على الإمام، بل هذا أولى لأنّ الجماعة اقتداء في الفعل لا في الموقف فالتبعية في الفعل أهم. وإنما شرط ترك التقدّم في الموقف تسهيلاً للمتابعة في الفعل وتحصيلاً لصورة التبعية؛ إذ اللائق بالمقتدى به أن يتقدّم فالتقدّم عليه في الفعل لا وجه له إلا أن يكون سهواً. ولدلك شدّد رسول الله يَهِيُّ النكير فيه فقال: *أمّا يَخْشَىٰ الّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلُ اللّهُ رَأْسَهُ وَلْكَ بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو رأس حِمَارِ؟ (١٠)، وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة، وذلك بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم ينته بعد لم يركع، ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه، فإن وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم يسجد السجود الراكعين بطلت صلاته. وكذا إن وضع الإمام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأول.

مسألة: حتَّ على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره وينكر عليه، وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعلَّمه. فمن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف

 ⁽١) حديث: قاما يغشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام؛ متفق عليه من حديث ألى هريرة.

حارج الصف، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور. فقد قال على الأغالِم مِنَ الْجَاهِلِ حَيْثُ لا يَعْلَمُهُا، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من رأى من يسيء صلاته فلم ينهه فهو شريكه في وزرها. وعن بلال بن سعد أنه قال: الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغير أضرت بالعامة. وجاء في الحديث اأن بلالاً كان يسوي الصفوف ويضرب عراقيهم بالدرة (١٠)، وعن عمر رضي الله عنه قال: تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودوهم وإن كانوا أصحاء فعاتبوهم، والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغي أن يتساهل فيه وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنازة إلى بعض من تخلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذي يتأخر عن الجماعة دون الحياد. ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد يمين الصف؛ ولذلك تزاحم الناس عليه في زمن الحي، ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد يمين الصف؛ ولذلك تزاحم الناس عليه في زمن رسول الله على حتى قبل له: تعطلت الميسرة فقال في: "مَنْ صَمَرَ مَهْسَرَة الْمُسْجِدِ كَانَ لَهُ كِفُلانِ ويدخل فيه - أعني إذا لم يكن بالغاً - وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تعم بها البلوى. ويدخل فيه - أعني إذا لم يكن بالغاً - وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تعم بها البلوى. وسيأتي أحكام الصلوات المتفرقة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى.

* * *

الباب السابع

في النوافل من الصلوات

اعلم: أنّ ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سنن ومستحبات وتطوّعات. ونعني بالسنن ما نقل عن رسول الله على المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات، وصلاة الضحى، والوتر، والتهجد وغيره؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة. ونعني بالمستحبات ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه - كما سننقله في صلوات الأيام والليالي في الأسبوع - وكالصلاة عند المخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله، ونعني بالتطوعات ما وراء ذلك مما لم يرد في عينه أثر ولكنه تطوّع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عزّ وجلّ بالصلاة التي ورد الشرع بفضلها مطلقاً، فكأنه متبرع به إذ لم يندب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقاً، والتطوّع عبارة عن التبرع. وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملتها زائد على الفرائض، فلفظ: النافلة والسنة والمستحب والتطوّع أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد، ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد، وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته في

⁽١) حديث: فويل للعالم مل الجاهل. ٤٠ الحديث. أخرجه صاحب مستد الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف.

 ⁽٢) حديث: أن بالالا كان إسوي الصفوف ويضرب عراقيهم بالدرة لم أجده.

⁽٣) حديث: قبل له: قد تعطلت الميسرة فقال: من همر ميسرة المسجد. . . ٩ الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بسند ضعيف.

الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار المعرّفة لفضلها، وبحسب طول مواظبة رسول الله على عليها، وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها، ولذلك يقال: سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد. وأفضل سنن الجماعات: صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء. وأفضل سنن الانفراد: الوتر ثم ركعتا الفجر ثم ما بعدهما من الرواتب على تفاوتها. واعلم: أن النوافل باعتبار الإضافة إلى متعلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء وإلى ما يتعلق بأوقات، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر اليوم والليلة أو بتكرر الأسبوع أو بتكرر السنة، فالجملة أربعة أقسام.

**

القسم الأول ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية، خمسة هي رواتب الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد

الأولى: راتبة الصبح وهي ركعتان، قال رسول الله ﷺ: ﴿ وَكُعْتَا الفَجْوِ خَيرٌ مِنَ اللَّهُ عَالَمُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَنَاوُلُ القَمْرُ أَوْ يَعْلَمُ اقترانَ طَلُّوعَهُ بِالكواكبِ الظّاهِرة للبصر، فيستدل بالكواكب عليه. ويعرف بالقمر في ليلتين من الشهر هذا هو الغالب، ويتطرق إليه تفاوت في يعض البروج والمرح دلك يطول. وتعلم منازل القمر من الشهر هذا هو الغالب، ويتطرق إليه تفاوت في يعض البروج وعلى الصبح. ويفوت وقت ركعتي الفجر بفوات وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس، ولكن السنة أداؤهما قبل الفرض. فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه ﷺ قال: ﴿ إِذَا أَيْمَتُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى التّقليم والتأخير وقعتا قبل طلوع الشمس الأنهما تابعتان للفرض في وقته، وإنما الترتيب بينهما شنّة في التقليم والتأخير ويخففهما، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يجلس والا يصلي إلى أن يصلي ويخففهما، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يجلس والا يصلي إلى أن يصلي والفكر والفكر والفكر والاقتصار على ركعتي الفجر والفي الفرف.

الثانية: راتبة الظهر وهي ست ركعات: ركعتان بعدها وهي أيضاً سنّة مؤكدة، وأربع قبلها وهي

الباب السابع

 ⁽١) حديث: الركعة الفجر تحير من اللهنيا. . ٩ الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة .

 ⁽٢) حديث: إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة اخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

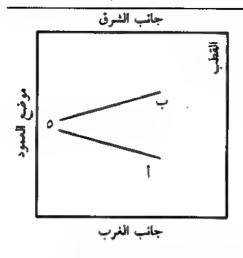
أيضاً سنَّة وإن كانت دولُ الركعتين الأخيرتين. روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبيُّ ﷺ أنه قال: امَّنْ صَلَّىٰ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ لِعَدْ زَوَالِ الشَّمْسِ يُحْسِنُ قِرَاءَتُهُنَّ وَرُكُوعُهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ صَلَّىٰ مَعَهُ سَبْعُونَ ٱلْفَ مَلَكِ يَشْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّىٰ لِلْيُلِ (١٠)، وكان ﷺ لا يدع أربعاً بعد الزوال يطيلهن ويڤول: ﴿إِنَّ أَبُوَابَ السَّمَاءِ تُفْتَحُ فِي لَهْذِهِ السَّاعَةِ فَأَلِحِبُ أَنْ يُرْفَعَ لِي فِيهَا عَمَلٌ ۗ (٣)، رواه أبو أيوب الأنصاري وتفرّد به، ودل عليه أيضاً ما روت أم حبيبة [وج النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ فِي كُلِّ يَوْمِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً غَيْرَ المَكْتُويَةِ بُنِي لَهُ بَيْتُ فِي الْجَنَّةِ: رَأَكُمَتَيْنِ قَبْلَ الفَجْرِ وَأَرْبَعاً قَبْلَ الظُّهْرِ وَرَكْمَنَيْنِ بَعْدُهَا وَرَكْمَتَيْنِ قَبْلَ المَصْرِ وَرَكَمَنَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ (٣)، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: حفظت من رسول الله ﷺ في كل يوم عشر ركعات (٤)، فَذَكر ما ذكراته أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال: تلك ساعة لم يكن يدخل فيها عليّ رسول الله ﷺ ولكن حدّثتني أختى حفصة رضي الله عنها أنه ﷺ كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج. وقال في حدايثه: ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء. فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة، ويدلجل وقت ذلك بالزوال. والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبة مائلة إلى جهة الشرق؛ إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جها المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهي ارتفاعها وهو قوس نصف النهار، فيكون ذلك منتهى نقصان الظل . فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس د خل وقت الظهر. ويعلم قطعاً أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكاليف لا ترتبط إلا بها يدخل تحت الحس. والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة يطول في الشتاء ويقصر في الصيف، ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدي، ومنتهى قصره بلوغها أول السرطان، ويعرف ذلك بالأقدام والموازين. ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالي إبالليل ويضع على الأرض لوحاً مربعاً وضعاً مستوياً بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب، بحيث لو توهمت.سقوط حجر من القطب إلى الأرض، ثم توهمت خطأ من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أي لا يكون الخط مائلاً إلى أحد الضلعين]، ثم تنصب عموداً على اللوح نصباً مستوياً في موضع علامة ٤٥٠ وهو بإزاء القطب فيقع ظله على الملوح في أول النهار ماثلاً إلى جهة المغرب في صوب خط «أا ثم لا يزال يميل إلى أن ينطبق على خط «ب»، بحيث لو مدّ رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر، ويكون موازياً للضلع الشرقي والغربي غير ماثل إلى أحدهما، فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربي فالشمس في

⁽١) حديث أبي هريرة: «أن صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن. . ٩ الحديث. ذكره عبدالملك بن حبيب بلاغاً من حديث أبي مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حديث أبي أيوس: (کان لا يدع أربعاً يُعد الزوال...) الحديث. أخرحه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أمي داود وابن ماجه مختصراً، وروى الترمذي نحوه من حديث عبدالله بن السائب وقال: حسن.

٣) حديث أم حبيبة: «من صلى في يوم اثنتي عشرة ركمة..» الحديث. أخرجه النسائي والحاكم وصحح إسناده على شرط مسلم، ورواه مسلم مختصراً ليس فيه تعيين أوقات الركمات.

^(\$) حديث ابن عمر: الحفظت من النبي على في كلّ يوم عشر ركعات. . • الحديث. متفق عليه واللفظ للبخاري ولم يقل: افي كل يوم.



منتهى الارتفاع، فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس. وهذا يبرك بالحس تحقيقاً في وقت هو قريب من أول الزوال في علم الله تعالى، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر، فهذا القدر لا بأس بمعرفته في علم الزوال وهذه صورته.

الثالثة: رائبة العصر، وهي أربع ركعات قبل المعصر، روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبق على أنه قال: «رَجِمَ اللّهُ عَبْداً صَلَّىٰ قَبْلَ العَصْرِ

أَرْبَعاً» (١)، ففعل ذلك على رجاء الدخول في دعوة رسُول الله ﷺ مستحب استحباباً مؤكداً، فإن دعوته تستجاب لا محالة. ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر.

الرابعة: راتبة المغرب، وهما ركعتان بعد الفريضة لم تختلف الرواية فيهما، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامة المؤذن على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة، كأبيّ بن كعب، وعبادة بن الصامت، وأبي ذرّ، وزيد بن ثابت وغيرهم. قال عبادة أو غيره: كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله علله السواري يصلون ركعتين (٢٠). وقال بعضهم: كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنّا صلينا فيسأل: أصليتم المغرب (٢٠)؟ وذلك يدخل في عموم قوله على: فبين كُلُّ أَذَانَيْنِ صَلاةً لِمَنْ شَاءً (٤)، وكان أحمد بن حنبل يصليهما فعابه الناس فتركهما فقيل له في ذلك فقال: لم أر الناس يصلونهما فتركتهما وقال: لئن صلاهما الرجل في بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن، ويدخل وقت المغرب بغيبوبة الشمس عن الأبصار في الأواضي المستوية التي ليست محفوفة بالعبال، فإن كانت محفوفة بها في جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جائب المشرق. قال على الله عنه وإن أخرت وصليت قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقعت أداء ولكنه مكروه، وأحر عمر رضي الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة، وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فاعتق رقبة، وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فاعتق رقبة، وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فاعتق رقبين.

 ⁽۱) حديث أبي هريرة: قرحم الله عبداً صلى أربعاً قبل العصرة، أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن حبان من حديث ابن
 همر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث عبادة أو غيره: (في امتدار أصحاب رسول الله على السواري إذا أذن لصلاة المغرب؛ متفق عليه من حديث أنس لا من حديث عبادة، وروى عبدالله بن أحمد في زيادات المسند: (أن أبي بن كعب، وعبدالرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركمتين قبل المغرب).

⁽٣) حديث: اكنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا. أخرجه مسلم من حديث أنس.

 ⁽٤) حديث: ابين كل أذانين صلاة لمن شاءه. منفق عليه من حديث عبدالله بن مغفل

⁽٥) حديث: قالمًا أقبل الليل من ههنا. . 4 الحديث. متفق عليه من حديث عمر،

المخامسة: راتبة العشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله على يسلي بعد العشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام»(١)، واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كعدد المكتوبة: ركعتان قبل الصبح، وأربع قبل الظهر، وركعتان بعدها، وأربع نبل العصر، وركعتان بعد المغرب، وثلاث بعد العشاء الآخرة وهي الوتر(٢)، ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير، فقد قال على: «الصلاة خَيْرُ مَوْضِع فَمَنْ شَاءَ أَكُثَرُ ومهما وَمَنْ شَاءً أَكُثَرُ منها وَمَنْ شَاءً أَكُثَرُ منها يوشك ومنها آكد من بعض، وزك الآكد أبعد لا سيما والفرائض تكمل بالنوافل، قمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر.

& 1713

السادسة: الوتر: قال أنس بن مالك: «كان رسول الله على يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات، يقرأ في الأولى: ﴿ مَنِج اَسَهُ لَكِ الْكُفّى ﴾، وفي الشانية: ﴿ قُلْ يَكُلُّهُا الْكَثِرُونَ ﴾، وفي الشالشة: ﴿ قُلْ هُو اللهُ الْحَدُ الْوِثْرِ رَكَعَتْيْنِ جَالِساً وَفِي بَعْضِهَا مُتَرَبِّعاً ﴾ وفي بعض الأخبار: «إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد يقرأ فيهما: ﴿ إِذَا الْأَرْشُ ﴾ وسورة التكاثره (١٠)، وفي رواية أخرى: ﴿ قُلْ يَكَأَيُّ الْكَثِرُونَ ﴿ الكافِرون ١]، ويجوز الوتر مفصولاً وموصولاً بتسليمة واحدة وتسليمتين. وقد أوتر رسول الله على المركعة (١٠)، وثلاث (١٠)، وفي وخمس (١٠)، وهكذا بالأوار (١٠)، إلى إحدى عشرة ركعة (١١)، والرواية مترددة في ثلاث عشرة (١٢)، وفي

 ⁽١) حديث عائشة: (كان يطلمي بعد العشاء الأخرة أربع ركعات ثم ينامه أخرجه أبو داود.

⁽٢) حديث: «الوتر بثلاث لعد العشاء». أخرجه أحمد واللفظ له والنسائي من حديث عائشة: «كان يوتر بثلاث لا يفصل بينهن".

 ⁽٣) حديث: اللصلاة خير موضعا. أخرجه أحمد وابن حبان والمحاكم وصححه من حديث أبي ذر.

 ⁽٤) حديث أنس «كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبع..» الحديث. أخرجه ابن عدي في ترجمة محمد بن أبان، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند صحيح.

 ⁽٥) حديث: (كان يصلي بعاد الوتر ركعتين جالساً) أخرجه مسلم من حديث عائشة.

 ⁽٣) حديث: ﴿إذا أراد أن به خل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين. . اللحديث، أخرجه البيهقي من حديث أبي أمامة وأنس نحوه وضعفه وليس فيه: ﴿زحف إليه ولا ذكر: ﴿اللهاكم التكاثر».

 ⁽٧) حديث: االوتر بركعة» متقق عليه من حديث ابن عمرو وهو لمسلم من حديث عائشة.

 ⁽٨) حديث: «الوثر بثلاث» تقدم.

 ⁽٩) حديث: «الوتر نخمس) من حديث عائشة: «يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها».

⁽١١) حديث: "الوتر بسبع". أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي واللفظ له من حديث عائشة: «أنَّ رسول الله ﷺ لما كبر وضعف أوتر بسبع ركعت لا يقعد إلا في السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيصلي السابعة، حديث: «الوتر بتسع» أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو في الذي قبله.

⁽١١) حديث: «الوتر بإحدى عشرة» أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة «كان يوتر بأربع وثلاث، وست وثلاث، وتمان وثلاث، وعشر وثلاث، ١٠ الحديث، ولمسلم من حديثها: «كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة..» الحديث.

⁽٩٢) حديث: «الوتر بثلاث عشرة»، تقدم في الذي قبله، وللترمذي والنسائي من حديث أم سلمة: «كان يوتر بثلاث عشرة، وقال الترمذي، حسن، ولمسلم من حديث عائشة: «كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة» زاد في رواية: «بركعتي الفجر».

حديث شاذ: اسبع عشرة ركعة»(١)، وكانت هذه الركعات ـ أعني ما سمينا جملتها وتراً ـ صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنَّة مؤكدة ـ وسيأتي ذكر فضلها في كتاب الأوراد ـ وفي الأفضل خلاف فقيل: إن الإيتار بركعة فردة أفضل إذ صح أنه على الإيتار بركعة فردة، وقيل: الموصولة أفضل للخروج عن شبهة الخلاف لا سيما الإمام إذ قد يقتدي به من لا يرى الركعة الفردة صلاة، فإن صلى موصولاً نوى بالحميع الوتر، وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وصح؛ لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وتراً، وأن يكون موتراً لغيره مما سبق قبله، وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح أي لاً ينال فضيلة الوتر الذي هو خير له من حمر النعم (٢)، كما ورد به الخبر. وإلاَّ فركعة فردة صحيحة في أي وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق في الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وتراً. فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففي نيته في الركعتين نظر، فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنَّة العشاء لم يكن هو من الوتر، وإن نوى الوتر لم يكن هو في نفسه وتراً، وإنما الوتر ما بعده. ولكن الأظهر أن ينوي الوتر كما ينوي في الثلاث الموصولة الوتر. ولكن للوتر معنيان: أحدهما: أن يكون في نفسه وتراً، والآخر: أن ينشأ ليجعل وتراً بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وتراً، والركعتان من جملة الثلاث إلا أن وِتْرِيَّتُهُ موقوفة على الركعة الثالثة. وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوي بهما الوتر، والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها. والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وتراً بأنفسهما ولكنهما موثرتان بغيرهما. والوتر ينبغي أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد. وسيأتي فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما في كتاب ترتيب الأوراد.

السابعة: صلاة الضحى، فالمواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات. روت أم هانىء أخت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: «أنه على صلّى الضحى ثماني ركعات أطالهن وحسنهن» (٣)، ولم ينقل هذا القدر غيرها. فأما عائشة رضي الله عنها فإنها ذكرت: «أنه على كان يصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله سبحانه» (١)، فلم تحد الزيادة أي أنه كان يواظب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات. وروي في حديث مفرد أن النبي الله تكان يُصلي صلاة الشّحى ستًا في وقتين، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين - وهو أول الورد الثاني يصلي الضحى ستًا في وقتين، إذا أشرقت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى من أوراد النهار كما سيأتي - وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى

⁽١) حديث: «الوتر سبع عشرة». أخرجه ابن المبارك من حديث طاوس مرسلاً: «كان يصلي سبع عشرة ركعة من الليل ا

 ⁽٢) حديث: فالوثر خير من حمر النعم؟. أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث خارجة بن حذافة: قان الله أمدكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم؟ وضعفه البخاري وغيره.

 ⁽٣) حديث أم هانيء: قصلي الضحى ثماني ركعات أطالهن وأحسنهنه. متفق عليه دون زيادة: قاطالهن وأحسنهنه وهي منك ة.

٤) حديث عائشة: فكان يصلى الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله أخرجه مسلم.

⁽ه) حديث. «كان يصلي الضحى ست ركعات». أخرجه الحاكم في فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورجاله ثقات.

أربعاً أن الأول إنما كون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح، والثاني إذا مضى من النهار ربعه بإزاء صلاة العصر، فإن وقته أن يبقى من النهار ربعه، والظهر على منتصف النهار، ويكون الضحى على منتصف ما بين المروال الله على منتصف ما بين الزوال إلى المغروب. وهذا أفضل الأوقات، ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة.

الثامنة: إحباء ما بين العشاءين وهي سنّة مؤكدة، ومما نقل عدده من فعل رسول الله ﷺ بين العشاءين ست ركعات (٢٠)، ولهذه الصلاة فضل عظيم. وقيل: إنها المراد بقوله عزّ وجلّ: ﴿نَجَافَ حُتُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَشَاحِينِ ﴾ [السّجنة ٢١]، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: لامَنْ صَلَّى بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ لَمْ مِنْ صَلاةٍ الأَوْإبِينَ (٣)، وقال ﷺ : لامَنْ عَكَفَ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ لَمْ يَتَكُلُمْ إِلاَّ بِصَلاةٍ أَوْ بِقُرْآنِ كَانَ حَقًا عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَبْتِي لَهُ قَصْرَةِنِ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ كُلُّ قَصْرِ مِنْهُما مِائَةُ عَامِ وَيَغْرِسَ لَهُ بَيْنَهُمْ وَسِيرَةً كُلُّ قَصْرٍ مِنْهُما الأَرْضِ لَوسِعَهُمْ (٣)، وسيأتي بقية فضائلها في كتاب الأوراد إنَ شاء الله تعالى.

* * *

القسم الثاني ما يتكرر بتكرر الأسابيع وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام: فنبدأ فلها بيوم الأحد.

يوم الأحد: روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي في أنه قال: امَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الأَحَدِ أَرْبَعَ رَكَعَاتِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِفَاثِحَةِ الكِتَابِ، وَهِ النَّهُ الرَّسُولُ ﴾ [البَقْرَة: ٢٨٥]، مَرَّةً كُتِبَ لَهُ بِعَدَدِ كُلُّ نَصْرَانِيِّ وَنَصْرَانِيَّةٍ خَسْنَاتٍ، وَأَعْطَاهُ اللَّهُ ثُوابَ نَبِي وَكَتَبُ لَهُ حَجَّةً وَهُمْرَةً، وَكَتَبَ لَهُ بِكُلُّ رَكْعَةٍ

⁽۱) حديث: «كان إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعاً» أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث علي كان نبي الله ﷺ اإذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات». لفظ النسائي، وقال الترمذي: حسن.

⁽٢) حديث: ﴿صلى بين العشاءير ست ركعات﴾. أخرجه ابن منده في الضحى والطبراني في الأوسط والأصغر من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف والترمذي وضعفه من حديث أبي هريرة: ﴿من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدل له بعبادة التني عشرة سنة﴾.

⁽٣) حديث: «من صلى بين المغرب والعشاء فإنها من صلاة الأوابين». أخرجه ابن المبادك في الرفائق من رواية ابن المنذر مرسلاً.

⁽٤) حديث: «من حكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة». أخرجه أبو الوليد الصفار في م كتاب الصلاة ممن طريق عبدالملك بن حبيب بلاغاً له من حديث عبدالله بن عمر.

أَلْفَ صَلاةٍ، وَأَخْطَاهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ بِكُلَّ حَرْفِ مَدِينَةً مِنْ مِسْكِ أَذْفَرَ (1)، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "وَحُلُوا اللَّهَ بِكَثْرَةِ الصَّلاةِ يَوْمَ الأَحَدِ فَإِنَّهُ صُبْحَانَهُ وَاحِدُ لا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الأَحَدِ بَعْدَ صلاة الظَّهْرِ أَرْبَعَ رَكَمَاتِ بَعْدَ الْمَرِيضَةِ وَالسَّنَةِ يَقْرَأُ فِي الطَّانِيةِ فَاتِحَة الكِتَابِ وَتَبَارَكَ المُلْك، ثُمُّ تَشَهَّدَ وَسَلَّم، ثُمُّ اللَّهُ لَيْ تَشَهَّدَ وَسَلَّم، ثُمُّ قَصَلَىٰ رَكْعَنَيْنِ أَخْرَيْتِنِ يَقْرَأُ فِيهِما فَاتِحَة الكِتَابِ وَشُورَة الْجُمُعَةِ، وَسَأَلُ اللَّه سُبْحَانَهُ حَاجَتَهُ كَانَ حَقًا عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَقْضِيَ حَاجَتَهُ "٢٠.

يوم الأثنين؛ روى جابر عن رسول الله على أنه قال: «مَنْ صَلَىٰ يَوْمَ الأَثْنَيْنِ عِنْدَ ارْبَقَاعِ النَّهَارِ
رَكْمَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْمَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ مَرَّةً، وَآيَةَ الكُرْسِيُ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ مَرَّةً مَرَّةً،
فَإِذَا سَلَمَ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَصَلَّىٰ عَلَىٰ النَّبِي ﷺ عَشْرَ مَرَّاتٍ عَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ كُلُهَاه ""، وروى
أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الاثْنَيْنِ اثْنَتَىٰ عَشْرَةَ رَكْمَةً يَقْرَأُ فِي كُلُّ رَكْمَةٍ فَاتِحَةً
الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيّ مَرَّةً، فَإِذَا قَرَعَ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهِ أَحَدُ واستغفو اثْنَتَىٰ عَشْرَةَ مَرَّةً يُتَافَىٰ بِهِ يَوْمَ القَبِامَةِ
الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مَرَّةً مُؤَلِّ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ واستغفو اثْنَتَىٰ عَشْرَةَ مَرَّةً يُتَافَىٰ بِهِ يَوْمَ القَبِامَةِ
الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مَرَّةً مُؤَلِّ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ واستغفو اثْنَتَىٰ عَشْرَةَ مَرَّةً يُنَافَىٰ عِلَى اللَّهِ عَلَىٰ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى وَيَعَلَىٰ مَلَىٰ مِنْ اللَّهِ عَلَى عَلَىٰ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ وَيُعَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى الْمَالِ الْمَثَةُ فَيَسْتَقْبِلُهُ مِائَةُ أَلْفِ مَلَكِ مَعَ كُلُّ مَلَكِ هَدِيئَةٌ يُشَيِّعُونَهُ حَتَّىٰ يَدُورَ عَلَىٰ الْفِ قَصْرِ مِنْ تُورِ اللَّهُ الْبُولُهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمَالِ هَوْلِهُ الْمَالِ الْمَالِ الْمَدَةُ فَيَسْتَقْبِلُهُ مِائَةً أَلْفِ مَلَكُ مَعَ كُلُ مَلَكِ هَدِيئَةٌ يُشَيِّعُونَهُ حَتَىٰ يَدُورُ عَلَىٰ الْفَلَهُ الْفَلِ عَلَيْهُ الْتُنْ الْفَوْمَ اللَّهُ الْفُومَ الْمُ الْمَالِ الْمَالِقُ الْمَالِ الْمَالِ الْمَالِقُ الْمَالِ الْمَالَالُهُ اللْهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُؤْمُ اللَّهُ الْمَالُولُ الْمَالِ الْمَالُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُؤْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُؤْمُ اللَّهُ الْمُؤْمُ اللَّهُ اللْمُؤْمُ اللَّهُ اللَّهُ ال

يوم الثلاثاء: روى يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال ﷺ: "مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الثَّلاثَاءِ صَشْرَ رَكَعَاتٍ عِنْدَ انْتِصَافِ النَّهَارِ» (٥٠)، وفي حديث آخر: "عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاكَ مَرَّاتٍ لَمْ تُكْتَبُ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ إِلَىٰ سَبْعِينَ يَوْماً، فَإِنْ مَاتَ إِلَىٰ سَبْعِينَ يَوْماً، فَإِنْ مَاتَ إِلَىٰ سَبْعِينَ يَوْماً مَاتَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاكَ مَبْعِينَ سَنَةً».

⁽۱) حديث: «من صلى يوم الأحد أربع ركعات. . . ٤ الحديث أخرجه أبو موسى المديني من حديث أبي هريرة سند ضعف.

⁽٢) حديث على: «وحدوا الله بكثرة الصلاة بوم الأحد. .» الحديث. ذكره أبو موسى المديني فيه بغير إسناد.

 ⁽٣) حديث جابر: •من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين. . ٩ الحديث. أخرجه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً وهو حديث منكر.

خديث أنس: «من صلى يوم الاثنين، اثنني هشرة ركعة... الحديث، ذكره أبو موسى المديني بغير سند وهو منكر.

حديث يزيد الرقاشي عن أنس: «من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات حند انتصاف النهار. .» الحديث. أخرجه أبو
 موسى المديني بسند ضعيف ولم يقل: «عند انتصاف النهار ولا عند ارتفاعه».

⁽٦) حديث أبي أدريس الخولاني عن معاذ: قمن صلى يوم الأربعاء اثنتي حشرة ركعة...» الحديث. أخرجه أبو موسى المديني وقال: رواته ثقات والحديث مركب قلت: بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين.

يوم المخميس: عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ الْخَمِيسِ بَيْنَ الظَّهْرِ وَالعَصْرِ رَكْعَنَيْنِ يَقْرَأُ فِي الأُولَىٰ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ مِاثَّةَ مَرَّةٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ فَاتِحَةَ الكتابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مِاثَةَ مَرَّةٍ، وَيُصَلِّي عَلَىٰ مُحَمَّدِ مِاثَةَ مَرَّةٍ، أَعْطَاهُ اللَّهُ ثُوَابَ مَنْ صَامَّ رَجْبَ وَشَعْبَانَ وَرَمَضَانَ، وَكَانَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ مِثْلُ حَاجٌ البَيْتِ، وَكُتِبَ لَهُ بِعَدَدِ كُلُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ حَسَنَةً (١٠).

يوم السبّت: روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّىٰ يَوْمَ السَّبْتِ أَرْبَعَ رَكَعَاتِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ مَرَّةً، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا فَرَغَ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِيِّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ حَجَّةً وَخُمْرَةً وَرَفَعَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفِ أَجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها، وأهطاه الله حزّ وجلَ بكل حرف ثمَوَابَ شَهِيدٍ، وَكَانَ تَتَحْتَ ظِلَ عَرْشِ اللَّهِ مَعَ النَّبِثِينَ وَالشَّهَدَاءِ ا^(ء).

وأما الليالي: ليلة الأحد: روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه على قال: «مَنْ صَلَىٰ لَيْلَةُ الأَحَدِ عِشْرِينَ رَكْعَةُ يَقْرَأُ فِي كُلْ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ خَمْسِينَ مَرَةً وَالمُعَوْذَتَيْنِ مَرَةً مَرَّةً، وَاسْتَفَفَرَ اللّهَ عَزْ وَجَلْ مِاثَةَ مَرُةٍ، وَصَلّىٰ عَلَىٰ النّبِي عَلَيْهِ مِاثَةَ مَرُةٍ، وَسَلّىٰ عَلَىٰ النّبِي عَلَيْهِ مِاثَةَ مَرُةٍ، وَسَلّىٰ عَلَىٰ النّبِي عَلِيهِ مِاثَةَ مَرُةٍ، وَسَلّىٰ عَلَىٰ النّبِي عَلَيْهِ مِاثَةً مَرْةٍ، وَسَلّىٰ عَلَىٰ النّبِي عَلَيْهُ اللّهِ وَفِطْرَتُهُ، مِنْ حَوْلِهِ وَقُوتِهِ وَالْتَجَا إِلَىٰ اللّهِ ثُمْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَ اللّهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ آدَمَ صَفْوَةُ اللّهِ وَفِطْرَتُهُ، وَاللّهِ عَلْمَ اللّهِ عَلْ اللّهِ عَلْمَ اللّهِ وَلَدا وَعِيسَىٰ رُوحُ اللّهِ، وَمُحَمَّداً حَبِيبُ اللّهِ كَانَ لَهُ مِنَ النَّوَابِ بِعَدَدِ مَنْ لَمْ يَدْعُ لِلْهِ وَلَدا وَيَعَتَهُ اللّهُ عَزْ وَجَلٌ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الأَمِنِينَ، وَكَانَ حَقًا عَلَىٰ اللّهِ مَنْ ذَعَا لِللّهِ وَلَداً، وَمَنْ لَمْ يَدْعُ لِلْهِ وَلَدا وَيَعَقَهُ اللّهُ عَزْ وَجَلٌ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الآمِنِينَ، وَكَانَ حَقًا عَلَىٰ اللّهِ مَا لَيْهِ وَلَدا وَيَعَلَىٰ اللّه عَزْ وَجَلٌ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الأَمِنِينَ، وَكَانَ حَقًا عَلَىٰ اللّه عَرْ وَجَلٌ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الآمِنِينَ، وَكَانَ حَقًا عَلَىٰ اللّه عَلْ مَهُ اللّهُ عَلْ وَهُ لَلْهُ عَلَىٰ اللّه عَلْمَ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلْهُ اللّهُ عَلْهُ عَلْمَ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ عَلْهُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلْهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَا عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللهُ عَلَىٰ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّه

 ⁽۱) حديث عكرمة عن ابن عباس: امن صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين. . . الحديث. أخرجه أبو موسى
المديني بسند ضعيف جداً.

 ⁽٢) حديث علي: «يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس. .» الحديث. لم أجد له أصلاً وهو باطل.

 ⁽٣) حديث نافع عن ابن عمر: «من دخل الجامع يوم الجمعة قصلي أربع ركعات. ٢٠ الحديث. أخرجه الدارقطئي في غرائب مالك وقال: لا يصح وعبدالله بن وصيف مجهول، والخطيب في الرواة عن مالك وقال: غريب جداً ولا أعرف له وجهاً غير هذا.

⁽٤) حديث أبي هريرة الحمن صلى يوم السبت أربع ركعات. العديث. أخرجه أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليالي والأيام بسند ضعيف جداً.

 ⁽a) حديث: قمن صلى ليلة الأحد عشرين ركعة..» الحديث. ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد وهو متكره وروى أبو
 موسى من حديث أنس قفي قصل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات وكلاهما ضعيف جداً.

ليلة الاثنين: روى الأعمش عن أنس قال: قال رسول الله على: امَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ الاثْنَيْنِ أَرْبَعَ رَكَعَاتِ يَقْرَأُ فِي الرَّكُعَةِ الأَوْلَىٰ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ عَشَرَ مَرَّاتٍ، وَفِي الرَّكُعَةِ الثَّانِيَةِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ قَلَالِينَ مَرَّةً، وَفِي الرَّابِعَةِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ قَلَالِينَ مَرَّةً، وَفِي الرَّابِعَةِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْساً وَسَبْمِينَ مَرَّةً وَاسْتَغَفَرَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ خَمْساً وَسَبْمِينَ مَرَّةً، ثُمَّ سَأَلُ اللَّهَ لِنَفْسِهِ وَلِوَالِدَيْهِ خَمْساً وَسَبْمِينَ مَرَّةً، ثُمَّ سَأَلُ اللَّهَ حَاجَتَهُ كَانَ حَقًا عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُعْطِيّهُ مَا سَأَلَ اللَّهَ الحاجة.

ليلة الثلاثاء: من صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسي واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم. وروي عن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ النَّلاثَاءِ رَكْعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكَعَةٍ فَاتِحَةً الكِتَابِ مَرَّةً، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعْتَقَ اللَّهُ رَقَبَتُهُ مِنَ النَّادِ، وَيَكُونُ يَوْمُ القِهَامَةِ قَائِدَهُ وَدَلِيلَهُ إِلَى الجَنَّةِ» (٧).

لبلة الأربعاء: روت فاطمة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: امَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ الأَرْبِعاءِ رَكُعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي الْأُولَىٰ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبُ الْفَلَقِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَفِي الْفَاتِيْةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبُ الْفَلَقِ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَفِي الْفَاتِيْةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ قُلْ أَعُودُ بِرَبُ النَّاسِ عَشْرَ مَرَّاتٍ ثُمَّ مِنْ اللَّهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ نَرَلَ مِنْ كُلُ سَمَاءِ سَبْعُونَ الْفَ مَلَّكِ يَكْتُبُونَ ثَوَابَهُ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِهُ ("، وفي حديث آخر: السِتَّ عَشْرَة وَلَى مَنْ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَيَقْرَأُ فِي آخِرِ الرَّكُمَنَيْنِ آيَةَ الكُرْسِيّ ثَلاثِينَ مَرَّةً، وفِي الأُولَئِيْنِ ثَلاثِينَ مَرَّةً قُلْ هُو اللَّهُ أَحَدُ يُشَعِّعُ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِمُ النَّارُ»، وروت فاطمة رضي الله عنها أنها اللَّهُ أَحَدٌ يُشَعِّعُ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ وَجَبَتْ عَلَيْهِمُ النَّارُ»، وروت فاطمة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ : (مَنْ صَلَىٰ لَيْلَةَ الأَرْبِعاءِ سِتَ رَكَمَاتٍ قَرَأُ فِي كُلُ رَكْمَةٍ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ قُل اللَّهُمُ قَالِكُ الْمُلْكِ إِلَىٰ آخِرِ الْآبَةِ، فَإِنَا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ يَقُولُ: جَرَىٰ اللَّهُ مُحَمِّداً عَنَّا مَا هُوَ أَهْلُهُ خُفِرَ لَهُ ذُنُوبُ سَنَةً وَكُتِبَ لَهُ بَرَاءَةً مِنْ النَّارِ» (**).

ليلة المخميس: قال أبو هريرة رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: همَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ رَكْمَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْمَةٍ فَاتِحَةً الْكِتَابِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ خَمْسَ مَرَّاتٍ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ خَمْسَ مُرَّاتٍ وَالْمُمُوذَنَيْنِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ خَمْسَ صَشْرَةَ مَرَّةً وَجَعَلَ ثَوَابَهُ لِوَالِدَيْهِ فَقَدْ أَدَّىٰ حَتَّ وَالِدَيْهِ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ عَاقًا لَهُمَا، وَأَهْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مَا يُعْطِى الصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءَ (٥٠).

⁽١) حديث: الأعمش عن أنس قمن صلى ليلة الاثنين أربع ركمات. . • الحديث. ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إستاد من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثاً: «في صلاة ست ركعات فيها وهو منكر.

 ⁽۲) حديث: «الصلاة في ليلة الثلاثاء ركعتين. . ۴ الحديث. دكره أبو موسى بغير إسناد حكاية عن بعض المصنفين وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثاً: «في صلاة أربع ركعات فيها» وكلها منكرة.

 ⁽٣) حديث: "من صلى ليلة الأربعاء وكعتين. ١٠ الحديث. لم أجد فيه إلا حديث جابر: "في صلاة أربع وكعات فيها» ودواه أبو موسى المديني، وروي من حديث أنس: «ثلاثين وكعة».

^(\$) حديث فاطمة: «من صلى ست ركمات. أي ليلة الأربعاء. . . » الحديث. أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً.

 ⁽٥) حديث أبي هريرة: امن صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين. . > الحديث. أخرحه أبو موسى المديني
وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جداً وهو متكر.

ليلة الجمعة: قال جابر، قال رسول الله ﷺ: "مَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ الجُمْعَةِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ الْنَنَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ مَرُّةً وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إِحْدَىٰ عَشَرَةَ مَرُّةً، فَكَأَنَمَا عَبَدَ اللَّهُ تَمَالَىٰ اثْنَنِي عَشْرَةَ سَنَةً صِيامَ نَهَادِها وَقِيَامَ لَيْلِها ('')، وقال أنس: قال النبي ﷺ: "مَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ الجُمْعَةِ صَلَّىٰ رَكْعَةٍ فَاتِحَةً الجُمْعَةِ صَلَّىٰ رَكْعَةٍ فَاتِحَةً الجُمْعَةِ الْمَنْ رَكَعَاتٍ قَرَأُ فِي كُلُّ رَكْعَةٍ فَاتِحَةً الجُمْعَةِ الْكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالمُعَوِّذَتِينِ مَرَّةً مَرَّةً، ثُمَّ أَوْتَرَ بِقَلاثِ رَكْمَاتٍ وَنَامَ عَلَىٰ جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ وَجُهُهُ إِلَىٰ الجَمْعَةِ الْفَرَاءِ وَالْمَعْوَذَتِينِ مَرَّةً مَرَّةً، ثُمَّ أَوْتَرَ بِقَلاثِ رَكْمَاتٍ وَنَامَ عَلَىٰ جَنْبِهِ الْأَيْمَ وَجُهُهُ إِلَىٰ الجَمْعَةِ الْفَرَاءِ وَالْمَوْدَاتِينِ اللَّيْلَةِ الْفَرَاءِ وَالْمَوْدُ اللَّهُ الْحَدُوهُ اللَّهُ الْحَدُولَةُ الْجُمُعَةِ الْمُعْلِقَةِ الْفَرَاءِ وَالْمَوْدُ اللَّهُ أَوْتَرَ بِقَلاثٍ رَكْمَاتٍ وَنَامَ عَلَىٰ جَنْبِهِ الْأَيْمَ وَالْتَهُ إِلَىٰ الْقَبْلَةِ فَكَأَنّما أَحْدُوا لَكُولُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلَيٌ فِي اللَّيْلَةِ الفَرْاءِ وَالْمَوْدُ الْكُورُ الْمَوْدُ الْكُورُ الْمَالِهُ الْمُعْمَةِ وَيُومُ الْجُمُعَةِ وَيُومُ الْجُمُعَةِ وَيُومُ الْجُمُعَةِ وَيُومُ الْجُمُعَةِ وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ وَيُومُ الْجُمُعَةِ وَلَا الْمُؤْلِلُهُ الْعَدْرِهِ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْعُلُولُ الْمُؤْمُ الْمُعْلِقُ الْعُمْوالِ الْمُعْلِقُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمُ وَالْمُهُ الْمُعْلِقِ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُولُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمُ الْمُعْلِقُ الْمُؤْمُ الْمُعْلِقُ الْمُؤْمُ الْ

ليلة السبت: قال أنس: قال رسول الله على: المَنْ صَلَّىٰ لَيْلَةَ السَّبْتِ بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ الْنَتَيَ عَشْرَةَ رَكْعَةَ بُنِيَ لَهُ قَصْرٌ فِي الجَنَّةِ، وَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةِ، وَتَبَرَّأَ مِنَ اليَهُودِ وَكَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ اللهِ .

* * *

القسم الثالث ما يتكرر السنين

وهي أربعة: صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان.

الأولى: صلاة العيدين: وهي سنَّة مؤكدة وشعار من شعائر الدين، وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور:

الأوّل: التكبير ثلاثاً نسقاً فيقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»، يفتتح بالتكبير لبلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد، وفي العيد الثاني يفتتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر، وهذا أكمل الأقاويل. ويكبر عقيب الصلوات المفروضة وعقيب النوافل وهو عقيب العرائض آكد.

⁽١) حديث جابر: «من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنني عشرة ركعة... الحديث. باطل لا أصل له..

⁽٢) حديث أنس، امن صلى ليلة الجمعة العشاء الأخرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات. . الحديث أنس، امل لا أصل له، وروى المظفر بن الحدين الأرجابي في كتاب فضائل القرآن، وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للميت من حديث أنس: امن صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيهما بفاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمس عشرة مرقة وقال إبراهيم بن المظفر: الخمسين مرة أمنه الله من هذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند المردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضاً وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح في أيام الأصبوع ولياليه شيء والله أعلم.

 ⁽٣) حديث: «أكثروا عليّ من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهر». أخرحه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبدالمنعم من بشير ضعفه ابن معين وابن حبان.

⁽٤) حديث أنس ' همن صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة. . ٥ الحديث. لم أجد له أصلاً.

الثاني: إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعمامة هو الأفضل للرجال، وليجنب الصبيان الحرير والعجائز التزين عند الخروج.

الثالث: أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر (۱)، هكذا فعل رسول الله ﷺ وكان ﷺ: «يَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ الْمَوَاتِقِ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، (۱).

الرابع: المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد، ويجوز في يوم الصحو أن يأمر الإمام رجلاً يصلي بالضعفة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكرين.

الخامس: يراعى الوقت فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر يوم الثالث عشر، ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها. هذه سئة رسول الله ﷺ "").

السادس: في كيفية الصلاة؛ فليخرج الناس مكبرين في الطريق، وإذا بلغ الإمام المصلى لم يجلس ولم يتنفل ويقطع الناس التنفل، ثم ينادي مناد: الصلاة جامعة. ويصلي الإمام بهم ركعتين يكبّر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ويقول: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض»، عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ «سورة ق» في الأولى بعد الفاتحة «واقتربت» في الثانية. والتكبيرات الزائدة في الثانية خمس سوى تكبيرتي القيام والركوع. وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه. ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة، ومن فاته صلاة العيد قضاها.

السابع: أن يضحى بكبش. ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين وذبح بيده وقال: «بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ هٰذَا عَنِّي وَعَمَّنُ لَمْ يُضَعِّ مِنْ أُمَّنِي (⁽⁾⁾، وقال ﷺ: «مَنْ رَأَىٰ هِلالَ ذِي الحِجَّةِ وَأَرَادَ أَنْ يُضَعِّي فَلاَ يَأْخُذُ مِنْ شَعْرِهِ وَلاَ مِنْ أُظْفَارِهِ شَيْتاً (⁽⁾)، قال أبو أيوب الأنصاري: كان الرجل يضحي على عهد رسول الله ﷺ بالشاة عن أهل بيته ويأكلون ويطعمون (⁽⁾). وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أبام فما

 ⁽١) حديث: اللخروج في طريق والرجوع في أخرى؛ أحرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

⁽٢) حديث: اكان يأمر بإحراج العواتق ودُوات الخدورة متفق عليه من حديث أم عطية.

 ⁽٣) حديث، «تعجيل صلاة الأضحى وتأخير صلاة الفطرا». أحرجه الشافعي من رواية أبي الحويرث مرسلاً أن
 النبي ﷺ كتب إلى عمرو بن حزم وهو بتجران أن عجل الأضحى وأخر الفطر.

⁽٤) حديث: «ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال: بسم الله والله أكبر هذا عني وهمن لم يضح من أمتي، متفق عليه دون قوله: «عني . . . ا الخ من حديث أنس، وهذه الزيادة عند أبي داود والترمذي من حديث جابر، وقال الترمذي: غريب ومنقطع.

 ⁽a) حديث: امن رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي قلا يأخذ من شعره وأظفاره أخرجه من حديث أم سلمة.

حديث أبي أيوب اكان الرجل بضحي على عهد رسول الله ﷺ الشاة عن أهله فيأكلون ويطعمونا. أخرجه الترمذي
وابن ماجه، قال الترمذي: حسن صحيح.

قوق، وردت فيه الرخصة بعد النهي عنه. وقال سفيان الثوري: يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة، وبعد عيد الأضحى ست ركعات^(۱)، وقال هو من السنّة.

الثانية: التراويح؛ وهي عشرون ركعة وكيفيتها مشهورة وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين، واختلفوا في أنَّ الجماعة فيها أفضل أم الانفراد؟ وقد خرج رسول الله ﷺ فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة ثم لم يخرج وقال: وأَخَافُ أَنْ تُوجَبُ هَلَيْكُمُ اللهُ ، وحمع عمر رضى الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحي، فقيل: إنَّ الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه، ولأنَّ الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض، ولأنه ربما يكسل في الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع. وقيل: الانفراد أفضل؛ لأنَّ هذه سئَّة ليست من الشعائر كالعيدين فإلحاقها بصلاة الضحى وتحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة. وقد جرت العادة مأن يدخل المسجد جمع معاً ثم لم يصلوا التحية بالجماعة، ولقوله ﷺ: ﴿فَضْلُ صَلامٌ النَّطَوْع فِي بَيْنِهِ عَلَىٰ صَلاتِهِ فِي الْمَسْجِدِ كَفَضْل صَلامٌ المَكْتُويّةِ فِي المَسْجِدِ عَلَىٰ صَلاتِهِ فِي البَيْتِ، (٣). وروى أنَّه ﷺ قال: ﴿صَلاَّةُ فِي مُسْجِدِيَ هٰذَا أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ صَلاَّةٍ فِي غَيْرِهِ مِنَ المَسَاجِدِ، وَصَلاةً فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِي مَسْجِدِي، وَأَفْضَلُ مِنْ فَلِكَ كُلُّهِ رجُلَ يُصَلِّي فِي زَاوِيَةٍ بَيْتِهِ رَكْمَتَيْنِ لا يَعْلَمُهُمَا أِلاَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلً^{ه (٤)}، وهذا لأنَّ الرياء والتصنع ربماً يتطرّق إليه في الحمع ويأمن منه في الوحدة فهذا ما قيل فيه. والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضى الله عنه. فإنّ بعض النوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التي تظهر. وأما الالتفات إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة، وكأنَّ قائله يقول: الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء. فلنفرض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ولا يرائي لو حضر الجمع فأيهما أفضل له؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوّة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة، فيجوز أن يكون في تفضيل

⁽١) قال سفيان الثوري: من السنة أن يصلي بعد العطر اثنتي عشرة ركعة وبعد الأضحى ست ركعات. لم أجد له أصلاً في كونه سنة، وفي الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه ﷺ لم يصل قبلها ولا بعدها، وقد اختلفوا في قول التابعي: من السنة كذا، وأما قول تابعي التابع كذلك كالثوري فهو مقطوع.

٢١) حديث: «خروجه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثاً ثم لم يخرح وقال ألحاف أن يوجب عليكما. متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «خشيت أن تفرض عليكم».

⁽٣) حديث: "فضل صلاة النطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت"، رواه آدم بن أبي إياس في كتاب القوات من حديث ضمرة بن حبيب مرسلاً، ورواه ابن أبي شببة في المصنف فجعله عن ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب البي على مرقوفاً. وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت: "صلاة المرة في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة".

⁽³⁾ حديث: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من مائة صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدي وأفضل من هذا كله رجل يصلي ركمتين في زاوية بيته لا يعلمها إلا الله». أخرجه أبو الشيخ في الثراب من حديث أنس: «صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والمسلاة بأرض الرباط تعدل بأنفي صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا وجه الله عز وجل». وإسناده ضعيف وذكر أبو الرئيد الصفار في كتاب الصلاة تعليقاً من حديث الأوزاعي قال: دخلت على يحيى فأسند لى حديثاً فذكره، إلا أنه قال في الأولى: قائف» وفي الثانية: «مائة».

أحدهما على الآحر تردد. ومما يستحب القنوت في الوتر في النصف الأخير من رمضان.

أما صلاة رجب: فقد روي بإسناد عن رسول الله على أنه قال: اما مِنْ أَخْدِ يَصُومُ أَوَّلَ خَمِيسِ مِنْ رَجْبَ، قُمْ يُصَلِّي فِيما بَيْنَ العِشَاءِ وَالْمَثْمَةِ الْنَتَيْ عَشْرَةً رَكْمَةً يَفْصِلْ بَيْنَ كُلِّ رَكْمَتَيْنِ بِعَسْلِيمَةِ يَقْرَأُ فِي لَيلَةِ الْقَلْرِ ثلاثَ مَرَّاتٍ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ الْنَتَيْ عَشَرَةً مَرَّةً، فَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ الْقَلْرِ ثلاثَ مَرًاتٍ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ الْنَتَيْ عَشَرَةً مَرَّةً، فَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ الْقَلْرِ ثلاثَ مَرًا عَلَى مُحَمَّدِ النَّبِي الأَمْنِي وَعَلَىٰ آلِهِ ثُمْ يَسْجُدُ وَلَوْحٍ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ سَبْعِينَ مَرَّةً بَعْلَمُ إِنِّكَ أَنْتَ الأَعْرُ الأَكْرَمُ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً أَخْرَىٰ وَيَقُولُ فِيها مِثْلَ مَا وَيَقُولُ فِيها مِثْلَ ما وَيَقُولُ فِيها مِثْلَ ما فَيْ السَّجْدَةِ الأُولَىٰ ثُمَّ يَسْلُكُ حَاجَتَهُ فِي سُجُودِهِ فَإِنَّا لَكُومُ ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً أَخْرَىٰ وَيَقُولُ فِيها مِثْلَ مَا وَيَقُولُ فِيها مِثْلَ مَا وَيَقُولُ فِيها مِثْلَ ما السِّخِدَةِ الأُولَىٰ ثُمَّ يَسْأَلُ حَاجَتَهُ فِي سُجُودِهِ فَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبِدِ البَحْرِ، وَعَدْدِ الرَّمْلِ، وَوَرُنِ الجِبَالِ، وَوَرَقِ الْمَعْرَالُهُ مُعْمَ اللهُ لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبِدِ البَحْرِ، وَعَدْدِ الرَّمْلِ، وَوَرُنِ الجِبَالِ، وَوَرَقِ الشَّوْجَبِ النَّارَة، فهذه صلاة مستحبة، الأَشْجَارِ، وَيُشَفِّعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مِمَّنْ قَدِ اسْتَوْجَبُ النَّارَة، فهذه صلاة مستحبة، وإنما أوردناها في هذه السلاة نقلها الآحاد، ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون العبد، لأن هذه الصلاة نقلها الآحاد، ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بركها فأحبيت إيرادها.

وأما صلاة شعبان: فليلة الخامس عشر منه يصلي مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد، فهذا أيضاً مروي في جملة الصلوات. كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويجتمعون فيها وربما صلوها جماعة. روي عن الحسن أنه قال: حدّثني ثلاثون من أصحاب النبي على «أنّ من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة (()).

* * *

القسم الرابع من النوافل: ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلّق بالمواقيت وهي تسعة

صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتي الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه، ونظائر ذلك فنذكر منها ما يحضرنا الآن.

الأولى: صلاة الخسوف، قال رسول الله على: ﴿إِنَّ الشُّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يُخسفانِ

⁽١) حديث: الما من أحد يصوم أول خميس من رجب. . . الحديث. في صلاة الرغائب أورده رزين في كتابه وهو حديث موضوع.

 ⁽٣) حديث: ٥صلاة ليلة نصف شعبان٥ حديث باطل. رواه ابن ماجه من حديث علي: ٤إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهاره١١ وإسناده ضعيف.

لِمَوْتِ أَحْدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْرَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللّهِ وَالصّلاةِ (۱) مقال ذلك لما مات ولده إبراهيم على وكسعت الشمس فقال الناس: إنما كسفت لموته. والنظر في كيفيتها ووقتها، أما الكيفية: فإذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودي «الصلاة جامعة» وصلى الإمام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين أوائلهما أطول من أواخرهما. ولا يحهر، فيقرأ في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة، وفي الثانية الفاتحة وآل عمران، وفي الثالثة الفاتحة وسورة الناساء، وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد، ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس. ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى على الفاتحة ويسبح في الركوع الأول قلر مائة آية، وفي الثاني قدر ثمانين، وفي الثالث قدر سبعين، وفي الرابع قدر خمسين. وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة. ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة الرابع قدر خمسين. وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة. ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة. وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يجهر فيها لأنها ليلبة. فأما وقتها: فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة. وتفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يبطل سلطان الليل ولا تفوت بغروب القمر خاسفاً لأن الليل كله سلطان القمر، فإن انجلي في أثناء الصلاة أتمها مخففة. ومن أدرك الركوع الثاني مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأوّل.

الثانية: صلاة الاستسفاء، فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو انهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام وما أطاقوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوية من المعاصي، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين ـ بخلاف العيد ـ وقبل: يستحب إخراج الدواب لمشاركتها في الحاجة ولقوله على: «لَوْلاً صِبْيَانٌ رُضَعٌ وَمَشَايِخُ رُكُعٌ وَبَهَائِمُ رُتُعٌ لَصُبُ عَلَيْكُمُ العَذَابُ صَبّاً (()، ولو خرج أهل الذمة أيضاً متميزين لم يمنعوا، فإذا المجتمعوا في المصلى الواسع من الصحراء نودي «الصلاة جامعة» فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد ـ بغير تكبير ـ ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين، وينبقي وسط الخطبة الثانية، أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحوّل رداءه في هذه الساعة تفاؤلاً بتحويل الحال (()). هكذا فعل رسول الله على الناس ويدعون في هذه الساعة سراً، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون على البمين. وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سراً، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محوّلة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثباب، ويقول في الدعاء: اللهم إنك أمرتنا بدعائك وعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك في سقيانا وسعة أرزاقنا. ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج، ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التربة ورد المظالم وغيرها، وسيأتى ذلك في كتاب الدعوات.

الثالثة: صلاة الجنائز، وكيفيتها مشهورة، وأجمع دعاء مأثور ما روي في الصحيح عن عوف بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه: ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاغْفُ

 ⁽١) حديث: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله. .) الحديث. أخرجاه من حديث المغيرة بن شعبة.

 ⁽٣) حديث: (لولا صبيان رضع ومشايخ ركع. .) الحديث. أخرحه البيهقي وضعفه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: ااستدبار الناس واستقبال القبلة وتحويل الرداء في الاستسقاء؛ أخرجاه من حديث عبدالله بن زيد المازني.

عَنْهُ وَأَكْدِمْ نُزُلُهُ وَوَسَّعْ مُدْخَلُهُ، وَاغْسِلْهُ بِالمَاءِ وَالثِّلْجِ وَالبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ المَخَطَايا كَمَا يُنَقِّىٰ الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدُّنس، وَأَبْدِلْهُ دَاراً خَيْراً مِنْ دَارِهِ وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجاً خَيْراً مِنْ زَوْجِهِ، وأدخله الجنة وأعِذْهُ مِنْ عَلَمَابِ القَبْرِ وَمِنْ عَلَمَابِ النَّارِهِ(١). حتى قال عوف: تمنيت أن أكونَ أنا ذلكَ الميت. ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغي أن يراعي ترتيب الصلاة في نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام، فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذي فات كفعل المسبوق، فإنه لو بادر التكبيرات لم تبق للقدوة في هذه الصلاة معنى، فالتكبيرات هي الأركان الطاهرة، وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات، هذا هو الأوجه عندي وإن كان غيره محتملاً. والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنازة وتشييعها مشهورة فلا نطيل بإيرادها، وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفايات؟ وإنما تصير نقلاً في حق من لم تتعين عليه بحضور غيره، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين لأنهم بجملتهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم، فلا يكون ذلك كنفل لا يسقط به فرض عن أحد. ويستحب طلب كثرة الجمع تبركاً بكثرة الهمم والأدعية واشتماله على ذي دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس: أنه مات له ابن فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال: تقول هم أربعون قلت: نعم، قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَا مِنْ رَجُل مُسْلِم يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَىٰ جَتَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلاً لا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئاً إلاَّ شَفْعَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلّ فِيهِۥ (٢٠)، وإذا شيع الجنازة فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال: السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوّى على الميت قبره قام عليه وقال: اللهم عبدك رد إليك فارأف به وارحمه، اللهم جاف الأرض عن جنبيه وافتح أبواب السماء لروحه وتقبله منك بقبول حسن، اللهم إن كان محسناً فضاعف له في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه.

الرابعة: تحية المسجد: ركعتان فصاعداً سنة مؤكدة، حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تأكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب. وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا يخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قياماً بحق المسجد. ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غير وضوء، فإن دخل لعبور أو جلوس فليقل: «سبحان الله والحمد لله ولا إلا الله والله أكبر»، يقولها أربع مرات يقال: إنها عدل ركعتين في الفضل. ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تكره التحية في أوقات الكراهية، وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب، لما روي: أنه على محتين بعد العصر فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: «هُمَا رَكُمَتَانِ كُنْتُ أُصَلِيهِما بَعْدَ الظُهْمِ قَشَعَلَنِي عَنْهُمَا الرَقْدُه (٢٠)، فأفاد هذا الحديث فائدتين: إحداهما: أنّ الكراهية

 ⁽١) حديث عرف بن مالك في الصلاة على الجنازة: «اللهم اغفر لي وله وارحمني وارحمه وعافتي وعافه. » الحديث.
 أخرجه مسلم دون الدعاء للمصلي.

 ⁽۲) حدیث ابن عباس: «ما من رجل مسلم پموت قیقوم علی جنازته أربعون. . . » الحدیث. أخرجه مسلم.

 ⁽٣) حديث: «صلى ركعتين بعد العصر قيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر...»
 الحديث. أخرجاه من حديث أم سلمة، ولمسلم من حديث عائشة: «كان يصلي ركعتين قبل العصر ثم إنه شغل عنهما..» الحديث.

مقصودة على صلاة لا سبب لها، ومن أضعف الأسباب قضاء النوافل إذ اختلف العلماء في أنّ النوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما فاته هل يكون قضاء؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب قبأحرى أن تنتفي بدخول المسجد وهو سبب قوي. ولذلك لا تكره صلاة الجنازة إذا حضرت ولا صلاة الخسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسباباً. الفائدة الثانية: قضاء النوافل إذ قضى رسول الله يُ ذلك ولنا فيه أسوة حسنة. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله يُ إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أزل النهار اثنتي عشرة ركعة (()) وقد قال العلماء: من كان في الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت، ولا معنى الآن لقول من يقول: إنّ ذلك مثل الأول وليس يقضى؛ إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله في وقت الكراهة. نعم من كان له ورد فعاقه عن ذلك عذر فينبغي أن لا يرخص لنفسه في تركه، بل يتداركه في وقت الكراهة. نعم من كان له فسه ألى الله المناه والدائمة والرفاهية، وتداركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه في قال: «أحَبُ الأحَمَالِ إلى الله الله الله عنها عن النبي في أنه ألى الله عنها عن النبي في أنه قال: «مَنْ عَبْدَ اللّه عَرْ وَجَلْ (")، فلمحذر أن يدخل تحت أذوَمُها وَإِنْ قَلْ (")، فلمحذر أن يدخل تحت قال: «مَنْ عَبْدَ اللّه عَرْ وَجَلْ (")، فلمحذر أن يدخل تحت الملالة على المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه. والوعد. وتحقيق هذا الخبر أنه مقته الله تعالى بتركها ملالة فلولا المقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه.

الخامسة: ركعتان بعد الوضوء مستحبتان؛ لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيع السعي، فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الغوات. وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال على: «دَخَلْتُ الجَنَّةُ فَرَأَيْتُ بِلالاً فِيها فَقُلْتُ لِيلالِ: بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَىٰ الجَنَّةِ؟ فَقَالَ بِلالاً: لا أَعْرِفُ شَيْتاً إِلاَّ أَنِي لا أُحْدِثُ وُضُوءاً إِلاَ أُصَلِّي عَقِيبَهُ رَكْعَتَين اللهُ ال

ألسادسة: ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه، روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَنْزِلِكَ فَصَلَّ رَكْمَتَيْنِ يَمْنَعَانِكَ مَخْرَجَ السُّوءِ، وَإِذَا دَخَلْتَ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ فَصَلَّ رَكُمَتَيْنِ يَمْنَعَانِكَ مَخْرَجَ السُّوءِ، وَإِذَا دَخَلْتَ إِلَىٰ مَنْزِلِكَ فَصَلَّ رَكْمَتَيْنِ يَمْنَعَانِكَ مَدْخُلَ السُّوءِ، وفي معنى هذا كل أمر يبتدأ به مما له وقع، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام (١٠) وركعتان عند الرجوع من السفر (١٠) في المسجد قبل

⁽١) حديث عائشة: اكان إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة . . اللحديث. أخرجه مسلم.

 ⁽٢) حديث: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ» أخرجاه من حديث عائشة.

⁽٣) - حديث عائشة. «من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقته الله». ورواه ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفاً على عائشة.

 ⁽٤) حديث: «دخلت الجنة فرأيت بالالأ فيها فقلت: يا بالال بم سبقتني إلى الجنة؟ . . ٤ الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة .

⁽٥) حديث أبي هريرة: "إذا خرجت من منزلك قصلٌ ركعتين يمتعانك مخرج السوء وإذا دخلت منزلك. . " الحديث. أحرجه البيهغي في الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان بن سليم، قال بكر: حسيته هن أبي هريرة فذكره. وروى الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل من حديث أبي هريرة: "إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاهل له من ركعتيه خيراً" قال أبن عدي: وهو بهذا الإسناد منكر وقال البخاري: لا أصل له.

⁽٦) حديث: اركمتي الإحرام؛ أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

 ⁽٧) حديث: ﴿صلاة ركعتين عند ابتداء السفرا أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس: ﴿ما استخلف في أهله
 من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصليهن العبد في بيته إذا شد عليه نبات سفره. . ١ الحديث. وهو ضعيف.

 ⁽A) حديث: «الركعتين عند القدوم من السفر» أخرجاه من حديث كعب بن مالك.

دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله على. وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين، وكذلك في كل أمر يحدثه، وبداية الأمور بنبغي أن يتبرك فيها بذكر الله عزّ وجلّ وهي على ثلاث مراتب: بعضها يتكرر مراراً كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عزّ وجلّ، وقال على: «كُلُ أَمْرِ ذِي بَالٍ لا يُبُدأ فِيه بِيسْمِ اللهِ الرّحمٰنِ الرّحيم فَهُو أَبْتُرُه (۱). الثانية: ما لا يكثر تكرره وله وقع كعقد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة، فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول المزوج: «الحمد لله والصلاة على رسول الله على رسول الله الله والمستحب فيها أن يصدر بحمد الله والصلاة على رسول الله المنابعة على المنابعة والمستحب فيها أن يصدر بحمد الله والصلاة على والمشورة تقديم التحميد، الثالثة: ما لا يتكرر كثيراً وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والإحرام وما يجري مجراه، فيستحب تقديم ركعتين عليه وأدناه المخروج من المنزل والدخول إليه فإنه فوع سفر قريب.

السابعة: صلاة الاستخارة؛ فمن هم بأمر وكان لا يلري عاقبته ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه فقد أمره رسول الله ﷺ وَبَانُ يُصَلِّي رَكُعَتَيْنِ يَقْرَأُ فِي الأُولَىٰ فَاتِحَة الْكِتَابِ رَقُلْ يَا أَيُها الْكَافِرُونَ، وَفِي الثَّانِيَةِ الفَانِحَة وَقُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدُ، فَإِذَا فَرَغَ دَعَا رَفَالَ: اللّهُمَّ إِنِي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ الْكَافِرُونَ، وَفِي الثَّانِيَةِ الفَانِحَة وَقُلْ هُو اللّهُ أَحَدُ، فَإِذَا فَرَغَ دَعَا رَفَالَ: اللّهُمَّ إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلْمُ الْمَعْنِيمِ، فَإِنِّكَ تَقْبُرُ وَلا أَقْبُرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلاَمُ الْغَيْوِبِ، اللّهُمْ إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ أَنْ هُذَا الْأَمْرَ شَيْرٍ فِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَعَاقِبَةٍ أَمْرِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَعَاقِبَةٍ أَمْرِي وَعَاقِبَةٍ أَمْرِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي وَعَاقِبَةٍ أَمْرِي وَعَلْهُ عَلَى اللّهُ وَلَيْ عَلَى اللّهُ عَلَى الللّهُ وَلَى السَعْمِ وَعَلَى الْمَلْ وَيَعْتُونَ عُمْ لِيسَمُ الْمُولِة عَلَى الْمَوْلِ السَعْطَى النوبة لم يمنع أُربعاً لم يمنع الموباب.

الثامنة: صلاة الحاجة (٣)؛ فمن ضاق عليه الأمر ومسته حاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فليصل هذه الصلاة، فقد روي عن وهيب بن الورد أنه قال: إن من الدعاء الذي لا يرد أن يصلي العبد اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد، فإذا فرغ خز ساجداً ثم قال: «سبحان الذي لبس العز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له، سبحان ذي المن والفضل، سبحان ذي العز وبالمحل الأعظم والكرم، سبحان ذي الطول أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم

 ⁽١) حديث: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أيتر». أخرجه أبر دارد، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة.

⁽٢) حليث: «صلاة الاستخارة» أخرجه البخاري من حديث جابر. قال أحمد: حديث متكر.

 ⁽٣) حديث ابن مسعود: •في صلاة الحاجة اثنتي عشرة ركعة أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسنادين ضعيفين جداً فيهما عمرو بن هارون البلخي كذبه ابن معين وفيه علل أخرى، وقد وردت: •صلاة الحاجة ركعتين • رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبدالله بن أبي أوفى وقال الترمذي: حديث غريب وفي إسناده مقال.

وجدَك الأعلى وكلماتك التامات العامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر أن تصلي على محمد وعلى آل محمد»، ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عزّ وجلّ. قال وهيب: بلغنا أنه كان يقال: لا تعلموها لسفهائكم فيتعاونون بها على معصية الله عزّ وجلّ.

التاسعة: صلاة التسبيح، وهذه الصلاة مأثورة على وجه ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة. فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ قال للعبَّاس بن عبدالمطلب: «أَلاَ أُمْطِيكَ أَلاَ أَمْنَحُكَ أَلاَ أَحْبُوكَ بِشَيءٍ إِذَا أَثْتَ فُمَلْتَهُ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ذُنَّبَكَ أَوْلَهُ وَآخِرَهُ قَلِّيمَهُ وَحَدِينَهُ خَطَأَهُ وَعَمْدَهُ سِرَّهُ وَعَلائِيْتَهُ؟ تُصَلِّي أَرْبَعَ رَّكَمَاتٍ تَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْمَةٍ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَسُورَةً، فَإِذًا فَرَغْتَ مِنَ القِرَاءَةِ فِي أَوَّلِ رَكْعَةٍ وَأَنْتَ قَائِمٌ تَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَّ إِلْهُ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً، ثُمُّ تَرْكُعُ فَتَقُولُها وأنت راكع عشر مرات، ثم ترفع من الركوع فَتِفُولُها قائماً عَشْراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثُمَّ تَزْفَعُ مِنَ السُّجُودِ نَتَقُولُها جَالِساً عَشْراً، ثُمَّ تَسْجُدُ فَتَقُولُها وَأَنْتَ سَاجِدٌ مَشْراً، ثُمُّ تَرْفَعُ مِنَ السُّجُودِ فَتَقُولُهَا مُشْراً، فَذَٰلِكَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ فِي كُلُّ رَكْمَةٍ تَفْمَلُ ذَٰلِكَ فِي أَرْبَعِ رَكَمَاتٍ، إِنِ الْسُتَطَعَّتَ أَنْ تُصَلِّيهَا فِي كُلِّ يَوْم مَرَّةً فَافْعَلِْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي كُلُّ جُمْعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ لَمُّ تَفْعَكُلْ فَفِي كُلَّ شَهْرِ مَرَّةً، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَفِي السُّنَةِ مَرَّةًا (١)، وَفي رُواية أخرى: أنه يقول في أزَّل الصلاة: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وتقدّست أسماؤك ولا إله غيرك»، ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشرا بعد القراءة والباقي كما سبق عشراً عشراً ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعداً، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك. والمجموع من الروايتين ثلاثماتة تسبيحة، فإن صلاها نهاراً فبتسليمة واحدة وإن صلاها لبلاً فبتسليمتين أحسن؛ إذ ورد: «أنَّ صَلاةَ اللَّيل مَثْنَىٰ مَثْنَىٰ»^(٣)، وإن زاد بعد التسبيح قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فهو حسن، فقد وربُّ ذلك في بعض الروايات. فهذه الصلوات المأثورة. ولا يستحب شيء من هذه النواقل في الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد، وما أوردناه بعد التحية من ركعتي الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا؛ لأن النهي مؤكد وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الخسوف والاستسقاء والتحية. وقد رأيت بعض المتصوّفة يصلي في الأوقات المكروهة ركعتي الوضوء وهو في غاية البعد؛ لأن الوضوء لا يكون سبباً للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء، فينبغي أن يتوضأ ليصلي لا أنه يصلي لأنه توضأ. وكل محدث يريد أن يصلى في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصلى فلا يبقى للكراهية معنى. ولا ينبغي أن ينوي ركعتي الوضوء كما ينوي ركعتي التحية، بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوّعاً كيلا يتعطل وضوؤه كما كان يفعله بلال فهو تطوع محض يقع عقيب الوضوء. وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب كالخسوف والتحية حتى ينوي ركعتي الوضوء فيستحيل أن ينوي بالصلاة الوضوء بل ينبغي أن ينوي بالوضوء الصلاة. وكيف ينتظم أن يقول في وضوئه: أتوضأ لصلاتي، وفي صلاته يقول: أصلي لوضوئي، بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فلينو قضاء إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطرّق إليها خلل لسبب من الأسباب، فإن قضاء الصلوات في أرقات الكراهية غير مكروه، فأما نيّة التطوّع فلا وجه لها. ففي النهي في أوقات الكراهية مهمات ثلاثة:

⁽١) حديث: (صلاة التسبيع) تقدم.

⁽٢) حديث: الصلاة الليل مثنى مثنى؛ أخرجاه من حديث ابن عمر.

أحدها: الترقي من مضاهاة عبدة الشمس، والثاني: الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال على الشمس الشمس المشالع ومنها قرن المشيطان فإذا طَلَقت قارَنها وإذا الرَّفَقت قارَنها فإذا رَبَّه المؤلفاء فإذا تَضَيَفَتُ لِلْمُرُوبِ قارَنها فإذا غَرَبَتْ فارقها وإذا الرَّفقاء فإذا تضيفت في هذه الأوقات وي هذه الأوقات ونبه على الملة، والثالث: أن سالكي طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات في جميع الأوقات. والمواظبة على نمط واحد من العبادات يورث الملل، ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعثت الدواعي، والإنسان حريص على ما منع منه ففي تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض وبعث على انتظار انفضاء الوقت، فخصصت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذراً من الملل بالمداومة وتفرجاً بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر. ففي الاستطراف والاستجداد لذة ونشاط، وفي الاستمرار على شيء واحد استثقال وملال. ولذلك لم تكن الصلاة سجوداً مجرداً ولا ركوعاً مجرداً ولا قياماً مجرداً بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة، فإن القلب يدرك من كل عمل منهما لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واظب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل. فإذا كانت هذه أموراً مهمة في النهي عن ارتكاب أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها، فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة في الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد. فأما ما ضعف عنها قلا ينبغي أن يصادم به مقصود النهي. هذا هو الأوجه عندها، والله أعلم.

كمل كتاب أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً



⁽١) حديث: «إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارتها...» الحديث. أخرجه النسائي من حديث عبدالله الصناحي وهو مرسل، ومالك هو الذي يقول عبدالله الصنابحي ووهم فيه والصواب عبدالرحمن، وثم ير النبي على.

ينسمه أنقر ألؤكن التحصير

كتاب أسرار الزكاة

الحمد لله الذي أسعد وأشقى، وأمات وأحيا، وأضحك وأبكى، وأوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأضر وأقنى الذي خلق الحيوان من نطفة تمنى، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى، ثم خصص بعض عاده بالحسنى فأفاض عليهم من نعمه ما أيسر به من شاء واستغنى، وأحوج إليه من أخفق في رزقه وأكدى إظهاراً للامتحان والابتلاء. ثم جعل الزكاة للدين أساساً ومبنى، وبين أن بفضله تزكي من عباده من تركى، ومن غناه زكى ماله من زكى، والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى.

أما بعد: فإن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام، فقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا المَهْلَوَةُ وَءَاقُوا الرَّقَوَةُ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيْتَاءُ الرَّكَاةِ الْبَنِيَ الإِسْلامُ عَلَىٰ خَمْس: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلْهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيْتَاءُ الرَّكَاةِ الرَّكَاةِ الْ الله فَيَوْرَهُم وَكَنَاهِ السَّمة عَلى الله فَقَال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكُرُونَ الدَّهَبَ وَالْفِسَّةَ وَلاَ يُنْفُونَهَا فِي سَجِيلِ اللهِ فَيَوْرَهُم وَكَنَاهِ اللهِ عَلَى اللهِ فَيَوْرَهُم وَكَنَاهِ الْفِيورَةُ وَمِن الإنفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة. قال الأحتف بن قيس: كنت في نفر من قريش فمر أبو ذرّ فقال: بشر الكائزين مكيّ في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكيّ في أقفائهم يخرج من جبههم. وفي رواية: أنه يوضع على حلمة ثدي أحدهم فيخرج من نغض كتفيه، ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل، وقال أبو ذرّ: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: المُّمَةُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، فقلت: ومن هم؟ قال: الأَكْفَرُونَ أَمُوالاً إِلاَّ مَنْ قَالَ لَمُكَذا مِنْ بَيْنِ يَذَيْهِ وَمِنْ خَلْقِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ، ما مِنْ صَاحِبِ إِبل وَلا بَقَر وَلا غَمْ الا وَهُونِي رَكَاتُها إِلاَّ جَاءَتُ يُومَ القِيَامَةِ أَعْظَمُ ما كَانَتْ وَأَسْمَلُهُ يُتُوفِنِها وَتَطُوهُ بِأَظْلافِها كُلُما تَهِذَتُ أَخْرًاها وَعَلَوهُ وَلا قَنْها المِلهُ عَلَى الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية ومعانيها الظاهرة والباطنة، مع الاقتصار على ما لا يستغنى عن معرفته مؤدي الزكاة وقابضها، وينكشف ذلك في أربعة فصول:

الفصل الأول: في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها.

الثاني: آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة.

الثالث: في القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه.

الرابع: في صدقة التطوع وفضلها.

كتاب أسرار الزكاة

 ⁽١) حديث: ابني الإسلام على خمس؛ أخرجاه من حديث ابن عمر.

حديث أبي ذر «انتهيت إلى النبي روب جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: هم الأخسرون ورب الكعبة. . ٩
 الخديث . أخرجاه مسلم والبخاري.

الفصل الأول

في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها، والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع: زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر

النوع الأول: زكاة النعم:

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم. ولا يشترط البلوغ، بل تجب في مال الصبي والمجنون هذا شرط من عليه. وأما المال فشروطه خمسة: أن يكون نعماً سائمة باقية حولاً نصاباً كاملاً مملوكاً على الكمال.

الشرط الأول: كونه نعماً فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم. أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الظباء والعنم فلا زكاة فيها.

الثاني: السوم، فلا زكاة في معلوفة وإذا أصيمت في وقت وعلفت في وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها.

الثالث: الحول، قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا زَكَاةَ فِي مَالِ حَتَّىٰ يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ، (١)، ويستثنى من هذا نتاج الحول.

الرابع: كمال الملك والتصرف، فتجب الزكاة في الماشية المرهونة لأنه الذي حجر على نفسه فيه، ولا تجب في الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فيجب زكاة ما مضى عند عوده، ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه، فإنه ليس غنياً به إذ الغني ما يفضل عن الحاجة.

الخامس: كمال النصاب.

أما الإبل: فلا شيء فيها حتى تبلغ حمساً ففيها جدعة من الضأن، والجذعة هي التي تكون في السنة الثانية، أو ثنية من المعز وهي التي تكون في السنة الثالثة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه. وفي عشرين أربع شياه. وفي خمس وعشرين بنت مخاض وهي التي في السنة الثانية، فإن لم يكن في ماله بنت مخاض فابن لبون ذكر، وهو الذي في السنة الثالثة يؤخذ إن كان قادراً على شرائها. وفي ست وثلاثين ابنة لبون، ثم إذا بلغت ستاً وأربعين فقيها حقة وهي التي في السنة الرابعة. فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهي التي في السنة الخامسة، فإذا صارت ستاً وسبعين ففيها بنتا لبون. فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون. فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقرّ الحساب، ففي كل خمسين حقة، وفي كل أربعين بنت لبون.

وأما البقر: فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذي في السنة الثانية. ثم في أربعين مسنّة وهي التي في السنة الثالثة. ثم في ستين تبيعان. واستقرّ الحساب بعد ذلك، ففي كل أربعين مسنّة، وفي كل ثلاثين تبيع.

 ⁽١) حديث: الا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول». أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد جيد، وابن ماجه من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

وأما المغنم: فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز. ثم لا شيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان، إلى مائتي شاة وواحدة فيها ثلاث شياه، إلى أربعمائة ففيها أربع شياه. ثم استقر الحساب في كل مائة شاة. وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب، فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة. وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم. وخلطة الجوار كخلطة الشيوع، ولكن يشترط أن يريحا معاً ويسقيا معاً ويحلبا معاً ويسرحا معاً ويكون المرعى معاً ويكون إنزاء الفحل معاً، وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة، ولا حكم للخلطة مع الذمي والمكاتب. ومهما نزل في واجب الإبل عن سنّ إلى سنّ فهو جائز ما لم يجاوز بنت مخاض في النزول، ولكن تضم إليه جبران السنّ لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهماً، ولسنتين أربع شياه أو أربعين درهماً، وله أن يصعد في السنّ ما لم يجاوز الجذعة في الصعود ويأخذ ولسنتين أربع شياه أو أربعين درهماً، ولا تؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال صحيحاً ولو واحدة. ويؤخذ من الكراثم كريمة ومن اللئام لئيمة. ولا يؤخذ من المال الأكولة ولا الماخض ولا الربا

النوع الثاني: زكاة المعشرات:

فيجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من، ولا شيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطن، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب. ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمراً أو زبيباً لا رطباً وعنباً، ويخرج ذلك بعد التجفيف. ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشبوع كالبستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة من من زبيب، فيجب على جميعهم ثمانون مناً من زبيب مقدر حصصهم. ولا يعتبر خلطة الجوار فيه. ولا يكمل نصاب الحنطة بالشعير، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه. هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسيح أو قناة، فإن كان يسقى بنضح أو دالية فيجب نصف العشر، فإن اجتمعا فالأغلب يعتبر. وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية. ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير. ولا يمنع من هذه القسمة قولنا: إنّ القسمة بيع، بل يرخص في مثل هذا للحاجة. ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتدّ الحب. بيع، بل يرخص في مثل هذا للحاجة. ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتدّ الحب.

النوع الثالث: زكاة النقدين:

فإذا تم الحول على وزن ماتني درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم، وهو ربع العشر، وما زاد فبحسابه ولو درهماً. ونصاب الذهب عشرون مثقالاً خالصاً بوزن مكة ففيها ربع العشر، وما زاد فبحسابه، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة. وتجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة. وتجب الزكاة في التبر وفي الحلي المحظور كأراني الذهب والفضة ومراكب الذهب والفضة ومراكب الذهب في الحلي المباح، وتجب في الدين الذي هو على ملىء، ولكن تجب عند الاستيفاء، وإن كان مؤجلاً فلا تجب إلا عند حلول الأجل.

النوع الرابع: زكاة التجارة:

وهي كزكاة النقدين، وإنما يتعقد الحول من وقت ملك النقد الذي به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً، فإن كان ناقصاً أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء. وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوّم. فإن كان ما به الشراء نقداً وكان نصاباً كاملاً كان التقويم به أولى من نقد البلد. ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرّد نيته حتى يشتري به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة. والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة، وما كان من ربح في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولاً كما في النتاج. وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات، وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة، هذا هو الأقيس.

النوع الخامس: الركاز والمعدن:

والركاز: مال دفن في الجاهلية ووجد في أرض لم يجر عليها في الإسلام ملك، فعلى واجده في الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر. والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً؛ لأنّ إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغنيمة. واعتباره أيضاً ليس ببعيد؛ لأنه مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالنقدين.

وأما المعادن: فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة، ففيها بعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين، وعلى هذا يعتبر النصاب. وفي الحول قولان، وفي قول: يجب الخمس، فعلى هذا لا يعتبر، وفي النصاب قولان والأشبه والعلم عند الله تعالى وأن يلحق في قدر الواجب مزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب في الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ويعتبر النصاب كالمعشرات، والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير، وفي عين النقدين أيضاً خروجاً عن شبهة هذه الاختلافات فإنها ظنون قريبة من التعارض وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه.

التوع السادس: في صدقة الفطر:

وهي واحبة _ على لسان رسول الله ﷺ : قَعَلَىٰ كُلُّ مُسْلِم فَضَلَ عَنْ قُوتِهِ وَقُوتِ مَنْ يَقُوتُهُ يَوْمَ الفِطْرِ وَلَيْلَتَهُ صَاعٌ مِمًا يَقْتَاتُ اللهُ اللهِ عَلَيْ وهو منوان وثلثا من ، يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير ، وإن اقتات حبوباً مختلفة اختار خيرها ومن أبها أخرج أجزأه . وقسمتها كفسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف . ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق . ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو في نفقته _ أعني من تجب عليه نفقته _ من الآباء والأمهات والأولاد . قال ﷺ : ﴿ أَدُوا صَدَقَةَ الفِطْرِ حَمَّن تَمُونُونَ اللهِ خراج عن نفسها أجزأها المشترك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها وللزوج الإخراج عنها دون إذنها . وإن فضل عنه ما يؤدي عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته آكد . اوقد قدّم رسول الله ﷺ نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم الله من كانت نفقته آكد . اوقد قدّم رسول الله ﷺ نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم الله على نفقة الخادم الله على نفقة الخادم الله المنتوب الله المنتوب المنتوب الله على نفقة الخادم الله الله عليه المنتوب الله على نفقة الخادم الله الله على نفقة الخادم الله الله على نفقة الخادم الله الله عليه المنتوب الله على نفقة الخادم الله الله على نفقة الخادم الله الله الله الله على نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم الله الله على المنتوب الله الله على نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخورج الإخراج المؤرد الله على نفقة الولد على نفقة الولد على عن المنتوب المناس الله على نفقة الولد على نفقة المؤرد المؤر

حدیث: «وجوب صدقة الفطر علی کل مسلم». أخرجاه من حدیث ابن عمر قال: «فرض رسول الله ﷺ زکاة الفطر من رمضان..» الحدیث.

 ⁽٧) حديث: «أدوا زكاة الفطر عمن تمونون». أخرجه الدارقطني والبيهةي من حديث ابن عمر: «أمر
 رسول الله ﷺ بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد ممن تمونون» قال البيهةي: إسناده غير قوي.

 ⁽٣) حديث: «قدم رسول الله ﷺ نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم». أخرجه أبو داود من حديث أبي
 هريرة بسند صحيح، وابن حبان، والحاكم وصححه ورواه النسائي وابن حبال بتقديم «الزوجة على الولد» وسيأتي.

فهذه أحكام فقهية لا بدّ للغني من معرفتها، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار.

**

الفصل الثاني

في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اهلم: أنه يجب على مؤدي الزكاة خمسة أمور:

الأول: النية؛ وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفرض ويسنّ عليه تعيين الأموال. فإن كان له مال غائب فقال: هذا عن مالي الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جاز؛ لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه. ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة، ولكن في ظاهر حكم الدنيا مأعني في قطع المطالبة عنه مأما في الآخرة فلا، بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يستأنف الزكاة. وإذا وكّل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكّل الوكيل بالنية كفاه؛ لأنّ توكيله بالنية نية.

الثاني: البدار عقيب الحول، وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر، ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان، ووقت تعجيلها شهر رمضان كله، ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق. وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه، وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانعقاد الحول. ويجوز تعجيل زكاة حولين، ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنياً بعير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات، فالمدفوع ليس بزكاة، واسترجاعه غير ممكن إلا إدا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مراقباً آخر الأمور وسلامة العاقبة.

الثالث: أن لا يُخْرِج بدلاً باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه، فلا يجزى، ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه في القيمة. ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعي رضي الله عنه يتساهل في ذلك ويلاحظ المقصود من سد النخلة وما أبعده عن التحصيل، فإنّ سد النخلة مقصود وليس هو كل المقصود، بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام: قسم هو تعبد محض لا مدخل للحظوظ والأغراض فيه وذلك كرمي الجمرات مثلاً إذ لا حظ للجمرة في وصول الحصى إليها، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بقعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية؛ إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنى آخر. وأكثر أعمال الحج كذلك، ولذلك قال بي على إحرامه: «لَبُنِكَ بِحَجَةٍ حَقاً تَعَبُلاً فروقاً الله الله على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد لمجرد الأمر وامتثاله كما أمر من غير استئناس فقل منه بما يميل إليه ويحت عليه. القسم الثاني: من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول العقل منه بما يميل إليه ويحت عليه. القسم الثاني: من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول

 ⁽١) حديث: (لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً) أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس.

وليس يقصد منه التعبد، كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته. ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع. فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك في دركهما جميع الناس. والقسم الثالث: هو المركب الذي يقصد منه الأمران جميعاً وهو حظ العباد وامتحان المكلف بالاستعباد، فيجتمع فيه تعبد رمي الجمار وحظ رد الحقوق فهذا قسم في نفسه معقول، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ولا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهماً، ولعل الأدق هُو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم ينتبه له غير الشافعي رضي الله عنه، فحظ الفقير مقصود في سدّ الخلة وهو جلي سابق إلى الأفهام وحق التعبد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع، وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مباني الإسلام. ولا شك في أن على المكلف تعبأ في تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته، ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي، والتساهل فيه غير قادح في حظ الفقير لكنه قادح في التعبد، ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها في كتب الخلاف من الفقهيات، ومن أوضحها أنَّ الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقدين والتقويم، وإن قدّر أنّ ذلك لقلة النقود في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهماً في الجبران مع الشاتين فلم يذكر في الجبران قدر النقصان من القيمة؟ ولم قدر بعشرين درهماً وشاتين؟ وإن كانت الثياب والأمتعة كلها في معناها. فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما في الحج ولكن جمع بين المعنيين. والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه.

الرابع: أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعير المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها، وفي النقل تخييب للظنون. فإن فعل ذلك أجزأه في قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال من تلك البلدة.

الخامس: أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه بدل ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا المّبَدَتُ الْفُكْرَآهِ وَالْسَكِكِنِ﴾ [القربة: ٢٠] الآية. فإنه يشبه قول المريض: إنما ثلث مالي للفقراء والمساكين، وذلك يقتضي التشريك في التمليك، والعبادات ينبغي أن يُتَوَقّى عن الهجوم فيها على الظواهر. وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد: وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف: الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون ـ أعني أبناء السبيل ـ، وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض: وهم الغزاة والمكاتبون. فإن وجد خمسة أصناف مثلاً قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم، ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متفاوتة، وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد. وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد. وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن يقصم غي كل صنف عن ثلاثة إن وجد. ثم لو لم يجب إلا صاع للفطرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً، ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد. فإن عسر عليه فلك لقلة الواجب فليتشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين فلك لقلة الواجب فليتشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساهموا قيه، فإن ذلك لا بد منه.

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة:

اعلم: أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف:

الوظيفة الأولى: فهم وجوب الزكاة ومعناها ووحه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مباني الإسلام مع أنها تصرف مالي وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاث معان:

الأول: أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد، فإن المحبة لا تقبل الشركة، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم، وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُثْرِينِينَ ٱنفُسَهُمْرَ وَأَمْوَلَهُمْ بِأَنْكَ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبّة: ١١١]، وذلك بالجهاد وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عزّ وجلّ والمسامحة بالمال أهون. ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم صدِّقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدُخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم: كم يجب من الزكاة في مأتتي درهم؟ فقال: أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع، ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله، وعمر رضي الله عنه بشطرِ ماله، فقال ﷺ: هُمَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، فقال مثله، وقال لأبي بكّر رضي الله عنه: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟»، قال: الله ورسوله فقال ﷺ: «بَيْنَكُمُا مَا بَيْنَ كَلِمَنْيكُمَّا»(١)، فالصَّدُيق وفي بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله. القسم الثاني: درجتهم دون درجة هذا وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخبرات، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة. وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد. قال الشعبي بعد أن قيل له: هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم أما سمعت قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَانَ ٱلْمَالَ عَلَنَ مُجْنِهِ. ذَوِى ٱلْقُسُرُفِ﴾ [البَقْرَة: ١٧٧] الآية. واستدلوا بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِمَّا رَزُقْنَهُمْ يَفِقُوكَ﴾ [البَقرَء: ٣]، ويقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَكُمُ﴾ [المئافِقون: ١٠]، وزعموا أنّ ذلك غير منسوخ بآية الزكاة، بل هو داخل في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة، والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزائتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع مسلم، ولكن يحتمل أن يقال: ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة قرضاً ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه، ويحتمل أن يقال: يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض، أي لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام، وهي درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على

⁽۱) حديث: قجاء أبو نكر مجميع ماله وعمر بشطر ماله. . . قالحديث، أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث ابن همر ولبس فيه قوله: قبينكما ما بين كلمتيكما.

أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهي أقل الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِن بَنَكَكُنُوهَا نَيُعَنِكُمْ بَنَعَالُ﴾ [معند: ٣٧]، يحفكم أي يستقص عليكم، قكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأنّ له الجنة، وبين عبد لايستقصى عليه لبخله، فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال.

المعنى الثاني: التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات، قال ﷺ: فَلَلاَتُ مُهْلِكَاتُ: شُخّ مُطَاعٌ وَهَوَى مُتَبعٌ وَإِفْجَابُ الْمَرْءِ بِنَقْسِهِ أَنَّ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُونَ شُعَ نَقْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِحُونَ﴾ النعشر: ﴿ وَمَن يُونَ شُعّ نَقْسِهِ وَإِنْما تزول صفة البخل بأن تتعوّد الله وسيأتي في ربع المهلكات وجه كونه مهلكا وكيفية التقصي منه، وإنما تزول صفة البخل بأن تتعوّد بذل المال فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتياداً. فالزكاة بهذا المعنى طهرة أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

المعنى الثالث: شكر النعمة؛ فإن لله عزّ وجلّ على عبده نعمة في نفسه وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة المال. وما أخسٌ من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

الوظيفة الثانية: في وقت الأداء؛ ومن آداب ذوي الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات، وعلماً بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب. ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن، فينبغي أن يغتنم فإن ذلك لمة الملك قوقلُبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرُّحُمْنِ»، فما أسرع تقلبه والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر. وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعاً شهراً معلوماً وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سبباً لنماء قربته وتضاعف زكاته، وذلك كشهر المحرّم فإنه أوّل السنة وهو من الأشهر الحرم، أو رمضان فقد كان في أجود الخلق وكان في رمضان كالربح المرسلة لا يمسك فيه شيئاً (٢٠)، ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن. وكان مجاهد يقول: لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان. وذو الحجة أيضاً من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرامٌ وفيه الحج الأكبر وفيه العشر الأواخر، وأفضل أيام ذي الحجة العشر الأول.

الوظيفة الثالثة: الإسرار فإنّ ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال ﷺ: ﴿ أَفْضَلُ الصَّلَقَةِ جُهْدُ المُقِلُ إِلَىٰ فَقِيرٍ فِي سِرَ ﴾ . وقال بعض العلماء: ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة (٢٠)، وقد روي أيضاً

⁽١) حديث: اثلاث مهلكات. ، الحديث. تقدم.

⁽٧) حديث: «كان رسول الله ﷺ أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان... الحديث. أخرجاه من حديث ابن عباس.

 ⁽٣) حديث: «أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر»، أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي ذر، والأبي
 داود من حديث أبي هريرة: «أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل».

 ⁽٤) حديث: «ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة». أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز وحوامع الكلم من حديث
ابن عباس بسند ضعيف.

مسنداً. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلاً فِي السِّرْ فَيَكْتُبُهُ اللَّهُ لَهُ سِراً، فَإِنْ أَظْهَرَهُ نُقِلَ مِنَ السَّرُ وَكُتِبَ فِي العَلانِيَةِ، فَإِنْ تَحَدَّكَ بِهِ نُقِلَ مِنَ السَّرِّ وَالعَلاتِيَةِ وَكُتِبَ رِياءًا'''. وفي الحديث المشهور: «سَبْعَةٌ يُظِلَّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلْهُ أَحَدُمُمْ: رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ قَلَمْ تَعْلَمْ شِمَالُهُ بِمَا أَعْطَتْ يَمِينُهُ (٧٠). وفي المخبرِّ: «صَفَقَةُ السَّرُ تُطْفِيءُ خَضَبَ الرُّبِّ»(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُومَا وَثُوْتُوكَا ٱلْفُخَرَّةَ فَهُوَ خَيْرٌ رَّكُمُّ ﴾ [البَقَرَة: ٢٧١]. وفائدة الإخماء الخلاص من آفات الرياء والسمعة، فقد قال ﷺ: ﴿لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُسْمِع وَلا مُرَاءٍ وَلا مَنَانِ وَالمُتَحَدِّثُ بِصَدَقَتِهِ يَطُلُبُ السُّمْعَةَ وَالمُعْطِي فِي مَلاً مِنَ النَّاسِ يَبْغِي الرِّيَاءَ، وَالْإِخْفَاءَ وَالسُّكُوتَ هُوَ المُخَلِّصُ مِنْهُا(٤). وقد بالغ في فضل الإخفاء جَّماعَّة حتى اجتهدُوا أن لا يعرف القابض المعطى، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى، وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى، وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه، كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة. ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى؛ إذ في معرفة المسكين الرياء والمئة جميعاً وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء. ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله، لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال، وحب الجاه أشدُ استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة، ولكن صفة البخل تنقلب في القبر في حكم المثال عقرباً لادعاً، وصفة الرياء تنقلب في القبر أفعى من الأفاعي وهو مأمور بتضعيفهما أو قتلهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما، فمهما قصد الرياء والسمعة فكأنه جعل بعض أطراف العقرب مقوّياً للحية فبقدر ما ضعف من العقرب زاد في قوّة الحية، ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه. وقوّة هذه الصفات التي بها قوّتها العمل بمقتضاها، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها، فأي فائدة في أن يخالف دواعي المخل ويجيب دواعي الرياء فيضعف الأدنى ويقوّي الأقوى؟ وستأتي أسرار هذه المعائى في ربع المهلكات.

الوظيفة الرابعة: أن يظهر حيث يعلم أنَّ في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء بالطريق الذي سنذكره في معالجة الرياء في كتاب الرياء، فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن تُسَدُّواً اَلصَّدَقَتِ فَنِصِمًا هِيُّ﴾ [البَقرَة: ٢٧١]، وذلك حيث يقتضي الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل عن ملاٍ من الناس، فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار، بل يبنغي أن يتصدّق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المنَّ والرياء وهو هتك

 ⁽١) حديث: فإن العبد ليعمل هملاً في السر فيكتبه الله أنه سراً فإن أظهره نقل من السر. . الحديث، أخرج الخطيب في
 التاريخ من حديث أنس نحوه بإسناد ضعيف.

 ⁽٢) حديث: اسبعة يظلّهم الله في ظله . . الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: اصدقة السر تطفىء قضب الربه. أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة، ورواه أبو الشيخ في كتاب
الثواب، والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد كلاهما ضعيف، والترمذي وحسته من حديث أبي هريرة: اإن
الصدقة لتطفىء قضب الربه. ولابن حبان نحره من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً.

 ⁽٤) حديث: «لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان» لم أظفر به هكذا.

ستر الفقير، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه، فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محظور، والتجسس فيه والاعتياد بذكره منهي عنه، فأما من أظهره فإقامة الحدّ عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها. ويمثل هذا المعنى قال على: ﴿ وَأَنفَقُوا مِنّا رَنَفْتُهُمْ سِرًا المعنى قال على: ﴿ وَأَنفَقُوا مِنّا رَنَفْتُهُمْ سِرًا وَقَدَ قال الله تعالى: ﴿ وَأَنفَقُوا مِنّا رَنَفْتُهُمْ سِرًا وَقَد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنفَقُوا مِنّا رَنَفْتُهُمْ سِرًا وَكُلا عِيبَةً لَهُ الله وقل الله المعنى العبد دقيق التأمل في وَكَلائِكَ ﴾ [الرّعد: ٢٧]. ندب إلى العلانية أيضاً لما فيها من فائدة الترغيب، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فقد يكون الإعلان في بعص الأحوال لبعض الأشخاص أفضل. ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال.

الموظيفة الخامسة: أن لا يفسد صدقته بالمن والأذي، قال الله تعالى: ﴿لَا نُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِٱلْمَنّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤]، واختلفوا في حقيقة المن والأذي، فقيل: المن أن يذكرها، والأذي أن يظهرها. وقال سفيان: من منَّ فسدت صدقته فقيل له: كيف المن؟ فقال: أن يذكره ويتحدَّث به. وقيل: المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذي أن يعيره بالفقر. وقيل: المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذي أن ينتهره أو يوسخه بالمسألة. وقد قال ﷺ: ﴿لا يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةَ مَنَّانٍ (٢). وعندي أنَّ المن له أصل ومغرس وهو من أحوال القلب وصفائه، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح. فأصله أن يرى نفسه محسمًا إليه ومنعماً عليه، وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عزَّ وجلُّ منه الذي هي طهرته ونجاته من النار، وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهناً به فحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه نائباً عن الله عزّ وجلُّ في قبض حق الله عزَّ وجلَّ. قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُم بِيَدِ اللَّهِ عَزٌّ وَجَلَّ قَبَلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ*(٣)، فليتحقق أنه مسلم إلى الله عزَّ وجلَّ حقه، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عَزَّ وجلَّ. ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذي هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدي الدين كون القابض تحت منته سفهاً وجهلاً، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه، أما هو فإنما يقضي الذي لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع في حق نفسه فلم يمن به على غيره. ومهما عرف المعاني الثلاثة التي ذكرناها في فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه، إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى، أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل، أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد. وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حين يرى نفسه محسناً إليه، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسناً إليه تفرّع منّه على ظاهره ما ذكر في معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور، فهذه كلها ثمرات المنة. ومعنى المنة في الباطن ما ذكرناه.

وأما الأذى: فظاهره التوبيخ والتعيير، وتخشين الكلام، وتقطيب الوجه، وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف، وباطنه وهو منبعه أمران: أحدهما: كراهيته لرفع اليد عن المال وشدّة ذلك على

⁽١) حديث: امن ألمتي جلباب الحياء فلا فيبة له، أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف.

 ⁽٢) حديث: الا يقبل الله صدقة منان، هو كالذي قبله بحديث لم أجده.

 ⁽٣) حديث: إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في بد السائل؟. أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس،
 وقال: غريب من حديث عكرمة عنه، ورواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

كتاب أسرار الزكاة

نفسه فإنَّ ذلك يضيق الخلق لا محالة. والثاني: رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه، وكلاهما منشؤه الجهل. أما كراهية تسليم المال فهو حمق؛ لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي ألفاً فهو شديد الحمق، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عزّ وجلّ والثواب في الدار الأخرة، وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكراً لطلب المزيد، وكيفما ورض فالكراهة لا وجه لها. وأما الثاني. فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغني وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام، ولذلك قال ﷺ: فَهُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ فقال أبو ذر: من هم؟ قال: هُمُ الأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً ﴾ الحديث، ثم كيف يستحقر الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له؟ إذ يكتسب المال بجهده ويستكثر منه ويجتهد في حفظه بمقدار الحاجة، وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه العاضل الذي يضره لو سلم إليه، فالغني مستخدم للسعى في رزق الفقير ويتميز عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه، فإن مهما انتقلت الكراهية وتبدّلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له أداء الواجب وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهدته بقبوله منه انتفى الأذي والتوبيخ، وتقطيب الوجه وتبدِّل بالاستبشار والثناء وقبول المنة، فهذا منشأ المنِّ والأذي.

فإن قلت: فرؤيته نفسه في درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسناً؟ فاعلم أنَّ لهُ علامة دقيقة واضحة، وهو أن يفدِّر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالأ عدواً له عليه مثلاً هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له على استنكاره قبل التصدِّق؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك.

فإن قلت: فهذا أمر غامص ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه؟ فاعلم: أنَّ له دواة باطناً ودواة طاهراً. أما الباطن: فالمعرفة بالحقائق التي ذكرناها في فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه في تطهيره بالقبول. وأما الظاهر: فالأعمال التي يتعاطاها متقلد المنة فإن الأفعال التي تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق .. كما سيأتي أسراره في الشطر الأخير من الكتاب .. ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويتمثل قائماً بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده. وكان بعضهم يبسط كفه ليأحذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هي العليا. وكَانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول: احفظ ما يدعو به، ثم كانتا تردان عليه مثلَ قوله وتقولان: هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا. فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله. وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبدالله رضي الله عنهما. وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم، ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل. وهذه الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة، وثبت ذلك بقوله ﷺ: ﴿لَيْسَ لِلْمَرْءِ مِنْ صَلاتِهِ إِلاَّ مَا عَقَلَ مِنْهاهُ٬٬٬ وهذا كقوله ﷺ: ﴿ لَا يُتَقَبِّلُ اللَّهُ صَدَقَةً مَثَّانِ ﴾، وكقوله عزّ وجلّ: ﴿ لَا نُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِٱلْسَ وَٱلْأَذَىٰ ﴾

حديث: اليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منهاه، تقدم في الصلاة.

[البَثَرَة: ٢٦٤]، وأما فتوى الفقيه بوقوعها موقعها وبراءة ذمته عنها دون هذا الشرط فحديث آخر، وقد أشرنا إلى معناه في كتاب الصلاة.

الوظيفة السادسة: أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال، قال تعالى: ﴿وَيُومَ حُنَيْنٍ إِذَ أَعْجَبَتُكُمْ كَمْرَتُكُمْ فَلَمْ تَعْنِ عَنَكُمْ اللّهِ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهِ عِلَى اللهِ عَلَى اللهِ ويقال: إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجلّ، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجلّ، ويقيل: لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور: تصغيره وتعجيله وستره. وليس الاستعظام هو المن والأذي، فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذي، بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل، أما العلم: فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخسّ درجات البلل _ كما ذكرنا في فهم الوحوب _ فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه؟ فالمال لله عزّ وجلّ وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم من أين له المال وإلى ماذا يصرفه؟ فالمال لله عزّ وجلّ وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم في حتى منه فكيف عن حق الله سبحانه وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله في حتى الله عز وجلّ ما ينتظر عليه أضعافه؟ وأما العمل: فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عزّ وجلّ، فتكون هيئته الانكسار والحياء، كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض، لأن المال كله لله عزّ وجلّ وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه، وإنما لم يأمر بعضها ويرد البعض، لأن المال كله لله عزّ وجلّ وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه، وإنما لم يأمر بعده لأنه يشق عليه بسبب بخله، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَيَعْفِكُمْ تَبَعُلُوا المَعْد والله عَل الله الله عن ونما لم يأمر

الوظيفة السابعة: أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإذا كان المخرج منه شبهة فربما لا يكون ملكاً له مطلقاً فلا يقع الموقع. وفي حديث أبان عن اتس بن مالك: «طُوبَيْ لِعَبْدِ أَنْفَقَ مِنْ مَالِ اكْتَسَبّهُ مِنْ خَيْرِ مَعْصِيّةٍ» (١٠)، وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أرداً طعام في بيته لأوغر بذلك صدره، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من يؤثر غيره على نفسه، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى، والذي يأكله قضاء وطر في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى: ﴿ يَكَانَهُمَ اللّذِينَ عَامَلُوا أَنْفِقُوا مِن كَلّبَتُهِ وَلَيْكُ اللّذِينَ عَامَلُوا أَنْفِقُوا مِن كَلّبَتُ وَمِنَا أَلْكِنَ عَامَلُوا أَنْفِقُوا مِن كَلْبَتُهُ وَمِنَا أَلْقِينَ وَلَمْ مِائَةً أَنْفِقُونَ وَلَمْ مَائُوا أَنْفِقُوا مِن كَلْبَتُهُمْ وَمَنَا اللهُ تعالى على الماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والموح الفي ورْهَم عائة وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والموح بالبذل، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيع ما بنذل ما يكرهون، فقال تعالى: ﴿ وَبَهَمَالُونَ لِلّهُ مَا يُكْرَمُونَ وَلَهُ بَا يُكْرَمُونَ عَلَيْهُمُ النَّهُمُ اللَّهُ مَا يُكَرِهُونَ المَالَى الله تعالى قوماً جعلوا لله ما يكرهون، فقال تعالى: ﴿ وَبَهَمَالُونَ لِلّهُ مَا يَكُرهُونَ وَلَهُ بعض القراء على النفي تكذيباً لهم، ثم ابتذاً وقيف بعض القراء على النفي تكذيباً لهم، ثم ابتذاً

⁽١) حديث أنس: اطويي لعبد أنفق من مال اكتسبه من فير معصية الخرجه ابن عدي والبزار.

⁽٣) حديث: «سبق درهم مائة ألف. أخرجه النسائي وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة.

وقال: ﴿جَكَرَمَ أَنَّ لَمُمُّ ٱلنَّارَ ﴾ [النحل. ٦٢]، أي كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار.

الوظيفة الثامئة: أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية، فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهي سنة:

الأولى: أن يطلب الأنقياء المعرضين عن الدنيا المتجرّدين لتجارة الآخرة. قال ﷺ: قلا تَأْكُلُ إِلاَ عَلَمَ نَقِي وَلا يَأْكُلُ طَعَامَكُ إِلاَ تَقِيّ وَلا يَأْكُلُ طَعَامَكُ إِلاَ تَقِيّ إِلاَ يَقْتِي وَلا يَأْكُلُ طَعَامَكُمُ الأَنْقِيَاءَ وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)، وفي لفظ آخر: الطعامية وقال ﷺ: وقال ﷺ في الله تَمَالَىٰ (٣٠)، وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له والله عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل، فقال: لا هؤلاء قوم هممهم لله سبحانه فإذا طرقتهما فاقة تشتت هم أحدهم، فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلي من أن أعطي ألفاً ممن طرقتهما فاقة تشتت هم أحدهم، فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلي من أن أعطي ألفاً ممن منذ زمان كلاماً أحسن من هذا، ثم حكي أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالاً وقال: اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك، وكان هذا الرجل بقالاً المأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه.

الصفة الثانية: أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية. وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم فقيل له: لو عممت، فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل.

الصفة الثالثة: أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد. وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز رجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة، فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه. وفي وصية لقمان لابنه: لا تجعل بينك وبين الله منعماً واعدد نعمة غيره عليك مغرماً. ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ سلط الله تعالى عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل في قلبه أن صلاح دينه ودنياه في فعله. فمهما قوي الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه، والله عز وجل خالق للبواعث ومهيجها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البواعث. فمن تبقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب، وتبقن مثل هذا العبد الموحد للمعطي من ثناء غيره وشكره، فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تصيع. وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء، وأحواله لا تصيع. وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيذم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء، وأحواله

 ⁽۱) حدیث «لا تأکل إلا طعام تقي ولا یأکل طعامك إلا تقي». أخرجه أبو داود والترمذي من حدیث أبي سعید بلفظ:
 «لا تصحب إلا مؤمناً ولا یأکل طعامك إلا تقی».

 ⁽۲) حديث: «أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروقكم المؤمنين». أخرجه ابن المبارث في البر والصلة من حديث أبي سعيد الخدري. قال ابن طاهر: غريب فيه مجهول.

 ⁽٣) حديث "أضف بطعامك من يحبه الله على أخرجه ابن المبارك أنبأنا جويبر عن الضحاك مرسلاً.

متفاوتة. وقد روي أنه ﷺ بعث معروفاً إلى بعض الفقراء، وقال للرسول: «احقظ ما يقول»؛ فلما أخذ قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره، ثم قال: اللهم إنك لم تنس فلاناً يعني نفسه _ فاجعل فلاناً لا ينساك _ يعني يفلان نفسه _ فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فَسُرٌ وقال ﷺ: «عَلِمْتُ أَنْهُ يَقُولُ ذَلِكَ (١٠). فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده، وقال ﷺ لرجل: «قب». فقال: أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد؟ فقال ﷺ: «عَرَفَ الحَقَّ لأَعْلِهِ» (١٠). ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قال أبو بكر رضي الله عنه: قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ فقالت: والله لا أفمل ولا أحمد إلا الله فقال ﷺ: فدّ فقها يَا أَيا بَكُرٍ» (١١)، وفي لفظ آخر: «أنها رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه: يحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك، فلم ينكر رسول الله ﷺ ورؤية الأشياء من رسول الله ﷺ ورؤية الأشياء من أن الوحي وصل إليها على لسان رسول الله ﷺ، ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَا ذُكِرَ اللهُ وَمَنَهُ أَشَمَأَنَتُ قُلُوبُ الَّذِينَ عِن دُونِهِ إِنَا هُمْ يَشْنَشِرُونَ ﴿ اللهُ الشرك الخفي سره، فليتق الله سبحانه عن رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي سره، فليتق الله سبحانه في تصفية توجده عن كدورات الشرك وشوائبه.

الصفة الرابعة: أن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى، أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقبت عادته، فهو يتعيش في جلباب التجمل. قال الله تعالى: ﴿ يَمْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ مَن ذهبت نعمته وبقبت عادته، فهو يتعيش في جلباب التجمل. قال الله تعالى: ﴿ يَمْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ النّبَهُمُ لا يَسْتَكُونَ النّاسَ إِلْحَافَاكُ [البَقْرَة: ٢٧٣]، أي لا يلحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم، وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

الصفة الخامسة: أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿ لِلْقُـفَرَآءِ اللَّذِيكِ أَشْمِهِ عُرَا فِي طريق الآخرة

⁽١) حديث: البعث معروفاً إلى بعض الفقراء وقال للرسول: الحفظ ما يقول، فلما أخذه قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره... المحديث. لم أجد له أصلاً إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر، وروى ابن مندة في الصحابة أوله ولم يستى هذه القطعة التي أوردها المصنف وسمي الرجل حديراً، فقد روينا من طريق البيهقي: «أنه وصلى لحدير من أبي الدرداء شيء فقال. اللهم إنك لم تنس حديراً فاجعل حديراً لا ينساك، وقيل: إن هذا آحر لا صحبة له يكنى أبا جريرة وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

 ⁽۲) حديث: قال لرجل: تب فقال: أترب إلى الله ولا أتوب إلى محمد. ٤٠ الحديث، أخرجه أحمد والطبراني من حديث الأسود بن سريع بسند ضعيف.

⁽٣) حديث: «لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر: قومي فقبلي رأس رسول الله على ..» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ: «فقال أبواي: قومي فقبلي رأس رسول الله على فقلت: أحمد الله لا إياكما ، وللبخاري تعليفاً «فقال أبواي: قومي إليه فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد كما ولكن أحمد الله ، وله ولمسلم «فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله وللطبراني «فقالت؛ بحمد الله لا بحمد صاحبك» وله من حديث ابن عباس: «فقالت: لا بحمدك ولا بحمد صاحبك» وله من حديث ابن عمر «فقال أبو بكر: قومي فاحتضني رسول الله على فقالت: لا والله لا أدنو منه ..» الحديث. وفيه «أنها قالت للنبي على بحمد الله لا بحمدك».

بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب ﴿لَا يَسْتَلِبُونَ صَسَرًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣]، لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف. فلهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطي أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها ـ وكان ﷺ يعطي العطاء على مقدار العَيْلة (١٠ . وسئل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء، فقال: كثرة العيال وقلة المال.

الصفة السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى. قال على رضي الله عنه: لأن أصل أخاً من إخواني بدرهم أحب إليَّ من أن أتصدق بعشرين درهماً أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بعشرين درهماً أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحب إليَّ من أن أعتق رقبة. والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً يقدّمون على المعارف كما يتقدّم الأقارب على الأجانب، فليراع هذه الدقائق.

فهذه هي الصفات المطلوبة، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى، ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، فإن أحد أجريه في المحال تطهير نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عزّ وجلّ وجلّ في قلبه فتشوّقه إلى لقاء الله عزّ وجلّ والأجر الثاني: ما يعود إليه من قائدة دعوة الآخذ وهمته فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل، فإن أصاب حصل الأجران، وإن أخطأ حصل الأوّل دون الثاني، فبهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر المواضم، والله أعلم.

**

الفصل الثالث

في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق:

اعلم: أنه لا يستحق الزكاة إلا حرّ مسلمٌ ليس بهاشمي ولا مطلبي، اتصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عزّ وجلّ. ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبي. أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما. فلنذكر صفات الأصناف الثمانية.

الصنف الأوّل: الفقراء، والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب، فإن كان معه قوت يومه فهو فقير، وإن كان معه قوت يومه فهو فقير، وإن كان معه قميص وليس معه منديل ولا خف ولا سراويل، ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما

 ⁽۱) حديث: اكان يعطى العطاء على مقدار العيلة، ثم أر له أصالاً والأبي داود من حديث عوف بن مالك: «أن
رسول الله على كاد إذا أتاه الفيء قسمه في يومه وأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حطاً».

يليق بالفقراء فهو فقير، لأنه في الحال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه، فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فإن هذا غلو، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرجه عن الفقر كونه معناداً للسؤال، فلا يجعل السؤال كسباً بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرجه عن الفقر، فإن قدر على كسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة، وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير، وإن كان متفقها ويمنعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته، وإن كان متعبداً يمنعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك. قال على الكسب في شبهة خير من مسألة. وإن كان مكتفياً بنفقة أبيه أو من تجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفيس بفير.

الصنف الثاني: المساكين؛ والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأساً وحبلاً وهو غني، والدويرة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين، وكذا أثاث البيث ـ أعنى ما يحتاج إليه ـ وذلك ما يليق به، وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكنة، وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر، وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه، ولكن ينبغي أن يحتاط في قطع الحاجة بالكتاب، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض: التعليم والآستفادة والتفرّج بالمطالعة. أما حَاجة التفرج فلا تعتبر كاقتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع في الآخرة ولا يجري في الدنيا إلا مجرى التفرج والاستئناس، فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكنة. وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجره فهذه آلته فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين، وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة. وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به، فإن كان في البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه. ثم ربما لَا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد ملَّة فيتبغي أن يضبط ملَّة الحاجة. والأقرب أن يقال: ما لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه فإنَّ من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة. فإذا قدرنا القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغي أن تقدّر بالسنة، فلا تباع ثياب الصيف في الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه، وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداهما.

فإن قال: إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما؟ قلنا: اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرّج والترفه، وإن كان نسختان من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى وجيزة، فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى. وأمثال هذه الصور لا تتحصر ولم يتعرّض له في فنّ الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبيه بحسن هذا النظر على غيره. فإنّ استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدّى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها وفي ثياب البدن وفي الدار وسعتها وضيقها. وليس لهذه الأمور حدود

 ⁽١) حديث: اطلب الحلال قريضة بعد القريضة، أخرجه الطرائي والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

محدودة ولكنّ الفقيه يحتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقتحم فيه خطر الشبهات. والمتورّع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه. والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينجى منها إلا الاحتياط، والله أعلم.

الصنف الثالث: العاملون؛ وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضي، ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفي والحافظ والنقال ولا يزاد واحد منهم على أجرة المثل، فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كمل من مال المصالح.

الصنف الرابع: المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وهم الأشراف الذين أسلموا وهم مطاعون في قومهم، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم.

الصنف الخامس: المكاتبون؛ فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبداً له.

الصنف السادس: الغارمون؛ والعارم هو الذي استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلا إذا تاب، وإن كان غنياً لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنة.

الصنف السابع: الغزاة؛ الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرترقة فيصرف إليهم سهم، وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو.

الصنف الثامن: ابن السبيل؛ وهو الذي شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إنْ كان فقيراً وإن كان له مال ببلد آخر أعطى بقدر بلغته.

فإن قلت: فهم تعرف هذه الصفات؟ قلنا: أما الفقر والمسكنة، فبقول الآخذ ولا يطالب ببينة ولا يحلف بل يجوز اعتماد قوله إذا لم يعلم كذبه. وأما الغزو والسفر، فهو أمر مستقبل فبعطى بقوله: إني غاز، فإن لم يف به استرد. وأما بقية الأصناف فلا بدّ فيها من البينة. فهذه شروط الاستحقاق. وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتي.

بيان وظائف القابض وهي خمسة:

الأولى: أن يعلم أنّ الله عزّ وجلّ أوجب صرف الزكاة إليه ليكفي همه ويجعل همومه هما واحداً. فقد تعبد الله عزّ وجلّ الخلق بأن يكون همهم واحداً وهو الله سبحانه واليوم الآخر، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَقْتُ لَلْمِنَ وَالْإِنَى إِلّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذّاريّات: ٢٥]، ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلط على العبد الشهوات والحاجات وهي تفرّق همه اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكفي الحاجات، فأكثر الأموال وصبها في أيدي عباده لتكون آلة لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعاتهم، فمنهم من أكثر ماله فتنة ويلية فأقحمه في الخطر، ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتعب في الجمع والحفظ عليهم، وفائدته تنصب إلى الفقراء فيتجرّدون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب الفاقة وهذا منتهى النعمة. فحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أنّ فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه ـ كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى _ فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه وزقاً له وعوناً له على الطاعة ولتكن نبته فيه أن يتقرّى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عزّ وجلّ، فإن استعان به نبته فيه أن يتقرّى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عزّ وجلّ، فإن استعان به

على معصية الله كان كافراً لأنعم الله عزّ وجلّ مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه.

الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرجه عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه، فقد قال على: "مَن لَمْ يَشْكُو النَّاسَ لَمْ يَشْكُو اللَّهُ (')، وقد أنى الله عزّ وجلّ على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وفاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى: في قلوب النَّهُ إِنَّهُ وَالله الله الله الله الله في على الله الله القابض في دعائه: طهر الله قلبك في قلوب الأبرار، وزكّى عملك في عمل الأخيار، وصلّى على روحك في أرواح الشهداء، وقد قال الله المنكر أن يستر عبوب العطاء إن كان فيه عبب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيّره بالمنع إذا منع ويفخم عند الشكر أن يستر عبوب العطاء إن كان فيه عبب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيّره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه. فوظيفة المعطي الاستصفار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام، وعلى كل عبد القيام بحقه، وذلك لا تناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض. والنافع للمعطي ملاحظة أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه. وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عزّ وجلّ، أسباب التصغير ويضره خلافه والآخذ بالعكس منه. وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عزّ وجلّ، فإن من لا يرى الواسطة أصلاً.

الثالثة: أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه ﴿ وَمَن يَتَقِ اللّهَ يَجْعَل لَهُ بَعْرَجًا ﴿ وَبَنُ عَن مِنْ حَبّ كُلا يَحْدَم الطلاق: ٢، ٣]، ولن يعدم المتورّع عن الحرام فتوحاً من الحلال، فلا يأخذ من أموال الأثراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكاً معيناً فله أن يأخذ بقدر الحاجة، فإنّ فتوى الشرع في مثل هذا أن لا يتصدّق به يعلى ما سيأتي بيانه في كتاب الحلال والحرام _ وذلك إذا عجز عن الحلال فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام.

الرابعة: أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق. فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجرة المثل. وإن أعطى زيادة أبي وامتنع إذ ليس المال للمعطي حتى يتبرع به. وإن كان مسافراً لم يزد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده، وإن كان غازياً لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة، وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حدّ، وكذا زاد السفر، والورع ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه. وإن أخذ بالمسكنة فلينظر أوّلاً إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغني عنه بعينه أو يستغني عن نفاسته فيمكن أن يبدل بما يكفي ويفضل بعض قيمته؟ وكل ذلك إلى اجتهاده. وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشتبهة، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، والاعتماد في هذا على قول الآخذ ظاهراً.

 ⁽١) حديث: قمن لم يشكر الناس لم يشكر الله. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد، وله ولأبي داود وابن
 حبان تحوه من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح.

 ⁽٣) حديث: «من أسدى إليكم معروفاً فكافتوه. . .» الحديث، أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ: «من صنع».

وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجاً إلى فنون من التوسع وهو ممقوت في الشرع. ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالاً كثيراً بل ما يتمم كفايته من وقت أخذه إلى سنة، فهذا أقصى ما برخص فيه من حيث إنَّ السنة إذا تكرَّرت تكرَّرت أسباب الدخل، ومن حيث إنَّ رسول الله ﷺ ادخر لعياله قوت سنة^(١)، فهذا أقرب ما يحدّ به حدّ الفقير والمسكين، ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى. ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة، فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصار على قدر قوت يومه وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنظلية: «أنه ﷺ نهى عن السؤال مع الغني فسئل عن غناه فقال ﷺ: غَدَاؤُهُ وَعَشَاؤُهُ» ، وقال آخرون: ياخذ إلى حدِّ الغني، وحدِّ الغني نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا: له أن يأخذ لنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة. وقال آخرون: حد الغبي خمسون درهماً أو قيمتها س الذهب لما روى ابن مسعود أنه ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَالٌ يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ»، فسئل: وما غناه؟ قال: «خَمْسُونَ فِرْهَما أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِه (٣٠)، وقيل: راويه ليس بَّقوي. وقال قوم: أربعون، لما رواه عطاء بن يسار منقطعاً أنه ﷺ قال: ﴿مَنْ سَأَلَ وَلَهُ أُوفِيَّةٌ فَقَدْ ٱلْحَفَّ فِي السُّواكِ، ﴿ ا وبالغ آخرون في التوسيع فقالوا له أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيىء بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الغني، وقد قال عمر رضى الله عنه: إذا أعطيتم فأغنوا. حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال. ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال: جعلته صدقة، فقال ﷺ: ﴿اجْعَلْهُ فِي قَرَابَتِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ﴿ ۚ ۚ ، فأعطاه حسان وأبا قتادة. فحائط من نخل لرجلين كثير مغن، وأعطى عمر رضي الله عنه أعرابياً ناقة معها ظئر لها فهذا ما حكى فيه. فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر، بل التجويز إلى أن يشتري ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضاً ماثل إلى الإسراف. والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه فيه خطر وفيما دونه تضييق. وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له. ثم يقال للورع: «اسْتَفْتِ قُلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكُ *) كما قاله ﷺ إذ الإثم حزاز القلوب، فإذا وجد القابض في نفسه شيئاً مما يأخذه فليتق الله فيه ولا يترخص تعللاً بالفتوى

 ⁽١) حديث: «ادخر لعياله قوت سنة». أخرجاه من حديث عمر عمان يعزل نفقة أهله منثه وللطبرائي في الأوسط من حديث أنس: عمان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقي» قال الذهبي: حديث منكر.

 ⁽۲) حديث سهل بن الحنطلية: (في النهي عن السؤال مع العنى فيسأل ما يُغنيه فقال: قفاؤه وهشاؤه). أخرجه أبو داود
 وابن حبان بلفظ: (من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم.) الحديث.

 ⁽٣) حديث ابن مسعود: قمن سأل وله ما يفنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش. . الحديث. أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي وضعفه النسائي والخطابي.

⁽٤) حديث عطاء بن يسار منقطعاً: امن سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال». أخرجه أبو داود والنسائي من رواية عطاء عن رجل من بني أسد متصلاً وليس بمنقطع كما ذكر المصنف الأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته، وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد.

 ⁽٥) حديث: الما شغل أبا طلحة يستانه عن الصلاة قال: جعلته صدقة؛ تقدم في الصلاة.

⁽٦) حديث: «أستفت قلبك وإن أفتوك» نقدم في العلم.

من علماء الظاهر، فإن لفتواهم قيوداً ومطلقات من الضرورات، وفيها تخمينات واقتحام شبهات. والتوقي من الشبهات من شيم ذوي الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة.

الخامسة: أن يسأل صاحب المال عن قدر الواحب عليه، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فلينقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صنفه. وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق، فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم، وسيأتي ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال في كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى.

* * *

الفصل الرابع

في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة:

من الأخبار: قوله ﷺ: «تَصَدُّقُوا وَلَوْ بِتَمْرَةٍ فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الجَائِعِ وَتُطْفِىءُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِىءُ المَاءُ النَّارَ» ('')، وقال ﷺ: «اَتَقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّ تَمْرَةٍ فَإِنَّ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيْبَةٍ ('')، وقال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدِ مُسْلِم يَتَصَدُّقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ طَيْبًا إِلاَّ كَانَ اللَّهُ آخِلَها بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيها كَمَا يُرَبِّي مُسْلِم يَتَصَدُقُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ كَانَ اللَّهُ آخِلَها بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيها كَمَا يُرَبِّي أَخَدُكُمْ فَصِيلَهُ حَتَّىٰ تَبْلُغَ التَّمْرَةُ مِثْلَ أُحُدِه ('''). وقال ﷺ لأبي الدرداء: "إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْبُرْ مَاءَها ثُمُّ انْظُرْ إِلَىٰ أَخْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَائِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهُ بِمَعْرُوفٍ ('')، وقال ﷺ: «مَا أَخْسَنَ عَبْدُ الصَدَقَةِ إِلاَّ أَحْسَنَ عَبْدُ الضَدَقَة إِلاَ أَحْسَنَ النَّاسِ ('')،

⁽۱) حديث: «تصدقوا ولو يتمرة فإنها تسد من المجامع وتطفىء الخطيعة كما يطفىء الماء النار» أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عكرمة مرسلاً. ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن: «استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من البحائع مسدها من الشبعان» ولأبي يعلى والبزار من حديث أبي بكر: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقوم الموج وتدفع ميتة السوء وتقع من المجامع موقعها من الشبعان»، وإسناده صعيف وللترمذي والنسائي في الكبرى وابن ماجه في حديث معاذ: «والصدقة تطفىء المخطيعة كما يطفىء الماء المنار».

 ⁽۲) حديث: ااتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طبية ا أخرجاه من حديث عدي بن حاتم.

 ⁽٣) حديث: ‹ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً. .» الحديث. أخرجه البخاري تعليقاً
 ومسلم والترمذي والنسائي في الكبرى، واللفظ لابن ماحه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٤) حديث: «قال لأبي الدردا»: إذا طبخت مرقة قاكثر ماءها..» الحديث. أخرجه من حديث أبي ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبي الدرداء وهم.

حديث: «ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله المخلافة على تركته». أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث ابن شهاب مرسلاً بإسناد صحيح وأسنده الخطيب فيمن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه.

 ⁽٦) حديث: «كل امرىء في ظل صدقته حثى يقضى بين الناس» أخرجه أنن حبان والداكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة بن عامر.

وقال ﷺ: «الصَّدَقَةُ نَسُدُ مَبْعِينَ بَاباً مِنَ الشَّرُه (۱)، وقال ﷺ: «صَدَقَةُ السَّرُ تُطْفِيءُ فَضَبَ الربَ عَرَّ وَقال رسول الله ﷺ: «ما اللّٰبِي أَفْطَىٰ مِنْ سَمَةِ بِأَفْضَل أَجْراً مِنَ اللّٰبِي يَقْبُلُ مِنْ حَاجَتِه (۱)، ولعل المراد به الذي يقصد من دفع حاجته النفرغ للدين فيكون مساوياً للمعطي الذي يقصد بإعطائه عمارة دينه. وسئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أَنْ تَصَّدُقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَجِيحٌ تَأْمُلُ البَقَاءَ وَتَحْشَىٰ الفَاقَةَ وَلا تُمْهِلَ حَنِّى إِذَا يَلَغَتِ المُحْلَقُومَ قُلْتَ لِفُلانٍ كَذَا وَلِفُلانِ كَذَا وَلَهُ كَانَ لِفُلانٍ (۱)، وقد قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ» فقال: إن عندي ديناراً، فقال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ» فقال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ» فقال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ» فقال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ وَلَدِكَ» قال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ وَلَدِكَ» قال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ» قال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ وَلَدِكَ» قال: إن عندي آخر، قال: «أَنْفِقُهُ عَلَىٰ وَلَدِكَ» قال: إن عندي آخر، قال الله وَلَوْ بِمِقْلِ رَأْسِ الطَّاثِرِ مِنَ الصَّدَقَةُ لاَلٍ مُحَمَّدٍ إِنْما هِي أَوْسَاخُ النَّاسِ» (۱)، وقال ﷺ: وأَنْتَ أَبْصَرُ بِهِ اللّهِ عَرْ وَقَلْ إللهُ عَمْ وَقُلْ اللّهِ عَلَى عَلَى اللّهِ عَرْ وَجَلَ مَا الْمَعْمُ وَلَا عَلْهُ وَلَا عَلَى اللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا الْمُعَمُّقُ مَنْ رَقُولُ إِنْ شِتْمُ : ﴿لَا يَسَعُلُ وَالَى اللّهِ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيِهِ مِنْهُ وَاللّهُ مَنْ وَقَال اللّهِ عَرْ وَجَلَ مَا وَامَتُ مَلْيِهِ مِنْهُ وَاللّهُ مَنْ وَقَالَ اللّهِ عَرْ وَجَلَ مَا وَامَتُ مَلْيِهِ مِنْهُ وَاللّهُ مَنْ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيِهِ مِنْهُ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَاللّهُ عَرْ وَجَلَ مَا وَامَتُ مَلْيِهِ مِنْ اللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا فَامَتُ مَلْيِهِ مِنْهُ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيِهِ مِنْ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيِهِ مِنْ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيَهِ مِنْ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيَهُ مِنْ وَاللّهُ مَنْ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيَهُ مِنْ وَاللّهُ عَرْ وَجَلُ مَا وَامَتُ مَلْيَ

الآثار: قال عروة بن الزبير: لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بخمسين ألفاً وإن درعها لمرقع، وقال مجاهد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُطْعِئُونَ الطَّعَامُ عَلَى خُيِّهِ مِسْكِهَا وَبَيْمًا وَأَيْمِرًا ﴿ الْإِنسَان: ٨]، فقال:

 ⁽١) حديث: «الصدقة تسد سبعين باباً من الشر». أخرجه ابن المبارك في البر من حديث أنس بسند ضعيف: «إن الله لبدراً بالصدقة سبعين باباً من ميتة السوء».

 ⁽٢) حديث: «ما المعطي من سعة بأقضل أجراً من الذي يقبل من حاجة». أخرجه ابن حبان في الضعفاء والطبراني في
 الأوسط من حديث أنس ورواه في الكبير من حديث ابن همر بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: قسئل أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شجيح . . . ١ الحديث . أخرجاه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٤) حديث: «قال يوماً لأصحابه تصدقوا نقال رحل: إن عندي ديناراً، فقال: أنفقه على نفسك... الحديث. أخرجه أبو
 داود والنسائي واللفظ له وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة. وقد تقدم قبل بيسير.

حديث. «لا تحل الصدقة لآل محمد .» المحديث. أخرجه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة.

 ⁽٦) حديث، اردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام، أخرجه العقيلي في الضعفاء من حديث عائشة.

 ⁽٧) حديث: الو صدق السائل ما أفلح من ردمه أخرجه العقيلي في الضعفاء وابن عبدالبر في التمهيد من حديث عائشة،
 قال العقيلي: لا يصح في هذا الباب شيء، وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

 ⁽٨) حديث: اكان لا يكل خصلتين إلى غيره. . الحديث. أخرحه الدارقطتي من حديث ابن عباس بسند ضميف ورواه
 ابن المبارك في البر مرسلاً.

⁽٩) حديث: اليس المسكين الذي ترده التمرة والشرتان. ٤ الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

⁽١٠) حديث: اما من مسلم يكسو مسلماً إلا كان في حفظ الله. ١ الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس، وفيه خالد بن طهمان ضعيف.

وهم يشتهونه. وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على ذوي الحاجة منا. وقال عمر بن عبدالعزيز: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه. وقال ابن أبي الجعد: إن الصدقة لتدفع سبعين باباً من السوء وقضل سرها على علانيتها بسبعين ضعفاً وإنها لتفك لعمي سبعين شيطاناً. وقال ابن مسعود: إن رجلاً عَبَدَ الله سبعين سـة، ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة. وقال لقمان لابنه: إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة. وقال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة. وقال عبدالعزيز بن أبي روّاد: كان يقال ثلاثة من كنورْ الجنة: كتمان المرض، وكتمان الصدقة، وكتمان المصائب، وروي مسنداً. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن. وكان عبدالله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول: سمعت الله يقول: ﴿ لَنَ لَنَالُواْ ٱلَّذِ حَقَّى تُنفِقُواْ مِمَّا يُجَبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: ٩٧]، والله يعلم أنى أحب السكر. وقال النخعي: إذا كان الشيء لله عزّ وجلّ لا يسرني أنْ يكون فيه عيب. وقال عبيد بن عمير: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، وأعرى ما كانوا قط، فمن أطعم لله عزُّ وجلُّ أشبعه الله، ومن سقى لله عزَّ وجلُّ سقاه الله، ومن كسا لله عزَّ وجلَّ كساه الله. وقال الحسن: لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلي بعضكم ببعض. وقال الشعبي: من لم يَرَ نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه. وقال مالك: لا نرى بأساً بشرب المؤمن من الماء الذي يتصدق به ويسقى في المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص. ويقال: إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال للنخاس: أترضى في ثمنها الدرهم والدرهمين؟ قال: لا، قال: فاذهب فإن الله عزّ وجلّ رضي في الحور العين بالفلس واللقمة.

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها:

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك؛ فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل، ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل، وتحن نشير إلى ما في كل واحد من المعاني والآفات، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه.

أما الإخفاء ففيه خمسة معان:

الأول: أنه أبقى للستر على الآخذ، فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة، وكشف عن الحاجة، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف.

الثاني: أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء أو ينسبونه إلى أخذ زيادة. والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى. وقال أبو أبوب السختياني: إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسداً. وقال بعض الزهاد: ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون: من أين له هذا؟ وعن إبراهيم التيمي أنه رئي عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه: من أين لك هذا؟ فقال: كسانيه أخي خيثمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته.

الثالث: إعانة المعطى على إسرار العمل، فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر، والإعانة

على إتمام المعروف معروف، والكتمان لا يتم إلا باثنتين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى، ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فرده إليه، ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله، فقيل له في ذلك فقال: إن هذا عمل الأدب في إخفاء معروفه فقبلته، وذلك أساء أدبه في عمله فرددته عليه. وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئاً في الملأ فرده، فقال له: لم ترد على الله عزّ وجلّ ما أعطاك؟ فقال: إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عزّ وجلّ فرددت عليك شركك، وقبل بعض العارفين في السر شيئاً كان رده في العلانية فقيل له في ذلك، فقال: عصيت الله بالجهر، فلم أك عوناً لك على المعصية، وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك. وقال الثوري: لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته.

الرابع: أنّ في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً وليس للمؤمن أن يذل نفسه. كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول: إنّ في إظهاره إذلالاً للعلم وامتهاناً لأهله فما كنت بالذي أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله.

الخامس: الاحتراز عن شبهة الشركة. قال ﷺ: «مَنْ أُهْدِيَ لَهُ هَلِيَّةٌ وَعِنْدَهُ قَوْمٌ فَهُمْ شُرَكَاؤُهُ فِيهاهِ(١)، وبأن يكون ورقاً أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية، قال ﷺ: «أَفْضَلُ مَا يُهْدِي الرَّجُلُ إِلَىٰ أَخِيهِ وَرِقاً أَوْ يُطْمِمُهُ خُبْرَاًهُ(٢)، فجعل الورق هدية بانفراده فما يعطى في الملأ مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة.

أما الإظهار والتحدث به نفيه معان أربعة:

الأول: الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة.

المثاني: إسقاط الجاه والمنرلة، وإظهار العبودية والمسكنة، والتبرّي عن الكبرياء ودعوى الاستغناء، وإسقاط النفس من أعين الخلق. قال بعض العارفين لتلميذه: أظهر الأخد على كل حال إن كنت آخذاً فإنك لا تخلو عن أحد رجلين: رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك، أو رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذي يريده أخوك لأنه يزداد ثواباً بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك، فتؤجر أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه.

الثالث: هو أن العارف لا نظر له إلا إلى الله عزّ وجلّ، والسرّ والعلانية في حقه واحد فاختلاف الحال شرك في التوحيد. قال بعضهم: كنا لا نعباً بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية. والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال، بل ينبغي أن يكون النظر مقصور على الواحد الفرد.

حكي أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين فشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال: لينفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد، فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة، فسألهم فقالوا: فعلنا ما

 ⁽١) حديث: ‹من أهدي له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها›. أخرجه العقيلي وابن حبان في الضعفاء والطبراني في
 الأوسط، والبيهقي من حديث ابن عباس. قال العقيلي: لا يصح في هذا المتن حديث.

 ⁽٢) حديث: ﴿ أَفَضَلَ مَا يَهِدِي الرجل إلى أَخِيهُ ورقاً أو يعطيه خبزاً». أخرجه ابن عدي وضعفه من حديث ابن عمر:
 ﴿ أَفْضَلَ العملُ عند الله أن يقضي عن مسلم دينه أو يدخل عليه سروراً أو يطعمه خبزاً». والأحمد والترمذي وصححه من حديث البراء: ﴿ من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدى رقاقاً فهو كعناق نسمة».

أمرنا به الشيخ، فقال الشيخ للمريد: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال ذلك المريد: لم أقدر على مكان لا يراني فيه أحد فإن الله يراني في كل موضع، فقال الشيخ: لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عزّ وجلّ.

الرابع: أنَّ الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَوْ رَبَكَ مَعَدِّتْ ﴾ [الضحى: ١١]، والكتمان كفران النعمة، وقد ذم الله عزَّ وجلَّ من كتم ما آتاه الله عزَّ وجلِّ وقرنه بالبخل فقال تعالى: ﴿ اللَّذِينَ يَبَّخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ فِلْلُحْلِ وَيَحَنْتُونَ مَا مَاتَنَاهُمُ اللهُ عِن فَضْلِهِ ﴾ [النِّساء ٢٧]، وقال ﷺ: ﴿ إِذَا أَنْعَمَ اللّهُ عَلَىٰ عَبْدِ نِعْمَةُ أَحَبُ أَنْ تُرَىٰ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ * () . وأعطى رجل بعض الصالحين شيئاً في السر فرفع به يده وقال: هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفصل. ولذلك قال بعضهم: إذا أعطيت في الملأ فخذ ثم اردد في السر، والشكر فيه محثوث عليه. قال ﷺ: امْنَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهُ عَزِّ وَجَلِّ * () ، والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال ﷺ: امْنَ أَسْدَىٰ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا فَأَنْتُوا عَلَيْهِ بِهِ خَيْراً وَادْعُوا لَهُ حَتَى تَعْلَمُوا أَنْكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ ، ولما قال المهاجرون في الشكر: يا رسول الله، ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم قاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال ﷺ: «كُلُّ مَا شَكَرُتُمْ لَهُمْ وَأَثَنَيْتُمْ عَلَيْهِم بِهِ فَهُوَ مُكَافَأَةٌ * () .

فالآن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم: أنّ ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافاً في المسألة بل هو اختلاف حال، فكشف الغطاء في هذا أنّا لا نحكم حكماً بناً بأن الإخفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات، وتختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص، فينبغي أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتعلى بحبل الغرور ولا ينخدع بتلبيس الطبع ومكر الشيطان، والمكر والخداع أغلب في معاني الإخفاء منه في الإظهار مع أن له دخلاً في كل واحد منهما. فأما مدخل الخداع في الإسرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من خفض الجاه والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعطي بعين المنعم المحسن، فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس. والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعلل بالمعاني الخمسة التي ذكرناها. ومعيار كل ذلك وَمَخكه أمرٌ واحدٌ وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله، فإنه إن كان يبغي صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظي أو يتقي انتهاك الستر أو إعانة المعطي على الإسرار أو صيانة العلم عن الابتذال، فكل دلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعاني أغاليط وأباطيل من عمرو. والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنه العمل عيض زيد على عمرو. والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض ويد على الخصوص، ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه، وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الخصوص، ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه، وإلا فلا يزال كثير العمل قليل

⁽١) حديث: ﴿إِذَا أَنْعُمُ اللهُ تَعَالَى هَلَى هَبِدُ نَعْمَةً أَحْبُ أَنْ تَرَى هَلِيهِ ﴾. أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده،

⁽٢) حليث: امن لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم.

 ⁽٣) حديث: اقال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا خيراً من قوم نرلنا عليهم. • الحديث. أخرجه التومذي وصححه
 من حديث أنس، ورواه مختصراً أبو داود والنسائي في اليوم والليلة والحاكم وصححه ابن ماجه.

الحط. وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطبيب لقلب المعطي واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقده وهذا داء دفين في الباطن، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يُرَوِّجُ عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول له: الشكر من السُّنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار، وقصده الباطن ما ذكرناه، ومعيار ذلك ومحكه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهي الخبر إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه، وبين يدي جماعة بكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفي ولا يشكر. فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعثه هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور. ثم إذا علم أن باعثه السنة في الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطى، فينظر فإن كان هو ممن يحب الشكر والنشر، فينبغي أن يخفي ولا يشكر؛ لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظلم وطلبه الشكر ظلم. وإذا علم من حاله أنه لا يحب الشكر ولا يقصده فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته. ولذلك قال ﷺ للرجل الذي مدح بين يديه: ﴿ضَرَبْتُمْ عُنُقَةٌ لَمْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَعَهٰ (١٠)، مع أنه ﷺ كان يثني على قوم في وجوههم لثقته بيقينهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال لواحد: ﴿إِنَّهُ سَيِّدُ أَهْلِ الوَبَرِ^{؟(٢)} ، وقال ﷺ في آخر: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ كَريهُم قَوْم فَأَكْرِمُوهُهِ (٣٠)، وسمع كلام رجل فأعجبه، فقال ﷺ: ﴿ إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً ﴾ ، وقال ﷺ: ﴿ إِذَا عَلِمً أَحَدُكُمْ مِنْ أَحِيهِ خَيْراً فَلْيُخْبِرُهُ فَإِنَّهُ يَزْدادُ رَغْبَةً فِي الخَيْرِهِ (٥)، وقال ﷺ: ﴿ وَإِذَا مُدِحَ المُؤْمِنُ رَبَا الإيمَانُ فِي قَلْمِهِ (٢٠) ، وقال الثوري: من عرف نفسه لم يضره مدح الناس. وقال أيضاً ليوسف بن أسباط: إذا أوليتك معروفاً كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عزّ وجلّ عليّ فاشكر وإلا فلا تشكر . ورقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه فإنّ أعمال الحوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع، ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه: إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة؛ إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمل وبالجهل به تموت عبادة العمل كله وتتعطل. وعلى الجملة فالأخذ في الملأ والرد في السر أحسن المسالك وأسلمها، فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن

⁽۱) حديث: (قال للرجل الذي مدح بين يديه: ضربتم هنقه لو سمعها ما أفلح»، متفق عليه من حديث أبي بكر بلفظ: «ويحك قطعت عنق صاحبك»، زاد الطبراني في روابة: (والله لو سمعها ما أفلح أبداً». وفي سند، على بن زيد بن جدعان متكلم فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبي موسى.

 ⁽٢) حديث: اإنه سيد الوبرة. أخرجه العنبري والطبراني وابن قائع في معاجمهم وابن حبان في الثقات من حديث قيس بن عاصم العقري: (أن النبق في قال له ذلك).

 ⁽٣) حليث: اإذا جاءكم كريم قوم فأكرموه!. أخرجه ابن ماجه من حليث ابن عمر، ورواه أبو داود في المراسيل من
حديث الشعبي مرسلاً بسند صحيح، وقال: روي متصلاً وهو صعيف، والحاكم نحوه من حديث معبد بن حالد
الأنصاري عن أبيه وصحح إسناده.

 ⁽٤) حديث: (إن من البيان لسحراً). أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

 ⁽a) حديث: (إذا هذم أحدكم من أخيه خيراً فليخبره فإنه بزداد رغبة في الخيره. أخرجه الدارقطني في العلل من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة، وقال: لا يصح عن الزهري، وروي عن ابن المسيب مرسلاً.

⁽٦) حديث: ﴿إذا ملح المؤمن ربا الإيمان في قلبه›. أخرحه الطبراني من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف.

تكمل المعرفة بحيث يستوي السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الدي يتحدث به ولا يرى. نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق.

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة:

كان إبراهيم الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل، فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقاً عليهم، ولأنه ربما لا يكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز، وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع. وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب. ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا، ولأن الزكاة لا مئة فيها وإنما هو واجب لله سبحانه رزقاً لعباده المحتاجين، ولأنه أخذ بالحاجة، والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعاً. وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإن الغالب أنّ المتصدق يعطي من يعتقد فيه خيراً، ولأنّ مرافقة المساكين أدخل في الذل والمسكة وأبعد من التكبر؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تتميز عنه، وهذا تنصيص على ذلّ الآخذ وحاجته. والقول الحق في هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية، فإن كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة، فإذا علم أنه مستحق قطعاً إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير ولبس له وجه في قضائه فهو مستحق قطعاً. فإذا خير هذا بين الزكاة وبين عليه دين صرفه إلى خير ولبس له وجه في قضائه فهو مستحق قطعاً. فإذا خير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدّق بذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين. وإن كان المال الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين. وإن كان المال معرضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير والأمر فيهما يتفاوت. وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال، وإلله أعلم.

كمل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقربين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل



ينسب ألمَو النَّخَيْبِ التَّحَيَّبِ

كتاب أسرار الصوم

الحمد لله الذي أعظم على عباده المنة، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه، ورد أمله وخيب ظنه؛ إذ جعل الصوم حصناً لأوليانه وجُنّة، وفتح لهم به أبواب الجَنّة، وعرّفهم أنّ وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة، وإنّ بقمعها تصبح النفس المطمئة ظاهرة الشوكة في قصم خصمها قوية المنة، والصلاة على محمد قائد الخلق وممهد السنّة وعلى آله وأصحابه ذوي الأبصار الثاقبة والعقول المرجحة وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد: فإن الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله على: «الصّومُ نِصفُ العّبرُو نِصفُ العّبرُو نِصفُ العّبرُو به الله تعالى من بين سائر وبمقتضى قوله على: «الصّرُو نِضفُ الإيمانِه على حسير بحاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان. إذ قال الله تعالى من بين سائر في معرفة فضله إلى سَبْمِواتَة ضِعْفِ إلا العُيَامَ نَصفُ الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب، وناهيك في معرفة فضله قوله على: "وَالّذِي تَفْسِي بِيهِ اللهُ عَرْ وَجَلَّ اللهُ عَلَى اللهُ عَرْ وَجَلَّ اللهُ عَلَى اللهُ وَلَى اللهُ عَلَى اللهُ وَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَرْ وَجَلَّ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَرْ وَجَلَّ اللهُ اللهُ عَلَى عُوهِ وَاللهِ اللهُ عَلَى أَيْكُولُ اللهُ عَرْ وَجَلَّ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى عُوهِ وَاللهِ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَرْ وَجَلَّ اللهُ عَرْ وَجَلَّ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عنه، أنه عنه، أنه عنه الله عنه، أنه عنه الله عنه، أنه عنه الله عنه، أنه عنه الله الخير مَالمُ اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ الل

كتاب أسرار الصيام

⁽١) حديث ' اللصوم نصف الصبرا . أخرجه الترمذي وحسنه من حديث رجل من نني سليم ، وابن ماجه من حديث أبي هربرة .

⁽٧) حديث. اللصبر نصف الإيمان. أخرجه أبو نعيم في الحلية، والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن.

⁽٣) - حديث، •كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم. . . ١٠. الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٤) حديث. «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم..» الحديث. أخرجاه من حديثه وهو بعض الذي قبله.

 ⁽٥) حديث: (للجنة باب يقال له الريان. ١٠ الحديث. أخرجاه من حديث سهل بن سعد.

⁽٦) حديث: اللصائم فرحتان. ١ الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٧) حديث: الكل شيء باب وباب العبادة الصوما. أخرجه ابن العبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف.

 ⁽٨) حديث: النوم المصائم هيادة. رويناه في أمالي ابن منده من رواية ابن المغيرة القواس عن هدالله بن عمر بسند ضعيف
 ولعله عبدالله بن عمرو فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة رواية إلا عنه، ورواه أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من
 حديث عبدالله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد الكذابين.

 ⁽٩) حديث: اإذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة، أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه، والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي هريرة، وصحح النخاري وقفه على مجاهد، وأصله مثق عليه دون قوله: الوثادي مثاد،

وكبع في قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَآشَرُوا هَنِيَنَا بِمَا آسَلَمْنَدُ فِى الْأَبَادِ لَقَالِيَةِ ۞ [المَاقَة: ٢٤] هي أيام الصيام إذ توكوا فيها الأكل والشرب، وقد جمع رسول الله ﷺ في رتبة المهاهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال: فإن اللّه تَعَالَىٰ بُبَاهِي مَلاَئِكَتَهُ بِالشَّابُ العَابِدِ فَيَقُولُ: أَيُهَا الشَّابُ الثَّارِكُ شَهْوَتَهُ لاَجْلِي المُبْلِلِ شَبَابَهُ فقال: فإنَّ اللّه تَعَالَىٰ بُبَاهِي مَلاَئِكَتِي المُبْلِلِ شَبَابَهُ في الصائم: فيتُقُولُ اللّه عَزْ وَجَلَّ: انْظُرُوا يَا مَلاَئِكَتِي إلَىٰ عَبْدِي تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَلَّذَتُهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي المُنْ الصائم: فيقُولُ اللّهُ عَزْ وَجَلّ نَعْلَمُ نَفْلُ مَا أَنْفِي هَمْ عَبْدِي تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَلَّذَتُهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي المُنابُ، وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَلَلَا نَعْلَمُ نَفْلُ مَا أَنْفِي كُمْ مِنْ أَجْلِي المُنابُ الثَّالِ فَي الصائم: كان عملهم الصيام لأنه قال: ﴿ إِنّا بُولَىٰ وَتَعْلَىٰ وَلَا مَا كَانُ الصوم إنما كان له ومشرفاً بالنسبة إليه، وإن كانت العبادات كلها له ومشرفاً بالنسبة إليه، وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنين:

أحمدهما: أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عزّ وجلّ فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرّد.

والثاني: أنه قهر لعدو الله عزّ وجلّ، فإن وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب. لذلك قال على: "إنّ الشيطان لَيَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدّم فَضَيْقُوا مَجَارِيةُ بِالجُوعِ"، ولذلك قال على لعائشة رضي الله عنها: «دَاوِمي قَرْعَ بَابِ الجَنِّةِ، قالت: بماذا؟ قال على: بالجُوعِه "، وسيأتي فضل الجوع في كتاب ـ شره الطعام وعلاجه من ربع المهلكات ـ فلما كان الصوم على الخصوص قمعاً للشيطان وسداً لمسالكه وتضييقاً لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل، ففي قمع عدو الله نصرة لله سبحانه، وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهْدِينَهُمْ شُبُلنا﴾ [القنكبوت: ٢٩]، بالهداية من الله عز وجل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهْدِينَهُمْ شُبُلنا﴾ [القنكبوت: ٢٩]، بالهداية من الله عز وجل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهْدِينَهُمْ سُبُلناً﴾ [القنكبوت: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهْدِينَهُمْ سُبُلناً والمناطن ومرعاهم فما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد فهي مرتع الشياطين ومرعاهم فما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد أنه سبحانه وكان محجوباً عن لقائه. وقال على: ﴿ قَوْلاً أَنَّ الشّياطِينَ يَحُومُونَ عَلَىٰ قُلُوبٍ بَنِي آدَمَ وَسَنه وسنه وشروطه الباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة وفيين ذلك بثلاثة فصول.

**

⁽۱) حديث: •إن الله تعالى بياهي ملاتكته بالشاب العابد فيقول: أيها الشاب التارك شهوته. . • الحديث . أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

 ⁽٢) حديث: فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي».

 ⁽٣) حديث: (إن الشيطان يجري من أبن آدم مجرى الدم. . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث صفية دون قوله: القضيقوا
 مجاريه بالجرع ٩ .

⁽³⁾ حديث: قال لمائشة: داومي قرع باب الجئة. . ٤ الحديث. لم أجد له أصلاً.

 ⁽٥) حديث: (لولا أن الشياطين بحومون على قلوب بني آدم..) الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بمحوه.

الفصل الأول

في الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فستة:

الأول: مراقبة أوّل شهر رمضان؛ وذلك برؤية الهلال، فإن غُمَّ فاستكمال ثلاثين يوماً من شعبان. ونعني بالرؤية العلم، ويحصل ذلك بقول عدل واحد. ولا يثبت هلال شوّال إلا بقول عدلين احتياطاً للعبادة. ومن سمع عدلاً ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لزمه الصوم، وإن لم يقض القاضي به فليتبع كل عبد في عبادته موجب ظنه. وإذا رئي الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل، وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يتعدّى الوجوب.

الثاني: النية؛ ولا بد لكل ليلة من نية مبينة جازمة، فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه، وهو الذي عنينا بقولنا: «كل ليلة»، ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطرّع، وهو الذي عنينا بقولنا: «مبينة» ولو نوى الصوم مطلقاً أو الفرض مطلقاً لم يجزه حتى ينوي فريضة الله عزّ وجلّ صوم رمضان، ولو نوى ليلة الشك أن يصوم خداً إن كان من رمضان لم يجزه، فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل، واحتمال غلط العدل أو كلبه لا يبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالشك في الليلة الأخيرة من رمضان، فذلك لا يمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس في المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشكه لا يمنعه من النية. ومهما كان شاكاً ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان، فإن النية محلها القلب، ولا يتصوّر فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال في وسط رمضان: أصوم غداً إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ ومحل النية لا يتصوّر فيه تردد، بل هو قاطع بأنه من رمضان. ومن نوى ليلاً ثم أكل لم تفسد نيته، ولو نوت امرأة في الحيض ثم طهرت قبل الفجر صع صومها.

الثالث: الإمساك عن آيصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم؛ فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة، ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال الميل في الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المثانة. وما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة، فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضمضة فيفطر لأنه مقصر وهو الذي أردنا بقولنا: «عمداً» فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناسي فإنه لا يفطر، أما من أكل عامداً في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل نهاراً بالتحقيق فعليه القضاء، وإن بقي على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بنظر واجتهاد.

الرابع: الإمساك عن الجماع؛ وحدّه مغيب الحشفة وإن جامع ناسياً لم يفطر، وإن جامع ليلاً أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر، وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع في الحال صح صومه فإن صبر فسد ولزمته الكفارة.

الخامس: الإمساك عن الاستمناء، وهو إخراج المنيّ قصداً بجماع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم يُنزل، لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيخاً أو مالكاً لإربه، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى. وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينرل فقبل وسبق المنيّ أفطر لتقصيره.

السادس: الإمساك عن إخراج القيء، فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه وإذا أبتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك.

وأما لوازم الإفطار فاربعة:

القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبيها بالصائمين.

أما القضاء: فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر، فالحائض تقضي الصوم وكذا المرتد، وأما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم. ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان، ولكن يقضى كيف شاء متفرقاً ومجموعاً.

وأما الكفارة: فلا تجب إلا بالجماع وأما الاستمناء والأكل والشرب وما عدا الجماع لا يجب به كفارة، فالكفارة عتق رقبة فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فإطعام ستين مسكيناً مدّاً مدّاً.

وأما إمساك بقية النهار: فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه. ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها، ولا على المسافر إذا قدم مفطراً من سفر بلغ مرحلتين. ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك، والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق، ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيماً في أوله ولا يوم يقدم إذا قدم صائماً.

وأما الفدية: فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفاً على ولديهما، لكل يوم مدّ حنطة لمسكين واحد مع القضاء، والشيخ الهرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مداً.

وأما السنن فست: تأخير السحور، وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة، ومدارسة القرآن، والاعتكاف في المسجد، لا سيما في العشر الأخير فهو عادة رسول الله على: «كَانَ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ طَوَىٰ المسجد، لا سيما في العشر الأخير فهو عادة رسول الله على: «كَانَ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ طَوَىٰ الفِرَاشَ وَشَدَّ المِثْرُرَ وَدَأَبَ وَأَدَأَبَ أَهُلُهُ اللهُ اللهُ النصب في العبادة إذ فيها ليلة القدر، والأغلب أنها في أوتارها وأشبه الأوتار ليلة إحدى وثلاث وخمس وسبع. والتتابع في هذا الاعتكاف أولى فإن نفر اعتكافاً متتابعاً أو نواه انقطع تتابعه بالخروج من غير ضرورة، كما لو خرج لعبادة أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة، وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع، وله أن يتوضأ في البيت، ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر. «كان الله لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا ماراً» ويقطع التتابع بالجماع ولا ينقطع بالتقبيل. ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد في الطست، فكل ذلك قد يحتاج إليه في التتابع. ولا ينقطع التتابع بخروج بعض والنوم وغسل اليد في الطست، فكل ذلك قد يحتاج إليه في التتابع. ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه. «كان علي ينه وهي في الحجرة ""، ومهما خرج المعتكف بدنه. «كان علي يذني رأسه فترجله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجرة ""، ومهما خرج المعتكف بدنه. «كان علي ينقل وأسه فترجله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجرة ""، ومهما خرج المعتكف

 ⁽١) حديث: •كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش. . • الحديث، متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: •أحيا الليل
وأيقظ أمله وجد وشد المتزر».

 ⁽٢) حديث: اكان لا يخرج إلا لحاجة ولا يسأل عن المريض إلا ماراً متفق على الشطر الأول من حديث عائشة،
 والشطر الثاني، رواه أبو داود بتحوه بسئد لين.

 ⁽٣) حديث: اكان بدني رأسه لعائشة؛ منفق عليه من حديثها.

لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً. والأفضل مع ذلك التجديد.

* * *

الفصل الثاني

في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم: أنّ الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص، أما صوم العموم: فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله. وأما صوم الخصوص: فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وأما صوم خصوص الخصوص: فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عزّ وجلّ بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عزّ وجلّ والبوم الآخر وبالفكر في الدنيا، إلا دنيا تراد للدين فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا، حتى قال أرباب القلوب: من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عزّ وجلّ وقلة البقين برزقه الموعود، وهذه رئبة الأنبياء والصديقين والمقرّبين ولا يطوّل النظر في تفصيلها قولاً ولكن في تحقيقها عملاً، فإنه إقبال بكنه الهمة على الله عزّ وجلّ وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلُو اللّهُ ثُمُّ ذَرّهُمُ عن الجوارح عن الآثام، وتمامه بستة أمور:

الأول: غض البصر وكفه عن الاتساع في النطر إلى كل ما يذم ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عزّ وجلّ. قال ﷺ: «النّظرةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامٍ إِبْلِيسَ لَمَنَهُ اللّهُ فَمَنْ تَرَكَها خَوْفاً مِنَ اللّهِ آقَاهُ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِيمَاناً يَجِدُ حَلاوَتُهُ فِي قَلْبِهِ (١١)، وروى جابر عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿خَمْسٌ يُفَطّرُنَ الصَّائِمَ: الْكَذِبُ وَالْفِيبَةُ وَالنّمِيمَةُ وَالنّمِينُ الْكَاذِبَةُ وَالنّظرُ بِشَهْوَةٍ (٢٠).

الثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان. وقد قال سفيان: الغيبة تفسد الصوم. رواه بشر بن الحارث عنه. وروى ليث عن مجاهد: خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب. وقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا الصَّوْمُ جُنَّةً فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً فَلا يَرْفُثْ وَلا يَجْهَلْ وَإِنِ امْرُقَ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ:

⁽١) حديث: اللظرة سهم مسموم من سهام إبليس ٤٠ الحديث أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث حذيفة.

 ⁽٢) حديث جامر عن أنس: فخمس يقطرن الصائم. ٤ الحديث. أخرجه الأزدي في الضعفاء من رواية جابان عن أنس
 وقوله: جابر تصحيف، قال أبو حاتم الرازي * هذا كذاب.

إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ (١٠)، وجاء في الخبر: أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش في آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذناه في الإفطار فأرسل إليهما قدحاً، وقال ﷺ: «قُلْ لَهُمَا قِينًا فِيهِ مَا أَكَلْتُمَا»، فقاءت إحداهما نصفه دماً عبيطاً ولحماً غريضاً، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملاتاه، فعجب الناس من ذلك، فقال ﷺ: «هاتاني صَامَتَا عَمًا أَحَلُ اللّهُ لَهُمَا وَأَفْطَرَتَا عَلَىٰ مَا حَرَّمَ اللّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمَا. قَمَدَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَىٰ الأُخْرَىٰ فَجَعَلَتَا يَقْتَابَانِ النَّاسَ فَهٰذَا مَا أَكَلَنَا مِنْ لُحُومِهِمْ (٢٠).

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه؛ لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه، ولذلك سؤى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت، فقال تعالى: ﴿ سَنَعُونَ لِللَّكَذِبِ أَكُلُونَ لِلسَّحْتَ ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقال عز وجل: ﴿ لَوَلَا يَنْهَنَهُمُ الرَّبَيْنِيُونَ وَالْأَجْارُ عَن قَرْلِمُ آلْإِنْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحَتَ ﴾ [المائدة: ٣٣] فالسكوت على الغيبة حرام، وقال تعالى: ﴿ إِلَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ [النّاء: ١٤٠]، ولذلك قال ﷺ: «المُغْتَابُ وَالمُسْتَمِعُ شَرِيكَانِ فِي الإِنْمِ ﴾ "".

الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار. فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام، فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مصراً فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه، فالصوم لتقليله. وتارك الاستكثار من الدواء خوفاً من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيهاً. والحرام سم مهلك للدين، والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره، وقصد الصوم تقليله. وقد قال على الحرام، وقيل: هو الذي صَوْمِهِ إلا الجُوعُ وَالعَطَشُهُ (٤)، فقيل: هو الذي يفطر على الحرام، وقيل: هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام، وقيل: هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام.

الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه عما من وعاء أبغض إلى الله عزّ وجلّ من بطن مليء من حلال. وكيف يستفاد من الصوم قهر عدر الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره وريما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات بأن تُدَخّرُ جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدّة أشهر. ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى. وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها. فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها

⁽١) حديث: (إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً. . > الحديث. أخرجاه من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حديث: (أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله على ١٠٠ الحديث. في الغيبة للصائم. أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله على بسند فيه مجهول.

 ⁽٣) حديث: اللمغتاب والمستمع شريكان في الإثما غريب، وللطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف: انهى
 رسول الله ﷺ عن الغية وعن الاستماع إلى الغية.

 ⁽٤) حديث: ٤كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

كل ليلة لو لم يصم، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه. بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه، ويستديم في كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده، فعسى الشبطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء. وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْلُنَهُ فِي لَيَلَةِ ٱلْفَدَرِ ﴿ إِنَّا الْرَلْنَهُ فِي لَيَلَةِ ٱلْفَدَرِ فَلِي النقدر: ١]، ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب. ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته من غير الله عزّ وجلّ وذلك هو الأمر كله، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام. وسيأتي له مزيد بيان في كتاب الأطعمة إن شاء الله عزّ وجلّ.

السادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها، فقد روي عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مرّ بقوم وهم يضحكون فقال: إن الله عرّ وجلّ جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسدّ عليه باب الضحك .. وعن الأحنف بن قيس أنه قيل له: إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال: إني أعده لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه. فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم.

فإن قلت: فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء: صومه صحيح، فما معناه؟ فاعلم أنَّ فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لا سيما الغيبة وأمثالها، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته. فأما علماء الآخرة فيعنون بالصحة القبول وبالقبول الوصول إلى المقصود، ويفهمون أنَّ المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عزَّ وجلَّ وهو الصمدية، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإتهم منزهون عن الشهوات. والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلي بمجاهدتها، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة. والملائكة مقرّبون من الله عزَّ وجلَّ والذي يقتدي بهم وينشبه بأخلاقهم يقرب من الله عزَّ وجلَّ كقربهم، فإنَّ الشبيه من القريب قريب، وليس القرب ثُمّ بالمكان بل بالصفات، وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب فأي جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الأخر طول النهار؟ ولو كان لمثله جدوى فأي معنى لقوله ﷺ: ﴿كُمْ مِنْ صَائِمٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ صَوْمِهِ إِلاّ المجوعُ وَالْمُطَشِّ، ولهذا قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيفٌ لا يعيبون صوم الحمقى وسهرهم! ولذرة من ذوي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترّين. ولذلك قال بعض العلماء: كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم. والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الأثام ويأكل ويشرب، والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه. ومن فهم معنى الصوم وسره علم أنّ مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات، فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الغسل فصلاته مردودة عليه بجهله، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل. ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال. وقد قال على: ﴿إنَّ الصَّوْمَ أَمَانَةٌ فَلْيَحْفَظُ أَحَدُكُمُ أَمَانَتُهُ أَنَا اللّهُ وَلَمَا لَمُ وَضع يده على سمعه وبصره فقال: تلا قوله عز وجل : ﴿إنَّ اللّه يَأْمُرُكُمُ أَن تُوَدُّوا ٱلأَمَنَتِ إِلَى آهَلِها ﴾، وضع يده على سمعه وبصره فقال: «السمع أمانة والبصر أمانة» أولولا أنه من أمانات الصوم لما قال على الفي المأليق أي إني وسائم أوليا أوقشراً ولباً أودعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك؟ فإذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً وقشراً ولباً ولقشرها درجات ولكل درجة طبقات. فإليك الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب.

华 * *

الفصل الثالث

في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم: أنَّ استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، وبعضها يوجد في كل شهر، وبعضها في كل أسبوع. أما في السنة بعد أيام رمضان: فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من المحرّم. وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم وهي أوقات فاضلة «كان رسول الله على يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه في رمضان (٢٠)، وفي الخبر: «أفضل الصيام بعد شهر ومضان شهر الله المحرم» (٤). لأنه ابتداء السنة فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته. وقال على الخير أوي شهر حرّام أفضل مِن ثَلاثِينَ مِنْ فَيْرِهِ، وَصَوْمُ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْ ثَلاثِينَ مِنْ شَهْرِ حَرَام، الخميس والمجمعة والسبت كَتَبَ الله لَهُ بِكُلُ يَوْمٍ عِبَادَة تِسْعِماتَة عَامٍ» (١)، وفي الخبر: الإذا كان النصف من شعبان والمجمعة والسبت كَتَبَ الله لَهُ بِكُلُ يَوْمٍ عِبَادَة تِسْعِماتَة عَامٍ» (١)، وفي الخبر: الإذا كان النصف من شعبان

حديث: اإنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود في حديث في الأمانة والصوم وإسناده حسن.

 ⁽٢) حديث: (لما تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَأَمْرُكُمْ لَن نُؤَدُّواْ ٱلْأَكْتَكِ إِلَىٰ أَهْلِها﴾ [النَّساء: ٨٥]، وضع بده على سمعه وبصوه وقال. السمع أمانة والبصر أمانة».

⁽٣) حديث: اكان يكثر صيام شعبان. ٩٠ الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٤) حديث: *أفضل العبيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٥) حديث: قصوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين. . . ٩ الحديث. لم أجده هكذا، وفي المعجم الصغير للطبراني من حديث أبن عباس: «من صام يوماً من المحرم فله يكل يوم ثلاثون يوماً».

⁽٦) حديث: «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخميس والجمعة والسيث. . ٩ الحديث. أخرجه الأزدي في الضمفاء من حديث أنس.

فلا صوم حتى رمضان»(١⁾، ولهذا يستحب أن يعطر قبل رمضان أياماً فإن وصل شعبان برمضان فجائز^(١)، فعل ذلك رسول الله ﷺ مرة وفصل مواراً كثيرة^(٣). ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق ورداً له، وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهي بشهر رمضان. فالأشهر الفاضلة: ذو الحجة والمحرّم ورجب وشعبان. والأشهر الحرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب. واحد فرد وثلاثة سرد. وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات. وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج، وشوّال من أشهر الحج وليس من الحرم، والمحرّم ورجب ليسا من أشهر الحج. وفي الخبر: قما من أيام العمل فيهنّ أفضل وأحب إلى الله عزّ وجلّ من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر، قيل: ولا الجهاد في سبيل الله تعالى، قال: ولا الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ إلا من عقر جواده وأهريق دمه (٤٠٠. وأما ما يتكرر في الشهر: فأوَّل الشهر وأوسطه وآخره، ووسطه الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر. وأما في الأسبوع: قالاثنين والخميس والجمعة، فهذه هي الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات. وأما صوم الدهر فإنه شامل للكل وزيادة، وللسالكين فيه طرق، فمنهم من كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته. والصحيح أنه إنما يكره لشيئين: أحدهما: أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله^(ه)، و**الآخ**ر: أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حجراً على نفسه مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه. فإذا لم يكن شيء من ذلك ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك، فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. وقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري: «مَنْ صَامَ الدُّهْرَ كُلُّهُ ضُيَّقَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ وَعَقَدَ يُسْمِينَ (٦)، ومعناه لم يكن له فيها موضع، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوماً ويفطر يوماً، وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها، وقد ورد في فضله

 ⁽١) حديث: «إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان». أخرجه الأربعة من حديث أبي هريرة وابن حبان في
صحيحه عنه: «إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى بجيء رمضان» وصححه الترمذي.

 ⁽۲) حديث: «وصل شعبان برمضان مرة». أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة: «لم يكن يصوم من السنة شهراً تاماً إلا شعبان يصل به رمضان». وأخرج أبو داود والنسائي تحوه من حديث عائشة.

 ⁽٣) حديث. «فصل شعبان من رمضان مراراً». أخرجه أبو داود من حديث عائشة قالت: «كان رصول الله ﷺ يتحفظ من هلال شعبان ما لا يتحفظ من غيره فإن هم عليه عد ثلاثين يوماً ثم صام»، وأحرجه الدارقطني وقال. إسناده صحبح» والحاكم وقال: صحبح على شرط الشيخين.

⁽٤) حديث: اما من أيام العمل فيهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذي الحجة. . ٤ الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة دون قوله: اقبل ولا الجهاد. . . ٤ النع، وعند المخاري من حديث ابن عباس: هما العمل في أيام أفضل من العمل في هذا العشر قالوا: ولا الجهاد قال: ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر ينفسه وماله فلم يرجع بشيء؟ .

⁽٥) الأحاديث الذالة على كراهة صيام الدهر، أخرجها البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن عمرو، وفي حديث لابن ماحه: «لا صام من صام الأبد». ولمسلم من حديث أبي قتادة: اقبل: يا رسول الله، كيف بمن صام الدهر؟ قال: لا صام ولا فطر»، وأخرج النسائي نحوه من حديث عبدالله بن عمر وعمران بن حصين وعبدالله بن الشخير.

 ⁽٦) حديث أبي موسى الأشعري: "من صام الدهر كله ضيقت عليه جهتم هكذا وعقد تسعين الخرجه أحمد والنسائي في
 الكبرى وابن حبان، وحسنه أبو على الطوسي.

أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم، فقد قال ﷺ: اعُرضَتْ عَلَىَّ مَفَاتِيعٌ خَزَائِن اللُّنْيَا وَكُنُوزُ الأَرْضِ فَرَدَتُهَا وَقُلْتُ: أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً أَحْمَلُكَ إِذَا شَبِمْتَ وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ إِذَا جُعَتَه'''. وقال ﷺ: أَوْأَفْضَلُ الصِّيَّامِ صَوْمُ أَخِي وَاؤُو كَانَ يَصُومُ يَنُوماً وَيُفْطِرُ يَنُوماً» (٢٠)، ومن ذلك: منازلته ﷺ لعبدالله بن عمرُو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول: إني أطيق أكثر من ذلك، فقال ﷺ: «صُمْ يَوْماً وَأَفْطِرْ يَوْماً»، فقال: إني أريد أفضل من ذلك، فقال ﷺ: «لا أَفْضَلَ مِنْ ذُلِكَ»("") وقد روي: «أنه ﷺ ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضانه(١) بل كان يفطر منه، ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه وهو أن يصوم يوماً ويفطر يومين. وإذا صام ثلاثة من أوّل الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث، وواقع في الأوقات الفاضلة. وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث. وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عزّ وجلّ. والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضي حاله دوام الصوم، وقد يقتضي دوام الفطر، وقد يقتضي مزج الإفطار بالصوم. وإذا فهم المعني وتحقق حده في سلوك طريق الأخرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيباً مستمراً. ولذلك روي: ﴿أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَصُومُ حَتَّىٰ يُقَالَ: لا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ يُقَالَ: لا يَصُومُ، وَيُنَامُ حَتَّىٰ يُقَالَ: لا يَقُومُ، وَيَقُومُ حَتَّىٰ يُقَالُ: لا يَنَامُهُ (٥٠)، وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوّة من القيام بحقوق الأوقات. وقد كره العلماء أن يوالي بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديراً بيوم العيد وأيام التشريق، وذكروا أن ذلك يقسي القلب ويولد رديء العادات ويفتح أبواب الشهوات، ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لا سيما من يأكل في اليوم والليلة مرتين. فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوّع به والله أعلم بالصواب.

تم كتاب أسرار الصوم، والحمد شه بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، على جميع نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء. يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الحج، والله المعين لا رب غيره وما توفيقي إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل



العديث: «هرضت علي مفاتيح خزائن الدنيا. .» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة بلفظ «هرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً» وقال: حسن.

⁽٢) حديث: «أفضل الصيام صوم أخي داود. .» الحديث. أخرجاه من حديث عبدالله بن عمر.

 ⁽٣) حديث: «منازلته لعبدالله بن عمر وقوله: صم يوماً وأفطر يوماً..» الحديث. أخرجاه من حديثه.

⁽٤) حديث: العا صام شهراً كاملاً قط إلا رمضانٌ أخرجاه من حديث عائشة

حليث: «كان يصوم حتى يقال لا يفطر..» الحديث. أخرجاه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر: «القيام والنوم»
 والبخاري من حديث أنس: «كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئاً ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه
 شيئاً وكان لا تشاء تراه من الليل مصلباً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته».

بنسبه ألمَو النَّخَيْبِ الرَّيَجِيدِ

كتاب أسرار الحج

الحمد لله الذي جعل كلمة التوحيد لعباده حرزاً وحصناً. وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمناً، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتحصيناً ومناً، وجعل زيارته والطواف به حجاباً بين العبد وبين العذاب ومجناً، والصلاة على محمد نبي الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد: فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين. فيه أنزل الله عز وجل: ﴿ أَيُومَ آكَمُتُ لَكُمْ دِبنَكُمْ وَأَنْتُ عَيْتُكُمْ نِمْتَي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين. فيه أنزل الله عز وجل: ﴿ أَيْوَمُ آكَمُتُ لَكُمْ دِبنَكُمْ وَأَنْتُ عَيْتَكُمْ نِمْتَي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسلام ويناً ﴾ [المائدة: ٣]، وفيه قال الله عز وجل: ﴿ قَلْمُ يَحُجُ فَلْيَمْتُ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً وَإِنْ شَاءً نَصَرَائِيّاً الله والمناه الله والمناه وأسرارها. وجملة ذلك ينكشف بتوفيق الله عز وجل في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرائط وجوبها.

الباب الثاني: في أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع.

الباب الثالث: في آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة، فلنبدأ بالباب الأوّل وفيه فصلان:

الفصل الأول

في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى، وشدّ الرحال إلى المساجد

فضيلة الحج:

قَــال الله عَــزٌ وجــلّ: ﴿وَأَوِنَ فِي اَلنَّاسِ بِالْحَيِّجُ يَأْتُولُهُ رِيَحَالًا وَعَلَى حَكِلٍ مَنَـامِ يَأْلِينَ مِن كُلِّ فَيَجٍ عَــِيقٍ﴾ [الخَجْ: ٢٧] وقال قتادة: لما أمر الله عزّ وجلّ إبراهيم ﷺ وعلى نبينا وعلى كُل عبد مصطفى أن يؤذن في الناس بالحج نادى: يا أيها الناس إن الله عزّ وجلّ بنى بيتاً فحجوه، وقال تعالى: ﴿لِيَشْهَـدُواْ مَنَافِعَ لَهُمُ ﴾ [الخَجْ: ٢٨] قيل: التجارة في الموسم والأجر في الآخرة. ولما سمع بعض السلف هذا قال:

كتاب أسرار الحج

⁽١) حديث: «من مات ولم يعج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً». أخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة والترمذي نحوه من حديث على وقال: غريب وفي إسناده مقال.

غفر لهم ورب الكعبة. وقيل في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿لأَقْتُدُنَّ لَمُمْ سِرَطُكَ ٱلْسُتَقِيمَ﴾ [الامراف: ١٦]، أي طريق مَكَة يقعد الشيطان عليها ليمنع الناس منها، وقال ﷺ: قَمَنْ حَجَّ البِّيْتَ فَلَمْ بَرْفُتْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرْجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْم وَلَذَتْهُ أُمُّهُهُ(١)، وقالَ أيضاً ﷺ: ﴿مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ فِي يَوْم أَصْغَرَ وَلا أَدْحَرَ وَلا أَحْقَرَ وَلَا أُغْيَظَ مِنْهُ يَوْمَ غُرَفَةً» (٢٠)، وما ذلك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال: ﴿إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوباً لا يُكَفِّرُها إِلاَّ الوُقُوفُ بِعَرَفَةَ اللهِ ، وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله ﷺ. وذكر بعض المكاشفين من المقرّبين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له في صورة شخص بعرفة فإذا هو ناحل الجسم مصفرٌ اللون باكي العين مقصوف الظهر فقال له: ما الذي أبكي عينك؟ قال: خروج الحاج إليه بلا تجارة، أقول: قد قصدوه أخاف أن لا يخيبهم فيحزنني ذلك قال: فما الذي أنحل جسمك؟ قال: صهيل الخيل في سبيل الله عزّ وجلّ ولو كانت في سبيلي كان أحب إليّ، قال: فما الذي غيِّر لونك؟ قال: تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المعصية كان أحب إليِّ قال: فما الذي قصف ظهرك؟ قال: قول العبد: أسألك حسن الخاتمة، أقول: يا ويلتي متى يعجب هذًا بعمله أخاف أن يكون قد فطن؟ وقال ﷺ: ﴿مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ حَاجًا أَوْ مُعْتَمِراً فَمَاتَ أَجْرِيَ لَهُ أَجْرُ الحَاجُ المُعْتَمِر إِلَىٰ يَوْم الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْن لَمْ يُمْرَضْ وَلَمْ يُحَاسَبْ وَقِيلَ لَهُ ادْخُلُ الْجَنْةَ"ُ، وقال ﷺ: «حَجَةٌ مَبْرُورَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنَّيَا وَمَا فِيها، وَحَجَّةٌ مَبْرُورَةٌ لَيْسَ لَهَا جَزَاءٌ إلاّ الجَنَّةُ»(°)، وقال ﷺ: «الحُجَّاجُ وَالْمُمَّارُ وَفُدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَزُوَّارُهُ إِنْ سَأَلُوهُ أَغْطَاهُمْ، وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفْرَ لَهُمْ، وَإِنْ احْتَعْفَرُوهُ غَفْرَ لَهُمْ، وَإِنْ دَعَوْا اسْتُجِيبَ لَهُمْ، وَإِنْ شَفَعُوا شُفَّعُوا هُ وَفِي حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام: «أَعْظَمُ النَّاسِ ذَنْباً مَنْ وَقُفَ بِعَرَفَةً فَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ ﴾ ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يَنْزِلَ صَلَىٰ هٰلَهَ البَيْتِ فِي كُلِّ يَوْم مِائَةٌ وَعِشْرُونَ رَحْمَةٌ سِتُونَ لِلطَّائِفِينَ وَأَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَعِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَه (٨)، وفي الخدُّ: «اسْتَكَثِّرُوا مِنَ الطَّوَافِ بِالبَيْتِ فَإِنَّهُ مِنْ أَجَلٌ شَيْءٍ تَجِدُونَهُ فِي صُحُفِكُمْ يَوْمَ

 ⁽١) حديث: امن حج البيت قلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنويه كيوم ولدته أمه أخرجاه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث: «ما رئي الشيطان في يوم هو أصغر. .» الحديث. أخرجه مالك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبدالله بن كريز مرسلاً.

 ⁽٣) حديث: «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة» لم أجد له أصلاً

⁽٤) حديث: (من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجرى الله أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد المحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقبل له ادخل المجنة». أحرجه البيهةي في الشعب بالشطر الأول من حديث أبي هريرة، وروى هو والدارقطني من حديث عائشة الشطر الثاني نحوه وكلاهما ضعيف.

حديث: «حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة». أخرجاه من حديث أبي هوبرة
الشطر الثاني بلفظ: «الحج المبرورة» وقال: «إن الحجة المبرورة» وعند ابن عدي: «حجة مبرورة».

 ⁽٦) حديث: «الحجاج والعمار وقد الله وزواره. .» الحديث. أخرجه من حديث أبي هريرة دون قوله: «وزواره» ودون قوله: «إن سألوه أعطاهم وإن شقعوا شقعوا» وله من حديث ابن عمر: «وسألوه فأعطاهم» ورواه ابن حبان.

 ⁽٧) حديث: •أعظم الناس فنها من وقف بعرفة فظن أن الله لم يقفر له». أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق وأبو منصور شهر دار بن شيرويه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

 ⁽A) حديث: فينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة الخرجه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد حسن، وقال أبو حاتم: حديث منكر.

الْفِيَامَةِ وَأُغْبَطِ عَمَل تَجِدُونَهُ (١٠)، ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة، وفي الخبر: «من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كمتق رقبة، ومن طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنبه، (٢) ويقال: إن الله عزّ وجلّ إذا غفر لعبد ذنباً في الموقف غفره لكلّ من أصابه في ذلك الموقف. وقال بعض السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل يوم في الدنيا. وفيه حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وكان واقفاً إذ نزل قوله عزّ وجلّ: ﴿ ٱلْنُوْمَ أَكَمْكُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمْتُ عَلَيْكُمْ يْعَمَيْق وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسَّلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] (٣) قال أهل الكتاب: لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها بوم عيد، فقال عمر رضي الله عنه: أشهد لقد أنرلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين: يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة. وقال ﷺ: ﴿اللَّهُمُّ اغْفِرْ لِلْحَاجُ وَلِمَنِ اسْتَغْفَرَ لَهُ الحَاجُ ويروى أن علي بن موفق حج عن رسول الله ﷺ حججاً قال: فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا ابن موفق حججت عني؟ قلت: نعم، قال ولبيت عني؟ قلت: نعم، قال: أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب. وقال مجاهد وغيره من العلماء: إن الحجاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبان الإبل وصافحوا ركبان الحمر واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وقال الحسن: من مات عقيب رمضان، أو عقيب غزو، أو عقيب حج مات شهيداً. وقال عمر رضي الله عنه: الحاج مغفور له ولمن يستغفر له في شهر ذي الحجة والمحرّم وصفر وعشرين من ربيع الأوّل. وقد كان من سنَّة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة، وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألوهم الدعاء ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام. ويروى عن علي بن موفق قال: حججت سنة فلما كان ليلة عرفة نمت بمنى في مسجد الخيف، فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثباب خضر فنادى أحدهما صاحبه: يا عبدالله، فقال الآخر: لبيك يا عبدالله. قال: تدري كم حج بيت ربنا عزّ وجلّ في هذه السنة؟ قال: لا أدري، قال: حج بيت ربنا ستمائة ألف، أفتدري كم قبل منهم؟ قال: لا، قال: ستة أنفس، قال: ثم ارتفعا في الهواء فعابا عني فانتبهت فزعاً واغتممت غماً شديداً وأهمني أمري فقلت: إذا قبل حج ستة أنفس فأين أكون أنا في ستة أنفس؟ فلما أفضت من عرفة قمت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر في كثرة الخلق وفي قلة من قبل منهم؛ فحملني النوم فإذا الشحصان قد نزلا على هيئتهما؛ فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بعينه ثم قال: أتدري ماذا حكم ربنا عزّ وجلّ في هذه الليلة؟ قال: لا، قال: فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف،

 ⁽۱) حديث: «استكثروا من الطواف بالبيت. .) الحديث. أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عمر: «استمتعوا من هذا البيث فإنه هذم مرتبن ويرفع في الثالثة» وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٣) حديث: امن طاف أسبوها حافياً حاسراً كان له كمتل رقبة ومن طاف أسبوها في المطر ففر له ما سلف من ذنويه، لم
 أجده هكذا، وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر: المن طاف بهذا البيت أسبوها فأحصاه كان كمتل رقبة الفظ الترمذي وحسنه.

 ⁽٣) حديث: «وقوقه في حجة الوفاع يوم الجمعة ونزول ﴿ ٱلْيَوْمُ ٱكْمَلْتُ لَكُمْ وِبِنَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣]». الحديث أخرجاه من حديث عمر.

 ⁽٤) حديث: «اللهم افقر للحاج ولمن استغفر له الحاج». أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط
 مسلم.

قال: فانتبهت وبي من السرور ما يجل عن الوصف. وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: حججت سنة فلما قضيت مناسكي تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت: اللهم إني قد وهبت حجتي وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجته قال: فرأيت رب المزة في النوم جل جلاله فقال لي: يا عليّ تتسخى عليّ وأنا خلقت السخاء والأسخياء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجود والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبلته.

فضيلة البيت ومكة المشرفة:

قال على الله عزّ وَجَلَ قَدْ وَعَدَ هَذَا البَيْتَ أَنْ يَحُجُهُ كُلُ سَنَةٍ سِتْبِاتَةِ أَلْفٍ قَإِنْ نَقَصُوا أَكْمَلَهُمُ اللّهُ عَزّ وَجَلً مِنَ المَلايَحَةِ، وَإِنْ الكَفْبَة تُحْشَرُ كَالْعَرُوسِ المَرْفُوفَةِ، وَكُلُ مَنْ حَجْهَا يَتَعَلَّهُ بِأَسْتَارِهَا يَسْعَوْنَ حَوْلَهَا حَتَّىٰ تَذَخُلَ الْجَنَّة فَيَدُخُلُونَ مَعَهَا اللّه وفي الخبر: اإنَّ الحَجَرَ الأَسْوَدَ يَافُونَةٌ مِنْ يَوَاقِيتِ الجَنِّةِ، وإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيّامَةِ لَهُ حَبْنَانِ وَلِسَانٌ يَنْظِقُ بِهِ يَشْهَدُ لِكُلُّ مَنِ اسْتَلَمَهُ يَعْقِ وَصِدْقِ اللّه على الراحلة فيضع المحجن عليه ثم قال: إني لأعلم فيضع المحجن عليه ثم قال: إني لأعلم عمر رضي الله عنه ثم قال: إني لأعلم على الراحلة الله عمر ولا يقول على الراحلة على الراحلة عمر ولا يقول على الراحلة على الراحلة عمر ولا تنفر ولا تنفع الله ورائه فرأى علياً كرّم الله وجهه ورضي الله عنه فقال: يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات، فقال على رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع، قال: وكيف؟ قال: إنّ الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر؛ فهو يشهد للمؤمن بالرفاء ويشهد على الكافر بالجحود. قيل: فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام: «اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك. وروي عن الحسن البصري رضي الله عنه: أنّ صوم يوم فيها بمائة ألف يوم، وصدقة درهم بمائة ألف درهم، وكذلك كل حسنة بمائة ألف. ويقال: طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة. وفي الخبر الصحيح: «عمرة في رمضان كحجة معيالاً»، وقال ﷺ: «أنَّا أَوْلُ مَنْ تَنْشَقُ عَنْهُ

⁽١) حديث: دإن الله قد وحد هذا البيت أن يحجه في كل سنة سنماتة ألف. . ، الحديث. لم أجد له أصلاً.

⁽٣) حديث: «إن الحجر باقوتة من يواقيت الجنة ويبعث يوم القيامة له هينان..» الحديث. أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس: «الحجر الأسود من الجنة» لفظ النسائي، وباقي الحديث رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضاً، وللحاكم من حديث أنس: «إن الركن والمقام ياقوتنان من يواقيت الجنة» وصحح إسناده، ورواه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبدائه بن عمرو.

 ⁽٣) حليث: فأنه على كان يقبله كثيراً أخرجاه من حديث عمر دون قوله: «كثيراً» والنسائي: فأنه كان يقبله كل مرة ثلاثاً
إن رآه خالياً».

 ⁽٤) حديث: (أنه كان يسحد عليه). أخرجه البزار والحاكم من حديث عمر وصحح إسناده

 ⁽a) قبله عمر وقال: إني لأعلم أنك ححر٩. أخرجاه دون الزيادة التي رواها علي، ورواه بتلك الزيادة الحاكم وقال:
 ليس من شرط الشيخين.

 ⁽٦) حديث: «عمرة في رمضان كحجة معي». أخرجاه من حديث ابن عباس دون قوله: «معي» فهي عند مسلم على
 الشك: «تقضي حجة أو حجة معي» ورواه الحاكم بزيادتها من غير شك.

فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكراهيته:

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة:

الأول: خوف التبرم والأنس بالبيت؛ فإنّ ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام، وهكذا كان عمر رضي الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم. ولذلك همّ عمر رضي الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف، وقال: خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت.

الثاني: تهييج الشوق بالمفارقة لتنبعث داعية العودة، فإنّ الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمناً، أي يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطراً. وقال بعضهم: تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر.

 ⁽١) حديث: ﴿أَنَا أُولُ مِن تَنشق عنه الأرض ثم آتي أهل البقيع فيحضرون معي. . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي وحسته ابن
 حبان من حديث ابن عمر.

 ⁽٣) حديث: إن آدم لما قضى مناسكه ثقيته الملائكة فقالوا: بر حجك يا آدم. . ٤ الحديث. رواه المفضل الجعدي ومن طريقه ابن الجوزي في العلل من حديث ابن عباس وقال: لا يصح. ورواه الأزرقي في تاريخ مكة موقوفاً على ابن عباس.

 ⁽٣) حديث: «استكثروا من الطواف بهذا البيث. ١٠ الحديث. أخرجه البزار وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر: «استمتعوا من هذا البيث فإنه هذم مرتبن ويرفع في الثالثة».

⁽٤) حديث القال الله: إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت بيبتي فخربته ثم أخرب الدنيا على أثره لبس له أصل.

وقال بعض السلف: كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به؟ ويقال: إن لله تعالى عباداً تطوف بهم الكعبة تقرّباً إلى الله عزّ وجلّ.

الثالث: الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها، فإنَّ ذلك مخطر وبالحري أن يورث مقت الله عزَّ وجلَّ لشرف الموضع. وروي عن وهيب بن الورد المكي قال: كنت ذات ليلة في الحجر أصلي فسمعت كلاماً بين الكعبة والأستار يقول: إلى الله أشكو ثم إليك يا جبرائيل ما ألقى من الطائفين حولى من تفكرهم في الحديث ولغوهم ولهوهم، لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر مني إلى الجبل الذي قطع منه. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من بلد يؤاخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدّ فِيهِ بِإِلْحَكَادِ بِظُلْمِ تُنْوَقَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِمِهِ﴾ [الحَج: ٢٥]، أي إنه على مجرد الإرادة. ويقال: إنَّ السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم، وقيل: الكذب أيضاً، وقال ابن عباس: لأن أذنب سبعين ذنباً بركية أحب إلى من أن أذنب ذنباً واحداً بمكة. وركية منزل بين مكة والطائف. ولخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته في الحرم، بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة. وبعضهم أقام شهراً وما وضع جنبه على الأرض. وللمنع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة. ولا تظنن أنَّ كراهة المقام يناقض فضل البقعة لأنَّ هذه كراهة علتها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع، فمعنى قولنا: إنَّ ترك المقام به أفضل أي بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم، إما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيهات! وكيف لا، ولما عاد رسول الله على إلى مكة استقبل الكعبة وقال: ﴿إِنَّكِ لَخَيْرُ أَزْضِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَحَبُّ بِلادِ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَيِّ وَلَوْلا أَنّي أَخْرِجْتُ مِنْكِ لَمَا خَرَجْتُۥ ﴿ ` وكيف لا، والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه.

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد:

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله على فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة. قال على المُسْجِد في مَسْجِدِي لهذا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيما سِوَاهُ إِلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ» (٢)، وكذلك كل عمل بالمدينة بألف، وبعد مدينته الأرض المقدّسة، فإن الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام، وكذلك سائر الأعمال، وروى ابن عباس عن النبي على أنه قال: «صَلاةً فِي مَسْجِدِ المَدِينَةِ بِعَشَرَةِ آلافِ صَلاةٍ، وصَلاةً فِي المَسْجِدِ المَدِينَةِ بِعَشَرَةِ آلافِ صَلاةٍ، وصَلاةً فِي المَسْجِدِ المَدْيَاةِ أَلْفِ صَلاةٍ، وقال على المَسْجِدِ المَدْيَاةِ الْفِ

 ⁽۱) حديث: اإنك لخير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت؛ أحرجه الترمذي، وصححه
النسائي في الكبرى وابن ماجه وابن حبان من حديث عبدالله بن عدي بن الحمراء.

 ⁽۲) حديث: قصلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام. متفق عليه من حديث أبي
 هريرة، ورواه مسلم من حديث ابن عمر.

⁽٣) حديث ابن عباس: ٩صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة، وصلاة في المسجد الأقمى بألف صلاة، وصلاة في المسجد المحرام بمائة ألف صلاة، غرب لم أجده بجملته هكذا، وأخرجه ابن ماحه من حديث ميمونة بإسناد جيد في بيت المقدس: ٩ائتوه فصلوا فيه فإن الصلاة فيه كألف صلاة في غيره، ولابن ماحه من حديث أنس: ٩صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة»، وليس في إسناده من ضعف، وقال الذهبي: إنه منكر.

﴿مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ شِدَّتِهَا وَلأَوَائِهَا كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ القِهَامَةِ ﴿ ` ، وقال ﷺ : ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ فَإِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ بِهَا أَحَدُ إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ ﴿٢ ۚ ، وما بعد هَذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للمرابطة فيها فيه فضل عظيم. ولذلك قال ﷺ : ﴿لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَىٰ ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي لِهٰذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْضَىٰ ۖ ، وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع منَّ الرحَلة لَّزيارة المشاهَّد وقبور العلماء والصلحاء، وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها. قال ﷺ: اكُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا وَلا تَقُولُوا هُجُراً» أَو الحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد؛ لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر. وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عزّ وجلّ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشذّ الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء. ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شذّ الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام، فالمنع من ذلك في غابة الإحالة، فإذا جوّز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد. هذا في الرحلة. أما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه، فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له، قال ﷺ : ﴿ البِلادُ بِلادُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْحَلْقُ عِبَادُهُ فَأَيُّ مَوْضِع رَأَيْتَ فِيهِ رِفْقاً فَأَيْمُ وَاحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَىٰ﴾، وفي الخبر: «من بورك له في شيء فليلزمه ومن جملت معَّيشته في شيء قلا ينتقل هنه حتى يتغير عليه^{يرد)} وقال أبو نعيم: رأيت سفيان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعليه بيده فقلت: إلى أين يا أبا عبدالله؟ قال: إلى بلد أملاً فيه جرابي بدرهم. وفي حكاية أخرى: بلغني عن قرية فيها رخص أقيم فيها، قال فقلت: وتفعل هذا يا أبا عبداله؟ فقال: نعم إدا سمعت برخص في بلد فاقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لهمك، وكان يقول: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين، فكيف بالمشهورين؟ هذا زمان تَنَقُل يتنقل الرجل من قرية إلى قرية يفرّ بدينه من الفتن. ويحكى عنه أنه قال: والله ما أدري أي البلاد أسكَّن؟ فقيل له: خراسان، فقال: مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، قيل: فالشام،

 ⁽۱) حديث: «لا يصير على لأوائها وشعنها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة». من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي
سميد.

 ⁽٢) حديث ' همن استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها. . * الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر.
 قال الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽٣) حديث: ﴿لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد. . • الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

 ⁽٤) حديث: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب.

حديث: «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأي موضع رأيت فيه رفقاً فأقم». أخرجه أحمد والطبراني من حديث الزبير
بسند ضعيف.

⁽٦) حديث: "من رزق في شيء فليلزمه ومن جملت معيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه". أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بالجملة الأولى بسند حسن، ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ: "إذا سبب لله الأحدكم رزقاً من وجه قلا يدعه حتى يتغير أو يتنكر له".

كتاب أسرار الحج

قال: يشار إليك بالأصابع - أراد الشهرة - قيل: فالعراق، قال: بلد الجبابرة، قيل: مكة، قال: مكة تذيب الكيس والبدن. وقال له رجل غريب: عزمت على المجاورة بمكة فأوصني، قال: أوصيك بثلاث: لا تصلين في الصف الأول ولا تصحبن قرشياً ولا تظهرن صدقة. وإنما كره الصف الأول لأنه يشتهر فيفتقد إذا غاب فيختلط بعمله التزين والتصنع.

الفصل الثاني

في شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان: الوقت والإسلام. فيصح حج الصبي ويحرم بنفسه إن كان مميزاً ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ويفعل به ما يفعل في الحج من الطواف والسعي وغيره. وأما الوقت، فهو شوّال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر، فمن أحرم بالحج في غير هذه المدّة فهي عمرة وجميع السنة وقت العمرة، ولكن من كان معكوفاً على النسك أيام مني فلا ينبغي أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكّن من الاشتغال عقيبه لاشتغاله بأعمال مني. وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فخمسة: الإسلام والحرّية والبلوغ والعقل والوقت، فإن أحرم الصبي أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبي بعرفة أو بمردلقة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام، لأن الحج عرفة، وليس عليهما دم إلا شاة. وتشترط هذه الشرائط في وقوع العمرة عن فرض الإسلام إلا الوقت. وأما شروط وقوع الحج نفلاً عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الإسلام فحج الإسلام متقدِّم، ثم القضاء لمن أفسده في حالة الوقوف، ثم النفر، ثم النيابة، ثم النفل، وهذا الترتيب مستحق، وكذلك يقع وإن توى خلافه. وأما شروط لزوم الحج فخمسة: البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة. ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة. ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطاباً لزمه الإحرام على قول، ثم يتحلل بعمل عمرة أو حج. وأما الاستطاعة فنوعان: أحلهما: المباشرة وذلك له أسباب أما في نفسه فبالصحة، وأما في الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدوّ قاهر، وأما في المالُّ فبأن يجد نفقة ذهابه وإيّابه إلى وطنه ـ كان له أهل أو لم يكن ـ لأن مفارقة الوطن شديدة، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته في هذه المدّة، وأن يملك ما يقضي به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كرائها بمحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة. وأما النوع الثاني: فاستطاعة المعضوب بماله، وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه. ويكفي نفقة الذهاب بزاملة في هذا النوع، والابن إذا عرض طاعته علَى الأب الزُّمِن صار به مستطيعاً ولو عرض ماله لم يصر به مستطيعاً؛ لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد، وبذل المال فيه منة على الوالد. ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه، وإن مات قبل الحج لقي الله عزّ وجلّ عاصياً بترك الحج، وكان الحج في تركته يحج عنه وإن لم يوص كسائر ديونه. وإن استطاع في سنة فلم يخرج مع الناسُّ وهلك ماله في تُلك السنة ـ قبل حج الناس ـ ثم مات لقي الله عزّ وجلّ ولا حج عليه. ومن مات ولم يحج مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى. قال عمر رضي الله عنه: لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً. وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس: لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه. وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يحج فلم يصل عليه. وكان ابن عباس يقول: من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عزّ وجلّ: ﴿رَبّ اَرْجِعُونِ ﴿ لَا لَهُ لَيْكُ الله وَمِن فَيما لَا لَهُ الله وَمَا الأركان التي لا يصح الحج بدونها فخمسة: الإحرام والطواف والسعي بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول، وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف. والواجبات المجبورة بالدم ست: الإحرام من الميقات فمن تركه وجاوز الميقات محلاً فعليه شاة، والرمي فيه الدم قولاً واحداً، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمبيت بمنى وطواف الوداع، فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين، وفي القول الثاني فيها دم على وجه الاستحباب. وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة:

الأول: الإفراد، وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده، فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر. وأفضل الحل للإحرام العمرة الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية. وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع.

الثاني: القرآن، وهو أن يجمع فيقول: «لبيك بحجة وعمرة معاً» فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال المحح وتندرج العمرة تحت المحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل، إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسعيه محسوب من السكين وأما طوافه فغير محسوب؛ لأن شرط الطواف الفرض في الحج أن يقع بعد الوقوف. وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكياً فلا شيء عليه؛ لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة.

الثالث: التمتع، وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج، ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط: أحدها: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام، وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة. الثاني: أن يقدم العمرة على الحج. الثالث: أن تكون عمرته في أشهر الحج.

الرابع: أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج.

المخامس: أن يكون حجه وعمرته عن شخص واحد. فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة، فإن لم يجد فصيام ثلاثة في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن، وإن لم يصم الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتابعاً أو متفرقاً. وبدل دم القران والتمتع سواء. والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران.

وأما محظورات الحج والعمرة فستة:

الأول: اللبس للقميص والسراويل والخف والعمامة، بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين، فإن لم يجد نعلين همكعبين فإن لم يجد إزاراً فسراويل. ولا بأس بالمنطقة والاستظلال في المحمل، ولكن لا ينبغي أن يغطي رأسه فإن إحرامه في الرأس. وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها.

الثاني: الطيب فليجتنب كل ما يعده العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة.

الثالث: الحلق والقلم؛ وفيهما العدية أعني دم شاة، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر.

الرابع: الجماع؛ وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه، وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه.

والخامس: مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا في الاستمناء، ويحرم النكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد.

السادس: قتل صيد البر؛ أعني ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام، فإن قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الخلقة. وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه.

الباب الثاني

في ترتيب الأعمال الظاهرة من أوّل السّفر إلى الرجوع، وهي عشر جمل

الجملة الأولى: في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية:

الأولى: في المال؛ فينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع. ويستصحب من المال الحلال الطيب ما يكفيه لذهامه وإيابه من غير تقتير بل على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء. ويتصدق بشيء قبل خروجه ويشتري لنفسه دابة قوية على الحمل لا تضعف أو يكتريها، فإن اكترى فليظهر للمكاري كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه.

الثانية: في الرفيق؛ ينبغي أن يلتمس رفيقاً صالحاً محباً للخير معيناً عليه، إن نسي ذكره وإن ذكره أعانه وإن جبن شجعه وإن عجز قوّاه وإن ضاق صدره صبره. ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويلتمس أدعيتهم، فإن الله تعالى جاعل في أدعيتهم خيراً، والسنة في الوداع أن يقول: «أستودع الله دينك وأمانتك وحواتهم عملك (١٠)، وكان على يقول لمن أراد السفر: «فِي حِفْظِ اللهِ وَكَتَفِهِ زَوْدَكَ اللهُ النَّفَوَىٰ وَغَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجَهَكَ لِلْخَيْرِ أَيْنَمَا كُنْتَ (١٠).

الباب الثاني في ترتيب الأفعال الظاهرة

- (١) حديث: الستودع الله دينك وأمانتك وخواتهم صملك». أخرجه الترمذي وصححه والنسائي من حديث ابن عمر: «أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادن حتى أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا».
- (٢) حديث: «كان ﷺ يقول لمن أراد سفراً: في حفظ الله وكنفه زودك الله التقوى وغفر الله ثنبك ووجهك للخير أينما توجهت». أحرجه الطبراني في الدعاء من حديث أس وهو عند الترمذي وحسنه دون قوله: «في حفظ الله وكنفه».

الثالثة: في الحروج من الدار؛ ينبغي إذا هم بالخروج أن يصلي ركعتين أولاً يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص، قإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال: اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة. اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى. اللهم إنا نسألك أن تطوي لنا الأرض وتهون علينا السفر، وأن ترزقنا في سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حع بيتك وزيارة قبر نبيك محمد على اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب. اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك ولا تسلبنا وإياهم في جوارك ولا تسلبنا وإياهم في جوارك ولا تسلبنا

الرابعة: إذا حصل على باب الدار قال: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، ربّ أعود بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أُذِلَّ أو أُزِلَّ أو أُزِلَّ أو أُظْلِمَ أو أُظْلَمَ أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليً. اللهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقاً إلى لقائك. فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت. اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به، وما أنت أعلم اعتصمت وإليك توجهت. اللهم أن ثقتي وأنت رجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به، وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك. اللهم زوّدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخبر أينما توجهت. ويدعو بهذا الدعاء في كل منزل يدخل عليه.

الخامسة: في الركوب؛ فإذا ركب الراحلة يقول: بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إني وجهت وجهي إليك، وفوضت أمري كله إليك، وتوكلت في جميع أموري عليك أنت حسبي ونعم الوكيل. فإذا استوى على الراحلة واستوت تحته قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مسبع مرات ـ وقال: ﴿الْمُحَدِّدُ يَدِّو اللَّذِي هَدَننَا لِهَذَا وَمَا كُنَا لِهَذَا وَمَا كُنَا لِهَا الأمور.

السادسة: في النزول؛ والسنّة أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون أكثر سيره بالليل. قال على المعمَّن بَالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطُوّى بَاللَّهِلِ مَا لا تُطُوّى بِالنّهَارِه (١)، وليقلل نومه بالليل حتى يكون عُوناً على السير، ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السمُوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه اصرف عني شر شرارهم. فإذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق، فإذا جنّ عليه الليل يقول: يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شرك والد وما ولد. ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْعَلِيمُ السَّكِ السَّدِيمُ السَّكِ السَّدِيمُ السَّكِ وَاللهُ واللهُ وما ولد. ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي النّهِ وَالنّهُ إِلَيْ وَالنّهُ السَّكِ وَالنّهُ السَّكِ وَالنّهُ السَّكِ وَالنّهُ وَاللّهُ واللّهُ والسّمِيمُ العَلِيمُ السَّكِ والائم، ١٢].

السابعة: في الحراسة؛ ينبغي أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفرداً خارج القافلة لأنه ربما يغتال أو

١١) حديث: اعليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار، أحرجه أبر داود من حديث أنس دون قوله:
 هما لا تطوى بالنهارا، وهذه الزيادة في الموطأ من حديث خالد بن معدان مرسلاً.

ينقطم، ويكون بالليل متحفظاً عند النوم، فإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل رأسه في كفه، هكذا كان ينام رسول الله على في سفره (١٠) لانه ربما استثقل النوم فتطلع الشمس وهو لا يلري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج، والأحب في الليل أن يتناوب الرفيقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر (٢)، فهو السنة، فإن قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي، وشهد الله، والإخلاص، والمعوّذتين، وليقل بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله، ثوكلت على الله، ما شاء الله لا يأتي بالخير إلا الله، ما شاء الله، لا يصرف السوء إلا الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، وليس وراء الله منتهى، ولا دون الله ملجأ ﴿كَتَلُ اللهُ لا يَموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك عليا فلا لا يموت، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك عليا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا. اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين.

الثامنة: مهما علا نشزاً من الأرض في الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثاً ثم يقول: اللهم لك الشرف على كل شرف على كل على كل حال. ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة في سفره قال: سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت.

الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة:

الأول: أن يغتسل وينوي به غسل الإحرام، أعني إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه. ويتمم غسله بالتنظيف ويسرح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التي دكرناها في الطهارة.

الثاني: أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبي الإحرام فيرتدي ويتزر بثوبين أبيضين، فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عزّ وجلّ، ويتطيب في ثيابه وبدنه، ولا بأس بطيب يبقى جرمه بعد الإحرام؛ فقد رثي وبيص المسك على مفرق رسول الله ﷺ بعد الإحرام مما كان استعمله قبل الإحرام (٣).

الثالث: أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تنبعث به راحلته إن كان راكباً أو يبدأ بالسير إن كان راجلاً، فعند ذلك ينوي الإحرام بالحج أو بالعمرة قراناً أو إفراداً كما أراد. ويكفي مجرد النية لانعقاد الإحرام، ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول: «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن

⁽١) حديث: «كان إذا نام في أول الليل افترش ذراعه وإذا نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل ذراعه في كفه»، أخرجه أحمد والترمذي في الشمائل من حديث أبي قتادة بإسناد صحيح، وهزاه أبو مسعود الدمشقي والحميدي إلى مسلم ولم أره فيه.

 ⁽٣) حديث: «تناوب الرفيقين في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر». أخرجه البيهقي من طريق ابن إسحاق من
حديث جابر في حديث فيه: «فقال الأنصاري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه أوله أو آخره؟ فقال: بل اكفني أوله
فاضطجع المهاجري..» الحديث، والحديث عند أبي داود ولكن ليس فيه قول الأنصاري للمهاجري.

 ⁽٣) حديث: «رؤية وبيص المسك على مفرق رسول الله على بعد الإحرام». متمن عليه من حديث عائشة قالت: «كأنما أنظر إلى وبيص المسك الحديث.

الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك؛ وإن زاد قال: «لبيك وسعديك والخير كان بيديك والرغباء إليك لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الرابع: إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول: اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعني على أداء فرضه وتقبله مني. اللهم إني نويت أداء فريضتك في الحج فاجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلني من وفدك الذين رضيت عنهم وارتضيت وقبلت منهم. اللهم فيسر لي أداء ما نويت من الحج، اللهم قد أحرم لك لحمي وشعري ودمي وعصبي ومخي وعظامي، وحرّمت على نفسي النساء والطيب ولبس المخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة. ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التي ذكرناها من قبل فليجتنبها.

الخامس: يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام خصوصاً عند اصطدام الرفاق وعند اجتماع الناس، وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعاً بها صوته بحيث لا يبح حلقه ولا ينبهر، فإنه لا ينادي أصماً ولا غائباً (۱)، كما ورد في الخبر. ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة فإنها مظنة المناسك - أعني المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات - وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت. وكان النبي على إذا أعجبه شيء قال: اللبيك إن الميش عَيش الخيش عَيش الخيرة (۱).

الجملة الثالثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة:

الأول: أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة، والاغتسالات المستحبة المسنونة في الحج تسعة: الأول، للإحرام من الميقات، ثم لدخول مكة، ثم لطواف القدوم، ثم للوقوف بعرفة، ثم للوقوف بمزدلفة، ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمار الثلاث، ولا غسل لرمي جمرة العقبة، ثم لطواف الوداع. ولم ير الشافعي رضي الله عنه في الجديد: الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة.

الثاني: أن يقول عند الدخول في أوّل الحرم وهو خارج مكة: اللهم هذا حرمك وأمنك، فحرّم لحمي ودمي وشعري وبشري على النار وآمني من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك.

الثالث: أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو ثنية كداء _ بفتح الكاف _ عدل رسول الله عَلَيْتِ من جادة الطريق إليها (٢)، فالتأسي به أولى، وإذا خرج خرج من ثنية كُدى _ بضم الكاف _ وهي الثنية السفلى والأولى هي العليا.

 ⁽١) حديث: (إنكم لا تنادون أصم ولا فائباً متفق عليه من حديث أبي موسى.

 ⁽٢) حديث: اكان إذا أحجبه شيء قال: البيك إن العيش عيش الآخرة أخرجه الشافعي في المسند من حديث مجاهد
 مرسلاً بنحوه، وللحاكم وصححه من حديث ابن عباس: أن رسول الله هي وقف بعرفات فلما قال: البيك اللهم
 لبيكه قال: اإنما الخير خير الآخرة.

 ⁽٣) حدیث ادخول رسول الله چ من ثنیة كداء . بفتح الكاف ۱۰. مثفق علیه من حدیث ابن عمر قال. اكان
 رسول الله ﷺ إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التي بالبطحاء . . الحدیث.

الوابع: إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعنده يقع بصره على البيت فليقل: «لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته اللهم فزده تعظيماً وزده تشريفاً وتكريماً وزده مهابة وزد من حجه برأ وكرامة، اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم».

المخامس: إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبة وليقل: بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله على غاذا قرب من البيت قال: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك، وليرفع يديه وليقل: اللهم إني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تتقبل توبتي وأن تتجاوز عن خطيئتي وتضع عني وزري، الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأما وجعله مباركاً وهدى للعالمين. اللهم إني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك جئتك أطلب رحمتك وأسألك مسألة المضطر الخائف من عقوبتك الراجي لرحمتك الطالب مرضاتك.

السادس: أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول: اللهم أمانتي أديتها . وميثاقي وفيته اشهد لي بالموافاة، فإن لم يستطع التقبيل وقف في مقابلته ويقول ذلك. ثم لا يعرّج على . شيء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس في المكتوبة فيصلي معهم ثم يطوف.

الجملة الرابعة: في الطواف:

فإذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغي أن يراعي أموراً سنة:

الأوّل: أن يراعي شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث في الثوب والبدن والمكان وستر العورة، فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام. وليضطبع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر فيرخي طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره، ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالأدعية التي سنذكرها.

الثاني: إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتنح عنه قليلاً ليكون الححر قدامه فيمر بجميع الححر بجميع بدنه في ابتداء طوافه، وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت فإنه أفضل ولكيلا يكون طائفاً على الشاذروان فإنه من البيت، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذروان بالأرض ويلتبس به، والطائف عليه لا يصح طوافه؛ لأنه طائف في البيت. والشاذروان هو الذي فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار، ثم من هذا الموقف يبتدىء الطواف.

الثالث: أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل في ابتداء الطواف: «بسم الله والله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد عليه ويطوف. فأوّل ما يجاوز الحجر ينتهي إلى باب البيت فيقول: «اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار» وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام: «اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذني من النار ومن الشيطان الرجيم وحرّم لحمي ودمي على النار وآمني من أهوال يوم القيامة واكفني مؤنة الدنيا والآخرة»، ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقي فعنده يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء

المنظر في الأهل والمال والولد» فإذا بلغ الميزاب قال: «اللهم أظلنا تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم اسقني بكأس محمد على شربة لا أظمأ بعدها أبداً»، فإذا بلغ الركن الشامي قال: «اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً وتجارة لن تبور يا عزيز يا غفور، رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم فإذا بلغ الركن اليماني قال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من الخزي في الدنيا والآخرة ويقول بين الركن اليماني والحجر الأسود: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار»، فإذا بلغ الحجر الأسود قال: «اللهم اغفر لي برحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر»، وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية في كل شوط.

الرابع: أن يرمل في ثلاثة أشواط ويمشي في الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة. ومعنى الرمل الإسراع في المشي مع تقارب الخطى، وهو دون العدو وقوق المشي المعتاد، والمقصود منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوّة، هكذا كان القصد أولاً قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة (١)، والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فإن لم يمكنه للزحمة فالرمل مع البعد أفضل فليخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثاً ثم ليقرب إلى البيت في المزدحم وليمش أربعاً. وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب، وإن معه الزحمة أشار باليد وقبل يده، وكذلك استلام الركن اليماني يستحب من سائر الأركان. وروي «أنه علي كان يستلم الركن اليماني ")، ويقبله (١)، ويضع خدّه عليه أولى.

الخامس: إذا تم الطواف سبعاً فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب هو موضع استجابة الدعوة، وليلتزق بالبيت وليتعلق بالأستار وليلصق بطنه بالبيت وليضع عليه خذه الأيمن وليبسط عليه ذراعيه

⁽١) حديث: «مشروعية الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار وبقيت ثلك السنة» أما الرمل: فمتفق عليه من حديث ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة. .» الحديث وأما الاضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر قال: «فيم الرملان الآن والكشف عن المناكب وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر وأهله ومع ذلك لا ندع شبئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ».

⁽٢) حديث: "استلامه لله للركن اليماني"، منفق عليه من حديث ابن عمر قال: فرأيت رسول الله عن حين يقدم مكة إدا استلم الركن الأسود. . " المحديث. ولهما من حديثه: "لم أر رسول الله في يمس من الأركان إلا اليمانيين" ولمسلم من حديث ابن عباس: قلم أره يستلم غير الركنين اليمانيين". وله من حديث جابر الطويل: "حتى إذا أتيت البيت معه استلم الركن".

 ⁽٣) حديث: «تقبيله ﷺ له». متفق عليه من حديث عمر: «أنه قبل الحجر وقال: لولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما
قبلتك؛ وللمخاري من حديث ابن عمر: «رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله» وله في التاريخ من حديث ابن عباس:
 «كان النبي ﷺ إذا استلم الركن اليماني قبله».

 ⁽٤) حديث (وضع الخد عليه). أخرجه الدارقطني من حديث ابن عباس: (أن رسول الله علي قبل الركن البماني...)
 الحديث. قال الحاكم: صحيع الإسناد. قلت: فيه عبدالله بن مسلم بن هرمز ضعفه الجمهور.

وكفيه، وليقل: «اللهم يا رب البيت العتيق أعنق رقبتي من النار وأعذني من الشيطان الرجيم وأعذني من كل سوء وقنعني بما رزقتني ويارك لي فيما آتيتني. اللهم إنّ هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار. اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك، ثم ليحمد الله كثيراً في هذا الموضع وليصل على رسوله على وعلى جميع الرسل كثيراً وليدع بحوائجه الخاصة وليستغفر من ذنوبه. كان بعض السلف في هذا الموضع يقول لمواليه: تنحوا عني حتى أقرّ لربي بذنوبي.

السادس: إذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلي خلص المقام ركعتين يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص وهما ركعتيا الطواف. قال الزهري: مضت السنة أن يصلي لكل سبع ركعتين وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز (٢)، فعل ذلك رسول الله على وكل أسبوع طواف. وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل: اللهم يسر لي اليسرى وجنبني العسرى واغفر لي في الآخرة والأولى واعصمني بألطافك حتى لا أعصيك وأعني على طاعتك بتوفيقك وجنبني معاصيك واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك وإلى عبادك ويحب ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم حببني إلى ملائكتك ورسلك ويألى عبادك الصالحين اللهم حببني الى ملائكتك واستعملني لطاعتك وطاعة الصالحين اللهم فكما هديتني إلى الإسلام فثبتني عليه بألطافك وولايتك واستعملني لطاعتك وطاعة رسولك وأجرني من مضلات الفتن. ثم ليعد إلى الحجر وليستلمه وليختم به الطواف، قال في المناف وطاعة على بالبئت أشبوها وصَلَى رَكَعَتَيْنِ فَلَهُ مِنَ الأَجْرِ كَعِثْتِ رَقَيَةٍ» (٣) وهذه كيفية الطواف، والواجب من جملته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعاً بجميع البيت، وأن يبتدىء بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لا على الشاذروان ولا في الحجر، ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لا على الشاذروان ولا في الحجر، وأن يوالي بين الأشواط ولا يفرقها تفريقاً خارجاً عن المعتاد وما عدا هذا هذا فهو سنن وهيئات.

الجملة الخامسة: في السعى:

فإذا فرغ من الطواف فليخرح من باب الصفا وهو في محاذاة الضلع الذي بين الركن اليماني والحجر. فإذا خرج من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل فيرقى فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل. رقى رسول الله على حتى بدت له الكعبة (٤)، وابتداء السعي من أصل الجبل كاف

 ⁽۱) حديث الزهري: "مضت السنة أن يصلي لكل أسبوع ركعتين". ذكره البخاري تعليفاً السنة أفضل لم يطف
الني قي أسبوعاً إلا صلى ركعتين، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر ' "قدم رسول الله على وطاف بالبيت سبعاً
وصلى خلف المقام ركعتين".

 ⁽۲) حديث: «قرانه ﷺ بين أسابيع». رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر: «أن النبي ﷺ قرن ثلاثة أطواف ليس
بينهما صلاة»، ورواه العقيلي في الضعفاء وابن شاهين في أماليه من حديث أبي هريرة وزاد: «ثم صلى لكل أسبوع
ركعتين» وفي إسنادهما عبدالسلام بن أبي الحبوب منكر الحديث.

⁽٣) حديث: "من طاف بالبيت أسبوعاً وصلى ركمتين فله من الأجر كمتى رقبة». أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر: "من طاف بالبيت وصلى ركمتين كان كمتى رقبة». لقظ ابن ماجه وقال: «الأخر من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كمتى رقبة» وللبيهني في الشعب: "من طاف أسبوعاً وركع ركمتين كانت كمتاق رقبة».

 ⁽³⁾ حديث: «أنه رقى على الصفاحتى بدت له الكعبة». أخرجه مسلم من حديث جابر: «فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى
 رأى البيت، وله من حديث أبي هريرة: «أتى الصفا فعلا عليه حتى نزل إلى البيت».

وهذه الزيادة مستحبة، ولكن بعض تلك الدرج مستحدثة فينبغي أن لا يخلفها وراء ظهره فلا يكون متمماً للسعى، وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات. وعند رقيه في الصفا ينبغي أن يستقبل البيت ويقول: «الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا الحمد لله بمحامده كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين. ﴿فَشَبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُنسُّونَ وَجِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلْحَمَّدُ فِي ٱلسَّكَوْتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِبًّا وَجِينَ تُظْهِرُونَ ۞ يُغْرِجُ ٱلْحَقَّ مِنَ ٱلْمَيْتِ وَيُحْرِجُ ٱلْمَيْتَ مِنَ ٱلْعَيْ وَيُحْيِى ٱلْأَرْضَ بَقْدَ مَوْتِهَاْ وَكَذَلِكَ غُفْرَتُوكَ ﴿ وَمِنْ مَايَنْيُهِۥ أَنْ حَلَقَكُمْ مِن ثُرَابٍ ثُدَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرُّ مَنَثِرُونَ ۞﴾ [الرُّوم: ١٧-٢٠]، اللهم إني أسألك إيماناً دائماً، ويقيناً صادقاً، وعلماً نافعاً، وقلباً خاشعاً، ولساناً داكراً، وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة، ويصلى على محمد ﷺ ويدعو الله عزّ وجلّ بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء. ثم ينزل ويبتدىء السعى وهو يقول: «رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم. اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة وقنا عذاب النارُّ، ويمشى على هينة حتى ينتهي إلى الميل الأخضر وهو أوَّل ما يلقاه إذا نرل من الصفل وهو على زاوية المسجد الحرام ـ فإذا بقي بينه وبين محاذاة المبل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهي إلى الميلين الأخضرين. ثم يعود إلى الهينة فإذا انتهى إلى المروة صعدها كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك الدعاء، وقد حصل السعي مرة واحدة، فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان. يفعل ذلك سبعاً ويرمل في موضع الرمل في كل مرة ويسكن في موضع السكون ـ كما سبق ـ وفي كل نوبة يصعد الصفا والمروة فإذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان. والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف. وإذا سعى فينبغي أن لا يعيد السعى بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركناً؛ فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن. نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أي طواف كان.

الجملة السادسة: في الوقوف وما قبله:

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات يتفرّغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف، وإذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة. فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها، وبالغدق منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال؛ إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر، فينبغي أن يخرج إلى منى ملبياً. ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه، والمشي من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وآكد. فإذا انتهى إلى منى قال: اللهم هذه منى قامنن عليً بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك. وليمكث هذه الليلة بمنى ـ وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك ـ فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول: اللهم اجعلها خير غدوة غدوتها قط وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك. اللهم عرفات وإياك رحوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلني ممن تباهي به اليوم من هو خير مني إليك غدوت وإياك رحوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلني ممن تباهي به اليوم من هو خير مني إليك غدوت وإياك رحوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلني ممن تباهي به اليوم من هو خير مني

وأفضل. فإذا أتى عرفات فليضرب خباءه بمرة قريباً من المسجد، فثمَّ ضرب رسول الله ﷺ قبته (١). ونمرة: هي بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة. وليغتسل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد، وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان، وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن. ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين، وقصر الصلاة، وراح إلى الموقف فليقف بعرفة ولا يقفن في وادي عرفة.

وأما مسجد إبراهيم عليه السلام فصدره في الوادي وأخرياته من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة. ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم، والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة راكباً. وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله عز وجل والدعاء والدوبة. ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء. ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبي تارة ويكب على الدعاء أخرى. وينبغي أن لا ينفصل من طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار، وإن أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان الغلط في الهلال فهو الحزم وبه الأمن من الفوات، ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات، ثم يقضي العام الآتي، وليكن أهم اشتغاله في هذا اليوم اللعاء، ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات. والدعاء المأثور عن رسول الله الله الله الله الله يوم عرفة أول ما يدعو به فليقل: الاله إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللهم احعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي لساني نوراً. اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري. وليقل: اللهم رب الحمد لك الحمد كما تقول وخيراً مما نقول لك صلاتي ونسكي ومماتي واليك مآبي وإليك ثوابي، اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر

⁽١) حديث: «ضربه ﷺ قبته بنمرة» أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل. «أمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة...» الحديث.

⁽٣) حديث: «الدعاء المأثور في يوم عرفة: قلا إله إلا الله وحده لا شريك له . . ه الحديث . أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . «أن النبي ﷺ قال: خير المدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وقال: حسن غريب . وله من حديث علي قال: «أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة في الموقف: الملهم إلى العمد كالذي نقول وخيراً مما نقول لك صلاتي ونسكي ومعيلي ومعاتي وإليك مآبي ولك رب تراتي اللهم إني أهوذ بك من شر ما تجيء به الربع وقال: ليس بالقري إسناده ، وروى المستغفري في المدوات من حديث: «يا هلي ، إن أكثر دهاء من قبلي يوم عرفة أن أقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، المهم اجمل في صدري نوراً وفي سمعي نوراً وفي قلبي نوراً ، الملهم اشرح لمي صدري ويسر لمي أمري . المهم إني أهوذ بك من وسواس المسلو وشمنات الأمر وفتنة القبر وشر ما يلج في المليل وشر ما يلج في المنهار وشر ما تهب به المرياح ومن شر بوائق المدم واستناده ضعيف ، وروى الطمراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال: «كان مما دعا به ورسل الله ﷺ عشية عرفة : الماهم إنك ثرى مكائي وتسمع كلامي وتعلم سري وعلايتي ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير» ، فذكر الحديث إلى قوله : «يا خير المسؤولين ويا خير المعطين» وإستاده ضعيف وياقي الدعاء من دعاء بعضه السلف في يعض ما هو مرفوع ولكن ليس مقيلاً بموقف عرفة .

وعذاب القبر. اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل، ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما تهب به الرياح، ومن شر بوائق الدهر. اللهم إني أعوذ بك من تحوّل عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك. اللهم اهدني بالهدى واغفر لي في الآخرة والأولى يا خير مقصود وأسنى منزول به وأكرم مسؤول ما لديه، أعطني العشية أفضل ما أعطيت أحداً من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين. اللهم يا رفيع الدرجات ومنزل البركات ويا فاطر الأرضين والسلموات ضجت إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن لا تنساني في دار البلاء إذا نسيني أهل الدنيا. اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكانى وتعلم سري وعلانيتي ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المعترف بذنبه أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، دعاء من خضعت لك رقبته وفاصت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيّاً وكن بي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين وأكرم المعطين، إلهي من مدح لك نفسه فإني لائم نفسي. إلهي أخرست المعاصي لساني فمالي وسيلة عن عمل ولا شفيع سوى الأمل. إلهي إني أعلم أنّ ذنوبي لم تبق لي عندك جاهاً ولا للاعتذار وجهاً ولكنك أكرم الأكرمين. إلهي إن لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهل أن تبلغني ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء. إلهي إنَّ ذنوبي وإن كانت عظاماً ولكنها صغار في جنب عفوك فاغفرها لي يا كريم. إلهي أنت أنت وأثا أنا، أنا العوّاد إلى الذنوب وأنت العوّاد إلى المغفرة. إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون. إلهي تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً فسبحانك ما أعظم حجتك على وأكرم عفوك عنى فبوجوب حجتك على وانقطاع حجتى عنك وفقري إليك وغناك عنى إلا غفرت لي يا خير من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج بحرمة الإسلام وبدمة محمد عليه السلام أتوسل إليك، فاغفر لي جميع ذنوبي واصرفني من موقفي هذا مقضي الحوائج وهب لي ما سألت وحقق رجائي فيما نمنيت. إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمتنيه فلا تحرمني الرجاء الذي عرَّفتنيه. إلهي ما أنت صانع العشية بعبد مقرّ لك بذنبه خاشع لك بذلته مستكين بجرمه متضرع إليك من عمله، ثائب إليك من اقترافه، مستعفر لك من ظلمه، مبتهل إليك في العفو عنه، طالب إليك نجاح حواثجه، راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه، فيا ملجأ كل حي وولى كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أحطأ فبخطيئته يهلك. اللهم إليك خرحنا وبفنائك أنخنا وإياك أملنا وما عندك طلبنا ولإحسانك تعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأثقال الذنوب هربنا ولبيتك الحرام حججنا. يا من بملك حواثج السائلين، ويعلم ضمائر الصامتين، يا من ليس معه رب يدعى، ويا من ليس فوقه خالق يخشى، ويا من ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى، يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا جوداً وكرماً وعلى كثرة الحوائج إلا تفضلاً وإحساناً. اللهم إنك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة. اللهم إن لكل وفد حائزة، ولكل زائر كرامة، ولكل سائل عطية، ولكل راج ثواباً، ولكل ملتمس لما عندك جزاء، ولكل مسترحم عندك رحمة، ولكل راغب إليك زلفي، ولكل متوسل إليك عفواً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام، وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تخيب رجاءنا. إلهنا تابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بحجتك، وظاهرت المنن حتى اعترف أولياؤك بالتقصير عن حقك، وأظهرت الآبات حتى أفصحت السَّمُوات والأرض بأدلتك، وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك، إذا أساء عبادك حلمت وأمهلت،

وإن أحسنوا تفضلت وقبلت، وإن عصوا سترت، وإن أذنبوا عفوت وغفوت، وإذا دعونا أجبت، وإذا نادينا سمعت، وإذا أقبلنا إليك قربت، وإذا ولينا عنك دعوت. إلهنا إنك قلت في كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ حَكَفَرًا إِن يَنتَهُوا يُعَفَر لَهُم مَا فَدْ سَلَكَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فأرضاك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد المجحود، وإنا نشهد لك بالتوحيد مخبين ولمحمد بالرسالة مخلصين فاغفر لنا بهذه الشهادة سوالف الإجرام، ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل في الإسلام. إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعتق ما ملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالتفضل فاعتقنا. وإنك أمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتطول فتصدق علينا. ووصيتنا بالعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا. ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار». وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول: فيا من الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار». وليكثر من دعاء الخضر عليه السلام وهو أن يقول: فيا من تختلف عليه اللغات، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا تضجره مسألة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة تختلف عليه اللغات، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين ولا تضجره مسألة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك»، وليدع بما بدا له وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليلح في الدعاء وليعظم المسألة، فإن الله لا يتعاظمه شيء. وقال مطرف بن عبدالله وهو بعرفة: اللهم لا ترد الجميع من أجلي. المسألة، فإن الله لا يتعاظمه شيء. وقال مطرف بن عبدالله وهو بعرفة: اللهم لا ترد الجميع من أجلي. وقال بكر المزني: قال رجل: لما نظرت إلى أهل عرفات ظنت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم.

الجملة السابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف:

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس، فينغي أن يكون على السكينة والوقار وليجتنب وجيف الخيل وإيضاع الإبل وإيضاع الإبل وإيضاع الإبل وقال: وأتقوا الله وسيروا الله والمنطوع المن المورد الله المورد الله المورد المن المورد المن المورد المن المورد وقال المن المورد والمناسبة المناسبة فإذا بلغ المورد المناسبة المناسب

⁽١) حديث: "نهى النبي ﷺ عن وحيف الخيل وإيضاع الإبل، أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث أسامة بن ذيد: "طلبكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل، وقال الحاكم: "ليس البر بإيجاف الخيل والإبل، وللبخاري من حديث ابن عباس: "فإن البر ليس بالإيضاع».

انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها _ ففيها أحجار رخوة _ فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة، ولا بأس بأن يستظهر بزيادة قربما يسقط منه بعضها، ولتكن الحصى خفافاً بحيث يحتوي عليه أطراف البراجم. ثم ليغلس بصلاة الصُّبح وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الإسفار ويقول: «اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشهر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام» ثمم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له: وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي، وإن كان راجلاً أسرع في المشي. ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبي تارة ويكبر أخرى. فينتهي إلى منى ومواضع الجمرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر، حتى ينتهي إلى جمرة العَقْبة وهي على يُمين مستقبل القبلة في الجادة . والمرمى مرتفع قليلاً في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات . ويرمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح. وكيفيته أن يقف مستقبلاً القبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ويرمى سبع حصيات رافعاً يده، ويبدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة: «الله أكبر على طاعة الرحمن، ورغم الشيطان اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك، فإذاً رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق. ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في منزله، وصفة التكبير أن يقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولمو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر، ثم ليذبح الهدى إن كان معه، والأولى أن يذبح بنفسه وليقل: ﴿بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك وإليك تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم،، والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقر ثم بالشاة. والشاة أفضل من مشاركة ستة في البدنة أو البقرة. والضأن أفضل من المعز. قال رسول الله ﷺ: ﴿خَيْرُ الأَضْحِيَةِ الكَبْشُ الأَقْرَنُ وَالبَيْضَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الغَبْرَاءِ وَالسَّوْدَاءِ»(١⁾، وقال أبو هريرة: البيضاء أفضل في الأضحى من دم سوداوين. وليأكل منه إن كانت من هدي التطوع. ولا يضحين بالعرجاء والجدعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابرة والعجفاء. والجدع في الأنف والأذن للقطع منهما، والعضب في القرن وفي نقصان القوائم، والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق، والخرقاء من أسفل، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام، والمدابرة من خلف، والعجفاء المهزولة التي لا تنقى أي لا مخ فيها من الهزال. ثم ليحلق بعد ذلك، والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدىء بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقي ويقول: "اللهم أثبت لي بكل شعرة حسنة وامح عني بها سيئة وارفع لي بها عندك درجة؛ والمرأة تقصر الشعر، والأصلع يستحب له إمرار الموسى على رأسه. ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحذورات إلا النساء والصيد. ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه، وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر، وأفصل وقته يوم النحر ولا آحر لوقته بل له أن يؤحر إلى أي وقت شاء، ولكن يبقى مفيداً بعلقة الإحرام

⁽١) حديث: «خير الأضحية الكبش، أخرجه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت، والترمذي من حديث أبي أمامة، قال الترمذي: غريب، وعفير يضعف في الحديث.

فلا تحل له النساء إلى أن يطوف. فإذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق إلا الرمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحج، وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق في طواف القدوم. فإذا فرغ من الركعتين فليسع كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم، وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركناً فلا ينبغي أن يعيد السعي. وأسباب التحلل ثلاثة: الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين، ولا حرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح، ولكن الأحسن أن يرمي ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف.

والسنة للإمام في هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهي خطبة وداع رسول الله ﷺ، ففي الحج أربع خطب: خطبة يوم السابع، وخطبة يوم عرفة، وخطبة يوم النحر(١٠)، وخطبة يوم النفر الأول، وكلها عقيب الزوال وكلها إفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة. ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمى فيبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القرَّ؛ لأن الناس في غد يقرُّون بمنى ولا ينفرون. فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الأولى التي تلي عرفة وهي على يمين الجادة ويرمى إليها بسبع حصيات، فإذا تعداها انحرف قليلاً عن يمين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلَّل وكبُّر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلاً على الدعاء، ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمي كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأولى، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمي سبعاً، ولا يعرج على شغل بل يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من أيام التشريق رمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله. ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة. فإن خرج من مني قبل غروب الشمس فلا شيء عليه، وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروح بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النفر الثاني أحداً وعشرين حجراً كما سق، وفي ترك المبيت والرمي إراقة دم وليتصدق باللحم. وله أن يزور البيت في ليالي مني بشرط أن لا يبيت إلا بمني. كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك (٢٠)، ولا يتركنَ حضور الفرائض مع الإمام في مسجد الخيف فإنّ فضله عظيم. هإذا أفاض من منى فالأولى أن يقيم بالمحصب من منى ويصلي العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقدة^(٣) فهو السنَّة، رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم. فإن لم يفعل ذلك فلا شيء عليه.

⁽۱) حديث: «الخطبة يوم النحر وهي خطبة وداع رسول الله على. أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة: «خطبنا رسول الله يهي يوم النحر»، وله من حديث ابن عباس: «خطب الناس يوم النحر»، وفي حديث علقه البخاري ووصله ابن ماجه من حديث ابن عمر: «وقف النبي يه يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها فقال: أي يوم هذا؟...» الحديث، وفيه: «ثم ودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع».

 ⁽۲) حديث: «زيارة البيت في ليالي منى والمبيت بمنى». أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث طاوس: «قال: أشهد
أن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يزور البيت أيام منى» وفيه عمرو من رباح ضعيف والمرسل صحيح الإسناد،
 ولأبي داود من حديث عائشة: «أن النبئ ﷺ مكث بمنى ليالى أيام التشريق».

 ⁽٣) حديث: «نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والوقود به وقدة». أخرجه البخاري من حديث أس :
 «أن النبي رسي الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالبطحاء ثم هجع هجعة . . الحديث.

الجملة الثامنة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع:

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية. وينوي العمرة ويلبي ويقصد مسجد عائشة رضي الله عنها ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء. ثم يعود إلى مكة وهو يلبي حتى يدخل المسجد الحرام، فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعاً كما وصفنا. فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته. والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتمار والطواف، وليكثر النظر إلى البيت. فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافياً موقراً. قيل لبعضهم: هل دخلت بيت ربك اليوم؟ فقال: والله ما أرى هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي فكيف أراهما أهلاً لأن أطأ بهما بيت ربي! وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا. وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكته وليرتو منه حتى يتضلع وليقل: اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الإخلاص واليقين والمعافاة في الدبيا والآخرة. قال ﷺ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُهُ"، أي يشفي واليقين والمعافاة في الدبيا والآخرة. قال شيء: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُهُ"، أي يشفي ما قصد به.

الجملة التاسعة: في طواف الوداع:

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فلينجز أولاً أشغاله وليشد رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت، ووداعه بأن يطوف به سبعاً كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع. فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماه زمزم. ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول: «اللهم إن البيت بيتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى أعنتني على قضاء مناسكك، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رصاً وإلا فمن الآن قبل تباعدي عن بيتك هذا أوان انصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك. اللهم أصحبني العافية في بدني والعصمة في ديني وأحسن منقلبي وارزقني طاعتك أبداً ما أبقيتني واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير. اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدي فعوضني عنه الجنة»، والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه.

الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها:

قَالَ ﷺ: ﴿مَنْ زَارَنِي بَعْدَ وَفَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي ﴾ (٧)، وقال ﷺ: «مَنْ وَجَدَ سَعَةً وَلَمْ بَفِدْ

⁽¹⁾ حديث: «ماء زمزم لما شرب لمه». أخرجه ابن ماحه من حديث جائر بسند ضعيف، ورواه الدارقطئي والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس، قال الحاكم صحيح الإسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجلارودي. قال ابن القطان سلم منه فإن الخطيب قال قيه: كان صدوقاً، قال ابن القطان لكن الراوي عنه محهول وهو محمد بن هشام المروزي.

 ⁽٧) حدیث امن زارنی بعد وفاتی فکأنما زارنی فی حیاتی. أخرجه الطبرانی والدارقطنی من حدیث ابن عمر.

إحياء عُلُوم الدّين

إِلَيَّ فَقَدْ جَفَانِي، (١٠)، وقال ﷺ: "مَنْ جَاءَنِي زَائِراً لا يَهُمُّهُ إِلاَّ زِيَارَتِي كَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ أَكُونَ لَّهُ شَفِيعاً "، فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله ﷺ في طويقه كثيراً. فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: «اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب»، وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليتطيب وليلبس أنظف ثبابه. فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظماً وليقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ: ﴿زُبِّ ٱدْخِلْي مُدْخَلَ صِدْقِ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقِ وَأَجْعَلُ لَي مِن لَّذُلُكَ سُلْطُنَنَّا نَقِيدِكُ﴾ [الإسرَاء: ٨٠]، ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين، ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله على قبل أن يغير المسجد. وليجتهد أن يصلي في المسجد الأول قبل أن يزاد فيه. ثم يأتي قبر النبي ﷺ فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر، ويجعل القندبل على رأسه، وليس من السنَّة أن يمس الجدار ولا أن يقبِّله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام، فيقف ويقول: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبى الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا ماحي، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا حاشر، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا طهر، السلام عليك يا طاهر، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا قائد الخير، السلام عليك يا فاتح البر، السلام عليك يا نبى الرحمة، السلام عليك يا هادي الأمة، السلام عليك يا قائد الغرّ المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته، وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنك الغافلون، وصلى عليك في الأوَّلين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيمين وسلم وشرف وكرّم وعظم. وإن كان قد أوصي بتبليغ سلام فيقول: «السلام عليك من - فلان - السلام عليك من - فلان -، ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه

⁽١) حديث: لامن وجد سعة ولم يفد إلي فقد جفاني». أخرجه ابن عدى والدارقطني في غرائب مالك وابن حيان في الضعفاء والخطيب في الرواة عن مالك في حديث ابن عمر: لامن حج ولم يزرني فقد جفاتي». وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وروى ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس: لاما من أحد من أمتي له سعة شم لم يزرني فليس له صفر».

 ⁽٢) حديث: «من جاءني زائراً لا تهمه إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً». أحرجه الطبراي من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن.

لأن رأسه عند منكب رسول الله على الفاروق عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه. ثم يتأخر قدر فراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول: «السلام عليكما يا وزيري رسول الله على والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حيا والقائمين في أمنه بعده بأمور الدين تبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته، فجزاكما خير ما جزى وزيري نبي عن دينه، ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله على -بين القبر والأسطوانة اليوم - ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله على ثم يقول: «اللهم إنك قد قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْهُمُمْ وَلَا اللهم إنا قد سمعنا على وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تاثبين من قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تاثبين من زللنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلته عندك وحقه عليك. اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان. اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين.

ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله ﷺ: قما بَيْنَ قَبْرِي وَمِنْبَرِي رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَىٰ حَوْضِي (١) ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله ﷺ يضع يده عليها عند الخطبة (٢) ، ويستحب له أن بأتي أحداً يوم الخميس ويزور قبور الشهداء فيصلي الغداة في مسجد النبي ﷺ ، ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر قلا يفوته فريضة في الجماعة في المسجد. ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله ﷺ ويزور قبر عثمان رضي الله عنه وقبر الحسن بن علي وجعفر بن علي رضي الله عنهما، وفيه أيضاً قبر علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنها، ويزور قبر إبراهيم ابن محمد رضي الله عنها، ويؤور قبر إبراهيم ابن أرسول الله ﷺ قال: همن خَرَجَ مِنْ بَيْهِ حَمِّى يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاء ويوضاً منها ويشرب من مائها (١) ، ويأتي بئر أريس يقال: إن النبي ﷺ تفل فيها وهي عند المسجد فيقضاً منها ويشرب من مائها (١) ، ويأتي مسجد الفتح وهو على الخندق. وكذا يأتي سائر المساجد فيقصله ويقال: إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعاً يعرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله ﷺ يتوضاً منها ويغتسل ويشرب منها (٥) ، وهي ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله ﷺ يتوضاً منها ويغتسل ويشرب منها (٥) ، وهي ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله ﷺ يتوضاً منها ويغتسل ويشرب منها (٥) ، وهي

⁽۱) حديث: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض اللجنة ومنبري على حوضي». منفق عليه من حديث أبي هريرة وعبدالله بن زيد.

٢٠) حديث: «وضعه ﷺ يده عند الخطبة على رمانة المنبر». لم أنف له على أصل، ودكر محمد بن الحسن بن ربالة في
تاريخ المدينة أن طول رمانتي المنبر اللتين كان يمسكهما ﷺ ببديه الكريمتين إذا جلس شبر وأصبمان.

 ⁽۳) حدیث: «من خرج من بیته حتی یأتی مسجد قباء ویصلی فیه کان عدل عمرة». أخرجه النسائی وابن ماجه من حدیث سهل بن حنیف بإسناد صحیح.

 ⁽٤) حديث: «أن النبي ﷺ تفل في بثر أريس». لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه تفل في بثر البصة ويثر غرس ـ كما
 سبأتي عند ذكرها ـ.

⁽٥) حديث: ﴿الآبارِ الَّتِي كَانَ النَّتِي ﷺ بِتَوْضَأُ وَيَنْسُلُ وَيَشْرِبُ مَنْهِا﴾ وهي سبعة آبار .

سبع آبار طلباً للشفاء وتبركاً به ﷺ، وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عطيم. قال ﷺ: «لا يَضِيرُ عَلَىٰ لأُوّائِهَا وَشِدْتِهَا أَحَدٌ إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً يَوْمَ القِيَامَةِ»(١)، وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِها أَحَدٌ إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً أَوْ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢)، ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتي القبر الشريف

قلت: وهي بئر أريس وبثرحا وبثر رومة وبثر عرس وبثر بضاعة وبئر البصة وبثر السقيا أو العهن أو بثر جمل..
 عحديث: «بثر أريس» رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه: «حتى دخل بثر أريس قال: فجلست عند بابها وبابها من حديد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ..» الحديث.

وحديث: «بئرحا» متفق عليه من حديث أنس قال: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه بئرحا وكانت مستقبلة المسحد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء قيها طبب.... الحديث.

وحديث "بشر رومة" رواه الشرمذي والنسائي من حديث عثمان: «أنه قال: أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بشر رومة فقال: من يششري بشر رومة ويجعل دلوه مع دلاء المسلمين.. " الحديث. قال الترمذي: حديث حسن، وفي رواية لهما: «هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بالثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل... الحديث. وقال: حسن صحيح، وروى البغوي والطبراني من حديث بشير الأسلمي قال: «لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء وكان لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبع مها القربة بمد.. الحديث.

وحديث. ابتر غرس"، رواه ابن حبان هي الثقات من حديث أنس: «أنه قال: انتوني بماء من بثر غرس فإني رأيت رسول الله ﷺ يشرب منها ويتوضأ! ولابن ماجه بإسناد جيد مرفوعاً: «إذا أنا مت فافسلوني يسبع قرب من بثر خرس! وروينا في تاريخ المدينة لابن النجار بإسناد ضعيف مرسلاً: «أن النبي ﷺ توضأ منها وبزق فيها وغسل منها حين توفى».

وحديث • ابثر بضاعة وواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري: •أنه قبل لرسول الله ﷺ: أنتوضاً من بشر بضاعة ، وفي رواية : •أنه بستقي لك من بثر بضاعة . • الحديث قال يحيى بن معين : إسناده جيد، وقال الترمذي عسن، وللطراني من حديث أبي أسيد: •امصق النبي ﷺ في سر مضاعة • . ورويناه أيضاً في تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد .

وحديث: "بئر البصة وواه ابن عدي من حديث أبي سعيد الخدري: "أن النبي على جاءه يوماً فقال. هل عندكم من سدر أفسل به رأسي فإن البوم الجمعة؟ قال. نعم، فأخرج له سدراً وخرج معه إلى البصة فعسل رسول الله في أسه وصب غسالة رأسه ومراق شعره في البصة وفيه محمد بن الحسن بن زبالة ضعف.

وحديث: «بئر السقيا» رواه أبو داود من حديث عائشة: «أن النبيّ ﷺ كان يستعذب له من بيوت السقيا» زاد البزار في مسنده: «أو من بئر السقيا» ولأحمد من حديث علي: «خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص قال رسول الله ﷺ: الثوني يوضوه فلما توضأ قام..» الحديث.

وأما نثر جمل ففي الصحيحين من حديث أبي الجهم: «أقبل رسول الله في نحو بتر جمل. . الحديث وصله البخاري وعلقه مسلم. والمشهور أن الآبار بالمدينة سبعة. وقد روى الدارمي من حديث عائشة: «أن النبي في قال في مرضه: صبوا علي سبع قرب من آبار شتى. . الحديث. وهو عند البخاري دون قوله: قمن آبار شتى . . الحديث.

- (١) حديث: ﴿لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القبامة ا تقدم في الباب قبله.
 - (٣) حديث: امن استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها. . الحديث. تقدم في الباب قبله.

ويعيد دعاء الزيارة ـ كما سبق ـ ويودع رسول الله على ويسأل الله عزّ وجلّ أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره. ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله على قبل أن زيدت المقصورة في المسحد. فإذا خرح فليخرج رجله اليسرى أولاً ثم اليمنى وليقل: «اللهم صلّ على محمد وعلى وآل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته وأصحبني في سفري السلامة ويسر رجوعي إلى أهلي ووطني سالماً يا أرحم الراحمين»، وليتصدق على جيران رسول الله على بما قدر عليه، وليتتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصلي فيها وهي عشرون موضعاً.

**

فصل

في سنن الرجوع من السفر

كان رسول الله على إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: «لا إله إلا الله وحله لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمُدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيبُونَ تَائِبُونَ عَايِدُونَ سَاجِلُونَ لِرَبّنا حَامِدُونَ صَدَقَ اللّهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَمْ الْمُوايات: «وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون»، فينبغي أن يستعمل هذه السنة في رجوعه. وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً». ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدومه كي لا يقدم عليهم بغنة فذلك هو السنة (٢٠)، ولا ينبغي أن يطرق أهله ليلا فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أوّلاً وليصل ركعتين فهو السنة (٣)، كذلك كان يفعل رسول الله على أذا دخل بيته المسجد أوّلاً وليصل ركعتين فهو السنة (٣)، كذلك كان يفعل رسول الله على أن ينسى المسجد أوّلاً ويربّنا أوْباً لا يُغَادِرُ عَلَيْنَا حَوْباً» فإذا استقر في منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيه في فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة واللهو والخوض في المعاصي، فما ذلك علامة الحج المبرور، بل علامته أن يعود زاهداً في الدنيا راغباً في الأخرة متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت.

* * *

⁽١) حديث: اكان النبي ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض. . . • الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر، وما زاده في آخره في بعض الروايات من قوله: «وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» رواه المحاملي في الدعاء بإسناد جيد.

 ⁽٢) حديث: "إرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدومه كبلا يقدم عليهم منتة لم أجد فيه ذكر الإرسال، وفي الصحيحين من حديث حابر: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال: أمهلوا حتى نلخل ليلاً أي هشاء كي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة .

 ⁽٣) حديث: «صلاة ركعتين في المسجد عند القدوم من السفر» تقدم في الصلاة.

الباب الثالث

في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهي عشرة:

الأول: أن تكون النفقة حلالاً وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم، حتى يكون الهم مجرداً لله تعالى والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره. وقد روي في خبر من طريق أهل البيت: «إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للمسألة وقراؤهم للسمعةا(١٠)، وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصوّر أن تتصل بالحج، فكل ذلك مما يمنع فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص، لا سيما إذا كان متجرِّداً بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة. وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين، فعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عزّ وجلَّ ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه. وفي مثله ينزل قول رسول الله ﷺ: •يَمْدْخِلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالحجَّةِ الْوَاحِلَةِ ثَلاثَةً الْجَنَّةَ: الْمُوضَّى بِهَا وَالْمُتَفَّذَ لَهَا وَمَنْ حَجَّ بِهَا عَنْ أُخِيهِ (٢٠)، ولست أقول لا تحل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعطي الدنيا بالدين ولا يعطي الدين بالدنيا. وفي الخبر: «مثل الذي يغزو في سبيل الله عزّ وجلّ ويأخذ أجراً مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجرها، (٢٠) ، فمن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتلبيس حالها عليهم.

الثاني: أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين في الطريق، فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم وتبسير لأسبابه عليهم

الباب الثالث

في الأداب الدنيقة والأهمال الباطنة

- (١) حديث: وإذا كان في آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف: سلاطينهم للنزهة وأفنياؤهم للتجارة وققراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة». أخرجه الخطيب من حديث أنس بإسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين، ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين فقال: «تحج أفنياء أمني للنزهة وأوساطهم للتجارة وققراؤهم للمسألة وقراؤهم للرياء والسمعة».
- (۲) حديث: ديدخل بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة: الموصي بها والمنفذ لها ومن حيع بها عن أخيه، أخرجه البيهقي من حديث جابر سند ضعيف.
- (٣) حديث: قمثل الذي يغزو ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها». أخرجه ابن عدي من حديث معاذ
 وقال: مستقيم الإسناد منكر المتن.

فهو كالإعانة بالنفس، فليتلطف في حيلة الخلاص، فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء ولا بأس بما قاله -: إنّ ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الظلمة، فإن هذه بدعة أحدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سنّة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية. ولا معنى لقول القائل: إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر فإنه لو قعد في البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء، بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان في زي الفقراء لم يطالب فهو الذي ساق نفسه إلى حالة الاضطرار.

الثالث: التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على اقتصاد، وأعني بالإسراف التنعم بأطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين. فأما كثرة البذل فلا سرف فيه؛ إذ لا خير في السرف ولا سرف في الخير، كما قيل، وبذل الزاد في طريق الحج نفقته في سبيل الله عزّ وجلّ والدرهم بسبعمائة درهم. قال ابن عمر رضي الله عنهما: من كرم الرجل طيب زاده في سفره، وكان يقول: أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقيناً. وقال على: الحجج فقال: الحيب الكلام وإطّعام المعام، (١).

الرابع: ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن. والرفث اسم جامع لكل لغو وخنى وفحش من الكلام، ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن والتحدّث بشأن الجماع ومقدّماته، فإن ذلك بهيج داعية الجماع المحظور والداعي إلى المحظور محظور. والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عزّ وجلّ. والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال الهمة ويناقص حسن الخلق. وقد قال سفيان: من رفث فسد حجه، وقد جعل رسول الله على طبب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج. والمماراة تناقض طيب الكلام، فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه، بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عزّ وجلّ ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتمال الأذى. وقيل: سمي السفر سفراً وجلّ ويلزم حسن الخلق الرجال. ولذلك قال عمر رصي الله عمه لمن زعم أنه يعرف رجلاً: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، فقال: ما أراك تعرفه.

الخامس: أن يحج ماشياً إن قدر عليه فذلك الأفضل. أوصى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما سنيه عند موته فقال: يا بني حجوا مشاة فإن للحاج العاشي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم، قيل: وما حسنات الحرم، قال: الحسنة بمائة ألف. والاستحباب في المشي في المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى آكد منه في الطريق. وإن أضاف إلى المشي الإحرام من دويرة أهله فقد قيل: إن ذلك من إتمام الحج، قاله عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عز وجل : ﴿ وَإِينُوا لَكُمْ وَالْمُرُة فِيدٌ ﴾ [البَعْزة: ١٩٦]، وقال بعض العلماء: الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه وأقرب إلى سلامته وتمام حجه. وهذا عند التحقيق ليس مخالفاً للأول بل يتبغي أن يفصل ويقال: من سهل عليه المشي فهو أفضل، فإن كان

۱۱) حديث: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الحنة، قبل له: ما بر الحج؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام. أخرجه
أحمد من حديث جابر بإسناد لبن، ورواه الحاكم مختصراً وقال: صحيح الإسناد.

يضعف ويؤدي به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أقضل، كما أن الصوم للمسافر أقضل وللمريض ما لم يفض إلى ضعف وسوء خلق. وسئل بعض العلماء عن العمرة: أيمشي فيها أو يكتري حماراً بدرهم؟ فقال: إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراء أفضل من المشي، وإن كان المشي أشد عليه كالأغنياء فالمشي له أفضل، فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه. ولكن الأفضل له أن يمشي ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكاري عوضاً عن ابتذال الدابة، فإذا كانت لا تتسع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه.

السادس: أن لا يركب إلا زاملة أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف من الزاملة أن لا يستمسك عليها لعذر، وفيه معنيان: أحدهما: التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذيه. والثاني: اجتناب زي الممترفين والمتكبرين. «حج رسول الله على راحلة وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة فيمتها أربعة دراهم (1)، وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشمائله (1)، وقال في: «خُذُوا صَنّي مَنَاسِكَكُمُ» (1)، وقيل: إنّ هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء في وقته ينكرونها. فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال: برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوالقات ورواحل وما رأيت في جميعهم إلا محملين. وكان ابن عمر إذا نظر إلى مكين رث ما أحدث الحجاج من الزي والمحامل يقول: الحاج قليل والركب كثير، ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال: هذا نعم من الحجاج.

السابع: أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في ديوان المتكبرين المترفهين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين، فقد أمر على بالشعث والاختفاء (3)، ونهى عن التنعم والرفاهية (6) في حديث فضالة بن عبيد، وفي الحديث: «إنما المحاج الشعث التفث (7)، ويقول الله تعالى: انظروا إلى زوار بيتي قد جاؤوني شعثاً غبراً من كل فج عميق (٧)، وقال تعالى: ﴿ثُرَّ لَيُقَشُوا تَفَكَهُمُ الله عنه المناب والأظفار. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: اخلولقوا واخشوشنوا، أي البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة في الأشياء، وقد قبل: زين

 ⁽١) حديث: احمح رسول الله على واحلته وكان تحته رحل رث وقطيفة خلقة قيمتها أوبعة دواهما. أخرجه الترمذي في الشمائل وابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف.

⁽٢) حديث: قطوافه ﷺ على راحلته، تقدم.

⁽٣) حديث: الحذوا عني مناسككم؛ أحرجه مسلم والنسائي واللفظ له من حديث جابر.

⁽٤) حديث. االأمر بالشعث والاختفاء، أخرجه البغوي والطبراني من حديث عبدالله بن أبي حدرد قال: "قال رسول الله ﷺ: تمعددوا واخشوشنوا وانتضلوا وامشوا حقاقه وفيه اختلاف، ورواه ابن عدي من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف.

حديث فضالة بن عبيد: (في النهي عن التنعم والرفاهية وأن النبي ﷺ كان ينهى عن كثير من الإرفاء)، ولأحمد من حديث معاذ: (إياك والتنعم. .) الحديث.

 ⁽٦) حديث: (إنما الحاج الشعث التفث). أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال: غريب.

 ⁽٧) حديث: «يقول الله تعالى: انظروا إلى زوار بيتي قد جاؤوا شعثاً غبراً من كل فج عميق». أخرجه الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله: امن كل فج عميق». وكذا رواه أحمد من حديث عبدالله بن عمر.

الحجيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف. فينبغي أن يجتنب الحمرة في زيه على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم. فقد روي: «أنه ﷺ كان في سفر فنزل أصحابه منزلاً فسرحت الإمل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال ﷺ: «أَرَىٰ هٰذِهِ الْحُمْرَةُ قَدْ ظَلَبَتْ عَلَيْكُمْ الأَنْءُ وَاللهُ عَلَيْكُمْ اللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ

الثامن: أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطبق والمحمل خارج عن حدّ طاقتها والنوم عليها يؤذيها وينقل عليها. كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل، قال على الله الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يقفون عليها الوقوف يروحها بذلك فهو سنة أن ويه آثار عن السلف. وكان بعض السلف يكتري بشرط أن لا ينزل ويوفي الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة، فيكون في حسناته ويوضع في ميزانه لا في ميزان المكاري. وكل من أذى بهيمة وحملها ما لا تطبق طولب به يوم القيامة. قال أبو الدواء لبعير له عند الموت: يا أيها البعير لا تخاصمني إلى ربك فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك. وعلى الجملة في كل كبد حرّاء أجر فليراع حق الدابة وحق المكاري جميعاً. وفي نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكاري. قال رجل لابن المبارك: احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله فقال: حتى أستأمر الجمال فإني قد اكتريت. فانظر يكف تورع من استصحاب كتاب لا وزن له؟ وهو طريق الحزم في الورع فإنه إذا فتح باب القليل انجرً إلى الكثير يسيراً يسيراً.

المتاسع: أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجباً عليه ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه، وليأكل منه إن كان تطوعاً ولا يأكل منه إن كان واجباً. قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَكَ وَمَن يُمُؤُم شَعَكُم الله وَ لَا كَانَ لا يجهده ولا يكده. تَدَ والنحة. (٢٢)، إنه تحسينه وتسمينه. وسوق الهدي من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده. وليترك المكاس فيهن الهدي والأضحية والمرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمناً وأنفسه عند أهله، وروى ابن عمر: أنّ عمر رضي الله عنهما أهدي والرقبة، فإن أفضل ذلك أغلاه ثمناً وأنفسه عند أهله، وروى ابن عمر: أنّ عمر رضي الله عنهما أهدي نجيمة فطلبت منه بثلاثماثة دينار فسأل رسول الله على أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال: «بل أهدِهاه"). وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون، وفي ثلاثماثة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم، ولكن لبس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البحل وتزيبنها مجمال التعظيم لله عز وجل في فأن يَنالُ ألقَه غُرُمُها ولا يماؤها ولَذِكن يَنالُهُ أَلْقَوْنَ مِنكُم والخج؟ فقال: وحمل بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أو قلّ وصئل رسول الله على عا ما بر الحج؟ فقال:

 ⁽١) حديث: «أنه ﷺ كان في سفر فنزل أصحابه منزلاً فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمر على الأقتاب فقال: أرى هذه
 الحمرة قد فلبت هليكم. ١٠ الحديث. أخرجه أبو داود من حديث رافع بن خديج وفيه رجل لم يسم.

⁽٢) حديث: ﴿ لا تَتَخَلُوا ظَهُورِ دُوايِكُم كُراسيَ . أَخْرِجه أَحمد من حديث سهل بن معاذ بسند ضَعيف، ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه .

⁽٣) حديث؛ «النزول عن الدابة غدوة وعشية يريحها لللك». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بإسناد جيد: «أن النبيّ ﷺ كان إذا صلى الفجر في السفر مشى»، ورواه البيهةي في الأدب وقال: «مشى قليلاً وناقته تقاد».

 ⁽٤) حديث ابن عمر: «أن عمر أهدي نجيبة فطلمت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله على أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال: إلى أهدها» أخرجه أبو داود وقال: «انحرها».

«العَجُّ والثَّجُ» (١). والعج هو رفع الصوت بالتلبية، والنج هو نحر البدن. وروت عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِلَ آدَمِيٌ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ إِهْرَاقِهِ دَمَا وَإِنْهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الشِّيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَظْلاَفِهَا وَإِنَّ اللَّمَ يَقَعُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلٌ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ بِالأَرْضِ فَطِيبُوا بِها نَفْساًه (٢٠). وفي الخبر: «لَكُمْ بِكُلُ صُوفَةٍ مِنْ جِلْدِهَا حَسَنَةٌ وَكُلٌ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهَا لَتُوضَعُ فِي المِيزَانِ فَأَبْرُوا (٣٠). وقال ﷺ: «اسْتَنْجِدُوا هَدَايَاكُمْ فَإِنَّها مَطَايَاكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ».

العاشر: أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدي؛ وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك، فإن ذلك من دلائل قبول حجه. فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عز وجل المدهم بسبعمائة درهم بمثابة الشدائد في طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل، ويقال: إن من علامة قبول الحج أيضاً ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يتبدل بإخوانه البطالين إخواناً صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر والمقطة.

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة، وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره:

اعلم أن أول الحج الفهم - أعني فهم موقع الحج في الدين - ثم الشوق إليه، ثم العزم عليه، ثم قطع العلائق المانعة منه، ثم شراء ثوب الإحرام، ثم شراء الزاد، ثم اكتراء الراحلة، ثم المخروج، ثم المسير في البادية، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية، ثم دخول مكة، ثم استتمام الأفعال كما سبق. وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر وتنبيه للمريد الصادق وتعريف وإشارة للفطن. فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشف لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه.

أما الفهم: أعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات فيها والتجرّد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات. ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في الملل السالفة عن الخلق وانحازوا إلى قلل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عزّ وحل، فتركوا لله عزّ وجلّ اللذات الحاضرة وألزموا أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعاً في الآخرة، وأثنى الله عزّ وجلّ عليهم في كتابه فقال: ﴿ وَإِلْكَ إِنَّ مِنْهُمْ قَيْبِيدِكَ وَرُهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يُسْتَكُمُونَ ﴾

 ⁽١) حديث: (سئل رسول الله ﷺ: ما بر الحح؟ فقال: العج والثج». أخرجه الترمذي واستغربه وابن ماجه والحاكم وصححه والبزار واللفظ له من حديث أبي بكر، وقال الباقولي: «أي الحج أفضل».

 ⁽۲) حديث عائشة. العام عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهراقه دماً. . الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه ابن ماجه وضعه ابن حبان، وقال البخاري: إنه مرسل، ووصله ابن خزيمة.

⁽٣) حديث: «لكم بكل صوفة من جلدها حسنة وكل قطرة من دمها حسنة وإنها لتوضع في المبزان فأبشروا» أخرجه ابن ماحه، وصححه البيهقي من حديث زيد بن أرقم في حديث فيه: «بكل شعرة حسنة قالوا: فالصوف قال: بكل شعرة من الصوف حسنة»، وفي رواية البيهقي: «بكل قطرة حسنة» قال البخاري: لا يصح. وروى أبو الشيخ في كتاب الضحابا من حديث علي: «أما إنها بجاء بها يوم القيامة بلحومها ودمائها حتى توضع في ميزانك، يقولها لفاطمة.

[المَاندة: ٢٨٦]، فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عزّ وجلّ وفتروا عنه بعث الله عزّ وجلّ نبيه محمداً ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنَّة المرسلين في سلوكها. فسأله أهل الملل عن الرهبانية والسّياحة في دينه فقال ﷺ: ﴿أَبُدَلَنا اللَّهُ بِهَا الْجِهَادَ وَالتَّكُبُيّرَ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفِ، (١)، يعني الحج. وسئل على عن السائحين فقال: ﴿ هُمُ الصَّائِمُونَ ﴾ (١) . فأنعم الله عزَّ وجلّ على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم فشرف البيت العنيق بالإضافة إلى نفسه تعالى، ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره. وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك يقصده الزوّار من كل فج عميق ومن كل أوبِ سحيق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت ومستكينين له خصوعاً لجلاله واستكانةً لعزته، مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم. ولذلك وظف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار. وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية. فإن الزكاة إرفاق ورجهه مفهوم وللعقل إليه ميل. والصوم كسر للشَّهوة التي هي آلة عدَّق الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل. والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عزّ وجلّ بأفعال هي هيئة التواضع وللنفوس أنس بتعظيم الله عزّ وجلّ. فأما ترددات السعى ورمى الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط، وفيه عزل للمقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد. ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: ﴿لَبُنِكَ بِحَجَّةٍ حَقًّا تَعَبُّداً وَرِقًّا﴾ (*)، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها. وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد، كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق. وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات. وهذا القدر كافٍ في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى.

⁽١) حديث، استل عن الرهبانية والسياحة فقال: يدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف، أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة: (أن رجلاً قال: يا رسول الله اثلان في في السياحة فقال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله، رواه الطبراني بلفظ: اإن لكل أمة سياحة وصياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدوا، وللبيهتي في الشعب من حديث أنس: (رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله وكلاهما ضعيف، والترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وإبن ماجه من حديث أبي هريرة: (أن وجلاً قال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأومني، قال: هليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف».

 ⁽٢) حديث: اسئل عن السائحين فقال: هم الصائمونا، أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال: المحقوظ عن هيد بن عمير عن عمر مرسلاً.

⁽٣) حديث: البيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً؛ تقدم في الزكاة.

وأما الشوق: فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأنّ البيت بيت الله عزّ وجلّ وأنه وضع على مثال حضرة الملوك، فقاصده قاصد إلى الله عزّ وجلّ وزائر له وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيرزق مقصود الزيارة في ميعاده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار، من حيث إن العين القاصرة الفائية في دار الدنيا لا تنهيأ لقبول النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ ولا تطيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها، وأنها إن أمدّت في الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب النفير والفناء استعدت للنظر والإبصار، ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم. فالشوق إلى لقاء الله عزّ وجلّ يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة، هذا مع أن بحكم المحب مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عزّ وجلّ فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلاً عن الطلب لئيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل.

وأما العزم: فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجة إلى زيارة ببت الله عزّ وجلّ، وليعظم في نفسه قدر الببت وقدر رب البيت، وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيماً خاطر بعظيم. وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإنّ من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره، فليصحح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصة باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة، فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وأما قطع العلائق: فمعناه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي، فكل مظلمة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادي عليه ويقول: إلى أين تتوجه أتقصد ببت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستهين به ومهمل له؟ أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولاً من جميع المعاصي، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجها إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك. فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولاً إلا النصب والشقاء، وآخراً إلا الطرد والرد، وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدر أن لا يعود إليه، وليكتب وصيته لأولاده وأهله، فإن المسافر وماله لعلى خطر إلا من وقى الله سبحانه. وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر المصير، فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر عن الاستعداد بهذا السفر.

وأما الزاد: فليطلبه من موضع حلال، وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد، فليتذكر أنّ سفر الآخرة أطول من هذا السفر، وأنّ زاده التقوى وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أوّل منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيراً محتاجاً لا حبلة له، فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت، بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير.

وأما الراحلة: إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عزّ وجلّ له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المستقة. وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنازة التي يحمل عليها، فإنّ أمر الحج من وجه يوازي أمر السفر إلى الآخرة، ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون

زاداً له لذلك السفر على ذلك المركب؟ فما أقرب ذلك منه. وما يدريه لعل الموت قريب ويكون ركويه للجنازة قبل ركويه للجمل. وركوب الجنازة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه، فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن؟.

وأما شراء ثوبي الإحرام: فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه، فإنه سيرتدي ويتزر بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله عزّ وجلّ وربما لا يتم سفره إليه، وأنه سيلقى الله عزّ وجلّ ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة. فكما لا يلقى بيت الله عزّ وجلّ إلا مخالفاً عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله عزّ وجلّ بعد الموت إلا في زي مخالف لزي الدنيا، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن.

وأما المخروج من البلد: فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عزّ وجلّ في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا، فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاشتاقوا واستنهضوا فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عزّ وجلّ الذي فخم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسلياً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم، وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال، ولكن ثقة بفضل الله عزّ وجلّ ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته، وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لفي الله عزّ وجلّ وافداً إليه إذ قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَمْرُحُ مِنْ بَيْدِه مُهَاجِرًا إِلَى الله وَدركته المنية في الطريق لفي الله عزّ وجلّ وافداً إليه إذ قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَمْرُحُ مِنْ بَيْدِه مُهَاجِرًا إِلَى الله وَدركته المنية الله عنه وقد وقد أنه إله الله وأدركته المنية ألمَوْتُ فَقَد وقعًا عَلْه الله عنه الله الله الله الله إذ قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَمْرُحُ مِنْ بَيْدِه مُهَاجِرًا إِلَى الله وَرَبُواهِ ثُمَّ يُدُونُهُ الله عَلْه الله عنه الله عنه الله الله إلى الله إلى الله إذ قال جل جلاله: ﴿ وَمَن يَمْرُحُ مِنْ بَيْدِه مُهَاجِرًا إِلَى الله وَلَو الله الله وأدل الله عنه الله الله وأدل الله الله وأدل الله الله الله الله الله الله وأدل الله الله الله وأدل الله وأدل الله وأدل الله وأدل الله وأدل الله الله وأدل الله وأدل الله وأدل الله وأدل الله وأدل الله وأدل اله وأدل الله وأدل اله وأدل اله وأدل الله وأدل الله وأدل اله وادل اله وأدل الله وأدل الله وأدل الله وأدل اله وأدل اله وأدل الله وأدل اله وأدل اله وأدل اله وأدل اله وأدل اله وأدل اله وأدل اله

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات: فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات. وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي والحيات، ومن انفراده من أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته. وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوّداً لمخاوف القبر.

وأما الإحرام والتلبية من الميقات: فليعلم أن معناه إجابة نداه الله عزّ وجلّ، فارج أن تكون مقبولاً واخش أن يقال لك: لا لميك ولا سعديك، فكن بين الرجاء والخوف متردداً وعن حولك وقوتك متبرئاً وعلى فضل الله عزّ وجلّ وكرمه متكلاً، فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل المخطر. قال سفيان بن عيينة: حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقبل له: لم لا تلبي؟ فقال: أخشى أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك، فلما لبى غشي عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه. وقال أحمد بن أبي الحواري: كنت مع أبي سليمان الداراني رضي الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلبّ حتى سرنا ميلاً فأخذته الغشية ثم أفاق وقال: يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام: مُرْ ظلمة بني إسرائيل أن يقلوا من ذكري فإني أذكر من ذكرني منهم باللعنة. ويحك يا أحمد بلغني أن من ظم حج من غير حله ثم لبى قال الله عزّ وجل: لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يديك، فما نأمن أن يقال لنا ذلك. وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عزّ وجل إذ قال: يقال لنا ذلك. وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عزّ وجل إذ قال: فقال بن فكري ألبّان فلك. وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عزّ وجل إذ قال: في الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال:

عرصات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه، ومنقسمين إلى مقرّبين وممقوتين، ومقبولين ومردودين، ومترددين في أوّل الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا؟.

وأما دخول مكة: فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عزّ وجلّ وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت. وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عميم، والرب رحيم، وشرف البيت عظيم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير اللائذ غير مضيع.

وأما وقوع البصر على البيت: فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدّر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعطيمه إياه. وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم، واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه. واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين. ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة.

وأما الطواف بالبيت: فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة. واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله. ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تبتدىء الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تبتدىء الطواف من البيت وتختم بالبيت. واعلم: أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي التي لا تشاهد بالبصر وهو في عالم الفيب. وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب، وإلى هذه الموازئة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات بإزاء الكعبة، فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت، ولما قصرت رتبة أكثر الحلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم (١٠)، والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال: إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحائه وتعالى.

وأما الاستلام: فاعتقد عنده أنك مبايع لله عزّ وجلٌ على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك فمن غدر في الممبايعة استحق المقت. وقد روى ابنٍ عباس رضي الله عنه عن رسول الله على أنه قال: «الحَجُرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللّهِ عَزْ وَجَلٌ فِي الأَرْضِ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ كَمَا يُصَافِحُ المُّاسُودُ يَمِينُ اللّهِ عَزْ وَجَلٌ فِي الأَرْضِ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ كَمَا يُصَافِحُ الرَّجُلُ أَخَاهُ اللهُ اللهُ عَرْ وَجَلٌ فِي الأَرْضِ يُصَافِحُ بِهَا خَلْقَهُ كَمَا يُصَافِحُ الرَّجُلُ أَخَاهُ (٢).

وأما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم: فلنكن نينك في الالتزام طلب القرب حباً وشوقاً

عمرو.

⁽۱) حديث: المن تشبه بقوم فهو منهمًا. أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر سند صحيح.

⁽٣) حديث ابن عباس: «الحجر بمين الله في الأرض يصافح بها خلقه. .) الحديث. ثقدم في العلم من حديث عبدالله بن

للبيت ولرب البيت وتبركاً بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لا في البيت. ولتكن نبتك في البيت ولتكن نبتك في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان، كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجاً له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه، وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل.

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت: فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائياً وداهباً مرة بعد أحرى إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى. وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة، وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات، وليتذكر تردده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان متردداً بين العذاب والغفران.

وأما الموقوف بعرفة: قاذكر _ بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أتمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيراً بسيرهم _ عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد ببن الرد والقبول. وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالإجابة، فالموقف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال الى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيزة من أوتاد الأرض. ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت هممهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين قلوبهم واحدة على طلب الرحمة فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم. ولذلك قبل: إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له. وكأن اجتماع وللهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده، فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد.

وأما رمي الجمار: فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه. ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حبث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة أو يفتنه بمعصية فأمره الله عزّ وجلّ أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله. فإن خطر لك: أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان؟ فاعلم: أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به؟ فاطرده عن نفسك بالجدّ والتشمير في الرمي ليه برغم أنف الشيطان، واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه.

وأما ذبح الهدي: فاعلم: أنه نقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال، فأكمل الهدي وارج أن يعنق الله

بكل جزء منه جزءاً منك من النار^(۱)، فهكذا ورد الوعد. فكلما كان الهدي أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم.

وأما زيارة المدينة: فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عزَّ وجلُّ لنبيه ﷺ، وجعل إليها هجرته وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عزَّ وجلَّ وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ، ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضي الله عنهما. ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل. وتذكر مشيه وتخطيه في سككها وتصور خشوعه وسكينته في المشي، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى، حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته. ثم تذكر ما منَّ الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضى الله عنهم. ثم اذكر أنك قد فاتتك رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الأخرة على خطر، وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة، وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك، كما قال ﷺ: «بَرْفَعُ اللَّهُ إِلَى أَقْوَاماً فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولَ: يَا رَبُ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَخْدَثُوا بَعْدَكُ، فَأَتُولُ: بُعْداً وَسُحْقاً ٢٠٠٠، فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محجته. وليعظم مع ذلك رجاؤك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حائط قبره؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة، فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لنبيه علي ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة، وأن فرائض الله سبحانه أوّل ما أقيمت في تلك العرصة، وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميثاً، فليعظم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً. وما أجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن، كما حكي عن أبي سليمان أنه قال: حج أويس القرني رضي الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له: هذا قبر النبي ﷺ فغشى عليه، فلما أفاق قال: أخرجوني فليس يلذ لي بلد فيه محمد ﷺ مدفون.

وأما زيارة رسول الله ﷺ: فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتاً كما تزوره حياً، ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً، وكما كنت ترى الحرمة في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلاً بين يديه، فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود. واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك، فمثل

⁽١) حديث: اأنه يعتق بكل جرء من الأصحية جزءاً من المضحي من النارا لم أقف له على أصل، وفي كتاب الصحايا لأبي الشيح من حديث أبي سعيد: افإن لك بأول قطرة تقطر من دمها أن يغفر لك ما تقدم من ذنويك، يقوله لفاطمة رصى الله عنها وإسناده ضعيف.

 ⁽٣) حديث: البرقع إليّ أقوام فيقولون: يا محمد يا محمد فأقول: يا رب أصحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا
 بعدك، فأقول: بعدأ ومحقاً متفق عليه من حديث ابن مسعود رأنس وغيرهما دون قوله: اليا محمد يا محمد».

صورته الكريمة في خبالك موضوعاً في اللحد بإزائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك، فقد روي عنه على الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته أن هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرّته الكريمة وقد قال على الموادي شوقاً إلى فقائه واكتفى بمشاهدة عليه عشراً أن المهاجزاؤه في غرّته الكريمة وقد قال الله على بالحضور لزيارته ببدنه أن ثم اثت منبر الرسول على وتوهم صعود النبي الله عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه أنها على المنبر وقد أحدق به المهاجرون النبي الله عنهم وهو الله عنهم على طاعة الله عز وجل بخطبته، وسل الله عز وجل أن يفرق في القيامة بينك وبينه. فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج.

فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف وأنه ليس يدري أقبل منه حجه وأثبت في رمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمطرودين؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافياً عن دار الغرور وانصرافاً إلى دار الأنس بالله تعالى، ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه، ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إمليس لعنه الله، فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره: العناء والتعب. نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك.

تم كتاب أسرار الحج يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن



 ⁽١) حديث: "إن الله وكُل بقبره ﷺ ملكاً يبلغه سلام من صلم عليه من أمته». أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ: "إن فله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمني السلام».

٢) حديث: قمن صلى علي واحدة صلى الله عليه عشراً». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وعبدالله بن عمرو.

بنسب ألقر ألكن التعسير

﴿ كُتَابِ آدابِ تَلاوة القرآن



الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل على وكتابه المنزل الذي ﴿ لاّ يَأْنِيهِ ٱلبَّطِلُ مِن بَيْرِ يَدَيْهِ وَلا مِن صَلْفِيةً وَالشَيْرِ مُن مَلِيهِ مَن القصص والأخبار ، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام ، وفرق بين الحلال والحرام ، فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور . ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ، ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقي والمعتصم الأوفى ، وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير . لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى غرائبه ، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد . هو الذي أرشد الأولين والآخرين ، ولما سمعه الجنّ لم يلبثوا أن ولو إلى قومهم منذرين ﴿ فَقَالُوا إِنَا سَعِمنا أَوْءَانا ومن يَهْدِي وَمَن قَالُوا أَوْا المِن ومن قال به فقد صدق ، عبد الله ومن عمل به فقد فأذ . وقال تعالى : ﴿ إِنَا غَنُ نَزُنا الذِّكَرُ وَإِنّا لَهُ لَمُوا والجحر : ٩] ، ومن عمل به فقد فأذ . وقال تعالى : ﴿ إِنَا غَنُ نَزَّانا الذِّكَرُ وَإِنّا لَهُ لَمُؤُونَ فَي القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته ، مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لا بدمن بيانه وتفصيله و تنكشف مقاصده في أربعة أبواب : على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لا بدمن بيانه وتفصيله وتنكشف مقاصده في أربعة أبواب :

الباب الأول: في فضل القرآن وأهله. الباب الثاني: في آداب التلاوة في الظاهر.

الباب الثالث: في الأعمال الباطنة عند التلاوة.

الباب الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره.

* * *

الباب الأول

في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

فضيلة القرآن:

قَال ﷺ: «مَنْ قُرَأُ القُرْآنَ لُمُّ رَأَىٰ أَنْ أَحَداً أُونِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُونِيَ فَقَدِ اسْتَضْغَرَ ما عَظَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنَ الفُرْآنِ لا نَبِيّ وَلا مَلَك اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الفُرْآنِ لا نَبِيّ وَلا مَلَك اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الفُرْآنِ لا نَبِيّ وَلا مَلَك

كتاب آداب نلاوة القرآن

الباب الأول: في فضل القرآن وأهله

(١) حليث: «من قوأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله». أخرجه الطبرائي من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف.

وَلا غَيْرِهُ (١) وَقَال ﷺ: ﴿ لَوْ كَانَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابِ مَا مَسْنَهُ النَّارُهُ (٢) ، وقَال ﷺ: ﴿ أَفْضَلُ عِبَادَةِ أُمْتِي تِلاَوَةُ الْقُرْآنِ (٣) ، وقَال ﷺ أَيضاً: ﴿ إِنَّ اللّهَ عَزْ وَجَلْ قَرَا طَهَ وَيَس قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الْخَلْقُ الْخَلْقُ الْمُوافِ تَحْمِلُ الْفَوْرَيْ لِلْأَبِعِيمُ هَٰذَا وَطُويَى لَأَجُوافِ تَحْمِلُ هَٰذَا وَطُويَى لِأَلْمِينَةِ تَنْطِقُ بِهِذَاهُ (٤) ، وقال ﷺ: ﴿ فَعَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْفُوْرَانَ وَعَلَّمَهُ (٩) ، وقال ﷺ: ﴿ وَقَالَ اللّهُ تَبَارَكُ وَتَعَالَىٰ: مَن شَغَلَهُ فِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنْ دُعَانِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ الشَّاكِرِينَ (٢) ، وقال ﷺ: ﴿ وَلَا اللّهُ وَعَلَيْهُ أَفْضَلُ ثَوَابِ الشَّاكِرِينَ (٢) ، وقال ﷺ: ﴿ وَلَا اللّهُ وَعَلَيْهُ وَمُعْلِقُهُ مَا بَيْنَ النَّاسِ: رَجُلَ قَرَأَ الْفُرْآنَ الْبَيْفَاءَ وَجُهِ اللّهِ عَزُ وَجَلَ، وآخر أَمْ بِهِ يَنْ النَّهِ عَنْ وَجَلَ اللّهُ اللهُ وَعَاصَتُهُ (٢) ، وقال ﷺ: ﴿ وقال اللهُ وَعَاصَتُهُ (٢) ، وقال ﷺ: ﴿ وقال اللهُ وَعَاصَتُهُ (٢) ، وقال ﷺ: ﴿ وقال اللهُ وَعَاصَتُهُ (١) ، وقال ﷺ: ﴿ إِنْ الْقُرْآنِ اللهُ وَعَاصَتُهُ (١) ، وقال ﷺ: ﴿ وقال اللهُ وَعَاصَتُهُ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ اللهُ وَعَاصَلَا اللهُ وَعَاصَتُهُ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ قَيْتِهُ إِلَىٰ قَيْتُهُ إِلَىٰ قَيْتُهِ إِلَىٰ اللهُ وَعَاصَلُونَ اللهُ وَالُو اللهُ إِلَىٰ قَالِي اللهُ وَعَالَ اللهُورَانِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْتَةِ إِلَىٰ قَيْتِهِ إِلَىٰ قَيْتُهُ إِلَىٰ قَالِهُ اللهُ اللهُ وَعَلَىٰ اللهُ وَعَالَ اللهُ وَالْ اللهُ وَالْ اللهُ وَعَلَىٰ اللهُ وَعَلَىٰ اللهُ وَاللهُ اللهُ وَلَا اللهُ اللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ اللهُ اللهُ

الآثار:

قال أبو أمامة الباهلي: اقرؤوا القرآن ولا تغزّنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن، وقال ابن مسعود: إدا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين

 ⁽۱) حديث: «ما من شفيع أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره»، رواه عبدالملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً، وللطبراني من حديث ابن مسعود: «القرآن شافع مشفع»، ولمسلم من حديث أبي أمامة:
 «اقرؤوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه».

⁽٢) حديث: قلو كان القرآن في إهاب ما مسته النار، أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل بن سعد، ولأحمد والدارمي والطبراني من حديث عقبة بن عامر وقيه ابن لهيعة، ورواه ابن عدي والطبراني والسهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك بإسناد ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «أفضل هبادة أمتي تالاوة القرآن» أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس
وإسنادهما ضعيف.

 ⁽٤) حديث: فإن الله هز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلل الخلق بألف عام. . » الحديث. أخرجه الدارمي من حديث أبي هزيرة بسند ضعيف.

 ⁽a) حديث «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان.

حديث، فيقول أفة: من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته ثواب الشاكرين». أخرجه الترمذي من حديث أبي سميد: «من شغله القرآن عن ذكري أو مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي الساكلين». وقال، حسن غريب. ورواه ابن شاهين بلفظ المصنف.

 ⁽٧) حديث: «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك. ١٠ الحديث. تقدم في الصلاة.

حديث: قاهل القرآن أهل الله وخاصته. أخرجه النسائي في الكيرى، وابن ماجه والحاكم من حديث أنس بإسناد حسن.

 ⁽٩) حديث: اإن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قبل: ما حلاؤها قال: تلاوة القرآن وذكر الموت، أخرجه البيهتي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضميف.

 ⁽١٠) حديث: الله أشد أذناً إلى قارىء القرآن من صاحب اللهيئة إلى قينته. أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد.

والأخرين. وقال أيضاً: اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات أما إني لا أقول: الحرف (ألم) ولكنّ الألف حرف واللام حرف والميم حرف. وقال أيضاً: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله هي وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله في القرآن درجة في العرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله وقال عمرو بن العاص: كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم. وقال أيضاً: من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه. وقال أبو هريرة: إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين، وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل ضاق بأهله وقلّ خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين. وقال أحمد بن حنبل: رأيت الله عز وجلّ في المنام فقلت: يا رب ما أفضل ما تقرّب به المتقرّبون إليك؟ قال: بكلامي يا أحمد، قال: قلت: يا رب، يفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم.

وقال محمد بن كعب القرظي: إذا سمع الناس القرآن من الله عزّ وجلّ يوم القيامة فكأنهم لم يسمعوه قط. وقال الفضيل بن عياض: بنبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه. وقال أيضاً: حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعطيماً لحق القرآن. وقال سفيان الثوري: إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه. وقال عمرو بن ميمون: من نشر مصحفاً حين يصلي الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عزّ وجلّ له مثل عمل جميع أهل الدنيا. ويروى: «أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: اقرأ علي القرآن، فقرأ عليه الملاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمشمر وما يقول فأعاد فقال: والله إن له لحلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمشمر وما يقول قرأ خاتمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء، ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليلته ختم له بطابع الشهداء، ومن قرأها حين النساك: ما ههنا أحد نستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال: هذا. وقال النساك: ما ههنا أحد نستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال: هذا. وقال النساك: ما ههنا أحد نستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال: هذا. وقال النساك: ما ههنا أحد نستأنس به؟ فمد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال: هذا. وقال القرآن.

فى ذم تلاوة الغافلين:

قال أنس بن مالك: رُبُّ تال للقرآن والقرآن يلعنه. وقال ميسرة: الغريب هو القرآن في

⁽١) حديث: قأن خالد بن عفبة جاء إلى رسول الله على وقال: اقرأ علي القرآن فقرأ عليه: ﴿إِنَّ آلَهُ بِأَلْمَرُ بِالْمَدُلِ وَالْإِحْسَنِ رَإِيمَا يَ فِي الْمُرْدَى ﴾ [النّحل: ٩٠]، فقال: أعد فأعاد فقال: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشره ذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب بغير إسناد، ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عاس بسند جيد إلا أنه قال: قالوليد من المغيرة عبدل هخالد بن عقبة وكذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بنحوه.

جوف الفاجر. وقال أبو سليمان الداراني: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عزّ وجلُّ منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله سبحانه بعد القرآن. وقال بعض العلماء: إذا قرأً ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له: ما لك ولكلامي. وقال ابن الرماح: ندمت على استظهاري القرآن لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة. وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وبمكاته إذا الناس يضحكون، ويصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً ولا صخَّاباً ولا حديداً. وقال ﷺ: ﴿ أَكْثَرُ مُنَافِقِي هَٰذِهِ الأُمَّةِ قُرَّازُها ﴾ ` وقال ﷺ: ﴿ اقْرِأَ القُرْآنَ ما نَهَاكَ فَإِنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَوْمُ ۗ ` ، وقال ﷺ: ﴿ما آمَنَ بالقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلُّ مَحَارِمَهُ"، وقال بعض السلف: إن العبد ليفتتح سورة فتصلى عليه الملائكة حتى يفرغُ منها، وإن العبد ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: إذا أحل حلالها وحرّم حرامها صلت عليه وإلا لعنته. وقال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلحن نفسه وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلَا لَعَنَاتُهُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلطَّلالِمِينَ﴾ [لهود: ١٨]، وهو ظالم نفسه؛ ﴿ أَلَا لَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ [لهود: ١٨] وهو منهم. وقال الحسن: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها باللبل وينفذونها بالنهار. وقال ابن مسعود: أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به. وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما: «لقد عشنا دهراً طويلاً وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها. ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل^{ه(4)}. وقد ورد في التوراة: يا عبدي أما تستحي مني يأتبك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشى فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟ يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغى إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك؟

* * *

 ⁽۱) حديث: «أكثر متافقي أمتي قراؤها». أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبدالله بن عمرو وفيهما ابن لهبعة.

⁽٢) حديث: «اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه». أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف.

⁽٣) حديث: الما أمن بالقرآن من استحل محارمه. أخرجه الترمذي من حديث صهيب، وقال: ليس إسناده بالقوي.

⁽٤) - حديث ابن عمر وحديث جندب: «لقد عشنا دهراً وأحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن. . • المحديث. تقدما في العلم.

الباب الثاني

في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة

الأوّل: في حال القارىء؛ وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إما قائماً وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير متربع ولا متكىء ولا جالس على هيئة التكبر، ويكون جلوسه وحده كحلوسه بين يدي أستاذه. وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال. فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعاً في الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك. قال الله تعالى: ﴿ اللَّذِينَ يَذَكُرُونَ اللّهَ قِينَما وَ وَكُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم وَبُنَكَدُونَ فِي اللّه الله الله الله الله الله الله على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعاً. قال على رضي الله عنه: من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة مضطجعاً. ومن قرأه في غير صلاة وهو حسنة، ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فعشر حسنات. وما كان من القيام على وضوء فخمس وعشرون حسة، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات. وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب. قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل.

الثاني: في مقدار القراءة؛ وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار، فمنهم من يختم في الشهر مرة، القرآن في اليوم والليلة مرة وبعضهم مرتين، وانتهى بعضهم إلى ثلاث، ومنهم من يختم في الشهر مرة، وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله ﷺ: قمن قراً القُرْآنَ فِي أَقَلُ مِن قَلاثٍ لَمْ يَفْقَهُهُ الله وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل. وقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها ـ لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت، وأمر النبي ﷺ عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن يختم القرآن في كل سبع (۲)، وكذلك كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم. ففي الختم أربع درجات: جمعة، كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم. ففي الختم أربع درجات: في الاقتصار كما أن الأول مبالغة في الاستكثار ـ وبينهما درجتان معتدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسبوع مرتبن تقريباً من الثلاث. والأحب أن يختم ختمة بالليل ليلة الجمعة في ركبتي والنائية في الأسبوع مرة المغرب أو بعدهما، ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركبتي المغرب أو بعدهما، ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركبتي المغرب أو بعدهما، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمه، فإن الملائكة عليهم السلام تصلي عليه إن المغرب أو بعدهما، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمه، فإن الملائكة عليهم السلام تصلي عليه إن كان حتمته ليلاً حتى يصبح وإن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في مقدار القراءة أنه إن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن

الباب الثاني: في ظاهر آداب التلاوة

 ⁽١) حديث: (من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه) أخرجه أصحاب السنن من حديث عبدالله بن عمرو وصححه
الترمذي.

⁽٣) حديث: المر رسول الله ﷺ عبدالله بن عمرو أن يختم القرآن في كل أسبوع؛ متفق عليه من حديثه.

يقتصر في الأسبوع على مرة، وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل.

الثالث: في وجه القسمة؛ أما من حتم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب، فقد حزّب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزاباً أن فروي أن عثمان رضي الله عنه كان يفتتع ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صّ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمٰن، ويختم ليلة الخميس، وابن مسعود كان يقسمه أقساماً لا على هذا الترتيب، وقيل: أحزاب القرآن سبعة، فالحزب الأول ثلاث سور، والحزب الثالث سبع سور، والرابع تسع سور، والخماس إحدى عشرة سورة، والسابع المفصل من ق إلى آخره. فهكذا والخامس إحدى عشرة سورة، والمنابع المفصل من ق إلى آخره. فهكذا الأحماس والأعشار والأجزاء فما سوى هذا محدث.

الرابع: في الكتابة؛ يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرأه. وقد كان الحسن وابن سيرين ينكرون الأخماس والعواشر والأجزاء. وروي عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحمرة وأخذ الأجرة على ذلك، وكانوا يقولون: جردوا القرآن. والظنّ بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفاً من أن يؤدي إلى الحداث زيادات وحسماً للباب وتشوقاً إلى حراسة القرآن عما يطرق إليه تغييراً. وإذا لم يؤد إلى محظور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به. ولا يمنع من ذلك كونه محدثاً فكم من محدث حسن كما قيل في إقامة الجماعات في التراويح إنها من محدثات عمر رضي الله عنه وأنها بدعة أقرأ من المصحف في المنقوط ولا أنقطه بنفسي. وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير: كان القرآن مجزداً في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والناء وقالوا: لا بأس به فإنه نور له، ثم أحدثوا بعد ذلك أحدثوا بعد ذلك الخواتم والفواتح. قال أبو بكر الهذلي: سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال: وما تنقيطها؟ ألخواتم والفواتح. قال أبو بكر الهذلي: سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال: وما تنقيطها؟ فلت: يعربون الكلمة بالعربية قال: أما إعراب القرآن فلا بأس به. وقال خالد الحذاء: دخلت على ابن فرأيته يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط. وقبل: إنّ الحجاج هو الذي أحدث ذلك سيرين فرأيته يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط. وقبل: إنّ الحجاج هو الذي أحدث ذلك أخر.

الخامس: الترتيل؛ هو المستحب في هيئة الفرآن لأنَّا سَنُبَيِّنُ أنَّ المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه. «ولذلك نعنت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة

⁽١) حديث: التحزيب القرآن على سبعة أجزاء، أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حديثة في حديث فيه: الحرأ على حزمي من القرآن، قال أوس: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن، قالوا: ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل. وفي رواية للطبراني: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ كيف كان رسول الله ﷺ ويجزى القرآن، فقالوا كان يجزئه ثلاثاً. فذكره مرفوعاً وإسناده حس.

حرفاً حرفاً (''). وقال ابن عباس رضي الله عنه: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن هذرمة. وقال أيضاً: لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحبّ إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً. وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة فكان قيامهما واحداً إلا أنَّ أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله، فقال: هما في الأجر سواء. واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة؛ لأنَّ ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال.

السادس: البكاء؛ البكاء؛ البكاء مستحب مع القراءة، قال رسول الله ﷺ: «الْلُوا القُرْآنَ وَالْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُواه (٢)، وقال ﷺ: «أَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِه (٣)، وقال صالح المري: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمن الحزن ينشأ البكاء. قال ﷺ: "إِنَّ القُرْآنَ نَوْلَ بِحُوْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَتَحَارَنُواه (٤)، ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي. فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب المعاقبة فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب.

السابع: أن يراعي حق الآيات؟ فإذا مر بآية سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي، ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة. وفي القرآن أربع عشرة سجدة، وفي الحج سجدتان وليس في ص سجدة. وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض، وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى: ﴿ غَوْلُهُ السَّعَيِّلُ وَسَبَعُوا بِ سَهُ وَهُمْ لا يَسْتَكُورُونَ وَالسَّجدَة: 10)، فيقول: «اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَيَغِرُونَ لِللَّذَفَانِ يَبَكُونَ وَيَرِيدُهُ وَسُعَيُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَعَلَى اللهُ اللهُ اللهُ وَعَلَى اللهُ اللهُ اللهُ وَعَلَى عَلَى اللهُ اللهُ وَعَلَى اللهُ اللهُ وَعَلَى اللهُ اللهُ وَعَلَى اللهُ اللهُ وَعَلَى اللهُ اللهُ وَلَلْك كل سجدة. ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من المحدث والخبث، ومن لم يكن على طهارة عند السماع فإذا تطهر يسجد. وقد قبل في كمالها: أنه يكبر رافعاً يديه لتحريمه ثم يكبر للهوي للسجود ثم يكبر للارتفاع ثم يسلم، وزاد زائدون التشهد، ولا أصل أفيا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليتبع فيه الأمر وتكبيرة الهوي نفسه إذا كان مأموماً.

الثامن: أن يقول في مبتدأ قراءته: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ رَّبِّ أَعُودُ بِكَ مِن

 ⁽١) حديث: «نعتت أم سلمة قراءة النبي ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.

 ⁽٢) حديث: «اتلوا القرآن وابكوا فإن لهم تبكوا فتباكوا) أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد.

 ⁽٣) حديث: اليس منا من لم يتفن بالقرآن أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

 ⁽٤) حديث: (إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا» أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

مَمَرَّتِ الْتَيَطِينِ ﴿ وَلَيْقُلُ مِكَ رَبِّ أَن يَحْشُرُونِ ﴿ إِلَا وَالمؤمنون: ١٩٨٩ع)، وليقرأ: قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله ، وليقل عند فراغه من القراءة: صدق الله تعالى وبلغ رسول الله على اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحي القيوم، وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مر بمرجق سأل وإن مر بمخوف استعاذ، يفعل ذاك بلسانه أو بقلبه فيقول: سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا. قال حليفة: صليت مع رسول الله على فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمرّ بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح (١٠). فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلوات الله وسلامه عليه عند ختم القرآن: «اللّهم أرحَمْنِي بالقُرْآنِ وَاجْعَلْهُ لِي إِمَاماً وَنُوراً وَهُدَى وَرَحْمَةً، اللّهم ذَكْرَنِي مِنَهُ ما نَسِيتُ وَعَلَمْنِي مِنْهُ ما جَهِلْتُ وَارْزُقْنِي بِلاَوْتَهُ آنَاءَ اللّيلِ وَأَطْرَافَ النّهَادِ وَاجْعَلْهُ لِي حُجّةً يَا رَبُ الْعَالَمِينَ (٢٠).

التاسع: في الجهر بالقراءة، ولا شك في أنه لا بذ أن يجهر به إلى حدّ يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف، ولا بدّ من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته. فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر. ويدل على استحباب الإسرار، ما روي أنه على قال. فَضُلُ قِرَاءةِ السِّرُ عَلَىٰ قَرَاءةِ الْعَلاَنِيَةِ كَفَصْلِ صَدَقَةِ السِّرْ عَلَىٰ مَا مَنِي لفظ آخر: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمسر بالصدقة»، وفي الخبر العام: "يفضل همل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً»، وكذلك قوله على: "خَيْرُ الرُزْقِ مَا الخبر العام: "يفضل همل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً»، وكذلك قوله على: «خَيْرُ الرُزْقِ مَا يَكْفِي وَخَيْرُ اللَّرْكِ الخَيْرِ الخَيْرِ الخَيْرِ الخَيْرِ الخَيْرِ الخَيْرِ العَلَم عَلَىٰ بَعْضَ فِي الْقِرَاءةِ بَيْنَ الْمَغْرِب وَالعِشَاءِ»، وسمع سعيد بن المسبب ذات ليلة في مسجد رسول الله على عمر بن عبدالعزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه؛ اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه؛ اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته فقال الغلام: إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب، فرفع سعيد صوته وقال؛ يا أيها المصلي إن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، فسكت عمر بن عبدالعزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. ويدل فسكت عمر بن عبدالعزيز وخفف ركعته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة. ويدل

الله على على الله على الل

⁽٢١) حديث: «كان رسول الله ﷺ يقول عند حتم القرآن: اللهم ارحمتي بالقرآن واجعله لي إماماً وهدى ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسبت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناه الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يا رب العالمين، وواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأرجابي في فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك في الشمائل كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داود بن قيس معضالاً.

⁽٣) حديث: افضل قراءة السر على قراءة العلائية كفضل صدقة السر على صدقة العلائية». قال وفي لفظ آخر: فللجاهر بالقرآن كالمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»، أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثاني.

 ⁽٤) حديث: الفضل عمل السر على عمل العلائية بسبعين ضعفاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة.

⁽٥) حديث: فخير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفيء. أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص.

 ⁽٦) حديث: «لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء». رواه أبو داود من حديث البياضي دون قوله:
 قبين المغرب والعشاء، والبيهقي في الشعب من حديث علي: قبل العشاء وبعدها، وقيه الحارث الأعور وهو ضعيف.

فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث: أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره، فالخير المتعدي أفضل من اللازم، ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه، ولأنه قد يراه بطال غاقل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل، وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر ويكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم، فإن كان في العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشرة أجور، ولهذا نقول: قراءة القرآن في المصاحف أفضل إذ يزيد في العمل النظر، وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه. وقد قيل: الختمة في المصحف بسبع؛ لأن النظر في المصحف أيضاً عبادة. وخرق عثمان رضي الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما، فكان كثير من الصحابة يقرؤون في المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم مصحفين لكثرة قراءته منهما، فكان كثير من الصحابة يقرؤون في المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم مصحفين لكثرة قراءته منهما، فكان كثير من القرآن إني لأصلي العتمة وأضع المصحف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح.

العاشر: تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم، فذلك سنّة. قال عليه: «زَيْنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، (٤٠). وقال عليه السلام: «ما أَذِنَ اللّهُ لِشَيْءٍ إِذْنَهُ لِحَسَنِ الصَّوْتِ

⁽١) حديث: •أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك • ففي الصحيحين من حديث عائشة: •أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله ﷺ: رحم الله قلاناً. . . • الحديث، ومن حديث أبي موسى قال: •قال رسول الله ﷺ: لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك البارحة. . • الحديث. ومن حديث أيضاً: •إنما أحرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن. . . • الحديث.

 ⁽٣) حديث: ﴿إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بقراءته فإن الملائكة وهمّار الدار يستمعون إلى قراءته ويعملون بصلاته». رواه بنحوه بزيادة فيه أبو بكر البزار ونصر المقدسي في المواعظ وأبر شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع.

 ⁽٣) حديث: «مروره ﷺ بأبي بكر وهو يخافث وبعمر وهو يجهر وببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة...
 الحديث. تقدم في الصلاة.

⁽٤) حديث: وزينوا القرآن بأصواتكم، أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عاذب.

بالقُرْآنِ»(۱)، وقال على: «لَيْسَ مِنَا مَنْ لَمْ يَنَغَنْ بِالقُرْآنِ»، فقيل: أراد به الاستغناء، وقيل: أراد به الترنم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة. وروي أن رسول الله على كان ليلة ينتظر عائشة رضي الله عنها فأبطأت عليه فقال على: «ما حَيْسَكِ؟» قالت: يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام على حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال على: «هٰذا سَالِمْ مَوْلَىٰ أَبِي حُدَيْفَة الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمْتِي مِثْلَهُ (۲)، واستمع على أيضاً ذات ليلة إلى عبدالله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فوقفوا طويلاً ثم قال على: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْرَأُ القُرْآنَ فَضاً طَرِيّاً كَمَا أَزْلَ فَلْيَقْرَأُهُ عَلَىٰ قِرَاءَةِ ابْنِ أُمْ عَبْدٍ» وقال على لابن مسعود: «اقْرَأُ عَلَيْ» فقال: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنه أن أنسمَعهُ مِنْ غَيْرِي»، فكان يقرأ وعينا عليك وعليك أنها مِنْ مَزَامِيرِ آلِ فَاوَدَ»، واستمع على إلى قراءة أبي موسى فقال: «لَقَذُ أُوتِيَ هٰذا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ فَاوْدَ»، واستمع على إلى قراءة أبي موسى فقال: «لَقَذُ أُوتِيَ هٰذا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ فَاوْدَ»، فبلغ ذلك أبا موسى فقال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحرته لك تحبيراً (٥).

ورأى هيثم القارىء رسول الله ﷺ في المنام قال: فقال لي: «أَنْتُ الهَيْتُمُ الَّذِي تُزَيِّنُ القُرْآنُ المُوْآنُ المُوَآنُ المَاهِ وَفِي الخبر: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن، وقد كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما: ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط، فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة، فيقول: أولسنا في صلاة؟ إشارة إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَصَيْرُ ﴾ [المنتجود، ١٤٥، وقال ﷺ: همن المشمّع في صلاة؟ إشارة إلى قوله عزّ وجلّ كَانَتُ لَهُ نُوراً يَوْمَ القِيَامَةِهُ (١٠)، وفي الخبر: كتب له عشر حسنات. ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب فيه كان شريكاً في الأجر إلا أن يكون قصده الرياء والتصنع.

操操器

 ⁽١) حديث: «ما أذن الله لشيء إذنه لحسن الصوت بالقرآن». منفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي بتغنى بالقرآن» زاد مسلم: «لنبي حسن الصوت»، وفي رواية له: «كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن».

 ⁽۲) حديث: الحان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال: ما حبسك؟ قالت: يا رسول الله، كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام بيلي حتى اسمتع إليه طويلاً ثم رجع فقال: هذا سالم مولى أبي حقيفة الحمد لله الذي جعل في أمني مثله». أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات.

حديث: «استمع ذات ليلة إلى عبدائه بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلاً ثم قال: من أراد أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد، أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود: «أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله على قال من أحب أن يقرأ القرآن...» الحديث. قال الترمذي: حسن صحيح.

⁽٤) حديث: «أنه قال لابن مسعود اقرأ، فقال يا رسول الله، أقرأ وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمعه من خيري . . . الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

⁽٥) حديث: «استمع إلى قراءة أبي موسى فقال: لقد أوثي هذا من مزامير آل داود». متفق عليه من حديث أبي موسى.

 ^(*) حديث من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً يوم القيامة وفي الخبر: «كتب له عشر حسّاته أخرجه
أحمد من حديث أبي هريرة: هن استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نوراً يوم
القيامة وفيه ضعف وانقطاع.

الباب الثالث

في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة

فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري،

فالأول: فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش الجلالة إلى درجة إفهام خلقه. فلينظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات، هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عزّ وجلّ إلا بوسيلة صفات نفسه، ولولا استثار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره. ولولا تبين الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادي تجلّيه حيث صار دكاً. ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حدّ فهم الخلق، ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال: إن كل حرف من كلام الله عزّ وجلّ في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف، وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطاقوه حتى يأتي إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله بإذن الله عزّ وجلّ ورحمته لا بقوّته وطاقته، ولكن الله عزّ وجلّ طوّقه ذلك واستعمله به.

ولقد تألق بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علوّ درجته إلى فهم الإنسان وتثبيته مع قصور رتبته وضرب له مثلاً لم يقصر فيه، وذلك أنه دعا بعض الملوك حكيماً إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه، فقال الملك: أرأيت ما تأتى به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عزّ وجلّ فكيف يطيق الناس حمله؟ فقال الحكيم: إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنه وتزيينه وبديع نظمه، فنزلوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بواطن البهائم بأصوات يضعونها لائقة بهم من النقر والصفير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطيقوا حملها. وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عزّ وجلّ بكنهه وكمال صفاته، فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التي سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفير الذي سمعت به الدواب من الناس. ولم يمنع ذلك معانى الحكمة المخبوءة في تلك الصفات من أن شرف الكلام أي الأصوات لشرفها وعظم لتعظيمها، فكان الصوت للحكمة جمداً ومسكناً والحكمة للصوت نفساً وروحاً. فكما أن أجساد البشر تكرم وتعز لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها. والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم في الحق والباطل، وهو القاضي العدل والشاهد المرتضى يأمر وينهي. ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس، ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحياً به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط. فالكلام كالملك المحجوب الغائب وجهه النافذ

أمره، وكالشمس العزيزة الظاهرة مكنون عنصرها وكالنجوم الزهرة التي قد يهتدي بها من لا يقف على سيرها، فهو مفتاح الخزائن النفيسة وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام الذي من سقي منه لم يسقم. فهذا الذي ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لا تليق بعلم المعاملة فينبغي أن يقتصر عليه.

الثاني: التعظيم للمتكلم؛ فالقارى، عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن في تلاوة كلام الله عزّ وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال: ﴿ لا يَمسُّهُ إِلا الشَّهَ وَلَه محروس عن ظاهر بشرة يَمسُّهُ إِلا إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنبل معانيه كل قلب. ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أي جهل إذا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنبل معانيه كل قلب. ولمثل هذا التعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن نشر المصحف غشي عليه ويقول: هو كلام ربي هو كلام ربي. فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ولن والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته إن أعم فبفضله وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذاء الكلام.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس؛ قبل في تفسير ﴿ يَبَخِّى خُدِ ٱلْكِتَبُ بِعُورً ﴾ [مريم: ١٦]، أي بجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه من غيره. وقيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدّث نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحبّ إليّ من القرآن حتى أحدّث به نفسي! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن المعظم للكلام الذي يتلوه ويستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج والذي يتفرّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها؟ فقد قبل: إن في القرآن مبادين ويساتين ومقاصير وعرائس وديابيج المتنزهات القرآن، والحاءات مقاصيره، والمسبحات عرائس القرآن، والحاميمات ديابيج القرآن، والمفصل رياضة والخانات ما سوى ذلك، فإذا دخل عرائس القرآن، والحاميمات ديابيج القرآن، والمقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرياض وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره.

الرابع: التدبر؛ وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على مسماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سنّ لأن الترتيل فيه الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن. قال علي رضي الله عهد: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها. وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئاً مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه، وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس. فقد روي عن عامر بن عبد قيس أنه قال: الوسواس يعتريني في الصلاة، فقيل: في أمر الدنيا؟ فقال: لأن تختلف

فيّ الأسنّة أحت إليّ من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عزّ وجلّ وأني كيف أنصرف، فعد ذلك وسواساً وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم ديني ولكن يمنعه به عن الأفضل. ولما ذكر ذلك للحسن قال: إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا، ويروى: قأنه على قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة (١)، وإسما رددها على التدبره في معانيها، وعن أبي ذر قال: قام رسول الله على بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي: ﴿إن لَهُ بَيْنَا لُهُ وَإِن تَغَفِّر لَهُم الله المناتئة: ١٨٤] (١) الآية، وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ اللّه بَيْرَونَ السَائِة وَالله بعضهم: إني لأفتتح السورة فبوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى الملم الفجر، وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثواباً، وحكي عن أبي علم ما الموراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها، وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكرّرها ولا يفرغ من التدبر منا وال بعض العارفين: في في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منا أنفس مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة.

المخامس: التفهم؛ وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزّ وجلّ، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عزّ وجلّ؛ فكقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَيشْلِهِ. شَيَّةٌ وَهُو اَلسَّيبِعُ اَلْمَعِبُرُ﴾ [الشورى: ١٦]، وكقوله تعالى: ﴿ اَلْمَاكُ الْفَدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْلَهَيْمِنُ الْمَيْرِينُ الْجَبَّالُ الْمُنْكَانُ الْمُعَنِينَ الْمَوفقين، فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين، وإليه أشار علي رضي الله عنه بقوله: ١٩ أسر إلي رسول الله على شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عزّ وجلّ عبداً فهماً في كتابه فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم، (٢٠)، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن. وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عزّ وجلّ وصفاته إذ

الباب الثالث

في أعمال الباطن في التلاوة

 ⁽١) حديث: قأنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة وواه أبو ذر الهروي في معجمه من حديث أبي هريرة سئد ضعيف.

 ⁽٣) حديث أبي ذر «قام رسول الله ﷺ فينا ليلة بآية يرددها وهي: ﴿ إِن تُمَرِّبُهُمْ عَيَادُكُ ۗ [المَائدة ١١٨]*. أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

المحديث علي: "ما أسر إلي رسول الله على شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في كتابه". أخرجه النسائي من رواية أبي جحيفة قال: "سألنا علياً فقلنا" هل عندكم من رسول الله على شيء سوى القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبداً فهماً في كتابه.." المحديث. وهو عند البخاري بلفظ: "هل عندكم من رسول الله على مل ليس في القرآن" وفي رواية: "وقال مرة: ما ليس عند الناس" ولأبي داود والنسائي. "فقلنا: هل عهد إليك رسول الله على شيئاً لم يعهده إلى الناس؟ قال: لا إلا ما في كتابي هذا..." الحديث، ولم يذكر: "الفهم في القرآن".

لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها.

وأما أفعاله تعالى، فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته. فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء إذ كل شيء فهو منه وإليه ويه وله فهو الكل على التحقيق. ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه، لا أنه سيبطل في ثاني الحال، بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض، وهذا مبدأ من مبادىء علم المكاشفة، ولهذا ينبغي إذا قرآ التالي قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتُم الله عَلَوْتَ هَا عَمُونُونَ هَا الواقِئة: ٢٦]، ﴿ وَمَنْ يَتُمُ اللّه الله الله على الماء والنار والحرث والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكل وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكل الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من المنصب والمجادلة كما قال تعالى: ﴿ وَلَمْ فيها من الصفات المدوق والحهل والتحلي والمجادلة كما قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَها من الصفات المدومة من الصفة التي منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التي منها والمحارب هذه المعاب وهو الصفة التي منها الى عجب العجائب وهو الصفة التي منها المدوت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم فليفهم منه صفة الاستغناء لله عزّ وجلّ عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئاً. وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عزّ وجلّ وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين، كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار المخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية. وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد بقدر رزقه، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين: ﴿ وَلَ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكُلِّنَتِ رَبِي لَفِدَ ٱلْبَحْرُ قِلَ أَن نَفَدَ لَكُمْ عِدَا لَهُ عِنه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من لكن عبد بقدر رزقه، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين: ﴿ وَلَ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكُمْ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]، ولذلك قال علي رضي الله عنه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب ، فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه ، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّر يَسْتَيُعُ إِلْيَكَ حَقِّ إِذَا حَرَجُوا مِنْ عَلَى الله وَلَهُ مَاذًا قَالَ مَافِقاً أُولَيْكَ ٱلنَّهُ عَلَ قُلُوبِهم ﴾ [محمد : ١٦] ، والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم ، وقد قيل : لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه التقصان من المزيد ويستغنى بالمولى عن العبيد .

السادس: التخلي عن موانع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. قال ﷺ: • لَوْلا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَىٰ قُلُوبٍ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَىٰ المَلَكُوتِ اللهِ عَن عَلَىٰ قُلُوبٍ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إِلَىٰ المَلَكُوتِ اللهُ عَن القرآن من جملة الملكوت وكل ما غاب عن

⁽١) حديث: الولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت، تقدم في الصلاة.

الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت. وحُجُب الفهم أربعة:

أولها: أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكُّل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عزَّ وجلَّ فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه. فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعاني؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس.

للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة. فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمجرد الانباع يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب، وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم. فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانماً، كمن يعتقد البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانماً، كمن يعتقد على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه . . ولو استقر في نفسه لانجر إلى كشف ثان على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه . . ولو استقر في نفسه لانجر إلى كشف ثان أيضاً مانهاً من الفهم والكشف؛ لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن، وجمود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن ـ كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد ـ ..

ثالثها: أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في النيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون. وكلما كانت الشهوات أشد تراكماً كانت معاني الكلام أشد احتجاباً وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، ولذلك قال على: قإذًا عَظَمَتْ أُمّتِي الدّيئارَ والدّرْهَمَ نُزعَ مِنْها هيئة الإسلام، وَإِذَا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ حُرِمُوا بَرَكَة الوَحْيِ، (۱)، قال الفضيل: هيئة الإسلام، وَإِذَا تَرَكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ حُرِمُوا بَرَكَة الوَحْيِ، (۱)، قال الفضيل: عني حرمواً فهم القرآن. وقد شرط الله عز وجلّ الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنَدَكُرُ لِكُلّ عَبْدِ ثُيْكِ ﴾ [ق: ٨]، وقال عز وجلّ الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنَدَكُرُ اللّهُ مِن يُنِيكِ ﴾ [ف: ٨]، وقال عز وجلّ : ﴿ وَمَا يَنَدَكُرُ اللّهُ مَن يُنِيكِ ﴾ إلى الأبب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

رابعها: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن

 ⁽١) حديث: (إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي³. رواه
 ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلاً من حديث الفضل بن عياص قال. ذكر عن نبي الله ﷺ.

ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة. وسنبين معنى التفسير بالرأي في الباب الرابع وأن ذلك لا يناقض قول علي رضي الله عنه: إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن، وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس قيه.

السابع: التخصيص؛ وهو أن يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في الفرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي عِيمَة وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ. فُوَّادَكُ ﴾ [مُود: ١٢٠]، فليقلّر العبد أن الله ثبت فواده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى. وكيف لا يقدّر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب، فقال تعالى: ﴿وَأَذَكُّوا فِعْمَتَ اَنَهُ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْلَى عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلْكِنْتِ وَالْعِيكُمَةِ يَبِظُكُمْ بِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٣١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ أَنْرَانَا ۚ إِلَيْكُمْ كِنْبًا مِيهِ دِكْرُكُمْ أَمَّلًا تُمْقِلُونَ ﴾ [الاسبناء: ١٠]، ﴿وَأَرَلْنَا ۚ إِلَيْكَ ٱلدِّكْرَ لِثُمِّينَ لِلنَّاسِ مَا مُزِّلَ إِلَيْهِمَ﴾ [الشحل: اللهُ عَلَيْكِ يَضْرِبُ آلَةُ لِلنَّاسِ أَشَائَهُمْ ﴾ [سخمَّد: ٣]، ﴿ وَالَّمِيعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن زَّيْكُمْ مِن زَّيْكُمْ ﴾ [الزُّمر: ٥٠]، ﴿ هَٰذَا بَصَلَيْرٌ لِلنَّاسَ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِتَوْمِ بُوفِسُونَ ۞﴾ [السجائسية: ٢٠]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّفِيرَ ﴾ [آل عِمران: ١٣٨]، وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارىء الواحد مقصود فما له ولسائر الناس فليقذِّر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿وَأُوجِىَ إِلَّىٰ هَلَا ٱلْقُرْءَانُ لِأَنذِرَكُم بِهِ- وَمَنْ بَلَعُّ﴾ [الأننام: ١٩]، قال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله. وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عزّ وجلّ بعهوده نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات. وكان مالك بن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض. وقال قتادة: لم يجالُس أحد هَذا القرآنُ إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى: ﴿هُوَ شِفَآةٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَالَا﴾ [الإسزاء: ٨٦].

الثامن: التأثر؛ وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وعيره. ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مفرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجلّ: ﴿وَإِنِي لَفَقَارُ ﴾ [طه: ٨٧]، ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿وَإِنِي لَفَقَارُ ﴾ [طه: ٨٧]، ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿وَإِنِي اللّهَ وَعَلَمُ وَعَلَمُ وَعَلَمُ اللّهُ عَلَى اللّهِ عَلَيْ اللّهِ عَلَيْ اللّهِ عَلَيْ اللّهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللّهِ عَلَيْ اللّهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللّهِ عَرِيبٌ مِن اللّهُ وَعَيلُوا اللّهَ اللهِ عَلَى اللهُ عَلَى اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ

وتفهمه وتدبره. فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوّة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت، وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته، وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عزّ وجلّ كذكرهم لله عزّ وجلّ ولداً وصاحبة يغض صوته ويكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها، وعند وصف النار ترنعد فرائصه خوفاً منها. ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ علي^(١) قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِثْـنَا مِن كُلِّ أُمَّتِم بِشَهِيدِ وَجِثْنَا بِكَ عَلَى مَتَوُلَام شَهِيدًا ۞﴾ [النّساء: ٤١]، رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: حسبك الآن، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية. ولقد كان في الخائفين من خرّ مغشياً عليه عند أيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع الآيات. قمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه. فإذا قال: ﴿إِنَّ آخَاتُ إِنَّ عَصَكَيْتُ رَبِّي عَدَابَ يَوْرٍ عَلِيبِ ﴾ [الأنتام: 10]، ولم يكن خائفاً كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿مَلَتِكَ تَوَلَّمُنَا وَإِلَيْكَ أَنْهُنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [اللّمنحة: ٤]، ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً، وإذا قال: ﴿وَلَصَّيْنَ عَلَىٰ مَا ءَاذَشُتُونًا﴾ [إيراميم: ١٧]، فليكن حاله الصير أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَعَنَهُ آلَتُهِ عَلَى اَلْظَالِمِينَ ﴾ [لمرد: ١١٨]، وفي قوله تعالى: ﴿كُبُرٌ مَفْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَغُولُواْ مَا لَا نَفْمَالُونَ ۞﴾ [الصَّف: ٣]، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةِ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الانسيناء: ١]، وفي قوله: ﴿ فَأَعْرِضَ عَن مَّن تَوَلَّى عَن دِكْرِنَا وَلَرْ بُرِدْ إِلَّا ٱلْمَعَيْوَةُ ٱلذَّبْلَ ۞ ﴿ النَّجْمَ: ٢٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَلُبُ فَأُولَتِكَ كُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ [الصَّجرَات: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات، وكنان داخلاً في معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَمْلَمُونَ ۖ ٱلْكِئَابُ إِلَّا أَمَانِنَ﴾ [البَقَرَة: ٧٨]، يعني النلاوة المجردة، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَأَيُّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُقْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يُوسُف: ١٠٥]، لأن القرآن هو المبين لتلك الآبات في السموات والأرض، ومهما تجاوزهًا ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها. ولذلك قيل: إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه ألله تعالى: ما لك ولكلامي وأنت معرض عني دع عنك كلامي إن لم تتب إليَّ. ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه، فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت. ولذلك قال يوسف بن أسباط: إني لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار. والمعرص عن العمل به أريد بقوله عزّ وجلّ: رسول الله على: «افْرَوُوا الفُرْآنَ ما الْتَلَقَتْ عَلَيْهِ قُلُويْكُمْ وَلائْتْ لَهُ جُلُودُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَقْتُمْ فَلَسْتُمْ تَقْرَؤُونَهُ، - وفي بعضها - الحَإِذَا الْحَتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ اللهُ عَالَى اللهُ تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ غُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ءَايَنْتُهُ زَادَتُهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَّكُلُونَ﴾ [الانفال: ٢]، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ صَوْبَاً بِالقُرْآنِ الَّذِي

⁽¹⁾ حديث: «أنه قال لابن مسعود: «الرأ علي...» الحديث. تقدم في الباب قبله.

 ⁽٢) حديث: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرؤونه». وفي بعضها: «فإذا
اختلفتم فقوموا عنه»، متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله البجلي مي اللفظ الثاني دون قوله: «ولانت جلودكم».

إِذَا سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ رَأَيْتَ أَنَهُ يَخْشَىٰ اللّهُ تَعَالَىٰ (۱) وقال ﷺ: ﴿ لا يُسْمَعُ القُرْآنُ مِنْ أَحَدٍ أَشْهَىٰ مِمَّنُ يَخْشَى اللّهُ عَرْ وَجَلَ (۱) وَ فَالْمُونَةُ فِي تحريكُ اللّه عَرْ وَجَلَ (العمل به وإلا فالمؤنة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض القراء: قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرني وقال: جعلت القرآن عليّ عملاً اذهب عاقراً على الله عزّ وجلّ. فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك . وبهذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال. فمات رسول الله على عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم (۱) . ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عز وجلّ: ﴿ فَمَن يَعْمَلَ مِثْفَكَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَسَرُهُ ﴿ وَمَن يَشْمَلُ مِثْفَكَالُ ذَرَّةٍ ضَرًا يَسَرُهُ ﴾ وَمَن يَشْمَلُ مِثْفَكالُ ذَرَّةٍ ضَرًا يَسَرُهُ ﴾ والوَازلة: ١٩٨٤)، قال: يكفي هذا وانصرف، فقال ﷺ: ﴿ الْفَعَرَفُ الرَّجُلُ وَهُوَ فَقِيهُ ﴿ وَاللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الله الموالة التي من الله عز وجلّ بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية . فأما مجرد حركة اللسان مثل تلك الحالة التي من الله عز وجلّ بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية . فأما مجرد حركة اللسان وقيض عَن ذِكْرِي فَنِ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَغَشْرُهُ يَوْدَ الْقِيكَةِ أَعْنَى ﴿ وَلَا المه وله عز وجلٌ الله فول عز وجلٌ الله فإن المقصر أَعْرَى عَن ذِكْرِى أَيْنَا فَشِيئَا وَلَمْ تَعَلَى الْمَا العزيل المقصر الله إلها ولم تعا بها فإن المقصر ﴿ كَذَلِكَ أَنْ اللّهُ فَيْ اللّهُ اللّه الله الله الله المقال المقال المقال الله عن الله المقال المؤلف المؤلف

⁽١) حديث: ﴿إِنْ أَحَسَنَ النَّاسَ صَوْمًا بِالْقَرَّانَ الَّذِي إِذَا سَمَعَتَهُ يَقُرَّا رأيت أنه يخشي الله تعالى ﴿ أَحْرَجُهُ ابنَ مَاجِهُ بَسَنَدَ ضَعَيفَ.

 ⁽۲) حديث: «لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى». رواه أبو عبدالله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الغافقي
 فى كتاب فضائل القرآن.

 ⁽٣) حديث: «مات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة ـ اختلف في اثنين منهم ـ وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم».

قلت: قوله المات عن عشرين ألفاً العله أواد بالمدينة وإلا فقد روينا عن أبي زرعة الرازي أنه قال عنه عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه، انتهى. وأما من حفظ القرآن في عهده ففي الصحيحين من حديث أنس قال الحجم القرآن على عهد رسول الله على أربعة _ كلهم من الأنصار _أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد وأبو زيده.

قلت. «ومن أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي» وزاد ابن أبي شيبة كالمصنف من رواية الشعبي مرسلاً وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد، وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو. «استقرئوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود» وسالم مولى أبي حديقة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعبه وروى ابن الأباري بسده إلى عمر قال: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله في صدر هذه الأمة من يحفظ من القرآن السورة ونحوها...» الحديث، وسنده ضعيف، وللترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة قال: «بعث رسول الله في بعثاً وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهب فأنت أميرهم...» الحديث.

⁽³⁾ حديث: «الرجل الذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَن بَمْسَلُ مِثْفَسَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا بَسَرُمُ ﴿ وَمَن يَمْسَلُ مِثْفَسَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا بَسَرُمُ ﴿ وَهُ وَمَن يَمْسَلُ مِثْفَسَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا بَسَرُهُ اللهِ وهو مِثْقَسَالُ ذَرَّةٍ شَرَّا بَرَمُ ﴿ ﴾ [الزّلزَلة: ١٨٥] فقال: يكفني هذا وانصرف، فقال النبي ﷺ: انصرف الرجل وهو فقيه أخرحه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حمان والمحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمر وقال: "أتى رجل رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالمحق لا أزيد عليهما أبدأ، ثم أدير الرجل فقال رسول الله ﷺ الله المعلى المحليق الموجعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال: "حسبي لا أبالي أن المسم غيرها».

في الأمر يقال: إنه نسي الأمر، وتلاوة القرآن حتى تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والانتمار. فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

التاسع: الترقي؛ وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عزّ وجلّ لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث، أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرأه على الله عزّ وجلّ واقفاً بين يديه وهو باظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال. الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عزّ وجلّ يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصوراً لهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره. وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال: والله لقد تجلّى الله عز وجلّ لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون. وقال أيضاً وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه فلما سري عنه قبل له في ذلك فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم مغشياً عليه فلما سري عنه قبل له في ذلك فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة. ولذلك قال بعض الحكماء: كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله عليه السلام يلقبه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأني أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه. وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام. ولذلك قال ثابت البناني: كابدت القرآن وجل عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة. وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله عز عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة. وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله عز وجل: ﴿ فَهُرُوا إِلَى اللّهِ ﴾ [القارئات: ٥٠]، ولقوله تعالى: ﴿ وَلَا غَمَلُوا مَعَ اللّه تعالى تضمّن التفاته شيئاً من فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمّن التفاته شيئاً من الشرك الخفي، بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجلّ.

المعاشر: التبري؛ وأعني به أن يتبرأ من حوله وقرّته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا تلا بآيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوّف إلى أن يلحقه الله عزّ وجلّ بهم، وإذا ثلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدّر أنه المخاطب خوفا وإشفاقاً. ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الْإِنْكَنَ لَظَلُومٌ صَعَلَا لِهُ المائة عزّ وجلّ بماذا أدعو أستغفر الله عزّ وجلّ من تقصيري سبعين مرة. فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته استغفر الله عزّ وجلّ من تقصيري سبعين مرة. فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه، فإن من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محجوباً بنفسه، فإذا جاوز حدّ الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سر الملكوت. قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه:

وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد فقال له: وعدتني ألك تفطر عندي فأخلفت، فقال: لولا ميعادي معك ما أخبرتك الذي حبسني عنك، إني لما صليت العتمة قلت: أوتر قبل أن أجيئك لأني لا آمن ما يحدث من الموت، فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت إلي روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت. وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها، ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عياناً، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها. وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد العسوف والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه؛ إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش، فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب بعد اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقارنها؛ إذ يستحيل أن يكون حالة المستمع واحداً والمسموع مختلفاً إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منتم وكلام خبار متكبر لا يبالي وكلام حنان متعطف لا يهمل.

**

الباب الرابع

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

لعلك تقول عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه، فكيف يستحب ذلك وقد قال على: «مَنْ فَسُرَ القُرْآنُ بِرَأْبِهِ فَلْيَتَبَوَّأُ مَقْعَلَهُ مِنَ النَّارِ» ('' وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التهسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر، فإن صح ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله على : قمن فَسَر القُرْآنَ بِرَأْبِهِ فَلْيَتَبَوْأُ مُقْعَدَهُ مِنَ النَّارِه ؟ فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر النفسير فهو مخبر عن نفسه ، ولكنه مخطى ، في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه ، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم ('' . قال على رضي الله عنه : إلا أن يؤتي الله عبداً فهما في القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك على رضي الله عنه : إلا أن يؤتي الله عبداً فهما في القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال على عنه ابن مسعود موقوفاً عليه الفهم؟ وقال عن إبن مسعود موقوفاً عليه الفهم؟ وقال عن إبن مسعود موقوفاً عليه الفهم؟ وقال عن ابن مسعود موقوفاً عليه الفهم علي المنافولة فما في الفهم عنه المنافولة فما في الفهم علي أن في معاني أبطناً عن ابن مسعود موقوفاً عليه الفهم علي أن في معاني أبي أبي أبي اللهم عنه المنافولة فما في الفهم عنه المنافولة فما عليه الفهم عنه المنافود موقوفاً عليه المنه عليه المنافود المنافود المؤلفة عليه المنافود المنافود المنافود عليه المنافود المؤلفة عليه المنافود المؤلفة ال

الياب الرابع

في فهم المقرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل

 ⁽١) حديث: امن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعفه من النار؟. تقدم في الباب الثالث من العلم.

 ⁽٧) حديث: الأخبار والآثار الدالة على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم. تقدم قول علي في الباب: اإلا أن
يؤتي الله عبداً فهماً في كتابه.

حديث: (إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلماً؛ تقدم في قواعد المقائد.

وهو من علماء التفسير. فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع؟ وقال علي كرم الله وجهه: لو شئت لأوفرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب. فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار؟ وقال أبو المدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً. وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم وماثتي علم إذ كل كلمة علم. ثم يتضاعف دلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع. وترديد رسول الله على: «بسم الله الرُحْمٰنِ الرَّحِيمِ عِشْرِينَ مَرَّةً الآنَ لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليتدبر القرآن. وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عزَّ وجلَّ وصفاته، وفي القرآن شرح داته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ، ومجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها. فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره؟ وَلذلك قال ﷺ: «اقْرَقُوا الْقُرْآنَ وَالْتَمِسُوا غَرَائِيَهُ»، وقال ﷺ في حديث على كرم الله وجهه: ﴿وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقُّ نَبِيهًا لَتَفْتَرِقَنَّ أَمَّنِي عَنْ أَصْلِ دِينِها وَجَمَاعَتِها حَلَّىٰ اثْنَتِينِ وَسَبْمِينَ فِرْقَةً كُلِّهَا ضَالَّةٌ مُضِلَّةً يَدْعُونَ إِلَىٰ النَّارِ ، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ فَمَلَيكُمْ بِكِتَابَ اللَّهِ عَرّْ وَجَلِّ فَإِنَّ فِيهِ نَبَأَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَنَبَأَ مَا يَأْتِي بَعْدَكُمْ وَحُكْمَ مَا بَيْنَكُمْ، مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الجَبَابِرَةِ قَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ۚ وَمَنِ ابْتَغَىٰ الْعِلْمَ فِي خَيْرِهِ أَضَلَّهُ الْلَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَقُورُهُ المَّبِينُ وَشِفَاؤُهُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَنَجَاةً لِمَن اتَّبَعَهُ، لا يَعْوَجُ فَيْقَوْمَ وَلا بَزِيغُ فَيَسْتَقِيمَ وَلا تَنْقَضِي هَجَائِبُهُ وَلا يُخْلِقُهُ كَثْرَهُ النَّرْدِيدِ" (٢). الحديث. وفي حديث حديفة: لما أخبره رسول الله على بالاختلاف والفرقة بعده قال: فقلت با رسول الله فماذا تأمرني إن أدركت ذلك؟ فقال: «تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاحْمَلْ بِمَا فِيهِ فَهُق المَخْرَجُ مِنْ ذَٰلِكُ، قال: فأعدت عليه ذلك ثلاثاً، فقال ﷺ ثلاثاً: فَتَعَلَّمُ كِتَابَ الله عَزَّ وَجَلَّ وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ فَفِيهِ النُّجَاةُ")، وقال علي كرم الله وجهه: من فهم القرآن فسر به جمل العلم. أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَن بُوِّتَ اَلْمِحَكَنَةَ فَقَدْ أُولِيَ خَيْرًا حَكَشِيرًا ﴾ [النّفرَة: ٢٦٩]، يعني الفهم في القرآن. وقال عزّ وجلّ : ﴿فَفَهَمْنَهُمَا سُلَبْسُنَنَّ

 ⁽١) حديث: «تكرير النبي ﷺ البسملة عشرين مرة انقدم في الباب قبله.

 ⁽۲) حديث: «اقرؤوا القرآن والتمسوا غرائيه». أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب
من حديث أبي هريرة بلفظ: «أعربوا» وستله ضعيف.

⁽٣) حديث علي: «والذي بعثني بالحق لتفترقن أمني على أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضائة مضلة تدعو إلى النار فإذا كان ذلك قعليكم بكتاب الله فإن فيه نبأ من كان قبلكم... الحديث. عطوله هو عند الترمذي دون ذكر افتراق الأمة بلفظ: «ألا إنها ستكون فتنة مضلة فقلت: ما المخرح منها يا رسول الله؟ قال كتاب الله فيه نبأ من قبلكم» فذكره مع اختلاف وقال: غريب وإسناده مجهول.

 ⁽٤) حديث حذيفة في الاختلاف والفرقة بعده «فقلت ما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: تعلم كتاب الله واعمل بما
 يه الحديث . أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وفيه: «تعلم كتاب الله واتبع ما فيه ـ ثلاث مرات ـ . . .

رَكُلًا ءَائِننَا حُكُمًا وَعِلَماً ﴾ [الانبيّاء: ٧٩]، مدمى ما آتاهما علماً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان مالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدماً على الحكم والعلم. فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه. فأما قوله ﷺ: "مَنْ فَسَّر القُرْآنَ بِرَأْيِهِ» وبهيه عنه (١) ﷺ وقول أبي بكر رضي الله عه: أي أرص تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي؟ إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالعهم، أو المراد به أمراً آخر. وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوحوه:

أحدها: أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله ﷺ ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا مي بعض القرآن، فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي لأنهم لم يسمعوه من رسول الله ﷺ وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

والثاني: أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله على محال، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي، فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه، حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل: إن «الر» هي حروف من الرحمن، وقيل: إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم، وقيل غير ذلك، والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً؟.

الثالث: أنه ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنه وقال: «اللَّهُمْ فَقَهْهُ فِي اللَّهِنِ وَعَلَّمْهُ التَّأْوِيلَ^(٢)، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك؟

الرابع: أنه قال عزّ وجلّ: ﴿لَكِلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَشَتَّبُطُونَهُ مِنْهُمٌ ﴾ [النّساء: ٨٣]، فأثبت لأهل العلم استنباطأ، ومعلوم أنه وراء السماع. وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحدٌ عقله. وأما النهي فإنه ينزل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا تارة يكون مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه. وتارة يكون مع الجهل، ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر برأيه، أي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه مما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله ﷺ: فتَسَحَرُوا فَإِنَّ فِي الشَّحُورِ بَرَكَةً ""، ويزعم أن المراد به التسحر

⁽۱) حديث: «النهي عن تفسير القرآن بالرأي» غريب.

 ⁽٢) حديث دعائه لابن عباس: «اللهم فقّهة في الدين وعلمه التأويل؛ تقدم في الباب الثاني من العلم.

 ⁽٣) حديث: السحووا فإن في السحور بركة، تقدم في الباب الثالث من العلم.

كتاب آداب تلاوة القرآن

بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول: قال الله عزّ وجلَّ: ﴿ أَنَاهَتْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَنَىٰ ۞ ﴿ أَلَّهُ: ٢٤]، ويشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون. وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع. وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي. . ويكون المراد بالرأي الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح، والرأي يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأي.

والوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع، والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي. فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أوَّلاً ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر. ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك. فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم. وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة:

منها: الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله تعالى: ﴿وَيَالَيُّنَا نَشُودَ النَّاقَةَ شُهِرَةً فَظَلَمُوا بِهَأَ ﴾ [الإسراء: ٥٩]، معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، ولم يدر أنهم بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرِيُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْمِجْلَ بِطُنْرِهِمْ ﴾ [البَقْرَة: ٩٣]، أي حب العجل، فحذف الحب، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ لَّذَنَّنَّكَ ضِعْفَ ٱلْحَيْرَةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء: ٧٥]، أي ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى، فحذف العذاب وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز في قصيح اللغة. وقوله تعالى: ﴿ وَسْئِلِ ٱلْقَرْبَةَ آلِّنِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْهِيرَ ٱلَّتِي أَفْلَنَا فِيهًّا ﴾ [يُوسُف ٢٨]، أي أهل العير فالأهل فيهما محذوف مضمر. وقوله عَزْ وجلَّ: ﴿ نُقُلُتُ فِي ٱلنَّمَنَوَتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعزاف: ١٨٧]، معناه خفيت على أهل السموات والأرض، والشيء إذا خفي ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم (في) مقام (على) وأضمر الأهل وحذف. وقوله تعالى: ﴿وَيَتْهَمُلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ نُكَدِّبُونَ ۞﴾ [الرابقة: ١٨٧]، أي شكر رزقكم. وقوله عزّ وجلَّ: ﴿وَءَالِنَا مَا وَعَدَنَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٤]، أي على ألسنة رسلك فحذف ألسنة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَمْرَلْنَهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞﴾ [القدر: ١]، أراد القرآن، وما سبق له ذكر. وقال عزَّ وجلّ: ﴿حَنَّىٰ تُوَارَتْ بِٱلْجِبَابِ﴾ [ص: ٣٢]، أواد الشمس، وما سبق لها ذكره. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّحَدُّواْ مِن دُونِهِة أُوْلِيكَاءَ مَا نَعَبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْمَنَ﴾ [الزُّمر: ٣]، أي يقولون: ما نعبدهم. وقوله عزِّ وجلَّ: ﴿فَالِ هَتُؤُكَآهُ ٱلْقَوْمِ لَا بَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۞ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَوْ فِينَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّنَتُو فِين لَّفْسِكُ ﴾ [النَّساء: ٧٨، ٧٩]، معناه: لا يفقهون حديثاً يقولُون: ما أصابك من حسنة فمن الله، فإن لم يرد هذا كان مناقضاً لقوله ﴿ قُلَ كُلُّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النَّساء: ٧٨]، وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية. ومنها: المنقول المنقلب كقوله تعالى: ﴿وَلُورِ سِينِنَ ۞﴾ [النّين: ٢]، أي طور سيناء. ﴿ سَلَمُ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۞﴾ [الصَّافات: ١٣٠]، أي على إلياس، وقيل: إدريس، لأن في حرف ابن مسعود: ﴿سلام على إدراسين﴾.

ومنها: المكرر القاطع لوصل الكلام في الظاهر كقوله عزّ وجلٌ ﴿وَمَا يَشَيِّعُ الَّذِينَ بَدَعُونَ مِن دُوبِ اللهِ شُرَكَاءٌ إِن يَشَّعُونَ إِلَّا اَلظَّنَ ﴾ [يُوس: ٦٦]. وقوله عزّ وجلٌ: ﴿قَالَ اَلْمَلاُ اَلَّذِينَ اَسْتَكُبُرُكُا مِن قَوْمِهِ، لِلَّذِينَ اَسْتُغْمِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمَ ﴾ [الأعزاف: ٧٥]، معناه: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا.

ومنها: المقدم والمؤخر، وهو مظنة الغلط كقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةُ سَنَقَتُ مِن رَبِكَ لَكَانَ لِزَامًا وَلَولاه لَكَانَ نَصِباً كاللزام. وَلَولاه تَعَالَى: ﴿ يَشْتَلُونَكَ كَانَكَ حَفِي بَها، وقوله عزّ وقوله تعالى: ﴿ يَشْتَلُونَكَ كَانَكَ حَفِي بَها، وقوله عزّ وقوله تعالى: ﴿ لَمُ مَنْكُونَكَ كَانَكَ حَفِي بَها، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ لَمُ مَنْكُونَكَ كَانَكَ حَفِي بِها، وقوله عز وجلّ : ﴿ لَمُ مَنْ مَنْكُونَكَ كَانَكَ حَفِي بِها، وقوله عز وجلّ : ﴿ لَمُ مَنْ مَنْكُونَكُ وَلَكُ مِنْ يَبْتِكَ بَالْحَقِ ﴾ [الانفال: ٤ م عنها كُنْكُ مِنْ يَبْتِكَ بَالْحَقِ ﴾ [الانفال: ٤ م عنها المناقم فير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق: ﴿ فَلُو الْأَنْفَالُ بِلّهِ وَالرَّسُولُ ﴾ ، إلى قوله: ﴿ كُمّا أَخْرَبُكَ رَبُّكَ مِنْ يَبْتِكَ بِالْحَقِ ﴾ [الانفال: ١ - ٥] أي فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كارهون، فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره، ومن هذا النوع قوله عزّ وجلّ : ﴿ حَمَّ نُوْمَتُوا بِاللّهِ وَمَنْ أَيْدُولُ إِنْهُ فَلَ إِنْهُ عِلْ إِيْهِ ﴾ [المُعَمّة: ٤] الآية.

ومنها: المبهم، وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف. أما الكلمة فكالشيء والقرين والأمة والروح ونظائرها. قال الله تعالى: ﴿ مَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ [التحل: ٧٠]، أراد به النققة مما رزق. وقوله عز وجل: ﴿ وَمَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَخَدُهُمَا أَبْكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيّهِ ﴾ [التحل: ٢٦]، أي الأمر بالعدل والاستقامة. وقوله عز وجل: ﴿ وَإِن أَنَبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَن ثَيْءٍ ﴾ [الكهف: ١٠]، أراد به من صفات الربوبية، وهو العلوم التي لا يحل السؤال عنها حتى يبتدى، بها العارف في أوان الاستحقاق. وقوله عز وجل: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرٍ شَيْءٍ أَمْ مُمُ ٱلْخَلِقُونَ ﴿ وَمَا القرين فكقوله عز وجل: خالق، فربما يتوهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء. وأما القرين فكقوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ فَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْدُ ﴿ وَالَ فَرِينَا مَا لَلْهُ لِللهِ عَلَى أَنَه لا يخلق شيء إلا من شيء. وأما القرين فكقوله عز وجل: ﴿ وَقَالَ فَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْدُ ﴾ [ق: ٢٤،٢٣]، أراد به السلك الموكل به. وقوله تعالى * ﴿ وَالَهُ وَيَنُهُ رَبّا مَا أَلْفَيْنُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَعَل بَيدٍ ﴾ [ق: ٢٤،٣٤]، أراد به السلك الموكل به. وقوله تعالى * ﴿ وَالَ فَرَنَا مَا أَلْفَيْنُهُ وَلَكُن كَانَ فِي ضَعَل بَيدٍ ﴾ [ق: ٢٢،٣٤]، أراد به السطان.

وأما الأمّة فتطلق على ثمانية أوجه: الأمة: الجماعة. كقوله تعالى: ﴿وَيَهَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النّاسِ يَسْقُوكِ ﴾ [القَصَص: ٢٣]، وأتباع الأنبياء كقولك عن أمة محمد ﷺ ورجل جامع للخبر يقتدى به كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِنْرَهِبِهَ كَاكَ أُمَّةً فَانِتَا لِللّهِ [النّحل: ١٢٠]، والأمة: الدين. كقوله عزّ وجلٌ ﴿إِنَّ وَجَدَنَا عَلَى أُمَّةً ﴾ [الزّخوف: ٢٧]، والأمة: العين والزمان. كقوله عزّ وجلٌ: ﴿إِنَّ أَمَّةً مَعْدُودَةٍ [مُود: ٨]، وقوله عزّ وجلٌ: ﴿إِنَّ أُمَّةً مَعْدُودَةٍ [مُود: ٨]، وقوله عزّ وجلٌ: ﴿وَادَّكُرَ بَهْدَ أُمَّةٍ ﴾ [الرّحة أي القامة. والأمة: القامة. يقال: فلان حسن الأمة أي القامة. وأمة: رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد قال ﷺ: ﴿يَبْعَتُ زَيْدُ بُنُ عَمْرِو بُنِ نُقَيْلٍ أُمّةً وَحُدَهُ اللّهِ والأمة: الأم، يقال: هذه أمة زيد أي أم زيد.

⁽۱) حديث: اليبعث زيد بن همرو بن نفيل أمة وَحُدَهُ، أخرحه النسائي في الكبرى من حديث زيد بن حارثة، وأسماء بنت أبي بكر بإسنادين جيدين.

إحياء عُلُوم الدّين

والروح أيضاً ورد في القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها. وكذلك قد يقع الإبهام في الحروف مثل قوله عز وجلّ: ﴿ قَائَرَنَ بِهِ. نَتَمَا ﴿ فَرَسَطَنَ بِهِ جَمّا ﴿ إِللهَا عَن الإَعَامُ وَلَا الْحَروفُ مثل قوله عز وجلّ: ﴿ قَائَرَنَ بِهِ. نَتَمَا أَلُ وَاللّهُ وَالثّانِيةُ: كناية عن الإَعَارة وهي الموريات أي أثرن بالحوافر نقعاً، والثانية: كناية عن الإَعَارة وهي المغيرات صبحاً، فوسطن به جمعاً جمع المشركون فأغاروا بجمعهم. وقوله تعالى: ﴿ فَأَرْلُنَا بِهِ اللّهُ وَالْعَرَافُ: ٧٥]، يعني الماء. وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر.

ومنها: التدريج في البيان كقوله عزّ وجلّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيُّ أُسْرِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار، وبان بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَمَرُكَهُ فِي لَيْلَةٍ تُبَدِّرُكَةٍ﴾ (الدَّخَان: ٣)، ولم يظهر به أي ليلة فظهر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَمْزَلْنَتُهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْمَدَّدِ ۞﴾ [القدر: ١]، وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات، فهذا وأمثاله مما لا يغني فيه إلا النقل والسماع، فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب، فكان مشتملاً على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير، ليكون ذلك مفحماً لهم ومعجزاً في حقهم. فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه، مثل: أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه، فإذا سمعه في موضع آخر مال برأيه إلى ما سمعه من مشهور معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه، فهذا ما يمكن أنَّ يكون منهياً عنه دون التفهم لأسرار المعاني ـ كما سبق ـ فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ، ولا يكفي ذلك في فهم حقائق المعاني. ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال: وهو أن الله عزّ وجلّ قال: ﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِحَ ٱللَّهَ رَمَيٌّ﴾ [الانفال: ١٧]، فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامض، فإنه إثبات للرمي ونفي له، وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يوم من وجه، ومن الوجه الذَّي لم يوم رماه الله عزَّ وجلَّ. وكذلك قال تعالى: ﴿ قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ أَلَهُ إِلَّتِيكُمْ [التَّوَلَة: ١٤]، فَإِذَا كَانُوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب؟ وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال؟ فحقيقة هذا يستمدّ من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة، ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عزّ وجلّ حتى ينكشف ـ بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة ـ صدق قوله عزَّ وجلُّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنِكِحَ ٱللَّهَ رَبَّنُ﴾ [الأنفَّال: ١٧] ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدَّماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء جميع لواحقه، وما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك. وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره يقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حدٌّ في الترقي إلى درجة أعلى منه. فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً، فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتنفد الأبحر قبل أن تَنفد كلمات الله عزّ وجلّ. فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التِفسير وظاهر التفسير لا يغنِي عنه. ومثاله: فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده: ﴿ أَهُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَغُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَهُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُخصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ (١)، أنه قيل له: اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض، فإنّ الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقال: «أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»، ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فأثنى بقوله: ﴿لا أُحْصِي ثُنَاءَ عَلَيْكَ» ثم علم أن ذلك قصور فقال: «أَنْتَ كَمَا أَنْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»، فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب، ثم لها أغوار وراه هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به، وأسرار ذلك كثيرة، ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضاً لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره، فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم.

تم كتاب آداب التلاوة والحمد شرب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأذكار والدعوات والله المستعان لا رب سواه



⁽١) حديث: قوله ﷺ في سجوده: أعوذ برضاك من سخطك وأهوذ بمعافاتك من عقوبتك. . . ؟ الحديث، أخرجه مسلم من حديث عائشة.

﴿ كتاب الأذكار والدعوات



بِنْ اللَّهِ النَّالِي الرَّجَيْدِ

الحمد لله الشاملة رأفته العامة رحمته الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكره، فقال تعالى: ﴿فَاذَرُونِ الْحَمْدِ لَلَهُ وَالْمَعْدِ اللّهُ السَّوَالُ والدعاء بأمره فقال: ﴿أَدْعُونِ آَسْتَجِبُ لَكُو ﴾ [قام: ١٠]، فأطمع المطيع والعاصي والداني والقاصي في الانبساط إلى حضرة جلاله برفع الحاجات والأماني بقوله: ﴿فَإِنِي السَّعِبُ دَعُوهُ النَّمَانِ بقوله: ﴿فَإِنِ السَّعَالَ اللّهُ وَاصْحَابُهُ وَعَلَى اللهُ وأصحابه خَيرة أصفيائه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فليس بعد تلاوة كتاب الله عزّ وجلّ عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى. فلا بدّ من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار. وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والمدنيا والمدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها.

ويتحرّر المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة.

الباب الأول: في فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلاً.

الباب الثاني: في فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ.

الباب الثالث: في أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها.

الباب الرابع: في أدعية منتخبة محذوفة الإسناد من الأدعية المأثورة.

الباب المخامس: في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث.

接接搬

الباب الأول

في فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَذَّرُونَ آذَكُرُمُ ﴾ [النقرّة: ١٥٧]، قال ثابت البناني رحمه الله: إني أعلم متى يذكرني ربي عزّ وجلّ، ففزعوا منه وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني. وقال تعالى: ﴿ وَأَذَكُرُواْ اللّهَ دِكْرًا كَتِبِرًا ﴾ [الاحرّاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَكُرُواْ اللّهَ مِنْ الْحَرَاةِ وَأَذْكُرُهُ أَلَا مَنْ اللّهُ عَرَفَت فَادَكُرُوا اللّهَ عِندَ النّسَع الْحَرَاةِ وَأَذْكُرُهُ أَلَا مَنْ اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَكُوا اللّهُ وَلَا جُنُوبِهِم ﴾ [آل عمرَان: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿ وَاللّهُ وَلِنَا وَقُنُودًا وَعَلَي جُنُوبِهِم ﴾ [آل عمرَان: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿ وَاللّهُ عَنهما: أَي السّلَوَة قَاذَكُرُوا اللّه عنهما: أي

بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية. وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿وَلَا يَدَكُرُونَ اللّهَ إِلّا فَلِيلاً﴾ [النّساء: ١٤٧]، وقال عزّ وجلّ : ﴿وَاذَكُر رَّيَكَ فِي نَعْالَى في ذم المنافقين: ﴿وَلَا يَدَكُرُونَ اللّهَ إِلاّ فَلِيلاً﴾ [النّساء: ١٤٧]، وقال عزّ وجلّ وَدُونَ النّبَهِ مِن اللّهَ عَنْهما: الله عنهما: له وجهان: أحدهما: أن تعالى: ﴿وَلَذِكُرُ اللهِ عَنْهما: له وجهان: أحدهما: أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه، والأخر: أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله على : «ذَاكِرُ اللّهِ فِي الْقَافِلِينَ كَالشَّجَرَةِ فِي وَسَطِ الْهَشِيمِ» ('' وقال عَلَى: «فَاكِرُ اللّهِ فِي الْمَافِلِينَ كَالمُقَاتِلِ بِينَ الْفَارِينَ»، وقال عَلى: «يَقُولُ اللّهُ عَرَّ وَجَلَّ: أَنَا مَعَ عَبْدِي ما ذَكَرَنِي وَنَحَرَّكَتْ شَفْقَاهُ بِي ('' ، وقال عَلى: «ما عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلِ أَنْجَىٰ لَهُ مِنْ عَلَابِ اللّهِ عَرَّ وَجَلَّ » قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَلا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللّهِ إِلا أَنْ تَضْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثُمَّ تَضْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ » ثُمَّ تَضْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثُمَّ تَضْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثُمَّ تَصْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثَمَّ تَصْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثُمَّ تَصْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثَمَّ تَصْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثُمَّ تَصْرِبَ بِهِ حَتَىٰ يَنْقَطِعَ ، ثَمَّ تَصْرُبَ بِقِعْ مِي رِيَاصُ الْجَنِهِ قَلْ يَعْلَى اللّهِ مَلْ وَمَلُ اللّهِ مُنْ إِنْكُولُ اللّهِ تُعْلِي فِي وَالْسُ وَمِنْ إِعْطَاءِ الْمَالِ سَحًا » ('') ، وقال عَلى: «أَنْ اللّهُ تَبَارَكَ وَنَعَالَىٰ: إِذَا فَكَرَنِي حَبْدِي فِي مِيسِلِ اللّهِ وَمِنْ إِعْطَاءِ المَالِ سَحًا اللّهُ وَمَنْ إِعْلَى اللّهُ مَنْ الْمُعْلِى اللّهِ وَمِنْ إِعْطَاءِ المَالِ سَحًا » ('') ، وقال عَلى: "يَقُولُ اللّهُ تَبَارَكَ وَنَعَالَىٰ: إِذَا فَكَرَنِي حَبْدِي فِي

كتاب الأذكار والدعوات الباب الأول:

في فضيلة الدكر

- (١) حديث: قاكر الله في الفاقلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم». أخرجه أبر تعيم في الحلية، والبيهقي في
 الشعب من حديث أبن عمر بسند ضعيف وقال: قفي وسط الشجرة الحديث.
- (٢) حديث: ايقول الله تعالى: أنا مع هبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه. أخرجه البيهتي وابن حيان من حديث أبي
 هريرة، والحاكم من حديث أبي الدرداء وقال: صحيح الإسناد.
- (٣) حديث: «ما همل ابن آدم من عمل أنجى له من علماب الله من ذكر الله قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال (ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ـ ثلاث مرات ـ اخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني من حديث معاذ بإسناد حسن.
- (٤) حديث: همن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف، ورواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس، وهو عند الترمذي بلفظ: "إذا مررتم برياض الجنة فارتموا» وقد تقدم في الباب الثالث من العلم.
- حديث: استل أي الأعمال أفضل؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى، أخرجه ابن حبان والطبرائي في
 المناء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ.
- (*) حديث: «أمس وأصبح ولسائك رطب بذكر الله تصبح وتمسي وليس هليك خطيثة». أخرجه أبو القاسم الأصبهائي في
 الترفيب والترهيب من حديث أنس: «من أصبح وأمسى ولسائه رطب من ذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيثة»
 وفيه من لا يعرف.
- (١) حديث: الذكر الله بالغداة والعشي أفضل من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء الممال سحاً. رويناه من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل، وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبدالبر في التمهيد.

نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِذَا ذَكَرَنِي فِي مَلاْ ذَكَرْتُهُ فِي مَلاْ خَيْرِ مِنْ مَلَئِهِ، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ وَامَا وَإِذَا مَشَىٰ إِلَيْ هَرْوَلْتُ إِلَيْهِ، () يعني بالهرولة سرعة الإجابة. وقال ﷺ: قَسْبُعة يُظِلَّهُمُ اللَّهُ عَزْ وَجَلَّ فِي ظِلَّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلَّهُ وَمَا يَهُمُ مِنْ اللَّهُ عَرْ وَجَلَّ فِي ظِلَّهِ يَوْمَ لا ظِلْ إِلاَّ ظِلَّهُ مِن جملتهم م رَجُلْ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيا فَهَاصَتُ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْتِةِ اللَّهِ، ('')، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: ﴿ اللّهُ أَنْهِ يُحْمُ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِها فِي دَرْجَاتِكُمْ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ إِصْطَاءِ الوَرِقِ وَالذَّمَبِ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ أَنْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِها فِي دَرْجَاتِكُمْ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ إِصْطَاءِ الوَرِقِ وَالذَّمَبِ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ أَنْ وَالْمَائِلِيَ وَاللَّهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلْ اللهِ عَلَى اللهُ عَلَّ وَجَلَّ اللّهِ عَرْ وَجَلَّ اللّهِ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّ وَجَلّ اللّهِ عَلْ وَجَلًى اللّهِ عَلْ وَجَلًى اللّهُ عَلْ وَاللّهُ عَلْ وَعَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلْ وَاللّهُ عَلَى اللّهُ عَلْ وَاللّهُ اللّهُ عَلْ وَجَلّ اللّهُ عَلْ وَجَلًى اللّهُ عَلْ وَجَلًى اللّهِ عَلْ وَاللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ وَاللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ وَجَلّ اللّهُ عَلْ وَاللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ وَعَلْ اللّهُ عَلْ اللّهُ اللّهُ عَلْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ اللّهُ اللّهُ عَلْ اللّهُ عَلْ الللهُ اللّهُ عَلْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ عَلْ الللللّهُ عَلْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللللّهُ الللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللللّهُ الللللللّهُ الللللللّ

وأما الآثار: فقد قال الفضيل: بلغنا أن الله عزّ وجلّ قال: يا عبدي، اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما. وقال بعض العلماء: إن الله عزّ وجلّ: يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه، وقال الحسن: الذكر ذكران: ذكر الله عزّ وجلّ بين نفسك وبين الله عزّ وجلّ ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عندما حرم الله عزّ وجلّ. ويروى: «إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشي إلا ذاكر الله عزّ وجلّ». وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها، والله تعالى أعلم.

فضيلة مجالس الذكر:

قال رسول الله ﷺ: «ما جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِساً يَذْكُرُونَ اللّهَ عَرٌّ وَجَلَّ إِلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ المَلائِكَةُ وَغَشِيتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَمَالَىٰ فِيمَنْ عِنْدَهُهُ () وقال ﷺ: •ما مِنْ قَوْمٍ الْجَنْمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ لا يُرِيدُونَ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَمَالَىٰ فِيمِ السَّمَاءِ: قُومُوا مَغْفُوراً لَكُمْ قَدْ بُكْلِثُ لَكُمْ سَيّئَاتُكُمْ حَسَناتٍ () ، وقال أيضاً ﷺ إلا كَانَ أَيْسِ قَوْمٌ مَقْعَداً لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَىٰ النَّبِي ﷺ إلا كَانَ أَيضاً ﷺ

 ⁽١) حديث: «قال الله عز وجل: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي. . . ٤ الحديث، متفق عليه من حديث أبي
 هريرة.

 ⁽۲) حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ من جملتهم ـ رجل ذكر الله خالياً ففاضت عبناه عنف عليه من حديث أبي هريرة أيضاً.

 ⁽٣) حديث: «ألا أنبثكم بخير أهمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم. . . الحديث . أخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه وصحح إساده من حديث أبي الدرداء .

⁽٤) حديث: «قال الله تعالى: من شعله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين؟ أخرجه البخاري في التاريخ، والبزار في المسئد، والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب، وفيه صفوان بن أبي الصفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً.

حدیث: ‹ما جلس قوم مجلساً یذکرون الله تمالی إلا حقت بهم الملائکة و شیتهم الرحمة و ذکرهم الله فیمن عنده أخرجه مسلم من حدیث أبي هریرة.

 ⁽٩) حديث: اما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء: قوموا مغفوراً لكم قد بدلث سيئاتكم حسنات أخرجه أحمد وأنو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس.

عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمُ القِيَامَةِ»(١٠) وقال داود ﷺ: ﴿ إِلهِي إِذَا رأيتني أَجاوِز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغاقلين فاكسر رجلي دونهم فإنها نعمة تنعم بها عليَّه. وقال ﷺ: ﴿الْمَجْلِسُ الْصَّالِحُ يُكَفِّرُ عَن المُؤْمِن الْغَيْ الْفِ مَجْلِسِ مِنْ مَجَالِسِ السُّوءِ»(٢) وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أهل السماء ليتراؤون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم. وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنياء فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون؟ فتقول الدنيا: دعهم فإنهم إذا تفرّقوا أخذت بأعناقهم إليك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه دحل السوق وقال: أراكم ههنا وميراث رسول الله ﷺ بقسم في المسجد؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثاً، فقالوا: يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد؟ قال: فماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا قوماً يذكرون الله عزٌ وحلّ ويقرؤون القرآن، قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ وروى الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ لِلَّهِ عَزُّ وَجَلَّ مَلاتِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضُ فَضَلاً عَنْ كُتَابِ النَّاسُ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْماً يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَنَادَوْا: هَلُمُوا يُغْيَتَكُمْ فَيَجِيثُونَ فَيْحُفُّونَ بِهِمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَمَالَىٰ: أَيُّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ هِبَادِي يَصْنَعُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ ۚ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيُسَبِّحُونَكَ. فَيَقُولُ اللَّهُ تُبَارَكَ وَنَعَالَىٰ: وَهَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لا، فَيَقُولُ جَلَّ جلالُهُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدُ تَسْبِيحاً وَتَحْمِيداً وَتَمْجِيداً. فَيَقُولُ لِلهُمْ: مِنْ أَيّ شَيْءٍ يَتَعَوَّذُونَ؟ فَيَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. فَيَقُولُ تَمَالَىٰ: وَهَلُ رَأُوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلًّ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدُّ هَرَباً مِنْها وَأَشَدُّ نُفُوراً. فَيَقُولُ اللَّهُ حَزٌّ وَجَلَّ: وَأَيْ شَيْءٍ يَطْلُيُونَ؟ فَيَقُولُونَ : الجَنَّةَ . فَيَقُولُ تَمَالَىٰ : وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ : لا . فَيَقُولُ تَمَالَىٰ : فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَو رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدٌ عَلَيْهَا حِرْصاً. فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ: إِنِّي أَشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. فَيَقُولُونَ : كَانَ فِيهِمْ فُلانٌ لَمْ يُرِدْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَىٰ جَلِيسُهُمُّا⁽¹⁾.

فضيلة التهليل:

قال ﷺ: ﴿أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِئُونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَخْلَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَال ﷺ: •مَنْ قَالَ لَا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحَلَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كُلُّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ

 ⁽١) حديث: (ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله ولم يصلوا على النبي ﷺ فيه إلا كان عليهم حسوة يوم القيامة، أخرجه
الترمذي وحسته من حديث أبى هريرة.

حليث: «المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي مجلس من مجالس السوه» دكره صاحب الفردوس من حديث ابن
 وداعة وهو مرسل ولم يخرجه ولده وكذلك لم أجد له إسناداً.

 ⁽٣) حديث أبي هريرة: «أنه دحل السوق وقال: أراكم ههنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد! فذهب الناس إلى
 المسجد وتركوا السوق. . . » الحديث. أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع.

⁽٤) حديث الأحمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري عنه ﷺ أنه قال: فإن أله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض قضلاً عن كتاب الناس. . . 1 الحديث. رواه الترمذي من هذا الوجه، والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة وحده، وقد تقدم في الباب الثالث من العلم.

⁽a) حديث: «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله. . . ع الحديث. تقدم في الباب الناني من الحج.

كَانَتْ لَهُ عِدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِاقَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِبَتْ عَنْهُ مِاقَةُ سَيْئَةِ، وَكَانَتْ لَهُ حِزْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَٰلِكَ حَتْىٰ يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ مِأْفَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا اللهِ عَنْ مَبْدِ تَوَضَّا فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحُشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ وَلا فِي نُشُورِهِمْ كَأْنِي ٱنْظُرُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الصَّيْحَةِ يَنْفُضُونَ وَنَى الشَّمَاءِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْشَةٌ فِي قُبُورِهِمْ وَلا فِي نُشُورِهِمْ كَأْنِي ٱنْظُرُ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الصَّيْحَةِ يَنْفُضُونَ وَلَى السَّمَاءِ مَنْ التَّرَابِ وَيَقُولُونَ: الحَمْدُ لِلْهِ الْذِي أَذْهَبَ عَنَا الْحَرَنَ إِنَّ رَبِّنا لَغَفُورَ شَكُورَهُ أَنْ وَقال عَلَى الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى السَّيْعِ عِنْدَ الصَّيْحَةِ يَنْفُضُونَ السَّيْعُ وَاللَّهُ وَصُعْمَ فِي مِيزَانِ وَ لَا إِللهُ اللهُ اللهُ وَرَبَعَ مِن ذَلِكَ اللهِ اللهُ الْمُوتِ السَّيْعُ وَالأَرْضُونَ السَّيْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّيْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّيْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّيْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّيْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّيْعِ وَالْمُ وَلَى اللهُ اللهُ وَلَا عَلَى اللهُ اللهُ وَالْمَالُولَ اللهُ وَمُ اللهُ وَلَى اللهُ وَاللهُ وَلَى اللهُ وَلَى اللهُ اللهُ اللهُ وَلَى اللهُ وَلَهُ وَلَى اللهُ وَلَى اللهُ اللهُ وَلَى اللهُ اللهُ وَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلْو وَاللهُ اللهُ اللهُ

 ⁽۱) حديث: امن قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ماثة مرة... >
 الحديث, متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حديث: قما من عبد توضأ فأحسن الوضوء ثم رقع طرقه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله... الحديث.
 أخرجه من حديث عقبة بن عامر، وقد تقدم في الطهارة.

 ⁽٣) حديث: اليس على أهل لا إله إلا ألله وحشة في تبورهم ولا في النشور. .> الحديث. أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن همر بسند ضعيف.

٤) حديث: ايا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إنه إلا الله فإنها لا توضع في ميزان؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كان لا إله إلا الله أرجع من ذلك؛.

قلت وصية أبي هريرة هذه موضوعة. وآخر الحديث رواه المستغفري في الدعوات: قولو جعلت لا إله إلا الله وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله وواه النسائي في اليوم والليلة، وابن حبان والحاكم وصححه.

⁽a) حديث: «لو جاء حامل لا إله إلا الله صادقاً بقراب الأرض ذنوباً لغفر الله له» غريب بهذا اللفظ. وللترمدي في حديث لأنس: «يقول الله يا ابن آدم إنك لو أتبتني بقراب الأرض خطابا ثم لقينني لا تشرك بي شيئاً لأتبتك بقرابها مغفرة» ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أس: «يا رب ما جزاه من هلل مخلصاً من قلبه؟ قال: جزاؤه أن يكون كيوم ولئته أمه من اللفوب» وفيه انقطاع.

⁽٦) حديث: ايا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب. . .٤ الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق ابن المقري من حديث أبي هريرة، وفيه موسى بن وردان مختلف فيه، ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف، ورواه ابن أبي الدنيا في المختصرين من حديث الحسن مرسلاً.

 ⁽٧) حديث: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل اللجنة» أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

 ⁽A) حديث: (لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبي وشرد على الله شرود البعير على أهله) أخرجه المخاري من حديث أبى=

كلمة التوحيد، وهي كلمة الإخلاص، وهي كلمة التقوى، وهي الكلمة الطيبة، وهي دعوة الحق، وهي العروة الوثقى، وهي ثمن المجتة، وقال الله عز وجل: ﴿ هَلَ جَرَاءُ ٱلإِحْسَنُ اللهِ آلَا آلِا اللهُ وَقَي الآخرة الجنة، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن اَحْسَنُوا اللهُ وَقَيلَ اللهُ وَحَدَهُ لا اللهُ وَعَدا اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ الْحَسْنُ وَرَيادَةً ﴾ ايُونس: ٢٦] وروى البراء بن عازب أنه على قال: همَن قَالَ لا إِلهَ إِلاَ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ وَهُ المَعْدُ وَهُو عَلَىٰ كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ _ عَشْرَ مَوْاتٍ _ كَانَتْ لَهُ عَلِيلٌ رَقَيْهِ أو قال: نَسَمَةً اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُو عَلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَمْ يَسْفِقُهُ أَحَدُ كَانَ قَبْلَهُ وَلا اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيثُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَمْ يَسْفِقُهُ أَحَدُ كَانَ قَبْلَهُ اللهُ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ لَتُ اللهُ اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيثُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلُ شَيْءٍ قَدِيرٌ كَتَبَ اللهُ لَهُ ٱللهُ اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ لَا اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ إِللهُ إِلاَ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ لَهُ اللهُ إِللهُ إِللهُ إِللهُ اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ اللهُ وَالا إِللهُ إِللهُ اللهُ اللهُ وَالمَعْمُ لِلهُ وَلا إِللهُ إِللهُ اللهُ وَالمَعْمُ لِلْهِ وَلا إِللهُ وَلا إِللهُ إِللهُ اللهُ وَالمَعْمُ لَلْهُ وَالمَلْكُ وَلَهُ المَدُهُ وَلا إِللهُ وَلا إِللهُ وَلا أَلْهُ وَالمَلْكُ وَلا إِللهُ وَلا إِللهُ وَلا أَلْهُ وَاللهُ وَالمُ اللهُ وَالمَدُهُ لَهُ وَلا إِلهُ إِللهُ اللهُ وَالمَهُ وَلا إِلهُ إِلهُ إِلهُ إِلهُ اللهُ وَالمَعْمُ لَهُ وَلا إِلهُ وَلا إِلهُ إِلهُ إِلهُ اللهُ وَالمَلْهُ وَالمَعْمُ لِلْهُ وَلا إِلهُ وَلا إِلهُ إِلهُ إِله

⁼ هريرة. «كل أمتي بدخلون البعنة إلا من أبى ازاد الحاكم وصححها ووشرد على الله شرود البعبر على أهله». قال البخاري: اقالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل البعنة ومن عصائي فقد أبى و ولابى عدي وأبي يعلى والعلبراني في الدعاء من حديث: «أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها وفيه ابن وردان أيصاً ولأبي الشبخ في الثواب من حديث الحكم بن عمير الشمالي مرسلاً: «إذا قلت: لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد . . » الحديث والحكم ضعيف ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل من حديث ابن مسعود في إجابة المؤذن «اللهم رب هذه الدعوة المجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص» ولابن عدي من حديث ابن عمر في إجابة المؤذن «دعوة الحق وللطبراني في الدعاء عن عبدالله بن عمرو: «كلمة الإخلاص لا إله إلا الله . . . » الحديث وللطبراني من حديث سلمة بن الأكوع: «والزمهم كلمة التقوى قال: لا إله إلا الله وللطبراني في الدعاء عن ابن عباس: «كلمة طببة قال: شهادة أن لا إله إلا الله ولا بن عدي والمستغفري من حديث أنس المن البعة لا إله إلا الله ولا يصح شيء منها.

١١) حديث البراء: قمن قال لا إنه إلا الله وحلم لا شريك له. . . ؟ الحديث. أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وهو في مسند أحمد دون قوله: قصر مواته.

 ⁽٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جله: الله بين قال: من قال في كل يوم ماثة مرة: لا إله إلا الله وحله لا شريك
 له . . . ١ الحديث . أخرجه أحمد بلفظ: اماثة اوكذا رواه الحاكم في المستدرك وإستاده جيد، وهكذا هو في بعض نسخ الإحياء .

 ⁽٣) حديث: فإن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت إلى صحيفته فلا تمر هلى خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إليها، أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف.

حدیث أبي أیوب: امن قال لا إله إلا الله وحده لا شریك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدیر عشر مرات
 كان كمن أحتى أوبعة أنفس من ولد إسماهيل، منفق عليه.

اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةً إِلاَّ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي غُفِرَ لَهُ، أَوْ دَعا اسْتُجِيبَ لَهُ، فِإِنْ تَوَضَّا وَصَلَّىٰ قُبِلَتْ صَلاتُهُ (١٠).

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار:

قال ﷺ: «مَنْ سَبِّحَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةِ ثَلاثًا وَثَلابِينَ وَحَمِدَ ثَلاثًا وَثَلابِينَ وَكَبُرَ ثَلاثًا وَثَلابِينَ وَخَتَمَ الْمِائَةُ مِثْلُ أَنْ الْمُلْكُ وَلَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْمُلُكُ وَلَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ عَلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ قُلِيرٌ خُفِرَتُ فَفُوبُهُ وَلَوْ كَانَتُ مِثْلُ زَبَدِ البَحْرِه (٢) وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي الْيَوْمِ مِاثَةً مَرَّةٍ خُطْتُ عَنْهُ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلُ زَبَدَ البَحْرِه (٣) وروي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي فقال رسول الله ﷺ: «فَأَيْنَ أَنْتُ مِنْ صَلاةِ المُمَلِّبِكَةِ وَتَسْبِيحِ الْخَلابِقِ وَبِها يُزَوْقُونَ ؟ قال: فقلت: الفَيْعِ وَمِاذَا يا رسول الله ؟ قال: «فَلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَيحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْمُعْلِيمِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِأْ وَجَلَّ مِنْ كُلُّ كَلِيمٍ مَا لِينَ طُلُوعِ وَمَاذَا يا رسول الله ؟ قال: «فَلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَيحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْمُعْلِيمِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهُ مِأْ وَجَلُّ مِنْ كُلُّ كَلِيمٍ مَا لَيْنَ السَّمَاءِ اللَّهُ عَلَّ وَمِلْمُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ اللَّهِ وَلَاكُمْ أَنْ أَنْ تُصَلِّي الْمُوعِ وَقَال: الحَمْدُ لِلَهِ الثَّاتِيةَ مَلاَتُ ما بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى الأَرْضِ السُفْلَى، فَإِذَا قَالَ: الحَمْدُ لِلَهِ الثَّالِيةَ وَلَكُمْ اللهُ وَلَمْ اللهُ وَلَا عَلَى اللهُ وَسُلُمُ وَاللهُ وَلَمْ عَلَى اللهُ وَالْمُ اللهُ وَلَا عَلَى اللهُ وَالْحَمْدُ لِلْهِ وَالْمُ أَلَّ وَالْمُ اللهُ وَالْحَمْدُ لِلْهِ وَاللّهُ وَاللّهُ وَالْمُ اللهُ وَالْحَمْدُ لِلْهِ وَاللّهُ الللهُ

 ⁽¹⁾ حديث عبادة بن الصامت: امن تعار من الليل فقال: لا إنه إلا الله. . . ١ الحديث. رواه البخاري.

 ⁽٢) حديث: امن سبِّح دير كل صلاة ثلاثاً وثلاثين . . . ٤ الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

 ⁽٣) حديث: (من قال سبحان الله وبحمله مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» متفق عليه من حديث أبي
 هريرة.

ا) حديث: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: تولت عني الدنيا وقلت ذات بدي، فقال رسول الله ﷺ: «فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون...» الحديث. أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث ابن عمر، وقال: غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلاً في حديث مالك. ولأحمد من حديث عبدالله بن عمرو: «أن نوحاً قال لابنه: آمرك بلا إله إلا الله...» الحديث. قال: «وسبحان الله ويحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وإسناده صحيح.

حديث: ﴿إِمَّا قَالَ العبد: الحمد شه ملأت ما بين السماء والأرض، وإذا قال: الحمد شه الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض، وإذا قال: الحمد لله الثالثة قال الله تعالى: سل تعطه غريب بهذا اللفظ لم أجده.

 ⁽٦) حديث رفاعة الزرقي: «كنا يوماً نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركوع وقال: سمع الله لمن حمده قال
 رجل وراءه: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. . . » الحديث، رواه البخاري.

⁽٧) حديث: «الباقيات الصالحات هن لا إنه إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله أخرجه النسائي في اليوم والليلة، وابن حيان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والنسائي والحاكم من حديث أبي هربرة دولا حول ولا قوة إلا بالله».

لِلَّهِ وَلا حَوْلَ وَلا تُحَوَّةً إِلاَّ بِاللَّهِ إِلاَّ خَفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبِّدِ البَحْرِ» (') رواه ابن عمر، وروى النعمان بن بشير عنه ﷺ أنه قال: «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ مِنْ جَلالِ اللَّهِ وَتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ يَتْعَطِفْنَ خُولَ العَرْشِ لَهُنْ دَوِيًّ كَذُويُ النَّحْلِ يُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَوْلا يُحِبُّ أَحَدُّكُمْ أَنْ لا يَزَالُ هِنْدَ اللَّهِ ما يُذَكُرُ بِهِا عِبْهِ " وروى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «لأن أقولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُ إِلَى مِنْ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُ النَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُ النَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ وَالمَعْمُ وَلا إِللَّهِ وَاللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ النَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ إِللَّهُ وَلا إِلْهَ إِلاَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلْهَ إِلاَ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَلا إِلَى اللَّهُ عَالَىٰ أَرْبَعَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبُرُ لا يَضُرُّكَ بَاللَّهِ فَلا إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ أَرْبَعْ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلْهَ إِلاَ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لا يَضُرُكَ بَأَيْهِنَّ بَدَأْتُ " (واه سمرة بن جندب.

وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله على كان يقول: «الطُهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالحَمْدُ لِلّهِ تَمَلاُ المِيرَانَ وَسُبْحَانَ اللّهِ والله أكبر يَمْلاَنِ ما بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانَ وَالصَّيْرُ ضِيَاءٌ وَالقُرْآنُ حُجَّةً لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النّاسِ يَمْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُوبِقُها أَوْ مُشْتِر نَفْسَهُ فَمُعْنِفُها وَ وَقَالَ أَبُو هريرة: قال رسول الله على النّه العَظِيم (١٠). وقال أبو هريرة قال رسول الله عنه، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحُمْنِ: سُبْحَانَ اللّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللّهِ العَظِيم (١٠). وقال أبو ذر رضي الله عنه، قلت لرسول الله على: "ما اصْطَفَى اللّه سُبْحَانَ اللّهِ العَظِيم (١٠)، وقال أبو هريرة قال رسول الله شَيْدَ: "إِنَّ لِللّهُ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللّهِ وَالحَمْدُ لِلّهِ وَلا إِلْهَ إِلاَ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ أَكْبَرُه (١٠) فإذا قال الله وَالمَعْدَد الله وَالمَعْدَد الله وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ أَكْبَرُه (١٠) فإذا قال الله وَاللّهُ وَاللّهُ أَكْبَرُه (١٠) فإذا قال الله وَاللّه أَله وَاللّه وَاللّه أَله وَاللّه وَالل

⁽۱) حديث: «ما على الأرض رجل يقول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا فقرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحرة أخرجه الحاكم من حديث عبدالله بن عمرو وقال: صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة مختصراً دون قوله: «سيحان الله والحمد لله».

 ⁽۲) حديث النعمان بن بشير: «الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتمجيده وتهليله وتحميده بنعطف حول العرش له
 دوى كدوى النحل يُذكّرن بصاحبهن. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم.

⁽٣) حديث أبي هريرة: الأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه المشمس وزاد في رواية: اولا حول ولا قوة إلا بالله وقال: خير من الدنيا وما فيها، أخرجه مسلم باللفظ الأول وللمستغمري في الدعوات من رواية مالك بن دينار: (أن أبا أمامة قال للنبي على قلت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها، قال. أقت أغنم القوم، وهو مرسل جيد الإسناد.

⁽٤) حديث سمرة بن جندب. «أحب الكلام إلى الله أربع...» الحديث. رواه مسلم.

 ⁽٥) حديث أبي مالك الأشعري: «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تمالاً الميزان. . .) الحديث، رواه مسلم، وقد تقدم في
الطهارة.

 ⁽٦) حديث أبي هريرة: (كلمتان خفيفتان على اللسان. . ٤ الحديث. متفق عليه.

 ⁽٧) حديث أبي ذر: «أي الكلام أحب إلى الله قال: ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده سبحان الله المظيم الرواه مسلم، وأبو داود، والنسائي قوله: «مبحان الله العظيم».

⁽٨) حديث: «إن الله اصطفى من الكلام سيحان الله والحمد لله . . .» الحديث. أخرجه النسائي في اليوم واللبلة والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنهما قالا في ثواب الحمد لله : «كتبت له ثلاثون حسة وحطت عنه ثلاثون سيئة».

ذلك، ودكر إلى آخر الكلمات، وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللّهِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنِّةِ" وعن أبي ذرّ رضي الله عنه أنه قال: قال الفقراء لرسول الله ﷺ: ذهب أهل الدثور بالأحور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدّقون بفضول أموالهم فقال: "أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ ما تُصدّقُونَ بِهِ؟ إِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ تَسْبِحَةٍ صَدَقَةٌ وَتَحْمِيدةٍ صَدَقَةٌ وَتَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَتَكْمِيرةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَتَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَيَصَعُ أَحَدُكُم اللّقَمَةَ فِي فِي أَهْلِهِ صَدَقَةٌ وَتَكْمِيرةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَتَهْي عَنْ مُنْكُرٍ صَدَقَةٌ وَيَضَعُ أَحَدُكُم اللّقُمَةَ فِي فِي أَهْلِهِ فَهِي لَهُ صَدَقَةٌ. وَفِي بِضِع أَحَدِكُم صَدَقَةٌ». قالوا: يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال ﷺ: «أَرَائِتُمْ لَوْ وَضَعَها فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيها وِزْرٌ؟» قالوا: نعم. قال: "كَذْلِكَ إِنْ وَضَعَها فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ فِيها أَجْرً".

وقال أبو ذر رضي الله عنه: قلت لرسول الله ﷺ: سبق أهل الأمرال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق، فقال رسول الله ﷺ: «أَفَلا أَذَلُكَ صَلَىٰ صَمَلِ إِذَا أَنْتَ صَمِلْتِهُ أَذَرَكْتَ مَنْ قَبَلُكَ وَفَقْتَ مَنْ بَمُلَكَ إِلاْ مَنْ قَالَ مِثْلَ قَوْلِكَ؟ نُسَبِّحُ اللّه يَمْدَ كُلُّ صَلاَةٍ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَتَحْمَلُهُ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَتَحْمَلُهُ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَتَحْمَلُهُ ثَلاثاً وَثَلاثِينَ وَتُحَمِّدُ أَرْبَعا وَثَلاثِينَ وَاعْتَهْلِيلِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّهُ وَلَا عَلْ اللهِ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلا عَلْ الله وَلا الله الله وَلا الله وَلا الله وَالله الله وَلا الله وَلا عَلْ الله وَلا الله وَلا الله وَلا الله وَلا الله وَلا عَلْ الله وَلا الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلْ الله وَلا الله الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلْ الله الله وَلا الله الله وَلا الله الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلْ الله وَلا الله الله وَلا الله الله وَلا الله الله وَلا عَلْ الله الله وَلا الله الله وَلا الله الله الله وَلا الله الله وَلا عَلا الله وَلا الله الله وَلا عَلا الله الله وَلا عَلْ الله وَلا الله الله وَلا عَلا الله وَلا الله الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلا الله وَلا الله الله وَلا الله الله وَلا عَلا الله الله وَلا عَلْ الله وَلا عَلا الله الله الله وَلا عَلا الله الله وَلا عَلا الله الله وَلا عَلا الله ا

⁽١) حديث جابر: «من قال سبحان الله وبحمده فرست له نخلة في الجنة» أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وصححه.

⁽٢) 🛚 حليث أبي ذر: ﴿قال الفقراء لرسول الله ﷺ ذهب أهل النشور بالأجور يصلون كما نصلي. . . • الحديث. رواه مسلم .

⁽٣) حديث أبي ذر: «قلت لرسول الله ﷺ: سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا ننفق. . . » الحديث. رواه ابن ماجة إلا أنه قال: قال سفيان: لا أدري أبتهن أربع. ولأحمد في هذا الحديث: «وتحمد أربعاً وثلاثين» وإسنادهما جيد ولأبى الشيخ في الثواب من حديث أبى الدرداه: «وتكبر أربعاً وثلاثين» كما ذكر المصنف.

⁽٤) حديث بسرة: «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن واعقدن بالأنامل فإنها مستنطقات» أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم بإسناد جيد،

⁽٥) حديث ابن حمر: «رأيته ﷺ يعقد التسبيح». قلت: إنما هو عبدالله بن حمرو بن العاص كما رواه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه والحاكم.

 ⁽٦) حديث أبي هريرة وأبي سعيد: ﴿إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله صدق صبدي. . . ٤ الحديث . أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة، وابن ماجه، والحاكم وصححه.

 ⁽٧) حديث مصعب بن سعد عن أبيه: «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة. . . » الحديث . أخرجه مسلم إلا أنه
 قال: «أو يحط» كما ذكره المصنف وقال: حسن صحيح.

غَبْدَ اللّهِ بْنَ قَبْسِ ـ أَوْ يَا أَبَا مُوسَىٰ ـ أَوَلا أَذَلُكَ عَلَىٰ كَنْزِ مِن كُنُوزِ الْجَنْبِ؟ قال: بلى، قال: «قُلَ لا حَوْلَ وَلا قُوْةً إِلاَّ بِاللَّهِ (') وفي رواية أخرى: «أَلاَ أُصَلَّمُكَ كَلِمَةٌ مِنْ كُنْوِ تَحْتَ الْعَرْشِ: لا حَوْلَ وَلا قُوْةً إِلاَّ بِاللَّهِ وَقَال أَبُو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ أَذَلُكَ عَلَىٰ خَمَلٍ مِن كُنُوزِ الجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ: قَوْلُ لا حَوْلَ وَلا قُوّةً إِلاَّ بِاللَّهِ ، يَقُولُ اللّهُ تَعَالَىٰ: أَسَلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ ('') وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُضِيحُ رَضِيتُ بِاللّهِ رَبّاً وَبِالإِسْلامِ دِيناً وَبِالقُرْآنِ إِمَاماً وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِياً وَبِالإِسْلامِ دِيناً وَبِالقُرْآنِ إِمَاماً وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ وَقَال وَصَلَّى اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهِ أَنْ يُرْضِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ('') وفي رواية: «من قال ذلك رضي الله عنه وقال رَسُولاً كَانَ حَقالَ عَلَىٰ اللّهِ أَنْ يُرْضِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ('') وفي رواية: «من قال ذلك رضي الله عنه وقال محاله الله عنه الله على الله عنه الله الله الله عنه وقال: بسم الله ، قال الملك: هديت، فإذا قال: توكلت على الله ، قال الملك: كفيت، وإذا قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله ، قال الملك: وقيت، فتقرق عنه الشياطين فيقولون: ما تريدون من رجل قد هدي وكفي ووقي؟ لا سبيل لكم إليه .

فإن قلت: فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها? فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة. والقدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة: أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى. وفي الأخبار ما يدل عليه أيضاً أن وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاستغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى. بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية. وللذكر أوّل وآخر، فأوّله يوجب الأنس والحب ويصدر عنه، والمطلوب ذلك الأنس والحب، فإن المريد في بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عزّ وجلّ، فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور. ولا ينبغي أن يتعجب من عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر، غاباً غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر، ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أوّلاً صار مضطراً إلى كثرة الذكر آخراً بحيث لا يصبر عنه. فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، ومن أكثر ذكر شيء عنده نوب كان تكلفاً _ أحبه. فكذلك أوّل الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له، ثم وإن كان تكلفاً _ أحبه. فكذلك أوّل الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له، ثم يمتنع الصبر عنه آخراً فيصير الموجب موجباً والثمر مثمراً. وهذا معنى قول بعضهم: كابدت

حدیث: (یا عبدالله بن قیس .. أو یا آبا موسى .. ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى. قال: قل لا حول ولا قوة إلا بالله منفق عليه.

⁽٢) حديث أبي هريرة: «عمل من كنز المجنة ومن تحت العرش قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله: أسلم حبدي واستسلم الخرجه النسائي في اليوم والليلة، والحاكم: «من قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله قال: أسلم عبدي واستسلم وقال: صحيح الإسناد.

⁽٣) حديث: «من قال حين بصبح رضيت بالله رباً... » الحديث. أخرجه أبو داود، والنسائي في البوم واللبلة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث خادم النبي على ورواه الشرمذي من حديث ثوبان وحسنه، وفيه نظر ففيه سعد بن المرزبان ضعيف جداً.

 ⁽٤) حديث: «الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى» أخرجه الترمذي وقال: حسن، والحاكم وقال: حديث
مستقيم الإسناد من حديث أبى هريرة: «واطموا أن الله لا يقيل الدهاء من قلب لاه».

القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة. ولا يصدر التنعم إلا من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طعاً. فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أوّلاً ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه، فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف.

أي: ما كلفتها أوّلاً يصير لها طبعاً آخراً. ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله، وما سوى الله عزّ وجلّ هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر أهل ولاً مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عزّ وجلّ. فإن كان قد أنس به ثمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه؛ إذ ضرورات الحاجات في الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عزَّ وجلَّ، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلي بينه وبين محبوبه فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه عما به أنسه. ولذلك قال على: ﴿ إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَتَ فِي روعِي أَحْبِبْ مِن أَحْبَبْتَ قَإِنْكَ مُفَارِقُهُ (١٠٠٠. أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلَك يفنى في حقه بالموت فـ ﴿ كُلُّ مَنْ طَلِيَا قَانِ ۞ وَيَبْقَىٰ وَيَمْهُ رَبِّكَ ذُو لَلْمَلَلِ وَٱلْإِكْرَارِ ﴿ ﴾ [الرَّحمٰن: ٢٧،٧٦] وإنما تفني الدنيا بالموت في حقه إلى أن تفني في نفسها عند بلوغ الكتاب أجله. وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله عزَّ وجلُّ ويترقى من الذكر إلى اللقاء، وذلك بعد أن يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور. ولا ينكر بقاء ذكر الله عزَّ وجلَّ معه بعد الموت فيقول: إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عزَّ وجلُّ؟ فإنه لم يعدم عدماً يمنع الذكر بل عدماً من الدنيا وعالم الملك والشهادة لا من عالم الملكوت. وإلى ما ذكرناه الإشارة بقوله ﷺ: «القَبْرُ إِمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ»(٢) وبقوله ﷺ: «أَزْوَاحُ الشُّهَذَاءِ فِي حَوَاصِل طُيُورٍ خُضْرٍ " وبقوله على لقتلى بدر من المشركين: (يَا فُلانُ يَا فُلانُ - وقد سماهم النبي ﷺ - مَلْ وَجَدْتُمْ ما وَحَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ ما وَحَدَيْي رَبِّي حَقًّا (عُ)، فسمع عمر رضي الله عنه قوله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنَّى يجيبون وقد جيفوا؟ فقال ﷺ: ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِكَلامِي مِنْهُمْ وَلْكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا ٩ . والحديث في الصحيح. هذا قوله عليه السلام في المشركين، فأما المؤمنون والشهداء فقد قال ﷺ: ﴿أَرْوَاحُهُمْ فِي

 ⁽١) حديث: (إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مفارقه؛ تقدم في الكتاب السابع من العلم.

 ⁽٢) حديث: «القير إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة» أحرجه الترمذي من حديث أبي سعيد بتقديم وتأخير
 وقال: غريب. قلت: فيه عبيد الله بن الوليد الوصافي ضعيف.

⁽٣) حديث: «أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود: «أنه سئل عن هذه الآية ﴿ وَلَا لَحَسَبُمُ اللَّذِينَ اللَّهِ أَمْوَتُكُ إِلَّا صِمرَان: ١٩٦٩] الآية. قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر فلم يسم فيه النبي ﷺ وفي رواية الترمذي: «أما إنا سألنا عن ذلك فأخبرنا» وذكر صاحب مسند الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه في مسنده.

⁽٤) حديث: انداته لقتلى بدر من المشركين: يا فلان يا فلان ـ وقد سماهم ـ إني قد وجدت ما وعدني دبي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ أخرجه مسلم من حديث أنس.

كتاب الأذكار والدعوات

حَوَاصِل طُيُورِ خُضْرِ مُعَلِّقَةٍ تَحْتَ العَرْشِ (١٠) وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا ينافى ذكر الله عزّ وجَلّ. وتَّمال تعَّالى: ﴿وَلَا تَحْسَنَنَّ ٱلَّذِينَ فَيْلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱمْوَتَا كُلْ أَهْيَاكُ عِندَ رَبِهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ يِمَا ۚ ءَاتَنَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَصْلِهِۦ وَيُسْتَنْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بَهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ٱلَّا خَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا لَهُمْ بَحْزَنُوكَ ۖ ۖ ﴾ لآل عِمزان: ١٧٠٠١٦٩] الآية. ولأجل شرف ذكر الله عزّ وجلّ عظمت رتبة الشهادة، لأن المطلوب الخاتمة، ونعني بالخاتمة وداع الدنيا والقدوم على الله والقلب مستغرق بالله عزَّ وجلَّ منقطع العلائق عن غيره. فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقاً بالله عزّ وجلّ فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال، فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريدها لحياته، وقد هوّن على قلبه حبّاته في حب الله عزّ وجلّ وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك، ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيها من الفضائل ما لا يحصى. فمن ذلك أنه لما استشهد عبدالله بن عمرو الأنصاري يوم أُحُد قال رسول الله ﷺ لجابر: ﴿ أَلَا أَبُشُّرُكَ يَا جَابِرُ؟ قال: بلي بشرك الله بالخير. قال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحْيَا أَبَاكَ فَأَقْعَدَهُ بَينَ يَدَيْهِ وَلَيسَ بَينَهُ وَيَيِّنَهُ سِتْرٌ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: تَمَنَّ عَلَيْ يا عَبْدِي ما شِتْتَ أَعْطِيكُهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أَنْ تَرُدِّتِي إِلَىٰ الدُّنْيَا حَتْى أَقْتَلَ فِيكَ وَفِي نَبِيُكَ مَرَّةً أَلْحَرَىٰ. فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: سَبَقَ القَضَاءُ مِنِّي بِأَنْهُمْ إِلَيْهَا لا يَرْجِعُونَا (٢٠). ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة، فإنه لو لم يقتل وبقى مدّة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عزَّ وجلُّ؛ ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة، فإن القلب وإن ألزم ذكر الله عزَّ وجلَّ فهو متقلب لا يخلو عن الالتقات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تعتريه، فإذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا؛ وذلك لقلة حظه في الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه. فأسلم الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك(٢٠) ، كما ورد به الخبر بل حب الله عزّ وجلّ وإعلاء كلمته، فهذه الحالة هي التي عبر عنها ﴿إِنَّ ٱللَّهُ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْتُؤْمِينِ أَنْتُسَهُمْ وَأَمْوَلَهُمْ مِأْكَ لَهُمُ ٱلْجَنَّةً﴾ [التوبّة: ١١١] ومثل هذا الشخص هو البائع للدنيا بالآخرة. وحالة الشهيد توافق معنى قولك: «لا إله إلا الله» فإنه لا مقصود له سوى الله عزَّ وجلُّ وكل مقصود معبود وكل معبود إله، فهذا الشهيد قائل بلسان حاله: «لا إله إلا الله» إذ لا مقصود له سواه. ومن يقول

حديث: ﴿أَرُولُ الْمُؤْمَنِينَ فِي حَوَاصُلُ طَيُورُ خَضَرَ مَعَلَقَةً تَحَتَ الْعَرْشُ} أَخْرِجَهُ ابن ماجه من حديث كعب بن مالك: «أن أرواح المؤمنين في طير خضر تعلق بشجر الجنة» وروى النسائي بلفظ: «إنما نسمة المؤمن طائر» ورواه الترمذي بلفظ: «أرواح الشهداء» وقال: حسن صحيح.

حديث: «ألا أبشرك يا جابر؟ قال: بلى بشرك الله بالخير. قال: إن الله أحيا أباك وأقعده بين يديه وليس بينه وبيته ستر فقال تعالى: تمن على. . . ؛ الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه، والحاكم وصحع إسناده من حديث جابي.

حديث: «الرجل يقاتل لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك، متفق عليه من حديث أبي موسى قال. «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا نهو في سبيل الله.

ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن في حقه الخطر. ولذلك فضل رسول الله على الله إلا الله على سائر الأذكار (١) وذكر ذلك مطلقاً في مواضع الترغيب. ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والإخلاص، فقال مرة: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً» ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للمقال. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالاً ظاهراً وباطناً حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل متبرمين بها ومحبيل للقاء الله، فإن من أحب لقاء الله أقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. فهذه مرامز إلى معاني الذكر التي لا يمكن الزيادة عليها في علم المعاملة.

**

الباب الثاني

فضيلة الدعاء:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلُكَ عِبَادِى عَنِي قَانِ تَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةُ اللّهِ إِذَا دَعَانٌ الْبَسَنِيمُوا لِي المَعْرَةِ: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿ أَدْعُوا رَبُّكُمْ تَصَرُّعًا وَخُفِيةٌ إِنَّهُ لَا يُجِبُ الْمُعْدَدِي ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ اَدْعُونِ آسَتَجِبَ لَكُو إِنَّ اللّذِيكَ يَسْتَكُمُونَ عَن عِبَادَقِ سَيَدُخُلُونَ عَن عَبَادَقِ سَيَدُخُلُونَ عَن عِبَادَقِ سَيَدُخُلُونَ عَن عِبَادَقِ سَيَدُخُلُونَ عَن عِبَادَقِ سَيَدُخُلُونَ اللّهُ أَن اللّهُ عَنْ اللّهُ عَنْ النّبِي عِلَيْهِ أَنه قال : ﴿ وَوَى إِلْنعِمانَ بَن بَشِيرٍ عِن النّبِي عِلَيْهُ أَنه قال : ﴿ وَاللّهُ اللّهِ عَنْ النّبِي عَلَيْهُ أَنهُ قَال اللّهِ عَنْ اللّهِ عَنْ وَجَلُ مِنَ الدُّعَاءُ مُحْ العِبَادَةِ " " . اللّهِ عَنْ وَجَلُ مِنَ الدّعَاءُ مُحْ العِبَادَةِ " " . وقال عَنْ اللّهِ عَنْ وَجَلُ مِنَ الدُّعَاءُ أَنْ عَلَى اللّهِ عَنْ وَجَلُ مِنَ الدُّعَاءُ أَنْ وقال عَيْدَ يَعْجُلُ لَهُ ، وَإِمّا خَيْرٌ يُعَجُلُ لَهُ ، وَإِمّا خَيْرٌ يُعَجُلُ لَهُ ، وَإِمّا خَيْرٌ يُعَجُلُ لَهُ ، وَإِمّا خَيْرٌ يُعْجُلُ لَهُ ، وَإِمّا خَيْرٌ يُعْمُونُ لَهُ ، وَإِمّا خَيْرٌ يُعْجُلُ لَهُ ، وَإِمّا خَيْرٌ يُعْمُ لَهُ مُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّه

الباب الثاني

في آداب الدماء وفضله

 (۲) حديث النعمان بن بشير: «إن الدماء هو العبادة» أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمذي: حسن صحيح.

 حديث: «الدعاء مخ العبادة» أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال: غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهمة.

(٤) حديث أبي هريرة: اليس شيء أكرم عند الله من الدهاء، أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه وابن حبان
 والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽١) حديث: «تفضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار» أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه
 من حديث جابر،

لَهُهُ (١٠). وقال أنو ذر رضي الله عنه: يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح. وقال ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ تَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ أَنْ يُشْأَلَ، وَأَفْضَلُ العِبَادَةِ انْتِظَارُ الفَرَجِ (٢٠).

آداب الدعاء وهي عشرة:

الأول: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل. قال تعالى: ﴿وَيَالْأَسَّارِ ثُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ وَيَالْأَسَّارِ ثُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ وَيَالْأَسَارِ ثُمْ يَسْتَغْفِرُونَ فَلَ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ على اللهُ اللهُ اللهُ على اللهُ اللهُ على اللهُ اللهُ على اللهُ على اللهُ اللهُ على اللهُ اللهُ على اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ على اللهُ اللهُ على اللهُ على اللهُ اللهُ

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها. وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات. وقال في الله عنه الأعاء بين الأذان والإقامة لا يُرَدُه في وقال في أيضاً: «الصّائِمُ لا تُردُّ دَعْوَتُهُ في وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجلّ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها، وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة. قال أبو هريرة رضي الله عنه عنه الله عنه المؤرّوا فيه مِنَ الدُعَاءِ في الله عنه عنهما عن النبي في أنه قال: "إنّي نُهيتُ سَاجدٌ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُعَاءِ فيه بِالدُّعُ فَعَظّمُوا فِيهِ الرّبُ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا السَّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَانُهُ لَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ أَنْ الرّبُ وقال السَّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَانَّا الرَّكُوعُ فَعَظّمُوا فِيهِ الرّبُ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا السَّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَانُ الله بَعْهُمْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ أَنْ الرّبُوعُ فَعَظّمُوا فِيهِ الرّبُ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا السَّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَانَهُ اللهُ عَنْهُمَا وَلَمْ السَّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَانَ النَّهُ وَانَّا السَّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ بِالدُّعَاءِ فَانَ اللهُ عَنْهُ اللهُ المُعْتَعِابَ لَكُمْهُ أَنْ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَنْهُمَا اللهُ اللهُ اللهُ المُعلى اللهُ الل

⁽١) حديث: (إن العبد لا يخطئه من الدهاء إحدى ثلاث: إما ذنب ينفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث أس وفيه روح. أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عباش وكلاهما ضعيف. ولأحمد والبخاري في الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد: (إما أن تعجل له دهوته وإما أن يدخر له في الأخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها».

 ⁽٣) حديث: قسلوا لله من قضله قإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج» أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال: حماد بن واقد ليس بالحافظ.

قلت: وضعفه ابن معين وغيره.

⁽٣) حديث: «ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث المليل. . . ١ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة -

 ⁽٤) حديث: اللفاء بين الأذان والإقامة لا يردا أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة، والترمذي وحسنه من حديث أنس، وضعفه ابن عدي وابن القطان، ورواه في اليوم والليلة بإسناد آخر جيد، وابن حان والحاكم وصححه.

 ⁽a) حديث: «الصائم لا ترد دعوته» أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه من حديث أبي هريرة بزيادة فيه.

حديث أبي هريرة: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء؛ رواه مسلم.

 ⁽٧) حديث ابن عباس. (إني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً. . . ٩ الحديث، أخرجه مسلم أيضاً.

الرابع: خفض الصوت بين المخافنة والجهر لما روي أن أبا موسى الأشعري قال: قدمنا مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم، فقال النبي ﷺ: ﴿ اللَّهُ النَّاسُ إِنَّ الَّذِي تَذَهُونَ لَيْسَ بِأَصَمَّ وَلا خَائِبٍ إِنَّ الَّذِي تَذَهُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْنَاقٍ رِكَابِكُمُ اللَّهِ وقالت اللَّذِي تَذَهُونَ لَيْسَ بِأَصَمَّ وَلا خَائِبٍ إِنَّ اللَّذِي تَذَهُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْنَاقٍ رِكَابِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَالَمُ اللَّهُ عَلَيْكُ وَلا غُنَاقِ بَهَا ﴾ [الإسرَاء: ١١٠] عائشة رضي الله عنها في قوله عن جل : ﴿ وَلا جَنْهُ بِللَّهُ عَلَيْهُ اللَّهُ السلام حيث قال: ﴿ إِذْ نَادَكِ رَبَّهُ بِلاَةً خَفِيبًا ﴾ بدعائك. وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكرياء عليه السلام حيث قال: ﴿ إِذْ نَادَكِ رَبَّهُ بِلاَةً خَفِيبًا ﴾ [الإمرَاد: ٥٥].

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف

 ⁽١) حديث جابر ' «أن رسول الله ﷺ أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس. . . »
 الحديث . أخرجه مسلم دون قوله . «يدعو» فقال مكانها: «واقفاً» والنسائي من حديث أسامة بن زيد «كنت ردفه
 بعرفات فرفع يديه يدعو» ورجاله ثقات.

 ⁽۲) حديث سلمان: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رقع يديه أن يردهما صفراً» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه والحاكم وقال: إسناده صحيح على شرطهما.

 ⁽٣) حديث أنس: (كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه أخرجه مسلم دون قوله: (ولا يشير
بأصبعه والحديث متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاه.

 ⁽٤) حديث أبي هريرة: «مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبابتين فقال رسول الله ﷺ: أحد أحد، أخرجه النسائي وقال:
 حسن وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽a) حديث عمر: (كان رسول الله ﷺ إذا مدّ يديه في الدعاء لم يردهما حتى بمسح بهما وجهه» أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم في المستدرك وسكت عليه، وهو ضعيف.

⁽٦) حديث ابن عباس: «كان ﷺ إذا دعا ضم كفُّيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه» أخرجه الطـراني في الكبير بسند ضعيف.

 ⁽٧) حديث: «لينتهين أقوام عن رقع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم؛ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال: عند الدعاء في الصلاة

 ⁽A) حليث أبي موسى الأشعري: ابا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا خاتب متفق عليه مع اختلاف، واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود.

⁽٩) حديث عائشة مي قوله نعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرَ مِسَلَاتِكَ وَلَا ثُمَالِيتُ بِهَا﴾ [الإسرّاء: ١١٠] أي بدعائك متمق عليه.

لا يناسبه. قال على الشيخون قوم يفتدون في الدُّعامِه (١) وقد قال عزّ وجلّ: ﴿ آدَعُوا رَبَّكُمْ تَعَنَّرُكَا وَحُلْيَةً لَا يَبْتُ الْمُنْدَبِكَ ﴿ الْمُعْرَافِ وَ هَا قِيلَ : معناه التكلف للاسجاع، والأولى أن لا يجاوز الدعوات الماثورة فإنه قد يعتدي في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته فما كل أحد يحسن الدعاء، ولذلك روي عن معاذ رضي الله عنه : إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة : تمنوا فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء . وقد قال على المائيم والشبخغ في الدُّعَامِ، حَسُبُ أَحَدِكُمْ أَنَ يُقُولَ وَصَمَل وَأَصُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَصَمَل وَأَصُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَصَمَل وَأَصُودُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَصَمَل وَأَصُودُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَصَمَل وَأَصُودُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَصَمَل وَأَصُودُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَصَمَل وَأَصُودُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَصَمَل أَنْ وَفِي النَّامِ المِعلَّ اللهم اجعلنا جيدين، وقال له: أعلى اللهم العملاء اللهم وفقنا للخير، والناس يدعون من كل ناحية وراءه، وكان يعرف بركة اللهم لا تفضحنا يوم القيامة، اللهم وفقنا للخير، والناس يدعون من كل ناحية وراءه، وكان يعرف بركة دائد وقال بعضهم: ادع بلسان الذهراء في المنواعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله على كلمات من الكلام، فإن يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك. واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام، فإن يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك. واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام، فإن المُوقِيق بِالمُهُودِ إِنْكَ رَحْيَمُ الوَعِيدِ وَالمَحْنَةُ يَوْمَ المُقُودِ مَعَ المُقَرِّمِينَ الشُهُودِ وَالذُهُ وَلِهُ مَنْ المُؤْمِدِ وَالمُنْ ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو المنشوع والخشوع من فير سجع وتكلف، فالنضرع هو المحبوب عند الله عز وجلّ.

السادس: النضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ بُسُرِعُونَ فِي ٱلْخَبْرُتِ وَيَذَعُونَنَا رَعَبُا وَرَهَبُا ﴾ [الانبيّاء: ٩٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿ أَدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعُا وَخُفِّيَةً ﴾ [الاعراف: ٥٥) وقال ﷺ ﴿ إِذَا أَحَبُ اللَّهُ عَبْداً ابْتَلاهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ تَضَرُّعُهُ (٤٠).

السابع: أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه. قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يَقُلُ أَحَدُكُمْ

حدیث: «سیکون قوم بعثدون في الدها» وفي روایة: «والطهور» أخرجه أبو داود واین ماحه وابن حیان والحاکم من حدیث عبدالله بن مففل.

⁽٣) حديث: اإياكم والسجع في المدعاء بحسب أحدكم أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل» غريب بهذا السياق، وللبخاري عن ابن عباس: اوانطر السجع من المدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله على لا يفعلون إلا ذلك وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد من حديث عائشة: اعليك بالكوامل، وقيه: الوأسألك الجنة... إلى آحره.

⁽٣) حديث: «أسألك الأمن يوم الوهيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع والسجود الموفين بالمهود إنك رحيم ودود إنك تفعل ما تربده. أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس: «سمعت رسول الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته... فذكر حديثاً طويلاً من جملته هذا» وقال: حديث غريب انتهى، وفيه محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى سيىء الحفظ.

⁽٤) حديث: ﴿إِذَا أَحْبِ اللهُ صِبْداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه الخرحه أبو منصور الديلمي في مستد الفردوس من حديث أنس: ﴿إِذَا أَحْبِ اللهُ عبداً صب عليه البلاء صباً... الحديث. وفيه: ﴿وَدَعَهُ قَالِي أَحْبُ أَنْ أَسَمَع صُوتُه ﴾ وللطبراني من حديث أبي أمامة: ﴿إِنْ الله يقول للملائكة: الطلقوا إلى عبدي قصبوا عليه البلاء... الحديث. وفيه: ﴿فَإِنِّي أَحْبُ أَنْ أَسْمَع صُوتُه ﴾ وسندها ضميف.

الثامن: أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً. قال ابن مسعود: كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً (أ). وينبغي أن لا يستبطىء الإجابة لقوله ﷺ: ﴿ يُسْتَجَابُ لاَ حَدِكُمْ مَا لَمْ يَمْجَلْ فَيَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبُ لِي، فَإِذَا دَعَوْتَ فَاسْأَلِ اللّه كَثِيراً فَإِنَّكَ تَدُعُو كَرِيماً (6) وقال بعضهم: إني أسأل الله عزّ وجلّ منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجو الإجابة، سألت الله تعالى أن يوفقني لترك ما لا يعنيني، وقال ﷺ: ﴿ إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ رَبُّهُ مَسْأَلَةً فَتَعَرّفَ الإِجَابَةَ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لِلّهِ الّذِي بِيعْمَتِهِ تَبِمُ الصَّالِحَاتُ، وَمَنْ أَبْطاً صَنْهُ مِنْ ذُلِكَ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لِلّهِ عَلَىٰ كُلُ حَالِه (٢٠).

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عزّ وجلّ، فلا يبدأ بالسؤال. قال سلمة بن الأكوع: ما سمعت رسول الله على يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول: «سُبُحَانَ رَبِّي العَلِيِّ الأَعْلَىٰ الوَهَابِ» (٧٠). قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي على ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي على فإن الله عزّ وجلّ يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما يينهما، وروي في الخبر عن رسول الله على أنه قال: «إِذَا سَأَلْتُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةً فَابْتَدِنُوا بِالصَّلاةِ عَلَيْ فَإِنْ اللهَ تَعَلَىٰ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلُ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَرُدُ الأُخْرَىٰ» (٨٠ رواه أبو طالب المكي.

العاشر: وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عزّ وجلّ بكنه الهمة، فذلك هو السبب القريب في الإجابة. فيروى عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس

 ⁽١) حديث: الايقل أحدكم: اللهم افقر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت فيعزم المسألة فإنه لا مكره له؛ متفق عليه من حديث أبي هويرة.

 ⁽٢) حديث: اإذا دها أحدكم فليعظم الرفية فإن الله لا يتعاظمه شيء أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

⁽٣) حديث «ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: غريب، والحاكم وقال: مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة. قلت: لكنه ضعيف في الحديث.

^(\$) حديث ابن مسعود: «كان ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً» رواه مسلم وأصله متفق عليه.

 ⁽٥) حديث: «يستجاب لأحدكم ما لمم يعجل فيقول: دهوت قلم يستجب لي» منفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٦) حديث: «إذا سأل أحدكم مسألة فتمرف الإجابة فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن أبطأ عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال؛ أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة، وللحاكم تحوه من حديث عائشة مختصراً بإسناد ضعيف.

 ⁽٧) حديث سلمة بن الأكوع: أما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتحه وقال: سبحان ربي العلي الأعلى
الوهاب، أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد. قلت: فيه عمر بن راشد البماني ضعفه الجمهور.

⁽A) حديث: «إذا سألتم الله حاجة فابدؤوا بالصلاة عليّ فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطي إحداهما ويرد الأخرى» لم أجده مرفوعاً وإنما هو موقوف على أبي الدردا».

قحط شديد على عهد موسى رسول الله ﷺ فحرج موسى ببني إسرائيل يستسقي بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام، فقال موسى: يا رب ومن هو حتى نخرجه من ىيننا؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً! فقال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث. وقال سعيد بن جبير: قحط الناس في زمن ملك من ملوك بنى إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبنى إسرائيل: ليرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذينه، قيل له: وكيف تقدر أن تؤذيه وهو في السماء؟ فقال: أقتل أولياءه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له، فأرسل الله تعالى عليهم السماء. وقال سفيان الثوري: بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل، وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيائهم عليهم السلام: لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عبان السماء وتكل السنتكم عن الدعاء فإني لا أجيب لكم داعياً ولا أرحم لكم ماكياً حتى تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم. وقال مالك بن دينار: أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مراراً فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيهم: أن أخبرهم أنكم تخرجون إليُّ بأبدان نجسة وترفعون إليُّ أكفأ قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام، الآن قد اشتدّ غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعداً. وقال أبو الصدّيق الناجي: خرج سليمان عليه السلام يستسقى فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا، فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر ألستم مقرّين بالإساءة؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا قد سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلتُحْسِيٰينَ مِن سَبِيلِ﴾ [التّوبَة: ٩١] وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا، اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا ربك، فقال: إنكم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجارة. وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه حرج يستسقى فلما ضجروا قال لهم عيسي عليه السلام: من أصاب منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد، فقال له عيسى عليه السلام: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما علمت من شيء غير أنيّ كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وتبعت المرأة بها، فقال له عيسى عليه السلام: فادع الله حتى أؤمن على دعائك، قال: دعا فتجللت السماء سحاباً ثم صبت فسقوا. وقال يحيى الغساني: أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فأعتقاء وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا، فسقوا. وقال عطاء السلمي: منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فإذا نحن بسعدون المجنون في المقابر فنظر إليَّ فقال: يا عطاء أهذا يوم النشور أو بعثر ما في القبور؟ فقلت: لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقى فقال: يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية، فقال: هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين

لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير، ثم رمق السماء بطرفه وقال: إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك، ولكن بالسر المكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدقاً فراتاً تحيي به العباد وتروي به البلاد يا من هو على كل شيء قدير، قال عطاء: فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب فولى وهو يقول:

أقسلَسحَ السزاهسدون والسعسابدونسا إذ لسمسولاههم أجساعُسوا السبسطسونسا أسهروا الأعين المعليات حببا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا شَخَلَتْ هم عبادة الله حستى حسب الناس أن فسيسهم جُنُونا

وقال ابن المبارك: قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرحت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه، فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوىء الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك، فأسألك يا حليماً ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعة، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالغمام وأقبل المطر من كل جانب، قال ابن المبارك: فحنت إلى الفضيل، فقال: ما لي أراك كثيباً؟ فقلت أمر سبقنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخرّ مغشياً عليه. ويروى أن عمر بن الخطاب رصى الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه، فلما قرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك ﷺ، وهذه أبدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكبير بدار مضيعة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغيائك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، قال: فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال.

فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ وفضله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمُلَتِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيُّ بَتَأَيُّهُا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ نَسْلِيمًا ﴾ [الاحزَاب: ٥٦] وروي أنه ﷺ جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال ﷺ: ﴿إِنَّهُ جَاءَنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ: أَمَا تَرْضَىٰ يَا مُحَمَّدُ أَنْ لَا يُصَلِّىَ حَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاةً وَاحِدَةً إِلاَّ صَلَّيْتُ حَلَيْهِ عَشْراً وَلَا يُسَلِّمُ خَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلاَّ سَلِّمْتُ خَلَيْهِ خَشْراً» (. وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلائِكَةُ ما صَلَّىٰ حَلَىَّ فَلْيُقْلِلْ عِنْدَ ذَٰلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ ٣٠٠ وقال ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِي ٱلْحَشَرُهُمْ حَلَيَّ صَلاَّةَ ٣١٠)

حديث: اأنه ﷺ جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال: إنه جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي هليك أحد من أمتك إلا صلبت عليه عشراً ولا يسلم هليك أحد من أمتك إلا سلمت هليه عشراً؛ أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أسي طلحة بإسناد جيد.

حديث: المن صلى على صلت عليه الملائكة ما صلى فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر، أخرجه ابن ماجه من حديث **(Y)** عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

حديث: ﴿إِنْ أُولِي النَّاسِ بِي أَكثرهم عليَّ صلاةً أَخرجه الترمذي من حديث أبن مسعود وقال: حسن غريب، وابن حال .

وقال ﷺ: "بِحَسْبِ المُؤْمِنِ مِنَ البُحْلِ أَنْ أُذْكَرَ عِنْدُهُ فَلاَ يُصَلِّى هَلَيًا '' وقال ﷺ: "أَكْثِرُوا مِنَ الصَّلاةِ عَلَيْ يَوْمُ الجُمْعَةِ" وقال ﷺ: "مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْ مِنْ أَمْتِي كُنِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتِ وَمُحِبَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيَّاتٍ " وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ جِينَ يَسْمَعُ الأَذَانَ وَالإِقَامَةَ: اللَّهُمُّ رَبُّ هٰنِهَ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدِ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَأَعْطِهِ الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ وَالشَّفَاعَةِ يَوْمَ القِبَامَةِ، حَلْتُ لَهُ شَفَاعَتِي " وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ عَلَيْ فِي كِتَابِ لَمْ تَزَلِ المَلائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ مَا قَامَ اسْمِي شَفَاعَتِي " وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةُ سَيَّاحِينَ يُبَلِغُونِي عَنْ أُمِّتِي السَّلامَ اللهَ اللهِ اللهِ الرَّضِ مَلائِكَةُ سَيَّاحِينَ يُبَلِغُونِي عَنْ أُمِّتِي السَّلامَ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ عَلَى الرَّضِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِغُونِي عَنْ أُمِّتِي السَّلامَ اللهُ اللهُ عَلَى الأَرْضِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِغُونِي عَنْ أُمِّتِي السَّلامَ اللهُ اللهُ عَلَى الْوَلِي المَلائِكَةُ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ مَا قَامَ السُعِي فَيْ ذَلِكَ الكِتَابِ " وقال اللهُ عَلَى الْوَلِي المَلاعَ الْكَالِي المَلاعَ اللهُ عَلَى الْوَلِي الْمَلاعَ الْكَالِي المَلِيثَ عَلَى اللهُومُ صَلَّ عَلَى مُحَمِّدٍ وَأَرْوَاجِهِ وَفُرُيْتِهِ كَمَا عَلَى الْمَلْعُلُومِ وَأَرْوَاجِهِ وَفُرُيْتِهِ كَمَا عَلَى الْمُولِي الْمَلْكِ وَالِ إِبْرَاهِيمَ وَالْ إِبْرَاهِيمَ وَالْ إِبْرَاهِيمَ وَالْ إِبْرَاهِيمَ وَالْوَالِي الْمَلْكَ عَلَى الْمُعْمَ وَالْولِهُ الْمُرْوادِيمَ وَالْولَ الْمُلْعَلَى الْمُولِي الْمُلْعُونَ اللهُ الْمُعُمُ وَأَزْوَاجِهِ وَفُرُيْتِهِ كَمَا عَلَى الْمُولِ الْمُلْعَلِي الْمُلْعَلِي الْمُؤْمَلِقُ وَلَولُومُ اللهُ الْمُؤْمِلُولُ الْمُؤْمِلُ وَاللهُ الْمُؤْمِلُومُ اللهُ الْمُؤْمِ

⁽١) حديث: «بحسب امرىء من البخل أن أذكر هنده فلا يصلي عليّ أخرجه قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن علي هكذا، والنسائي وابن حيان من حديث أخيه الحسين: «البخيل من ذكرت هنده فلم يصلٌ عليً ورواه الترمذي من رواية الحسين بن علي عن أبيه وقال: حسن صحيح.

 ⁽٢) حديث: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة» أخرجه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان والحاكم وقال:
 صحيح على شرط البخاري من حديث أوس بن أوس، وذكره ابن أبي حاتم في العلل، وحكى عن أبيه أنه حديث
 منكر.

⁽٣) حديث. «من صلَّى عليٌ من أمتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات؛ أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وراد فيه: «مخلصاً من قليه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات»، وله في السير ولابن حبال من حديث أنس نحوه دون قوله: «مخلصاً من قلبه» ودون ذكر: محو السيئات، ولم يذكر ابن حبال أيضاً: رقم الدرجات.

³⁾ حديث: «من قال حين بسمع الأذان والإقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة والمبلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي» أخرجه البخاري من حديث جابر دون ذكر الإقامة والشفاعة والشفاعة فيه بسند ضعيف، وزاد الحسن بن علي المعمري في اليوم والليلة من حديث أبي ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف، وزاد الحسن بن علي المعمري في اليوم والليلة من حديث أبي الدرداء ذكر الصلاة فيه، وله وللمستغفري في الدعوات سند ضعيف من حديث أبي رافع: «كان رسول الله قي إذا سمع الأذان» فذكر حديثاً فيه: «وإذا قال: قد قامت الصلاة قال: اللهم رب هذه الدعوة التامة. . . » الحديث. وزاد: وتقبل شفاعته في أمته ولمسلم من حديث عبدالله بن عمرو. «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي ثم سلوا الله إلى الوسيلة وفيه: ففن سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

حديث: «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستعفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب» أخرجه الطبراتي في
 الأوسط، وأبر الشيخ في الثواب، والمستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

 ⁽٦) حديث: (إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمني السلام» تقلم في آخر الحح.

٧١ حديث: (ليس أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام، أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند جيد.

 ⁽A) حدیث: «قیل له: یا رسول الله، کیف تصلی علیك؟ قال. قولوا: اللهم صل علی محمد وعلی آله وأزواجه
 وذریته. . . الحدیث. متفق علیه من حدیث أبی حمید الساعدی.

كتاب الأذكار والدعوات

تجالس إلا كفؤاً لك ما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كفؤاً لك ما نكحت إلينا، ولو لم تؤاكل إلا كفؤاً لك ما واكلتنا، فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وواكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك

ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعاً منك، صلى الله عليك وسلم(١٠).

صديث عمر: الني حنين الجدع ونبع الماء من بين أصابعه والإسراء به على البراق إلى السماء السابعة، ثم صلاة الصبح من ليلته بالأبطح، وكلام الشاة المسمومة وأنه دمي وجهه وكسرت وباعيته فقال: اللهم اففر لقومي فإنهم لا يعلمون، وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولعق أصابعه وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه آخرى، فحديث حنين الجذع منفق عليه من حديث جابر وابن عمر، وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وفيره، وحديث الإسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح، وحديث كلام الشاة المسمومة وواه أبو داود من حديث جابر وفيه انقطاع، وحديث أنه دمي وجهه وكسرت وباعيته متفق عليه من حديث سهل بن سعد في غزوة أحد، وحديث: «اللهم اففر لقومي فإنهم لا يعلمون» وواه البيهقي في دلائل النبوة، والحديث في الصحيح من حديث ابن مسعود أنه على حكاه عن نبي من الأنبياء ضربه قومه، وحديث لبس الصوف رواه الطيالسي من حديث سهل بن سعد، وحديث وكوبه الحمار وإرداقه خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد، وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد في الزهد من حديث الحسن مرسلاً، وللبخاري من حديث أسامة بن زيد، وحديث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد في الزهد من حديث الحسن مرسلاً، وللبخاري من حديث أنس ما أكل رسول الله على خوان قط، وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك.

وقال بعضهم: كنت أكتب الحديث وأصلي على النبي ﷺ فيه ولا أسلم، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: «أما تتم الصلاة عليَّ في كتابك؟» فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه. ورُوي عن أبي الحسن قال: «رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله بم جوزي الشافعي عنك حيث يقول في كتابه الرسالة: وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون؟» فقال ﷺ: «جوزي عني أنه لا يوقف للحساب».

فضيلة الاستغفار:

قال الله عز وجل : ﴿ وَالنِّينَ إِنَا فَعَلُواْ فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكُواْ أَلَهُ فَاسْتَغَفُرُا إِلَهُ وَحِلْ آبَان عِبْرَان: ١٣٥] وقال علقمة والأسود: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنهم: في كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له: ﴿ وَالَذِيكَ إِنَا فَمَلُواْ فَنَهِشَةٌ أَوْ ظَلَمُواْ اللّهُمُ الله عَرَان عَمْلُ اللّهُ مَا أَوْ يَظْلِمُ فَقَسُهُمُ كُو اللّهِ عَرَان الله عَرْ وجل : ﴿ وَمَن يَعْمَلُ سُوّاً أَوْ يَظْلِمُ فَقَسُهُمُ ثُمُ يَسْتَغْفِرُ أَلَهُ يَجِدِ أَلله عَمْوران : ١٥٥ اللّه عَلَى الله عَلَى اللّه عَرْ وجل : ﴿ وَمَن يَعْمَلُ سُوّاً أَوْ يَظْلِمُ فَقَسُهُ ثُمُ يَسْتَغْفِرُ أَللّهُمْ عَمُوراً وَعِيلًا عَمْ وَاللّهُمْ اعْفِول : فَسُبْحَاقَكَ اللّهُمُ عَمُوراً وَعِيلًا الله عَرْ وَجَلْ الله عَرْ وَجَلْ الله عَمْ وَاللّهُمُ اعْفِول لِي إِنّكَ أَنْتَ النّوابُ الرّحِيمُ (١٠ وقال ﷺ : فَمَن أَكْثَو مِن الاسْتَغْفِرُ اللّهُ عَرْ وَجَلُ اللّهُ عَرْ وَجَلُ اللّهُمُ اغْفِول لِي اللّهُ عَرْ وَاللّهُ عَنْ عَنْ لا يَحْسَبُ الله وقال الله عَلَى اللّهُ عَرَاق اللّه عَلْ عَنْ عَنْ لا يَحْسَبُ اللّه وقال الله عَلْ الله الله عَلْم الله الله عَلْم الله الله المعظيمَ الله عَل عَمْ الله عَلْ مَوْقَ الله عَلْم مِن ذَنِه وَما تأخر وقال ﷺ : فَمَن قَالَ عِين الله المَعْفِر الله المَعْظِيمَ الله عَلَى الله العَلْم الله عَلْم الله المَعْفِر الله المَعْفِيم الله المَعْفِر الله الله المَعْفِر الله الله المَعْفِر الله المَعْفِر الله الله المَعْفِر الله المُعْفِر الله المُعْفِر الله الله عَلْم الله المُعْفِر الله المُعْفِر الله المَعْفِر الله الله المُعْفِر الله الله المُعْفِر الله الله المُعْفِر الله المَعْفِر الله المُعْفِر الله المُعْفِر الله المُعْفِر الله المُعْفِر الله المُعْفِر الله الله الله المُعْفِر الله الله الله المُعْفِل الله الله عَلْم الله الله الله الله المُعْفِر الله الله الله المُعْفِر الله الله الله الله الله الله المُعْفِر الله المُعْفِل الله الله المُعْفِلُولُ المُعْفِر الله الله الله المُعْفِل الله المُعْفِل الله المُعْفِل الله المُعْفِل الله المُعْفِل الله المُعْفِل الله المُعْفِلُولُ الله المُعْفِلُولُ الله المُعْفِلُ الله المُعْفِلُ الله ال

⁽۱) حديث: «كان النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم» أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحبح إن كان أبو عبيدة سمع من أبيه، والحديث متمن عليه من حديث عائشة: «أنه كان يكثر أن يقول ذلك في وكوعه وسجوده» دون قوله، «إنك أنت التواب الرحيم».

 ⁽٧) حديث: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل غم مخرجاً ورزقه من حيث لا يحسب،
 أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن
 حان.

 ⁽٣) حديث. (إني الأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة إلا أنه قال: (أكثر من سبعين) وهو في الدعاء للطيراني كما دكره المصنف.

 ⁽٤) حديث: (إنه ليغان على قلبي حتى إني الأستثفر الله في كل يوم مائة مرة؛ أخرجه مسلم من حديث الأغر.

⁽٥) حديث "من قال حين يأوي إلى قراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له تغويه وإن كانت مثل زيد البحر...» الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالله بن الوليد الوصافي. قلت. الوصافي وإن كان ضعيفاً فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة، ورواه البحاري في التاريخ دون قوله "حين يأوي إلى فواشه، وقوله. فثلاث مرات.

حديث آخر: «مَنْ قَالَ ذَٰلِكَ خُفَرْتُ ذُنُويَهُ وَإِنْ كَانَ فَارْآ مِنَ الزَّحْفِ»(١) وقال حذيفة: كنت ذرب اللسان على أهلى فقلت: «يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلني لساني النار، فقال النبي ﷺ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ؟ ﴿ فَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْم مِائَةَ مَرَّةِه (٢) وقالت عائشة رضَي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: •إنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبِ فَاسْتَغْفِرِي اَللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ التَّوْبَةَ مِنَ الذُّنْبِ النَّلَمُ وَالاسْتِغْفَارُ * (٣) وكان ﷺ يعول في الاستغفار: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيتَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدُي وَخَطَيْي وَغِمْدِي وَكُلُّ ذَٰلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اخْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخُرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَصْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمْ بِهِ مِنْي أَنْتَ المُقَلّمُ وَأَنْتَ المُؤَخّرُ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلّ شَيْءٍ قَلِيرٌ اللهَ على رضي الله عنه: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله عزّ وجلّ بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدَّثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف صدّقته، قال: وحدّثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدِ يُلْذِبُ ذَنْبَا فَيْحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمٌّ يَقُومُ فَيْصَلَّى رَكُعَتَين، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ، ثُمَّ تَلا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَالَّذِيكَ إِنَا فَمَلُوا فَنُحِشَّةً أَوْ ظَلَمُوٓاً أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل جمزان: ه١٣) الآيةه(٥). وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهَا فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَشَّىٰ تُغَلّْفَ قَلْبَهُ* (٢٠)، عذلك الرّان الذي ذكره الله عَــزْ وَجــلّ فــي كــــــابــه: ﴿ كُلَّا بَلُّ رَانَ عَلَى فَلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۞﴾ [الـــمــطــقــنيــبــن: ١٤]، وروى أبــو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ فِي الجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّىٰ لِي هْلِهِ؟ فَيَقُولُ عَرٌّ وَجَلٍّ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَٰدِكَ لَكَه (٧) وروت عائشة رضى الله عنها: أنه ﷺ قال: •اللَّهُمُّ اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا اسْتَبْشَرُوا وَإِذَا أَسَاؤُوا اسْتَغْفَرُوا» (^^ ، وقالَ ﷺ: ﴿إِذَا أَنْتَبَ الْعَبْدُ ذُنْباً فَقَالَ: أ

⁽۱) حديث: امن قال ذلك ففرت تنويه وإن كان فاراً من الزحف اخرجه أبو داود والترمذي من حديث زيد مولى البي ﷺ وقال: غريب. قلت: ورجاله موثقون، ورواه ابن مسعود والحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٢) حديث حذيفة: اكنت ذرب اللسال على أهلي. . . ١ الحديث. وفيه. «أبن أنت من الاستغفار» أحرجه النسائي في
البرم والليلة، وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٣) حديث عائشة. «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله قإن التوية من الذنب الندم والاستغفار» متفق عليه دون قوله.
 «فإن التوية... الخ» وزاد: «وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنيه ثم تاب تاب الله عليه» وللطبراني في الدعاء: «فإن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله قفر له».

 ⁽٤) حديث: «كان يقول: اللهم اغفر لي خطيتني وجهلي وإسرائي في أمري وما أنت أهلم به مني اللهم افقر لي جدي وهزايه منفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم.

حديث علي عن أبي بكر: (ما من عبد ينتب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركمتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله
 له الخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي.

 ⁽٩) حديث أبي هريرة ' إن المؤمن إذا أنفب ذنباً كانت تكنة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صغل قلبه . . . ا
 الحديث . أخرجه الترمذي وصححه ، والنسائي في اليوم والليلة ، وابن ماجه وابن حان والحاكم .

 ⁽٧) حديث أبي هربرة: قإن الله ليرفع العبد الدرجة في الجنة فيقول: يا رب أنى لي هذه فيقول: باستغفار ولدك لك رواه
 أحمد بإسناد حسن.

 ⁽A) حديث عائشة: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفرواه أخرجه ابن ماجه وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه.

اللَّهُمْ اغْفِرْ لِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزْ وَجَلِّ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَيَغْفِرُ الذَّنْبَ، عَبْدِي الْحَمْلُ مَا شِشْتَ فَقَدْ خَفَرْتُ لَكَ، (() وقال ﷺ: همَا أَصَرُ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي اليَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً، (() وقال ﷺ: همَا أَضَرُ مَنِ السَّمَاءِ فَقَالَ: إِنِّ لِي رَبّاً يَا رَبُّ الْحَفِرْ لَي، فَقَالَ اللَّهُ عَزْ وَقِل ﷺ: همَا أَذْنَبَ دَنْباً فَعَلْمَ أَنَّ اللَّهُ قَدِ اطْلَعَ عَلَيهِ غَفِرَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ () وقال ﷺ: همَا فَنَوْرُ وَقِل اللَّهُ تَعَالَىٰ: يا عِبَادِي كُلُّكُمْ مَنْفِ إِلاَّ مَنْ عَافَيْتُهُ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ أَنْ فُو وقال ﷺ: همَا أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: يا عِبَادِي كُلُكُمْ مَنْفِ إِلاَّ مَنْ عَافَيْتُهُ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ أَنْ فُو وقال ﷺ: همَا أَنْ أَغْفِرُ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ أَنْ فُو وقال ﷺ: همَا أَنْ أَغْفِرُ لَكُمْ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ مَا أَنْ أَنْفِقِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَعْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَغْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَعْمَى اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَعْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَنْ أَعْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَنْ أَنْ عَلَىٰ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَنْ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَلَا عَلَىٰ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَنْ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ أَنْ أَلَهُ لَا يَعْفِرُ اللَّهُ عَلَىٰ عَلَى عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ أَلْكُولُكُ مَا السَلْعَتُ أُعْورُ لَى فَاعْفُولُ لِي فَالْمَ الْمَالِ اللَّهُ أَنْ أَنْ أَلَا اللَّهُ عَلَىٰ أَلَا اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ أَلْكُولُولُ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ اللَّهُ عَ

والآثار: قال خالد بن معدان: يقول الله عزّ وجلّ: إنّ أحب عبادي إليّ المتحابون بحبي والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار، أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرتهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم، وقال قتادة رحمه الله: القرآن يدلكم عن دائكم ودوائكم، أما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار، وقال علي كرم الله وجهه العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار، وكان يقول: ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه، وقال الفضيل: قول العبد: «أستغفر الله» تفسيرها: أقلني، وقال بعض العلماء: العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار، وقال الربيع بن خيثم رحمه الله: لا يقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً

 ⁽۱) حديث: ﴿إِذَا أَذَنْ المهد فقال: اللهم اغفر لي يقول الله: أَذَنْ عبدي ذَنباً قملم أن له رباً يأخذ باللّنب ويغفر
 اللّذنب. . . » الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حديث: اما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر وقال: غريب وليس إسناده بالقوي.

 ⁽٣) حديث: اإن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء فقال: إن لي رباً يا رب اخفر لي فقال الله تعالى: قد غفرت لله لم أقف له على أصل

⁽٤) حديث: امن أذنب فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفره أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بسد ضعيف.

حدیث: ایقول الله: یا حبادی کلکم مذنب إلا من صافیته فاستغفرونی أغفر لکم ومن علم أنی ذو قدرة علی أن أغفر له
 غفرت له ولا أبالی ا أخرجه الترمذی وابن ماجه من حدیث أبی ذر، وقال الترمذی: حسن، وأصله عند مسلم بلفظ آخر.

⁽٦) حديث: امن قال: سبحانك ظلمت نفسي وحملت سوءاً فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه وإن كانت كمدب النمل، أخرجه البيهني في الدعرات من حديث على «أن رسول الله ﷺ قال: ألا أهلمك كلمات تقولهن لو كان هليك كعدد النمل ـ أو كعدد الذر ـ ذنوباً غفرها الله لك، فذكره بزيادة: «لا إله إلا أنت، في أوله وفيه ابن لهيعة.

 ⁽٧) حديث: «أقضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت...» الحديث. أخرجه
 النخاري من حديث شداد بن أوس دون قوله: «وقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي» ودون قوله؛ الذنوبي ما قدمت منها
 وما أخرت» ودون قوله: «جميعاً».

وكذباً إن لم يفعل، ولكن ليقل: اللهم اغفر لي وتب عليّ. وقال الفضيل رحمه الله: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وقالت رابعة العدوية رحمها الله: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. وقال بعض المحكماء: من قدّم الاستغفار على الندم كان مستهزئاً بالله عزّ وجلّ وهو لا يعلم. وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري للؤم وإن تركي استغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليّ بالنعم مع غناك عني وكم أتبعض إليك بالمعاصي مع فقري إليك! يا من إذا وعد وفي وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين. وقال أبو عبدالله الوراق: لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوباً لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء مخلصاً إن شاء الله تعالى: اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، وأستغفرك من كل وحدتك به من نفسي ولم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أددت به وجهك مخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيته في ضياء النهار وسواد الليل في ملا أو خلاء وسر وعلانية يا حليم. ويقال: إنه استغفار آدم عليه السلام، وقبل: الخضر عليه الصلاة والسلام.

الباب الثالث

في أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها المرء صباحاً ومساء وبعقب كل صلاة

فمنها: دعاء رسول الله ﷺ بعد ركعتى الفجر:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعنني العباس إلى رسول الله على فأنيته ممسياً وهو في بيت خالتي مبدونة فقام يصلي من الليل، فلما صلى ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح قال: ﴿ اللّهُمّ إِنِي أَسْأَلُكَ رَحْمَة مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِها قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِها شَمْلِي، وَتَلُمُ بِها شَعْيى، وَتَرُدُ بِها اللّهْتَنَ عَنّى، وَتُطيعُ بِها دِيني، وَتَحْفَظُ بِها عَلْبِي، وَتَلُهُم بِها شَمْلِي، وَتُلُم بِها صَعْيى، وَتَرُدُ بِها اللهْتَنَ عَنّى، وَتُلْعِمُ بِها دِيني، وَتَخفظُ بِها عَلْبِي، وَتُلْعِمُ بِها شَاهِدِي، وَتُلُعُ بِها شَاهِدِي، وَتُلُعُ بِها عَمَلِي، وَتُبَيْضُ بِها وَجْهي، وتَلُهِمُنِي بِها رُشْدِي، وَتَغضَى بِها مِنْ كُلُّ سُوءٍ. اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيماناً صَادِقاً وَيَقِيناً لَيْسَ بَعْلَهُ كُفُّرٌ، وَرَحْمَة أَنالُ بِها شَرَفَ كَامَانِكَ الفَوْرَ عِنْدَ الْقَضَاءِ وَمَنازِلَ الشَّهَدَاءِ وَعَيْشَ السُّعْدَاءِ وَالنَّصُ مِلْ مَنْ اللّهُمَّ إِنِي أَنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي وَإِنْ ضَمُفَ رَأْيِي وَقَلْتُ حِيلَتِي وَقَصْرَ عَمَلِي وَالنَّصُ مِلْكَ عَلَيْ وَقَلْتُ عِيلَتِي وَقَصْرَ عَمَلِي وَقَلْتُ عِيلَتِي وَقَصَّرَ عَمَلِي وَقَلْتُ عِيلُم اللّهُ وَعَلَيْ وَلَا شَافِي الصَّدُودِ كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ البُحُودِ أَنْ تُجِيرِيْي مِنْ وَالْمُودِ وَيا شَافِي الصَّدُودِ كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ البُحُودِ أَنْ تُجِيرِيْي مِنْ وَالْمُودِ وَيا شَافِي الصَّدُودِ كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ البُحُودِ أَنْ تُجِيرَيْي مِنْ عَلْمُ وَعَلِي وَالْمُ لَيْ وَالْمُلْكُ وَي وَعَدْتُهُ أَنْهُم وَالْمُلُودُ وَي وَقَرْ وَلَا فَي الْمُعْلِي وَالْمُلُودُ وَي الْمُودِ وَي وَلَا قَلْه وَالْمُودِ كَمَا لَاكُولُ وَلَا الْمُعْلَى وَعَلَيْكَ وَلِي الْمُودِي وَلَا وَلا عَوْلَ وَلا قُولُونَ وَلا عَوْلَ وَلا قُولُ وَلا يُؤْتَى اللّهُمُ الْمُلْهُمُ الْمَلِي الْمَالِي المَعْلِيم فِي الْمَالُ وَلَا الْمُ الْمُلْمُ الْمُعْلِيم فِي الْمَالِي الْمُولِي وَي الْمُؤْلُ وَلا عَوْلَ وَلا قُولًا وَلا قُولُ وَلا قُولُ وَلا عَلْمَالُولُ الْمُعْلِيم الْمُؤْلُومِ وَي الْمُؤْلُولُ وَلا عَوْلَ وَلا قُولُ وَلَا قُولُ الْمُؤَلِي الْمُؤْلِي الْمُؤْلُومُ وَي الْمَالِي اللّهِ الْمُؤْلُومُ الْمَلْمُ الْمَلْمُ الْمَلْمُ الْمُؤْلُومُ الْمَالِمُ الْمَلْمُ الْمَلِي الْمُؤْلِي الْمُؤْلُومُ و

الشَّدِيدِ وَالأَمْرِ الرَّشِيدِ، أَسْأَلُكَ الأَمْنَ يَوْمَ الوَحِيدِ وَالجَنَّةَ يَوْمَ الخُلُودِ مَعَ المُقَرِّبِينَ الشَّهُودِ، وَالرُّكِعِ السُّجُودِ المُوفِينَ بِالمُهُودِ إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ، سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ الْعِزُ وَقَالَ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ بِالْمَجْدِ وَتَكَرَّمُ بِهِ، سُبْحَانَ الَّذِي لا يَنْبَغِي الشَّهِيحُ إِلاَّ لَهُ، سُبْحَانَ ذِي الفَضْلِ وَالنَّمَ، سُبْحَانَ الَّذِي الْعَشِيعُ الشَّهِيحُ إِلاَّ لَهُ، سُبْحَانَ ذِي الفَضْلِ وَالنَّمَ، سُبْحَانَ الْذِي الْعَمْنِ وَلُوراً فِي قَبْرِي، وَنُوراً فِي الْمُؤْوِرِ وَلَوراً فِي قَبْرِي، وَنُوراً فِي سَعْمِي وَنُوراً فِي قَبْرِي، وَنُوراً فِي اللَّهُمْ اجْعَلْ لِي نُوراً فِي لَحْمِي وَنُوراً فِي وَنُوراً فِي عَلَي سَعْمِي وَنُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ عَلْوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ عَلْمِي وَنُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ عَلْمِي، وَلُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ يَعِيمِ، وَلُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ عَلْمِي وَلُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ عَلَيْمَ، اللّهُمْ رِدْنِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً الْمَى يُوراً عَنْ شِمَالِي، وَنُوراً مِنْ فَوْقِي وَنُوراً مِنْ لَكُومَ اللّهُمْ رِدْنِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً الْمَالَى اللّهُمْ رِدْنِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً الْمَالَى الللّهُمْ رِدْنِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً الْمَالَالَ الللّهُمْ رَدْنِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً الْمُعْلِى الللهُمْ رَدْنِي نُوراً وَأَعْطِنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي نُوراً الْمَالِي الْمُؤْلِي الْمُؤْلِقِي وَلُوراً مِنْ فَوْلِي وَلُوراً مِنْ فَوْلِي الْوَالِمُ الْمُؤْلِقِي الْمَالِي الْمُؤْلِقِي وَلَواللّهُ الْمِي لَوْلِي الْمِؤْلِقِي وَلَوالَا الْمُؤْلِقِي وَلَالْمُؤْلِقِي وَلَوالِمُ اللْمُؤْلِقِي الْمُؤْلِقِي وَلَوالْمُ الْمُؤْلِقِي الْمُؤْلِقِي

دعاء عائشة رضى الله عنها:

قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: "عَلَيْكِ بِالْجَوَامِعِ الْكُوَامِلِ، قُولِي: اللَّهُمُّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَغَلَمْ، وَأَغُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَغُلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنَهُ وَمَا لَمْ أَغُلَمْ، وَأَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ الْجَنْةِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِ وَعَمَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلِ، وَأَعْدَدُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلِ، وَأَسْتَمِيدُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْتَمِيدُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ ورَسُولُكَ مُحَمِّدٌ عَلَيْهَمْ رَشَداً بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ ورَسُولُكَ مُحَمِّدٌ عَلَيْمَةُ وَشَدا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ ورَسُولُكَ مُحَمِّدٌ عَلَيْمَا مِنْ الْمَرْ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَداً بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ الْمَالُكَ عَلَا أَنْ عَلَى مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلُ عَاقِبَتَهُ رَشَداً بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ اللَّاحِينَ الْمَالُكَ عَلَى الْمُ الْمَلِمُ الْمُعُودُ مِنْ أَمْ إِلَى الْمُ أَعْمَلُهُ مَا عَلَيْمَ الْمُعْمِدُكُ مِنْ الْمُلِهِ مِنْ أَمْرِ أَنْ تَجْعَلُ عَاقِبَتَهُ رَشَداً بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ الْمُعْلِدُ وَالْمَالُكُ مِنْ أَلْمُ الْمُعْمِيدَ الْمُعْلِقُ مُنْ الْمُلْكُ مُنْ الْمُولِ وَالْمَالُولُكُ مُعْمِدًا لَيْكُولُ وَمُعْمِلُ مَا قَلْكُ مُولِكُ مُولِولًا وَالْمَالُولُكُ مُولِولًا وَالْمَعْمِينَ الْمُعْلِقُ لَهُ الْمُعْمِينَ الْمُعْلِقُ لِلْهُ الْمُعْلِقُ لَلْمُ اللْمُ الْمُعُلِقُ الْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُ مِنْ أَنْ الْمُعْمِينَ اللَّهُ مُلْكُلُكُ مُنْ اللّهُ الْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُ مُنْ اللّهُ الْمُعْلِقُ الْمُعْمِلُ مُعْمُلُولُ مُعْلَى مُولِمُ مِنْ اللّ

دعاء فاطمة رضى الله عنها:

قال رسول الله ﷺ: ﴿يَا فَاطِمَةُ مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي: يَا حَيُّ يَا قَيُومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ لَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ خَيْنِ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلُهُۥ ۚ ۚ .

دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

علَّم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول: «اللَّهُمُّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيْكَ وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ وَمُوسَىٰ وَإِنْجِيلِ عِيسَىٰ وَزَبُورِ دَاوُدَ وَإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِكَ وَمُوسَىٰ وَإِنْجِيلِ عِيسَىٰ وَزَبُورِ دَاوُدَ وَأَرْقَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَبِكُلِّ وَحْيِ أَوْحَيتَهُ أَوْ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ أَوْ سَائِلٍ أَضَطَيْتَهُ أَوْ خَنِي أَفْفَرْتَهُ

الباب الثالث

ني أدعية مأثورة

⁽١) حديث ابن عباس: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي وتلم بها شعثي. . . • الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب ولم يذكر في أوله: بعث العباس لابنه عبدالله ولا نومه في بيت ميمونة ، وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني.

 ⁽۲) حديث قوله لعائشة العليك بالجوامع الكوامل قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله هاجله وآجله ما هلمت منه وما لم أهلم. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها.

⁽٣) حديث البا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح في شأتي كله أخرجه النسائي في اليوم والليلة، والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

أَوْ فَقِيرِ أَغْنَيْتَهُ أَوْ ضَالً هَدَيْتَهُ، وَأَسْأَلُكَ بِالسِّكَ الَّذِي أَتْزَلْتُهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ وَأَسْأَلُكَ بِالسِّكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَاسْتَقَرَّتْ، وَأَسْأَلُكَ بِالسِّكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَاسْتَقَرَّتْ، وَأَسْأَلُكَ بِالسِّكَ الَّذِي وَضَعْتَهُ عَلَىٰ الْجِبَالِ فَرَسَتْ، وَأَسْأَلُكَ بِالسِّكَ الَّذِي اسْتَقَلَّ بِهِ السَّمُواتِ فَاسْتَقَلَّتْ، وَأَسْأَلُكَ بِالسِّمِكَ اللَّهِ الطَّهِ الطَّهِ الأَحْدِ الصَّمَدِ الوِثْرِ المُنْزَلِ فِي كِتَابِكَ مِنْ لَلْنُكَ مِن النُورِ المُبْينِ، وَأَسْأَلُكَ بِالسَّمِكَ الطَّهِ الطَّهِ الأَحْدِ الصَّمَدِ الوَثْرِ المُنْزَلِ فِي كِتَابِكَ مِنْ لَلْنُكَ مِن النُورِ المُبْينِ، وَأَسْأَلُكَ بِالسَّمِكَ النَّذِي وَضَعْتُهُ عَلَىٰ اللَّيلِ فَأَطْلَمَ وَبِمُولَى مِنْ لَلْنُولِ وَجَهِكَ وَالْمَلْمَ بِهِ، وَتَخْلَطُهُ بِلَحْمِي وَدَعِي وَسَمْعِي وَيَصَرِي، وَتَسْتَغْمِلَ بِهِ جَسَدِي بِحَوْلِكَ الكَرِيمِ أَنْ تَرَزُقَنِي القُرْآنَ وَالمِلْمَ بِهِ، وَتَخْلَطُهُ بِلَحْمِي وَدَعِي وَسَمْعِي وَيَصَرِي، وَتَسْتَغْمِلَ بِهِ جَسَدِي بِحَوْلِكَ وَتُولِكَ مَا أَنْ تَرَزُقَنِي القُرْآنَ وَالمِلْمَ إِلاَ بِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ الْمُنْ اللَّذِي وَمَلَاللَّهُ الْمُنْ اللَّيْلُ فَأَعْلَمُ وَيَصَرِي، وَتَسْتَعْمِلَ بِهِ جَسَدِي بِحَوْلِكَ وَتُولِكَ مَا لَاللَّهِ لَا حَوْلَ وَلا قُولًا إِلاَ بِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ الْأَنْ اللَّهُ لا حَوْلَ وَلا قُولًا إِلا بِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ الْمُرْافِي الْقُرْآنَ وَلا قُولًا أَلِكُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ الْمُرْافِي الْقَرْآنَ وَلا عُولًا أَلْهُ الْعَلِيلُ عَلْمَ الْمُعْلَى الْمُعْتِى وَلَالْمُ الْمُعْلِى اللْمُولِيقَ الْمُلْوِلُ الْمُعْتِلُ الْمِثْمِ الْمُؤْهُ إِلا بِكَى يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ الْمُؤْهُ الْمُعَلِي الْمُولُولُ الْمُعْلَى الْمُعْتَى الْمُلْمَالِ الْمُعْتَى الْمُؤْهِ الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلِقِيقَ الْمُعْتِي الْمُعْتِى الْمُعْتَعُلَمُ الْمُ الْمُعْتِيلُكُ الْمُعْلِمِ الْمُولِقُولُ الْمُعْرَافِي الْمُعْتَالِهُ الْمُعْلَى الْمُعْتَعُولُ الْمُولِقِيقِ الْمُؤْمِقِي الْمُعْتَالِمُ الْمُعْمِلِيقِ الْمُلْعِلَمُ الْمُولِقُولُ الْمُؤْهُ ال

دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عله:

دعاء قبيصة بن المخارق:

إذ قال لرسول الله ﷺ علمني كلمات ينفعني الله عزّ وجلّ بها، فقد كبر سني وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها، فقال عليه السلام: ﴿ أَمَّا لِدُنْيَاكَ فَإِذَا صَلَّيْتَ الغَدَاةَ فَقُلْ ثَلاثَ مَرَّاتِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، فَإِنْكَ إِذَا قُلْتَهُنَّ أَمِنْتَ مِنَ الْمَمِّ وَالجُدَامِ وَالبَرَصِ وَالفَالِحِ. وَأَمَّا لاَحْرَتِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ الهَدِنِي مِنْ عِنْدِكَ وَأَفْضِلْ عَلَيٍّ مِنْ فَضَلِكَ وَانْشُرْ عَلَيٍّ وَالجُدَامِ وَالبَرَصِ وَالفَالِحِ. وَأَمَّا لاَحْرَتِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ الهَدِنِي مِنْ عِنْدِكَ وَأَفْضِلْ عَلَيٍّ مِنْ فَضَلِكَ وَانْشُرْ عَلَيٍّ وَالجَدَّامِ وَالفَالِحِ. وَأَمَّا لاَحْرَتِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ الهَدِنِي مِنْ عِنْدِكَ وَأَفْضِلْ عَلَيٍّ مِنْ فَضَلِكَ وَانْشُرْ عَلَيٍّ مِنْ وَالْمَالِقَةِ لَمْ يَدَعْهُنَ فَتِحَ مِنْ الجَوْقِ يَلْكُ أَنْ إِللهِ الْعَلِيمِ اللّهِ الْعَلَى اللّهُ اللّهُ إِنْ اللّهُ إِنْ اللّهُ الْعَلَى اللّهُ الْعَلَى مِنْ بَوْنَ اللّهِ الْعَلَى مِنْ بَرَكَاتِكَ وَالنّهُ لَوْ اللّهِ الْعَلْمَ لَهُ اللّهُ اللّهُ الْعَلَى اللّهُ اللّهُ الْعَلَى اللّهُ الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى الْعَلَى اللّهُ الْعَلَى اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللللللّهُ اللّهُ الللللللللللللمُ الللللللمِ اللللللمِلْ الللللمُ الللهُ الللهُ الللمُ اللّهُ الللهُ الللّهُ اللللمُ اللّهُ الللمُ الللمُ الللمُ اللللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ اللّهُ الللمُ اللّهُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ اللهُ الللمُ الللمُ الللمُ اللهُ الللمُ الللهُ اللللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ اللهُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ الللمُ اللللمُ اللّ

دعاء أبى الدرداء رضى الله عنه:

قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه: قد احترقت دارك ـ وكانت النار قد وقعت في محلته ـ فقال: ما كان الله ليفعل ذلك، فقيل له ذلك ثلاثاً وهو يقول: ما كان الله ليفعل ذلك. ثم أتاه آت فقال: يا أبا

⁽¹⁾ حديث. أعلم رسول الله على أبا بكر الصديق رصي الله عنه أن يقول: اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليك وموسى نجيك وعيسى كلمتك. . . ؟ الحديث. في الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من رواية عبدالملك بن هارون بن عبثرة عن أبيه: أن أبا بكر أنى النبي في فقال: إني أتعلم القرآن وينفلت مني، فذكره، وعبدالملك وأبوه ضعيفان، وهو منقطع بين هارون وأبي بكر.

 ⁽٢) حديث: •يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياد. . . • الحديث. أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽٣) حديث: إن قبيصة بن المخارق قال لرسول الله على علمني كلمات ينفعني الله بها فقد كبرت سني وعجزت. . . الحديث أخرجه ابن السني في اليوم واللبلة من حديث ابن عباس، وهو عند أحمد في المسند مختصراً من حديث قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم.

الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت، قال: قد علمت ذلك، فقيل له: ما ندري أي قوليك أعجب؟ قال: إني سمعت رسول الله على قال: «مَنْ يَقُولُ هُوُلاهِ الكَلِمَاتِ فِي لَيلِ أَوْ نَهَارِ لَمْ يَضِرْهُ شَيْءٌ وقد قلتهن وهي: «اللَّهُمُّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ عَلَيْكَ تَوَكُلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ الْمَرْشِ الْمَظِيمِ، لا خَوْلُ وَلا قُوّةً إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ الْمَظِيمِ، ما شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأُ لَمْ يَكُنْ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ خَوْلُ وَلا قُوّةً إِلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ، ما شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأُ لَمْ يَكُنْ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ قَدَداً. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ كُلُّ مَانِي عَلَىٰ مِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍهُ (١).
شَرِّ كُلُ وَابَةٍ أَنْتَ آخِذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍه (١).

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

كان يقول إذا أصبح: اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوائك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضعفها لي، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم. قال: ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه.

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام:

كان يقول: اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهناً بعملي فلا فقير أفقر مني. اللهم لا تشمت سي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط عليً من لا يرحمني يا حي يا قيوم.

دعاء الخضر عليه السلام:

يقال: إن الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات: «بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق إن شاء الله تعالى.

دعاء معروف الكرخى رضى الله عنه:

قال محمد بن حسان: قال لي معروف الكرخي رحمه الله: فألا أعلمك عشر كلمات خمس للدنيا وخمس للآخرة من دعا الله عز وجل بهن وجد الله تعالى عندهن؟ قلت: اكتبها لي، قال: لا، ولكن أرددها عليك كما رددها علي بكر بن خنيس رحمه الله: حسبي الله لديني، حسبي الله الشديد لمن كادني حسبي الله الكريم لما أهمني، حسبي الله الحليم القوي لمن بغي علي، حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء، حسبي الله الرحيم عند الموت، حسبي الله الرؤوف عند المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللطيف عند الميزان، حسبي الله الا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، وقد روي عن أبي الدرداء أنه قال: مَنْ قال في كل يوم سبع

 ⁽١) حديث: "قبل لأبي الدرداء: أحرقت دارك فقال: ما كان الله ليفعل ذلك. . . ٩ الحديث، أخرجه الطبرائي في الدعاء من حديث أبي الدرداء ضعيف.

مرات: ﴿ فَإِن نَوَلُواْ فَقُلُ حَسِّمِ ﴾ أللهُ لاَ إِلَهُ إِلَّا هُوَّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَلِيدِ ﴿ النَّوْبَةُ: النَّوْبَةُ: ١٢٩] كفاه الله عزّ وجلّ ما أهمه من أمر آخرته صادقاً كان أو كاذباً.

دعاء عتبة الغلام:

وقد رئي في المنام بعد موته فقال: دخلت الجنة بهذه الكلمات: اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيس والصديقين والشهداء والصالحين، آميس يا رب العالمين.

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أراد الله عزّ وجلّ أن يتوب على آدم على قاف بالبيت سبعاً وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حمراء، ثم قام فصلى ركعتين ثم قال: اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي. اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن بصيبني إلا ما كتبته عليّ والرضا بما قسمته لي يا دا الجلال والإكرام. فأوحى الله عزّ وجلّ إليه إني قد غفرت لك، ولم يأتني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعونني به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه، ونزعت الفقر من بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته اللذيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها.

دعاء على بن أبي طالب رضى الله عنه:

رواه عن النبي عَيَّةِ أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهُ تَعَالَىٰ يُمَجُّدُ نَفْسَهُ كُلَّ يَوْم وَيَقُولُ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إِلْهَ إِلاَّ أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا اللَّهُ لا إِلَهُ إِللَّا أَنَا اللَّهُ لا إِلَهُ إِللَّ أَنَا اللَّهُ لا إِلَهُ إِللَّا أَنَا اللَّهُ لا إِلْهُ إِلاَ أَنَا اللَّهُ اللَّهُ وَالنَّالِي المَعْبِلُولُ الْمَعْبُولُ المَعْبُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْلِقُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْلِقُ الْمُعْبُولُ الْمُعْبُولُ الْمُعْلِقُ اللَّهُ لا إِللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الْمُعْلِقُ اللللَّهُ الللَّهُ الْمُعْلِقُلَالِمُ الْمُعْلِقُلُولُ اللْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُلُولُ الللَّهُ الْمُعْلِقُلُولُ الْمُعْلِقُ اللْمُعْلِقُلُولُ اللَّهُ اللْمُعْلِلَ الْمُعْلِقُلُولُ اللْمُعْلِقُولُ اللْمُعْلِقُولُ الْمُعْلِقُلَ

⁽١) حديث على: فإن الله تعالى بمجد نفسه كل يوم فيقول: إني أنا الله رب العالمين إني أنا الله لا إله إلا أنا الحي المقيوم...» الحديث. بطوله لم أجد له أصلاً.

دعاء ابن المعتمر وهو سليمان التيمي وتسبيحاته رضي الله عنه:

روي أن يونس بن عبيد رأى رجلاً في المنام ممن قتل شهيداً ببلاد الروم فقال: ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال؟ قال: رأيت تسبيحات ابن المعتمر من الله عزّ وجلّ بمكان وهي هذه: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عدد ما هو خالق، وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق، ومله ما خلق ومله ما خلق ومله ما هو خالق، ومداد كلماته ومن أرضه، ومثل ذلك وأضعاف ذلك، وعدد خلقه وزنة عرشه، ومنتهى رحمته ومداد كلماته، ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضي، وعدد ما ذكره به خلقه في جميع ما مضى، وعدد ما هم ذاكروه فيما بقي في كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس وأبد من الآباد من أبد إلى أبد، أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوّله ولا ينفد آخره.

دعاء إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه:

روى إبراهيم بن بشار خادمه: أنه كان يقول هذا الدعاء في كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى: مرحباً بيوم المزيد والصبح الجديد والكاتب الشهيد، يومنا هذا يوم عيد، اكتب لنا فيه ما نقول، بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال في خلقه ما يريد. أصبحت بالله مؤمناً وبلقائه مصدّقاً وبحجته معترفاً ومن ذنبي مستغفراً ولربوبية الله خاضعاً ولسوى الله في الآلهة جاحداً وإلى الله فقيراً وعلى الله متكلاً وإلى الله منيباً. أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليمًا، وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكراً ونكيراً حق ووعدك حق ورعيدك حق ولقاءك حق والساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله. اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذي شر. اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت. لبيك وسعديك والخبر كله بيديك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك. أمنت اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب، وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً خاتم كلامي ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يا رب العالمين. اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشرباً روياً سائغاً هنياً لا نظماً بعده أبداً، واحشرنا في زمرته غير خزايا ولا ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوباً علينا ولا ضالين، اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووفقني لما تحب وترضى وأصلح لي شأني كله وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولا تضلمی وإن کنت ظالماً سبحانك، سبحانك یا علی یا عظیم یا باری، با رحیم یا عزیز یا جبار، سبحان من سبحت له السموات بأكنافها، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها، وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغتها، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراجها، وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها وثمارها، وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهنّ ومن عليهنّ، سبحان من سبح له كل شيء من مخلوقاته، تباركت وتعاليت

صبحانك، سبحانك يا حي يا قيوم يا عليم يا حليم، سبحانك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تعيي وتميت وأنت حي لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير.

* * *

الباب الرابع

في أدعية مأثورة عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله

يستحب للمريد إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء _ كما سيأتي ذكره في كتاب الأوراد _ فإن كنت من المريدين لحرث الآخرة المقتدين برسول الله على فيما دعا به فقل في مفتتح دعواتك (۱) أعقاب صلواتك (۲): سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وقل: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد الله نبياً (۱) ثلاث مرات _ وقل: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه (۱) وقل: اللهم إني أسألك العفو والمافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي. اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي وأقل عثراتي واحفظني من والمافية من خيرك وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك أن أفتال من تحتي (۱). اللهم بين يدي ومن غولي فيرك ولا تتجملني من القافلين (۱).

الباب الرابع:

في أدهية مأثورة عن النبي 郷

- (١) حديث: «افتتاح الدعاء بسبحان ربي العلي الأعلى الوهاب»، تقدم في الباب الثاني في الدعاء.
- (٣) حديث: القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.
 - (٣) حديث: قرضيت بالله رباً. . ٤ الحديث. تقدم في الباب الأول من الأذكار.
- (٤) حديث: «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعود بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه أخرجه أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة: «أن أبا يكر الصديق قال: يا رسول الله مرتي بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: قل اللهم» قذكره.
- (٥) حديث: «اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر حورتي وآمن روحتي وأقل حثرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وحن يميني وحن شمالي ومن قوقي وأحوذ بعظمتك أن أفتال من تحتي» أخرجه أبو دارد والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر: «قال لم يكن النبي ﷺ يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح».
- (٣) حديث: «اللهم لا تؤمني مكرك ولا تولني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين؟ رواه
 أنو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث ابن عباس دون قوله: «ولا تولني غيرك» وإسناده ضعيف.

ومَل: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووحدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بتعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت^(١) ـ ثلاث مرات ـ وقل: اللهم عافني في بلني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنث^(٢) ـ ثلاث مرات ـ وقل: اللهم إتي أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدي أو يعتدى عليَّ أو أكسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره^(٣). اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلباً خاشعاً سليماً وخلقاً مستقيماً ولساناً صادقاً وعملاً متقبلاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب(٤). اللهم اخفر لي ما قدّمت وما أخرت وما أسررت وما أحلنت وما أنت أعلم به مني، فإنك أنت المقدّم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل خيب شهيد(٥). اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينقد وقرّة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد ﷺ لهي أعلى جنة الخلد(١). اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين. أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل حمل يقرب إلى حبك وأن تتوب علي وتغفر في وترحمني، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون (٧٠). اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحبني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة المدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك، وأعوذ

⁽١) حديث: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صمت أبوء لك بنممتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر في إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ أحرجه البحاري من حديث شداد بن أوس وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: «اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت ـ ثلاث مرات ـ ا أخرجه أبو داود
 والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بكرة، وقال النسائي: جعفر بن ميمون ليس بالقوي.

⁽٣) حديث واللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء... الحديث. إلى قوله: «أو ذنباً لا يغفر» أخرحه أحمد والحاكم من حديث زيد بن ثابت في أثناء الحديث وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽٤) حديث: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد...» الحديث. إلى قوله: «وأنت علام الغيوب»
 أحرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث شداد بن أوس. قلت: بل هو منفطع وضعيف.

 ⁽٥) حديث: «اللهم اخفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت. . . ٤ الحديث. إلى قوله: «وعلى كل غيب
شهيده متفق عليه من حديث أبي موسى دون قوله. «وعلى كل غيب شهيد» وقد تقدم في الباب الثاني من هذا
الكتاب.

⁽٦) حديث: «اللهم أني أسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ينفد وقرة عين الأبد، . ، • الحديث، أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من حديث عبدالله بن مسعود دون قوله: «وقرة عين الأبد» وقال: صحيح الإسناد، والنسائي من حديث عمار بن ياسر بإسناد جيد: «وأسألك نعيماً لا يبيد وقرة عين لا تنقطع».

حديث: «اللهم إني أسألك الطيبات وقعل الخيرات. . . ٩ الحديث. إلى قوله: «غير مفتون» أخرجه الترمذي من
حديث معاذ: «اللهم أني أسألك فعل الخيرات. . . ٩ الحديث. وقال: حسن صحيح ولم يذكر: «الطبيات» وهي في
الدعاء للطبراني من حديث عبدالرحمن بن عايش، وقال أبو حاتم: ليست له صحبة.

بك من ضراء مضرة وقتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين (۱). اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تعول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة (۱). اللهم املاً وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقاً وأسكن في نقوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخدمتك، واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً. اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وأوسطه فلاحاً وآخره نجاحاً. اللهم اجعل أول يومنا هذا ومناه ألذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء لملكه واستسلم كل شيء لقدرته، والمحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل وخضع كل شيء لممكمة وعمام كل شيء لكبريائه (۱). اللهم صل على محمد وعلى آل امحمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آل إبراهيم في وذريته وبارك على محمد وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد (۱). اللهم صلً على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذي وعدته يوم الدين (۱). اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضائك عنا ووقفنا لمحابك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنسألك جوامع المخير وفواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع المشر وفواتحه لنيا (۱).

 ⁽١) حديث: اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة غيراً لمي . . . » الحديث . إلى قوله * قوله * قولجعلنا هداة مهندين أخرجه النسائي والحاكم وقال * صحيح الإسناد من حديث عمار بن ياسر ، قال: «كان رسول الله عليه يدعو به».

حديث: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصبتك. . . . الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن،
 والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري من حديث ابن عمر: «أن البي على كان يختم مجلسه بذلك».

 ⁽٣) حديث: اللهم املاً وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحاً. . . ١ الحديث. إلى قوله: (واجعلنا أخشى لك من سواك لم أقف له على أصل.

⁽٤) حديث: «اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً وأوسطه قلاحاً وآخره تجاحاً اللهم لجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة أخرجه عبد بن حميد في المنتخب، والطيراني من حديث ابن أبي أوفى بالشطر الأول نقط إلى قوله المحاحاً» وإسناده ضعيف.

 ⁽٥) حديث: «الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته. . » الحديث. إلى قوله: «وتصاغر كل شيء لعيبته» إلى لكبريائه» أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله: «والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته» إلى آخره، وكذلك رواه في الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضاً.

⁽٦) حديث: «اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته...) الحديث، إلى قوله: «حميد مجيد» نقدم مي الباب الثاني.

⁽٧) حديث: اللهم صلّ على محمد حبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسول الأميين وأعطه المقام المحمود يوم الدين؛ لم أجده بهذا اللفظ مجموعاً والبخاري من حديث أبي سعيد: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، وابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهةي من حديث ابن مسعود: «اللهم صلّ على محمد النبي الأمي، والنسائي من حديث جابر: «وابعثه المقام المحمود الذي وعدته» وهو عند البخاري ملفظ: «وابعثه مقاماً محموداً» قال الدارقطني: إسناده حسن، وقال الحاكم: صحيح، وقال البيهقي في المعرفة: إسناده صحيح.

⁽A) حديث: «اللهم اجملنا من أولبائك المتقين وحزبك المفلحين. . . » الحديث. إلى قوله: «صرفنا بحسن اختيارك لنا» لم أقف له على أصل.

كتأب الأذكار والدعوات

وخواتمه (١١) . اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحلمك عني اعف عني إنك أنت الغفار الحليم وبعلمك بي ارفق بي إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لي ملكني نفسي ولا تسلطها علي إنك أنت الملك الجبار^(٢). سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت هملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي إنك أنث ربي ولا يغفر الذنوب إلا أنت^(٣). اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي^(٤). اللهم ارزقني حلالاً لا تعاقبني عليه وقنعني بما رزقتني واستعملني به صالحاً تقبله مني(٥). اللهم إني أسألك العقو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة (٢٠٪. يا من لا تضره النَّنوب ولا تنْقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين. أنت وليي في اللنبا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين. أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين. واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين. ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم. ربنا اخفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. ربنا الهفر لنا ولإخواننا الذبن سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاَّ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم. ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتا علاب النار. ربنا إننا سمعتا منادياً بنادي للإيمان ـ إلى قوله عزّ وجلّ: إنك لا تخلف المبعاد. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ـ إلى آخر السورة(٢٠) ـ رب اففر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني

حديث. انسألك جوامع الخير وقواتحه وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وقواتحه وخواتمه أخرجه الطبراتي من حديث أم سلمة: وأنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات، فذكر منها: واللهم إنى أسألك فواتح الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين٬ فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه إلا موسى بن عقبة.

حديث: «اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت النواب الرحيم وبحلمك على اعف عني. . . » الحديث. إلى قوله: «إنك الملك الجبار» لم أقف له على أصل.

حديث: «سبحانك اللهم وبحملك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاخفر لي ذنبي أنت ربي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث على دون قوله: • قنبي إنك أنت ربي؛ وقد تقدم في الــاب

حديث: «اللهم الهمني رشدي وقني شر نفسي» أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين: «أن النبي ﷺ علمه لحصين؛ وقال: حسن غريب، ورواه النسائي في اليوم والليلة، والحاكم من حديث حصين والدعمران وقال: صحيح على شرط الشيخين.

حديث: «اللهم ارزقني حلالاً لا تعاقبني فيه بما رزقتني واستعملني به صالحاً تقبله مني» أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس: «كان النبي على يدعو: اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه وأخلف علي كل خائبة لي بخيره وقال: صحيح الإستاد ولم يخرجاه.

حديث: «اللهم إني أسألك العفو والمافية والمعافاة وحسن اليفين في الدنيا والآخرة أخرجه النسائي من حديث أبي بكر الصديق بلفظ: السلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة، وفي رواية للبيهقي: السلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فإنه ما أوتي العبد بعد اليقين خيراً من العافية؛ وفي رواية لأحمد: ﴿أَسَأَلُ لَلْهُ

حديث: «يا من لا تضره اللنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث على بسند ضميف.

صغيراً. واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات⁽¹⁾. رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العطيم، وحسينا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحيه وسلم تسليماً كثيراً^(۱).

أنواع الاستعادة المأثورة عن النبي ﷺ:

«اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر (٣). اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع، ومن طمع في غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع (١) اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع. وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن والهرم، ومن أن أرد إلى أرذل العمر، ومن فتنة المجال وعداب القبر، ومن فتنة المحيا والممات. اللهم إنا نسألك قلوباً أوّاهة مخبتة منية في سبيلك. اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة أمن النام والغرق والهدم، وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مديراً، وأعوذ بك من أن أموت في تطلب الدنيا(٢). اللهم إني أعوذ بك من أن

⁽١) حديث: «رب اقفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً» واقفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات» أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبي أسيد الساعدي: «قال رجل من بني سلمة: هل بقي علي من بر أبوي شيء؟ قال: نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما...» الحديث. ولأبي الشيخ ابن حبان في الثواب، والمستغفري في الدعوات من حديث أنس: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات ود الله عليه عن كل مؤمن مضي من أول اللهم أو هو كائن إلى يوم القيامة». وسنده ضعيف، وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي سعيد: «أيما رجل مسلم لم يكن صده صدقة فليقل في دهاته اللهم صلّ على محمد حدك ورسولك وصلّ على المؤمنات والمسلمات فإنها زكاة».

⁽٢) حديث: (رب اقفر وارحم وتجاوز هما تعلم وأنت الأهز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين». أخرجه أحمد من حديث أم سلمة: (أن رسول الله ﷺ كان يقول؛ رب الخفر وارحم واهدني السبيل الأقوم، وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه، وللطبراني في الدعاء من حديث ابن مسعود: (أنه ﷺ كان يقول: إذا سعى في بطن المسيل الملهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم، وفيه لبث بن أبي سليم مختلف فيه، ورواه موقوفاً عليه بسند صحيح.

 ⁽٣) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأحوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبرة. أخرجه البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص.

⁽٤) حديث: «اللهم إني أهود بك من طبع بهدي إلى طبع وطمع في فير مطبع، ومن طبع حيث لا مطبع». أحرجه أحمد والحاكم من حديث معاذ وقال: مستقيم الإستاد.

⁽ه) حديث: «اللهم إني أهوذ بك من هلم لا ينفع وقلب لا يخشع ودهاء لا يسمع . . . ٩ الحديث. إلى قوله: «والنجاة من الثار» أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح الإسناد، وليس كما قال إلا أنه ورد مفرقاً في أحاديث جيدة الأسانيد.

⁽٣) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من التردي وأعوذ بك من الغم. . . » الحديث. إلى قوله: «وأعوذ بك أن أموت في تطلب الدنيا» أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي اليسر واسمه كعب بن عمر بزيادة فيه دون قوله • هوأعوذ بك أن أموت في تطلب دنيا» وتقدم من عند البخاري الاستعادة من فتنة الدنيا.

ما علمت ومن شر ما لم أعلم (1). اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء (7). اللهم إني أعوذ بك من الكفر إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشمانة الأعداء (7). اللهم إني أعوذ بك من الكفر والمذين والفقر، وأعوذ بك من علاب جهنم وأعوذ بك من فتنة المدجال (3). اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر لساني وقلبي وشر منبي (6). اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحوّل (1). اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام (٧). اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك (٨). اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الفنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من المغرم والمأثم (١٠). اللهم إني أعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر (١٠). اللهم إني أعوذ بك من هذاب المعن وغلبة المعنو والمأثم (١٠). اللهم إني أعوذ بك من شمر الغم وفتنة الصدر (١٠). اللهم إني أعوذ بك من هذا المعنو وغلبة المعنو والمأثم (٢٠). اللهم إني أعوذ بك من شر الغم وفتنة الصدر (١٠). اللهم إني أعوذ بك من هذا المعنو وغلبة المعنو

حديث: «اللهم إني أعود بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أصلم». وقلت: هكذا في غير نسخة: «علمت» وإنما هو: «عملت، وأعمل» كذا رواه مسلم من حديث عائشة، ولأبي بكر بن الضحاك في الشمائل في حديث مرسل في الاستعادة وفيه: «وشر ما لم أهمل وشر ما لم أعلم».

 ⁽۲) حديث: «اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والأهواء». أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه
 واللفظ له من حديث قطبة بن مالك.

حديث . «اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوه القضاء وشماتة الأعداء» . متفى عليه من حديث أبي هريرة .

⁽٤) حديث: «اللهم إني أهوذ بك من الكفر والدين والفقر، وأهوذ بك من عذاب جهتم، وأهوذ بك من قتة الدجال». أخرجه النسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث أبي سميد الخدري عن رسول الله ﷺ «أنه كان يقول: «من الكفر والمدين» وفي رواية للنسائي: •من الكفر والفقر، ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: •أنه كان يتعوذ من عذاب القر وعذاب جهنم وفتنة الدحال». وللشيخين من حديث عائشة في حديث قال فيه: •ومن شر فتة المسبح المجال»

 ⁽٥) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لمساني وقلبي وشر منيي». أخرجه أبو داود والنسائي
والترمذي وحسنه الحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن حميد.

 ⁽٦) حديث: اللهم إتي أهوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول». أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

 ⁽٧) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والميلة والذلة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق
 والشقاق والنفاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسيء الأسقام، أخرجه أبو
 داود والنسائي مقتصرين على الأربعة الأخيرة والحاكم بتمامه من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽A) حديث: قاللهم إني أهوذ بك من زوال تعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك ومن جميع سخطك. أخرجه مسلم من حديث ان عمر.

 ⁽٩) حديث: «اللهم إني أعوذ بك من حاب النار وفتنة النار وحاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر
 فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من المأثم والمغرم. متفق عليه من حديث عائشة.

⁽١٠) حديث: «اللهم إني أهوذبك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودهوة لا تستجاب، وأهوذبك من سوء المعر وفتنة الصدرة. أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم في أثناء حديث: «اللهم إتي أهوذبك من قلب لا يخشع وتفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودهوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع». وشك أبو المعتمر في سماعه من أنس، وللنسائي بإسناد جيد من حديث عمر في أثناء حديث: «وأهوذ بك من وذنة الصدر».

وشماتة الأعداء»(١). وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين.

安安安

الباب الخامس

في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن، وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاء والخروج منه وأدعية الرضوء في كتاب الطهارة. فإذا خرجت إلى المسجد فقل: «اللهم اجعل في قلبي نوراً ووفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً واجعل من فوقي نوراً، اللهم أعطني نوراً " وقل أيضاً: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اثقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " ، فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل " بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي " ، بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا ققة إلا بالله العلمي العظيم بسم الله التكلان على الله " فإذا انتهبت إلى المسجد تريد دخوله فقل: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم. اللهم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك (" وقد مرجلك اليمنى في الدخول، فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع فقل: «لا أربح الله تجارتك» " وإذا

الباب الخامس

في الأدعية المأثورة هند كل حادث من الحوادث

- (٣) حديث: «القول عند الخروج إلى المسجد: اللهم اجعل في قلبي توراً وفي لساتي توراً...» الحديث، متفق عليه من حديث ابن عباس.
- (٣) حديث: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا إليك. . .» الحديث، من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن.
- (٤) حديث: «القول عند الخروج من المنزل لحاجته: بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي»
 أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة. قال الترمذي: حسن صحيح.
- (٥) حديث: "بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله أخرجه ابن ماجه من حديث أبي مريرة: «أن البي عليه كان إذا خرج من منزله قال: بسم الله قذكره إلا أنه لم يقل: "الرحمن الرحيم، وفيه ضعف.
- (٣) حديث: القرل عند دخول المسجد: اللهم صل على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك أخرجه الترمذي: وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، قال الترمذي: حسن وليس إسناده بمتصل، ولمسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد: ﴿إذَا دَحُلُ أَحدُكُم المسجد فليقل: اللهم افتح في أبواب رحمتك، وزاد أبو داود في أوله: ﴿فليسلم على النبي ﷺ ﴾.
- (٧) حديث: «القول إذا رأى من يبيع أو يتاع في المسجد: لا أربح الله تجارتك أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب،
 والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي هريرة.

 ⁽١) حديث: قائلهم إني أحوذ بك من خلبة الدين وخلبة العدو وشماتة الأحدادة. أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبدالله بن عمرو وقال: صحيح على شرط مسلم.

رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل: ﴿لا رُدُّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ؟. أمر به رسول الله ﷺ (١). فإذا صلبت ركعتي الصبح فقل: "بِسْم اللَّهِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِها قَلْبي. . ؛ الدعاء إلى آخره'''. كما أوردناه عن ابن عباسَ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. فإذا ركعت فقل في ركوعك: ﴿اللَّهُمُّ لَكَ رْكَعْتُ وَلَكَ خَشَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكُلْتُ. أَنْتَ رَبِّي خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُلِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمَي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَا(٣) وإن أحببت فقلَّ: اسُبْحَانَ رَبِّي العَظِيمَ م قُلاثُ مَوَّاتٍ مُانَا أَو فَسُبُوحٌ قُدُوسٌ رَبُّ المَلائِكَةِ وَالرَّوحِ (٥٠) فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل: السَّمِع اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمْوَاتِ وَمِلْءَ الأَرْضَ وَمِلْءَ ما شِفْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلِ النَّنَاءِ وَالْمَجَّدِ أُحَقُّ مَا قَالَ الْمَبْدُ وَكُلُّنَا لَمَكَ عَبْدٌ. لا مَانِع لِمَا أَعْطَيتَ وَلَا مُعْطِىَ لِمَا مَنْعُتَ وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدُّ مِنْكَ الجَدُه(٢)، وإذا سجدت فقل: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت. سجد وجهى للذي خلقه وصوَره وشق سمعه وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين. اللهم سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، أبوء بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي وهذا ما جنيت على نفسي فاغفر لي فإنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت ألاً. أو تقول: «سبحًان ربى الأعلى ـ ثلاث مرات ـ ألاث فإذا فرغت من الصلاة فقل: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، (٩) ، وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها. فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس فقل: «سبحانك اللهم وبحملك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك حملت سوءاً وظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ (١٠) ، فإذا دخلت السوق فقل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير(١١). بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما

١١) حديث: «القول إذا رأى من ينشد ضالة في المسحد: لا ردها الله عليك» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث أبن عباس في القول بعد ركعتي الصبح: قاللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي٤ النخ. قد تقدم في الدعاء.

 ⁽٣) حديث ابن عباس في القول في الركوع: (اللهم لك ركعت ولك أسلمت. . .) الحديث. أخرجه مسلم من حديث علي.

⁽٤) حديث القول فيه: ﴿سبحان ربِّي العظيُّمِ ثلاثاً . أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من حديث ابن مسعود وفيه انقطاعً .

حديث القول فيه: السبوح قدوس رب الملاتكة والروح الخرجه مسلم من حديث عائشة.

 ⁽٢١) حديث القول فيه عند الرقع من الركوع: «سمع الله لمن حمله ربتًا لمك الحمد. . . الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس دون قوله: «سمع الله لمن حمله فهي في اليوم والليلة للحسن بن علي المعمري وهي عند مسلم من حديث أبن أبي أوفى، وعند البحاري من حديث أبي هريرة.

 ⁽٧) حديث القول في السجود. • اللهم لك سجدت. . . ؟ الحديث، أخرجه مسلم من حديث علي: فاللهم سجد لك
سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي، أبوء بنعمتك عليّ وأبوه بذنبي وهذا ما جنيت على نفسي فاغفر لي فإنه لا ينفر
الذنوب إلا أنت؛ أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح الإسناد، وليس كما قال بل هو ضعيف.

 ⁽A) حديث: «سيحان ربي الأعلى» ثلاثاً. أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من حديث ابن مسعود وهو منقطع.

 ⁽٩) حديث القول إذا فرغ من الصلاة: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» أخرجه مسلم من حديث ثوبان.

 ⁽١٠) حديث: «كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحملك أشهد أن لا إله إلا أنت» أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث وافع بن خديج بإسناه حسن.

⁽١١) حديث القول عند دخول السوق: «لا إنه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قديره من حديث عمر وقال: غريب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

فيها، اللهم إني أهوذ بك من شرها وشر ما فيها. اللهم إني أهوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة (()) فإن كان عليك دين فقل: «اللهم اكفني بحلالك من حرامك وأفنني بفضلك عمن سواك (()) فإذا لبست ثوباً جديداً فقل: «اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأهوذ بك من شره وشر ما صنع له (()) وإذا رأيت شيئاً من الطيرة تكرهه فقل: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله (أ) وإذا رأيت الهلال فقل: «اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عمن تسخط، ربي وربك الله (). ويقول: «هلال رشد وخير آمنت بخالقك (()). «اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأهوذ بك من شريوم الحشر (()). وتكبر قبله أولاً ثلاثاً. وإذا هبت الربح فقل: «اللهم إني أسألك خير هذه الربح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شرما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شرما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن أسرما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن أسرما أرسلت به (الأخزف: ١٥٠٤) اللهم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في ألمَّيَا إِنَّ إِنَّ وَاللَّهُ عَلِينَ واخلفه على عقبه في

⁽١) حديث: فيسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها، اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها. اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها. اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها بميناً فاجرة أو صفقة خاسرة أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال: أقربها لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة. قلت: فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدي مختلف فه.

 ⁽٢) حديث دعاء الدين: اللهم اكفتي بحلالك عن حرامك ويقضلك عمن سواك أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب،
 والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث علي بن أبي طالب.

⁽٣) حديث الدعاء إذا لبس ثوباً جديداً: «اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأهوذ بك من شره وشر ما صنع له» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن، والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه ابن السني بلفظ المصنف.

⁽٤) حديث القول إذا رأى شيئاً من الطيرة يكرهه: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بالله، أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة، والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلاً ورجاله ثقات، وفي البوم والليلة لابن السني عن عقبة بن عامر فحعله مستداً.

⁽ه) حديث. «التكبير عبد رؤية الهلال ـ ثلاثاً ـ ثم يقول: اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام وبي وربك الله أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل "فلاثاً ورواه الترمذي وحسنه من حديث طلحة بن عبيدالله دون ذكر التكبير، وللبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلاً: •كان النبي ﷺ إذا رأى الهلال كبر ثلاثاً».

⁽٦) حديث: ٥هلال خير ورشد آمنت بخالفك، أخرجه أبو داود مرسلاً من حديث قتادة ٥أبه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال: هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالذي خلقك ـ ثلاث مرات ـ». وأسنده الدارقطني في الأفراد، والطبراني في الأوسط من حديث أنس، وقال أبو داود: وليس في هذا عن النبي ﷺ حديث مسند صحيح.

حديث: «اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر؟ أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في
 مسنديهما من حديث عبادة بن الصامت، وفيه من لم يسم بل قال الراوي عنه: حدثني من لا أتهم،

⁽A) حديث: «القول إذا هبت الربح: اللهم إني أسألك خير هذه الربح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بن كعب.

الغابرين. اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله، (١). وتقول عند التصدّق: ه ﴿ رَبَّا نَفْبَلُ مِنْا اللّهِ اللّهِ الْمَلِيدُ ﴾ [البَقرَة: ١٧٧] وتقول عند الخسران: ﴿ عَنَىٰ رَبًّا أَن بُنُولًا عَبّاً مِنْ أَمْلِكُ ﴾ [القلم: ٣٧] وتقول عند ابتداء الأمور: ﴿ رَبًّا عَلِنا مِن لَدُنكَ رَبّةً وَهِيّ أَنَا مِن أَمْلُ وَسَمّا ﴾ [الكهف: ٢٠] وتقول عند النظر إلى السماء: ﴿ رَبًّا مَا عَنْدَ النظر إلى السماء: ﴿ رَبًّا مَا عَنْدَ لَا يُعِلِّلا سَبّحَنكَ فَيْنَا عَنْابَ النَّارِ ﴾ [الله والله عند النظر إلى السماء: ﴿ رَبّنا مَا عَنْدَ لَلْهُ اللّهُ الله عَنْدَ النظر إلى السماء: ﴿ رَبّنا مَا عَنْدَ النظر إلى السماء: ﴿ رَبّنا مَا عَنْدَ الله الله عَنْدُ الله الله عَنْدُ الله الله عَنْدُ الله الله عَنْدُ الله الله الله وعافنا قبل والمُلاَئِكَةُ مِنْ حَيْقَتِهِ (١) فإن رأيت الصواعق فقل: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذبك وعافنا قبل دلك " . قاله كعب. فإذا أمطرت السماء فقل: «اللهم سقياً هنيئاً وصيباً نافعاً (١) اللهم اجعله صيب دلك " . قاله كعب. فإذا أمطرت السماء فقل: «اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب فيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم ونعوذ بك من رحمة ولا تجعله صيب عذاب (١) ، فإذا خفت قوماً فقل: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من من الشيطان الرجيم ونعوذ بك من من الشيطان الرجيم (١) ، فإذا خفت قوماً فقل: «اللهم إنا المخرب عناك فقل: «اللهم أنت مضدي ونعوذ بك من محمد على وقل: «فل: «فل: «فل: «فل: «فله من ذكرني بخير) وإذا رأيت استجابة دعائك فقل: «الحمد لله الذي بعزته محمد على الصالحات». وإذا أبطأت فقل: «الحمد لله على كل حال (١٠٠٠)، وإذا أسمعت أذان المغرب وجلاله تتم الصالحات». وإذا أبطأت فقل: «الحمد لله على كل حال (١٠٠٠)، وإذا المعت أذان المغرب

⁽١) حديث القول إذا بلغه وفاة أحد: ﴿ إِنَّا قِدَ وَإِنَّا إِنِّهِ رَجِعُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِنَّا إِنَّهُ رَبِّنَا لَمُعَلِّمُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَمَا لَمُعَلِّمُونَ ﴾ اللهم اكتبه من المحسين واجعل كتابه في علين واخلعه على عقبه في الغامرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تعتنا بعده واغفر لنا وله واخرجه ابن السبي في اليوم والليلة ، وابن حيان من حديث أم سلمة : فإذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنا في وإنا إليه واجعون ولمسلم من حديثها : قالهم اففر لأبي سلمة وارفع دوجته في المهديين واخلقه في عقبه في العابرين واعفر لنا وله يا رب العالمين واقسع له في قبره ونوّر له فيه ».

 ⁽٢) حديث: «القول إذًا سمع صوت الرعد: سبحان من يسبح الرحد بحمده والملائكة من خيفته» أخرجه مالك في الموطأ
عن عبدالله بن الزبير موقوفاً ولم أجده مرفوعاً.

 ⁽٣) حديث: «القول عند الصواعق: اللهم لا تقتلنا مغضبك ولا تهلكنا بعدابك وهافنا قبل ذلك؛ أخرجه الترمذي وقال: غريب، والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن عمر، وابن السني بإسناد حسن.

⁽٤) حديث «القول عند المطر: اللهم سقياً هنيئاً وصيباً نافعاً» أخرجه البخاري من حديث عائشة: «كان إذا رأى المطر قال: اللهم اجمله صيباً نافعاً» وابن ماجه: «سيباً» بالسين أوله، والنسائي في اليوم والليلة: «اللهم اجمله صيباً هنيئاً» وإسنادهما صحيح.

حديث: «اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب». أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث سعيد بن المسيب مرسلاً.

 ⁽٦) حديث: «القول إذا غضب: اللهم اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم» أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف.

 ⁽٧) حديث: «القول إذا خاف قوماً: اللهم إئي أجعلك في تحورهم وأعوذ بك من شرورهم» أخرجه أبو داود والنسائي في
اليوم والليلة من حديث أبي موسى بستد صحيح.

 ⁽A) حديث: «القول إذا غزا: اللهم أنت عضدي ونصيري بك أقاتل» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث أنس،
 قال الترمذي: حسن غريب.

 ⁽٩) حديث: «القول عند طنين الأذن: اللهم صل على محمد ذكر الله بخير من ذكرني» أخرجه الطبراني وابن عدي وابن السني في اليوم والليلة من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

⁽١٠) حديث: «القول إذا رأى استجابة دعائه: الحمد لله الذي بنعمته ثتم الصالحات، تقدم في الدعاء.

فقل: «اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار تهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي، (١٠ وإذا أصابك هم فقل: «اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلفك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزني وهمّى،(٣). قال ﷺ: •ما أَصَابَ أَحَداً حُزْنٌ فَقَالَ ذَٰلِكَ إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مُكَانَهُ فَرَحاً، فقيل له: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال ﷺ: "بَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَها أَنْ يَتَعَلَّمَها" وإذا وجدت وجعاً في جسلك أو جسد غيرك فارقه مرقية رسول الله ﷺ: •كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحاً وضع سبابته على الأرض ثم رفعها وقال: بسم الله، ثربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا»^(٣) وإذا ُوجدت وجعاً في جسدك فضع يدك على الذي يتألم من جسدك وقل: فبسم الله ــ ثلاثاً ــ وقل سبع موات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(٤) فإذا أصابك كرب فقل: «لا إله إلا الله العلي الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم، (م). فإن أردت النوم فتوضأ أولاً ثم توسد على يمينك مستقبل القبلة ثم «كبّر الله تعالى أربعاً وثلاثين وسبحه ثلاثاً وثلاثين واحمده ثلاثاً وثلاثين؛ (١١)، ثم قل: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك، اللهم إني لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك(٧). اللهم باسمك أحيا وأموت(^). اللهم رب السلوات ورب الأرض ورب كل شيء ومليكه فالق الحب والمنوى ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بتاصيتها أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنث الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء. اقض عني الدين وأغنني من الفقر^(١). اللهم إنك خلقت نفسي وأنت

⁽١) حديث: «القول إذا سمع أذان المغرب: اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دهاتك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي» أخرجه الترمذي وأبو داود وقال غريب، والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله: «وحضور صلواتك» فإنها عند الخرائطي في مكارم الأخلاق، والحسن من على المعمري في اليوم والليلة.

 ⁽٣) حديث: القول إذا أصابه هم: اللهم إني عبدك وابن أمتك ناصيتي بيلك. . . ٤ الحديث. أخرجه أحمد وابن حبان
 والحاكم من حديث ابن مسعود وقال: صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن عن أبيه فإنه محتلف
 في سماعه من أبيه.

⁽٣) حديث: «رقية رسول الله ﷺ: بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا بشفي سقيمنا بإذن ريناه منفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٤) حديث: اوضع يده على الذي بألم من جسده ويقول: بسم الله مـ ثلاثاً مـ ويقول: أهوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص.

 ⁽a) حديث: ادهاء الكرب لا إله إلا الله العلى الحليم. . .) الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس.

 ⁽٦) حديث: «التكبير عند النوم أربعاً وثلاثين والتسبيع ثلاثاً وثلاثين والتحميد ثلاثاً وثلاثين، متفق عليه من حديث علي.

 ⁽٧) حديث: «القول عند إرادة النوم: اللهم إني أهوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من هقوبتك وأهوذ بك منك اللهم لا
 أستطيع أن أبلغ ثناء هليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثنيت على نفسك أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث
 على، وفيه انقطاع.

 ⁽A) حديث: «اقلهم باسمك أحيا وأموت» أخرجه البخاري من حديث حذيفة، ومسلم من حديث البراء.

⁽٩) حليث: «اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فالق الحب والتوى. . .» الحديث. إلى قوله: "وأفننا من الفقر" أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

كتاب الأذكار والدعوات

تتوفاها. لك مماتها ومحياها، اللهم إن أمتها فاغفر لها وإن أحبيتها فاحفظها. اللهم إني أسألك العافية في اللنيا والآخرة ٬٬٬ باسمك ربي وضعت جنبي فاغفر تي ذنبي٬٬٬ اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك٬٬٬ الملهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفؤضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجاً ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت» (٤). ويكون هذا آخر دعائك، فقد أمر رسول الله على بذلك. وليقل قبل ذلك: «اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستعملني بأحب الأحمال إليك، تقرّبني إليك زلفي وتبعدني من سخطك بعداً، أسألك فتعطيني وأستغفرك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي الله المتيقظت من نومك عند الصباح فقل: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور(٢٠). أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله(٧٠). أصبحنا على قطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وملة أبيتا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين(^^ . اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك تموت وإليك المصير (٢٠) . اللهم إني أسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً أو نجره إلى مسلم فإنك قلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي بَنُوفَنْكُم مِالِّيْلِ وَيَمْلَمُ مَا جَرَعْتُم

حديث: «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها. . . ٤ الحديث. إلى قوله: «اللهم إني أسألك العافية» أخرجه مسلم (1)من حديث ابن عمر.

حديث: «بالسمك ربي وضعت جنبي فالحفر لي ذنبي» أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبدالله بن عمرو بسند جيد، وللشيخين من حديث أبي هريرة: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرقعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها؛ وقال البخاري٬ افارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

حديث: «اللهم **قني عذابك يوم تجمع عبادك؛** أخرجه الترمدي في الشماثل من حديث ابن مسعود، وهو عند أبي داود من حديث حقصة بلفظ: التبعث؟، وكذا رواه الترمذي من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسته.

حديث: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك. . . » الحديث. منفق عليه من حديث البراء.

حديث: «اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستعملني في أحب الأعمال إليك تقربني إليك زلفي وتبعدني من سخطك بعداً أسألك فتعطيني وأستغفرك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس: «اللهم ابعثنا في أحب الساعات إليك حتى نذكرك فتذكرنا ونسألك فتعطينا وندعوك قتستجيب لنا ونستغفوك فتغفو لنا» وإسناده ضعيف، وهو معروف من قول حبيب الطائي، كما رواء ابن أبي الدنيا في

حديث: «القول إذا استيقظ من منامه: الحمد لله الذي أحياتا بعد ما أماتنا وإليه النشورا أخرجه البخاري من حديث حذيفة، ومسلم من حديث البراء.

حديث: «أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة الله أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة الأصبحنا وأصبح الملك والحمد والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالممين» وله في الدعاء من حديث ابن أبي أوفى: «أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والمخلق والليل والمنهار وما سكن فيهما فه، وإسنادهما صعيف، ولمسلم من حديث ابن مسعود. «أصبحنا وأصبح الملك لله».

حديث: وأصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبدالرحمن بن أبزى بسند صحيح، ورواه أحمد من حديث ابن أيزي عن أبي بن كعب مرفوعاً.

حديث: اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير، أخرجه أصحاب السنن والن حبان وحسنه الترمذي إلا أنهم قالوا: ﴿وَإِلَيْكَ النَّشُورِ» ولابن السني: ﴿وَإِلَيْكَ الْمُصِيرِ».

بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْمَنُعَكُمْ فِيهِ لِيُقْفَى آجَلُّ مُسَمَّ [الانتام: ٦٠] (١) , اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأحوذ بك من شره وشر ما فيه (١) بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله . ما شاء الله كل نعمة من الله . ما شاء الله الخير كله بيد الله . ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله (١) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد على أنبياً . _ وبنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (١) _ وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول : فأمسينا ، ويقول مع ذلك : أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما فرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم (٥) . وإذا نظر في المرآة قال : المحمد لله الذي سوى خلقي فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين (٢) . وإذا

⁽١) حديث: «اللهم إنا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءاً أو نجره إلى مسلم. . .>
الحديث. لم أجد أوله، والترمذي من حديث أبي مكر في حديث له: «وأهوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان
وشركه وأن نقترف على أنفسنا سوءاً أو نجره إلى مسلم، رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري بإسناد حيد.

⁽٣) حديث: اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا البوم وخير ما فيه وأحوذ بك من شره وشر ما فيه». قلت: هو مركب من حديش، فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سميد قال: اكان رسول الله ﷺ يدعون الملهم فالق الإصباح وجاعل المليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أقض عني المدين وأغنني من الفقر وقوتي على الجهاد في سبيلك» وللدارقطني في الأفراد من حديث البراء: اقسألك خير هذا البوم وغير ما بعده ونعوذ بك من شر هذا البوم وشر ما بعده ، وأبو داود من حديث أبي مالك الأشعري: «الملهم إنا تسألك خير هذا البوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده وسنده جيد، وللحس بن علي المعمري في البوم والليلة من حديث ابن مسعود: اللهم إني أسألك خير ما في هذا الميوم وخير ما بعده، وأحوذ بك من شر هاذ البوم وخير ما بعده، والحديث عند مسلم في المساء: الخير ما في هذه الميلة . . . الحديث ثم قال: وإذا أصبح قال ذلك أيضاً.

⁽٣) حديث: «بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله النخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله؛ عد في الكامل من حديث ابن عباس، ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي على قال: «بلتقي المخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم يمنى فيحلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات؛ فذكره ولم يقل: «الخير كله بيد الله؛ قال موضعها: الا يسوق المخير إلا الله؛ قال ابن عباس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي أمنه الله من الخرق والحرق وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحية والمعقرب، أورده في ترجمة الحمين بن رزين قال: ليس بالمعروف وهذا بهذا الإسناد منكر.

 ⁽٤) حديث: ارضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، تقدم في الباب الأول.

⁽٥) حديث: «القول عبد المساء مثل الصباح إلا أنك تقول: أصبينا وتقول مع ذلك: أعوذ بكلمات الله الثامات وأسمائه كلها من شر ما ذراً ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صواط مستقيم أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث عبدالرحمن بن عوف: «من قال حين يصبع: أهوذ بكلمات الله المتامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وبراً وذراً اعتصم من شر المثقلين. . . > الحديث. وفيه: قوإن قالهن حين يمسي كان له كذلك حتى يصبع»، وفيه ابن لهيعة. ولأحمد من حديث عبدالرحمن بن حسن في حديث: فإن جبريل قال: يا محمد قل أحوذ يصبع» وفيه ابن لهيعة. ولأحمد من حديث عبدالرحمن بن حسن المسماء . . > الحديث. وإسناده جيد، ولمسلم من حديث أبي هريرة في الدعاء عند النوم: «أهوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها» وللطبراني في الدعاء من حديث أبي الدداء: «اللهم إني أهوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها» وللطبراني في الدعاء من حديث أبي الدداء: «اللهم إني أهوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة . . . الخه الحديث. وقد تقدم في الباب الثاني.

 ⁽٦) حديث: «القرل إذا نظر في المرآة: المحمد فه اللذي سوى خلقي قمدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجملني من المسلمين؛ أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن السني في اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضعيف.

اشتريت خادماً أو غلاماً أو دابة فخذ بناصيته وقل: اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه (١٠). وإذا هنأت بالنكاح فقل: بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير (١٠). وإذا قضيت الدين فقل للمقضي له: بارك الله لك في أهلك ومالك» إذ قال عليه : «وَإِنَّما جَزّاءُ السَّلْفِ الحَمْدُ وَالأَدَاءُ (١٠).

فهذه أدعية لا يستغني المريد عن حفظها، وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها في كتاب الحج والصلاة والطهارة.

فإن قلت: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟ فاعلم: أن من القضاء رد البلاء بالدعاء. فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض. فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان. وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النَّساء: ٧١] وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذر، فيقال: إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت. بل ربط لأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدريج، والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسبب، والذي قدّر الشر قدر ندفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته. ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر، فإنه يستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات، ولذلك قال ﷺ: ﴿الدُّحَاةُ مُخُّ العِبَادَةِ" (الغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عزَّ وجلَّ إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملمة، فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض. فالحاجة تحوج إلى الدعاء، والدعاء يرد القلب إلى الله عزَّ وجلَّ بالتضرع والاستكانة، فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات. ولذلك صار البلاء موكلاً بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل؛ لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عزّ وجلُّ ويمنع من نسيانه، وأما الغني فسبب للبطر في غالب الأمور، فإن الإنسان ليطغي أن رآه استغني. فهذا ما أردنا أن نورده من جملة الأذكار والدعوات والله الموقق للخير. وأما بقية الدعوات في الأكل والمسفر وعيادة المريض وغيرها فستأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان.

نَجَزَ كتاب الأذكار والدعوات بكماله، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب الأوراد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

 ⁽۱) حديث: «الغول إذا اشترى خادماً أو دابة: اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأهود بك من شوه وشو ما جبل عليه» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد.

 ⁽٢) حديث: «التهنئة بالنكاح؛ بارك الله لله وبارك عليك وجمع بينكما في خيرا أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هويرة، قال الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽٣) حديث «الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه: بارك الله لك في أهلك ومالك. إنما جزاء السلف الحمد والأداء» أخرجه النسائي من حديث عبدالله بن أبي ربيعة قال: «استقرض مني النبي عليه أربعين ألفاً فجاءه مال فدعه إلى» قال: فذكره وإسناده حسن.

 ⁽١) حديث: والدعاء مخ العبادة، نقدم في الباب الأول.

کتاب ترتیب الأوراد وتفصیل إحیاء اللیل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين وبه اختتام ربع العبادات نقع الله به المسلمين

يند أَهُ النَّخِبِ النَّجَدِ

نحمد الله على آلائه حمداً كثيراً، ونذكره ذكراً لا يغادر في القلب استكباراً ولا نفوراً، ونشكره إذ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً، ونصلي على نبيه الذي بعثه بالحق بشيراً ونذيراً، وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله غدوة وعشياً وبكرة وأصيلاً، حتى أصبح كل واحد منهم نجماً في الدين هادياً وسراجاً منيراً.

أما بعد: فإن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده لا ليستقروا في مناكبها مل ليتخذوها منزلاً فيتزودوا منها زاداً يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم، ويكتنزون منها تحفاً لنفوسهم عملاً وفضلاً محترزين من مصائدها ومعاطبها، ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها. فالناس في هذا العالم سفر، وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار. والعمرة مسافة السفر؛ فسنوه مراحله، وشهوره فراسخه، وأبامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعته بضاعته، وأوقاته رؤوس أمواله، وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم. فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضي في غير طاعة تقربه إلى الله زلهى متعرض في يوم التغابل لغبينة وحسرة ما لها منتهى، ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجدّ، وودعوا بالكلية ملاذ النفس، واغتنموا بقابا العمر، ورتبوا بحسب تكرر الأوقات وظائف الأوراد حرصاً على إحباء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار، والسعي إلى دار القراد. فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات، ويتضح تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات، ويتضح تفطيا المهم بذكر بابين:

الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار.

الباب الثاني: في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به.

الباب الأول

في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى:

اهلم: أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى وعارفاً بالله سبحانه، وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله. وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها لله البلغة والضرورة، وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار. والنفس لما جبلت عليه من السآمة والملال لا تصبر على فنّ واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر، بل إذا ردت إلى نمط أظهرت الملال والاستثقال وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا، فمن ضرورة اللطف بها أن تروّح بالتنقل من فنّ إلى فن، ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت؛ لتغزر بالانتقال لَذَتُها، وتعظم باللَّذة رغبتها، وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها. فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة، فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها، فإن النفس بطبعها ماثلة إلى ملاذ الدنيا. فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلاً، والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساوياً فأنى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجع، إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو في طلبهما القلب ويتجرد. وأما الرد إلى العبادات فمتكلف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات، فمن أراد أن يدخل الحنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة، ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته، فإن خُلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً قَأمره مخطر، ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر، فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه.

 ﴿ مُسَبّحَن اللهِ حِينَ تُسُونَ وَحِينَ تُصَبِحُن ﴿ الرُّوم: ١٥ وقال تعالى: ﴿ وَلا تَظْرُو اللّهِ يَ يَدُون رَبّهُ وَ اللّهَ اللّهِ اللّهُ مَا اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ الل

بيان أعداد الأوراد وترتيبها:

اعلم: أن أوراد النهار سبعة: فما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وردان، وما بين الروال إلى وقت العصر وردان، وما بين العصر إلى المغرب وردان. والليل ينقسم إلى أربعة أوراد: وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس، ووردان من التصف الأخير من الليل إلى ظلوع الفجر. فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به.

فالورد الأوّل: ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال: ﴿ وَالشَّيْحِ إِنَا نَفْسَ ﴿ ﴾ [التّكوير: ١٨] وتمدحه به إذ قال: ﴿ وَالْفَيْتِ إِنَا نَفْسَ ﴾ [التّكوير: ١٨] وتمدحه به إذ قال: ﴿ وَالْفَيْتِ إِنَا اللّهِ مِبْكِ ﴾ [الأنفام: ٢١] وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى: ﴿ فَمُ قَصِّتَهُ إِلَيْنَا فَضَنَا بَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس، وإرشاده الناس إلى التسبيح فيه بقوله تعالى: ﴿ فَشَبْحَنَ اللّهِ حِبْنَ تُسُونَ وَجِبْنَ أَسُونَ وَجِبْنَ اللّهُ مُومِنَ اللّهُ عَلَى اللّهُ وَمِنْ عَالَى اللّهُ وَمَنْ عَالَى اللّهُ وَمَنْ عَالَى اللّهُ وَمَنْ عَالَى اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَ

فأما ترتيبه:س فليأخذ من وقت انتباهه من النوم، فإذا انتبه فينبغي أن يبتدىء بذكر الله تعالى فيقول: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. . . إلى آخر الأدعية، والآيات التي ذكرناها في

كتاب الأوراد وقضل إحياء الليل الباب الأوّل: في فضيلة الأوراد

 ⁽١) حديث: «أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله» أخرجه الطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن أبي أوفئ بلفط: •خيار عباد الله».

دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات، وليلبس ثوبه وهو في الدعاء وينوي به ستر عورته؛ امتثالاً لأمر الله تعالى واستعانة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رعونة، ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء، ويدخل أوَّلاً رجله اليسري ويدعو بالأدعية التي ذكرناها فيه في كتاب الطهارة عند الدخول والخروج. ثم يستاك على السنَّة ـ كما سبق ـ ويتوضأ مراعياً لجميع السنن والأدعية التي ذكرناها في الطهارة فإنا إنما قدمنا آحاد العبادات لكي نذكر في هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط. فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتي الفجر؛ أعني السنَّة في منزله(١٠) ، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ ، ويقرأ بعد الركعتين سواء أداهما في البيت أو المسجد الدعاء الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ويقول: ﴿اللَّهُمُ إنى أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي إلى آخر الدعاء. . . "(١)، ثم يخرج من البيت متوجهاً إلى المسجد، ولا ينسي دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعياً، بل يمشي وعليه السكينة والوقار(٣)، كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه. ويدخل المسجد ويقدّم رجله اليمني ويدعو بالدعاء المأثور لدخول المسجد(؟)، ثم يطلب من المسجد الصف الأوّل إن وجد متسعاً ولا يتخطى رقاب الناس ولا يزاحم ـ كما سبق ذكره في كتاب الجمعة ـ ثم يصلي ركعتي الفجر إن لم يكن صلاهما في البيت ويشتغل بالدعاء المذكور بعدهما، وإن كان قد صلى ركعتى الفجر صلى ركعتي التحية وجلس منتظراً للجماعة. والأحب التغليس بالجماعة، فقد كان ﷺ يغلس بالصبح (*)، ولا ينبغي أن يدع الجماعة في الصلاة عامة وفي الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل. فقد روي أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال في صلاة الصبح: •مَنْ نَوَضًا ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِيُصَلَّىَ فِيهِ الصَّلاةَ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطُوةِ حَسَنَةٌ وَمُجِيَ عَنْهُ سَيْئَةً، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، فَإِذَا صَلَّىٰ ثُمَّ انْصَرَفَ جِنْدَ طُلُوعِ الشَّبْس كُتِبَ لَهُ بِكُلُّ شَغْرَةٍ فِي جَسَلِهِ حَسَنَةٌ وَانْقَلَبْ بِحَجَّةٍ مَبْزُورَةٍ، فَإِنْ جَلَسَ حَتْىٰ يَرْكَعَ الضَّحَىٰ كُتِبَ لَهُ بِكُلُّ رَكْعَةٍ أَلْفًا أُلْفِ حَسَنَةٍ، ۚ وَمَنْ صَلَّىٰ العَتْمَةَ فَلَهُ مِثْلُ ذَٰلِكَ وَانْقَلَبَّ بِعُمْرَةٍ مَبْرُورَةٍا^{٣٠)}، وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر. قال رجل من التابعين: دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فلقيت أبا هريرة قد سبقني فقال لي: يا ابن أخي لأي شيء خرجت من منزلك في هذه الساعة؟ فقلت: لصلاة الغداة فقال: أنشر فإنا كنا تعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله تعالى(٧). أو

 ⁽١) حديث: اصلاة ركعتي الصبح في المنزل؛ متفق عليه من حديث حفصة.

 ⁽٢) حديث: «الدعاء بعد ركعتي الصبح: اللهم إني أسألك رحمة من عندك. . . الحديث، تقدم.

 ⁽٣) حديث: «المشي إلى الصلاة وعليه السكينة» متفق عليه من حديث حفصة.

 ⁽٤) حديث: «الدعاء المأثور لدخول المسجد، تقدم في الباب الخامس من الأذكار.

 ⁽a) حديث: «التغليس في الصبح» متفق عليه من حديث عائشة.

⁽٦) حديث أنس في صلاة الصبح: قمن توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحي عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها، وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بعجة مبرورة، فإن جلس حتى يركع كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة، ومن صلى المتمة فله مثل ذلك وانقلب بعجة ميرورة، ثم أجد له أصلاً بهذا السياق، وفي شعب الإيمان للبيهتي من حديث أنس بسند ضعيف قومن صلى المغرب في جماعة كان له كحجة ميرورة وعمرة متقبلة».

حُديث أبي هريرة اكنا نعد خروجنا وقعودنا في المجلس في هذه الساعة بمنزلة غروة في صبيل الله لم أقف له على
أصل.

قال: _ مع رسول الله على - وعن علي رضي الله عنه: «أنّ النبي على طرقه وفاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان فقال: «ألا تصليان؟» قال على: فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثها بعثها، فانصرف على فسمعته وهو مصرف يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَنُ أَكُمْ مَيْرَ عَلَاكُ يَعْ الْعَمْ ودعائه بالاستغفار والنسبيح إلى أن تقام الصلاة الكهف: ٤٥]ه (). ثم ينبغي أن يشتغل بعد ركعتي الفجر ودعائه بالاستغفار والنسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه سبعين مرة، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة، ثم يصلي الفريضة مراعياً جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة في الصلاة والقاهرة والقلوة والقلوة والقلام المسجد إلى طلوع الشمس في ذكر الله تعالى ـ كما سنرتبه ـ فقد قال على: «لأن أقفد في منجليسي أذْكُو الله تعَالَىٰ فِيهِ مِنْ صَلاةٍ الْغَنَاةِ إِلَىٰ طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَىٰ مِنْ أَنْ أَوْمَ الْرُبِي وَوَابِ (**). وروي: «أنه على الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس ـ وفي بعضها ـ ويصلي ركعتين (**). أي بعد الطلوع، وقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى، وروى الحسن: «أن رسول الله على كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول: إنه قال: «يا ابْنَ آدَمَ اذْكُرْفي بَعْدَ صَلاةِ الفَجْرِ سَاعَة أَكُونُكُ ما يَبْنَهُمَاه (**)، وإذا ظهر فضل ذلك فليقعد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس، بل ينبغي أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع: أدعية وأذكار ويكررها في سبحة، وقراءة قرآن وتفكر.

أما الأدعية: فكلما يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل: «اللهم صلَّ على محمد وعلى آل محمد وسلم. اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»، ثم يفتتح الدعاء بما كان يفتتح به رسول الله على وهو قوله: «سُبْحَانَ رَبُيَ الْمَلِيِّ الْأَعْلَىٰ الوَهَابِ، لا إِلْهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحُدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيُّ لا يَمُوتُ بِيدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لا إِلَهُ إِلاَّ اللَّهُ أَهُلُ النَّمْمَةِ وَالفَضْلِ وَالنَّنَاءِ الحَسَنِ. لا إِلهُ إِلاَّ اللَّهُ وَلا يَعْمَةً إِلاَّ إِللَّهُ إِلاَّ اللَّهُ وَلا أَللُهُ وَلا أَللُهُ وَلا أَللُهُ وَلا إِللهُ إِلاَّ اللَّهُ وَلا أَللُهُ وَلا إِللهُ إِلاَّ اللَّهُ وَلا اللهُ وَلا إِللهُ إِللهُ اللهُ وَلا اللهُ وَلا إِللهُ إِللهُ اللهُ وَلا اللهُ وَلا إِللهُ إِلاَ إِللهُ إِلاَ اللهُ وَلا اللهُ وَلا إِللهُ إِللهُ اللهُ وَلا اللهُ وَلا اللهُ وَلا إِللهُ إِللهُ إِللهُ إِللهُ اللهُ وَلا اللهُ وَلا اللهُ وَلا إِللهُ وَلا اللهُ وَلا اللهُ وَلا اللهُ وَلا إِلهُ اللهُ وَلا اللهُ وَلا اللهُ وَالرَابِع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها ما يراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه.

وأما الأذكار المكررة: فهي كلمات ورد في تكرارها فضائل لم نطوّل بإيرادها، وأقل ما ينبغي أن

 ⁽١) حديث علي: «أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة وهما نائمان فقال: «ألا تصليان؟» قال علي: فقلت: يا رسول الله،
 إنما أنفسنا بيد الله... الحديث. متفق عليه.

 ⁽٢) حديث: الأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة الفداة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أحتى أربع رقابه أخرجه أبو داود من حديث أنس، وتقدم في الباب الثالث من العلم.

⁽٣) حديث: اكان إذا صلى الغداة قعد في مُصَلاً حتى تطلع الشمس ، وفي بعضها ، ويصلي ركعتين أي بعد الطلوع ، أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين، والترمذي من حديث أنس وحسنه: «من صلى الفجر في جماعة ثم قمد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة نامة نامة المة .

 ⁽३) حديث الحسن: قأن رسول الله على كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال: يا ابن آدم اذكرني من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلاً.

⁽a) حديث: «كان يفتتح الدعاء بسبحان ربى العلى الأعلى الرهاب، تقدم.

يكرّر كل واحد منها ثلاثاً أو سبعاً وأكثره مائة أو سبعون وأوسطه عشر، فليكرّرها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر، والأوسط الأقصد أن يكرّرها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه، وخير الأمور أدومها وإن قلّ. وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشدّ تأثيراً في القلب من كثيرها مع الفترة. ومثال القليل الدائم: كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالي فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر، ومثال الكثير المنفرّق: ماء يصب دفعة أو دفعات متفرّقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر، وهذه الكلمات عشرة:

الأولى: قوله: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قديرة (١٠).

الثانية: قوله: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم»(٢).

الثالثة: قوله: اسبوح قدوس رب الملائكة والزوح (٣).

الرابعة: قوله: السبحان الله المظيم وبحملهه (٤).

الخامسة: قوله: «أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة» .

السادسة: قوله: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ».

⁽١) حديث: «الفضل في تكرار: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده المخير وهو على كل شيء قدير» تقدم من حديث أبي أيوب تكرارها عشراً دون قوله: «يحيي ويميت وهو حي لا يموت» بيده المخير» فإنها في اليوم والليلة للنسائي من حديث أبي ذر دون قوله: «وهو حي لا يموت» وهي كلها عند البزار من حديث عبدالرحمن من عوف فيما يقال عند الصباح والمساء، وتقدم تكرارها مائة ومائتين، وللطبرائي الدعاء من حديث عبدالله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف.

 ⁽٣) حديث «الفضل في تكرار: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله أخرجه النسائي
 في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري: «استكثروا من الباقيات الصالحات، فذك ها.

 ⁽٣) حديث. "تكرار. سبوح قلوس رب الملائكة والروح». لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة:
 قأنه ﷺ كان يقولها في ركوعه وسجوده وقد تقدم. ولأبي الشيخ في النواب من حديث البراه: "أكثر من أن تقول: مبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح».

 ⁽٤) حديث: اتكرار: سبحان الله ويحمده متفق عليه من حديث أبي هويرة: امن قال ذلك في يوم ماثة مرة حطت خطاياه
 وإن كانت مثل زيد البحرة.

⁽٥) حديث: التكرار: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله النوية؟ أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث معاذ: قان من قالها بعد الفحر وبعد المصر ثلاث موات كفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحرا ولفظه: قواتوب إليه؟ وفيه ضعف، وهكذا رواه الترمذي في حديث أبي سعيد في قولها: قثلاثاً؟ وللبخاري من حديث أبي هريرة: فإني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ولم يقل الطبرائي قاكثر ولمسلم من حديث الأعرابي: قالمتغفر الله في كل يوم مائة مرة تقدمت هذه الأحاديث في الباب الثاني من الأذكار.

⁽٦) حديث : "تكرار ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجداء، لم أجد تكرارها في حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرفع من الركوع .

السابعة: قوله: «لا إله إلا الله الملك الحق المبين»(١).

الثامنة: قوله: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»(٧).

التاسعة: «اللهم صلُ على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلما^(۱۲).

العاشرة: قوله: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون (٤). فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة، فهو أفضل من أن يكرر ذكراً واحداً مائة مرة؛ لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلاً على حياله، وللقلب بكل واحد نوع تنبه وتلذذ، وللنفس في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل.

قُما القرامة: فيستحب له قراءة جملة من الآيات وردت الأخبار بفضلها: وهو أن يقرأ سورة الحمد(٥٠)،

⁽١) حديث: "تكرار: لا إله إلا الله العلك الحق المبين" أحرجه المستغفري في الدعوات، والخطيب في الرواة عن مالك من حديث علي. "من قالها في يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجلب به الغنى واستقرع باب الجنة"، وفيه الفضل بن غانم ضعيف، ولأبي نعيم في الحلية: "من قال ذلك في كل يوم وليلة مائني مرة لم يسأل الله فيهما حاجة إلا قضاها" وفيه سليم الخواص ضعيف، وقال فيه: أظنه عن على.

٢) حديث: «تكرار: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع المليم! أخرجه أصحاب السنن وامن حيان والحاكم وصححه من حديث عثمان: «من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسي لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي؛ قال الترمذي: حسن صحبح غريب.

⁽٣) حديث: «تكرار: اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد؛ ذكره أبو القاسم محمد بن عبدالواحد الغافقي في فصائل القرآن من حديث ابن أبي أوفى: «من أراد أن يموت في السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات فذكره وهو منكر.

قلت: ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعبير لهذه الصبغة. رواه الطبراتي من حديث أبي الدرداء بلفظ، همن صلى على على عين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة» ونيه انقطاع.

حديث: «تكرار: أهوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أهوذ بانة من همزات الشياطين وأهوذ بك رب أن يحضرون الخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أهوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكُل الله به سبعين ألف ملك. .» الحديث. «ومن قالها حين يسمي كان بتلك المنزلة» وقال: حسن فريب، ولامن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطرع قبله: «من قالها حين يصبح عشر مرات أجير من الشيطان إلى الصبح. . . » الحديث، ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة: «ألا أطمك يا خاله كلمات تقولها ثلاث مرات؟ قل: أهوذ يكلمات الله التامة من غضيه وهقابه وشر هباده ومن همزات أطمك يا خاله كلمات تقولها ثلاث مرات؟ قل: أهوذ والترمذي وحسنه والحاكم وصححه فيما يقال عند الفزع، دون تكرارها ثلاثاً من حديث عبدالله بن عمرو.

حديث: "فضل سورة الحمد" أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنها أعظم السور في القرآن، ومسلم من حديث ابن عباس: «في الملك الذي نزل إلى الأرض وقال للنبي على أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة، لم تقرأ يحرف منها إلا أعطيته.

وآية الكرسي^(۱)، وخاتمة البقرة^(۲). من قوله: ﴿ الْأَيْسُولُ ﴾ [البَقْرَة: ٢٨٥] و ﴿ آلِهِ اللّهُ ﴾ [آل جِمرَان: ١٨] و ﴿ وَ اللّهُ مَنْكُ اللّهُ ﴾ [آل جِمرَان: ٢٦] الآيتين أن وقوله تعالى: ﴿ الْقَدّ مَنْكُ اللّهُ مَنْكُ اللّهُ مَنْكُ اللّهُ مَنْكُ اللّهُ مَنْكُ اللّهُ مَنْكُ اللّهُ الرّهُ يَا بِالْحَقِّ ﴾ [الفَتْح: ٢٧] إلى أَخْرها أن وقوله سبحانه: ﴿ الْمَنْمُ : ٢٧] إلى أَخْرها أن وقوله سبحانه: ﴿ الْمَنْدُ لِنّهِ اللّهِ مَنْ أَولُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اله

- (1) حديث. «فصل آية الكرسي» أخرجه مسلم من حديث أبي بن كعب: «يا أبا المنقر أثدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم...» الحديث. والبخاري من حديث أبي هريرة في توكيله بحفظ تمر الصدقه ومجيء الشيطان إليه وقوله. «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ...» الحديث. وفيه: «ففال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقك وهو كذوب».
- (٢) حديث: "فضل خاتمة البقرة» متفق عليه من حديث أبي مسعود: "من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه"
 وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث.
- (٣) حديث: «فضل شهد الله» أخرجه أبو الشيخ وابن حيان في كتاب الثواب من حديث ابن مسعود: «من قرأ شهد الله _ إلى قوله _ الإسلام ثم قال: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي في عنده وديعة جيء به يوم القيامة فقيل له: عبدي هذا عهد إلى عهداً وأنا أحق من وفي بالعهد أدخلوا عبدي الجنة» وفيه عمر بن المختار روى الأباطيل، قاله ابن عدي، وسيأتى حديث على بعده.
- 3) حديث: «فضل: قل اللهم مالك الملك الآيتين» أخرجه المستنفري في الدعوات من حديث علي: «أن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله: الإسلام، وقل اللهم مالك الملك إلى قوله: بغير حساب معلقات ما بيسهن وبين الله حجاب. . » الحديث. وفيه: «فقال الله: لا يقرأكن أحد من عبادي دير كل صلاة إلا جعلت العبنة مثوله. . . » الحديث. وفيه الحارث بن عمير وفي ترجمته ذكره ابن حبان في الضعفاء وقال: موضوع لا أصل له ، والحارث يروي عن الأثبات الموضوعات. قلت: وثقه حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي وروى له البخاري تعليقاً.
- حديث افضل: ﴿ لَقَدَ جَانَ حَثْمُ رَسُولَ فِي الدَّعَامُ ﴾ [التّونة: ١٢٨] إلى آخرها أخرجه الطيراني في الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف: اعلمني رسول الله ﷺ ما أحترز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد اقذكر حديثاً وفي آخره: "ققل حسبي الله إلى آخر السورة" وذكره أبو القاسم الغاققي في فضائل القرآن في رغائب القرآن لعدالملك بن حبيب من رواية محمد بن بكار: "أن رسول الله ﷺ قال: من لزم قراءة ﴿ لَقَدَ جَهَ حَثْمُ رَسُولُ عَلَى الْعَرَانُ ولا حرقاً ولا حرقاً ولا ضرباً بحديدة وهو ضعيف.
- حديث، قفضل: ﴿ لَنَدْ صَدَفَ اللهُ رَسُولُهُ ٱلرُّهَا بِالْعَقِّ ﴾ [الفَتْح ، ٢٧] لم أجد به حديثاً يخصها، لكن في فصل سورة الفتح ما رواه
 أبو الشيخ في كتاب من حديث أبي بن كعب: قمن قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبي ﷺ وهو حديث موضوع.
- (٧) حديث: «فضل: ﴿ أَلَفْنَهُ يَتِو ٱللَّهِى لَمْ بَنَفِدٌ وَلَهُ ﴾ [الإسرّاء: ١١١] . . الآية» أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن أنس: «آية العز: ﴿ آلَفَتُهُ يَقِو اللَّهِ عَلَيْهُ لَاللَّهُ اللَّهِ اللهِ عَلَمَا ، وإسناده ضعيف.
- (A) حديث: «فضل: خمس آيات من أول الحديد» ذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن من حديث علي: «إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرأ خمس آيات من أول سورة الحديد إلى قوله ... عليم بذات الصدور ... ومن آخر سورة الحشر من قوله ... عليم بذات العمل بي كذا وتدعو بما تريد».
- (٩) حديث: "فضل: ثلاث آيات من آخر سورة الحشرة أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا وللبيهتي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف: "من قرأ خواتهم سورة الحشر في ليل أو تهار فمات من يومه أو ليلته فقد أوجب الله له المجتة».

إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاء أن يقولها غدوة وعشية، فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأدعية المذكورة. فقد روي عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال: أتاني أخ لي من أهل الشام فأهدى لى هدية وقال: يا كرز اقبل منى هذه الهدية فإنها نعمت الهدية، فقلت: يا أخي ومن أهدى لك هذه الهدية؟ قال: أعطانيها إبراهيم التيمي، قلت: أفلم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها؟ قال: كنت جالساً في فناء الكعبة وأنا في التهليل والتسبيح والتحميد والتمجيد، فجاءني رجل فسلم عليَّ وجلس عن يميني فلم أر في زماني أحسن منه وجهاً ولا أحسن منه ثياباً ولا أشد بياضاً ولا أطيب ريحاً منه، فقلت: يا عبدالله من أنت ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر، فقلت: في أي شيء جئتني؟ فقال: جئتك للسلام عليك وحباً لك في الله، وعندي هدية أريد أن أهديها لك، فقلت: ما هي؟ قال: أن تقول قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد، وقل أعوذ برب الناس، وقل أعوذ برب الفلق، وقل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول. سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعاً، وتصلى على النبي على سبعاً، وتستغفر لنفسك ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبعاً وتقول: اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل، ولا تفعل بنا يا مولانا ما سحن له أهل، إنك غفور حليم جواد كريم رؤوف رحيم سبع مرات، وانظر أن لا تدع ذلك غدوة وعشية. فقلت: أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة؟ فقال: أعطانيها محمد ﷺ (١٠). فقلت: أخبرني بثواب ذلك؟ فقال: إذا لقيت محمداً ﷺ فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك، فذكر إبراهيم التيمي: أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملاثكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة، فرأى ما فيها ووصف أموراً عظيمة مما رآه في الجنة. قال: فسألت الملائكة فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: للذي يعمل مثل عملك، وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال: فأتاني النبي على ومعه سبعون نبياً وسبعون صفاً من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب فسلم عليٌّ وأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله، الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث فقال: الصدق الخضر صدق الخضر، وكل ما يحكيه فهو حق، وهو عالم أهل الأرض، وهو رئيس الأبدال، وهو من جنود الله تعالى في الأرض. فقلت: يا رسول الله، فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامي هل يعطى شيئاً مما أعطيته؟ فقال: والذي بعثني بالحق نبياً؛ إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرنى ولم ير الجنة، إنه ليغفر له جميع الكبائر التي عملها، ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته، ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة، والذي بعثني بالحق نسياً ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيداً ولا يتركه إلا من خلقه الله شقياً. وكان إبراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب، فلعله كان بعد هذه الرؤيا. فهذه وظيفة القراءة. فإن أضاف إليها شيئاً مما انتهى إليه ورده من القرآن أر اقتصر عليه فهو حسن؛ فإن القرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة.

وأما الأفكار: فليكن ذلك إحدى وظائفه _ وسيأتي تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكر من ربع المنجيات _ ولكن مجامعه ترجع إلى فنين:

 ⁽١) حليث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي: «أن الخضر علمه المسبعات العشرة» وقال في آخرها: «أعطانيها
 محمد عليه اليس له أصل، ولم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي على ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته.

أحدهما: أن يتفكر فيما بنفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره، ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه، ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير، ويتذكر تقصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه، ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته للمسلمين.

والفنّ الثاني: فيما ينفعه في علم المكاشفة. وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر آلاته الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها، أو في عقوباته ونقماته لتزيد معرفته بقدرة الإله واستغنائه ويزيد خوفه منها. ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكر فيها على بعض المخلق دون البعض، وإنما نستقصي ذلك في كتاب التفكر. ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات؛ إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين، أحلهما: زيادة المعرفة؛ إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف. والثاني: زيادة المحبة؛ إذ لا يحب القلوب إلا من اعتقد تعظيمه، ولا تنكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة المحبة. والذكر أيضاً يورث الأنس وهو نوع من المحبة، ولكن المحبة التي سببها المعرفة أقوى وأثبت وأعظم. ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاكر من غير تمام الاستبصار كنسبة عشق من شاهد جمال شخص بالعين، واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحميدة بالتجربة إلى أنس من كرد على سمعه وصف شحص غائب عن عينه بالحسن في الخلق والخلق مطلقاً من غير تفصيل وجوه الحسن فيهما، فليس محبته له كمحبة المشاهد، وليس الخبر كالمعاينة.

فالعباد المواظبون على دكر الله بالقلب واللسان الدين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جميلة اعتقدوها بتصديق من وصفها لهم. والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر، لأن أحداً لم يحط بكنه جلاله وجماله، فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق، ولكن كل واحد شاهد نقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها. وإنما عدد حجبها التي استحقت أن تسمى نوراً وكاد يظن الواصلِ إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجاباً. قال ﷺ: ﴿إِنَّ لِلَّهِ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُور لَوْ كَشَفَهَا لأَخْرَقَتْ سَبَحَاتُ وَجُههِ كُلُّ ما أَدْرَكَ بَصَرُهُه^(١)، وتلك الحجب أيضاً مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة في الرتب تفاوت الشمس والقمر والكواكب، ويبدو في الأول أصغرها ثم ما يليه، وعليه أوّل بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل ﷺ في ترقيه وقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنغام: ٧٦] أي أظلم عليه الأمر ﴿رَمَّا كَوَّكُما ﴾ [الانغام: ٧٦] أي وصل إلى حجاب من حجب النور فعبر عنه بالكوكب، وما أريد به هذه الأجسام المضيئة، فإن آحاد العوام لا يخفي عليهم أن الربوبية لا تليق بالأجسام، مل يدركون ذلك بأوائل نظرهم، فما لا يضلل العوام لا يضلل الخليل عليه السلام. والحجب المسماة أنواراً ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر، بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ ثُورٌ السَّنَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَيشَّكُوْق فِهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النُّور: ٣٥] الآبة. ولنتجاوز هذه المعاني فإنها حارجة عن علم المعاملة، ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من ينفتح له بابه، والمتيسر على جماهير الخلائق الفكر فيما يفيد في علم المعاملة، وذلك أيضاً مما تغزر فائدته ويعظم نفعه.

 ⁽١) حديث: (إن له مبعين حجاباً من نور... الحديث. تقدم في قواعد العقائد.

فهذه الوظائف الأربعة ـ أعني: الدعاء والذكر والقراءة والفكر ـ ينبغي أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح، بل في كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة، فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع، ويقوّي على ذلك بأن يأخذ سلاحه ومجنته، والصوم هو الجنة التي تضيق مجاري الشيطان المعادي الصارف له عن سبيل الرشاد. وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي الفجر، وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله على وأصحابه رضي الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالأذكار (۱)، وهو الأولى إلى أن يغلبه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به.

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار، وأعني بالضحوة: منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار؛ إذ فرض النهار اثنتي عشرة ساعة وهو الربع. وفي هذا الربع من النهار وظيفتان زائدتان:

الوظيفة الثانية: في هذا الوقت: الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادات بكرة من عيادة مريض، وتشييع جنازة، ومعاونة على بر وتقوى، وحضور مجلس علم، وما يجري مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها. فإن لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع ـ التي قدّمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات ـ المتطوّع بها إن شاء، فإنها مكروهة بعد صلاة الصمح وليست مكروهة الآن. فتصير الصلاة قسماً خامساً من حملة وظائف هذا الوقت لمن أراده، أما بعد فريضة

⁽۱) حديث: «اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس» تقدم حديث جابر بن سمرة عند مسلم في جلوسه ﷺ إذا صلى الفجر في مجلسه حتى تطلع الشمس، وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله عما تقدم من حديث أنس.

 ⁽۲) حديث: «خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته: ألا إن صلاة الأوابين إذا رمضت القصالة أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله: «فنادى بأعلى صوته»، وهو عند مسلم دون ذكر الإشراق.

 ⁽٣) حليث (إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها»، تقدم في الصلاة.

الصبح فتكره كل صلاة لا سبب لها. وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتي الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة، بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر.

الورد الثالث: من ضحوة النهار إلى الزوال، ونعني بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل، وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة، فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضيها صلاة الضحى. فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر، فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر، فإذا مضت ثلاث أخرى فالمغرب. ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة العصر بين الزوال والغروب، إلا أن الضحى لم تفرض الأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم فخفف عنهم.

الوظيفة الرابعة: في هذا الوقت الأقسام الأربعة، وزيد أمران:

أحدهما: الاشتغال بالكسب وتدبير المعيشة وحضور السوق، فإن كان تاجراً فينبغي أن ينجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صناعة فبنصح وشفقة، ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله، ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب في كل يوم لقوته. فإذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزوّد لآخرته، فإن الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والتمتع به أدوم، فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت. فقد قبل: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن: مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا يد منها. وقل من يعرف القدر فيما لا بد منه، بل أكثر الناس يقدّرون فيما عنه بد أنه لا بذ لهم منه، وذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه ويجمعون ما لا يأكلون خيفة الفقر، والله يعدهم مغفرة منه وفضلاً فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه.

الأمر الثاني: القيلولة؛ وهي سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن التسحر سنة يستعان به على صيام النهار. فإن كان لا يقوم بالليل لكن لو لم ينم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الففلة وتحدّث معهم، فالنوم أحب له إذا كان لا ينبعث نشاطه للرحوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة؛ إذ في النوم الصمت والسلامة، وقد قال بعضهم: يأتي على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم. وكم من عابد أحسن أحواله النوم، وذلك إذا كان يراثي بعبادته ولا يخلص فيها. فكبف بالغافل الفاسق؟ قال سفيان الثوري رحمه الله: كان يعجبهم إذا تفرّغوا أن يناموا طلباً للسلامة، فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة. ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة، فإن ذلك من فضائل الأعمال، وإن لم ينم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفصل أعمال المهار؛ لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واستغالهم بهموم الدنبا، فالقلب المتفرّغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزكيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته. وفضل ذلك كفضل إحياء اللبل فإن اللبل وقت الغفلة بالنوم، وهذا وقت الغفلة بالنوم، وهذا وقت الغفلة بالنوع، وهذا وقت الغفلة بالنوى والاشتغال بهموم الدنبا، وأحد معنبي قوله تعالى: ﴿وَهُو النّبِي جَمَلَ أَيْلَ وَالنّبَار وَالدُون وَالدُون فيه ما فات باتماع الهوى والاشتغال بهموم الدنبا، وأحدهما الآخر في الفضل والثاني: أنه يخلفه فيتدارك فيه ما فات في أحدهما.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر وراتبته، وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها. فإذا كان قد توضأ قبل الزوال وحضر المسجد فمهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه، ثم ليقم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿وَصِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الرُّوم: ١٨] وليصل في هذا الوقت أربع ركعات لا يفصل بينهن بتسليمة واحدة (١)، وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصليها بتسليمة واحدة، ولكن طعن في تلك الرواية، ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يصلي مثنى مثنى كسائر النوافل ويفصل بتسليمة (٢)، وهو الذي صحت به الأخبار، وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه في باب صلاة التطوّع، وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المئين أو أربعاً من المثاني، فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء. وأحب رسول الله على أن يرتفع له فيها عمل، ثم يصلي الظهر نجماعة بعد أربع ركعات طويلة _ كما سبق _ أو قصيرة لا ينبغي أن يدعها. ثم ليصل بعد الظهر ركعتين شم أربعاً، فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها من غير فاصل. ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة أية الكرسي وآحر سورة البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول؟ ليكون ذلك جامعاً له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت.

المورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، ويستحب فيه العكوف في المسحد مشتغلاً بالذكر والصلاة أو فنون المخير، ويكون في انتظار الصلاة معتكفاً. فمن فضائل الأعمال: انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف، كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للمصلين دوياً كلوي النحل من التلاوة. فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع لهمه، فالبيت أفضل في حقه، فإحياء هذا الورد وهو أيضاً وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث في الفضل. وفي هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال؛ إذ يكره نومتان بالنهار. قال بعض العلماء: ثلاث يمقت الله عليها: الضحك بغير عجب، والأكل من غير جوع، والنوم بالنهار من غير سهر بالليل. والحد من النوم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعاً، فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار، فحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره الثلث، ولكن لما كان من عمره عشرون سنة. ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث، ولكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان وكما أن العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه. وقدر الاعتدال هذا، والنقصان منه ربما يفصي إلى اضطراب البدن، إلا من يتعود السهر تدريجاً فقد يمرن نفسه عليه من غير اضطراب. وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد، وهو أحد الآصال التي يمرن نفسه عليه من غير اضطراب. وهذا الورد من أطول الأوراد وأمتعها للعباد، وهو أحد الآصال التي الرحد من أواع الله تعالى إذ قال عن أنواع العمادات، فكيف يجوز أن يغفل العبد العاقل عن أنواع العبادات؟

الورد السادس: إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس، وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى: ﴿وَالْمَصْرِ إِلَى أَصَالَ فِي أَحد التفسيرين فقال تعالى: ﴿وَالْمَصْرِ فَي أَحد التفسيرين وهو المداد بالأصال في أحد التفسيرين وهو العشي المذكور في قوله: ﴿وَيَمُشِيّا ﴾ [الرُّوم: ١٨] وفي قوله: ﴿وَالْمَشِيّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨] وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة ـ كما سبق في الظهر ـ ثم يصلي الفرض ويشتغل

⁽١) حديث (صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة وفيه: «أنها فيها تفتع أبواب السماء، وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحب أن يرفع لي فيها عمل صالح، أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أبوب، وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس.

⁽۲) حديث: «صلاة الليل والنهار مثنى مثنى» أحرجه أبو داود وابن حبان من حديث ابن عمر.

بالأقسام الأربعة المذكورة في الورد الأوّل إلى أن ترتفع الشمس إلى رؤوس الحيطان وتصفر. والأفضل فيه إذ منع عن الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتفهم؛ إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر، فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة.

الورد السابع: إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطى نورها العبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دحل وقت هذا الورد، وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَنَ ٱللَّهِ حِينَ تُسْتُونَ وَمِينَ تُمْسِخُونَ ۞﴾ [الرُّوم: ١٧] وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى: ﴿فَسَبَعُ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [له: ١٣٠] قال الحسن: كانوا أشد تعظيماً للعشى منهم لأول النهار. وقال بعض السلف: كانوا يجعلون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة. فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَقْوِرٌ لِذَنِّيكَ وَسَيِّحٌ بِحَمَّدِ رَيِّكَ بِٱلْمَثِينَ وَٱلْإِكَرِ﴾ [غانر: ٥٥] والاستغفار على الأسماء التي في الـقـرآن أحـب كـقـولـه. ﴿ اَسْتَمْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَازَا﴾ [نـوح: ١٠]، ﴿ وَٱسْتَغْفِرَهُ إِنَّكُمْ كَانَ فَوَّابُنَّا﴾ [السِّمَسر: ٣] ﴿ زَنِ لَقَيْسَ وَأَنْصَرُ وَأَنْتَ خَيْرُ الزَّبِينَ ﴾ [السومنون: ١١٨] ﴿ فَأَغْفِرُ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الزَّجِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩] ﴿فَأَغْفِرُ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْفَنفِرِينَ﴾ [الاعرَاف: ١٥٥] ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس: والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، والمعوذتين. ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار، فإذا سمع الأذان قال: اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك ـ كما سبق ـ ثم يجيب المؤذن ويشتغل بصلاة المغرب. وبالغروب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فقد انقضى من طريقه مرحلة، فإن ساوى يومه أمسه فيكون مغبوناً، وإن كان شراً منه فيكون ملعوناً، فقد قال ﷺ: ﴿لا بُورِكَ لِي فِي يَوْم لا أَزْدَادُ فِيهِ خَيراًهُ (١) فإن رأى نفسه متوفراً على الخير جميع نهاره مترفهاً عن التجشم كانت بشارة، فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه، وإن تكن الأخرى فالليل خلفه النهار فليعزم على تلافي ما سبق من تمريطه؛ فإن الحسنات بذهبن السيئات. وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره، وليحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع، وعند ذلك يغلق بأب التدارك والاعتذار، فليس العمر إلا أياماً معدودة تنقضي لا محالة جملتها بانقضاء أحادها.

بيان أوراد الليل وهي خمسة:

الأول: إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتفل بإحياء ما بين العشاءين، فآخر هذا الورد عند غيبوبة الشفق؛ أعني الحمرة التي بغيبوبتها يدخل وقت العتمة، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿ فَلَا أَنْسِمُ بِالشَّفَقِ (الانشقاق: ١٦] والصلاة فيه هي ناشئة الليل؛ لأنه أوّل نشوء ساعاته، وهو آن من الآناء المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَانَاتِي النِّلِ فَسَيَّحْ ﴾ [له: ١٣٠] وهي صلاة الأوابين،

 ⁽١) حديث: الا يورك لي في يوم لا أزداد فيه خيراً تقدم في العلم عي الباب الأول، إلا أنه قال: اعلماً بدل: «خيراً».

وهي المراد بقوله تعالى: ﴿نَتَهَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَسَاجِع ﴾ [السَّجلة: ١٦] روي ذلك عن الحسن وأسنده ابن أبي زياد إلى رسول الله ﷺ: أنه سئل عن هذه الآية فقال ﷺ: «الصّلاة بَيْنَ العِشَاءَيْنِ فَإِنّها تَلْهَبُ بِمُلاَغَاتِ النّهَارِ وَتُهَدُّبُ العِشَاءَيْنِ»، ثم قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصّلاةِ بَيْنَ العِشَاءَيْنِ فَإِنّها تَلْهَبُ بِمُلاَغَاتِ النّهارِ وَتُهَدُّبُ أَنس رحمه الله عمن ينام بين العشاءين فقال: لا تفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَسَاجِع ﴾ [السَّجدة: ١٦] وسيأتي فضل إحياء ما بين العشاءين في الباب الثاني. وترتيب هذا الورد: أن يصلي بعد المغرب ركعتين أولاً يقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل، ثم يصلي أربعاً يطيلها، ثم يصلي إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له، وإن كان تخلل كلام ولا شغل، ثم يصلي أربعاً يطيلها، ثم يصلي إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له، وإن كان المسجد، قريباً من المنزل فلا بأس أن يصليها في بيته إن لم يكن عزمه العكوف في المسجد، وإن عزم على العكوف في انتظار العتمة فهو الأفقيل إذا كان آمناً من التصنع والرياء.

الورد الثاني: يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حدّ نومة الناس وهو أول استحكام الظلام، وقد أقسم الله تعالى به إذ قال: ﴿وَالَيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿ إِلَا نَشَقَاقَ: ١٧] أي: وما جمع من ظلمته، وقال: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّهِ لَا اللَّهِ لَا يَعْسَقُ اللَّهِ لَهُ وَسَنتُوسَقَ ظَلَمْتُهُ. وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور:

الأول: أن يصلي سوى فرض العشاء عشر ركعات أربعاً قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين، وستاً بعد الفرض، ركعتين ثم أربعاً، ويقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها.

والثاني: أن يصلي ثلاث عشرة ركمة آخرهن الوتر، فإنه أكثر ما روي أن النبي على صلى بها من الليل (٢٠). والأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقوياء من آخره. والحزم التقديم فإنه ربما لا يستيقظ أو يثقل عليه القيام، إلا إذا صار ذلك عادة له فآخر الليل أفضل. ثم ليقرأ في هذه الصلاة قدر

⁽۱) حديث: ﴿ سَتُل عَن قوله تعالى ﴿ ﴿ لَتَبَاكَل جُنُوجُهُمْ عَنِ ٱلْمَسَاجِ ﴾ [السَّحَدَة ' 13] فقال: الصلاة بين العشاءين، لم قال: عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تلعب بملاغات النهار وتهلب آخره . قال المصنف: أسنده ابن أبي الزناد إلى رسول الله ﷺ قلت: إنما هو إسماعيل بن أبي زياد بالياء المثناة من تحت. رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبي زياد الشامي عن الأعمش. حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تلعب بملاغات أول النهار ومهذبة آخره ، قال: وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله الفارقطي، واسم أبي زياد: مسلم وقد اختلف فيه على الأعمش، ولابن مردويه من حديث أنس: ﴿ أبها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء » والحديث عبد الترمذي وحسنه بلمظ: «نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة ».

⁽٣) حديث: «الوثر ثلاث عشرة ركعة _ يعني بالليل _ وأنه أكثر ما صلى به النبي ﷺ من الليل؟ أخرجه أبو داود من حديث عائشة · «لم يكن يوتر بأنقص من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة»، والبخاري من حديث ابن عباس : «وكانت صلاته ثلاث عشرة ركعة _ يعني بالليل _»، ومسلم : «كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة»، وهي رواية للشيخين · «منها ركعتا الفجر» ولهما أيضاً: «ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة».

ثلاثماتة آية من السور المخصوصة التي كان النبي الله يكثر قراءتها مثل: يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والزمر والواقعة (أ) ، فإن لم يصل فلا يدع قراءة هذه السورة أو بعضها قبل النوم، فقد روي في ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله الله الله الله الملك (أ) والزمر، والواقعة. وفي رواية: الرمر وبني إسرائيل (أ). وفي أخرى: أنه كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول: فيها آية أفضل من ألف آية (أ). وكان العلماء يجعلونها ستاً فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى إذ في الخبر: «أنه الله كان يحب سبح اسم ربك الأعلى وكان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور: سبح اسم ربك الأعلى والإخلاص (أ). فإذا فرغ قال: «سبحان الملك القدوس» ثلاث مرات.

الثالث: الوتر، وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام. قال أبو هريرة رضي الله عنه: أوصاني رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر (١٠٠)، وإن كان معناداً صلاة الليل فالتأخير أفضل. قال ﷺ: «صَلاة الليل مَفْتَىٰ مَفْتَىٰ مَفْتَىٰ مَؤْفَا جَفْتَ الصَّبْحَ فَأُوْتِوْ بِرَكْعَةِ (١٠٠)، وقالت عائشة رضي الله عنها: «أوتر رسول الله ﷺ أوّل الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر (١٠٠)، وقال على رضي الله عنه: الوتر على ثلاثة أنحاء ؛ إن شئت أوترت أوّل الليل ثم صليت ركعتين ركعتين، يعني أنه يصير وترا بما مضى، وإن شئت أخرت الوتر بركعة، فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل، وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك. هذا ما روي مطلقاً عنه والطريق الأوّل والثالث لا بأس به، وأما نقض الوتر

⁽۱) حديث. "إكثاره الله من قراءة يس وسجدة لقمان وصورة الدحان وتبارك الملك والزمر والواقعة عريب لم أقف على دكر الإكثار فيه، وابن حبان من حديث جندب: (من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله ففر لهه والترمدي من حديث جابر: (كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك، وله من حديث عائشة: (كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر، وقال: حسن غريب، وله من حديث أبي هريرة: ومن قرأ حم المدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك، قال: غريب، ولأبي الشبخ في الثواب من حديث عائشة: (همن قرأ في ليلة الم تنزيل ويس وتبارك الذي بيعه المملك واقترت كن له نوراً... الحديث. ولأبي متصور المظفر بن الحسين الغزنوي في فضائل القرآن من حديث علي، فيا هلي أكثر من قراءة يس.. (المحديث. وهو منكر، وللحارث بن أبي أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف: (من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً والترمذي من حديث ابن عباس، «شببتني هود والواقعة...) الحديث. وقال: حس غريب.

٢١) - حديث. •كان بقرأ مي كل ليلة السجدة ونبارك الملك، أخرجه الترمذي. وتقلم في الحديث قبله.

٣١) حديث: الكان يقرأ في كل لبلة الزمر وبني إسرائيل؛ أحرجه الترمذي. وتقدم أيضاً.

 ⁽٤) حديث: «كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول: فيهن آية أقضل من ألف آية» أخرجه أبو داود والترمذي وقال:
 حسن، والنسائي في الكبرى من حديث عرباض بن صارية.

 ⁽a) حديث: «كان يحب سبح اسم ربك الأعلى» أخرجه أحمد والبزار من حديث علي بسند ضعيف.

 ⁽٦) حديث: «كان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر بسح اسم رك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والإخلاص». أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح. وتقدم في الصلاة من حديث أنس.

⁽٧) - حديث أبي هريرة: "أوصاني رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر" متفق عليه للفظ: «أن أوتر قبل أن أنام".

 ⁽A) حديث: «صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوثر بركعة ا متفق علمه من حديث ابن عمر.

 ⁽٩) حديث عائشة: قاوتر رسول الله ﷺ أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر، متفق عليه.

نقد صح فيه نهي فلا ينبغي أن ينقض (1). وروي مطلقاً أنه هي قال: الا وِتْرَانِ فِي لَيْلَةِه (٢). ولمن يتردد في استيفاظه تلطف استحسنه بعض العلماء: وهو أن يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً على فراشه عند النوم. كان رسول الله على يُرحف إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت وألهاكم (٢) لما فيهما من التحذير والوعيد، وفي رواية: قل يا أيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى، فقيل: إن استيقظ قامتا مقام ركعة واحدة، وكان له أن يوتر بواحدة في آحر صلاة الليل وكأنه صار ما مصى شفعاً بهما، وحسن استثناف الوتر. واستحسن هذا أبو طالب المكي وقال: فيه ثلاثة أعمال: قصر الأمل، وهو كما ذكره لكن ربما يخطر أنهما لو شفعتا ما مضى لكان كذلك، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول، فكونه شافعاً إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه نظر، إلا أن يصح من رسول الله على إيتاره قبلهما وإعادته الوتر، فيفهم منه أن الركعتين شفع بصورتهما وتر بمعناهما، ويحسب وتراً إن لم يستيقظ وشفعاً إن استيقظ. ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول: سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح، جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت، وتعززت بالقدرة وقهرت العباد بالموت. روي أنه هي ما مات حتى كان أكثر صلاته جالساً إلا المكتوبة (٤). وقد قال: «للقاعِد يْضِفُ أُجْرِ القَاعِد، (٥)، وذلك يدل على صحة النافلة دائماً. وقد قال: «للقاعِد يْضِفُ أُجْرِ القَاعِد، (٥)، وذلك يدل على صحة النافلة دائماً.

الورد الثالث: الترم والأباس أن يعد ذلك في الأوراد؛ فإنه إذا روعيت آدابه احتسب عبادة، فقد قيل: إنّ للعبد إدا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصلياً حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك، فإن تحرّك في نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله (٢). وفي الخبر: «إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش (٧)، هذا في العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية؟ فإنهم يكاشفون بالأسرار في النوم، ولذلك قال على: «تَوْمُ العَالِم عِبَادَةٌ وَنَفَسُهُ تَسْبِيعٌ (٨)، وقال معاذ لأبي

 ⁽١) حديث: «النهي عن نقض الوتر» قال المصنف: صح فيه نهي. قلت: وإنما صح من قول عامد بن عمرو وله صحبة
 كما رواه البخاري، ومن قول ابن عباس كما رواه البيهقي ولم يصرح بأنه مرفوع، فالظاهر أنه إنما ما ذكرناه عن الصحابة.

⁽٢) حديث: الا وتران في ليلة> أحرجه أبو داود والترمدي وحسه، والنسائي من حديث طلق بن علي.

 ⁽٣) حديث: «الركعتين بعد الوتر جالساً». تقدم في الصلاة، رواه مسلم من حديث عائشة.

 ⁽٤) حديث: «ما مات حتى كان أكثر صلاته جالساً إلا المكتوبة» متفق عليه من حديث عائشة: «لما مدن النبي ﷺ وثقل
 كان أكثر صلاته جالساً».

⁽٥) حديث: اللقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد، أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين.

 ⁽٦) حديث: «قيل: إنه إذا نام على طهارة ذاكراً لله تعالى يكتب مصلياً ويدخل في شعاره ملك. .» الحديث. أخرجه ابن
 حبال من حديث ابن عمر: «من بات طاهراً بات في شعاره ملك فلم يستيقظ إلا قال الملك. اللهم اغفر لعبدك فلان
 فإنه بات طاهراً».

⁽٧) حديث: اإذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش؛ أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي الدرداء، والبيهقي في الشعب موقوفاً على عبدالله بن عمرو بن العاص. وروى الطبراني في الأوسط من حديث على: «ما من عبد ولا أمة تنام فتثقل نوماً إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ إلا هند العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهى الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهى الرؤيا التي تحدق صديف.

 ⁽٨) حديث: النوم العالم عبادة ونفسه تسبيح. قلت: المعروف فيه الصائم دون العالم. وقد تقدم في الصوم.

موسى: كيف تصنع في قيام الليل؟ فقال: أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئاً وأتفوق القرآن فيه تفوقاً. قال معاذ: لكني أنا أنام ثم أقوم وأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «معاذ أفقه منك»(١). وآداب النوم عشرة:

الأول: الطهارة والسواك، قال ﷺ: ﴿إِذَا نَامَ العَبْدُ عَلَىٰ طَهَارَةٍ عُرِجَ بِرُوحِهِ إِلَىٰ الْعَرْشِ، فَكَانَتُ رُوحُهُ عَنِ البُلُوعِ، فَتِلْكَ الْمَنَامَاتُ أَضْغَاتُ أَخلامٍ لا رُوْيَاهُ صَادِقَةً، وَإِنْ لَمْ يَنَمْ عَلَىٰ طَهَارَةٍ قَصَرَتُ رُوحُهُ عَنِ البُلُوعِ، فَتِلْكَ الْمَنَامَاتُ أَضْغَاتُ أَخلامٍ لا تَصْدُقُ (**). وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعاً، وطهارة ألباطن هي المؤثرة في انكشاف حجب لغيب.

الثاني: أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره وينوي القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك، كذلك كان يفعله بعض السلف. وروي عن رسول الله على أنه كان يستاك في كل ليلة مراراً عند كل نومة وعند الننبه منها (٢٠)، وإن لم يتبسر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء، فإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكر في آلاء الله تعالى وقدرته، فذلك يقوم مقام قيام الليل. وقال عَلَيْ: "مَنْ أَتَىٰ فِرَاشَهُ وَهُو يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتُهُ عَيْنَاهُ حَتَّىٰ يُصْبِحَ كُتِبَ لَهُ ما نَوَىٰ وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰهُ (٤٠).

المثالث: أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه؛ فإنه لا يأمن القبض في النوم، فإنّ من مات من غير وصية لم يؤذن له في الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة، يتزاوره الأموات ويتحدّثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض: هذا المسكين مات من غير وصية. وذلك مستحب خوف موت الفجأة، وموت الفجأة تخفيف إلا لمن ليس مستعداً للموت بكونه مثقل الظهر بالمظالم.

الرابع: أن ينام تائباً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد، ولا يعزم على معصية إن استيقظ، قال ﷺ: «مَنْ أَوَىٰ إِلَىٰ فِوَاشِهِ لا يَنْوِي ظُلْمَ أَحَدٍ وَلا يَحْقِدُ عَلَىٰ أَحَدٍ فُغِرَ لَهُ مَا اجْنَزَمَهُ (**).

الخامس: أن لا يتنعم بتمهيد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه. كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك تكلفاً. وكان أهل الصغة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً، ويقولون: منها خلقنا وإليها نرد، وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع تفوسهم، فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد.

⁽١) حديث: «قال معاد الأبي موسى: كيف تصنع في قيام الليل؟ فقال: أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئاً وأتفوق القرآن تفرقاً، قال معاد: لكني أنام ثم أقوم وأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي، فذكر ذلك للنبي علي قال: معاد أفقه منك، متفق عليه ينحوه من حديث أبي سعيد وليس فيه: «أنهما ذكرا ذلك للنبي عليه ولا قوله: «معاد أفقه منك» وإنما زاد فيه الطبراني: «فكان معاد أفضل منه».

 ⁽٢) حديث: «إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة». الحديث، تقدم.

 ⁽٣) حديث: «أنه كان يستاك في كل ليلة مراراً عند كل نومة وعند التنبه منها». تقدم في الطهارة.

 ⁽٤) حديث: المن أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته هيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله هليه أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح.

 ⁽٥) حديث: (من أوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب
النبة من حديث أنس: (من أصبح ولم يهم بظلم أحد غفر له ما اجترم، وسنده ضعيف.

السادس: أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل، فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة، ولذلك وصفوا بأنهم: كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يلري ما يقول فلينم حتى يعقل ما يقول. وكان ابن عباس رضي الله عنه بكره النوم قاعداً. وفي الخبر: «لا تكابدوا الليل»(۱)، وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصلي بالليل فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل، فنهي عن ذلك وقال: «لينصل أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيلِ ما تَيسَر لَهُ فَإِذا غَلَبُهُ النَّومُ فَلْيَرْقُدُهُ (۱)، وقال ﷺ: «تَكَلفُوا مِنَ العَمَلِ ما تُعلِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهُ لَنْ يَمَلُ حَقَّىٰ تَمَلُوا (۱). وقال ﷺ: «خَيرُ هٰذا الدِّينِ أَيسَرُهُ (۱)، وقيل له ﷺ: "إن فلاناً يصلي فلا ينام ويصوم فلا يفطر، فقال: لْكِنْي أُصلي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ هٰذِهِ سُنَتِي قَمَنْ رَغِبَ فَلاناً يصلي فلا ينام ويصوم فلا يفطر، فقال: لْكِنْي أُصلي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ هٰذِهِ سُنَتِي قَمَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَلَيسَ مِنِي (۱). وقال ﷺ: «لا تُشَادُه الدُينَ فَإِنَّهُ مَتِينٌ فَمَنْ يُشَادُهُ يَغْلِبُهُ قَلا تُبغَضُ إِلَىٰ نَفْسِكَ عَنْهَا فَلَيسَ مِنِي (١٠).

السابع: أن ينام مستقبل القبلة. والاستقبال على ضربين: أحدهما: استقبال المحتضر .. وهو المستلقي على قفاه . فاستقباله أن يكون وجهه وأخمصاه إلى القبلة. والثاني: استقبال اللحد وهو أن ينام على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شقه الأيمن.

الثامن: الدعاء عند النوم فيقول: باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه، إلى آخر الدعوات المأثورة التي أوردناها في كتاب الدعوات (٧)، ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل: آية الكرسي وآخر البقرة وغيرهما. وقوله تعالى: ﴿ وَإِلَهُ كُرُ إِلَهُ وَيَدُّ لَآ إِلَهُ إِلَى هُوَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّوْرِ بَنْيَالُونَ ﴾ [القرة: ١٦٤، ١٦٤] يقال: إنّ من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّنَوَتِ وَالْدُرُفَ فِي سِنَّةِ أَيَّارٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَرِيبٌ قِنَ اللَّمْسِئِينَ ﴾ الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ اللَّين، فإنه يدخل في شعاره ملك [الأعراف: ١٠٠] الآيتين، فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له. ويقرأ المعوّذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده، كذلك

 ⁽١) حديث: الا تكايدوا الليل، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضميف، وفي جامع سفيان الثوري موقوفاً على ابن مسعود: الا تغالبوا هذا الليل.

 ⁽٣) حديث: قبل له: إن قلانة تصلي فإذا غلبها النوم تعلقت بحيل فنهاهن عن ذلك. . * الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

حديث: «تكلفوا من العمل ما تطبقون فإن الله لا يمل حتى تملوا؛ متفن عليه من حديث عائشة بلفظ «اكلفوا».

⁽٤) حديث: «خير هذا الدين أيسره» أخرجه أحمد من حديث محجن بن الأدرع وتقدم في العلم.

حديث: «قبل له: إن فلاناً يصلي ولا ينام ويصوم ولا يفطر فقال: لكنني أصلي وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رضب هنها فليس مني الحرجه النسائي من حديث عبدائه بن عمرو دون قوله: (هذه سنتي) الخ.. وهذه الزيادة لابن خزيمة: (من رضب هن سنتي فليس مني) وهو متفق عليه من حديث أنس.

⁽٦) حديث: ﴿لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ولا تيقض إلى نفسك هبادة الله أخرجه البخاري من حديث أي هريرة: ﴿لن يشاد هذا الدين أحداً إلا غلبه فسددوا وقاربوا وللبيهتي من حديث جابر : ﴿إِن هذا الدين متبن فأوخل فيه برفق ولا تبخض إلى نفسك عبادة الله ولا يصح إسناده.

 ⁽٧) حديث: «الدعاء المأثور عند النوم؛ باسمك اللهم رب وضعت جنبي...» الحديث. إلى آخر الدعوات المأثورة التي
أوردناها في الدعوات تقدم هناك وبقية الدعوات.

روي من فعل رسول الله ﷺ وليقرأ عشراً من أول الكهف وعشراً من آخرها، وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل. وكان عليّ كرم الله وجهه يقول: ما أرى أن رجلاً مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل خمساً وعشرين مرة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ لبكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة.

التاسع: أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة والتيقظ نوع بعث، قال الله تعالى: ﴿ أَلَهُ يَتُوَفَّ الْآَيْمَ عَن مَوَيْهَا وَأَلِي لَدُ تَكُتُ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزّمْر: ١٤] وقال: ﴿ وَهُوَ اللّهِ يَوَفَّكُم بِأَلْيَلِ ﴾ [الانخام: ١٠] فسماه توفياً، وكما أن المستبقظ تنكشف له مشاهدة لا تناسب أحواله في النوم فكذلك المبعوث يرى ما لم يخطر قط بباله ولا شاهده حسه. ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة. وقال لقمان لابنه: يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تنم، فكما أنك تنام كدلك تموت، وإن كنت تشك في البعث فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد يومك فكذلك تبعث بعد موتك. وقال كعب الأحمار: إذا نمت فاضطجع على شقك الأيمن واستقبل القبلة يوجهك فإنها وفاة، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده البمني وهو يرى أنه ميت في ليلته تلك: «اللّهمُ رَبُّ السّمُواتِ السّبُعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ رُبَّنا وَرَبُّ كُلّ شَيْء يرى أنه ميت في ليلته تلك: «اللّهمُ رَبُّ السّمُواتِ السّبُعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ رُبَّنا وَرَبُّ كُلّ شَيْء عنها: أنه على ماذا ينام، وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه أو حب الدنيا؟ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه، فإن المره مع من أحب ومع ما أحب.

الورد الرابع: يدخل بمضي النصف الأوّل من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد، فاسم التهجد يختص بما بعد الهجود والهجوع وهو النوم، وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذي بعد الزوال وهو وسط النهار، وبه أقسم الله تعالى فقال: ﴿وَالَيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿ وَاللَّهِ اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللّهُ اللَّهُ اللَّالَةُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

المعوذتين عند النوم ينقث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٢) حديث عائشة: «كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى: اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم...» الحديث. تقدم في الدعوات دون: وضع الخد على اليد، وتقدم من حديث حفصة.

 ⁽٣) حديث الكان يقول عند تيقظه: لا إله إلا الله الواحد المقهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفارا أخرجه
 ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة.

فقال: وجوف الليل،(١). وقال داود ﷺ: إلهي إني أحب أن أتعبد لك فأي وقت أفضل؟ فأوحى الله تعالى: يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، فإن من قام أوله نام آخره، ومن قام آخره لم يقم أوله، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إليَّ حوائجك. وسئل رسول الله ﷺ: أي الليل أفضل؟ فقال: «نِصْفُ اللَّيْلِ الغَامِرِ» . يعني الباقي. وفي آخر الليل وردَّت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عَدن ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا^(٣). وغير ذلك من الأخبار. وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التي للاستيقاظ يتوضأ وضوءاً ـ كما سبق ـ بسننه وآدابه وأدعيته، ثم يتوجه إلى مصلاه ويقوم مستقبلاً القبلة، ويقول: ﴿الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثم يسبح عشراً وليحمد الله عشراً ويهلل عشراً وليقل: "الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والعجلال والقدرة؛ وليقل هذه الكلمات فإنها مأثورة عن رسول الله ﷺ في قيامه للتهجد: «اللهم لك الحمد أنت نور السلوات والأرض، ولك الحمد أنت بهاء السلوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن. أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والنبيون حق ومحمد ﷺ حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاففر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت. أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت (٤). اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها (٥). اللهم اهدني لأحسن الأعمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت (١٠٠٠ أسألك

⁽١) حديث: •سئل أي الليل أسمع؟ قال: جوف الليل؛ أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث عمرو بن عنبسة.

 ⁽٢) حديث: «سئل أي الليل أفضل؟ قال: ثصف الليل الغابر» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبي ذر دون قوله:
 «الغابر» وهي في بعض طرق حديث عمرو بن عبسة.

⁽٣) حديث: «الأخبار الواردة في اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن في آخر الليل ونرول الجبار إلى سماء الدنيا»؛ أما حديث النزول فقد تقدم، وأما الباقي فهي آثار رواها محمد بن نصر في قيام الليل من رواية سعيد الجريري: قال: «قال داود: يا جبريل أي الليل أفضل؟ قال: ما أدري غير أن العرش يهتز من السحر» وفي رواية له عن الجريري عن سعيد بن أبي الحسن قال: «إذا كان من السحر ألا ترى كيف تفوح ربح كل شجر» وله من حديث أبي الدداء مرفوعاً: «إن الله تبارك وتعالى لينزل في ثلاث ساهات بقين من الليل يفتتح الذكر في الساعة الأولى» وفه: «ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة هدن. . .» الحديث. وهو مثله.

⁽٤) حديث: «القول في قيامه للتهجد: اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض. . . » الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله: «أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض» ودون قوله: «ومن عليهن ومنك الحق».

⁽٥) حديث: «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» أخرجه أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة: «أنها فقدت النبي ﷺ في مصجعه فلمسته بيدها فوقعت عليه وهو ساجد وهو يقول: رب أصط نفسي تقواها...» الحديث.

 ⁽٣) حديث: «اللهم اهدئي لأحسن الأهمال لا يهدي لأحسنها إلا أنت وأصرف هني سيئها لا يصرف هني سيئها إلا أنت»
 أخرجه مسلم من حديث علي عن رسول الله 護法 (أنه كان إذا قام إلى الصلاة) فذكره بلفط: (لأحسن الأخلاق) وفيه زيادة في أوله.

⁽١) حديث: قأساًلك مسألة اليائس المسكين وأدعوك دهاء المضطر اللليل..» الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس: قأنه كان من دعاء النبي ﷺ عشية عرفة» تقدم في الحج.

⁽٢) حديث عائشة: الكان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض...» الحديث، رواه مسلم.

 ⁽٣) حديث: «أنه صلى بالليل أولاً ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل
 يقصر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني.

عدیث: استلت عائشة: أكان بجهر رسول الله شخف قیام اللیل أم یسر؟ فقالت: ربعا جهر وربعا أسر، أخرجه أبو
 داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحیح.

 ⁽٥) حديث، الصلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة ا متفق عليه، وقد تقدم.

⁽٦) حديث: اصلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل؛ أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح.

 ⁽٧) حديث: «القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فإنه أكثر ما صبع عنه» نقدم.

 ⁽٨) حديث: قزار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان: نم فنام. . . ٤ الحديث. وفي آخره فقال: قصلق سلمان أخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة

والوظيفة في هذين الوردين الصلاة. فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلى ركعْتي الفَّجر، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّتِلِ فَسَيِّمَهُ وَإِذِّئَرَ ٱلنُّجُومِ ۞﴾ [الطُّور: ٤٩] ثم يقرأ: ﴿شَهِـدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَّهُ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَتِكَةُ﴾ [آل عِمرَاد: ١٨] إلى آخرها. ثم يقول: وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه، وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله تعالى ودبعة وأسأله حفظها حتى يتوفاني عليها. اللهم احطط عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً واحفظها على وتوفني عليها حتى ألقاك غير مبدّل تبديلاً. فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلَّت وعيادة مريض وشهود جنازة. ففي الخبر: "من جمع بين هذه الأربع في يوم ففر لها(١٠). وفي رواية: «دخل الجنة» فإن أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته، وكانوا يكرهون أن ينقضي اليوم ولم يتصدّقوا فيه بصدقة ولو بتمرة أو بصلة أو كسرة خَبز؛ لقوله ﷺ: ﴿ الرَّجُلُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ (٢٠٠، ولقوله ﷺ: ﴿اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقٌّ تَمْرَةٍ ﴿ ﴿ ﴾ . ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى سائل عنبة واحدة فأحذها، فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت: ما لكم إن فيها لمثاقيل ذرّ كثير؟ وكانوا لا يستحبون رد السائل؛ إذ كان من أخلاق رسول الله ﷺ ذلك، ما سأله أحد شيئاً فقال: لا، ولكنه إن لم يقدر عليه سكت (1). وفي الخبر: المُصْبِحُ ابنُ آدَمَ وَعَلَىٰ كُلْ سُلاَمَىٰ مِنْ جَسَدِهِ صَدَقَةً ـ يعنى المفصل ـ وَفِي جَسَدِهِ ثَلَاثُمِاثَةٍ وَسِنُّونَ مِفْصَلاً فَأَمْرُكُ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَحَمْلُكَ عَنِ الْضَّعِيفِ صَدَقَةً، وَهِدَايِتُكَ إِلَىٰ الْطَرِيقِ صَدَقَةً، وَإِمَاطَتُكَ الأَذَىٰ صَدَقَةٌ ـ حَتَىٰ ذكر التسبيح والتهلبل ـ ثم قال: وَرَكْمَتَا الصَّحَىٰ تأْتِي عَلَىٰ ذٰلِكَ كُلِّهِ أَوْ تَجْمَعَنَّ لَكَ ذٰلِكَ كُلُّهُۥ (٥٠).

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال:

اعلم: أن المريد لحرث الآخرة السائك لطريقها لا يخلو عن سنة أحوال فإنه: إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستفرق بالواحد الصمد عن غيره.

الأوّل: العابد؛ وهو المتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلاً ولو ترك العبادة لجلس بطالاً، فترتيب أوراده ما ذكرناه. نعم، لا يبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما في الصلاة أو في القراءة أو في التسبيحات، فقد كان في الصحابة رضي الله عنهم من ورده في اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة، وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفأ، وكان فيهم من ورده ثلاثمائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة، وأقل ما نقل في أورادهم من الصلاة مائة ركعة في اليوم والليلة، وكان بعضهم أكثر ورده القرآن،

 ⁽١) حديث: دمن جمع بين صوم وصدقة وهيادة مريض وشهود جنازة في يوم ففر له> وفي رواية: «دخل الجنة» أخرجه
 مسلم من حديث أبي هريرة: دما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة».

 ⁽٢) حديث: «الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» تقدم في الزكاة.

 ⁽٣) حديث: التقوا النار ولو بشق تمرة؛ تقدم في الزكاة.

 ⁽٤) حديث: (ما سأله أحد شيئاً فقال: لا إن لم يقدر عليه سكت اخرجه مسلم من حديث جابر، وللمزار من حديث أنس: (أو يسكت).

 ⁽a) حليث: فيصبح ابن آدم وعلى كل سلامي من جسده صدقة. . . • الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي ذر .

وكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة، وروي مرتين عن بعضهم، وكان بعضهم يقضي اليوم أو الليل في التفكر في آية واحدة يرددها. وكان كرز بن وبرة مفيماً بمكة فكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعاً وفي كل ليلة سعين أسوعاً، وكان مع ذلك يختم القرآن في اليوم والليلة مرتين. فحسب ذلك فكان عشرة فراسخ، ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو ماثتان وثمانون ركعة وختمتان وعشرة فراسخ.

فإن قلت: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟ قاعلم: أن قراءة القرآن في المسلاة فائماً مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإيناسه به، فلينظر المريد إلى قلبه فما يراه أشد تأثيراً فيه فليواظب عليه، فإذا أحس بملالة مه فلينتقل إلى غيره، ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات ـ كما سبق ـ والانتقال فيها من نوع إلى نوع الأن الملال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد في ذلك أيضاً تختلف. ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى، فإن سمع تسيحة مثلاً وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب على تكرارها ما الأوراد وسرها فليتبع المعنى، فإن سمع تسيحة مثلاً وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب على تكرارها ما شاطىء البحر، فسمع صوتاً عالياً بالتسبيح ولم ير أحداً فقال: من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ شاطىء البحر، فسمع صوتاً عالياً بالتسبيح ولم ير أحداً فقال: من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك؟ السمك؟ قال: مهلهيائيل، قلت: فما ثواب من قاله؟ قال: من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . والتسبيح هو قوله: «سبحان الله العلي الديان. سبحان الله الشديد الأركان. سبحان الله المعنى المديد ووجد له في قلبه وقعاً فليلازمه، وأياً مبحان الله المسبح في كل مكانه. فهذا وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له في قلبه وقعاً فليلازمه، وأياً ما وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليواظب عليه.

الثاني: العالم الذي ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف، فترتببه الأوراد يخالف ترتيب العابد؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصيف والإفادة، ويحتاج إلى مدة لها لا محالة، فإن أمكه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات ورواتبها. ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم في كتاب العلم. وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظبة على ما ذكر الله تعالى؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله. وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة. ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره، ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً. وإنما نعني بالعلم المقدم على العبادة، العلم الذي يرغب الناس في الآخرة ويريدهم في الدنيا، أو العلم الذي يعنهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك، دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في المال والجاه وقبول الخلق، والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضاً فإنه استغراق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع. فينبغي أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ترتيب العلم لا يحتمله الطبع. فينبغي أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما لأجل الآخرة، وإن لم يكن فيصرفه إلى ضحوة النهار في الإفادة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علما لأجل الآخرة، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويتفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات. ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقيلولة خفيفة إن طال النهار. ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بسماع ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع. ومن

الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان، وورده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة، وورده الثالث إلى العصر في عمل العين والبد وبالمطالعة والكتابة، وورده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليروّح فيه العين والبد؛ فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضر بالعين. وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع. وأما الليل قاحسن قسم فيه قسمة الشافعي رضي الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء: ثلثاً للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول، وثلثاً للصلاة وهو الوسط، وثلثاً للنوم وهو الأخير، وهذا يتيسر في ليالي الشتاء، والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا نستحبه من ترتيب أوراد العالم.

الثالث: المتعلم؛ والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل، فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد، ولكن بشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف، ويرتب أوقاته كما ذكرنا. وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل، بل إن لم يكن متعلماً على معنى أنه يعلق ويحصل ليصير عالماً، بل كان من العوام فحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات. ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه: ﴿إِنَّ حِصْوِر مَجَلَسَ ذَكُرَ أَفْضُلُ مَنْ صَلَاةَ أَلْفَ ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض (١٠). وقال ﷺ: ﴿إِذَا رَأَيْتُمْ رِياضَ الجُنَّةِ فَارْتَعُوا فِيها، فقيل: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: حِلَقُ الذُّكُره (٢٠). وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: لو أن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذي إمارة إمارته وكل ذي سوق سوقه. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة، فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عزُّ وجلِّ لم يخلِّق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء. وقال رجل للحسن رحمه الله: أشكو إليك قساوة قلبي، فقال: أدنه من مجالس الذكر. ورأى عمار الزاهدي مسكينة الطفاوية في المنام وكانت من المواظبات على حِلَق الذكر فقال: مرحباً يا مسكينة، فقالت: هيهات هيهات ذهبت المسكنة وجاء الغني! فقال: هيه! فقالت: ما تسأل عمن أبيح لها الجنة بحذافيرها؟ قال: وبم ذلك؟ قالت· بمجالسة أهل الذكر. وعلى الجملة، فما ينحل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام زكي السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتعال القلب على حب الدنيا.

الرابع: المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله، فليس له أن يضيع العيال ويستغرق الأوقات في العبادات، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب، ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته، بل يواظب على التسبيحات والأذكار وقراءة القرآن، فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل. وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظوراً فإنه لا يعجز عن إقامة أوراد الصلاة معه. ثم مهما فرغ من كفايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد، وإن داوم على الكسب وتصدّق بما

⁽١) حديث أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة. . . ٩ الحديث. تقدم في العلم.

خديث: الإذا رأيتم رياض البجنة فارتموا فيها. . . الحديث. تقدم في العلم.

فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التي ذكرناها؛ لأن العبادات المتعدّية فائدتها أنفع من اللازمة، والصدقة والكسب على هذه النية عبادة له في نفسه تقرّبه إلى الله تعالى، ثم يحصل به فائدة للغير وتنجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر.

المخامس: الوالي؛ مثل الإمام والقاضي والمتولي في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهاراً ويقتصر على المكتوبة ويقيم الأوراد المذكورة بالليل، كما كان عمر رضي الله عنه يفعله؛ إذ قال: ما لي وللنوم، فلو نمت بالنهار ضبعت المسلمين ولو نمت بالليل ضبعت نفسي. وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدنية أمران: أحدهما: العلم، والآخر: الرفق بالمسلمين؛ لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتعدّى فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدّمين عليه.

السادس: الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذي أصبح وهمومه هم واحد، فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه. فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها، بل كان ورده بعد المكتوبات واحداً وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال، فلا يخطر بقلوبهم أمر ولا يقرع سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لائح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزيد، فلا محرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى، فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة، وهم الذين فروا إلى الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿لَمَلَكُمْ نَذَكُّرُونَ ﴿ لَيْكَ فَيْرُّوا ۚ إِلَّى اللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥٠] وتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿ وَإِدِ آَنَٰمَرُانُتُوهُمْ وَمَا يَصْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأَوْرًا إِلَى ٱلْكَهْفِ بَلشُّرْ لَكُوْ رَبُّكُم مِن رَّحْمَتِهِ. ﴾ [الكهف: ١٦] وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَاهِبُّ إِلَىٰ رَبِّ سَيَهْدِين﴾ [الصَّاءات: ٩٩]. وهذه منتهى درجات الصدّيقين ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهراً طويلاً، فلا ينبغي أن يغتر المريد بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته، فذلك علامته أن لا يهجس في قلبه وسواس ولا يخطر في قلبه معصية ولا تزعجه هواجم الأهوال ولا تستفزه عظائم الأشغال، وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد. فيتعين على الكافة ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلُّ كُنُّ يُمْمُلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِيهِ. وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿ ﴾ [الإسراء: ٨٤] فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض. رفي الخبر: «الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقى الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل المجنة الله وقال بعض العلماء: الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقاً بعدد الرسل، فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله. فإذن، الناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصواب: ﴿أَوْلِيَكُ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْنَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَبُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] وإنما يتفاوتون في درجات القرب لا في أصله، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به، وأعرفهم به لا بذُّ وأن يكون أعبدهم له، فمن عرفه لم يعبد

حديث: «الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثماتة طريقة من فقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة» أخرجه ابن شاهين واللالكاتي في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية المغيرة بن عبدالرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده:
 «الإيمان ثلاثماثة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافي شريعة منهن دخل الجنة» وقال الطبراني والبيهقي: «ثلاثماثة وثلاثون» وفي إسناده جهالة.

غيره. والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة. وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع، فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف بثان وثالث على القرب انمحى الأثر الأوّل، وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير، فلو بالغ ليلة في التكرار وترك شهراً أو أسبوعاً ثم عاد وبالغ ليلة لم يوثر هذا فيه، ولو وزع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه. ولهذا السر قال رسول الله على: «أَحَبُ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدْوَمُها وَإِنْ قَلُه (۱). وسئلت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله على فقالت: كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته (۲). ولذلك قال على: «مَنْ حَوْدَهُ اللّهُ عَبَادَةٌ فَتَرَكُها مَلائة مَقَتُهُ اللّهُ الله على على السبب في صلاته بعد العصر تداركاً لما فاته من ركعتين شفله عنهما الوفد، ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولكن في منزله لا في المسجد كيلا يقتدى به (٤). ووته عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.

格 袋 袋

الباب الثاني

في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين، وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين:

قال رسول الله ﷺ فيما روت عائشة رضي الله عنها: «إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ عِنْدَ اللهِ صلاةُ المَنْوِ لِهُ مَن مُنْافِرِ وَلا عَنْ مُقِيمٍ، فَتَحَ بِها صَلاةَ النَّيْلِ وَخَتَمَ بِها صَلاةَ النَّهَادِ، فَمَنْ صَلَّىٰ المَنْوِبِ لَمْ يَحْطَهَا عَنْ مُسَافِرٍ وَلا عَنْ مُقِيمٍ، فَتَحَ بِها صَلاةَ النَّيْلِ وَخَتَمَ بِها صَلاةَ النَّهَادِ، فَمَنْ صَلَّىٰ

حديث: (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل؛ متعق عليه من حديث عائشة.

⁽٧) حديث: «سئلت عائشة عن عمل رسول الله ﷺ فقالت: كان عمله ديمة ركان إذا عمل عملاً أثبته وواه مسلم.

 ⁽٣) حديث: قمن عوده الله عبادة فتركها مثلالاً مقته الله تقدم في الصلاة وهو موقوف على عائشة.

⁽٤) حديث: قشغله الوقد عن ركعتين فصلاهما بعد العصر ثم لم يزل يصليهما بعد العصر في منزله متفق عليه من حديث أم سلمة: قأنه صلى بعد العصر ركعتين وقال: شغلني ناس من عبدالقيس عن الركعتين بعد الظهر، ولهما من حديث عائشة: قما تركهما حتى لقي الله وكان النبي على يصليهما ولا يصليهما في المسجد مخافة أن يثقل على أمنه والله الموفق للصواب.

المَغْرِبَ وَصَلَّىٰ بَعْدَها رَكْعَتَيْنِ بَتَىٰ اللَّهُ لَهُ قَصْرَا فِي الجَنَّةِه (١١). قال الراوي: لا أدري من ذهب أو فضة؟ ﴿وَمَنْ صَلَّى بِعَدُهَا أَرْبِعِ رَكِعَاتُ فَفُو لَهُ ذَنبِ عَشْرِينَ سَنَّةً _ أَو قَالَ: _ أُربِعِينَ سَنَّةً وروت أم سلمة وأبو هريرة رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ أنه قال: امَّنْ صَلَّىٰ سِتٌّ رَكَمَاتٍ بَعْدَ المَغْرِب عَدَلَتْ لَهُ عِبَادَةً سَنَةٍ كَامِلَةٍ أَوْ كَأَنَّهُ صَلَّىٰ لَيْلَةَ المَقْدْرِه (٢) وعن سعيد بن جبير عن ثوبان قال: قَالَ رسول الله ﷺ: امَنْ عَكُفَ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فِي مَسْجِدِ جَمَاعَةٍ لَمْ يَتَكُلُّمْ إِلاّ بِصَلاةٍ أَوْ قُرْآنِ كَانَ حَفّاً عَلَىٰ اللّهِ أَنْ يَبْنِيَ لَهُ قَصْرَيْنِ فِي اَلْجَنَّةِ مَسِيرَةُ كُلِّ قَصْرِ مِنْهُما مِاثَةُ عَام، وَيَغْرِسَ لَهُ بَيْنَهُما فِرَاساً لَوْ طَافَهُ أَهْلُ النُّنْيَا لَوْسِعَهُمْ (٢٠). وقال ﷺ: هَنْ رَكَعَ عَشْرَ رَكْعَاتٍ ما بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ بَنَىٰ اللَّهُ لَهُ قَصْراً فِي الجَنَّةِ. فقال عمر رضى الله عنه: إذاً تكثر قصورنا يا رسول اللهَ!! مقال: اللَّهُ أَكُثَرُ وَأَفْضَلُ ـ أَو قال ـ أَطْهِبُ، (٤). وعن أنس بن مالك رضي إلله عنه قال: قال رسول اللهِ ﷺ: "مَنْ صَلَّىٰ المَغْرِبَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمُّ صَلَّىٰ بَعْدَها رَكْعَتَيْنِ وَلَمْ يَتَّكَلَّمْ بِشَيْءٍ فِيما بَينَ ذْلِكَ فِي أَمْرِ اللُّنْيَا وَيَفْرَأُ فِي الرُّكُعَةِ الأُولَىٰ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَعَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوّْلِ سُورَةِ البَقْرَةِ وَآيَتَيْنِ مِنْ وْسَطِهَا ﴿ وَإِلَهُ كُو إِنَّهُ كُو إِنَّا إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْسَنُ ٱلرَّحِيدُ ۞ إِذَ فِي خَلْقِ ٱلسَّسَوَتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البَّقَرَة: ١٦٤،١٦٣]، إلى آخر الآية، وَ﴿ فَلَ هُوَ اللَّهُ أَحَـٰذُ ۞﴾ [الإخلام: ١] خَمْسَ عَشْرَةَ مَرَّةً ثُمَّ يَرْكُعُ وْيَسْجُدُ، فَإِذَا قَامَ فِي الرَّكُمَةِ النَّائِيَةِ قَرَأَ فَاتِحَةَ الكِتَابِ وَآيَةَ الكُرْسِيِّ وَآيَتَيْنِ بَعْدَها إلى قوله: ﴿أَوْلَيْكَ أَضْنَابُ ٱلنَّالِّ هُمْ فِيهَا خَلِلُونَا﴾ [البَفَرَة: ٣٩] وَثَلاثَ آيَاتِ مِنْ آخر شُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ قَولِهِ: ﴿ يُتَهِ مَا فِي اَلسَّنَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِيُّ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٤] إلى آخرها. وَ﴿فُلُّ هُوَ اللَّهُ أَحَــُدُ ۖ ﴾ [الإخلاص: ١] خَمْسَ عَشْرَةَ مَرُقًا (^{ه)}. وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن الحصر. وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال: قلت للخضر عليه السلام: علمني شيئاً أعمله في كل ليلة، فقال: إذا صليت المغرب فقم

الباب الثاني: في الأسباب المسترة لقيام الليل

⁽۱) حديث عائشة: فإن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مثيم. . . ٢ الحديث. رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصفار في كتاب الصلاة، ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً وإسناده ضعيف.

⁽٢) حديث أم سلمة عن أبي هريرة: امن صلى ست ركمات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدرة أخرجه الترمذي وابن ماحه بلفظ: «النتي عشرة سنة»، وضعفه الترمذي، وأما قوله: «كأنه صلى ليلة القلو» فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الصفار، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس: «من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحداً وضعت له في عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر في المسجد الأتصى» وسنده ضعيف.

 ⁽٣) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان: قمن عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقاً على الله أن يبني له قصرين في الجنة الم أجد له أصلاً من هذا الوجه، وقد تقدم في الصلاة من حديث ابن عمر.

 ⁽³⁾ حديث: (من ركع حشر ركمات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصراً في الجنة، فقال عمر: إذاً تكثر قمبورنا
يا رسول الله . . . ٥ الحديث، أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عبدالكريم بن الحارث مرسلاً.

حديث أنس: ﴿من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركمتين ولا يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا
ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد. . . ٩ الحديث.
أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف.

إلى وقت صلاة العشاء مصلياً من غير أن تكلم أحداً وأقبل على صلاتك التي أنت فيها وسلم من كل ركعتين، واقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة، و﴿قُلُّ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـٰذًا ۗ ۖ [الإخلاص: ١] _ ثلاثاً _ فإن فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحداً وصل ركعتين واقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة، ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله تعالى سبع مرات، وقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالساً وارفع يديك وقل: يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا إله الأوَّلين والآخرين يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، يا رب يا رب يا رب يا الله يا الله يا الله، ثم قم وأنت رافع يديك وادع بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك، وصلُّ على النبي ﷺ وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم، فقلت له: أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا؟ فقال: إني حضرت محمداً ﷺ حيث علم هذا الدعاء وأوحى إليه به، فكنت عنده وكان ذلك بمحضر مني فتعلمته ممن علمه إياه (١). ويقال: إنَّ هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليهما بحسن يقين وصدق نية رأى رسول الله ﷺ في منامه قبل أن يخرج من الدنيا، وقد فعل ذلك بعض الناس قرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسوّل الله ﷺ وكلمه وعلمه. وعلى الجملة: ما ورد في فضل إحياء ما بين العشاءين كثير، حتى قيل لعبيدالله مولى رسول الله ﷺ: هل كان رسول الله ﷺ يأمر بصلاة غير المكتوبة؟ قال: ما بين المغرب والعشاء(٢)، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّىٰ مَا بَيْنَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فَلْلِكَ صَلا**ةُ الأَوَّابِينَ**»^(٣) وقال الأسود: ما أتبت ابن مسعود رضي الله عنه في هذا الوقتُ إلا ورأيته يصلي، فسألته فَقال: نعم هي ساعة الغفلة. وكان أنس رضي الله عنه يواظب عليها ويقول: هي ناشئة الليل، ويقول: فيها نزل قوله تعالى: ﴿نُتَجَائِنُ جُونِهُمْ عَنِ ٱلْمُضَاجِعِ ﴾ [السَّجدَة: ١٦] وقال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: أصوم النهار وأتعشى بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحيى ما بينهما؟ فقال: اجمع بينهما، فقلت: إن لم يتيسر؟ قال: أفطر وصلِّ ما بينهما.

فضيلة قيام الليل:

أما من الآيات: فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَمَلَرُ أَنَكَ مَتُومُ أَذَنَ مِن ثُلْنِي ٱلْبِهِ﴾ [الشرقل: ٢٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَائِدُ مَلُكَا وَأَقَوْمُ فِيلًا ﴿) [النزقل: ٢] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُويُهُمْ عَنِ ٱلْمَشَاجِعِ﴾ [السُّجنة: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ فَنَيْتُ مَانَاتَهَ ٱلْبِلِ﴾ [الرُّتر: ١] الآية، وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهِينُونَ لِيَهِمُونَ لِيَهِمُونَ لِيَهِمُونَ لِيَهِمُونَ لِيَهِمُ اللَّهِمُ اللَّهُمُ وَلَمُنَا ﴿) [الفُرقان: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّقِيمُ وَالسَّمِينُوا فِالصَّهِ وَالسَّلَوقَ ﴾ [الفُرقان: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّقِيمُ وَالسَّلَةِ وَالصَّلَوقَ ﴾ [النَّهَرَة: ٤٥] قبل على مجاهدة النفس.

⁽١) حديث كرز بن وبرة «أن الخضر علمه صلاة بين المغرب والعشاء، وفيه أن كرزاً سأل الخضر: مبن سمعت هذا؟
قال: إنى حضرت محمداً على حين علم هذا الدعاء...» الحديث. وهذا باطل لا أصل له.

حدیث عبید مولی رسول الله ﷺ وقبل له: اهل کان رسول الله یأمر بصلاة غیر المکتوبة؟ قال: ما بین المغرب
والعشاء، رواه أحمد رفیه رجل لم یسم.

 ⁽٣) حديث: قنن صلى ما بين المغرب والعشاء فقلك صلاة الأوابين؟. تقدم في الصلاة.

ومن الأخبار: قوله ﷺ: ﴿يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ قَافِيَةِ رأْسَ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاكَ عُقَدِ يَضْرِبُ مَكَانَ كُلُّ مُقْلَةٍ عَلَيْكَ لَيْلُ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِن اسْتَيْقَظَ وَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَىٰ الْمُحَلِّثُ مُقْلَةً، فَإِنْ تَوَضَّأُ الْمُحَلَّثُ عُفْدَةً، فَإِنْ صَلَّىٰ الْحَلَّتْ عُفْلَةً فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيْبَ النَّفْسِ وَإِلاَّ أَصْبَعَ خَبِيكَ النَّفْسِ كَسْلانَا (١٠). وفي الخبر: "أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنه (٢٠). وفي الخبر «إنَّ للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً فإذا أسعط العبد ساء خلقه، وإذا ألعقه ذرب نسانه بالشر، وإذا ذره نام الليلِ حتى يصبح، (٣٠). وقال ﷺ: ﴿ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا الْعَبْدُ فِي جَوْفِ اللَّيلِ خَيرٌ لَهُ مِنَ الدُّنيَا وَمَا فِيها وَلُؤلا أَنْ أَشْقٌ عَلَى أَمْتِي لَفَرَضْتُهُمَا عَلَيْهِمْ (٤٠). وفي الصحيح عن جابر أن النبي على قال: «إِنَّ مِنَ اللَّيْل سَاعَةً لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَيْراً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ٬ وفي رواية: ﴿يَسَأَلُ اللَّهُ تعالَىٰ خيراً من الدنيا والآخرة وذلك في كلُّ ليلة». وقال المغيرة بن شعبة: قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له: أما قد غفر الله لكّ ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: •أَقَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً» . ويظهر مِن معناه: أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة، فإن الشكر سبب المزيد. قال تعالى: ﴿ لَهِن شَكَرْتُهُ لَأَزِيدُنَّكُمْ ﴾ [ابراهبم: ٧] وقال ﷺ: ﴿ يَا أَبُنا هُرَيْرَةَ أَثْرِيدُ أَنْ تَكُونَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَيْنًا وَمَثْبُوراً وَمَبْغُونًا، قُمْ مِنَ اللُّهٰلِ فَصَلُّ وَأَنْتَ تُرِيدُ رِضَا رَبُّكَ. يا أَبُنا هُرَيْرَةَ صَلُّ فِي زَوَايا بَيتِكَ يَكُنْ نُورُ بَيتِكَ فِي السُّمَاءِ كَنُورِ الكَوَاكِبِ وَالنَّجْمِ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَاهُ (٦٠). وِهَال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ. فَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْل قُرْبَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلُّ وَتَكْفِيرٌ لِللَّنُوبِ وَمَطْرَدَةٌ لِلْدَاءِ عَنْ المجسَدِ وَمَلْهَاةٌ عَن الإِثْمِ»(٧) وقال ﷺ: «مَا مِنْ امْرِىءٍ نَكُونُ لَهُ صَلَاةً بِاللَّيْلِ فَعَلَبَهُ عَلَيْهَا النَّوْمُ إِلاَّ كُنِبَ لَهُ أَجْرُ صَلاَتِهِ وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَّقَةً عَلَيْهِ، ﴿ ﴿ وقال ﷺ لأبي ذر: ﴿لُو أَزَدْتُ شَفَّراً أَعْلَدَتُ لَهُ عَلَّمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ سفر طَرِيقِ القِيامَة. ألا

 ⁽١) حديث: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد . . ؟ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حديث: «ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال: ذاك رجل بال الشيطان في أذفه متفق عليه من حديث ابن مسعود.

⁽٣) حديث: فإن للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً. . . ٤ الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أنس: فإن للشيطان لعوقاً وكحلاً فإذا لعق الإنسان من لعوقه ذرب لسائه بالشر وإذا كحله من كحله نامت هيناه عن الذكرة ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب وسندهما ضعيف.

⁽٤) حديث: «ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم» أخرجه آدم بن أبي إياس في الثواب، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلاً، ووصله أبو متصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح.

حديث المغيرة بن شعبة: قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه. . . الحديث. متفق عليه.

حدیث: ایا آبا هریرة أترید أن تكون رحمة الله علیك حیاً ومیناً ومقبوراً قم من اللیل فصل وأنت ترید رضا ربك، یا
 آبا هریرة صل في زوایا بیتك یكن نور بیتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنیا، باطل لا أصل له.

حديث: الحليكم بقيام اللبل فإنه دأب الصافحين قبلكم. . . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث بلال وقال: غريب
 ولا يصح، ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن، وقال الترمذي: إنه أصح.

⁽٨) حديث: قما من امرىء يكون له صلاة بالليل يقلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه أخرجه أجرجه أبو داوه والنسائي من حديث عائشة، وفيه رجل لم يسم سماه النسائي في رواية الأسود بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرازي، قال النسائي: ليس بالقوي، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء نحوه بسند صحيح، وتقدم في الياب قبله.

أنْبِئك يَهُ أَبُهَا فِرْ بِمَا يَنْفَعُكَ ذَلِكَ اليَوْمَ؟ قَالَ: بَلَى بِأَبِي أَنْتَ وأَمِّي، قَالَ: صم يَومأ شَذِيدَ الْحَرّ لِيَوم النُّشور، وَصَلِّ رُكُّمَتَينِ فِي ظُلْمَة اللَّيْلِ لوحشة القُبُورِ، وحجَّ حَجَّة لِمَظَاثِم الأَمُودِ، وتَصَدّق بِصَدَقَةٍ عَلَى مِسْكِينِ أَوْ كَلِمَة حَقَّ تَقُولُهَا أَوْ كَلِمَة شِّرِّ تَسْكَت عَنْهَا ۗ (١). وروي: أنه كانَ على عَهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ الَّناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول: يا رب النار أجرني منها، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: ﴿إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَآذِنُونِي، ۖ فَأَتَاهُ فَاسْتَمَعَ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ: بِا فُلان هلا سَأَلْتَ الله الجَنَّة؟ قالَ: يا رسُول اللهُ، إِنِّي لَسْتُ هُنَاكَ وَلا يَبْلُغ عَمَلِي فَاك فَلَمْ يَلْنَثْ إِلاَّ يَسِيراً حَتَّى نَزَل جِبْرَائِيل عَلَيْهِ السَّلَامِ وقال: أخْبر **فُلاتاً أنَّ الله قَدْ أَجَارَه مِنْ النَّار وأَدْخَلَهُ الجَنَّة؛ (٢)**. ويروى: «أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي ﷺ: نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل، فأخبره النبي ﷺ بذلك، فكان يداوم بعده على فيام الليل" (٣) قال نافع: كان يصلي بالليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا، فيقوم لصلاته ثم يقول: يا نافع أسحرناً؟ فأقول: نعم، فيقعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر. وقال علي بن أبي طالب: شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبر شعير، فنام عن ورده حتى أصبح، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى أوجدت داراً خيراً لك من داري؟ أم وجدت جواراً خيراً لك من جواري؟ فوعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقاً، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد المسوح. وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال: (سَيَنْهَاهُ مَا يَعْمَلُ (١٠). وقال ﷺ: ﴿رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ ايْقَظَ الْمَرَأَتُهَ فَصَلْت، فَإِذَا أَبْتُ نضح فِي وَجُهِهَا المَاء، (٥٠). وقال ﷺ: قرَحِمَ الله امْرَأَة قَامَتُ مِن اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ ايْفَظَت زَوْجَهَا فَصَلَّى فَإِنَّ أَبَى نَضَحَت فِي وَجْهِه المَاءَهُ. وقال ﷺ: «مَنْ اسْتَنِقَظَ من اللَّيْلِ وانْفَظَ امْرَاتُه فَصَلَّيَا رَكْمَتَنِينِ كُتبَا من الذَّاكِرِينَ الله كُثِيراً وَالذَّاكِراتِ، (٢). وقال ﷺ: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل، (٧). وقال عمر بن الخطاب

⁽١) حديث أنه قال لأبي ذر: (لو أردت سفراً أعددت له معة فكيف بسفر طريق القيامة ألا أنبتك يا أبا فر بما ينفعك ذلك البوم؟ قال: بلى بأبي وأمي. قال: صم يوماً شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوجشة الفبور. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن أبى الدنيا في كتاب التهجد من رواية السري بن مخلد مرسلاً. والسري ضعفه الأزدي.

 ⁽۲) حديث: «أنه كان على عهد رسول الله مرحل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول: يا رب البار أجرني منها، فذكر ذلك للنبي فقال: إذا كان ذلك فأقنوني، . . ٤ الحديث، لم أقف له على أصال.

⁽٣) حديث: «أن جبريل قال للنبي ﷺ: نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل...» الحديث، متفق عليه من حديث ابن عمر: «أن النبي ﷺ قال دلك» وليس فيه ذكر لجبريل.

⁽٤) حديث: «قيل له: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال: سينهاه ما يعمل» أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة،

 ⁽٥) حديث: «رحم الله رجالاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت. . .» الحديث، أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبى هريرة.

حدیث: أمن استیقظ من اللیل وأیقظ امرأته فصلیا رکمتین کتبا من الذاکرین الله کثیراً والذاکرات، أخرجه أبو داود والنسائی من حدیث أبی هریرة وأبی سعید بسند صحیح.

 ⁽٧) حديث: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

رضي الله عنه: قال عليه: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيء مِنْهُ بِاللَّيلِ فَقَرَأَه بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ والظَّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَانَّمًا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ (١٠٠).

الآثار: روي أن عمر رضي الله عنه: كان يمرّ بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياماً كثيرة كما يُعاد المريض. وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كلوي النحل حتى يصبح. ويقال: إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام تلك الليلة حتى أصبح. وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة ثم يثب ويصلي إلى الصباح ثم يقول: طير ذكر جهنم نوم العابدين. وقال الحسن رحمه الله: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال، فقيل له: ما بال المتهجدين من أحس الناس وجوهاً؟ قال: الأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره. وقدم بعض الصالحين من سفره فمهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده، فحلف أن لا ينام بعدها على فراش أبداً. وكان عبدالعزيز بن روّاد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول: إنك للين ووالله إن في الجنة لألين منك ولا يزال يصلى الليل كله. وقال الفضيل: إني لأستقبل الليل من أوله فيهولني طوله فأفتتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمتي. وقال الحسن: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل. وقال الفضيل: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك. وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلي الليل كله، فإذا كان في السحر قال: إلهي ليس مثلي يطلب الجنة ولكن أجرني برحمتك من النار. وقال رجل لبعض الحكماء: إني لأضعفُ عن قيام الليل، فقال له: يا أخي لا تعص الله تعالى ولا تقم بالليل. وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم، فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت: يا أهل الدار الصلاة الصلاة، فقالوا: أصبحنا أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلون إلا المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: يا مولاي بعثني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة؟ ردني، فردها. وقال الربيع: بت في منزل الشافعي رضي الله عنه ليالي كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيراً. وقال أبو الجويرية: لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض. وكان أبو حنيفة يحيي نصف الليل، فمرّ بقوم فقالوا: إنّ هذا يحيي الليل كلُّه، فقال: إني أستحي أن أرصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحيي الليل كله. ويروى أنه ما كان له فراش بالليل. ويقال: إنَّ مالك بن دينار رضي الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ اَجْمَرُحُواْ السَّيِّعَاتِ أَن يَجْعَلُهُمْ كَأَلِّينَ ءَامَنُواْ وَعَيِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ [الجَائية· ٢١] الآية. وقال المغيرة بن حبيب: رمقت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه، فقبض على لحيته فخنقته العبرة، فجعل يقول: حرم شيبة مالك على النار، إلهي قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأي الرجلين مالك؟ وأي الدارين دار مالك؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر. وقال مالك بن دينار: سهوت ليلة عن وردي ونمت، فإذا أنا في المنام بحارية كأحسن ما يكون وفي يدها رقعة فقالت لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إلى الرقعة فإذا فيها:

الليل عمر: قمن نام صن حزيه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل رواه مسلم.

أَالَهِ فَ لَ السَّلَدَالِدَ والأمسانِ عن البِينِ الأوانِسِ في السجنسانِ تعديد البين السجنسانِ السجنسانِ مسخلة المستخدمة المس

وقيل: حج مسروق فما بات ليلة إلا ساجداً. ويروى عن أزهر بن مغيث وكان من القرّامين -:

أنه قال: رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت لها: من أنت؟ قالت: حوراء، فقلت: زوجيني

نفسك، فقالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني؛ فقلت: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد، وقال

يوسف بن مهران: بلغني أنّ تحت العرش ملكاً في صورة ديك براثنه من لؤلؤ وصئصته من زبرجه

أخضر، فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقاً وقال: ليقم القائمون، فإذا مضى نصف الليل

ضرب بجناحيه وزقى وقال: ليقم المتهجدون، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقى وقال! ليقم

المصلون؛ فإذا طلح الفجر ضرب بجناحيه وزقاً وقال: ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم، وقيل: إنّ

وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول: لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب

وهب بن منبه اليماني ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول: لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب

صدره عليها وخفق خفقات ثم يفزع إلى الصلاة. وقال بعضهم: رأيت رب العزة في النوم فسمعته

مقدل: وعزتي وجلالي لأكرمن مثوى سليمان التيمي فإنه صلى لي الغداة بوضوه العشاء أربعين سنة،

ويقال: كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء، وروي في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى

ويقال: إن عبدي الذي هو عبدي حقاً الذي لا ينتظر بقيامه صياح الديكة.

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل:

اهلم: أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً. فأما الظاهرة فأربعة أمور:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام. كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً. وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام.

الثناني: أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب؛ فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنَّة؛ للاستعانة على قيام الليل(١٠).

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار؛ فإن ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري فما بالي لا أقوم؟ فقال: ذنوبك قيدتك. وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول: أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيلون. وقال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذببته،

حديث: «الاستعانة بقبلولة النهار على قيام الليل» أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقلم.

قيل: وما ذلك الذنب؟ قال: رأيت رجلاً يبكي فقلت في نفسي: هذا مراء. وقال بعضهم: دخلت على كرز بن وبرة وهو يبكي، فقلت: أتلك نعي بعض أهلك؟ فقال: أشد، فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشد، فقلت: وجع يؤلمك؟ قال: أشد، وهذا فلك: قال: بابي مغلق وستري مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذلك إلا بذنب أحدثته. وهذا لأن الخير يدعو إلى الخبر والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجرّ إلى الكثير. ولذلك قال أبو سليمان الداراني: لا تفوت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب. وكان يقول: الاحتلام بالليل عقوبة والجنابة بُعد. وقال بعض العلماء: إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر وعلى أي شيء تفطر، فإن العبد لبأكل أكلة فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى. فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل، وأخصها بالتأثير تناول الحرام. وتؤثر اللقمة الحلال في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له. ولذلك قال بعصهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة، وكم من نظرة منعت قراءة سورة؟ وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة. وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكذلك الفحشاء أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة. وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكذلك الفحشاء بالليل: إنه هل صلى العشاء في جماعة؟ فكانوا يقولون: لا. وهذا تنبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن تعاطي الفحشاء والمنكر.

وأما الميسرات الباطئة فأربعة أمور:

الأول: سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يجول إلا في وساوسه، وفي مثل ذلك يقال:

يسخسبسرنسي السبسوّاب أنسك نسائسم وأنست إذا استبيقيظيت أيسضاً فسيائسم

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره، كما قال طاوس: إنّ ذكر جهم طير نوم العابدين. وكما حكي أن غلاماً بالبصرة اسمه صهيب: كان يقوم الليل كله مقالت له سيدته: إنّ قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار، فقال: إنّ صهيباً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم. وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال: إذا ذكرت النار اشتد خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقي، فلا أقدر أن أنام. وقال ذو النون المصري رحمه الله:

مسنسع السقسرآن بسوعسده ووعسيسده فهموا عن المعالث السجاليسل كسلامه وأنشدوا أيضاً:

يسا طبويسلَ السرقسادِ والسغسفسلات إن فسي السفسبسرِ إنْ نسزلست إلسيسه ومسهساداً مسمسهسداً لسك فسيسه أأمسنست السيسات مسن مسلسك السمسو

مقل العيون بالمسلها أن تهجعا فرقابهم ذلت إليه تَسخَيفُسعما

كسشرة السنسوم تسورث السحسسرات لسرقساداً يسطسول بسعسد السمسمسات بسننسوب عسمسلست أو حسسسنسات ت وكسم نسال آمسنساً بسبسيسات

وقال ابن المبارك:

إذا مسا السلّسيسلُ أظسلهم كسابسدوه فسيسسفه عسنهم وَهُسمُ وكسوعُ أطسار السخوف نسومهم وَهُسمُ وكسوعُ أطسار السخوف نسومهم فسقها مسجوعُ

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة من درجات الجنان؛ كما حكي أن بعض الصالحين رجع من غزوته فمهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره، فدخل المسجد ولم يزل يصلي حتى أصبح، فقالت له زوجته: كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح؟ قال: والله إني كنت أنفكر في حوراء من حور المجنة طول الليل، فنسيت الزوجة والمنزل فقمت طول ليلتي شوقاً إليها.

الرابع: وهو أشرف البواعث؛ الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه، وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بالمناجاة، فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام. ولا ينبغي أن يستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل؟!

فأما العقل: فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله.

فإن قلت: إن الجميل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى؟ فاعلم: أنه لو كان الجميل المحبوب وراء ستر أو كان في بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواه، وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بمسمع منه، وإن كان ذلك أيضاً معلوماً عنده.

فإن قلت: إنه ينتظر حوابه فيتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى؟ فاحلم: أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضاً لذة في عرض أحواله عليه ورفع سريرته إليه. كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به؟ وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جنع الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه، والرجاء في حق الله تعالى أصدق، وما عند غيره، فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات؟

وأما النقل: فيشهد له أحوال قوّام الليل في تلذذهم بقيام الليل واستقصارهم له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب؛ حتى قيل لبعضهم: كيف أست والليل؟ قال: ما راعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته بعد. وقال آخر: أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقني إلى الفجر ومرة يقطعني عن الفكر. وقيل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ فقال: ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط. وقال علي بن بكار: منذ أربعين سنة ما أحزنني شيء سوى طلوع الفجر. وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لمخلوتي بربي، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس عليّ. وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في نهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وقال أيضاً: لو عوض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة الكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم. وقال بعض العلماء: ليس في المنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة. وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من المنيا إنها عيم من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم، وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا

ثلاث: قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة. وقال بعض العارفين: إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنواراً فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين. وقال بعض العلماء من القدماء: إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين: إن لي عباداً أحبهم ويحبونني، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حدوت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا بكلامي وتملقوا إلي بإنعامي، فبين صارخ وباكي وبين متأوه وشاكي، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أوّل ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ وقال مالك بن والثائة: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟ وقال مالك بن الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب، وهذا له سر وتحقيق ستأتي الإشارة الموقع كتاب المحبة.

وفي الأخبار عن الله عزّ وجلّ: «أي عبدي: أنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نوري» وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم، فقال أستاذه: يا بني: إن لله نفحات، فقال النهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء القلوب النائمة فتعرّض لتلك النفحات، فقال: يا سيدي تركتني لا أنام بالليل ولا بالنهار.

واعلم: أن هذه النفحات بالليل أرجى؛ لما في قيام الليل صفاء القلب واندفاع الشواغل. وفي المخبر الصحيح عن جابر بن عبدالله عن رسول الله على أنه قال: «إِنَّ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةَ لاَ يُوافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّه تَعَالَىٰ خَيْراً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ (١). وفي رواية أخرى: «يسأَل الله خيراً من أمر المدنيا والآخرة إلا أعطاه إباه وذلك كل ليلة». ومطلوب القائمين تلك الساعة وهي مبهمة في جملة الليل كليلة القدر في شهر رمضان، وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة النفحات المذكورة والله أعلم.

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل:

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب:

الأولى: إحياء كل الليل، وهذا شأن الأقوباء الذي تجرّدوا لعبادة الليل وتلذذوا بمناجاته، وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم، فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار وفي وقت اشتغال الناس، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء. حكى أبو طالب المكي، أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين، وكان فيهم من واظب

 ⁽١) حديث حابر: •إن من الليل ساهة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل
 ليلقه رواه مسلم.

عليه أربعين سنة، قال: منهم سعيد بن المسيب، وصفوان بن سليم - المدنيان - وفضيل بن عياض، ووهيب بن الورد - المكيان - وطاوس، ووهب بن منبه - اليمانيان - والربيع بن خيثم، والحكم - الكوفيان - وأبو سليمان الداراني، وعلي بن بكار - الشاميان - وأبو عبدالله الخواص، وأبو عاصم - العباديان - وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلماني - الفارسيان - ومالك بن دينار وسليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء - البصريون - وكهمس بن المنهال وكان يختم في الشهر تسعين ختمة وما لم يفهمه رجع وقرأه مرة أخرى، وأيضاً من أهل المدينة؛ أبو حازم ومحمد بن المنكدر في جماعة يكثر عددهم.

المرتبة الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف. وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأوّل من الليل والسدس الأخير منه؛ حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير. وبالجملة: نوم آخر الليل محبوب؛ لأنه يذهب النعاس بالغداة، وكانوا يكرهون ذلك، ويقلل صفرة الوجه والشهرة به، فلو قام أكثر الليل ونام سحراً قلّت صفرة وجهه وقلٌ نعاسه. وقالت عائشة رضي الله عنها: الكان رسول الله على إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه ملال فيؤذنه للصلاة (۱۱)، وقالت أيضاً رضي الله عنها: الما ألفيته بعد السحر إلا نائماً (۱۲) حتى قال بعض السلف: هذه الضجعة قبل الصبع سنة، منهم أبو هريرة رضي الله عنه، وكان نوم هذا الوقت سبباً للمكاشفة والمشاهدة من وراء حجب الغيب، وذلك لأرباب القلوب، وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير. ونوم السدس الأخير قيام داود على.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أو خمسه، وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه.

المعرقبة الخامسة: أن لا يراعي التقدير، فإن دلك يتيسر لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوقظه، ثم ربما يضطرب في ليالي الغيم، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم، فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم. فيكون له في الليل نومتان وقومتان، وهو من

⁽١) حديث: الكان رسول الله على إدا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع هي مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذن بالصلاقة أخرجه مسلم من حديث عائشة: الكان ينام أول الليل ويحيي آخره ثم إل كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام وقال النسائي: الفؤذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجة إلى أهله الله ولأبي داود: الكان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثني وإن كنت نائمة أيقظني وصلى الركمتين ثم اضطجع حتى بأتيه المؤذن فيؤذته بصلاة الصبح فيصلي ركمتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة وهو متفق عليه بلفظ: الكان إذا صلى فإن كنت مستيقظة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة وقال مسلم: الإذا صلى ركمتي

حديث عائشة عنه المنه بعد السحر الأعلى إلا نائماً عنه بلفظ: «ما ألفي رسول الله على السحر الأعلى في بيتي أو عندي إلا بائماً لم يقل البخاري: «الأعلى» وقال ابن ماجه: «ما كنت ألقى أو ألفى النبي على من آخر الليل إلا وهو نائم عندي».

مكابدة الليل وأشد الأعمال وأفصلها، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله ﷺ وهو طريقة ابن عمر وأولي العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضي الله عنهم. وكان بعض السلف يقول: هي أول نومة فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله لي عيناً. فأما قيام رسول الله ﷺ من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد، بل ربما كان يقوم نصف الليل أو أو ثلثه أو سدسه "". يختلف ذلك في الليالي ودل عليه قوله تعالى في الموضعين في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَنَالُمُ أَنَكَ تَقُومُ أَذَنَ مِن تُلْفِي اللِّلِ وَهُمْ وَثُلْتُمُ اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ واللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّه

المرتبة السادسة: وهي الأقل؛ أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، أو تتعذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشتغلاً بالذكر والدعاء فيكتب في جملة قوام الليل برحمة الله وفضله. وقد جاء في الأثر: «صلَّ من الليل ولو قدر حلب شاة»^(ه) فهذه طرق القسمة فليختر المريد لنفسه ما يراه أبسر

⁽۱) حديث: "قيامه أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان أخرجه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث أم سلمة: "كان يصلي وينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما أم ينام قدر ما صلى حتى يصبح وللبخاري من حديث ابن عباس: "صلى العشاء ثم جاء فصلى أربع ركمات ثم نام ثم قام وبه: "فصلى خمس وكعات ثم صلى وكعين ثم نام حتى سمعت عطيطه..." الحديث،

⁽٣) حديث: ﴿ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه أخرجه الشيخان من حديث ابن صباس: ﴿قام وسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ... الحديث، وفي رواية البخاري: ﴿فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماه... الحديث، ولأبي داود: ﴿قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ... الحديث، ثمسلم من حديث عائشة: ﴿فبعثه الله بما شاه أن يعثه من الليل».

⁽٣) حديث عائشة: «كان يقوم إذا سمع الصارخ» متفق عليه.

⁽٤) حديث: "غير واحد قال: راعبت صلاة رسول الله في السفر لبلاً عنام بعد العشاء زماناً ثم استيقظ عنظر في الأفق فقال: ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك - حتى بلغ - إنك لا تخلف الميعاد، ثم استل من فراشه سواكاً فاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت: صلى مثل ما نام... الحديث. أحرجه النسائي من رواية حميد بن عبدالرحمن بن عوف: "أن رجلاً من أصحاب النبي في قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله في: والله لأرقبن رسول الله في فذكر نحوه، وروى أبو الوليد بن مغيث في كتاب الصلاة من رواية إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة: "أن رحلاً قال: لأرمقن صلاة رسول الله فذكر الحديث، وفيه: «أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل، وهذا يدل أنه أيضاً كان في سفر.

⁽٥) حديث: اصل من الليل ولو قدر حلب شاة؛ أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس في صلاة الليل مرفوعاً النصفه ثلثه ربعه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة؛ ولأبي الوليد بن مغبث من رواية اياس بن معاوية مرسلاً: ﴿ لا بد من صلاة الليل ولو حلية ناقة أو حلية شاة».

علبه. وحبث يتعذر عليه القيام في وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذي بعد العشاء. ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح نائماً، ويقوم بطرفي الليل، وهذه هي:

المرتبة السابعة. ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره.

وأما في المرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيهما إلى القدر، فليس يجري أمرهما في التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه في السادسة، ولا الخامسة دون الرابعة.

بيان الليالي والأيام الفاضلة:

اهلم: أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل العريد عنها، فإنها مواسم الخيرات ومظان التجارات، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح، ومتى عفل المريد عنها، فإنها مواسم الخيرات ومظان التجارات، ومنة من هذه الليالي في شهر رمضان: خمس في أوتار العشر الأخير إذ فيها يطلب ليلة القدر، وليلة سبع عشرة من رمضان، فهي ليلة صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فيه كانت وقعة بدر، وقال ابن الزبير رحمه الله: هي ليلة القدر. وأما النسع الأخر: فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة، فقد قال على المناخ المكتاب وسورة من حَسَنَاتُ مائة من من يكل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة، ويدحو لنفسه بما شاء من أمر أكبر مائة مرة، ويصبح صائماً فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية (١) وليلة النصف من أمر شعبان، ففيها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات، كانوا لا يتركونها كما أوردناه في صلاة النطوع وليلة عرفة، وليلتا العيدين، قال على أخياً لَيْلَتِي العِيدَيْنِ لَمْ يَمُتَ قَلْبُهُ عَمُوتُ القُلُوبُ النَّهِ المِيدَيْنِ لَمْ يَمُتَ قَلْبُهُ عَمُوتُ القُلُوبُ النَّهِ المِيدَيْنِ لَمْ يَمُتَ قَلْبُهُ الله المَيدَيْنِ لَمْ يَمُتَ قَلْبُهُ المُورِدُ القُلُوبُ النَّهُ المَيدَيْنِ لَمْ يَمُتَ قَلْبُهُ الله يَهُ المَيْدُونُ القُلُوبُ الله يَهْرَا في صلاة التطوع وليلة عرفة، وليلتا العيدين، قال يَسْعَ أَمْنَ أَخْيَا لَيْلَتِي العِيدَيْنِ لَمْ يَمُتَ قَلْبُهُ الله يَسْعَ قَلْهُ الله يَسْعَ المَنْ المُي يَسْعَ قَلْهُ الله يَسْعَ المَنْ الله يَسْعَ المُنْ الله يَسْعَ المُنْ المُنْ الله يَسْعَ المُنْ أَحْيَا لَيْلَتِي العِيدَيْنِ لَمْ يَمُكُ قَلْهُ الله المُنْ المُعْمُ الله المناف الله المناف ال

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها: يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم سبعة وعشرين من رجب له شرف عظيم. روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَامَ يَوْمَ سَيْع وَعِشْرِينَ مِنْ رَجَب كُنَبَ اللَّهُ لَهُ صِيّامَ سِتَّينَ شَهْراً»، وهو اليوم الذي أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد ﷺ بالرسالة. ويوم سبعة عشر من رمضان؛ وهو يوم وقعة بدر. ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين والأيام المعلومات؛ وهي عشر من ذي الحجة، والأيام المعدودات؛ وهي

⁽١) حديث: «الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب» ذكر أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام والليالي: أن أبا محمد الحباري رواه من طريق الحاكم أبي عبدالله من روابة محمد بن الفضل عن أبان عن أنس مرفوعاً، ومحمد بن الفضل وأبان ضعيفان جداً والحديث منكر.

 ⁽٢) حديث: (من أحيا ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم نموت القلوب؛ أخرجه بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة.

حديث أبي هريرة: امن صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً وهو اليوم الذي هبط
 فيه جبريل على محمد على واه أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام والليالي من رواية شهر بن
 حوشب عنه.

أيام التشريق. وقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا سَلِمَ يَوْمُ الجُمْعَةِ سَلِمَت الأَيَّامُ، وَإِذَا سَلِمَ شَهْرُ رَمَضَانَ سَلِمَتِ السَّنَةُ ('')، وقال بعض العلماء: من أخذه مهناة في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهناة في الآخرة؛ وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء. ومن فواضل الأيام في الأسبوع: يوم الخميس والانتين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى. وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام للصيام في كتاب الصوم، فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل العالمين.

تم الربع الأول من كتاب: إحياء علوم الدين وهو ربع العبادات ويتلوه: الربع الثائي: وهو ربع العادات



حديث أنس: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة» تقدم في الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الحمعة فقط، وقد رواه بجملته ابن حبان في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث عائشة وهو ضعف

كتاب آداب الأكل

ينسب أقو النَّنِ النِيَسِيةِ

وهو الكتاب الأول من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي أحسن تدبير الكائنات، فخلق الأرض والسلوات، وأنزل الماء الفرات من المعصرات، فأخرج به الحب والنبات، وقدّر الأرزاق والأقوات، وحفظ بالمأكولات قوى المحيوانات، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات، والصلاة على محمد ذي المعجزات الباهرات، وعلى آله وأصحابه صلاة تتوالى على ممرّ الأوقات، وتتضاعف بتعاقب الساعات، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن مقصد ذوي الألباب لقاء الله تعالى في دار التواب، ولا طريق إلى الوصول للقاء الله إلا بالعلم والعمل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصغو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القاتلين: ﴿ كُلُوا مِن الطّيبَاتِ التقوى فلا ينبغي أن يترك من معملاً سدى، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، فإن ما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه. وإنما أنوار الدين آدابه وسننه التي يزم العبد بزمامها ويلجم المتقي بلجامها، حتى يتزن بميزان الشرع شهوة الطعام في إقدامها وإحجامها، في ما نومير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر وإن كان فيها أوفى حظ للنفس. قال على الدين مراعياً فيه آدابه ووظائفه.

وها نحن نرشد إلى وظائف الدين في الأكل، فرائضها وسننها وآدابها ومروءاتها وهيئاتها في أربعة أبواب، وفصل في آخرها.

الباب الأول: فيما لا بد للآكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل.

كتاب آداب الأكل

 ⁽١) حديث. إن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى فيه وإلى في امرأته أخرجه البخاري من حديث لسعد بن أبي وقاص:
 ووإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك».

الباب الثاني: فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع على الأكل.

الباب الثالث: فيما يخص تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين.

الباب الرابع: فيما يخص الدعوة والضيافة وأشباهها.

* * *

الباب الأول

فيما لا بد للمنفرد منه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول: في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة:

الأول: أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه طيباً في جهة مكسبه، موافقاً للسنة والورع، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع، ولا بحكم هوى ومداهنة في دين ـ على ما سيأتي في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام ـ وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل؛ تفخيماً لأمر الحرام وتعظيماً لبركة الحلال فقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا اللَّذِينَ المَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَنْوَلَكُم لَيْنَكُم اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللهِ قوله: ﴿ وَلا نَقْتُلُوا أَنفُسَكُم الآية [النّساه: ٢٩]، فالأصل في الطعام كونه طيباً، وهو من الفرائض وأصول الدين.

الثاني: غسل اليد، قال على: «الوُضُوءُ قَبُلَ الطَّعَامِ يَنْفِي الفَقْرَ وَيَعْدَهُ يَنْفِي اللَّمَمَ» (١) وفي رواية: «يَنْفِي الفَقْرَ وَيَعْدَهُ يَنْفِي اللَّمَمَ» (١) وفي رواية: «يَنْفِي الفَقْرَ وَيَعْدَهُ يَنْفِي اللَّمَمَ» (١) وفي رواية: «يَنْفِي الفَقْرَ وَيَعْدَهُ وَالنّزاهة. ولأن الأكل قَبْلُ الطَّعَامِ وَبَعْدَهُ ولان الدين عبادة؛ فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجري منه مجرى الطهارة من الصلاة.

الشالث: أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله على المائدة، كان رسول الله على الأرض (٢٠). فهذا أتي بطعام وضعه على الأرض (٢٠). فهذا أقرب إلى التواضع، فإن لم يكن فعلى السفرة؛ فإنها تذكر السفر ويتذكر من السفر سفر الآخرة وحاجته

الياب الأول

⁽١) حديث: «الوضوء قبل الطمام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم»، وفي رواية: "ينفي الفقر قبل الطمام وبعده أخرجه التضاعي في مسئد الشهاب من رواية موسى الرضاعن آبائه متصلاً باللفظ الأول، وللطبرائي في الأوسط من حديث ابن عباس: «الوضوء قبل الطمام وبعده مما ينفي الفقر». ولأبي داود والترمذي من حديث سلمان، فيركة الطمام الوضوء قبله والوضوء بعده وكلها ضعيفة.

 ⁽٢) حديث: (كان إذا أثي بطعام وضعه على الأرض! أخرحه أحمد في كتاب الزهد من رواية الحسن مرسلاً، ورواه البزار
 من حديث أبي هريرة نحوه وفيه جماعة. وثقه أحمد وضعفه الدارقطني

إلى زاد التقوى. وقال أنس بن مالك رحمه الله: الما أكل رَسُولُ الله على خوانٍ وَلاَ فِي سكرجَةِ الله الله الله الله الله الله الموائد والمناخل والأشنان والشبع. واعلم: أنّا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على الموائد والمناخل والأشنان والشبع. واعلم: أنّا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهي عنه نهي كراهة أو تحريم إذا لم يثبت فيه نهي، وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله الإبداع قد كل ما أبدع منهياً، بل المنهي بدعة تضاد سنّة ثابتة وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتبسير الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه. والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من النظافة، فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أتم في التنظيف، وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يعتاد عندهم أو لا يتبسر، أو كانوا مشغولين بأمور أهم من المبالغة في النظافة، فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضاً، وكانت مناديلهم أخمص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل مستحباً. وأما المنخل يغسلون اليد أيضاً، وكانت مناديلهم أخمص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل مستحباً. وأما المنخل فلم فالمقصود منه تطيب الطعام وذلك مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعاظم. وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهييج الشهوات أيضاً مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعاظم. وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهييج الشهوات أيضاً مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعاظم. وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهييج الشهوات .

المخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى؛ ليكون مطيعاً بالأكل ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل، قال إبراهيم بن شيبان: منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئاً لشهوتي. ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل، فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل ما دون الشبع؛ فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوي عليها، فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإيثار القناعة على الاتساع، قال

⁽١) حديث أنس: فما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة. . . ، الحديث. رواه المخاري. والسكرحة: نشبه الطبلية.

⁽Y) حديث: «ربما جنا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى، أحرجه أبو داود من حديث عبدالله بن بشير في أثناه حديث: «أتوا تلك القصمة فالتموا عليها فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ . . » الحديث. وله وللنسائي من حديث أنس: «رأيته يأكل وهو مقنع من الجرع»، وروى أبو الحسن بن المقري في الشمائل من حديث: «كان إذا قعد على الطعام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال: «إنما أنا هبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يقعل العبد» وإسناده ضعيف.

 ⁽٣) حديث كان يقول: الا أكل متكتاً أخرجه البخاري من حديث أبي جعيفة.

⁽٤) حديث: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» تقدم قبله من حديث أنس للقظ: «وأقعل» بدل: «وأجلس» وواجلس» وواجلس» وواجلس،

رسول الله ﷺ: قما مَلاَ آدَمِيُّ وِعَاءَ شَرَا مِنْ بَطْنِهِ. حَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَتُلْتُ طَمَامٌ وَثُلْتُ شَرَابٌ وَثُلْتُ لِلنَّفسِ، (۱). ومن ضرورة هذه النية: أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جانع فيكون الحوع أحد ما لا يد من تقديمه على الأكل، ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب، وسبأتي فائدة قلة الأكل وكيفية التدريج في التقليل منه في كتاب كسر شهوة الطعام من ربع المهلكات.

السادس: أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام، ولا يجتهد في التنعم وطلب الزيادة وانتظار الأدم، بل من كرامة الخبر أن لا ينتظر به الأدم، وقد ورد الأمر بإكرام الخبر "، فكل ما يديم الرمق ويقوي على العبادة فهو خبر كثير لا ينبغي أن يستحقر، بل لا ينتظر بالخبر الصلاة إن حضر وقتها إذا كان في الوقت متسع، قال ﷺ: «إذا خضر العِشَاءُ وَالْعَشَاءُ فَابْدَوُوا بِالْعَشَاءِ" . وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشائه، ومهما كانت النفس لا تتوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة، فأما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يبرد الطعام أو يشوش أمره فتقديمه أحب عند اتساع الوقت، تاقت النفس أو لم تتق؛ لعموم الخبر، ولأن القلب لا يخلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالباً.

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده. قال ﷺ: «الجُتَمِعُوا عَلَىٰ طَعَامِكُمْ يُبَارُكُ لَكُمْ فِيهِ (١٠). وقال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ لا يأكل وحده (٥٠). وقال ﷺ: «خَيْرُ الطَّعَام مَا كَثْرَتْ عَلَيْهِ الأَيْدِي».

القسم الثاني: في آداب حالة الأكل:

وهو أن يبدأ به "بسم الله" في أوّله وبه "الحمد لله" في آخره. ولو قال مع كل لقمة "بسم الله" فهو حسن حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى، ويقول مع اللقمة الأولى "بسم الله" ومع الثانية "بسم الله الرحمن ومع الثانية "بسم الله الرحمن ويجهر به ليذكر غيره. ويأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به، ويصغر اللقمة ويجوّد مضغها، وما لم يبتلعها لم يمدّ اليد إلى الأخرى؛ فإن ذلك عجلة في الأكل، وأن لا يذم مأكولاً. «كَانَ يَشِيدُ مُأكُولاً؛ كَانَ إِذَا أَعْجَبُهُ أَكَلَهُ وَإِلاَّ تَرَكُهُ الله وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فإن له أن يجيل بده فيها، قال على : "كُلْ مِمّا يَلِيكَ" . ثم كان عَشِيد يدور على الفاكهة، فقيل له

 ⁽١) حديث: إما ملأ ابن آدم وهاء شراً من بطنه. . . • الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه س حديث المقداد بن معد يكرب.

 ⁽٢) حديث: فأكرموا التغيز؟ أخرجه البزار والطبراني وابن قامع من حديث عبدالله بن أم حرام بإسناد ضعيف جداً، وذكره
 ابن الجوزي في الموضوعات.

 ⁽٣) حديث: اإذا حضر العشاء والعشاء قابدؤوا بالعشاء، تقدم في الصلاة والمعروف (وأقيمت الصلاة).

⁽٤) حديث: «اجتمعوا على طمامكم يبارك لكم فيه» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشي بن حرب بإسناد حسن.

⁽٥) حديث أنس اكان رسول الله ﷺ لا يأكل وحده رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

 ⁽٦) حديث أنس اكان لا يعيب مأكولاً إن أعجبه أكله وإلا تركه متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٧) حديث: فكل مما يليك، متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة.

في ذلك فقال: «لَيْسَ هُوَ نَوْعاً وَاحِداً» (١). وأن لا يأكل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكبن، (٢) ولا يقطع اللحم أيضاً فقد نهى عنه وقال: «انْهَشُوهُ نَهْشاً» (٣). ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يأكل به، قال ﷺ: «أَكُرِمُوا الخبُرزَ فَإِنَّ الله تَعَالَىٰ أَنْزَلَهُ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ ولا يمسح يده بالخبر. وقال ﷺ: اإِذَا وَقَعَتُ لُقْمَةُ أَحَدِكُمُ الخبُرزَ فَإِنَّ الله تَعَالَىٰ أَنْزَلَهُ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ ولا يمسح يده بالخبر. وقال ﷺ: اإِذَا وَقَعَتُ لُقْمَةُ أَحَدِكُمُ المُخبُرزَ فَإِنَّ الله تَعَالَىٰ أَنْزَلَهُ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ ولا يمسح يده بالخبر. وقال ﷺ: المِنْ يَلْعَقُ أَصَابِعَهُ فَإِنْهُ لَمْ يَلْعَمُ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَى وَلا ينفخ في الطعام الحار (٥) فهو منهي عنه ، بل يصبر إلى أن يسهل أكله ، ويأكل من التمر وتراً سبعاً أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق ولا يحمع في كفه ، بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقيها، وكذا كل ما له عجم وثفل، وأن لا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة بل يتركه مع الثفل حتى لا يلتبس على وثفل، وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه؛ فقد قبل: إن ذلك عيره فيأكله . وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه؛ فقد قبل: إن ذلك مستحب في الطب وإنه دباغ المعدة .

وأما الشرب، فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول: "بسم الله ويشربه مصا لا عباً. قال ﷺ: المُصُوا النَّمَاء مَصَا وَلا يَعْبُوهُ عَبَا فَإِنَّ الكُبَادَ مِنَ الْعَبُ (٢) ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً فإنه ﷺ نهى عن الشرب قائماً (٧)، وروي أنه ﷺ شرب قائماً (١) ولعله كان لعذر. ويراعي أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب، ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز، بل ينحبه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية. وقد قال ﷺ بعد الشرب: "المحمد لله الذي جَعَلَهُ عَلْما فُرَاتاً بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلُهُ مِلْحاً أَجَاجاً بِالتسمية. وقد قال ﷺ بعد الشرب: "المحمد لقوم يدار يمنة، وقد شرب رسول الله ﷺ لبناً وأبو بكر بلكونياه (٩). والكوز وكل ما يدار على القوم يدار يمنة، وقد شرب رسول الله ﷺ لبناً وأبو بكر

⁽١) حديث: اكان بدور على الفاكهة وقال: الميس هو نوهاً واحداً الخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عكراش بن ذؤيب وفيه الوجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق فقال: يا هكراش كل من حيث شئت فإنه فير لون واحد، قال الترمذي: فريب، ورواه ابن حبان في الضعفاء.

 ⁽٣) حديث: «النهي عن قطع الخبر بالسكين وواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة، وفيه نوح بن أبي مريم
 وهو كذاب، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «النهي عن قطع اللحم بالسكين» أخرجه أبو داود من حديث عائشة وقال «فانهشوه نهشاً» قال النسائي « مكر، وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث صفوان بن أمية: «وانهشوا اللحم نهشاً» وسنده ضميف.

 ⁽³⁾ حديث: •إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح بده بالمديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة؛ أخرجه مسلم من حديث أنس وجابر.

 ⁽a) حديث: «النهي عن النفخ في الطعام والشراب» أخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود والترمذي، وصححه ابن ماجه إلا أنهم قالوا: «في الإناه» وأخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي سعيد «نهى عن النفخ في الشراب».

 ⁽٣) حديث: قمصوا الماء مصا ولا تعيوه هياً أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بالشطر الأول ولأبي داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبي رياح فإذا شربتم فاشربوا مصاً».

 ⁽٧) حديث: «النهي عن الشرب قائماً» أخرجه مسلم من حديث أنس وأبي سعيد وأبي هريرة.

 ⁽A) حديث: «أنه ﷺ شرب قائماً» متفق عليه من حديث ابن عباس، «وذلك من زمزم».

 ⁽٩) حديث: «كان يقول بعد الشرب: المحمد لله الذي جعل الماء هذباً فراتاً برحمته ولم يجعله ملحاً أجاجاً بلنوبنا» أخرجه
 الطبراني في الدعاء مرسلاً من رواية أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين.

رضي الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته، فقال عمر رضي الله عنه: أعط أبا بكر فناول الأعرابي وقال: «الأيمن فالأيمن»، ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في أواخرها ويسمي الله في أوائلها، ويقول في آخر النفس الأول: «الحمد لله» وفي الثاني يزيد «رب العالمين» وفي الثالث يزيد «الرحمن الرحيم» فهذا قريب من عشرين أدباً في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار.

القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام:

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه ثم يمسح بالمنديل ثم يخسلها ويلتقط فتات الطعام. قال ﷺ: «مَنْ أَكُلَ مَا يَسْقُطُ مِنَ المَائِدَةِ عَاشَ فِي سِعَةٍ وَعُوفِيَ فِي وَلَدِهِ (١٠). ويتخلل ولا يبتلع كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه، أما المخرج بالخلال فيرميه وليتمضمض بعد الخلال ففيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام. وأن يلعق القصعة ويشرب ماءها، ويقال: من لعق القصعة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة. وأن التقاط الفتات مهور الحور العين، وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه، قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَهِبَكِ مَا رَزَّقْنَكُمْ وَآشَكُرُواْ بِلِّهِ﴾ [النَّقرَة: ١٧٣] ومهما أكل حلالاً قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات، اللهم أطعمنا طيباً واستعملنا صالحاً. وإن أكل شبهة فليقل: الحمد لله على كل حال، اللهم لا تجعله قوّة لنا على معصيتك، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولإيلاف قريش، ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أوْلاً، فإن أكل طعام الغير فليدع له وليقل: اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته، ويسر له أن يفعل فيه خيراً، وقنعه بما أعطيته، واجعلنا وإياه من الشاكرين. وإن أفطر عند قوم فليقل: أفطر عندكم لصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة. وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة، ليطفىء بدموعه وحزنه حرّ النار التي تعرض لها لقوله ﷺ: ﴿كُلُّ لَحْم نَبَتَ مِنْ حَرَام فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بهِه (٢) وليس من يأكل ويبكي كمن يأكل ويلهو. وليقل إذا أكل لبناً: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه (٣)، فإن أكل غيره قال: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وارزقنا خيراً منه، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله ﷺ اللبن لعموم نفعه. ويستحب عقيب الطعام أن يقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ولا يكفي منه شيء أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد، آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه، اللهم أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً واجعله عوناً لنا على طاعتك، ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك. وأما غسل اليدين بالأشنان فكيفيته: أن يجعل الأشنان

⁽١) حديث: «من أكل ما سقط من المائلة عاش في سعة وهوفي في ولقه» أخرجه أبر الشيخ في كتاب التواب من حديث جابر بلفظ: «أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولذه الحمق» وله من حديث الحجاج بن علاط: «أعطي معة من الرزق ووقى في ولقه» وكلاهما منكر جداً.

 ⁽۲) حديث: «كل لحم نبت من حرام فالتار أولى به» هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ: «سحت»
وهو عند الترمذي وحسته بلفظ: «لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به».

 ⁽٣) حديث: «القول عند أكل اللمن: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عباس: «إذا أكل أحدكم طماماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطممنا خيراً منه، ومن سقاه الله لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه».

في كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليد اليمنى أوّلاً، ويضرب أصابعه على الأشنان اليابس فيمسح به شفتيه، ثم ينعم غسل الفم بأصبعه، ويدلك ظاهر أسنانه وباطنها والحنك واللسان، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماه، ثم يدلك ببقية الأشنان اليابس أصابعه ظهراً وبطناً، ويستغني بذلك عن إعادة الأشنان إلى الفم وإعادة غسله.

* * *

الباب الثاني

فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة:

الأول: أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به، فحينئذ ينبغي أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له.

الثاني: أن لا يسكنوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم، ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدّثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

الثالث: أن يرفق برفيقه في القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله، فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً، بل ينبغي أن يقصد الإيثار، ولا يأكل تمرئين في دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم. فإن قلل رفيقه نشطه ورغبه في الأكل وقال له: «كُلُ» ولا يزيد في قوله: «كُلُ» على ثلاث مرات فإن ذلك إلحاح وإفراط، كان رسول الله ﷺ إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث ، وكان ﷺ يكرّر الكلام ثلاث أن فليس من الأدب الزيادة عليه، فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع؛ قال الحسن بن على رضي الله عنهما: الطعام أهون من أن يحلف عليه.

الرابع: أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له: كُلّ، قال بعض الأدباء: أحسن الآكلين أكلاً من لا يحوج صاحبه إلى أن يتفقده في الأكل وحمل عن أحيه مؤنة القول، ولا ينبغي أن يدع شيئاً مما يشتهيه لأجل نظر الغبر إليه، فإن ذلك تصنع بل يجري على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئاً في الوحدة، ولكن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة؛ حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع. نعم لو قلل من أكله إيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن، وإن زاد في الأكل على نية المساعدة وتحريث نشاط القوم في الأكل فلا بأس به بل هو حس، وكان أبن المبارك يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول: من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهماً. وكان يعد النوى ويعطي كل من له فضل نوى بعدده دراهم، وذلك لدفع الحياء وزيادة النشاط في الانبساط، وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: أحب إخواني إليً أكثرهم أكلاً

الباب الثاني

فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

 ⁽١) حديث: «كان إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث، أخرحه أحمد من حديث جابر في حديث طويل ومن حديث أبي حدرد أيضاً وإستادهما حسن.

 ⁽٧) حديث: الكان يكرر الكلمة ثلاثاً» أخرجه البخاري من حديث أنس: الكان يعيد الكلمة ثلاثاً».

وأعظمهم لقمة وأثقلهم عليَّ من يحوجني إلى تعهده في الأكل، وكل هذا إشارة إلى الجري على المعتاد وترك التصنع، وقال جعفر رحمه الله أيضاً: تتبين جودة محمة الرجل لأخيه بجودة أكله في منزله.

المخامس: أن غسل اليد في الطست لا بأس به وله أن يتنخم فيه إن أكل وحده، وإن أكل مع غيره ملا ينبغي أن يمعل ذلك، فإذا قدّم الطست إليه غيره إكراماً له فليقبله، اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني رضي الله عنهما على طعام فقدّم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس: إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها فإنما يكرم الله عزّ وجلٍّ. وروي أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال: يا أبا معاوية تدري من صب على يديك؟ فقال: لا، قال: صبه أمير لمؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله. ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار، فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست، قال ﷺ: «اجْمَعُوا وَضُوءَكُمْ جَمَعَ الله شَمْلَكُمْ اللهُ عَلَى: إن المراد به هذا، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الأمصار: لا يرفع الطست من بين يدي قوم إلا مملوءة ولا تشبهوا بالعجم، وقال ابن مسعود: اجتمعوا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم. والخادم الذي يصب الماء على اليد كره معضهم أن يكون قائماً وأحب أن يكون جالساً لأنه أقرب إلى التواضع، وكره بعضهم جلوسه، فروي أنه صب الماء على يد واحد خادم جالساً فقام المصبوب عليه فقيل له: لم قمت؟ فقال: أحدنا لا بدُّ وأن بكون قائماً. وهذا أولى؛ لأنه أيسر للصب وللغسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيه فتمكيته من الحدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك. ففي الطست إذاً سبعة آداب: أن لا يبزق فيه، وأن يقدم به المتبوع، وأن يقبل الإكرام بالتقديم، وأن يدار يمنة، وأن يجتمع فيه جماعة، وأن يجمع الماء فيه، وأن يكون الخادم قائماً، وأن يمج الماء من فيه ويرسله من يله برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه، وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أوَّل نزوله عليه وقال: لا يروعك ما رأيت منى فخدمة الضيف فرض.

السادس: أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون، بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده، بل يمذّ اليد ويقبضها ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقلل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيراً، فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعاً للخجلة عنهم.

السابع: أن لا يفعل ما يستقذره غيره، فلا ينفض بده في القصعة ولا يقدّم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فقد يكرهه غيره، واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرقة والخل، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات.

* * *

 ⁽١) حديث: «اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم» رواه القضاعي في مسند الشهاب في حديث أبي هويرة بإسناد لا مأس
 به، وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة إبراهيم وقال: إنه معضل وفيه نظر.

الباب الثالث

في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير. قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما: إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس، فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم. وقال الحسس رحمه الله كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها ألبتة إلا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام فإن الله يستحيي أن يسأله عن ذلك. هذا مع ما ورد من الأخبار في الإطعام. قال ﷺ: «لاَ تَزَالُ ٱلمَلَاتِكَةُ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَتْ مَاثِدَتُهُ مَوْضُوغَةً بَيْنَ يَدَنِهِ حَتَّىٰ تُرْفَعَ اللَّهُ وروي عن بعض علماء خراسان: أنه كان يقدِّم إلى إخوانه طعاماً كثيراً لا يقدرون على أكل جميعه، وكان يقول بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك (** فأنا أحب أن أستكثر مما أقدّمه إليكم لنأكل فضل ذلك، وفي الخبر: ﴿ لا يحاسب العبد على ما يأكله مع إخواتهه (٣) وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك ويقلل إذا أكل وحده، وفي الخبر: اثلاثة لا يحاسب عليها العبد: أكلة السحور، وما أنطر عليه، وما أكل مع الإخوان» (٤) وقال علي رضي الله عنه · لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحبّ إليّ من أن أعثق رقبةً. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه، وكان الصحابة رضى الله عنهم يقولون: الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق، وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرّقون إلا عن ذواق، وقيل: اجتماع الإخوان على الكفاية مع الأنس والألفة ليس هو من الدنيا. وفي المخبر: "يقول الله تعالى للمبد يوم القيامة: يا ابن آدم جمت فلم تطعمني فيقول كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتني» (°). وقال ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَكُم الرَّاثِرُ فَأَكْرِمُوهُ (^{﴿﴿} وقال ﷺ: ﴿إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِيْهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، هِيَ لِمَنْ أَلاَنَ الكَلاَمَ وَأَطْعَمَ

الياب النالث

في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

- (١) حديث: الا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائلته موضوعة بين يديه حتى ترقع أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف.
 - (٢) حديث: (إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم هن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام، لم أقف له على أصل.
 - (٣) حديث: ولا يحاسب العبد بما يأكله مع إخوانه، هو في الحديث الذي بعده بمعناه.
- (3) حليث: الثلاثة لا يحاسب حليها العبد: أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوانه أخرجه الأزدي في الضمفاء من حديث جاير: الثلاثة لا يسألون من النميم: الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه أورده في ترجمة سليمان بن داود الجزري وقال فيه: منكر الحديث، ولأبي منصور والديلمي في مسئد الفردوس تحوه من حديث أبى هريرة.
- (ه) حديث: "يقول الله للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جعت قلم تطعمني . . . " الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة المفظ: "استطعمتك قلم تطعمني".
- (٩) حديث: المِقا جاءكم الزائر فأكرموه؟ أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر، قاله ابن
 أبي حاتم في العلل عن أبيه.

الطَّمَامَ وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ بَيَامُ اللَّهِ وَقَالَ ﷺ : ﴿ حَيْرُكُمْ مَنْ أَطْعَمَ الطَّمَامَ () . وقال ﷺ : ﴿ مَنْ أَطُعَمَ أَخَاهُ حَتَّىٰ يُشْبِعَهُ وَسَقَاهُ حَتَّىٰ يُرْوِيَهُ بَعْدَهُ اللهِ مِنَ التَّارِ بِسَيْعِ خَنَادِقَ مَا بَيْنَ كُلُّ خَنْدَقَيْنِ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةٍ عَامٍ ا () .

وأما آدابِه: فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام. أما الدخول: فليس من السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل، فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهي عنه. قال الله تعالى: ﴿ لَا نُدُمُلُواْ بِيُونَ ٱلبِّيَ إِلَّا أَتِ يُؤْدَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طُمَارٍ عَيْرَ لَطِّرِينَ إِنَكُ ﴾ [الاحرَاب: ٥٣] يعني منتظرين حينه ونضجه. وفي الخبر: "مَنْ مَشَىٰ إِلَىٰ طَعَام لَمْ يُدْعَ إِلَيْهِ مَشَىٰ فَاسِقاً وَأَكَلَ حَرَاماً" (ف) ولكن حق الداخل إذا لم يتربص واتفق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له، فإذا قيل له: كُلِّ. نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد، وإن كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل، بل ينبغي أن يتعلل، أما إذا كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به. «قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعاً»(٥) والدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف. وكان عون بن عبدالله المسعودي له ثلاثمائة وستون صديقاً يدور عليهم في السنة. ولآخر ثلاثون يدور عليهم في الشهر. ولآخر سبعة يدور عليهم في الجمعة. فكان إخوانهم معلومهم بدلاً عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم، فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذنه؛ إذ المراد من الإذن الرضا لا سيما في الأطعمة وأمرها على السعة. فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه، وربّ غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب. وقد قال تعالى: ﴿أَرْ صَدِيقِكُمْ ۗ [الَّذِر: ٦١] ودخل رسول الله ﷺ دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان الطعام من الصدقة فقال: «بَلَغَتِ الصَّدَقَةُ مَحَلَّهَا» (١٠) وذلك لعلمه

حدیث: (إن في الجنة غرفاً يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطمام وصلى
 بالليل والناس تبام» أخرجه الترمذي من حديث علي وقال: غريب لا تعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق
 وقد تكلم فيه من قبل حفظه.

 ⁽٢) حديث "خيركم من أطعم الطعام" أخرجه أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال: صحيح الإسناد.

حدیث: «من أطعم أخاه حتى پشیعه وسقاه حتى برویه بعده الله من النار سبع خنادق ما بین كل خندقین مسیرة خمسمائة عامه أخرجه الطبراني من حدیث عبدالله بن عمر، وقال ابن حبان: لیس من حدیث رسول الله ﷺ، وقال الذهبي: غریب منكر.

 ⁽٤) حديث: امن مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً؛ أخرجه البيهقي من حديث عائشة نحوه وضعمه،
 ولأبي داود من حديث ابن عمر امن دخل على غير دعوة دخل سارقاً وخرج مغيراً إسناده ضعيف.

ه) حديث: «قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما لمنزل أبي الهيشم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري
لأجل طعام يأكلونه أما قصة أبي الهيشم فرواها الترمدي من حديث أبي هريرة وقال: حسن غريب صحيح، والقصة
عند مسلم لكن ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال: «رجل من الأنصار»، وأما حديث قصدهم منزل أبي أيوب:
فرواها الطرائي في المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

 ⁽٦) حديث: «دخل رسول الله ﷺ دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان من الصدقة فقال: بلغت الصدقة مكانها متفق عليه من حديث عائشة الهدي لبريرة لحم فقال النبي ﷺ: هو لها صدقة ولنا هدية وأما قوله فبلغت محلها فقاله في الشاة التي أعطيتها نسيبة من الصدقة وهو متفق عليه أيضاً من حديث أم عطية.

بسرورها بذلك، لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاء بعلمه بالإذن، فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أوّلاً ثم الدخول. وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول: هكذا كنا، وروي عن الحسن رضي الله عنه أنه كان قائماً يأكل من متاع بقال في السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع، تأكل متاع الرجل بغير إذنه؟ فقال: يا لكع اتل عليَّ آية الأكل، فتلا إلى قوله تعالى: في أبا سعيد في الورع، تأكل متاع الرجل بغير إذنه؟ فقال: يا لكع اتل عليَّ آية الأكل، فتلا إلى قوله تعالى: القلب، ومشى قوم إلى منزل سفيان التوري فلم يجدوه فقتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون، فدخل الشوري وجعل يقول: ذكر تموني أخلاق السلف هكذا كانوا. وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم، فلهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزه وغير ذلك فحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال: كلوا، فجاء رب المنرل فلم ير شيئاً، فقيل له: قد أخذ فلان، فقال: قد أحسن، فلما لقيه قال: يا أخي إن عادوا فعد. فهذه آداب الدخول.

وأما آداب التقديم: فترك التكلف أوَّلاً وتقديم ما حضر، فإن لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه، وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا يتبغى أن يقدم. دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل فقال: لولا أني أخذته بدين لأطعمتك منه، وقال بعض السلف في تفسير التكلف: أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة. وكان الفضيل يقول: إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه. وقال بعضهم: ما أبالي بمن أتاني من إخواني فإني لا أتكلف له إنما أقرب ما عندي، ولو تكلفت له لكرهت مجيئه ومللته. وقال بعضهم: كنت أدخل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له: إنك لا تأكل وحدك هذا ولا أنا فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه؟ فإما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع المجيء، فقطع التكلف ودام اجتماعنا بسببه، ومن التكلف: أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم، روي أن رجلاً دعا علياً رضى الله عنه فقال على: أجيبك على ثلاث شرائط: لا تدخل من السوق شيئاً، ولا تدخر ما في البيت، ولا تجحف بعيالك. وكان بعضهم يقدم من كل ما في البيت فلا يترك نوعاً إلا ويحضر شيئاً منه. وقال بعضهم: دخلنا على جابر بن عبدالله فقدم إلينا خبزاً وخلاً وقال: لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم(١٠). وقال بعضهم: إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر وإن استزرت فلا تبق ولا تذر. وقال سلمان: أمرنا رسول الله على أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا(٢). وفي حديث يونس النبي ﷺ أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسراً وجزَّ لهم بقلاً كان يزرعه ثم قال لهم: كلوا لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم. وعن أنس بن مالك رضى الله عنه وغيره من

⁽١) حديث: الدخلنا على حابر بن عبدالله فقدم إلينا خبزاً وخلاً وقال: لولا أنا نهينا عن التكلف لكم لتكلفت لكم ارواه أحمد دون قوله الولا أنا نهينا> وهو من حديث سلمان الفارسي وسيأتي بعده وكلاهما ضعيف، وللبخاري عن عمر بن الخطاب انهينا عن التكلف>.

 ⁽٧) حديث سلمان «أمرنا رسول الله على أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا» أخرجه الخرائطي
 في مكارم الأخلاق، ولأحمد «لولا أن رسول الله على نهانا _ أو لولا أنا نهينا _ أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك»
 وللطبراني: «نهانا رسول الله على أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا».

الصحابة: أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف التمر ويقولون: لا ندري أيهما أعظم وزراً؛ الذي يحتقر ما يقدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه؟.

الأدب الثاني: وهو للزائر؛ أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فريما يشق على المزور إحضاره فإن خيره أخوه بين طعامين فليتخير أيسرهما عليه، كذلك السنّة. ففي الخبر أنه ما خير رسول الله بيخ بين شيئين إلا اختار أيسرهما (١) وروى الأعمش عن أبي وائل أنه قال: مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم المينا خبز شعير وملحاً حريشاً، فقال صاحبي: لو كان في هذا الملح سعتراً كان أطبب، فخرج سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعتراً، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا. فقال سلمان: لو قنعت مما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة. هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له، فإن علم أنه يسر باقتراحه بيئداد وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة بي بعض الأيام وألحق بها لونا آخر بخطه، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر وقال: ما أمرت بهذا؟ فعرضت عليه الرقعة ملحقاً فيها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سروراً باقتراح الشافعي عليه، وقال أبو بكر الكتاني: دخلت على السري فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح باقتراح الشافعي عليه، أنوا أشربه كله في مرة واحدة؟ فضحك وقال: هذا أفضل لك من حجة، وقال معضهم: الأكل على ثلاثة أنواع، مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الذنيا بالأدب.

الأدب الثالث: أن يُشهّي المزور أخاه الزائر، ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طببة بفعل ما يقترح، فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَادَفَ مِنْ أَخِيهِ شَهْوَةً غُفِرَ لَهُ وَمَنْ سَرَّ أَخَاهُ المُؤْمِنَ فَقَدْ سَرَّ اللهُ تَعَالَىٰ (*) وقال ﷺ فيما رواه جابر: «مَنْ لَذَّذَ أَخَاهُ بِمَا يَشْتَهِي كَتَبَ الله لَهُ أَلْفَ أَلْفَ أَلْفَ أَلْفَ ذَرَجَةٍ وَأَطْعَمَهُ الله مِنْ لَلَاثِ جَنَّاتٍ: جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ وَجَنَّةُ طَدُ لِهُ أَلْفَ أَلْفَ أَلْفَ ذَرَجَةٍ وَأَطْعَمَهُ الله مِنْ لَلَاثِ جَنَّاتٍ: جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ وَجَنَّةُ طَدِنِ وَجَنَّةُ الخُلْدِهِ (*).

الأدب الرابع: أن لا يقول له: هل أقدّم لك طعاماً؟ بل ينبغي أن يقدّم إن كان. قال الثوري: إذا زارك أخوك فلا تقل له: أتأكل؟ أو أقدّم إليك؟ ولكن قدّم فإن أكل وإلا فارفع. وإن كان يريد أن يطممهم طعاماً فلا ينبغي أن يظهرهم عليه أو يصفه لهم. قال الثوري: إذا أردت أن لا تطعم عيالك مما تأكله فلا تحدّثهم به ولا يرونه معك. وقال بعض الصوفية: إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاماً، وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة، فإذا دخل القراء فدلوهم على المحراب.

 ⁽١) حديث: «ما خير رسول ألله عليه بين شيئين إلا اختار أيسرهما» متفق عليه من حديث عائشة وراد اما لم يكن إثماً»
 ولم يذكرها مسلم في بعض طرقه.

 ⁽٧) حديث: «من صادف من أخيه شهوة فقر الله له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله هز وجل» أخرجه البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء: «من وافق من أخيه شهوة ففر له» قال ابن الجوزي حديث موضوع، وروى ابن حبان والعقيلي في الضعفاء من حديث أبي مكر الصديق: «من سر مؤمناً فإنما سر الله . . » الحديث. قال العقيلي الباطل لا أصل له.

 ⁽٣) حديث جابر: (من للذ أنحاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة. ١ الحديث. ذكره ابن الجوزي في الموضوعات
من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر، وقال أحمد بن حنيل: هذا باطل كذب.

الباب الرابع

في أداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة: الدعوة أوّلاً، ثم الإِجابة، ثم الحضور، ثم تقديم الطعام، ثم الأكل، ثم الانصراف. ولنقدم على شرحها إن شاء الله تعالى.

الباب الرابع في آداب الضيافة

 ⁽١) حليث: «لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله، ومن أبغض الله أبغضه الله أخرجه أبو
 بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان: «لا يتكلفن أحد لضيفه ما لا يقدر عليه» وفيه محمد بن الفرح الأزرق متكلم فيه.

⁽٢) حديث: الاخير فيمن لا يضيف أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وفيه اب لهيعة.

 ⁽٣) حديث: (مر رسول الله ﷺ برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يصفه ومر بامرأة لها شويهات فذبحت له. . . ٩ الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية أبي المنهال مرسلاً.

 ⁽³⁾ حديث أبي رافع اأنه نرل برسول الله على صيف فقال: اقل لفلان اليهودي: نزل بي ضيف فأسلفني شيئاً من المدقيق إلى رجبه. . . ٤ الحديث. رواه إسحاق بن راهويه هي مسنده والخرائطي في مكارم الأخلاق وابن مردويه في التفسير بإسناد ضعيف.

 ⁽a) حديث: «سئل رسول أله ﷺ ما الإيمان؟ قال: «إطعام الطعام وبذل السلام» متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «أي الإسلام خبر؟ قال: «تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

 ⁽٩) حديث: قال ﷺ: قني الكفارات والدرجات إطمام الطمام والصلاة باللبل والناس نيام؟ أخرجه الترمذي وصححه
 والحاكم من حديث معاذ، وقد تقدم بعضه في الباب الرابع من الأذكار وهو حديث اللهم إني أسألك فعل الخيرات؟.

 ⁽٧) حديث: سئل عن الحج المبرور فقال: وإطعام الطعام وطيب الكلام، تقدم في الحح.

وللإجابة خمسة آداب:

الأول: أن لا يميز الغني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه، ولأجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة وقال: انتظار المرقة ذل، وقال آخر: إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتي، ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف المسئة؛ كان رسول الله على يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين (٥٠)، ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق وقد نشروا كسراً على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بغلته فسلم عليهم فقالوا له: هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله على فقال: نعم، إن الله لا يحب المستكبرين، فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلم عليهم وركب وقال: قد أجبتكم فأجيبوني، قالوا: نعم، فوعدهم وقتاً معلوماً فحضروا فقدّم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم. وأما قول القائل: إن من وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي، فقد قال بعضهم: هذا خلاف السئة وليس كذلك، فإن ذلك إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد منة وكان يرى ذلك يداً له على المدعو، ورسول الله على خان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلد منة ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في المدعو، ورسول الله يختلف باختلاف الحال، فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام، وإنما يفعل ذلك مباهاة المناها والآخرة، فهذا يختلف باختلاف الحال، فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام، وإنما يفعل ذلك مباهاة

 ⁽۱) حديث: «أكل طعامكم الأبرار» أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد صحيح.

 ⁽٣) حديث: (لا تأكل إلا طمام تفي ولا يأكل طعامك إلا تفي، تقدم في الزكاة.

 ⁽٣) حديث: قشر العامام طعام الوليمة. . . ٩ الحديث. منفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٤) حديث: (لو دهيت إلى كراع الأجيت ولو أهدي إلى ذراع لقبلت؛ أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

حديث: اكان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس دون ذكر المسكين،
 وضعفه الترمذي وصححه الحاكم.

أو تكلفاً عليس من السنة إجابته (1) بل الأولى التعلل، ولذلك قال بعض الصوفية: لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك، وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه. وقال سري السقطي رحمه الله: آه على لقمة ليس على الله فيها تبعة ولا لمخلوق فيها منة. فإذا علم المدعو أنه لا منة في ذلك فلا ينبغي أن يرد. وقال أبو تراب النخشبي رحمة الله عليه: عرض علي طعام فامتنعت، فابتليت بالجوع أربعة عشر يوماً فعلمت أنه عقوبته. وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه: كُلُّ مَن دعاك تمر إليه؟ فقال: أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني.

الثاني: أنه لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك، يقال في التوراة أو بعض الكتب: سر ميلاً عد مريضاً، سر ميلين شيع جنازة، سر ثلاثة أميال أجب دعوة، سر أربعة أميال زر أخاً في الله. وإما قدم إجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحي فهو أولى من الميت، وقال ﷺ: قَوْ دُعِيت إلَىٰ كراع بِالغَمِيمِ لاَجَبْتُ»(٢) وهو موضع على أميال من المدينة أفطر فيه رسول الله ﷺ في رمضان (٣) لما بلغة وقصر عنده في سفره (٤).

الثالث: أن لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر، فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل وذلك في صوم التطوّع، وإن لم يتحقق سرور قلبه فليصدّقه بالظاهر وليفطر، وإن تحقق أنه متكلف فليتعلل. وقد قال على قال على المنتع بعذر الصوم قلك أَخُوكَ وَتَقُولُ إِنِّي صَائِمٌ (٥). وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق، فثوابه فوق ثواب الصوم. ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب. وقد قيل: الكحل والدهن أحد القرائين.

الرابع: أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير حلال، أو كان يقام في الموضع منكر من فرش ديباج أو إناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط، أو سماع شيء من المزامير والملاهي، أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والهزل واللعب

⁽١) حديث: «ليس من السنة إجابة من يطعم مباهاة أو تكلفاً» أخرجه أبو داود من حديث ابن صاس أن النبي ﷺ انهى عن طعام المتبارين؟ قال أبو داود: من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس، وللعقيلي في الضعفاء انهى النبي ﷺ عن طعام المتباهين، والمتباريان المتعارضان بفعلهما للمباهاة والرياء؛ قاله أبو موسى المديني.

 ⁽۲) حديث: «لو دهيت إلى كراع بالغميم لأجبت» ذكر الغميم فيه ليعرف والمعروف: «لو دهيت إلى كواع» كما تقدم قبله
بثلاثة أحاديث، ويرد هذه الزيادة ما رواه الترمذي من حديث أنس «لو أهدي إلى كراع لقبلت».

 ⁽٣) حديث: (إفطاره في في رمضان لما بلغ كراع بالغميم) رواه مسلم من حديث جابر في عام الفتح.

⁽٤) حديث: «قصره ﷺ في سفره عند كواع بالغميم» لم أقف له على أصل، وللطبراني في الصغير من حديث ابن عمر: «كان يقصر الصلاة بالعقبق» بريد إذا بلغه، وهذا يرد الأول؛ لأن بين العقبق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر، وكراع المغميم بين مكة وعسفان والله أعلم.

⁽٥) حديث: اوقال لمن امتنع بعار الصوم التكلف لك أخوك وتقول إني صائم؟ أخرجه البيهقي من حديث أبي سعيد المخدري اصنعت لرسول الله على طعاماً وأتاني هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من القوم: إني صائم، فقال رسول الله على: الدهاكم أخوكم وتكلف لكم. » الحديث. وللدارقطني نحوه من حديث جابر.

واستماع الغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب وشبه ذلك مما يمنع الإجابة واستحبابها ويوجب تحريمها أو كراهيتها، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو مبتدعاً أو فاسقاً أو شريراً أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر.

وأما الحضور: فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدّر فيأخذ أحسن الأماكن، بل يتواضع ولا يطوّل الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على المحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوّش عليه، وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراماً فليتواضع؛ قال ﷺ: فإنَّ مِنَ التَّوَاضُعِ لله الرَّضَا بِالدُّونِ مِنَ المَحْلِسِ» (٦). ولا ينبغي أن يجلس فليتواضع؛ قال ﷺ: ولا ينبغي أن يجلس

 ⁽١) حديث: (من لم يجب الداعي فقد عصى الله ورسوله) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

حديث: "من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله تعالى" ذكره الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث جابر،
 والعقيلي في الضعفاء من حديث أبي بكر وإسادهما ضعيف.

 ⁽٣) حديث: فمن سوّ مؤمناً فقد سرّ الله تقدم في الباب قبله.

٤) حديث: قوجبت محبتي للمتزاورين في والمتباذلين في أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ولم يذكر المصنف هذا الحديث وإنما أشار إليه.

 ⁽a) حديث: (الأهمال بالنيات؛ منفق عليه من حديث عمر بن الخطاب.

حديث: (إن من التواضع أنه الرضا بالدون من المجلس) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وأبو نميم في رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بسند جيد.

في مقابلة باب الحجرة الذي للنساء وسترهم، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره. ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس. وإذا دخل ضيف للمبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيث الماء وموضع الوضوء، كذلك فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما. وغسل مالك يده قبل الطعام قبل القوم وقال: الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى، لأنه يدعو الناس إلى كرمه، فحكمه أن يتقدّم بالغسل، وفي آخر الطعام يتأخر بالغسل لينتظر أن يدخل من يأكل فيأكل معه، وإذا دخل فرأى منكراً غيره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف، والمنكر: فرش الديباج واستعمال أواني الفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماع الملاهي والمزامير، وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرّمات، حتى قال أحمد رحمه الله: إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغي أن يخرح، ولم يأذن في الجلوس إلا في ضبة وقال: إذا رأى كلة فينبغي أن يخرج فإن ذلكَ تكلف لا فائدة فيه، ولَا تدفع حرّاً ولا برداً ولا تستر شيئاً، وكذلك قال: يخرج إذاً رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة. وقال: إذا اكترى بيتاً فيه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغي أن يحكها فإن لم يقدر خرج. وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر في الكلة وتزيين الحيطان بالديباج فإن ذلك لا ينتهي إلى التحريم؛ إذ الحرير يحرم على الرجال، قال رسول الله على: وهُذَانِ خَرَامٌ عَلَىٰ ذُكُورِ أُمَّتِي حِلِّ لإِمَّاتِهَاهُ (١) وما على الحائط ليس منسوباً إلى الذكور ولو حرّم هذا لَحُرِّم تزيين الكعبة بل الأولى إباحته لموجب قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ آلَتُهِ ﴾ [الأعراف: ٣٧] لا سيما في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر، وإن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه، ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجواري والنساء، والحيطان في معنى النساء إذ لسن موصوفات بالذكورة.

وأما إحضار الطعام، قله آداب خمسة:

الأول: تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف، وقد قال على: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَكُومِ ضَيْفَهُ"
في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير، إلا أن يكون المتأخر فقيراً أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير وأحد المعنبين في قوله تعالى: ﴿ مَلْ أَنْكَ حَدِيثُ مَنْفِ إِنْهِمَ ٱلْمُكُومِينَ ﴿ وَاللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ الل

⁽١) حديث: فهذان حرامان على ذكور أمتي؟ أحرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي، وفيه أبو أقلح الهمداني جهله ابن القطان والنسائي والترمذي وصححه من حديث أبي موسى بنحوه.

قلت: الظاهر انقطاعه بين سعيد بن أبي هند وأبي موسى فأدخل أحمد بينهما رجلاً لم يسم.

 ⁽٢) حديث: قمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه متفق عليه من حديث أبي سريج.

وقضاء الدين، والتوبة من الذنب؛ (١) ويستحب التعجيل في الوليمة؛ قيل: الوليمة في أول يوم سنة، وفي الثاني معروف، وفي الثالث رياء.

الثاني: ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت، فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى: ﴿وَفَكِكُهُ إِيُّنَّا يَتَغَيِّرُونَ ۞﴾ [الواتِعَة: ٢٠] ثم قال: ﴿ وَلَمْ يَلَمْ يَمَا يَشَهُونَ ۞﴾ [الواتِعَة: ٢١] ثم أفضل ما يقدّم بعد الفاكهة اللحم والثريد فقد قال عليه السلام: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْل الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطُّعَامِۥ ۗ ، فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات. ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضَيف إبراهيم إذ أحضر العجل الحنيذ _ أي المحنوذ وهو الذي أجيد نضجه (٢) _ وهو أحد معنى الإكرام أعنى: نقديم اللحم، وقال تعالى في وصف الطيبات: ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَالسَّلُوكَيُّ ۗ [البَّقَرَة: ٧٧] المن: العسل، والسلوى: اللحم^(۳)، سمي سلوى لأنه يتسلى به عن جميع الإِدام ولا يقوم غيره مقامه، ولذلك قال ﷺ اسَيِّدُ الإِدَامِ اللُّحْمُهِ، ثم قال بعد ذكر المنّ والسلوي ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبُتِ مَا رَزَقْنَكُمْ ۗ [البَقَرَة: ٥٠] فاللحم والحلاوة مَن الطيبات، قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: أكل الطيبات يورث الرضا عن الله. وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفائر على اليد عند الغسل. قال المأمون: شرب الماء بثلج يخلص الشكر. وقال بعض الأدباء: إذا دعوت إخوانك فأطعمتهم حصرمية وبورانية وسقيتهم ماء بارداً فقد أكملت الضيافة. وأنفق بعضهم دراهم في ضيافة، فقال بعض الحكماء: لم تكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبزك جيداً وماؤك بارداً وخلك حامضاً فهو كفاية. وقال بعضهم: الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين. ويقال: إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل، فذلك أيضاً مستحب ولما فيه من التزين بالخضرة. وفي الخبر: إن المائدة التي أنزلت على بني إسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكرّاث، وكان عليها سمكة عند رأسها خل وعند ذنبها ملح، وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان، فهذا إذا اجتمع حسن للموافقة.

الثالث: أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفي منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده، وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده، وهو خلاف السنة فإنه حيلة في استكثار الأكل، وكان من سنة المتقدمين أن يقدموا جملة الألوان دفعة واحدة ويصففون

⁽١) حديث حاتم الأصم: «العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله على إطعام الطعام وتجهيز الميت وتزويج المكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب، أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد: «الأثاة من الله والمعجلة من الشيطان، وسنده ضعيف، وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبي وقاص: «التؤدة في كل شيء إلا في همل الأخرة قال الأعمش؛ لا أعلم إلا أنه رفعه، وروى المزني في التهذيب في ترجمة محمد بن موسى من نفيع عن مشيخة من قومه: أن النبي على قال: «الأناة في كل شيء إلا في ثلاث إذا صبح في خيل الله وإذا نودي بالصلاة وإذا كانت الجنازة. . . الحديث. مرسل، والترمذي من حديث على: «ثلاثة لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت والجنازة إذا حسن.

 ⁽i) حديث فضل عائشة لم يخرجه العراقي وخرجه الشارح عن الترمذي في الشمائل وغيره.

⁽٢) شراء لا طبخاً.

⁽٣) المنّ: نوع من الحلوي ينزل كالندى على ورق الشجر في موسم معين، والسلوى: طائر الفر.

القصاع من الطعام على المائدة ليأكل كل واحد مما يشتهي، وإن لم يكن عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه. ويحكى عن بعض أصحاب المروءات أنه كان يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان. وقال بعض الشيوخ: قدّم إليّ بعض المشايخ لوناً بالشام، فقلت: عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخراً، فقال: وكذا عندنا بالشام، ولم يكن له لون غيره فخجلت منه. وقال آخر: كنا جماعة في ضيافة فقدم إلينا ألوان من الرؤوس المشوية طبيخاً وقديداً، فكنا لا نأكل ننتظر بعدها لوناً أو حملاً، فجاءنا بالطست ولم يقدم غيرها، فنظر بعضنا إلى بعض فقال بعض الشيوخ وكان مزاحاً: إن الله تعالى يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان، قال: وبتنا تلك الليلة جياعاً نطلب فتيتاً إلى السحور. فلهذا يستحب أن يقدم الجميع أو يخبر بما عنده.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه، أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتنغص عليه بالمبادرة، وهي من التمكن على المائدة التي يقال إنها خير من لوئين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال، ويحتمل أن يكون أراد به سعة المكان حكي عن الستوري وكان صوفياً مزاحاً فحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدم إليهم حمل - وكان في صاحب المائدة بخل - فلما رأى القوم مزقوا المحمل كل ممزق ضاق صدره وقال: يا غلام ارفع إلى الصبيان، فرفع الحمل إلى داخل الدار، فقام الستوري يعدو خلف الحمل، فقيل له: إلى أين؟ فقال: آكل مع الصبيان، فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل. ومن هذا الفن: أن لا يرقع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون، بل ينبغي أن يكون الحمل. ومن هذا الفن: أن لا يرقع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون، فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومد يده إلى الطعام وأكل وقال: بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم، وكان السلف يستحسنون ذلك منه.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية؛ فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة، والزيادة عليه تصنع ومراءاة لا سيما إذا كانت نفسه لا تسمح بأن يأكلوا الكل، إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يتبرك بفضلة طعامهم؛ إذ في الحديث: لا يحاسب عليه، أحضر إبراهيم بن أدهم رحمه الله طعاماً كثيراً على مائدته فقال له سفيان: يا أبا إسحاق أما تخاف أن يكون هذا سرفاً؟ فقال إبراهيم: ليس في الطعام سرف، فإن لم تكن هذه النية فالتكثير تكلف. قال ابن مسعود رضي الله عنه: نهينا أن نجيب دعوة من يباهي بطعامه، وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة. ومن ذلك كان لا يرفع من بين يدي رسول الله في فضلة طعام قط لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة ولا يأكلون تمام الشبع.

وينبغي أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق في الضيفان ألسنتهم، ويكون قد أطعم الضيفان ما يتبعه كراهية قوم وذلك خيانة في حقهم. وما بقي من الأطعمة فليس للضيفان أخذه وهو الذي تسميه الصوفية الزلة، إلا إذا صرح صاحب الطعام بالإذن فيه عن قلب راض أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به، فإن كان يظن كراهيته فلا ينبغي أن يؤخذ، وإذا عُلم رضاه فينبغي مراعاة العدل والنصفة مع الرفقاء، فلا ينبغي أن يأخذ الواحد إلا ما يخصه أو ما يرضى به رفيقه عن طوع لا عن حياء.

فأما الانصراف، فله ثلاثة آداب:

الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر اكرامه، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكُرِمْ ضَيْفَهُ». وقال عليه السلام: «إنَّ مِنْ سُنَةِ الضَّيْفِ أَنْ يُشَيِّعَ إِلَىٰ بَابِ اللَّارِ». قال أبو قتادة: قدم وفد النجاشي على رسول الله يَق فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله: فقال: «كُلا، إِنَّهُمْ كَاتُوا لأَصْحابِي مُكْرِمِينَ وَأَنَا أُحِبُ أَنْ أُكَافِئَهُمْ». وتمام الإكرام: طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة، قبل للأوزاعي رضي الله عنه: ما كرامة الضيف؟ قال: طلاقة الوجه وطيب الحديث، وقال يزيد بن أبي زياد: ما دخلت على عبدالرحمن بن أبي ليلى إلا حديثاً حسناً وأطعمنا طعاماً حسناً.

الثاني: أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير، فذلك من حسن الخلق والتواضع. قال يَهِ الله المؤلف بِحُسْنِ خُلْقِهِ دَوَجَة الصَّائِم الْقَائِم، ودعي بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضر وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل وقال: قد خرج القوم، فقال: هل بقي بقية ؟ قال: لا، قال: فكسرة إن بقيت ؟ قال: لم نبق، قال: فالقدر أمسحها ؟ قال: قد غسلتها ؟ فانصرف يحمد الله تعالى، فقيل له في ذلك فقال: قد أحسن الرجل دعانا بنية وودنا بنية، فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق. وحكي أن أستاذ أبي القاسم الجنيد دعاه صبي إلى دعوة أبيه أربع مرات فرده الأب في المرات الأربع وهو يرجع في كل مرة تطيباً لقلب الصبي بالحضور ولقلب الأب بالانصراف، فهذه نفوس قد ذللت ناتواضع لله تعالى واطمأنت بالتوحيد، وصارت تشاهد في كل رد وقبول عبرة فيما بينها وبين ربها، فلا تنكسر بما يجري من العباد من الإذلال كما لا تستبشر بما يجري منهم من الإكرام، بل يرون الكل من الواحد القهار. ولذلك قال بعضهم: أنا لا أجيب الدعوة إلا لأني أتذكر بها طعام ليجن عو طعام طيب يحمل عنا كذه ومؤنته وحسابه.

* * *

حديث: «الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة» متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي.

حديث: قاراش للرجل وقراش للمرأة وقراش للضيف والرابع للشيطانة أخرجه مسلم من حديث جابر.

فصل

يجمع أدابآ ومناهي طبية وشرعية متفرقة

الأول: حكي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الأكل في السوق دناءة (١) وأسنده إلى رسول الله في وإسناده قريب. وقد نقل ضده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنا نأكل على عهد رسول الله في ونحن نعشي ونشرب ونحن قيام (٢). ورثي بعض المشايخ من المتصوّفة المعروفين يأكل في السوق فقيل له في ذلك فقال: ويحك أجوع في السوق وآكل في البيت، فقيل تدخل المسجد؟ قال: استحي أن أدخل بيته للأكل فيه. ووجه الجمع: أن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن، وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه، وهو مختلف بعادات البلاد وأحوال الأسخاص، فمن لا يليق ذلك بسائر أعماله حمل ذلك على قلة المروءة وفرط الشره ويقدح ذلك في الشهادة، ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعاً.

الثاني: قال علي رضي الله عنه: من ابتداً غذاء بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئاً يكرهه، واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، والبسقارجات تعظم البطن وترخي الأليتين، ولحم البقر داء ولبنها شفاء، وسمنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء، ولن تستشفي النفساء بشيء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغداء وليكرر العشاء وليلبس الحذاء، ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن وليقل غشيان النساء وليخفف الرداء وهو الدين.

الثالث: قال الحجاج لبعض الأطباه: صف لي صفة آخذ بها ولا أعدوها، قال: لا تنكح من النساء إلا فتاة، ولا تأكل من اللحم إلا فتيا، ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه، ولا تشربن دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكل طعاماً إلا أجدت مضغه، وكُل ما أحببت من الطعام ولا تشربن عليه، فإذا شربت فلا تأكلن عليه شيئاً، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت باللبل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة، وفي معناه قول العرب: تغد تمد تعش تمش، يعني تمدد كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِنَّ أَقِهِم يَتَكُم الله البيانة: ٣٣] أي يتمطط. ويقال: إن حبس البول يفسد الجد كما يفسد النهر ما حوله إذا سد مجراه.

الرابع: في الخبر: اقطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرمة (٣)، والعرب تقول: ترك الغداء يذهب بشحم الكاذة ـ يعني الآلية ـ وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني لا تخرج من منزلك حتى تأخذ

 ⁽١) حديث: «الأكل في السوق هناءة» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة وهو ضعيف، ورواه ابن عدي في الكامل من حديثه وحديث أبى هويرة.

⁽Y)· حديث ابن عمر اكنا نأكل على عهد رسول الله 義 ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام، أخرجه الترمدي وصححه وابن ماجه وابن حبان.

 ⁽٣) حديث: اقطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرمة أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث عبدالله بن جراد بالشطر
 الأول، والترمذي من حديث أنس بالشطر الثاني وكلاهما ضعيف، وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث جابر.

حلمك أي تتغذى؛ إذ به يبقى الحلم ويزول الطبش وهو أيضاً أقل لشهوته لما يرى في السوق. وقال حكيم لسمين: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فمم هي؟ قال: هي أكل لباب البر وصغار المعز، وأدهن بجام بنفسج وألبس الكتان.

الخامس: الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض، هكذا قيل. وقال بعضهم: من احتمى فهو على يقين من السمكروه، وعلى شك من العوافي، وهذا حسن في حال الصحة. ورأى رسول الله على صهيباً يأكل تمراً وإحدى عينيه رمداء فقال: «أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَأَنْتَ رَمِدٌ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنْمَا آكُلُ بِالشَّقِ الآخَوِ» (١) يعني جانب السليمة فضحك رسول الله على الله الله على المنابقة الآخَو

السادس: أنه يستحب أن يحمل طعام إلى أهل الميت، ولما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال عليه السادم: ﴿إِنَّ آلَ جَعْفَر شُغِلُوا بِمَيْتِهِمْ عَنْ صُنْع طَعَامِهِمْ فَاحْمِلُوا إِلَيْهِمْ مَا يَأْكُلُونَ (٢) فذلك سنّة. وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه إلا ما يهيأ للنوائح والمعينات عليه بالبكاء والجزع فلا ينبغي أن يؤكل معهم.

السابع: لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم، فإن أكره فليقلل الأكل ولا يقصد الطعام الأطيب. رد بعض المزكين شهادة من حصر طعام سلطان فقال: كنت مكرها، فقال: رأيتك تقصد الأطيب وتكبر اللقمة وما كنت مكرها عليه؟ وأجبر السلطان هذا المزكي على الأكل فقال: إما أن آكل وأخلي التزكية أو أزكي ولا آكل، فلم يجدوا بدا من تزكيته فتركوه، وحكي أن ذا النون المصري حبس ولم يأكل أياماً في السجن فكانت له أخت في الله فبعثت إليه طعاماً من مغزلها على يد السجان فامتنع فلم يأكل، فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال: كان حلالاً ولكن جاءني على طبق ظالم، وأشار به إلى يد السجان، وهذا غاية الورع.

الثامن: حكى عن فتح الموصلي رحمه الله: أنه دخل على بشر المحافي زائراً فأخرج بشر درهما فدفعه لأحمد الجلاء خادمه وقال: اشتر به طعاماً جيداً وأدماً طيباً، قال: فاشتريت خبزاً نظيفاً وقلت: لم يقل رسول الله على لشيء: «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» اللهن فاللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمراً جيداً، فقدمت إليه فأكل وأخذ الباقي. فقال بشر: أتدرون لِم قلت اشتر طعاماً طيباً؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر، أتدرون لم لم يقل لي كُلْ؟ لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كُلْ، أتدرون لم حمل ما بقي؟ لأنه إذا صع التوكل لم يضر الحمل. وحكى أبو علي الروذباري رحمه الله تعالى: أنه اتخذ ضيافة فأوقد فيها ألف سراج فقال له رجل: قد أسرفت، فقال له: ادخل فكل ما أوقدته لغير الله فأطفته فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فانقطع. واشترى أبو علي الروذباري أحمالاً من السكر وأمر الحلاويين حتى بنوا جداراً من السكر عليه شرف ومحاريب على أعمدة منقوشة أحمالاً من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها وانتهبوها.

 ⁽۱) حدیث: قرأی رسول الله چ صهیباً یأکل تمراً وإحدی عینیه رمدة، فقال له. اتأکل التمر وأنت رمد؟ فقال: إنما أمضغ بالشق الآخر فضحك چ ا أخرجه ابن ماجه مر حدیث صهیب بإسناد جید.

 ⁽۲) حديث: الما جاء نعي جعمر بن أبي طالب قال ﷺ: إن آل جعفر شغلوا بميتهم هن طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبدالله بن جعفر نحوه بسند حسن، ولامن ماجه نحوه من حديث أسماه بنت عميس.

 ⁽٣) حديث: «اللهم بارك أنا فيه وزدنا منه» قاله عند شرب اللبن تقدم في آخر الباب الأول من آداب الأكل.

التاسع: قال الشافعي رضي الله عنه: «الأكل على أربعة أنحاء: الأكل بأصبع من المقت، وبأصبعين من الكبر، وبثلاث أصابع من السنة (1) وبأربع وخمس من الشره، وأربعة أشياء تقوي البدن: كثرة أكل اللحم، وشم الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان، وأربعة توهن البدن: كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحموضة. وأربعة تقوي البصر: المجلوس تجاه القبلة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف الملبس، وأربعة توهن البصر: النظر إلى القذر، والنظر إلى المصلوب، والنظر إلى فرج المرأة، والقعود في استدبار القبلة، وأربعة تزيد في الجماع: أكل العصافير، وأكل الإطريفل الأكبر، وأكل الفستق، وأكل الجرجير، والنوم على أربعة أنحاء: فنوم على اللهماء والعباد، ونوم على الشمال؛ وهو نوم الملوك لهضمهم طعامهم، ونوم على اليمين، وهو نوم الطماء والعباد، وأربعة تزيد في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين والعلماء، وأربعة هن من العبادة: لا يخطو خطوة إلا على وضوء، وكثرة السجود، ولزوم المساحد، وكثرة القرآن، وقال أيضاً: عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن المساحد، وكثرة قراءة القرآن، وقال أيضاً: عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت؟ وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموث؟ وقال: لم أر شيئاً أنفع في يخرج كيف لا يموث؟ وقال: لم أر شيئاً أنفع في الوباء من البنضيج يدهن به ويشرب، والله أعلم بالصواب.



 ⁽۱) حديث: «الأكل بثلاث أصابع من السنة» أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك: «كان النبي ﷺ بأكل بثلاث أصابع، وروى ابن الجوزي في العلل من حديث ابن عباس موقوقاً «كُلُ بثلاث أصابع فإنه من السلة».

ينسد ألفر الكنب التبسيز

کتاب آداب النکاح

وهو الكتاب الثاني من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي لا تصادف سهام الأوهام في عجائب صنعه مجرى، ولا ترجع العقول عن أوائل بدائعها إلا والهة حيرى، ولا تزال لطائف نعمه على العالمين تترى، فهي تتوالى عليهم اختياراً وقهراً. ومن بدائع الطافه أن خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها إلى الحراثة جبراً، واستبقى بها نسلهم إقهاراً وقسراً. ثم عظم أمر الأنساب وجعل لها قدراً فحرم بسببها السفاح وبالغ في تقبيحه ردعاً وزجراً، وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمر إمراً، وندب إلى النكاح وحث عليه استحباباً وأمراً. فسبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدماً وكسراً، ثم بث بذور النطف في أراضي الأرحام وأنشأ منها خلقاً وجعله لكسر الموت جبراً. تنبيهاً على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعاً وضراً وخيراً وشراً، وعسراً ويسراً وطياً ونشراً، والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالإنذار والبشرى، وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عداً ولا حصراً وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد: فإن المنكاح معين على الدين، ومهين للشياطين، وحصن دون عدو الله حصين، وسبب للتكثير أما بعد: فإن المنكاح معين على الدين، ومهين للشياطين، وحصن دون عدو الله حصين، وسبب للتكثير الذي به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين؛ فما أحراه بأن تتحرى أسبابه، وتحفظ سننه وآدابه، وتشرح مقاصده وآدابه، وتفصل فصوله وأبوابه. والقدر المهم من أحكامه ينكشف في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الترغيب فيه وعنه.

الباب الثاني: في الآداب المرعية في العقد والعاقدين.

الباب الثالث: في آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق.

الباب الأول

في الترغيب في النكاح والترغيب عنه

اعلم: أن العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلي لعبادة الله، واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي لعبادة الله، مهما لم تتى النفس إلى النكاح توقاناً يشوش الحال ويدعو إلى الوقاع، وقال آخرون: الأفضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة. ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن نقدم أولاً ما ورد من الأخبار والآثار في الترغيب فيه والترغيب عنه، ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله؛ حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها.

الترغيب في النكاح:

أما من الآيات: فقد قال الله تعالى ﴿ وَأَنكِحُواْ الْأَيْمَىٰ يَنكُرُ ﴾ [التّور: ٢٣] وهذا أمر. وقال تعالى: ﴿ فَلا تَعَظَّلُوهُنَّ أَن يَنكِحُنَ أَزْوَبَهُونَ ﴾ [البَقْرَة: ٢٣٢) وهذا منع من العضل ونهي عنه. وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿ وَلَقَدُ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبِلِكَ وَحَمَلْنَا لَهُمُ أَزْوَجًا وَذُرِيَّةً ﴾ [الزعد: ٣٨] فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل. ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء فقال ﴿ وَاللَّذِينَ يَتُولُونَ رَبّنا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَجِنَا وَذُرِيّنَا قُلْنَ أَعْرُبُ ﴾ [الفرقان: ٢٤] الآية، ويقال: إن الله تعالى لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين، فقالوا: إن يحيى ﷺ قد تزوج ولم يجامع، قيل: إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة، وقيل: لغض البصر، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له.

وأما الأخبار: فقوله ﷺ: «النُّكَاحُ سُئِينِي فَمَنْ رَجْبَ مَنْ سُئِينِي فَقَدْ رَخِبَ عَنِي». وقال ﷺ: «النُّكَاحُ سُئَينِي فَمَنْ أَجْبَ فَنْ سُئِينِي فَقَدْ رَخِبَ فَنْ سُئِينِي فَقَدْ رَخِبَ فَنَ سُئِينِي أَبَاهِي بِكُمُ الأَمُمَ يَوْمَ الْغَيْمَ وَقِنْ بِسُئَيْنِي النُّكَاحُ الْقَبْلِي فَلَيْسَ مِنْي وَإِنْ مِنْ سُئَيْنِي النُّكَاحُ الْقَرْوِيجَ مَخَافَة العبلَةِ فَلَيْسَ مِنَا مُنْ سُئَيْنِي النُّكَاحُ فَمَنْ أَحَبِّنِي فَلَيْسَ مِنْي وَإِنْ مِنْ سُئَيْنِي النُّكَاحُ فَمَنْ أَحَبِّنِي فَلَيْسَ مِنْا وَقَالَ النبي ﷺ: «مَنْ تَرَكَ التَّزْوِيجَ مَخَافَة العبلَةِ فَلْيسَ مِنَا» (*). وهذا ذم

كتاب آداب النكاح الباب الأول في الترغيب في النكاح

- (١) حديث: «النكاح سنتي فمن أحب قطرتي فليستن بسنتي» أخرجه أبو يعلى في مسنده مع تقديم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن.
- (۲) حديث: «تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقطة أخرجه أبو بكر بن مردويه في تمسيره من حديث ابن عمر دون قوله: ٥-تى بالسقطة وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المعرفة عن الشافعي أنه بلغه.
- (٣) حديث: (من رقب هن سنتي قليس مني، وإن من سنتي النكاح فمن أحبتي قليستن بسنتي، متفق على أوله من حديث أنس (من رقب هن سنتي قليس مني، وياقيه تقدم قبله بحديث.
- ٤) حديث: «من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف، وللمدارمي في مسنده، والبغوي في معجمه، وأبي داود في المراسيل من حديث أبي نجيح: «من قلر علي أن ينكح فلم ينكح فليس منا» وأبو نجيح اختلف في صحبته. العبلة: الفقر.

لعلة الامتناع لا لأصل الترك، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ ذَا طَوْلِ فَلْيَتْزَوَّجُهُ ﴿) . وقال: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُم البّاءَةُ فَلْيَغُرَّوِجُ فَإِنَّهُ أَغَضُ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لاَ فَلْيَصُمْ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءً ﴿) . وهذا بدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج . والوجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته، فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم . وقال ﷺ : «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ فَزَوْجُوهُ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنُ فِثْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ . وهذا أيضاً تعليل الترغيب لخوف الفساد . وقال ﷺ : «مَنْ تَرَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَرُ شَطْرَ دِينِهِ وقال ﷺ : «مَنْ تَرَوِّجَ فَقَدْ أَحْرَرُ شَطْرَ دِينِهِ وقال ﷺ : «مَنْ تَرَوِّجَ فَقَدْ أَحْرَرُ شَطْرَ دِينِهِ فَلْكُوْ الله فِي الشَّطْرِ الثَّانِي ﴾ وهذا أيضاً إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحصناً من فلفيقو الله في الشَّطْرِ الثَّانِي ﴾ وهذا أيضاً إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحصناً من الفساد فكأن المفسد لدين المرء في الأغلب فرجه وبطنه وقد كفي بالتزويج أحدهما. وقال ﷺ : «كُلُّ عَلَانَ إلى هذا إلا بالنكاح . عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يَنْقَطِعُ إِلاَّ قَلَاتٌ : وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْهُو لَهُ . . . ﴾ . الحديث . ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح .

وأما الآثار: فقال عمر رضي الله عنه: لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور. فبين أن الدين غير مانع منه، وحصر المانع في أمرين مذمومين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتم نسك الناسك حتى ينزوج، يحتمل أن جعله من النسك وتتمة له، ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب، ولذلك كان يجمع غلمائه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما ويقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزباً. ومانت امرأتان لمعاذ بن جبل رضي الله عنه في الطاعون وكان هو أيضاً مطعوناً فقال: زوجوني فإني أكره أن ألقى الله عزباً. وهذا منهما يدل على أنهما رأيا في النكاح فضلاً لا من حيث التحرز عن غائلة الشهوة، وكان عمر رضي الله عنه يكثر النكاح ويقول: ما أتزوج إلا لأجل الولا. وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ عنده لحاجة إن طرقته، فقال له رسول الله ﷺ وأكم المواب، ثم تفكر الصحابي وقال: والله لرسول الله الله عنه أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني إلى الله مني، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن. فقال له الثالثة: وألا تَتَرَقُحُ؟ قال: فقلت يا رسول الله المنه عنه نقال له الثالثة: «ألا تَتَرَقُحُ؟ قال: فقلت يا رسول الله يقربني إلى الله مني، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن. فقال له الثالثة: «ألا تَتَرَقُحُ؟ قال: فقلت يا رسول الله يقربني إلى الله مني، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن. فقال له الثالثة: «ألا تَتَرَقُحُ؟ قال: فقلت يا رسول الله يقربني إلى الله مني، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن. فقال له الثالثة: «ألا تَتَرَقُحُ؟ قال: فقلت يا رسول الله الله على الله الثالثة الأعلى الله الله الله الله المائة المنه الله المنافقة الله الثالثة الأعلى الله الله المنافقة المنافقة المنافقة المنافقة المنافقة الله الثالثة الأعلى الله المنافقة ا

⁽١) حديث: امن كان ذا طول فليتزوج أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف.

 ⁽۲) حدیث: (من استطاع منکم الباءة فلیتزوج) الحدیث. منفق علیه من حدیث ابن مسعود.

⁽٣) حديث: ﴿إِذَا أَتَاكُم مَن ترضُون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، ونقل عن البخاري أنه لم يعده محفوظاً، وقال أبو داود: إنه خطاً، ورواه الترمذي أيضاً من حديث أبي حاتم المزني وحسنه، ورواه أبو داود في المراسيل، وأعله ابن القطان بإرساله وضعف رواته.

 ⁽٤) حديث: «من نكح شه وأنكح شه استحق ولابة الله عز وجل» أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن انس:
 «من أعطى شه وأحب شه وأبغض شه وأنكح شه فقد استكمل إيمانه».

حديث: «من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الآخر» أخرجه ابن الجوزي في العلل من حديث أنس
بسند ضعيف، وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ. «فقد استكمل نصف الإيمان» وفي المستدرك وصحح إسناده
بلفظ: «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه...» الحديث.

 ⁽٦/ حديث: «كل حمل ابن أدم يتقطع إلا ثلاثة؛ فذكر فيه «وولد صالح يدهو له» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة
 بنحوم وتمام الحديث: «صدقة جارية، أو علم ينتفع به، وولد صالح يدهو له».

زوجني، قال: «اذْهَبْ إِلَىٰ بَنِي فُلَانِ فَقُلْ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُزَوِّجُونِي فَتَاتَكُمْ عَالَ: فقلت يا رسول الله لا شيء لي، فقال لأصحابه: «اجْمَعُوا لأَخِيكُمْ وَزْنَ نَوَاقِ مِنْ ذَهَبِ فجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له: «أَوْلِمْ وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة (۱). وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح، ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح.

وحكي أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فذكر لنبي زمانه حسن عبادته فقال: نعم الرجل هو لولا أنه تارك لشيء من السنة، فاغتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال: أنت تارك للتزويج، فقال: لست أحرَّمه ولكني فقير وأنا عيال على النَّاس، قال: أنا أزوَّجك ابنتي فرُوجه النبي عليه السلام ابنته. وقال بشر بن الحرث: فضل عليٌّ أحمد بن حنبل بثلاث: بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسي فقط، ولاتساعه في النكاح وضيقي عنه، ولأنه نصب إماماً للعامة. ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج في اليوم الثاني لوفاة أم ولده عبدالله وقال: أكره أن أبيت عزباً. وأما بشر (٢) فإنه لما قيل له: إن الناس يتكلمون فيك لتركك النكاح ويقولون هو تارك للسنّة، فقال: قولوا لهم هو مشعول بالمرض عن السنة. وعوتب مرة أخرى فقال: ما يمنعني من التزويج إلا قوله تعالى ﴿ وَلَمْنَ مِثْلُ أَلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمُرْدِيُّ ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨] فذكر ذلك لأحمد فقال: وأين مثل بشر؟ إنه قعد على مثل حد السنان. ومع ذلك فقد روي أنه رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: رفعت منازلي في الجنة وأشرف بي على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل المتأهلين. وفي رواية قال لي: •ما كنت أحب أن تلقاني عزباً؛ قال: فقلنا له: ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال رفع فوقي بسبعير درجة، قلنا: بماذا، فقد كنا نراك فوقه؟ قال: بصبره على بنياته والعيال. وقال سفيان بن عيينة: كثرة النساء ليست من الدنيا، لأن علياً رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله على وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية. فالنكاح سنَّة ماضية وخُلُق من أخلاق الأنسياء. وقال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: طوبي لك فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة فقال: لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه، قال: فما الذي يمنعك من النكاح، فقال: ما لي حاجة في امرأة، وما أريد أن أغر امرأة بنفسي. وقد قيل: فضل المتأهل على العزبُ كفضل المجاهد على القاعد. وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب.

وأما ما جاء في الثرهيب عن النكاح: فقد قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ الْخَفِيفُ الْحَاذِ (٢٠) وَالْ ﷺ: وَيَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ الرِّجُلِ عَلَىٰ يَدِ زَوْجَتِهِ وَٱبْوَيْهِ وَابْوَيْهِ وَابْوَيْهِ وَابْوَيْهِ وَلَا وَلَذَ وَلَا وَلَدَ ٤٠٠ وَقَالَ ﷺ: وَيَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ هَلَاكُ الرِّجُلِ عَلَىٰ يَدِ زَوْجَتِهِ وَٱبْوَيْهِ وَوَلَاهِ يُعَيِّرُونَهُ بِالفَقْرِ وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لاَ يُطِيقُ، فَيَدْخُلُ المَدَاخِلَ الْيِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فَيَهْلِكُ ٩ (٥٠ وَفِي الْخَبر: اللَّهِ يَعْيَرُونَهُ بِالفَقْرِ وَيُكَلِّفُونَهُ مَا لاَ يُطِيقُ، فَيَدْخُلُ المَدَاخِلَ الْيِي يَذْهَبُ فِيهَا دِينُهُ فَيَهْلِك ٩ (٥٠ وَفِي الْخَبر:

 ⁽١) حديث: (كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله ﷺ ويبيت عنده لحاجة إن طرقته فقال له رسول الله ﷺ: ألا
 تتزوج... ا الحديث أخرجه من حديث ربيعة الأسلمي في حديث طويل ـ وهو صاحب القصة ـ بإستاد حسن.

⁽٢) بشر بن الحرث صحابي ـ رضي الله عنه ـ من العلماء الزهاد.

⁽٣) أي: السريع،

عليث: «خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولماء أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة، ورواه الخطابى في العزلة من حديث وحديث أبى أمامة، وكلاهما ضعيف.

⁽ه) حديث أنه ولده، يعيرونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطبق في دوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطبق فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك؛ أخرجه الخطابي في العزلة من حديث ابن مسعود نحوه، وللبيهتي في الزهد نحو في حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف.

القلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقرين (١٠) وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال: الصبر عنهن خير من الصبر على النار. وقال أيضاً: الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل. وقال مرة: ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى. وقال أيضاً: ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشاً أو تزوج امرأة أو كتب الحديث. وقال الحسن رحمه الله: إذا أراد الله بعبد خيراً لم يشغله بأهل ولا مال، وقال ابن أبي الحواري: تناظر حماعة في هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكونا له بل أن يكونا له ولا يشغلانه، وهو إشارة إلى قول أبي سليمان الداراني: ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم. وبالجملة: لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقاً إلا مقروناً بشرط، وأما الترغيب في النكاح فقد ورد مطلقاً ومقروناً بشرط، فلنكشف الغطاء عنه بحصر آفات النكاح وفوائده.

آفات النكاح وفوائده، وفيه فوائد خمسة: الولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهن.

الفائدة الأولى: الولد؛ وهو الأصل وله وضع النكاح. والمقصود: إبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفحل في إخراج البذر، وبالأنثى في التمكين من الحرث تلطفاً بهما في السياقة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع، كالتلطف بالطير في بث الحب الذي يشتهيه ليساق إلى الشبكة. وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها إظهاراً للقدرة، وإتماماً لمجائب الصنعة، وتحقيقاً لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم. وفي التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه هي الأصل في الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزباً.

الأول: موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان.

والثاني: طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته.

والثالث: طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده.

والرابع: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله.

أما الوجه الأول: فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجماهير، وهو أحقها وأقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله تعالى ومجاري حكمه. وبيانه: أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيأ له أرضاً مهيأة للحراثة، وكان العبد قادراً على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها، فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البلر ضائعاً حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقاً للمقت والعتاب من سيده. والله تعالى خلق الزوجين، وخلق الذكر والأنثيين، وخلق النطفة في الفقار وهياً لها في الأنثيين عروقاً ومجاري، وخلق الرحم قراراً ومستودعاً للنطفة، وسلط متقاصي الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى، فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلق في الإعراب عن مراد

 ⁽١) حديث: «قلة العيال أحد البسارين وكثرتهم أحد الفقرين؛ أخرجه القصاعي في مسند الشهاب من حديث علي، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبدالله بن عمر، وابن هلال المزني كلاهما بالشطر الأول بسندين ضعيفين.

خالفها، وتنادي أرباب الألباب بتعريف ما أعدت له. هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رسول الله على بالمراد حيث قال: «تَنَاكُحُوا تَنَاسَلُوا». فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر؟ فكل ممتنع عن النكاح: معرض عن الحراثة مضيع للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة، وجان على مقصود الفطرة والحكمة الممفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ليس برقم حروف وأصوات، يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية، ولذلك عظم الشرع الأمر في القتل للأولاد وفي الوأد؛ لأنه منع لتمام الوجود، وإليه أشار من قال: العزل أحد الوأدين، فالناكع ساع في إتمام ما أحب الله تعالى تمامه، والمعرض معطل ومضيع لما كره الله ضياعه، ولأجل محبة الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَن دَا اللَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ فَرْضًا الله مَن الله عالم وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَن دَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ فَرْضًا الله مَن الله عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَن دَا اللَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ فَرْضًا الله عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَن دَا اللَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ فَرْضًا الله عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَن دَا اللَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ فَرْضًا الله عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَن دَا اللَّذِي الله عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَن دَا اللَّذِي يُعْرَضُ اللَّهَ فَرْضًا الله عليه وعبر عنه بعبادة القرض، فقال: ﴿ مَا اللَّهُ عَلَا اللَّهِ عَلَى اللَّهُ على اللَّهُ اللَّلَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ

فإن قلت: قولك: إن بقاء النسل والنفس محبوب يوهم أن فناءها مكروه عند الله، وهو فرق بين الموت والحياة بالإضافة إلى إرادة الله تعالى، ومعلوم أن الكل بمشيئة الله، وأن الله غني عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم، أو بقاؤهم عن فنائهم؟ فاعلم أن هذه الكلمة حق أريد بها باطل فإن ما ذكرناه لا ينافي إضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها، ولكن المحبة والكراهية يتضادان وكلاهما لا يضادان الإرادة، فرب مراد مكروه، ورب مراد محبوب، فالمعاصى مكروهة وهي مع الكراهة مرادة، والطاعات مرادة وهي مع كونها مرادة محبوبة ومرضية. أما الكفر والشر فلا نقول إنه مرضى ومحبوب بل هو مراد. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفِّرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]. فكيف يكون الفناء بالإضافة إلى محبة الله وكراهته كالبقاء؟ فإنه تعالى يقول: «ما ترددت في شيء كترددي في قبض روح عبدي المسلم هو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من الموت (١٦) فقوله: «لا بد له من الموت، إشارة إلى سبق الإرادة والتقدير المذكور في قوله تعالى: ﴿ غَنُّ قَدَّرُنَا بَيْكُمُ ٱلْمُوتَ﴾ [الواتِمَة: ٦٠] وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَانَ ٱلْمَوْتَ وَلَغَيَّوْهَ [المُلك: ٢] ولا مناقضة بين قوله تعالى: ﴿ غَنْ قَدَّرَا بَيْكُرُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقِعَة: ٦٠] وبين قوله **(وأنا أكره مساءته)،** ولكن إيضاح الحق في هذا يستدعي تحقيق معنى الإرادة والمحبة والكراهة وبيان حقائقها، فإن السابق إلى الأفهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكراهتهم، وهيهات، فبين صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيز وذاتهم، وكما أنَّ ذوات الخلق جوهر وعرض وذات الله مقدَّس عنه، ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض، فكذا صفاته لا تناسب صفات الخلق، وهذه الحقائق داخلة في علم المكاشفة، ووراءه سر القدر الذي منع من إنشائه، فلنقصر عن ذكره، ولنقتصر على ما نبهنا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح والإحجام عنه، فإنّ أحدهما مضيع نسلاً أدام الله وجوده من آدم ﷺ عقباً بعد عقب إلى أن انتهى إليه، فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فمات أنتر لا عقب له، ولو كان الباعث على النكاح مجرّد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون: زوجوني لا ألقي الله عزباً.

فإن قلت: مما كان معاذ يتوقع ولداً في ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه؟ فأقول: الولد يحصل

 ⁽۱) حديث أنه تعالى يقول: قما ترددت في شيء كترددي في قبض روح عبدي المسلم بكره اللموت وأنا أكره مساءته
 ولا بد له منه أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، انفرد به مخلد القطواني وهو متكلم فيه.

بالوقاع بباعث الشهوة، وذلك أمر لا يدخل في الاختيار، إنما المعلق باختيار العبد إحضار المحرّك للشهوة، وذلك متوقع في كل حال؛ فمن عقد فقد أدى ما عليه وفعل ما إليه، والباقي خارج عن اختياره، ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضاً، فإن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها، حتى إن الممسوح الذي لا يتوقع ولد لا ينقطع الاستحباب أيضاً في حقه على الوجه الذي يستحب للأصلع إمرار الموسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبها بالسلف الصالحين، وكما يستحب الرمل والاضطباع في الحج الآن وقد كان المراد منه أوّلاً إظهار الجلد للكفار، فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد سنة في حق من بعدهم، ويضعف هذا الاستحباب بالإضافة إلى الاستحباب في حق القادر على الحرث، وربما يزداد ضعفاً بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر، فإن ذلك لا يخلو عن نوع من الحطر، فهذا المعنى هو الذي ينبه على شدة إنكارهم لترك النكاح مع فتور الشهوة.

الوجه الثاني: السعي في محبة رسول الله على ورضاه بتكثير ما به مباهاته؛ إذ قد صرح رسول الله على بذلك، ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجوه كلها ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان ينكح كثيراً ويقول: إنما أنكح للولد. وما روي من الأخبار في مذمة المرأة العقيم؛ إذ قال عليه السلام: «لَحَصِيرٌ فِي نَاحِيةِ البَيْتِ خَيْرٌ مِنِ امْرَأَةٍ لاَ تَلِدُهُ(١) وقال: «خَيرٌ يِسَائِكُمُ الوَلُودُ الوَدُودُهُ وقال: السلام: «لَحَصِيرٌ فِي نَاحِيةِ البَيْتِ خَيْرٌ مِنِ امْرَأَةٍ لاَ تَلِدُهُ(١) وقال: اخْيرُ يِسَائِكُمُ الوَلُودُ الوَدُودُهُ وقال: السلام: «لَحَصِيرٌ فِي نَاحِيةٌ البَيْتُ الله قَصْلُ النكاح الله عَائلة الشهوة، لأن الحسناء أصلح للتحصين وغض البصر وقطم الشهوة.

الوجه الثالث: أن يبقى بعده ولداً صالحاً بدعو له، كما ورد في الخبر: أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثاً فذكر الولد الصالح، وفي الحبر: إن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نوره أن وقول القائل: إن الولد ربما لم يكن صالحاً لا يؤثر فإنه مؤمن، والصلاح هو الغالب على أولاه ذوي الدين لا سيما إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح، وبالجملة: دعاء المؤمن لأبويه مفيد برأ كان أو فاجراً، فهو مثاب على دعواته وحسناته فإنه من كسبه وغير مؤاخذ بسيئاته، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَلْفَنْنَا بِمِ مُزْيَنَتُمْ وَمَا النَّنَهُم مِنْ عَلِهِ مِن شَيْرٍ ﴾ [الطُّور. ٢١] أي ما نقصناهم من أعمالهم، وجعلنا أولادهم مزيداً في إحسانهم.

الوجه الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعاً، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إِنَّ الطَّفْلَ يَجُورُ بِأَبْوَيْهِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، (٥٠). وفي بعض الأخبار: "يَأْخُذُ بِثَوْبِهِ كَمَا أَنَا الآنَ آخِذُ بِتَوْبِكَ، (٢٠)،

 ⁽١) حديث: «لحصير في ناحية البيت خبر من امرأة لا تلد؛ أخرجه أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين موقوفاً
 على عمر بن الخطاب، ولم أجده مرفوعاً.

 ⁽۲) حديث: «خير نسائكم الولود الودوده أخرجه البيهقي من حديث ابن أبي أدية الصدقي، وقال البيهقي: وروي بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسالاً.

⁽٣) حديث : فسوداء ولودخير من حسناء لا تلده أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده و لا يصح.

⁽٤) حديث وإن الأدعية تعرض على الموتى على أطباق من نور ويناه في الأربعين المشهورة من رواية أبي هدية عن أنس في الصدقة عن الميت، وأبو هدية كذاب,

 ⁽a) حديث، فإن الطفل ينجر أبويه إلى الجنة؛ أخرجه ابن ماجه من حديث علي وقال: «السقط» بدل: «الطفل؛ وله من حديث معاد، فإن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هي احتسبته، وكلاهما صعيف.

 ⁽٦) حديث. اإنه يأخذ بثويه كما أنا الآن آخذ بثوبك؛ أحرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقال أيضاً ﷺ: "إِنَّ الْمَوْلُودَ يُقَالُ لَهُ: اذْخُلِ الْجَنَّةُ فَيَقِفُ صَلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَظَلُ مُحْبَنْطِئاً أَي ممتلئاً عِيظاً وعضباً ويقول: "لا أَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ وَأَبُوايَ مَعِي، فَيَقَالُ: أَدْخِلُوا أَبَوَيْهِ مَعَهُ الْجَنَّةَ إِلاَّ وَأَبُوايَ مَعِي، فَيَقَالُ: أَدْخِلُوا أَبَوَيْهِ مَعَهُ الْجَنَّةِ فِيقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ: حَرِ آخر: "إِنَّ الْأَطْفَالُ يَجْتَمِعُونَ فِي مَوْفِفِ الْقِيَامَةِ عِنْدَ عَرْضِ الْخَلَاثِي لِلْحِسَابِ فَيقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ: الْفَعْبُوا بِهْوُلَاهِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ وَعَلَيْهُ وَيُقَالُ لَلْهُمْ: مَرْحَباً بِلْرَادِي الْمُسْلِمِينَ اذْخُلُوا لاَ حَسَابَ عَلَيْكُمْ، وَلَمْقَاتُكُمْ لَيْسُوا مِثْلَكُمْ، إِنَّهُ كَانَتُ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَسَيَّقَاتُ فَهُمْ يُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا وَيُطَالَبُونَ، قَالَ: فَيَتَضَافَوْنَ وَيَضِجُّونَ عَلَىٰ أَبُوابِ كَانَتُ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَسَيَّقَاتُ فَهُمْ يُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا ويُطَالَبُونَ، قَالَ: فَيَتَضَافَوْنَ وَيَضِجُونَ عَلَىٰ أَبُوابِ كَانَتُ لَهُمْ ذُنُوبٌ وَسَيَّقَاتُ فَهُمْ يُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا ويُطَالَبُونَ، قَالَ: فَيَتَضَافَوْنَ وَيَضِجُونَ عَلَىٰ أَبُوابِ الْجَنَّةِ ضَجَّةً وَاحِلَةً، فَيَقُولُ الله سُبْحَانَهُ وَهُو أَعْلَمُ بِهِمْ: مَا هٰلِهِ الطَّبِحِثَةِ وَاحِلَةً، فَيَقُولُ الله سُبْحَانَهُ وَهُو أَعْلَمُ بِهِمْ: مَا هٰلِهِ الطَّبِحُثَةِ وَلَولُونَ وَلَاكُمْ اللَّهُ الْمُعْلَى وَلَا الْجَنَةُ لِلْالْمُ وَلَى الْكَالِهُ وَلَا الْجَنْعَ فِي الْمُولِ الْمُعْلِى وَلَا الْجَنْعَ لَلْهُ الْجَنْقُ الْمُعْلِى وَلَالَ الْمَالِدُونَ اللّهُ وَالْنَاقِ الْكَالِهُ وَلَا الْجَنْقَ لَمْ يَعْلُولُ الْجَنْقَ الْحَلَاقُ الْمُعْلَى وَلَا الْمَالِي الْمُلْولُ الْمُحْلُولُ الْمُعْلِى الْمَالِقُلُولُ الْمُعْلَى الْمُعْلِى الْمُعْلِى الْمُعْلَى الْمُعْلِى الْمُولُ الْمُعْلِقُ الْمُعْلِى الْمُؤْلُولُ الْمُعْلِى الْمُؤْلُولُ اللْهُ وَلِي الْمُولُ الْمُعْلِى الْمُعْلِى الْمُعْلِقُ الْمُعْلِى الْمُعْلَى الْمُعْلِى الْمُعْلِى الْمُعْلَى الْمُعْلِى الْمُؤْلُولُولُ الْمُعْلِى الْمُعْلِقُولُ الْمُعْلِى الْمُعْلِى الْمُعْلِى الْمُعْلِى الْمُعْلِقُ الْمُعْلِي الْمُولُولُ الْمُعْلِى الْمُولُولُولُولُولُولُولُولُولُ الْمُعْ

وحكي أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبي برهة من دهره، قال فانتبه من نومه ذات يوم وقال: زوّجوني زوجوني، فزوّجوه، فسئل عن ذلك فقال: لعل الله يرزقني ولداً ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة، ثم قال: رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الموقف، وبي من العطش ما كاد أن يقطع عنقي، وكذا الخلائق في شدة العطش والكرب، فنحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع، عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب، وهم يسقون الواحد بعد الواحد، يتخللون الجمع ويتجاوزون أكثر الناس، فمددت يدي إلى أحدهم وقلت: اسقني فقد أجهدني العطش، فقال: ليس لك فينا ولد، إنما نسقي آباءنا، فقلت: ومن أنتم؟ فقالوا: نحن من مات من أطفال المسلمين. وأحد المعاني المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَاتُوا حَرْنَكُمْ أَنَّ شِتْمٌ وَقَرَعُوا لِاَنْمُوكُ البَدَرَة: ٢٢٣] تقديم الأطفال إلى الآخرة؛ فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل النكاح لأجل كونه سباً للولد.

⁽١) حديث: (إن المولود يقال له ادخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبنطاً _ أي: ممتلئاً غيطاً وغضباً _ ويقول: لا أدخل إلا وأبواي معي. . . ، الحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصبح، والنسائي من حديث أبي هريرة: (يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم، وإسناده جيد.

 ⁽٢) حديث: •إن الأطفال يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائل للحساب فيقال للملائكة: اذهبوا بهؤلاء إلى
 الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم: مرحباً بلراري المسلمين ادخلوا لا حساب عليكم فيقولون: أين آباؤنا
 وأمهاتنا. . . » الحديث بطوله لم أجد له أصلاً يعتمد عليه.

⁽٣) حديث: قمن مات له اثنان من ألولد احتظر بحظار من النارا أخرجه البزار والطبرائي من حديث زهير بن أبي علقمة: قجاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنه مات لي ابنان سوى هذا فقال: لقد احتظرت من دون النار بحظار شعيفه ولمسلم من حديث أبي هريرة في المرأة التي قالت: دفنت ثلاثة: قلقد احتظرت بحظار شعيد من النارا.

⁽³⁾ حديث: قمن مات له ثلاثة لم يبلعوا الحنث أدخله الله النجنة بقضل رحمته إياهم، قبل: يا رسول الله واثنان، قال: واثنان، أخرجه البخاري من حديث أنس دون ذكر الاثنين، وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث معاذ، وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد بلفظ قايما امرأة بنحو منه.

الفائدة الثانية: التحصن عن الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «مَنْ نَكُحَ فَقَدْ حَصَّنَ نِصْفَ دِينِهِ فَلْيَتْقِ الله فِي الشَّطْرِ الآخرِ»، والله الإشارة بقوله: «عَلَيْكُمْ بِالبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وَجَاءً»، وأكثر ما نقلناه من الآثار والأخبار إشارة إلى هذا المعنى، وهذا المعنى دون الأول؛ لأن الشهوة موكلة بتقاضي تحصيل الولد؛ فالنكاح كاف لشغله، دافع لجعله، وصارف لشر سطوته، وليس من يجيب مولاه رغبة في تحصيل رضاه، كمن يجيب لطلب الخلاص عن غائلة التوكيل، فالشهوة والولد مقدران وبينهما ارتباط، وليس يجوز أن يقال: المقصود اللذة، والولد لازم منها كما يلزم مثلاً قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصوداً في ذاته، بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة، والشهوة باعثة عليه، ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاء، وهو ما في قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لو دامت، فهي منبهة على اللذات الموعودة في الجنان؛ إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقاً لا ينفع، فلو رغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة الملك والسلطنة لم ينفع الترغيب.

وإحدى فوائد لذات الدنيا: الرغبة في دوامها في الجنة؛ ليكون باعثاً على عبادة الله. فانظر إلى الحكمة، ثم إلى الرحمة، ثم إلى التعبية الإلهية كيف عبيت تحت شهوة واحدة حياتان؛ حياة ظاهرة وحياة باطنة، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود، والحياة الباطنة هي الحياة الأخروية، فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرِّك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام، فيستحث على العبادة الموصلة إليها، فيستفيد العبد بشدّة الرغبة فيها تيسر المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان، وما من ذرّة من درّات بدن الإنسان باطناً وظاهراً، بل ذرات ملكوت السمّوات والأرض، إلاّ وتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها ما تحار العقول فيها، ولكن إنما ينكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفائها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها، فالنكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل من لا يؤتى عن عجز وعنة وهم غالب الخلق، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوّة التقوى جرّت إلى اقتحام الفواحش، وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ نَّكُن فِنْـنَةً فِي ٱلْأَرْضِ وَفْسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الانقال: ٧٣] وإن كان ملجماً بلجام التقوى فغايته أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة، فيغض البصر ويحفظ الفرج، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تُحت اختياره، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحدثه بأمور الوقاع ولا يفتر عنه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجري على خاطره من أمور الوقاع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستحيى منه، والله مطلع على قلبه، والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق، ورأس الأمور للمريد في سلوك طريق الآخرة قلبه، والمواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن ينضاف إليه ضعف في البدن وفساد في المزاج، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح. وهذه محنة عامة قلُّ من يتخلص منها. قال قتادة في معنى قوله تعالى: ﴿وَلا تُعَيِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بَيِّنَّ﴾ [البَّقَرَة: ٢٨٦] هو الغلمة. وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالا في معنى قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنكَانُ ضَمِيفًا﴾ [النَّساء: ٢٨]: أنه لا يصبر عن النساء. وقال فياض بن نجيح: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله. وبعضهم يقول: ذهب ثلث دينه. وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمِن شُرِّ عَاسِقِ إِذَا وَقَبَ ﴿ وَالْهَلَقِ: ٣] قال قيام الذكر، وهذه بلية غالبة إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة

على الحياتين كما سبق فهي أقرى آلة الشيطان على بني آدم، وإليه أشار عليه السلام بقوله: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْل وَدِينِ أَغْلَبَ لِذُوي الأَلْبَابِ مِنْكُنَّهُ (١) وإنما ذلك لهيجان الشهوة. وقال ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنَّى أَغُوُّهُ بِكَّ مِنْ شَرّ سَمْعِي وَيَصَرِي وَقَلْبِي وَشَرّ مَنِيْيٍ»(٢). وقال: «أَسْأَلُكَ أَنْ تُطَهّرَ قُلْبِي وَتَحْفَظُ فَرْجِي (٣) . فما يستعيذ منه رسول الله على كيف يجوز التساهل فيه لغيره، وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لا يكاد يخلو من اثنتين وثلاث، فأنكر عليه بعض الصوفية فقال: هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف بين يديه موقفاً في معاملة فخطر على قلبه خاطر شهوة، فقالوا: يصيبنا من ذلك كثيراً، فقال: لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت، لكني ما خطر على قلبي خاطر يشغلني عن حالي إلا نفذته فأستريح وأرجع إلى شغلى، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية. وأنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له بعض ذوي الدين: ما الذي تنكر منهم؟ قال: يأكلون كثيراً، قال: وأنت أيضا لو جعت كما يجوعون لأكلت كما يأكلون، قال: ينكحون كثيراً، قال: وأنت أيضاً لو حفظت عينيك وفرجك كما يحفظون لنكحت كما ينكحون. وكان الجنيد يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب، ولذلك أمر رسول الله ﷺ كل من وقع نظره على امرأة فتاقت إليها نفسه أن يجامع أهله (٤) لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس. وروى جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَتْبَلَتْ أَفْبَلَتْ بِصُورَةِ شَيْطَانِ، قَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ مَعْهَا بثلَ الَّذِي مَعْهَا هُ^٥٠ وقال عليه السلام: ﴿لاَ تَدُخُلُوا عَلَىٰ المُغِيبَاتِ ـ وهي التي غاب زوجها عنها ـ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَىٰ الدُّم». قلنا: ومنك؟ قال: «وَمِتِّي، وَلَكِنَّ اللهُ أَعَانَنِي هَلَيْهِ فَأَسْلَمَه (٦٠). قال سفيان بن عيينة: فأسلم معناه فأسَلم أنا منه، هذا معناه، فإن الشيطان لا يسلم، وكذلك يحكى على ابن عمر رضي الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلماتهم أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل، أنه جامع ثلاثاً من جواريه في شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة. وقال ابن عباس: خير هذه الأمة أكثرها نساء (^{٧٧)}. ولما

 ⁽١) حديث: الما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب منكن! أخرجه مسلم من حديث ابن عمر، واتفقا عليه من حديث أبي سعيد ولم يسق مسلم لفظه.

 ⁽٢) حديث: اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر منيي، تقدم في الدعوات.

 ⁽٣) حديث: (أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي) أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أم سلمة بإسناد فيه لبن.

⁽٤) حديث: اأمر رسول الله ﷺ كل من وقع بصره على امرأة فتاقت نفسه إليها أن يجامع أهله أخرجه أحمد من حديث أبي كبشة الأنماري، حبن مرت به امرأة فوقع في قلبه شهوة النساه فدخل فأتى بعض أزواجه وقال: افكفلك فافعلوا، فإنه من أماثل أفعالكم إثبيان الحلال، وإسناده جيد.

⁽٥) حديث جابر ارأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته الحديث. رواه مسلم والترمذي واللفظ له وقال: حسن صحيح.

⁽٦) حديث: «لا تدخلوا على المغيبات فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى اللم. ١٠٠ الحديث، أخرجه الترمذي من حديث جابر وقال غريب، ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر «ولا يدخل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو الثنان».

حديث ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرها نساء» يعنى النبي عليه رواه البخاري.

كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشدٌ، ولأجل فراغ القلب أبيح نكاح الأمة عند خوف العنت مع أن فيه إرقاق الولد وهو نوع إهلاك، وهو محرّم على كلّ من قدر على حرة، ولكن إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين، وليس فيه إلا تنفيص الحياة على الولد مدَّة، وفي اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الأخروية التي تستحقر الأعمار الطويلة بالإضافة إلى يوم من أيامها. وروي أنه انصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقى شاب لم يبرح، فقال له ابن عباس: هل لك من حاجة؟ قال: نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس، وأنا الآن أهابك وأجلك، فقال ابن عباس: إن العالم بمنزلة الوالد، فما كنت أفضيت به إلى أبيك فأفض إليٌّ به، فقال: إني شاب لا زوجة لى، وريما خشيت العنت على نفسى، فربما استمنيت بيدي، فهل في ذلك معصية؟ فأعرض عنه ابن عباس ثم قال: أفِّ وتف نكاح الأمة خير منه، وهو خير من الزني. فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مردد بين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة، وفيه إرقاق الولد، وأشدّ منه الاستمناء باليد، وأفحشه الزمي، ولم يطلق ابن عباس الإباحة في شيء منه لأنهما محذوران يفزع إليهما حذراً من الوقوع في محذور أشدّ منه، كما يفزع إلى تناول الميتة حذراً من هلاك النفس، فليس ترجيح أهون الشرين في معني الإباحة المطلقة ولا في معنى الخير المطلق، وليس قطع اليد المتأكلة من الخيرات وإن كان يؤذن فيه عند إشراف النفس على الهلاك، فإذن في النكاح فضل من هذا الوجه، ولكن هذا لا يعم الكل بل الأكثر، فرب شخص فترت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فينعدم هذا الباعث في حقه، ويبقى ما سبق من أمر الولد، فإن ذلك عام إلا للممسوح وهو نادر، ومن الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال، فقد نكح على رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال، ويقال: إن الحسن بن على كان منكاحاً حتى نكح زيادة على مائتي امرأة، وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد، وربما طلق أربعاً في وقت واحد واستبدل بهن، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن: ﴿أَشْبَهْتَ خَلْقِي وِخُلْقِيۥ (١). وقال ﷺ: ﴿حَسَنُ مِنْي وَحُسَيْنُ مِنْ عَلِيَۥ (٢)، فقال: إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله ﷺ، وتزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأةً، وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع، ومن كان له اثنتان لا يعصى، ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس فلينظر إليه في الكثرة والقلة.

الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت، وإذا روحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروّح القلب، وينبغي أن يكون لنفوس المتفين استراحات

 ⁽١) حديث أنه قال للحسن بن علي: «أشبهت خلقي وخلقي».

قلت: المعروف أنه قال هذا اللفظ لجعفر بن أبي طالب، كما هو متفق عليه من حديث البراء، ولكن الحسن أيضاً كان يشبه النبي ﷺ كما هو متفق عليه من حديث أبي جحيفة، وللترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس الم يكن أحد أشبه برسول الله ﷺ من الحسن.

 ⁽٢) حديث: احسن مني وحسين من علي، رواه أحمد من حديث المقداد بن معد يكرب بسنا.

بالمباحات، ولذلك قال الله تعالى ﴿ لِيَسَكُنَ إِنَهَا ﴾ [الاعراف: ١٨٩] وقال علي رضي الله عنه: روّحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عميت. وفي الخبر: «على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه. فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات (١). ومثله بلفظ آخر: «لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم (١). وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ لِكُلُّ عَامِلٍ شِرَّةٌ وَلِكُلُّ شِرَّةٍ فَتَرَةٌ فَمَن كَانَتُ فَتْرَقُهُ إِلَىٰ سُنْتِي فَقَدِ الْمَتَدَىٰ (١). والشرة الجدّ والمكابدة بحدة وقوة، وذلك في ابتداء الإرادة، والفترة: الوقوف للاستراحة، وكان أبو الدرداء يقول: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو لأتقوى بذلك فيما بعد على الحق. وفي بعض الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ شَكُوتُ إِلَىٰ جِبُرِيلٌ عَلَيْهِ السَّلامُ ضَعْفِي عَنِ الوقاع فَدَلَيْنِ عَلَىٰ الهَوِيسَةِ (١) (من عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الاستواحة، ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة فإنه استثارة للشهوة، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الانس.

وقال عليه الصلاة والسلام: «حُبِّبَ إِلَيْ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ؛ الطّيبُ وَالنِّسَاءُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٢٠). فهذه أيضاً فائدة لا ينكرها من جرب إتعاب نفسه في الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال، وهي خارجة عن الفائدتين السابقتين، حتى إنها تطرد في حق الممسوح ومن لا شهوة له، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه النية، وقل من يقصد بالنكاح ذلك، وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر، شم رب شخص يستأنس بالنظر إلى الماء الجاري والخضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن. فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليتنبه له.

الفائدة الرابعة: تقريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده؛ إذ لو تكفل بحميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة، وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً. وقال محمد بن كعب القرظي في

 ⁽۱) حديث: «على العاقل أن يكون له ثلاث ساهات: ساهة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه وراه ابن حبان من حديث أبي در في حديث طويل: أن ذلك في صحف إبراهيم.

⁽٢) حديث: «لا يكون العاقل ظاهناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لفة في فير محرم» رواه ابن حبال من حديث أبي ذر الطويل: أن ذلك في صحف إبراهيم.

 ⁽٣) حديث: «لكل صامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى ستني فقد اهتدى، رواه أحمد والطبراني من حديث عبدالله بن عمرو. وللترمذي نحو من هذا من حديث أبي هويرة وقال: حسن صحيح.

 ⁽٤) الهريسة: طعام يصنع من اللحم والحب المهروس.

⁽a) حديث: «شكوت آلى جبريل ضعفي عن الوقاع قللني على الهريسة» أخرجه ابن عدي من حديث حذيفة، وابن عباس، والعقيلي من حديث معاذ وجابر بن سمرة، وابن حبان في الضعفاء من حديث حذيفة، والأزدي في الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرق كلها ضعيفة. قال ابن عدي: موضوع، وقال العقيلي: باطل.

 ⁽٣) حديث: الحبب إلي من دنياكم الطبب والنساء وقرة عيني في الصلاة وواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد، وضعفه العقيلي.

معنى قوله تعالى ﴿ رَمُّنَا عَانِنَا فِي الدُّنَهَ حَسَنَةً ﴾ [البَقرَاء: ١٠١] قال: المرأة الصالحة. وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ لِيَتّْجِذُ أَحَدُكُمْ قَلْباً شَاكِراً وَلَساناً ذَاكِراً وَرُوْجَةً مُؤْمِنَةً صَالِحَةً تُعِينَةً حَلَى آخِرَتِهِ ﴿) فانظر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر. وفي بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿ فَلَنَّدِّيبَنَّهُ حَيْوةً طَيّبَةً ﴾ [التحل: ٢٧] قال: الزوجة الصالحة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أعطي العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة، وإن منهن خنماً لا يحذى منه، ومنهن غلا لا يفدى منه، وقوله: لا يحذى أي يعتاض عنه بعطاء. وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَلْصَّلْتُ عَلَىٰ آدَمَ بِخَصْلَقَيْنِ: كَانَتْ وَوْجَةُ مَوْناً لَهُ عَلَىٰ المَعْصِيةِ، وَأَزْوَاجِي أَعْوَانُ لِي عَلَىٰ الطّاعةِ، وَكَانَ شَيْطانُهُ كَافِراً وَشَيطانِي مُسْلِمٌ لاَ يَأْمُرُ إلاَّ بِخَيرٍ (٢٠) فعد معاونتها على الطاعة فضيلة؛ فهذه أيضاً من الفوائد التي يقصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر، ولا تدعو إلى امرأتين بل الجمع ربما ينغص المعيشة وتضطرب به أمور المنزل، ويدخل في هذه الفائدة قصد الاستكثار بعشيرتها وما يحصل من القوة بسبب تداخل العشائر، فإن ذلك مما يحتاج إليه في دفع الشرور وطلب السلامة، ولذلك قبل: ذل من لا ناصر له، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة، فإن الذل مشوش للقلب، والعز بالكثرة وافع للذل.

الفائدة المخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربيته لأولاده، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام: «يَوْمٌ مِنْ وَالِ عَادِلِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةٍ سَبْعِينَ سَنَةً»، ثم قال: «أَلاَ كُلُكُمْ رَاحٍ وَكُلُكُمْ مَسْؤُولُ عَنْ رَعِيَّتِهِ» "، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله، ولذلك قال بشر: فضل علي أحمد بن حنبل بثلاث: إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَتْفَقَهُ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ الرَّجُلُ يُؤجَرُ فِي اللَّقْمَةِ يَرْقَمُهَا إِلَىٰ فِي عليه الصلاة والسلام: «مَا أَتْفَقَهُ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ الرَّجُلُ يُؤجَرُ فِي اللَّقْمَةِ يَرْقَمُهَا إِلَىٰ فِي المُراتِهِ المعنى العلماء: من كل عمل أعطانى الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما المرادي وقال بعضهم لبعض العلماء: من كل عمل أعطانى الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما

 ⁽۱) حدیث: البتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعینه على آخرته أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه
واللفظ له من حدیث ثوبان، وفیه انقطاع.

^(∀) حديث: ففضلت على آدم ﷺ بخصلتين: كانت زوجته عوناً له على المعصية وأزواجي أعوان لي على الطاحة، وكان شيطانه كافراً وشيطاني مسلم لا يأمر إلا بخير؟ رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عمر، وفيه محمد بن وليد بن أمان بن القلانسي. قال ابن عدي: كان يضع الحديث، ولمسلم من حديث ابن مسعود: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قربته من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وأنا» إلا أن الله أهانني عليه فأسلم ولا يأمرني إلا بخير».

 ⁽٣) حديث: ابوم من وال عادل أفضل من حيادة سبمين سنة " ثم قال: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول هن وهيته رواه الطرائي والبيهقي من حديث ابن عباس، وقد تقدم بلفظ: «ستين سنة» دون ما بعده فإنه متفق عليه من حديث ابن عمر.

⁽٤) حديث: الما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وأن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرائه، متفق عليه من حديث ابن مسعود: (إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كاثت له صدقة، ولهما من حديث سعد بن أبي وقاص. اومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك.

فقال له: أين أنت من عمل الأبدان؟ قال: وما هو؟ قال: كسب الحلال، والنفقة على العيال. وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو: تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم ذلك. قال: أنا أعلم. قالوا: فما هو؟ قال رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيائه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه، فعمله أفضل مما نحن فيه. وقال ﷺ: امَنْ حَسُنَتْ صَلَاتُهُ وَكَثُرَ عِيَالُهُ وَقَلَّ مَالُهُ وَلَمُ يَغْتَب المُسْلِمِينَ كَانَ مَعِي فِي الجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ» (١) وفي حديث آخر: «إنَّ الله يُجِبُّ الفَقِيرَ المُتَعَفَّفَ أَبَأ العِيتالِ، ٧٠٠. وفي الحديث: ﴿إِذَا كَثُرَتُ ذُنُوبُ العَبْدِ الْبَتَلَاهُ الله بِهَمَّ العِيتَالِ لِيُكَفَّرَهَا عَنْهُ، ٣٠٠، وقال بعض السلف: من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغم بالعيال، وفيه أثر عن رسول الله ﷺ أنه قال: العِنَ اللِّنُنُوبِ ذُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرُهَا إِلاَّ الهَمُّ بِطَلِبِ المَعِيشَةِ ۚ (٤)، وقال ﷺ: "مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَأَنْفَقَ عَلَيْهِنَّ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنْ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُنَّ الله عَنْهُ أَوْجَبَ لَهُ الجَنَّةَ ٱلْبَنَّةَ، إِلاَّ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلاً لاَ يُغْفَرُ لَهُ* (°). وكان ابن عباس إذا حدث بهذا قال: والله هو من غرائب الحديث وغرره. وروي أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت، فعرض عليه التزويج فامتنع وقال: الوحدة أروح لقلبي وأجمع لهمي، ثم قال: رأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً، فكلما نزل واحد نظر إليَّ وقال لمن وراءه: هذا هو المشؤوم، فيقول الآخر: نعم، ويقول الثالث، كذلك، ويقول الرابع: نعم، فخفت أن أسألهم هيبة من ذلك إلى أن مرَّ بي آخرهم وكان غلاماً فقلت له: يا هذا من هذا المشؤوم الذي تومثون إليه؟ فقال: أنت. فقلت: ولم ذاك؟ قال: كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله، فمنذ جمعة أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين، فما ندري ما أحدثت؟ فقال لإخوانه: زوجوني زوجوني، فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث. وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوماً دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم، فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فتعجبوا من ذلك فقال: لا تعجبوا فإنى سألت الله تعالى وقلت: ما أنت معاقب لي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال: إن عقوبتك بنت فلان، تتزوج بها، فتزوجت بها وأنا صابر على ما ترون منها.

وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب وتحسين الخلق؛ فإن المنفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلفه لا تترشح منه خبائث النفس الباطنة ولا تنكشف بواطن عيوبه، فحق على سالك طريق

 ⁽١) حديث: «من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يغتب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين» أخرجه أبو يعلى من حديث أبى سعيد الخدري بسند ضعيف.

 ⁽٢) حديث: «إن الله يحب الفقير المتعفق أبا العيال» أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: ﴿إِذَا كثرت دُنوب العبد ابتلاه الله بهم العبال ليكفرها وواه أحمد من حديث عائشة إلا أنه قال: ﴿اللحزنِ وَابِهُ لَيْكُ بِنُ أَبِي صَلَّمَ فَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿اللَّحِرَا اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَيْكُمُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّا عَلَّمُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّا عَلَّهُ عَلَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّ

 ⁽٤) حديث: «من المنتوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة، أخرجه الطيرائي في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية،
 والخطيب في التخليص المتشابه من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

ه) حديث: «من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عته أوجب الله له البجنة ألبنة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له» رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف، وهو عنده بلفظ آخر، ولأبي داود واللفظ له والترمذي من حديث أبي سعيد: همن عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله المجنة، ورجاله ثقات، وفي سنده اختلاف.

الآخرة أن يجرّب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحرّكات، واعتياد الصبر عليها؛ لتعتدل أخلاقه وترتاض نفسه، ويصفو عن الصفات اللميمة باطنه، والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكفل لهم وقيام بهم وعبادة في نفسها، فهذه أيضاً من الفوائد، ولكنه لا ينتفع بها إلا أحد رجلين: إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأحلاق لكونه في بداية الطريق، فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة وترتاص به نفسه، وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب، وإنما عمله عمل المجوارح بصلاة أو حج أو غيره، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التي لا يتعدّى خيرها إلى غيره، فأما الرجل المهذب الأخلاق إما بكفاية في أصل الخلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان له سير في الباطن وحركة بفكر القلب في العلوم والمكاشفات فلا ينبغي أن يتروج لهذا الغرض؛ فإن الرياضة هو مكفي فيها. وأما العبادة في العمل بالكسب لهم فالعلم أفضل من ذلك، لأنه أيضاً عمل، وفائدته أكثر من ذلك وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب على العيال، فهذه فوائد النكاح في الدين التي بها يحكم له بالفضيلة.

أما آفات النكاح فثلاث:

الأولى: وهي أقواها العجز عن طلب الحلال، فإنَّ ذلك لا يتيسر لكل أحد، لا سيما في هذه الأوقات مع اضطراب المعايش فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب والإطعام من الحرام، وفيه هلاكه وهلاك أهله والمتعزب في أمن من دلك، وأما المتزوج ففي الأكثر يدحل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آحرته بدنياه. وفي الخبر: ﴿إِنَّ الْعَبْدُ لِيُوقِفُ عَنْدُ الْمَيْزَانُ وَلَهُ مِنَ الْحَسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، حتى يستغرق بتلك المطالبات كل أعماله، فلا تبقى له حسنة، فتنادى الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله»(١) ويقال إنّ أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون: يا ربنا خذ لنا بحقنا منه فإنه ما علمنا ما نجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم، فيقتص لهم منه. وقال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد شراً سلُّط عليه في الدنيا أنياباً تنهشه يعني العيال. وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿لاَ يَلْقَيٰ اللهِ أَحَدٌ بِلَنْبِ أَعْظَمَ مِنْ جَهَالَةِ آهْلِهِ ۗ (٢) فهذه آفة عامة قلُّ من يتخلص منها إلا من له مال موروث أو مكتسب من حلالً يفي به وبأهله، وكان له من القناعة ما يمنعه من الزيادة، فإنَّ ذاك يتخلص من هذه الآفة، أو من هو محترف ومقتدر على كسب حلال من المباحات باحتطاب أو اصطياد، أو كان في صناعة لا تتعلق بالسلاطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير، ومن طاهره السلامة وغالب ماله الحلال. وقال ابن سالم رحمه الله ـ وقد سئل عن التزويج ـ فقال: هو أفضل في زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب، مثل الحمار يرى الأتان فلا ينتهي عنها بالضرب ولا يملك نفسه، فإن ملك نفسه فتركه أولى.

 ⁽١) حديث: (إن العبد لبوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية حياله والقيام بهن. . . ٩
 الحديث. لم أقف له على أصل.

 ⁽٣) حديث. الا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله، ذكره صاحب المردوس من حديث أبي سعيد، ولم يجده ولده
أبو متصور في مسنده.

الآفة الثانية: القصور عن القيام بحقهن، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، وهذه دون الأولى في العموم، فإن القدرة على هذا أيسر من القدرة على الأولى، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بحظوظهن أهون من طلب الحلال وفي هذا أيضاً خطر، لأنه راع ومسؤول عن رعيته. وقال عليه الصلاة والسلام: «كَفَىٰ بِالْمَرْهِ إِثْماً أَنْ يُضِيعَ مَنْ يَعُولُ ((). وروي: أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم، ومن يقصر عن القيام بحقهن وإن كان حاضراً فهو بمنزلة هارب، فقد قال تعالى: ﴿ فَوْا أَنْفُسَكُم وَأَهْلِكُم نَازًا ﴾ [التخريم: ٦] أمرنا أن نقيهم النار كما نقي أنفسنا، والإنسان قد يعجز عن القيام بحق نفسه، وإذا تزوّج تضاعف عليه الحق وانضافت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أمارة بالسوء، إن كثرت عليها الحقوق كثر الأمر بالسوء غالباً، ولذاك اعتذر بعضهم من التزويج وقال: أنا مبتلى بنفسي وكيف أضيف إليها نفساً أخرى؟ كما قيل:

السم يَسسَم الفاأرة جمح رُهما علقت المكنس في دبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن أدهم رحمه الله وقال: لا أغر امرأة ىنفسي ولا حاجة لي فيهن: أي من الفيام بحقهن وتحصينهن وإمتاعهن وأنا عاجز عنه، وكذلك اعتذر بشر وقال: يمنعني من النكاح قوله تعالى: ﴿رَفْتُنَ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَ ﴾ [البَفَرَة: ٢٧٨] وكان يقول: لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أصير جلاداً على الجسر. ورئي سفيان بن عيينة رحمه الله على باب السلطان فقيل له: ما هذا موقفك! فقال: وهل رأيت ذا عيال أفلح ؟ وكان سفيان يقول:

يا حبذا المعزبة والمعناح ومسكسن تخرقه السرياح لا صسخسب فسيسه ولا صسيساح

فهذه آفة عامة أيضاً وإن كانت دون عموم الأولى، لا يسلم منها إلا حكيم عاقل، حسن الأخلاق، بصير بعادات النساء، صبور على لسانهن، وقاف عن اتباع شهواتهن، حريص على الوفاء بحقهن، يتغافل عن زللهن، ويداري بعقله أخلاقهن، والأغلب على الناس السفه والفظاظة، والحدّة والطيش وسوء المخلق، وعدم الإنصاف مع طلب تمام الإنصاف، ومثل هذا يزداد بالنكاح فساداً من هذا الوجه لا محالة، فالوحدة أسلم له.

الآفة الثالثة: وهي دون الأولى والثانية: أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى، وجاذباً له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم، وطلب التفاخر والتكاثر بهم، وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشؤوم على صاحبه، ولست أعني بهذا أن يدعو إلى محظور؛ فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية، بل أن يدعوه إلى التنعم بالمباح بل إلى الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن والإمعان في التمتع بهن، ويثور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب، فينقضي الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيهما للتفكر في الآخرة والاستعداد لها، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: من تعود أفخاذ النساء لم يجيء منه شيء. وقال أبو سليمان رحمه الله: من تروّج فقد ركن إلى الدنيا؛ أي يدعوه ذلك إلى الركون إلى الدنيا.

⁽١) حديث: اكفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول؛ رواه أبر داود والنسائي بلفظ: همن يقوت، وهو عند مسلم بلفظ آخر.

فهذه مجامع الآفات والفوائد، فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقاً قصور عن الإحاطّة بمجامع هذه الأمور، بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبراً ومحكماً، ويعرض المريد عليه نفسه، فإن انتفت في حقه الآفات واجتمعت الفوائد بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجدٌ في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تنبير المنزل والتحصن بالعشيرة، فلا يماري في أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعي في تحصيل الولد، فإن انتفت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له، وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغي أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات في النقصان منه، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به، وأظْهَرُ الفوائدِ الولدُ وتسكين الشهوة، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله، فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول: من لم يكن في أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه في السعى لتحصيل الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالعزوبة له أولى، فلا خير فيما يشغل عن الله، ولا خير في كسب الحرام، ولا يفي بنقصان هذين الأمرين أمر الولد، فإن النكاح للولد سعى في طلب حياة للولد موهومة، وهذا نقصان في الدين ناجز، فحفظه لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعى في الولد وذلك ربح والدين رأس مال، وفي فساد الدين بطلان الحياة الأخروية ودهاب رأس المال، ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآفتين. وأما إذا انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح، نظر: فإن لم يقو لجام التقوى في رأسه وخاف على نفسه الزنا فالنكاح له أولى؛ لأنه متردد بين أن يُقتحم الزنا أو يأكل الحرام، والكسب الحرام أهون الشرين، وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزني، ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام، فترك النكاح أولى؛ لأن النظر حرام والكسب من غير وجهه حرّام، والكسب يقع دائماً وفيه عصيانه وعصيان أهله، والنظر يقع أحياناً وهو يخصه وينصرم على قرب، والنظر زنا العين ولكن إذا لم يصدّقه الفرج فهو إلى العقو أقرب من أكل الحرام، إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى معصية الفرج فيرجع ذلك إلى خوف العنت، وإذا ثبت هذا فالحالة الثالثة: وهو أن يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب فذلك أولى بترك النكاح، لأن عمل القلب إلى العفو أقرب، وإنما يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله وإطعامه، فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ويحكم بحسبها، ومن أحاط بهذا لم يشكل عليه شيء مما نقلنا عن السلف من ترغيب في النكاح مرة ورغبة عنه أخرى؛ إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح.

فإن قلت: فمن أمن الآفات فما الأفضل له: التخلي لعبادة الله، أو النكاح؟

فأقول: يجمع بينهما؛ لأن النكاح ليس مانعاً من التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد، ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب، فإن قدر على الكسب الحلال فالنكاح أيضاً أفضل، لأن الليل وساتر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن، فإن فرض كونه مستغرقاً بالكسب حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة؛ فإن كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة إلا بالصلاة النافلة أو الحج وما يجري مجراه من الأعمال البدنية فالنكاح له أفضل؛ لأن في كسب الحلال والقيام بالأهل والسعي في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعاً من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات، وإن كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن والكسب يشوّش عليه ذلك، فترك النكاح أفضل.

قإن قلت: قلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله؟ وإن كان الأفضل التخلي لعبادة الله فلم استكثر رسولنا عليه من الأزواج؟ فاعلم أن الأفضل: الجمع بينهما في حق من قدر ومن قويت منته وعلت همته فلا يشغله عن الله شاغل، ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوّة، وجمع بين فضل العبادة والنكاح، ولقد كان مع تسع من النسوة () متخلياً لعبادة الله، وكان قضاء الوطر بالنكاح في حقه غير مانع، كما لا يكون قضاء الحاجة في حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعاً لهم عن التدبير، حتى يشتغلون في الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغوفة بهممهم غير غافلة عن مهماتهم، وكان رسول الله به لعلو درجته لا يمنعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى، فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته ()، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره فلا يبعد أن يغير السواقي ما لا يغير البحر الخضم، فلا ينبغي أن يقاس عليه غيره. وأما عيسى في فإنه أخذ بالحزم لا بالقوّة، واحتاط لنعس، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل، أو يتعذر معها طلب الحلال، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة، فاثر التخلي للعبادة، وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طبب المكاسب وأخلاق النساء، وما على الناكح من غوائل النكاح وما له فيه، ومهما كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل، فحفنا أن نزل أفعال كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل، فحفنا أن نزل أفعال كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل، فحفنا أن نزل أفعال كانت الأحوال منقسة كانت كان والله أعلم.

* * *

الباب الثاني

فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

أما العقد، فأركانه وشروطه لينعقد ويفيد الحل أربعة:

الأول: إذن الولى، فإن لم يكن فالسلطان.

الثاني: رضا المرأة إن كانت ثيباً بالغاً أو كانت بكراً بالغاً، ولكن يزوّجها غير الأب والجدّ.

الثالث: حضور شاهدين ظاهري العدالة، فإن كانا مستورين حكمنا بالانعقاد للحاجة.

الرابع: إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة، سواء كان هو الزوج أو الولي أو وكيلهما.

وأما آدابه: فتقديم الخطبة مع الولي لا في حال عدة المرأة، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة، ولا

⁽١) حديث: اجمعه ﷺ بين تسع نسوة، أخرجه البخاري من حديث أنس، وله من حديثه أيضاً اوهن إحدى عشرة».

 ⁽۲) حديث: «كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته» أخرحه البخاري من حديث أنس: «يا أم سلمة لا تؤذيني في
 عائشة فإنه والله ما نزل هلئ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها».

في حال سبق غيره بالخطبة؛ إذ نهي عن الخطبة على الخطبة الله: الخطبة قبل النكاح، ومزج التحميد بالإيجاب والقبول؛ فيقول المزوج: الحمد فله والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتي فلانة، ويقول الزوج: الحمد فله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق. وليكن الصداق معلوماً خفيفاً، والتحميد قبل الخطبة أيضاً مستحب. ومن آدابه: أن يلقي أمر الزوج إلى سمع الزوجة وإن كانت بكراً فذلك أحرى وأولى بالألفة، ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح؛ فإنه أحرى أن يؤدم بينهما. ومن الآداب: إحضار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة، ومنها: أن ينوي بالنكاح إقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد التي ذكرناها، ولا يكون قصده مجرد الهوى والتمتع، فيصير عمله من أعمال الدنيا، ولا يمنع ذلك هذه النيات، فرب حق يوافق الهوى. قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: إذا وافق الحق الهوى فهو الزيد بالنرسيان، ولا يستحبل أن المهوى فهو الزيد بالنرسيان، ولا يستحبل أن يعقد في المسجد وفي شهر شوّال. يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعثاً معاً، ويستحب أن يعقد في المسجد وفي شهر شوّال. عائشة رضي الله عنها: تروجني رسول الله من أعمال، وبنى بي في شوال.)

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان: أحدهما: للحل. والثاني: لطيب المعيشة وحصول المقاصد.

النوع الأوَّل ما يعتبر فيها للحل: وهو أن تكون خلية عن موانع النكاح، والموانع تسعة عشر:

الأول: أن تكون منكوحة للغير.

الثاني: أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدّة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة أو كانت في استبراء وطء عن ملك يمين.

الثالث: أن تكون مرتدّة عن الدين؛ لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر.

الرابع: أن تكون مجوسية.

المخامس: أن تكون وثنية أو زنديقة لا تسب إلى نبي وكتاب، ومنهنّ المعتقدات لمذهب الإباحة فلا يحل نكاحهنّ، وكذلك كل معتقدة مذهباً فاسداً يحكم بكفر معتقده.

المسادس: أن تكون كتابية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعث رسول الله ﷺ، ومع ذلك فليست من نسب بني إسرائيل، فإذا عدمت كلتا الخصلتين لم يحل نكاحها، وإن عدمت النسب فقط ففيه خلاف.

السابع: أن تكون رقيقة والناكح حرّاً قادراً على طول الحرّة أو غير خائف من المنت.

الثامن: أن تكون كلها أو بعضها مملوكاً للناكح ملك يمين.

المتاسع: أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أو فصوله، أو فصول أوّل أصوله، أو من أوّل فصل من كل أصل بعده أصل، وأعني بالأصول: الأمهات والجدّات، وبفصوله: الأولاد والأحفاد،

الباب الثاني

فيما يراعى حالة العقد

١١) حديث النهي عن الخطبة على الخطبة: متفق عليه من حديث ابن عمر، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله ويأذن له.

٣٠) حديث عائشة: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبني بي في شوال. رواه مسلم.

ويقصول أول أصوله: الإخوة وأولادهم، وبأوّل قصل من كل أصل بعده أصل: العمات والخالات دون أولادهن.

العاشر: أن تكون محرّمة بالرضاع، ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق، ولكن المحرّم خمس رضعات وما دون ذلك لا يحرم.

الحادي عشر: المحرم بالمصاهرة: وهو أن يكون الناكح قد نكح ابنتها أو جدتها أو ملك بعقد أو شبهة عقد، شبهة عقد، شبهة عقد، أو وطثهن بالشبهة في عقد، أو وطيء أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد، فمجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها، ولا يحرم فروعها إلا بالوطء، أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل.

الثاني عشر: أن تكون المنكوحة خامسة؛ أي يكون تحت الناكح أربع سواها إما في نفس النكاح أو في عدة الرجعة، فإن كانت في عدة بينونة لم تمنع الخامسة.

الثالث عشر: أن يكون تحت الناكح أختها أو عمتها أو خالتها، فيكون بالنكاح جامعاً بينهما، وكل شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى لم يجز بينهما النكاح، فلا يجوز أن يجمع بينهما.

الرابع عشر: أن يكون هذا الناكح قد طلقها ثلاثاً فهي لا تحل له ما لم يطأها زوج غيره في نكاح صحيح.

الخامس عشر: أن يكون الناكح قد لاعنها، فإنها تحرم عليه أبداً بعد اللعان.

السادس عشر: أن تكون محرمة بحج أو عمرة أو كان الزوج كذلك، فلا ينعقد النكاح إلا بعد تمام التحلل.

السابع عشر: أن تكون ثيباً صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ.

الثامن عشر: أن تكون يتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ.

المتاسع عشر: أن تكون من أزواج رسول الله على ممن توفي عنها أو دخل بها؛ فإنهن أمهات المؤمنين وذلك لا يوجد في زماننا، فهذه هي الموانع المحرمة.

أما الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية: الدين، والخلق، والحسن، وخفة المهر، والولادة، والبكارة، والنسب، وأن لا تكون قرابة قريبة.

الأولى: أن تكون صالحة ذات دين: فهذا هو الأصل، وبه ينبغي أن يقع الاعتناء، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها أزرت بزوجها وسؤدت بين الناس وجهه، وشوَّشت بالغيرة قلبه وتنغص بذلك عيشه، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشدًا إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها، ويكون كالذي جاء إلى رسول الله عليها، فقال: إني أحبها،

⁽أ) قوله: أو ملك بعقد أو شبهة عقد ليس بنسخة الشارح وهو الصواب؛ لأن الملك ليس من المحرمات اهـ.

قال: «أَمْسِكُهَا» (١) وإنما أمره بإمساكها خوفاً عليه بأنه إذا طلقها أتبعها نفسه وفسد هو أيضاً معها، فرأى ما في دوام نكاحه من دفع الفساد عنه من ضيق قلبه أولى، وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوّشاً معه، فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية مخالفاً لقوله تعالى: ﴿ قُوْا النَّسُكُرُ وَالْمَهُ وَالتّحريم: ٦] وإن أنكر وخاصم تنغص العمر، ولهذا بالغ رسول الله في في التحريض على ذات الدين فقال: وتُتُكَعُ المَرْأَةُ لِمَالِهَا وَجَمَالِهَا وَحَسَبِها وَدِينِها فَعَلَيْكُ بِنَاتِ الدّين توبَتْ يَدِبَتْ وَمَالَهُ وَحَسَبِها وَدِينِها فَعَلَيْكُ بِنَاتِ الدّين توبَتْ يَدَاتُ الدين فقال: وتُتُكعُ المَرْأَةُ لِمَالِها وَجَمَالِها حُرِمَ جَمَالَها وَمَالَها، وَمَنْ نَكَحَها لِدِينِها مَلْكُهُ الله مَالَةُ وَمَالَها وَمَالَها مُرْدِيها، وَلاَ لِمَالِها فَلَمَلُ رَزِقَهُ الله مَالَها وَجَمَالِها وَجَمَالِها فَلَعَلْ جَمَالَها يُرْدِيها، وَلاَ لِمَالِها فَلَمَلُ مَالَها يُطلِيها وَجَمَالِها وَمَالَها وَمَالَها مَالُها وَمَالَها عَلَا لَه المرأة تكون عونا على الدين الأن مثل هذه المرأة تكون عونا على الدين، فأما إذا لم تكن متدينة كات شاغلة عن الدين ومشوشة له.

الثانية: حسن الخلق: وذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين: فإنها إذا كانت سليطة بذيئة اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم كان الضرر منها أكثر من النفع، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء. قال بعض العرب: لا تنكحوا من النساء ستة: لا أثانة، ولا منّانة، ولا حنّانة، ولا حنّانة، ولا حنّانة، ولا منّافة، ولا برّاقة، ولا برّاقة، ولا شدّاقة. أما الأنانة: فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتعصب رأسها كل ساعة، فنكاح الممراضة أو نكاح المتمارضة لا خير فيه. والمنانة: التي تمن على زوجها فتقول: فعلت لأجلك كذا وكذا. والحنانة: التي تحن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر، وهذا أيضاً مما يجب اجتنابه. والحداقة: التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه. والبراقة. تحتمل اجتنابه. والحداقة: التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه. والبراقة. تحتمل معنيس: أحدهما: أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع، والثاني: أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء، وهذه لغة يمانية يقولون: برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده. والشداقة: المتشدقة الكثيرة الكلام، ومنه قوله عليه السلام: «إنَّ الله تَعَلَىٰ يَبْغُضُ المُرَّقُونَ المُتَشَدُّقِينَ الْمُنَادِينَ المُتَشَدُّقِينَ المُتَشَدُّقِينَ المُتَدَة الكثيرة الكلام، ومنه قوله عليه السلام: «إنَّ الله تَعَالَىٰ يَبْغُضُ المُرَّقِينَ المُتَشَدُّقِينَ المُتَدَة المتشدقة الكثيرة الكلام، ومنه قوله عليه السلام: «إنَّ الله تَعَالَىٰ يَبْغُضُ المُرَّقِينَ المُتَشَدُّقِينَ المُنْكَانِينَ المُتَدَة المتشدقة الكثيرة الكلام، ومنه قوله عليه السلام: «إنَّ الله تَعَالَىٰ يَابُغُضُ المُنْ المُنْ المُنْ المُنْ المُنْ المُنْ المُنْ المُنْ الله الله الله المنابع المنابع المنابع المنابع المنابع العلم المنابع المنا

وحكي أن السائح الأزدي لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل، ثم قال: لا تنكح أربعاً: المختلعة، والمبارية، والعاهرة، والناشز؛ فأما المختلعة: فهي التي تطلب الخلع

 ⁽١) حديث: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن لي امرأة لا ترد يد لامس، قال: طلقها. . . ٣ الحديث. رواه أبو داود
 والنسائي من حديث ابن عباس، قال النسائي: ليس بثابت، والمرسل أولى بالصواب. وقال أحمد: حديث منكر،
 وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

 ⁽٢) حديث: اتنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها، فعليك بذات الدين منفق عليه من حديث أبي هريرة.

⁽٣) حديث: قمن تكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها. . . الحديث. رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس: «من تزوج امرأة لمزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمسلما لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوج المرأة لم يرد بها إلا أن يقض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه ورواه ابن حبان في الضعماء.

 ⁽³⁾ حديث: «لا تتكع المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها» أخرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمرو بسند ضعيف.

حديث: «إن الله يبغض الثرثارين المتشدقين» رواه الترمدي وحسنه من حديث جابر: «وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني بوم القيامة الثرثارون والمتفيهةون، ولأبي داود والترمذي وحسنه من حديث عبدالله بن عمرو: «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها».

كل ساعة من غير سبب، والمبارية: المباهية بغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا. والعاهرة: الفاسقة التي تعلو تعرف بخليل وخدن، وهي التي قال الله تعالى ﴿وَلَا مُتَخِدَاتِ آحَدانِ ﴾ [السّاء: ٢٥]. والناشز: التي تعلو على زوجها بالفعال والمقال، والنشز: العالي من الأرض، وكان علي رصي اقله عنه يقول: شر خصال الرجال خير خصال النساء. البخل، والزهو، والجبن، فإنّ المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوحها، وإذا كانت مزهوّة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء علم تخرج من بيتها، واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها، فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة في النكاح.

الثالثة: حسن الوجه: فذلك أيضاً مطلوب؛ إذ به يحصل التحصن، والطبع لا يكتفي بالدميمة غالباً، كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان. وما نقلناه من الحث على الدين وأن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجراً عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين، فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين، ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال: أن الألفة والمودة تحصل به غالباً، وقد ندب الشرّع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحب النظر فقال: ﴿إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما» (١) أي يؤلف بينهما ، من وقوع الأدمة على الأدمة: وهي الجلدة الباطنة. والبشرة، الجلنة الظاهرة، وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الائتلاف. وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّ فِي أَغْيُنِ الأَنْصَارِ شَيْئاً فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِثْهُنَّ فَلْيَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ الأَنْصَارِ شَيْئاً فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِثْهُنَّ فَلْيَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ الْأَنْصَارِ شَيْئاً فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِثْهُنَّ فَلْيَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ الْأَنْ كان في أعينهن عمش، وقيل: صغر، وكان بعص الورعين لا يتكحون كراثمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور، قال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم، ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال، وإنما يعرف الجمال من القبح. وروي أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضي الله عنه وكان قد خضب قنصل خضابه، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا: حسبناه شاباً: فأوحعه عمر ضرباً وقال: غررت القوم. وروي أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما: من أنتما؟ فقال بلال: أنا بلال وهذا أخي صهيب، كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله، وكما عائلين فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فسبحان الله، فقالوا: بل تزوجان والحمد لله. فقال صهيب لبلال: لو دكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ فقال: اسكت فقد صدقت فأنكحك الصدق.

والغرور يقع في الجمال والخلق جميعاً فيستحب إزالة الغرور في الجمال بالنظر، وفي الخلق بالوصف والاستيصاف، فينبغي أن يقدم ذلك على النكاح، ولا يستوصف في أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط في الثناء، ولا يحسدها فيقصر، فالطباع مائلة في مبادىء النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط، وقل من يصدق فيه ويقتصد، بل الخداع والإغراء أغلب، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوف إلى غير زوجته، فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو

⁽١) حديث: اإذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما اخرجه ابن ماجه بسند صعيف من حديث أحمد بن مسلمة دون قوله: القإنه أحرى وللترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث المعيرة بن شعبة: أنه خطب امرأة فقال النبي على: النظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما.

 ⁽٣) حديث: (إن في أحين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فلينظر إليهن؟ رواه مسلم من حديث أبي هربرة أحده.

الولد أو تنبير المنزل، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا، وإن كان قد يعين على الدين في حق بعض الأشخاص. قال أبو سليمان الداراني: الزهد في كل شيء حتى في المرأة يتزوج الرجل العجوز إيثاراً للزهد في الدنيا، وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول: يترك أحدكم أن يتزوج بتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان يعني أبناء الدنيا وتشتهي عليه الشهوات وتقول اكسني كذا وكذا، واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة، فسأل: من أعقلهما؟ فقيل: العوراء، فقال: زوجوني إياها، فهذا دأب من لم يقصد التمتع، فأما من لا يأمن على دينه ما لم يكن له مستمتع فليطلب الجمال، فالتلذذ بالمباح حصن للدين، وقد قيل: إذا كانت المرأة حسناء خيرة الأخلاق سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين بيضاء اللون محمة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهي على صورة الحور العين، فإن الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة في قوله: ﴿ فَيَرَبُ اللَّهُ على العروب: هي العاشقة لزوجها المشتهية للوقاع، وبه تتم اللذة. والحور: حسنات الأخلاق، وفيه قوله: ﴿ وَتَصِرَتُ اللَّرْي ﴾ [الواقِعة: ٢٧] العروب: هي العاشقة لزوجها المشتهية للوقاع، وبه تتم اللذة. والحور: البياض، والحوراء: شديدة بياض العين شديدة سوادها في سواد الشعر، والعيناء الواسعة العين. وقال عليه المسلاة والسلام: هغيرُ بسَاتُكُمْ مَنْ إِذَا تَفَلَرَ إِلَيْهَا رَوْبُهَا سَرَّتُهُ وَإِذًا أَمْرَهَا أَطَاعَتُهُ وَإِذَا غَابَ عَنْهَا حَفِظَتُهُ فِي تُفْسِهَا والسلام: وإنه النظر إليها إذا كانت محبة للزوج.

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر: قال رسول الله ﷺ: الخَيْرُ النَّسَاءِ أَحْسَنُهُنَ وُجُوهاً وَأَرْخَصُهُنَّ مُهُوراً (٢) وقد نهى عن المغالاة في المهر (٢). تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث ببت؛ وكان رحى يد وجرّة ووسادة من أدم حشوها ليف (٤) وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير (٥) وعلى أخرى بمدّين من تمر ومدّين من سويق (٦)، وكان عمر رضي الله عنه ينهى عن

⁽١) حديث فخير نسائكم التي إذا نظر إليها زوجها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله، أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة نحوه بسند صحيح وقال هولا تخالفه في نفسها ولا مالها، وعند أحمد فني نفسها ولائبي داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح.

حدیث: «خیر النساء أحستهن وجوها وأرخصهن مهوراً» أخرجه ابن حبان من حدیث ابن عباس: «خیرهن أیسوهن صداقاً» وله من حدیث عائشة: «من یمن المرأة تسهیل أمرها وقلة صداقها» وروی أبو عمر التوقانی فی كتاب معاشرة الأهلین: «إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهوراً» وصححه.

⁽٣) - حديث: ﴿ النَّهِي عَنَ الْمُعَالَاةُ فِي الْمَهُورُ رَوَاهُ أَصْحَابُ السِّنْ الأَرْبَعَةُ مُوقُوفاً على عمر وصححه الترمذي.

⁽٤) حديث: التزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت؛ وكان رحى يد وحرة ووسادة من أدم حشوها ليف، رواه أبو داود الطيالسي والمنزار من حديث أنس: التزوج رسول الله ﷺ أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم. قال البزار ورأيته في موضع آخر تروجها على متاع بيت ورحى قيمته أربعون درهماً. ورواه الطبرائي في الأوسط من حديث أبي سعيد وكلاهما ضعيف. ولأحمد من حديث علي: الما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرتين، ورواه الحاكم وصحح إسناده، وابن حبان مختصراً.

حديث: «أولم على بعض نسانه بمدين من شعير» أخرجه البخاري من حديث عائشة.

⁽٦) حديث: قوأولم على أخرى بمدي تمر ومدي سويق، رواه الأربعة من حديث أنس: أولم على صفية بسويق وتمر. ولمسلم: فجعل الرجل يجيء بفضل التمر وفضل السويق. وفي الصحيحين: التمر والأقط والسمن، وليس في شيء من الأصول تقييد التمر والسويق بمدين.

المعالاة في الصداق ويقول: ما تزوّج رسول الله على ولا زوَّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم (١٠) ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله على، وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم (٢٠)، وزوّج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة رضي الله عنه على درهمين، ثم حملها هو إليه ليلا فأدخلها هو من الباب ثم انصرف، ثم جملها مع المعد سبعة أيام فسلم عليها. ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج من خلاف العلماء فلا بأس به. وفي الخبر: قمِن بَوَكَةِ المَوْأَةِ سُرْعَةُ تَوْوِيجِهَا وَسُرْعَةُ رَجِمِهَا أي الولادة، و فيسر بأس به. وفي الخبر: قمِن بَوَكَةِ المَوْأَةِ سُرْعَةُ تَوْوِيجِهَا وَسُرْعَةُ رَجِمِهَا أي الولادة، و فيسُرُ مَهِم السؤال عن مالها من جهة الرجل. ولا ينغي أن ينكح طمعاً في المال. قال الثوري: إذا فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل. ولا ينغي أن ينكح طمعاً في المال. قال الثوري: إذا المقابلة بأكثر منه، وكذلك إذا أهدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة، فأما التهادي: فمستحب وهو سبب المودة. قال عليه السلام: ﴿قَهَادُوا تَحَابُواهُ مُ وأما طلب الزيادة فداخل في قوله تعالى: ﴿وَهَا مَالِيهُ فَيَا لَبُولِ النَّاسِ ﴾ [الرَّوم: ٢٩] أي تعطي لتطلب أكثر، وتحت قوله تعالى: ﴿وَهَا عَالَيْهُ لِيهُ الْمُوال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة في النكاح يشبه التجارة والقمار ويفسد مقاصد للنكاح.

الخامسة: أن تكون المرأة ولوداً: فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزوجها. قال عليه السلام: وعَلَيْكُمْ بَالوَلُودِ الوَدُودِ^(١). فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف خالها فيراعي صحتها وشبابها، فإنها تكون ولوداً في الغالب مع هذين الوصفين.

السادسة: أنَّ تكون بكراً: قال عليه السلام لجابر: وقد نكح ثيباً: «هَلاَّ بِكُواَ تُلاعِبُها وَتُلاعِبُكَ» (٧٠). في البكارة ثلاث فوائد: إحداها: أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر في معنى الود، وقد قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ

 ⁽١) حديث: كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول: ما تزوج رسول الله ﷺ ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم. رواه
 الأربعة من حديث عمر، قال الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽۲) حديث. تزوح بعض أصحاب التبي على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم. متفق عليه من حديث أنس: أن عبدالرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقويمها يخمسة دراهم. رواه البيهقي.

⁽٣) حديث: قمن بركة المرأة سرحة تزويجها وسرحة رحمها؛ أي الولادة اوتيسير مهرها». رواه أحمد والبيهني من حديث عائشة: قمن يمن المرأة أن تتيسر خطبتها وأن يتيسر صفاقها وأن يتيسر رحمها؛ قال عروة: يعني الولادة، وإسناده حد.

 ⁽٤) حديث: «أيركهن أقلهن مهراً» رواه أبو عمر التوقاني في معاشرة الأهلين من حديث عائشة: «إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوهاً وأقلهن مهراً» وقد تقدم، ولأحمد والبيهقي: «إن أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً» وإسناده جيد.

 ⁽a) حديث: (تهادوا تحابوا) أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد، والبيهفي من حديث أبي هريرة بسند جيد.

 ⁽٧) حديث قال لجابر وقد نكح ثياً: (هلا بكراً تلامبها وتلامبك) متفق عليه من حديث جابر.

بِالوَدُودِ»، والطباع مجبولة على الأنس بأوّل مألوف، وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما ألفته فتقلي الزوج. الثانية: أن ذلك أكمل في مودته لها فإن الطبع ينفر عن التي مسها غير الزوج نفرة ما، وذلك يثقل على الطبع مهما يذكر، وبعض الطباع في هذا أشد نفوراً. الثالثة: أنها لا تحن إلى الزوج الأوّل وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالباً.

السابعة: أن تكون نسيبة: أعني أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربي بناتها وبنيها. فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية، ولذلك قال عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ اللَّمَنِ»، فقيل: ما خضراء الدمن؟ (١) قال: «المَرْأَةُ الحَسْنَاءُ فِي المَنْبِتِ السَّومِ» (٢) وقال عليه السلام: «تَخَيْرُوا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ المَرْقَ فَرَاعٌ» (٣).

الثامنة: أن لا تكون من القرابة القريبة فإن ذلك يقلل الشهوة: قال على الشهوة إنها تنبعث بقوة فإن الشهوة إنها تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللمس، وإنها يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد، فأما المعهود الذي دام النظر الإحساس بالأمر الغريب الجديد، فأما المعهود الذي دام النظر إليه منّة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة، فهذه هي الخصال المرغبة في النساء، ويجب على الولي أيضاً أن يراعي خصال الزوج، ولينظر لكريمته فلا يزوّجها ممن ساء خُلُقه أو خُلْقه، أو ضعف دينه، أو قصر عن القيام بحقها، أو كان لا يكافئها في نسبها، قال عليه السلام: «النّكَاحُ رِقٌ فَلْيَنظُرْ أَحَدُكُمْ أَيْنَ يَضَعُ كَرِيمَتَهُ» والاحتياط في حقها أهم الأنها رقيقة بالنكاح لا مخلص لها، والزوج قادر على الطلاق بكل حال، ومهما زوّج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شارب خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله؛ لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار. وقال رجل للحس: قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها؟ قال: ممن يتقي الله؛ فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها. وقال عليه السلام: «مَنْ زَوْجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ فَاسِق قَقَدْ قَطَعَ رَحِمَها» أن أن أبغضها لم يظلمها. وقال عليه السلام: «مَنْ زَوْجَها؟ قال: ممن يتقي الله؛ فإن أحبها أكرمها، وإن

* * *

الحديث، وقال: معناه تزوجوا العرائب قال: ويقال: اغربوا لا تضووا. (٥) - حديث: اللنكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، رواه أبو صمر التوقاني في معاشرة الأهلين موقوفاً على عائشة

⁽١) الدُّمن: المزابل.

حديث: الياكم وخضراء الدمن، فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبث السوم، رواه الدارقطني
 في الأفراد، والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري، قال الدارقطني: تقرد به الواقدي وهو ضعيف.

⁽٣) حديث: التخيروا لتطفكم فإن العرق دساس، رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصراً دون قرئه افإن العرق، وروى أبو أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس: التزوجوا في الحجر المصالح فإن العرق دساس، وروى أبو موسى المديني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر: الوانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس، وكلاهما ضعيف.

 ⁽٤) حديث: «لا تتكحوا القرابة فإن الولد بخلق ضاوياً» قال ابن الصلاح: لم أجد له أصلاً معتمداً.
 قلت: إنما بعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب: «قد أضويتم فانكحوا في النوابغ» رواه إبراهيم الحربي في غريب

ره التوقائي في معاشرة الاهلين موقوقاً على عائشاً وأنه أبو عمر التوقائي في معاشرة الاهلين موقوقاً على عائشاً وأ وأسماء ابنتي أبي بكر، قال البيهقي، وروي ذلك مرقوعاً والموقوف أصع.

 ⁽٢) حديث: (من زوج كريمته من قاسق فقد قطع رحمها وواه ابن حيان في الضمفاء من حديث أنس، ورواه في الثقات من قول الشعبي بإسناد صحيح.

الباب الثالث

في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزوج: فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً: في الوليمة، والمعاشرة، والدعابة، والمياسة، والغيرة، والنفقة، والتعليم، والقسم، والتأديب في النشوز، والوقاع، والولادة، والمفارقة بالطلاق.

الأدب الأول: الوليمة. وهي مستحبة، قال أنس رضي الله عنه: رأى رسول الله على عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال: «مَا هَٰذَاه؟ فقال: تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب. فقال قبارَكَ الله لَكَ أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاقِه (') وأولم رسول الله على على صفية بتمر وسوين (''. وقال على : «طَعَامُ أَوْلِي يَوْم حَقَّ، وَطَعَامُ الثَّانِي سُئَةً، وَطَعَامُ الثَّالِثِ سُمْعَةً، وَمَنْ سَمْعَ سَمْعَ الله بِهِه (''')، ولم يرفعه إلا زياد بن عبدالله وهو عريب. وتستحب تهنئته فيقول من دخل على الزوج: بارك الله لك وبارك عليك، وجمع بينكما في خير (''). وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك، ويستحب إظهار النكاح. قال عليه السلام: «فَصُلُ مَا بَيْنَ الحَلالِ وَالحَرَامِ الدُّنُ وَالصَّرِبُوا عَلَيْهِ وَالصَّرِبُوا عَلَيْهِ وَالصَّرِبُوا عَلَيْهِ وَالْحَرِبُوا عَلَيْهِ فَدَخل علي غداة بُنِيَ بي فجلس وَالله على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندبن من قتل من آبائي إلى أن قالت إحداهن: على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندبن من قتل من آبائي إلى أن قالت إحداهن:

رفينا نبسيٌّ يعملهما في غيد

نقال لها: «اسْكُتي مَنْ هٰلِهِ وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ قَبْلَهَا» (٧٠).

الأدب الثاني: حسن الخلق معهن واحتمال الأذي منهن ترحماً عليهن لقصور عقلهن: وقال الله تعالى:

الباب الثالث في آداب المعاشرة

 ⁽١) حديث أنس: رأى رسول الله على عبدالرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال: «ما هذا؟» قال: تزوجت امرأة على
 وزن نواة من ذهب، فقال: «بارك الله لك، أولم ولو بشاة» متفق عليه.

 ⁽۲) حديث: (أولم على صفية بسويق وتمر) رواه الأربعة من حديث أنس، ولمسلم نحوه وقد تقدم.

⁽٣) حديث: اطعام أول يوم حق، وطعام الثاني سنَّة، وطعام الثالثة سمعة، ومن سمع سمع الله به قال المصنف: لم يرفعه إلا زياد بن عبدالله.

قلت: هكذا قال الترمذي بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه.

 ⁽³⁾ حديث أبي هريرة في تهنئة الروج: «بارك الله للك وبارك عليك وجمع بينكما في خير؟ رواه أبو داود والترمذي
 رصححه، وابن ماجه وتقدم في الدعوات.

 ⁽a) حديث: «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت» رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب.

 ⁽٦) حديث: المانوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف، رواه الترمذي من حديث عائشة وحسنه
 رضعفه البيهقي.

حديث الربيع بنت معود: اجاء رسول الله على فدخل على فداة بُني بي فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفوفهنا... الحديث، رواه البخاري رقال عوم بدر. رقع في بعض نسخ الإحياء عوم بعاث، وهو وهم.

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [التَّساء: ١٩] وقال في تعظيم حقهن: ﴿ وَأَخَذْتُ مِنكُم يُبِثَنَقًا غَلِيظًا ﴾ [النَّساء: ٢١] وقال: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنَّبِ﴾ [النِّساء: ٣٦] قيل: هي المرأة. وآخر ما وصي به رسول الله ﷺ ثلاث كان يتكلم بهم حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه؛ جملٍ يقول: الطَّهلَاةَ الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَاتُكُمْ لاَ تُكَلَّفُوهُمْ مَا لاَ يُطِيقُونَ، الله الله فِي النُّسَاءِ فَإِنْهُنَّ صَوَان فِي أَيْلِيكُمْ - يعني أسراء - أَخَذْتُمُوهُنّ بِأَمَانَةِ الله وَاسْتَحْلَلْتُمْ فْرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهُ(١٠) . وقال عليه السلام : «مَنْ صَبَرَ عَلَىٰ سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ أَعْطَاهُ الله مِنَ الأَجْرِ مِثْلَ مَا أَعْطِيَ أَبُوبُ عَلَىٰ بَلَاثِهِ ، وَمَنْ صَبَرَتُ عَلَىٰ سُوءِ خُلُقِ زَوْجِهَا أَعْطَاهَا الله مِثْلُ ثَوَاب آسِيَةَ امْرَأَةِ فِزعُونَ *`` . واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذي عنها، بل احتمال الأذي منها والحَلم عند طيشها وغضبها؛ اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراحعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل(٣). وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال: أتراجعيني يا لَكْمَاء، فقالت: إنْ أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك(٤)، فقال عمر: خابت حفصة وخسرت إن راجعته، ثم قال لحفصة: لا تغتري بابنة ابن أبي قحافة فإنها حِبُّ رسول الله على، وخوّفها من المراجعة. وروي أنه دفعت إحداهن في صدر رسول الله ﷺ فزبرتها أمهاء فقال عليه السلام: «دَهِيهَا فَإِنَّهُنَّ يَصْنَعُنَّ أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ،(٥٠). وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً واستشهده، فقال لها رسول الله ﷺ: ﴿نَكُلُّمِينَ أَوْ أتَّكُلُّمُُّّ؟ فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً، فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها وقال: يا عديَّة نفسها، أو يقول غير الحق، فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ: ﴿ لَمْ نَدْعُكَ لِهَآاً وَلاّ أَرُدْمُنَا مِنْكُ لِمُلَا اللَّهُ ، وقالت له مرة في كلام غضبت عنده: أنت الذي تزعم أنك نبي الله، فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً ٧٧ . وكان يقول لها: ﴿إِنِّي لأَهْرِفَ فَضَبَكِ مِنْ رِضَاكِ . قالت:

⁽١) حديث. «آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ ثلاث، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه»، جعل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عوان عندكم. . . الحديث. أخرجه النسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ وهو في المرت جمل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه، وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع. رواه مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه . : «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله. . . ، الحديث.

 ⁽٢) حديث: «من صير على سوء خُلُق امرأة أعطاء الله من الأجر مثل ما أعطي أبوب على بلائه. . . » الحديث. لم أقف له على أصل.

 ⁽٣) حديث: ^وكان أزواجه ﷺ يراجعنه الحديث وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل*. منفق عليه من حديث عمر في الحديث الطويل في قوله تعالى ﴿وَإِن نَظَهُرَا عَلَيْمِ﴾ [النّحريم: ٤].

 ⁽٤) حديث: وراجعت امرأة عمر عمر في الكلام فقال: أتراجعيني يا لكماه، قالت: إن أزواج رسول الله على يراجعنه وهو خير منك... الحديث. هو ألحديث الذي قبله وليس فيه قوله: «يا لكماه»، ولا قولها: هو خير منك.

⁽٥) حديث: دفعت إحداهن في صدر رسول الله ﷺ فزيرتها أمها، فقال ﷺ: قدعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك؛ لم أقف له على أصل.

 ⁽٦) حديث: جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكماً... الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط،
 والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف.

حديث: قالت له عائشة مرة غضبت عنده: وأنت الذي تزعم أنك نبي، فتبسم رسول الله على أخرجه أبو يعلى في مسئله، وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة، وفيه ابن إسحاق وقد عنعه.

وكيف تعرفه؟ قال: ﴿إِذَا رَضِيتِ قُلْتِ: لاَ وَإِلْهِ مُحَمَّدِ، وَإِذَا غَضِبْتِ قُلْتِ: لاَ وَإِلْهِ إِبْرَاهِيمَ قالت: "صدقت إنما أهجر اسمك (() ويقال: إنْ أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها ((). وكان يقول لها: «كُنْتُ لَكِ كَأْبِي زَرْعِ لاَمْ زَرْعٍ، غَيرَ أَنِي لاَ أَطَلَقُكِ (())، وكان يقول لنساته: «لاَ تُؤذُرنِي فِي عَائِشَة، يقول لها: «كُنْتُ لَكِ كَأْبِي زَرْعِ لاَمْ زَرْعٍ، غَيرَ أَنِي لاَ أَطَلَقُكِ (())، وكان يقول لنساته: «لاَ تُؤذُرنِي فِي عَائِشَة، فَإِنْهُ وَاللهُ مَا نَرَلَ صَلَيَ الوَحْيُ وَأَنّا فِي لِحَافِ الْمَرَآةِ مِنْكُنْ غَيْرَهَا () (قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان (٥).

الثالث: أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة: فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان رسول الله على يعزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق، حتى روي أنه على يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً، وسبقها في بعض الأيام، فقال عليه السلام: همله بيلك (٢٠٠٠). وفي الخبر: «أنه كان على من أفكه الناس مع نسائه (٢٠٠٠). وقالت عائشة رضي الله عنها: هسمعت أصوات أناس من الحبشة وعيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء، فقال لي رسول الله وأنجبين أن تَرَيي لُعَبَهُم ؟ قالت: قلت نعم، فأرسل إليهم فجاؤوا، وقام رسول الله بي بين البابين، فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر، وجعل وسول الله على يقول: «حَسْبُكِ» فقلت: نعم، وسول الله على يقول: «حَسْبُكِ» فقلت: نعم، فأشار إليهم فانصرفوا (٨٠٠). فقال رسول الله على المؤمنين إيماناً أخسَنهُم خُلُقاً وَأَلْطَقُهُمْ بِأَمْلِهِ» (١٠) فأشار إليهم فانصرفوا (٨٠٠). فقال رسول الله على المؤمنين إيماناً أخسَنهُم خُلُقاً وَأَلْطَقُهُمْ بِأَمْلِهِ» (١٠)

حديث: كان يقول لعائشة الإني لأعرف غضيك من رضاك. . . الحديث. متفق عليه من حديثها.

⁽Y) حديث: ﴿أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ عائشة وواه الشيخان من حديث عمرو بن العاص أنه قال أي الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال ﴿ هَائشة . . . ﴾ الحديث. وأما كونه أول ، فرواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس ، ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود ولد في الإسلام يريد بالمدينة ، وإلا فمحبة النبي ﷺ لخديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة .

 ⁽٣) حديث: كان يقول لعائشة: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع فير أني لا أطلقك» متفق عليه من حديث عائشة دون
 الاستثناء، ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب.

⁽٤) حديث: الا تؤذوني في هاتشة فإنه والله ما أنزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن فيرها، رواه البخاري من حديث عائشة.

 ⁽a) حديث أنس: اكان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان!. رواه مسلم بلفظ: اما رأيت أحداً كان أرحم بالميال من رسول الله ﷺ زاد على بن عبدالعزيز والبغوي: والصبيان.

 ⁽٦) حديث مسابقته ﷺ لعائشة فسيقته ثم سيقها وقال عدل العده يتلك رواه أبو داود والنسائي في الكبرى، وابن ماحه من حديث عائشة بسند صحيح.

 ⁽٧) حديث: «كان من أفكه الناس مع نسائه». رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله: مع نسائه.
 ورواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط فقالا: مع صبي. وفي إساده ابن لهيمة.

حديث عائشة: سمعت أصوات أناس من الحبشة وعبرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لي رسول الله على التحبين التحبين أن تري لعبهم الحديث، متعق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء، وإنما قال: يوم عبد، ودون قولها: اسكت، وفي رواية للنسائي في الكبرى: قلت: لا تعجل، مرتين، وفيه فقال: (يا حميراء)، وسنده صحيح.

 ⁽a) حديث: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله؛ رواه الترمذي والنسائي واللفظ له، والحاكم وقال: رواته ثقات على شرط الشيخين.

وقال عليه السلام: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِ، وَأَمَّا خَيْرُكُمْ لِنِسَائِي»(١) وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته: يبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلاً. وقال لقمان رحمه الله: ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي، وإذا كان في القوم وجد رجلاً. وفي تفسير الخبر المروي: «إن الله يبغض المجعظري المجوّاظ»(١) قيل: هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه، وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى: ﴿ وُمُنَّلٍ ﴾ [القُلَم: ١٢] قيل العتل: هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله. وقال عليه السلام لجابر: «هَلاً بِكُوا تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ» (١). ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت: والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج، سكيتاً إذا خرج، آكلاً ما وجد. غير مسائل عما فقد.

الرابع: أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها: بل يراعي الاعتدال فيه فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض، قال الحسن: والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبُّه الله في النَّار. وقال عمر رضي الله عنه: خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة. وقد قيل: شاوروهن وخالفوهن. وقد قال عليه السلام: «تَعِسَ عَبْدُ الزُّوْجَةِ» أَنْ وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها وقد تعس، فإن الله ملكه المرأة مملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال: ﴿وَلَاَثُمْ اَنُّهُمْ فَلَيْمَيِّرُكَ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النَّساء: ١١٩] إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً، وقد سمى الله الرجال فوَّامين على النساء وسمى الزوج سيداً، فقال تعالى: ﴿وَٱلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِّ﴾ [يُوشف: ٢٥] فإذا انقلب السيد مسخراً فقد بدل نعمة الله كفراً، ونفس المرأة على مثال نفسك: إن أرسلت عنانها قليلاً حمحت بك طويلاً، وإن أرخيت عذارها فتراً جذبتك ذراعاً، وإن كبحتها وشددت يدك عليها في محل الشدّة ملكتها. قال الشافعي رضي الله عنه: ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك: المرأة، والخادم، والنبطي ـ أراد به إن محضت الإكرام ولم تمزج غلظك بلينك وفظاظتك برفقك .. وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج، وكانت المرأة تقول لابنتها: اختبري زوجك قبل الإقدام والجرأة عليه؛ انزعي زج رمحه، فإن سكت فقطعي اللحم على ترسه، فإن سكت فكسِّري العظام بسيفه، فإن سكت فاجعلي الإكاف على طهره وامتطيه فإنما هو حمارك.

وعلى الجملة: فبالعدل قامت السموات والأرض، فكل ما جاوز حدّه انعكس على ضدّه، فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة وتنبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن، فإن

 ⁽۱) حدیث: «خیارکم خیرکم لنسائه وأنا خبرکم لنسائي، أخرجه الترمذي وصححه من حدیث أبي هربرة دون قوله: «وأنا خیرکم لنسائي، وله من حدیث عائشة وصححه: «خیرکم خیرکم لأهله وأنا خبرکم لأهلي».

⁽٣) حديث: إن الله ببغض المجعظري الجواظا رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وهو في الصحيحين من حديث جارية بن وهب الخزاعي بلفظ: «ألا أخبركم بأهل المنار؟ كل عتل جواظ مستكبرا ولأبى داود: «لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري».

 ⁽٣) حديث قال لجابر: اهلا بكراً تلاعبها وتلاعبك متفق عليه من حديثه، وقد تقدم.

 ⁽١) حديث: «تعس عبد الزوجة» ثم أقف له على أصل، والمعروف: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم. . . ٩ الحديث، رواه
 البخاري من حديث أبي هريرة.

كيدهن عظيم وشرهن فاش، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة. وقال عليه السلام: همقلُ المَمْزَأَةِ الصَّالِحَةِ فِي النَّسَاءِ كَمَثَلِ الغُوَابِ الأَعْصَمِ بَيْنَ مَائَةٍ هُوَابٍ، (1) والأعصم، يعني الأبيض البطن، وفي وصية لقمان لابنه: يا بني: اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل الشيب، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر. وقال عليه السلام: «استَعيدُوا مِنَ الفَوَاقِرِ الثَّلاثِ، (2) . وعد منهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب. وفي لفظ آخر: ﴿إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا سَبِئْكُ، وَإِنْ فِبْتَ عَنْهَا خَاتَتُكَ، وقد قال عليه السلام في خيرات النساء: «إنَّكُنَّ صَوَاحِبَاتُ يُوسُفَهُ (*) ؛ يعني إن صرفكن أبا بكر عن التقدّم في الصلاة ميل منكن عن الحق إلى المهوى. قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله ﷺ ﴿إِنْ لَنُونًا إِلَى اللهِ فَقَدَ مَعَنَ قُلُوبُكُما ﴾ [التغريم: ٤] أي مالت. وقال ذلك في خير أزواجه (٤) ، وقال عليه السلام: ﴿الاَ يُفْلِحُ قُومٌ تَمْلِكُهُمُ الْمَرَأَةُهُ (٠). وقد والله عليه السلام: هلا يُفْلِحُ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ الْمَرَأَةُهُ (٠). وقال عليه السلام: هلا يُفْلِحُ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ المُرَأَةُهُ (١) والمطايبة عمر رضي الله عنه امرأته لما راجعته وقال: ما أنت إلا لعبة في جانب البيت؛ إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت، فإذن فيهن شروفيهن ضعف، فالسياسة والخشونة علاج الشر، والمطايبة والرحمة علاج الضعف، فالطبيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الداء، فلينظر الرجل أولاً إلى أطلاح بقدر الداء، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيها حالها.

المخامس: الاعتدال في الغيرة: وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله ﷺ أن تتبع عورات النساء وفي لفظ آخر: «أن تبغت النساء». ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره قال قبل دخول المدينة: «لاَ تَطُرُقُوا النّسَاءَ لَيلاً فخالفه رجلان فسبقا، فرأى كل واحد في منزله ما يكره (٧). وفي الخبر المشهور: «المَرْأَةُ كَالضَّلْعِ إِنْ قَوْمْتَهُ كَسَرْتَهُ،

⁽۱) حديث: «مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الفراب الأصهم بين مائة فراب، رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولأحمد من حديث عمرو بن العاص: كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران، فإذا بغربان كثيرة نبها غراب أعصم أحمر المنقار فقال: «لا يدخل المجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغربان، وإسناد، صحيح، وهو في السنن الكبرى للنسائي.

⁽٢) حليث: «استعيلوا من الفواقر الثلاث» وعد منهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب وفي لفظ آخر: ﴿إنْ دخلت عليها لسنتك، وإنْ فيت عنها خانتك رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضميف. واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد: ١٤لاث من الفواقرة: وذكر مها ﴿وامرأة إن حضرت لذتك وإنْ فيت عنها خانتك وصنده حسن.

 ⁽٣) حليث: اإنكن صواحبات بوسف، متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٤) حديث نزول قوله تعالى: ﴿إِن نَنُوا اللهِ اللهِ نَقَدُ صَمَتَ تُلُوبُكُما ﴾ [التّخريم: ٤] في خير أزواجه، متفق عليه من حديث عمر، والمرأتان عائشة وحفصة.

حديث: الا يقلح قوم تملكهم امرأةا رواه البخاري من حديث أبي بكرة نحوه. والمرأة التي ملكت قارس هي بوران بنت كسرى.

⁽٦) حديث: «نهى رسول ألله الله أن تتبع عورات النساء» رواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر: نهى أن تتطلب عثرات النساء، والحديث عند مسلم بلفظ: نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً يخونهم أو يطلب عثراتهم، واقتصر البخاري منه على ذكر النبي عن الطروق ليلاً.

 ⁽٧) حديث أنه قال قبل دخول المدينة: ﴿لا تطرقوا أهلكم لميلاً فخالفه رجلان فسميا إلى منازلهما فرأى كل واحد في بيته
ما يكره، رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد.

فَدُعُهُ تَسْتَفَيْعُ هِ عَلَىٰ عِوَجٍ اللهِ وَهِذَا فِي تهذيب أخلاقها. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ غَيْرَةً يُبْغِضُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ فَيْرَةُ الرَّجُلِ عَلَىٰ أَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ وِيبَةٍ اللهُ لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه، فإنّ بعض الظن إثم. وقال علي رضي الله عنه: لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك. وأما الغيرة في محلها فلا بذ منها وهي محمودة ؛ وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللهُ تَعَالَىٰ يَغَارُ وَالمُؤْمِنُ يَغَارُ وَعَيْرَةُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَأْتِي الرَّجُلُ اللهُ عَنْرَةِ مَعْدِ، أَنَا وَاللهُ أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنْ أَنْ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَعْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَنْ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنْ فَيْرَةِ مَعْدِ، أَنَا وَاللهُ أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنْ اللهُ وَعَلَى عَلَمُ عَلَى عَرَمُ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ولأجل ذلك وعد الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: ﴿ رَأَيْتُ لِيلهُ أُسْرِيَ بِي فِي الْجَنَةِ قَصْراً وَبِفَنَائِهِ جَارِيةٌ ، فَقُلْتُ: لِمَن لَمْنَا الْفَصرُ ؟ فَقِيلَ: لِمُمَرَ ، فَأَرُدْتُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا فَذَكَرْتُ غَيْرَقَكَ يَا عُمَرُ ، فَبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله وكان الحسن يقول: أندعون نساءكم ليزاحمن العلوج في الأسواق. قبح الله من لا يغار ، وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنْ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّهُ الله وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُهُ الله ، وَمِنَ الْخَيْرَةُ أَلِي يُجِبُّهُ الله فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ ، وَالْغُيْرَةُ الله فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ ، وَالْغُيْرَةُ اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ ، وَالْخُرْيَالُ اللَّهِ يُبْغِضُهُ الله فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ ، وَالْمُخْرِينُ اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي فَيْ رِيبَةٍ ، وَالْاَخْتِيالُ اللَّذِي يُجِبُّهُ الله الْخَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ ، وَالْمُخْرِينُ اللهِ فَالْغَيْرَةُ فِي فَيْ رِيبَةٍ ، وَالْمُولِينَ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ

⁽١) حديث: «المرأة كالضلع إن أردت تقييمه كسرته. . . ٤ الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حدیث: قفیرة بیفضها الله وهي قیرة الرجل على أهله من قبر ریبة وواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حدیث جابر بن عتیك.

 ⁽٣) حديث: الله يغار والمؤمن يغار، وغيرة الله تعالى أن بأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري: والمؤمن يغار.

 ⁽٤) حديث * «أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه والله أغير مني. . . . » الحديث. متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.

 ⁽ه) حديث: «رأيت ليلة أسري بي في الجنة قصراً وبفنائه جارية، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقيل لمعمر . . . ٤ الحديث .
 متمق عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسري بي ولم يدكر الجارية، وذكر الجارية في حديث آخر متفق عليه من حديث أبي هريرة "بينما أنا نائم رأيتني في الجنة . . . ٤ الحديث .

 ⁽٢) حديث: فإن من الغيرة ما يحبه الله تعالى ومنها ما يبغضه الله تعالى. . . ٩ الحديث. رواه أبو داود والنسائي وابن حبان
 من حديث جاير بن عتيك، وهو الذي تقدم قبله بأربعة أحاديث.

 ⁽٧) حديث: «إني لغيور وما من امرىء لا يغار إلا منكوس القلب» تقدم أوله. وأما آخره فرواه أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين من رواية عبدالله بن محمد مرسلاً. والظاهر أنه عبدالله بن الحنفية.

تطلع في الكوة فضربها، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه تفاحة قد أكلت منها فضربها.

وقال عمر رضي الله عنه: أعروا النساء يلزمن الحجال، وإنما قال ذلك لأنهن لا يرغبن في المخروج في الهيئة الرثة. وقال: عودوا نساءكم ولا». وكان قد أذن رسول الله على للنساء في حضور المسجد () والصواب الآن المنع إلا العجائز، بل استصوب دلك في زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لو علم النبي على ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج (). ولما قال ابن عمر: قال رسول الله على: ولا تمنعهن، فضربه وغضب عليه وقال: تسمعي أقول قال رسول الله على: ولا تمنعوا، فتقول: بلى (الله استجرأ على وغضب عليه وقال: تسمعي أقول قال رسول الله على: ولا تمنعوا، فتقول: بلى (الله المخالفة للهرأ من غير إظهار العذر، وكذلك كان رسول الله على قد أذن لهن في الأعياد خاصة أن يخرجن ولكن لا يخرجن إلا برضا أزواجهن، والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ولكن القعود أسلم. وينبغي أن لا تخرج إلا لمهم، فإن الخروج للنطارات والأمور التي ليست مهمة تقدح في المروءة، وربما تفضي إلى الفساد، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال، ولسنا نقول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة مي حقه عرة كوجه المرأة مي حقه، بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط، فإن لم تكن فتنة فلا؛ إذ لم يزل الرجال على ممر الزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن منتقبات، ولو كان وجوه فلا؛ إذ لم يزل الرجال على ممر الزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن منتقبات، ولو كان وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتنقب أو منعن من الخروج إلا لضرورة.

السادس: الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق، ولا ينبغي أن يسرف، يل يقتصد. قال تعالى: ﴿وَلَا جُعْلُ يَلَكُ مَعْلُولَةٌ إِلَى عَنْمُواْ وَلا شُرِوْاً ﴾ [الاعراف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلا جُعْلُ مَعْلُ اللهِ عَنْهُ وَلَا نَبْسُطُهُ كَا الْإِسرَاء: ٢٩]، وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿حَيْهُ كُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ (٥)، وقال ﷺ: ﴿وَيَنَارُ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارُ تَصَدَّقْتَ بِه عَلَىٰ مِسْكِينٍ، وَدِينَارُ أَنْفَقْتَهُ فَي رَقَبَةٍ، وَدِينَارُ تَصَدَّقْتَ بِه عَلَىٰ مِسْكِينٍ، وَدِينَارُ أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ (٢٠). وقيل: كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة، أَنْفَقْتَهُ عَلَىٰ أَهْلِكَ اللهِ عَلَىٰ أَهْلِكَ (٢٠). وقيل: كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة، فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم، وقال الحسن رضي الله عنه: كانوا في الرجال مخاصيب، والإناث والثياب مجاديب. وقال ابن سيرين: يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة فالوذجة، وكأن الحلاوة وإن لم تكن من المهمات ولكن تركها بالكلية تقتير في العادة، وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك؛ فهذا أقل درجات الخير، وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه، فإن ذلك من غير صريح إذن من الزوج، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه، فإن ذلك

الإذن للنساء في حضور المساجد. متفق عليه من حديث ابن عمر «اللفنوا للنساء بالليل إلى المساجدة.

 ⁽۲) حديث قالت عائشة: لو علم النبي على ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج. متفق عليه. قال البخاري:
 لمنعهن من المساجد.

 ⁽٣) حديث ابن عمر: الا تمنعوا إماء الله مساجد الله، نقال بعض ولده: بلى والله. . . الحديث. متفق عليه.

 ⁽٤) حديث: الإذن فهن في الخروج في الأعيادا متفق عليه من حديث أم عطبة.

 ⁽a) حديث: الخيركم خيركم لأهله أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصححه، وقد تقدم.

حدیث: ادینار أنفقته في سبیل الله، ودینار أنفقته في رقبة، ودینار تصدقت به على مسكین، ودینار أنفقته على أهلك
 أعظمها أجرأ اللدینار اللي أنفقته على أهلك) أخرجه مسلم من حدیث أبي هریرة.

مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، فإن كان مزمعاً على ذلك فليأكله بخفية بحيث لا يعرف أهله، ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته؛ فقد قال سفيان رضي الله عنه: بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق: أن يطعمها من الحلال، ولا يدخل مداخل السوء لأجلها؛ فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها، وقد أوردنا الأخبار الواردة في ذلك عند ذكر آفات النكاح.

السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى، فإنه أُمِرَ بأن يقيها النار بقوله تعالى: ﴿ وَوَا أَنفُكُو مَرَا ﴾ [النّحريم: ٦] فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه، وعلم الاستحاضة يطول، فأما الذي لا بد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضيها، فإنها مهما انقطع دمها قبيل المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قليم المؤل كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها المخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها خروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال، بل عليها ذلك ويعصي الرجل بمنعها، ومهما تعلمت ما خروج، فإن لم يكن ذلك فلها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه، ومهما أهملت المرأة حكماً من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل حرج الرجل معها وشاركها في الإثم.

الثامن: إذا كان له تسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن (١٠)، كذلك كان يفعل رسول الله على فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها، فإن القضاء واجب عليه، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام القسم وذلك يطول ذكره، وقد قال رسول الله على: همَن كُانَ لَهُ امْرَأْتَانِ فَمَالَ إِلَىٰ إِحْدَاهُمَا دُونَ الأُخْرَىٰ وفي لفظ وَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا، جَاءَ يَوْمَ القيامَةِ وَأَخَدُ شِقْيهِ مَائِلٌ (٢٠) وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار، قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيمُوا أَن تَقْدِلُوا بَيْنَ النِسَاءِ وَلَوَ خَرَصْتُم الله الله الله على النفس، ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع. وكان رسول الله على يعدل بينهن في العطاء والبيتونة في الليالي، ويقول: «اللهُمْ هٰذَا جَهْدِي قِيمًا أَمْلِكُ وَلاَ طَاقَةَ لِي فِيمًا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ، وسائر نسائه يعرفن ذلك.

⁽١) حديث: القرعة ببن أزواجه إذا أراد سفراً. متفق عليه من حديث عائشة.

حديث: "من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى" وفي لفظ آخر: "لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ماثل؟ أحرجه أصحاب السنن وابن حباد من حديث أبي هريرة، قال أبو داود وابن حبان: "فمال مع إحداهما"، وقال الترمذي: "فلم يعدل بينهما".

حديث: كان يعدل بينهن ويقول: «اللهم هذا جهدي قيما أملك ولا طاقة لي فيما شملك ولا أملك». أخرجه أصحاب
السنن وابن حيان من حديث عائشة نحوه.

 ⁽٤) حديث: كانت عائشة أحب نسائه إليه. متفق عليه من حديث عمرو بن العاص أنه قال: أي الناس أحب إليك
يا رسول الله؟ قال: "هائشة»، وقد تقدم.

وكان يطاف به محمولاً في مرضه في كل يوم وكل ليلة، فيبيت عند كل واحدة منهن ويقول: «أَيْنَ أَنَا فَدَا؟» فقطنت لذلك امرأة منهن فقالت: إنما يسأل عن يوم عائشة، فقلن: يا رسول الله قد أذنا لك أن تكون في بيت عائشة؛ فإنه يشتى عليك أن تحمل في كل ليلة، فقال: «وَقَدْ رَضِيتُنَ مِذْلِكَ؟» فقلن: نعم. قال: «فَحَوّلُونِي إِلَىٰ بَيْتِ عَائِشَةً» (١)، ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ورضي الزوج بذلك ثبت الحق لها. كان رسول الله على الزوجية حتى تحشر في زمرة نسائه، فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم ليائيتها لعائشة وسألته أن يقرها على الزوجية حتى تحشر في زمرة نسائه، فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين ولسائر أزواجه ليلة ليلة (٢)، ولكنه في لحسن عدله وقوته كان إذا تاقت نفسه إلى واحدة من النساء في غير نوبتها فجامعها طاف في يومه أو ليلته على سائر نسائه؛ قمن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله في طاف على نسائه في ليلة واحدة (٣). وعن أنس أنه عليه السلام طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار (١٠).

١) حديث: كان يطاف به محمولاً في مرضه كل يوم وليلة فيبيت عند كل واحدة ويقول: «أين أنا فعاً....» الحديث. رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين أن النبي على كان يحمل في ثوب يطاف به على نسائه وهو مريض يقسم بينهن. وفي مرسل آخر له: لما ثقل قال: «أين أنا غداً؟» قالوا: عند فلانة، قال: «فأين أنا بعد فد؟» قالوا عند فلانة، فعرف أزواجه أنه يريد عائشة... الحديث. وللبخاري من حديث عائشة: كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: «أين أنا فعاً؟» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء. وفي الصحيحين: لما ثقل استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذنً له.

⁽٢) حديث: «كان يقسم بين نساقه، فقصد أن بطلق سودة بنت زمعة لما كبرت، فوهبت ليلتها لعائشة. . . ، الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة. «قالت سودة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي لعائشة . . . ، الحديث. والطبراني: «فأراد أن يفارقها». وهو عند البخاري بلفظ: «لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها بيوم سودة»، والمبيهقي مرسلاً: «طلق سودة فقالت: أريد أن أحشر في أزواجك . . ، الحديث.

 ⁽٣) حديث عائشة: اطاف على نسائه في ليلة واحدة. منفق عليه بلفظ: كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه،
 ثم يصبح محرماً ينضع طياً».

 ⁽٤) حديث أنس: «أنه طلف على تسع نسوة في ضحوة نهار»، رواه امن عدي في الكامل، وللبخاري: «كان يطوف على
نسائه في ليلة واحدة وله تسع نسوة».

وقد قبل لرسول الله على ما حق المرأة على الرجل؟ قال: "يُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمَ. وَيَكُسُوهَا إِذَا اكْتَسَىٰ. وَلاَ يُقَبِّحُ الوَجْهَ، وَلاَ يَضْرِبُ إِلاَّ ضَرْباً فَيْرَ مُبَرِّح، وَلاَ يَهْجُرهَا إِلاَّ فِي المَبِيتِ، (١) وله أن يغضب عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر. فعل ذلك رسول الله على إذ أرسل إلى زينب بهدية فردتها عليه. فقالت له التي هو في بيتها: لقد أقمأتك إذ ردت عليك هديتك (١). أي أذلتك واستصغرتك. فقال عليه: «أتْتُنْ أَهْوَنُ عَلَىٰ الله أَنْ تُقْمِقْتَنِي» ثم غضب عليهن كلهن شهراً إلى أن عاد إليهن.

العاشر: في آداب الجماع. ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى، ويقرأ قل هو الله أحد أولاً، ويكبّر ويهلل ويقول: بسم الله العلي العظيم، اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبي. وقال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ أَنْ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَهُ قَالَ: اللّهُمَّ جَنّبني الشّيطانَ من رَدَّفَتَنَا، فَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا وَلَدُ لَمْ يَضُرُهُ الشّيطانُ ("" وإذا قربت من الإنزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك: الحمد لله الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً. وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته، ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالوقاع إكراماً للقبلة، وليغط نمسه وأهله بثوب. كان رسول الله على يغطي رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة: "هَلَيْكُ بَالسَّكِينَةِهِ ("). وفي الخبر: "إِذَا جَامَعُ أَحَدُكُمْ أَهْلُهُ قَلا يَتَجَرُدُانِ تَجَرُّدُ الْمَرْأَتِهِ لَعَيْرُونَ المَعْجُرُ فِي الرَّجُلِ: أَنْ يَلْقَىٰ مَنْ يُحِبُّ مَعْرِفَتَهُ فَيْقَالُ قَبْلُ أَنْ يَعْلَمُ السَّدُ اللهِ وقال عَيْقَ أَنْ يُعْلَمُ اللهُ اللهُ

⁽١) حديث: قبل له: ما حق المرأة على الرجل؟ فقال: ايطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ولا يقبح الوجد، ولا يضرب إلا ضرباً فير مبرح، ولا يهجرها إلا في البيت، رواه أبو داود والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد، وقال: اولا يضرب الوجه ولا يقبع، وفي رواية لأبي داود: اولا تقيح الوجه ولا تضرب.

⁽٢) حديث: هجره ﷺ نساءه شهراً لما أرسل بهدية إلى زينب فردتها فقالت له التي في بيتها: لقد أقمأتك.... الحديث. ذكره ابن الجوزي في الوفاء بغير إسناد. وفي الصحيحين من حديث عمر: كان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن. وفي رواية من حديث جاير: ثم اعتزلهن شهراً.

 ⁽٣) حديث: «أو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: اللهم جنبنا الشيطان...» الحديث، متفق عليه من حديث ابن عباس.

⁽٤) حديث. كان يغطي رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة: ﴿ عليك بالسكينة » رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف.

حدیث: اإذا جامع أحدكم امرأته فلا بتجردان تجرد المیرین؛ أخرجه ابن ماجه من حدیث عتبة بن عبد سند ضعیف.

 ⁽٩) حديث: «لا يقمن أحدكم حلى امرأته كما تقع البهيمة . . . » الحديث. رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر.

 ⁽٧) حديث: قثلاث من العجز في الرجل: أن بلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه. . . . ١ الحديث. رواه أبو
 منصور الديلمي من حديث أخصر منه وهو بعض الحديث الذي قبله.

الجماع مي هذه الليالي، ويقال: إن الشياطين يجامعون فيها، وروي كراهة ذلك عن على ومعاوية وأبي هريرة رضي الله عنهم، ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقاً لأحد التأويلين من قوله ﷺ: «رَجِمَ الله مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ»(١) الحديث. ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضى هي أيضاً نهمتها، فإن إنزالها ربما يتأخر فيهيج شهوتها، ثم القعود عنها إيذاء لها، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب التنافر مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال، والتوافق في وقت الإنزال ألذ عندها ليشتغل الرجل بنفسه عنها، فإنها ربما تستحى. وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة فهو أعدل؛ إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين، فإن تحصينها واجب عليه، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها، ولا يأتيها في المحيض، ولا بعد انقضائه وقبل الغسل، فهو محرم بنص الكتاب، وقيل: إن ذلك يورث الجذام في الولد، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها في غير المأتي؛ إد حرم غشيان الحائض لأجل الأذي، والأذي غير المأتي دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض. وقوله تعالى: ﴿فَأَتُوا حَرَّتُكُمْ أَنَّ شِئْتُمْ ۖ [البَقَرَة: ٢٢٣] أَي أي وقت شئتم، وله أن يستمني بيديها، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهي سوى الوقاع. وينبغي أن تنزر المرأة بإزار من حقوها إلى فوق الركبة في حال الحيض، فهذا من الأدب، وله أن يؤاكلُ الحائض، ويخالطها في المضاجعة وغيرها، وليس عليه اجتنابها، وإن أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى فليغسل فرجه أولاً، وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول.

ويكره الجماع في أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة، فإن أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولاً وضوء الصلاة فذلك سنة. قال ابن عمر: قلت للنبي هي أينام أحدنا وهو جنب؟ قال: "تَعَمْ إِذَا تَوَصَّأَهُ(٢). ولكن قد وردت فيه رخصة, قالت عائشة رضي الله عنها: "كان النبي هي ينام جنباً لم يمس ماءه (٣) ومهما عاد إلى فراشه فليمسح وجه فراشه أو لينفضه، فإنه لا يدري ما حدث عليه بعده، ولا ينبغي أن يحلق أو يقلم أو يستحد أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جزءاً وهو جنب؛ إذ ترد إليه سائر أجزائه في الآخرة فيعود جنباً، ويقال: إن كل شعرة تطالبه بجنابتها. ومن الآداب أن لا يعزل، بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث وهو الرحم، فما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة (٤). هكذا قال رسول الله يهي فإن عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربع مذاهب؛ فمن مبيح مطلقاً بكل حال، ومن محرم بكل حال، ومن قائل يبحل برضاها ولا يحل دون رضاها، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل، ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة. والصحيح عندنا: أن ذلك مباح، وأما الكراهية فإنها تطلق لنهي التحريم ولنهي التنزيه ولترك الفضيلة، فهو مكروه بالمعنى الثالث مباح، وأما الكراهية فإنها تطلق لنهي التحريم ولنهي التنزيه ولترك الفضيلة، فهو مكروه بالمعنى الثالث

⁽١) حديث: ارحم الله من فسل وافتسل؛ تقدم في الباب الخامس من الصلاة.

 ⁽٢) حديث ابن عمر: "قلت للنبي ﷺ أينام أحدتا وهو جنب؟ قال: نعم إذا توضأه متفق عليه من حديثه أن عمر سأل لا أن عبدالله هو السائل.

 ⁽٣) حديث عائشة: «كان ينام جنباً لم يمس ماء». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال يزيد بن هارون: إنه وهم،
 ونقل البيهقي عن الحافظ الطعن فيه، قال: وهو صحيح من جهة الرواية.

 ⁽٤) حديث: «ما من نسمة قدر الله كونها إلا وهي كائنة؛ منفق عليه من حديث أبي سميد.

أي فيه ترك فضيلة، كما يقال: يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة، ويكره للحاضر في مكة مقيماً بها أن لا يحج كُل سنة، والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط، وهذا ثابت لِما بيناه من الفضيلة في الولد، ولما روي عن النبي ﷺ **الِنَّ الرَّجُلَ لَيُجَامِعُ أَهْلَهُ** فَيُكْتَبُ لَهُ بِجِمَاعِهِ أَجْرُ وَلَدٍ ذَكَرٍ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الله فَقُتِلَ^{١١)} وإنما قال ذلك؛ لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه، مع أن الله تعالى خالقه ومحييه ومقويه على الجهاد، والذي إليه من التسبب فقد فعله وهو الوقاع، وذلك عند الإمناء في الرحم. وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه، لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه، بل ههنا أصل بقاس عليه وهو ترك النكاح أصلاً أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الإنزال بعد الإيلاج، فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهي ولا فرق؛ إذ الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم، ولها أربعة أسباب: النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع، ثم الوقوف لينصب المني في الرحم، ويعض هذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكذا الثالث كالثاني، والثاني كالأول، وليس هذا كالإجهاض والوأد، لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضاً مراتب. وأول مراتب الوجود: أن تقع النطفة في الرحم، وتختلط بماء المرأة، وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جنابة. فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجنابة أفحش، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حياً. وإنما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المني في الرحم لا من حيث الخروج من الإحليل، لأن الولد لا يخلق من منى الرحل وحده بل من الزوجين جميعاً إما من مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض، قال بعض أهل التشريح: إن المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض، وإن الدم منها كاللبن من الرائب، وإن النطفة من الرجل شرط في خثور دم الحيض وانعقاده كالأنفحة للبن؛ إذ بها يتعقد الرائب، وكيفما كان فماء المرأة ركن في الانعقاد فيجري الماءان مجرى الإيجاب والقبول في الوجود الحكمي في العقود، فمن أوجب ثم رجع قبل القبول لا يكون جانياً على العقد بالنقض والفسخ، ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الرجّوع بعده رفعاً وفسخاً وقطعاً، وكما أن النطفة في الفقّار لا يتخلق منها الولد، فكذا بعد الخروج من الإحليل ما لم يمتزج بماء المرأة ودمها، فهذا هو القياس الجلي.

فإن قلت: فإن لم يكن العزل مكروهاً من حيث إنه دفع لوجود الولد فلا يبعد أن يكره لأجل النية الباعثة عليه؛ إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شواتب الشرك الخفي.

فأقول: النيات الباعثة على العزل خمس: الأولى: في السراري وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس بمنهي عنه. الثانية: استبقاء جمال المرأة وسمنها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق، وهذا أيضاً ليس منهياً عنه. الثالثة: الخوف من كثرة الحرج سبب كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء وهذا أيضاً غير منهي عنه، فإن قلة الحرج معين على الدين، نعم الكمال والفضل في

⁽١) حديث: ﴿إِن الرجل ليجامع أهله فيكتب له من جماعه أجر ولد ذكر يقاتل في سبيل الله الم أجد له أصلاً.

التوكل والثقة بضمان الله حيث قال: ﴿وَمَا مِن كَآبَةِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى الْقَهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: ٦]، ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل، ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه مناقضاً للتوكل لا نقول إنه منهي عنه. الرابعة: الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهن من المعرة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث، فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها لا بترك النكاح والوطء، فكذا في العزل، والفساد في اعتقاد المعرة في سنة رسول الله الله أشد، وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافاً من أن يعلوها رجل فكانت تتشبه بالرجال، ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح، المخامسة: أن تمتنع المرأة لتعززها ومبالغتها في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع، وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمبالغتهن في استعمال المياه، حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الخلاء إلا عراة، فهذه بدعة تخالف السنّة، فهي نية فاسدة، واستأذنت واحدة منهن على عاتشة رضي الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها، فيكون القصد هو الفاسد دون منع الولادة.

فإن قلت: فقد قال النبي ﷺ: "مَنْ نَرَكَ النَّكَاحَ مَخَافَةَ العِيالِ فَلَيسَ مِنَّا اللَّهُ اللَّهُ ال

قلت: فالعزل كترك النكاح. وقوله: اللَّيْسَ مِنَّا، أي ليس موافقاً لنا على سنتنا وطريقتنا، وسنتنا فعل الأفضل.

فإن قلت: فقد قال ﷺ في العزل: ﴿ فَاكَ المؤَلَّدُ الخَفِيُّ»، وقرأ: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْمُدَةُ سُلِتَ ﴿ ﴾ ('') [التكوير: ٨] وهذا في الصحيح. قلنا: وفي الصحيح أيضاً أخبار صحيحة ('') في الإباحة، وقوله: ﴿ المؤَلَّدُ الخَفِيُّ» كقوله: ﴿ الشَّرْكُ الخَفِيُّ، وذلك يوجب كراهة لا تحريماً.

فإن قلت: فقد قال ابن عباس: العزل هو الوأد الأصغر، فإنّ الممنوع وجوده به هو الموؤودة الصغرى.

قلنا: هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف، ولذلك أنكره عليه علي رضي الله عنه لما سمعه قال: ولا تكون موؤودة إلا بعد سبع، أي بعد الأخرى سبعة أطوار، وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْدُنَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿ مُ أَمَّلَنَهُ نَطْفَةً فِي قَلِهِ المؤمنون: ١٤] إلى قوله: ﴿ قُرُ أَنْدَأَنَهُ خَلَقًا مَاخَرُ ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي نفخنا فيه الروح، ثم تلا قوله تعالى في الآية ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْمُرَدُةُ سُلِكُ ﴿ وَإِن عَباس رضي الله عنهما إلى ما قدّمناه في طريق القياس والاعتبار ظهر لك تفاوت منصب على وابن عباس رضي الله عنهما في الغوص على المعاني ودرك العلوم، كيف وفي المتفق عليه في الصحيحين عن جابر أنه قال «كنا

 ⁽١) حديث: (من نرك النكاح مخافة العيال فليس منا) تقدم في أوائل السكاح.

 ⁽٢) حديث: قال ﷺ في العزل: «ذلك الوأد الخفي» أخرجه مسلم من حديث جدامة بنت وهب.

⁽٣) أحاديث إباحة العزل، رواها مسلم من حديث أبي سعيد: أنهم سألوه عن العزل فقال: «لا عليكم أن لا تفعلوه» ورواه النسائي من حديث أبي صرمة، وللشيخين من حديث جابر: «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ زاد مسلم: «فسلم ذلك نبي الله ﷺ فلم ينهنا». وللنسائي من حديث أبي هريرة سئل عن العزل فقيل: اليهود تزعم أنها الموؤودة الصغرى، فقال: «كثبت يهود». قال البيهقي: رواة الإباحة أكثر وأحفظ.

الحادي عشر: في آداب الولادة وهي خمسة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري الخيرة له في أيهما، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له، أو يتمنى أن يكون بنتاً، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل، قال على: «مَنْ كَانَ لَهُ ابْنَةً فَأَدَبها فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنَ النَّعْمَةِ الْبِي قال عَلَيْهِ كَانَتْ لَهُ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الجَنْةِ، (*). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال أَسُبَغَ الله عَلَيْهِ كَانَتْ لَهُ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الجَنْةِ، (*). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله على: «مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَتَانِ أَوْ أَخْتَانِ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَنَاهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الجَنْةِ رسول الله عَلَيْهِ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ ابْنَتَانِ أَوْ أَخْتَانِ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَنَاهُ كُنْتُ أَنَا وَهُو فِي الجَنْقِ رسول الله عَلَيْهِ فَعَلَى الْمَنْ وَيَ الْمُوقِ مِنْ أَسُواقِ المُسْلِمِينَ فَاشْتَرَىٰ شَيْئًا وَلَا أَنْهُ مَنْ فَلَقْرَ اللهُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَنَاهُ كُنْتُ أَنْهُ وَلَى شَيْئًا وَمُنْ مَنْ أَلُو وَعَنْ اللّهُ وَلَى الْمُنْتَقِيقِ الْمُ إِلَىٰ مُنْ أَنْ اللّهُ عَلَى اللّهِ اللهِ اللهِ وَمَنْ بَعْنَامُ اللهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْ اللهُ وَلَى اللهُ عَنْ اللهُ وَالْهُ وَلَا أَلُو مَنْ اللهُ وَلَا أَلِي عَبَالِهِ فَكَأَنْمَا جَعَلَ إِلَيْهِمْ صَدَقَةً حَتَىٰ يَضَعَهَا فِي النَّهُ وَلَى النَّهِ وَمَنْ بَكَىٰ مِنْ حَشْيَةِ اللهُ وَمَنْ بَكَىٰ مِنْ خَشْيَةٍ اللهُ وَمَالُ اللهُ وَالِهُ وَالْهُ اللهُ وَالْهُ اللهُ واللهُ أَلِو مُربِرة : قال يُقْتَلُ قَالَتُنَا مُلَى اللهُ وَالُهُ اللهُ اللهُ واللهُ أَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ

 ⁽١) حديث جابر المتفق عليه في الصحيحين: اكنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فلم ينهنا، هو كما ذكر متفق عليه، إلا
 أن قوله "فلم ينهنا» انفرد بها مسلم.

حديث جابر: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية وهي خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: «اعزل عنها إن ششته... الحديث. ذكر المصنف أنه في الصحيحين وليس كذلك، وإنما انفرد بها مسلم.

 ⁽٣) حديث: «من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاءها. . . » الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير،
 والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

 ⁽٤) حديث ابن عباس: «ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة» أحرجه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

حديث أنس: «من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما صحبته كنت أنا وهو في الجنة كهانين، وواه الخرائطي
 في مكارم الأخلاق بسند ضعيف. ورواه الترمذي بلفظ: همن هال جاريتين، وقال حسن غريب.

 ⁽٦) حديث أنس: «من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشترى شيئاً فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور
 نظر الله إليه، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أخرجه الخرائطي بسند ضعيف.

حديث أنس قمن حمل طوفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة أخرجه الخرائطي بسند ضعيف جداً،
 وأخرجه إبن عدي في الكامل. وقال ابن الجوزي: حديث موضوع.

وَضَرًائِهِنَّ أَدْخَلَهُ الله الحِّنَّةَ بِفَصْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُنَّ»، فقال رجل: وثنتان يا رسول الله؟ قال: ﴿وَثُنْتَانِّ). فقال رجل: أو واحدة؟ فقال: ﴿وَوَاحِلَةُ اللهِ

الأدب الثاني: أن يؤذَن في أذن الولد، روى رافع عن أبيه قال: «رأيت النبي ﷺ قد أذَن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضي الله عنها» (٢). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَأَذْنَ فِي أَذُنِهِ النِهْمَنِيُ وَأَقَامَ فِي أُذُنِهِ النِهُمْرَىٰيُ وُفِعَتْ مَنْهُ أُمُّ الصَّبْيَانِ ٩ (٢). ويستحب أن يلقنوه أوّل انطلاق لسانه لا إله إلا الله، ليكون أوّل حديثه، والختان في اليوم السابع ورد به خبر (١٠).

الأدب الثالث: أن تسميه اسماً حسناً، فذلك من حق الولد. وقال على: ﴿إِذَا سَمَّيْتُمْ فَعَبَّدُوا ﴿ ﴿ وَقَالَ عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَحَبُ الأَسْمَاءِ إِلَى الله عَبْدُاللّهِ وَعَبْدُالرّحُمْنِ ﴿ ﴾ ، وقال: ﴿ سَمُوا بِاسْمِي وَلاَ تُكَنُّوا بِكِنْيَتِي ﴾ ﴿ قال العلماء: كان ذلك في عصره على إذ كان ينادى يا أبا القاسم والآن فلا بأس، نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته، وقد قال على: ﴿ لاَ تَجْمَعُوا بَيْنَ اسْمِي وَكِنْيَنِي ﴿ ﴾ . وقيل: إن هذا أيضاً كان في حياته، وتسمى رجل أبا عيسى فقال عليه السلام: ﴿إِنَّ هِيسَىٰ لاَ أَبَ لَهُ ﴾ فيكره ذلك، والسقط ينبغي أن يسمى . قال عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية: بلغني أن السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه فيقول: أنت ضيعتني وتركتني لا اسم لي، فقال عمر بن عبدالعزيز: كيف وقد لا يدري أنه غلام أو خارية فقال عبدالرحمن: من الأسماء ما يجمعهما كحمزة وعمارة وطلحة وعتبة، وقال على: ﴿ إِنَّكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ الْ ﴿) . ومن كان له اسم يكره يستحب تُدْهُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَسْمَاتِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ الْ ﴿) . ومن كان له اسم يكره يستحب

 ⁽١) حديث أبي هريرة امن كانت له ثلاث بنات أو أخوات قصير على الأوانهن. . . ٩ الحديث. رواه الخرائطي واللفظ له
 والحاكم ولم يقل: أو أخوات وقال. صحيح الإسناد.

 ⁽٢) حديث أبي رافع: رأيت رسول الله ﷺ أَذْنَ في أَذْن الحسين حين ولدته فاطمة. أخرجه أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذي وصححه، إلا أنهما قالا: «الحسن» مكبراً، وضعفه ابن القطان.

 ⁽٣) حديث: امن ولد له مولود وأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان أبو يعلى الموصلي وابن
 السني في اليوم والليلة، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسين بن علي بسد ضعيف.

⁽٤) حديث: «الحتان في اليوم السابع» وواه الطبراني في الصغير من حديث جابر بسند ضعيف: «أن رسول الله ﷺ عق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام، وإسناده ضعيف. واختلف في إسناده فقيل: عبدالملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جده.

حديث: ﴿إذا سميتم فعيدوا واه الطبرائي من حديث هبدالملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ، وصحح إسناده والبيهقي من حديث عائشة.

 ⁽٦) حديث: قاحب الأسماء إلى الله فيقالله وفيقالرحمن؟ أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

 ⁽٧) حديث: السموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي، منفق عليه من حديث جابر. وفي لفظ «تسموا».

 ⁽٨) حديث: الا تجمعوا بين اسمي وكنيتي، رواه أحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة، ولأبي داود والترمذي وحسنه
وابن حبان من حديث جابر المن سمي باسمي فلا يتكني بكنيتي، ومن تكني بكنيتي فلا يتسمى باسمي،

 ⁽٩) حديث الن عيسى لا أب له أخرجه أبو عمر التوقاني في كتاب معاشرة الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف،
 ولأبي داود أن عمر ضرب ابناً له تكنى أبا عيسى، وأنكر على المغيرة بن شعبة تكنيه بأبي عيسى، فقال:
 رسول الله عليه كناني، وإسناده صحيح.

⁽١٠) حديث: فإنكم تفصون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم أخرجه أبو داود من حديث أبي القرداء. قال النووي: بإسناد جيد، وقال البيهقي إنه مرسل.

تبديله، أبدل رسول الله على السم العاص بعبدالله (١٠) . وكان اسم زينب برة، فقال عليه السلام: فتُزَكّي نَفْسَهَا» فسماها زينب (٢٠) ، وكذلك ورد النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة (٢) لأنه يقال: أثم بركة؟ فيقال: لا .

الرابع: العقيقة عن الذكر بشاتين، وعن الأنشى بشاة ذكراً كان أو أنشى: وروت عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ أمر في الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين، وفي الجارية بشاة (١٠) وروي: أنه عن عن الحسن بشاة (٥٠) ، وهذا رخصة في الاقتصار على واحدة. وقال ﷺ: • مَعَ المُخلام عَقِيقَتُهُ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَماً وَأَمِيطُوا عَنْهُ الأَذَىٰ (٥٠) ، ومن السنة أن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة ، فقد ورد فيه خبر: أنه عليه السلام أمر فاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدّق بزنة شعره فضة » فله عنها .

المخامس: أن يحنكه بتمرة أو حلاوة: وروي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: ولدت عبدالله بن الزبير بقباء، ثم أتيت به رسول الله في فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم تفل في فيها (^) فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله في ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم: إن البهود قد سحرتكم فلا يولد لكم.

الثاني عشر: في الطلاق: وليعلم أنه مباح، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل، ومهما طلقها فقد آذاها، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطْفَنَكُمْ فَلاَ نَبُوا عَلَيْهِنَّ سَكِيلاً ﴾ [التَّساء: ٣٤] أي لا تطلبوا حيلة للفراق وإن كرهها أبوه فليطلقها، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كان تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ويأمرني بطلاقها، فراجعت رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَا ابْنَ عُمَرَ طَلَقِ امْرَأَتَكَ اللهُ أَنْ عُلَمْ طَلَقِ امْرَأَتَكَ اللهُ اللهُ على يكرهها ويأمرني بطلاقها، فراجعت رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَا ابْنَ عُمَرَ طَلَقِ امْرَأَتَكَ اللهُ اللهُ على اللهُ على اللهُ على اللهُ اللهُ

⁽١) حديث: «بدل رسول الله 藏 اسم العاص بعبدالله»، رواه البيهقي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي بسند صحيح.

⁽٢) - حديث: قال ﷺ لزينب وكان اسمها برة التزكي نقسها؛ فسماها زينب، متفق عليه من حديث أبي هويرة.

حدیث: «النهی فی تسمیه أقلح ویسار ونافع وبرکة»، أخرجه مسلم من حدیث سمرة بن جندب إلا أنه جعل مکان برکة رباحاً، وله من حدیث جابر: أراد النبی ﷺ أن يسمی بیعلی وبرکة. . الحدیث.

⁽٤) حديث عائشة: الأمر في الغلام بشاتين مكافئتين، وفي الجارية بشاشا، أخرجه الترمذي وصححه.

حديث: «عق عن الحسن نشاة»، أخرجه الترمذي في حديث على وقال: ليس إسناده بمتصل، ووصله الحاكم، إلا أنه قال حسين، ورواه أبو داود من حديث ابن عباس إلا أنه قال: «كيشاً».

حديث: المع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذي، أخرجه البخاري من حديث سلمان بن عامر الضبي.

 ⁽٧) حديث: "أمر فاطمة يوم سابع حسين أن يحلق شعره ويتصدق بزنة شعره فضة، أخرجه الحاكم وصححه من حديث علي، وهو عند الترمذي منقطع بلفظ: «حسن» وقال: ليس إسناده بمتصل، ورواه أحمد من حديث أبي رافع.

حديث أسماء: قرلدت عبدالله بن الزبير بقباء ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعه في حجره ثم دعا بتمرة فمضغها ثم
 تفل في فيه . . . * الحديث . متفق عليه .

 ⁽٩) حديث ابن عمر: «كانت تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها، فأمرني بطلاقها. . . ١ الحديث. رواه أصحاب السن،
 وقال الترمذي: حسن صحيح.

أن حق الوالد مقدّم، ولكن والد يكرهها لل لغرض فاسد مثل عمر. ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهي جانية، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين. قال ابن مسعود في قول تعالى ﴿وَلَا يَخُرُجُنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَنجِشَةِ مُّيَّئِهِ ﴾ [الطّلاق: ١] مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة، وهذا أريد به في العدة ولكنه تنبيه على المقصود. وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدي ببذل مال، يكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى؛ فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع. قال للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى؛ فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع. قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِي الْفَداء. فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آئمة، قال عليها حرام، وفي لفظ آخر: أنه عليه السلام قال: «المُختَلِمَاتُ هُنَّ المُنَافِقَاتُ» (١) ، ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه: فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه يدعى حرام وإن كان واقعاً، لما فيه من تطويل العدة عليها، فإن فعل ذلك فليراجعها. طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال على العمر: «مُرْهُ فَلْيُوَاجِعْهَا حَتَىٰ تَطْهُرَ ثُمَّ تَجِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ طَلَقَهَا وَإِنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا، فَتِلْكَ العِلَّةُ الْبِي أَمَرَ الله أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النَّسَاءُ (٢٠). وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث: لأن الطلقة الواحدة بعد العدّة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة، وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل، وإلى الصبر مدّة، وعقد المحلل منهي عنه، ويكون هو الساعي فيه ثم يكون قلبه معلقاً بروجة الغير وتطليقه _ أعني زوجة المحلل بعد أن زوج منه _ ثم يورث ذلك تنفيراً من الزوجة، وكل ذلك ثمرة الجمع، وفي الواحدة كفاية في المقصود من غير محذور، ولست أقول: الجمع حرام، لكه مكروه بهذه المعاني، وأعنى بالكراهة: تركه النظر لنفسه.

الثالث: أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق: قال تعانى: ﴿وَمَيِّعُوهُنّ﴾ [البَقْرَة: ٢٣٦] وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر في أصل النكاح. كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلاقاً ومنكاحاً، ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال: قل لهما اعتدا، وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم، ففعل، فلما رجع إليه قال: ماذا فعلتا؟ قال: أما إحداهما فنكست رأسها وتنكست، وأما الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتها تقول: متاع قليل من حبيب مفارق؛ فأطرق الحسن وترحم لها وقال: لو كنت

⁽١) حديث: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة» وفي لفظ «قالجنة عليها حرام». رواه أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان من حديث ثوبان.

 ⁽۲) حديث اللمختلعات هن المنافقات، رواه النسائي من حديث أبي هريرة وقال: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. قال:
 ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبي هريرة.

قلت: رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف.

⁽٣) حديث: طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال رسول الله على العمر: • همره فليراجعها. . . • الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر.

مراجعاً امرأة بعد ما فارقتها لراجعتها. ودخل الحسن ذات يوم على عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير، وبه ضربت المثل عائشة رضي الله عنها حيث قالت: لو لم أسر مسيري ذلك لكان أحب إلي من أن يكون لي ستة عشر ذكراً من رسول الله على ممثل عبدالرحم بن الحارث بن هشام، فدخل عليه الحسن في بيته، فعظمه عبدالرحمن وأجلسه في مجلسه وقال: ألا أرسلت إلي فكنت أجيئك؟ فقال: الحاجة لنا. قال: وما هي؟ قال: جئنك خاطباً ابنتك، فأطرق عبدالرحمن ثم رفع رأسه وقال: والله ما على وجه الأرض أحد يمشي عليها أعز علي منك، ولكنك تعلم أن ابنتي بضعة مني يسوءني ما ساءها ويسرني ما سرها، وأنت مطلاق، فأخاف أن تطلقها، وإن فعلت خشيت أن يتغير قلبي عليك، فأنت بضعة من رسول الله على شرطت أن لا تطلقها زوجتك، فسكت الحسن وقام وخرج، وقال بعض أهل بيته: سمعته وهو يمشي ويقول: ما أراد عبدالرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقاً في عنقي. وكان على رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته: إن حسناً مطلاق فلا تنكحوه، حتى قام رجل من همدان فقال: والله يا أمير المؤمنين لننكحنه ما شاء، فإن أحب أمسك وإن شاء ترك، فسر ذلك علياً وقال:

لو كنت بواباً عملى باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغي أن يوافق عليه، فهذه الموافقة قبيحة، بل الأدب المخالفة ما أمكن، فإنّ ذلك أسر لقلبه وأوفق لباطن ذاته، والقصد من هذا: بيان أن الطلاق مباح، وقد وعد الله الغنى في الفراق والنكاح جميعاً فقال: ﴿وَأَنَكِمُوا اللَّايَكَىٰ مِنكُرْ وَالسَّالِمِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَالنَّهِ عَلَيْهِمُ أَلَّهُ مِن فَشْلِكِهُ ﴾ [النُّور: ٣٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَنْفَرُهُ فَقُرَاتُ يُنْبِهِمُ اللّهُ مِن فَشْلِكِهُ ﴾ [النُّور: ٣٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن

الرابع: أن لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح، فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم (١٦). ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة، فقيل له: ما الذي يريبك فيها؟ فقال: العاقل لا يهتك ستر امرأته، فلما طلقها قيل له: لم طلقتها؟ فقال: ما لي ولامرأة غيري. فهذا بيان ما على الزوج.

القسم الثاني من هذا الباب: النظر في حقوق الزوج عليها:

والقول الشافي فيه: أن النكاح نوع رق، فهي رقيقة له، فعليها طاعة الزوج مطلقاً في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة. قال ﷺ: ﴿أَيْمُا امْرَأَةٍ مَاتَتُ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضِ دَخَلَتِ الْجَنَّةُ (٢٠ وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها في الأسفل، فمرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله ﷺ تستأذن

⁽١) حديث الوعيد في إفشاء سر المرأة. رواه مسلم من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَعظم المخيانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم يفشي سرها.

 ⁽۲) حديث: الأيما امرأة مانت وزوجها عنها راض دخلت المجنة؛ أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه من حديث أم سلمة.

في النزول إلى أبيها، فقال ﷺ؛ ﴿ أَطِيعِي زُوْجَكِ، فمات فاستأمرته فقال: ﴿ أَطِيعِي زُوجِكُ فَدَفَنَ أَبُوهَا فأرسل رسول الله ﷺ إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها'' ، وقال ﷺ : ﴿إِذَا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زُوْجَهَا دَخَلَتْ جَنَّةً رَبِّهَا (٢٠)، وأضاف طاعة الزوج إلى مبانى الإسلام؟ وذكر رسول الله عُلِيَّ النساء فقال: • حَامِلاَتٌ وَالِدَاتُ مرضَعَات رَحِيمَاتٌ بأُوْلَادِهِنَّ لَوْلاَ مَا يَأْتِينَ إِلَىٰ أَزْوَاجَهِنَّ دَخَلَ مُصَلِّيَاتُهُنَّ الجَنَّةَ" ، وقال ﷺ : «اطَّلَغَتْ فِي النَّارِ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُه، فَقُلْنَ: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قال: «يُكْثِرْنَ اللُّغْنَ وَيَكُفُّرْنَ العَشِيرَ» كَ يعني الزوج المعاشر. وفي خبر آخر: «اطَّلَفْتُ فِي الجَنَّةِ فَإِذَا أَقُلُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ»، فقلت: أين النساء؟ قال: اشَغَلَهُنَّ الأُحْمَرَانِ النَّهَبُ وَالزَّعْفُرَانِ إِنَّ عني الحلي ومصبغات الثياب. وقالت عائشة رضي الله عنها: أتت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني فتاة أخطب فأكره التزويج، فما حق الزوج على المرأة؟ قال: ﴿لَمْ كَانَ مِنْ فَرْقِهِ إِلَىٰ قَدَمِهِ صَدِيد فَلَحَسَنْهُ مَا أَدْتْ شُكْرَهُ، قالت: أفلا أتزوّج؟ قال: «بَلَىٰ تَزَوّجي فَإِنّهُ خَيْرٌ اللهُ عَلَى ابن عباس: أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنى امرأة أيَّم وأريد أن أتزوج، فما حق الزوج؟ قال: ﴿إِنَّ مِنْ حَقُّ الزُّوْجِ عَلَىٰ الزُّوْجَةِ إِذَا أَرَادَهَا فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا وَهِيَ عَلَىٰ ظَهْرِ بَمِيرِ لا تَمْنَعهُ، وَمِنْ حَقَّهِ أَنْ لاَ تُعْطِى شَيئاً مِنْ بَيْتِهِ إلاَّ بإذْنِهِ، فَإنْ فَمَلَتْ ذَٰلِكَ كَانَ الوزْرُ عَلَيْهَا وَالأَجْرُ لَةً، وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ لاَ تَصُومَ تُطَوُّعاً إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَإِنْ فَمَلَّتْ جَاعَتْ وَمَطِشَتْ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مَنْهَا، وَإِنْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْبَهَا بِغَيْرِ إِنْنِهِ لِمُتَنَّهُا المَلَاثِكَةُ حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ بَيْبِهِ أَوْ تَتُوبَ ۗ (وقال ﷺ : ﴿ لَوْ أَمَرْتُ أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْثُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظْمُ حَقَّهِ عَلَيْهَا، ‹ ۗ . وقال ﷺ : • أَقْرَبُ مَا تَكُونُ المَرْأَةُ مِنْ وَجْهِ رَبُّهَا إِذًا كَانَتْ فِي قَعْرِ بَيْبُهَا، وَإِنَّ صَلَاتَهَا فِي صَحْن دَارِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي المَسْجِدِ،

 ⁽١) حليث: الحان رجل خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفل وكان أبوها في السفل قمرض. ١٠٠ الحديث، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف، إلا أنه قال: «فقر لأبيها».

⁽٢) حديث: ﴿إِذَا صَلَتَ الْمَرَأَةُ مُحْمَسُهَا وَصَامَتَ شَهْرِهَا. . ، ﴾ الحديث. أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: ذكر النساء فقال: «حاملات والفات مرضعات. . .» الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمامة دون قوله: «مرضعات» وهي عند الطبراني في الصغير.

 ⁽३) حديث: «اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء...» الحديث، متفق عليه من حديث ابن عباس.

حديث: «اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء»، نقلت: أين النساء؟ قال: «شغلهن الأحمران الذهب والزعفران»
 أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، وقال: «الحرير» بدل «الزعفران» ونمسلم من حديث عزة
 الأشجمية: «ويل للنساء من الأحمرين: الذهب والزعفران» وسنده ضعيف.

 ⁽٣) حديث عائشة: «أتت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، إني فتاة أخطب وإني أكره التزويج فما حق الزوج على
 المرأة؟» الحديث. أخرجه الحاكم وصحح إسناده من حديث أبي هريرة دون قوله: «بلى فنزوجي فإنه خير؛ ولم أره
 من حديث عائشة.

 ⁽٧) حديث ابن عباس: «أنت امرأة من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج؟»
 الحديث. أخرجه البيهقي مقتصراً على شطر الحديث، ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف.

 ⁽A) حديث: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والولد لأبيه من عظم حقهما عليهما، أخرجه
 الترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة دون قوله: «والولد لأبيه» فلم أرها وكذلك رواء أبو داود من حديث
 قيس بن سعد، وابن ماجه من حديث عائشة، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى.

وَصَلَاتُهَا نِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي صَحْن دَارِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»(١) والمخدع: بيت في بيت، وذلك للستر، ولذلك قال عليه السلام: «المَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَت اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ (٢) وقال أيضاً: ﴿لِلْمَرْأَةِ عَشْرُ عَوْرَاتِ، فَإِذَا نَزَوْجَتْ سَتَرَ الزُّوجُ عَوْرَةٌ وَاحِدَةً، فَإِذَا مَاتَتُ سَتَوَ القَبْرُ العَشْرَ عَوْرَاتٍ، " . فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة، وأهمها أمران: أحدهما: الصيانة والستر. والآخر: ترك المطالبة بما وراء الحاجة، والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً، وهكذا كانت عادة النساء في السلف: كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على البار. وهمُّ رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته. لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة؟ فقالت: زوجي منذ عرفته عرفته أكَّالاً وما عرفته رزاقاً، ولي رب رزاق، يذهب الأكال ويبقى الرزاق. وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها: والله ما لي همة في النساء لشغلي بحالي، فقالت: إني لأشغل بحالى منك وما لى شهوة، ولكن ورثت مالاً جزيلاً من زوجي فأردت أن تنفقه على إخوانك، وأعرف بك الصالحين فيكون لي طريقاً إلى الله عزّ وجلّ، فقال: حتى أستأذن أستاذي، فرجع إلى أبي سليمان الداراني، قال: وكان ينهاني عن التزويج ويقول: ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير، فلما سمع كلامها قال: تزوج بها فإنها ولية لله، هذا كلام الصَّديقين، قال: فتزوجتها فكان في منزلنا كِنَّ من جص ففني من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلاً عمن غسل بالأشنان. قال: وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطبيني وتقول: اذهب بنشاطك وقوّتك إلى أزواجك، وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشام برابعة العدوية بالبصرة. ومن الواجبات عليها: أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه. قال رَسُول الله ﷺ: ﴿ لاَ يَحِلُ لَهَا أَنْ تُطْعِمَ مِنْ بَيْنِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِلاَّ الرَّطْبَ مِنَ الطُّعَامِ الَّذِي يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنْ أَطْعَمَتْ عَنْ رِضَاهُ كَانَ لَهَا مِثْلُ أَجْرِهِ، وَإِنْ أَطْعَمَتْ بِغَنْيرِ إِذْنِهِ كَانَ لَهُ الأَجْرُ وَعَلَيْهَا الْوِزْرُهُ (١٠).

⁽١) حديث: «أقرب ما تكون المرأة من ربها إذا كانت في قعر بينها فإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد. . . . ٩ الحديث . أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون أخره وأخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكر صحن الدار. ورواه البيهةي من حديث عائشة بلفظ: قولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلى في المسجد» وإسناده حسن، ولابن حبان من حديث أم حميد نحوه.

 ⁽۲) حدیث: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشیطان» رواه الترمدي وقال: حسن صحیح وابن حبان من حدیث ابن مسعود.

⁽٣) حديث: اللمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة. . . الحديث. أخرجه الحافظ أبو بكر محمد بن عمر الجعابي في تاريخ الطالبيين من حديث علي بسند ضعيف، وللطبراني في الصغير من حديث ابن عباس: اللمرأة ستران، قبل: وما هما؟ قال: «الزوج والقبر».

⁽³⁾ حديث: ﴿لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام...» الحديث. أخرجه أبو داود الطيالسي، والبيهقي من حديث ابن عمر في حديث فيه: وولا تعطي من بيته شيئاً إلا بإذنه، فإن فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر» ولأبي داود من حديث سعد: قالت امرأة يا رسول الله، إنا كل على آبائنا وأبنائنا وأزواحنا، قما يحل لنا من أموالهم؟ قال «الرطب تأكلنه وتهدينه»، وصحح الدارقطني في العلل أن سعداً هذا رحل من الأنصار ليس ابن أبي وقاص، واختاره ابن القطان، ولمسلم من حديث عائشة: «إذا أنققت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب».

وقال رجل لزوجته:

ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة، وآداب العشرة مع الزوج؛ كما روي أنّ أسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزوّج: إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أرضاً يكن لك سماء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً، لا تلحقي به فيقلاك، ولا تباعدي عنه فينساك، إن دنا منك فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمن منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلاً.

خذي العفو مني تستديمي مودّتي ولا تستديمي مودّتي ولا تستقريسني نسقرك السدف مسرة ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى فإني رأيت الحب في القلب والأذى

ولا تنطقي في سورتي حين أغضبُ فيإنك لا تعريب كيف المسغيب والمقالوب تقالب إذا اجتمعا لم يالبث المحبّ يذهبُ

كتاب آداب النكاح

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل: أن تكون قاعدة في قعر بيتها لازمة لمغزلها، لا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام لجيرانها، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول، تحفظ بعلها في غيبته، وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها، لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها، بل تتنكر على من نظن أنه يعرفها أو تعرفه، همها صلاح شأنها وتدبير بيتها، مقبلة على صلاتها وصيامها، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام؛ غيرة على نفسها ويعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة في نفسها، مستعدّة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج. وقد قال ﷺ: «أنا وَامْرَأَةٌ سَفْعًاءُ الخَلِّينِ كَهَاتَينِ فِي الجَنَّةِ الْمَرَأَةُ المَنْ يَعْنِ الْجَنَّةِ عَاقُولُ: مَا لِهٰذِهِ تُبَاوِنْهِ؟ فَيَقَالُ مِنْ ذَوجِهَا وَجَبَسَتُ نَفْسَهَا عَلَىٰ بَنَاتِهَا حَتَىٰ ثَابُوا أَوْ مَاتُواهُ(١٠). وقال يَشِحَدُ مَا الله عَلَى كُلُ آدَمِيَ الجَنَة وَكَانَ عِنْدَمَا يَتَامَىٰ لَهَا، فَصَبَرَتْ عَلَيْهِ تَبَاوِنْهِ؟ بَلَغَ أَمْرُمُنْ بَلَغَ قَمْكُرُ الله لَهُ فَلَىٰ جَلَعْ فَلَهُ فَلَا مُعَمَدُ، هُلِهِ امْرَأَةٌ كَانَتْ حَسْنَاء جَمِيلَةً وَكَانَ عِنْدَهَا يَتَامَىٰ لَهَا، فَصَبَرَتْ عَلَيْهِ تَبَاوِنْهِ؟ بَلَغَ أَمْرُهُنْ بَلَغُ فَشَكَرُ الله لَهَا ذَٰلِكُ؟ .

ومن آدابها: أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه؛ فقد روي أن الأصمعي قال: دخلت البادية فإذا أنا بأمرأة من أحسن الناس وجها تحت رجل من أقبع الناس وجها، فقلت لها: يا هذه، أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله؟ فقالت: يا هذا، اسكت فقد أسأت في قولك، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه، أو لعلي أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي، أفلا أرضى بما رضي الله لي؟، فأسكتتني. وقال الأصمعي: رأيت في

⁽¹⁾ حديث: اثنا وامرأة سقعاء الخدين كهاتين. . . ؛ الحديث. رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشجعي بسند ضعيف.

حديث: «حرم الله على كل آدمي البجنة أن يدخل قبلي غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرني إلى باب البجنة، رواه
 الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

البادية امرأة عليها قميص أحمر وهي مختضبة وبيدها سبحة، فقلت: ما أبعد هذا من هذا؟ فقالت:

ولله مسندي جمانسب لا أضييعه وليله و منه والبيطالية جمانسب فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تنزين له.

ومن آداب المرأة: ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال. روي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله على: الله تؤذي المرزأة رَوْجَها في الدُنْيَا إلاَّ قَالَتْ رَوْجَها بِنَ المحُورِ العِينِ: لاَ تُؤذِيهِ قَاتَلَكِ اللهُ وَاللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ الله

ومن آدابها: أن ثقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها: فقد روي عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنها قالت: تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه وأعلفه، وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إلي أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني (٣). ولقيني رسول الله على يوما ومعه أصحابه والنوى على رأسي فكأنن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله على من ركوبك معه.

تم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومَنْهِ وصلى الله على كل عبد مصطفى



 ⁽١) حديث معاذ: ولا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه. . . ٤ الحديث. رواه الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه.

 ⁽۲) حديث أم حبيدة: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميث أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» منفق عليه.

 ⁽٣) حديث أسماء: «تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح، فكنت أعلف
فرسه..» الحديث. متفق عليه.

ينسب أنفر الكنب النيتسذ

﴿ كُتَابِ آدابِ الْكسبِ والمعاسَ



وهو الكتاب الثالث من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

نحمد الله حمد موحد انمحق في توحيده ما سوى الواحد الحق وتلاشى، ونمجله تمجيد من يصرح بأن كل شيء ما سوى الله باطل ولا يتحاشى، وأن كل من في السلموات والأرض لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ولا فراشاً، ونشكره إذ رفع السماء لعباده سقفاً مبنياً، ومهد الأرض بساطاً لهم وفراشاً، وكوَّر الليل على النهار فجعل الليل لباساً والنهار معاشاً، لينتشروا في ابتغاء فضله وينتعشوا به عن ضراعة المحاجات انتعاشاً، ونصلي على رسوله الدي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشاً، وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمراً وانكماشاً، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب، جعل الآخرة دار الثواب والعقاب، والدنيا دار التمحل والاضطراب، والتشمر والاكتساب. وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها، والناس ثلاثة: رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهائزين، والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين. ولن ينال رتبة الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد، ولن ينتهم من طلب المعيشة منهج السداد، ولن ينتهض من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة، ما لم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة، وها نحس نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها في خمسة أبواب:

الباب الأول: فضل الكسب والحث عليه.

الباب الثاني: في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات.

الباب الثالث: في بيان العدل في المعاملة.

الباب الرابع: في بيان الإحسان فيها.

الباب الخامس: في شفقة التاجر على نفسه ودينه.

الباب الأول

في فضل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَجَمَلُنَا ٱلنَّهَارُ مَمَاثُ ﴾ [التّبَر: ١١] فذكره في معرض الامتنان. وقال تعالى: ﴿وَجَمَلْنَا لَكُمْ وَيَهَا مَعَنِيْنُ قَلِيلًا مَّا نَشَكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠] فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها. وقال تعالى: ﴿وَيَا مَرُونَ بَسِّرُونَ فِي ٱلأَرْضِ عَلَيْتَكُمْ جُنَاحُ أَن تَنَبَّسُعُوا فَضَالًا بِنَ رَبِّحَكُمُ ﴾ [البَقْرَة: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَا مَرُونَ بَسِّرُونَ فِي ٱلأَرْضِ وَالْبَعُولُ المُولِدُ المُجْمُعَة: ١٠]. وقال تعالى: ﴿فَانْتَصِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَالْبِنُفُولُ مِن فَضَلِ ٱللَّهِ ﴾ [المُجْمُعَة: ١٠].

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ: "مِنَ الذُّنُوبِ ثُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرُهَا إِلاَّ الهَمَّ فِي طَلَبِ المَعِيشَةِه (') وقال عليه الصلاة والسلام: "التَّاجِرُ الصَّدُوقُ يُحْشَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الصَّدُيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ» ('). وقال ﷺ: "مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا السلاة والسلام: "التَّاجِرُ الصَّدُوقُ يُحْشَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الصَّدُيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ» (وقال ﷺ: "مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا البَدُو الْحَدَّ وَكَانَ ﷺ جالساً مع أصحابه فات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى، فقالوا: ويع هذا، لو كان شبامه وجلده في سبيل الله، فقال ﷺ: الآن تَقُولُوا هٰذَا، فَإِنْ إِنْ كَانَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ تَفْسِهِ لِيَكُفُهَا عَنِ المَسْأَلَةِ وَيَعْفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ فَي سَبِيلِ اللهُ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَىٰ عَلَىٰ أَبُويْنِ ضَعِيفَينِ أَوْ ذُرْيَةٍ ضِعَافٍ لِيغَنِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ وَيَكُفِيهُمْ فَي مَنْورِي اللهُ اللهِ اللهُ وَلِي اللهُ ا

كتاب آداب الكسب

الباب الأول: في قضل الكسب والحث عليه

- (١) حديث: (من الفنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة، تقدم في النكام.
- (۲) حليث: «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء؛ أخرجه الترمذي، والحاكم من حديث أبي سعيد قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم: إنه من مراسيل الحسن، ولابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر
- (٣) حديث: قمن طلب الدنيا حلالاً وتعفقاً عن المسألة وسعياً على عياله. . . ؟ الحديث. أحرجه أبو الشيخ في كتاب
 الثواب، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.
- (٤) حديث: «كان ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب ذي جلد وقرة وقد بكر يسعى، فقالوا: وبع هذا، لو
 كان جَلده في سبيل الله. . . » الحديث. أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف.
- حديث: (إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها هن الناس. . . ١ الحديث. لم أجده هكذا، وروى أبو منصور
 الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي: (إن الله يحب أن يرى هبده تمياً في طلب الحلال، وفيه محمد بن سهل .
 العطار. قال الدارقطني: يضع الحديث.
 - (٦) حديث: ﴿إِنَّ اللَّهُ يَحْبُ الْمُؤْمِنُ الْمُحْرَفُ، أَخْرَجُهُ الْطَبْرَانِي وَابْنَ عَدِي وَضَعْفُهُ مَن حديث ابن عمر.
 - (٧) حديث: اأحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرورا أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج، قيل: يا رسول الله، أي الكسب أطبب؟ قال: «عمل الرجل بيده وكل عمل مبرور». ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه. قال الحاكم: صحيح الإسناد، قال: وذكر يحيى بن معين أن عم سعيد: البراء بن عازب، ورواه البيهقي من رواية سعيد بن عمير مرسلاً، وقال: هذا هو المحفوظ، وخطأ قول من قال عن عمه، وحكاه عن البخاري، ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع بن عمير عن خاله أبي بردة، وجميع ضعيف، والله أعلم.

وفي خبر آخر: «أَحَلُ مَا أَكَلَ الْعَبْدُ كَسْبُ يَدِ الصَّائِعِ إِذَا نَصَعَهُ ('). وقال عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بِالتِّجَارَةِ فَإِلَى فِيهَا يِسْعَةَ أَصْشَارِ الرَّرْقِ (''). وروي أَنَ عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال: ما تصنع؟ قال: أتعبَّد. قال: من يعولك؟ قال أخي. قال: أخوك أعبد منك. وقال نبينا ﷺ: اللَّهِ الْأَعْلَمُ شَيْئاً يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الجَنْقِ أَعْلَمُ شَيْئاً يُعَرِّبُكُمْ مِنَ الجَنْقِ وَيُغِيدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلاَّ أَمْرَتُكُمْ بِهِ، وَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ شَيْئاً يُبْعِدُكُمْ مِنَ الجَنْقِ وَيْقَرَبُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلاَّ نَهْدَدُهُمْ مِنَ البَّنَارِ إِلاَّ نَهْيَتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَعْتَ فِي رَوْعِي: إِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَىٰ تَسْتَوفِي وَيْقَرَبُكُمْ مِنَ النَّالِ إِلاَّ نَهْدُوهِ عَلَى الطلب ولم يقل اتركوا الطلب، رُزقَهَا وَإِنْ أَبْطاً عَنْهَا، فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ . أمر بالإجمال في الطلب ولم يقل اتركوا الطلب، ثم قال في آخره: "ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى، فإن الله لا يُنال ما عنده بمعصيته الله تعالى، فان الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى، فإن الله عنده بمعصيته (''). وقال ﷺ: «الأَسْواقُ مَوَائِدُ الله تَعَلَىٰ عَلَىٰ فَهْرِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْتِي رَجُلاً أَصَابُ مِنْهَا اللهِ مَنْ السُوالِ فَتَحَ الله عَلَى فَلْمِ وَعَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْتِي رَجُلاً أَعْطَاهُ الله مِنْ فَضْلِهِ فَيْمَا أَلُهُ أَنْ مَنْعَهُ ('). وقال: «مَنْ فَتَحَ عَلَىٰ فَفْسِهِ بَاباً مِنْ السُّوَالِ فَتَحَ الله عَلَيهِ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ السُّوالِ فَتَحَ الله عَلَيْ اللله الله عَلَيْ عَلْمُ الله الله الله الله الله عَلَيْ اللله الله الله الله الله عَلَيْ الله الله الله الله الله الله عَلَيْ عَلْمُ الله الله الله الله الله الله الله المِنْ الله الله الله الله المَل المُعْلِقُ الله المِنْ الله الله الله المال المؤلفة الله الله المُل الله المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة الله المؤلفة الله المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة المؤلفة

وأما الآثار: فقد قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني: استغن بالكسب الحلال عن الفقر؛ فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الثلاث: استخفاف الناس به، وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه، فقال له عمر رضي الله عنه: أصبت، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم، كما قال صاحبكم أحيجة:

فسلسن أزال عسلسى السزوراء أغسمسرها إنَّ السكسريسم عسلسى الإخسوان ذو السمسالي وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنى لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر

 ⁽۱) حديث: «أحل ما أكل العبد كسب الصائع إذا نصح» رواه أحمد من حديث أبي هريرة: «خير الكسب كسب العامل إذا نصحه وإسناده حسن.

 ⁽۲) حديث: اعليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبدالرحمن: اتسعة أعشار الرزق في التجارة ورجاله ثقات، ونعيم هذا قال فيه ابن منده: ذكر في الصحابة ولا يصح. وقال أبو حاتم الرازي وابن حبان: إنه تابعي فالحديث مرسل.

⁽٣) حديث: ﴿إِنِي لا أَعلَم شَيئاً يبعدكم من البعنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه قإن الروح الأمين نفث في روهي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها. . . > الحديث. رواه ابن أبي الدنيا في القناعة، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهداً لحديث أبي حميد وجابر وصححهما على شرط الشيخين، وهما مختصران، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال: إنه منقطم.

⁽٤) حديث: الأسواق مواقد الله فمن أتاها أصاب منها وويناه في الطيوريات من قول الحسن البصري، ولم أجده مرفوعاً.

 ⁽٥) حديث: الأن يأخذ أحدكم حيله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً... الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٦) حديث: امن فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر، رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري: «ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، أو كلمة نحوها، وقال: حسن صحيح.

آخرته. وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق، أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة؟ قال: التاجر الصدوق أحب إليُّ؛ لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده، وخالفه الحسن البصري في هذا. وقال عمر رضي الله عنه: ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إليَّ من موطن أتسوّق فيه لأهلي أبيع وأشتري. وقال الهيشم: ربما يبلغني عن الرجل يقع فيَّ فأذكر استغنائي عنه فيهون ذلك عليَّ. وقال أيوب: كسب فيه شيء أحب إليَّ من سؤال الناس. وجاءت ريح عاصفة في البحر، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله ـ وكان معهم فيها ـ: أما ترى هذه الشدَّة؟ فقال: ما هذه الشدَّة، وإنما الشدَّة الحاجة إلى الناس!. وقال أيوب: قال لي أبو قلابة: الزم السوق فإنَّ الغني من العافية ـ يعني الغنى عن الناس ـ. وقيل لأحمد: ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللهِ جَعَلَ دِزْقِي تَحْتَ ظِلْ رُمْجِي ۚ (١) وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: «تَغْنُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً (٢٠ . فذكر أنها تغدو في طلب الرزق، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم والقدوة بهم. وقال أبو قلابة لرجل: لأن أراك تطلب معاشك أحب إليٌّ من أن أراك في زاوية المسجد. وروي أن الأوزاعي لڤي إبراهيم بن أدهم رحمهم الله وعلى عنقه حزمة حطب، فقال له: با أبا إسحاق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك، فقال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مدلة في طلب الحلال وجبت له الجنة. وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك؟ ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبُّد. وقال معاذ بن حبل رضي الله عنه: ينادي مناد يوم القيامة: أين بغضاء الله في أرضه؟ فيقوم سؤال المساجد، فهذه مذمة الشرع للسؤال والاتكال على كفاية الأعيار. ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة.

فإن قلت: فقد قال ﷺ: «مَا أُوحِيَ إِلَيَّ أَنِّ اجْمَعِ الْمَالَ وَكُنْ مِنَ النَّاجِرِينَ، وَلَٰكِنْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيكَ الْهَقِينُ، (٧)، وقيل لسلمان الفارسي: أوصنا، فقال: من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غازياً أو عامراً لمسجد ربه فليفعل، ولا يموتن تاجراً ولا خانناً.

فالجواب: أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال؛ فنقول: لسنا تقول التجارة أقضل مطلقاً من كل شيء، ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية، فإن طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا ليصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مذمومة، لأنه إقبال على الدبيا التي حبها رأس كل خطيئة، فإن كان مع ذلك ظالماً خائناً فهو ظلم وفسق، وهذا

⁽١) حديث: قان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي، رواه أحمد من حديث ابن عمر ، اجعل رزقي تحت ظل رمحي، وإسناده صحيح.

 ⁽٣) حديث: ذكر الطير فقال: التغدو خماصاً وتروح بطائاً أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر. قال الترمذي:
 حسن صحيح.

حديث: قما أوحي إلي أن اجمع الممال وكن من التاجرين، ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين،
 رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه لين.

ما أراده سلمان بقوله: لا تمت تاجراً ولا خاتناً، وأراد بالتاجر: طالب الزيادة، فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعفقاً عن السؤال أفضل، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى عن غير سؤال، فالكسب أفضل؛ لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله، ومناد بين الناس بفقره، فالتعفف والتستر أوفى من البطالة، بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل لأربعة: عابد بالعبادات البدنية، أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب في علوم الأحوال والمكاشفات، أو عالم مشتغل بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدث وأمثالهم، أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمورهم كالسلطان والقاضي والشاهد، فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء. فإقبالهم على ما هم يكفون من اشتغالهم بالكسب، ولهذا أوحي إلى رسول الله مجلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ولم يوح إليه أن كن من التاجرين؛ لأنه كان جامعاً لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط الساجدين ولم يوح إليه أن كن من التاجرين؛ لأنه كان جامعاً لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط ذلك يشغله عن المصالح، ولكن يأخذ كفايته من مال المصالح، ورأى ذلك أولى، ثم لما توفي أوصى ذلك يشغله عن المصالح، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح، ورأى ذلك أولى، ثم لما توفي أوصى برده إلى ببت المال، ولكنه رآه في الابتداء أولى، ولهؤلاء الأربعة حالتان أخريان:

إحداهما: أن تكون كفايتهم عند ترك المكسب من أيدي الناس وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال، فترك الكسب والاشتغال بما هم فيه أولى؛ إذ فيه إعانة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم.

الحالة الثانية: الحاجة إلى السؤال، وهذا في محل النظر، والتشديدات التي رويناها في السؤال وذمه تدل ظاهراً على أن التعفف عن السؤال أولى، وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير، بل هو موكول إلى اجتهاد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل ما يلقى في السؤال من المذلة وهتك المروءة والحاجة إلى التثقيل والإلحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره، فرب شخص تكثر فائدة الخلق وفائدته في اشتغاله بالعلم أو العمل، ويهون عليه بأدنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية، وربما يكون بالعكس، وربما يتقابل المطلوب والمحذور، فينبغي أن يستفتى المريد فيه قلبه وإن أفتاه المفتون، فإن الفتاوي لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال، ولقد كان في السلف من له ثلاثمائة وستون صديقاً ينزل على كل واحد منهم ليلة ومنهم من له ثلاثون، وكانوا يشتغلون بالعبادة لعلمهم بأن المتكلفين بهم يتقلدون منة من قبولهم لمبراتهم، فكان قبولهم لمبراتهم خيراً مضافاً لهم إلى عباداتهم، فينبغي أن يدقق النظر في هذه الأمور فإن أجر الآخذ كأجر المعطى مهما كان الآخذ يستعين به على الدين والمعطى يعطيه عن طيب قلب. ومن اطلع على هذه المعاني أمكنه أن يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الأفضل له، بالإضافة إلى حاله ووقته، فهذه فضيلة الكسب، وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعاً لأربعة أمور: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين. ونحر نعقد في كل واحد بابأ، ونبتدىء بذكر أسباب الصحة في الباب الثاني.

الباب الثاني

في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة، وبيان شروط الشّرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع

اعلم: أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب؛ لأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب، ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيتقيها، وما شذ عنه من الفروع المشكلة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملي فلا يدري متى يجب عليه التوقف والسؤال، ولو قال: لا أقدّم العلم ولكني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فعندها أتعلم وأستفتي. فيقال له: وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جمل مفسدات العقود، فإنه يستمرّ في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة، فلا يد له من هذا القدر من علم التجارة ليتميز له المباح عن المحظور، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح، ولذلك روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول: لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه، وإلا أكل الربا شاء أم أبى، وعلم العقود كثير، ولكن هذه العقود ويقول: لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه، وإلا أكل الربا شاء أم أبى، وعلم العقود كثير، ولكن هذه العقود الستة لا تنفك المكاسب عنها: وهي البيع والربا والسلم والإجارة والشركة والقراض، فلنشرح شروطها:

العقد الأول: البيع:

وقد أحله الله تعالى، وله ثلاثة أركان: العاقد، والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: العاقد: ينبغي للناجر أن لا يعامل بالبيع أربعة: الصبي، والمجنون، والعدد، والأعمى؛ لأن الصبي غير مكلف، وكذا المجنون، وبيعهما باطل، فلا يصح بيع الصبي وإن أذن له فيه الولي عند الشافعي، وما أخذه منهما مضمون عليه لهما وما سلمه في المعاملة إليهما فضاع في أيديهما فهو المضبع له. وأما العبد العاقل فلا يصع بيعه وشراؤه إلا بإذن سيده، فعلى البقال والخباز والقصاب وغيرهم أن لا يعاملوا العبيد ما لم تأذن لهم السادة في معاملتهم، وذلك بأن يسمعه صريحاً أو ينتشر في البلد أنه مأذون له في الشراء لسيده وفي البيع له، فيعول على الاستفاضة أو على قول عدل يخبره بذلك، فإن عامله بغير إذن السيد فعقده باطل، وما أخذه منه مضمون عليه لسيده، وما تسلمه إن ضاع في يد العبد لا يتعلق برقبته ولا يضمنه سيده، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق. وأما الأعمى: فإنه يبيع ويشتري ما لا يرى فلا برقبته ولا يضمنه سيده، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق. وأما الأعمى: فإنه يبيع وكبله، فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة، وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته، وما مسلمه إليه أيضاً مضمون له بقيمته. وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه المصحف ولا العد المسلم، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب، فإن فعل فهي معاملات مردودة وهو عاص بها ربه. وأما الجندية من الأثراك والتركمائية والعرب والأكراد والسراق والخونة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يتملك مما في أيديهم والأكراد والسراق والخونة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يتملك مما في أيديهم ويشتاً؛ لأجل أنها حرام، إلا إذا عرف شيئاً بعينه أنه حلال، وسيأتي تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام.

الركن الثاني: في المعقود عليه: وهو المال المقصود نقله من أحد العاقدين إلى الآخر ثمناً كان أو مثمناً فيعتبر فيه سنة شروط: الأول: أن لا يكون نجساً في عينه: فلا يصح بيع كلب وخنزير، ولا بيع زبل وعذرة، ولا بيع الماج والأواني المتخذة منه، فإنّ العظم ينجس بالموت، ولا يطهر الفيل بالذبح، ولا يطهر عظمه بالتذكية، ولا يجوز بيع الخمر، ولا بيع الودك النجس المستخرج من الحيوانات التي لا تؤكل وإن كان يصلح للاستصباح أو طلاء السفن، ولا بأس ببيع الدهن الطاهر في عينه الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه؛ فإنه يجوز الانتفاع به في غير الأكل، وهو في عينه ليس بنجس، وكذلك لا أرى بأسا ببيع بزر القز؛ فإنه أصل حيوان يتفع به، وتشبيهه بالبيض وهو أصل حيوان أولى من تشبيهه بالروث. ويجوز بيع فأرة المسك، ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الظبية في حالة الحياة.

الثاني: أن يكون منتفعاً به: فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفارة ولا الحية، ولا التفات إلى انتفاع المشعبذ بالحية، وكذا لا التفات إلى انتفاع أصحاب الحلق بإخراجها من السلة وعرضها على الناس، ويجوز بيع الهزة والنحل ويبع الفهد والأسد وما يصلح لصيد أو ينتفع بجلده، ويجوز بيع الفيل لأجل الحمل، ويجوز بيع الطوطي وهي البيغاء والطاووس والطيور المليحة الصور وإن كانت لا تؤكل، فإن التفرّج بأصواتها والنظر إليها غرض مقصود مباح، وإنما الكلب هو الذي لا يجوز أن يقتني إعجاباً بصورته لنهي رسول الله يجه عنه (۱). ولا يجوز بيع العود والصنح والمزامير والملاهي؛ فإنه لا منفعة لها شرعاً، وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحيوانات التي تباع في الأعياد للعب الصبيان فإن كسرها واجب شرعاً، وصور الأشجار متسامح بها، وأما الثباب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها وكذا الستور، وقد قال رسول الله ي لعائشة رضي الله عنها: «اتخذي منها نمارق» (۱) ولا يجوز استعمالها متصوبة، ويجوز موضوعة، وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع لذلك الوجه.

الثالث: أن يكون المتصرف فيه مملوكاً للعاقد أو مأذوناً من جهة المالك: ولا يجوز أن يشتري من غير المالك انتظاراً للإذن من المالك، بل لو رضي بعد ذلك وجب استثناف العقد، ولا ينبغي أن يشتري من الزوجة مال الزوجة مال الزوجة، ولا من الوالد مال الولد ولا من الولد مال الوالد اعتماداً على أنه لو عرف لرضي، فإنه إذا لم يكن الرضا متقدماً لم يصح البيع، وأمثال ذلك مما يجري في الأسواق؛ فواجب على العبد المتدين أن يحترز منه.

الرابع: أن يكون المعقود عليه مقدوراً على تسليمه شرعاً وحساً: فما لا يقدر على تسليمه حساً لا يصح ببعه كالآبق، والسمك في الماء، والجنين في البطن، وعسب الفحل، وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان، واللبن في الضرع لا يجوز، فإنه يتعذر تسليمه لاختلاط غير المبيع بالمبيع، والمعجوز عن تسليمه شرعاً كالمرهون والموقوف، والمستولدة فلا يصح بيعها أيضاً، وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيراً، وكذا بيع الولد دون الأم؟ لأن تسليمه تفريق بينهما وحرام، فلا يصح التفريق بينهما بالسع.

الخامس: أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف: أما العلم بالعين فبأن يشير إليه بعينه،

الياب الثاني: في علم الكسب

⁽١) حديث: النهي عن اقتناء الكلب: متفق عليه من حديث ابن عمر: «من اقتنى كلياً إلا كلب ماشية أو ضارباً نقص من عمله كل يوم قيراطان».

 ⁽٧) حديث: التخلي منها نمارق يقوله لعائشة، متفق عليه من حديثها.

فلو قال: بعتك شاة من هذا القطيع أي شاة أردت، أو ثوباً من هذه الثياب التي بين يديك، أو ذراعاً من هذا الكرباس، وخذه من أي جانب شئت، أو عشرة أذرع من هذه الأرض، وخذه من أي طرف شئت، فالبيع باطل، وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون في الدين إلا أن يبيع شائعاً، مثل أن يبيع نصف الشيء أو عشره، فإنّ ذلك جائز، وأما العلم بالقدر فإنما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه، قلو قال: بعتك هذا الثوب بعا باع به فلان ثوبه وهما لا يدريان ذلك فهو باطل، ولو قال: بعتك بزنة هذه الصنجة فهو باطل، إذا لم تكن الصنجة معلومة، ولو قال: بعتك هذه الصبرة من الحنطة فهو باطل. أو قال: بعتك بهذه الصبرة من الدراهم أو بهذه القطعة من الذهب وهو يراها صح البيع وكان تخمينه بالنظر كافياً في معرفة المقدار. وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية في الأعيان، ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته منذ مذة لا يغلب التغير فيها، والوصف لا يقوم مقام الهيان، هذا أحد المذهبين، ولا يجوز ببع الثوب في المنسج اعتماداً على الرقوم، ولا ببع الحنطة في سنبلها، ويجوز بيع الأرز في قشرته التي يدخر فيها، وكذا ببع الجوز واللوز في القشرة السفلى، ولا يجوز في القشرتين، ويجوز بيع الباقلاء يدخر فيها، وكذا ببع الجوز واللوز في القشرة السفلى، ولا يجوز في القشرتين، ويجوز بيع الباقلاء المشراه ليبيعه فالقياس بطلانه؛ لأنه ليس مستتراً ستر خلقة، ولا يبعد أن يتسامح به؛ إذ في إخراجه إفساده المتر بستر خلق معه.

السادس: أن يكون المبيع مقبوضاً إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة: وهذا شرط خاص، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع ما لم يقبض (١). ويستوي فيه العقار والمنقول، فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل، وقبض الممقول بالنقل، وقبض العقار بالتخلية، وقبض ما ابتاعه بشرط الكيل لا يتم إلا بأن يكتاله، وأما بيع الميراث والوصية والوديعة وما لم يكن الملك حاصلاً فيه بمعاوضة، فهو جائز قبل القبض.

الركن الثالث: لفظ العقد: فلا بد من حريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود، مفهم إما صريح أو كناية، فلو قال: أعطيتك هذا بذاك، بدل قوله: بعنك، فقال: قبلته، جاز مهما قصدا به المبع؛ لأنه قد يحتمل الإعارة إذا كان في ثوبين أو دابتين، والنية تدفع الاحتمال، والصريح أقطع للخصومة، ولكن الكناية تفيد الملك أيصاً والحل فيما يختاره، ولا ينبغي أن يقرر بالبيع شرطاً على خلاف مقتضى العقد، فلو شرط أن يزيد شيئاً آخر، وأن يحمل المبيع إلى داره، أو اشترى الحطب بشرط النقل إلى داره، كل ذلك فاسد إلا إذا أفرد استثجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول، ومهما لم يجر بينهما إلا المعاطاة بالفعل دون التلطف باللمان لم ينعقد البيع عند الشافعي أصلاً، وانعقد عند أبي حنيفة إن كان في المحقرات ثم ضبط المحقرات عسير، فإن رد الأمر إلى العادات فقد جاوز الناس المحقرات في المعاطاة؛ إذ يتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوباً ديباجاً قيمته عشرة دنائير مثلاً ويحمله إلى المعاطاة؛ إذ يتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوباً ديباجاً قيمته عشرة دنائير مثلاً ويحمله إلى المشتري ويعود إليه بأنه ارتضاه، فيقول له: خد عشرة، فيأخذ من صاحبه العشرة ويحملها وبسلمها إلى البزاز، فيأخذها ويتصرف فيها، ومشتري الثوب يقطعه ولم يجر بينهما إيجاب وقبول

⁽١) حديث: النهي عن بيع ما لم يقبض، متفق عليه من حديث ابن عباس.

أصلاً، وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت البياع، فيعرض متاعاً قيمته مائة دينار مثلاً فيمن يزيد، فيقول أحدهم: هذا علي بتسعين، ويقول الآخر: هذا علي بخمسة وتسعين، ويقول الآخر: هذا علي بخمسة وتسعين، ويقول الأخر: هذا بمائة، فيقال له: زن، فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول؛ فقد استمرّت مه العادات، وهذه من المعضلات التي ليست تقبل العلاج؛ إذ الاحتمالات ثلاثة:

إما فتح باب المعاطاة مطلقاً في الحقير والنفيس وهو محال؛ إذ فيه نقل الملك من غير لفظ دال عليه، وقد أحل الله البيع، والبيع اسم للإيجاب والقبول، ولم يجر ولم ينطلق اسم البيع على مجرّد فعل بتسليم وتسلم، فبماذا يحكم بانتقال الملك من الجانبين، لا سيما في الجواري والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه؛ إذ للمسلم أن يرجع ويقول: قد ندمت وما بعته؛ إذ لم يصدر مني إلا مجرّد تسليم، وذلك ليس ببيع.

الاحتمال الثاني: أن نسد الباب بالكلية كما قال الشافعي رحمه الله من بطلان العقد، وفيه إشكال من وجهين: أحدهما: أنه يشبه أن يكون ذلك في المحقرات معتاداً في زمن الصحابة، ولو كانوا يتكلفون الإيجاب والقبول من البقال والخباز والقصاب لثقل عليهم فعله، ولنقل ذلك نقلاً منتشراً، ولكان يشتهر وقت الإعراض بالكلية عن تلك العادة؛ فإن الأعصار في مثل هذا تتفاوت. والثاني: أن الناس الآن قد انهمكوا فيه فلا يشتري الإنسان شيئاً من الأطعمة وغيرها إلا ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاطاة، فأي فائدة في تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك.

الاحتمال الثالث: أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قال أبو حنيفة رحمه الله، وعند ذلك يتعسر الضبط في المحقرات، ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه، وقد ذهب ابن سريج إلى تخريج قول للشافعي رحمه الله على وفقه وهو أقرب الاحتمالات إلى الاعتدال، فلا بأس لو ملنًا إليه لمسيس الحاجات، ولعموم ذلك بين الخلق، ولما يغلب على الظن بأن ذلك كان معتاداً في الأعصار الأولى. فأما الجواب عن الإشكالين: فهو أن نقول: أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير، فإنَّ ذلك غير ممكن، بل له طرفان واضحان إذ لا يخفى أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخبز واللحم من المعدود من المحقرات التي لا يعتاد فيها إلا المعاطاة، وطالب الإيجاب والقبول فيه يعد مستقصياً ويستبرد تكليفه لذلك ويستثقل، وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ولا وجه له فهذا طرف الحقارة، والطرف الثاني: الدواب والعبيد والعقارات والثياب النفيسة، فذلك مما لا يستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها؟ وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها هي في محل الشبهة، فحق دي الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشكلة، وأما الثاني؛ وهو طلب سبب لنقل الملك، فهو أن يجعل الفعل باليد أحذاً وتسليماً سبباً لعينه بل لدلالته، وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة في العادة، وانضم إليه مسيس الحاجة وعادة الأوُّلين واطراد جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول مع التصرف فيها، وأي فرق بين أن يكور فيه عوض أوَّ لا يكون؛ إذ الملك لا بد من نقله في الهبة أيضاً، إلا أن العادة السالفة لم تفرق في الهدايا بين الحقير والنفيس، بل كان طلب الإيجاب والقبول يستقبح فيه كيف كان، وفي المبيع لم يستقبح في غير المحقرات هدا ما نراه أعدل الاحتمالات، وحق الورع المتدين أن لا يدع الإيجاب والقنول للخروح عن شبهة الخلاف، فلا ينبغي أن يمتنع من ذلك لأجل أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول؛ فإنَّ ذلك لا يعرف تحقيقاً، فريما اشتراه بقبول وإيجاب، فإن كان حاضراً

عند شرائه أو أقرّ البائع به قيمتنع منه وليشتر من غيره، فإن كان الشيء محقراً وهو إليه محتاج فليتلفظ بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة في المستقبل معه؛ إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن، ومن الفعل ممكن.

فإن قلت: فإن أمكن هذا فيما يشتريه، فكيف يفعل إذا حضر في ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطاة في البيع والشراء أو سمع منهم ذلك أو رآه؟ أيجب عليه الامتناع من الأكل! مأقول: يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذي اشتروه مقداراً نفيساً ولم يكن من المحقرات. وأما الأكل، فلا يجب الامتناع منه، فإني أقول: إن ترددنا في جعل الفعل دلالة على نقل لملك، قلا ينبغي أن لا نجعله دلالة على الإباحة، فإن أمر الإباحة أوسع، وأمر نقل الملك أضيق، فكل مطعوم جرى فيه بيع معاطاة، فتسليم البائع إذن في الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال، كإذن الحمامي هي دخول الحمام، والإذن في الإطعام لمن يريده المشتري فينؤل منزلة ما لو قال: أبحت لك أن تأكل هذا الطعام، أو تطعم من أردت؛ فإنه يحل له، ولو صرح وقال: كُلُّ هذا الطعام ثم أغرم لي عوضه؛ لحل الأكل ويلزمه الضمان بعد الأكل، هذا قياس الفقه عندي، ولكنه بعد المعاطاة آكل ملكه ومتلفأ له فعليه الضمان وذلك في ذمته، والثمن الذي سلمه إن كان مثل قيمته فقد ظفر المستحق بمثل حقه، فله أن يتملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه، وإن كان قادراً على مطالبته فإنه لا يتملك ما ظفر به من ملكه؛ لأنه ربما لا يرضى بتلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه المراجعة. وأما ههنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضاء بأن يستوفي دينه مما يسلم إليه فيأخذه بحقه، لكن على كل الأحوال جانب البائع أغمض؛ لأن ما أخذه قد يريد المالك ليتصرف فيه، ولا يمكنه التملك إلا إذا أتلف عين طعامه في يد المشتري، ثم ربما يفتقر إلى استثناف قصد التملك، ثم يكون قد تملك بمجرّد رضا استفاده من الفعل دون القول. وأما جانب المشتري للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فهين؛ فإنَّ ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال، ولكن رسما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ما أتلفه، وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ما أخذه من المشتري فيسقط، فيكون كالقاضي دينه والمتحمل عنه، فهذا ما نراه في قاعدة المعاطاة عَلَى غموضها، والعلم عند الله، وهذه احتمالات وظنون رددناها، ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون. وأما الورع فإنه ينبغي أن يستفتي قلبه ويتقي مواضع الشبه.

العقد الثاني: عقد الربا:

وقد حرّمه الله تعالى وشدّد الأمر فيه، ويجب الاحتراز منه على الصيارفة المتعاملين على النقدين، وعلى المتعاملين على الأطعمة؛ إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام. وعلى الصيرفي أن يحترز من النسيئة والفضل، أما النسيئة: فأن لا يبيع شيئاً من حواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلا يداً بيد، وهو أن يحري التقابض في المحلس، وهذا احتراز من النسيئة، وتسليم الصيارفة الذهب إلى دار الضرب وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء، ومن حيث إن الغالب أن يجري فيه تفاضل؛ إذ لا يرد المضروب بمثل وزنه، وأما الفضل: فيحترز منه في ثلاثة أمور: في بيع المكسر بالصحيح: فلا تجوز المعاملة فيهما إلا مع المماثلة، وفي بيع الجيد بالرديء: فلا ينبغي أن يشتري رديئاً بجيد دونه في الوزن، أو يبيع رديئاً بجيد فوقه في الوزن، أوغي: إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة، فإن اختلف

الجنسان فلا حرج في الفضل. والثالث في المركبات من الذهب والفضة: كالدنانير المخلوطة من الذهب والفضة، إن كان مقدار الذهب مجهولاً لم تصح المعاملة عليها أصلاً، إلا إذا كان ذلك نقداً جارياً في البلد، فإنا نرخص في المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد. وكذا الدراهم المغشوشة بالنحاس إن لم تكن رائجة في البلد لم تصح المعاملة عليها؛ لأن المقصود منها النقرة وهي مجهولة، وإن كان نقداً رائجاً في البلد رخصنا في المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها، ولكن لا يقابل بالنقرة أصلاً، وكذلك كل حلي مركب من ذهب وفضة فلا يجوز شراؤه لا بالذهب ولا بالفضة، بل ينبغي أن يشترى بمتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوماً، إلا إذا كان مموهاً بالذهب تمويهاً لا يحصل منه ذهب مقصود عند العرص على النار، فيجوز بيعها بمثلها من النقرة بما أريد من غير النقرة.

وكذلك لا يجوز للصيرفي أن يشتري قلادة فيها خرز وذهب بذهب، ولا أن يبيعه، بل بالفضة يدأ بيد إن لم يكن فيها فضة، ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار بذهب، ويجوز بالفضة غيرها، وأما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقابض في المجلس، اختلف جنس الطعام المبيع والمشترى أو لم يختلف؛ فإن اتحد الجنس فعليهم التقابض ومراعاة المماثلة، والمعتاد في هذا معاملة القصّاب بأن يسلم إليه الغنم ويشتري بها اللحم نقداً أو نسيئة فهو حرام، ومعاملة الخباز بأن يسلم إليه الحنوز نسيئة أو نقداً فهو حرام، ومعاملة العصار بأن يسلم إليه المنوز نسيئة أو نقداً فهو حرام، ومعاملة العصار البين يسلم إليه البين فهو أيضاً حرام، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقداً، البين والسمن والزيد وسائر أجزاء اللبن فهو أيضاً حرام، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقداً، وبجنسه إلا نقداً ومتماثلاً، وكل ما يتخذ من الشيء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متماثلاً ولا متفاضلاً، فلا يباع بالحنطة دقيق وخبز وسويق، ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير، ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن، والمماثلة لا تفيد إذا لم يكن الطعام في حال كمال الادخار، فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلاً ومتماثلاً، فهذه جمل مقنعة في تعريف البيع والتنبيه على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد حتى يستفتي فيها إذا تشكك والتبس عليه شيء منها، وإذا لم يعرف هذا لم يتغطن المواضع السؤال، واقتحم الربا والحرام وهو لا يدري.

العقد الثالث: السلم.

وليراع التاجر فيه عشرة شروط:

الأول: أن يكون رأس المال معلوماً على مثله حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال، فإن أسلم كفاً من اللراهم جزافاً في كرّ حنطة لم يصح في أحد القولين.

الثاني: أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفرّق فلو تفرّقا قبل القبض انفسخ السلم.

المثالث: أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه كالحبوب والحيوانات والمعادن والقطن والصوف والإبريسم والألبان واللحوم ومتاع العطارين وأشباهها، ولا يجوز في المعجونات والمركبات وما تختلف أجزاؤه، كالقسي المنوعة والنبل المعمول، والخفاف والنعال المختلفة أحزاؤها وصنعتها وجلود الحيوانات. ويجوز السلم في الخبز، وما يتطرق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعفى عنه ويتسامح فيه،

الرابع: أن يستقصي وصف هذه الأمور القابلة للوصف؛ حتى لا يبقى وصف تتفاوت به القيمة

تفاوتاً لا يتغابن بمثله الناس إلا ذكره، فإن ذلك الموصف هو القائم مقام الرؤية في البيع.

المخامس: أن يجعل الأجل معلوماً إن كان مؤجلاً فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار، بل إلى الأشهر والأيام فإنّ الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر.

السادس: أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت المحل ويؤمن فيه وجوده غالباً. فلا ينبغي أن يسلم في العنب إلى أجل لا يدرك فيه، وكذا سائر الفواكه. فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل وعجز عن التسليم بسبب آفة؛ فله أن يمهله إن شاء، أو يفسخ ويرجع في رأس المال إن شاء.

السابع: أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به؛ كي لا يثير ذلك نزاعاً.

الثامن: أن لا يعلقه بمعين فيقول: من حنطة هذا الزرع، أو ثمرة هذا البستان؛ فإن ذلك يبطل كونه ديناً. نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة، لم يضر ذلك.

التاسع: أن لا يسلم في شيء نفيس عزيز الوجود مثل درة موصوفة يعز وحود مثلها، أو جارية حسناء معها ولدها، أو غير ذلك مما لا يقدر عليه غالباً.

العاشر: أن لا يسلم في طعام مهما كان رأس المال طعاماً سواء كان من جنسه أو لم يكن، ولا يسلم في نقد إذا كان رأس المال نقداً، وقد ذكرنا هذا في الربا.

العقد الرابع: الإجارة:

وله ركنان: الأجرة والمنفعة. فأما العاقد واللفظ: فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع والأجرة كالثمن، فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً بكل ما شرطناه في المبيع إن كان عيناً، فإن كان ديناً فينبغي أن يكون معلوم الصفة والقدر، وليحترز فيه عن أمور جرت العادة بها، وذلك مثل كراء الدار بعمارتها فذلك باطل؛ إذ قدر العمارة مجهول. ولو قدر دراهم وشرط على المكتري أن يصرفها إلى العمارة لم يجز؛ لأن عمله في الصرف إلى العمارة مجهول. ومنها استئجار السلاخ على أن بأخذ الجلد بعد السلخ، واستثجار حمال الجيف بجلد الجيفة، واستئجار الطحان بالنخالة أو ببعض الدقيق فهو باطل، وكذلك كل ما يتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير، فلا يجوز أن يجعل أجرة. ومنها: أن يقدر في إجارة الدور والحوانيت مبلغ الأجر، فلو قال: لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة؛ كانت المدة مجهولة ولم تنعقد الإجارة.

الركن الثاني: المنفعة المقصودة بالإجارة وهي العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير، فيجوز الاستئجار عليه. وجملة فروع الباب تندرج تحت هذه درابطة، ولكنا لا نطول بشرحها فقد طوّلنا القول فيها في الفقهيات، وإنما نشير إلى ما تعم به البلوى، فليراع في العمل المستأجر عليه حمسة أمور:

الأول: أن يكون متقوماً: بأن يكون فيه كلفة وتعب، فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان، أو أشجاراً ليجفف عليها الثياب، أو دراهم ليزين بها الدكان، لم يجز. فإن هذه المنافع تجري مجرى حبة سمسم وحبة بر من الأعيان وذلك لا يجوز بيعه، وهي كالنظر في مرآة الغير، والشرب من بثره، والاستظلال بجداره، والاقتباس من ناره، ولهذا لو استأجر بياعاً على أن يتكلم بكلمة يروج بها سلعته لم يجز. وما يأخذه البياعون عوضاً عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم في ترويج السلع فهو حرام؛ إذ ليس يصدر منهم إلا كلمة لا تعب فيها ولا قيمة لها، وإنما يحل لهم ذلك إذا تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة

الكلام في تأليف أمر المعاملة، ثم لا يستحقون إلا أجرة المثل، فأما ما تواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس. مأخوذاً بالحق.

الثاني: أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة: فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاقه، ولا إجارة المواشي للبنها، ولا إجارة المواشي للبنها، ولا إجارة البساتين لثمارها، ويجوز استئجار المرضعة ويكون اللبن تابعاً؛ لأن إفراده غير ممكن. وكذا يتسامح بحبر الورق وخيط الخياط لأنهما لا يقصدان على حيالهما.

الثالث: أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حساً وشرعاً: فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه، ولا استئجار الأخرس على التعليم ونحوه، وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه؛ كالاستئجار على قلع سن سليمة، أو قطع عضو لا يرخص الشرع في قطعه، أو استئجار الحائض على كنس المسجد، أو المعلم على تعليم السحر أو الفحش، أو استئجار زوجة الغير على الإرضاع دون إذن زوجها، أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات، أو استئجار الصائغ على صيغة الأواني من الدهب والفضة فكل ذلك باطل.

الرابع: أن لا يكون العمل واجباً على الأجير، أو لا يكون بحيث لا تجري النيابة فيه عن المستأجر: فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا سائر العبادات التي لا نيابة فيها؛ إذ لا يقع ذلك عن المستأجر، ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموتى وحمل الجنائز. وفي أخذ الأجرة على إمامة صلاة التراويح وعلى الأذان، وعلى التصدي للتدريس وإقراء القرآن خلاف. أما الاستئجار على تعليم مسألة بعينها أو تعليم سورة بعينها لشخص معين فصحيح.

المخامس: أن يكون العمل والمنفعة معلوماً: فالخياط يعرف عمله بالثوب، والمعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها، وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة. وكل ما يثير خصومة في العادة فلا يجوز إهماله، وتفصيل ذلك يطول، وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواقع الإشكال، فيسأل؛ فإن الاستقصاء شأن المفتي لا شأن العوام.

العقد الخامس: القراض:

وليراع فيه ثلاثة أركان:

الركن الأول: رأس "المال: وشرطه أن يكون نقداً معلوماً مسلماً إلى العامل؛ فلا يجوز القراض على الفلوس ولا على العروض؛ فإنّ التجارة تضيق فيه. ولا يجوز على صرة من الدراهم، لأن قدر الربح لا يتبين فيه، ولو شرط مالك اليد لنفسه لم يجز، لأنّ فيه تضييق طريق التجارة.

الركن الثاني: الربح: وليكن معلوماً بالجزئية؛ بأن يشرط له الثلث أو النصف أو ما شاء، فلو قال: عليٌّ أن لك من الربح مائة والباقي لي، لم يجز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة، فلا يجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع.

الثالث: العمل الذي على العامل: وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقة عليه بتعيين وتأقيت، فلو شرط أن يشتري بالمال ماشية ليطلب نسلها فيتقاسمان النسل، أو حنطة فيخبزها ويتقاسمان الربح لم يصح؛ لأنّ القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء، وما يقع من ضرورتهما فقط، وهذا حرف - أعيى الخبز ورعاية المواشي ـ ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشتري إلا من فلان أو لا يتجر إلا في الخز الأحمر، أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد، ثم مهما انعقد فالعامل وكيل فيتصرف بالغبطة تصرف الوكلاء، ومهما أراد المالك الفسخ فله ذلك، فإذا فسخ في حالة والمال كله فيها نقد لم يخف وجه القسمة، وإن كان عروضاً ولا ربع فيه رد عليه ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده إلى النقد، لأن العقد قد انفسخ وهو لم يلتزم شيئاً، وإن قال العامل: أبيعه، وأبى المالك، فالمتبوع رأي المالك، إلا وجد العامل زبوناً يظهر بسببه ربح على رأس المال، ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بجنس رأس المال لا بنقد آخر، حتى يتميز الفاضل ربحاً فيشتركان فيه، وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال، ومهما كان رأس المال الا بنقد آخر، حتى يتميز الفاضل وأنه يملك الربح بالظهور، وليس للعامل أن الربح شيء فالأقيس أن زكاة نصيب العامل على العامل، وأنه يملك الربح بالظهور، وليس للعامل أن يسافر بمال القراض دون إذن المالك، فإن فعل صحت تصرفاته، ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأثمان مال القراض، كما أن نفقة الوزن والكيل والحمل الذي لا يعتاد التاجر مثله على رأس المال، فأما نشر جعيعاً؛ لأن عدوانه بالنقل يتعدّى إلى المعد فليس له أن يبذل عليه أجرة. وعلى العامل نفقته في السفر على مال القراض، فإذا وليس عليه أجرة الحانوت. ومهما تجرد في السفر لمال القراض فنفقته في السفر على مال القراض، فإذا رجع فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المعلهرة والسفرة وغيرهما.

العقد السادس: الشركة.

وهي أربعة أنواع: ثلاثة منها باطلة.

الأول: شركة المفاوضة: وهو أن يقولا: تفاوضنا لنشترك في كل مالنا وما علينا ومالاهما معتازان، فهي باطلة.

الثاني: شركة الأبدان: وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل فهي باطلة.

الثالث: شركة الوجوه: وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول فيكون من جهته التنفيل ومن جهة غيره العمل، فهذا أيضاً باطل، وإنما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان؛ وهو أن يختلط مالاهما بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمه، ويأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف، ثم حكمهما توزيع الربح والخسران على قدر المالين، ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط، ثم بالعزل يمتنع التصرف عن المعزول، ويالقسمة ينفصل الملك عن الملك، والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العروض المشتراة، ولا يشترط النقد، بخلاف القراض.

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب، وإلا اقتحم الحرام من حيث لا يدري. وأما معاملة القصّاب والخبّاز والبقّال فلا يستغني عنها المكتسب وغير المكتسب، والخلل فيها من ثلاثة وجوه: من إهمال شروط البيع، أو إهمال شروط السلم، أو الاقتصار على المعاطاة؛ إذ العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء بحاجات كل يوم، ثم المحاسبة في كل مدّة. ثم التقويم بحسب ما يقع عليه التراضي، وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة، ويحمل تسليمهم على إباحة التناول مع انتظار العوض فيحل أكله، ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الإتلاف، فتجتمع في الذمة تلك القيم، فإذا وقع التراضي على مقدار ما فينبغي أن يلتمس منهم الإبراء المطلق؛ حتى لا تبقى عليه عهدة إن تطرّق إليه التراضي على مقدار ما فينبغي أن يلتمس منهم الإبراء المطلق؛ حتى لا تبقى عليه عهدة إن تطرّق إليه

تفاوت في التقويم، فهذا ما تجب القناعة به، فإنَّ تكليف وزن الثمن لكل حاجة من الحوائج في كل يوم وكل ساعة تكليف شطط، وكذا تكليف الإيجاب والقبول وتقدير ثمن كل قدر يسير منه فيه عسر، وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه، والله الموفق.

* * *

الباب الثالث

في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم: أنّ المعاملة قد تجري على وجه يحكم المفتي بصحتها وانعقادها ولكنها تشتمل على ظلم يتعرّض به المعامل لسخط الله تعالى؛ إذ ليس كل نهي يقتضي فساد العقد، وهذا الظلم يعني به ما استضر به الغير، وهو منقسم إلى ما يعم ضرره وإلى ما يخص المعامل.

القسم الأول: فيما يعم ضرره. وهو أنواع:

النوع الأول: الاحتكار؛ فباتع الطعام يذخر الطعام ينتظر به خلاء الأسعار، وهو ظلم عام، وصاحبه مذموم في الشرع. قال رسول الله على اختكر الطعام أرْبَعِينَ يَوْما ثُمَّ تَصَلَّقَ بِهِ لَمْ تَكُنْ صَدَقْتُهُ كَفَّارَةُ لاَحْتِكارِهِ (١). وروى ابن عمر عنه على أنه قال: «مَنِ احْتَكُر الطُعَامُ أَرْبَعِينَ يَوْما فَقَدْ بَرِىءَ مِنَ الله وَبَرِىءَ الله مِنْهُ وَبَا وقيل: «فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً»، وعن علي رضي الله عنه: من احتكر الطعام أربعين يوما قسا قلبه. وعنه أيضاً أنه أحرق طعام محتكر بالنار، وروي في فضل توك الاحتكار عنه يَلِهُ «مَنْ جَلَبَ طَعَاماً فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ فَكَأَنَّما تُصَدِّقُ بِهِ». وفي لفظ آخر: «فَكَأَنَما أَعْتَقَ رَقَبَةً» (٣). عنه يَلِهِ «مَنْ جَلَبَ طَعَاماً فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ فَكَأَنَما تُصَدِّقُ بِهِ». وفي لفظ آخر: «فَكَأَنَما أَعْتَقَ رَقَبَةً» (٣). وقيل في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُردِّ فِيهِ بِإِلْحَسَامِ يُظُلُم يُؤُقِهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ السَحَجَ: ١٥ إنَّ الاحتكار من الظلم وداخل تحته في الوعيد.

وعن بعض السلف: أنه كان بواسط فجهز سفينة حنطة إلى البصرة وكتب إلى وكبله: بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد، فوافق سعة في السعر فقال له التجار: لو أخرته جمعة ربحت فيه أشعافه، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحب بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام:

الباب الثالث: في بيان العدل

 ⁽١) حديث: قمن احتكر الطعام أربعين يوماً ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة الاحتكاره رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي، والخطيب في التاريخ من حديث أنس بسندين ضعيفين.

 ⁽۲) حدیث ابن عمر، همن احتکر الطعام أربعین بوماً فقد بریء من الله وبریء الله منه», رواه أحمد والحاكم بسند جید،
 وقال ابن عدي: لیس بمحفوظ من حدیث ابن عمر.

⁽٣) حديث: امن جلب طعاماً قباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به اوني لفظ آخر: افكأنما أعتق رقبة أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف: «ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد» وللحاكم من حديث اليسع بن المغيرة: «إن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سييل الله وهو مرسل.

يا هذا، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين فقد جنيت علينا جناية، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدَّق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لا عليَّ ولا لي. واعلم: أن النهي مطلق ويتعلق النظر به في الوقت والجنس. أما الجنس فيطرد النهي في أجناس الأقوات، أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله، فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوماً. وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسدّ مسدّاً يغني عن القوت في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه، فهذا في محل النظر؛ فمن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه. وأما الوقث فيحتمل أيضاً طرد النهي في جميع الأوقات، وعليه تدلُّ الحكاية التي ذكرناها في الطعام الذي صادف بالبصرة سعة في السعر، ويحتمل أنَّ يخصص بوقت قلة الأطعمة وحاجة الناس إلبُّه حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما، ۖ فأما إذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بفيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطاً، فليس في هذا إضرار. وإذا كان الزمان زمان قحط كان في ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثالها إضرار، فينبغي أن يقضى بتحريمه ويعوّل في نفي التحريم وإثباته على الضرار، فإنه مفهوم قطّعاً من تخصيص الطعام، وإذا لم يكن ضرار فلا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية، فإنه ينتظر مبادىء الضرار وهو ارتفاع الأسعار، وانتظار مبادىء الضرار محذور كانتظار عين الضرار ولكنه دونه، وانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الإضرار، فبقدر درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم.

وبالجملة: التجارة في الأقوات مما لا يستحب لأنه طلب ربح، والأقوات أصول خلقت قواماً، والربح من المزايا، فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التي لا ضرورة للخلق إليها، ولذلك أوصى بعض التابعين رجلاً وقال: لا تسلم ولدك في بيعتين ولا في صنعتين: بيع الطعام، وبيع الأكفان؛ فإنه يتمنى الغلاء وموت الناس. والصنعتان: أن يكون جزاراً فإنها صنعة تقسي القلب، أو صوّاغاً فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة.

النوع الثاني: ترويج الزيف من اللراهم في أثناء النقد فهو ظلم؛ إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسيروجه على غيره، فكذلك الثالث والرابع، ولا يزال يتردد في الأيدي ويعم الضرد ويتسع الفساد ويكون وزر الكل ووباله راجعاً عليه، فإنه هو الذي فتح هذا الباب، قال رسول الله على: فمَنْ سَنَّ سَيْنَةً سَيْنَةً فَعَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ صَلَيهِ وِزْرُهَا وَمِثْلُ وِزْرِ مَنْ صَمِلَ بِهَا لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءً الله سَنَّةً سَيْنَةً فَعَمِلَ بِهَا مَنْ بَعْدَهُ كَانَ صَلَيهِ وِزْرُهَا وَمِثْلُ وِزْرِ مَنْ صَمِلَ بِهَا لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءً الله وقال بعضهم: إنفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم؛ لأنّ السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقضت، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين، وسة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة، أو مائتي سنة. . إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد من أموال الناس بسنته، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذبوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة الناس بسنته، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذبوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره، ويُسأل عنها إلى آخر انقراضها، قال تعالى: ﴿ وَنَكَتُنُ مَا مَلَاهُ وَلهُ وَلهُ وَالنَّرُومُ مَن آثار أعمالهم كما نكتب ما قدّموه، وفي مثله قوله ومائتي سنة أو أكثر يعذب أيضاً ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدّموه، وفي مثله قوله

⁽١) حديث: امن سنّ سنّة سبئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ووزر من همل بها لا ينقص من أوزارهم شيءة أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبدائه.

تعالى: ﴿ يَكُوُّا الْإِمَنُ يَوْمَهِمْ بِمَا قَدَّمَ وَأَمَرَ ﴿ ﴾ [القِيَانَة: ١٣] وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره. وليعلم أن في الزيف خمسة أمور:

الأول: أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بثر بحيث لا تمتد إليه اليد، وإياه أن يروّجه في بيع آخر. وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز.

الثاني: أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا ليستقصي لنفسه، ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفاً وهو لا يدري؛ فيكون آثماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم. فلكل عمل علم به يتم نصح المسلمين فيجب تحصيله. ولمثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد ظاهراً لدينهم لا لدنياهم.

الثالث: أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم؛ لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولا يخبره، ولو لم يعزم على ذلك لكان لا يرغب في أخذه أصلاً. فإنما يتخلص من إثم الضرر الذي يخص معامله فقط.

الرابع: أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله ﷺ: «رَحِمَ الله الْمَرَأُ سَهْلَ البَّيْعِ سَهْلَ الشَّرَاءِ سَهْلَ القَضَاءِ سَهْلَ الاقْتِضَاءِ" () فهو داخل في بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه في بثر. وإن كان عازماً على أن يروّجه في معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه في معرض الخير، فلا يدخل تحت من تساهل في الاقتضاء.

المخامس: أن الزيف نعني به ما لا نقرة فيه أصلاً بل هو معوّه، أو ما لا ذهب فيه أعني في الدنانير، أما فيه نقرة فإن كان مخلوطاً بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء في المعاملة عليه، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم. وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجز إلا إذا علم قدر النقرة، فإن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله، وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويج في جملة النقد بطريق التلبيس، فأما من يستحل دلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمراً، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه، وسلوك طريق الحق بمثال هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها، ولذلك قال بعضهم: التاحر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد. وقد كان السلف يحتاطون في مثل ذلك، حتى روي عن بعض الغزاة في سبيل الله أنه قال: حملت على فرسي لأقتل علجاً، فقصر بي فرسي فرجعت، ثم دنا مني العلج فحملت ثانية فقصر فرسي فرجعت، ثم دنا مني العلج فحملت ثانية منكس الرأس منكسر القلب لما فاتني من العلج وما ظهر لي من خلق الفرس، فوضعت رأسي على عمود فقصر فرسي قائم، فرأيت في النوم كأن الفرس يخاطبني ويقول لي: بالله عليك أردت أن تأخذ على العلج فرات وأنت بالأمس اشتريت لي علفاً ودفعت في ثمنه درهما زائفاً، لا يكون هذا أبداً. قال: فانتبهت فرعاً فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم، فهذا مثال ما يعم ضرره وليقس عليه أمثاله.

القسم الثاني: ما يخص ضرره المعامل:

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم، وإنما العدل أن لا يضر بأخيه المسلم، والضابط الكلي فيه: أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه؛ فكل ما لو عومل به شقّ عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به، بل ينبغي أن يستوي عنده درهمه ودرهم غيره، قال بعضهم: من باع أخاه شيئاً بدرهم وليس

⁽١) حديث ا فرحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء؛ أخرجه البخاري من حديث جابر.

يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوائق فإنه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ هذه جملته.

فأما تفصيله ففي أربعة أمور: أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً أصلاً، وأن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئاً، وأن لا يكتم من سعوها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه.

أما الأوَّل: فهو ترك الثناء؛ فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذباً، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة؛ إذ الكذب الذي يروّج قد لا يقدح في ظاهر المروءة، وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه، وهو محاسبٌ علَى كل كلمة تصدر منه أنه لِمَ تكلم بها. قال الله تعالى: ﴿نَا يَلْفِظُ مِن فَوْلِ إِلَّا لَدَبِّهِ وَفِيُّ غَيْدٌ ﴾ [ق: ١٨] إلا أن يثني على السلعة بما فيها مما لا يعرفه المشتري ما لم يذكّره، كما يصفه من خفي أخلاق العبيد والجواري والدواب، فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه وتنقضي بسببه حاجته، ولا ينبغي أن يحلف عليه البتة؛ فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع، وإن كان صادقاً فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه، وقد أساء فيه؛ إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة، وفي الخبر: ﴿ وَيُلِّ لِلتَّاجِرِ مِنْ: بَلَىٰ وَاللهَ وَلاَ وَاللهَ، وَوَيْلٌ لِلصَّانِعِ مِنْ غَدٍ وَبَعْد غَدٍ ا^(۱) وفي الخبر: ﴿ النّيَمِينُ الكَاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ (^(۱). وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: الْمَلَاثَةُ لاَ يَنْظُرُ الله إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: هُتُلٌ مُسْتَكْبِرُ، وَمَثَانَ بِعَطِيَئِهِ، وَمُثْفِقٌ سِلْعَتَهُ بيَمِينِهِ^(٣)، فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروهاً من حيث إنه فضول لا يزيد في الرزق فلا يخفي التغليظ في أمر اليمين، وقد روي عن يونس بن عبيد وكان خزازاً: أنه طَلِبٌ منه خز للشراء، فأخرج غلامه سقط الخز ونشره ونطر إليه وقال: اللهم ارزقنا الجنة، فقال لغلامه: رده إلى موضعه ولم يبعه، وخاف أن يكون ذلك تعريضاً بالثناء على السلعة، فمثل هؤلاء هم الذين اتجروا في الدنيا ولم يضيعوا دينهم في تجاراتهم، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا.

الثاني: أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئاً، فذلك واجب. فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً والغش حرام، وكان تاركاً للنصح في المعاملة والنصح واجب، ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشاً، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة، وكذلك إذا

 ⁽١) حديث: «ويل للتاجر من بلي والله ولا والله، وويل للصانع من خد وبعد خد» لم أنف له على أصل، وذكر صاحب
مسند الفردوس من حديث أنس بغير إسناد نحوه.

 ⁽٢) حديث: «اليمين الكاذبة منفقة للسلمة ممحقة للبركة» منفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «الحلف» وهو عند البيهقي بلفظ المصنف.

⁽٣) حديث أبي هريرة: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: هائل مستكبر، ومنان بعطيته ومنفق سلعته بيمينه اخرجه مسلم من حديث إلا أنه لم يذكر فيها إلا: عائل مستكبر، ولهما: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم: وجل حلف على سلمة لقد أعطي فيها أكثر مما أعطي وهو كاذب...» الحديث. ولمسلم من حديث أبي ذر: «الممنان» والمسبل إزاره، والمنفق سلمته بالحلف الكاذب».

عرض أحسن قردي الخف أو النعل وأمثاله، ويدل على تحريم الغش ما روي: أنه مرّ عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاماً فأعجبه، فأدخل يده فيه فرأى بللاً، فقال: فما هَفَا؟ قال: أصابته السماء، فقال: فهَهُلا جَعَلْتُهُ فَوْقَ الطَّمَامِ حَتَّىٰ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ خَشْنا فَلْيَسَ مِنَاه (١٠). ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روي أن النبي على لما بايع جريراً على الإسلام ذهب لينصرف فجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم (٢٠)، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره وقال: إن شتت فخذ وإن ششت فاترك، فقبل له: إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع، فقال: إنا بايعنا وسول الله على النصح لكل مسلم. وكان واثلة بن الأسقع واقفاً فباع رجل ناقة له بثلاثمائة درهم، فقال: بل للظهر، فقال: إن بخفها نقباً قد رأيته، وإنها لا تتابع السير، فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم وقال لواثلة: رحمك الله أفسدت علي بيعي، فقال: إنا بايعنا رسول الله يَشِعُ على النصح لكل مسلم، وقال واثلة ترسول الله يَشِعُ يقول: ﴿ لا يَعِيلُ لا تَتابع السير، فعاد فردها فنقصها البائع مائة مسلم، وقال الواثلة: رحمك الله أفسدت علي بيعي، فقال: إنا بايعنا رسول الله يَشِعُ على النصح لكل مسلم، وقال الواثلة: رحمك الله أفسدت على النصح لكل نقلك من الفضائل وزيادة المقامات، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم، وهذا أم يشتى على أكثر الخلق، فلذلك يختارون التخلي للعبادة والاعتزال عن الناس؛ لأن القيام بحقوق الله مع يشتى على أكثر الخلق، فلذلك يوم بها إلا الصديقون، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين:

أحدهما: أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه، بل يمحقه ويذهب ببركته، وما يجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة، فقد حكي أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه، فجاء سيل فغرق البقرة، فقال بعض أولاده: إن تلك المياه المتفرقة التي صبناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة. كيف وقد قال على: «البّيتمانِ إِذَا صَدَقًا وَنَصَحًا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْمِهِمَا» وَإِذَا كُتُمَا وَكُنْبًا نُزِعَتْ بَرَكَةً بَيْمِهِمَا» (٤) وفي الحديث: «بد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع بده عنهما» (٥) فإذاً: لا يزيد مال من خيانة، كما لا ينقص من صدقة، ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث. ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سبباً لسعادة الإنسان في الدنيا والدين، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سبباً لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله، قيعرف معنى قولنا: إن الخيانة لا تزيد في المال، والصدقة لا تنقص منه.

 ⁽١) حديث: مرّ برجل يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فرأى بللاً فقال: «ما هذا. . .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

⁽٢) حديث جرير من عبدالله: ﴿بايمنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم؛. متفق عليه.

 ⁽٣) حديث واثلة الا يحل لأحد يبيع بيماً إلا بين ما فيه، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا بينه، أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، والبيهتي.

 ⁽٤) حديث: «البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما...» الحديث متفق عليه من حديث حكيم بن حزام.

 ⁽٥) حديث: ابد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع بدء عنهما ورواه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد.

والمعنى الثاني؛ الذي لا بد من اعتقاده ليتم له النصح ويتبسر عليه: أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها؛ فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كله في سلامة الدين، قال رسول الله ﷺ: ﴿ لاَ تَزَالُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ تَدْفَعُ عَنِ الخَلْقِ سَخَطَ الله مَا لَمْ يُؤْيُرُوا صَفَقَةُ دُنْيَاهُمْ عَلَىٰ آخِرَتِهِمْ (`` ، وفي لفظ آخر: ` (مَا لَمْ يُبَالُوا مَّا نَقَصَ مِنْ دُنْيَاهُمْ بِسَلَامَةِ دِينُهِمْ، قَإِذَا فَعَلُوا ذَٰلِكِ وَقَالُوا: لاَ إِلْهُ أَلِا الله ، قَالَ الله تَمَالَىٰ: كَذَبْتُمْ لَسْتُمْ بِهَا صَادِقِينَه، وهٰيَ حديث آخُر إِمَنَ قَالَ: لاَ إِلْهَ إِلاَّ الله مُخْلِصاً دَخَلَ الجَيِّةَ». قيل: وما إخلاصه؟ قال: «أَنْ يُحْرِزَهُ غَمًّا حَرُّمَ الله" (وقال أيضاً: «مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنْ اسْتَحَلُّ مَحَارِمَهُ"، ومن علم أن هذه الأمور قادحة في إيمانه، وأن إيمانه رأس ماله في الآخرة لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياماً معدودة. وعن بعض التابعين أنه قال: لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله وقيل لي: من خير هؤلاء؟ لقلت: من أنصحهم لهم؟ فإذا قيل: هذا، قلت: هو خيرهم. ولو قيل لي: من شرهم؟ قلت: من أغشهم لهم؟ فإذا قيل: هذا، قلت: هو شرهم، والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً، ولا ينبغي أن يتهاون الصائع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب، فبذلك يتخلص. وسأل رجل حداء بن سالم فقال: كيف لي أن أسلم في بيع النعال؟ فقال: اجعل الوجهين سواء، ولا تفضل اليمني على الأخرى، وجوِّد الحشو، وليكن شيئاً واحداً تاماً، وقارب بين الخرز، ولا تطبق إحدى النعلين على الأخرى. ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين، قال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع.

فإن قلت: فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع، فأقول: ليس كذلك؛ إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يقتع في بيعه بربح يسير، فيبارك الله له فيه، ولا يحتاج إلى تلبيس، وإنما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالربح اليسير، وليس يسلم الكثير إلا بتلبيس، فمن تعود هذا لم يشتر المعيب، فإن وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليقنع بقيمته. باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري؛ أبرأ إليك من عيب فيها، إنها تقلب العلف برجلها. وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشتري: إنها تنخمت مرة عندنا دماً. فهكذا كانت سيرة أهل الدين، فمن لا يقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة.

الثالث: أن لا يكتم في المقدار شيئاً: وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل، فينبغي

⁽۱) حديث: «لا تزال لا إله إلا الله تدفع هن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم هلى أخراهم. . . ا الحديث. رواه أبر يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف. وفي رواية للترمذي الحكيم في النوادر: «حتى إذا نزلوا بالمنزل الذي لا يبالون ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم. . . الحديث، وللطبراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة، وهو ضعيف أيضاً.

 ⁽٢) حديث: قمن قال لا إله إلا الله متخلصاً دخل الجنة، قيل: وما إخلاصها؟ قال: فتحجزه عما حرم الله أخرجه الطيراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن.

أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَلِّعِينَ ۞ اَلَّيِنَ إِذَا ٱلْكَالُواْ عَلَ ٱلنَاسِ بَسَنَوفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَرَنُوهُمْم يُخْيِرُونَ ۗ ﴾ [المطفّنِين: ١-٣]، ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ؛ إذ العدل الحقيقي قلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه. وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من الله بحبة، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة، وكان يقول: ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السلموات والأرض، وما أخسر من باع طوبي بويل. وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها؛ إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدي حقوقهم، ولذلك لما اشترى رسول الله ﷺ شيئاً قال للوزان لما كان يزن ثمنه: ﴿إِنْ وَأَرْجِعُ اللَّهِ ، وَنَظَرَ فَضَيْلَ إِلَى ابنه وهو يغسل ديناراً يريد أن يصرفه ويزيل تكحيله وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال: يا بني فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة. وقال بعض السلف: عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو، يزن ويحلف بالنهار، وينام بالليل. وقال سليمان عليه السلام لابنه: يا بني كما تدخل الحبة بين الحجرين، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين. وصلى بعض الصالحين على مخنث، فقيل له: إنه كان قاسقاً، فسكت، فأعيد عليه فقال: كأنك قلت لي: كان صاحب ميزانين يعطى بأحدهما ويأخذ بالآخر، أشار به إلى أن فسقه مطلمة بينه وبين الله تعالى، وهذا من مظالم العباد، والمسامحة والعفو فيه أبعد، والتشديد في أمر الميزان عظيم، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة. وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ﴿لاَ تَطْغُوا فِي الميزَانِ وأَقِيمُوا الوَزْنَ بِاللِّسانِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِّيزَانِ﴾ أي لسان الميزان، فإن النقصان والرجحان يظهر بميله.

وبالجملة: كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كلمة ولا ينصف بمثل ما ينتصف، فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَمَل الْمَطْنِينَ فَى الْمَطْنِينَ فَى الْمَطْنِينَ فَى الْمَكِل ليس لكونه مكيلاً، بل لكونه أمراً مقصوداً ترك العدل والنصفة فيه، فهو جار في تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكيلاً، بل لكونه أمراً مقصوداً ترك العدل والنصفة فيه، فهو جار في جميع الأعمال، فصاحب الميزان في خطر الويل، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة، ولولا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَنكُرُ إِلّا وَادِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَنا المَيْنِينَا فَى الربيم: الالله عند ليس معصوماً عن الميل عن الاستقامة، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتاً عظيماً، فلذلك تتفاوت مدة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص، حتى لا يبقى بعضهم إلا بقدر تحلة القسم، ويبقى بعضهم ألفاً وألوف سنين. فن أوان الخلاص، عنه فإنه أدق من السعوة وأحد من السيف، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على عنه غير مطموع فيه، فإنه أدق من الشعرة وأحد من السيف، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن السراط الممدود على متن السراط الممدود على متن السراط الممدود على متن النار، الذي من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف، وبقدر أحد من السيف، ولمراط، وكل من خلط بالطعام تراباً وغيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً لم تجر العادة بمثله، أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً لم تجر العادة بمثله، فهو من المطففين في الوزن، وقس على هذا سائر التقديرات، حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز، فإنه فهو من المطففين في الكوز، وقس على هذا سائر التقديرات، حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز، فإنه فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً لم تجر العادة بمثله،

⁽١) حديث: قال للوزان: (زن وأرجح) رواه أصحاب السنن، والحاكم من حديث سويد بن قيس. قال الترمذي: حسن صحيح وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمده مداً، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتاً في القدر. فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل.

الرابع: أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفي منه شيئاً: فقد نهى رسول الله عن تلقي الركبان (() ونهى عن النجش (()). أما تلقي الركبان؛ فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد، فقد قال على: «لا تَتَلَقُوا الرُكبَانَ» ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق، وهذا الشراء منعقد، ولكنه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار، وإن كان صادقاً ففي الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبيس، ونهى أيضاً أن يبيع حاضر لباد (())؛ وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه، فيقول له الحضري: اتركه عندي حتى أغالي في ثمته وأنتظر ارتفاع سعره، وهذا في القوت محرم، وفي سائر السلع خلاف، والأظهر تحريمه لعموم النهي، ولأنه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولي المضيق، ونهى رسول الله عن النجش؛ وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها، فهذا إن لم تجر مواطأة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد، وإن جرى مواطأة ففي ثبوت الخيار خلاف، والأولى إثبات الخيار؛ لأنه تغرير بفعل يضاهي التغرير في المصراة وتلقي الركبان. فهذه المناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويكتم منه أمراً لو فهذه المناهي تدل على العقد، فقعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب.

فقد حكي عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر، فكتب إليه غلامه: إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة، فاشتر السكر، قال: فاشترى سكراً كثيراً، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً، فانصرف إلى منزله فأفكر ليلته وقال: ربحت ثلاثين ألفاً وخسرت نصح رجل من المسلمين، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر فدفع إليه ثلاثين ألفاً وقال: بارك الله لك فيها، فقال: ومن أين صارت لي؟ فقال: إني كتمتك حقيقة الحال، وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت، مقال: رحمك الله قد أعلمتني الآن وقد طيبتها لك، قال: فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهراً وقال: ما نصحته، فلعله استحيا مني فتركها لي، فبكر إليه من الغد وقال: عافاك الله، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبي، فأخذ منه ثلاثين ألفاً. فهذه الأخبار في المناهي والحكايات تدل على أنه ليس له أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفي من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار، فإن فعل فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفي من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار، فإن فعل أشتريته، فعليه أن يصدق، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان، ولو اشترى المي أجل وجب ذكره؛ لأن المعامل يعول على عادته في الاستقصاء أنه لا يترك النظر لنفسه، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره؛ إذ الاعتماد فيه على أمانته.

* * *

⁽١) حديث: ﴿النهي عن ثلقي الركبانِ». متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة.

 ⁽٢) حديث: «النهي عن النجش». متفق عليه من حديث ابن عمر وأسي هريرة.

⁽٣) حديث: «النهي عن بيع الحاضر للبادي». متفق عليه من حديث أبن عباس وأبي هريرة وأنس.

الباب الرابع

في الإحسان في المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال. والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان، وقد قال الله: ﴿وَاَصِّن كُنّا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُ ﴾ [النصص: ٧٧]، وقال عز وجلّ: ﴿إِنَّ اللهُ يَأْمُرُ بِالْمَدُلِ وَالْإِحْسَان؛ فعل ما ينتفع به المعامل وهو في رَحْسَ اللهُ عَرِيبٌ يَنَ اللهُ عَينِ واجب عليه، ولكنه تفضل منه، فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه، وتنال ربّة الإحسان بواحد من ستة أمور:

الأول: في المغابنة: فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه؛ لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما، ولكن يراعي فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد إما لشدّة رغبته أو لشدّة حاجته في الحال إليه، فينبغي أن يمتنع من قبوله، فذلك من الإحسان. ومهما لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلماً. وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار، ولسنا نرى ذلك، ولكن من الإحسان أن يحط ذلك الغبن. يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان: ضرب قيمة كل حلة منها أربعمائة، وضرب كل حلة قيمتها مائتان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها، فاشتراها فمضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلته، فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة، فقال: لا تساوي أكثر من مائتين فارجع حتى تردها، فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها، فقال له يونس: انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله وقال: أما استحييت، أما اتقيت الله، تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين، فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها، قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك، وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتلبيس، فهو من باب الظلم وقد سبق، وفي الحديث: فغُبْنُ المُسْتَرْسِل حَرَامٌا (١) وكان الزبير بن عدي يقول: أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشتري لحماً بدرهم، فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم، إن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان، وقلَّما يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت،

الباب الرابع

الإحسان في المعاملة

⁽١) حديث: «فين المسترسل حرام» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، والبيهقي من حديث جابر بسند جيد، وقال: «ربا» بدل «حرام».

وإنما الإحسان المحض ما نقل عن السري السقطي: أنه اشترى كرّ لوز بستين ديناراً وكتب في روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار، فصار اللوز بتسعين، فأتاه الدلال وطلب اللوز فقال: جذه, قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين، فقال الدلال وكان من الصالحين: فقد صار اللوز بتسعين، فقال السوي: قد عقدت عقداً لا أحله، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين، فقال الدلال: وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلماً، لست آخذ منك إلا بتسعين، قال: فلا الدلال اشترى منه، ولا السري باعه، فهذا محض الإحسان من الجانبين، فإنه مع العلم بحقيقة الحال.

وروي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة، قباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال: يا هذا قد رضيت، فقال: وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك، فقال: أعطني خمسة، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول: من هذا الشيخ؟ فقيل له: هذا محمد بن المنكدر، فقال: لا إله إلا الله، هذا الذي نستسقي به في البوادي إذا قحطنا. فهذا إحسان في أن لا يربح على العشرة إلا نصفاً أو واحداً على ما جرت به العادة في مثل ذلك المتاع في ذلك المكان، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربحاً كثيراً، وبه تظهر البركة.

كان علي رضي الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول: معاشر التجار: خذوا الحق تسلموا، لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره.

قيل لعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: ما سبب يسارك؟ قال: ثلاث، ما رددت ربحاً قط، ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعه، ولا بعث بنسيئة، ويقال: إنه باع ألف ناقة فما ربح إلا عقلها: باع كل عقال بدرهم فربح فيها ألفاً وربح من نفقته عليها ليومه ألفاً.

الثاني: في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه السلام: «رَجِمَ الله امُرَأَ سَهلَ البَيْعِ سَهلَ الشَّرَاءِ»، فأما إذا اشترى من غني تاحر يطلب الربح زيادة على حاجته فاحتمال الغبن منه ليس محموداً، لل هو تضبيع مال من غير أجر ولا حمد، فقد ورد في حديث من طريق أهل البيت: «المَغْبُونُ فِي الشَّرَاءِ لاَ مَحْمُودٌ وَلا مَأْجُورٌ» وكان إياس بن معاوية بن قرة قاضي البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول: لست بخب والخب لا يغبنني ولا يغبن ابن سيرين، ولكن يغبن الحسن ويغبن أبي _ يعني معاوية بن قرة ـ والكمال في أن لا يغبن ولا يغبن، كما وصف بعضهم عمر رضي الله عنه فقال: كان معاوية بن قرة ـ والكمال في أن لا يغبن ولا يغبن، كما وصف بعضهم عمر رضي الله عنه فقال: كان أكرم من أن يخدع، وأعقل من أن يخدع. وكان المحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء ثم يهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم: تستقصي في شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالي؟ فقال: إن الواهب يعطي فضله وإن المغبون يغبن عقله. وقال بعضهم: إنما أغبن عقلي وبصري فلا أمكن الغابن منه، وإذا وهبت أعطى فه ولا أستكثر منه شيئاً.

 ⁽١) حديث. «المغبون في الشراء الا محمود والا مأجور» أحرجه الترمذي الحكيم في النوادر من رواية عبيداقه بن الحسن عن أبيه عن جده، ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن على يرقعه. قال الذهبي: هو منكر.

وكل من باع شيئاً وترك ثمنه في الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو في معنى المقرض.

وروي أن الحسن البصري باع بغلة له بأربعمائة درهم، فلما استوجب المال قال له المشتري: اسمح يا أبا سعيد، قال: قد أسقطت عنك مائة، قال له: فأحسن يا أبا سعيد، فقال: قد وهبت لك مائة أخرى، فقبض من حقه مائتي درهم، فقيل له: يا أبا سعيد، هذا نصف الثمن، فقال: هكذا يكون الإحسان وإلا فلا.

وفي الخبر: «خذ حقك في كفاف وعفاف وافِ أو غير وافِ، يحاسبك الله حساباً يسيراً» (^^.

 ⁽١) حديث: «رحم الله امرأ صهل البيع سهل الشراء» تقدم في الباب قبله.

 ⁽۲) حديث: «اسمع يسمع لك» أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ورجاله ثقات

 ⁽٣) حديث: (من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً) وفي لعط آخر: "أظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله»
 رواه مسلم باللفظ الثاني من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو.

 ⁽٤) حديث: اذكر رجلاً كان مسرفاً على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة، فقيل له: هل عملت حيراً قط، فقال: لاء إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتياني: سامحوا الموسر... الحديث، رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري، وهو متفق عليه بتعوه من حديث حذيفة.

حدیث: «من أقرض دیتاراً إلى أجل فله بكل یوم صدقة إلى أجله. فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل یوم مثل ذلك
 الثین صدقة، أخرجه ابن ماجه من حدیث بریدة: «من أنظر مصبراً كان له كل یوم صدقة، ومن أنظره بعد أجله كان له
 مثله في كل یوم صدقة، ومنده ضعیف، ورواه أحمد والحاكم وقال: صحیح على شرط الشیخین.

 ⁽٦) حديث الرأيت على باب الجنة مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بشمان عشرة أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف.

 ⁽٧) حديث: «أوماً إلى صاحب الدين بيده ضع الشطر. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

 ⁽٨) حديث «خذ حقك في عقاف... ٩ الحديث. أحرجه ابن ماجة من حديث أبي هريرة بإسناد حس دون قوله:
 ويحاسبك الله حساباً يسيراً وله والابن حبان والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر وعائشة.

الرابع: في توفية الدين: ومن الإحسان فيه حسن القضاء، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشي إليه يتقاضاه، فقد قال على: «خَيْرُكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءَهُ"، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته، وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن، وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر. قليبادر إليه ولو قبل وقته، وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن، وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر. قال على: «مَن الناف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر، ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن نليحتمله وليقابله باللطف، اقتداء برسول الله الله الخبر، ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن اتفق قضاؤه، فجعل الرجل يشدّد الكلام على رسول الله الله فهم به أصحابه فقال: «دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ المَعْرض عن عنى والمستقرض يتدون الميل الأكثر المعتوسطين إلى من عليه الدين، فإنَّ المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر؛ فإن البائع راغب عن السلعة يبغي ترويجها، والمشتري محتاج إليها، هذا هو الأحسن، إلا أن يتعلى من عليه الدين حده، فعند ذلك نصره ظالماً؟ فقال: «مَنْعُكُ وإعانة صاحبه؛ إذ قال على: «أنصر أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً»، فقيل: كيف ننصره ظالماً؟ فقال: «مَنْعُكُ وإعانة صاحبه؛ إذ قال على: «أنصر أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً»، فقيل: كيف ننصره ظالماً؟ فقال: «مَنْعُكُ وإعانة صاحبه؛ إذ قال من المناه أَوْ مَظْلُوماً»، فقيل: كيف ننصره ظالماً؟ فقال: «مَنْعُكُ وإعانة صاحبه؛ إذ قال من المناه المناه المناه المناه المناه فقال: «مَنْعُكُ وإعانة صاحبه؛ إذ قال من المناه المن

الخامس: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضر بالبيع، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه، قال ﷺ: «مَنْ أَقَالَ نَادِماً صَفْقَتُهُ أَقَالَ الله عَثْرَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٥) أو كما قال.

السادس: أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراه بالنسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة، فقد كان في صالحي السلف من له دفتران للحساب: أحدهما ترجمته مجهولة، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول: أحتاج إلى خمسة أرطال مثلاً من هذا وليس معي ثمنه، فكان يقول: خذه واقض ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعد هذا من الخيار، بل عد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ولا يجعله ديناً، لكن يقول: خذ ما تريد، فإن يسر لك فاقض، وإلا فأنت في حل منه وسعة، فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست، والقائم به محي لهذه السنة.

وبالجملة: التجارة محك الرجال، وبها يمتحن دين الرجل وورعه، ولذلك قيل:

لا يسغدرنسك مسن السمدرء قسم سيسمس رقسمه

 ⁽۱) حديث: الخبركم أحسنكم قضاء، منفق عليه من حديث أبي هريرة.

٢٠) حديث: (من ادان ديناً وهو ينوي قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدهون له حتى يقضيه الخرجه أحمد من حديث عائشة: (ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظه وفي رواية له: (للم يزل معه من الله حارس» وفي رواية للطراني في الأوسط: (إلا كان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه).

٣٠) - حديث: قدهو، فإن لصاحب المحق مقالاً، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

عليث: النصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. . . ؟ الحديث. متفق عليه من حديث أنس،

هن اقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة؛ أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال:
 صحيح على شرط مسلم.

ولذلك قيل: إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في صلاحه.

وشهد عند عمر رضي الله عنه شاهد فقال: التني بمن يعرفك. فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، فقال: كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا، قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟ قال: لا، قال: أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن، يحفض رأسه طوراً ويرفعه أخرى، قال: نعم، فقال: اذهب فلست تعرفه. وقال للرجل: اذهب فائتني بمن يعرفك.

**

الباب الخامس

في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعاً وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا، فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه يحفظ رأس ماله، ورأس ماله دينه وتجارته فيه. قال بعض السلف: أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليه في العاجل. وأحوج شيء إليه في العاجل أحمده عاقبة في الآجل. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في وصيته: إنه لا بدّ لك من نصيبك في الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فابدأ بنصيبك من الآخرة، فخده فإنك ستمرّ على نصيبك من الدنيا فتنظمه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَ فِي الدنيا نصيبك منها للآخرة، فإنها مزرعة الآخرة، وفيها تكتسب الحسنات.

وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور:

الأول: حسن النية والعقيدة في ابتداء التجارة: فليتو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم، واستعانة بما يكسبه على الدين، وقياماً بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به، ولينو النصح للمسلمين، وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه، ولينو اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كما ذكرناه، ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فإذا أضمر هذه العقائد والبيات كان عاملاً في طريق الآخرة، فإن استفاد مالاً فهو مزيد، وإن خسر في الدنيا ربح في الأخرة.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش وهلك أكثر الخلق. فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل، ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا، وعلى هذا حمل بعض الناس

قوله ﷺ: «الْحُتِلَانُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ اللهُ أَي اختلاف همهم في الصناعات والحرف. ومن الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغني عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين في الدنيا، فليشتغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً في الدين، وليجتنب صناعة النقش والصياغة وتشييد البنبان بالجص وجميع ما تزخرف به الدنيا، فكل ذلك كرهه ذوو الدين، فأما عمل الملاهي والآلات التي يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم، ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الإبريسم للرجال، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب للرجال، فكل ذلك من المعاصي، والأجرة المأخوذة عليه حرام، ولذلك أوجبنا الزكاة فيها وإن كنا لا نوجب الزكاة في الحلي، لأنها إذا قصدت للرجال فهي محرّمة، وكونها مهيأة للساء لا يلحقها بالحلي المباح، ما لم يقصد ذلك بها فبكتسب حكمها من القصد. وقد ذكرنا أن بيع الطعام وبيع الأكفان مكروه، لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر، ويكره أن يكونَ جزاراً، لما قيه من قساوة القلب، وأن يكون حجاماً أو كناساً لما فيه من مخامرة النجاسة، وكذا الدباغ وما في معناه، وكره ابن سيرين الدلالة، وكره قتادة أجرة الدلال، ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب والإفراط في الشاء على السلعة لترويجها، ولأن العمل فيه لا يتقدر فقد يقل وقد يكثر، ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب، هذا هو العادة وهو ظلم، بل ينبغي أن ينظر إلى قدر التعب، وكرهوا شراء الحيوان للتجارة، لأنَّ المشتري يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذي بصدده لا محالة وحلوله. وقيل: بع الحيوان واشتر الموتان، وكرهوا الصرف؛ لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير، ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها، وقلما يتم للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معامله بدقائق النقد، فقلما يسلم الصيرفي وإن احتاط، ويكره للصيرفي وغيره كسر الصحيح والدنانير إلا عند الشك في جودته أو عند ضرورة. قال أحمد بن حنبل رحمه الله: ورد نهي عن رسول الله على (١٠)، وعن أصحابه في الصياغة من الصحاح، وأنا أكره الكسر، وقال: يشتري بالدنانير دراهم ثم يشتري بالدراهم ذهباً ويصوغه، واستحبوا تجارة البز. قال سعيد بن المسيب: ما من تجارة أحب إليَّ من البز، ما لم يكن فيها أيمان. وقد روي: «خَيْرُ تِجَارَتِكُمْ البَزُ وَخَيْرُ صِنَاعَتِكُمُ الخَرْزُه (٣) وفي حديث آخر: ﴿ لَوَ اتَّجِرُ أَهُلَ الْجِنة لاتجروا في البز، ولو النجر أهل النار لاتجروا في الصرف(٤) وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع: الخرز، والتجارة، والحمل، والخياطة، والحذو، والقصارة، وعمل الخفاف وعمل الحديد، وعملَ المغازل،

الباب الخامس: في شفقة التاجر على دينه

 ⁽١) حديث: (اختلاف أمتي رحمة) تقدم في العلم.

⁽٣) حديث: «النهي عن كسر الدينار والدرهم» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبدالله عن أبيه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن تكسر سكة المسلمين الحائزة بينهم إلا من بأس». زاد الحاكم: «أن يكسر المدرهم فيجعل فضة، ويكسر الدينار فيجعل فهأ». وضعفه ابن حبان.

 ⁽٣) حدیث: «خیر تجارتکم البز، وخیر صنائعکم الخرز» لم أقف له علی إسناد، وذکره صاحب الفردوس من حدیث علی بن أبی طالب.

⁽³⁾ حديث: «أو النجر أهل البجئة الاتجروا في البز، ولو النجر أهل النار الاتجروا في الصرف، رواه أبو منصور الديلمي في مستد الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف. وروى أبو يعلى والعقيلي في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصديق.

ومعالجة صيد البر والبحر، والوراقة، قال عبدالوهاب الوراق: قال لي أحمد بن حنبل: ما صنعتك؟ قلت: الوراقة. قال: كسب طيب، ولو كنت صانعاً بيدي لصنعت صنعتك، ثم قال لي: لا تكتب إلا مواسطة، واستبق الحواشي وظهور الأجزاء. وأربعة من الصناع موسومون عند الناس بضعف الرأي: الحاكة، والقطانون، والمغازليون، والمعلمون. ولعل ذلك لأن أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان، ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل، كما أن مخالطة العقلاء تزيد في العقل. وعن مجاهد: أن مريم عليها السلام مرّت في طلبها لعيسى عليه السلام بحاكة، فطلبت الطريق فأرشدوها غير الطريق، فقالت: اللهم انزع البركة من كسبهم، وأمتهم فقراء، وحقرهم في أعين الناس، فاستجيب دعاؤها، وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات كفسل الموتى ودفنهم، وكذا الأذان وصلاة التراويح، وإن حكم بصحة الاستئجار عليه، وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع، فإنّ هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للآخرة، وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ولا يستحب ذلك.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة؛ وأسواق الآخرة المساجد، قال الله تعالى: ﴿رِحَالُ لَّا نُلْهِيهِمْ يَحْرَةٌ وَلَا بَبْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوْةِ وَإِنْلَةِ ٱلزَّكَوٰةٌ﴾ [الشُّور: ٣٧] وقال الله تعالى: ﴿فِي مُيُوتِ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفِّعَ وَيُبْكَّرَ وِيهَا ٱسْمُهُ ﴾ [النُّور: ٣٦] فينبغي أن يجعل أوَّل النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلازم المسجد ويواظب على الأوراد. كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار: اجعلوا أوَّل نهاركم لآخرتكم وما بعده لدنياكم. وكان صالحو السلف يجعلون أوّل النهار وآخره للآخرة والوسط للتجارة، ولم يكن يبيع الهريسة والرؤوس بكرة إلا الصبيان وأهل الذمة، لأنهم كانوا في المساجد بعد. وفي الخبر: ﴿إِنَّ الْمَلَاتُكَةُ إِذَا صعدت بصحيفة العبد وفيها في أوّل النهار وفي آخره ذكر الله وخير ، كفر الله عنهما ما بينهما من سيّء الأعمال، (١٠) وفي الخبر * «تلتقي ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وجئناهم وهم يصلون؛ فيقول الله سبحانه وتعالى: أشهدكم أني قد غفرت لهمه^(۲) ، ثم مهما سمع الأذان في وسط النهار للأولى والعصر ، فينبغي أن لا يعرج على شغل، وينزعج عن مكانه، ويدع كل ما كان فيه، فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أوَّل الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها، ومهما لم يحضر الجماعة عصى عند بعض العلماء. وقد كان السلف يبتدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة. وكانوا بستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت في أوقات الصلوات، وكان ذلك معيشة لهم، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا نُلْهِيهِمْ يَجَدَرُّةٌ وَلَا بَيْعُ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [التُّور: ٣٧] أنهم كانوا حدادين وخرازين؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشفى فسمع الأذان لم يخرج الإشفى من المغرز ولم يوقع المطرقة ورمى بها وقام إلى الصلاة.

الرابع: أن لا يقتصر على هذا، بل يلازم ذكر الله سبحانه في السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل. قال ﷺ: هذَاكِرُ الله فِي الغَافِلِينَ كَالمُقَاتِلِ خَلْفَ الفَارِّينَ،

 ⁽۱) حديث: (إن الملائكة إذا صملت بصحيفة العبد في أول النهار وآخره ذكر وخير كفر الله ما بينهما من سبىء الأعماله أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بمعناه.

 ⁽٢) حديث: «تلتثي ملائكة اللبل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر، نيقول الله وهو أعلم: كيف تركتم
عبادي؟... الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في
صلاة الغداة وصلاة العصر... الحديث.

وَكَالْحَيْ بَيْنَ الْأَمْوَاتِ؟. وفي لفظ آخر: «كَالشَّجَرَةِ الخَصْرَاءِ بَيْنَ الهَشِيمِ» وقال ﷺ: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ: لَاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهَ وَحُدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ يُخِيِي وَيُتَمِيتُ وَهُوَ حَيَّ لاَ يَمُوتُ بِيَلِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَلِيرٌ، كَتَبُ الله لَه أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، (١) وكان ابن عمر وسالم بن عبدالله ومحمد بن واسع وغبرهم يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر. وقال الحسن: ذاكر الله في السوق يجيء يوم القيامة له ضوء كضوء القمر، وبرهان كبرهان الشمس. ومن استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها. وكان عمر رضي الله عنه إذا دخل السوق قال: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق، ومن شر ما أحاطت به السوق، اللهم إني أعوذ بك من يمين فاجرة، وصفقة خاسرة. وقال أبو جعفر الفرغاني: كنا يوماً عند الجنيد، فجرى ذكر ناس يجلسون في المساجد ويتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويعيبون من يدخل السوق، فقال الجنيد: كم ممن هو في السوق حكمه أن يدخل المسجد؟ ويأخذ بإذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه، وإنى لأعرف رجلاً يدخل السوق ورده كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة. قال: فسبق إلى وهمي أنه يعني نفسه، فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم في الدنيا، فإنَّ من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربع الآخرة، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد، وإنما النجاة بالتقوى. قال ﷺ: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ»(٢) فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المتجرِّدين للدِّين كيفما تقلبت بهم الأحوال، وبه تكون حياتهم وعيشتهم؛ إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم. وقد قيل: من أحب الآخرة عاش، ومن أحب الدنبا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوب نفسه فتاش.

النخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج، وبأن يركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق. وفي الخبر: «لا يُركبُ البَحْرُ إِلا لَحَجُ أَوْ صُمْرَةٍ أَوْمَوْوِ» (٣) وكان عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: لا تكن أوّل داخل في السوق ولا آخر خارج منها، فإنّ بها باض المعاص رضي الله عنهما يقول: لا تكن أوّل داخل في السوق ولا آخر خارج منها، فإنّ بها باض الشيطان وفرّخ. روي عن معاذ بن جبل وعبدالله بن عمر: أن إبليس يقول لولده زلنبور: سر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق، زين لهم الكذب والحلف والخديعة والمكر والخيانة، وكن مع أوّل داخل وآخر خارج منها. وفي الخبر: «شَرُ البِقاعِ الأَسْوَاقُ، وَشَرُ أَهْلِهَا أَوْلُهُمْ دُخُولاً وَآخِرُهُمْ خُرُوجاً» (٤) وتمام هذا خارج منها. وفي الخبر: «شَرُ البِقاعِ الأَسْوَاقُ، وَشَرُ أَهْلِهَا أَوْلُهُمْ دُخُولاً وَآخِرُهُمْ خُرُوجاً» (٤) وتمام هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته، فإذا حصل كفاية وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة، هكذا كان صالحو السلف، فقد كان منهم من إذا ربح دانقاً انصرف قناعة به. وكان حماد بن سلمة يبيع الخز في سفط بين يديه، فكان إذا ربح حبثين رفع سفطه وانصرف. وقال إبراهيم بن بشار: قلت لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: أمر اليوم أعمل في الطين فقال: يا ابن بشار، إنك طالب ومطلوب، يطلبك من أدهم رحمه الله: أمر اليوم أعمل في الطين فقال: يا ابن بشار، إنك طالب ومطلوب، يطلبك من

 ⁽¹⁾ حديث: (من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له. . . ٤ الحديث. تقدم في الأذكار.

 ⁽۲) حديث: «الله الله حيثما كنت» أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه.

 ⁽٣) حديث: ﴿لا تركب البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزوا أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو، وقيل: إنه منقطع.

⁽٤) حديث: «شر البقاع الأسواق، وشر أهلها أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً» تقدم صدر الحديث في الباب السادس من العلم. وروى أبو نعيم في كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس: «أبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها إلى الله أولهم دخولاً وآخرهم خروجاً».

لا تفوته وتطلب ما قد كفيته، أما رأيت حريصاً محروماً وضعيفاً مرزوقاً؟ فقلت: إن لي دانقاً عند البقال، فقال: عز عليّ بك، تملك دانقاً وتطلب العمل؟ وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر، ومنهم بعد العصر، ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوماً أو يومين وكانوا يكتفون به.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات ومظان الريب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه، فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه، وإذا حمل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة، وقد حمل إلى رسول الله ﷺ لبن، فقال: «مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هٰفَا؟» فقالوا: من الشاة، فقال: «مِنْ أَيْنَ لَكُمْ هٰفِهِ الشَّاةُ؟» فقيل: من موضع كذا، فشرب منه ثم قال: «إِنَّا مَعاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أَمْرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمْرَ بِهِ المُرْسَلِينَ أَبْرَا أَنْ لاَ نَأْكُلَ إلاَّ طَيّباً وَلا نَعْمَلَ إلاَّ صَالِحاً» (العَقَلَ اللهُ تَعَالَىٰ أَمْرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمْرَ بِهِ المُرْسَلِينَ أَبْرَا أَنْ لاَ نَأْكُلَ إلاَّ طَيّباً وَلا نَعْمَلَ إلاَّ صَالِحاً» (البَفرَة: ١٧١) (٢٠) فَقالَ النبي عَلَى عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد، لأن ما وراء ذلك يتعذر. وسنبين في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب الشيء وأصل أصله ولم يزد، لأن ما وراء ذلك يتعذر. وسنبين في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال «فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يحمل إليه (٣)، وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله؛ فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله، وكذا الأجناد والظلمة لا يعاملهم من يعامله؛ فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله، وكذا الأجناد والظلمة لا يعاملهم البتة ولا يعامل أصحابهم وأعوانهم، لأنه معين بذلك على الظلم.

وحكي عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور. قال: فوقع في نفسي من ذلك شيء، وإن كان ذلك العمل من الخيرات بل من فرائض الإسلام، ولكن كان الأمير الذي تولى في محلته من الظلمة. قال: فسألت سفيان رضي الله عنه فقال: لا تكن عوناً لهم على قليل ولا كثير، فقلت: هذا سور في سبيل الله للمسلمين فقال: نعم، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقاءهم ليوفوك أجرك؛ فتكون قد أحببت بقاء من يعصي الله. وقد جاء في الخبر: «مَنْ دَهَا لِظَالِم بِالبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبُ أَنْ يُعْصى الله في أَرْضِهِ (٤)، وفي الحديث: ﴿إِنَّ الله لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ (٥)، وفي حديث آخر: «مَنْ أَكْرَمَ فَاسِقاً فَقَدْ أَمَانَ عَلَىٰ هَدْمِ الإِسْلاَمِ (١)، ودخل سفيان على المهدي وبيده درج أبيض، فقال: يا سفيان أعطني

 ⁽¹⁾ حديث: سؤاله عن اللبن والشاة، وقوله: فإنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا تأكل إلا طبياً ولا نعمل إلا صالحاً وواه الطبراني من حديث أم عبدالله أخت شداد بن أوس بسند ضعف.

 ⁽٧) حديث: فإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. . . ٤ الحديث، أخرجه مسلم من حديث أبي عريرة.

⁽٣) حديث: «كان لا يسأل هن كل ما يحمل إليه». رواه أحمد من حديث جابر: «أن رسول الله ﷺ وأصحابه مروا بامرأة فذبحت لهم شاة....» الحديث. فأخذ رسول الله ﷺ لقمة فلم يستطع أن يسبغها، فقال: «هذه شاة ذبحث بغير إذن أهلها....» الحديث. وله من حديث أني هريرة: «كان إذا أتي بطعام من غير أهله سأل هنه...» الحديث. وإستادهما جيد. وفي هذا أنه كان لا يسأل عما أتي به من عند أهله، والله أعلم.

 ⁽٤) حديث: قمن دعا لظّالم بالبقاء فقد أحب أن يعضي فله في أرضه لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في
 كتاب الصمت من قول الحسن، وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب في آفات اللان.

حديث: (إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وابن عدي في الكامل، وأبو يعلى والبيهتي في الشعب من حديث أنس يسند ضعيف.

⁽٣) حديث: (من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام» غريب بهدا اللفظ، والمعروف: (من وقر صاحب بدعة. ١٠٠ الحديث. رواه ابن عدي من حديث عائشة، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية من حديث عبدالله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزي: كلها موضوعة.

الدواة حتى أكتب، فقال: أخبرني أي شيء تكتب، فإن كان حقاً أعطيتك. وطلب بعض الأمراء من بعض المعض المعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طيناً ليختم به الكتاب، فقال: ناولني الكتاب أولاً حتى أنظر ما فيه، فهكذا كانوا يحترزون عن معاونة الظلمة ومعاملتهم أشذ أنواع الإعانة، فينبغي أن يجتنبها ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلاً.

وبالجملة: فينبغي أن ينقسم الناس عنده إلى من يعامَل ومن لا يعامَل، وليكن من يعامله أقل ممن لا يعامله في هذا الزمان. قال بعضهم: أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول: من ترون لي أن أعامل من الناس فيقال له: عامل من شئت، ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون: عامل من شئت إلا فلاناً وفلاناً، ثم أتى زمان آخر فكان يقال: لا تعامل أحداً إلا فلاناً وفلاناً، وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضاً. وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

السابع: ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع واحد من معامليه، فإنه مراقب ومحاسب، فليعذ الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة إنه لم أقدم عليها? ولأجل ماذا؟ فإنه يقال: إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفة، ويحاسب عن كل واحد فهو محاسب على عدد من عامله. قال بعضهم: رأيت بعض التجار في النوم، فقلت: ماذا فعل الله بك؟ فقال: نشر علي خمسين ألف صحيفة، فقلت: هذه كلها ذنوب، فقال: هذه معاملات الناس بعدد كل إنسان عاملته في الدنيا، لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها، فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين، وإن أضاف علمه من العدل والأحسان الخامس كان من الصديقين، وإنه أعلم بالصواب.

تم كتاب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنَّه



بِنْ مِ اللَّهِ النَّافِ النَّجَدِ

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي خلق الإنسان من طين لازب وصلصال، ثم ركب صورته في أحسن تقويم وأتم اعتدال، ثم غذاه في أول نشؤه بلبن استصفاه من بين فرث ودم سائعاً كالماء الزلال، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعي الضعف والانحلال، ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيال، وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوت الحلال، وهزم بكسرها جند الشيطان المتشمر للإضلال، ولقد كان يجري من ابن آدم مجرى الدم السيال، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجال؛ إذ كان لا يبذرقه إلى أعماق العروق إلا الشهوة المائلة إلى الغلبة والاسترسال؛ فبقي لما زمت بزمام الحلال، خائباً خاسراً ما له من ناصر ولا وال. والصلاة على محمد الهادي من الضلال وعلى آله خير آل، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد قال ﷺ: الطّلَبُ الحَلالِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلُ مُسْلِمٍ (١)، رواه ابن مسعود رضي الله عنه، وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض: أعصاها على العقول فهما، وأثقلها على الجوارح فعلا، ولذلك اندرس بالكلية علماً وعملاً، وصار غموض علمه سبباً لاندراس عمله؛ إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود، وأن السبيل دون الوصال إليه مسدود، وأنه لم يبق من الطببات إلا الماء الفرات، والحشيش النابت في الموات، وما عداه فقد أخبئته الأيدي العادية، وأفسلته المعاملات الفاسدة، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات، لم يبق وجه سوى الاتساع في المحرمات؛ فرفضوا هذا القطب من الدين أصلاً، ولم يدركوا بين الأموال فرقاً وفصلاً، وهيهات هيهات، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات، ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقليت الحالات.

ولما كانت هذه بدعة عم في الدين ضررها، واستطار في الخلق شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة، على وجه التحقيق والبيان، ولا يخرجه التضييق عن حيز الإمكان.

ونحن نوضح ذلك في سبعة أبواب:

كتاب الحلال والحرام

⁽١) حديث ابن مسعود الطلب المحلال قريضة على كل مسلم تقدم في الزكاة دون قوله: «على كل مسلم» وللطبراني في الأوسط من حديث أنس: قواجب على كل مسلم وإساده ضعيف.

الباب الأول: في فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام.

الباب الثاني: في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام.

الباب الثالث: في البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها في الحلال والحرام.

الياب الرابع: في كيفية خروح التائب عن المظالم المالية.

الباب الخامس: في إدرارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم.

الباب السادس: في الدخول على السلاطين ومخالطتهم.

الباب السابع: في مسائل متفرّقة.

* * *

الباب الأول

في فضيلة الحلال ومذمة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام:

قال الله تعالى: ﴿ كُلُواْ مِنَ الطَّيِبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَالِمًا ﴾ [المومنون: ٥١] أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل، وقبل: إن المراد به الحلال، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ أَمْوَلَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطِلِ ﴾ [البَقرَة: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ النِّينَ يَأْحُلُونَ أَمْوَلُوا أَمْوَلُوا أَمْوَلُكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطِيلِ ﴾ [البَقرَة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ النَّيْلُ الَّذِينَ عَامَنُوا اللَّهُ وَذَرُوا مَا يَقِي مِنَ الْبِيْوَا إِن كُنتُم مُوْمِينِ ﴿ وَإِن تُبَيِّرُ فَلَكُمْ رُدُوسُ أَمْوَلِكُمْ ﴾ [البَقرَة: ٢٧٨]، ثم قال: ﴿ وَإِن تُبَيِّرُ فَلَكُمْ رُدُوسُ أَمْوَلِكُمْ ﴾ [البَقرَة: ٢٧٩]، ثم قال: ﴿ وَإِن تُبَيِّرُ فَلَكُمْ رُدُوسُ أَمْوَلِكُمْ ﴾ [البَقرَة: ٢٧٩]، ثم قال: ﴿ وَمَنْ عَالْمُ وَرَسُولِمْ فَاللَهُ وَلِكُمْ ﴾ [البَقرَة: ٢٧٩]، ثم قال: ﴿ وَإِن تُبِينُونَ ﴾ [البَقرَة: ٢٧٩]، ثم قال: ﴿ وَإِن تُبِينُونَ ﴾ [البَقرَة: ٢٧٩] علم الربا أول الأمر مؤذناً بمحاربة الله، عَنْ أَنْرُولُ مَنْ مُنْ أَنْهُ اللهُ عَلَى كُلُّ مُسْلِمٍ ولما قال عَنْ وَلِي المُعْمَ ولما قال عَنْ اللهُ المُولِمُ فَوْيِفَةً عَلَىٰ كُلُّ مُسْلِمٍ ولما قال: ﴿ وَلَمُ العَلَمُ اللهُ عَلَى كُلُّ مُسْلِمٍ ولما قال وجعل معن النبي عَنْ النبي عَنْ أَنْهُ اللهُ العَلَالِ فَرِيضَةً عَلَىٰ كُلُّ مُسْلِمٍ ولما قال: ﴿ وَلَكُمْ العَلَمُ العَلْمُ اللهُ عَلَى المُعْلُولُ وَلِيضَةً عَلَىٰ كُلُّ مُسْلِمٍ ولما قال: وطَلَبُ العَلْمُ المِيضَةُ عَلَىٰ كُلُّ مُسْلِمٍ والحرام، وجعل المراد بالحديثين واحداً.

وقال ﷺ: "مَنْ سَعَىٰ عَلَىٰ عِيَالِهِ مِنْ حِلَّهِ فَهُوَ كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهُ، وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالاً فِي

⁽١) حديث: اطلب العلم فريضة على كل مسلم؛ تقدم في العلم.

عَفَانِ كَانَ فِي دَرَجَةِ الشَّهَدَاءِه ()، وقال ﷺ: همَن أَكُلَ الحَلالُ أَرْبَمِينَ يَوْماً نَوْرَ الله قَلْبَهُ وَأَجْرَىٰ يَنَابِعِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ حَلَىٰ لِسَائِمِه (). وني رواية: «زَهْدَهُ الله فِي المُثْنَبَا» وروي أن سعدا سأل رسول الله ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة، فقال له: «أَطِبُ طُعْمَتُكَ تُسْتَجَبُ دَعْوَثُكَ» (). ولما ذكر ﷺ الحريص على الدنيا قال: «رُبَّ أَشْعَتُ أَخْبَرَ مُشَرَّدٍ فِي الأَسْفَارِ مَطْعَمُهُ حَرَامُ وَخُذِي بِالحَرَامِ، يَرْفَعُ يَدْيِهِ فَيَقُولُ: يَا رَبِ، فَاتَى بُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» (). وفي حديث ومَلْبُسُهُ حَرَامُ وَخُذِي بِالحَرَامِ، يَرْفَعُ يَدْيِهِ فَيَقُولُ: يَا رَبِ، فَاتَى بُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» (). وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ لله مَلَكاً عَلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ يُنَادِي كُلُّ لَيَلَةٍ: مَنْ أَكَلَ حَرَاماً لَمْ يُقْبَلِ مِنْ أَنِي عِباسَ عَن النبي ﷺ: ﴿ وَمَا لَكُمْ مَلَكًا عَلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ يُنَادِي كُلُّ لَيَلَةٍ: مَنْ الشَّرَىٰ ثَوْياً بِعَشَرَةٍ دَرَاهِمَ صَرَقٌ وَلَا عَدْلَهُ وَلَا الله عَلَىٰ عَنِي المَقْدِهِ فِنْهُ شَيْءً وَقُلُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ عَنْهُ وَاللهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ عَلَىٰ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ اللهُ وَالْمَالِ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ الله

⁽١) حديث: «من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: «من سعى على عياله فقي سبيل الله» ولأبي منصور في مسند الفردوس: «من طلب مكسبة من باب حلال بكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين؛ وإسنادهما ضعيف.

⁽٢) حديث: امن أكل الحلال أربعين يوماً نؤر الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسائه أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب: (من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسائه الولاين عدي نحوه من حديث أبي موسى، وقال: حديث منكر.

٣) حديث: أن سُعداً سأل النبي ﷺ أن يسأل الله أن يجعله مجاب الدعوة، فقال له: «أطب طعمتك تستجب دعوتك»
 أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه. وسعد هو ابن أبي وقاص - رضي الله عنه -.

⁽٤) - حديث: «رب أشمَّت أخير مشرد في الأسفار مطعمه حرام ومليسه حرام. . . الحديث، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر . . .» الحديث،

⁽٥) حديث ابن عباس: «إن فه ملكاً على ببت المقدس ينادي كل لبلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل» لم أقف له على أصل، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود: «من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين لبلة . . . » الحديث. وهو منكر،

 ⁽٩) حديث: امن اشترى ثوياً بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء، رواه أحمد من حديث
ابن عمر بسند ضعيف.

⁽٧) حديث: «كل لحم ثبت من الحرام فالنار أولى به» أخرجه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه، وقد تقدم.

 ⁽٨) حديث: (من لم ببال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النارة أخرجه أبو منصور الديلسي في
 مسند الفردوس من حديث ابن عمر. قال ابن العربي في عارضة الأحوذي شرح الترمذي: إنه باطل لم يصح ولا
 مسح.

 ⁽٩) حديث: فالعبادة عشرة أجزاء، فتسعة منها في طلب الحلال» رواه أبو منصور الديلمي من حديث أنس، إلا أنه قال:
 قتسعة منها في الصمت والعاشرة كسب البد من الحلال» وهو منكر.

 ⁽١٠) حديث: «من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض؛ أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: «من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له» وفيه ضعف.

وقال عنى: "مَنْ أَصَابَ مَالاً مِنْ مَأْتُم فَوْصَلَ بِهِ رَحِماً أَوْ تُصَدُّقَ بِهِ أَوْ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله جَمَعَ الله ذَٰلِكَ جَمِيماً ثُمَّ قَذَفَهُ فِي النَّارِ" وقال عليه السلام: "حَغِيرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ". وقال على: "مَنْ لَقِيَ الله وَرِعاً أَصْطَاهُ الله تُوَابَ الإِسْلاَمِ كُلُهُ ("). ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم. وقال على: "دِرْهمٌ مِنْ رِما أَشَدُ عِنْدَ الله مِنْ ثَلَاثِينَ زِنْيَةٌ فِي الإِسْلاَمِ" أَكَ . وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا صحت المعدة صدرت بالسقم (٥). ومثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان، فإذا ثبت بالصحة، وإذا سقمت صدرت بالسقم، (٥). ومثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان ووقع. وقال الله عزّ الأساس وقوي استقام البنيان وارتفع، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع. وقال الله عزّ وجلّ : ﴿أَمَنَ أَسَسَى بُنْكِنَمُ عُلَ تَقْرَىٰ مِنَ اللّهِ اللهِ اللهُ اللهُ عَنْ الْمَاسِ وقوي الحديث: "هُونَ التَّوْمُ وَرَاءُهُ كَانَ زَادَهُ إِلَىٰ النَّارِهُ ". وقد ذكرنا جملة من الأخبار في كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال.

وأما الآثار: فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده ثم سأل عبده، فقال: تكهنت لقوم فأعطوني، فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء (٧). وفي بعض الأخبار أنه على أخبر بذلك فقال: قاق عَلَمْتُمْ أَنَّ الصّديقَ لاَ يُدْخِلُ جَوْفَهُ إِلاَّ طَيِّباً». وكذلك شرب عمر رضي الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطاً، فأدخل أصبعه وتقياً. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة، هو الورع. وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنه: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل

 ⁽١) حديث: «من أصاب مالاً من مأثم قوصل به رحماً أو تصدق به أو أثفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً، ثم قذفه
 في النارة رواه أبو داود في المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلاً.

⁽٢) حديث: «خير دينكم الورع» تقدم في العلم.

 ⁽٣) حديث. «من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الإسلام كله» لم أنف له على أصل.

حديث: "درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الإسلام» رواه أحمد والدارقطني من حديث عبدالله بن حنطلة وقال: "سنة وثلاثين" ورجاله ثقات، وقبل: عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعاً، وللطبراني في الصغير من حديث ابن عباس «ثلاث وثلاثين» وسنده ضعيف.

 ⁽ه) حديث أبي هريرة: اللمعلة حوض البدن، والعروق إليها واردة. . . ٤ الحديث. أخرجه الطبرائي في الأوسط، والعتيلي في الضعفاء وقال: بأطل ولا أصل له.

 ⁽٦) حديث: (من اكتسب مالاً من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار؛ رواه أحمد من
حديث ابن مسعود سند ضعيف، ولابن حبان من حديث أبي هريرة: (من جمع مالاً من حرام ثم تصدق به لم يكن له
فيه أجر وكان إصره عليه).

⁽٧) حديث: إن أبا بكر شرب لبناً من كسب عبده ثم سأله فقال تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصبعه في فيه وحعل يقيء ، وفي بعض الأخبار أنه ﷺ وما أخبر بذلك قال "أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً» رواه المخاري من حديث عائشة: "كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراحه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أندري ما هذا؟ فقال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية». فذكره، دون المرفوع منه، فلم أجده.

ما يدخل جوفه. وقال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتبه الله صديقاً، فانظر عند من تفطر يا مسكين. وقيل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله: لم لا تشرب من ماء زمزم؟ فقال: لو كان لي دلو شربت منه. وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لا يطهره إلا الماء، والذنب لا يكفره إلا الحلال. وقال يحيى بن معاذ: الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء، وأسنانه لقم الحلال. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: لا يقبل الله صلاة امرى، في جوفه حرام، وقال سهل التستري: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهى من الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى الموت. وقال: من أحب أن يكاشف بآيّات الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة. ويقال: من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿ كُلُّا بَلِّ رَانًا عَلَنَ قُلُومِهم مَّا كَانُواْ يَكْمِبُونَ ﴿ المطفِّفِينِ: ١٤]، وقال ابن المبارك: رد درهم من شبهة أحب إليُّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف، حتى بلغ إلى ستمائة ألف. وقال بعض السلف: إن العبد يأكل أكلة فيتقلب قلبه، فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبدأ. وقال سهل رضي الله عنه: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبي، علم أو لم يعلم، ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه ووفقت للخيرات، وقال بعض السلف: إن أوَّل لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر.

وروي في آثار السلف: أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء: تفقدوا منه ثلاثاً، فإن كان معتقداً لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيَّءَ الطعمة فعن الهوى ينطق، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه. وفي الأخبار المشهورة عن علي عليه السلام وغيره: إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عَذاب. وزاد آخرون: وشبهتها عتاب. وروي أنَّ بعض الصالحين دفع طعاماً إلى بعض الأبدال فلم يأكل، فسأله عن ذلك فقال: نحن لا نأكل إلا حلالاً، فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونكاشف الملكوت ونشاهد الآخرة، ولو أكلنا مما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين، ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا، فقال له الرجل: فإني أصوم الدهر وأختم القرآن في كل شهر ثلاثين مرة، فقال له البدل: هذه الشربة التي رأيتني شربتها من الليل أحب إليَّ من ثلاثين ختمة في ثلاثمانة ركعة من أعمالك، وكانت شربته من لبن ظبية وحشية. وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة، فهجره أحمد إذ سمعه يقول: إني لا أسأل أحداً شيئًا، ولو أعطاني الشيطان شيئًا لأكلته، حتى اعتذر يحيى وقال: كنت أمزح، فقال: تمزح بالدين، أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال: ﴿ كُلُّواْ مِنَ ٱلطَّيِّئَتِ وَأَعْمَلُواْ صَالِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وفي الحبر: أنه مكتوب في التوراة: "من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أي أبواب النيران أدخله؛ . وعن علي رضي الله عنه: أنه لم يأكل بعد قتل عثمان ونهب الدار طعاماً إلا مختوماً حذراً من الشبهة. واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة، فذكروا الرطب، فقال وهيب: هو من أحب الطعام إليّ، إلا أني لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها، فقال له ابن المبارك: إن نظرت في مثل هذا ضاق عليك الخبز. قال: وما سببه؟ قال: إن أصول الضياع قد اختلط بالصوافي، فغشي على وهيب، فقال سفيان: قتلت الرجل، فقال ابن

المبارك: ما أردت إلا أن أهون عليه، فلما أفاق قال: لله عليّ أن لا آكل خبزاً أبداً حتى ألقاه. قال: فكان يشرب اللبن، فأتته أمه بلبن فسألها، فقالت: هو من شاة بني فلان، فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم فذكرت، فلما أدناه من فيه قال: بقي أنها من أين كانت ترعى؟ فسكت، فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للمسلمين، فقالت أمه: اشرب فإن الله يغفر لك، فقال: ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنال مغفرته بمعصيته. وكان بشر الحافي رحمه الله من الورعين، فقيل له: من أين تأكل، فقال: من حيث تأكلون، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك. وقال: يد أقصر من يله ولقمة أصغر من لقمة، وهكذا كانوا يحترزون من الشبهات.

أصناف الحلال ومداخله:

اعلم: أنّ تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه، ويستغني المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها، فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرّقة فيفتقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه في كتاب الفقه.

ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم: وهو أنَّ المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه.

القسم الأول: الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما:

وتفصيله: أنَّ الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام، فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما، أو من النبات، أو من الحيوانات.

أما المعادن: فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها، قلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل. وفي بعضها ما يجري مجرى السم، والخبز لو كان مضراً لحرم أكله، والطين الذي يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر. وفائدة قولنا: إنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل، أنه لو وقع شيء منها في مرقة أو طعام مائع لم يصر به محزماً.

وأما النبات: فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة، فمزيل العقل: البنج والمخمر وسائر المسكرات، ومزيل الحياة، السموم، ومزيل الصحة: الأدوية في غير وقتها، وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والمسكرات، فإن الذي لا يسكر منها أيضاً حرام مع قلته لعينه ولصفته؛ وهي الشدّة المطربة، وأما السم: فإذا خرج عن كونه مضراً لقلته أو لعجنه بغيره فلا يحرم.

وأما الحيوانات: فتنقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل، وتفصيله في كتاب الأطعمة، والنظر يطول في تفصيله، لا سيما في الطبور الغريبة وحيوانات البر والدحر، وما يحل أكله منها فإنما يحل إذا ذبح ذبحاً شرعياً روعي فيه شروط الذابح والآلة والمذبح، وذلك مذكور في كتاب الصيد والذبائح، وما لم يذبح ذبحاً شرعياً أو مات فهو حرام، ولا يحل إلا ميتنان: السمك والجراد، وفي معناهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والحل والجبن، فإنّ الاحتراز منهما غير ممكن، فأما إذا أفردت وأكلت فحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة، لا سبب في تحريمها إلا الاستقذار، ولو لم يكن لكان لا يكره، فإن وجد شخص لا يستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه، فإنه التحق بالخبائث لعموم الاستقذار، ولو جمع المخاط وشربه كره ذلك، وليست الكراهة

لنجاستها؛ فإنّ الصحيح أنها لا تنجس بالموت؛ إذ «أمر رسول الله ﷺ بأن يمقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه» (١)، وربما يكون حاراً ويكون ذلك سبب موته، ولو تهرت نملة أو ذبابة في قدر لم يجب إراقتها؛ إذ المستقذر هو جرمه إذا بقي له جرم، ولم ينجس حتى يحرم بالنجاسة. وهذا يدل على أن تحريمه للاستقذار، ولذلك نقول: لو وقع جزء من آدمي ميت في قدر ولو وزن دانق حرم الكل لا لنجاسته؛ فإن الصحيح أن الآدمي لا ينجس بالموت، ولكن لأن أكله محرّم احتراماً لا استقذاراً. وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحل جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والفرث وكل ما يقضى بنجاسته منها، بل تناول النجاسة مطلقاً محرّم، ولكن ليس في الأعيان شيء محرّم نجس إلا من الحيوانات. وأما من النبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج، فإنّ نجاسة المسكر تغليظ للزجر عنه لكونه في مظنة التشوّف، ومهما وقعت قطرة من النجاسة أو جزء من مجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه، ولا يحرم الانتفاع به لغير الأكل، فيجوز الاستصباح بالدهن النجس، وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها، فهذه مجامع ما يحرم لصفة في ذاته.

القسم الثاني: ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه:

وفيه يتسع النظر، فنقول: أخذ المال: إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره، فالذي يكون بغير اختياره، فالذي يكون من بغير اختياره كالإرث، والذي يكون باختياره: إما أن لا يكون من مالك كنيل المعادن، أو يكون من مالك، والذي أخذ من مالك: فإما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضياً، والمأخوذ قهراً: إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم، أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم، والمأخوذ تراضياً: إما أن يؤخذ بعوض كالبيع والصداق والأجرة، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية، فيحصل من هذا السياق ستة أقسام:

الأول: ما يؤخذ من غير مالك: كنيل المعادن، وإحياء الموات، والاصطياد، والاحتطاب، والاستقاء من الأنهار، والاحتشاش. فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذي حرمة من الآدميين، فإذا اتفك من الاختصاصات ملكها آخذها. وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات.

الثاني: المأخوذة قهراً ممن لا حرمة له وهو الفيء والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين، وذلك حلال المسلمين إذا أخرجوا منها الخمس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد. وتفصيل هذه الشروط في كتاب السير من كتاب الفيء والغنيمة وكتاب الجزية.

الثالث: ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه، فيؤخذ دون رضاه، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق، واستوفاه ممن يملك الاستيفاه من قاض أو سلطان أو مستحق، وتفصيل ذلك في كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات؛ إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالاً.

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين؛ أعني الإيجاب والقبول، مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة. وبيان ذلك في

 ⁽١) حديث: «الأمر بأن يمثل الذباب في الطعام إذا وقع فيه» رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضمان والقراض والشركة والمساقاة والثيفعة والصلح والخلع والكتابة والصداق وسائر المعاوضات.

المخامس؛ ما يؤخذ عن رضا من غير عوض، وهو حلال إذا روعي فيه شرط المعقود عليه وشرط المعاقد عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره، وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات.

السادس: ما يحصل بغير اختيار كالمبراث، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وحه حلال، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجباً، وذلك مذكور في كتاب الوصايا والفرائض. فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أومأنا إلى جملتها؛ ليعلم المريد أنه إن كانت طعمته متفزقة لا من جهة معينة فلا يستغني عن علم هذه الأمور، فكل ما يأكله من جهة من الجهات ينبغي أن يستفتي فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل، فإنه كما يقال للعالم: لم خالفت علمك؟ يقال للجاهل: لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قيل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم؟.

درجات الحلال والحرام:

اعلم: أن الحرام كله خبيث، لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض وأصفى من بعض، وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول: بعضها حار في الدرجة الأولى كالسكر، وبعضها حار في الثانية كالفانيذ، وبعضها حار في الثالثة كالدبس، وبعضها حار في الرابعة كالعسل. كذلك الحرام بعضه خبيث حار في الدرجة الأولى، وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة، وكذا الحلال تتفاوت درجات صفاته وطيبه، فلنقتد بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريباً. وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر؛ إذ يتطرّق إلى كل درجة من الدرجات أيضاً تفاوت لا يتحصر، فإنّ من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر، وكذا غيره، فلذلك نقول: الورع عن الحرام على أربع درجات:

الأولى: ورع العدول، وهو الذي يجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه، وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء.

الثانية: ورع الصالحين، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي يرخص في التناول بناء على الظاهر، فهو من مواقع الشبهة على الجملة، فلنسم التحرج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية.

الثالثة: ما لا تحرّمه الفتوى ولا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرّم؛ وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس، وهذا ورع المتقين. قال ﷺ: ﴿لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ المُتُقِينَ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ، (١٠).

الرابعة: ما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التّقوّي به على عبادة الله، أو تتطرّق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية، والامتناع منه ورع الصدّيقين، فهذه درجات الحلال جملة إلى أن نفصلها بالأمثلة والشواهد.

حديث: قال يبلغ العبد درجة المئتين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس. وواد ابن ماجه، وقد تقدم.

وأما الحرام الذي ذكرناه في اللرجة الأولى؛ وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة واطراح سمة الفسق، فهو أيضاً على درجات في الخبث، فالمأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلاً فيما لا يجوز فيه المعاطاة حرام، ولكن ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ؛ إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير، وليس في المعاطاة إيذاء، وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا، وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي، على ما سيأتي في كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة، بل المأحوذ ظلماً من فقير أو صالح أو من يتيم أخبث وأعظم من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق؛ لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذي، فهذه دقائق في تفاصيل الخبائث لا ينبغي أن يذهل عنها، فلولا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت درجات النار، وإذا عرفت مثارات التغليظ فلا حاجة إلى حصره في ثلاث درجات أو أربعة، فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهي، وهو طلب حصر فيما لا حاصر له، ويدلك على اختلاف درجات الحرام في الخبث ما سيأتي في تعارض المحذورات وترجيح بعضها على بعض، حتى إذا اضطر إلى أكل المينة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فإنا نقدم بعض هذا على بعض.

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها:

أما الدرجة الأولى: وهي ورع العدول، فكل ما اقتضى الفتوى تحريمه مما يدخل في المداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام لفقد شرط من الشروط فهو الحرام المطلق؛ الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية، وهو الذي نريده بالحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد.

وأما الدرجة الثانية: فأمثلتها: كل شبهة لا توجب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها كما سيأتي في باب الشبهات؛ إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام. ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع المموسوسين، كمن يمتنع من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه، وهذا وسواس. ومنها: ما يستحب اجتنابها ولا يجب وهو الذي ينزل عليه قوله على: فدَعْ مَا يُريبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ اللهُ وَنحمله على نهي التنزيه، وكذلك قوله على: فكل مَا أَصْمَيْتَ وَدَعْ مَا أَنْمَيْتُ اللهُ وَالانماء: أن يجري الصيد فيغيب عنه ثم يدركه ميتاً؛ إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر، والذي نختاره كما سيأتي: أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من ورع الصالحين. وقوله: فدَعْ مَا يُريبُكُه أمر تنزيه؛ إذ ورد في بعض الروايات: فكل مِنهُ وَإِنْ غَابَ عَنْكَ مَا لَمْ تَجِدْ فِيهِ أَثُراً غَيْرَ سَهْمِكَ»، ولذلك قال على سبيل التنزيه حاتم في الكلب المعلم: فوإن أكل فلا تَأكُلْ فَإِنْي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ على سبيل التنزيه لأجل الخوف. إذ قال لأبي ثعلبة الخشني «كُلْ مِنْهُ فقال: وإن أكل منه؟ فقال: فإن أكل منه؟ فقال: فوإن أكل منه؟ فقال: فإن أكل منه؟ فقال: فوإن أكل منه؟ فقال: فوان أكل منه؟ فقال: فإن أكل منه ودكل

⁽١) حديث: فدع ما يربيك إلى ما لا يربيك أخرجه النسائي والترمذي والحاكم وصححاه من حديث الحسن بن علي.

 ⁽٣) حديث: الكُلُ ما أصميت ودع ما أنميت؛ أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقي موقوفاً عليه.
 وقال: إن المرفوع ضعيف.

 ⁽٣) حديث قال لأبي ثعلبة: «كل منه»، فقال: وإن أكل؟ قال: «وإن أكل» رواه أبو داود من رواية عمرو بن شميب عن أبيه
 عن جده. ومن حديث أبي ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادهما جيد، والبيهقي موقوفاً عليه وقال: إن المرفوع ضعيف.

لأن حالة أبي ثعلبة وهو فقير مكتسب لا تحتمل هذا الورع، وحال عدي كان يحتمله. يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء، مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به، فأمثله هذه الدرجة نذكرها في التعرّض للرجات الشبهة فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة.

أما الدرجة الثالثة: وهي ورع المتقين، فيشهد لها قوله على: ﴿ لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْمُتَقِينَ حَتَىٰ يَدَعَ مَا لاَ يَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ». وقال عمر رضي الله عنه: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام، وقيل: إن هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال أبو الدرداء: إن من ثمام التقوى أن يتقي العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً؛ حتى يكون حجاباً بينه وبين النار، ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان، فحملها إليه، فأخذ تسعة وتسعين وتوزع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة. وكان بعضهم يتحرّز، فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة، ليكون ذلك حاجزاً من النار، ومن هذه المدرجة الاحتراز عما يتسامح به الناس، فإن ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجز إلى غيره وتألف النفس الاسترسال وتترك الورع.

فمن ذلك: ما روي عن علي بن معبد أنه قال: كنت ساكناً في بيت بكراء، فكتبت كتاباً وأردت أن آخذ من تراب الحائط لأتربه وأجففه، ثم قلت: الحائط ليس لي، فقالت لي نفسي: وما قدر تراب من حائط! فأخذت من التراب حاجتي، فلما نمت فإذا أنا بشخص واقف يقول: يا علي بن معبد: سيعلم غداً الذي يقول: وما قدر تراب من حائط، ولعل معنى ذلك أن يرى كيف يحط من منزلته، فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين، وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله.

ومن ذلك: ما روي أن عمر رضي الله عنه وصله مسك من البحرين فقال: وددت لو أنّ امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة: أنا أجيد الوزن فسكت عنها، ثم أعاد القول فأعادت الجواب، فقال: لا، أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلاً على المسلمين، وكان يوزن بين يدي عمر بن عبدالعزيز مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه لما استبعد ذلك منه. وأخذ الحسن رضي الله عنه تمرة من تمر الصدقة ـ وكان صغيراً ـ فقال النبي ﷺ: اكخ كخه (۱) أي ألقها.

ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند محتضر، فمات ليلاً فقال: أطفئوا السراج قد حدث للورثة حقى في الدهن، وروى سليمان التيمي عن نعيمة العطارة قالت: كان عمر رضي الله عنه بدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين لتبيعه، فباعتني طيباً فجعلت تقوّم وتزيد وتنقص وتكسر بأسنانها، فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها، ثم مسحت به خمارها فدخل عمر رضي الله عنه فقال: ما هذه الرائحة؟ فأخبرته فقال: طيب المسلمين تأخذينه، فانتزع الخمار من رأسها وأخذ جرّة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدلكه في التراب ويشمه، في يصب الماء ثم يدلكه في التراب ويشمه، حتى لم يبق له ربح، قالت: ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها، فأدخلت أصبعها في فيه فيه في فيها ثم مسحت به التراب، فهذا من عمر رضي الله عنه ورع التقوى؛ لخوف أداء ذلك إلى غيره،

١١) حديث: أخذ الحسن بن علي تمرة من الصدقة وكان صفيراً فقال النبي ﷺ: ٩كخ كخ، القها، أخرجه المخاري من حديث أبي هريرة.

وإلا فغسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين، ولكن أتلفه عليها زجراً وردعاً واتقاء من أن يتعدّى الأمر إلى غيره.

ومن ذلك: ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في المسجد يحمل مجمرة لبعض السلاطين ويبخر المسجد بالعود فقال: ينبغي أن يخرج من المسجد، فإنه لا ينتفع من العود إلا برائحته، وهذا قد يقارب الحرام، فإن القدر الذي يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد وقد يبخل به، فلا يدري أنه بتسامح به أم لا. وسئل أحمد بن حنبل عمن سقطت منه ورقة فيها أحاديث، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردها؟ فقال: لا، بل يستأذن ثم يكتب، وهذا أيضاً قد يشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا، فما هو في محل الشك، والأصل تحريمه فهو حرام، وتركه من الدرجة الأولى.

ومن ذلك: التورع عن الزينة: لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها، وإن كانت الزينة مباحة في نفسها. وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السبتية فقال: أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو، وأما من أراد الزينة فلا. ومن ذلك: أن عمر رضي الله عنه لما ولي الخلافة كانت له زوجة يحبها، فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة في باطل فيطيعها ويطلب رضاها، وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس ـ أي مخافة من أن يفضي إليه ـ وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات، حتى استكثار الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فإنه يحرّك الشهوة، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر، والفكر يدعو إلى النظر، والنظر يدعو إلى غيره، وكذلك النطر إلى دور الأغنياء وتجملهم مباح في نفسه ولكن يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله، وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرّز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم بالحدّر ثانياً، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر، وكذا كل ما أخذ بآلشهوة فقلما يخلو عن خطر، حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان وقال: أما تجصيص الأرض فيمنع التراب، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها، واسندلُّ بما روي عن النبي ﷺ أنه سئل أَنْ يَكُحَلُ المُسْجِدِ، فقال: «لاَ، عَرِيش كَعَرِيشٍ مُوسَىٰ»(١) وإنما هو شيء مثل الكحل يطلى به، فلم يرخص رسول الله ﷺ فيه، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا: من رق ثوبه رق دينه، وكل ذلك خوفاً من سريان اتباع الشهوات في المباحات إلى غيرها، فإن المحظور والمباح تشتهيهما النفس بشهوة واحدة، وإذا تعوّدت الشهوة المسامحة استرسلت، فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة، وهو كل ما لا يخاف أداؤه إلى معصية البتة.

أما الدرجة الرابعة: وهو ورع الصديقين، فالحلال عندهم كل ما لا تتقدم في أسبابه معصية ولا يستعان به على معصية ولا يقصد منه في الحال والمآل قضاء وطر، بل يتناول لله تعالى فقط وللتقوي على عبادته واستبقاء الحياة لأجله، وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله حراماً، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ فَي اللَّهُ اللَّهُ ثُمُّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يُلْمَبُونَ ﴾ [الانتام: ٩١] وهذه رئبة الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم،

 ⁽١) حديث: أنه سئل أن يكحل المسجد فقال: ولاء هريش كعريش موسى؛ أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أبي
 الدرداء وقال: غريب.

المنفردين لله تعالى بالقصد، ولا شك في أن من يتورّع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورّع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية. فمن ذلك ما روي عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء، فقالت له امرأته: لو تمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسى منذ ثلاثين سنة، فكأنه لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين، فلم يجز الإقدام عليها. وعن سري رحمه الله أنه قال: انتهيت إلى حشيش في جبل وماء يخرج منه، فتناولت من الحشيش وشربت من الماء، وقلت في نفسي: إن كنت قد أُكَّلت يوماً حلالاً طَّيباً فهو هذا اليوم، فهتف بي هاتف: إنَّ القوَّة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هي؟ فرجعت وندمت. ومن هذا ما روي عن ذي النون المصري أنه كان جائعاً محبوساً، فبعثت إليه امرأة صالحة طعاماً على يد السجان فلم يأكل، ثم اعتذر وقال: جاءني على طبق ظالم، يعني أن القوّة التي أوصلت الطعام إليّ لم تكن طيبة، وهذه الغاية القصوى في الورع. ومن ذلك: أن بشراً رحمه الله كأن لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء، فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه، وإن كان الماء مباحاً في نفسه فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء وقد أعطوا الأجرة من الحرام، ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال، وقال لصاحبه: أفسدته إذ سقيته من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة، وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء، لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء. وكان بعضهم إذا مرَّ في طريق الحج لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة، مع أن انماء مباح، ولكنه بقي محفوظاً بالمصنع الدي عمل به بمال حرام، فكأنه انتفاع به. وامتناع ذي النون من تناول الطعام من بد السجان أعظم من هذا كله؛ لأن يد السجان لا توصف بأنها حرام، بخلاف الطبق المغصوب إذا حمل عليه، ولكنه وصل إليه بقوّة اكتسبت بالغذاء الحرام، ولذلك تقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوّة مع أنه شربه عن جهل، وكان لا يجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصُّدّيقين، ومن ذلك: التوّرع من كسب حلال اكتسبه خياط يخيط في المسجد، فإن أحمد رحمه آلله كره جلوس الخياط في المسجد. وسئل عن المغازلي يجلس في قبة في المقابر في وقت يخاف من المطر، فقال: إنما هي من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها. وأطفأ بعضهم سراجأ أسرجه غلامه من قوم يكره ما لهم. وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقي فيه جمر من حطب مكروه. وامتنع بعضهم من أن يحكم شسع نعله في مشعل السلطان، فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة.

والتحقيق فيه: أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرمته الفتوى وهو ورع العدول، وله غاية وهو ورع الصديقين، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه، أو اتصل سببه مكروه وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم لقيامة وأسرع جوازاً على الصراط، وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث، وإدا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط، وإن شئت فاستكثر من الاحتياط، وإن شئت فاستكثر من والسلام.

الباب الثاني

في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله ﷺ: «الْحَلَالُ بَئِنَ وَالْحَرَامُ بَئِنَ وَبَئِنَهُمَا أَمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَىٰ الشَّبُهَاتِ وَاقَعَ الْحَرَامَ، كَالرَّاعِي حَوْلَ الحِمَىٰ فَمَنِ اتَّقَىٰ الشَّبُهَاتِ وَاقَعَ الْحَرَامَ، كَالرَّاعِي حَوْلَ الحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ (١)، فهذا الحديث نص في إثبات الأقسام الثلاثة، والمشكل منها القسم المنوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها، فإن ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل، فنقول:

المحلال المطلق: هو الذي خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم في عبنه، وانحُل عن أسبابه ما تطرّق إليه تحريم أو كراهية، ومثاله: الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون هو واقفاً عند جمعه وأخذه من الهواء في ملك نفسه أو في أرض مباحة.

والحرام المحضى: هو ما فيه صفة محرّمة لا يشك فيها؟ كالشدّة المطربة في الخمر، والنجاسة في البول، أو حصل بسبب منهيّ عنه قطعاً كالمحصل بالظلم والربا ونظائره، فهذان طرفان ظاهران، ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتمل تغيره، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه، فإنّ صيد البر والبحر حلال، ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت منه، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد بعد وقوعه في يده وخريطته، فمثل هذا الاحتمال لا يتطرّق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، ولكنه في معنى ماء المطر، والاحتراز منه وسواس، ولنسم هذا الفن ورع الموسوسين، حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا وهم مجرّد لا دلالة عليه. نعم لو دل عليه دليل؛ فإن كان قاطعاً كما لو وجد على الظبية جراحة يحتمل أن يكون كياً لا يقدر عليه إلا بعد الضبط، ويحتمل أن يكون جرحاً، فهذا موضع الورع، وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم في نفسه، ومن هذا الجنس من يستعير داراً فيغيب عنه المعير فيخرج ويقول: لعله مات وصار الحق للوارث، فهذا وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك؛ إذ الشبهة المحذورة ما تنشأ من الشك، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشآ عن سببين، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوي العقد المقابل له فيصير شكاً، ولهذا عن سببين، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوي العقد المقابل له فيصير شكاً، ولهذا غن سببين، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوي العقد المقابل له فيصير شكاً، ولهذا نقول: من شك أنه صلى ثلاثاً أو أربعاً أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة.

ولو سئل إنسان أن صلاة الظهر التي أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثاً أو أربعاً لم يتحقق قطعاً أنها أربعة، وإذا لم يقطع جوّز أن تكون ثلاثة، وهذا التجويز لا يكون شكاً؛ إذ لم يحضره سبب أوجب اعتقاد كونها ثلاثاً، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب، فهذا يلتحق بالحلال المطلق. ويلتحق بالحرام المحض ما تحقق تحريمه وإن أمكن طريان محلل ولكن لم يدل عليه سبب، كمن في يده طعام لمورثه الذي لا وارث له سواه، فغاب عنه فقال: يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك

الباب الثاني: في مراتب الشبهات

 ⁽١) حديث: اللحلال بين والحرام بين. . .) الحديث. متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

إلى فآكله، فإقدامه عليه إقدام على حرام محض؛ لأنه احتمال لا مستند له، فلا ينبغي أن يعد هذا النمط من أقسام الشبهات، وإنما الشبهة نعني بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن مبين مقتضيين للاعتقادين. ومثارات الشبهة خمسة:

المثار الأول: الشك في السبب المحلل والمحرم:

وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً، أو غلب أحد الاحتمالين، فإن تعادل الاحتمالان كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب، ولا يتين هذا إلا بالأمثال والشواهد، فلنقسمه إلى أقسام أربعة:

المقسم الأول: أن يكون النحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الإقدام عليها. مثاله: أن يرمي إلى صيد فيجرحه ويقع في الماء فيصادفه ميناً ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح، فهذا حرام لأن الأصل التحريم، إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك، كما في الأحداث والنجاسات وركعات الصلاة وغيرها، وعلى هذا ينزل قوله على لله عدي بن حاتم: ﴿لاَ تَأْكُلُهُ فَلَمَلُهُ قَتَلَهُ غَيْرُ كَلْبِكَ (١) فلذلك كان على إذا أتي بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هدية سأل عنه حتى يعلم أيهما هو (٢). وروي: ﴿أنه على أرق ليلة فقالت له بعض نسائه: أرقت يا رسول الله، فقال: ﴿أَجَلُ، وَجَدْتُ نَمْوَةً فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ (١) وفي رواية: ﴿فَاكُلُنُهَا فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ »، ومن ذلك ما روي عن بعضهم أنه قال: كنا في سفر مع رسول الله يَعْيُدُ فأصابنا الجوع، فنزلنا منزلاً كثير الضباب فينا القدور تغلي بها إذ قال رسول الله يَعْدُ رسول الله يَعْدُ أَنْ تَكُونَ هِنْ أَنْ تَكُونَ هُلْهِ فأكفأنا القدور تغلي بها إذ قال رسول الله يعد ذلك أنه لم يعسخ الله خلقاً فجعل له نسلاً (٥). وكان امتناعه أولاً لأن الأصل عدم الحل وشك في كون الذبح محللاً.

القسم الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فالأصل الحل وله الحكم. كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر، فقال أحدهما: إن كان هذا غراباً فامرأتي طالق، وقال الآخر: إن لم يكن غراباً فامرأتي طالق، والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحدة منهما ولا يلزمهما اجتنابهما، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما حتى يحلا لسائر الأزواج، وقد أمر مكحول بالاجتناب في هذه المسألة، وأفتى الشعبى بالاجتناب في رجلين كانا قد تنازعا، فقال أحدهما للآخر: أنت حسود، فقال الآخر:

 ⁽١) حديث: الا تأكله قلعله قتله غير كلبك؛ قاله لعدي بن حاتم متفق عليه من حديثه.

 ⁽٢) حديث. اكان إذا أتي بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة بسأل عنه؛ أحرجه البحاري من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: أنه أرق ليلة فقال له بعض نسائه: أرقت يا رسول الله، فقال: *أجل، وجدت تموة فأكلتها فخشيت أن تكون
 من الصدقة أخرجه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن.

 ⁽٥) حديث: (أنه لم يمسخ الله خلقاً فجعل له نسالاً) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

أحسدنا زوجته طالق ثلاثاً، فقال الآخر: نعم، وأشكل الأمر، وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح، وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له؛ إذ ثبت في المياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك، وهذا في معناه.

فإن قلت: وأي مناسبة بين هذا وبين ذلك؟ فاعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة، فإنه لازم من غير ذلك في بعض الصور، فإنه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك في نجاسته جاز له أن يتوضأ به، فكيف لا يجوز أن يشربه؟ وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك، إلا أن ههنا دقيقة: وهو أن وزان الماء أن يشك في أنه طلق زوجته أم لا؟ فيقال: الأصل أنه ما طلق ووزان مسألة الطاثر أن يتحقق نجاسة أحد الإناءين ويشتبه عينه، فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد، لأنه قابل يقين النجاسة بيقين الطهارة فيسطل الاستصحاب، فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجتين قطعاً، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة، فنقول: اختلف أصحاب الشافعي في الإناءين على ثلاثة أوجه، فقال قوم. يستصحب بغير اجتهاد، وقال قوم: بعد حصول يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يغني الاجتهاد، وقال المقتصدون: يجتهد وهو الصحيح، ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول: إن يخوز الاجتهاد؛ إذ لا علامة، ونحرّمهما عليه لأنه لو وطئهما كان مقتحماً للحرام قطعاً، وإن وطيء يجوز الاجتهاد؛ إذ لا علامة، ونحرّمهما عليه لأنه لو وطئهما كان مقتحماً للحرام قطعاً، وإن وطيء إحداهما وقال: أقتصر على هذه، كان متحكماً بتعيينها من غير ترجيح. ففي هذا افترق حكم شخص واحد أو شخصين؛ لأنّ التحريم على شخص واحد متحقق، بخلاف الشخصين؛ إذ كل واحد شك في واحد أو شخصين؛ لأنّ التحريم على شخص واحد متحقق، بخلاف الشخصين؛ إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه.

قان قيل: فلو كان الإناءان لشخصين فينبغي أن يستغني عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإنائه لأنه تيقن طهارته وقد شك الآن فيه، فنقول: هذا محتمل في الفقه والأرجح في ظني المنع، وأن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده، لأنّ صحة الوضوء لا تستدعي ملكاً، بل وضوء الإنسان بماء غيره في رفع المحدث كوضوئه بماء نفسه، فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر، بخلاف الوطء لزوجة الغير فإنه لا يحل، ولأن للعلامات مدخلاً في النجاسات، والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق، فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة ليدفع بها قوة يقين النجاسة المقابلة ليقين الطهارة، وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه، وقد استقصيناه في كتب الفقه، ولسنا نقصد الآن إلا التنبيه على قواعدها.

القسم الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظنّ غالب، فهو مشكوك فيه والغالب حله، فهذا ينظر فيه؛ فإن استند غابة الظنّ إلى سبب معتبر شرعاً فالذي نختار فيه أنه يحل، واجتنابه من الورع. مثاله: أن يرمي إلى صيد فيغيب ثم يدركه مبتاً وليس عليه أثر سوى سهمه، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر، فإن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأول. وقد اختلف الشافعي رحمه الله في هذا القسم، والمختار أنه حلال؛ لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق، والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه، فطريانه مشكوك فيه، فلا يدع اليقين بالشك.

فإن قيل: فقد قال ابن عباس: كُلِّ ما أصميت ودع ما أنميت. وروت عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً أتى النبي ﷺ بأرنب فقال: رميتي عرفت فيها سهمي، فقال: ﴿أَصْمَيْتَ أَوْ أَنْمَيْتَ؟﴾ فقال: بل

أنسبت، قال: ﴿إِنَّ اللَّيْلَ خَلْقُ مِنْ خَلْقِ الله لاَ يَقدر قدرهُ إِلاَّ الَّذِي خَلَقَهُ، فَلَمَلُهُ أَمَانَ عَلَىٰ قَتْلِهِ شَيْءَهُ (') وكذلك قال عَلَى العدي بن حاتم في كلبه المعلم: ﴿وَإِنْ أَكُلَ فَلاَ تَأْكُلْ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَسْكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ('') والغالب أن الكلب المعلم لا يسيء خلقه ولا يمسك إلا على صاحبه، ومع ذلك نهى عنه، وهذا التحقيق: وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب، وتمام السبب: بأن يفضي إلى الموت سليماً من طريان غيره عليه، وقد شك فيه فهو شك في تمام السبب حتى اشتبه أنّ موته على الحل أو على الحرمة، فلا يكون هذا في معنى ما تحقق موته على الحل في ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه.

فالجواب: أنَّ نهي ابن عباس ونهي رسول الله ﷺ محمول على الورع والتنزيه، بدليل ما روي في بعض الروايات أنه قال: «كُلْ مِنْهُ وَإِنْ خَابَ عَنْكَ مَا لَمْ تَجِدْ فِيهِ أَثْرًا غَيْرَ سَهْمِكَ، (٣) وهذا تنبيه على المعنى الذي ذكرناه؛ وهو أنه إن وجد أثراً آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن، وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة الظن فيحكم به على الاستصحاب، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد والقياس المظنون والعمومات المظنونة وغيرها. وأما قول القائل: إنه لم يتحقق موته على الحل في ساعة فيكون شكاً في السبب فليس كذلك، بل السبب قد تحقق؛ إذ الجرح سبب الموت، فطريان الغير شك فيه، ويدل على صحة هذا: الإجماع، على أن من جرح وغاب فوجد ميناً فيجب القصاص على جارحه، بل إن لم يغب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط في باطنه، كما يموت الإنسان فجأة، فينبغي أن لا يجب القصاص إلا بحز الرقبة والجرح المدفف؛ لأن العلل القاتلة في الباطن لا تؤمن، ولأجلها يموت الصحيح فجأة، ولا قائل بذلك، مع أن القصاص مبناه على الشبهة، وكذلك جنين المذكاة حلال، ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم ينفخ فيه الروح، وغرة الجنين تجب، ولعل الروح لم ينفخ فيه، أو كان قد مات قبل الجناية بسبب آخر، ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة، فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه، فكذلك هذا. وأما قوله ﷺ: ﴿ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أَمْسَكَ هَلَىٰ نَفْسِهِ » فللشافعي رحمه الله في هذه الصورة قولان، والذي نختاره الحكم بالتحريم؛ لأن السبب قد تعارض؛ إذ الكلب المعلم كالآلة والوكيل يمسك على صاحبه فيحل، ولو استرسل المعلم بنفسه فأحذ لم يحل؛ لأنه يتصوّر منه أن يصطاد لنفسه، ومهما انبعث بإشارته ثم أكل دل ابتداء انبعاثه على أنه نازل منزلة آلته وأنه يسعى في وكالته ونيابته، ودل أكله آحراً على أنه أمسك لنفسه لا لصاحبه، فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتمال، والأصل التحريم فيستصحب، ولا يزال بالشك، وهو كما لو وكل رجلاً بأن يشتري له جارية فاشتري جارية ومات قبل أن

⁽١) حديث عائشة: أن رجلاً أنى النبي ﷺ بأرىب نقال: رميتي عرفت فيها سهمي، فقال قاصميت أو أنميت؟٩ قال: بل أنميت. قال: فإن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذي خلقه لعله أمان على قتله شيء٩ ليس هذا من حديث عائشة، وإنما رواه موسى بن أبي عائشة عن أبي رزين قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ بصيد فقال: إني رميته من الليل فأعياني، ووجدت سهمي فيه من الغد وعرفت سهمي، فقال «الليل خلق من خلق الله حظيم، لمعله أعانك عليه شيء» رواه أبو داود في المراسيل، والبيهقي وقال: أبو رزين اسمه مسمود، والحديث مرسل، قاله البخاري.

⁽٢) حديث: قال لعدي في كلبه المعلم: ﴿ وَإِنْ أَكُلُ فَلَا تَأْكُلُ فَإِنْيُ أَخَافَ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا أُمسك على نفسه، متفق عليه من حديثه.

⁽٣) حديث: «كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثر سهم غيرك منفق عليه من حديث عدي بن حاثم.

يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله يحل للموكل وطؤها، لأن للوكيل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعاً، ولا دليل مرجح والأصل التحريم. فهذا يلتحق بالقسم الأوّل لا بالقسم الثالث.

القسم الرابع: أن يكون الحل معلوماً ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً، فيرفع الاستصحاب ويقضي بالتحريم؟ إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبقى له حكم مع غالب الظن، ومثاله: أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما أوجبت منع الوضوه به، وكذا إذا قال: إن قتل زيد عمراً أو قتل زيد صيداً منفرداً بقتله فامرأتي طالق، فجرحه وغاب عنه فوجد ميناً حرمت زوجته؛ لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق، وقد نص الشافعي رحمه الله أن من وجد في الغدران ماء متغيراً احتمل أن يكون تغيره بطول المكث أو بالنجاسة فيستعمله، ولو رأى ظبية بالت فيه ثم وجده متغيراً واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المكث لم يجز استعماله؛ إذ صار البول المشاهد دلالة مغلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ما ذكرناه، وهذا في غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشيء.

فأما غلبة الظن لا من جهة علامة تتعلق بعير الشيء فقد اختلف قول الشافعي رضي الله عنه في أن أصل الحل هل يزال به إذا اختلف قوله في التوضؤ من أواني المشركين، ومدمن الخمر والصلاة مي المقابر المنبوشة والصلاة مع طين الشوارع، أعني المقدار الزائد على ما يتعذر الاحتراز عنه، وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر، وهذا جار في حل الشرب من أواني مدمن الخمر والمشركين؛ لأن النجس لا يحل شربه، فإذن مأخذ النجاسة والحل واحد، فالتردد في أحدهما يوجب التردد في الآخر، والذي اختاره أن الأصل هو المعتبر، وأن العلامة إذا لم تتعلق بعين المتناول لم توجب رفع الأصل، وسيأتي بيان ذلك وبرهانه في المثار الثاني للشبهة وهي شبهة الخلط، فقد اتضح من هذا حكم حلال شك في طريان محرم عليه أو ظن، وحكم حرام شك في طريان محلل عليه أو ظن، وحكم حرام شك في طريان محلل عليه أو ظن، الأقسام الأربعة بحله فهو حلال في الدرجة الأولى والاحتياط تركه، فالمقدم عليه لا يكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى في فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى في فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم المقونة، إلا ما ألحقناء برتبة الوسواس فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلاً.

المثار الثاني للشبهة: شك منشؤه الاختلاط:

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر ولا يتميز، والخلط لا يخلو: إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين أو من أحدهما، أو بعدد محصور، فإن اختلط بمحصور قلا يخلو: إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يتميز بالإشارة كاختلاط المائمات، أو يكون اختلاط استبهام مع التميز للأعبان كاختلاط الأعبد والدور والأفراس، والذي يختلط بالاستبهام فلا يخلو: إما أن يكون مما يقصد عينه كالعروض، أو لا يقصد كالنقود، فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام:

القسم الأولى: أن تستبهم العين بعدد محصور، كما لو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات، أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة، أو يتزوّج إحدى الأختين ثم تلتبس، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع؟ لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا، وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل فيطرأ اختلاط بمحرّم؟ كما لو

أوقع الطلاق على إحدى زوجتين في مسألة الطائر، أو يختلط قبل الاستحلال؛ كما لو اختلطت رضيعة بأجنبية فأراد استحلال واحدة، وهذا قد يشكل في طريان التحريم كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب. وقد نبهنا على وجه الجواب: وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فضعف الاستصحاب، وجانب الحظر أغلب في نظر الشرع، فلذلك ترجح، وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام غير محصور، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى.

القسم الثاني: حرام محصور بحلال غير محصور، كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن، وهذا لا يجوز أن يعلل بكثرة الحلال؛ إذ يلزم عليه أن يجوّز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ولا قائل به، بل العلة الغلبة والحاجة جميعاً؛ إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سب من الأسباب فلا يمكن أن يسد عليه باب النكاح، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل، فإن كل ذلك حرج، وما في الدين من حرج. ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله يمين مجرز (۱)، وغل واحد في الغنيمة عباءة (۱)؛ لم يمتنع أحد من شراء المجان والعباء في الدنيا، وكذلك كل ما سرق، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يربي في الدراهم والدنانير، وما ترك رسول الله يمين ولا الناس الدراهم والدنانير بالكلية (۱).

وبالجملة: إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي، وهو محال. وإذا لم يشترط هذا في الدنيا لم يشترط أيضاً في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين؛ إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من الصحابة، ولا يتصوّر الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار.

فإن قلت. فكل عدد محصور في علم الله، فما حدّ المحصور؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضاً إن تمكن منه، فاعلم: أن تحديد أمثال هذه غير ممكن، وإنما يضبط بالتقريب، فنقول: كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عدهم بمجرد النظر، كالألف والألفين فهو غير محصور، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن، وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب، فإن الإثم حزاز القلوب. وفي مثل هذا المقام قال رسول الله على لوابصة: «استَقْتِ قَلْبَكَ وَإِنَّ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ) (٤) وكذا الأقسام الأربعة التي ذكرناها في المثار الأوّل يقع فيها أطراف متقابلة واضحة في النفي والإثنات وأوساط متشابهة، فالمفتي يفتي بالظن، وعلى المستفتي أن يستفتي قلبه، فإن حاك في صدره شيء فهو الآثم بينه وبين الله، فلا ينجيه في الآخرة فتوى المفتي، فإنه يفتي بالظاهر والله يتولى السرائر.

⁽۱) حديث. •سرقة المجن في زمان رسول الله ﷺ متفق عليه من حديث ابن عمر · «أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مجن قيمته ثلاثة دراهم».

 ⁽٢) حديث: فقل واحد من الغنائم صافقه رواه البخاري من حديث عبدالله بن عمر، واسم الغال: كوكرة.

 ⁽٣) حديث: •إن في اثناس من كان يربي في الدراهم والدنانير، وما ترك رسول الله ﷺ ولا الناس الدراهم بالكلية،، هذا معروف، وسيأتي حديث جابر بعده بحديث. وهو يدل على ذلك.

 ⁽٤) حديث: «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك قاله لوابصة، تقدم.

القسم الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا هذا، فالذي يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور، وقد حكمنا ثم بالتحريم، فلنحكم هنا به، والذي نختاره خلاف ذلك: وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمل أنه حرام وأنه حلال، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فتركه ورع، وأخذه حلال لا يفسق به آكله.

ومن العلامات: أن يأخذه من يد سلطان ظالم، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتي ذكرها، ويدل عليه الأثر والقياس، فأما الأثر: فما علم في زمن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين بعده؛ إذ كانت أثمان الخمور ودراهم الربا من أيدي أهل الذمة مختلطة بالأموال، وكذا غلول الأموال، وكذا غلول الغنيمة، ومن الوقت الذي نهى ﷺ عن الربا إذ قال: «أوَّلُ ربَا أَضَعُهُ ربَا المُعَبَّاسِ (١) ما ترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخمور وساثر المعاصي، حتى روي أن بعض أصحاب النبي ﷺ باع الخمر، فقال عمر رضي الله عنه: لعن الله فلاناً هو أوّل من سن بيع الخمر؛ إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ فُلَامًا يَجُرُّ فِي النَّارِ عَبَاءَةً قَدْ غَلْهَا، (٢٠). وقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزات من خرز اليهود لا تساوي درهمين قد غلها(٢٠). وكذلك أدرك أصحاب رسول الله ﷺ الأمراء الظلمة ولم يمتنع أحد منهم عن الشراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة وقد نهبها أصحاب يزيد ثلاثة أيام، وكان من يمتنع من تلك الأموال مشاراً إليه في الورع، والأكثرون لم يمتنعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة في أيام الظلمة. ومن أوجب ما لم يوجبه السلف الصالح وزعم أنه تفطن من الشرع ما لم يتفطنوا له فهو موسوس مختل العقل، ولو جاز أن يزاد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم: «إن الجدة كالأم في التحريم وابن الابن كالابن، وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة. وذلك محال فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم. وأما القياس: فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسد باب جميع التصرفات وخرب العالم؛ إذ الفسق يغلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدي ذلك لا محالة إلى الاختلاط.

فإن قيل: فقد نقلتم أنه ﷺ امتنع من الضب وقال: «أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ مِمَّا مَسَخَهُ اللهُ» وهو في احتلاط غير المحصور؟ قلنا: يحمل ذلك على التنزه والورع أو نقول الضب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهي دلالة في عين المتناول.

فإن قيل: هذا معلوم في زمان رسول الله ﷺ وزمان الصحابة بسبب الربا والسرقة والنهب وغلول الغنيمة وغيرها، ولكن كانت هي الأقل بالإضافة إلى الحلال. فماذا تقول في زماننا وقد صار الحرام أكثر ما في أيدي الناس؛ لفساد المعاملات وإهمال شروطها وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة، فمن أخذ

 ⁽١) حديث: ﴿أُولُ رَبَّا أَضْعَهُ رِبًّا العباسِ أَخْرَجُهُ مَسْلَمُ مَنْ حَدَيثُ جَابِر.

 ⁽٢) حديث الن فلاتاً في النار يجر عباءة قد غلها، رواء البخاري من حديث عبدالله بن عمر، وتقدم قبله بثلاثة أحاديث.

 ⁽٣) حديث: اقتل رجل ففتشوا متاعه فوجدوا فيه خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين قد غله. رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني.

مالاً لم يشهد عليه علامة معينة في عينه للتحريم فهل هو حرام أم لا؟ فأقول: ليس ذلك حراماً وإنما الورع تركه وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلاً.

ولكن الحواب عن هذا: أن قول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر، فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ما ليس بنادر فهو الأكثر ويتوهمون أبهما قسمان متقابلان ليس بينهما ثالث، وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة: قليل وهو النادر وكثير وأكثر، ومثاله: أنّ الخنثى فيما بين الخلق نادر وإذا أضيف إليه المريض وجدت كثيراً، وكذا السفر حتى يقال المرض والسفر من الأعذار العامة والاستحاضة من الأعذار النادرة، ومعلوم أنّ المريض ليس بنادر وليس بالأكثر أيضاً بل هو كثير، والفقيه إذا تساهل وقال: المرض والسفر غالب وهو عذر عام أراد به أنه ليس بادر فإن لم يرد هذا فهو غلط، والصحيح والمقيم هو الأكثر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر، فإذا فهم هذا فنقول: قول القائل الحرام أكثر، باطل؛ لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلمة والجندية أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدي التي تكرّرت من أول الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم.

أما المستند الأول، فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالأكثر، فإنهم الجندية؛ إذ لا يظلم إلا ذو علية وشوكة وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشيرهم، فكل سلطان يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلاً فيملك إقليماً يجمع ألف ألف وزيادة، ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على حميع عسكره، ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل؛ إذ كان يجب على كل واحد من الرعبة أن يقوم بعشرة منهم مثلاً مع تنعمهم في المعيشة ولا يتصور ذلك، بل كفاية الواحد كان منهم تجمع من ألف من الرعبة وزيادة، وكذا القول في السراق فإن البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل.

وأما المستند الثاني: وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهي أيضاً كثيرة وليست بالأكثر؛ إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع فعدد هؤلاء أكثر والذي يعامل بالربا أو غيره فلو عددت معاملاته وحده لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الإنسان بوهمه في البلد مخصوصاً بالمجانة والخبث وقلة الدين حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر، ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيراً فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولا يخلو هو أيضاً عن معاملات صحيحة تساوي الفاسدة أو تزيد عليها، وهذا مقطوع به لمن تأمله، وإنما غلب هذا على النفوس الستكثار النفوس الفساد واستبعادها إياه واستعظامها له وإن كان نادراً، حتى ربما يظن أن الربا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتخيل أنهم الأكثرون وهو خطأ، فإنهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة.

وأما المستند الثالث: وهو أخيلها، أن يقال: الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان، والنبات والحيوان، والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد، فإذا نظرنا إلى شاة مثلاً وهي تلد في كل سنة فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله على قريباً من خمسمائة، ولا يخلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غصب و معاملة فاسدة، فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا؟ وكذا بذور الحبوب والفواكه تحتاج إلى خمسمائة أصل أو ألف أصل مثلاً إلى أول زمان الشرع ولا يكون هذا حلالاً ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالاً، وأما المعادن فهي التي يمكن نبلها على سبيل الابتداء، وهي أقل الأموال، وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنائير، ولا تخرج إلا من دار الضرب، وهي في أيدي الظلمة، مثل المعادن في أيديهم يمنعون الناس منها ويلزمون الفقراء استخراجها بالأعمال

الشاقة، ثم يأخذونها منهم غصباً، فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لا يتطرق إليه عقد فاسد ولا ظلم وقت النيل ولا وقت الضرب في دار الضرب ولا بعده في معاملات الصرف، والربا بعيد نادر أو محال، فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والحشيش في الصحارى الموات والمفاوز والحطب المباح، ثم من يحصله لا يقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشتري به الحبوب والحيوانات التي لا تحصل إلا بالاستنبات والتوالد، فيكون قد بذل حلالاً في مقابلة حرام فهذا هو أشد الطرق تخيلاً.

والجواب: أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النمط الذي نحن فيه والتحق بما ذكرناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب؛ إذ الأصل في هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضي عليها وقد عارضه سبب غالب يخرجه عن الصلاح له فيضاهي هذا محل القولين للشافعي رضي الله عنه في حكم النجاسات، والصحيح عندنا أنه تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين الشُّوارع طاهر، وأن الوضوء من أواني المشركين جائز، وأن الصلاة في المقابر المنبوشة جائزة، فنثبت هذا أوّلاً ثم نقيس ما نحن فيه عليه، ويدل على ذلك ترضرً رسول الله ﷺ من مزادة مشركة، وتوضؤ عمر رضى الله عنه من جرّة نصرانية مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون عما نجسه شرعنا، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم؟ بل نقول: نعلم قطعاً أنهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة، ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة، وأنَّ الطهارة في تلك الثياب محال أو نادر، بل نقول: نعلم أنهم كانوا يأكلون خبز البر والشعير ولا يغسلونه مع أنه يداس بالبقر والحيوانات وهي تبول عليه وتروث وقلما يخلص منها، وكانوا يركبون الدواب وهي تعرق وما كانوا يغسلون ظهورها مع كثرة تمرَّغها في النجاسات، بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لا تزيلها وما كان يحترز عنها، وكانوا يمشون حفاة في الطرق وبالنعال ويصلون معها ويجلسون على التراب ويمشون في الطين من غير حاجة، وكانوا لا يمشون في البول والعذرة ولا يجلسون عليهما ويستنزهون منه، ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة الكلاب وأبوالها وكثرة الدواب وأرواثها؟ ولا ينتغي أن نظن أن الأعصار أو الأمصار تختلف في مثل هذا حتى يظن أن الشوارع كانت تغسل في عصرهم أو كانت تحرس من الدواب، هيهات، فذلك معلوم استحالته بالعادة قطعاً فدل على أنهم لم يحترزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين. فأما الظن الغالب الذي يستثار من رد الدراهم إلى مجاري الأحوال فلم يعتبروه، وهذا عند الشافعي رحمه الله، وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع؛ إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضؤون من الحياض وفيها المياه القليلة والأيدي المختلفة تغمس فيها على الدوام، وهذا قاطع في هذا الغرض ـ ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحق حكم الحل بحكم النجاسة.

فإن قيل: لا يجوز قياس الحل على النجاسة؛ إذ كانوا يتوسعون في أمور الطهارات ويحترزون من شبهات الحرام غاية التحرز فكيف يقاس عليها؟ قلنا: إن أريد به أنهم صلوا معها مع النجاسة والصلاة معها معصية وهي عماد الدين فبئس الطن، بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احترزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها، وإنما تسامحوا حيث لم يجب، وكان في محل تسامحهم هذه الصورة التي تعارض فيها الأصل والغالب، فبان أن الغالب الذي لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح، وأما تورعهم في الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس؛ لأنّ أمر الأموال مخوف والنفس

تميل إليها إن لم تضبط عمها، وأمر الطهارة ليس كذلك؛ فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه. وقد حكى عن واحد منهم أنه احترز من الوضوء بماء البحر وهو الطهور المحض، فالافتراق في ذلك لا يقدح في الغرض الذي أجمعنا فيه، على أنا نجري في هذا المستند على الجواب الذي قدَّمنا في المستندين السابقين، ولا نسلم ما ذكروه من أنَّ الأكثر هو الحرام، لأنَّ المال وإن كثرت أصوله فليس بواجب أن يكون في أصوله حرام، بل الأموال الموجودة اليوم مما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض، وكما أن الذي يبتدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى ما لا يغصب ولا يسرق، فهكذا كل مال في كل عصر وفي كل أصل، فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول في كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل. ولسنا ندري أنّ هذا الفرع بعينه من أي القسمين؟ فلا نسلم أن الغالب تحريمه فإنه كما يزيد المغصوب بالتوالد يزيد غير المغصوب بالتوالد، فيكون فرع الأكثر لا محالة في كل عصر وزمان أكثر، بل الغالب أن الحبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر، وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتني للتوالد، فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر، ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام؟ وليتفهم المسترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فإنه مزلة قدم وأكثر العلماء يغلطون فيه، فكيف العوام؟ هذا في المتولدات من الحيوانات والحبوب، فأما المعادن فإنها مخلاة مسبلة بأخذها في بلاد الترك وغيرها من شاء، ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا محالة لا الأكثر، ومن حاز من السلاطين معدناً فظلمه يمنع الناس منه، فأما ما يأخذه الآخذ منه فيأخذه من السلطان بأجرة، والصحيح: أنه يجوز الاستنابة في إثبات اليد على المباحات والاستئجار عليها، فالمستأجر على الاستقاء إذا حاز الماء دخل في ملك المستقى له واستحق الأجرة، فكذلك النيل، فإذا فرعنا على هذا لم تحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة، ثم لا يوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظالماً ببقاء الأجرة في ذمته، وأما دار الضرب فليس الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذي غصبه وظلم به الناس، بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو النقد الرديء ويستأجرونهم على السبك والضرب، ويأخذون مثل وزن ما سلموه إليهم إلا شيئاً قليلاً يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز، وإن فرض دنانير مضروبة من دنانير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لا محالة، نعم السلطان يظلم أجراء دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان، فما يأخذه السلطان عوض عن حشمته وذلك من باب الظلم، وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرح من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة ما يخرح منه من المائة واحد وهو عشر العشير، فكيف يكون هو الأكثر؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم، وتشمر لتزيينها جماعة ممن رق دينهم حتى قبحوا الورع وسدّوا بابه، واستقبحوا تمييز من يميز بين مال ومال، وذلك عين البدعة والضلال.

فإن قيل: فلو قدر غلبة الحرام وقد اختلط غير محصور بغير محصور فماذا تقولون فيه إذا لم يكن في العين المتناولة علامة خاصة؟ فنقول: الذي نراه أن تركه ورع وأن أخذه ليس بحرام؛ لأن الأصل لحل ولا يرفع إلا بعلامة معينة كما في طين الشوارع ونظائرها. بل أزيد وأقول: لو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقيناً أنه لم يبق في الدنيا حلال لكنت أقول: نستأنف تمهيد الشروط من وقتنا ونعفو عما سلف، ونقول ما جاوز حده انعكس إلى ضدّه، فمهما حرم الكل حل الكل. ويرهانه: أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاحتمالات خمسة:

أحدها: أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم.

الثاني: أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسدّ الرمق يزجون عليها أياماً إلى الموت.

الثالث: أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاؤوا سرقة وغصباً وتراضياً، من غير تمييز بين مال وجهة وجهة.

الرابع: أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة.

اللخامس: أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة.

أما الأول: فلا يخفي بطلانه.

وأما الثاني: فباطل قطعاً؛ لأنه إذا اقتصر الناس على سدّ الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشا فيهم الموتان وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيا بالكلية _ وفي خراب الدنيا خراب الدين، لأنها مزرعة الآخرة _ وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا ليتم بها مصالح الدين.

وأما الثالث: وهو الاقتصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالغصب والسرقة والتراضي وكيفما اتفق، فهو رفع لسد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد، فتمتد الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون: ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا فإنه حرام عليه وعلينا، وذو اليد له قدر الحاجة فقط، فإن كان هو محتاجاً فإنهم أيضاً محتاجون، وإن كان الذي أخذته في حقي زائداً على الحاجة فقد سرقته ممن هو زائد على حاجته يومه، وإذا لم يراع حاجة اليوم والسنة فما الذي يراعى وكيف يضبط؟ وهذا يؤدي إلى بطلان سياسة الشرع وإغراء أهل الفساد بالفساد.

فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو: أن يقال كل ذي يد على ما في يده وهو أولى به لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصباً، بل يؤخذ برضاه والتراضي هو طريق الشرع، وإذ لم يجز إلا بالتراضي فللتراضي أيضاً منهاج في الشرع تتعلق به المصالح، فإن لم يعتبر فلم يتعين أصل التراضي وتعطل تفصيله؟

وأما الاحتمال الخامس: وهو الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي فهو الذي نراه لائقاً بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة، ولكن لا وجه لإيجابه على الكافة ولا لإدخاله في فتوى العامة؛ لأن أيدي الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدي الناس وكذا أيدي السراق، وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول: لا حق له إلا في قدر الحاجة وأنا محتاج، ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدي الملاك، ويستوعب بها أهل الحاجة ويدر على الكل الأموال ـ يوما فيوما أو سنة فسنة ـ وفيه تكليف شطط وتضييع أموال، أما تكليف الشطط: فهو أن السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق، بل لا يتصوّر ذلك أصلاً، وأما التضييع: فهو أن ما فضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغي أن يلقى في البحر أو يترك حتى يتعفن؛ فإن الذي خلقه الله من العواكه والحبوب زائد عن قدر توسع المخلق وترفههم فكيف على قدر حاجتهم؟ ثم يؤدي ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة نيطت بالغنى عن الناس، إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم وهو في غاية القبح، بل أقول: لو ورد نبي في مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر، ويمهد تفصيل أسباب الأملاك بالتراضي وساثر الطرق، ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالاً من غير فرق. وأعني بقولي: بالتراضي وساثر الطرق، ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالاً من غير فرق. وأعني بقولي: بالتراضي وساثر الطرق، ويفعل ما يفعله لو وجد جميع الأموال حلالاً من غير فرق. وأعني بقولي:

يجب عليه، إذا كان النبي ممن بعث لمصلحة الخلق في دينهم ودنياهم؛ إذ لا يتم الصلاح بزد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه، فإن لم يبعث للصلاح لم يجب هذا. ونحن نجوّز أن يقدّر الله سبباً يهلك به الخلق عن آخرهم فيقوت دنياهم ويضلون في دينهم، فإنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويميت من يشاء ويحيي من يشاء، ولكما نقدّر الأمر حارياً على ما ألف من سنة الله تعالى في بعثه الأنبياء لصلاح الدين والدنيا. وما لي أقدّر هذا وقد كان ما أقدّره؛ فلقد بعث الله نبينا ﷺ على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة، والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبدة الأوثان وإلى مصدّقين له قد شاع الفسق فيهم كما شاع في زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة. والأموال كانت في أيدي المكذبين له والمصدقين، أما المكذبون: وكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام. وأما المصدِّقون: فكانوا يتساهلون مع أصل التصديق، كما يتساهل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراماً. وعفا ﷺ عما سلف ولم يتعرَّض له وخصص أصحاب الأيدي بالأموال ومهد الشرع، وما ثبت تحريمه في شرع لا ينقلب حلالاً لبعثة رسول، ولا ينقلب حلالاً بأن يسلم الذي في يده الحرام، فإنا لا نأخذ في الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ثمن خمر أو مال ربا؟ فقد كانت أموالهم في ذلك الزمان كأموالنا الآن، وأمر العرب كان أشدّ لعموم النهب والغارة فيهم. قبان أن الاحتمال الرابع متعين في الفتوى، والاحتمال الخامس هو طريق الورع، بل تمام الورع: الاقتصار في المباح على قدر الحاجة، وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة. ونحن الآن نتكلم في الفقه المنوط بمصالح الخلق، وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقنضى المصالح وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد، ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النطام وخرب العالم، فإن ذلك طلب ملك كبير في الآخرة، ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدبيا وتركوا الحرف الدنيئة والصناعات الخسيسة لبطل النظام ثم يبطل ببطلانه الملك أيضاً. فالمحترفون إنما سخروا لينتظم الملك للملوك، وكدلك المقبلون على الدنيا سخروا ليسلم طريق الدين لذوي الدين وهو ملك الآخرة، ولولاه لما سلم لذوي الدين أيضاً دينهم فشرط سلامة الدين لهم: أن يعرض الأكثرون عن طريقهم ويشتغلوا بأمور الدنيا، وذلك قسمة سبقت بهاً المشيئة الأزلية وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿غَنُّ قَسَمْنَا بَيْهُم مَّعِيشَتُهُمْ فِي ٱلْحَيَوْةِ ٱلدُّنيَّأَ وَرَفَعْنَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتِ لِيَنَدُخِذَ بَعَثُتُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخوف: ٣٢].

فإن قيل: لا حاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لا يبقى حلال فإن ذلك غير واقع وهو معلوم ولا شك في أن البعض حرام، وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر، وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى الكل جلي، ولكن لا بدّ من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح المرسلة، وما ذكرتموه من التقسيمات كلها مصالح مرسلة فلا بدّ لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولاً بالاتفاق، فإن بعض العلماء لا يقبل المصالح المرسلة؟.

قاقول: إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفينا برهاناً عصر رسول الله ﷺ والصحابة مع وجود الربا والسرقة والغلول والنهب، وإن قدر زمان يكون الأكثر الحرام هو فبحل التناول أيضاً فبرهانه ثلاثة أمور:

الأوّل: التقسيم الذي حصرناه وأبطلنا منه أربعة وأثبتنا القسم الخامس فإن ذلك إذا أجري فيما إذا كان الكل حراماً كان أحرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل، وقول القائل، هو مصلحة مرسلة: هوس، فإن ذلك إنما تخيل من تخيله في أمور مظنونة وهذا مقطوع به، فإنا لا نشك في أن مصلحة الدين

إحياء عُلوم الدّين

والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة، وليس بمظنون ولا شك في أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الحشيش والصيد مخرب للدنيا أوّلاً، وللدين بواسطة الدنيا ثانياً، فما لا يشك فيه لا يحتاج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الخيالات المظنونة المتعلقة بآحاد الأشخاص.

البرهان الثاني: أن يعلل بقياس محرّر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالأقيسة الجزئية عليه، وإن كانت الجزئيات مستحقرة عند المحصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلي الذي هو ضرورة النبي لو بعث في زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لخرب العالم، والقياس المحرّر الجزئي هو أنه قد تعارض أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات المعينة من الأمور التي ليست محصورة، فيحكم بالأصل لا بالغالب قياساً على طين الشوارع وجرّة النصرائية وأواني المشركين، وذلك قد أثبتناه من قبل يفعل الصحابة، وقولنا: انقطعت العلامات المعينة، احتراز عن الأواني التي يتطرّق الاجتهاد إليها. وقولنا: ليست محصورة، احتراز عن التباس الميتة والرضيعة بالذكية والأجنبية.

فإن قيل: كون الماء طهوراً مستيقن وهو الأصل، ومن يسلم أن الأصل في الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم؟

فنقول: الأمور التي لا تحرم لصفة في عينها حرمة الخمر والخنزير خلقت على صفة تستعد لقبول المعاملات بالتراضي كما خلق الماء مستعداً للوضوء، وقد وقع الشك في بطلان هذا الاستعداد منهما فلا فرق بين الأمرين فإنها تخرج عن قبول المعاملة بالتراضي بدخول الظلم عليها، كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول النجاسة عليه ولا فرق بين الأمرين. والجواب الثاني: أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب، وأقوى منه بدليل أن الشرع ألحقه به؛ إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل براءة ذمته وهذا استصحاب. ومن ادعى عليه ملك في يده فالقول أيضاً قوله إقامة لليد مقام الاستصحاب، فكل ما وجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على خلافه علامة معينة.

البرهان الثالث: هو أن كل ما دل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين لم يعتبر، وإن كان قطعاً فبأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى، وبيانه: أن ما علم أنه ملك زيد فحقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه، ولو علم أن له مالكاً في العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصد لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة، ولو دل على أن له مالكاً محصوراً في عشرة مثلاً أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة، فالذي يشك في أن له مالكاً سوى صاحب اليد أم لا؟ لا يزيد على الذي يتيقن قطعاً أن له مالكاً، ولكن لا يعرف عينه فليجز التصرف فيه بالمصلحة، والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة، فيكون هذا الأصل شاهداً له، وكيف لا وكل مال ضائع فقد مالكه يصرفه السلطان إلى المصالح، ومن المصالح الفقراء وغيرهم، فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه، فلو سرقه منه سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه في ملك الغير؟ ليس ذلك إلا لحكمنا بأن المصلحة تقتضى أن ينتقل الملك إليه ويحل له، فقضينا بموجب المصلحة.

فإن قيل: ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان؟ فنقول: والسلطان لم يجوز له التصرف في ملك غيره بغير إذنه لا سبب له إلا المصلحة، وهو أنه لو ترك لضاع فهو مردد بين تضييعه وصرفه إلى مهم، والصرف إلى مهم أصلح من التضييع فرجع عليه، والمصلحة فيما يشك فيه ولا يعلم تحريمه أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي؛ إذ انتزاعها بالشك وتكليفهم الاقتصار على الحاجة يؤدي إلى الضرر الذي ذكرناه، وجهات المصلحة تختلف فإن السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبني بذلك المال

قنطرة، وتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام، وتارة إلى الفقراء ويدور مع المصلحة كيفما دارت، وكذلك الفتوى في مثل هذا تدور على المصلحة، وقد خرج من هذا: أن الخلق غير مأخوذين في أعيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دلالة في ملك الأعيان كما لم يؤاخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بعلمهم أن المال له مالك حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه، ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملاك في هذا المعنى، فهذا بيان شبهة الاختلاط، ولم يبق إلا النظر في امتزاج الماتعات والدراهم والعروض في يد مالك واحد وسيأتي بيانه في باب تقصيل طريق الخروج من المظالم.

المثار الثالث للشبهة: أن يتصل بالسبب المحلل معصية:

إما في قرائنه وإما في لواحقه وإما في سوابقه أو في عوضه، وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد وإيطال السبب المحلل.

مثال المعصية في القرائن: البيع في وقت النداء يوم الجمعة، واللبح بالسكين المغصوبة، والاحتطاب بالقدّوم المغصوب، والبيع على بيع الغير، والسوم على سومه، فكل نهي ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأساليب محكوماً بتحريمه. وتسمية هذا النمط شبهة فيه تسامح؛ لأن الشبهة في غالب الأمر تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ولا اشتباه ههنا، بل العصيان باللبح بسكين الغير معلوم، وحل الذبيحة أيضاً معلوم، ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه، والكراهة تشبه التحريم. فإن أريد بالشبهة هذا فتسمية هذا شبهة له وجه، وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لا شبهة، وإذا عرف المعنى فلا مشاحة في الأسامي، فعادة الفقهاء التسامح في الإطلاقات. ثم اعلم: أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات: الأولى منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم، والأخيرة تنتهي إلى نوع من المبالغة تكاد تلتحق بورع الموسوسين، وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين، فالكراهة في صيد كلب مفصوب أشد منها في اللبيحة بسكين مغصوب أو المقتنص بسهم مغصوب؛ إذ الكلب له اختيار. وقد اختلف في أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصياد، ويليه شبهة البذر المزروع في الأرض المغصوبة، فإنَّ الزرع لمالك البذر ولكن فيه شبهة، ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الأرض في الزرع لكان كالثمن الحرام، ولكن الأقيس أن لا يثبت حق حبس؛ كما لو طحن بطاحونة مغصوبة؛ واقتنص بشبكة مغصوبة إذ لا يتعلق حق صاحب الشبكة في منفعتها بالصيد، ويليه الاحتطاب بالقدوم المغصوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المغصوب؛ إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الذبيحة، ويليه البيع في وقت النداء؛ فإنه ضعيف التعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد؛ إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه، ولو أفسد البيع بمثله لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة أو صلاة فائتة وجوبها على الفور، أو في ذمته مظلمة دانق، فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجبات فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء، وينجر ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلمة وكل من في دُمته درهم؛ لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه، إلا من حيث ورد في يوم الجمعة نهي على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ولا بأس بالحذر منه، ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يتحرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر معاملاتهم.

وقد حكي عن بعضهم أنه اشترى شيئاً من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة، فرده خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء، وهذا غاية المبالغة أنه رد بالشك. ومثل هذا الوهم في تقدير المناهي أو المفسدات لا ينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام، والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حد معلوم، فقد قال ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطَّعُونَ» فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه، فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا؛ إذ ضيّق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فاطرحوه، فكما أن الموسوس في الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها، فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال.

وأما مثال اللواحق: فهو كل تصرف يفضي في سياقه إلى معصية. وأعلاه بيع العنب من الخمار، وبيع الغلام من المعروف بالفجور بالغلمان، وبيع السيف من قطاع الطريق. وقد اختلف العلماء في صححة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه. والأقيس: أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصى بالذبح بالسكين المغصوب والذبيحة حلال، ولكنه يعصى عصيان الإعانة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد، فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم وليس بحرام، ويليه في الرتبة: بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خماراً، وبيع السيف ممن يغزو ويظلم أيضاً لأن الاحتمال قد تعارض، وقد كره السلف بيع السيف في وقت الفتنة؛ خيفة أن يشتريه ظالم فهذا ورع فوق الأول والكراهية فيه أخف، ويليه ما هو مبالغة ويكاد يلتحق بالوسواس؛ وهو قول جماعة أنه لا تجوز معاملة الفلاحين بآلات الحرث، لأنهم يستعينون بها على الحراثة، ويبيعون الطعام من الظلمة ولا يباع منهم البقر والفدان وآلات الحارث، وهذا ورع الوسوسة؛ إذ ينجز إلى أن لا يباع من الفلاح علم من على الحراثة ولا يسقى من الماء العام لذلك، وينتهي هذا إلى حد التنطع المنهي على من على العرف به على الحراثة ولا يسقى من الماء العام لذلك، وينتهي هذا إلى حد التنطع المنهي عنه ما يكون بدعة في الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير، ولهذا قال قدم على ما يكون بدعة في الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير، ولهذا قال قدم على ما يكون المابيد كفضلي العابد كفضلي قبل قيهم أن العالم عنه قبل فيهم أن يكونوا ممن قبل فيهم: ﴿ الْكِنْ مَنْ الْمَائِرُ الْمَائِرُ مُنْ الْمَائِرُ الْمَائِرُ مُنْ الْمَائِرُ مُنْ الْمَائِرُ مُنْ الْمَائِرُ مُنْ الْمَائِرُ مَنْ الْمائِرُ مُنْ الْمَائِلُ مَنْ الْمائِلُ الْمَائِد من قبل فيهم: ﴿ اللَّهِ اللَّهِ الْمَائِلُ الْم

وبالجملة: لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن؛ فإنه إذا جاوز ما رسم وتصرف بذهنه من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، وقد روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه أحرق كرمه خوفاً من أن يباع العنب ممن يتخذه خمراً. وهذا لا أعرف له وجهاً إن لم يعرف هو سبباً خاصاً يوجب الإحراق؟ إذما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدراً منه من الصحابة، ولو جاز هذا لجاز قطع الذكر خيفة من الزني، وقطع اللسان خيفة من الكذب، إلى غير ذلك من الإتلافات.

وأما المقدمات: فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات:

الدرجة العليا: التي يشتد الكراهة فيها: ما بقي أثره في المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب أو رعت في مرعى حرام، فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائها وربما يكون الباقي من دمها ولحمها وأجزائها من ذلك العلف، وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجباً، ونقل ذلك عن جماعة من

 ⁽١) حديث: العلك المتنظمون أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود، وتقدم في قواعد العقائد.

 ⁽٢) حديث: ففضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي، تقدم في العلم

السلف. وكان لأبي عبدالله الطوسي التروغندي شاة يحملها على رقبته كل يوم إلى الصحراء ويرعاها وهو يصلي وكان يأكل من لبنها فغفل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان فتركها في البستان ولم يستحل أخذها.

فإن قيل: فقد روي عن عبدالله بن عمرو وعبيدالله أنهما اشتريا إبلاً فبعثاها إلى الحمى فرعته إبلهما حتى سمنت، فقال عمر رضي الله عنه: أرعيتماها في الحمى؟ فقالا: نعم؟ فشاطرهما. فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف فليوجب هذا تحريماً.

قلنا: ليس كذلك، فإن العلف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين العلف فلا شركة لصاحب العلف شرعاً، ولكن عمر غرَّمهما قيمة الكلا ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد، كما شاطر سعد بن أبي وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة، وكذلك شاطر أبا هريرة رضي الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافياً على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهاداً.

الرتبة الوسطى: ما نقل عن بشر بن الحارث من امتناعه عن الماء المساق في نهر احتفره الظلمة، لأن النهر موصل إليه وقد عصي الله بحفره. وامتنع آخر عن عنب كرم يسقى بماء يجري في نهر حفر ظلماً وهو أرفع منه وأبلغ في الورع. وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين في الطرق. وأعلى من ذلك امتناع ذي النون من طعام حلال أوصل إليه على يد سجان، وقوله: إنه جاءني على يد ظالم، ودرجات هذه الرتب لا تنحصر.

الرتبة الثالثة: وهي قريب من الوسواس والمبالغة: أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصى الله بالزني أو القذف وليس هو كما لو عصى بأكل الحرام، فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزني والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحمل، بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس، بخلاف أكل الحرام؛ إذ الكفر لا يتعلق بحمل الطعام. وينجر هذا إلى أن لا يؤخذ من يد من عصى الله ولو بغيبة أو كذبة وهو غاية التنطع والإسراف، فليضبط ما عرف من ورع ذي النون وىشر بالمعصية في السبب الموصل كالنهر وقوة اليد المستفادة بالغذاء الحرام. ولو امتنع عن الشرب بالكوز لأن صانع الفخار الذي عمل الكوز كان قد عصى الله يوماً بضرب إنسان أو شتمه لكان هذا وسواساً. ولو امتنع من لحم شاة ساقها آكل حرام فهذا أبعد من يد السجان؛ لأن الطعام يسوقه قوة السجان والشاة تمشى بنفسها والسائق يمنعها عن العدول في الطريق فقط فهذا قريب من الوسواس. فانظر كيف تدرّجنا في بيان ما تتداعى إليه هذه الأمور. واعلم: أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر، فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التي يمكن تكليف عامة الخلق بها، ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ما عداه من ورع المتقين والصالحين. والفتوى في هذا ما قاله ﷺ لوابصة إذ قال: ﴿اسْتَفْتِ قُلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ»، وعرف ذلك إذ قال: «الإِثْمُ حَرَّازُ القُلُوبِ» (١٠ وكل ما حاك في صدر المريد من هذه الأسباب فلو أقدم عليه مع حزازة القلب استضر به وأظلم قلبه يقدر الحزازة التي يجدها، بل لو أقدم على حرام في علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك في قساوة قلبه، ولو أقدم على ما هو حلال في فتوى علماء الظاهر ولكنه يجد حزازة في قلبه فذلك يضره. وإنما الذي ذكرناه في النهي عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حزازة في مثل تلك الأمور، فإن مال قلب موسوس

 ⁽١) حديث: «الإثم حزاز القلوب» تقدم في العلم.

عن الاعتدال ووجد الحزازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره؛ لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه. وكذلك يشدد على الموسوس في الطهارة ونية الصلاة؛ فإنه إذا غلب على قلبه أن الماء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة عليه، فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار دلك حكماً في حقه وإن كان مخطئاً في نفسه، أولئك قوم شددوا فشدد الله عليهم، ولذلك شدّ على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا في السؤال عن البقرة، ولو أخذوا أوّلاً بعموم لفظ البقرة وكل ما ينطلق عليه الاسم لأجزأهم ذلك. فلا تغفل عن هذه الدقائق التي رددناها نفياً وإثباتاً، فإن من لا يطلع على كنه الكلام ولا يحيط بمجامعه يوشك أن يزل في درك مقاصده.

وأما المعصية في العوض فله أيضاً درجات:

الدرجة العليا: التي تشتد الكراهة فيها: أن يشتري شيئاً في الذمة ويقضي ثمنه من غصب أو مال حرام فينظر؛ فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبلٌ قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع ـ أعني قبل قضاء الثمن ـ، ولا هو أيضاً من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكأنه لم يقض الثمن، ولو لم يقضه أصلاً لكان متقلداً لَلمظلمة بترك ذمته مرتهنة بالدين ولا ينقلب ذلك حراماً. فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلمة تصرفه في الدراهم الحرام بصرفها إلى البائع، وإن أبرأه على ظن أنَّ الثمن حلال فلا تحصل البراءة؛ لأنه يبرئه مما أخذه إبراء استيفاء ولا يصلح ذلك للإيفاء. هذا حكم المشتري والأكل منه وحكم الذمة. وإن لم يسلم إليه بطيب قلب ولكن أخذه فأكله حرام؛ سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده، لأن الذي تومىء الفترى به ثبوت حق الحبس للبائع حتى يتعين ملكه بإقباض النقد كما تعين ملك المشتري، وإنما يبطل حق حبسه إما بالإبراء أو الاستيفاء ولم يجر شيء منهما ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام إذا أكله بغير إذن المرتهن، وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن أصل التحريم شامل، هذا كله إذا قبض قبل توفية الشمن إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه. فأما إذا وفي الثمن الحرام أولاً ثم قبض؛ فإن كان البائع عالماً بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض المبيع بطل حق حبسه ويقي له الثمن في ذمته؛ إذ ما أخذه ليس بثمن ولا يصير أكل المبيع حراماً بسبب بقاء الثمن، فأما إذا لم يعلم أنه حرام وكان بحيث لو علم لما رضي به ولا أقبض المبيع فحق حبسه لا يبطل بهذا التلبيس فأكله حرام تحريم أكله المرهون إلى أن يبرئه أو يوفى من حلال، أو يرضى هو بالحرام ويبرىء، فيصح إبراؤه ولا يصح رضاه بالحرام.

فهذا مقتضى الفقه وبيان الحكم في الدرجة الأولى من الجلّ والحرمة، فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم؛ لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشتد الكراهية فيه كما سبق. وأقوى الأسباب الموصلة الثمن ولولا الثمن الحرام لما رضي الله البائع بتسليمه إليه؛ فرضاه لا يخرجه عن كونه مكروها كراهية شديدة، ولكن العدالة لا تنخرم به وتزول به درجة التقوى والورع. ولو اشترى سلطان مثلاً ثرباً أو أرضاً في الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن وسلمه إلى فقيه أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك في أنه سيقضي ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخف؛ إذ وقع الشك في تطرق المعصية إلى الثمن وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقلته في مال ذلك السلطان، وما يغلب على الظن فيه، وبعضه أشد من بعض والرجوع فيه إلى ما ينقدح في القلب.

الرتبة الوسطى: أن لا يكون العوض غصباً ولا حراماً ولكن يتهيأ لمعصية، كما لو سلم عوضاً عن الثمن عنباً والآخذ شارب الخمر، أو سيفاً وهو قاطع طريق؛ فهذا لا يوجب تحريماً في مبيع اشتراه في المنمة ولكن يقتضي فيه كراهية دون الكراهية التي في الغصب. وتتفاوت درجات هذه الرتبة أيضاً بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن وندوره، ومهما كان العوض حراماً فبذله حرام وإن احتمل تحريمه، ولكن أبيح بظن فبذله مكروه وعليه ينزل عندي النهي عن كسب الحجام وكراهته (١٠). إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يعلف الناضع (٢)، وما سبق إلى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد؛ إذ يجب طرده في العباغ والكناس ولا قائل به، وإن قيل به فلا يمكن طرده في القصاب إذ كيف يكون كسبه مكروها وهو بدل عن اللحم، واللحم في نفسه غير مكروه، ومخامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد؛ فإن الحجام يأخذ الدم بالمحجمة ويمسحه بالقطنة، ولكن السبب أن في الحجامة والمصد تخريب بنية الحيوان وإخراجها لدمه وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم، وإنما يحل بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة بحدس واجتهاد، وربما يظن نافعاً ويكون ضاراً فيكون حراماً عند الله تعالى، ولكن يحكم بحله بالظن والحدس. ولذلك لا يجوز للفصاد فصد صبي وعبد ومعتوه إلا بإذن وليه ولكن يحكم بحله بالظن والحدس. ولذلك لا يجوز للفصاد فصد صبي وعبد ومعتوه إلا بإذن وليه وتول طبيب، ولولا أنه حلال في الظاهر لما أعطى عليه السلام أجرة الحجام (٢٠)، ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى. وهذا كان ينبغي أن نذكره في القرائن المقرونة بالسبب فإنه أقرب إليه.

الرتبة السفلى: وهي درجة الموسوسين، وذلك أن يحلف إنسان على أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوباً؛ فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة. وروي عن المغيرة أنه قال في هذه الواقعة: لا يجوز، واستشهد بأن النبي على قال: اللَّمَنَ الله اليَهُودَ حُرِّمَتَ عَلَيْهِم الخُمُورُ فَبَاعُوهَا وَأَكُلُوا اللَّهَانَهَا لا يجوز، واستشهد بأن النبي النبل الإلى المثل المحمر منفعة في الشرع وثمن البيع الباطل حرام، وهذا علط لأن بيع الخمور باطل إله إلى الرجل جارية هي أخته من الرضاع فتباع بجارية أجنبية حرام، وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هي أخته من الرضاع فتباع بجارية أجنبية فليس لأحد أن يتورع منه، وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف في هذا الطرف. وقد عرفنا جميع المدرجات وكيفية التدريج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا ينحصر في ثلاث أو أربع ولا في عدد، ولكن المقصود من التعديد التقريب والتفهيم.

المحليث النهي عن كسب الحجام وكراهته، رواه ابن ماجه من حديث أبي مسعود الأنصاري، والنسائي من حديث أبي هريرة بإسنادين صحيحين: النهى رسول الله عن كسب الحجام، وللبخاري من حديث أبي جحيفة: النهى عن ثمن الدم، ولمسلم من حديث رافع بن خديج: اكسب الحجام خبيث.

 ⁽٢) حديث: «نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح»، رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث محيصة أنه استأذن النبي ﷺ في إجارة الحجام، فنهاه عنها، فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال: «أهلقه ناضحك وأطعمه وقيمك»، وفي رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال: «ألا أطعمه أيتاماً لي، قال: «لا»، قال: أتصدق به؟ قال: «لا» فرخص له أن يعلفه ناضحه».

٣) حديث: (أعطى رسول الله ﷺ أجرة الحجام»، متفق عليه من حديث ابن عباس.

خليث المغيرة: «أن النبي ﷺ لعن اليهود إذ حرمت عليهم الخمور فباعوها». لم أجده هكذا، والمعروف أن ذلك
 في الشحوم، ففي الصحيحين من حديث جابر ' «قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه
 فأكلوا ثمته».

ذإن قيل: فقد قال على الشَّرَىٰ قَوْباً بِمَشَرَةِ دَرَاهِمَ فِيهَا دِرْهَمْ حَرَامٌ لَمْ يَقْبَلِ الله لَهُ صَلاَةً مَا كَانَ حَلَيْهِ (١) ثم أدخل ابن عمر أصبعيه في أذنيه وقال: صُمَّتًا إن لم أكن سمعته منه. قلنا: ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا في الذمة، وإذا اشترى في الذمة فقد حكمنا بالتحريم في أكثر الصور فليحمل عليها، ثم كم من ملك يتوعد عليه بمنع قبول الصلاة لمعصية تطرقت إلى سببه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالمشتري في وقت النداء وغيره.

المثار الرابع: الاختلاف في الأدلة:

فإن ذلك كالاختلاف في السبب؛ لأن السبب سبب لحكم الحل والحرمة. والدليل سبب لمعرفة الحل والحرمة في نفسه وإن جرى سببه في والحرمة فهو سبب في علم الله، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض العلامات الدالة أو لتعارض التشابه.

القسم الأول: أن تتعارض أدلة الشرع: مثل تعارض عمومين من القرآن أو السنة أو تعارض قياسين أو تعارض قياسين وعموم. وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح، فإن ظهر ترجيح في جانب الحظر وجب الأخذ به، وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخد به ولكن الورع تركه. واتقاء مواضع المخلاف مهم في الورع في حق المفتي والمقلد. وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلّه الذي يظن أنه أفضل علماء بلده، ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقرائن وإن كان لا يحسن الطب. وليس للمستفتي أن ينتقد من المذاهب أوسعها عليه، بل عليه أن يبحث حتى يغلب على ظنه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلاً، نعم، إن أفتى له إمامه بشيء ولإمامه فيه مخالف فالفرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد، وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحدس وتخمين وظن فالورع له الاجتناب. فلقد كان المفتون يفتون بحل أشياء لا يقدمون عليها قط تورعاً منها وحذراً من الشبهة فيها. فلنقسم هذا أيضاً على ثلاث مراتب:

⁽١) حديث: امن اشترى ثوباً بعشرة دراهم. . . الحديث. تقدم في الباب قبله.

 ⁽۲) حديث: ﴿إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبُكُ وَذَكُرتَ أَسَمَ اللهُ فَكُلُ * متفق عليه من حديث عدي بن حاتم، ومن حديث أبي ثعلبة الخشني.

 ⁽٣) حديث: «التسمية على الذرح»، متفق عليه من حديث رافع بن خديج الما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا، ليس السن والظفر».

تُعَالَىٰ سَمِّىٰ أَوْ لَمْ يُسَمِّ اللهِ واحتمل أن يكون هذا عاماً موجباً لصرف الآية وسائر الأحبار عن ظواهرها، ويحتمل أن يخصص هذا بالناسي ويترك الظواهر ولا تأويل، وكان حمله على الناسي ممكناً تمهيداً لعذره في ترك التسمية بالنسيان، وكان تعميمه وتأويل الآية ممكناً إمكاناً أقرب، رجحنا ذلك. ولا ننكر رفع الاحتمال المقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع في الدرجة الأولى.

الرتبة الثانية: وهي مزاحمة لدرجة الوسواس؛ أن يتوزع الإنسان عن أكل الجنين الذي يصادف في بطن الحيوان المذبوح وعن الضب. وقد صح في الصحاح من الأخبار حديث الجنين: إن ذكاته ذكاة أمه (٢) صحة لا يتطرّق احتمال إلى متنه ولا ضعف إلى سنده، وكذلك صح أنه أُكِلَ الضب على مائدة رسول الله في الصحيحين. وأظن أنّ أبا حنيفة لم تبلغه هذه الأحاديث ولو بلغته لقال بها وإن أنصف، وإن لم ينصف منصف فيه كان خلافه غلطاً لا يعتد به ولا يورث شبهة، كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد.

الرتبة الثالثة: أن لا يشتهر في المسألة خلاف أصلاً ولكن يكون الحل معلوماً بخبر الواحد فيقول القائل: قد اختلف الناس في خبر الواحد فمنهم من لا يقبله فأنا أتورّع. فإن النقلة وإن كانوا عدولاً فالغلط جائر عليهم والكذب لغرض خفي جائز عليهم، لأن العدل أيضاً قد يكذب والوهم جائز عليه؛ فإنه قد يسبق إلى سمعهم خلاف ما يقوله القائل وكذا إلى فهمهم، فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعونه من عدل تسكن نفوسهم إليه. وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة في حق الراوي فللتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلاً. وخلاف من خالف في أخبار الآحاد غير معتذ به وهو كخلاف النظام في أصل الإجماع. وقوله: إنه ليس بحجة. ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يمتنع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبي الأب، ويقول ليس في كتاب الله ذكر إلا للبنين وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين والغلط عليهم جائز؛ إذ خالف النظام فيه، وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بعمومات القرآن؛ إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن العمومات لا صيغة لها وإنما يحتج بما فهمه الصحابة منها بالقرآئ والدلالات وكل ذلك وسواس، فإذن لا طرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو الصحابة منها بالقرآئ والدلالات وكل ذلك وسواس، فإذن لا طرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو

⁽١) حديث: «المؤمن يذبح على اسم الله سمَّى أو لم يسمُّه قال المصنف إنه صح.

قلت ' لا يعرف بهذا اللفظ فضلاً عن صحته ، ولأبي داود في المراسيل من رواية الصلت مرفوعاً: «ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر ا وللطبرائي في الأوسط، والدارقطني، وابن عدي، والبيهقي من حديث أبي هريرة. قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي الله، فقال: «اسم الله على كل مسلم قال ابن عدي: منكر، والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عباس: «المسلم يكفيه اسمه، فإن نسي أن يسمي حين يذبح فليسم وليذكر اسم الله ثم ليأكل فيه محمد بن سنان، ضعفه الجمهور.

⁽٣) حديث: ﴿ ذَكَاةَ الْمَجْنِينَ ذَكَاةَ أَمَهُ قَالَ المَصنَف: إنه صح صحة لا يتطرق احتمال إلى متنه ولا صحف إلى صنده، وأخذ هذا من إمام الحرمين، فإنه كذا قال في الأساليب، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي سعيد، والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح الإسناد، وليس كذلك، وللطبراني في الصغير من حديث أبن عمر بسند جيد. وقال عبدالحق: لا يحتج بأسانيدها كلها.

 ⁽٣) حديث: الكل الضب على مائدة رسول الله ﷺ قال المصنف: هو في الصحيحين، وهو كما ذكره من حديث ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد.

وإسراف فليفهم ذلك. ومهما أشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وليترك حزاز القلوب وحكاكات الصدور وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع، ولكن ينبغي أن يحفظ قلبه عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم إلا بالحق فلا ينطوي على حزازة في مظان الوسواس، ولا يخلو عن الحزازة في مظان الكراهة، وما أعز مثل هذا القلب، ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله(1).

القسم الثاني: تعارض العلامات الدالة على الحل والحرمة: فإنه قد ينهب نوع من المتاع في وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلاً في يد رجل من أهل الصلاح، فيدل صلاحه على أنه حلال ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام فيتعارض الأمران. وكذلك يخبر عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تتعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ، فإن ظهر ترجيح حُكم به والورع الاجتناب، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف. وسيأتي تفصيله في باب التعرّف والبحث والسؤال.

القسم الثالث: تعارض الأشباه في الصفات التي تناط بها الأحكام: مثاله: أن يوصي بمال للفقهاء فيعلم أنّ الفاضل في الفقه داخل فيه وأنّ الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه، وبينهما درجات لا تحصى يقع الشك فيها، فالمفتي يفتي بحسب الظن والورع الاجتناب، وهذا أغمض مثارات الشبهة، فإنّ فيها صوراً يتحير المفتي فيها تحيراً لازماً لا حيلة له فيه؛ إذ يكون المتصف بصفة في درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين لا يظهر له ميله إلى أحدهما. وكذلك الصدقات المصروفة إلى المحتاجين فإنّ من لا شيء له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غني ويتصدّى بينهما مسائل غامضة؛ كمن له دار وأثاث وثياب وكتب فإنّ قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب، ويتعدّى منه النظر في مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب، ويتعدّى منه النظر في مقدار سعة الدار وأبنيتها ومقدار لا من الصفر وعدها في وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دونها، وكذلك في نوع أثاث البيت إذا كان من الصفر لا من الخزف وكذلك في عددها وكذلك في قيمتهما وكذلك فيما لا يحتاج إليه كل يوم وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشناء وما لا يحتاج إليه إلا في سنين، وشيء من ذلك لا حدّ له.

والوجه في هذا ما قاله عليه السلام: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ»^(۲). كل ذلك في محل الريب؛ إن توقف المفتي فلا وجه إلا التوقف وهو أهم مواقع الورع. وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال؛ إذ فيه طرفان يعلم أن أحدهما قاصر وأن الآخر زائد وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال. والمطلع على الحاجات هو الله تعالى وليس للبشر وقوف على حدودها، فما دون الرطل المكي في اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم وما فوق ثلاثة أرطال زائد على الكفاية وما بينهما لا يتحقق له حدّ. فليدع الورع ما يريبه، وهذا جار في كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب؛ إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بحدود محدودة تنقطع أطرافها عن مقابلاتها؛ كلفظ السنة فإنه لا يحتمل ما دونها وما فوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقليرات، فليست الألفاظ اللغوية كذلك فلا لفظ في

 ⁽۱) حديث: «لم يرد كل أحد إلى فتوى قلبه» وإنما قال ذاك لوابصة، وتقدم حديث وابصة، وروى الطبراني من حديث واثلة أنه قال ذلك لواثلة أيضاً، وفيه العلاء بن ثعلبة مجهول.

 ⁽٢) حديث: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، تقدم في الباب قبله.

كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ [لا ويتطرّق الشك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوصايا والأوقاف على الصوفية مثلاً مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض، فكذلك سائر الألفاظ.

وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفي على الحصوص ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ وإلا فلا مطمع في استيفائها، فهذه اشتباهات تثور من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين، وكل ذلك من الشهات يجب اجتنابها إذا لم يترجع جانب الحل بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله ﷺ: قدّعُ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ وبموحب سائر الأدلة التي سبق ذكرها. فهذه مثارات الشبهات وبعضها أشد من بعض، ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ، مثل أن يأخذ طعاماً محتلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبائع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله، ولكنه صار مشتبها به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر في اقتحامها، فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوّة البشر حصرها، فما اتضح من هذا الشرح أخذ به وما التبس فليجتنب؛ فإن الإثم حزاز القلب. وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي أما حيث حرّمه فيجب الامتناع. ثم لا يعوّل على كل قلب، فرب موسوس ينفر عن كل شيء، ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء، ولا اعتبار بهذين القلبين، وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب متساهل يطمئن إلى كل شيء، ولا اعتبار بهذين القلبين، وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب بقلب نفسه فليلتمس النور من قلب بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته، وجاء في الزبور: فإن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: قل لبني إسرائيل: إني لا أنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء قتركه لأجلي، فذاك الذي أنظر إلي وأويد، بنصري وأباهي به ملائكتي».

* * *

الباب الثالث

في البحث والسؤال والهجوم والإهمال، ومظانها

اعلم: أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تتهب فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه، وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تتيقن تحريمه، بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله، والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة. ومنشأ الريبة ومثارها إما أمر يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال.

المثار الأول: أحوال المالك:

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال: إما أن يكون مجهولاً، أو مشكوكاً فيه، أو معلوماً بنوع ظن يستند إلى دلالة:

الحالة الأولى: أن يكون مجهولاً: والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه

كَزيّ الأجناد، ولا ما يدل على صلاحه كثياب أهل التصوّف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات. فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلاً لا تعرف من حاله شيئاً ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول، وإذا دخلت بلدة غريباً ودخلت سوقاً ووجدت رجلاً خبازاً أو قصاباً أو غيره ولا علامة تدل على كونه مريباً أو خائناً، ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدري حاله، ولا نقول إنه مشكوك فيه؛ لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهما سببان متقابلان، وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدرى وبين ما يشك فيه، وقد عرفت مما سبق أن الورع ترك ما لا يدرى. قال يوسف بن أسباط: منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته. وتكلم جماعة في أشق الأعمال فقالوا: هو الورع، فقال لهم حسان بن أبي سنان: ما شيء عندي أسهل من الورع، إذا حاك في صدري شيء تركته. فهذا شرط الورع، وإنما نذكر الآن حكم الظاهر، فنقول: حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدّم إليك طعاماً أو حمل إليك هدية أو أردت أن تشتري من دكانه شيئاً فلا يلزمك السؤال؛ بل يده وكونه مسلماً دلالتان كافيتان في الهجوم على أخذه. وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه، وإن بعض الظن إثم. وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك ألاُّ تسيء الظن به، فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فساداً من غيره فقد جنيت عليه وأثمت به في الحال نقداً من غير شك، ولو أخذت المال لكان كونه حراماً مشكوكاً فيه. ويدل عليه: أنا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون في القرى ولا يردون القِرى، ويدخلون البلاد ولا يحترزون من الأسواق، وكان الحرام أيضاً موجوداً في زمانهم، وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبة إذ كان ﷺ لا يسأل عن كل ما يحمل إليه، بل سأل في أوَّل قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه: أصدقة أم هدية(١٠)؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة، ثم إسلام المعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة. وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل: أصدقة أم لا (٢٠٠٠ إذ العادة ما جرت بالتصدّق بالضيافة. ولذلك دعته أم سليم^(٣)، ودعاه الخياط^(٤)، كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وقدّم إليه طعاماً فيه قرع، ودعاه الرجل الفارسي فقال عليه الصلاة والسلام: «أَنَا وَعَائِشَةُ؟» فقال: لا، فقال: «فَلَا». ثم أجانه بعد فذهب هو وعائشة يتساوقان فقرب إليهما إهالة^(ه)، ولم ينقل السؤال في شيء من ذلك، وسأل

الباب الثالث

في البحث والسؤال

(٢) حديث: «كان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدتة أم لاه. هذا معروف مشهور، من ذلك في الصحيحين
 من حديث أبي مسعود الأنصاري في صنيع أبي شعيب طعاماً لرسول الله هي ودهاه خامس خمسة.

(٣) حديث: ادعته أم سليما. متفق عليه من حديث أنس.

(٤) حديث أنس: «أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ فقدم إليه طعاماً فيه قرع». متفق عليه.

(٥) حديث: دعاه الرجل الفارسي فقال: اأنا وعائشة. . . ٩ الحديث. رواه مسلم عن أنس.

⁽١) حديث سؤاله في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية: رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سلمان (أن النبي ﷺ لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام، فسأله عنه أصدقة أم هدية...» الحديث. تقدم في الباب قبله من حديث أبي هريرة.

أبو بكر رضي الله عنه عبده عن كسبه لما رابه من أمره، وسأل عمر رضي الله عنه الذي سقاه من لبن إلى الصدقة إذ رابه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة. وهذه أسباب الريبة وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصياً بإجابته من غير تفتيش، بل لو رأى في داره تجملاً ومالاً كثيراً فليس له أن يقول: الحلال عزيز وهذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال؟ بل هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالاً أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به، وأزيد على هذا وأقول: ليس له أن يسأله بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا ما يدري من أين هو فهو حسن فليتلطف في الترك، وإن كان لا بدّ له من أكله فليأكل بغير سؤال؛ إذ السؤال إيذاء وهنك ستر وإيحاش وهو حرام بلا شك.

فإن قلت: لعله لا يتأذى؟ فأقول: لعله يتأذى فأنت تسأل حذراً من «لعل» فإن قنعت فلعل ماله حلال، وليس الإثم المحذور في إيذاء مسلم بأقل من الإثم في أكل الشبهة والحرام، والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدري هو به، لأن الإيذاء في ذلك أكثر. وإن سأل من حيث لا يدري هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تشبث بالغيبة وإن لم يكن ذلك صريحاً. وكل ذلك منهي عنه في آية واحدة قال الله تعالى: ﴿ الْحَيْزُولُ كَيْلُولُ مِن اللَّيِ إِلَّ بَشَنُ الْمُعْنَا فِي التفتيش يَعْنَا أَلُولُ المُعْمَا أَلُهُ المُعْمِرات ١٤] وكم زاهد جاهل يوحش القلوب في التفتيش ويتكلم الكلام الخشن المؤذي، وإنما يحسن الشيطان ذلك عده طلباً للشهرة بأكل الحلال، ولو كان باعثه محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشد من خوفه على بطنه أن يدخله ما لا يدري، وهو غير مؤاخذ بما لا يدري إذ لم يكن ثمّ علامة توجب الاجتناب، فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس، وإذا لم يكن بدّ من الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن، هذا هو المألوف من الصحابة رضي الله عنهم، ومن زاد عليهم في الورع فهو ضال مبتدع وليس بمتبع فلن يبلغ أحد مد أحدم ولا نصيفه ولو أنفق ما في الأرض جميعاً، كيف وقد أكل رسول الله على المتصدق عليها فكان المتصدق مجهولاً عنده صدقة، فقال: «هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَلِيَةً» (١) ولم يسأل على المتصدق عليها فكان المتصدق مجهولاً عنده ولم يمتنم.

الحالة الثانية: أن يكون مشكوكاً فيه بسبب دلالة أورثت ريبة، فلنذكر صورة الرببة ثم حكمها.

أما الخلقة: فبأن يكون على خلقة الأتراك والبوادي والمعروفين بالظلم وقطع الطريق، وأن يكون طويل الشارب، وأن يكون الشعر مفرقاً على رأسه على دأب أهل الفساد.

وأما الثياب: فالقباء والقلنسوة وزي أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم.

وأما الفعل والقول: فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل، فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضاً في المال ويأخذ ما لا يحل، فهذه مواضع الربية. فإذا أراد أن يشتري من مثل هدا شيئاً أو يأخذ منه هدية أو يجببه إلى ضيافة وهو غربب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات، فيحتمل أن يقال: إن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع. ويحتمل أن يقال: إن اليد دلالة ضعيفة وقد قابلها مثل هذه الدلالة فأورثت ربية فالهجوم غير جائز، وهو الذي يختاره ونفتي به لقوله على عدم الاستحباب الاستحباب

حديث: «أكله طعام بريرة فقيل إنها صدقة فقال: «هو لها صدقة ولنا هدية» متفق عليه من حديث أنس.

⁽٢) حديث: ادع ما بريبك، تقدم في البابين قبله.

لقوله ﷺ: اللهِ أم حَزَّارُ القُلُوبِ (١) وهذا له وقع في القلب لا يتكر ولأن النبي ﷺ سأل: أصدقة هو أو هدية وسأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه. وسأل عمر رضي الله عنه. وكل ذلك كان في موضع الريبة وحمله على الررع، وإن كان ممكناً ولكن لا يحمل عليه إلا بقياس حكمي، والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والإسلام وقد عارضتها هذه الدلالات أورثت ريبة، فإذا تقابلا فالاستحلال لا مستند له، وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا الماء متغيراً واحتمل أن يكون بطول المكث، فإن رأينا ظبية بالت فيه ثم احتمل أن التغيير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه. ولكن بين هذه الدلالات تفاوت، فإن طول الشوارب وليس القباء وهيئة الأجناد يدل على الظلم بالمال. أما القول والفعل المخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال فهو أيضاً دليل ظاهر؛ كما لو سمعه يأمر بالغصب والظلم أو يعقد عقد الربا، فأما إذا رآه قد شتم غيره في غضبه أو أتبع نظره امرأة مرت به فهذه الدلالة ضعيمة، فكم من إنسان يتحرّج في طلب المال ولا يكتسب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة؟ فليتنبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بحد، فليستفت العبد في مثل ذلك قله.

وأقول: إنّ هذا إن رآه من مجهول فله حكم، وإن رآه ممن عرفه بالورع في الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر، إذ تعارضت الدلالات بالإضافة إلى المال وتساقطتا وعاد الرجل كالمجهول؛ إذ لبست إحدى الدلالتين تناسب المال على الخصوص، فكم من متحرج في المال لا يتحرج في غيره، وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يجد، فالحكم في هذه المواقع ما يميل إليه القلب؛ فإن هذا أمر بين العبد وبين الله، فلا يبعد أن يناط بسبب خفي لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب، وهو حكم حزازة القلب. ثم ليتنبه لدقيقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغي أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون جندياً أو عامل سلطان أو نائحة أو مغنية، فإن دل على أن في ماله حراماً قليلاً لم يكن السؤال واجباً بل كان السؤال من الورع.

الحالة الثالثة: أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظناً في حل المال أو تحريمه. مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته في الطاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه، فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول، فالأولى الإقدام، والإقدام ههنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراماً. وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال ﷺ: «لاَ تَأْكُلُ إِلاَّ طَعَامَ تَقِيًّ وَلاَ يَأْكُلُ طَعَامَكُ إِلاَّ فَقِيًّ (٢٠)، فأما إذا علم بالخبرة أنه جندي أو مغن أو مرب واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب؛ فههنا السؤال واجب لا محالة كما في موضع الريبة بل أولى.

المثار الثائي:

ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك:

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام، كما إذا طرح في سوق أحمال من طعام غصب واشتراها أهل

⁽¹⁾ حديث: «الإثم حزاز القلوب» تقدم في العلم.

⁽٢) حديث: ﴿لا تأكل إلا طعام نفي ولا يأكل طعامك إلا نفي؛ نقدم في الزكاة.

السوق، فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أنّ أكثر ما في أيديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب، والسوق الكبير حكمه حكم بلد.

والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها، وكانوا لا يسألون في كل عقد، وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادراً في بعض الأحوال وهي محال الريبة في حق ذلك الشخص المعين، وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين، وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون في تلك الغنائم شيء مما أخذوه من المسلمين وذلك لا يحل أخذه مجاناً بالاتفاق، بل يرد على صاحبه عند الشافعي رحمه الله، وصاحبه أولى به بالثمن عند أبي حنيفة رحمه الله، ولم ينقل قط التقتيش عن هذا. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أذربيجان: إنكم في بلاد تذبح فيها الميتة فانظروا ذكيه من ميته. أَذِن في السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها؛ لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هي أيضاً تباع وأكثر الجلود كان كذلك. هي أشانها؛ لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هي أيضاً تباع وأكثر الجلود كان كذلك. فخص بالأكثر الأمر بالسؤال، ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثر وقوعها في العادات فلنقرضها:

مسائة: شخص معين خالط ماله الحرام، مثل أن يباع على دكان طعام مفصوب أو مال منهوب، ومثل أن يكون القاضي أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذي له إدرار على سلطان ظالم له أيضاً مال موروث ودهقنة أو تجارة، أو رجل تاجر يعامل بمعاملات صحيحة ويربى أيضاً، فإن كان الأكثر من ماله حراماً لا يجوز الأكل من ضيافته ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفتيش، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبه فهذا في محل النظر لأنه على رتبة بين الرتبتين؛ إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر ميتات مثلاً وجب اجتناب الكل، وهذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لا سيما إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان، ويخالفه من وجه إذ الميتة يعلم وجودها في الحال يقيناً، والحرام الذي خالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجوداً في الحال وإن كان المال قليلاً، وعلم قطعاً أن الحرام موجود في الحال فهو ومسألة اختلاط الميتة واحد. وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود في الحال فهذا أخف من ذلك، ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كما في الأسواق والبلاد، ولكنه أغَلظ منه لاختصاصه بشخص واحد، ولا يشك في أن الهجوم عليه بعيد من الورع جداً، ولكن النظر في كونه فسقاً مناقض للعدالة، وهذا من حيث النقل أيضاً غامض لتجاذب الأشياء، ومن حيث النقل أيضاً غامض لأن ما ينقل فيه عن الصحابة من الامتناع في مثل هذا، وكذا عن التابعين يمكن حمله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم. وما ينقل من إقدام على الأكل، كأكل أبي هريرة رضي الله عنه طعام معاوية مثلاً إن قدر في جملة ما في يده حرام فذلك أيضاً يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبانة أن عين ما يأكله من وجه مباح. فالأفعال في هذا ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم: لو أعطاني السلطان شيئاً لأخذته. وطرد الإباحة فيما إذا كان الأكثر أيضاً حراماً مهماً لم يعرف عين المأخوذ واحتمل

أن يكون حلالاً، واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين ـ كما سيأتي في باب بيان أموال السلاطين ـ فأما إن كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجوداً في الحال لم يكن الأكل حراماً، وإن تحقق وحوده في الحال ـ كما في مسألة اشتباه الذكية بالميتة ـ فهذا مما لا أدري ما أقول فيه وهو من المتشابهات التي يتحير المفتي فيها؛ لأنها مترددة بين مشابهة المحصور وغير المحصور . والرضيعة إذا اشتبهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن كانت ببلدة فيها عشرة آلاف لم يجب . وبينهما أعداد، ولو سئلت عنها لكنت لا أدري ما أقول فيها، ولقد توقف العلماء في مسائل هي أوضح من هذه؛ إذ سئل أحمد بن حبل رحمه الله عن رجل رمى صيداً فوقع في ملك غيره أيكون الصيد للرامي أو لمالك الأرض؟ فقال: لا أدري. وكثيراً من ذلك حكيناه عن السلف لي كتاب العلم فليقطع المفتي طمعه عن درك الحكم في جميع الصور . وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوماً يعاملون السلاطين، فقال: إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم، وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المسامحة في الأقل، ويحتمل المسامحة في الأكثر عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المسامحة في الأقل، ويحتمل المسامحة في الأكثر أيضاً . وبالجملة: فلم ينقل عن الصحابة أنهم كانوا يهجرون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر أيضاً . وبالجملة: فاسداً أو لمعاملة السلطان مرة ، وتقدير ذلك فيه بعد ، والمسألة مشكلة في نفسها .

فإن قيل: فقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه رخص فيه وقال: خذّ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام، وسئل ابن مسعود رضي الله عنه ذلك فقال له السائل: إن لي جاراً لا أعلمه إلا خبيثاً يدعونا أو نحتاج فنستسلفه، فقال: إذا دعاك فأجبه وإذا احتجت فاستسلفه، فإن لك المهنأ وعليه المأثم. وأفتى سلمان بمثل ذلك. وقد علل علي بالكثرة، وعلل ابن مسعود رضي الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك المهنأ أي أنت لا تعرفه. وروي أنه قال رجل لابن مسعود رضي الله عنه: إن لي جاراً يأكل الربا فيدعونا إلى طعامه أفنائيه؟ فقال: نعمم، وروي في ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه روايات كثيرة مختلفة، وأخذ الشاقعي ومالك رضي الله عنهما جوائز الخلفاء والسلاطين مع العلم بأنه قد خالط مالهم الحرام.

قلنا: أما ما روي عن علي رضي الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك؛ فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت الغسل لا يجد غيره، ولست أنكر أن رخصته صريح في الجواز وفعله محتمل للورع، ولكنه لو صح فمال السلطان له حكم آخر فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما لا يحصر وسيأتي سيان ذلك وكذا فعل الشافعي ومالك رضي الله عنهما بمال السلطان وسيأتي حكمه وإنما كلامنا في آحاد الخلق وأموالهم قريبة من الحصر. وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه: فقيل إنه إنما نقله خوات التيمي وإنه ضعيف الحفظ، والمشهور عنه ما يدل على توقي الشبهات إذ قال: لا يقولن أحدكم: أخاف وأرجو، فإن الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك. وقال: اجتنبوا الحكاكات ففيها الإثيم.

فإن قبل: فلم قلتم إدا كان الأكثر حراماً لم يجز الأخذ، مع أن المأخوذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص، واليد علامة على الملك، حتى إن من سرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده، والكثرة توجب ظناً مرسلاً لا يتعلق بالعين فليكن كغالب الظن في طين الشوارع وغالب الظن في الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام، ولا يجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله ﷺ: «دَعْ

مًا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَه؛ لأنه مخصوص ببعض المواضع بالاتفاق وهو أن يريبه بعلامة في عيس الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور، فإن ذلك يوجب ريبة ومع ذلك قطعتم بأنه لا يحرم؟.

فالجواب: أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلمت عن معارض قوي. فإذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المخالط موجود في الحال، والمال غير خال عنه، وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك في حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى البد، وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» لا يبقى له محمل؛ إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجوداً في زمانه وكان لا يدعه. وعلى أي موضع حمل هذا كان هذا في معناه. وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس، فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب. وللكثرة تأثير في تحقيق الظن وكذا للحصر، وقد اجتمعا حتى قال أبو حنيقة رضى الله عنه: لا تجتهد في الأواني إلا إذا كان الطاهر هو الأكثر. فاشترط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوّة الكثرة: ومن قال: يأخذ أي آنية أراد يلا اجتهاد بناء على مجرد الاستصحاب فيجوز الشرب أيضاً فيلزمه التجويز ههنا بمجرد علامة اليد. ولا يجرى ذلك في بول اشتبه بماء؛ إذ لا استصحاب فيه ولا نطرده أيضاً في ميتة اشتبهت بذكية إذ لا استصحاب في الميتة، واليد لا تدل على أنه غير ميتة وتدل في الطعام المباح على أنه ملك. فههنا أربع متعلقات: استصحاب، وقلة في المخلوط أو كثرة، وانحصار أو اتساع في المخلوط، وعلامة خاصة في عين الشيء يتعلق بها الاجتهاد، فمن يغفل عن محموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض المسائل بما لا يشبهه. فحصل مما ذكرناه أن المختلط في ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله، وكل واحد إما أن يعلم بيقين أو بطن عن علامة أو توهم، فالسؤال يجب في موضعين: وهو أن يكون الحرام أكثر يقيناً أو ظناً كما لو رأى تركياً مجهولاً يحتمل أن يكون كل ماله من غنيمة وإن كان الأقل معلوماً باليقين، فهو محل التوقف، وتكاد تسير سير أكثر السلف. وضرورة الأحوال إلى الميل إلى الرخصة. وأما الأقسام الثلاثة الباقية فالسؤال واجب فيها أصلاً.

مسألة: إذا حضر طعام إنسان علم أنه دخل في يده حرام من إدرار كان قد أخذه أو وجه آخر، ولا يدري أنه بقي إلى الآن أم لا، فله الأكل ولا يلزمه النفتيش وإنما التفتيش فيه من الورع، ولو علم أنه قد بقي منه شيء ولكن لم يدر أنه الأقل أو الأكثر فله أن يأخذ بأنه الأقل. وقد سبق أن الأمر مشكل وهذا يقرب منه.

مسألة: إذا كان يد المتولي للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثاني لأنه غير موصوف بتلك الصفة، فهل له أن يأخذ ما يسلمه إليه صاحب الوقف؟ نظر، فإن كانت تلك الصغة ظاهرة يعرفها المتولي، وكان المتولي ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث، لأن الظن بالمتولي أنه لا يصرف إليه ما يصرفه إلا من المال الذي يستحقه، وإن كانت الصفة خفية. وإن كان المتولي ممن عرف حاله أنه يخلط ولا يبالي كيف يفعل فعليه السؤال؛ إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعول عليه، وهو وزان سؤال رسول الله على عن الصدقة والهدية عند تردده فيهما، لأن البد لا تخصص الهدية عن الصدقة ولا الاستصحاب فلا ينجي منه إلا السؤال، فإن السؤال حيث أسقطناه في المجهول أسقطناه بعلامة اليد والإسلام، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحماً من ذبيحته، واحتمل أن يكون مجوسياً لم يجز له ما لم يعرف أنه مسلم؛ إذ البد لا تدل في الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إلا إذا كان أكثر

أهل البلدة مسلمين، فيجوز أن يظن بالذي ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم، وإن كان الخطأ ممكناً فيه فلا ينبغي أن تلتبس المواضع التي تشهد فيها اليد والحال بالتي لا تشهد.

مسألة: له أن يشتري في البلد داراً وإن علم أنها تشتمل على دور مغصوبة، لأن ذلك اختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط وورع. وإن كان في سكة عشر دور مثلاً إحداها مغصوب أو وقف لم يجز الشراء ما لم يتميز ويجب البحث عنه. ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب؛ فليس له أن يسكن أيها شاء ويأكل من وقفها بغير سؤال، لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التمييز، ولا يجوز الهجوم مع الإبهام لأن الرباطات والمدارس في البلد لا بد أن تكون محصورة.

مسألة: حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه، وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام، وعند ذلك لا يبالي بغضب مثله ؟ إذ يجب إيذاء الظالم بأكثر من ذلك، والغالب أن مثل هذا لا يغضب من السؤال. نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله ممن هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استراب، لأنهم لا يغضبون من سؤاله، ولأن عليه أن يسأل ليعلمهم طريق الحلال، ولذلك سأل أبو بكر رضي الله عنه غلامه، وسأل عمر من سقاه من إبل الصدقة، وسأل أبا هريرة رضي الله عنه أيضاً لما أن قدم عليه بمال كثير فقال: ويحك أكل هذا طبب؟ من حيث إنه تعجب من كثرته، وكان هو من رعيته لا سيما وقد رفق في صيغة السؤال، وكذلك قال علي رضي الله عنه: ليس شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه، ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه.

مسألة: قال الحارث المحاسبي رحمه الله: لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغي أن يسأله لأجل الورع، لأنه ربما يبدو له ما كان مستوراً عنه فيكون قد حمله على هتك الستر ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء، وما ذكره حسن؛ لأن السؤال إذا كان من الورع لا من الوجوب فالورع في مثل هذه الأمور الاحتراز عن هتك الستر، وإثارة البغضاء أهم. وزاد على هذا فقال: وإن رابه منه شيء أيضاً لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب ويجنبه الخبيث، فإن كان لا يطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفاً ولا يهتك ستره بالسؤال. قال: لأني لم أر أحداً من العلماء فعله، فهذا منه مع ما اشتهر به من الزهد يدل على مسامحة فيما إذا خالط المال الحرام القليل، ولكن ذلك عند التوهم لا عند التحقيق، لأن لفظ الريبة يدل على التوهم بدلالة تدل عليه، ولا يوجب اليقين، فليراع هذه الدقائق بالسؤال.

مسألة: ربما يقول القائل: أي فائدة في السؤال ممن بعض ماله حرام ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب، فإن وثق بأمانته فليثق بديانته في الحلال؟ فأقول: مهما علم مخالطة الحرام لمال إنسان وكان له غرض في حضورك ضيافته أو قبولك هديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة للسؤال منه، فيبغي أن يسأل من غيره، وكذا إن كان بياعاً وهو يرغب في البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ولا فائدة في السؤال منه وإنما يسأل من غيره، وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن متهماً كما يسأل المتولي على المال الذي يسلمه أنه من أي جهة، وكما سأل رسول الله تلغ عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤذي ولا يتهم القائل فيه، وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدري طريق كسب الحلال؛ فلا يتهم في قوله إذا أخبر عن طريق صحيح، وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه، فههنا يفيد السؤال، فإذا كان صاحب المال متهماً فليسأل من غيره؛ فإذا أخبره عدل واحد قبِله، وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة كان صاحب المال متهماً فليسأل من غيره؛ فإذا أخبره عدل واحد قبِله، وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لا يكذب _ حيث لا غرض له فيه _ جاز قبوله؛ لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة حاله أنه لا يكذب _ حيث لا غرض له فيه _ جاز قبوله؛ لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة

النفس، وقد يحصل من الثقة بقول فاسق ما لا يحصل بقول عدل في بعض الأحوال، وليس كل من فسق يكذب ولا كل من ترى العدالة في ظاهره يصدق. وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم، فإن البواطن لا يطلع عليها. وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق. وكم من شخص تعرفه وتعرف أنه قد يقتحم المعاصي، ثم إذا أخبرك بشيء وثقت به. وكذلك إذا أخبر به صبي مميز معن عرفته بالتثبت فقد تحصل الثقة بقوله فيحل الاعتماد عليه. فأما إذا أخبر به مجهول لا يدري من حاله شيء أصلاً فهذا معن جوّزنا الأكل من يده؛ لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه، وربما يقال: إسلامه دلالة ظاهرة على صدقه؛ وهذا فيه نظر، ولا يخلو قوله عن أثر ما في النفس حتى لو اجتمع منهم جماعة تفيد ظنا قوياً إلا أن أثر الواحد فيه في غاية الضعف فلينظر إلى حدّ تأثيره في القلب، فإن المفتي هو القلب في قوياً إلا أن أثر الواحد فيه في غاية الضعف فلينظر إلى حدّ تأثيره في القلب، فإن المفتي هو القلب في مئل هذا الموضع، وللقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليتأمل فيه. ويدل على وجوب الالتفات إليه ما روي عن عقبة بن الحارث (١) «أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إنها سوداء يصغر وجوب الالتفات إليه ما روي عن عقبة بن الحارث (١) «أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إنها سوداء يصغر من شأنها - فقال عليه السلام: «فكيف وقد رَعَمَت أنها قد أرضَعَتُكُما؟ لاَ خَيْرَ لَكَ فِيها دَهْهَا عَلْكَ (١). وقع في القلب كان الاحتراز حتماً واجباً. وقع في القلب لا محالة و فلذلك يتأكد الأمر بالاحتراز، فإن اطمأن إليه القلب كان الاحتراز حتماً واجباً.

مسألة: حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين، ويجوز أن يترجع في قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين، ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والمعرفة، وذلك مما يتشعب تصويره.

مسألة: لو نهب متاع مخصوص قصادف من ذلك النوع متاعاً في يد إنسان، وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون من المغصوب، فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصلاح جاز الشراء وكان تركه من الورع، وإن كان الرحل مجهولاً لا يعرف منه شيئاً؛ فإن كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المغصوب فله أن يشتري، وإن كان لا يوجد ذلك المتاع في تلك البقعة إلا نادراً وإنما كثر بسبب الخصب فليس يدل على الحل إلا اليد، وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم، ولكن الوجوب فيه نظر فإن العلامة متعارضة. ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أن أرده إلى قلب المستفتي لينظر ما الأقوى في نفسه؛ فإن كان الأقوى أنه مغصوب لزمه تركه، وإلاً حلَّ له شراؤه، وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهي من المتشابهات التي لا يعرفها كثير عن الناس، فمن توقاها فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن اقتحمها فقد حام حول الحمى وخاطر بنفسه.

مسألة: لو قال قائل: قد سأل رسول الله عن لبن قدم إليه فذكر أنه من شاة، فسأل عن الشاة من أين هي فذكر له فسكت عن السؤال (٢٠)، فيجب السؤال عن أصل المال أم لا؟ وإن وجب فعن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه؟ فأقول: لا ضبط فيه ولا تقدير، بل ينظر إلى الريبة المقتضية

١١) محيل هو «أَبُو سُرْعة» الذي قتل «خبيث بن عدي» وقتل غيره، روى عنه البخاري، وأصحاب السنن.

حديث عقبة: اإني تزوّجت أمرأة فجاءتنا أمة سوداء فزعمت أنها قد أرضعتنا وهي كاذبة، رواه البخاري من حديث عقبة بن الحارث.

⁽٣) ﴿ حَدَيثُ: ﴿ سَأَلُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ لَبِنْ قَدَمَ إِلَيْهِ . . ﴾ المحديث. تقدم في الباب المخامس من آداب الكسب والمعاش.

للسؤال إما وجوباً أو ورعاً. ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الريبة المقتضية له، وذلك يختلف باختلاف الأحوال، فإن كانت التهمة من حيث لا يدري صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فإن قال: اشتريت، انقطع بسؤال واحد، وإن قال: من شاتي، وقع الشك في الشاة. فإذا قال: اشتريت، انقطع وإن كانت الريبة من الظلم وذلك مما في أيدي العرب ويتوالد في أيديهم المغصوب فلا تنقطع الريبة بقوله: إنه من شاتي، ولا بقوله: إن الشاة ولدتها شاتي، فإن أسنده إلى الوراثة من أبيه وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال، وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام فقد ظهر التحريم، وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثرة التوالد وطول الزمان وتطرق الإرث إليه لا يغير حكمه. فلينظر في هذه المعاني.

مسألة: سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية وفي يد خادمهم الذي يقدم إليهم الطعام وقف على ذلك المسكن، ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء، وهو يخلط الكل وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة؟ فقلت: إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول:

الأصل الأوّل: أن الطعام الذي يقدم إليهم في الغالب يشتريه بالمعاطاة. والذي اخترناه صحة المعاطاة لا سيما في الأطعمة والمستحقرات فليس في هذا إلا شبهة الخلاف.

الأصل الثاني: أن ينظر أن الخادم هل يشتريه بعين المال الحرام أو في الذمة؟ فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام، وإن لم يعرف فالغالب أنه يشتري في الذمة ويجوز الأخذ بالغالب، ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد، وهو شراؤه بعين مال حرام.

الأصل الثالث: أنه من أين يشتريه؟ فإن اشترى ممن أكثر ماله حرام لم يجز، وإن كان أقل ماله ففيه نظر قد سبق، وإذا لم يعرف جاز له الأخذ بأنه يشتريه ممن ماله حلال أو ممن لا يدري المشتري حاله بيقين كالمجهول، وقد سبق جواز الشراء من المجهول، لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال.

الأصل الرابع: أن يشتريه لنفسه أو للقوم؟ فإن المتولي والخادم كالنائب وله أن يشتري له ولنفسه، ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ، وإذا كان الشراء يجري بالمعاطاة فلا يجري اللفظ، والغالب أنه لا ينوي عند المعاطاة، والقصاب والخباز ومن يعامله يعول عليه ويقصد البيع مه لا ممن لا يحضرون فيقع عن جبهته ويدخل في ملكه، وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن يثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم.

الأصل الخامس: أن الخادم يقدم الطعام إليهم فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك، وإنما يقدم اعتماداً على عوضه من الوقف، فهو معاوضة ولكن ليس ببيع ولا إقراض لأنه لو انتهض لمطالبتهم بالثمن استبعد ذلك وقرينة الحال لا تدل عليه. فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب - أعني: هدية لا لفظ فيها من شخص تقتضي قرينة حاله أنه يطمع في ثواب وذلك صحيح والثواب لازم. وههنا ما طمع الخادم في أن يأخذ ثواباً فيما قدمه إلا حقهم من الوقف ليقضي به دينه من الخباز والقصاب والبقال، فهذا ليس فيه شبهة إذ لا يشترط لفظ في الهدية ولا في تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب، ولا مبالاة بقول من لا يصحح هدية في انتظار ثواب.

الأصل السادس: أن الثواب الذي يلزم فيه خلاف، فقيل: إنه أقل متمول، وقيل: قدر القيمة وقيل: ما يرضى به الواهب حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة، والصحيح: أنه يتبع رضاه، فإدا لم يرض يرد عليه. وههنا الخادم قد رضي بما يأخذ من حق السكان على الوقف، فإن كان لهم من الحق

بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر، وإن كان ناقصاً ورضي به الخادم صح أيضاً، وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن في يده الوقف الآخر الذي يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضي في الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام، والحرام لم يدخل في أيدي السكان، فهذا كالخلل المتطرق إلى الثمن، وقد ذكرنا حكمه من قبل، وأنه متى يقتضي التحريم ومتى يقتضي الشبهة؟ وهذا لا يقتضي تحريماً على ما فصلناه فلا تنقلب الهدية حراماً يتوصل المهدي بسبب الهدية إلى حرام.

الأصل السابع: أنه يقضي دين الخباز والقصّاب والبقال من ربع الواقفين، فإن وفى ما أخذ من حقهم بقيمة ما أطعمهم فقد صع الأمر، وإن قصر عنه فرضي القصاب والخباز بأي ثمن كان حراماً أو حلالاً، فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضاً، فليلتفت إلى ما قدمناه من الشراء في الذمة ثم قضاء الثمن من الحرام، هذا إذا علم أنه قضاه من حرام، فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالشبهة أبعد، وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الورع، لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرته أقوى في النفس، كما أن الخبر إذا طال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده. فهذا حكم هذه الواقعة وهي من الفتاوى، وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخريج الوقائع الملتفة الملتبسة، وأنها كيف ترد إلى الأصول؛ فإن ذلك مما يعجز عنه أكثر المفتين.

恭告告

الباب الرابع

في كيفية خروج التانب عن المظالم المالية

اعلم: أن من تاب وفي يده مختلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيهما.

النظر الأول: في كيفية التمييز والإخراج:

اعلم: أن كل من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غصب أو وديعة أو غيره فأمره سهل؟ فعليه تمييز الحرام. وإن كان ملتبساً مختلطاً فلا يخلو إما أن يكون في مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان، وإما أن يكون في أعيان متمايزة كالعبيد والدور والثياب. فإن كان في المتماثلات أو كان شاتعاً في المال كله؟ كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المرابحة وصدق في بعضها، أو من غصب دهناً وخلطه بدهن نفسه، أو فعل ذلك في الحبوب، أو الدراهم والدنائير فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً. فإن كان معلوم القدر؟ مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف. وإن أشكل فله طريقان، أحدهما: الأخذ باليقين، والآخر الأخذ بغالب الظن، وكلاهما قد قال به العلماء في اشتباه ركعات الصلاة. ونحن وليس في أعداد الركعات علامات يوثق بها، وأما ههنا فلا يمكن أن يقال: الأصل أن ما في يده حرام،

كتاب الحلال والحرام

بل هو مشكل، فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهاداً، ولكن الورع في الأخذ باليقين، فإن أراد الورع فطريق التحري والاجتهاد أن لا يستبقى إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال. وإن أراد الأخذ بالظن فطريقه مثلاً أن يكون في يده مال تجارة فسد بعضها فيتيقن أن النصف حلال، وأن الثلث مثلاً حرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بغالب الظن. وهكذا طريق التحري في كل مال وهو أن يقتطع القدر المتيقن من الجانبين في الحل والحرمة. والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جاز له الإمساك والورع إخراجه، وإن شك فيه جاز الإمساك والورع إخراجه، وهذا الورع آكد لأنه صار مشكوكاً فيه، وجاز إمساكه اعتماداً على أنه في يده فيكون الحل أغلب عليه، وقد صار ضعيفاً بعد يقين اختلاط الحرام. ويحتمل أن يقال: الأصل التحريم ولا يأخذ إلا ما يغلب على ظنه أنه حلال، وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر. وليس ينبين لي في الحال ترجيح وهو من المشكلات.

فإن قيل: هب أنه أخذ باليقين لكن الذي يخرجه ليس يدري أنه عين الحرام، فلعل الحرام ما بقى في يده فكيف يقدم عليه؟ ولو جاز هذا لجاز أن يقال: إذا اختلطت ميئة بتسع مذكاة فهي العشر فله أن يطرح واحدة ـ أي واحدة كانت ـ ويأخذ الباقى ويستحله ولكن يقال: لعلُّ المبتة فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل لاحتمال أنها الحرام؟ فنقول: هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المال يحل بإخراج البدل لتطرق المعاوضة إليه، وأما الميتة فلا تتطرق المعاوضة إليها فليكشف الغطاء عن هذا الإشكال بالفرض في درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه، وقد سئل أحمد بن حنبل رضى الله نحنه عن مثل هذا فقال: يدع الكل حتى يتبين، وكان قد رهن آنية فلما قضى الدين حمل إليه المرتهن آنيتين وقال: لا أدري أيتهما آنيتك؟ فتركهما فقال المرتهن: هذا هو الذي لك وإنما كنت أختبرك؟ فقضى دينه ولم يأخذ الرهن وهذا ورع، ولكنا نقول إنه غير واجب.

فلنفرض المسألة في درهم له مالك معين حاضر فنقول: إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضي به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر، لأنه لا يخلو إما أن يكون المردود في علم الله هو المأخوذ فقد حصل المقصود؛ وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم في يد صاحبه، فالاحتياط: أن يتبايعا باللفظ، فإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاطاة، وإن كان المغصوب منه قد فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذ وقع عن الضمان بمجرد القبض وهذا في جانبه واضح، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ، والإشكال في الجانب الآخر أنه لم يدخل في ملكه. فنقول: لأنه أيضاً إن كان قد تسلم درهم نفسه فقد فات له أيضاً درهم في يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالغائب، فيقع هذا بدلاً عنه في علم الله إن كان الأمر كذلك، ويقع هذا التبادل في علم الله كما يقع التقاص لو أتلف رجلان كل واحد منهما درهماً على صاحبه، بل في عين مسألتنا لو ألقى كل واحد ما في يده في البحر أو أحرقه كان قد أتلفه ولم يكن عليه عهدة للآخر بطريق التقاص، فكذا إذا لم يتلف فإن القول بهذا أولى من المصير إلى أن من يأخذ درهماً حراماً ويطرحه في ألف ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال محجوراً عليه لا يجوز التصرف فيه، وهذا المذهب يؤدي إليه.

فانظر ما في هذا من البعد وليس فيما ذكرباه إلا ترك اللفظ. والمعاطاة بيع ومن لا يجعلها بيعاً فحيث يتطرق إليها احتمال؛ إذ الفعل يضعف دلالته وحيث يمكن التلفظ، وههنا هذا التسليم والتسلم للمبادلة قطعاً، والبيع غير ممكن؛ لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم في عينه، وقد يكون مما لا يقبل البيع، كما لو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره، وكذا الدبس والرطب وكل ما لا يباع البعض منه بالبعض.

فإن قيل: فأنتم جوزتم تسليم قدر حقه في مثل هذه الصورة وجعلتموه بيعاً؟ قلنا: لا نجعله بيعاً بل نقول: هو بدل عما فات في يده، فيملكه كما يملك المتلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله؛ هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال: لا آخذ درهما أصلاً إلا عين ملكي فإن استبهم فأتركه ولا أهبه وأعطل عليك مالك. فأقول: على القاضي أن ينوب عنه في القبض حتى يطيب للرجل ماله، فإن هذا محض التعنت والتضييق، والشرع لم يرد به، فإن عجز عن القاضي ولم يجده فليحكم رجلاً متديناً ليقبض عنه، فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويفرد على نية الصرف إليه درهماً ويتعين ذلك له ويطيب له الباقي، وهذا في خلط المائعات أظهر وألزم.

فإن قبل: فينبغي أن يحل له الأخذ وينتقل الحق إلى ذمته فأي حاجة إلى الإخراج أولاً ثم التصرف ني الباقي؟ قلنا: قال قائلون: يحل له أن يأخذ ما دام يبقى قدر الحرام، ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يجز له ذلك. وقال آخرون: ليس له أن يأخذ ما لم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال، وقال آخروں: يجوز للآخذ في التصرف أن يأخذ منه، وأما هو فلا يعطى؛ فإن أعطى عصى هو دون الآخذ منه، وما جوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة إذ يقول: لعل المصروف إليٌّ يقع عين حقي. وبالتعيين وإخراج حق الغير وتمييزه يندفع هذا الاحتمال. فهذا المال يترجح بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة، والعين على المثل، فكذلك ما يحتمل فيه رجوع المثل مقدم على ما يحتمل فيه رجوع القيمة، وما يحتمل فيه رجوع العين يقدم على ما يحتمل فيه رجوع المثل، ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ويقول: على قضاء حقك من موضع آخر؛ إذ الاختلاط من الجانبين، وليس ملك أحدهما بأن يقدر فائتاً بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه، أو ينظر إلى الذي خلط فيجعل بفعله متلفاً لحق غيره، وكلاهما بعيدان جداً. وهذا واضح في ذوات الأمثال فإنها تقع عوضاً في الإتلافات من غير عقد. فأما إذا اشتبه دار بدور أو عبد بعبيد فلا سبيل إلى المصالحة والتراضي، فإن أبي أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه، فإن كانت متماثلة القيم فالطريق أن يبيع القاضي جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة، وإن كانت متفاونة أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل، ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الاصطلاح لأنه مشكل، وإن لم يوجد القاضي فللذي يريد الخلاص وفي يده الكل أن يتولى ذلك بنفسه، هذه هي المصلحة وما عداها من الاحتمالات ضعيفة لا نختارها، وفيما سبق تنبيه على العلة. وهذا في الحنطة ظاهر، وفي النقود دونه، وفي العروض أغمض؛ إذ لا يقع البعض بدلاً عن البعض، فلذلك احتيج إلى البيع، ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل:

مسألة: إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهي لجميع الورثة، ولو رد من الضيعة نصفاً وهو قدر حقه ساهمه الورثة، فإن النصف الذي لا يتميز حتى يقال: هو المردود، والباقي هو المغصوب، ولا يصير مميزاً بنية السلطان، وقصده حصر الغصب في نصيب الآخرين.

مسألة: إذا وقع في يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب والمال عقار، وكان قد حصل منه انتفاع

فينبغي أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة، وكذلك كل مغصوب له منفعة أو حصل منه زيادة، فلا تصح تربته ما لم يخرج أجرة المغصوب، وكذلك كل زيادة حصلت منه. وتقدير أجرة العبيد والثياب والأواني وأمثال ذلك مما لا يعتاد إجارتها مما يعسر ولا يدرك ذلك إلا باجتهاد وتخمين، وهكذا كل التقويمات تقع بالاجتهاد، وطريق الورع الأخذ بالأقصى، وما ربحه على المال المغصوب في عقود عقدها على الذمة وقضى الثمن منه فهو ملك له ولكن فيه شبهة؛ إذ كان ثمنه حراماً كما سبق حكمه، وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة، وقد قيل: تنفذ بإجارة المغصوب منه للمصلحة فيكون المغصوب منه أولى به، والقياس: أن تلك العقود تفسخ وتسترد الثمن وترد الأعواض، فإن عجز عنه لكثرته فهي أموال حرام حصلت في يده فللمغصوب منه قدر رأس ماله، والفضل حرام يجب إخراجه لتتصدّق به، ولا يحل للغاصب ولا للمغصوب منه، بل حكمه حكم كل حرام يقع في يده.

مسألة: من ورث مالاً ولم يدر أن مورثه من أين اكتسبه؟ أمن حلال أم من حرام، ولم يكن ثمّ علامة؟ فهو حلال باتفاق العلماء. وإن علم أن فيه حراماً وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحري، فإن لم يعلم ذلك ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالاً للسلاطين، واحتمل أنه لم يكن يأخذ في عمله شيئاً، أو كان قد أخذ ولم يبق في يده منه شيء لطول المدّة، فهذه شبهة يحسن التوزع عنها ولا يجب، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر بالاجتهاد. وقال بعض العلماء: لا يلزمه والإثم على المورّث، واستدل بما روي أن رجلاً ممن ولي عمل السلطان مات، فقال صحابي: الآن طاب ماله. أي لوارثه، وهذا ضعيف؛ لأنه لم يذكر اسم الصحابي ولعله صدر من متساهل، فقد كان في الصحابة من يتساهل، ولكن لا نذكره لحرمة الصحبة، وكيف يكون موت الرجل مبيحاً للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا؟ نعم، إذا لم يتيقن يجوز أن يقال: هو غير مأخوذ بما لا يدري، فيطيب لوارث لا يدرى أنّ فيه حراماً يقيناً.

النظر الثاني: في المصرف:

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال:

إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان غائباً فينتظر حضوره أو الإيصال إليه، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره.

وإما أن يكون لمالك عير معين وقع اليأس من الوقوف على عيبه، ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك، كغلول الغنيمة فإنها بعد تفرق الغزاة كيف يقدر على جمعهم؟، وإن قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً مثلاً على ألف أو ألفين؟، فهذا يتبغى أن يتصدق به.

وإما من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ومصانع طريق مكة، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين؛ ليكون عاماً للمسلمين، وحكم القسم الأول لا شبهة فيه. أما التصدّق وبناء القناطر فينبغي أن يتولاه القاضي مستحلاً فهو بالتسليم فينبغي أن يتولاه القاضي مستحلاً فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتدأ به فيما لا يضمنه، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقرّ عليه، بل يحكم من أهل البلد عالماً متدبناً، فإن المقصود الصرف.

وأما عين الصارف فإنما نطلبه لمصارف دقيقة في المصالح، فلا يترك أصل الصرف بسبب المجز عن صارف هو أولى عند القدرة عليه.

فإن قبل ما دليل جواز التصدق بما هو حرام؟ وكيف يتصدّق بما لا يملك؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام. وحكي عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان فلما علم أنهما من غير وجههما رماهما بين الحجارة وقال: لا أتصدّق إلا بالطيب، ولا أرضى لغيري ما لا أرضاه لنفسي.

فنقول: نعم، ذلك له وجه واحتمال، وإنما اخترنا خلافه للخبر والأثر والقياس. أما الخبر: فأمر رسول الله في بالتصدّق بالشاة المصلية التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام؛ إذ قال في: فأطمِمُوهَا الأسارَىٰ، (''. ولما نزل قوله تعالى: ﴿اللّهَ فَي غَلِبَ الرُّومُ فَي أَدَنَ الْأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلِهِم سَيَمْسِونُ فَي (الرّوم ١-٣) كنبه المشركون وقالوا للصحابة: ألا ترون ما يقول صاحبكم، يزعم أن الروم ستغلب. فخاطرهم ('' أبو بكر رضي الله عه بإذن رسول الله في، فلما حقق الله صدقه وجاء أبو بكر رضي الله عنه بما قامرهم به، قال عليه الصلاة والسلام: ﴿المَالَ سُحَتّ، فتصدق به، وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان قد نزل تحريم القمار بعد إذن رسول الله في المخاطرة مع الكفار (").

وأما الأثر: فإن ابن مسعود رضي الله عنه اشترى جارية فلم يظفر بمالكها لينقده الثمن، فطلبه كثيراً فلم يجده، فتصدّق بالثمن وقال: اللهم هذا عنه إن رضي وإلاَّ فالأجر لي. وسئل الحسن رضي الله عنه عن توبة الغال وما يؤخذ منه بعد تفرّق الجيش، فقال: يتصدق به. وروي أن رجلاً سوّلت له نفسه فعلَّ مائة دينار من الغنيمة، ثم أتى أميره ليردها عليه فأبى أن يقبضها وقال له: تفرّق الناس، فأتى معاوية فأبى أن يقبض، فأتى بعض النساك فقال: ادفع خمسها إلى معاوية، وتصدّق بما يبقى، فبلغ معاوية قوله، فتلهف إذ لم يخطر له ذلك، وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وجماعة من الورعين إلى ذلك.

وأما القياس: فهو أن يقال: إن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير؛ إذ قد وقع اليأس من مالكه، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه في البحر، فإنا إن رميناه في البحر فقد فرّتناه على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة. وإذا رميناه في يد فقير يدعو لمالكه حصل للمالك بركة دعائه، وحصل للفقير سدّ حاجته، وحصول الأجر للمالك بغير اختياره في التصدّق لا ينبغي أن ينكر، فإن في الخبر الصحيح: «إن للزارع والغارس أجراً في كل ما يصيبه الناس والطيور

الباب الرابع

في كيفية خروج التائب عن العظالم

⁽۱) حديث: أمر رسول الله ﷺ بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت بين يديه وكلمته بأنها حرام، إذ قال: «أطعموها الأسارى» رواه أحمد من حديث رجل من الأنصار قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فلما رجعنا أقينا راعي امرأة من قريش فقال: إن فلانة تدعوك ومن معك إلى طعام. . الحديث، وفيه فقال: «أجد لحم شاة أخلت بغير إنن أهلها» وفيه فقال: «أطعموها الأسارى» وإسناده جيد.

⁽٢) المخاطرة: المراهنة.

 ⁽٣) حديث: مخاطرة أبي بكر المشركين بإذنه ﷺ لما نزل قوله تعالى ﴿اللّهِ ﴿ اللّهِ مَا الرُّوم؛ ٢٠١] وفيه فقال ﷺ: «هذا سحت» فتصدق به. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن هباس، وليس فيه أن ذلك كان بإذنه ﷺ، والحديث عند الترمذي وحسن، والحاكم وصححه دون قوله أيضاً: «هذا سحت» فتصدق به.

من ثماره وزرعهه (۱) وذلك بغير اختياره، وأما قول القائل: لا نتصدق إلا بالطيب، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر، وترددنا بين التضييع وبين التصدّق، ورجحنا جانب التصدّق على جانب التضييع. وقول القائل: لا نرضى لغيرنا ما لا فرضاه لأنفسنا، فهو كذلك ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه، وللفقير حلال إذ أحله دليل الشرع، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل، وإذا حل فقد رضينا له الحلال، ونقول: إن له أن يتصدّق على نفسه وعياله إذا كان فقيراً. أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لا ينتفي عنهم بكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدّق عليهم، وأما هو فله أن بأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضاً فقير ولو تصدّق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير، ولنرسم في بيان هذا الأصل أيضاً مسائل:

مسألة: إذا وقع في يده مال من يد سلطان. قال قوم: يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فيقلده ما تقلده وهو خير من أن يتصدّق به، واختار المحاسبي ذلك وقال: كيف يتصدّق به فلعل له مالكاً معيناً؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدّق به. وقال قوم: يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرده إلى المالك لأن ذلك إعانة للظالم وتكثير لأسباب ظلمه فالرد إليه تضييع لحق المالك، والمختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرده إلى مالكه فيتصدق به عن مالكه فهو خير للمالك إن كان له مالك معين من أن يرد على السلطان، لأنه ربما لا يكون له مالك معين ويكون حق المسلمين، فرده على السلطان تضييع، فإن كان له مالك معين فالرد على السلطان تضييع وإعانة للسلطان الظالم وتفويت لبركة دعاء الفقير على المالك وهذا ظاهر، فإذا وقع في يده من ميراث ولم يتعدّ هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه باللقطة التي أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدّق عن المالك ولكن له أن يتملكها، ثم وإن كان غنياً من حيث إنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وهها لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر في منعه من التملك، ولا يؤثر في المنع من التصدّق.

مسألة: إذا حصل في يده مال لا مالك له، وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره، ففي قدر حاجته نظر ذكرناه في كتاب أسرار الزكاة، فقد قال قوم: يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتسب بها للعائلة فعل، وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال: الأولى أن يتصدّق بالكل إن وجد من نفسه قوّة التوكل وينتظر لطف الله تعالى في الحلال، فإن لم يقدر فله أن يشتري ضيعة، أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه، وكل يوم وجد فيه حلالاً أمسك ذلك اليوم عنه، فإذا فني عاد إليه، فإذا وجد حلالاً معيناً تصدق بمثل ما أنفقه من قبل ويكون ذلك قرضاً عنده، ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوي عليه، وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع، وما ذكره لا مزيد عليه ولكن جعل ما أنفقه قرضاً عنده فيه نظر، ولا شك في أن الورع أن يجعله قرضاً، فإذا وجد حلالاً تصدّق بمثله، ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدّق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضاً إذا أخذه ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدّق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضاً إذا أخذه لا سيما إذا وقع في يده من ميراث ولم يكن متعدياً بغصبه وكسبه حتى يغلظ الأمر عليه فيه.

مسألة: إذا كان في يده حلال وحرام أو شبهة وليس يفضل الكل عن حاجته، فإذا كان له عيال

⁽١) حديث: «أجر الزارع والغارس في كل ما يصيب الناس والطيور» أخرجه البخاري من حديث أنس: «ما من مسلم يغرس خرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طبر أو يهيمة إلا كان له صدقة».

فليخص نفسه بالحلال؛ لأن الحجة عليه أوكد في نفسه منه في عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرسهم من الحرام إن كان لا يفضي بهم إلى ما هو أشد منه، فإن أفضى فيطعمهم بقلر المحاجة. وبالجملة: كل ما يحلره في غيره فهو محذور في نفسه وزيادة، وهو أنه يتناول مع العلم والعيال ربما تعذر إذا لم تعلم؛ إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول، وإذا تردد في حق نفسه بين ما يخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤن كأجرة الحجام والصباغ والقصار والحمال والاطلاء بالنورة والدهن وعمارة المنزل وتعهد الدابة وتسجير التنور وثمن الحطب ودهن السراج فليخص بالحلال قوته ولياسه، فإن ما يتعلق ببدنه ـ ولا غنى به عنه ـ هو أولى بأن يكون طيباً، وإذا دار الأمر بين بالحلال قوته ولياس فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال لأنه ممتزج بلحمه ودمه، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به. وأما الكسوة قفائدتها ستر عورته ودفع الحرّ والبرد والأبصار عن بشرته! وهذا هو الأظهر عندي، وقال الحارث المحاسبي: يقدم اللباس، لأنه يبقى عليه مدة والطعام لا يبقى عليه، لما روي أنه: «لا يقبل الله صلاة من حليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم فيها درهم حرامه (١)، وهذا محتمل، ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن في بطنه حرام ونبت لحمه من حرام (١). فمراعاة اللحم والعظم أن ينبته من الحلال أولى، ولذلك تقيأ الصديق رضي الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لا ينبت منه لحم يثبت ويبقى. الحلال أولى، ولذلك تقيأ الصديق رضي الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لا ينبت منه لحم يثبت ويبقى.

فإن قبل: فإذا كان الكل منصرفاً إلى أغراضه فأي فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهة وما مدرك هذا الفرق؟ قلنا: عرف ذلك بما روي أنّ رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحاً وعبداً حجاماً فسئل رسول الله على ذلك، فنهى عن كسب الحجام، قروجع مرات قمنع منه، فقيل: إنَّ له أيناماً فقال: ﴿أَعَلَقُوهُ النّاضِحِ»(٣)، فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أو دابته، فإذا انفتح سبيل الفرق فقس عليه التفصيل الذي ذكرناه..

مسألة: الحرام الذي في يده لو تصدق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم، وإذا أنفق على نفسه فليضيق ما قدر، وما أنفق على عياله فليقتصد، وليكن وسطاً بين التوسيع والتضييق فيكون الأمر على ثلاث مراتب. فإن أنفق على ضيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه، وإن كان غنياً فلا يطعمه إلا إذا كان في برية أو قدم ليلا ولم يجد شيئاً؛ فإنه في ذلك الوقت فقير، وإن كان الفقير الذي حضر ضيفاً تقياً لو علم ذلك لتوزّع عنه فليعرص الطعام وليخبره جمعاً بين حق الضيافة وترك الخداع، فلا يتبغي أن يكرم أذاه بما يكره، ولا ينبغي أن يعول على أنه لا يدري فلا يضره، فإنّ الحرام إذا حصل في المعدة أثر في قساوة القلب وإن لم يعرفه صاحبه، ولذلك تقياً أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وكانا قد شربا على

 ⁽١) حديث: «لا تقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم وفيها درهم حرام» أخرجه أحمد من حديث ابن عمر، وقد تقدم.

⁽٢) حديث: «الجسد نبت من الحرام» تقدم.

⁽٣) حديث: «أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحاً وعبداً وحجاماً...» الحديث وفيه: «أهلفوه الناضح» أخرجه أحمد والطبراني من رواية عباية بن رفاعة بن خديج وأن جده حين مات ترك جارية وناضحاً وغلاماً حجاماً...» الحديث. وليس المراد يجده رافع بن خديج فإنه بفي إلى سنة أربع وسبعين، فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج؛ ولم أر له ذكراً في الصحابة، وفي رواية للطبراني عن عباية بن رفاعة عن أبيه قال: «مات أبي» وفي رواية له عن عباية قال: «مات رفاعة على عهد النبي عهد النبي وهو مضطرب. الناضح: الجمل المستخدم في السقاية.

جهل، وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء أحللناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخنزير والخمر إذا أحللناهما بالضرورة فلا يلتحق بالطيبات.

مسألة: إذا كان الحرام أو الشبهة في يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما، فإن كانا يسخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض بل ينهاهما، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى، فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع، فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاهما بل هو واجب فليتلطف في الامتناع، فإن لم يقدر فليوافق وليقلل الأكل بأن يصغر اللقمة ويطيل المضغ ولا يتوسع فإن ذلك عدوان، والأخ والأخت قريبان من ذلك، لأنّ حقهما أيضاً مؤكد، وكذلك إذا ألبسته أمه ثوباً من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل وليلبس بين يديها ولينزع في غيبتها، وليجتهد أن لا يصلي فيه إلا عند حضورها فيصلي فيه صلاة المصطرّ، وعند تعارض أسباب الورع ينبغي أن يتفقد هذه الدقائق. وقد حكي عن بشر رحمه الله أنه سلمت إليه أمه رطبة وقالت: بحقي عليك أن تأكلها وكان يكرهه، فأكل ثم صعد غرفة فصعدت أمه وراءه فرأته يتقياً، وإنما فعل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة. وقد قيل لأحمد بن حنبل: سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة؟ فقال: لا. فقال أحمد: هذا شديد. فقيل له: سئل محمد بن مقاتل العباداني عنها فقال: بر والديك؛ قماذا تقول؟ فقال للسائل: أحب أن تعفيني فقد سمعت ما قالا، ثم قال: ما أحسن أن تداريهما.

مسألة: من في يده مال حرام محض فلا حج عليه ولا يلزمه كفارة مالية، لأنه مغلس ولا تجب عليه الزكاة؛ إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع العشر مثلاً، وهذا يجب عليه إخراج الكل: إما رداً على المالك إن عرفه، أو صرفاً إلى الفقراء إن لم يعرف المالك، وأما إذا كان مال شبهة يحتمل أنه حلال فإذا لم يخرجه من يده لزمه الحج؛ لأنّ كونه حلالاً ممكن ولا يسقط الحج إلا بالفقر ولم يتحقق فقره، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ السّعَلَاعُ إِلَيْ سَبِيلاً ﴾ [آل عِمران: ٩٧]، وإذا وجب عليه التصدّق بما يزيد على حاجته حيث يغلب على ظنه تحريمه فالزكاة أولى بالوجوب، وإن لزمته كفارة فليجمع بين الصوم والإعتاق ليتخلص بيقين. وقد قال قوم: يلرمه الصوم دون الإطعام؛ إذ ليس له يسار معلوم. وقال المحاسبي: يكفيه الإطعام. والذي نختاره: أن كل شبهة حكمنا بوجوب اجتنابها وألزمناه إخراجها من يده لكون احتمال الحرام أغلب على ما ذكرناه فعليه الجمع بين الصوم والإطعام؛ أما الصوم فلأنه مفلس حكماً، وأما الإطعام قلأنه قد وجب عليه التصدّق بالجميع، ويحتمل أن يكون له فيكون اللزوم من جهة الكفارة.

مسألة: من في يده مال حرام أمسكه للحاجة فأراد أن يتطوّع بالحج فإن كان ماشياً فلا بأس به الأنه سيأكل هذا المال في غير عبادة فأكله في عبادة أولى. وإن كان لا يقدر على أن يمشي ويحتاج إلى زيادة للمركوب فلا يجوز الأخذ لمثل هذه الحاجة في الطريق، كما لا يجوز شراء المركوب في البلد. وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام بحيث يستغني به عن بقية الحرام فالإقامة في انتظاره أولى من الحج ماشياً بالمال الحرام.

مسألة: من خرج لحج واجب بمال فيه شبهة فليجتهد أن يكون قوته من الطيب، فإن لم يقدر فمن وقت الإحرام إلى التحلل، فإن لم يقدر فليجتهد يوم عرفة أن لا يكون قيامه بين يدي الله ودعاؤه في وقت مطعمه حرام ومليسه حرام؛ فليجتهد أن لا يكون في بطنه حرام ولا على ظهره حرام، فإنا وإن جوّزنا هذا بالحاجة فهو نوع ضرورة، وما ألحقناه بالطيبات، فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف والغم لما

هو مضطر إليه من تناول ما ليس بطيب فعساه ينظر إليه بعين الرحمة ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهته.

مسألة: سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل: مات أبي وترك مالاً وكان يعامل من تكره معاملته، فقال: تدع من ماله بقدر ما ربح، فقال: له دين وعليه دين، فقال: تقضي وتقتضي، فقال أفترى ذلك؟ فقال: أفتدعه محتبساً بدينه؟ وما ذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحري بإخراج مقدار الحرام إذ قال: يخرج قدر الربح، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلاً عما مذله في المعاوضات الفاسدة بطريق التقاص والتقابل مهما كثر التصرف وعسر الرد، وعول في قضاء دينه على أنه يقين فلا يترك بسبب الشبهة.

* * *

الباب الخامس

في إدرارات السلاطين وصِلاتهم، وما يحل منها وما يحرم

اعلم: أن من أخذ مالاً من سلطان فلا بدله من النظر في ثلاثة أمور:

في مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو؟ وفي صفته التي بها يستحق الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق؟.

النظر الأول: في جهات الدخل للسلطان:

وكل ما يحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان:

مأخوذ من الكفار ـ وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر ـ، والفيء ـ وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال ـ، والجزية وأموال المصالحة ـ وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة ـ.

والقسم الثاني: المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسمان: المواريث وسائر الأموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك، والأوقاف التي لا متولي لها. أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان. وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام.

فإذا كتب لفقيه أو غيره إدرار أو صلة أو خلعة على جهة فلا يخلو من أحوال ثمانية: فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية، أو على المواريث، أو على الأوقاف، أو على ملك أحياه السلطان، أو على ملك اشتراه، أو على عامل خراج المسلمين، أو على بياع من جملة التجار، أو على الخزانة.

فالأول: هو الجزية وأربعة أخماسها للمصالح وخمسها لجهات معينة. فما يكتب على الخمس من تلك الجهات أو على الأخماس الأربعة لما فيه مصلحة وروعي فيه الاحتياط في القدر فهو حلال، بشرط أن لا تكون الجزية إلا مضروبة على وجه شرعي، ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنانير، فإنه أيضاً محل الاجتهاد، وبشرط أن يكون الذمي الذي تؤخذ أيضاً محل الاجتهاد، وبشرط أن يكون الذمي الذي تؤخذ الجزية منه مكتسباً من وجه لا يعلم تحريمه، فلا يكون عامل السلطان ظالماً ولا بائع خمر ولا صبياً ولا

امرأة؛ إذ لا جزية عليهما. فهذه أمور تراعى في كيفية ضرب الجزية ومقدارها، وصفة من تصرف إليه، ومقدار ما يصرف. فيجب النظر في جميع ذلك.

الثاني: المواريث والأموال الصائعة، فهي للمصالح، والنظر أن الذي خلفه هل كان ماله كله حراماً أو أكثره أو أقله وقد سبق حكمه، فإن لم يكن حراماً بقي النظر في صفة من يصرف إليه بأن يكون في الصرف إليه مصلحة، ثم في المقدار المصروف.

الثالث: الأوقاف، وكذا يجري النظر فيها كما يجري في الميراث، مع زيادة أمر: وهو شرط الواقف حتى يكون المأخوذ موافقاً له في جميع شرائطه.

الرابع: ما أحياه السلطان، وهذا لا يعتبر فيه شرط، إذ له أن يعطي من ملكه ما شاء لمن شاء أي قدر شاء. وإنما النظر في أن الغالب أنه أحياه بإكراه الأجراء أو بأداء أجرتهم من حرام. فإن الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه. فإن كانوا مكرهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام، وإن كانوا مستأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نبهنا عليها في تعلق الكراهة بالأعراض.

الخامس: ما اشتراه السلطان في الذمة من أرض أو ثياب خلعة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه، ولكنه سيقضي ثمنه من حرام، وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى. وقد سبق تفصيله.

السادس: أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أموال القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذي لا شبهة فيه، وهو أكثر الإدرارات في هذا الزمان، إلا ما على أراضي العراق؛ فإنها وقف عند الشافعي رحمه الله على مصالح المسلمين.

السابع: ما يكتب على بياع يعامل السلطان، فإن كان لا يعامل غيره فماله كمال خزانة السلطان. وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر فما يعطيه قرض على السلطان، وسيأخذ بدله من الخزانة؛ فالخلل يتطرق إلى العوض. وقد سبق حكم الثمن الحرام.

الثامن: ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام، فإن لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض، وإن عرف يقيناً أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه بعينه من الحلال احتمالاً قريباً له وقع في النفس، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب؛ لأن أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار، والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز، فقد اختلف الناس في هذا فقال قوم: كل ما لا أتيقن أنه حرام فلي أن آخذه، وقال آخرون: لا يحل أن يوخذ ما لم يتحقق أنه حلال، فلا تحل شبهة أصلاً، وكلاهما إسراف والاعتدال ما قدمنا دكره: وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراماً حرم، وإن كان الأغلب حلالاً وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق.

ولقد احتج من جوز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال .. مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام .. بما روي عن جماعة من الصحابة أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة وأحذوا الأموال، منهم: أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري، وجرير بن عبدالله، وجابر، وأنس بن مالك، والمسور بن مخرمة. فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبدالملك، وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج، وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعبي وإبراهيم والحسن

وابن أبي ليلي. وأخذ الشافعي من هارون الرشيد ألف دينار في دفعة. وأخذ مالك من الخلفاء أموالاً جمة. وقال على رضى الله عنه: خذ ما يعطيك السلطان؛ فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر. وإنما ترك من ترك العطاء منهم نورعاً مخافة على دينه أن يحمل على ما لا يحل. ألا ترى قول أبي ذر للأحنف بن قيس: خذ العطاء ما كان نحلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه؟. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا أعطينا قبلنا وإذا منعنا لم نسأل. وعن سعيد بن المسيب: أن أبا هريرة رضي الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منعه وقع فيه. وعن الشعبي عن مسروق: لا يزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار ـ أي يحمله ذلك على الحرام لا أنه في نفسه حرام ـ وروى مافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول: لا أسأل أحداً ولا أرد ما رزقني الله. وأهدى إليه ناقة فقبلها، وكان يقال لها: ناقة المختار، ولكن هذا يعارضه ما روي أن ابن عمر رضي الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار، والإسناد في رده أثبت. وعن نافع أنه قال: بعث ابن معمر إلى ابن عمر بستين ألفاً فقسمها على الناس، ثم جاءه سائل فاستقرض له من بعض من أعطاه وأعطى السائل. ولما قدم الحسن بن على رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه فقال: لأجيزك بجائزة لم أجزها أحداً قبلك من العرب، ولا أجيزها أحداً بعدك من العرب، قال: فأعطاه أربعمائة ألف درهم فأخذها. وعن حبيب بن أبي ثابت قال: لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس فقبلاها، فقيل: ما هي؟ قال: مال وكسوة. وعن الزبير بن عدي أنه قال: قال سلمان: إذا كان لك صديق عامل أو تاجر يقارف الربا فدعاك إلى طعام أو نحوه أو أعطاك شيئاً فاقبل فإن المهنأ لك وعليه الوزر. فإن ثمت هذا في المربي فالظالم في معناه. وعن جعفر عن أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية. وقال حكيم بن جبير: مررنا على سعيد بن جبير وقد جعل عاملاً على أسفل الفرات فأرسل إلى العشارين: أطعمونا مما عندكم فأرسلوا بطعام فأكل وأكلنا معه. وقال العلاء بن زهير الأزدي: أتى إبراهيم أبي ـ وهو عامل على حلوان ـ فأجازه فقبل وقال إبراهيم: لا بأس بجائزة العمال، إن للعمال مؤنة ورزقاً. ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله.

فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم في معصية الله تعالى. وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لا يدل على التحريم بل على الورع كالخلفاء الراشدين وأبي ذرّ وغيرهم من الزهاد، فإنهم امتنعوا من الحلال المطلق زهداً، ومن الحلال الذي يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعاً وتقوى. فإقدام هؤلاء يدل على الجواز، وامتناع أولئك لا يدل على التحريم. وما نقل وما نقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفاً، وما نقل عن الحسن من قوله: لا أتوضأ من ماء صيرفي . ولو ضاق وقت الصلاة ـ لأني لا أدري أصل ماله، كل عن الحسن من يجوز أخذ مال السلطان الظالم.

والجواب: أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالإضافة إلى ما نقل من ردهم وإنكارهم، وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاوتهم في الورع. فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات:

الدرجة الأولى: أن لا يأخذ من أموالهم شيئاً أصلاً كما فعله الورعون منهم، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون، حتى إنَّ أبا بكر رضي الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة

آلاف درهم فغرمها لبيت المال، وحتى إنَّ عمر رضى الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوماً فدخلت ابنة له وأخذت درهماً من المال، فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الملحفة من أحد منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكى وجعلت الدرهم في فيها، فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الخراج وقال: أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر، إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم. وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال فوجد درهماً فمر بني لعمر رضي الله عنه فأعطاه إياه، فرأى عمر ذلك في يد الغلام فسأله عنه، فقال: أعطانيه أبو موسى، فقال: يا أبا موسى، ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر، أردت أن لا يبقى من أمة محمد ﷺ أحد إلا طلبنا بمظلمة، ورد الدرهم إلى بيت المال. هذا مع أن المال كان حلالاً ولكن خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرىء لدينه ويقتصر على الأقِل امتنالاً لقوله ﷺ: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يُرِيبُكَ ۗ (() . ولقوله: •وَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِيتِهِ ا (') وَلِمَا سمعه من رسول الله ﷺ من التشديدات في الأموال السلطانية حتى قال ﷺ حين بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة: «اتَّقِ الله يَا أَبَا الوَلِيدِ لاَ تَجِيءَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِبَعِيرِ تَحْمِلُهُ عَلَيْ رَقَبَيكَ لَهُ رُخَاءَ أَوْ بِقَرَةِ لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةٍ لَهَا ثُوَاجٌ ۚ (٣) فقال: يا رسول الله أهكذا يكون؟ قالً: «نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ الله». قال: فوالِذي بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبدأه (٤٠). وقال ﷺ: ﴿إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي إِنَّمَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا اللهُ وَإِنَّمَا خَافَ التنافس في المَالُّ. ولذلك قال عمر رضي الله عنه في حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال: إني لم أجد نفسي فيه إلا كالوالي مال اليتيم؛ إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف. وروي: أن ابناً لطاوس افتعل كتاباً عن لسانه إلى عمر بن عبدالعزيز فأعطاه ثلاثمائة دينار؛ فباع طاوس ضيعة له وبعث من ثمنها إلى عمر بثلاثمائة دينار، هذا مع أن السلطان ليس مثل عمر بن عبدالعزيز. فهذه الدرجة العليا في الورع.

اللوجة الثانية: هو أن يأحذ مال السلطان، ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال، فاشتمال يد السلطان على حرام آخر لا يضره، وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكابر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المبالغين في الورع فكيف يتوسع في مال السلطان، وقد كان من أشدهم إنكاراً عليهم وأشدهم ذماً لأموالهم؟ وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر _ وهو في مرضه، وأشفق على نفسه من ولايته وكونه مأخوذاً عند الله تعالى بها _ فقالوا له: إنا لنرجو لك الخبر، حفرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت. . . وصنعت . . . وابن عمر ساكت، فقال:

الباب الخامس

في [درارات السلاطين

العديث: ادع ما يريبك تقدم في الباب الأول من الحلال والحرام.

 ⁽٣) حديث: (من تركها فقد استبرا لدينه وعرضه متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وقد تقدم أوله في أول الباب الثاني من الحلال والحرام.

⁽٣) الثؤاج: صياح الغسم.

⁽٤) حديث: «قال لعبادة بن الصامت حين بعثه إلى الصدقة: «اتق الله به أبا الوليد لا تجيء يوم القيامة ببعير تحمله على رقبتك. . . الحديث. أخرجه الشافعي في المسند من حديث طاوس مرسلاً، ولأبي يعلى في المعجم من حديث ابن عمر مختصراً أنه قاله لسعد بن عبادة، وإسناده صحيح.

⁽a) حديث: «إني لا أخاف هليكم أن تشركوا بعدي إنها أخاف هليكم أن تنافسوا» متعق عليه من حديث عقبة بن عامر٠

ماذا تقول يا ابن عمر؟ فقال: أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وسترد فترى. وفي حليث آخر أنه قال: إن الخبيث لا يكفر الخبيث، وإنك قد وليت البصرة ولا أحسك إلا قد أصبت منها شراً. فقال له ابن عامر: ألا تدعو لي، فقال ابن عمر: سمعت رسول الله على يقول: الا يَقْبَلُ الله صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلا صَدَفَةً مِنْ غُلُولِهُ أَن وقد وليت البصرة، فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج: ما شبعت من الطعام منذ انتهبت الدار إلى يومي هذا. وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان له سويق في إناء مختوم يشرب منه فقيل: أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه؟ فقال: أما إني لا أختمه بخلاً به، ولكن أكره أن يجعل فيه ما ليس منه، وأكره أن يدخل بطني غير طيب. فهذا هو المألوف منهم، وكان ابن عمر لا يعجبه شيء إلا خرج عنه، فطلب منه نافع بثلاثين غير طيب. فهذا هو المألوف منهم، وكان ابن عمر لا يعجبه شيء إلا خرج عنه، فطلب منه نافع بثلاثين ألفاً فقال: إني أخاف أن تفتنني دراهم ابن عامر وكان هو الطالب، اذهب فأنت حر، وقال أبو سعيد المخدري: ما منا أحد إلا مالت به الدنيا إلا ابن عمر؟ فبهذا يتضع أنه لا يظن به وبمن كان في منصبه أنه الا يدري أنه حلال.

الدرجة الثالثة: أن يأخذ ما أخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين، فإن ما لا يتعين مالكه هذا حكم الشرع فيه. فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظلم فقد نقول: أخذه منه وتفرقته أولى من تركه في يده، وهذا قد رآه بعض العلماء وسيأتي وجهه. وعلى هذا ينزل ما أخذه أكثرهم، ولذلك قال ابن المبارك: إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة ما يقتدون بهما؟ لأن ابن عمر فرق ما أخذ حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقته ستين ألفاً، وعائشة فعلت مثل ذلك، وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به وقال: رأيت أن آخذه منهم وأتصدق أحب إليً من أن أدعها في أيديهم، وهكذا فعل الشافعي رحمه الله بما قبله من هارون الرشيد؛ فإنه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة.

الدرجة الرابعة: أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق، بل يستبقي ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين، ولم يكن أكثر مالهم حراماً. ويدل عليه تعليل علي رضي الله عنه حيث قال: فإن ما يأخذه من الحلال أكثر، فهذا مما قد جوزه جماعة من العلماء تعويلاً على الأكثر، ونحن إنما توقفنا فيه في حق آحاد الناس، ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر، فلا يبعد أن يؤدي اجتهاد مجتهد إلى جواز أخذ ما لم يعلم أنه حرام اعتماداً على الأغلب، وإنما منعناه إذا كان الأكثر حراماً. فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدرارات الظلمة في زماننا لا تجري مجرى ذلك، وأنها تفارقه من وجهين قاطعين:

أحدهما: أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها، وكيف لا والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به عانهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوقاء له بالشرط، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيره.

⁽١) حديث: الا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلوله أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

والوجه الثاني: أن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشون مجالسهم ولا يكثرون جمعهم، ولا يحبون بقاءهم، بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن يأخذهم بأس، فأما الآن: فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثر بهم، والاستعانة بهم على أغراضهم والتحمل بغشيان مجالسهم، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم. فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد في الخدمة ثانياً، ويالثناء والدعاء ثالثاً، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعداله سادساً، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوى، أعماله سابعاً، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً. فإذاً: لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعانى فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين. ففي أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم، واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم، وكل ذلك معصية ـ على ما سنبين في الباب الذي يلي هذا ـ. فإذاً: قد تبين مما تقدُّم مداخل أموالهم وما يحل منها وما لا يحل. فلو تصوّر أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته يساق إليه ذلك ـ لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته، ولا إلى الثناء عليهم وتزكيتهم ولا إلى مساعدتهم _ فلا يحرم الأخذ، ولكن يكره لمعان سننبه عليها في الباب الذي يلي هذا ـ

النظر الثاني من هذا الباب: في قدر المأخوذ وصفة الآخذ:

ولنفرض المال من أموال المصالح كأربعة أخماس الفيء والمواريث فإن ما عداه مما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة أو خمس فيء أو خمس غنيمة، وما كان من ملك السلطان مما أحياه أو اشتراه فله أن يعطي ما شاء لمن شاء. وإنما النظر في الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة، أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب، فأما الغني الذي لا مصلحة فيه: فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه، هذا هو الصحيح، وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه. وفي كلام عمر رضي الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقاً في بيت المال؛ لكونه مسلماً مكثراً جمع الإسلام، ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على مخصوصين بصفات. فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمراً يقوم به تتعذى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه فله في بيت المال حق الكفاية. ويدخل فيه العلماء كلهم؛ أعني العلوم التي تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون. وطلبة هذه العلوم أيضاً يدخلون فيه، فإنهم إن لم يُكفوا لم يتمكنوا من الطلب. ويدخل فيه العمام)، وهم الذين ترتبط مصالح الذنيا بأعمالهم وهم الأجناد المرتزقة الذين يحرسون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغي وأعداء الإسلام. ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء، وكل من يحتاج إليه في ترتيب ديوان الخراج - أعني: العمال ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء، وكل من يحتاج إليه في ترتيب ديوان الخراج - أعني: العمال ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء، وكل من يحتاج إليه في ترتيب ديوان الخراج - أعني: العمال

على الأموال الحلال لا على الحرام . فإنّ هذا المال للمصالح . والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فبالعلماء حراسة الدين، وبالأجناد حراسة الدنيا . والدين والملك توأمان فلا يستغني أحدهما عن الآخر . والطبيب وإل كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يتبعه ؛ فيجوز أن يكون له ولمن يجري مجراه في العلوم المحتاج إليها في مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إدرار من هذه الأموال ليتفرغوا لمعالجة المسلمين، أعني من يعالج منهم بغير أجرة ، وليس يشترط في هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع الغنى . فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة . وليس يتقدّر أيضاً بمقدار بل هو إلى اجتهاد الإمام وله أن يوسع ويغني، وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال . فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية في دفعة واحدة أربعمائة ألف درهم . وقد كان عمر رضي الله عنه يعطي لجماعة اثني عشر ألف درهم نقرة في السنة . وأثبت عائشة رضي الله عنها في هذه الجريدة ولجماعة عشرة آلاف ولجماعة ستة آلاف وهكذا . فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شيء . فإن خص واحداً منهم بمال كثير فلا بأس ، وكذلك للسلطان أن فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شيء . فإن خص واحداً منهم بمال كثير فلا بأس ، وكذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوي الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك في السلف ، ولكن ينبغي أن ينفت فيه إلى المصلحة . ومهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث للناس وتحريض على الاشتغال والتمان فيه به فهذه فائدة الخلع والصلات وضروب التخصيصات . وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان .

أحدهما: أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته، وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان؟.

والثاني: أنه ليس يعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للآحاد أن يأخذوا؟ أفيجوز لهم الأخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلاً؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى؟.

أما الأول: فالذي نراه أنه لا يمنع أخذ الحق، لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه، وكان في الاستبدال به فتنة ثائرة لا نطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء؛ إذ قد ورد في الأمر بطاعة الأمراء⁽¹⁾، والمنع من سل اليد عن مساعدتهم⁽¹⁾ أوامر وزواجر، فالذي نراه: أن الخلافة منعقدة للمتكفل بها من بني العباس رضي الله عنه، وأن الولاية نافذة للسلاطين في أقطار البلاد والمبايعين للخليفة ـ وقد ذكرنا في كتاب المستظهري المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار تأليف القاضي أبي الطيب في الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه والقول الوجيز: أنا نراعي الصفات والشروط في السلاطين تشوفاً إلى مزايا المصالح، ولو

حدیث: «الأمر بطاعة الأمراء» أخرجه البخاري من حدیث أنس: «اسمعوا وأطبعوا وإن استعمل هلیكم عبد حبشي
كأن وأسه زبیبة» ولمسلم من حدیث أي هريرة: «علیك بالطاعة في منشطك ومكرهك.. » الحدیث. وله من حدیث
أبي ذر: «أوصاني النبي ﷺ أن أسمع وأطبع ولو لعبد مجدع الأطراف».

⁽٢) حديث: «المنع من سل اليد عن مساعلتهم» أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس: «ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات مينة جاهلية» ولمسلم من حديث أبي هريرة: (من خرج من المطاعة وفارق الجماعة فمات مات مينة جاهلية» وله من حديث ابن عمر: (من خلع بدأ من طاعة لتي الله يوم القيامة ولا حجة له».

قضينا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأساً فكيف يفوت رأس المال في طلب الربح؟ بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة. فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة، ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام. وتحقيق هذا قد ذكرناه في أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد في الاعتقاد؛ فلسنا نطول الآن به،

وأما الإشكال الآخر: وهو أن السلطان إذا لم يعمم بالعطاء كل مستحق فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه؟ فَهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب، فغلا بعضهم وقال: كل ما يأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء، ولا يدري أن حصته منه دانق أو حبة فليترك الكل. وقال قوم: له أن يأخذ قدر قرت يومه فقط، فإن هذا القدر يستحقه لحاجته على المسلمين. وقال قوم: له قوت سنة، فإنَّ أَخَذَ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حتى في هذا المال فكيف يتركه؟ وقال قوم: إنه يأخذ ما يعطى، والمظلوم هم الباقون. وهذا هو القياس؛ لأن المال ليس مشتركاً بين المسلمين كالغنيمة بين الغانمين ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكاً لهم. وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث. بل هذا الحق غير منعين وإنما يتعين بالقبض. بل هو كالصدقات. ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكاً لهم ولم يمتنع بظلم المالك بقية الأصناف بمنع حقهم، هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال ما لو صرف إليه بطريق الإِيثار والتفضيل مع تعميم الآخرين لجاز له أن يأخذه والتفضيل جائز في العطاء. سوى أبو بكر رضي الله عنه فراجعه عمر رضي الله عنه فقال: إنما فضلهم عند الله وإنما الدنيا بلاغ. وفضل عمر رضي الله عنه في زمانه فأعطى عائشة اثني عشر ألفاً وزينب عشرة آلاف وجويرية ستة آلاف وكذا صفية. وأقطع عمر لعلي خاصة رضي الله عنهما، وأقطع عثمان أيضاً من السواد خمس جنات، وآثر عثمان علَّياً رضي الله عنهما بها فقبل ذلك منه ولم يُنكر. وكل ذلك جائز في محل الاجتهاد وهو من المجتهدات التي أقول فيها: إن كل مجتهد مصيب، وهي كل مسألة لا نص على عينها، ولا على مسألة تقرب منَّها فتكون في معناها بقياس جلي كهذه المسألة ومسألة حدّ الشرب، فإنهم جلدوا أربعين وثمانين والكل سنة وحق، وأن كل واحد من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضي الله عنهم؛ إذ المفضول ما ردّ في زمان عمر شيئاً إلى الفاضل مما قد كان أخذه في زمان أبي بكر، ولا الفاضل امتنع من قبول الفَّضل في زمان عمر، واشترك في ذلك كل الصحابة واعتقدواً أن كل واحد من الرأيين حق. فليؤخذ هذا الجنس دستوراً للخلافات التي يصوب فيها كل مجتهد. فأما كل مسألة شذ عن محتهد فيها نص أو قياس جلي ـ بغفلة أو سوء رأي، وكان في القوة بحيث ينقض به حكم المجتهد ـ فلا نقول فيها: إن كل واحد مصيب، بل المصيب من أصاب النص أو ما في معنى النص. وقد تحصل من مجموع هذا: أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا، وأخذ من السلطان خلعة أو إدراراً على التركات أو الجزية لم يصر فاسقاً بمجرد أخذه، وإنما يفسق بخدمته لهم ومعاونته إياهم، ودخوله عليهم وثنائه وإطرائه لهم. إلى غير ذلك من لوازم لا يسلم المال غالباً إلا بها كما سئبيته،

الباب السادس

فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والإكرام لهم

اعلم: أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: _ وهي شرها ـ أن تدخل عليهم.

والثانية: _ وهي دونها _ أن يدخلوا عليك.

والثالثة: _ وهي الأسلم ـ أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك.

أما الحالة الأولى: وهي الدخول عليهم؛ فهو مذموم جداً في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الأخبار والآثار، فننقلها لتعرف ذم الشرع له، ثم نتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم.

أما الأخبار: فإنه لما وصف رسول الله على الأمراء الظلمة قال: الفَمَنْ نَابَذَهُمْ نَجَا وَمَنِ اعْتَزَلَهُمْ سَلِمَ أَوْ كَادَ أَنْ يَسْلَمَ وَمَنْ وَقَعَ مَعَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ فَهُوَ مِنْهُمْ (1)، وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إثمهم ولكن لم يسلم من عذاب بعمه معهم إن نزل بهم لتركه المنابذة والمنازعة. وقال على الشيخونُ مِنْ بَعْدِي أَمْرَاءُ يَكْتِبُونَ وَيَظْلِمُونَ فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَلِيهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ لَيْسَ مِنِي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدُ عَلَى ظُلْمِهِمْ لَيْسَ مِنِي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدُ عَلَى اللّهَ عَلَى ظُلْمِهِمْ لَيْسَ مِنِي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَمْ يَرِدُ عَلَى اللّهِ عَنْهُ اللّهُ عَنْهُ أَنْهُ قَالَ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ لَيْسَ مِنِي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَمْ يَرُورُونَ عَلَى اللّهِ عَنْهُ وَلَمْ يَرُورُونَ عَلَى اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهِ عَلَى اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهِ عَنْهُ وَلَمْ يَرُورُونَ عَلَىٰ اللّهُ عَنْهُ وَلَمْ اللّهُ وَلَمْ الْقُرَاءِ إِلَىٰ اللهُ تَعَلَىٰ الّذِينَ يَأْتُونَ العُلَمَاءُ وَشُرُ العُلَمَاءِ اللّهِ اللهُ تَعَلَىٰ الْأَمْرَاءُ اللّهُ اللّهُ عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهُ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهُ يَشَالُ اللّهُ عَلَىٰ عَلَىٰ اللّهُ تَعْلَىٰ اللّهُ عَلَىٰ اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهُ مَا اللّهُ عَلَى عَلَى اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهُ عَلَى اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهُ تَعَلَىٰ اللّهُ مَا لَمْ يَخَالِطُوا السَّلُطَانَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَٰلِكَ فَقَدْ خَاتُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَافَهُمْ أَنْهُ وَلَوْ الْمُسْتَى عَبَادِ الللهُ عَنه .

وأما الآثار: فقد قال حدَّيفة: إياكم ومواقف الفتن! قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه. وقال أبو ذرّ لسلمة: يا سلمة. لا تغشّ أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه، وقال سفيان: في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك. وقال الأوزاعي: ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً.

الياب السادس

فيما يحل من مخالطة السلاطين

- (١) حديث: قفمن تابلهم تبجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم؟ أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال: اومن خالطهم هلك؟.
- (۲) حديث: «سيكون بعدي أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم يكذبهم وأعانهم على ظلمهم قليس متي ولست منه ولم يرد علي الحوض، أحرجه النسائي والترمذي وصححه الحاكم من حديث كعب بن عجرة.
 - (٣) حديث أبي هريرة: «أبغض القراء إلى الله هز وجل الذين يأتون الأمراء» تقدم في العلم.
- (٤) حديث أنس: «العلماء أمناء الرسل على صاد الله ما لم يخالطوا السلطان. . . > الحديث. أخرحه العقيلي في الضمفاء
 في ترجمة حفص الآبري وقال: حديثه غير محفوظ، تقدم في العلم.

وقال سمنون. ما أسمج بالعالم أن يؤتي إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال: عند الأمير. وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يحب الذنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالفة لهواهم. وقال عبادة بن الصامت: حب القارىء الناسك الأمراء نفاق، وحبه الأغنياء رياء. وقال أبو ذرّ: من كثّر سواد قوم فهو منهم أي من كثر سواد الظلمة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له، قبل له: ولم؟ قال: لأنه يرضيه بسخط الله. واستعمل عمر بن عبدالعزيز رجلاً فقيل: كان عاملاً للحجاج، فعزله، فقال الرجل: إنما عملت له شيء يسير، فقال له عمر: حسبك بصحبته يوماً أو بعض يوم شؤماً وشراً. وقال الفضيل: ما ازداد رجل من ذي سلطان قرباً إلا ازداد من الله بُعداً. وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول: إن في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين. وقال وهيب: هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمّة من المقامرين. وقال محمد بن سلمة: الذباب على العذرة، أحسن من قارىء على باب هؤلاء. ولما خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً قد أثقلتك نعم الله لما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه محمد ﷺ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى: ﴿ لَتُبْيَنُنُّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل جِمرَان: ١٨٧]، واعلم: أن أيسر ما ارتكبت واخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل البغي؛ بدنوًك ممن لم يؤد حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطباً تدور عليك رحى ظلمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلماً يصعدون فيه إلى ضلالهم، ويدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ فَلَكَ مِنْ بَعْيِمْ خَلْفُ أَضَاغُواْ اَلصَّلَوْةَ﴾ [مريَم: ٥٩] الآية. وإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهييء زادك فقد حضر سفر بعيد ﴿وَمَا يَغْفَىٰ عَلَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآيَ﴾ [إيراهيم: ٢٨] والسلام.

فهذه الأخبار والآثار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد، ولكن نفصل ذلك تفصيلاً فقهياً نميز فيه المحظور عن المكروه والمباح، فنقول: الداخل على السلطان متعرض لأن يعصي الله تعالى إما بفعله أو بسكوته، وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور.

أما الفعل: فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام، ولا يغرّنك قول القائل: إنّ ذلك مما يتسامع به الناس كتمرة أو فتات خبر فإن ذلك صحيح في غير المغصوب، أما المغصوب فلا. لأنه إن قيل: إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهي في محل التسامح؟ وكذلك الاجتياز فيجري هذا في كل واحد فيجري أيضاً في المجموع، والغصب إنما تم بفعل الجميع، وإنما يتسامع به إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه، فأما إذا كان ذلك طريقاً إلى الاستغراق بالاشتراك فحكم التحريم ينسحب على الكل، فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقاً اعتماداً على أن كل واحد من المارين إنما يخطو خطوة لا تنقص الملك، لأن المجموع مفوت للملك وهو كضربة خفيفة في التعليم تباح ولكن بشرط الانفراد، فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل وجب القصاص على الجميع، مع أن كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لا توجب قصاصاً. فإن فرض

كون الظالم في موضع غير مغصوب كالموات مثلاً فإن كانت تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام، والمدخول إليه غير جائز؛ لأنه انتفاع بالحرام واستظلال به، فإن فرض كل ذلك حلالاً فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله: السلام عليكم، ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قائماً في سلامه وحدمته كان مكرماً للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه، والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني ليس يظالم لأجل غناه له لا لمعنى آخر اقتضى التواضع لنقل دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟ فلا يباح إلا مجرّد السلام. فأما تقبيل اليد والانحناء في الخدمة فهو معصية إلا عند المخوف، أو لإمام عادل أو لعالم أو لمن يستحق ذلك بأمر ديني.

قبَّل أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه يد على كرّم الله وجهه لما أن لقيه بالشام فلم ينكر عليه . وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم في السلام والإعراض عنهم استحقاراً لهم ، وعدّ ذلك من محاسن القربات. فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر ، لأنّ ذلك واجب فلا ينبغي أن يسقط بالظلم . فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم ، وإذا كان أغلب أموالهم حراماً فلا يجوز الجلوس على فرشهم ؛ هذا من حيث الفعل .

فأما السكوت: فهو أنه سيرى في مجلسهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام. وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة. بل يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، والسكوت على جميع ذلك حرام. بل يراهم لابسين الثياب الحرام وآكلين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام، والسكوت على ذلك غير جائز. فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله.

فإن قلت: إنه بخاف على نفسه فهو معذور في السكوت؟ فهذا حق، ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه بالعذر. وعند هدا أقول: من علم فساداً في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجري ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت، بل ينبغي أن يحترز عن مشاهدته.

وأما القول: فهو أنّ يدعو للظالم أو يثني عليه أو يصدُّقه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

أما المدهاء له: فلا يُحل إلا أن يقول: أصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طوّل الله عمرك في طاعته أو ما يجري هذا المجرى. فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز. قال ﷺ: «مَنْ دَعَا لِظَالِم بِالبَقَاءِ فَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يُعْصَىٰ الله فِي أَرْضِهِ (١)، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسيذكر ما ليس فيه فيكون به كاذباً ومنافقاً ومكرماً لظالم، وهذه ثلاث معاص، وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّ الله لَيَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ (٢) وفي خبر آخر: «مَنْ أَكْرَمَ فَاسِقاً فَقَدْ أَعَانَ عَلَىٰ هَذْم الإِسْلاَمِ (٣) فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول، والتزكية والثناء على ما يعمل: كان عاصباً

⁽١) حديث: امن دها لظالم بالبقاء فقد أحب أن الله في أرضه تقدم.

 ⁽٢) حديث: إن الله ليغضب إذا منح القاسق تقدم.

 ⁽٣) حديث: قمن أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام عقدم أيضاً.

بالتصديق وبالإعانة؛ فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه، كما أن التكذيب والمذمة والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه. والإعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة. ولقد سئل سفيان الثوري رضي الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له. وقال غيره: يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ثم يعرض عنه. فإن جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه وطول بقائه: فإن كان كاذباً عصى معصية الكذب والنفاق، وإن كان صادقاً عصى بحبه بقاء الظالم وحقه أن يبغضه في الله ويمقته. فالبغض في الله واجب، ومحب المعصية والراضي بها عاص. ومن أحب ظالماً فإن أحبه لظلمه فهو عاص لمحبته، وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه وكان الواجب عليه أن يبغضه. وإن اجتمع في شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر. وسيأتي في كتاب الإخوة والمتحابين في الله وجه الجمع بين البغض والحب. فإن سلم من ذلك كله ـ وهيهات ـ فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر الى توسعه في النعمة ويزدري نعم الله عليه ويكون مقتحماً نهي رسول الله على حيث قال: ﴿يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ لاَ تَدْخُلُوا عَلَىٰ أَهْلِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَسْخَطَةٌ لِلرُّزْقِ، (١٠ وهذَا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول، ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه، وتجميله إياهم إن كان ممن يتجمل به، وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات. دعي سعيد بن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبدالملك بن مروان فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فإن النبي ﷺ نهى عن بيعتين^(٢)، فقال: ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر، فقال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد ماثة وألبس المسوح.

ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين:

أحدهما: أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام، وعلم أنه لو امتنع أوذي أو فسد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإِجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية.

والثاني: أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم، فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً. فهذا حكم الدخول.

ألحالة الغاتية: أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً، فجواب السلام لا بد منه. وأما القيام والإكرام له فلا يحرم مقابلة له على إكرامه. فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للإحماد كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد، فالإكرام بالإكرام والجواب بالسلام. ولكن الأولى أن لا يقوم إن كان معه في خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم، ويظهر غضبه للدين وإعراصه عمن أعرض عن الله فأعرض الله تعالى عنه. وإن كان الداخل عليه في جمع فمراعاة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه النية. وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى. ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه، فإن كان يقارف ما لا يعرف تحريمه وهو بالقيام أولى. ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه، فإن كان يقارف ما لا يعرف تحريمه وهو

حديث: قيا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل العنبا فإنها مسخطة للرزق، أخرجه الحاكم من حديث عبدالله بن الشخير «أقلوا الدخول على الأغنياء فإنه أجلر أن لا تزدروا نعم الله عز وجل، وقال صحيح الإسناد.

حديث: قدعي ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبدالملك فقال. لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار
 فإن رسول الله ﷺ نهى عن بيعتين*. أخرجه أبو نعيم في الحلية بإساد صحيح من رواية يحيى بن سعيد.

يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب. وأما ذكر تحريم ما يعلم تحريمه من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه. وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقاً على وفق الشرع بحيث يحصل بها غرض الظالم من غير معصية ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم. فإذاً يجب عليه التعريف في محل جهله، والتخويف فيما هو مستجرىء عليه، والإرشاد إلى ما هو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم، فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أثراً، وذلك أيضاً لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر. وعن محمد بن صالح قال: كنت عند حماد بن سلمة وإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه، ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها، فبينا أنا عنده إذ دق داق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له: ما لي إذا رأيتك امتلأت منك رعباً؟ قال حماد: لأنه قال عليه السلام: "إنَّ العَالِمَ إِذَا أَرَادَ بِعلْمِهِ وَجْهَ اللهُ هَابَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَإِنَّ أَرَادَ أَنَّ يَكُنِزَ بِعِ الكُنُوزَ مَا مَن عَلَى بَعْ الله عليه المناد في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم، فال: لعلي إن عدلت في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم، فالوها عني.

الحالة الثالثة: أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه، وهو الواجب إذ لا سلامة إلا فيه؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يحب بقاءهم ولا يثني عليهم ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يتقرب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يغوت بسبب مفارقتهم؛ وذلك إذا خطر بباله أمرهم، وإن غفل عنهم فهو الأحسن. وإذا حطر بباله تنعمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، فأما أمس فلا يجدون لذته وإني وإياهم في غد لعلى وجل، وإنما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم. وما قاله أبو الدرداء إذ قال: أهل الأموال يأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منها براء. وكل من أحاط علمه بظلم ظالم ومعصية عاص فينبغي أن يحط ذلك من درجته في قلبه. فهذا واجب عليه لأن من صدر منه ما يكره ومعصية عن القلب لا محالة، والمعصية ينبغي أن تكره فإنه إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو يكره ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا قلا بدّ من الكراهة، فليكن جناية كل أحد على حق الله كجنايته على حقك.

فإن قلت: الكراهة لا تدخل تحت الاحتيار فكيف تجب؟ قلنا: ليس كذلك فإن المحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوبه ومخالف له، فإن من لا يكره معصية الله لا يحب الله، وإنما لا يحب الله من لا يعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة. وإذا أحبه كره ما كرهه وأحب ما أحبه. وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة والرضا.

فإن قلت: فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين؟ فأقول: نعم، تعلم الدخول منهم ثم

⁽١) حديث حماد بن سلمة مرفوعاً • إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء وإذا أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء، هذا معضل. وروى أبر الشيخ ابن حبان في كتاب النواب من حديث واثلة بن الأسقع: «من خاف الله خوف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء» وللعقيلي في الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلاهما منكر

ادخل؛ كما حكي أن هشام بن عبدالملك قدم حاجاً إلى مكة فلما دخلها قال: ائتوني برجل من الصحابة، فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا. فقال: من التابعين، فأتي بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال: السلام عليك يا هشام، ولم يكنه وجلس بإزائه وقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضباً شديداً حتى همٌّ بقتله، فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك، فقال له: يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟ فازداد غضباً وغيظاً، قال: خلعت نعليك بحاشية بساطي ولم تقبُّل يدي ولم تسلُّم عليٌّ بإمرة المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت: كيف أنت يا هشام؟ قال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب عليَّ، وأما قولك لم تقبل يدي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة. وأما قولك لم تسلم عليُّ بإمرة المؤمنين؛ فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب. وأما قولك لـم تكنني؛ فإن الله تعالى سمى أنبياءه وأولياءه فقال: يا يحبى يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِّي لَهَبٍّ﴾ [المَسُد· ١]. وأما قولك جلست بإزائي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام. فقال له هشام: عظني، فقال: سنمعت من أمير المؤمنين على رضي الله عنه يقول: إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته. ثم قام وهرب.

وعن سفيان الثوري رضي الله عنه قال: أدخلت على أبي جعفو المنصور بعنى فقال لي: ارفع إلينا حاجتك، فقلت له: اتن الله فقد ملأت الأرض ظلماً وجوراً. قال: فطأطاً رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتن الله وأوصل إليهم حقوقهم. فطأطاً رأسه ثم رفعه فقال: ارفع إلينا حاجتك، فقلت: حجَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً، وأرى ههنا أموالاً لا تطبق المجمال حملها، وخرج. فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا ألزموا وكانوا يغرّرون بأرواحهم للانتقام لله من ظلمهم. ودخل ابن أبي شميلة على عبدالملك بن مروان فقال له: تكلم، فقال له: إنّ الناس لا عبدالملك وقال: لأجعلن هذه الكلمة مثالاً نصب عيني ما عشت. ولما استعمل عثمان بن عفان رضي الله عنه عبدالله بن عامر أتاه أصحاب رسول الله على ولاية تباعد الله عنه أبو ذر ـ وكان له صديقاً ـ فعاتبه، فقال أبو ذرّ: سمعت رسول الله على أيل الربط أنه أصحاب رسول الله على ولاية تباعد الله عنالي يقول: ما أحمق من فقال أبو ذرّ: سمعت وسول الله على أمير البصرة فقال: أيها الأمير، قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول: ما أحمق من معاحاة فأكلت اللحم ولبست الصوف وتركتها عظاماً تتقعقع، فقال له والي البصرة: أتلري ما الذي يحرك علينا ويجنبنا عنك؟ قال: لا، قال: قال الطمع فينا وترك الإمساك لما في أيدينا. وكان عمر بن يجرك علينا ويجنبنا عنك؟ قال: لا، قال: قلة الطمع فينا وترك الإمساك لما في أيدينا. وكان عمر بن

ابي ذر: «إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عز وجل منه» لم أنف له على أصل.

عبدالعزيز واقفاً مع سليمان بن عبدالملك، فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدمة الرحل، فقال له عمر: هذا صوت رُحْمته، فكيف إذا سمعت صوت عذابه؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال: ما أكثر الناس، فقال عمر: خصماؤك يا أمير المؤمنين. فقال له سليمان: ابتلاك الله بهم.

وحكي أن سليمان بن عبدالملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه، فلما دخل عليه قال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب فقال: يا أبا حازم، كيف القدوم على الله؟ قال: يا أمير المؤمنين، أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه. فبكي سليمان وقال: ليت شعري ما لي عند الله؟ قال أبو حازم: اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَيِي نَبِيهِ ﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَبِيرٍ ﴾ [الانفطار: ١٤،١٣] قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين، ثم قال سليمان: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟ قال: أهل البر والتقوى قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم. قال: فأي الكلام أسمع؟ قال: قول الحق عند من تخاف وترجو قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها، قال: فأي المؤمنين أخسر؟ قال: رجل خطا في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره، قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: أو تعفيني؟ قال: لا بد فإنها نصيحة تلقيها إليَّ، قال: يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم؟ فقال له رجل من جلسائه: بئسما قلت: قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال: وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟ قال: أن تأخذه من حله فتضعه في حقه، فقال سليمان: ومن يقدر على ذلك؟ فقال: من يطلب الجنة ويخاف من النار. فقال سليمان: ادع لي. فقال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيري الدنيا والآخرة، وإن كان عدوَّك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى، فقال سليمان: أوصني، فقال: أوصيك وأوجز، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك. وقال عمر بن عبدالعزيز لأبي حازم: عظني، فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم انظر إلى ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن، وما تكرُّه أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن، فلمل تلك الساعة قريبة.

ودخل أعرابي على سليمان بن عبدالملك، فقال: تكلم يا أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: يا أعرابي إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا نأمن غشه فكيف بمن نأمن غشه، ونرجو نصحه؟ فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين: إنه قد تكنفك رجال أساؤوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك، حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأتمنهم على ما ائتمنك الله تعالى عليه؛ فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعاً وفي الأمة خسفاً وعسفاً وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمان: يا أعرابي! أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع سيفيك. قال: أجل أمير المؤمنين ولكن لك لا عليك.

وحكى أن أبا بكرة دخل على معاوية فقال: اتق الله يا معاوية، واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك

وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعداً ومن الآخرة إلا قرباً، وعلى أثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علماً لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك ما يلحق بك الطالب، وإنا وما نحن فيه زائل، وفي الذي نحن إليه صائرون باق؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين _ أعني علماء الآخرة _ فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم فيدلونهم على الرخص، ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيما يوافق أغراضهم. وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح، بل اكتساب الجاه والقبول عندهم. وفي هذا غروران يغتر بهما الحمقى:

أحدهما: أن يُظهر أن قصدي في الدخول عليهم إصلاحهم بالوعظ، وربما يلبسون على أنفسهم بذلك، وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح: أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه في العلم، ووقع موقع القبول وظهر به أثر الصلاح، فينبغي أن يفرح به ويشكر الله تعالى كفايته هذا المهم، كمن وجب عليه أن يعالح مريضاً ضائعاً فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه. فإن كان يصادف في قلبه ترحيحاً لكلامه على كلام غيره فهو مغرور.

الثاني: أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامة، وهذا أيضاً مظنة الغرور. ومعياره ما تقدم ذكره.

وإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل:

مسألة: إذا بعث إليك السلطان مالاً لتفرّقه على الفقراء. فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه، وإن لم يكن بل كان حكمه أنه يجب التصدّق به على المساكين ـ كما سبق ـ فلك أن تأخذه وتتولى التفرقة ولا تعصي بأخذه. ولكن من العلماء من امتنع عنه فعند هذا ينظر في الأولى فنقول:

الأولى أن تأخذه إن أمنت ثلاث غوائل:

الغائلة الأولى: أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب، ولولا أنه طيب لما كنت تمدّ يدك إليه ولا تدخله في ضمانك، فإن كان كذلك فلا تأخذه، فإنّ ذلك محذور ولا يفي الخبر في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجراءة على كسب الحرام.

الغائلة الثانية: أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال فيعتقدون أنه حلال، فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به على جوازه ثم لا يفرقون، فهذا أعظم من الأوّل. فإن جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضي الله عنه على جواز الأخذ ويغفلون عن تفرقته وأخذه على نية التفرقة، فالمقتدي والمتشبه به ينبغي أن يحترز عن هذا غاية الاحتراز؛ فإنه يكون فعله سبب ضلال خلق كثير. وقد حكى وهب بن منبه أن رجلاً أي به إلى ملك بمشهد من الناس ليكرهه على أكل لحم الخنزير فلم يأكل، فقدم إليه لحم غنم وأكره بالسيف فلم يأكل، فقيل له في ذلك فقال: إن الناس قد اعتقدوا أني طولبت بأكل لحم الخنزير، فإذا خرجت سالماً وقد أكلت؛ فلا يعلمون ماذا أكلت فيضلون. ودخل وهب بن منبه وطاوس على محمد بن يوسف أخي الحجاج وكان عاملاً، وكان في غداة باردة في مجلس بارز، فقال لغلامه: هلم ذلك الطيلسان وألقه على المحجاج وكان عاملاً، وكان قي غداة باردة في مجلس بارز، فقال لغلامه: هلم ذلك الطيلسان وألقه على عبدالرحمن أي طاوس وكان قد قعد على كرسي فألقي عليه فلم يزل يحرّك كثفيه حتى ألقى الطيلسان عنه، قغضب مُحمد بن يوسف، فقال وهب: كنت غنياً عن أن تغضبه لو أخذت الطيلسان وتصدّقت به،

قال: نعم، لولا أن يقول من بعدي: إنه أخذه طاوس_ ولا يصنع به ما أصنع به _إذن لفعلت.

إحياء عُلوم الدّين

الغائلة الغائلة المائلة: أن يتحرّك قلبك إلى حبه لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أنفذه إليك، فإن كان كذلك فلا تقبل ذلك؛ هو السم القاتل والله الذفين - أعني ما يحبب الظلمة إليك - فإن من أحببته لا بدّ أن تحرص عليه وتداهن فيه. قالت عائشة رضي الله عنها: جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وقال عليه السلام: «اللّهُم لا تَجْعَلُ لِفَاجِرِ هِنْدِي يَها فَيُحِبَّهُ قَلْبِي الله النفوس على حب من أحسن إليها، وقال عليه السلام: «اللّهُم لا تَجْعَلُ لِفَاجِرِ هِنْدِي يَها فَيُحِبَّهُ قَلْبِي الله النفوس على حب من أحسن إليها، وقال عليه وروي أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم، فأخرجها كلها فأتاه محمد بن واسع فقال: ما صنعت بما أعطاك هذا المخلوق؟ قال: سل أصحابي؟ فقالوا: أخرجه كله، فقال: أتشلك الله أقلبك أشدّ حباً له الآن أم قبل أن يرسل إليك؟ قال: لا بل الآن، قال: إنما كنت أخاف هذا. وقد صدق فإنه إذا أحبه أحب بقاءه وكره عزله ونكبته وموته، وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله، وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم. قال سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما: من رضي بأمر وإن غاب عنه كان كمن شهده قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكُوا إِلَى اللّذِي المُن عنه عنه كان كمن الظلم وهو مذموم. قال سلمان وابن مسعود رضي الله عنهما: من رضي بأمر وإن غاب عنه كان كمن بعض عبّاد البصرة أنه كان يأخذ أموالاً بحيث لا نزداد حباً لهم بذلك فلا بأس بالأخذ. وقد حكي عن بعض عبّاد البصرة أنه كان يأخذ أموالاً ومن منهم، وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم لأنه لا ينفك عن هذه الغوائل. المال الآن منهم، وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم لأنه لا ينفك عن هذه الغوائل.

مسألة: إن قال قائل: إذا جاز أخذ ماله وتفرقته فهل يجوز أن يسرق ماله أو تخفى وديعته وتنكر وتفرّق على الناس؟ فنقول: ذلك غير جائز؛ لأنه ربما يكون له مالك معين وهو على عزم أن يرده عليه، وليس هذا كما لو بعثه إليك، فإن العاقل لا يظن به أنه يتصدق بمال يعلم مالكه فيدل تسليمه على أنه لا يعرف مالكه، فإن كان ممن يشكل عليه مثله فلا يجوز أن يقبل منه المال ما لم يعرف ذلك. ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء في ذمته؟ فإن اليد دلالة على الملك. فهذا لا سبيل إليه، بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندي واحتمل أن تكون له بشراء في الذمة أو غيره وجب الرد عليه، فإذاً: لا يجوز سرقة مالهم لا منهم ولا ممن أودع عنده. ولا يجوز إنكار وديعتهم ويجب الحد على سارق مالهم، إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكاً لهم فعند ذلك يسقط الحد بالدعوى.

مسألة: المعاملة معهم حرام؛ لأن أكثر مالهم حرام فما يؤخذ عوضاً فهو حرام، فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فيبقى النظر فيما سلم إليهم، فإن علم أنهم يعصون الله به كبيع الديباج منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع العنب من الخمار، وإنما الخلاف في الصحة وإن أمكن ذلك وأمكن أن يلبسها نساءه فهو شبهة مكروهة، هذا فيما يعصى في عينه من الأموال. وفي معناه بيع الفرس منهم، لا سيما في وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين أو حباية أموالهم؛ فإن ذلك إعانة لهم بفرسه وهي محظورة. فأما بيع الدراهم والدنائير منهم وما يجري مجراها مما لا يعصى في عينه بل يتوصل بها: فهو مكروه لما فيه من إعانتهم على الظلم؛ لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب، وهذه فيه من إعانتهم على الظلم؛ لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب، وهذه

 ⁽۱) حديث: «اللهم لا تجمل لفاجر صندي بدأ فبحيه قلبي» أخرجه ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن عطية عن
 رجل لم يسم، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ، وأبو موسى المديني في كتاب: تضبيع
 العمر والأيام مرسلاً، وأسانيده كلها ضعيفة.

الكراهة جارية في الإهداء إليهم وفي العمل لهم من غير أجرة حتى في تعليمهم وتعليم أولادهم الكتابة والترسل والحساب، وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله، ولو انتصب وكيلاً لهم يشتري لهم في الأسواق من غير جعل أو أجرة فهو مكروه من حيث الإعانة، وإن اشترى لهم ما يعلم أنهم يقصدون به المعصية كالغلام والديباج للفرش واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام، فمهما ظهر قصد المعصية بالمبتاع حصل التحريم، ومهما لم يظهر واحتمل بحكم الحال ودلالتها عليه حصلت الكراهة.

مسألة: الأسواق التي بنوها بالمال الحرام تحرم النجارة فيها ولا يجوز سكناها، فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعي لم يحرم كسبه وكان عاصياً بسكناه، وللناس أن يشتروا منهم، ولكن لو وجدوا سوقاً أخرى فالأولى الشراء منها، فإن ذلك إعانة لسكناهم وتكثير لكراء حوانيتهم، وكذلك معاملة السوق التي لا خراج لهم عليها أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج، وقد بالغ قوم حتى تحرزوا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضي التي لهم عليها الخراج فإنهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإعانة، وهذا غلق في الدين وحرج على المسلمين؛ فإن الخراج قد عم الأراضي ولا غنى بالناس عن ارتفاق الأرض ولا معنى للمنع منه، ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لا يطلب خراجها. وذلك مما يطول ويتداعى إلى حسم باب المعاش.

مسألة: معاملة قضاتهم وعمالهم وخدمهم حرام كمعاملتهم بل أشد. أما القضاة: فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جمعهم ويغرون الخلق بزيهم فإنهم على زي العلماء ويختلطون بهم ويأخذون من أموالهم، والطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بذوي الجاه والحشمة. فهم سبب انقياد المخلق إليهم. وأما الخدم والحشم: فأكثر أموالهم من الغصب الصريح ولا يقع في أيديهم مال مصلحة ومبراث وجزية ولا وجه حلال حتى تضعف الشبهة باختلاط الحلال بمالهم. قال طاوس: لا أشهد عندهم وإن تحققت لأنى أخاف تعديهم على من شهدت عليه.

وبالجملة: إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفاً من إنكارهم. ولذلك قال على: "لا تَزَالُ لهنو الأُمّةُ تَحْتَ يَدِ الله وَكَنَهِهِ مَا لَمْ يُعَالِىءُ قُرَّاؤُهَا أُمْرَاءَهَاهُ (١). وإنما ذكر القرّاء لأنهم كانوا هم العلماء، وإنما كان علمهم بالقرآن ومعانيه المفهومة بالسنة، وما وراء ذلك من العلوم فهي محدثة بعدهم. وقد قال سفيان: لا تخالط السلطان ولا من يخالطه. وقال: صاحب القلم وصاحب الدواة وصاحب القرطاس وصاحب الليطة (٢) بعضهم شركاء بعض. وقد صدق؛ فإنّ رسول الله عنه لهن لمن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر (٣) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «آكِلُ الرُبًا وَمُوكِلُهُ وَشَاهِدَاهُ وَكَاتِبُهُ

⁽١) حديث: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لم يماليء قراؤها أمراءها» أخرجه أبو عمرو الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسلاً، ورواه الديلمي في مستد الفردوس من حديث علي وابن عمر بلفظ: «ما لم يعظم أبرارها فجارها ويفاهن خيارها شرارها» وإسنادهما ضميف.

⁽٣) صاحب الليطة: صاحب مال الربا. وهي من ليط أي لصق، فالربا لصيق برأس المال.

 ⁽٣) حديث: •أن النبي ﷺ لعن في الخمر عشرة حتى العاصر والمعتصر الخرحه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس.
 قال الترمذي: حديث غريب.

مَلْعُونُونَ عَلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدِ ﷺ ('). وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله ﷺ (') وقال ابن سيرين: لا تحمل للسلطان كتاباً حتى تعلم ما فيه، وامتنع سفيان رحمه الله من مناولة الخليفة في زمانه دواة بين يديه وقال: حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حواليهم من خدمهم وأتباعهم ظلمة مثلهم يجب بغضهم في الله جميعاً.

روي عن عشمان بن زائدة أنه سأله رجل من الجند وقال: أين الطريق؟ فسكت وأظهر الصمم وخاف أن يكون متوجهاً إلى ظلم فيكون هو بإرشاده إلى الطريق معيناً. وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق من التجار والحاكة والحجامين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الكذب والفسق عليهم، بل مع الكفار من أهل الذمة، وإنما هذا في الظلمة خاصة؛ الآكلين لأموال البتامي والمساكين والمواظبين على إيذاء المسلمين، الذين تعاونوا على طمس رسوم الشريعة وشعائرها. وهذا لأن المعصية تنقسم إلى لازمة ومتعدّية، والفسق لازم لا يتعدَّى، وكذا الكفر وهو جناية على حق الله تعالى وحسابه على الله. وأما معصية الولاة بالظلم وهو متعدّ فإنما يغلظ أمرهم لذلك وبقدر عموم الظلم وعموم التعدّي يزدادون عند الله مقتاً فيجب أن يزداد منهم اجتناباً ومن معاملتهم احترازاً، فقد قال ﷺ: ﴿يُقَالُ لِلشَّرْطِيِّ: دَمْ سَوْطَكَ وَادْخُل المُنَارَ»(٣٠). وقال ﷺ: "مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ رِجَالٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ» (4)، فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف، ومن لم يعرف فعلامته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة. فمن رئي على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن؛ لأنه الذي جنى على نفسه إذ تزيا بزيهم، ومساواة الزي تدل على مساواة القلب، ولا يتجانن إلا مجنون ولا يتشبه بالفساق إلا فاسق. نعم الفاسق قد يلتبس فيتشبه بأهل الصلاح، فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد؛ لأن ذلك تكثير لسوادهم، وإنما نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ نَوَفَّنْهُمُ ٱلْتَكْتِيكُةُ ظَالِينَ أَنفُسِهِم ۗ [النَّساء: ٩٧] في قوم من المسلمين كانوا يكثرون جماعة المشركين بالمخالطة، وقد روي أن الله تعالى أوحي إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم وستين ألفاً من شرارهم، فقال: ما بال الأخيار؟ قال: إنهم لا يغضبون لغضبي فكانوا يؤاكلونهم

⁽۱) حديث ابن مسعود: «أكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه ملعونون على لسان محمد ، رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للنسائي دون قوله: «وشاهده» ولأني داود: «لعن رسول الله ، آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه» قال الترمذي وصححه ابن ماجه: «وشاهديه».

 ⁽٣) حديث جابر: العن رسول الله الله آكل الربا وموكله وكائيه رشاهديه قال: هم سواءا أخرجه مسلم من حديثه، وأما حديث عمر فأشار إليه الشرمذي بقوله وفي الباب ولابن ماجه من حديثه: ﴿إِن آخر ما أنزلت آية الربا أن رسول الله عنه مات ولم يفسرها فدعوا الربا والرببة؛ وهو من رواية ابن المسيب عنه، والجمهور على أنه لم يسمع منه.

 ⁽٣) حديث: (بقال للشرطي دع سوطك وادخل النار) أخرجه أبو يعلى من حديث أس بسند ضعيف.

⁽٤) حديث: «من أشراط الساحة رجال معهم سياط كأذناب البقر" أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث أبي أمامة: «يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأنها أذناب البقر. . .» الحديث، ولمسلم من حديث أبي هريرة: «يوشك إن طالت بك مدة أن ترى قوماً في أيديهم مثل أذناب البقر" وفي رواية له: «صنفان من أهل النار لم أرهما وقوم معهم سياط كأذناب البقر. . . » الحديث.

ويشاربونهم. وبهذا يتبين أن بغض الظلمة والغضب لله عليهم واجب، وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللهُ لَعَنَ عُلَمَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ إِذْ خَالَطُوا الظَّالِمِينَ فِي مَعَاشِهِمُ الْأَ.

مسألة المواضع التي بناها الظلمة كالقناطر والرباطات والمساجد والسقايات ينبغي أن يحتاط فيها وينظر. أما القنطرة: فيُجوز العبور عليها للحاجة، والورع الاحتراز ما أمكن، وإن وجد عنه معدلاً تأكد الورع. وإنما جوزيا العبور وإن وجد معدلاً لأنه إذا لم يعرف لتلك الأعبان مالكاً كان حكمها أن ترصد للحيرات وهذا خير، فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليه أصلاً إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير، ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه. وأما المسجد: فإن بني في أرض مغصوبة أو بخشب مغصوب من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلاً ولا للجمعة، بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المغصوبة تسقط المرض وتنعقد في حق الاقتداء، فلذلك جوّزنا للمقتدي الاقتداء بمن صلى في الأرض المغصوبة، وإن عصى صاحبه بالوقوف في الغصب. وإن كان من مال لا يعرف مالكه فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد، فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناه ولو على بعد، وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين. ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عذر لمن يصلي فيه مع اتساع المسجد - أعني في الورع - قيل لأحمد بن حنبل: ما حجتك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالعسكر؟ فقال: حجتي: أن الحسن وإبراهيم التيمي خَّافًا أن يفتنهما الحجاج وأنا أخاف أن أفتن أيضاً. وأما الخلوق والتجصيص فلا يمنع من الدخول؛ لأنه غير منتفع به في الصلاة وإنما هو زينة والأولى أنه لا ينظر إليه، وأما البواري الَّتي فرشوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها، وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز افتراشها، ولكن الورع العدول عنها؛ فإنها محل شبهة. وأما السقاية: فحكمها ما ذكرناه وليس من الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إلا إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة. وأما الرباطات والمدارس: فإن كانت رقبة الأرض مغصوبة أو الآجر منقولاً من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه فلا رخصة للدخول فيه، وإن التبس المالك فقد أرصد لجهة من الخير، والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله. وهذه الأبنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشدًّ؛ إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح، ولأن الحرام أغلب على أموالهم؛ إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك للولاة وأرباب الأمر.

مسألة: الأرض المغصوبة إدا جعلت شارعاً لم يجز أن يتخطى فيه البتة، وإن لم يكن له مالك معين جاز، والورع العدول إن أمكن، فإن كان الشارع مباحاً وفوقه ساباط جاز العبور وجاز الجلوس تحت الساباط على وجه لا يحتاح فيه إلى السقف كما يقف في الشارع لشغل، فإذا انتفع بالسقف في

⁽١) حديث ابن مسعود: المعن الله علماء بني إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معايشهم، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه. قال رسول الله عليه لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي: النهتهم علماؤهم قلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم؛ قضرب الله قلوب بعضهم يبعض ولعنهم على لسان داود وحيسى ابن مريم، لفظ الترمذي وقال: حسن غريب.

دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام؛ لأن السقف لا يراد إلا لذلك، وهكذا حكم من يدخل مسجداً أو أرضاً مناحة سُقفَ أو حُولط بغصب، فإنه بمجرد التخطي لا يكون منتفعاً بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائدة في الحيطان والسقف لحر أو برد أو تستر عن بصر أو غيره، فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام؛ إذ لم يحرم الجلوس على الغصب لما فيه من المماسة بل للانتفاع، والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستظلال به فلا فرق بينهما.

* * *

الباب السابع

في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوي

مسألة: سئل عن حادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاماً أو نقداً ويشتري به طعاماً، فمن الذي يحل له أن يأكل منه؟ وهل يختص بالصوفية أم لا؟ فقلت: أما الصوفية فلا شهة في حقهم إذا أكلوه، وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ولكن لا يخلو عن شبهة، أما الحل: فلأن ما يخرج يعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية وله أن يطعم غير العيال؛ إذ يبعد أن يقال: لم يخرج عن ملك المعطي ولا يتسلط الخادم على الشراء به والتصرف فيه؟ لأن ذلك مصير إلى أن المعاطاة لا تكفي وهو ضعيف، ثم لا صائر إليه في الصدقات والهدايا، ويبعد أن يقال: زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله في الخائقاه؛ إذ لا خلاف أن له أن يطعم منه من يقدم بعدهم، ولو ماتوا كلهم أو واحد منهم لا يجب صرف نصيبه إلى وارثه، ولا يمكن أن يقال: إنه وقع لجهة التصوف ولا يتعين له مستحق؛ لأن إزالة الملك إلى الجهة لا توجب تسليط الآحاد على التصوف، فإن المداخلين فيه لا ينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة، وإنما يتصرف فيه الولاة، والخادم لا يجوز له أن ينتصب نائباً عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه، وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوف والمروءة، فإن منعهم عنه منعوه عن أن يظهر نفسه في معرض التكفل بهم حتى يقطع وقفه كما ينقطع عمن مات عياله.

مسألة: سئل عن مال أوصى به للصوفية فمن الذي يجوز أن يصرف إليه؟ فقلت: التصوّف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفي، والضابط الكلي: أن كل من هو بصفة إذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم فهو داخل في غمارهم، والتفصيل: أن يلاحظ فيه خمس صفات: الصلاح، والفقر، وزي الصوفية، وأن لا يكون مشتغلاً بحرفة، وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة في الخانقاه. ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم، وبعضها ينجبر بالبعض، فالفسق يمنع الاستحقاق؛ لأن الصوفي بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة، فالذي يظهر فسقه وإن كان على زيهم لا يستحق ما أوصى به للصوفية ولسنا نعتبر فيه الصغائر، وأما الحرفة والاشتغال بالكسب، فإنه يمنع هذا الاستحقاق، فالدهقان والعامل والتاجر والصائع في حانوته أو داره والأجير الذي يخدم بأجرة كل

هؤلاء لا يستحقون ما أوصى به للصوفية، ولا ينجبر هذا بالزي والمخالطة، فأما الوراقة والخياطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاطيها، فإذا تعاطاها لا في حانوت ولا على جهة اكتساب وحرفة فذلك لا يمنع الاستحقاق، وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات، وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة لا تمنع، وأما الوعظ والتدريس: فلا ينافي اسم التصوف إذا وجدت بقية الخصال من الزي والمساكنة والفقر؛ إذ لا يتناقض أن يقال صوفي مقرىء وصوفي واعظ وصوفي عالم أو مدرس، ويتناقض أن يقال صوفي تاجر وصوفي عامل، وأما الفقر: فإن زال بغنى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية، وإن كان له مال ولا يفي دخله بخرجه لم يبطل حقه، وكذا إذا كان له مال وساكنتهم فلها أثر، ولكن من لا يخالطهم وهو في داره أو في مسجد على زيهم ومتخلق بأخلاقهم فهو ومساكنتهم فلها أثر، ولكن من لا يخالطهم وهو في داره أو في مسجد على زيهم ومتخلق بأخلاقهم فهو الصفات فلا يستحق إلا إذا كان مساكناً لهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية. فالمخالطة والزي ينوب كل واحد منهما عن الآخر. والفقيه الذي ليس على زيهم هذا حكمه، فإن كان خارجاً لم يعذ صوفياً وإن كان ساكناً معهم ووجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم. وأما لبس المرقعة وإن كان ساكناً معهم ووجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم. وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم فلا يشترط ذلك في الاستحقاق، وعلمه لا يضره مع وجود الشرائط المذكورة. وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم.

مسألة: ما وقف على رباط الصوفية وسكانه فالأمر فيه أوسع مما أوصى لهم به؛ لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم، فلغير الصوفي أن يأكل معهم برضاهم على مائدتهم مرة أو مرتين، فإن أمر الأطعمة مبناه على التسامح حتى جار الانفراد بها في الغنائم المشتركة، وللقوال أن يأكل معهم في دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معايشهم، وما أوصى به للصوفية لا يجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف، وكذلك من أحضروه من العمال والتجار والقضاة والفقهاء ممن لهم غرض في استمالة قلوبهم يحل لهم الأكل برضاهم، فإن الواقف لا يقف إلا معتقداً فيه ما جرت به عادات الصوفية فينزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام، فلا يجوز لمن ليس صوفياً أن يسكن معهم على الدوام ويأكل وإن رضوا به، إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركة غير جنسهم. وأما الفقيه إذا كان على زيهم وأخلاتهم قله النزول عليهم، وكونه فقيهاً لا ينافي كونه صوفياً، والجهل ليس بشرط في التصوف عند من يعرف التصوف، ولا يلتفت إلى خرافات بعض الحمقى بقولهم: إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب. وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة في كتاب العلم، وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود، وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما. وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهم وأخلاقهم فلهم منعه من النزول عليهم، فإن رضوا بنزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية، فكان عدم الزي تجبره المساكنة ولكن برضا أهل الزي، وهذه أمور تشهد لها العادات. ومنها أمور متقابلة لا يخفي أطرافها في النفي والإِثبات ومتشابه أوساطها. فمن احترز في مواضع الاشتباه فقد استبرأ لدينه كما نبهنا عليه في أبواب الشبهات.

مسألة: سنل عن الفرق بين الرشوة والهدية مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولا يخلو عن غرض، وقد حرمت إحداهما دون الأخرى. فقلت: باذل المال لا يبذله قط إلا لغرض، ولكن الغرض إما آجل كالثواب، وإما عاجل، والعاجل: إما مال، وإما فعل وإعانة على مقصود معين، وإما تقرب إلى

قلب المهدى إليه بطلب محبته؛ إما للمحبة في عينها وإما للتوصل بالمحبة إلى غرض وراءها، فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة:

الأول: ما غرضه الثواب في الآخرة؛ وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجاً أو عالماً أو منتسباً بنسب ديني أو صالحاً في نفسه متديناً. فما علم الآخذ أنه يعطاه لحاجته لا يحل له أخذه إن لم يكن محتاجاً، وما علم أنه يعطاه لشرف نسبه لا يحل له إن علم أنه كاذب في دعوى النسب، وما يعطى لعلمه فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون في العلم كما يعتقده المعطي، فإن كان خيل إليه كمالاً في العلم حتى بعثه بذلك على التقرب ولم يكن كاملاً لم يحل له، وما يعطى لدينه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه إن كان فاسقاً في الباطن فسقاً لو علمه المعطي ما أعطاه. وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف بأطنه لبقيت القلوب ماثلة إليه وإنما ستر الله الجميل هو الذي يحبب الخلق إلى الخلق، وكان المتورعون يوكلون في الشراء من لا يعرف أنه وكيلهم حتى لا يتسامحوا في المبيع؛ خيفة من أن يكون ذلك أكلاً بالدين هإن ذلك مخطر والتقي خفي لا كالعلم والنسب والفقر، فينبغي أن يجتنب الأخذ بالدين ما أمكن.

المقسم الثاني: ما يقصد به في العاجل غرض معين؛ كالفقير يهدي إلى الغني طمعاً في خلعته، فهذه هبة بشرط الثواب لا يخفى حكمها، وإنما تحل عند الوفاء بالثواب المطموع فيه وعند وجود شروط العقود.

الثالث: أن يكون المراد إعانة بفعل معين؛ كالمحتاج إلى السلطان يهدي إلى وكيل السلطان وخاصته ومن له مكانة عنده، فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال، فلينظر في ذلك العمل الذي هو الثواب فإن كان حراماً، كالسعي في تنجيز إدرار حرام أو ظلم إنسان أو غيره حرم الأخذ، وإن كان واجباً؛ كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه ما يأخذه وهي الرشوة التي لا يشك في تحريمها، وإن كان مباحاً لا واجباً ولا حراماً وكان فيه تعبُّ بحيث لو عرف لجاز الاستثجار عليه فما يأخذه حلال مهما وفَيْ بالغرض، وهو جار مجرى الجعالة كقوله: أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل متقوّم، أو قال: اقترح على فلان أن يعينني في غرض كذا أو ينعم عليّ بكذا وافتقر في تنجيز غرضه إلى كلام طويل، فذلك جعل كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضي فليس بحرام إذا كان لا يسعى في حرام، وإن كان مقصوده يحصل بكلمة لا تعب فيها ولكن تلك الكلمة من ذي الجاه أو تلك الفعلة من ذي الجاه تفيد؛ كقوله للبواب: لا تغلق دونه باب السلطان أو كوضعه قصة بين يدي السلطان فقط، فهذا حرام؛ لأنه عوض من الجاه، ولم يثبت في الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل على النهي عنه كما سيأتي في هدايا الملوك _ وإذا كان لا يجوز العوض عن إسقاط الشفعة والرد بالعيب ودخول الأغصان في هواء الملك وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلمة واحدة ينبه بها على دواء ينفرد بمعرفته؛ كواحد ينفرد بالعلم بنبت يقلع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعوض، فإن عمله بالتلفظ به غير مثقوم كحبة من سمسم، فلا يجوز أخذ العوض عليه ولا على علمه؛ إذ ليس يتتقل علمه إلى غيره وإنما يحصل لغيره مثل علمه ويبقى هو عالماً به، ودون هذا: الحاذق في الصناعة كالصيقلي مثلاً الذي يزيل اعوجاج السيف أو المرآة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل، ولحذقه بإصابته فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير في قيمة السيف والمرآة، فهذا لا أرى بأساً بآخذ الأجرة عليه؛ لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل في تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل.

الرابع: ما يقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدي إليه، لا لغرض معين ولكن طلباً للاستئناس وتأكيداً للصحبة وتودداً إلى القلوب، فذلك مقصود للعقلاء ومندوب إليه في الشرع. قال ﷺ: قتَهادُوا تَحَابُوا الله المحبة على المحبة على المحبة بل لفائدة في محبته، ولكن إذا لم تتعين تلك الفائدة ولم يتمثل في نفسه غرض معين يبعثه في الحال أو المآل سمي ذلك هدية وحل أخذها.

المخامس: أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته لا لمحبته ولا للأنس به من حيث إنه أنس فقط، بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض له ينحصر حنسها وإن لم ينحصر عينها، وكان لولا جاهه وحشمته لكان لا يهدي إليه، فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه؛ فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية في ظاهرها، فإن كان جاهه بولاية تولاها من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأوقاف مثلاً، وكان لولا تلك الولاية لكان لا يهدي إليه فهذه رشوة عرضت في معرض الهدية؛ إذ القصد بها في الحال طلب التقرّب واكتساب المحبة، ولكن الأمر ينحصر في جنسه إذ ما يمكن التوصل إليه بالآيات لا يخفى، وآية أنه لا يبغي المحبة أنه لو ولى في الحال غيره لسلم المال إلى ذلك الغير، فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا في كونه حراماً، والمعنى فيه متعارضاً فإنه دائر بين الهدية المحضة وبين الرشوة المبذولة في مقابلة جاء في غرض معين، وإذا تعارضت المشابهة الفياسية وعضدت الأخبار والآثار أحمدهما تعين الميل إليه، وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر في ذلك. قال ﷺ فيَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يُسْتَحَلُّ فِيهِ السُّختُ بِالهَدِيَّةِ وَالقَنْلُ بِالْمَوْعِظَةِ يُقْتَلُ البِّرِيءُ لِتُوعَظُّ بِهِ الْعَامَّةُ»(٢)، وسئلَ ابن مسعود رضي الله عنه عن السحت فقال: يقضي الرجل الحاجة فتهدى له الهدية. ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لا تعب فيها أو تبرع بها لا على قصد أجرة، فلا يجور أن يأخذ بعده شيئاً في معرض العوض. شفع مسروق شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردها وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي منها. وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال: سحت. وأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض الذي أخذه ولداه من بيت المال وقال: إنما أعطيتما لمكانكما مني؛ إذ علم أنهما أعطيا لأَجل جاه الولاية. وأهدت امرأة أبي عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خُلُوقًا فكافأتها بجوهر، فأخذه عمر رضي الله عنه فباعه وأعطاها ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين. وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما: هدايا الملوك غلول. ولما رد عمر بن عبدالعزيز الهدية قيل له: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية (٣) فقال: كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة. أي كان يتقرَّب إليه لنبوته لا لولايته، ونحن إنما نعطى للولاية. وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدي «أن رسول الله ﷺ بعث والياً على صدقات الأزَّدِ فلما

> الباب السابع في مسائل متفرقة

 ⁽۱) حديث: «تهادوا تحابوا» أخرجه البيهتي من حديث أبي هريرة، وضعفه ابن عدي.

⁽٢) حديث: «يأتي هلى الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموحظة، يقتل البريء ليوحظ به العامة» لم أقف له على أصل.

٣) حديث: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية». أخرجه البخاري من حديث عائشة.

جاء إلى رسول الله على أمسك بعض ما معه وقال: هذا لكم وهذا لي هدية، فقال عليه السلام: «أَلاَ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكٌ وَبَيْتِ أُمُكَ حَتِّى تَأْتِيكَ هَدِيْتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً»، ثم قال: «مَا لِي أَسْتَغْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ فَيَقُولُ: هٰذَا لَكُمْ وَهٰذَا لِي هَدِيَّةٌ اللا جَلَسَ فِي بَيْتِ أُمّهِ لِيُهْذَى لَهُ؟ وَالّذِي تَفْسِي بِيَلِهِ لاَ يَأْخُذُ مِنْكُمْ أَتَى لَهُ يَغْمِ إِلاَ أَتَى الله يَحْمِلُه، فَلا يَأْتِينَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءً أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوارٌ أَقُ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَ أَتَى الله يَحْمِلُه، فَلاَ يَأْتِينَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءً أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوارٌ أَقُ شَيْعُ بَعْرٍ»، ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قال: «اللّهُمّ هَلَ بَلْغَتُ»(١٠)، وإذا ثبتت هذه التشديدات فالقاضي والوالي ينبغي أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه؛ فما كان يعطى بعد العزل وهو في التشديدات فالقاضي والوالي ينبغي أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه؛ فما كان يعطى بعد العزل وهو في بيت أمه يجورُ له أن يأخذه في ولايته، وما يعلم أنه إنما يعطاه لولايته فحرام أخذه، وما أشكل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولاً؟ فهو شبهة فلبجتنبه.

تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومَنَّهِ وحسنِ توفيقه والله أعلم



حديث أبي حميد الساعدي: «أن رسول الله منه بعث واليا إلى صدقات الأزد فلما جاء قال: «هذا مالكم وهذا هدية لي». الحديث متفق عليه، وأبو حميد الساعدي: ذكره البلاذري في الصحابة. والوالي على الصدقات الأزد يسمى
 قابن الكتية» والشاة تيّعر: تصيت.

بند أَهُو النَّخُفِ النَّجَدِ ا

والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربع العادات الثاني

الحمد أله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولاً وامتناناً، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخداناً، وفي الآخرة رفقاء وخلاناً.

والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولاً وفعلاً وعدلاً وإحساناً.

أما بعد: فإنّ التحاب في الله تعالى والأخوة في دينه من أفضل القربات، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات ونزغات الشيطان، فبالقيام بحقوقها يتقرّب إلى الله زلفى، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى، ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في فضيلة الألفة والأخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها.

الباب الثاني: في حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها.

الياب الثالث: في حق المسلم والرحم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع من قد بلي بهذه الأسباب.

الباب الأول

في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والأخوة:

اعلم: أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق. فحسن الخلق يوجب المتحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يشمر التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان المثمر محموداً كانت الشمرة محمودة. وحسن الخلق لا تخفى في الدين قضيلته، وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال: ﴿ وَإِلّٰكَ لَمَانَ عَظِيرٍ ﴿ ﴾ واللهَٰمَ: ٤٤ وقال النبي عليه الهيئة، وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال: ﴿ وَإِلّٰكَ لَمَانً السّمَة بن شريك ؛ قلنا يا رسول الله: ما أعلى الإنسان؟ فقال: ﴿ خُلُقٌ حَسَنٌ (* وقال على المُحتَّلِ المُعتَّلِ المُعتَلِي الْمِيرَانِ خُلُقٌ حَسَنٌ (* وقال على المُعتَلِق المُحتَّلِ المُعتَلِق المُحتَّلِ اللهُ اللهُ عَلَيْ المُعتَلِق اللهُ عَلَيْ عَسَنٌ المُحلُق، قال اللهُ عَلَيْ اللهُ عَلَيْ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْ عَلَيْ عَسَنٌ المُحلُق اللهُ اللهُ اللهُ وقال اللهُ عَلَيْ اللهُ اللهُ عَلَيْ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ وقال اللهُ عَلَيْ اللهُ الله

كتاب آداب الصحبة الباب الأول: في فضيلة الألفة والأخرة

- (١) حديث: قال ما يفخل العبنة تقوى الله وحسن اللخلَّق؛ أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد وقد تقدم.
- (۲) حديث أسامة بن شريك ايا رسول الله، ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: «خلق حسن»، أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح. أسامة بن شريك : الثعلبي، له صحبة ورواية عن رسول الله على.
 - (٣) حديث: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، رواه أحمد والبيهقي، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة.
- (٤) حديث: «أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن» رواه أبر داود والترمذي من حديث أبي الدرداء وقال: حسن صحيح.
- حديث: اما حسن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه المنار؟ أخرجه ابن عدي والطبراني في مكارم الأخلاق وفي
 الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة. قال ابن عدي: في إسناده بعض النكرة.
- (۲) حديث: قيا أبا هريرة عليك بحسن الخلق، قال: وما حسن الخلق؟ قال: اتصل من قطعك، وتعلو همن ظلمك،
 وتعطي من حرمك، رواه البيهتي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه.

أَخْلَاقاً المُوطِّنُونَ أَكْنَافاً اللَّهِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ ('')، وقال ﷺ: «المُؤْمِنُ إِلْفٌ مَأْلُوفٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنَ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يَوْلَفُونَ أَكَانَهُ اللَّهُ عَلَى النّاء على الأُخوة في الدين: «مَنْ أَرَادَ الله بِهِ حَيْراً وَزَقَهُ خَلِيلاً صَالِحاً إِنْ نَسِي ذَكْرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ ('')، وقال ﷺ: «مَثَلُ الاَّخَوَيْنِ إِذَا النَقَيّا مَثَلُ الْبَنيْنِ مَغْسِلُ إِخْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ، وَمَا الْتَقَيٰ مُثُلُ النَّقيّا مَثَلُ البَنيْنِ مَغْسِلُ إِخْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ، وَمَا الْتَقَيٰ مُومِّ اللهِ وَقَلْ اللهِ وَقَلْ اللهِ وَقَلْ اللهِ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ اللَّهُ وَقَلْ اللَّهُ وَقَلْ أَوْلا أَبُو إِدرِيسِ الْخُولانِي لَمَعاذَ: إِنِي اللَّهُ وَقَلْ الْعَرْشِ بَوْمَ الْقِيَامَةِ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَهُمْ لاَ يَفْوَعُونَ وَيَخُولُ النَّاسُ وَهُمْ لاَ يَقُولُ وَيَخُونَ وَيَخُولُ النَّاسُ وَهُمْ لاَ يَقْولُونَ وَيَخُولُ النَّاسُ وَهُمْ لاَ يَقْولُ أَوْلِكُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَلا عَلَيْ اللهُ وَقُلْ الْعَرْشِ بَوْمَ القِيَامَةِ، وُجُوهُهُمْ كَالْقَمْرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، يَفْزَعُونَ وَلَا أَوْلا الْعَرْشِ بَوْمَ القِيَامَةِ، وَهُ الشّاسُ وَهُمْ لَيْلَةُ الْبَدْرِ، يَفْزَعُونَ وَيَخُولُ وَيَخُولُ الْعَرْشِ بَوْمَ الْقِيَامُ اللهُ اللّٰذِينَ لاَ خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»، فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ فقال: «هُمُ لَحُولُ الْعَرْشُ مَنَائِرُ مِنْ نُورِ عَلَيْهَا لَمُ مَعْدُانُ الْعَرْشُ مَنَائِلُ الْمَرْشُ مَنْ وَلُو اللّهُ عَلَى اللهُ وَالْمُتَجَالِسُونَ فِي اللهُ وَالْمُتَجَالِ الْمُونَ فِي اللهُ وَالْمُتَجَالِ الْمُونَ فِي الللهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَلَا الْمُتَعَالُونَ فِي اللللللّهُ وَلَا الْمُولُولُ فِي اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا الْمُولُولُ وَلَا الْمُولُولُ اللللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللللللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ الللللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا الللللّهُ و

 ⁽١) حديث: اإن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطنون أكتافاً الذين يألفون ويؤلفون ارواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف. الموطنون أكبافاً: المتواضعون.

 ⁽۲) حديث: «المؤمن إلف مألوف والاخير فيمن الا يألف والا يؤلف؛ رواه أحمد والطبرائي من حديث سهل بن سعد،
 والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه.

⁽٣) حديث: «من أراد الله به خيراً رزقه أخاً صالحاً إن نسي دكره وإن ذكر أعانه» غريب بهدا اللهظ، والمعروف أن دلك في الأمير، ورواء أبو داود من حديث عائشة: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه...» الحديث. ضعفه ابن عدي، ولأبي عبدالرحمن السلمي في آداب الصحبة من حديث علي: «من سعادة المرء أن يكون إخواته صالحين».

⁽³⁾ حديث: ﴿مثل الأخوين إذا التنبا مثل البدين نفسل إحداهما الأخرى الحديث، رواه السلمي في آداب الصحة، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات.

 ⁽٥) حديث: «من آخى أخاً في الله عز وجل رفعه الله درجة في اللجنة لا ينالها بشيء من عمله أخرجه ابن أبي الدنيا في
 كتاب الإخوان من حديث أنس: «ما أحدث عبد أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في اللجنة وإسناده ضعيف.

حديث: قال أبو إدريس الخولاني لمعاذ: إني أحبث في الله فقال: أبشر ثم أبشر، فإني سمعت رسول الله على يقول: انتصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة... الحديث. أخرجه أحمد والحاكم في حديث طويل: إن أبا إدريس قال: قلت والله إني لأحبك في الله قال: فإني سمعت رسول الله على يقول: "إن المتعابين بجلال الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وهو عند الترمذي من رواية أبي مسلم الحولاني عن معاذ بلقط: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهدامة قال: حديث حسن صحيح، ولأحمد من حديث أبي مالك الأشعري: «إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء هلى منازلهم وقربهم من الله...» الحديث، وفيه: التحابوا في الله وتصافوا به بضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فنجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقيه شهر بن حوشب مختلف فيه.

 ⁽٧) حديث أبي هريرة: اإن حول العرش منابر من نور هليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء...٤ الحديث. أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات.

وقال ﷺ : «مَا تَحَابُ اثْنَانِ فِي الله إلاَّ كَانَ أَحَبُّهُمَا إلَىٰ الله أَشَدْهُمَا حُبّاً لِصَاحِبهِ (١٠)، ويقال: إن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين، والأهل بعضهم ببعض؛ لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة. قال عزّ وجلَّ: ﴿ لَكُفَّنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلْنَتُهُمْ مِنْ عَلِهِم بَن عَيْرِهِ ۚ وقال ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهُ تَعَالَمَىٰ يَقُولُ: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَزَاوَرُونَ مِنْ أَجْلِي وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُونَ مِنْ أَجْلِي وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَبَاذَلُونَ مِنْ أَجْلِي وَحَقَّتْ مَحَبِّتِي لِلَّذِينَ يَتَنَاصَرُونَ مِنْ أَجْلِي ۚ (٢) وَقَالَ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ المُتَحَابُونَ بِجَلَالِي الْيَوْمَ أَظِلْهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاًّ ظِلِّي ۗ(٣) . وقالَ ﷺ : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلْهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاًّ ظَلُّهُ: ۚ إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةً الله، وَزَجُلٌ قَلْبُهُ مُتَمَلِّقٌ بِالمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حتى يُعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحابًا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَىٰ ذَٰلِكَ وَتَفَرُقَا عَلَيهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةً ذَاتُ حَسَبٌ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّىٰ لاَ تَعْلَم شِمَّالُهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُهُ (٢) ، وقال ﷺ : "مَا زَارَ رَجُلٌ رَجُلاً فِي الله شَوْقاً إِلَيْهِ وَرَغْبَةً فِي لِقَائِهِ إِلاَّ نَاذِاهُ مَلَكُ ٰمِنْ خَلْفِهِ طِبْتُ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَطَابَتْ لَكَ الجَنَّةُ ۚ ﴿ وَقَالَ ﷺ : ﴿إِنَّ رَجُّلاً زَارَ أَحَا لَهُ فِي اللهَ ، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ مَلَكاً نَقَالَ: أَيْنَ ثُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَزُورَ أَخِي فُلَاناً، فَقَالَ: لِحَاجَةٍ لَكَ جِنْدَهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: لِقَرَابَةٍ بَينَكَ وَيَنِينَهُ؟ قَالَ: ۚ لَآ، قَالَ: فَبِيْمُمَةٍ لَهُ عِنْدَكَ؟ قَالَ: لاَّ، قَالَ: فَبِمَ؟ قَالَ: أُجِبُّهُ فِي الله، قَالَ: فَإِنَّ الله أَرْسَلَنِي إِلْيَكَ يُخْبِرُكَ بِأَنَّهُ يُحِبُّكَ لِحُبِّكَ إِبَّاهُ وَقَدْ أَوْجَبَ لَكَ الجَنَّةَ ﴿ ﴿ وَقَال ﷺ : ﴿ أَوْثَقُ عُرَىٰ الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي الله وَالبُغْضُ فِي اللهِ (٧)، فلهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله. ويروى أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء: أمَّا زُهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، وأما انقطاعك إليَّ فقد تعززت بي، ولكن هل عاديت فيَّ عدوًا أو هل واليت فيَّ ولياً؟ وقال ﷺ: *اللَّهُمَّ لاَ تَبْحَمَلْ لِفَاجِر عَلَيَّ مِنَّةً فَتَرْزُقَهُ مِنِّي مَحَبَّةً" (^^ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام:

⁽١) حديث: (ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهم إلى الله أشدهما حياً فصاحبه أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽۲) حديث: إن الله يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين بتحابون من أجلي... »
 الحديث. أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت، ورواه الحاكم وصححه.

⁽٣) حديث: إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلى يوم لا ظل إلا ظلى، أخرجه مسلم.

⁽٤) حديث أبي هريرة: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل، . . . » الحديث. متمق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

حديث: «ما زار رجل رجلاً في الله شوقاً إليه ورفية في لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة». أخرجه
ابن عدي من حديث أسى دون قوله: «شوقاً إليه ورفية في لقائه» وللترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة: «من حاد
مريضاً أو زار أخاً في الله ناداه مناه من السماء، طبت وطاب ممشك وتبوأت من الجنة منزلاً قال الترمذي: غريب.

 ⁽٣) حديث: (إن رجلاً زار أشماً له في الله فأرصد الله له ملكاً فقال: أين تريد. . . ٩ الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٧) حديث: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وواه أحمد من حديث البراء بن عازب، وفيه ليث من أبي سليم مختلف فيه. والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

 ⁽A) حديث: الألهم لا تجعل لفاجر على منَّة. . . ٤ الحديث. تقدم في الكتاب الذي قبله.

﴿لَوْ أَنَّكَ عَبَدْتَنِي بِعِبَادَةِ أَهْلِ السَّمْوَاتِ وَالأَرْصِ وَحُبٍّ فِي اللهَ لَيْسَ، وَبُغْضِ فِي اللهَ لَيْسَ؛ مَا أَغْنَىٰ عَنْكَ ذْلِكَ شَيْثًا»، وقال عيسى عُليه السلام: «تحببُوا إلى الله ببغض أهل المعاصى، وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم والمنمسوا رضا الله بسخطهم؛ قالوا: يا روح الله فمن لجالس؟ قال: جالسوا من تذكركم الله رؤيته، ومن يزيد في عملكم كلامه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله. وروي في الأخبار السالفة أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى عليه السلام: يا ابن عمران، كن يقظاناً وارتد لنفسك إخواناً، وكل خدن وصاحب لا يؤازرك على مسرتى فهو لك عدوً، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال: يا داود ما لى أراك منتبذاً وحيداً؟ قال: إلهي قليت الخلق من أجلك، فقال: يا داود كن يقظاناً وارتد لنفسك أخداناً، وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصاحبه؛ فإنه لك عدوّ يقسى قلبك ويباعدك مني. وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال: يا رب كيف لي أن يحبني الناس كلهم وأسلم فيما بيني وبينك؟ قال: خالق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بيني وبينك. وفي بعضها: خالق أهل الدنيا، بأخلاق الدنيا وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة. وقال النبِّي ﷺ: ﴿إِنَّ أَحَبُّكُمْ إِلَىٰ اللَّهُ اللَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَىٰ الله المَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإِخْوَانِ، (١٠. وقال عَيْد: ﴿إِنَّ لللهِ مَلَكا بَضْفُهُ مِنَ النَّارِ وَنِضْفُهُ مِنَ الثَّلْج يَقُولُ: اللَّهُمَّ كَمَا أَلَفْتَ بَيْنَ الثَّلْجِ وَالنَّارِ كَذْلِكَ أَلَّفْ بَيْنَ قُلُوبِ مِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، (*) وقال أيضاً: ﴿مَا أَخْلَتَ عَبْدٌ أَخَا فِي اللهِ إِلاَّ أَخْلَتَ الله لَهُ دَرَجَةً فِي الجَنَّةِ» (٣)، وقَال ﷺ: ﴿المُتَحَابُونَ فِي اللهُ عَلَىٰ عَمُودِ مِنْ يَاتُوتَةٍ حَمْرًاءَ فِي رَأْسِ الْعَمُودِ مِبْغُونَ أَلْفَ غُرْفَةٍ يُشْرِفُونَ عَلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُضِيءُ حُسْنُهُمْ لأَهْلِ الجَنَّةِ كِمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ لأَهْلَ الدُّنْيَا فَيَقُولُ أَهْلُ الجَنَّةِ: انْطَلِقُوا بِنَا نَنْظُرْ إِلَىٰ الْمُتَحَابِّينَ فِي الله فَيُضِيءُ حُسَّنُهُمْ لأَهْلِ الجَنَّةِ كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ، عَلَيهِمْ ثِهَابُ سُندُسِ خُضْرٌ مَكْتُوبٌ عَلَىٰ جِبِاهِهِمْ: المُتَّعَابُونَ فِي الله (١٠).

الآثار: قال علي رضي الله عنه: عليكم بالإخوان؛ فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل المنار: ﴿ مَمَّا لَنَا مِن شَنِهِينَ ۞ وَلَا صَدِيقٍ جَبِيمٍ ۞ [السُّمَرَاء: ١٠١،١٠٠] وقال عبدالله بن عِمر رضي الله عنهما: والله لو صمت النهَّار لا أفطره، وَّقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله، أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً. وقال ابن السماك عند موته: اللهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لني إليك. وقال الحسن ـ على ضده ـ: يا ابن آدم، لا يغرنك قول من يقول: المرء مع من أحب، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم. وهذه

حديث: ﴿إِن أَحبِكُم إِلَى اللَّهِ اللَّهِن بِٱلْغُونَ...) الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير من حديث أبي هريرة

حديث: «إن شه ملكاً تصفه من النار وتصفه من الثلج يقول: اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألف بين قلوب هيادك المصالحين، ورواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل، والعرباض بن سارية بسند

حديث: هما أحلث عبد أخاً في الله تعالى إلا أحدث الله له درجة في الجنة؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخران من حديث أنس وقد تقدم.

حديث المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة. . . ٤ الحديث، رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع، وقال الفضيل في بعض كلامه: هاه، تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟ بأي عمل عملته؟ بأي شهوة تركتها؟ بأي غيظ كظمته؟. بأي رحم قاطع وصلتها؟ بأي زلة لأخيك غفرنها؟ بأي قريب باعدته في الله؟ بأي بعيد قاربته في الله؟ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: هل عملت لي عملاً قطا؟ فقال: إلهي إني صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت، فقال: إن الصلاة لك برهان، والصوم جنة، والصدقة ظل، والزكاة نور، فأي عمل عملت لي؟ قال موسى: إلهي دلني على عمل هو لك؟ قال: يا موسى، هل واليت لي ولياً قطا؟ وهل عاديت في عدراً قطا؟ . فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: وقال الحسن لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب. وقال الحسن رضي الله عنه: مصارمة الفاسق قربان إلى الله. وقال رجل لمحمد بن واسع: إني لأحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له. ثم حول وجهه وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أحب قيك وأنت لي فقال: أحبك الذي أحببتني له. ثم حول وجهه وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أحب قيك وأنت لي مبغض. ودخل رجل على داود الطائي فقال له: ما حاجتك؟ فقال: زيارتك، فقال: أمن الزهاد أنت؟ لا والله، ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة أمن العباد أمت؟ لا والله، أمن الصالحين أنت؟ لا والله، ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة أمن العباد أمت؟ لا والله، أمن الفامق.

وقال عمر رضي الله عنه: إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك. وقال مجاهد: المتحابون في الله إذا التقوا فكشر بعضهم إلى بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس. وقال الفضيل: نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا:

اعلم: أن الحب في الله والبغض في الله غامض، وينكشف الغطاء عنه بما نذكره: وهو أن الصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار، وإلى ما ينشأ اختياراً ويقصد، وهو الذي نريد بيانه، إذ الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لا محالة، إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها. والصحبة عبارة عن المجالسة والمجاورة. وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إدا أحبه فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته، والذي يحب: فإما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه، وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود، وذلك المقصود إما أن يكون متعلقاً بالأخرة، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعلى فهذه أربعة أقسام:

أما القسم الأوّل: وهو حبك الإِنسان لذاته، فذلك ممكن وهو أن يكون في ذاته محبوباً عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له، فإن كل جميل لذيذ في حق من أدرك جماله، وكل لذيذ محبوب. واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة _ أعني حسن المخلقة _ وإما أن يكون هو الصورة الباطنة _ أعني كمال العقل وحسن الأخلاق _ ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة،

ويتبع كمال العقل غزارة العلم، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم، وكل مستحسن فمستلذ به ومحبوب، بل في ائتلاف القلوب أمر أغمض من هذا، فإنه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة في صورة ولا حسن في خلق وخلق، ولكن لمناسبة توجب الألفة والموافقة فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة حفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوّة البشر الاطلاع عليها، عبر رسول الله ﷺ عن ذلك حيث قال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ" (١)، قالتناكر نتيجة التباين، والائتلاف نتيجة التناسب الذي عبر عنه بالتعارف. وفي بعض الألفاظ: «الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشام في الهواء؛ (٧)، وقد كني بعض العلماء عن هذا بأن قال: إن الله تعالى خلق الأرواح ففلق بعضها فلقاً وأطافها حول العرش، فأي روحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا تواصلا في الدنيا. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ أَرْوَاحَ المُؤْمِنَيْنِ لَيَلْتَقِيَانِ هَلَىٰ مَسِيرَةِ يَوْم وَمَا رَأَىٰ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ قَطُّه (٣)، وروي: «أن امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى، 'فنزلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة رضى الله عنها فأضحكتها، فقالت: أين نزلت؟ فذكرت لها صاحبتها، فقالت: صدق الله ورسوله (٤)، سمعت رسول الله علي يقول: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنِّدَةٌ . . . الحديث . والبحق في هذا: أن المشاهدة والتجربة تشهد للائتلاف عند التناسب، والتناسب في الطباع والأخلاق باطناً وظاهراً أمر مفهوم. وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوَّة البشر الاطَّلاع عليها، وغاية هذيان المنجم أن يقول: إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تثليثه فهذا نظر الموافقة والمودة فتقتضى التناسب والتواد، وإذا كان على مقابلته أو تربيعه اقتضى التباغض والعداوة. فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجاري سنة الله في خلق السموات والأرض لكان الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر، فما أوتينا من العلم إلا قليلاً، ويكفّينا في النصديق بذلك التجربة والمشاهدة؛ فقد ورد الخبر به. قال ﷺ ﴿ لَوْ أَنَّ مُؤْمِناً دَخَلَ إِلَىٰ مَجُلِس فِيهِ مِائَةُ مُنَافِق ومُؤْمنُ وَاحِدٌ لَجَاءَ حَتَّىٰ يَجْلِسَ إِلَيهِ، وَلَوْ أَنَّ مُنَافِقاً دَخَلَ إِلَى مَجْلِسِ فِيهِ مِائَةُ مُؤْمِنِ وَمُنَافِقُ وَاحِدٌ لَجَاءَ حَتَّىٰ يَجُلِسَ إِلَيْهِ،، وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطَّبع وإن كان هو لا يشعر به، وكان مالك بن دينار يقول: لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران ۚ إلا وبينهما مناسبة، قال: فرأى يوماً غراباً

 ⁽۱) حديث فلأرواح جنود مجندة قما تعارف منها اثتلف وما تناكر منها اختلف أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة والبخاري تعليقاً من حديث عائشة.

 ⁽٢) حديث: (الأرواح تلتقي فتتشام في الهواء) أحرجه الطبرائي في الأوسط بسند ضعيف من حديث علي: (إن الأرواح في الهواء جند مجندة تلتقي فتتشام . . . ا الحديث.

 ⁽٧) حديث: ﴿إِن أرواح المؤمنين لبلتقبان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قطه أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «تلطي» وقال: «أحدهم» وفيه ابن لهيعة عن دراج.

⁽³⁾ حديث. إن امرأة بمكة كانت تصحك الساء وكانت بالمدينة أخرى فنرلت المكية على المدنية فدخلت على عائشة فذكرت حديث: «الأرواح جنود مجتدة» أخرجه الحسن بن سفيان في مستده بالقصة بسند حسن، وحديث عائشة عند البخاري تعليقاً مختصراً أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على ابن مسعود، وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل، ولم يخرجه ولده في المستد.

مع حمامة فعجب من ذلك فقال: اتفقا وليسا من شكل واحد، ثم طارا فإذا هما أعرجان فقال: من ههنا اتفقا، ولذلك قال بعض الحكماء: كل إنسان يأنس إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بدّ أن يفترقا، وهذا معنى خفي تفطن له الشعراء حتى قال قائلهم:

وقسائل كسيسف تسفسارقستسمسا فسفساست قسولاً فسيسه إنسصساف لسم يسكُ مسن شكسلي فسفارقسته والسند كسساس أشسسكسسال وألآف

فقد ظهر من هذا: أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل، بل لمجرد المجانسة والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية. ويدخل في هذا القسم: الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة؛ فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحمرة، وإلى الماء الجاري والخضرة من غير غرض سوى عينها. وهذا الحب لا يدخل فيه الحب فه بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله، إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها. وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم الأد الحب إما محمود وإما مباح لا يحمد ولا يدم.

القسم الثاني: أن يحبه لبنال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة. ولكن الطريق إلى المحبوب، ولذلك أحب الناس الذهب والفضة ولا غرض فيهما؛ إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات، فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود؛ إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده وتمهيدهم أمره في قلبه، فالمتوسل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه فهو أيضاً خارج عن الحب شه، فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فمحبوبه العلم، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله، بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق فمحبوبه الجاه والقبول، والعلم وسيلة إلى الله، بل لينال به الجاه والمال والقبول عند الخلق فمحبوبه يتصقر كل ذلك ممن لا يؤمن بالله تعالى أصلاً. ثم ينقسم هذا أيضاً إلى مذموم ومباح؛ فإن كان يقصد به التوصل إلى مباح، وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من كان الحب مذموماً، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح، وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إلي؛ فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها.

القسم الثالث: أن يحبه لا لذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعاً إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة، فهذا أيضاً ظاهر لا غموض فيه، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة، فهذا من جملة المحبين في الله، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء؛ إذ قال عيسى عليه : من علم وعمِل وعَلَم فدلك يدعى عظيماً

في ملكوت السماء. ولا يتم التعليم إلا بمتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله، بل الذي يتصدّق بأمواله لله ويجمع الضيفان ويهيىء لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقرّباً إلى الله فأحب طباخاً لحسن صنعته في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله، بل نزيد على هذا ونقول: إذا أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكنس ببته وطبخ طعامه، ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله، بل نزيد عليه ونقول: إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه، ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرّب إلى الله فهو محب في الله؛ فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفايتهم جماعة من أُولي الثروة، وكان المواسي والمواسى جميعاً من المتحابين في الله، بل نزيد عليه ونقول: من نكح امرأة صالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان ويصون بها دينه، أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدينية فهو محب في الله. ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فِيِّ امرأته (١١) بل نقول كل من استهتر بحب الله وحب رُضاه وحب لڤائه في الدار الآخرة: فإذا أحب ُغيرُه كان محباً في الله؛ لأنهُ لا يتصوّر أن يحب شيئاً إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عزّ وجلّ، بل أزيد على هذا وأقول: إذا اجتمع في قلبه محبتان: محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد المعنيان جميعاً حتى صلح لأن يتوسل به إلى الله وإلى الدنيا، فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين في الله، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمؤاساة في المال فأحبه من حيث إنّ في طبعه طلب الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة فهو وسيلة إليهما فهو محب في الله، وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظاً البتة؛ إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والأخرة، ومن ذلك قولهم: ﴿رَبُّنَا ءَالِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [النَّزَة: ٢٠١] وقال عيسى عليه السلام في دعائه: اللهم لا تشمت بي عدري ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي لديني، ولا تجعل الدنيا أكبر همي. فدفع شمانة الأعداء من حظوظ الدنيا، ولم يقل: ولا تجعل الدنيا أصلاً من همي، بل قال: لا تجعلها أكبر همي. وقال نبينا ﷺ في دعائه: «اللَّهُمُّ إِنِّي أَشْأَلُكَ رَحْمَةَ أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، (٢)، وَقال: «اللَّهُمُّ عَافِنِي مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَبَلَاهِ الآخِرَةِ» (٣) وعلى الجملة: فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضاً لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى، فَكيف يتصوّر أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحبها غداً لأنَّ الغد سيصير حالاً راهنة، فالحالة الراهنةَ لا بدَّ أن تكون مطلوبة أيضاً، إلا أنَّ الحظوظ

⁽¹⁾ حديث: ﴿الأَجْرُ فِي الْانْفَاقَ عَلَى الْمِيالُ حَتَى اللَّقَمَةُ يَضْعَهَا الرَّجْلُ فِي فِيِّ امرأتُهَ تقدم.

 ⁽۲) حديث: اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس في الحديث الطويل في دعاته ﷺ بعد صلاة الليل، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: قاللهم عافني من بالاء اللنيا وهذاب الآخرة؛ أخرجه أحمد من حديث بشر بن أبي أرطأة نحوه بسند جيد.

العاجلة منقسمة إلى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها وهي التي احترز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها، وإلى ما لا يضاد وهي التي لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك، فما يضاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه - أعني أن يكرهه بعقله لا بطبعه - كما يكره المتناول من طعام لذيذ لملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعت يده أو حزت رقبته، لا بمعنى أن الطعام اللذيذ بصير بحيث لا يشتهيه بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإنّ ذلك محال، ولكن على معنى أنه يزجره عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به.

والمقصود من هذا: أنه لو أحب أستاذه لأنه يؤاسيه ويعلمه، أو تلميذه لأنه يتعلم منه ويخدمه، وأحدهما حظ عاجل والآخر آجل لكان في زمرة المتحابين في الله، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلاً أو تعذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالقدر الذي ينقص بسبب فقده هو لله تعلى، وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله وليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض تربط لك به، فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب، فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما؛ لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة، فإذن يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله، وحدّه: هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصوّر وجوده فهو حب في الله، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في الله، فذلك وإن دق فهو عزيز. قال الجريري: تعامل الناس في القرن الأوّل بالدين حتى رق الدين، وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، وفي الثائث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ولم يبق إلا الرهبة والرغبة.

القسم الرابع: أن يحب لله وفي الله لا لينال منه علماً أو عملاً أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته، وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأغمضها، وهذا القسم أيضاً ممكن، فإن من آثار غلبة الحب أن يتعذّى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد، فمن أحب إنساناً حباً شديداً أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه، وأحب من يثني عليه محبوبه، وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه، حتى قال بقية بن الوليد: إنّ المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه، وهو كما قال: ويشهد له التجربة في أحوال العشاق، ويدل عليه أشعار الشعراء، ولذلك يحفظ ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجبرانه حتى قال مجنون بني عامر (١):

أمسرَ عسلسى السديسار ديسار لسيسلسى أقسبُ سلُ ذا السجسدار وذا السجسدارا وما حُسبُ السديسار شسخسف قسلبسي ولسكسن حسبُ مسن مَسكَسنَ السديسارا

فإذن: المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدّى من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد، ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة، فأصل المحبة لا يكفي فيه ويكون اتساع الحب في تعديه من المحبوب إلى ما يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوي وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستهتار فيتعدى إلى كل موجود سواه، فإن كل موجود سواه أثر من آثار قدرته، ومن أحب إنساناً أحب صنعته

⁽١) هو: قيس بن الملؤح، المشهور بمجنون ليلي.

وخطه وجميع أفعاله، ولذلك كان ﷺ إذا حمل إليه باكورة من القواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال:
إنها قريب العهد بريناه (١)، وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة
من نعيمه، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدق ضرب المحبة
وأعلاها ـ وسيأتي تحقيقها في كتاب المحبة من ربع المنجيات إن شاء الله تعالى ـ وكيفما اتفق حب الله،
فإذا قوي تعدى إلى كل متعلق به ضرباً من التعلق حتى يتعدى إلى ما هو في نفسه مؤلم مكروه، ولكن
فرط الحب يضعف الإحساس بالألم، والفرح بفعل المحبوب وقصده إياه بالإيلام يغمر إدراك الألم،
وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاتبة، فإن قوة المحبة تثير فرحاً يغمر إدراك الألم
فيه، وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا: لا نفرق بين البلاء والنعمة؛ فإن الكل من الله ولا نفرح إلا
فيه، وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا: لا نفرق بين البلاء والنعمة؛ فإن الكل من الله ولا نفرح إلا
فيه، رضاه. حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بمعصية الله. وقال سمنون:

ولسيسس لسبي فسي سسواك حسظ فكيفهما شئت فاختبرنى

وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة. والمقصود: أن حب الله إذا قوي أثمر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع. وما من مؤمن محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخر حاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته، وبحسب ضعف حبه لله وقوته. وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة، فذلك الميل هو حب في الله ولله من غير حظ؛ فإنه إنما يحمه لأن الله يحبه ولأنه مرضي عند الله تعالى؛ ولأنه يحب الله تعالى؛ ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر، فإذا قوي حمل على الموالاة والنصرة والذب بالمفس والمال واللسان، وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل، ولو والعباد ومن الصحابة والتابعين، بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه، وحب جميعهم والعباد ومن الصحابة والتابعين، بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم، وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله. ومن أحب ملكا أو شخصا جميلاً أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس، وقد يغلب بعيث لا يقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب، وعنه عبر قول من قال:

أريسد وصالته ويسريسد هسجسري فأتسرك ما أريسد لسما يسريسدُ وقول من قال:

وَمسا لِسجُ رَحِ إِذَا أَرْضَ الْحُسمِ ٱلْسَمُ

⁽۱) حديث: «كان إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال: «إنها قريب مهد بريها»، أخرجه الطبراني في الصغير من حديث ابن عباس، وأبو داود في المراسيل، والبيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة دون قوله: «وأكرمها...» إلخ وقال: إنه غير محفوظ، وحديث أبي هريرة في الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون: مسح عينيه بها وما بعده، وقال الترمذي حسن صحيح.

وقد يكون الحب بحيث يترك به معض الحظوظ دون بعض ؟ كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثاثه أو في عشره، فمقادير الأموال موازين المحبة ؛ إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحبوب يترك في مقابلته، فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئاً، مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلا ولا مالاً فسلم ابنته التي هي قرة عينه وبذل جميع ماله. قال ابن عمر رضي الله عنهما: "بينما رسول الله تله جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟ فقال: «أَنْفُق مَالَهُ مَلَيُ قَبْلُ رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟ فقال: «أَنْفُق مَالَهُ مَلَيُ قَبْلُ رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال؟ فقال: «أَنْفُق مَالَهُ مَلَيُ قَبْلُ السَّلام مِنَ الله وَيَقُولُ: أَرَاضِ أَنْتَ عَنِي فَقْرِكُ هَذَا أَمْ سَاخِط؟ قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ هَلْمَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكُ السَّلام مِنَ الله وَيَقُولُ: أَرَاضِ أَنْتَ عَنِي فِي فَقْرِكُ هَذَا أَمْ سَاخِط؟ قال: فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: أعلى ربي أسخط؟! أنا عَن ربي راض أنت عنو وقال: أعلى ربي أسخط؟! أنا عَن جير فإنما أحبه في الله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه، فهذا شرح الحب في الله ودرجاته خير فإنما أحبه في الله أيضاً في الله أيضاً ولكن نزيده بياناً.

بيان البغض في الله:

اعلم: أن كل من يحب في الله لا بدأن يبغض في الله؛ فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عند الله فإن عصاه فلا بدأن تبغضه؛ لأنه عاص لله وممقوت عند الله، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض في العادات، ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين في القلب، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال المحمين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالفة والموافقة، فإذا ظهر في الفعل سمي موالاة ومعاداة، ولذلك قال الله تعالى: هل واليت فئ ولياً وهل عاديت فيُّ عدوّاً؟ كما نقلناه، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعاته تقدر على أن تحبه، أو لم يظهر لك إلا فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن تبغضه، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصى فإنك تقول: كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والموالاة والمعاداة وأقول: ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في الحظوظ البشرية، فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه، قمن زوجة حسناء فاجرة أو ولد ذكى خدوم ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجه ويبغضه من وجه ويكون معه على حالة بين حالتين؛ إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والأخر بليد بار أو ذكي عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم، فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب، وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والإِقبال والصحبة والقطيعة وسائر الأفعال الصادرة مه.

 ⁽۱) حديث ابن عمر: بينما النبي ﷺ حالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال، فنزل جبريل فأقرأه
 من ربه السلام. . الحديث، أحرجه ابن حبان والعقيلي في الصعفاء، قال الذهبي في الميزان. هو كذب.

فإن قلت: فكل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام؟ فأقول: تحبه لإسلامه وتبغضه لمعصبته، وتكون معه على حالة لو قستها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما، وتلك التفرقة حب للإسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حقك والطاعة لك. فمن وافقك على غرض وخالفك في آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه، ولا تبالغ في إكرامه مبالعتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك، ولا تبالغ في إهانته مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك. ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية، وتارة إلى طرف المجاملة والإكرام عند غلبة الموافقة، فكذا ينبغي أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصبه ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى.

فإن قلت: فبماذا يمكن إظهار البغض؟ فأقول: أما في القول فبكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى. وأما في الفعل فيقطع السعي في إعانته مرة وبالسعي في إساءته وإفساد مآربه أخرى. ويُعض هذا أشد من بعض، وهي بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه. أما ما يجري مجري الهفوة التي يعلم أنه متندم عليها ولا يصر عليها فالأولى فيه الستر والإغماض. أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحبة وأخوة فله حكم آخر ـ وسيأتي وفيه خلاف بين العلماء ـ وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحبة فلا بد من إظهار أثر البغض؛ إما في الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه، وإما في الاستخفاف وتغليظ القول عليه. وهذا أشد من الإعراض وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها، وكذلك في الفعل أيضاً رتبتان، إحداهما: قطع المعونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات، والأخرى: السعى في إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين، وهذا لا بد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية، أما ما لا يؤثر فيه فلا. مثاله: رجل عصى الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نكاحها لكان مغبوطاً بها بالمال والجمال والجاه، إلا أن ذلك لا يؤثر في منعه من شرب الخمر ولا في بعث وتحريض عليه، فإذا قدرت على إعانته ليتم له غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشه ليفوته غرضه فليس لك السعى في تشويشه. أما الإعانة فلو تركتها إظهاراً للغضب عليه في فسقه فلا بأس، وليس يجب تركها؛ إذ ربما يكون لك نية في أن تتلطف بإعانته وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحك فهذا حسن، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فللك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجناية على حقك أو حق من يتعلق بك. وفيه نزلِ قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّمَةِ ۗ االنُّور: ٢٧] إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا غُبِبُّونَ أَن يُنْفِرَ ٱللَّهُ لَكُذَّ﴾؛ إذ تكلم مسطح بن أثاثة في واقعة الإفك(١٠ فحلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقه _ وقد كان يواسيه بالمال _ فنزلت الآية مع عظم معصية مسطح، وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله على وإطالة اللسان في مثل عائشة رضى الله عنها؟ إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالمجنى عليه في نفسه بتلك الواقعة، والعفو عمن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين. وإنما يحسن الإحسان إلى من أساء من ظلمك، فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن إحسانك إليه؛ لأن في الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم، وحق المظلوم أولى بالمراعاة

 ⁽١) حديث: فكلام مسطح في الإفك وهحر أبي بكر له حتى نزلت: ﴿ وَلَا يَأْتُلُ أَتُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُرَ ﴾ [النُّور ٢٣] الآية».
 متفق عليه من حديث عائشة.

وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم، فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حقك العفو والصفح.

وطرق السلف قد اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة وكل من عصى الله بمعصية متعدية منه إلى غيره، فأما من عصى الله في نفسه: فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة. فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكابر في أدنى كلمة، حتى هجر يحيى بن معين لقوله: إنى لا أسأل أحداً شيئاً ولو حمل السلطان إليُّ شيئاً لأخذته. وهجر الحارث المحاسبي في تصنيفه في الرد على المعتزلة وقال: إنك لا بد تورد أولاً شبهتهم وتحمل الناس على التفكر فيها ثم ترد عليهم، وهجر أبا ثور في تأويله قوله ﷺ: «إِنَّ الله خَلَقَ آذَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ»(١٠) ، وهذا أمر يختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطرار الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلاً في المعاداة والبغض وله وجه، ولكن قد تلتبس به المداهنة، فأكثر البواعث على الإغضاء عن المعاصي المداهنة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها، وقد يلبس الشيطان ذلك على الغبي الأحمق بأنه ينظر بعين الرحمة، ومحك ذلك: أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جني على خاص حقه ويقول: إنه قد سخر له والقدر لا ينفع منه الحذر، وكيف لا يفعله وقد كتب عليه فمثل هذا قد تصح له نية في الإغماض عن الجناية على حق الله، وإن كان يغتاظ عند الجناية على حقه ويترحم عند الجناية على حق الله فهذا مداهن مغرور بمكيدة من مكايد الشيطان فليتنبه له.

فإن قلت: فأقل الدرجات في إظهار البغض الهجر والإعراض وقطع الرفق والإعانة، فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه؟ فأقول: لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والإيجاب، فإنا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش في زمان رسول الله ﷺ والصحابة ما كانوا يهجرون بالكلية، مل كانوا منقسمين فيهم إلى من يغلظ القول عليه ويظهر البغض له، وإلى من يعرض عنه ولا يتعرض له، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد، فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته، ومقتضي الأحوال في هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والإِيجاب، فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب، وذلك قد لا يتعدى من المحبوب إلى غيره وإنما المتعدي إفراط الحب واستيلاؤه، وذلك لا يدخل في الفتوي وتحت ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلاً.

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم:

فإن قلت: إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجباً فلا شك أنه مندوب إليه، والعصاة والفساق على مراتب مختلفة، فكيف ينال الفضل بمعاملتهم، وهل يسلك بجميعهم مسلكاً واحداً أم لا؟ فاعلم: أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلو إما أن يكون مخالفاً في عقده أو في عمله، والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر، والمبتدع إما داع إلى بدعته أو ساكت، والساكت إما بعجزه أو باختياره. فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة:

 ⁽١) حديث: (إن الله خلق آدم على صورته؛ أخرجه مسلم من حديث أبي هربرة.

الثالث: المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون، فالأولى أن لا يقابح بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به في النصح، فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن ثم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الإعراض، وإن علم أن دلك لا يؤثر فيه لجمود طبعه ورسوخ عقده في قلبه فالإعراض أولى؛ لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها. وأما العاصي بفعله وعمله لا باعتقاده فلا يخلو إما أن يكون بحيث يتأذى به غيره؛ كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والتضريب بين الناس والمشي بالنميمة وأمثالها، أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤذي غيره، وذلك ينقسم إلى ما يدعو غيره إلى الفساد؛ كصاحب الماخور الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيىء أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد؛ أو لا يدعو غيره إلى فعله؛ كالذي يشرب ويزنى، وهذا الذي لا يدعو غيره إلى أن يكون مصراً

 ⁽١) حديث: «المؤمن والعشرك لا تتراءى ناراهما» رواه أبو داود والترمذي من حديث جويو: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله ولم؟ قال: «لا تشراءى ناراهما» ورواه النسائي مرسلاً وقال البخاري: الصحيح أنه مرسل.

 ⁽٣) حديث: امن انتهر صاحب بدعة ملا الله قلبه أمناً وإيماناً . > الحديث، أخرجه أبو نعيم في الحلية > والهروي في ذم
 الكلام من حديث ابن عمر بسند ضميف.

عليه أو غير مصر، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام، ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من تعض ولا نسلك بالكل مسلكاً واحداً.

القسم الأول: وهو أشدّها: ما يتضرر به الناس كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة، فهؤلاء: الأولى الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم؛ لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق. ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يظلم في الدماء وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض، وبعضها أشد من بعض. فالاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جداً، ومهما كان يتوقع من الإهانة زجراً لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه آكد وأشد.

الثاني: صاحب الماخور الذي يهيىء أسباب الفساد ويسهل طرقه على الخلق، فهذا لا يؤذي الخلق في دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم، وإن كان وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه، فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب، ولكن من حيث إنه متعدٌّ على الجملة إلى غيره فهو شديد، وهذا أيضاً يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعاً من الزجر له أو لغيره.

الثالث: الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محظور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف؛ فإن النهي عن المنكر واجب، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح، وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع. فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر وأن النصح ليس ينفعه؛ فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال: الأعمال بالنيات؛ إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع، وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتى فيه القلب، فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضدُّه؛ إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإدلال بالصلاح، وقد يكون رفقه عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرته في جاه أو مال بطن قريب أو بعيد، وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة، فكل راغب في أعمال الدين مجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال، والقلب هو المفتى فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطىء، وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به، وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظانَّ أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة، وسيأتي بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربع المهلكات. ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روي أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله ﷺ وهو يعود، فقال واحد من الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يشرب، فقال ﷺ: ﴿ لاَ تَكُنْ عَوْناً لِلشَّيْطَانِ عَلَىٰ أَخِيكَ ١٠٠١ ، أو لفظاً هذا معناه، وكأن هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ.

حديث: ﴿إِن شَارِبِ خَمْرَ ضَرِبِ بِينَ يَدِي النَّبِي ﷺ . . ؟ الحديث، وفيه: ﴿لا تَكُنْ عُوناً لَلشَّيطانَ عَلَى أَخْيَكُ ٱخْرَجُهُ البخاري من حديث أبي هريرة.

بمان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته:

اعِلِم: أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان، قال عَيْد: "المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَتْظُرُ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ (١٠) ، ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة؛ إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط. ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية: أما الدنيوية: فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستثناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا. وأما الدينية: فيجتمع فيها أيضاً أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تحصناً به عن إيذاء من يشوَّش القلب ويصدُّ عن العبادة، ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييم الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها التبرك بمجرد الدعاء، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة؛ فقد قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك. وروي في غريب التفسير في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ تَتَجِبُ الَّذِينَ مَامَنُواْ وَعَبِلُواْ الصَّدِيكَتِ وَيُزِيدُهُم مِّن فَشَابِوا ﴾ [الشورى: ٢٦] قال: يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم. ويقال: إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه، ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد، فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها، ونحن تفصلها: أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا. أما العقل فهو رأس المال، وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق؛ فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت. قال على رضى الله عنه:

حاليما حين آخاه إذا مـــا الـــمـرءُ مــاشـاهُ م____ أش___ا فسلا تسمسخب أخسا السجسهسل ف تحرم م من جاه ل اردى يستقصاش الصمصرة بصالمسمسرة وليلم فيسن السشيء ولسلقسلسي عسلسى السقسلسي

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري؟ ولذلك قال الشاعر: وأخساف خسلا يسعسنسريسه جُسنُسونُ إنسى لآمسن مسن عسدة مساقسال أذرى فسأرصِد والسجسنسون فسنسون فسالسعسقسل فسن واحسد وطسريسقسه

ولذلك قبل: مقاطعة الأحمق قربان إلى الله. وقال الثوري: النظر إلى وجه الأحمق خطيئة مكتوبة. ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم. وأما حسن الخلق فلا بد منه؛ إذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته. وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة ومن لا

حديث: «المرء هلى دين خليله. .» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أمي هريرة وقال: صحيح إن شاء الله

يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض. وقال تعالى: ﴿وَلَا نُطِعَ مَنْ أَغَنْكُ قَلْبَكُم عَن ذَكِّرِنَا وَأَتَّبَعُ هُولَهُ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَلَّا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْوِنُ بِهَا وَأَقَّبَعَ هُونِـهُ﴾ [طه: ١٩]، وقال تعالمي: ﴿ فَأَغْرِشَ عَن مَّن تُؤلِّن عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ بُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوْةَ ٱلدُّنيَا ۞﴾ [النَّجْم: ٣٩]، وقال: ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ﴾ [لقمَان. ١٠] وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق.

وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدّي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق فيما رواه سعيد بن المسيب قال: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم؛ فإنهم زينة في الرخاء وعدّة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه، واعتزل عدوَّك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشي الله، فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى. وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن رأى سيئة سدّها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدّق قولك، وإن حاولتما أمراً أمرك، وإن تنازعتما آثرك. فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائماً بجميعها. قال ابن أكثم: قال المأمون؛ فأين هذَا؟ فقيل له: أثدري لم أوصاه بذلك؟ قال: لا. قال: لأنه أراد أن لا يصحب أحداً. وقال بعض الأدباء: لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرك ويستر عيبك؛ فيكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب، وينشر حسنتك ويطوي سيئتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك.

وقال على رضى الله عنه:

إن أخساك السحسق مسن كسنان مسعسك ومُسنُ يسفسرَ نسفسسه لسيسنسفسعسكَ ومُسنُ إذا رَبِسب زمسان صَسدَعسكُ شئت نب شمك ليجمعك

وقال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجليں: رجل تتعلم منه شيئاً من أمر دينك فينفعك، أو رجل تعلمه شيئاً في أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه. وقال بعضهم: الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشبع منه، وآخر مركله فلا يؤكل منه، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط. وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: لا تصحب خمسة: الكذاب؛ فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد ويبعد منك القريب، والأحمق؛ فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك. والبخيل؛ فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان؛ فإنه يسلمك ويفر عند الشدَّة، والفاسق؛ فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها. وقال الجنيد: لأن يصحبني فاسق حسن الخلق أحب إليُّ من أن يصحبني قارىء سيىء الخلق. وقال ابن أبي الحواري: قال لي أستاذي أبو سليمان: يا أحمد لا تصحب إلا أحد رحلين: رجلاً ترتفق به في أمر دنياك، أو رجلاً تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك، والاشتغال بغير هذين حمق كبير. وقال سهل بن عبدالله: اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقرّاء المداهنين، والمتصوّفة الجاهلين.

واعلم: أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة، والمحيط ما ذكرناه من

ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها؛ فليس ما يشترط للصحبة في مقاصد الدنيا مشروطاً للصحبة في الآخرة والأخوة؛ كما قال بشر: الإخوان ثلاثة: أخ لآخرتك وأخ لدنياك وأخ لتأنس به. وقلما تجتمع هذه المقاصد في واحد؛ بل تتفزق على جمع فتتفرق الشروط فيهم لا محالة. وقد قال المأمون: الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع. وقد قيل: مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات، فمنها: ما له ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة؛ فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها: ما له ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها: ما له ثمر وظل جميعاً، ومنها: ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثياب ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب، كما قال تعالى: ﴿ يَدَعُوا لَكَن ضَرُّهُ أَوْرَبُ مِن نَفْعِدٍ لَيَسَ ٱلْمَوْلَى وَلَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْمَوْلَ وَلِمُنَا الشاعر: عالى شئة من الحيوانات الفأرة والعقرب، كما قال الشاعر: عالى شئة من العالم السبت و و كمما لا سست و السبت و النست و السبت و الله الشاعر: الشاعر: النست و والنساء النساء النست و النست و النست و النست و السبت و السبت و السبت و السبت و الله السبت و السبت و السبت و الله السبت و الله السبت و السبت و السبت و النست و السبت و السبت و النست و السبت و النساء السبت و السبت و النسبة و السبت و السبت و السبت و النساء السبت و النساء السبت و السبت و النساء السبت و السبت و السبت و النساء السبت و السبت و السبت و السبت و النساء السبت و السبت و السبت و النساء السبت و السبت و السبت و السبع السبت و السبع ال

فإذا لم يجد رفيقاً يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به. قال أبو ذرّ رضي الله عنه: الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة، ويروى مرفوعاً. وأما الديانة وعدم الفسق. فقد قال الله تعالى: ﴿ وَاتَبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَى ﴾ [لفماد: 10]، ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهوّن أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها؛ قال سعيد بن المسيب: لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة. بل هؤلاء لا سلامة في مخالطتهم، وإنما السلامة في الانقطاع عنهم. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنّا حَاطَبُهُمُ الْجَنَوانُونَ قَالُواْ سَلَامًا ﴾ [القُرقان: 17] أي سلامة، والألف بدل من الهاء، ومعناه: إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها فلنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بحقها. وأما الحريص على الدنيا فصحته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا؛ فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة. قال على عليه السلام: أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه، وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه، وقال لقمان: يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركتيك؛ فإن القلوب لنحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر،

* * *

الباب الثاني

في حقوق الأخوة والصحبة

اهلم: أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجيں، وكما يقتضي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق النكاح ـ كما سبق ذكرہ في كتاب آداب النكاح ـ فكذا عقد الأخوة؛ فلأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب، بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء، وبالتخفيف وترك التكلف والتكلف والتكلف والتكلف وذلك يجمعه ثمانية حقوق:

الحق الأول: في المال:

قال رسول الله ﷺ: قمَثَلُ الأُخَوَيْنِ مَثَلُ اليَدَيْنِ تَغْسِلُ إِخْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ('')، وإنما شبههما بالبدين لا بالبد والرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد، فكذا الأخوان إنما تتم أخرتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المآل والحال وارتفاع الاختصاص والاستثار. والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فصلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

الثالثة: وهي العليا؛ أن تؤثره على نفسك وتقدّم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصدّيقين ومنتهى درجات المتحابين، ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أبضاً، كما روي أنه سُعِيَ بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النوري فبادر إلى السياف ليكون هو أوّل مقتول، فقيل له في ذلك فقال: أحببت أن أؤثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينحقد بعد في الباطن، وإنما الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين، فقد قال ميمون بن مهران: من رضي من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور.

وأما اللعرجة الدنيا: فليست أيضاً مرضية عند ذوي الدين، روي أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه فقال: أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف، فقال: خذ ألفين، فأعرض عنه وقال: آثرت الدنيا على الله، أما استحييت أن تدعي الأخوة في الله وتقول هذا؟! ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لا تعامله في الدنيا. قال أبو حازم: إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك. وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة.

وأما الرقبة العليا: فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله: ﴿ وَآثَرُهُمْ شُورَىٰ يَنْتُهُمْ وَيَمَّا رَزَقَهُمُ مُورَىٰ ﴾ [الشّورى: ٢٨] أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض، وكان منهم من لا يصحب من قال: نعلي، لأنه أضافه إلى نفسه. وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائباً، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته، فأخبرت الجارية مولاها فقال: إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سروراً بما فعل. وحاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال: إني أريد أن أؤاخيك في الله

الباب الثاني في حقوق الأخوة والصحبة

⁽١) حديث: قمثل الأخوين مثل اليدين. . . ، الحديث. تقدم في الباب قبله.

فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد؟ قال: فاذهب عني، وقال على بن الحسين رضي الله عنهما لرجل: هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه؟ قال: لا. قال: فلستم بإخوان. ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه فقالوا: يا أبا سعيد أصليت؟ قال: نعم، قالوا: فإن أهل السوق لم يصلوا بعد، قال: ومن يَأخذ دينه من أهل السوق؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم؛ قاله كالمتعجب منه. وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال: إني أريد أن أرافقك، فقال له إبراهيم: على أن أكون أملَك لشيئك منك: قال: لا، قال: أصجبني صدقك، قال: فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه، وكان لا يصحب إلا من يوافقه، وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها في القصعة وردها إلى صاحب الهدية، فلما جاء رفيقه قال: أين الشراك؟ قال: ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان؟ قال: كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة، قال: اسمح يسمح لك. وأعطى مرة حماراً كان لرفيقه ـ بغير إذنه _ رجلاً رآه راجلاً، فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك. قال ابن عمر رضي الله عنهما: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال ُ أخي فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة. وروي أن مسروقاً أدان ديناً ثقيلاً وكان على أخيه خيثمة دين قال: فذهَّب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم، ولما آخي رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس فقال عبدالرحمن: بارك الله لك فيهما(١) فآثره بما آثره به، وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة، والبداية إيثار والإِيثار أفضل من المساواة. وقال أبو سليمان الداراني: لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له. وقال أيضاً: إني لألقم اللقمة أخَّا من إخواني فأجد طعمها في حلقي.

كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء؛ قال علي رضي الله تعالى عنه: لعشرون درهما أعطيها أخي في الله أحب إليّ من أن أنصدق بمائة درهم على المساكين. وقال أيضاً: لأن أصنع صاعاً من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إليّ من أن أعتق رقبة. واقتداء الكل في الإيثار برسول الله عليه، فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه، فقال له: يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني فقال: هما مِن صاحب عنه منها مؤلو ساحبة من النهار إلا سُئِل مَنْ صُحْبَيهِ هَلْ أَقَامَ فِيهَا حَقَّ الله أَمْ أَضَاعَهُ؟ (٢٠) فأمار بهذا إلى أن الإيثار هو القيام بحق الله في الصحبة. وخرج رسول الله على إلى بئر يغتسل عندها فأمسك حديفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله على اغتسل ثم جلس حديفة ليغتسل، فتناول رسول الله على الثوب وقام يستر حديفة عن الماس فأبى حديفة وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا

 ⁽١) حديث: الما آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمال والنفس، فقال عبدالرحمن:
 بارك الله لك فيهما؟ رواه البخاري من حديث أنس.

حديث: «أنه دخل غيصة مع بعض أصحابه فاجتبى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه...» الحديث. لم أقف له على أصل.

تفعل، فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل⁽¹⁾ وقال على: (مَا اصْطَحَبَ اثْنَانِ قَطَّ إِلاَ كَانَ أَخَبُهُمَا إِلَىٰ الله أَرْفَقَهُمَا بِصَاحِبِهِ (٢). وروي أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائباً فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل، فقال له مالك: كف يدك حتى يجيء صاحب البيت، فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقاً فدخل الحسن وقال: يا مويلك: هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضاً حتى ظهرت أنت وأصحابك. وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَا مُلَكَ مُنَافِعُهُ وَالنُّور: ٢١]؛ وقال: ﴿أَوْ مَا مُلَكَ مُنَافِعُهُ وَالنُّور: ٢١]؛ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد، وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء.

الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة:

وهذه أيضاً لها درجات كما للمواساة بالمال، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة. وقال بعضهم: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبر عليه، واقرأ هذه الآية: ﴿ وَٱلْمَوْنَى بَبْعَتُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنتام: ٣٦]، وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إلي، فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموثى. قال جعفر بن محمد: إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني. هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء؟ وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة؛ يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول: هل لكم زيت، هل لكم ملح، هل لكم حاجة؟ وكان يقوم بها من حيث لا يعرفه أخوه. وبهذا تظهر الشفقة والأخوة، فإذا لم تشمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها، قال ميمون بن مهران: من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته. وقال ﷺ: ﴿أَلاَّ وَإِنَّ للهِ أُوانِيَ فِي أُرْضِهِ وَهِيَ الْقُلُوبُ فَأَحَبُ الْأَوَانِي إِلَىٰ آللهُ تَعَالَىٰ أَصْفَاهَا وَأَصْلَبُهَا وَأَرْقُهَا، أَصْفَاهَا مِنَ اللَّنُوبِ وَأَصْلُبُهَا فِي الدِّينِ وَأَرْقُهَا هَلَىٰ الإِخْوَانِ ۖ وبالجملة: فيسغى أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهمَّ من حاجتكَ، وأنَّ تكون متفقداً لأوقات الحاجة، غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت

⁽١) حديث: استر حذيفة للنبي ﷺ بثوب حتى اغتسل ثم ستره ﷺ لحذيفة حتى اغتسل الم أجده أيضاً.

 ⁽٢) حديث: (ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه) تقدم في الباب قبله بلفط: (أشدهما حباً لصاحبه).

 ⁽٣) حديث: (إن لله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله أصفاها وأصليها، أخرجه الطبراني من حديث أبي
 عتبة الخولاني إلا أنه قال: «ألينها وأرقها، وإستاده جيد.

بها، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها، بل تنقلد منة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الاقارب والولد. كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة. وقال الحسن: من شبّع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة بشيعونه إلى الجنة، وفي الأثر: هما زار رجل أخاً في الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة! () وقال عطاء: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث؛ فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغيل فاعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم، وروي: قان ابن عمر كان يلتفت يميناً وشمالاً بين يدي رسول الله على فسأله عن ذلك فقال: أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه، فقال: فإذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله، فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أعنته! (*) . وفي رواية: وعن اسم جدّه وهشيرته. وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه: تلك معرفة النوكي. وقيل لابن عباس: من أحب الناس إليك؟ قال: جليسي، وقال: ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاث من غير حاجة له إلي فعلمت ما مكافأته من الدنيا. وقال سعيد بن العاص: لجليسي علي ثلاث: إذا دنا رحبت به، وإذا حدث أقبلت عليه، وإذا جلس أوسعت له. وقد قال تعالى: ﴿رُمُكَالًا يَشْتُم ﴾ اللناح المنام الشفقة والإكرام. ومن تمام الشفقة: أن لا ينهرد بطعام لذيذ أو بحضور في مسرة دونه، ط ينغص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه.

الحق الثالث: في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى:

أما السكوت: فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه؛ فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه، وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ولا يبثها إلى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه، فإن الذي سبنك من بلغك. وقال أنس: ٥كان على لا يواجه أحداً بشيء يكرهه أن والتأذي يحصل أولاً من المبلغ ثم من القائل، ثم لا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه؛ فإن السرور به أولاً يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل، وإخفاء ذلك من الحسد. وبالجملة: فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ولم

⁽١) حديث: اما زار رجل أنحاً في. . . الحديث. تقدم في الباب قبله.

 ⁽٣) حديث ابن عمر: قاإذا أحببت أحداً قاساله هن اسمه واسم أبيه ومنزله وهشيرته. . الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف، ورواه الترمذي من حديث يزيد من نعامة وقال غريب، ولا يعرف ليزيد بن نعامة سماع من النبي ﷺ.

حديث أنس عكان لا يواجه أحداً بشيء يكرهه أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي في اليوم والليلة بسند ضعيف.

يجد رخصة في السكوت؛ فإد ذاك لا يبالي بكراهته، فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوىء أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم، ويزجرك عنه أمران:

أحدهما: أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً فهون على نفسك ما تراه من أخيك، وقدر أنه عاجز عما أنت مبتلى به ولا أخيك، وقدر أنه عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأي الرجال المهذب؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك، فليس حقك عليه أكثر من حق الله عليك.

والأمر الثاني: أنك تعلم أنك لو طلبت منزهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة، ولن تجد من تصاحبه أصلاً؛ فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوىء، فإذا غلبت المحاسن المساوىء فهو الغاية والمنتهي، فالمؤمن الكريم أبدأ يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساويء والعيوب. قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات. وقال الغضيل: الفتوة: العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام: «اسْتَعِيلُوا بالله مِنْ جَار السُّوءِ الَّذِي إِنْ رَأَىٰ خَيْراً سَتَرَهُ وَإِنْ رَأَىٰ شَرّاً أُظْهَرَهُه (١٠)، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقبيحه أيضاً. روي أن رجلاً أثني على رجل عند رسول الله ﷺ، فلما كان من الغد ذمه فقال عليه السلام: ﴿أَنْتُ بِالْأَمْسِ تَثْنِي عَلَيْهِ وَالْيَوْمَ تَلْمُهُ؟﴾ فقال: والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم، إنه أرضاني بالأمس فقلتُ أحسن ما علمت فيه، وأغضبني اليوم فقلت أقبح ما علمت فيه. فقال عليه السلام ﴿ فِإِنّ مِنَ البَيَانِ لَسِحُراً؟ (٣⁾، وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر، ولذلك قال في خبر آخر: «البَفَاءُ وَالبَيَانُ شُغبَتَانِ مِنَ النَّفَاقِ، (٣)، وفي الحديث الآخر: ﴿إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ لَكُمُ البِّيَانَ كُلِّ البِّيَانِ؛ وكذلك قال الشافعي رحمه الله: ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه، ولا أحد يعصى الله ولا يطيعه. فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل، وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله فبأن تراه عدلاً في حق نفسك ومقتضى أخوّتك أولى. وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوت بقلبك؛ وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضاً، وحدّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن. فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه، وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن، وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفرساً وهو الذي يستند إلى علامة، فإن ذلك يحرك الظن تحريكاً

⁽١) حديث: «استعيلوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيراً ستره وإن رأى شراً أظهره أخرجه البخاري في التاريخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وللنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح: فتعوفوا بالله من جار السوء في دار المقام».

 ⁽٢) حديث أن رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله في فلما كان من الغد ذمه. . . الحديث. وفيه: افقال على إن من البيان لسحراً . . . أخرجه الطراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك من حديث أبي بكرة إلا أنه ذكر المدح والذم في مجلس واحد لا يومين، ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضاً.

 ⁽٣) حديث: اللبذاء والبيان شعبتان من النفاق؛ أخرجه الترمذي وقال حسن غريب، والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

البذاءة: سفاهة اللسان وفحش الكلام. والبيان: الفصاحة.

ضرورياً لا يقدر على دفعه، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن ثنزله على الوجه الأردأ من غير علامة تخصه به، وذلك جناية عليه بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن؛ إذ قال ﷺ: قإن الله قَدْ حَرَّمَ عَلَىٰ المُؤْمِنِ مِنَ المُؤْمِنِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَعِرْضَهُ وَأَنْ يَظُنُ بِهِ ظَنْ السُّوءِهُ ('')، وقال ﷺ: قإيًاكُمْ وَالظُنْ فَإِنَّ الظُنْ أَكُلَبُ الحَدِيثِهُ ('')، وسوء الطن يدعو إلى التجسس والتحسس، وقد قال ﷺ: قلا تَحَسَّسُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَدَابُرُوا وَكُونُوا عَبَادَ الله إِخْواناً ('')، والتحسس في تطلع الأخبار، والتحسس بالمراقبة بالعين، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل والتجسس في تطلع الأخبار، والتحسس بالمراقبة بالعين، فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل فقيل: يا من أظهر الجميل وستر القبيح. والمرضي عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستار العيوب وغفار فقيل: يا من أظهر الجميل وستر القبيح. والمرضي عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستار العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العبيد، فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك؟ وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً وقد كشف الريح ثوبه عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه، قال: بل تكشفون عورته قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم يسمع عنه؟ قالوا: نستره ونغطيه، قال: بل تكشفون عورته قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ فقال: أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها.

واهلم: أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوىء والعيوب، ولو ظهر له منه نقيض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه، فما أبعده إذا كان ينتظر منه ما لا يضمره له ولا يعزم عليه لأجله، وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿وَيَلُّ لِلْمُطْفِئِينَ ﴾ اللَّينَ إِنَا أَكَالُوا عَلَ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُغَيِّرُونَ ﴾ [المطفين: ١-٣] وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية. ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعي في كشفها الداء المدفين في الباطن وهو الحقد والحسد، فإن الحقود الحسود يملأ باطنه بالخبث، ولكن يحبسه في باطنه ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالاً، وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء ويترشح الباطن بخبثه الدفين. ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فالانقطاع أولى، قال بعض الحكماء: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد، ولا يزيد لطف الحقود إلا وحشة منه، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمائه ضعيف وأمره مخطر، وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله.

وقد روى عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال: كنت باليمن ولي جار يهودي يخبرني عن التوراة فقدم عليَّ اليهودي من سفر فقلت: إن الله قد بعث فينا نبياً فدعانا إلى الإسلام فأسلمنا وقد أنزل علينا كتاباً مصدقاً للتوراة، فقال اليهودي: صدقت، ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به، إنا

⁽١) حديث: «إن الله حرّم من المؤمن دمه وماله وحرضه وأن يظن به ظن السوه أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث أبن عباس دون قوله: «وحرضه» ورجاله ثقات إلا أن أبا علي التيسابوري قال: ليس هذا عندي من كلام النبي ﷺ إنما هو عندي من كلام ابن عباس. ولابن ماجه نحوه من حديث أبن عمر، ولمسلم من حديث أبي هريرة: «كل المسلم عل المسلم حرام دمه وماله وحرضه».

 ⁽٢) حديث: «إياكم والظن فإن الظن أكلب الحديث، منفق عليه من حديث أبى هريرة.

 ⁽٣) حديث: «لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدايروا وكونوا عباد الله إخواتاً متفق عليه من حديث أبي هريرة»
 وهو بعض الحديث الذي قبله.

نجد نعته ونعت أمنه في التوراة: إنه لا يحل لامرى، أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه المسلم، ومن ذلك: أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه، وله أن ينكره وإن كان كاذباً فليس الصدق واجباً في كل مقام، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه، فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن. هذه حقيقة الأخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرائباً وخارجاً عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق، وقد قال عليه السلام: «مَنْ سَتَرَ هَوْرَةَ أَخِيهِ سَتَرَهُ الله تَعَالَىٰ فِي الذَّنْيَا وَالاَّخِرَةَا (١)، وفي خبر آخر: «فَكَأَلْمًا أَحْيًا مَوْءُودَةً (٢)، وقال عليه السلام: ﴿إِذَا حَذْنَ الرُجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمُّ النَّفَتَ قَهُوَ أَمَانَةٌ (٣)، وقال: «المَجَالِسُ بَالأَمَانَةِ إِلاَّ ثَلاَتَةُ مَجَالِسٌ يَسْفَكُ فِيهِ الرُجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمَّ الْتَفَتَ قَهُوَ أَمَانَةً (٣)، وقال: «المَجَالِسُ بَالأَمَانَةِ إِلاَّ ثَلاَتَةُ مَجَالِسٌ يَسْتَحَلُ فِيهِ مَالٌ مِنْ غَيْرٍ حِلِّهِ (٤)، وقال عَلِيْ: ﴿إِنَّمَا أَدْيَا مَنْ عَيْرٍ حِلّهِ (١٤)، وقال عَلَيْهَ: ﴿إِنَّمَا اللهُ عَلَى صَاحِبِهِ مَا يَكْرَهُ (٥).

قيل لبعض الأدباء: كيف حفظك للسر؟ قال: أنا قبره. وقد قيل: صدور الأحرار قبور الأسرار. وقيل لبعض الأدمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه، أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري به. فمن هذا يجب مقاطعة الحمقى والتوقي عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم. وقد قيل لآخر: كيف تحفظ السر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر. وقال آخر: أستره، وأستر أني أستره، وعبر عنه ابن المعتز فقال:

ومسستودعي سِراً تسبواتُ كَـــــُهـ فسأودَعْسته صيدري فسمسارَ له قَـــــُــرا وقال آخر وأراد الريادة عليه:

وما السرُ في صدري كشاوِ سقبره ولكنتي أنساهُ حقى كأسني ولينه ولينه ولينه ولينه

لأني أرى المقبور ينتظر التشرا بما كان منه لم أحط ساعة خبرا عن السرّ والأحشاء لم تعلم السرّا

وأفشى بعضهم سراً له إلى أخيه ثم قال له: حفظت؟ فقال: بل نسيت. وكان أبو سعيد الثوري يقول: إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيراً وكتم

⁽١) حديث: امن ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والأخرة أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال: (ديوم القيامة) ولم يقل: (في الدنيا والأخرة وللشبخين من حديث أبي هريرة: (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والأخرة وللشبخين من حديث ابن عمر: (من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة).

 ⁽۲) حديث: افكأنما أحيا موؤودة من قبرها، أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عقبة بن عامر: امن رأى عورة غسترها كان كمن أحيا موؤودة، زاد الحاكم: امن قبرها، وقال صحيح الإسناد.

 ⁽٣) حديث: ﴿إِذَا حدث الرجل بحديث ثم النفت فهو أمانة› أخرجه أبو داود والترمذي من حديث جامر وقال حسن.

⁽٤) حديث: المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس. . ١ الحديث. أخرجه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غبر مسمى عنه.

⁽٥) حديث: «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، لا يحل لأحدهما أن يقشي على صاحبه ما يكره أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسباد ضعيف، ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية أبي بكر بن حزم مرسلاً، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس. «إنكم تجالسون بينكم بالأمانة».

سرك فاصحبه. وقبل لأبي يزيد: من تصحب من الناس؟ قال: من يعلم منك ما يعلم الله، ثم يستر عليك كما يستره الله. وقال ذو النون: لا خير في صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوماً، ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم؛ لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها. وقد قال بعض الحكماء: لا تصحب من يتغير عليك عند أربع: عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه، بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتاً على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل:

وتسرى السكسريسم إذا تسمسرًم وطسلُسه يسخفي القبسيخ ويُظُهِرُ الإِحْسانسا وتسرى السلشيسم إذا تسقيضي وضبلسه يسخفي البجسمييلَ ويُظَهِر البُهُ تَسانسا

وقال العباس لابنه عبدالله: إني أرى هذا الرجل يعني عمر رضي الله عنه يقدّمك على الأشياخ فاحفظ عني خمساً: لا تفشين له سراً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تجرين عليه كذباً، ولا تعصين له أمراً، ولا يطلعن منك على خيانة ، فقال الشعبي: كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف. ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك. قال ابن عباس: لا تمار سفيهاً فيؤذيك ولا حليماً فيقلبك. وقد قال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ المِرَاءُ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبْضِ الجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَغْلَىٰ **الجَ**نْةِا^(١) هذا مع أن تركه مبطلاً وأجب، وقد جعل ُثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت عَلَى الباطل، وإنما الأجر على قدر النصب. وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع، فإن التقاطع يقع أوّلاً بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان. وقال عليه السلام: «لاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَبَاخَضُوا ولا تحاسُّدوا وَلاَ يَقَاطَمُوا وَكُونُوا هِبَادَ اللهِ إِخْوَاناً المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَحْرِمُهُ وَلاَ يَخْذِلُهُ بِحَسْبِ المَرْءِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَا (٢)، وأشد الاحتقار المماراة، فَإن من رد على غيره كلامه فقد نسبه إلى الجهل والحمق، أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإبحاش، وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال: حرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتمارى فغضب وقال: «فَرُوا المِمَرَاءُ لِقَلَّةِ خَيْرِهِ وَذَرُوا المِرَاءَ فَإِنَّ نَفْعَهُ قَلِيلٌ فَإِنَّهُ يُهَيِّعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الإِخْوَانِ، (٣)، وقال بعض السلف: من لاحي الإخوان وماراهم قلَّت مروءته وذهبت كرامته. وقال عبدالله بن الحسن: إياك ومماراة الرجال، فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم. وقال بعض السلف: أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم، وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة. وقد قال الحسن: لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل. وعلى الجملة: فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحمق والجهل، ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضامنه

⁽١) حديث: «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة. . . ٤ الحديث، تقدم في العلم،

 ⁽٢) حديث: «لا تدابروا ولا تبافضوا ولا تحاصدوا وكونوا هباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم..» الحديث. أخرجه مسلم
 من حديث أبى هريرة وأوله متفق عليه من حديث وحديث أنس، وقد تقدم يعضه قبل هذا بسبعة أحاديث.

الأخوة والمصافاة؟ فقد روى ابن عباس عن رسول الله على أنه قال: ﴿لاَ تُمَارِ أَخَاكَ وَلاَ تُمَازِحُهُ وَلاَ تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ (') وقد قال عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لاَ تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمُوالِكُمْ وَلٰكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسُطُ وَجْهِ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ (') وقد قال عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لاَ تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمُوالِكُمْ وَلٰكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنْكُمْ بَسُطُ وَجْهِ وَحُسْنُ خُلُقِ (') والمماراة مضادة لحسن الخلق. وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حدّ لم يروا السؤال أصلاً، وقالوا: إذا قلت لأخيك: قم، فقال: إلى أين؟ فلا تصحبه. بل قالوا: ينبغي أن يقوم ولا يسأل، وقال أبو سليمان الدّاراني: كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول: أعطني من مالك شيئاً، فكان يلقي إليّ كيسه فأخذ منه ما أريد، فجئته ذات يوم، فقلت: أحتاج إلى شيء، فقال: كم تريد؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي، وقال أخر: إذا طلبت من أخيك مالاً، فقال! ماذا تصنع به؟ فقد ترك حق الإخاء، وإعلم: أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة. قال أبو عثمان الحيري: موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم وهو كما قال.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق:

فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب، بل هو أخص بالأخوة؛ لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم. والسكوت معناه: كف الأذى؛ فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانِه مشارِكته له فِي السَّرُورُ بِهَا. فَمَعْنَى الْأَخُوةُ: المساهمة في السَّراءُ والضَّراءُ، وقد قال عليه السَّلَامُ: ﴿إِذَا أَخَبُ أَخَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرُهُ^{٣٧)}، وإنما أمر بالإِخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فإذا عرفت أنه أيضاً يحبك زاد حبك لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف. والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين، ولذلك علم فيه الطريق فقال: «تُهَادُوا تُحَابُواه⁽¹⁾، ومن ذلك: أن تدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحصوره، قال عمر رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أوّلاً، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه. ومن ذلك: أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده، فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة. وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط، ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه، وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلك محض الحسد، ومن ذلك: أن تشكره على صنيعه في حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك.

حديث ابن عباس: «لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موهداً فتخلفه أخرجه الترمدي وقال غريب لا نعرفه إلا من
 هذا الوجه يعني من حديث ليث بن أبي سليم وضعفه الجمهور.

 ⁽٢) حديث: وإتكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسمهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق؛ أخرجه أبو يعلى الموصلي والطيراني
 في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وضعفه، والحاكم وصححه والبيهتي في الشعب من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: "إذا أحب أحدكم أخاه فليخيره! أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح، والحاكم من حديث المقدام بن معد يكرب.

⁽٤) حديث: التهادوا وتحابوا أخرجه البيهقي من حديث أبي هربرة وقد نقدم غير مرة.

قال علي رضي الله عنه: من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة، وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة: الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة. وإنما شبه رسول الله على الأخوين بالبلين تغسل إحداهما الأخرى لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه (() وقد قال رسول الله على: «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمُ الْحُولِيَ يَخْلِلُهُ وَلاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَغْلِمُهُهُ وَلاَ يَغْلِمُهُ وَلاَ يَعْلِمُهُ وَلاَ يَعْلِمُ اللهُ والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت؛ لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك، وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم، ولذلك شبهه الله تعالى والحمية للدفع عنك، وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم، ولذلك شبهه الله تعالى المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة، حتى إن من المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة، حتى إن من المشارع، وبين مثاله في المعنى الذي يجري من المثال مجرى الروح لا في ظاهر الصور. فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة، وقد قال مجاهد: لا تذكر أخاك في غيبتك، فإذن لك فيه معياران:

أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضراً ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به.

والثاني: أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره؛ فما كان يتحرك في قلك من النصرة له بمسمع منه ومرأى؟ فيسغي أن يكون في مغيبه كذلك، فقد قال بعضهم: ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورت بالا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه ما يحب أن يقال في. وهذا من صدق الإسلام؛ وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه. وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدان فوقف أحدهما يحك جسمه فوقف الآخر؛ فبكى وقال: هكذا الإخوان في الله يعملان لله فإذا وقف أحدهما وافقه الآخر. وبالموافقة يتم الإخلاص، ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق. والإخلاص استواء الغيب والشهادة واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلوة والاختلاف، والنفاوت في شيء من ذلك مماذقة في المودة وهو دخل في الدين ووليجة في طريق المؤمنين، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة، فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق، فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق. ولذلك قال عليه السلام: "أبا هِرَّ أَحْسِنُ مُجَاوِرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنُ مُشْهِماً"، فانظر: كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة والإسلام جزاء الجواد؟

⁽١) حديث: قتشبيه الأخوين باليدين، تقدم في الباب قبله.

⁽٧) حديث: اللمسلم أنحو المسلم، تقدم في أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث. لا يثلمه: لا يجرحه، وفي لفظ: لا يسلمه.

 ⁽٣) حديث: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً» أخرجه الترمذي وابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة بالشطر الأول فقط وقال الترمذي: «مؤمناً» قال: «وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً» وقال ابن ماجه: «مؤمناً» قال الدارقطني: والحديث ثابت، ورواه القضاعي في مستد الشهاب للفظ المصنف.

فالفرق بين فضل الإيمان وقضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة؛ فإن الصحبة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام، والحوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم. ومن ذلك: التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاحته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنياء فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه، وتخوّفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة؛ لينزجر عنه، وتنبهه على عيوبه، وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن، ولكن ينمغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد، فما كان علمي الملأ فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، إذ قال ﷺ: «المُؤمِنُ مِرْآةُ المُؤمِنِ»(١). أي يرى منه ما لا يرى من نفسه، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد؛ كماً يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة. وقال الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزاته ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه. وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن تصحني فيما بيني وبينه فنعم، وإن قرّعني بين الملأ فلا. وقد صدق، فإن النصح على الملأ فضيحة، والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سراً، وقد يدفع كتاب عمله مختوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختوماً ليقرأه، وأما أهل المقت: فينادون على رؤوس الأشهاد وتستنطق جوارحهم بفضائحهم؛ فيزدادون بذلك خزياً وافتضاحاً ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر. فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسُلامة دينكُ ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار، وإن أغضيت لحظَ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأست مداهن. وقال ذو النون: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة.

فإن قلت: فإذا كان في النصح ذكر العيوب ففيه إيحاش القلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة؟ فاعلم: أن الإيحاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه، فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى، فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لنزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك، والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات، فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد، وهي مخلوقة من نار الله الموقدة، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يستهدي ذلك من إخوانه ويقول: رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه، ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه: ما الذي بلغك عني مما تكره؟ فاستعفى، فألح عليه فقال: بلغني أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل، وبلغني أنك تجمع بين إدامين على مائلة واحدة، فقال عمر رضي الله عنه: أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما؟ فقال: لا. وكتب حذيفة المرعشي إلى يوسف بن أسباط: بلغني أنك بعت دينك

⁽١) حديث: فالمؤمن موآة المؤمن! أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

بحبتين: وقفت على صاحب لبن فقلت: بكم هذا؟ فقال: بسدس، فقلت له: لا. . . بثمن فقال: هو لك، وكان يعرفك. اكشف عن رأسك قناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى، **واعلم:** أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين، وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين إذ قال: ﴿ وَلَنكِن لَّا يُجْبُونَ ٱلتَّنصِينَ﴾ [الأعرَاف: ٧٩] وهذا في عيب هو غافل عنه، فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه، فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره وإن كان يخفيه، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف في النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاش، فإن علمت أن النصح غير مؤثّر فيه وآنه مضطر من طبعه إلى الإِّصرار عليه فالسكوت عنه أولى. وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير من المشافهة، والاحتمال خير من الكل؛ إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره، لا الاستعانة به والاسترقاق منه. قال أبو بكر الكتاني: صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً فوهبت له يوماً شيئاً على أن يزول ما في قلبي فلم يزل، فأخذت بيده يوماً إلى البيت وقلت له: ضع رجلك على خدي، فأبى، فقلت: لا بد، ففعل، فزال ذلك من قلبي. وقال أبو على الرباطي: صحبت عبدالله الرازي وكان يدخل البادية فقال: على أن تكون أنت الأمير أَو أنا؟ فقلت: بَل أنت. فقال: وعليك الطاعة، فقلت: نعم، فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أعطني قال: ألست قلت أنت الأمير؟ فعليك الطاعة، فأخذناً المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عني المطر، فكنت أقول مع نفسي: ليتني مت ولم أقل أنتُ الأمير.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات:

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية، أو في حقك بتقصيره في الأخوة. أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله. فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته؛ فذهب أبو ذر رضي الله عنه إلى الانقطاع وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته، ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله. وأما أبو الدرداه وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه؛ فقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك؛ فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى. وقال إبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه، فإنه يرتكهه اليوم ويتركه غداً. وقال أبراهيم النخعي: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه، فإنه يرتكهه اليوم ويتركه غداً. وقال أيضاً: لا تحدّثوا الناس بزلة العالم؛ فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها. وفي الخبر: «اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئته» (1). وفي حديث عمر وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى

حديث: التقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيثنه وواه البغوي في المعجم، وابن عدي في الكامل من حديث عمرو بن عوف المزني وضعفاه.

الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال: ما فعل أخي؟ قال: ذلك أخو الشيطان، قال: مه، قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر. قال: إذا أردَّت الخروج فآذني، فكتب عند خروجه إليه «بسم الله الرحمن الرحبم»: ﴿حَمَّم ۞ تَهزِيلُ ٱلْكِنْنِ مِنَ ٱلَّهَ ٱلْمَزِيزِ ٱلْمَلِيدِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّئْبِ وَقَالِلِ ٱلتَّوْبِ شَكِيدِ الْمِقَابِ﴾ [خَافر: ١-٣] الآية، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله، فلما قرأ الكتاب بكي وقال: صدق الله ونصح لي عمر فتاب ورجع. وحكي أن أخوين ابتلي أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال: إني قد اعتللت فإن شئت أن لا تعقد على صحبتي لله فافعل، فقال: ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبداً، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه، فطوى أربعين يوماً في كلها يسأله عن هواه فكان يقول: القلب مقيم على حاله. وما زال هو يتحلل من الغم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين، فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالاً وضراً. وكذلك حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أُحوج ما كان إليٌّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه، وروي في الإسرائيليات أن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحماً بدرهم، فرأى بغياً عند اللحام فرمقها وعشقها واجتذبها إلى خلرة وواقعها، ثم أقام عندها ثلاثاً واستحيا أن يرجع إلى أخبه حياء من جنابته. قال: فافتقده أخوه واهتم بشأنه فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها، فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه، وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه فقال: قم يا أخي، فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إليَّ ولا أعز من ساعتك هذه، فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه. فهذه طريقة قوم وهي ألطف وأفقه من طريقة أبي ذر رضى الله عنه، وطريقته أحسن وأسلم.

فإن قلت: ولِمَ قلت هذا ألطف وأفقه؟ ومقارف هذه المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء، لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها، وعلة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية؟ فأقول: أما كونه ألطف: فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة، ومهما قرطع وانقطع طمعه عن الصحبة أصر واستمر، وأما كونه أفقه: فمن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره وفقر الدين أشدٌ من فقر المال، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة افتقر بسببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يهمل، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التيُّ ألمت به. ۚ قَالاُخوة عدة للتائبات وحوادث الزَّمان وهذا من أشدّ النوائب، والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ويستحى من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياء منه. قال جعفر بن سليمان: مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إليُّ نشاطي في العبادة وفارقني الكسل وعملت عليه أسبوعاً. وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كلحمة النسب والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية، ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ في عشيرته: ﴿ وَإِنْ عَصَوْكَ نَقُلْ إِنِّ بَرِئَةٌ ۚ مِنَّا نَشْمَلُونَ ۗ ۗ [الشُّمَزَاء: ٢١٦] ولم يقل إني بريء منكم؛ مراعاة لحقَّ القرابة ولحمة النسب. وإلى هَذَا أَشَارَ أَبُو الدَرْدَاء لَمَا قَيْلُ لَهُ: أَلَا تَبْغُضُ أَخَاكُ وقد فعل كذَّا؟ فقال: إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخي

وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة. ولذلك قيل لحكيم: أيما أحب إليك أخوك أو صديقك؟ فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقاً لي. وكان الحسن يقول: كم من أخ لم تلده أمك؟ ولذلك قيل: القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة، وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم ماثية من قطعها قطعه الله. فإذن: الوقاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب. وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق، فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقاطع بل يجامل، والدليل عليه: أن ترك المؤاخاة والصحبة ابتداء ليس مذموماً ولا مكروهاً بل قال قائلون: الانفراد أولى، فأما قطع الأخرة عن دوامها فمنهي عنه ومذموم في نفسه، ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح، والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح، قال عِليَّة: ﴿شِرَارُ عِبَاهِ الله الْمَشَّاقُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ" ()، وقال بعض السلف في ستر زلات الإخوان: ودَّ الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه، فماذا اتقيتم من محبة عدوّكم. وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مقارفة العصيان من محابه، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني، وإلى هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال: «مَهُ» وزبره وقال: «لاَ تَكُونُوا عَوْنَا لِلشَّيْطَانِ عَلَىٰ أَخِيكُمْ» (٢٠)، فبهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء؛ لأن مخالطة الفساق محذورة، ومفارقة الأحباب والإخوان أيضاً محذورة، وليس من سلم عن معارصة غيره كالذي لم يسلم، وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تعارضاً فكان الوفاء بحق الأخوة أولى، هذا كله في زلته في دينه.

أما زلته في حقه بما يوجب إيحاشه: فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال، بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصوّر تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة، فقد قيل: ينبعي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً، فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك، فتقول لقلبك: ما أقساك يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله، فأنت المعيب لا أخوك، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت، ولكن ذلك لا يمكن، وقد قال الشافعي رحمه الله: من استغضب قلم يغضب فهو حمار، ومن استُرضِيَ فلم يرض فهو شيطان. فلا تكن حماراً ولا شيطاناً، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك، واحترز أن تكون شيطاناً إن لم تقبل. قال الأحنف: حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثاً: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة. وقال آخر: ما شتمت أحداً قط، لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له، أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضاً، ثم تمثل

وأغسفسر عسوراء السكسريسم ادخساره وأعسرض عنن شنتم الملشيسم تسكسومها وقد قيل:

ودع السندي فسيسه الكري خُسذَ مِسن خسلسيسلسك مسا صسفَسا

حديث: قشرار عباد الله المشاؤون بالتميمة المفرقون بين الأحبة؛ رواه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند

 ⁽٢) حديث: الا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم، رواه البخاري من حديث ألى هريرة وتقدم في الباب قبله.

فسالسعسمسر أقسمسر مسن مسعسا تسبسة السخسليسل عسلسي السغسيسر

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً كان أو صادقاً فاقبل عذره. قال عليه السلام: "مَنِ احْتَلَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ فَلَمْ يَقْبَلْ حُذْرَهُ فَعَلَيْهِ مِقْلُ إِثْمِ صَاحِبِ الْمَكْسِ" () ، وقال عليه السلام: «المُؤْمِنُ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الرَّضَالا ؟) ، فلم يصفه بأنه لا يغضب. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَالصَّطِبِنَ ٱلْفَيْظَ ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] ولم يقل: والفاقدين الغيظ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب، ولا يمكن عليه ويحتمل، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب، ولا يمكن العمل بخلاف مقتضاه، فإنه يقتضي التشفي والانتقام والمكافأة، وترك العمل بمقتضاه ممكن، وقد قال الشاعر:

ولسستُ بسمسستبسقِ أخساً لا تسلسمُ * عسلس شَيعَتِ أيُّ السرجالِ السمسهدَّبُ؟

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: إذا واخيت أحداً في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول، قال: فجربته فوجدته كذلك، وقال بعضهم: الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته، والمعاتبة خير من القطيعة، والقطيعة خير من الوقيعة، وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الوقيعة، قال تعالى: ﴿عَنَى اللهُ أَن يَجْمَلَ بَيْنَكُو وَبَيْنَ اللَّيْنَ عَادَيْتُم وَيَنَمُ مُونَا مَا عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَلَا عَمر رضي الله عنه: لا يكن حبك وَلَا بغضك تلفاً، وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك.

الحق السادس: الدعاء للآخ في حياته وبعد مماته:

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به، فتدعو له كما تدعو للنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق؛ فقد قال تفي المؤلدة والمؤلدة المؤلدة ال

⁽١) حديث: امن اعتلر إليه أخوه قلم يقبل علره فعليه مثل إثم صاحب مكس، أخرجه ابن ماجه وأبو داود في المراسيل من حديث حودان واختلف في صحبته، وجهله أبو حاتم وباثي رجاله ثقات، ورواه الطرائي في الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف.

 ⁽۲) حديث «المؤمن سريع الغضب سريع الرضا» لم أجده هكذا وللترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري: «ألا إن بني آدم خلفوا على طبقات شتى...» الحديث. وفيه: «ومنهم سريع الفيء قتلك بتلك».

 ⁽٣) حديث: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. . .) الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هويرة وقال: غريب قلت: رجاله ثقات رجال مسلم لكن الراوي تردد في رفعه.

 ⁽٤) حديث، اأذا دها الرجل الأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك بمثل ذلك أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء.

حديث: «الدعاء للأخ يظهر الغيب» وفيه: فيقول الله بك أبدأ يا عبدي، لم أجد هذا اللفظ.

حديث: ايستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه لم أُجده بهذا اللفظ ولأبي داود والترمذي وضعفه من حديث عبدالله بن عمرو: «إن أسرع الدهاء إجابة دعوة فائب لغائب».

قدَّفَوةُ الرَّجُلِ لأَخِيهِ فِي ظَهْرِ الغَيْبِ لاَ تُرَدُّ()، وكان أبو الدرداء يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم. وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلَّفت، وهو منفرد بحزنك مهتم بما قدَّمت وما صرت إليه، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى، وكان الأخ الصالح يقتدي بالملائكة؛ إذ جاء في الخبر: «إذَا مَاتَ العَبُدُ قَالَ النَّاسُ: مَا خَلَفت؟ وَقَالَتِ المَلاَئِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ (*)، يفرحون له بما قدّم ويسألون عنه ويشفقون عليه، ويقال: من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه. وروي عن رسول الله عليه أنه قال: «مَثَلُ المَيْتِ فِي قَبْرِهِ مَثَلُ الغَرِيقِ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَنْتَظِرُ دَحْوَةً عليه. وروي عن رسول الله عليه أنه قال: «مَثَلُ المَيْتِ فِي قَبْرِهِ مَثَلُ الغَرِيقِ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ يَنْتَظِرُ دَحْوَةً عليه. وروي عن رسول الله عَلَيْهُ أنه قال: «مَثَلُ المَيْتِ فِي قَبْرِهِ مَثَلُ الغَرِيقِ يَتَعَلَّقُ بِكُلُ شَيْءٍ يَنْتَظِرُ دَحْوَةً المِبْلُ وَالِدٍ أَوْ أَنْجٍ أَوْ قَرِيبٍ (*)، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال. وقال بعض السلف: الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان، من عند قريبك فلان، قال: فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص:

ومعنى الوفاء: النبات على الحب وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي، ولذلك قال عليه السلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: قورَجُلانِ تَعَابًا في الله اجْتَمَعًا حَلَىٰ ذٰلِكَ وَتَقَرَّفًا صَلَيْهِ (ئ)، وقال بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة، ولذلك روي أنه على أكرم عجوزا دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: الإنها كَانَتْ تَأْتِينًا أَيَامَ خَدِيجَةً، وَإِنَّ كَرَمَ العَهْدِ مِنَ الدَّينِ (٥٠)، فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقاته وأقاربه والمتعلقين به، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق مس مراعاة الأخ في نفسه، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر؛ إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى الكلب الذي على باب داره يتبغي أن يميز في تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى الكلب الذي على باب داره يتبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخيين في الله ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما، قال الله تعالى: على بر كما يحسد متواخين في الله ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما، قال الله تعالى: على بر كما يحسد متواخين في الله ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما، قال الله تعالى: على بركما يحسد متواخين وَبَنَى إِخَوْنَ الْ الله تعالى: ما تواخي اثنان في الله فتفرق بينهما إلا بَعْ الله يَعْ الله فتفرق بينهما إلا بَعْ الله فتفرق بينهما إلا

حديث: قدعوة الأخ لأخيه في الغيب لا ترده أخرجه الدارقطتي في العلل من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم إلا أنه قال: قدمتجاية، مكان: قلا ترده.

 ⁽٧) حديث: ﴿إِذَا مات العبد قال الناس ما خلف وقالت الملائكة ما قدم، أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: قمثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دهوة من ولد أو والد. . . ٩ الحديث، أخرجه أبو
 متصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، قال الذهبي في الميزان: إنه خبر منكر جداً.

 ⁽٤) حديث: قسيعة يظلهم الله في ظله. . . » الحديث، تقدم فير مرة.

⁽٥) حديث: الكرامه على لعجوز دخلت عليه وقوله لها: كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان، أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال: صحيح على شرط الشيخين وليس له علة.

بذنب يرتكبه أحدهما. وكان بشر يقول: إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه. وذلك لأن الإِخوان مسلاة للهموم وعون على الدين. ولذلك قال ابن المبارك: ألذ الأشياء مجالسة الإخوان والانقلاب إلى كفاية، والمودة الدائمة هي التي تكون في الله، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض. ومن ثمرات المودة في الله: أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا، وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته؟ وبه وصف الله تعالى المحبّين في الله تعالى فقال: ﴿وَلَا يَجِدُّونَ فِي صُدُّورِهِمّ حَاجَكَةً يَمَّاً أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْشِيهِمْ﴾ [الخشر: ٩] ووحود الحاجة هو الحسد. ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في النواضع مع أخيه وإن أرنفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم. قال الشاعر:

إنَّ السكسرامُ إذا مسا أيسسروا ذكروا من كنان ينالفهم في السنزل الخَشِن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: يا بني، لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قربٌ منك، وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك، وإنْ علمت مرتبته لم يرتفع عليك. وقال بعض الحكماء: إذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير. وحكى الربيع: أن الشافعي رحمه الله آخي رجلاً ببغداد ثم إن أخاه ولِّي السيبين فتغير له عما كان عليه، فكتب إليه الشافعي بهذه الأبيات:

الذهب فَسوُدُلُكَ مسن فسؤادي طسالتُ أبداً وليسس طَسلَاقُ ذاتِ السبَيْنِ نِ فسإن ارعدويست فسإنسها تسطسلسيسقيةً وإن استنعت شفعتها بمشالها فشكون تطليقين في حيضين وإذا السشلاث أتستسك مسنسي بسقة

ويسدوم وڏك لسي عسلسي ٹسنستسيسن لم تخن عننك ولاينة المسيبين

واصلم: أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل الوفاء له المخالفة، فقد كان الشافعي رضي الله عنه آخى محمد بن عبدالحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال:

مَسرِضَ السحسيسيسبُ فَسفسدتُسهُ فسمَسرضتُ مِسنْ حَسفري عسلسيسهِ وأتسى السحسبسيب يسعسودنسي فسبسر ثست مسن نسطري إلسيسه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه الى من نجلس بعدك يا أبا عبدالله؟ فاستشرف له محمد بن عبدالحكم وهو عند رأسه ليوميء إليه، فقال الشافعي: سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي؟ فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع. فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى. فلما توفي انقلب محمد بن عبدالحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه، ودرس كتب مالك رحمه الله، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله. وآثر البويطي الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف «كتاب الأم» الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما صنفه البويطي ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره. والمقصود: أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله. قال الأحنف: الإِخاء جوهرة رقيقة، إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات، فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير. ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء: أن تكون شديد الجزع من المفارقة، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل:

وجدتُ مُصِيبات الرَّمان جميعها صِوى فرقةِ الأحيَّابِ هيئة الخَطَّبِ

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال: لقد عهدت أقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلي أن حسرتهم ذهبت من قلبي. ومن الوفاء: أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لا سيما من يظهر أولا أنه محب لصديقه _ كيلا يتهم _ ثم يلقي الكلام عرضاً وينقل عن الصديق ما يوغر القلب، فذلك من دقائق الحيل في التضريب، ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلاً. قال واحد لحكيم: قد جئت خاطباً لمودتك، قال: إن جعلت مهرها ثلاثاً فعلت، قال: وما هي؟ قال: لا تسمع عليّ بلاغة، ولا تخالفني في أمر، ولا توطئني عشوة. ومن الموفاء أن لا يصادق عدو صديقه. قال الشافعي رحمه الله: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك.

الحق الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف:

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفهه عن أن يحمله شيئاً من أعبائه، فلا يستمد منه من جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركاً بدعائه واستئناساً بلقائه واستعانة به على دينه، وتقرباً إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته. قال بعضهم: من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم، ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم. وقال بعض الحكماء: من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا، وتمام التخفيف بطي بساط التكليف حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه. وقال الجنيد: ما تواخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلاّ لعلة في أحدهما. وقال علي عليه السلام: شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار. وقال الفضيل: إنَّما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه. وقالت عائشة رضي الله عنها: المؤمن أخو المؤمن لا يغتنمه ولا يحتشمه. وقال الجنيد: صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة، كل طبقة ثلاثون رجلاً: حارثاً المحاسبي وطبقته، وحسناً المسوحي وطبقته، وسرياً السقطي وطبقته، وابن الكريبي وطبقته، فما تواخي اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لعلة في أحدهما. وقيل لبعضهم: من نصحب؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ. وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول: أثقل إخواني عليٌّ من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي. وقال بعض الصوفية: لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده ببر ولا تنقص عنده بإثم يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء؛ وإنما قال هذا لأنّ به يتخلص عن التكلف والتحفظ، وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أنَّ ذلك ينقصه عنده. وقال بعضهم: كن مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارفين كيف شئت. وقال آخر: لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت، ويعتذر إليك إذا أسأت

ويحمل عنك مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه. وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس وليس الأمر كذلك، بل ينبغي أن يؤاخي كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه؛ إذ به يكون مؤاخباً في الله وإلا كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط. ولذلك قال رجل للجنيد: قد عز الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثاً، فلما أكثر قال له الجنيد: إن أردت أخاً يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل، وإن أردت أخاً في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندي جماعة أعرفهم لك. فسكت الرجل. واعلم أن الناس ثلاثة: رجل ثنتفع بصحبته، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرر به، ولكن لا تنتفع به. ورجل لا تقدر أيضاً على أن تنفعه وتتضرر به وهو الأحمق أو السيىء الخلق، فهذا الثالث يتبغي أن تتجبه؛ لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعاته وبثوابك على القيام به، وقد أن تتجبه، فأما الثاني فلا تجتنبه؛ لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعاته وبثوابك على القيام به، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إن أطعنني فما أكثر إخوانك. أي إن واسبتهم واحتملت منهم أوحى نفسى، ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه.

ومن التخفيف وترك التكلف: أن لا يعترض في نوافل العبادات. كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان: إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر، وإن نام الليل كله لم يقل له قم؟ وإن صلى الليل كله لم يقل له: نم، وتستوي حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان؛ لأنَّ ذلك إن تفاوت حرَّك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة. وقد قيل: من سقطت كلفته دامت ألفته، من خفت مؤنته دامت مودته، وقال بعض الصحابة: إنَّ الله لعن المتكلفين، وقال ﷺ: ﴿أَنَا وَالأَتَقِيَاءُ مِسنَ أُمَّتِي بُرَآهُ مِنَ التَّكَلُّفِ،(١)، وقال بعضهم: إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به^(٢): إذا أكل عنده، ودخل الخلاء، وصلى، ونام. فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال: بقيت خامسة وهو: أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويجامعها. لأن البيت يتخذ للاستخفاء في هذه الأمور الخمس، وإلا فالمساجد أروح لقلوب المتعبدين، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط. وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك؛ إذ يقول أحدهم لصَّاحبه: مرحباً وأهلاً وسهلاً، أي لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا، ولك عندنا سهولة في ذلك كله، أي لا يشتدٌ علينا شيء مما تريد. ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه، فإذا رآهم خيراً من نفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منهم، وقال أبو معاوية الأسود: إخواني كلهم خير مني، قيل وكيف ذلك؟ قال: كلهم يرى لي الفضل عليه، ومن فضلني على نفسه فهو خير مني، وقد قَالَ ﷺ: «الْمَرَّةُ خَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ وَلاَ خَيْرَ فِي صُحْبَةٍ مَنْ لاَ يَرَىٰ لَكَ مِثْلَ مَا تَرَىٰ لَهُ (٣)، فهذه أقل

 ⁽١) حديث. «أنا وأتقياء من أمني برآء من التكلف» أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام: «ألا إني
بويء من التكلف وصالحو أمني، وإسناده ضعيف.

 ⁽٢) حديث: «إذا صنع الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه بهه الحديث. لم أجد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: «المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ثرى لهه تقدم الشطر الأول منه في الباب
قبله، وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدي في الكامل من حديث أنس بسند ضعيف.

الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ. ولذلك قال سفيان: إذا قيل لك يا شر الناس فغضبت فأنت شر الناس. أي ينبغي أن تكون معتقداً ذلك في نفسك أبداً، وسيأتي وجه ذلك في كتاب الكبر والعجب. وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإِخوان أبيات:

ت ذاً ل المن إنْ ت ذلك الله يرى ذاكَ ل المفضل لا ل الله الله وجانب صداقة مُن لا يرزا لا عملى الأصداقاء يرى الفضل لنه وقال آخر:

كسم صديب في عسرفست وسسديب صدار أصطنى من المصديب المعتبق ووفسيب والمسدين المعتبق ووفسيب والمسدين المعقبة

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أحاه وهذا في عموم المسلمين مذموم. قال على: ببِحَسْبِ المُؤْمِنِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَهُ (1)، ومن تتمة الانبساط وترك التكلف: أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده، ويقبل إشاراتهم، فقد قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرُهُمْ فِي ٱلْأَثْنِ ﴾ (آل جبرَان: ١٩٩١)، وينبغي أن لا يخفي عنهم شيئاً من أسراره كما روي أن يعقوب ابن أخي معروف قال: جاء أسود بن سالم إلى عمي معروف وكان مؤاخياً له فقال: إنّ بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك، وقد أرسلني إليك بسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتذ بها إلا أنه يشترط فيها شروطاً: لا يحب أن يشتهر بذلك، ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة، فإنه يكره كثرة الالتقاء، فقال معروف: أما أنا لو آخيت أحداً لم أحب مفارقته ليلا ولا نهاراً، ولزرته في كل وقت وآثرته على نفسي في كل حال. ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة، ثم قال فيها. وقد آخي رسول الله على علياً فشاركه في العلم (٢) وقاسمه في البدن (١) وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه، وخصه بذلك لمؤاخاته (٤). وأنا أشهدك

 ⁽١) حديث: «بحسب امرىء من الشر أن بحقر أنحاه المسلم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في أثناء حديث
 «لا تدابروا» في هذا الباب.

والمناد، وآخى رسول الله على وشاركه في العالم؛ أخرجه النسائي في الخصائص من سننه الكبرى من حديث على قال: وجمع رسول الله على بني عبدالمطلب... والحديث. وفيه وفايكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وفيه وحتى إذا كان في الثائثة ضرب بيده على يدي، وله وللحاكم من حديث ابن عباس: وأن علياً كان يقول في حياة رسول الله على: والله إني لأخوه ووليه ووارث علمه.... المحديث، وكل ما وود في أخرته فضعيف لا يصح منه شيء، وللترمذي من حديث ابن عمر: ووائت أخي في المدنيا والآخرة، وللحاكم من حديث ابن عباس: وأنا مدينة العلم وعلي يابها، وقال صحيح الإسناد، وقال ابن حبان: لا أصل له. وقال ابن طاهر: إنه موضوع، وللترمذي من حديث علي: وأنا دار المحكمة وعلى بابها، وقال: غريب.

 ⁽٣) حديث العمقاسمته علياً للبدن، أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل الثم أعطى علياً فنحر ما عبر وأشركه في هديه،
 (٤) حديث: «أنه أنكح علياً أفضل بناته وأحبهم إليه، هذا معلوم مشهور ففي الصحيحين من حديث علي: الما أردت أن

وابيت: «إنه أوجع عليا أقصل بنانه وأخبهم إليه مدا معدوم فسهور علي المستيسين على عليه المستور علي المستور المستور المستور المستور المستور المستور عليه ال

أني قد عقدت له أخرّة بيني وبينه، وعقدت إخاءه في الله لرسالتك ولمسألته على أن لا يزورني إن كره ذلك، ولكني أزوره متى أحببت، ومره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها، ومره أن لا يخفي عليٌّ شيئاً من شأنه، وأن يطلعني على جميع أحواله، فأخبر ابن سالم بشراً بذلك فرضي وسرّ به. فهذا جامع حقوق الصحبة وقد أجملناه مرّة وفصلناه أخرى، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم، وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك.

أما البصر: فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك، وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك. روي أنه ﷺ كان يعطي كل من جلس إليه نصيباً من وجهه، وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسألته وتوجهه للجالس إليه(١٠) ، وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما يحدثونه به، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله وتوقيراً له عليه السلام.

وأما السمع: فبأن تسمع كلامه متلذذاً بسماعه ومصدقاً به ومظهراً للاستبشار به، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادة ولا منازعة ومداخلة واعتراض، فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون.

وأما الملسان: فقد ذكرنا حقوقه فإنَّ القول فيه يطول، ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون.

وأما اليدان: فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد.

وأما الرجلان: فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين، ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقذَّمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه، ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعاً حيث يقعد. ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة، وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف، فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه، لأن هذه الأداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب. ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهراً وباطناً، وزين باطنه بالحب لله ولخلقه، وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله؛ إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة.

络米米

⁽١) حديث وكان يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه. . . ٩ الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث على في أثناء حديث فيه: "يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول» ثم قال: «مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة» وفيه: «يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه، وللترمذي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء: الما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ وقال: غريب،

خاتمة لهذا الباب

نُذَكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع في غير مذلة. وكن في جميع أمورك في أوسطُها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم. ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات، وإذا جلست فلا تستوفز، وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنابك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك، وطرد الذباب من وجهك، وكثرة التّمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها، وليكن مجلسك هادياً وحديثك منظوماً مرتباً، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحُّك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك، ولا تصنيفك وسائر ما يخصك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلح في الحاجات، ولا تشجع أحداً على الظلم، ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك؛ فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم، وخوفهم من غير عنف، ولنَّ لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيديك، ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك، ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غيظك فتكلم، وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان؛ فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي وكلمه بما يشتهيه ما لم يكن معصية، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلساً قالأدب فيه: البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق، والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تحيى بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبه: غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياد لموضع النصاق، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس الملوك، فإن فعلت فأدبه: ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم وإن ظهرت لك المودة ـ وأن لا تتجشأ بحضرتهم، ولا تتخلل بعد الأكل عنده، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إقشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة، فإن فعلت فأدبه: ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم. وإياك أن تمازح لبيباً أو غير لبيب؛ فإنّ اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترىء عليك، لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه

ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه، ويجرّىء السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون، وهو يميت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة ويورث الذلة، وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر، وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب. وقد قيل: لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر. ومن بلي في مجلسِ بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه. قال النبيّ ﷺ: "مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسِ فَكَثْرَ فِيهِ لَغَطُّهُ فَقَالَ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَٰلِكَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ أَشَتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. إِلاَّ غَفَرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلَسِهِ ذَٰلِكَ، (١٠.

الباب الثالث

في حق المسلم والرحم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع من يدلي بهذه الأسباب

اعلم: أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره، وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة . وكل مخالط ففي مخالطته أدب، والأدب على قدر حقه، وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة . والرابطة إما القرابة وهي أخصها ، أو أخوة الإسلام وهي أعمها ، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة، وإما الجوار، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس، وإما الصداقة أو الأخوة.

ولكل واحد من هذه الروابط درجات؛ فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم آكد، وللمحرم حق ولكن حق الوالدين آكد. وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدي في بلاد الغربة يجري مجرى القريب في الوطن؛ لاختصاصه بحق الجوار في البلد. وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة. وللمعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع بل آكد منه، والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط. وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها؛ فحق الصحبة في الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر. وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قريت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة، والخليل أقرب من الحبيب؛ فالمحبة، ما تتمكن من حبة القلب والخلة ما تتخلل سر القلب؛ فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليلاً. وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة، فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه: أِن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وتعرفه من قوله ﷺ: ﴿ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبًا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلْكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ الله(٢)، إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهراً وباطناً ويستوعبه، ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله، وقد منعته الخلة عن

حديث: «مَنْ جَلُس في مجلس فكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم ويحمدك...٥ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه.

ألباب الثالث في حقوق المسلم والرحم والجوار

حديث: ﴿ اللهِ كُنْتُ مَتَخَذًا خَلِيلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. . . ١ الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.

الاشتراك فيه مع أنه اتخذ علياً رضي الله عنه أخاً فقال: «عَلِيّ مِنْي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ إِلاَّ النّبُوّةَ» (١) فعدل بعلي عن النبوّة كما عدل بأبي بكر عن الخلة، فشارك أبو بكر علياً رضي الله عنهما في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال، فإنه نبه عليه بقوله: «لاتُخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً»، وكان ﷺ حبيب الله وخليله، وقد روي أنه صعد المنبر يوماً مستبشراً فرحاً فقال: «إِنَّ الله قَلْ اتَّخَذَيْ عَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيم خَلِيلاً، فَأَنَا حَبِيبُ الله وَأَنَا خَلِيلُ الله تَعَالَىٰ (١) فإذن: ليس قبل المعرفة رابطة ولا بعد الخلة درجة، وما سواهما من الدرجات بينهما، وقد ذكرنا حق فإذن: ليس قبل المعرفة رابطة ولا بعد الخلة درجة، والخلة، وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما الصحبة والأخوة ويدخل فيهما ما وراءهما من المحبة والخلة، وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما السبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة، حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال، كما آثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا ﷺ وكما آثره طلحة (١٣ ببدنه؛ إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز ﷺ فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين، وحق الجوار، وحق الملك فنحن ملك اليمين ـ فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح.

حقوق المسلم:

هي: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا أقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك (3). ورد جميع ذلك في أخبار وآثار، وقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله عنه أنه قال: «أَرْبَعُ مِنْ حَقّ المُسْلِمِينَ صَلَيكَ: أَنْ تُعِينَ مُخْصِفَهُمْ، وَأَنْ تَسْتَغْفِرَ لِمُذْنِيهِمْ، وَأَنْ تَذَهُو لِمُدْبِرِهِمْ، وَأَنْ تُجِبِنَ عَلَيْهُمْ، وَأَنْ تُجبِنَ عَائِبَهُمْ، وَأَنْ تُستَغْفِرَ لِمُذْنِيهِمْ، وَأَنْ تَدْهُو لِمُدْبِرِهِمْ، وَأَنْ تُحِبِّ قَائِبَهُمْ، وَأَنْ تُحبينَ على المالحهم لطالحهم لطالحهم لطالحهم لطالحهم لطالحهم لطالحهم لطالحهم لمالحهم لمالحهم فإذا نظر الطالح إلى الطالح عن أمة محمد على اللهم اهذه وتب عليه واغفر له عنرته من الخير وثبته عليه وانفعنا به، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال: اللهم اهذه وتب عليه واغفر له عنرته .

 ⁽۱) حديث: اعلى متى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة، متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص.

 ⁽٢) حديث: (إن الله التخذئي خليلاً كما انتخذ إبراهيم خليلاً. . . ٩ أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف،
 دون ثوله: ﴿ وَأَنَا حَبِيبِ الله وَأَنَا خَلِيلِ الله ٩ .

 ⁽٣) طلحة بن عبيداله رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة.

الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم

⁽³⁾ هو أن يسلم عليه إذا لقيه فذكر عشر خصال. أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: لاحق المسلم على المسلم على المسلم على المسلم: وحيادة المريض. واتباع الجنائز، وإجابة اللاعوة، وتشميت الماطس»، وفي رواية لمسلم: احق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته تسلم عليه»، وزاد: لاوإذا استنصحك فاتصح له»، وللترمذي وابن ماجه من حديث علي: اللمسلم على المسلم ست» فذكر منها: اويحب له ما يحب لنفسه، وقال: لاويتصح له إذا غاب أل شهده ولأحمد من حديث معاذ: لاوأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك، وفي الصحيحين من حديث البراء: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع فذكر منها: اوإبرار القسم ونصر المظلوم».

 ⁽٥) حديث أنس «أربع من حقوق المسلمين عليك: أن تعين محسنهم، وأن تستغفر لمقنبهم، وأن تدعو لمديرهم، وأن تحب تائبهم» ذكره صاحب الفردوس ولم أحد له إسناداً.

⁽١) حديث النعمان بن بشير: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد. . . . • الحديث. متفق عليه.

 ⁽٢) حديث أبي موسى: «المؤمن للمؤمن كالبنيان بشد بعضه بعضاً» متقق عليه.

 ⁽٣) حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسائه ويده» منفئ عليه من حديث عبدالله بن عمرو.

 ⁽٤) حديث: الفإن لم تقدر قدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك، منفق عليه من حديث أبي ذر.

 ⁽a) حديث: «أنشل المسلمين من سلم المسلمون من لسائه ويده» متفق عليه من حديث أبي موسى.

⁽٢) حديث: «أتدرون من المسلم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويلمه أخرجه الطبراني والحاكم وصححه من حديث فصالة بن عبيد «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأتفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويله، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب» ورواه ابن ماجه مقتصراً على: «المؤمن والمهاجر»، وللحاكم من حديث أنس وقال: على شرط مسلم، والمهاجر من هجر السوء، ولأحمد بإسناد صحيح من حديث عمرو بن عبسة: قال رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «أن تسلم قليك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك».

 ⁽٧) حديث: القد رأيت رجلاً في ألجنة يتقلب في شجرة قطعها هن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين؟ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٨) حديث أبي هريرة: يا رسول الله، علمني شيئاً أنتفع به، قال: قاهزل الأذى هن طريق المسلمين، أخرجه مسلم من حديث أبي برزة قال: قلت يا نبي الله... فذكره.

 ⁽٩) حديث: المن زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله له بها حسنة، ومن كتب له بها حسنة أوجب له بها المجته، رواه أحمد من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

⁽١٠) حديث قلا يحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظر يؤذيه أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسلاً يسند ضعيف، وفي البر والصلة له من زيادات الحسين المروزي حمزة بن عدالله بن أبي سمي وهو الصواب.

أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً»، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الله يَكْرَهُ أَذَىٰ المُؤْمِنِينَ (١٠)، وقال الربيع بن خثيم: الناس رجلان، مؤمن فلا تؤذه، وجاهل فلا تجاهله.

ومنها: أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض، قال عَلَى: الا يَدْخُلُ الجَنَّةُ قَتَّاتٌ (())، وقال الخليل بن أحمد: من نم لك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبر غيرك بخبرك.

ومنها: أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه. قال أبو أيوب الأنصاري: قال على الآي بحِلُ لِمُسْلِم أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَرْقَ ثَلَاتٍ يَلْتَقِيّانِ فَيُعْرِضُ هَٰذَا وَيُعْرِضُ هَٰذَا وَيَعْرِضُ هَٰذَا وَيَعْرِضُ هَٰذَا وَيَعْرِضُ هَٰذَا وَيَعْرِضُ هَٰذَا وَحَيْرُ هُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ (**)، وقد قال على: «مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً مَثْرَتَهُ أَقَالَهُ الله يَوْمَ القِيّامَةِ (**)، قال عكرمة: قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب: بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرك في الدارين. قالت عائشة رضي الله عنها: هما انتقم رسول الله على لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله (**)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزاً. وقال على الله مَنْ أَحَدِ تَوَاضَعَ الله إلا رَفَعَهُ الله (**).

ومنها: أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع، لا يميز بين الأهل وغير الأهل. روى علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «اصْتَع المَعْرُوفَ فِي أَهْلِهِ

⁽¹⁾ حديث: «إن الله تعالى يكره أذى المؤمنين» أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسلاً بإسناد جيد.

 ⁽۲) حديث: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحده أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن جماز ورجاله رجال الصحيح.

⁽٣) حديث ابن أبي أوفى: اكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته، أحرجه النسائي بإسناد صحيح، والحاكم وقال: على شرط الشيخين. عبدالله بن أبي أوفى الأسلمي «أبو معاوية» شهد الحديبية، وروى عن رسول الله على نزل الكوفة سنة ست وثمانين وكان آخر من مات بها من الصحابة.

 ⁽٤) حديث: الا بدخل الجنة قتات؛ متفق عليه من حديث أبي أبوب.

 ⁽a) حديث: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث. . .) الحديث. متفق عليه.

 ⁽٢) حديث: دمن أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة أخرجه أبو داود والحاكم، وقد تقدم.

حدیث عائشة: ‹ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلا أن تصاب حرمة الله فینتقم الله». متفق علیه بلفظ: ﴿إلا أن تنتهك».

 ⁽A) حديث: قما نقص مال من صدقة، وما زاد الله رجلاً بعقو إلا هزأ، وما تواضع أحد له إلا رقعه الله أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وَفِي خَيْرِ أَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَهُوَ أَهْلُهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبُ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ ('')، وعنه بإسناده قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ وَأَسُ الْعَقْلِ بَعْدَ اللَّيْنِ النَّوَدُّهُ إِلَىٰ النَّاسِ وَاصْطِئَاعُ الْمَعْرُوفِ إِلَىٰ كُلُّ بَرٌ وَفَاجِرٍ ' '' ، قال أبو هريرة: ﴿ كَانَ رسول الله ﷺ لا بأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها، ولم تكن ثرى ركبته خارجة عن ركبة جليسه، ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه ('').

ومنها: أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف. قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «الاسْتِقْذَانُ ثَلَاتٌ؛ فَالأُولَىٰ: يَسْتَنْصِتُونَ، وَالثَّانِيةُ: يَسْتَنْصِتُونَ، وَالثَّانِيةُ: يَسْتَنْصِتُونَ، وَالثَّانِيةُ: يَانَّانُونَ أَوْ يَرُدُونَ (٤٠٠).

ومنها: أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقته، فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأمي بالفقه والعي بالبيان آذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان. قال جابر رضي الله عنه: قال وسول الله ﷺ: الَّهْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُوقَرْ كَبِيرَنَا وَلَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا (*)، وقال ﷺ: امِنْ إِجْلَالِ الله إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِم (*)، ومن تمام توقير المشايخ: أن لا يتكلم بين أبديهم إلا بالإذن، وقال جابر: قدم وفد جهينة على النبي ﷺ فقام غلام ليتكلم، فقال ﷺ: المه فَأَيْنَ الكَبِيرِ؟ (*)، وفي الخبر: المَا وَقَرَ شَابٌ شَيْخاً إِلاً قَيْضَ الله لَهُ فِي سِنّهِ مَنْ يُوقَرُهُ (*)، وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر، وقال ﷺ: الا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتّىٰ يَكُونَ الوَلَدُ خَيْظاً وَالمَطَرُ قَيْظاً وَتَقِيضُ اللَّقَامُ

⁽١) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده: «اصنع المعروف إلى أهله، فإن لم تصب أهله فأتت أهله». ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف، ورواه القضاعي في مسند الشهاب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً يسند ضعيف.

 ⁽۲) حديث على بن الحسين عن أبيه عن جده: قرأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس وأصطناع المعروف إلى كل بر
وفاجر؟ أخرجه الطبرائي في الأوسط، والخطابي في تاريخ الطالبيين، وعند أبي نعيم في الحلية دون قوله:
«واصطناع... إلى آخره» وقال الطبراني: «التحبب».

 ⁽٣) حديث أبي هريرة اكان لا يأخذ أحد بيده فينرع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها. . . ا الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن . ولأبي داود والترمذي وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف.

 ⁽٤) حديث أبي هريرة: «الاستثقان ثلاث؛ فالأولى بستنصتون، والثانية يستصلحون، والثالثة بأذنون أو يردون، أخرجه
الدارقطني في الأفراد بسند ضعيف، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى: «الاستثقان ثلاث؛ فإن أذن لك وإلا
فارجع،.

⁽٥) حديث جابر: اليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا وواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف، وهو عند أبي داود، والبخاري في الأدب من حديث عبدالله بن همرو بسند حسن.

٣) حديث: (من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم؛ أخرجه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري بإسناد حسن.

⁽٧) حديث جابر ' قدم وفد جهينة على النبي ﷺ فقام غلام ليتكلم، فقال ﷺ امه فأين الكبير؟؟ أخرجه الحاكم وصححه.

 ⁽A) حديث: (ما وقر شاب شبخاً لسته إلا قيض الله له في سته من يوقره أخرجه الترمذي من حديث أنس بلفظ: (ما
 أكرم، ومن يكرمه، وقال: حديث غريب. وفي بعض النسخ حسن، وفيه أبو الرجال وهو ضعيف.

فَيْضاً وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً وَيَجْتَرِىءُ الصَّغِيرُ عَلَىٰ الْكَبِيرِ وَاللَّئِيمُ هَلَىٰ الْكرِيمِ، (۱) ، «والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله ﷺ (۲) . «كان ﷺ يقدم من السفر فيتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم، (۲) ، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض: حملني رسول الله ﷺ بين يديه وحملك أنت وراءه، ويقول بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم، «وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه؛ فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي فيصبح به بعض من يراه فيقول: لا تزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته، ويبلغ سرور أهله فيه؛ لئلا يروا أنه تأذى ببوله، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده (٤).

ومنها: أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً. قال ﷺ: «أَتَلْرُونَ هَلَىٰ مَنْ حُرِّمَتِ النَّارُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هَلَىٰ النَّيْنِ الهَيْنِ السَّهْلِ الغَرِيبِ» () ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الله يُعجبُ السَّهْلُ الطَّلْقُ الوَجْهِ» ، وقال بعضهم: «يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة، فقال: «إنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ المَغْفِرَةِ بَذُلُ السَّلَامِ وَحُسْنَ الكَلَامِ» () ، وقال عبدالله بن عمر: إن البرشيء هين؛ وجه طليق وكلام لين، وقال ﷺ : «اتَّقُوا النَّارَ وَلَقَ

 ⁽١) حديث: «لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً. . . » الحديث, رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود. وإسنادهما ضعيف.

 ⁽۲) حديث «التلطف بالصبيان» أخرجه البزار من حديث أنس: «كان من أفكه الناس مع صبي»، وقد تقدم في النكاح.
 وفي الصحيحين: «يا أبا همير ما فعل النغير» وغير ذلك.

٧) حديث: «كان يقدم من السفر فتتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه...» الحديث. رواه مسلم من حديث عبدالله بن جعفر: «كان إذا قدم من سفر تلقى بناء قال: فيلقى بني وبالحسن، وقال: فحمل أحدنا بين يديه والآخر خلفه» وفي رواية: «تلقى بصبيان أهل بيته وأنه قدم من سفر قسبق بني إليه فحملني بين يديه ثم حيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه». وفي الصحيحين: أن عبدالله بن حعفر قال لابن الزبير: «أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس؟ قال نعم، فحملنا وتركك»، لفظ مسلم. وقال البخاري، إن ابن الزبير قال لابن جعفر، قاله أعلم.

حديث: «كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه في حجره فربما بال الصبي فيصبح به بعض من رآه...» الحديث. رواه مسلم من حديث عائشة: «كان يؤتى بالصبيان قيبرك عليهم ويحتكهم فأتي بصبي فبال عليه فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله». وأصله متفق عليه. وفي رواية لأحمد: فيدعو لهم، وفيه: «صبوا عليه الماء صبأ» وللدارقطني: «بال أبن الزبير على النبي في فأخذ به أخذاً عنيفاً...» الحديث، وقيه الحجاج بن أرطأة ضعيف، ولأحمد بن منبع من حديث حسن بن علي عن امرأة منهم: «بينا رسول الله في مسئلقياً على ظهره يلاعب صبياً إذ بال، فقامت لتأخذه وتضربه فقال: «وهيه، التوني بكورة من ماه...» الحديث، وإسنادهما صحيح.

حديث: التدرون على من حرمت النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «على الهين اللين السهل القريب؛ أخرجه
 الترمذي من حديث ابن مسعود ولم يقل: «اللين» وذكرها الخرائطي من رواية محمد بن أبي معبقيب عن أمه، قال
 الترمذي: حسن غريب.

 ⁽٩) حديث أبي هريرة: «إن الله يحب السهل الطلق» أخرجه البيهقي في شعب الإيسان سند ضعيف، ورواه من رواية مورق العجلي مرسلاً.

 ⁽٧) حديث: (إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام؛ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني والخرائطي
 في مكارم الأخلاق واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث هانىء بن يزيد بإستاد جيد.

يشِقْ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيْبَةٍ ()، وقال ﷺ: ﴿إِنْ فِي الْجَنَّةِ لَفُرَقاً يُرَىٰ ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ عُلُووَلَهَا وَمَلْىٰ مِنْ ظُهُورِهَاهِ؛ فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال: ﴿لِمَنْ أَطَابَ الْكَلاَمُ وَأَطْعَمَ الطُعَامَ وَصَلَّىٰ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامُ (")، وقال معاذ بن جبل: قال لي رسول الله ﷺ: ﴿أُوصِيكَ بِتَقْوَىٰ الله وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَوَقَاءِ المَهْدِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَتَرْكِ الْجَبَانَةِ وَجِفْظِ الْجَارِ وَرَحْمَةِ الْيَبْيِمِ وَلِينِ الْكَلاَمِ وَبَدْلِ السَّلاَمِ وَخَفْضِ الْجَعَاحِ (")، وقال أنس رضي الله عنه : ﴿عرضت لنبيّ الله ﷺ امرأة وقالت: لي معك حاجة وَكان معه ناس من أصحابه، فقال: ﴿الجَلِسِي فِي أَي نَوَاجِي السِّكُكِ شِفْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ، ففعلت فجلس وكان معه ناس من أصحابه، فقال: ﴿الجَلِسِي فِي أَي نَوَاجِي السِّكُكِ شِفْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ، ففعلت فجلس وكان معه ناس من أصحابه، فقال: ﴿الْجَلِسِي فِي أَي نَوَاجِي السِّكُكِ شِفْتِ أَجْلِسْ إِلَيْكِ، ففعلت فجلس وكان معه ناس من أصحابه، فقال: ﴿الجَلِسِي فِي أَي نَوَاجِي السِّكُكِ شِفْتِ أَجْلِسْ إِلْيَكِ، ففعلت فجلس وكان معه أيام، فسأل الله تعالى أن يريه كيف يغوي الشيطان الناس؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال: لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربي لكان خيراً لي من هذا الأمر الذي طلبته، فأرسل الله إليه ملكا فقال له: إن الله أرسلني إليك وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إليُّ مما مضى من عبادتك، وقد فتح الله بصرك فانظر، فنظر فإذا جود إبليس قد أحاطت بالأرض، وإذا ليس أحد من مناج ومن هذا؟ قال: الورع اللين.

ومنها: أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به. قال ﷺ: «العِدَةُ عَطِيَةٌ» ، وقال: «العِدَةُ دَيْنٌ» (٢٠)، وقال: «ثَلَاثُ فِي المُنَافِقِ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اثْتُمِنَ خَانَ» (٧)، وقال: «ثَلَاثُ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقُ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّىٰ (٨)، وذكر ذلك.

ومنها: أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه، قال ﷺ: "الأ يَسْتَكْمِلُ العَبْدُ الإِيمَانَ حَتَّىٰ يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالِ: الإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ، وَالإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ، وَبَلْلُ السَّلَامِ، (١٩)، وقال عليه السلام: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِئِتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ

 ⁽١) حديث: (اتقوا النار ولو بشق تموة, ١٠٠ الحديث. منفق عليه من حديث عدي بن حاتم وتقدم في الزكاة.

⁽٢) حديث: فإن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من يطونها ويطونها من ظهورها... الحديث. أخرجه الترمدي من حديث على، وقال: حديث غريب. قلت: وهو ضعيف.

 ⁽٣) حديث معاذ الوصيك بتقرى الله وصفق الحديث، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في كتاب الزهد
 وأبو نعيم في الحلية ولم يقل البيهقي: الوخفض الجناح، وإسناده ضعيف.

⁽٤) حديث أنس اهرضت لرسول الله ﷺ امرأة وقالت: لي معك حاجة فقال: اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك . . . ه الحديث . رواه مسلم .

 ⁽a) حديث: «العدة عطية» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قبات بن أشيم بسند ضعيف

 ⁽٦) حديث: «العدة دين» رواه الطبرائي في معجميه الأوسط والأصغر من حديث علي وابن مسعود بسند فيه جهالة، ورواه
 أبو داود في المراسيل.

 ⁽٧) حديث: اللاث في المنافق: إذا حدث كذب وإذا وحد أخلف وإذا ائتمن خانه متفق عليه من حديث أبي هريرة نحده.

 ⁽A) حديث: اثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى ارواه البخاري من حديث أبي هريرة وأصله متفق عليه، ولفظ
 مسلم: «وإن صام وصلى وزهم أنه مسلم» وهذا ليس في البخاري.

 ⁽٩) حديث: الا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام؟
 أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخاري عليه.

إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهُ وَلْيُؤْتِ إِلَىٰ النَّاسِ مَا يُحِبُ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ (')، وقال ﷺ: "يَا أَبَا اللَّرْدَاءِ أَخْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُؤْمِناً وَأَحِبُ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِماً ('')، قال الحسن: أرحى الله تعالى إلى آدم ﷺ بأربع خصال وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك، واحدة لي وواحدة لك وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، واحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق، فأما التي لي: تعبدني ولا تشرك بي شيئا، وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وحلي الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فتصحبهم بالذي تحب أن بصحبوك به. وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال: أي رب أي عبادك أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه.

ومنها: أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم. روي أن عائشة رضي الله عنها كانت في سفر فنزلت منزلاً فوضعت طعامها، فجاء سائل فقالت عائشة: ناولوا هذا المسكين قرصاً، ثم مر رحل على دابة فقالت: ادعوه إلى الطعام. فقيل لها: تعطين المسكين وتدعين هذا الغني؟ فقالت: إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا بذلنا من أن ننزلهم تلك المنازل، هذا المسكين يرضى بقرص، وقبيح بنا أن نعطي هذا الغني على هذه الهيئة قرصاً. وروي أنه تش دخل بعض بيوته فلدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلا، فجاء جرير بن عبدالله البجلي فلم يجد مكاناً فقعد على الباب، فلف رسول الله تش رداءه فألقاه إليه وقال: «الجلس على فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويمكي، ثم لفه ورمى به إلى النبي تش وقال: «إذا أتّاكُم كريم قوم ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني، فنظر النبي تش يميناً وشمالاً ثم قال: «إذا أتّاكُم كريم قوم جاءت إليه فبسط لها رداءه، ثم قال لها: «مرحباً بأمي» ثم أجلسها على الرداء، ثم قال لها: «اشقي أخمت إليه فبسط لها رداءه، ثم قال لها: «مرحباً بأمي» ثم أجلسها على الرداء، ثم قال لها: «اشقي أخبه وقال بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين أن فيم ذلك من ناحبة وقالوا: وحقنا يا رسول الله. ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين أن فيم ذلك من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائة ألف درهم، ولربما أناه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائة ألف درهم، ولربما أناه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذي يجلس إليه فإن أبي عزم عليه حتى يفعل (ه).

حدیث: «من سره أن یزحزح عن النار فلتأته منیته وهو یشهد أن لا إله إلا فقه وأن محمداً رسول فقه ولیأت إلى الناس ما
 یحپ أن یؤتی إلیه أخرجه مسلم من حدیث عبدالله بن عمرو بن العاص نحوه ، والخرائطی هی مكارم الأخلاق بلفظه .

 ⁽۲) حدیث: قیا آبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً اخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسد ضعيف. والمعروف أنه قاله لأبي هريرة وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: اإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وهي أوله قصة في قدوم جرير بن عبدالله أخرجه الحاكم من حديث جابر قال:
 صحيح الإسناد وتقدم في الزكاة مختصراً.

 ⁽٤) حديث: (إن ظئر رسول الله ﷺ التي أرضعته جاءت إليه فيسط لها رداءه. . الحديث. أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي الطفيل مختصراً في بسط ردائه لها دون ما بعده.

⁽٥) حديث: «نزعه ﷺ وسادته ووضعها تحت الذي يجلس إليه الخرجه أحمد من حديث ابن عمرو: «أنه دخل عليه ﷺ فألقى إليه وسادة من أدم حشوها ليف ..» الحديث. وإسناده صحيح، وللطيراني من حديث سلمان: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو متكىء على وسادة فألقاها إليّ..» الحديث. وسنده ضعيف، قال صاحب الميزان: هذا خبر ساقط

ومنها: أنِّ يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلاً. قال ﷺ: ﴿أَلاَ أَغْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَام وَالصَّدَقَةِ؟ عَالوا: بلى، قال: اإضالَاحُ ذَاتِ البَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ البَّيْنِ هِيَ الحَالِقَةُ (١٠)، وقال ﷺ: 'وَأَفْضَلُ الصَّلَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ البَيْنِ (٢٠)، وعن النبي ﷺ فيما رواه أنس رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه: يًا رَسُولَ اللهَ بَأْبِي أَنْتَ وَأَمِي مَا الَّذِي أَصْحَكَكَ؟ قَالَ: ﴿وَجُلَانِ مِنْ أَمْتِي جَثْيَا بَهْنَ يَدَيُ رَبُّ الْعِزَّةِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَبُّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ هٰذَا، فَقَالَ الله تَعَالَىٰ: رُدٍّ عَلَىٰ أَخِيكَ مَظْلَمَتَهُ. فَقَالَ: يَا رَبُّ لَمْ يَيْقَ لِي مِنْ حِسَنَاتِي شَيْءً، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلطَّالِبِ: كَيْفَ تُصْنَعُ بِأَخِيكَ وَلَمْ يَبُقَ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءً؟ فَقُالَ: يَاۚ رَبٌّ فَلۡيَحۡمِلۡ عَنِّي مِنْ أَوْرَادِي٣. ثم فاضتَ عينا رسول اللَّهَ ﷺ بالبكاء فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ فِيهِ إِلِّي أَنْ يُحْمَلُ عَنْهُمْ مِن أَوْزَارِهِمْ قال: فيقول الله تعالى _ أي للمتظلم _: ارْفَعْ بَصَرِّكَ فَاتْظُرْ فِي الجِنَانِ فَقَالَ: يَا رَبُّ أَرَىٰ مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ وَقُصُوراً مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةً بَاللَّؤْلُو لأَيُّ نَبِيٍّ لهٰذَا أَوْ لأَيْ صِدُيقٍ أَوْ لأَيُّ شَهِيدٍ؟ قَالَ الله تَمَالَىٰ: لهٰذَا لِمَنْ أَهْطَىٰ الثَّمَنَ، قَالَ: ۖ يَا رَبٌ وَمَنْ يَمْلِكُ ذُلِكَ؟ قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ، قَالَ: بِمَاذَا يَا رَبِّ؟ قَالَ: بِمَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ، قَالَ: يَا رَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَتْهُ، فَيَقُولُ الله تَعَالَىٰ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ. ثم قال ﷺ: اتْقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنَّ الله تِعَالَىٰ يُصْلِحُ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ» ۚ ، وقد قال ﷺ : ﴿ لَئِسَ بِكَذَّابِ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَنِينَ فَقَالُ خَيْراً ۗ ﴿ ، وَهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس، لأن ترك الكذب واجّب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه، قال ﷺ: •كُلُّ الكَذِبِ مَكْنُوبٌ إِلاَّ أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الحَرْبِ، فَإِنْ الحَرْبَ خِدْعَةٌ، أَوْ يَكْذِبَ بَيْنَ الْنَيْنِ فَيُصْلِعَ بَيْنَهُمَا، أَوْ يَكْذِبَ لامْرَآتِهِ لِيُرْضِيَهَا» (*).

ومنها: أن يستر عورات المسلمين كلهم. قال ﷺ: "مَنْ سَتَرَ عَلَىٰ مُسْلِم سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ" ، وقال: "لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً إِلاَّ سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ " ، وَقال أبو سعيد الخدري

 ⁽١) حديث: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، [قال]: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة، رواه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء.

 ⁽٢) حديث: *أفضل الصدقة إصلاح ذات البين* أخرجه الطبراني هي الكبير، والخراتطي في مكارم الأخلاق من حديث عبدالله بن عموو فيه عبدالرحمن بن زياد الإفريقي ضعفه الجمهور.

⁽٣) حديث أنس: «بينما رسول الله ﷺ جالس إد ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر: يا رسول الله، بأبي وأمي ما الذي أصحكك؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يا رب خد لي مظلمتي من هذا. . ١ الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وكذا أبو يعلى الموصلي أخرجه بطول وضعفه البخاري وابن حبان.

 ⁽٤) حديث: (ليس بكذاب من أصلح بين اثنين ققال خيراً أو نمى خيراً) متفق عليه من حديث أم كالثوم بنت عقبة بن أبي
معط.

 ⁽a) حديث: «كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب. . ٩ الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث النواس بن سمعان وفيه انقطاع وضعف، ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة.

 ⁽٩) حديث: «من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وللشيخين من حديث
ابن عمر: «من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

 ⁽٧) حديث: الا يستر عبد عبدأ إلا ستره الله يوم القيامة. رواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً.

رضى الله عنه، قال ﷺ: ﴿ لاَ يَرَىٰ المُؤْمِنُ مِنْ أَخِيهِ مَوْرَةٌ فَيَسْتُرُهَا مَلَيْهِ إِلاَّ دَخَلَ الجَنَّةَ ﴿ ``. وقال ﷺ لماعز لما أخبره: «لَوْ سَتَرْتُهُ بِعُوبِكَ كَانَ خَيْراً لَكَ^{ه (٢)} فإذن: على المسلمُ أن يستر عورة نفسه فحق إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيرهُ. قال أبو بكر رضي الله عنه: لو وجدت شارباً لأحببت أن يستره الله، ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستره الله. وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس: أرأيتم لو أنَّ إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحدّ ما كنتم فاعلين؟ قالوا: إنما أنت إمام، فقال على رضي الله عنه: ليس ذلك لك، إذاً: يقام عليك الحدّ، إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود، ثم تركهم ما شاء الله أن يتركهم ثم سألهم، فقال القوم مقالتهم الأولى، فقال على رضي الله عنه مثل مقالته الأولى. وهذا يشير إلى أن عمر رضى الله عنه كان متردداً في أن الوالي هل له أن يقضى بعلمه في حدود الله؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لا في معرض الإخبار؛ خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفاً بإخباره، ومال رأي على إلى أنه ليس له ذلك. وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أفحشها الزُّني، وقد نيط بأربعة من العدول ـ يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمرود في المكحلة ـ وهذا قط لا يتفق. وإن علمه القاضي تحقيقاً لم يكن له أن يكشف عنه. فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات، ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه؟ فنرجو أن لا نحرم هذا الكرم يوم تبلي السرائر. ففي الحديث: ﴿إِنَّ الله إِذَا سَتَرَ عَلَىٰ عَبْدٍ عَوْرَتُهُ فِي اللُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا فِي الآخِرَةِ وَإِنْ كَشَفَهَا فِي النُّنْيَا فَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَكْشِفَهَا مَرَّةً أَخْرَىٰۥ (٣)، وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قَال: خرجتُ مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة، فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه، فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدي وقال: أتدري بيت من هذا؟ قلت: لا، فقال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا جَسَّسُوا﴾ [الحُجرَاتُ: ١٣] فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم، وهذا يدل علي وجوب الستر وترك النتبع، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاوية: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَتَبَّعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَقْ كِنْتَ تُفْسِدُهُمْ (٤٠)، وقالَ ﷺ: «يَا مَمْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ: لاَ تَغْتَأَبُوا المُسْلِمِينَ

 ⁽١) حديث أبي سعيد الخدري: «لا يرى امرق من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة» رواه الطبراني في الأوسط
 والصغير، والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف.

 ⁽۲) حديث: «لو سترته بثوبك كان خيراً لك». رواه أبو داود والنسائي من حديث نعيم بن هزال، والحاكم من حديث هزال نفسه، وقال: صحيح الإسناد وتعيم مختلف في صحيته.

٣) حديث: "إن الله إذا ستر على عبده عورة في الدنبا فهو أكرم من أن بكشفه في الآخرة. ." الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث على: "من أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يرجع في شيء قد عفا عنه، ومن أذنب ذنباً في الدنبا فعوقب عليه فالله أحدل من أن يثني العقوبة على عبده لفظ الحاكم وقال: صحيع على شرط الشيخين، ولمسلم من حديث أبي هريرة: "لا ستر الله على عبد في الدنبا إلا ستره يوم القيامة».

⁽٤) حديث: «إنك إن اتبعث عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم» قاله لمعاوية. أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث معاوية.

وَلاَ تَشْبِعُوا هَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَشْبِعْ هَوْرَةَ أَخِيهِ المُسْلِم يَشِّبِعِ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَشْبِعِ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ كَانَ فِي جَوْفِ بَيْتِهِه (`` ، وقال أبو بكر الصديق رضي ألله عَنه: لو رأيت أحداً عَلَى حد من حدود الله تعالى ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معي غيري. وقال بعضهم: كنت قاعداً مع عبدالله بن مسعود رضي الله عنه إذ جاءه رجل بآخر، فقال: هذا نشوان، فقال عبدالله بن مسعود: استنكهوه فاستنكهوه فوجده نشواناً فحبسه حتى ذهب سكره، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاد: اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه، فجلده وعليه قباء أو مرط، فلما فرغ قال للذي جاء به: ما أنت منه؟ قال: عمه، قال عبدالله: ما أدبت فأحسنت الأدب ولا سترت البحرمة، إنه ينبغي للإِمام إذا انتهى إليه حدّ أن يقيمه وإن الله عفوّ يحب العفو ثم قرأ: ﴿وَلَيْمُفُواْ وَلَيْمُنَكُونَّ﴾ [الثّور: ٢٧]، ثم قال: ﴿ الَّذِي لأذكر أوّل رجل قطعه النبيّ ﷺ؛ أتي بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه، فقالوا: يا رسول الله، كأنك كرهت قطعه، فقال: «وَمَا يَمْنَغُنِي! لاَ تَكُونُوا عَوْناً لِلشَّبَاطِينِ عَلَىٰ أَخِيكُمْ؟» فقالوا: ألا عفوت عنه؟ فقال: «إِنَّهُ يَتُبَغِي لِلسُّلْطَانِ إِذًا النَّتَهَىٰ إِلَّذِهِ حَدٍّ أَنْ يُقِيمَهُ إِنَّ الله عَفَق يُحِبُ العَفْق وقراً: ﴿وَلِيَمْفُواْ وَلَيْصَفَحُوٓاْ أَلَا يُجْبُونَ أَن يَشْفِرُ اللَّهُ لَكُمَّٰٓ وَّأَنَّهُ عَنُوْلٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّور. ٢٧]" ﴿ وَفِي رُوايَةٌ فَكَأْنُما سَفِي فَي وَجَهُ رَسُولُ الله ﷺ رماد لشدّة تغيّره. وروي أنَّ عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فتسوَّر عليه فوجد عنده امرأة وعنده خمر، فقال: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل، فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا نَجْسَسُوا ﴾ [الحُجرَات: ١٧] وقد تجسست، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَـــا﴾ [البَقَرَة: ١٨٩] وقد تسوّرت عليَّ، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا تَـدَّخُلُواْ بُيُونِّنَا غَيْرَ بُيُونِكُمْ﴾ [النُّور: ٢٧] الآية، وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام، فقال عمر رضي الله عنه: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم والله يا أمير المؤمنين، لئن عفوت عني لا أعود إلى مثلها أبدًا، فعفًا عنه وخرج وتركه. وقال رجل لعبدالله بن عمر: يا أبا عبدالرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوي يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: ﴿إِنَّ اللهُ لَيُلْتِي مِنْهُ المُؤْمِنَ فَيَضَعُ خَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتْغُرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِلنُوبِهِ فَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَلْ هَلَكَ قَالَ لَهُ: يًا عَبْدِي لَمْ أَسْتُرْهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَغْفِرَهَا لَكَ اليّوْمَ، فَيُغْطَىٰ كِتَابَ حَسْنَاتِهِ. وَأَمَّا الحَافِرُونَ وَالمُشَافِقُونَ: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشَّهَادُ هَتَوُلَكُم الَّذِيرَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِهِذْ أَلَا لَقَنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ "" [هُود: ١٨]» وقال ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَىٰ إِلاَّ النُّجَاهِرِينَ» (١٠)، وإن من المحاهرة أن يعمل الرجل السوء

 ⁽١) حديث: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا نغتابوا المسلمين ولا تتبعوا هوراتهم..» الحديث.
 أخرجه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد، وللترمذي من حديث ابن عمر وحسنه.

 ⁽۲) حديث ابن مسعود: «إني لأذكر أول رجل قطعه النبي ﷺ أتي يسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله ﷺ ... الحديث. رواه الحاكم وقال: صحيح الإستاد، وللخرائطي في مكارم الأخلاق: «فكأنما سفي في وجه رسول الله ﷺ رماد. . الحديث. أسف وجهه: أي ظهر الأسف في وجهه.

 ⁽٣) حديث ابن عمر: قإن الله عز وحل ليدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول: أتعرف ذنب كذا...؟
 الحديث. متفق عليه.

 ⁽²⁾ حديث: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين. . . » الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

سراً ثم يخبر به، وقال ﷺ: "مَنِ اسْتَمَعَ خَبَرَ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبِّ فِي أُذُنِهِ الآثُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ" (١٠).

ومنها: أن يتقي مواضع النهم صبانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولالسنتهم عن العيبة، فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكا، قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَسُبُّوا اللّهِ بَنَهُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُوا اللّهِ عَدَوًا بِغَيْرِ عِلْمِ ﴾ [الانتام: ١٠٨] وقال ﷺ: ﴿ كَيْفُ تُرَوْنَ مَنْ يَسُبُ أَبُونِهِ؟ فقالوا: وهل من أحد يسب أبويه؟ فقال: ﴿ فقال: ﴿ فَيَسُبُونَ أَبُونِهِه (٢٠) ، وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه هأن رسول الله ﷺ وقال: ﴿ إِنَّ لَهُ لِللّهُ هَلِهِ زَوْجَتِي صَفِيلَة ، فقال: ﴿ إِنَّ لَهُ مِن كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك ، فقال: ﴿ إِنَّ الشّيطَانَ يَجْرِي مِن اللّه عَلَى رَسُولُ الله عَلَى رواية: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْلُونُكُمَا شَيئاً ﴾ وكانا رجلين فقال: ﴿ مَن رمضان: وقال عمر رضي الله عنه رضي الله عنه : من أقام نفسه مقام النهم فلا يلومن من أساء به الظن. ومرّ برجل يكلم امرأة على ظهر رضي فعلاه بالدرة فقال: يا أمير المؤمنين، إنها امرأتي فقال: هلا حيث لا يراك أحد من الناس؟ .

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه، قال ﷺ: «إنّي أوتَىٰ وَأُسْأَلُ وَتُطْلَبُ إِلَيْ الحَاجَةُ وَانْتُمْ عِنْدِي فَاشْفَعُوا لِتُوْجَرُوا وَيَغْضِي الله عَلَىٰ يَدَىٰ نَبِيْهِ مَا أَحَبّه (أَ) وقال رسول الله ﷺ: «الشَّفَعُوا إِلَىٰ لِتُوْجَرُوا إِنِي أَرِيدُ الأَمْرُ وَأَوْجُرُهُ كَىٰ تَشْفَعُوا إِلَىٰ فَتُوْجَرُوا إِنِي أَرِيدُ الأَمْرُ وَأَوْجُرُهُ كَىٰ تَشْفَعُوا إِلَىٰ فَتُوْجَرُوا إِنِي الدَّالِ اللهُ اللهُ وَلَكُ عَلَى اللهُ اللهُ وَتُعْرُ بِهَا المَنْفَعَةُ إِلَىٰ آخَرَ وَيُدْفَعُ بِهَا المَكْرُوهُ عَنْ آخَرَ (1) وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث كأني أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه عباس رضي الله عنهما: أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث كأني أنظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسبل على لحيته ، فقال ﷺ للعباس: «ألاً تَعْجَبُ مِنْ شِلْةٍ حُبٌ مُغِيثٍ لِبَرِيرَةَ وَشِلَةٍ بُغْضِهَا لَهُ؟» فقال النبي ﷺ: فَإِنْهُ أَبُو وَلَدِكِ» ، فقالت: يا رسول الله أتأمرني فأفحل؟ فقال: «لا ، إِنْمَا أَنَا النبي ﷺ: فَالْ وَلَدِكِ» ، فقالت: يا رسول الله أتأمرني فأفحل؟ فقال: «لا ، إِنْمَا أَنَا شَعْهُ (٢) .

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام. قال ﷺ: فَمَنْ بَدَأُ

حديث: امن استمع من قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الأنك يوم القيامة الرواه البخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً عليه وعلى أبي هريرة أيضاً.

 ⁽۲) حدیث: «کیف ترون من سب آبویه؟ فقالوا، وهل من أحد پسب أبویه؟ . . . « الحدیث، متفق علیه من حدیث عبدالله بن عمرو نحوه.

 ⁽٣) حديث أنس: «أن رسول الله ﷺ كلم إحدى تسائه فمر به رجل فدعاه فقال: يا فلان هذه زوجتي فلاتة...!
 الحديث. وفيه «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الله» رواه مسلم.

 ⁽٤) حديث: وإني خشيت أن بقف في قلوبكما شرأ وقال على رسلكما إنها صفية، متفق عليه من حديث صفية.

 ⁽۵) حديث: «إِنِّي أوتى وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم هندي فاشفعوا لتؤجروا. . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث أبي موسى نحوه.

 ⁽٦) حديث: الما من صدقة أفضل من صدقة الفسان. ٢٠ الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له
 والطبراني في الكبير من حديث سمرة بن جندب بسند ضعيف.

⁽٧) حديث عكرمة عن ابن عباس: «أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث كأني أنظر إليه خلفها يبكي...» الحديث. رواه البحاري.

بِالْكُلَامِ قَبْلُ السَّلَامُ فَلَا تُجِيبُوهُ حَتَّىٰ يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ (١٠)، وقال بعضهم: دخلت على رسول الله ﷺ ولم أَسلم وَلَم أَستَأَذَنَ، ۚ فقال الَّنبِي ﷺ : ﴿ الرَّجِعْ فَقُلْ: ۚ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ٱلَّذَخُلْ؟ ﴾ (٢). وروى جابِر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَسَلْمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَلَّمَ أَحَدُكُمْ لَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ (٢٠)، وقال أنس رضي الله عنه خدمت النبي ﷺ ثمان حجج فقال لي: «يَا أَنْسُ أَسْبِغَ الوُضُوءَ يَزِهُ فِي عُمرِكَ وَسَلُمْ عَلَىٰ مَنْ لَقِيتَهُ مِنْ أُمَّتِي تَكْتُرُ خَسْنَاتُكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ مَنْزِلَكَ فَسَلَّمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْنِكَ بِكُفَّرْ خَيْرُ بَيْتِكَ (٤) ، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا الْتَقَىٰ الْمُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتْ بَيْنَهُمِ مَا سَبْمُونَ مَغْفِرَةً تِسْعُ وَسِتُونَ لأَحْسَنِهِمَا بِشْراً»، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خُبِينُمْ بِنَجِيَةٍ فَكَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَٱ أَوْ رُكْوهَأَ﴾ اللَّساء: ١٨٦ وقال عليه السلام: ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَكِهِ لاَ تَلْخُلُوا الجَنَّةُ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَايُوا أَفَلاَ أَدُلُكُمْ عَلَىٰ عَمَلِ إِذًا عَمِلْتُمُوهُ تَحَابَبُنُمْ؟؛ قالُوا: بلي يا رسول الله، قال: ﴿أَفْشُوا السَّلَامَ بَينَكُمْ، (°)، وقال أيضاً: ِ إِذَا صَلَّمَ الْمُسْلِمُ عَلَىٰ الْمُسْلِمُ فَرَدٌ عَلَيْهِ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَاتِكَةُ سَبْعَينَ مَرَّةًا (^(٢) وقال ﷺ: ﴿إِنَّ المَلَاتِكَةُ تَغْجُبُ مِنَ المُسْلِم يَمُرُ عَلِيْ المُسْلِم وَلاَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ،(٧)، وقال عليه السلام: «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَىٰ المَاشِي وَإِذَا سَلَّمَ مِنَ القَوْمُ وَاحِدٌ أَجْزَأَ عَنْهُمُ (٨) وقال قنادة: كانت تحية من كان قبلكم السجود فأعطى الله تعالى هَذُه الأَمَّةُ السَّلَامُ وَهِي تحية أهل الجنة. وكان أبو مسلم الخولاني يمرَّ على قوم فلا يسلم عليهم ويقول: ما يمنعني إلا أني أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة. والمصافحة أيضاً سنَّة مع السلام، «وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: السَّلامُ عَلَيْكُم، فقال عليه السلام: «حَشْرُ حَسَنَاتٍ»، فجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله فقال: «عِشْرُونَ حَسَنَةً»، فحاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال:

حديث: امن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في اليوم والليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين.

⁽٧) حديث: دخلت على رسول الله 囊 ولم أسلم ولم أستأذن نقال 瓣: «ارجع فقل السلام عليكم أأدخل» أخرجه أبو داود والترمذي وحسته من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة.

 ⁽٣) حديث جابر: اإذا دخلتم بيوثكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه ضعف.

⁽٤) حديث أنس: خدمت النبي ﷺ ثماني حجج فقال لي: •يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف وللترمذي وصححه: •إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك».

 ⁽٥) حديث: ﴿وَالذِّي نَفْسِي بِيدَهُ لا تَدْخَلُوا الْجِنةُ حتى تَوْمِنُوا ولا تؤمنُوا حتى تحابوا...) الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة.

 ⁽٢) حديث: «إذا سلم المسلم على المسلم قرد عليه صلت عليه الملائكة سيعين مرة؛ ذكره صاحب الفردوس من حديث
أبى هريرة ولم يستده ولده في المستد.

 ⁽٧) حديث: «الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه». لم أقف له على أصل.

⁽A) حديث: «يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم» رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلاً» ولأبي داود من حديث علي: «يجزي هن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزي هن الجلوس أن يرد أحدهم»، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «يسلم الراكب على الماشي...» الحديث. وسيأتي في بقية الناب.

لَلاَثُونَ ('')، وكان أنس رضي الله عنه يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم (")، ويروى عن رسول الله على أنه فعل ذلك. وروى عبدالحميد بن بهرام: أنه على المسجد يوماً وعصبة من الناس قعود فأوماً بيده بالسلام، وأشار عبدالحميد بيده إلى الحكاية (")، فقال عليه السلام: ﴿ لاَ تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلاَ النَّصَارَىٰ بِالسَّلام وَإِذَا لَقِيتُمْ وَاللهُ عَلَيْهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ عَنْهُ اللهُ عَلَى اللهُ الله

قَالَت عَائشة رضي الله عُنها: إِنَّ رَهِ طا مِن البِهُودُ دخلُوا على رسولُ الله ﷺ فقالوا: السام عليك، فقال النبي ﷺ: «هَلَيْكُمْ» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت بل عليكم السام واللعنة، فقال عليه السلام: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ الله يُحِبُ الرَّفْقَ فِي كُلِّ شَيْءٍ» قالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «فَقَدْ قُلْتُ عَلَيْكُمْ» (وقال عليه السلام: «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَىٰ المَاشِي وَالمَاشِي عَلَىٰ القَاعِدِ وَالقَلِيلُ عَلَىٰ الكَثِيرِ فَلَىٰ الكَثِيرِ وَقَالَ عليه السلام: «لاَ تَشَبُهُوا بِالبَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فَإِنْ تَسْلِيمَ البَهُودِ بِالإِشَارَةِ بِالإِشَارَةِ بِالإَصَارَىٰ بِالإِشَارَةِ بِالأَكُفُّ» ، قال أبو عيسى: إسناده ضعيف.

وَقَالَ عَلَيه السَّلَامُ: ﴿إِذَا الْتَهَىٰ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ مَجْلِسُ فَلْيُسَلَّمْ فَإِنْ بَنَا لَهُ أَنْ يَجْلِسَ فَلْيَجْلِسْ، ثُمُّ إِذَا قَامَ فَلْيَسَلَّمْ فَلَيْسَلَّمْ فَلَيْسَلَّمْ فَلَيْسَتِ الْأُولَىٰ بِأَحَقُّ مِنَ الْأَخِيرَةِ (() ، وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ : ﴿إِذَا الْتَقَىٰ المُؤْمِنَانِ فَتَصَافَحَا قُسِمَتُ بَهْنَهُمَا سَبْعُونَ مَغْفِرَة تِسْعَةٌ وَسِتُونَ الْأَحْسَنِهِمَا بِشُراهُ () ، وقال عمر رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ يقول: ﴿إِذَا الْتَقَىٰ المُسْلِمَانِ وَسَلَّمٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَىٰ صَاحِبِهِ وَتَصَافَحَا نَزَلَتْ بَيْنَهُمَا مِائَةُ رَحْمَةٍ لِلْبَادِيءِ تِسْعُونَ وَلِلْمُصَافِح عَشَرَةٌ (() ، وقال الحسن : المصافحة تزيد

 ⁽١) حديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ وسلم فقال: سلام عليك، فقال ﷺ اعشر حسنات. . . ٤ الحديث، أخرجه أبو
 داود والترمذي من حديث عمران بن حصين، قال الترمذي: حسن غريب، وقال البيهقي في الشعب: إسناده حسن.

 ⁽٢) حديث أنس: كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعه متقل عليه.

⁽٣) حديث عبدالحميد بن بهرام الله على مر في المسجد بوماً وعصبة من الناس قعود فأولى بيده بالتسليم وأشار عبدالحميد بيده. أخرجه الترمذي من رواية عبدالحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال: حسن، وابن ماجه من رواية ابن أبي حسين عن شهر، ورواه أبو داود، وقال أحمد: لا بأس به.

⁽٤) حديث: الا تبدؤوا اليهود والنصاري بالسلام. . . ٤ الحديث. رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

⁽٥) حديث عائشة. •إن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك . . • الحديث. متفق عليه.

 ⁽٦) حديث: ايسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصفير على الكبيرا متفق عليه من حديث أبي هريرة، ولم يقل مسلم اوالصغير على الكبيرا.

 ⁽٧) حديث: ألا تشبهوا بالبهود والنصارى فإن تسليم البهود الإشارة بالأصابع وتسليم النصارى الإشارة بالأكف، أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال: إسناده ضعيف.

 ⁽A) حديث: ﴿إِذَا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة.

⁽٩) حديث أنس اإذا التقى المسلمان فتصافحا قسمت بينهما سبعون رحمة. . ٤ الحديث. أخرجه الخرائطي بسند ضعيف، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: «مائة رحمة تسعة وتسعون لأبشهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسالمة لأخيه وفيه الحسن بن كثير بن يحيى بن أبي كثير مجهول.

⁽١٠) حديث عمر بن الخطاب: «إذا النقى المسلمان فسلم كل واحد على صاحبه وتصافحا نزلت بينهما مائة رحمة. . . ٤ الحديث أخرجه البزار في مسنده، والخرائطي في مكارم الأخلاق، واللفظ له، والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر.

في الود. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله على: المّمامُ تَحِيّاتِكُم المُصَافَحَةُ (١)، وقال عليه السلام: ﴿ فَبْلَةُ الْمُسْلِم أَخَلَهُ الْمُصَافَحَةُ (١)، ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين؛ تبركاً به وتوقيراً له. وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قبلنا يد النبي على (١)، وعن كعب بن مالك قال: لما نزلت توبتي أتيت النبي على قفبلت يده (٤)، ورُوي أن أعرابياً قال: يا رسول الله الثان لي فأقبل رأسك ويدك قال: فأذن له ففعل (٥)، ولقي أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصافحه وقبل يده وتنحيا يبكيان. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أنه سلم على رسول الله على وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصافحه فقال: يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق النبي عنه قال رسول الله عنه أنوبُهُمَا الله وعنه أنوبُهُمَا الله المنافِق قال: ﴿ وَقَلَ الْمُسْلِمُ وَإِنْ لَهُ مَلْهُ عَنْ مُنْ وَلَوْهُمَا الله عنه الله الله عنه قال الله قال قد ورد به الخبر منه يعضا بعضا عنه الله عنه إلا صافحني، وطلبني يوما فلم أكن عند المقدوم من السفر (٩)، وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: ما لقيته الله الصافحني، وطلبني يوما فلم أكن عند المنا أخبرت جثت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود (١٠٠٠).

 ⁽١) حديث أبي هريرة: التمام تحياتكم بينكم المصافحة أخرجه الحرائطي في مكارم الأخلاق، وهو عند الترمذي من حديث أبى أمامة وضعفه.

 ⁽٢) حديث: (قبلة المسلم أخاه المصافحة) أخرجه الحرائطي وابن عدي من حديث أنس وقال: غير محفوظ.

⁽٣) حديث ابن عمر: فقبلنا يد رسول الله 🐲 أخرجه أبو داود بسند حسن.

⁽٤) حديث كعب من مالك: •لما نزلت توسي أتيت النبي ﷺ فقبلت يده أخرجه أبو بكر بن المقري في كتاب الرخصة في تقبيل اليد، بسند ضعيف.

 ⁽٥) حديث: (أن أعرابياً قال: يا رسول الله، اثذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل. أخرجه الحاكم من حديث بريدة إلا أنه قال: «رجليك» موضع: «يدك» وقال صحيح الإسناد.

⁽٩) حديث البراه بن عازب: «أنه سلم على رسول الله هج وهو يتوصأ فلم يرد عليه حتى قرغ من وصوئه ومد يده إليه فصافحه. .» الحديث. رواه الخرائطي بسند ضعيف، وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصراً: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا ففر لهما قبل أن يتفرقا» قال الترمذي: حسن غريب من حديث أبي إسحاق عن البراه. تحانت ننوبهما: زالت كما يمت الوسخ هن الثوب.

⁽٧) حديث: ﴿إِذَا مِنَ الرَّجِلُ بِالقَوْمِ فَسَلَمَ عَلَيْهِم فَرَدُوا عَلَيْهُ كَانَ لَهُ عَلَيْهِم فَضَلَ دَرَجَةً لأَنْهُ ذَكْرِهُم السلامِ وإنّ لَم يردُوا عليه ود عليه ملا خير منهم وأطيب أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعاً، وضعف البيهقي المرفوع ورواه مرقوقاً عليه بسند صحيح.

 ⁽A) حديث أنس: قلنا: يا رسول الله، أينتحني بعضنا لبعض؟ قال: الله الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي.

 ⁽p) حديث: «الالتزام والتقبيل هند القدوم من السقر» أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت: «قدم زيد بن حارثة ...»
 الحديث، وفيه: «فاعتنقه وقبله» وقال حسن غريب.

⁽١٠) حديث أبي ذر: قما لقيته على إلا صافحني. . ، الحديث. أخرجه أبو داود وفيه رجل من عزة لم يسم، وسماه البيهقي في الشعب عبدالله.

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر، فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت (١٠)، وأخذ عمر يغرز زيد حتى رفعه وقال: هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد.

⁽١) حديث: اأخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت؟. تقدم في العلم.

 ⁽۲) حديث أنس: «ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله في وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لدلك». أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح.

 ⁽٣) حديث: ﴿إِذَا رأيتموني فلا تقوموا كما يصتع الأهاجم» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال: ﴿كما يقوم الأهاجم» وفيه أبو العديس مجهول.

 ⁽٤) حديث: قمن سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتيوا مقعده من النار؟ أخرجه أبو داود والترمذي من حديث معاوية وقال: حسن.

⁽a) حديث: الا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا» متفق عليه من حديث ابن عمر.

٣) حديث: اإذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا رجل أخاه فأوسع _ يعني له _ فليجلس فإنه كرامة من الله عز وجل. ١٠ الحديث. أخرجه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن شببة ورجاله ثقات، وابن شببة هذا ذكره أبو موسى المديني في ذيله في الصحابة، وقد رواه الطبراني في الكبير من رواية مصعب بن شببة عن أبيه عن النبي على أخصر منه، وشببة بن جبير والد منصور ليست له صحبة.

 ⁽٧) حدیث: أن رجلاً سلم علی رسول الله ﷺ وهو یبول فلم یجب». أخرجه مسلم من حدیث ابن عمر بلفظ: (فلم یرد علیه).

 ⁽A) حديث: قال رجل لرسول الله ﷺ: عليك السلام فقال: اإن عليك السلام تحية الميت. . . الحديث، أخرجه أبو داود
 والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن جري الهجيمي وهو صاحب القصة، قال الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽٩) حديث: «كان ﷺ جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فأما أحدهما فوحد فرجة فجلس فيها..» الحديث. متفق عليه من حديث أبي واقد الليثي.

قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَاه (١٠)، وسلمت أم هانىء على النبي ﷺ فقال: «مَنْ لهٰذِهِ؟؛ فقيل له: أم هانىء، فقال عليه السلام: «مَرْحَباً بِأُمْ هَانِيءٍ»(٢).

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر، ويرد عنه ويناضل دونه وينصره، فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام. روى أبو الدرداء: أن رجلا نال من رجل عند رسول الله على فرد عنه رجل فقال النبي على: "هَنْ رَدْ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِهِ ""، عند رسول الله على الله أن يَرُدُ عَنْ عَرْضِ أَخِيهِ إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَىٰ الله أَنْ يَرُدُ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْجَيهُ إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَىٰ الله أَنْ يَرُدُ عَنْهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (**)، وعن أنس رضي الله عه أن النبي على قال: "هَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ المُسْلِمُ فَتَصَرَهُ الله يَعَلَىٰ فِي اللَّنْيا فَلَا لَهُ مَالَىٰ فِي اللَّنْيا وَالاَخِرَةِ، وَمَن ذُكِرَ عِنْدَهُ أَخُوهُ المُسْلِمُ فَيَعَرَهُ نَصَرَهُ الله يَعَلَىٰ الله تَعَالَىٰ لَهُ مَلَكا وَالاَخِرَةِ، وَمَن خَمَىٰ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِم فِي اللَّنْيا بَعَثَ الله تَعَالَىٰ لَهُ مَلَكا وَالاَخِرَةِ، وَمَن خُرَق أَخُوهُ المُسْلِم فِي اللَّنْيا بَعَثَ الله تَعَالَىٰ لَهُ مَلَكا وَالاَخِرَةِ، (**) وقال عليه السلام: "هَنْ حَمَىٰ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِم فِي اللَّنْيا بَعَثَ الله تَعَالَىٰ لَهُ مَلَكا وَالاَخِرَةِ، (**) وقال عليه السلام: "هَنْ حَمَىٰ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِم فِي اللَّنْيا بَعَثَ الله يَعْلِق الله يَعْ يَعْمَلُ عَنْ عِرْضُهُ وَيُسْتَحَلُّ حُرْمَتُهُ إِلاَ نَصَرَهُ الله فِي مَوْضِع يُبْعِبُ فِيهِ تُصْرَقُهُ إِلاَ خَذَلُهُ الله فِي مَوْضِع يُبْعِبُ فِيهِ تُصْرَقُهُ الله فِي مَوْضِع يُبْعِبُ فِيهِ تُصْرَقُهُ الله وَمَا مِن المُوىءِ خَذَلُ مُسْلِماً فِي مَوْضِع يُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ إِلاَ خَذَلُهُ الله فِي مَوْضِع يُبِعِبُ فِيهِ تُصْرَقُهُ ".

ومنها: تشميت العاطس؛ قال عليه الصلاة والسلام في العاطس: أَيَقُولُ: الحَمْدُ للهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَيَقُولُ: الحَمْدُ للهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَيَقُولُ: يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالْكُمْ (() عَنْ ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: الْإِذَا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُل: الحَمْدُ للهُ رَبِّ العَالَمِينَ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ مَنْ عِنْدَهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَإِذَا قَالُوا ذَٰلِكَ فَلْيَقُلْ: يَغْفِرُ اللهِ لَي وَلَكُمُ اللهِ وَأَنْتَ وَلَاكُمُ اللهِ وَأَنْتَ وَلَكُمُ اللهِ وَأَنْتَ

⁽١) حديث: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث البراء بن عارب.

⁽۲) حديث: سلمت أم هانيء عليه فقال: «مرحباً بأم هانيء» أخرجه مسلم من حديث أم هانيء.

 ⁽٣) حديث أبي الدرداء: «من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من التار» أخرجه الترمذي وحسنه.

⁽٤) حديث: الها من امرىء مسلم برد هن هرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن برد عنه نار جهنم يوم الشيامة؛ أخرجه أحمد من حليث أسماء بنت يزيد بنحوه، والخرائطي في مكارم الأخلاق، وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيهما شهر بن حوشب.

 ⁽٥) حديث أنس امن ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا
 والآخرة. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصراً على ما ذكر منه وإسناده ضعيف.

 ⁽٦) حديث: قمن حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكاً يحميه يوم القيامة من النارة أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أنس نحوه بسند ضعيف.

 ⁽٧) حديث جابر وأبي طلحة: ١٩ما من امرىء يتصر مسلماً في موضع ينتهك فيه من عرضه ويستحل حرمته. . . ١ الحديث.
 أخرجه أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف في إسناده.

 ⁽٨) حديث: قيقول العاطس المحمد لله على كل حال ويقول الذي يشمته يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم؟
 أخرجه البخاري وأبو داود من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري: «على كل حال».

 ⁽٩) حديث أبي مسعود: «إذا هطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين. . . ، الحديث. أخرجه النسائي في اليوم واللبلة , وقال: حديث منكر، ورواه أيضاً أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبدالله واختلف في إسناده.

سَكَتُه ('') وقال ﷺ: "فِيضَمَّتُ الْعَاطِسُ الْمُسْلِمُ إِذَا عَطَسَ ثَلَاثاً فَإِنْ زَادَ فَهُوْ رُكَامٌ ('') وووي أنه شمت عاطساً ثلاثاً فعطس أخرى فقال: "إِنْكَ مَزْكُومٌ ('') وقال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ إذا عطس غض صوته واستر بثوبه أو يده (ئ). وروي خمر وجهه. وقال أبو موسى الأشعري: كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول: "يَهْلِيكُمُ الله (") ، وروى عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه: أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة فقال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال، فلما سلم النبي ﷺ قال: "مَنْ صَاحِبُ الْكَلِمَاتِ؟ الْكَلِمَاتِ؟ فقال: أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيراً، فقال: "لَقَدْ رَأَيْتُ النَّيْ عَشَرَ مَلَكاً كُلُهُمْ يَبْتَلِدُونَها أَيُهُمْ يَكْتُبُها الله الله وقال عليه السلام: الله على الله الله وقال عليه السلام: الله الله وقال عليه السلام: وقال الله الله على جَوْفِه ('')، وقال إبراهيم النخعي: إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن الشَيطان يَضِحَكُ مِنْ جَوْفِه ('^)، وقال إبراهيم النخعي: إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن: يحمد الله في نفسه . وقال كعب: قال موسى عليه السلام: يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ فقال: أنا جليس من ذكرني فقال: فإنا نكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجنابة والخاتط، فقال: اذكرني على كل حال.

ومنها: أنه إذا بلي بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه، قال بعضهم: خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالفة، فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر. وقال أبو اللرداء: إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره، قال الله تعالى: ﴿آدَفَعُ بِالنِّي هِي أَحْسَنُ السَّيِّئَةُ ﴾ [المدومنود: [1]، قال ابن عباس في معنى قوله: ﴿وَبَدِّنَهُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةُ ﴾ [الرعد: ٢٦]: أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة، وقال في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِسَعْضِ ﴾

⁽١) حديث: «شمت رسول الله على عاطماً ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال: «إنه حمد الله وأنت سكت» منفق عليه من حديث أنس.

 ⁽٧) حديث: الشمتوا المسلم إذا معلى ثلاثاً فإن زاد قهو زكام، أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة الشمت أخاك ثلاثاً...» الحديث. وإسناده جيد.

 ⁽٣) حديث: أنه شمت عاطساً فعطس أخرى فقال: «إنك مزكوم» أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

 ⁽٤) حديث أبي هريرة: «كان إذا عطس غض صوته وستر بثوبه أو يده». أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح،
 وفي رواية لأبي تعيم في اليوم واللبلة: «محمر وجهه وقاه».

⁽٥) حديث أبي موسى: كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ رجاء أن يقول يرحمكم الله فكان يقول: (يهديكم الله) أحرجه أبو داود والترمدي وقال: حسن صحيح.

 ⁽٢) حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة: «أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة فقال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً
 مباركاً فيه . . . ١ الحديث . أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وإسناده جيد.

 ⁽٧) حديث: قمن قطس عنده نسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته الخرجه الطيراني في الأوسط وفي الدعاء من حديث على بسند ضعيف.

 ⁽A) حديث: «العطاس من الله والتثاؤب من الشبطان. . الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله: «العطاس
من الله» فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وقال البخاري: •إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب. . . ؟
الحديث.

[البَقَرَة: ٢٠١]، قال: بالرغبة والرهبة والحياء والمداراة. وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «التُقنُوا لَهُ قَبِفْسَ رَجُلُ العَشِيرَةِ هُوَ»، فلما دخل ألان له القول حتى ظننتُ أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول فقال: «يَا عَائِشَةُ إِنْ شَرّ عَنْده منزلة فلما خرج قلت له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول فقال: «يَا عَائِشَةُ إِنْ شَرّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ فُحْشِهِ (١٠)، وفي الخبر: «مَا وَقَيْ الرَّجُلُ بِهِ عِرْضُهُ فَهُو لَهُ صَدَقَةً (٢٠).

وفي الأثر: خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب. وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدّاً حتى يجعل الله له منه قرجاً.

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام، كان النبي على يقول:
واللّهُمّ أخيني مسكيناً وَأَمِثني مِسكِيناً وَاحْشُرنِي فِي زُمْرَة الْمَسَاكِينَه (")، وقال كعب الأحبار: كان سليمان عليه السلام في ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكيناً جلس إليه وقال: مسكين جالس مسكيناً. وقبل: ما كان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له: يا مسكين. وقال كعب الأحبار: ما في القرآن من: ﴿يَالَيُهُا الّذِيرِ ءَامَنُوا﴾ [البَقرَة: ١٠٤] فهو في التوراة «يا أيها المساكين» وقال عبادة بن المصامت: إن للنار سبعة أبواب؛ ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين. وقال الفضيل: بلغني أن نبياً من الأنبياء قال: يا رب كيف لي أن أعلم رضاك عني؟ والمساكين. وقال الفضيل: بلغني أن نبياً من الأنبياء قال: يا رب كيف لي أن أعلم رضاك عني؟ ومن الموتى يا رسول الله؟ قال: والأغنياء (قال عليه الصلام: ﴿وَإِنّاكُمْ وَمُجَالَسَةُ المَوْتَىٰ»، قيل: ومن الموتى يا رسول الله؟ قال: والأغنياء في وقال موسى: إلهي أين أبغيك؟ قال عند المنكسرة علوبهم. وقال يَجِيدُ وقال عليه المناهم، وقال يَجِيدُ مِنْ مَنْ مَنْ مَنْ مَنْ مَنْ مُسْلِمَيْنِ حَمِّى يَسْتَغْنِي فَقَدُ وَجَبَتْ لَهُ الجَنْةُ الْمَوْتِ فَإِنْ مِنْ وَرَائِهِ طَالِباً حَبْياً مُنْ وَرَائِه طَالِباً وقال عليه السلام: ﴿ وقال عليه السلام: ﴿ وقال عليه السلام: ﴿ وقال عليه الجَنْةُ كَهَاتَيْنِ وَهُو يُشِيرُ بِإِضْ عَيْدَهُ حَلَىٰ وَأَسِ يَتِيم ثَرَحُما كَانَتْ لَهُ بِكُلْ شَعْرَةً تَمُرْ عَلَيْها يَلُهُ حَسَنَةً (^^)، وقال عليه السلام: ﴿ وقال عليه السلام: ﴿ وقال عَلْه المَالَةُ عَلَىٰ وَالْسِ يَتِيم ثَرَحُما كَانَتْ لَهُ بِكُلْ شَعْرَةً تَمُرْ عَلَيْها يَلُهُ حَسَنَةً (^^)، وقال عليه السلام: ﴿ وقال عَلْهُ مَنْ يَصِيرُ المَنْ عَنْهُ عَلَىٰ وَالْسُ يَتِيم ثَرَحُما كَانَتْ لَهُ بِكُلْ شَعْرَةً تَمُرُ عَلَيْها يَلُهُ حَسَنَةً (^^^)، وقال عليه السلام: ﴿ أَنْ وَالَ كَانُتُ لَهُ يُكُلُ شَعْرَةً تَمُرُ عَلَيْها يَلُهُ حَسَنَةً (^^^)، وقال عَنْهُ المَنْهُ عَلَىٰ وَالْسُونَ عَلَىٰ الْمَوْتُ عَلْهُ الْمَوْتُ الْمَوْتُ عَلْهُ الْمَوْتُ اللهُ عَلْهُ الْمُوتُ الْمَوْتُ الْمَالِقُونُ اللهُ عَلَىٰ وَالْمُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَىٰ عَلْهُ الْمَوْتُ اللهُ اللهُ عَلْهُ اللهُ عَلْهُ اللهُ اللهُ عَلْهُ

⁽١) حديث عائشة: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «القنوا له فبئس رجل العشبرة. . . ، الحديث. متفق عليه.

 ⁽٢) حديث: (ما وقى المرء به عرضه قهو له صدقة) أخرجه أبر يعلى وابن عدي من حديث جابر وضعفه.

 ⁽٣) حديث: «اللهم أحبني مسكيناً وأمثني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والترمذي من حديث عائشة وقال: غريب.

 ⁽٤) حديث: قرباكم ومجالسة الموتى»، قبل: وما الموتى؟ قال: «الأغنياء» أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصحح إسناده من حديث عائشة: قرباك ومجالسة الأغنياء».

 ⁽٥) حديث: الا تغبطن فاجراً بنعمة. . . ٩ الحديث، رواه البخاري في التاريخ والطبرائي في الأوسط، والبيهقي في
الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

حديث: قمن ضم يتيماً من أبوين مسلمين حتى يستفني فقد وجبت له الجنة البنة، أخرجه أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه علي بن زيد بن جدعان متكلم فيه.

 ⁽٧) حديث: قأنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽A) حديث: «من وضع بده على رأس يتيم ترحماً كانت له بكل شعرة تمر عليها بده حسنة» أخرجه أحمد والطبراتي بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله: «ترحماً» ولابن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى: «من مسح بده على رأس بتيم رحمة له. .» الحديث.

الْحَيْرُ بَيْتِ مِنَ المُسْلِمِينَ بَهْتُ فِيهِ يَتِيمُ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتِ مِنَ المُسْلِمِينَ بَيْتُ فِيهِ يَتِيمُ يُسَاءُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتِ مِنَ المُسْلِمِينَ بَيْتُ فِيهِ يَتِيمُ يُسَاءُ إِلَيْهِ (۱).

 ⁽۱) حديث: الخير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم بساء إليه أخرجه
 ابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه ضعف.

 ⁽٢) حديث: «المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه» تقدم بلفظ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ولم أره بهذا اللفظ.

 ⁽٣) حديث: «إن أحدكم مرآة أخيه. . » الحديث. رواه أبو داود والترمدي وقد تقدم.

⁽٤) حديث: (من تضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره أخرجه البخاري في التاريخ، والطبراني والخرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسلاً.

⁽ه) حديث: (من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أو لم يقضها كان خيراً له من اعتكاف شهرين الخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس الأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته _ وأشار بأصبعه _ أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين وللطبراني في الأوسط: (من مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف مشر مئين وكلاهما ضعيف.

 ⁽٦) حديث: امن فرج عن مغموم أو أعان مظلوماً غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة! أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق
 وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من حديث أنس بلفظ: العن أفاث ملهوفاً».

 ⁽٧) حديث: النصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم.

 ⁽A) حديث: إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن. . . ٤ الحديث، أخرجه الطبرائي في الصغير
 والأوسط من حديث ابن عمر بسئد ضعيف.

 ⁽ه) حديث: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضر بعباد الله. .» الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث علي ولم يسنده ولده في مسنده.

⁽١٠) حديث: «من لم يهثم للمسلمين فليس منهم» أخرجه الحاكم من حديث حذيقة، والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر وكلاهما ضعيف.

وقال معروف الكرخي: من قال كل يوم: اللهم ارحم أمة محمد كتبه الله من الأبدال ـ وفي رواية أخرى ـ اللهم أصلح أمة محمد للهم فرج عن أمة محمد ـ كل يوم ثلاث مرات ـ كتبه الله من الأبدال. وبكى على من ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى وسئل عن ظلمه ولم تكن له حجة.

ومنها: أن يعود مرضاهم، فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله. وأدب العائد: خفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وغض البصر عن عورات الموضع. وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول: أما، إذا قيل له: مَن؟ ولا يقول: يا غلام، ولكن يحمد ويسبح، وقال على: «تَمَامُ عِيَادَةِ المَريضِ أَنْ يَضَعَ أَحَدُكُمْ يَدَهُ عَلَىٰ جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَىٰ يَدِهِ وَيَسْأَلَهُ كَبِفَ هُو؟ ويسبح، وقال على: «تَمَامُ عِيَادَةِ المَريضِ أَنْ يَضَعَ أَحَدُكُمْ يَدَهُ عَلَىٰ جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَىٰ يَدِهِ وَيَسْأَلَهُ كَبِفَ هُو؟ ويَسَالُهُ كَبِفَ هُو؟ وَيَمَامُ تَحِيَابَكُمُ المُصَافَحَةُه، وقال على: «مَنْ هَادَ مَريضاً قَعَدَ فِي مَخَارِفِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ إِذَا قَامَ وُكُلَ بِهِ سَبْعُونَ اللهُ عَمْ مَلْكُن يُصِعَلُ اللهِ عَلَى الرَّجُلُ المَريضَ خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ أَلْفَ مَلْكُن يَعِلُهُ وَكُل بِهِ سَبْعُونَ وَلَا يَعْلُونَ فِيهِ اللهِ عَلَى اللهُ يَعْدَ اللهُ يَعْدُونَ عَلَى الجَنْهِ وَقَالَ إِنَا مَا الله عَلَى الجَنْهِ عَلَى الجَنْهِ وَقَالَ اللهُ تَعَالَى اللهِ وَهُو أَلْقَ اللهُ اللهُ عَنْهُ الْمُ اللهِ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ تَعَالَى اللهِ وَقَالَ اللهُ الْمَالِعُ الْمُعْلَى اللهِ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقُو أَفَلَ الْمَالِعُ الْمَالِ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقَالَ اللهُ وَقُولُ الْمُ اللهُ عَلَى الْحَدَا لَهُ الْمَالُ اللهُ وَقَالَ اللهُ عَلَى الْمَالِقُ الْمَالَ اللهُ وَقُولُ الْمُولِ اللهُ عَلَى الْمُعْلِق وَاللهُ المَالِمُ اللهُ عَلَى المَالِ اللهُ عَلَى المَالِق اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ ا

⁽¹⁾ حديث: قمن هاد مريضاً قعد في مخارف المجتذب، الحديث، أخرجه أصحاب السنن والحاكم من حديث على: قمن أنى أخاه المسلم عائداً مشى في خرافة المجتذبين يجلس فإذا جلس فمرته الرحمة، فإن كان فلوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي وإن كان مساء. . . الحديث، لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسته الترمذي ولمسلم من حديث ثوبان: قمن هاد مريضاً لم يزل في خرفة المجتث».

⁽٣) حديث: ﴿إِذَا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه اخرجه الحاكم والبيهقي من حديث جابر، وقال: ﴿التغمس فيها قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وكذا صححه ابن عبدالبر، ودكره مالك في الموطأ بلاغاً بلفظ: ﴿قرت فيه ورواه الواقدي بلفظ ﴿استقر فيها ، وللطبراتي في الصغير من حديث مالك في الموطأ بلاغاً بلفظ: ﴿وَمِن المُوسِطُ مَن حديث كعب بن مالك وعمرو بن حزم: ﴿استنقع فيها ».

 ⁽٣) حديث: ﴿إذا هاد المسلم أخاد أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وثيوات منزلاً في المجنة أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة إلا أنه قال: ﴿ناطه مناه قال الترمذي غريب. قلت: فيه عيسى بن سنان القسملي ضعفه الجمهور.

⁽٤) حديث: الأمرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال: انظرا ما يقوله لمواده... الحديث. أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبدالبر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري، وبه عباد بن كثير التقمي صعيف الحديث، وللبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى: (إذا ابتليث عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عواده أطلقته من إساري ثم أبدله لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل وإساده جيد.

 ⁽٥) حديث: ٥من يرد الله به خيراً يصب منه أخرحه البخاري من حديث أبي هريرة.

مرضت فعادني رسول الله على ققال: ابسم الله الرّخين الرّجيم أُعِيدُكَ بِالله الأَخدِ الصّمَدِ الّذِي لَمْ بَلِدُ وَلَمْ مِكُنْ لَهُ كُفُوا أَحَدُ مِنْ شَرّ مَا تَجدُه (١) قالها مراراً. ودخل على على على بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض نقال له: (قُلْ: اللّهُمّ إِنّي أَسْأَلُكَ تَعْجِيلَ هَافِيْتِكَ أَوْ صَبْراً عَلَىٰ بَلِيْتِكَ أَوْ خُرُوجاً مِنَ اللّهُمْ إِنْ اللّهُمْ إِنْ أَسْتُعَلَىٰ إِخْلَاهُمْ اللهُمْ إِنْ أَسْتُعُطَىٰ إِخْلَاهُمُّهُ (٢)، ويستحب للعليل أيضاً أن يقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا شكا أحدكم بطنه فليسأل المرأته شيئاً من صداقها ويشتري به عسلاً ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنيء والمريء والشفاء والمبارك. وقال عَلَيْ الله عَلى: الله قال: (يَقُولُ: لاَ إِللهُ إلاَ اللهُ يُخِيي وَيُعِيثُ مِنْ مَرَضِهِ نَجَاهُ اللهُ مِنْ رَضِهِ نَجَاهُ اللهُ مِنْ رَبِّ اللهُ عَلى: اللّهُ عَلَىٰ كُلُّ حَالٍ . الله أَكْبَرُ كَبِيراً طَيْباً مُبَارَكاً فِيهِ عَلَىٰ كُلُّ حَالٍ . الله أَكْبَرُ كَبِيراً وَلَا يَعْدِينَ وَيُعِيثُ وَهُوَ حَيْ لاَ يَمُوتُ شُبْحَانَ الله وَجَلائِهُ وَقُدُورَتُهُ بِكُلُّ مَكَانٍ. اللّهُ مَنْ مَكَيْرا طَيْبا مُبَارَكاً فِيهِ عَلَىٰ كُلُ حَالٍ . الله أَكْبَرُ كَبِيراً إِنَّ كِبْرِياء رَبِنَا وَبَكُونَ مُنْ صَبَعْتُ لَهُم مِنْكَ المُحسَنَىٰ وَبَاعِدْتِي مِنَ النَّارِ كَمَا بَاعَدُتَ أُولِياء كَاللّه اللهِ عَلَى الله المعام الموسِ عَلَى الله المعام الموسِ عَلَى الله المعام الموسِ على خالق المعام وحملة أدب المريض حسن المصروف بعد ثلاث واله على خالق المداء والموع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق المداء .

ومنها: أن يشيع جنائزهم، قال على: المَنْ شَيْعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ مِنَ الأَجْرِ فَإِنْ وَقَفَ حَنَىٰ تُدُفّنَ فَلَهُ قِيراطَانِه (٢)، وفي الخبر، «القِيرَاطُ مِثْلُ أُحُدِه (٢)، ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال: لقد فرطنا إلى الآن في قراريط كثيرة. والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار، وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول، والآخر لا عقل له، وخرج مالك بن دينار حلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول: والله لا تقرّ عيني حتى أعلم إلى ما صرت، ولا والله لا أعلم ما دمت حياً. وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري لمن

 ⁽١) حديث عثمان مرضت فعادني رسول الله في فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم أعبلك بالله الأحد الصمد. .» الحديث.
 أخرجه ابن السني في اليوم والليلة، والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان بإسناد حسن.

 ⁽٢) حديث: دخل على على وهو مريض فقال: «قل اللهم إنّي أسألك تعجيل عافيتك. . ٤ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أس بسند ضعيف: أن رسول الله على دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم علياً. وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة: «إن جبريل علمها للنبي على وقال: إن الله يأمرك أن تدعو بهؤلاء الكاران؟

 ⁽٣) حديث أبي هريرة «ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من الناره أخرجه ابن أبي
 الدنيا في الدعاء وفي المرض والكفارات.

 ⁽٤) حديث: (هيادة المريض فواق ناقة) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بإسناد فيه جهالة.

حديث: «أضوا في العيادة وأربعوا، رواه ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد: «إلا أن يكون مغلوباً»
 وإسناده ضعيف.

⁽٦) حديث: امن تبع حنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان؛ أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة.

حديث: «القيراط مثل جبل أحدا أخرجه مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأصله متفق عليه

نعزي لحزن القوم كلهم. ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت، فقال: لو ترحمون أنفسكم لكان أولى إنه نجا من أهوال ثلاث: وجه ملك الموت قد رأى، ومرارة الموت قد ذاق، وخوف الخاتمة قد أمن. وقال ﷺ: «يَثْبَعُ المَيْتَ ثَلَاثُ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ وَاحِدٌ، يَثْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَصَلَهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ وَالْعَبُونُ وَالْعَبُولُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَمَالُهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَمْلُهُ وَمِنْ اللَّهُ وَمَالُهُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَالَهُ عَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَمْلُهُ وَاللَّهُ عَلَيْتُونُ وَيَتُمْ فَاللَّهُ مَنْ اللَّهُ اللَّهُ لَمُلُهُ وَعَمْلُهُ وَاللَّهُ لَهُ اللَّهُ لَهُ اللَّهُ لَهُ لَا لَهُ لَهُ لَا لَهُ اللَّهُ لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَهُ لَهُ لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لِهُ لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَهُ لَا لَهُ لِهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَا لَهُ لَاللَّهُ لَا لَهُ لَ

ومنها: أن يزور قبورهم، والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب، قال ﷺ: ﴿مَا رَأَيْتُ مَنْظَراً إِلاَّ وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ ۗ ۚ , وقال عمر رضي الله عنه : خرجنا مع رسول الله ﷺ فأتى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه. فبكى وبكينا، فقال: •مَا يُبْكِيكُمْ؟ ۚ قلنا: بكينا لبكائك. قال: •هٰلَمَا قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ، اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِها فَأَذِنَ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَها فَأَبَىٰ عَلَيْ فَأَذْرَكَنِي مَا يُدْرِكُ الوَلَدَ مِنَ الرُّقَّةِ،(٣)، وكان عثمانُ رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلِ لحيثه ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ اللَّمَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآجِرَةِ فَإِنْ نَجا مِنْهُ صَاحِبُهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُ اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى عَلَى مَا يَكُلُمُ ابن آدم حَمَرَته فَتَقُولُ: أَنَا بَيْتَ الدود وبيت الوحدة وبيت الخربة وبيت الظلمة. فهذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذر: ألا أخبركم بيوم فقري، يوم أوضع في قبري. كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكرونني معادي، وإن قمت عنهم لم يغتابوني. وقال حاتم الأصم: من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم مِقد خان نفسه وخانهم. وقَال ﷺ : " همَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلاَّ وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ القُبُورِ مَنْ تَغْبِطُونَ؟ قَالُوا: ۖ نَغْبِطُ أَهْلَ المَسَاجِدِ لأَنَّهُمْ يَصُومُونَ وَلاَ نَصُومُ وَيُصَلُّونَ وَلاَ نُصَلِّى وَيَذْكُرُونَ الله وَلاَ نَذْكُرُهُۥ وقال سفيانَ: من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبراً؛ فكان إذا وجدٍ في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة شم قَال: ﴿ رَبُّ ٱرْجِعُونِ ١٠٠ كَمَلِّ أَعْمَلُ صَلِيمًا فِيمَا زُكُّتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠] ثم يقول: يا ربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع. وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى، وقال: يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات وأصاب الهوام من أبدانهم؟ ثم بكي وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله؟.

وآداب المعزِّي: خفص الجناح، وإظهار الحزن، وقلة الحديث، وترك التبسم.

⁽١) حديث اليتبع الميث ثلاثة فيرجع الثنان ويبقى واحدا أخرجه مسلم من حديث أنس.

 ⁽۲) حديث: (ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه، أخرجه الترمذي وأبن ماجه والحاكم من حديث عثمان، وقال: صحيح الإسناد، وقال الترمذي: حسن غريب.

 ⁽٣) حديث عمر: • خرجنا مع رسول الله على فأتى المقابر فجلس إلى قبر... الحديث، في زيارته قبر أمه، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة محتصراً وأحمد من حديث بريدة وفيه: • هقام إليه عمر ففداه بالأب والأم يقول:
 يا رسول الله، ما لك... الحديث.

 ⁽٤) حديث عثمان بن عفان: (إن القبر أول منازل الآخرة. . . ١ الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده.

 ⁽a) حديث: «ما من ليلة إلا ينادي مناديا أهل الفبور من تغيطون؟ فيقولون: نغيط أهل المساجد. . ١ الحديث. لم أجد له أصلاً.

وآداب تشبيع الجنازة: لزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكر في الموت، والاستعداد له، وأنّ يمشي أمام الجنازة بقربَها والإِسراع بالجنازة سنّة (١)، فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق.

والجملة الجامعة فيه: أن لا تستصغر منهم أحداً حيّاً كان أو ميتاً فتهلك؛ لأنك لا تدري لعله خير منك؟ فإنه وإن كان فاسقاً فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح؟ ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم، فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها، ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله . ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم ؛ فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم ، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولا تعادِهم بحيث تظهر العداوة، فيطول الأمر عليك في المعاداة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك، إلا إذا رأيت منكراً في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة، وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرّضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم فحسبهم جهنم يصلونها، فمالك تحقد عليهم ولا تستكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك، فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً وربما لا تجده. ولا تشكُ إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم، ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وأنَّى تظفر به؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذلُّ ولا تنال الغرض. ولا تعل عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم، فإن الله يلجنك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء. وإذا سألت أخاً منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد، وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدوًا تطول عليك مقاساته. ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك، وليكن وعظك عرضاً واسترسالاً من غير تنصيص على الشخص. ومهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك واستعذ بالله أن يكلك إليهم. وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعذ بالله من شرهم. ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله. ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي.

واعتقد أنك لو استحقيت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم؛ فالله المحبب والمبغض إلى القلوب، وكن فيهم سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم، نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطلهم. واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير، ينتصفون ولا ينصفون، ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون، يغرون الإخوان على الإخواف بالنميمة والبهتان، فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان، إن رضوا فظاهرهم الملق، وإن سخطوا فباطنهم الحنق، لا يؤمنون في حنقهم، ولا يرجون في ملقهم، ظاهرهم ثياب وياطنهم ذئاب، يقطعون بالظنون، ويتغامزون وراءك بالعيون، ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم. ولا تعوَّل على مودة من لم تخبره حتى الخبرة، بأن تصحبه مدَّة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته، وغناه وفقره، أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدّة فتحتاج إليه، فإن رضيته في الأحوال فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً أو ابناً لك إن كان صغيراً أو أخاك إن كان مثلك. فهذه جملة آداب المعاشرة مم أصناف الخلق.

⁽١) حديث: الإسراع بالجنازة، متفق عليه من حديث أبي هريرة: السرعوا بالجنازة. . . ٩ الحديث.

حقوق الجوار:

اهلم: أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة؛ إذ قال النبي ﷺ: «الجيرَانُ ثَلاَثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقُّ وَاحِدٌ، وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاَثَةُ حُقُونِي. فَالجَارُ الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقِ اَلجَارُ المُسْلِمُ ذُو الرَّحِم فَلَهُ حَقُ الجِوَارِ وَحَقُ الإِسْلاَم وَحَقُ الرَّجِم، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّانِ فَالجَارُ المُسْلِمُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ وَحَقُّ الإِسْلَام، وَأَمَّا الَّذِي لَهُ حَقَّ وَاحِدٌ فالجَارُّ المُشْرِكُ")، فانظر كيف أثبت للمشركُ حقاً بمجرد الجوار، وقَد قالَ ﷺ: ﴿ أَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِماً»^(٣)، وقال النبي ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُثُهُ"^(٣)، وقال ﷺ: الْمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمُ جَازَهُ (١)، وَفَال ﷺ: الَّا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يَأْمَنَ جَازُهُ بَوَائِقَهُ» (هُ)، وقال ﷺ: ﴿ قَالُ خَضَّمَيْنِ يَوْمَ القِّيَامَةِ جَارَانِ»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا أنْتَ رَمَيْتَ كُلْبَ جَارِكَ فَقَدْ آذَيْتُهُۥ (٧)، ويروَى: أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيق عليَّ، فقال: اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه. وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال ﷺ: ﴿هِيَ فِي النَّارِ ٩/٩٪، وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي ﷺ: «اصبرٌ» ثم قال له في الثالثة أو الرابعة: «اطُرّخ مَتَاهَكَ فِي الطَّريقِ» قال: فجعل الناس يمرّون به ويقولون ما لك؟ فيقال: آذاه جاره قال: فجعلوا يقولمون: لعنه الله، فجاءه جاره فقال له: رد متاعك فوالله لا أعود^(٩). وروى الزهري: أنّ رجلاً أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره، فأمره النبي ﷺ أن ينادي على باب المسجد: ﴿ أَلَا إِنَّ أَرْبَعِينَ دَاراً جَارٌ» (١٠٠)، قال الزهري: أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا ـ وأومأ إلى أربع جهات. وقال عليه السلام: "اليُمْنُ وَالشُّؤمُ فِي المَوْأَةِ وَالمَسْكَنِ وَالْفَرَسِ، فَيُمْنُ المَوْأَةِ خِفْةُ مَهْرِها ويُسْرُ نِكَاجِها وَحُسْنُ خُلَقِها، وَشُؤْمُها غَلَاءُ مَهْرِها وَهُسْرُ نِكَاجِها وَسُوءٌ خُلُقِها. وَيُمْنُ المَسْكَن سَغَتُهُ

حديث: «الجيران ثلاثة جار له حق وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق... د الحديث. أخرجه الحسن بن سفيان والبزار في مسديهما، وأبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر، وابن عدي من حديث عبدالله بن عمر وكلاهما ضعيف.

حديث: «أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً» تقدم. **(Y)**

حديث: الما ذال جبريل يوصيني باللجار حتى ظننت أنه سيورثه؛ متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر. **(1)**

حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» متفق عليه من حديث أبي شريح (1)

حديث الا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بواتقه، أخرجه البخاري من حديث أبي شريح أيضاً. (0)

حديث: "أول خصمين يوم القيامة جاران، أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف. (%)

حديث: ﴿إِذَا أَنْتَ رَمِيتَ كُلِّبِ جَارِكُ فَقَدَ آنْيَتُهُ لَمْ أَجِدُ لَهُ أَصَلاً. (Y)

حديث: "إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال: "هي في النار" أخرجه أحمد والحاكم من حديث (A) أبى هريرة وقال: صحيح الإسناد.

حديث. جاه رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال: «اصبر» ثم قال له في الثالثة ـ أو الرابعة ـ: «اطرح مناحك هلى الطريق. . . ٤ الحديث. أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال: صحيح على شرط مسلم.

حديث الزهري: ﴿ أَلَّا إِنْ أَرْبِعِينَ دَارًا جَارٍ﴾ أخرجه أبو داود في المراسيل، روصله الطبراتي من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه، ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال: «أوبعون ذواهاً» وكالاهما ضعيف.

وَحُسْنُ جِوَارِ أَهْلِهِ. وَشُؤْمُهُ ضِيقُهُ وَسُوءُ جِوَارِ أَهْلِهِ، وَيُمْنُ الفَرَسِ ذُلُهُ وَحُسْنُ خُلُقِهِ، وَشُؤْمُهُ صُعُويَتُهُ وَسُوءُ خُلُقِهِ (١٠).

واعلم: أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى، فإن الجار أيضاً قد كف أذاه، فليس في ذلك قضاء حق، ولا يكفي احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف؛ إذ يقال: إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول: يا رب، سل هذا لم منعني معروفه وسدّ بابه دوني؟.

وبلغ ابن المقفّع أن جاراً له يبيع داره في دين ركبه _ وكان يجلس في ظل داره _ فقال: ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدماً، فدفع إليه ثمن الدار وقال: لا تبعها.

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره، فقيل له: لو اقتنيت هراً؟ فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهرّ فيهرب إلى دور الجيران؛ فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي.

⁽۱) حديث: «اليمن والشؤم من المرأة والمسكن والفرس، فَيَمْن المرأة عهرها...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن عمر: «الشؤم في الدار والمرأة والفرس» وفي رواية له: «إن يك من الشؤم شيء حقاً» وله من حديث سهل بن سعد: «إن كان ففي الفرس والمرأة والمسكن» وللترمذي من حديث حكيم بن معاوية: «لا شؤم وقد يكون المين في الدار والمرأة والفرس» ورواه ابن ماجه فسماه محمد بن معاوية، وللطبراني من حديث أسماء بنت عميس: قالت يا رسول الله ما سوء الدار؟ قال: «ضيق ساحتها وخبث جيرانها» قبل. فما سوء الدابة؟ قال: «متعها ظهرها وسوء خلقها» وكلاهما ضعيف. ورويناه في كتاب الخيل وسوء خلقها» وكلاهما ضعيف. ورويناه في كتاب الخيل للدمياطي من رواية سالم بن عبدالله مرسلاً: «إذا كانت الدار يميدة من المسجد لا يسمع فيها الأذان والإقامة فهي مشؤومة وإضاء واساده ضعيف، ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه.

 ⁽٧) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أتلوون ما حق الجار؟ إن استعان بك أهنته وإن استقرضك أقرضته.»
 الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل وهو ضعيف.

هذا؟ فقال: إن رسول الله على لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه (). وقال هشام: كان الحسن لا يرى بأساً أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك، وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: أوصاني خليلي على وقال: ﴿إِذَا طَبَخْتَ قِلْراً فَأَكْثِرْ مَاهَا، ثُمَّ الْظُرْ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتٍ فِي جيرَائِكَ فَافْرِفْ لَهُمْ مِنْها ('') وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين أحدهما مقبل على بابه والآخر ناء ببابه عني، وربما كان الذي عندي لا يسعهما، فأيهما أعظم حقاً فقال: «المُقْبِلُ هَلَيْكِ بِبَابِهِ (") ورأى الصديق ولده عبدالرحمن وهو يناصي ('' جاراً له، فقال: لا تناص جارك، فإن هذا يبقى والناس يذهبون، وقال الحسن بن عيسى النيسابوري: سألت عبدالله بن المبارك فقلت: الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه أمراً والغلام ينكره، فأكره أن أضربه ولعله بريء، وأكره أن أدعه فيجد علي جاري، فكيف أصنع؟ قل: إن غلامك لعله أن يحدث حدثاً يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث، وهذا تلطف في الجمع بين الحقين،

وقالت عائشة رضي الله عنها: خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله تعالى لمن أحب: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وقري الضيف، ورأسهن الحياء.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: فيَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمَاتِ لاَ تَعْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَبُها وَلَوْ فِرْسِنَ شَاقِهُ ﴿ وَالْجَارَ الْصَّالِحَ وَلَوْ فِرْسِنَ شَاقِهُ ﴿ وَالْجَارَ الْصَّالِحَ وَالْمَرْعِ الْمُسْلِمِ : الْمَسْكَنَ الوَاسِعَ ، وَالْجَارَ الْصَّالِحَ ، وَالْمَرْكَبَ الْهَنِيُ ﴾ وقال عبدالله : قال رجل : يا رسول الله ، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت قلل قال : فإذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَحْسَنْتَ ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتُهُمْ وَلُونَ ! قَدْ أَسُونَ لَهُ جَالُولُ اللّهُ عَلَيْكُولُونَ ! قَدْ أَلْمُ يَعْلَى اللّهُ عَنْ اللّهُ عَلَمُ اللّهُ عَلَيْكُ اللّهُ اللهُ اللهُ عَنْهُ عَلَيْهُ وَلَا أَلَا اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ عَنْهُ عَلَيْهِ اللهُ اللهُ عَنْهُ وَلَا لَهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الْولُونَ الْمُسْلِمُ اللهُ اللْمُ اللهُ اللهُ

حديث مجاهد: «كنت عند عبدالله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال: يا غلام، إذا سلخت فابدأ بجارتا اليهودي...»
 الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وقال عمن غريب.

 ⁽٢) حديث أبي ذر: «أوصائي خليلي ﷺ إذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيراتك فاغرف لهم منها»
 رواه مسلم.

⁽٣) حديث عائشة: «قلت: يا رسول الله؛ إن لي جارين. . . ، الحديث. رواه البخاري.

⁽٤) يناوص: يُناوش. أو يشمخ عليه بالبناء.

 ⁽٥) حديث أبي هريرة (يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو قرسن شاة) رواه البحاري.

⁽١) حديث: «إن من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء» رواه أحمد من حديث ناقع بن عبدالحارث وسعد بن أبي وقاص، وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

حديث عبدالله: قال رجل: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت؟ قال: "إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت" رواه أحمد والطراني وعبدالله هو ابن مسعود، وإسناده جيد.

الجار، وقال: صحيح الإسناد، وهو عند الخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظ المصنف، ولابن ماجه والحاكم دون ذكر
 الجار، وقال: صحيح الإسناد، وهو عند الخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظ المصنف، ولابن ماجه من حديث ابن
 عباس «من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليموضها على جاره» ورحاله رجال الصحيح.

جاره شاء أم أبى (١). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: ﴿ لَا يَمْنَعَنُّ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَضَعَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ وَكَانَ أَبُو هريرة رضي الله عنه يقول: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمينها بين أكنافكم، وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك، وقال ﷺ: ﴿مَنْ أَرَادَ الله بِهِ خَيْراً مَسْلَهُ عَيْل وما عسله ؟ قال ﴿ يُحَبِّهُ إِلَىٰ جِيرًانِهِ (٢).

حقوق الأقارب الرحم:

قال رسول الله ﷺ: فيَقُولُ الله تَعَالَىٰ: أَنَا الرَّحْمُنُ وَهَذِهِ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِنِ اسْمِي فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ وَمَنْ قَطْعَها بَتَتُهُ (٣)، وقال ﷺ: "هَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ وَيُوسِّعَ مَلَيْهِ فِي رَزِّقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ (6)، وفي رواية أخرى: "همَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدُّ لَهُ فِي مُمُرِهِ وَيُوسِّعَ لَهُ فِي رِزِّقِهِ فَلْيَتِهِ الله وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ وقيل لرسول الله ﷺ أي الناس أفضل؟ قال: "أَتْقَاهُم لله وَأَوْصَلُهُمْ لَوَرَحِهِ، وَآمَرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِه (٥)، وقال أبو ذر رضي الله عنه: "أوصابي خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً (٢)، وقال ﷺ: فإن الرَّحِمُ مُعَلَقَةٌ بِالعَرْشِ، وَلَيْسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِيهِ، وَلْكِنَّ الوَاصِلُ الَّذِي إِذَا انْقَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلُها (٧)، وقال عليه السلام: "إِنَّ أَحْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَاياً صِلَةُ الرَّحِم، حَتَى إِنْ أَهْلَ البَيْتِ لَيَكُونُونَ وَصَلُوا أَرْحَامَهُمْ (٨). وقال زيد بن أسلم: لما خرج وُصَلَها أَنْ الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك

⁽١) حديث أبي هريرة: اقضى رسول الله ﷺ أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى. رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا، وهو متفق عليه بلفظ: الا يمتعن أحدكم جاره أن يفرز خشبة في حائطه وواه ابن ماجه بإسناد ضعيف، واتفق عليه الشيخان من حديث أبى هريرة.

⁽٢) حديث. قمن أراد الله به خيراً عسله وواه أحمد من حديث أبي عتبة الخولاني، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهني في الزهد من حديث عمرو بن الحمق. زاد الخرائطي: فيل: وما عسله ؟ قال: قطبه إلى جيرانه وقال البيهني: فيفتح له عملاً صالحاً قبل موته حتى يرضى عنه من حوله وإسناده جيد.

⁽٣) حديث: ايقول الله: أنا الرحمن وهذه الرحم. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽³⁾ حديث. امن سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليتن الله وليصل رحمه متفق عليه من حديث أنس دون قوله: ﴿ فليتن الله عَلَي وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بإسناد جيد.

⁽٥) حديث: أي الناس أفضل فقال: «أتقاهم فه وأوصلهم للرحم» رواه أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد حسن.

 ⁽٦) حديث أبي ذر: *أوصاني خليلي ﷺ بصلة الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً». رواه أحمد
وابن حبان وصححه.

 ⁽٧) حديث: فإن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها أخرجه
 الطبراني والبيهقي من حديث عبدالله من عمرو، وهو عند البخاري دون قوله: «الرحم معلقة بالعرش» فرواها مسلم
 من حديث عائشة.

 ⁽A) حديث: •أهجل الطاهات ثواباً صلة الرحم. . . . الحديث أخرجه ابن حبان من حديث أبي بكرة، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب من حديث عبدالرحمن بن عوف بسند ضعيف.

ببني مدلج، فقال عليه السلام: ﴿إِنَّ الله قَدْ مَنْمَنِي مِنْ بَنِي مُدْلِج بِصِلْتِهِمُ الرَّحِمَه (^(۱)، وقالت أسماء بنتُ أبي بكر رضي الله عنهما: قدمت عليّ أمي، فقلت: يا رسُول الله، إنّ أمي قدمت علي وهي مشركة أفأصلها؟ قال، «تَعَمْ»(٢). وفي رواية: أفأعطيها؟ قال: «نَعَمْ صِلِيها». وقال عليه السلام: «الصَّدَقَةُ عَلَىٰ المَسَاكِين صَدَّقَةٌ وَعَلَىٰ دِي الرَّحِم اثْنَنَانِ»(٣)، ولما أراد أبو طلحة أن يتصدّق بحائط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى: ﴿ لَ نَنَالُوا اللَّهِ خَقَ تُنفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ ﴾ [آل عِمرَان، ١٩٢] قال: يا رسول الله، هو في سبيل الله، وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام: ﴿وَجَبُّ أَجْرُكُ عَلَىٰ الله، قَسِّمْهُ فِي ٱقَارِبِكَ»، وقال عليه السلام: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ عَلَىٰ ذِي الرِّجِم الْكَاشِحِ»^(٥)، وهو في معنى قوله: «أَفْضَلُ الفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَمَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتُصْفَحَ حَمَّنُ ظَلَمَكَ» ^(٢) وروي أنَّ عمر رضي الله عنهُ كتب إلى عماله: مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، وإنما قال دلك لأنَّ التجاور يورث التزاحم على الحقوق، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم.

حقوق الوالدين والولد:

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة، فيتضاعف تأكد الحق نيها. وقدِ قالِ ﷺ: ﴿ لَنْ يُجْرِيَ وَلَدٌ وَالِدَهُ حَتَّىٰ يَجِدَهُ مَمْلُوكاً فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ الْ ﴾، وقد قال ﷺ: ﴿ بِرُ الوَالِدَيْنِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّوْمِ وَالحَجُّ وَالعُمْرَةِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيل الله (^^)، وقد قال ﷺ: امَنْ أَصْبَحَ مُرْضِياً لأَبَوَيْهِ أَصْبَحَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحِانِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَمَنْ أَمْسَىٰ فَمِثُلُ ذَٰلِكَ، وَإِنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِداً، وَإِنْ ظُلُماً وَإِنْ ظُلُماً وَإِنْ ظُلُماً. وَمَنْ أَصْبَعَ مُسْخِطاً لاَبُوَيْهِ أَصْبَعَ لَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ إِلَىٰ النَّارِ،

حديث زيد بن أسلم: لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال: إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببني مدلج، فقال ﴿إنَّ اللهُ منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم؛ رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وزاد: فوطعنهم في لبات الإبل؛ وهو مرسل صحيح الإسناد.

حديث أسماء بنت أبي بكر: قدمت علي أمي فقلت: يا رسول الله، قدمت علي أمي وهي مشركة أفأصلها؟ قال: انعم صليها» متفق عليه.

حديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة» أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سليمان بن عامر الضبي.

حديث: «لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط له كان يعجبه عملاً بڤوله تعالى: ﴿ لَنَ نَنَالُواْ آلَيُّ حَتَّى تُنفِقُوا مِنَا يُجْتُونَّ ﴾ [آل عِمرَان، ٩٣]... الحديث. أخرجه البحاري وقد تقدم.

حديث: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح» أحرجه أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب، وفيه الحجاج بن أرطأة، ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة.

حديث: «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك. .» الحديث. أخرجه أحمد من حديث معاذ بن أنس بسند صعيف، وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة وقد تقدم.

حديث: الن يجزي ولد والله حتى بجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

حديث: «بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد» لم أجده هكذا. وروى أبو يعلى والطبراتي في الصغير والأوسط من حديث أنس: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال: «هل بنمي من والشيك أحد؟» قال: أمي. قال «قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد؛ وإسناد،

وَمَنْ أَمْسَىٰ مِثْلُ ذَٰلِكَ، وَإِنْ كَانَ وَاحِداً فَوَاحِداً، وَإِنْ ظُلْماً وَإِنْ ظُلْماً وَإِنْ ظُلْماً يُوجَدُ رِيحُها مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ مَامٍ، وَلاَ يَجِدُ رَيحَها عَاقٌ وَلاَ قَاطِعُ رَحِمٍ،(''، وقال ﷺ: •بِرُ أُمَّكَ وَآبَاكَ وَأَخَتَكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَذْنَاكَ فَأَذْنَاكَ ۖ".

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: يا موسى، إنه من بر والديه وعقني كتبته باراً، ومن برنى وعق والديه كتبته عاقاً.

وقيل: لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له: فأوحى الله إليه: أتتعاظم أن تقوم لأبيك، وعزتي وجلالي لا أخرجت من صلبك نبياً.

وسأله رجل فقال: يا رسول الله، من أبرٌ؟ فقال: «بِرٌ وَالِدَيْكَ»، فقال: ليس لي والدان، فقال:

 ⁽١) حديث: قمن أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة. . . ٩ الحديث، أخرجه البيهتي في الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح.

 ⁽۲) حديث: (إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة محمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم، أخرجه الطبراني في
الصغير من حديث أبي هريرة دون ذكر القاطع، وهي في الأوسط من حديث جابر، إلا أنه قال: (من مسيرة ألف عام»
وإسنادهما ضعيف.

⁽٣) حنيث: قبر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك أخرجه النسائي من حديث طارق المحاربي، وأخرجه أحمد والحاكم من حديث أبي رمثة، ولأبي داود نحوه من حديث كليب بن منفعة عن جده، وله وللترمذي والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه على جده: من أبر؟ قال. «أمك، ثم أمك، ثم أباك ثم الأترب فالأقرب» وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رجل: من أحق الناس بحسن الصحية؟ قال: «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبك ثم أبيك في المناء.

⁽٤) حديث: اما على أحد إذا أواد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين. . ٤ الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف دون قوله: «إذا كانا مسلمين».

حديث مالك بن ربيعة: «بينا بحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: هل بقي علي من بر أبوي شيء . . . ٤ الحديث . أخرجه أبر داود وابن حيان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽٦) حديث: (إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه؛ أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

 ⁽٧) حديث: قبر الوالدة على المولد ضعفان، غريب بهذا اللفظ، وقد تقدم قبل هذا شلائة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة وهو معنى هذا الحديث.

 ⁽A) حديث: الدموة الوالغة أسرع إجابة. ١٠ الحديث. لم أقف له على أصل.

﴿بِرَّ وَلَٰذِكَ، كُمَا إِنَّ لِوَالِدَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا كَذَٰلِكَ لِوَلَٰدِكَ عَلَيْكَ حَقٌّ، ﴿ وقال ﷺ: ﴿رَحِمَ اللَّهُ وَالِدآ أَعَانَ وَلَدَهُ عَلَىٰ بِرِّهِ ۗ ۚ أَي لَم يَحْمُلُهُ عَلَى الْعَقُوقَ بِسُوءَ عَمَلُهُ. وقال ﷺ: ﴿سَاؤُوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُمْ لِي الْغَطِئَةِ ۗ وقد قيل: «ولدك ريحانتك تشمها سبعاً وخادمك سبعاً، ثم هو عدوّك أو شريكك» وقال أنس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «الغُلامُ يُعَثَّى عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمِّىٰ وَيُمَاطُ عَنْهُ الأذَىٰ، فَإِذَا بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ أَدْبَ، فَإِذَا بَلَغَ تِسْعَ سِنِينَ عُزِلَ فِرَاشُهُ، فَإِذَا بَلَغَ ثُلَاثَ مَّشْرَةَ سَنَةً ضُرِبَ عَلَىٰ الصَّلاةِ، فَإِذَا بَلَغَ سِتْ عَشْرَةَ سَنَةَ زَوْجَهُ أَبُوهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيتِدِهِ وَقَالَ: قَدْ أَذَبْنُكَ وَعَلَمْتُكَ وَأَتَكَحْتُكَ، أَهُوذُ بِالله مِنْ فِثَنَتِكِ فِي الذُّنِيا وَهَذَابِكَ لِمِي الآخِرَةِ"^(٣)، وقال ﷺ: «مِنْ حَقَّ الوَالِدِ عَلَىٰ الْوَلَدِ أَنْ يُحْسِنَ أَدَبُهُ وَيُحْسِنَ اسْمَهُ"^(٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ غُلام رَهِينَ أَوْ رَهِينَةٌ بِعَقِيقَتِهِ تُذْبَحُ حَنْهُ يَوْمَ السَّابِع وَيُحْلَقُ رَأْسُهُهُ (٥٠)، وقال قتادة: إذا ذبحت العقيقة أخذتُ صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع علَى يافوخ الصبي حتى يسيل عنه مثل المخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد.

وجاء رجل إلى عبدالله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم. قال: أنت أفسدته.

ويستحب الرفق بالولد: رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل ولده الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولمد ما قبلت واحداً منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ الأَ ، وقالت عائشة رضِي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ: ﴿الْهْسِلِي وَجْهَ أَسَامَةٌ›، فِجعلت أغسله وأنا أنفة، فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال: «قَدْ أَحْسَنَ بِنَا إِذْ لَمْ يَكُنْ جَارِيَةً اللهِ . وتعثر الحسن،

حديث: قال رجل يا رسول الله من أبر؟ قال (بر والديك؛ نقال ليس لي والدان نقال: (ولدك فكما أن لوالديك عليك حقاً كذلك (1) لولدك هليك حتى أخرجه أبو عمر النوقائي في كتاب معاشرة الأهلين من حديث عثمان بن عقان دون قوله: ﴿ فكما أن لوالديك، النخ وهذه القطعة رواها الطبراني من حديث ابن عمر ، قال الدارقطني في العلل : إنَّ الأصبح وقفه على ابن عمر .

حديث: «رحم الله والداً أعان وقده على بوه» أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث علي بن أبي طالب وابن عمر بسند ضعيف، ورواه النوقاني من رواية الشعبي مرسلاً.

حديث أنس " «الغلام بعق عنه يوم السابع ويسمى وبماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة، أخرجه أبو الشبح ابن حبان في كتاب الضحايا والعقيقة إلا أنه قال: ﴿وَأُدِيوهِ لَسَبِّعِ وَزُوجُوهِ لَسَبِّعِ عَشْرَةً وَلَمْ يَذَكُو الصَّوَّمُ وفي إسناده من لم يسم.

حديث: «من حق الولد على الوائد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه» أخرجه البيهتي في الشعب من حديث ابن عباس **(**£) وحديث عائشة وضعفهما.

حديث: «كل خلام رهين أو رهينة بمقبقته تذبح هنه يوم السابع ويحلق رأسه» أخرجه أصحاب السنن من حديث (e) سمرة، قال الترمذي: حسن صحيح.

حديث: رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال: إن لي مشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم فقال: (U همن لا يرحم لا يُوحمه أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. الأقرع بن حابس التميمي الدارمي، شهد فتح مكة وحنيناً والطائف، كان حكماً في الحاهلية، اعتبره النبي ﷺ من المؤلفة قلويهم، توفي زمن عثمان غازياً في خراسان.

حديث عائشة: قال لي رسول الله ﷺ يوماً: ﴿الْحَسْلَي وَجِهُ أَسْلُمُهُ فَحَمَلَتَ أَغْسَلُهُ وَأَنَا أَنْفَةَ؛ فَصَرِب بَيْدَي ثُمَّ أَخَلُهُ ففسل وجهه ثم قبله ثم قال: «قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية» لم أجده هكذا، ولأحمد من حديث عائشة: أن أسامة عثر معتبة الباب فدمي فجعل النبي يتليج يمصه ويقول: «لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنققها» وإسناده صحيح.

والنبي على منبره فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمَوْلُكُمُ وَأُولِنَدُكُمُ يَنْنَةً ﴾ [التَفَابُن: 10] وقال عبدالله بن شداد: بينما رسول الله على يصلي بالناس؛ إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر فقال: «إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته (٢)، وفي ذلك فوائد: إحداها القرب من الله تعالى؛ فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجداً، وفيه الرفق بالولد والبر، وتعليم لأمته. وقال عن "ريح الوَلَدِ مِنْ ريح الجَنَّةِ"،

وقال يزيد بن معاوية: أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل إليه قال له: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة؛ فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلاً، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك، فقال له معاوية: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت علي وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد. فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فأرسل يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقاسمه إياها على الشطر.

فهذه هي الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين وكيفية القيام بحقهما تعرف مما ذكرناه في حق الأخوة، فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران.

أحدهما: أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض، حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما، لأن ترك الشبهة ورع، ورضا الوالدين حتم. وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل، لأنه على التأخير، والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك، وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين.

قَال أَبُو سعيد الحُدري: هاجر رجل إلى رسول الله ﷺ من اليمن وأراد الجهاد، فقال عليه السلام: «هَلْ أَيْنَا لَكَ؟» قال: لا، فقال عليه السلام: «فَارْجِعْ إِلَىٰ السلام: «هَلْ أَيْنَا لَكَ؟» قال: لا، فقال عليه السلام: «فَارْجِعْ إِلَىٰ اَبُويْكُ فَاسْتَأَنِتُهُمَا، فَإِنْ فَعَلَا فَجَاهِدُ، وَإِلاَّ فَيرُهُما مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنْ ذَلِكَ خَيْرُ مَا تَلْقَىٰ الله بِهِ بَعْدَ التَّوَجِيدٍ»(٤٠)، وجاء آخر إليه ﷺ ليستشيره في الغزو فقال: «أَلكَ وَالِدَةً؟» قال: نعم. قال: «فَالْرَمْها فَإِنْ

⁽١) حديث. قعشر الحسن وهو على منبره على فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمُولَكُمُ وَأَوْلَدُكُمُ مِنْنَا أَلَى النَّمَائِن: ١٥]»، أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة في الحسن والحسين معاً يمشيان ويعثران، قال الترمذي: حسن غريب.

 ⁽٢) حديث عبدالله بن شداد: «بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه». رواه النسائي من رواية عبدالله بن شداد عن أبيه وقال: فيه الحسن أو الحسين على الشك، ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٣) حديث: اربح الولد من ربح الجنة أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه مندل بن علي ضعيف.

 ⁽٤) حديث أبي سعيد الخدري: الهاجر رجل إلى رسول الله ﷺ من اليمن وأراد الجهاد فقال ﷺ الباليمن أبواك؟ قال:
 نعم . . . الحديث . أخرجه أحمد وابن حبان دون قوله: الها استطعت الخ.

الجَنَّةَ هِنْذَ رِجُلَيْها،(۱). وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال: ما جئتك حتى أبكيت والدي، فقال: «ارْجِعْ إِلَيْهِما فَأَضْجِكْهُما كَمَا أَبْكَيْتَهُما»(۲).

وقال ﷺ: احَقُ كَبِيرِ الإِخْوَةِ عَلَىٰ صَغِيرِهِمْ كَحَقُ الوَالِدِ عَن وَلَدِهِ (٣٠).

وقال عليه السلام َ: ۚ ﴿إِذَا اسْتَصْعَبَتْ عَلَىٰ أُحَدِكُمْ دَائِتُهُ أَوْ سَاءَ خُلُقُ زَوْجَتِهِ أَوْ أَحَدِ مِنْ أَهْلِ بَـبَيِّهِ فَلْيَوْذُنْ فِي أُذُنِهِهِ ۚ '' .

حقوق المملوك:

اعلم: أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه في آداب النكاح، فأما ملك اليمين فهو أيضاً يقتضي حقوقاً في المعاشرة لا بد من مراعاتها، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله على أن قال: «اتَّقُوا الله فيما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَطْمِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ وَلاَ تُكَلُّوهُمْ مِنَ العَمَلُ مَا لاَ يُطِيقُونَ، فيما مَلَكَتُمْ أَيْمَانُكُمْ وَلَوْ شَاءَ لَمَلْكَهُمْ فَما أَحْبَبْتُم فَأَمُسِكُوا وَمَا كُرهُتُمْ فَيِيعُوا، وَلاَ تُعَذِّبُوا خَلْقَ اللهُ فَإِنَّ الله مَلْكَكُمْ إِيَّاهُمْ وَلَوْ شَاءَ لَمَلْكَهُمْ إِيَّاكُمْ اللهُ مَلْكَكُمْ وَلَوْ شَاءَ لَمَلْكَهُمْ إِيَّاكُمْ اللهُ مَلْكَكُمْ وقال عَلَيْ وَلاَ تَكَبُرُ وَلاَ خَائِنٌ وَلاَ سَيِّىءُ الْمَلَكَةِ اللهُ عَلى عنهما على عنوما الله على مناه على عنول الله على الله على عنول الله على عنهما: جاء رجل إلى رسول الله على المنال الله على عنهما: عا رجل إلى رسول الله على المنال الله عنهما عن الخادم؟

حديث: جاء آخر إلى النبي ﷺ يستشيره في الغزو فقال «ألك واللة؟٤ فقال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة تحت
قلمها أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جاهمة: أن جاهمة أتى النبي ﷺ . قال الحاكم:
صحيح الإسناد.

 ⁽٢) حديث: جاء آخر فقال: ما جتنك حتى أبكيت والذي فقال: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» أخرجه أبو داود
 والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبدالله بن عمرو قال: صحيح الإسناد.

⁽٣) حديث: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة، ورواه أبو داود في المراسيل من رواية سعيد بن عمرو بن العاص مرسلاً، ووصله صاحب مسند الفردوس فقال: عن سعيد بن عمرو بن سعيد من العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص وإسناده ضعيف.

 ⁽٤) حديث الإذا استصمب على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته قلبؤذن في أذنه، أخرجه أبو منصور
الديلمي في مسند الفردوس من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب بسند ضعيف نحوه.

حديث: كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطمعوهم مما تأكلون...» الحديث. الخ وهو معرق في عدة أحاديث: فروى أبو داود من حديث علي: كان آخر كلام رسول الله ﷺ «الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» وفي الصحيحين من حديث أنس: كان آخر وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» ولهما من حديث أبي در: «أطمعوهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم قامينوهم» لفظ رواية مسلم، وفي رواية لأبي داود: «من يلاقمكم من مملوكيكم فأطمعوهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يلاقمكم منهم فييعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى» وإمناده صحيح.

 ⁽٩) حديث: «للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا بطيق؛ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

٧) حديث: الا يلخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا ستى، الملكة، أخرجه أحمد مجموعاً، والنرمذي مفرقاً، وابن
ماجه مقتصراً على الستى، المملكة، من حديث أبي بكر وليس عند أحد منهم المتكبر، وزاد أحمد والنرمذي: «البخبل
والمنان، وهو ضعيف، وحسن الترمذي أحد طريقيه.

فصمت عنه رسول الله ﷺ ثم قال: «اغفُ عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْم سَبْعِينَ مَرَّةً» (١٠)، وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت، فإذا وجد عبداً في عمّل لا يطيقه وضع عنه منه. ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأي رجلاً على دابته وغلامه يسعى خلفه فقال له: يا عبدالله، احمله خلفك فإنما هو أخوك، روحه مثل روحك. فحمله ثم قال: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه. وقالت جارية لأبي الدرداء: إني سممتك منذ سنة فما عمل فيك شيئاً فقال: لم فعلت ذلك؟ فقالت: أردت الراحة منك، فقال: اذهبي فأنت حرة لوجه الله. وقال الزهري: متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر. وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية، فقال: ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق، فقال لها: أنت حرة لا بأس عليك. وكان عون بن عبدالله إذا عصاه غلامه قال: ما أشبهك بمولاك؟ مولاك يعصى مولاه وأنت تعصى مولاك، فأغضبه يوماً فقال: إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر. وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة، فعثرت وأراقتها على رأس سيدها ميمون، فقال: يا جارية أحرقتني، قالت: يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى. قال: وما قال الله تعالى؟ قلت: قال ﴿وَالْكَوْلِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل مِمرَان: ١٣٤] قال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَالْمَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِّ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] قال: قد عفوت عنك، قالت: زد فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَلَنُّهُ يُحِبُّ ٱلْمُعْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] قال: أنت حرة لوجه الله تعالى. وقال ابن المنكدر: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبداً له فجعل العبد يقول: أسألك بالله أسألك بوجه الله، فلم يعفه فسمع رسول الله على صياح العبد فانطلق إليه، فلما رأى رسول الله على أمسك يده، فقال رسول الله: فسَأَلَكَ بِوَجْهِ الله فَلَمْ تَعَفُّهُ فَلَمَّا رَأَيْتَنِي أَمْسُكَّتَ يَلَكَا قال: فإنه حر لوجه الله يا رسول الله، فقال: اللَّوْ لَمْ تَفْعَلْ لَسَفَعَتْ وَجُهَكَ النَّارُه (٢)، وقال ﷺ: اللَّهَبُدُ إِذَا نَصَحَ لِسَيْدِهِ وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ الله فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ الله ولما أعتق أبو رافع بكى وقال: كان لي أجران فذهب أحدهما. وقال ﷺ: «عُرِضَ عَلَيْ أَوَّلُ ثَلاَثَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَأَوَّلُ ثَلاَثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلاَثَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: فَالشَّهِيدُ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالِ، وَأَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: أَمِيرٌ مُسَلَّطُ؛ وَذُو تَرْوَةٍ لاَ يُعْطِي حَقَّ اللهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ، (١٠)، وعن أبي مسعود الأنصاري قال: بينا

 ⁽۱) حدیث ابن عمر جاء رجل إلى رسول الله ﷺ نقال: یا رسول الله كم تعفو عن الخادم؟ فصمت ثم قال: العف عنه
 كل يوم سيمين مرقة أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب.

⁽٢) حديث ابن المنكدر: «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ضرب عبداً له فجعل العبد يقول: أسألك بالله أسألك بوجه ابن المبارك في الزهد مرسلاً وهي رواية لمسلم في حديث أبي مسمود الآتي ذكره: فجعل يقول: أعوذ بالله، قال فجعل يضربه فقال: أعوذ برسول الله فتركه، وفي رواية له : فقلت: هو حر لوجه الله، فقال: «أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار» أو «لمستك النار».

 ⁽٣) حديث: اإذا نصبح العبد لسيده وأحسن هبادة الله فله أجره مرتبن، متفق عليه من حديث ابن عمر.

 ⁽٤) حديث عرض علي أول ثلاثة بفخلون الجنة وأول ثلاثة بدخلون النار: فأول ثلاثة بدخلون الجنة: الشهيد وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده . .) الحديث . أخرجه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة.

أنا أضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي «افلَمْ يَا أَبَا مَسْعُودِه مرتبِن فالتفت فإذا رسول الله ﷺ، فألقيت السوط من يدي فقال: «وَالله للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هٰذَاه (') ، وقال ﷺ: «إِذَا النَّاعَ أَحَدُكُم الحُلْوَ فَإِنَّهُ أَطْيَبُ لِنَفْسِهِ (') ، رواه معاذ. وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَىٰ أَحَدُكُمْ حَادِمَه بِطَعَامِهِ فَلْيُجْلِسْهُ وَلْيَاكُلْ مَعَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُتَاوِلْهُ لَقَمَة ('') ، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَىٰ أَحَدُكُمْ مَمْلُوكُهُ صَنْعَةَ طَعَامِهِ وَكَيْقَاهُ حَرْهُ وَمُؤْنَتُهُ وَقَرْبَهُ إِلَيْهِ فَلْيُجُلِسْهُ وَلْيَأْكُلْ مَعَهُ ، ووفي رواية: «إِذَا كَفَىٰ أَحَدَكُمْ مَمْلُوكُهُ صَنْعَةَ طَعَامِهِ وَكَيْقَاهُ حَرْهُ وَمُؤْنَتُهُ وَقَرْبَهُ إِلَيْهِ فَلْيُجُلِسْهُ وَلْيَأْكُلْ مَعَهُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيُحُلِسْهُ وَلْيَأْكُلْ مَعْهُ وَلَيْ أَلُو لِيَاخُذُ أَكُلَةً فَلْيُرَوِّقُها ـ وأشار بيده ـ وَلْيَضْمَها فِي يَدِهِ وَلْيَقُلْ: كُلْ هٰلِهِ ه ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال: يا أبا عبدالله ما هذا ؟ فقال: بعثنا الخادم في شغل، فكرهنا أن نجمع على سلمان رجل وهو يعجن فقال: يا أبا عبدالله ما هذا ؟ فقال: بعثنا الخادم في شغل، فكرهنا أن نجمع على على عملين. وقال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ جَارِيَةٌ فَصَانَها وَأَحْسَنَ إِلَيْهَا ثُمْ أَعْتَقُها وَتَرَوَّجُها فَذَٰلِكَ لَهُ أَجْرَانٍ " ، وقد قال ﷺ: «كُلُكُمْ رَاعٍ وَكُلُكُمْ مَسْؤُولٌ مَنْ رَعِيْدٍهِ " .

تم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق



 ⁽١) حديث أبي مسعود الأنصاري: قبينا أنا أضرب غلاماً لي سمعت صوتاً من خلفي قاعلم أبا مسعود مرتين... الحديث. رواه مسلم.

 ⁽٢) حديث معاذ: «إذا ابتاع أحدكم المخادم فليكن أول شيء يطعمه المحلو فإنه أطيب لتفسه أخرجه الطبراني في الأوسط،
 والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

⁽٣) حديث أبي هريرة: "وليأكل معه فإن أبى فليناوله، وفي رواية اإذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه... الحديث. متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطي باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر: «علاجه» وهذه اللفظة عند البخاري.

 ⁽٤) حديث: امن كانت عنده جارية فعالها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها قللك له أجرانه متفق عليه من حديث أبي
موسى.

 ⁽a) حديث: الكلكم راع وكلكم مسؤول عن رهيته متفى عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث فضالة بن عبيد: «ثلاثة لا يسأل عنهم: رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً...» الحديث. أخرجه
الطراني وصححه.

بِنْ مِنْ الْغُو الْكُنِّنِ الْيَعَدِّ

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربع العادات من كتاب احياء علوم الدين

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته، بأن صرف همهم إلى مؤانسته، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته، وروّح أسرارهم بمناجاته وملاطفته، وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجاري فكرته، فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى في خلوته، واستوحش بذلك عن الأنس بالإنس وإن كان من أخص خاصته، والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته، وعلى آله وصحابته سادة الحق وأثمته.

أما بعد: فإن للناس اختلافاً كثيراً في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها، وفوائد تدعو إليها، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة، وما ذكرناه في كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم. ويحصل ذلك برسم بابين:

الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها.

الباب الثاني: في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل.

徐 张 张

الباب الأول

في نقل المذاهب والأقاويل، وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب: فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين؛ فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، وفضيل بن عياض، وسليمان الخوّاص، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وبشر الحافي.

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار المعارف والإخوان والتألف، والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى، ومال إلى هذا: سعيد بن المسيب،

والشعبي، وابن أبي ليلى، وهشام بن عروة، وابن شبرمة، وشريح، وشريك بن عبدالله، وابن عيينة، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وجماعة.

والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأبين، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل. فلننقل الآن مطلقات تلك الكلمات؛ لنبين المذاهب فيها، وما هو مقرون بدكر العلة نورده عند التعرض للغوائل والفوائد، فنقول: قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: خذوا بحظكم من العزلة. وقال ابن سيرين: العزلة عبادة. وقال الفضيل: كفى بالله محباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً. وقيل: اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً. وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي: عظني، قال: صُمّ عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فوارك من الأسد. وقال الحسن رحمه الله: كلمات أحفظهن من التوراة؛ قنع ابن آدم فاستغنى، اعتزل الناس فسلم، ترك الشهوات فصار حراً، وترك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلاً فتمتع طويلاً. وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء؛ تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس. وقال يوسف بن مسلم المحكمة عشرة أجزاء؛ تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس. وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة؟ ـ وقد كان لزم البيت ـ فقال: كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا؛ كنت أجالس الناس ولا أكلمهم. وقال سفيان الثوري: هذا وقت على أكثر من هذا؛ كنت أجالس الناس ولا أكلمهم. وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت. وقال بعضهم: كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا السكوت وملازمة البيوت. وقال بعضهم: كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا ولا تكلمنا، فأنشأ يقول:

قسلسيسلُ السهسمِّ لا ولسد يسمسوت ولا أمسسر يسمساذره يستغسوتُ قسفسي وظَرَ السمسسا وأفساد عسلماً فيغايتُه الستيفرد والسسكوتُ

وقال إبراهيم النخعي لرجل: تفقة ثم اصترا، وكذا قال الربيع بن خيشم. وقيل: كان مالك بن أنس يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعطي الإخوان حقوقهم، فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها، وكان يقول: لا يتهيأ للمرء أن يخبر كل عذر له. وقيل لعمر بن عبدالعزيز: لو تفرغت لنا؟ فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى، وقال الفضيل: إني لأجد للرجل عندي يداً؛ إذا لقيني أن لا يسلم علي، وإذا مرضت أن لا يعودني. وقال أبو سليمان الداراني: بينما الربيع بن خيثم جالس على باب داره، إذ جاءه حجر فصك جبهته فشجه، فجعل يمسح المدم ويقول: لقد وحظت يا ربيع، فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته. وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لزما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا غيرها حتى ماتا بالعقيق. وقال يوسف بن أسباط: سمعت سفيان الثوري يقول: والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة. وقال بشر بن عبدالله: أقِلٌ من معرفة الناس؛ فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة، فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلاً. ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال: أن لا تراني ولا أراك على حاتم الأصم فقال له: أريد أريد أن أصحبك، فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر؟

قال: الله، قال: فليصحبه الآن. وقيل للفضيل: إن علياً ابنك يقول: لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يروني، فبكى الفضيل وقال: يا ويح على أفلا أتمها فقال: لا أراهم ولا يروني؟. وقال الفضيل أيضاً: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا تُرى. فهذه أقاويل الماثلين إلى العزلة.

ذكر حجج الماثلين إلى المخالطة ووجه ضعفها:

احتج هؤلاء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَقُوا وَاَخْتَلَفُوا ﴾ [آل بِمرَان: ١٠٥] الآية. وبقوله تعالى: ﴿وَلَاتَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [آل بِمرَان: ١٠٣]. امتن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف؛ لأن المراد به تفرّق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة، والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور؛ وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات، والعزلة لا تنافي ذلك.

واحتجوًا بقوله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ إِلْفُ مَأْلُوفٌ وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلُفُ وَلاَ يُؤْلَفُ»(١) وهذا ضعيف؛ لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤالفة، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف، ولكنه ترك المخالطة اشتغالاً بنفسه وطلباً للسلامة من غيره.

واحتجوا بقوله على: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةُ شِبْراً خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ مُنْقِهِ» وقال: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةُ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ (٢٠) ، وبقوله على: «مَنْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي إِسْلَامٍ دَامِجٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ مُثْقِهِ ٢٠) ، وهذا ضعيف؛ لأن المراد به الجماعة الذي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم ، وذلك محظور؛ لاضطرار الحلق إلى البيعة عن الأكثر ، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة ، فليس في هذا تعرض للمزلة .

واحتجوا بنهيه ﷺ عن الهجر فوق ثلاث إذ قال: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلَاثِ قَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ»، وقال عليه السلام: «لاَ يَجِلُّ لامْرِيءِ مُسْلِم أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلَاثٍ وَالسَّابِقُ بِالصَّلْحِ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، (**)، وقال: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَافِكِ دَمِهِ، (٢٠)، قالوا: والعزلة هجره بالكلية. وهذا ضعيف؛ لأن المراد

كتاب المزلة

الباب الأول: في نقل المذاهب والحجج فيها

(١) حديث: «المؤمن إلف مألوف. . . ٩ الحديث. تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة.

 (۲) حديث: قمن ترك الجماعة فمات فميتته جاهلية الخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الحامس من كتاب الحلال والحرام.

(٣) حديث: امن شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربقة الإسلام! أخرجه الطبراني والخطابي في
 المزلة من حديث ابن عباس بسند جيد.

(٤) حديث: قمن هجر أخاه قوق ثلاث قمات دخل الثارة أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح.

(٥) حدیث «لا یحل لامری» أن یهجر آخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح یدخل الجنة» متفق علیه من حدیث أنس دون
 قوله: «والسابق بالصلح» زاد فیه الطبرانی «والذی یبدأ بالصلح یسبق إلی الجنة».

(۲) حديث: امن هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حدرد بن أبي حدرد وإسناده صحيح.

به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلاً من غير غضب. مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين:

أحدهما: أن يرى فيه إصلاحاً للمهجور في الزيادة.

الثاني: أن يرى لنفسه سلامة فيه. والنهي وإن كان عاماً فهو محمول على ما وراء الموضعين المخصوصين بدليل ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي هي هجرها ذا الحجة والمحرّم وبعض صفر (۱). وروي عن عمر: أنه هي اعتزل نساءه وآلى منهن شهراً، وصعد إلى غرفة له وهي خزانته فلبث تسعاً وعشرين يوماً، فلما نزل قبل له: إنك كنت فيها تسعاً وعشرين، فقال: «الشهر قد يكون تسعاً وعشرين» (۱)، وروت عائشة رضي الله عنها: أن النبي قلة قال: «الا يَحِلُ لِمُسْلِم أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوَقَ لَكَ اللهُ إِلاَ أَنْ يَكُونَ مِشَنَ الا تُوْمَنُ بَوَائِقُهُهُ (۱)، فهذا صريح في التخصيص، وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال: هجران الأحمق قربة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت؛ إذ الحماقة لا ينتظر علاجها. وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلاً حتى مات، فقال: هذا شيء قد تقدّم فيه قوم؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجراً لعمار بن ياسر حتى مات، وعثمان بن عفان كان مهاجراً لعبدالرحمن بن عوف، وعائشة كانت مهاجرة لحفصة، وكان طاوس مهاجراً لوهب بن منبه حتى ماتا، وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة.

واحتجوا بما روى: أن رجلاً أتى الجبل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال: ﴿لاَ تَفْعَلْ الْمَسْكِمْ خَيْرٌ لَهُ مِنْ هِبَادَةِ أَحَدِكُمْ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ هِبَادَةِ أَحَدِكُمْ وَحْدَهُ أَرْبَعِينَ عَاماًه (٤) والظاهر: أنّ هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام، بدليل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء، فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله ﷺ فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله ﷺ فقال ﷺ ﴿ لاَ تَفْعَلُ فَإِنَّ مُقَاماً وَلَا أَخُدِكُمْ فِي سَبِيلِ الله فَإِنّهُ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الله قُواقَ نَاقَةٍ أَدْخَلَهُ الله يَغْفِرَ الله فَوَاقَ نَاقَةٍ أَدْخَلَهُ الله المُخَدِّ (٥٠).

واحتجوا: بِمَا رَوَى مَعَاذَ بِنَ جَبِلَ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِنْبُ الْإِنْسَانِ كَذِنْبِ الغَنَمِ يَأْخُذُ

 ⁽۱) حديث: «أنه 震 هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر».

قلت: إنما هجر زيب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو عنده صالح.

⁽٢) حديث عمر: ﴿أَنَّه ﷺ اعتزل نساءه وآلي منهن شهراً. . ، الحديث. متفق عليه.

 ⁽٣) حديث عائشة: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يأمن بوائقه». أخرجه ابن عدي وقال: غريب المنن والإسناد، وحديث عائشة عن أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح.

 ⁽٤) حديث: أن رحماً أنى الجمل ليتعبد فيه فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال: ﴿لا تفعل› الحديث. أخرحه البيهةي من
 حديث عسعس بن سلامة، قال ابن عبدالبر: يقولون: إن حديثه مرسل، وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

 ⁽٥) حديث أبي هريرة: "غزونا على عهد رسول الله على عهد في غيبة طيبة الماء غزيرة، فقال واحد من القوم:
 لو اعتزلت الناس في هذا الشعب. . . الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح والحاكم وقال: صحيح على
 شرط مسلم إلا أن الترمذي قال: "مبعين عاماً».

القَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ وَالشَّارِدَةَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشَّمَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالعَامَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَالمَسَاجِدِ، ()، وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم، وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة.

ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة:

حدیث معاذ بن جبل: الشیطان دئب الإنسان كذئب الغنم یأخذ القاصیة اخرجه أحمد والطبرانی ورجاله ثفات إلا أن
 فیه انقطاعاً.

 ⁽٢) حديث. قبل له ﷺ الوصوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يطهر منها الناس؟ فقال: قبل من هذه
 المطاهر . . . ٩ الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف.

 ⁽٣) حديث: الما طاف بالبيت عدل إلى زمزم يشرب منها فإذا التمر منقع في حياض الأدم قد مغثه الناس بأيديهم...*
 الحديث، وفيه فقال: «اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس» رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس
 بسند ضعيف، ومن رواية طاوس مرسلاً نحوه.

حديث: «اعتزائه تله قريساً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى الحبشة. . . . الحديث . رواه موسى بن عقبة في المعازي، ومن طريقه البيهةي في الدلائل عن ابن شهاب مرسلاً أيضاً، ووصله من في الطبقات من رواية ابن شهاب علي بن أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام مرسلاً أيضاً، ووصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بني هاشم في الشعب، وذكر موسى بن موسى بن عقبة أن أيا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله الله شعبهم، ومغازي موسى بن عقبة أصح المغازي وذكر موسى بن عقبة أيضاً أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة، ولأبي عقبة أصح المغازي وذكر موسى : المراق التي الله أن لنطلق إلى أرض النجاشي، قال البيهقي: وإسناده صحيح، ولأحمد داود من حديث أبي موسى: المراق التي الله النجاشي». وروى ابن إسحاق بإسناد جيد، ومن طريقه البيهقي في من حديث ابن مسعود: المعبد المجبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالمحقوا ببلاده. . . ؟ الحديث الديث الديث أم سلمة: قان بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالمحقوا ببلاده. . . ؟ الحديث .

بعد أن أعلى الله كلمته. وهذا أيضاً اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم، فإنه ﷺ لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار. وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار، وإنما النظر في العزلة من المسلمين.

واحتجوا بقوله ﷺ لعبدالله بن عامر الجهني لما قال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «لِيَسْعُكَ بَيْتُكَ وَأَمْسِكُ عَلَيْكَ لِسَاتُكَ وَإِبْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ ('')، وروي أنه قيل له ﷺ أي الناس أفضل؟ قال: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَىٰ» قيل: ثم من؟ قال: «رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبُّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ ('')، وقال ﷺ: «إِنَّ الله يُحِبُّ الْعَبْدَ الثَّقِيِّ النَّقِيِّ الْخَفِيْ ('').

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر، فأما قوله لعبدالله بن عامر: فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه ﷺ بنور النبوة من حاله، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد، وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل، وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة، ولذلك قال ﷺ: «اللّذِي يُخَالِطُ النّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ اللّذِي لا يُحَالِطُ النّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ اللّذِي لا يُحَالِطُ النّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ اللّذِي لا يُحَالِطُ النّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ اللّذِي لا يُحَالِطُ النّاسَ وَقوله: «رَبُلُ مُغَتَزِلٌ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النّاسَ مِنْ شَرَّهِ فهذه إلله يُحِبُ النّقِي الخَفِيّ النّاسِ؟ وكم مِنْ راهب معتزل تعرفه كافة الناس؟ وكم من مخالط خامل لا ذكر له ولا شهرة؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة .

واحتجوا بما روي أنه ﷺ قال لأصحابه: "أَلا أُنَبُفُكُمْ مِخْيرِ النَّاسِ؟" قالوا: بلى يا رسول الله، فأشار سيده نحو المغرب وقال: "رَجُلُ آخِذٌ بِمِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله يَنْتَظِرُ أَنْ يُغِيرَ أَوْ يُغارُ عَلَيْهِ. أَلا أُنَبُفُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ بَعْدَهُ؟" وأشار بيده نحو الحجاز وقال: "رَجُلُ فِي خَنَمِهِ يُقِيمُ الصَّلاةَ وَيُؤْتِي الرَّكَاةَ وَيَعْلَمُ حَقَّ الله فِي مَالِهِ اعْتَزَلَ شُرُورَ النَّاسِ؟ (٥)، فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف المعطاء؛ بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقايسة بعضها بالبعض ليتبين الحق فيها.

* * *

⁽١) حديث: سأله عقبة بن عامر عار سول الله ما النجاة؟ فقال: «ليسعك بيتك. . . الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عقبة وقال: حسن.

 ⁽۲) حديث: أي الناس أفضل؟ فقال: امؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، قيل: ثم من؟ قال: الرجل معتزل....
 الحديث. متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدري.

 ⁽٣) حديث: (إن الله بحب العبد النفي النفي الخفي، أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص.

⁽٤) حديث: اللذي يخالط الناس ولا يصبر على أقاهم، أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبن عمر، ولم يسم الترمذي الصحابي. قال شيخ من أصحاب النبي ﷺ: والطريق واحد.

⁽a) حديث: اللا أنبتكم بخير الناس؟! قالوا: بلى، قال: فأشار بيده نحو المغرب وقال: ارجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أم مبشر إلا أنه قال: نحو المشرق، بدل المغرب، وفيه ابن إسحاق رواه بالعنعنة، وللترمذي والنسائي نحوه مختصراً من حديث ابن عباس، قال الترمذي: حديث حسن.

الباب الثاني

في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها

اعلم: أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده، فكذلك القول فيما نحن فيه. فلنذكر أولاً فوائد العزلة: وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية، والدينية: تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم، وإلى تخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيئة من جلساء السوء. وأما الدنيوية: فتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة؛ كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها، وطمعه في الناس وطمع الناس فيه، وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذي بسوء خلق الجليس في مرائه أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذي بثقله وتشويه خلقته، وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فلتحصرها في ست فوائد:

الفائدة الأولى:

التفرّغ للعبادة والفكر والاستئناس بعناجاة الله تعالى عن مناجاة الدخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض، فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع الممخالطة، فالعزلة وسيلة إليه، ولهذا قال بعض الحكماء: لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى؛ والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله، الذاكرون الله بنالله: عاشوا بذكر الله، وماتوا بذكر الله، ولقوا الله بذكر الله. ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم، ولذلك كان في في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة (الله مقبلاً على الله تعالى عن الله؛ فكان ببدنه مع الخلق ويقلبه مقبلاً على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله، فأخبر النبي في عن استغراق همه بالله فقال: الأو كُنتُ مُتَّخِذاً والإقبال على الله سراً إلا قوّة النبوّة، فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن والإقبال على الله سراً إلا قوّة النبوّة، فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه؛ فقد نقل عن الجبيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم، وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبقى لغيره فيه متسع وذلك غير منكر، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببدنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبوبه. بل الذي دهاه ملم يشوّش عليه أمراً من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا

الياب الثاني: في قوائد العزلة وخوائلها

حدیث: اکان ﷺ في أول أمره يتشل في جبل حراء وينعزل إليه ا. متفق عليه من حديث عائشة نحوه: الفكان يخلو
بغار حراء يتحنث فيه . . . ، الحديث .

⁽٢) حديث: فلو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله اخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدّة استغراقه. وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء، فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة. ولذلك قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبت العلوم في قلوبهم؛ ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة. وقيل لبعض الرهبان: ما أصبرك على الوحدة! فقال: ما أنا وحدي أنا جليس الله تعالى؛ إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت. وقيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة؟ فقال: إلى الأنس بالله. وقال سفيان بن عيينة: لقيت إبراهيم بن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له: يا إبراهيم تركت خراسان؟ فقال: ما تهنأت بالعيش إلا ههنا، أفرّ بديني من شاهق إلى شاهق، فمن يراني يقول موسوس أو حمال أو ملاح. وقيل لغزوان الرقاشي: هبك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك؟ قال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي. وقبل للحسن: يا أبا سعيد ههنا رجل لم تره قط جالساً إلا وحده خلف سارية. فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به، فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن: هذا الرجل الذي أخبرناك به وأشاروا إليه، فمضى إليه الحسن وقال له: يا عبدالله، أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من محالسة الناس؟ فقال: أمر شغلني عن الناس، قال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه؟ فقال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن. قال له الحسن: وما ذاك الشغل يرحمك الله؟ فقال: إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب. فقال له الحسن: أنت يا عبدالله أفقه عندي من الحسن فالزم ما أنت عليه. وقيل: بينما أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس: ما جاء بك؟ قال: جئت لأنس بك، فقال أويس: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره. وقال الفضيل إذا رأبت الليل مقبلاً فرحت به وقلت: أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي. وقال عبدالله بن زيد: طوبي لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة. وقال ذو النون المصري: سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه. وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عزّ وجلّ عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره. وقال ابن المبارك: ما أحب حال من انقطع إلى الله تعالى! ويروى عن بعض الصالحين أنه قال: بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت: سبحان الله تبخل عليُّ بالنظر إليك؟ فقال: يا هذا، إني أقمت في هذا الجبل دهراً طويلاً أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري فسألت الله تعالى أن لا يجعلُ حظي من أيامي في مجاهدة قلبي، فسكنه الله عن الأضطرّاب وألفه الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأوَّل، فإليك عني فإني أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب القانتين، ثم صاح: واغمَّاه من طول المكث في الدنيا، ثم حوّل وجهه عني، ثم نفض يديه وقال: إليك عني، يا دنيا، لغيري فتزيني وأهلك فغري، ثم قال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهي قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان، وجمع همهم في ذكره فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ثم مضى وهو يقول: قدوس قدوس. فإذاً: في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل:

وإنسى لأستسغسسي ومسابسي غسشسوة للعسل خيسالا مسننك يسلقني خيساليسا وأخرجُ من بين الجلوس لعلنى أحدَّث عنك النفس بالسرِّ خاليا

ولذلك قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة، فيكثر حينئذ ملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة. وقد قيل: الاستئناس من علامات الإفلاس. فإذاً: هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص. ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله؛ فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفاً بالله، ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة.

الفائدة الثانية:

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة: الغيبة والنميمة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديثة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

أما الغيبة: فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون. فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس والتفكه بها والتنفل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم، وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فهو من أصول الدين وهو واجب ـ كما سيأتي بيانه في آخر هذا الربع ـ ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عصى الله به، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضور؛ إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاص هي أكبر مما نهى عنه ابتداء. وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق، وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً وقال: "أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَاأَيُّا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْسُكُمْ لَا يَشْرُكُم مِّن صَلَّ إذَا النَّاسُ المَنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعِقَابٍهُ (١)، وقد قال ﷺ يقول: ﴿إِذَا رَأَيْنَ المُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَنَ الله لِعَبْدِ حُجَّتُهُ قَالَ: يَا رَبُّ رَجُوتُكَ وَحِفْتُ النَّاسَ (١٠)، له وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق، ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر، وفي العزلة خلاص، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل:

وكم سقت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصّح

 ⁽١) حديث أبي بكر: إنكم تقرؤون هذه الآبة: ﴿يَكَائِبًا الَّذِينَ ءَامَتُوا عَلَيْكُمْ أَنْدُمَكُمْ لَا يَشْرُكُم مَن ضَلَ إِذَا ٱلمَتَدَبَّشُـ ﴾ [المائدة:
 (١) المناف الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽٢) حديث: (إن الله يسأل العبد حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر في اللغيا أن تنكره...» الحديث. أخرجه ابن ماجه
 من حديث أبى سعيد الخدري بإسناد جيد.

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً؛ فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه، فإذا سقط عليه يقول: يا ثبتني تركته ماثلاً. نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام، وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك.

وأما الرياء: فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه، وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا. وأقل ما يلزم فيه النفاق؛ فإنك إن خالطت متعاديين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتهما كنت من شرار الناس. وقال ﷺ: التَّجدُونَ مِنْ شِرَار النَّاس ذَا الوَجْهَيْن يَأْتِي لْهُولاءِ بوَجْهِ وَهْؤُلاءِ بِوَجْمِهِ (¹)، وقال عليه السلام: «إنَّ مِنْ شَرُّ النَّأْسِ ذَا الوَجْهَيْنَ يَأْتِي هؤُلاءِ بِوَجْمِ وَهْؤُلَاءِ بِوَجْمِ^{؟ ٢)}، وأقل ما يجب في محالطة الناس: إظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه، وهذا نفاق محض. قال سري: لو دخل أخ لي فسويت لحيتي بيدي لدخوله لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين. وكان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة يا أبا على، فقال: هي والله بالمواحشة أشبه، هل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عنى أو أقوم عنك. وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبداً إلا أحب أن لا يُشعَر به. ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال: لِمَ لَمْ تخاطبني بأمير المؤمنين؟ فقال: لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذباً. فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين. فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون في قولهم: كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه، فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا. قال حاتم الأصم لحامد اللفاف: كيف أنت في نفسك؟ قال: سالم معافى. فكره حاتم جوابه وقال: يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة. وكان إذا قيل لعيسى ﷺ كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا أملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحاذر، وأصبحت مرتهناً بعملي، والخبر كله في يد غيري، ولا فقير أفقر مني، وكان الربيع بن خيثم إذا قبل له، كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفي أرزاقنا وننتظر آجالنا. وكان أبو الدرداء إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بخير إن نجوت من النار. وكان سفيان الثوري إذا قبل له: كيف أصبحت؟ يقول: أصبحت أشكر ذا إلى ذا، وأذم ذا إلى ذا، وأفر من ذا إلى ذا، وقيل لأويس القرني: كيف أصبحت؟ قال: كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح، وإذا أصبح لا يدري أنه يمسى؟ وقيل لمالك بن دينار: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد. وقيل لبعض الحكماء: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا أرضى حياتي لمماتي ولا نفسي لربي. وقيل لحكيم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت آكل رزق ربي وأطيع عدرٌه إبليس. وقيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة

⁽١) حديث: الجادون من شراو الناس ذا الوجهين؛ منفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث: (إن من شر الناس ذا الوجهين، متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو الذي قبله.

مرحلة. وقبل لحامد اللفاف: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: الست في عافية في كل الأيام؟ فقال: العافية يوم لا أعصى الله تعالى فيه. وقيل لرجل وهو يجود بنفسه: ما حالك؟ فقال: وما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة. وقيل لحسان بن أبي سنان: ما حالك؟ قال: ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب. وقال ابن سيرين لرجل: كيف حالك؟ فقال: وما حال من عليه خمسمائة درهم ديناً وهو معيل؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال: خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك ـ ولم يكن عنده غيرها ـ ثم قال: والله لا أسأل أحداً عن حاله أبداً. وإنما فعل ذلك لأنه خشى أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرائياً منافقاً، فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله، وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة. وقال بعضهم: إنى لأعرف أقواماً كانوا لا يتلاقون، ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويتساءلون حتى عن الدجاجة في البيت، ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق؟ وآبة ذلك: أنك ترى هذا يقول: كيف أنت؟ ويقول الآخر: كيف أنت؟ فالسائل لا ينتظر الجواب، والمسؤول يشتغل بالسؤال ولا يجيب، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف. ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال. قال الحسن: إنما كانوا يقولون السلام عليكم، إذا سلمت والله القلوب، وأما الآن: فكيف أصبحت عافاك الله؟ كيف أنت أصلحك الله؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة، فإن شاؤوا غضبوا علينا، وإن شاؤوا لا، وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك: كيف أصبحت بدعة. وقال رجل لأبي بكر بن عياش: كيف أصبحت؟ فما أجابه، وقال: دعونا من هذه البدعة. وقال: إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول: كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشية فيقول: كيف أمسيت؟ والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق، وكل ذلك مذموم، بعضه محظور وبعضه مكروه، وقى العزلة الخلاص من ذلك، فإن من لقى الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه؛ فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم.

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم؛ فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى مغالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله؛ إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هيئاً على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له، وإنما الوازع عنه شدّة وقعه في القلب، فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوّة الوازعة، ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه. ومهما طالت مشاهدته للكماثر من غيره امتحقر الصغائر من نفسه؛ ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده، وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم. وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة، هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار، وما دام يرى نفسه مقصراً فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستثماماً للاقتداء.

ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان، وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا، واعتيادهم

المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك. ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته. وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله ﷺ: هَمِنْدَ ذِكْرِ الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته. وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله ﷺ: هونذك، ولكن الصالحين تُثْرِلُ الرَّحْمَةُ أُ⁽¹⁾، وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك، ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير. ومبدأ الرحمة: فعل الخير، ومبدأ فعل الخير: الرغبة، ومبدأ الرغبة: ذكر أحوال الصالحين، فهذا معنى نزول الرحمة.

والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه، وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة ؛ لأن كثرة ذكرهم تهوَّن على الطبع أمر المعاصى، واللعنة هي البعد، ومبدأ البعد من الله هو المعاصى، والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضوة لا على الوجه المشروع. ومبدأ المعاصي سقوط ثقُلها وتفاحشها عن القلب، ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع. إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم؟ بل قد صرح بذلك رسول الله على حيث قال: "مَثَلُ الجَلِيس السُّوءِ كَمَثَل الكِيرِ إِنْ لَمْ يَحْرِفُكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ (٢٠)، فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به، فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به. وقال: ﴿مَثْلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ صَاحِبِ المِسْكِ إِنْ لَمْ يَهَبْ لَكَ مِنْهُ تُجِدْ رِيحَهُ ولهذا أقول: من عرف من عالم زلة حرم عليه حكاًيتها لعلتين، إحداهما: أنها غيبة، والثانية وهي أعظمهما: أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها، فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية، فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال: كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد؟ ولو اعتقد أنَّ مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام، فكم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهالك على حب الرئاسة وتزيينها ويهوّن على نفسه قبحها، ويزعم أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرئاسة؟ وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرئاسة، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرئاسة ولوازمها من المعاصي. والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات، بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنريل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكائد الشيطان، ولدلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَسَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ [الزُّمر: ١٨] وضرب ﷺ لذلك مثلاً وقال: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ يَسْتَمِعُ الحِكْمَةَ ثُمَّ لاَ يَعْمَلُ إِلاَّ بِشَرَّ مَا يَسْتَمِعُ كَمَثِلِ رَجُلِ أَتَىٰ رَاعِياً فَقَالَ لَهُ: يَا رَاعِي اجْرُرُ لِي شَاةً مِنْ غَنَمِكَ فَقَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ خَيْرَ شَاةٍ فِيها فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأَذُنِ كُلْبِ الغَنَمِ""، وكل من ينقل هفوات الأثمة فهذا مثاله أيضاً.

حديث: اعتد ذكر الصالحين ثنزل الرحمة، ليس له أصل في الحديث المرفوع وإنما هو من قول سفيان بن عيينة كذا رواه اين الجوزي في مقدمة صفوة الصفوة.

⁽٢) حديث: قمثل الجليس السوء كمثل الكير. . . ٤ الحديث. متفق عليه من حديث أبي موسى.

 ⁽٣) حديث: قمثل الذي يسمع العكمة ثم لا يحمل منها إلا شر ما يسمع كمثل رجل أتى راهياً فقال: يا راهي اجرر لي
شاة من غنمك، الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هربرة سند ضعبف.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته: أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يفضي إلى اعتقادهم كفره، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم، مع أن صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيُّه ولا سبب له إلاّ أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فبسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب. ولذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك. والغيبة أشد من الزني، فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها، فتفطن لهذه الدقائق وفرّ من الناس فرارك من الأسد؛ لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة، ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة. فإن وجدت جليساً يذكرك الله رؤيته وسيرته؛ فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره؛ فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن. وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء، ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته؛ لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة. وإياك أن تحكم مطلقاً على العزلة أو الخلطة بأن إحداهما أولى إذ كل مفصل، فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق في المفصل إلا التفصيل.

الفائدة الثالثة:

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها. قال عبدالله بن عمرو بن العاص. لما ذكر رسول الله على الفتن ووصفها وقال: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَحَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هُكَذَا» _ وشبك بين أصابعه _، قلت: فما تأمرني، فقال: «الْزَمْ بَيْتَكَ وَامْلِكُ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذَ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْمَحَاصَةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامْةِهِ (١)، وروى أبو سعيد الخدري أنه علي قال: «بُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ المُسْلِم خَنَما يَتْبُعُ بِها شَمَفُ الحِبَالِ وَمَوَاقِعَ الفَطْوِ يَهُولُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ مِنْ الْفِتَنِ مِنْ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ مُعَلِقً بَلِيهِ مِنَ الْفِتَنِ مِنْ الْفِتَنِ مِنْ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانُ لاَ يَسْلَمُ لِذِي دِينِ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ شَاهِقٍ إِلَىٰ مُحَدِي النَّاسِ زَمَانُ لاَ يَسْلُمُ لِذِي دِينٍ شَاهِقٍ اللهُ عَنْ النَّاسِ زَمَانُ لاَ يَسْلُمُ لِذِي دِينٍ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانُ لاَ يَسْلُمُ لِذِي دِينٍ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانُ لاَ يَسْلُمُ لِذِي دِينٍ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانُ لاَ يَسْلُمُ لِذِي يَتِينِ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانُ فَلِكَ الزَمَانُ عَلَىٰ عَلَىٰ عَلَىٰ الْمُعَلِي عَلَىٰ اللهُ اللهُ عَلَىٰ عَلَىٰ عَلَىٰ عَلَىٰ عَلَىٰ عَلَىٰ عَلَىٰ يَدَى قَوْلُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبُوانِ فَعَلَىٰ يَلَيْ زَوْجَدِهِ وَوَلَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلَىٰ يَدَيْ قَرَابَةِهِ ، قَالُوا عَلَىٰ يَلَىٰ عَلَىٰ يَدَى قَوْلُوا عَلَىٰ عَلَىٰ يَدُى قَوْلُوا عَلَىٰ عَلَىٰ يَدَى قَوْلُوا عَلَىٰ عَلَىٰ يَدَى قَوْلُوا عَلَىٰ عَلَىٰ يَدَى قَوْلُوا عَلَىٰ يَدَى فَعَلَىٰ يَدَى قَوْلُوا عَلَىٰ يَكُنْ فَعَلَىٰ يَدَى قَرَابَةِهِ ، قَالُوا المَالُوا المَعْلِقُ عَلَىٰ يَكُنْ فَعَلَىٰ يَدَى قَلِىٰ يَدَى فَلِى عَلَىٰ يَدَى فَلَىٰ يَدَى فَلَىٰ يَدُى فَلَىٰ يَدَى فَلَىٰ يَدَى فَلَىٰ الْمَالُ عَلَىٰ يَكُىٰ فَعَلَىٰ يَدَى فَلَىٰ يَكُىٰ فَعَلَىٰ يَدَى فَلَىٰ يَدُى لَمُ يَكُى فَعَلَىٰ يَدِي قَالُ الْمَالُوا الْمُعْلِقُ الْمَالُوا الْمُعْلِقُ عَلَىٰ الْمَالِهُ

⁽١) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: «إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم، ٠٠٠ الحديث، أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم واللبلة بإسناد حسن.

 ⁽٣) حديث أبي سُعيد الخدري: (يوشك أن يكون خير مال المسلم فنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بديته من الفتن رواه البخاري.

وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: المعنيق المنافقة بضيق النافق منه الأيطيق حَتَىٰ يُورِدَهُ فَلِكَ مَوَارِدَ الهَاكَمَةِهُ (١) وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه؛ إذ لا يستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، ولست أقول: هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر، ولأجله قال سفيان: والله لقد حلت العزلة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذكر رسول الله ﷺ أيام الفتنة وأيام الهرج قلت: وما الهرج؟ قال: الحين لا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ قلت: فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: الحَفَّ نَفْسَكَ وَيَذَكَ وادْخُلْ دَارَكَ قال: قلت: يا رسول الله وأضي إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: الحَفَّ نَفْسَكَ وَيَذَكَ وادْخُلْ دَارَكَ قال: قلت: يا رسول الله أرأيت إن دخل على بيتي؟ قال الحَادُخُلْ مَسْجِلَكُ أوائِت إن دخل على بيتي؟ قال الحَادُخُلْ مَسْجِلَكُ أوائِت إن دخل على بيتي؟ قال الحَادُون مُسْجِلكُ أوائِت إن دخل على بيتي؟ قال الحَادُخُلْ مَسْجِلكُ أيام معاوية ـ: لا . إلا أن تعطوني سيفاً له عينان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه وقال: مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كذلك يسيرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم، فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، عجاجة فضلوا الطريق فالتبال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهبت الريح وتبينت الطريق فسافروا. فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن.

وعن ابر عمر رضي الله عنهما: أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له: أين تريد؟ فقال: العراق. فإذا معه طوامير وكتب، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم فقال: لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم. فأبى، فقال: إني أحدثك حديثاً: جبريل أتى النبي في فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله في والله لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل أو أسير (٣٠٠). وكان في الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلاً. وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال: فساد الزمان وحيف الأثمة، ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قبل له: لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله في فقال: رأيت مساجدكم لاهية، وأسواقكم لاغية، والفاحشة في فجاجكم عائية، وفيما هناك عما أنتم فيه عافية. فإذن الحذر من الخصومات، ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة.

الفائدة الرابعة:

الخلاص من شر الناس: فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن، والتهمة بالاقتراحات

 ⁽١) حديث ابن مسعود: قسيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من قر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق؛ تقدم في النكاح.

 ⁽٢) حديث ابن مسعود: ذكر رسول الله على الفتنة وأيام الهرج قلت: رما الهرج؟ قال: «حين لا يأمن الرجل جليسه...»
 الحديث. أخرجه أبو داود مختصراً والخطابي في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع، ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته.

 ⁽٣) حديث ابن عمر: «أنه ثما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام. . • الحديث، وفيه:
 قاله على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصراً على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل: «على مسيرة ثلاثة أيام». وكذا رواه البزار بنحوه وإسنادهما حسن.

والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكدب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يذخرونها لوقت تظهر فرصة للشر، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك. ولذلك قال بعض الحكماء لغيره: أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم؟ قال: ما هما؟ قال:

اخفضِ الصوتَ إنْ نطقتَ بليلٍ والشفتُ بالنَّهار قبل المتقالِ ليسَ للقولِ رجعةً حين يبدو بقبييحٍ يكون أو بسجمالٍ

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسيء الظن به ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة وراءه، فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر ﴿ يُعَنَّبُونَ كُلُ مَنِيمَةٍ عَلَيْهِمٌ هُرُ الْعَدُوثُ فَأَسَدُرُهُم المنافِقون: ٤] وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها. قال المتنبى:

إذا سياء فِعْدلُ السمرءِ سياءتُ ظُنتُونيه وصيدق ميا يسعنساده مين توهيم وعيادى مسحبيه بقول عُداته فأصبح في ليبل من الشكُ مُنظلم

وقد قيل · معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار . وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة ، ولسنا نطول بتفصيلها ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها ، وفي العزلة خلاص من جميعها ، وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة ؛ فقال أبو الدرداء : أخبر تقله ، يروى مرفوعاً . وقال الشاعر :

مَـنُ حَـمِـذَ الـئَـاس ولـم يـبـلـهـم ثـم بَــلاهــم ذم مــن يَــحُــمَــدُ وصـاد بالـوحــدة مـــــ أنـــا يــوحـــشــه الأقـــربُ والأبـــعـــدُ

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من القرين السوء، وقبل لعبدالله بن الزبير: ألا تأتي المدينة؟ فقال: ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فَرح بنقمة. وقال ابن السماك: كتب صاحب لنا، أما بعد: فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له، ففرّ منهم فرارك من الأسد. وكان بعض الأعراب يلازم شجراً ويقول: هو نديم فيه ثلاث خصال، إن سمع مني لم ينم علي، وإن تفلت في وجهه احتمل مني، وإن عربدت عليه لم يغضب، فسمع الرشيد ذلك فقال: زهدني في الندماء. وكان بعضهم قد لزم المدفاتر والمقابر فقيل له ذلك فقال: لم أر أسلم من وحدة، ولا أوعظ من قبر، ولا جليساً أمتع من دفتر، وقال الحسن رضي الله عنه: أردت الحج فسمع ثابت البناني بذلك _ وكان أيضاً من أولياء الله حفتال: بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك، فقال له الحسن: ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه، وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو بقاء الستر على الدين والمروءة والأخلاق والعقر وسائر العورات، وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال: ﴿ يَعَسَانُهُ مُن الْمَهُ الْمُعَافِينَهُ النَعْرَة: ٢٧٣] وقال الشاعر:

ولا عبار إن زاليت عن البحر نعمة ولسكن عباراً أن يرول السنجسمل

ولا يخلو الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأؤلى في الدين والدنيا سترها، ولا تبقى السلامة مع انكشافها. وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فالناس اليوم شوك لا ورق فيه. إذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر. وقال سفيان بن عيبنة: قال لي سفيان الثوري - في اليقظة في حياته وفي المنام بعد وفاته -: أقلل من معرفة الناس، فإن التخلص منهم شديد، ولا أحسب أني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت. وقال بعضهم: جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته، فذهبت أطرده فقال: دعه يا هذا لا يضر ولا يؤذي، وهو خير من جليس السوء. وقيل لبعضهم: ما حملك على أن تعتزل الناس؟ قال: خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر. وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء. وقال أبو اللرداء: اتقوا الله واحذروا الناس؛ فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا خربوه، وقال بعضهم: أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك، وَأَخفُ لسقوط الحقوق عنك؛ لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع. وقال بعضهم: أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف.

الفائدة الخامسة:

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس: فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد؟ فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى. ومن أهون الحقوق وأيسرها: حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولاثم والإملاكات، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير، ولا يمكن إظهار كل الأعذار، فيقولون له: قمت بحق فلان وقصرت في حقنا، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قبل: من لم يعد مريضاً في وقت العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله إذا صبح على تقصيره، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم، ولو خصص استوحشوا، وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار، فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا؟ قال عمرو بن العاص: كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء، وقال ابن الرومي:

عددتك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن مِن العسمان المستحاب في المستعام أو المستراب في العلم المستعام أو المستراب

وقال الشافعي رحمه الله: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام. وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوّة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك. ومهما اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُذَنَ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّمَا بِهِ أَزْوَبُما يَنْهُم لَه لله يشاهد لم يشته ولم «انظُرُوا إلَىٰ مَنْ هُوَ فُوتَكُمْ فَإِنّهُ أَجُلُرُ أَنْ لاَ تَزْوَرُوا نِهْمَة الله هَلَيكُمْ الله الله وقال عون بن عبدالله: كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموماً، كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت. وحكي أن المزني رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبدالحكم في موكبه فيهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى: ﴿ وَيَعَمَلْنَا وَلَهُ اللّهُ عَلَى وَكَانُ فقيراً مقلاً. فالذي هو يَعْفَكُمْ لِيَعْفِ فِي وَكَانُ فقيراً مقلاً. فالذي هو

⁽۱) حديث: «انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

هي ببته لا يبتلى بمثل هذه الفتن؛ فإن من شاهد زينة الدنيا فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر ـ وهو أمر من الصبر ـ، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلك هلاكاً مؤبداً، أما في الدنيا: فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات، فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له، وأما في الآخرة: فإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه. ولذلك قال ابن الأعرابي:

إذا كان بابُ الدلّ من جانب الخني سموتُ إلى العلياءِ من جانب الفَقْرِ أَلَى العلياءِ من جانب الفَقْرِ أَشَار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلاً.

الفائدة السادسة:

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم، فإن رؤية الثقيل هي العمى الأصغر. قيل للأعمش: مم عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال في الخبر: «إِنَّ مَنْ سَلَبَ الله كَرِيمَتْيهِ عَوْضَهُ الله عَنْهُما مَا هُوَ خَيْرُ مِنْهُماه (١٠)، فما الذي عوضك؟ فقال في معرض المطايبة ..: عوضني الله منهما أنه كفاني رؤية الثقلاء وأنت منهم، وقال ابن سيرين: سمعت رجلاً يقول: نظرت إلى ثقيل مرة فعشي عليّ. وقال جالينوس: لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلاء. وقال الشافعي رحمه الله: ما جالست ثقيلاً إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل عليّ من الجانب الآخر،

وهذه الفوائد ما سوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضاً تتعلق بالدين، فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ما هو صبع الله، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته. وكل ذلك يجر إلى فساد. وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك فليُفهم.

آفات العزلة:

اطم: أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالعير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة. فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة، وقواته من آفات العزلة، فانظر إلى قوائد المخالطة والدواعي إليها ما هي، وهي التعليم والتعلم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها، فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهي سبع:

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم:

وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم وهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يتصوّر ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة، وبعضها ضروري في الدنيا. فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض

⁽١) حديث: «من سلب الله كريمتيه حوضه عنهما ما هو خير منهما» أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف من حديث جرير «من سلبت كريمتيه حوضته عنهما البعنة» وله والأحمد نحوه من حديث أبي أمامة بسند حسن، وللبخاري من حديث أنس: «يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت حبدي بحبيبتيه ثم صبر حوضته منهما البعنة» يربد عينيه.

عليه عاص بالعزلة. وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل. وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال النخعي وغيره: تفقة ثم اعتزل، فمن اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها، ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لا يدري، ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها، وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد. فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال، أعني من لا يحسن العبادة في الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزم فيها. فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه، المخلوة ولا يعرف جميع ما يلزم فيها. فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه، فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف ـ لا محالة ـ مرضه. فلا تليق العزلة إلا بالعالم، وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم، ومهما كان القصد العزلة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الدين. وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم.

وحكم العالم في هذا الزمان: أن يعتزل إن أراد سلامة دينه، فإنه لا يرى مستفيداً يطلب فائدة لدينه، بل لا طالب إلا لكلام مزخرف، يستميل به العوام في معرض الوعظ أو الحدل، معقد يتوصل به إلى إفحام الأقران ويتقرب به إلى السلطان، ويستعمل في معرض المنافسة والمباهاة، وأقرب علم مرغوب فيه: الأمران ويتقرب به إلى السلطان، ويستعمل في معرض المنافسة والمباهاة، وأقرب علم مرغوب فيه: المذهب، ولا يطلب غالباً إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال، وتولي الولايات واجتلاب الأموال. فهؤلاء كلهم يقتضي الدين والحزم الاعتزال عنهم، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبائر: الاعتزال عنه وكتمان العلم منه، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف.

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، فإن الفقهاء بتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله، وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا، وهم هلكى على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أو راغبون عنها وزاهدون فيها، وليس الخبر كالمعاينة. واعلم: أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة؛ فإن فيها التخويف والتحذير؛ وهو سبب لإثارة المخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل.

وأما الكلام والفقه المجرّد - الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات - المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله، بل لا يزال متمادياً في حرصه إلى آخر عمره. ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه؛ إذ يرجى أن ينزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا، وذلك معا يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب، فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالاً من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون، وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه، وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإذلال على الجهال والتكبر عليهم، فآفة العلم الخيلاء (١) كما قال على الجهال والتكبر عليهم، فآفة العلم الخيلاء (١) كما قال على الجهال والتكبر عليهم، فأفة العلم الخيلاء (١) كما قال ويقول: إني أشتهي أن دفن سبعة عشر قمطراً من كتب الأحاديث التي سمعها، وكان لا يحدث، ويقول: إني أشتهي أن

 ⁽١) حديث: «آفة المعلم الخيلاء» المعروف ما رواه مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف: «آفة العلم النسيان وآفة الجمال النحيلاء».

أحدث فلذلك لا أحدث، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت، ولذلك قال: «حدثنا الباب من أبواب الدنيا، وإذا قال الرجل: «حدثنا» فإنما يقول أوسعوا لي. وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا، قال: وفيما ذا رغبت؟ قالت: في الحديث. ولذلك قال أبو سليمان الداراني: من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا. فهذه آفات قد نبهنا عليها في كتاب العلم، والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن، بل الذي يطلب الدنيا لتدريسه وتعليمه فالصواب له ـ إن كان غافلاً في مثل هذا الزمان ـ أن يتركه. فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال: دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال، إخوان العلانية أعداء السر؛ إذا لقوك تملقوك، وإذا غبت عنهم سلقوك، من أتاك منهم كان عليك رقيبًا، وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق ونميمة، وغلّ وخديعة، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم، بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلماً إلى أوطارهم، وأغراضهم وحماراً في حاجاتهم، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك، ويرونه حقاً واجباً لَدَيك، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم، وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم، وتنتهض لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً خسيساً بعد أن كنت متبوعاً رئيساً. ولذلك قيل: اعتزال العامة مروءة تامة. فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه، وهو حق وصدق؛ فإنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم، ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدي تحفة إليهم ويرى حقه واجباً عليهم. وربما لا يختلف إليه ما لم يتكفل برزق له على الإدرار. ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله، فلا يزال متردداً إلى أبواب السلاطين ويقاسي الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين؛ حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام، ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتهنه ويستذله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه؛ إن سوّى بينهم: مقته المميزون، ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مصارفات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل، وإن فاوت بينهم: سلقه السفهاء بألسنة حداد، وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد، فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبي. والعجب أنه مع هذا البلاء كله يمني نفسه بالأباطيل ويدليها بحبل الغرور ويقول لها، لا تفتري عن صنيعك؛ فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى، ومذيعة شرع رسول الله ﷺ وناشرة علم دين الله، وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله، وأموال السلاطين لا مالك لها وهي مرصدة للمصالح وأي مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم؟ فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله. ولو لم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرئون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لآثارهم؛ ولذلك قبل: ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك، وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء. فنعوذ بالله من الغرور والعمى؛ فإنه الداء الذي ليس له دواء.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع:

أما الانتفاع بالناس؛ فبالكسب والمعاملة. وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة، والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه ـ كما ذكرناه في كتاب الكسب ـ فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعاً لأقنعه فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب في الأكثر إلا من المعاصي، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة، فإذا اكتسب من وجهه وتصدَّق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع، ولا من الإقبال مكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله، أعني: من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف ويصيرة لا عن أوهام وخيالات فاسدة.

وأما النفع: فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة. ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب؛ وذلك لا ينال إلا بالمخالطة. ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره البتة.

الفائدة الثالثة: التاديب والتابب:

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات. وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق مَن لم تتهذب أخلاقه، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم؛ كسراً لرعونة النفس واستمداداً من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهممهم إلى الله سبحاته، وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الخالية، والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين، فصار يطلب من التواضع بالخدمة: التكثير بالاستتباع والتذرّع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الأتباع، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة، وذلك مما يحتاج إليه في بداية الإرادة، فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها، بل المراد منها أن تتخذ مركباً يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق، والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال في عضها ورفسها ورمحها، وهي لعمري فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل في البهيمة الميتة، وإنما ترد الدابة لفائدة تحصل من حياتها، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والموت، ولا ينبغي أن يقنع به كالراهب الذي قيل له: يا راهب، فقال: ما أنا راهب، إنما أنا كلب عقور حبست نفسي حتى لا أعقر الناس، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه، فإنَّ من قتل نفسه أيضاً لم يعقر الناس، بل ينبغي أن يتشوّف إلى الغاية المقصودة بها. ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة. فالأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أوّلاً والعزلة آخراً.

وأما التأديب: فإنما نعني به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم، وحاله حال المعلم وحكمه، ويتطرّق إليه من دقائق الآفات والرباء ما يتطرّق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبة العلم، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبة العلم كثرة. فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلوة بما تيسر له من المخالطة

وتهذيب القوم، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد، ويختلف بالأحوال والأشخاص، فلا يمكن الحكم عليه مطلقاً بفي ولا إثبات.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس:

وهو غرض مّن يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال. وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته، أو على وجه مباح. وقد يستحب ذلك لأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى، وقد يتعلق بحظ النفس. ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة، فإنَّ القلوب إذا أكرهت عميت، ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة أنس يروّح القلب فهي أولى؛ إذ الرفق في العبادة من حزم العبادة، ولذلك قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهُ لاَّ يمَلُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا﴾ ` ، وهذا أمر لا يستغني عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروّح، وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عني بقوله عليه السلام: "إنَّ لهٰذَا اللَّين مَتِينٌ فَأَوْخِلُ فِيهِ برفْق، والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين، ولذلك قال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس، وقال مرة: لدخلت بلاداً لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس؟ فلا يستغنى المعتزل إذاً عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة، فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته، فقد قال ﷺ: «المَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَخَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ (٢٠)، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشد، ففي ذلك متنفس ومتروّح للنفس، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعماراً طويلة، والراضي عن نفسه مغرور قطعاً. فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص، فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس أوّلاً ثم ليجالس.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإثالته:

أما النيل: فبحضور الجنائز وعيادة المريض وحضور العيدين، وأما حضور الجمعة فلا بدّ منه. وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه، وذلك لا يتفق إلا نادراً، وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم.

وأما إنالته: فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم؛ فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إذا كان من العلماء وأذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة، وكان هو بالتمكين سبباً فيه، فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها التي ذكرناها، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة. فقد حكي عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعيادة

 ⁽۱) حديث: إن الله لا يمل حتى تملوا تقدم.

 ⁽٢) حديث المرء على دين خليله؛ تقدم في آداب الصحبة.

المرضى وحضور الجنائز، بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلل الجبال؛ تفرغاً للعبادة وفراراً من الشواغل.

الفائدة السادسة:

من المخالطة التواضع، فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة. فقد روي في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصحفاً في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة، فأوحى الله إلى نبيه: قل لفلان: إنك قد ملأت الأرض نفاقاً وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال: فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال: الآن قد بلغت رضا ربي، فأوحى الله إلى نبيه قل له: إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم، فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم، وأكل الطعام بينهم ومشي في الأسواق معهم، فأوحى الله تعالى إلى نبيه: الآن قد بلغ رضاي. فكم من معتزل في بيته وباعثه الكبر ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطراوة ذكره بين الناس، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة؛ فيتخذ البيت سترأ على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر، وعلامة هؤلاء: أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا، ويفرحون بتقرّب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم، وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال: وهل جئتني إلا لأتزين لك وتتزين لي. وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذي زاره: حاجتي أن لا أراك ولا تراني، فمن ليس مشغولاً مع نفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدّة اشتغاله بالناس؛ لأن قلبه متجرَّد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام. والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه:

أحدها: أنَّ التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه؛ إذ كان علي رضي الله عنه يحمل التمر والملح في ثوبه ويده ويقول:

لا يستنقبص السكاميل من كسمالية مناجز من تسفيع إلى عبيبالية

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبيُّ وابن مسعود رضي الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول ـ وهو والي المدينة والحطب على رأسه ـ: طرقوا لأميركم، وكان سيد المرسلين على يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه، فيقول له صاحبه: أعطني أحمله فيقول: «صَاحِبُ الشَّيْءِ أُحَقُّ بِحَمْلِهِ ١١٨). وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يمر بالسوَّال وبين أيديهم كسر فيقولون: هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله، فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول: ﴿ إِنَّهُ لَا يُمِنُ النَّسَاتُكُمِينَ ﴾ [التحل: ٢٧].

الوجه الثاني: أن الدي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور، لأنه لو

حدیث کان یشتري الشيء ویحمله إلى بیته بنفسه ویقول له صاحبه: أعطي أحمله فیقول: قصاحب المتاع أحق
 بحمله، آخرجه أبو یعلی من حدیث أبي هریرة بسند ضعیف في حمله السراویل الذي اشتراها.

عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً، وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه، وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تنال، فرضا الله أولى بالطلب؛ ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبدالأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحاً؛ إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله؟ ولذلك قيل:

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له: اعمل كذا وكذا ـ لشيء أمره به ـ فقال: يا أستاذ، لا أقدر عليه لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه، وأن أحداً لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه، وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونه. وقال الشافعي رحمه الله: ليس من أحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله. وقيل للحسن: يا أبا سعيد، إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال، فتبسم وقال للقائل: هون على نفسك، فإني حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت، وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس؛ لأني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم، وقال موسى الله الله بارب، احبس عني ألسنة الناس فقال: يا موسى، هذا شيء لم أصطفيه لنفسي فكيف أفعله بك؟. وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير: إن لم تطب نفساً بأني أجعلك علكاً في أفواه الماضغين لم أكتبك عندي من المتواضعين، فإذن من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عناه حاضر في الدنيا ﴿ وَلَمَانُ الْخَيْرُةُ وَلَمُونُ الله الناس لضاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته. فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقى؛ فإنها مهلكات في صور منجيات.

الفائدة السابعة: التجارب:

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم. والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب؛ فالصبي إذا اعتزل بقي غمراً جاهلاً بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة. ومن أهم التجارب: أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة، فإن كل مجرب في الخلاء يسر، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشع منه خبثه، وهذه الصفات المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلىء بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسه غيره، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن معه من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقله، ولكن لو حركه محرك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الاسترسال، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك. وعن هذا كان

السائكون لطريق الآخرة، الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم. فمن كان يستشعر في نفسه كبراً سعى في إماطته حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق ليجرب نفسه بذلك، فإن غوائل النفس ومكائد الشيطان خفية قل من يتفطن لها، ولذلك حكي عن بعضهم أنه قال: أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أني كنت أصليها في الصف الأول، ولكن تخلفت يوما بعذر فما وجدت موضعاً في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نطر الناس إلي وقد سبقت إلى الصف الأول، فعلمت أن جميع صلواتي التي كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء، ممزوجة بلذة نظر الناس إلي ورؤيتهم إياي في زمرة السابقين إلى الخبر.

فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها. ولذلك قبل: السفر يسفر عن الأخلاق؛ فإنه نوع من المخالطة الدائمة. وستأتي غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربع المهلكات، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير، وبالعلم بها يزكو العمل القليل، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل؛ إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة، فإنا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال ﷺ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَذْنَىٰ رَجُلِ مِنْ أَصْحَابِي»(١)، فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه:

أحدها: ما ذكرناه،

والثاني: عموم النفع لتعدي فائدته والعمل لا تتعدى فائدته.

والثالث: أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق؛ لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبته، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم، وهذا العلم غاية المريدين والعمل كالشرط له، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّهِ يَصْعَدُ ٱلْكِيْرُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّدَاعُ يَرْفَعُمُ ﴾ [قاطر: ١٠] فالكلم الطيب هو هذا العلم، والعمل كالحمال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع، وهذا كلام معترض لا يلبق بهذا الكلام. فلنرجع إلى المقصود فنقول: إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً وإثباتاً خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة. ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق، ويتضح الأفضل، وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال: يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط. فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك بالأحوال، وبملاحظة الفوائد والأفات يتبين الأفضل، هذا هو الحق الصراح، وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال. والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا؛ وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه، ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبدأ، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى؛ ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فما

 ⁽١) حديث: فقضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي٤، تقدم في العلم.

من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه؛ إذ الحق لا يكون إلا واحداً. ولذلك قال أبو عبدالله الجلاء ـ وقد سئل عن الفقر ـ فقال: اضربُ بكميك الحائط وقل ربي الله فهو الفقر. وقال الجنيد: الفقير هو الذي لا يسأل أحداً ولا يعارض، وإن عورض سكت. وقال سُهل بن عبدالله: الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر. وقال آخر: هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك. وقال إبراهيم الخواص: هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوي. والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان، وذلك كله حق من وجه، فإنه خبر كل واحد عن حاله ومًا غلب على قلبه. ولذلك لا نرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدماً في التصوف أو يثني عليه، بل كل واحد منهم يدعي أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضي الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف. ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال ـ بالنظر في الظل ـ فقال بعضهم: هو في الصيف قدمان، وحكي عن آخر أنه نصف قدم، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام، وحكي عن آخر أنه خمسة أقدام، وآخر يرد عليه؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه ببلد نفسه، فصدق في قوله وأخطأ في تخطئته صاحبه؛ إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده، كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه، والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول؛ في بعضها لا يبقى ظل، وفي بعضها يطول، وفي بعضها يقصر.

فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة.

فإن قلت: فمن آثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابه في العزلة؟ فنقول: إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة. وأما آداب العزلة فلا تطول؛ فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شر نفسه عن الناس **أوّلاً،** ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من أفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعاً؛ فهذه آداب نيته. ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر؛ ليجتني ثمرة العزلة وليمنع الناس عن أنّ يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش أكثر وقته. وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإِصغَّاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض. وأحد مهمات المعتزل قطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله، والأخبار ينابيع الوساوس وأصولها، وليقنع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم. وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الجيران، وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يَكُون واقفاً عن سيره إلى طريق الآخرة، فإنَّ السير إما: بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب، وإما: بالفكر هي جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأرضه، وإما: بالتأمل في دقائق الأعمال ومفسدات القلوب وطلب طرق التحصن منها؛ وكل ذلك يستدعي الفراغ، والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوّش القلب في الحال. وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا

ينتظر، وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات. ولا يتم له الصر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدّر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخي الأجل. وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من دكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطبق وحشة الوحدة بعد الموت. وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه؛ إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة، بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه ورحمته، كما قال الله تعالى في الشهداء: ﴿وَلاَ تُحَدَّبُنَ ٱلَّذِينَ قُتِنُوا فِي سَيِيلِ ٱللّهِ ٱلرَّنَ فَرَانَ الله عليه ورحمته، كما قال الله تعالى في الشهداء: ﴿وَلاَ تُحَدِّبُنَ ٱلّذِينَ قُتِنُوا فِي سَيِيلِ ٱللّهِ ٱلرَّنَ عَرانَ الله عليه وهواها(١٠)، كما مَن نصه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلاً غير مدبر «فالمجاهد من جاهد نفسه وهواها(١٠)، كما صرح به رسول الله مجهد الله عليه والجهاد الأكبر، يعنون جهاد النفس، كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يعنون جهاد النفس.

تم كتاب العزلة، ويتلوه: كتاب آداب السفر، والحمد ش وحده.



 ⁽۱) حدیث: فالمجاهد من جاهد نفسه وهوامه. أخرجه الحاكم من حدیث فضالة بن عبید وصححه دون قوله: ووهوامه
 وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحیة.

ينسب الله الكنب التصنية

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد أله الذي فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه في الحضر والسفر، فأصبحوا راضين بمجاري القدر، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى متنزهات البصر، إلا على سبيل الاعتبار بما يسبح في مسارح النظر ومجاري الفكر، فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر، والصلاة على محمد سيد البشر وعلى آله وصحبه المقتفين لآثاره في الأخلاق والسير وسلم كثيراً.

أما بعد: فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه، أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه. والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحاري والفلوات، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات. وأشرف السفرين السفر الباطن. فإن الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد لازم درجة القصور، وقانع بمرتبة النقص، ومستبدل بمتسع فضاء: ﴿وَجَنَّةٍ عَهْنُهُا السَّمَوَتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٣] ظلمة السجن وضيق الحبس، ولقد صدق القائل:

ولم أرّ في عيدوب السناس عيدياً كسنقص القادرين على المسمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخفير، فاقتضى غموض السبيل وفقد الخفير والدليل، وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل، اندرس مسالكه. فانقطع فيه الرفاق، وخلاعن الطائفين متنزهات الأنفس والملكوت والأفاق. وإليه دعا الله مسحانه بقوله: ﴿ سَيْرُيهِمْ ءَايَرَتِنَا فِي الْاَعَاقِ وَفِي الْنُوسِمِمُ افْصَلَت: ١٥٣]، ويقوله تعالى: ﴿ وَفِي الْارْتِنِ عَلَيْتُ اللهِ وَعَلَى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى: ﴿ وَلِكُونُ اللّهُ مُعْتِمِهُ الْمُعْلِدِينَ فَي وَلِيلًا أَلَلا مَعْلِدُتُ اللهُ السفر وقع الإنكار سبحانه: ﴿ وَلِيكُونُ اللّهُ وَلَمْ اللّهُ اللهُ مَعْلَى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار سبحانه: ﴿ وَلَكُونُ اللّهُ فِي اللّهُ وَلَمْ عَلَهُ السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر يسر له هذا السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضر فيه النزاحم والتوارد، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه، وتنضاعف ثمراته وفوائده؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة، وثمراته متزايدة غير مقطوعة، المسافرين غنائمه، وتنضاعف ثمراته وفوائده؛ فغنائمه دائمة غير ممنوعة، وثمراته متزايدة غير مقطوعة، وإذا زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وما الله بظلام للعبيد، ولكنهم يظلمون أنفسهم. ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان، ربما سافر بظاهر بدنه في مدّة مديدة فراسخ معدودة هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان، ربما سافر بظاهر بدنه في مدّة مديدة فراسخ معدودة هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان، ربما سافر بظاهر بدنه في مدّة مديدة فراسخ معدودة هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان، ربما سافر بظاهر بدنه في مدّة مديدة فراسخ معدودة

مغتنماً بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة، فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكي سبيل الآخرة، وكان له في سفره شروط وآداب؛ إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان، وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بعمال الآخرة، ونحن تذكر آدابه وشروطه في بابين إن شاء الله تعالى.

الباب الأوَّل: في الأداب من أوَّل النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته، وفيه فصلان.

الباب الثاني: فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات.

الباب الأول

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع، وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان:

الفصل الأول

في فوائد السفر وفضله ونيته

اعلم: أن السفر نوع حركة ومخالطة، وفيه فوائد وله آفات. كما ذكرناه في كتاب الصحبة والعزلة.

والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب؛ فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه، وإما أن يكون له مقصد ومطلب.

والمهروب عنه إما أمر له نكاية في الأمور الدنيوية؛ كالطاعون والوياء إذا ظهر ببلد أو خوف سببه فتنة أو خصومة أو غلاء سعر. وهو إما عام كما ذكرناه، أو خاص كمن يُقصد بأذية في بلدة فيهرب منها. وإما أمر له نكاية في الدين كمن ابتلي في بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصدّه عن التجرّد لله، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه، أو كمن يدعى إلى بدعة قهراً، أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوب قهو إما دنيوي: كالمال والجاه، أو ديني: والديني إما علم وإما عمل.

والعلم إما علم من العلوم الدينية، وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة، وإما علم بآيات الأرض وعجائبها كسفر ذي القرنين وطوافه في نواحي الأرض. والعمل إما عبادة وإما زيارة، والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد، والزيارة أيضاً من القربات وقد يقصد بها الأولياء يقصد بها مكان كمكة والمدينة وببت المقدس، والثغور فإنّ الرباط بها قربة، وقد يقصد بها الأولياء والعلماء؛ وهم إما موتى فتزار قبورهم، وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم، ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوّة الرغبة في الاقتداء بهم.

فهذه هي أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمة أقسام:

المقسم الأوَّل: السفر في طلب العلم، وهو إما واجب وإما نفل، وذلك بحسب كون العلم واجباً أو نفلاً. وذلك العلم إما علم بأمور دينه أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه، وقد قال عليه السلام: "مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ العِلْم فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّىٰ يَرْجِعْ اللهُ ، وفي خبر آخر: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقاً إِلَىٰ الجَنَّةِ» (٢٦)، وكان سَعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد. وقال الشعبي: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعاً. ورحل جابر بن عبدالله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهراً في حديث بلغهم عن عبدالله بن أنيس الأنصاري يحدّث به عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه (٢٠). وكل مذكور في العلم محصل له _ من زمان الصحابة إلى زماننا هذا _ لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله، وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضاً مهم فإنّ طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه. ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها. وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الخبء في السمُوات والأرض، وإنما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق؛ ولذلك قال عمر رضى الله عنه للذي زكى عنده بعض الشهود: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه؟ فقال: لا، فقال: ما أراك تعرفه. وكان بشر يقول: يا معشر القراء، سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه في موضع تغير. وبالجملة: فإن النفس في الوطن مع مؤاتاة الأسباب لا تظهر خبائث أخلاقها لاستثناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتحنت بمشاق الغربة انكشفت

كتاب أداب السفر الباب الأول

في الأماب من أوَّل التهوض إلى آخر الرجوع

 ⁽۱) حديث: امن خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى برجعه أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال:
 حسن غريب.

 ⁽٢) حديث: قمن سلك طريقاً بالتمس فيه علماً. . . ٩ الحديث. رواه مسلم وتقدم في العلم.

⁽٣) حديث: «رحل جابر بن عبدالله من المدينة إلى مسيرة شهر في حديث بلغه عن عبدالله بن أنيس». أخرجه الخطيب في كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابي، وقال البخاري في صحيحه: «رحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس في حديث واحد»، ورواه أحمد إلا أنه قال: إلى الشام وإسناده حسن، ولأحمد: •أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أمير مصر في حديث»، وله: «أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أمير مصر في حديث آخر وكلاهما منقطم.

غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها؛ فيمكن الاشتغال بعلاجها. وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخالطة، والسفر مخالطة مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق.

وأما آيات الله في أرضه: ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد. وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون، لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون ﴿يَعْلَمُونَ ظَلِهِزَا بِنَ ٱلْحَيَوْةِ الدُّنِّيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُرِّ غَلِهُونَ﴾ [الرُّوم: ٧]، وما أريد بالسمع السمع الظاهر ـ فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه ـ وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات، ويشارك الإنسان فيه سائر المحيوانات. فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو نطق وراء نطق المقال، يشبه قول القائل _ حكاية لكلام الوتد والحائط _: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ فقال: سل من يدقني، ولم يتركني ورائي الحجر الذي وراثي. وما من ذرة في السلموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها، وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدّس هي تسبيحها، ولكن لا يفقهون تسبيحها؛ لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن، ومن ركاكة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال ـ ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام مختصاً بفهم منطق الطير، ولما كان موسى عليه السلام مختصاً بسماع كلام الله تعالى الذي يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات. ومن يسافر ليستقريء هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن، بل يستقرّ في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرّات، فما له وللتردد في الفلوات وله غنية في ملكوت السمُّوات؟ قالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات، وهي إلى أبصار ذوي البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات، بل هي دائبة في الحركة على توالي الأوقات. فمن الغرائب: أن يدأب في الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به، ومن الغرائب: أن يطوف في أكناف الأرض من يطوف به أقطار السماء. ثم ما دام المسافر مفتقراً إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد في المنزل الأوّل من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حصرته، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفض به المسير إلى متسع الفضاء، ولا سبب لطول المقام في هذا المنزل إلا الجبن والقصور؛ ولذلك قال بعض أرباب القلوب: إنَّ الناس ليقولون افتحوا أعينكم حنى تبصروا، وأنا أقول: غمضوا أعينكم حتى تبصروا، وكل واحد من القولين حق؛ إلا أنَّ الأول خبر عن المنزل الأوَّل القريب من الوطن، والثاني خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التي لا يطؤها إلا مخاطر بنفسه، والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل. والهالكون في التيه هم الأكثرون من ركاب هذه الطريق، ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم؛ وهم الذين سبقت لهم من الله الحسني، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه، ومهما عظم المطلوب قل المساعد. ثم الذي يهلك أكثر من الذي يملك. ولا يتصدّى لطلب الملك العاجز الجبان؛ لعظيم الخطر وطول التعب:

وإذا كسانت السنسفوس كباراً تَعِبَتُ في مُسرَادِها الأجسامُ

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا إلا في حيز الخطر، وقد يسمي الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر كما قيل:

يسرى السجسبسناء أنّ السجسبسنَ حسرمُ وتسلسك خسديسعة السطبيع السلشيم فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله في الأرض.

فلنرجع إلى الغرض الذي كنا نقصده ولنبين.

القسم الثاني: وهو أن يسافر لأجل العبادة؛ إما لحج أو جهاد، وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج، ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام، وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته. ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَىٰ لَلاَتَّةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هٰذَا وَالمَسْجِدِ المَحْرَامِ وَالمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ اللهُ اللهُ والمناجد، فإنها متماثلة بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات ثفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله.

وبالجملة: زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات. والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبالجملة: للرغبة في الاقتداء بهم وبركة النظر إليهم؛ فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة، وفيه أيضاً حركة للرغبة في الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم، هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم، كيف ومجرد زيارة الإخوان في الله فيه فضل؟ كما ذكرناه في كتاب الصحبة. وفي التوراة: سر أربعة أميال زر أخاً في الله.

وأما البقاع، فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها، فالحديث ظاهر في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة. وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج.

وبيت المقدس أيضاً له فضل كبير. خرج ابن عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كر راجعاً من الغد إلى المدينة. وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل: أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه؛ أن لا تصرف نظرك عنه ما دام مقيماً فيه حتى يخرج منه، وأن تُخرجَه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك.

القسم الثالث؛ أن يكون السفر للهرب من سبب مشوّش للدين، وذلك أيضاً حسن؛ فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين.

ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب، فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب، والدين لا يتم إلا يقلب فارغ عن غير الله، فإن لم يتم فراغه فلا يتصور أن يشتغل بالدين. ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يتصوّر تخفيفها وتثقيلها، وقد نجا المحفون وهلك المثقلون. والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء،

 ⁽١) حديث: الا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد. . . الحديث. تقدم في الحج.

بل قَبِلَ المخف بفضله وشمله بسعة رحمته. والمخف: هو الذي ليست الدنيا أكبر همه، وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع حاهه وكثرت علائقه، فلا يتم مقصوده إلا بالغربة والخمول وقطع العلائق التي لا بد عنها حتى يروض نفسه مدة مديدة. ثم ربما يمدُّه الله بمعونته فينعم عليه بما يقوّي به يقينه ويطمئن به قلبه؛ فيستوي عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها، فلا يصدّه شيء منها عما هو بصدده من ذكر الله، وذلك مما يعز وجوده جداً، بل الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخالق، وإنما يسعد بهذه القوَّة الأنبياء والأولياء، والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضاً. ومثال تفاوت القوّة الباطنة فيه كتفاوت القوّة الظاهرة في الأعضاء، فرب رجل قوي ذي مرة سوي شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلاً، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلاً قليلاً لم يقدر عليه، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوّته زيادة ما وإن كان ذلك لا يبلغه درّجته، فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا، فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال. وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن. وقال سفيان الثوري: هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتهرين؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره. وقال أبو نعيم: رأيت سفيان الثوري وقد علق قلَّته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت: إلى أين يا أبا عبدالله؟ قال: بلغني عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها، فقلت له: وتفعل هذا؟ قال: نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها؛ فإنه أسلم لدينك وأقلُّ لهمك وهذا هرب من غلاء السعر. وكان سري السقطي يقول للصوفية: إذا خرج الشتاء فقد خرج آذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا. وقد كان الخوّاص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوماً، وكان من المتوكلين ويرى الإِقامة اعتماداً على الأسباب قادحاً في التوكل. وسيأتي أسرار الاعتماد على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى.

 ⁽١) حديث أسامة بن زيد اإن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به يعض الأمم قبلكم. . . ٤ الحديث. متفق عليه واللفظ لمسلم.

 ⁽٢) حديث عائشة ١ فإن فناء أمتي بالطعن والطاعون. . . ١ الحديث. رواه أحمد وابن عبدالبر في التمهيد بإسناد جيد.

أَنْفِقْ مِنْ طَوْلِكَ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِكَ وَلاَ تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْهُمْ أَخِفْهُمْ بِاللهُ (¹¹)، فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهي عنه، وكذلك القدوم عليه. وسيأتي شرح ذلك في كتاب التوكل.

فهذه أقسام الأسفار، وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم وإلى محمود وإلى مباح. والمذموم ينقسم إلى حرام: كإباق العبد وسفر العاق، وإلى مكروه: كالخروج من بلد الطاعون. والمحمود ينقسم إلى واجب: كالمحج، وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم، وإلى مندوب إليه: كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم. ومن هذه الأسباب تنبين النية في السفر، فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية. ولتكن نيته الآخرة في جميع أسفاره، وذلك ظاهر في الواجب والمندوب، ومحال في المكروه والمحظور.

وأما المباح فمرجعه إلى النية. فمهما كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال ورعاية ستر الممروءة على الأهل والعيال، والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة، ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله ﷺ: «إِنَّما الأَعْمَالُ بِالنَّيَاتِ» عام في الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات، فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها من المحظورات، وقد قال بعض السلف: إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته؛ فمن كانت نيته الدنيا أعطي منها ونقص من آخرته أضعافه، وفرق عليه همه، وكثر بالحرص والرغبة شغله، ومن كانت نيته الآحرة أعطي من البصيرة والحكمة والفطنة، وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته، وجمع له همه، ودعت له الملائكة واستغفرت له.

وأما النظر في أن السفر هو الأفضل أو الإقامة، فذلك يضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة؟ وقد ذكر منهاجه في كتاب العزلة فليفهم هذا منه، فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين. والأفضل في هذا ما هو الأعون على الدين، ونهاية ثمرة الدين في الدنيا: تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى، والأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر. ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما، والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء، والإقامة هي المعينة على العمل بالعلم في الانتهاء،

وأما السياحة في الأرض على الدوام: فمن المشوشات للقلب إلا في حق الأقوياء؛ فإن المسافر وماله لعلى قلن إلا ما وقى الله، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في إقامته. وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى المخلق، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع. ثم الشغل بالحط والترحال مشوش لجميع الأحوال، فلا ينبغي أن يسافر المريد إلا في طلب علم، أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالسكون أولى به، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار . لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار

⁽١) حديث أم أيمن: أوصى رسول الله ﷺ بعض أهله: «لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار» أخرجه الببهقي وقال: فيه إرسال.

 ⁽٢) حديث: «الأصمال بالنيات؛ متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم.

ودقائق الأعمال، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة، وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين _ قد ألفوا البطالة واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب واستلانوا جانب السؤال والكدية، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، واستخفوا عقولهم وأديانهم من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة، وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال تعللاً بكثرة الأتباع، فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم نافذ، ولا تأديب للمريدين نافع، ولا حجر عليهم قاهر، فلبسوا المرقعات واتخذوا في الخانقاهات متنزهات، وربما تلقفوا ألفاظاً مزخرفة من أهل الطامات، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في خرقتهم وفي سياحتهم وفي لفظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم؛ فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لفظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم؛ فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقلون أن كل سوداء تمرة، ويتوهمون أنّ المشاركة في الظاهر توجب المساهمة في الحقائق، وهيهات! فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم؟ فهؤلاء بغضاء الله، فإن الله تعالى يبغض وهيهات! فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم؟ فهؤلاء بغضاء الله، فإن الله تعالى يبغض ولا سمعة، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدي به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن. والأمور الدينية ولا سمعة، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدي به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن. والأمور الدينية ولما مسوء فإنما فساده في سيرته لا في علمه، فيبقى عالماً غير عامل بعلمه، والعمل غير العالم.

وأما التصوف: فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ما سوى الله. وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ومهما فسد العمل فات الأصل، وفي أسفار هؤلاء نظر للفقهاء من حيث إنه إتعاب للنهس بلا فائدة، وقد يقال إنّ ذلك ممنوع، ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإنّ حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفوس المتحركين لهذه الحظوظ أيضاً خسيسة، ولا بأس بإتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه، فهو المتأذي والمتلذذ، والفتوى تقتضي تشتيت العوام في المباحات التي لا نفع فيها ولا ضرر؛ فالسائحون في عير مهم في الدين والدنيا بل لمحض التفرج في البلاد كالبهائم المترددة في الصحارى، فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ولم يلبسوا على الدخلق حالهم، وإنما عصيانهم في التلبيس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية، لأنّ الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخر وراء الصلاح، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين، وأكل الحرام من الكبائر فلا تبقى معه العدالة والصلاح، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين، وأكل الحرام من الكبائر فلا تبقى معه العدالة والصلاح، ومن قبل تصور صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وفقيه يهودي.

وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذي يحصل به العدالة. وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان ما أكلوه مسحتاً، وأعني به إذا كان المعطي بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم، فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بوظهار نسب رسول الله على سبيل الدعوى، ومن زعم أنه علوي وهو كاذب وأعطاه مسلم مالأ لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئاً فأخذه على ذلك حرام، وكذلك الصوفي. ولهذا احترز المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ في الاحتياط لدينه لا ينفك في باطنه عن عورات لو انكشفت المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ في الاحتياط لدينه لا ينفك في باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب في مواساته لفترت رغبته عن المواساة. فلا جرم كانوا لا يشترون شيئاً بأنفسهم مخافة أن يسامحوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين، وكانوا يوكلون من يشتري لهم ويشترطون على الوكيل أن

لا يظهر أنه لمن يشتري. نعم إنها يحل أخذ ما يعطى لأجل الدين إذا كان الآخذ بحيث لو علم المعطي من باطنه ما يعلمه الله تعالى لم يقتض ذلك فتوراً في رأيه فيه، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممتنع أو عزيز، والمغرور الجاهل بنفسه أحرى بأن يكون جاهلاً بأمر دينه، فإن أقرب الأشباء إلى قالبه قلبه، فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره؟ ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لا محالة أن لا يأكل إلا من كسبه؛ ليأمن من هذه الغائلة، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعاً أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته.

فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له، وليقل: إنك إن كنت تعطيني لما تعتقده في من الدين فلست مستحقاً لذلك، ولو كشف الله تعالى ستري لم ترني بعين التوقير، بل اعتقدت أني شر الخلق أو من شرارهم، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ، فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه، ولكن ههنا مكيدة للنفس بيئة ومخادعة فليتفطن لها، وهو أنه قد يقول ذلك مظهراً أنه متشبه بالصالحين في ذمهم نفوسهم واستحقارهم لها ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء، فتكون صورة الكلام صورة القلح والازدراء، وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء، فكم من ذام نفسه وهو لها مادح بعين ذمه، فذم النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود، وأما الذم في الملأ فهو عين الرياء إلا إذا أورده إيراداً يحصل للمستمع يقيئاً بأنه مقترف للذنوب ومعترف بها. وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ويمكن تلبيسه بقرائن يتعفر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك. فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته.

الفصل الثاني

في أداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدبآ

الأول: أن يبدأ برد المظائم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا النحلال الطيب، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه. قال ابن عمر رضي الله عنهما: من كرم الرجل طيب زاده في سفره. ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق في السفر، فإنه يخرج خبايا الباطن، ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر، وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر. ولذلك قيل: إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه. والسفر من أسباب الضجر، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق.

وقد قيل: ثلاثة لا يلامون على الضجر: الصائم والمريض والمسافر، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكاري، ومعاونة الرفقة بكل ممكن، والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله. وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ولا معصية؛ ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه.

الثاني: أن يختار رفيقاً فلا يخرج وحده، فالرفيق ثم الطريق. وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسى ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه. وقد نهى ﷺ عن أن يسافر الرجل وحده(١) وقال: ﴿الثَّلاثَةُ نَقَرٌ ٢)(٢) وقال أيضاً: ﴿إِذَا كُنْتُمْ ثُلاثَةً فِي السَّفَرِ فَأَمْرُوا أَحَدَكُمْ، (٣)، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون: هذا أميرنا أمره رسول اللهَ ﷺ ﴿ وَلَيؤمروا أحسنهم أخلاقاً وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإِيثار وطلب الموافقة. وإنما يحتاج إلى الأمير؛ لأن الأراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر، ولا نظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة. وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل وآحد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ۚ ءَلِفَةً إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَنَّا ﴾ [الانبياء: ٢٢]، ومهما كان المدبر واحداً انتظم أمر التدبير. وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر، إلا أن مواطن الإِقامة لا تخلو عن أمير عام كأمير البلد، وأمير خاص كرب الدار. وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأمير؛ فلهذا وجب التأمير ليجتمع شتات الآراء. ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية لهم، كما نقل عن عبدالله المروزي أنه صحبه أبو على الرباطي فقال: على أن تكون أنت الأمير أو أنا، فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي على على ظهره فأمطرت السماء ذات ليلة، فقام عُبدالله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء يمنع عنه المطر، فكلما قال له عبدالله: لا تفعل، يقول، ألم تقل إن الإمارة مسلمة لي؟ فلا تتحكم عليَّ ولا ترجع عن قولك. حتى قال أبو علي: وددت أني مت ولم أقل له أنت الأمير، فهكذا ينبغي أن يكون الأمير. وقد قال ﷺ: «خَيرُ الأَصْحَابِ أَرْبَعَةُ» (٥٠)، وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة، والذي ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحداً فيبقى في السفر بلا رفيق، فلا يخلُّو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق، ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرجل واحداً، فلا يخلو أيضاً عن الخطر وعن ضيق الصدر. فإذن ما دون الأربعة لا يفي بالمقصود، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينعقد بينهم الترافق؛ لأن الخامس زيادة بعد الحاجة، ومن يستغني عنه لا تنصرف الهمة إليه فلا تتم المرافقة معه، نعم في كثرة الرفقاء قائدة للأمن من المخاوف ولكن الأربعة خير للرفاقة الخاصة لا للرفاقة العامة. وكم من رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه.

 ⁽١) حديث: «النهي عن أن يسافر الرجل وحده»، أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ: «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما سار راكب بليل وحده».

 ⁽٧) حديث: الثلاثة نفرا رويناه من حديث علي في وصيته المشهورة وهو حديث موضوع والمعروف: الثلاثة ركب،
 رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

 ⁽٣) حديث: اإذا كتم ثلاثة فأمروا أحدكم، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

 ⁽٤) حديث: «كانوا يفعلون ذلك ويقولون: هو أمير أمره رسول الله عليه» أخرجه البزار والحاكم عن عمر أنه قال: «إذا كنتم ثلاثة في سفر قامروا عليكم أحدكم، ذا أمير أمره رسول الله عليه قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

حديث: فحُير الأصحاب أربعة أخرحه أبو داود والشرمذي والحاكم من حديث ابن عباس وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

الثالث: أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء: وليدع عند الوداع بدعاء رسول الله على الله بعضهم: صحبت عبدالله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله، فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال: سمعت رسول الله على يقول: «قَالَ لُقْمَانُ: إِنَّ الله تَعَالَىٰ إِذَا اسْتُودِعُ الله يَعْنَفُ وَأَمَانَتَكُ وَخَوَاتِيمَ صَمَلِكَهُ()، وروى زيد بن أرقم عن رسول الله على أنه قال: اإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ سَفَراً فَلْيُودُعُ إِخْوَاتَهُ، فَإِنَّ الله تَعَالَىٰ جَاعِلٌ لَهُ فِي دُعَائِهِمُ البَرِكَةَهُ()، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جذه: أن رسول الله على كان إذا ودع رجلاً قال: البَركَة ()، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جذه: أن رسول الله على كان إذا ودع رجلاً قال: وقال موسى بن وردان: أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته، فقال ألا أعلمك يا ابن وقال موسى بن وردان: أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته، فقال ألا أعلمك يا ابن أخي شيئاً علمنيه رسول الله على عند الوداع، فقلت: بلى، قال: قل: «أَسْتَوْدِعُكَ الله الذِي لا يَضِيعُ وَدَائِعُهُ ()، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبي على فقال: إني أريد سفرا فأوصني، فقال له: «في حِفْظِ الله وفي كَنْفِه، زَوْدَكَ الله التَقْوَىٰ وَهَفَرَ ذَنْبَكَ وَوَجُهكَ لِلْخَيْرِ حَيْثُ كُنْتَ أَوْ أَلِنَها كُنْتَه ()، شك فيه الراوي.

وينبغي إذا استودع الله تعالى ما يخلفه أن يستودع الجمع ولا يخصص؛ فقد روي أن عمر رضي الله عنه كان يعطي الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له، فقال له عمر: ما رأيت أشبه بأحد من هذا بك؟ فقال له الرجل: أحدثك عنه يا أمير المؤمنين بأمر، إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت: تخرج وتدعني على هذه الحالة؟ فقلت: أستودع الله ما في بطنك، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد مات، فجلسنا نتحدّث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم: ما هذه النار؟ فقالوا: هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليلة، فقلت: والله إنها كانت لصوّامة قوّامة، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحدنا فإذا سراج، وإذا هذا الغلام يدب، فقيل لي: إنّ هذه وديعتك، ولو كنت استودعت أمه لوجدتها، فقال عمر رضي الله عنه: لهو أشبه بك من الغراب بالغراب.

الرابع: أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلاة. ووقت الخروج يصلي لأجل السفر، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها؟ إلى ابني أم أخي أم أبي؟ فقال النبي ﷺ: همَا اسْتَخْلَفَ عَبْدٌ فِي أَمْلِهِ مِنْ خَلِيفَةٍ أَحَبٌ إِلَىٰ الله مِنْ أَرْبُعِ رَكَعاتِ يُصَلِّيهِنَّ فِي بَيْتِهِ إِذَا شَدَّ خَلَيْهِ ثِيَابَ سَفَرِهِ، يَقْرَأُ

 ⁽۱) حديث ابن عمر: (قال لقمان: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه، وإني أستودع الله دينك وأمانتك وخواتهم عملك».
 أخرجه النسائي في اليوم والليلة، ورواه أبو داود مختصراً وإسناده جيد.

 ⁽۲) حديث زيد بن أرقم: ﴿إِذَا أَرَاد أحدكم سقراً فليودع إخوانه فإن الله جاهل له في دهائهم المبركة أخرجه الخرائطي في
 مكارم الأخلاق بسند ضعيف.

⁽٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «كان إذا ودع رجلاً قال: زودك الله النقوى». رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، والمحاملي في الدعاء وفيه ابن لهيعة.

⁽٤) حديث أبي هريرة: ﴿ أَسْتُودُهُكُ اللَّهُ اللَّذِي لا تَضْيعِ وَدَائِعُهُ . أَخْرَجُهُ ابنَ مَاجِهُ وَالنسائي في اليوم والليلة بإستاد حسن.

⁽٥) حديث أنس اللي حفظ الله وفي كنفه زودك الله التغوى. . .) الحديث. تقدم في الحج في الباب الثاني.

فِيهِنَّ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ وَقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَقَرَّبُ بِهِنَّ إِلَىٰكَ، فَاخْلُفْنِي بِهِنَّ فِي أَهْلِي وَمَالِي فَهِيَ خَلِيفَتُهُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَحِرْزٌ حَوْلَ دَارِهِ حَثْنَى يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ١٠٠.

المخامس: إذا حصل على باب الدار فليقل: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي، فإذا مشى قال: اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت، اللهم أنت ثقتي وأنت رجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك، اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما نوجهت، وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه، فإذا ركب الدابة فليقل: بسم الله والله والله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون. فإذا استوت الدابة تحته فليقل: ﴿ الْمُتَمَدُ يَلُو النِّي هَدَننَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهَاكِي لَوْلًا أَنْ هَدَننَا اللّه العلي اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور.

السادس: أن يرحل عن المنزل بكرة. روى جابر: أن النبي ﷺ رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال: «اللَّهُمَّ بَارِكُ لأَمْتِي فِي بُكُورِها» (٢). ويستحب أن يبتدى، بالخروج يوم الخميس؛ فقد روى عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس (٣). وروى أنس: أنه ﷺ قال: «اللَّهُمُّ بَارِكُ لأَمْتِي فِي بُكُورِها يَوْمَ السَّبْتِ»، وكان ﷺ إذا بعث سرية بعثها أول النهار (١٠). وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «اللَّهُمْ بَارِكُ لأُمْتِي فِي بُكُورِها يَوْمَ خَمِيسِها» (٥)، وقال عبدالله بن عباس: إذا كان لك إلى رجل حاجة فاطلبها منه نهاراً ولا تطلبها ليلاً واطلبها بكرة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمُّ بَارِكُ لأُمْتِي فِي بُكُورِها» (١٠).

ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة، واليوم منسوب

 ⁽١) حديث أنس: أن رجلاً قال: إني نذرت سفراً وقد كنبت وصيتي فإلى أي الثلاثة أدفعها؟ إلى أبي أم أخي أم امرأتي فقال: (ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات. . . . الحديث. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف.

 ⁽٣) حديث جابر: أنه ﷺ رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال: «اللهم بارك الأمني في بكورها» رواه الخرائطي وفي السنر
 الأربعة من حديث صخر العامري: «اللهم بارك الأمني في بكورها» قال الترمذي: حديث حسن.

 ⁽٣) حديث كعب بن مالك: «قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت» أخرجه البزار مقتصراً على يوم خميسها والخرائطي مقتصراً على يوم السبت وكلاهما ضعيف.

 ⁽٤) حديث: (كان إذا بعث صرية بعثها أول النهارا. أخرجه الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي.

 ⁽a) حديث أبي هريرة «اللهم بارك الأمتي في بكورها يوم خميسها» أخرجه ابن ماجه والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ
 له وقال ابن ماجه: «يوم الخميس» وكلا الإسنادين ضعيف.

 ⁽٣) حديث ابن عباس: «إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهاراً...» الحديث. أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وإسناده ضعيف.

إليها، فكان أوله من أسباب وجوبها. والتشييع للوداع مستحب وهو سنَّة. قال ﷺ: ﴿لأَنْ أُشَيْعَ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ الله فَأَكْتَنِفَهُ عَلَىٰ رَحْلِهِ خَدْوَةً أَوْ رَوْحَةً أَحَبُ إِلَيْ مِنَ اللُّنْيَا وَمَا فِيهاا ('' .

السابع: أن لا ينزل حتى يحمى النهار فهي السنّة ويكون أكثر سيره بالليل: قال ﷺ: "هَلَيْكُمْ بِالنَّلْجَةِ فَإِنّ الأَرْضَ تُطُوّى بِالنَّيْلِ مَا لاَ تُطُوّى بِالنّهَارِه "، ومهما أشرف على المنزل فليقل: اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا المنزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه، اصرف عني شر شرارهم. فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركمتين ثم ليقل: اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق. فإذا جن عليه الليل فليقل: يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما دب عليك، أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد ﴿ لَهُ مُ السّكنَ فِي النّبُو وَالنّبَامِ وَلَك اللهم لك الشيك وقت السير فينبغي أن يقول: اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال، ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة في سفره قال: الشرف على كل شرف ولك المحمد على كل حال، ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة في سفره قال: السرف على كل شرف ولك الملائكة والروح، جللت السموات بالعزة والجبروت.

الثامن: أن يحتاط بالنهار فلا يمشي منفرداً خارج القافلة _ لأنه ربما يُغتال أو ينقطع _ ويكون بالليل متحفظاً عند النوم. كان ﷺ إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعيه نصباً وجعل رأسه في كفه (٣٠). والغرض من ذلك، أن لا يستثقل في النوم فتطلع الشمس وهو نائم لا يدري، فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره.

والمستحب بالليل: أن يتناوب الرفقاء في الحراسة، فإذا نام واحد حرس آخر (*) فهذه السئة. ومهما قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي، وشهد الله، وسورة الإخلاص، والمعوّذتين. وليقل: بسم الله ما شاء الله لا قوّة إلا بالله، حسبي الله توكلت على الله، ما شاء الله لا يأتي بالخيرات إلا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى، ولا دون الله ملجأ ﴿كَتَبَ الله لَأَعْلِبَ أَنَا وَرُسُلُ إِنَ اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك وأنت ثقتنا ورجاؤنا. اللهم اعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين.

المتاسع: أن يرفق بالدابة إن كان راكباً فلا يحملها ما لا تطبق، ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة، كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة،

⁽١) حديث. الأن أشيع مجاهداً في سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو روحة أحب إليّ من الدنيا وما فيها الرواه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس.

 ⁽۲) حديث: ٥ عليكم بالدلجة. ٢٠ الحديث. تقدم في الباب الثاني من الحج.

 ⁽٣) حديث: الكان إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه . . ١ الحديث. تقدم في الحج .

 ⁽٤) حديث: «تناوب الرفقاء في الحراسة عقدم في الحج في الباب الثاني.

وقال ﷺ: ﴿لاَ تَتَخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ كَرَاسِيٍّ﴾(١) ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك(٢) فهو سنّة وفيه آثار عن السلف.

وكان بعض السلف يكتري بشرط أن لا ينزل ويوفي الأجرة، ثم كان ينزل ليكون بذلك محسناً إلى المدابة، فيوضع في ميزان حسناته لا في ميزان حسنات المكاري، ومن آذى بهيمة بضرب أو حَمْل ما لا تطيق طولب به يوم القيامة؟ إذ في كل كبد حراء أجر، قال أبو الدرداء رضي الله عنه لبعير له عند المموت: أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربك فإني لم أكُ أحملك فوق طاقتك. وفي النزول ساعة صدقتان، إحداهما: ترويح الدابة، والثانية: إدخال السرور على قلب المكاري، وفيه فائدة أخرى وهي رياضة البدن وتحريك الرجلين، والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب.

وينبغي أن يقرّر مع المكاري ما يحمله عليها شيئاً شيئاً ويعرضه عليه، ويستأجر الدابة معقد صحيح لئلا يثور بينهما نزاع يؤذي القلب ويحمل على الزيادة في الكلام، فما يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد. فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المكاري، فلا ينبغي أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خف؛ فإن القليل يجر الكثير ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. قال رجل لابن المبارك وهو على دابة: احمل لي هذه الرقعة إلى فلان، فقال: حتى أستأذن المكاري؛ فإني لم أشارطه على هذه الرقعة. فالى ظريق الورع؟.

العاشر: ينبغي أن يستصخب ستة أشياء: قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله هي إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: «المَرْآةُ وَالمُكْحَلَةُ وَالمِقْرَاضُ وَالسَّوَاكُ وَالمُشْطُهُ"، وفي رواية أخرى عنها، ستة أشياء: المرآة والقارورة والمقراض والسواك والمكحلة والمشط، وقالت أم سعد الأنصارية: كان رسول الله هي لا يفارقه في السفر المرآة والمكحلة (1)، وقال صهيب، قال رسول الله ي المنظم والمؤثم والمكحلة (1)، وقال صهيب، قال رسول الله الله المنظم والمؤثم والله والمؤثم المؤثم المؤثم والمؤثم و

⁽١) حديث: الا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي، تقدم في الباب الثالث من الحج.

⁽۲) حديث: «النزول عن الدابة غدوة وعشية» تقدم فيه.

 ⁽٣) حديث عائشة: «كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: المرآة والمكحلة والمدرى والسواك والمشط». وفي رواية: «ستة أشياء». أشياء». أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في سنته، والخرائطي في مكارم الأحلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة.

 ⁽٤) حديث أم سعد الأنصارية: اكان لا يفارقه في السفر المرآة والمكحلة، رواه الخرائطي وإسناده ضعيف.

⁽٥) الإثمد: نوع من الكحل.

 ⁽٩) حديث صهيب: اهليكم بالإثمد هند مضجمكم فإنه يزيد في البصر وينيت الشعرة. أخرجه الخرائطي في مكارم
الأخلاق بسند ضعيف، وهو عند الترمذي.

وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس، وصححه ابن عبدالبر وقال الخطابي: صحيح الإستاد.

⁽٧) حديث: «كان يكتحل لليمني ثلاثاً ولليسرى اثنتين». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بسند لبن.

الغدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها، حتى توضأ عمر رضي الله عنه من ماء في جرة نصرانية. وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل فيفرشون الثياب المغسولة عليها. فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابئة، وأما ما يعين على الاحتياط في الدين فمستحسن.

وقد ذكرنا أحكام المبالغة في الطهارات في كتاب الطهارة، وأن المتجرد لأمر الدين لا ينبغي أن يؤثر طريق الرحصة، بل يحتاط في الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه.

وقيل: كان الخوَّاص من المتوكلين وكان لا يفارقه أربعة أشياء في السفر والحضر: الركوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض، وكان يقول: هذه ليست من الدنيا.

الحادي عشر: في آداب الرجوع من السفر: كان الببي على إله إله الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ عَبِره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول: الآ إله إلا الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُمْلُكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَيْنا حَامِدُونَ، صَدَقَ الله وَمْدَهُ وَفَرَمَ الأَحْرَابَ وَحْدَهُ (1)، وإذا أشرف على مدينته فليقل: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً. ثم ليرسل إلى أهله من يبشرهم بقدومه؛ كيلا يقدم عليهم بختة فيرى ما يكرهه، ولا ينبغي له أن يطرقهم ليلاً (٢)، فقد ورد النهي عنه، وكان على إذا قدم دخل المسجد أوّلاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت (٢)، وإذا دخل قال: (قَرْباً قَرْباً أَوْباً أَوْباً أَوْباً لَا يُغَادِرُ عَلَيْناً حَوْباً (٤).

وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنَّة؛ فقد روي: أنه إن لم يجد شيئاً فليضع في مخلاته حجراً^(ه) وكأن هذا مبالغة في الاستحثاث على هذه المكرمة لأن الأعين تمتدّ إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكرهم بما يستصحبه في الطريق لهم، فهذه جملة من الآداب الظاهرة.

وأما الآداب الباطنة: فني الفصل الأوّل بيان جملة منها. وجملته: أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر. ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فليقف ولينصرف، ولا ينبغي أن يجاوز همه منزله، بل ينزل حيث ينزل قلبه، وينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها، ويجتهد أن يستفيد من كل واحد منهم أدباً أو كلمة لينتفع بها، لا ليحكي ذلك ويظهر أنه لقي المشايخ. ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك. ولا يجالس في مدّة الإقامة إلا الفقراء الصادقين، وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حدّ الضيافة إلا إذا شق على أخيه مفارقته. وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة. ولا يشغل نفسه بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره. وكلما دخل بلداً لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله، فإن كان في بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه بلداً لا يشترج، فإذا خرج تقدّم إليه بأدب فسلم عليه، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله، فإن سأله أجاب

⁽١) حديث: اكان إذا قفل من حج أو غزوة أو غيره يكبر . . . الحديث. تقدم في الحج .

⁽٢) حديث: النهي عن طروق الأهل ليلاً. تقدم.

 ⁽٣) حديث: الكان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين. تقدم.

⁽٤) حديث: كان إذا دخل قال «توباً توباً لربنا أوباً أوباً ولا يفادر هلينا حوباً» أخرجه ابن السني في اليوم واللبلة، والحاكم من حديث ابن عباس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

حديث: «إطراق أهله عند القدوم ولو بحجر» أخرجه الدارقطني من حديث عائشة بإسناد ضعيف.

بقدر السؤال، ولا يسأله عن مسألة ما لم يستأذن أولاً. وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأسخيائها ولا ذكر أصدقائه فيها، وليذكر مشايخها وفقراءها، ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين بل يتفقدها في كل قرية وبلدة. ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها، ويلازم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره، وإذا كلمه إنسان فليترك الذكر وليجبه ما دام يحدثه، ثم ليرجع إلى ما كان عليه، فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليحالفها فالبركة في مخالفة النفس، وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي له أن يسافر تبرماً بالخدمة؛ فذلك كفران نعمة، ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع؛ إذ لو كان لحق لظهر أثره.

قال رجل لأبي عثمان المغربي: خرج فلان مسافراً، فقال: السفر غربة والغربة ذلة وليس للمؤمن أن يذل نفسه، وإلا قعز الدين لا ينال أن يندل نفسه، وإلا قعز الدين لا ينال إلا بذلة الغربة. فليكن سفر المريد من وطن هواه ومراده وطبعه حتى يعز في هذه الغربة ولا يذل؛ فإن من اتبع هواه في سفره ذل لا محالة إما عاجلاً وإما آجلاً.

* * *

الباب الثاني

فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

اعلم: أن المسافر يحتاج في أوّل سفره إلى أن يتزّرد لدنياه ولآخرته.

أما زاد الدنيا: فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة. فإن خرج متوكلاً من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة. وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب، فإن كان ممن يصبر على الجوع - أسبوعاً أو عشراً مثلاً - أو يقدر على أن يكتفي بالحشيش فله ذلك. وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية؛ فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة، ولهذا سر سيأتي في كتاب التوكل.

وليس معنى التوكل التباعد من الأسباب بالكلية، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحيل ونزع الماء من البئر، ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكاً أو شخصاً آخر حتى يصب الماء في فيه. فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح في التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يفدح فيه. وستأتي حقيقة التوكل في موضعها فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين.

وأما زاد الآخرة: فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعبادته فلا بد وأن يتزود منه؛ إذ السفر تارة يخفف عنه أموراً فيحتاج إلى معرفة القدر الذي يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر، وتارة يشدد عليه أموراً كان مستغنباً عنها في الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلوات، فإنه في البلد يكتمي بغيره من محاريب المساجد وأذان المؤذنين، وفي السفر قد يحتاج إلى أن يتعرّف بنفسه. فإذن ما يفتقر إلى تعلمه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: العلم برخص السفر:

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين: مسح الخفين والتيمم، وفي صلاة الفرض رخصتين: القصر والجمع، وفي النفل رخصة واحدة وهي الفطر. فهذه سبع رخص.

الأوّل: أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة، فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف لم يجز له المسح عند الشافعي رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسه.

الثاني: أن يكون الخف قوياً يمكن المشي فيه، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلاً؛ إذ العادة جارية بالتردد فيه في المنازل لأن فيه قوّة على الجملة، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجرموق الضعيف.

الثالث: أن لا يكون في موضع فرض الغسل خرق، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجز المسح عليه. وللشافعي قول قديم إنه يجوز ما دام يستمسك على الرجل، وهو مذهب مالك رضي الله عنه، ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز في السفر في كل وقت. والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساتراً لا تبدو بشرة القدم من خلاله، وكذا المشقوق الذي يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك فلا يعتبر إلا أن يكون ساتراً إلى ما فوق الكعبين كيفما كان. فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقي باللفافة لم يجز المسح عليه.

الرابع: أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه، فإن نزع فالأولى له استثناف الوضوء، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز.

الخامس: أن يمسح على الموضع المحاذي لمحل فرض الغسل لا على الساق، وأقله ما يسمى مسحاً على ظهر القدم من الخف. وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه، والأولى أن يخرج من شبهة الخلاف وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار (٢)، كذلك فعل رسول الله و ورصفه: أن يبل البدين ويضع رؤوس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه؛ بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه، ويضع رؤوس أصابع يده البسرى على عقبه من أسفل الخف ويمرها إلى رأس

الباب الثاني:

فيما لا بذ للمسافر من تعلمه

حدیث صفوان بن عسال: «أمرنا رسول الله ﷺ إذا كنا مسافرین أو سفراً أن لا ننزع خفافتا ثلاثة أیام ولیالیهن».
 أخرجه الترمذي وصححه؛ وابن ماجه والنسائي في الكبرى، وابن خزیمة وابن حبان.

 ⁽٧) حديث: المسجه على الخف وأسفله. أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه، وابن ماجه من حديث المغيرة وهكذا ضعفه البخاري وأبو زرعة.

القدم. ومهما مسح مقيماً ثم سافر أو مسافراً ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة. وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف، فلو لبس الخف في الحضر ومسح في الحضر، ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلاً مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلي إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجليه ويعيد لبس الخف، ويراعي وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث، ولو أحدث بعد لبس الخف في الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام لأن العادة قد تقتضي اللبس قبل الخروج، ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث. فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين.

ويستحب لكل من يريد لبس الخف في حضر أو سفر: أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذراً من حية أو عقرب أو شوكة. فقد روي عن أبي أمامة أنه قال: دعا رسول الله ﷺ بخفيه فلبس أحدهما، فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية، فقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُئْبَسْ خُفَّيْهِ حَتَّىٰ يَنْفُضَهُماه (۱).

الرخصة الثانية: التيمم بالتراب بدلاً عن الماء عند العذر، وإنما يتعذر الماء بأن يكون بعيداً عن المنزل بعداً لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استعاث، وهو البعد الذي لا يعتاده أهل المنزل - في تردادهم لقضاء الحاجة - التردد إليه. وكذا إن نزل على الماء عدو أو سبع فيجوز التيمم وإن المنا الماء قريباً. وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم. وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقائه فلا يجوز له الوضوء. ويلزمه بذله إما بثمن أو بغير ثمن ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقة أو لحم أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم، بل عليه أن يجتزىء بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقة. ومهما وهب له الماء وجب قبوله، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من المنة. وإن بيع بثمن المثل لزمه الشراء وإن بيع بغبن لم يلزمه. فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما حوّز الوصول إليه بالطلب، وذلك بالتردد حوالي المنزل وتفتيش الرحل وطلب المقايا من الأواني والمطاهر. فإن نسي الماء في رحله أو نسي بئراً بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب. وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم في أول الوقت فإن العمر لا يوثق به. وأول الوقت رضوان الله.

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فقيل له: أتتيمم وجدران المدينة تنظر إليك؟ فقال: أو أبقى إلى أن أدخلها؟ ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء. وإذا وجده قبل الشروع في الصلاة لزمه الوضوء.

ومهما طلب فلم يجد فليقصد صعيداً طيباً عليه تراب يثور منه غبار، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما ضربة فيمسح بها وجهه، ويضرب ضربة أخرى ـ بعد نزع الخاتم ـ ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه، فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى، وكيفية التلطف فيه ما ذكرناه في كتاب الطهارة فلا نعيده.

ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ما شاء بذلك التيمم. وإن أراد الجمع بين فريضتين

⁽١) حديث أبي أمامة فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما، رواه الطبراني، وفيه من لا يمرف.

فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية، فلا يصلي فريضتين إلا بتيممين. ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها، فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم. ولينوِ عند مسح الوجه: استباحة الصلاة. ولو وجد من الماء ما يكفيه لبعض طهارته فيستعمله ثم ليتيمم بعده تيمماً تاماً.

المرخصة الثالثة: في الصلاة المفروضة، القصر: وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة:

الأوَّل: أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فالأظهر لزوم الإتمام.

الثاني: أن ينوي القصر فلو نوى الإِتمام لزمه الإِتمام، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإِتمام لزمه الإِتمام.

الثالث: أن لا يقتدي بمقيم ولا بمسافر متم، فإن فعل لزمه الإثمام، بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإثمام، وإن تيقن بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لا تخفى فليكن متحققاً عند النية، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا، بعد أن عرف أنه مسافر لم يضره ذلك؛ لأن النيات لا يطلع عليها. وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح.

وحد السفر من جهة البداية والنهاية قيه إشكال فلا بد من معرفته، والسفر: هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم، فالهاثم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعاً معيناً، ولا يصير مسافراً ما لم يفارق عمران البلد، ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه. وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحوطة دون التي ليست بمحوطة، ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذِ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك هو الوطن فله الترخص إذ صار مسافراً بالانزعاج والمخروج منه.

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة:

الأول: الوصول إلى العمران من البلد الذي عزم على الإقامة به.

الثاني: العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعداً إما في بلد أو في صحراء.

الثالث: صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده، وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازه ولكنه يتعوق عليه ويتأخر، فله أن يترخص وإن طالت المدة ـ على أقيس القولين ـ لأنه منزعج بقلبه ومسافر عن الوطن بصورته، ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب، ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالاً أو غيره، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر، ولا بين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاؤه ثلاثة أيام أو لغيره؛ إذ ترخص رسول الله علي فقصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد (1). وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه؛ إذ لا معنى للتقدير بثمانية عشر يوماً. والظاهر أن قصره كان لكونه مسافراً لا لكونه غازياً مقاتلاً. هذا معنى القصر.

⁽١) حديث: «قصره ﷺ في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحده. أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين في قصة الفتح: «فأقام بمكة ثماني عشرة ليلة لا يصلي إلا ركعتين». وللبخاري من حديث ابن عباس: «أقام بمكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة». ولأبي داود: «سبعة عشر». بتقديم السين وفي رواية له: «خمسة عشر».

وأما معنى التطويل: فهو أن يكون مرحلتين: كل مرحلة ثمانية فراسخ، وكل فرسخ ثلاثة أميال، وكل ميل أربعة آلاف خطوة، وكل خطوة ثلاثة أقدام.

ومعنى العباح: أن لا يكون عاقاً لوالديه هارباً منهما، ولا هارباً من مالكه، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها، ولا أن يكون من عليه الدين هارباً من المستحق مع اليسار، ولا يكون متوجهاً في قطع طريق، أو قتل إنسان، أو طلب إدرار حرام من سلطان ظالم، أو سعي بالفساد بين المسلمين.

وبالجملة: فلا يسافر الإنسان إلا في غرض، والغرض هو المحرك؛ فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراماً ولولا ذلك الغرض لكان لا ينبعث لسفره فسفره معصية ولا يجوز فيه الترخص. وأما الفسق في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة، بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة، ولو كان له باعثان أحدهما مباح والآخر محظور، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلاً بتحريكه ولكان لا محالة يسافر لأجله فله الترخص. والمتصوّفة الطوافون في البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة في ترخصهم خلاف، والمختار أن لهم الترخص.

الرخصة الرابعة: الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما، وبين المغرب والعشاء في وقتيهما، فذلك أيضاً جائز في كل سفر طويل مباح، وفي جوازه في السفر القصير قولان. ثم إن قدم العصر إلى الظهر فلينو الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقم، وعند الفراغ يقيم للعصر، ويجدد التيمم أولاً إن كان فرضه التيمم، ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة، فإن قدم العصر لم يجز، وإن نوى الجمع عند التحرم بصلاة العصر جاز عند المُزني، وله وجه في القياس؛ إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية بل الشرع جوز الجمع وهذا جمع، وإنما الرخصة في العصر فتكفي النية فيها، وأما الظهر فجار على القانون. ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغي أن يجمع بين سنن الصلاتين؛ أما العصر: فلا سنة بعدها ولكن السنة التي بعد الظهر يصليها بعد الفراغ من العصر إما راكباً أو مقيماً، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطعت الموالاة وهي واجبة ـ على وجه ـ ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر، ثم سنة الظهر والأربع المسنونة قبل العصر، ثم سنة الظهر والأربع المنه بعد الفرض.

ولا ينبغي أن يهمل النوافل في السفر فما يفوته من ثوابها أكثر مما يناله من الربح، لا سيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الراحلة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها. وإن أخر الظهر إلى العصر فيجري على هذا الترتيب ولا يبالي بوقوع راتبة الظهر بعد العصر في الوقت المكروه؛ لأن ما له سبب لا يكره في هذا الوقت، وكذلك يفعل في المغرب والعشاء والوتر. وإذا قدّم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويختم الجميع بالوتر. وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جمعاً فهو نية الجمع؛ لأنه إنما يخلو عن هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر، وذلك حرام والعزم عليه حرام. وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصياً؛ لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها. ويحتمل أن يقال: إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها، ولكن الأظهر أن ذكرها. ويحتمل أن يقال: إن الظهر إنما تقع أداء إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها، ولكن الأظهر إذا وقت الظهر والعصر صار مشتركاً في السفر بين الصلاتين، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل المغروب. ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل المغروب. ولذلك ينقدح أن لا تشترط الموالاة ولا الترتيب بين الظهر والعصر على الظهر وقتاً للعصر؛ الظهر، أما إذا قدَّم العصر على الظهر لم يجز؛ لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذي جعل وقتاً للعصر؛

إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيره. وعذر المطر مجوّز للجمع كعذر السفر. وترك الجمعة أيضاً من رخص السفر وهي متعلقة أيضاً بفرائض الصلوات. ولو نوى الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر في الحضر فعليه أداء العصر، وما مضى إنما كان مجزئاً بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر.

الرخصة الخامسة: التنفل راكباً، كان رسول الله على يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته (1) وأوتر رسول الله على الراحلة. وليس على المتنفل الراكب في الركوع والسجود إلا الإيماء. وينبغي أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه، ولا يلزمه الانحناء إلى حدّ يتعرض به لخطر بسبب الدابة. فإن كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه.

وأما استقبال القبلة فلا يجب لا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة. فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاً للقبلة أو متوجهاً في صوب الطريق لتكون له جهة يثبت فيها، فلو حرف دابته عن الطريق قصداً بطلت صلاته إلا إذا حرفها إلى القبلة، ولو حرفها ناسياً وقصر الزمان لم تبطل صلاته، وإن طال ففيه خلاف، وإن جمحت به الدابة فانحرفت لم تبطل صلاته لأن ذلك مما يكثر وقوعه وليس عليه سجود سهو؛ إذ الجماح غير منسوب إليه، بخلاف ما لو حرف ناسياً فإنه يسجد للسهو بالإيماء.

الرخصة السادسة: التنفل للماشي جائز في السفر ويومى، بالركوع والسجود، ولا يقعد للتشهد؛ لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه حكم الراكب، لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلاً للقبلة؛ لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه؛ بخلاف الراكب فإن في تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر، وربما تكثر الصلاة فيطول عليه ذلك. ولا ينبغي أن يمشي في نجاسة رطبة عمداً، فإن فعل بطلت صلاته، بخلاف ما لو وطئت دابة الراكب نجاسة. وليس عليه أن يشوش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تخلو الطريق عنها غالباً. وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنفل.

الرخصة السابعة: الفطر، وهو في الصوم: فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقيماً ثم سافر فعليه المتمام ذلك اليوم. وإن أصبح مسافراً صائماً ثم أقام فعليه الإتمام. وإن أقام مفطراً فليس عليه الإمساك بقية النهار. وإن أصبح مسافراً على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد، والصوم أفضل من الفطر. والقصر أفضل من الإتمام للخروج عن شبهة الخلاف، ولأنه ليس في عهدة القضاء بخلاف المفطر فإنه في عهدة القضاء، وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى في ذمته، إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل.

فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهي: القصر والفطر والمسح ثلاثة أيام، وتتعلق اثنتان منها بالسفر طويلاً كان أو قصيراً وهما: سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم. وأما صلاة النافلة ماشياً وراكباً ففيه خلاف والأصح جوازه في القصير، والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل، وأما صلاة الفرض راكباً وماشياً للخوف فلا تتعلق بالسفر، وكذا أكل الميتة، وكذا أداء الصلاة في الحال بالتيمم عند فقد الماء، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها،

فإن قلت: فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك؟ فاعلم أنه

حدیث: اکان یصلی علی راحلته أینما توجهت به دابته وأوتر علی الراحلة. متفق علیه من حدیث ابن عمر.

إن كان عازماً على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكباً وماشياً لم يلزمه علم شروط الترخص في ذلك؛ لأن الترخص ليس بواجب عليه. وأما علم رخصة التيمم فيلزمه؛ لأنّ فقد الماء ليس إليه، إلا أن يسافر على شاطىء نهر يوثق ببقاء ماته، أو يكون معه في الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة. أما إذا كان يظن عدم الماء ولم يكن معه عالم فيلزمه التعلم لا محالة.

فإن قلت: التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم تجب وربما لا تجب؟ فأقول: من بينه وبين الكعبة مسافة لا تقطع إلا في سنة؛ فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر. ويلزمه تعلم المناسك لا محالة إذا كان يظن أنه لا يجد في الطريق من يتعلم منه؛ لأنّ الأصل: الحياة واستمرارها. وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، وكل ما يتوقع وجوبه توقعاً ظاهراً على الظن وله شرط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لا محالة، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته، فلا يحل إذن للمسافر أن ينشىء السفر ما لم يتعلم هذا القدر من علم التيمم، وإن كان عازماً على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضاً القدر الذي ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص، فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه.

قإن قلت: إنه إن لم يتعلم كيفية التنفل راكباً وماشياً ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته هاسدة، وهي غير واجبة فكيف يكون علمها واجباً؟ فأقول: من الواحب أن لا يصلي النفل على نعت الفساد، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام، فعليه أن يتعلم ما يحترز به عن النافلة الفاسدة حذراً عن الوقوع في المحظورات. فهذا بيان علم ما خفف عن المسافر في سفره.

القسم الثاني: ما يتجدّد من الوظيفة بسبب السفر:

وهو علم القبلة والأوقات: وذلك أيضاً واجب في الحضر، ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه يغنبه عن طلب القبلة، ومؤذن يراعي الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت.

والعسافر قد تشتبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بدّ له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت. أما أدلة القبلة فهي ثلاثة أقسام: أرضية: كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار، وهوائية: كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباها ودبورها، وسماوية: وهي النجوم.

فأما الأرضية والهوائية: فتختلف باختلاف البلاد، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أو شماله أو ورائه أو قدامه، فليعلم ذلك وليفهمه. وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهم ذلك. ولسنا نقدر على استقصاء ذلك إذ لكل بلد وإقليم حكم آخر.

وأما السماوية: فأدلتها تنقسم إلى نهارية وإلى ليلية.

أما النهارية: فالشمس، فلا بد أن يراعي قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه، أهي بين الحاجبين؟ أو على العين اليمنى؟ أو اليسرى؟ أو تميل إلى الجبين ميلاً أكثر من ذلك؟ فإن الشمس لا تغدو في البلاد الشمالية هذه المواقع، فإذا حفظ ذلك فمهما عرف الزوال بدليله الذي سنذكره عرف القبلة به، وكذلك يراعي مواقع الشمس منه وقت العصر، فإنه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة، وهذا أيضاً لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاؤه.

وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب. وذلك بأن يحفظ أنّ الشمس تغرب عن يمين المستقبل، أو هي مائلة إلى وجهه، أو قفاه. وبالشفق أيضاً تعرف القبلة للعشاء الأخيرة.

الكمية

المصل

وبمشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح. فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس، ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف؛ فإن المشارق والمغارب كثيرة وإن كانت محصورة في جهنين، فلا بد من تعلم ذلك أيضاً. ولكن قد يصلي المغرب والعشاء بعد غيبوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به، فعليه أن يراعي موضع القطب؛ وهو الكوكب الذي يقال له: الجدي. فإنه كوكب كالثابت لا تظهر حركته عن موضعه، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل، أو على منكبه الأيمن من ظهره، أو منكبه الأيسر في البلاد الشمالية من مكة. وفي البلاد الجنوبية كاليمن وما والاها فيقع في مقابلة المستقبل، فيتعلم ذلك، وما عرفه في بلده فليعول عليه في الطريق كله إلا إذا طال السفر، فإن المسافة إذا بعدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشارق والمغارب، إلا أن ينتهي في أثناء سفره إلى بلاد فينبغي أن يسأل أهل البصيرة، أو يراقب هذه الكواكب وهو مستقبل محراب جامع البلد حتى يتضح له ذلك. فمهما تعلم هذه الأدلة فله أن يعول عليها، فإن بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغي أن يقضي. وإن انعرف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء.

وقد أورد الفقهاء خلافاً في أنّ المطلوب جهة الكعبة أو عينها، وأشكل معنى ذلك على قوم إذ قالوا: إن قلنا: إن المطلوب العين فمتى يتصوّر هذا مع بعد الديار؟ وإن قلنا: إن المطلوب الجهة فالواقف في المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج ببدنه عن موازاة الكعبة لا خلاف في أنه لا تصح صلاته. وقد طوّلوا في تأويل معنى الخلاف في الجهة والعين. ولا بد أوّلاً من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة.

فمعنى مقابلة العين: أن يقف موقفاً لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاتصل به

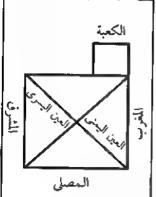
وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان (وهذه صورته والخط الخارج من موقف المصلي يقدر أنه خارج من بين عينيه) فهذه صورة مقابلة العين.

وأما مقابلة الجهة: فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجي من مين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة. فلو مدّ هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت

إحدى الزاويتين أضيق، فيخرج عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة - كالخط الذي كتبنا عليه مقابلة الجهة فإنه

لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلاً لجهة الكعبة لا لعينها.

لعينها .
وحد تلك الجهة ما يقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلاً لجهة خارجين من العينين، فبلتقي طرفاهما في داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة، فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل في الجهة. وسعة ما بين الخطين تتزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة (وهذه صورته):



فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول: الذي يصح عندنا في الفتوى أن المطلوب العين إن كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفى استقبال الجهة.

فأما طلب العين عند المشاهدة فمجمع عليه، وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضي الله عنهم والقياس.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَيَعَيْثُ مَا كُنْنُدُ فَوَلُواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَةً﴾ [البَقَرَة: ١٤٤] أي نحوه. ومَن قابل جهة الكعبة يقال: قد ولى وجهه شطرها.

وأما السنّة: فما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال الأهل المدينة: "مَا بَيْنَ المَغْرِبِ والمَشْرِقِ قِبْلَةً" (١)، والمغرب يقع على يمين أهل المدينة والمشرق على يسارهم. فجعل رسول الله ﷺ جميع ما يقع بينهما قبلة ومساحة الكعبة لا تفي بما بين المشرق والمغرب وإنما يفي بذلك جهتها. وروي هذا اللفظ أيضاً عن عمر وابنه رضي الله عنهما.

وأما فعل الصحابة رضي الله عنهم: فما روي أن مسجد قباء كانوا في صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبيت المقدس مستدبرين الكعبة لأن المدينة بينهما - فقيل لهم: الآن قد حوّلت القبلة إلى الكعبة ، فاستداروا في أثناء الصلاة من غير طلب دلالة (٢٠ ولم ينكر عليهم . وسمي مسجدهم «ذا القبلتين» ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ؛ فكيف أدركوا ذلك على البديهة في أثناء الصلاة وفي ظلمة الليل؟ ويدل أيضاً من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالي مكة وفي سائر بلاد الإسلام ولم يحضروا قط مهندساً عند تسوية المحاريب ، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهندسي .

وأما القياس: فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد في جميع أقطار الأرض، ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها، بل ربما يزجر عن التعمق في علمها فكيف ينبني أمر الشرع عليها؟ فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة.

وأما دليل صحة الصورة التي صورناها: وهو حصر جهات العالم في أربع جهات فقوله عليه السلام في آداب قضاء الحاجة: ﴿لا تَسْتَقْبِلُوا بِها اللّبِبُلَةَ وَلاَ تَسْتَقْبِرُوها وَلٰكِنْ شَرُقُوا أَوْ فَرُبُواهِ) وقال: هذا بالمدينة ـ والمشرق على يسار المستقبل بها والمغرب على يمينه ـ فنهى عن جهتين ورخص في جهتين، ومجموع ذلك أربع جهات. ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض في ست أو سبع أو عشر. وكيفما كان فما حكم الباقي؟ بل الجهات تثبت في الاعتقادات بناء على خلقة الإنسان، وليس له إلا أربع جهات: قدام وخلف ويمين وشمال فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان في ظاهر النظر أربعاً. والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أدلة القبلة. فأما مقابلة العين فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء، ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أوّل عمارة في المشرق. ثم يعرف ذلك أيضاً في موقف

 ⁽١) حديث هما بين المشرق والمغرب قبلة. أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وقال: منكر، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث: •إن أهل قباء كانوا في صلاة الصبح مستقبلين لبيت المقدس فقيل لهم: ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة فاستداروا. . . الحديث. أحرجه مسلم من حديث أنس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف.

 ⁽٣) حديث: «لا تستقبلوا القبلة ولا تستفبروها ولكن شرقوا أو غربوا». متفق عليه من حديث أبي أيوب.

المصلي، ثم يقابل أحدهما بالآخر. ويحتاج فيه إلى آلات وأسبابه طويلة، والشرع غير مبني عليها قطعاً. فإذن القدر الذي لا بد من تعلمه من أدلة القبلة: موقع المشرق والمغرب في الزوال، وموقع الشمس وقت العصر. فبهذا يسقط الوجوب.

فإن قلت: فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصي؟ فأقول: إن كان طريقه على قرى متصلة فيها محاريب، أو كان معه في الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بعدالته وبصيرته ويقدر على تقليده فلا يعصي، وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى؛ لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل علمه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره. فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بغيم مظلم، أو ترك التعلم ولم يجد في الطريق من يقلده؛ فعليه أن يصلي في الوقت على حسب حاله، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ، والأعمى ليس له إلا التقليد فليقلد من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهداً في القبلة، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك في حضر أو سفر، وليس للأعمى ولا للجاهل أن يسافر في قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلة ـ حيث يحتاج إلى الاستدلال ـ كما ليس للعامي أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع، بل يلزمه الهجرة إلى حيث بجد من يعلمه دينه، وكذا إن لم يكن في البلد إلا فقيه فاسق فعليه الهجّرة أيضاً؛ إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى ـ كما في الرواية ـ وإن كان معروفاً بالفقه مستور الحال في العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له عدالة ظاهرة؛ لأن المسافر في البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين. فإن رآه لابساً للحرير أو ما يغلب عليه الإبريسم، أو راكباً لفرس عليه مركب ذهب؛ فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله، فليطلب غيره. وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام، أو يأخذ منه إدراراً أو صلة من غير أن يعلم أن الذي يأخذه من وجه حلال، فكل ذلك فسق يقدح في العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة.

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها؛ فوقت الظهر يدخل بالزوال، فإن كل شخص لا بد أن يقع له في ابتداء النهار ظل مستطيل في جانب المغرب، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال، ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب. فليقم المسافر في موضع أو لينصب عوداً مستقيماً وليعلم على رأس الظل، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه في النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر.

وطريقه في معرفة ذلك: أن ينظر في البلد ـ وقت أذان المؤذن المعتمد ـ ظل قامته، فإن كان مثلاً ثلاثة أقدام بقدمه فمهما صار كذلك في السفر وأخذ في الزيادة صلى . فإن زاد عليه سنة أقدام ونصفاً بقدمه دخل وقت العصر ؛ إذ ظل كل شخص بقدمه سنة أقدام ونصف بالتقريب . ثم ظل الزوال يزيد كل يوم وإن كان سفره من أوّل الصيف . وإن كان من أوّل الشتاء فينقص كل يوم . وأحسن ما يعرف به ظل الزوال الميزان ؛ فليستصحبه المسافر ، وليتعلم اختلاف الظل به في كل وقت . وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان في السفر في موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس ؛ بأن تصير بين عينيه مثلاً إن كانت كذلك في البلد .

وأما وقت المغرب: فيدخل بالغروب، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه، فينبغي أن ينظر إلى جانب المشرق، فمهما ظهر سواد في الأفق مرتفع من الأرض قدر رمح فقد دخل وقت المغرب.

وأما العشاء: فيعرف بغيبوبة الشفق؛ وهو الحمرة، فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها، فإن ذلك يكون بعد غيبوبة الحمرة،

وأما الصبح: فيبدو في الأوّل مستطيلاً كذنب السرحان، فلا يحكم به إلى أن ينقضي زمان، ثم يظهر بياض معترض لا يعسر إدراكه بالعين لظهوره، فهذا أوّل الوقت. قال على: النّيسَ العُبْحُ لهَكَذَاه ورضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما ، وأشار به إلى أنه معترض. وقد يستدل عليه بالمنازل وذلك تقريب لا تحقيق فيه، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضاً؛ لأن قوماً ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس باربع منازل، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب. والذي ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين وهذا تقريب، ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معترضة منحرفة فيقصر زمان طلوعها، وبعضها منتصبة فيطول زمان طلوعها، ويعنها منتصبة فيطول زمان طلوعها، ويعنها منتصبة فيطول إلى طلوعها، ويعنها منازل الله عنه أن المسبح وبعده، فأما حقيقة أول الصبح قلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلاً. وعلى الجملة: فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب، وإذا بقي قريب من منزلتين يتحقق طلوع الصبح قرن الصبح المنازل لأن يعلم من منزلتين يتحقق طلوع الصبح لكاذب، وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه، فمن وقت الشك ينبغي أن يترك الصائم للمحور، ويقدم القائم الوتر عليه ولا يصلي صلاة الصبح حتى تنقضي مدة الشك، فإذا تحقق صلى.

ولو أراد مريد أن يقدّر على التحقيق وقتاً معيناً يشرب فيه متسحراً ويقوم عقيبه ويصلي الصبح متصلاً به لم يقدر على ذلك، فليس معرفة ذلك في قوة البشر أصلاً، بل لا يد من مهلة للتوقف والشك، ولا اعتماد إلا على العيان، ولا اعتماد في العيان إلا على أن يصير الضوء منتشراً في العرض حتى تبدو مبادئ الصفرة، وقد غلط في هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت، ويدل عليه ما روى أبو عسى الترمذي في جامعه بإسناده عن طلق بن على أن رسول الله وقلي قال: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَاشْرَبُوا وَلَّى يَعْتَرِضَ لَكُمُ الأَخْمَرُلاً وهذا صريح في رعاية الحمرة. قال بو عيسى: وفي الباب عن عدي بن حاتم وأبي ذرّ وسمرة بن جندب وهو حديث حسن غريب، والمعمل على هذا عند أهل العلم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كُلُوا واشربوا ما دام المضوء والمعمل على هذا عند أهل العلم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كُلُوا واشربوا ما دام المضوء ساطعاً». قال صاحب الغريبين: أي مستطيلاً، فإذاً: لا ينبغي أن يعوّل إلا على ظهور الصفرة وكأنها مبادىء الحمرة، وإنما يحتاح المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق مبادىء الحمرة، وإنما يحتاح المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة إلى أن يتيقن فتسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ويتجشم كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم علم بفوات فضيلة أول الوقت ويتجشم كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم علم الأوقات: فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها.

تم كتاب آداب السفر، يتلوه كتاب آداب السماع والوجد، ولله الحمد

⁽١) حديث: «ليس الصبح هكذا» ـ وجمع كفه ـ اإنما الصبح هكذا» ـ ووضع إحدى سبابتيه على الأخرى وفتحهما وأشار إلى أنه معترض ـ أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة بالكف والسبابتير . ولأحمد من حديث طلق بن علي: اليس الفجر المستطيل في الأفق لكته المعترض الأحمر» وإسناده حسن.

 ⁽٢) حديث طلق بن علي: «كلوا واشربوا ولا يهيبنكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر قال المصنف: رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه وقال: حسن غريب وهو كما ذكره ورواه أبو داود أيضاً.

کتاب آداب السماع والوجد



وهو الكتاب الثامن من ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي أحرق قلوب أولياته بنار محبته، واسترق هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته؛ حتى أصبحوا من تنسم روح الوصال سكرى، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى، فلم يروا في الكونين شيئا سواه، ولم يذكروا في الدارين إلا إياه، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه، ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه، ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه، ولا انبعاثهم إلا له ولا ترددهم إلا حواليه. فمنه سماعهم، وإليه استماعهم، فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته، واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته. والصلاة على محمد المبعوث برسالته، وعلى آله وأصحابه أثمة الحق وقادته، وسلم كثيراً.

أما بعد: فإن القلوب والسرائر، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار في الحديد والحجر، وأخفيت كما أخفي الماء تحت التراب والمدر، ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع، ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها، وتظهر محاسنها أو مساوئها، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه. كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه، فالسماع للقلب محك صادق، ومعيار ناطق، فلا يصل نفس السماع إليه، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه، وإذا كانت القلوب بالطباع مطبعة للأسماع حتى أبدت بوارداتها مكامنها، وكشفت بها عن مساويها وأظهرت محاسنها، وجب شرح القول في السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء في أنهما من المحظورات أو المباحات. ونحن نوضح ذلك في بابين.

الباب الأوّل: في إباحة السماع.

الباب الثاني: في آداب السماع وآثاره في القلب بالوجد وفي الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب.

الباب الأول

في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه:

اهلم: أن السماع هو أول الأمر، ويشمر السماع حالة في القلب تسمى الوجد، ويشمر الوجد تحريك الأطراف؛ إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص. فلنبدأ بحكم السماع وهو الأول: وننقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه. ثم نذكر الدليل على إباحته، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه.

فأما نقل المذاهب: فقد حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي ومالك وأبي حنيفة وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظاً يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه.

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء: إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه تُرد شهادته.

وقال القاضي أبو الطيب: استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال، سواء كانت مكشوقة أو من وراء حجاب، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال: قال الشافعي رضي الله عنه: صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته، وقال: وحكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعته الزنادقة ليشتخلوا به عن القرآن. وقال الشافعي رحمه الله: ويكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي، ولا أحب اللعب بالشطرنج، وأكره كل ما يلعب به الناس؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة.

وأما مالك رحمه الله: فقد نهى عن الغناء وقال: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها. وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده.

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه: فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب، وكذلك سائر أهل الكوفة: سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي وغيرهم. فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري.

ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة فقال: سمع من الصحابة عبدالله بن جعفر، وعبدالله بن النبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم، وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان، وقال: لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة؛

وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية، قال: وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما. قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون؟ فقال: وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني؟ فقد كان عبدالله بن جعفر الطيار يسمع، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع.

وروي عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة، حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء. ورأيت في بعض الكتب هذا محكتاً بعينه عن الحارث المحاسبي، وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره. قال: وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع. وحكى غير واحد أنه قال: اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منبع وأبو بكر بن داود، وابن مجاهد في نظرائهم، فحضر مماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منبع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود: حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي، فقال أبو القاسم ابن بنت منبع: أما جدي أحمد ابن بنت منبع فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة، نقال ابن مجاهد لابن داود: دعني أنت من أبيك، وقال لابن بنت منبع: دعني أنت من جدك، أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام؟ فقال ابن داود: لا، قال: فإن كان حسن الصوت حرم عليه إنشاده؟ قال: لا، قال: فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أيحرم عليه؟ قال: عليه إنشاده؟ قال: لا، قال: فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور أيحرم عليه؟ قال: يسمع ويوله عند السماع، وصنف فيه كتاباً ورد به على منكريه، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد يسمع ويوله عند السماع، وصنف فيه كتاباً ورد به على منكريه، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكريه.

وحكي عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له: ما تقول في هذا السماع الذي تختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. وحكي عن ممشاد الدينوري أنه قال: رأيت النبي في النوم فقلت: يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكر منه شيئاً، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن. وحكي عن طاهر بن بلاد الهمداني الورّاق ـ وكان من أهل العلم ـ أنه قال: كنت معتكفاً في جامع جدّة على البحر فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه قولاً ويستمعون، فأنكرت ذلك بقلبي وقلت: في بيت من بيوت الله يقولون الشعر؟ قال: فرأيت النبي في تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي في يستمع إليه، ويضع يده على صدره كالواجد بللك، فقلت في نفسي: ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون، وهذا رسول الله في يستمع وأبو بكر يقول، فالتفت إلي رسول الله في وقال: ه لمذًا حَقَّ بِحَق ـ أو قال: ه فَذًا حَقَّ بِحَق ـ أو قال:

وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع، عند الأكل؛ لأنهم لا يأكلون إلا

عن فاقة، وعند المذاكرة؛ لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين، وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً. وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع فقيل له: أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات؛ لأنه شبيه باللغو، وقال الله تعالى: ﴿لَا يُوانِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّهُ فِي النَّمَرَةِ: ٢٧٥].

هذا ما نقل من الأقاويل. ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيراً أو مائلاً إلى بعض الأقاويل بالتشهي، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحطر والإباحة كما سنذكره.

بيان الدليل على إباحة السماع:

اعلم: أن قول القائل: السماع حرام، معناه: أنّ الله تعالى يعاقب عليه، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص. وأعني بالنص: ما أظهره على بقوله أو فعله، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله. فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه، وبقي فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدل على نع قياس على منصوص بطل القول بتحريمه، وبقي فعلاً لا حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس، ويتضح ذلك في جوابنا على أدلة الماثلين إلى التحريم، ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكاً كافياً في إثبات هذا الغرض، لكن نستفتح ونقول: قد دل النص والقياس جميعاً على إباحته.

أما القياس: فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها، فإنّ فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب، فالوصف الأعم أنه صوت طيب، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات ومائر الحيوانات.

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب: فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس؟ أما القياس: فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك، وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ، فلذة النظر: في المبصرات الجميلة كالمخضرة والماء الجاري والوجه الحسن، وبالجملة سائر الألوان الجميلة، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة. وللشم: الروائح الطيبة، وهي في مقابلة الأنتان المستكرهة. وللذوق: الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة، وهي في مقابلة المرارة المستبشعة، وللمس: لذة اللين والنعومة والملاسة، وهي في مقابلة الجهل والمعرفة، وهي في مقابلة الجهل والمادة.

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة؛ كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة؛ كنهيق الحمير وغيرها. فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها؟.

أما النص: فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن: امتنان الله تعالى على عباده إذ قال: ﴿يَزِيدُ فِي

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيب الموزون: فإنّ الوزن وراء الحسن، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب. والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة: فإنها إما أن تخرج من جماد: كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان: وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره: كصوت العنادل والقماري وذات السجع من الطيور؛ فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها. والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة. وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى محرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور، ولا فرق بين حنجرة وحربرة ولا بين جماد وحيوان. فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر وحنجرة ولا بين جماد وحيوان. فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر وحنجرة ولا بين جماد وحيوان. فينبغي أن يقاس على صوت العندليب والطبل والدف وغيره.

ولا يستثنى من هذه إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها(٥) لا للذتها؛ إذ لو

كتاب السماع والوجد الباب الأول

في ذكر اختلاف العلماء في إياحته

- (١) حديث: «ما بعث الله نبياً إلا حسن العبوت» أخرجه الترمذي في الشمائل عن قتادة وزاد قوله: وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت» ورويناه متصلاً في العيلانيات من رواية قتادة عن أنس، والصواب الأول؛ قاله الدارقطني ورواه ابن مردويه في الغسير من حديث علي بن أبي طالب وطرقه كلها ضعيقة.
 - (٢) حديث: فله أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته؛ تقدم في كتاب تلاوة القرآن.
 - (٣) حديث: «كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور...) الحديث. لم أجد له أصلاً.
 - (٤) حديث: القد أوتى مزماراً من مزامير ال داود، قاله في مدح أبي موسى، تقدم في ثلاوة القرآن.
- (a) حديث: «المنع من الملاهي والأوتار والمزامير». أخرجه البخاري من حديث أبي عاسر أو أبي مائك الأشعري: «ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الجوز والحرير والممازف» صورته عند البخاري صورة التعليق، ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والإسماعيلي.

كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان. ولكن حرمت الخمور واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها، حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط، وكان تحريمها من قبل الاتباع؛ كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة المجماع، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه؛ ليكون حمى للحرام ورقاية له وحظاراً مانعاً حوله، كما قال على الله المحرب على جمعى وإنّ جمّى الله مَحَارِمُهُ الله مَحَارِمُهُ الله مَحرمة تبعاً لتحريم الخمر لثلاث علل:

إحداها: أنها تدعو إلى شرب الخمر، فإنّ اللّذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر.

الثانية: أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنس بالشرب فهي سبب الذكر، والذكر سبب انبعاث الشوق، وانبعاث الشوق إذا قوي فهو سبب الإقدام. ولهذه العلة «نهي عن الانتباذ في المنزفت والحنتم والنقير، (٢)، وهي الأواني التي كانت مخصوصة بها. فمعنى هذا: أن مشاهدة صورتها تذكرها، وهذه العلة تفارق الأولى، إذ ليس فيها اعتبار لذة في الذكر، إذ لا لذة في رؤية القنينة وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها. فإن كان السماع يذكر الشرب تذكيراً يشوّق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع، لخصوص هذه العلة فيه.

الثالثة: الاجتماع عليها، لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم، وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعاراً لأهل البدعة خوفاً من التشبه بهم - وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة - وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين - وضربها عادة المخنثين، ولولا ما فيه من التشبه لكان مثل طبل الحجيج والغزو، وبهذه العلة نقول: لو اجتمع جماعة وزينوا مجلساً وأحضروا آلات الشرب وأقداحه، وصبوا فيها السكنجبين، ونصبوا ساقياً يدور عليهم ويسقيهم، فبأخذون من الساقي ويشربون ويحيي بعضهم بعضاً بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم، وإن كان المشروب مباحاً في نفسه، لأن في هذا تشبهاً بأهل الفساد، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعاً في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد، ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر؛ لاعتياد أهل الصلاح ذلك فيهم، فبهذه المعاني حرم المزمار العراقي والأوتار كلها كالعود والصنح والرباب والبربط وغيرها، وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجيج وشاهين الطبالين وكالطبل والقضيب، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب؛ لأن كل

والمعازب: الملاهي، قاله الجوهري، ولأحمد من حديث أبي أمامة: اإن الله أمرني أن أمحق المزامير والكبارات ميني البرابط و والمعازف، وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة: اإن ربي حرم علي المخمر والكوبة والقنين، وله في حديث مكحول لأبي أمامة باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف. وكلها ضعيفة، ولأبي الشيخ من حديث مكحول مرسلاً: «الاستماع إلى الملاهي معصية. . . » الحديث. ولأبي داود من حديث ابن عمر: السمع مزماراً فوضع أصبعيه على أذنيه، قال أبو داود: وهو منكر.

⁽١) حديث: ﴿إِنْ لَكُلُّ مُلْكُ حَمَّى وَإِنْ حَمَّى اللَّهُ مَجَارِمُهُ تَقَدُّمْ فِي كَتَابِ الْحَلَالُ والخرامُ.

٧) حديث: النهي عن الحتم والمزفت والنقير. منفق عليه من حديث ابن عباس.

ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها فلم يكن في معناها فبقي على أصل الإباحة قياساً على أصوات الطيور وغيرها، بل أقول: سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضاً. وبهذا يتبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرد اللذة الطبية، بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمٌ زِيسَةَ اللَّهِ اللَّيَ أَخَيَ لِيبَادِهِ وَالطَّيبَاتِ مِنَ الرِّرَقِيُ الاعراف: ٣٧] فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر، كما سيأتي في العوارض المحرّمة.

المدرجة الثانثة: الموزون والمفهوم، وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً. والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع؟ نعم ينظر فيما يفهم منه؛ فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به سواء كان بألحان أو لم يكن، والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله إذ قال: الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح. ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان؛ فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحاً. ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا تتضمنه الآحاد، ولا محظور ههنا وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله عنها:

ذُهبَ السَّذَيْسِ يُسَعِياشُ فِي أَكْنُسَافَهِم وَ وَبِقِيتَ فِي خِلْفَ كَجِلْدِ الأَجْرِبِ

وروي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما، وكان بها وباء فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول:

ألاً ليت شيغري هيل أبيت لل ليبلة بسواد وحسولي إذ خسر وجسلسك وهيل أردن يسوماً مسيسا، مسجدات وهيل يسبدون لي شامة وطنف يبل

⁽١) حديث: «إنشاد الشعر بين يدي رسول الله ﷺ متفق عليه من حديث أبي هريرة: «أن عمر مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك. . . • الحديث، ولمسلم من حديث عائشة إنشاد حسان:

هــــجـــوت مـــحــمـــداً فـــاًجــيــت عـــنــه وعــــــنـــد الله فـــــــي ذاك الســــجـــــــزاة . . . القصيدة

وإنشاد حمان أيضاً: وإن سننسام المسمسجد مسن آل هساشسم بمنسو سنست مسخروم ووالسفك السعم بسك وللبخاري إنشاد ابن رواحة:

 ⁽٢) حديث: (إن من الشعر لحكمة) رواه البخاري من حديث أبي بن كعب، وتقدم في العلم.

قالت عائشة رضي الله عنها: فأخبرت بذلك رسول الله شخ فقال: «اللَّهُمَّ حَبُّبُ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبُّنا مَكُةً أَوْ أَشَدًه (١)، وقد كان رسول الله شخ ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول:

هـــذا الــحــمــال لا حــمــال خــيــيــر هـــــذا ـ أبــــر ـ ربــــنـــا وأطـــهـــرُ وقال أيضاً على مرة أخرى:

لا هسم إنّ السعسيسش عسيسش الآخسره فسارحهم الأنسمسار والسمهاجسره(٢)

- (١) حديث عائشة في الصحيحين: الحما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال...» الحديث. وفيها إنشاد أبي بكر:
- كــــل امــــرى؛ مسـصـــ بــــــح فــــي أهـــــكـــه والـــمـــوت أدنــــى مـــن شـــراك نـــعـــلـــه وإنشاد بلال:
- ألا لسيست شدمسري هسل أبسيستسن لسيسلسة سسواد وحسولسي إذخسر وجساسيسل وهسل أردن يسومسا مسيحسنسة وطهميسل وهسل يسبسدون لسي شامسة وطهميسل وهسل يسبسدون لسي شامسة وطهميسل قلت: هو في الصحيحين كما ذكر المصنف، لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم.
 - (٢) حديث: كان ﷺ ينقل اللين مع القوم في بناء المسجد وهو يقول:
- السلسهام إن السعسيسش مسيسش الأخسرة فسارحهم الأنسمسار والسمهاجسرة قال المصنف: والبيئان في الصحيحين.

قلت: البيت الأول اتفرد به البخاري في قصة الهجرة من رواية عروة مرسلاً وفيه البيت الثاني أيضاً إلا أنه قال: الأجرا بدل: «العيش" تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن وسول الله ﷺ تمثل بسيت شعر تام غير هذا البيت، والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله ﷺ مهمم يقولون:

- السلسهم لا خير إلا خير الأخروة في الترابط الأخروة ولين من حفر الأربط الوالم هاجرة وليس البيت الثاني موزوناً، وفي الصحيحين أيضاً أنه قال في حفر الخندق بلفظ: «فبارك في الأعصار والمهاجرة» وفي رواية «فاغفر» وفي رواية لمسلم «فأكرم» ولهما من حديث سهل بن سعد: «فاغفر للمهاجرين والأنصار».
- (٣) حديث: «كان يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يقاخر عن رسول الله الله المسجد يقوم عليه قائماً من حديث عائشة، قال الترمذي: حسن الحديث، أخرجه البخاري تعليقاً، وأبو داود والترمذي والحاكم متصلاً من حديث عائشة، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وأبو داود والترمذي والحاكم متصلاً من حديث عائشة، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وفي المحيحين أنها قالت: «إنه كان يتافح عن رسول الله عليه.

قَاكَه (۱)، وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم (۲)، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: أنشدت رسول الله ﷺ مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول: «هيه هيه» ثم قال: «إِنْ كَاهَ فِي شِعْرِهِ لَيُسْلِمُ (۲) وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يحدى له في السفر. وأنّ أنجشة كان يحدو بالنساء، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال، فقال رسول الله ﷺ: «يَا أَنْجَشَةَ رُويَدَكَ سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ» (۱)، ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله ﷺ وزمان الصحابة رضي الله عنهم، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ. فلا يجور أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة.

اللارجة الرابعة: النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه. فأقول: لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً، فمن الأصوات ما يفرح، ومنها ما يحزن، ومنها ما ينوم، ومنها ما يضحك ويطرب، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس. ولا ينبغي أن يظن أنّ ذلك لفهم معاني الشعر، بل هذا جار في الأوتار حتى قيل: من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج، وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده؟ فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه. والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة، ويبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادي الحداء تمدّ أعناقها وتصغي إلى الحادي ناصية آذانها، وتسرع في سيرها حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها، وربما تتلف أنفسها من شدّة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها. فقد حكى أبو بكر

⁽١) حديث أنه قال للنابغة لما أنشده شعراً: «لا يقضض الله فالله رواه البغوي في معجم الصحابة، وابن عبدالبر في الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبدالله قال: أنشدت النبي ؛

بالغنا السماء منجدنا وجدودنا وإنا لمندرجو فنوق فلك مسظسه را الإبيات ... الأبيات

ورواه البزار بلفظ «علونا العباد عفة وتكرماً... الأبيات» وفيه: فقال «أحسنت يا أبا ليلي لا يفضض للله قاك» وللحاكم من حديث خزيم بن أوس: سمعت العباس يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال: «قل لا يقضض الله قاك؛ فقال العباس:

من قبيلها طبيت في النظالال وفي مستودع حبيث يسخصف البورق . . . الأبيات . . . الأبيات

 ⁽۲) حديث عائشة: اكان أصحاب رسول الله ﷺ يتناشدون الأشعار وهو يبتسم، أحرجه الترمذي من حديث جابر بن
 صمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة.

حديث الشريد: أنشدت النبي على مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول: فهيه هيه. . . ، الحديث ، رواه مسلم.

 ⁽٤) حديث أنس: «كان يحدى له في السفر وإن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال ١٠٠٠
الحديث. رواه أبو داود الطيالسي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء من مالك.

محمد بن داود الدينوري ـ المعروف بالرقي ـ رضي الله عنه قال: كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خباءه، فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد، ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ماحل ذابل كأنه ينزع روحه، فقال لي الغلام: أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القيد، فقال: إن هذا العبد عني، قال: فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت: لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد، فقال: إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي، فقلت: ماذا فعل؟ فقال: إن له صوتاً طيباً وإني كنت أعيش من ظهور مذه الجمال، فحملها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب عفمته، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك، قال: فأحببت أن أسمع صوته، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي الماء من بئر هناك، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي، فما أظن أني سمعت قط صوتا أطيب منه. فإذن تأثير السماع في القلب محسوس، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الوحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم، فإن جميعها تناثر بالنغمات الموزونة. ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام الاستماع صوته. ومهما تنائر بالنغمات الموزونة. ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام الاستماع صوته. ومهما كان النظر في السماع باعتدار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف كان النظر في السماع باعتدار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب.

قال أبو سليمان: السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع:

الأول: غناء الحجيج: فإنهم أو لا يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء، وذلك مباح؟ لأنها أشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثم شوق حاصل، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلاً. وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محموداً كان التشويق إليه بكل ما يشوق محموداً. وكما يجوز للواحظ أن ينظم كلامه في الوعظ ويزينه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على نظم الشعر، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقعه، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير، وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير، وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار، نعم إن قصد به تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذي أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج، فهذا يحرم عليه الخروج. فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع بكل نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج، فهذا يحرم عليه الخروج. فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع بكل خلام يشوق إلى الخروج؛ فإن التشويق إلى الحرام حرام. وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق.

الثاني: ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو: وذلك أيضاً مياح كما للحاج، ولكن ينبغي أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم، لأن استثارة داعية الغزو ـ بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه ـ بالأشعار المشجعة. مثل قول المتنبى:

فإنْ لا تسمت تحت السيوف مكرَّما تسمت وتسقساس الدلُّ غير مكرم

وقوله أيضاً:

يسرى السجسيناء أنَّ السجسينَ حسزمٌ وتسلك خديسعةُ السطسيعِ السلسيسيم

وأمثال ذلك. وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوّقة. وهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو. ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو، ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو.

الثالث: الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاه: والغرض منها النشجيع للنفس وللأنصار وتحريك النشاط فيهم للقتال، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس، وذلك مباح في كل قتال مباح، ومندوب في قتال مندوب، ومحظور في قتال المسلمين وأهل الذمة، وكل قتال محظور؛ لأن تحريك الدواعي إلى المحظور محظور. وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما. ولذلك نقول: ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة؛ فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس، ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب، فالألحان المرققة المحزنة ثباين الألحان المحركة المشجعة، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص، ومن فعله على قصد النفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع.

الرابع: أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهييج الحزن والبكاء وملازمة الكآبة والحزن قسمان: محمود ومذموم.

فأما المذموم: فكالحزن على ما فات، قال الله تعالى: ﴿لَكِنَالاَ تَأْسُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الخديد ٢٣] والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له. فهذا الحزن لما كان مذموماً كان تحريكه بالنباحة مذموماً، فلذلك ورد النهي الصريح عن النياحة (١٠).

وأما الحزن المحمود: فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه، وبكاؤه على خطاياه. والبكاء والنباكي والحزن والتحازن على ذلك محمود، وعليه بكاء آدم عليه السلام. وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود؛ لأنه يبعث على التشمير للتدارك، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة؛ إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكي ويحزن ويحزن حتى كانت الجنائز ترقع من مجالس نياحته. وكان يفعل ذلك بالفاظه وألحانه، وذلك محمود؛ لأن المفضي إلى المحمود محمود. وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب، ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه.

المخامس: السماع في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهييجاً له، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً؛ كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة

⁽١) حديث: «النهي عن النياحة». متفق عليه من حديث أم عطية: «أخذ علينا النبي ﷺ في البيعة أن لا ننوح».

المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز، وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به. ووجه جوازه: أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب، فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه. ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ^(۱):

فهذا إظهار السرور لقدومه على وهو سرور محمود، فإظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضاً محمود. فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلوا في سرور أصابهم (٢٠ - كما سيأتي في أحكام الرقص ـ وهو جائز في قدوم كل قادم يجوز الفرح به، وفي كل سبب مباح من أسباب السرور. ويدل على هذا: ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لقد رأيت النبي على يسترني بردانه وأنا أنظر إلى الحيشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأمه (٢٠) فاقدروا قدر المجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو ـ إشارة إلى طول مدة وقوفها ـ وروى البخاري ومسلم أيضاً في صحيحيهما حديث عقبل، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضي الله عنه، فكشف النبي على عن وجهه وقال: «دَعُهُما يَا أَبَا بَكُر فَإِنّها أَيّامُ عِيه فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه، فكشف النبي على يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه، فكشف النبي على: «أمناً يَا بَني أَزْفِلَةً (أَنَّ)، يعني من الأمن، ومن المسجد فزجرهم عمر رضي الله عنه، فقال النبي على: «أمناً يَا بَني أَزْفِلَةً (٤)، يعني من الأمن، ومن المسجد فزجرهم عمر رضي الله عنه، فقال النبي على: «أمناً يَا بَني أَزْفِلَةً (٤)، يعني من الأمن، ومن رفي الله عنه، فقال النبي المبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي وهب : «والله لقد رأيت رسول الله على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله على وهو يسترني بثوبه ـ أو برداته ـ لكي أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي رسول الله على عنه وسول الله على عن باب عرب عربي والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله علي وسرد الله المنهم ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا الذي

⁽١) حديث: ﴿إنشاد النساء عند قدوم رسول الله ﷺ ٤:

طسلسع السبسدر عبلسينسا مسن السسوداع وجسب السسوداع وجسب السشسكسر عساسيسنسا مسن المسسوداع السسوداع وجسب السيدنسا الله والألحان.

⁽٢) حديث: الحجل جماعة من الصحابة في سرور أصابهم، أخرجه أبو داود من حديث علي وسيأتي في الباب الثاني.

 ⁽٣) حديث عائشة: ارأيت رسول الله ﷺ سُترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد... المُحديث. وهو كما ذكر المصنف أيضاً في الصحيحين، لكن قوله إنه فيهما من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخاري كما ذكر وعند مسلم من رواية عموو بن البحارث عنه.

⁽٤) حديث عائشة: رأيت النبي ﷺ يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزحرهم عمر فقال النبي ﷺ: «أمناً يا بني أرفقة» تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم... إلى آخره. رواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله: «أمناً يا بني أرفقة» بل قال: «دعهم يا عمر» زاد النسائي «فإنما هم بنو أرفقة» ولهما من حديث عائشة: «دونكم بني أرفقة» وقد ذكره المصنف بعد هذا.

⁽٥) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وقيه: «يغنيان ويضربان» وواه مسلم وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب.

أنصرف (١)، وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ، قالت: وكان يأتيني صواحب لي فكن يتقنعن من رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يسر لمجيئهن إلي فيلعبن معي (٢). وفي رواية أن النبي ﷺ قال لها يوماً: «مَا لهذَا؟» قالت: بناتي، قال: «فَمَا لهذَا الَّذِي أَرَى فِي وَسَطِهِنَ؟» قالت: فال: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قالت: ونرس، قال: «فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟» قالت: ونرسمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة؟ قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان في اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته؛ بدليل ما روي في بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقاع.

وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ وقال: «دَعْهُما» فلما غفل غمزتهما فخرجتا (۳). وكان يوم عبد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ» فقلت: نعم، فأقامني وراءه وخدّي على خده ويقول: «دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ» حتى إذا مللت قال: «حَشْبُكِ» قلت: نعم، قال: «فَاذْهَبِي» وفي صحيح مسلم: فوضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذي انصرفت،

فهذه الأحاديث كلها في الصحيحين وهو نص صريح في أن الغناء واللعب ليس بحرام، وفيها دلالة على أنواع من الرخص.

الأول: اللعب: ولا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب.

والثاني: فعل ذلك في المسجد.

والثالث: قوله ﷺ: «تُونَكُمُ يَا بَنِي أَرْفِلَةَ» وهذا أمر باللعب والتماس له، فكيف يقدر كونه حراماً؟.

والرابع: منعه لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما عن الإِنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد أي هو وقت سرور؟ وهذا من أسباب السرور.

والخامس: وقوفه طويلاً في مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضي الله عنها. وهيه دليل على أن حسن الخلق في تطييب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف في الامتناع والمنع منه.

والسادس: قوله ﷺ ابتداء لعائشة: ﴿ أَتَشْتَهِينَ أَنْ تَنْظُرِي؟ ﴾ ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة

حديث أبي طاهر عن ابن وهب: قوالله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحيشة يلعبون محرابهم...٤
 الحديث. رواه مسلم أيضاً.

 ⁽٢) حديث عائشة: «كنت ألعب بالبنات عند رسول الله على .» الحديث. وهو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصر إلى قولها: «فيلعبن معي». وأما الرواية المطولة التي ذكرها المصنف بقوله: وفي رواية: فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح. البنات: اللمى العرائس

⁽٣) حديث عائشة: «دخل رسول الله على رعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث. . . » الحديث. وهو في الصحيحين كما ذكر المصنف، والرواية التي عزاها لمسلم انفرد بها مسلم كما ذكر .

الأهل خوفاً من غضب أو وحشة، فإن الالتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور، فيقدم محذور على محذور. فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه.

والسابع: الرخصة في الغناء والضرب بالدف من الجاريتين، مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك.

والمثامن: أن رسول الله على كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع، ولو كان يضرب بالأوتار في موضع لما جوّز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه. فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير بل إنما يحرم عد خوف الهتنة.

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والصرب بالدف واللعب بالدرق والحب بالدرق والحب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج في أوقات السرور كلها ـ قياساً على يوم العيد ـ فإنه وقت سرور، وفي معناه يوم العرس والوليمة والعقبقة والختان ويوم القدوم من السفر، وسائر أسباب الفرح وهو كل ما يجوز به الفرح شرعاً، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضاً مظنة السماع.

السادس: سماع العشاق تحريكاً للشوق وتهييجاً للعشق وتسلية للنفس. فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق. والشوق وإن كان ألماً ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال، فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشيء المرجو. ففي هذا السماع تهييج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء الممقدر في الوصال مع الإطناب في وصف حسن المحبوب. وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته، فيصغي إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها. فيحظى بالمشاهدة البصر، وبالسماع الأذن، ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب، فتترادف أسباب اللذة. فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات اللنيا ومتاعها ﴿وَمَا ٱلْحَيَوةُ ٱلدُّنُيَّا إِلَّا لَمِبُّ ﴾ [الأنكام: ٢٧] وهذا منه. وكذلك إن غضبت منه حارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب؛ فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة تحقيقه بالوصال، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده؛ إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء. وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما تحقيقه بالوصال واللقاء. وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما لا يباح الوصول إليه. وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك، وذلك ممنوع في حقهم؛ لما فيه من الداء الدفين لا لأمر يرجع إلى نفس السماع. ولذلك شيء من العشق فقال: دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيجه السماع.

السابع: سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه، ولا يفرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومور زناد قبه، ومستخرج منه أحوالاً من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كُلَّ حسه عن ذوقها. وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية: وجداً مأخوذ من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع. ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقي النار الجواهر المعروضة عليها من الخش، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها،

فالمفضى إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات.

وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقاً وفرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً. ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات. والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزينج، وتعجب العنين من لذة المباشرة، وتعجب الصبي من لذة الرئاسة واتساع أسباب الجاه، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه. ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك والإدراك يستدعي مدركاً ويستدعي قوة مدركة. فمن لم تكمل قوة إدراكه لم ينصور منه التلذذ فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد المعقولات من فقد السمع؟ ولذة المعقولات من فقد العقل؟ وكذلك ذوق السماع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة في القلب، فمن فقدها عدم لا محالة لذته.

ولعلك تقول: كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محركاً له؟ فاعلم: أن من عرف الله أحبه لا محالة، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته. والمحبة إذا تأكدت سميت عشقاً فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة. ولذلك قالت العرب: إن محمداً قد عشق ربه. لما رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء. واعلم: أنّ كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال، ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر. وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب. ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً لها فيقال: إنَّ فلاناً حسن وجميل ولا تراد صورته. وإنما يعني به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما تحب الصورة الظاهرة. وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقاً. وكم من الغلاة في حب أرباب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم؟ حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ويزيدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة. ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت؟ ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال. ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه، بل على التحقيق من لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده، بل كل حسن وجمال في العائم أدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدإ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى فهو ذرّة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه؟ وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حدًا يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلماً في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته؟ فسبحان من احتجب عن الظهور بشدَّة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق نوره، ولولًا احتجابه بسبعين حجاباً من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته، ولولا أنَّ ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء، ولو رُكّبت القلوب من المحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادي أنوار تجليه دكاً دكاً، فأنَّى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش. وسيأتي تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة.

ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى؛ إذ ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله. ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره. فمن عرف الشافعي مثلاً رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه - لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية _فلقد عرفه، ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره، ولا جاوزت محبته إلى غيره، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله، فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره، كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه. ومن حدّ هذا العشق: أنه لا يقبل الشركة وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشركة؛ إذ كل محبوب سواه يتصوّر له نظير إما في الوجود وإما في الإمكان. فأما هذا الجمال فلا يتصوّر له ثان لا في الإمكان ولا في الوجود. فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة. نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمة قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع. فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظة العشق والشوق والوصال والأنس، بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تحنب البهيمة النرجس والربحان وتخصص بالقت والحشيش وأوراق القضبان. فإنَّ الأَلفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه. والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرّد السماع لصفات الله تعالى وجدٌ غالب يقطع بسببه نياط القلب؛ فقد روى أبو هريوة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر غلاماً كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه: من خلق السماء؟ قالت: الله عزّ وجلّ، قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله عزَّ وجلَّ، قال: فمن خلق الجبال؟ قالت . الله عزَّ وجلَّ، قال: فمن خلق الغيم؟ قالت: الله عزّ وجلّ، قال: إني لأسمع لله شأناً. ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع(١٠). وهذا كأنه سمع ما دُل على جلال الله تعالى وتمام قدرته فطرب لذلك ووجد فرمي بنفسه من الوجد. وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى. قال بعضهم: رأيت مكتوباً في الإنجيل: غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا. أي شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا. فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، وقد ظهر على القطع إباحته في بعض المواضع والندب إليه في بعض المواضع.

فإن قلت: فهل له حالة يحرم فيها؟ فأقول: إنه يحرم بخمسة عوارض: عارض في المسمع، وعارض في آلة الإسماع، وعارض في نظم الصوت، وعارض في نفس المستمع أو في مواظبته، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق؛ لأن أركان السماع هي المسمع والمستمع وآلة الإسماع.

العارض الأوّل: أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها، وفي معناها الصبي الأمرد الذي تخشى فتنته، وهذا حرام؛ لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء، بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضاً، وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته.

فإن قلت: فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسماً للباب، أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في

 ⁽۱) حديث أبي هريرة: (إن فلاماً كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه: من خلق السماء؟ فقالت: الله. ١٠ الحديث.
 وفيه: (ثم رمى نفسه من الجبل فتقطع) رواه ابن حبان.

حق من يخاف العنت؟ فأقول: هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان:

أحدهما: أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف؛ لأنها مظنة الفتنة على الجملة. فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور.

والثاني: أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة. فلا يلحق الصبيان بالنساء في عموم الحسم بل يتبع فيه الحال. وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أوّل هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة كتحريك السماع بل هو أشد. وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة، فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضي الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك. ولكن للغناء مزيد أثر في تحريك الشهوة. فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات. فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه. هذا هو الأقيس عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضي الله عنها؛ إذ يعلم أنه عليه كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه، ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه فلذلك لم يحترز. فإذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شاباً وشيخاً، ولا يبعد أن يفتل ذلك لم يحترز. فإذن يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شاباً وشيخاً، ولا يبعد أن يفتلف الأمر في مثل هذا بالأحوال. فإنا نقول: للشيخ أن يقبّل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك؟ لأن القبلة تدعو إلى الوقاع في الصوم وهو محظور، والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيختلف ذلك أيضاً بالأشخاص.

العارض الثاني: في الآلة: بأن تكون من شعار أهل الشرب أو المخنثين وهو المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف ـ وإن كان فيه الجلاجل ـ وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات.

العارض الثالث: في نظم الصوت وهو الشعر، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله في أو على الصحابة رضي الله عنهم، كما رتبه الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستمع شريك للقائل. وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال. وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز. فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله في ويهاجي الكفار وأمره في بذلك المناه النسيب: وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن الفذ والقامة وسائر أوصاف النساء، فهذا فيه نظر. والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن. وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته، فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه. ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأساً، فإن من غلب عليه عشى نزل كل ما يسمعه عليه؛ سواء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن؛ إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق يسمعه عليه؛ سواء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن؛ إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق نور الإيمان، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين، نور الإيمان، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين،

 ⁽۱) حديث: «أمره ﷺ حسان بن ثابت بهجاء المشركين»، متفق عليه من حديث البراء: أنه ﷺ قال لحسان: «اهجهم أو هاجهم وجبريل ممك».

وبذكر الرقيب المشوّش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوّشة لدوام الأنس بالله تعالى، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ.

كما روي عن بعض الشيوخ، أنه مرّ في السوق فسمع واحداً يقول: الخيار عشرة بحبة، فغلبه الوجد، فسئل عن ذلك فقال: إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار؟. واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلاً يقول: يا سعتر بري، فغلبه الرجد فقيل له: على ماذا كان وجدك؟ فقال: سمعته كأنه يقول اسع تر بري، حتى إن العجمي قد يغلب عليه الوجد على الأبيات المنظومة بلغة العرب، فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان أخر. أنشد بعضهم:

ومسا زارنسي فسي السلسيسل إلا خسيسالسه

فتواجد عليه رجل أعجمي، فسئل عن سبب وجده فقال: إنه يقول: ما زاريم. وهو كما يقول فإن لفظ «زار» يدل في العجمية على المشرف على الهلاك، فتوهم أنه يقول: كلنا مشرفون على الهلاك، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة.

والمحترق في حب الله تعالى وجده بحسب فهمه، وفهمه بحسب تخيله، وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد الشاعر ولغته. فهذا الوجد حق وصدق، ومن استشعر خطر هلاك الآخرة بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه، فإذن ليس في تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة، بل الذي غلب عشق مخلوق ينبغي أن يحترز من السماع بأي لفظ كان، والذي غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة بمجاري همته الشريفة.

العارض الرابع: في المستمع: وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه وكان في غرّة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخدّ والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتدّ بواعث الشر، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالى، والقتال في القلب دائم بين جنود الشيطان وهي الشهوات، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل، إلا في قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية. وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها، فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها، فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأستُتها، والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص. فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به.

العارض الخامس: أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوباً، ولو غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظوراً. ولكنه أبيح في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيره وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذي ترد شهادته، فإن المواظبة على اللهو جناية. وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة، فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعاً إذ فعله رسول الله على منابعة القبيل: اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة. ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب؛ إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه

فيشتخل في سائر الأوقات بالجدّ في الدنيا كالكسب والتجارة، أو في الدين كالصلاة والقراءة.

واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته فما أقبح ذلك، فيعود الحسن قبحاً بسبب الكثرة فما كل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام. فهذا المباح كسائر المباحات.

فإن قلت: فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولاً بالإباحة، إذ إطلاق القول في المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ؟ فاعلم: أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين ما فيه النظر، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق، ألا ترى أنا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا؟ قلنا: إنه حلال على الإطلاق، مع أنه حرام على المحرور الذي يستضر به، وإذا سئلنا عن الخمر قلنا: إنها حرام، مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشربها مهما لم يجد غيرها، ولكن هي من حيث إنها خمر حرام وإنما أبيحت لعارض الحاجة. والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض، والسماع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم، وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته. فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبالي بمن يخالف بعد ظهور الدليل.

وأما الشافعي رضي الله عنه فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلاً. وقد نص الشافعي وقال في الرجل يتخذه صناعة: لا تجوز شهادته؛ وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل، ومن اتخذه صنعة كان منسوباً إلى السفاهة وسقوط المروءة، وإن لم يكن محرماً بين التحريم، فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يأتي لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرب في الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ولم يبطل شهادته، واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة رضي الله عنها، وقال يونس بن عبدالأعلى: سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع وفكل الشافعي: لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه في الأوصاف، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح.

وحيث قال: إنه لهو مكروه يشبه الباطل ققوله «لَهْوً» صحيح. ولكن اللهو من حيث إنه لهو ليس بحرام فلعب الحبشة ورقصهم لهو، وقد كان على ينظر إليه ولا يكرهه. بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه؛ فإن الإنسان لو وظف على نفسه أنه يضع بده على رأسه في اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم. قال الله تعالى: ﴿لا يُوَانِدُكُمُ اللهُ بِاللَّهِ فِ اَيْنَتِكُمُ اللَّهُ وَالبَّمْرَة: ٥٢٠]، فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مم أنه لا فائدة فيه لا يؤاخذ، فكيف يؤاخذ به بالشعر والرقص؟

وأما قوله: يشبه الباطل، فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه، بل لو قال: هو باطل صريحاً، لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه عن الفائدة، فالباطل ما لا فائدة فيه. فقول الرجل لامرأته مثلاً: بعت نفسي منك، وقولها: اشتريت، عقد باطل مهما كان القصد اللعب والمطايبة وليس بحرام، إلا إذا قصد به التمليك المحقق منع الشرع منه.

وأما قوله: «مكروه» فينزل بعض المواضع التي ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه، فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أني أكره لعب وتعليله يدل عليه فإنه قال: ليس ذلك من عادة ذوي الدين والمروءة. فهذا يدل على التنزيه. ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضاً، بل قد ترد الشهادة بالأكل في السوق وما يخرم المروءة، بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوي المروءة، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه. وهذا هو الظن أيضاً بغيره من كبار الأثمة. وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم.

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها:

احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَهِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهُو الْحَدِيثِ ﴾ [لقمّان: ٦]، قال ابن مسعود والحسن البصري والنخعي رضي الله عنهم: إنّ لهو الحديث هو الغناء. وروت عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: ﴿إِنَّ الله تَعَالَىٰ حَرَّمَ القَيْنَةَ وَهَنِهُهَا وَتَعَلَيْمَهَا ﴾ ، فنقول: أما القينة فالمراد بها الجارية التي تغني للرجال في مجلس الشرب. وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفسّاق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة. بدليل ما روي في الصحيحين من غناء الجاريتين في بيت عائشة رضي الله عنها. وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالاً به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم، وليس النزاع فيه، وليس كل غناء بدلاً عن الدين مشترى به ومضلاً عن سبيل الله تعالى، وهو المراد في الآية. ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراماً.

حكي عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس؛ لما فيها من العتاب مع رسول الله على المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس؛ لما فيه من الإضلال. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم.

وَاحتجوا بِقُولُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفِنَ هَٰذَا لَلْمِيثِ شَجُونَ ۞ وَشَمْكُونَ وَلَا تَتَكُونَ ۞ وَأَنْمٌ صَيْلُونَ ۞ ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ١٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الغناء بلغة حمير ـ يعني السمد ـ فنقول: ينبغي أن يحرم الضحك وعلم البكاء أيضاً لأن الآية تشتمل عليه.

فإن قيل: إنّ ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم؟ فهذا أيضاً مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّعَرَاهُ يَنَبِّعُهُمُ اَلْفَادُنَ ﷺ [الشَّعَرَاه: ٢٧٤] وأراد به شعراء الكفار، ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه.

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه على قال: ﴿كَانَ إِيْلِيسُ أَوَّلَ مَنْ نَاحَ وَأَوَّلَ مَنْ تَغَنَّىٰ ﴿٢٠) فقد جمع بين النياحة والغناء؟ قلنا: لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله على وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن:

طلع البدر علينا مس ثسنيسات السوداع

 ⁽١) حديث عائشة: (إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها). أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف، قال البيهقي ليس بمحفوظ.

 ⁽٧) حديث جابر: «كان إبليس أول من ناح وأول من تغني». لم أجد له أصلاً من حديث جابر، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرجه ولده في مسنده.

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه ﷺ أنه قال: «مَا رَفَعَ أَحَدٌ صَوْتَهُ بِفِنَاءِ إِلاَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ شَيْطَانَيْنِ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ يَشْرِبَانِ بِأَفْقَابِهِما عَلَىٰ صَدْرِهِ حَتَىٰ يُمْسِكَ، (١) ، قلنا: هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه، وهو الذي يحرّك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين، فأما ما يحرّك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان؛ بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجويز في موضع واحد نص في الإباحة، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل. أما الفعل فلا تأويل له؛ إذ ما حرم فعله إنما يحرل بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود.

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي على قال: «كُلُّ شَيْءٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُو بَاطِلٌ إِلاَّ تَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَرَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَمُلاَعَبَتَهُ لامْرَأَتِهِهُ "، قلنا: فقوله: «بَاطِلٌ» لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة، وقد يسلم ذلك على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس محرام، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياساً كقوله على الآيجلُ دَمُ المْرِيءِ مُسْلِم إِلاَّ بِإِحْدَىٰ ثَلاثٍه "، فإنه يلحق به رابع وخامس، فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ. وفي هذا دليل على أنّ التفرّج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها، وإن جاز وصفه بأنه باطل.

واحتجوا بقول عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني مذ بايعت بها رسول الله ﷺ قلنا: فليكن التمني ومس الذكر باليمنى حراماً، إن كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين يثبت أن عثمان رضي الله عنه كان لا يترك إلا الحرام؟.

واحتجوا بقول ابن مسعود رضي الله عنه: الغناء يُنبت في القلب النفاق ـ وزاد بعضهم ـ كما ينبت الماء البقل (3) ورفعه بعضهم إلى رسول الله على وهو غير صحيح. قالوا: ومرَّ على ابن عمر رضي الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال: ألا لا أسمع الله لكم، ألا لا أسمع الله لكم، وعن نافع أنه قال: كنت مع ابن عمر رضي الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق؛ فلم يزل يقول: يا نافع أتسمع ذلك؟ حتى قلت: لا؛ فأخرج أصبعيه وقال: هكذا رأيت رسول الله على صنع (٥). وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: الغناء رقية الزني، وقال بعضهم: الغناء رائد من روّاد الفجور، وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء؛ فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم

 ⁽١) حديث أبي أمامة: الما رقع أحد عقيرته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك. أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، والطبراني في الكبير وهو صعيف.

 ⁽۲) حديث عقبة بن عامر: «كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه قرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب.

 ⁽٣) حديث: «لا يحل دم أمرى» إلا بإحدى ثلاث، متفق عليه من حديث ابن مسعود.

 ⁽٤) حديث ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل؛ قال المصنف: والمرفوع غير صحيح الأن في
إسناده من لم يسم، رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية اللؤلؤي، ورواه البيهقي مرفوعاً وموثوفاً.

⁽a) حديث نافع: اكنت وابن عمر في طريق قسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه... الحديث، ورفعه أبو داود وقال: هذا حديث مكر.

المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر، فإن كنتم لا بد فاعلين، فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزني. فنقول: قول ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ينبت النفاقِ﴾: أراد به في حق المغنى، فإنه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروّج صوته عليه، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه، وذلك أيضاً لا يوجب تحريماً. فإنَّ لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهملجة وسائر أنواع الزينة، والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله. فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصي فقط، بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأثيراً. ولذلك نزل عمر رضي الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته. فهذا النفاق من المباحات. وأما قول ابن عمر رضي الله عنهما: ألا لا أسمع الله لكم: فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء، بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرّد اللهو، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكراً بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام. وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال. وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يأمرُ نافعاً بذلك ولا أنكر عليه سماعه، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه في الحال وقلبه عن صوت ربما يحرِّك اللهو ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو، أولى منه، وكذلك فعل رسول الله ﷺ _ مع أنه لم يمنع ابن عمر ـ لا يدل أيضاً على التحريم، بل يدل على أنّ الأولى تركه. ونحن نرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب. فقد خلع رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه (١). أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب؟ فلعله ﷺ كان في حالة كان صوت زمارة الراعي يشغله عن تلك الحالة كما شغله العلم عن الصلاة. بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور، بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق، وإن كان كمالاً بالإضافة إلى غيره. ولذلك قال الحصري: ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من يسمع منه؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم. فالأنبياء عليهم السلام على الدوام في لذة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة. وأما قول الفضيل: هو رقية الزني، وكذلك ما عداه من الأقاويل القريبة منه، فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان. ولو كان ذلك عاماً لما سمع من الجاريتين في ببت رسول الله ﷺ.

& voa }

وأما القياس: فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار، وقد سبق الفرق، أو يقال: هو لهو ولعب، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها لهو ولعب. قال عمر رضي الله عنه لزوجته: إنما أنت لعبة في زاوية البيت. وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التي هي سبب وجود الولد. وكذلك المزح الذي لا فحش فيه حلال. نقل ذلك عن رسول الله في وعن الصحابة، كما سيأتي تفصيله في كتاب «آفات اللسان» إن شاء الله (٢٠). وأي لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج في لعبهم وقد ثبت بالنص إباحته؟ على أني أقول: اللهو مروّح للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر، والقلوب إذا أكرهت عميت، وترويحها إعانة لها على الجدّ، فالمواظب على التفقه مثلاً ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة؛ لأنّ عطلة يوم تبعث على

⁽١) حديث: ﴿خلع رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إد كان عليه أعلام شغلت قلبه، تقدم في الصلاة.

⁽٢) حديث مزاحه على بأتي في أفات اللسان كما قال المصنف.

النشاط في ساتر الأيام، والمواظب على نوافل الصلوات في ساتر الأوقات ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات، ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات. فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجدّ، ولا يصبر على الجدّ المحض والحق المرّ إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام. فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال، فينبغي أن يكون مباحاً، ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء، فإذاً: اللهو على هذه النبة يصير قربة، هذا في حق من لا يحرّك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها، بل ليس إلا اللذة والاستراحة المحضة، فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه. نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال؛ فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروّح نفسه بغير الحق، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين. ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لمساقتها إلى الحق علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه.

**

الباب الثاني

آثار السماع وآدابه

اعلم: أنّ أوّل درجة السماع فهمُ المسموع وتنزيله على معنى يقع للمستمع، ثم يثمر الفهم الوجد، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح. فلينظر في هذه المقامات الثلاثة.

المقام الأوّل: في الفهم:

وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع.

وللمستمع أربعة أحوال:

إحداها: أن يكون سماع بمجرّد الطبع؛ أي لا حظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات، وهذا مباح وهو أخس رتب السماع؛ إذ الإبل شريكة له فيه، وكذا سائر البهائم، بل لا يستدعي هذا الذوق إلا الحياة، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة.

المحالة الثانية: أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معيناً وإما غير معين، وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات، ويكون تنزيلهم للمسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم، وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهى عنها.

الحالة الثالثة؛ أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى، وهذا سماع المريدين لا سيما المبتدئين، فإنّ للمريد لا محالة مراداً هو مقصده ومقصده معرفة الله سبحانه ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسر وكشف الغطاء، وله في مقصده طريق هو سالكه، ومعاملات هو مثابر عليها، وحالات تستقبله في معاملاته. فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت، أو تعطش إلى منتظر، أو شوق إلى وارد، أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصال، أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب، أو همول العبرات، أو ترادف الحسرات، أو

طول الفراق أو عدة الوصال، أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلا بذ أن يوافق بعضها حال المريد في طلبه فيحري ذلك مجرد القدح الذي يوري زناد قلبه، فتشتعل به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته، ويكون له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله. وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه، بل لكل كلام وجوه، ولكل ذي فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ. ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والخد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها. ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعاني من الأبيات ففي حكايات أهل السماع ما يكشف عن ذلك. فقد حكي أن بعضهم سمع قائلاً يقول:

قسال السرسول غسداً تسزو رفقات تعقل ما تسقول

فاستفزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان الناء نوناً. فيقول: قال الرسول غداً نزور، حتى غشي عليه من شدة الفرح والللة والسرور. فلما أفاق سئل عن وجده مم كان؟ فقال: ذكرت قول الرسول ﷺ: ﴿إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَزُورُونَ رَبَّهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ مَرَّةٌ (١). وحكى الرقي عن ابن الدراج أنه قال: كنت أنا وابن الفوطي مارين على دجلة بين البصرة والأبلة، فإذا بقصر حسن له منظرة، وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول:

فإذا شاب حسن تحت المنظرة وبيده ركوة وعليه مرقعة يستمع فقال: يا جارية، بالله وبحياة مولاك ألا أعدت علي هذا البيت. فأعادت، فكان الشاب يقول: هذا والله تلوّني مع الحق في حالي، فشهق شهقة ومات، قال: فقلنا قد استقبلنا فرض، فوقفنا، فقال صاحب القصر للجارية: أنت حرّة لوجه الله تعالى، قال: ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه، فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر: أشهدكم أن كل شيء لي في سبيل الله، وكل جواري أحرار، وهذا القصر للسبيل، قال: ثم رمى بثيابه واتزر بإزار وارتدى بأخر، ومرّ على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم، وهم يبكون، فلم يسمع له بعد خبر، والمقصود: أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب في المعاملة، وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق، فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له:

كسمال يسمدوم تسست المسؤن؟ غمير هماذا بسبك أحمسسمن

ومن كان سماعه من الله تعالى وعلى الله وفيه؛ فينبغي أن يكون قد أحكم قانون العلم في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وإلا خطر له من السماع في حتى الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به، ففي سماع المريد المبتدىء خطر إلا إذا لم ينزل ما يسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى، ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه، فلو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه عزّ وجلّ فيضيف التلوّن إلى الله تعالى

الباب الثاني: في آداب السماع وآثاره

⁽١) حديث: اإن أهل الجنة يزورون ربهم في كل جمعة أخرجة الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه عبدالحميد بن حبيب بن أبي العشرين مختلف فيه، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوحه قال: وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعي شيئاً من هذا.

فيكفر، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير ممزوج بتحقيق، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق، فإنه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه، وتارة ينوّره وتارة يظلمه، وتارة يقسيه وتارة يلينه، وتارة يثبته على طاعته ويقوّيه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق، وهذا كله من الله تعالى. ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة فقد يقال له في العادة: إنه ذو بداوات وإنه متلوّن. ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبه إلى التلوّن في قبوله ورده وتقريبه وإبعاده وهذا هو المعنى. فسماع هذا كذلك في حق الله تعالى كفر محض، بل ينبغي أن يعلم أنه سبحانه وتعالى يلؤن ولا يتلوّن ويغيّر ولا يتغيّر بخلاف عباده. وذلك العلم يحصل للمريد باعتقاد تقليدي إيماني. ويحصل للعارف البصير بيقين كشفي حقيقي. وذلك من أعاجيب أرصاف الربوبية وهو المغيّر من غير تغيّر، ولا يتصوّر ذلك إلا في حق الله تعالى، بل كل مغيّر سواه فلا يغيّر ما لم يتغيّر. ومن أرباب الوجد من يغلب عليه حال مثل السكر المدهش، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى، ويستنكر اقتهاره للقلوب، وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت. فإنه المستصفى لقلوب الصديقين، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين، فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة، ولا أمدُّ الأنبياء عليهم السلَّام بتوفيقه ونور هدايته لوسيلة سابقة، ولكنه قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتْنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞﴾ [الصَّافات: ١٧١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَكِكُنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّدَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجـذة: ١٣]، وقـال تـعـالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أَوْلَتِهَكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠٤﴾ [الانبياء: ١٠١]، فإن خطر ببالك أنه: لم اختلفت السابقة وهم في ربقة العبودية مشتركون؟ نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز حد الأدب، فإنه ﴿لَا يُشْتُلُ عَنَا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُوك ۖ ۖ ﴾ [الأنيَّاء: ٢٣]، ولعمري تأدب اللسان والظاهر مما يقدر عليه الأكثرون. فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظاهر في التقريب والإبعاد والإشقاء والإسعاد، مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم. ولهذًا قال الحضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام: إنه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء. لأنه محرّك لأسرار القلوب ومكامنها، ومشوّش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا ممن عصمه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمته، ولذلك قال بعضهم: ليتنا نجونا من هذا السماع رأساً برأس: ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرِّك للشهوة، فإنَّ غاية ذلك معصيَّة وغاية الخطأ ههنا كفر.

واعلم: أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع، فيغلب الوجد على مستمعين لبيت واحد وأحدهما مصيب في الفهم والآخر مخطى، أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين، ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض. كما حكي عن عتبة الغلام أنه سمع رجلاً يقول:

سببحان جبيار السما إن المحبب لنفسي عنسا

فقال: صَدَقْتَ. وسمعه رجل آخر فقال: كَذَبْتَ. فقال بعض ذوي البصائر: أصابا جميعاً وهو المحقى، فالتصديق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعب بالصدّ والهجر. والتكذيب كلام مستأنس بالحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به، أو كلام محب غير مصدود عن مراده في المحال ولا مستشعر بخطر الصدّ في المآل؛ وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه. فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم.

وحكي عن أبي القاسم بن مروان ـ وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة ـ فحضر دعوة وفيها إنسان يقول:

واقسنفٌ فيني السمساء عسطسشياً إن ولسكيسن لسيسس يسسيقسي

فقام القوم وتواجدوا، فلما سكنوا سألهم عن معنى ما وقع لهم من معنى البيت، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها، فلم يقنعه ذلك فقالوا له: فماذا عندك فيه؟ فقال: أن يكون في وسط الأحوال ويكرم بالكرامات ولا يُعطى منها ذرّة. وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال، والكرامات والأحوال، والكرامات تستح في مبادئها، والحقيقة بعد لم يقع الوصول اليها. ولا فرق بين المعنى الذي فهمه وبين ما ذكروه إلا في تفاوت رتبة المتعطش إليه، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها، فإن مكن منها تعطش إلى ما وراءها، فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم، بل الاختلاف بين الرتبتين. وكان الشبلي رحمه الله كثيراً ما يتواجد على هذا البيت:

وداذكهم ههجهز وحسبت كهم قسلسى ووصلككهم صبرم وسلم كهم حدرب

وهذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق ويعضها باطل، وأظهرها: أن يفهم هذا في الخلق بل في الدنيا بأسرها بل في كل ما سوى الله تعالى. فإن الدنيا مكارة خداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظهرة صورة الود «فما امتلات منها دار حبرة إلا امتلات عبرة أنه عما ورد في الخبر وكما قال الثعلبي في وصف الننيا:

تسنع عن الدنيا فلا تسخطبتها فليس يفي مرجوها بمخوفها لقد قال فيها الواصفون فأكشروا سلاف قسصاراها زعاق ومسركب وشخص جميل يوثر الناس حسنه

ولا تسخطيسن قسسالية من تساكيخ ومسكروهسها إمّا تسأمسلست راجيخ وعسدي لها وصف لعسمري صاليخ شهيي إذا است ذليلته فيهيو جاميخ ولسكن ليه أسيرار سيوع قسيائيخ

والمعنى الثاني: أن ينزله على نفسه في حق الله تعالى، فإنه إذا تفكر فمعرفته جهل، إذ ما قدروا الله حق قدره، وطاعته رياء، إذ لا يتقي الله حق تفاته، وحبه معلول، إذ لا يدع شهوة من شهواته في حبه. ومن أراد الله به خيراً بصره بعيوب نفسه قيرى مصداق هذا البيت في نفسه، وإن كان عَلِيَّ المرتبة بالإضافة إلى الغافلين، ولذلك قال عليه : «لا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كُمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ ﴿)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله فِي النَوْمِ وَاللَّيلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴿)، وإنما كان استغفاره عن أحوال هي درجات بعد بالإضافة إلى ما قبلها، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لا نهاية بعد بالإضافة إلى ما قبلها، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لا نهاية له، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير متناه، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال.

 ⁽۱) حديث: (ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة؛ أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير مسلاً.

 ⁽٣) حديث: الا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك رواه مسلم وقد تقدم.

 ⁽٣) 'حديث: (إني الأمنفقر الله في اليوم واللبلة سبعين مرة) تقدم في الباب الثاني من الأذكار.

والمعنى الثالث: أن ينظر في مبادىء أحواله فيرتضيها ثم ينظر في عواقبها فيزدريها لاطلاعه على خفايا الغرور فيها، فيرى ذلك من الله تعالى فيستمع البيت في حق الله تعالى شكاية من القضاء والقدر وهذا كفر ـ كما سبق بيانه ـ وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان، وذلك بقدر غزارة علم المستمع وصفاء قلبه.

الحالة الرابعة: سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ما سوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود، الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن. وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فني عن نفسه. ومهما فني عن نفسه فهو عن غيره أفنى، فكأنه فني عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود. وفني أيضاً عن الشهود، فإن القلب أيضاً إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود. فالمستهتر بالمرثي لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته، ولا إلى عينه التي بها رؤيته، ولا إلى قلبه الذي به لذته، فالسكران لا خبر له من سكوه، والمتلذذ لا خبر له من التليء فالعالم عنه الشيء في العلم بالعلم بالعلم بالعلم بالشيء كان معرضاً عن الشيء. ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوق وتطرأ أيضاً في حق الخالق، ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم، وإن دام لم تطقه القوة البشرية، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطراباً تهلك به نفسه.

كما روي عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلساً فسمع هذا البيت:

ما زلت أنزل من ودادك منسزلاً تستحير الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه، فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه، حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياماً ومات رحمه الله. فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهي أعلى الدرجات؛ لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهي ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله؛ أعني أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدي والسكاكين فيسمع لله وبالله وفي الله ومن الله، وهذه رتبة من خاص لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال، واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص، قلم يبق فيه منه شيء أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريته وفني التفاته إلى صفات البشرية رأساً، ولست أعني بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه، ولست أعني بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراءها سر الروح الذي هو من أمر الله عز وجل عرفها من عرفها وجهلها من جهلها - ولذلك السر وجود. وصورة ذلك الوجود ما يحصر فيه، فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر. ومثاله: المرآة المجلوة، إذ ليس المعاضر فيها، وكذلك الزجاجة، فإنها تحكي لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها، وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الكواض فيها، وليس لها في نفسها صورة بل صورتها قبول الصور، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الكوان، ويعرب عن هذه الحقيقة - أعني سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه مقول الشاعر:

رقَ السنزجساج ورقب السخسمسر فستسشابها فستسشاكل الأمسر فستسشاك الأمسر فسكانسما قسدخ ولا خسمسر ولا قسدخ

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة، منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد، وقال: أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم، وهو غلط محض يضاهي غلط من يحكم على المرآة بصورة الحمرة إذ ظهر فيها لون الحمرة من مقابلها، وإذا كان هذا غير لائق بعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض؛ فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المسموعات.

المقام الثاني: بعد الفهم والتنزيل، الوجد:

وللناس كلام طويل في حقيقة الوجد ـ أعني الصوفية والحكماء الناظرين في وجه مناسبة السماع للأرواح ـ فلنقل من أقوالهم ألفاظاً ثم لنكشف عن الحقيقة فيه.

أما الصوفية، فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع: إنه وارد حق جاء يزعج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفسه تزندق. فكأنه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق، وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع إذ سمى السماع وارد حق. وقال أبو الحسين الدراج مخبراً عما وجده في السماع: الوجد عبارة عما يوجد عند السماع، وقال: جال بي السماع في ميادين البهاء، عأوجدني وجود الحق عند العطاء، فسقاني بكأس الصفاء فأدركت به منازل الرضاء، وأخرجني إلى رياض التنزه والفضاء. وقال الشبلي رحمه الله: السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية. وقال بعضهم: السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة؛ لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ويدرك برقة الطبع لرقته وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله. وقال عمرو بن عثمان المكي: لا يقع على كيفية الوجد عبارة الأن سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين. وقال بعضهم: الوجد مكاشفات من الحق. وقال أبو سعيد بن الأعرابي: الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم وملاحظة الغيب، ومحادثة السر وإيماس المفقود، وهو فناؤك من حيث أنت، وقال أيضاً: الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب، فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب. وقال أيضاً: الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب؛ لأن النفس محجوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفا ونجحت الموعظة فيه وحل من المناجاة في محل قريب، وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خالياً، فذلك هو الوجد؛ لأنه قد وجد ما كان معدوماً عنده. وقال أيضاً: الوجد ما يكون عند ذكر مزعج أو خوف مقلق، أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو إشارة إلى فائدة، أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض، أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب، أو مناجاة بسر، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن، والغيب بالغيب والسر بالسر، واستخراج ما لك بما عليك مما سبق للسعي فيه، فيكتب ذلك لك بعد كونه منك، فيثبت لك قدم بلا قدم، ودكر بلا ذكر؛ إذ كان هو المبتدىء بالنعم والمتولي، وإليه يرجع الأمر كله، فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس في الوجد كثيرة.

وأما الحكماء: فقال بعضهم: في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوّة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان، فلما ظهرت سرت وطربت إليها، فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة المظواهر. وقال بعضهم: نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأي واستجلاب العازب من الأفكار، وحدة الكالُ من الأفهام والآراء حتى يثوب ما عزب وينهض ما عجز، ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأي

ونية؛ فيصيب ولا يخطىء ويأتي ولا يبطىء. وقال آخر: كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحاني. وقال بعضهم - وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات - فقال: ذلك عشق عقلي والعاشق العقلي لا يحتاج إلى أن يناغي معشوقه بالمنطق الجرمي، بل يناغيه ويناجيه بالتبسم واللحظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجفن والإشارة، وهذه نواطق أجمع إلا أنها روحانية، وأما العاشق البهيمي فإنه يستعمل المنطق الجرمي ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه الزائف. وقال آخر: من حزن فليسمع الألحان. فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها، وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفائه ونقائه من الغش والدنس.

والأقاويل المقررة في السماع والوجد كثيرة، ولا معنى للاستكثار من إيرادها، فلنشتغل بتفهيم المعنى؛ الذي الوجد عبارة عنه فنقول: إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يجده المستمع من نفسه، وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين: فإنها إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم، بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض، وهذه الأحوال يهيجها السماع ويقويها، فإن ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته، أو يطرق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يُسمّ وجداً، وإن ظهر على الظاهر سمي وجداً إما ضعيفاً وإما قوياً، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوّة وروده، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوّة الواجد وقدرته على ضبط جوارحه، فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوَّة صاحبه، وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك. وإلى معنى الأوّل أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد: إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب، ولا يبعد أن يكون السماع سبباً لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله؛ فإن الكشف يحصل بأسباب، منها: التنبيه والسماع منبه، ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها؛ فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورود، ومنها: صفاء القلب والسماع يؤثر في تصفية القلُّب والصفاء يسبب الكشف، ومنها انبعاث نشاط القلب بقوَّة السماع فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوّته، كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله. وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار الملكوت، كما أن عمل البعير حمل الأثقال، فبواسطة هذه الأسباب يكون سبباً للكشف، بل القلب إذا صفا ربما يمثُل له الحق في صورة مشاهدة، أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة، وبالرؤيا إذا كان في المنام، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوّة. وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة، وذلك كما روي عن محمد بن مسروق البغدادي أنه قال: خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغني هذا البيت:

بطسورِ سيستساءَ كرمٌ ما مررت به إلا تعجبتُ مستن يسسرب الماء فسمعت قائلاً يقول:

تمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر.

وروي عن مسلم العباداني أنه قال: قدم علينا مرة صالح المري وعتبة الغلام وعبدالواحد بن زيد ومسلم الأسواري فنزلوا على الساحل، قال: فهيأت لهم ذات ليلة طعاماً فدعوتهم إليه فجازوا فلما وضعت الطعام بين أيديهم، إذا بقائل يقول رافعاً صوته هذا البيت:

وتله يك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيها غير نافع قال: فصاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشياً عليه وبكى القوم، فرفعت الطعام وما ذاقوا والله منه لقمة.

وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه ينمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة. وفي مثل هذه الحالة تنمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها وإما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة. وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق(١) وهو المراد بقوله تعالمي: ﴿عَلَّمُهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۞ دُو مِرَّةِ فَٱسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلْأَنْقِ ٱلْأَنْقِ ٱلْأَغَلَ ۞﴾ [النَّجم: ٥-٧] إلى آخر هذه الآيات. وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفرس، ولذلك قال ﷺ : «اتَّقُوا فَرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهَ^(٢). وقد حكي أن رجلاً من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول ما معنى قولُ النبي ﷺ: ﴿ اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ ۚ فَكَانَ يَذَكُرُ لَهُ تَفْسِيرِهُ فَلَا يَقْتعه ذَلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية. فسأله، فقال له: معناه: أن تقطع الزنار الذي على وسطك تحت ثوبك، فقال: صدقت هذا معناه وأسلم، وقال: الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق. وكما حكي عن إبراهيم الخواص قال: كنت ببغداد في جماعة من الفقراء في الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي: يقع لي أنه يهودي، فكلهم كرهوا ذلك، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال: أي شيء قال الشيخ فيُّ؟ فاحتشموه. فألح عليهم فقالوا له: قال إنك يهودي، قال: فجاءني وأكب على يدي وقبُّل رأسي وأسلم، وقال: نجد في كتبنا أن الصديق لا تخطىء فراسته فقلت: أمتحن المسلمين، فتأملتهم فقلت: إن كان فيهم صديق قفي هذه الطائفة، لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقرؤون كلامه، فلبست عليكم فلما اطلع علي الشيخ وتفرّس فيّ علمت أنه صديق. قال: وصار الشاب من كبار

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام: ﴿ لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَىٰ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَتَظَرُّوا إِلَىٰ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ (٣) وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة فإنها مرعى الشيطان وجنده، ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفّاه لم يطف الشيطان حول قلبه. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلمُتَلَمِينَ ۞ ﴾ [البجر: ١٤]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عِبَادِى لَيْنَ لَكَ مَلَيَهِمُ سُلْطَكَنُ ﴾ [الججر: ٤٤]، والسماع سبب لصفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء.

⁽١) حديث: قرأى جبريل عليه السلام مرتين في صورته فأخبر أنه سد الأققه. متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٢) حديث: هانقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى، أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: حديث غريب.

 ⁽٣) حديث: قلولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء، تقدم في الصوم.

وعلى هذا يدل ما روي أن ذا النون المصري رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوّال، فاستأذنوه في أن يقول لهم شيئاً. فأذن لهم في ذلك فأنشأ يقول:

صيغييرُ هواكَ عدلَبني فيكيف به إذا احتينكا وأنتَ جمعتَ في قبلبي هوى قدد كانَ مستسركا أما ترثي لمكتبيب إذا ضحكَ المخليُّ بكي

فقام ذو النون وسقط على وجهه، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون: الذي يراك حين تقوم. فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعاً من ذي النون على قلبه أنه متكلف متواجد، فعرفه أن الذي يراه حين يقوم هو الخصم في قيامه لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقاً لما جلس. فإذاً: قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات، واعلم: أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلاً، ولعلك تستبعد حالة أو علماً لا تعلم حقيقته ولا يمكن التعبير عنه عن حقيقته، فلا تستبعد ذلك فإنك تجد في أحوالك القريبة لذلك شواهد.

أما العلم: فكم من فقيه تعرض عليه مسألتان متشابهتان في الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقاً في الحكم؟ وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس، فيدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه، وإدراكه الفرق علم يصادفه في قلبه بالذوق، ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سبباً وله عند الله تعالى حقيقة، ولا يمكنه الإخبار عنه لا لقصور في لسانه بل لدقة المعنى في نفسه عن أن تناله العبارة. وهذا مما قد تفطن له المواظبون على النظر في المشكلات.

وأما الحال: فكم من إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضاً أو بسطاً ولا يعلم سببه، وقد يتفكر إنسان في شيء فيؤثر في نفسه أثراً فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يحس به، وقد تكون الحالة التي يحسها سروراً ثبت في نفسه بتفكره في سبب موجب للسرور، أو حزناً فينسى الممتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه. وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن المقصود، بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها المغرون يختص به بعض الناس دون بعض، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمراً ليس يدري ما هو؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمراً ليس يدري ما هو؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمراً ليس يدري ما هو؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه ويجد ذمي ولا حب الله تعالى. وهذا له سر وهو أن كل شوق له ركنان:

أحدهما: صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه.

والثاني: معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه، فإن وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهراً، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها أورث ذلك دهشة وحيرة لا محالة.

ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه المشهوة لكان يحس من نفسه بنار الشهوة، ولكن لا يدري أنه يشتاق إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء، فكذلك في نفسه الآدمي مناسبة مع العالم الأعلى واللذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العلا، إلا أنه لم يتخيل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء، كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرآة ليعرف بلمقايسة، فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنينه واشتياقه بالطبع، فيتقاضاه قلبه أمراً ليس يدري ما هو؟ فيدهش ويتحير ويضطرب ويكون كالمختنق الذي لا يعرف طريق المخلاص، فهذا وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المتصف بها أن يعبر عنها، فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إطهاره،

واهلم أيضاً: أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد، وهذا التواجد المتكلف فمنه مذموم وهو الذي يقصد به الرباء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها، ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة، فإن للكسب مدخلاً في جلب الأحوال الشريفة، ولذلك أمر رسول الله على من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن(١٠)، فإن هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ثم تتحقق أواخرها. وكيف لا يكون التكلف سبباً في أن يصير المتكلف في الآخرة طبعاً. وكل من يتعلم القرآن أولاً يحفظه تكلفاً، ويقرؤه تكلفاً مع تمام التأمل وإحضار الذهن، ثم يصير ذلك ديدناً للسان مطرداً حتى يجري به لسانه في الصلاة وغيرها وهو غافل، فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها في حال غفلته، وكذلك الكاتب يكتب في الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يدُه فيصير الكتب له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر، فجميع ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أوّلاً ثم يصير بالعادة طبعاً. وهو المراد بقول بعضهم: العادة طبيعة خامسة. فكذلك الأحوال الشريفة لا ينمغي أن يقع اليأس منها عند فقدها، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره، فلقد شوهد في العادات من اشتهى أن بعشق شخصاً ولم يكن يعشقه فلم يزل يردد دكره على نفسه ويديم النظر إليه، ويقرّر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق المحمودة فيه حتى عشقه، ورسخ ذلك في قلبه رسوخاً خرج عن حدّ اختياره، فاشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص. فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقاته والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة؛ إذا فقدها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم في النفس، وبالجلوس معهم في السماع وبالدعاء والتضرع إلى الله تعالى في أن يرزقه تلك الحلة بأن ييسر له أسبابها.

ومن أسبابها: السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحسنين والمشتافين والخاشعين. فمن حالس شخصاً سرت إليه صفاته من حيث لا يدري. ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله عليه في دعائه: «اللَّهُمَّ ارْزَقْتِي حُبِّكَ وَحُبِّ مَنْ أَحَبْكَ وَحُبِّ مَنْ

 ⁽١) حديث: «البكاء عند قرامة القرآن فإن لم تبكوا فتباكوا». تقدم في ثلاوة القرآن في الباب الثاني.

يُقرِّبُنِي إِلَىٰ حُبِّكَ (١)، فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء في طلب الحب. فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع.

فإن قلت: فما بآل هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سماع الفرآن وهو كلام الله، ويظهر عند الغناء وهو كلام الشعراء؟ فلو كان ذلك حقاً من لطف الله تعالى ولم يكن باطلاً من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغناء؟ فنقول: الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه، وذلك يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَنِحَوُ اللّهِ تَطَيَّ الْقُلُوبُ [الزعد: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ أَلَا يَنِحَوُ اللّهِ تَطَيَّ الْقُلُوبُ [الزعد: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَهُ مُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى دِكْرِ آللّهُ وَالزُّمَر " ٢٣]، وكل ما يوجد عقيب السماع جُلُودُ اللّهَ مَن الفلس فهو وجد. فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب كل ذلك وجد، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا اللّهُ وَمَلْ مَنْ مُؤْمِنُهُمُ وَالدُّمُونُ اللّهُ وَمِلْتَ قُلُوبُهُمْ وَالدُّمُونُ اللّهُ عَن مَنْ الله الله الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الْمَا عَن مَنْ مَنْ مَنْ اللّهُ عَن مَن قبيل المكاشفات، ولكن قد يصير سبباً للمكاشفات والتنبيهات، ولهذا الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكاشفات، ولكن قد يصير سبباً للمكاشفات والتنبيهات، ولهذا قال يَلِي وَلَيْ الشّلامُهُ (النّهُ وَيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ وَالْ عَلْي مُوسَى الأشعري ﴿ لَقَدْ أُوتِيَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ وَالْ وَلْ اللّهُ عَلَى السّلامُهُ (النّهُ وَي مَزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ وَالْ وَالْ اللّهُ السّلَامُ (اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

⁽١) حديث: اللهم ارزقتي حبك وحب من أحبك. . . ؟ الحديث. تقدم في الدعوات.

⁽٢) حديث: ازينوا الفرآن بأصوائكم، تقدم في تلاوة القرآن.

 ⁽٣) حديث: القد أوتى مزماراً من مزامير آل داود؟ قاله الأبي موسى تقدم فيه.

⁽٤) حديث: «شبيتني هود وأخواتها» أخرجه الترمذي من حديث أبي جحيفة وله وللحاكم من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذي: حسن، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري.

 ⁽٥) حديث: "إن ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا حِشْنَا مِن كُلِ أَتَتْم بِشَهِينِ وَجِثْنَا بِكَ عَلَ هَـُولَاتُهِ
 شَهِيدًا ﴿ أَنَا إِنَّسَاء: ٤١] قال: «حسيك» الحديث. متفق عليه من حديثه.

 ⁽٦) حديث: أأنه قرىء عنده: ﴿ إِنَّ لَدُيَّا أَنكَالًا وَشِيسًا ﴿ وَطَمَامًا فَا غُشَةٍ رَعَدًاناً أَلِيمًا ﴿ ﴾ [السُرشل: ١٣،١٢] فصعق».
 رواه ابن عدي في الكامل، والبيهقي في الشعب من طريقه من حديث أبي حرب بن أبي الأسود مرسلاً.

٧٪ - حديث: ﴿ إِن هُوَ لِهُمَّ مُ عَالِمُهُمْ عِبَادُكُ ۗ [المَاتدة: ١٩٨] فيكي٠. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو.

 ⁽A) حديث: اكان إذا مر مآية رحمة دعا واستبشرا. تقدم في ثلاوة القرآن دون قوله: واستبشر.

زَى آَعَيْنَهُمْ تَوَيِّشُ مِنَ ٱلدَّمِعِ مِنَّا عَرَهُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الـنمائدة: ٨٣]، وروي أن رسـول الله ﷺ كـان يـصـلـي ولصدره أزيز كأزيز المرجل^(١).

وأما ما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين فكثير: فمنهم من صعق، ومنهم من بكى، ومنهم من غشي عليه، ومنهم من مات في غشيته. وروي أن زرارة بن أبي أوفى وكان من التابعين ـ كان يوم الناس بالرقة فقرأ ﴿إِنَا يُعْرَ فِي اَلْأَوْرِ ﴿ اللهَدُّرُ: ٨] فصعق ومات في محرابه رحمه الله، وسمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِكَ لَوَفِعٌ ﴿ مَا لَمُ مِن دَافِعٍ ﴿ السَّور: ١٨٧] فصاح صيحة وخر مغشياً عليه فحمل إلى بيته، فلم يزل مريضاً في بيته شهراً، وأبو جرير ـ من التابعين ـ قرأ عليه صالح المري فشهق ومات، وسمع الشافعي رحمه الله قارئاً يقرأ: ﴿ وَلَا يُؤَدِّنُ لَكُمْ فَيَعَنَذِرُونَ ﴿ المُرسَلات: ٣١٠٣] فغشي عليه، وسمع علي بن الفضيل قارئاً يقرأ: ﴿ وَلَا يُؤَدِّمُ لَكُمْ اللهُ نقل عن جماعة منهم.

وكذلك الصوفية: فقد كان الشبلي في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلي خلف إمام له فقرأ الإمام: ﴿وَلَيْن شِنْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِاللّبِيّ الْوَلْمَانِ اللّهِ اللّهِ اللّهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ الله

وكان شاربات عالي لادة وأحسرى تعداويت مستسها بسها

 ⁽٩) حديث: «أنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل؟. أخرجه أبو داود والتسائي والترمذي في الشمائل من حديث عبدالله بن الشخير وقد تقدم

يغتسل في الفرات فمر به رجل على الشاطىء يقرأ: ﴿وَأَمْتَرُواْ اَلَيْوَمَ الْيَا اَلْمُجْرِمُونَ ۞ [يس: ٥٩] فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات، وذكر أن سلمان الفارسي أبصر شاباً يقرأ فأتى على آية فاقشعر جلده فأحبه سلمان وفقده، فسأل عنه فقيل له: إنه مريض، فأتاه يعوده فإذا هو في الموت، فقال: يا عبدالله أرأيت تلك القشعريرة التي كانت بي؟ فإنها أتنني في أحسن صورة فأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب.

وبالجملة: لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن، فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلاً فمثله: ﴿ كُمْنُو اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَمٌ عُنَى فَهُمْ لَا يَشْفِكُ ﴾ [البَقْرَة: ١٧١] بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحكمة يسمعها. قال جعفر الخلدي: دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة فقال للجنيد: متى يستوي عند العبد حامده وذامّه؟ فقال بعض الشيوخ: إذا دخل البيمارستان وقيد بقيدين، فقال الجنيد: ليس هذا من شأنك، ثم أقبل على الرجل وقال: إذا تحقق أنه مخلوق، فشهق الرجل شهقة ومات.

فإن قلت: فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئين؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القراء لا حلق المغنين؟ وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارىء لا قوال، فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالة، فاعلم: أن الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه:

الوجه الأول: أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على مِا هو مُلابس لِه، فمن استولى عِليه حِزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسِب حاله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُ اللَّهُ فِ أَوْلَكِوكُمْ ۚ لِلذُّكِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأَنْشَيْتِينَ﴾ [النِّساء: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ بَرَمُونَ ٱلْمُحْسَنَتِ﴾ [النُّور: ٤]، وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها، وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه. والأبيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب قلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف. نعم من يستولي عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعاً لغيرها، ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الألفاظ، فقد يخرج وجده على كل مسموع، كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى: ﴿ يُومِيكُمُ اللَّهُ فِي ۚ أَوْلَنَدِكُمْ ۗ [النَّساء: ١١] حالة الموت المحوج إلى الرصية، وأن كل إنسان لا بد أن يخلف ماله وولده وهما محبوباه من الدنيا، فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعاً، فيغلب عليه الخوف والجزع، أو يسمع ذكر الله في قوله: ﴿ يُومِيكُرُ اللَّهُ فِي ٱللَّهِكُمْ ﴾ [النَّساء: ١١] فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبُعده، أو يخَطر له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى قسم مواريثهم بنفسه، نظراً لهم في حياتهم وموتهم فيقول: إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لبًا فيهيج منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشاراً وسروراً، أو يخطر له من قوله تعالى: ﴿ لِلذَّكِّرِ مِثْلُ حَظِّهِ ٱلْأَنشَيْقِيَ﴾ [النَّساء: ١٦] تفضيل الذكر بكونه رجلاً على الأنثى وأن الفضل في الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقاً، فيخشى أن يحجب أو يؤخر في نعيم الأخرة كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا. فأمثال هذا قد يحرّك الوجد، ولكن لمن فيه وصفان.

أحدهما: حالة غالبة مستغرقة قاهرة.

والآخر: تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك مما يعز، فلأجل ذلك يفزع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها. وروي أن أبا الحسين

& YVY }

النوري كان مع جماعة في دعوى، فجرى بينهم مسألة في العلم، وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم:

ربُّ ورقساء هستسوف فسي السفسحسي ذكسرتُ إلسفساً ودهسراً صسالسحساً فسبسكسائسي ربسمسا أرقسهسا ولسقسد أشسكُسو فسمسا أفسهسهسا غسيسر أنسي بسالسجسوى أغسر فسهسا

ذات شهه و صدحت في فسنو ويكتُ حزناً فيهاجت حزني ويُسكساها ربسمسا أزْفهنسي وليقد تَشْكُو فيما تنفيهمني وهي أيضاً بالجوي تعرفني

قال: فما بقي أحد من القوم إلا قام وتواجدً، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذي خاضوا فبه، وإن كان العلم جداً وحقاً.

الوجه الثاني: أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الأسماع والقلوب، وكلّ ما سمع أولاً عظم أثره في القلوب، وفي الكرة الثانية يضعف أثره، وفي الثالثة يكاد يسقط أثره. ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان، في يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك. ولو أبدل ببيت آخر لتجدد له أثر في قلبه وإن كان معرباً عن عين ذلك المعني. ولكن كون النظم واللفظ غريباً بالإضافة إلى الأول يحرك النفس وإن كان المعنى واحداً. وليس يقدر القارىء على أن يقرأ قرآناً غريباً في كل وقت ودعوة؛ فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكور، وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضي الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويبكون فقال: كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا، ولا تظنن أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب، وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه؛ إذ محال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة، ثم يرددها ويبكي، ولا يمارق الأول الآخر إلا في كونه غريباً جديداً، ولكل جديد لذة، ولكل طارىء صدمة، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة. ولذا همَّ عمر رضي الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال: قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت ــ أي يأنسوا به ــ. ومن قدم حاجاً فرأى البيت أولاً بكى وزعق وربما غشي عليه إذ وقع عليه بصره، وقد يقيم بمكة شهراً ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر. فإذاً: المغني يقدر على الأبيات الغريبة في كل وقت، ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة.

الوجه الثالث: أن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيراً في النفس، فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات، ولو زحف المغني البيت الذي ينشده أو لحن فيه أو مال عن حدّ تلك الطريقة في اللحن لاضطرب قلب المستمع وبطل وجده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة. وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوّش، فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر.

الوجه الرابع: أن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات، وإنما اختلاف تلك الطرق بمدّ المقصور وقصر الممدود، والوقف في أثناء الكلمات، والقطع والوصل في بعضها. وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل، فقصره ومدّه

والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقضيه التلاوة حرام أو مكروه. وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوماً، كما في الأوتار والمزمار والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم.

الوجه المتحامس: أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره، لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوي، وإنما يقوى بمجموع هذه الأساب، ولكل واحد منها حظ في التأثير، وواجب أن يصان القرآن عن مثل هذه القرائن، لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب، والقرآن جد كله عند كافة الخلق، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة وصورته صورة اللهو عند الخاصة، وإذ كانوا لا ينظرون إليها من حبث أنها لهو، بل ينبغي أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن، ولا في حال الجنابة، ولا على غير طهارة، ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم، فيعدل إلى الغناء الذي لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة. ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس، وقد أمر رسول الله على بضرب الدف في العرس فقال: «أَفْهِرُوا النُكَاحَ وَلَوْ رسول الله على عبد البيع بنت معوذ وعندها جوار، فسمع إحداهن تقول: وفينا نبي يعلم ما في غد. ورسول الله على بنت معوذ وعندها جوار، فسمع إحداهن تقول: وفينا نبي يعلم ما في غد. على وجه الغناء الذي هو لهو، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو، فإذاً يتعذر بسببه تقوية وردها إلى الغناء الذي هو لهو، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو، فإذاً يتعذر بسببه تقوية وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوّة إلى الغناء.

الوجه السادس: أن المغني قد يغني ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعي غيره، فليس كل كلام موافقاً لكل حال. فلو اجتمعوا في الدعوات على القارى، فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال، فآيات الرحمة شفاء المخائف، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن. وتفصيل ذلك مما يطول. فإذاً: لا يؤمن أن لا يوافق المقروء الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه. فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب، إذ لا يجد المخلاص عنه إلا بتنزيله على وفق حاله، ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى. وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده. ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال، فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك، وهذا ما ينقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن.

وههنا وجه سابع: ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك فقال: القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطبقه البشرية؛ لأنه غير مخلوق فلا تطبقه الصفات المخلوقة، ولو كشب للقلوب ذرة من معناه وهببته لتصدّعت ودهشت وتحيرت. والألحان الطببة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة

⁽١) حديث: االأمر بضرب الدف في العرس؟. تقدم في النكاح،

 ⁽۲) حديث: «دحل رسول الله عليه بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار يغنين. . . » الحديث. أخرجه البحاري من حديثها وقد تقدم في النكاح.

الحظوظ لا نسبة الحقوق، والشعر نسبته نسبة الحظوظ. فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الأبيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضاً كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق المخلوق المخلوق. فما دامت البشرية باقية ونحن بصفاتنا وحظوظنا نتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أؤلى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذي هو صفته وكلامه الذي منه بدأ وإليه يعود. وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره،

وقد حكي عن أبي الحسن الدرّاج أنه قال: قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد للزيارة والسلام عليه، فلما دخلت الري كنت أسأل عنه فكل من سألته عنه قال: أيش تعمل بذلك الزنديق؟ فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف. ثم قلت في نفسي: قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه، فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه في مسجد وهو قاعد في المحراب وبين يديه رجل وبيده مصحف وهو يقرأ، فإذا هو شيخ بهي حسن الوجه واللحية، فسلمت عليه فأقبل عليَّ وقال: من أين أتبلت؟ فقلت: من بغداد، فقال: وما الذي جاه بك؟ فقلت: قصدتك للسلام عليك، فقال: لو أن في بعض هذه البلدان قال لك إنسان: أقم عندنا حتى نشتري لك داراً أو جارية أكان يقعدك ذلك عن المجيء؟ فقلت: ما امتحنني الله بشيء من ذلك، ولو امتحنني ما كنت أدري كيف أكون؟ ثم قال لي: أتحسن أن تقول شيئاً؟ فقلت: نعم، فقال: هات فأنشأت أقول:

رأيتك تبني دائمهاً في قبطيعتي ولوكنت ذا حزم لهدّمت ما تبني كأني بكم والليت الفيت لا ينغني كأني بكم والليت لا ينغني

قال: فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه، حتى رحمته من كثرة بكاته، ثم قال: يا بني، تلوم أهل الري يقولون يوسف زنديق، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ في المصحف لم تقطر من عيني قطرة، وقد قامت القيامة علي لهذين البيتين. فإذا : القلوب وإن كانت محترقة في حب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع، ولكونه مشاكلاً للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر، وأما القرآن: فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهاجه، وهو لذلك معجز لا يدخل في قوّة البشر لعدم مشاكلته لطبعه. وروي أن إسرافيل _ أستاذ ذي النون المصري _ دخل عليه رجل فرآه وهو ينكت في الأرض بأصبعه ويترنم ببيت فقال: هل تحسن أن تترنم بشيء؟ فقال: لا، عليه رجل فرآه وهو ينكت في الأرض بأصبعه ويترنم ببيت فقال: هل تحركه الأبيات والنفمات تحريكاً لا يصادف في غيرها، فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره _. وقد ذكرنا حكم المقام الأول في يصادف في غيرها، فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره _. وقد ذكرنا حكم المقام الأن أثر الوجد؛ فهم المسموع وتنزيله، وحكم المقام الثاني في الوجد الذي يصادف في القلب، فلنذكر الآن أثر الوجد؛ فهم المسموع وتنزيله، وحكم المقام الثاني في الوجد الذي يصادف في القلب، فلنذكر الآن أثر الوجد؛ أغير ما يترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول:

المقام الثالث من السماع:

نذكر فيه آداب السماع ظاهراً وباطناً وما يحمد من آثار الوجد وما يذم. فأما الآداب فهي خمس ممل:

الأوّل: مراعاة الزمان والمكان والإخوان. قال الجنيد: السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع: الزمان والمكان والإخوان. ومعناه: أن الاشتغال به في وقت حضور طعام أو خصام أو صلاة أو

صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان فيراعى حالة فراغ القلب له. وأما المكان: فقد يكون شارعاً مطروقاً أو موضعاً كريه الصورة، أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك. وأما الإخوان: فسببه أنه إذا حضر غير المجنس من منكر السماع متزهد الظاهر، مفلس من لطائف القلوب كان مستثقلاً في المجلس واشتغل القلب به. وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته، أو متكلف متواجد من أهل التصوّف يرائي بالوجد والرقص وتمزيق الثياب، فكل ذلك مشوّشات. فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى. ففي هذه الشروط نظر للمستمع.

الأدب الثاني: هو نظر الحاضرين؛ أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، والمريد الذي يستضر بالسماع أحد ثلاثة:

أقلهم درجة: هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع، فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو، ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع، فليشتغل بذكر أو خدمة وإلا فهو تضييع لزمانه.

الثاني: هو الذي له ذوق السماع، ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية، ولم ينكسر بعد انكساراً تؤمن غوائله، فربما يهيج السماع منه داهية اللهو والشهوة، فيقطع عليه طريقه ويصدّه عن الاستكمال.

الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غائلته، وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى، ولكنه لم يُحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل، فإذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر أعظم من نفع السماع.

قال سهل رحمه الله: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. فلا يصلح السماع لعثل هذا، ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع؛ فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه. قالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه. قال الجنيد: رأيت إبليس في النوم فقلت له: هل تظفر من أصحابنا بشيء؟ قال: نعم في وقتين، وقت السماع ووقت النظر، فإني أدخل عليهم به، فقال بعض الشيوخ: لو رأيته أنا لقلت له: ما أحمقك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به؟ فقال الجنيد: صدقت.

الأدب الثالث: أن يكون مصغياً إلى ما يقول القائل، حاضر القلب، قلبل الالتفات إلى الجوانب، متحرزاً عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد. مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره، متحفظاً عن حركة تشوّش على أصحابه قلوبهم، بل يكون ساكن الظاهر، هادىء الأطراف، متحفظاً عن التنحنح والتثاؤب، ويجلس مطرقاً رأسه، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه، متماسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتكلف والمراءاة، ساكتاً عن النطق في أثناء القول بكل ما عنه بدّ، فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو فيه معذرر غير ملوم. ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه. ولا ينبغي أن يستديمه حياء من أن يقال: انقطع وجده على القرب، ولا أن يتواجد خوفاً من أن يقال: هو قاسي القلب، عديم الصفاء والرقة.

حكي أن شاباً كان يصحب الجنيد، فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق، فقال له الحنيد يوماً: إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني، فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء

ولا يزعق، فحكي أنه اختنق يوماً لشدة ضبطه لنفسه؛ فشهق شهقة فانشق قلبه وتلفت نفسه. وروي أن موسى عليه السلام قصَّ في ىني إسرائيل فمزق واحد منهم ثوبه أو قميصه، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له: مزق لي قلبك ولا تمزق ثوبك. قال أبو القاسم النصراباذي لأبي عمرو بن عبيد: أنا أقول: إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوّال يقول خيراً لهم من أن يغتابوا، فقال أبو عمرو: الرياء في السماع وهو أن ترى من نفسك حالاً ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك.

فإن قلت: الأفضل هو الذي لا يحركه السماع ولا يؤثر في ظاهره أو الذي يظهر عليه؟ فاعلم: أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان، وتارة يكون مع قوّة الوجد في الباطن لكن لا يظهر لكمال القوّة على ضبط الجوارح فهو كمال، وتارة يكون لكون حالّ الوجد ملازماً ومصاحباً في الأحوال كلها، فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال، فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا ينوم وجده قمن هو في وجد دائم فهو المرابط للحق والملازم لعين الشهود؛ فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضى الله عنه: كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا، معناه: قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال، فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديداً في حقنا طارئاً علينا حتى نتأثر به. فإذاً: قوّة الوجد تحرك وقوّة العقل والتماسك تضبط الظاهر، وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدّة قوته وإما لضعف ما يقابله، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا تظنن أن الذي يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجداً من الساكن باضطرابه، بل رب ساكن أتم وجداً من المضطرب. فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايتِه ثبر صار لا يتحرك فقيل نه في ذلك فقال: ﴿وَثَرَى ٱلْجِبَالَ تَعْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِي نَتُرُّ مَنَ ٱلسَّحَابِّ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي ٓ أَنْفَنَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ [النَّمان: ٨٨] إشارةً إلى أن القلب مضطرب جائل في الملكوت، والجوارح متأدَّبة في الظاهر ساكنة. وقال أبو الحسن محمد بن أحمد ـ وكان بالبصرة ـ: صحبت سهل بن عبدالله ستين سنة فما رأيته تغير عند شيء كان بسمعه من الذكر أو القرآن، فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه: ﴿ اللَّهِ مَا لَكُمْ أَنْ اللَّهُ أ [الحَديد: ١٥] الآية، فرأيته قد ارتعد وكاد يسقط، فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك فقال: نعم يا حبيبيي قد ضعفنا. وكذلك سمع مرة قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلَّكُ يَوْمَهِـذِ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَانَّ ﴾ [القُرقان: ٢٦] فاضطرب فسأله ابنّ سالم ـ وكان من أصحابه ـ فقال: قد ضعفت. فقيل له: فإن كان هذا من مضعف فما قوّة الحال فقال: ن لا يرد عليه وارد إلا وهو يلتقيه بقوّة حاله، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية. وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود. كما حكي عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال: حالتي قبل الصلاة وبعدها واحدة؛ لأنه كان مراعياً للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى في كل حال. فكذلك يكون قبل السماع وبعده؛ إذ يكون وجده دائماً، وعطشه متصلاً، وشربه مستمراً، بحيث لا يؤثر السماع في زيادته. كما رُّوي أن ممشاد الدينوري أشرف على جماعة فيهم قوال فسكنوا فقال: ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهي الدنيا في أذنى ما شغل همي ولا شفي بعض ما بي. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم. وفضل العلم أتم من فضل الوجد.

فإن قلت: فمثل هذا لم يحضر السماع؟ فاعلم: أن من هؤلاء من ترك السماع في كبره وكان لا يحضر إلا نادراً لمساعدة أخ من الإخوان وإدخالاً للسرور على قلبه، وربما حضر ليعرف القوم كمال فوّته فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر، فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدروا على الاقتداء به في صيرورته طبعاً لهم. وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم

نائين عنهم بقلوبهم ويواطنهم. كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضي الجلوس معهم، وبعضهم نقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استغناءه عن السماع بما ذكرناه. وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو، فتركه لئلا يكون مشغولاً بما لا يعنيه. وبعضهم تركه لفقد الإخوان. قيل لبعضهم: لم لا تسمع؟ فقال: ممن ومع من؟.

الأدب الرابع: أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه، ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة؛ لأنّ التباكي استجلاب للحزن، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط، فكل سرور مباح فيجوز تحريكه، ولو كان ذلك حراماً لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله من وضون (١٠). هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات، وقد روي عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك؛ وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها على بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فتشاحوا في تربيتها، فقال علي لا أبي طالب وأخوه بعفر وزيد بن حارثة الشبقت خَلْقِي وَخُلْقِي، فحجل وراء حجل علي وقال لزيد: «أَنْتَ أَخُونًا وَمَوْلاَنَا»، فحجل زيد وراء حجل جعفر، ثم قال عليه السلام: «هيّ لِجَعْفَر لأنَّ خَالتَها تَحْنَهُ وَالخَالةُ وَالِفَةِ"، وفي رواية: أنه قال لعائشة رضي الله عنها: «أَتَحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَىٰ زُفنِ الْحَبَشَةِ، والزفن والحجل هو الرقص، وذلك يكون لفائة رضي الله عنها: «أَتَحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَىٰ رُفنِ الْحَبَشَةِ، والزفن والحجل هو الرقص. وذلك يكون لفرح أو شوق فحكمه حكم مهيجه، إن كان فرحه محموداً والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود، وإن كان فرحه محموداً والرقص يزيده ويؤكده فهو محمود، وإن كان لأده في الأكثر يكون عن لهو ولعب، وما له صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به؛ لئلا يصغر في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به؛ لئلا يصغر في أعين الناس فينبغي أن يجتنبه المقتدى به؛ لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به.

وأما تمزيق الثياب، فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار، ولا يبعد أن بغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه، وتكون صورته صورة المكره؛ إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنين، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختياري، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لاضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس. فكذلك الزعقة وتمزيق الئياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم، فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحاد الغالب فقال: نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري، فروجع فيه واستبعد أن ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع، ومعناه: أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع، ومعناه: أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع، ومعناه: أنه في بعض

فإن قلت: فما تقول في تمزيق الصوفية الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع، فإنهم يمزقونها قطعاً صغاراً ويفرقونها على القوم ويسمونها الخرقة؟ فاعلم: أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً

⁽١) حديث: فنظرت عائشة إلى رقص الحيشة مع رسول الله ﷺ وهم يزفنون؟. تقدم في الباب قبله.

 ⁽٣) حديث: «اختصم على وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعلي: «أنت مني وأنا منك» فحجل وقال أجعفر:
 «أشبهت خلقي وخلقي» فحجل وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فحجل...» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث على بإسناد حسن وهو عند البخاري دون: فقحجل».

مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات. فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص، ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لغرض. وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغار وذلك مقصود، والتفرقة على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح. ولكل مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاع. وإنما منعنا في السماع النمزيق المفسد للثوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى منتفعاً به فهو تضييع محض لا يجوز بالاختيار.

الأدب الخامس: موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف، أو قام باختيار من غير إظهار وحد وقامت له الجماعة فلا بد من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة. وكذلك إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته. أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق؛ فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصحبة والعشرة، إذ المخالفة موحشة ولكل قوم رسم، ولا بد من مخالقة الناس بأخلاقهم (۱) كما ورد في الخبر، لا سيما إذا كانت أخلاقاً فيها حسن العشرة والمجاملة وتطبيب القلب بالمساعدة. وقول القائل: إنّ ذلك بدعة لم يكن في الصحابة، فليس كل ما يحكم بإباحته منقولاً عن الصحابة رضي الله عنهم، وإنما المحلور ارتكاب بدعة تراغم سنةً مأثورة، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا.

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب، بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرسول الله عنه في بعض الأحوال (٢) عما رواه أنس رضي الله عنه. ولكن إذا لم يثبت فيه نهي عام فلا نرى به بأساً في البلاد التي جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام وتطييب القلب به، وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطييب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهي لا يقبل التأويل، ومن الأدب: أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه، ولا يشوّش عليهم أحوالهم؛ إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذي يلوح للجميع منه أثر التكلف. ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محك للصدق والتكلف.

سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال: صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالاً غير أضداد.

فإن قلت: فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل ولهو ومخالف للدين، فلا براه ذو جدّ في الدين إلا وينكره؟.

فاعلم: أنّ الجد لا يزيد على جد رسول الله في وقد رأى الحبشة يزفنون في المسجد وما أنكره لما كان في وقت لائق به وهم الحبشة. نعم، نفرت الطباع عنه؛ لأنه يما كان في وقت لائق به وهم الحبشة. نعم، نفرت الطباع عنه؛ لأنه يُرى غالباً مقروناً باللهو واللعب، واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزنوج والحبشة ومن أشبههم. وهو مكروه لذوي المناصب؛ لأنه لا يليق بهم. وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوصف بالتحريم، فمن سأل فقيراً فأعطاه رغيفاً كان ذلك طاعة مستحسنة، ولو سأل ملكاً فأعطاه

 ⁽١) حديث المخالفة الناس بأخلاقهم أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر: «خالقوا الناس بأخلاقهم . . . ١ الحديث .
 قال: صحيح على شرط الشيخين .

 ⁽٢) حديث: «كانوا لا يقومون لرسول الله ﷺ في بعض الأحوال». كما رواه أنس تقدم في آداب الصحبة.

كتاب أداب السماع والوجد

رغيفاً أو رغيفين لكان ذلك منكراً عند الناس كافة، ومكتوباً في تواريخ الأخبار من جملة مساوئه ويعير به أعقابه وأشياعه، ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث إنه أعطى خبزاً للفقير حسن، ومن حيث إنّه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبح، فكذلك الراقص وما يجرى مجراه من المباحات، ومباحات العوام سيئات الأبرار، وحسنات الأبرار سيئات المقرّبين، ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب. وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحريم فيه والله أعلم، فقد خرج من جملة التفصيل السابق: أن السماع قد يكون حراماً محضاً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مكروهاً، وقد يكون مستحباً.

أما الحرام: فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنياء قلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة.

وأما المكروه: فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين، ولكنه يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو.

وأما المباح: فهو لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن.

إحياء عُلوم الدّين

وأما المستحب: فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى، ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله.



ينسب ألمَو ألكَفِ النِيَسِيِّ

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثاني من كتاب إحياء علوم الدين بسم الله الرحمن الرحم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بحمده، ولا تستمنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفده، والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده.

أما بعد: فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوّة واضمحلت الديانة وعمت الفترة، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون؛ إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلاً بعملها أو متقلداً لتنفيذها مجدداً لهذه السنة الداثرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها، وها نحن نشرح علمه في أربعة أبواب.

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته.

الباب الثاني: في أركانه وشروطه.

الباب الثالث: في مجاريه وبيان المنكرات المألوفة في العادات.

الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

الباب الأول

في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك ـ بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه ـ الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْحَنَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَرُونِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأَوْلَتِكَ لَهُمُ ٱلْمُلْلِمُونَ ﴿ ﴾ [آل عِمرَان. ١٠٤] ففي الآية بيان الإيجاب؛ فإن قوله تعالِي: ﴿ وَلِنَّكُن ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤] أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أنَّ الفلاح منوطُ به إذ حصر وقال: ﴿ وَأَوْلَيْكَ هُمُ ٱلْمُعْلِحُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٥] وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين؛ إذ لم يقل: كونوا كلكم أُمْرِين بالمعروف بل قال: ﴿ وَلَتَكُنُّ مِّنكُمْ أُمَّةً ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤]، فإذاً: مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة، وقال تعالى: ﴿ ﴿ لَيْسُوا سَوَآتُهُ بَنْ أَمْلِ ٱلْكِتَنْبِ أُمَّةٌ قَايِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَنْتِ الْقَوْ ءَانَاة ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ ۚ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ۖ ٱلْآخِبِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُونِ وَيَسْهَوْنَ عَنِ ٱلْشَكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَتِ وَأُولَتَهِكَ ۚ مِنَ المُتَولِمِينَ ١٨٤ وَال عِمرَان: ١١٤،١١٣ فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال تعالى: ﴿وَٱلْتُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَتُ بَشُهُمْ أَوْلِيَآةُ بَشَوْنً يَأْمُرُونَكُ مِالْمَعْرُونِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ۖ ٱلصَّلَوْةَ﴾ [التّربَة: ٧١] فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عُن المنكر، فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿ لُمِنَ ٱلَّذِينَ كَفُولًا مِنْ بَنِّي إِسْرَةِ بِلَ عَلَىٰ لِيْسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَ ٱبْنِ مَرْبَيَدُّ دَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَمْتَدُونَ ۞ كَانُواْ لَا يَـتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَوِّ فَعَلُوهُ لِيَسْنَ مَا كَانُواْ بَقْمَلُوثَ ۞﴾ [الــــَـــانـــد:: ٧٩،٧٨] وهذا غاية التشديد؛ إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر، وقال عزّ وجلّ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ اِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْتَ عَنِ ٱلْمُنكِرِ ﴾ [آل عِمرَان ١١٠] وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ١٦٥] فبيَّن أنهِم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، ويدل ذلك على الوجوب أيضاً، وقالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَنَّنَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَوْةَ وَمَانَوُا ۗ ٱلزَّكَوْةَ وَأَسَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴿ [الحَجْج: 11] فَ قَرَنَ ذَلْكُ بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين، وقال تعالى: ﴿وَنَعَاوَثُوا عَلَ ٱلْذِرِّ وَالنَّقُوكَ ۗ وَلا نَهَاوَثُوا عَلَى ٱلْإِنْدِ وَٱلْمُدُونَ ﴾ [المَاندة: ٣] وهو أمر جزم، ومعنى التعاون: الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسدّ سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان، وقال تعالى: ﴿ لَوَلَا يَنْهَنَّهُمُ ٱلزَّيَّنِيْوَنَ وَٱلْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهُمُ ٱلْإِنْدَ وَأَكِلِهِمُ ٱلسُّحَتُّ لَّبِنْدَى مَا كَانُواْ يَصْنَمُونَ ۞﴾ [المَالدة: ٦٣] فبين أنهم أثموا بترك النهي، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن فَبَلِكُمْمَ أُولُواْ يَقِيَّةِ يَنْهُوْكَ عَنِ ٱلْفَكَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [لمُود: ١١٦] الآية. فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلاً منهم كانوا ينهون عنْ الْفُسَادَ، وَقَالَ مُعَالَى: ﴿ يَكَانُهُا ٱلَّذِينَ مَامَنُوا كُونُوا قَرَّمِينَ بِالْفِسَطِ شُهَدَاءَ بِلَو وَلَوْ عَلَىٰ ٱنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرِبِينَ ﴾ [النِّساء: ١٣٥] وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين، وقال تعالى: ﴿ فَا لَا خَيْرَ فِي صَيْيَرِ شِن نُجُونهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةِ أَوْ مَعْرُونٍ أَوْ إِصْلَنجٍ بَتِيَكَ النَّاسِ وَمَن يَغْمَلْ ذَلِكَ ٱبْنِعَآلَة مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْلِمِهِ أَجْرًا

عَظِيمًا ﴿ ﴾ [النّساء: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَايِّهَنَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِدِينَ ٱفْنَتَلُواْ فَأَصْلِخُواْ بَنْنَهُمَا ۚ ﴾ [المحجزات: ٩] الآية، والإصلاح نهيّ عن البغي وإعادة إلى الطاعة، فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال: ﴿فَقَنْلُواْ ٱلَّتِي تَنْفِ حَقَّ يَفِيَّةَ إِلَىٰ آمْرِ ٱللّٰهِ ﴾ [المُحجزات: ٩] وذلك هو النهي عن المنكر،

وأما الأخبار: فمنها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤوّلونها علَّى خلاف تأويلها ﴿ يَاأَيُّنَّا ٱلَّذِينَ مَاسَوًا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْمُ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَنَ إِذَا ٱهْتَدَنَّتُدُ ﴾ (المائدة: ١٠٥) وإني سمعت رسولِ الله ﷺ يقول: "مَا مِنْ قَوْم عَمِلُوا بِالمَعَاصِي وَفِيهِمْ مَنْ يَقْلِرُ أَنْ يُتْكِرَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلْ إِلاَّ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ الله بِعَذَاب مِنْ عِنْلِمَه، وروي عن أبي تْعلْبَةُ الْحَشْنَيُ: أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ تَفْسَيْرِ قُولُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ تَن ضَلَّ إِذَا آهْتَذَيَّتُمُّ ﴾'' [النماندة: ١٠٥] فقال: "يَا أَبَا تَعْلَبَةً، مُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ ضَ الْمُنْكُرِ فَإِذَا رَأَيْتَ شُخّاً مُطَاعاً وَهُويٌ مُثَّبَعاً وَدُنْيا مُؤْثَرَةً وَإِصْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْي بِرَأْبِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ وَدَغُ عَنْكَ الْعَوَامْ، إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنا كَثِطَع اللَّيْل المُظْلِم لِلْمُتَمَسِّكِ فِيها بِمِثْلُ الْذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ، قيل: بل منهم يا رسول اللهَ. قال: الله بَلْ مِنْكُمْ لِأَنَّكُمْ تَجِدُونَ عَلَىٰ الْخَيْرِ أَعْوَاناً وَلاَ يَجِدُونَ عَلَيهِ أَعْوَاتاً». وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال: إن هذا ليس زمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا، وتقولون فلا يقبل منكم؛ فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا الهنديتم، وقال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَأْمُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيْسَلَّطَنَّ الله عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ ثُمْ يَدْعُوا خِيَارُكُمْ فَلا يُسْتَجَابُ لَهُمْ اللهُ معناه تسقط مهابتهم من أعَين الأشرار فلا يخافونهم. وقالَ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ يَقُولُ: لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنُ عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْل أَنْ تَذْمُوا فَلَا يُسْتَجَابَ لَكُمْ ا () وقال ﷺ : ﴿مَا أَعْمَالُ البِرِّ مِنْذَ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله إِلاَّ كَتَفْئِةٍ فِي يَحْرٍ لُجِّيٍّ، وَمَا جَمِيعُ أَعْمَالِ البِّرِّ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله عِنْدَ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ إِلاَّ كَنَفْثَةٍ فِي بُخْرِ لُجِيٍّ⁽⁶⁾.

 ⁽١) حديث أبي بكر: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها: ﴿ يَكَائِبًا اللَّذِنَ مَاسَوًا عَلَيْكُمْ أَنْسَكُمْ ﴾
 (المَائدة: ١٠٥) الحديث. أخرجه أصحاب السنن وتقدم في العزلة.

 ⁽۲) حدیث أبي ثعلبة: أنه سأل رسول الله ﷺ عن نفسير قوله تعالى: ﴿لا يَسُرُّكُم مِّن ضَلَّ إِذَا أَهْتُكَيَّمُ ﴾ [الشائدة: ١٠٥]... الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي، وحسنه وابن ماجه.

⁽٣) حديث: التأمرن بالمعروف ولتنهون عن المتكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم، أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب، والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف، وللترمذي من حديث حذيفة نحوه إلا أنه قال: «أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم، قال: هذا حديث حسن.

⁽٤) حديث: «يا أيها الناس إن الله سبحانه يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدهوا فلا يستجاب لكم» أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة للفظ: «مروا وانهوا» وهو عند ابن ماجه دون عزوه إلى كلام الله تعالى وفي إسناده لين.

 ⁽٥) حديث: قما أصمال البر عند الجهاد في مبيل الله إلا كنفئة في بحر لجي، رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس مفتصراً على الشطر الأول من حديث جابر بإسناد ضعيف، وأما الشطر الأخير فرواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلاً أو معضلاً، ولا أدري من يحيى بن عطاء؟.

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: "إِنَّ الله تَعَالَىٰ لَيَسْأَلُ الْمَبْدَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَنَ اللهُ الْمَبْدَ حُجْتَهُ قَالَ: رَبَّ وَثَقْتُ بِكَ وَقَرْقُتُ مِنَ النَّاسِ؟ ()، وقال رسُول الله ﷺ: "إِيَاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَىٰ الطُّرُقَاتِ»، قالوا: ما لنا بد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: "فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ ذَٰلِكَ فَأَصْلُوا الطُّرِيقَ حَقَّهَا، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: "عَضُ البَصَرِ وَكَفُ الأَذَىٰ وَرَدُ السَّلَامِ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهِى عَنِ المُنكَرِ () وقال ﷺ: "وَقَالَ الْمُنكَرِ أَبْنَ أَهْمُ إِنَّ اللهُ لَيْكُرُونَهُ وَالنَّهُم عَنِ الْمُنكَرَ بَبْنَ أَظْهُرِهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ الْمُنكَرَ وَقَلَىٰ أَنْ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ الْمُنكَرَ بَبْنَ أَظْهُرِهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ الْمُنكَرَ وَلَكُ كُرُونَهُ () وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: "كَيْفَ أَنْشُمْ إِذَا طَغَىٰ يَسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ مُشْعَرُونَ قَلَىٰ أَنْ اللهُ عَلَىٰ الْمُنكَرَ وَلَهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ الْمُنكَرَ وَلَهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَىٰ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُولُ اللهُ ا

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لاَ تَقِفَنُ عِنْدَ رَجُلٍ يَقْتُلُ مُظُلُوماً فَإِنَّ اللَّغَنَةَ تَنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ، وَلاَ تَقِفَنَّ عِنْدَ رَجُلٍ يَضْرِبُ مَظْلُوماً فَإِنَّ اللَّمْنَةَ تَنْزِلُ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَهُ وَلَمْ يَدْفَعْ حَنْهُ (``، قال: وقال رسول الله ﷺ: ﴿لاَ يَنْبَغِي لاَمْرِيءٍ شَهِدِ مَقَاماً فِيهِ حَقَّ إِلاَّ تَكَلَّمَ بِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يُقَدِّمَ أَجَلَهُ وَلَنْ يَخْرِمَهُ رِزْقاً هُوَ لَهُ (``، وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة، ولا حضور المواضع التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره، فإنه قال: «اللَّمْنَةُ

⁽١) حديث: «إن الله تعالى فيسأل العبد ما منعك إذ رأيت العنكر أن تنكره. . ٩ الحديث. أخرجه ابن ماجه وقد تقدم.

⁽٢) حديث: فإياكم والجلوس على الطرقات. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث أبي سعيد.

⁽٣) حديث: (كل كالام ابن أدم عليه لا له إلا أمراً بمعروف. . .) الحديث. تقدم في العلم.

⁽٤) حديث: فإن فله لا يعلم الخاصة بلغوب العامة حتى يروا المتكر. . . » الحديث. أخرجه أحمد من حديث عدي من عميرة، وفيه من لم يسم والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه.

 ⁽ه) حديث أبي أمامة: "كيف بكم إذا طغى نساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم» قالوا: وإن دلك كائن يا رسول الله؟
 قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه؟ قال "كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله: "كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصراً على الأسئلة الثلاثة الأول وأجوبتها دون الأخيرين وإسناده ضعف.

 ⁽٦) حديث عكرمة عن ابن عباس: «لا تقفن هند رجل يقتل مظلوماً فإن اللعنة تنزل هلى من حضره حين لم يدفعوا هنه»
 أخرجه العليراني بسند ضعيف، والبيهقي في شعب الإيمان بسند حسن.

 ⁽٧) حديث: قالا يتينمي الامرىء شهد مقاماً فيه حق إلا تكلم به فإنه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقاً هو لهه أخرجه البيهقي
 في الشعب من حديث ابن عماس سند الحديث الذي قبله، وروى الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد
 قال يمتمن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه».

تَنْزِلَ عَلَىٰ مَنْ حَضَرَه، ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذاراً بأنه عاجز. ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والمجامع وعجزهم عن التغيير، وهذا يقتضى لزوم الهجر للخلق. ولهذا قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: ما ساح السواح وخلوا دورهم وأولادهم إلا بمثل ما نزل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخير قد اندرس، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعتريهم، وأن يمزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلمون منه؛ فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم ثم قرأ: ﴿فَيْرُوُّا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ يَنْهُ نَذِيرٌ شُبِينٌ ۖ ۖ ۖ [الذَّارِيَات: ٥٠] قال: ففرَّ قوم فلولًا ما جعل الله جل ثناؤه في النَّبوَّة من السر لقلنا ما هم بأفضل من هؤلاء. فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام لتلقاهم وتصافحهم، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه، ويسألها أين أمرت فتخبره؟ وليس بنبي. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَضَرَ مَعْصِيَةً فَكُرهَهَا فَكَأَنَّهُ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَأَحَبُّهَا فَكَأَنَّهُ حَضَرَهَا» · ٬ ، ومعنى الحديث: أن يحضر لحاجة أو يتفق جريان ذلك لديه. فأما الحضور قصداً فممنوع بدليل الحديث الأول. وقال ابن مسعود رضى الله عنه، قال رسول الله ﷺ: ﴿مَا بَعَثَ اللهُ عَزُّ وَجَلُّ نَبِيّاً إِلاَّ وَلَهُ حَوَارِي فَيَمْكُثُ النَّبِيُّ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ مَا شَاءَ الله تَعَالَىٰ، يَعْمَلُ فِيهِمْ بِكِتَابِ الله وَبِأَمْرِهِ حَتَّىٰ إِذَا قَبَضَ الله نَبِيَّهُ مَكَثَ الحَوَارِيُونَ يَعْمَلُونَ بِكِتَابِ الله وَبِأَمْرِهِ وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ فَإِذَا انْقَرَضُوا كَانَ مِنْ بَعْلِهِمْ قَوْمٌ يَرْكَبُونَ رُؤُوسَ المَنَابِرِ يَقُولُونَ مَا يَعْرِفُونَ وَيَعْمَلُونَ مَا يُنْكِرُونَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَٰلِكَ فَحَنَّ عَلَىٰ كُلُّ مُؤْمِن جِهَادُهُمْ بِيَلِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَلَئِسَ وَرَاءَ ذَلِكَ إِسْلامًه (٢٠).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم أربعة نفر ينكرون ما يعملون، فقام أحدهم فقال: إنكم تعملون كذا وكذا فجعل ينهاهم ويخبرهم بقبيح ما يصنعون، فجعلوا يردون عليه ولا يرعوون عن أعمالهم، فسبهم فسبوه وقاتلهم فغلبوه، فاعتزل ثم قال: اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوه نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني وسببتهم فلم يطيعوه فسبوه فاعتزل ثم قال: اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبوني ولو قاتلتهم لعلبوني. ثم ذهب ثم قام الثالث فنهاهم فلم يطيعوه فاعتزل ثم قال: اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ولو سببتهم شهوني ولو سببتهم لسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني. ثم ذهب ثم قام الرابع فقال: اللهم إني قد نهيتهم لعصوني ولو سببتهم لسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني أم ذهب. قال ابن مسعود رضي الله عنه: كان الرابع أدناهم منزلة وقليل لسبوني ولو قاتلتهم لغلبوني ثم ذهب. قال ابن مسعود رضي الله عنه: كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: فيكم مثله، وقال ابن عباس رضي الله تَبَارَكُ وَتَعَالَىٰ إِلَىٰ مَلَكِ مِنَ المَلاَثِكَةِ أَنِ اقْلِبُ مَدِينَةً كَذَا وَكَذَا عَيْنَ قَالَ: الْهُهَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ فَإِنَّ وَجْهَةً لَمْ عَدَا لَهُ إِلَىٰ مَلَكِ مِنَ الْمَلاَثِكَةِ أَنِ اقْلِبُ مَدِينَةً كَذَا وَكَذَا عَلَىٰ أَمْلِهَا فَقَالَ: يَا رَبُ إِنَّ فَيْهِمْ عَبْدَكَ فُلَاناً لَمْ يَعْصِكُ طُرَقَةً عَيْن قَالَ: الْهَبْهَا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ وَجْهَةً لَمْ عَلَىٰ أَمْلِهَا فَقَالَ: يَا رَبُ إِنَّ فَيْهِمْ عَبْدَكَ فُلَاناً لَمْ يَعْصِكُ طُرَقَةً عَيْن قَالَ: الْهَبْهَا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ فَإِنَّ وَجْهَةً لَمْ

 ⁽۱) حديث أبي هريرة: «من حضر معمية فكرهها فكأنه فاب عنها ومن فاب عنها فأحبها فكأنه حضرها» رواه ابن عدي
وفيه يحيى بن أبي سلمان. قال البخاري: منكر الحديث.

⁽۲) حديث ابن مسعود: «ما بعث الله عز وجل نبياً إلا وله حواري. . . . الحديث. روى مسلم نحوه.

 ⁽٣) حديث ابن عباس: قبل: يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: «نعم» قبل: بم يا رسول الله؟ قال:
 «بتهاونهم وسكونهم هن معاصى الله» أخرجه البزار والطبراني بسند ضعيف.

يَنَمَعَّرُ فِيَّ مَناعَةً قَطُّهُ (١٠)، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: ﴿عُذَّبَ أَهْلُ قَرْيَةٍ فِيها ثِمَانِيَةَ حَشَرَ ٱلْغَا حَمَلُهُمْ حَمَلُ الأَنْبِيَاءِ»، قالوا: يا رسول الله كيف؟ قال: «لَمْ يَكُونُوا يَغْضَبُونَ لله وَلأ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُونِ وَلاَ يَنْهَوْنَ هَنِ الْمُنْكَرِه (٢٠)، وعن عروة عن أبيه قال: قال مُوسى ﷺ: يا رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يتسرع إلى هواي كما يتسرع النسر إلى هواه، والذي يكلف بعبادي الصالحين كما يكلف الصبى بالثدى، والذي يغضب إذا أتبت محارمي كما يغضب النمر لنفسه؛ فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قل الناس أم كثروا. وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف، وقال أبو ذرّ الغفاري: قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ فَمَمْ يَا أَبَا بَكُر إِنَّ لَلْهُ تَعَالَىٰ مُجَاهِلِينَ فِي الأَرْضِ أَفْضَلَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَحْيَاءَ مَرْزُوقِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ الأَرْضِ يُبَاهِي الله بِهِمْ مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ وَتُزَيِّنُ لَهُمْ الجَنَّةُ كَمَا تَزَيَّتُ أَمُّ سَلَمَةَ لِرَسُولِ الله ﷺ ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يَا رسول الله ومن هم؟ قال: «الآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَن المُنْكَر وَالمُحِبُّونَ فِي اللهِ وَالمُبْنِضُونَ فِي اللهُ ثم قال: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الْعَبْدَ مِنْهُمْ لَيَكُونُ فِي الغُرْفَةِ فَوْقَ الغُرُفَاتِ قَوْقٌ غُرَفِ الشُّهَدَاءِ لِلْغُرْفَةِ مِنْهَا قَلَائُمِائَةِ أَلْفِ بَابِ مِنْهَا اليَاقُوتُ وَالزُّمُرُدُ الأَخْضَرُ عَلَىٰ كُلِّ بَابِ نُورٌ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيُزَوِّجُ بِثَلَاثِمِاتَةِ أَلْفِ حَوْرَاءَ قَاصِرَاتِ الطُّرْفِ عِين كُلَّمَا الْتَفَتَ إِلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَنَظَرَ إِلَيْهَا تَقُولُ لَهُ: أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا أَمَرْتَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَيْتَ عَن المُنْكَرِ؟ كُلِّمَا نَظُرَ إِلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ذَكَرَثَ لَهُ مَقَاماً أَمَرَ فِيهِ بِمَعْرُوفٍ وَنَهَىٰ فِيهِ عَنْ مُنْكَرٍ، (٣). وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله عزّ وجلَّ؟ قال: «رَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ وَالِ جَائِر ۖ فَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ، فَقَتَلَهُ فَإِنْ لَمْ يَقْتُلُهُ فَإِنَّ القَلَمَ لاَ يَجْرِي عَلَيْهِ بَعْدَ فَلِكَ وَإِنْ عَاشَ مَا غَاشَ» (عَأَنُ وَالَّ الحسن المُسْتَكِر وَ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ المُعْرُوفِ المِسْرِي رحمه اللهُ: قال رسول الله ﷺ: ﴿ الْمُضْلُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي رَجُلٌ قَامَ إِلَىٰ إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمْرَهُ بِالمُعْرُوفِ وَنَهَاهُ عَنِ المُنْكَرِ فَقَتَلَهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ. فَلَٰلِكَ الشَّهِيدُ مَنْزِلَتُهُ فِي الْجَنَّةِ بَيْنَ خُمْزَةً وَجَمُّفُوا (قَ). وقالُ عمر بن

⁽١) حديث جابر: «أوحى أله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال با رب إن فيهم عبدك فلاناً..» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب وضعفه وقال: المحموظ من قول مالك بن دينار.

⁽٢) حديث عائشة: «عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفاً عملهم عمل الأنبياء» لم أقف عليه مرفوعاً وروى ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن همر الصنعاني: «أوحى الله إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خبارهم وستين ألفاً من شرارهم، قال: يا رب هؤلاء الأشرار قما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي فكانوا يواكلونهم وشاربونهم!.

 ⁽٣) حديث أبي ذر: قال أبو بكر: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ قال فنعم يا أبا بكر إن لله تعالى مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء، فذكر الحديث وفيه فقال هم الآمرون بالممروف والناهون عن المتكر ٤٠٠ الحديث. بطوله لم أقف له على أصل، وهو منكر.

⁽٤) حديث أبي عبيدة: قلت: يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله؟ قال: «رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه من المنكر فقتله... المحديث. أخرجه البزار مقتصراً على هذا دون قوله: ففإن لم يقتله... إلى آخره وهذه الزيادة منكرة، وفيه أبو الحسن فير مشهور لا يعرف.

⁽٥) حديث الحسن البصري مرسلاً: «أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جاثر فأمره بالمعروف ونهاه هن المنكر فقتله على ذلك ففلك الشهيد منزلته في البعنة بين حمزة وجمفر» لم أره من حديث الحسن، وللحاكم في المستدرك وصحح إسناده من حديث جابر: سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب: «ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله».

الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بِفْسَ القَوْمُ قَوْمٌ لاَ يَأْمُرُونَ بِالفِسْطِ وَبِشْسَ القَوْمُ قَوْمُ لاَ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَوْنَ عَن المُنْكَرِ»(١٠.

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم. وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده ولا يلسانه ولا يقلبه. وقال مالك بن دينار: كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى الرجال والنساء منزله يعظهم ويذكرهم بأيام الله عز وجل فرأى بعض بنيه يوماً وقد غمز بعض النساء فقال: مهلاً يا بني مهلاً، وسقط من سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقتل بنوه في الحيش، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه: أن أخبر هلاناً الخبر أني لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً، أما كان من غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً يا بني مهلاً، وقال حذيفة: يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم، وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من شرارهم، فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم، وقال بلال بن سعد: إن المعصية إذ أخفيت لم تضر إلا صاحبها، فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامة، وقال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك من قومك؟ قال: حسنة. قال كعب: إن التوراة لتقول غير ذلك، قال: وما تقول؟ قال: تقول: إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه، فقال: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال ثم قعد عنهم فقيل له: لو أتيتهم فلعلهم يجدون في أنفسهم، فقال: أرهب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي، وإن سكت رهبت أن يبدون في أنفسهم، فقال: أرهب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي، وإن سكت رهبت أن آم. وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستنر عنه حتى لا يجري بمشهد منه. وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: أوّل ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله. وقال سهل بن عبدالله رحمه الله: أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أمر به أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوش الزمان فهو ممن قد قام نله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. معناه: أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقلبه فقد جاء بما هو الغاية في حقه، وقيل للفضيل: ألا تأمر وتنهى؟ فقال: إن قوماً أمروا ونهوا فكفروا؛ وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا. وقيل للثوري: ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقال: إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكره.

فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا نقيام قائم به. فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه:

* * *

⁽١) حديث عمر: «بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون هن المنكر»، وواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث حابر بسند ضعيف، وأما حديث عمر: فأشار إليه أبو منصور الديلعي بقوله، وفي الباب ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلاً.

الباب الثاني

في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم: أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة: المحتسب، والمحتسب عليه، والمحتسب فيه، ونفس الاحتساب. فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه.

الركن الأول: المحتسب:

وله شروط: وهو أن يكون مكلفاً مسلماً قادراً. فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز، ويدخل فيه الفاسق والرقيق والمرأة. فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ووجه اطراح ما أطرحناه.

أما الشرط الأوّل: وهو التكليف، فلا يخفى وجه اشتراطه، فإن غير المكلف لا يلزمه أمر، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعي إلا العقل، حتى إن الصبي المراهق للبلوغ المميز وإن لم يكن مكلفا وقل إنكار المنكر وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهي؛ وإذا فعل ذلك نال به ثواباً ولم يكن لأحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف، فإن هذه قربة وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات وليس حكمه حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف؛ ولذلك أثبتناه للعبد وآحاد الرعية وعم، في المتع بالفعل وإبطال المتكر نوع ولاية وسلطنة، ولكنها تستفاد بمجرّد للإيمان كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته، فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستضر به، فالمنع من الفسر كالمنع من الكفر.

وأما الشرط الثاني: وهو الإِيمان، فلا يخفى وجه اشتراطه؛ لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدرٌ له؟.

وأما الشرط الثالث: وهو العدالة، فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب، وربما استدلوا فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى: ﴿ أَنَا أَنُهُونَ النَّاسَ بِالْهِرِ وَيَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البَعْرَة: فيه بالنكير الوارد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى: ﴿ أَنا أَنْهُ وَ السَّف. ٣] وبحما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: • مَرَرتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِقَوْم تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَاوِ فَقُلْتُ: مَن أَنشَمْ؟ رسول الله ﷺ أنه قال: • مَرَرتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِقَوْم تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَاوِ فَقُلْتُ: مَن أَنشَمْ؟ فَقَالُوا: كُنّا نَأْمُرُ بِالخَيْرِ وَلاَ قَلْبِيهِ وَنَنْهَىٰ صَسنِ النَّمْرُ وَفَاتِيهِهِ ""، وبما روي أن الله تعالى أوحى إلى عبس على على غلامة فان اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني، وربما استدلوا من طريق القياس بأن عبس الله المناه في نفسه فكيف يصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟ وكل ما ذكروه فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟ وكل ما ذكروه

الباب الثاني

⁽١) حديث: همروت ليلة أسري بي بقوم تقوض شفاههم بمقاريض من نار... الحديث. تقدم في العلم.

خيالات، وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب ويرهانه هو أن نقول: هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوماً عن المعاصي كلها؟ فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع، ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلاً عمن دونهم، والأنبياء عليهم السلام قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا. والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية، وكذا جماعة من الأنبياء. ولهذا قال سعيد بن جبير: إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء؛ لم يأمر أحد بشيء، فأعجب مالكاً ذلك من سعيد بن جبير، وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغائر حتى يجوز للابس الحرير أن يمنع من الزني وشرب الخمر فنقول:

وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر؟ فإن قالوا: لا، خرقوا الإجماع؛ إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يُمنعوا من الغزو، لا في عصر رسول الله رضي ولا بعده. فإن قالوا: نعم، فنقول: شارب الخمر هل له المنع من الفحر، من القتل أم لا؟ فإن قالوا: لا، قلنا: فما الفرق بينه وبين لابس الحرير؟ إذ جاز له المنع من الخمر، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب بالنسبة إلى لبس الحرير؛ قلا فرق. وإن قالوا: نعم، وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عمّا دونه، وإنما يمنع عما فوقه: فهذا تحكم؛ فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزاني من الشرب؟ بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانه وخدمه من الشرب؟ ويقول: يجب عليّ الانتهاء والنهي فمن أين يلزمني من العصيان بأحدهما أن أعصي الله تعالى بالثاني؟ وإذا كان النهي واجباً عليّ فمن أين يسقط وجوبه بإقدامي؟ إذ يستحيل أن يقال: يجب النهي عن شرب الخمر عليه ما لم يشرب فإذا شرب سقط النهي.

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يقول القائل: الواجب علي الوضوء والصلاة، فأنا أتوضأ وإن لم أصل، وأتسحر وإن لم أصم، لأن المستحب لي السحور والصوم جميعاً. ولكن يقال: أحدهما مرتب على الآخر، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويمه نفسه، فليبدأ بنفسه ثم بمن يعول. والجواب: أن التسحر يراد للصوم ولولا الصوم لما كان التسحر مستحباً، وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير، وإصلاح الغير لا يراد لإصلاح النفس، ولا إصلاح النفس لإصلاح الغير، فالقول بترتب أحدهما على الآخر تحكم.

وأما الوضوء والصلاة، فهو لازم، فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤدياً أمر الوضوء، وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعاً، فليكن من ترك النهي والانتهاء أكثر عقاباً ممن نهي ولم ينته، كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه؟ بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة.

وأما الحسبة فليست شرطاً في الانتهاء والائتمار فلا مشابهة بينهما.

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يقال: إذا زنى الرجل بامرأة وهي مكرهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها، فأخذ الرجل يحتسب في أثناء الزنا ويقول: أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير محرم، وها أنا غير محرم لك فاستري وجهك، فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ويستشنعه كل طبع سليم؟ فالجواب: أن الحق قد يكون شنيعاً، وأن الباطل قد يكون مستحسناً بالطباع، والمتبع الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات فإنا نقول: قوله لها في تلك الحالة: «لا تكشفي وجهك، واجب أو مباح أو حرام؟ فإن قلتم: إنه واجب فهو الغرض؛ لأن الكشف معصية والنهي عن المعصية واحب. وإن قلتم: إنه مباح، فإذن له أن يقول ما هو مباح، فما معنى قولكم ليس للفاسق الحسبة؟ وإن

قلتم: إنه حرام، فنقول: وكان هذا واجباً فمن أين حرم بإقدامه على الزنا؟ ومن الغريب: أن يصير الواجب حراماً بسبب ارتكاب حرام آخر.

وأما نفرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسببين:

أحدهما: أنه ترك الأهم واشتغل بما هو مهم. وكما أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى ما لا يعني، فتنفر عن ترك الأهم والاشتغال بالمهم، كما تنفر عمن يتحرج عن تناول طعام مغصوب وهو مواظب على الربا، وكما تنفر عمن يتصاون عن الغيبة ويشهد بالزور؛ لأن الشهادة بالزور أفحش وأشد من الغيبة التي هي إخبار عن كاثن يصدق فيه المخبر، وهذا الاستبعاد في النفوس لا يدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم تزد بذلك عقوبته، فكذلك ضرره في الأخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر في الطبع، من حيث إنه ترك الأكثر لا من حيث إنه أتى بالأقل، فمن غصب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس نفرت عنه الطباع ويرى مسيئاً؛ إذ قد صدر منه طلب اللجام وهو غير منكر، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس بطلب اللجام، فاشتد الإنكار عليه لتركه الأهم بما دونه، فكذلك حسبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه، وهذا لا يدل على أن حسبته من حيث إنها حسبة مستنكرة.

الثاني: أن الحسبة تارة تكون بالنهي بالوعظ وتارة بالقهر، ولا ينجع وعظ من لا يتعظ أولاً، ونحن نقولً: من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لعلم الناس بفسقه قليس عليه الحسبة بالوعظ؛ إذ لا فائدة في وعظه؛ فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام، فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر، وتمام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعاً، وإذا كان فاسقاً فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة؛ إذ يتوجه عليه أن يقال له: فأنت لِمَ تقدم عليه؟ فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهوراً بالحجة، وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقاً كما أن مَن يذب الظالم عن آحاد المسلمين ويهمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه، ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقاً. فخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لا يتعظُّ؛ وإذا لم يكن عليه ذَّلك، وعلم أنه يفضي إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار فنقول: ليس له ذلك أيضاً. فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب ـ وهو الوعظ ـ قد بطل بالفَّسق وصارت العدالة مشروطة فيه، وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك، فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمور وكسر الملاهي وغيرهما إذا قدر، وهذا غاية الإنصاف والكشف في المسألَّة، وأما الآيات التي استدلوا بها فهو إنكار عليهم من حيث تركهم المعروفُ لا من حيث أمرهمُ، ولكن أمرهم دل على قوّة علمهم وعقاب العالم أشدُّ؛ لأنه لا عذر له مع قوة علمه، وقوله تعالى: ﴿إِلَّمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَقْمَلُونَ﴾ [الصَّف: ٢] المراد به الوعد الكاذب، وقوله عزّ وجَّلّ: ﴿وَتَنكَوْنَ أَنفُتكُمْ ﴾ [البَفَرَة: ٤٤] إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لا من حيث إنهم أمروا غيرهم، ولكنَّ ذكر أمر الغير استدلالاً به على علمهم وتأكيداً للحجة عليهم. وقوله: قيا ابن مريم، عظ نفسك. . . الحديث؛ هو في الحسبة بالوعظ. وقد سلمنا أن وعظ الفاسق ساقط الجدوى عند من يعرف فسقه. ثم قوله: «فاستحي مني» لا يدل على تحريم وعظ الغير، بل معناه: استحي مني فلا تترك الأهم وتشتغل بالمهم، كما يقال: احفظ أباك ثم جارك، وإلاَّ فاستحي.

فإن قيل: فليجز للكافر الذمي أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزني، لأن قوله لا تزن حق في نفسه فمحال أن يكون حراماً عليه، بل ينبغي أن يكون مباحاً أو واجباً. قلنا. الكافرين على المؤمنين سبيلاً. وأما مجرد قوله: «لا تزنِ» فليس بمحرم عليه من حيث إنه تسلط وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً. وأما مجرد قوله: «لا تزنِ» فليس بمحرم عليه من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم، وفيه إذلال للمحتكم عليه، والفاسق يستحق الإذلال ولكن لا من الكافر الذي هو أولى بالذل منه. فهذا وجه منعنا إياه من الحسبة، وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله: لا تزن، من حيث إنه نهي، بل نقول: إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر بفروع الدين، وفيه نظر استوفيناه في الفقهيات ولا يليق بغرضنا الآن.

المسرط الرابع: كونه مأذوناً من جهة الإمام والوالي، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبة، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عليه عصى؛ إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له. والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم وهو الإمام الحق عندهم، وهؤلاء أخس رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن بقال لهم _ إذا جاؤوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دمائهم وأموالهم _: إن نصرتكم أمر بالمعروف، وما واستخراج حقوقكم من أبدي من ظلمكم نهي عن المنكر، وطلبكم لحقكم من جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق؛ لأن الإمام الحق بعد لم يخرج.

فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقاً، فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الوالي وصاحب الأمر؟ فنقول: أما الكافر فممنوع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة، وما فيه من عز السلطنة، والاحتكام لا يحوج إلى تفويض كعز التعليم والتعريف؟ إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدّم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن الوالي، وفيه عز الإرشاد وعلى المعرف ذل التجهيل، وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك النهي.

وشرح القول في هذا: أن الحسبة لها خمس مراتب ـ كما سيأتي ـ

أوَّلها: التعريف.

والثاني: الوعظ بالكلام اللطيف.

والثالث: السب والتعنيف، ولست أعني بالسب الفحش، بل أن يقول: يا جاهل، يا أحمق، ألا تخاف الله، وما يحري هذا المجرى.

والرابع: المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، واختطاف الثوب الحرير من لابسه، واستلاب الثوب المغصوب منه، ورده على صاحبه.

والخامس: التخويف والتهديد بالضرب، ومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف، فإن سلب لسانه غير ممكن، ولكن يحمل على اختيار السكوت بالضرب. وهذا قد يحوج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين، ويجر ذلك إلى قتال وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة فإن فيها نظراً _ سيأتي _، أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام؟ وأما التجهيل والتحميق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجري مجراه فهو

كلام صبق، والصدق مستحق، بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر (۱) ، كما ورد في الحديث. فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه؟ وكذلك كسر الملاهي وإراقة الخمور فإنه تعاطى ما يعرف كونه حقاً من غير اجتهاد فلم يفتقر إلى الإمام. وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يجر إلى فتنة عامة ففيه نظر _ سيأتي _، واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض، بل كل من أمر بمعروف، فإن كان الوالي راضياً به فذاك، وإن كان ساخطاً له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه، فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه، ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأثمة.

كما روي أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل: إنما الخطبة بعد الصلاة، فقال له مروان: اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. قال لنا رسول الله تشخ فقال له مروان: اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه. قال لنا رسول الله تشخ فقال وأن مِنكُم مُنكراً فَلْينيكِرة وَينِيهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَعِلْعُ فَيِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَعِلْعُ فَيِلِم وَلِكَ أَضْعَفُ الإيمانِ ('') فلقد كانوا فهموا من هذه العمومات دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذنهم؟ وروي أنّ المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله، فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبدالله بن مرزوق فلبه بدراته ثم هزه وقال له: انظر ما تصنع؟ من جعلك بهذا البيت أحق ممن أتاه من البعد، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ سَوَلَة الْمَكِثُ وِيهِ وَٱلْبَاذِ ﴾ [العَجّ: ٢٥] من جعل لك هذا؟ فنظر في وجهه - وكان يعرفه لأنه من مواليهم - فقال: أعبدالله بن مرزوق؟ قال: نعم، فأخذ فجي، وضموا إليه فرساً عضوضاً سيىء الخلق ليعقره الفرس، فلين الله تعالى له الفرس، قال: ثم صيروه إلى وضموا إليه فرساً عضوضاً سيىء الخلق ليعقره الفرس، فلين الله تعالى له الفرس، قال: ثم صيروه إلى بيت وأغلق عليه، وأخذ المهدي المفتاح عنده، فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل، بيت وأغلق عليه، وأخذ المهدي المفتاح عنده، فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل، فأوذن به المهدي فقال له: من أخرجك؟ فقال: الذي حسني، فضج المهدي وصاح وقال: ما تخلف أن يعمل في ذلك حياة أو موتا؟ فما زال محبوساً حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة. قال: وكان قد جعل على نفسه نذراً: إن خلصه الله من أيدم مائة بدنة، فكان يعمل في ذلك حتى نحرها.

وروي عن حبان بن عبدالله قال: تنزه هارون الرشيد بالدوين ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال له هارون: قد كانت لك جارية تغني فتحسن فجئنا بها، قال: فجاءت فغنت فلم يحمد غناءها، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: ليس هذا عودي، فقال للخادم، جئنا بعودها، قال: فجاء بالعود فوافق شيخاً يلقط النوى فقال: الطريق يا شيخ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض، فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربع فقال: احتفظ بهذا فإنه طلبه أمير المؤمنين؟ فقال له: المؤمنين، فقال له صاحب الربع غله أمير المؤمنين؟ فقال له: المؤمنين، فقال له على شيخ يلقط النوى فقلت له: الطريق،

⁽۱) حديث: «أقضل الجهاد كلمة حق هند إمام جائر» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري.

 ⁽٢) حديث: (إن مروان خطب قبل الصلاة في العيد، . .) الحديث. وفيه حديث أبي سعيد مرفوعاً فمن وأى متكواً . . . ا الحديث. رواه مسلم.

مرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فكسره، فاستشاط هارون وغضب واحمرّت عيناه، فقال له سليمان بن أبي جعفر: ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين؟ ابعث إلى صاحب الربع يضرب عنقه ويرم به في الدجلة، فقال: لا، ولكن نبعث إليه ونناظره أوَّلاً، فجاء الرسول فقال: أجب آمير المؤمنين، فقال: نعم، قال: اركب، قال: لا، فجاء يمشي حتى وقف على باب القصر، فقيل لهارون: قد جاء الشيخ، فقال للندماء: أي شيء ترون؟ نرفع ما قُدّامنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ، أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر؟ فقالوا له: نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح، فقاموا إلى مجلس ليس فيه منكر، ثم أمر بالشيخ فأدخل ـ وفي كمه الكيس الذي فيه النوى ـ فقال له الخادم: أخرج هذا من كمك وادخل على أمير المؤمنين، فقال: من هذا عشائي الليلة، قال: نحن نعشيك. قال: لا حاجة لي في عشائكم، فقال هارون للخادم: أي شيء تريد منه؟ قال: في كمه نوى قلت له: اطرحه وادخل على أمير المؤمنين فقال: دعه لا يطرحه، قال: فدخل وسلم وجلس، فقال له هارون: يا شيخ، ما حملك على ما صنعت؟ قال: وأي شيء صنعت؟ وجعل هارون يستحي أن يقول كسرت عودي، فلما أكثر عليه قال: إنى سمعت أباك وأجدادك يقرؤون هذه الآية على المنبر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْمَدُّلِ وَٱلْإِحْسَنِ وَإِيتَآيِ ذِى ْلَقُرْنَكَ ۚ وَيَشْكَنَ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيُّ ﴾ [النحل: ٩٠] وأنا رأيت منكراً فغيرته، فقال: فغيره. فوالله ما قال إلا هذا، فلما خرج أعطى الخليفة رجلاً بدرة وقال: اتبع الشيخ فإن رأيته يقول: قلت لأمير المؤمنين وقال لي؛ فلا تعطه شيئاً، وإن رأيته لا يكلم أحداً فأعطه البدرة. فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحداً فقال له: يقول لك أمير المؤمنين خذ هذه البدرة، فقال: قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها. ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التي يعالج قلعها من الأرض وهو يقول:

> أرى السنَّسُي لسمس هي فسي يسديه تسهيس السمُسكُسرَميس لسها بسسغسر إذا استسفسنسيست عسن شسيء فَسدَعُسهُ

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال: حج المهدي سنة ست وستين ومائة، فرأيته يرمي جمرة العقبة والمناس يخبطون يميناً وشمالاً بالسياط، فوقفت فقلت: يا حسن الوجه، حدّثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبدالله الكلابي قال: رأيت رسول الله على يرمي الجمرة يوم النحر على جمل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك(1)، وها أنت يخبط الناس بين يديك يميناً وشمالاً. فقال لرجل: من هذا؟ قال: سفيان الثوري، فقال: يا سفيان ،لو كان المنصور ما احتملك على هذا؟ فقال: لو أخبرك المنصور ما لقي لقصرت عما أنت فيه. قال: فقيل له: إنه قال: لك يا حسن الوجه، ولم يقل لك: يا أمير المؤمنين فقال: اطلبوه فطلب سفيان فاختفى. وقد روي عن المأمون أنه بلغه أنّ رجلاً محتسباً يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ولم يكن مأموراً من عنده بذلك، فأمر بأن يدل عليه، فلما

⁽١) حديث قدامة بن عبدالله: ارأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة يوم النحر على جمل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إلبك إليك ارواه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماحه، وأما قوله في أوله: إن الثوري قال: حج المهدي سنة مت وستين. فليس بصحيح فإن الثوري توفي سنة إحدى وستين.

صار بين يديه قال له: إنني بلغني أنك رأيت نفسك أهلاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن نأمرك وكان المأمون جالساً على كرسي ينظر في كتاب أو قصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به . فقال له المحتسب: ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت. فلم يفهم المأمون مراده فقال: ماذا تقول؟ _ حتى أعاده ثلاثاً فلم يفهم _ فقال: إما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع . فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل . ثم عاد وقال: لِمَ تأمر بالمعروف وقد بعمل الله ذلك إلينا _ أهل البيت _ ونحن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ اللَّينَ إِن مُكَنَّهُم فِي الْلاَرْسِ أَنَامُوا لَه المُمَنَّةُ وَاللَّه اللَّه على الله والمؤمنين أن مُكنَّهُم و اللَّه المؤمنين أن مُكنَّه من السلطان والتمكن غير أنا أعوانك وأولياؤك فيه ، ولا ينكر ذلك إلا من جهل أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكن غير أنا أعوانك وأولياؤك فيه ، ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسئة رسول الله على: ﴿ وَالْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَاللَّه وَسَنَّهُم أَوْلِيَاكُ بَعْضُ أَنْمُؤُمِنَ وَالْمُؤْمِنُ وَاللَّهُ وَلَيْكُونَ وقد وقد الله وسنة رسوله ، فإن انقدت لهما شكرت لمن أعانك لحرمتهما، وإن استكبرت عنهما ولم تنقذ لما لزمك منهما فإن الذي إليه أمرك وبيده عزك ، وذلك قد شرط أنه لا يضيع المعروف ، فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا. فاستمر الرجل على ذلك . ففي سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن .

فإن قيل: أفتئبت ولاية الحسبة للولد على الوالد، والعبد على المولى، والزوجة على الزوج، والنلميذ على الأستاذ، والرعية على الوالى مطلقاً، كما يثبت للوالد على الولد، والسيد على العبد، والزوج على الزوجة، والأستاذ على التلميذ، والسلطان على الرحية، أو بينهما فرق؟ فاعلم: أن الذي نراه: أنه يثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق في التفصيل. ولنفرض ذلك في الوئد مع الوالد فنقول: قد رتبنا للحسبة خمس مراتب، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما: التعريف ثم الوعظ والنصح باللطف. وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ولا يمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخيرتان، وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدى إلى أذى الوالد وسخطه؟ هذا فيه نظر، وهو بأن يكسر مثلاً عوده ويريق خمره ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير، ويرد إلى الملاك ما يجده في بيته من المال الحرام الذي غصبه أو سرقه أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين . إذا كان صاحبه معيناً ..، ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه والمنقورة في خشب بيته، ويكسر أوإني الذهب والفضة؛ فإن فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب، ولكن الوالد يتأذي به ويسخطه بسببه، إلا أن فعل الولد حق، وسخط الأب منشؤه حبه للباطل وللحرام، والأظهر في القياس: أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر وإلى مقدار الأذى والسخط. فإن كان المنكر فاحشأ وسخطه عليه قريباً كإراقة خمر من لا يشتد غضبه فذلك ظاهر، وإن كان المنكر قريباً والسخط شديداً كما لو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صور حيوان وفي كسرها خسران مال كثير، فهذا مما يشتد فيه الغضب، وليس تجري هذه المعصية مجرى الخمر وغيره، فهذا كله مجال النظر.

⁽١) حديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» متفق عليه من حديث أبي موسى، وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة.

فإن قيل: ومن أين قلتم: ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل، والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاماً من غير تخصيص؟ وأما النهي عن التأفيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات؟ فنقول: قد ورد في حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم؛ إذ لا خلاف في أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه في الزنا حداً، ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص، ولم يكن له أن يؤذيه في مقابلته.

وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع (١) فإذا لم يجز له إيذاؤه بعقوبة هي حق على جناية سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هي منع عن جناية مستقبلة متوقعة بل أولى. وهذا الترتيب أيضاً ينبغي أن يجري في العبد والزوجة مع السيد والزوج، فهما قريبان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك اليمين آكد من ملك النكاح. ولكن في الخبر أنه: اللو جَازَ السَّجُودُ لِمَخُلُوقِ لأَمَرْتُ المَرْأَةُ أَنْ تَسْجُدُ لِرَوْجِها (٢)، وهذا يدل على تأكيد الحق أيضاً. وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد، فليس لها معه إلا التعريف والنصح، فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن الهجوم على أحد الأموال من خزانته وردها إلى الملاك، وعلى تحليل الخيوط من ثبابه الحرير وكسر آنية الخمور في بيته يكاد يفضي لى خرق هيبته وإسقاط حشمته، وذلك محظور ورد النهي عنه، كما ورد النهي عن السكوت على المنكر المنكر (٣)، فقد تعارض فيه أيضاً محذوران والأمر فيه موكول إلى احتهاد منشؤه النظر في تفاحش المنكر ومقدار ما يسقط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك مما لا يمكن ضبطه. وأما التلميذ والأستاذ فالأمر فيما بينهما أخف؛ لأن المحترم هو الأستاذ المفيد للعلم من حيث الدين، ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه. وروي أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه. وروي أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده؟ فقال: يعظه ما لم يغضب، فإن غضب سكت عنه.

الشرط الخامس: كونه قادراً: ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبة إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: جاهدوا الكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا.

واعلم: أنه لا يقف سقرط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهاً يناله، فذلك في معنى العجز، وكذلك إذا لم يخف مكروهاً ولكن علم أن إنكاره لا ينفع فليلتفت إلى معنيين؛

 ⁽١) الأخبار الواردة في أن الجلاد ليس له أن يجلد أباه في الرنى ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر
 وأنه لو قطع يده لم يلزم القصاص، ثم قال: وثبت بعضها بالإجماع.

قلت: لم أجد فيه إلا حديث: «لا يقاد الوالد بالولد» رواه الترمدي وابن ماجه من حديث عمر. قال الترمذي: فيه اصطراب.

 ⁽٧) حديث: الو جاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها> تقدم في النكاح.

⁽٣) حديث: النهي عن الإنكار على السلطان جهرة بحيث يؤدي إلى خرق هيبته. أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث عباض بن غنم الأشعري: «من كانت هنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذه بيده فليخل به فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذي عليه والذي له» قال: صحيح الإسناد وللترمذي وحسنه من حديث أبي بكرة: «من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله في الأرض.

أحدهما: عدم إفادة الإِنكار امتناعاً، والآخر: خوف مكروه. ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال:

إحداها: أن يجتمع المعنيان؛ بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه، ويُضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة، بل ربما تحرم في بعض المواضع. نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد ولا يخرج إلا لحاجة مهمة أو واجب، ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد، أو يحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات؛ فيلزمه الهجرة إن قدر عليها، فإن الإكراه لا يكون عذراً في حق من يقدر على الهرب من الإكراه.

الحالة الثانية: أن ينتفي المعنيان جميعاً؛ بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه، فيجب عليه الإنكار وهذه هي القدرة المطلقة.

الحالة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه لا يخاف مكروهاً، فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين.

المحالة الرابعة: _ عكس هذه _ وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمي زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها، ويريق الخمر، أو يضرب العود الذي في يده ضربة مختطفة فيكسره في الحال، ويتعطل عليه هذا المنكر؛ ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب. ويدل عليه الخبر الذي أوردناه في فصل: «كلمة حق عند إمام جائر» ولا شك في أن ذلك مظنة الخوف. ويدل عليه أيضاً ما روي عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه قال: سمعت من بعض الخلفاء كلاماً فأردت أن أنكر عليه وعلمت أني أقتل، ولم يمنعني القتل ولكن كان في ملا من الناس فخشيت أن يعتريني التزين للخلق فأقتل من غير إخلاص في الفعل.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِآلِيكُمْ لِلَ التَّبُكَةُ ﴾ [التَرْة: ١٩٥]؟ قلنا: لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على وصف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية وليس كذلك، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس التهلكة ذلك، بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى؛ أي من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه. وقال البراء بن عازب: التهلكة هو أن يذنب اللنب ثم يقول لا يتاب عليّ، وقال أبو عبيدة: هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك. وإدا جز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضاً له ذلك في الحسبة، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف أو العاحز؛ فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة. وإنما جاز له الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل، أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم جراءته واعتفادهم في سائر المسلمين قلة المبالاة وجبهم للشهادة في سبيل الله قتنكسر بذلك شوكتهم؛ فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب وللقتل إذا كان لحسبته تأثير في رفع المنكر أو وعلم أنه لو أنكر عليه نشرب القدح وضرب رقبته فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك. وعلم أنه لو أنكر عليه نشرب القدح وضرب رقبته فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك. فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثراً ويفديه بنفسه.

فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له، بل ينبغي أن يكون حراماً. وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه. فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه فلا تجوز له الحسبة بل تحرم؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي ذلك إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء. بل لو علم أنه لو احتسب

لبطل ذلك المنكر، ولكن كان ذلك سبباً لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الإنكار على الأظهر، لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقاً، لا من زيد أو عمرو، وذلك بأن يكون مثلاً مع الإنسان شراب حلال ـ نجس بسبب وقوع نجاسة فيه ـ وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر أو تشرب أولاده المخمر، لإعوازهم الشراب المحلال فلا معنى لإراقة ذلك. ويحتمل أن يقال: إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلاً لمنكر. وأما شرب الخمر فهو الملوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر، وقد دهب إلى هذا ذاهبون، وليس ببعيد؛ فإن هذه مسائل فقهية لا يمكن فيها الحكم إلا بظن، ولا يبعد أن يغرق بين درجات المنكر المغير والمنكر الذي تفضي إليه الحسبة والتغيير، فإنه إذا كان يلبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لو منعه من ذلك للبح إنسانا وأكله فلا معنى لهذه الحسبة. نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طرفه يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه. فهذه دقائق واقعة في محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله ولهذه الدقائق نقول: العامي ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة، فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى اجتهاد، فالعامي إن خاص فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالي؛ إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلاً لها لقصور معرفته أو قصور ديانته فيؤدي ذلك إلى وجوه من الخلل، وسيأتي كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله.

فإن قبل: وحيث أطلقتم العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لا تفيد حسبته، فلو كان بدل العلم ظن فما حكمه؟ قلنا: الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم؟ إذ يرجح العلم اليقيني على الظن ويفرق بين العلم والظن في موضع آخر، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعاً أنه لا يفيد، فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لا يتوقع مكروهاً فقد اختلفوا في وجوبه، والأظهر وجوبه إذ لا ضرر فيه وجدواه متوقعة، وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي الوجوب بكل حال ونحن إنما نستثني عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه إما بالإجماع أو يقياس ظاهر، وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه، فأما إذا لم يكن يأس فينبغي أن لا يسقط الوجوب.

فإن قيل: فالمكروه الذي تتوقع إصابته إن لم يكن متيقناً ولا معلوماً بغالب الظن، ولكن كان مشكوكاً فيه، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه ولكن احتمل أن يصاب بمكروه، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يحب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه، أم يجب في كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه؟ قلنا: إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب، وإن غلب أنه لا يصاب وجب، ومجرد التجويز لا يسقط الوجوب، فإن ذلك ممكن في كل حسبة، وإن شك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر، فيحتمل أن يقال: الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقعاً، وهذا هو الأظهر. ويحتمل أن يقال: إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه، والأوّل أصح؛ نظراً إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف.

فإن قيل: فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة، فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريباً حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه، فعلى ماذا التعويل؟ قلنا: التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج، فإن الجبن مرض، وهو ضعف في القلب سببه قصور في القوة وتفريط، والتهور إفراط في القوّة وخروج عن الاعتدال بالزيادة وكلاهما نقصان، وإنما الكمال في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة. وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل. وتارة عن خلل في المزاج بتفريط أو إفراط، فإن من اعتدل مزاجه في صفة الجبن والجراءة فقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جراءته جهله، وقد يكون عالماً بحكم التجربة والممارسة بمداخل الشر ودوافعه، ولكن يعمل الشر البعيد في تخذيله وتحليل قوّته في الإقدام بسبب ضعف قلبه ما يفعله الشر القريب في حق الشحاع المعتدل الطبع، فلا التفات إلى الطرفين، وعلى الجبان أن يتكلف إزالة المجبن بإزالة علته، وعلته جهل أو ضعف، ويزول الجهل بالتجربة، ويزول الضعف بممارسة الفعل المخفوف منه تكلفاً حتى يصير معتاداً؛ إذ المبتدىء في المناظرة والوعظ مثلاً قد يجبن عنه طبعه لضعفه، فإذا مارس واعتاد فارقه الضعف، فإن صار ذلك ضرورياً غير قابل للزوال بحكم استيلاء الضعف على القلب، فحكم ذلك الضعيف يتبع حاله، فيعذر كما يعذر المريض في التقاعد عن بعض الواجبات، ولذلك قد نقول على رأي: لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسلام على من يغلب بعض الواجبات، ولذلك قد نقول على من لا يعظم خوفه منه، فكذلك الأمر في وجوب الحسبة.

فإن قيل: فالمكروه المتوقع ما حدّه؟ فإن الإنسان قد يكره كلمة، وقد يكره ضربة، وقد يكره طول لسان المحسب عليه في حقه بالغيبة، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا يتوقع منه نوع من الأذى، وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان، أو يقدح فيه في مجلس يتضرر بقدحه فيه، فما حد المكروه الذي يسقط الوجوب به؟ قلنا: هذا أيضاً فيه نظر غامض وصورته منتشرة ومجاريه كثيرة، ولكنا نجتهد في ضم نشره وحصر أقسامه.

فنقول: المكروه نقيض المطلوب ومطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور: أما في النفس فالعلم. وأما في البدن فالصحة والسلامة. وأما في المال فالثروة. وأما في قلوب الناس فقيام الجاه؛ فإذاً: المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه. ومعنى الجاه ملك قلوب الناس، كما أن معنى الثروة ملك الدراهم؛ لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض، كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض وسيأتي تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه في ربع المهلكات وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به. ويكره في هذه الأربعة أمران: أحدهما: زوال ما هو حاصل موجود. والآخر: امتناع ما هو منتظر مفقود أعنى اندفاع ما يتوقع وجوده فلا ضرر إلا في فوات حاصل وزواله، أو تعويق منتظر، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله، والممكن حصوله كأنه خوات إمكانه كأنه فوات حصوله، فرجع المكروه إلى قسمين:

أحدهما: خوف امتناع المنتظر؛ وهذا لا يتبغي أن يكون مرخصاً في ترك الأمر بالمعروف أصلاً.
ولنذكر مثاله في المطالب الأربعة، أما العلم: فمثاله: تركه الحسبة على من يختص بأستاذه خوفاً
من أن يقبح حاله عنده فيمتنع من تعليمه. وأما الصحة: فتركه الإنكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلاً
وهو لابس حريراً خوفاً من أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المنتظرة. وأما المال: فتركه الحسبة على
السلطان وأصحابه وعلى من يواسيه من ماله؛ خيفة من أن يقطع إدراره في المستقبل ويترك مواساته.
وأما الجاه: فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وحاهاً في المستقبل؛ خيفة من أن لا يحصل له

الجاه؛ أو حَيْفة من أن يقبح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية.

وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضرراً مجاز. وإنما الضرر الحقيقي فوات حاصل ولا يستثنى من هذا شيء إلا ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر، كما إذا كان محتاجاً إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب، ويعلم أن في تأخره شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضي إلى الموت. وأعني بالعلم: الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم، فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرحص في ترك الحسبة. وأما في العلم: فمثل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه ولم يجد إلا معلماً واحداً، ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره، وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه لكون العالم مطيعاً له أو مستمعاً لقوله، فإذاً: الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور، ولا يبعد أن يرجح أحدهما، ويختلف ذلك بتفاحش المنكر ويشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات الدين. وأما في المال: فكمن يعجز عن الكسب والسؤال وليس هو قوي النفس في التوكل، ولا منفق عليه سوى شخص واحد، ولو احتسب عليه قطع رزقه وافتقر في هو قوي النفس في التوكل، ولا منفق عليه سوى شخص واحد، ولو احتسب عليه قطع رزقه وافتقر في المكوت. وأما الجاه! ذهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلاً إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان، ولا السكوت. وأما الجاه! فهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلاً إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان، ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير أو يشرب الخمر، ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيمتنع عليه حصول الجاه ويدوم بسببه أذى الشرير.

فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استثناؤها، ولكن الأمر فيها منوط باجتهاد المحتسب حتى يستفتي فيها قلبه، ويزن أحد المحذورين بالآخر، ويرجح بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع، فإن رجح بموجب الهوى سمي سكوته مداهنة. وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق، ولكن الناقد بصير، فحق على كل متدين فيه أن يراقب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعثه، وصارفه أنه الدين أو الهوى، وستجد كل نفس ما عملت من سوء أو خير محضراً عند الله ولو في فلتة خاطر أو فلتة ناظر من غير ظلم وجور، فما الله بظلام للعبيد.

وأما القسم الثاني: وهو فوات الحاصل: فهو مكروه ومعتبر في جواز السكوت في الأمور الأربعة إلا العلم، فإن فواته غير مخوف إلا بتقصير منه، وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره، وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال، وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم في الدنيا ويدوم ثوابه في الآخرة فلا انقطاع له أبد الآباد. وأما الصحة والسلامة: ففواتهما بالضرب، فكل من علم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به في الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يستحب له ذلك ـ كما سبق ـ، وإذا فهم هذا في الإيلام بالضرب فهو في الجرح والقطع والقتل أظهر. وأما الثروة: فهو بأن يعلم أنه تنهب داره ويخرب بيته وتسلب ثيابه، فهذا أيضاً يسقط عنه الوجوب ويبقى الاستحباب إذ لا بأس بأن يفدي دينه بدنياه. ولكل واحد من الضرب والنهب حد في القلة لا يكثرث به كالحبة في المال واللطمة الخفيف أن يجتهد في الفرب، وحد في الكرب والنهب حد في القلة لا يكثرث به كالحبة في المال واللطمة الخفيف أن يجتهد في ذلك ويرجح جانب الدين ما أمكن. وأما الجاه: ففواته بأن يضرب ضرباً غير مؤلم أو بسبب على ملاً من الناس، أو يطرح منديله في رقبته ويدار به في البلد أو يسود وجهه ويطاف به، وكل بسبب على ملاً من الناس، أو يطرح منديله في رقبته ويدار به في البلد أو يسود وجهه ويطاف به، وكل بشسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة؛ كالطواف به في البلد حاسراً حافياً فهذا يرخص له في السكوت، يقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة؛ كالطواف به في البلد حاسراً حافياً فهذا يرخص له في السكوت،

لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع، وهذا مؤلم للقلب ألماً يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دريهمات قليلة فهذه درجة.

الثانية: ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة، فإن الخروج في ثياب فاخرة تجمل، وكذلك الركوب للخيول. فلو علم أنه لو احتسب لكلف المشي في السوق في ثياب لا يعتاد هو مثلها. أو كلف المشي راجلاً وعادته الركوب، فهذا من جملة المزايا. وليست المواظبة على حفظها محمودة. وحفظ المروءة محمود فلا ينبغي أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر. وفي معنى هذا ما لو خاف أن يتعرض له باللسان إما في حضرته بالتجهيل والتحميق والنسبة إلى الرياء والبهتان. وإما في غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب، إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التي ليس إليها كبير حاجة. ولو تركت الحسبة بلوم لائم أو باغتياب فاسق أو شتمه وتعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلاً؛ إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة. وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المغتاب ولكن أضافه إليه وأدخله معه في الغيبة فتحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضاً معصية في حق المغتاب، ولكن يستحب له ذلك ليفدي عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار. وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة وعظم الخطر في السكوت عنها فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره، والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها، فأما مزايا الجاه والحشمة ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له. وأما أمتناعه لخوف شيء من هذه المكاره في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه؛ لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره، ومن وجه الدين هو فوقه لأن له أن يسامح في حقوق نفسه وليس له المسامحة في حتى غيره. فإذاً: ينبغي أن يمتنع فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية كالضرب والنهب قليس له هذه الحسبة؛ لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر، وإن كان يقوت لا بطريق المعصية فهو إيذاء للمسلم أيضاً وليس له ذلك إلا برضاهم. فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان، ولكنه يقصد أقاربه انتقاماً منه بواسطته، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها، فإن إيذاء المسلمين محذور، كما أن السكوت على المنكر محذور. نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو نفس ولكن يبالهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدحه في العرض.

فإن قيل: فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يمتنع عنه إلا بقتال ربما يؤدي إلى قتله فهل يقاتل عليه؟ فإن قلتم: يقاتل، فهو محال لأنه إهلاك نفس خوفاً من إهلاك طرف وفي إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضاً، قلنا: يمنعه عنه ويقاتله؛ إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه، بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية، وقتله في الحسبة ليس معصية وقطع طرف نفسه معصية. وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتي على قتله فإنه جائز، لا على معنى أنا نفدي درهماً من مال مسلم بروح مسلم فإن ذلك محال، ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله في الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصي.

فإن قيل: فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغي أن نقتله في الحال حسماً لباب

المعصية؟ قلنا: ذلك لا يعلم يقيناً ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية، ولكنا إذا رأيناه في حال مباشرة القطع دفعناه، فإن قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتي على روحه.

فإذاً: المعصية لها ثلاث أحوال:

إحداها: أن تكون متصرمة: فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاة لا إلى الآحاد.

الثانية: أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها؛ كلبسه الحرير وإمساكه العود والخمر، فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم تؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها، وذلك يثبت للآحاد والرعية.

الثالثة: أن يكون المنكر متوقعاً كالذي يستعد بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعده لم يحضر الخمر؛ فهذا مشكوك فيه، إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة، وقد أقدم على السبب المؤدي إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن عند الدخول والخروج، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية، وإن كان مقصد العاصي وراءه كما أنّ الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية، وتحصيل مظنة المعصية معصية، ونعني بالمظنة ما يتعرّض الإنسان به لوقوع المعصية غالباً بحيث لا يقدر وتحصيل مظنة المعصية منظرة.

الركن الثاني: للحسبة ما فيه الحسبة:

وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد، فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها:

الأول: كونه منكراً ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا؛ لأن المنكر أعم من المعصية؛ إذ من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذا إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه. وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس، بل لو صادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون؛ إذ معصية لا عاصي بها محال، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية، وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تختص الحسبة بالكبائر، بل كشف العورة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبيات كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنها، وفي الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتي في كتاب التوبة.

الشرط الثاني: أن يكون موجوداً في الحال: وهو احتراز أيضاً عن الحسبة على من فرغ من شرب الحمر، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ، وإن أنكر عزمه عليه لم يجز وعظه أيضاً؛ فإن فيه إساءة ظن بالمسلم وربما صدق في قوله، وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق، وليتنبه

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للدقيقة التي ذكرناها وهو: أن الخلوة بالأجنبية معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء وما يجري مجراه.

الشرط الثالث: أن يكون المنكر ظاهراً للمحتسب بغير تجسس: فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه، وقد نهي الله تعالى عنه. وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه مشهورة ـ وقد أوردناها في كتاب آداب الصحبة ـ وكذلك ما روي أن عمر رضي الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه. فقال: وما هي؟ فقال: قد قال تعالى: ﴿وَلَا جُّمَنِّسُواۚ﴾ [المُعجزات: ١٧] وقد تجسستَ. وقال تعالى: ﴿وَأَتُواْ ٱلْبُيُوسَ مِنْ ٱلْوَابِهَاۚ﴾ [البَفْرَة: ١٨٩] وقد تسورت من السطح وقال: ﴿ لَا تَنْخُلُواْ بِيُونِنَا غَيْرَ يُتُونِكُمْ حَقَى تَسْتَأْنِسُوا وَلِمُنَالِمُوا عَلَىٰ آهْلِهَا ﴾ [النُّور: ٧٧] وما سلمت. فتركه عمر وشرط عليه التوبة. ولذلك شاور عمر الصحابة رضي الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكراً فهل له إقامة الحدّ فيه؟ فأشار علي رضي الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفي فيه واحد. وقد أوردنا هذه الأخبار في بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها.

فإن قلت: فما حدّ الظهور والاستتار؟ فاعلم: أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يحوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية، إلا أن يظهر في الدار ظهوراً يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والأوثار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار. فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاهي وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعها أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة. فإذن إنما يدرك مع تخلل الحيطان صوت أو رائحة، فإذا فاحت روائح الخمر فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمور المحترمة فلا يجوز قصدها بالإراقة، وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب فهذا محتمل، والظاهر جواز الحسبة. وقد تستر قارورة الخمر في الكم وتحت الذيل وكَلْلُكُ الْمُلَاهِي، فإذا رئي فاسق وتحت ذيله شيء لم يجز أن يكشف عنه ما لم يظهر بعلامة خاصة. فإن فسقه لا يدل على أن الذي معه خمر؛ إذ الفاسق محتاج أيصاً إلى الخل وغيره. فلا يجوز أن يستدل بإحفائه، وأنه لو كان حلالاً لما أخفاه لأن الأغراض في الإِخفاء مما تكثر. وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر، والظاهر أن له الاحتساب؛ لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم في أمثال هذه الأمور. وكذلك العود ربما يعرف بشكله إذا كان الثوب السائر له رقيقاً، فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالته فهو غير متستور بل هو مكشوف، وقد أمرنا بأن نستر ما ستر الله وننكر على من أبدى لنا صفحته، والإبداء له درجات: فتارة يبدو لنا بحاسة السمع، وتارة بحاسة الشم، وتارة بحاسة البصر، وتارة بحاسة اللمس، ولا يمكن أن يخصص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم. وهذه الحواس أيضاً تفيد العلم. فإذن: إنما يجوز أن يكسر ما تحت الثوب إذا علم أنه خمر، وليس له أن يقول: أرني لأعلم ـ ما فيه؛ فإنَّ هذا تجسس. ومعنى التجسس طلب الأمارات المعرفة، فالأمارة المعرفة إن حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها، فأما طلب الأمارة المعرفة فلا رخصة فيه أصلاً.

الشرط الرابع: أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد: فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر، وتناوله ميراث ذوي الأرحام، وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار، إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد. نعم لو رأى الشافعي شافعياً يشرب النبيذ وينكح بلا ولي ويطأ زوجته فهذا في محل النظر، والأظهر أن له الحسبة والإنكار؛ إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن الممجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهاد غيره، ولا أن الذي أدى اجتهاده في التقليد إلى شخص رآء أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فينتقد من المذاهب أطيبها عنده، بل على كل مقلد اتباع مقلّده في كل تفصيل، فإذن: مخالفته للمقلد متفق على كونه منكراً بين المحصلين وهو عاص بلمخالفة، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغمض منه؛ وهو أنه يجوز للحنفي أن يعترض على الشافعي إذا نكح بغير ولي بأن يقول له: الفعل في نفسه حق ولكن لا في حقك، فأنت مبطل بالإقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعي، ومخالفة ما هو صواب عندك معصية في حقك وإن كانت صواباً عند الله.

وكذلك الشافعي يحتسب على الحنفي إذا شاركه في أكل الضب ومتروك التسمية وغيره ويقول له: إما أن تعتقد أن الشافعي أولى بالاتباع ثم تقدم عليه، أو لا تعتقد ذلك فلا تقدم عليه؛ لأنه على خلاف معتقدك. ثم ينجر هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجامع الأصم مثلاً امرأة على قصد الزنى وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوّجه أبوه إياها في صغره، ولكنه ليس يدري وعجز عن تعريفه ذلك لصممه أو لكونه غير عارف بلغته، فهو في الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ومعاقب عليه في الدار الآخرة. فينبغي أن يمنعها عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال في علم الله، قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلطه وجهله. ولا شك في أنه لو علق طلاق زوجته على صفة في قلب المحتسب مثلاً من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة في قلبه وعجز عن تعريف الزوجين ذلك، ولكن علم وقوع الطلاق في الباطن، فإذا رآه يجامعها فعليه المنع - أعني باللسان -؟ لأن ذلك زنى، إلا أن الزاني غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طلقت منه ثلاثاً، وكونهما غير عاصيين لجهلهما بوجود الصفة لا يخرج علم من عن منكراً ولا يتقاعد ذلك عر زنا المجنون، وقد بينا أنه يمنع منه، فإذا كان يمنع مما هو منكر عند الله وإن لم يكن منكراً عند الفاعل ولا هو عاص به لعذر الجهل، فيلزم من عكس هذا أن يقال: ما لبس بمنكر عند الله إنما هو منكر عند الله على لجهله لا يمنع منه، وهذا هو الأظهر والعلم عند الله.

فتحصل من هذا: أن الحنفي لا يعترض على الشافعي في النكاح بلا ولي، وأن الشافعي يعترض على الشافعي فيه؛ لكون المعترض عليه منكراً باتفاق المحتسب والمحتسب عليه. وهذه مسائل فقهية دقيقة والاحتمالات فيها متعارضة، وإنما أفتينا فيها بحسب ما ترجع عندنا في الحال. ولسنا نقطع بخطأ ترجيع المخالف فيها إن رأى أنه لا يجري الاحتساب إلا في معلوم على القطع، وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا: لا حسبة إلا في مثل الخمر والخنزير وما يقطع بكونه حراماً، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر في حق المجتهد؛ إذ يبعد غاية البعد أن يجتهد في القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده في جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها، ولا يمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب. ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يحتار من المذاهب ما أراد غير معتد به، ولعله لا يصبع ذهاب ذاهب إليه أصلاً. فهذا مذهب لا يثبت، وإن ثبت فلا يعتد به.

فإن قلت: إذا كان لا يعترض على الحنفي في النكاح بلا ولي لأنه يرى أنه حق، فينبغي أن لا يعترض على المعتزلي في قوله: إن الله لا يُرى؟ وقوله: وإن الخير من الله والشر ليس من الله؟ وقوله: كلام الله محلوق؟ ولا على الحشوي في قوله: إن الله تعالى جسم وله صورة، وإنه مستقر على العرش؟ بن لا ينبغي أن يعترض على الفلسفي في قوله: الأجساد لا تبعث وإنما تبعث النقوس؛ لأن هؤلاه أيضاً أدى اجتهادهم إلى ما قالوه، وهم يظنون أن ذلك هو الحق.

فإن قلت: بطلان مذهب هؤلاء ظاهر، فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضاً ظاهر، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يُرى والمعتزلي ينكرها بالتأويل، فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفي كمسألة النكاح بلا ولي، ومسألة شفعة الجوار ونظائرهما؟. فاعلم: أن المسائل تنقسم إلى ما يتصوّر أن يقال فيه: كل مجتهد مصيب. وهي أحكام الأفعال في الحل والحرمة، وذلك هو الذي لا يعترض على المجتهدين فيه، إذ لم يعلم خطؤهم قطعاً بل ظناً، وإلى ما لا يتصوّر أن يكون المصيب فيه إلا واحداً كمسألة الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفي الصورة والجسمية والاستقرار عن الله تعالى، فهذا مما يعلم خطأ المخطىء فيه قطعاً ولا يبقى لخطئه الذي هو جهل محض وجه. فإذن: البدع كلها ينبغي أن تحسم أبوابها وتنكر على المبتدعين بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق؛ لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد.

فإن قلت: فمهما اعترضت على القدري في قوله: الشر ليس من الله، اعترض عليك القدري أيضاً في قولك: الشر من الله، وكذلك في قولك: إن الله يُرى، وفي سائر المسائل؛ إذ المبتدع محق عند نفسه، والمحق مبتدع عند المبتدع، وكل يدعي أنه محق وينكر كونه مبتدعاً . فكيف يتم الاحتساب؟ فاعلم: أنّا لأجل هذا التعارض نقول: ينظر إلى البلدة التي فيها أظهرت تلك البدعة؛ فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنّة فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان، وإن انقسم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان في الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة فليس للآحاد الحسبة في المذاهب إلا بنصب السلطان. فإذا رأى السلطان الرأي الحق ونصره وأذن لواحد أن يزجر المبتدعة عن إظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره؛ فإن ما يكون بإذن السلطان لا يتقابل، وما يكون من جهة الآحاد فيتقابل الأمر فيه. وعلى الجملة: قالحسبة في البدعة أهم من الحسبة في كل المنكرات، ولكن ينبغي أن يراعى فيها هذا التفصيل الذي ذكرناه؛ كيلا يتقابل الأمر ولا ينجر إلى تحريك الفتنة. بل لو أذن السلطان مطلقاً في منع التفصيل الذي ذكرناه؛ كيلا يتقابل الأمر ولا ينجر إلى تحريك الفتنة. بل لو أذن السلطان مطلقاً في منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق، أو أن الله لا يرى، أو أنه مستقر على العرش مماس له، أو غير ذلك من البدع لتسلط الآحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه، وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط.

الركن الثالث: المحتسب عليه:

وشرطه: أن يكون بصثمة يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكراً، وأقل ما يكفي في ذلك أن يكون إنساناً، ولا يشترط كونه مكلفاً؛ إذ بيّنا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ، ولا يشترط كونه مميزاً؛ إذ بينا أن المجنون لو كان يزني بمجنونة أو يأتي بهيمة لوجب منعه منه. نعم، من الأفعال ما لا يكون منكراً في حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره. ولكنا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل؛ فإن ذلك أيضاً مما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح. وغرضنا الإنكار عليه لا ما بها يتهيأ للتفاصيل.

فإن قلت: فاكتف بكونه حيواناً ولا تشترط كونه إنساناً، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعاً لإِنسان لكنا نمنعها منه كما نمنع المجنون من الزنى وإتيان البهيمة؟ فاعلم: أن تسمية ذلك حسبة لا وجه لها؛ إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر، ومنع المجنون عن الزنى وإتيان البهيمة لحق الله، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر. والإِنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه لحقين؛ أحدهما: حتى الله تعالى، فإن فعله معصية، والثاني: حتى المتلف عليه، فهما علتان تنفصل إحداهما عن الأخرى. فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجدت المعصية وسقط حتى المجني عليه بإذنه فتثبت الحسبة والمنع بإحدى العلتين. والبهيمة إذا أتلفت فقد عدمت المعصية، ولكن يثبت المنع بإحدى العلتين، ولكن فيه دقيقة: وهو أنا لسنا نقصد بإخراج البهيمة منع البهيمة، بل حفظ مال المسلم؛ إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من إناء فيه خمر أو ماء مشوب بخمر لم نمنعها منه، بل يجوز إطعام كلاب الصيد الجيف والميتات، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقدرنا على حفظه بغير تعب وجب ذلك علينا حفظاً للمال، بل لو وقعت جرة لإنسان من علو وتحتها قارورة لغيره فتدفع الجرة لحفظ القارورة، لا لمنع الجرة من السقوط، فإنا لا نقصد منع الجرة وحراستها من أن تصير كاسرة للقارورة، ومنمتع المجنون من الزنى وإتيان البهيمة وشرب الخمر وكذا الصبي، لا صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتنزيها له من حيث إنه إنسان محترم، فهذه لطائف المشروب، بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتنزيها له من حيث إنه إنسان محترم، فهذه لطائف دقيقة لا يتفطن لها إلا المحققون، فلا ينبغي أن يغفل عنها، ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر؛ إذ قد يتردّد في منعهما من لبس الحرير وغير ذلك. وستعرض لما نشير إليه في الباب الثالث.

فإن قلت: فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع إنسان فهل يجب عليه إخراجها؟ وكل من رأى مالاً لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه؟ فإن قلتم: إن ذلك واجب، فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان مسخراً لغيره طول عمره، وإن قلتم: لا يجب فَلِمَ يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير؟ فنقول: هذا بحث دقيق غامض، والقول الوجيز فيه أن نقول: مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان جاهه وجب عليه ذلك، فذلك القدر واجب في حقوق المسلم، بل هو أقل درجات الحقوق، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة، وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام، فإن الأذى في هذا أكثر من الأذى في ترك رد السلام، بل لا خلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عند الشهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة، ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لا ضرر على الدافع فيه، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جاه لم يلزمه السعي في ذلك؛ لأنَّ حقه مرعي في منفعة بدنه وفي ماله وجاهه كحق غيره فلا يلزمه أن يفدي غيره بنفسه، نعم الإيثار مستحب، وتجشم المصاعب لأجل المسلمين قربة، فأما إيجابها فلا، فإذاً: إن كان يتعب بإخراج البهائم عن الزرع لم يلزمه السعى في ذلك، ولكن إذا كان لا يتعب بتنبيه صاحب الزرع من نوع أو بإعلامه يلزمه، فإهمال تعريفه وتنبيهه كإهماله تعريف القاضي بالشهادة، وذلك لا رخصة فيه، ولا يمكن أن يراعي فيه الأقل والأكثر حتى يقال: إن كان لا يضيع منّ منفعته في مدة اشتغاله بإخراج البهائم إلا قدر درهم مثلاً وصاحب الزرع يفوته مال كثير فيترجح جانبه، لأن الدرهم الذي له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الألف حفظ الألف ولا سبيل للمصير إلا ذلك، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو معصية كالغصب أو قتل عبد مملوك للغير، فهذا يجب المنع منه وإن كان فيه تعب ما؛ لأن المقصود حق الشرع، والغرض دفع المعصية، وعلى الإِنسان أن يتعب نفسه في دفع المعاصي كما عليه أن يتعب نفسه في ترك المعاصي. والمعاصي كلها في تركها تعب وإنما الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهي غاية التعب، ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر، بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المحذورات التي يخافها المحتسب.

وقد اختلف الفقهاء في مسألتين تقربان من غرضنا، إحداهما: أن الالتقاط هل هو واجب واللقطة ضائعة؟ والملتقط مانع من الضياع وساع في الحفظ؟ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال: إن كانت اللقطة في موضع لو تركها فيه لم تضع بل يلتقطها من يعرفها، أو تترك كما لو كان في مسجد أو رباط يتعين من يدخله وكلهم أمناء فلا يلزمه الالتقاط. وإن كانت في مضيعة نظر؛ فإن كان عليه تعب في حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل فلا يلزمه ذلك؛ لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك. وحقه بسبب كونه إنساناً مُحترماً، والملتقط أيضاً إنسان وله حق في أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب غيره لأجله. فإن كانت ذهباً أر ثوباً أو شيئاً لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب التعريف، فهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين. فقائل يقول: التعريف والقيام بشرطه فيه تعب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يتسرع فيلتزم طبقاً للثواب. وقائل يقول: إن هذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين؛ فينزل هذا منزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم، فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يتبرع به، فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور، وكان التعب بهذه الخطوات لا يعدُّ تعباً في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة. وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأحوج إلى الحضور في الهاجرة وشدَّة الحر فهذا قد يقع في محل الاجتهاد والنظر، فإن الضرر الذي ينال الساعي في حفظ حق الغير له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبالي به، وطرف في الكثرة لا يشك في أنه لا يلزمه احتماله، ووسط يتجاذبه الطرفان، ويكون أبدأ في محل الشبهة والنظر، وهي من الشبهات المزمنة التي لبس في مقدور البشر إزالتها؛ إذ لا علة تفرق بين أجزاتها المتقاربة، ولكن المتقى ينظر فيها لنفسه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه. فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل.

الركن الرابع: نفس الاحتساب:

وله درجات وآداب: أما الدرجات: فأولها التعرف، ثم التعريف، ثم النهي، ثم الوعظ والنصح، ثم السب والتعنيف، ثم التغيير باليد، ثم التهديد بالضرب، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه، ثم شهر السلاح، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود.

أما المرجة الأولى: وهي التعرف: ونعني طلب المعرفة بجريان المنكر وذلك منهي عنه - وهو التجسس الذي ذكرناه - فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره. نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلاناً يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمراً أعده للشرب، فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزمه الاستئذان، ويكون تخطي ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ككسر رأسه بالضرب للمنع مهما احتاح إليه. وإن أخبره عدلان أو عدل واحد - وبالحملة كل من تقبل روايته لا شهادته - ففي جواز الهجوم على داره بقولهم فيه نظر واحتمال، والأولى أن يمتنع؛ لأن له حقاً في أن لا يتخطى داره بغير إذنه، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين، فهذا أولى ما يجعل مرداً فيه. وقد قيل: إنه كان نقش حاتم لقمان، الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت.

الدرجة الثانية: التعريف: فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله، وإذا عرف أنه منكر تركه، كالسوادي يصلي ولا يحسن الركوع والسجود؛ فيعلم أنّ ذلك لجهله بأنّ هذه ليست بصلاة، ولو رضي

بأن لا يكون مصلياً لترك أصل الصلاة، فيجب تعريفه باللطف من غير عنف، وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحمق، والتجهيل إيذاء وقلما يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لا سيما بالشرع. ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نبه على الخطأ والجهل؟ وكيف يجتهد في مجاحدة الحق بعد معرفته؛ خيفة من أن تنكشف عورة جهله؟ والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية؛ لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد في وجهه، وصاحبه ملوم عليه، وقبح السوأتين يرجع إلى صورة البدن، والنفس أشرف من البدن، وقبحها أشدٌ من قبح البدن. ثم هو غير ملوم عليه؛ لأنه خلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله، ولا في اختياره إزالته وتحسينه. والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه، ثم لذته عند ظهور جمال علمه لغيره. وإذا كان التعريف كشفاً للعورة مؤذياً للقلب فلا بدُّ وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فنقول له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا أيضاً جاهلين بأمور الصلاة فعلمنا العلماء، ولعل قريتك خالية عن أهل العلم، أو عالمها مقصر في شرح الصلاة وإيضاحها، إنما شرط الصلاة الطمأنينة في الركوع والسجود. وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء؛ فإن إيذاء المسلم حرام محذور، كما أن تقريره على المنكر محذور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على التحقيق. وأما إذا وقفت على خطأ في غير أمر الدين فلا ينبغي أن ترده عليه؛ فإنه يستفيد منك علماً ويصير لك عدواً، إلا إذا علمت أنه يغتنم العلم وذلك عزيز جداً.

المعرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى؛ وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكراً، كالذي يواظب على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعِّظ ويخوِّف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك، وتحكى له سيرة السلف وعبادة المتقين؛ وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه؛ إذ المسلمون كنفس واحدة، وههنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة؛ وهي: أن العالم يري ـ عند التعريف _ عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل، فربما يقصد بالتعريف الإدلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل. فإن كان الباعث هذا، فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه. ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غاية في الجهل. وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور للشيطان، يتدلى بحبله كل إنسان إلا من عرّفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته، فإن في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين؛ أحدهما: من جهة دالة العلم، والآخر: من جهة دالة الاحتكام والسلطنة. وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي، وله محك ومعيار ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه. فإن كانت لحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه وهو يود أن يكفي بغيره فليحتسب فإن باعثه هو الدين، وإن كان اتعاظ ذلك العاصي بوعظه وانزجاره بزجره أحب إليه من اتعاظه بوعظ غيره فما هو إلا متبع هوى نفسه ومتوسل إلى إظهار جاه نفسه بواسطة حسبته، فليتق الله تعالى فيه وليحتسب أوَّلاً على نفسه. وعند هذا يقال له ما قيل لعيسى عليه السلام: يا ابن مريم، عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني. وقيل لداود الطائي رحمه الله: أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ فقال: أخاف عليه السيف، قال: إنه يقوى عليه، قال: أخاف عليه السيف، قال: إنه يقوى عليه، قال: أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن: وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادى الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَوِّ لَلْمُ وَلِما تَعْبُرُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلا تَمْقِلُونَ اللهِ الانبيّاء. ١٧] ولسنا نعني بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدّماته، ولا الكذب، بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعدّ من جملة الفحش، كقوله: يا فاسق يا أحمق، يا جاهل ألا تخاف الله، وكقوله: يا سوادي يا غبي، وما يجري هذا المجرى، فإن كل فاست فهو أحمق، يا جاهل ألا تخاف الله، وكقوله: يا سوادي الله تعالى، بل كل من ليس بكيس فهو أحمق، والكيس من شهد له رسول الله يَظِيّ بالكياسة حيث قال: «الكيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالاَّحْمَقُ مَنْ أَنْهَ مُوْاهَا وَتَمَنَّى عَلَىٰ اللهُ الله

ولهذه الرتبة أدبان: أحدهما: أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف. والثاني: أن لا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه؛ بل يقتصر على قدر الحاجة. فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطلقه، بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته. وإن علم أنه لو تكلم ضرب، ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب، لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له.

المدرجة الخامسة: التغيير باليد: وذلك ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه، ومنعه من الجلوس عليه، ودفعه عن الجلوس على مال الغير، وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله، وإخراجه من المسجد إذا كان جالساً وهو جنب وما يجري مجراه، ويتصور ذلك في بعض المعاصى دون بعض.

فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة.

وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه، فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه، وتولاه من لا حجر عليه في فعله.

الثاني: أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه، وهو أن لا يأخذ بلحيته في الإخراج، ولا برجله إذا قدر على جره بيده؛ فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر.

⁽۱) حديث: «الكيّس من دان نفسه وحمل لما يعد الموت. . . » الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.

وحد الكسر: أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناف إصلاحه إلى تعب يساوي تعب الاستئناف من الخشب ابتداء. وفي إراقة الخمور يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلاً، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمي ظروفها بحجر فله ذلك، وسقطت قيمة الظرف وتقومه بسبب الخمر؛ إذ صار حائلاً بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر، ولو ستر الخمر ببدنه لكنا نقصد بدنه بالجرح والضرب لنتوصل إلى إراقة الخمر، فإذن: لا تزيد حرمة ملكه في الظروف على حرمة نفسه. ولو كان الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها، فهذا عذر. وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع في زمانه وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها؛ فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظرف الخمر، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الصمان.

فإن قلت: فهلا جاز الكسر لأجل الزجر؟ وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر؟ فاعلم: أن الزجر إنما يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون على الماضي، والدفع على الحاضر الراهن. وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة أو زجر عن لاحق، وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية. نعم الوالي له أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه. وأقول: له أن يأمر بكسر الظروف التي فيها الخمور زجراً. وقد فعل ذلك في زمن رسول الله على تأكيداً للزجر (١٠)، ولم يثبت نسخه، ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفطام شديدة. فإذا رأى الوالي باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك. وإذا كان هذا منوطأ بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لآحاد الرعية.

فإن قلت: فليجز للسلطان زجر أثناس عن المعاصي بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التي فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التي بها يتوصلون إلى المعاصي؟ فاعلم: أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجاً عن سنن المصالح، ولكنا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها، وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة، وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخا، بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود بعودها، وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا آحاد الرعية منه؛ لخفاه وجه الاجتهاد فيه، بل نقول: لو أريقت الخمور أولاً فلا يجوز كسر الأواني بعدها، وإنما جاز كسرها تبعاً للخمر، فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال إلا أن تكون ضاربة بالخمر لا تصلح إلا لها.

فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقروناً بمعنيين؛ أحدهما: شدة الحاجة إلى الزجر، والآخر: تبعية الظروف للخمر التي هي مشغولة بها. وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما. ومعنى ثالث: وهو صدوره عن رأي صاحب الأمر لعلمه بشدة الحاجة إلى الزجر، وهو أيضاً مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه، فهذه تصرفات دقيقة فقهية يحتاج المحتسب لا محالة إلى معرفتها.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف: كقوله: دع عنك هذا أو لأكسرن رأسك أو لأضربن رقبتك أو لآمرن بك وما أشبهه، وهذا ينبغي أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه. والأدب في هذه

⁽١) حديث: «تكسير الظروف التي فيها الخمور في زمنه ﷺ أخرجه الترمذي من حديث أبي طلحة أنه قال: يا نبي الله إني الشعرية الشريت خمراً لأينام في حجري قال: «أهرق الخمر واكسر الفنان» وفيه ليث بن أبي سلم، والأصح: رواية السدي عن يحيى بن عباد عن أنس أن أبا طلحة كان عندي، قاله الترمذي.

الرتبة: أن لا يهده بوعيد لا يجوز له تحقيقه، كقوله لأنهبن دارك أو لأضربن ولدك أو لأسبين زوجتك وما يجري مجراه، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام، وإن قاله من غير عزم فهو كذب. نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال، وله أن يزيد في الوعيد على ما هو في عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه، وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة في مثل ذلك معتادة؛ وهو معنى مبالغة الرجل في إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين، وذلك مما قد رخص فيه للحاجة وهذا في معناه، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص، وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس: أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل؛ لأن الخلف في الوعيد كرم، وإنما يقبح أن يعد بما لا يفعل، وهذا غير مرضي عندنا، فإن الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعداً كان أو وعيداً، وإنما يتصور هذا في حق العباد، وهو كذلك إذ الخلف في الوعيد ليس بحرام.

المدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح: وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف. والقاضي قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس، فإن أصر المحبوس وعلم القاضي قدرته على أداء الحق وكونه معانداً فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه. وكذلك المحتسب براعي التدريج فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة. كما لو قبض فاسق مثلاً على امرأة، أو كان يضرب بمزمار معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له: خل عنها أو لأرمينك إن لم تخل عنها؛ فله أن يرمي، وينبغي أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدريج. وكذلك يسل سيفه ويقول: اترك هذا المنكر أو لأضربنك. فكل ذلك دفع للمنكر، ودفعه واجب بكل ممكن. ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بخاص حق الله وما يتعلق بالآدميين.

وقالت المعتزلة: ما لا يتعلق بالآدميين فلا حسبة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للإِمام لا للآحاد.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح: وربما يستمد الفاسق أيضاً بأعوانه، ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا. . فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام. فقال قائلون: لا يستقل آحاد الرعية بذلك؛ لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد. وقال آخرون: لا يحتاج إلى الإذن - وهو الأقيس - لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف وأوائل درجاته تجر إلى ثوان والثواني إلى ثوالث - وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب ـ والتضارب يدعو إلى التعاون، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه و ونحن نجوز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعاً لأهل الكفر ، فكذلك قمع أهل الفساد جائز؛ لأن الكافر لا بأس بقتله والمسلم إن قتل فهو شهيد. فكذلك الفاسق فكذلك قمع أهل الفساد جائز؛ لأن الكافر لا بأس بقتله والمسلم إن قتل فهو شهيد.

وعلى الجملة: فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر في الحسبة، فلا يغير به قانون القياس، بل يقال: كل من قلر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه. قالمسألة إذن محتملة ـ كما ذكرناه ـ فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق.

باب آداب المحتسب:

قد ذكرنا تفاصيل الأداب في آحاد الدرجات. ونذكر الآن جملها ومصادرها، فنقول: جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب: العلم، والورع، وحسن الخلق.

أما العلم: فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقتصر على حد الشرع فيه.

والورع: ليردعه عن مخالفة معلومة فما كل من علم عمل بعلمه، بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً، ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض. وليكن كلامه ووعظه مقبولاً، فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث دلك جرأة عليه.

وأما حسن الخلق: فليتمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه ـ والعلم والورع لا يكفيان فيه ـ، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق. وعلى التحقيق: فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب، وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم.

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر، بل ربما كانت الحسبة أيضاً منكرة لمجاوزة حد الشرع فيها، ودل على هذه الآداب قوله ﷺ:
﴿ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ يَنْهَىٰ هَنِ المُنْكَرِ إِلاَّ رَفِيقٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ رَفِيقٌ فِيمَا يَنْهَىٰ هَنْهُ، حَلِيمٌ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ خَلِيمٌ فِيمَا يَنْهَىٰ هَنْهُ، وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون خليمٌ فِيمًا يَنْهَىٰ عَنْهُ أَنْ الله وينهى عنه وكذا الحلم. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلكت، وقد قيل:

لا تَسَلَّمِ السمسرَّةَ عسلسى فِسعُسلسهِ وأنستَ مستسسسوبٌ إلى مستسلسهِ مُسنَّ ذُمَّ شُسيستُساً وأتسى مستسلسه فانسما يُسزُري عسلسى عسقسلسهِ

ولسنا نعني بهذا أن الأمر بالمعروف يصبر ممنوعاً بالفسق، ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس؛ فقد روي عن أنس رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله. فقال ﷺ: "بَلْ مُرُوا بِالمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ كُلْهِ، وَانْهَوْا عَنِ المُنكرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ (٢٠). وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله؛ فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى، فإذن من آداب الحسبة: توطين النفس على الصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف، فقال حاكباً عن لقمان الحسبة: توطين النفس على الصبر، ولذلك قرن الله تعالى الصبر بالأمر بالمعروف، فقال حاكباً عن لقمان في المنافق ﴾ [لفتان ١٧].

 ⁽۱) حدیث: «لا یأمر بالمعروف ولا ینهی عن المنكر إلا رفیق فیما یأمر به رفیق فیما ینهی عنه. . . ٤ الحدیث. لم أجده
 هكذا، وللبیهتی فی الشعب من روایة عمرو بن شعیب عن أبیه عن جده: «من أمر بمعروف فلیكن أمره بمعروف».

 ⁽٢) حديث أنس: قُلناً يا رسول الله لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كله،
 نقال ﷺ: قبل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط، وفيه عبدالقدوس بن حبيب أجمعوا على تركه.

ومن الآداب: تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه، وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداهنة، فقد روي عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئاً من الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكراً، فدخل الدار أولاً وأخرج السنور، ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب: لا أعطينك بعد هذا شيئاً لسنورك، فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك. وهو كما قال، فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة، ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة والسنتهم بالثناء عليه مطلقة لم تتيسر له الحسبة. قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني: كيف منزلتك بين قومك؟ قال: حسنة، قال: إن التوراة تقول، إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه. فقال أبو مسلم: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم.

ويدل على وجوب الرفق: ما استدل به المأمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال: يا رجل ارفق فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿فَقُولًا لَمْ فَلَا لَبَا لَمَالَةُ وَكُو لَمْ الله عليهم، فقد روى يَدَدَّكُو أَوْ يَفْشَىٰ ﴿ إِلَٰهُ عَلَا الله عليهم، فقد روى أبو أمامة: أنّ غلاماً شاباً أتى النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: يا نبي الله، أتأذن لي في الزّنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي على الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: يا نبي الله، أتأذن لي في الزّنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي على الله فداك، قال: ﴿ وَكُلْلِكَ النّاسُ لاَ يُجِبُونَهُ لاَ مُعَاتِهِمْ . أَتُجِبُهُ الْمُعَاتِهِمْ . أَتُجِبُهُ الْمُعَاتِهِمْ . أَتُجِبُهُ لاَ مُعَاتِهِمْ . أَتُجِبُهُ الله فداك؟ وزاد لاَ بعلني الله فداك ، قال: ﴿ وَكُلْلِكَ النّاسُ لاَ يُجِبُونَهُ لِبَنَاتِهِمْ . أَتُجِبُهُ لاَ مُعَاتِهِمْ . قَدِبُهُ الله فداك ؟ وقو الله فداك ؟ وقو الله يُحِبُونَهُ لِبَنَاتِهِمْ . أَتُجِبُهُ لاَ عَدِل العمة والخالة وهو يقول في كل واحد: لا ، جعلني الله فداك . وهو يقول الله وعد على الله على صدره وقال الجميعة في حديثهما أعني ابن عوف والراوي الآخر ، فوضع رسول الله يَقِي يده على صدره وقال: ﴿ اللّهُمْ طَهْرَ قَلْبُهُ وَاغْفِرْ ذُنْبُهُ وَحَصَّنْ فَرْجَهُ هُ ، فلم يكن شيء أبغض رسول الله يعني من الزني ...

وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله: إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل: ما أخذ منهم إلا دون حقه، ثم خلا به وعذله ووبخه فقال سفيان: يا أبا علي، إن لم نكن من الصالحين فإنا لنحب الصالحين. وقال حماد بن سلمة: إنّ صلة بن أشيم مرّ عليه رجل قد أسبل إزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدّة فقال: دعوني أنا أكفيكم، فقال: يا ابن أخي، إنّ لي إليك حاجة قال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك. فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدّة لقال: لا، ولا كرامة وشتمكم. وقال محمد بن زكريا الغلابي: شهدت عبدالله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله، وإذا في طريقه غلام من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت، فاجتمع الناس عليه يضربونه، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس: تنحوا عن ابن أخي، ثم قال: إليّ يا ابن أخي؛ فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه، ثم قال له: امض معي، فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه: بَيّتُهُ عندك، فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه، ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به، فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى وهم بالانصراف؛ فقال الفلام: قد أمر أن تأتيه و فأدخله عليه فقال له: أما استحييت لنفسك؟ أما استحييت لشرفك؟ أما ترى من ولدك؟ فاتق الله وانزع عما فأدخله عليه فقال له: أما استحييت لنفسك؟ أما استحييت لشرفك؟ أما ترى من ولدك؟ فاتق الله وانزع عما فأدخله عليه فقال له: أما استحييت لنفسك؟ أما استحييت لشرفك؟ أما ترى من ولدك؟ فاتق الله وانزع عما فأدخله عليه فقال له: أما استحييت لنفسك؟ أما استحييت لشرفك؟ أما ترى من ولدك؟ فاتق الله وانزع عما

 ⁽١) حديث أبي أمامة: «أن شاماً قال: يا رسول الله اثذن لي في الزنى فصاح الناس مه. . . » الحديث. رواه أحمد بإسناد
 جيد ورجاله رحال الصحيح.

أنت فيه، فبكى الغلام منكساً رأسه ثم رفع رأسه وقال: عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة أني لا أعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب، فقال: ادن مني، فقبل رأسه وقال: أحسنت يا بني. فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث: وكان ذلك ببركة رفقه ثم قال: إنّ الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكراً، فعليكم بالرفق في جميع أموركم تنالون به ما تطلبون. وعن الفتح بن شخرف قال: تعلق رجل بامرأة وتعرض لها وبيده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره، وكان الرجل شديد البدن؛ فبينا الناس كذلك والمرأة تصبح في يده إذ مر بشر بن الحارث فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل على الأرض؛ ومشى بشر فدنوا من الرجل وهو يترشح عرقاً كثيراً، ومضت المرأة لحالها فسألوه ما حالك؟ فقال: ما أدري ولكن حاكني شيخ وقال لي: إن الله عزّ وجلّ ناظر إليك وإلى ما تعمل؛ فضعُفت ما حالك؟ فقال: ما أدري ولكن حاكني شيخ وقال لي: إن الله عزّ وجلّ ناظر إليك وإلى ما تعمل؛ فضعُفت لقوله قدماي وهبتُه هيبة شديدة، ولا أدري من ذلك الرجل؟ فقالوا له: هو بشر بن الحارث، فقال: واسوأتاه كيف ينظر إليّ بعد اليوم؟ وحمّ الرجل من يومه ومات يوم السابع، فكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة. كيف ينظر إليّ بعد اليوم؟ وحمّ الرجل من يومه ومات يوم السابع، فكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة. وقد نقلنا فيها آثاراً وأخباراً في باب البغض في الله والحب في الله من كتاب آداب الصحبة فلا نطول بالإعادة. فهذا تمام النظر في درجات الحسبة وآدابها، والله الموفق بكرمه والحمد لله على جميع نعمه.

الباب الثالث

في المنكرات المألوفة في العادات

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها. فمن ذلك: منكرات المساحد

اعلم: أنّ المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة، فإذا قلنا: هذا منكر مكروه. فاعلم: أن المنع منه مستحب، والسكوت عليه مكروه وليس بحرام، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له؛ لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه إلى من لا يعرفه. وإذا قلنا منكر محظور، أو قلنا منكر مطلقاً، فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً.

فمما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود؛ وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث، فيجب النهي عنه إلا عند الحنفي الذي يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة؛ إذ لا ينفع النهي معه. ومن رأى مسيئاً في صلاته فسكت عليه فهو شريكه ـ هكذا ورد به الأثر ـ وفي الخبر ما بدل عليه؛ إذ ورد في الغيبة أن المستمع شريك القائل^(۱)، وكذلك كل ما يقدح

الباب الثالث

في المنكرات المألوفة

 ⁽١) حديث: «المغتاب والمستمع شريكان في الإثم»، تقدم في الصوم.

في صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو حمى، فكل ذلك تجب الحسة فيه.

ومنها: قراءة القرآن باللحن؛ يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح. فإن كان المعتكف في المسجد يضيع أكثر أوقاته في أمثال ذلك ويشتغل به عن النطوع والذكر فليشتغل به، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطرّعه؛ لأن هذا فرض وهي قربة تتعدّى فائدتها، فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدتها، وإن كان ذلك يمنعه عن الوراقة مثلاً أو عن الكسب الذي هو طعمته، فإن كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ولم يجز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا، وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له؛ فيسقط الوجوب عنه لعجزه، والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادراً على التعلم فليمتنع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به، وإن كان لا يطاوعه اللسان؛ فإن كان أكثر ما يقرؤه لحناً فليتركه وليجتهد في تعلم الفاتحة وتصحيحها، وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ، ولكن ينبغي أن يخفض به الصوت حتى لا يسمع غيره. ولمنعه سراً منه أيضاً وجه، ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فلست أرى به بأساً والله أعلم.

ومنها: تراسل المؤذنين في الأذان، وتطويلهم بمدّ كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الحيعلتين، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات. فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها؛ فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها، وكذلك إذا كان للمسحد مؤذن واحد وهو يؤدن قبل الصبح فينبغي أن يمنع من الأذان بعد الصبح، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يعول على أذانه في صلاة وترك سحور، أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح.

ومن المكروهات أيضاً: تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر في مسجد واحد في أوقات متعاقبة متقاربة، إما من واحد أو جماعة، فإنه لا فائدة فيه؛ إذ لم يبق في المسجد نائم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى ينبه غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف.

ومنها: أن يكون الخطيب لابساً لثوب أسود يغلب عليه الإبريسم، أو ممسكاً لسيف مذهب فهو فاسق والإنكار عليه واجب، وأما مجرد السواد فليس بمكروه لكنه ليس بمحبوب؛ إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض. ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن معهوداً في العصر الأوّل، ولكن إذا لم يرد فيه نهي فلا ينبغي أن يسمى بدعة ومكروهاً، ولكنه ترك للأحب.

ومنها: كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة. فالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والإنكار عليه واجب، وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد إظهار الرد عليه، إما للكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواليه، فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع. قال الله تعالى لنبيه: ﴿ فَأَمْضَى مَنْهُمْ حَنَّى يَنُونُوا فِي حَدِيثٍ مَرِّوهِ الانتمام: ١٨] ومهما كان كلامه مائلاً إلى الإرجاء وتجرئة الناس على المعاصي، وكان الناس يزدادون بكلامه جراءة وبعفو الله وبرحمته وثوقاً يزيد بسببه رجاؤهم على خوفهم فهو منكر، ويجب منعه عنه لأن فساد ذلك عظيم، بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك اليق وأقرب بطباع الخلق فإنهم إلى الخوف أحوج، وإنما العدل تعديل الخوف

والرجاء كما قال عمر رضي الله عنه: لو نادى مناد يوم القيامة: ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً؛ لخفت أن لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل، ولو نادى مناد: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً؛ لخفت أن أكون أنا ذلك الرجل. ومهما كان الواعظ شاباً متزيئاً للنساء في ثيابه وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات، وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله. بل لا ينبغي أن يسلم الوعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكينة والوقار وزيه زي الصالحين، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تمادياً في الضلال. ويجب أن يضرب بين الرجال والنساء حائل يمنع من النظر؛ فإن ذلك أيضاً مظنة الفساد، والعادات تشهد لهذه المنكرات، ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجائس الذكر إذا خيفت الفتنة بهن فقد منعتهن عائشة رضي الله عنها فقيل لها: إن رسول الله في ما منعهن من الجماعات، فقالت: لو علم رسول الله من أحدثن بعده لمنعهن أن المرأة في المسجد مستترة فلا تمنع منه، إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد مجازاً أصلاً. وقراءة القراء بين يدي الوعاظ مع التمديد والألحان على وجه يغير نظم القرآن، ويجاوز حدّ التنزيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف.

ومنها: الحلق بوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه، فهذه الأشياء منها ما هو محرم لكونه تلبيساً وكذباً، كالكذابين من طرقية الأطباء وكأهل الشعبذة والتلبيسات، وكذا أرباب التعويذات في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتلبيسات على الصبيان والسوادية، فهذا حرام في المسجد وخارج المسجد ويجب المنع منه. بل كل بيع فيه كذب وتلبيس وإخفاء عيب على المشتري فهو حرام.

ومنها: ما هو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة، فهذا في المسجد أيضاً لا يحرم إلا بعارض؛ وهو أن يضيق المحل على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم، فإن لم يكن شيء من ذلك فليس بحرام والأولى تركه، ولكن شرط إباحته أن يجري في أوقات نادرة وأيام معدودة، فإن اتخاذ المسجد دكاناً على الدوام حرم ذلك ومنع منه. فمن المباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثر صار صغيرة، كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار، فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه لخيف منه أن ينجر إلى الكثير فليمنع منه، وليكن هذا المنع إلى الوالي أو إلى القيم بمصالح المسجد من قبل الوالي لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد، وليس للآحاد المنع مما هو مباح في نفسه لخوفه أن ذلك بكثر.

ومنها: دخول المجانين والصبيان والسكارى في المسجد، ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكوت على لعبه، إلا إذا اتخذ المسجد ملعباً وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه، فهذا مما يحل قليله دون كثيره، ودليل حل قليله ما روي في الصحيحين: «أن رسول الله في وقف لأجل عائشة رضي الله عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفنون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد في المسجد، ولا شك في أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعباً لمنعوا منه، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكراً حتى نظر إليه، بل أمرهم به رسول الله المتصرهم عائشة تطيياً لقلبها إذ قال: «دُونَكُمْ، يَا بَنِي أَرْفِدَة» كما نقلناه في كتاب السماع.

⁽١) حديث عائشة: «لو علم رسول الله ﷺ ما أحدثن ـ أي النساء ـ من بعده لمنعهن المساجد». متفق عليه.

وأما المجانين فلا بأس بدخولهم المسجد إلا أن يخشى تلويثهم له، أو شتمهم أو نطقهم مما هو فحش، أو تعاطيهم لما هو منكر في صورته ككشف العورة وغيره. وأما المجنون الهادىء الساكن ـ الذي قد علم بالعادة سكونه وسكوته ـ فلا يجب إخراجه من المسجد. والسكران في معنى المجنون، فإن خيف منه القذف ـ أعني القيء ـ أو الإيذاء باللسان وجب إخراجه، وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو متكر مكروه شديد الكراهة. وكيف لا ومن أكل الثوم والبصل(١) فقد نهاه رسول الله على عن حضور المساجد؟ ولكن يحمل ذلك على الكراهة والأمر في الخمر أشد.

فإن قال قائل: يُنبغي أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجراً. قلنا: لا، بل ينبغي القعود في المسجد ويدعى إليه، ويؤمر بترك الشرب مهما كان في الحال عاقلاً، قأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الآحاد بل هو إلى الولاة وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين، فأما لمجرد الرائحة فلا. نحم، إذا كان يمشي بين الناس متمايلاً بحيث يعرف سكره فيجوز ضربه في المسجد وغير المسجد؛ منعاً له عن إظهار أثر الماحشة فاحشة والمعاصي يجب تركها، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها، فإن كان مستتراً مخفياً لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه. والرائحة قد تفوح من غير شرب بالجلوس في موضع الخمر، وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع، فلا ينبغي أن يعول عليه.

منكرات الأسواق:

من المنكرات المعتادة في الأسواق: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب؛ فمن قال: اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأربح فيها كذا وكان كاذباً فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته، وكذا إذا علم به عيباً فيلزمه أن ينبه المشتري عليه، وإلا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم وهو حرام، وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان؛ يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها: ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة، ولكن ذلك في محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه. وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها فإنها مفسدة للعقود. وكذا في الربويات كلها وهي غالبة. وكذا سائر التصرفات الفاسدة.

ومنها: بيع الملاهي وبيع أشكال الحيوانات المصوّرة في أيام العيد لأجل الصبيان، فتلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهي، وكذلك بيع الأواني المتخذة من الذهب والفضة، وكذلك بيع ثياب الحرير، وقلانس الذهب والعرير ـ أعنى التي لا تصلح إلا للرجال ـ أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا الرجال، فكل ذلك منكر محظور، وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التي يلبس على ائناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب. وكذلك تلبيس انخراق الثياب بالرفو وما يؤدي إلى الالتباس، وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبيسات وذلك يطول إحصاؤه، فليقس بما ذكرناه ما لم نذكره.

⁽١) هذا الحديث لم يخرجه العراقي، وقد خرجه الشارح عن البخاري ومسلم وغيرهما.

منكرات الشوارع:

فمن المنكرات المعتادة فيها: وضع الاسطوانات، وبناء الدكات متصلة بالأبنية المملوكة، وغرس الأشجار، وإخراج الرواشن والأجنحة، ووضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلاً لسعة الطريق فلا يمنع مه. نعم، يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه؛ وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين، منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب. وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة، والمرعي هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات.

ومنها: سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس؛ فذلك منكر إن أمكن شدّها وضمها بحيث لا تمزق، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل. وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه. وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم فإنه منكر يمنع منه، بل حقَّه أن يتخذ في دكانه مذَّبحاً فإن في ذلك تضبيقاً بالطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة، وبسبب استقذار الطباع للقاذورات، وكذلك طرح القمامة على جواد الطرق، وتبديد قشور البطيخ. أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر؛ كل ذلك من المنكرات، وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب، أو يضيق الطريق، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن. فأما ترك مياه المطر والأوحال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر، ولكن ليس يختص به شخص معين، إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد، والماء الذي بجتمع على الطريق من ميزاب معين، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق، إن كان من المطر فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها، وليس للآحاد فيها إلا الوعظ فقط، وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه، وإن كان لا يؤذي إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعوداً يضيق الطريق، فكلبه أولى بالمنع.

منكرات الحمامات:

منها: الصورة التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر، فإن كان الموضع مرتفعاً لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة، فليعدل إلى حمام آخر. فإن مشاهدة المنكر غير جائزة، ويكفيه أن يشوّه وجهها ويبطل به صورتها، ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان.

ومنها: كشف العورات والنظر إليها، ومن جملتها: كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار، فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها.

ومنها: الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الأفخاذ والأعجاز، فهذا مكروه إن كان مع

حائل، ولكن لا يكون محظوراً إذا لم يخش من حركة الشهوة. وكذلك كشف العورة للحجام الذمي من الفواحش. فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنها للذمية في الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال؟.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة، وغسل الإزار والطاس النجس في الحوض وماؤه قليل؛ فإنه منجس للماء، إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية، ويجوز على الحنفية والشافعية، وإن اجتمع مالكي وشافعي في الحمام فليس للشافعي منع المالكي من ذلك إلا بطريق الالتماس واللطف؛ وهو أن يقول له: إنا نحتاج أن نغسل اليد أولاً ثم نغمسها في الماء، وأما أنت فمستغن عن إيذائي وتفويت الطهارة عليّ، وما يجري مجرى هذا، فإن مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالقهر.

ومنها: أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر، ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحمامي إهماله فإنه يفضي إلى السقطة، وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو انخلاعه، وكذلك ترك السدر والصابون المزلق على أرض الحمام منكر؛ ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به إنسان وانكسر عضو من أعضائه، وكان ذلك في موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذي تركه وبين الحمامي؛ إذ حقه تنظيف الحمام، والوجه إيجاب الضمان على تاركه في اليوم الأول، وعلى الحمام غي اليوم الثاني، إذ عادة تنظيف الحمام أمور أخر يوم معتادة، والرجوع في مواقبت إعادة التنظيف إلى العادات، فليعتبر بها. وفي الحمام أمور أخر مكروهة ذكرناها في كتاب الطهارة فلتنظر هناك.

منكرات الضبافة:

فمنها: فرش الحرير للرجال فهو حرام، وكذلك تبخير البخور في مجمرة فضة أو ذهب، أو الشراب، أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو ما رؤوسها من فضة.

ومنها: إسدال الستور وعليها الصور.

ومنها: سماع الأوتار أو سماع القينات.

ومنها: اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال شباب يخاف الفتنة منهم، فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره. ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج، ومن لم يجز له الجلوس فلا رخصة له في الجلوس في مشاهدة المنكرات. وأما الصور التي على النمارق والزرابي المفروشة فليس منكراً، وكذلك على الأطباق والقصاع، لا الأواني المتخذة على شكل الصور، فقد تكون رؤوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه. وفي المكحلة الصغيرة من الفضة خلاف، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها. ومهما كان الطعام حراماً، أو كان المعروضة معصوباً أو كانت الثياب المفروشة حراماً فهو من أشد المنكرات، فإن كان من فيها من لتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور؛ إذ لا يحل حضور مجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب، ولا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق، وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك، وأنه الشرب، ولا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق، وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك، وأنه على يجب بغضه في الله ومقاطعته كما ذكرناه في باب الحب والبغض في الله، وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز الجلوس معه من غير ضرورة. فإن كان الثوب على يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز الجلوس معه من غير ضرورة. فإن كان الثوب على يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز الجلوس معه من غير ضرورة. فإن كان الثوب على

صبي غير بالغ فهذا في محل النظر. والصحيح: أن ذلك منكر ويجب نزعه عنه إن كان مميزاً لعموم قوله عليه السلام: هفذان حَرَامٌ عَلَىٰ ذُكُورٍ أُمْتِي (١)، وكما يجب منع الصبي من شرب الخمر لا لكونه مكلفاً، لكن لأنه يأنس به، فإذا بلغ عسر عليه الصرعته في في الشهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده، فيكون ذلك بذراً للفساد يبذر في صدره، فتنبت منه شجرة من الشهوة راسخة يعسر قلعها بعد البلوغ. أما الصبي الذي لا يميز: فيضعف معنى التحريم في حقه ولا يخلو عن احتمال، والعلم عند الله فيه، والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز، نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف. ولا أرى رخصة في تثقيب أذن الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فيها، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص، فلا يجوز إلا لحاجة مهمة كالفصد والحجامة والختان، والتزين بالحلق غير مهم بل في التقريط بتعليقه على الأذن وفي المخابق والأسورة كفاية عنه. فهذا وإن كان معتاداً فهو حرام والمنع منه واجب، والاستثجار عليه غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام؛ إلا أن يثبت من جهة النقل فيه وخمة، ولم يبلغنا إلى الآن فيه رخصة.

ومنها: أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته، فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد؛ فإن كان لا يقدر عليه لم يجز، فإن كان المبتدع لا يتكلم ببدعته فيجوز الحضور مع إظهار الكراهة عليه والإعراض عنه كما ذكرناه في باب البغض في الله. وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار عليه، وإن كان ذلك بمزح لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح _ أعني ما يقل منه _، فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح. وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التلبيس فليس من جملة المنكرات، كقول الإنسان مثلاً: طلبتك اليوم مائة مرة، وأعدت عليك الكلام ألف مرة؛ وما يجري مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقدح في العدالة ولا ترد الشهادة به. وسيأتي حد المزاح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات.

ومنها: الإِسراف في الطعام والبناء فهو منكر، بل في المال منكران: أحدهما: الإِضاعة، والآخر: الإِسراف.

فالإضاعة: تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب وتمزيقه، وهدم البناء من غير غرض. وإلقاء المأل في البحر، وفي معناه صرف المال إلى النائحة والمطرب، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعاً فصارت كالمعدومة.

وأما الإسراف: فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائحة والمطرب والمنكرات، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة.

والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال فنقول: من لم يملك إلا مائة دينار مثلاً ومعه عباله وأولاده ولا معيشة لهم سواه، فأنفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه، قال تعالى: ﴿وَلَا نَبْسُطُهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَنَقَدُدُ مَلُومًا تَحْسُورًا﴾ [الإسراه: ٢٩] نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئاً لعياله، فطولب بالنفقة فلم يقدر على شيء وقال تعالى: ﴿وَلَا نُبُذِرٌ تَبْذِرًا إِنَّ الْمُبَذِرِنَ كَانُواً إِخْوَنَ ٱلشَّيَطِينِۗ﴾

 ⁽۱) حديث: «هذان حرامان على ذكور أمتي» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي، وقد تقدم في الباب
الرابع من آداب الأكل.

[الإسراء: ٢٦-٢٧]، وكذلك قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِيكَ إِنَّا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِقُواْ وَلَمْ يَقَدُوا ﴾ [الفرقان: ٢٧] فمن يسرف هذا الإسراف ينكر عليه، ويجب على القاضي أن يحجر عليه؛ إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة في التوكل صادقة؛ فله أن ينفق جميع ماله في أبواب البر. ومن له عيال أو كان عاجزاً عن التوكل فليس له أن يتصدق بحميع ماله. وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضاً إسراف محرم، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام؛ لأن التزيين من الأغراض الصحيحة، ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة، فكذا الدور، وكذلك القول في التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه، ويصير إسرافاً باعتبار حال الرجل وثروته، وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها. فقس بهذه المنكرات المجامع، ومجالس القضاة ودواوين السلاطين، ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية، وخانات الأسواق، فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور، واستقصاء جميع المنكرات يستدعي استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وقروعها. فلنقتصر على هذا القدر منها.

المنكرات العامة:

اعلم: أن كل قاعد في بيته _ أينما كان _ فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي؟ ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق، وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه _ فرغ من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية _ أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد، ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، ويستصحب مع نفسه زاداً يأكله ولا يأكل من أطعمتهم؛ فإن أكثرها مغصوب، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عم الحرج الكافة أجمعين.

أما العالم: فلتقصيره في الخروج، وأما الجاهل: فلتقصيره في ترك التعلم.

وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرّف غيره وإلا فهو شريك في الإِثم. ومعلوم أن الإِنسان لا يولد عالماً بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها. ولعمري: الإِثم على الفقهاء أشد لأنّ قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق، لأن ألم المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعايش، فهم قد تقلدوا أمراً لا بد منه في صلاح الخلق. وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله في فإن العلماء هم ورثة الأنبياء. وليس للإِنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت، بل يلزمه الخروج، فإن كان لا يقلر على تغييره أن يقدر عليه فلا يضره مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج؛ لأنّ خروجه إذا كان لا يقدر تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدته ما لا يقدر عليه، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح، فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهل بيته، ثم يتعدّى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم، إلى أهل المواد المكتنف ببلده، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم، إلى أهل بلده، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم،

إحياء عُلوم الدّين

وهكذا إلى أقصى العالم، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد، وإلا حرج به على كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً، ولا يسقط الحرح ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه، وهذا شغل شاغل لمن يهمه أمر دينه يشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة، والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدّم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه.

* * *

الباب الرابع

في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوّله التعريف، وثانيه الوعظ، وثالثه التخشين في القول، ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة. والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان وهما: التعريف والوعظ. وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعبة مع السلطان، فإن ذلك يحرّك الفتنة ويهيج الشر، ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر، وأما التخشين في القول كقوله: يا ظالم، يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه؛ فذلك إن كان يحرك فتنة يتعذّى شرها إلى غيره لم يحز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه. فلقد كان من عادة السلف التعرض يحز، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه. فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة، والتعرض لأنواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة. قال رسول الله ﷺ: ﴿ الشَهْدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطّلِبِ ثُمُّ رَجُلٌ قَامَ إِنِي إِمَامٍ فَأَمْرَهُ وَنَهَاهُ فِي شهادة. قال رسول الله ﷺ عَلَىٰ ذَلِك إلى الشهاد عَمْرة بن عَبْدِ المُطلِبِ ثُمُّ رَجُلٌ قامَ إِنِي إِمَامٍ فَأَمْرَهُ وَنَهَاهُ فِي الله تَعَالَىٰ فَقَتَلَهُ عَلَىٰ ذَلِك الله الله عَمْرة بن عَبْد الله الله الله المنان جائز، ووصف النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ﴿ وَلَنَ مِنْ حَدِيدٍ لاَ تَأَخُلُهُ فِي الله لَوْمَةُ لاَيْمٍ وَتَرَكُهُ قَوْلَ النبي المُعلى المنان على الله وصابرين عليه في ذات الله تعالى، ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله. ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى، ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله. وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف، وقد أوردنا جملة وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف، وقد أوردنا جملة وطريق وعظ السلامين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف، وقد أوردنا جملة وطريق وعظ السلف، وقد أوردنا جملة

الباب الرابع

في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

اخرجه في ذات الله فقتله عمرة بن مبدالمطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك أخرجه الحاكم من حديث جابر، وقال: صحيح الإسناد وتقدم في الباب قبله.

⁽٢) حديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» تقدم.

⁽٣) حديث: وصفه هي عمر بن الخطاب: فيأنه قرن من حديد لا تأخله في الله لومة لائم تركه قوله الحق ما له من صديق. أخرجه الترمذي بسند ضعيف مقتصراً على آخر الحديث من حديث على: فرحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرا تركه الحق ما له من صديق. وأما أول الحديث فرواه الطبراني أن عمر قال لكمب الأحيار: كيف تجد نعتي؟ قال: أجد نعتك قرناً من حديد، قال: وما قرن من حديد؟ قال: أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم.

من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم.

فمنها: ما روي من إنكار أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله ﷺ بالسوء. وذلك ما روي عن عروة رضي الله عنه قال: قلت لعبدالله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشاً نالت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ فقال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر فذكر رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل، سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا، وعابَ ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم ـ أو كما قالوا ـ فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض الفول قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ثم مضى، فلما مرَّ الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وِجهه عليه السلام ثم مضى، فمرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال: ﴿الْتُسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدِ بِيَدِهِ فَقَدْ جِثْتُكُمْ بِالذَّبْحِ» قال: فأطرق القوم حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إنَّ أشدُّهم فيه وطأة قبل ذلكَ ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القامم راشداً، فوالله ما كنت جهولاً، قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فسينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا؟ أنت الذي تقول كذا؟ لما كان قد بلغهم من عيب الهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: ﴿نَعَمُ أَمَّا الَّذِي أَقُولُ ذَٰلِكَ، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجامع ردائه. قال: وقام أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه دونه يقول ـ وهو يبكي ـ: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّي الله؟، ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشدِّ ما رأيت قريشاً بلغت منه (أ).

وفي رواية أخرى عند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم (٢٠)؟.

وروي أنَّ معاوية رضي الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له: يا معاوية، إنه ليس من كدَّك ولا من كدَّ أبيك ولا من كدِّ أمك. قال: فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم: مكانكم وغاب عن أعينهم ساعة، ثم خرج عليهم وقد اغتسل، فقال: إنَّ أبا مسلم كلمني بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالشَّيْطَانُ خُلِقَ مِنَ النَّادِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ فَإِنِي سمعت رسول الله تَعْلِي يقول: الغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالشَّيْطَانُ خُلِقَ مِنَ النَّادِ وَإِنَّمَا تُطُفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ فَإِنِي سمعت رسول الله تَعْلَيْ عَلَى الله الله عَلَى ولا من كدِّ ولا من كدِّ فهلموا إلى عطائكم.

 ⁽۱) حديث عروة: قلت لعبد الله بن همرو: قما أكثر ما رأيت قريشاً نالت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من هداوته. . . . ه الحديث. أخرجه بطوله البخاري مختصراً وابن حبان بتمامه.

 ⁽٢) حديث عبدالله بن عمرو: قبينا رسول الله 義 شناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أسي معيط فأخذ بمنكب رسول الله 書 . . قالحديث. رواه البخاري .

⁽٣) حديث معاوية: «الغضب من الشيطان...» الحديث. وفي أوله قصة أبو تعيم في الحلية وفيه من لا أعرفه.

عتهما ـ وغيرهما.

وروي عن ضبة بن محصن العنزي قال: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه قال: فغاظني ذلك منه، فقمت إليه فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضّله عليه؟ فصنع ذلك جمعاً ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول: إنَّ ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي. فكتب إليه عمر: أن أشخصه إليَّ، قال: فأشخصني إليه فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إليَّ فقال: من أنت؟ فقلت: أنا ضبة، فقال لي: لا مرحباً ولا أهلاً، قلت: أما المرحب فمن الله، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال، فبماذا استحللت ي عمر إشخاصي من مصري بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيته؟ فقال: ما الذي شجر بينك وبين عاملي؟ قال: قلت: الآن أخبرك به، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، ثم أنشأ يدعو لك فغاظي ذلك منه فقمت إليه فقلت له: أين أنت من صاحبه تفضّله عليه؟ فصنع ذلك جمعاً ثم كتب إليك يشكوني. قال: فاندفع عمر رضي الله عنه باكياً وهو يقول: أنت والله أوفق منه وأرشد، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك؟ قال: قلت: غفر الله لك يا أمير المؤمنين. قال: ثم اندفع باكياً وهو يقول: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر، فهل لك أن أحدَّثك بليلته ويومه؟ قلت: نعم، قال: أما الليلة: فإن رسول الله على لما أراد الحروج من مكة هارباً من المشركين خرج ليلاً فتبعه أبو بكر، فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره، فقال رسول أله ﷺ: امَّا هْلَمَا يَا أَبُا بَكُر؟ مَا أَخْرَفُ هٰذَا مِنْ أَفْعَالِكَ، فقال: يا رسول الله: أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك، لا آمن عليك. قال: فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت؛ فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه، وجعل يشتدّ به حتى أتى فم الغار فأنزله، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، قال: فدخل فلم ير فيه شيئاً فحمله فأدخله، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله ﷺ فيؤذيه، وجعلن يضربن أنا بكر في قدمه وجملت دموعه تنحدر على خليه من ألَّم ما يجد، ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿يَا أَبُهَا بَكُرِ لاَ تَحْزَنُ إِنَّ اللهُ مَعَنَا ﴾، فأنزل الله سكيته عليه، والطمأنينة لأبي بكر. فهذه لبلته.

وأما يومه: فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب فقال بعضهم: نصلي ولا نزكي، فأتيته لا آلوه نصحاً فقلت: يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم. فقال لي: أجبّار في الجاهلية خوّار في الإسلام؟ فبماذا أتألفهم؟ قبض رسول الله ﷺ لقاتلتهم أتألفهم؟ قبض رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، قال: فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر، فهذا يومه. ثم كتب إلى أبي موسى يلومه (١١).

⁽١) حديث ضبة بن محصن: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالنصرة وفيه عن عمر أنه قال: والله للبلة من أبي بكر وبوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وليلته؟ فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله. رواه البيهتي في دلائل النبوة بإسناد ضعيف هكذا، وقصة الهجرة رواها البخاري من حديث عائشة بغير هذا السياق، واتفق عليها الشيخان من حديث أبي بكر بلفظ آخر ولهما من حديثة قال: فلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال: فيا أبا بكر ما ظنك بالنين الله ثالثهما. وأما قتاله لأهل الردة: وففي الصحيحين من حديث أبي هريرة: لما توفي رسول الله على واستخلف أبو مكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأمي بكر: اكيف تقاتل الناس. . . » الحديث. ضبة بن محصن العنزي: قابعي مشهور، ذكره ابن حبان في ثقات التابعين. روى عن عمر وأبي موسى ـ رضي الله ضبة بن محصن العنزي: قابعي مشهور، ذكره ابن حبان في ثقات التابعين. روى عن عمر وأبي موسى ـ رضي الله

وعن الأصمعي قال: دخل عطاء بن أبي رباح على عبدالملك بن مروان ـ وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ـ فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له: يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين: اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل النغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم. فقال له: أجل أفعل، ثم نهض وقام. فقبض عليه عبدالملك فقال: يا أبا محمد، إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها، فما حاجتك أنت؟ فقال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف.

وقد روي أنّ الوليد بن عبدالملك قال لحاجبه يوماً: قف على الباب فإذا مرّ بك رجل فأدخله علي ليحدّثني. فوقف الحاجب على الباب مدّة فمرّ به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له: يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك؛ فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبدالعزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال: السلام عليك يا وليد قال: فغضب الوليد على حاجبه وقال له: ويلك أمرتك أن تدخل إليّ رجلاً يحدثني ويسامرني، فأدخلت إليّ رجلاً لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي. فقال له حاجبه: ما مرّ بي أحد غيره، ثم قال لعطاء: اجلس، ثم أقبل عليه يحدّثه فكان قيما حدثه به عطاء أن قال له: بلغنا أن في جهنم وادياً يقال له: اهبهب أعده الله لكل إمام جائر في حكمه. فصعق الوليد من قوله، وكان جالساً بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشياً عليه؛ فقال عمر لعطاء: قتلت أمير المؤمنين. فقبض عطاء على ذراع عمر بن عبدالعزيز، فغمزه غمزة شديدة وقال له: يا عمر، إن الأمر جد فجد، ثم قام عطاء وانصرف. فبلغنا عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه قال: مكثت سنة أجدً ألم غمزته في ذراعي.

وكان ابن أبي شميلة يوصف بالعقل والأدب؛ فدخل على عبدالملك بن مروان فقال له عبدالملك: تكلم، قال: بم أتكلم، وقد علمت أن كل كلام تكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان شه؟ فبكى عبدالملك ثم قال: يرحمك الله، لم يزل الناس يتواعظون ويتواصون، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين: إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاينة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه، فبكى عبدالملك ثم قال: لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالاً نصب عبنى ما عشت.

ويروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه، ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحباً بأبي سعيد، إلي إلي، ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنال منه ونلنا منه؛ مقاربة له وفرقاً من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه؛ فقال: يا أبا سعيد ما لي أراك ساكتاً؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب، قال: سمعت الله جل ذكره يسقسول: ﴿وَمَا جَمَلُنَ الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْها إِلاَ لِنَقْلَمَ مَن يَنْبِعُ الرَّسُولُ مِنْن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيَّ فَوَل كَانتَ لَكُ لِيَعْلَمُ أَل الله على الله على البنون عقل البنون على البنون على البنون وختنه على ابنته، وأحب الناس ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبي عليه السلام، وختنه على ابنته، وأحب الناس

إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله؛ لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها. وأقول: إن كانت لعلي هناة فالله حسبه والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا. فبسُر وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغضباً فدخل بيتاً خلفه وخرجنا. قال عامر الشعبي: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد: أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك عني يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة. أتيت شيطاناً من شياطين الإنس تكلمه بهواه، وتقاربه في رأيه؟ ويحك با عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت، أو سكت فسلمت؟ قال عامر: يا أبا سعيد، قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة. قال: وبعث الحجاج إلى الحسن غما دخل عليه قال: أنت الذي تقول: قاتلهم الله، قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم؟ قال: نعم، قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذ الله على العلماء من المواثيق ﴿ لَنَهِيَانَثُمُ لِلنَايِن وَلَا تَكُتُمُونَهُ ﴾ قال: ما حسن، أمسك عليك لسانك، وإياك أن يبلغني عنك ما أكره؛ فأفرق بين رأسك وجسدك.

وحكي أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم، سل عما بدا لك، فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال: إن سُئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأسكرن، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أقول: إنك من أعداء الله في الأرض؛ تنتهك المحارم وتقتل بالظنة. قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان؟ قال: أقول: إنه أعظم جرماً منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه. قال: فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب، قال: فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً. قال: فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق فقال: أخرجوه فارموا به في السوق. قال جعفر: فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: يا حطيط، ألك حاجة؟ قال: شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه.

وروي أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقرائها، فجعل يسألهم وجعل يكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله، ثم قال: هما هذان، هذا رجل أهل الكوفة _ يعني الشعبي _ وهذا رجل أهل البصرة _ يعني الحسن _، فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعبي على العراق وعامله والحسن. فأقبل على الشعبي فقال: يا أبا عمرو، إني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها، ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمني حقهم، فأنا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم، وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه؛ فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه في بيت المال، ومن نيتي أن أرده عليهم، فيبلغ أمير المؤمنين أني قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إليَّ أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنقاذ كتابه، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة، فهل عليَّ في هذا تبعة وفي أشباهه من الأمور، والنية فيها على ما ذكرت؟ قال الشعبي: فقلت: أصلح الله الأمير إنما السلطان والذ يخطىء ويصيب، قال: فسرّ بقولي وأعجب به ورأيت البشر في وجهه وقال: فلله الحمد، ثم أقبل على الحسن فقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ قال: قد سمعت قول الأمير يقول: إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها، ورجل مأمور على الطاعة، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة لهم، والتعهد لما يصلحهم، ورجل مأمور على الطاعة، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة لهم، والتعهد لما يصلحهم، ورجل مأمور على الطاعة، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم والنصيحة الهم، والتعهد لما يصلحهم، وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة، وإني سمعت عبدالرحمن بن سمرة وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة، وإني سمعت عبدالرحمن بن سمرة

القرشي صاحب رسول الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: "مَنِ اسْتَرْعَىٰ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحُطُهَا بِالنَّصِيحَةِ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةَ (١)، ويقول: إني ربما قبضت من عطائهم إرادة صلاحهم وأستصلاحهم، وأن يرجُعوا إلى طاعتهم، فيبلغ أمير المؤمنين أنى قبضتها على ذلك النحو فيكتب إليَّ أن لا ترده، فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه، وحتى الله ألزم من حتى أمير المؤمنين، والله أحتى أن يطاع، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فاعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عزّ وجلَّ؛ فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به، وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه. يا ابن هبيرة، اتق الله، فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك، وتقدم على ربك وتنزل على عملك. يا ابن هبيرة، إن الله ليمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله، وإن أمر الله فوق كل أمر، وإنه لا طاعة في معصية الله، وإنى أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين. فقال ابن هبيرة: اربع على ظلعك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين، فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعلمه به، وما يعلمه من فضله ونيته. فقال الحسن: يا ابن هبيرة، الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب، والله بالمرصاد، يا ابن هبيرة: إنك إنّ تلق من ينصح لك في دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلاً يغرك ويُمنيك. فقام ابن هبيرة وقد بُشُرَ وجهه وتغير لونه. قال الشعبي: فقلت: يا أبا سعيد، أغضبت الأمير وأوغرت صدره، وحرمتنا معروفه وصلته، فقال: إليك عني يا عامر، قال: فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا؛ فكان أهلاً لما أدى إليه وكنا أهلاً أن يفعل ذلك بنا. فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف، وما شهدنا مشهداً إلا برز علينا، وقال لله عزّ وجلّ وقلنا مقاربة لهم. قال عامر الشعبي: وأنا أعاهد الله أن لا أشهد سلطاناً بعد هذا المجلس فأحابيه. ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة فقال له: ما تقول في القدر؟ فقال: جيرانك أهل القبور؛ فتفكر فيهم فإن فيهم شغلاً عن القَدر.

وعن الشافعي رضي الله عنه قال: حدثني عمي محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال: فأتى المفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب؟ فقال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس، كثيرو الأذى لهم. فقال أبو جعفر: قد سمعتم، فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، سله عن الحسن بن زيد؟ فقال: أشهد عليه أنه يحكم عن الحسن بن زيد؟ فقال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه. فقال: قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قال: فقال: يا أمير المؤمنين، قال: أسلك بالله إلا أخبرتني، قال: تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك؟ قال: والله لتخبرني، قال: أشهد أنك

⁽١) حديث الحسن عن عدالرحمن بن سمرة: (من استرعى رعبة قلم يحظها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة). رواه البغري في معجم الصحابة بإسناد لين، وقد انفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار.

أحذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاش. قال: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له: أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك! قال: فقال ابن أبي ذؤيب: يا أمير المؤمنين، قد ولي أبو بكر وعمر فأخذا الحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا آنافهم، قال: فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين، إني لأنصح لك من ابنك المهدي، قال: فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له: يا أبا الحرث، لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار، ولكن مناه عني قولك له: ابنك المهدي، فقال: يغفر الله لك يا أبا عبدالله، كلنا مهدي كلنا كان في المهد.

وعن الأوزاعي عبدالرحمن بن عمرو قال: بعث إليَّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة ردُّ علي واستجلسني ثم قال لي: ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قال: قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم، قال: فقلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئاً مما أقول لك، قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه، وفيه وجهت إليك وأقدمتك له؟ قال: قلت: أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به، قال: فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة (١٠). فطابت نفسى وانبسطت في الكلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَيُّمَا صَبْدِ جَاءَتُهُ مَوْعِظَةٌ مِنَ اللَّه فِي دِينِهِ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ الله سِيقَتْ إلَيْهِ فَإِنْ قَبِلَهَا بشُكْر وَإِلاَّ كَانَتْ حُجَّةً مِنَ الله عَلَيْهِ لِيَزْدَادَ بِها إِثْماً وَيَرْدَادَ الله بِها سُخْطاً عَلَيْهِ،(٢)، يا أميرَ الموَمنينَ: حَدثنيّ مُكحول عن عطية بن ياسر قال: قال رسول الله عِنْهُ: ﴿ أَيُّمَا وَالِّ مَاتَ غَاشًا لِرَعِيْتِهِ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الجَنَّةُ ٣٠٠)، يا أمير المؤمنين، من كره الحق فقد كره الله، إن الله هو الحق المبين. إن الذي ليَّن قلوب أمتكم لكم حين ولآكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ، وقد كان بهم رؤوفاً رحيماً مواسياً لهم بنفسه في ذات يده، محموداً عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق، وأن تكون بالقسط ته فيهم قائماً ولعوراتهم ساتراً، لا تغلق عليك دونهم الأبواب، ولا تقيم دونهم الحجاب، تبتهج بالنعمة عندهم، وتبتنس بما أصابهم من سوء. يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم ـ أحمرهم وأسودهم، مسلمهم وكافرهم ـ وكلُّ له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فتام وراء فتام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو

⁽١) حديث: الأوزاعي مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة. والقصة بجملتها رواها ابن أبي الدنيا في كتاب مواعظ الخلفاء، ورويناها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد، وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح، قال ابن عدي: يحدث بمناكير وهو عندي من أهل الصدق، وقد رأيت صرد الأحاديث المذكورة في الموعظة لنذكر هل لبعضها طريق غير هذا الطريق؟ وليعرف صحابي كل حديث أو كوته مرسلاً فأولها.

 ⁽٧) حديث عطية بن بشر: "أيما هبد جاءته موطفة من الله في دينه فإنها تعمة من الله. . . » الحديث. أخرحه ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.

 ⁽٣) حديث عطية بن ياسر «أيما وال بات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنةه أخرجه ابن أبي الدنيا قيه، وابن عدي في الكامل في ترجمة أحمد بن عبيد.

ظلامة سقتها إليه؟. يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال: كانت بيد رسول الله على جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له: يا محمد، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً(١)؟ فكيف بمن شقق أستارهم وسفك مماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه؟.

يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة، أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده، فأناه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً. فدعا النبي على الأعرابي فقال: «اقْتَصْ مِنْي، فقال الأعرابي: قد أحللتك؛ بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسي. فدعًا له بخير (٢). يَا أمير المؤمنين، رضٌّ نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله ﷺ: ﴿لَقَيدُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنّةِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْدُنْبَا وَمَا فِيهاا (٣). يا أمير المؤمنين، إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك. يا أمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويَّل هذه الآية عن جَلَك: ﴿مَالِ هَنَا ٱلْكِتَبِ لَا يُعَادِرُ صَفِيرَةً وَلَا كَبِيَنَّ إِلَّا أَحْصَنْهَا ﴾ [الكهف: ٤٤]؟ قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن؟ يا أمير المؤمنين، بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو مانت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حُرمَ عدلك وهو على بساطك؟ يا أمير المؤمنين، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿ يَندَاوُهُ إِنَّا جَعَلْنَكَ خَلِفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَأَمَّكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَيِّ وَلَا نَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَبُضِلُّكَ عَن صَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [س: ٢٦] قال الله تعالى في الزبور: يا داود، إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى؛ فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه، فأمحوك عن نبوتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة، يا داود، إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل؛ لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة؛ ليجبروا الكسير ويدلوا الهزيل على الكلا والماء. يا أمير المؤمنين، إنك قد بليت بأمر لو عرض على السمُّوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه، يا أمير المؤمنين، حدثني يزيد بن جابر عن عبدالرحمن بن عمرة الأنصاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيماً فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أنَّ لك مثل أجر المجاهد فِي سبيل الله قال: لا، قال: وكيف ذلك؟ قال: إنه بلغني إنّ رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ وَالْ يَلِي شَيْئاً مِنْ ٱلْمُورِ النَّاسِ إِلاَّ أَتِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَىٰ عُنْقِهِ لاَ يَفُكُّها إِلاَّ عَذْلُهُ فَيُوقَفُ عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ النَّارِ يَتْنَفِضُ بِهِ

 ⁽١) حديث عروة بن رويم: «كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين. . . » الحديث، أخرجه ابن
 أبي الدنيا فيه وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان في ثقات التابعين.

⁽٣) حديث حبيب بن مسلمة: *أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده...؟ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ اقتص من نفسه. وللحاكم من رواية عبدالرحمن بن أبي ليلة عن أبيه: "طعن رسول الله ﷺ في خاصرة أسيد بن حضير، فقال: أوجعتني، قال: اقتص...» الحديث، قال صحيح الإسناد،

 ⁽٣) حديث: «لقيد قوس أحدكم من اللجنة محير من اللغيا وما فيها» أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي معضلاً لم
 يذكر إسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ: «لقاب».

ذٰلِكَ الجِسْرُ انْتِفَاضَةُ تُزِيلُ كُلَّ عُضْوِ مِنهُ عَن مَوْضِهِهِ ثُمَّ يُعادُ فَيْحَاسَبُ فَإِنْ كَانَ مُحْسِناً نَجَا بِإِحْسَانِهِ وَإِنْ كَانَ مُسْبِعاً الْخَرَق بِهِ فَلِكَ الْجِسْرُ فَيْهُوى بِهِ فِي النَّارِ سَبْجِينَ خَرِيفاه (۱) ، فقال له عمر رضي الله عنه عمر مسمعناه من رسول الله عنه عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذرّ رضي الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خدّه بالأرض. قال : فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني. ثم قلت : يا أمير المؤمنين، قد سأل جدّك العباس النبي عليه إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي عليه السلام : "يَا عَبّاسُ يَا عَمْ اللّهِ شَيئًا فَمْ اللّه شَيئًا إِنْ لِي عَمَلِي وَأَخْره أنه لا يغني عنه من الله شيئًا إِنْ أوحى الله إليه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِرْبَكَ ٱلْأَذْبِيكِ ﴿ اللّهُ مَنا الله شَيئًا إِنْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْه (۲) . وقد قال عمر بن فَطَاب رضي الله عنه : لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد، لا يطلع منه على عورة ولا مُحطاب رضي الله عنه : لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد، لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على عزة ، ولا تأخذه في الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير قيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله عذلك كالمجاهد في سيل الله ، يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير قيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله فلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه وغاله فهلكوا جميعاً . رسول الله ﷺ : «شَرُّ الرُّعَاةِ الحُطَمَةُ فَهُوَ الهَالِكُ وَحُدَهُ (٤) ، وأمير أرتع نفسه وغماله فهلكوا جميعاً .

وقد بلغني يا أمير المؤمنين، أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي على فقال: «أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة، فقال له: فيا جِبْرِيلُ صِفْ لِيَ النَّارَه فقال: إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى اصفرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء جمرها ولا يطفأ لهبها، والذي بعثك بالحق، لو أن ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً، ولو أن ذنوباً من شرابها صب في مياه الأرص جميعاً لقتل من داقه، ولو أن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلت، ولو أنّ ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلت، ولو أنّ درجلاً أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه؛ فبكى ولو أنّ رجلاً أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه؛ قبكى النبي على وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال: أتبكي يا محمد، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً وَلِمَ بَكَيْتَ يَا جِبْرِيلُ وَأَنْتَ الرُّوحُ الأَمِينُ أُمِينُ الله عَلَىٰ وَحْيِهِ، قال: تأخر؟ فقال: «أفلا أكُونُ عَبْداً شَكُوراً وَلِمَ بَكَيْتَ يَا جِبْرِيلُ وَأَنْتَ الرُّوحُ الأَمِينُ أُمِينُ الله عَلَىٰ وَحْيِهِ، قال:

⁽١) حديث عبدالرحمن بن عمر: أن عمر استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة. . . الحديث. وفيه مرفوعاً. ٥ما من وال يلي شيئاً من أمور الناس إلا أتى الله يوم القيامة مغلولة بده إلى عنقه. . ٤ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من هذا الوجه، ودواه الطبراني من رواية سويد بن عبدالعريز عن يسار بن أبي الحكم عن أبي واثل: أن عمر استعمل بشر بن عاصم فذكر أخصر منه، وأن بشراً سمعه من النبي عليه يذكر فيه: سلمان.

 ⁽۲) حديث: «يا عباس يا عم النبي نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها؛ أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد، ورواه البيهقي من حديث جابر متصلاً، ومن رواية ابن المنكدر مرسلاً وقال: هذا هو المحفوظ مرسلاً.

 ⁽٣) حديث: (يا هياس ويا صفية ويا فاطمة لا أفني هنكم من الله شيئاً لي هملي ولكم هملكم، أخرجه ابن أبي الدنيا
 هكذا معضلاً دون إسناده، ورواه البخاري من حديث أبي هريرة متصلاً دون قوله: (لي صلي ولكم هملكم).

⁽٤) حديث: قشر الرحاة الحطمة، رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزني متصلاً وهو عند أبن أبي الدنيا عن الأوزاعي معضلاً كما ذكره المصنف.

أخاف أن أبتلى بما ابتلي به هاروت وماروت فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي فأكون قد أمنت مكره. فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء: يا جبريل ويا محمد، إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة (١٠)، وقد بلغني يا أمير المؤمنين، أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين. يا أمير المؤمنين، إنّ أشد الشدة: القيام لله بحقه، وإن أكرم الكرم عند الله: التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومس طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه. فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك. ثم نهضت فقال لي: إلى أبن؟ فقلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله. فقال: قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها، والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إباي بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة. قلت: أفعل إن شاء الله، قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيع مصمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا. وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في دلك.

وعن ابن المهاجر قال: قدم أمير المؤمنين المنصور مكة ـ شرفها الله ـ حاجاً، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يُعلم به، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس، فخرج ذات لبَّلة حين أسحر فبينا هو يطوف إذ سمع رجلاً عند الملتزم وهو يقول: اللهم إنيُّ أشكو إليك ظهُّور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع، فأسرع المنصور في مشيه حتى ملا مسامعه من قوله، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه الرسول وقال له: أجب أمير المؤمنين؛ فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه، فقال له المنصور: ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم؛ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأقلقني؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور ومن أصولها، وإلا اقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل، فقال له: أنت آمن على نفسك، فقال: الذي دخل الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض، أنت. فقال: ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في يدي، والحلو والحامض في قبضتي؟ قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم؛ فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبةً معهم السلاح، ثم سجت نفسك فيها منهم، ويعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة؛ إن نسيت لم يذكروك، وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على طلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف، ولا الحائع ولا العاري، ولا الضعيف ولا الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر ـ الذّين استخلصتهم لنفسك ـ وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك ـ

حديث: ابلغني أن جبريل أتى النبي على فقال: أتيتك حين أمر الله بمنافيخ النار وضعت على النار تسعر ليوم
 القيامة...» الحديث. بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا معضلاً بغير إسناد.

تجبي الأموال ولا تقسمها قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد مسخر لنا؟ فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً إلا أقصوه؛ حتى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوّوا بهم على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية؛ فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفسادا، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل؛ فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك، وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو وبستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه؛ فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره وأنت تنظر ولا تغير؛ فما بقاء الإسلام وأهله على هذا؛ ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينهي إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ بنهي إليهم فينادي: يا أهل الإسلام، فيتدرونه ما لك ما لك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينادي: يا أهل الإسلام، فيتدرونه ما لك ما لك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينادي: يا أهل الإسلام، فيتدرونه ما لك ما لك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينادي: يا أهل الإسلام، فيتدرونه ما لك ما لك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينادي: يا أهل الإسلام، فيتدرونه ما لك ما لك فيرفعون مقلم فينادي.

ولقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك، فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم، فجعل يبكي فقال له وزراؤه: ما لك تبكي لا بكت عيناك؟ فقال: أما إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي، ولكن أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته، ثم قال: أما إن كان قد ذهب سمعي فإنّ بصري لم يذهب، نادوا في الناس: ألا لا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم، فكان يركب الفيل ويطوف طرفي النهار هل يرى مظلوماً فينصفه، هذا _ يا أمير المؤمنين _: مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسك، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ؛ إن قلت: أجمعها لولدي، فقد ورقتك على شح نفسك، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ؛ إن قلت: أجمعها لولدي، فقد أراك الله عبراً في الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وما له على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تعطي شحيحة تحويه، فما يزال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تعطي أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضة، وما أعدوا من الرحال والسلاح والكراع، وما ضرك وولد أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضف حين أراد الله بكم ما أراد. وإن قلت: أجمع المال لطلب غاية أبي من الغاية التي أنت فيها؛ فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح.

يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشدٌ من القتل؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع بالملك الذي خوّلك الله وما أنت عليك من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود في العذاب الأليم وهو الذي يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك؟ فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق العبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب؟ هل يغني عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا؟ فبكى المنصور بكاء شديداً حتى نحب وارتفع صوته ثم قال: يا لبتني لم أخلق ولم أل شيئاً، ثم قال: كيف احتيالي فيما خوّلت فيه ولم أز من الناس إلا خائناً؟ قال: يا أمير المؤمنين، عليك بالأثمة الأعلام المرشدين قال: ومن هم؟ قال: العلماء، قال: قد فروا مني، قال: هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك، ولكن افتح الأبواب،

وسهَّل الحجاب، وانتصر للمظلوم من الظالم، وامنع المظالم، وخذ الشيء مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن على أنّ من هرب منك أنّ يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك. فقال المنصور: اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل. وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم، ثم قال للحر*سي: ع*ليك بالرجل إن لم تأتني به لأضربنُّ عنقك، واغتاظ عليه غيظاً شديداً فخرج الحرسي يطلب الرجل، فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلي في بعض الشعاب فقعد حتى صلى ثم قال: يا ذا الرَّجل، أما تتقي الله؟ قال: بلي، قال: أما تعرفه؟ قال: بلَّى، قال: فانطلق معي إلى الأمير، فقد آلى أن يقتلني إن لم آته بك، قال: ليس لي إلى ذلك من سبيل، قال: يقتلني، قال: لا، قال: كيف؟ قال: تحسن تقرأً، قال: لا، فأخرج من مزود كان معه رقاً مكتوباً فيه شيء فقال: خذه فاجعله في جيبك فإن فيه دعاء الفرج، قال: وما دعاء الفرج؟ قال: لا يرزقه إلا الشهداء، قلت: رحمك الله قد أحسنت إِليُّ، وإن رأيت أنَّ تخبرني ما هذا الدعاء وما فضله؟ قال: من دعا به مساء وصباحاً هدمت دُنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه، وبسط له رزقه وأعطي أمله وأعين على عدوّه، وكتب عند الله صِدِّيقاً، ولا يموت إلا شهيداً، تقول: «اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيلك؛ اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً. اللهم إنَّ عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوكُ آمناً وأسألك مستأنساً وإنك المحسن إليُّ وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إليُّ بنعمك وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك، فعد بفضلك وإحسانك عليٌّ إنك أنت التواب الرحيم". قال: فأخذته فصيرته في جيبي ثم لم يكن لي هم غير أمير المؤمنين، فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إليَّ وتبسم ثم قال: ويلك وتحسن السحر؟ فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ئم قصصت عليه أمري مع الشيخ فقال: هات الرق الذي أعطاك، ثم جعل يبكي وقال: وقد نجوت، وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف درهم، ثم قال: أتعرفه؟ قلت: لا، قال: ذلك الخضر عليه السلام.

وعن أبي عمران الجوني قال: لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر المخلافة، ففتح بيوت الأموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية، وكان قبل ذلك يجائس العلماء والزهاد، وكان يظهر النسك والتقشف، وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قليماً، فهجره سفيان ولم يزره، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلوا به ويحدّثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه، فاشتذ ذلك على هارون فكتب إليه كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عَبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد، يا أخي، قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله، واعلم: أني قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك، وإني منطو لك على أفضل المحبة والإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي وقرت به عيني وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت لك كتاباً شوقاً مني إليك شدياً، وقد علمت يا أبا عبدالله، فإذا ورد عليك كتابي شديداً، وقد علمت يا أبا عبدالله ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإذا ورد عليك كتابي شدياً شعلك كتابي

هالعجل العجل. فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته فقال: عليٌّ برجل من الباب، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني. فقال: يا عباد، خذ كتابي هذا فانطلق به إلى الكوفة، فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بني ثور، ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فألَّقِ كتابي هذا إليه، وع يسمعك وقلبك جميع ما يقول؛ فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرني به. فأخذ عباد الكتاب و نطلقٌ به حتى ورد الكوفة فسأل عن الڤبيلة فأرشد إليها، ثم سأل عن سفيان فقيل له: هو في المسجد. قال عباد: فأقبلت إلى المسجد فلما رآني قام قائماً وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير. قال عباد: فوقعت الكلمة في قلبي فجرحت، فلما رآني نزلت بباب المسجد قام يصلي ولم يكن وقت صلاة، فربطت فرسي بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم؛ كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خاتفون من عقوبته، فسلمت فما رمع أحد إليَّ رأسه وردوا السلام عليَّ برؤوس الأصابع، فبقيت واقفاً فما منهم أحد يعرض عليًّ الجلوس، وقد علاني من هيبتهم الرعدة ومددت عيني إليهم فقلت: إن المصلي هو سفيان فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأن حية عرضت له في محرابه، فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه، فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال: يأخذه بعضكم يقرؤه؛ فإني أستغفر الله أن أمسَّ شيئاً مسَّه ظالم بيده. قال عباد: فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من فم حية تنهشه، ثم فضه وقرأه، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فقيل له: يا أبا عبدالله، إنه خليفة! فلو كتبت إليه في قرطاس نقي. فقال: اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه؛ فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: ما نكتب؟ فقال: اكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سُلب حلاوة الإيمان.

لما بعد: فإني قد كتبت إليك أعرّفك أني قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك، فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين؛ فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير حكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إليّ تشهدني على نفسك. أما إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة عليك غذا بين يدي الله تعالى، يا هارون، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم هل رضي بدلك خلق من رعيتك؟ فشد يا هارون مئزرك وأعد للمسألة جواباً وللبلاء جلباباً، واعلم: أنك ستقف بين يدي الحكم العدل؛ فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماماً، يا هارون، قعدت على السرير ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، بشربون الخمور ويضربون من يشربها، ويزنون ويحدون الزاني! ويسرقون ويقطعون السارق! أفلا كانت بشربون الخمور ويضربون من يشربها، ويزنون ويحدون الزاني! ويسرقون ويقطعون السارق! أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟ فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى " ﴿ السَّانات: ٢٢] . أو الظلمة وأعوان الظلمة . فقدمت بين قبل الله تعالى " ﴿ المَّانَات الله على الناس؟ فكيف بك يا هارون الظلمة . فقدمت بين قبل الله تعالى " والمالة وأموان الظلمة وأعوان الظلمة وأعوان الظلمة . فقدمت بين

يدي الله تعالى؛ ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار، كأني بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم: أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية، فانق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمداً عليه في أمته، وأحسن الخلافة عليهم، واعلم: أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته، وإني أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته، فإياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه، والسلام.

قال عباد: فألقى إلي الكتاب منشوراً غير مطوي ولا مختوم، فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت: يا أهل الكوفة، فأجابوني فقلت لهم: يا قوم، من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله؟ فأقبلوا إلي بالدنانير والدراهم، فقلت: لا حاجة لي في المال، ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية، قال: فأتيت بذلك ونزعت ما كان علي من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله؛ حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله؛ حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلاً، ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه، ويدعو بالويل والحزن ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسَل، ما لي وللدنيا ما لي ولملك يزول عني سريعاً؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إلي. فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه، ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره. فقال هارون: اتركونا يا عبيد فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره. فقال هارون: اتركونا يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه، والشقي من أهلكتموه، وإن سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأه. ثم لم الدنيا، المغرو مله عليه غداً من عمله؛ فإنه عليه يحاسب وبه يجازى، والله ولي الترفيق.

وعن عبدالله بن مهران قال: حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم ضرب بالرحيل، فخرج الناس، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة، والصبيان يؤذونه ويولعون به؛ إذ أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن الولوع به، فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته: يا أمير المؤمنين، فكشف هارون السجاف بيده عن وجهه فقال: لبيك يا بهلول، فقال: يا أمير المؤمنين، حدثنا أيمن بن ناثل عن قدامة بن عبدالله العامري قال: رأيت النبي على منصرفاً من عرفة على ناقة له صهباء؛ لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك (۱)، وتواضعك في سفوك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك. قال: فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض، ثم قال: يا بهلول، زدنا رحمك الله قال: نعم يا أمير المؤمنين، رجل آتاه الله مالاً وجمالاً فأنفق من ماله وعف في جماله؛ كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار. قال: أحسنت يا بهلول، ودفع له جائزة: فقال: اردد الجائزة إلى من أخذتها منه، فلا حاجة

⁽١) حديث قدامة بن عبدالله العامري، «رأيت النبي ﷺ منصرفاً عن عرفة على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك». أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن ماجه دون قوله منصرفاً من عرفة وإنما قالوا: يرمي الجمرة، وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني.

لي فيها، قال: يا بهلول، فإن كان عليك دين قضيناه، قال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز. قال: يا بهلول، فنجري عليك ما يقوتك أو يقيمك، قال: فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال: يا أمير المؤمنين، أنا وأنت من عيال الله، فمحال أن يذكرك وينساني. قال: فأسبل هارون السحاف ومضى.

وعن أبي العباس الهاشمي عن صالح بن المأمون قال: دخلت على الحارث المحاسبي رحمه الله فقلت له: يا أبا عبدالله هل حاسبت نفسك؟ فقال: كان هذا مرة، قلت له: فاليوم؟ قال: أكاتم حالى؟ إنى لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسي، ولولا أن يغلبني فيها فرح ما أعلنت بها. ولقد كنت ليلة قاعداً في محرابي فإذا أنا بفتي حسن الوجه طيب الرائحة فسلم عليٌّ، ثم قعد بين يدي فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا وآحد من السياحين أقصد المتعبدين في محاريبهم، ولا أرى لك اجتهاداً عأي شيء عملك؟ قال: قلت له: كتمان المصائب، واستجلاب الفوائد، قال: فصاح وقال: ما علمت أن أحداً بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفته؟ قال الحارث: فأردت أن أزيد عليه فقلت له: أما عدمت أن أهل القلُّوب يخفون أحوالهم ويكتمون أسرارهم، ويسألون الله كتمان ذلك عليهم. فمن أين تعرفهم؟ قال: فصاح صيحة غشي عليه منها فمكث عندي يومين لا يعقل، ثم أفاق وقد أحدث في ثيابه، فعلمت إزالة عقله فأخرجت له ثوباً جديداً وقلت له: هذا كفني قد آثرتك به فاغتسل وأعد صلاتك. فقال: هات الماء فاغتسل وصلى ثم التحف بالثوب وخرج، فقلت له: أين تريد؟ فقال لي: قم معي، فلم يزل يمشي حتى دخل على المأمون فسلم عليه وقال: يا ظالم، أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم، أستغفر الله من تقصيري فيك، أما تنقي الله تعالى فيما قد ملكك؟ وتكلم بكلام كثير. ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون وقال: من أنت؟ قال: أنا رجل من السياحين، فكرت فيما عمل الصديفون قبلي؛ فلم أجد لنفسي فيه حظاً فتعلقت بموعظتك لعلي ألحقهم، قال: فأمر بضرب عنقه، فأخرج وأنا قاعدً على الباب ملفوفًا في ذلك الثوب ومنادٍ ينادي: من ولي هذا فليأخد، قال الحارث: فاختبأت عنه، فأخذه أقوام غرباء فدفنوه وكنت معهم لا أعلمهم بحاله. فأقمت في مسجد بالمقابر محزوناً على الفتي فغلبتني عيناي فإذا هو بين وصائف لم أر أحسن منهن وهو يقول: يا حارث، أنت والله من الكاتمين الذين يخفون أحوالهم ويطيعون ربهم، قلت: وما فعلوا؟ قال: الساعة يلقونك، فنظرت إلى جماعة ركبان فقلت: من أنتم؟ قالوا: الكاتمون أحوالهم، حرك هذا الفتي كلامك له؛ قلم يكن في قلبه مما وصفت شيء فخرج للأمر والنهي، وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لعبده.

وعن أحمد بن إبراهيم المقري قال: كان أبو الحسين النوري رجلاً قليل الفضول، لا يسأل عما لا يعنيه، ولا يفتش عما لا يحتاج إليه، وكان إذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه، فنزل دات يوم إلى مشرعة تعرف بمشرعة الفحامين يتطهر للصلاة؛ إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون دناً مكتوب عليها بالقار العلف، فقرأه وأنكره؛ لأنه لم يعلم في التجارات ولا في البيوع شبئاً يعبر عنه بلطف. فقال للملاح: إيش في هذه الدنان؟ قال: وإيش عليك امض في شغلك؟ فلما سمع النوري من الملاح هذا القول ازداد تعطشاً إلى معرفته فقال: أحب أن تخبرني إيش في هذه الدنان؛ قال: وإيش عليك، أنت والله صوفي فضولي، هذا خمر للمعتصد يريد أن يتمم به مجلسه. فقال النوري: وهذا خمر؟ قال: نعم، فقال: أحب أن تعطيني ذلك المدري، فاغتاظ الملاح عليه، وقال لغلامه: أعطه حتى أنظر ما يصنع، فلما صارت لمعليني ذلك المدري، فاغتاظ الملاح عليه، وقال لغلامه: أعطه حتى أنظر ما يصنع، فلما صارت المدري في يده صعد إلى الزورق؛ ولم يزل يكسرها دناً دناً حتى أتى على آخرها إلا دناً واحداً ـ والملاح

يستغيث ـ إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح، فقبض على النوري وأشخصه إلى حِضرة المعتضد .. وكان المعتضد سيفه قبل كلامه، ولم يشك الناس في أنه سيقتله .. قال أبو الحسين: فأدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد وبيده عمود يقلبه فلما رآني قال: من أنت؟ قلت: محتسب، قال: ومن ولاك الحسبة؟ قلت: الذي ولاك الإمامة ولاني الحسبة يا أمير المؤمنين، قال: فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال: ما الذي حملك على ما صنعت؟ فقلت: شفقة مسى عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه. قال: فأطرق مفكراً في كلامي ثم رفع رأسه إلى وقال: كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان؟ فقلت: في تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن، فقال: هات خبرني، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنى أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك، وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عني، فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدنَّ، فاستشعرت نفسى كبراً على أنى أقدمت على مثلك فمنعت، ولو أقدمت عليه بالحال الأوّل وكانت مل الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال، فقال المعتضد: اذهب، فقد أطلقنا يدك غير ما أحببت أن تغيره من المنكر. قال أبو الحسين فقلت: يا أمير المؤمنين، بغض إلى التغيير؛ لأنى كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطى. فقال المعتضد: ما حاجتك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، تأمر بإخراجي سالماً، فأمر له بذلك وخرج إلى البصرة، فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد، فأقام بالبصرة إلى أنَّ توفي المعتضد ثم رجع إلى بغداد.

فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين؛ لكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها. وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حن العلم لأفلحوا. ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعان على كل حال.

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه



ينسب أنَّو النَّنْفِ النَّحَبُ لِنَعَبُ لِي

کتاب آداب المعیشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر من ربع العادات الثاني من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه، وأدب نبيه محمداً ﷺ فأحسن تأديبه، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه، وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيراً.

أما بعد: فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتيجة الأخلاق، والأداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأَفْعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتجليها، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساويها. ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية، وَلَقد كنت عزمت على أن أختم ربع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة؛ لثلا يشق على طالبها استخراجها من جميع هذه الكتب، ثم رأيت كل كتاب من ربّع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستثقلت تكريرها وإعادتها، فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات، فرأيت أن أقتصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله على وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد، فأسردها مجموعة فصلاً فصلاً محذوفة الأسانيد؛ ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة، التي شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلاهم رتبة وأجلهم قلراً فكيف مجموعها؟ ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته، ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار؛ ليكون ذلك معرباً عن مكارم الأخلاق والشيم، ومنتزعاً عن أذان الجاحدين لنبوّته صمام الصمم. والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين؛ فإنه دليل المتحيرين ومجيب دعوة المضطرين. ولنذكر فيه أولاً بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه، ثم بيان كلامه وضحكه، ثم بيان أخلاقه وآدابه في الطعام، ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس، ثم بيان عفوه مع القدرة، ثم بيان إغضائه عما كان يكره، ثم بيان سخاوته وجوده، ثم بيان شجاعته وبأسه، ثم بيان تواضعه، ثم بيان صورته وخلقته، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته ﷺ.

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً ﷺ بالقرآن:

كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الأداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ حَسَّنْ خَلْقِي وَخُلْقِي» (١٠)، ويقول: «اللَّهُمَّ جَنَّبْنِي مُنْكَرَاتِ الأَخْلاقِ» (١٠)، فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عزّ وجلّ: ﴿أَدْعُونَ آسَتَمِت لَكُرُ ﴾ [غافر: ٦٠] فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خُلُقه القرآن.

وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿ غُدِ اَلْمُوْ وَأَمْنُ بِاَلْمُوْ وَأَمْنُ بِاَلْمُوْ وَأَعْرِضَ عَنِ الْمُهِلِيكَ ﴿ وَالْمَسْنِ وَإِبَاتِهِ ذِى الْلَمْوَ وَيَنْفَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُعْرَدِ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرَدِ وَالْمُعْرَدِ وَالْمُعْرَدِ وَالْمُعْرَدِ وَالْمُعْرَدِ وَالْمُعْرَدِ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرَدُ وَالْمُعْرَدُ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدِي وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدُ وَالْمُعْرِدِ وَالْمُعْرِدِ وَاللّهُ وَالْمُعْرِدِي وَاللّهُ وَالْمُعْرِدُ وَالْمُعْرِدُ وَالْمُعْرِدُ وَالْمُعْرِدِي وَاللّهُ وَالْمُعْرِدِي وَاللّهُ وَاللّهُ وَالْمُعْرِدِي وَاللّهُ وَالللللّهُ وَالل

وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر، وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق؛ فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به، ولذلك قال ﷺ: ﴿بُعْفُتُ لاَتُمْمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ» (*). ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردناه في كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

 ⁽١) حديث: كان يقول في دعائه «اللهم حسن خَلقي وخلقي» أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة ولفظهما: «اللهم أحسنت خلقي فأحسن خُلقي» وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه ابن حبان.

 ⁽۲) حديث: «اللهم جنبتي منكرات الأخلاق» أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك وقال الترمذي: «اللهم إني أعوذ بك».

 ⁽٣) حديث سعد بن هشام: «دخلتُ على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت ' كان خلقه القرآن٩. رواه مسلم
 روهم الحاكم في قوله: إنهما لم يخرجاه.

⁽٤) حديث: «كسرت رباعيته ﷺ يوم أُخد... » المحديث. في نرول ﴿لَبْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَشِ شَيْءُ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨] أخرحه مسلم من حديث أنس وذكره البخاري تعليقاً.

 ⁽a) حديث: البعثت الأنسم مكارم الأخلاق، أخرجه أحمد والحاكم والبيهةي من حديث أبي هريرة. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقد تقدم في آداب الصحية.

فلا نعيده، ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَقَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ١٩ ﴿ وَالقُلَمِ ٤] فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه، ثم انظر إلى عميم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى؟ فهر الذي زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك مقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَطِيرٍ ١ ﴾ [الغَّلَم: ٤] ثم بيَّن رسول الله ﷺ للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها(١١ قال على رضي الله عنه: يا عجباً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها مما تدل على سبيل النجاة. فقال له رجل: أسمعته من رسول الله على القال: تعم وما هو خير منه؛ لما أتى بسبايا طيىء وقفت جارية في السبي فقالت: يا محمد، إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي. فقال ﷺ: ﴿يَا جَارِيَّةُ لَهٰذِهِ صَفَّةُ الْمُؤْمِنِينَ حَقّاً لَوْ كَانَ أَبُوكِ مُسْلِماً لَتَرَحَّمْنا عَلَيْهِ خَلُوا عَنْها فَإِنّ أُبِاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَادِمَ الأَخْلَاقِ وَإِنَّ الله يُحِبُّ مَكَادِمَ الأَخْلَاقِ، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: • وَالَّذِي نَفْسِي بِهَدِهِ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلا حَسَنُ الأَخْلَاقِ، (٢)، وعن معاذ بن جبل عن النبي عِلَيْهِ قال: ﴿إِنَّ اللَّهِ حَفَّ الْإِسْلَامَ بِمَكَارِم الأَخْلَاقِ وَمَحَاسِن الأَغْمَاكِ، (٣)، ومن ذلك: حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض المسلم براً كان أو فاجراً، وتشييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت - مسلماً كان أو كافراً - وتوقير ذي الشيبة المسلم، وإجابة الطعام والدعاء عليه، والعفو والإصلاح بين الناس، والجود والكرم والسماحة، والابتداء بالسلام، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، واجتناب ما حرَّمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها، وكل ذي وتر وكل ذي دخل، والخلبة والكذب والبخل والشح، والجفاء والمكر والخديعة والنميمة، وسوء ذات البين، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال، والاستطالة والبذخ، والفحش والتفحش، والحقد والحسد، والطيرة والبغي والعدوان والظلم. قال أنس رضي الله عنه: فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشاً _ أو قال عيباً، أو قال شيناً _ إلا حذرَناه ونهانا عنه (٤). ويكفى من ذلك كله هذه الآية : ﴿إِنَّ إَنْهَ يَأْشُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَدِ ﴾ [النّحل. ٩٠] الآية. وقال معاذ: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: «بَا معَاذُ، أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث والوقاء بالمهد وأداء الأماتة وتزك الجيانة وحفظ الجار ورخمة اليبيم

حديث: وإن الله يحب معالي الأخلاق ويبغض سفاسفها أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد متصلاً، ومن رواية طلحة بن عبيدالله بن كريز مرسلاً ورجالهما ثقات.

 ⁽۲) حديث على قوله: (اواعجياً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً...) الحديث. وفيه مرفوعاً: (المما أتي بسبايا طيى، وقفت جارية في السبي فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني... الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف.

 ⁽٣) حديث معاذ قحف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. . . الحديث. بطوله لم أثف له على أصل، ويغني عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث.

⁽²⁾ حديث أنس، الم يدع ﷺ تصبحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها». لم أقف له على إسناد، وهو صحيح من حيث الواقع.

وَلِينِ الكَلَامِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَحُسْنِ العَمَلِ وَقِصَوِ الأَمَلِ وَلُزُومِ الإِيمَانِ وَالتَّفَقُّهِ فِي القُرْآنِ وَحُبُ الآخِرَةِ وَالجَزَعِ مِنَ الْحِسَابِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَأَنْهَاكَ أَنْ تَسُبُّ حَكِيماً أَوْ تُكَلِّبُ صَادِقاً أَوْ تُطِيعَ آلِماً أَوْ تُعْصِيَ إِمَاماً عَادِلاً أَوْ تُفْسِدَ أَرْضاً، وَأُوصِيكَ بِاتَقَاءِ الله عِنْدَ كُلِّ حَجْرٍ وَشَجْرٍ وَمَدَرٍ، وَأَنْ تُحْدِثَ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَةَ السُّرُ بِالسَّرُ وَالعَلاَنِيَةُ بِالعَلاَئِيَةِ، (١٠)، فهكذا أذَب عباد الله، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار:

فقال: كان ﷺ أحلم الناس^(۲)، وأشجع الناس^(۳)، وأعدل الناس^(۱)، وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه^(۵)، وكان أسخى الناس^(۱) لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه (۱)، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر

 ⁽١) حديث: (يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث. . . ٤ الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد
 رقد تقدم في آداب الصحبة.

⁽Y) حديث: «كان ﷺ أحلم الناس». أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ من رواية عبدالرحمن بن أبزى: «كان رسول الله ﷺ من أحلم الناس...» الحديث. وهو مرسل. وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبدالله من سلام في قصة إسلام ريد بن شعثة من أحبار اليهود، وقول زيد لعمر بن الخطاب: «يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه الا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً فقد اخبرتهما...» الحديث.

 ⁽٣) حديث: اأنه كان أشجع الناس؛ متفق عليه من حديث أنس.

⁽٤) حديث: «كان أعدل الناس». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب في الحديث الطويل في صفته ﷺ لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه. وفيه: «قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء..» الحديث. وفيه من لم يسم.

 ⁽٥) حديث: «كان أعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له». أخرجه
 الشيحان من حديث عائشة: «ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة إلا امرأة يملكها».

 ⁽٦) حديث: اكان أأسخى الناس، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس: الفضلت على الناس بأربع: بالسخاء والشجاعة... الحديث. ورجاله ثقات. وقال صاحب الميزان إنه منكر، وفي الصحيحين من حديثه: الكان رسول الله المحاجود الناس، وانفقا عليه من حديث ابن عباس. وتقدم في الزكاة.

⁽٧) حديث: اكان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل ولم يجد من بعطبه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يشرأ منه إلى من يحتاج إلبه الخرجه أبو داود من حليث بلال في حديث طويل فيه الهدى صاحب فدك لرسول الله في أربع ركانب عليهن كسوة وطعام ويبع بلال لللك ووفاء دينه، ورسول الله في قاعد في المسحد وحده. وفيه قال: افضل شيء قلت: نعم، ديناران قال: النظر أن ثريحتي منهما فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحتي منهما فلست بداخل على أحد من أهلي حتى أصبح وطل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكبان فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى العتمة دعاني فقال: اما فعل الذي قبلك؟ قلت: قد أراحك الله منه؛ فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده دلك، ثم اتبعته حتى جاء أزواجه... المحديث. وللبخاري من حديث عقبة بن الحارث: الاكرت وأنا في الصلاة فكرهت أن يمسي ويبيت عندنا فأمرت بقسمته، والأبي عبيد في غريه من حديث الحسن بن محمد مرسلاً: (كان لا يقبل مالاً عنده ولا يبيته المسته،

والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله(۱)، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه (۲)، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه، حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء (۲)، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله (۱)، ويقطع اللحم معهن (۱)، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد (۲)، ويجيب دعوة العبد والحر (۷)، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لمبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها (۸)، ويأكلها ولا يأكل الصدقة (۱)، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين (۱۰)، يغضب لربه

- (٤) حديث: ﴿وكان ﷺ يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله. أخرجه أحمد من حديث عائشة: ﴿كَانَ
 يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبر الشيخ
 بلفظ: ﴿ويرقع الثوبِ، وللبخاري من حديث عائشة: ﴿كَانَ يكون في مهنة أهله،
- (a) حديث: «أنه كان يقطع اللحم» أخرجه أحمد من حديث عائشة: «أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسكت وقطع رسول الله ﷺ وقطعت. وهي الصحيحين من حديث عبدالرحم بن أبي بكر في أثناء حديث: «وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا حز له رسول الله ﷺ من سواد بطنها».
- (٦) حديث: «كان من أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد». أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها».
- (٧) حديث: (كان يجيب دعوة العبد والحراء أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أنس: (كان يجيب دعوة المملوك). قال الحاكم: صحيح الإسناد.
- قلت: بل ضميف، وللدارقطني في غرائب مالك، وضعف، والخطيب في أسماء من روى عن مالك من حديث أبي هريرة: «كان يجيب دعوة العبد إلى أي طعام دعي ويقول: قلو دهيت إلى كراع الأجبت، وهذا بعمومه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند البخاري من حديث أبي هريرة، وقد تقدم، وروى ابن سعد من رواية حدرة بن عبدالله بن عتبة: قال لا يدعوه أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه. . . الحديث. وهو مرسل.
- (A) حديث: «كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها»، أخرجه البخاري من حديث عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويتبب عليها». وأما ذكر: جرعة اللبن، وفخذ الأرنب. ففي الصحيحين من حديث أم الفضل: «أنها أرسلت بقدح لبن إلى النبي ﷺ وهو واقف بعرفة فشربه». ولأحمد من حديث عائشة، «أهدت أم صلمة لرسول الله ﷺ لبناً...» الحديث. وفي الصحيحين من حديث أس: «أن أبا طلحة بعث بورك أرب أو فخذها إلى رسول الله ﷺ فقبله».
 - (٩) حديث: اكان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة. منعق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.
- (١٠) حديث: اكان لا يستكبر أن يمشي مع المسكين». أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبدالله بن أبي أوفى بسند
 صحيح، وقد تقدم في الباب الثاني من آداب الصحبة، ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري وقال:
 صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽١) حديث: (كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في
سبيل الله، متمق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم في الزكاة.

 ⁽٣) حديث: «كان لا يُسأل شيئاً إلا أعطاء». أخرجه الطيالسي والدارمي من حديث سهل بن سعد، وللبخاري من حديثة:
 «في الرجل الذي سأله الشملة فقيل له: سألته إياها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً. . . » الحديث، ولمسلم من حديث أنس: «ما سئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاء». وفي الصحيحين من حديث جابر: ما سئل قط فقال: لا.

⁽٣) حديث: «أنه كان يؤثر مما ادخر لعياله حتى ربما احتاج قبل انقضاه العام». هذا معلوم، ويدل عليه ما رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث امن عباس: «أنه ﷺ توفي ودرعه مرهونة بعشرين صاحاً من طعام أخذه لأهله». وقال ابن ماجه مثلاثين صاعاً من شعير، وإسناده جيد، والبخاري من حديث عائشة: «توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين»، وفي رواية البيهقي: بثلاثين صاعاً من شعير.

ولا يغضب لنفسه (۱) ويثفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه. وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال: أنا لا أنتصر بمشرك (۱) وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلاً بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق، بل وداه بمائة ناقة وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به ($^{(7)}$) وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الحوع $^{(3)}$) ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، ولا يثورع من مطعم حلال وإن وجد ثمراً دون خبز أكله $^{(9)}$ ، وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله، لا يأكل متكثاً $^{(7)}$ ، ولا على خوان ($^{(8)}$) منديله باطن قدميه (م) لم يشبع من بطيخاً أو رطباً أكله، لا يأكل متكثاً ($^{(7)}$)

⁽١) حديث: «كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة وفيه: «وكان لا تغضبه الدنيا وما كان منها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغصب لنفسه ولا ينتصر لها». وفيه من لم يسم.

⁽٢) حديث: ﴿وينفذ الحق وإن عاد دلك بالضرر عليه وعلى أصحابه ؛ عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد في عدد من معه فأبى وقال: ﴿أَمَا لا أستنصر بمشرك ٤٠. أخرجه مسلم من حديث عائشة: ﴿خرج رسول الله ﷺ فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح به أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه قلما أدركه قال: جثت لأنبعك وأصيب معك فقال له: •أتؤمن بالله ورسوله وقال: لا. قال ظارجم قلن أستعين بمشرك... ٤١ الحديث.

 ⁽٣) حديث: «رجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتبلاً بين اليهود فلم يحف عليهم فرداه بمائة ناقة. . . » الحديث. متفق عليه من حديث سهل بن أبي حثمة ورافع بن خديج، والرجل الذي وجد مقتولاً هو عبدالله بن سهل الأنصاري.

٤) حديث: اكان يمصب الححر على بطنه من الحوع، متفق عليه من حديث جابر في قصة حفر الخندق وفيه: "فإذا رسول الله ﷺ شدّ على بطنه حجراً وأغرب»، أخرجه ابن حيان ققال في صحيحه: إنما هو الحجز بضم الحاء وآخره ژاي ـ جمع حجزة وليس بمتابع على ذلك. ويرد على ذلك ما رواه الترمذي من حديث أبي طلحة: "شكونا إلى رسول الله ﷺ عن حجرين". ورجاله كلهم ثقات.

⁽٥) حديث: «كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد، ولا يتورع من مطعم حلال إن وجد تمراً دون خز أكله، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله، التهى. هذا كله معروف من أخلاقه؛ ففي الترمذي من حديث أم هانى، دخل علي النبي على فقال: «أعندك شيء؟ قلت «لا إلا خبز يابس وخل؛ فقال: ههات الحديث، وقال: حسن غريب. وفي كتاب الشمائل لأبي الحسن بن الصحاك بن المعقري من رواية الأوزاعي قال: قال رسول الله يلى: هما أبالي ما وددت به المجوع، وهذا معضل، ولمسلم من حديث جابر: «أن النبي على سأل أهله الأدم فقالوا: ما عندما إلا خل، فدعا به. . . ، الحديث، وله من حديث أنس : «رأيته مقعياً يأكل تمرات» والترمذي وصححه من حديث أم سلمة، «أنها قربت إليه جنباً مشوياً فأكل منه . . . ، الحديث، وللشيخين من حديث عائشة: هما شبع رسول الله يلى ثلاثة أيام تباعاً خبر بر حتى مضى لسبيله، لهظ مسلم وفي رواية له: هما شبع من خبز شعير يومين متنابعين، والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس: «كان وفي رواية له: هما لشعير، وللشيخين من حديث عائشة: «كان يحب الحلواء والعسل»، ولهما من حديث ابن عباس: «أن النبي يهشرب لبناً قدعا بهاه فمضمض، والنسائي من حديث عائشة: «كان يأكل الرطب بالبطيخ» وإسناده صحيح . النبي يهشرب لبناً قدعا بهاه فمضمض، والنسائي من حديث عائشة: «كان يأكل الرطب بالبطيخ» وإسناده صحيح . النبي يهشرب لبناً قدعا بماه فمضمض، والنسائي من حديث عائشة: «كان يأكل الرطب بالبطيخ» وإسناده صحيح .

 ⁽٦) حديث: «أنه كان لا يأكل متكثاً»، تقدم في آداب الأكل من الباب الأول.

⁽٧) حديث: ﴿أَنَّهُ كَانُ لَا يَأْكُلُ عَلَى خُوانَ ۗ، تَقَدَّم فَى البابِ المذكور.

 ⁽A) حديث: اكان منديله باطن قدمه. لا أعرفه من فعله وإنما المعروف فيه ما رواه ابن ماجه من حديث جابر: «كنا زمان
رسول الله ﷺ قليلاً ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا». وقد تقدم في الطهارة.

خبر برّ ثلاثة أيام متوالية (1)، حتى لقي الله تعالى إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً يجيب الوليمة (٢)، ويعود المرضى (٢)، ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس (٤)، أشدّ الناس تواضعاً وأسكنهم في غير تطويل (١)، وأحسنهم بشراً (٧)، لا يهوله شيء من أمور الدنيا (٨)، ويلبس ما وجد، فمرّة شملة ومرة برد حبرة يمانياً ومرّة جبة صوف ما وجد من المباح لبس (٩)، وخاتمه فضة (١٠)،

- (٤) حديث: اكان يمشي وحده بين أعدائه بالا حارس؟، أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة: اكان رسول الله ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿يَنْفِسُكَ مِنَ أَنَاسٍ ﴾ [المائدة: ٢٧] فأخرج رأسه من القبة فقال:
 لانصرفوا فقد عصمني الله قال الترمذي فريب. وقال الحاكم: صحيح الإسناد
- (٥) حديث: اكان أشد الناس تواضعاً وأسكنهم من غير كبره. رواه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته ﷺ: اهين المؤنة لبن الخلق كريم الطبيعة حميل المعاشرة طليق الوجه ـ إلى أن قال ـ متواضع في غير ذلة ـ وفيه ـ دائب الإطراق، وإسناده ضعيف، وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه. منها عند النسائي من حديث ابن أبي أوفى: اكان لا يأتف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين . . . الحديث. الحديث. وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء: فجلس وجلسنا كأن على رؤوسنا الطير . . ، الحديث ولأصحاب السنن من حديث أسامة بن شريك: «أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير».
- (١) حديث: «كان أبلع الناس من غير تطويل»، أخرجه البحاري ومسلم من حديث عائشة: «كان يحدث حديثاً لو عدّه الماذ لأحصاه». ولهما من حديثهما: «لم يكن يسرد الحديث كسردكم»، علقه البخاري ووصله مسلم: زاد الترمذي: «ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جلس إليه»، وله في الشمائل من حديث ابن أبي هالة: «يتكلم بجوامع الكلم فصل لا قضول ولا تقصير».
- (٧) حديث: ٩كان أحسنهم بشرأه. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب ٩كان رسول الله ﷺ دائم
 البشر سهل الخلق. . . ٩ الحديث. وله في الجامع من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء: «ما رأيت أحداً كان أكثر
 تبسماً من رسول الله ﷺ وقال: غريب. قلت: وفيه ابن لهيعة.
- (A) حديث: الحان لا يهوله شيء من أمور الدنياة. أخرجه أحمد من حديث عائشة: اما أعجب رسول الله على شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذو تقيء. وفي لفظ له: اما أعجب النبي على شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذو تقيء. وفيه ابن لهيعة.
- (٩) حديث: «كان يلبس ما وجد؛ فمرة شعلة ومرة حبرة ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس، أخرجه البخاري مى حديث سهل بن سعد: «جاهت امرأة ببردة. قال سهل: هل تدرون ما البردة؟ هي الشملة منسوج في حاشيتها وفيه: «فخرج إلينا وإنها لإزاره...» الحديث. ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت: «أن رسول الله شي صلى في شملة قد عقد عليها». فيه الأحوص بن حكيم مختلف فيه، وللشيخين من حديث أنس: «كان أحب الثياب إلى رسول الله شي أن يلبسها الحبرة». ولهما من حديث المغبرة بن شعبة وعليه حبة من صوف.
 - (١٠) حليث: اخاتمه فضة!. متفق عليه من حليث أنس: «اتخذ خاتماً من فضةً!.

⁽١) حديث: الم يشبع من خبر بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله، تقدم في جملة الأحاديث التي قبله بثلاثة أحاديث.

 ⁽۲) حديث: كان يجيب الوليمة. هذا معروف وتقدم قوله. الله دعيت إلى كراع الأجبت، وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس: الله كان الرجل من أهل العوالي ليدعو رسول الله على الله الله على خبر الشعير ويجيب. وإسناده ضعيف.

 ⁽٣) حديث: اكان يعود المريض ويشهد الجنازة، أخرجه الترمذي وضعفه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس،
 ورواه الحاكم من حديث سهل بن حتيف، وقال صحيح الإسناد. وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى
 وشهوده للجنائز.

يلبسه في خنصره الأيمن (١) والأيسر (٢)، يردف خلفه عبده أو غيره (٣)، يركب ما أمكنه؛ مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغيراً ومرة بعماراً ومرة يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، يعود المرضى في أقصى المدينة (٤)، يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة (٥)، ويجالس الفقراء (١)، ويؤاكل المساكين (٧)، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم (٨)، يصل ذوي رحمه من

- (١) حديث: «لبسه الخاتم في خنصره الأيمر» أخرجه مسلم من حديث أنس: «أن رسول الله ﷺ لبس خاتم فضة في يمينه»، وللبخاري من حديثه: «فإني لأرى بريقه في خنصره».
- (٢) حديث: اتختمه في الأيسرا أخرجه من حديث أنس: اكان خاتم النبي ﷺ في هذه ـ وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى
- (٣) حديث: إرداقه خلفه عبده أو غيره: «أردف ﷺ أسامة بن ريد من عرقة). كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة، وأردقه مرة أخرى على حمار وهر في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة، وهو مولاه وابن مولاه، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس، وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة.
- (٤) حديث: «كان يرك ما أمكنه مرة قرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة شهياء ومرة حماراً راجلاً ومرة حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة، يعود المرضى في أقصى المفينة، ففي الصحيحين من حديث أنس: «ركوبه ﷺ فرساً لأبي طلحة». ولمسلم من حديث جابر بن سمرة: ««اركوبه الفرس عرباً حين الصرف من جنازة ابن الدحداح»، ولمسلم من حديث مهل بن سعد: «كان للببي ﷺ فرس يقال له: اللحيف»، ولهما من حديث ابن عباس: «طاف الببي ﷺ في حجة الوداع على بعير»، ولهما من حديث البراء ورأيت النبي ﷺ على بغلته البيضاء يوم حنين ولهما من حديث أسامة: «أنه ﷺ ركب على حمار على إكاف...» الحديث، ولهما من حديث ابن عمر: «كان بأتي قبا راكباً أسامة: ولمسلم من حديث في عيادته ﷺ لسعد بن عبادة: «فقام وقمنا معه ونحن بصعة عشر ما علينا نعال ولا حماف ولا قلانس ولا قمص نمشي في السباخ...» الحديث.
- (ه) حديث: «كان يحب الطيب والرائحة الطيبة ويكره الروائح الرديئة». أخرجه النسائي من حديث أنس: احبب إلي النساء والطيب»، وأبو داود والحاكم من حديث عائشة: «أنها صنعت لرسول الله على جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ربح الصوف فخلعها وكان يعجبه الربح الطيبة». لقظ الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولابن عدي من حديث عائشة: «كان يكره أن يوجد منه إلا ربح طبية».
- (٩) حنيث: «كان بجالس الفقراء». أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد: جلست في عصابة من ضعفاء السهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضاً من العري.... الحديث. وفيه: فجلس رسول الله رسول الله وسطنا ليعدل بنفسه فينا... الحديث. وابن ماجه من حديث خباب: وكان رسول الله رسيل معنا... الحديث. في نزول قوله تعالى:
 ﴿ وَلَا تَطَارُور اللَّهِ مِن يَعْرَنُ رَبُّهُم ﴾ [الأنقام: ٥٦] إسنادهما حسن.
- (٧) حديث: «مؤاكلته للمساكين» أخرجه البحاري من حديث أبي هريرة قال: «وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوود إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتنه صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها، وإدا أتنه هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها».
- (A) حديث: «كان يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث على الطويل في صفته على الله الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين». وفيه: «ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم....» الحديث. وللطبراني من حديث جرير في قصة إسلامه: فألقى إلي كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه». وإسناده جبد، ودواه الحاكم من حديث معبد بن خالد الانصاري عن أبيه نحوه، وقال: صحيح الإسناد.

غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم (۱) ، لا يجفو على أحد (۱) ، يقبل معذرة المعتذر إليه (۱) ، يمزح ولا يقول إلا حقاً (۱) ، يضحك من غير قهقهة (۱) ، يرى اللعب المباح فلا ينكره (۱) ، يسابق أهله (۱) ، وترفع الأصوات عليه فيصبر (۱) ، وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها (۱) ، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس (۱۰) ، ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى، أو فيما لا بد له منه

- (١) حديث: «كان يصل دوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم». أخرجه الحاكم من حديث ابن هباس: «كان يجل العباس إجلال الوالد والوالدة». وله من حديث سعد بن وقاص: أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس: تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك وتسكن علياً فقال: «ما أنا أخرجكم وأسكنه ولكن الله أخرجكم وأسكته»، قال في الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني، وفيه مسلم الملائي ضعيف. فأثر علياً لفضله بتقدم إسلامه وشهوده بدراً والله أعلم، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد: «لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر».
- (٢) حديث: «كان لا يجفو على أحده. رواه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي في اليوم والليلة من حديث أنس:
 «كان قلما يواجه رحلاً بشيء يكرهه». وفيه ضعف، وللشيخين من حديث أبي هريرة: أن رجلاً استأذن عليه ﷺ فقال: «بس أخو العشيرة فلما دخل ألان له القول...» الحديث.
- حديث: «يقبل معذرة المعتلر إليه». متفق عليه من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه. •طفق المحلفون يعتذرون إليه فقبل منهم علانيتهم...» الحديث.
- (٤) حديث: قيمزح ولا يقول إلا حقاً. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذي بلفظ. قالوا إتك تداعبنا:
 قال: «إي ولا أقول إلا حقاً» وقال حسن.
- (٠) حديث: «ضحكه من غير قهقهة» أخرجه الشيخان من حديث عائشة: «ما رأيت رسول الله الله مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى لهواته إنما كان يتبسم» والترمذي من حديث عبدالله من الحارث من جزء: «ما كان ضحك رسول الله الله إلا تبسماً». قال: صحيح غريب وله في الشمائل في حديث هند بن أبي هالة: «جل ضحكه التبسم».
- (٦) حديث: "يرى اللعب المباح لا يكرهه». أخرجه الشيخان من حديث عائشة: في لعب الحبشة بين يديه في المسجد وقال لهم: «دونكم يا يني أرفدة» وقد تقدم في كتاب السماع.
- (٧) حديث: امسابقته ﷺ أهله. أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث عائشة، في مسابقته لها.
 وتقدم في الباب الثالث من النكاح.
- (٨) حديث: «ترفع الأصوات عنده فيصبر»، أحرجه البخاري من حديث عبدالله بن الزبير: «قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ قفال أبو بكر: أمر القعفاع بن معبد، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي؟ وقال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتمعت أصواتهما فنزلت: ﴿يَكَأَبُّ اللَّذِنَ مَامُواْ لَا نُفَدِّمُواْ بَيْنَ بَدّي اللّهِ وَرَسُولِيْكُ [الحُجرَات: ١].
- (٩) حديث: اوكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألباتهاا. أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث أم سلمة: «كان عيشنا مع رسول الله ﷺ اللبن ـ أو قالت أكثر عيشنا ـ كانت لرسول الله ﷺ القاح بالغابة. . . الحديث، وفي رواية له : «كانت لنا أعنز سبع فكان الراعي يبلغ بهن مرة الحمى ومرة أحداً ويروح بهن علينا وكانت لقاح بذي الحمل فيؤوب إلبنا بألبانها باللبل. . . ، الحديث. وفي إسنادهما محمد بن عمر المواقدي ضعيف في الحديث، وفي الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع: «كانت لقاح رسول الله ﷺ ترعى بذي قرد. . . ، الحديث. ولأي داود من حديث لقيط بن صبرة الانا غنم مائة لا نريد أن تزيد فإذا ولد الراعي بهمة ذبحنا مكانها شاة . . . ، الحديث.
- (١٠) حديث: «كان له عبيد وإماء فلا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس». أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث سلمى قالت: «كان خدم النبي ﷺ أنا وخضرة ورضوى ومهمونة بنت سعد أعتقهن كلهن». وإساده ضعيف، وروي=

من صلاح نفسه (١)، يخرج إلى بساتين أصحابه (٢)، لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه؛ يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً (٢)، قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة؛ وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقره، وفي رعاية الغنم يتيماً لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة، والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الواجب وترك الفضول (١٠). وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يا رب العالمين.

- أيضاً: «أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبدالعزيز بأسماء خدم رسول أله الله فلكرة بركة أم أيمن وزيد بن حارثة، وأبا كبشة، وأنسة، وشقران، وسفينة، وثوبان، ورباحاً، ويساراً، وأبا راقع، وأبا مويهبة، ورافعاً؛ أعتفهم كلهم، وفضالة، ومدعماً، وكركرة»، وروى أبو بكر بن الضحاك في الشمائل من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف: «كان بيني بأكل مع خادمه». ومسلم من حديث أبي البسر «أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تليسون...» الحديث.
- (١) حديث: «لا يمضي له وقت في غير عمل شه تعالى أو قيما لا بد منه من صلاح نفسه». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث على بن أبي طالب: «كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاه: جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لفسه، ثم جزء بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة. . . . الحديث.
- (٢) حديث: «يحرج إلى بساتين أصحابه». تقدم في الباب الثالث من آداب الأكل. (خروجه ﷺ إلى بستان أبي الهيثم بن
 التيهان وأبي أيوب الأنصاري وفيرهما).
- (٣) حديث: ﴿لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه يدهو هذا وهذا إلى الله دعاء واحداً». أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد: ﴿مَرَ على رسول الله ﷺ فقال: ﴿مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكع...» الحديث. وفيه: ﴿فَمَر رحل من فقراء المسلمين فقال: ﴿مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟! قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح...» المحديث. وفيه: ﴿هَذَا خَبر من مل الأرض مثل هذا »، ومسلم من حديث أنس: ﴿أَن النّبي ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وحل».
- (٤) حديث: «قد جمع الله له السبرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى وفي فقر وهي رعاية الغنم لا أب له ولا أم، قعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الغنيا ولزوم الواجب وترك الفصول». هذا كله معروف معلوم، فروى الترمدي في الشمائل من حديث علي بن أبي طالب في حديثه الطويل في صفته: «وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه...» الحديث، وفيه: «فسألته عن سيرته في جلسائه فقال: كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب...» الحديث. وفيه: «كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه». وفيه: «وقد ترك نفسه من ثلاث: من العراء والإكثار وما لا يعنيه...» الحديث. وقد تقدم بعضه، وروى ابن مودويه من حديث ابن عباس في قوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ نَتْلُوا بِن قَلِمٍ مِن وَلا تَشَلَّمُ سِينِيكَ ۖ (المُنكبوت: ٤٤) قال: «كان نبي الله به أمياً لا يترا و لا يكتب، وقد تقدم بعضه من عليث ابن عباس قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما يقرأ ولا يكتب، وقد تقدم من حديث ابن عباس قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما قوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿ فَلْ خَيْرَ الَّذِينَ شَتَاوًا أَوْلَدَهُمْ سَمَهًا بِيَدٍ عِلْ الأَماء : ﴿ وَلا علم جاهلية نعبد حبان من حديث أم سلمة في قصة هجرة الحبشة: «أن جعفراً قال للنجاشي: أبها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام وناكل المبتة...» الحديث. ولأحمد من حديث أبي بن كعب: ﴿ إني لغي صحراء ابن عشر سنين وأشهر فإذا كلام فرق رأسي...» الحديث. وابما حديث أبها فرو وكان يتبماً... المحديث. ولأبي يعلى وابن حبان من حديث حليمة: «إنما نرجو كرامة الرضاعة من والد المولود وكان يتبماً... المحديث وتقدم حديث فهضت بهكارم الأخلاق».

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه:

مما رواه أبو البحتري قال: ما شتم رسول الله المحدد أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة (۱) وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة (۱) وقيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله فقال: فإنّما بُعِثْتُ رَحْمَةٌ وَلَمْ أُبّعَثُ لَعَانَهُ (۱) وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له (١) وما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم؛ فيكون أبعد الناس من ذلك (١) وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته (١) وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه: فلِمَ فَعَلْمَتُهُ ولا لامني أحد من أهله إلا قال: «دَعُوهُ إِنّما كَانَ هٰذَا بِكِتَابٍ وَقَلَوا (١) . قالوا: وما عاب رسول الله على مضجعاً؛ إن فرشوا له اضطجع، وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض (١) وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال: محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ

 ⁽١) حديث: (ما شتم أحداً من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة» متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه: (فأي المؤمنين لعنته شتمته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة، وفي رواية: (فأجعلها ذكاة ورحمة) وفي رواية: (فأجعلها له كفارة وقربة) وفي رواية: (فأجعل ذلك كفارة له يوم القيامة).

⁽٢) حديث: (ما لعن امرأة ولا خادماً قط». المعروف: ما ضرب. مكان ما لعن. كما هو متفق عليه من حديث عائشة، وللبخاري من حديث أنس (لم يكن فحاشاً ولا لعاماً». وسيأتي الحديث الذي بعده قيه هذا المعنى.

 ⁽٣) حديث: (إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً؛ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

⁽٤) حديث: «كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعا له». أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: «قالوا: يا رسول الله إن دوساً قد كفرت وأبت فادع عليهم. فقيل: «هلكت دوس» فقال: «اللهم أهد دوساً والت بهم».

 ⁽٥) حديث: قما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب في سبيل الله وما انتقم في شيء صنع إليه إلا أن تنتهك حرمة الله . . . ٩
 الحديث. متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف، وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحة.

⁽٣) حديث: "ما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته»، أخرجه البخاري تعليقاً من حديث أنس: "إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»، ووصله ابن ماجه وقال: "فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها». وقد تقدم. وتقدم أيضاً من حديث ابن أبي أرفى: "ولا يأنف ولا يستكبر أن يعشي مع الأرملة والمسكين حتى يقضي لهما حاجتهما».

⁽٧) حديث أنس: والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه: «لم فعلته؟» ولا لامني أحد من أهله إلا قال: «دهوه إنها كان هذا بكتاب وقدرا أخرجه الشيخان من حديث أنس: ما قال لشيء صنعته؟ «لم صنعته» ولا لشيء تركته «لم تركته»، وروى أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله على من حديث له قال فيه: «ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه، فإن عاتبني أحد من أهله قال: «دهوه قلو قدر شيء كان» وفي رواية له «كذا قضى».

⁽A) حديث: «ما عاب مضجعاً إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض». لم أجده بهذا اللفظ والمعروف: ما عاب طعاماً. ويؤخذ من عموم حديث علي من أبي طالب. ليس بفظ، إلى أن قال: ولا عياب. رواه الترمذي في الشمائل، والطبراني وأبو نعيم في دلائل الشوة، وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة من حديث أنس: ما أعلمه عاب شيئاً قط، وفي الصحيحين من حديث عمر: اضطجاعه على حصير والمترمذي وصححه من حديث ابن مسعود: «نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه...» الحديث.

ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام، يأتزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يترضأ على أطرافه. وكذلك نعته في الإنجيل. وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام (۱)، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف (۲)، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر (۳). وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها (٤)، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله (۵) وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال: «ألك عَاجَة؟) فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته (۱۹)، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة (۱۱)، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه (۱۹)؛ لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس (۱۹)، وما رئي قط ماذاً رجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد، إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة (۱۰)، وكان يكرم من يدخل عليه؛ حتى ربما بسط ثوبه لعن ليست بينه وبينه قرابة ولا

⁽١) حديث: «كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.

⁽٢) حديث اومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي بن أبي طالب، وهو من حديث أنس: «كان إذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف، ورواه الترمذي نحوه وقال: غريب.

 ⁽٣) حديث. «وما أحد أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس الذي قبله:
 «كان إذا استقبل الرجل قصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع». لفظ الترمذي وقال غريب.

⁽٤) حديث: اكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته الخرجه أبو داود من حديث أبي فر: الوساله رجل من عنزة: هل كان رسول الله الله يسمافحكم إذا لقيتموه؛ قال: ما لقيته قط إلا صافحني . . . الحديث . وفيه الرجل الذي من عنزة ولم يسم وسماه البيهقي في الأدب عبدالله، وروينا في عموم الحديث للحاكم من حديث أبي هريرة قال: شبك بيدي أبو القاسم الله وهو عند مسلم بلفظ: أخذ رسول الله الله تله مده .

 ⁽٥) حديث: اكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل، أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث على في حديثه الطويل في صفته وقال: على ذكر ـ بالتنوين ـ.

 ⁽٦) حديث. «كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل» عليه فقال: «ألك حاجة؟» فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته يولم أجد له أصلاً.

 ⁽٧) حديث: «كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً وبمسك بيديه عليهما شبه الحبوة». أخرجه أبو داود والترمذي في
 الشمائل من حديث أبني سعيد الخدري: «كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه» وإسناده ضعيف،
 والبخاري من حديث ابن عمر: «رأيت رسول الله ﷺ بفتاء الكعبة محتبياً بيديه».

 ⁽A) حديث: *إنه لم حكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه، أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر قالا: «كان النبي و الله يعلس بين ظهرائي أصحابه فيجي، الغريب فلا يدري أيهم هو؟ حتى يسأل...» الحديث.

⁽٩) حديث: (إنه حيثما انتهى به المجلس جلس). رواه الترمذي في الشمائل في حديث على الطويل.

⁽١٠) حديث: «ما رئي قط ماذاً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد، إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه»، أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من حديث أنس وقال: باطل، والترمذي وابن ماجه: «لم ير مقدماً ركتيه بين يدي جليس له»، زاد ابن ماجه قط، وسنده ضعيف.

رضاع يجلسه عليه (١)، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل (٢)، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه (٣)، حتى يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة، قال الله تعالى: ﴿ فَهُمّا رَحْمَة مِنَ اللّه لِنتَ لَهُمّ كُونَ كُنتَ فَظًا عَلِيظًا ٱلقَلْبِ لَانَفَدُوا بِنْ حَوْلِكُ ﴾ [آل عبران: ١٥٩]. ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم؛ إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم (٤)، ويكني من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به (٥)، ويكني أيضاً النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدىء لهن الكني (٢)، وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا (٨)، وكان أرأف الناس

⁽١) حديث: «كان يكرم من يدخل عليه؛ حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه». أخرجه الحاكم وصحع إسناده من حديث أنس: دخل جرير بن عبدائه على النبي على وفيه: فأخذ بردته فألفاها عليه فقال: «الجلس عليها يا جرير» الحديث. وفيه: «فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموها وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة. وللطبراني في الكبير من حديث جرير. فألفى إلى كساء، ولأبي نعيم في الحلية. فبسط إلى رداءه.

⁽٣) حديث: اكان يؤثر الداخل بالوسادة التي تكون تحته. . . ا الحديث. تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة .

⁽٣) حديث: «ما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس إليه، ومجلسه مع ذلك محلس حياء وتواضع وأمانة». أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي الطويل وفيه: «ويعطي كل جلساته نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. مجلسه مجلس حلم وحياء وصير وأمانة».

⁽³⁾ حديث: «كأن يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهما. في الصحيحين في قصة الغار من حديث أبي بكر: «يا أيا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». وللحاكم من حديث ابن عباس. أنه قال لعمر: «يا أبا حقص، أبصرت وجه هم رصول الله على قال عمر: «إنه لأول يوم كناني فيه بأبي حقص، وقال صحيح على شرط مسلم، وفي الصحيحين أنه قال لعلى: «قم يا أبا تراب»، وللحاكم من حديث رفاعة بن مالك: «أن أبا حسن وجد مفصاً في بطنه فتخلفت عليه ـ بريد علياً ـ» ولأبي يعلى الموصلي من حديث سعد بن أبي وقاص: «فقال: من هذا؟ أبو إسحاق؟ فقلت: نعم، وللحاكم من حديث أبن مسعود: «أن النبي على كناه أبا عبدالرحمن ولم يولد له».

⁽ه) حديث: «كان يكني من لم يكن له كنية وكان يدعى بما كناه به» أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال: «كناني به بيغلة كنت اختليها ـ يعني أبا حمزة ـ» قال حديث غريب وابن ماجه: «أن عمر قال لصهيب بن مالك: تكتني وليس لك ولد؟ قال: كناني رسول الله به بأبي يحيى». وللطبراني من حديث أبي بكرة: تدليت ببكرة من الطائف فقال لي النبي بهج: «فأتت أبو بكرة».

⁽٣) حديث: «كان يكني النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن يبندى، لهن الكنى». أخرجه الحاكم من حديث أم أيمن في قصة شربها بول النبي ﷺ قال: فيا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة...» الحديث. وابن ماجه من حديث عائشة: أنها قالت للنبي ﷺ كل أزواجك كنيته غيري قال فغأت أم عبدالله»، والبخاري من حديث أم خالد: «أن النبي ﷺ قال لها: فها أم خالد هذا سناه، وكانت صغيرة وفيه مولى للزبير لم يسم ولأبي داود بإسناد صحيح: «أنها قالت: يا رسول الله كل صواحبي لهن كنى قال: (فاكتني بابنك عبدالله بن الزبير».

 ⁽٧) حديث: كان يكني الصبيان. ففي الصحيحين من حديث أنس. أن النبي ﷺ قال الأخ له صغير: «يا أبا حمير ما فعل النفير».

 ⁽A) حديث: اكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا». هذا من المعلوم ويدل عليه إخباره ﷺ: أن بني آدم خيرهم بطيء
المغضب سريع الفيء. رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري وقال حديث حسن وهو ﷺ خير بني أدم
وسيدهم، وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. رواه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.

بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس^(۱)، ولم تكن ثرفع في مجلسه الأصوات^(۲)، وكان إذا قام من مجلسه قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَثُوبُ إِلَيْكَ، ثم يقول: «عَلَّمَنِيهُنَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السُّلاَمُ»^(۲).

بيان كلامه وضحكه على

كان ﷺ أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً ويقول (٢٠):

«أنا أقصح العرب» (°)، وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد الله المحافظة عنها: كان الكلام سمح المقالة؛ إذا نطق ليس بمهذار، وكان كلامه كخرزات نظمن (۱٪ قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا؛ كان كلامه نزراً وأنتم تنثرون الكلام نشراً (۱٪ قالوا: وكان أوجز الناس كلاماً وبذاك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أواد (۱٪ وكان يتكلم بجوامع الكلام لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه (۱٪ وكان جهير الصوت أحسن

- (١) حديث: اكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس". هذا من المعلوم ورويناه في الجزء الأول من ورائد أبي الدحداح من حديث علي في صفة النبي ﷺ: الاكان أرحم الناس بالناس... الحديث، بطوله.
 - (٢) حديث: الم تكن ترفع في مجلسه الأصوات!. أخرحه الترمذي في الشمائل من حديث على الطويل.
- (٣) حديث: اكان إذا قام من مجلسه قال: اسبحانك اللهم وبحمدك ... الحديث. أخرجه النسائي في البوم والليلة،
 والحاكم في المستدرك من حديث رافع بن خديج، وتقدم في الأذكار والدعوات.
- (٤) حديث: «كان أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً». أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في كتاب الشمائل، وابن الجوزي
 في الوقاء بإساد ضعيف من حديث بريدة: «كان رسول الله ﷺ من أفصح العرب وكان يتكلم بالكلام لا يدرون ما
 هو حتى يخبرهم».
- (٥) حديث: «أنا أقصح العرب» أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي سعيد الخدري: «أنا أعرب العرب». وإسناده ضعيف والحاكم من حديث عمر: «قال: قلت يا رسول الله ما بالك أقصحنا ولم تخرج [إلاً] من بين أظهرنا؟» الحديث: وفي كتاب الرعد والمطر لابن أبي الدنيا حديث مرسل: «أن أعرابياً قال للنبي ﷺ ما رأيت أقصح منك؟».
- (٦) حديث: (إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه: «كلام أهل الجنة هريي١٠.
- (٧) حديث «كان نزر الكلام سمح المقالة، إذا نطق ليس بمهذار وكأن كلامه خرزات النظم». أخرجه الطبراتي من حديث
 أم معبد الوكان منطقه خرزات نظم ينحدرن حلو المنطق لا نزر ولا هذر» وقد تقدم وسيأتي في حديث عائشة
 بعده الاكان إذا تكلم تكلم نزراً وفي الصحيحين من حديث عائشة: «كان يحدثنا حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه».
- (٨) حديث عائشة: *كان لا يسرد كسردكم هذا، كان كلامه نزراً وأنتم تنثرونه نثراً*. اتفق الشيخان على أول الحديث، وأما الجملتان الأخيرتان فرواه الخلعي في فوائده بإسناد منقطع.
- (٩) حديث: اكان أوجز الناس كلاماً وبدلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد" أخرجه عبد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع، والدارقطني من حديث ابن عباس بإسناد جيد: المطيت جوامع الكلم" واختصر لي الحديث اختصاراً -وشطره الأول متفق عليه _ كما سيأتي _ قال البخاري: بلغني في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك . وللحاكم من حديث عمر المتقدم: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل فحفظنيها" .
- (١١) حديث: «كان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضاً بين كلامه توقف يحفظه سامعه
 ويعيه». رواه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة، وفي الصحيحين من حديث أبي هويرة: فبعثت
 بجوامع الكلم». ولأبي داود من حديث حابر: كان في كلام النبي ﷺ ترتبل أو ترسيل. وفيه شيخ لم يسم وله=

الناس نغمة (1)، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة (٢)، ولا يقول المنكر، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق (٣). ويعرض عمن تكلم بغير جميل (٤)، ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره (٥). وكان إذا سكت تكلم جلساؤه، ولا يتنازع عنده (٦) في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة (٧). ويقول: ﴿الا تَضْرِبُوا القُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْض فَإِنَّهِ أَنْزِلَ عَلَىٰ وُجُوهِ (٨)، وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدثوا به وحُلطاً لنفسه بهم (٩)، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه (١٠)، وكان ضحك أصحابه

- (٢) حديث: اكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة». أخرجه في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة.
- (٣) حديث: لا يقول المنكر ولا يقول في الرضى والغضب إلا الحق. أخرجه أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو قال: لا كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه، وقال: واكتب قوالذي نفسى ببده ما يخرج منه إلا حقه رواه الحاكم وصححه.
 - (٤) حديث: ايعرض عمن تكلم بغير جيل). أخرجه الترمدي في الشمائل من حديث علي الطويل: ابتغافل عما لا يشتهي، الحديث.
- (ه) حديث: يكني عما اضطره الكلام بما يكره فمن ذلك قوله ري المرأة رفاعة: احتى تذوقي حسيلته ويلوق حسيلتك رواه البخاري من حديث عائشة: ومن ذلك ما اتمقا عليه من حديثهما في المرأة التي سألته عن الاغتسال من الحيض دخلي قرصة ممسكة فتطهري بها. . . الحديث.
- (٦) حديث: «كان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث»، أخرجه الترمذي في الشمائل في حديث علي الطويل.
- (٧) حديث: يعظ بالجد والنصيحة. أخرجه مسلم من حديث جاسر: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم...» الحديث.
- (٨) حليث: «لا تضربوا القرآن بعضه بيعض وأنه أنزل على وجوه» أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو بإسناد حسن: "إن القرآن بصدق بعضاً فلا تكفيوا بعضه ببعض»، وفي رواية للهروي في ذم الكلام، «إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض» وفي رواية له: «أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض» وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف».
- (٩) حديث: اكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما تحدثوا به وخلطاً لنفسه يهم. أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء: اما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله على وفي الصحيحين من حديث جرير: اولا رآني إلا تبسم. والترمذي في الشمائل من حديث على: ايضحك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه. ومسلم من حديث جابر بن سمرة: الكانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم.
- (١٠) حديث: «ولربما ضحك حتى تندو نواجله». متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود في قصة آخر من يخرج من النار وفي قصة الحبر الذي قال: إن الله يضع السموات على أصبع. ومن حديث أبي هريرة في قصة المجامع في رمضان وغير ذلك.

وللترمذي من حديث عائشة: «كان كلام النبي ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه». وقال الترمذي: «يحفظه من جلس إليه»، وقال الترمذي في اليوم والليلة: «يحفظه من سمعه» وإسناده حسن.

⁽۱) حديث: الكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ، أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث صفوان بن عسال قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر بينا نبحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد فأجابه رسول الله ﷺ على نحو من صوته: (هاؤم الحديث، وقال أحمد في مسنده: (وأجابه نحواً مما تكلم به...» الحديث، وقد يؤخذ من هذا أنه ﷺ كان جهوري الصوت ولم يكن يرفعه دائماً، وقد يقال لم يكن جهوري الصوت وإنما رفع صوته وله الظاهر، وللشيخين من حديث البراه: (ما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه).

عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له (١)، قالوا: ولقد جاءه أعرابي يوماً وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا: لا تفعل يا أعرابي، فإنا ننكر لونه فقال: دعوني فوالذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتبسم، فقال: يا رسول الله، بلغنا أن المسيح يعني اللجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعاً، أفترى لي بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هزالاً، أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شبعاً آمنت بالله وكفرت به؟ قالوا: فضحك رسول الله على حتى بدت نواجده ثم قال: «لاّ، بَلْ يُغْنِيكَ الله بِمَا يُغْنِي بِهِ المُؤْمِنِينَ (١)، قالوا: وكان من أكثر الناس تبسماً وأطبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة (٣)، وكان إذا سرَّ ورضي فهو أحسن الناس رضاً فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب وليس يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها (٤)، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله، وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول: كلها (٤)، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله، وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول: عقير هدى حقل عَفْق المُنْكِر مُنْكُراً وَارْزُفْنِي اجْتِنَابُهُ وَأُونِي مِنْ أَنْ يَشْتَبِهُ عَلَى فَأْتُبِعَ هَوَايَ لِهُ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا الْحَثْلِفَ فِيهِ عَافِيةٍ وَالْمُنِيْ لِمَا الْحَثْلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَدِّ عِلْمَا فَتِكُ وَمُخْذُ وضا نَفْسِكُ مِنْ نَفْسِي فِي عَافِيةٍ وَالْمَافِيْ لِمَا الْحَثْلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَدِّ عِلْمَا فَتِكُ وَمُخْذُ وضا نَفْسِكُ مِنْ نَفْسِي فِي عَافِيةٍ وَالْمَافِيْ لِمَا الْحَثْلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَدُّ عِلْمُ لَلْكُونُ إِذْنِكَ إِنْكَ وَاجْعَلْ هَوْلَي يَبْعاً لِمُنْ صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (٥٠).

 ⁽١) حديث: الكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداه به وتوقيراً له، أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي
 هالة في أثناء حديثه الطويل: جل ضحكه التبسم.

⁽٢) حديث: •جاءه أعرابي يوماً وهو متغير يذكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا: لا تفعل يا أعرابي، فإنا ندكر لونه فقال: دعوني والذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتبسم. فقال: يا رسول الله يلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعاً... الحديث. وهو حديث منكر لم أقف له على أصل ويرده قوله ﷺ في حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه حين سأله: إنهم يقولون إن معه جبل خيز ونهر ماء قال: •هو أهون على الله من ذلك، وفي رواية لمسلم: «إنهم يقولون معه جبالاً من خيز ولحم...» الحديث. نعم في حديث حذيفة وأبي مسعود المتفق عليهما: •إن معه ماه وناداً... الحديث.

⁽٣) حديث: «كان من أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه القرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة». تقدم حديث عبدالله بن الحارث: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً منه». وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر: «كان إذا نزل عليه الوحي قلت: نذير قوم، فإذا سري عنه فأكثر الناس ضحكاً...» الحديث. ولأحمد من حديث علي أو الزبير: «كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكاً حتى يرتفع عنه»، ورواه أبو يعلى من حديث الزبير من غير شك، وللحاكم من حديث جابر: «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتذ غضه». وهو عند مسلم بلفظ: كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتذ غضه». وهو عند مسلم بلفظ: كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتذ غضه».

حديث. «كان إذا سر ورضي فهو أحسن الناس رضاً، وإن وعظ وعط بجد، وإن غضب ـ ولا يغضب إلا لله ـ لم يقم لغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق الببي على من حديث ابن عمر: «كان رسول الله على يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضي فكأنما تلاحك الجدر وجهه، وإسناده ضعيف والمراد به: المرآة توضع في الشمس فيرى ضوءها على الجدار، وللشيخين من حديث كعب بن مالك قال: وهو يبرق وجهه من السرور، وفيه: «وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا تعرف ذلك منه . . . الحديث. ومسلم: «كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه الحديث، وقد تقدم، والترمذي في الشمائل في حديث هند بن أبي هالة: «لا تغضبه المدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها»، وقد تقدم.

 ⁽٥) حديث: كان يقول: «اللهم أرثي الحق حقاً فأتبعه وأرني المنكر متكراً وارزقني اجتنابه وأهذني من أن يشتبه هلئ فأتبع =

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام:

كان ﷺ يأكل ما وجد (1)، وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف (٢)، والضفف: ما كثرت عليه لأيدي، وكان إذا وضعت المائدة قال: فيشم الله الجعَلْهَا يَعْمَةُ مَشْكُورَةً تَصِلُ بِها نِعْمَةَ الْجَنَّةِ» (٢)، وكان كثيراً لأيدي، وكان إذا وضعت المائدة قال: فيشم الله الجعلها إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق اذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه، كما يجلس المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ المَبْدُ وَأَجْلِس كَمَا يَجْلِسُ العَبْدُ»، وكان لا يأكل الحار ويقول: «إِنَّهُ ضَيْرُ ذِي بَرَكَةٍ وَإِنَّ اللهُ لَمْ يُطْعِمُنا نَاواً فَأَبْرِكُوهُ (٥)، وكان يأكل مما يليه (١٪، ويأكل بأصابعه الثلاث (٧٪)،

(١) حديث: «كان يأكل ما رجده، تقدم.

(٣) حديث: «كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أي كثرت عليه الأبدي»، أخرجه أبو يعلى والطبرائي في الأوسط
وابن عدي في الكامل من حديث جابر بسند حسن: «أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي». ولأبي يعلى من
حديث أنس: اللم يجتمع له غذاء وعشاء خبز ولحم إلا على ضفف». وإسناده ضعيف.

(٣) حديث: كان إذا وصعت المائدة قال: ابسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة المجته، أما السمية فرواها النسائي من رواية؛ من حدم النبي ﷺ ثمان سنين: أنه سمع رصول الله ﷺ إذا قرب إليه طعاماً يقول: البسم الله. . . ، الحديث . وإسناده صحيح وأما يقية الحديث فلم أجده.

- (3) حديث: كان كثيراً إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول: اإنها أنا هيد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد. . . اخرجه عبدالرزاق في المصنف من رواية أيوب معضلاً: أن النبي على كان إذا أكل أحفز وقال: «آكل كما يأكل العبد . . . الحديث. وروى ابن الضحاك في الشمائل من حديث أنس بسند ضعيف: كان إذا قعد على العلمام استوفز على ركبته اليسرى وأقام اليمنى ثم قال: وإنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد»، وروى أبو الشيخ في أخلاق النبي على بسند حسن من حديث أبي بن كعب: «أن النبي على كان بجثو على ركبتيه وكان لا يتكيء». أورده في صفة أكل رسول الله وللبزار من حديث ابن عمر: «إنما أنا هبد آكل كما يأكل العبد»، ولأبي يعلى من حديث عائشة: «آكل كما يأكل العبد وألمبد وأجلس كما يجلس العبد، وسندهما ضعيف.
- (٥) حديث كان لا يأكل الحار ويقول: «إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً» أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: أتي النبي ﷺ يوماً بطعام سحن فقال: «ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم»، ولأحمد بإسناد جيد، والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث خولة بنت قيس: وقدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرها فقيضها؛ لفط الطبراني والبيهقي، وقال أحمد: فأحرقت أصابعه. فقال: «حسى»، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: «أبردوا الطعام فإن الطعام الحار فيو ذي بركة» وله فيه وفي الصغير من حديثه أتي بصحمة تفور فرفع يده منها وقال: «إن الله لم يطعمنا ناراً» وكلاهما ضعيف.
- (٣) حديث: «كان يأكل مما يليه». أخرجه أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم وسماه في رواية له، وكذلك البيهقي في روايته في الشعب عبيد بن القاسم نسيب سفيان الثوري، وقال السيهقي: تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب، ولأبي الشيخ من حديث عبدالله بن جعفر نحوه.

(٧) حديث: قائله بأصابعه الثلاث، أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك.

هواي بغير هدى منك واجعل هواي تهماً لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عاقبة واهدني لهما اختلف فيه من المحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم الم أقف الأوله على أصل، وروى المستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة: كان النبي على يدعو فيقول: «اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يرضيك عنا» ومسلم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل «اهدني لما اختلف فيم» إلى آخر الحديث. بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

وربما استعان بالرابعة (۱)، ولم يأكل بأصبعين ويقول: «إِنَّ ذَٰلِكَ أَكُلَةُ الشَّيْطَانِ، (٢)، وجاءه عثمان بن عفان رضي الله عنه بفالوذج فأكل منه وقال: «مَا لَهٰ لَمَا يَا عَبْدالله؟ قال: بأبي أنت وأمي نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه، ثم نأخذ مغ الحنطة إذا طحنت فنقليه على السمن والعسل في البرمة، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كما ترى، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَهٰذَا الطَّعَامُ طَيْبٌ، (٣)، وكان يأكل الفثاء بالرطب (٥)، وبالملح (٢)، وكان أحب الفواكه الرطبة إليه: البطيخ والعنب (٧)، وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر (٨)، وربما أكله بالرطب (٩)، ويستعين بالبدين جميعاً، وأكل يوماً الرطب في يمينه، وكان يحقظ النوى في يساره، فمرت شاة فأشار إليها بالنوى

 ⁽١) حديث: «استعانته بالرابعة». رويناه في الغيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبدالله العمري هالك
 وفي مصنف ابن أبي شبية من رواية الزهري مرسلاً: «كان النبي ﷺ يأكل بالخمس».

 ⁽٢) حديث: لم يأكل بأصبعين ويقول: وإن ذلك أكلة الشبطان، أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد
 صعيف: ولا تأكل بأصبع فإنه أكل الملوك ولا تأكل بأصبعين فإنه أكل الشياطين. . . » الحديث،

⁽٣) حديث: «جاءه عثمان بن عفان بفالوذج. . . ٩ الحديث.

قلت: المعروف أن الذي صنعه عثمان: الخبيص رواه البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال: «إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان، قدمت عليه عير تحمل النقي والعسل. . . الحديث. وقال عذا منقطع، وروى الطبراني والبيهتي في الشعب من حديث عبدالله بن سلام: أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غراراتان. وفيه: فإذا دقيق وسمن وحسل. وفيه: ثم قال الأصحابه: كلوا هذا الذي تسميه فارس الخبيص. وأما خبر الفالوذج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال: أول ما سمعنا بالفالوذج «أن جبريل أتى النبي على فقال: إن أمتك تفتح عليهم الأرض ويفاض عليهم من الدنبا حتى إنهم ليأكلون الفالوذج، قال النبي على: وما المفالوذج؟ قال: بخلطون السمن والعسل جميعة. قال ابن الجوزي في الموضوعات؛ هذا حديث باطل لا أصل له.

⁽٤) حديث: اكان يأكل خبر الشعير غير منخول. أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد.

 ⁽a) حديث: (كان بأكل القتاء بالرطب). متفق عليه من حديث عبدالله بن جعفر.

 ⁽٦) حديث: «كان يأكل القثاء بالملح»، أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه بحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره،
 ورواه ابن عدي وفيه عباد بن كثير متروك.

٢) حديث. «كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعب». أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من رواية أمية بن زيد العبي: «أن النبي على كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ». وروى أبو الشيخ وابن عدي في الكامل والطبراي في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس: «كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيح بيساره ويأكل الرطب بالبطيخ؛ وكان أحب أحب الماكهة إليه. فيه يوسف بن عطية الصفار مجمع على ضعفه، وروى ابن عدي من حديث عائشة: «كان أحب الفاكهة لرسول الله على الرطب والبطيخ». وله من حديث آخر لها: «فإن خير الماكهة العنب». وكلاهما ضعيف.

⁽A) حديث: «كان يأكل البطيخ بالخبز والسكر». أما أكل البطيخ بالخبز قلم أره وإنما وجدت أكل العنب بالخبز قيما رواه ابن عدي من حديث عائشة مرفوعاً: «عليكم بالمرازمة» قيل يا رسول الله: «وما المرازمة» قال «أكل الخبز مع المنب، قإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام المخبز» وإسناده ضعيف. وأما أكل البطيخ بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من التمر والرطب مشهور قهو الحديث الآتي بعده وإن أريد به السكر الذي هو الطبرزد، قلم أو له أصلاً إلا في حديث منكر معضل، رواه أبو عمر النوقاني في كتاب البطيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين: «أن النبي عليه أكل بطيخاً بسكرة، وفيه موسى بن إبراهيم المروزي كذبه يعيى بن معين.

حديث: «أكل البطيخ بالرطب»، أخرجه الترمذي والنسائي من حديث هائشة وحسنه الترمذي وابن ماجه من حديث سهل بن سعد: «كان يأكل الرطب، بالبطيخ». وهو عند الدارمي بلفظ: «البطيخ بالرطب».

فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة (١) ، وكان ربما أكل العنب فرطاً يُرى زؤانه على لحيته كخرز اللؤلؤ (١) ، وكان أكثر طعامه الماء والتمر (١) ، وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطببين (٤) ، وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول: الهوّ يَزيدُ فِي السّمع وَهُوَ مَيدُ الطعام فِي اللّهْفيا وَالآخِرَةِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُطْعِمنِهِ كُلِّ يَوْمٍ لَفَعَلَ (٥) ، وكان يأكل الثريد باللّحم والقرع (١) ، وكان يأكل الثريد باللّحم والقرع (١) ، وكان يأكل الثريد باللّحم والقرع (١) يحب القرع ويقول: النّها شَجَرَةُ أَخِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١) ، قالت عائشة رضي الله عنها وكان يقول: «يا عَائِشَةُ إِذَا طَبَخْتُمْ قِذْراً فَأَكْثِرُوا فِيها مِنَ اللّبًاءِ فَإِنّهُ يَشُدُّ قَلْبُ الحَرِينِ (١) ، وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد (١) ، وكان لا يتبعه ولا يصيده ، ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله (١) ، وكان إذا أكل اللحم لم

(٦) حديث: «كان يأكل الثريد باللحم والقرع» أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٨) حديث: ﴿يَا عَائِشَةَ إِذَا طَبَخْتُم قَدْراً فَأَكْثُرُوا فِيها مِن اللَّهَاء فإنها تشد قلب الحزين، رويناه في فوائد أني بكر الشافعي.

(٩) حديث: «كان يأكل لحم الطير الذي يصاده. أخرجه الترمذي من حديث أنس قال: كان عند النبي على طير فقال:
 «اللهم اثنني بأحب الخلق إليك يأكل معي هذا الطير» فجاء علي فأكل معه، قال: حديث غريب.

قلت: وله طرق كلها ضعيفة.

وروى أبو داود والترمذي واستغربه مل حديث سفينة قال: ﴿أَكُلُتُ مِعَ الْسِي ﷺ لحم حبارى!.

١٠٠) حديث: (كان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيؤتى به فيأكله».

قلت: هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال: قمن تبع الصيد فقل».

⁽١) حديث: «استمانته باليدين جميعاً فأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصوفت الشاة». أما استمانته بيديه جميعاً فرواه أحمد من حديث عبدالله بن جعفر قال: «آخر ما رأيت من رسول الله ﷺ في إحدى يديه رطبات وفي الأخرى قثاء يأكل من هذه ويعض من هذه». وتقدم حديث أنس في أكله بيديه قبل هذا شلائة أحاديث وأما قصته مع الشاة فرويناها في فوائد أبي بكر الشافعي من حديث أنس بإسناد ضعيف.

 ⁽٢) حديث الربما أكل العنب فرطاً... الحديث. أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث العباس والعقيلي في الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصراً وكلاهما ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «كان أكثر طعامه الماء والتمر». أخرجه البخاري من حديث عائشة: «توفي رسول الله ﷺ وقد شبعنا من الأسودين الثمر والماء».

⁽٤) حديث: «كان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطببين» أخرجه أحمد من رواية إسماعيل بن أبي خالد عن أبيه قال: «دخلت على رجل وهو يجمع لبناً بتمر وقال: ادن فإن رسول الله ﷺ سماهما الأطببن» ورجاله ثقات وإبهامه لا يضر.

العديث: كان أحب العلمام إليه اللحم ويقول: «هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل، أخرجه أبو الشيخ من رواية ابن سمعان قال: سمعت من علمائنا يقولون: «كان أحب الطعام إلى رسول الله على اللحم...» الحديث والترمذي في الشمائل من حديث جابر: أتانا النبي في منزلنا فذبحنا له شاة فقال: «كأنهم علموا أنا تحب اللحم» وإساده صحيح وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بإستاد ضعيف: «سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم».

 ⁽٧) حديث: كان يحب القرع ويقول: «إنها شجرة أخي يونس! أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أنس: «كان النبي ﷺ يحب القرع». وقال النسائي: الدباء، وهو عند مسلم بلفظ: تعجبه وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يونس: فلفظته في أصل شجرة، وهي اللباء.

رواه أبو داود والنسائي والترمدي من حديث ابن عباس وقال: حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبراني: "قد كانت قبلي نه وسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد» فهو ضعيف جداً.

يطأطىء رأسه إليه ويرفعه إلى فيه ثم ينتهشه انتهاشاً^(۱)، وكان يأكل الخبز والسمن^(۲)، وكان يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة ^(۲)، ودعا في العجوة بالبركة وقال: في مِنَ الجَنَّةِ وَشِفَاءً مِنَ السُّمِّ وَالسَّحْرِه ^(۱)، وكان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء التي يقال لها الرجلة ^(۵)، وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول ^(۲)، وكان لا يأكل من الشاة سبعاً الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدد والحيا والدم، ويكره ذلك (۷)، وكان لا يأكل الثوم

- (١) حديث: «كان إذا أكل اللحم لم يطأطى» رأسه إليه ورفعه إلى فيه رفعاً ثم نهشه». أخرجه أبو داود من حديث صفران بن أمية قال: كنت آكل مع النبي ﷺ فأخذ اللحم من العظم فقال: «ادن اللحم من قبك فإنه أهنى وأمرأ» والترمذي من حديث: «انهش اللحم نهشاً فإنه أهنى وأمرأ» وهو منقطع والذي قبله منقطع أيضاً. وللشيخين من حديث أبي هريرة: فتناول الذراع فنهش منها نهشة. . . » الحديث.
- ٣) حديث: «كان يأكل الخبز والسمن». مثفق عليه من حديث أنس في قصة طويلة فيها: «فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففت وعصرت أم سليم عكة فأدمته...» الحديث. وفيه: «ثم أكل النبي ﷺ وفي رواية ابن ماجه: قصنعت فيها شيئاً من سمن، ولا يصح، وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عمر: «وددت أن عندي خبزة بيضاء من بر سمراء ملبقة بسمن...» الحديث. قال أبو داود: مكر.
- حديث: «كان يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة»، ودوى الشيخان من حديث أبي هريرة قال: «وضعت بين يدي النبي في قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكانت أحب الشاة إليه...» الحديث. وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس: «كان أحب اللحم إلى رسول الله الكنم»، وإسناده ضعيف ومن حديث أبي هريرة: «لم يكن يعجبه من الشأة إلا الكتف». وتقدم حديث أنس: «كان يحب اللدباء». قبل هذا بستة أحاديث ولأبي الشيخ من حديث أنس: «كان أحب الطعام إليه الدباء». وله من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف: «كان أحب الصباغ إلى رسول الله في الخل». وله بالإسناد المذكور: «كان أحب التمر إلى رسول الله الله المناء». وله بالإسناد المذكور: «كان أحب التمر إلى رسول الله في المخل».
- إ) حديث: دعا في المجوة بالبركة وقال "هي من المجنة وشفاء من السم والسحر". أخرجه البزار والطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن الأسود قال: «كنا عند رسول الله في وقد سدوس فأهدينا له تمرأ". وفيه: حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذامي فقال: «بارك الله في الجذامي وفي حليقة خرج هذا منها. . .» الحديث قال أبو موسى المديني: قبل هو تمر أحمر والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة: «المجوة من المجنة وهي شفاء من السم»، وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص " «من تصبح بسبع ثمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر».
- ه) حديث: اكان يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء ، التي يقال لها الرجلة رواه أبو نعيم في الطب البوي من حديث ابن عباس: «عليكم بالهندباء فإنه ما يوم إلا ويقطر عليه قطرة من قطر البعنة، وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة، وأما الباذروج فلم أجد فيه حديثاً وأما الرجلة فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال: مرّ النبي على بالرجلة وهي رجله قرحة دداواها بها هبرئت فقال رسول الله ينهم المبارك الله فيك اتبتي حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناه الصداع وهذا مرسل ضعيف.
- (٣) حديث: «كان يكره الكليتين لمكانهما من البول». رويناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبيدالله بن الشحير من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن علي العدوي أحد الكذابين.
- (٧) حديث: «كان لا يأكل من الشاة الذكر والأنتبين والمثانة والمرارة والغدة والحيا والدم». أخرجه ابن عدي ومن طريقه
 البيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ورواه البيهقي من رواية مجاهد مرسلاً.

ولا البصل ولا الكراث (1)، وما ذم طعاماً قط، لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه، وإن عاقه لم يبغضه إلى غيره (٢). وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما (٣). وكان يلعق بأصابعه الصحفة ويقول: «آخِرُ الطُّعَامِ أَكْثَرُ بَرَكَةٌ» (٤)، وكان يلعق الصنعين اصابعه من الطعام حتى تحمر (٥)، وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول: «إنه لا يندي في أي الطعام البركة» (٦)، وإذا فرغ قال: «الحَمْدُ لله اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَيْ المَّمْدُ فَيْرَ مَكُفُورٍ وَلاَ مُودِّعٍ وَلاَ مُسْتَغْتَى عَنْهُ (٧)، وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلاً جيداً، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه (٨)، وكان يشرب في ثلاث دفعات، وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات (٩)، وكان يمص الماء مصاً ولا يعب عباً (١٠٠)، وكان

(۲) حديث: «ما ذم طعاماً قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عاقه لم يبغضه إلى غيره». تقدم أول الحديث، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر في قصة الضب فقال: «كلو! فإنه ليس بحرام ولا بأس به ولكنه ليس من طعام قومي».

(٣) حديث: «كان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهم». أما الضب ففي الصحيحين عن ابن هباس: الم يكن بأرض قومي فأجدتي أحاقه، ولهما من حديث ابن عمر: «أحلت ثنا ميتنان ودمان» وقيه اأما الدمان: قالكيد والطحال»، وللبيهقي موقوفاً على زيد بن ثابت «إني لأكل الطحال وما بي إليه حاجة إلا ليعلم أهلي أنه لا بأس به».

(٤) حديث: كان يلعق الصحفة ويقول: "آخر الطمام أكثر بركة"، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر في حديث قال فيه: «ولا ترفع القصمة حتى تلمقها ـ أو تلعقها ـ قإن آخر الطعام فيه البركة"، ومسلم من حديث أنس: أمرنا أن نسلت الصحفة وقال: «إن أحدكم لا يدري أي طعامه يبارك له فيه»?.

(a) حديث: اكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر ٩. أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك دون قوله: حتى تحمر ،
 فلم أقف له على أصل.

(٦) حديث: كان لا يمسح يده بالمناديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول: «إنه لا يدري في أي أصابعه البركة» أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك: «أن النبي على كان لا يمسح يده حتى ينعقها» وله من حديث جابر: «فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة؟٩. وللبيهقي في الشعب من حديثه: ولا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق بله فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه٤.

(٧) حديث: وإذا فرغ قال: «اللهم لك الحمد أطمعت وأشبعت وسقيت وأرويت تك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستقنى صنه. أخرجه الطبراني من حديث الحارث بن الحارث بسند ضعيف. وللبخاري من حديث أبي أمامة: كان إذا فرغ من طعامه قال: «الحمد لله الذي كفانا وآواتا غير مكفي ولا مكفور» وقال مرة: «المحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى صنه ربنا».

(A) حديث: «كان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل بديه قسلاً حيداً، ثم يمسح نفضل الماء على وجهه» أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف: «من أكل من هذه اللحوم شيئاً فليفسل بنه من ربح وضوه لا يؤذي من حدامه».

(٩) حديث: اكان يشرب في ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات، وفي آخرها ثلاث تحميدات؟ أخرجه الطبراني في
الأوسط من حديث أبي هويرة ورجاله ثقات ومسلم من حديث أنس: «كان إذا شرب تنفس ثلاثاً».

(١٠) حديث: اكان يمص الداء مصاً ولا يعبه عياً. أخرجه البغوي والطبراي وابن عدي وابن قانع وابن منده وأبو نعيم في
 الصحابة من حديث بهز: «كان يستال عرضاً ويشرب مصاً». وللطبراي من حديث أم سلمة: «كان لا يعب»، ولأبي
 الشيخ من حديث ميمونة: «لا يعب ولا يلهث». وكلها ضعيفة.

⁽١) حديث: «كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث». أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسلا ووصله الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري عن أنس، وفي الصحيحين من حديث جابر: «أتى بقدر قبه حضرات من بقول فوجد لها ريحاً...» الحديث. وفيه قال: «فإتي أتاجي من لا تناجي» ولمسلم من حديث أبي أيوب في قصة بعثه إليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال: «إني أكرهه من أجل ريحه».

يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه (١)، فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه: «السُّنَةُ أَنْ تُعْطَىٰ فَإِنْ أَحْبَبْتَ آفَرْتَهُمْ» (١)، وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ (١). وكان لا يتنفس في الإناء بل يتحرف عنه (١)، وأتي بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال: «شُرْبَتَانِ فِي شُرْبَةٍ وَإِدَامَانِ فِي إِنَاءٍ وَاحِدِ؟ (٥)، ثم قال ﷺ: «لاَ أُحَرِّمُهُ وَلَٰكِنِي أَكْرَهُ الفَحْرَ وَالحِسَابَ بِغُضُولِ النَّنْيا غَداً وَأُحِبُ التَّوَاضُعَ فَإِنَّ وَالحِسَابَ بِغُضُولِ النَّنْيا غَداً وَأُحِبُ التَّوَاضُعَ فَإِنَّ مَنْ تَوَاضَعَ للهُ رَفَّهُ الله عليهم؛ إن مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَّكُ الله عليهم الله عليهم؛ إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب (١)، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب (٧).

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس:

كان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك (^)، وكان يعجبه

⁽١) حديث: اكان يدفع فضل سؤره إلى من عن يمينه ا. متفق عليه من حديث أنس.

 ⁽۲) حدیث: «استثذانه من علی یمینه إذا كان علی بساره أجل رتبة». متفق علیه من حدیث سهل بن سعد.

 ⁽٣) حديث: اشربه بنفس واحدا، أخرجه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف، وللحاكم من حديث أبي قتادة وصححه: «إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحدا، ولعل تأويل هذين الحديثين على توك التنمس في الإناء والله أعلم.

 ⁽٤) حديث: «كان لا يتنفس في الإناء حتى ينحرف عنه». أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة: «ولا يتنفس أحدكم من
 الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس» وقال: حديث صحيح الإسناد.

 ⁽a) حديث أتي بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال: «شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد. . . ٩ الحديث، رواه البزار من حديث طلحة بن عبيدالله دون قوله: «شربتان في شربة» إلى آخره وسنده ضعيف.

⁽٣) حنيث: «كان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا بتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وما اطعموه قبل وما سقوه شربه. ورواه الشيخان من حديث أبي سعيد: «كان أشد حياء من العذراء في خدرها...» الحديث. وقد تقدم. وأما كونه كان لا يسألهم طعاماً فإنه أراد أي طعام بعينه من حديث عائشة: أنه قال ذات يوم: «يا عائشة هل عندكم شيء؟» قالت: فقلت: ما عندنا شيء؟ الحديث. وفيه: قلما رجع قلت أهديت لنا هدية، قال: «ما هوه؟ قلت: حيس، قال «هاتيه» وفي رواية للنسائي: «وأصبح عندكم شيء تطعمينيه؟» ولأبي داود: «هل عندكم طعام؟» والترمذي «أعندك فقاه؟» وفي الصحيحين من حديث عائشة: فدعا بطعام فأتي بحيز وأدم من أدم البيت فقال: «ألم أر برمة على النار فيها لحم؟...» الحديث، فليس في قصة بريرة إلا فيها لحم؟...» الحديث، وفي رواية لمسلم. «لو صنعتم لنا من هذا اللحم...» الحديث، فليس في قصة بريرة إلا الاستمهام والرصا، والحكمة فيه بيان الحكم لا التشهي والله أعلم، وللشيخين من حديث أم الفضل: «أنها أرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على يميره فشربه». ولأبي داود من حديث أم هانيه: «فجاءت الوليلة بإناء فيه شراب فتناوله فشرب منه». وإسناده حسن.

 ⁽٧) حديث: ﴿وكان ربما قام فأخذ ما يأكل أو يشرب بنفسه ٩، أخرجه أبو داود من حديث أم المنفر بنت قيس: ﴿دخل علي رسول الله ﷺ فأكل منه ١٠٠ الحديث، وإسناده حسن وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث كشة: ﴿دخل علي رسول الله ﷺ في قربة معلقة قائماً ١٠٠ الحديث، بيال آدابه وأخلاقه في اللباس

⁽A) حديث: «كان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداه أو قميص أو جنة أو غير ذلك». أخرجه الشيخان من حديث عائشة: «أنها أخرجت إزاراً مما يصنع باليمن وكساء من هذه الملبدة فقالت: في هذا قبض رسول الله على وواية: «إزاراً غليظاً»، ولهما من حديث أنس: «كنت أمشي مع رسول الله على وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية...» الحديث لفط مسلم وقال البخاري: برد نجراني، وابن ماجه بسند ضعيف من حديث ابن عباس: «كان رسول الله على يلبس قميصاً قصير البدين والطول». وأبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث أم سلمة: «كان رسول الله على يلبس قميصاً قصير البدين والطول». وأبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث أم سلمة: «كان»

الثياب الخضر، وكان أكثر لباسه البياض ويقول: «أَلْبِسُوهَا أَحْيَاءَكُمْ وَكَفْتُوا فِيها مَوْتَاكُمُ، (``، وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب ('`)، وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه ('`)، وكانت ثيابه كلها مشمرة قوق الكعبين، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق (')، وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها (')، وكانت له ملحقة مصبوغة بالزعقران، وربما صلى بالناس فيها وحدها ('')، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره ('')، وكان له كساء ملبد يلبسه

- أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص؟. ولأبي داود من حديث أسماء بنت يزيد: «كانت يد قميص رسول الله ﷺ
 إلى الرسف؟. وفيه شهر بن حوشب محتلف فيه وتقدم قبل هذا حديث: «الجبة والشملة والحبرة».
- (١) حديث: كان أكثر لباسه البياض ويقول: «البسوها أحياءكم وكفتوا فيها موتاكم» أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس: «خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفتوا فيها موتاكم» قال الحاكم: صحيح الإسناد وله ولأصحاب السنن من حديث سمرة: «عليكم بهذه الثياب البياض فيلبسها أحياؤكم وكفتوا فيها موتاكم». لفظ الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الترمذي: حسن صحيح.
- (٢) حديث: «كان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب» أخرجه الشيخان من حديث المسور بن مخرمة: «أن النبي ﷺ قدمت عليه أقبية من ديباج مزرر بالذهب...» الحديث. وليس في طرق الحديث لبسها إلا في طريق علقها البخاري قال: فخرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب...» الحديث. ولمسلم من حديث جابر: «لبس النبي ﷺ يوماً قباء من ديباج أهدي له ثم نزعه...» الحديث.
- (٣) حديث. «كان له قباء سدس فيلبسه. . . الحديث. أحرجه أحمد من حديث أنس: «أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ جبة سندس أو دبياج قبل أن ينهى عن الحرير فليسها» . والحديث في الصحيحين وليس فيه أنه لبسها وقال فيه: «وكان ينهى عن الحرير»، وعند الترمذي وصححه النسائي أنه لبسها ولكنه قال: «بجبة دبياج منسوجة فيها الذهب».
- (3) حديث: «كانت ثيابه كلها مشمرة قوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق». رواه أبو الفضل محمد بن طاهر في كتاب صفرة التصوف من حديث صدالله بن بسر: «كانت ثياب رسول الله ﷺ إزاره فوق الكعبين وقميصه فوق ذلك، ورداؤه فوق ذلك»، وإسناده ضعيف والحاكم وصححه من حديث ابن عباس: «كان يلبس قميصاً فوق الكعبين...» الحديث. وهو عنده بلفظ: قميصاً قصير اليدين والطول وعندهما الترمذي في الشمائل من رواية الكعبين...» الحديث عمتي تحدث عن عمها فذكر النبي ﷺ وقيه: «فإذا إزاره إلى نصف ساقه»، ورواه النسائي وسمى الصحابي عبيد بن خالد واسم عمه الأشعث وهم بيت الأسود ولا يعرف.
- (٥) حديث. «كان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها» رواه أبو داود والبيهقي والترمذي في الشمائل من رواية معاوية بن قرة بن إياس عن أبيه قال: «أتيت البي ﷺ في رهط من مرينة وبايعناه وأن قميصه لمطلق الأزرار». وللبيهقي من رواية زيد بن أسلم قال: «رأيت ابن عمر يصلي محلولة أزراره فسألته عن ذلك فقال: رأيت رسول الله ﷺ يفعله»، وفي العلل للترمذي أنه سأل البخاري عن هذا الحديث فقال: أنا أتقي هذا الشيخ كأن حديثه موضوع يعني زهير بن محمد رواية عن زيد بن أسلم قلت: تابعه عليه الوليد بن مسلم عن زيد. رواه ابن خزيمة في صحيحه، وللطبراني من حديث ابن عباس بإستاد ضعيف: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي محتبياً محلل الأزرار».
- (٣) حديث: «كان له ملحفة مصبوخة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها». أخرجه أبو داود والترمذي من حديث قبلة بنت مخرمة قالت: «رأيت النبي ﷺ وعليه أسمال ملاءتين كانتا يزعفران». قال الترمذي: لا نعرفه إلا من عبدالله بن حسان. قلت: ورواته موثقون وأبو داود من حديث قيس بن سعد: فاغتسل ثم ناوله أبو سعد ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها. الحديث، ورجاله ثقات.
- (٧) حديث: «ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره». رواه ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثانت بن الصامت: «أن
 النبي ﷺ صلى في بني عبد الأشهل وعليه كساء متلفف به...» الحديث. وفي رواية البزار في كساء.

ويقول: «إِنَّمَا أَنَا هَيْدُ أَلْبَسُ كَمَا يَلْبَسُ الْعَبْدُه (۱)، وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة (۲)، وربما لبس الإزار الواحد لبس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه (۲)، وربما أمّ به الناس على الجنائز (۱)، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه، ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ (۵)، وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك (۱)، ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة: بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود? فقال: «كَسَوْتَهُ» فقالت ما رأيت شيئاً قط كان أحسن من بياضك على سواده (۷). وقال أنس: وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقداً بين طرفيه (۱)، وكان يتختم (۱)، وربما

- (١) حديث: كان له كساء ملبد يلبسه ويقول: «أنا حبد ألبس كما بلبس العبد» أخرجه الشيخان من رواية أبي بردة قال: «أخرجت إلينا عائشة كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: في هذين قبض رسول الله على وللبخاري من حديث عمر: «إنما أنا عبد» ولعبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب السختياني مرفوعاً معضلاً: «إنما أنا عبد آكل كما بأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد». وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة. متصلاً.
- (٢) حديث: «كان له ثوبان لجمعته خاصة . . ، الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد: «فإذا انصرف طويناهما إلى مثله». ويرده حديث عائشة عمدابن ماجه: «ما رأيته يسب أحداً ولا يطوى له ثوب».
- (٣) حديث: «ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره نعقد طرفيه بين كتفيه». أخرجه الشيخان من حديث عمر في حديث اعتزاله أهله: «فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره». وللبخاري من رواية محمد بن المنكدر: «صلى بنا جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعة على المشجب» وفي رواية له اوهو يصلي في ثوب ملتحفاً به ورداؤه موصوع» وفي: «رأيت النبي ﷺ يصلي هكذا».
 - (٤) حديث: اربما أمّ به الناس على الجنائز". لم أقف عليه.
- (٥) حديث: اربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومثذه أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال: الدخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ في ثوب ثوب واحد فقلت: يا أم حبيبة أيصلي النبي ﷺ في الثوب الواحد؟ قالت: نعم، وهو الذي كان فيه ما كان م تعني الجماع، ورواه الطبراني في الأوسط.
- (٦) حديث: «ربما كان يصلي بالليل ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلتي البقية على بعض نسائه، أخرجه أبو داود من حديث عائشة: «أن النبي ﷺ صلى في ثوب بعضه علي» ولمسلم: «كان يصلي في الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعليّ مرط بعضه على رسول الله ﷺ.
- وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هبدالرحمن حاضن عائشة: رأيت النبي ﷺ وعائشة يصليان في ثوب واحد نصفه على النبي ﷺ ونصفه على عائشة. وسنده ضعيف.
- (٧) حديث: «كان له كساء أسود قوهبه فقالت له أم سلمة: بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء؟... الحديث. لم أقف عليه من حديث أم سلمة. ولمسلم من حديث عائشة: قطرج النبي على وهليه مرط مرحل أسود، ولأبي داود والنسائي: «صنعت للنبي على بردة سوداء من صوف قلبسها... الحديث، وزاد فيه ابن سعد في الطبقات: "فذكرت بياض النبي على وسوادها»، ورواه الحاكم بلفظ: جبة. وقال: صحيع على شرط الشيخين.
- (A) حديث أنس: «ربما رأيته يصلي منا الظهر في شملة عاقداً بين طرفيها». أخرجه البزار وأبو يعلى بلفظ: «صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه». وللبزار: «خرج في مرضه الذي مات فيه مرتدياً بثوب قطن فصلى بالناس» وإسناده صحيح. وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت: «صلى في شملة قد عقد عليها». وفي كامل ابن عدي: «قد عقد عليها هكذا ـ وأشار سفيان إلى قفاه ـ وفي جزء النطريف: «فعقدها في عنقه ما عليه غيرها». وإسناده ضعيف.
 - (٩) حديث: الكان يتختم. أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر وأنس.

خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء (١) وكان يختم به على الكتب ويقول: الخاتم على الكتاب خير من التهمة (٢) وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها (٣)، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهثه (٤)، وكانت له عمامة تسمى: السحاب، فوهبها من علي فربما طلع علي فيها فيقول ﷺ: «أَتَاكُمُ عَلِيّ فِي السَّحَابِ (٥)، وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه (٢)، ويقول: «التحمَدُ ثه الذِي كَسَانِي مَا أُوارِي بِهِ حَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي النَّاسِ (٧)، وإذا نزع ثوبه وأخرجه من مياسره (٨)، وكان إذا لبس جديداً أعلى خلق ثيابه مسكيناً ثم يقول: «مَا مِسَ مُسْسِلِهِ مُسْلِماً مِنْ سَمِلِ ثِبَابِهِ لاَ يَكُسُوهُ إلاَّ لله إلاً أعلى خلق ثيابه مسكيناً ثم يقول: «مَا مِسَ مُسْسِلِهِ مُسْلِماً مِنْ سَمِلِ ثِبَابِهِ لاَ يَكُسُوهُ إلاً لله إلاً كَانَ فِي ضَمَانِ الله وَجَرْدِهِ وَخَيْرِهِ مَا وَارَاهُ حَيَّا وَمَيْناً (٢)، وكان له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان

⁽¹⁾ حديث: اربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيءا. أخرحه ابن عدي من حديث واثلة بسند ضعيف: «كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطاً». وزاد الحارث من أبي أسامة في مسنده من حديث ابن عمر ' ليذكره به. وسنده ضعيف.

⁽Y) حديث: كان يختم به على الكتب ويقول: «المخاتم على الكتاب خير من التهمة» أخرجه الشيخان من حديث أنس:
«لما أراد النبي على الكتب إلى الروم قالوا: إنهم لا يقرؤون إلا كتاباً مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة . . . المحديث والنسائي والترمذي في الشمائل من حديث ابن عمر: «اتخذ خاتماً من فضة كان يختم به ولا يلبسه». وسنده صحيح وأما قوله: «المخاتم على الكتاب خير من التهمة» فلم أقف له على أصل.

⁽٣) حديث: عكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها». أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر: «كان رسول الله على المسوة بيضاء». ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس: «كان لرسول الله الله ثلاث ثلانس، قلنسوة بيضاء مضربة وقلنسوة ورد حبرة وقلنسوة ذات آدان يلبسها في السعر فربما وضعها بين يديه إذا صلى وإسنادهما ضعيف. ولأبي داود والترمدي من حديث ركانة: «مرق ما بينا وبين المشركين العمائم على القلائس». قال الترمدي: غريب وليس إسناده بالقائم.

⁽٤) حديث: «ربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته». أخرجه من حديث ابن عباس: «صعد رسول الله على المنبر وقد عصب رأسه بعصابة دسماء. . . » الحديث.

 ⁽٥) حديث: كانت له همامة تسمى السحاب فوهبها من علي فريما طلع علي فيها فيقول ﷺ: التاكم هلي في السحاب.
 أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جداً، ولأبي تعبم في دلائل النبوة من حديث عمر في أثناء حديث عمامته السحاب... الحديث.

⁽٩) حديث: «كان إذا لبس ثوماً يلبسه من قبل ميامنه». أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد احتلف في رفعه.

 ⁽٧) حديث: «الحمد أله الذي كسائي ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس؛ أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه
 والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب.

 ⁽A) حديث: «كان إذا نزع ثويه خرج من مياسره». أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر: «كان إذا لبس شيئاً من الثباب
بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ بالأيسر». وله من حديث أنس. «كان إذا ارتدى أو ترجل أو انتعل بدأ بيمينه وإذا خلع بدأ
بيساره». وسندهما ضعيف وهو في الانتمال في الصحيحين من حديث أبي هريرة من قوله لا من فعله.

حديث: «كان له ثوب لجمعته خاصة» الحديث. تقدم قريباً بلفظ: «ثوبين».

(٩) حديث: كان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ثم يقول: «ما من مسلم يكسو مسلماً. » الحديث، أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب من حديث عمر قال: رأيت رسول الله ﷺ دعا شيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال: «المحمد لله الذي كسائي ما أتجمل به في حياتي وأواري به صورتي، ثم قال: «ما من مسلم يلبس ثوياً قال: «الحديث، دون ذكر: «تصدقه ﷺ بثيابه» وهو عند الترمذي وامن ماجه دون ذكر: «لبس النبي ﷺ لثيابه» وهو أصح وقد تقدم، قال البيهقي: وهو غير قوي.

أو نحوه، وعرضه ذراع وشبر أو نحوه (۱)، وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تُثنى طاقين تحته (۲)، وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره (۱)، وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه، وكان اسم رايته: العقاب. واسم سيفه الذي يشهد به الحروب: ذو الفقار. وكان له سيف يقال له: المخذم، وآخر يقال له: المخذم،

وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة (ه)، وكان اسم قوسه: الكتوم، وجعبته الكافور (٢٠). وكان اسم ناقته: القصواء _ وهي التي يقال لها: العضباء _، واسم بغلته: الدلدل، وكان اسم

 ⁽١) حديث: اكان له فراش من أدم حشوه ليف. . . ٤ الحديث. متفق عليه من حديث عائشة مقتصراً على هذا دون ذكر:
 عرصه وطوله. ولأبي الشيخ من حديث أم سلمة: (كان فراش النبي ﷺ نحو ما يوضع الإنسان في قبره). وفيه: من
 لم يسم.

⁽٢) حديث: «كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل نفرش طاقين تحته». أخرجه ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة: «دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله على عباءة مثنية . . . الحديث، ولأبي سعيد عنها: «أنها كانت تفرش للنبي على عباءة باثنين . . . الحديث، وكلاهما لا يصح والترمذي في الشمائل من حديث حفصة: «وسئلت ما كان فراشه؟ قالت: مسح نثنيه اثنين فينام عليه . . . ، الحديث، وهو منقطع .

⁽٣) حديث. «كان بنام على الحصير ليس تحته شيء غيره». متفق عليه من حديث عمر: في قصة اعتزال ألنمي ﷺ نساءه.

حديث: «كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومناعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الغفار وكان له سيف يقال له: المخدوم وآخر يقال له: الرسوب وآخر يقال له: القضيب وكان قبضة سيفه محلاة بالفضة». أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس: «كان لرسول الله علية سيف فائمته من فضة وقبيعته من فضة وكان يسمى: ذا الفقار، وكانت له قوس تسمى: السداد، وكانت له كنانة تسمى: الجمع، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى: ذات الفضول، وكانت له حربة تسمى: التبعة، وكانت له مجن تسمى: الدفن، وكان له ترس أبيض يسمى: موجزاً، وكان له فرس أدهم يسمى: السكب، وكان له سرج يسمى: الداج المؤخر، وكان له بغلة شهباء يقال له: الدلدل، وكانت له ناقة تسمى: القصواء، وكان له حمار يسمى: يعقور، وكان له بساط يسمى: الكر، وكانت له عنزة تسمى النمر، وكانت له ركوة تسمى: الصادر، وكانت له مرآة تسمى: المرآة، وكان له مقراض يسمى: الجامع، وكان له قضيب شوحط يسمى: الممشوق». وفيه علي بن غررة الدمشقي نسب إلى وضع الحديث. ورواه اس عدي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء تسمى: العقاب» ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسلاً وله من حديث علي بن أمي طالب: «كان اسم سيف رسول الله ﷺ ذو الفقار». أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس: "أنه ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر" والحاكم من حديث علي في أثناء حديث وسيفه ذو الفقار وهو ضعيف، ولابن سعد في الطبقات من رواية مروان بن أبي سعيد بن المعلى مرسلاً قال ﴿ فَأَصَابِ رسول أله ﷺ من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف: سيف قلمي وسيف يدعى: بتارأ وسيف يدعى. الحتف، وكان عنده بعد ذلك المخذم ورسوب أصابهما من القلسَّ، وفي سنده الواقدي، وذكر ابن أبي حيثمة في تاريخه: أنه يقال إنه ﷺ قدم المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما: «العضب شهد به بدراً» ولأبي داود والترمذي وقال حسن، والنسائي وقال: منكر من حديث أنس: «كانت قبيعة سيف رسول الله ﷺ فضة».

 ⁽a) حديث: «كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة» لم أقف له على أصل، ولابن سعد في الطبقات وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسلاً: «كان في درع النبي ﷺ حلقتان من فضة».

حديث: «كان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور». ثم أجدله أصلاً وقد تقدم في حديث ابن عباس: «أنه كانت له قوس تسمى:
السداد، وكانت له كنانة تسمى الجمع»، وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه: «أخذ رسول الله ﷺ يوم أحد من سلاح بني قينقاع
ثلاثة قسي، وقوس اسمها: الروحاء، وقوس شوحط تدعى: البيضاء، وقوس صفراء ثدعى: الصفراء من سبع».

حماره: يعقور، واسم شاته التي يشرب لبنها: عينة (١)، وكان له مطهرة من فخار؛ يتوضأ فيها ويشرب منها (٢)، فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله ﷺ فلا يدفعون عنه، فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ويبتغون بذلك البركة.

بيان عفوه ﷺ مع قدرته:

⁽¹⁾ حديث: اكان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها: العضاء، واسم بغلته: الدلدل، واسم حماره: يعفور، واسم شاته التي يشرب لبنها: عينة، تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبراني، وللبخاري من حديث أنس: اكان للنبي يشخانقة يقال لها: العضباء، ولمسلم من حديث جابر في حجة الوداع: «ثم ركب القصواء» والحاكم من حديث علي: «ناقته القصواء وبغلته دلدل وحماره عفير...» الحديث، ورويناه في فوائد ابن الدحداح فقال: الحماره يعفور وفيه شاته بركة، والبخاري من حديث معاذ: «كنت ردف النبي بي على حمار يقال له: عفير، ولابن سعد في الطبقات من رواية إبراهيم بن عبدالله من ولد عنبة بن غزوان: «كانت مناتح رسول الله بي من الغنم سبعاً: عجوة وزمزم وسقيا ويركة ورشة وإهلال وأطراف، وفي سده الواقدي وله من رواية مكحول مرسلاً: «كانت له شاة تسمى: قمره.

⁽٢) حديث: اكاتت له مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب فيها». الحديث. لم أقف له على أصل.

بيان عقوه مع القدرة

⁽٣) حديث: كان أحلم الناس. تقدم.

 ⁽٤) حديث: ﴿أَتِي بقلائد من ذهب وقضة فقسمها بين أصحابه. ، ١ الحديث. أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد.

 ⁽a) حديث جابر: اأنه كان يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل: يا نبي الله اعدل. . . ٤ الحديث.
 رواه مسلم.

 ⁽٩) حديث: (كان في حرب فرئي في المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف...١ الحديث، متفق عليه من حديث جابر بنحوه، وهو في مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسمى الرجل غورث بن الحارث.

ليسلطك على ذلك، قالوا: أفلا تقتلها؟ فقال: الاالان، وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد، فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط (٢٠). وقال على رضي الله عنه: بعثني رسول الله على أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأنينا به النبي على فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر رسول الله على فقال: إلى حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امراً ملصقاً في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعل ذلك كفراً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتداداً عن ديني، فقال رسول الله على: "إنه صَدَقَكُمُه. فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال على: "أنه شهذ بَنْراً، وَمَا يُنْريكُ لَعَلُ أَهُلُ قله الحَلْمَ عَلَى أَهُلُ الله عَرْ وَجَلُ قله اطَلْمَ عَلَى أَهُلُ الله عَرْ وَجَلُ قله الله عَلَى مُوسَلَى قَدْ وَلَكُ للنبي يَلِي فاحمر وجهه وقال: "رَحِمَ الله أخِي مُوسَلَى قَدْ أُونِي بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ"، وكان عَلَى الله يَلِي فاحمر وجهه وقال: "رَحِمَ الله أخِي مُوسَلَى قَلْمُ أَونَا مَلِيمُ الصَلْمِ".

بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه:

كان رسول الله رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن، يعرف في وجهه غضبه ورضاه^(٢)، وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة^(٧)، وكان لا يشافه أحداً بما يكرهه. دخل عليه رجل وعليه

بيان إفضائه ﷺ عما يكرهه

⁽١) حديث أنس: «أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة...» الحديث. رواه مسلم وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة.

 ⁽۲) حديث: السحره رجل من اليهود فأخره جبريل بذلك حتى استخرجه. . . ١ الحديث. أخرجه النسائي بإسناد صحيح
من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر.

 ⁽٣) حديث علي «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد وقال: «انطلقوا حتى تأثوا روضة خاخ...» الحديث. متفنى عليه.

⁽٤) حديث: اقسم رسول الله ﷺ قسمة فقال رجل من الأنصار: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. . . ٥ . الحديث، متفق عليه من حديث ابن مسعود.

 ⁽٥) حديث: الا ببلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر؟. أخرجه أبو
 داود والترمذي من حديث ابن مسعود وقال: فريب من هذا الوجه.

حديث الكان رقيق البشرة لطيف الظاهر يعرف في وجهه غضبه. أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر: الكان رسول الله بعلية يعرف رضاه وغضبه بوجهه. . ٤ الحديث. وقد تقدم.

 ⁽٧) حديث: «كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة. . . ٩ الحديث. وقد تقدم. أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن.

صفرة فكرهها فلم يقل له شيئاً حتى خرج فقال لبعض القوم فلو قُلْتُمْ لِهَلْا أَنْ يَدَعُ هَلِهِ الْ عني : الصفرة وبال أعرابي في المسجد بحضرته فهم به الصحابة فقال عليه الأ تُوْرِمُوهُه أي: لا تقطعوا عليه البول ثم قال له: فإن هٰلِهِ المَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنَ الْقَدْرِ وَالبَوْلِ وَالجَوْلِ") وفي رواية : «فَرْبُوا وَلاَ تَنَفُرُوا». وجاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه على ثم قال له: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، قال: فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال النبي على حَتَّىٰ يَلْهَبَ مِنْ صُلُورِهِمْ مَا فِيها هَلَيْكَ، قال: نعم، فلما كان الغد فقل بَينَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَينَ يَدَيْعُ حَتَّىٰ يَلْهَبَ مِنْ قَلْلَ مَا قَالَ فَرْدَنَاهُ فَرْعَمُ أَلُهُ رَضِيَ أَكُلْكَ؟» فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل الأعرابي ومَنْ مَلُورِهِمْ مَا فِيها هَلَيْكَ، قال: نعم، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي عَلَيْهِ فَلْتُهُمْ يَلْهُ مَنْ قَالَ غَنْ اللهُ مُنْ أَنُونُ مُثَلِق وَمَثَلُ هُذَا الأَعْرَابِيّ كَمَنُل وَبِي كَمَنْل مُنْ أَنُونُ مُعَلِي وَمَثَلُ هُذَا الأَعْرَابِي كَمَنْل وَبَينَ يَدَيْهُ فَرَعْمَ أَلُهُ رَضِيَ أَكُلُكَ؟» فقال ربي الله مَنْ أَنْ الله مِنْ أَلْهُ وَالله مَنْ أَنْ الله مُنْ مَا فَلْ الأَعْرَابِيّ كَمَنْل مَنْ اللهُ مَا وَسُوبُ النَّاقَة بَيْنَ يَدَيْها فَأَخَذَ لَها مِنْ قُمَام الأَرْض فَرَهُم مَنْ عَلْ عَالَى الرّجُلُ مَا قالَ المُعْرَابُ فَوْ مَنْ عُلْم وَالْم وَاسْتَرَى هَلَيْها وَإِنِّي لَوْ تَرَكُونُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قالَ هَنْ عَنْ عَلْ النَّالَة وَالْم مَنْ مَنْ الله وَالْم المَاسُ هَلَيْها وَإِنْ يَوْ تَرَكُونُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قالَ هَلَا عَنْ يَوْ تَرَكُونُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّحُلُ مَا قالَ فَقَالُ مَنْ عَلَى النَّالَة وَاللهُ عَلَى اللَّهُ وَلَا اللهُ اللهُ

بيان سخاوته وجوده ﷺ:

كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم في شهر رمضان كالربح المرسلة لا يمسك شيئاً ، وكان علي رضي الله عنه إذا وصف النبي ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً، وأوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله (°)، وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه (۲)، وأن رجلاً أتاه فسأله فأعطاه غنماً سذت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال: أسلموا، فإنّ محمداً يعطي عطاء من

⁽١) حديث: الحان لا يشافه أحداً بما يكرهه، دحل عليه رجل وعليه صفة فكرهه فلم يقل شيئاً حتى خرج فقال لبعض القوم: «لو قلتم لهذا أن يدع هذه يمني الصفرة، أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في اليوم واللبلة من حديث أنس وإسناده ضعيف.

حديث: بال أعرابي في المسجد بحضرته فقال عليه «لا تزرموه. . .» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

 ⁽٣) حديث: ٥حاء أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه رسول الله عليه ثم قال: ٥أحسنت إليك، فقال الأعرابي: لا، ولا أجملت. ٤ الحديث. بطوله أخرجه البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

ېيان سخانه وجوده ﷺ

 ⁽٤) حديث: «كان أجود الناس وأسخاهم وكان في شهر رمضان كالربح المرسلة». أخرجه الشيخان من حديث أنس:
 «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأجود الناس». ولهما من حديث ابن عباس: «كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون في شهر رمضان ـ وفيه ـ: فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الربح المرسلة».

حديث: «كان علي إذا وصف النبي ﷺ قال: كان أجود الناس كما وأجرا الناس صدراً...» الحديث. رواه الترمذي وقال نيس إسناده بمتصل.

 ⁽٦) حديث: «ما سئل شيئاً قط على الإسلام إلا أعطاه...» الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

بيان شجاعته ﷺ:

كان ﷺ أنجد الناس وأشجعهم (٥)، قال علي رضي الله عنه: لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً (١)، وقال أيضاً: كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه (٧)، قيل: وكان ﷺ قليل الكلام قليل الحديث، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً (٨)، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو (١)، وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كتبة

بيان ئجامته 選

⁽١) حديث: ما سئل شيئاً قط فقال: لا، متفق عليه من حديث جابر.

⁽٢) حديث: احمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها يقسمها قما رد سائلاً حتى فرغ منهاه. أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث الحسن مرسلاً: فأن رسول الله ﷺ قدم عليه مال من البحرين ثمانون ألفاً لم يقدم عليه مال أكثر منه، ولم يسأله يومنذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلاً ولم يعط ساكناً فقال له العباس. . . • الحديث وللبخاري تعليقاً من حديث أنس: فأتي الببي ﷺ بمال من البحرين وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ . . • الحديث وقيد: "فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاءه العباس . . • الحديث ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه .

 ⁽٣) حديث: جاءه رجل نسأله نقال: «ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناها، فقال عمر: «يا رسول الله ما كلفك الله...» الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروي لم يروه غير ابنه هارون.

⁽٤) حديث: الما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه. ٢. الحديث، أخرجه البخاري من حديث جبير بن مطعم.

 ⁽٥) حديث: الكان انجد الناس وأشجعهم؟. أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر بسند صحيح: اما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمي من رسول الله على . . ؟ الحديث أنس: الكان أشجع الناس وأحسن الناس . . . ؟ الحديث .

 ⁽٦) حديث علي: القد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي 議... الحديث، أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بإسناد جيد.

حديث علي أيضاً: «كنا إذا حمي البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ. . . > الحديث. أخرجه النسائي بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء.

 ⁽٨) حديث. اكان قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر بالقتال تشمر... الحديث. أخرجه أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض الثمالي مرسلاً.

⁽٩) حديث: «كان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب. . . ، الحديث. أخرجه مسلم من حديث البراء : «والله إذا حمي الوطيس نتقي به وإن الشجاع منا الذي يحاذي به».

إلا كان أوّل من يضرب^(۱)، وقالوا: كان قوي البطش^(۲)، ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول:

بيان تواضعه ﷺ:

كان ﷺ أشد الناس تواضعاً في علو منصبه (1)، قال ابن عامر: رأيته يرمي الجمرة على ناقة شهياء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك (0)، وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف (1) وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك (٧)، ويخصف النعل ويرقع الثوب، وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم (٨)، وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك (١)، وكان يمت على الصبيان فيسلم عليهم (١١)، وأتي ﷺ برجل فأرعد من هيبته فقال له: «هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد؛ (١١)، وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فبنوا له للعرب فلا يدري أيهم هو؟ حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب؛ فبنوا له

بيان تواضعه ﷺ

إن حديث عمران بن حصين: (ما لقي كتيبة إلا كان أول من يضرب). أخرجه أبو الشيخ أيضاً وفيه من لم أعرقه.

حديث: «كان قوي البطش». أخرجه أبو الشيخ أيضاً من رواية أبي جعفر معضلاً، وللطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن عمرو: «أعطبت قوة أربعين في البطش والجماع» وسنده ضعيف.

 ⁽٣) حديث: لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول: اأنا النبي لا كذب. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث البراء دون قوله: «فما رئي أحد يومئذ أشد منه». وهذه الزيادة لأبي الشيخ وله من حديث علي في قصة بدر: «وكان من أشد الناس يومئذ بأساً».

 ⁽٤) حديث: «كان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في الشماتل من حديث أبي سعيد
 الخدري في حديث طويل في صفته قال فيه: «متواضع في غير مذلة». وإسناده ضعيف.

⁽ه) حديث: «قال ابن عامر: وأيته يرمي الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك». أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماحه من حديث قدامة بن هبدالله بن عمار، قال الترمذي: حسن صحيح وفي كتاب أبي الشيخ قدامة بن عامر كما ذكره المصنف.

 ⁽٦) حديث: (كان يركب الحمار موكفاً عليه تطيفة وكان مع ذلك يستردف. متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.

 ⁽٧) حديث: الحان بعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك. أخرجه الترمذي وضعفه، والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وتقدم منقطعاً.

 ⁽A) حديث: «كان يخصف النعل ويرقع الثوب ويصنع في بيته مع أهله في حاجته». هو في المستد من حديث عائشة وقد تقدم في أوائل آداب المعيشة.

 ⁽٩) حديث: «كان أصحابه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك». هو عند الترمذي من حديث أنس وصححه وتقدم
 في آداب الصحبة.

⁽١٠) حديث: «كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم». متفق عليه من حديث أنس وتقدم في آداب الصحبة.

 ⁽٩٩) حديث: أتي برجل فأرعد من هيبته فقال: «هون الله هليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».
 أخرجه الحاكم من حديث جرير وقال: صحيح على شرط الشيخين.

دكاناً من طين فكان يجلس عليه (١) وقالت له عائشة رضي الله عنها: كُلَّ _ جعلني الله فداك _ متكناً فإنه أهون عليك قال: قبل آكل كما يأكل العبد أهون عليك قال: قبل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» (٢) وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى (٣) وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال: قلبيك (١) وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحلموا في الدنيا تحدّث معهم الأخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدّث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدّث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم (٥) وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام (٢).

بيان صورته وخلقته ﷺ:

بيان صورته وخلقته ﷺ

 ⁽١) حديث: اكان يجلس مع أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو؟. . . ٢ الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث: «قالت عائشة كُلْ ـ جعلتي الله قداك ـ متكناً فإنه أهون عليك. . . » الحديث. أخرجه أبو الشيخ من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف.

⁽٣) حديث: اكان ﷺ لا يأكل على خوان ولا سكرجة حتى لقى الله. أخرجه البخاري من حديث أنس وتقدم في آداب الأكل.

⁽٤) حديث: وكان ﷺ لا يدعوه أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال: فلبيك، أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة وقيه حسين من علوان متهم بالكذب وللطرائي في الكبير بإسناد جيد من حديث محمد بن حاطب في أثناء حديث: أن أمة قالت: يا رسول الله فقال: فلبيك وسعديك؛ الحديث.

حديث: «كان ﷺ إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى أمر الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم. . • العديث. أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث زيد بن ثابت دون ذكر: الشراب، وفيه سليمان بن خارجة تقرد هنه الوليد بن أبي الوليد وذكره ابن حبان في الثقات.

 ⁽٦) حديث: اكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية... » الحديث. أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله: «ولا يزجرهم إلا عن الحرام».

⁽٧) حديث: «كان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالعلويل البائن ولا بالقصير المتردد...» المحديث. بطوله. أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة بزيادة ونقصان دون شعر أبي طالب الآني ودون قوله: «وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألاً». ودون قوله: «وربما كان واسع الجبهة _ إلى قوله _ وكان سهل الخدين»، وفيه صبيح بن عبدالله الفرفاني منكر الحديث قاله الخطيب. وفي الصحيحين من حديث البراء: «له شعر يبلغ شحمة أذنيه»، وأبر دارد والترمذي وحسنه ابن ماجه من حديث أم هائيه؛ اقدم إلى مكة وله أربع فدائر» والترمذي من حديث علي في صفته ﷺ: «أدعج العينين أهدت الأشفار...» الحديث، وقال ليس إسناده بمتصل وله في الشمائل من حديث ابن أبي هالة: «أذهر اللون واسع الجبين أزج الحواجب سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب. أقنى العرنين له ثور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية سهل الخدين ضليع الفم مفلج الأسنان...» الحديث.

وأما لونه: فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض. والأزهر: هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان، ونعته عمه أبو طالب فقال:

وأبيض يستسقى النغمام سوجهه شمال البشامي عصمة للأرامل(١٠)

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة فقالوا: إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة، والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه. وكان عرقه ﷺ في وجهه كاللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر.

وأما شَعره: فقد كان رجل الشعر حسنه، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل. وقيل: كان شعره يضرب منكبيه، وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه. وربما جعله غدائر أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين. وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ. وكان شيبه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة، ما زاد على ذلك.

وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً وأنورهم، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر، وكان يرى رضاه وعضبه في وجهه لصفاء بشرته، وكانوا يقولون: هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول:

أمين مصطفى للخير يدعو كفوه البدر زايله الظلام

وكان على واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما، وكان أبلج ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة، وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما، وكان في عينيه تمزج من حمرة، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها، وكان أقنى العرفين _ أي مستوي الأنف _، وكان مفلج الأسنان _ أي متفرقها _، تكاد تلتبس من كثرتها، وكان أقنى العرفين _ أي مستوي الأنف _، وكان مفلج الأسنان _ أي متفرقها ـ، وكان إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألا، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم، وكان سهل الخدين صلبهما ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم، كث اللحية، وكان يعفي لحيته ويأخذ من شاربه، وكان أحسن عباد الله عنقاً، لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح قكأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألا في بياض الفضة وفي حمرة الذهب، وكان على عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً؛ كالمرآة في استواثها وكالقمر في بياضه، موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة ويظهر كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإيام من المنكبين والمرفقين والوركين -، وكان عظيم المنكبين أشعرهما، ضخم الكراديس - أي رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين -، وكان واسع الظهر، ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه الأيمن، فيه شامة سوداء تضرب إلى الصعرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس، وكان عبل العضدين والذراعين، طويل الغضرب إلى الصعرة حولها شعراف كأن أصابعه قضبان الفضة، كفه ألين من الخز، كأن كفه كف عطار الزندين رحب الراحتين، سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة، كفه ألين من الخز، كأن كفه كف عطار

⁽١) حديث: نعته عمه أبو طالب فقال:

وأبسف يستسقى الغمام بوجهه شمال السيتامي عصمة للاراميل ذكره ابن إسعاق في السيدة وأبو بكر يقضي، فقال أبو بكر: ذاك ذكره ابن إسعاق في السيرة، وفي المسند عن عائشة: «أنها تمثلت بهذا البيت، وأبو بكر يقضي، فقال أبو بكر: ذاك رسول الله على بن زيد بن جدعان مختلف فبه. وأخرجه البخاري تعليقاً من حديث ابن عمر: «ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر وجه رسول الله على ليستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب فأنشده، وقد وصله بإستاد صحيح.

طيباً ـ مسها بطيب أو لم يمسها ـ يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه، وكان عبل ما تحت الإزار من الفخذين والساق، وكان معتدل الخلق في السمن، بدن في آخر زمانه وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن.

وأما مشيه على بخير تبختر - والهوينى تقارب الخطا - وكان عليه الصلاة والسلام يقول: اأنّا أشبه النّاسِ الهوينى بغير تبختر - والهوينى تقارب الخطا - وكان عليه الصلاة والسلام يقول: اأنّا أشبه النّاسِ بِي خَلْقاً وَخُلْقاً، وكان يقول: إنّ لِي عِنْدَ رَبّي عَشَرَةَ أَشَمَاء: أَنَا مُحَمَّدُ وَأَنَا الْحَمَدُ وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمُحُو الله بِي الكُفْرَ، وَأَنَا العَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ، وَأَنَا الحَاشِرُ يَحْشُرُ الله العِبَادَ عَلَىٰ قَدَمِي، وَأَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ وَرَسُولُ التَّوْبَةِ وَرَسُولُ المَلَاحِمِ وَالمُقَفِّي وَأَنَا النَّاسَ جَمِيماً وَأَنَا قُتُمُهُ (١٠)، قال أبو البحري: والقدم: الكامل الجامع، والله أعلم.

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه:

اعلم: أن من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق، وهدايته إلى ضبطهم، وتألفه أصناف الخلق، وقوده إياهم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب أجوبته في مضائق الأسئلة، ويدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولا شك في أنَّ ذلك لم يكن مكتسبًا بحيلة تقوم بها القوَّة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوّة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربي القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب. فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله، فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده؟. وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق، وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلوّ منصبه ومكانته العظيمة عند الله؛ إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أمي لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم، ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيماً ضعيفاً مستضعفاً، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه ـ مثلاً فقط ـ دون غيره من العلوم فضلاً عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه، وغير ذلك من خواص النبوّة لولا صريح الوحي؟، ومن أين لقوّة البشر الاستقلال بذلك؟، فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية. وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل.

⁽۱) حديث: ﴿إِن فِي عند ربِي عشرة أسعاه . . . ٤ الحديث . أخرجه ابن عدي من حديث علي وجابر وأسامة بن زيد والن عباس وعائشة بإسناد ضعيف . وله ولأبي نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل: ﴿لَي عند ربي عشرة أسعاه قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية . فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف بن وهب: أن أبا جعفر قال: إن الاسمين طه ويس . وإسناده ضعيف، وفي الصحيحين من حديث جبير بن مطعم: ﴿لَي أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا المحاشر وأنا الماحي وأنا الماقي، ولمسلم من حديث أبي موسى ﴿ ووالمقفى ونبي الثوية ونبي الرحمة ، ولأحمد من حديث حذيفة : ﴿ وَنِي الملاحم ﴾ . ومنده صحيح .

فقد خرق الله العادة على يده غير مرة؛ إذ شق له القمر يمكة لما سألته قريش آية $^{(1)}$ ، وأطعم النفر الكثير في منزل جابر $^{(1)}$ ، وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق $^{(2)}$ ، ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق $^{(3)}$ ، وهو من أولاد المعز فوق العتود، ومرة أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس في يده $^{(0)}$ ، ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها؛ فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم $^{(1)}$ ، ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام؛ قشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام يده فيه $^{(1)}$ ، وأهراق عليه السلام وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها، ومرة أخرى في بثر الحديبية فجاشتا بالماء؛ فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا، وشرب من بثر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء $^{(1)}$ ، وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزوّد أربعمائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير ـ وهو موضع بروكه ـ فزوّدهم كلهم منه وبقي منه فحبسه $^{(1)}$ ، ورمى

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

- (١) حديث: ﴿الشقاق القمرَّ. متعق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس.
 - (٢) حديث: اإطعام النفر الكثير في منزل جابر»، منفق عليه من حديثه.
- (٣) حديث: "إطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة". منفق عليه من حديث أنس.
- (٤) حديث (إطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناقه. أخرجه الإسماعيلي في صحيحه ومن طريقه البيهقي في دلائل النوة من حديث جابر وفيه: «أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة» وهو عند البخاري دون ذكر العدد، وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة: «وهم ألف».
- (٥) حُديث: قاطعامه أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أسى في يده. أحرجه مسلم من حديث أنس وفيه:
 ٥ حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي ﷺ بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤراً». وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل: ٥ حتى أكل منه بضم وثمانون رجلاً».
- (٦) حديث: الطعامة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشير في يدها...؟ الحديث. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحاق، حدثنا سعيد بن ميناء هن ابنة بشير بن سعد وإسناده جيد.
- (٧) حديث: «نبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضؤوا..» الحديث. متفق عليه من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط، ولأبي نعيم من حديثه: «خرج إلى قباء فأتى من بعض بيوتهم بقدح صغيرا. وفيه: ثم قال: «هلم إلى الشرب» قال أنس: بصر عيني نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدح حتى رووا منه، وإسناده جيد وللبزار واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس: «كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال. «التوتي بماء» فأتوه بإناء فيه ماه فوضع يده في الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه...» الحديث.
- (٨) حديث، اإهراقه وصوده في عين تبوك ولا ماه فيها ومرة أخرى في بثر الحديبية فجاشنا بالماه. . . ا الحديث. رواه مسلم من حديث معاذ بقصة عين تبوك، ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه: فؤما دها وإما بصق فيها فجاشنا . . ، الحديثين معاً: «أنهم كانوا أربع فيها فجاشنا . . ، الحديثين معاً: «أنهم كانوا أربع عشرة مائة» وكذا عند البخاري من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر، وقال البيهقي: إنه الأصح، ولهما من حديث أبن أبي أوفى: ألف وثلاثمائة.
- (٩) حديث: «أمر عمر أن يزود أربعمائة راكب من ثمر كان كربضة النعير..» الحديث. أخرجه أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين وابن سعيد بإسنادين صحيحين وأصل حديث دكين عند أبي داود مختصراً من غير بيان لعددهم.

الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِينَ اللّهَ وَكَنْكِ اللّهَ وَكَنْكِ اللّهَ وَكَنْكِ اللّهُ وَكَنْكِ اللّهُ وَكَنْكِ اللّهُ وَكَنْكِ اللّهُ وَحَنْ اللّهِ اللّه الله المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل، فضمه إليه فسكن (٣)، ودعا اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه (٤)، وهذا مذكور في سورة يقرأ بها في جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة _ جهراً _ تعظيماً للآية التي فيها.

وأخبر عليه السلام بالغيوب وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة (٥)، وبأن عماراً تقتله الفئة الباغية (٢)، وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين (٧)، وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار (٨)، فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه، وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة مها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر، لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه. واتبعه سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض، وأتبعه دخان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس، وأنذره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى (٩)، فكان كذلك، وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله (١٠)، وخرج على مائة

 ⁽۱) حديث: «رميه الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم. . . » الحديث. أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع دون
 ذكر نزول الآية، فرواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وابن عباس.

⁽Y) حديث: "إيطال الكهانة بمبعثه" أخرجه الخرائطي من حديث مرداس بن قيس الدوسي قال: "حضرت النبي ﷺ وذكرت عنده الكهانة وما كان من تغييرها عند مخرجه.." الحديث، ولأبي تعيم في الدلائل من حديث ابن عباس في استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم: "فلما بعث محمد ﷺ دحروا بالنجوم" وأصله عند البخاري بغير هذا السياق.

 ⁽٣) حديث: قحنين الجدّع، أخرجه المخاري من حديث جابر وسهل بن سعد.

⁽٤) حديث: الدها اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه. . . الحديث . أخرجه البخاري من حديث ابن عباس: «لا يقولها عباس: «لو أن المهود تمنوا الموت لماتوا. . . الحديث، وللبيها في الدلائل من حديث ابن عباس: «لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه قمات مكانه، فأبوا أن يفعلوا. . . » الحديث، وإسناده ضعيف.

 ⁽a) حديث: اإخباره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة!. متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

 ⁽٦) حديث: اإخباره بأن عماراً تقتله الفئة الباغية٩. أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والبخاري من حديث أبي سعيد.

 ⁽٧) حديث: (إخباره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين، أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة.

 ⁽A) حديث: (إخباره عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار». متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد.

 ⁽٩) حديث: «اتباع سراقة بن مالك له في قصة الهجرة قساخت قدما فرسه في الأرض. . . الحديث. متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق.

⁽١٠) حديث: ﴿إخباره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنعاء اليمن ومن قتله ، وهو مذكور في السير والذي قتله فيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: ﴿بِينَا أَنَا نَاتُم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأتهما فأوحى إليّ في المنام أن أنفخهما فنفختهما قطارا، فتأولتهما كذابين يخرجان بعدي ، فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء... ، الحديث ،

من قريش ينتظرونه قوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه (١) وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له (٢) وقال لنفر من أصحابه مجتمعين: «أحَدُكُمْ فِي النَّارِ ضِرْسُهُ مِثْلُ أُحُدِه فماتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتداً (٣) وقال لآخرين منهم: «آخِرُكُمْ مَوْتاً فِي النَّارِة، فسقط آخرهم موتاً في النار فاحترق فيها فمات (٤) ودعا شجرتين فأتناه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا. وكان عليه السلام نحو الربعة فإذا مشى مع الطوال طالهم (٥) ودعا عليه السلام النصارى إلى المباهلة فامتنعوا، فعرفهم على أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا، فعلموا صحة قوله فامتنعوا (٢) وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله عليه السلام، فحيل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدة، وهلك أربد بصاعقة أحرقته (٧) ، وأخبر عليه السلام أنه يقتل أبي بن خلف الجمعي فخدشه يوم أُحُد خدشاً لطيفاً فكانت منيته فيه (٨).

وأطعم عليه الصلاة والسلام السم، فمات الذي أكله معه وعاش هو ﷺ بعده أربع سنين، وكلمه الذراع المسموم(٩٠).

⁽١) حديث: «خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه». أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه: أنهم كانوا مائة. وكذلك رواه ابن إسحاق من حديث محمد بن كعب القرظي مرسلاً.

 ⁽٢) حديث: «شكا إليه البعير وتذلل له». أخرجه أبو داود من حديث عبدالله من جعفر في أثناء حديث وفيه: «فإنه شكا
 إلى أنك تجيعه وتدئيه». وأول الحديث عند مسلم دون ذكر قصة البعير.

⁽٣) حديث: قال لنقر من أصحابه. «أحدكم ضرصه في النار مثل أحد...» الحديث. ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة بغير إساد في ترجمة الرجال بن عنفرة وهو الذي ارتد. وهو بالجيم - وذكر عبدالغني ـ بالمهملة ـ وسبقه إلى ذلك الواقدي والمدائني، والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن ماكولا، ووصله الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ: «أحد هؤلاء النفر في النار». وفي الواقدي عن عبدالله بن نوح متروك.

⁽³⁾ حديث: قال لآخرين منهم: «آخركم موتاً في النار» نسقط آخرهم موتاً في نار فاحترق فيهاً فمات. أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن محذورة، وفي رواية البيهقي: أن آخرهم موتاً سمرة بن جندب، لم يذكر أنه احترق، ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة تحوه ورواته ثقات. وقال ابن عبدالبر: «إنه سقط في قدر مملومة ماء حاراً فمات». روى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن المخبر وقد ضعفه الجمهور.

⁽٥) حديث؛ ادعا شجرتين فأتناه فاجتمعنا ثم أمرهما فافترقناه. أخرجه أحمد من حديث علي بن مرة بسند صحيح.

 ⁽٦) حديث: «دعا النصارى إلى المباهلة وأخبر إن فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا». أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في
أثباء حديث: اولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً».

 ⁽٧) حديث: «أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهم عازمين على قتله فحيل بينهما
وبين ذلك...» الحديث.

أحرجه الطبراني في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس يطوله بسند لين.

 ⁽٨) حديث: ﴿إخباره أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي فخدشه يوم أُخد خدشاً لطيفاً فكانت منيته٬ أخرجه البيهقي في
 دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية هروة بن الزبير مرسلاً.

 ⁽٩) حديث: ﴿إنه أَطْمَم السم قمات الذي أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين، وكلمه الذراع المسموم». أخرجه أبو داود
 من حديث جابر في رواية له مرسلة: «أن الذي مات بشر بن البراء»، وفي الصحيحين من حديث أنس: «أن يهودية
 أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها. . . الحديث. وفيه: ﴿فَمَا زَلْتَ أَعْرَفُهَا فِي لَهُوات رسول الله ﷺ».

وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً، فلم يتعدّ واحد منهم ذلك الموضع ()، وأنذر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك ()، وزويت له الأرض فأري مشارقها ومغاربها، وأخبر بأن ملك أمته سببلغ ما زوي له منها، فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق: من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر، ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال ـ كما أخبر الشير سواء بسواء () -، وأخبر فاطمة ابنته رضي الله عنها بأنها أول أهله لحاقاً به ()، فكان كذلك. وأخبر نساءه بأن أطولهن يداً بالصدقة أولهن لحوقاً به رضي الله عنها ().

ومسح ضرع شأة حائل لا لبن لها فدرت^(۱)، وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضي الله عنه. وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية. ونذرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده، فكانت أصح عينيه وأحسنهما^(۱)، وتفل في عين علي رضي الله عنه وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية (۱)، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ (۱)، وأصيبت رجل بعض أصحابه ﷺ فمسحها بيده فبرأت من حينها (۱)، وقل زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقي فاجتمع شيء يسير جداً، فدعا فيه بالبركة، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر إلا مليء من ذلك (۱۱)، وحكى الحكم بن العاص بن وائل (۱) مشيته عليه السلام مستهزئاً فقال ﷺ: «كذلك فَكُنّا».

⁽١) حديث: ﴿إخباره ﷺ بوم بدر بمصارع صناديد قريش. . . الحديث، أحرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب.

 ⁽۲) حديث: «إخباره بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك» متفق عليه من حديث أم حرام.

 ⁽٣) حديث: «زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمنه سيبلغ ما زوي له منها. . . ٩ الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة وفاطمة أيضاً.

⁽٤) حديث: ﴿إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقاً بها متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضاً.

 ⁽٥) حديث: «أخبر نساءه أن أطرئهن بدأ أسرعهن لحاقاً به فكانت زينب» الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي الصحيحين: «أن سودة كانت أولهن لحوقاً به». قال ابن الجوزي: وهذا فلط من بعض الرواة بلا شك.

 ⁽٩) حدیث: امسع ضرع شاة حائل لا لن لها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعوده. أخرجه أحمد من حدیث ابن مسعود بإسناد جید.

 ⁽٧) حديث: اندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما. أخرجه أبو نعيم والبيهقي كلاهما
 في دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان، وهو الذي سقطت عينه ففي رواية للبيهفي: «أنه كان بيدر»، وفي رواية أبى نميم، «أنه كان بأحد»، وفي إسناده اصطراب، وكذا رواه البيهقي قيه من حديث أبي سعيد الخدري.

 ⁽٨) حديث: اتفل في عين علي وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية؛. متفق عليه من حديث علي ومن حديث
سهل بن سعد أيضاً.

 ⁽٩) حديث: (كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه). أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود.

⁽١٠) حديث: «أصيبت رجل بعض أصحابه فمسحها بيده فبرأت من حينها». أخرجه البخاري في قصة قتل أبي رافع،

 ⁽١١) حديث: «قلّ زاد جيش معه قدعا بما يقي قاجتمع شيء يسير قدعا فيه بالبركة. . . ١ الحديث. متفق عليه من حديث سلمة بن الأكرع.

 ⁽i) قوله: الحكم بن العاص بن واثل وهكذا في النسخ، وصوابه كما في الشارح: الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمى. اه مصححه.

فلم يزل يرتعش حتى مات (١) وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها: إن بها برصاً - امتناعاً من خطبته واعتذاراً - ولم يكن بها برص فقال عليه السلام: . فَفَلْتَكُنْ كَفْلِكَهُ (١) ، فبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر . إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته ﷺ . وإنما اقتصرنا على المستفيض . ومن يستريب في انخراق العادة على يده ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواتراً ، بل المتواتر هو القرآن فقط ؛ كمن يستريب في شجاعة علي رضي الله عنه ، وسخاوة حاتم الطائي ، ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ، ولكن مجموع الوقائع يورث علماً ضرورياً ، ثم لا يتمارى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق ، وليس لنبي معجزة باقية سواه ﷺ إذ تحدى بها رسول الله ﷺ بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم . وكان العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم ومباهاتهم . وكان ينادي بين أظهرهم ﴿أن يَأْتُوا بِمِثْلِ مَنْ لَكُ وصرفوا عنه ، حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم وقال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه ، حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم العالم شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر ، وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقلر العالم شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر ، وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقلر أحد على معارضته .

فأُعظم بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه؛ ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه.

وما أعظّم توفيق من آمن به وصدَّقه واتبعه في كل ما ورد وصدر، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنّه وسعة جوده.



⁽۱) حليث: حكى الحكم بن العاص مشيته مستهزئاً به فقال (كذلك فكن. . .) الحديث. أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن حديج بإسناد جيد، وللحاكم في المستدرك من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم، وقال صحيح الاسناد.

حديث: «يد طلحة لمّا أزال ما كان بها من شلل أصابها يوم أحد حين مسحها بيده». رواه النسائي من حديث جابر: «لمّا كان يوم أحد...، وفيه: «فقائل طلحة قتال الأحد مشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه» فقال: حسن. وليس فيه أنه مسحها، وللبخاري من حديث قيس: «رأيت يد طلحة شلاء وفي بها النبي يوم أحده.

⁽٢) حديث: خطب امرأة فقال أبوها إن بها برصاً امتناعاً من خطبته واعتذاراً ولم يكن بها برص فقال: «فلتكن كذلك» فبرصت المرأة. وذكرها ابن الجوزي في التلقيح وسماها جمرة بنت الحارث بن عوف المزني وتبعه على ذلك الدمياطي في جزء له في نساء النبي ﷺ ولم يصح ذلك.

بِنْسِيدِ أَفَرِ ٱلرَّحْنِبِ ٱلرَّحِيَسِةِ

کتاب شرح عجائب القلب



وهو الكتاب الأول من ربع المهلكات

[ينسب أَمَّرِ ٱلنَّكِيْبِ ٱلْكِيَسِدِيِّ]

الحمد لله الذي تتحير دون إدراك جلاله القلوب والخواطر، وتدهش في مبادىء إشراق أتواره الأحداق والنواظر، المطلع على خفيات السرائر، العالم بمكنونات الضمائر، المستغني في تدبير مملكته عن المشاور والموازر، مقلب القلوب وغفار الذنوب، وستار العيوب، ومفرّج الكروب.

والصلاة على سيد المرسلين، وجامع شمل الدين، وقاطع دابر الملحدين. وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم كثيراً.

أما بعد: فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره، وفي الآخرة عدَّته وذخره، وإنما استعدُّ للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه؛ فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات؛ يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة؛ فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله، وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله فيقلح إذا زكاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنسه ودساه، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصى المتمرّد على الله تعالى وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه؛ إذ كل إناء يتضح بما فيه، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه، ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل؛ إذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم، وقد حيل بينهم وبين أنفسهم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته: بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته، ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه سين أصبعين من أصابع الرحمٰن، وأنه كيف يهوي مرة إلى أسفل السافلين وينخفض إلى أفق الشياطين، وكيف يرتفع أخرى إلى أعلى عليين ويرتقي إلى عالم الملائكة المقربين. ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه، فهو ممن قال الله تعالى فيه: ﴿نَسُواْ اللّه فَأَنسَنهُمْ أَنفُتُهُمْ أَوْلَتِكَ هُمُمُ ٱلْفَكَسِقُونَ﴾ [الحَشر: ١٩] فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق

وإذ فرغنا من الشطر الأول من هذا الكتاب من النظر فيما يجري على الجوارح من العبادات والعادات ـ وهو العلم الظاهر ـ، ووعدنا أن نشرح في الشطر الثاني ما يجري على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات ـ وهو العلم الباطن ـ، فلا بدّ أن نقدّم عليه كتابين: كتاباً في شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه، وكتاباً في كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نندفع بعد ذلك في تفصيل المهلكات والمسجيات.

فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الأمثال ما يقرب من الأفهام، فإنّ التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة في جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الأفهام.

بيان معنى النفس، والروح، والقلب، والعقل، وما هو المراد بهذه الأسامي:

اعلم: أنَّ هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب. ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها،، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الأسامي واشتراكها بين مسميات مختلفة. ونحن نشرح في معنى هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا:

اللفظ الأول: لفظ القلب، وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته؛ إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية. وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت. ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك؛ فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة؛ إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب. ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته؛ فإنّ تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة. أو تعلق المتمكن بالمكان، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين:

أحدهما: أنه متعلق بعلوم المكاشفة، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة.

 ⁽١) حديث: اأنه ﷺ لم يتكلم في الروح. متفق عليه من حديث ان مسعود في سؤال اليهود عن الروح. وفيه: «فأمسك
 النبي ﷺ فلم يرد عليهم، فعلمت أنه يوحى إليه. . ٩ الحديث. وقد تقدم.

لغيره أن يتكلم فيه، والمقصود: أنّا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها في ذاتها، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الروح، وهو أيضاً يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وحريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به، والحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه من غرضنا؛ إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان؛ فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين، فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً.

المعنى الثآني: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَسْرِ رَقِي ﴾ [الإسرّاء: ٨٥] وهو أمر عجيب رباني، تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

اللفظ الثالث: النفس، وهو أيضاً مشترك بين معان، ويتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوّة الغضب والشهوة في الإنسان على ما سيأتي شرحه، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوّف؛ لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لا يد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أعدى حدوّك نفسك التي بين جنبيك» (١).

المعنى الثاني: هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها؛ فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. قال الله تعالى في مثلها: ﴿ يَا يَنَهُ النّفُسُ النّظَييّةُ ﴿ وَالنّفِس بالمعنى الأوّل لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى؛ فإنها مبعدة عن الله، وهي من حزب الشيطان. وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوّامة؛ لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه. قال الله تعالى: ﴿ وَلاَ أَنْيَمُ وَالنّفِينَ اللّوَامَة؛ النّها الله وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء. قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو المرأة العزيز: ﴿ وَمَا أَبْرِينُ نَفْيَحُ إِنَّ النّفَسَ لأَمَارَةُ بِالسّوء. قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو بالسوء: هي النفس بالمعنى الأوّل، فإذاً: النفس بالمعنى الأوّل مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة؛ لأنها نفس الإنسان، أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

⁽۱) حديث: «أهدى هدوك نفسك التي بين جنبيك» أخرجه البيهةي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبدالرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

اللفظ الرابع: العقل، وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان:

أحدهما: أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني: أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعني تلك اللطيفة. ونحن نعلم أنّ كل عالم فله في نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه، والعلم صفة حالة فيه، والصفة غير الموصوف، والعقل قد يطلق ويراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقوله على وتراد به محل الإدراك أعني المدرك، وهو المراد بقوله على: «أوّلُ ما خَلَقَ الله العقلُ»(١): فإنّ العلم عرض لا يتصوّر أن يكون أوّل مخلوق، بل لا بد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه، ولأنه لا يمكن الحطاب معه، وفي الخبر: «أنه قال له تعالى: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر...» الحديث.

فإذاً: قد انكشف لك أنّ معاني هذه الأسماء موجودة: وهي القلب الجسماني، والروح الجسماني، والنفس الشهوانية، والعلوم. فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها، فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها؛ فتراهم يتكلمون في الخواطر ويقولون: هذا خاطر العقل، وهذا خاطر الروح، وهذا خاطر القلب، وهذا خاطر النفس، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامي، وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به: المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياه، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها ولحرة بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطبتها، ولذلك شبه سهل التستري القلب بالعرش، ولصدر بالكرسي فقال: القلب هو العرش والصدر هو الكرسي. ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه، فإن ذلك محال، بل أراد به أنه مملكة الإنسان والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه، فهما بالنسة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضاً إلا من بعض الوجوه، وشرح ذلك أيضاً لا يليق بغرضنا فلنجاوزه.

بيان جنود القلب:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَلِهُ جُودَ رَبِكَ إِلَّا هُوكَ ﴾ [المدَّثّر: ٣١] فلله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو. ونحن الأن نشير إلى بعض جنود القلب، فهو الذي يتعلق بغرضنا. وله جندان: جند يُرى بالأبصار، وجند لا يُرى إلا بالبصائر، وهو في حكم المخدم والأعوان، فهذا معنى الجند. فأما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة؛ فإنّ جميعها خادمة للقلب ومسخرة له، فهو المتصرف فيها والمردد لها، وقد خلقت مجبولة على طاعته؛ لا تستطيع له خلافاً ولا عليه تمرّداً، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم

 ⁽١) حديث: قاول ما محلق الله العقل، وفي الخبر أنه قال له: «أقبل فأقبل وقال: أدبر فأدبر...» الحديث تقدم في العلم.

به تكلم، وكذا سائر الأعضاء. وتسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافاً، بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإنما يفترقان في شيء: وهو أنّ الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها، والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب، وإنما افتقر القلب إلى هذه الجنود من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق، وهو السفو إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه، فلأجله خلقت القلوب. قال الله تعالى: ﴿وَمَا حَلَقْتُ لَلْجِنَ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿ إِللَّهُ مِنَاتَ: ٥٦] وإنما مركبه البدن وزاده العلم. وإنما الأسباب التي توصله إلى الزاد وتمكنه من التزوّد منه هو العمل الصالح، وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا، فإنَّ المنزل الأدني لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهي منزل من منازل الهدى، وإنما سميت دنيا: لأنها أدنى المنزلتين، فاضطرّ إلى أن يتزوّد من هذا العالم، فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك، فافتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين: باطن: وهو الشهوة. وظاهر: وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين: باطن: وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات وينتقم من الأعداء. وظاهر: وهو اليد والرجل اللتين بهما يعمل بمقتضى الغضب، وكل ذلك بأمور خارجة؛ فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها، ثم المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه، فافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن: وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق. وظاهر: وهو العين والأذن والأنف وغيرها. وتفصيل وجه الحاجة إليها ووجه الحكمة فيها يطول، ولا تحويه مجلدات كثيرة. وقد أشرنا إلى طرف يسير منها في كتاب الشكر فليقتنع به.

فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف: صنف باعث ومستحث: إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة، وإما إلى دفع الضار المنافي كالمغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة. والثاني: هو المحرّك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة: وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوثار. والثالث: هو المدرك المتعرّف للأشياء كالجواسيس: وهي قوّة البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وهي مبثوثة في أعضاء معينة، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك، ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة، وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود، فإنّ قوّة البطش إنما هي بالأصابع، وقوّة البصر الملك والشهادة، وإنما نتكلم الآن فيما أيدت به من جنود الم تروها. وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم إلى ما قد أسكن المنازل الظاهرة: وهي الحواس الخمس - أعني السمع والبصر والشم والذوق واللمس - وإلى ما أسكن منازل باطنة: وهي تجاويف الدماغ، وهي أيضاً خمسة، فإنّ الإنسان بعد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال، ثم تبقى تلك الصورة معه البسب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتذكر بسبب شيء يحفظه وهو إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين ما قد نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين

المحسوسات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ، ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه؛ فتلك القوى أيضاً جنود باطنة وأماكنها أيضاً باطنة، فهذه هي أقسام جنود القلب، وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الأمثلة يطول. ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الأقوياء والفحول من العلماء، ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم.

بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة:

اعلم: أن جندي الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقياداً تاماً، فيعينه ذلك على طريقه الذي يسلكه وتحسن مرافقتهما في السفر الذي هو بصدده، وقد يستعصيان عليه استعصاء بغي وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه، وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذي به وصوله إلى سعادة الأبد، وللقلب جند آخر: وهو العلم والحكمة والتفكر، كما سيأتي شرحه، وحقه أن يستعين بهذا الجند؛ فإنه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين، فإنهما قد يلتحقان بحزب الشيطان. فإن ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيئاً، وذلك حالة أكثر الخلق، فإن عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم في استنباط الحيل لقضاء الشهوة، وكان ينبغي أن تكون الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل إليه، ونحن نقرب ذلك إلى فهمك بثلاثة أمثلة:

المثال الأول: أن نقول: مثل نفس الإنسان في بدنه _ أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة _ كمثل ملك في مدينته ومملكته، فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل. والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة. والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث، يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل، وديدنه وعادته منازعة الوزير النَّاصح في آراته وتدبيراته حتى أنَّه لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنياً في تدبيراته بوزيره مستشيراً له ومعرضاً عن إشارة هذا العبد الخبيث، مستدلًاً بإشارته في أن الصواب في نقيض رأيه، أدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره، وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره، حتى يكون العبد مسوساً لا ساتساً، ومأموراً مدبَراً لا أميراً مدبِراً، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه؛ فكذا النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال تعالى فيه: ﴿ أَفَرَمَيْتَ مَنِ آغَٰذَ إِلَنَّهُمْ هَوَنُهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِ ﴾ [الجائبة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّبُمْ هَوَنَهُ فَمَثَلَمُ كَمَثَلِ ٱلْكَالِبِ إِن تَحْمِيلُ عَلَيْهِ يَلْهَتْ أَوْ تَتَزُّكُهُ بِلَهَتْ﴾ [الاعزاف: ١٧٦] وقال عزَّ وجلَّ فيمن نهى النفس عن الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِهِ. وَنَهَى ٱلنَّفَسَ عَنِ ٱلْمُوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةُ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۞﴾ [النَّازغات: ٤١٠٤٠] وسيأتي كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النفس إن شاء الله تعالى.

المثال الثاني: اهلم: أن البدن كالمدينة والعقل ـ أعني المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمارة بالسوء التي هي

الشهوة والغضب كعدق ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَلْبُكِهِدُنَ فِي سَبِيلِ اللّهِ إِلْمَوْلِهِم وَالفُسِم مَنْ لَلْهُ لَلْبُكِهِدِينَ إِلْمَوْلِهِم وَالفُسِم عَلَى اللّهِ إِلَى الْحَدِية وَالفُسِم عَلَى اللّه إِلَى الله عَلَى الله عَلَى فيقال له يوم القيامة: يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير، اليوم أنتقم منك (١)، كما ورد في الخبر. وإلى هذه المجاهدة الإشارة بقوله عَلَي قواله عَنْ الجهاد الأَضْغَر إلى الجهاد الأَكْبَر، (٢).

المثال الثالث: مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه، فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه مؤدباً معلماً كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً، فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصاً شهوة البطن والفرج، وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه.

بيان خاصية قلب الإنسان:

اعلم: أن جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمي؛ إذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضاً، حتى أن الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه، فذلك هو الإدراك الباطن.

فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى. وهو راجع إلى علم وإرادة.

أما العلم: فهو العلم بالأمور الدبيوية والأخروية والحقائق العقلية، فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل، إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم منه على كل شخص. ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص، فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس. وإذا فهمت هذا في العلم الظاهر الضروري فهو في سائر النظريات أظهر.

وأما الإرادة: فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة، وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة. فإن الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة، والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها، والشهوة تميل إلى لذائذ الأطعمة في حين المرض، والعاقل يجد في نفسه زاجراً عنها، وليس ذلك زاجر الشهوة، ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل ضائعاً على التحقيق.

فإذاً: قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوان، بل ينفك عنها الصبي في أوّل

⁽١) حديث: ايقال بوم القيامة يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم ثرد الضالة. . . ؛ الخبر، لم أجد له أصلاً.

⁽٢) - حديث: (رجعتا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) أخرجه البيهتي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

الفطرة، وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ. وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة في حق الصبي.

ثم الصبي في حصول هذه العلوم فيه له درجتان:

إحداهما: أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الأولية؛ كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة، فتكون العلوم النظرية فيها غير حاصلة إلا أنها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصول، ويكون حاله بالإضافة إلى العلوم كحال الكاتب الذي لا يعرف من الكتابة إلا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة؛ فإنه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد.

الثانية: أن تتحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده، فإذا شاء رجع إليها وحاله حال الحاذق بالكتابة إذ يقال له: كاتب وإن لم يكن مباشراً للكتابة بقدرته عليها. وهذه هي غاية درجة الإنسانية. ولكن في هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها، ويشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها؛ إذ تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب، وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطيء الحصول. وفي هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والأنبياء والأولياء، فدرجات الترقى فيه غير محصورة، إذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها. وأقصى الرتب رتبة النبي الذي تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف، يل بكشف إلهي في أسرع وقت، وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قرباً بالمعنى والحقيقةِ والصفة لا بالمكان والمسافة، ومراقى هذه الدرجات هي منازل السائرين إلى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل، وإنما يعرف كل سالك منزله الذي بلغه في سلوكه قيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل. فأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علماً، لكن قد يصدق به إيماناً بالغيب، كما أنا نؤمن بالنبوة والنبي ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة إلا النبي، وكما لا يعرف الجنين حال الطفل، ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية، ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبياته من مزايا لطفه ورحمته: ﴿مَّا يَفَتَحِ اللَّهُ اِلنَّاسِ مِن رَّجْمَةِ فَلَا مُثْسِكَ لَهَا ۖ ﴾ [قاطِر: ٢] وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد، ولكن إنما تظهر في القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال ﷺ: ﴿إِنَّ لِرَبُّكُمْ فِي أَيَّام دَهْرِكُمْ لَتُفْحَات أَلاَ فَتَمَرَّضُوا لَها اللهُ اللهُ والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة منَّ الأخلاق المذمومة .. كما سيأتي بيانه -وإلى هذا الجود الإشارة بقوله ﷺ: ﴿يَنْزِلُ الله كُلُّ لَيْلَةٍ إلى سَمَّاءِ اللَّهْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ داع فَأَسْتَجيب لَهُ؟٩ وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رَّبه عزَّ وجلَّ : "لَقَدُ طَالَ شَوْقُ الأَبْرارِ إلى لِقَائي وَأَنَّا إلى لِقَائِهُم أَشَدُّ شَوْقاً (٢)، وبقوله تعالى [في الحديث القدسي]: «مَنْ تَقَرَبَ إليّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليهِ ذِراعاً ٢٠٠٠، كل ذلك إشارة إلى أن أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعمـ تعالى عن البخل والمنع علوّاً كبيراً ـ ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب، فإنَّ القلوب كالأواني؛ فما دامت ممتلئة بالماء لا

⁽١) حديث: (إن لربكم في أيام دهركم لتفحات. . ١ الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: فيقول الله عز وجل لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي.. ؛ الحديث، لم أجد له أصلاً إلا أن صاحب الفردوس أخرجه من حديث أبي الدرداء، ولم يذكر له ولده في مسئد الفردوس إسناداً.

 ⁽٣) حديث: ايقول الله: من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

يدخلها الهواء، فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى. وإليه الإشارة بقوله على الله المعرفة بجلال الله تعالى وإليه الإشارة بقوله على المؤلا أنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَنَظَرُوا إلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ (١٠)، ومن هذه الجملة يتبين أن خاصية الإنسان العلم والحكمة .

وأشرف أنواع العلم: هو العلم بالله وصفاته وأفعاله، فبه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال. فالبدن مركب للنفس، والنفس محل للعلم، والعلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي لأجله خلق، وكما أن الفرس يشارك الحمار في قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكرّ والفرّ وحسن الهيئة؛ فيكون الفرس مخلوقاً لأجل تلك الخاصية، فإن تعطلت منه نزل إلى حضيض رتبة الحمار، وكذلك الإنسان يشارك الحمار والفرس في أمور ويفارقهما في أمور هي خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقرّبين من ربّ العالمين، والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فإن الإنسان من حيث يحس ويتحرّك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته من حيث يحس ويتحرّك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء.

من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة؛ فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكاً وربانياً، كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله: ﴿مَا هَنَذَا بَشَرًا إِنْ هَنَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيدٌ﴾ [يُوشف: ٣١].

ومن صرف همته إلى اثباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم فيصير إما غمراً كثور، وإما شرهاً كخنزير، وإما ضرياً ككلب أو سنور، أو حقوداً كجمل، أو متكبراً كنمر، أو ذا روغان كثعلب، أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد.

وما من عضو من الأعضاء ولا حاسة من الحواس إلا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول إلى الله تعالى ـ كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر ـ فمن استعمله فيه فقد فاز، ومن عدل عنه فقد خسر وخاب. وجملة السعادة في ذلك: أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده، والدار الآخرة مستقرّه، والدنيا منزله، والبدن مركبه، والأعضاء خدمه. فيستقرّ هو _ أعني المدرك من الإنسان ـ في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك، ويُجري القوّة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده، إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده، ويُجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه، ويُجري اللسان مجرى ترجمانه، ويُجري الأعضاء المتحركة مجرى كتابه، ويُجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه، فيوكّل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع؛ فيوكّل العين بعالم الألوان، والسمع بعالم الأصوات، والشم بعالم الروائح. وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم، ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد، ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة، ويتمام سفره الذي هو ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته وإتمام سفره الذي هو المعدد، وقمع عدرة الذي هو مبتلى به، ودفع قواطع الطريق عليه. فإذا فعل ذلك كان موفقاً سعيداً شاكراً نعمة الله، وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر شاكراً نعمة الله، وإذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة، أو في عمارة طريقه دون منزله _ إذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره، ووطنه ومستقرّه

⁽¹⁾ حديث: «لولا أن الشياطين يعومون على قلوب بني آدم. . .٤ الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه. وقد تقدم في الصيام.

الآخرة ـ كان مخذولاً شقياً كافراً بنعمة الله تعالى، مضيعاً لجنود الله تعالى، ناصراً لأعداء الله؛ مخذلاً لحزب الله فيستحق المقت والإبعاد في المنقلب والمعاد. نعوذ بالله من ذلك.

وإلى المثال الذي ضربناه أشار كعب الأحبار حيث قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك (١) ، فإذا طاب الملك طابت جنوده، فقالت: هكذا سمعت رسول الله على يقول. وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب: إن لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأصها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها، ثم فسره فقال: أصلبها في الدين، وأصفاها في اليقين، وأرقها على الإخوان، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ أَثِلُ الله فَلَا الله وَ الله والله والله والله والله والكوسي. فهذه أمثلة القلب.

بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته:

اهلم: أن الإنسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب، فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الأوصاف وهي: الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية. فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره، ومن حيث إنه في نفسه أمر رباني، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرَّوحُ مِنْ أَسَرِ رَقِي الإسراء: ١٥٠ فإنه يدعي لنفسه الربوبية، ويحب الاستيلاء والاستعلاء والاستعلاء والتخصص، والاستبداد بالأمور كلها، والتقرّد بالرياسة، والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع، ويشتهي الاطلاع على العلوم كلها؛ بل يدعي لنفسه العلم، والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور، ويفرح إذا نسب إلى العلم، ويحرّن إذا نسب إلى الجهل. والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من العلم، ويحرّن إذا نسب إلى الجهل. والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك. ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها أوصاف الربوبية، وفي الإنسان حرص على ذلك. ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع مشاركته لها أوصاف الربوبية، والحيلة والخداع، ويظهر الشر في معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين.

وكل إنسان فيه شوب^(٢) من هذه الأصول الأربعة ـ أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية ـ وكل ذلك مجموع في القلب. فكأن المجموع في إهاب الإنسان: خنزير وكلب وشيطان وحكيم.

فالخنزير: هو الشهوة فإنه لم يكن الخنزير مذموماً للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه.

والكلب: هو الغضب فإنّ السبع الضاري والكلب العقور ليس كلباً وسبعاً باعتبار الصورة واللون

⁽١) حديث عائشة: «الإنسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان. . .» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي، والطبراني في مسند الشاميين، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة نحوه، وله ولأحمد من حديث أبي ذر: «وأما الأذن فقمع وأما العين فمقرة لما يوعى القلب ولا يصح منها شيء».

⁽٢) شوب: خليط ومزيج.

والشكل، بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقر، وفي باطن الإنسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه. فالخنزير يدعو بالشره إلى الفحشاء والمنكر، والسبع يدعو بالغضب إلى الظلم والإيذاء.

والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه.

والحكيم - الذي هو مثال العقل - مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره؛ بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضع، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه؛ إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهوراً تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائماً في عبادة كلب وخنزير.

وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الأعداء، والعجب منه أنه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة، ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين إما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلاً بين يدي خنزير ساجداً له مرة وراكعاً أخرى ومنتظراً لإشارته وأمره. فمهما هاج الخنزير لطلب شيء من شهواته انبعث على الفور في خدمته وإحضار شهوته، أو رأى نفسه ماثلاً بين يدي كلب عقور عابداً له مطيعاً، سامعاً لما يقتضيه ويلتمسه، مدققاً بالفكر في حيل الوصول إلى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه؛ فإنه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه، فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده، ولينظر بعين البصيرة فلا يرى إن أنصف نفسه إلا ساعيًا طول النهار في عبادة هؤلاء، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكاً والرب مربوباً والسيد عبداً والقاهر مقهوراً؛ إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر إلى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعاً وَرَيْناً مهلكاً للقلب ومميتاً له، أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها. وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف، وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها. وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والتضريب والغش والخب(١) والخنا وأمثالها. ولو عكس الأمر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والاستبلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة، واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله، ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب، ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها، ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها ـ

⁽١) الخب: الخداع.

فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه، وهذه الآثار على التواصل واصلة إلى القلب. أما الآثار المحمودة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً ونوراً وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله على : «إِذَا الله يعبُدِ خَيْراً جَعَلَ لَهُ واعِظاً مِنْ قَلْبِهِ (١)، وبقوله على : «مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَاعِظاً مِنْ قَلْبِهِ مِنَ الله تعالى : ﴿ أَلا يِنِكُ وَ الله تعالى : ﴿ أَلا يِنِكُ مِ اللَّهُ مِنْ اللهُ الله تعالى : ﴿ أَلا يِنِكُ مِ اللَّهُ مَا اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ ا

وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله تعالى، وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلِّ وَانَ عَلَى قُلُومِ مَا كَانُواْ يَكَسِبُونَ ﴿ ﴾ [المعطقبين: ١٤] وقال عز وجلّ: ﴿أَن لَوْ نَشَاهُ أَصَبَّنَهُم بِذُنُوبِهِم فَلَمْ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الاعزاف: ١٠٠] فربط عدم السماع بالطبع بالنقوى فقال تعالى: ﴿ وَانْتُواْ اللّه وَاسْمَعُوا ﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿ وَانْتُواْ اللّه وَاسْمَعُوا ﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿ وَانْتُواْ اللّه وَاسْمَعُوا ﴾ [المائدة: ١٠٨]

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة، ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها. فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك في يُهِسُوا مِنَ ٱلْأَجْرَةِ كُمّا يَهِسَ ٱلْكُمَّارُ مِنْ أَصْدَبِ ٱلْقُبُورِ ﴿ [المُمتَحنة: ١٣] وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة.

قال ميمون بن مهران: إذا أذنب العبد ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل، وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران، وقد قال النبي ﷺ: «قَلْبُ المُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ وَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ وَقَلْبُ المُعاصية مسودات له، المكافي المعاصي اسود قلبه، ومن أنبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه، ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح، فإنها لا تخلو عن كدورة. وقد قال ﷺ: «القُلُوبُ أَرْبَعَةُ قَلْبُ الْجُورُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ قَلْبُكَ قَلْبُ المُؤْمِنِ، وَقَلْبٌ أَسْوَدُ مَنْكُوسٌ فَلْلِكَ قَلْبُ الكَافِيةِ وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ فِيهِ إيمانٌ وَنِفاقٌ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب. ومثل التفاق فيه كمثل القرحة يمدها الفيح والصديد فأي المادتين فلبت عمثل البقلة يمدها الفيح والصديد فأي المادتين فلبت عليه حكم له بها؟ الله وفي رواية: ذهبت به، قال الله تعالى: ﴿ إِنَ الْذِيكَ اَنْقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ مَاتِيثُ فِيكُ

 ⁽١) حديث: فإذا أراد الله بعبده خيراً جعل له واعظا من قلبه أخرجه أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث أم
 سلمة وإسناده جيد.

 ⁽٣) حديث: امن كان له من قلبه واهظ كان هليه من الله حافظه لم أجد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: اقلب المؤمن أجرد فيه صراح يزهر . . . ١ الحديث . أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد
 وهو بعض الحديث الذي يليه .

⁽٤) حديث: القلوب أربعة: قلب أجرد قيه سراج يزهر . . . ٤ الحديث. أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبى سعيد الخدرى، وقد تقدم.

ٱلشَّيَطُانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبَعِمُونَ ﷺ [الامرَاف: ٢٠١] فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا. فالتقوى باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر، وهو الفوز بلقاء الله تعالى.

بيان مثل القلب بالإضافة إلى العلوم خاصة:

اعلم: أن محل العلم هو القلب؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح، وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات؛ فكما أن للمتلون صورة، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها، وكما أن المرآة غير، وصور الأشخاص غير، وحصول مثالها في المرآة غير، فهي ثلاثة أمور. فكذلك ههنا ثلاثة أمور: القلب، وحقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه.

فالعالم: عبارة عن القلب الذي فيه يحل مثال حقائق الأشياء، والمعلوم: عبارة عن حقائق الأشياء. والعلم: عبارة عن حصول المثال في المرآة.

وكما أن القبض مثلاً يستدعي (قابضاً) كاليد (ومقبوضاً) كالسيف، ووصولاً بين السيف واليد يبحصول السيف في اليد ويسمى (قبضاً)، فكذلك وصول مثال المعلوم إلى القلب يسمى علماً، وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلاً، لأن العلم عبارة عن وصول الحقيقة إلى القلب، كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والأخذ حاصلاً لعدم وقوع السيف في اليد، نعم، القبض عبارة عن حصول السيف بعينه في اليد، والمعلوم بعينه لا يحصل في القلب، فمن علم النار لم تحصل عين النار في قلبه، ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لمصورتها، فتمثيله بالمرآة أولى؛ لأن عين الإنسان لا تحصل في المرآة وإنما يحصل مثال مطابق له. وكذا حصول مثال مطابق لمحقيقة المعلوم في القلب يسمى علماً.

وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور:

أحدها: نقصان صورتها، كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل.

والثاني: لخبثه وصدئه وكدورته، وإن كان تام الشكل.

والثالث: لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها، كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.

والرابع: لحجاب مرسل بين المرآة والصورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة، حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها.

فكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها، وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة:

أولها: نقصان في ذاته، كقلب الصبي فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصائه.

والثاني: لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «مَنْ قَارَفَ

ذَبْهاً فَارَقَهُ حَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبداً ('' أي حصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها، إذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها، فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة إشراق القلب، فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها إلى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نوراً. فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق؟ فالإقبال على طاعة الله والإعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهِ مِنْ مَنْ مَهِ لَهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلْمُ مَا لَمْ يَعْلَمُهُ (''. '

الثالث: أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة، فإن قلب المعليع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق؛ لأنه ليس يعلب الحق وليس محافياً بمرآته شطر المطلوب، بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو يتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية، فلا يكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها، وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات ولذاتها وعلائقها، فكيف لا يمنم عن الكشف الحقيقي؟.

الرابع: الحجاب، فإن المطبع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقاتق قد لا ينكشف له ذلك؛ لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهذا أيضاً حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض؛ لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم، وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق.

المخامس: الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه، حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، بل كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وحه مخصوص، فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والأنثى. ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وإنسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى، وذلك إذا وقع بينهما اردواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان، وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب، فالجهل بثلك الأصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم. ومثاله: أن يريد الإنسان أن يرى قفاه مثلاً

 ⁽١) حديث: المن قارف ذنباً فارقه عقل لا يمود إليه أبداً؛ لم أر له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: همن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم؛ رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وقد تقدم في العلم.

بالمرآة فإنه إذا رفع المرآة بإزاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا، وإن رفعها وراء الففا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها، فيحتاج إلى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا، وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويراعي مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأخرى التي في مقابلة العين، ثم تدرك العين صورة القفا، فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة، يعز على بسيط الأرض من يهتدي إلى كيفية الحيلة في تلك الازورارات.

فهذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور. وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق؛ لأنه أمر ربائي شريف قارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف. وإليه الإشارة بسقسول عسر وجل الأنسان المستقل المس

وإليه الإشارة بما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله: يا رسول الله، أين الله في الأرض أو في السماء؟ قال: قفي قلوب عباده المؤمنين"، وفي الخبر: قالَ الله تَعَالَى: لَمُ يَسَغنِي أَرْضِي وَلا سَمَائِي وَوَسِغنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ الْلَيْنِ الوَادِعِ". وفي الخبر أنه قبل: يا رسول الله من خير الناس؟ فقال: «كُلُّ مُؤْمِنٍ مَحْمُومُ القلّبِ» فقيل: وما محموم القلب؟ فقال: قمُو التَّقِيُّ النَّقِيُّ اللَّقِيُّ اللَّقِيُ اللَّقِيُ اللَّهِي لا غِشْ فِيهِ وَلا بَغْيَ وَلا عَدْرَ ولا غِلَّ وَلا حَسَدَه في الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة رأى قلبي ربي. إذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى، ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والأرض، أما جملتها فأكثر سعة من السموات والأرض؛ لأن السموات والأرض عبارة عن عالم الملك والشهادة، وهو وإن كان واسع الأطراف متباعد الأكناف فهو متناه على الجملة، وأما عالم الملكوت وهي الأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه، ولكنه في نفسه الأبصار المخصوصة بإدراك البصائر فلا نهاية له، نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه، ولكنه في نفسه

⁽١) حليث: اكل مولود يولد على القطرة. . . ؟ الحديث عنفق عليه من حديث أبي هريرة .

 ⁽٢) حديث: فلولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم. . . ١ الحديث، تقدم.

⁽٣) حديث انن عمر: أين الله؟ قال: الله قلوب عباده المؤمنين؟. لم أجده بهذا اللفظ، وللطبراني من حديث أبي عتبة المتولاني يرفعه إلى النبي ﷺ قال: (إن لله آتية من أهل الأرض وآتية وبكم قلوب عباده الصالحين. . . ا الحديث. فيه بقية بن الوليد وهو مدلس لكنه صرح فيه بالتحديث.

⁽٤) حديث: «قال الله ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع» لم أر له أصالاً، وفي حديث أبى عتبة قبله عند الطبراني بعد قوله: «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها».

⁽٥) حلّيث قبل: من خير الناس؟ قال: «كل مؤمن مخموم القلب...» الحديث. أخرجه ابن ماجة من حليث عبدالله بن عمر بإسناد صحيح.

وبالإضافة إلى علم الله لا نهاية له. وجملة عالم الملك والملكوت إذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية، لأن الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات؛ إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله، فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم، وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق، ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته، وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله. وإنما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه: ﴿قَدُ اللَّهَ مَن زَّكُنها فِي الشَّم مَن زَّكُنها فِي الشَّمس: ٩) ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه، أعني إشراق نور المعرفة، وهو المراد يقوله تعالى: ﴿ فَنَن يُودِ اللَّهُ أَن يَهْدِيكُم يَشْرَحُ صَدْرَهُ الْإِسْلَدْ اللهُ الأنتام: ١٢٥]. وبقوله: ﴿ أَفَنَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ الْإِسْلَدْ اللهُ اللهُ عَلَى فُور مَن رَّيُونَ اللَّهُ الذَّر: ٢٧].

نعم، هذا التجلي وهذا الإيمان له ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إيمان العوام؛ وهو إيمان التقليد المحض.

والثانية: إيمان المتكلمين؛ وهو ممزوج بنوع استدلال، ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام. والثالثة: إيمان العارفين؛ وهو المشاهد بنور اليقين.

ونبين لك هذه المراتب بمثال: وهو أن تصديقك بكون زيد مثلاً في الدار له ثلاث درجات.

الأولى: أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرقه بالكذب ولا اتهمته في القول، فإن قلبك يسكن إليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع، وهذا [هو] الإيمان بمجرد التقليد، وهو مثل إيمان العوام؛ فإنهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وإرادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاؤوا به، وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا إليه، ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم؛ لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم، وهذا الإيمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين؛ وليسوا من المقربين؛ لأنه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين؛ إذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد، بل من الأعداد فيما يتعلق بالاعتقادات، فقلوب اليهود والنصارى أيضاً مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم، إلا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوا خطأ لأنهم ألقي إليهم كلمة الحق.

الرتبة الثانية: أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار؛ فتستدل به على كونه في الدار. فيكون إيمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع، فإنك إذا قيل لك إنه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقيناً؛ لأن الأصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة، فيحكم قلبه بأن هذا صوت ذلك الشخص؛ وهذا إيمان ممزوج بدليل، والخطأ أيضاً ممكن أن يتطرق إليه؛ إذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة إلا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع؛ لأنه ليس يجعل للتهمة موضعاً، ولا يقدر في هذا التلبس والمحاكاة غرضاً.

الرئية الثالثة: أن تدخل الدار فتنظر إليه بعينك وتشاهده؛ وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية. وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين، لأنهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في إيمانهم إيمان العوام والمتكلمين، ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها إمكان الخطأ. نعم، وهم أيضاً يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف.

أما درجات الكشف: فمثاله: أن يبصر زيداً في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق

الشمس فيكمل له إدراكه، والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو؛ ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته. ومثل هذا متصوّر في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية.

وأما مقادير العلوم: فهو بأن يرى في الدار زيداً وعمراً وبكراً غير ذلك، وآخر لا يرى إلا زيداً، فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة. فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم. والله تعالى أعلم بالصواب.

بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية:

اهلم: أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق، ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية. والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة. والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية.

أما العقلية: فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع، وهي تنقسم إلى ضرورية: لا يدري من أبن حصلت وكيف حصلت؟ كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً معاً؛ فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطوراً عليها، ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له؟ أعني أنه لا يدري له سبباً قريباً، وإلا فليس يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه، وإلى علوم مكتسبة: وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلاً.

قال علي رضي الله عنه:

والأول هو المراد بقوله على: قما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل أن والثاني هو المراد بقوله على رضي الله عنه: قإذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع المبر فتقرب أنت بعقلك (**). إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة. ولكن مثل علي رضي الله عنه هو الذي يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين، فالقلب جار مجرى العين، وغويزة العقل فيه جارية مجرى قوّة البصر في العين، وقوة الإبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل، والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوّة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان الأشياء. وتأخر العلوم عن عين العقل في مدّة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على

 ⁽١) حديث: (ما خالق الله خالفاً أكرم عليه من العقل؛ أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد ضعيف، وقد تقدم في العلم.

 ⁽٢) حديث: اإذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت معقلك، أخرجه أبر نعيم من حديث علي بإسناد ضعيف.

المبصرات، والقلم الذي سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس، وإنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمبيز لأن لوح قلبه لم ينهيا بعد لقبول نفس العلم، والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى: ﴿ النّلَانَ ٤٠٥]، وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه، كما لا يشبه وصفه وصف خلقه، فليس قلمه من قصب ولا خشب، كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض؛ فالموازنة بين البصيرة خلقه، فليس قلمه من قصب ولا خشب، كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض؛ فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه، إلا أنه لا مناسبة بينهما في الشرف؛ فإن البصيرة الباطنة الباطنة والبصر الظاهر محيى الفارس أضر على النفس التي هي اللطيفة المدركة، وهي كالفارس والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس، بل لا نسبة لأحد الضروين إلى الآخر. ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال: ﴿ مَا كُنَّ الْفُؤَادُ مَا زَاعَ ﴿ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ عَبْر مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان، ولذلك سمى ضد إدراكه فلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان، ولذلك سمى ضد إدراكه غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان، ولذلك سمى ضد إدراكه عمى، فقال تعالى: ﴿ وَلَا النَّهُ وَ الْآخِرَةُ أَلْمَانُ سَيْكَ الْقُلُوبُ الْهَ في السَّدُوبَ وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَنهُ عَلَى فَلُوبُ اللَّهُ في الشَّدُوبُ إللهم العقلي.

أما العلوم الدينية: فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله على وفهم معانيهما بعد السماع، وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض، فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجاً إليها، كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن، بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء؛ إذ مجرد العقل لا يهتدي إليه، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، فلا غنى بالعمل عن العقل.

فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنّة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية مناقضة للعلوم بالعليم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء. وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا الشائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض في القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض في الدين وهيهات، وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني الدار فقال لهم: نقضاً في الدين وهيهات، وإنما مثاله مثال الأعمى الذي دخل دار قوم فتعثر فيها بأواني في مواضعها، ما بال هذه الأواني تركت على الملك، فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وإنما تحيلها على ما بال هذه الأواني في الدينية إلى العلوم العقلية.

والعلوم العقلية تنقسم إلى دنيوية وأخروية. فالدنيوية: كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات. والأخروية: كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله تعالى وبصفاته

وأفعاله _ كما فصلناه في كتاب العلم _، وهما علمان متنافيان _، أعني أن من صرف عنايته إلى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الأكثر _ ولذلك ضرب علي رضي الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال: هما ككفتي الميزان، وكالمشرق والمغرب، وكالضرّتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

ولذلك ترى الأكياس في أمور الدنيا وفي علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالاً في أمور الآخرة. والأكباس في دقائق علوم الآخرة جهالاً في أكثر علوم الدنيا، لأن قوة العقل لا تفي بالأمرين جميعاً في الغالب فيكون أحدهما مانعاً من الكمال في الثاني. ولذلك قال ﷺ: قان أُكْثَرَ أَهُلِ الجَنّةِ اللهُ الْجَنّةِ أَيْ الْجَنّةِ اللهُ عَلَى الله في أمور الدنيا.

وقال الحسن في بعض مواعظه: لقد أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم: مجانين ولو أدركوكم لقالوا: شياطين. فمهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم، فلا لقالوا: شياطين. فمهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحده أهل الكياسة في سائر العلوم، فلا يغزنك جحودهم عن قبوله؛ إذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب، فكذلك يجري أمر الدنيا والأخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَنْ اللّهِ يَنَ لَيْكُونَ اللّهُ يَا لَا يَنْجُونَ لِقَامَا وَرَشُوا بِالمَيْوَقِ الدُّيَا وَالْمَالُولُ عِهَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَال

بيان الفرق بين الإلهام والتعلم، والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار:

اهلم: أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال - تختلف الحال في حصولها؛ فتارة تهجم على القلب كأنه ألقي فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم. فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً. ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل؟ وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب. والأولى: يسمى إلهاماً ونفثاً في الروع. والثاني: يسمى وحياً وتختص به الأبياء. والأول يختص به الأولياء والأصفياء. والذي قبله - وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء، وحقيقة القول فيه: أن القلب مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها، وإنما حيل بينه وبينها بالأسباب الخمسة د التي سبق ذكرها م، فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة والقلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة. وتجلي حقائق

 ⁽١) حديث: «أكثر أهل البعنة البلم» أخرجه البزار من حديث أنس وضعفه، وصححه القرطبي في التذكرة، وليس كذلك فقد قال ابن عدي: إنه منكر.

العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها، والحجاب بين الممرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه. وكذلك قد تهب رياح الألطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ، ويكون ذلك تارة عند الممنام فيعلم به ما يكون في المستقبل. وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء، وينكشف أيضاً في البقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف حفي من الله تعالى، فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف، وأخرى على التوالي إلى حد ما. ودوامه في غاية الندور فلم يفارق الإلهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه، ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب، فإن ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الإلهام في شيء من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ المفيد للعلم، فإن العلم إنما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمَارِةُ مِنْ اللّهُ وَمُولًا وَيُومِ وَالّهِ وَمُولًا وَيُومِ وَالْمِهُ وَلَهُ وَمُ وَرَابًى حِالًا أَوْ مِن وَرَابًى حِالًا أَوْ مِن وَرَابًى حِالًا أَوْ مِن وَرَابًى حِالًا أَوْ مِن وَرَابًى حَالًا وَالْمَارَةُ وَلَا فَي مُنْ يَنَانًا في المؤلِق وَلَالِهُ وَلَا وَلُومُ وَلَالَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَالًا وَلَالَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَالَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَالَا وَلَا وَلْهُ وَلَا وَلِي وَلَا وَلِهُ وَلَا وَالَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا وَلَا

فإذا عرفت هذا فاعلم: أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية. فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم، وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية. فليس على العبد إلا الاستعداد بالتصفية المجردة وإحضار الهمة مع الإرادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة.

فالأبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتسري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له. وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلَّى حالة يستوي فيهَا وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم، ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى، فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه، ثم يصّبر عليه إلى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظباً على الذكر، ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحدّ، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى، بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق؛ وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت، ثم يعود وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفاً، وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضائه إلى هذا المقصد على الندور فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء، ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤوا ثمرته واستبعلوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل في حال وثباته أبعد منه استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر وإن حصل في حال وثباته أبعد منه أخليانها» (١)، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: فقلبُ المُؤْمِنِ بَيْنَ أَصْبَعْنِي مِنْ أَصَابِع الرَّحْمُنِ (٢٠)، وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أثقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض. وزعموا أن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه. وزعم أن النبي يَقِيُّ لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه، وصار فقيها بالوحي والإلهام من غير تكرير وتعليق، وأنا أيضاً ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة إليه، كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً؛ فكذلك هذا. وقالوا: لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء، فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة.

بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس:

اعلم: أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس، لأن القلب أيضاً خارج عن إدراك الحس وما ليس مدركاً بالحواس تضعف الأفهام عن دركه إلا بمثال محسوس. ونحن نقرّب ذلك إلى الأفهام الضعيفة بمثالين:

أحدهما: أنه لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض احتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر. فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار. وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علماً، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

فإن قلت: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟ فاعلم: أن هذا من عجائب أسرار

حديث: القلب المؤمن أشد تقلباً من القلو في غليانها، أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود.

 ⁽٢) حديث: اقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر.

القلب ولا يسمع بذكره في علم المعاملة، بل القدر الذي يمكن ذكره: أن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ، بل في قلوب الملائكة المقربين. فكما أن المهندس يصوّر أبنية الدار في بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ، ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها، ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال. والحاصل في القلب موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه، والعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه، والعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الإنسان

فكأن للعالم أربع درجات في الوجود: وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي ـ أعني وجود صورته في الخيال ـ، ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلى ـ أعنى وجود صورته في القلب ـ.

وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية. والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض، وهذا اللطف من الحكمة الإلهية؛ إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها، ثم يسري من وجودها في الحس وجود إلى الخيال، ثم منه وجود في القلب، فإنك أبداً لا تدرك إلا ما هو واصل إليك، فلو لم يجعل للعالم كله مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك، فسبحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها.

ولنرجع إلى الغرض المقصود فنقول: القلب قد يتصوّر أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ، كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس، تارة من لنظر إليها وتارة من النظر إلي الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها. فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ رأى الأشياء فيه، وتفجر إليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس، فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض. ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الأرض. ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان لأرض، وكما أن من نظر إلى الماء الذي يحكي صورة الشمس لا يكون ناظراً إلى نفس الشمس؛ فإذن للقلب بابان: باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملاتكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة. وعالم الشهادة والملك أيضاً يحاكي عالم الملكوت نوعاً من المحوس فلا يخفى عليك، وأما انفتاح بابه اللحاخل إلى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علماً يقينياً بالتأمل في عجائب الرؤيا واطلاع نوا القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس. القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس. القلب في النوم على ما سيكون في المستقبل، أو كان في الماضي من غير اقتباس من جهة الحواس. القلب قال: «المُنتَرُمُونَ بِذِكْرِ اللهُ تَعَالَى، وقال عَنهُ أَوْرًارَهُمْ فَوَرَهُوا القِيامَة خفافاً»، ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى فقال: «لُمُ أقبِلُ بِوجْهِي عَلَيْهِمْ أَثْرَى مَنْ وَاجَهْتُهُ بِوجْهِي يَعْلَمُ أَحَدُ أَيْ

شَيْءِ أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَهُ؟ ثم قال تعالى: أُوَّلُ مَا أُعْطِيهِمْ أَنْ أَقْلِفَ النُّورَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيُخْبِرُونَ عَنِي كَمَا أُخْبِرُ وَعَنْهُمُ اللهُ الْمُولِيَّةِ وَلاَنبياء وبين علوم الأولياء والأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا؛ وهو أن علومهم تأتي من داخل القلب من الباب المنفتح إلى عالم الملكوت، وعلم الحكمة يتأتى من أبواب الحواس المفتوحة إلى عالم الملك، وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمي الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى في علم المعاملة. فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين.

المثال الثاني يعرفك الفرق بين العملين، أعني عمل العلماء وعمل الأولياء: فإن العلماء يعملون في اكتساب نفس العلوم واجتلابها إلى القلب، وأولياء الصوفية يعملون في جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط، فقد حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جائباً وأهل الروم جانباً ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغربية ما لا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضاً، فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ؟ فقيل: وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب، فرفعوا وإذا بجانبهم من غير صبغ بغيلاً أم عليكم ارفعوا الحجاب، فرفعوا وإذا بجانبهم التصقيل عزيادة إشراق وبريق؟ إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل عازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل؛ فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلاته وتزكيته وصفائه العموم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم، فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت، وعلمه عند الموت لا يمحى، وصفاؤه لا يتكدر. وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله: التراب لا يأكل عند الموت لا يمحى، وصفاؤه لا يتكدر. وإليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله: التراب لا يأكل محل الإيمان بل يكون وسيلة وقربة إلى الله تعالى.

وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لأحد إلا بالعلم والمعرفة، وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى إلا بالمال. فصاحب الدرهم غني، وصاحب الخزائن المترعة غني، وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والإيمان كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب قلة المال وكثرته، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم: قال الله تعالى: ﴿ يَنْ عُرُهُم ثَيْنَ أَيْدِهِم وَ وَالْمَعْمِ الله وَ وَقَد روي في الخبر: ﴿ إِن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوراً على إيهام الخبر؛ في هنيء مرة وينطفىء أخرى فإذا أضاء قدّم قدميه فمشى وإذا أطفىء قام، ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كالسحاب، ومنهم على قدر نورهم فمنهم من يمر كالسحاب، ومنهم

⁽١) حديث: قسبق المغردون، قبل: ومن هم؟ قال: «المستهترون بذكر الله. . .» الحديث، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مقتصراً على أول الحديث وقال فيه: وما المغردون، قال طالقاكرون الله كثيراً والذاكرات، ورواه الحاكم بلفظ:
ققال الذين يستهترون بذكر الله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وزاد فيه البيهقي في الشعب: فيضع الذكر عنهم المقالهم ويأتون يوم القيامة خفافاً» ورواه هكذا الطبراني في المعجم من حديث أبي الدرداء دون الزيادة التي ذكرها المصنف في آخره، وكلاهما ضعيف.

€144\$

من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم من يمر كالفرس إذا اشتد في ميدانه، والذي أعطي نوراً على إبهام قدمه يحبو حبواً على وجهه ويديه ورجليه يجر يداً ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص»(١). الحديث. فبهذا يظهر تفاوت الناس في الإيمان، ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح. فهذا أيضاً يضاهي قول القائل: لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح؛ فإيمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع، وإيمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم، وإيمان الأنبياء كالشمس. وكما ينكشف في نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف في نور السراج إلا زاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين. ولذلك جاء في الخبر: «أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة» (؟) . كل ذلك تنبيه على تفاوت درُّجات الإيمان، وأن هذه المقادير من الإيمان لاّ تمنع دخول النار، وفي مفهومه أن من إيمانه يزيد على مثقال فإنه لا يدخل النار؛ إذ لو دخل لأمر بإخراجه أولاً، وأن من في قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود نى النار وإن دخلها. وكذلك قوله ﷺ: ﴿ لَيْسَ شَيْءٌ خَيْراً مِنْ ٱلْفِ مِثْلِهِ إِلاَّ الإِنْسَانُ المُؤْمِنُ السَّا . إشارة إلى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فإنه حير من ألف قلب من العوام. وقد قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ اَلْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩] تفضيلاً للمؤمنين على المسلمين، والمراد به: المؤمن العارف دون المقلد. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَرْفِيمِ اللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوثُواْ ٱلْفِلْرَ دَرَجَنتِ ﴾ [المخادلة: ١١] فأراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غَير علم، وميزهم عن الذين أوتوا العلم. ويدل ذلك على أن اسم المؤمن يقع على المقلد وإن لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف.

وفسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْمِلْرَ دَرَكَتُ السَّامَ وَالْرَضِ، وقال الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وقال الله المَّكُرُ أَهُلِ الْجَنِّةِ البُلْهُ وَعِلْيُونَ لِلْوِي الْأَبَابِ (أ)، وقال عَلَى الْعَالِم عَلَى أَذَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي (أه)، وفي رواية: ﴿كَفَصْلِ القَمْرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَبِهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم، ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن إذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران، والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره إليها كنظر الغني الذي يملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكل

 ⁽١) حديث: فإن بمضهم يعطى توراً مثل الجبل حتى يكون أصغرهم رجل يعطى توره هلى إبهام قدمه. . . ٤ الحديث .
 أخرجه الطبراتي والحاكم من حديث ابن مسعود قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٢) حديث: فيقال يوم القيامة أخرجوا من النار من في قلبه ربع مثقال من إيمان. . ٩ الحديث. مثفق عليه من حديث أبي سعيد وليس فيه قوله: قريع مثقاله.

حديث: «ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان أو المؤمن». أخرجه الطبراني من حديث سلمان بلفظ: «الإنسان»
 ولأحمد من حديث ابن عمر: لالا نعلم شيئاً خيراً من مائة مثله إلا الرجل المؤمن» وإسنادها حسن.

 ⁽٤) حديث: (أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الألباب؛ تقدم دون هذه الزيادة، ولم أجد لهذه الزيادة أصلاً.

حدیث: اقضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي، أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه، وقد تقدم في العلم وكذلك الرواية الثانية.

واحد منهما غني ولكن ما أعظم الفرق بينهما! وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَكَتِ وَأَكْبَرُ تَقْضِيكُ [الإسراء: ٣١].

بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد:

اصلم: أن من انكشف له شيء ولو الشيء اليسير بطريق الإلهام والوقوع في القلب من حيث لا يلادي فقد صار عارفاً بصحة الطريق، ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغي أن يؤمن به، فإن درجة المعرفة فيه عزيزة جداً، ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات:

أما الشواهد: فقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَنهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَتُهُمْ شَبُّلَنَّا﴾ [المَنكبوت: ٦٩] فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والإلهام. وقال ﷺ: "مَنْ عَمِلَ بَمَا عَلِمَ وَرُثُهُ الله عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ وَوَفَّقَهُ فِيما يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ الجُنَّةَ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا يَعْلَمُ نَاهَ فِيما يَعْلَمُ وَلَمْ يُوَفِّقُ فِيمَا يَعْمَلُ حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارَا (١)، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَنِّي اللَّهَ يَجْمَل لَّهُ مِخْرَمًا ﴾ [الطَّلاق: ٢] من الإشكالات والشبه. ﴿ وَرَزُّونَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَضَيِّبُ ۖ [الطَّلَاق: ٣] يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة. وقال الله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوَّا إِن تَنَّتُواْ ٱللَّهَ يَعْمَل لَكُمُّ فُرْفَانَا﴾ [الانفال: ٢٩] قيل: نوراً يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات، ولذلك كان ﷺ يكثر في دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام: «اللُّهُمُّ أَعْطِنِي نُوراً وَزِدْنِي نُوراً وَاجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُوراً وَفِي قَبْرِي نُوراً وَفِي سَمْمِي نُوراً وَفِي بَصَرِي نُوراً، حَتَّى قالَ: فِي شَعْرِي وَفِي بَشَرِي وَفِي لَحْمِي وَدَمِي وْصِطْامِيَ" (٢)، وسَسْل ﷺ عن قولُ الله تُعَالَى: ﴿ أَنْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُمْ لِلْإِسْلَايِر فَهُوَ عَلَى ثُورٍ مِنْ زَيْءٍ ﴾ [الزُّمَر: ٢٧] ما هذا الشرح؟ فقال: «هُوَ التَّوسِعَةُ إِنَّ النُّورَّ إِذَا قُلِفَ بِهِ فِي القَلْبِ اتَّسَعَ لَهُ الصَّفْلُ وَانْشَرَحَ ۗ (٣)، وقال ﷺ لابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقَهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلْمُهُ النَّاوِيلُ (٤). وقال على رضي الله عنه: ما عندنا شيء أسره النبي ﷺ إلينا إلا أن يؤتي الله تعالى عبداً فهماً في كتابه وليس هذا بالتعلم؟ (٥٠). وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُوْتِي الْمِكْمَةَ مَن يَكَآدُ ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] إنه الفهم في كتاب الله، وقال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَكُ سُلِّكُنَّ ﴾ [الأنبيّاء: ٧٩] خص ما انكشف باسم الفهم. وكان أبو الدرداء يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم. وقال بعض السلف: ظن المؤمن كهانة.

 ⁽١) حديث (من عمل بما علم. . . ١ الحديث. تقدم في العلم دون قوله: (ووفقه فيما يعمل) فلم أرها.

 ⁽٧) حديث: «اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً...» الحديث. متفق عليه من حديث ابن عباس.

 ⁽٣) حديث: «سئل عن قوله تعالى: أقمن شرح الله صدره للإسلام. . . » الحديث. وفي المستدرك من حديث ابن مسعود،
 وقد تقدم في العلم.

 ⁽٤) حديث: «اللهم فقهه في الدين وهلمه التأويل» قاله لابن عباس. متفق هليه من حديث ابن عباس دون قوله: «وهلمه التأويل» فأخرجه بهذه الزيادة أحمد وابن حبان والحاكم وصححه. وقد تقدم في العلم.

 ⁽a) حديث على: «ما عندنا شيء أسره إلينا رسول الله على إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في كتابه». تقدم في آداب تلاوة القرآن.

وقال ﷺ: «اَتَقُوا قِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِتُورِ اللهُ تَعَالَى، (')، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِ ذَلِكَ لَاَيْتِ لِفَوْرِ لِلْهِبَانِ ﴿ البَّنَرَة: ١١٨]. وروى لَاَيْتَ لِلْفَرْسِينَ ﴿ البَّنَرَة: ١١٨]. وروى الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العِلْمُ عِلْمَانِ فَعِلْمٌ باطِنٌ فِي القَلْبِ قَلْلِكَ هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ، ('')، وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً. وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّ مِنْ أُمْتِي مُحَلَّثِينَ وَمُعَلِّمِينَ وَمُكَلِّمِينَ وَالْمَعْمِينَ وَإِنَّ مِنْ أَمْتِي مُحَلَّثِينَ وَمُعَلِّمِينَ وَالحَجْبَ وَإِلَى اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ على اللهُ على اللهُ على اللهُ على اللهُ على اللهُ على الفَلْمِينَ وَمُكَلِّمِينَ وَاللهِ عَلَيْكُ مِن زَسُولِ وَلَا نَبِي ﴾ [الحج: ٢٥] عَمْرَ مِنْهُمْ اللهِ على الصديقين، والمحددث هو الملهم، والملهم: هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة.

والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف؛ وذلك علم من غير تعلم. وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا حَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَوَتِ وَالْأَرْسِ لَآبَتِ لِغَوْرِ يَنْفُوك ﴾ [يُونس. ٦] خصصها بهم وقال تعالى: ﴿ هَدَا بِينَ لِلنّاسِ وَهُدَّى وَمَوْعِظَةٌ لِلنَّتَوِيك ﴿ إِنّ عِمرَان: ١٣٨]. وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس. وهذا هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّنْنَهُ مِن لّدُنّا عِلْمَا ﴾ [الكهف: ٥٠] مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علماً لدنياً، بل اللّدتي: الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج. فهذه شواهد النقل، ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والأخبار والآثار لخرج عن الحصر.

وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضاً خارج عن الحصر، وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته: إنما هما أخواك وأختاك، وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتاً فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت. وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته: يا سارية الجبل الجبل؛ إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك، ثم بلوغ صوته إليه من جملة الكرامات العظيمة. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريقي فنظرت إليها شزراً وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت: يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه، أما علمت أن زنا العينين النظر؟ لتتوبن أو لأعزرنك فقلت: أوحي بعد النبي؟ فقال: لا، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة، وعن أبي سعيد الخراز قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان، فقلت في تفسي: هذا وأشباهه كل على الناس، فناداني وقال: ﴿وَاَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فَ اَنْسُوكُم فَاحْدُونَ فَقَلَ السَّعْفِرة عني ولم أره.

⁽١) حديث: التقوا فراسة المؤمن. . . ٥ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: «العلم علمان...» الحديث. تقدم في العلم.

 ⁽٣) حديث: (إن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم؟ أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة: (فقد كان فيما قبلكم
 من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه همر؟ ورواه مسلم من حديث عائشة.

وقال زكريا بن داود: دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي ـ وهو عليل وكان ذا عيال، ولم يعرف له سبب يعبش به ـ قال: فلما قمت، قلت في نفسي: من أين يأكل هذا الرجل؟ قال: فصاح بي: يا أبا العباس، رد هذه الهمة الدنية فإن لله تعالى ألطافاً خفية. وقال أحمد النقيب: دخلت على الشبلي فقال مفتوناً: يا أحمد. فقلت: ما الخبر؟ قال: كنت جالساً فجرى بخاطري أنك بخيل، فقلت: ما أنا بخيل، فعاد مني خاطري وقال: بل أنت بخيل، فقلت: ما فتح اليوم على بشيء إلا دفعنه إلى أول فقير يلقاني، قال: فما استتم الخاطر حتى دخل عليٌّ صاحب لمُؤنس الخادم ومعه خمسون ديناراً فقال: اجعلها في مصالحك، قال: وقمت فأخذتها وخرجت وإذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الدنانير، فقال: أعطها المزين، فقلت: إن جملتها كذا وكذا، قال: أوليس قد قلنا لك إنك بخيل؟ قال: فناولتها المزين، فقال المزين: قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجراً، قال: فرميت بها في دجلة وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله عزَّ وجلَّ. وقال حمزة بن عبدالله العلوي: دخلت على أبي الخير النيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاماً، فلما خرجت من عنده إذا به قد لحقني وقد حمل طبقاً فيه طعام وقال: يا فتي، كُلُّ فقد خرجت الساعة من اعتقادك، وكان أبو الخير النيناني هذا مشهوراً بالكرامات، وقال إبراهيم الرقمي: قصدته مسلماً عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستوياً فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي، فلما سلم خرجت إلى الطهارة فقصدني سبع، فعدت إلى أبي الخير وقلت قصدني سبع، فخرج وصاح به وقال: ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني؟ فتنحى الأسد فتطهرت، فلما رجعت قال لي: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد.

وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر، بل ما حكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه، ومن سماع صوت الهاتف، ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية، لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه، ومن أنكر الأصل أنكر التفصيل، والدليل القاطع الذي لا يقدر أحد على جحده أمران:

أحدهما: عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً في اليقظة فلم يفارق النوم البقظة إلا في ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات. فكم من مستيقظ غائص لا يسمم ولا يبصر لاشتغاله بنفسه!.

والثاني: إخبار رسول الله يهيئ عن الغبب وأمور في المستقبل كما اشتمل عليه القرآن وإذا جاز ذلك للنبي على جاز لغيره؛ إذ النبي عبارة عن شخص كوشف بحقائق الأمور وشغل بإصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون في الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل بإصلاح الخلق، وهذا لا يسمى نبياً بسمى ولياً، فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان: باب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فإذا أقر بهما جميعاً لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة مبيل إليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، وأما السبب في انكشاف الأمر في المنام بالمثال المحوج إلى التعبير، وكذلك تمثل الملائكة للأنبياء والأولياء بصور مختلفة فذلك أيضاً من أسرار عجائب القلب، ولا يليق ذلك إلا بعلم المكاشفة قلنقتصر على ما ذكرناه؛ فإنه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها. فقد قال

بعض المكاشفين: ظهر لي الملك فسألني أن أملي عليه شبئاً من ذكري الخفي عن مشاهدتي من التوحيد وقال: ما نكتب لك عملاً ونحن نحب أن نصعد لك بعمل تتقرب به إلى الله عز وجل فقلت: ألستما تكتبان الفرائض؟ قالا: بلى، قلت: فيكفيكما ذلك. وهذه إشارة إلى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة. وقال بعض العارفين: سألت بعص الأبدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت إلى يمينه فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم التفت إلى يمينه فقال: ما تقول رحمك الله؟ ثم أجاب بأغرب جواب سمعته. فسألته عن التفاته فقال: لم يكن عندي في المسألة جواب عتيد، فسألت صاحب الشمال فقال: لا أدري. فسألت صاحب الشمال فقال: لا أدري. فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدري. فنظرت إلى قلبي وسألته فحدثني بما أجبتك فإذا هو أعلم منهما. وكأن هذا هو معنى قوله عليه السلام: "إنَّ فِي أُمَّتِي مُحَدَّثِينَ وإنَّ عُمَرَ مِنْهُمَّ».

وفي الأثر: إن الله تعالى يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه. وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه: القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة، فأي باب فتح له عمل فيه فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والمعلأ الأعلى، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والإعراض عن شهوات الدنيا. ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: احفظوا ما تسمعون من المطيعين؛ فإنهم ينجلي لهم أمور صادقة، وقال بعض العلماء: يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون إلا بما هيأ الله لهم من الحق. وقال آخر: لو شت لقلت: إن الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره.

بيان تسلط الشيطان على القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها:

اهلم؛ أن القلب كما ذكرناه مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضاً مثال هدف تنصب إليه السهام من الجوانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها، أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه. وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال؛ أما من الظاهر: فالحواس الخمس، وأما من الباطن: فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وبسبب قوة في المزاج حصل منها في القلب أثر، وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر. والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب. وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر؛ وأعنى بالخواطر ما يحصل فيه من الأفكار، والأذكار، وأعنى به إدراكاته علوماً، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر؛ فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها. والخواطر هي المحركات للإرادات؛ فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المموى بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال الخواطر، ثم الخاطر يحرك الرغبة، والرغبة تحرك العزم، والعزم يحرك النية، والنية تحرك الأعضاء. والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما بدعو إلى الشر ـ أعني إلى ما يضر في العاقبة _، وإلى ما يدعو إلى الخير _ أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة _. فهما خاطران مختلفان فافتقرا إلى اسمين مختلفين، فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً، والخاطر المذموم ـ أعنى الداعي إلى الشر ـ يسمى

وسواساً، ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث. ومهما اختلفت المحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب. فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة.

وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشريسمى شيطاناً، واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلاناً، فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامي مختلفة. والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف، وقد خلقه وسخره لذلك، والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء، والتخويف عند الهم بالخير بالفقر. فالوسوسة في مقابلة الإلهام، والشيطان في مقابلة الملك، والتوفيق في مقابلة الحذلان. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيَن حَلِّلَ مَنْكَا رَوْمَيْنَ ﴾ [النَّاريَات: ٤٩] فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها. فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك. وقد قال على الله شبخانة المقلب لمتعاني المثلث وَبَعَد ذلك فَلْيَمْلَمُ أَنَهُ مِن الله سُبْحَانَة المُنْتِ الله عن المقلب المثلث والمثلث وقد قال الله عن الله سُبْحَانة المنتفق والمئل المؤلف إبعاد بالمئر وتكذيب بالحق ونهي في الخير فَمَن وَجَد ذلِك فَلْيسْتَعِد بالله مِن الله عنه المئلن الرَّجِيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ الشّيَعَانُ يَودُكُمُ المنتفر وَبَهُ مِن الله تعالى وهم من العدق، فرحم الله عبداً وقف وقال الحسن: إنما هما همان يجولان في القالم، هم من الله تعالى وهم من العدق، فرحم الله عبداً وقف عند همه؛ فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده.

ولتجاذب القلب بين هذين المسلطين قال رسول الله على: وقلْبُ المُومِنِ بَينَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِع الرَّحُمٰنِ (٢) فالله يتعالى عن أن يكون له أصبع مركبة من لحم ودم وعصب، منقسمة بالأنامل، ولكن روح الأصبع سرعة التقليب، والقدرة على التحريك والتغيير، فإنك لا تريد أصبعك لشخصه بل لفعله في التقليب والترديد كما أنك تتعاطى الأفعال بأصابعك. والله تعالى يفعل ما يفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته في تقليب القلوب، كما أن أصابعك مسخرة لك في تقليب الأجسام مثلاً. والقلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحاً متساوياً ليس يترجع أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه؛ لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لا عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال على المثعبة عن الهوى، لا أخر إلى أنه به جولان بالوسوسة. ولذلك قال الشيطان عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال الشيطان عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال الشيطان عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال الشيطان وموسة عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة. ولذلك قال الشيطان فيه قبول أحد إلى المؤلف قال المناهدة ومهم وطول أمل إلى غير فلك قال قلي قال المناهدة ومهم وطول أمل إلى غير فلك المؤلف قال المناهدة ومهم وطول أمل إلى غير فلك قال المناهدة ومهم وطول أمل إلى غير فلك من صفات البدر المؤلف قال المؤلف المؤل

⁽١) حديث: ففي القلب لمثان ثمة من الملك إيعاد بالخير . . . * الحديث . أخرجه الترمذي وحسته والنسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود .

⁽٢) حديث: قلب المؤمن بين أصبعين. . . ٤ الحديث، تقدم،

وَلَه شَيْطَانٌ» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وَأَنَا إِلاَّ أَنَّ اللهُ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلا يَأْمُرُ إِلاَّ بِخَيْرٍ» (')، وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحدّ الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر، فالشيطان المتدرّع بها لا يأمر إلا بالخير. ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس. ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم.

والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب الأحدهما فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثاني اختلاساً. وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها؛ فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى. ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته بذكر الله تعالى الدي هو مطرح أثر الملائكة. وقال جابر بن عبيدة العدوي: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد عي صدري من الوسوسة فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص، فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه. يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان. ولذلك قال الله عن الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلط الله عليه الشيطان. وقال تعالى: ﴿أَثَرَيْتُ مَن عُنَدَ إِلَهُمُ مُونَهُ وَالجَاتِة: ٢٣] وهو إشارة إلى أن من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك قال عمرو بن العاص للنبي من الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك قال عمرو بن العاص للنبي قا رسول الله، حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال: «ذلك قال عمرو بن العاص للنبي قي المسلمة في أنه واتفل عَلَى يَسَارِكَ ثلاثًا» قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني "".

وفي الخبر: "إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاستعينوا بالله منه "" ، ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذكر ما سوى ما يوسوس به ، لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل ، ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان ، وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال. ولا يعالج الشيء إلا بضده ، وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوّة ، وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم . وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم الشيطان الرجيم ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل المخلسة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانِ مَنْ الشَّيْطَانِ مَنْ الشَّيْطَانِ مَنْ الشَّيْطَانِ مَنْ الشَّيْطَانِ مَنْ الشَّيْطَانِ الله تعالى : هو منبسط على مجاهد في معنى قول الله تعالى : فرن شَرِّ ألْوسُواسِ أَخْتَاسِ ﴿ وَالناس ؛ قال الله تعالى : هو منبسط على القلب؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض ، وإذا غفل انبسط على قلبه . فالتطارد بين ذكر الله تعالى : ها تعالى : ها الشيطان كالتطارد بين النور والظلام ، وبين الليل والنهار ، ولتضادهما قال الله تعالى : ها الشيطان واضع على الشيطان كالتطارد بين النور والظلام ، وبين الليل والنهار ، ولتضادهما قال الله تعالى : ها الشيطان واضع السيطان كالتطارد بين النور والظلام ، وبين الليل والنهار ، ولتضادهما قال الله تعالى : ها الشيطان واضع الله على السيطان الله الله تعالى : ها المتجادلة : ١٩ وقال أنس : قال رسول الله على الشيطان الله الله تعالى واضع الله على المتعالى المتعالى والنهار واضع الله الله على النور والغلام ، وبين الليل والنهار ، ولمن الله على الشيطان الله الله تعالى المتعالى الشيطان واضع الله على النور والغلام ، وبين الليل والنهار ، ولمن الله على المتعالى الشيطان واضع الله على المتعالى المتعالى

 ⁽١) حديث. (ما منكم من أحد إلا وله شيطان. . . ٩ الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

 ⁽٣) حديث ابن أبي العاص: «إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي. . . » الحديث . أخرجه مسلم من حديث ابن أبي العاص.

 ⁽٣) حديث: «إن للوضوء شيطاناً يقال له: الولهان. . . . الحديث. أخرجه ابن ماجه والتومذي من حديث أبي من كعب
وقال: فريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث.

خُرْطُومَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِنْ هُو ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى خَنَسَ وَإِنْ نَسِيَ الله تَعَالَى الْتَقَمَ قَلْبَهُ ('')، وقال ابن وضاح في حديث ذكره: ﴿إِذَا بِلْغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال: بأبي وجه من لا يفلح ('').

فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان. فبعد هذا نظر من ينظر في ذات الشيطان أنه جسم لطيف أو ليس بجسم، وإن كان جسماً فكبف يدخل بدن الإنسان ما هو جسم؟ فهذا الآن غير محتاج إليه في علم المعاملة. بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حبة وهو محتاج إلى إزالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل، فمصادمة الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على أنه عن سبب لا محالة، وعلم أن الداعي إلى الشر المحذور في المستقبل عدو فقد عرف العدو لا محالة، فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع كثيرة من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَيْطَانَ لَكُو عَدُولٌ مَا تَغَيْدُوهُ عَدُولًا إِنْمَا يَدْعُولُ مِزْيَهُ لِيكُونُولُ مِنْ أَصْفَ السّيدِ ﴿ وَيَحْ اللهِ عَنْ اللهِ المؤللة اللهُ اللهِ وصله ومسكنه. نعم ينبغي السنول عن أصله ونسبه ومسكنه. نعم ينبغي السنوي فينبغي للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه، لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه. نعم ينبغي

 ⁽١) حديث أنس: (إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب مكاند
 الشيطان وأبو يعلى الموصلي وابن عدي في الكامل وضعفه.

 ⁽٣) حديث ابن وضاح اإذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان بيده وجهه وقال: بأبي وجه من لا يقلع الم أجد له أصلاً.

⁽٣) حديث: اإن الشيطان بجري من ابن آدم مجرى اللما تقدم.

⁽٤) حديث: اإن الشيطان قعد لابن آدم بطرق. . . ٤ الحديث. رواه النسائي من حديث سبرة بن أبي فاكه، بإسناد صحيح.

⁽a) حديث: فما من أحد إلا له شيطان. . .» الحديث. تقدم.

أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه، وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالميل. فأما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته ــ نعوذ بالله منه ــ وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين في علوم المكاشفات، فلا يحتاج في علم المعاملة إلى معرفته. نعم ينبغي أن يعلم أن الخواطر تنقسم إلى ما يعلم قطعاً أنه داع إلى الشر فلا يخفى كونه وسوسة، وإلى ما يعلم أنه داع إلى الخير فلا يشك في كونه إنهاماً، وإلى ما يتردد فيه فلا يدري أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان؟ فإن من مكايد الشيطان أن يعرض الشر في معرض الخير، والتمييز في ذلك غامض، وأكثر العباد به يهلكون، فإن الشيطان لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصوّر الشر بصورة الخير، كما يقول للعالم بطريق الوعظ: أما تنظر إلى الخلق وهم موتى من الجهل هلكي من الغفلة قد أشرفوا على النار؟ أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك، وقد أنعم الله عليك يقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة؟ فكيفٍ تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن إشاعة العلم، ودعوة الخلق إلى الصراط المستقيم؟ وهو لا يرال يقرّر ذلك في نفسه ويستجره بلطيف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس، ثم يدعوه بعد ذلك إلى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ وإظهار الخير ويقول له: إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم، ولم يهتدوا إلى الحق. ولا يزال يقرّر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الريام وقبول المخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى المخلق بعين الاحتقار، فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك؛ فيتكلم وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول، فيهلك بسببه وأمو يظن أنه عند الله بمكان، وهو من الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَٰذَا الدِّينَ بِقَوْم لا خَلاقَ لَهُمْ» ()، و ﴿ إِنَّ اللَّهُ لَيُؤَيِّدُ هَٰذَا الدُّبِنَ بِالرُّجُلَ الفَاجِرِ» ()، ولذلك روي أن إبليس لعنه الله تمثل لعياسي ابن مريم ﷺ فقال له: قل لا إله إلا الله. فقال: كلمة حق ولا أقولها بقولك. لأن له أيضاً تحتُّ الخير تلبيسات، وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى، وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي

وسنذكر جملة من مكايد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع، ولعلنا إن أمهل الزمان صنفنا فيه كتاباً على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد في المذاهب والاعتقادات، حتى لم يبق من الخيرات إلا رسمها، كل ذلك إذعاناً لتلبيسات الشيطان ومكايده.

فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له؛ ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان، وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع، ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّيْكُ اللَّهُ عَلَيْ مِنَ الشَّيْطُانِ تَذَكَّرُوا ﴾ [الاعزان: ٢٠١] أي رجعوا إلى مور العلم: ﴿وَإِنَا هُم تُبْضِرُونَ ﴾ [الاعزان: ٢٠١] أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه، ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر، وفي مثلهم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبُنَا لَمُ يَنَ اللّهِ مَا لَمُ يَكُونُوا يَعْنَسِتُونَ ﴾ [الزُّمز: ٤٧] قيل: هي أعمال ظنوها

عدیث: (إن الله يؤيد هذا الدين بأنوام لا خلاق لهمه أخرجه النسائي من حدیث أنس بإسناد جید.

٢) حديث: اإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر؛ متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم.

حسنات فإذا هي سيئات. وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان، وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه. ولا ينجى من كثرة الوسواس إلا سدّ أبواب الخواطر. وأبوابها الحواس الخمس، وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا. والخلوة في بيت مظلم تسد باب الحواس. والتجرّد عن الأهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن، ويبقى مع ذلك مداخل باطنة في التخيلات الجارية في القلب، وذلك لا يدفع إلا بشغل القلب بذكر الله تعالى، ثم إنه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بدّ من مجاهدته، وهذه مجاهدة لا آخر لها إلا الموت؛ إذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حياً. نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد، ولكن لا يستغني قط عن الجهاد والمدافعة ما دام الدم يجري في بدنه. فإذاً: ما دام حياً فأبواب الشيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق؛ وهي الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها ـ كما سيأتي شرحها _ ومهما كان الباب مفتوحاً والعدو غير غافل لم يدفع إلا بالحراسة والمجاهدة.

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أينام الشيطان؟ فتبسم وقال: لو نام لاسترحنا، فإذن: لا خلاص للمؤمن منه. نعم له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوّته. قال ﷺ: قَإِنَّ المُؤْمِنَ يُتْفِي شَيْطانَة كَمَا يُنْفِي الْحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ (1)، وقال ابن مسعود: شيطان المؤمن مهزول، وقال قيس بن الحجاج: قال لي شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور، وأنا الآن مثل العصفور، قلت: ولم ذلك؟ قال: تذيبني بذكر الله تعالى. فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سذ أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة - أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة - وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ، والمشكل: أن الأبواب المفترحة إلى القلب للشيطان كثيرة، وباب الملائكة باب واحد، وقد النبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد للشيطان كثيرة، وباب الملائكة باب واحد، وقد النبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة. والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى. والشمس المشرقة بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة. والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى. والشمس المشرقة مو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله هم مما يهدي إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله مجه يوماً خطأ وقال: ههذا مبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله ثم قال: فيقيو سُبل عَلَى كُلُّ سَبِيلِ مِنها شيطانُ يَدْهُ وَلاَ تَلْبُونُ الشَبُلُ الانتام: ١٥٣٤ لتلك الخطوط (٢٠) يتلك الخطوط (٢٠) فين منه عنه خرة طرقه.

وقد ذكرنا مثالاً للطريق الغامض من طرقه وهو الذي يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة، فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح الذي لا يخفى إلا أن يضطر الأدمي إلى سلوكه: وذلك كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كانَ رَاهِبٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَعَمِدَ الشَّيطانُ إِلَى جَارِيَةٍ سلوكه: وذلك كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «كانَ رَاهِبٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَعَمِدَ الشَّيطانُ إِلَى جَارِيَةٍ

⁽١) حديث: وإن المؤمن ينضى شيطانه . . .) الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وقيه ابن الهيعة.

 ⁽٢) حديث ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطأ فقال: •هذا سبيل الله. . . • الحديث . أخرجه النسائي في الكبرى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

فَلَمَا كَانَتْ عِنْدَهُ لِيُمَالِجُهَا أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَزَيْنَ لَهُ مُقَارَبَتَهَا وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى وَاقْعَهَا فَحَمَلَتْ مِنْهُ، فَوَسُوسَ إِلَيْهِ وَقَالَ: الآنَ تُفْتَضَحُ يَأْتِيكَ أَهْلُهَا فَاقْتُلْهَا فَإِنْ سَأَلُوكَ فَقُلْ مَاتَتْ، فَقَتَلَهَا وَدَفَنَهَا، فَأَتَاهُ أَهْلُهَا فَسَأَلُوهُ خَنْهَا فَقَالَ: مَانَتْ، فَأَخَلُوهُ لِيقَنْلُوهُ بِها إِلَيْهِمْ وَأَلْفَى فِي قُلُوبِهِمْ أَنَّهُ أَحْبَلَهَا أُمْ قَتَلَهَا وَدَفَنَهَا، فَأَتَاهُ أَهْلُهَا فَسَأَلُوهُ خَنْهَا فَقَالَ: مَانَتْ، فَأَخَلُوهُ لِيقَنْلُوهُ بِها فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: أَنَا الْذِي خَتَقْتُهَا وَأَنَا اللّٰذِي أَلْقَيْتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِها فَأَطِعْنِي تَنْجُ وَأَخْلُوهُ لِيقَنْهُمْ قَالَ: فَا اللهُ بِمَاذًا؟ قَالَ: السَّجُدَ لِي سَجْدَتَيْنَ؛ فَسَجَدَ لَهُ سَجْدَتَيْنِ فَقَالُ لَهُ الشَّيْطَانُ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ. فَهُو اللّٰذِي قَالَ اللهُ مَا اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ وَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى المُعْلَى الْعَلَى الْعَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ الل

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب:

اهلم: أنّ مثالَ القلب مثالُ حصن والشيطان عدق يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدق إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا ينري أبوابه، فحماية القلب مِنْ وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كل عبد مكلف، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله واجبة. ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

قمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة؛ فإنّ الغضب هو غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان. ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة. فقد روي أن موسى عليه السلام لقيه إبليس فقال له: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليماً، وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي أن يتوب عليّ، فقال موسى: نعم، فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عزّ وجلّ وأراد النزول قال له ربه: أدّ الأمانة، فقال موسى: يا رب، عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه، فأوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى، قد قضيت حاجتك مُرهُ أن يسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليه، فلقي موسى إبليس فقال له: قد قضيت حاجتك أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى عليك، فغضب واستكبر وقال: لم أسجد له حياً، أأسجد له ميتاً؟ ثم قال له: يا موسى، إن لك عليّ حقاً بما شفعت لي إلى ربك فاذكرني عند ثلاث لا أهلكك فيهن: اذكرني حين تغضب؛ فإن روحي

⁽١) حديث: الحان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب... الحديث. بطوله في قوله تعالى: ﴿ كَنَلِ اَلشَيْطُنِ إِذْ قَالَ اِلْإِنْسُ اَكُنْرُ ﴾ [الحديث. بطوله في قوله تعالى: ﴿ كَنَلِ الشَيْطُنِ إِذْ قَالَ الْإِنْسُ اَحْكُمْ ﴾ [الحديث على الديطان، وابن مردويه في تفسيره في حديث عبيد بن أبي رفاعة مرسلاً، وللحاكم نحوه موقوفاً على علي بن أبي طالب، وقال: صحيح الإستاد ووصله بطين في مسئده من حديث على.

 ⁽۲) حديث: امن حام حول الحمى بوشك أن يقع فيه؛ متفق عليه من حديث النعمان بن بشير: امن يرتع حول الحمى
 پوشك أن يواقعه؛ لفظ البخاري.

في قلبك وعيني في عينك وأجري منك مجرى الدم؛ اذكرني إذا غضبت فإنه إذا غضب الإنسان نفخت في ألفه فما يدري ما يصنع، واذكرني حين تلقى الزحف؛ فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره زوجته وولده وأهله حتى يولي، وإياك أن تجلس إلى امرأة ليست بذات محرم فإني رسولها إليك ورسولك إليها فلا أزال حتى أفتنك بها وأفتنها بك. فقد أشار بهذا إلى الشهوة والغضب والحرص؛ فإن الفرار من الرحف حرص على الدنيا، وامتناعه من السجود لآدم ميتاً هو الحسد وهو أعظم مداخله، وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم؟ فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى، فقد حكي أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال: الحدّة، فإن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقيل: إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟

ومن أبوابه العظيمة: الحسد والحرص: فمهما كان العبد حريصاً على شيء أعماه حرصه وأصمه. إذ قال ﷺ: ﴿ حُبّكَ لِلشَّيْءِ يُعْمِي وَيُصِمُ ﴾ () ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر، فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسّن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكراً وفاحشاً. فقد روي أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، فرأى في السفينة شيخاً لم يعرفه فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك؟ فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك، فقال له نوح: اخرج منها يا عدو الله فإنك لعين، فقال له إبليس: خمس أهلك بهن الناس، وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين، فأوحى الله تعالى ألى نوح: أنه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين، فقال له نوح: ما الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني، هما اللتان لا تخلفاني، بهما أهلك الناس؛ الحرص والحسد، فبالحسد لعنت وجعلت شيطاناً رجيماً، وأما الحرص فإنه أبيح لآدم الجنة كلها إلا الشجرة. فأصبت حاجتي منه بالحرص.

ومن أبوابه العظيمة: الشبع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً؛ فإنّ الشبع يقوّي الشهوات والشهوات السلحة الشيطان، فقد روي أنّ إيليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبت بها ابن آدم، فقال: فهل فيها من شيء؟ قال: ربما شبعت فتقلناك عن الصلاة وعن الذكر، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا. قال: لله عليّ أن لا أملاً بطني من الطعام أبداً. فقال له إبليس: ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً. ويقال: في كثرة الأكل ست خصال مذمومة؛ أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه، الثاني: أن يذهب رحمة الخلق من قلبه؛ لأنه يظن أنهم كلهم شباع، والثالث: أنه يثقل عن الطاعة، والرابع: أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة. والخامس: أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس، والسادس: أن يهيج فيه الأمراض.

ومن أبوابه. حب التزين من الأثاث والنياب والدار، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض، فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى. ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه.

⁽١) حديث: ﴿حَبُّكُ لَلْشِيءَ يَعْمِي وَيَصُّمُ أَخْرَجُهُ أَنُو دَاوَدَ مَنْ حَدَيْثُ أَبِي الدَّرَدَاءَ بإسناد ضعيف

ومن أبوابه العظيمة: الطمع في الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والنزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده، فلا يزال يتفكر في حبلة التودد والتحبب إليه ويدخل كل مدخل للوصول إلى دلك. وأقل أحواله: الثناء عليه بما نيس فيه، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد روى صفوان بن سليم أن إبليس تمثل لعبدالله بن حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به فقال: لا حاجة لي به. قال: ونظر: فإن كان خيراً أخذت، وإن كان شراً رددت، يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت، فإني أملكك إذا غضبت.

ومن أبوابه العظيمة: العجلة وترك التثبت في الأمور، وقال على: «العَجَلةُ مِنَ الشَّيطَانِ وَالتَّأْتِي مِنَ الله تَعَالَى» (١). وقال عزّ وجلّ: ﴿ غُلِقَ ٱلْإِنْكُ مِنْ عَمَلٍ ﴾ [الأنبيّاء: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنْكُ عَمُولًا ﴾ [الإسرّاء: ١١] وقال لنبيه على ﴿ وَلَا تَعْجَلَ بِٱلْفُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُفْضَى إِلَيْكَ وَحَيْثُم ﴾ [طه: ١١٤] وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروّح الشيطان شره على الإنسان من حيث لا ينري. فقد روي أنه لما ولد عيسى ابن مريم عليه السلام أتت الشياطين إبليس فقالوا: أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها، فقال: هذا حادث قد حدث مكانكم، فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئًا، ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد وإذا الملائكة حافين به، ورجع إليهم فقال: إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا، فأيسوا من أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن اثنوا بني آدم من قبل العجلة والخفة.

ومن أبوابه العظيمة: الدراهم والدنائير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار؛ فإن ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب. فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى، فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنياً، وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري داراً يعمرها، وليشتري جارية وليشتري أثاث البيت ويشتري الثياب الفاخرة، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به. وذلك لا آخر له، فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه. قال ثابت البناني (٢٠): لما بعث رسول الله على قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاؤوا وقالوا: ما ندري؟ قال: أما آتيكم بالخبر، فذهب ثم جاء وقال: قد بعث الله محمداً على قال: فجعل يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي في فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء؛ نصبب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك، فقال لهم ويقولون: ما صحبنا قوماً قط مثل هؤلاء؛ نصبب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيمحى ذلك، فقال لهم إليس. رويداً بهم عسى الله أن يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم عاجتنا(٣).

وروي: أن عيسى عليه الصلاة والسلام توسد يوماً حجراً فمرٌ به إبليس فقال: يا عيسى، رغبت في الدنيا؟ فأخذه عيسى ﷺ فرمى به من تحت رأسه وقال: هذا لك مع الدنيا، وعلى الحقيقة من يملك

حديث: «العجلة من الشيطان والتأتي من الله» أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد بلفظ: «الأناة» وقال: حسن.

 ⁽۲) ثابت البناني: من مشاهير التابعين، أكثر روايته عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

 ⁽٣) حديث ثابت: الما بعث على قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمر . . . الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان هكذا مرسلاً.

حجراً يترسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن أن يكون عدّة للشيطان عليه. فإن القائم بالليل مثلاً للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر، يمكن أن يتوسده، فلا يزال يدعوه إلى النوم وإلى أن يتوسده، ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال، ولا تتحرّك رغبته إلى النوم. هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد المثيرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة، فمتى ينشط لعبادة الله تعالى؟.

ومن أبوابه العظيمة: البخل وخوف الفقر؛ فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم، وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز. قال خيثمة بن عبدالرحمن: إن الشيطان يقول: ما غلبني ابن آدم غلبة فلن يغلبني على ثلاث؛ أن آمره أن يأخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، ومنعه من حقه. وقال سفيان: ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر، فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء.

ومن آفات البخل: الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال، والأسواق هي معشش الشياطين. وقال أبو أمامة إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ إِيْلِيسَ لَمَّا نَوْلَ إِلَى الأَرْضِ قَالَ: يا رِبُ أَنْوَلْتَنِي إِلَى الأَرْضِ وَقَال أبو أمامة إن رسول الله ﷺ. قال: المَّمَّامُ، قالَ: اجْعَلْ لَي مَجْلِساً. قال: الأَسْوَاقُ ومَجَامِمُ الطُّرُقِ، قالَ: اجْعَلْ لِي شَوَاباً. قالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ، قالَ: اجْعَلْ لِي شَوَاباً. قالَ: كُلُّ مُسْكِرٍ، قالَ: اجْعَلْ لِي مُؤذّناً قالَ: الجَعَلْ لِي كِتَاباً. قالَ: الشَّعْرُ، قالَ: التَّساءُ» (١٠). المَزَامِيرُ، قالَ: الكَذِبُ، قالَ: الجُعَلْ لِي حَدِيئاً. قالَ: الكَذِبُ، قالَ: الجُعَلْ لِي مَصَابِدَ قالَ: النَّسَاءُ» (١٠).

ومن أبوابه العظيمة التوصل: التعصب للمذاهب والأهواء، والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار، وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعاً، فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية، فإذا خيّل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق، وكان موافقاً لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين، فترى الواحد منهم يتعصب لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لأنواع الفساد، ولو رآه أبو بكر لكان أوّل عدوً له؛ إذ موالي أبي بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه، وكان من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فمه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه. فأنى لهذا الفضولي أن يدعي ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته؟ وترى فضولياً آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه، وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوباً اشتراه بثلاثة داهم وقطع رأس الكمين إلى الرسغ، ونرى الفاسق لابساً ثياب الحرير ومتجملاً بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه، وهو أول خصمائه يوم القيامة. وليت شعري من أخذ ولداً عزيزاً لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك عزيزاً لإنسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حسائي ومناتر الصحابة رضي الله عنده؟ ومعلوم أن الدين والشرع كانا أحب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنه، بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدة الله إبليس وعدة الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدة الله إبليس وعدة الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به إلى عدة الله إبليس وعدة المياه المياه وعدة المياه وعدة المعاصي

⁽١) حديث أبي أمامة: وإن إبليس لما نزل إلى الأرض قال: يا رب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً قال: الحمام... الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير وإسناده ضعيف جداً ، ورواه بنحوه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف أيضاً.

إحياء عُلوم الدّين

أوليائه، فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى؟ لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله على الستحبوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قمح أفعالهم؟ ثم إن الشيطان يخيل إليهم أن من مات محباً لأبي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محباً لعلي لم يكن عليه خوف، وهذا رسول الله على يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه (۱): «اعتملي قَوْنِي لا أغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيناًه (۱). وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء. وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الأثمة، فكل من ادعى مذهب إمام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الإمام هو خصمه يوم القيامة إذ يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا لأجل الهذيان؛ فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه إلى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذباً؟.

وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم، وقد سلمت المدارس لأقوام قل من الله خوفهم، وضعفت في الدين بصيرتهم، وقويت في الدنيا رغبتهم، واشتد على الاستتباع حرصهم، ولم يتمكنوا من الاستتباع وإقامة الحاه إلا بالتعصب، فحبسوا ذلك في صدورهم ولم ينبهوهم على مكائد الشيطان فيه، بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته، فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم. فقد هلكوا، وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم، وقال الحسن: بلغنا أن إبليس قال: سوّلت لامة محمد على المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار، فسوّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الأهواء. وقد صدق الملعون؛ فإنهم لا يعلمون أن ذلك من الأسباب التي تجر إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها؟

ومن عظيم حيل الشيطان: أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات. قال عبدالله بن مسعود: جلس قوم يذكرون الله تعالى، فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع، فأتى رفقة أخرى يتحدّثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون وليس إياهم يريد -، فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم، وذلك مراد الشيطان منهم.

ومن أبوابه: حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير أحدهم بها كافراً أو مبتدعاً وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة، وأنه انكشف له ذلك بذكاته وزيادة عقله. فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقاداً في عقل نفسه، وأثبت الناس عقلاً أشدهم اتهاماً لنفسه وأكثرهم سؤالاً من العلماء. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله يَهِم: ﴿ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدُكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَعُولُ: الله تَبَارُكُ وَتَعَلَى، فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ الله؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنْ ذَلِكَ يَذْهَبُ عَنْهُ الله؟ وَتَعَلَى الله؟ فَيْقُولُ: مَنْ خَلَقَ الله؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنْ ذَلِكَ يَذْهَبُ عَنْهُ الله؟ فَيْدَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنْ ذَلِكَ يَلِهُ عَنْهُ الله؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنْ ذَلِكَ يَلْهُ عَنْهُ الله؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنْ ذَلِكَ يَلْهُ عَنْهُ الله؟ وَيَعُولُ: .

 ⁽١) حديث: الفاطمة بضعة مني، متفق عليه من حديث المسور بن مخرمة.

 ⁽٣) حديث: اإني لا أفني عنك من الله شيئًا. قاله لفاطمة متفق عليه من حديث أبي هريرة.

حدیث عائشة اإن الشیطان یأتی أحدكم فیقول: من خلفك؟ فبقول: الله... الحدیث. أخرجه أحمد والبزار وأبو
 یعلی فی مسانیدهم ورجاله ثقات وهو منفق علیه من حدیث أبی هریرة.

والنبي على الم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس؛ فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء، وإنما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء، فالعامي لو يزني ويسرق كان خيراً له من أن يتكلم في العلم، فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة، ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر، وإنما أردنا بما أوردناه المثال.

ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين. قال الله تعالى: ﴿ يَمْ أَمُّ اللَّهِ الْمَانُ اَخَيْرًا كِيْرًا يَنَ الظّنِ إِنَ الْطَنِ المُعَبِقُ السُخِوَاتِ: ١٦] فمن يحكم بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوابى في إكرامه، وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه. وكل ذلك من المهلكات ولأجل ذلك منع الشرع من التعرض للتهم، فقال على: التَّهُوا مَوَاضِعَ النَّهَمِ ١٠٠ منى احترز هو على من ذلك. روي عن على بن حسين أن صفية بنت حيى بن أخطب أخبرته أن النبي على كان معتكفاً في المسجد قالت: فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي ما نظن به رجلال من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال: ﴿ إِنَّهَا صَفِيَةٌ بِنْتُ حُيْنٍ ﴾ فقالا: يا رسول الله ما نظن بك إلا حيراً ، فقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الذَّم مِنَ الْجَسَدِ وَإِنِي خَشِيتُ أَنْ الاحتراز من التهمة ؛ حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله؟ فيقول: مثلي لا يظن به بعين واحدة ، بل الخير إعجاباً منه بنفسه . فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل المعين الرضا بعضهم؛ وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضاعن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الأشرار؛ فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر، فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب، فاعلم: أنه خبيث الباطن وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق. فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب. ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله.

فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان، وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فاعلم: أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة ودلك مما يطول ذكره. وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة إلى كتاب منفرد _ على ما سيأتي شرحه _ نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب احتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله

⁽١) حديث: «اتقوا مواضع التهم» لم أجد له أصلاً.

 ⁽۲) حديث صفية بنت حيي: (أن النبي ﷺ كان معتكفاً فأتيته فتحدثت عنده. . .» الحديث، وفيه: (إن الشيطان بجري من لبن آدم مجرى الدم» منفق عليه.

تعالى؛ لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّيْنِ النَّمَةُ عَلَيْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبُصِرُونَ ﴿ إِنَا مَسَهُمْ طَلَيْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكِرُوا فَإِذَا هُم مُبُصِرُونَ ﴿ إِنَا مَسَهُمْ طَلَيْتُ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكِ فَإِن لَم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينرجر بأن تقول له: اخسا، فمجرد الصوت يدفعه. فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يجم على اللحم ولا يندفع معجرد الكلام، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمحرد الذكر، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه، فيستقر الشيطان في سويداء القلب. وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات، بل لخلوها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان، ودليل ذلك الشيطان لا للشهوات، بل لخلوها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطان، ودليل ذلك فوله تعالى: ﴿ فَاسَنَيذَ بِأُلِنَهِ مِنَ الشَّيَطُانِ الرَّحِيمِ ﴾ [النهل: ١٩] وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر.

قال أبو هريرة: التقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر، فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاس، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: ما لك مهزول؟ قال: ۖ أنا مع رجل إذا أكل سمى الله فأظل جائعاً، وإذا شرب سمى الله فأظل عطشاناً، وإذا لبس سمى الله فأطل عَرياناً، وإذا ادهن سمى الله فأظل شعثاً، فقال: لكني مع رجل لا يفعل شيئاً من ذلك؛ فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه. وكان محمد بن واسع يقول كل يُوم بعد صلاة الصبح: اللهم إنك سلطت علينا عدوًا بصيراً بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم. اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك إنك على كل شيء قدير. قال: فتمثل له إبليس يوماً في طريق المسجد فقال له: يا ابن واسع هل تعرفني؟ قال: ومن ألت؟ قال: أنا إبليس، فقال: وما تريَّد؟ قال: أريد أن لا تُعَلِّمُ أحداً هذه الاستعادة ولا أتعرض لك، قال: والله لا أمنعها ممن أرادها، فاصنع ما شئت. وعن عبدالرحمن ابن أبي ليلي قال: كان شيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب، فأناه جبرائيل عليه السلام فقال له: قل أعوذ بكلمات الله النامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن. فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه'``. وقال الحسن: نبئت أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي(٢٠). وقال ﷺ: ﴿أَتَانِيَ الشَّيْطَانُ فَنَازَعَنِي ثُمٌّ فَازَعَنِي فَأَخَذْتُ بِحَلْقِهِ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالحَقْ مَا أَرْسَلْتُهُ

⁽١) حديث هبدالرحمن بن أبي ليلى: «كان الشيطان يأتي النبي ﷺ بيده شعلة من نار... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاند الشيطان هكذا مرسلاً. ولمالك في الموطأ نحوه عن يحيى بن سعيد مرسلاً، ووصله ابن عبدالبر في التمهيد من رواية يحيى بن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش الشامي عن ابن مسعود، ورواه أحمد والبزار من حديث عبدالرحمن بن حبيش وقيل له «كيف صنع رسول الله ﷺ ليلة كادته الشياطين؟» فذكر نحوه.

 ⁽٢) حديث الحسن النبت أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك. . . ٩ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاند الشيطان هكذا مرسلاً.

حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ مَاءٍ لِسَانِهِ حَلَى يَدِي، وَلَوْلا دَعْوَةُ أَخِي سُلَيْمَانَ حَلَيْهِ السَّلامُ لأَصْبَحَ طَرِيحاً فِي المَسْجِدِه (١٠). وقال ﷺ: اما سَلَكَ عُمَرُ فُجًا إلاّ سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجَّا غَيْرَ الَّذِي سَلَكَهُ عُمَرُا ۖ . وَهذا لأنْ القلوب كانت مطهّرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات، فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان محالاً، وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء، والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة، ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة، والذكر الدواء، والتقوى احتماء، وهي تخلَّي القلب عن الشهوَّات. فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عِن الأطعِمة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَدِكْرَىٰ لِسَ كَانَ لَمُ فَلْكُ﴾ [ق: ٣٧] وقال تعالَى: ﴿كُنِبَ عَلَيْهِ أَنَكُم مَن نَوْلَاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَبَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۞﴾ [الخجّ: ٤]. ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه، وإن كنت تقول الحديث قد ورد مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان^(٣)، ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك، فليس الخبر كالعيان، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة؛ فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك: كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق وحساب العالمين وجواب المعاندين، وكيف يمرّ بكّ في أودية الدنيا ومهالكها حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك، ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت؟ فالصلاة محك القلوب، فبها يظهر محاسنها ومساويها؛ فالصلاة لا تُقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا، فلا جرم لا ينظرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس، كما أن الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر، فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدَّم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فرَّ من عمر رضى الله عنه. ولذلك قال وهب بن منبه: اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر؛ أي أنت مطيع له. وقال بعضهم: يا عجباً لمن يعصي المجسن بعد معرفته بإحسانه، ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه. وكما أن الله تعالى قال: ﴿أَدْعُونِ ٓ أَسْتَجِبُ لَّكُو ﴾ [خَالر: ٦٠] وأنت تدعوه ولا يستجيب لك، فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك؛ لفقد شروط الذكر والدعاء.

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى: ﴿ وَادْعُونِ اَسْتَحِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٢٠] قال: لأن قلوبكم ميتة، قيل: وما الذي أماتها؟ قال: ثمان خصال؛ عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده، وقلتم: نحب رسول الله على ولم تعملوا بسنته، وقلتم: نخشى الموت ولم تستعدوا له، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطُنَ لَكُمْ عَدُولُ هُ وَقَالِمَ :] فواطأتموه على المعاصي، وقلتم: نخاف النار وأرهقتم أبدائكم فيها، وقلتم: نحب الجنة ولم تعملوا لها، وإذا

⁽١) حديث: «أتاني شيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الشعبي مرسلاً مكذا، وللبخاري من حديث أبي هريرة: «أن عقريتاً من المجن تقلت علي البارحة - أو كلمة نحوها - فيقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه...» الحديث. والنسائي في الكبرى من حديث عائشة: «كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه نصرعه فخنقه» قال: «حتى وجدت برد لسانه على يدي...» الحديث. وإسناده جيد.

 ⁽٢) حديث: «ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير فجه» مثفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص بلفظ: «با ابن
 الخطاب ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً . . . ٩ الحديث .

⁽٣) الحديث الوارد: (بأن الذكر يا صمر بطرد الشيطان)، تقدم.

قمتم من فرشكم: رميتم عيوبكم وراء ظهورِكم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم، فكيف يستجيب لكم؟.

فإن قلت: فالداعي إلى المعاصي المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون؟ فاعلم: أنه لا حاجة لك إلى معرفة ذلك في المعاملة. فاشتغل بدفع العدق ولا تسأل عن صفته. كُلِ البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة، ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد الأخبار: أنهم جنود مجندة وأن لكل نوع من المعاصي شيطاناً يخصُّه ويدعو إليه، فأما طريق الاستبصار فذكره يطول ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو أن اختلاف المسببات يدل على اختلاف الأسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد الدخان.

وأما الأخبار: فقد قال مجاهد: لإبليس خمسة من الأولاد؛ قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره: ثبر، والأعور، ومبسوط، وداسم، وزلنبور. فأما ثبر: فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجبوب ولطم المخدود ودعوى الجاهلية. وأما الأعور: فإنه صاحب الزئى يأمر به ويزيّنه. وأما مبسوط: فهو صاحب الكذب. وأما داسم: فإنه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم، وأما ذلنبور: فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظلمين. وشيطان الصلاة يسمى خنرب(۱)، وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة.

وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة. وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة، واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به، وقد قال أبو أمامة الباهلي: قال رسول الله ﷺ:
﴿ وَكُلّ بِالمُؤْمِنِ مَائَةٌ وَسِنُّونَ مَلْكاً يَلُبُونَ عَنْهُ مَا لَمْ يُقدُّرُ عَلَيْهِ مِنْ ذَٰلِكَ ؛ لِلْبَصَرِ سَبْعَةُ أَمْلاكِ يَذُبُونَ عَنْهُ كَمَا يُذَبُّ اللَّبَابُ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ فِي الْيَوْمِ الصَّاتِفِ. وَمَا لَوْ بَدَا لَكُمْ لَوَ أَيْتُمُوهُ مَلَى كُلَّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ كُلُّ بَاسِطٌ يَذَهُ فَاخِرْ فَاهُ، وَلَوْ وُكُلَ الْعَبْدُ إلى نَقْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنِ لاَخْتَطَفَتُهُ الشَّيَاطِينُ * (*).

وقال أيوب بن يونس بن يزيد: بلغنا أنه يولد مع أبناء الإنس من أبناء الجن ثم ينشؤون معهم. وروى جابر بن عبدالله: أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض قال: يا رب، هذا الذي جعلت بيني وبيه عداوة إن لم تُعنِّي عليه لا أقوى عليه، قال: لا يولد لك ولد إلا وكل به ملك، قال: يا رب زدني، قال: باب التوبة مفتوح زدني، قال: أجزي بالسيئة سيئة وبالحسنة عشراً إلى ما أريد، قال: رب زدني، قال: باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد الروح، قال إبليس: يا رب هذا العبد الذي كرمته علي إن لا تعني عليه لا أقوى عليه؟ قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد. قال: يا رب زدني، قال: تجري منهم مجرى الدم، وتتخذون قال: لا يولد له ولد إلا ولد لك ولد. قال: فو وَبَيْكِ وَرَجِلاكِ وَرَجِلاكِ وَلَهُ اللهِ قوله: ﴿عُرُوراً ﴾. وعن أبي صدورهم بيوتاً، قال: رب زدني، قال: ﴿وَرَبِيلِكِ وَرَجِلاكِ وَلَهُ أَمْنَافِ: صِنْف عَباتُ وَعَقارِبُ الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه: ﴿عَلَيْهُ الْمُؤابُ وَالْمِقَابُ. وَخَلَقُ الله تَعَالَى الإنسَانَ الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله عَلَيْهِ عَلَيْهِمُ النَّوَابُ وَالْمِقَابُ. وَخَلَقُ الله تَعَالَى الإنسَانَ وَخِشَاشُ الأَرْضِ، وَصِنْف كَالرِّمِع فِي الهَوَاهِ، وَصِنْف عَلَيْهِمُ النَّوَابُ وَالمِقَابُ. وَخَلَقُ الله تَعَالَى الإنسَانَ اللهُ الْمَا أَنْ اللهُ الْمَعْ اللهُ الْمَقْ بَا لَهُ مُنْ أَنْ لا يُعْرَبُونَ بِهَا أَنْ اللهُ وَلَهُ مَا أَنْ اللهُ الْمَعْ أَنْ اللهُ عَنْ اللهُ الْمَالَى الإنسَانَ اللهُ الْمَاهُمُ أَخْسَامُهُمْ أَخْسَامُ بَنِي لَدَمَ وَأَرْوَاحُهُمُ أَنْ اللهُ الْمَالَى اللهُ الْمَالَى اللهُ الْمِنْ أَنْ اللهُ الْمَالُمُ اللهُ الْمِنْ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الْمِنْ أَنْ اللهُ ا

⁽١) حديث: «إنّ شيطان الصلاة يسمى: خترب» أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص، وقد تقدم أول الحديث.

حديث: «إن شيطان الوضوء يسمى: الولهان، تقدم وهو عند الترمذي من حديث أبي.

 ⁽٣) حديث أبي أمامة: اوكل بالمؤمن ماثة وستون ملكاً يذبون عنه ... الحديث. أخرجه ابن أبي الدبيا في مكاثد الشيطان والطبراني في المعجم الكبير بإسناد ضعيف.

الشّيَاطِينِ، وَصِنْفٌ فِي ظِلِّ الله تَعَالَى يَوْمَ القِيامَةِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَ ظِلَّهُ (1)، وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن إبليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال: إني أريد أن أنصحك، قال: لا حاجة لي في نصحك ولكر أخبرني عن بني آدم قال: هم عندنا ثلاثة أصناف: أما صنف منهم ـ وهم أشد الأصناف علينا يتقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه، ثقبل على أحدهم في عناء، وأما الصنف الإخر: فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم، نقلبهم كيف شئنا، قد كفونا أنفسهم، وأما الصنف الثالث: فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء.

فإن قلت: وكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض، وإذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يمثل له به؟ فإن كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة؟ وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين؟ فاعلم: أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما، ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلا بأنوار النبوة، فما رأى النبي على جبرائيل عليه السلام في صورته إلا مرتين (١)، وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من المشرق إلى المغرب، ورآه مرة أخرى على صورة ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وإنما كان يراه في صورة الآدمي غالباً (١)، فكان يراه في صورة دحية الكلبي (١)، وكان رجلاً حسن الوجه. والأكثر أنه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة، فيراه بعينه ويسمع كلامه بأذنه، فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين.

وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى إلى رثبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام، كما روي عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه، له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس، ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة، فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس إليها، وكانت الجيفة مثال الدنيا. وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية، فإن القلب لا بدّ وأن تطهر فيه

⁽١) حديث أبي الدرداء: «خلق الله البجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب. . . ٩ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاتد الشيطان وابن حبان في الضعفاء في ترجمة يزيد بن سنان وضعفه والحاكم نحوه مختصراً: «في المجن فقط ثلاثة أصناف». من حديث أبي ثعلبة الخشني وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽۲) حديث: «أنه ﷺ ما رأى جبريل في صورته إلا مرتين اخرجه الشيخان من حديث عائشة، وسئلت: هل رأى محمد
 ربه الله وقيه: قولكنه رأى جبريل في صورته مرتين المرتين الم

حليث: «أنه كان يرى جبريل في صورة الأدمي غالباً» أخرجه الشيخان من حديث عائشة، وسئلت: «فأين قوله ثم
 دنا فتدلى قالت: ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرحل. . . « الحديث.

⁽٤) حديث: اأنه كان يرى حبريل في صورة دحية الكلبي الخرجه الشيخان من حديث أسامة بن زيد: (أن جبريل أتى النبي على وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام. قال النبي الله الله الممنية: المن هذا؟ ا قالت: دحية..؟ الحديث.

حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت، وعند ذلك يشرق أثره على وجه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن أحدهما متصل بالآخر.

وقد بينا أن القلب له وجهان: وجه إلى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي، ووجه إلى عالم الشهادة. فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون إلا صورة متغيلة لأن عالم الشهادة كله متغيلات، إلا أن الغيال تارة يحصل من النظر إلى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى، حتى يرى شخصاً جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر؛ لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس. أما الصورة التي تحصل في الغيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون إلا محاكية للصفة وموافقة لها، لأن الشيطان في صورة كلب وضفدع للصفة وموافقة لها، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة؛ فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها، ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث، وتدل الشاة على إنسان سليم الصدر، بعلم المعاملة. وإنما المقصود: أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك، تارة بعلم المعاملة. وإنما المقصود: أن تصدق بأن الشيطان ينكشف لأرباب القلوب وكذلك الملك، تارة بطريق الحقيقة، والأكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى - هو مثال المعنى لا عين المعنى - إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة، وينفرد محاكية للمعنى - هو مثال المعنى لا عين المعنى - إلا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة، وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم.

بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به:

 ⁽١) حديث: «عني لأمتي هما حدثت به نفوسها متفق عليه من حديث أبي هريرة: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها. . . ٤ الحديث.

 ⁽٣) حديث أبي هريرة: قيقول الله إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه. . . ٤ الحديث. قال المصنف: أخرجه مسلم والمخاري في الصحيحين. قلت: هو كما قال واللفظ لمسلم فلهذا والله أعلم قلمه في الذكر.

مَسْتُولًا ﷺ [الإسرّاء: ٣٦] فدل على أن عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُتُمُوا الشَّهَكَدُوّ اللَّهِ وَمَن يَحَكُنُمُهَا فَإِلَّهُ وَإِلَمْ قَلْبُكُمْ [البَغَرَة: ٣٨٣] وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاعِدُكُمْ اللَّهُ إِلَاّ يُوَاعِدُكُمْ اللَّهُ إِلَاّ يُوَاعِدُكُمْ وَاللَّهُ وَاللَّهُ يُؤَاعِدُكُمْ فِا كُمْسَالُة لا يوقف عليه ما لم تقع الإحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها إلى أن يظهر العمل على الجوارح.

فنقول: أوَّل ما يرد على القلب الخاطر، كما لو خطر له مثلاً صورة امرأة، وأنها وراء ظهره في

الطريق لو التفت إليها لرآها.

والثاني: هيجان الرغبة إلى النظر وهو حركة الشهوة في الطبع، وهذا يتولد من الخاطر الأول، ونسميه ميل الطبع ويسمى الأول حديث النفس.

والثالث: حكم القلب بأن هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر إليها، فإن الطبع إذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف، فإنه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات، وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل، ويسمى هذا اعتقاداً وهو يتبع الخاطر والميل.

الرابع: تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هماً بالفعل ونية وقصداً، وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف، ولكن إذا أصغى القلب إلى الخاطر الأول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار إرادة مجزومة، فإذا انجزمت الإرادة قربما يندم بعد الجزم فيترك العمل، وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت إليه، وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل.

فههنا أربعة أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة: الخاطر ـ وهو حديث النفس ـ، ثم المبل، ثم الاعتقاد، ثم الهم.

فنقول: أما المخاطر فلا يؤاخذ به لأنه لا يدخل تحت الاختيار، وكذلك الميل وهيجان الشهوة لأنهما لا يدخلان أيضاً تحت الاختيار، وهما المرادان بقوله على: «على هن أمتى ما حدثت به نفوسها فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل، فأما الهم والعزم ملا يسمى حديث النفس، بل حديث النفس كما روي عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي على السول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة (۱۱)، قال: «مَهْلاً إنَّ مِنْ سُتَتِي النَّكَاحَ» قال: نفسي تحدثني أن أجب نفسي، قال: «مَهْلاً خِصَاءُ أُمّتِي وَدُوبُ الصَّيام» قال: نفسي تحدثني أن أترك اللحم، قال: «مَهْلاً فإنِّي أُحِبُهُ وَلَوْ أَصَبْتُهُ لاَكُلْتُهُ وَلَوْ سَالَتُ اللهُ لَأَطْعَمْنِيهِ وَلَوْ أَصَبْتُهُ لاَكُلْتُهُ وَلَوْ سَالَتُ اللهُ لاَ اللهُ على الفعل هي حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله على حديث النفس، ولذلك شاور رسول الله على عديث النفس، ولذلك

 ⁽١) خولة: هي بنت ثعلبة، نزلت فيها وفي زوجها عثمان بن مظعون الآيات الأولى من سورة المجادلة.

حديث: إن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال: قمهلاً إن من سنني النكاح...
الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية علي بن زيد عن سعيد بن المسبب مرسلاً نحوه، وفيه
القاسم بن عبيدالله العمري كذبه أحمد بن حنيل ويحيى بن معين، وللدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص: لما كان
من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله في فقال: قيا هثمان إني لم أومر
بالرهبائية... الحديث. وفيه: قمن رغب عن سنتي فليس مني وهو عندكم بلفظ: رد رسول الله في على عثمان بن
مظعون النبتل ولو أذن له لاختصيا. وللبغوي، والطبراني في معجمي الصحابة بإسناد حسن من حديث عثمان بن
مظعون: أنه قال. يا رسول الله، إني رجل تشق علي هذه العزوية في المغازي فتأذن لي يا رسول الله في الخصاء

وأما الثالث: وهو الاعتقاد وحكم القلب بأنه ينبغي أن يفعل؛ فهذا تردد بين أن يكون اضطراراً أو اختياراً، والأحوال تختلف فيه؛ فالاختياري منه يؤاخذ به، والاضطراري لا يؤاخذ به.

وأما الرابع: وهو الهم بالفعل؛ فإنه مؤاخذ به إلا أنه إن لم يفعل نظر فإن كان قد تركه خوفاً من الله تعالى وندماً على همه كتبت له حسنة؛ لأن همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة، والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى، والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج إلى قوّة عظيمة فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى، والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لأنه رجح جدّه في الامتناع وهمه به على همه بالفعل، وإن تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفاً من الله تعالى كتبت عليه سيئة، فإن همه فعل من القلب اختياري.

والدليل على هذا التفصيل: ما روي في الصحيح مفصلاً في لفظ الحديث؛ قال رسول الله ﷺ:
«قَالَتِ المَلائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ رَبُّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيْئَةً وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ هُوَ
عَمِلُها فَاكْتُبُوها لَهُ بِمِثْلِها، وَإِنْ تَرَكُها فَاكْتُبُوها لَهُ حَسنَةً إِنَّما تَرَكُها مِنْ جَرَائِي، (۱)، وحيث قال: فإن لم
يعملها: أراد به تركها أنه، فأما إذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة؟
وقد قال ﷺ: المِنْمَا يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى نِيَاتِهِمْ (۱)، ونحن نعلم: أن من عزم ليلاً على أن يصبح ليقتل
مسلماً أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة؛ مات مصراً ويحشر على نيته وقد هم بسيئة ولم يعملها.

والدليل القاطع فيه: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا الْتَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيقَيْهِما فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ فِي النّابِ فَقِيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لَأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ (")، وهذا نص في أنه صار بمجرد الإرادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوماً، فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم؟ لل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به إلا أن يكفّره بحسنة، ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة. وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل كتبت له حسنة، فأما فوت المراد بعائق فليس بحسنة. وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق، ولذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فَيُ الشَّيِكُمْ بِهِ التَهَ ﴾ [البَتَرَة: ١٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله قَق وقالوا: ق الشيكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُمَاسِبَكُمْ بِهِ التَهُ ﴾ [البَتَرَة: ١٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله قَق وقالوا:

⁼ فأختصي قال: ﴿لا ، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصيام فإنه مجفرة ولأحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث عبدالله بن عمرو: «خصاء أمني الصيام والقيام» وله من حديث سعيد بن العاص بإسناد فيه صعف: إن عثمان بن مطعون قال: يا رسول الله الذن لي في الاختصاء، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿إِن الله قد أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة والتكبير على كل شرف . . الحديث . وإبن ماجه بسند ضعيف من حديث عائشة: «النكاح من سنتي» ولأحمد وأبي يعلى من حديث أنس: «لكل نبي» وقال أبو يعلى: «لكل أمة رهبانية هذه الأمة المجهد في سبيل الله» وفيه زيد العمي وهو ضعيف. ولأبي داود من حديث أبي أمامة: ﴿إِن سياحة أمني الجهاد في سبيل الله» وإسناده جيد.

⁽١) حديث: «قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سبئة وهو أيصر. .» الحديث. قال المصنف: إنه في الصحيح وهو كما قال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: اإنما يحشر الناس على نياتهم أخرجه ابن ماجه من حديث جابر دون قوله: (إنما وله من حديث أبي
 هريرة: (إنما يبعث الناس على نياتهم وإسنادهما حسن ومسلم من حديث عائشة: (يبعثهم الله على نياتهم وله من
 حديث أم سلمة: (يبعثون على نياتهم).

 ⁽٣) حديث: ٩إذا المتقى المسلمان بسيقيهما فالمقاتل والمقتول في النار؟ الحديث. متعق عليه من حديث أبي بكر.

بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟

اهلم: أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسألة على خمس فرق:

فقالت فرقة: الوسوسة تنقطع بذكر الله عزّ وجلّ لأنه عليه السلام قال: "فإذا ذكر الله خنس" (ه) ، والخنس هو السكوت فكأنه يسكت.

وقالت فرقة: لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر؛ لأن القلب إذا صار مستوعباً بالذكر كان محجوباً عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهتمه، فإنه قد يتكلم ولا يفهم وإن كان الصوت يمر على سمعه.

وقالت فرقة: لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضاً، ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف.

 ⁽١) حديث: (الما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن نُبْدُوا مَا فِي أَشْرِكُمْ أَوْ نُحْمَدُوهُ يُعَاسِمُكُمْ بِهِ أَلَنَّ ﴾ [البَقْرَة: ٢٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا كلفنا ما لا نطيق. . ٤ الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبن عماس نحوه .

٣) حديث: «التقوى ههنا ـ وأشار إلى القلب» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال: إلى صدره.

 ⁽٣) حديث «الإثم حواز القلوب» تقدم في العلم.

 ⁽٤) حديث: «البر ما اطمأن إليه القلب وإن أفتوك وأفتوك» أخرجه الطبراني من حديث أبي ثعلبة والأحمد تحوه من حديث وابصة وفيه: «وإن أفتاك الناس وأفتوك» وقد تقدما.

⁽ه) حديث: "وإذا ذكر الله خنس" أخرجه ابن أبي الدنيا وابن عدي من حديث أنس في أثناء حديث: "إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم..." الحديث. وقد تقدم قريباً.

وقالت فرقة: ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظة، ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها أنها مساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فإنك إذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة، واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر، ولا وجه له إلا هذا.

وقالت فرقة: الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقاً لا ينقطع، وكما أن الإنسان قد يرى بعينيه شيئين في حالة واحدة، فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين، فقد قال ﷺ: قما مِنْ عَبْدِ إِلاَّ وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَفْيُنٍ: عَيْنَانِ فِي رَأْسِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ يُبْصِرُ بِهِمَا أَمْرَ دِينِهِ (١)، وإلى هذا ذهب المحاسبي. والصحيح عندنا: أن كل هذه المذاهب صحيحة، ولكن كلها قاصرة عن الإحاطة بأصناف الوسواس، وإنما نظر كل واحد منهم إلى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه.

والوسواس أصناف:

الأول: أن يكون من جهة التلبيس بالحق، فإنّ الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للإنسان: تترك التنعم باللذات؟ فإن العمر طويل، والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم، فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه: الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه، ولا بد من أحدهما. فإذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب؟ إذ لا يستطيع أن يقول له: النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول: المعصية لا تفضي إلى النار، فإنّ إيمانه بكتاب الله عزّ وجلّ يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه. وكذلك يوسوس إليه بالعجب يعمله فيقول: أي عبد يعرف الله كما تعرفه، ويعبده كما تعبده؟ فما أعظم مكانك عند الله تعالى! فيتذكر العبد حينتذٍ أنّ معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به؟ فيخنس الشبطان إذ لا يمكنه أن يقول لبس هذا من الله، فإن المعرفة والإيمان فمن أين يعجب به؟ فيخنس الشبطان إذ لا يمكنه أن يقول لبس هذا من الله، فإن المعرفة والإيمان يدفعه، فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الإيمان والمعرفة.

الصنف الثاني: أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها، وهذا ينقسم إلى ما يعلم العبد يقيناً أنه معصية وإلى ما يظنه بغالب الظن. فإن علمه يقيناً خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة، ولم يحنس عن التهييج وإن كان مظنوناً، قربما يبقى مؤثراً بحيث يحتاج إلى مجاهدة في دفعه، فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة.

الصنف الثائث: أن تكون وسوسة بمجرد الخواطر وتذكر الأحوال الغالبة والتفكر في غير الصلاة مثلاً، فإذا أقبل على الذكر تصوّر أن يندفع ساعة ويعود، ويندفع ويعود، فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصوّر أن يتساوقا جميعاً حتى يكون الفهم مشتملاً على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب. وبعيد جدّاً أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر، ولكنه ليس محالاً إذ قال عليه السلام: «مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ اللَّذِيَا خُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ

⁽١) حديث: «ما من حبد إلا وله أربعة أحين: حينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وحينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه» أخرجه أبو منصور الديملي في مستد الفردوس من حديث معاذ بلقظ: «الآخرة» مكان «دينه» وقيه الحسين بن أحمد بن محمد الهروي السماحي الحافظ كذبه الحاكم والآفة منه.

ذَنْهِهِ (١)، فلولا أنه متصوّر لما ذكره، إلا أنه لا يتصوّر ذلك إلا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر، فإنا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوّه بحيث لا يخطر بباله غير حليث عدوّه، وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه، ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله عير حديث محبوبه، ولو كلمه غيره لم يسمع، ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه. وإذا تصوّر هذا في خوف من عدوّ وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصوّر من خوف النار والحرص على الجنة، ولكن ذلك عزيز، لضعف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وإذا تأملت جملة هذه الأقسام وأصناف الوسواس علمت أنّ لكل مذهب من المذاهب وجهاً ولكن في محل مخصوص.

وبالجملة: فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد، ولكن الخلاص مه عمراً طويلاً بعيد جداً، ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر ونهييج الرغبة لتخلص رسول الله على فقد روي: أنه نظر إلى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال: «شَفَلَني مِن الصَّلاةِ» وقال: «أَنْفَبُوا بِهِ إِلَى أَبي جَهُم والتُونِي بِأَنْبِجَانِيتِهِه (٢)، وكان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال: «فَظُرة إلَيْه وَنَظْرة النَّكُمُ الله وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر إلى خاتم الذهب وعلم الثوب وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به و فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا وتقدها إلا بالرمي والمفارقة، فما دام يملك شيئاً وراء حاجته و و ديناراً واحداً يخفيه حتى لا يعلم به أحد؟ وكيف يظهره حتى يتباهى به؟ إلى غير ذلك من الوساوس. فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أنّ الذباب لا يقع عليه فهو محال. فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان، وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة، قال حكيم من الحكماء: الشبطان يأتي ابن آدم من قِبَلِ المعاصي، فإن امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بخرجه عن العلم، فإن أبى أمره بالتحرّج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام، فإن أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم، فإن أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابراً عفيفاً فتميل قلوبهم إليه فيعجب بغصه وعند ذلك يشتذ إلى احاحه فإنها آخر درجة، ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه إلى الجنة.

بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات:

اعلم: أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التي وصفناها، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته. فإن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره، فتارة يكون

 ⁽١) حديث: امن صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا .٩٠، تقدم في الصلاة

⁽٢) حديث: الله على نظر إلى علم في ثوبه في الصلاة. . . ا الحديث. تقدم.

 ⁽٣) حديث: كان في يده خاتم من ذهب فنظر إليه على المتبر فرماه فقال: فنظرة إليكمه أخرجه النسائي من حديث ابن
 عباس، وتقدم في الصلاة.

متنازعاً بين ملكين، وتارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان ـ لا يكون قط مهملاً ـ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَنَقَلِبُ أَفِئدَتُهُمُ وَأَيْمَدَرُهُمُ ﴾ [الأنقام: ١١٠] ولاطلاع رسول الله ﷺ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلمه كان يحلف به فيقول: «لا وَمُقْلَبِ القُلُوبِ (١٠)، وكان كثيراً ما يقول: «يا مُقَلَبُ القُلُوبِ ثَبْتُ قُلْبِي عَلَى دِينِكَ قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: «وَمَا يُؤْمِنُنِي وَالقَلْبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرِّحْمُنِ يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءً (٢)، وفي لفظ آخر: «إنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنَ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ وَإِنَ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَزَاعَهُ .

وضرب له ﷺ ثلاثة أمثلة: فقال: «مَثَلُ القَلْبِ مَثَلُ العُصْفُورِ يَتَقَلَّبُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ» (٣)، وقال عليه السلام: «مَثَلُ القَلْبِ فِي تَقَلَّبِهِ كَالقِلْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا» (٤)، وقال: «مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ فِي أَرْضِ السلام: «مَثَلُ القَلْبِ فِي تَقَلَّبِهَا الرَّيَاحُ ظَهْراً لِبَطْنِ» (٥)، وهذه التقلبات وعجائب صنع الله في تقلبها من حيث لا تهدي إليه المعرفة لا يعرفها إلا المراقبون والمراعون لأحوالهم مع الله تعالى.

والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردِّد بينهما، ثلاثة:

قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الأخلاق؛ تمقدح فيه خواطر الخير من حزائن الغيب ومداخل الملكوت، فينصرف العقل إلى التمكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده، فينكشف له بنور البصيرة وجهه، فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه إلى العمل به، وينظر الملك إلى القلب فيجده طيباً في جوهره طاهراً بتقواه مستنيراً بضياء العقل معموراً بأنوار المعرفة، فيراه صالحاً لأن يكون له مستقراً ومهبطاً، فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام، ولا يتناهى إمداده ترى ويهديه إلى خيرات أخرى حتى ينجر الخير إلى الخير وكذلك على الدوام، ولا يتناهى إمداده بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَمّا مَنْ أَصَلَى وَاللّه الربوبية، بالترغيب بالخير وتيسير الأمر عليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَمّا مَنْ أَصَلَى وَاللّه الطلماء، فلا حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، فلا

⁽١) حديث: الا ومقلب القلوب، أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

⁽٧) حديث: إيا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك. .» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه والحاكم من حديث حابر، وقال ابن أبي الدنيا صحيح على شرط مسلم، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك، والنسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم من حديث الواس بن سممان: إما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزافهه والنسائي في الكبرى بإسناد جيد نحوه من حديث عائشة.

 ⁽٣) حديث: امثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل صاعة، وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم والبيهقي في الشعب من حديث أبي عبيدة بن الجواح.

قلت: رواه البغوي في معجمه من حديث أبي عبيد غير منسوب وقال: لا أدري له صحبة أم لا.

⁽٤) حديث: قمثل القلب في تقلبه كالقدر إذا استجمعت غلياناً اخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري من حديث المقداد بن الأسود.

⁽ه) حديث: امثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة. . . الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير والبيهةي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف.

يخفى على هذا النور خافية، ولا يروج عليه شيء من مكايد الشيطان، بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غروراً فلا يلتفت إليه. وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معموراً بالمنجيات ـ التي سنذكرها ـ من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك. وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه، وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِنِصَدِ اللهِ تَطْمَيْنُ الْقُلُوبُ ﴾ [الزعد: ٢٨] وبقوله عز وجل: ﴿ يَا اللهِ عَلَى اللهِ اللهِ عَلَى اللهِ اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ ال

القلب الثاني: القلب المخذول المشحون بالهوى، المدنس بالأخلاق المذمومة والخبائث، المفتوح فيه أبواب الشياطين، المسدود عنه أبواب الملائكة. ومبدأ الشر فيه: أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب إلى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه، فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به، واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى، فتستولي النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته؛ لانحباس جند العقل عن مدافعته. فيقوى سلطان الشيطان لآتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزيين والغرور والأماني، ويوحي بذلك زخرفاً من القول غروراً فيضعف سلطان الإيمان بالوعد والوعيد، ويخبو نور البقين لخوف الآخرة؛ إذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم إلى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفىء أنواره، فيصير العقل كالعين التي ملا الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر، وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب إمكان التوقف والاستبصار، ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمي عن العهم، وصمّ عن السمع، وهاجت الشهوة فيه، وسطا الشيطان، وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية إلى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره. وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَرْمَتُ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَاهُمْ هَوَيْكُ أَفَأَتَ تَكُونُ عَلَتِهِ وَكِيلًا ۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْفَرَهُمْ بَسْمَنُوكَ أَوْ يَمْفِلُونَ إِنْ هُمْ أَبِّلا كَالْأَمْنَيُّمْ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَكِيلًا ۞﴾ (الشُرقان: ٤٤،٤٣) وبقوله عزّ وجلّ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَرَّلُ عَلَيْ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ۖ ﴿ آيس: ٧] وبقُولُه تعالى: ﴿ وَمَنَوَاتُ عَنَيْهِمْ مَالَنَدْتَهُمْ أَمْ لَمُ شُذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞﴾ [س: ١٠] ورب قلب هذا حاله بالإضافة إلى بعض الشهواتُ كالذي يتوزّع عن بعص الأشياء ولكّنه إذا رأى وجهاً حسناً لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط مساك قلبه، أو كالذي لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر، ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه، أو كالذي لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه، أو كالذي لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار، بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى، فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى إلى القلب حتى يظلم وتنطفيء منه أنواره؛ فينطفيء نور الحياء والمروءة والإيمان، ويسعى في تحصيل مراد الشيطان.

القلب الثالث: قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشر فيلحقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى النفس بشهوتها إلى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم، فينبعث النفل إلى خاطر الخير ويدفع في وجه الشهوة ويقبع معلها وينسبها إلى الجهل، ويشبهها بالبهيمة والسبع في تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب، فتميل النفس إلى نصح العقل، فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوي داعي الهوى ويقول: ما هذا التحرّح البارد؟ ولم تمتنع عن هواك فتؤذي نفسك؟ وهل ترى أحداً من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه؟ أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على

نفسك حتى تبقى محروماً شقياً متعوباً، يضحك عليك أهل الزمان؟ أفتريد أن يزيد منصلك على فلان وفلان، وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شراً لامتنع منه؟ فتميل النفس إلى الشيطان وتنقلب إليه؟ فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول: هل لك إلاَّ من اتبع لذة الحال ونسي العاقبة؟ أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة النجنة ونعيمها أبد الأباد؟ أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار؟ أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتّباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أنَّ عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك؟ أرأيت لو كنت في يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم في الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنقسك الخلاص؟ فكيف تخالف الناس خوفاً من حر الشمس ولا تخالفهم حوفاً من حرّ النار؟. فعند دلك تمتثل النفس إلى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذباً بين الحزبين إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فإن كانت الصفات التي في القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التي ذكرناها، غلب الشيطان ومال القلب إلى جنسه من أحزاب الشيطان، معرضاً عن حزب الله تعالى وأوليائه، رمساعداً لحزب الشيطان وأعدائه، وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى، وإن كان الأغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب إلى إغواء الشيطان، وتحريضه إياه على العاحلة وتهوينه أمر الآخرة، بل مال إلى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه، فقلُب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن _ أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب ـ أعني: التقلب والانتقال من حزب إلى حزب، أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين، وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغبب إلى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فإنه من خزائن الملكوت، وهي أيضاً إذا ظهرت كانت علامات تعرّف أرباب القلوب سابق القضاء. فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات، ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي، وسلط عليه أقران السوء، وألقي في قلبه حكم الشيطان، فإنه بأنواع الحكم يغر الحمقى بقوله: إنَّ الله رحيم فلا تبال، وإنَّ الناس كُلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم، وإن العمر طويل فاصبر حسى تتوب غداً: ﴿ يَمِدُهُمُ وَيُمَنِّيهِمٌّ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُهُمًّا ١٤٠ ﴿ النِّساء: ١٢٠] يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم بإذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها، فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق، وكل ذلك بقضاء من الله وقدر: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشَرَحُ صَدَرَهُ لِلْإِسْانَيْرُ ومَن يُدِدُ أَن يُفِسِلُوُ يَجْعَكُ صَدْدَهُ صَنَيِقًا حَرَجًا كَأَنْمَا يَضَعَكُ فِي ٱلسَّمَاءَ﴾ [الانتمام: ١٧٥] ﴿إِن يَنْصُرُكُمُ ٱللَّهُ فَلَا عَالِبَ لَكُمْ ۚ وَإِن يَغَدُّلُكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُّرُكُم مِنْ بَعْدِهِ ۗ [آل عِمرَان: ١٦٠] فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه. خلق الجنة وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالطاعة، وخلق النار وخلق لها أهلاً فاستعملهم بالمعاصي. وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَزَادَ لَنِي سَيدٍ ١ وَإِنَّ ٱلْعُجَّادَ لَنِي يَجِيدٍ ١٤٠١٣ [الانفطار: ١٤٠١٣] شم قال تعالى فيما روي عن نبيه ﷺ: « له ولاء في المَخْلُةِ وَلا أَبالِي وَلْمُؤلاء فِي النَّارَ وَلا أَبَالِي " () ، ﴿ فَنَكُل اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [له: ١١٤] ﴿ لَا يُشْعَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَلَهُمْ يُسْعَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

 ⁽١) حديث: «قال الله هز وجل هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» أخرجه أحمد وابن حيان من حديث عبدالرحمن بن قتادة السلمي وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: إنه مضطرب الإسناد.

ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب الغلب؛ فإن استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة، وإنما ذكرنا منه ما يحتاج إليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها؛ لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر، ولا يجتزىء بالقشر عن اللباب، بل يتشوق إلى معرفة دقائق حقائق الأسباب. وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع إن شاء الله تعالى والله ولي التوفيق.

تم كتاب عجائب القلب وش الحمد والمنة. ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق، والحمد شه وحده وصلى اشعلى كل عبد مصطفى.



بِنْ لَهُ الْكُنِّ ٱلْكَفِّ ٱلْكَفِّ لِمُ

كتاب رياضة النفس

وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات

الحمد لله الذي صرف الأمور بتدبيره، وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره، وزين صورة الإنسان بحسن تقويمه وتقديره، وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره، وفوّض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره، واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره، وسهل على خواص عباده تهذيب الأخلاق بتوفيقه وتيسيره، وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره، والصلاة والسلام على محمد عبدالله ونبيه وحبيبه وصفيه ويشيره ونذيره، الذي كان يلوح أنوار النبوّة من بين أساريره، ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره، وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الإسلام من ظلمة الكفر ودياجيره، وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره.

أما بعد: فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدير، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين. والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة التي تطلع على الأفتدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان وجوار الرحمن، والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس إلا أنه مرض يفوّت حياة الأبد، وأين منه المرض الذي لا يفوّت لا حياة الجسد؟ ومهما اشتدت عناية الأطباء بضبط قوانين العلاج للأبدان وليس في مرضها إلا فوت لحياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب؛ إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة علمها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: ﴿قُدُ أَمَّكُمْ مَن رَّكَّتُهَا ۞﴾ (الشَّمس: ٩) وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنْهَا ۞﴾ [الشَّمس: ١٠] ونحن نشَّير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة، من غير تفصيل لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع، وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها. ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالاً له؛ ليقرب من الأفهام دركه، ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق، ثم بيان حقيقة حسن الخلق، ثم بيان قبول الأخلاق للتغير بالرياضة، ثم بيان السبب الذي به بنال حسن الخلق، ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النفوس، ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب، ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه، ثم سيان شواهد النقل على أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير، ثم بيان علامات حسن

الخلق، ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء، ثم بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة. فهي أحد عشر فصلاً يجمع مقاصدها هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

بيان فضيلة حسن الخلق ومدمة سوء الخلق:

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ ۗ اللَّمَاء ٤]. وقالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ خُلُقه القرآن(١). وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى: ﴿ نُهُدِ ٱلْمُنُو وَأَثْرُ بِٱلْمُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجُهِلِينَ ﴿ ﴾ [الاعزاف: ١٩٩] ثمم قَالِ ﷺ: ﴿ هُوَ أَنْ تُصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ خَرَمَكَ وَتَعْفُو خَمَّنْ ظَلَمَكَ ۗ (٢٠)، وقال ﷺ: ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَنَّهُمْ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ ٣٠)، وقال ﷺ: ﴿ أَلْقَلُ ما يُوضَعُ فِي المِيزَانِ يَوْمَ القَيامَةِ تَقْوَى الله وَحُسْنُ الْحُلُقُ (٤). وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: ﴿حُسْنُ الخُلَقِ، فأتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «حُسْنُ الْخُلُقِ». ثم أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: «حُسْنُ النُّحَلِّق» ثم أتاه من ورائه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت إليه وقال: «أَمَا تَفْقَهُ؟ هُوَ أَنْ لا تَغْضَبَه (٥)، وقيل: يا رسول الله ما الشؤم قال: «سُوءُ الخُلْقِ» (٦)، وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أوصني فقال: «اتَّتِي الله حَيثُمَا كُنْتَ، قال: زدني قال: «أتَّبع السَّيْئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها» قال زدني قال: ﴿خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُق حَسَنٍۥ (٧)، وستل عليه السلام: أي الأعمالَ أفضل؟ قال: ﴿خُلُقٌ حَسَنٌۥ وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿مَا حَسَّنَ الله خَلْقَ هَبْدِ وَخُلْقَهُ فَيُطْمِمَهُ النَّارَ»(^)، وقال الفضيل: قيل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق؛ تؤذي جيرانها بلسانها قال: ﴿لا خَيْرَ فِيها هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ۗ، وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: ﴿أَوَّلُ مَا يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ حُسْنُ الخُلُقِ وَالسَّخَاءُ وَلَمَّا خَلَقَ الله الإيمَانَ قَالَ اللَّهُمَّ قَرْنِي فَقَوْاهُ بِحُسْنِ الخُلْقِ وَالسَّخَاءِ، وَلَمَّا خَلَقَ الله الكُفْرَ قَالَ

كتاب رياضة النفس

 ⁽١) حديث عائشة: «كان خُلُقه القرآن» تقدم وهو عند مسلم.

 ⁽٣) حديث: التأويل قوله تعالى ﴿غُلِ ٱلْنَارَ﴾ [الأعرّاف: ١٩٩] الآية «هو أن تصل من قطعك. ٩ الحديث، أخرجه
 ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان.

 ⁽٣) حديث: ابعثت الأتمم مكارم الأخلاق، أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة وتقدم في آداب الصحية.

 ⁽٤) حديث: قائقل ما يوضع في الميزان خلق حسن أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء

⁽٥) حديث: جاء رجل إلى النبي ﷺ من بين يديه فقال: ما الدين؟ قال: «حسن الخلق. . الحديث. أحرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلاً.

 ⁽٦) حديث: ما الشؤم؟ قال: «سوء الخلق؛ أحرجه أحمد من حديث عائشة: «الشؤم سوء الخلق؛ ولأبي داود من حديث
رافع بن مكيث: «سوء الخلق شؤم» وكلاهما لا يصح.

حديث: قال رجل: أوصني قال: «الله الله حيثما كنت. . • الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وقال: حسن صحيح.

 ⁽A) حديث: قما حسن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه النار، تقدم في آداب الصحبة.

اللّهُمّ قُونِي فَقُواه بِالبُحْلِ وَسُوءِ الحُلُقِ (()، وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: فإنَّ الله السَخَاءُ وَحُسْنُ الخُلْقِ أَلاَ فَزَيْنُوا فِينَكُمْ بِهِمَاه ()، وقال عليه السلام: اللّهِينَ لِنَفْسِهِ وَلا يَصْلُحُ لِلِبِنِكُمْ إِلاّ السَّخَاءُ وَحُسْنُ الخُلْقِ أَلاَ فَزَيْنُوا فِينَكُمْ بِهِمَاه ()، وقال عليه السلام: فحُسْنُ الخُلْقِ خُلُق الله الأفظلم (ا)، وقيل: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً قال: «أحْسَنُهُمْ خُلُقاً» (الله فَي المُومنين أفضل إيماناً قال: «أحْسَنُهُمْ وَحُسْنِ الخُلُقِ فُهُسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلْق وَحُسْنِ الخُلُقِ فُسِدُ العَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلْق وَحُسْنِ الخُلُقِ الْمَوْق قَدْ حَسَنَ الله خَلْقَكَ فَحَسْنُ خُلُقِك (*)، وعن جرير بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّكَ المَرُقُ قَدْ حَسَنَ الله خَلْقَكَ فَحَسْنُ خُلُقِك (*)، وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يقول عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقاً (())، وعن أبي مسعود البدري قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللّهُمُ حَسَنْ خُلْقِي فَحسَنْ خُلُقِي قَحسْنُ خُلُقِي (*)، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء خَلْقي فَحسْنُ خُلُقِي (أَنَى أَسْأَلُكَ الصَّحُةَ وَالْمَافِيَةُ وَحُسْنَ الْحُلْقِ (*)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي فيقول: «اللّهُمَ إِنِي أَسْألُكَ الصَّحُةَ وَالْمَافِيَةَ وَحُسْنَ الْحُلْقِ (*)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي فيقول: «اللّهُمَ إِنِي أَسْألُكَ الصَّحَة وَالْمَافِيَة وَحُسْنَ الْحُلْقِ (*)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي فيقول: «اللّهُمْ إِنِي أَسْألُكَ الصَّحَة وَالْمَافِيَة وَحُسْنَ الْحُلْقِ (*)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي فيقول: «اللّهُمْ إِنِي أَسْألُكَ الصَّحَة وَالْمَافِيَة وَحُسْنَ الْحُلْقِ * وعن أبي ومَنْ أبي ومُرْوَة لَهُ عَلَه وسلم قال: «كَرَمُ المُؤْمِنِ دِينَهُ، وَحَسْبُهُ حُسْنُ خُلُقِهِ، وَمُرُووتُهُ مُعَلَّه وسلم قال: «كَرَمُ المُؤْمِنِ دِينَهُ، وحَسْبُهُ حُسْنُ خُلُقِهِ، وَمُرْوَقَتُهُ عَقْلُه (*) وعن

 ⁽١) حديث أبي الدرداء اأول ما يوضع في الميزان حسن الخلق. . الحديث. لم أفف له على أصل هكذا، ولأبي داود
 والترمذي من حديث أبي الدرداء: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق» وقال: غريب رقال: في بعص طرقه حسن صحيح.

 ⁽٢) حديث: فإن الله استخلص هذا الدين لنفسه . . . ؟ الحديث . أخرجه الدارقطني في كتاب المستجاد، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبى سعيد الخدري بإسناد فيه لين .

 ⁽٣) حديث "حسن المخلق خلق الله الأعظم". أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف.

⁽٤) حديث قبل: يا رسول الله، أي المؤمنين أفصلهم إيماناً؟ قال: «أحسنهم خلقاً» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في التكاح بلفظ: «أكمل المؤمنين» والطبراني من حديث أبي أمامة «أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً».

 ⁽a) حديث. «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسموهم بيسط الموجه وحسن الخلق» أخرجه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وبعض طرق البزار رجاله ثقات.

 ⁽٩) حديث: «سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل». أخرجه ابن حبان في الضمفاء من حديث أبي هريرة والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وأبي هريرة أيضاً وضمفهما ابن جرير.

 ⁽٧) حديث: (إنك امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك، أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو العباس الدغولي
في كتاب الأداب وفيه ضعف.

٨١) حديث البراء: اكان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلفاً؛ أحرجه الحرائطي في مكارم الأخلاق بسند حسن.

 ⁽٩) حديث أبي مسعود البدري: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي» أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا من
رواية عبدالله بن أبي الهذيل عن أبي مسعود البدري وإنما هو ابن مسعود أي عبدالله، هكذا رواه ابن حبان في
صحيحه ورواه أحمد من حديث عائشة.

⁽١٠) حديث عبدالله بن عمرو: «اللهم إني أسألك الصحة والعاقية وحسن الخلق». أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد فيه لين.

⁽١١) حديث أبي هريرة: «كرم الممره دينه ومروءته وهقله وحسن خلقه». أخرحه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم والبيهةي. قلت: فيه مسلم بن خالد الزنجي وقد تكلم فيه. قال البيهةي: وروي من وجهين آخرين ضعيفين ثم رواه موقوفاً على عمر وقال: إسناد صحيح.

 ⁽۱) حديث أسامة بن شريك: شهدت الأعاريب يسألون رسول الله ﷺ: ما خير ما أعطي العبد؟ قال: المخلق حسن؟
 أخرجه ابن ماجه وتقدم في آداب الصحبة.

⁽٢) حديث: (إن أحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاستكم أخلاقاً» أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة: (إن أحبكم إلى الله أحاستكم أخلاقاً» وللطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر: (إن أقربكم منى مجلساً أحاستكم أخلاقاً» وقد تقدم الحديثان في آداب الصحبة.

 ⁽٣) حديث ابن عباس: الثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهن قلا يعتد بشيء من عمله... الحديث.
 أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف، ورواه الطبرائي في الكبير وفي مكارم الأخلاق من حديث أم سلمة.

⁽٤) حديث: «اللهم اهنتي لأحسن الأخلاق...» الحديث، أخرجه مسلم من حديث علي.

⁽٥) حديث أنس: وإن حسن التحلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس البعليدة. أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف، ورواه الطبراني والطيالسي والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس وضعفه، وكذا رواه من حديث أبي هريرة وضعفه أيضاً.

 ⁽٢) حديث: فمن سعادة المرء حسن الخلق؛ أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف.

⁽٧) حديث: قاليمن حسن الخلق؛ أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث علي بإسناد ضعيف.

 ⁽A) حديث: (يا أبا ذر لا مقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخلق؛ أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي در.

 ⁽٩) حديث أنس: قالت أم حبيبة: يا رسول الله أرأيت المرأة يكون لها زوجان... الحديث. أخرجه البزار والطبراني في الكبير والمغراطي في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف.

⁽١٠) سُديث: فإن المسلم المسلّد ليفرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه. . . ٤ الحديث. أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بالرواية الأولى، ومن حديث أبي هريرة بالرواية الثانية وفيهما ابن لهيعة.

على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فأدخله على الله تعالى ""، وقال أنس: قال النبي ﷺ: "إنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلْقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الآخِرَةِ وَشَرَفَ المَنَازِلِ وَإِنَّهُ لَضَعِيفٌ فِي النبي ﷺ: وروي: أن عمر رضي الله عنه استأذن على النبي ﷺ وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر رضي الله عنه تبادرن الحجاب، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك فقال عمر رضي الله عنه: مم تضحك بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ فقال: وعَجِبْتُ لِهُولاءِ اللّاتِي كُنَّ عِنْدِي لَمَّا سَمِعْنَ صَوْقَكَ تَبُادَزْنَ الحِجَابَ، فقال عمر: أنت كنت أحق أن يهبنك يا رسول الله ، ثم أقبل عليهن عمر فقال: يا عدوّات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ؟ قلن: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «إيبها يا ابْنَ الخَطابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيلِهِ ما لَقِيكَ السَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكا فَجًا إلاْ سَلَكَ فَجًا غَيْرَ فَجُكَهُ"، وقال ﷺ: «سُوءَ الخُلُقِ ذَنْكِ جَهَنَمَ"، وقال عليه السلام: «إنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرَكِ جَهَنَمَ"، وقال عليه السلام: «إنَّ العَبْدَ لَيَبْلُغُ مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرَكِ جَهَنَمَ"،

الآثار: قال ابن لقمان الحكيم لأبيه: يا أبت، أي الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدين، قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإذا كانت ثلاثاً؟ قال: الدين والمال والحياء، قال: فإذا كانت أربعاً؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمساً؟ قال: الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء، قال: فإذا كانت ستاً؟ قال: يا بني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي، ولله ولي، ومن الشيطان بري، وقال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه. وقال أنس بن ماك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد، ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد. وقال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وقال وهب بن منبه: مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة؛ لا ترقع ولا تعاد طيناً. وقال الفضيل: لأن يصحبني قاجر حسن الحلق أحب إليً من أن يصحبني عابد سيىء الخلق، وصحب ابن المبارك رجلاً سيىء الخلق في سفو فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخلقه معه لم فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخلقه معه لم فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل الكناني: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان. وقال الكناني: التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الخلق زاد عليك في التحلق ويلك في التصوف. وقال عمر رضي الله عنه: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وقال عليك في التصوف. وقال عمر رضي الله عنه: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال. وقال

 ⁽١) حديث عبدالرحمن بن سمرة الإني رأيت البارحة عجباً. . . الحديث أحرجه الخرائطي في مكارم الأحلاق بسند صعف.

 ⁽۲) حديث: وإن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة. . ٤ الحديث. أخرجه الطبرائي والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في كتاب مكارم الأخلاق، وأبو الشيخ في كتاب طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد.

⁽٣) - حديث: ﴿إِنْ صَمْرُ اسْتَأَذَنْ عَلَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَنَّاهُ نَسَاهُ مَنْ قَرِيشَ يَكُلُمْتُهُ وَيَسْتَكُثُونُهُ . . ﴾ الحديث. متفق عليه.

 ⁽٤) حديث: السوء الخلق ذقب لا يغفر. ١٠ الحديث. أخرجه الطيراني في الصغير من حديث عائشة: هما من شيء إلا له
 توية إلا صاحب سوء الخلق فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه. وإسناده ضعيف.

حديث: فإن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم، أخرجه الطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق وأبو الشيخ في طبقات الأصبهانيين من حديث أنس بإسناد جيد وهو بعض الحديث الذي قبله بحديثين.

يحيى بن معاذ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات. وسئل ابن عباس: ما الكرم؟ فقال: هو ما بيّن الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ أَكُرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَنْقَدَكُمْ اللّهُ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ أَكُرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَنْقَدَكُمْ اللّهُ الله وقال: لكل بنيان أساس، أَنْقَدَكُمْ اللّه الله الخلق. وقال عطاء: ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن، ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى ﷺ فأقرب الخلق إلى الله عز وجلّ السالكون آثاره بحسن الخلق.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق:

اعلم: أن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا للمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضراً في ذهنه، ولم يصرفوا العناية إلى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب، وذلك كقول الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى. وقال الواسطي: هو أن لا يخاصِم ولا يخاصَم من شدة معرفته بالله تعالى. وقال شاه الكرماني: هو كف الأذى واحتمال المؤن. وقال بعضهم: هو أن يكون من الناس قريباً، وفيما بينهم غريباً. وقال الواسطي مرة: هو إرضاء الخلق في السراء والضراء. وقال أبو عثمان: هو الرضاء عن الله تعالى. وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه، وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق ويئق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الأمور؛ فيما بينه وبينه وفيما المحارم وطلب بينه وبين الناس. وقال علي رضي الله عنه: حس الخلق في ثلاث خصال؛ اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العبال. وقال الحسين بن منصور: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مظالعتك للحق. وقال أبو سعيد الخراز: هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى. فهذا وأمثاله كثير، وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه، ثم ليس هو محيطاً بجميع الثمرات أيضاً. وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الأقاويل المختلفة.

فتقول: الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخُلُق والخُلْق - أي حسن الباطن والظاهر - فيراد بالخُلُق: الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق: الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر، ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة. فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَهِ كَمَّ الله عَلْنَ بَنَرُ مِن طِبِنِ ﴿ قَالَ سَوَيْتُمُ وَقَعْتُ فِيهِ مِن أُمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَهُ كَالَ الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد؛ فالخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها الافعال العبيلة المحمودة عقلاً وسرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة المجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا وروية لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم.

فهاهنا أربعة أمور: أحدها: فعل الجميل والقبيح، والثاني: القدرة عليهما، والثالث: المعرفة بهما، والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين؛ إما الحسن وإما النبيح.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرباء. وليس هو عبارة عن القوّة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدّين واحد. وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البحل ولا خلق السخاء، وليس هو عبارة عن المعرفة؛ فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل، فالخلق إذاً: عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الخلق، فإذا حسن الطاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوّة العلم، وقوة الغضب، وقوّة الشهوة، وقوّة العدل بين هذه القوى الثلاث.

وأما قوّة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حدٌ ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة، أعني إشارة العقل والشرع.

وأما قوّة العدل: فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع.

فالعقل: مثاله مثال الناصح المشير. وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثال المنفذ الممضي لإشارة العقل. والغضب: هو الذي تنفذ فيه الإشارة، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس. والشهوة: مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد؛ فإنه تارة يكون مروضاً مؤدّباً وتارة يكون جموحاً. فمن استرت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة؛ كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض. وحسن القوّة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالعفة.

فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمى جبناً وخوراً. وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمى شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمى جموداً.

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان، والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان، بل له ضدّ واحد ومقابل وهو الجور.

وأما المحكمة: فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة، ويسمى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة. فإذاً: أمهات الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. وتعني بالحكمة: حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية، وتعني بالعدل: حالة للنفس وقرّة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. وتعني بالشجاعة: كون قرّة الغضب منقادة للعقل في إقدامها واحجامها. وتعني بالعفة: تأذّب قرّة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها.

إذ من اعتدال قوة العقل: يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأي وإصابة الظن والتفطن للقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، ومن إفراطها: تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها: يصدر البله والغمارة والحمق والجنون وأعني بالغمارة قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء والفرق بين الحمق والجنون: أن الأحمق: مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد، فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون: فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار، فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً.

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم النيظ والوقار والتودد وأمثالها وهي أخلاق محمودة، وأما إفراطها ـ وهو التهوّر ـ فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب. وأما تفريطها: فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة: فيصدر منه السحاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع. وأما مبلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة: وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. والباقى فروعها.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله على، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله على، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً؛ يرجع الخلق كلهم إليه، ويقتدون به في جميع الأفعال. ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد، فإنه قد قرب من الشيطان اللعبن المبعد، فينبغي أن يبعد، كما أن الأول قريب من الملك المقرّب فينبغي أن يقتدي به ويتقرّب إليه، فإن رسول الله على لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال(١٠).

وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ مَاسَنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَحَنهَدُواْ بِأَمْوَلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَكِيلِ اللّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْفَسَلِفُونَ ۞﴾ [الحجرات: ١٥] فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتباب: هو قوة اليقين وهو ثمرة العقل. ومنتهى الحكمة

 ⁽١) حديث: ابعثت الأتمم مكارم الأخلاق، تقدم في آداب الصحبة.

والمجاهدة بالمال: هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة. والمجاهدة بالنفس: هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال. فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال: ﴿ أَيْدَآهُ عَلَى الْكُمَّارِ رُحَّاهُ يَيْشُمُ ﴾ [الفتح: ٢٩] إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً، فليس الكمال في الشدة بكل حال، ولا في الرحمة بكل حال. فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه.

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة:

اعلم: أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة، والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته، فزعم أن الأخلاق لا يتصوّر تغييرها، فإن الطباع لا تتغير.

واستدل فيه بأمرين:

أحدهما: أن الخُلُق هو صورة الباطن كما أن الخُلُق هو صورة الظاهر. فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيراً، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته، فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

والثاني: أنهم قالوا: حسن الخلق يقمع الشهوة والغضب. وقد جرّبنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فإنه قط لا ينقطع عن الآدمي، فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة. فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: ﴿حَسَّنُوا أَخْلاقَكُمْ اللهِ مَ وَكِيفَ يَنكُر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق.

والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وسائر أجزاء الحيوانات. وبالجملة: كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً،

 ⁽١) حديث: «حسنوا أخلاقكم» أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث معاذ: «يا معاذ حسن خلقك فلناس» منقطع ورجاله ثقات.

ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه. وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتا ووصولنا إلى الله تعالى. نعم، الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول، ولاختلافها سببان:

أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدّة الوجود، فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة، فإنها أقدم وجوداً؟ إذ الصبي في مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

والسبب الثاني: أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له، وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً، والناس فيه على أربع مراتب:

الأولى: وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح، بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات، ولم تستتم شهوته أيضاً باتباع اللذات، فهذا سريع القبول للعلاج جداً فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة؛ فيحسن خلقه في أقرب زمان.

والثانية: أن يكون قد عرف قبح القبيح، ولكنه لم يتعوّد العمل الصالح، بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقياداً لشهواته وإعراضاً عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول؛ إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه؛ إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أوّلاً من كثرة الاعتياد للفساد، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم.

والثالثة: أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها، فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور، وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

والرابعة: أن يكون من نشته على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به، يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به، ويظن أن ذلك يرفع قدره، وهذا هو أصعب المراتب، وفي مثله قيل: ومن العناء رياضة الهرم، ومن التعذيب تهذيب الذيب. والأول من هؤلاء: جاهل فقط. والثاني: جاهل وضال. والثالث: جاهل وضال وفاسق، والرابع: جاهل وضال وفاسق وشرير.

وأما الخيال الآخر الذي استدلوا به؛ وهو قولهم: إن الآدمي ما دام حياً فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنبا وسائر هذه الأخلاق، فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة، حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل

المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب: حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهوّر وعن الجبن جميعاً. وبالجملة: أن يكون في نفسه قوياً ومع قوته منقاداً للعقل. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَشِدَّاهُ عَلَى ٱلْكُنَّارِ رُحَّاهُ بِيَنَّهُم ﴾ [النَّفج: ٢٩] وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب، ولو بطل الغضب لبطل الجهاد. وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك؛ إذ قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنَّا بَشَرٌ أَغْضَبُ كُمَا يَغْضَبُ البَشَرُ ﴿ ﴿ وَالْنَبِياء وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمرٌ وجنتاه، ولكن لا يقول إلا حقاً، فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق (٢). وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَاظِينَ ٱلْفَيْظُ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] ولم يقل: والفاقدين الغيظ، فرد الغضب والشهوة إلى حدّ الاعتدال، بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يعلبه، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق، فإنه ربما تستولى الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها فيقدم على الانبساط إلى الفواحش، وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها، والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين: أن السخاء خلق محمود شرعًا، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير. وقد أثني الله تعالى عليه فقال: ﴿وَٱلَّذِيكَ إِنَّا أَهْقُواْ لَمْ يُشرِفُواْ ونَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْرَكَ ذَوْلَكَ فَوَامًا ﴿ إِللَّهُ وَالفُّرْفَانِ: ١٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْمَلَ يَدَكُ مَعْلُولُةً إِلَى عُنْفِكَ وَلَا نُسُطِّهَا كُلُّ ٱلْسَطِّ﴾ [الإسراه: ٢٩] وكذلك المطلوب في شهوة الطعام: الاعتدال دون الشره والجمود. قَالَ الله تعالَى: ﴿وَكُلُواْ وَالشَّرِيُّواْ وَلَا نُسْرِفُواْ إِنَّهُ لَا يُجِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال في الغضب: ﴿أَشِدَّاتُهُ عَلَى ٱلْكُنَّادِ رُحْمَاهُ بَيْهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷺ: ﴿خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا، ٢٣)، وهذا له سر وتحقيق، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَنَّى اللَّهَ بِقَلْبِ سَيبِمِ ۖ ۖ ۗ ﴾ [الشُّعَرَّاء: ٨٩] والبخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا، وشرط القلب أن يكون سليماً منهما؛ أي لا يكون ملتفتاً إلى العال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه، فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك، فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً. وإذا لم يكن ذلك في الدنيا طلبنا ما هو الأشبه لعدم الوصفين، وأبعد عن الطرفين وهو الوسط، فإن الفاتر لا حار ولا بارد، بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجين والثهور. والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم؛ هذا هو المطلوب وهو ممكن. نعم يجب

 ⁽۱) حديث: اإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشراء. أخرجه مسلم من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة: اإنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشراء.

⁽Y) حديث: «أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول إلا حقاء فكان الغضب لا يخرجه عن الحق، أخرجه الشيخان من حديث عبدالله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال: «لأن كان ابن همتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ولهما من حديث أبي سعيد الخدري: «وكان إذا كره شيئاً هرفناه في وجهه». ولهما من حديث عائشة: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنصه إلا أن تنتهك حرمة الله»، ولمسلم: «ما ينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه. . . ، الحديث.

 ⁽٣) حديث: «غير الأمور أوساطها؛ أخرجه البيهتي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن هدالله معضلاً.

على الشبخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأساً، ويذم إمساك المال رأساً، ولا يرخص له في شيء منه؛ لأنه لو رخص له في أدنى شيء اتخذ ذلك عذراً في استبقاء بخله وغضبه، وظن أنه القدر المرخص فيه. فإذا قصد قطع الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال، فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود. فلا يكشف هذا السر للمريد فإنه موضع غرور الحمقى؛ إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق.

بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق على الجملة:

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوّة العقل وكمال الحكمة، وإلى اعتدال قوّة الغضب والشهوة، وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضاً. وهذا الاعتدال يحصل على وجهين:

أحدهما: بجود إلهي وكمال فطري، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفي سلطان الشهوة والغضب، بل خلفتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع؛ فيصير عالماً بغير تعليم ومؤدباً بغير تأديب، كعيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. ولا يبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب؛ فرب صبي خلق صادق اللهجة سخياً جرياً، وربما يخلق بخلافه، فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق، وربما يحصل بالتعلم.

والوجه الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة؛ وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه: أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال، فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه: أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلفاً له وطبعاً فيتيسّر عليه. وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً؛ فالسخى: هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع: هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها، كما قال ﷺ: ﴿وَجُعِلَتُ قُرَّةً عَيْنِي فِي الصَّلاقِ (``، ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به. نعم، المواظبة عليها بالمجاهدة خير، ولكن بالإضافة إلى تركها لا بالإضافة إلى فعلها عن طوع، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةُ إِلَّا عَلَى الْمُنَشِينَ﴾ [البَفَرَة: ٤٥] وقال ﷺ: «اهْبُكِ الله فِي الرَّضا فَإِنَّ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكُوّهُ خَيْرِ كَثِيرٌ؟ ^(٧)، ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان، بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر، وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل، ولذلك لما سئل ﷺ عن السعادة فقال: •طَولَ

 ⁽١) حديث: اوجعلت قرة عيني في الصلاة أخرجه النسائي من حديث أنس، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: قاصد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثيرا أخرجه الطرائي.

المُمُو فِي طَاعَةِ الله تَعَالَى الله ولذلك كره الأنبياء والأولياء الموت فإن الدنيا مزرعة الآخرة. وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى وأرسخ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات.

وغاية هذه الأخلاق: أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى، فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عزّ وجلّ، فلا يستعمل جميع ماله إلا على الوجه الذي يوصله إليه، وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما إلا على الوجه الذي يوصله إلى الله تعالى، وذلك بأن يكون موزوناً بميزان الشرع والعقل، ثم يكون بعد ذلك فرحاً به مستلذاً له، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين. ومصير العبادات لذيذة؛ فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك؛ فإنا قد نرى الملوك والمنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً، ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به، وذلك لطول إلفه له وصرف نفسه إليه مدة. وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحسّ بألمها؛ لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء، بل نرى الفاجر العبار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط، وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوّته في الصبر على ذلك، حتى يرى ذلك فخراً لنفسه، ويقطع الواحد منهم إرباً إرباً على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره، فيصر على الإنكار ولا يبالي بالعقوبات فرحاً بما يعتقده كمالاً وشجاعة ورجولية، فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره، بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث في تشبهه بالإناث في نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء، فترى المخنث في فرح بحاله وافتخار بكماله في تخنثه يتباهي به مع المخنثين، حتى يجري بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجري بين الملوك والعلماء. فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف. فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة؛ فأما ميله إلى الحكمة وحبّ الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني، وميله إلى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه، وإنما غدًاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عزّ وجلّ، ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سببان لحياتها، فكل قلب مال إلى حب شيء سوى الله تعالى فلا ينقل عن مرض بقدر ميله، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض.

فإذاً: قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ـ أعني النفس

⁽١) حديث: سئل هن السمادة فقال: ٤ طول العمر في هبادة الله رواه القضاعي في مسئد الشهاب، وأبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، وللترمذي من حديث أبي بكرة وصححه: أي الناس خير؟ قال: قمن طال عمره وحسن علمه.

والبدن _ فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب، والأمر فيه دور، ويعرف ذلك بمثال: وهو أن من أراد أن يصير الحذق في الكتابة له صفة نفسية _ حتى يصير كاتباً بالطبع _ فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاثب الحاذق، ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن، فإن فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه، فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً، ثم لا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب، ثم نكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً، ولكن الأول بتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب، ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع.

وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس، وكذلك من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليماً متواضعاً فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له، فلا علاج له إلا ذلك، وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة، فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالأعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم. وهو معنى قولنا: إن الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤيد، ولكن العطلة في يوم واحد تدعو إلى مثلها، ثم تتداعى قليلاً قليلاً حتى تأنس النفس بالكسل، وتهجر التحصيل رأساً فيفوتها فضيلة الفقه. وكذلك صغائر المعاصى يجر بعضها إلى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة. وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيئاً فشيئاً على التدريج ـ مثل نمو البدن وارتفاع القامة ـ فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال، ولكن لا ينبغى أن يستهان بقليل الطاعة، فإن الجملة الكثيرة منها مؤثرة، وإنما اجتمعت الجملة من الآحاد، فلكل واحد منها تأثير، فما من طاعة إلا ولها أثر وإن خفي، فله ثواب لا محالة. فإن الثواب بإزاء الأثر وكذلك المعصية. وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوماً فيوماً إلى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه. فكذا من يستهين صغائر المعاصى ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي إلى أن يختطفه الموت بغتة، أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة؛ إذ القليل يدعو إلى الكثير فيصير القلب مقيداً بسلاسل شهوات، لا يمكن تخليصه من مخالبها. وهو المعنى بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَجَمَلُنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩] الآية. ولذلك قال على رضي الله تعالى عنه: إن الإيمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء؛ كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل العبد الإيمان أبيض القلب كله. وإن النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء؛ كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النماق اسود القلب كله.

فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح؛ إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً. فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم، وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عزّ وجلّ، وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات، ولكل درحة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته: ﴿فَكَن يَعْمَلٌ مِثْقَكَالَ ذَرَّةٍ خَيْرً يَمَرُهُ

﴿ وَمَن يَعْمَلُ مِنْقَكَالَ دَرَّةِ شَكَرًا يَكِرُهُ ﴿ إِللسِةِلسِةِلسِةِ ١٨٠٧] . ﴿ وَمَا طَلَكُمُ أَللَّهُ وَلَذِينَ كَالُوا أَلْمُسَهُمْ عَلَا اللَّهُ وَلَذِينَ كَالُوا أَلْمُسَهُمْ عَلْمُ اللَّهُ وَلَذِينَ كَالُوا أَلْمُسَهُمْ عَلَا اللَّهُ وَلَذِينَ كَالُوا أَلْمُسَهُمْ وَاللَّهُ وَلَذِينَ عَلَا اللَّهُ وَلَذِينَ عَلَا أَلْمُسَافِحُ وَاللَّهُ وَلَذِينَ عَلَا اللَّهُ مِنْ عَلَا اللَّهُ مُنْ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا يَعْلَى اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا يَعْلَى اللَّهُ وَلَذِينَ عَلَالُهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا إِلَيْهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللّلَهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَّا اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللَّ

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

قد عرفت من قبل: أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فبها. كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له، والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالاً. فنقول:

مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديثة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إنيها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال، وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ـ أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ..، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء؛ فكذلك النفس تحلق ناقصة قابلة للكمال؛ وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه؛ فكذلك النفس منك؛ إن كانت زكية طاهرة مهذبة: فينبغي أن تسعى لحفظها، وجلب مزيد قوّة إليها واكتساب زيادة صفائها، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء: فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها فإن كانت من حرارة فبالبرودة، وإن كانت من برودة فبالحرارة، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها. فيعالج مرض الجهل بالتعلم، ومرض البخل بالتسخي، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً. وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد. وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ـ ويختلف ذلك بالشدة والضعف، والدوام وعدمه، وبالكثرة والقلة، ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه؛ فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ـ فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك النفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان، وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها.

فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه، وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته. فإن كان المريد مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات، وإن كان مشغولاً بمال حرام أو مقارفاً لمعصية

فيأمره أولاً بتركها، فإذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصي الظاهرة جوارحه، نظر بقرائن الأحوال إلى باطنه ليتفطن لأخلاقه وأمراض قلبه، فإن رأى معه مالاً فاضلاً عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه إلى المخيرات، وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت إليه، وإن رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره أن يخرج إلى الأسواق للكدية والسؤال، فإن عزة النفس والرئاسة لا تنكسر إلا بالذل، ولا ذلّ أعظم من ذلك السؤال؛ فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه، فإن الكبر من الأمراض المهلكة وكذلك الرعونة، وإن رأى الغائب عليه النظافة في البدن والثياب ورأى قلبه مائلاً إلى ذلك فرحاً به ملتفتاً إليه استخدمه في تعهد بيت الماء وتنظيفه، وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته في النظافة؛ فإن الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التي تزين نفسها طول النهار، فلا فرق بين أن يعبد الإنسان نفسه أو يعبد صنماً فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله، ومن راعى في ثوبه شيئاً سوى كونه حلالاً وطاهراً مراعاة يلنفت إليها قلبه فهو مشغول بنفسه.

ومن لطائف الرياضة: إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ولم يسمع بضدها دفعة؛ فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه، كالذي يغسل الدم بالبول، ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم. كما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة، فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل إلى جاء أخف منه، وكذلك سائر الصفات. وكذلك إذا رأى شره الطعام غالباً عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام، ثم يكلفه أن يهيىء الأطعمة اللذيذة ويقدمها إلى غيره وهو لا يأكل منها؛ حتى يقوي بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه. وكذلك إذا رآه شاباً متشوقاً إلى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبر دون الماء. ويمنعه اللحم والأدم رأساً حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته. . . فلا علاج في مبدأ الإرادة أنفع من الجرع. وإن رأى الغضب غائباً عليه ألزمه الحلم والسكوت، وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق، ويلزمه خدمة من ساء خلقه حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه.

كما حكي عن بعضهم: أنه كان يعرّد نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر، ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل. وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب، فأراد أن يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الأمواج. وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة. وبعض الشيوخ في ابتداء إرادته كان يكسل عن القيام فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل؛ ليسمع بالقيام على الرجل عن طوع. وعالج بعضهم حب المال بأن باع جميع ماله ورمى به في البحر؛ إذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل.

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب. وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض ـ فإن ذلك سيأتي في بقية الكتب ـ وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ غَافَ مَقَامٌ رَبِيْدِ وَنَهَى النَّفُسُ عَنِ الْمَوَىٰ ﴿ فَي فَلَكُ كُلُهُ فِي كَتَابِهِ العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ غَافَ مَقَامٌ رَبِيْدِ وَنَهَى النَّفْسُ عَنِ الْمَوَىٰ ﴿ فَي قَلْمُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الل

المجاهدة: الوفاء بالعزم، فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها، ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً، فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه ترك العزم أَلِفَتْ ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه نقض عزم، فينبغي أن يلزم نفسه حقوبة عليه _ كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة _ وإذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته، وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية.

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة:

اهلم: أنَّ كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلل له حتى لا يصدر منه أصلاً أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش. ومرص العين أن يتعذر عليها الإبصار. وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته، والتلذذ بذكره، وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه، والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ أَلِِّنَ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْنُدُونِ ۞﴾ [الذَّاريَات: ٥٦] ففي كل عضو فائدة، وفائدة القلب الحكمة والمعرفة. وخاصية النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم، فإنه لم يتميز عنها بالقوّة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه. وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عزّ وجلّ الذي جعلها أشياء. فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عزّ وجلّ فكأنه لم يعرف شيئاً. وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات. كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآ زُكُمُ رَأَيْنَآ وُكُمُ مُ وَإِخْوَنُكُمُ وَأَنْوَجُكُمْ ﴾ [القوبة: ٢٤] إلى قوله: ﴿أَحَبُ إِلْيُكُمُ مِنْ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ. فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْقِي ٱللَّهُ بِأَمْرِيُّ ﴾ [النوبة. ٢٤] فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض، كما أنَّ كل معدة صار الطين أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة. فهذه علامات المرض، ويهذا يعرف أنَّ القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله، إلا أنَّ من الأمراض ما لا يعرفها صاحبها؛ ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه. وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح. فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً واندرس هذا العلم، وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها. وأقبل الخلق على حب الدنيا، وعلى أعمال ظاهرها عبادات، وباطنها عادات ومراءاة. فهذه علامات أصول الأمراض.

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة: فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عزّ وجلّ، وإنما علاجه بيذل المال وإنفاقه، ولكنه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذراً فيكون التبذير أيضاً داء، فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة. وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى المعلل الذي يوجبه الخلق المحذور، فإن كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك المخلق الموجب له، مثل: أن يكون إمساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بنله لمستحقه، فاعلم: أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ

عندك وأحف عليك من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير؛ فارجع إلى المواظبة على الإمساك، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتسبير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك؛ فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليماً عن هذا المقام خاصة. ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية، داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وَحَمُنُ أَوْلَيْكَ دَفِيقًا﴾ [النساء: 19].

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في عاية الغموض، بل هو أدق من الشعر وأحدٌ من السيف فلا جرم أنَّ من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم - أعني الوسط - حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقاً بالجانب الذي مال إليه. ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وإن كان مثل البرق قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَنكُمُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَّا مَّقْضِيّا ﴿ ثُمَّ نُتَعِي النِّينَ النَّقَوا ﴾ [مريم: ٧١٠] أي قال الله تعالى: ﴿وَإِن كِل يوم سبع عشرة مرة في قوله: ﴿ أَهْدِنَا الْهِمْرَكُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى كل يوم سبع عشرة مرة في قوله: ﴿ أَهْدِنَا الْهِمْرَكُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى كل ركعة.

فقد روي: أنَّ بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال: قد قلتَ يا رسول الله شيبتني هود، فلم قلت ذلك؟ فقال عليه السلام: «لقوله تعالى: ﴿فَاسَتَهُمْ كُمَّا أُمِرْتَ ﴾ [لمود: ٢١١٣]. فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها. فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح، ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة؛ فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليعدّدها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على النرتيب. فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين.

بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه:

اعلم: أنَّ الله عزَّ وجلِّ إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم؟ يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الأول: أن يحلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته. وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه، فيعرَّفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه. وهذا قد عز في الزمان وجوده.

الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً، فينصّبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أثمة الدين. كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امراً أهدى إلتي عيوبي. وكان يسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفى، فألح عليه فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل، قال: وهل بلغك غير هذا؟ قال: لا، فقال: أما هذان فقد كفيتهما. وكان يسأل حذيفة ويقول له: أثت صاحب سر رسول الله على المنافقين، فهل ترى عليّ شيئاً من آثار النفاق؟. فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضى الله عنه.

فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً وأعظم اتهاماً لنفسه، إلا أن هذا أيضاً قد عز فقلٌ في الأصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب، أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب. فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما لبس بعيب عيباً، أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك.

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له: لِمَ لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي؟. فكانت شهوة ذوي الدين أن ينتبهوا لعبوبهم بتنبيه غيرهم، وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أنّ أبغض الخلق إلينا من يصحنا ويعرفنا عيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان؛ فإنّ الأخلاق السيئة حيات وعقارب لداغة، قلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به، واشتغلنا بإزالة العقرب وإبعادها وقتلها، وإنما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوماً فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبداً أو آلافاً من السنين. ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له: وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه. ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أشمرتها كثرة الذنوب. وأصل كل ذلك ضعف الإيمان. فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوئنا بمنه وفضله.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا. ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يذكره عبوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه؛ فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع: أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وبنسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى. فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب.

قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال: ما أدبني أحد، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته. وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس، مشفقاً ناصحاً في الدين فارغاً من تهذيب نفسه مشتخلاً بتهذيب عباد الله تعالى ناصحاً لهم، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب؛ فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصده.

بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض القلب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات:

والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر. قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النّفسَ عَنِ الْمَرَّقُ ﴿ فَإِنَّ الْمَنْدَ هِى الْمَأْوَىٰ ﴿ النّازَعَاتِ: ٤٠ ــ ٤١] وقال تعالى: ﴿ أُولَتِكَ النّهَ النّهُ عُلُوسُمٌ اللّفَوْرَقُ ﴾ [النّفرة الشهوات. وقال ﷺ: «المُؤْمِنُ بَيْنَ خَمْسٍ شَدائِد: مُؤْمِنٌ يَحْسُلُهُ وَمُنَافِقٌ يَبْغُضُهُ وَكَافِرٌ يُقَاتِلُهُ وَشَيْطَانٌ يُضِلّهُ وَتَفْسٌ تُنَازِعُهُ ﴿)، فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها.

ويروى: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود، حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة. وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره، وقال نبينا على القوم قدموا من الجهاد: «مَرْحَباً بِكُمْ قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: «جِهَادُ النَّفْسِ» (")، وقال على: «المُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ الله عَزْ وَجَلُه (")، وقال على: «كُفُّ أَذَاكُ عَنْ نَفْسِكَ وَلا تُعَالَى مَعْصِيةِ الله تَعَالَى إِذَنْ تُخَاصِمكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَلْعَنُ بَعْضُكَ بَعْضاً إِلاَّ أَنْ يَغْفِرَ الله تَعَالَى وَيَسْتُرًا (")، وقال معيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نفسي مرة لي ومرة عليّ، وكان أبو ويستشرًا (")، وقال سفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد عليَّ من نفسي مرة لي ومرة عليّ، وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس، لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين، ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين، كأني بك بين الجنة والنار تُحبسين، يا نفس ألا تستحين!. وقال الحسن: ما الدابة العباد تجتهدين، كأني بك بين الجنة والنار تُحبسين، يا نفس ألا تستحين!. وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام؛ فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وليس على العبد شيء أشد من الحلم عند الجفاء، والصبر على الأذى، وإذا تحركت

⁽¹⁾ حديث: «المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده ومنافق بيقضه. . .» الحديث، أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف.

 ⁽۲) حديث: «مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». أخرجه البيهتي في الزهد، وقد تقدم في شرح عجائب القلب.

 ⁽٣) حديث المجاهد من جاهد نفسه أخرجه الترمذي في أثناء حديث، وصححه وابن ماجه من حديث فضالة بن عبيد.

 ⁽٤) حديث: «كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها في معصبة الله. . . » الحديث. لم أجده بهذا السياق.

من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جَرِّدْتَ سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلة الكلام؛ حتى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام، وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها؛ فتصير عند ذلك نظيفة وثورية، خفيفة روحانية، فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطاعات؛ كالفرس الفارة في الميدان، وكالملك المتنزه في البستان، وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه وشيطانه ونقسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

قال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن هواها، مقهوراً مغلولاً زمامه في يدها، تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد. وقال جعفر بن حميد: أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك إلا بترك النعيم، وقال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات. وقال وهيب بن الورد: ما زاد على الخبز فهو شهوة، وقال أيضاً: من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل.

ويروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام .. بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على · رابية الطريق في يوم موكبه، وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته .. سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً وذلك جزاء المفسدين، وإن الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً. . . فقال يوسف: كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَ اللَّهُ لَا يُعْضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُعْسِنِينَ ﴾ [يُرسُف: ٩٠].

وقال الجنيد: أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها، فأردت أن أنام فلم أقدر، فجلست فلم أطق الجلوس، فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحس بي قال: يا أبا القاسم إلى الساعة، فقلت: يا سبدي من غير موعد؟ فقال: بلى سألت الله عزّ وجلّ أن يحرك لي قلبك، فقلت: قد فعل، فما حاجتك؟ قال: فمتى يصير داء النفس دواءها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها، فأقبل على نفسه فقال: اسمعي فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ها قد سمعتيه، ثم انصرف وما عرفته. وقال يزيد الرقاشي: إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي الجنيد ها قد سمعتيه، ثم انصرف وما عرفته. وقال يزيد الرقاشي: إليكم عني الماء البارد في الدنيا لعلي الحرمه في الآخرة. وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال علي رضي الله عنه: من اشتاق إلى البحنة الصمت، قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وقال علي رضي الله عنه: من اشتاق إلى البحنة الصبري، فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك على.

فإذاً: قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا ينهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات، فالإيمان بهذا واجب. وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك فلا يدرك إلا بما قدمناه. وحاصل الرياضة وسرها: أن لا تتمتع النفس بشيء مما لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فيكون مقتصراً من الأكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر إليه على قدر الحاجة والمضرورة، فإنه لو تمتع بشيء منه أنس به وألفه، فإذا مات تمنى الرجوع إلى الدنيا بسببه، ولا يتمتى الرجوع إلى الدنيا بسببه، ولا يتمتى الرجوع إلى الدنيا إلا من لا حظ له في الآخرة بحال، ولا خلاص منه إلا بأن يكون القلب مشغولاً بمعرفة الله وحبه والنفكر فيه والانقطاع إليه، ولا قوّة على ذلك إلا بالله، ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط. فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه، والناس فيه أربعة:

الأول: رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت إلى الدنيا إلا في ضرورات المعيشة؛ فهو من الصديقين. ولا ينتهي إلى هذه الرتبة إلا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة.

الثاني: رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه إلا من حيث حديث النفس، حيث يذكره باللسان لا بالقلب؛ فهذا من الهالكين.

والثالث: رجل اشتغل بالدنيا والدين، ولكن الغالب على قلبه هو الدين؛ فهذا لا بد له من ورود النار، إلا أنه ينجو منها سريعاً بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه.

والرابع: رجل اشتغل بهما جميعاً، ولكن الدنيا أغلب على قلبه؛ فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده، وإن كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه. اللهم إنا نعوذ بك من خزيك فإنك أنت المعاذ.

وربما يقول القائل: إن التنعم بالمباح مباح، فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عزّ وجلّ؟ وهذا خيال ضعيف، بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب إحباط كل حسنة. والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضاً من الدنيا وهو سبب البعد وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا وقد قال إبراهيم الخواص: كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رماناً فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها، فرأيت رجلاً مطروحاً وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، فقلت: كيف عرفتني؟ فقال: من عرف الله عزّ وجلّ لم يخف عليه شيء، فقلت: أرى لك حالاً مع الله عز وجلّ فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير؟ فقال: وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير؟ فقال: وأرى لك حالاً مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان؛ فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة. ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا، فتركته ومضيت. وقال السري: أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي أن أغمس خبزة في دبس فما أطعنها.

فإذاً: لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه من الغيبة والفضول فحقه أن يلزمه السكوت؛ إلا عن ذكر الله وإلا عن المهمات في الدين، حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق، فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة. ومهما اعتادت العين رمي البصر إلى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر إلى ما لا يحل، وكذلك مائر الشهوات؛ لأن الذي يشتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي الحرام، فالشهوة واحدة وقد وحب على العبد منعها من الحرام فإن لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته. فهذه إحدى آفات المباحات، ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه، وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن إليها وتطمئن إليها أشراً وبطراً حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره. وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة، وهذا هو موت القلب. قال الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالمَيْوَةِ الدُّنِيَ وَالمَمْوَا أَنَا المَيْوَةُ الدُّنِيَا فِي الْأَوْرَا وَالْوَلْوَا وَالْمَوَا الله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالمَيْوَةُ الدُّنِيَا فَي الْمُورِ وَالْوَلْ وَالْوَلْوَا وَالمَامُوا أَنَا المَيوَةُ الدُّنِيَا فَي الله الله السلامة.

فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا؛ فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر، وجربوها في حالة الحزن؛ فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر. فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر، ففطموها عن ملاذها

وعوَّدوها الصبر عن شهواتها ـ حلالها وحرامها ـ وعلموا: أن حلالها حساب وحرامها عقاب، ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب، فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب. فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأنس بذكر الله عزَّ وجلَّ والاشتغال بطاعته. وفعلوا بها ما يفعل بالبازي إذا قصد تأديبه ونقله من النوثب والاستيحاش إلى الانقياد والتأديب؛ فإنه يحبس أولاً في بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جوّ الهواء، وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال، ثم يرفق به باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلغاً إذا دعاه أجابه، ومهما سمع صوته رجع إليه. فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره إلا إذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلَّة أوَّلاً؛ ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات، ثمَّ عودت الثناء والذكر والدعاء ثانياً في المخلوة؛ حتى يغلب عليها الأنس بذكر الله عزّ وجلّ عوضاً عن الأنس بالدنيا وسائر الشهوات، وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية، كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه إذا كان لا يصبر عنه ساعة؛ فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام، ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم إليه بدلاً عن اللبن، ولكنه إذا منع اللبن رأساً يوماً فيوماً وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفاً، ثم يصير له طبعاً. فلو ردٌّ بعد ذلك إلى الثدي لم يرجع إليه، فيهجر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام. وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهراً، وتمنع عن السرج الذي ألفته بالسلاسل والقيود أولاً، ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد. فكذلك تؤدب النفس كما تؤدب الطير والدواب، وتأديبها بأن تُمنع من النظر والأنس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت؛ إذ قيل له: أحبب ما أحببت فإنك مفارقه. فإذا علم أنه من أحب شيئاً يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل قلبه بحب ما لا يفارقه؛ وهو ذكر الله تعالى، فإن ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه. وكل ذلك يتم بالصبر أولاً أياماً قلائل، فإن العمر قليل بالإضافة إلى مدة حياة الآخرة، وما من عاقل إلا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهراً ليتنعم به سنة أو دهراً. وكل العمر بالإضافة إلى الأبد أقل من الشهر بالإضافة إلى عمر الدنيا، فلا بد من الصبر والمجاهدة. فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى، كما قاله على رضى الله عنه.

وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله. والأصل فيه: أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا، فالذي يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول في الوعظ أو بالعز في القضاء والولاية أو بكثرة الأتباع في التدريس والإقادة، فينبغي أن يترك أوّلاً ما به فرحه، فإنه إن منع عن شيء من ذلك وقيل له: ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به، فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها، وذلك مهلك في حقه. ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه، وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر؛ فإن لكل وسوسة سبباً، ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة. وليلازم ذلك يقد العمر فليس للجهاد آخر إلا بالموت.

بيان علامات حسن الخلق:

اعلم: أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي

ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخلق. فإن حسن الخلق هو الإيمان، وسوء النفلق هو النفاق. وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق. فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمْ عِنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤممون: ١-٣] إلى قوله: ﴿ أُوْلَتِهِكَ هُمُ ٱلْوَرِثُونَ ۞﴾ [المؤمنون: ١٠] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ النَّتَهِبُونَ ٱلْمُكِبِدُونَ لْفَنِيدُونَ﴾ [النَّويَة: ١١٧] إلى قوله ﴿وَبَشِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقْرَة: ٢٧٧] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتُ مُّلُوءُهُمْ ﴾ [الانفال: ٧] إلى قوله: ﴿أَوْلَتِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الانقال: ٤] وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْدَنِ ٱلَّذِيرِ∠ بَمْشُونَ عَلَى ٱلأَرْضِ هَوْنَا وَلِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَدِهِلُونَ قَالُواْ سَلَنَمَا ۖ ۗ [الفرفان: ٦٣] إلى آخر السورة. من أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجودُ جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقدُ جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده. وقد وصف رسول الله على المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق فقال: «المُؤْمِنُ يُحِبُّ لأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" ﴿)، وقال عليه السلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْبَوْم الآخِرِ فَلْيَكْرِمْ ضَيْفَهُ" ()، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ" ، وقال : "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتُ الْأَنَى وذكر : أَن صَفَات المُومنين هي حسن الخلق، نقال ﷺ: ﴿ أَكُمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ أَخْلاقاً (°)، وقال ﷺ: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمْمُوناً وَقُوراً فَاذَنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقِّنُ الحِكْمَةَ» ۚ وَقَال: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤمِنٌ» ۚ وقالَ: «لا يَجِلُ لِمُؤمِنِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَخِيهِ بِنَظْرَةِ تُؤْذِيهِهِ^(٨)، وقال عليه السلام: «لا يَجِلُ لِمُسْلِم أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِماً^(٩)، وقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَتَجَالَسُ المُتَجَالِسَانِ بِأَمَانَةِ اللهِ هَزَّ وَجَلِّ فَلا يَجِلُ لأَحَدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَى أَخِيهِ ما يَكْرَهُهُ (```

 ⁽¹⁾ حديث: «المؤمن يحب لأخيه ما يعب لنفسه». أخرجه الشيخان من حديث أنس: الا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه
 ما يحب لنفسه».

 ⁽٢) حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي ومن حديث أبي
 هريرة.

 ⁽٣) حديث: قومن كان يؤمن بالله والبوم الآخر فليكرم جاره، متفق عليه من حديثهما، وهو بعض الحديث الذي قبله.

 ⁽٤) حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه أيضاً من حديثهما، وهو بعص الذي قبله.

 ⁽a) حديث: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) تقدم غير مرة.

 ⁽٦) حديث: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً قادنوا منه قإنه يلقن الحكمة» أخرجه ابن ماجه في حديث أبي خلاد بلفظ:
 «إذا رأيتم الرجل قد أصطى زهداً في الدنيا وقلة منطق».

 ⁽٧) حديث: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن؛ أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي موسى، ورواه الطبراني والحاكم وصححه على شرط الشيخين من حنيث أبي أمامة.

 ⁽A) حديث: «لا يحل لمسلم أن يشير إلى أشيه بنظر بؤذيه»، أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وفي البر والصلاة مرسلاً وقد تقدم.

 ⁽٩) حديث: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً» أخرجه الطرائي والطيالسي من حديث النعمان بن بشير والبزار من حديث همر، وإسناده ضعيف.

⁽١٠) حديث: «إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله. . . ، الحديث. تقدم في آداب الصحبة.

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء قليل الأذى، كثير الصلاح صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً، رضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً، لا لعاناً ولا سباباً ولا نماماً ولا مغتاباً ولا عجولاً ولا حقوداً ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً، يحب في الله ويبغض في الله، ويرضى في الله ويغضب في الله؛ فهذا هو حسن الخلق.

وسئل رسول الله ﷺ عن علامة المؤمن والمنافق فقال: ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنَ هِمُّتُهُ فِي الصَّلامِ وَالصَّيامِ وَالْمَبادَةِ، وَالْمُنَافِقُ هِمُّتُهُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَالبَهِيمَةِ، (١). وقال حاتم الأصم: المؤمن مشغول بالفكر والعبر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن آيس من كل أحد إلا من الله، والمؤمن أحد إلا من الله، والمؤمن خانف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يحب الخلوة والوحدة، والمنافق يحب الخلطة والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمؤمن يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن يأمر وينهى للرياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيصلح، والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيصلد.

ويحكى: أن إبراهيم بن أدهم خَرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة. فقال الجندي: إنما أردت العمران؟ فقال: هو المقبرة، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا: ما الحبر؟ فأخبرهم الجندي ما قال له فقالوا: هذا إبراهيم بن أدهم! فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه، فقيل بعد ذلك له: لم قلت له أنا عبد؟ فقال: إنه لم يسألني: عبد من أنت بل قال: أنت عبد؟ فقلت: نعم، لأني عبدالله، فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل: كيف وقد ظلمك؟ فقال: علمت أنني أؤجر على ما نالني منه، فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر.

ودعي أبو عثمان الحيري إلى دعوة _ وكان الداعي قد أراد تجربته _ فلما بلغ منزله قال له: ليس

 ⁽١) حديث: سئل عن علامة المؤمن والمبافق فقال: (إن المؤمن همه في الصلاة والصيام. . . ٩ الحديث. لم أجد له أصلاً.

 ⁽۲) حدیث: اکان بمشي فأدرکه أحرابي فجذبه جذباً شدیداً وکان علیه برد نجراني فلیظ الحاشیة. . . ۱ الحدیث. متفق علیه من حدیث أنس.

 ⁽٣) حديث: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» أخرجه ابن حبان والسيهقي في دلائل النبوة من حديث سهل بن سعد،
 وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: أنه حكاه ﷺ عن نبي من الأنبياء ضربه قومه.

لي وجه، فرجع أبو عثمان، فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانياً فقال له: يا أستاذ، ارجع، فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الأولى فرجع، ثم دعاه الثالثة وقال: ارجع على ما يوجب الوقت فرجع، فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الأولى فرجع أبو عثمان، ثم جاءه الرابعة فرده، حتى عامله بذلك مرات، وأبو عثمان لا يتغير من ذلك، فأكب على رجليه وقال: يا أستاذ، إنما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال: إنّ الذي رأيت مني هو خلق الكلب، إن الكلب إذا دعي أجاب وإذا زجر انزجر.

وروي عنه أيضاً أنَّه اجتاز يوماً في سكة فطرحت عليه إجانة رماد، فنزل عن دابته قسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئاً، فقيل: ألا زبرتهم؟ فقال: إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب.

وروي أنّ علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل إلى السواد ـ إذ كانت أمه سوداء ـ، وكان بنيسابور حمام على باب داره، وكان إذا أراد دخول الحمام فرغه له الحمامي، فدخل ذات يوم فأغلق الحمامي الباب ومضى في بعض حواتجه، فتقدّم رجل رستاقي إلى باب الحمام ففتحه، ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام، فقال له: قم واحمل إليّ الماء فقام علي بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به، فرجع الحمامي فرأى ثياب الرستاقي وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما، فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحمامي فقيل له: إنه خاف مما جرى فهرب. قال: لا ينبغي له أن يهرب، إنما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء.

وروي أن أبا عبدالله الخياط كان يجلس على دكانه، وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطة فكان إذا خاط له شيئاً حمل إليه دراهم زائفة، فكان أبو عبدالله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردّها عليه، فاتفق يوماً أن أبا عبدالله قام لبعض حاجته، فأتى المجوسي فلم يجده فدفع إلى تلميذه الأجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهماً زائفاً، فلما نطر إليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه، فلما عاد أبو عبدالله أخبره بذلك فقال: بئس ما عملت، هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغرّ بها مسلماً.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال؛ قلة الخلاف، وحسن الإنصاف، وترك طلب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذى، والرجوع بالملامة على النفس، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

وسئل سهل عن حسن الخلق فقال: أدناه: احتمال الأذى، وترك المكافأة، والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقيل للأحنف بن قيس: ممن تعلمت الحلم فقال: من قيس بن عاصم، قيل: وما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى. وقيل: إن أويساً القرني كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم: يا إخوتاه، إن كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة. وشتم رجل الأحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف وقال: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك.

وروي أن علياً كرم الله وجهه دعا غلاماً فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال: بلى، قال: فما حملك على ترك إجابتي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال: امض فأنت حر لوجه الله تعالى.

وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله: يا مرائي. فقال: يا هذه، وجدت اسمي الذي أصله أهل البصرة. وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له: لِمَ تمسكه؟ فقال: لأتعلم الحلم عليه.

فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها، ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأشهرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق. فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه، فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرنا. فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق؛ فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون.

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشؤهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم:

اهلم: أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، وماثل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُواْ أَنفُسَكُرُ وَأَهْلِيكُو نَارًا﴾ [التّحريم: ٦]، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى؛ وصيانته: بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده الشعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث. ومهما رأى فيه مخايل الثمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحى من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحى لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه، وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغى أن يؤدب فيه، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه، وأن يأكل مما يليه، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل، وأن لا يسرع في الأكل، وأن يجيد المضغ، وأن لا يوالي بين اللقم، ولا يلطخ يده ولا ثوبه، وأن يعوّد الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتماً، ويقبح عنده كثرة الأكل؛ بأن يشبه كل من يكثر الأكل بالمهائم، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل، وأن يحبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان، وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم، ويقرّر عند، أن ذلك شأن النساء والمخنثين، وأن الرجال يستنكفون منه ويكرّر ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوباً من إبريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عُرِّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه، فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشغل في المكتب، فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم؛ لينغرس في نفسه حب الصالحين، ويُحفظ من الطرف من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويُحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه، ولا يظهر له أنه يتصور أنّ يتجاسر أحد على مثله، ولا سيمًا إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغى أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين؛ فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه لبلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم؛ بل يعوّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا تُرِك تعود فعل القبيح. ويعوّد في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل، ويعُود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي، ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره، ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والدَّاه أو بشيء من مطاَّعمه وملابسه أو لوحه ودواته، بل يعوَّد التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له حشمة إن كان من أولاد المحتشمين، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ، وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخَّذ مهانة وذلة، وأن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها.

وبالجملة: يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب، فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الأكابر أيضاً، وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلاً على رجل ولا يضع كفه تحت ذقته، ولا يعمد رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل. ويعلم كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام، ويمنع اليمين وأساً عاداة كان أو كاذباً حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويمنع أن يبتدىء بالكلام، ويعود أن لا يتكلم ولا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه، ويمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك؛ فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ

من قرناء السوء. وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان. وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً. وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم. ومهما بلغ سن التمييز، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب، ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويخوف من السرقة وأكل الحرام، ومن الخيانة والكذب والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان، فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور، فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عزّ وجلّ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وأنها دار ممرّ لا دار مقرّ، وأن الآخرة دار مقرّ لا دار ممرّ، وأن الأخرة حتى تعظم درجته عند الله وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكيّس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان، فإذا كان النشو صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً يثبت عالى ويتسع نعيمه في الجنان، فإذا كان النشو صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر. وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس. فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين.

قال ﷺ: ﴿ كُلُّ مَوْلُودٍ بُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وَإِنَّما أَبْوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَانِهِ (١١) .

قال سهل بن عبدالله التستري: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرّك به لسانك، الله معي الله ناظر إلي الله شاهدي، فقلت ذلك ليا أعلمته فقال: قل ذلك كل ليلة دلك ليالي ثم أعلمته فقال: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته فقال: قل ذلك كل ليلة رحدى عشرة مرة، فقلته فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل، من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية، فكنت أخلو بنفسي فبعثوا بي إلى المكتب فقلت: إني الأخشى أن يتفرق علي همي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، فمضيت إلى الكتّاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن سن سنين أو سبع سنين، وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة الأسأل عنها، فأتيت البصرة منالت علماءها فلم يشفي أحد عني شيئاً، فخرجت إلى عبادان؛ إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن فسألت علماءها فلم يشفي أحد عني شيئاً، فخرجت إلى عبادان؛ إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن فسألت علماءها فلم يشفي أحد عني شيئاً، فخرجت إلى عبادان؛ إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن

⁽١) حديث: «كل مولود يولد على القطرة. . . ؟ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وسبق تخريجه.

أبي عبدالله العباداي فسألته عنها فأجابني، فأقمت عنده مذة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه، ثم رجعت إلى تُستر فجعلت قوتي اقتصاداً على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي، فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتاً من غير ملح ولا أدم، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة. ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة. ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً وعشرين ليلة، فكنت على ذلك عشرين سنة، ثم خرجت أسيح في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تُستر وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى. قال أحمد: ما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى.

بيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة:

واعلم: أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريداً حرث الآخرة مشتاقاً إليها، سالكاً سبلها مستهيناً بنعيم الدنيا ولذاتها، فإن من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة في الخرزة وقريت إرادته في بيعها بالجوهرة، ومن ليس مريداً حرث الآخرة ولا طالباً للقاء الله تعالى فهو لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر.

ولست أعني بالإيمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتي الشهادة من غير صدق وإخلاص، فإن ذلك يضاهي قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة، إلا أنه لا يدري من الجوهرة إلا لفظها، وأما حقيقتها فلا. ومثل هذا المصدّق إذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه إلى الجوهرة، فإذاً: المانع من الوصول عدم السلوك، والمانع من السلوك عدم الإرادة، والمانع من الإرادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين إلى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها، فالخلق غافلون قد انهمكوا في شهواتهم وغاصوا في رقدتهم من العلماء وجدهم ماثلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء وجدهم ماثلين إلى الهوى عادلين عن نهج الطريق، فصار ضعف الإرادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى مببأ لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه. ومهما كان المطلوب محجوباً والدليل مفقوداً والهوى غالباً والطالب غافلاً امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة، فإن تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له إرادة في حرث الآخرة وتجارتها فيبغي أن يعلم أن له شروطاً لا بدّ من التمسك به، وله حصن لا بدّ من التحصن به ليأمن من الأعداء القطاع لطريقه، وعليه وظائف لا بد من ملازمتها في وقت سلوك الطريق.

أما الشروط التي لا بدّ من تقديمها في الإرادة: فهي رفع السدّ والحجاب الذي بينه وبين الحق، فإن حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على الطريق. قال الله تعالى: ﴿وَيَمَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ ٱلدِّهِمْ سَكَدًا وَمِنْ خَلْفِهِدٌ سَدًّا فَأَغْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يُشِيرُونَ ۖ لِيس: ١٩.

والسد بين المريد وبين الحق أربعة: المال، والجاه، والتقليد، والمعصية، وإنما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له إلا قدر الضرورة، فما دام يبقى له درهم يلتفت إليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجلّ. وإنما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وإيثار الخمول، والهرب من أسباب الذكر، وتعاطي أعمال تنفر قلوب الخلق عنه. وإنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب، وأن يصدق بمعنى قوله: «لا إله إلا الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله» تصديق إيمان ويحرص في تحقيق صدقه بأن يرفع كل معبود له سوى الله تعالى ـ وأعظم معبود له الهوى ـ حتى إذا

فعل ذلك الكشف له حقيقة الأمر في معنى اعتقاده الذي تلقفه تقليداً، فينبغي أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة، فإن غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق في نفسه متسع لغيره صار ذلك قيداً له وحجاباً، إذ ليس من شرط المريد الانتماء إلى مذهب معين أصلاً. وأما المعصية: فهي حجاب ولا يرفعها إلا التوبة والخروج من المظالم، وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى، ورد المظالم وإرضاء الخصوم. فإنّ من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصي الظاهرة، وأراد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب، أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب، فإنّ ترجمة عربية القرآن لا مد من تقديمها أوّلاً ثم الترقي منها إلى أسرار معانيه، فكذلك لا بد من تصحيح الشريعة أوّلاً وآخراً، ثم الترقي إلى أغوارها وأسرارها.

فإذا قدم هذه الشروط الأربعة وتجرّد عن المال والجاه، وكان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه الله سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر. فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطىء النهر بالقائد بحيث يفوض أمره إليه بالكلية، ولا يخالفه في ورده ولاصدره، ولا يبقي في متابعته شيئاً ولا يذر، وليعلم أنّ نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب، فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن شيخه لو أخطأ تصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور: المخلوة، والصمت، والجوع، والسهر. وهذا تحصن من القواطع، فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه.

أما الجوع: فإنه ينقص دم القلب ويبيضه وفي بياضه نوره، ويذيب شحم الفؤاد وفي ذوبانه رقته، ورقته مفتاح المكاشفة كما أنّ قساوته سبب الحجاب. ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ فإنّ مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين: جوّعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم، وقال سهل بن عبدالله التستري: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال، بإخماص البطون، والسهر، والصمت، والاعتزال عن الناس. ففائدة الجوع في تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة، وسيأتي بيان وجه التدريج فيه في كتاب كسر الشهوتين.

وأما السهر: فإنه يجلو القلب ويصفيه وينوّره، فيضاف ذلك إلى الصفاء الذي حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدري والمرآة المجلوّة فيلوح فيه جمال الحق، ويشاهد فيه رفيع الدرجات في الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها، فتتم بذلك رغبته عن الدنيا وإقباله على الآخرة. والسهر أيضاً نتيجة الجوع فإن السهر مع الشبع غير ممكن، والنوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لأسرار الغيب، فقد قيل في صفة الأبدال: إنّ أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة. وقال إبراهيم الخرّاص رحمه الله: أجمع رأي سبعين صدّيقاً على أنّ كثرة النوم من كثرة شرب الماء.

وأما الصمت: فإنه تسهله العزلة، ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره، فينبغي أن لا يتكلم إلا بقدر الضرورة؛ فإن الكلام يشغل القلب وشره القلوب إلى الكلام عظيم، فإنه يستروح إليه ويستثقل التجرّد للذكر والفكر فيستريح إليه. فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى.

وأما حياة الخلوة: ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فإنهما دهليز القلب. والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس، ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر، وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والأنهار مفتوحة إليه فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص. فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه في جيبه أو يتدثر بكساء أو إزار، ففي مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية. أما ترى أن نداء رسول الله به المغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل له: ﴿ يَأَنُّهَا اللَّهُ وَلَالًا اللَّهُ اللَّالَة اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الل

فهذه الأربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق، فإذا فعل ذلك اشتخل بعده بسلوك الطريق، وإنما سلوكه بقطع العقبات، ولا عقبة على طريق الله تعالى إلا صفات القلب التي سببها الالتفات إلى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض. والترتيب في قطعها أن يشتغل بالأسهل فالأسهل. وهي تلك الصفات؟ أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الإرادة، وأثارها؟ أعني المال والمجاه وحب الدنيا والالتفات إلى الخلق والتشوّف إلى المعاصي، فلا بد أن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلى الظاهر عن أسبابها الظاهرة، وفيه تطول المجاهدة، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال؛ فرب شخص قد كفي أكثر الصفات فلا تطول عليه المجاهدة، وقد ذكرنا أن طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المريد _ كما سبق ذكره _ فإذا كفى ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام، ويمنعه من تكثير ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة شغله بعد ذلك بذكر يلزم قلبه على الدوام، ويمنعه من تكثير وثمرتها؛ أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره، ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتاً إلى علاقة.

قال الشبلي للحصري: إن كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها إلى الجمعة الأخرى شيء غير الله تعالى فحرام عليك أن تأتيني. وهذا التجرد لا يحصل إلا مع صدق الإرادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في صورة العاشق المستهتر الذي ليس له إلا هم واحد. فإذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال، فإن أصل طريق الدين القوت الحلال، وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلاً: الله الله. أو: سبحان الله سبحان الله. أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه،

⁽١) حديث: بدىء رسول الله على وهو مدثر فقيل له: ﴿يَأَيُّ النَّرْيُلُ ﴾ - ﴿يَأَيُّ النَّرْبُ ﴾ متفق عليه من حديث جابر: الجاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني. . . ٤ الحديث. وفيه: «فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا على الماء بارداً على ماء بارداً» قال: «فنزلت: ﴿يَأَيُّ النَّرُ اللَّهُ المَانَّرُ ؛ ١٤ وفي رواية: «فقلت: زملوني زملوني ولهما من حديث عائشة فقال: الإملوني وملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

لأن القلب إذا شغل بشيء خلا عن غيره ـ أي شيء كان ـ فإذا اشتغل بذكر الله تعالى ـ وهو المقصود ـ حلا لا محالة عن غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تنعلق بالدنيا، وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه ـ ولو في لحظة ـ خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضاً نقصاناً، فليجتهد في دفع ذلك. ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس إلى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنها: ما هي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأي معنى كان إلهاً وكان معبوداً؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر، وربما يرد عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة. ومهما كان كارهاً لذلك ومتشمراً لإماطته عن القلب لم يضره ذلك. وهي منقسمة إلى ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزه عنه، ولكن الشيطان يلقى ذلك في قلبه ويجريه على خاطره، فشرطه أن لا يبالي به ويفزع إلى ذكر الله تعالى ويبتهل إليه ليدفعه عنه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا يَرْغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَنْغُ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنْتُم سَمِيعٌ عَلِيتُه ﴿ ﴾ [الاعزاف: ٢٠٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيبَ أَنَّفَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم تُبْعِيرُونَ ١٠٥ ﴿ الأعرَاف: ٢٠١] وإلى ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شبخه، بل كل ما يجد في قلبه من الأحوال من فترة أو نشاط أو التفات إلى علقة أُوّ صدق في إرادة فينبغي أن يظهر ذلك لشيخه، وأن يستره عن غيره قلا يطلع عليه أحداً، ثم إن شيخه ينظر في حاله ويتأمل في ذكائه وكياسته، فلو علم أنه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق؛ فينبغي أن يحيله على الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته، وإن علم أن ذلك مما لا يقوى عليه مثله رده إلى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه، وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف به، فإن هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها، فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الإباحة؟ وذلك هو الهلاك العظيم. ومن تجرد للذكر ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الأفكار فإنه قد ركب سفينة الخطر، فإن سلم كان من ملوك الدين، وإن أخطأ كان من الهالكين. ولذلك قال ﷺ: العليكم بدين المجائزا(١) وهو تلقي أصل الإيمان وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير، فإن الخطر في العدولِ عن ذلك كثير. ولذلك قيل: يجب على الشيخ أن يتفرس في المريد فإن لم يكن ذكياً فطناً متمكناً من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر، بل يرده إلى الأعمال الظاهرة والأوراد المتواترة، أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم؛ فإن العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسفى القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وتعمه بركتهم، وإن كان لا يبلغ درجتهم، ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الأحوال وما يبدو من أواثل الكرامات. ومهما التفت إلى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتوراً في طريقه ووقوفاً، بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة

⁽١) حديث: «هليكم بدين العجائز» قال ابن ظاهر في كتاب التذكرة: هذا اللفظ ثداوله العامة ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة حتى رأيت حديثاً لمحمد بن عبدالرحمن بن السلماني عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية»، والنسائي وابن السلماني له عن أبيه عن ابن عمر نسخة كان يتهم بوضعها. انتهى، وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة ابن السلماني والله أعلم.

العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك، ورأس ماله الانقطاع عن الخلق إلى الحق والخلوة.

قال بعض السياحين: قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى التحقيق؟ فقال: أن تكون في الدنيا كأنك عابر طريق. وقال مرة: قلت له: دلني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام. فقال لي: لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بدلي من ذلك، قال: فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بدلي من ذلك، قال: فلا تعاملهم فإن معاملتهم وحشة، قلت: أنا بين أظهرهم لا بدلي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعلة، قال: يا هذا، أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام؟ هذا ما لا يكون أبداً.

فإذاً: منتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلا بطول المجاهدة، فإذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق، وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلاً، وإذا انكشف للمريد شيء من ذلك فأعظم القواطع عليه أن يتكلم به وعظاً ونصحاً ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة، فتدعوه تلك اللَّذة إلى أن يتفكر في كيفية إيراد تلك المعاني وتحسين الألفاظ المعبرة عنها، وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والأخبار، وتحسين صنعة الكلام لتميل إليه القلوب والأسماع، فربعا يخيل إليه الشيطان أن هذا إحياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى، وإنما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده إليه وما لك فيه نصبب ولا لنفسك فيه لذة، ويتضح كيد الشيطان بأن يظهر في أقرائه من يكون أحسن كلاماً منه، وأجزل لفظاً وأقدر على استجلاب قلوب العوام، فإنه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة إن كان محركه كيد القبول، وإن كان محركه هو الحق حرصاً على دعوة عباد الله تعالى إلى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول: الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وازرني على إصلاح عباده. كالذي وجب عليه مثلاً أن يحمل ميتاً ليدفنه إذ وجده ضائعاً وتعين عليه ذلك شرعاً فجاء من أعانه عليه؛ فإنه يفرح به ولا يحسد من يعينه، والغاقلون موتى القلوب، والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم، ففي كثرتهم استرواح وتناصر، فينبغي أن يعظم الفرح بذلك، وهذا عزيز على الوجود جداً فينبغى أن يكون المريد على حذر منه فإنه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق؛ فإن إيثار الحياة الدنيا طبِع غالب على الإنسان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوْةَ ٱلدُّنِّهَ ﴾ [الأعلى: ١٦] ثم بيَّنِ أن الشر قديم في الطباع وأن ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال: ﴿إِنَّ مَنَذَا لَيْنِ ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿ صُّعُبِ إِنَّاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿ ۚ ۚ [الأعلى: ١٩،١٨] فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج إلى لقاء الله تعالى.

فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي، فإن أغلب الصفات على الإنسان بطنه وفرجه ولسانه اعني به الشهوات المتعلقة بها ـ ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات، ثم مهما أحب الإنسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا، ولم يتمكن منها إلا بالمال والجاه، وإذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة، وإذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأساً، وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور.

فلهذا: وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب إن شاء الله

تعالى: كتاب في كسر شهوة البطن والفرج، وكتاب في آفات اللسان، وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد، وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها، وكتاب في كسر حب المال وذم البخل، وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه، وكتاب في ذم الكبر والعحب، وكتاب في مواقع الغرور. وبذكر هذه المهلكات ان شاء الله تعالى، فإن ما ذكرناه في الكتاب وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات إن شاء الله تعالى، فإن ما ذكرناه في الكتاب الأول هو شرح لصفات القلب الذي هو معدن المهلكات والمنجبات، وما ذكرناه في الكتاب الثاني هو إشارة كلية إلى طريق تهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلوب. أما تفصيلها فإنه يأتي في هذه الكتب إن شاء الله تعالى.

تم كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.



بِسْمِ أَهُمُ الْكُنِّبِ الْتَصَارِّ

🔊 كتاب كسر الشهوتين

وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات

الحمد فه المنفرد بالجلال في كبريائه وتعاليه، المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه، القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه، المنطوّل بالفضل فيما ينعم به ويسديه، المتكفل بحفظ عبده في جميع موارده ومجاريه، المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفي بأمانيه، فهو الذي يرشده ويهديه، وهو الذي يميته ويحبيه، وإذا مرض فهو يشفيه، وإذا ضعف فهو يقويه، وهو الذي يطعمه ويسقيه، ويحفظه من الهلاك ويحميه، ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه، ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجاري الشيطان الذي يناويه، ويكسر به شهوة النفس التي تعاديه، فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه، هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه، ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه، كل ذلك يمتحنه به ويبتليه، فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه، وكيف يحفظ أوامره وينتهي عن نواهيه، ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه. والصلاة على محمد عبده النبيه، ورسوله الوجيه، صلاة تزلفه وتحظيه، وترفع منزلته وتعليه، وعلى على الأبرار من عترته وأقربيه، والأخيار من صحابته وتابعيه.

أما بعد: فأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما، حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما. والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات؛ إذ ينبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يغضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان الأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغبان، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى، ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا، وإذا عظمت آفة شهوة البطن إلى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيراً منها، ووجب

إيضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيباً فيها، وكذلك شرح شهوة الفرج فإنها تابعة لها، ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى في فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده، ثم طريق الرياضة في كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير، ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس، ثم بيان الرياضة في ترك الشهوة، ثم القول في شهوة الفرج، ثم بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله، ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين.

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع:

قال رسول الله عِنْ عَمَلِ أَحَبُ إِلَى الله مِنْ جُوعٍ وَعَطَشَ فَإِنْ الأَجْرَ فِي ذَٰلِكَ كَأَجْرِ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ أَحَبُ إِلَى الله مِنْ جُوعٍ وَعَطَشِ أَنَ ، وقال ابن عباس: قال النبي عِنْهِ : «لا سَبِيلِ الله وَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ أَحَبُ إِلَى الله مِنْ جُوعٍ وَعَطَشِ أَنَ ، وقال ابن عباس: قال النبي عِنْهِ : «لَمَعْدُهُ وَرَضِيَ بِمَا يَسْتُرُ بِهِ عَوْرَتَهُ أَنَ ، وقال النبي عِنْهِ : «الْبَسُوا وَكُلُوا وَاشْرَبُوا فِي أَنْصَافِ البُطُونِ الشُوفِ اللهُ عَنْ النَّبُوقِ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ وَقَالُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ وَقَالُ الحسن: قال النبي عَنْهُ : «الْبَسُوا وَكُلُوا وَاشْرَبُوا فِي أَنْصَافِ البُطُونِ وَقَالُ اللهُ عَنْ اللّهُ وَقِلْهُ الطَّمَامِ هِيَ المِبَادَةُ وَقِلْهُ الطَمَامِ هِيَ المِبَادَةُ أَنْهُ اللهُ وَقَالُ اللهُ اللهُ اللهُ وَقَالُهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ وَقَالُ اللهُ اللهُ

كتاب كسر الشهوتين

⁽١) حديث: دجاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش؛ ثم أجد له أصلاً.

 ⁽٢) حديث ابن عباس: الا يدخل ملكوت السموات من ملاً بطنه لم أجده أيضاً.

 ⁽٣) حديث: أي الناس أفضل؟ قال: قمن قل مطعمه وضحكه ورضي بما يستر مورتمه بأتي الكلام عليه وعلى ما بعده من الأحاديث.

 ⁽٤) حديث: السيد الأعمال الجوع وذل النفس لباس المبوف.

 ⁽٥) حديث أبي سعيد الخدري: «البسوا وكلوا واشربوا في أنصاف البطون».

 ⁽٦) حليث: «الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة».

 ⁽٧) حديث الحسن: الفضلكم عند الله أطولكم جوماً وتفكراً...» الحديث. لم أجد لهذه الأحاديث المتقدمة أصلاً.

 ⁽A) حديث: (حان يجوع من غبر حوز .. أي مختاراً لذلك ... أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة قالت:
 (4) علو شتنا أن نشبع لشبعنا ولكن محمداً على عان يؤثر على نفسه، وإسناده معضل.

 ⁽٩) حديث: (إن الله يباهي الملائكة بمن قل مطعمه في الدنيا...) الحديث. أخرجه ابن عدي في الكامل، وقد تقدم في الصيام.

القُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّمَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ القَلْبَ كَالزَّرْعِ يَمُوتُ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ المَاءُ ('')، وقال ﷺ: قما مَلاَ أَبْنَ وَعَاءَ شَرَا مِنْ بَطْيَهِ حَسْبُ إِنِ لَدَمَ لُقَيْمَاتِ يُغْمِنَ صُلْبَةً وَإِنْ كَانَ لا بَدَّ فَاعِلاً فَلُكُ لِطَعَامِهِ وَلَمُكُ لِشَرَابِهِ وَلُكُ لِنَفْسِهِ ('')، وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع إذ قال فيه: «إن أقرب الناس من الله عزّ وجلّ يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا، الأحفياء الأتقياء الذين إن شهدوا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا، تعرفهم يقاع الأرض وتحف بهم ملائكة السماء، نعم الناس بالمدنيا ونعموا بطاعة الله عزّ وجلّ، افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب، ضبع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم، تبكي الأرض إذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على المدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا المخرق شعناً فبرأ يراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء، ويقال قد خولطوا فلهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن يراهم الناس فيظنون أن بهم داء وما بهم داء، ويقال قد خولطوا فلمبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم إلى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا، فهم عند أهل المدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس، لهم الشرف في الآخرة، يا أسامة إذا رأيتهم في بلدة قاعلم أنهم أمان لأهل تلك أب تنجو بهم. وإن استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن قافعل. فإنك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع التبين. وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلي عليك الجبار ("').

روى الحسن عن أبي هريرة: أن النبي على قال: «الْبَسُوا الصُّوفَ وَشَمَّرُوا وَكُلُوا فِي أَنْصَافِ الْبُطُونِ تَذَخُلُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ» أن وقال عبسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين: أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجلّه (٥) وروي ذلك أيضاً عن نبينا على رواه طاوس وقيل: مكتوب في التوراة: إن الله ليبغض الحبر السمين؛ لأن السمن يدل على الغفلة وكثرة الأكل وذلك قبيح خصوصاً بالحبر ولأجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله تعالى يبغض القارى السمين وفي خبر مرسل: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الذم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش (١٠) ، وفي الخبر: «إن الله على الشبع يورث البرص» (٧) ، وقال على قائمة في تَأْكُلُ فِي مِعَى وَاحِدٍ وَالمُثَافِقُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ

 ⁽١) حديث: الا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب؛ الحديث. لم أفف له على أصل.

⁽٢) حديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرأ من بطنه. . . ٩ المحديث. أخرجه الترمذي من حديث المقدام، وقد تقدم.

⁽٣) حديث أسامة بن زيد وأبي هربرة: «أقرب الناس من الله يوم القيامة من طال جوعه وعطشه. . . ٤ الحديث. بطوله أخرجه الخطيب في الزهد من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ وأقبل على أسامة بن زيد فذكره مع تقديم وتأخير، ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات وفيه حباب بن عبدالله بن جبلة أحد الكذابين وفيه من لا يعرف وهو منقطع أيضاً، ورواه الحارث بن أبي أسامة من هذا الوجه.

 ⁽³⁾ حديث الحسن عن آبي هريرة: «البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء» أخرجه
 أبر منصور الديلمي في مستد الفردوس بسند ضميف.

 ⁽a) حديث طاوس مرسلاً: «أجيعوا أكبادكم. . . ، الحديث. لم أجده أيضاً.

⁽٦) حديث: إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الئم... الحديث. تقدم في الصيام دون الزيادة التي في آخره، وذكر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة أبضاً.

 ⁽٧) حديث: ١إن الأكل على الشيع يورث البرص لم أجد له أصلاً.

أَمْعَاءِ ١٠٤٩)، أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته. وذكر المعي كناية عن الشهوة لأن الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذ المعي. وليس المعنى زيادة عدد معي المنافق على معي المؤمن.

وروى الحسن عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: سمعت رسول الله على يقول: «أدِيمُوا فَرْعَ بَابِ الْجَنَّةِ يَفْتَحْ لَكُمْ فقلت: كيف نديم قرع باب الجنة؟ قال: «بالجُوع وَالظَّمَا أَنَّ . وروي: «أن أبا جحيفة أَنَّ تجشأ في مجلس رسول الله على فقال له: «أَفْصِرْ مِنْ جُشَائِكُ فَإِنَّ أَطُولُ النَّاسِ جُوعاً يَوْمَ القِيامَةِ أَكْثَرُهُمْ شَبْعاً فِي اللَّنْيَاهُ أَن وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن رسول الله على لم يمتلىء قط شبعا وربما بكيت رحمة مما أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: «يا عَائِشَةُ إِخْوَانِي مِنْ أُولِي الْعَرْمِ مِنَ الرَّسُلِ قَدْ صَبَرُوا عَلَى مَا فَوْ أَشَدَ مِنْ هُذَا مَضَوْا عَلَى حَالِهِمْ فَاعِمْرُ الْيَامَ بَوْكَ عَلَى الْمُعْرَةِ وَمَا مِنْ فَيْ أَنْ يُقَصِّرَ بِي ظَمَا دُونَهُمْ فَالْعَبْرُ آيَاماً يَسِيرَةً أَحَٰ إِلَيْ مِنْ أَنْ يَنْقُصَ حَظْي فَدَا فِي الآخِرَةِ وَمَا مِنْ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يُقَصِّرَ بِي ظَمَا دُونَهُمْ فَالْعَبْرُ آيَاماً يَسِيرَةً أَحَبُ إِلَيْ مِنْ أَنْ يَنْقُصَ حَظْي فَدَا فِي الآخِرَةِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُ إِلَى مِن الْمُحْوقِ بِأَصْحَابِي وَإَخْوَاتِي » قالت عائشة: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى شيء أحب إلَى مول الله عليها بكسرة خبز إلى رسول الله على ققال: قباص خبرته ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة، فقال رسول الله على المُعْوقِ فِي النَّنْيا هُمُ أَفْلُ الشَّيْعِ فِي الأَنْيا هُمْ أَفْلُ الشَّيْعِ فِي الآنْيا هُمْ أَفْلُ الشَّيْعِ فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ أَهْلَ الْمُحْوعِ فِي النَّنْيا هُمْ أَفْلُ الشَّيْعِ فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ أَهْلَ الْمُحْوعِ فِي النَّنْي اللهُ الْمُتَعْمُونَ المَنْهُ وَالْ يَوْدُ وَالْ أَفْلُ الْمُحْوقِ فِي النَّنْي اللهُ مَا أَفْلُ الشَّيْعِ فِي الآخِرَةِ، وَإِنْ أَهُلُ النَّسِي اللهُ اللهُ عَلَى المُتَعْمُونَ المَلَكَى وَمَا تَرَكَ عَبْدُ أَكْلَةً يَشْتَهِيها إلا كَانَتُ لَهُ مُلْقُلُ الشَّيْعِ فِي الاَنْجَةِ فَيْ الْمُؤْونِ اللّهُ عَلَى الْمُعْمُ وَلَا الْمَالِي الشَّيْعُ فَي الْمُنْهُ وَلَا الْمَالِي اللهُ الْمُولُ عَلَى الشَالِ الْمَالِقُ عَلَى الشَّيْعِ فَي المُنْ اللَّهُ الْصَلَ الْمُولُ الْمَالْمُ عَلَى الْمَالِقُ عَلَى اللهُ اللْمَالِقُ

وأما الآثار: فقد قال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات. وقال شقيق البلخي: العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلتها المجاعة. وقال لقمان لابنه: يا بشي، إذا امتلات المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه: أي شيء تخافين؟ أتخافين أن تجوعي؟ لا تخافي ذلك؛ أنت أهون على الله من ذلك إنما يجوع

⁽١) حديث: اللمؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاءً متفق عليه من حديث عمر وحديث أبي هريرة.

⁽٢) حديث الحسن عن عائشة: الديموا قرع باب الجنة. . . ا الحديث. لم أجده أبضاً.

 ⁽٢) وأبو جحيفة هو: وهب بن عبدالله السوائي؛ قدم على النبي ﷺ أواخر حياته وَصَحِبةً. ثم صحب علياً. تولى شرطة
 الكوفة على عهد علي وكان يسميه وهب الخير. مات زمن ولاية بشر بن مروان على العراق.

حديث: «إن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله ﷺ نقال. «أقصر من جشائك فإن أطول الناس جوهاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنياء أخرجه البيهةي هي الشعب من حديث أبي جحيفة وأصله عند الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبن عمو: «تجشأ رجل...» الحديث. لم يذكر أبا جحيفة.

ه) حديث عائشة: هي لم يمتلى، شبعاً قط وربما بكيت رحمة له لما أرى به من الجوع، الحديث. أخرحه أبو موسى المديني مطولاً في كتاب استحلاء الموت وأورد منه هياض في الشفاء.

⁽٦) حديث أنس: فجاءت فاطمة بكسرة خيز لرسول الله ﷺ . . ٥ الحديث. أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسئله بسند ضعيف.

⁽٧) حديث أبي هريرة: اما شبع النبي ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خيز الحنطة حتى فارق الدنيا. . ٩ أخرجه مسلم وقد تقدم.

⁽٨) حديث الأن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة أخرجه الطبرائي وأبو نعيم في الدلية من حديث أبن عباس بإسناد ضعيف.

محمد ﷺ وأصحابه. وكان كهمس يقول: إلهي أجعتني وأعربتني، وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلستني، فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني؟. وكان فتح الموصلي إذا اشتدُ مرضه وجوعه يقول: إلهي التليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به عليًّ؟. وقالًا مالك بن دينار: قلت لمحمد بن واسع: يا أبا عبدالله، طوبي لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس. فقال لي: يا أبا يحيى طوبي لمن أمسى وأصبح جائعاً وهو عن الله راض. وكان الفضيل بن عياض يقول: إلهي أجعتني وأجعت عيالي وتركتني في ظَّلم الليالي بلا مصباح وإنما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك؟. وقال يحيى بن معاذ: جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة، وجوع المجتهدين كرامة، وجوع الصابرين سياسة، وجوع الزاهدين حكمة. وفي التوراة: اتق الله وإذا شبعت فاذكر الجياع. وقال أبو سليمان: لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليٌّ من قيام ليلة إلى الصبح، وقال أيضاً: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا من أحبه. وكان سهل بن عبدالله التستري يطوي نيفاً وعشرين يوماً لا يأكل، وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم، وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال: لا يوافي القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي ﷺ في أكله. وقال: لَم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا. وقال: لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل. وقال: وضعت الحكمة والعلم في الجوع، ووضعت المعصية والجهل في الشبع. وقال: ما عُبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال، وقد جاء في الحديث: «ثلث للطعام فمن زاد عليه فإنما يأكل من حسناته»(``، وسئل عن الزيادة فقال: لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب إليه من الأكل، ويكون إذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين، فإذا كان ذلك وجد الزيادة. وقال: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بإخماص البطون والسهر والصمت والخلوة. وقال: رأس كل بر نزل من السماء إلى الأرض الجوع، ورأس كل فجور بينهما الشبع. وقال: من جرّع نفسه انقطعت عنه الوساوس. وقال: إقبال الله عزّ وجّلٌ على العبد بالجوع والسقم وآلبلاء إلا من شاء الله. وقال: اعلموا: أن هذا زمان لا ينالُ أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد. وقال: ما مرَّ على وجه الأرض أحد شرب من هذا الماء حتى روي فسلم من المعصية _ وإن شكر الله تعالى _ فكيف الشبع من الطعام؟ . وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسى؟ قال: قيدها بالجوع والعطش، وذللها بإخمال الذكر وترك العز، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة، واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها، واصحبها بخلاف هواها. وكان عبدالواحد بن زيد يقسم بالله تعالى أنَّ الله تعالى ما صافى أحداً إلا بالجوع ولا مشوا على الماء إلا به، ولا طويت لهم الأرض إلا بالجوع، ولا تولاهم الله تعالى إلا بالجوع. وقال أبو طالب المكي: مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الأوتار؛ إنما حسن صوته لخفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلىء، وكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام. وقال أبو بكر بن عبدالله المزني: ثلاثة يحبهم الله تعالى: رجل قليل النوم قليل الأكل قليل الراحة.

وروي: أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فإذا رغيف موضوع بين يديه، فجلس يبكي على فقد المماجاة، وإذا شيخ قد أظله فقال له

⁽١) حديث: «ثلث للطعام» تقدم.

عيسى: بارك الله فيك يا ولي الله، ادع الله تعالى فإني كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فانقطعت عني، فقال الشيخ: اللهم إن كنت تعلم أن الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي، بل كان إذا حضر لي شيء أكلته من غير فكر وخاطر. وروي أن موسى عليه السلام لما قرّبه الله عزّ وجلّ نجياً كان قد ترك الأكل أربعين يوماً - ثلاثين ثم عشراً - على ما ورد به القرآن؛ لأنه أمسك بغير تبييت يوماً فزيد عشرة لأجل ذلك.

بيان فوائد الجوع وآفات الشبع:

قال رسول الله على: الجاهِدُوا أَنْفُسَكُمْ بِالجُوعِ وَالعَطَشِ فَإِنَّ الأَجْرَ فِي ذَٰلِكَ، ولعلك تقول: هذا الفضل العظيم للجوع من أين هو؟ وما سببه؟ وليس فيه إلا إيلام المعدة ومقاساة الأذى، فإن كان كذلك فينبغي أن يعظم الأجر في كل ما يتأذى به الإنسان من ضربه لنفسه، وقطعه للحمه، وتناوله الأشياء المكروهة، وما يجري محراه؟ فاعلم: أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن أن منفعته لكراهة الدواء ومرارته، فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلظ، بل نفعه في خاصية في الدواء وليس لكونه مراً، وإنما يقف على تلك الخاصية الأطباء، فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع إلا سماسرة العلماء، ومن جوع نفسه مصدقاً لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وإن لم يعلم مدح الجوع انتفع به وإن لم يعلم وجه كونه نافعاً.

ولكنا نشرح لك ذلك إن أردت أن ترتقي من درجة الإيمان إلى درجة العلم. قال الله نعالى: ﴿يَرْفَع اللَّهُ اللَّهُ اللهُ عَالَى: ﴿يَرْفَع اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلْمَ عَلَى اللَّهُ عَلَّا عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّى اللّهُ عَلَّى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّى اللّهُ عَل عَلَمُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَّى اللّهُ عَلَى الللّهُ عَلَّى اللّهُ عَلَّى اللّهُ عَلَّى ا

الفائدة الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة، فإنّ الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في اللماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك، بل الصبي إذا أكثر الأكل بطل حفظه وفسد ذهنه، وصار بطيء الفهم والإدراك، وقال أبو سليمان الداراني: عليك بالجوع فإنه مدلة للنفس ورقة للقلب، وهو يورث العلم السماوي، وقال بيج: «أَخيُوا قُلُويَكُمُ بِقِلَةِ الصَّجِكِ وَقِلَةِ الشَّبَعِ وَطَهَرُوها بِالجُوعِ تَصْفُو وَتَرِقُ اللهُ السماوي، وقال النبي عَلَيْهُ: «مَنْ السماوي، وقال النبي عَلَيْهُ: «مَنْ ألبي عَلَيْهُ: «مَنْ أَبِهُ» وقال النبي عَلَيْهُ: «مَنْ شَبِعَ وَتَامَ قَسَا قُلْبُهُ ثَمْ وَقَالَ النبي عَلَيْهُ: «مَنْ شَبِعَ وَتَامَ قَسَا قُلْبُهُ ثَمْ قَالَ النبي عَلَيْهُ: مَا جعت لله يوما إلا رأيت في قلبي باباً قال: «لِكُلُ شَنِعُ ذَكَاةُ وَزَكَاةُ البَلَنِ الجُوعُ الشري عالى الشبلي: ما جعت لله يوما إلا رأيت في قلبي باباً مفتوحاً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط. وليس يحفى أن غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة، المعرفة والاستبصار بحقائق الحق، والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه، والمعرفة باب من أبواب الجنة،

 ⁽١) حديث: قاحيوا قلويكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تصفو وترق؛ لم أجد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: المن أجاع بطئه مظمت فكرته وقطن قلبه كذلك لم أجد له أصلاً.

حدیث المن شبع ونام قسا قلبه ، ثم قال: (إن لكل شيء زكاة وإن زكاة الجسد المجوع أخرجه ابن ماجه من حدیث أبي هربرة: الكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم وإسناده ضعیف.

فبالحري أن تكون ملازمة الجوع قرعاً لباب الجنة. ولهذا قال لقمان لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال أبو يزيد البسطامي: الجوع سحاب فإذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة. وقال النبي ﷺ: الله عَزْ وَجَلَّ عَنْ الله عَنْ وَالدُّنُو مِنْهُمْ. لا تَشْبَعُوا فَتُطْفِئُوا نُورَ الحِكْمَةِ مِنْ قُلُوبِكُمْ وَمَنْ بَاتَ العُورُ حَوْلَهُ حَتَى يُصْبِحَ (أَ).

الفائدة المثانية: رقة القُلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه، وقال أبو سليمان الداراني: أحلى ما تكون إلي العبادة إذا التصق ظهري ببطني، وقال المجنبد: يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة، وقال أبو سليمان: إذا جاع القلب وعطش صبا ورق، وإذا شبع عمي وغلظ، فإذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية.

الفائدة الثائثة: الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها إذا ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها، وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره، وإنما سعادته في أن يكون دائماً مشاهداً نفسه بعين الذل والعجز، ومولاه بعين العز والقلرة والقهر، فليكن دائماً جائعاً مضطراً إلى مولاه مشاهداً للاضطرار بالذوق، ولأجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي على قال: الله، بَلْ أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً فَإِذَا جُعْتُ صَبَرْتُ وَتَضَرَّفُ وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُه (٢٠)، أو كما قال: فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع، والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع. ومن أغلق باباً من أبواب النار فقد فتح باباً من أبواب الجنة بالضرورة؛ الأنهما متقابلان كالمشرق والمغرب، عالقرب من أحدهما بُعْد من الآخر.

الفائدة الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء؛ فإنّ الشبعان ينسى الجاتع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة، ومن جوعه جوع أهل النار، حتى إنهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل، فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها، فإنه هو الذي يهيج الخوف، فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه، فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء، وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع؛ فإن فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة، وهذا أحد الأسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالأنبياء والأولياء والأمثل فالأمثل. ولذلك قيل ليوسف عليه السلام؛ لم تجوع وفي يديك خزائن

⁽١) حديث: فنور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع... الحديث. ذكره أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وكتب عليه أنه مستد وهي علامة ما رواه بإسناده.

⁽٢) حديث: «أجوع يوماً وأشبع يوماً... الحديث. تقدم وهو عند الترمذي.

الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع. فذكر الجائعين والمحتاجين إحدى فوائد الجوع، فإن ذلك يدعو إلى الرحمة والإطعام والشفقة على خلق الله عزّ وجلّ. والشبعان في غفلة من ألم الجائع.

الفائلة المخامسة: _ وهي من أكبر الفوائد _: كسر شهوات المعاصي كلها، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات _ لا محالة _ لأطعمة، فتقليلها يضعف كل شهوة وقوّة، وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنك لا تملك الدابة الجموح إلا بضعف الجوع، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت، فكذلك النفس. كما قبل لبعضهم: ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهذ؟ فقال: لأنه سريع المرح فاحش الأشر فأخاف أن يجمح بي فيورطني، فلأن أحمله على الشدائد أحب إليً من أن يحملني على الفواحش، وقال ذو النون: ما شبعت قط إلا عصيت أو هممت بمعصية. وقالت عائشة بحملني الله عنها: أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله الله الشبع؛ إنّ القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا. وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد. ولذلك قبل: الجوع خزائة من خزائن الله تعالى. وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا تتحرك عليه شهوة خزائن الله تعالى. وأقل ما يندفع بالجوع: شهوة الفرج وشهوة الكلام، فإن الجائع لا تتحرك عليه شهوة عضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها، قيمتعه الجوع من خذوهم إلا حصائد السناس في النار على مناخرهم إلا حصائد السنهم.

وأما شهوة الفرج: فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها. وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته، وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة.

وإنما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثلاً، وإلا فجميع معاصي الأعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع. قال حكيم: كل مريد صبر على السياسة فيصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيئاً من الشهوات ويأكل في نصف بطنه و رفع الله عنه مؤنة النساء.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً، ومن كثر شربه كثر نومه، ولأجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام: معاشر المريدين: لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً. وأجمع رأي سبعين صدّيقاً على أن كثرة النوم من كثرة الشرب. وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والنوم موت فتكثيره ينقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها، ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يحد حلاوة العبادة، ثم المتعزب إذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضاً من التهجد، ويحوجه إلى الغسل إما بالماء البارد فيتأذى به، أو يحتاج إلى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة بالليل، فيفوته الوتر إن كان قد أخره إلى التهجد، ثم يحتاج إلى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة مي دخول الحمام، فإن فيه أخطاراً ذكرناها في كتاب الطهارة، وكل ذلك أثر الشبع، وقد قال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وإنما قال ذلك لأنه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال. فالنوم منبع الأفات، والشبع مجلبة له، والجوع مقطعة له.

المفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات؛ لأنه يحتاج إلى

زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والمخلال، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه. والأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه. قال السري: رأيت مع على الجرجاني سويقاً يستف منه فقلت: ما حملك على هذا؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة، فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه في المضغ. وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها، فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها، وذلك بصرفه إلى ذكر الله وطاعته.

ومن جملة ما يتعذر بكثرة الأكل: الدوام على الطهارة وملازمة المسجد، فإنه يحتاج إلى الخروج لكثرة شرب الماء وإراقته. ومن جملته: الصوم فإنه يتبسر لمن تعود الجوع، فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالأكل وأسبابه إلى العبادة أرباح كثيرة، وإنما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين، لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها: ﴿ يَمْلُنُونَ طَاهِلًا مِنَ لَفْيَوَ ٱلدُنيَا وَهُمْ عَي النَّافِ مَعْ الرُّوم: ٧].

وقد أشار أبو سليمان الداراني إلى ست آفات من الشبع فقال: من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق؛ لأنه إذا شبع ظنّ أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق. ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب، ويمنع من الذكر والفكر، وينغص العيش ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب، وكل ذلك يحتاج إلى مؤن ونفقات لا يخلو الإنسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات، وفي الجوع ما يمنع ذلك كله.

حكي: أن الرشيد جمع أربعة أطباء: هندي، ورومي، وعراقي، وسوادي. وقال: ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود. وقال العراقي: هو حدي الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود. وقال العراقي: هو حدي الدماء الحار، وقال السوادي: وكان أعلمهم والإهليلج يعقص المعدة وهذا داء، وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحاريرخي المعدة وهذا داء. قالوا: فما عندك؟ فقال: الدواء الذي لا داء معه عندي: أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه، فقالوا: صدقت. وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي على المعدة وأنت تشتهيه، فقالوا: صدقت. وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي على المعت كلاماً في قلة النبي على المعام وثلث للشراب وثلث للنفس؟ (١) فتعجب منه وقال: ما سمعت كلاماً في قلة الطعام أحكم من هذا وإنه لكلام حكيم، وقال على البطئة أصل الذاء وقال ابن سالم: من أكل خبز جسم ما اغتادًه (٢)، وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك. وقال ابن سالم: من أكل خبز الحنطة بحتاً بأدب لم يعتل إلا علة الموت. قيل: وما الأدب؟ قال: تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع، وقال بعض أفاضل الأطباء في ذم الاستكثار: إن أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان، وأضر ما أدخل معدته

⁽١) حديث: فثلث للطعام، تقدم أيضاً.

⁽Y) حديث: «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل بدن بما اعتاده لم أجد له أصلاً.

المالح؛ ولأن يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان. وفي الحديث: «صُومُوا تَصِحُوا) ، ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الأجسام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما.

الفائدة التاسعة: خفة المؤونة؛ فإنّ من تعوّد قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعوّد الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له آخذاً بمخنقه في كل يوم، فيقول: ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصي أو من الحلال فيذل. وربما يحتاج إلى أن يمدّ أعين الطمع إلى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة. وقال بعض الحكماء: إني لأقضي عامة حوائحي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي. وقال آخر: إذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي. وكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقال: إنها غالية فيقول: أرخصوها بالترك. وقال سهل رحمه الله: الأكول مذموم في ثلاثة أحوال؛ إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات، وإن كان ممن يدخل عليه شيء فلا يتصف الله تعالى من نفسه.

وبالجملة: سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا، وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج، وسبب شهوة الفرج، شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه الأحوال كلها وهي أبواب النار، وفي حسمها فتح أبواب الجنة كماقال على الله المؤرد المجتة بالجوع، فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضاً؛ وصار حرّاً واستغنى عن الناس واستراح من التعب، وتخلى لعبادة الله عزّ وجل وتجارة الآخرة، فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإنما لا تلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة، وأما المحتاج فتلهيه لا محالة.

المقائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدّق بما فضل من الأطعمة على اليثامى والمساكين، فبكون يوم القيامة في ظل صدقته (٢) كما ورد به الخبر: فما يأكله كان خزانته الكنيف، وما يتصدّق به كان خزانته فضل الله تعالى، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدّق فأبقى، أو أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، فالتصدّق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع. وكان الحسن رحمة الله عليه إذا تلا قوله تعالى: هإنا عَرَّهُما الأَمانَةُ عَلَى النّمَونَ وَالْرَبِ وَالْمِبَالِ فَأَبْنَ أَن يَحْيِلْهَا وَأَشَعَنَ رَبّها وَحَلَها الإنسَنُ إِنّه كَان ظَلُومًا جَهُولًا فَلَى الْمُناف عَلَى السُمُوات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسات عوقبت، فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: فذكر الجزاء والعقوبة، الصعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ قالت: وما فيها؟ قال: فذكر الجزاء والعقوبة، الصلاب الصعاب فقال لها: هل تحملين الأمانة بما فيها؟ وسعوا بها دورهم، وضيقوا بها قبورهم، وأسمنوا فيها الأمانة بأموالهم فأصابوا آلافا فماذا صنعوا فيها؟ وسعوا بها دورهم، وضيقوا بها قبورهم، وأسمنوا فيها براذينهم، وأهزلوا دينهم، وأتعبوا أنفسهم بالغدة والرواح إلى باب السلطان، يتعرّضون للبلاء وهم من الله في عافية، يقول أحدهم: تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكىء على شماله ويأكل من غير ماله، في عافية، يقول أحدهم: تبيعني أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا، يتكىء على شماله ويأكل من غير ماله،

⁽١) حديث: اصوموا تصحوا، أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نميم في الطب النبوي من حديث أبي هريرة يستد ضعف.

⁽٢) حديث: اكل امرىء في ظل صدقته أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر، وقد تقدم.

حديثه سخرة وماله حرام، حتى إذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال: يا غلام، ائتني بشيء أهضم به طعامي، يا لكع أطعامك تهضم؟ إنما تهضم دينك، أين الفقير أين الأرملة أين المسكين أين اليتيم الذي أمرك الله تعالى بهم؟ فهذه إشارة إلى هذه الفائدة؛ وهو صرف فاضل الطعام إلى الفقير ليدخر به الأجر، فذلك خير له من أن يأكله حتى يتصاعف الوزر عليه. ونظر رسول الله على رجل سمين البطن فأومأ إلى بطنه بأصبعه وقال: «لَوْ كَانَ هٰذا في غَيْرِ هٰذا لَكَانَ خَيْراً لَكَ» (١)، أي لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك. وعن الحسن قال: والله لقد أدركت أقواماً كان الرجل منهم يمسي وعنده من الطعام ما يكفيه، ولوشاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل بعضه لله .

فهذه عشر فوائد للجوع، يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة. ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة. بل ذلك صريح في الأخبار التي رويناها، وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معاني تلك الأخبار إدراك علم ويصيرة. فإذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين في الإيمان والله أعلم بالصواب.

بيان طريق الرياضة في كسر شهوة البطن:

اعلم: أن على المريد في بطنه ومأكوله أربع وظائف: الأولى: أن لا يأكل إلا حلالاً، فإن العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار. وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع في كتاب الحلال والحرام، وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالأكل: وهو تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة، وتقدير وقد في الإبطاء والسرعة، وتعيين الجنس المأكول في ثناول المشتهيات وتركها.

أما الوظيفة الأولى: في تقليل الطعام، فسبيل الرياضة فيه التدريج، فمن اعتاد الأكل الكثير وانتقل دفعة واحدة إلى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته، فينبغي أن يتدرج إليه قليلاً قليلاً وذلك بأن ينقص قليلاً قليلاً من طعامه المعتاد. فإن كان يأكل رغيفين مثلاً وأراد أن يرد نفسه إلى رغيفي واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف، وهو أن ينقص جزءاً من ثمانية وعشرين جزءاً، أو جزءاً من ثلاثين جزءاً، فيرجع إلى رغيف في شهر، ولايستضر به ولا يظهر أثره، فإن شاء فعل في ذلك بالوزن وإن شاء بالمشاهدة، فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالأمس. ثم هذا فيه أربع درجات.

أقصاها: أن يرد نفسه إلى قدر القوام الذي لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين. وهو اختيار سهل التستري رحمة الله عليه إذ قال: إن الله استعبد الخلق بثلاث: بالحياة، والعقل، والقوة، فإن خاف العبد على اثنين منها وهي الحياة والعقل أكل وأفطر إن كان صائماً، وتكلف الطلب إن كان فقيراً. وإن لم يخف عليهما بل على القوة قال: فينبغي أن لا يبالي. ولو ضعف حتى صلى قاعداً وأرى أن صلاته قاعداً مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائماً مع كثرة الأكل. وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال: كان قوتي في كل سنة ثلاثة دراهم، كنت آخذ بدرهم دبساً، وبدرهم دقيق الأرز، وبدرهم سمناً، وأخلط الجميع وأسوي منه

⁽۱) حديث: نظر إلى رجل سمين البطن فأوماً إلى بطنه بأصبعه وقال: الله كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك، أخرجه أحمد والحاكم في المستدرك والبيهةي في الشعب من حديث جعدة الجشمي وإستاده جيد.

ثلاثمائة وستبن أكرة، آخذ في كل ليلة أكرة أفطر عليها، فقيل له: فالساعة كيف تأكل؟ قال: بغير حدّ ولا توقيت. ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردّون أنفسهم إلى مقدار درهم من الطعام.

المدرجة الثانية: أن يردّ نفسه بالرياضة في اليوم والليلة إلى نصف مدّ، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه منّاً، ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن في حق الأكثرين ـ كما ذكره البي على الموق وق المقيمات؛ لأن هذه الصيغة في الجمع للقلة فهو لما دون العشرة، وقد كان ذلك عادة عمر رضي الله عنه إذ كان يأكل سبع لقم أو تسع لقم.

الدرجة الثالثة: أن يردها إلى مقدار المد، وهو رغيفان ونصف، وهذا يزيد على ثلث البطن في حق الأكثرين، ويكاد ينتهي إلى ثلثي البطن، ويبقى ثلث للشراب ولا يبقى شيء للذكر، وفي بعص الألفاظ: «ثلث للذكر» بدل قوله «للنفس».

الدرجة الرابعة: أن يزيد على المد إلى المنّ، ويشبه أن يكون ما وراء المن إسرافاً مخالفاً لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾ [الانعَام 181] أعني في حق الأكثرين، فإن مقدار الحاجة إلى الطعام يختلف بالسن، والشخص، والعمل الذي يشتغل به. وها هنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط، وهو أن يأكل إذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد، ولكن الأغلب أن من لم يقدر لنفسه رغيفاً أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق، ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة.

وقد ذكر للجوع الصادق علامات: إحداها: أن لا تطلب النفس الأدم بل تأكل الخبز وحده بشهوة أي خبر كان ـ فمهما طلبت نفسه خبراً بعينه أو طلبت أدماً فليس ذلك بالجوع الصادق. وقد قبل: من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه؛ أي لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة، ومعرفة دلك غامض. فالصواب للمريد: أن يقدر مع نفسه القدر الذي لا يضعفه عن العبادة التي هو بصددها، فإذا انتهى إليه وقف وإن بقيت شهوته.

وعلى الجملة: فتقدير الطعام لا يمكن لأنه يختلف بالأحوال والأشخاص. نعم، قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعاً من حنطة في كل جمعة، فإذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعاً ونصفاً، وصاع الحنطة أربعة أمداد، فيكون كل يوم قريباً من نصف مذ وهو ما ذكرناه أنه قدر ثلث البطن .، واحتيج في التمر إلى زيادة لسقوط النوى منه. وقد كان أبو ذر رضي الله عنه يقول: طعامي في كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله على والله لا أزيد عليه شيئاً حتى ألقاه فإني سمعته يقول: فأقربكُم مِني من شعير على عهد رسول الله على ما هو على ما هو عَلَيْهِ النَوْمَهُ أَنَّ ، وكان يقول في إنكاره على بعض منجلساً يَوْمَ القِيامَةِ وَأَحَبُكُمْ إلَيْ مَنْ مَاتَ عَلَى ما هو عَلَيْهِ النَوْمَهُ أَنَ ، وكان يقول في إنكاره على بعض الصحابة: قد غيرتم، ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل، وخبزتم المرقق وجمعتم بين إدامين، واختلف علي عليكم بألوان الطعام، وغدا أحدكم في ثوب وراح في آخر، ولم يكونوا هكذا على عهد رسول الله على وكان قوت أهل الصفة مداً من ثمر بين اثنين في كل يوم (٢) والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى. وكان الحسن رحمة الله عليه يقول: المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف، والقبضة منه النوى. وكان الحسن رحمة الله عليه يقول: المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف، والقبضة منه النوى.

 ⁽١) حديث أبي ذر: «أقربكم متي مجلساً يوم القيامة وأحبكم إليّ من مات على ما هو هليه اليوم». أخرجه أحمد في كتاب الزهد ومن طريقه أبو نعيم في الحلية دون قوله: «وأحبكم إليّ» وهو منقطع.

 ⁽۲) حديث: «كان قوت أهل الصفة مدامن تمويين اثنين في كل يوم» أخرجه الحاكم وصحح إستاده من حديث طلحة البصري.

من السويق، والجرعة من الماء، والمنافق مثل السبع الضاري بلعاً بلعاً وسرطاً سرطاً، لا يطوي بطنه لحاره ولا يؤثر أخاه بفضله، وجهوا هذه الفضول أمامكم. وقال سهل: لو كانت الدنيا دماً عبيطاً، لكان قوت المؤمن منها حلالاً؛ لأن أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط.

الوظيفة الثانية: في وقت الأكل ومقدار تأخيره، وفيه أيضاً أربع درجات:

المدرجة العليا: أن يطوي ثلاثة أيام فما فوقها، وفي المريدين من رد الرياضة إلى الطي لا إلى المقدار، حتى انتهى بعضهم إلى ثلاثين يوماً وأربعين يوماً، وانتهى إليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم: محمد بن عمرو القرني، وعبدالرحمن بن إبراهيم، ورحيم، وإبراهيم التيمي، وحجاج بن فرافصة، وحفص العابد المصيصي، والمسلم بن سعيد، وزهير، وسليمان الخواص، وسهل بن عبدالله التستري، وإبراهيم بن أحمد الخواص، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوي سنة أيام، وكان عبدالله بن الزبير يطوي سبعة أيام، وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوي سبعاً. وروي أن النوري وإبراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً، كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة.

قال بعض العلماء: من طوى لله أربعين يوماً ظهرت له قدرة من الملكوت. أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية. وقد حكي أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله، وطمع في إسلامه وترك ما هو عليه من الغرور، فكلمه في ذلك كلاماً كثيراً إلى أن قال له الراهب: إن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وإن ذلك معجزة لا تكون إلا لنبي أو صديق، فقال له الصوفي: فإن طويت خمسين يوماً، تترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام، وتعلم أنه حق وأنك على باطل؟ قال: نعم، فجلس لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً، ثم قال: وأزيدك أيضاً فطوى إلى تمام الستين، فتعجب الراهب منه وقال: ما كنت أظن أن أحداً يجاوز المسيح؟ فكان ذلك سبب إسلامه. وهذه درجة عظيمة قلَّ من يبلغها إلا مكاشف محمول، شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته، واستوفى نفسه في لذته وأنساه جوعته وحاجته.

الدرجة الثانية: أن يطوي يومين إلى ثلاثة، وليس ذلك خارجاً عن العادة، بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالجد والمجاهدة.

الدرجة الثالثة: _ وهي أدناها _ أن يقتصر في اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل، وما جاوز ذلك إسراف ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع، وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة، فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي على كان إذا تغدّى لم يتعشّ وإذا تعشى لم يتغد (١)، وكان السلف يأكلون في كل يوم أكلة، وقال النبي على لعائشة: «إباك والسَّرَفَ فَإِنَّ أَكُلتَيْنِ فِي يَوْم مِنَ السَّرَفِ، وَأَكُلةً فِي كُل يَوْم يِن إثْتَارٌ، وَأَكُلةً فِي كُل يَوْم قِوَامٌ بَيْنَ فَلِكَ (٢)، وهو المحمود في كتاب الله عز وجل.

ومن اقتصر في اليوم على أكلة واحدة فيستحب له أن يأكلها سحراً قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح، فيحصل له جوع النهار للصيام وجوع الليل للقيام، وخلو القلب لفراغ المعدة

⁽١) حديث أبي سعيد الخدري: 4كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغذُّ لم أجد له أصلاً.

 ⁽٢) حديث: قال لعائشة: «إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من السرف» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال: في إسناده ضعف.

ورقة الفكر، واجتماع الهم وسكون النفس إلى المعلوم، فلا تنازعه قبل وقته. وفي حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما قام رسول الله على قيامكم هذا قط، وإن كان ليقوم حتى تورم قدماه، وما واصل وصالكم هذا قط غير أنه قد أخر الفطر إلى السحر⁽¹⁾، وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي على يواصل إلى السحر⁽¹⁾، فإن كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب إلى الطعام وكان ذلك يشغله عن حصور القلب في التهجد، فالأولى أن يقسم طعامه نصفين، فإن كان رغيفين مثلاً أكل رغيفاً عند الفطر ورغيفاً عند السحر؛ لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لأجل التسحر، فيستعين بالرغيف الأول على التهجد وبالثاني على الصوم، ومن كان يصوم يوماً ويفطر يوماً فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره وقت الظهر، ويوم صومه وقت السحر. فهذه الطرق في مواقيت الأكل وتباعده وتقاربه.

الوظيفة الثالثة: في نوع الطعام وترك الإدام، وأعلى الطعام مخ البر فإن نخل فهو غاية الترفه، وأوسطه شعير منخول، وأدنآه شعير لم ينخل. وأعلى الأدم اللحم والحلاوة، وأدناه الملح والخل، وأوسطه المزورات بالأدهان من غير لحم. وعادة سالكي طريق الآخرة الامتناع من الإدام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات، فإن كل لذيذ يشتهيه الإنسان وأكله اقتضى ذلك بطراً في نفسه وقسوة في قلبه، وأنساً له بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى، وتصير الدنيا جنة في حقه ويكون الموت سجناً له. وإذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجناً عليه ومضيقاً له فاشتهت نفسه الْإفلات منها، فيكون الموت إطلاقها. وإليه الإشارة بقول يحيى بن معاذ حيث قال: معاشر الصدّيقين، جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس، فإن شهوة الطعام على قدر تجويع النفس. فكل ما ذكرناه من آفات الشبع فإنه يجري في كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول بإعادته، فلذلك يعظم الثواب في ترك الشهوات من المباحات ويعظم الخطر في تناولها، حتى قال ﷺ: اشِرارُ أُمَّتِي الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مُغِّ الحِنْطَةِ» (٣)، وهذا ليس بتحريم بل هو مباح على معنى أن من أكله مرة أو مرتين لم يعص، ومن داوم عليه أيضاً فلا يعصي بتناوله، ولكن تتربى نَّفسه بالنعيم فتأنس بالدنيا، وتألف اللذات وتسعى في طلبها فيجرها ذلك إلى المعاصي فهم شرار الأمة، لأن مخ الحنطة يقودهم إلى اقتحام أمور، تلك الأمور معاص. وقال ﷺ: اشِرَارُ أَمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ وَنَبَنَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ (١٠)، وإنما همتهم ٱلوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون في الكلام. وأوحى الله ُتعالى إلى موسى عليه السلام: اذكر أنك ساكن القبر فإن ذلك يمنعك من كثير الشهوات. وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ الأطعمة وتمرين

 ⁽١) حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبي هريرة: اما قام رسول الله ﷺ قيامكم هذا قط وإن كان ليقوم حتى تزلع
قدماه. رواه النسائي مختصراً: اكان يصلي حتى نزلع قدماه. وإسناده جيد.

 ⁽۲) حديث: «كان يواصل إلى السحر». لم أجده من فعله وإنما هو من قوله: «فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر». رواه البخاري من حديث أبي سعيد. وأما هو فكان يواصل. وهو من خصائصه.

 ⁽٣) حديث: فشرار أمتي اللين يأكلون منح المعتطقة لم أجد له أصلاً.

⁽٤) حديث: •شوار أمني الذين فقوا بالنميم. . . . • الحديث. أخرحه ابن عدي في الكامل ومن طريقه السبهقي في شعب الإيمان من حديث فاطمة بنت رسول الله على وروي من حديث فاطمة بنت الحسين مرسلاً، قال الدارقطني في العلل: إنه أشه بالصواب، ورواه أبر نعيم في الحلية من حديث عائشة بإسناد لا بأس به .

النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة، ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة، حتى روي أن وهب بن منبه قال: التقى ملكان في السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر: من أين؟ قال: أمرت بسوق حوت من البحر اشتهاه فلان اليهودي لعنه الله، وقال الآخر: أمرت بإهراق زيت اشتهاه فلان العابد. فهذا تنبيه على أن تيسير أسباب الشهوات ليس من علامات الخير . ولهذا امتنع عمر رضي الله عنه عن شوبة ماء بارد بعسل وقال: اعزلوا عسي حسابها. فلا عبادة لله تعالى أعظم من مُخالفة النفس في الشهوات وترك اللذات ـ كما أوردناه في كتاب رياضة النفس ـ. وقد روى نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان مريضاً فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد، ثم وجدت بعد كذا وكذا، فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت إليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام: لفها برغيفها وادفعها إليه، فقال له الغلام: أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها، فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف، فنحن تعطيه ثمنها، فقال: لفها وادفعها إليه. ثم قال الغلام للسائل: هل لك أن تأخذ درهماً وتتركها؟ قال: نعم فأعطاه درهماً وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال: قد أعطيته درهماً وأخذتها منه. فقال: لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿أَلِيْمَا امْرِيءِ اشْتَهَى شَهْوَةً فَرَدّ شَهْوَتُهُ وَآثَرَ بِهِا عَلَي نَفْسِهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ (١٠) وقال ﷺ: «إذا سَدَدْتَ كَلْبَ الجُوع بِرَخِيفٍ وَكُورُ مِنَ المَاءِ القَرَاح فَعَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِها الدَّمَارُه (٣)، أشار إلى أن المقصود رد ألم الجوع والعَّطْش ودفع ضررهما دون النتعمُ بلذات الدنيا. وبلغ عمر رضي الله عنه أن يزيد بن أبي سفيانَ يأكلَ أنواع الطعام فقال عمر لمولى له: إذا علمت أنه قد حضر عشاؤه فأعلمني، فأعلمه فدخل عليه فقرّب عشاؤه فأتوه بثريد لحم فأكل معه عمر، ثم قرّب الشواء ويسط يزيد يده وكف عمر يله وقال: الله الله يا يزيد بن أبي سفيان، أطعام بعد طعام؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليحالفن بكم عن طريقهم. وعن يسار بن عمير قال: ما نخلت لعمر دقيقاً قط إلا وأنا له عاص. وروي أن عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه في الشمس، ثم يأكله ويقول: كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء والطعام الطيب. وكان يأخذ الكوز فيغرف به من جب كان في الشمس نهاره فتقول مولاة له: يا عتبة، لو أعطيتني دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماه؟ فيقول لها: يا أم فلان، قد شردت عني كلب الجوع.

قال شقيق بن إبراهيم: لقيت إبراهيم بن أدهم بمكة في سوق الليل ـ عند مولد النبي ﷺ ـ يبكي وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت إليه وقعدت عنده وقلت: إيش هذا البكاء يا أبا إسحاق؟ فقال: خير، فعاودته مرة واثنتين وثلاثاً، فقال: يا شقيق، استر علي فقلت: يا أخي قل ما شئت، فقال لي: اشتهت نفسي منذ ثلاثين سنة سكباجاً فمنعتها جهدي، حتى إذا كان البارحة كنت جالساً وقد غلبني النعاس إذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج، قال: فاجتمعت بهمتي عنه فقربه وقال: يا إبراهيم، كُلْ. فقلت: ما آكل قد تركته لله عز وجلّ. فقال لي: قد أطعمك الله كُلْ. فما

⁽١) حديث نافع: «أن ابن عمر كان مريضاً فاشتهى سمكة. . • الحديث. وفيه: سمعت رسول الله ﷺ بقول: «أيما امرى» اشتهى شهوة قرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب بإسناد ضعيف جداً، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

 ⁽٢) حديث: ﴿إِذَا سددت اللَّجوع برفيف وكورْ من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار› أخرجه أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

كان لي جواب إلا أتي بكيت، فقال لي: كُلُ رحمك الله. فقلت: قد أمرنا أن لا نطرح في وعائنا إلا من حيث نعلم. فقال: كل عافاك الله فإنما أعطيته، فقيل لي: يا خضر، اذهب بهذا وأطعمه نفس إبراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها. اعلم يا إبراهيم، أني سمعت الملائكة يقولون: من أعطي فلم يأخذ طلب فلم يعط، فقلت: إن كان كذلك فها أنا بين يديك لأجل العقد مع الله تعالى، ثم التعت فإذا أنا بفتى آخر ناوله شيئاً وقال: يا خضر، لقمه أنت، فلم يزل يلقمني حتى نعست فانتبهت وحلاوته في فمي، قال شقيق: فقلت: أرني كفك. فأخذت بكفه فقبلتها وقلت: يا من يطعم الجياع الشهوات إذا صححوا المنع، يا من يقدح في الضمير اليقين، يا من يشفي قلوبهم من محته، أثرى لشقيق عندك حالاً؟ ثم رفعت بد إبراهيم إلى السماء وقلت: بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذي وجد منك جد على عبدك الفقير إلى فضلك وإحسانك ورحمتك وإن لم يستحق ذلك. قال: فقام إبراهيم ومشى حتى أدركنا البيت.

وروي عن مالك بن دينار أنه بقى أربعين سنة يشتهي لبناً فلم يأكله. وأهدي إليه يوماً رطب فقال لأصحابه: كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة. وقال أحمد بن أبي الحواري: اشتهى أبو سليمان الداراني رغيفاً حاراً بملح فجئت به إليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي وقال: عجلت إلى شهوتي بعد إطالة جهدى، وا شقوتى قد عزمت على التوبة فأقلني!. قال أحمد: فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى. وقال مالك بن ضيغم: مررت بالبصرة في السوق فنظرت إلى البقل فقالت لي نفسي: لو أطعمتني الليلة من هذا فأقسمت أن لا أطعمها إياه أربعين ليلة. ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لأهل البصرة ولا بسرة قط وقال: يا أهل البصرة، عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة، فما زاد فيكم ما نقص مني ولا نقص مني ما زاد فيكم. وقال: طلقت الدنيا منذ خمسين سنة، اشتهت نفسي لبناً منذ أربعين سنة فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى. وقال حماد بن أبي حنيفة: أتيت داود الطائي والباب مغلق عليه فسمعته يقول: نفسي اشتهيت جزراً فأطعمتك جزراً، ثم اشتهيت تمرأ فآليت أن لا تأكليه أبدأ، فسلمت ودخلت فإذا هو وحده. ومرّ أبو حازم يوماً في السوق فرأى الفاكهة فاشتهاها، فقال لابنه: اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب إلى الفاكهة التي لا مقطوعة ولا ممنوعة، فلما اشتراها وأتى بها إليه قال لنفسه: قد خدعتيني حتى نطرت واشتهيتُ وغلبتيني حتى اشتريت، والله لا ذقتيه فبعث بها إلى يتامى من الفقراء. وعن موسى الأشج أنه قال: نفسي تشتهي ملحاً جريشاً منذ عشرين سنة. وعن أحمد بن خليفة قال: نفسي تشتهي منذ عشرين سنة ما طلبت مني إلا الماء حتى ثروى فما أرويتها. وروي أن عتبة الغلام اشتهى لحماً سبعٌ سنين فلما كان بعد ذلك قال: استحييت من نفسى أن أدافعها منذ سبع سنين ـ سنة بعد سنة .. فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها وتركتها على رغيف فلقيت صبياً فقلت: ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك؟ قال: بلي، فناولته إياها. قالوا: وأقبل يبكي ويقرأ: ﴿وَيُظْمِئُونَ الظَّمَامَ عَلَى حُتِّهِ. مِسْكِمِنَا وَيَقِينًا وَأَسِبُلُ ۞﴾ [الإنسّان: ٨] ثم لم يذقه بعد ذلك. ومكث يشتهي تمرآ سنين، فلما كان ذات يوم اشترى ثمراً بقيراط ورفعه إلى الليل ليفطر عليه قال: فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففرع الناس، فأقبل عتبة على نفسه يقول: هذا لجراءتي علبك وشرائي التمر بالقيراط، ثم قال لنفسه: مَا أَظَنَ أَخَذَ النَّاسِ إلا بِنَنْبِك؟ على أَنْ لا تذوقيه. واشترى داود الطائي بنصف فلس بقلاً ولفلس خلاً، وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه: ويلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة، ثم لم يأكل بعده إلا قفاراً. وقال عتبة الغلام يوماً لعبد الواحد بن زيد: إن

فلاناً يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسي فقال: لأنك تأكل مع خبزك تمراً وهو لا يزيد على الخبز شيئاً قال: فإن أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة؟ قال: نعم، وغيرها. فأخذ يبكي، فقال له بعض أصحابه: لا أبكى الله عينك أعلى التمر تبكي؟ فقال عبدالواحد: دعه؛ فإن نفسه قد عرفت صدق عزمه في الترك، وهو إذا ترك شيئاً لم يعاوده. وقال جعفر بن نصر: أمرني الجنيد أن أشتري له التين الوزيري، فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها في فمه ثم ألقاها وجعل يبكي، ثم قال: احمله. فقلت له في ذلك فقال: هتف بي هاتف: أما تستحي؟ تركته من أجلي ثم تعود إليه!. وقال صالح المري: قلت لعطاء السلمي إني متكلف لك شيئاً فلا ترد عليَّ كرامتيّ، فقال: افعل ما تريد، قال: فبعثت إليه مع ابني شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل، فقلت: لا تبرح حتى يشربها، فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها، فعاتبته ولمته على ذلك وقلَّت: سبحان الله رددت عليٌّ كرامتي. فلما رأى وجدي لذلك قال: لا يسوؤك هذا، إنى قد شربتها أوِّل مرة، وقد راودت نفسى في المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك، كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُمُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [براهيم: ١٧] الآية قال صالح: فبكيت وقلت في نفسي: أنا في واد وأنت في واد آخر. وقال السري السقطي: نفسي منذ ثلاثين سنة تطالبني أن أغمس جزرة في دبس فما أطعمتها. وقال أبو بكر الجلاء: أعرف رجلاً تقول له نفسه: أنا أصبر لك على طي عشرة أيام وأطعمني بعد ذلك شهوة أشتهيها، فيقول لها: لا أريد أن تطوي عشرة أيام ولكن اتركي هذَّه الشهوة. وروي: أن عابداً دعا بعض إخوانه فقرّب إليه رغفاناً فجعل أخوه يقلب الأرغفة ليختار أجودها فقال له العابد: مه أي شيء تصنع؟! أما علمت أن في الرغيف الذي رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانعاً، حتى استدار من السحاب الذي يعمل الماء والماء الذي يسقي الأرض والرياح والبهائم وبني آدم حتى صار إليك، ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به.

وفي الخبر: الا يستدير الرفيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلاثمائة وستون صانعاً أولهم ميكائيل عليه السلام، الذي يكيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التي تزجي السحاب والشمس والمقمر والأفلاك وملائكة الهواء ودواب الأرض، وآخرهم الخباز: ﴿وَإِن تَمُنُواْ نِمْتَ اللهِ لاَ غُتُسُوماً ﴾ [إبراميم: ٣٤، والنحل: ١٨]٤ (١٠). وقال بعضهم: أتيت قاسماً الجرعي فسألته عن الزهد: أي شيء هو؟ فقال: أي شيء هو؟ فقال: أي شيء سمعت فيه؟ فعددت أقوالاً فسكت فقلت: وأي شيء تقول أنت؟ فقال: اعلم: أن البطن دنيا العبد فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد، وبقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا، وكان بشر بن الحارث قد اعتل مرة، فأتى عبدالرحمن الطبيب يسأله عن شيء يوافقه من المأكولات، فقال: تسألني فإذا وصفت لك لم تقبل مني، قال: صف لي حتى أسمع، قال: تشرب سكنجبيناً وتمص سفرجلاً وتأكل بعد ذلك اسفيذباجاً. فقال له بشر: هل تعلم شيئاً أقل من السكنجيين يقوم مقامه؟ قال: لا، قال أنا أعرف ما هو؟ قال: الخرنوب الشامي، قال: فتعرف شيئاً أقل من السفرجل يقوم مقامه؟ قال: لا، قال أنا أعرف أنا أعرف؛ ماه الحمص بسمن البقر في معناه، فقال له عبدالرحمن: أنت أعلم مني بالطب؛ فلم تسألني؟.

⁽¹⁾ حديث: «لا يستغير الرفيف ويوضع بين يغيك حتى يصمل فيه ثلالمائة وستون صائماً أولهم ميكاثيل...» الحديث. لم أجد له أصلاً.

فقد عرفت بهذا: أن هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الأقوات، وكان امتناعهم للفواتد التي ذكرناها، وفي بعض الأوقات لأنهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لأنفسهم إلا في قدر الضرورة، والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان: الملح شهوة لأنه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة. وهذا هو النهاية. فمن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لا يغفل عن نفسه ولا ينهمك في الشهوات، فكفي بالمرء إسرافاً أن يأكل كل ما يشتهيه، ويفعل كل ما يهواه فينبغي أن لا يواظب على أكل المحم. وقال علي كرم الله وجهه: من ترك اللحم أربعين يوماً ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوماً قلماء وقيل: إن للمداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر. ومهما كان جائعاً وتاقت نفسه إلى الجماع فلا ينبغي أن يأكل ويجامع، فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه، وربما طلبت النفس الأكل لينشط في الجماع. ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين؛ فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك، ولكن ليصل أو ليجلس فيذكر الله تعالى فإنه أقرب إلى الشكر. وفي الحديث: قانيبوا طَعَامَكُمُ بِالدُّكُمُ والصّلاة ولا تتَنَامُوا عَلَيْهِ فَتَقْسُو قُلُويُكُمُ (()، وأقل ذلك أن يصلي أربع ركمات أو يسبع مائة تسبيحة أو يقرأ جزءاً من القرآن عقيب أكله. فقد كان سفيان الثوري إذا شبع ليلة أحياها، وإذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر، وكان يقول: أشبع الزنجي وكذه ومرة يقول: أشبع الحمار وكذه. ومهما اشتهى شيئاً من الطعام وطيبات القواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلاً منه لتكون قوتاً، ولا تكون تفكهاً لئلا يجمع للنفس وين عادة وشهوة.

نظر سهل إلى ابن سالم وفي يده خبز وتمر فقال له: ابدأ بالتمر فإن قامت كفايتك به وإلا أخذت من الخبز بعده بقدر حاجتك. ومهما وجد طعاماً لطيفاً وغليظاً فليقدم اللطيف فإنه لا يشتهي الغليظ بعده، ولو قدّم الغليظ لأكل اللطيف أيضاً للطافته. وكان بعضهم يقول لأصحابه لا تأكلوا الشهوات فإن أكلتموها فلا تطلبوها فإن طلبتموها فلا تحبوها، وطلب بعض أنواع الخبز شهوة. قال عبدالله بن عمر رحمة الله عليهما: ما تأتينا من العراق فاكهة أحب إلينا من الخبز. فرأى ذلك الخبز فاكهة.

وعلى الجملة: لا سبيل إلى إهمال النفس في الشهوات المباحات واتباعها بكل حال، فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة: ﴿ أَذَهَبُمُ طَيَبَيْرُ فِي حَيَايِكُمُ الدَّيَا وَاسْتَنَعْمُ بِهَا ﴾ يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة: ﴿ أَذَهَبُمُ طَيَبَيْرُ فِي حَيَايِكُمُ الدَّيَا وَاسْتَنَعْمُ بِهَا ﴾ وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخرة بشهواته. قال بعض أهل البصرة: نازعتني نفسي خبر أرز وسمكاً فمنعتها، فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة، فلما مات قال بعضهم: رأيته في المنام فقلت: ماذا فعل الله بك؟ قال: لا أحسن أن أصف ما تلقاني به ربي من النعم والكرامات، وكان أول شيء استقبلني به خبر أرز وسمكاً. وقال: كل اليوم شهوتك هنيئا بغير حساب، وقد قال تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَرِينَا بِينَا أَسَلَقَتُهُ فِي النَّالِيَةِ ﴿ المَاقَةُ: ٢٤] وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات، ولذلك قال أبو سليمان: ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها، وفقنا الله لما يرضيه.

 ⁽١) حديث: «أذيبوا طعامكم بالصلاة والذكر ولا تناموا عليه فتقسو قلويكم» أخرجه الطبرائي وابن السني في اليوم والليلة
 من حديث عائشة بسند ضعيف.

بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه:

اعلم: أنّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط؛ إذ خير الأمور أوساطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومى، إلى أنّ الإقراط فيه مطلوب وهيهات، ولكن من أسرار حكمة الشريعة: أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه، على وجه يومى، عند الجاهل إلى أنّ المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان. والعالم يدرك أنّ المقصود الوسط، لأنّ الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإنّ من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية؛ فإنه إن أسرف مسرف في مصادة الطبع كان في الشرع أيضاً ما يدل على إساءته، كما أنّ الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصبام النهار، ثم لما علم النبي على من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه (١٠). فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الأفضل بالإضافة إلى الطبع المعتدل: أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم المجوع، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلاً، فإن مقصود الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، وثقل المعدة يمنع من العبادة، وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها. فالمقصود: أن يأكل أكلاً لا يبقى المأكول فيه أثر ليكون متشبها بالملائكة فإنهم مقدسون عن نقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان المأكول فيه أثر ليكون متشبها بالملائكة فإنهم مقدسون عن نقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان الماكون فيه أثر ليكون متشبها بالملائكة فإنهم مقدسون عن نقل الطعام وألم الجوع، وغاية الإنسان الاعتدال.

ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الأرض، فإنّ النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها. فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط، فلو ماتت ماتت على الوسط؛ لأنّ الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة، فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة، والملائكة خارجون عن تلك الحلقة، ولا مطمع للإنسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص، فأشبه أحواله بهم البعد، وأبعد المواضع عن الأطراف الوسط، فصار الوسط مطلوباً في جميع هذه الأحوال المتقابلة. وعنه عبر بقوله على الأمور أوساطهاه (٢٠)، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَصَّالُوا وَالْمَرُوا وَلَا تُسْرِقُوا ﴾ [الاعراف: ٣١] ومهما لم يحس الإنسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر، وخف في نفسه وقوي على العمل مع خفته، ولكن هذا بعد اعتدال الطبع.

أما في بداية الأمر: إذا كانت النفس جموحاً متشوقة إلى الشهوات مائلة إلى الإفراط فالاعتدال لا ينفعها، بل لا بد من المبالغة في إيلامها بالجوع، كما يبالغ في إيلام الدابة التي ليست مروضة بالجوع والفرب وغيره إلى أن تعتدل، فإذا ارتاضت واستوت ورجعت إلى الاعتدال ترك تعذيبها وإيلامها. ولأجل هذا السر يأمر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه، فيأمره بالجوع وهو

⁽١) حديث: النهي عن صوم الدهر كله وقيام الليل كله، تقدم.

 ⁽٢) حديث: فخير الأمور أوساطها أخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً، وقد تقدم.

لا يجوع، ويمنعه الفواكه والشهوات، وقد لا يمتنع هو منها، لأنه قد فرغ من تأديب نفسه فاستغنى عن التعديب. ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والامتناع عن العبادة كان الأصلح لها الجوع؛ الذي تحس بألمه في أكثر الأحوال لتنكسر نفسه. والمقصود: أن تنكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك الغذاء أيضاً إلى الاعتدال. وإنما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة: إما صدّيق وإما مغرور أحمق.

أما الصديق: فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم، واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع إلى الحق. وأما المغرور: فلظنه بنفسه أنه الصديق المستغني عن تأديب نفسه الظان بها خيراً. وهذا غرور عظيم وهو الأغلب. فإن النفس قلما تتأدب تأدباً كاملاً، وكثيراً ما تغتر فتنظر إلى الصديق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه، كالمريض ينظر إلى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك. والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير . في وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصوداً في نفسه . وإنما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال .: أن رسول الله على بكن له تقدير وتوقيت لطعامه.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم (١)، وكان يدخل على أهله فيقول: • هَلْ هِنْدَكُمْ مِنْ شَيْءٍ، فإن قالوا: نعم أكل، وإن قالوا: لا يصوم (١)، وكان يقدّم إليه الشيء فيقول: •أمّا إنّي قَدْ أَرَدْتُ الصَّوْمَ، ثم يأكل (٣)، وخرج ﷺ يوماً وقال: • إنّي صَائِمٌ، فقالت له عائشة رضي الله عنها: قد أهدي إلينا حيس فقال: • كُنْتُ أَرَدْتُ الصَّوْمَ وَلَكِنْ قَرْبِيهِ، (١).

ولذلك حكى عن سهل أنه قيل له: كيف كنت في بدايتك؟ فأخبر بضروب من الرياضات، منها أنه كان يقتات ورق النبق مدة، ومنها: أنه أكل دقاق التين مدّة ثلاث سنين، ثم ذكر أنه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له: فكيف أنت في وقتك هذا؟ فقال: آكل بلا حدّ ولا توقيت. وليس المراد بقوله بلا حدّ ولا توقيت: أني آكل كثيراً، بل أني لا أقدر بمقدار واحد ما آكله. وقد كان معروف الكرخي يهدى إليه طيبات الطعام فيأكل، فقيل له: إن أخاك بشراً لا يأكل مثل هذا؟ فقال: إن أخي بشراً قبضه الورع وأنا بسطتني المعرفة، ثم قال: إنما أنا ضيف في دار مولاي فإذا أطعمني أكلت وإذا جوعني صبرت، ما لي والاعتراض والتمييز؟ و ودفع إبراهيم بن أدهم إلى بعض إخوانه دراهم وقال: خذ لنا بهذه الدراهم زبداً وعسلاً وحبزاً حوارياً فقيل: يا أبا إسحاق، بهذا كله؟ قال: ويحك، إذا وجدنا أكلنا

⁽١) حديث عائشة: «كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم». متفق عليه.

 ⁽۲) حدیث: کان یدخل علی أهله فیقول: «هل عندکم من شيء؟» بإن قالوا: نعم أكل وإن قالوا: لا قال: «إني صائم»
 أحرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حدیث عائشة، وهو عند مسلم بنحوه کما سیأتي.

 ⁽٣) حديث: كان يقدم إليه الشيء فيقول: اأما إني كنت أريد الصوم؛ أخرجه البيهقي من حديث عائشة بلفظ: (وإن كنت قد فرضت الصومة، وقال: إسناده صحيح وعند مسلم: (قد كنت أصبحت صائماً).

 ⁽٤) حديث: خرج وقال: "إني صائم؟ فقالت عائشة: يا رسول الله قد أهدي إلينا حيس فقال: "كنت أردت المصوم ولكن قربيه؟ أخرجه مسلم بلفظ: اقد كنت أصبحت صائماً» وفي رواية له: اأدنيه فقد أصبحت صائماً» فأكل، وفي لفظ للبيهقي: "إني كنت أريد المصوم ولكن قربيه».

أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال. وأصلح ذات يوم طعاماً كثيراً ودعا إليه نفراً يسيراً فيهم الأوزاعي والثوري فقال له الثوري: يا أبا إسحاق: أما تخاف أن يكون هذا إسرافاً؟ فقال: ليس في الطعام إسراف، إنما الإسراف في اللباس والأثاث.

فالذي أخذ العلم من السماع والنقل تقليداً يرى هذا من إبراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار أنه قال: ما دخل ببتي الملح منذ عشرين سنة. وعن سري السقطي أنه منذ أربعين سنة يشتهي أن يغمس جزرة في دبس فما فعل. فيراه متناقضاً فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطىء. والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق؛ ولكن بالإضافة إلى اختلاف الأحوال، ثم هذه الأحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غبى مغرور. فيقول المحتاط: ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سري السقطى ومالك بن دينار، وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدى بهم. والمغرور يقول: ما نفسي بأعصى عليٌّ من نفس معروف الكرخي وإبراهيم بن أدهم فأقتدي بهم وأرفع التقدير في مأكولي، فأنا أيضاً ضيف في دار مولاي فما لي وللاعتراض؟ ثم إنه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض، وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمقي، بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم إلا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة، فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية، حتى يكون أكله إذا أكل على نية كما يكون إمساكه شية، فيكون عاملاً لله في أكله وإفطاره، فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضي الله عنه، فإنه كان يرى رسول الله ﷺ يحب العسل ويأكله (١)، ثم لم يقس نفسه عليه، بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الإناء في يده ويقول: أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها. اعزلوا عني حسابها، وتركها.

وهذه الأسرار لا يجوز لشيخ أن يكاشف بها مريده، بل يقتصر على مدح الجوع فقط، ولا يدعوه إلى الاعتدال فإنه يقصر لا محالة عما يدعوه إليه. فينبغي أن يدعوه إلى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال. ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغني عن الرياضة، فإن الشيطان يجد متعلقاً من قلبه فيلقي إليه كل ساعة: إنك عارف كامل، وما الذي فاتك من المعرفة والكمال. بل كان من عادة إبراهيم المخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها؛ كي لا يخطر بباله أن الشيخ يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته، والقوي إذا اشتغل بالرياضة وإصلاح الغير؛ لزمه النزول إلى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفاً في سياقتهم إلى السعادة. وهذا ابتلاء عظيم للأنياء والأولياء. وإذا كان الاعتدال خفياً في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغي أن لا يترك في كل حال. ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولحده عبدالله إذ دخل عليه فوجده بأكل لحماً مأدوماً بسمن، فعلاه بالدرة وقال: لا أم لك، كُلُ يوماً خبزاً ولينا، ويوماً خبزاً ولبنا، ويوماً خبزاً ولبنا، ويوماً خبزاً ولبنا، فاما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار. وهذا هو الاعتدال، فأما المواظبة على اللحم والشهوات فإفراط وإسراف، ومهاجرة اللحم بالكلية إقتار.

⁽١) حديث: «كان بحب العسل ويأكله»، متفق عليه من حديث عائشة: «كان يحب الحلواء والعسل،..» الحديث، وفيه قصة شربه العسل عند بعض نسائه.

بيان آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام:

اعلم: أنه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات:

إحداهما: أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها، ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها، فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة، وهذا هو الشرك الخفي. سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له: هل تعلم به بأساً؟ قال: يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة، وهذه آفة عظيمة، بل حق العبد إذا ابتلي بالشهوات وحبها أن يظهرها فإن هذا صدق الحال، وهو بدل عن فرات المجاهدات بالأعمال، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان، والكذب مع الإخفاء كذبان، فيكون مستحقاً لمقتين ولا يرضى منه إلا بتويتين صادقتين. ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّيْوِ النَّيْءِ النَّارِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْءِ النَّيْء النَّيْء النَّيْء الله بنظر الله سبحانه وتعالى إلى قلبه، وعظم نظر المخلوقين فمحا لكفر عن ظاهره، والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش والإخفاء. الكفر عن ظاهره، والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالزياء والغش والإخفاء. بل كمال العارف أن يترك الشهوات في تعالى ويظهر من نفسه الشهوة إسقاطاً لمنزلته من قلوب الخلق. وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين، وإنما يقصد به تبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب العافلين حتى لا يشوشون عليه حاله.

فنهاية الزهد: الزهد في الزهد بإظهار ضدّه، وهذا عمل الصدّيقين. فإنه جمع بين صدقين كما أن الأول جمع بين كذبين. وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرّعها كأس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه؛ فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا. وهذا يضاهي طريق من يعطي جهراً فيأخذ ويرد سراً ليكسر نفسه بالذل جهراً وبالفقر سراً. فمن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته إظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه، ولا ينبغي أن يغره قول الشيطان: إنك إذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره إصلاحاً لغيرك، فإنه لو قصد إصلاح غيره لكان إصلاح نفسه أهم عليه من غيره، فهذا إنما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض إصلاح غيره، فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه، واعلم: أن من اطلع عليه ليس يقتدى به في القعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات.

الآفة الثانية: أن يقدر على ترك الشهوات، لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات، فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الأكل، وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه، وتلك هي الشهوة الخفية فمهما أحس بذلك من نفسه فكسرُ هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام، فليأكل فهو أولى له. قال أبو سليمان: إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركاً لها فأصب منها شيئاً يسيراً ولا نعط نفسك مناها، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها، وقال جعفر بن محمد الصادق: إذا قدمت إليَّ شهوة نظرت إلى نفسي فإن هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها، وإن أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها، عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً. وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية.

وبالجملة: من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء، كان كمن هرب من عقرب وفزع إلى حية؛ لأن شهوة الرياء أضر كثيراً من شهوة الطعام. والله ولي التوفيق.

القول في شهوة الفرج:

اعلم: أن شهوة الوقاع سلطت على الإنسان لفائدتين:

إحداهما: أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة. فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد، كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد. والترغيب والترهيب يسوق الناس إلى سعادتهم وليس ذلك إلا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة، فإن ما لا يدرك بالذوق لا يعظم إليه الشوق.

الفائدة الثانية: بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها. ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا ان لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَبَنَا وَلا تُحَيِّلُنَا مَا لا طَاقَةً لَنَا بِينَ ﴾ [البَقْرَة: ٢٧٦] معناه شدة الغلمة، وعر ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِنِي إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفَلَق: ٣] قال: هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله ﷺ إلا أنه قال في تفسيره: الذكر إذا دخل. وقد قيل: إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله (١)، وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهُمُّ إِنِّي أَعُودُ بِكَ مِنْ شَرَّ سَمْعِي وَبَصَري وَقَلْبِي وَهَنِيٌ وَمَنِيٌ (١)، وقال عليه السلام: «النِّسَاءُ حَيَائِلُ الشَّيْطانِ وَلَوْلًا لَهْنِهِ الشَّهْوَةُ لَمَا كَانَ لِلنَّسَاءِ سَلَطَنَةٌ عَلَى الرَّجَالِ» (١).

روي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه؛ إذ أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً؛ فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه، ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسى، فقال له موسى: من أنت؟ فقال: أنا إبليس، فقال: لا حياك الله ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه، قال: فما الذي رأيت عليك؟ قال: برنس أختطف به قلوب بني آدم. قال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه. قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً: لا تخل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها، ثم ولى وهو يقول: علم موسى ما يحذر به بني آدم، وعن سعيد بن المسيب قال: ما بعث الله نبياً فيما خلا إلا لم ييأس إبليس أن يهلكه بالنساء، ولا شيء أخوف عندي منهن، وما بالمدينة بيت أدخله إلا ببتي وبيت ابنتي أغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح. وقال بعضهم: إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به قلا أخطىء، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي. فنصف جنده الشهوة، ونصف جنده جنده الشهوة، ونصف جنده بنده الغضب.

وأعظم الشهوات: شهوة النساء. وهذه الشهوة أيضاً لها إفراط وتفريط واعتدال، فالإفراط: ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء والجواري، فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر إلى اقتحام الفواحش. وقد ينتهي إفراطها بطائفة إلى أمرين شنيعين:

 ⁽١) حديث: ابن عباس موقوفاً مسنداً في قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ عَاسِقٍ إِدَا وَفَبَ ﴾ [الفَلَق: ٣]. وقال: هو قيام الدكر
 وقال الذي أسنده: الذكر إذا دخل. هذا حديث لا أصل له.

 ⁽٢) حديث: «اللهم إني أهوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهني ومني» تقدم في الدعوات.

⁽٣) حديث: «النساء حبائل الشيطان» أخرجه الأصفهائي في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الحهني بإسناد فيه حمالة

أحدهما: أن يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الاستكثار من الوقاع _ كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام _ وما مثال ذلك إلا كمن ابتلي بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الأوقات فيحتال لإثارتها وتهييجها ثم يشتغل بإصلاحها وعلاجها، فإن شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الإنسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص.

فإن قلت: فقد روي في غريب الحديث أن رسول الله على قال: اشكَوْتُ إلى جِبْرَاثِيلَ ضَعْفَ الوقَاعِ فَأَمْرَنِي بِأَكُلِ الهَرِيسَة، ؟ (١) فاعلم: أنه على تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالإمتاع، وحرم على غيره نكاحهن وإن طلقهن، فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع.

والأمر الثاني: أنه قد تنتهي هذه الشهوة ببعض الضلال إلى العشق، وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع، وهو مجاوزة في البهيمية لحد البهائم؛ لأن المنعشق ليس يقنع بإراقة شهوة الوقاع ـ وهي أقبع الشهوات وأجدرها أن يستحيا منه ـ حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضي إلا من محل واحد، والبهيمة تقضي الشهوة أين اتفق فتكتفي به؟ وهذا لا يكتفي إلا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلاً إلى ذل، وعبودية إلى عبودية، وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة ومحتالاً لأجلها، وما العشق إلا سعة إفراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا هم له. وإنما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر، وإلا فإذا استحكم عسر دفعه. فكذلك عشق المال والجاه والعقار والأولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج، فإن هذه الأمور قد تستولي على طائفة بحيث تنفص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها البتة.

ومثال من يكثر سورة العشق في أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب نتدخله، وما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها إلى ورائها. وما أعظم التفاوت بين الأمرين في اليسر والعسر، فليكن الاحتياط في بدايات الأمور، فأما في أواخرها فلا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد يكاد يؤدي إلى نزع الروح.

فإذن: إفراط الشهوة أن يغلب العقل إلى هذا الحد وهو مذموم جداً. وتفريطها: بالعنة أو بالضعف عن إمتاع المنكوحة، وهو أيضاً مذموم. وإنما المحمود أن تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع في انقباضها وانبساطها. ومهما أفرطت فكسرها بالجوع والنكاح. قال ﷺ: «مَعَاشِرَ الشَّبَابِ عَلَيْكُمْ بِالْيَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمُ لَهُ وِجَاءً،(٣).

بيان ما على المريد في ترك التزويج وفعله:

اعلم: أنّ المريد في ابتداء أمره ينبغي أن لا يشغل نفسه بالتزويج؛ فإنّ ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجرّه إلى الأنس بالزوجة. ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله، ولا يغرّنه كثرة

 ⁽۱) حديث: اشكوت إلى جبريل ضعف الوقاع فأمرني بأكل الهريسة، أخرجه العقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط
 من حديث حذيفة، وقد تقدم، وهو موضوع.

 ⁽۲) حديث: المعاشر الشباب من استطاع منكم النكاح فليتزوج.
 الحديث. تقدم في النكاح.

نكاح رسول الله ﷺ؛ فإنه كان لا يشغل قلبه جميع ما في الدنيا عن الله تعالى(١١)، فلا تقاس الملائكة بالحدادين. ولذلك قال أبو سليمان الداراني: من تزوّج فقد ركن إلى الدنيا. وقال: ما رأيت مريداً تزوّج فثبت على حاله الأول. وقيل له مرة: ما أحوجك إلى امرأة تأنس بها؟ فقال: لا آنسني الله بها، أي أن الأنس بها يمنع الأنس بالله تعالى، وقال أيضاً: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم. فكيف يقاس غير رسول الله ﷺ به؟ وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه إلى حدّ كان يخشى منه في بعض الأحوال أن يسري ذلك إلى قالبه فيهدمه. فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحياناً ويقُول: «كَلِّمِينِي يا عَائِشَةُ» لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه (٣)، فقد كان طبعه الأنس بالله عزّ وجلّ، وكان أنسه بالخلق عارضاً رفقاً ببلنه، ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم، فإذا ضاق صدره قال: «أرحنا بها يا بلال ا(٣)، حتى يعود إلى ما هو قرّة عينه (٤)، فالضعيف إذا لاحظ أحواله في مثل هذه الأمور فهو مغرور؛ لأن الأفهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله ﷺ. فشرط المريد العزبة في الابتداء إلى أن يقوى في المعرفة، هذا إذا لم تغلبه الشهوة فإن غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم، فإن لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلاً، وإن قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة، وإلا فمهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرق عليه همه، وربما وقع في بلية لا يطيقها. وزنى العين من كبائر الصغائر وهو يؤدي إلى القرب على الكبيرة الفاحشة وهي زنى الفرج. ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه. قال عيسى عليه السلام: إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفي بها فتنة. وقال سعيد بن جبير: إنما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة. ولذلك قال لابنه عليه السلام: يا بني، امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة. وقيل ليحيى عليه السلام: ما بدء الزني؟ قال: النظر والتمني. وقال الفضيل: يقول إبليس: هو قوسي القديمة وسهمي الذي لا أخطىء به ـ يعني النظر .. وقال رسول الله ﷺ: «النَّظْرَةُ سَهُمْ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَام إِبْلِيسَ فَمَنْ تَرَكُها خَوِفاً مِنَ اللَّه تَعَالَى أَعْطَاهُ اللَّ تَعَالَى إيماناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ (٥)، وقال ﷺ: ﴿مَا تَرَكُتُ بَعْدِي فِنْنَةً أَضَرُ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النُسَاءِ (١٠)، وقال عَيْدُ: التَّقُوا فِثْنَةً اللَّذُيا وَفِثْنَةَ النَّسَاءِ فَإِنَّ أَوَّلَ فِثْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنْ قِبَلِ النَّسَاءِ" ، وقال تعالى: ﴿ قُل لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُمُّواْ مِنْ أَنْصَدَرِهِمْ ﴾ [النُّور: ٣٠] الآية. وقال عليه السلام: ﴿ لِكُلِّ ابْنِ آدَمَ حَظٌّ مِنْ الزُّنَى فَالْمَيْنَانِ تَزْنِيانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيانِ وَزِنَاهُما البَّطْشُ، والرُّجُلانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا المَشْيُ،

 ⁽١) حديث: «كان لا يشغل قليه عن الله نعالى جميع ما في اللئبا». تقدم.

 ⁽٢) حديث: كان يضرب بده على فخذ عائشة أحباناً ويفول: «كلميني يا عائشة» لم أجد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: قارحنا بها يا بلاله تقدم في الصلاة.

 ⁽٤) حديث: (إن العبلاة كانت قرة عينه). نقدم أيضاً.

⁽٥) حديث: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. . ٤ الحديث، تقدم أيضاً،

⁽٩) حديث: هما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء، متفق عليه من حديث أسامة بن زيد.

حديث «انقوا فتنة العنيا وفئنة النساء قإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساءة أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدرى.

وَالْفَمُ يَزْنِي وَذِنَاهُ القُبْلَةُ، وَالْقَلْبُ يَهُمُّ أَوْ يَتَمَنّى وَيُصَلّقُ ذَٰلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذَّبُهُ (')، وقالت أم سلمة: استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله على وأنا وميمونة جالستان، فقال على أنه لا يجوز للنساء فقلنا: أوليس بأعمى لا يبصر؟ فقال: «وَأَنْتُما ألا تُبْصِرَانِهِ الآ؟ . وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة في المآتم والولائم، فيحرم على الأعمى المخلوة بالنساء، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى وتحديق النظر إليه لغير حاجة، وإنما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة، وإن قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به، فإن الشر في الصبيان أكثر، فإنه لو مال قلبه إلى امرأة أمكنه الوصول إلى استباحتها بالنكاح. والنظر إلى وجه الصبي بالشهوة حرام، بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الأمرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحي لم يحل له النظر إليه.

فإن قلت: كل ذي حسّ يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة، ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة؟ فأقول: لست أعني تفرقة العين فقط، بل ينبغي أن يكون إدراكه التفرقة كإدراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة، وبين ماء صاف وماء كدر، وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها، فإنه يميل إلى إحداهما بعينه وطبعه ولكن ميلاً خالياً عن الشهوة، ولأجل ذلك لا يشتهي ملامسة الأزهار والأنوار وتقبيلها، ولا تقبيل الماء الصافي، وكذلك الشبية الحسنة قد تميل العين إليها، وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها. ويعرف ذلك بميل النفس إلى القرب والملامسة، فمهما وجد ذلك الميل في قلب، وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والأثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام، وهذا مما يتهاون به الناس ويجرّهم ذلك إلى المعاطب وهم لا يشعرون.

قال بعض التابعين: ما أنا بأخوف من السبع الضاري على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس إليه، وقال سفيان: لو أنّ رجلاً عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطأ. وعن بعض السلف قال: سيكون في هذه الأمة ثلاثة أصناف لوطيون: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف وصنف يعملون.

فإذاً: آفة النظر إلى الأحداث عظيمة. فمهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له أن يكسر شهوته بالنكاح؛ فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع.

وقال بعضهم: غلبت على شهوتي في بدء إرادتي بما لم أطق فأكثرت الضجيج إلى الله تعالى، فرأيت شخصاً في المنام فقال: ما لمك؟ فشكوت إليه فقال: تقدّم إليّ، فتقدمت إليه فوضع يده على صدري فوجدت بردها في فؤادي وجميع جسدي، فأصبحت وقد زال ما بي فبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك فأكثرت الاستغاثة، فأتاني شخص في المنام فقال لي: أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك؟ قلت: نعم، فقال: مدّ رقبتك؟ فمددتها فجرّد سيفاً من نور فضرب به عنقي، فأصبحت وقد زال

 ⁽١) حديث: «لكل لبن آم حظه من الزني فالعيتان تزنيان. . . ٤ الحديث. أخرجه مسلم والبيهقي واللفظ له من حديث أبي
 هريرة، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس نحوه.

 ⁽٣) حديث أم سلمة: استأذن ابن أم مكتوم الأصمى وأنا وميمونة جالستان فقال: «احتجبا»، الحديث، أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حسن صحيح.

ما بي فبقيت معافى سنة، ثم عاودني ذلك أو أشد منه، فرأيت كأن شخصاً فيما بين جنبي وصدري يخاطبني ويقول: ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفعه؟ قال: فتزوجت فانقطع ذلك عني وولد لى.

ومهما احتاج المريد إلى النكاح فلا ينبغي أن يترك شرط الإرادة في ابتداء النكاح ودوامه، أما في ابتدائه فبالنية الحسنة، وفي دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة ـ كما فصلنا جميع ذلك في كتاب آداب النكاح فلا نطول بإعادته ـ، وعلامة صدق إرادته: أن ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية. قال بعضهم: من تزوج غنية كان له منها خمس خصال، مغالاة الصداق، وتسويف الزفاف، وفوت الخدمة، وكثرة النفقة، وإذا أراد طلاقها لم يقدر خوفاً على ذهاب مالها. والفقيرة بخلاف ذلك. وقال بعضهم: ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته: بالسنّ، والطول، والمال، والحسب، وأن تكون فوقه بأربع: بالجمال، والأدب، والورع، والخلق، وعلامة صدق الإرادة في دوام النكاح: الخلق.

تزوج بعض المريدين بأمرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك إلى أبيها وقالت: قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزله منذ سنين ما ذهبت إلى الخلاء قط إلا وحمل الماء قبلي إليه؟. وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدري، فاشتدّ حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها، فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد، ثم أراهم أن بصره قد ذهب، حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك، فقيل له في ذلك فقال: تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا، فقيل له: قد سبقت إخوانك بهذا الخلق. وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له: لم لا تطلقها؟ فقال: أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها. فإن تزوج المريد فهكذا ينبغي أن يكون، وإن قدر على الترك فهو أولى له، إذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم أن ذلك يشغله عن حاله، كما روي أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم، فكتب إلى أهل البصرة وعلماتها في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى. فكتب إليها: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الله تعالى قد ملكني من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم في كل يوم، وليس تمضي الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبيني. فكتبت إليه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابي هذا فهيّىء زادك وقدم لمعادك، وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك؛ فصم الدهر وليكن فطرك الموت. وأما أنا: فلو أن الله تعالى خولني أمثال الذي خوّلك وأضعافه ما سرني أن أشتغل عن الله طرفة عين .

وهذه إشارة إلى أن كل ما يشغل عن الله تعالى فهو نقصان، فلينظر المريد إلى حاله وقلبه فإن وجده في العزوبة فهو الأقرب، وإن عجز عن ذلك فالنكاح أولى به. ودواء هذه العلة ثلاثة أمور: الجوع، وغض البصر، والاشتغال بشغل يستولي على القلب. فإن لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذي يستأصل مادتها فقط. ولهذا كان السلف يبادرون إلى النكاح وإلى تزويج البنات، قال سعيد بن المسيب: ما أيس إبليس من أحد إلا وأتاه من قبل النساء، وقال سعيد أيضاً - وهو أبن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى -: ما شيء أخوف عندي من

النساء. وعن عبدالله بن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدني أياماً فلما أتيته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها. فقال: هلا أخبرتنا فشهدناها؟ قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، فحمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ قال: فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح؟ فصرت إلى منزلي وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصلبت المغرب وانصرفت إلى منزلي فأسرجت، وكنتُ صائماً فقدمت عشائي لأفطر ـ وكان خبزاً وزيتاً ـ وإذا بابي يقرع فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فأفكرت في كلِّ إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ـ وذلك أنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد _ قال: فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد لو أرسلت إليَّ لأتيتك؟ فقال: لا، أنت أحق أن تؤتى، قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رحلاً عزباً فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك، وهذه امرأتك، وإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب ورده؛ فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه؛ ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاؤوني وقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم زوّجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا: أو سعيد زوِّجك؟ قلت: نعم، قالوا: وهي في الدار؟ قلت: نعم، فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، قال: فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها؛ فإذا هي أجمل من النساء، وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق الزوج، قال: فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه؛ فلما كان بعد الشهر أتيته وهو في حلقته فسلمت عليه فرد عليُّ السلام ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس، فقال: ما حال ذلك الإنسان؟ فقلت: بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: إن رابك منه أمر فدونك والعصا. فانصرفت إلى منزلي فوجه إليَّ بعشرين ألف درهم. قال عبدالله بن سليمان: وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبدالملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبي سعيد أن يزوجه، فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف. فاستعجال سعيد في الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين إلى تطفئة نارها بالنكاح رضي الله تعالى عنه ورحمه.

بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين:

اعلم: أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الإنسان، وأعصاها عند الهيجان على العقل، إلا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه، وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها إما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه، وليس في شيء من ذلك ثواب؛ فإنه إيثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر. نعم، من العصمة أن لا يقدر ففي هذه العوائق فائدة وهي دفع الإثم، فإن من ترك الزنى اندفع عنه إثمه بأي سبب كان تركه؟ وإنما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفاً من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتبسر الأسباب، لا سيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين. ولذلك قال على الموانع الموانع وتبسر الأسباب، لا سيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين. ولذلك قال على الموانع الموانع وتبسر الأسباب، لا سيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين.

امَنْ عَشِقَ فَعَفٌ فَكَتَمَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ (١٠)، وقال عليه السلام: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم الله يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلَّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَ ظِلْهُ - وَعَدَّ منهم: رَجُلُّ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَحَسَبِ إِلَى نَفْسِهَا فَعَالَ إِنِّي عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَ ظِلْهُ - وَعَدَّ منهم: رَجُلُّ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَحَسَبِ إِلَى نَفْسِهَا فَعَالَ إِنِّي عَرْشِهِ يَوْمِ الله وَلَا الله وَلَا الله العَلَمُ وَامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة، وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز، وهو إمام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة.

وروي: أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها، وخرج هارياً من منزله وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهم ـ أشار إلى قُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدُ هَمَّتُ بِهِمْ وَهَمَّ بِهَا لَؤُلَّا أَن زَّمَا بُرْهَسَ رَبِّهِمْ ﴾ [يُوسُف: ٢٤] ـ، وعنه أيضاً ما هو أعجب من هذا: وذلك أنه خرج من المدينة حاجًا ومعه رفيق له حتى نزلا بالأبواء، فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق إلى السوق ليبتاع شيئاً، وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجمل الناس وجهاً وأورعهم، فبصرت به أعرابية من قلة الجبل وانحدرت إليه حتى وقفت بين يديه - وعليها البرقع والقفازان -، فأسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت: أهنئني؛ فظن أنها تريد طعامًا، فقام إلى فضلة السفرة ليعطيها فقالت: لست أريد هذا إنما أريد ما يكون من الرجل إلى أهله؟ فقال: جهزك إليَّ إبليس؟ ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في النحيب فلم يزل يبكي، فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها. وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال: ما يبكيك؟ قال: خيرٌ، ذكرت صبيتي. قال: لا والله إلا أن لك قصة إنما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها، فلم يزل به حتى أخبره خَبر الأعرابية، فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديداً، فقال سليمان: وأنَّت ما يبكيك؟ قال: أنا أحق بالبكاء منك لآني أخشى أن لو كنت مكانك لما صبرت عنها، فلم يزالا يبكيان، فلما انتهى سليمان إلى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر، فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام، وإذا رجل وسيم طويل، له شارة حسنة ورائحة طيبة، فقال له سليمان: رحمك الله من أنت؟ قال له: أنا يوسف، قال: يوسف الصدّيق؟ قال: نعم، قال: إن في شأنك وشأن امرأة العزيز لعحباً. فقال له يوسف: شأنك وشأن صاحبة الأبواء أعجب.

وروي عن عبدالله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: النّطَلَقَ لَلاللهُ نَفَر مِمَّنُ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ المَبِئِ إِلَى خَارِ فَلَخَلُوا فَانْحَلَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبِّلِ فَسَدَّتْ حَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالُوا إِنَّهُ لا يَنْجِيكُمْ مِنْ لَمَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَ أَنْ تَدْعُوا اللهُ تَعَالَى بِصَالِح أَصْمَالِكُمْ فَقَالُ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبُوانِ شَيْخُانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلا مَالاً، فَقَالَى بِي طَلَبُ الشَّجْرِ يَوْماً فَلَمْ أَنْ عَلَيْهِمَا أَهُلاً وَلا مَالاً، فَقَالَى بِي طَلَبُ الشَّجْرِ يَوْماً فَلَمْ أَنْ عَلَيْهِمَا أَهُلاً وَلا مَالاً، فَقَالَى بِي طَلَبُ الشَّجْرِ يَوْماً فَلَمْ أَنْ عَلَيْهِمَا عَبُولُهُمَا وَحَبْلُهُمْ وَالقَدَحُ فِي خَتْنَ فَامَا فَاللهُ وَمَالاً، فَلَيْتُ وَالقَدَحُ فِي النَيْظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا خَشِّى طَلَعَ الفَجْرُ وَالصَّبْهَةُ يَتَضَاعُونَ حَوْلَ قَدْمِي فَاسْتَيقَظَا فَشَرِيَا غَبُومَهُما، اللَّهُمَّ إِنْ

⁽١) حديث: امن عشق فعف فكتم فمات فهو شهيده أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس وقال: أنكر على سويد بن سعيد، ثم قال: يقال إن يحيى لما ذكر له هذا الحديث قال: لو كان لي فرس ورمح غزوت سويداً، ودواه الخرائطي من غير طريق سويد بسند فيه نظر.

⁽٢) حديث: اسبعة يظلُّهم الله في ظله. . . الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم،

كُنْتُ فَعَلْتُ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرْجُ عَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَلْهِ الصَّحْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْعًا لا يَسْتَطِيعُونَ النَّحُرُوجَ مِنْهُ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمُّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنْه كَانَ لِي ابْتَةُ عَمَ مِنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَرَاوَذُنُهَا عَنْ نَفْسِها فَامَتَتَعْتَ مِنِي، حَتَّى إِنَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: اتَّى الله وَلا تَفْضَ الْخَاتَمَ إِلاَ بِحَقْهِ، فَتحَرَّجْتُ مِنَ الرُقُوعِ عَلَيْهَا فَافْمَرَنْتُ عَنْهَا وَهِيَ مِنْ أَحَبُ النَّسِ إِلَيْ وَثَرَكْتُ اللَّهِمِّ الْخَاتَمَ إِلاَ بِحَقْهِ، فَتحَرَّجْتُ مِنَ الوَقُوعِ عَلَيْهَا فَافْمَرَنْتُ عَنْهَا وَهِيَ مِنْ أَحَبُ النَّاسِ إِلَيْ وَثَرَكْتُ اللَّهَمِّ الذِي أَصْطَيعُونَ النَّهُمُ إِنْ كُنْتُ فَعَلَنْهُ اللهُمُّ إِنِي اسْتَأْجُرْتُ أَجَرًاءَ وَأَصْطَيتُهُمْ أَجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهُ مَرَكُ اللّهُمُّ إِنِي اسْتَأْجُرْتُ أَجْرَاءَ وَأَصْطَيتُهُمْ أَجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ النَّحُرُوجَ مِنْها. وقَالَ النَّالِكُ: اللَّهُمُّ إِنِي اسْتَأْجُرْتُ أَجْرَاءَ وَأَصْطَيتُهُمْ أَجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهُ مَنْ الْمُرْقِي الْمُنْ الْمُ وَالْمَوْلَ مَا فَعُرَاتُ مِنْ اللَّهُمْ الْهُمْ إِنْ كُنْتُ فَعَلْمُ اللهُ أَنْ فَيْرَكُ مِنْ الْجُولِ وَالْمَقِلِي وَالْمَوْلَ مِنْ اللهِمْ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْيَعَاء وَجْهِكَ فَفَرْجُ عَنَا ما نَحْنُ فَيَاتُكُ اللّهُ الْمُنْ وَالْمَالُونُ اللّهُ الْمُولُ وَالْمُولُ وَالْمُولَ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللهُ الللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللهُ الللّهُ

فهذا فضل من تمكن من قضاء هذه الشهوات فعف، وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين، فإن العين مبدأ الزني فحفظها مهم، وهو عسر من حيث إنه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه، والإَفات كلها منه تنشأ. والنظرة الأولى إذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها. قال ﷺ: ﴿ لَكَ الأُولَى وَعَلَيْكَ الثَّانِيَةُ ١٤٠٠، أي النظرة. وقال العلاء بن زياد: لا تتبع بصرك رداء المرأة فإن النظر يررع ني القلب شهوة، وقلما يخلو الإنسان في ترداده عن وقوع البصر على النساء والصببان. فمهما تخايل إليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة، وعنده ينبغي أن يقرر في نفسه أن هذه المعاودة عين الجهل، فإنه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل له إلا التحسر، وإن استقبح لم يلتذ وتألم لأنه فصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وعن تحسر. ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات، فإن أخطأت عينه وحفظ الفرج مع التمكن فذلك يستدعي غاية القوة ونهاية التوفيق. فقد روي عن أسي بكر بن عبدالله المزني: أن قُصاباً أولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقائت له: لا تفعل لأنا أشدّ حباً لك منك لي ولكني أخاف الله، قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه!. فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد يهلك فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله فقال: ما لك؟ قال: العطش. قال: تعال حتى ندعو الله بأن تظلنا سحابة حتى ندخل القرية، قال ما لي من عمل صالح فأدعو، فادع أنت، قال: أنا أدعو وأمن أنت على دعائي فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهما سحابة حتى انتهيا إلى القرية، فأخذ القصاب إلى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول: زعمت أن ليس لك عمل صالح وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك، لتخبرني بأمرك، فأخبره فقال الرسول: إن التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه.

⁽١) حديث ابن عمر: القطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار... • فذكر الحديث بطوله، رواه البخاري.

 ⁽٧) حديث: «لك الأولى ولبست لك الثانية» أي النظرة. أخرجه أبو داود والترمذي من حديث بريدة. قاله لعلي، قال الترمذي: حديث غريب.

وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شاب متعبد، لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه، وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغَّفت به وطال عليها ذلك، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد فقالت له: يا فتي، اسمع مني كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت، فمضى ولم يكلمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له: يا فتى، اسمع مني كلمات أكلمك بها، فأطرق ملياً وقال لها: هذا موقف تهمة وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً، فقالت له: والله ما وقفت موقفي هذا جهالة مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوّف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حملني على أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شيء يعيبها، وجملة ما أقول لك: إن جوارحي كلها مشغولة بك، فالله الله في أمري وأمرك، قال: فمضى الشاب إلى منزله وأراد أن يصلي فلم يعقل كيف يصلي، فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة في موضعها فألقى الكتاب إليها ورجع إلى منزله، وكان فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلمي أيتها المرأة: أن الله عزَّ وجلِّ إذا عصاه العبد حلم، فإذا عاد إلى المعصية مرة أخرى ستره، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجيال والشجر والدواب فمن ذا يطيق غضبه؟ فإن كان ما ذكرت باطلاً فإني أذكرك يوماً تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال كالعهن، وتجثوا الأمم لصولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضعفت عن إصلاح نفسي فكيف بإصلاح غيري؟ وإن كان ما ذكرت حقاً فإني أدلك على طبيب هدى يداوي الكلوم الممرضة والأوجاع المرمضة، ذلك الله رب العالمين فاقصديه بصدق المسألة فإني مشغول عنك بقوله تعالى: ﴿ وَأَندِرْهُمْ بَوْمَ ٱلْآَزِهَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْمُنَاجِرِ كَظِيمِينَ مِنَا لِلظَّالِلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَّا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۞ بَعْلَمُ خَآيِنَةَ ٱلْأَعْبُو وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۞﴾ [غَافر: ١٩٠١٨]، فأين المهرب من هذه الآية؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله كيلا يراها فقالت: يا فتى، لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا خداً بين يدي الله تعالى، ثم بكت بكاء شديداً وقالت: أسأل لك الله الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عسر من أمرك، ثم إنها تبعته وقالت: امنن على بموعظة أحملها عنك وأوصني بوصية أعمل عليها، فقال لها: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأذكرك قوله تعالى: ﴿ وَهُو الَّذِي يَتُونَاكُم بِالَّيْلِ وَيَمْلَهُمْ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الانتام: ٦٠] قال: فأطرقت وبكت بكاء شديداً أشدٌ من بكائها الأول، ثم إنها أفاقت ولزمت بيتها، وأخذت في العبادة فلم نزل على ذلك حتى ماتت كمداً، فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكي، فيقال له: مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك؟ فيقول: إنى قد ذبحت طمعها في أول أمرها، وحملت قطيعتها ذخيرة لي عند الله تعالى، فأنا أستحي منه أن أسترد ذُخيرة ادخرتها عنده تعالى.

تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أفات اللسان، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء وسلم تسليماً كثيراً.

بنسب ألغر الكنب التصد

كتاب آفات اللسان

وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وعدله، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمّله، وعلمه البيان فقدمه به وفضله، وأفاض على قلبه خزائن العلوم فأكمله، ثم أرسل عليه ستراً من رحمته وأسبله، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله، ويكشف عنه ستره الذي رسله، وأطلق بالحق مقوله، وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله، من علم حصله ونطق سهله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه وبجله، ونبيه الذي أرسله بكتاب أنزله، وأسمى فضله وبين سبله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن قبله، ما كبر الله عبد وهلله.

أما بعد: فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه؛ إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان؛ وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحدّ، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان؛ سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار؛ إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعِلْمُ ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان. ونحن ـ بتوفيق الله وحسن تدبيره ـ نفصل مجامع آفات اللسان، ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها، ونعرّف طريق الاحتراز عنها، ونورد ما ورد من الأخبار

والآثار في ذمها. فنذكر أولاً فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعني، ثم آفة فضول الكلام، ثم آفة الخوض في الباطل، ثم آفة المراء والجدال؛ ثم آفة الخصومة، ثم آفة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والقصاحة والتصنع فيه، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المذعين للخطابة، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، ثم آفة الغناء بالشعر ـ وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل قلا نعيده ـ ثم آفة المزاح، ثم آفة السخرية والاستهزاء، ثم آفة إفشاء السر، ثم آفة الوعد الكاذب، ثم آفة الكذب في القول واليمين، ثم بيان التعاريض في الكذب، ثم آفة الغيبة، ثم آفة النميمة، ثم آفة ذي اللسانين؛ الذي يتردد بين المتعاديين فيكلم كل واحد بكلام يوافقه، ثم آفة المدح، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بأصول الدين، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عزّ وجل وعن كلامه وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة؟ وهي آخر الآفات وما يتعلق بذلك، وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت:

كتاب آفات اللسان

 ⁽۱) حليث: قمن صمت نجاة أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن همرو بسند فيه ضعف، وقال: غريب، وهو عند الطبراني بسند جيد.

 ⁽۲) حديث: المصمت حكمة وقليل فاعله أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر سند ضعيف،
 والبيهةي في الشعب من حديث أنس بلفظ: (حكم) بدل (حكمة وقال: غلط فيه عثمان بن سعد، والصحيح رواية ثابت قال: والصحيح عن أنس أن لقمان قال: ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء بسد صحيح إلى أنس.

 ⁽٣) حديث سفيان الثقفي: «أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك...» الحديث. أخرجه الترمذي وصححه،
 والنساني وابن ماجه، وهو عند مسلم دون آخر الحديث الذي فيه ذكر اللسان.

⁽٤) حديث عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسائك. . . • الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن.

⁽٥) حديث سهل بن سعد: قمن يتوكل لي بما بين لحبيه ورجليه أتوكل له بالجنة، رواه البخاري.

 ⁽٦) حديث: امن وقي شر قبقبه وذبائبه ولقلقه. . .٤ الحديث، أخرجه أبو منصور الديلني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ: افقد وجيت له الجنه».

\$49V}

والمذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق، ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر أفة الشهوتين البطن والفرج، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: اتَقْوَى الله وَحُسنُ الخُلُقِ، وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال: «الأَجْوَفَانِ: الفّمُ وَالْفَرْجُ،(١٠). فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه؛ فقد قال معاذ بن جبل: قلت: يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: ﴿ تُكِلُّنُكَ أَمُّكَ بِهَا الْبِنَّ جَبُل وَهَلْ يَكِبُ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ ٱلْسِنَتِهِمْ؟) *) . وقال عبدالله النقفي: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، فقال: ﴿قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ ۖ قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليُّ؟ فأخذ بلسانه وقال: «هذاه" . وروي أن معاذاً قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه(٤) . وقال أنس بن مالك: قال ﷺ : ﴿ لَا يُسْتَقِيمُ إيمانُ العَبْدِ حَتْى يَسْتَقِيمَ قُلْبُهُ ولا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ الجَنْةَ رَجُلُ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ ﴿ ۖ ﴾ ، وقال ﷺ ِ امَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْلُمَ فَلْيَلْزَم الصَّمْتَ اللَّهُ ، وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه · قال : ﴿إِذَا أَصْبَعَ الْبُنُ آدَمَ أَصْبَحْتِ الْأَغْضَاءُ كُلُّهَا تُذَكِّرُ اللَّسَانَ أَيْ تَقُولُ اتَّقِ الله فِينا فَإِنَّكَ إِنِ اسْتَقَمْتُ اسْتَقَمْتُ وَإِنِ اهْوَجَجْتُ آهْوَجَجْنَاه (٧) . وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيئه فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: هذا أوردني الموارد، إن رسول الله على قال: المنش شيء مِنَ الجَسَدِ إلَّا يَشْكُو إلَى الله اللَّسَانَ عَلَى حِدَّتِهِا (١٠). وعن ابن مسعود أنه كان على الصما يلبي ويقول: يا لسان: قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم، فقيل له:

١) حديث: •سئل عن أكثر ما يدخل الجنة. . . ا الحديث. أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

٢) حديث معاذ: قلت: يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «لكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا
 حصائد ألسنتهم» أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٣) حديث هبدالله الثقفي: اقلت: يا رسول الله حدثني بأمر أهتصم به. ، ، ، ، الحديث. رواه النسائي. قال ابن عساكر: وهو خطأ والصواب سفيان بن عبدالله الثقفي كما رواه الترمذي وصححه ابن ماجه، وقد تقدم قبل هذا بخمسة أحاديث.

 ⁽٤) حديث: اإن معاذاً قال: يا رسول الله، أي الأحمال أفضل؟ فأخرج لسانه ثم وضع يده عليه». أخرحه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصحت قال: «أصبعه» مكان «يده».

حدیث أنس: «لا یستظیم ایمان عبد حتی بستقیم قلبه» ولا یستقیم قلبه حتی بستقیم لسانه. . . ۱ الحدیث. أخرجه ابن أبي الدنیا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند فیه ضعف.

 ⁽٩) حديث: (من سره أن يسلم فليلزم الصمت أخرجه إبر أبي الدنيا في الصمت، وأبو الشيخ في فضائل الأعمال،
 والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف.

 ⁽٧) حديث: قإذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان. . الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رفعه، ووقع في الإحياء عن سعيد بن جبير مرفوعاً وإنما هو عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد رفعه، ورواه الترمذي موقوفاً على عمار بن زيد وقال: هذا أصبع.

⁽٨) حديث: إن عمر اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه فقال: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: إن هذا أوردني المموارد، إن رسول الله ﷺ قال: وليس شيء من البجسد إلا يشكو إلى الله عز وجل اللسان على حدته أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وأبو يعلى في مسنده، والدارقطني في العلل، والبيهقي في الشعب من رواية أسلم مولى عمر، وقال الدارقطني: إن المرفوع وهم على الدراوردي قال: وروي هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له.

يا أبا عبدالرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: اإنَّ أَكْثَرَ خَطَايا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ (١). وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: امَنْ كَفَّ لِسَاتَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ مَلَكَ خَطَايا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ وَمَنْ اعْتَلَرَ إِلَى اللهُ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ (٢). وروي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله الوصني قال: الفُبْدُ الله كَأَنَكَ تَرَاهُ وَعُدْ تَفْسَكَ فِي المَوْتَى وَإِنْ شِئْتَ ٱلْبَأَتُكَ بِمَا هُوَ أَمْلَكُ لَكَ مِنْ هُذَا كُلُهِ ، أوصني قال: الفَبْد الله كَأَنَكَ تَرَاهُ وَعُدْ تَفْسَكَ فِي المَوْتَى وَإِنْ شِئْتَ ٱلْبَأَتُكَ بِمَا هُوَ أَمْلَكُ لَكَ مِنْ هُذَا كُلُهِ ، وأشار ببده إلى لسانه (٣)، وعن صفوان بن سليم (١) قال رسول الله ﷺ: وألا أُخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ العِبَادَةِ وَأَهْوَبِها عَلَى البَلَنِ. الصَّمْتُ وَحُسُنُ الخُلُقِ اللهُ (٠).

 ⁽١) حديث ابن مسعود: أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم، وفيه مرفوعاً: ﴿إِنْ أَكثر خطاباً بني آدم
 في لسانه، أخرجه الطبراني، وابن أبي الدنيا في الصمت، والبيهقي في الشعب بسند حسن.

 ⁽٢) حديث أبن عمر: (من كف لساله ستر الله حورته) الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن.

 ⁽٣) حديث: إن معاذاً قال أوصني قال: هعبد الله كأنك ثراه. . . ١ الحديث، أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني
ورجاله ثقات، وفيه انقطاع.

 ⁽٤) واحد من الذين جمعوا القرآن، شهد فتح دمشق، وفتح مصر، وولاه معاوية عليها، غزا جزيرة «رودس» سنة سبع وأربعين.

 ⁽٥) حديث صفوان بن سليم مرفوعاً: «ألا أخيركم بأيسر العبادة والهونها على البلان: الصمت وحسن المخلل؟ أخرجه ابن أبي
 الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات، ورواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين من حديث أبي ذر وأبي الدرداء أيضاً مرفوعاً.

⁽٦) حديث أبي هريرة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت» منفق عليه.

 ⁽٧) حديث الحسر: ذكر لنا أن رسول الله على قال الرحم الله عبداً تكلم فغنم أو سكت فسلما أخرجه ابن أبي الدنيا في
 الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند فيه ضعف فإنه من روابة إسماعيل بن عياش عن الحجازيين.

 ⁽A) حديث البراء: جاء أعرابي فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة قال: «أطعم الجائع»، الحديث، أخرجه ابن أبي
 الدنيا بإسناد جيد،

 ⁽٩) حديث: «اخزن لسائك إلا من خير...» الحديث. أخرجه الطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وله في المعجم الكبير، ولاين حيان في صحيحه نحوه من حديث أبي ذر.

 ⁽١٠) حديث: اإذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً قادتوا منه فإنه بلقن الحكمة؟ أخرجه ابن ماجه من حديث أبي خلاد بلفظ:
 اإذا رأيتم الرجل قد أمطي زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقي الحكمة؟ وقد تقدم.

⁽١١) حديث أبن مسعود: «التأس ثلاثة: غانم وسالم وشاحب. . .» الحديث. أخرجه الطبراني وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «المجالس»، وضعفه ابن عدي ولم أجده. «ثلاثة» من حديث ابن مسعود.

وقال عليه السلام: «إنَّ لِسَانَ المُؤْمِنِ وَرَاءَ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِشَيءٍ تَلَبَّرُهُ بِقَلْبِهِ ثُمَّ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ، وَإِنْ لِسَانَ المُنَافِقِ، وَإِنْ لِسَانَ المُنَافِقِ أَمَامَ قَلْبِهِ، فَإِذَا هَمَّ بِشَيءٍ أَمْضَاهُ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَتَلَبَّرُهُ بِقَلْبِهِ، (). وقال عيسى عليه السلام: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت وجزء في الفرار من الناس. وقال نبينا ﷺ: «مَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَتُ ذُنُوبُهُ، وَمَنْ كَثُرَتُ ذُنُوبُهُ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ، (٢).

الآثار: كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان بشير إلى نسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال عبدالله بن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان، وقال طاوس: لساني سبع إن أرسلته أكلني. وقال وهب بن منبه: في حكمة آل داود؛ حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه مقبلاً على شأته. وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا بالبسير، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشدٌ على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لساته على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت فقال له: مالك يا أبا بحر لا تتكلم؟ فقال له: أخشى الله إن كذبت، وأخشاك إن صدقت. وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك؟ ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل، وقال الأخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني، وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقيل: أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة. وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً؛ فكل ما تكلم به كتبه، ثم يحاسب نفسه عند المساء.

فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟ فاعلم: أن سببه كثرة آقات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والمفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك المورات. فهذه آفات كثيرة وهي سباقة إلى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان؛ فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم ـ كما سيأتي تفصيله ـ، ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة، والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة، فقد قال الله تعالى: ﴿ مَا يَلْهِ طُولُ إِلَّا لَدُيُهِ رَفِيتُ عَيّدٌ ﴿ وَالْهِ اللهُ عَلَى اللهُ عَالَى اللهِ عَلَى اللهُ اللهُ عَالَى اللهُ عَال

حديث: (إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه. . . ٩ الحديث. لم أجده مرفوحاً، وإنما رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية الحسن البصري قال: «كانوا يقولون».

العديث: المن كثر كلامه كثر صقطه. .٤ الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف. وقد رواه أبو خاتم بن حبان في روضة العقلاء، والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بن الخطاب.

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر؛ وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة،

أما الذي هو ضرر محض فلا بدّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر.

وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه؛ فيكون الإنسان به مخاطراً. ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره علم قطعاً أن ما ذكره على هو فصل الخطاب حيث قال: فمن ضمَتَ نَجَاء (۱)، فلقد أوتي والله عواهر الحكم قطعاً وجوامع الكلم (۱)، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء، وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحترار عنها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى. ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدىء بأخفها ونترقى إلى عنها ما يعرفك ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول، وهي عشرون آفة. فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك:

اعلم: أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه، ولا على مسلم أصلاً، إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسائك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من تفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك. فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراتاً مبيناً. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه، فإنه وإن عبرة ونطقه إلا ذكراً (من الكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً (من الأخرة فقد ضيع رأس مال العبد أوقاته؛ ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله. ولهذا قال النبي هذا فيل حُسْنِ إسلام المَرْء تَرْكُهُ ما لا يغييه ما لا يغيه على منا يوم أحد فوجدنا على بطنه عبراً مربوطاً من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت: هنيناً لك الجنة يا بني، فقال هذا قال الله عن وجهما القراب وقالت: هنيناً لك الجنة يا بني، فقال الله قال النبي مورة من الحورة مسحت أمه عن وجهه التراب وقالت: هنيناً لك الجنة يا بني، فقال الله قال النبي مورة من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت: هنيناً لك الجنة يا بني، فقال الله قال النبي المورة عن الجورة مربوطاً من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت: هنيناً لك الجنة يا بني، فقال الله قال النبي المورة عن المورة عن وجهه التراب وقالت المناس المها المورة عن المورة عن وجهه التراب وقالت النبي الكورة عنه المال المورة عن المورة عن وجهه التراب وقالت المورة عنه المال المالة عن وجهه التراب وقالت المالة عن وجهه التراب وقالت المورة عن المورة عن المالة عن وجهه التراب وقالت المالة عن وجهه التراب وقالت المالة عن وجهه التراب وقالت المالورة عن وجها التراب وقالت المالة عن وجها التراب والماله المالة المالة

⁽١) حديث: امن صمت نجاة تقدم.

 ⁽۲) حديث: (ﷺ أوتي جوامع الكلم أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

الأفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك

 ⁽٣) حديث: «المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عيرة ونطقه إلا ذكراً» لم أجد له أصلاً، وروى محمد بن ذكريا العلائي أحد الضعفاء عن أبن عائشة عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ونظري عبرة».

 ⁽٤) حديث : قمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه أخرجه الترمذي وقال : غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

يُلْرِيكِ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لا يَعْنِيهِ وَيَمْنَعُ مَا لا يَضْرُهُ؟؟"، وفي حديث آخر: أنّ النبي ﷺ فقد كعباً فسأل عنه فقالوا: مريض. فخرج يمشي حتى أتاه فلما دخل عليه قال: ﴿أَبْشِرُ يَا كَغُبُ، فَقَالَت أَمَّهُ: هنيثاً لك الجنة يا كعب فقال ﷺ: "مَنْ لهٰذِهِ المُتَأَلِّيَةُ عَلَى الله، قال: `هِي أَمِي يا رسول الله، قال: "وَمَا يُدْرِيكِ يا أمَّ كُمْبٍ لَعَلْ كُمْباً قالَ ما لا يَعْنِيهِ أَوْ مَتَعَ مَا لا يُغْنِيهِ، (٢)، ومعنَّاه: أنه إنما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلمُ فيما لا يعنيه حوسب عليه، وإنَّ كان كلامه في مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع مِن العذاب. وعن محمد بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ لَهٰذَا البّاب رَجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ". فدخل عبدالله بن سلام فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فأخبروه بذلك وقالوا: أُخبرُنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به فقال: إنى لضعيف، وإن أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني (٢). وقال أبو ذرّ: قال لي رسول الله ﷺ: ﴿ أَلَا أَعَلَمُكَ بِعَمَلِ خَفِيفٍ عَلَى البَكنِ ئَقِيلِ فِي الْمِيزَانِ؟٩ قلت: بلى يا رسول الله قال: «هُوَ الصَّمْتُ وَحُسْنُ النَّحُلُق وَتَمْرُكُ ما لا يَغنيكَ»^(١)، وقالُ مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: خمس لهنّ أحب إليَّ من الدهم الموقوفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا أمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإنَّ الحليم يقليك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام. وقبل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمرٌ أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني. وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعرض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك: أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال ولا مال، مثاله. أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجب منه من مشايخ البلاد ووقائعهم. فهذه أمور لو سكت عنها لم

⁽١) حديث: «استشهد منا خلام يوم أُحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع. ٤٠ الحديث، وفيه: «لعله كان يتكلم يما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره أخرجه الترمدي من حديث أنس مختصراً وقال: غريب، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت بلفظ المصنف بسند ضميف.

⁽٢) حديث: «أن النبي ﷺ فقد كعباً فسأل عنه فقالوا: مريض. ١٠٠ الحديث. وفيه: «لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه». أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث كعب بن عجرمة بإسناد جيد إلا أن الظاهر انقطاعه بين الصحابي وبين الراوي عنه.

 ⁽٣) حديث محمد بن كعب: «إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة» فدخل عبدالله بن سلام الحديث.
 وفيه: «إن أوثق ما أرجوه سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني». أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً. وفيه أبو نجيح اختلف فيه.

 ⁽٤) حديث أبي نز: «ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن. . . ١ الحديث. وفيه. «هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك» أخرجه ابن أبي اللنيا بسند منقطع.

تأثم ولم تستضر، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك . وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها؟ ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرّق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات. فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا، كان كاذباً، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه. فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حبلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه. وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له: ماذا تقول؟ وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول: من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكذت السبب فيه. . . وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها، والمسؤول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري؛ فيجيب عن غير بصيرة.

ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعني هذه الأجناس، فإنّ هذا يتطرّق إليه إثم أو ضرر. وإنما مثال ما لا يعني: ما روي أنّ لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال: نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله، أي حصل العلم به من غير سؤال، فاستغنى عن السؤال، وقيل: إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال. فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب هو مما لا يعنى، وتركه من حسن الإسلام؛ فهذا حدّه.

وأما سببه الباعث عليه: فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وعلاج ذلك كله: أن يعلم أن الموت بين بديه وأنه مسؤول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين. هذا علاجه من حيث العلم، وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جداً.

الآفة الثانية: فضول الكلام:

وهو أيضاً مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإنّ من يعنيه أمر: يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره. ومهما تأذى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ـ أي فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم ـ لما سبق ـ، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. قال عطاء بن أبي رباح: إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعذون فضول الكلام، وكانوا يعذون فضول الكلام، منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون أنّ عليكم حافظين، كراماً

كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عنيد، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه. وعن بعض الصحابة قال. إنّ الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الطمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً. وقال مطرف: ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تدكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: اللهم اخزه وما أشبه ذلك.

واعلم: أنّ فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى قال الله عزّ وجلّ: ﴿ الله حَيْرُ فِي صَحَيْرِ مِن نَجْوَنهُمْ إِلّا مَن أَمَر بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُونِ أَوْ إِصَلَيْجٍ بَيْنَ النّايِن ﴾ [النّساء: ١١٤] وقال ﷺ: الحُوبَى لِمَن أَمْسَكَ الفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ وَأَنْفَقَ الفَضْلَ مِنْ مَالِهِ (١٠) ، فانظر: كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان، وعن مطرف بن عبدالله عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر فقالوا: أنت والذنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغرّاء، وأنت وأنت فقال: القُولُوا قَوْلَكُمْ وَلا يَسْتَهُويَنَكُمُ الشَّيْطَانُ (١٠) ، أشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فبخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ولو بالصدق فبخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم؛ حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب حتى إن الرحل ليسكت ابنه فيقول، أبتاع لك كذا وكذا؟ فيكتب كذاباً . وقال الحسن: يا ابن الكلام ليكتب حتى إن الرحل ليسكت ابنه فيقول، أبتاع لك كذا وكذا؟ فيكتب كذاباً . وقال الحسن: يا ابن آم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك، فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل .

وروي: أنّ سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه ، فأخبروه بأنه مرّ في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه . فسأله سليمان عن ذلك فقال : عجبت من الملاثكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون! ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون! . وقال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والفاجر إنما لسانه رسلا ، وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذب نفسه . وقال عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي على فأكثر ، فقال له يكل : (فكم دُونَ لِسَائِكَ مِنْ حِجَاب؟ الله فقال : شفتاي وأسناني ، قال : ها أوتي رجل شراً من فضل في لسانه . وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه فاستهتر في الكلام ثم قال : ما أوتي رجل شراً من فضل في لسانه . وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه فاستهتر في الكلام ثم قال : ما أوتي رجل شراً من فضل في لسانه . وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه : إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : إدا كان الرجل في مجلس عليه : إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : إدا كان الرجل في مجلس عليه الحديث فليسكت ، وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب : من فتنة فأعجبه الحديث فليسكت ، وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب : من فتنة

الآفة الثانية: فضول الكلام

⁽١) حديث: «طويى لمن أمسك الفضل من لسائه وأنفق الفضل من ماله» أخرجه البنوي وابن قانع في معجمي الصحابة، والبيهةي من حديث ركب المصري، وقال ابن عبدالسر: إنه حديث حسن. وقال البغوي: لا أدري سمع من النبي ﷺ أم لا. وقال ابن منده: مجهول لا نعرف له صحبة، ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

⁽٢) حليث مطرف بن عبدالله عن أبيه: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من عامر فقالوا: «أنت والدنا وأنت سيدنا. . . • الحديث . أخرجه أبو داود والنسائي في البوم والليلة بلفط آخر، ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

 ⁽٣) حديث عمرو بن ديبار: تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر فقال، •كم دون فسائك من حجاب. . • الحديث، أخرجه ابن
 أبى الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات.

العالم: أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان. وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه. ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة، فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها. وقال إبراهيم: يهلك الناس خلتان: فضول المال وفضول الكلام. وكثرته وسببه الباعث عليه. وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل:

وهو الكلام في المعاصى كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم، من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث(١): قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الرَّجُلُّ لَيَتَكَلُّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله مَا يَظُنُ إِنَّ ثَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ الله بِهَا رِضْوَانه إِلَى يَوْم القِيامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَط الله مَا يَظُنُّ أَنْ تَبُلُغَ بِهِ مَا بَلَغْتَ فَيَكُتُبُ ۚ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَّهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إ (٢)، وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حَدَيث بلال بن الحارث. وقال النَّبي ﷺ: ﴿إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلُّمُ بِالكَلِمَةِ يُضْجِكُ بِهَا جُلَسَاءُهُ يَهْوِي بِهَا أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا» (**)، وقال أبو هريرة: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالأيهوي بها في جهنم، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة. وقال ﷺ: ﴿أَفْظُمُ النَّاسْ خَطَايَا يَوْمُ القِيَامَةِ ٱكْثَرُهُمْ خَوْضاً فِي الْبَاطِلِ" (٤)، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا خُوشْ مِنَهُ ٱلْمُقَامِدِينَ ﴿ ﴾ [السَمَنَّتُر: ٤٥] وبـقـولـه تـعـالـي: ﴿ فَلَا لَقُعُدُوا مَعَهُمْ حَتَىٰ يَخُوسُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِلَّكُو إِنَّا يَشْلُهُمُّ ﴾ [النِّساء: ١٤٠] وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله. وقال ابن سيربن: كان رجل من الأنصار يمرّ بمحلس لهم فيقول لهم: توضؤوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث. فهذا هو الخوض في الباطل، وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها، أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها. ويدخل فيه أيضاً الخوض

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

 ⁽١) بلال بن الحارث: المزلّي، من أهل المدينة، حامل لواء فزينة يوم الفتح. أقطعه النبي ﷺ العقيق. ثم سكن البصرة،
 مات سنة ستين، له رواية عن رسول الله ﷺ.

⁽٢) حديث بلال بن الحارث: اإن الرجل لبتكلم بالكلمة من رضوان الله. . . ٩ الحديث . أخرجه ابن ماحه والترمذي وقال حين صحيح .

 ⁽٣) حديث: «إن الرجل ليتكلم الكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا» أخرجه ابر أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن، وللشيخين والترمذي: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار» لعظ الترمدي وقال: حسن غريب.

⁽٤) حديث: «أعظم الناس خطاياً يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل؛ أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث قتادة مرسلاً ورجاله ثقات، ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح.

مي حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

الآفة الرابعة: المراء والجدال:

وذلك منهي عنه. قال على الله المُعَارِ أَخَاكَ وَلا تُعَارِحُهُ وَلا تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ (')، وقال عليه السلام: قَذُوا المِرَاء فَإِنَّهُ لا تُفْهَمُ حِكْمَتُهُ ولا تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ ('')، وقال على الْجَنَّةِ، قَمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتُ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، ''، وعن أم سلمة لَهُ بَيْتُ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ، ''، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله على: "إنَّ أَوْلَ ما ضَهِدَ إِلَيْ رَبِّي وَتَهَانِي صَنْهُ بَعْدَ عَبَادَةِ الأَوْبَانِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ مُلاَحَاةُ الرَّجَالِ ('')، وقال أيضاً: "مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى إلا أُوتُوا الْجَدَلُ ('')، وقال أيضاً: "لايمانِ حَتَّى يَدَعُ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقَّاهُ ('')، وقال الجَدَلُ ('')، وقال أيضاً: "لا يَسْتَكُمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإيمانِ: الصَّيامُ فِي الصَّيْفِ، وَضَرْبُ أَعْدَاءِ الله بِالسَّيْفِ، وَتَعْجِيلُ المَعْرَاءِ وَهُو المَعْرِبُ أَعْدَاءِ اللهُ بِالسَّيْفِ، وَتَعْجِيلُ الْمَرَاءُ وَهُو اللهُ المَعْرَاءُ وَهُو اللهُ المَعْرَاءُ وَهُو اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ لا تستطيعهم ولكن عليك بالسَّة.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل. وقال مسلم بن يسار. إياكم والمراء؛ فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته. وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل. وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال أيضاً: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن. وقال لقمان لابنه: يا بئي، لا تجادل العلماء فيمقتوك. وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته. وقال أيضاً: سعيان: لو خالفت أخي في رمانة فقال: حلوة وقلت: حامضة لسعى بي إلى السلطان. وقال أيضاً:

الآفة الرابعة: المراء والمجادلة

⁽١) حديث: «لا تمار أخال ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه أخرجه الترمدي من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث: فنزوا المواء فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتته أخرجه الطبراني من حديث أبي الدراء وأبي أمامة وأس بن مالك وواثلة بن الأسقع بإسباد ضعيف دون قوله. فلا تفهم حكمته، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا موقوماً على ابن مسعود.

 ⁽٣) حديث: قمن توك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة...٥ الحديث. تقدم في العلم.

⁽٤) حديث أم سلمة: وإن أول ما عهد إلي ربي ونهائي عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجالة أخرجه ابن أبي الدنيا في العبرائي والبيهةي بسند ضعيف، وقد رواه ابن أبي الدنيا في المراسيل من حديث عروة بن رويم.

 ⁽٥) حديث: هما ضل قوم إلا أوتوا الجغل، أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وزاد: «بعد هدى كانوا عليه»
 وتقدم في العلم وهو عند ابن أبي الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف.

 ⁽٣) حديث: الا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يقر المراء وإن كان محقاً؛ أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ: «لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في المزاحة والمراء وإن كان صادقاً».

 ⁽٧) حديث: قست من كن قيه بلغ حقيقة الإيمان... الحديث. وفيه: قوترك المراه وهو صادق. أخرجه أبو منصور الديلي من حديث أبي مالك الأشعري بسد ضعيف بلفط: «عصال من الخير...» الحديث.

صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش. وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه. وقال أبو الدرداء: كفي بك إثما أن لا تزال ممارياً. وقال قلاة وتخفير كُلِّ لِحَاءِ (١) رَكُفَتَانِه (١) ، وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث؛ لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به. ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه. وقال عيسى عليه السلام: من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه سقم جسمه، ومن ساء خلقه عذب نفسه. وقيل لميمون بن مهران: ما لك لا تترك أخاك عن قلي؟ قال: لأني لا أشاريه ولا أماريه. وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى.

وحد المراء: هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المنكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض. فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه.

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة، أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير. وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان. وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله.

وأما في المعنى: فبأن يقول ليس كما تقول؛ وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا.

وأما في قصده: فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض، وما يجري مجراه، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

وأما المجادلة: فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك: أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل، يحب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه.

وأما الباعث على هذا: فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه. وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. أما إظهار الفضل: فهو من قبيل تزكية النفس، وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء، وهي من صفات الربوبية. وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية، فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنما قرّتهما المراء والحدال. فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة، وهذا مجاوز حد الكراهة، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير. ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل، ويقدح في قائله بكل ما يتصوّر له؛ فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين؛ يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقرى في إفحامه وإلجامه.

⁽١) الملاحة: المشاتمة،

⁽٢) حديث: التكفير كل لحاء ركعتان، أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعث له على تنقيص غيره ـ كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب ـ، فإن علاج كل علة بإماطة سبها. وسبب المراء والجدال ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً؛ حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه.

روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك البجدال، فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم، قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علي منها. وهو كما قال؛ لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر علي كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جداً. ولذلك قال ﷺ الشدة ذلك على النفس جداً. ولذلك قال ﷺ المنذة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد. فإن المراء طبع؛ فإذا ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه وعاون الطبع والسرع عليه، وذلك خطأ محض، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعاً تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد. فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه، وقال ﷺ: «رَحِمَ الله مَنْ كُفُّ لِسَانَهُ عِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ إلاّ بِأَحْسَنِ ما يَقْلِرُ عَلَيْهِ الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً قويت فيه هده مرات. وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً قويت فيه هده المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل. وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها؟.

الآفة الخامسة: الخصومة:

وهي أيضاً مذهومة، وهي وراء الجدال والمراء؛ فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير، وإظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراصاً. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله عنها: قال رسول الله عنها: هن جَادَل فِي خُصُومَة بِغَيْرِ عِلْم لَمْ يَزَلُ فِي سَخَطِ الله حَتَّى يَنْزَعَ ""، وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. وقال ابن قتيبة: مر بي بشر بن عبدالله بن أبي

⁽١) حديث: ارحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه، أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبي ﷺ مرسلاً، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ وحم الله امرأ كف لسانه عن أعراض المسلمين، وهو مقطع وضعيف جداً.

الأنة الخامسة: الخصومة

 ⁽٢) حديث عائشة: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» أخرجه البخاري، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث أبي هريرة: امن جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع أخرجه ابن أبي الدنيا،
 والأصفهاني في الترغيب والترهيب، وفيه رجاه أبو يحيى؛ ضعفه الجمهور.

بكرة فقال: ما يجلسك هاهنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: إن لأبيك عندي يداً وإني أريد أن أحزيك بها، وإني أريد أن أحزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة؟ قال: فقمت لأنصرف فقال لي خصمي: ما لك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت: لا، ولكن أكرم نفسي عن هذا. قال: فإني لا أطلب منك شيئاً هو لك.

فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم، فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته؟ فاعلم: أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل، والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان، فيخاصم بغير علم ويتناول الدي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول: إنما قصدي عناده وكسر عرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بثر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة، ومن غير قصد عناد وإيداء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره؛ حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المّراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته، إلا أنه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيما خاصم فيه لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركاً للأولى ولا يكون آثماً، نعم، أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب؛ إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام. وقد قال ﷺ: ﴿يُمْكِنُكُمْ مِنَ الجَنَّةِ طِيبُ الكلام وَإِطْمَامُ الطَّمَامِ»(١). وقد قال الله تعالى. ﴿وَقُولُواْ لِينَّايِن حُسْنَا﴾ [البَقَرَة: ٨٣]، وقال ابن عباس رضي ألله عنهمًا: من سُلِّم عليك من خلق إلله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسياً؛ إن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذًا حُيِّيتُم بِنَصِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النّساء: ٨٦] وقال ابن عباس أيضاً: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه. وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ فِي الجَنَّةِ نَّغُرُفاً يُرَى ظَاهِرُها مِنْ يَاطِنِها وَبَاطِنُها مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدُّهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطُّعَامُ وَأَلانَ الكَلَّامَهُ (٢). وروي أن عيسى عليه السلام مرّ به

⁽١) حديث: اليمكنكم من العجنة طيب الكلام وإطمام الطعاما أخرجه الطبراني من حديث جابر وفيه من لا أعرفه، وله من حديث هاني، أبي شريح بإسناد جيد: اليوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام.

 ⁽٢) حديث أس: (إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها. . .) الحديث. أخرجه الترمذي، وقد تقدم.

خنزير فقال: مر بسلام، فقيل: يا روح الله: أتقول هذا لخنزير؟ فقال: أكره أن أعود لساني الشر. وقال نبينا عليه السلام: «الكلمة الطيبة صدقة»(۱)، وقال: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَق بِشِقٌ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ فَيْنَةٍ»(۱). وقال عمر رضي الله عنه: البرّ شيء هين وجه طليق وكلام لين. وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وقال بعض الحكماء: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بحيلاً، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين. وهذا كله في فضل الكلام الطيب وقضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش، المهيج للغضب الموغر للصدر، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة... الخ

التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالنشبيبات والمقدّمات، وما جرى به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة. وكل ذلك من التصنع المدّموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله على: «أَنَّ وَأَنْهَاءُ أُمّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلْفِ»، وقال على: «إِنَّ أَيْفَكُمْ إِنَيْ وَأَبْعَدُكُمْ مِنِي مَجْلِساً النَّرْثارُونَ المُتَفَيْهِقُونَ المُتَشَدِّقُونَ فِي الكلامِ» "، وقالت فاطمة رضي الله عنها: قال رسول الله على: «شِرَارُ أُمّتِي الْدِينَ غُنُوا بِالنّمِيم يَأْكُلُونَ أَلُوانَ الطّعَام وَيَلْبَسُونَ أَلُوانَ النّيابِ وَيَتَشَدُّقُونَ فِي الكلامِ» (*)، وقال على: «ألا هَلَكَ المُتَنظَعُونَ (*) لله تلكلام مرات عنه والتنظع هو التعمق والاستقصاء. وقال الكلام عن الله عنه: [إن] شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان، وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى اليوم! إني سمعت رسول الله على الكلام من الناس وَمَانَ بَتَخَلُلُونَ الكلام بِالْسَتِهِمْ كَمَا تَتَخَلُلُ المُتَكَلَّمُ بِالسَتِهِمْ كَمَا تَتَخَلُلُ المُتَكَلَّمُ بِالسَتِهِمْ كَمَا تَتَخَلُلُ وهذا أيضاً من آفات اللسان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات؛ إذ قضى رسول الله على بغرة في الجنين فقال بعض قوم وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات؛ إذ قضى رسول الله على بغرة في الجنين فقال: «أَسَجُع الجاني: كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح ولا استهل، ومثل ذلك بطل؟ فقال: «أَسَجُع الحَبْعِ الْأَمْرَابِ» (*)، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه، بل ينبعي أن يقتصر في كل شيء كسجع المُخواجِ الأَعْرَابِ» (*)، وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه، بل ينبعي أن يقتصر في كل شيء

الكلمة الطبية صفلة». أخرجه مسلم من حديث أبي هربرة.

 ⁽٢) حديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرة...» الحديث. منفق عليه من حديث عدي بن حائم. وقد تقدم.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام والتشدق

 ⁽٣) حديث: (إن أبغضكم إلى الله وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون) أخرجه أحمد من حديث أبي
 ثعلبة وهو عند الترمدي من حديث جابر وحسنه بلفظ: (إن أبغضكم إليّا).

⁽٤) حديث فاطمة: قشرار أمتي الفين فقوا بالنعيم. . . 1 الحديث. وفيه: قويتشدقون، أخرجه ابن أبي اللديا والبيهقي في الشعب.

⁽٥) حديث: «ألا هلك المتنظمون» من حديث ابن مسمود.

حديث سعد: (يأتي على الناس زمان بتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقرة الكلا بلسانها، رواه أحمد.

 ⁽٧) حديث: الكيف تذي من لا شرب ولا أكل. .» الحديث. أخرجه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة وأبي هريرة وأصلها عند البخاري أيضاً.

على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم. ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به. فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا بليق بها السجع والتشدق، والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة. وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه.

الآفة السابعة: الفحش والسب وبداءة اللسان:

وهو مذموم ومنهي عنه ومصدره الخبث واللؤم. قال على: «إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللهُ تَعَالَى لا يُجِبُّ الْفُحْشَ وَلا النَّفَحُشَ» (١٠)، ونهى رسول الله على عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال: الا تَسُبُوا هُولاءِ فَإِنَّهُ لا يَخْلُصُ النَهِمْ شَيْءَ مِمَّا تَقُولُونَ وَتُؤْذُونَ الْأَحْيَاءَ أَلا إِنَّ الْمِذَاءَ لُوْمٌ (٢٠)، وقال على: «البَعْنَةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشِ أَنْ المُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلا اللَّعَانِ وَلا الفَاحِشِ وَلا البَدِيءِ (٣٠)، وقال على: «الجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشِ أَنْ يَدْخُلُها (٤٠)، وقال على ما يِهِمْ مِنَ الأَذَى يَسْعَوْنَ بَيْنَ الحَمِيمِ يَدْخُلُها (٤٠)، وقال على: «أَزْبَعَةُ يُؤُونَ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ عَلَى ما يِهِمْ مِنَ الأَذَى يَسْعَوْنَ بَيْنَ الحَمِيمِ وَالْجَحِيمِ يَدْعُونَ بِالوَيْلِ وَالنَّيُورِ، رَجُلُ يَسِيلُ فُوهُ قَيْحًا وَدَماً فَيْقَالُ لَهُ: ما بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانًا عَلَى ما بِنَا مِنَ الْحَمِيمِ وَالْجَحِيمِ يَدْعُونَ بِالوَيْلِ وَالنَّيُورِ، رَجُلُ يَسِيلُ فُوهُ قَيْحًا وَدَماً فَيْقَالُ لَهُ: ما بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانًا عَلَى ما بِنَا مِنَ الْخَمِيمِ اللَّذَى ؟ فَيَقُولُ: إِنَ الأَبْعَدَ كَانَ يَتَظُرُ إِلَى كُلُّ كَلِمَةٍ قَلْمَةٍ خَبِيئَةٍ فَيَسْتَلِقُوم كَمَا يَسْتَلِدُ الرَّفَقَ» (٥٠)، اللَّذَى ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ الأَبْعَدَ كَانَ يَتُظُرُ إِلَى كُلُّ كَلِمَةٍ قَلْمَةٍ خَبِيئَةٍ فَيَسْتَلِقُوم كَمَا يَسْتَلِدُ الرَّفَقَ الْمَالِينَ فَي وقالُ عَلَيْ المَالِعَةِ فَي وقالُ عَلَيْ اللهُ الْمِالِعَةُ فِي وقالُ اللهِ عَلَى عَلَيْهُ الْمِينَ وَلِي صَالِحُوم مَنْ اللهُ تَعْلَى اللهِ الْمِنْ وَلِي صَالًا اللهُ تَعْلَى اللهُ تَعْلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ يَعْوَلُ عَلَيْهُ وَالْمُنَالَ اللهُ تَعْلَى اللهُ الْمُلْونُ وَلِي صَالًا اللهُ تَعْلَى الْهُ الْمَالِعَةُ فِي الْمُورِ الدِينَ وَفِي صَفَاتَ اللهُ تَعْلَى اللهُ الْمُؤْمِلُومُ الْمُورُ الدِينَ وَفِي صَفَاتَ اللهُ تَعْلَى الْقُالُولُ الْمُؤْمُ اللهُ الْمُؤْمُ الْمُؤْمِلُ الْمُؤْمِ الْمُؤْمُ اللهُ المُؤْمُ الْمُؤْمِ المُؤْمُ اللهُ الْمُؤْمُ اللهُ اللهُ اللهُ المُؤْمُ المُؤْمِ المُومُ المُؤْمُ المُؤْمِلُ المُومُ المُؤْمُ المُومُ المُؤْمُ المُؤْمُ المُؤْمُ المُؤْمُ المُؤْمُ

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان

⁽۱) حديث: (إباكم والفحش. . . 1 الحديث. أخرجه النسائي في الكسرى في التفسير والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة.

حديث: «النهي عن سب قتلى بدر من المشركين» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث محمد بن علي الباقر مرسلاً ورحاله ثقات وللنسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح: «إن رجلاً وقع في أب للعباس كان في الجاهلية فلطمه...» الحديث. وفيه: «لا تسبوا أمواتناً فيتأذوا أحيامنا».

 ⁽٣) حديث: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا القاحش ولا البذيء أخرجه الترمذي بإستاد صحيح من حديث ابن مسعود وقال: حس غريب وصححه، وروي موقوفاً قال الدارقطني في العلل: والموقوف أصح.

⁽٤) حديث: «الجنة حرام على كل قاحش أن يدخلها» أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبدالله بن عمرو.

 ⁽٥) حديث: «أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى. . . ٤ الحديث. وفيه: اإن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة عبيثة فيستلدها كما يستلذ الرفث، أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع، واختلف في صحبته قذكره أبو نميم في الصحابة، وذكره البخاري وابن حبان في التابعين.

 ⁽٦) حديث: فيا عائشة لو كان القحش رجلاً لكان رجل سوء أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيمة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها.

 ⁽٧) حديث: «البذاء والبيان شعبتان من النفاق». أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه على شرطهما من حديث سلمة عنها.

القاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المسالغة في بيانه؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس، فإذا أحملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب، ولكن ذكره مقروناً بالبذاء بشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان، وقال على: ﴿إِنَّ اللهُ لا يُحِبُّ الفَاحِشَ المُتفَحِّشَ الصَّيَاحِ فِي الأَسْوَاقِهُ (۱)، وقال جابر بن سمرة: كنت جالساً عند النبي على وأممي فقال على: ﴿إِنَّ الفُحْشَ وَالتَّفَاحُشَ لَيْسَا مِنَ الإسلامِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إسلاماً أَحَاسِنُهُمْ أَخْلاقاًهُ (۱)، وقال إبراهيم بن ميسرة يقال: يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب، وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوأ الداء: اللسان البذيء، والخلق الدفيء،

فهذه مذمة الفحش. فأما حدّه وحقيقته: فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها. ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها، وقال ابن عباس: إن الله حيي كريم يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الحماع، فالمسيس واللمس واللمس واللمحول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة. وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعبير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش، وبعضها أفحش من بعض. وربما اختلف ذلك بعادة البلاد، وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها، وليس يختص هذا بالوقاع، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول، والغائط أولى من لفظ التغوظ والخراء وغيرهما، فإن هذا أيضاً مما يخفى، وكل ما يخفى يستحيا منه، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال: قالت زوجتك كذا، بل يقال: قبل في الحجرة، أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد. فالتلطف في هذه الألفاظ محمود، والتصريح فيها يفضي إلى الفحش، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير، بل يقال: العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه، فالتصريح بذلك داخل في الفحش، وجميع ذلك من يقال: العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه، فالتصريح بذلك داخل في الفحش، وجميع ذلك من والتان اللسان.

قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبدالعزيز يتحفظ في منطقه: فخرج تحت إبطه خرّاج فأتيناه نسأله لنرى ما يقول؟ فقلنا: من أبن خرج؟ فقال: من باطن اليد. والباعث على الفحش: إما قصد الإيداء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السّب. وقال أعرابي لرسول الله على أوصني فقال: ﴿ عَلَيْكُ بِتَقْوَى الله وَإِنِ امْرُقَ عَيْرَكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ فَلا تُعَيِّرُهُ بِشَيْءٍ فِيهِ لَي كُن وَبَالُهُ عَلَيْهِ وَأَجْرُهُ لَكَ وَلا تَسُبَّلُ شَيْعًا، قال: فما سببت شيئًا بعده (٣). وقال عياض بن حمّار: قلت:

⁽١) حليث: (إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش العبياح في الأسواق)، أخرجه ابن أبي الدنبا من حديث جابر بسند ضعيف، وله وللطراني من حديث أسامة بن زيد: (إن الله لا يحب الفاحش المتفحش) وإسناده جيد.

 ⁽٣) حديث جابر بن سمرة وأن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء. . * الحديث، أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

⁽٣) حديث: قال أعرابي: أوصني، قتال: (هليك بتقوى الله وإن امرؤ هيرك بشيء يعلمه قيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه. . ؟ الحديث، أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد من حديث أبي جري الهجيمي، قيل: اسمه جابر بن سليم بن جابر.

يا رسول الله، إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني، هل عليَّ من بأس أن أنتصر منه؟ فقال: «المُتَسَابَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَعَاوَيَانِ وَيَشْهَارَجَانِ ('')، وقال ﷺ: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر» ('')، وقال ﷺ: «المُسْتَبَّانِ مَا قَالا فَعَلَى البَادِيءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِي المَظْلُومُ» ('')، وقال ﷺ: «مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالديْهِ» ('')، وفي رواية: همِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قالوا: يا رسول الله، كيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يَسُبُ أَبَا الرَّجُل فَيَسُبُّ الآخَرُ أَبَاهُ».

الآفة الثامنة: اللعن:

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم. قال رسول أله ﷺ: «المؤمن ليس بلعان» (**)، وقال ﷺ: «لا تَلاعَن قوم قط إلا حق وقال ﷺ: «لا تَلاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهُ وَلا بِغَضَبِهِ وَلا بِجَهْنَمَ (**)، وقال حذيفة: ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول. وقال عمران بن حصين: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلمنتها، فقال ﷺ: «خُلُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرُوها فَإِنْهَا مَلْعُونَةً (**). قال: فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد. وقال أبو الدرداء: ما لعر أحد الأرض إلا قالت: لعن الله أعصانا الله ، وقالت عائشة رضي الله عنها: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال: «يا أبا بكر أصديقين ولعانين كلا ورب المحمة _ مرتين أو ثلاثاً ع (**)، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال: لا أعود. قال رسول الله ﷺ فإنَّ اللَّعَانِينَ لا يَكُونُونَ شُفَعَاء وَلا شُهَدًاء يَوْمَ القِيَامَةِ» (*)، وقال أنس: كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير، فلعن بعيره فقال ﷺ:

 ⁽۱) حدیث عیاض بن حمار: قلت: یا رسول الله، الرجل من قومی پسینی وهو دونی، هل علی من بأس أن أنتصر منه؟
 فقال «المستبان شیطانان یتکاذیان ویتهاتران» أخرجه أبو داود والطیالسی وأصله عند أحمد.

 ⁽۲) حديث: فسياب المسلم فسوق وقتاله كفرا. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

 ⁽٣) حديث: «المستيان ما قالا فعلى البادئء حتى يعتدي المظلوم». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال: قما لم
 يعتد»

⁽٤) حديث طملعون من سب والمديه وفي رواية. المن أكبر الكبائر أن يسب الرجل والمديد. . . الحديث. أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإساد جيد، واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبداقة بن عمرو.

الأنة الثامنة: اللمن

⁽ه) حديث: «المؤمن ليس بلعان» تقدم حديث ابن مسعود اليس المؤمن بالطعان ولا اللمان...» الحديث، قبل هذا بأحد عشر حديثاً، وللترمدي وحسنه من حديث ابن عمر: «لا يكون المؤمن لماناً».

 ⁽٣) حديث: «لا تلاحنوا بلعنة الله» الحديث، أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب. قال الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽٧) حديث عمران بن حصين: ابينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها...» الحديث. رواه مسلم.

 ⁽A) حديث عائشة: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتقت إليه فقال: «يا أبا بكر لعاتين
 وصابيقين... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وشيخه بشار بن موسى الحفاف ضعفه الجمهور، وكان
 أحمد حسن الرأي فيه.

⁽٩) حديث: «إن اللعانين لا يكونون شقعاء ولا شهداء يوم القيامة». أحرجه مسلم من حديث أبي الدرداء.

"يا عَبْدَ الله لا تَسِرُ مَعَنَا عَلَى بَمِيرِ مَلْعُونِه (١)، وقال ذلك إنكاراً عليه. واللعن: عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عزّ وجلّ وهو الكفر والظلم، بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، ويبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطراً؛ لأنه حكم على الله عزّ وجلّ بأنه قد أبعد الملعون، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى، ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه.

والصفات المقتضية لِلَّهٰنِ ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق. واللعن في كل واحدة ثلاث مراتب. الأولى: اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة.

الثانية: اللعن بأوصاف أخص منه كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض، أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا، وكل ذلك جائز. ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر؛ لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام؛ لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعاً بين الناس وفساداً.

الثالثة: اللَّمَن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه: أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً فتجوز لعنته كقولك: فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً. وأما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر؛ فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله فكيف يحكم بكونه ملعوناً؟..

⁽١) حديث أنس: كان رجل مع رسول الله على يعير فلعن بعيره فقال. فيا هبد الله لا تسر معنا على بعير ملمون ا أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

 ⁽۲) حديث: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وحية بن ربيعة» وذكر جماعة. منفق عليه من حديث ابن مسعود.

٢) حديث: «أنه كان يلمن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً فنزل قوله تعالى: ﴿ لِيَسُ لِنَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ ﴾ [آل عبد] عبد الشيخان من حديث أنس: «دعا رصول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بثر معونة ثلاثين صباحاً...» الحديث وفي رواية لهما: «قنت شهراً يدعو على رعل وذكوان...» الحديث. ولهما من حديث أبي هريرة: «وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه...» الحديث: وفيه «اللهم العن لحبان ورعلاً...» الحديث. وفيه «اللهم العن لحبان ورعلاً...» الحديث.

ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، فإن كان لم يجز، كما روي أن رسول الله على سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مرّ به وهو يريد الطائف فقال: هذا قبر رجل كان عاتياً على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال: يا رسول الله: هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة، فقال أبو بكر: يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام؟ فقال في: «اكْفُفْ عَنْ أبي بَكْرِ» فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال: «يا أبا بكر إذا ذَكَرْتُمُ الكفار فَعَمْمُوا فَإِنْكُمْ إذا خَصْصْتُمْ فَضِبَ الأَبْناءُ لِلآباءِ فكف الناس عن ذلك ". وشرب نعيمان الخمر فحد مرات في مجلس رسول الله في فقال بعض الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال في الا تكُن عَوناً لِلشَّيطانِ عَلَى أَخِيكَ ""، وفي رواية: «لا تَكُلْ هٰذا فإنَّهُ يُحِبُ الله عن ذلك، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز، وعلى الجملة: ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب، ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره.

فإن قيل: هل يجوز آلعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو آمر به؟ قلنا: هذا لم يثبت أصلاً، فلا يجوز أن يقال: إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت، فضلاً عن اللعنة، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق، نعم يجوز أن يقال: قتل ابن ملجم علياً وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهما فإن ذلك ثبت متواتراً. فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق. قال ﷺ: «لا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالكُفْرِ وَلا يَرْمِيهِ بِالفَسْقِ إلاّ ارْتَدُّتُ عَلَيهِ إنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَلْلِكَ ""، وقال ﷺ: «ما شَهِدَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ بِالكُفْرِ بِالكُفْرِ إلاّ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُما، إنْ كان كافراً قَهُو كَمَا قالَ. وَإنْ لَمْ يَكُنْ كَافِراً فَقَدْ كُفّرَ بِتَكْفِيرِه إِيّالُهُ"، وهذا معاذ: أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً. وقال معاذ:

١) حديث: إن رسول الله ﷺ سأل أما بكر عن قبر مرا به وهو يريد الطائف فقال: اهذا قبر رحل كان عائياً على الله وعلى رسوله وهو سعيد بن العاص ففضب ابنه...، الحديث. أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية على بن ربيعة قال الحلم افتتح رسول الله ﷺ مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابنا سعيد بن العاص فقال أبو بكر العن الله صاحب هذا القبر فإنه كان يجاهد الله ورسوله...، الحديث. وفيه: افإذا صبيتم المشركين فسبوهم جميعاً».

ا) حديث: شرب نعمان الخمر فحد مرات في مجلس رسول الله على فقال بعض الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، مقال رسول الله على: «لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله». أخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلاً، ومحمد هذا ولد في حياته على وسماه محمداً وكناه عبدالملك. وللبخاري من حديث عمر: أن رجلاً على عهد رسول الله على كان اسمه عبدالله وكان يلقب حماراً وكان يُضحك رسول الله على وكان قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال النبي على: «لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب للله ورسوله» من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه: «لا تعينوا عليه الشيطان» وفي رواية: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم».

 ⁽٣) حديث: «لا يرمي رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا لرئدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك» متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق.

خدبث: «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا أتى أحدهما إن كان كافراً فهو كما قال، وإن لم يكن
 كافراً فقد كفر بتكفيره إياه أخرجه أبو منصور الديلمي في مستد الفردوس من حديث أبي سعيد بستد ضعيف.

قال لي رسول الله ﷺ: «أَنْهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِماً أَوْ تَغْصِيَ إِماماً خَادِلاً، وَالتَّعَرُّضُ لِلأَمْوَاتِ أَشَدُه ('')، قال مسروق: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت: توفي. قالت: رحمه الله، قلت: وكيف هذا؟ قالت: قال رسول الله ﷺ: الا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضُوا إلى ما قَدْمُواه ('')، وقال عليه السلام: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا بِهِ الأَحْيَاءَه ("')، وقال عليه السلام: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا بِهِ النَّاسُ إذا مَاتَ المَيْتُ فَاذْكُرُوا مِنْهُ خَيْراًه ('نُ. الْحَقَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي وَأَصْهَارِي وَلا تَسُبُّوهُمُ ، أَبُها النَّاسُ إذا مَاتَ المَيْتُ فَاذْكُرُوا مِنْهُ خَيْراًه ('نُ.

فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: قاتل الحسين لعنه الله؟ أو الآمر بقتله لعنه الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل النوبة لعنه الله. لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة، فإن وحشياً قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله وهو كافر، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً ولا يجوز أن يُلعن، والقتل كبيرة ولا ننتهي إلى رتبة الكفر، فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس في السكوت خطر فهو أولى.

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعبة وإطلاق اللسان بها. والمؤمل ليس بلعان؛ قلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين. فالاشتغال بذكر الله أولى، فإن لم يكن فعي السكوت سلامة.

حديث معاذ: «أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصي إماماً عادلاً» أخرجه أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل.

 ⁽٣) حديث عائشة: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا) أخرجه البخاري، وذكر المصنف في أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك في الزهد والرقائق مع القصة

[&]quot;٢) حديث. «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء» أخرجه الترمذي من حديث المعبرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين رياد بن علاقة رجل لم يسم.

⁽³⁾ حديث: «أبها الناس احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبوهم، أبها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً أخرجه أبو منصور الديلمي في مسد الفردوس من حديث عياص الانصاري: «احفظوني في أصحابي وأصهاري» وإساده صعيف، وللشيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة: «لا تسبوا أصحابي» ولأبي داود والترمدي وقال: غريب من حديث ابن عمر: «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا هن مساوئهم» وللنسائي من حديث عائشة: «لا تذكروا موتاكم إلا بخير» وإسناده جيد.

 ⁽a) حديث: قال رحل: أوصني قال: «أوصيك أن لا تكون لعاناً» أخرجه أحمد والطرائي وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرموز الهجيمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم.

 ⁽٦) حديث: المن المؤمن كقتله متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك.

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر، حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلاً: لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله، وما يجري مجراه، فإن ذلك مذموم، وفي الخبر: ﴿إِنَّ المَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى يُكَافِئَهُ ثُمَّ يَبُقَى لِلظَّالِمِ عِنْدَهُ فَضْلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ» (١٠).

الآفة التاسعة: الغناء والشعر:

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، وأما الشعر: فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح قبيح إلا أن التجرّد له مذموم. قال رسول الله على: «لَأَنْ يَمْتَلِيءَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً حَتَّى يَرِينَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيءَ شعراً» (٢)، وعن مسروق: أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال: أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر، وسئل بعصهم عن شيء من الشعر فقال: اجعل مكان هذا ذكراً؛ فإن ذكر الله خير من الشعر، وعلى الجملة: فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره، قال على: «إنَّ مِنَ الشَّعْرِ لَجِكُمَةً» (٣)، نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب، وقد يدخله الكذب، وقد أمر رسول الله على حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح (١٤)، فإنه وإن كان كذباً فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر:

وللواللم يسكسن فلي كلفَّله غليس روحه السجادَ بسها فسلسيفِّت الله سَافِلَة

ومبرأ من كل غُبَّرِ حبضة وفسساد مرضعة وداء مغيرل وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلِّلِ قال: فوضع عَهِ ما كان بيده وقام إلى وقبل ما بين عينى وقال: «جَزَاكِ الله حَيْراً يا عَاتِشَةُ ما

⁽۱) حديث: «إن المظلوم ليدمو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة» لم أقف له على أصل، وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف على على من ظلمه فقد انتصرا.

الآفة التاسعة: الغناء والشعر

 ⁽۲) حدیث: الأن یمتلی، جوف أحدكم قیحاً حتى يربه خير من أن يمتلی، شعراً، أحرجه مسلم من حدیث سعد بن أبي
 وقاص، واتفق علیه الشیخان من حدیث أبي هریرة نحوه والبخاري من حدیث ابن عمر ومسلم من حدیث أبي سعید.

 ⁽٣) حديث: (إن من الشعر لحكمة؛ تقدم في العلم وفي آداب السماع.

⁽٤) حديث: «أمره حساناً أن يهجو المشركين». متفق عليه من حديث البراء: أنه ﷺ قال لحسان: «اهجهم وجبريل معك».

سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ، (١)، ولما قسم رسول الله ﷺ الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره:

ومساكسان بسدر ولاحسابسس يسسودان مسرداس فسي مسجسميع ومساكسنت دون امسرىء مسنسهسمسا ومسن تسضسع السيسوم لا يُسرفسع

فقال ﷺ «الْقَطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ الله الله الله الله الله الله الله عنه حتى اختار مائة من الإبلى ثم رجع وهو من أرضى الناس، فقال له ﷺ: «أَتَقُولُ فِي الشَّعْرِ؟ الله عندر إليه ويقول: بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر دبيباً على لساني كدبيب النمل، ثم يفرصني كما يقرص النمل فلا أجد بداً من قول الشعر، فتبسم ﷺ وقال: «لا تَدَعُ العَرَبُ الشَّعْرَ حَتَّى تَدَعَ الإِبلُ الحَنِينَ» (").

الآفة العاشرة: المزاح:

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه. قال على الله المنارِ أَخَاكَ وَلا تُمَارِ أَخَاكَ وَلا تُمَارِ خَاكَ وَلا تُمَارِخُهُ (٣)، فإن قلت: المماراة فيها إيذاء؛ لأنّ فيها تكذيباً للأخ والصديق أو تجهيلاً له، وأما المزاح فمطايبة، وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه؟ فاعلم: أنّ المنهي عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه. أما المداومة؛ فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه، واللعب مباح ولكن المواظبة عليه منمومة، وأما الإفراط فيه؛ فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، كما روي عن

ومسبسراً مسن كسل غسبسر حسيسه وفسسساد مسرصه وداء مسعسية وداء مسعسيسل فسلاذا نسطسسرت السعسارض السمسهال المستهال المستهال النبوة.

إلى آخر الحديث، رواه البيهتي في دلائل النبوة.

(٢) القلائص: الإناث العتية من الإبل. حديث: لما قسم المنائم أمر للمباس بن مرداس بأربع قلائص وفي آخره شعره:

وما كان بادر ولا حال الله المسلم على إنسان منهم ماثة من الإبل وأعطى عاس بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن بن بدر والأقرع بن حابس كل إنسان منهم ماثة من الإبل وأعطى عاس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بي مرداس:

أن جرحل نه بي وسهب المعبير لد بين عسير المعبور والأقراع ومسا كسان بسدر ولا حساب المعبور المساح المسرداس في مسجوع ومسا كسنت دون امسرىء مسنسهسما ومسا كسنت دون امسرىء مسنسهسما ومسان تسفي السيرة لا يُسرّف عِ قال: فأتم له رسول الله في مائة، وزاد في رواية: أعطى علقمة بن علائة مائة، وأما زيادة: «اقطعوا هني لسانه» فليست في شيء من الكتب المشهورة.

الأقة العاشرة: المزاح الأمراد الترمذي، وقد تقدم. (٣) حديث: الا تمار أخاك ولا تمازحه الخرجه الترمذي، وقد تقدم.

 ⁽١) حديث عائشة: كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أغزل قالت: «فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً...» الحديث. وفيه إنشاد عائشة لشعر أبي كبير الهذلي:

النبي ﷺ أنه قال: «إنِّي لْأَمْزَحُ وَلا أَقُولُ إلاَّ حَقًّا) (١٠)، إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقًّا، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان. وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الرُّجُلَ لَيَتَكَلُّمُ بِالكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِها جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بها فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا (*). وقال عمر رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلَّت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قلُّ ورعه مات قلبه. ولأن الضحك بدل على الغفلة عن الآخرة قال ﷺ: اللَّهُ تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً اللَّهُ . الله الشَّا وقال رجل لأخيه: يا أخي، هل أناك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قيل: فما رؤي ضاحكاً حتى مات. وقال يوسف بن أسباط: أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك. وقيل: أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك. ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال: إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين! وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين!. وكان عبدالله بن أبي يعلى يقول أتضحك ولعل أكفائك قد خرجت من عند القصار؟. وقال ابن عباس: من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي. وقال محمد بن واسع: إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من بكائه؟ قيل: بلي، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى مادا يصير هو أحجب منه!. فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكاً، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السنّ ولا يسمع له صوت. وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ على قلوص له صعب فسلم، فجعل كلما دنا من النبي ﷺ لبسأله يفرّ به. فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون منه، ففعل ذلك مراراً ثم وقصه فقتله فقيل: يا رسول الله، إن الأعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك، فقال: «نَعَمَّ، وَأَقْوَاهَكُمْ مَلاَّى مِنْ دَمِهِ، (٥٠). وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه: من مزح استخف به. وقال محمد بن المنكدر: قالت لي أمي: يا مني، لا تمازح الصبيان فتهون عندهم. وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيء فيجترىء عليك. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: اتقوا الله، وإياكم والمزاح؛ فإنه يورث الضغينة ويجرّ إلى القبيح، تحدَّثوا بالقرآن وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال. وقال عمر رضي الله عنه: أتدرون لم سمي المزاح مزاحاً؟ قالوا: لا، قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح. ويقال: المزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء.

⁽١) حديث: اإني أمزح ولا أقول إلا حقاً تقدم.

 ⁽٢) حديث: (إن الرجل لبتكلم بالكلمة يضحك بها جلساء، يهوي بها في النار أبعد من الثربا) تقدم.

⁽٣) حديث: الو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». متفق عليه من حديث أنس وعائشة.

⁽٤) حديث: «كان ضحكه التبسم». تقدم.

⁽٥) حديث القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابي إلى النبي ﷺ على قلوص صعب له فسلم، فجعل كلما دنا إلى النبي ﷺ ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي ﷺ يضحكون منه نفعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله، فقيل يا رسول الله، إن الأعرابي قد صرعه قلوصه فهلك قال: «نعم وأقواهكم ملأى من دمه». أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق وهو مرسل.

فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنه؟ فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه؛ وهو أن تمزح ولا تفول إلا حقاً ولا تؤذي قلباً ولا تفرّط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأنّ رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزبوج في يوم عبد، وهو خطأ؛ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار. فلا ينبغي أن يغفل عن هذا^(۱۱)، نعم، روى أبو هريرة أنهم قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا فقال: ﴿إِنِّي **وَإِنْ دَاعَبْتُكُمْ لاَ أَقُولُ إِلاّ** حَفًّا (٢)، وقال عطاء: إنّ رجلاً سأل ابن عباس: أكان رسول الله ﷺ بمزح؟ فقال: نعم، قال: فما كان مزاحه؟ قال: كان مزاحه أنه ﷺ كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها: «الْبَسِيهِ وَاحْمَدِي وَجُرِّي مِنْهُ ذَيْلاً كَذَيْلِ الْعَرُوسِ، (٣)، وقال أنس: إن النبي ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه (١)، وروي أنه كان كثير التبسم (٥٠). وعن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها ﷺ: ﴿ لَا يَذْخُلُ الْجَنَّةُ عَجُوزٌ، فبكت فقال: "إِنُّكِ لَسْتِ بِعَجُورِ بَوْمَثِلِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنَنَانَهُنَّ إِنَّاتُهُ ۞ فَمَلَنهُنَّ أَبْكَارًا۞﴾ [الواقِمَة: ٣٦،٣٥﴾. وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها: أم أيمن جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: «وَمَنْ هُوَ أَهُوَ الَّذِي بِعَيْنِهِ بَيَاضٌ؟» قالت: والله ما بعينه بياض فقال: «بلي إن بعينه بياضاً» فقالت: لا والله، فقال ﷺ: هما من أحد إلا وبعينه بياض». وأراد به البياض المحيط بالحدقة (٧)، وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله احملني على بعير فقال: "بل نحملك على ابن البعير" فقالت: ما أصنع به إنه لا يحملني. فقال ﷺ: قما مِنْ بَعِيرِ إلاّ وَهُوَ ابْنُ بَعِيرٍ^{؟ (٨)}، فكان يمزح به. وقال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له: أبو عمير وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقوّل: ﴿يَا أَبِا هُمَيْرِ مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ ﴾ (١٠)، لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور. وقالت عائشة رضي الله عنها: خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر فقال: التعالي حتى أسابقك، فشددت درعي على بطني، ثم خططنا خطأ فقمنا عليه واستبقنا فسبَّقني وقال:

 ⁽١) حديث: ﴿إِذَنهُ لَعَائشةَ فِي النظرِ إِلَى رقص الزنوجِ فِي يوم عيدٌ تقدم.

 ⁽٢) حديث أبي هريرة: قالوا إنك تداعبنا قال: •إني وإن داهبتكم فلا أقول إلا حقاً ه أخرجه الترمذي وحسنه.

حديث عطاء: "إن رجلاً سأل ابن عباس: أكان رسول الله على يمزح؟ فقال ابن عباس: نعم. . " الحديث. فذكر منه قوله لامرأة من نسائه: "البسيه واحمدي وحري منه ذيلاً كذيل العروس" لم أقف عليه.

⁽¹⁾ حديث أنس: «كان من أفكه الناس» تقدم.

⁽۵) حديث: «أنه كان كثير التبسم» تقدم.

 ⁽٣) حديث الحسن: «لا يدخل البعة عجور» أخرجه الترمذي في الشمائل هكذا مرسلاً، وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أس بسند ضعيف.

 ⁽٧) حديث زيد بن أسلم: في قوله لامرأة يقال لها أم أيمن قالت: إن زوجي يدعوك: «أهو الذي بعينه بياض...»
 الحديث. أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف.

 ⁽A) حديث: قوله لامرأة استحملته: «تحملك على ابن البعير. . . ، الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ: «أنا حاملك على وقد الناقق».

 ⁽٩) حديث أنس: ايا أبا صمير ما فعل النغير؟ ا متفق عليه، وتقدم في أخلاق النبوة.

الْهَلِمِ مَكَانُ فِي الْمَجَازِ؟ (١٠)، وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذي المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء فقال: ﴿أَعْطِينِيهِ، فأبيت وسعيت وسعى في أثري فلم يدركني. وقالت أيضاً: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملت اللحم سابقني فسبقني، وقال: (هذه بتلك)(٢) وقالت أيضاً رضي الله عنها: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة (٢٠) وجئت به فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك (٤). وروي: أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلاً دميماً قبيحاً، فلما بايعه النبي ﷺ قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء ـ وذلكُ قبل أن تنزل آية الحجاب ـ، أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوّجها وعائشة جالسة تسمع، فقالت: أهى أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله على من سؤالها إياه لأنه كان دميماً (٥). وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه للحسن بن على عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له، فقال له عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكونن لي الابن قد تزوّج وبقل وجهه وما قبلته قط! فقال ﷺ: ﴿إِنَّ مَنْ لَا يَرْحُم لَا يُرْحَمُّ (٦٠). فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان، وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل، وقال ﷺ مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً: «أَتَاكُلُ النَّمْرَ وَأَنْتَ رَمِدٌ؟؛ فقال: إنما آكل بالشقّ الآخَرِ يَا رَسُولَ الله. فتبسم ﷺ^(٧). قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه. وروي: أن خوّات بن جبير الأنصّاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة،

⁽١) حديث عائشة: في مسابقته ﷺ في غزوة بدر فسبقها وقال: فهذه مكان ذي المجاز؟ لم أجد له أصلاً، ولم تكن عائشة معه في غزوة بدر.

⁽٢) حديث عائشة: (سابقني فسبقته). أخرحه النسائي وابن ماجه، وقد تقدم في النكاح.

⁽٣) الحريرة: من الدقيق والسكر والسمن. وتسمى: عصيفة.

حدیث عائشة: افني لطخ وجه سودة بحریرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل ﷺ یضحك. أخرجه الزبیر بن بكار في
 کتاب الفكاهة، وأبو يعلى بإسناد جيد.

⁽٥) حديث: •إن الضحاك بن سفيان الكلابي قال: عندي امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة ـ قبل أن يضرب الحجاب ـ فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال، بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك النبي ﷺ لأنه كان دميماً، أحرجه الربير بن بكار في الفكاهة من رواية عبدالله بن حسن مرسلاً أو معصلاً، وللدارقطني نحو هذه القصة مع عبينة بن حصن الفراري بعد نزول الحجاب من حديث أبي هريرة.

والضحاك بن سفيان الكلابي محقد له النبي ﷺ لواءً، كان على صدقات قومه، وكان سيافاً لرسول الله ﷺ.

٣) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة: أنه ﷺ كان يدلع لسانه للحسن بن علي قيرى الصبي لسانه فيهش إليه، فقال عبينة بن بدر الفزاري: والله ليكونن لي الابن رجلاً قد خرج وجهه وما قبلته قط فقال: فإن من لا يرحم لا يرحم أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عبينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده. وحكى الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك أحدهما: أنه عبينة بن حصن، والثاني: أنه الأفرع بن حابس، وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن فقال: إن أبي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: قمن لا يرحم لا يرحمه.

 ⁽٧) حديث: قال لمبهيب وبه رمد: التأكل التمر وأنت رمد؟ فقال: إنما آكل على الشق الآخر، فتبسم النبي ﷺ.
 أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات.

فطلع عليه رسول الله على فقال: «يا أبا عَبْدِالله ما لَكَ مَعَ النّسْوَةِ؟» فقال: يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود، قال: فمضى رسول الله على لحاجته ثم عاد فقال: «يَا أبا عَبْدِالله أَمَا تَرَكَ فُلِكَ الجَمَلُ الشُرَادَ بَعَدُ؟»، قال: فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمت المدينة وبعدما قدمت المدينة قال: فرآني في المسجد يوماً أصلي فجلس إلي فطوّلت فقال: «لا تُطوّلُ فإنِّي أَتْقَطِّرُكَ» فلما سلمت قال: عا أبا عَبْدِالله أمّا تَرَكَ فُلِكَ الجَمَلُ الشُرَادَ بَعْدُ؟ قال: فسكت واستحييت، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّر مه، حتى لحقني يوماً وهو على حمار وقد جعل رجليه هي شق واحد فقال: «أَبَا عَبْدِالله أَمَا تَرَكَ فُلِكَ الجَمَلُ الشَرَادَ بَعْدُ الحق ما شرد منذ أسلمت فقال: «الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ اللّهَمُ الهدِ أَبَا عَبْدِالله أَما تَرَكَ فُلِكَ الجَمَلُ الشَرَادَ بَعْدُ الله والموافِّل في المدينة والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت فقال: «الله أَكْبَرُ الله أَكْبَرُ اللهمُ إلله فِي المدينة قال: فحسن إسلامه وهذاه الله(١٠). وكان نعيمان الأنصاري رجلاً مزاحاً، فكان يشرب الخمر في المدينة وفيوتى به إلى النبي في فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة : لعنك الله، فقال النبي في ويقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء طرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها النبي في فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي في فيقول: يا رسول الله، أعطه ثمن مناعه، فيقول له في ويأمر صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي على عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه، فيضحك النبي في ويأمر لصاحبه بثمنه (٢٠). فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب.

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء:

وهذا محرم مهما كان مؤذياً كما قال تعالى: ﴿ يَأَيُّ الَّذِينَ اَمَنُواْ لَا يَسَخَرُ قَرْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ آل يَكُونُواْ مَمْ وَلَا مِسَالًا مِن فِسَاءً عَسَىٰ آل يَكُنُ خَبْلُ مِنْهُمْ وَلَا مِسَالًا مِن فِسَاءً عَسَىٰ آل يَكُنُ خَبْلُ مِنْهُمْ وَلا يَعْلَى السخرية: الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة. قالت عائشة رضي الله عنها: حاكيت إنساناً فقال لي النبي عَلَيْدَ: قوالله ما أُحِبُ أَنِي حَاكَيْتُ إِنْسَاناً وَلِي كَذَا وَكَذَاهُ (٣٠ . رضي الله عنها: حاكيت إنساناً فقال لي النبي عَلَيْدَ: قوالله ما أُحِبُ أَنِي حَاكَيْتُ إِنْسَاناً وَلِي كَذَا وَكَذَاهُ (٣٠ . وفال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يُوَيُلِنَا مَالِ هَلَا اللَّهِ عَلَى اللَّهِ اللَّهُ على وفال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يُوَيُلِنَانا مَالِ هَلَا اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللَّهُ اللَّالَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّه

⁽١) حديث: إن خوات بن جبير كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، قطلع عليه النبي على فقال: إما أبا عبدالله ما لك مع النسوة؟ فقال يقتلن ضفيراً لجمل لي شرود... الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن حبير مع اختلاف ورجاله ثقات، وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات: ربيعة بن عمرو.

خوات بن جبير الأنصاري، من الدربين. وشهد المشاهد كلها بعد ذلك، روى عن رسول الله ﷺ، مات سنة أربعين. (٢) حديث: اكان نعيمان رجلاً مزاحاً وكان يشرب المخمر فيؤثى به إلى السبي ﷺ فيضربه...» الحديث. وفيه: الأنه كان يشتري الشيء ويهديه إلى النبي ﷺ ثم يجيء بصاحبه فيقول أعطه ثمن متاعه...» الحديث. أخرجه الزبير بن بكار مي الفكاهة، ومن طريقه ابن عبدالبر من رواية محمد بن حزم مرسلاً، وقد تقدم أوله.

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء

 ⁽٣) حديث عائشة: حاكبت إنساناً فقال لي النبي ﷺ: الما يسرئي أني حاكبت إنساناً ولي كفا وكفاء أخرجه أبو داود والترمذي وصححه.

الناس من جملة الذنوب والكبائر. وعن عبدالله بن زمعة أنه قال: سمعت رسول الله على وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال: «عَلامَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمًا يَهْعَلُ (''. وقال على المُستَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَلِهِمْ بَابٌ مِنَ الجَنَّةِ فَيْقَالُ هَلُمْ هَلُمْ فَيَجِيءُ بِكَزِيهِ وَغَمْهِ فَإِذَا أَتَاهُ أَفْلِقَ دُونَهُ فَمَا يَزَالُ كَذَٰلِكَ حَتَّى إِنَّ لُمُ يُفْتَحُ لَهُ البَابُ فَيُقَالُ مَلُمْ هَلُمْ فَلا يَأْتِيهِ ('')، وقال معاذ بن جبل: قال النبي على الرّجُلَ لَيُفْتَحُ لَهُ البَابُ فَيُقَالُ لَهُ مَلُمٌ فَلا يَأْتِيهِ ('')، وقال معاذ بن جبل: قال النبي على «مَنْ عَيْرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلُهُ (''). وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغاراً له، وعليه نبه قوله تعالى: ﴿عَسَى آنَ يَكُونُوا خَيَّا يَهُمْ اللّهُ المُحرَات. ١١] أي لا تستحقره استصغاراً فلعله خير منك.

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح _ وقد سبق ما يذم منه وما يمدح _، وإنما المحرم استصغار يتأذى به المسهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية للنهي عنها.

الآفة التانية عشرة: إفشاء السر:

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء. قال النبي ﷺ: ﴿إِذَا حُدَّتُ الرَّجُلُ الْحَدِيثُ ثَمَّ الْتَقَتُ فَهِيَ أَمَانَةٌ ﴿ وَقال مطلقاً: ﴿الْحَدِيثُ بَيْنَكُمْ أَمَانَةٌ ﴿ وَقال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك. ويروى أن معاوية رضي الله عنه أسرً إلى الوليد بن عتبة حديثه فقال لأبيه عا أبت إن أمير المؤمنين أسرً إليّ حديثاً وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك؟ قال: فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه، قال: فقلت: يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه؟ فقال: لا والله يا بني، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر، قال: فأتيت معاوية فأخبرته فقال: يا وليد: أعتقك أبوك من رق الخطأ، فإفشاء السر خيانة.

وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار. وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة فأغنى عن الإعادة.

⁽١) حديث عبدالله بن رمعة: وعظهم في الضحك من الضرطة وقال: اعلام يضحك أحدكم مما يفعل، متفق عليه.

 ⁽٢) حديث: (إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم بأب من البجنة فيقال هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه. . . ٤
 الحديث. أخرجه ابن أبي الدبيا في الصمت من حديث الحسن مرسالاً، ورويناه في تمنيات النجيب من رواية أبي
 هدية أحد الهالكين عن أنس.

 ⁽٣) حديث معاذ بن جبل: امن عبر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله أخرجه الترمذي دون قوله: اقد تاب منه منه .
 منه ، وقال: حسن غريب وليس إسناده بمنصل ، قال الترمذي: قال أحمد بن منيع قالوا: امن ذنب قد تاب منه .
 الآفة الثانية عشرة: إنشاء السر

 ⁽٤) حديث: (إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة) أخرجه أبو داود والترمذي وحسه من حديث جابر.

حديث: اللحديث بينكم أمانة؛ أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلاً.

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب:

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الرعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يقي فهذا هو النفاق. وقال أبو هريرة: قال النبي على: «ثَلاث مَن كُنْ فِيهِ فَهُو مُنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: إذا حَدَّثُ كَذَبَ وَإذا وَعَدَ أَخُلَفُ وَإذا التّمِن خَانَ " . وقال عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: قال رسول الله على: «أَرْبَعُ مَنْ كُنْ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَةٌ مِنْهُنْ كَانَ فِيهِ خَلَةٌ مِنْهُنْ كَانَ فِيهِ خَلَةٌ مِنْهُنْ كَانَ فِيهِ خَلْةٌ مِنْ النّقَاقِ حَتَّى يَدَعَها: إذا حَدَّثَ كَذَبَ وَإذا وَعَدَ أَخُلَفَ وَإذا عَاهَدَ خَدَرَ وإذا خَاصَمَ فَجَرَه " ، وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر، فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة؛ فقد روي أن رسول الله على كان وعد أبا الهيشم بن التيهان خادماً، فأتي بثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحداً،

الأفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب

العدة عطية؛ أخرجه الطرائي في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث أن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلاً.

 ⁽۲) حديث: «الوأي مثل الدين أو أفضل». أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية ابن لهيعة مرسلاً، وقال: الوأي يمني الوعد، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بسند ضعيف.

⁽٣) حديث عبدالله بن أبي الحنساء: بايعت النبي ﷺ فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك فنسيت يومي والغد فأتيته اليوم الثالث وهو هي مكانه فقال: «يا بني قد شققت عليّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» رواه أبو داود واختلف في إسناده وقال ابن مهدي: ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ فيه. وعبدائه بن أبي الخنساء العامريّ.

 ⁽٤) حديث: كان إذا وعد وعداً قال: (عسى) لم أجد له أصلاً.

 ⁽a) حديث أبي هريرة الثلاث من كن فيه فهو منافق. . . ٩ الحديث. ونيه: اإذا وحد أخلف، متفق عليه، وقد تقدم.

حليث عبدالله بن عمرو: اأربع من كن فيه كان منافقاً. . . ٤ الحديث. متفق عليه.

فاتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادماً وتقول: ألا ثرى أثر الرحى بيدي؟ فذكر موعده لأبي الهيشم فجعل يقول: «كَيْفَ بِمَوْعِدِي لِأَبِي الْهَيْقُم؟» (أَ فَآثره به على فاطمة له لما كان قد سبق من موعده له مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة. ولقد كان بخ جالساً يقسم غنائم هوازن يحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال: إن لي عندك موعداً يا رسول الله. قال: "صَدَقْت، فَاحْتَكِمْ ما شِشْت، قال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها، قال: "هِي لَكَ، وقال: "احْتَكَمْتَ يَسِيراً (١)، وَلَصَاحِبة مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ الَّتِي دَلَّتُهُ عَلَى عِظَامٍ يُوسُفَ كَانَتُ أَخْرَهُ مِنْكَ وَأَجْزَلَ حُكُماً مِنْكَ حِينَ حَكَّمَها مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَتْ: فَلَيْ عَظَامٍ يُوسُفَ كَانَتُ أَخْرَهُ مِنْكَ وَأَجْزَلَ حُكُماً مِنْكَ حِينَ حَكَّمَها مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَتْ: كُمْبِي أَنْ تَرُدُنِي شَابَةً وَأَدْخُلَ مَعْكَ الْجَنَّة قيل: فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعلا مثلاً فقيل: أشح من صاحب الثمانين والراعي، وقد قال رسول الله عَلَيْهِ "نَاي في فَلَمْ يَجِدُ، فَلا إِنْمَ عَلَيْهِ". وفي لفظ آخر: "إذا وَعَدَ الرَّجُلَ أَخَاهُ وَفِي نِيْتِهِ أَنْ يَهْيَ فَلَمْ يَجِدُ، فَلا إِنْمَ عَلَيْهِ". وفي لفظ آخر: "إذا وَعَدَ الرَّجُلَ أَخَاهُ وَفِي نِيْتِهِ أَنْ يَهْيَ فَلَمْ يَجِدُ، فَلا إِنْمَ عَلَيْهِ".

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين:

⁽١) حديث: اكان وعد أبا الهيشم بن التيهان خادماً؛ فأتي يثلاثة من السبي فأعطى اثنين وبقي واحداً، فجاءت فاطمة تطلب منه...، الحديث. وفيه فجعل يقول: اكيف بموعدي لأبي الهيشم؟! فآثره به على فاطمة. تقدم ذكر قصة أبي الهيشم في آداب الأكل وهي عند الترمذي من حديث أبي هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة.

 ⁽۲) حديث: أنه كان جالساً يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال: إن لي عندك موعداً، قال: فصدقت فاحتكم ما شئت. . . ٤ الحديث وفيه الصاحبة موسى التي دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك . . . ٤ الحديث . أخرجه ان حبان والحاكم في المستدرك من حديث أبي موسى مع اختلاف، قال الحاكم: صحيح الإسناد وفيه نظر.

٣) حديث: «ئيس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفي» وفي لفظ آخر: «إذا وعد الرجل أشحاه وفي نيته أن يفي قلم يجه.
 فلا إثم عليه» أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه من حديث زيد من أرقم باللفظ الثاني إلا أنهما قالا: «فلم يف».
 الآفة الرابعة حشرة: الكذب في القول والبمين.

⁽٤) حديث أبي بكر الصديق: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي مقام أول ـ ثم بكى ـ وقال: الهاكم والكذب...» الحديث. أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واللبلة، وجعله المصنف من رواية إسماعيل بن أوسط عن أبي بكر. وإنما هو أوسط بن إسماعيل بن أوسط وإسناده حسن.

حديث أبي أمامة: (إن الكذب باب من أبواب النفاق». أخرجه ابن عدي في الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى
الوجيهي ضعيف جداً ويغني عنه قوله ﷺ وثلاث من كن فيه فهو منافق، وحديث (أربع من كن فيه كان منافقاً» قال
في كل منهما: (إذا حدث كذبه وهما في الصحيحين، وقد تقدما في الآفة التي قبلها.

 ⁽٦) حديث: اكبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب أخرجه البخاري في كتاب الأدب
المفرد، وأبو داود من حديث سفيان بن أسيد وضعفه ابن عدي، ورواه أحمد والطبراني من حديث النواس بن
سمعان بإسناد جيد.

السبى عَيْدٌ، ﴿ لَا يَنَالُ الْعَبْدُ يَكُذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابِاً ('')، ومرَّ رسول الله ﷺ برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان، يقول أحدهما: والله لا أنقصك من كذا وكذا، ويقول الآخر: والله لا أزيدك على كذا وكذا، فمرّ بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال: ﴿أَوْجَبَ أَحَلُهُمَا بِالإثْم وَالْكَفَّارَةِ، (٢)، وقال عليه السلام: «الْكَلِبُ يُنْقِصُ الرِّزْقَ، (٣)، وقال رسول الله ﷺ: وإنَّ النُّجَّارَ هُمُّ الفُجَّارُ * فقيل: يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال: «نَعَمْ وَلْكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ فَيَأْتُمُونَ وَيُحَدِّثُونَ فَيَكَذِبُونَهُ () وقال ﷺ : ﴿ثَلاثَةُ نَفَرِ لا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الفِيامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ : المَنَّانُ بِعَطِيْتِهِ وَالمُنْفِقُ سِلْمَتَهُ بِالحَلِفِ الفَاجِر وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ" (٥)، وقال ﷺ: «مَا حَلَفَ حَالِفٌ بِالله فَأَذَخَلَ فِيها مِثْلَ جَتَاح بَعُوضَةٍ إِلاّ كَانَتُ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْم القِيَامَةِه (١٠)، وقال أمو ذر قال رسول اللَّه ﷺ: ﴿ فَلاَئَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ: رَجُلٌ كَانَ فِي فِئَةٍ فَنَصَبَ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ الله عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سُوءٍ يُؤْذِيهِ فَصَبْرَ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ يَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَفْنَ، وَرَجُلٌ كَانَ مَعَهُ قَوْمٌ فِي سَفَر أَوْ سَرِيَّةٍ فَأَطَالُوا السُّرَى حَتَّى أَصْجَبَهُمْ أَنْ يَمَسُوا الأَرْضَ فَنَزَلُوا فَتَنَحَّى يُصَلِّي حَتَّى يُوقِظَ أَصْحَابَهُ لِلرَّحِيلَ. وَثلاثَةٌ يَشْنَؤهُمُ الله: التَّاجِرُ أُوِ الْبَيْاعُ الْحَلَّاتُ، وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ» (٧٠)، وقال ﷺ: ﴿وَيْلُ لِلَّذِي يُحَدُّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْمَقَوْمَ وَيْلُ لَهُ وَيْلُ لَهُ (^^)، وقال ﷺ: "وَأَيْتُ كَأَنَّ رَجُلاً جَاءَنِي فَقَالَ لِي: ۚ قُمْ فَقُمْتُ مَعَهُ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَائِمٌ وَالآخَرُ جَالِسٌ، بِيَدِ القَائِم كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يَلْقِمُهُ فِي شِدْقِ الجَالِس فَيَجَذِبُهُ حَنْى يَبْلُغَ كَاهِلَهُ، ثُمَّ يَجْذِبُهُ فَيَلْقِمُهُ الجَانِبَ الْآخَرَ فَيَمُدُّه فَإِذَا مَدَّهُ رَجَعَ الآخَرُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ لِلَّذِي أَفَامَنِي: ما هْذَا؟ فَقَالَ: هٰذَا رَجُلٌ كَذَّابٌ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ (٦٠). وعن عبدالله بن جراد قال: سألت

 ⁽۱) حديث ابن مسعود: (لا يزال العبد يكذب حتى يكتب هند الله كذاباً) متفق عليه.

⁽٢) حديث: قمرٌ برجلين بتبايعان شاة ويتحالفان. . . ق الحديث. وفيه فقال: قاوجب أحدهما بالإثم والكفارة أخرجه أبو الفتح الأزدي في كتاب الأسماء المقردة من حديث ناسخ الحضرمي، وهكذا رويناها في أمالي ابن سمعون، وناسخ ذكره البخاري هكذا في التاريخ، وقال أبو حاتم: هو عبدالله بن ناسخ.

 ⁽٣) حديث: الكلب ينقص الرزق. أخرجه أبو السيخ في طبقات الأصهائيين من حديث أبي هريرة، ورويناه كذلك في مشيخة القاضى أبى بكر وإسناده ضعيف.

⁽³⁾ حديث: «إن التجار هم الفجار . . . الحديث. وفيه: «ويحدثون فيكذبون» أخرجه أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد والبيهقي من حديث عبدالرحمن بن شبل.

⁽٥) حديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل إذاره. أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

 ⁽٢) حديث: •ما حلف حالف بالله فأدحل فيها مثل جناح بموضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة أخرجه النرمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث عبدالله بن أنيس.

 ⁽٧) حديث أبي در: «ثلاثة يحبهم الله...» الحديث. وفيه: «وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الحلاف، أخرجه أحمد واللفظ له وفيه ابن الأحمس ولا يعرف حاله، ورواه هو والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد، وللنسائي من حديث أبي هريرة: «أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف...» الحديث. وإسناده جيد.

 ⁽٨) حديث: اويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له». أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي
 في الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

 ⁽٩) حديث: قرأيت كأن رجلاً جاءني فقال لي: قم نقمت معه فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ببد القائم كلوب
 من حديد يلقمه في شدق الجالس. . . ٤ الحديث. أخرجه البخاري من حديث سمرة بن جندب في حديث طويل.

إحياء عُلوم الدّين

رسول الله على فقلت: يا رسول الله: هل يزني المؤمن؟ قال: ﴿قَدْ يَكُونُ ذَٰلِكَ٩. قال: يا نبي الله هل يكذب المؤمن؟ قال: ﴿ إِنَّمَا يَقْبَي اللّهَ عَلَى اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكِ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكِ النّحل: ١٠٥]. وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله على يدعو فيقول في دعائه: ﴿ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ يَعْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْكِ وَاللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللللللّهُ اللللللللّهُ اللّهُ اللللللّهُ اللللللهُ الللللّهُ اللللللهُ الللل

⁽۱) حديث عبدالله بن جراد: «أنه سأل النبي ﷺ: هل يزني المؤمن؟ قال: فقد يكون من ذلك، قال: هل يكذب؟ قال: «لا». . . . الحديث . أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد بسند ضعيف، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصراً على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء. وعبدالله بن جُراد العامري من أهل الطائف. روى عن أبي هريرة.

٢) حديث أبي سعيد: «اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجي من الزنى ولساني من الكذب، هكذا وقع في نسخ الإحياء عن أبي سعيد وإسما هو عن أم معبد، وكذا رواه الخطيب في التاريخ دون قوله: «وفرجي من الزني، وزاد: «وهملي من الرياء وهيني من الخيانة» وإسناده ضعيف.

⁽٣) حديث: اثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم. . . ٤ الحديث. وفيه: الوالإمام الكذاب؛ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

⁽٤) حديث عبدالله بن عامر : جاه رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت الألعب فقالت أمي: يا عبدالله تعال أعطيك فقال الوما أردت أن تعطيه؟ قالت: ثمراً فقال: "إن لم تفعلي كتبت عليك كذبة، رواه أبو داود وفيه: "من لم يسمّه، عبدالله بن عامر _ أبو محمد _، كان عمره خمس سنوات عندما توفي النبي ﷺ، مات سئة بضع وثمانين. وقال الحاكم ال عبدالله بن عامر ولد في حياته ﷺ ولم يسمع منه.

قلت: وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات إلا أن الزهوي لم يسمع من أبي هريرة.

 ⁽٥) حديث: (لو أفاء الله علي نعماً عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً وواه مسلم،
 وتقدم في أخلاق النبوة.

⁽٦) حديث: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر...» الحديث. وفيه: «ألا وقول الزور» متفق عليه من حديث أبي بكرة.

 ⁽٧) حديث ابن عمر: (إن العبد ليكلب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به أخرجه الترمذي وقال:
 حسن غريب.

⁽٨) حديث أنس: القبلوا إلي بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكلب. ١٠ الحديث. أخرجه الحاكم في المستنوك والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سئان ضعفه أحمد والنسائي، ووثقه ابن معين، ورواه الحاكم نحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال: صحيح الإسناد.

 ⁽٩) حديث: اإن للشيطان كحلاً ولعوقاً. . .٤ الحديث. أخرجه الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس سند ضعيف، وقد تقدم.

يوماً فقال: قام فينا رسول الله على كتيامي هذا فيكم فقال: «أخبسُوا إلَى أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمُّ يَفْشُو الكَذِبُ حَتَّى يَحَلِيثِ وَهُوَ يَرَى أَنْهُ كَذِبَ فَهُوَ أَحَدُ الكَافِيينِ *(``), وقال اللبي على: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَجِينِ وَهُوَ يَرَى أَنْهُ كَذِبَ فَهُوَ أَحَدُ الكَافِيينِ *(``), وقال على: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَجِينِ النَّم لِيَقْتُطِعَ بِها مَالَ المُوي مُسْلِم بِغَيْرِ حَقُّ لَقِي اللهُ حَزِّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ فَضْيَانُهُ *(``)، وقال المُحينة بِاللهُ وَلَهُ وَخُلِيهُ المُسْلِم إلاّ المِحينة وَاللهُ وَلَهُ وَلَهُ عَلَيْهُ المُسْلِم إلاّ المِحينة وَاللّهُ وَلَهُ وَلَمُ عَلَيْهَا المُسْلِم إلاّ المِحينة وَلَكَ خَصْلَة يُطْلِع على المحدب رسول الله على الكذب، وقال على المحدب والله على الكذب، فما ينجلي من صدره الله على الكذب، ولقد كان رسول الله على الرجل من أصحابه على الكذب، فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها (''). وقال موسى عليه السلام: يا رب، أي عبادك خير والكذب فإنه تمهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه. وقال عليه السلام في مدح الصدق: والربَعُ إذا لك عملاً قانك مِن الدُّنيا: صِدْقُ الحَدِيثِ وَحِفْظُ الأَمَانَةِ وَحُسْنُ خُلِقٍ وَعِفْةُ طُعْمَةِه *('')، وقال أبو يكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله على: قام فينا رسول الله على المَحْدِقِ وَمُفْتُ وَالْدَاءِ وَالْمَانَةِ وَالْوَقَاءِ بِالعَهْدِ وَبَذْلِ السَّلامِ وَحَفْضِ رسول الله عَلَيْ : «أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله وَصِدْقِ الحَدِيثِ وَادَاءِ الأَمَانَةِ وَالوَقَاءِ بِالعَهْدِ وَبَذْلِ السَّلامِ وَحَفْضِ رسول الله عَلَيْ : «أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله وَصِدْقِ الحَدِيثِ وَادَاءِ الأَمَانَةِ وَالوَقَاءِ بِالعَهْدِ وَبَذْلِ السَّلامِ وَحَفْضِ رسول الله عَلَيْ وَالمَانَةُ وَالوَقَاءِ بِالعَهْدِ وَبَذْلِ السَّلامِ وَحَفْضِ المُحَدِيثُ وَالْوَاءِ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءِ وَالمَانَةُ وَالوَقَاءِ وَالْمُنْهُ وَالوَقَاءِ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءِ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءِ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءِ وَالْمُونَةُ وَالوَقَاءِ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءِ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءِ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءُ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءُ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءُ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءُ المُعْدَ وَالْمَانَةُ وَالوَقَاءُ وَلَا

⁽١) حديث الخطب عمر بالجالية . . . * العديث. وفيه: الثم يقشو الكذب الخرحه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر .

 ⁽۲) حدیث. امن حدث بحدیث وهو پری آنه کذب فهو أحد الكذابین الحرجه مسلم في مقدمة صحیحه من حدیث سمرة بن جندب.

 ⁽٣) حديث: امن حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم. . . الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

خديث: «أنه رد شهادة رجل في كلبة كلبها». آخرجه ابن أبي الدنيا هي الصمت من رواية موسى بن شيبة موسلاً
 وموسى روى معمر عنه مناكير، قاله أحمد بن حنيل.

⁽٥) حديث على: «كل خصلة يعليع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذبة أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث أبي أمامة ورواه ابن عدر أيضاً وأبي أمامة أيضاً ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوها وموقوفاً والموقوف أشبه بالصواب قاله الدارقطني في المعلل

⁽٩) حديث: الما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب على الكرب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة. أخرجه أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات إلا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو عيره، وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة: ولم يشك وهو صحيح.

 ⁽٧) حديث: «أربع إذا كن فيك قلا يضرك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث. . . ٩ الحديث. أخرجه الحاكم والخرائطي
 في مكارم الأخلاق من حديث هبدالله بن عمرو وفيه ابن لهيمة.

 ⁽A) حديث أبي بكر «عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة؛ أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة، وقد تقدم بعضه في أول هذا النرع.

 ⁽٩) حديث معاذ: «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث» أخرجه أبو نعيم في الحلية، وقد تقدم.

وأما الآثار: فقد قال علي رضي الله عنه: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه: ما كذبت كذبة منذ شددت علي إزاري. وقال عمر رضي الله عنه: أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسماً، فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة. وعن ميمون بن أبي شبيب قال: جلست أكتب كتاباً فأتبت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت، فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت: ﴿يُتَبِنُ اللهُ النَّينِ عَامَنُوا بِالْقَوْلِ النَّابِ فِي المُنوزةِ الدُنيا وَفِي الْآخِرةِ البِهِ المناف الكتاب أو البخيل؟ وقال ابن السماك : ما أداني قال: نعم وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب: ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله؟ فإن كان صادقاً صدق وإن كان كاذباً قرضت شفتاه بمقاريض من نار، كلما قرضتا نبتنا وقال مالك بن دينار: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبدالعزيز دينار بن عبدالملك في شيء فقال له: كذبت، فقال عمر: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين دينار عبدالملك في شيء فقال له: كذبت، فقال عمر: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخص فيه من الكذب:

اعلم: أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، فإن أقل درجاته: أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً وقد يتعلق به ضرر غيره، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه، وربما كان واجباً.

قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال: أرأيت فلاناً؟ ما كنت قائلاً؟ ألست تقول: لم أره؟ وما تصدق به. وهذا كذب واجب.

فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان المقصود واجباً، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أن استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فبخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حدّ الضرورة، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة.

والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول في الحرب، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يعدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها(١)، وقالت أيضاً: قال رسول الله ﷺ: ﴿لَيْسَ بِكَذَّابِ مَنْ

 ⁽١) حديث أم كلتوم: «ما سمعته يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث». أخرجه مسلم، وقد تقدم.
 أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط المهاجرة المبابعة الممتحنة.

وروي أن ابن أبي عذرة الدؤلي ـ وكان في خلافة عمر رضي الله عنه ـ كان يخلع النساء اللاتي يتزوّج بهن، فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها، فلما علم بذلك أخذ بيد عبدالله بن الأرقم حتى أتى به إلى منزله، ثم قال لامرأته: أنشدك بالله هل تبغضيني؟ قالت: لا تنشدني، قال: فإني أنشدك الله، قالت: نعم، فقال لابن الأرقم: أتسمع؟ ثم الطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال: إنكم بتحدّثون أني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم، فسأله فأخبره، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال: أنت التي تحدّثين لزوجك أنك تبغضيته؟ فقالت: إني أوّل من تاب وراجع مر الله تعالى، إنه ناشدني فتحرّجت أن أكذب، أفاكذب يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم فاكذبي، فإن كانت يحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدّثه بذلك، فإن أقل البيوت الذي يبنى على الحب، ولكن الناس يعاشرون بالإسلام والأحساب.

وعن النواس بن سمعان الكلابي قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿مَا لِي أَرَاكُمْ تَتَهَافَتُونَ فِي الكَذِبِ تَهَافُتُ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ؟ كُلُّ الكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ لا مَحَالَةَ إِلاَّ أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِي الحَرْبِ، فَإِنَّ الحَرْبَ خُدْعَةُ، أَوْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ شَحْنَاءُ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُما، أَوْ يُحَدِّثُ امْرَاتُهُ يُرْضِيها (٥٠)، وقال ثوبان: الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلماً أو دفع عنه ضرراً. وقال على رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن النبي ﷺ فلأن أخرَّ من السماء أحبّ إليّ من أن أكذب عليه، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة.

⁽١) حديث أم كلثوم أيضاً: الميس بكفاب من أصلح بين الناس... الحديث, متفق عليه، وقد تقدم، والذي قبله عند مسلم بعض هذا.

حدیث أسماء بنت یزید: «كل الكذب یكتب علی این آدم إلا رجل كذب بین رجلین بصلح بینهما». أخرجه أحمد
یزیادة فیه وهو عند الترمدي مختصراً وحسته. أسماء بنت یزید بن السكن الانصاریة.

 ⁽٣) حديث أبي كاهل: اوقع بين رجلين من أصحاب النبي ﷺ كلام. . الحديث. وفيه (يا أبا كاهل أصلح بين الناس)
 رواه الطبراني ولم يصح.

⁽٤) حديث عطاء بن يسار: قال رجل للنبي ﷺ: أكذب على أهلي؟ قال: «لا خير في الكلب» قال: أعدها وأقول لها، قال: «لا جناح عليك» أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلاً، وهو في الموطأ عن صفوان بن سليم معضلاً من غير ذكر عطاء بن يسار.

⁽٩٠ حديث النواس بن سمعان: «ما لي أراكم تنهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار؟ كل الكذب مكتوب...» الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأحلاق بلفظ: «تنبايعون» إلى قوله: «في النار» دون ما بعده، فرواه الطبراني وقبهما شهر بن حوشب.

النواس بن سمعان الكلابي، قال عنه في الإصابه: له ولأبيه صُحبة، وحديثه عند مسلم في صحيحه.

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره. أما ماله: فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره، أو يأحذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك، فيقول: ما زنيت وما سرقت. وقال ﷺ: امن ارْتَكَبَ شَيئاً مِنْ هٰلِهِ القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَرُ بِسِفْرِ الله (۱)، وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً.

وأما عرض غيره: فبأن يُسأل عن سر أخيه فله أن ينكره، وأن يصلح بين اثنين، وأن يصلح بين الضرات من نسائه؛ بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به. ولكن الحدّ فيه: أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور. فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط، فإذا علم أن المحذور الدي يحصل بالصدق أشدُ وقعاً في الشرع من الكدب فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق، وقد يتقامل الأمران بحيث يتردد فيهما، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة، فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والإضرار به؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذوراً، حتى إن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات، وذلك حرام. وقالت أسماء. سمعت امرأة سألت رسول الله على قالت: إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك فهل علي شيء فيه؟ فقال ﷺ: ﴿المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كُلابِسِ ثَوْبَي زُورٍ ٩٤٠، وقال ﷺ: ا مَنْ تَطَعَّمَ بِمَا لَا يُطْمَمُ أَوْ قَالَ لِي وَلَيْسَ لَهُ أَوْ أَصْطِيتُ وَلَمْ يُعْطَ فهو كَلابس تُوبِي زُور يَوْمَ القِيَامَةِ اللهُ، ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه، وروايته الحديث الذي لا يتثبته، إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول: لا أدري، وهذا حرام. ومما يلتحق بالنساء الصبيان، فإن الصبى إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحاً. نعم، روينا في الأخبار أن ذلك بكتب كذباً، ولكن الكذب المباح أيضاً قد يكتب ويحاسب عليه، ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه، لأنه إنما أبيح نقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه، وإنما يتعلل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب. وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هلُّ هو أهم في الشرع من الصدق أم لا؟

 ⁽۱) حديث: (من ارتكب شيئاً من هذه القانورات فليستتر بستر الله أخرجه الحاكم من حديث عمر بلفظ: (اجتنبوا هذه الفاذورات التي نهى الله عنها قمن ألم بشيء منها فليستر بستر الله وإسناده حسن.

 ⁽٢) حديث أسماء ' قالت امرأة: إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل. . . • الحديث. متفق عليه وهي أسماء
 بنت أبي بكر الصديق.

 ⁽٣) حديث: «من تطعم بما لا يطعم وقال في وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبي زور يوم القيامة» لم أجده بهذا اللفظ.

وذلك غامض جداً، والحزم تركه إلا أن يصير واجباً بحيث لا يجوز تركه كما لو أذى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان.

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محص؛ إذ قال ﷺ: امّنْ كَذَبَ عَلَيٍّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأُ مَقْعَدُهُ مِنَ النّارِيا('')، وهدا لا يرتكب إلا لضرورة، ولا ضرورة إذ في الصدّق مندوحة عن الكذب، فعيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها. وقول القائل: إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه، وما هو جديد فوقعه أعظم، فهذا هوس؛ إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى، ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلاً. والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء. نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين.

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض:

قد نقل عن السلف: أن في المعاريض مندوحة عن الكذب. قال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب. وروي ذلك عن ابن عباس وغيره. وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكلب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً، ولكن النعريض أهون. ومثال التعريض: ما روي أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال: ما رفعت حنبي مذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله. وقال إبراهيم: إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل: إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء. فيكون قوله: «ما) حرف نفي عند المستمع، وعنده للإبهام. وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته: ٩ما جئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء. فقال: كان عندي ضاغط، قالت: كنت أميناً عند رسول الله علي وعند أبي بكر رضى الله عنه. فبعث عمر معك ضاغطاً؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر، فلما بلغه ذلك دعا معاذاً وقال: بعثت معك ضاغطاً؟ قال: لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئاً فقال: أرضها به ـ ومعنى قوله ضاغطاً يعنى رقيباً وأراد به الله تعالى ـ وكان النخعي لا يقول لابنته: أشتري لك سكراً، بل يقول: أرأيت لو اشتريت لك سكراً؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك. وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد ولا تقولي له ليس ها هنا كيلا يكون كذباً. وكان الشعبي إذا طلب في المنزل وهو يكرهه خطُّ دائرة وقال للجارية: ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ها هنا. وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة كما روى عبدالله بن عتبة قال: دخلت مع أبي على عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه فخرجت وعليَّ ثوب، فجعل الناس يقولون: هذا كساكه أمير المؤمنين؟ فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيراً، فقال لي أبي: يا بني: اتق الكذب وما أشبهه، فنهاه عن ذلك لأنَّ فيه تقريراً لهم عن ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة. وهذا غرض باطل لا فائدة فيه.

نَعم، المعاريض تباح لغرض خفيف كتطبيب قلب الغير بالمزاح كقوله ﷺ: (لا يَدُخُلُ الجَنَّة

حديث: همن كلب على متعمداً فليتبوأ مقمده من النار، متفق عليه من طرق، وقد تقدم في العلم.

عَجُوزٌ» (١)، وقوله للأخرى: «اللَّذِي فِي عَيْنِ زَوْجِكِ بَيَاضٌ» وللأخرى: «تَحْمِلُكَ عَلَى وَلَدِ البّعِيرِ»، وما أشبهه، وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الأنصاري مع عثمان في قصة الضرير إذ قال له: إنه نعيمان، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمقى بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك؛ فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب فهو حرام، وإن لم يكن إلا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه. قال على: «لا يَكُمُلُ لِلْمَرْءِ الإيمانُ حَتَّى يُحِبُ لأَخِيهِ مَا يُحِبُ لِنَفْسِهِ وَحَتَّى يَجْتَبُ الكَذِبَ فِي مُزَاحِهِ» (٢)، وأما قوله عليه السلام: «إنَّ الرُّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لِيُطْحِكَ بِهَا النَّاسُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ النُّرَيَّا» (٣)؛ أراد به ما فيه غيبة مسلم أو إيذاء قلب دون محض المزاح.

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق: ما جرت به العادة في المبالغة كقوله: طلبتك كذا وكذا مرة، وقلت لك كذا مائة مرة، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب. ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال: كُلِ الطعام، فيقول: لا أشتهيه. وذلك منهي عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح. قال مجاهد: قالت أسماء فيقول: لا أشتهيه. وذلك منهي عنه وهو حرام، وإن لم يكن فيه غرض صحيح. قال مجاهد: قالت أسماء بنت عميس، كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله عَنْهُ ومعي نسوة قالت: فوالله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحاً من لبن، فشرب ثم ناوله عائشة، قالت: فاستحيت الجارية فقلت: لا تردي يد رسول الله عنه خذي منه، قالت: فأخذت منه على حياء فشربت منه، ثم قال: «ناولي صواحبك، تردّي يد رسول الله: إن قالت إحدانا لشيء فقلن: لا نشتهيه، فقال: «لا تُجْمَعُنَ جُوعاً وَكَذِباً» قالت: فقلت: يا رسول الله: إن قالت إحدانا لشيء تشنهيه؛ يعد ذلك كذباً؟ قال: «إن الكذب ليكتب كذِباً، حَتّى تُكْتَبَ الكُذَبَةُ كُذَيْبَةً الكذب، وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب.

قال الليث بن سعد: كانت عينا سعد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه، فقال له: لو مسحت عينيك؟ فيقول: وأين قول الطبيب: لا تمس عينيك؟ فأقول: لا أفعل. وهذه مراقبة أهل

 ⁽١) حديث: ﴿لا يدخل الجنة هجوز» وحديث ﴿في هين روجك بياض﴾ وحديث: «تحملك على وقد البعير» تقدمت
الثلاثة في الأفة العاشرة.

⁽Y) حديث: «لا يستكمل المؤمن إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه ذكره ابل عبدالبر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الذماري وقال: فيه نظر، وللشيخين من حديث أنس: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة: «لا يؤمن عبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه» قال أحمد بن حتيل: منكر.

 ⁽٣) حديث: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوي بها أبعد من الثريا) تقدم في الآفة الثالثة.

⁽٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس: اكنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله على ..». الحديث. وفيه: قال: الا تجمعن جوعاً وكذاك. أخرجه ابن أبي الدنبا في الصمت، والطبراني في الكبير، وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب، فإن أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة، لكن في طبقات الأصبهانيين لأبي الشيخ من رواية عظاء بن أبي رباح عن أسماء بنت عميس: «زففنا إلى النبي عليه بعض نسائه،..» الحديث. فإذا كانت غير عائشة ممن تزوحها بعد خير فلا مانع من ذلك.

أسماء بنت عميس: زوجة جعفر بن أبي طالب، تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد استشهاد جعفر في مؤتة. فولدت له محمد بن أبي بكر.

الورع، ومن تركه انسل لسانه في الكذب عند حد اختياره فيكذب ولا يشعر. وعن خوات التيمي قال: جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يا بني؟ فجلس الربيع وقال: أرضعتيه؟ قالت: لا، قال: ما عليك لو قلت، يا ابن أخي فصدقت؟ ومن العادة أن يقول: يعلم الله فيما لا يعلمه. قال عيسى عليه السلام: إن من [أعظم] الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم، لما لا يعلم، وربما يكذب في حكاية المنام، والإثم فيه عظيم، إد قال عليه السلام: ﴿إِنَّ مِنْ أَعْظُم الْفِرْيَةِ أَنْ يَعْلِم اللهِرْيَةِ أَنْ يَعْقِدُ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدِ بَيْنَهما أَبْداً» (. وقال عليه السلام: همَنْ كَذَبَ فِي حُلُم كُلُفَ يَوْمَ القِيامَةِ أَنْ يَعْقِدُ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدِ بَيْنَهما أَبْداً» (. وقال عليه السلام: «مَنْ كَذَبَ فِي حُلُم كُلُفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدُ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدِ بَيْنَهما أَبْداً» (.)

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة:

والنظر فيها طويل، فلنذكر أولاً مدمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم المبتة، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَنْتُ تَنْشُكُم بَعْشًا أَيُّتُ أَكُدُكُم أَنْ فَكُ لَا مُسْلِم عَلَى المسْلِم حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ ﴿ الْعُبِهِ مَيْنَا فَكُومُونُ وَ الحُجرَات: ١٦]، وقال عليه السلام: ﴿ كُلُّ المُسْلِم عَلَى المسْلِم حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ ﴿ كَا فَيْهِ مَيْنَا فَكُومُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَفَاحَشُوا وَلا تَدَابَرُوا وَلا يَغْتِبُ بَعْضُكُم بَعْضا وَكُونُوا عِبَادَ الله السلام. ﴿ لا تَحَاسَدُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَلا تَفَاحَشُوا وَلا تَفَاحَشُوا وَلا يَقْتَبُهُ وَالْغِيبَةَ فَإِنَّ الْغِيبَة أَشَدُ مِنَ الرَّبُلُ اللهُ اللهُ عَلَيْهِ وَإِنَّ صَاحِبَ الغِيبَةِ لا يُغْفِرُ لَهُ حَلَّى يَغْفِرُ لَهُ صَاحِبُهُ ﴿ وَاللهُ اللهِ عَلَى الْفُولِ وَلا يَعْفَرُ وَجُومَهُمْ بِأَطَافِيرِهِمْ فَقُلْتُ وَقَالُ الْسِرِهِ اللهُ عَلَيْهِ وَاللهُ اللهِ عَلَى الْفُولِ وَلا يَعْفَى الْفَوْلِ فَي الْفِيبَةِ اللهُ اللهُ عَلَيْهِ وَاللهُ اللهُ عَلَيْهِ وَلَوْ النّاسَ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهُمْ وَاللهُ اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ عَلَيْهُ وَلا اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ اللهُ وَلَا اللهُ اللهُ عَلَيْهُ وَلَا اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ ولَا اللهُ الل

 ⁽١) حديث: «إن من أعظم الفري أن بدهي الرجل إلى غير أبيه أو يري هينيه في المنام ما لم تريا أو يقول عليّ ما لم أقل».
 أخرجه البخاري من حديث واثلة بن الأسقع، وله من حديث ابن عمر: «من أقرى الفرى أن يري هينيه ما لم تريا».

 ⁽٢) حديث: فمن كلب في حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شميرة؛ أخرجه البخاري من حديث ابن عباس.
 الآفة الخامسة عشرة: الفية

 ⁽٣) حديث: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

حدیث أبي هریرة «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا پغتب بعصكم بعضاً وكونوا صاد الله إخواناً». متفق علیه من حدیث أبي هریرة دون قوله: «ولا پغتب بعضكم بعضاً»، وقد تقدم في آداب الصحبة.

حديث جابر وأبي سعيد: (إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزني...؛ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وابن حبان في الضعفاء، وابن مردويه في التفسير.

حديث أنس امررت ليلة أسري بي هلى قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم. . ٤ الحديث. أخرجه أبو داود مسنداً ومرسلاً؛ والمسند أصح.

 ⁽٧) حديث سليم بن جابر٬ "أتيت رسول الله ﷺ فقلت علمني خيراً يتفعني الله به. ٤٠ الحديث. أخرجه أحمد في المسند وابن أبي الدنيا في الصمت واللفظ له، ولم يقل فيه أحمد العبر فلا تفتابته وفي إسنادهما ضعف.

المُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبِّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَنَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ فِي جَوْفِ بَيتِهِ» (١٠). وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أوّل من يدخل النار. وقال أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم فقال: ﴿ لا يُفْطِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى آذَنَ لَهُ ۗ فصام الناس حتى إذا أمسوا جعل الرحل يجيء فيقول: يا رسول الله، ظللت صائماً فائذن لي لأفطر؛ فيأذن له، والرجل والرجل، حتى جاء رجل فقال: يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين وإنهما يستحيال أن بأتياك فائذن لهما أن يفطرا. فأعرض عنه ﷺ ثم عاوده فأعرض عنه، ثم عاوده فقال: «إِنَّهُمَا لَمْ يَصُومَا وَكَيْفَ يَصُومُ مَنْ ظَلَّ نَهَارَهُ يَأْكُلُ لَحْمَ النَّاس؟ اذْهَبْ فَمُرْهُما إِنْ كَانَتًا صَائِمَتْين أَنْ تُسْتَقِيثًا﴾، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «وَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ بَقِيتَا فِي بُطُونِهِمَا لَأَكَلَتْهُمَا النَّارُ» (٢٠)، وفي رُواية: أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال: يا رسول الله، والله إنهما قد ماتنا أو كادتا أن تمونا، فقال ﷺ: «الْتُونِي بِهما» فجاءنا فدعا رسول الله ﷺ بقدح فقال لإحداهما: "قِيثِي، فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح، وقال للأخرى: ﴿قِيشِي فقاءت كذلِك، فقال: ﴿إِنَّ هَاتَنِنْ صَامَتًا عَمَّا أَخَلُّ اللَّهَ لَهُمَا وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرْمٌ الله عَلَيْهِما، جَلَسَتْ إِخُلَاهُما إِلَى الأُخْرَى فَجَعَلْنَا تَأْكُلانِ لُخُومَ النّاسِ، (٣)، وقال أنس: خطبنا رسول الله ﴿ ﷺ فَذَكَرَ الرَّبَا وعظم شَانِهِ فَقَالَ: ﴿ إِنَّ اللَّوْهَمَ يُصِيبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرَّبَا أَغْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ فِي المُخَطِّيقَةِ مِنْ سِتِ وَثَلاثِينَ زَنْيَةٍ يَزْنِيهِا الرَّجُلُ وَأَرْبَى الرِّبَا عِرْضُ المُسْلِم؛ (٤)، وقال جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين بعذب صاحباهما فقال: «إِنَّهُمَا يُمَذِّبَانِ وَمَا يُعَلَّبَانِ فِي كَبِيرِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْنَابُ النَّاسَ، وَأَمَّا الآخَرَ فَكَانَ لا يَسْتَنْزُهُ مِنْ بَوْلِهِ، فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال: «أَمَا إِنَّهُ سَيْهَوْنُ مِنْ عَلَابِهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ ــ أَوْ مَا لَمْ يَيْبَسَا سَهُ (^(a). ولمَّا رجم رسول الله على ماعزاً في الزني قال رجل لصاحبه: هذا أقعص كما يقعص الكلب، فمر على وهما معه بجيفة فقال: «النَّهَشَا مِنْهَا» فقالا: يا رسول الله، ننهش جيفة؟ فقال: «مَا أَصَبْتُما مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتَن مِنْ

 ⁽١) حديث البراء «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين. . . » الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد.

⁽٢) حديث أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم وقال الا يفطرن أحد حتى آذن له قصام الناس... الحديث. افي ذكر المرأتين اللتين اعتابتا في صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دمه أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، وابن مردويه في التعسير من رواية يزيد الرقاشي عنه، ويزيد ضعيف.

 ⁽٣) حديث المرأتين المذكورتين وقال فيه: اإن هاتين صامنا عما أحل الله لهما وأقطرتا على ما حرم الله عليهما...
الحديث. أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المبهم.

 ⁽٤) حديث أنس: "خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه ..» الحديث. وفيه: «وأربى الربا عرض الرجل المسلم» أخرجه ابن أبي
 الدنيا سند ضعيف.

⁽٥) حديث جابر: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال: "أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في في كبير، أما أحدهما فكان يغتاب الناس. . . • الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإساد جيد، وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسي فيه: "أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس» ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه بإسناد جيد.

لْهَلِهِ، (١)، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا يغتابون عند الغيبة، ويرون ذلك أفضل الأعمال، ويرون خلافه عادة المنافقين. وقال أبو هريرة: من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة، وقيل له: كله ميتاً كما أكلته حياً، فيأكله فينضج ويكلح(٢)، وروي مرفوعاً كذلك. وروي أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثاً فترك ذلك. فقالا: لقد بقي فيه منه شيء، وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس، فحاك في أنفسهما ما قالا، فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين. وعن مجاهد أنه قال في ﴿وَيْلُّ نُكُلِّ هُمَزَةٍ لَمَزَةٍ ۞﴾ [الهُمَزة. ١] الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الدي يأكل لحوم الناس. وقال قتادة: ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول. وقال الحسن: والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد. وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس. وقال ابن عباس: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك. وقال أبو هريرة: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ولا يبصر الجذع في عين نفسه. وكان الحسن يقول: ابن آدم، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فإذا فعلت ذلك كان شغلك مي خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا. وقال مالك بن دينار: مرَّ عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة كلب فقال الحواريون: ما أنتن ريح هذا الكلب! فقال عليه الصلاة والسلام: ما أشدّ بياض أسنانه! كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آحر فقال له: إياك والغيبة؛ فإلها إدام كلاب الناس. وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء. نسأل الله حسن التوفيق لطاعته.

بيان معنى الغيبة وحدودها:

اعلم: أن حدَّ الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته.

أما البدن: فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصوّر أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان. وأما النسب: فبأن تقول: أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو إسكاف، أو زبال، أو شيء مما يكرهه كيفما كان. وأما المخلق: فبأن تقول: هو سيىء الخلق بخيل متكبر مراء، شديد الغضب جبان عاجز، ضعيف القلب متهوّر وما يجري مجراه. وأما في أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك: هو سارق أو كذاب أو شارب خمر، أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو بالدين الركوع أو السجود، أو لا يحترز من النجاسات أو ليس باراً بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها

 ⁽١) حديث: قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة ققال: «انهشا
 منها. . . الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد جيد.

 ⁽٢) حديث أبي هريرة: قمن أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميناً كما أكلته حياً. . . ٥ الحديث. أحرجه ابن مردويه في النفسير مردوعاً، وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنمنة.

أو لا يحسن قسمها، أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس. وأما فعله المتعلق باللنيا: فكقولك: إنه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً، أو يرى لنفسه الحق على الناس، أو أنه كثير الكلام نؤوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه. وأما في ثوبه: فكقولك: إنه واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثياب.

وقال قوم: لا غيبة في الدين؛ لأنه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز، بدليل ما روي أن رسول الله على ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها نؤذي جيرانها بلسانها فقال: اهي في النّارِه (۱)، وذكرت عنده امرأة أخرى بأمها بخيلة فقال: الفَمَا خَيْرُهَا إِذَنَهُ (۱). فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضهم التنقيص، ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول على والدليل عليه: إجماع الأمة على أن من ذكر غيره مما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله على عدد الغيبة.

وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه، بدليل ما روي أن النبي على قال: ﴿ فَكُرُكُ أَخَاكَ بِمَا يَكُرُهُهُ قَبِل: أَرأيت إِن كان في أخي ما أقوله؟ قال: ﴿ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقْدِ الْهَبَيّةُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَهُ (" وقال معاذ بن جبل: ذكر رجل عند رسول الله على فقالوا ما أعجزه! فقال على المغتبم أخاكم ها قالوا: يا رسول الله قلنا ما فيه، قال: ﴿ إِنْ قُلْتُمْ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتُمُوهُ ﴿ الْمُعْتِمَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتُمُوهُ ﴾ وعن حديفة عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عند رسول الله على امرأة فقالت: إنها قصيرة فقال على المؤتب والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عز وجل افالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك، وذكر ابن سيرين رجلاً فقال: ذاك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله إني أراني قد اغتبته. وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الأعور. وقالت عائشة: لا يغتابن أحدكم أحداً فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي الله إن هذه لطويلة الذيل فقال لي: «الفَظِي الْفَظِي الْفَظِي الْفَظِي فَلْفَلت مضغة لمحم (").

 ⁽۱) حديث: دكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذي جيرانها فقال: قهي في النار؟ أخرجه ابن حبال والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة.

 ⁽۲) حديث: ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال: فقما خيرها إذن أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي جعفر محمد بن علي موسلاً، ورويناه في أمالي ابن شمعون هكذا.

 ⁽٣) حديث: «هل تدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره...» الحديث. أخرجه مسلم
 من حديث أبي هريرة.

^(\$) حديث معاذ: ۚ ﴿ذَكَرُ وَجُلُّ عَنْدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فقالوا: مَا أَعْجَزُهُ. . ٤ الْحَدَيْثُ. أَخْرَجُهُ الطَّرَاني بَسَنَّد ضَعَيْفٍ.

⁽٥) حديث عائشة: أنها ذكرت امرأة فقالت: إنها قصيرة فقال الفضيتيها رواه أحمد وأصله عند أبي داود والترمذي وصححه بلفظ آحر ووقع عند المصنف عن حديفة عن عائشة، وكذا هو في الصمت لابن أبي الدنيا، والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي. واسم أبي حذيفة سلمة بن صهيب.

⁽٦) حدَّيث عائشة: قلت لامرأة: إن هذه طويلة الذيل فقال عنه: «الفظي، فلفظت مضغة من لحم. أحرجه ابن أبي اللميا وابن مردويه في التفسير، وفي إسناده امرأة لا أعرفها.

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان:

اعلم: أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في العيبة وهو حرام. فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها: دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال عليه السلام: «اَهْتَبْتِيهَا» (١٠)، ومن ذلك المحاكاة يمشي متعارجاً أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة؛ لأنه أعظم في التصوير والتفهيم، ولما رأى رسول الله على عائشة حاكت امرأة قال: «مَا يَسُرني أنّي حَاكَيْتُ إِنسَاناً وَلِي كُذًا وَكَذَا» (١٠). وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين. وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره ـ كما سيأتي بيانه ـ وأما قوله: قال قوم كذا: فليس ذلك عبية، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت. ومن الغيبة أن تقول: بعض من مرّ بنا البوم، أو بعض من رأيناه، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به النوم، أو بعض من رأيناه، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً؛ لأن المحذور تفهيمه دون ما به النفهيم، فأما إذا لم يفهم عينه جاز. كان رسول الله على إذا كره من إنسان شيئاً قال: «مَا بَالُ أَقْوَام كنت معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة.

وأخبث أنواع الغيبة: غيبة القراء المراثين؛ فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشين العيبة والرياء، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان واتبذل في طلب الحطام، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن ينهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء. وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول: ما أحسن أحوال فلان ا ما كان يقصر في العبادات، ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلي به كلنا وهو قلة الصبر. فيذكر نصه، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه، فيكون مغتاباً ومراثياً ومزكياً نفسه، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة. ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم، فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم. ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول: ويضحك عليهم ويسخر منهم. ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول: سبحان الله ما أعجب هذا! حتى يصغي إليه ويعلم ما يقول، فيذكر الله تعالى ويستعمل الاسم آلة في متحين خبثه، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلاً منه وغروراً، وكذلك يقول: سامني ما جرى على تحقيق خبثه، وهو يمتن على الله أن يروح نفسه، فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعاء صديفنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه، فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعاء

⁽١) حديث عائشة: دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أي قصيرة فقال النبي ﷺ: •قد افتبتيها؛ أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها، وحسان وثقة ابن حبان وباقيهم ثقات.

 ⁽٢) حديث: قما يسرني أني حكيت وني كذا وكذا؛ تقدم في الآفة الحادية عشرة.

حدیث: کان إذا کره من إنسان شیئاً قال: «ما بال أقوام یقعلون کذا وکذا. . .» الحدیث. أخرجه أبو داود من حدیث عائشة دون قوله: «وکان لا یعیره» ورجاله رجال الصحیح.

له، بل لو قصد الدعاء لأخفاه في خلوته عقيب صلاته، ولو كان يغتم به لاغتم أيضاً بإظهار ما يكرهه. وكذلك يقول: ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه، فهو في كل ذلك يظهر الدعاء، والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده، وهو لجهله لا يدري أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا.

ومن ذلك: الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب؛ فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول: عجب ما علمت أنه كذلك ما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا، عاقانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب. قال ﷺ: «المُسْتَمِعُ أَحَدُ المُفْتَابِينَ، (١٠)، وقد روي عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه: إن فلاناً لنؤوم ثم إنهما طلبا أدماً من رسول ألله ﷺ ليأكلا به الخبز، قال ﷺ: ﴿قد ائتدمتما ﴿فقالا: ما نعلمه؟ قال: ﴿بَلِّي إِنَّكُمَا أَكُلْتُمَا مِنْ لَحْم أَخِيكُمَا﴾(٢) فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمعاً. وقال للرجلين اللذين قال أحدهماً. أقعص الرجل كما يقعص الكلب: «انْهَشَا مِنْ لهٰذِهِ الجِيقَةِ»(٣٠)، فجمع بينهما، فالمستمع لا يخرج من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه، وإن قال بلسانه اسكت وهو مشتهِ لذلك بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اسكت، أو يشير بحاجبه وجبينه، فإن ذلك استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحاً وقال ﷺ: ﴿مَنْ أَذِلْ عِنْدَهُ مُؤْمِنْ فَلَمْ يَنْصُرُهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرهِ أَذَٰلُهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُوُوسَ الخَلاثِقِ، (٤٠)، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَدَّ هَنْ عِرْض أخِيهِ بِالغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهُ أَنْ يَرُدُّ عَنْ عِرْضِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ" (*)، وقال أيضاً: "مَنْ ذُبٌّ عَنْ عِرْض أُجيهِ بِالغَيْبِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهُ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِهِ (٢٠)، وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول بإعادتها.

⁽١) حديث: «المستمع أحد المغتابين» أخرجه الطبرائي من حديث ابن عمر النهى رسول الله عن الغيبة وعل الاستماع إلى الغيبة». وهو ضميف.

 ⁽۲) حديث: أن أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه: إن فلاناً لنؤوم ثم طلبا أدماً من رسول الله ﷺ فقال: «قد ائتلعتما؟» فقال: ما تعلم؟ فقال: «بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما». أخرجه أبو العباس الدغولي في الأداب من رواية عبدالرحمن بن أبي ليلى مرسلاً تحوه.

 ⁽٣) حديث: «اتهشا من هذه الميتة» قاله للرجلين اللذين قال أحدهما: أقعص كما يقعص الكلب، تقدم قبل هذا باثني عشر حديثاً.

 ⁽³⁾ حديث: المن أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق أخرجه الطبرائي من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهبعة.

⁽٥) حديث أبي الدرداء: امن رد عن عرض أخبه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة، أخرحه ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب، وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ الرد الله عن وجهه المنار يوم القيامة، وفي رواية له: «كان له حجاياً من النار، وكلاهما ضعيف.

⁽٦) حديث: «من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار؟ أخرجه أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماه بنت يزيد.

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة:

اعلم: أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سبباً: ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة.

أما الثمانية:

فالأوّل: أن يشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غصبه يشتفي بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن العضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغبية.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوص معهم في ذكر العيوب والمساوي.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فبروج كذبه بالصدق الأوّل ويستشهد ويقول: ما من عادتي الكذب، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله، وكان من حقه أن يبرىء نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل؛ ليمهد بذلك عذر نقسه في فعله.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف، وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد؛ وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه؛ لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد، فإنّ ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق.

السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب.

الشامن: السخرية والاستهزاء استحقاراً له، فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في العيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات، وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر. الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول: ما أعجب ما رأيت من فلان! فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري. ومن ذلك قول الرجل: تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل؟.

الثاني: الرحمة؛ وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمته خيراً، وكذا تعجبه، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري، والترحم والاغتمام ممكن دون دكر اسمه؛ فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه، فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضيه عليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام، فإنهم يظنون أنَّ التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم وهو خطأ، بل المرحص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم ـ كما سيأتي ذكره ـ، روي عن عامر بن واثلة: أنَّ رجلاً مرَّ على قوم في حياة رسول الله عليه الله عليهم فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله تعالى. فقال أهل المجلس: لبئس ما قلت والله لننبئته، ثم قالوا: يا فلان ـ لرجل منهم ـ ثم فأدركه وأخبره بِما قال. فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال وسأله أن يدعوه له، فدعاه وسأله فقال: قد قلت ذلك، فقال ﷺ: ﴿لَمُ تبغضه؟؛ فقال: أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة. قال: فاسأله يا رسول الله، هل رآني أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضُّوء لها أو الركوع أو السجود فيها؟ فسأله فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله، هل رآني قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً؟ فسأله عنه فقال: لا، فقال: والله ما رأيته يعطي سائلاً ولا مسكيناً قط، ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر، قال: فاسأله يا رسول الله هل رآني نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها؟ فسأله فقال: لا، فقال ﷺ للرجل: الهم فلعله خير منكا(١٠).

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة:

اعلم: أن مساوي الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجود العلم والعمل، وإنما علاج كل علة بمضادة سبها، فلنفحص عن سببها، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل.

⁽١) حديث هامر بن واثلة: ‹أن رجلاً مرّ على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم: إني لأبغض هذا في الله. . . ٤ الحديث، بطوله، وفيه فقال: ‹قم قلعله خير منك أخرجه أحمد بإسناد صحيح.

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عزَّ وجلَّ ومشبه عنده بآكل المبتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اعتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب. قال ﷺ: «مَا النَّارُ فِي اليَبُس بِأَسْرَعَ مِنَ الغِيبَةِ فِي حَسَنَاتِ المَبْكِ، (١). وروي أن رجلاً قال للحسن: بلغني أنك تغتابني، فقال: ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي. فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفاً من دلك، وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله ﷺ: اطُوبَي لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ هَنْ هُيُوبِ النَّاسِ؟'``، ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويدّم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عر ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك عيبةً يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق؛ فإن من دَم صنعة فقد دم صابعها. قال رجل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهى إليَّ فأحسنه. وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يدوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب، فينبغى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه، فهذه معالجات جميلة.

أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب.

أما الغضب: فيعالجه بما سيأتي في كتاب آفات الغضب وهو أن يقول: إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة؛ إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره، وقد قال ﷺ: ﴿ فِلْ لَهُ لِجَهَنَّمُ بَاباً لا يَذْخُلُ مِنْهُ إِلاَّ مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهُ تَعَالَى اللهُ اللهُ وقال ﷺ: ﴿ مَنْ كَظَمَ ضَيْظاً وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُمْضِيَهُ وَعَالَ اللهُ الله

 ⁽١) حديث: «ما النار في البيس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد، لم أجد له أصلاً.

 ⁽٢) حديث: «طوي لمن شغله عيبه عن عيوب الناس؛ أخرجه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: (إن لجهتم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله أخرجه البزار وابن أبي الدنيا وابن عدي والبيهقي والنسائي من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

 ⁽٤) حديث: «من اتقى ربه كل لساته ولم يشف غيظه أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف، ورويتاه في الأربعين البلدانية للسلفي.

⁽ه) حديث: «من كظم فيظاً وهو قادر على أن ينفذه...» الحديث، أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس.

المنزلة على بعض النبيين: يا ابن آدم: اذكربي حين تغضب أذكرك حين أغضب، فلا أمحقك فيمن أمحق.

وأما الموافقة: فيأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى؟ وذلك لا يوجب أن ندكر المغضوب عليه بسوء، بل ينبعي أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة.

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغني عن ذكر الغير، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين، وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقيناً، ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا! فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة، وتحسر حسناتك بالحقيقة، ويحصل لك ذم الله تعالى نقداً، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان.

وأما حذرك: كقولك: إن أكلت الحرام ففلان يأكله، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله، فهذا جهل، لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائناً من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه، ولو وافقته لسفه عقلك. ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه، وسجلت مع الجمع المعصيتين على جهلك وغباوتك، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردي نفسها من قلة الجبل، فهي أيضاً تردي نفسها، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر وقالت: العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل، لكنت تضحك من جهلها، وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك.

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقيناً بما عند المخلوقين وهماً، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً.

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين، لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذباً بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسراً نفسك في الدنيا فصرت أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك. فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته، ولا تنفعك وقد حمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة، وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل:

وإذا أراد الله نسشر فسضيسكة طويت أنباح لها لسبان خسسود

وأما الاستهزاء: فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإحزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك!، ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك، فإنك سخرت به عند نفر قليل، وعرّضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة

ببدك على ملأ من الناس ويسوقك تحت سيئاته كما يساق الحمار إلى النار، مستهزئاً بك وفرحاً بخزيك، ومسروراً بنصرة الله تعالى إياه عليك، وتسلطه على الانتقام منك.

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن، ولكن حسدك إبليس فأضلك، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك، فيكون جبراً لإثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوماً، وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً؛ إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة؛ ليحبط أجر غضبك وتصير معرّضاً لمقت الله عزّ وجلّ بالغيبة.

وأما التعجب إذا أخرحك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه، وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا؛ وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك. فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

بيان تحريم الغيبة بالقلب:

اعلم: أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدّث غيرك بلسانك بمساوى الغير فليس لك أن تحدّث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعنى به إلا عقد القلب وحكمه على غيره السوء. فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك أيضاً معفو عنه، ولكن المنهى عنه أن بطن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب. فقد قال الله تعالى: ﴿يَكَأَيُّمُا الَّذِينَ ءَامُؤا أجْنَيْوُا كَيْرًا مِّنَ ٱلظَّدِّ إِنَّكَ مَنْضَ ٱلظَّنِ إِنْمَا ۗ [الحُجزات: ١٣]، وسبب تحريمه: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام لغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا الكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن حَءَكُمْ فَاسِنًّا بِمَالٍ فَشَيْئُواْ أَن تُصِينُواْ فَوْمًّا بِحَهَالَمَر﴾ [الحجزات: ٦]، فلا يجوز تصديق إبليس، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم تجز أن تصدق به، لأن العاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجور لك أن تصدق به، حتى إنّ من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحدّ؛ إذ يقال: يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها، أو حمل عليه قهراً، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها، وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهُ حَرَّمٌ على المُسْلِم دَّمَهُ وَمَالَهُ وَأَنْ يَظُنُّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ»(١)، فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

فإن قلت: فسماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث؟ فتقول: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفوراً ما، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه. فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه.

⁽١) حديث: «إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوءا أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف، ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر.

وقد قال ﷺ: ﴿ فَلَاثُ فِي الْمُؤْمِنِ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ ، فَمَخْرَجُهُ مِنْ سُوءِ الظَّنِ أَنْ لا يُحَقِّقُهُ (١٠) ، أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب: فبتغيره إلى النفرة والكراهة . وأما في الجوارح : فبالعمل بموجبه . والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته .

وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً، لأنك لو كذبته لكنت جانياً على هذا العدل إذ ظننت به الكذب، وذلك أيضاً من سوء الظن، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر. نعم، ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للنهمة ورد شهادة العدو (٢)، فلك عند ذلك أن تتوقف، وإن كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه، ولكن تقول في نفسك: المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى، وكان أمره محجوباً عني، وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل، فإن المغتاب فاسق، وإن كان ذلك عادته ردت شهادته، إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة، ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق.

ومهما حطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيط الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي إليك الحاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة. ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه؛ لينظر إليك بعين التعظيم وتنظر إليه بعين الاستحقار، وتترفع عليه بإبداء الوعظ. وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك: وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة. فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته، وأجر الإعانة له على دينه.

ومن ثمرات سوء الظن: التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتخل بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا جَسَسُوا﴾ [الحُجرَات ١٦]، فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة. ومعنى التجسس: أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه. وقد ذكرنا في كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته.

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة:

اعلم: أن المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة، وهي ستة أمور:

⁽١) حديث: ﴿ثلاث في المؤمن وله منهن مخرجِ أخرجه الطبراني من حديث حارثة بن التعمان بسند ضعيف.

⁽٢) حديث: «رد الشرع شهادة الوالد العدل وشهادة العدو، أخرجه الترمدي من حديث عائشة وضعه: «لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حداً ولا ذي غمر لأخيه»، وفيه: «ولا ظنين في ولاه ولا قرابة» ولأبي داود وابن ماجه بإسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ رد شهادة الخائن والخائة وذي الغمر على أحيه».

الأوّل: التظلم، فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً. أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به. قال ﷺ قَلِي لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً (١٠ وقال عليه السلام: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ» (٢٠)، وقال عليه السلام: «لَى الوَاجِدِ يُجِلُّ مُقُوبَتَهُ وَعِرْضَهُ» (٢٠).

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح، كما روي أن عمر رضي الله عنه مرّ على عثمان _ وقيل: على طلحة _ رضي الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم. وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا حندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه: ﴿ يِسْدِ اللهِ الرَّحْسَنِ الرَّحِيدِ ﴾ ﴿ حمّ ﴿ يَنْ اللهِ الْعَرْيِنِ الْعَلِيدِ ﴾ فقاب، ولم يَنْ اللهِ الْعَرْيِنِ الْعَلِيدِ ﴾ فقاب، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة؛ إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح، فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، كما يقول للمفتي: ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص؟. والأسلم التعريض بأن يقول: ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر؛ لما روي عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي على: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، أفآخذ من غير علمه؟. فقال: الحُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَمَكِ بِالمَعْرُوفِ اللهُ ، فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها عليه، إذ كان قصدها الاستفتاء.

الرابع: تحذير المسلم من الشر، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره، وذلك موضع الغرور؛ إذ قد يكون الحسد هو الباعث، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق، وكذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك، فإن سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد، والمشتري أولى بمراعاة جانبه، وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطمئاً، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه، على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة، فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله: لا تصلح لك، فهو الواجب وفيه الكفاية، وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به؛ إذ قال رسول الله على الرابع المناجر المقاجر المقاجر المتكوه حتى يَعْرِفَهُ النَّاسُ اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ يصرح به؛ إذ قال رسول الله يقولون: ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجاثر، والمبتدع، والمجاهر بفسقه.

العديث: الصاحب الحق مقال؟ متفق عليه من حديث أبي هريرة.

⁽٢) حديث: قطل الغني ظلم، متفق عليه من حديث.

حديث: الن الواجد يحل عرضه وعقويته، أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الشريد بإسناد صحيح.

 ⁽⁴⁾ حديث: قإن هنداً قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح. متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٥) حديث: ﴿الرّعوون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس، اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس، أخرجه الطبراني وابن
 حبان هي الصعفاء وابن عدي من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله: «حتى يعرفه الناس، ورواه بهذه الزيادة ابن أبي الدنيا في الصمت.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرف عن عيبه كالأعرج والأعمش، فلا إثم على من يقول: روى أنو الزناد عن الأعرج، وسلمان عن الأعمش، وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به. نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى، ولذلك يقال للأعمى: البصير، عدولاً عن

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور، والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له، ولا يكره أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك. قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ فَلا غِيبَةَ لَهُ"، وقال عمر رضي الله عنه: ليس لفاجر حرمة، وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر؛ إذ المُستتر لا بد من مراعاة حرمته. وقال الصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره، ذِكري له بما فيه غيبة له؟ قال: لا ولا كرامة. وقال الحسر: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام , الجائر؛ فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره؟!. نعم، لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم. وقال عوف: دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال: إن الله حكم عدل، ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه، وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً كان أصغر ذنب أصبته أشدّ عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

بيان كفارة الغيبة:

إحياء عُلوم الدّين

اعلم: أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله؛ ليخرج به من حق الله سبحانه، ثم يستحلُّ المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله؛ إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً، فيكون قد قارف معصية أخرى. وقال الحسن: يكفيه الاستغفار دون الاستحلال. وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ. «كفارة من افتبته أن تستغفر لهه (٢٠)، وقال مجاهد: كمارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير. وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشى إلى صاحبك فتقول له: كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت، فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت، وهذا هو الأصح. وقول القائل: العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال، كلام ضعيف؛ إذ قد وجب في العرص حدِّ القذف وتثبت المطالبة به. بل في الحديث الصحيح ما روي أنه ﷺ قال: (من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته ا^(٣)،

حديث: «من ألقى جلباب الحياء عن وجهه قلا غيبة له؛ أخرجه ابن عدي، وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف، وقد تقدم.

حديث: «كقارة من اختبته أن تستغفر له» أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف.

حديث: «من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله. . . ١ الحديث. منفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لأخرى؛ إنها طويلة الذيل: قد اغتبتيها فاستحلّيها. فإذن: لا بد من الاستحلال إن قدر عليه، فإن كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء، ويكثر من الحسنات.

فإن قلت فالتحليل هل يجب؟. فأقول: لا، لأنه تبرع والتبرع فضل، وليس بواجب ولكنه مستحس، وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة.

وكان بعض السلف لا يحلل. قال سعيد بن المسيب: لا أحلل من ظلمني. وقال ابن سيرين: إني لم أحرمها عليه فأحللها له، إن الله حرم الغيبة عليه، وما كنت لأحلل ما حرم الله أبداً.

فإن قلت فما معنى قول النبي على: «ينبغي أن يستحلّها» وتحليل ما حرّمه الله تعالى غير ممكن؟ فنقول: المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة، فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة.

فإن قلت: فما معنى قول النبي على النّاسِ الله على النّاسِ الله الله المرض؟ ومن تصدق به فهل يباح قال: اللّهم إنّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى النّاسِ (١٠)، فكيف يتصدّق بالعرض؟ ومن تصدق به فهل يباح تماوله؟ فإن كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه؟. فنقول: معناه أني لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه، وإلا فلا تصير الغيبة حلالاً به ولا تسقط المظلمة عنه، لأنه عفو قبل الوجوب إلا أنه وعد، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم، فإن رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق أنّ له ذلك. بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف، ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا، وعلى الجملة فالعفو أفضل.

قال الحسن: إذا جئت الأمم بين يدي الله عن وجل يوم القيامة نودوا: ليقم من كان له أجر على الله؛ فلا يقوم إلا العافون عن الناس في الدنيا. وقد قال الله تعالى: ﴿ عُنِهِ اَلْمُوْ وَأَمْرُ بِاَلْمُرْفِ وَأَعْرِضَ عَنِ الْمُهِالِكِ ﴾ [الأعراف: 199] فقال النبي ﷺ: فيا جِبْرِيلُ مَا هُذَا العَفْوَه؟، فقال: إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك (٧). وروي عن الحسن أن رجلاً قال له: إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إليٌّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

الآفة السادسة عشرة: النميمة:

قال الله تعالى: ﴿ مَانِ مَشَامِ بِنَسِيمِ ۞ [القَلَم: ١١] ثم قال: ﴿ عُتُلَ بَهْدَ ذَلِكَ زَسِيمٍ ۞ [القَلَم: ٣] قال عبدالله بن المبارك: الزنيم ولد الزني الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى أن كل من لم يكتم

⁽١) حديث: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا خرج من بيته قال: اللهم إني تصدقت بعرضي على الناس؟ أخرجه البزار. وابن السني في اليوم والليلة، والعقيلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف، وذكره ابن عبدالبر من حديث ثابت مرسلاً عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة.

قلت: وإنما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلي.

 ⁽٢) حديث: نزول ﴿ عُنِهِ ۖ ٱلْمَثُولُ ۗ [الأعرَاف: ١٩٩] الآية فقال: ﴿ يَا جَبِرِيلَ مَا هَذَا اللهِ عَقَال: ﴿ إِن اللهِ يأمرك أَن تعقو عمن ظلمك وتعمل من قطعك وتعطى من حرمك تقدم في رياضة النفس.

إحياء تُعلوم الدّين

الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد زنى استنباطاً من قوله عِزْ وجلِّ: ﴿عُتُلِ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۞﴾ [الغلَم: ١٣] والزنيم هو الدعي، وقال تعالى: ﴿وَيْلُ لِحَكْلِ هُمَزَرْ لُّمَزَةِ ١٣] [الهُمَزة: ١] قيل: الهمزة: النمام، وقال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطِّبِ﴾ [النسد: ٤] قبل: إنها كانت نمامة حمالة للحديث، وقال تعالى: ﴿ فَخَانَنَاهُمَا فَلَرْ يُقْنِيهَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْتًا﴾ [الشخريم: ١٠] قيل: كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون، وقد قال ﷺ: ﴿لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ فَمَّامٌۥ (١٠)، وِفي حديث آخرِ: ﴿لا يَدْخُلُ الجَنَّةُ قَتَاتٌۥ والقتات: هو النمام. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَحَبُّكُمْ إِلَى اللهَ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً المُوطِئُونَ أَكْنَاهَا الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُولِغُونَ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى الله المَشَاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، المُفَرَّقُونَ يَيْنَ الإِخْوَانِ، المُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ المَثَرَاتِ، (٢)، وقالَ عِنْ : ﴿ أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ۗ قَالُوا: بلى، قال: المَشَاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ المُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ البَاغُونَ لِلْبُرَآءِ العَيْبَ،(٣)، وقال أَبُو ذر : قال رسول الله ﷺ: فمَنْ أَشَاعَ عَلَى مُسْلِم كَلِمةً لِيَثِينِنَهُ بِهَا بِغَيْرِ حَقٌّ شَانَهُ الله بِها فِي النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِهُ (٤)، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٌ أَشَاعَ عَلَى رَجُل كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لِيَشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يُذِيبَهُ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ فِي النَّارِ ۗ (٥)، وقالُ أبو هريرة: قال رَسُول الله ﷺ: «مَّنْ شَهِدَ عَلَى مُسْلِم بِشَهَادَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْل فَلْيَتَبَوَّأُ مَقْعَلَهُ مِنَ النَّارِهِ^(١)، ويقال: إن ثلث عذاب القبر من النميمة. وعن ابنُ عمرِ عن النبي ﷺ "إِنَّ الله لَمَّا خَلَقَ الجَنَّةَ قَالَ لَهَا تَكَلَّمِي. فَقَالَتْ: صَعِدَ مَنْ دَخَلَنِي، فَقَالَ الجَبَّارُ جَلَّ جَلالُهُ: وَعِزْتِي وَجَلالِي لا يَسْكُنُ فِيكِ ثَمَاتِيةُ نَفَر مِنَ النَّاسِ، لا يَسْكُنُكِ مُدْمِنُ خَفْرٍ، وَلا مُصِرٌّ عَلَى الزَّنَى، وَلا قَتَاتٌ وِهُوَ النَّمَامُ، وَلا دَيُوكَ، وَلا شُرطَيُّ، وَلا مُخَنِّكَ، وَلا قَاطِعُ رَحِم، وَلَا الَّذِي يَقُولُ: عَلَيَّ عَهْدُ الله إِنْ لَمْ أَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ لَمْ يَفِ بِهِ ١٩٠٤.

الآنة السادسة عشرة: النميمة

حديث: الا يدخل الجنة نمام؛ وفي حديث آخر: اقتات؛ متفق عليه من حديث حذيفة، وقد تقدم. (1)

حديث أبي هريرة الوأحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً؛ أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير، وتقدم (٢) في آداب الصحبة،

حديث: «ألا أخبركم بشراركم» قالوا: على، قال: «المشاؤون بالنميمة...» الحديث. أخرجه أحمد من حديث أبي (٣) مالك الأشعري، وقد تقدم.

حديث أبي ذر: «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النتار يوم القيامة؛ . أخرجه ابن أبي الدنيا مي الصمت والطبراني في مكارمُ الأخلاق، وفيه عبدالله بن ميمون فإن يكن القداح فهو متروك الحديث.

حديث أبي الدرداء. ﴿ أَيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها بريء ليشينه بها في الغنيا كان حقاً على الله أن يذببه بها يوم القيامة في النار. . . ؟ أخرجه ابن أبي الدنيا موقوفاً على أبي الدرداء . ورواه الطبراني بلفظ آخر مرفوعاً من حديثه ، وقد تقدم .

حديث أبي هريرة: قمن شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النارة. أحرجه أحمد وابن أبي الدنيا وفي رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن أبي الدنيا في الإستاد.

حديث أبن عمر: ﴿إِنْ اللهُ لَمَا خَلَقَ الْجِنَةُ قَالَ لَهَا تَكُلَّمِي قَالَتَ: سَعَدُ مَنْ دَخَلْتِي، قَالَ الْجِبَار: وعزتي وجلالي لا يسكن قيك ثمانية؛ فذكر منها قولا قتات، وهو النمام، لم أجده هكذا بتمامه ولأحمد: ﴿لا يَدَخُلُ الْجِنَّةُ عاتى لواللهِهُ ولا ديوثًا، وللنسائي من حديث عبدالله بن عمرو: ﴿ لا يَدَّخُلُ الْجَنَّةُ مَنَانُ وَلاَ عَالَى وَلاَ مَدَمَ خمر، وللشيخين من حديث حذيفة: ﴿ لا يدخل الجنة قتات، ولهما من حديث جبير بن مطعم: ﴿ لا يدخل الجنة قاطع، وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس: المما خلق الله الجنة قال لها: تكلمي تزيني فتزينت. فقالت؛ طويي لمن دخلني ورضي عنه إلْهي، فقال الله عز وجل: لا سكنك مخنث ولا تائحة.

وروى كعب الأحبار أن بني إسرائيل أصابهم قحط، فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا، فأوحى الله تعالى إليه: إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة. فقال موسى: فارحى الله تعالى إليه: إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة وأكون نماما، وناوا جميعاً، فسقوا، ويقال: اتبع رجل حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال: إني جئتك للذي أتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها؟ وعن الأرض وما أوسع منها؟ وعن اللمور وما أنسى منه؟ وعن البحر وما أغنى من المحكيم: البهتان على البريء أثقل من السلموات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحرّ من النار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمام إذا بان أمره أذل من البتيم.

بيان حد النميمة وما يجب في ردها:

اعلم: أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا، وليست النميمة مختصة به. بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه بالإيماء، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة: إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية، كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة. فالباعث على الميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه، أو إظهار الحب للمحكي له، أو التفرّج بالحديث والخوض في الفضول والباطل.

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو في ممالأة عدوّك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور.

الأول: أن لا يصدقه؛ لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَـ َكُٰدُ فَاسِنٌ بِبَـٰإٍ مُتَبَيِّئُواْ أَن تُعِيبُواْ قَوْمًا بِمُهَالُمَةِ﴾ [المحجزات: ٦].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصح له، ويقبح عليه فعله. قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرُ ۚ بِالْمَعْرُونِ وَأَتْهَ عَنِ ٱلْنُنكَرِ﴾ [لقنان: ١٧].

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى؛ فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء؛ لقول الله تعالى: ﴿ لَبْمَنْيُواْ كُلِيرًا بِنَ الظَّنِّ إِكَ نَفْضَ الظّ إِنْهُ﴾ [النحجزات: ١٧].

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث لتتحقق، اتباعاً لقول الله تعالى: ﴿ وَلَا جَنَنَسُونَ ﴾ [التُجزات: ١٦].

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه. ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماماً ومغتاباً، وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت. وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل، فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك؛ فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿ بَآيَكُمْ فَاسِنَ أَ بِنَالٍ فَتَلَيْنُا أَنَ اللَّهِ عَمْر: إن شئت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿ مَثَانٍ مَشَلَم بِنَبِيمِ ﴿ اللَّهَ لَمَ اللَّهُ وَان شئت عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً.

وذكر: أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه، فقال له الحكيم: قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات، بغضت أخى إلى، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمينة.

وروي: أن سليمان بن عبدالملك كان جالساً وعنده الزهري، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغني أنك وقعت في وقلت كذا وكذا، فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت، فقال سليمان: إن الذي أخبرني صادق، فقال له الزهري: لا يكون النمام صادقاً، فقال سليمان: صدقت، ثم قال للرجل: اذهب بسلام.

وقال الحسن: من نمّ إليك نمّ عليك. وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض، ولا يوثق بقوله ولا بصداقته. وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة، والمغل والحسد والنفاق والإفساد بين الناس والخديعة، وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. وقال تعالى: ﴿إِنَّا النّبِيلُ عَلَى اللّبِينَ يَغْلِبُونَ النّاسَ وَبَهُونَ فِي الْآرْضِ بِغَيْرِ النّمَوَى الشورى: ٤٢] والممام منهم. وقال عَلَيْ فِي شِرَارِ النّاسِ مَنِ اتّقاهُ النّاسُ لِشَرّه (١٠)، والنمام منهم، وقال: الا يَدْخُلُ الجَنّة قَاطِع، قيل: وما القاطع؟ قال: الله يَدْخُلُ الجَنّة قَاطِع، قيل: وما القاطع؟ قال: الله المناسَ (٢٠)، وهو النمام، وقيل: قاطع الرحم،

وروي عن علي رضي الله عنه أن رجلاً سعى إليه برجل فقال له: يا هذا، نحن نسأل عما قلت؛ وإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك، فقال: أقلني يا أمير المؤمنين، وقيل لمحمد بن كعب القرظي: أي خصال المؤمن أوضع له؟ فقال: كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد. وقال رجل لعبدالله بن عامر وكان أميراً : بلغني أن فلاناً أعلم الأمير أني ذكرته بسوء، قال: قد كان ذلك، قال: فأخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك، قال: ما أحب أن أشتم نقسي بلساني، وحسبي أني لم أصدقه فيما قال، ولا أقطع عنك الوصال.

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال: ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم؟. وقال مصعب بن الزبير: نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية؛ لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي؛ فلو كان صادقاً في قوله لكان لئيماً في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة. والسعاية هي النميمة إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية، وقد قال ﷺ: «السّاعي بالنّاس إلى النّاس لِفَير رُشَفَةٍ»(٣)،

 ⁽١) حديث: «إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره منفق عليه من حديث عائشة نحوه.

 ⁽٢) حديث: «لا يدخل الجنة قاطع» متفق عليه من حديث جبير بن مطعم.

 ⁽٣) حديث: «الساهي بافناس إلى الناس لغير رشدة» أخرجه الحاكم من حديث أبي موسى: «من سمى بالناس فهو لغير رشدة» أو فيه شيء منها وقال: له أسانيد هذا أمثلها.

قلت: فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة: منكر الرواية، قال: والحديث لا أصل له، وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية، ورواه الطبراني بلفظ: الا يسمى على الناس إلا ولمد بغي وإلا من فيه هرق مثه، وزاد بين سهل وبين بلال بن أبي بردة: أبا الوليد القرشي.

إحياء عُلوم الدّين

يعني ليس بولد حلال. ودخل رجل على سليمان بن عبدالملك فاستأذنه في الكلام وقال: إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام، فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته، فقال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعو! دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، ولا تصغ إليهم فيما استحفظك الله إياه، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا، وفي الأمانة تضييعاً والأعراض قطعاً وانتهاكاً، أعلى قربهم البغي والنميمة، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة، وأنت مسؤول عما أجرموا، وليسوا المسؤولين عما أجرمت، فلا تصلح دنياهم بعساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره، وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبدالملك، فجمع بينهما للموافقة، فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت اميرو إما التمسيك خالياً فيحنت وإما قبلت قبولاً ببلا عبليم فأنت من الأمير البدي كيان بسينينا بسمينزلة بسين البخييانية والإثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد: إن الأسواري ما يزال يذكرك في قصصه بشرّ، فقال له عمرو: يا هذا، ما رعيت حقى مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديث، ولا أذيت حقى حين أعلمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته، فوقع على ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخمرانك فيها أفضل من الربح، ومعاذ الله أن نقبل مهتوكاً في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك، فتوقّ يا ملعون العيب فإن الله أعلم بالغيب، الميت رحمه الله، والبتيم جبره الله، والمال ثمره الله، والساعي لعنه الله، وقال لقمان لابنه: يا بني، أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً: ابسط خلقك للقريب والبعيد، وامسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك، وليكن إحوانك، من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك. وقال بعضهم: النمام إليك لكان هو المجترىء بالشتم والحسد والنفاق وهي أثافي الذل. وقال بعضهم: لو صح ما نقله النمام إليك لكان هو المجترىء بالشتم عليك، والمنقول عنه أولى بحلمك لأنه لم يقابلك بشتمك.

وعلى الجملة: فشرّ النمام عظيم ينبغي أن يتوقى، قال حماد بن سلمة: باع رجل عبداً وقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال: رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه: إن سبدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك، ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها فجاء أهل المرأة بعرف ذلك، فتناوم لها فجاء أهل المرأة بالموسى فظن أنها تريد قتله فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين. فنسأل الله حسن التوفيق.

الأفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين:

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق. قال عمار بن ياسر: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجُهَانٍ فِي

الذُّنْيَا كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارِ يَوْمَ القِيَامَةِ" (١) ، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: "تَجِلُونَ مِنْ شَرِّ عِبَادِ الله يَوْمُ القِيَامَةِ فَا الوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَوْلاءِ بِحَدِيثٍ وَهَوْلاءِ بِحَدِيثٍ أَن وَفِي لَفظ آخر: "الَّذِي يَأْتِي هَوْلاء بِحَدِيثٍ وَهَوْلاء بِحَدِيثٍ أَن يكون أَميناً عند الله . يَأْتِي هَوْلاء بِوَجْهِ وَهَوْلاء بِوَجْهِ وَهَوْلاء بِوَجْهِ وَهَوْلاء بِوَجْهِ وَهَوْلاء بِوَجْهِ وَهَوْلاء بِوَجْهِ وَقَال أَبُو هريرة: لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أَميناً عند الله وقال مالك بن دينار: قرأت في التوراة بطلت الأمانة ، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال ﷺ: "أَيْمَعْنُ خَلِيقَةِ الله إِلَى اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ الكَذَّابُونَ وَالْمِينَ يَكْبُرُونَ البَغْضَاء لِإِخْوَانِهِمْ فِي صُلِورِهِمْ فَإِذَا لَقُوهُمْ تَمَلَّقُوا لَهُمْ وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى الشَّيطانِ وَأَمْرِهِ كَانُوا سِرَاعاً هَلَ الله بن مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة . قالوا: وما الإمعة؟ قال: الذي يجري مع كل ريح ، واتفقوا على أنّ ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق ، وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها .

وقد روي: أن رجلاً من أصحاب رسول الله على مات فلم يصل عليه حليفة فقال له عمر: يموت رجل من أصحاب رسول الله على والله والله عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه منهم، فقال: نشدتك الله أنا منهم أم لا؟ قال: اللهم لا، ولا أؤمن منها أحداً بعدك.

فإن قلت: بماذا بصير الرجل ذا لسانين وما حدّ ذلك؟. فأقول: إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة؛ إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء ـ كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة ـ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين، وهو شر من النميمة؛ إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام، وإن لم ينقل كلاماً ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته، وكذلك إذا أثنى على على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين. بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين، ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه.

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال: كنا نعدٌ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ⁽³⁾. وهذا نفاق مهما كان مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق؛ لأنه الذي أحوج نفسه

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين

⁽١) حديث عمار بن ياسر: «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة» أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن.

 ⁽٢) حديث أبي هريرة: «تجدون من شر صاد الله يوم القيامة ذا الوجهين ... الحديث. متفق عليه بلفظ. «تجد من شر
 الناس» لفظ البخاري، وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

 ⁽٣) حديث: البغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم،
 فإذا لقوهم تملقوا لهم. . . ٩ الحديث. ثم أنف له على أصل.

 ⁽٤) حدیث: قابل لابن عمر: إنا ندخل على أمرائنا فنقول الفول، فإذا خرجنا قلنا غیره قال: كنا نعد دلك نفاقاً على عهد
 رسول الله علیها أخرجه الطبرائي من طرق.

إلى ذلك، فإن كان مستغنياً عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والحاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأشي فهو منافق، وهذا معنى قوله ﷺ: «حُبُ المَالِ وَالجَاهِ يُنْبِتَانِ النّفَاقَ فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلِ (١٠)، لأنه يحوج إلى الأمواء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم، فأما إذا ابتلي به لضرورة وحاف إن لم يثن فهو معذور، فإن اتقاء الشر جائز، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم، وقالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: «اثْفَلْنُوا لَهُ فَبِفْسَ رَجُلُ العَشِيرةِ هُوَه ثم لما دخل ألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله، قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله، قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول، فقال: «يَا عَائِشَةُ إِنْ شَرَّ النَّاسِ الذِي يُكْرَمُ اتَقَاءَ شَرُهِ (٢٠)، ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم، فأما الثناء فهو كذب صراح، ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراء يباح الكذب بمثله ـ كما ذكرناه في والتبسم، فأما الثناء فهو كذب صراح، ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراء يباح الكذب بمثله ـ كما ذكرناه في أن فعل ذلك فهو منافق، بل ينبغي أن ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه.

الآفة الثامنة عشرة: المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع. أما الذم: فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها. والمدح يدخله ست آفات: أربع في المادح، واثنتان في الممدوح.

فأما المادح، فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب. قال خالد بن معدان: من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه.

والثانية: أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مراثباً منافقاً.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، روي أن رجلاً مدح رجلاً عند لنبي على فقال له عليه السلام: فوَيْحَكَ قَطَعْتَ هُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ ، ثم قال: فإنْ كَانَ النبي على فقال له عليه السلام: فويَحَكَ قَطَعْتَ هُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ ، ثم قال: فإنْ كَانَ يَوَى أَلَهُ كَذَٰلِكَ ، ("") أَحَدُكُمْ لا يُدْ مَادِحاً أَخَاهُ فَلْيَقُلُ أَحْسَبُ فُلاناً وَلا أُزَكِي عَلَى الله أَحَداً حَسِيبُهُ الله إِنْ كَانَ يَوَى أَلَهُ كَذَٰلِكَ ، (") وهذه الآفة تتطرّق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله: إنه متق وورع وزاهد وخير، وما يجري مجراه، فأما إذا قال: رأيته يصلي بالليل ويتصدّق ويحج فهذه أمور مستيقنة. ومن ذلك قوله: إنه عدل رضا؛ فإنّ ذلك خفي، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه. سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل فقال: أسافرت معه؟، قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة؟، قال: لا. فأنت جاره صباحه ومساءه؟، قال: لا. فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه.

 ⁽١) حديث: «حب الجاه والمال ينبثان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل؛ أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف إلا أنه قال «حب الفتاء» وقال: «المشب» مكان «البقل».

 ⁽۲) حديث عائشة: استأذن رجل على رسول الله ﷺ نقال ٔ فائلموا له فبئس رجل العشيرة. . . ، الحديث. وفيه: فإن شر
 الناس الذي يكرم اتقاء لشره متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها.

الآفة الثامنة عشرة: المدح

 ⁽٣) حديث: إن رجلاً مدح رجلاً عند رسول الله ﷺ فقال: فويحك قطعت هن صاحبك، منمن عليه من حديث أبي بكرة بنحوه، وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف.

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز. قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللهُ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الفَاسِقُ (١) ، وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح.

وأما الممدوح فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان. قال الحسن رضي الله عنه: كان عمر رضي الله عنه خلال المنفر، فقال رجل: هذا سيد رضي الله عنه جالساً ومعه الدرّة والناس حوله؛ إذ أقبل الجارود بن المنفر، فقال: ما لي ولك يا أمبر ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمبر المؤمنين؟. قال: ما لي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطيء منك.

الثاني: هو أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه، ومن أعجب بنفسه قل تشمره، وإنّما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال عليه السلام: فقطَعْتَ حُنُقَ صَاحِبكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَعَ وقال عليه في المُحتَ أَخَاكَ فِي وَجَهِهِ قَالَ عليه السلام: فقطَعْتَ حُنُق صَاحِبكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَعَ وقال عليه في الرجل عقرك الله (٢٠) وقال أيضاً لمن مدح رجلاً «عقرت الرجل عقرك الله (٢٠) وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إليّ نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمن يراجع، فقال ابن المبارك: لقد صدق كلاهما، أما ما ذكره زياد فذلك قلب الحواص. وقال ﷺ: فَلَوْ مَشَى رَجُلَّ إِلَى رَجُلٍ بِسِكِينِ مُرْهَفِ كَانَ خَيراً لَهُ مِنْ أَنْ يُثنِي عَلَيْهِ فِي وَجَهِهِهُ (٤٠). وقال عمر رضي الله عند: المدح هو الذبح. وذلك لأن المذبوح هو الذي يغتر عن العمل، والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح ؛ لذلك شبهه به. فإن سلم المدح من هذه الأفات في حتى المادح والممدوح لم يكن به بأس، بل ربما كان مندوباً إليه. ولذلك أثنى رسول الله على عمن المحت من هذه الأفات في عمر: فلو لَمْ أَبْعَتُ لَبُوتَتَ المحابة فقال: فلو وُرِن إيمان أبي يَكر بِإيمان المفالم لَرَجَعَ (وبصيرة، وكانوا رضي الله عنهم أجل الصحابة فقال: فلك كبراً وعجباً وفتوراً. بل مدح الرجل نفسه قبيح ؛ لما فيه من الكبر والتفاخر، إذ يَا همن أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً. بل مدح الرجل نفسه قبيح ؛ لما فيه من الكبر والتفاخر، إذ

⁽١) حديث: (إن الله يغضب إذا مدح الفاسق أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس، وفيه خلف خادم أنس ضعيف، ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عدي بلفظ: (إذا مدح الفاسق فضب الرب واهتز العرش) قال الذهبي في الميزان: منكر، وقد تقدم في آداب الكسب.

 ⁽۲) حديث: اإذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضاً أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلاً.

 ⁽٣) حديث: اعقرت الرجل عقرك الله، قاله لمن مدح رجلاً، لم أجد له أصلاً.

⁽٤) حديث: المو مشي رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خبراً له من أن يثني عليه في وجهه لم أجده أيضاً.

⁽a) حديث: الو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجيع؛ تقدم في العلم.

 ⁽٦) حديث: فلو لم أبعث لبعثت يا همر، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكر،
 والمعروف من حديث عقبة بن عامر: (لو كان بعدي نبي لكان صعر بن الخطاب، رواه الترمذي وحسنه.

قال ﷺ: النّا سَيّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخُرَ اللّهُ عَلَى لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم. وذلك لأن افتخاره ﷺ كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم ؛ كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدّمه على بعض رعاياه. ويتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال ﷺ: الوجبت الما أثنوا على بعض الموتى. وقال مجاهد: إن لبني آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة: يا ابن آدم، المستور عورتك، أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك، فهذه آفات المدح.

بيان ما على الممدوح:

اعلم: أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه، ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرف المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح. قال على: «اختوا التُوَابَ فِي وُجُوهِ المَادِحِينَ» (٣). وقال سفيان بن عيينة: لا يضر المدح من عرف نفسه، وأثني على رجل من الصالحين فقال: اللهم إنّ هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني، وقال آخر لما أثني عليه: اللهم إنّ عبدك هذا تقرّب إليّ بمقتك وأنا أشهدك على مقته، وقال على رضي الله عنه فقال: أتهلكني تواخلني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون، وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال: أتهلكني وتهلك نفسك؟ وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال: أتهلكني وتهلك نفسك؟ وأثنى رجل على على على على على على على على قد بلغه أنه يقع فيه _ فقال: أنا

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ.

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل، لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله. مثاله: ما قال حليفة: قال النبي ﷺ: «لا يَقُلُ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ الله وَشِئْتُ وَلَي لِيقُلُ مَا الله وَشِئْتُ وَلْكِنْ لِيقُلْ مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئْتُهُ (١٠)، وذلك لأنَّ في العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وهو

حديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». أخرجه الترمذي وابن ماحه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث
جابر وقال: صحيح الإسناد، وله من حديث عبادة بن الصامت: «أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر»، ولمسلم من
حديث أبي هريرة: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».

 ⁽٣) حديث: الوجيت، قاله لما أثنوا على بعض الموثى. منفق عليه من حديث أنس.

 ⁽٣) حديث: «احثوا في وجوه المداحين التراب؛ أحرجه مسلم من حديث المقداد.

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة من دقائق الخطأ

⁽٤) حديث حذيفة: الا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت. . 1 الحديث. أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح.

على خلاف الاحترام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله وما شئت، فقال ﷺ: ﴿ أَجَعَلْتَنِي للهُ عَدِيلاً بَلْ مَا شَاءَ اللهِ وَحْدَهُۥ(١). وخطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى فقال: ﴿قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولُهُ فَقَدْ غَوَى﴾'')، فكره رسول الله ﷺ قوله: ومن يعصهما، لأنه تسوية وجمع. وكان إبراهَيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. وأن يقول: لولا الله ثم فلان؟ ولا يقول: لولا الله وفلان؟، وكره بعضهم أن يقال: اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول: العتق يكون بعد الورود. وكانوا يستجيرون من النار ويتعوِّذون من النار. وقال رجل: اللهم اجعلني ممن تصيبه شفاعة محمد ﷺ فقال حذيفة: إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد، وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين. وقال إبراهيم: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار يا خنزير؛ قيل له يوم القيامة: حماراً رأيتني خلقته، خنزيراً رأيتني خلقته. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ أحدكم لبشرك حتى يشرك بكلبه، فيقول: لولاه لسُرقنا الليلة. وقال عمر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ الله تَعَالَى يَنْهَاكُمْ أنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِالله أَوْ لِيَصْمُتْ، (٣)، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها: وقال ﷺ: ﴿لا تُسَمُّوا الْعِنَبَ كَرْماً إِنِّما الكَرْمُ الرُّجُلُ المُسْلِمُ ۚ (⁽¹⁾، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: اللا يَقُولَنْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلا أُمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ الله وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ وَلْيَقُلُ غُلامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلا يَقُولُ الْمَمْلُوكُ رَبِّي وَلا رَبّْتِي وَلْيَقُلْ سَيْدِي وَسَيَّدَتِي فَكُلّْكُمْ عَبِيدُ الله وَالرِّبُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى»، وقال ﷺ: ﴿لا تَقُولُوا لِلْفَاسِقِّ سَيِّدَنَا فَإِنَّهُ إِنَّ يَكُنْ سَيَّدَكُمْ فَقَدْ أَسُخَطْتُمْ رَبُّكُمْهِ (*)، وقال ﷺ: قَمَنُ قَالَ أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الإِسْلامِ فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَلَنْ يَرْجِعُ إِلَى الإِسْلام سَالِماًهِ (٢٠). فهذا وأَمَثْاله ممّا يدّخل ُفيَ الكلام ولا يمكن حصره.

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله على «مَنْ صَمَتَ نَجًا» (٢)، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب، وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم من الكل، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح، وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم، فكن ممن سكت فسلم، فالسلامة إحدى الغنيمتين.

 ⁽۱) حديث ابن عباس: جاء رجل إلى الببي ﷺ فكلمه في بعص الأمر فقال: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله عدلاً قل ما شاء الله وحده». أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه.

 ⁽۲) حديث: الخطب رجل عند النبي ﷺ ققال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. . . » الحديث.
 أخرجه مسلم من حديث عدي بن حاتم.

 ⁽٣) حديث عمر: إن الله بنهاكم أن تحلفوا بآبائكم، متفق عليه.

 ⁽٤) حديث: ﴿لا تسموا العنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم› متفق عليه من حديث أبي هريرة.

⁽٥) حديث: الا تقولوا للمنافق سيدنا. . .» الحديث. أخرجه أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح.

 ⁽٩) حديث: (من قال: أمّا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال. . . ا الحديث. أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث بريدة بإسناد صحيح.

 ⁽٧) حديث: امن صمت نجاا أخرجه الترمذي، وقد تقدم في أول آفات اللسان.

الآفة العشرون:

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه، وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة؟ ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن، إلا أنَّ ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب، والعامي يفرح بالخوض في العلم؛ إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري. وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته. وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث، وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم، يستحقون به المقت من الله عزّ وجلّ ويتعرّضون لخطر الكفر، وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة. وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو ملموم، فإنه بِالْإِضَافَةَ إِلَيْهِ عَامِي. وَلَذَلِكِ قَالَ ﷺ: 'فَذَرُونِي مَا تُزكُثُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكِ مَنْ كَانَ قَبْلِكُمْ بِكُفْرَةِ سُوَالِهِمْ وَاخْتِلَاقِهِمْ عَلَى أَنْبِيَاتِهِمْ، مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمُ اللهُ عَلَيه وقال أنس: سَأَلُ الناس رسولِ الله ﷺ يوماً فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال: ﴿سَلُونِي وَلا تَسَأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأَتْكُمْ بِدِهِ فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: ﴿ أَبُوكَ حُذَافَةً ، فقام إليه شابان أخوان فقالا: يا رسول الله، من أبونا؟ فقال: أبوكما الذي تدعيان إليه، ثم قام إليه رجل آخر فقال: يا رسول الله، أفي الجنة أنا أم في النار؟ فقال: «لا، بل في النار». فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال: رضينا بالله ربأ وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، فقال: «الجُلِسُ يَا عُمَرُ رَحِمَكَ الله إِنْكَ مَا عَلِمْت لَمُوَفِّقُ (٢).

وفي الحديث: نهى رسول الله على عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال^(٣)، وقال على: المُوشِكُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَقُولُوا قَدْ خَلَقَ الله الخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ الله؟ فَإِذَا قَالُوا ذَٰلِكَ فَقُولُوا: ﴿ وَأَلْ هَرُ اللهُ النَّاسُ يَتَسَادُهُ اللهُ اللهُورَةَ ثُمَّ لِيَنْقُلُ أَحَدُكُمْ عَنْ يَسَادِهِ ثَلاثاً وَلْيَسْتَعِذْ اللهُورَةَ ثُمَّ لِيَنْقُلْ أَحَدُكُمْ عَنْ يَسَادِهِ ثَلاثاً وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٤).

وقال جابر: ما نُزلت أية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال(٥). وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام

الآفة العشرون: سؤال العوام من صفات الله تعالى

⁽١) حديث: فذووني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم . . ، الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال: «سلوني فلا تسألوني عن شيء
 إلا أنسأتكم يه...» الحديث. مثفق عليه مقتصراً على سؤال عبدالله بن حذافة وقول عمر. ولمسلم من حديث أبي
 موسى: «فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: أبوك سالم مولى شبية».

٣) حديث: النهي عن قبل وقال وإضاعة العال وكثرة السؤال؟. متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة.

 ⁽³⁾ حديث: (بوشك الناس بنساءلون بينهم حتى بقولوا قد خلق الله الخلق. . . ا الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

 ⁽a) حديث جابر: «ما نزلت آية التلاعن إلا لكثرة السؤال». رواه البزار بإسناد جيد.

تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال: ﴿ فَإِنِ انَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْتَأَنِى عَن شَيْءٍ حَقَّقَ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ وَكُلُّ اللّهِفِ: ٧٠]، فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال: ﴿ لَا نُوَاخِذْنِ بِمَا سَيبَتُ وَلَا نُرْجِفْنِى مِنْ أَمْرِى عُشْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثاً قال: ﴿ هَنَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَيَنْنِكَ ﴾ [الكهف: ٧٨] وقارقه.

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات، وهو من المثيرات للفتن، فيجب قمعهم ومنعهم من ذلك، وخوضهم في حروف القرآن يضاهي حال من كتب الملك إليه كتاباً ورسم له فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منها، وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث؟ فاستحق بذلك العقوبة لا محالة. فكذلك تضييع العامي حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهي قديمة أم حديثة؟ وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى. والله تعالى أعلم.



ينسب أنفر ألكنب ألتقسير

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد



وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون، وابتلاهم بالغضب وكلمهم كظم الغيظ فيما يغضبون، ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون، وامتحن بهم حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شيء مما يسرون وما يَعْلَمُونَ، وَحَذْرُهُمُ أَنْ يَأْخَذُهُمْ بَعْنَةً وَهُمُ لا يَشْعَرُونَ، فَقَالَ: ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً رَبُعِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يُعِضِّمُونَ ۞ فَلَا يُسْتَطِيعُونَ نَوْصِبَةً وَلَا إِنَّى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۞﴾ [بس: ٥٠،٤٩] والـصـلاة والـسـلام عـلــي محمد رسوله الذي يسير تحت لواته النبيون، وعلى آله وأصحابه الأثمة المهديين، والسادة المرضيين، صلاة يوازي عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفندة، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، كاستخراج الحجر النار من الحديد، وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين، فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: ﴿ غَلَقْنَنِي مِن شَارٍ وَخَلَقْنَهُ مِن طِينِ ﴾ [الأعرَاف: ١٣]، فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاستعار، والحركة والاضطراب. ومن نتائج الغضب الحقد والحسد، وبهما هلك من هلك، وفسد من فسد، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد، وإذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد إلى مواطن العطب فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه؛ ليحذر ذلك ويتقيه، ويميطه عن القلب ـ إن كان ـ وينفيه، ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه، ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه.

ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب، ويجمعها بيان ذم الغضب، ثم بيان حقيقة الغضب، ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا؟ ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ، ثم بيان فضيلة الحلم، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام، ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق، ثم القول في ذم الحسد، وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده، وقلته في عيرهم وضعفه، ثم بيان الدواء الذي به يُنفى مرض الحسد عن القلب، ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب. وبالله التوفيق.

بيان ذم الغضب:

كتاب الغضب والحقد والحسد

 ⁽١) حديث أبي هريرة: إن رجالاً قال: يا رسول الله، مرني بعمل وأقلل قال: «لا تغضب» ثم أعاد عليه، فقال: «لا تغضب» رواه البخاري.

⁽٣) حديث ابن عمر: «قلت لرسول الله ﷺ: قل لي قولاً وأقلل. . . ، الحديث. أحرجه نحوه أبو يعلى بإسناد حسن

 ⁽٣) حديث عبدانه بن عمرو: سأل رجل رسول الله ﷺ. ما يبعدني من غصب الله؟ قال: الا تغضب، أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن عبدالبر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد: وأن عبدالله بن عمرو هو السائل.

⁽ع) حديث ابن مسعود: «ما تعدون الصرعة. . . ع الحديث. رواه مسلم.

 ⁽a) حديث أبي هريرة اليس الشئيد بالصرعة. . . ٤ الحديث. متفق عليه.

 ⁽٦) حديث ابن عمر: المن كف غضبه ستر الله عورته الخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العدو وذم الغضب وفي الصمت،
 وتقدم في آفات اللسان.

 ⁽٧) حديث أبي الدرداء: دلني على عمل يدخلني الجنة؟ قال: «لا تغضب» أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن.

 ⁽A) حديث: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل» أخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جنه بسند ضعيف.

 ⁽٩) حديث: اما غضب أحد إلا أشفى على جهنم، أخرجه البزار وابن عدي من حديث ابن عباس: اللتار باب لا يدخله
 إلا من شفى غيظه بمعصية الله، وإسناده ضعيف، وتقدم في آفات اللسان.

رجل: أي شيء أشد عليَّ؟ قال: «غضب الله» قال: فما يبعدني عن غضب الله؟ قال: «لا تغضب»(١٠). الآثار: قال الحسن: يا ابن آدم، كلما غضبت وثبت، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار. وعن ذي القرنين أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً ازداد به إيماناً ويقيناً، قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة. وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً. وعن وهب بن منبه: أن راهباً كان في صومعته فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه فقال له: افتح، فلم يجبه فقال: افتح فإني إن ذهبت ندمت، فلم يلتفت إليه فقال: إني أنا المسيح، قال الراهب: وإن كنت المسيح فما أصنَّع بك، أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة، فلو جثتنا اليوم بغيره لم نقيله منك؟ فقال: إني الشيطان وقد أردت أن أضلَك فلم أستطع؟ فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك، فقال: ما أريد أن أسألك عن شيء، قال: فولى مدبراً، فقال الراهب: ألا تسمع، قال: بلى، قال: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ فقال: الحدّة، إن الرجل إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقال خيشمة: الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جثت حتى أكون في قلبه؟ وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه؟. وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر. وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدَّة وقائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه. وقال مجاهد: قال إبليس: ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقُدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا، وإذا غِضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم، ونبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه. وقيل لحكيم: ما أملك فلاناً لنفسه! قال: إذاً: لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب. وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار. وقيل: اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل. وقال عبدالله بن مسعود: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع؟. وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عامله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً. وقال علي بن زيد: أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبدالعزيز القول فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال: أردت أن يَستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً؟. وقال بعضهم لابنه: يا بني، لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة، فأقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكراً، وإن كان للآخرة كان حلماً وعلماً، فقد قيل: الغضب عدوّ العقل والغضب غول العقل. وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب قال في خطبته: أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب. وقال بعضهم: من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار. وقال الحسن: من علامات المسلم قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وعلم في حلم، وكيس في رفق، وإعطاء في حق، وقصد في غنى، وتجمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وتحمل في رفاقة، وصبر في شدَّة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تغلبه شهوة، ولا تفضحه بطنه،

 ⁽۱) حديث: قال رجل: أي شيء أشد عليّ؟ قال «ضفيب الله» قال: فما يبعدني من ضغيب الله؟ قال: «لا تغضيب».
 أخرجه أحمد من حديث عبدالله بن عمرو بالشطر الأخير منه، وقد تقدم قبله بست أحاديث.

ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، فينصر المطلوم ويرحم الضعيف، ولا يبخل ولا يبذر، ولايسرف ولا يفتر، يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناه، والناس منه في رخاه، وقيل لعبدالله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة، فقال: اترك الغضب، وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه: من يتكفل لي أن لا يخضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي؟ فقال شاب من القوم: أنا، ثم أعاد عليه فقال الشاب: أنا أوفي به، فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل، سمي به لأنه تكفل بالغضب ووفي به، وقال وهب بن منبه: للكفر أربعة أركان: الغضب، والشهوة، والخرق، والطمع.

بيان حقيقة الغضب:

اعلم: أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرّضاً للفساد والموتان، بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه؛ أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك، إلى أجل معلوم سماه في كتابه.

أما السبب الداخلي: فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها، فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان، وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء؛ كالموكل به في جبر ما انكسر وسد ما انثلم؛ ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب.

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان: فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الإنسان وعجنها بطينته، فمهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب، وثارت ثوراناً يغلي به دم القلب، وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزناً، ولذلك يصفر اللون، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب.

وبالجملة: فقوة الغضب محلها القلب، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها، والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها، ولا تسكن إلا به، ثم إن الناس في القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية له. ولذلك قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار. فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو ناقص جداً، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي على بالشدة والحمية فقال: ﴿أَشِدًا مُ عَلَى النَّهُ عَلَى النَّهُمُ إِلَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْهُ ﴾ [القوبة: ١٧٣] وقال لنبيه على: ﴿جَهِدِ ٱلْكُنَّادِ وَإِنْمُ الْفَلْطَ عَلَيْهِمُ ﴾ [القوبة: ١٧٣] وقال لنبيه وهو الغضب.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته، ولا يبقى

للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر. وسبب غلبته: أمور غريزية وأمور اعتيادية: فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضان، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لأن الغضب من النار(١١). كما قال على دلك عرارة مزاج القلب الأن الغضب المزاج تطفئه وتكسر سورته. وأما الأسباب الاعتبادية: فهو أن يخالط قوماً يتبجحون بتشفي النيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، فيقول الواحد منهم: أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال، ولا أحتمل من أحد أمراً. ومعناه: لا عقل فيّ ولا حلم. ثم يذكره في معرض الفخر بجهله، فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم؛ فيقوى به الغضب. ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة، فإذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضباً، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر؛ إذ ينطفيء نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب، فإن معدن الفكر الدماغ، ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستولي على معادن الفكر، وربما يتعدَّى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود عليه الدنيا بأسرها، ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار، فاسودٌ جوَّه، وحمي مستقره، وامتلأ بالدخان جوانبه، وكان فيه سراج ضعيف فانمحي أو انطفأ نوره، فلا تثبت فيه قدم، ولا يسمع فيه كلام، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج، بل ينبغي أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ. وربما تقوى نار الغضب فتفني الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهذ أعاليه على أسفله، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه، فهكذا حال القلب عند الغضب.

وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً؛ إذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه، ومن آثار هذا الغضب في الظاهر: تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المتاخر وتستحيل الخلقة، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن، فقس الثمرة بالمثمرة، فهذا أثره في الجسد.

وأما أثره في اللسان: فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ.

أما أثره على الأعضاء: فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه، وقد يضرب بيده على الأرض، ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير، وربما يسقط سريعاً لا يطبق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية، وربما يضرب

⁽١) حديث: «الغضب من النار» أخرجه الترمدي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف: «الغضب جمرة في قلب ابن آدم» ولأبي داود من حديث عطية السعدي: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار».

الجمادات والحيوانات، فيضرب القصعة مثلاً على الأرض، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها. ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول: إلى متى منك هذا يا كيت وكيت؟ كأنه يخاطب عاقلاً، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه: فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة بالمساءات، والحزن بالسرور، والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء، وعير ذلك من القبائح، فهذه ثمرة الغضب المفرط.

وأما ثمرة الحمية الضعيفة: فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة، واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضاً مذموم؛ إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام وهو خنوثة. قال ﷺ: ﴿إِنَّ سَعْداً لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدِ وإِنَّ الله أَغْيَرُ مِنْي، (١)، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب. ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأساب. ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها. ومن ضعف الغضب: الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات، وقد قال ﷺ: «خير أمتي أحداؤها» (٢)، يعني في الدين وقال تعالى: ﴿ رَلَا تَأْخُذُكُمْ بِهَا رَأَنَةٌ فِ دِينِ ٱللَّهِ﴾ [التُّور: ٢] بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه؛ إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة. ففقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفيء حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدالِ هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله ﷺ حيث قال: «خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُها» (٣)، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوي غضبه. ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جرّه إلى النهوّر واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين؛ فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف، فإن عجز عنه فليطلب القرب منه، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآيِءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَكَا تَعِيـلُواْ كُلَّ ٱلْمُيِّــل فَتَذَّرُوهَمَا كَٱلْمُعَلِّقَةُ ﴾ [النِّساء: ١٧٩] فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله، ولكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الخير أرفع من بعض. فهذه حقيقة الغضب ودرجاته. نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير.

بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة: أم لا؟

اعلم: أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد، وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج. وهذا رأي من يظن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير، وكلا

⁽١) حديث: ﴿إِنْ سَعِداً لَغَيُورِ... ؛ الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه من حديث المغيرة بتحوه وتقدم في النكاح.

 ⁽٢) حديث: اخير أمتي أحداؤها أخرجه الطبرائي في الأوسط والبيهةي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف وراد:
 ◄ الذين إذا قضبوا رجعوا).

 ⁽٣) حديث: «خير الأمور أوساطها» أخرجه البيهني في الشعب مرسلاً، وقد تقدم.

الرأيين ضعيف. بل الحق فيه ما نذكره وهو: أنه ما بقي الإنسان يحب شيئاً ويكره فلا يخلو من الغيظ والغضب، وما دام يوافقه شيء ويخالفه، والغضب والغضب يتبع ذلك فإنه مهما أُحذ منه محبوبه غضب لا محالة، وإذا قصد بمكروه غصب لا محالة.

إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما هو ضرورة في حق الكافة؛ كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن، فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، وكذلك إذا أخرج من داره التي هي مسكنه، أو أريق ماؤه الذي لعطشه، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن عيظ على من يتعرض لها.

القسم الثاني: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق؛ كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور، حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيكنزان، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما في القوت، فهذا الجنس مما يتصوّر أن ينفك الإنسان عن أصل الغيط عليه، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمه ظالم فيجوز أن لا يغضب؛ إذ يجوز أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهد في الزيادة على الحاجة، قلا يغضب بأخذها، فإنه لا يحب وجودها، ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها، وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضروري كالجاه والصيت والتصدّر في المجالس والمباهاة في العلم، فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر في المحافل، ومن لا يحب ذلك فلا يبالي ولو جلس في صف النعال، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه. وهذه العادات الرديثة هي التي أكثرت محاب الإنسان ومكارهه فأكثرت غضبه، وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص، لأن طحاجة صفة نقص فمهما كثرت كثر النقص، والجاهل أبداً جهده في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته، رهو لا يدري أنه مستكثر من أسباب الفم والحزن، حتى ينتهي بعض الجهال بالعادات الرديثة ومخالطة ومناء السوء إلى أن يغضب لو قبل له: إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنح، ولا تقدر على فرناء السوء إلى أن يغضب لو قبل له: إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب على هذا الجنس ليس شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير، وما يجري مجراه من الرذائل، فالغضب على هذا الجنس ليس بضروري؛ لأن حبه ليس بضروري.

حدیث: همن أصبح آمناً في سریه معافی في بدنه عنده قوت یومه فكانما حیزت له الدنیا بحداقیرهاه أخرجه الترمذي
 وابن ماجه من حدیث عبیدالله بن محصن دون قوله: «بحدافیرها» قال الترمذي: حسن غریب.

أما القسم الأول: فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يطيع الغضب، ولا يستعمله في الظاهر إلا على حد يستجه الشرع ويستحسنه العقل، وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسحاً، فأما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن. نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن، وينتهي ضعفه إلى أن يظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً. وهذا حكم القسم الثالث أيضاً؛ لأن ما صار ضرورياً في حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه، فالرياضة فيه تمنع العمل به وتصعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه.

وأما القسم الثاني: فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه؛ إذ يمكن إخراج حبه من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ومستقره الآخرة، وأن الدنيا معبر يعبر عليها ويتزوّد منها قدر الضرورة، وما وراء ذلك عليه وبال في وطنه ومستقره، فيزهد في الدنيا ويمحو حبها عن قلبه، ولو كان للإنسان كلب لا يحبه لا يغضب إذا ضربه غيره، فالغضب تبع للحب. فالرياضة في هذا تنتهي إلى قمع الغضب وهو نادر جدّاً، وقد تنتهي إلى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون.

فإن قلت: الضروري من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب، فمن له شاة مثلاً وهي قوته فماتت لا يغضب على أحد وإن كان يحصل فيه كراهة، وليس من ضرورة كل كراهة غضب، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام، فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه؛ إذ يراهم مسخرين في قبضة قدرته كالقلم في يد الكاتب، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم، فلا يغضب على من يذبح شاته التي هي قوته كما لا يغضب على موتها؛ إذ يرى الذبح والموت من الله عزّ وجلّ فيندفع الغضب بغلبة التوحيد، ويندفع أيضاً بحسن الظن بالله، وهو أن يرى أن الكل من الله تعالى، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة، وربما تكون الخيرة في مرضه وجرعه وجرحه وقتله، فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لأنه يرى أن الخيرة قيه، فيقول هذا على هذا الوجه غير محال، ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد إنما تكون كالبرق الخاطف، تغلب في أحوال مختلفة ولا تدوم، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طبيعياً لا يندفع عنه، ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله على فإنه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه (١٠)، حتى قال: «اللهم أنا بَشَرُ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ قَايُما مُسْلِم سَبَنْهُ أَوْ لَعْ فَرَبَةُ قُورَيُهُ قَوْرَبَةُ قُورَيُهُ بها إلَيْكَ يُومَ القِيامَةِ» (٢٠). وقال عبدالله بن لغضب حتى تحمر وجنتاه (١٠)، حتى قال: «اللهم أنا بَشَرُ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ قَايُما مُسْلِم سَبَنْهُ أَوْ لَعْمَلُها مِنْي صَمَلاً عَلَيْهِ وَرَكَاةً وَقُرْبَةً تُقْرَبُهُ بها إلَيْكَ يُومَ القِيامَةِ» (٢٠). وقال عبدالله بن

 ⁽١) حديث: ﴿ إِنَّةِ يَغْضَبُ حتى تحمر وجنتاه ، أخرجه مسلم من حديث جابر: «كان إذا خطب احمرت هيناه وهلا صوته واشتد غضيه ، وللحاكم: «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضيه ، وقد تقدم في أخلاق النبوة .

⁽Y) حديث: «اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله المأفضي كما يغضب كما أنسرة وأمله متمق عليه. وتقدم، ولمسلم من حديث أنس: فإنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشرة ولأبي يعلى من حديث أبي سعيد أو ضوبت.

عمرو بن العاص: يا رسول الله، أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا فقال: «اكْتُبْ فَوَالَمْنِي بِعَثْنِي بِالحَقِّ نَبِيّاً مَا يَحْرُجُ مِنْهُ إِلاَ حَقَّ وأشار إلى لسانه (۱) فلم يقل إني لا أغضب، ولكن قال إن الغضب لا يخرجني عن الحق، أي لا أعمل يموجب الغضب. وغضبت عائشة رضي الله تعالى عنها مرة فقال لها رسول الله على: هما لَك؟ جَاءَك شَيْطَانُك؟ فقالت: وما لك شيطان؟ قال: «يَلَى وَلْكِنِّي فقال لها رسول الله عليه فأسلم فلا يَأْمُرنِي إلا بِالخَيْرِ» (۱) ولم يقل: لا شيطان لي، وأراد شيطان الغضب لكن قال: لا يحملني على الشر، وقال علي رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله على لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له (۱). فكان يغضب على من يأخذ ضرورة قوته كان غضبه فله فهو التفات إلى الوسائط على الجملة، بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته التي لا بد له في دينه منها فإنما غضب فله ، فلا يمكن الانفكاك عنه. نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه ، فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيم ه وأن استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه.

وهذا كما أن سلمان لما شتم قال: إن خفّت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول؛ فقد كان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم. وكذلك شُتم الربيع بن خثيم فقال: يا هذا، قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول. وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه فقال: ما ستر الله عنك أكثر؛ فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته، قلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان؛ إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان، وذلك لجلالة قدره. وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي، فقال: ما عرفني غيرك. فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء، ومنكراً على نفسه ما بلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه. وسب رجل الشعبي فقال: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، بلقيه الشيطان إليه فلم يغضب لما نسب إليه. وسب رجل الشعبي فقال: إن كنت صادقاً فغفر الله لي،

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم، فإذاً: يتصوّر اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب؛ فإذاً: يتصوّر فقد الغيظ إما باشتغال القلب بمهم، أو بغلبة نظر التوحيد، أو بسبب ثالث: وهو أن يعلم أن الله يحب مه أن لا يغتاظ فيطفىء شدة حبه لله غيظه، وذلك غير محال في أحوال نادرة. وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب؛ وذلك بمعرقة آقات الدنيا وغوائلها _ كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا _، ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر أساب الغضب، وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه؛ فيضعف الغضب بسببه ويهون دفعه. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه إنه على كل شيء قلير. والحمد لله وحده.

 ⁽١) حديث عبدالله بن عمرو: يا رسول الله، أكتب عنك كل ما قلت في الغضب والرضا؟ قال: «اكتب فوالذي بعثني بعثني بالحق ما يخرج منه إلا حق»، وأشار إلى لسانه. أخرجه أبو داود بنحوه.

⁽٢) حديث الخضيت عائشة فقال النبي علية: ‹ما لك جاءك شيطانك؟. . . ٢٠ الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة.

⁽٣) حديث علي٬ اكان لا يغضب للدنيا. . . الحديث، أحرجه الترمذي في الشماتل، وقد تقدم.

بيان الأسباب المهيجة للغضب:

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وإرالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب. وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله، فما يقرب من غضب الله، قال: أن تغضب، قال: فما يبدي الغضب وما ينبته؟ قال عيسى: الكبر والفخر والتعزز والحمية.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها.

فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع، وتميت العحب بمعرفتك بنفسك ـ كما سيأتي بيانه في كتاب الكبر والعجب ـ، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك، إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد؛ وإنما اختلفوا في الفضل أشتاتاً، فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك، فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟. وأما المزاح: فتزيله بالنشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك. وأما الهزل: فتزيله بالبعد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة. وأما الهزء: فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك. وأما التعبير: فالحذر عن القول القبيع، وصيانة النفس عن مر الجواب. وأما شدة الحرص على مزايا العيش: فتزال بالقناعة بقدر الضرورة، طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة.

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هيئة على النفس، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل، وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها. ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال: تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرص قلب ونقصان عقل، وهو لضعف النفس ونقصانها، وآية أنه لضعف النفس: أن المريض أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، وذو الخلق السيىء والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، أسرع غضباً من صاحب الفضائل. فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى إنه يغضب على أهله وولده وأصحابه. بل القوي من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله مجدد الغضب، الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، الم ينبغي أن رسول الله هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن

⁽١) حديث: اليس الشديد بالصرعة؛ تقدم قبله،

ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأثراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم.

بيان علاج الغضب بعد هيجانه:

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج، فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت؛ حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه سعحون العلم والعمل.

أما العلم فهو سنة أمور: الأول: أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفي، عنه غيظه، قال مالك بن أوس بن الحدثان: غضب عمر على رجل وأمر بضوبه فقلت: يا أمير المؤمنين: ﴿ فُنِ الْفَنُو وَأَمُنُ بِاللَّمُ فِي وَالْمَرْفِ وَاللهِ وَاللهِ

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول: قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه علي يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو. فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة: يا ابن آدم، اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق، وبعث رسول الله على وصيفاً إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال: الولا القِصَاصُ لَا وَجَعتُكُ (١٠)، أي القصاص في القيامة. وقبل: ما كان في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعظاه صحيفة فيها: ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة. فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدق لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب في خيحوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة. وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه؛ لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد نقي معه مسكة من عقل.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ، ولا بد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة، وتصير حقيراً في

 ⁽١) حديث: الولا القصاص لأوجمتك، أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف.

أعين الناس، فيقول لنفسه: ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة، والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك؟، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والبيين؟ فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله، وذلك يعظمه عند الله، فما له وللناس؟ وذلُّ من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن، أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكوره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

⁽۱) حديث: «الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ». متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال: اكنت جالساً مع النبي علله ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه...» الحديث. وهيه: «لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد، فقالوا له. إن النبي عليه قال: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ...» الحديث.

 ⁽٢) حديث: كان إذا عضبت عائشة أخد بأنعها وقال: «با عويش قولي اللهم رب النبي محمد اففر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي. . . .» الحديث. أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديثها، وتقدم في الأذكار والدعوات.

 ⁽٣) حديث: (إن الغضب جمرة توقد في القلب. . . ، الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله: (٣) وقد نقدم، ورواه مهذا اللفظ البيهقي في الشعب.

 ⁽٤) حديث: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد. . . » الحديث . أخرجه أبو داود من حديث عطبة السعدي دون قوله
 «بالماء البارد» وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها المصنف، وقد تقدم.

حديث ابن عباس: «إذا غضيت فاسكته أخرجه أحمد وابن أبي الدئيا والطراني واللفظ لهما والبيهةي في شعب
الإيمان وفيه ليث بن أبي سليم.

⁽٦) حديث أبي هريرة قكان إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه المناجوب أخرجه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد بإسناد جيد في أثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع فقيل له: لم جلست ثم اصطجعت؟ فقال: إن رسول الله عليه قال لنا: قإذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع والمرووع عند أبي داود وفيه عده انقطاع سقط منه أبو الأسود.

إِنَّ الغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قُلْبِ ابْنِ آدَمْ^(۱). أَلاَ تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةٍ عَيْنَئِهِ وَافْتِفَاحٍ أَوْدَاجِهِ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْتًا فَلْيُلْصِقْ خَدَّهُ بِالأَرْضِ» وكأن هذا إشارة إلى السجود، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب؛ لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب.

وروي أن عمر غضب يوماً قدعا بماء فاستنشق وقال: إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب، وقال عروة بن محمد: لما استعملت على اليمن قال لي أبي: أوليت؟ قلت: نعم، قال: فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك، ثم عظم خالقهما، وروي أن أبا نز قال لرحل: يا ابن الحمراء في خصومة بينهما فبلغ ذلك رسول الله على فقال: فيا أبا فر بكفني أنك الميون أخاك بأهاه فقال: نعم، فانطلق أبو فر ليرضي صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه، فذكر ذلك لرسول الله على فقال: فيا أبا فر أنونغ وأسك قانظر أم افلم أنك كشت بأفضل مِن أخمر فيها وَلا أشود إلا أن تفضله بعمل ثم قال: فإذا غضبت فإن كُنت قائما قافعة وإن كُنت متكا قاضطجع أن وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتة غضبه، فكت ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول: إذا غضبت فأعطني هذه، وقال للثاني: إذا من بعض غضبي فأعطي هذه، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فأعطني هذه، فاشتد غضبه يوماً فأعطي الصحيفة الأولى فإذا فيها: ما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإله، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً، فسكن بعض غضبه، فأعطي الثانية فإذا فيها: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، فأعطي بعضاً، فسكن بعض غضبه، فأصل الثانية فإذا فيها: الحم من في الأرض يرحمك من في السماء، فأعطي الثانية فإذا فيها: خذ الناس بحق الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك أي لا تعطل الحدود .. وغضب المهدي على رحل فقال شبيب: لا تغضب الله فإنه لا يصلهم إلا ذلك أي لا تعطل الحدود .. وغضب المهدي على رحل فقال شبيب: لا تغضب اله بأشد من غضاه، فقال: خلوا سبيله.

فضيلة كظم الغيظ؛

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَطَلِينَ ٱلْفَيْظَ﴾ [آل صِمرَان: ١٣٤] وذكس ذلك في معرض المدح. وقال رسول الله عَلْمَ أَفَ خَوْنَ لِسَالَهُ وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى رَبِّهِ قَبِلَ الله عُذْرَهُ، وَمَنْ خَوْنَ لِسَالَهُ سَتَرَ الله عَوْرَتُهُ ﴿ مَنْ عَفَا عِنْدَ الْقُدْرَةِ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى اللهُ عَوْرَتُهُ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى اللهُ عَوْرَتُهُ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَوْرَتُهُ ﴿ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ ا

 ⁽١) حديث أبي سعيد (ألا إن الغضب جموة في قلب ابن آدم. . ١ الحديث. أخرجه الترمذي وقال حسن.

حديث أبي ذر: الله قال لرجل: يا ابن الحمراء في خصومة بيهما فبلغ ذلك النبي على .. الحديث. وفيه نقال: الها أبا ذر ارفع رأسك فانظر . . . الحديث . وفيه نقال: الإذا فضبت إلى أحره . أخرجه ابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح، وفي الصحيحين من حديث قال: كان ببسي وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكابي إلى الببي على نقال: إما أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية ولأحمد أنه على قال له: النظر فإنك لمت بخير من أحمر ولا أمود إلا أن نفضله بتقوى، ورجاله ثقات .

فضيلة كظم الغيظ

 ⁽٣) حديث: امن كف قضبه كف الله عنه عقابه... الحديث. أخرجه الطبراتي في الأوسط والبيهةي في شعب الإيمان واللفظ له من حديث أنس بإسناد ضعيف ولابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر «من ملك غضبه وقاه الله عقابه... الحديث. وقد تقدم في آفات اللسان.

⁽٤) حديث: الشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث علي بسند صعيف والبيهتي في الشعب بالشطر الأول من رواية عبدالرحمن بن عجلان مرسلاً بإسناد جيد، وللبزار والطبراي في مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث: «أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب» وفيه عمران القطان مختلف فيه.

وقال ﷺ: «مَنْ كَظَمَ هَيْظاً وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيّهُ لَأَمْضَاهُ مَلاَ الله قُلْبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ رِضاً» وفي رواية: «مَلاَ الله قَلْبَهُ أَمْناً وَإِيمَاناً» (1)، وقال امن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ما جَرَعَ عَبْدٌ جَرْعَةَ أَعْظَمَ أَجْراً مِنْ جَرْعَةٍ غَيْظٍ كُظَمَهَا الْبِتِغَاءَ وَجْهِ الله تَعَالَى (2)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال ﷺ: «إنَّ لِجَهَنْمَ باباً لا يَلْخُلُهُ إِلاَّ مَنْ شَقَى فَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهُ تَعَالَى (2) ، وقال ﷺ: «ما مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُ إِلَى اللهُ تَعَالَى مِنْ جَرْعَةٍ فَيْظُهُ وَمُ قَالِمٌ اللهُ عَلَى مُنْ أَللهُ إِيمَاناً» (3)، وقال ﷺ: «مَنْ كَظَمَ فَيْظاً وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ وَيُخَيِّرُهُ مِنْ أَيُّ الحُورِ شاء (6).

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاه، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وقال لقمان لابنه: يا بني، لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيطك بقضيحتك، واعرف قدرك تنفعك معيشتك. وقال أيوب: حلم ساعة يدفع شراً كثيراً. واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والعضيل بن عياض فنذاكروا الزهد، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع. وقال رجل لعمر رضي الله عنه: والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الحزل، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يعقول: ﴿ يُنُو الْمَعْنِ وَأَمْ بِالْمُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَهِلِينَ ﴿ وَالله متحد بن كعب: ثلاث من كن فيه الجاهلين، فقال عمر: صدقت، فكأنما كانت ناراً فأطفئت. وقال محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله؛ إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه عضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له. وجاء رجل إلى سلمان فقال: يا عبدالله، أوصني، قال: لا تغضب، قال لا أقدر، قال: فإن غضبت فأمسك لسائك ويدك.

بيان فضيلة الحلم:

اعلم: أن الحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم ـ أي تكلف الحلم ـ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً.

⁽۱) حديث: قمن كظم فيظاً ولمو شاء أن يمضيه أمضاء مالاً الله قلبه يوم القيامة رضا؟ وفي رواية: «أمناً وإيماناً» أخرجه الله أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رحل من أبثاء أصحاب النبي على عن أبيه، ورواها ابن أبي الدنيا من حديث أبى هريرة وفيه من لم يسم.

 ⁽٢) حليث ابن عمر: (ما جرع رجل جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله أخرجه ابن ماجه.

حديث أبن عباس "إن لجهنم باباً لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بمعصية الله تقدم في آفات اللسان.

⁽٤) حديث: ١٥١ من جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد، وما كظمها عبد إلا ملأ الله قلبه إيماناً؛ أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلفق من حديث ابن عمر وحديث الصحابي الذي لم يسم، وقد تقدما.

 ⁽ه) حديث: (من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينقذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاءه تقدم
 في آذات اللسان.

قال ﷺ: «إنَّمَا العلمُ بِالنَّعَلَّمِ وَالحِلْمُ بِالتَّحَلَّمِ وَمَنْ يَتَخَيِّرِ الخيرَ يُعَطَهُ وَمَنْ يَتَوقَ الشَّرْ يُوقَهُ أَنَّ وَاللّهِ اللهِ اللهِ العلم طريقه التحلم أولاً وتكلفه ، كما أن اكتساب العلم طريقه التحلم . وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «اطْلُبُوا المجلّمَ وَاطْلُبُوا مَعَ العِلْمِ السّكِينَةَ وَالحِلْمَ ، لِينَوا لِمَنْ تُعَلّمُونَ وَلِمَنْ مَتَكُمُونَ مِنْهُ ، وَلا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ العُلْمَاءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ حِلْمَكُمْ "" ، وأشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذي يهبج الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعاته ﷺ «اللهم أفنني بالعلم وزيني بالعافية "" ، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: "بنعوا الرفعة عند الله » فالوا: وما هي يا رسول الله ؟ قال: «تَصِلُ مَنْ قَطَمَكُ وَتُغْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَحْلُمُ عَمَنْ جَهلَ عَلَيْكَ ") وقال علي قوال ﷺ: «حَمَسُ مِنْ سُنَنِ المُرسَلِينَ: الحَيَاءُ والحِلْمُ وَالحِجَامَةُ والسّواكُ وَالتَّعَطُرُهُ ") وقال علي كرم الله وجهه: قال النبي ﷺ: "وَلَمْ المُسْلِمَ لَيُدْرِكُ بِالحِلْم وَرَجَة الصَّائِم القائِم وَإِنَّهُ لَيْكَ اللهُ عَلَى وَلِم اللهِ وَمَا عَلَى عَبْوا وَلَمُ اللهُ إِنْ كَانَ كُمَا تَقُولُ فَكَانَمُا ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسينون إليّ، ويجهلون عليّ واحلم عنهم، قال: "إنْ كان كَمَا تَقُولُ فَكَانَمَا ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسينون إليّ، ويجهلون عليَّ واحلم عنهم، قال: "إنْ كان كَمَا تَقُولُ فَكَانَمَا ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسينون إليّ، ويجهلون عليّ واحلم عنهم، قال: "إنْ كانْ كَمَا تَقُولُ فَكَانَمَا ويقطعوني ، المل ولا يَزالُ مَعَكُ مِنَ الله ظَهِيرَ ما دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ ") المل: يعني به الرمل. وقال رجل من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة أنصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ إني قد غفرت له "، وقال ﷺ: "أيفجَرُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَيْهِ فَاوحى اللهُ عَنْ اللهُ تعالى إلى النبي علي على قل قل المَّبُونَ كَأَيْهُ فَا فَصُوتَ كَانِهُ كَانُهُ اللهُ وَلَا النّهِ الْعَلَى النبي النبي عَلَى فَلَوْنَ كَأَيْمُ اللهُ وَلَا كُونَ كَأَلُهُ اللهُ وَلَا كُونَ كَانُ كُمُ أَنْ يَكُونَ كَأَيْهِ الْمُلِهُ وَلَهُ اللهُ عَلَا النبي النبي النبي النبي على النبي النبي النبي النبي النبي النبي النبي النبي النبي

فضيلة الحلم

⁽١) حديث: فإنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم. . . » الحديث أخرجه الطبراني والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

 ⁽۲) حديث أبي هريرة: «اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم. . . الحديث. أخرجه ابن السني في رياضة المتعلمين سند ضعيف.

٣) حديث: كان من دعائه ' اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالنقوى وجملني بالعاقية؛ لم أجد له أصلاً.

⁽٤) حديث: البتغوا الرقعة عند الله قالواً: وما هي؟ قال التصل من تطعك . . . الحديث. أخرجه الحاكم والبيهقي وقد تقدم.

 ⁽٥) حديث: «خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر» أخرجه أبو بكر بن أبي عاصم في
المثاني والآحاد، والنرمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية مليح بن عبدالله الخطمي عن أبيه عن جده،
وللترمدي وحسه من حديث أبى أيوب: *أربع» فأسقط «الحلم والعجامة» وزاد «التكاح».

 ⁽٦) حديث علي: (إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم. . .» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف.

 ⁽٧) حديث أبي هريرة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إلي ويجهلون علي وأحلم عنهم. . . ؟ الحديث. رواه مسلم.

⁽٨) حديث: «قال رجل من المسلمين: اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من هرضى شيئاً فهو صدقة عليه. . . ٩ الحديث أخرجه أبو نعيم في الصحابة والبهقي في الشعب من رواية عبدالمحيد بن أبي عبس بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين ، زاد البهقي عن علية بن زيد ، وعلية هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبدالبر في الاستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجاة من المسلمين ولم يسمه وقال: أظنه أبا ضمضم.

قلت: وليس بأبي ضمضم إنما هو علية بن زيد، وأبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم.

ضَمْضَم، قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: ارَجُلٌ مِنْنُ كَانَ قَبْلَكُمْ كانَ إذا أَصْبَحَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إنِّي تَصَدَّقْتُ النَّهُمَ بِمِرْضِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي (١٠).

وقيل في قوله تعالى: ﴿رَبِينِينَ﴾ [آل عِمرَاد: ٧٩] أي حلماء علماء. وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَا خَاطَبَهُمُ الْجَدَهِلُونَ قَالُواْ سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ قال: حلماء؛ إن جهل عليهم لم يجهلوا، وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿يَشُونَ عَلَ الْأَرْضِ هَوْنَا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي حلماء. وقال ابن أبي حبيب في قوله عز وجل ﴿وَكَهُلاً﴾ [آل عِمرَان: ٤٦] قاله: الكهل منتهى الحلم. وقال مجاهد: ﴿وَإِنَا مَرُّوا بِاللَّمِ مَرُّوا حَكِامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] أي إذا أوذوا صفحوا.

وروي: أن ابن مسعود مر بلغو معرضاً فقال رسول الله ﷺ: «أَصْبَعَ ابْنُ مَسْعُودِ وَأَمْسَى كَرِيماً» (٢٠) من تلا إبراهيم بن ميسرة وهو الراوي قوله تعالى: ﴿ وَيَا مَرُوا عَلَيْ اللّهِ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الْمُلْرِكِنِي وَلا أَوْرِكُهُ زَمَانٌ لا يَشْعُونَ فِيهِ الْغَلِيمَ وَلا يَسْتَعْيُونَ فِيهِ مِنَ الحَلِمِ وَقَالَ النّبِي ﷺ: «اللّهُ مُ قُلُولُهُمْ مُّمَ اللّهِ المَعْجَمِ وَأَلْمِيتَهُمْ أَلْسِنَهُ الْمَنِيةُ الْمَرْبِ (٣٠) ، وقال ﷺ: «لِيَلِينِي مِتْكُمْ ذَوُو الأَخلامِ وَالنّهِي مُمَّ اللّهِينَ يَلُونَهُمْ ، وَلا تَخْتَلِفُ المَعْرَبِ الْمَعْمِ وَأَلْمِينَهُمْ اللّهُ المَعْجَمِ وَأَلْمِينَهُمْ أَلْمِينَةُ المَرْبِ (٣٠) ، وقال ﷺ: «لِيَلْمِينَ مِنْكُمْ ذَوُو الأَخلامِ وَالنَّهِي مُمَّ اللّهِينَ يَلُونَهُمْ مُمَّ اللّهِ اللّهُ المَعْمَ وَالْمَعِينَ الْمَعِينَ رسول الله ﷺ وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العبهة ثوبين على النبي ﷺ الأشج فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العبهة ثوبين على السول الله ﷺ فقال عليه الشهما، وذلك بعين رسول الله ﷺ وين ما يصنع ، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله ﷺ فقال عليه السلام: «إلاَ أَنْهُ فقال : خلتان تخلفتهما أو خلقان حبلت عليهما؟ فقال : قبل خلقان جبلك الله عليهما فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله (٣٠) ، وقال ﷺ: «إلَّ أَنْ أَمْ المُعَلِيمَ المَعْرِينَ الْمَنْ وَلَمْ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المُعْرَبُ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المَعْرَبُ المُعْرَبُ وَيَعْرَبُونَ الْمُ أَلُولُ الْفُصُلِ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرٌ فَيَعْطَلِقُونَ سِرَاعاً إلَى الْجَنْدِ فَيَقُولُونَ لَحْنُ أَمْلُ الفَصْلِ؟ فَيَقُولُونَ لَحْنُ أَمْلُ الفَصْلِ؟ فَيَقُولُونَ لَحْنُ أَمْلُ الفَصْلِ؟ فَيَقُولُونَ نَعْمُ الْمَالِهُ فَيَقُولُونَ لَحْنُ أَمْلُ الْفُصْلِ؟ فَيَقُولُونَ لَحْنُ أَمْلُ الفَصْلِ؟ فَيَقُولُونَ لَحْنُ أَمْلُ الفَصْلِ؟ فَيَقُولُونَ لَحْنُ أَمْلُ الفَصْلِ؟ فَيَقُولُونَ لَعْمُ الْمُعْلُونَ الْمَالُ الْمُعْلُونَ الْمُعْلُونَ الْمُعْلُونَ الْمُولُونَ الْمُعْلُونَ الْمُولُونَ الْمُولُونَ الْمُولُونَ الْمُلْ الْمُولُونَ الْمَالُونُ الْمُلْ الفَصْلُ الْمُعْلُونُ فَيْقُولُونَ الْمُلْ الفَص

 ⁽¹⁾ حديث: المعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم. . . » الحديث. تقدم في آفات اللسان.

⁽٢) حديث: أن ابن مسعود مر بلغو معرضاً فقال النبي ﷺ «أصبح فين مسعود وأسسى كريماً» أخرجه ابن المبارك في البر والصلة.

 ⁽٣) حديث: «اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لايتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من المحليم.. » الحديث. أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف.

خديث: اليليني منكم أولو الأحلام والنهي... الحديث. أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله: اولا تختلفوا فتختلف قلوبكم فهي عند أبي داود والترمذي وحسنه، وهي عند مسلم في حديث آخر لابن مسعود.

 ⁽a) حديث: (يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة. . . الحديث. منفق عليه.

 ⁽٩) حديث: إن أنه يحب الحقي الحليم الغني المتعقف. . . ٩ الحديث أخرجه الطبراني من حديث سعد: (إن الله يحب العبد التقي الغني الحقي».

 ⁽٧) حديث ابن عباس الثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة بإسناد لين وقد تقدم في آداب الصحبة.

لَهُمْ: ماكانَ فَصْلُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا إِذَا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا وَإِذَا أُسِيءَ إِلَيْنَا عَفَوْنَا وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلِمْنَا. فَيُقَالُ لَهُمْ: اذْخُلُوا الْجَنَّةَ فَيْعُمَ أَجْرُ العَامِلِينَهُ (١٠).

الآثار: قال عمر رضى الله عنه: تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وقال على رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس عبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى. وقال الحسن: اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم. وقال أكثم بن صيفي: دعامة العقل الحلم، وجماع الأمر الصبر. وقال أبو الدرداء: أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه، فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن عرفتهم نقدوك، وإن تركتهم ىم يتركوك، قالوا: كيف نصنع؟ قال: تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك. وقال علي رصي الله عنه: إنّ رُول ما عوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وقال معاوية رحمه الله تعالى: لا يبلغ مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم. وقال معاوية العمرو بن الأهتم. أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه. قال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بدل دنياه لصلاح دينه. وقال أنس بنُّ مالك في قوله تعالى ﴿وَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَكُمْ عَدَّوَةً كَأَنَّمُ وَلِيُّ حَييمٌ ﴾ (مُصَلَت: ٣٤] إلى قوله ﴿عَظِيمٌ﴾ [النُّور: ١٦]: هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، ورن كنت صادقاً فغفر الله لي. وقال بعضهم: شتمت فلاناً من أهل البصرة فحلم على فاستعبدني بها رماناً. وقال معاوية لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ قال: يا أمير المؤمنين، كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطى سائلهم، وأسعى في حوائجهم. فمن فعل فعلى فهو مثلى، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه. وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى. وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز: أشهد أنك من الفاسقين، فقال: ليس تقبل شهادتك. وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: أنه سبه رجل فرمي إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذي، وتخليص الرجل مما يبعد من الله عزّ وجلّ، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى مدح بعد الذم، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير، وقال رجل لجعفر بن محمد: إنه فد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر، وإني أريد أن أثركه فأخشى أن يقال لي: إن تركك له ذل، فقال جعفر: إنما الذليل الظالم. وقال الخليل بن أحمد: كان يقال: من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته. وقال الأحنف بن قيس: لست بحليم ولكنني أتحلم. وقال وهب بن منبه: من يُرْحم يُرْحم، ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يغلب، ومن يعجل يخطى، ومن يحرص على الشر لا يسلم، ومن لا يدع المراء يشتم، ومن لا يكره الشر يأثم، ومن يكره الشر يعصم، ومن يتبع وصية الله يحفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتول الله يمنع، ومن لا يسأل الله يفتقر، ومن يأمن مكر الله يخذل، ومن يستعن بالله يظفر. وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء، قال، أنت إذاً أكرم على من نفسى، إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي. وقال بعض العلماء: الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به. وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبنك سبأ يدخل معك في قبرك،

⁽١) حديث: ﴿إذَا جِمِعِ الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس. . . • الحديث. وفيه: •إذا جهل هلينا حلمنا> أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال البيهقي: في إسناده ضعف.

فقال: معك يدخل لا معي. ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شراً، فقال لهم خيراً. فقيل له: إنهم يقولون شراً وأنت تقول خبراً؟ فقال: كل ينفق مما عنده. وقال لقمان: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه. ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاماً، فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق ـ فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضباً فتبعه الحكيم وقال له: تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا؟ قال: نعم، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة؛ فسرى عن الرجل غضبه وانصرف وقال: صدق الحكيم، الحلم شفاء من كل ألم. وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب، فقيل له في خلك فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب. وقال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وما السناس إلا واحد من تسلائة فسأمنا الذي فسوقي فأعرف قسدره وأمنا الذي دونسي فإن قال صنت عن وأمنا الندي مشللي فنإن زل أو هنفا

وإن كَنْسُرتْ منه علي العجرائه مسريف ومسلوف ومشلي مقاوم شريف ومسلوف ومشلي مقاوم وأتبع فيه المدت والسحق لازم إحسابسته عسرضي وإن لام لائسم تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام:

اعلم: أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي. وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه في الفقه. وأما السب فلا يقابل بمثله إذ قال رسول الله على أمْرُق عَيْرَكَ بِمَا فِيهِ فَهَا فَيهِ وَالَّ وَاللهُ السب فلا يقابل بمثله إذ قال رسول الله عَيْد المَظْلُومُ عَيْرَكَ بِمَا فِيهِ فَلَا يَعَهَاتَرَانِه (٢)، وقال: «المُسْتَبَانِ ما قالا فَهُوَ عَلَى البَادِيءِ ما لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ وقال: «المُسْتَبَانِ شَيطاتانِ يَتَهَاتَرَانِه (٢)، وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت، فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله على فقال أبو بكر: إنك كنت ساكتاً لما شتمني فلما تكلمت قمت. قال: «لأن المملك كان يُجِيبُ عَنْكَ فَلَمْ اكْتُ لَبُعَ السُيطانُ فَلَمْ أَكُنُ لِأَجْلِسَ فِي مَجْلِسِ فِيهِ الشَيطانُ "ك، وقال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه، وإنما نهى رسول الله على عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه، والأفضل تركه ولكنه لا يعصي به، والذي يرخص فيه أن تقول: من أنت؟ وهل أنت بمثله نهي تنزيه، والأفضل تركه ولكنه لا يعصي به، والذي يرخص فيه أن تقول: من أنت؟ وهل أنت إلا من بني فلان؟ كما قال سعد بن مسعود: وهل أنت إلا من بني هذيل؟ وقال ابن مسعود: وهل أنت إلا من بني أمية؟. ومثل قوله: يا أحمق، قال مطرف: كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أعية من بعض. وقال ابن عمر في حديث طويل: حتى ترى الناس كلهم حمقى في الناس أعمة من بعض. وقال ابن عمر في حديث طويل: حتى ترى الناس كلهم حمقى في

 ⁽١) حديث: ﴿إِن أمرق عيرك بما فيك قالا تعيره بما فيه أخرجه أحمد من حديث جابر بن مسلم، وقد تقدم.

⁽٣) حديث: «المستبان شيطانان بنهاتران» تقدم.

 ⁽٣) حديث "شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام ﷺ. ١ الحديث. أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلاً ومرسلاً قال البخاري: المرسل أصح.

ذات الله تعالى(١)، وكذلك قوله: يا جاهل؛ إذ ما من أحد إلا وفيه جهل؛ فقد آذاه بما ليس بكذب. وكذلك قوله: يا سيىء الخلق، يا صفيق الوجه، يا ثلاباً للأعراض، وكان ذلك فيه. وكذلك قوله: لو كان فيك حياء لما تكلمت، وما أحقرك في عيني بما فعلت، وأخزاك الله وانتقم منك.

فأما النميمة والغيبة والكدب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق، لما روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام، فذكر رجل خالداً عند سعد، فقال سعد: مه، إن ما بيئنا لم يبلغ ديننا ـ يعني أن يأثم بعضنا في بعض ـ فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزني والفحش والسب: ما روت عائشة رضى الله عنها أن أزواج النبي ﷺ أرسلن إليه فاطمة، فجاءت فقالت: يا رسول الله أرسلني إليك أزواحك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، والنبي ﷺ نائم، فقال: ﴿يَا بِنْيَةِ أَتْحْبِينِ مَا أَحْبُۥ؟ قالت: نعم، قال: ﴿فَأُحِبِّي هٰذِهِ ورجعت إليهن فأخبرتهن بذلك، فقلن: ما أغنيت عنا شيئاً، فأرسلن زينب بنت ححش، قالت: وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت: بنت أبي بكر وبنت أبي بكر، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة أنتظر أن يأذن لي رسول الله ﷺ في الجواب، فأذن لي فسببتها حتى جف لساني، فقالَ النبي ﷺ: الكلا إنَّها ابْنَهُ أَبِي بَكْرِه (٢)، يعني أنك لا ثقاومينها في الكلام قط وقولها: سببتها، ليس المراد به الفحش، بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق. وقال النبي ﷺ: «المُسْتَبَّانِ ما قَالاً فَعَلَى البَادِيءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِيَ المَظْلُومُ»(")، فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي. فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق. ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حدّ الشرع فيه، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعاً، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام. والناس في الغضب أربعة: فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود، وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود؛ وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم. وفي الخبر: «المُؤمِنُ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الرّضَى قَهْلِهِ بِتَلْكَه (٤٠)، وقال الشّافعي رحمه الله: من استغضبُ فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرضى فهو شيطان. وقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: ﴿ أَلاَ إِنَّ بَنِي لَدَمَ خُلقُوا عَلَى طَبَقَاتِ شَتَّى فَمِنْهُمْ بَطِيءُ الْغَضِبِ سَرِيعُ الفَيْءِ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ سَرِيعُ الفَيْءِ؛ فَتِلْكَ بِيَلْكَ، وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الغَضَبِ بَطِيءُ الفَيْءِ، أَلاَّ وَإِنَّ خَيْرَهُمُ البَطِيءُ الْغَضَبِ السّريعُ الفِّيِّ، وَشَرَّهُمُ السّريعُ العَضَبُ الْبَطِيءُ الْفَيْءِ (٥٠)، ولمّا كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان

 ⁽١) حديث ابن عمر في حديث طويل • احتى ترى الناس كأنهم حمتى في ذات الله عز وجل تقدم في العلم.

حديث عائشة: "إن أزواج النبي ﷺ أرسل فاطمة فقالت: يا رسول الله، أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي
 قحافة. .» الحديث. رواه مسلم.

 ⁽٣) حديث: «المستبان ما قالا قعلى الباديء. . .» الحديث. رواه مسلم وقد تقدم.

 ⁽٤) حديث: «المؤمن سريع الغضب سريع الرضى» تقدم.

⁽٥) حديث أبي سعيد الخدري: اللا إن بني آدم خلقوا على طبقات. . . الحديث. تقدم.

وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حالة غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظاً عليه؛ فيكون متشفياً لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحب حظ نفسه، فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه. ورأى عمر رضي الله عنه سكران فأراد أن يأخذه ويعزره، فشتمه السكران فرجع عمر، فقيل له: يا أمير المؤمنين، لما شتمك تركته؟ قال: لأنه أغضبني، ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب أن أضرب مسلماً حمية لنفسي، وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك.

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق:

اعلم: أن الغضب إذا لزم كطمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً، ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى، وقد قال ﷺ: «المُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودِهِ (١٠)، قالحقد ثمرة الغضب.

والحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد: وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها وتسر بمصيبة إن نزلت به، وهذا من فعل المافقين. وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى.

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: وهو دون أن تعرض عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

اللثامن أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرام.

وأقل درجات الحقد: أن تحترز من الآفات الثمانية المدكورة، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به، ولكن تستثقله في الباطن، ولا تنهى قلبك عن بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له، أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته. فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين، ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل، وإن كان لا يعرّضك لعقاب الله.

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ـ وكان قريبه ـ لكونه تكلم في واقعة الإفك نزل قوله: ﴿أَلَا يُمْبُونَ أَن يَنْفِرَ اللَّهُ لَكُرُّ﴾ [النُّور: ٢٧] إلى قوله: ﴿أَلَا يُمْبُونَ أَن يَنْفِرَ اللَّهُ لَكُرُّ﴾ [النُّور: ٢٧] فقال أبو بكر: نعم نحب تذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه (٢٠).

فضيلة العفو

⁽١) حديث: «المؤمن ليس بحقوده تقدم في العلم.

 ⁽٣) حديث: (لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ﴿وَلَا يَأْنُلِ أُولُواْ الفَشلِ مِنكُرُ﴾ [التّور: ٢٢] الآية!
 متفق عليه من حديث عائشة.

والأولى أن يبقى على ما كان عليه، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصديقين، وهو من فضائل أعمال المقرّبين. فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة.

أحدها: أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصان؛ وهو العدل.

الثاني: أن يحسن إليه بالعفو والصلة، وذلك هو الفضل.

الثالث: أن يظلمه بما لا يستحقه؛ وذلك هو النجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني: هو اختيار الصدّيقين، والأول: هو منتهى درجات الصالحين، ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان.

فضيلة العفو والإحسان:

اعلم النيظ المنفذ العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرىء عنه من قصاص أو غرامة، وهو غبر الحلم وكظم النيظ المذلك أفردناه. قال الله تعالى: ﴿ عُنُو النَّمْوَ وَأَنْ بِالنَّرْةِ وَأَعُرْسَ عَنِ الْجَهِابِ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال رسول الله على الله وَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كُنتُ حَلافاً لَحَلَفْتُ عَلَيْهِانَ: مَا نَقْصَ مَالٌ مَنْ صَدَفَةٍ فَتَصَدّقُوا، وَلا عَفَا رَجُلٌ مَنْ مَظَلَمَةٍ يَبْتَغِي بِهَا وَجُهَ الله إلا زَادَهُ الله بِهَا عِزاً يَوْمَ القِبَامَةِ، وَلا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى تَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَعَ رَجُلُ عَلَى تَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا فَتَعَ رَجُلُ عَلَى تَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلا يَزِيدُ الْمَلْ إلا فَتَعَ رَجُلٌ عَلَى تَفْسِهُ وَالْمَفْقُ لا يَزِيدُ الْمَلْ إلا فَتَعَ وَالْمَعُوا يَرْفَعُكُمُ الله، وَالصَّدَقَة لا تَزِيدُ المَالَ إلا كَثْرَة فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمُكُمُ الله، وَالْمَدَعُ لا يَزِيدُ المَالَ إلا كَثْرَة فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمُكُمُ الله، وَالصَّدَقَة لا تَزِيدُ المَالَ إلا كَثْرَة فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمُكُمُ الله، وَالمَدَعُ وَنُعَلِم الله، فَإِذَا النّهُ إِنْ عَنْ الْمَعْلِ السَّلَامُ الله عَنْ الْمُؤْلِقِ اللّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا رَبُ أَيْ عَبَادِكَ أَعْمُولَ وَتُعْمَلِ عَنْ طَلْمَكَ وَتُعْمَلُ وَلَعْمُ لَهُ المُعْلِى السَلامُ : يَا رَبُ أَيُ عِبَادِكَ أَعْمُ عَلَى المُعْلِ الله الله عَلَى المَعْلِ المَالَة الله المَالَة الله المناس قال الله يُعْلَى المَعْلِ المَالَة الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله، وجاء رجل إلى النبي عَلَى مُطلَمة ، فأمره النبي عَلَى أن يجلس ، وأراد أن بأخذ له بعزكم الله ، وجاء رجل إلى النبي عَلَى شَمُ المُغْلِحُونَ يَوْمَ الفِيَامَةِ أَنْ ، فأبى أن يأخذها حبن سمع بعزكم الله ، وقال له إلى المُظْلُومِينَ هُمُ المُغْلِحُونَ يَوْمَ الفِيَامَةِ وَالْمَعُولُ عَلَى أن يأخذها حبن سمع سما المناس الله المؤلِد الذي الذي عالم المن المنه المناس الله المؤلِد الذي الذي المناس المنه المنه المناس المن المناس المناس المن المناس المن المناس المن المناس المن ا

 ⁽١) حديث: «ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً لحلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال...» الحديث. أخرجه
الترمذي من حديث أبي كبشة الأدماري، ولمسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث أنس بسئد ضعيف.

 ⁽٣) حديث عائشة: اما رأيت رسول الله على منتصراً من مظلمة ظلمها قط. . . الحديث. أخرجه الترمذي في الشمائل،
 وهو عند مسلم بلفظ آخر، وقد تقدم.

 ⁽١) حديث عقبة بن عامر: ايا حقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنبا والآخرة تصل من قطعك. . . ٩ الحديث . أخرجه
 ابن أبي الدنبا والطبراني في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف، وقد تقدم .

 ⁽٥) حديث: قال موسى يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال الذي إذا قدر عفا: أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة وفيه ابن لهيمة.

 ⁽٦) حديث (أن المظلومين هم المفلحون يوم الفيامة)، وفي أوله قصة. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلاً.

الحديث. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ ذَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدِ انْتَصَرَه. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا يَعَتُّ اللهِ الْخَلائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَة نَادَى مُنَادِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ: يَا مَعْشَرَ المُوَحُدِينَ، إِنَّ الله قَدْ عَفَا عَنْكُمْ فَلْيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضا(١)، وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين، ثم أنى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: «مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُّنُونَ؟؛ فقالوا: نقول أخ وابن عم حليم رحيم - قالوا ذلك ثلاثاً -فقال ﷺ: «أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمُ بَغْفِدُ أَلَهُ لَكُمْمٌ وَهُوَ أَرْحَمُمُ ٱلرَّحِيبَنَ ۖ﴾ [يُوسُف ٢٩] (٢) قال: فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام. وعن سهيل بن عمرو قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال: ﴿لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحُلَّهُ لا شَريك لَهُ صَدَقَ وَحُدَهُ وَنَصَرَ حَبْدَهُ وَهَرَّمَ الأَحْرَابُ وَحُدَهُ اللهِ قال: ايَا مَعْشَرَ قُرَيْشَ مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟﴾ قال: قلت: يا رسول الله، نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن عم رحيم، وقد قدرت، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ أَقُولُ كُمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ ﴿ لَا تَنْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمُ يَقْمِدُ أَلَهُ لَكُمْ ۖ ﴿ اِبُوسُف ٩٢] (٣)، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا وَقَفَ العِبَادُ نَادَى مُنَادِ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ علَى الله فَلْيَدْخُل الجَنَّةَ»، قيل: ومن ذا الذي له على الله أَجر؟ قَالَ: «العَاقُونَ هَنِ النَّاسِ، فَيَقُومُ كَذَا وَكَذَا أَلْفَأ فَيَدْخُلُونَهَا مِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)، وقال ابن مسعود: قال رسول إلله ﷺ: ﴿لا يَنْبَغِي لِوالِي أَمْرِ أَنْ يُؤْتَى بِحَدٍّ إِلاَّ أَقَامَهُ، وَاللَّهَ عَفُقُ يُحِبُّ العَفْقَ ثُمَّ قَرَأً ﴿وَلِيَعَمُواْ وَلْيَصَعُوّاْ﴾ [النُّور: ٢٧] الآيّة:(٥٠)، وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَلَاتُ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانِ دَخَلَ مِنْ أَيِّي أَبُوابِ الْجَنَّةِ شَاءَ وَزُوْجَ مِنَ الحُورِ العِين حَيْثُ شَاءَ: مَنْ أَدْى دَيْنَا خَفِيًّا وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ: ﴿فَلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدُ ۖ ﴾ [الإخلاص: ١] عَشْرَ مَرَّاتِ وَعَفَا عَنْ قَاتِلِهِ، قال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله. قال: «أو إحداهن، (٦٠).

⁽١) حديث أنس: «إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت المعرش ثلاثة أصوات: يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض»: أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقري في كتاب التبصرة والتذكرة للفظ: «يناد مناد من بطنان العرش يوم القيامة: يا أمة محمد إن الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فقد وهيته لكم ويقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا المجنع برحمتي، وإسناده ضعيف ورواه الطبراتي في الأوسط بلفظ: «نادى مناد يا أهل التوحيد ليعف مناد يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الثواب».

 ⁽٢) حديث أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخد بعصادتي الباب فقال «ما تقولمون...١ الحديث. رواه ابن الجوري في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه صعب.

٣) حديث سهيل بن عمرو. «لما قدم رسول الله ﷺ مكة وضع يده على باب الكعبة؛ الحديث. بنحوه: لم أجده.

⁽٤) حديث أنس: «إذا وقف العباد نادي مناد ليقم من أجره صلى الله فليدخل الجنقة قيل: من ذا الذي أجره على الله؟ قال: «العافون عن الناس. . . . ، الحديث . أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه.

حدیث ابن مسعود: الا یتبغی لوالی أمر أن یؤتی بحد إلا أقامه والله عفو یحب العقو... الحدیث. أخرحه أحمد والحاكم وصححه، وتقدم في آداب الصحية.

حديث جار: اثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل اللجنة من أي أبواب اللجنة شاء. . . ٩ الحديث. أحرجه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء بسند ضعيف.

الآثار: قال إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه. وهذا إحسان وراء العفو؛ لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب. وقال بعضهم: إذا أراد الله أن يتحف عبداً قيض له من يظلمه. ودخل رجل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه فقال له عمر: إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها. وقال يزيد بن ميسرة: إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي. وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظائمه: كِلِ الظالم إلى ظلمه؛ فإنه أسرع إليه من دعائك عفوي. وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظائمه: كِلِ الظالم إلى ظلمه؛ فإنه أسرع إليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل، وقمن أن لا يفعل. وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال: بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة فينادي: من كان له عند الله شيء فليقم، فيقوم أهل العفو، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس، وعن هشام بن محمد قال: أتي النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أخيفاً فعاقبه وقال:

تعفو المملوك عن العظيم ولقد تسعاقب في اليسير إلا لسيسعرف حسلمها

من النفروب بفضلها وليس داك لجهلها ويسخاف شيدة دخيلها

وعن مبارك بن فضالة قال: وفد سوار بن عبدالله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر، قال: فكنت عنده إذ أتي برجل فأمر بقتله فقلت: يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر، فقلت: يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثاً سمعته من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلت: سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله عزّ وجلّ الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيقوم مناد فينادي: من له عند الله يد فليقم، فلا يقوم إلا من عفا، فقال: والله لقد سمعته من الحسن؟ فقلت: والله لسمعته منه، فقال: خلينا عنه، وقال معاوية: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال.

وروي: أن راهباً دخل على هشام بن عبدالملك فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين أكان نبياً؟ فقال: لا، ولكنه إمما أعطي ما أعطي بأربع خصال كن فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفي، وإذا حدث صدق، ولا يجمع شغل اليوم لغد. وقال بعضهم: ليس الحليم من ظلم فحلم، حتى إذا قدر انتقم اولكن الحليم من ظلم فحلم حتى إذا قدر عفا. وقال زياد: القدرة تذهب الحفيظة _ يعني الحقد والخضب _ وأتي هشام برجل بلغه عنه أمر، فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته، فقال له هشام وتتكلم أيضاً؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي صَكُلُ نَفْسٍ نَجُدِلُ عَن نَفْسِها﴾ [النحل. 111] أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاماً؟ قال هشام: بلى ويحك تكلم.

وروي 'أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له: اقطعه فإنه من أعدائنا، فقال: بل أسنر عليه لعل الله يستر علي يوم القيامة. وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاماً، فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون على من أخدها ويقولون: اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا، فقال عبدالله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه. وقال

الفضيل: ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان؛ جلس إليَّ في المسجد ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكي فقلت: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا، ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله عر وجلّ، فأشرف عقلي على إدحاض حجته فبكائي رحمة له؟. وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير، وجاء الحسن وهو خائف فلخلنا معه عليه، فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب فقال: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ثم قال: أيها الأمير، ماذا صنع الله به؟ أداله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهمله؟ ﴿ قَالَ لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمُ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمُّ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّوْمِينَ ﴿ وَلُو لَم الله المره وجمع له أهمله؟ ﴿ قَالَ لا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمُ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمُّ وَهُو الرَّحَمُ اليوم ولو لم أجد إلا ثوبي هذا لواريتكم تحته. وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: فلان أجد إلا ثوبي هذا لواريتكم تحته. وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: فلان عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث فقال لرجاء بن حيوة: ما ترى؟ قال: إن الله تعالى قد أعطاك على من الطفر فأعط الله ما يحب من العفو، فعفا عنهم.

وروي: أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارح فأفلت منه ، فأخذ أخاً له فقال له: إن جثت بأخيك وإلا ضربت عنقك، فقال: أرأيت إن جثتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي؟ قال: نعم. قال: فأنا أتيك بكتاب من العزيز الحكيم، وأقيم عليه شاهدين، إبراهيم وموسى، ثم ثلا ﴿أَمْ لَمْ يُبَتَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَأَبْرَهِيمَ اللَّهِيمَ وَقُلْ وَقُلْ أَرْدُورَةً وَذَرَ أَمْرَىٰ اللَّهُ النَّجْم: ٣١. ٣٦] فقال زياد: خلوا سبيله، هذا رجل قد لقن حجته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان.

فضيلة الرفق:

فضيلة الرفق

⁽١) حديث: «يا عائشة إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة. . . ٩ الحديث, رواه أحمد والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبدالرحمن بن أبي بكر الملبكي وضعفه عن القاسم عن عائشة، وفي الصحيحين من حديثهما: «يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله».

 ⁽۲) حديث: اإذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق؛ أخرجه أحمد بسند جيد والبيهفي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

مَا لا يُعْطِي عَلَى الخَرِق وَإِذَا أَحَبُّ الله عَبْداً أَعْطَاهُ الرِّفْقَ وَمَا مِنْ أَهْل بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرُّفْقَ إلاّ حُرِمُوا مَحَبُّةَ اللهُ تَعَالَى ١٤٠١، وقالت عائشة رصي الله عنها: قال النبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهُ رَفِيقٌ يُجِبُّ الرُفْقَ وَيُمْطِي عَلَيهِ ما لا يُمْطِي عَلَى المُنْفِء (٢٠)، وقال ﷺ: "يا عَائِشَةُ ارْفُقِي فَإِنَّ الله إذا أَرَادَ بِأَخْل بَيْتِ كَرَامَةً دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرَّقْقِ»^(٣)، وقال ﷺ: «مَنْ يُحْرَم الرِّفْقَ يُنْحَرَم الخَيْرَ كُلَّهُ^{،(٤)}، وقال ﷺ: ﴿أَيُّمَا وَالِ وَلِيَ فَرَفِقَ وَلاَنَ رَفِقَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَوْمَ القِيَّامَةِ، ﴿ ثَالُ ﷺ: ﴿ تَذُرُونَ مَنْ يُحَرُّمُ عَلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ كُلُّ هَيْن لَيْن سَهْل قَرَيبٍ ۚ ()، وقال ﷺ: «الرَّفْقُ يُمْنُ وَالخَرْقُ شُؤُمْ (٧) ، وقال ﷺ : ﴿ النَّأَنِّي مِنَ اللهِ وَالعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ (٨) . وروي: أن رسول الله ﷺ أتاه رجّل فقال: يا رسول الله، إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصني منك بخير فقال: «الحمد لله الله مرتين أو ثلاثاً ثم أقبل عليه فقال: «هل أنت مستوص» مرتين أو ثلاثاً قال: نعم. قال: «إن أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه وإن كان سوى ذلك فانتها^(۱)، وعن عائشة ـ رصي الله عنها ـ أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً فقال رسول الله ﷺ: ﴿ فَيَا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرُّفْقِ فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءِ إلا شَانَهُ اللهُ اللهُ

الأثار: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعبته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس أيتها الرعية، إن لنا عليكم حقاً؛ النصيحة

حديث: "إن ألله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخوق. . . ؟ الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من حديث (5) جرير بإسناد ضعيف.

حديث: ﴿إِنْ اللهُ رَفِيقَ بِحِبِ الرَّفْقِ. . . 1 الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة . **(Y)**

حديث: ايا هائشة ارفقي إن الله إذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق، أخرجه أحمد من حديث عائشة وفيه (4) انقطاع ولأبي داود: ﴿يَا عَائِشَةَ لَرَفْقَى﴾

حديث: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله». أخرجه مسلم من حديث جرير دون قوله: «كله» فهي عند أبي داود. (1)

حديث: «أيما وال ولي قلان ورفق رفق الله به يوم القيامة» أخرجه مسلم من حديث عائشة، وفي حديث فيه: «ومن (0) ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، .

حديث: اللرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب، أخرجه الترمذي من حديث الن مسعود، وتقدم (1) في آداب الصحبة.

حديث: ﴿ اللَّرْفِق بِمِنْ وَالْحُرِقُ شَوْمٍ أَخْرِهِ الطِّيرَانِي فِي الأوسط من حديث ابن مسمود والسيهقي في الشعب من (V) حديث عائشة وكلاهما ضعيف.

حديث: «المتأني من الله والعجلة من الشيطان». أخرجه أبو يعلى من حديث أنس، ورواه الترمذي وحسنه من حديث (A) سهل بن سعد بلفظ: ﴿ الأَبَّاةُ مِنْ اللهِ ، وقد تقدم.

حديث: «أتاه رجل فقال يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك. . . ؟ الحديث. وفيه: •فإذا أردت أمراً (4) فتلبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه . . . ٩ الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائل من حديث أبي جعمر هو المسمى عبدالة بن مسور الهاشمي ضعيف جداً، ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده: ﴿إِذَا هممت بأمر فاجلس فتلبر حاقبته وإستاده ضعيف.

⁽١٠) حديث عائشة: اطليك بالرقق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه... الحديث. رواه مسلم.

بالغيب والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة، إن للرعية عليكم حقاً، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعر من حلم إمام ورفقه، وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرقه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه.

وقال وهب بن منبه: الرفق ثني الحلم.

وفي الخبر موقوفاً ومرفوعاً: «العِلْمُ خَلِيلُ المُؤْمِنِ، وَالحِلْمُ وَزِيرُهُ، وَالْعَقْلُ دَلِيلُهُ، وَالْمَمَلُ وَيَهُ وَالْمَبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ (١). وقال بعضهم: ما أحسن الإيمان يزينه العلم، وما أحسن العلم يزينه العلم، وما أحسن العلم وما أحسن العلم، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم. وقال عمرو بن العاص لابنه عبدالله: ما الرفق؟ قال: تكون ذا أناة فتلاين الولاة. قال فما الخرق؟ قال: معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك. وقال سفيان الأصحابه: تدرون ما الرفق؟ قالوا: قل يا أبا محمد، قال: أن تضع الأمور من مواضعها: الشدة في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه؛ وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل.

ورضع الندى في موضع السيف بالعُلا مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف، وإن كان العنف في محله حسناً كما أن الرفق في محلَّه حسن، فإذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى، وهو ألذ من الزبد بالشهد وهكذا. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: روى أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني فكتب إليه معاوية: أما بعد: فإن الفهم في الخير زيادة رشد، وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العجل مخطىء أو كاد أن يكون مخطئاً، وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق، ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى. وعن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها. وقال أبو حمزة الكوفي: لا تنخذ من الخدم إلا ما لا بد منه، فإن مع كل إنسان شيطاناً. واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك بالليل ما هو أفضل منه. وقال الحسن: المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل. فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور، وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف، فيعطى كل أمر حقه، فإن كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله إلى الرفق، فإن النجاح معه في الأكثر.

⁽١) حديث: «العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده. أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف، ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف.

القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم: أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه، والغضب أصل أصله، ثم إن للحسد من الفروع الدميمة ما لا يكاد يحصى. وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة: قال رسول الله ﷺ: «الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَه(١١)، وقال ﷺ في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته: ﴿ لا تَحَاسَلُوا وَلا تَقَاطَمُوا وَلا تُبَاغَضُوا وَلا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ الله إخْوَاناً إِنْ وقال أنس: كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَطُلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ مِنَ لَهٰذَا الْفَحِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ﴾ قال: فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه، قد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل، وقاله في اليوم الثالث، فطلع ذلك الرجل، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بنّ العاص فقال له: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت، فقال: نعم، فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم لصلاة الفجر (4)؛ قال: غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً، فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبدالله، لم يكن بيني وببن والدي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا، فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذي بلغ بك ذلك؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه، قال عبدالله: فقلت له: هي التي بلِغت بك، وهي التي لا نطيق"؛ وقال ﷺ: الثَّلاثُ لا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدُ: الظُّنُّ وَالطَّيْرَةُ وَالحَسَدُ، وَسَأَحَلُّتُكُمْ بِالمَخْرَجِ مِنْ ذَٰلِكَ: إِذَا ظَنَيْتَ فَلا تُحَقِّقُ؛ وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تُبْغِ (٤٠)، وفي رواية : «ثَلَاتْ لا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ وَقَلَّ مَنْ يَتْجُو مِنْهُنَّ الْأَبْت في هذه الرواية إمكان النجاة. وقال ﷺ: ٥دَبُّ إلَيْكُمْ ذَاءُ الأَمَّم قَبْلَكُمْ الحَسَدُ وَالبِّغْضَاءُ، وَالبِغْضَةُ هِي الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ حَالِقَةُ الشَّمْرِ وَلَٰكِنْ حَالِقَةُ الدِّينِ، وَالَّذِي نَفْسٌ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَثَّى تُؤْمِنُوا

القول في ذم الحسد

 ⁽١) حديث: الحسد بأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وابن ماجه من حديث أنس، وقد نقدم.

 ⁽٢) حديث: الا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تبافضوا . . . الحديث. منفق عليه، وقد تقدم.

⁽ه) في ط: (وقام لصلاة الفجر) والمعنى واحد؛ أي لم يصل حتى قام لصلاة الفجر. [الناشر].

⁽٣) حديث أنس: «كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال. فيطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة... المحديث بطوله وفيه: «أن ذلك الرجل قال: لا أجد على أحد من المسلمين في نمسي غشاً ولاحسداً على خير أعطاه الله رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخير، ورواه البزار وسمى الرجل في رواية له سعداً وهيها ابن لهيمة.

⁽٤) حليث: "ثلاث لا يتجو منهن أحد: الظن والطعن والحسد؛ الحديث. وفي رواية: "وقل من يتجو منهن؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهري وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبدالرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف، وللطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه، وتقدم في آفات اللسان.

إحياء عُلوم الدّين

وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُوا أَلاَ أَنْ يَعْلِبَ الْمَقْدَ فَلِكَ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ (''، وفال عَنْ: "كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَعْلِبَ الْقَدَرَ"'، وقال عَنْ: "إنَّهُ سَيْصِيبُ أُمْنِي ذَاءُ الأَمْمِ قالوا: وما داء يَكُونَ كُفْرا وَكَادَ الحَسَدُ أَنْ يَعْلِبَ الْقَدَرَة (''')، وقال عَنْ: "الأَشَرُ وَالبَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِي الدُّلْيَا، وَالتَّبَاصُدُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ البَعْنِ ثُمُ اللهَرِجُهُ ("' ، وقال عَنْ: "لا تظهر الشماتة الأخيك فيعافيه الله ويبتليك (عنه وروي: أن موسى عليه السلام الما تعجل إلى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلاً فغبطه بمكانه فقال: إن هذا لكريم على ربه، فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال: أحدثك من عمله بثلاث: كان الا يحسد الناس على ما الحاسد عدوّ لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي. وقال عَنْ: "أَخُوفُ الحَاسد عدوّ لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي. وقال عَنْ: "أَخُوفُ الحَاسد عدوّ لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي. وقال عَنْ: "أَخُوفُ الحَوانِ فِانَ كُلُ ذِي نِمُتَوْ مَحْسُودٌ (" ، وقال عَنْ: "إِنَّ لِنِهُمِ اللهُ أَمْدَاءُ فِيلِ: ومن هم؟ فقال: الحَوانِ إللهَمَانِ فَإِنَّ كُلُ ذِي نِمُتَوْ مَحْسُودٌ (" ، وقال عَنْ: "إِنَّ لِنِهُمِ اللهُ أَمْدَاءُ بِالجَعْمَانِ وقال اللهُ وَيَتَحَاسَدُونَ النَّأَسَ مَلَى ما النَّهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ (")، وقال عَنْ: "بِنَّ لِنِهُمِ اللهُ أَمْدَاءُ بِالجَوْدِ، وَالعَرْبُ بِالعَصَبِيَةِ، وَالدُّمُانُ بِالتَكُبُرِ، وَالمُهُمُ اللهُ مِن فَضُلِهِ إللجَعَلِهِ، وَالعُلَاءُ بِالحَسَدِ» وَالعُلَاءُ بِالحَسَدِة، وَالمُؤَانُ والمُنَاقِ بِالجَهَالَةِ، وَالعُلَاءُ بِالحَسَدِة، وَالعُلُهُ وَالمُحَدِدُ وَالعُلَاءُ والعُلَاءُ والحَسَدِة، وَالمُعَلَاءُ والحَسَدِة، وَالعُلَاءُ والحَسَدِة ، وَالعُلُ الرُسُولُ الدُّمُ والعُلَاءُ والحَسَدِة ، وَالعُلُونَ النَّاسُ والمُعَلَاءُ والحَسَدِة ، وَالعُلُونَ النَّاسُ عَلَى والعُلَاءُ والحَسَدِة ، وَالعُلَاءُ والمُعَلَاءُ والحَسَدِة ، وَالعُلَاءُ والمُنْ المُنْ ال

الآثار: قال بعض السلف: أول خطيئة هي الحسد؛ حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبي أن

 ⁽١) حديث: قدب إليكم داء الأمم: العصد والبغضاء.. ٤ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير.

 ⁽۲) حديث: «كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب المقدر، أخرجه أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من
رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ: «كادت الحاجة أن تكون
كفراً» وفيه ضعف أيضاً.

 ⁽٣) حديث: "إنه سيعيب أمتي داء الأمم قبلكم" قائوا: وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر...» الحديث. أخرجه ابن أبى الدنيا في ذم الحسد، والطبرائي في الأوسط من حديث أبى هريرة بإسناد حيد.

 ⁽٤) حديث: الا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك أخرجه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب
وفي رواية ابن أبي الدنيا: الفيرحمه الله.

⁽٥) حديث: فأخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد: فإن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الغنيا وزينتها ولهما من حديث عمرو بن عوف البدري والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم اللغيا. . . > الحديث. ولمسلم من حديث عبدالله بن عمرو: فإذا فتحت عليكم فارس والروم . . . > الحديث. وفيه: فيتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون . . > الحديث، ولأحمد والبزار من حديث عمر : فلا تفتح الفنيا على أحد إلا ألقى فله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

 ⁽٦) حديث: «استعينوا على قضاء الحواثج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود؛ أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف.

 ⁽٧) حديث: إن لنعم الله أعداء قيل: ومن أولئك؟ قال «الذين يحسدون الناس على ما آناهم الله من فضله» أخرجه الطيراني في الأوسط من حديث ابن عباس: (إن لأهل النعم حساداً فاحلروهم).

 ⁽A) حديث: استة بدخلون النار قبل الحساب بستة، قبل: يا رسول الله ومن هم؟ قال: الأمراء بالجور. . . الحديث.
 وفيه: اوالعلماء بالحسد، أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

يسجد له، فحمله الحسد على المعصية. وحكى: أن عون بن عبدالله دخل على الفضل بن المهلب ـ وكان يومئذ على واسط - فقال: إني أريد أن أعظك بشيء فقال: وما هو؟ قال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عبصبي الله بنه، شم قرأ: ﴿ وَإِذْ فُلْنَا لِلْمَلَتِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ مَسَجَدُوًّا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [المبتقر:: ٣٤] الآية، وإياك و لحرص فإنه أخرج آدم من الجنة، أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السمُّوات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها، ثم قرأ: ﴿ ٱلْهَبِطُواْ مِنْهَا﴾ [النَّفَرَة: ٣٨] إلى آخر الآية، وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده، ثم قرأ: ﴿ وَأَتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىٰ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المَائنة: ٢٧]، الأيات، وإذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ فأمسك، وإذا ذكر القدر فاسكت، وإذا ذكرت النجوم فاسكت. وقال بكر بن عبدالله: كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر، فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإنه إذ دنا منك وضع يده على أنفه لثلا يشم ربح البخر، فقال له: انصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك على عادته فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فقال له الملك: ادن مني فدنا فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم، فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا قد صدق؟ قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أوصلة، فكتب له كتاباً بحطه إلى عامل من عماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبناً وابعث به إليّ. فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: خط الملك لي بصلة، فقال هبه لي فقال: هو لك، فأخذه ومضى به إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك، قال: إن الكتاب ليس هو لي، فالله الله في أمري حتى تراجع الملك، فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته وقال مثل قوله؛ فعجب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوهبه مني موهبته له، قال له الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أيخر، قال: ما قلت ذلك؟ قال: فلم وضعت يدك على فيك؟ قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمه، قال: صدقت، ارجع إلى مكانك فقد كفي المسيء إساءته. وقال ابن سيرين رحمه الله: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حفيرة في الجنة؟!، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار؟! وقال رجل للحسن: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ نعم، ولكن غمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعد به يداً ولا لساناً. وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده!. وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة لا يرضيه إلا زوائها، ولذلك قيل:

كسل السعمداوات قمد تسرجسي إمماتستمهما إلا عسداوة مهين عساداك مسن ح

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ، وحسب الحسود ما يلقى. وقال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه. وقال الحسن: يا ابن آدم: لم تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟، وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار؟. وقال بعضهم: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً، ولا ينال عند النزع إلا شدّة وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً.

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه:

اعلم: أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسداً. فالحسد: حدّه: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها. وهذه تسمى غبطة، وقد تختص باسم المنافسة.

وقد تسمى المنافسة حسداً والحسد منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد مهم المعاني. وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّ المُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَالمُنَافِقَ يَخْسُدُ اللهُ .

فأما الأول فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد، ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته. ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿ إِن غَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ شَوْهُمْ وَإِن تُصِبَّكُمْ سَيِئَةٌ يَفَرَّحُوا بِهَأَ ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَيْبِرٌ مِنْ آهْلِ ٱلْكِنَبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَشْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّالًا حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البَفَرَة: ١٠٩] فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد. وقالَ عزّ وجُلّ : ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكُفُّونَ كُمَّا كُفُرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآيٌّ﴾ [النّساء: ٨٩] وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام، وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِثَا وَنَحْنُ عُصْبَةُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي صَّلَالٍ ثَبِينٍ ﴾ آقُنْلُوا يُؤمُنَ أَوِ ٱلْمَرَحُوهُ أَرْسًا يَعْلُ لَكُمْ وَجُهُ أَيِكُمْ ۖ لِيُوسُف: ١٩٠٨ فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلكَ وأحبوا زواله عنه غيبوه عنه وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي مُدُورِهِمْ حَاجَكَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾ [الخشر: ٩] أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد. وقال تعالى في معرض الإنكار: ﴿أَدُّ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا مَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضَياتِهُ [النَّساء: ١٥] وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أَمَّةٌ وَحِدَةً ﴾ [البّقرة: ٢١٣] إلى قوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُرقُوهُ مِنْ بَمْـدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْمِيِّنَتُ بَقِيًّا بَيْنَهُمُّ ۖ [البَقْرَة: ٢١٣] قيل في التفسير: حسداً، وقال تعالى: ﴿ وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْمِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [الشّورى: ١٤] فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم أن يتألفوا بالعلم، فتحاسدوا واختلفوا، إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعصهم على بعض. قال ابن عباس: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً

بيان حقيقة الحسد وحكمه

 ⁽۱) حديث: «المؤمن يغيط والمنافق يحسد» لم أجد له أصلاً مرفوعاً» وإنما هو من قول الفضيل بن عباض، كذلك رواه
 ابن أبي الدنيا في ذم الحسد.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

قالوا ' نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله، وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا(' . فكانوا ينصرون. فلما جاء النبي ﷺ من ولد إسماعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَقِبُونَ عَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاتَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِدِّه ﴾ [البَقرَة: ٨٩] إلى قوله: ﴿أَن يَحَفُرُوا بِمَا أَنزَلَ آلَتُهُ بَشَيًّا ﴾ [البَقَرَة: ٩٠] أي حسداً. وقالت صفية بنت حُبَيِّ للنبي ﷺ: جاء أبي وعمى من عندك يوماً، فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنه النبي الذي بشر به موسى. قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة (٢). فهذا حكم الحسد في التحريم.

وأما المنافسة: فليست بحرام، بل هي إما واجبة وإما مندوبة وإما مباحة، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد، قال قشم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة _ قالا لعلى حين قال لهما: لا تذهبا إليه فإنه لا يُؤمِّرُكُما عليها ـ فقالًا له: ما هذا منك إلا نفاسة، والله لقد زوَّجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك(٣)، أي هذا منك حسد، وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة.

والمنافسة في اللغة: مشتقة من النفاسة. والذي بدل على إباحة المنافسة قوله تعالى ﴿ ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْتَنَافَيِسَ الْمُنْنَافِسُونَ﴾ [المطفّفين: ٢٦] وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِنَّى مَفْفِرَةٍ مِّن زَّيِّكُرُ ﴾ [الحديد: ٢١] وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه وبحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها، فكيف وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك فقال: ﴿لا حَسَدَ إِلاَّ في الْنَتَيْنِ: رَجُلُ آتَاهُ الله مالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقَّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله تَعَالَى جِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ (1) ، ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال: «مَثَلُ هَٰذِهِ الأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةٍ: رَجُلَّ آتاهُ الله مالاً وَعِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ، وَرَجُلُ آتاهُ اللهِ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مالاً فَيَقُولُ: رَبِّ لَوْ أَنْ لِي مالاً مِثْلَ مَالِ فُلانِ لَكُنْتُ أَعْمَلُ فِيهِ بِمِثْلُ عَمَلِهِ، فَهُما فِي الأَجْرِ سَوَاةً ـ وَهٰذا مِنهُ حُبُّ لأَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ حَالِهِ فَيَعْمَلَ ما يَعْمَلُ مِنْ غَيْرِ حُبِّ زَوَالِ النَّعْمَةِ عَنْهُ قالَ: _ وَرَجُلَ آتَاهُ الله مالاً وَلَمْ يُؤتِهِ عِلْماً فَهُوَ يُنفِقُهُ فِي مَعَاصِي اللهُ، وَرَجُلُ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مالاً فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَالِ فُلانِ لَكُنْتُ أَنْفِقُهُ فِي مِثْلُ مَا

حديث ابن عباس: «قوله: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبي الذي وعلتنا أن ترسله. . . ؟ الحديث: وفي نزول قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ بُسَنَّةِتُوكَ عَلَ ٱلَّذِينَ كَثَرُوا﴾ [البَقرَة: ٨٩] أخرجه ابن إسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: "أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ فذكره نحوه وهو منقطم.

حديث ﴿ قَالَتَ صَفَّيةُ بَنْتَ حَيَّى لَلَّنِي ﷺ ﴿ جَاءَ أَبِي وَعَمِّي مَنْ عَنْكُ يُوماً فَقَالَ أَبِي لَعْمِي ؛ مَا تَقُولُ فَيه ؟ قَالَ : أَقُولُ إنه النبي الذي بشر به موسى. ١٠ الحليث. أخرجه ابن إسحاق في السيرة قال: حنثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حديث عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضاً.

أبو صفية رضي الله عنها هو حُيي بن أحطب اليهودي، وعنها سلام بن أبي الحقيق والد زوجها كنانة بن أبي الحقيق.

حديث: «قال قدم بن العباس: لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي على فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي. . . ٤ الحديث. هكذا وقع للمصنف أنه قثم والقضل وإنما هو القضل والمطلب بن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: «اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبدالمطلب فقالا: والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس: ائتيا إلى رسول الله ﷺ فكلماه؛؛ فذكر الحديث.

حديث: ﴿ لا حَسَدُ إِلَّا فِي اثنتين. . . ﴾ الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمرو، وقد تقدم في العلم.

أَتُفَقَهُ فِيهِ مِنَ المَعَاصِي فَهُما فِي الوِرْرِ سَوَاعُهُ(١) ، فذمه رسول الله على من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ما له. فإذاً: لا حرج على من يغبط غيره في نعمه ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له. نعم، إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة ، وهو أن يحب أن يكون مثله ، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية وذلك حرام ، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات ، فالمنافسة فيها مندوب إليها ، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة ، وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته واللحوق به في النعمة وليس فيها كراهة النعمة ، وكانت تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما: راحة المنعم عليه ، والآخر : ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له .

ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات، نعم، ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة، ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا دقيقة غامضة: وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه فلا محالة يحب زوال النقصان، وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك، أو بأن تزول نعمة المحسود، فإذا انسدّ أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشفى عنده من دوامها؛ إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره، وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه فهو حسود حسداً مذموماً، وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك، فيعفى عما يجده في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارهاً لذلك من نفسه بعقله ودينه، ولعله المعنى بقوله ﷺ: «ثلاثٌ لا يَنْفَكُ المُؤْمِنُ عَنْهُنَّ: الحَسَدُ وَالظُّنّ وَالطَّيَرَةُ" (٢٠)، ثم قال: «وله منهن مخرج»: «إذا حَسَدْت فَلا تُبْغ» أي إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به. وبعيد أن يكون الإنسان مريداً اللحاق بأخيه في النعمة فيعجّز عنها ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة؛ إذ يجد ـ لا محالة ـ ترجيحاً له على دوامها. فهذا الحدّ من المنافسة يزاحم الحسد الحرام، فينبغى أن يحتاط فيه فإنه موضع الخطر، وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوي الإيمان رزين التقوي. ومهما كان محرّكه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك إلى الحسد المذموم، وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه، حتى ينزل هو إلى مساواته إذ لم يقدر هو أن يرتقى إلى مساواته بإدراك النعمة، وذلك لا رخصة فيه أصلاً، بل هو حرام سواء كان في مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا، ولكن يعفي عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له. فهذه هي حقيقة الحسد وأحكامه. وأما مراتبه فأربع:

الأولى: أن يحبُّ زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه؛ وهذا غاية الخبث.

الثانية: أن يحب روال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة

 ⁽١) حديث أبي كبشة: قمثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالاً. . . ٩ الحديث. رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح.

 ⁽٢) حديث: اللاك لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد والظن والطيرة... ٥ الحديث، تقدم غير مرة.

أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها.

الثالثة: أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما.

الرابعة: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه.

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم، والثانية أخف من الثالثة، والأولى مذموم محض. وتسمية الرثبة حسداً فيه تجوز وتوسع ولكنه مذموم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْمَنَّوا مَا فَضَلَ اللَّهُ بِهِ. بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضِ النّساء: ٣٢] فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم.

بيان أسباب الحسد والمنافسة:

أما المنافسة: فسببها حب ما فيه المنافسة، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسببه حب الله تعالى وحب طاعته، وإن كان دنيوياً فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جداً، ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب: العداوة، والتعزز، والكبر، والتعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها. فإنه مما يكره النعمة على غيره إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير، وهذا لا يختص بالأمثال بل يحسد الخسيس الملك، بمعنى أنه يحب زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه، أو إلى من يحبه، وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالتعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه، وهو المراد بالتعزز، وإما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر، وإما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيماً فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب. وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه، وإما أن يكون يحب الرياسة التي تنبني مقاصده بسبب نعمته لا يساوى فيها. وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، ولا بد من شرح هذه الأسباب.

السبب الأول: العداوة والبغضاء، وهذا أشد أسباب الحسد، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه، وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه. وبالجملة: فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به ـ أعني الحسد بالعداوة _ إذ مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به ـ أعني الحسد بالعداوة _ إذ مان الله تعالى: ﴿وَيُوا مَا الله تعالى: ﴿وَيُوا مَا الله تعالى: ﴿وَيُوا مَا عَنْوا عَنْوا عَنْوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلُ مِنَ الْفَيْوا عَنْوا عَنْوا مَا تعالى: ﴿وَيُوا مَا الله تعالى: ﴿وَيُوا مَا الله عالى الله عمران الله الله تعالى: ﴿وَيُوا مَا الله عنالى: ﴿وَيُوا مَا الله عناله الله عناله الله تعالى: ﴿ وَالله عَنْوا عَنْوا عَنْوا عَلْه عَنْه الله عنالي الله عناله عليه الله عناله الله تعالى: ﴿ وَيُوا مَا الله عَنْه عَنْه الله عَنْه الله الله تعالى: ﴿ وَالله عَنْه الله عَنْه الله عَنْه الله عَنْه الله عَنْه والله الله عَنْه والما الله عَنْه والما والمحدد بسبب البغض ربما

يفضي إلى التنازع، والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهنك الستر، وما يجري مجراه.

السبب الثاني: التعزز؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره. فإدا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علماً أو مالاً خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيق تكبره، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً، ولكن لا يرضى بالترفع عليه.

السبب الرابع: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قالوا: ﴿مَا أَشَدَ إِلّا بَشَرٌ يَتَلْتَ ﴾ [المومنون: ١٥] ﴿ وَلَيْنَ أَطَفْتُهُ بِثَلًا يَشْلُمُ إِلَّا أَخْيِبُونَ فَيْكَ ﴾ [المومنون: ٢٤] ﴿ وَلَيْنَ أَطَفْتُهُ بِثَلًا يَشْلُمُ إِلَّا أَخْيبُونَ فَيْكُ الله والمومنون: ٣٤] فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم، وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعاً أن يفصل عليهم من هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدّم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب، وقالوا متعجبين: ﴿ أَبَعَتَ اللّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراه: ٢٩] وقالوا: ﴿ أَوْلَا أَيْلَ عَلَيْنَا الْمَلْتَهِكُهُ ﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿ أَوَ عَبِشُدَ أَن جَاءَكُمُ فِن رَبِّكُمُ عَلَى رَبُولًا أَيْلَ عَلَيْنَا الْمَلْتِهِكُهُ ﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿ أَوَ عَبِشُدَ أَن جَاءَكُمُ فِن رَبِّكُمُ عَلَى رَبُولُ عَلَيْنَا الْمَالَةِ عَلَى اللهُ عَلَالُهُ عَلَى اللهُ عَلَالُهُ عَلَى اللهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَى اللهُ عَلَالَهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَوْلُولُهُ عَلَالُهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُو اللهُ عَلَى الْعَلْمُ اللهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَى اللهُ عَلَالُهُ عَلَالَهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالْهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ عَلَاللّهُ عَلَالُهُ عَلَاللهُ عَلَالُهُ عَلَاللهُ عَلَالُهُ عَلَالْهُ عَلَالُهُ عَلَالُهُ

السبب المخامس: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كان واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الفرات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى المال والجاه، وكذلك تحاسد الواعظين المنزاحمين على أهل بلدة واحدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم، وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين؟ إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له.

السبب السادس: حب الرياسة، وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود. وذلك كالرجل

⁽¹⁾ حديث: اسبب نزول قوله تعالى: ﴿ الرَّالَا أَوْلَا أَوْلِكَ أَوْلَا أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً كَالله وَالله وَالله وَالله وَالله وَالله وَالله وَالله أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً أَوْلاً مَحْوِد عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين، فأنزل الله عيما بلغني هذه الآية، ورواه أبو محمد بن أبي حاتم وابن مردويه في تفسيريهما من حديث ابن عباس إلا أنهما قالا مسعود بن عمرو، وفي رواية لابن مردويه حبيب بن عمير الثقفي وهو ضعيف.

لذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه وأنه لا نظير له، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه فلك، وأحب موته أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرّد هو به ويفرح بسبب تفرّده، وليس السبب في هذا عداوة ولا تعزز ولا تكبر على المحسود، ولا خوف من فوات المقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد. وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة. وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله عليه ولا يؤمنون به؛ خيفة من أن تبطل رياستهم واستباعهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخبر لعباد الله تعالى، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أبعم الله به عليه يشق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده؛ كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته. ويقال: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس، ورذالة في الطبع، عليه وقعت الجبلة، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصوّر زوالها فيطمع في إزالتها، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ يستحيل في العادة إزالته. فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك، ويقوى قوّة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة، بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة. وأكثر المحاسدات تحتمع فيها جملة من هذه الأسباب، وقلما يتجرّد سبب واحد منها.

بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والأقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه:

اعلم: أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر؛ إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر، ولأنه يتكبر ولأنه عدوّ، ولغير ذلك من الأسباب. وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون سببها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف واحد منهم صاحبه في غرض من الأغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه وتترادف ويترادف جملة من هذه الأسباب؛ إذ لا رابطة بين شخصين في بلدتين متناتيتين فلا يكون بينهما محاسدة، وكذلك غي محلنين، نعم، إذا تجاورا في مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما، فيثور من التناقض التنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد، ولذلك ثرى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد لإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر سوى الاجتماع في الحرفة. ويحسد الرجل أخاه وابن عمه

أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته. لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد؛ إذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر؛ إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز. ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق، فلا جرم يكون حسله للجار أكثر. وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم؛ لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد بهذه الخصلة، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض، وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع. ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب، لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص. فأصل هذه المحاسدات العداوة، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهما. نعم، من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فإنه يحسد كل من هو في العالم ـ وإن بعد ـ ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين؛ أما الآخرة فلاً ضيق فيها، وإنما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الاستفادة والإفادة. فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى؛ لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم للة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم. نعم، إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا؛ لأن المال أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر، ومعنى الجاه ملك القلوب، ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة؛ فيكون سبباً للمحاسدة، وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره بها وأن يفرح بذلك.

والفرق بين العلم والمال: أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى، والعلم في قلب العالم مستقر، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه، والمال أجسام وأعيان ولها نهاية، فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض لم يبق بعده مال يتملكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يتصوّر استيعابه، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم، ولم يكن ممنوعاً منه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق؛ لأن غيره أيضاً لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة، فإن نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته، يأمن زوالها وهو أبداً يجني ثمارها؛ فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه، وهي فاكهة غير مفطوعة ولا ممنوعة، بل قطوفها دانية، فهو وإن غمض العين الظاهرة فروحه أبداً ترتم في جنة عالية ورياض زاهرة، فإن فرض كثرة في العارفين لم يكونوا متحاسدين، بل كانوا كما قال وهم بعد في الدنيا، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى؟ فإذن: لا يتصوّر وهم بعد في الدنيا، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى؟ فإذن: لا يتصوّر وهم بعد في الدنيا، فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى؟ فإذن: لا يتصوّر

أن يكون في الجنة محاسدة، ولا أن يكون بين أهل الدنيا في الجنة محاسدة، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضاً، فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعاً، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين، ولذلك وسم به الشيطان اللعين، وذكر من صفاته: أنه حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء، ولما دعي إلى السجود استكبر وأبي وتمرّد وعصى. فقد عرفت أنه لا حسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل. ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الأرض، وكل الأرض لا وزن لها بالإضافة إلى السماء، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار، فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلاً. فعليك ـ إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً ـ أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها؟ ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا مي معرفة الله عزّ وجلّ، ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السمُّوات والأرض. ولا يتال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً. فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها، وفتر عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك معذور؛ إذ العنين لا يشتاق إلى لذة الوقاع، والصبي لا يشتاق إلى لذة الملك، فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين، فكذلك لذة المعرفة بختص بإدراكها الرجال ﴿ يَجَالُ لَا نُلْهِ بِهِمْ يَجْنَوُّ وَلَا بَيْعٌ عَن دِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النُّور: ٣٧] ولا يشتاق إلى هذه اللذة عيرهم، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ﴿وَمَن يَعْشُ عَن يَكْمِ ٱلزَّمْمَيْنِ نُقَيِّصْ لَهُمْ شَيْطَلَنَّا فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ ۞﴾ [الرّحزف: ٣٦].

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب:

اعلم: أنّ الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرص الحسد: هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت هذا عن بصيرة - ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوّك - فارقت الحسد لا محالة. أما كونه ضرراً عليك في الدين: فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته، فاستنكرت ذلك واستبشعته. وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان، وناهيك بهما جناية على الدين. وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياه في حبهم الخير لعباده تعالى، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم. وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم. وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار غي الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم؛ إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها غي الدنيا أو تتعذب به، ولا تزال في كمد وغم؛ إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مفموماً محروماً عليهم، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى مفموماً محروماً مشعب القلب ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه الأعدائك، فقد كنت تريد متشعب القلب ضيق الصدر، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه الأعدائك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة . إن كنت عاقلاً ـ أن تحذر من بالمحدود بحددك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة . إن كنت عاقلاً ـ أن تحذر من

الحسد؛ لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرَّض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوي ولا فائدة؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسانك، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بدّ أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدّره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه، بل كل شيء عنده بمقدار، ولكل أجل كتاب، ولذلك شكا نبي من الأنبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فأوحى الله إليه: فرّ من قدامها حتى تنقضى أيامها أي: ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى نغيبره، فاصبر حتى تنقضي المدّة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها. ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا، ولا يكون عليه إثم في الآخرة، ولعلك تقول: ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي. وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أوْلاً لنفسك، فإنك أيضاً لا تخلو عن عدوّ يحسدك، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق، ولا نعمة الإيمان أيضاً، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَيْرِيُّ مِنْ أَهْمَلِ ٱلْكِنَابِ لَقَ يُرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّالًا حَسَكًا مِنْ عِندِ أَنفُيسِهِم﴾ [البَغَرَة: ١٠٩] إذ ما يسريـد الحسود لا يكون. نعم، هو يضل بإرادته الضلال لغيره فإن أراد الكفر كفر. قمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار، وكذا سائر النعم. وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغناوة؛ فإن كل واحد من حمقي الحساد أيضاً يشتهي أن يخص بهذا الخاصية، ولست بأولى من غيرك، فنعمة الله تعالى عليك في إن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها، وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح. أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه، وهتك ستره وذكر مساويه، فهذه هدايا تهديها إليه؛ أعني أتك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً عن النعمة، كما حرمت في الدنيا عن النعمة، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل. نعم، كان لله عليه نعمة إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة.

وأما منفعته في الدنيا: فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين. ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوّك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد؛ لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسداً. ولذلك قيل:

لا مسات أعسداؤك بسل خسلسدوا حستى يسروا فسيسك السذي يسكسمه لا زلست مسحسسل مسن يسحسسه

ففرح عدوّك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته، ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده، فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد إلا كما يشتهيه عدوّك، فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدوّ نفسك وصديق عدوّك؛ إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة، وانتفع به عدوّك في الدنيا والآخرة. وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق شقياً في الحال والمآل، ونعمة

المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك، لأنه لما رآك محروماً من بعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوّك عنك خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك، فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه عتفوز بثواب الحب، فبغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك.

وقد قال أعرابي للنبي ﷺ: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولم يلحق بهم، فقال النبي ﷺ اللّمَرَة مَعَ مَنْ أَحَبُ الله الله الله الله الله الله الله متى الساعة؟ فقال: «ما أَعَدَثَ لَها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَخْبَبْتَ (٢)، قال أنس: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذِ الله إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله، قال أنس: فنحن نحب رسول الله وآيا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم، ونرجو أن نكون معهم. وقال أبو موسى: قلت: يا رسول الله، الرجل يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصوام ولا يصوم، حتى عدّ أشياء. فقال النبي ﷺ: «هو مع من يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصوام ولا يصوم، حتى عدّ أشياء. فقال النبي ﷺ: «هو مع من أحب (٣)، وقال رجل لعمر بن عبدالعريز: إنه كان يقال: إن استطعت أن تكون عالماً فكن عالماً، فإن لم تستطع فلا تتخفهم، فقال: سبحان الله! لقد جعل الله لنا مخرجاً.

فانظر الآن: كيف حسدك إبليس ففوّت عليك ثواب الحب، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك، وحملك على الكراهة حتى أثمت، وكيف لا، وعساك تحاسد رجلاً من أهل العلم وتحب أن يخطيء في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح؟ وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم، أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم، وأي إثم يزيد على ذلك؟ فليتك إذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الإثم وعذاب الآخرة، وقد جاء في الحديث: فأهلُ الجَنَّةِ ثَلاَتَةٌ: المُحُسِنُ والمُحِبُ لَهُ وَالكَافُ عَنْهُهُ اللهُ عَنْهُ وَالكَافُ عَنْهُ وَالكَافُ عَنْهُ وَالكَافُ عَنْهُ وَى عدوك الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك، بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أبها الحاسد في صورة من يرمي سهما إلى عدوه ليصبب لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أبها الحاسد في صورة من يرمي سهما إلى عدوه ليصبب إلى عينه الأخرى فيعميها، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشد من الأولى فيرجع إلى عدقته اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشد من الأولى فيرجع إلى حدقته اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشد من الأولى فيرجع إلى عنه الأخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه. وهذا حال الحسود وسخرية وهو إليه راجع مرة بعد أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه. وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه، بل حالك في الحسد أقبح من هذا؛ لأن الرمية العائدة لم تفوّت إلا العينين ولو بقيتا لفاتنا الشيطان منه، بل حالك في الحسد أقبح من هذا؛ لأن الرمية العائدة لم تفوّت إلا العينين ولو بقيتا لفاتنا

الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «هو مع من أحب، متفق عليه من حديث ابن مسعود.

⁽٢) حديث، سؤال الأعرابي متى الساعة؟ فقال: (١٥ أهددت لها. . .) الحديث. متفق عليه من حديث أنس.

 ⁽٣) حديث أبي موسى: «قلت: يا رسول الله الرجل بحب المصلين ولا يصلي. . . ، الحديث. وفيه: «هو مع من أحب، متفق عليه من حديث أبي موسى بلفظ آخر مختصراً: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، قال: «المرء مع من أحب».

 ⁽٤) حديث: «أهل الجنة ثلاثة: المحسن والمحب له والكاف عنه لم أحد له أصلاً.

بالموت لا محالة. والحسد يعود بالإثم، والإثم لا يقوت بالموت، ولعله يسوقه إلى غضب الله وإلى النار، فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار. فانظر كيف انتقم الله من الحاسد إذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد؛ إذ السلامة من الإثم نعمة، والسلامة من الغم والكمد نعمة قد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلا يَجِينُ السَّكُرُ السَّيِّ إِلَّا بِأَعْلِينَ ﴾ [فاطر ٣٠] وربما يبتلي بعين ما يشتهيه لعدوه، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلي بمثلها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: ما تمنيت لعثمان شيئاً إلا نزل بي، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت. فهذا إثم الحسد نفسه فكيف ما يجرّ إليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق وإطلاق اللسان واليد بالفواحش في التشفي من الأعداء؟ وهو الداء الذي فيه هلك الأمم السالفة.

فهذه هي الأدوية العلمية. فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر، انطفأت نار الحسد من قلبه، وعلم أنه مهلك نفسه ومفرح عدوه، ومسخط ربه ومنغص عيشه.

وأما العمل النافع فيه: فهو أن يحكم الحسد، فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقبضه، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه، وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعظفه، ويحمله على مقابلة ذلك الإحسان، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخراً، ولا يصدّنه عن ذلك قول الشيطان له: لو تواضعت وأثنيت عليه حملك على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة ـ تكلفاً كانت أو طبعاً ـ تكسر سورة العداوة من الجانبين، وتقل مرغوبها وتعوّد ومكايده بل المجاملة ـ تكلفاً كانت أو طبعاً ـ تكسر سورة العداوة من الجانبين، وتقل مرغوبها وتعوّد والقلوب التآلف والتحاب، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض.

فهذه هي أدوية الحسد، وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً، ولكن النمع في الدواء المرّ. فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء؛ وإنما تهون مرارة هذا الدواء أعني التواضع للأعداء والتقرّب إليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوّة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه. وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل، وعند ذلك يريد ما لا يكون؛ إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين: إما بأن يكون ما تريد، أو بأن تريد ما يكون، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه، وأما الثاني: فللمجاهدة فيه مدخل، وتحصيله بالرياضة ممكن، فيجب تحصيله على كل عاقل، هذا هو الدواء الكلي.

فأما اللواء المفصل: فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغني _ وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى _، فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة، فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده، فإنه ما دام محباً للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه، ويغمه ذلك لا محالة، وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه، والله الموفق.

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب:

اعلم: أن المؤذي ممقوت بالطبع، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له، ولكن إن قوَّى ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك، وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَحَةً يَمَّا أُونُوا﴾ [الخشر: ٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَذُواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآةً﴾ [النّساء: ٨٩] وقال: ﴿إِن تَمْسَنَكُمْ حَسَنَةٌ نَشُؤْهُمْ ﴾ [آل مِمرَان: ١٢٠] أما الفعل فهو غيبة وكذب، وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد، بل محل الحسد القلب دون الجوارح. نعم، هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها، بل هو معصية بينك وبين الله تعالى، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح، فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أديت الواجب عليك، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا، فأما تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن، ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تتصب عليهما من بليَّة سواء؛ فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا، إلاَّ أن يصير مستعرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة، ويرى الكل عباد الله، وأفعالهم أفعالاً لله، ويراهم مسخرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه، ويعود العدو إلى منازعته _ أعني الشيطان _ فإنه ينازع بالوسوسة. فمهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه. وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه، لما روي عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال: غمه فإنه لا يضرك ما لم تبده. وروى عنه موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: ﴿ثَلَاثَةٌ لا يَخْلُو مِنْهُنَّ الْمُؤْمِنُ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ﴾ فمخرجه من الحسد أن لا يبغي، والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جَهة الدين والعقل في مقابلة حبُّ الطبع لزوال نعمة العدو، وتلك الكراهة تمنعه من البغي والإيذاء، فإن جميع ما ورد من الأخبار في دم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال. فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد، فإذن كونه آثماً بمحرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد، والأظهر: ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى؛ إذ يبعد أن يعفى عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة.

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال.

أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك، وتكره حبك لدلك وميل قلبك إليه بعقلك، وتمقت نفسك عليه، وتود لو كانت لك حبلة في إزالة ذلك الميل منك، وهذا معفو عنه قطعاً لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه.

الثاني: أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور قطعاً.

الثالث: وهو بين الطرفين؛ أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك، ومن غير إنكار منك على على حسدك، ومن غير إنكار منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه، وهذا في محل الخلاف. والظاهر: أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه. والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



ينسب ألله الكنب النيسية

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي عرّف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرة جعلتها سنة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بدل طالبيها ناطقة. فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب لكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، فهي خداعة مكارة، طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها؛ كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها. بينما أصحابها منها في سرور وإنعام؛ إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد. إن ملكت واحداً منهم جميع ما طلعت عليه الشمس؛ جعلته حصيداً كأن لم يغن بالأمس. تمني أصحابها سروراً وتعدهم غروراً؛ حتى يأملون كثيراً ويبنون قصوراً؛ فتصبح قصورهم قبوراً، وجمعهم بوراً. وسعيهم هباء منثوراً، ودعاؤهم ثبوراً، هذه صفتها وكان أمر الله قدراً مقدوراً، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله المرسل إلى العالمين بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً. وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيراً، وعلى الظالمين نصيراً وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الدنيا عدوة لله: وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله. أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله. ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها. وأما عداوتها لأولياء الله عزّ وجلّ: فإنها تزينت لهم بزينتها، وعمتهم بزهرتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعداء الله: فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها، فاقتنصتهم مشبكتها حتى وثقوا بها، وعولوا عليها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد. فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون. بل يقال لهم: ﴿ اَنْسَرُونَ فِيهَا وَلاَ نُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون. ١٠٨] ﴿ أُولَتِهِكَ الَّذِينَ الْمَدَونَ اللهُ الْمَدَونَ اللهُ اللهُ الْمَدَونَ اللهُ اللهُ اللهُ الْمَدَونَ اللهُ عَمْهُمُ الْهَدَابُ وَلا هُمْ يُعَمَّرُونَ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْهُ عَنْهُمُ الْهَدَابُ وَلا هُمْ يُعَمَّرُونَ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَنْهُمُ الْهَدَابُ وَلا هُمْ يُعَمَّرُونَ اللهُ عَنْهُمُ الْهَدَابُ وَلا يُعَلَقُونَ اللهُ ال

وإدا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بدّ أولاً من معرفة حقيقة الدنيا وما هي؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها؟ وما مدخل غرورها وشرورها؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه. ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلتها، وحقيقتها وتفصيل معانيها، وأصناف الأشغال المتعلقة بها، ووجه الحاجة إلى أصولها، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى، وهو المعين على ما يرتضيه.

بيان ذم الدنيا:

كتاب ذم الدنيا

⁽١) حديث: مر على شاة ميتة فقال: «أثرون هذه الشاة هيئة على صاحبها. . . ؟ الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذي، وقال: حسن صحيح، ورواه الترمذي وابن ماحه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة، ولمسلم نحوه من حديث جابر.

 ⁽۲) حديث: «الدنيا منجن المؤمن وجنة الكافر» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها» أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي هريرة وزاد: ﴿إلا ذكر الله وما والاه وهالم ومتعلم».

 ⁽³⁾ حديث أبي موسى الأشعري: قمن أحب دنياه أضر بآخرته. . . ا الحديث . أخرجه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه .

حديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهةي في شعب الإيمان من طريقه من
رواية الحسن مرسلاً.

 ⁽٦) حديث زيد بن أرقم: اكنا مع أبي بكر فدعا بشراب فأتي بماه وعسل فلما أدناه من فيه بكى . . . ١ الحديث . وفيه:
 اكنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً . . . ١ الحديث . أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصحح إسناده وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه .

 ⁽٧) حديث: (يا عجباً كل المجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جدير مرسلاً.

وروي: أن رسول الله ﷺ وقف على مزبلة فقال: «هَلِمُوا إِلَى الْلُنْيَا وَأَخَذَ خِرَقاً قَدْ بَلِيَتْ هَلَى تِلْكَ الْمَزْبَلَةِ وَهِظَاماً قَدْ نَجْرَتْ فَقَالَ: هٰذِهِ الدُّنْيَاء'``، وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل ثلك المخرق، وأن الأجسام الني ترى بها ستصير عظاماً بالية. وقال ﷺ: ﴿ إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيها فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا بُسِطَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَمُهَّدَت تَاهُوا فِي الجِلْيَةِ وَالنُّسَاءِ وَالطَّيبِ وَالثِّيابِ، (*). وقال عيسى عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم عبيداً، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه؛ فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الأفة، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: يا معشر الحواريين، إني قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي، فإن من خبث الدنيا أن عُصي الله فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل حطيئة حب الدنيا، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً، وقال أيضاً: بطحت لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة. وقال أيضاً: الدنيا طالبة ومطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه.

وقال موسى بن يسار: قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهُ عَزُّ وَجَلَّ لَمْ يَحَلُقُ خَلْقاً أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ اللُّنْيَا وُإِنَّهُ مُنْذُ خَلَقَهَا لَمْ يَنظُرْ إِلَيهَا»^(٣). وروي أنّ سليمان بن داود عليهما السلام مرٌّ في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله قال: فمر بعابد من بني إسرائيل فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً، قال فسمع سليمان وقال: لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود، فإن ما أعطي ابن داود يذهب والتُّسبيحة تبقى. وقال ﷺ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مالِي مالِي وَهَلْ لَكَ من مَالِكَ إلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدُّقْتَ فَأَبْقَيتَ؟ (١٠) وقال ﷺ: "إِنَّ الدُّنْيَا فَارُ مَنْ لاَ ذَارَ لَهُ وِمَالُ مِنْ لا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقُلَ لَهُ، وَعَلَيْهِا يُعَادِي مَنْ لا عِلْمَ لَهُ، وَعَلَيْها يَحْسُدُ مَنْ لا فِقْهَ لَهُ، وَلَهَا يَسْعَي مَنْ لا يَقِينَ لَهُهُ (٥)، وقال ﷺ: امَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمَّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللَّه فِي شِّيْءٍ وَأَلْزَمَ اللهُ قَلْبَهُ أَرْبَعَ خِصَالٍ: هَمَّا لا يَنْقَطِعْ عَنْهُ أَبَداً، وَشُغْلاً لا يَتَفَرَّغُ مِنْهُ أَبَداً، وَفَقْراً لا يَبْلُغُ خِنَاهُ أَبَداً،

حديث: إنه وقف على مزبلة فقال: الهلموا إلى الدنيا...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في دم الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلاً، وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس.

حديث: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون. . . ٥ الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله: ﴿إِن بَتِي إسرائيل. . . النعَّ والشطر الأول متفق عليه، ورواه ابن أبي الدنبا من حديث الحسن مرسلاً بالزيادة التي في آخره.

حديث مومس بن يسار: (إن الله جل ثناؤه لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا وأند منذ خلقها لم ينظر إليها» أخرجه ابن أبي النتيا من هذا الوجه بلاغاً والبيهةي في الشعب من طريقه وهو مرسل.

حديث: «الهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي. . . ؟ الحديث. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن الشخير. (3)

حليث: «الله نيا دار من لا دار له. . . ٥ الحديث. أخرجه أحمد من حنيث عائشة مقتصراً على هذا وعلى قوله: «ولها يجمع من لا عقل له؛ دون بقيته، وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه: «يمال من لا مال له» وإسناده

وَأَمَلاً لا يَبْلُغُ مُنْتَهَاه أَبَداً (''). وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ: "يا أبا هُرَيْرَةَ أَلاَ أُرِيكَ الدُّنْيَا جَمِيتُها بِمَا فِيها؟ فقلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال: "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هُنِو الرُّؤوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ كَحِرْصِكُمْ وَتَأْمُلُ كَأَمَلِكُمْ ثُمَّ هِيَ الْيَوْمَ عِظَامٌ بِلا جِلْدِ ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ رَمَاداً، وَهُذِهِ المُذُرَاثُ هِيَ أَلُوانَ أَطْمِمَتِهِم الْتُسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اكْتَسَبُوهَا ثُمَّ قَلْفُوهَا فِي بُطُونِهِمْ فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامَوْنَها، وَهُذِهِ الجُرَقُ الْبَالِيَةَ كَانَتُ رِياشَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامَوْنَها، وَهُذِهِ الجُرَقُ الْبَالِيَة كَانَتُ رِياشَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ عَلَى الدُّنِيَا فَلَيْكِ قَالَ: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا ('').

وروي في أخبار آدم عليه السلام: أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج النفل، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة المجنة إلا في هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها، قال: فجعل يدور في المجنة، فأمر الله تعالى ملكاً يخاطبه فقال له: قل له: أي شيء تريد؟ قال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى، فقيل للملك: قل له: في أي مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السور أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار، هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك؟ اهبط إلى الدنيا، وقال على قلبَجِيْئَنَّ أَقْوَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَضْمَالُهُمْ كَجِبالِ تِهَامَةَ فَيُوْمَرُ بِهِمْ إلى النَّارِ» قالوا: يا رسول الله مصلين؟ قال: فتَعَمْ كاتُوا يُصلُونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُلُونَ هَنَةً مِنْ اللَّيْلَةِ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءً مِنَ الدُّنِيا وَثَبُوا عَلَيهِ "

عض خطبه: «المُؤمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما الله صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ بعض خطبه: «المُؤمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما الله صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ

⁽۱) حديث: «من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وأفزم الله قلبه أربع خصال . . . الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر دون قوله: «وألزم الله قلبه . . . الغ؟، وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة، وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر مكلاهما ضعف.

 ⁽٢) حديث أبي هريرة: «وألا أريك الدنيا جميعها بما فيها» قلت: ملى يا رسول الله، فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة. . . » الحديث. لم أجد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث «النفيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلفها الله لا ينظر إليها. . . ١ الحديث. نقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلاً ولم أجد باقيه.

 ⁽٤) حديث «ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم إلى المنار. . . » الحديث، أخرجه أبو نعيم في
 الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيقة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً.

لا يَدْرِي مَا الله قَاض فِيهِ؟ فَلْيَتْزَوْدِ العَبْدُ مِنْ تَفْسِهِ لِتَفْسِهِ وَمِنْ دُنْهَاهُ لآخِرَتِهِ وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلآخِرَةِ، وَالْذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَمْتَبِ وَلا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ ذَارٍ إِلاَّ الْجَنَّة أَوْ الثَّارِهُ (۱)، وقال عيسى عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد.

وروي: أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر، وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذت بيتاً يكنك. قال: يكفينا خلقان من كان قبلنا. وقال نبينا يَهِ الحَذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَعَن الحسن قال: خرج رسول الله يَهُ ذات يوم على أصحابه فقال: «هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُلْهِبُ اللهُ عَنْهُ العَمَى وَيَجْعَلَهُ بَصِيراً: أَلاَ إِنَّهُ مَنْ رَخِبَ فِي الدُّنْيَا وَطَالَ أَمَلُهُ فِيها أَضَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدْرِ ذَٰلِكَ، وَمَنْ زَهِدَ فِيها أَضَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدْرِ ذَٰلِكَ، وَمَنْ زَهِدَ فِيها أَضَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدْرِ فَلِكَ المُمْلُكُ إِلاَ بِالقَتْلِ وَالتَّجَبُّر، وَلا النِينَى إِلاَ بِالفَحْرِ وَالبُحْلِ، وَلا المَحَبَّة عَلَى المُنْكُ وَهُو يَقْدِرُ عَلَى الفَقْرِ وَهُو يَقْدِرُ عَلَى الْفَرْ وَهُو يَقْدِرُ عَلَى الْمَنْ إِلاَ فَحْمَ وَصَبَرَ عَلَى النَّلُ وَهُو يَقْدِرُ عَلَى الْمَقْرِ وَهُو يَقْدِرُ عَلَى الْمَقْرِ وَهُو يَقْدِرُ عَلَى المَعْبَة ، وَصَبَرَ عَلَى الذُلُ وَهُو يَقْدِرُ عَلَى الْمِزُ لا يُرِيدُ بِنْلِكَ إِلاْ وَجْهَ اللهُ تَعَالَى الْمُقَلِ وَالْمَانَ مِنْكُمْ فَصَبَرَ عَلَى الْمِزْ لا يُرِيدُ بِنْلِكَ إِلاْ وَجْهَ اللهُ تَعَالَى الْمُقَاءُ اللهُ قَوْابَ خَمْسِينَ صِدْيقاً هُونَ اللهُ تَوابَ خَمْسِينَ صِدْيقاً هُ اللهُ تَوابَ خَمْسِينَ صِدْيقاً هُ اللهُ قَوْابَ خَمْسِينَ صِدْيقاً هُ اللهُ تَوَابَ خَمْسِينَ صِدْيقاً اللهُ تَوابَ خَمْسِينَ صِدْيقاً هُ اللهُ تَوابَ خَمْسِينَ صِدْيقاً اللهُ اللهُ قَوْابَ خَمْسُ الْمَالِمُ الْمُلْولُ اللهُ عَلَى الْمُو الْمَالِقُ الْمُعْمَى الْمُعْرَاءِ اللهُ تَوابَ عَلَى المُعْرَابُ وَالْمُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَوْلَ اللهُ المُعْلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ ا

وروي: أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوماً، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال: إلهي، جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى، فأوحى الله تعالى إليه: مأواك في مستقر رحمتي لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراه خلقتها بيدي، ولأطعمن في عرسك أربعة الاف عام يوم منها كعمر الدنيا، ولأمرن منادياً ينادي أين الزهاد في الدنيا، زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم، وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها، وتغره ويأمنها، ويثق بها وتخذله، وويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون؟ وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غذاً بذنبه؟ وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى: ما لك ولدار الظالمين إنها ليست لك بدار، أخرج منها همك وفارقها بعقلك، فبنست الدار هي إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي، يا موسى: إني مرصد للظالم حتى بعقلك، فبنست الدار هي إلا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هي، يا موسى: إني مرصد للظالم حتى اخذ منه للمظلوم.

وروي: أن رسول الله على بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين؛ فسمعت الأنصار

⁽١) حديث: «المؤمن بين مخافين بين أجل قد مضى. . . • الحديث . أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع .

⁽٣) حديث: «احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت؛ أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء الرهاوي مرسلاً، وقال البيهقي: إن بعضهم قال عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة. قال الذهبي: لا يدرى من أبو الدرداء قال: وهذا منكر لا أصل له.

⁽٣) حديث الحسن: «هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى. . . » الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه هكذا مرسلاً، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم.

بقدوم أبي حبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله على الله على رسول الله على انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله على حين رآهم ثم قال: ﴿ أَظُنْكُمْ صَمِعْتُمْ أَنْ أَبِا عُبَيدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ قَالُوا: أَجَلَ السَّرِ الله عَلَيكُمْ وَلَكِنِي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ أَبِا عُبَيدَةً قَدِمَ بِشَيْءٍ قَالُوا: أَجَلَ يَا رسول الله عَلَيكُمْ وَلَكِنِي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَبْكُمْ وَلَكِنِي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَبْكُمْ وَلَكِنِي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ أَبْكُمْ وَلَكِنَي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ أَنْ أَنْ فَلَا تَشْعَلُوا فَلَكَتْهُمْ اللهُ وَاللهُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ الله لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ وَقَال أَبُو سَعِيد الْخَدري: قال رسول الله على: ﴿ إِنَّ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ الله لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ وَقَال أَبُو سَعِيد الْخَدري: قال رسول الله عَلَي ﴿ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّل

وقال عمار بن سعيد: مرّ عيسى عليه السلام بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق، فقال: يا معشر المحواريين، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا، فقالوا: يا روح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم. فسأل الله تعالى فأوحى إليه: إذا كان الليل فنادهم يجيبوك، فلما كان الليل أشرف على سز، ثم نادى: يا أهل هذه القرية، فأجابه مجيب: لبيك يا روح الله! فقال: ما حالكم وما قصتكم؟ قال: بتنا في عافية وأصبحنا في الهاوية، قال: وكيف ذاك؟ قال: بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي، قال: وكيف كان حبكم للدنيا؟ قال: حب الصبي لأمه؛ إذا أقبلت فرحنا بها، وإذا أدبرت حزنا ويكينا عليها، قال: فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد، قال: فكيف أجبتني أنت من بينهم؟ قال: لأني كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أأنجو منها أم أكبكب فيها؟ فقال المسيح للحواريين: لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة.

وقال أنس: كانت ناقة رسول الله على العضباء لا تسبق فجاء أعرابي بناقة له فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال على: ﴿ إِنَّهُ حَقَّ عَلَى الله أَنْ لا يَرْفَعَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا إلا وضعه (٤)، وقال عيسى عليه السلام: من الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً. وقيل لعيسى عليه السلام: علمنا علماً واحداً يحبنا الله عليه، قال: ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى. وقال أبو الدرداء: قال رسول الله عليه: ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكُتُمْ قَلِيلاً وَلَيَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَهَانَتُ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلاَتَرْتُمُ اللَّنْيَا وَلاَتَرْتُمُ اللَّنْيَا وَلاَتَرْتُمُ اللَّهُ وَلَيْكَانُهُ مَا أَعْلَمُ لَصَحِكُتُمْ قَلِيلاً وَلَيْكَيْتُمْ مَثِيراً وَلَهَانَتُ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلاَتَرْتُمُ اللَّهُ وَلَيْكَانُهُ مَا أَعْلَمُ لَضَعِدات تَجارون وَلَهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ عَلَيْ وَلَا أَعْلَمُ لَصَعِدات تَجارون وَلَهُ اللهُ عَلَيْكُمُ اللهُ وَلَيْكَانِهُ وَلَيْكُونُهُ وَلَيْكُونُهُ وَلَيْكُونُ وَلَيْكُونُ وَلَا أَعْلَمُ لَعُلُولُ وَلَهُ وَلَا أَعْلَمُ لَعْمَونَ مَا أَعْلَمُ لَحْرَجْتُم إِلَى الصعدات تَجارون وَلَهُ وَلَهُ وَلَوْلَالُونَ وَلَهُ اللهُ وَلِيْنُهُ وَلَوْلَهُ وَلَهُ وَلَيْكُونُهُ وَلِيلاً وَلَيْكُونُهُ وَلِيلُونُ وَلَهُ وَلَمُ وَلَا أَنْ وَلَوْلَوْلُونُ وَلَهُ وَلَهُ وَلِي الصَعدات تَجارُونَ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَا أَنْ وَلَيْكُونُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَوْلًا وَلَوْلًا وَلَهُ وَلَوْلًا وَلَهُ وَلَا أَعْلَمُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَيْلًا وَلَوْلًا وَلَوْلًا وَلَوْلُونُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَا أَلْوَالُهُ وَلَا أَنْهُ وَلَهُ وَلَا أَلَا لَهُ وَلَا أَنْ وَلَا أَلْهُ وَلَا لَهُ وَلَهُ وَلَا أَلَالُهُ وَلِي الْعَلَالُونُ وَلَا أَنْهُ وَلَا أَلَالَتُ فَلَا لَهُ وَلَا أَلَالُهُ وَلَا أَلْهُ وَلَا أَلَا اللّهُ وَلَا أَلَالُهُ وَلَا أَنْهُ وَلَا أَلْهُ وَلَا أَلَالًا وَلَا أَا فَلَا أَلَا وَلَا أَلَا وَلَا أَلَالًا وَلَا أَلَا وَلَا أَلَاللّهُ وَلَا أَلْهُ وَلَا أَلْوَاللّهُ وَلَا أَلْهُ وَلَا أَلْوَاللّهُ وَلِلْهُ وَلَا أَلَا أَلَالُولُونَ وَاللّهُ وَلَا أَلْهُ وَاللّهُ وَلَا أَلْهُ وَلَا أَلْهُ وَلَا عَلَالُهُ وَلَا عَلَاللّه

 ⁽١) حديث: ابعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة. متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدري.

⁽٢) حديث أبي سعيد (إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض. . .) الحديث. متفق عليه .

 ⁽٣) حديث: الا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنياء أخرجه البيهقي في الشعب من طريق ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن النضر
 الحارثي مرسلاً.

 ⁽٤) حديث أنس: اكانت ناقة رسول الله على الله المضباء لا تسبق. . . الحديث. وفيه: «حق على الله أن لا يرقع شيئاً من اللغيا إلا وضعه أخرجه البخاري.

⁽a) حديث أبي الدرداء: «لو تعلمون ما أهلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولهائت هليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة أخرجه الطبراني دون قوله «ولهائت. . . الخع وزاد «ولخرجتم إلى الصعدات. . . » الحديث. وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر قوما تلذنتم بالنساء على الفرش» وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أثراد البخاري من حديث عائشة . العضباء: المصواء وأيضاً ولها هذين الاسمين.

وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع إليها إلا ما لا بدّ لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون، فعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته، ما لكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم خوان على دين الله، وما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحابيتم، ما لكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على مر آخرته، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم. فإن قلتم: حب العاجلة غالب؟ فإنا نراكم تدعون لعاجلة من الدنيا للآجل منها، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه، فبئس القوم أنتم، ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم، فإن كنتم في شك مما جاء به محمد ﷺ فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم، والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم، إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم، ما لكم تفرحون باليسير من اللنيا تصيبونه، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على السنتكم، وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم، وعامتكم قد تركوا كثيراً من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم، إني لأرى الله قد تبرأ منكم، يلقى بعضكم بعضاً بالسرور وكلكم يكره ن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله؛ فاصطحبتم على الغل ونبنت مراعيكم على المدمن وتصافيتم على رفض الأجل، ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته ولو كان حياً لم يصابركم، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً، وبالله استعين على نفسي وعليكم. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين، ارضوا بدني، الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا. وفي معناه قيل:

أرى رجمالاً بمأذنس المديس قمد قمند على المديس بالمدون والمسم وضبوا في المعيس بالدون في المدين المدين فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استنساسي المدين

وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبر: تركك الدنيا أبر. وقال نبينا ﷺ: «لَقَأْتِيَنْكُمْ بَعْدِي دُنْيَا تَأْكُلُ إِيمَانَكُمْ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَه (۱) ، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى، لا تركن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها. ومرَّ موسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي، فقال موسى: يا رب، عبلك يبكي من مخافتك فقال: يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عبنيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا.

الآثار: قال علي رضي الله عنه: من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً؛ أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها. وقال الحسن: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة فأذوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً. وقال أيضاً رحمه الله: من نافسك في دينك فناقسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره، وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني، إن الدنيا بحر

العادث: الثانية معدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب لم أجد له أصلاً.

عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عزّ وجلّ، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عزّ وجلّ، لعلك تنجو وما أراك ناجياً. وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآيسسسسة: ﴿إِنَا حَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَمَّا إِنَالُولُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿ وَإِنَا لَكَعِلُونَ مَا عَلَيّا صَعِيدًا الآيسسسسة: ﴿إِنَا لَحَيْلُونَ مَا عَلَيّا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿ فَهُ وَاللّه عِنْ الدّنيا إلا وقد كان له أهل جُرُزًا ﴿ فَهُ وَاللّه وَعَداء يوم، فلا تهلك في أكلة، وصم عن قبلك وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك في أكلة، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار، وقيل لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان ويجدد الآمال. ويقرّب المنية ويبعد الأمنية. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب، ومن فاته نصب، وفي ذلك قيل:

ومن يحمد التأنيا لعيش يسره إذا أديرت كانت على المرء حسرة

فسسوف لعسمري عن قبلييل بالومُها وإن أقبيلت كنانت كشيسراً هممومُها

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، قلا أسكن إليها؛ فإن عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية. وقال بعضهم: من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق، لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص. وقال سفيان: أما ثرى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها. وقال أبو سليمان الداراني: من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر. ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئاً إلا أراد أكثر، وليس لهذا غاية. وقال رجل لأبي حازم: أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار، فقال: انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلا في حقه، ولا يضرك حب الدنيا. وإنما قال هذا لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها. وقال يحيى بن معاذ: الدنيا من ذهب يفني والآخرة من خزف يبقى؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب كانت الدنيا من ذهب يفني والآخرة من خزف يبقى؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يوقف العبد يوم القيامة إذا كان معظماً للدنيا فيقال: هذا عظم ما حقره الله. وقال ابن مسعود: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف وما له عارية، فالضيف مرتحل والعارية مردودة. وفي ذلك قبل:

ومسا السمسال والأهسلسون إلا ودائسع ولا بسد يسومساً أن تسرد السودائسع

وزار رابعة أصحابها، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها، ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره، وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فقال:

> نسرقع دنسانا بستمسزيق ديسنا فسطسويسي لسعسبسد آئسر الله ربسه وقيل أيضاً في ذلك:

فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

أرى طبالب الدنسيا وإن طبال علموه كسيبان سنسى بسنسيانية فسأقيامية

ونال من الدنيا سروراً وأنغسا في مناه تهدّما

وقيل أيضاً في ذلك:

إحياء عُلوم الدّين

هما المدنسيا تسماق المسك عنفوا المبس مسمسيسر ذاك الما المستاق المسال المستان المستان

وقال لقمان لابنه: يا بني، بع دنياك بآخرتك تربحهما حميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما حميعاً. وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر؛ فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. وقال بعضهم: الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب. وفي ذلك قيل:

يا خياطب السنُّنيا إلى نفسها تنبح عن خطبتها تسلم إن الستسي تسخيطسب غسدارة قسريبة السفرس مين السمياتيم

وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها. وبي ذلك قيل:

إذا استحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عندر في ثيباب صديتي وقيل أيضاً:

يا راقد الليبل مسروراً باوله أمنى القرون التي كانت منعمة أمنى القرون التي كانت منعمة كمم قد أبادت صروف الدهر من ملك يا من يعانق دنيا لا بقاء لها هلاً تركت من الدنيا صعانقة إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها

إن السحوادث قد يسطوق أستحارا كسر السجديدين إقسبالاً وإدبارا قد كسان في السدهر نشاعاً وضرارا يسمسي ويسمسح في دنياه سفارا حسى تعانق في الفردوس أبكارا في نامن النارا

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: لما بعث محمد على أتت إبليس جنوده فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة، قال: يحبون الدنيا؟ قالوا: نعم، قال: لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي ألا يعبدوا الأوثان، وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث: أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله من هذا نبع. وقال رجل لعلي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا، قال: وما أصف لك من دار من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، ومتشابهها العتاب. وقيل له ذلك مرة أخرى فقال أطول أم اقصر؟ فقيل: قصر، فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب. وقال مالك بن دينار: اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء _ يعني الدنيا _. وقال أبو سليمان الداراني: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة. وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح؟ إذ قال: الدنيا يخرج هم يجتمعان في القلب فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له. وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم يجتمعان في القلب في القلب في القلب يغرج هم يعتمعان في القلب فايهما غلب كان الآخر تبعاً له. وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم يجتمعان في القلب في القلب فايهما غلب كان الآخر تبعاً له. وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم

الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج همّ الدنيا من قلبك. وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه حيث قال: الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما ترضي إحداهما تسخط الأخرى. وقال الحسن: والله لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا؟. وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آناه الله مالأ فهو يتصدق منه ويصل منه، أيحسن له أن يتعيش فيه؟ _ يعني يتنعم _ فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره. وقال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن نصيب ثوبه. وقيل: لما قدم عمر رضي الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الحراح على ناقة مخطومة بحبل، فسلم وسأله، ثم أتى منزله فلم ير فيه إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر رضي الله عنه: لو اتخذت متاعاً؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا يبلغنا المقيل. وقال سفيان: خد من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك. وقال الحسن: والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم الدنيا. وقال وهب: قرأت في بعض الكتب، الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجهال، لم يعرفوها حتى خرجوا منها، فسألوا الرجعة فلم يرجعوا. وقال لقمان لابنه: يا بني، إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها. وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر. وقال عمرو بن العاص على المنبر: والله ما رأيت قوَّماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم، والله ما مرَّ برسول الله ﷺ ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له(١). وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا تَفُرُّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلذَّنْيَا﴾ [لفمَان: ٣٣] من قال ذا؟ قاله من خلقها ومن هو أعلم بها، إياكم وما شغل من الدنيا فإن الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب. وقال أيصاً: مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب، إن أخذه من حله حوسب به، وإن أخذه من حرام عذب به، ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من

وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعريز: سلام عليك، أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات. فأجابه عمر: سلام عليك، كأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل، وقال الفضيل بن عياض: الدخول في الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد. وقال بعضهم: عجباً لمن يعرف أن الموت حق كيف يفحك؟ وعجباً لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها كيف يطمئن إليها؟ وعجباً لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب؟. وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال: سنيات بلاء وسنيات رخاء، يوم فيوم وليلة فليلة، يولد ولد ويهلك هالك، فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها. فقال له: سل ما شئت، قال: عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه؟ قال: لا أملك ذلك، قال: لا حاجة لي إليك. وقال داوود الطائي رحمه الله: يا ابن آدم، فرحت ببلوغ أملك، وإنما بلغته بانقضاء أجلك، ثم

⁽١) حديث ممرو بن العاص: «والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله الله يزهد فيه منكم...» الحديث. أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه.

سرَفت بعملك كأن منفعته لغيرك. وقال بشر: من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه. وفال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوءك. وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه. وقيل لبعض العباد؛ قد نلت الغني، فقال: إنما نال الغني من عتق من رق الدنيا. وقال أبو سليمان: لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة. وقال مالك بن دينار: اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً، ولا يدعنا الله على هذا، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا؟ وقال أبو حازم: يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة. وقال الحسن: أهينوا الدنيا فوالله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها. وقال أيضاً: إذا أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك، فإذا نفد أعاد عليه، وإدا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً. وكان بعضهم بقول في دعائه: يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك أمسك الدنيا عنى. وقال محمد بن المنكدر: أرأيت لو أنّ رجلاً صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا ينام، وتصدق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال. إن هذا عظم في عينه ما صغره الله، وصغر في عبنه ما عظمه الله، كيف ترى يكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا؟ الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من السوب والخطايا؟. وقال أبو حازم: اشتدَّت مؤنة الدنيا والآخرة، فأما مؤنة الآخرة فإنكَ لا تجد عليها أعواناً، وأما مؤنة الدنيا فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه. وقال أنو هريرة: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البَّالي تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يڤنيها: يا رب يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شي..

وقال عبدالله بن المبارك: حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته، فمتى يصل الخير إليه؟. وقال وهب بن منبه: من فرح قلبه بشيء من الدبيا فقط أخطأ الحكمة، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن علب علمه هواه فهو الغالب. وقيل لبشر: مات فلان فقال: جمع الدنيا ودهب إلى الآخرة، ضيع نفسه. قيل له: إنه كان يفعل ويفعل ـ وذكروا أبواباً من البر ـ فقال: وما ينفع هدا وهو يجمع الدنيا؟ وقال بعضهم: الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت إلينا؟. وقيل لحكيم: الدنيا لمن هي؟ قال: لمن تركها. فقيل: الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها. وقال حكيم: الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد: كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظ أخاً له في الله وخوفه بالله فقال: يا أخي إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافرع إلى الله وارض برزق الله، لا تتسلف من دار بقائك إلى دار فنائك، فإن عيشك فيء زائل وجدار مائل، أكثر من عملك وأقصر من أملك. وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال: دينار في اليقظة فقال: كذبت، لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام، والذي تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن إسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون: إليك عنا يا خنزيرة، فلو وجدوا لها اسماً أقبح من هذا لسموها به. وقال كعب: لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها. وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: العقلاء ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبني قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضاً: الدنيا يلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها؟. وقال بكر بن عبدالله: من أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا كان كمطفى، النار بالتبن. وقال بندار: إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان. وقال أيضاً: من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها ـ يعني الحرص ـ حتى يصير رماداً، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به، ومن أقبل على الله عز وجلّ أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لاحد لقيمته. وقال علي كرم الله وجهه: إنما الدنيا ستة أشياء؛ مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح ومشموم، فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب، وأشرف المشروبات الماء ويستوي فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال، وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها، وأشرف المشمومات المسك وهو دم.

بيان المواعظ في ذم الدنيا وصفتها:

قال بعضهم: يا أيها الناس، اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدَّارة خدَّاعة، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلية، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثير بواثقها، وذمها خالقها، جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يذل، وكثيرها يقل، ودها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال: فلان عليل أو مدنف ثقيل، فهل على الدواء من دليل، وهل إلى الطبيب من سبيل؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء، ثم يقال: فلان أوصى ولماله أحصى، ثم يقال: قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه، وعرق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكي إخوانك، وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق، وختم على لسانك فلا ينطق، ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الأعضاء، ثم عرج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأحضرت أكفائك، ففسلوك وكفنوك، فانقطع عوّادك واستراح حسادك، وانصرف أهلك إلى مالك، ويقيت مرتهناً بأعمالك. وقال بعضهم لمعض الملوك: إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه، أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفحعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه، فالدنيا أحق بالذم، هي الآخذة ما تعطى، الراجعة فيما تهب، بينا هي تضحك صاحبها إذ أضحكت منه غيره، وبينا تبكي له إذ أبكت عليه، وبينا هي تبسط كفها بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد، فتعقد التاج على رأس ضاحبها اليوم وتعفره بالتراب غداً، سواء عليها ذهاب ما ذهب ويقاء ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً، وترضى بكل من كل بدلاً.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبدالعزيز: أما بعد، فإنّ الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين فإنّ الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل. تذلّ من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه. فكن فيها كالمداوي جراحه؛ يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء

مخافة طوال الداء، فاحذر هُذه الدار الغدّارة الختالة الخدّاعة؛ التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها، وحلت بآمالها وسؤفت بخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية. العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قالية. فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر بالأوّل مزدجر، ولا العارف بالله عزَّ وجلَّ حين أخبره عنها مدَّكر. فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد، فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه، فعظمت ندامته وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته. وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يروح نفسه من النعب، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها؛ فإنَّ صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السارِّ في أهلها غار، و لنافع فيها غدّار ضار، وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب الأحزان لا يرجع منها ما ولي وأدبر، ولا يدري ما هو آت فينتظر. أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها على خطر، إن عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ولم يضرب لها مثلاً لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزَّ وجلَّ عنها زاجر وفيها واعظ؟ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عرضت على نبيك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبي أن يقبلها^(١). إذ كره أن يخالف على الله أمره، أو يحب ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسي ما صنع الله عز وجل بمحمد ﷺ حين شدّ الحجر على بطنه(٢). ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عرّ وجلّ أنه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصوف، وصلاتي في الشتاء في مشارق الشمس، وسراجي القمر، ودابتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما أنبتت الأرض، أبيت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على الأرض أحد أغني مني.

وقال وهب بن منبه: لما بعث الله عزّ وجلّ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال: لا يروعنكما لباسه الذي لبس من الدنيا، فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني، ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هي زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك فأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي؛ إني لأذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع

⁽١) حديث الحسن، وكتب به إلى عمر بن صدالعزيز: (عرضت أي الدنيا على نبيك على بمفاتيحها وخزائنها...» الحديث الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً، ورواه أحمد والطبراني متصلاً من حديث أبي مويهية في أثناء حديث فيه: (على قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم المجنة...) الحديث. وسنده صحيح وللترمذي من حديث أبي أمامة: العرض على وبي ليجمل لي بطحاء مكة ذهباً...) الحديث.

الهلكة، وإني لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن منازل الغرة، وما ذلك لهوانهم عليً ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً، إنما يتزين لي أوليائي بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت في قلوبهم وتظهر على أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبسون، ودثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذي يستشعرون، ونجاتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إياه يأملون، ومجدهم الذي به يفخرون، وسيماهم التي بها يعرفون، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنه من أخاف لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، ثم أنا الثائر له يوم القيامة.

وخطب على كرم الله وجهه يوماً خطبة فقال فيها: اعلموا أنكم ميتون، ومبعوثون من بعد الموت، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، فإنها بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها منها في رخاء وسرور إذا هم منها في بلاء وغرور. أحوال مختلفة، وتارات منصرفة. العيش فيها مدّموم، والرّخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة. ترميهم بسهامها، وتقصيهم بحمامها. وكل حتفه فيها مقدور، وحظه فيها موفور. واعلموا عباد الله: أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً وأشدّ منكم بطشاً وأعمر دياراً وأبعد آثاراً؛ فأصبحت أصواتهم هامدة حامدة من بعد طول تقلبها، وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية. واستبدلوا بالقصور المشيدة، والسرر والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة في القبور اللاطئة الملحدة، فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان، على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار. وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنادل والثرى؟ وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد نضارة العِيش رفاتاً، فجع بهم الأحباب وسكنوا تحت التراب، ظعنوا فليس لهم إياب. هيهات هيهات ﴿ كُلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ فَو قَايِلُمًّا وَمِن وَرَآيِهِم زُرَخً إِلَا يَوْر يُتَعَرُّونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلاء والوحدة في دار المثوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع. فكيف بكم لو عاينتم الأمور، وبعثرت القبور وحصل ما في الصدور؟ وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؟ هنالك تجزى كل نفس بما كسبت إِن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ لِيَجْزِي ٱلَّذِينَ أَسَتُواْ بِمَا عَبِلُواْ وَيُعْزِي ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۗ [النَّجُم ٢٠] وقال تعالى: ﴿ وَوُشِيعَ ٱلۡكِنَتُ فَنَكَ ٱلۡمُحْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف: 14] الآية. جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه متبعيل لأوليائه؛ حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله إنه حميد مجيد.

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ويخترمك بليائيه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليائي في بدنك؟ لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممز الساعة بك، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها، وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم، وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعائها، وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ، اللهم أرشدنا إلى الصواب. وقال بعض الحكماء: وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال: الدنيا وقتك الذي يرجع إليك فيه طرفك، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأت

فلا علم لك به، والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه ساعاته، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان، والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل الدول، والأمل طويل والعمر قصير، وإلى الله تصير الأمور.

وخطب عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه فقال: يا أيها الناس، إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدّقون به فإنكم حمقى، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى، إنما خلقتم للأبد ولكنكم من دار إلى دار تنقلون، عباد الله، إنكم في دار لكم فيها من طعامكم غصص، ومن شرابكم شرق، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلا بفراق أخرى تكرهون فراقها، قاعملوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

وقال علي كرم الله وجهه في خطبته: أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقاً وكأنهم قطعوه، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها؟ فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه.

وقال محمد بن الحسين: لمّا علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عزّ وجلّ قد أهان الدنيا، وأنه لم يرضها لأوليائه، وأنها عنده حقيرة قليلة، وأنّ رسول الله على زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها؛ أكلوا منها قصداً وقدّموا فضلاً، وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي، لبسوا من الثياب ما ستر العورة، وأكلوا من الطعام أدناه مما سدّ الجوعة، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية، وإلى الآخرة أنها باقية، فتزوّدوا من الدنيا كزاد الراكب، فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سيرتحلون إليها بأعينهم، فارتحلوا إليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدائهم، تعبوا قليلاً وتنعموا طويلاً، كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم.

بيان صفة الدنيا بالأمثلة:

اهلم: أنّ الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها، ومثالها الظل فإنه متحرّك ساكن؛ متحرّك في الحقيقة ساكن في الطاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة، ولما ذكرت الدنيا عند الحس البصري رحمه الله أنشد وقال:

أحسلام نسوم أو كسنظسل ذائسل إن السلبيب به مشلها لا يُسخَدع وكان الحسن بن على بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيراً ويقول:

يا أهل للأات دنيا لا بقاء لها إن اختراراً بظل زائل حمد ق

وقيل: إن هذا من قوله. ويقال: إن أعرابياً نزل بقوم فقدموا إليه طعاماً فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه، فقام وهو يقول:

ألا إنها الدنيا كسظل لبية ولابديوماً أن ظسلك زائسلُ

وكذلك قيل:

وإن امسرا دنسيساه أكسبسر هسمسه للمستمسك منها بمحبل غيرور

مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام وأضغات الأحلام: قال رسول الله على: «الدُّنْيَا حُلُمٌ وَأَهْلُها عَلَيْها مُجَازَوْنَ وَمُعَاقَبُونَهُ (١٠)، وقال يونس بن عبيد. ما شبهت نفسي في الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يجب، فبينما هو كذلك إذ انتبه، فكذلك الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به. وقيل لبعض الحكماء، أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: أحلام النائم.

مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها لبنيها: اعلم: أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولاً والتوصل إلى الإهلاك آخراً، وهي كامرأة تنزين للخطاب حتى إذا نكحتهم ذبحتهم. وقد روي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين!، كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك عل حذرا؟.

مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها لباطنها: اعلم: أن الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر، وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها، فإذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها. وقال العلاء بن زياد: رأيت في المنام عجوزاً كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها، فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها فقلت لها: ويلكِ من أنت؟ قالت: أو ما تعرفني؟ قلت: لا أدري! من أنت؟ قالت: أنا الدنيا، قلت: أعوذ بالله من شرك، قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فابغض الدرهم. قال أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوّهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذاتي أقبلت عليَّ فقالت: لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر وقال: رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد. وقال الفضيل بن عياض: قال ابن عباس: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية ومشوّه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عزّ وجلَّ: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها. وقال الفضيل: بلغني أن رجلاً عرج بروحه فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلي والثياب، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرَّحته، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس، عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال: فقلت: أُعُوذ بالله منك! قالت: لا والله. لا يعيذُك الله مني حتى تبغض الدرهم!. قال: فقلت من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

⁽١) حديث: «النبا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون» لم أجد له أصلاً.

كتاب ذم الدنيا

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها: اعلم: أن الأحوال ثلاثة: حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل، وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد، وحالة متوسطة بين الأبد والأزل؛ وهي أيام حياتك في الدنيا؛ فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفَر بعيد. ولذلك قال ﷺ: الما لِي وَللدُّنْيَا وَإِنَّمَا مَثَلِّي وَمَثَلُ اللُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَرُفِعَتْ له شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَ ظِلْهَا سَاعَةٌ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا (٢٠٠، ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركنَ إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية، بل لا يبني لبنة على لبنة. توفي رسول الله ﷺ وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (٢). ورأى بعض الصحابة يني بيتاً من جص فقال: ﴿أَرَى الْأَمْرَ أَهْجَلَ مِنْ هَٰذَا ۗ ﴿ وَأَنْكَرَ ذَٰلِكَ، وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وهو مثال واضح فإن الحياة الدنيا معبر إلى الأخرة، والمهد هو الميل الأوّل على رأس القنطرة، واللحد هو الميل الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن الباس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها. وكيفما كان فلا بد له من العبور، والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الحهل والخذلان.

مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها: اعلم: أن أوائل الدنيا هينة لينة، يظن الخائض قيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها، وهيهات؛ فإن الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثالها فقال: مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها، فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام.

مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ اللُّنْيَا كَالْمَاشِي فِي الْمَاءِ هَلْ يَسْتَطِيعُ الْلِّي يَمْشِي فِي الْمَاءِ أَنْ لا تَبْتَلْ قَلَمَاهُهُ ۚ ، وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون في نعيم الدنيا بأبدانهم وقلوبهم منها مطهرة، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة، وذلك مكيدة من الشيطان، بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها، فكما

حديث: هما لمي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل واكب. . . ؟ الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من (1)حديث ابن مسعود بنحوه، ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس.

حديث؛ هما وضع لبنة على لبنة. . . ٩ الحديث. أخرجه ابن حبان في الثقات وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف دمن سأل عني أو سره أن ينظر إليّ فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة...» الحديث.

حديث. رأى بعض أصحابه يبني بيتاً من جص فقال: «أرى الأمر أهجل من هذا» أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبدالله بن همرو وقال: حسن صحيح.

حديث: «إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء. . ٤٠ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهتي في الشعب من رواية الحسن قال: «ملخني أن رسول الله ﷺ قال. . .» فذكره. ووصله البيهقي في الشعب، وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس.

أن المشي على الماء يقتضي بللاً لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة. قال عيسى عليه السلام: بحق أقول لكم: كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا، وبحق أقول لكم: إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها، كدلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ، وبحق أقول لكم: إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل، كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة. وقال النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا بَقِي مِنَ اللَّمْيَا بَلاةً وَفِقْنَةً وَإِنْما مَثَلُ عَمَلِ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الوَعَاءِ إذا ظَابَ أَعْلاهُ طَابَ أَسْفَلهُ وَإذا خَبُثَ أَعْلاهُ خَبُثَ أَسْفَلُهُ *(١).

مثال آخُر لما بقي منَّ اللَّنيا وقلته بالإضافة لما سبق: قال رسول الله ﷺ: ٥مَثَلُ لهٰذِهِ الدُّنْيَا مَثَلُ تَوْبِ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَيَقِيَ مُتَعَلِقاً بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَٰلِكَ الخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَهُ (٢).

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك: قال عيسى عليه السلام: مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر؛ كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.

 ⁽١) حديث: «إنما يقي من الدنيا بلاء وفتنة. . .) الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فزقه في موضعين ورجاله ثقات.

 ⁽٣) حديث: امثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخرها. أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وأبر نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابي: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقرح . . . » الحديث وفيه: «فإن الله ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم» أخرجه أحمد والطبراني من حديثه بنحوه وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه .

 ⁽٤) حديث أبي من كعب • إن الدنيا ضربت مثلاً لابن آدم. . . ٤ الحديث. أخرجه الطبراني وابن حبان بلفظ: •إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً ورواه عبدالله بن أحمد في زياداته ملفظ: •جعل٤.

وإنْ قُزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ (1) ، وقال الحسن: قد رأيتهم بطيبونه بالأفاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ فَلِنَظُرِ اللِّينَ لَلْ طَايِعِ ﴿ فَهَلَ رَجِلَ اللّهِ عَزّ وجلّ : إلى رجيعه، وقال رجل لابن عمر: إني أريد أن أسألك وأستحيى قال: فلا تستحيى واسأل. قال: إذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر إلى ذلك منه، قال: نعم، إن الملك يقول له: انظر إلى ما بخلت به انظر إلى ماذا صار. وكان بشر بن كعب يقول: انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة: قال رسول الله ﷺ: «ما اللَّمْنَيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ كَمَثَلِ ما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبُمَهُ فِي اليَمْ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ،(٢).

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها: اعلم: أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوّفهم مرور السفينة واستعجالها، فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف المكان خالياً فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر إلى أنوارها وأزهارها العجيبة وغياضها الملتفة، ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة، وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها وعجائب صورها، ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً حرجاً فاستقرَّ فيه. وبعضهم أكبُّ على تلك الأصداف والأحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه بإهمالها فاستصحب منها جملة، فلم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده ما حمله من الحجارة ضيقاً وصار ثقيلاً عليه ووبالاً، فندم على أحذه ولم يقدر على رميه ولم يجد مكاناً لوضعه، فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف. وبعضهم تولج الغياض ونسي المركب وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك الأنوار والتفرّج بين ثلك الأشجار، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات، ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه، وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يفزع منه، وعوسج يخرق ثبابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراده، فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلاً بما معه ولم يجد في المركب موضعاً فبقي في الشط حتى مات جوعاً. وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة، فمنهم من افترسته السباع، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات في الأوحال، ومنهم من نهشته الحيَّات، فتفرقوا كالجيف المنتنة.

وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار، فقد استرقته وشغله الحزن

⁽١١ حديث: اإن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلاً وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً. . . الحديث. الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذي تقدم من حديث الضحاك بن سفيان: اإن الله ضرب ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنياه.

 ⁽۲) حديث: «ما اللئيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع إليه» أخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد.

بحفظها والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه، فلم يبلث أن ذبلت تلك الأزهار وكمدت تلك الألوان والأحجار فظهر نتن رائحتها فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها. فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها في البحر هرباً منها، وقد أثر فيه ما أكل منها فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح فبلغ سقيماً، مدبراً. ومن رجع قريباً ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، ومن رجع أوّلاً وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالماً. فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم. وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغزّه أحجار الأرض وهي الذهب والفضة وهشيم النبت وهي زينة الدنيا، وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت، بل يصير كلاً ووبالاً عليه، وهو في الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه. وهذه حال الخلق كلهم إلا من عصمه الله عزّ وجلّ.

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم: قال الحسن رحمه الله: بلغني أن رسول الله على قال الحسن رحمه الله: بلغني أن يرسول الله على قال الأصحابه: وإنّما مَلْلِي وَمَقَلَكُمْ وَمَثَلُ الدُنْيَا كَمَثَلِ قَوْم سَلَكُوا مَنْهَا أَكْثَرُ أَو ما بقى؟ أَنْقَدُوا الزَّادَ وَخَسِرُوا الطَّهْرَ وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي المَفَازَةِ ولا زَادَ وَلا حُمُولَة فَأَيْقُوا بِالهَلَكَةِ، فَبَيْنَا هُمْ كَلْلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ تَقْطُرُ رَأْسَهُ، فَقَالُوا: هٰذَا قَرِيب، فَلَمَا انْتَهَى إلَيْهِمْ قَالَ: يا هُولاءِ، فَقَالُوا: يا هٰذا، فَقَالَ: عَلامَ أَنْتُمْ فَقَالُوا: عَلَى ما تَزى، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْئُكُمْ إِلَى مَاهِ رَوَاءٍ وَرِياضٍ خُضْرٍ ما تَعْمَلُون؟ قَالُوا: لا نَعْصِيكَ شَيْئًا قَالَ: عَلَمْ مَاءً وَمَوالِيقَهُمْ بِالله لا يَعْصُونَهُ شَيْئًا قَالَ: يَا هُولاءِ، قَالُوا: يا هُدَا، قَالَ: الرَّحِيلُ قَالُوا: إِلَى مَاء فَرِياضٍ خُضْرٍ مَا تَعْمَلُون؟ قَالُوا: إِلَى مَاء فَرَياضٍ خُضْرٍ مَا تَعْمَلُون؟ قَالُوا: إِلَى مَاء فَرَياضٍ خُصْرٍ مَا تَعْمَلُون؟ قَالُوا: إِلَى مَاء فَقَالَ أَكُونُهُمْ مَاءً أَنْوا: إِلَى مَاء فَرَياضٍ فَيْ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَرَبُهُ وَيَعْلُوا اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُه

مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها: اعلم، أنّ مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ داراً وزينها وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوماً، واحداً بعد واحد، قدخل واحد داره فقدّم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه، لا ليتملكه ويأخذه، فجهل رسمه وظن أنه قد وهب ذلك فتعلق به قلبه لما ظن أنه له، فلما استرجع منه ضجر وتفجع، ومن كان عالماً برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر، وكذلك من عرف سنّة الله في الدنيا علم أنها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزوّدوا منها ويتتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها. فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه.

⁽١) حديث الحسن. بلغني أن رسول الله على قال الأصحابه: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الغنيا كمثل قوم سلكوا مفازة فيراه...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا بطوله الأحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس: «أن رسول الله على أناه فيما يرى النائم ملكان» الحديث. وفيه: «فقال: - أي أحد الملكين -: إن مثل هذا ومثل أمنه كمثل قوم سفر انتهوا إلى مقازة» فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد:

اعلم: أنّ معرفة ذم اللنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب؟ فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي؟ فنقول: دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت، فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك، إلا أنّ جميع ما لك إليه ميل وقيه نصيب وحظ فليس بمذموم، يل هو ثلاثة أقسام.

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت. وهو شيئان: العلم والعمل فقط؛ وأعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه، والعلم بشريعة نبيه. وأعني بالعمل: العبادة المخالصة لوجه الله تعالى، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظاً عاجلاً في المنيا. ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلاً. بل قلنا إنه من الآخرة، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه، حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قبام الليل، وكان آخر يقول: اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر. فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المماهومة ذلك، وقد قال ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ ذُنْيَاكُمْ ثَلاكَ: النَّسَاءُ والطَّيبُ وَقُرَّةُ هَينِي فِي المسلاقِ الله المناهدة فهو من الدنيا، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا فلذلك علم الدنيا، إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة، فنقول: هذه ليست من الدنيا.

القسم الثاني: _ وهو المقابل له على الطرف الأقصى _ كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاء كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والغلمان والجواري والخيول والمواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا الملمومة وفيما يعد فضولاً أو في محل الحاجة نظر طويل؛ إذ روي عن عمر رضي الله عنه أنه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كثيفاً أنفق عليه درهمين، فكتب إليه عمر: من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر، قد كان لك في بناء فارس والروم ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها، فإذا أتاك كتابي هذا فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك. فلم يزل بها حتى مات. فهذا رآه فضولاً من الدنيا فتامل فيه.

ا ا) حديث: الحبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة أخرجه النسائي والحاكم من حديث أنس
 دون قوله: الثلاثه وتقدم في النكام.

القسم الثالث: . وهو متوسط بين الطرفين . كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة؛ كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل. وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول؛ لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه . فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني وصار من جملة الدنيا. ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب؛ أعني طهارته من الأدناس، وأنسه بذكر الله تعالى، وحبه لله عز وجلّ . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا، والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر . وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت .

أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا؛ فهي من المنجيات إذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله، كما ورد في الأخبار: «إنَّ أَعْمَالَ العَبْدِ تُنَاضِلُ عَنْهُ فَإِذَا جَاءَ العَذَابُ مِنْ قِبَلٍ رِجْلَيْهِ جَاءَ قِيامُ اللَّيْلِ يَدْفَعُ عَنْهُ؛ وَإِذَا جَاءَ مِنْ جِهَةٍ يَدَيْهِ جَاءَتِ الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ عَنْهُ (١٠)، الحديث.

وأما الأنس والحب؛ فهما من المسعدات، وهما موصلان العبد إلى للة اللقاء والمشاهدة، وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت إلى أن يدخل أوان الرؤية في الجنة، فيصير القبر روضة من رياض الحنة، وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له إلا محبوب واحد؟ وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ومطالعة جماله، فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسروراً سليماً من الموانع آمناً من العوائق؟. وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذباً ولم يكن له محبوب إلا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه، وسدّت عليه طرق الحيلة في الرجوع إلى الذلك قبل:

مستاحسال مسن كسبان لسبه واحسد فسيسب عسنسه ذلسك السواحسد

وليس الموت عدماً، إنما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى. فإذاً: سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث: وهي الذكر والفكر والعمل الذي يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض إليه ملاذها ويقطعه عنها، وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن، وصحة البدن لا تنال إلا بقوت وملبس ومسكن، ويحتاج كل واحد إلى أسباب. فالقدر لا بد منه من هذه الثلاثة إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا في حقه مزرعة للآخرة، وإن أخذ ذلك لحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين في حظوظها، إلا أنّ الرغبة في حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراماً، وإلى ما يعول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالاً. والبصير يعلم أن طول الموقف في عرصات القيامة لأجل

⁽۱) حديث: امتاضلة أعمال المعيد عنه فإذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فلفع عنه...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن سمرة بطوله، وفيه خالد بن عبدالرحمن المخزومي. ضعفه البخاري وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بثت أبي بكر: الإذا دخل الإنسان قيره فإن كان مؤمناً أحزبه عمله الصلاة والصيام.... الحديث، وإسناده صحيح.

المحاسبة أيضاً عذاب، فمن نوقش الحساب عذب(١٠)؛ إذ قال رسول الله ﷺ: ﴿خَلالُها حِسَابٌ وَحَرَامُها عُذَابُ ٢٠٠١، وقد قال أيضاً: «حلالها عذاب» إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام، بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الذّرجات العلا في الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفوتها لحظوظ حقيرة خسيسة لا نقاء لها هو أيضاً عذاب، وقس به حالك في الدنيا إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات متصرمة لا بقاء لها؟ منغصة بكدورات لا صفاء لها، فما حالك في فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون عايتها؟ فكل من تنعم في الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر إلى خضرة أو شربة ماء بارد فإنه ينقص من حظه في الآخرة أضعافه، وهو المعنّى بقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه: ﴿هٰذَا مِنَ النَّمِيمُ الَّذِي تُسْأَلُ عَنْهُ (٢٢٪، أشار به إلى الماء البارد. والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار، وكل ذلك من نقصان الحظ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: اعزلوا عني حسابها. حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فأداره في كفه ثم امتنع عن شربه، فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة إلا ما أعان على تقوى الله، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا، وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد، حتى إن عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه؛ إذ تمثل له إبليس وقال: رغبت في الدنيا!. وحتى أن سليمان عليه السلام في ملكه كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهاناً وشدَّة، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد، ولهذا روي أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا ﷺ فكان يطوي أياماً (2)، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع (°°، ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل، كل ذلك نظراً لهم وامتناناً عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه، ويلزم ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحباً له لا بخلاً عليه. وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا.

فإن قلت: فما الذي هو الله؟ فأقول: الأشياء ثلاثة أقسام:

منها: ما لا يتصوّر أن يكون لله؛ وهو الذي يعبر عنه بالمعاصي والمحظورات وأنواع التنعمات في المباحات، وهي الدنيا المحضة المذمومة، فهي الدنيا صورة ومعنى.

ومنها: ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة: الفكر والذكر والكف عن الشهوات،

 ⁽١) حديث: امن نوقش الحساب عذب متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽۲) حديث: «حلالها حساب وحرامها عداب» أخرجه ان أبي الدنيا، والبيهتي في الشعب من طريقه موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ: «وحرامها الثار» ولم أجده مرفوعاً.

 ⁽٣) حديث العلم من النعيم الذي تسأل عنه تقدم في الأطعمة.

 ⁽٤) حديث: قزوى الله اللغياعن نبينا ﷺ فكان يطوي أياماً». أخرجه محمد بن خفيف في شرف المقراء من حديث عمر بن الحطاب قال: قلت: قيا رسول الله، عجباً لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك. . . ١٠ الحديث. وهو من طريق إسحاق معنعاً وللترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس: قأن النبي ﷺ كان يبيت الليالي المنتابعة طاوياً وأهله. . . ١٠ الحديث، قال الترمذي: حسن صحيح.

 ⁽٥) حديث: (كان يشد الحجر على بطنه من الجوع) تقدم.

فإن هذه الثلاثة إذا جرت سراً ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهي لله وليست من الدنيا، وإن كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد، فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى.

والحزم في الحذر والتقوى والتقرّب من حدّ الضرورة ما أمكن اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حدّ الضرورة، حتى إن أويساً القرني كان يظن أهله أنه مجنون لشدة تضييقه على نفسه، فبنوا له بيتاً على باب دارهم فكان يأتي عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجها، وكان يخرج أوّل الأذان ويأتي إلى منزله بعد العشاء الآخرة، وكان طعامه أن يلتقط النوى، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره، وإن لم يصب ما يقوّته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوّته، وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ثم يلبسها، فكان لباسه . وكان ربما مرّ الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون، فيقول لهم: يا إخوتاه إن كنتم ولا بد أن ترموني فارموني بأحجار صغار، فإني أخاف أن تدموا عقبي، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء . فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله على أمره فقال: اإني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله على أمره فقال: الإنها الناس، من

 ⁽١) حديث: (من طلب الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً لقي الله وهو عليه فضبان. . .) الحديث، أخرجه أبو نميم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بستد ضعيف.

 ⁽٢) حديث: (إني الأجد نفس الرحمن من جانب اليمن؛ أشار به إلى أويس القرني، تقدم في قواعد العقائد ولم أجد له
 أصلاً.

كان منكم من العراق فليقم، قال: فقاموا. فقال: اجلسوا إلا من كان من أهل الكوفة، فجلسوا، فقال: اجلسوا إلَّا من كان من مراد، فجلسوا فقال: اجلسوا إلا من كان من قرن، فجلسوا كلهم إلا رجلاً واحداً فقال له عمر: أقرني أنت؟ فقال: نعم. فقال: أتعرف أويس بن عامر القرني؟ قوصفه له، فقال: نعم، وما ذاك تسأل عنه يًا أمير المؤمنين! والله ما فينا أحمق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه، فبكي عمر رضي الله تعالى عنه ثم قال: ما قلت ما قلت إلا لأني سمعت رسول الله علي يقول: ايدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر»^(١)، فقال هرم بن حيان: لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لي هم إلا أن أطلب أويساً القرني وأسأل عنه، حتى سقطت عليه جالساً على شاطيء الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه، قال: فعرفته بالنعت الذي نعت لي، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جداً، كريه الوجه متهيب المنظر، قال: فسلمت عليه فردٌّ عليٌّ السلام ونظر إليُّ، فقلت: حياك الله من رجل، ومددت يدي لأصافحه فأبي أن يصافحني، فقلت: رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله؟ ثم خنقتني العبرة من حبي إياه ورقتي عليه؛ إذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكي، فقال: وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان، كيف أنت يا أخي ومن دلك عليُّ؟ قال: قلت: الله. فقال: لا إله إلا الله سبحان الله ﴿إِن كُانَ وَعَدُ رَبِّ لَمُعْمُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] قال: فعجّبت حين عرفني، ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني فقلت: من أين عرفت اسمي واسم أَسِي وما رأيتك قبل اليوم؟ قالَ: ﴿ نَبَأَنِي ٱلْمَلِيدُ ٱلْحَبِيرُ ﴾ [التّخريم: ٣] وعرفت روحي روحك حين كلمت نفسى نفسك، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد، وإنَّ المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ويتحابون بروحُ الله وإن لم يلتقوا، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل، قال: قلت حدّثني رحمَكُ الله عن رسول الله ﷺ بحديث أسمعه منك. قال: إني لم أدرك رسول الله ﷺ ولم تكن لي معه صحبة بأبي وأمي رسول الله، ولكن رأيت رجالاً قد صحبوه وبلغني من حديثه كما بلغك، ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب أن أكون محدثاً أو مفتياً أو قاضياً، في نفسي شغل عن الناس يا هرم بن حيان. فقلت: يا أخي، اقرأ عليَّ آية من القرآن أسمعها منك وادع لي بدعوات وأوصني بوصية أحفظها عنك، فإني أحبك في الله حباً شَديداً، قال: فقام وأخذ بيدي على شاطىء الفرات ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم بكي. ثم قال: قال ربي والحق قول ربي وأصدق الحديث حديثه وأصدَق الكلام كلامه، ثـم فـرأ: ﴿وَمَا حَلَقْنَ ٱلسَّمَانَوْتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَيْعِيبَ ۞ مَا خَلَقْنَهُمَاۤ إِلَّا بِٱلْمَقِ رَسَكِنَّ أَحَكُثُومُمْ لَا يَمْنَمُونَ ۞﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْمَـٰزِيرُ ٱلرَّحِيــُمُ ﴾ [الذخان: ١٣] فشهق شهقة ظننت أنه قد غشي عليه ثم قال: يا ابن حيان، مات أبوك حيان ويوشك أن تموت فإما إلى جنة وإما إلى نار، ومات أبوك آدم، وماثت أمك حوّاء، ومات نوح، ومات إبراهيم خليل الرحمن، ومات موسى نجي الرحمن، ومات داود خليفة الرحمن، ومات محمد ﷺ وعليهم، وهو رسول رب العالمين، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، ومات عمر بن الخطاب أخي وصفيي، ثم قال: يا عمراه يا عمراه، قال: فقلت: رحمك الله إن عمر لم يمت، قال: فقد نعاه إلي ربي ونعى إلي نفسي! ثم قال: أنا وأنت في الموتى كأنه

قد كان، ثم صلى على النبي كلي ثم دعا بدعوات خفيات، ثم قال: هذه وصيتي إياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت إلي نفسي ونفسك، عليك بذكر الموت لا يمارق قلبك طرفة عين ما بقيت، وأندر قومك إذا رجعت إليهم وانصح للأمة جميعاً، وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل الناريوم القيامة، ادع لي ولنفسك، ثم قال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك وزارني من أجلك، فعرقني وجهه في الجنة وأدخله علي في دارك دار السلام، واحفظه ما دام في الدنيا حيثما كان، وضم عليه ضبعته وأرضه من الدنيا باليسير، وما أعطيته من الدنيا فيسره له تبسيراً، واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين، واجزه عني خير الجزاء ثم قال: أستودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني، فإني أكره الشهرة والوحدة أحب إلي، إني كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس ما دمت حياً فلا تسأل عني ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك ولم ترني فاذكرني وادع لي فإني سأذكرك وأدعو لك إن شاء الله، انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا. فحرصت أن أمشي معه ساعة فأبي علي وفارقته فبكي وأبكاني، وجعلت أنظر في قفاه حتى دخل بعض السكك، ثم سألت عنه بعد ذلك فما وجدت أحداً يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له.

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا.

وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الأنبياء والأولياء: أن حد الدنيا: كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء إلا ما كان لله عزّ وجلٌ من ذلك، وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لأجل قرة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا. ويتبين هذا سمثال: وهو أن الحاج إذ حلف أنه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتجرّد له، ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل ما لا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولاً بغير الحج، فكذلك البدن مركب النفس تفطع به مسافة العمر، فتعهد البدن بما تبقى به قرّته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا. نعم، إذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الأسباب كان منحرفاً عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة. قال الطنافسي: كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاوياً فسمعت في الليلة الثامنة منادياً وأنا بين اليقظة والنوم: ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه، فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك، فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى،

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم:

اهلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، وللإنسان فيها حظ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَمَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَمَّا لِنَبَلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿ اللهِ اللهِ عَلَى اللهِ مَلْسِ ومطعم ومشرب [الكهف: ٧] فالأرص فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقرّ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح.

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن، والنبات، والحيوان. أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي، وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني؛ كالنحاس والرصاص، وللنقد؛ كالذهب

إحياء عُلهم الدّين

والفضة، ولغير ذلك من المقاصد. وأما الحيوان: فينقسم إلى الإنسان والبهائم. أما البهائم: فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمركب والزينة. وأما الإنسان: فقد يطلب الآدمي: أن يملك أبدان الناس ليملكها ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان، أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان، ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿ وَيَنَ النّاسِ عَبُّ الشّهَوَتِ مِنَ اللِّكَ اللّهَ وَالْمَانِ وَقَد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿ وَيَنَ النّاسِ عَبُ الشّهَوَتِ مِنَ اللّهِ وَالْمَانِ وَقَد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿ وَيَنَ النّاسِ عَبُ الشّهَوَتِ مِنَ اللّهِ وَالْمَانِ وَقَد جمعها الله تعالى في قوله: ﴿ وَلَيْنَ النّاسِ عَبْ اللّهُ وَالْمَانِ وَلَا اللّهُ وَالْمَانِي اللّهُ وَالْمَانِ وَلَا اللّهُ وَالْمَانِ وَلَالُهُ وَالْمَانِ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَالْمَانِ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَالْمَانِ وَلَانَ وَالْمَانُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَالْمَانِ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا وَمُو النّابُ وَلَو النّابُ وَلَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا مِن اللّهُ وَلَاللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللللّهُ ا

فهذه هي أعبان الدنيا، إلا أن لها مع العبد علاقتين: علاقة مع القلب؛ وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها، حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا. ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا؛ كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر، وهذه هي الدنيا الباطئة. وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية مع البدن؛ وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين: علاقة القلب بالحب، وعلاقة البدن بالشغل. ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى، وأعني بالدابة البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال.

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده: مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج، حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة، وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته. والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي، فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج، وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة. فكذلك البصير في السفر إلى الآخرة لا يشغل بتعهد البدن إلا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة، ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها. وأكثر ما شغل عن الله تعالى هو البطن، فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون، ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا، وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها، ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم، واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا عليهم، واتصل بعضها ببعض وتداعت إلى غير نهاية محدودة، فتاهوا في كثرة الأشغال ونسوا مقاصدها.

ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنبا، وكيفية حدوث الحاجة إليها، وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنبا، كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم؟ فنقول: الأشغال الدنبوية هي الحرف والصناعات والأعمال التي ثرى الخلق منكبين عليها. وسبب كثرة الأشغال: هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث: القوت، والمسكن، والملبس. فالقوت؛ للغذاء والبقاء.

والملبس؛ لدفع الحرّ والبرد. والمسكن؛ لدفع الحرّ والبرد، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال. ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحاً بحيث يستغني عن صنعة الإنسان فيه.

نعم، خلق ذلك للبهائم، فإن النبات يغذي الحيوان من غير طبخ، والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء، ولباسها شعورها وجلودها، فتستغني عن اللباس.

والإنسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات هي أصول الصناعات، وأواثل الأشغال الدنيوية، وهي الفلاحة، والرعاية، والاقتناص، والحياكة، والبناء. أما البناء فللمسكن، والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس، والفلاحة للمطعم، والرعاية للمواشي والخيل أيضاً للمطعم والمركب، والاقتناص نعني به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب، فالفلاح يحصل النبات والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها، والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمي، وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي، وونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة، ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص، والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب، أو من المعادن كالحياكة والمرصاص وغيرهما، أو من جلود الحيوانات، فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع أخر من كالصناعات: النجارة، والحدادة، والخز، وهؤلاء هم عمال الآلات، ونعني بالنجار؛ كل عامل في الحديد وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة، وأما الخراز؛ فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة، وأما الخراز؛ فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها، فهده أمهات الصناعات.

ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من أبناء جنسه، وذلك :

أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والأنثى وعشرتهما.

والثاني: التماون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد، فإن الاجتماع يفضي إلى الولد لا محالة، والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت. ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الأهل والولد في المنزل، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة. فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج إلى آلاتها، وتحتاج الآلة إلى حدًاد ونجار، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز، وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر إلى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة؟ فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده وحدثت الحاجة إلى الاجتماع. ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحز والبرد والمطر واللصوص، فافتقروا إلى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به ويما معه من الآلات والأثاث والمنازل، تدفع الحز والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها، لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل، فحدثت البلاد لهذه فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل، فحدثت البلاد لهذه الضرورة.

ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات؛ إذ تحدث رئاسة وولاية للزوج على الزوجة، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به، ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة بحلاف الولاية على البهائم؛ إذ ليس لها قوّة المخاصمة وإن ظلمت. قأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين. هذا في المنزل.

وأما أهل البلد أيضاً فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا، وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والأراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة. ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة، ولو ترك ضائعاً لهلك، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا، ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له.

هحدث بالضرورة من هذه الموارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى. فمنها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الأرض لتمكن القسمة بينهم بالعدل. ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم. ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة، ومنها الحاجة إلى الفقه وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق، ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع، وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها. فهذه أمور سياسية لا بدِّ منها ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية، وإذا اشتغلوا بها لم يتفرّغوا لصناعة أخرى ويحتاجون إلى المعاش، ويحتاج أهل البلد إليهم، إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلاً تعطلت الصناعات، ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس، فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التي لا مالك لها إن كانت، أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار، فإن كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح، وإن أرادوا التوسع فتمس الحاجة لا محالة إلى أن يمدُّهم أهل البلد بأموالهم ليمدوهم بالحراسة، فتحدث الحاجة إلى الخراج. ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخر؛ إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال وهم العمال. وإلى من بستوفي منهم بالرفق وهم الجباة والمتخرجون، وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة وهم الخزان، وإلى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر. وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة النخرم النظام فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصاً، ويختار لكل واحد ما يليق به ويراعي النصفة في أخذ الخراج وإعطائه، واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم، وتعيين جهات الحرب ونصب الأمير والقائلًا على كل طائفة منهم، إلى غير ذلك من صناعات الملك، فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين الكالثة وينبرهم الحاجة إلى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال. ثم هؤلاء أيصاً يحتاجون إلى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج. وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف؛ الفلاحون والرعاة والمحترفون والثانية: الجندية الحماة بالسيوف. والثالثة: المترددون بين الطائفتين في الأخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم. فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت والملبس والمسكن وإلى ماذا انتهى. وهكذا أمور الدنيا لا يفتح مسها باب إلا وينفتح بسببه أبواب أخر. وهكذا تتناهى إلى غير حدّ محصور كأنها هاوية لا نهاية لعمقها، من وقع في مهواة منها سقط منها إلى أخرى، وهكذا على التوالي.

فهذه هي الحرف والصناعات إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات. والمال عبارة عن أعيان الأرض

وما عليها مما ينتفع به، وأعلاها الأغذية، ثم الأمكنة التي يأوي الإنسان إليها وهي الدور، ثم الأمكنة التي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والأسواق والمزارع، ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته، ثم آلات الآلات، وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد، والبقر آلة الحراثة، والفرس آلة الركوب وي الحرب. ثم يحدث من ذلك حاجة البيع، فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة. فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ويحتاجان إلى الفلاح، فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخد منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة، إلا أن النجار مثلاً إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته رمما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت إلى آلته فلا يبيعه، والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج إليه فتتعرّق الأغراض، فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات؛ وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات، فظهرت لذلك الأسواق والمخازن، فيحمل الفلاح الحبوب فإذا لم يصادف محتاجاً باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات طمعاً في الربح، وكذلك في جميع الأمتعة والأموال. ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الأطعمة ومن البلاد الآلات، وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس في البلاد بسببهم؛ إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام، فالبعض يحتاج إلى البعض فيحوج إلى النقل، فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة، فيتعبون طول الليل والنهار في الأسفار لغرض غيرهم، ونصيبهم منها جمع المال الذي يأكله لا محالة غيرهم؛ إما قاطع طريق وإما سلطان ظالم، ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاماً للبلاد ومصلحة للعباد. بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة، ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا في الدنيا، ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش، ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضاً.

ثم هذه الأموال التي تنقل لا يقدر الإنسان على حملها فتحتاج إلى دواب تحملها، وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة، ويصير الكراء نوعاً من الاكتساب أيضاً، ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين؛ فإن من يريد أن يشتري طعاماً بثوب فمن أين يدري المقدار الذي يساويه من الطعام كم هو؟ والمعاملة تجري في أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب، فلا بد من حاكم عادل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال، ثم يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم. وأبقى الأموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس، ثم مست الحاجة إلى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة إلى دار الضرب والصيارفة. وهكذا تتذاعى الأشغال والأعمال بعضها إلى بعض حتى انتهت إلى ما تراه. فهذه أشغال الخلق وهي معاشهم، وشيء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب في الابتداء.

وفي الناس من يغفل عن ذلك في الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزاً عن الاكتساب لعجزه عن الحرف، فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره، فيحدث منه حرفتان خسيستان: اللصوصية والكداية؛ إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما، ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكذين ويحفظون عنهم أموالهم، فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير.

أما اللصوص: فمنهم من يطلب أعواناً ويكون في يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد. وأما الضعفاء منهم فيفرعون إلى الحيل إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة، وإما بأن يكون طرّاراً أو سلالاً، إلى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها.

وأما المكدي: فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فما لك والبطالة فلا يعطى شيئاً، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم في البطالة، فاحتالوا للتعلل بالعجز؛ إما بالحقيقة: كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون، وإما بالتعامي والتفالج والتجانن والتمارض، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق، ليكون ذلك سبب الرحمة، وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالاً يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها، فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال في حال التعجب، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم. وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبلة والأفعال المضحكة، وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت. والشعر الموزون أشدّ تأثيراً في النفس، لا سيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب؛ كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت، أو الذي يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين في الأسواق، وصنعة ما يشبه العوض وليس ىعوض كبيع التعويذات، والحشيش الذي يخيل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين. ويدخل في هذا الجنس: الوعاظ والمكدون على رؤوس المنابر إذا لم يكن وراءهم طائل علمي، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين. وكل ذلك استنبط مدقيق الفكرة لأجل المعيشة. فهذه هي أشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كذرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدّة أوجه:

فطائفة: غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا: المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا، فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل، فبأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا، وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم في الدنيا ولا قدم في الديا ولا قدم في الديا، وذلك كسير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.

وطائفة أخرى: زعموا أنهم تفطنوا الأمر، وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا؛ بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا؛ وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان وجمع لذائذ الأطعمة، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويظنون أمهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة، فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر.

وطائفة: ظنوا أنّ السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في المجمع، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار، ويترددون في الأعمال الشاقة ويكتسبون، ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً عليها أن تنقص، وهذه لذتهم، وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت؛ فيبقى تحت الأرض، أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات؛

فيكون للجامع تعبه ووباله وللأكل لذته. ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

وطائفة: ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء، والمدح بالتجمل والمروءة؛ فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال: إنه غني وإنه ذو ثروة، ويظنون أن ذلك هو السعادة، فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس.

وطائفة أخرى: ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس، وانقياد الخلّق بالتواضع والتوقير، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات، وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة، وأن ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التراضع لله وعن عبادته، وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم.

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وإنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها، وانجرّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهارٍ لم يمكنهم الرقي منها، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال، وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده، وعالم بحظه ونصيبه منه، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه، وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له، وإن تعدّى به قلر الضرورة كثرت الأشغال، وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية، فتشعب به الهموم، ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا. وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا، فحسدهم الشيطان ولم يتركهم، وأضلهم في الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف.

فظنت طائفة: أن الدنيا دار بلاء ومحنة، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند، فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالإحراق، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا.

وظنت طائفة أخرى: أن القتل لا يخلص، بل لا بد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية، وأنّ السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة وشدّدوا على أنفسهم، حتى هلك بعضهم بشدّة الرياضة، وبعضهم فسد عقله وجن وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال، وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد.

وظن طائفة: أنَّ المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا

حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحاته عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكليف على عوام الخلق.

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة، وإنما الناجي منها فرقة واحدة؛ وهي السالكة ما كان عليه رسول الله على وأصحابه، وهو أن لا يترك الدنيا بلكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل، ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن المصوص والحر والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة، فإنه عليه السلام لما قال: «الشاجي بنها واحِدة» قالوا: يا رسول الله ومن هم؟ قال: «أهلُ الشئة والبَحَمَاعَةِ فقيل: ومن أهل السنة والمجماعة؟ قال: «ما أنا هَلَيْه وأَصْحَابِي» (١٠)، وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي والمجماعة؟ قال: هما أنا هَلَيْه وأَصْحَابِي» (١٠)، وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي المحماعة؟ قال: هما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بلكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً، وذلك هو العدل بالوسط بين المطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى - كما سبق ذكره في مواضع - والله أعلم.

تم كتاب ذم الدنيا والحمد شه أوّلاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



⁽۱) حديث: افتراق الأمة وذيه: «الناجي منهم واحدة قالوا: ومن هم؟ قال: «أهل السنة والجماعة...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو وحسنه: «تفترق أمني على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة فقالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: قما أنا عليه وأصحابي، ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهي الجماعة وأسانيهما جياد.

بنسب الله الكنب التحسد

﴿ كتاب ذم البخل وذم حب المال



وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد للله مستوجب الحمد برزقه المبسوط، وكاشف الضر بعد القنوط، الذي خلق الخلق، ووسع الرزق، وأفاض على العالمين أصناف الأموال، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال، ورددهم فيها بين العسر واليسر، والغنى والفقر، والطمع واليأس، والثروة والإفلاس، والعجز والاستطاعة، والحرص والقناعة، والبخل والجود، والفرح بالموجود، والأسف على المفقود، والإيثار والإنفاق، والتوسع والإملاق، والتبذير والتقتير، والرضا بالقليل، واستحقار الكثير، كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وينظر أيهم أثر الدنيا على الآخرة بدلاً، وابتغى عن الآخرة عدولاً وحولاً، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولاً، والصلاة على محمد الذي نسخ بملته مللاً، وطوى بشريعته أدياناً ونحلاً، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبل ربهم ذللاً، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف، واسعة الأرجاء والأكناف، ولكن الأموال أعظم فتنها وأطم محنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً. وبالجملة: فهي لا تخلو من الفوائد والآفات، وقوائدها من المنجيات، وآفاتها من المهلكات، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التي لا يقوى عليها إلا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المسترسمين المغترين. وشرح ذلك مهم على الانفراد، فإن ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة بل في الدنيا عامة؛ إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل، والمال بعض أجزاء الدنيا، والحاء بعضها، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها، وتشفي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها، والكبر وطلب العلو بعضها، ولها أبعاض كثيرة، ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل، ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده؛ إذ فيه آفات وغوائل، وللإنسان من فقده صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى؛ وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان.

ثم للفاقد حالتان: القناعة والحرص، وإحداهما منمومة والأخرى محمودة. وللحريص حالتان: طمع فيما في أيدي الناس، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس مع الخلق، والطمع شر الحالتين.

وللواجد حالتان: إمساك بحكم البخل والشع، وإنفاق. وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة. وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد، والمحمود هو الاقتصاد. وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم. ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلاً إن شاء الله تعالى وهو: بيان ذم المال، ثم مدحه، ثم تفصيل فوائد المال وآفاته، ثم ذم الحرص والطمع، ثم فضيلة السخاء، ثم حكايات الأسخياء، ثم ذم البخل، ثم حكايات البخلاء، ثم الإيثار وقضله، ثم حد السخاء والبخل، ثم علاج البخل، ثم مجموع الوظائف في المال. ثم ذم الغنى ومدح الفقر، إن شاء الله تعالى.

بيان دم المال وكراهة حيه:

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا لِلْهِكُو الْتُولُكُمُ وَلَا أَوْلَدُكُمُ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلُ ذَلِكَ فَأُولَتِكَ هُمُ الْخَبِرُونَ ۞ [المتافِقون: ٩] وقال تعالى: ﴿النَّمَا أَمُولُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِشْنَةٌ وَأَنَ اللهَ عِندَهُ أَجُرُ عَلِيهِ وَالْاَنْفَالِ ٨٤] فَمَن اختار ماله وولده على ما عبد الله فقد خسر وغبن خسراناً عظيماً. وقال عز وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنِيَا وَزِينَهُ ﴾ [مُود: ١٥] الآية. وقال تعالى: ﴿كَانَ إِنَ ٱلْهِنَنَ لَبَلْغَةٌ ۞ أَن يَالُهُ أَنْهَا كُمُ اللّهُ العلي العظيم وقال تعالى: ﴿ أَلْهَنَكُمُ ٱلتَّكَالُمُ ۖ ۞ ﴾ [الغاتي: ٢٠٧] فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم وقال تعالى: ﴿ أَلْهَنَكُمُ ٱلتَّكَالُمُ ۗ ۞ ﴾ [الغائم: ٢٠٧]

وقال رسول الله ﷺ: «حُبُ المَالِ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَانَ النَّفَاقَ فِي القَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ المَاءُ البَقْلَ»('')، وقال ﷺ: «مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلا فِي زَرِيبَةٍ غَنَم بِأَكْثَرَ إِفْسَاداً فِيها مِنْ حُبُ الشَّرَفِ وَالمَالِ وَالجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ المُسْلِمِ»('')، وقال ﷺ: «هَلَكَ المُكْثِرُونَ إلا مَنْ قالَ بِهِ فِي عِبادِ الله هٰكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيلٌ مَا هُمُ الرَّحُنياء»('')، وقيل: المُشلِمِ» (نَّهُ مُ يَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ عَلَى المُحْدِدُ وقال ﷺ: هسَيَأْتِي يَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ هُمْ '')، وقيل: الله الله أي أمتك شر؟ قال: «الأخنياء»('')، وقال ﷺ: هسَيَأْتِي يَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ

كتاب ذم البخل وحب المال

 ⁽١) حديث: «حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل» لم أجده بهذا اللفظ وذكره معد هذا بلفظ:
 اللجاء بدل «الشرف».

⁽٢) حديث: قما فتبان ضاربان أرسلا في زربية غنم بأكثر إفساداً لها من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم". أخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا: فجانعان مكان: فضاربان ولم يقولا. في زربية». وقالا: فالنسرف بدل فلجاه . قال الترمذي: حسن صحيح، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد: قما ذئبان ضاربان في زربية غنم . . . » الحديث ، وللبزار من حديث أبي هريرة . فضاربان جانعان وإساد الطبراني فيهما صعيف .

⁽٣) حديث، «هلك الأكثرون إلا من قال به في حياد الله هكذا وهكذا...» الحديث. أخرجه الطبراني من حديث عبدالرحمن بن أبزى بلفظ: «المكثرون» ولم يقل: «في عباد الله»، ورواه أحمد من حديث أمي سعيد بلفظ؛ «المكثرون» وهو متفق عليه من حديث أبي ذر بلفظ: «هم الأكبرون» فقال أبو ذر من هم؟ فقال «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال، هكذا...» الحديث.

⁽٤) حديث: قيل: يا رسول الله، أي أمتك شر؟ قال: الأغنياء غريب لم أحده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث عدالله بن جعفر الشرار أمتى الذين ولدوا في النميم وغلوا به يأكلون من الطعام ألواتاً وفيه أصرم بن حرشب ضعيف، ورواه هاد بن السري في الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلاً، وللبزار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف: «إن من شرار أمتي الذين غلوا بالنعيم وتنبت عليه أجسامهم».

آطَابِبَ الدُّنْيَا وَٱلْوَانَهَا وَيَرْكُبُونَ فُرُةَ الخَيْلِ وَٱلْوَانَهَا وَيَنْكَحُونَ آجْمَلَ النِّسَاءِ وَٱلْوَانَهَا وَيَلْبَسُونَ آجْمَلَ النَّيَابِ وَٱلْوَانَهَا، لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ الطَّلِلِ لا تَشْبَعُ وَٱنْفُسْ بِالكَثِيرِ لا تَقْتَعُ، هَاكِفُونَ عَلَى النَّنْيَا يَخْلُونَ وَيَرُوحُونَ الْبَهَا، التَّخَذُومَا البَهَةَ مِنْ دُونِ إِلْهِهِمْ وَرَبًا دُونَ رَبُّهِمْ، إلَى أَمْرِها يَنْتَهُونَ وَلِهَوَاهُمْ يَثْبَعُونَ، فَعَزِيمَةٌ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله لِمَنْ أَوْرَكَهُ ذَلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقِب عَقِيكُمْ وَخَلْف خَلْفِكُمْ أَن لا يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلا يَحُوهُ مُولا يَثْبَعُ جَنَائِرُهُمْ وَلا يُوقَرَّ كَبِيرَهُمْ، فَمَنْ قَعْلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْم الإسلامِ ('')، وقال اللهٰيَ الدُّنْيَا لأَهْلِها، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ ما يَكْفِيهِ أَخَذَ حَثْفَةُ وَهُوَ لا يَشْغُرُهُ ('')، وقال اللهٰي المُوتِ فَلَا اللهُ اللهُ عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى عَلَى اللهُ عَلَى عَلَى اللهُ وَمَلُ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلاَ عَا أَكُلُتَ قَالْنَيْتَ أَوْ لَمِنْ فَلَو اللهُ اللهُ

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: ما لك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟ فقال لهم: ما منزلة الدينار والدرهم عندكم؟ قالوا: حسنة، قال: لكنهما والمدر عندي سواء. وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: يا أخي، إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدي شكره، فإني سمعت رسول الله على يقول: "يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ الله فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلِّمَا تَكَفَّأُ بِهِ الصَّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ: المُضِ فَقَدْ أَذَيْتَ حَتَّى الله فِيّ، ثُمَّ يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِع الله فِيها وَمَالُهُ بَيْنَ كَنْفِع الله فِيها وَمَالُهُ بَيْنَ كَنْفُول كَلْ لَكُ مَالُهُ: وَيْلَكَ أَلاَ أَذَيْتَ حَتَّى الله فِيّ، فَمَا يَزَالُ كَذَٰلِكَ يَدْهُو بِالفَيْلِ وَالنَّبُورِ) (٢).

⁽١) حديث: «سيأتي بمدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوائها وينكحون أجمل النساء وألوائها. . . الحديث. بطوله أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي أمامة: «سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطمام ويشربون ألوان الثياب يتشدقون في الكلام أولئك شرار أمتي، وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلاً.

⁽٢) حديث: قدموا الدنيا الأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر، أخرجه البزار من حديث أنس وفيه هانيء بن المتوكل ضعفه ابن حبان،

 ⁽٣) حديث: «يقول العبد مالي مالي. . . ، الحديث. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن الشخير وأبي هريرة، وقد تقدم.

⁽٤) حديث: قال رجل: يا رسول الله، ما لي لا أحب الموت. . . 4 الحديث. لم أقف عليه.

⁽٥) حديث: المخلاء ابن آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره. . ، الحديث. أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث النعمان من يشير بإسناد جبد نحوه، ورواه أبو داود الطبالسي وأبو الشيخ في كتاب الثواب والطبراني في الأوسط من حديث أنس سند جيد أيضاً، وفي الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشبخين من حديث أنس: ويتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد. . . ٩ الحديث.

⁽٦) حديث: «كتب سلّمان إلى أبي الدرداء» وفيه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بصاحب اللنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين ينيه...» الحديث.

قلت: ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبي الدرداء أنه كتب إلى سلمان؛ كذا رواه البيهقي في الشعب وقال: بدل اللدنيا؛ «المال» وهو منقطع.

وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في ذمّ الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه إلى ذم المال، فلا نطوّل تتكريره، وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم، لأن المال أعظم أركان الدنيا. وإنما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة.

قال ﷺ: ﴿إِذَا مَاتَ الْمَبْدُ قَالَتِ الْمَلاثِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ وَقَالَ النَّاسُ: مَا خَلَفَ (``، وقال ﷺ: ﴿لا تَتَخذُوا الضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا الدُّنْيَا» ('`.

الآثار: روي: أن رجلاً نال من أبي الدرداء وأراه سوءاً فقال: اللهم من فعل بي سوءاً فأصح جسمه وأطل عمره وأكثر ماله. فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر؟ لأنه لا بد وأن يفضي إلى الطغيان. ووضع على كرم الله وجهه درهماً على كفه ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني. وروي: أن عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت: ما هذا؟ قالوا: أرسل إليك عمر بن الخطاب، قالت: غفر الله له، ثم سلت ستراً كان لها فقطعته وجعلته صرراً، وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها، ثم رفعت يديها فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فكانت أوّل نساء رسول الله تلل لحوقاً به، وقال الحسن: والله ما أعز الدرهم أحد إلا وقال: من أحبكما فهو عبدي حقاً. وقال سميط بن عجلان: إن الدرهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون أذله الله. وقبل: وما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقد. وقال العلاء بن زياد: تمثلت لي الدنيا وعليها من كل زينة فقلت: أعوذ بالله من شرك فقالت: إن سرك أن يعيذك الله مني فابغض الدرهم والدينار. وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها؟ إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر والدينار. وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها؟ إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عن الدنيا، وفي ذلك قبل:

إنسي وجسدت فسلا تسظسنسوا غسيسره فسإذا قسدرت عسلسيسه تسركستسه

وفى ذلك قيل أيضاً:

أن الستسورع عسنسد هسذا السدرهسم فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

لا يـــخـــرّنـــك مـــن الـــمـــر ء قـــمـــيــــص رقـــعـــه أو إزار فـــوق عـــظـــم الـــــــ اق مــــنـــه رفــــعـــه أو جــــــن لاح فــــيــه أثـــر قـــد خـــلــــه أو ورعـــــه أره الــــدرهـــــه أو ورعـــــه

ويروى عن مسلمة بن عبدالملك: أنه دخل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله عند موته فقال:

⁽١) حديث: ﴿إِذَا مَاتِ الْعَبِدُ قَالَتُ الْمَلاَئِكَةُ: مَا قَدَمَ...؟ الْحَدِيثَ. أَخْرِجِهُ البِيهِقِي فِي الشَّعْبُ مِنْ حَدِيثُ أَبِي هُرِيرَةُ يَبِلْغُ

 ⁽٢) حديث: ﴿لا تتخذوا الغبيمة فتحبوا الدنياء أخرجه الترمذي والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسمود بلفظ:
 ﴿فترفبوا».

يا أمير المؤمنين، صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ـ وكان له ثلاثة عشر من الولد ـ. فقال عمر: أقعدوني فأقعدوه فقال: أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً فإني لم أمنعهم حقاً لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم، وإنما ولدي أحد رجلين: إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع، وروي: أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالاً كثيراً فقيل له: لو ادخرته لولدك من بعدك؟ قال: لا، ولكني أدخره لنفسي عند ربي وأدخر ربي لولدي. ويروى: أن رجلاً قال لأمي عبد ربه: يا أخي، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخيرا فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم. وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله ويسأل عنه كله.

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم:

اعلم: أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال عزّ وجلّ: ﴿إِن تُرَكُ وَلِهِ البَّهْوَةِ: ١٨٠] الآية وقال رسول الله ﷺ: ﴿يَعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ» (١٠) ، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال؛ إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به، وقال تعالى: ﴿وَرَسْتَغَيِّنَا كَانَكُ ﴿ الْكَهْفَ: ١٨٢] وقال تعالى ممتناً على عباده: ﴿ وَنُسْدِذُرُ بَأَنُولُ وَسِينَ وَكُفَلَ لَكُو حَنَيْ كَنْ لَكُ مُنَدِ لَكُم أَبُولُ وَسِينَ وَكُفلَ لَكُو حَنَيْ لَكُو مَنْ وَجِه الجمع بعد الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله؛ حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه، وأنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شرء فإنه ليس بخير محض ولا هو شر محض، بل هو سبب للأمرين جميعاً، وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة ويذم أخرى، ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم، وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم المائم والملك المقيم. والقصد إلى هذا دأب الكرام وأرباب البصائر سعادة الآخرة التي هي النعيم المائم والملك المقيم. والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس؛ إذ قبل لوسول الله ﷺ من أكرم الناس وأكيسهم؟ فقال: «أكثرُهُمْ لِلْمَوْتِ فِكْراً وَأَشَدُهُمْ لَهُ المَوْتِ وَكُوا وَأَشَدُهُمْ لَهُ المَوْتِ وَكُوا وَأَشَدُهُمْ لَه المَائمة وسائل في الدنيا وهي: الفضائل النفسية: كالعلم وحسن المخلق، والفضائل النفسية: كالصحة والسلامة، والفضائل الحارجة عن البدن: كالمال وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم البدنية، ثم المخارجة.

فالخارجة أخسها والمال من حملة الخارجات، وأدناها الدراهم والدنانير، فإنهما خادمان ولا خادم لهما، ومرادان لغيرهما. ولا يرادان لذاتهما؛ إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، وأنها

 ⁽١) حديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» أخرحه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص
بسند صحيح بلفظ: «نعما» وقالا «للمره».

 ⁽٢) حديث: «كاد الفقر أن يكون كفراً» أخرجه أبو مسلم الليثي في سننه والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس،
 وتقدم في كتاب ذم الغضب.

 ⁽٣) حديث: من أكرم الناس وأكيسهم؟ قال: ﴿ أكثرهم للموت ذكراً... ﴾ الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث ان عمر
 بلفظ: ﴿ أي المؤمنين أكيس؟ ورواه ابن أبي الدنيا في الموت بلفظ المصنف وإسناده جيد.

تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة في ذاتها، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والأعضاء، والمطاعم والملابس تخدم البدن. وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن، ومن المناكح إبقاء النسل، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر المال ووجه شرفه، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير، ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتاً إليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع، وكان ما حصل له الغرض محموداً في حقه، فإذاً: المال آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة؛ وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسدّ سبيل العلم والعمل. فهو إذاً محمود مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم. فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر (1) كما ورد به الخبر.

ولما كانت الطباع ماثلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله، وكان المال مسهلاً لها وآلة إليها، عظم الحطر فيما يزيد على قدر الكفاية، فاستعاذ الأنبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاًهُ(٢)، فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال: «اللّهُمُّ أُخيِتِي مسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينِ أَلَا)، واستعاذ إبراهيم فقال: ﴿وَاَجْنُنْنِ وَبَنِى أَن نَعْبُدُ لَلْهُمْ الْحَيْنِ وَلَيْ أَن نَعْبُدُ اللّهُمْ المَوْمَةِ إِذَ رَبّة النبوّة أَجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة؛ إذ قد كفي قبل النبوّة عبادتها مع الصغر، وإنما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون إليهما، قال نبينا وَهُونَ * وَتَعِسَ عَبْدُ الدّينَارِ وَتَعِسَ عَبْدُ الدّرْهَمِ، لل عبد عبراً فهو عابد صنم، عبد حجراً فهو عابد صنم، لل كل من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم، أي قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم، وهو شرك إلا أن الشرك شركان: شرك خفي لا يوجب الخلود في النار، وقلما ينفك عنه المؤمنون، فإنه أخمى من دبيب النمل، وشرك جلي يوجب الخلود في النار. نعوذ بالله من الجميع.

بيان تقصيل آفات المال وفوائده:

اعلم: أن المال مثل حية فيها سم وترياق، ففوائده ترياقه، وغوائله سمومه. فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترر من شره ويستدر من خيره.

أما الفوائد: فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها، فإن معرفتها مشهورة

العديث: قمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حنفه وهو لا يشمرا، تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية:
 «احذورا الدنيا».

 ⁽٢) حديث: «اللهم اجمل قوت آل محمد كفافاً» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

⁽٣) حديث: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً» أخرجه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

⁽٤) حديث: قتعس هبد الدينار تعس هبد الدرهم...» الحديث أخرجه البحاري من حديث أبي هريرة ولم يقل: قوانتقس، وإنما علق آخره بلفظ: قتمس وانتكس، ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

مشتركة بين أصناف الخلق، ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها. وأما الدينية فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع.

النوع الأول: أن ينفقه على نفسه إما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة. أما في العبادة: فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال، وهما من أمهات القربات والعقير محروم من فضلهما. وأما فيما يقويه على العبادة: فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكع وضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية. ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط.

التوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: الصدقة، والمروءة، ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام.

أما الصدقة: فلا يخفى ثوابها، وإنها لتطفىء غضب الرب تعالى، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم.

وأما المروءة: فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في صيافة وهدية وإعانة وما يجري مجراها، فإن هذه لا تسمى صدقة، بل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج، إلا أن هذا من الفوائد الدينية؛ إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء، وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء. فلا يوصف بالحود إلا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة، وهذا أيضاً مما يعظم الثواب فيه، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها.

وأما وقاية العرض: فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع السنتهم ودفع شرهم، وهو أيضاً مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية. قال رسول الله ﷺ: «ما وَقَى بِهِ المَرْءُ هِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةً اللهُ اللهُ وكيف لا، وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

وأما الاستخدام: فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين، ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراه الطعام وطحنه، وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج إليه، وكل ما يتصوّر أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب إذا اشتغلت به؛ إذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر ما لا يتصوّر أن يقوم به غيرك، فتضييع الوقت في غيره خسران.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الجباب في الطريق، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات، وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت، المستجلبة بركة أدعية الصائحين إلى أوقات متمادية، وناهيك بها خيراً. فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة المفقر، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والوقار والكرامة في القلوب، فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية.

⁽١) حديث: اما وقى المرء عرضه به فهو صدقة، رواه أبو يعلى من حديث جابر، وقد تقدم.

وأما الآفات فدينية ودنيوية، أما الدينية فثلاث:

الأولى: أن تجر إلى المعاصي؛ فإن الشهوات متفاضلة، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية، ومن العصمة أن لا يجد. ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته، فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته، والمال نوع من القدرة يحرّك داعية المعاصي وارتكاب الفجور، فإن اقتحم ما اشتهاه هلك، وإن صبر وقع في شدّة؛ إذ الصبر مع القدرة أشدّ، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يجر إلى التنعم في المباحات، وهذا أوّل الدرجات، فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن، ويترك لذائذ الأطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن لا يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نقسه، فيصير التنعم مألوفاً عنده ومحبوباً لا يصبر عنه، ويجرّه البعض منه إلى البعض، فإذا اشتدّ أنسه به ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال؛ فيقتحم الشبهات ويخوض في المراءاة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديثة؛ لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه، فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس، ومن احتاج إلى الناس فلا بد وأن ينافقهم، ويعصي الله في طلب رضاهم، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى احتاج إلى الناس فلا بد وأن ينافقهم، ويعصي الله في طلب رضاهم، فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلاً. ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة، وينشأ عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان، عنه الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان، ولا يخلو عن التعدي أيضاً إلى سائر الجوارح. وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة إلى حفظه.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد؛ وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام: في المال ثلاث آفات، أن يأخذه من غير حله، فقيل: إن وضعه في حقه، فقال: يضعه في غير حقه، فقيل: إن وضعه في حقه، فقال: يشغله إصلاحه عن الله تعالى. وهذا هو الداء المضال. فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر في جلاله، وذلك يستدعي قلباً فارغاً، وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة نلملاح ومحاسبته، وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود، وخصومة أعوان السلطان في نلخراج، وخصومة في الأجراء على التقصير في العمارة، وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم، نلخراج، وتقصيره في العمل وتضييعه للمال. وكذلك صاحب المواشي، وهكذا سائر أصناف الأموال. وأبعدها عن كثرة الشغل: النقد المكنوز تحت وكذلك صاحب المواشي، وهكذا سائر أصناف الأموال. وأبعدها عن كثرة الشغل: النقد المكنوز تحت وكذلك عاحب المواشي، وهكذا سائر أصناف الأموال. وأبعدها عن كثرة الشغل: النقد المكنوز تحت أطماع الناس عنه. وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها، والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك. فهذه جملة الآفات الدنبوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم فهذه جملة الآفات الدنبوية سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والنعب في دفع الحساد، وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه، فإذن: ترباق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي إلى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات. نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه، إنه على ذلك قدير.

بيان ذم الحرص والطمع، ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس:

اعلم: أن الفقر محمود ـ كما أوردناه في كتاب الفقر ـ ولكن ينيغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما في أيديهم ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال على الفرق ولا غَنِي إلا وَق وطُومَى لِمَنْ هُدِي لِلإسْلام وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافاً وَقَنِعَ بِهِهُ (٦)، وقال على المَنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلاَ غَنِي إلاَّ وَدَّ يَوْمَ الْقِبَامَةِ أَنَهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتاً فِي اللَّذْيَا (٢)، وقال عَلَيْ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرْضِ إِنَّمَا الْفِنَى غِنَى النَّفْسِ (٨)، ونهى عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب فقال: «أَيُها النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدِ إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاضِمَةً (٩).

وروي: أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال: أي عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم مما أعطيته،

⁽١) حديث: الوكان لابن آدم واديان من ذهب لابتغي لهما ثالثاً... • الحديث. منفق عليه من حديث ابن عباس وأنس.

 ⁽Y) حديث أبي واقد الليثي: «إن الله هز وجل يقول: أنزلنا المال الإقام الصلاة وإيناء الزكاة. . . ٩ الحديث. أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب بسند صحيح.

 ⁽٣) حديث أبي موسى: «نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن
 لابن آدم وادبين من مال... الحديث. أخرجه مسلم مع اختلاف دون قوله: «إن الله يؤيد هذا الدين» ورواه بهده الزيادة الطبراني وفيه على بن زيد متكلم فيه.

⁽٤) حديث: (متهومان لا يشيعان. . . ا الحديث، أخرجه الطبرائي من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

حديث: (يهرم أبن آدم ويشب معه التتان الحديث متفق عليه من حديث أنس.

⁽٣) حديث: قطويلي لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به اخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبد ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر: قوقد أفلع من أسلم ورزق كفافاً وقنمه الله بما آتامه.

 ⁽٧) حديث: قما من أحد غني ولا نقير إلا ودّ بوم الفيامة أنه كان أوني في الدنيا قوتاً أخرجه ابن ماجه من رواية نفيع بن
 الحارث عن أنس ونفيع ضعيف.

 ⁽A) حديث: اليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس؛ منفق عليه من حديث أبي هريرة.

حدیث: «ألا أیها الناس أجملوا في الطلب فإنه لیس لعبد إلا ما كتب له». أخرجه الداكم من حدیث جابر بحوه وصحح إسناده، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش.

قال: فأيهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ رُوحَ القُدُس نَفَتَ فِي رُوْهِي أَنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكُمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ (١٠). وقال أبو هريرة: عَالَ لَيْ رَسُولَ الله ﷺ: قيما أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا اشْتَدُّ بِكَ الْجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُورٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى اللُّمْنِيَا اللَّمَارُ٣، وقال أبو هِريرة رضي الله عنه: قال رسوَّل الله ﷺ: «كُنْ وَرُعاً تَكُنْ أَعْبَدُ النَّاس، وَكُنْ قَنِماً نَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ ما تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِناً (٣)، وَنهى رسول الله ﷺ عن الطمع ميمًا رواه أبو أيوب الأنصاري: أنَّ أعَرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، عظني وأوجز فقال: ﴿إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلَّ صَلاةً مُوَدِّع وَلا تُحَلَّثُنْ بِحَلِيثٍ تَعْتَلِّرُ مِنْهُ خَداً، وَأَجْمِعِ اليَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»^(٣)، وقال عوف بن مالك الأنُّسجعي: كنا عند رسول الله ﷺ ـ تسعة أو ثمَّانية أو سبعة ـ فقال: ﴿أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله عَلنا: أو ليس قد بأيعناك يا رسول الله؟ ثم قال: ﴿ أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ الله عَبِسطنا أيدينا فبأيعناه مقال قائل منا: قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك؟ قال: «أَنْ تَعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَتُصَلُّوا الخَمْسَ، وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا» وأسر كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً»(٤)، قالَ: فلقَد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه.

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إنَّ الطمع فقر وإنَّ البأس غني، وإنه من يبأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الغني؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك، وفي ذلك قبل:

ذهــــــب ويـــــاقـــــوت ودرّ

السعسيسش سساعسات تسمسر وخسسط وب أيسمام تسكسر اقسنسع بسعسيسشبك تسرضسه واتسارك هسسواك تسبعساش حسير فسلسرب حسشسف سساقسه

وكان محمد بن واسع يبلُّ الخبرُ اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد. وقال سفيان: خير دنياكم ما لم تبتلوا به، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود: ما م يوم إلا وملك ينادي: يا ابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال سميط بن عجلان: إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر فلم يدخلك النار؟ وقيل لحكيم: ما مالك؟ قال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس. ويروى أن الله عزّ وجلّ قال: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، وإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسر. وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلباً يسيراً ولا يأتي الرجل فيقول: إلك وإنك فيقطع ظهره، فإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق. وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم

حديث ابن مسعود: الإن روح القدم نقث في روعي إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها. . ا الحديث. أخرحه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف، وقد تقدم فيه.

حديث أبي هريرة: «كن ورعاً تكن أعبد الناس. . . • الحديث. أخرجه ابن ماجه، وقد تقدم.

حديث أبي أيوب: ﴿إِذَا صَلَيْتَ فَصَلَ صَلامٌ مَوْدَعُ وَلا تَحَدَثُن بَحَدَيْثُ تَعْتَذُر مَنْهُ وَأَجْمَعُ الْيَأْسِ مَمَا في أيدي الناس؟ أخرجه ابن ماجه، وتقدم في الصلاة، وللحاكم نحوه من حديث سمد بن أبي وقاص وقال: صحيح الإسناد.

حديث عوف بن مالك: كنا عند رسول الله ﷺ عسبعة أو ثمانية أو تسعة ـ فقال: ﴿ لَا تَبَايِعُونَ . . . الحديث. وفيه: «ولا تسألوا الناس» أخرجه مسلم من حديثه ولم يقل: فقال قائل، ولا قال: تسمعوا. وقال: سوط أحدهم. وهي عند أبي داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف.

- يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه - فكتب إليه: قد رفعت حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت. وقيل لبعض الحكماء: أي شيء أسر للعاقل، وأيما شيء أعون على دفع الحزن؟ فقال: أسرها إليه ما قدّم من صالح العمل، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غما الحسود، وأهناهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرّط، وفي ذلك قيل:

أنَّ السندي قسسم الأرزاق يسرزقم والنوجية منته جنديند لنيس ينخبليقية لنم ينبلني فني دهنزه شنينشناً ينوزقنه

أرف ببال قتى أمسى عملى ثقة فالعرض منه مصون لا يدنسه إن القناعة من يحلل بساحتها وقد قيل أيضاً:

حستسى مستسى أنسا فسي حسلٌ ويسرْخسالِ
ونسازح السدّار لا أنسفسك مسغستسريساً
بسمشسرق الأرض طسوراً ثسم مسغسريسها
ولسو قسنسعست أتسانسي السرزق فسي دعسة

وطُــولِ مستعسي وإدبسارِ وإقسيسالِ عن الأحــبـة لا يسدرون مساحسالي لا يخطر الموت من حرصي على بالي إنّ السقتوع النغني لا كنشرة السمالِ

وقال عمر رضي الله عنه: ألا أخبركم بما استحل من مال الله تعالى: حلتان لشتائي وقيظي، وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بأرفعهم ولا بأوضعهم، فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟. كأنه شك في أنّ هذا القدر، هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها؟. وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال: يا أخي، أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه، وكأنك يا أخي لم ثر حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً. وفي ذلك قيل:

أراك يسنزيسنك الإنسراء حسرصاً على الدنسيا كأنك لا تسموتُ فسها للك غايسة إن صرت يسوماً إلى السيها قلت حسبي قد رضيتُ

وقال الشعبي: حكي: أنّ رجلاً صاد قنبرة فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك، قالت: والله ما أشفي من قرم ولا أشبع من جرع، ولكن أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي. أما واحدة: فأعلمك وأنا في يديك، وأما الثانية: فإذا صرت على الشجرة، وأما الثائلة: فإذا صرت على البجل، قال: هات الأولى، قالت: لا تلهفن على ما فاتك، فخلاها فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية قالت: لا تصدّقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درّتين زنة كل درّة عشرون مثقالاً، قال: فعض على شفته وتلهف وقال: هات الثالثة، قالت: لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالاً؟ ثم طارت فذهبت. وهذا مثال لفرط طمع الآدمي فإنه يعميه عن درك الحق، حتى يقدّر ما لا يكون أنه يكون، وقال ابن السماك: إن الرجاء حبل في قلبك وقيد في رجلك، فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك، وقال أبو محمد اليزيدي: دخلت على الرشيد

فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب، فلما رآني تبسم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية، فاستحسنتهما وقد أضفت إليهما ثالثاً. وأنشدني:

إدا سيد باب عسنك من دون حساجة فيان قراب البيطن يسكنفسيك مسلوه ولاتك مبيذالاً لعرضك واجتنب

فدعه لأخرى يستفسس لك بسائسها ويسكفيك سوءات الأمور اجسسائها ركوب المعاصي يجتنبك عقائها

وقال عبدالله بن سلام لكعب: ما يُذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها؟ قال: الطمع وشره النفس وطلب الحوائج. وقال رجل للفضيل: فسرّ لي قول كعب، قال: يطمع الرجل في الشيء يطلبه فيذهب عليه دينه، وأما الشره فشره النفس في هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء، ويكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خرم أنفك وقادك حبث شاء واستمكن منك وخضعت له. فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به، وعدته إذا مرض؛ لم تسلم عليه لله عزّ وجلّ ولم تعده لله، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك. ثم قال: هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان. قال بعض الحكماء: من عحيب أمر الإنسان أنه لو نودي بدوام البقاء في أيام الدنيا لم يكن في قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مذة التمتع وتوقع الزوال. وقال عبدالواحد بن زيد: مررت براهب فقلت له: من أين تأكل؟ قال: من بيدر اللطيف الخبير، الذي خلق الرحا يأتيها بالطحين ـ وأوماً بيده إلى رحا أضراسه ـ، فسبحان القدير الخبير.

بيان علاج الحرص والطمع، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة:

اعلم: أنّ هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر والعلم والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:
الأول: وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسدّ
عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويردّ نفسه إلا ما لا يدّ له منه، فمن كثر خرجه واتسع إنفاقه لم تمكنه
القناعة، بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، ويقنع بأي طعام كان، ويقلل من الإدام ما
أمكنه، ويوطن نفسه عليه وإن كان له عبال فيردّ كل واحد إلى هذا القدر؛ فإن هذا القدر يتيسر بأدنى
جهد. ويمكن معه الإجمال في الطلب والاقتصاد في المعيشة وهو الأصل في القناعة؛ ونعني به الرفق
في الإنفاق وترك الخرق فيه، قال رسول الله ﷺ: ﴿إنّ الله يُحِبُّ الرّفْقَ فِي الأمْرِ كُلُهِ النَّا، وقال ﷺ:
هما عَالَ مَن اقْتَصَدَه (٣)، وقال ﷺ: ﴿قَلاثُ مُنْجِيَاتُ؛ خَشْيَةُ الله فِي السّرِ وَالعَلاَنِيَةِ، وَالقَصْدُ فِي الْفِنَى
والقَقْر، وَالْمَدْلُ فِي الرّضًا وَالْمُضَبِ (٣)، وروي: أن رجلاً أبصر أبا الدرداء يلتقط حباً من الأرض وهو

ا١) حديث: (إن الله يحب الرفق في الأمر كله، متفق عليه من حديث عائشة، وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث: (ما هال من اقتصد) أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ:
 (۵) مديث:

٣١) حديث: «ثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر والعدل في الرضا والغضب؛ أخرجه
 البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف.

يقول: إن من فقهك رفقك في معيشتك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبيّ ﷺ: «الاثْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءَ مِنْ بِضْع وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوّةِا (١).

وفي الخبر: «التُذْبِيرُ يَصْفُ المَعِيشَةِ» (٢٠)، وقال ﷺ: «مَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ الله، وَمَنْ بَذُرَ أَفْقَرَهُ الله، وَمَنْ ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُهُ الله الله لَكَ فَرَجاً وَمَنْ ذَكَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ أَحَبُهُ الله لَكَ فَلَجاً أَرْدُتَ أَمْراً فَمَلَيْكَ بِالثَّوَدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ الله لَكَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً» ، والتودة في الإنفاق من أهم الأمور.

الثاني: أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له فلا بد وأن يأتيه وإن لم يشتد حرصه، فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق، بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى إذ قال عز وجلّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَةِ فِي اللّهِ عِلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾ [لهرد: ٦] وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ويأمره بالفحشاء ويقول: إن لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال، فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب خوفاً من الفقر، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب في ثاني الحال وربما لا يكون. وفي مثله قيل:

مَـنُ يـنـفـقِ الـسُّـاعـات فـي جـمـع مـالـهِ مـخـافـة فـقـرٍ فـالــذي فـعـل الـفـقـر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله ﷺ فقال لهما: «لا تَبْأَسا مِنَ الرِّزْقِ ما تَهَوْهُوَتْ رُؤُوسُكُما فَإِنْ الإِنْسَانَ ثَلِلُهُ أُمُهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللهُ تَعَالَى (٥٠)، ومرَّ رسول الله ﷺ بابن مسعود وهو حزين فقال له: «لا تُكْثِرُ هَمَّكَ، ما قُدْرَ يَكُنْ وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ (٥٠)، وقال ﷺ: «أَلا أَيُها النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدِ إِلاَ ما كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدِ إِلاَ ما كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَى يَأْتِيهُ ما كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدِ إِلاَ ما كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَى يَأْتِيهُ ما كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُنْيَا وَهِيَ رَافِعَةٌ فَا لِللّهُ اللّهُ مِنْ الدُنْيَا وَهِيَ رَافِعَ الْعَبْدِ اللّهِ اللّهُ تَعَلَى فِي تَقْدِيرِ أَرِاقَ العباد، وأَن رَافِ اللهِ لَا مَالُهُ مِن اللّهُ مِن اللّهُ عَلَى اللّهُ يَعْمَ أَن رَقَ اللهُ للعبد من حيث لا يحتسب ذلك بحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب، بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب

⁽١) حديث ابن عباس: "الاقتصاد وحسن السمت والهدي الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال: «السمت الصالح»، وقال: «من خمسة وعشرين» ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبدالله من سرجس وقال: «التؤدة» بدل «الهدي الصالح» وقال: «من أربعة».

 ⁽٣) حديث: «التدبير نصف المعيشة» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقبلي ووثقه ابن معين.

⁽٣) حديث: «من اقتصد أغناه الله. . . . الحديث. أخرجه البزار من حديث طلحة بن عبيدالله دون قوله: الومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصري. قال الذهبي. شبخ لا يعرف حاله أتى بخبر مسكر أي هذا الحديث، ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد: امن أكثر من ذكر الله أحبه الله.

 ⁽٤) حديث: «إذا أردت أمرأ فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجاً ومخرجاً» رواه ابن المبارك في البر والصلاة، وقد تقدم.

حديث: الا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما. . . الحديث. رواه ابن ماجه من حديث: حبة وسواء ابني خالد،
 وقد تقدم.

 ⁽٩) حديث: الا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك؛ قاله لابن مسعود أخرجه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد
 اختلف في صحبته، ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المعافري مرسلاً.

⁽٧) حديث: «ألا أبها الناس أجملوا في الطلب. . .» الحديث, تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثاً.

أكثر. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتِّى اللَّهَ يَجْعَل لَهُ , مَحْرَجًا وَيَرْدُقُهُ بِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ الطَّلَاق: ٣٠٦] فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الررق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله، وقال عَلَيْهِ: ﴿أَبِي الله أَنْ يَرْزُقُ عَبْدَهُ المُؤْمِنَ إِلاَ مِن حَيْثُ لا يَخْتَسِبُ ١٠٠، وقال سفيان: اتن الله فما رأيت تقياً محتاجاً. أي لا يترك التقي فاقداً لصرورته، بل يلقي الله في قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه. وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي من أبن معاشك؟ قال: نذر الحاج، قلت: فإذا صدروا، فبكي وقال: لو لم نعش إلا من حيث ندري لم نعش. وقال أبو حازم رضي الله عنه: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً منهما هو لي، فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السماوات والأرض، وشيئاً منهما هو لغيري فلذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقي، يمنع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري، ففي أي هذين أفني عمري؟. فهذا دواء من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان. وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الحرص والطمع من الذل، فإذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته إلى القناعة لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل. وليس في القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول؛ وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله وفيه ثواب الآخرة، وذلك مما يضاف إليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم. ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة النحق فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ويلرمه المداهنة، وذلك يهلك دينه، ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الإيمان، قال عليه: هز المؤمن استغناؤه عن الناس (٢٠)، ففي القناعة الحرية والعز. ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى ما شئت تكن أميره.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الأكراد والأعراب والأجلاف ومن لا ديس لهم ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء، وإلى سمت الخلفاء الراشدين، وسائر الصحابة والتابعين، ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم. ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس، أو على الاقتداء بمن هم أعز أصناف الخلق عند الله، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير، فإنه إن تنعم في البطن، فالحمار أكثر أكلاً منه، وإن تنعم في الوقاع فالخزير أعلى رتبة منه، وإن قنع بالقليل ورضى به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر - كما ذكرناه في آفات المال - وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع؛ وما في خلو اليد من الأمن والفراغ، ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الأغنياء وأخرج من جريدة الفقراء. ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه، فإن الشيطان

⁽١) حديث وأبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب أخرجه ابن حبال في الصعفاء من حديث علي باسناد واه، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

⁽٢) حديث. «عز المؤمن استغناؤه هن الناس» أخرجه الطبراني في الأوسط، والحاكم وصحح إسناده، وأبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد: أن جبريل قاله للنبي على في أثناء حديث، وفيه زقر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه، وجعله القضاعي في مستد الشهاب من قول النبي على

أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه فيقول: لم تفتر عن الطلب وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس، ويصرف نظره في الدين إلى من دونه فيقول: ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله؟ والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم؟. قال أبو ذرّ: أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي (١١) أي في الدنيا، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَهُ الله عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالمَحْلُقِ فَلْيَنْظُر إِلَى مَنْ هُو أَشْفَلُ مِنْهُ مِمَّن فَضَّلَ عَلَيْهِ ")، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة، وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهراً طويلاً، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء،

ببان فضيلة السخاء:

اعلم: أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة. وعنه عبر النبي على حيث قال: «السُخَاءُ شَجَرةً مِنْ شَجَرِ الجَنّةِ أَفْصَانُهَا مُتَلَيّةً إلَى الأَرْضِ قَمَنْ أَخَذَ بِغُضِن مِنها قَادَهُ ذَٰلِكَ الغُضِنُ إلَى الجَنّةِ السَّخَاءُ وقصانُهَا مُتَلِيّةً إلَى الأَرْضِ قَمَنْ أَخَذَ بِغُضِن مِنها قَادَهُ ذَٰلِكَ الغُضِنُ إلَى الجَنّةِ السَّلامُ: قالَ الله تَعَالَى: «إنَّ لهذا دِينَ ارْتَضَينهُ لِتَفْسِي وقال جابر: قال رسول الله عَنى ارْتَضَينهُ لِتَفْسِي صَحِبْتُمُوهُ ، وعن عائشة الصديقة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله عَنى: «ما جَبَلَ الله تَعَالَى وَلِيّاً لَهُ صَحِبْتُمُوهُ ، وعن عائشة الصديقة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله عَنى الأعمال أفضل؟ قال: «الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُهُ اللهُ عَلَى وقال عبدالله بن عمرو: قال رسول الله عَنى: «خُلُقان يُحِبُهُمَا الله عَزْ وَجُلْ وَخُلُقان وَالسَّمَاحَةُهُ الله عَنْ وَجُلْ وَخُلُقان يُحِبُهُمَا الله عَنْ وَجُلْ وَخُلُقانِ وَالسَّمَاحَةُهُ الله عَلْهُ وَالْ عبدالله بن عمرو: قال رسول الله عَنى المُحلَقِقُون يُحِبُهُمَا الله عَزْ وَجُلْ وَخُلُقانِ وَالسَّمَاحَةُهُ الله عَنْ وَعَلْ وَخُلُقان يُحِبُهُمَا الله عَنْ وَجُلْ وَخُلُقانِ وَالسَّمَاءُ أَنْ الله عَنْ وَجُلْ وَخُلُقانِ وَعَلْ عَنْ وَالْ عبدالله بن عمرو: قال رسول الله عَنْ المُعْلَقُون يُحِبُهُمَا الله عَنْ وَجُلْ وَخُلُقانِ الله عَنْ وَجُلُونَا لَهُ وَحُلُونَا لَهُ اللهُ اللهُ عَنْ وَاللهُ اللهُ عَنْ وَجُلْ وَاللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلْهُ اللهُ اللهُ عَنْ وَجُلْ وَحُلْ وَاللهُ اللهُ عَلْهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلْ وَحُلْ وَخُلُونَا اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ الل

 ⁽١) حديث أبي ذر: •أوصاني خليلي ﷺ أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر لمن هو فوقي، أخرجه أحمد وابن حبان في أثناء حديث. وقد تقدم.

حديث أبي هريرة: •إذا نظر أحدكم إلى من قضله الله عليه في المال والخلق فليتظر إلى من هو أسفل منه ممن قضل عليه؛ متفق عليه. وقد تقدم.

⁽٣) حديث: «السخاء شجرة في الجنة. . . ٩ الحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة، وابن عدي والدارقطني هي المستجاد من حديث أبي هريرة، وسيأتي بعده، وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد.

⁽٤) حديث جابر مرفوعاً: حكاية عن جبريل عن الله تعالى: «إن هذا دين رضيته لنفسي ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق» أخرجه الدارقطني في المستجاد، وقد تقدم.

حديث عائشة: اما جيل الله ولياً له إلا على السخاء وحسن الخلق، أخرجه الدارقطني في المستجاد دون قوله:
 وحسن الخلق، بسند ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات. وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة، ويوسف ضعيف جداً.

⁽٦) حديث جابر: أي الإيمان أقضل؟ قال: اللصير والسماحة أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء بلفظ: «سئل عن الإيمان». وفيه يوسف بن محمد بن المتكدر ضعفه الجمهور، ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عسة بلفظ: ما الإيمان؟ قال: «الصير والسماحة» وفيه شهر بن حوشب، ورواه البيهتي في الزهد للفظ: أي الأعمال أفضل قال: «الصير والسماحة» واحسن التخلق، وإسناده صحيح.

يُبْغِضُهُمَا الله عَزْ وَجَلَّ، فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا الله تَعَالَى فَحُسُنُ الخُلُقِ وَالسَّخَاءُ، وَأَمَا اللَّذَانِ يُبْغِضُهُمَا الله فَسُوءُ الخُلْقِ وَالبُخْلُ، وَإِذَا أَرَادَ الله بِعَيْدِ خَيْراً اسْتَعْمَلَهُ فِي قَضَاءِ حَوَائِحِ النَّاسِ، ('')، وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة قال: قال من مُوجِئاتِ المَغْفِرَةِ بَذَلُ الطَّعَام وَإِفْشَاءُ السَّلام وَحُسُنُ الكَلام، ('')، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: قالسُّخَاءُ شَجَرةٌ فِي الْجَنِّةِ فَمَنْ كَانَ سَخِيّاً أَخَذَ بُغْضِنِ مِنْهَا قُلْمُ يَتُرُكُهُ ذَٰلِكَ الغُضْنُ حَتَّى يُذَخِلُهُ الجَنَّةَ اللهَ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى المُنْفَى وَيَال البو اللهُ عَلَى عَلَى المُنْفَى عَلَى المُنْفَى عَلَى عَلَى المُنْفَى اللهُ عَلَى عَمَلْتُ فِيهِم سَخَطِي ('')، وقال أبن أكنافِهِمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِم سَخَطِي ('')، وقال ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: قَلْعَلْمُ مِنَ القَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِم سَخَطِي ('')، وقال ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: قَالَعُلْمُ أَلْنُهُمْ فَإِنِّ اللهُ يَقِدُ وَيُوبُ المُعلَى لَيُنَاهِمُ مُنْ الشَّحِي الْمُعْمِ الطُعامِ أَسْرَعُ مِنَ السَّكِينِ إِلَى ذِرْوَةِ الْبَعِيرِ وَإِنَّ اللهُ تَعَالَى لَيْبَاهِي مستحود: قال ﷺ: قالَ السَّعِيمُ السَّعُمُ الطُعامِ أَسْرَعُ مِنَ السَّكِينِ إِلَى يُرْوَةِ الْبَعِيرِ وَإِنَّ اللهُ تَعَالَى لَيْبَاهِي مستحود: قال ﷺ: قال السَّعْ عَلَى السَّعْمُ الطُعامِ السَّعْمِ الطُعامِ المَلامُ أَنْ اللهُ جَوَادٌ يُحِبُ الجُودَ وَيُحِبُ مَكارِمَ الأَخْلاقِ المُعْمِ الطُعامِ المَلامُ أَنْ اللهُ عَوْلًا يُحِدُ الجُودَ وَيُحِبُ مَكارِمَ الأَخْلاقِ اللهُ المُعْلَى المُعْمَ الطُعامِ المَلامُ أَنْ اللهُ عَوْلًا يُحِدُ الْمُحْودَ وَيُحِبُ مَكارِمَ الأَخْلاقِ إِلْمُ اللهُ اللهُ

⁽١) حديث عبداقة بن عمرو: «خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخاء...» الحديث. أخرجه أبو مصور الديلمي دون قوله في آخره: «وإذا أراد الله بعبد خيراً» وقال فيه: «الشجاعة» بدل «حسن الخلق» وفيه محمد بن يونس الكليمي كذبه أبر داود وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب، وروى الأصفهائي جميع الحديث موقوفاً على عبدالله بن عمرو، وروى الديلمي أيضاً من حديث أنس: «إذا أراد الله بعبده خيراً صير حواتج الناس إليه» وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان.

⁽٢) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده: فإن من موجبات المفقرة بذل الطعام وإنشاء السلام وحسن الكلامه أخرجه الطبراني بلفظ: ابذل السلام وحسن الكلام، وفي رواية له: (بيوجب المجنة إطعام الطعام وإنشاء السلام، وفي رواية له: (عليك بحسن الكلام وبذل الطعام».

 ⁽٣) حديث أبي هريرة: السخاء شجرة في المجنة. . . ؟ الحديث. وفيه : اوالشح شجرة في النار . . . الحديث. أخرجه الدارقطني في المستجاد وفيه عبدالعزيز بن عمران الرهري ضعيف جداً.

⁽³⁾ حديث أبي سعيد: «يقول الله تعالى اطلبوا القضل من الرحماء من حيادي تعيشوا في اكتافهم... المحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء، والخرائطي في مكارم الأخلاق، والطبراني في الأوسط وقيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف، ورواه التعقيلي في الضعفاء فجعله عبدالرحمن السدي وقال: إنه مجهول، وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبدالملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان، وتابعه عليه عبدالمفار بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان، وتابعه عليه عبدالملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان، وتابعه عليه عبدالمفار بن الحسن بن دينار، قال فيه أبو حاتم: لا بأس بحديثه، وتكلم فيه الجوزجائي والأزدي، ورواه الحاكم من حديث على وقال: إنه صحيح الإسناد، وليس كما قال.

⁽٥) حديث ابن عباس: قتجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ ببده كلما عثر، أخرجه الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الأخلاق. وقال الخرائطي: «أقبلوا السخي زلته» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني.

⁽٦) حديث ابن مسعود: «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى فروة البعير... الحديث. لم أجده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ: «الخير أسرع إلى البيت الذي يفشى» وفي حديث ابن عباس: «يؤكل قيه من الشفرة إلى سنام البعير» ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر: «الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السخاه...» الحديث. وكلها ضعيفة.

وَيَكُوهُ سَفَاسِفِهِهُ (١) ، وقال أنس: إن رسول الله على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة، عرجع إلى قومه فقال: «يا قوم، أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة (١) وقال ابن عمر: قال ﷺ: ﴿إِنَّ للهُ حِبَاداً يَخُصُّهُمْ بِالنَّعَمِ لِمَنَافِعِ الْمِبَادِ تَقَلَهَا الله تَمَالَى عَنْهُ وَحُولُهَا إِلَى فَيْرِهِ (٣) ، وعن الهلالي قال: المِبَادِ تَقَلَهَا الله تَمَالَى عَنْهُ وَحُولُهَا إِلَى فَيْرِهِ (٣) ، وعن الهلالي قال: ورسول الله ﷺ بأسرى من بني العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً ، فقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا رسول الله ، الرب واحد والدين واحد والذنب واحد، فما بال هذا من بينهم؟ فقال ﷺ: «ثَرِّلَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ: اقْتُلْ لهؤلاءِ وَاتُرُكُ لهذا فَإِنَّ الله تَعَالَى شَكَرَ لَهُ سَخَاءً فيهِهُ (٤) وقال ﷺ: «فَرَلَ عَلَيَ جِبْرِيلُ فَقَالَ: اقْتُلْ لهؤلاءِ وَاتُرُكُ هٰذا فَإِنَّ الله يَعَالَى شَكَرَ لَهُ سَخَاءً فيهِهُ (٤) وطلاع والله الله الله الله عنه الله عنه الله عنه عنه الله عنه عليه وقال الله الله الله عنه الله عليه وقائم الله المول الله عليه المناد عليه المارة عرض تلك النعمة للزوال. وقال عيسى عليه السلام: استكثروا من شيء لا تأكله النار، قيل: وما هو؟ قال المعروف، وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «إلنَّ المُعْنِي مِنَ الله يَعِيدُ مِنَ الله بَعِيدٌ مِنَ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ وَي المَعْدُ مِنَ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ وَي المَعْدُ مِنَ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ وَي المَنْ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ اللهُ المُعْدِي الْمَنْ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ مَنَ اللهُ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ اللهِ اللهُ المُعْدُلُ المُنْ المُعْدِلُ المُنْ المُعْدِلُ المُعْدِلُ المُعْدُلُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ المُنْ المُنْ المُعْدُلُولُ المُنْ المُعْدُلُولُ المُنْ اللهُ المُ

⁽١) حديث: "إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سقاسقها اخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيدالله بن كريز وهذا مرسل، وللطبراني في الكبير والأوسط والحاكم والبيهقي من حديث سهل بن سعد: "إن الله كريم يحب الكوم ويحب معالي الأمور"، وفي الكبير والبيهقي: «معالي الأخلاق..." الحديث، وأسناده صحيح، وتقدم آخر الحديث في أخلاق النبوة.

 ⁽٢) حديث أس: قلم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاء، فأتاه رجل فسأله، فأمر له بشاء كثير بين جبلين. . . ٩ الحديث.
 أخرجه مسلم، وتقدم في أخلاق البوة.

 ⁽٣) حديث ابن عُمر: «إِنْ لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد. . .» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط، وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتي وفيه لبن، ووثقه ابن معين يرويه عن أبي عثمان عبدالله بن زيد الحمصي، صعفه الأزدى.

 ⁽٤) حديث الهلالي: «أتي النبي ﷺ بأسرى من بني العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً... الحديث، وفيه: ففإن الله
 شكر له سخاء فيه لم أجد له أصلاً.

 ⁽٥) حديث: «إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح» لم أقف له على أصل.

⁽٦) حديث نافع عن ابن عمر: قطعام الجواد دواء وطعام البخيل داء، أخرجه ابن عدي، والدارقطني في غرائب مالك، وأبو علي الصدفي في عواليه وقال: رجاله ثقات أئمة. قال ابن القطان: وإنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فإن أهل مصر تكلموا فيه.

⁽٧) حديث: قمن عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه الله رواه ابن عدي وابل حبان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ: قما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره وفيه أحمد بن مهران. قال أبر حاتم: مجهول والحديث باطل، ورواه الخرائطي في مكارم الأحلاق من حديث عمر بإسناد منقطع، وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين، ورواه العقيلي من حديث ابن عباس قال ابن هدي: يروى من وجوه كلها فير معفوظة.

 ⁽٨) حديث عائشة: اللجنة دار الأسخياه، أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد والخرائطي، قال الدارقطني: ومن طريقه رواه ابن الجوزي في الموضوعات، وقال الدهبي: حديث منكر ما آفته سوى جحدر.
 قلت: رواه الدارقطني فيه من طريق آخر، وفيه محمد بن الوليد الموقري وهو ضعيف جداً.

بَعِيدٌ مِنَ الْجُنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَجَاهِلٌ سَخِيُ آحَبُ إِلَى الله مِنْ عَالِم بَخِيلٍ، وَأَذُوأُ النَّاءِ البُخلُ (''، وَقَالَ ﷺ: «أَمْنُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِالْعَلِمِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِالْعَلِمِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِلَّ مَنْ لَيْسَ بِالْعَلِمِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ، وَإِلَّ مَنْ لَيْسَ بِالْعَلِمِ، فَلَا الْبَحِنَّةِ بِصَلاةٍ وَلا صِيَامٍ وَلَٰكِنَ رَخُلُوهَا مِسَخَاءِ الْأَنْفُسِ وَسَلامَةِ الصَّدُورِ وَالنَّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ ('')، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ الله عَزْ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وَجُوها مِنْ خَلْقِهِ حَبِّبَ إِلَيْهِمُ المَعْرُوفِ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وَجُوها مِنْ خَلْقِهِ حَبِّبَ إِلَيْهِمُ المَعْرُوف وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وَجُوها مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ فَقَةٍ فَعَلَى الله خَلْبَةِ فَيْضِيبِها وَيُحْبِي فِعْلَابُ المَعْرُوفِ إِلَيْهِمُ وَيَسُرَ عَلَيْهِمُ إِعْطَاءَهُ كُمَا يَشَرَ الغَيْثَ إِلَى البَلْدَةِ الْجَلْبَةِ فَيْضِيبِها وَيُحْبِي فِعْلَالَهُ وَوَجُبُهِ طُلابٌ المَعْرُوفِ إِلْمُهِمْ وَيَسُرَ عَلَيْهِمُ إِعْطَاءَهُ كَمَا يَشْرَ الغَيْثَ إِلَى البَلْدَةِ الجَدْبَةِ فَيْضِيبِها وَيُخْبِي فِي الرَّجُلُ عِلَى البَلْدَةِ الْمُعْلَى الله عَلَيْهِ الرَّجُلُ عَلَى اللهُ عَلَى المَعْلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى المَالِمُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى الْمَعْلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُه

حديث أبي هريرة: فإن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من المجنة. . . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب ولم يدكر فيه: فوأدوأ المداء المبخل، ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه.

 ⁽٢) حديث: «اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله». أخرجُه الدارقطئي في المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً، وتقدم في آداب المعيشة.

٣) حديث اإن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس. . . ١ الحديث. أخرجه الله الدارقطني في المستجاد وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس، وفيه محمد بن عبدالعزيز المبارك الدينوري أورد ابن عدي له مناكير، وفي الميزان: أنه ضعيف مكر الحديث، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المري متكلم فيه.

خديث أبي سعيد: «إن الله جعل للممروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف. . . » الحديث. أخرجه الدارقطني
 في المستجاد من رواية أبي هارون العبدي عنه وأبو هارون ضعيف، ورواه الحاكم من حديث علي وصححه.

⁽c) حديث: «كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة... الحديث. أخرجه ابن عدي والدارقطني في المستجاد، والخرائطي والبيهائي في الشعب من حديث جابر، وفيه عبدالحميد بن الحسن الهلالي وثقه ابن معين وضعفه الجمهور، والجملة الأولى منه عند البخاري من حديث جابر وعند مسلم من حديث حليفة.

⁽١) حديث: «كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إخاثة اللهفان» أخرجه الدارقطني في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا، فالجملة الأولى تقدمت قبله، والجملة الثانية تقدمت في العلم من حديث أنس وغيره، والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضاً وقبها زياد النميري ضعيف.

 ⁽٧) حديث:
 «كل معروف فعلته إلى غني أو فقير صدقة» أخرجه الدارقطني فيه من حديث أبي سعيد وجابر والطبراني
 والحرائطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود، وابن منيع من حديث ابن عمر بإسنادين ضعيفين.

 ⁽٨) حديث جابر: ابعث رسول الله ﷺ بعثاً عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا قنحر لهم... الحديث. وفيه: فقال:
 (إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت أخرجه الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر، ولا يعرف اسمه ولا حاله.

الآثار: قال علي كرم الله وجهه: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى، وأنشد:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف وإن تولّب فأحرى أن تجود بها فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خلفُ

وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنهم عن المروءة والنجدة والكرم فقال: أما المروءة: فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والإقدام في الكراهية. وأما النجدة: فالذب عن الجار والصبر في المواطن، وأما الكرم: فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل. ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما رقعة فقال: حاجتك مقضية. فقيل له يا ابن رسول الله، لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله عزّ وجلَّ عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته. وقال ابن السماك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه. وسئل بعض الأعراب: من سيدكم؟ فقال: من احتمل شتمنا وأعطى سائلما وأغضى عن جاهلنا. وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخياً، وإنما السخي من يبتدىء بحقوق الله تعالى في أهل طاعته، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تاماً. وقيل للحسن البصري: ما السخاء؟ فقال: أن تجود بمالك في الله عزّ وجلّ. قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنع مالك فيه، قيل: فما الإسراف؟ قال: الانفاق لحب الرئاسة. وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه: لا مال أعون من العقل، ولا مصيبة أعظم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشاورة. ألا وإن الله عزَّ وجلَّ يقول: إني جواد كريم لا يجاورني لثيم، واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار، والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة. وقال حذيفة رضي الله عنه: فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسماحته. وروي: أنَّ الأحنف بن قيس رأى رجَّلاً في يده درهم فقَّال: لمن هذا الدرهم؟ فقال: لي، فقال: أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. وفي معناه قيل:

أنت للسمال إذا أمسكته فأدا أنفقته فالمال ك

وسمي واصل بن عطاء الغزال؛ لأنه كان يجلس إلى الغزالين؛ فإذا رأى امرأة صعيفة أعطاها شيئاً. وقال الأصمعي: كتب الحسن بن علي إلى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعتب عليه في إعطاء الشعراء فكتب إليه: خير المال ما وقي به العرض، وقيل لسفيان بن عيينة: ما السخاء؟ قال: السخاء: البر بالإخوان والجود بالمال. قال: وورث أبي خمسين ألف درهم فبعث بها صرراً إلى إخوانه، وقال: قد كنت أسأل الله تعالى لإخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال؟. وقال الحسن: بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود. وقيل لبعض الحكماء: من أحب الناس إليك؟ قال: من كثرت أياديه عندي، قبل: فإن لم يكن، قال: من كثرت أيادي عنده، وقال عبدالعزيز بن مروان: إذا الرجل أمكنني من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده، وقال المهدي لشبيب بن شبة: كيف رأيت الناس في داري؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راضياً، وتمثل متمثل عند عبدالله بن جعفر فقال:

حتى يحساب بها طريق المصنع أو دع أو دع

إنَّ الصنبيعة لا تكبون صنبيعة فإذا اصطنعت صنبيعة فاعمد سها فقال عبدالله بن جعفر: إن هذين البينين ليبخلان الناس، ولكن أمطر المعروف مطراً، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً، وإن أصاب اللثام كنت له أهلاً.

حكايات الأسخياء:

عن محمد بن المنكدر عن أم درّة ـ وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها ـ قالت: إن معاوية بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية: هلم فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو كنت ذكرتيني لفعلت.

وعن أبان بن عثمان قال: أراد رجل أن يضار عبيدالله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال: يقول لكم عبيدالله: تغدوا عندي اليوم، فأتوه حتى ملؤوا عليه الدار، فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر، فأمر عبيدالله بشراء فاكهة، وأمر قوماً فطبخوا وخبزوا، وقدّمت الفاكهة إليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا، فقال عبيدالله لوكلائه: أو موجود لنا هذا كل يوم؟ قالوا: نعم، قال: فليتغد عندنا هؤلاء في كل يوم.

وقال مصعب بن الزبير: حج معاوية، فلما انصرف مرّ بالمدينة، فقال الحسين بن علي لأخيه .لحسن: لا تلقه ولا تسلم عليه، فلما خرج معاوية، قال الحسن: إن علينا ديناً فلا بدّ لنا من إتيانه، فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدّينه، فمروا عليه ببختي عليه ثمانون ألف دينار وقد أعيا، وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه، فقال معاوية: ما هذا؟ فذكر له، فقال: اصرفوه بما عليه إلى أبى محمد.

وعن واقد بن محمد الواقدي قال: حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه، فوقع المأمون على ظهر رقعته: إنك رجل اجتمع فيك خصلتان، السخاء والحياء، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك، وأما الحياء فهو الذي يمنعك عن تبليغنا ما أنت عليه، وقد أمرت لك بمائة ألمه درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد في بسط يدك، وإن لم أكن قد أصبت فجنايتك على نفسك. وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد؛ عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس: أن نفسك. وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد؛ عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس: أن النبي على قال المؤرش يَبْعَثُ الله عَزْ وَجَلً النبي عَلَمْ عَبْدِ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ، فَمَنْ كَثَرَ كُثَرَ لَهُ، وَمَنْ قَلْلَ قُلْلَ لَهُ وَأَنْتَ أَعْلَمُهُ الله قال الواقدي: لمذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إلى من الجائزة وهي مائة ألف درهم.

وسأل رجل الحسن بن علي رضي الله عنهما حاجة فقال له: يا هذا، حق سؤالك إياي يعظم لدي، ومعرفتي بما يجب لك تكبر علي، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله تعالى قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت، فقال: يا ابن رسول الله، أقبل وأشكر العطية، وأعذر على المنع، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفضل من الثلاثمائة ألف درهم، فأحضر خمسين ألفاً قال: أحضرها، فأحضرها

 ⁽١) حديث أنس: «يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العياد بإزاء العرش. . . » الحديث. وفي أوله قصة مع المأمون. أخرجه
الدارقطني فيه وفي إسناده الواقدي هن محمد بن إسحاق عن الزهري بالعنعنة ولا يصح.

فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل وقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين، فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين، فقال له مواليه: والله ما عندنا درهم فقال: أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم.

واجتمع قرّاء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا: لنا جار صوّام قوّام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوّج ابنته من ابن أخبه وهو فقير، وليس عنده ما يجهزها به، فقام عبدالله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره، وفتح صندوقاً فأخرج منه ست بدر فقال: احملوا، فحملوا، فقال ابن عباس: ما أنصفناه، أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه، وما بنا من الكبر ما لا تخدم أولياء الله تعالى، ففعل وفعلوا.

وحكي: أنه لما أجدب الناس بمصر وعبدالحميد بن سعد أميرهم فقال: والله لأعلمن الشيطان أني عدوه؛ فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم، فرهنهم بها حلي نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف، فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته.

وكان أبو طاهر بن كثير شيعياً فقال له رجل: بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا، فقال: قد فعلت، وحقه لأعطينك ما يليها، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل.

وكان أبو مرثد أحد الكرماء، فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك، ولكن قدمني إلى القاضي وادَّع علي بعشرة آلاف درهم حتى أقرّ لك بها ثم احبسني، فإن أهلي لا يتركوني محموساً، ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم، وأخرج أبو مرثد من الحبس.

وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقيين بالبصرة، فحضر بابه شاعر فأقام مدّة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له، فقال يوماً لبعض خدّام معن: إذا دخل الأمير البستان فعرّفني، فلما دخل الأمير البستان أعلمه، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فإذا مكتوب عليها:

أيا جرود معن نباج معناً بحاجتي فسمنا لي إلى معن سواك شفيع

فقال: من صاحب هذه؟ فدعي بالرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقال له، فأمر له بعشر بدر، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلما أخذها الرجل تفكر، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن: حق علي أن أعطيه حتى لا يقى في بيت مالي درهم ولا دينار.

وقال أبو الحسن المدائني: خرج الحسن والحسين وعبدالله بن حعفر حجاجاً، ففاتهم أثقالهم فحاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها. ففعلوا ذلك ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة، فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها، ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش بريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا؛ فإنا صائعون بك خيراً، ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال: ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين: نفر من قريش؟

قال: ثم بعد منّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، قدخلاها وجعلا ينقلان البعير إليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه، فمرّت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها: يا أمة الله أتعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا، فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي أنت هو؟ قال: نعم، ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين. بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر، فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى دينار، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار.

وخرج عبدالله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه، فقال له عبدالله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي، وأعوذ بالله إن طار بجناحك مكروه، فأخذ عبدالله بيده ومشى معه إلى منزله، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال: استنفق هذا فنعم ما أدبك أهلك.

وحكي: أنّ قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاؤوا من سفر بعيد؛ فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له: هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي؟ وكان السخي الميت قد خلف نجيباً معروفاً به، ولهذا الرجل بعير سمين، فقال له في النوم: نعم، فباعه في النوم بعيره بنجيبه، فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره في النوم، فانتبه الرجل من نومه فإذا النم يتج من نحر بعيره، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب، فقال رجل منهم: من فلان ابن فلان شيئا؟ وذكر الميت صاحب القبر، قال: نعم، بعت بعيري بنجيبه في النوم، فقال: خذ هذا نجيبه، ثم قال: هو أي وقد رأيته في النوم وهو يقول: إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان وسماه.

وقدم رجل من قريش من السفر، فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر له المرض، فقال: يا هذا، أعنا على الدهر، فقال الرجل لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف، فبكى فقال له الرجل: ما يبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك؟ قال: لا، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

واشترى عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معبط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدارهم، فقال: يا غلام، اتتهم فأعلمهم أنّ المال والدار لهم جميعاً.

وقيل: بعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسماتة دينار؛ فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب هارون وقال: أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيتي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ لي من غلتي كل يوم ألف دينار؛ فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم. وحكي: أنه لم تجب عليه الزكاة مع أنّ دخله كل يوم ألف دينار. وحكي: أنّ امرأة سألت الليث بن

سعد رحمة الله عليه شيئاً من عسل، فأمر لها بزق من عسل، فقيل له: إنها كانت تقنع بدون هذا؟ فقال: إنها سألت على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا. وكان اللبث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمائة وستين مسكيناً.

وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبدالرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني: هل استوفت علقها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إليًّ في علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وقال عبدالملك بن مروان لأسماء بن خارجة: بلغني عنك خصال فحدثني بها، فقال: هي من غيري أحسن منها مني، فقال: عزمت عليك إلا حدّثتني بها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلا كانوا أمن علي مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شبئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إياه.

ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبدالملك، وكان سعيد رجلاً جواداً، فإذا لم يجد شيئاً كتب لمن سأله صكاً على نفسه حتى يخرج عطاؤه، فلما نظر إليه تمثل بهذا البيت فقال:

إنسي سمعت مع البصياح مشادياً يا من يعين على الفتى المعوان

ثم قال: ما حاجتك؟ قال: دَيني، قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: لك دَينك ومثله.

وقيل: مرص قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً فنادى: من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده.

وعن أبي إسحاق قال: صليت الفجر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريماً لي، فلما صليت وضع بين يديِّ حلة ونعلان، فقلت: لست من أهل هذا المسجد، فقالوا: إنَّ الأشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين.

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي النيسابوري رحمه الله: سمعت محمد بن محمد المحافظ يقول: سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول: كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئاً، فولد لبعضهم مولود قال: فجئت إليه وقلت له: ولد لي مولود وليس معي شيء، فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال: رحمك الله كنت تفعل وتصنع، وإني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء، قال: ثم قام وأخرج ديناراً وقسمه نصفين وناولني نصفه، وقال: هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء، قال: فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال: فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال: سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب، ولكن احضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون، ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرجل، فلما كان من الغد تقدّم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له: اجلس. وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاؤوا بها فوضعوها بين يديه، فقال: هذا مالكم وليس لرؤياي حكم، فقالوا: هو يتسخى ميتاً ولا نتسخى نحن أحياء؟ فلما ألحوا عليه حمل

الدنائير إلى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة، قال: فأخذ منها ديناراً فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر، وقال: يكفيني هذا، وتصدّق به على الفقراء، فقال أبو سعيد: فلا أدري أي هؤلاء أسخى؟

وروي: أنّ الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال: مروا فلاتاً يغسلني، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأتي بها فنظر فيها، فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه، وقال: هذا غسلي إياه - أي أراد به هذا - . وقال أبو سعيد الواعظ المحركوشي: لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيماء الخير وآثار الفضل فقلت: بلغ أثره في الخير إليهم، وظهرت بركته فيهم، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَنِهِ مَا الكهف ٢٨] وقال الشافعي رحمه الله: لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه؛ أنه كان ذات يوم راكباً حماره فحركه فانقطع زرّه، فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوّي زرّه، فقال الخياط واعتلر إليه من قلتها، وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه:

يا لهف قلبي على مال أجودُ به على المقلّين من أهل المروءاتِ إنّ اعتذاري إلى من جاء يسألني ما ليس عندي لمن إحدى المصيباتِ

وعن الربيع بن سليمان قال: أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال: يا ربيع، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني. وقال الربيع: سمعت الحميدي يقول: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار، فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر، ونفض الثوب وليس عليه شيء. وعن أبي ثور قال: أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، وكان قلما يمسك شيئاً من سماحته، فقلت له: ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك، قال: فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال، فقال: ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها، ولكني بنيت بمنى مضرباً يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه. وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول:

أرى نسفسسي تستسوق إلسى أمسود يسقسمس دون مسيل خسهن مسالسي وسنفسسي لا تسطاد عسنسي فسعسالسي ومسالسي لا يسبسل خسنسي فسعسالسي

وقال محمد بن عباد المهلبي: دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم، فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين، منع الموجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائة ألف أخرى.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص قسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى، فقال له سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها فوجده عليلاً، فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه، وقال: عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه، فأقام شهرين فأوحشه طول المقام فكتب إليه يقول:

إنّ حسراماً قسيسول مسدحستسنا وتسرك ما نسرتهجي مسن السماية

ك مما السدراهم والسدنسانسيسر فسي السبسيست حسرام إلا يسدا بسيساد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه: كم أقام بالباب؟ قال: شهرين، قال: أعطه ثلاثين ألفاً وجئني بدواة، فكتب إليه:

أعهد التدنيا فأتباك عهاجه لهرانها قبلا ولهو أمهد المتنبا لهم نعقه الموافقة القالمين كأنبنا لهم نعقب ل

وروي: أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك. وقالت سعدى بنت عوف: دخلت على طلحة فرأيت مه ثقلاً، فقلت له: مالك؟ فقال: اجتمع عندي مال وقد غمني، فقلت: وما يغمك ادع قومك؟ فقال: يا علام، علي بقومي، فقسمه فيهم فسألت الخادم: كم كان؟ قال: أربعمائة ألف. وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرّب إليه برحم فقال: إنّ هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك، إنّ لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلاثمائة ألف فإن شئت فقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن.

وقيل: بكى على كرّم الله وجهه يوماً فقيل: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهاتني.

وأتى رجل صديقاً له فدق عليه الباب فقال: ما جاء بك؟ قال: عليَّ أربعمائة درهم دين، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت امرأته: لم أعطيته إذ شق عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي. فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين.

بيان ذم البخل:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن بُوقَ شُعَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُقَابِحُونَ﴾ [الحنر: ٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ اللَّهِن يَبْخَلُونَ بِمَا مَانَعُهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضَلِهِ. هُوَ خَبَّلُ لَحْمٌ بَلَ هُو شَرِّ لَكُمْ سَيُطَوَّتُونَ مَا يَظِولُ هِم يَوْمَ ٱلْفِيكَسَقُّ الله مِمرَان: ١٨٠] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ يَالْبُخْلِ وَيَحَنَّنُونَ مَا مَانَعُهُمُ اللَّهُ مِن فَضَلِهُ ﴿ اللَّهِ مِن فَضَلِهُ ﴾ [النّساء: ٣٧] وقال ﷺ: ﴿ اللَّهُ مُ وَالشَّحْ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَامُهُمْ وَالسَّحْلُوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ وَالسَّحْ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَامُهُمْ وَالسَّحْلُوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ وَدَعَاهُمْ وَالسَّحْلُوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ وَدَعَاهُمْ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ بَعِيلٌ ولا خَبُ ولا خَبُ ولا خَانِهُ فَاسْتَحَلُوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ وَدَعَاهُمْ فَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُمُ عَلَى اللّهُ وَاللَّهُ وَلَاللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا لَهُ وَلَا عَلَالِهُ وَلَا عَلَالُونَ وَلِلْ اللَّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللَّهُ وَلَا لَهُ اللَّهُ وَلَمُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا عَلَا اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا اللَّهُ مُا اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا اللَّهُ وَاللَّ

⁽١) حديث: الهاكم والشح... الحديث. أخرجه مسلم من حديث حابر بلفظ: (واتقوا الشح فإن الشح... الحديث، ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو: الهاكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيمة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا».

 ⁽۲) حديث: «إياكم والشح فإنه دعا من كان فبلكم فسفكوا دمامهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم؟
 أخرجه الحاكم من حديث أبي هربرة بلفظ: «حرماتهم» مكان «أرحامهم» وقال: صحيح على شرط مسلم.

ولا سَبِيءُ المَلَكَةِ، (١)، وفي رواية: اوَلاَ جَبَارُهُ ومي رواية: اولا منانه. وقال ﷺ: اثَلَاتُهُ مُهْلِكَاتُ:

شُخُ مُطَاعٌ وَهُوى مُتَّبِعٌ وَإِهْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ (٢)، وقال ﷺ: اللَّ اللهُ يُبْغِضُ ثَلاَئَةَ: الشَّيْخُ الرَّانِي، وَالْمَجِيلِ الْمَثْنَالُهُ (٣)، وقال ﷺ: هقال المُنْفِقُ وَالْمَجِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّنَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لَمُنْ ثَلِيقِهمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلا يُنْفِقُ شَيْتًا إلا سَبَغَتُ أَلْ وَفَرَتُ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُحْفِي حَدِيدٍ مِنْ لَكُنْ ثُلِيقِهمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلا يُنْفِقُ شَيْتًا إلا سَبَغَتُ أَلْ وَفَرَتُ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تَحْفِي عَنْ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ ا

حديث: (لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة) وفي رواية: (ولا منان) أخرجه أحمد والترمذي وحسنه
 من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله: (ولا منان) فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه: (الا يدخل المجنة سيء المملكة).

⁽٢) حديث: قالات مهلكات . . . ٤ الحديث. تقدم في العلم.

حديث: «إن الله يبغض ثلاثاً: الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال» أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي
 ذر دون قوله: «البخيل المنان» وقال فيه: «الغني الظلوم» وقد تقدم وللطبراني في الأوسط من حديث علي: «إن الله
 ليبغض الفني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال» وسنده ضعيف.

 ⁽٤) حديث: المثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد. . . الحديث. منفق عليه من حديث أبي هربرة.

 ⁽٥) حديث: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق، أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: غريب.

حديث: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأهوذ بك من الجين . . . » الحديث . أخرجه البخاري من حديث سعد،
 وتقدم في الأذكار .

⁽٧) حديث: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...» الحديث. أخرجه الحاكم من حديث عبدالله بن عمرو دون قرله: «أمرهم بالكلب فكتبوا وأمرهم بالظلم فظلموا» قال عوضاً عنهما: فوبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجرواه وكذا رواه أبو داود مقتصراً على ذكر الشح، وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث، ولمسلم من حديث جابر: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح» فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش.

^(^) حديث: قشر ما في الرجل شح هالع وجين خالع، أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد.

 ⁽٩) حديث: قوما يدويك أنه شهيد فلمله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه. أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وللمبهلي في الشعب من حديث أنس أن أمة قالت: قليهنك الشهادة وهو عند الترمذي: قإلا أن رجلاً قال له: أبشر بالجنة).

⁽١٠) حديث جبير بن مطعم: ابينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به...» الحديث. أخرجه البخاري، وتقدم في أخلاق النبوة.

غير هؤلاء كان أحق به منهم؟ فقال: ﴿إِنَّهُمْ يُخَيِّرُونِي بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِي مِالفَّحْشِ أَوْ يُبَخُّلُونِي وَلَسْتُ بِبَاخِلِ، (١)، وقال أبو سعيد الخدري: دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين؛ فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفًا، وشكرا ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالاً. فقال ﷺ: ﴿لَكِنْ فُلانٌ أَعْطَيْتُهُ مَا بَيْنَ عَشَرَةٍ إِلَى مائَةٍ وَلَمْ يَقُلُ ذُلِكَ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي فَيَنْطَلِقُ فِي مَسْأَلَتِهِ مُتَأْبَطَها وَهِيَ نَارٌ ٤؛ فقال عمر: فلم تعطهم ما هو نار؟ فقال: «يَأْبُونَ إلا أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى الله لِيَ البُخْلَ»^(٢)، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: االمُحُودُ مِنْ جُودِ الله تَعَالَى فَجُودُوا يَجُدِ الله لَكُمْ أَلا إِنَّ الله عَزَّ وَجَلِّ خَلَقَ اللَّجُودَ فَجَمَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَجَعَلَ رأْسَةً رَاسِحًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ طُوبَى، وَشَدُّ أَغْضَانَها بِأَغْصَانِ سِلْرَةِ المُنْتَهَى، وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِها إِلَى اللَّنْيَا، لمنْ تَعَلَّقُ بِغُصْنِ مِنْها أَذْخَلَهُ الجَنَّةَ، ألا إنّ السَّخاءَ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ. وَخَلَقَ البُحْلَ مِنْ مَثْتِهِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ راسِخاً فِي أَصْلِ شَجَرَةِ الزَّقُومِ وَدَلَّى بَغْضَ أَغْصَانِها إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ ثَعَلْقَ بِغُصْنِ مِنْهَا أَذْخَلَهُ النَّارَ، أَلَا إِنَّ البُّخُلَ مِنَ الكُفْرِ وَالكُفَّرُ فِي النَّارِ»(٣)، وقال ﷺ: ﴿السُّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الجَنَّةِ فَلا يَلِجُ الجَنَّةَ إِلاَّ سَخِيْ، وَالبُخُلُ شَجَرَةٌ ثَنْبُتُ فِي المُنَّارِ فَلا يَلِيجُ النَّارَ إِلاَّ بَخِيلٌ» (٤) وقال أبو هرَّيرة: قال رسول الله ﷺ لِوَفْدِ بني لِحيان : قَمَنْ سَيَّدُكُمُّ يًا بَنِي لحيانً؟؛ قالوا: سيدنا جدّ بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل، فقال ﷺ: ﴿وَأَيُّ ذَامٍ أَدْوَأُ مِنَ البُّخُلْ وَلْكِنُّ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ»(°)، وفي رواية أنهم قالوا: سيدنا جدّ بن قيس، فقال: إلهم تسودونه؟» قالوا: إنه أكثر مالاً، وإنَّا على ذلك لنرى منه البخل، فقال عليه السلام: (وأي داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم» قالوا: فمن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «سيدكم بشر بن البراء». وقال علي رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللهُ يُبْغِضُ البَخِيلَ فِي حَيَاتِهِ السَّخِيُّ عِنْدَ مَوْتِهِ (١٠)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «السَّخِيُّ الجَهُولُ أَحَبُّ إِنِّي اللهُ مِنَ المَابِدِ الْبَخِيلِ، (٧٠)، وقال أيضاً:

⁽١) حديث عمر: (قسم النبي ﷺ تسمأ. . .) الحديث. وفيه: (ولست بياخل) أخرجه مسلم.

⁽٢) حديث أبي سعيد : «في الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله على دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفاً. . . ٤ الحديث. وفيه : «ويأبى الله في البخل» رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد : إنهما سألاه ثمن بعير ، ورواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر ، ورجال أسائيدهم ثقات.

 ⁽٣) حديث ابن عباس اللجود من جود الله فجودوا بجد الله لكم. . . ٩ الحديث عطوله ذكره صاحب الفردوس، ولم يخرجه ولده في مستده ولم أقف له على إساد.

⁽٤) حديث: «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج في الجنة إلا سخي. . . » الحديث. تقدم دون قوله «فلا يلج في الجنة» إلى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردوس من حديث علي ولم يخرجه ولده في مسنده.

حديث أي هريرة: "من سيدكم يا يتي لحيان؟ قالوا: "سيدنا جد بن قيس. . . . الحديث . أخرجه الحاكم وقال:
 صحيح على شرط مسلم ملفظ "يا بني سلمة"، وقال: "سيدكم بشر بن البراه وأما الرواية التي قال فيها: "سيدكم
 عمرو بن الجموح" قرواها الطبراني في الصغير من حديث كمب بن مالك بإسناد حسن.

 ⁽٦) حديث علي: «إن الله ليبغض البخيل في حياته السخي هند موته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسئله،
 ولم أجد له إسئاداً

 ⁽٧) حديث أبي هريرة: «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل؛ أخرجه الترمذي بلفظ: اولجاهل سخي، وهو بفية حديث: إلى السخي قريب من الله، وقد تقدم.

قَالَ ﷺ: «الشَّحُ وَالإيمَانُ لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْب عَبْدِه (١)، وقال أيضاً: «خَصْلَتَانِ لا تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنِ: البُخْلُ وَسُوءُ الخُلْقِ (٢)، وقال ﷺ: «يَقُولُ البُخْلُ وَسُوءُ الخُلْقِ (٢)، وقال ﷺ: «يَقُولُ قَائِلُكُمْ: الشَّحِيحُ أَغْذَرُ مِنَ الظَّالِم وَأَيُّ ظُلْم أَظْلَمُ حِنْدَ الله مِنَ الشَّحْ، حَلَفَ الله تَعَالَى بِعِزْتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلالِهِ لا يَدْخُلُ الجَنَّةُ شَحِيحٌ وَلاَ بَحِيلٌ (٤).

وروي: أن رسول الله على كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي ذبي فقال على: "وَمَا نَفْيكَ صِفْهُ لِي؟ فقال: هو أعظم من أن أصفه لك فقال: "وَيْحَكَ ذَنْبِكَ أَعْظَمُ أَمِ الأَرْضُونَ؟ فقال: بل ذبي أعظم يا رسول الله، قال: فَفَلَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْجِبَالُ؟ قال: بل ذبي أعظم يا رسول الله، قال: بل ذبي أعظم يا رسول الله، قال: «فَفَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْجِبَالُ؟ قال: بل ذبي أعظم يا رسول الله، قال: «فَفَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْجِبَالُ؟ قال: بل ذبي أعظم يا رسول الله، قال: هَفَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى، قال: قال: بل ذبي أعظم يا رسول الله، قال: «فَفَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى، قال: هَفَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الله؟ قال: بل الله أعظم وأعلى، قال: فكأنما يستقبلي بشعلة من نار، فقال عَلَى ﴿ وَلَنَكَ عَنِي لا تَحْرِقْنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثْنِي بِالهِدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ فَكُنْما يستقبلي بشعلة من نار، فقال عَلَى: ﴿ وَلَنَكَ عَنِي لا تَحْرِقْنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثْنِي بِالهِدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ فَى نَعْرِي مِنْ وَالْمَقَامِ ثُمْ صَلَيْتَ أَلْفَي الْفَو عَامٍ ثُمَّ بَكَيْتَ حَتَى تَجْرِي مِنْ وُمُوعِكَ اللهَ فِي النَّارِ عَلَى النَّارِ وَيُحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ البُخْلَ كُفُرُ وَأَنْ الْكُفْرَ فِي النَّارِ وَيُحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْبُخْلَ كُفُرُ وَأَنْ الْكُفْرَ فِي النَّارِ وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهُ فَي أَنْ اللهُ تَعَلَى يَقُولُ: ﴿ وَمَن يَبْحَلُ فَإِنَّا يَبْعَلُ عَن نَشْدِيدٍ ﴾ [محمَّد: ٢٨]. ﴿ وَمَن يَبْحَلُ فَإِنَّا يَبْعَلُ عَن نَشْدِيدٌ ﴾ [محمَّد: ٢٨]. ﴿ وَمَن يَبْحَلُ فَإِنْكَ يَبْعَلُ عَن نَشْدِيدٌ ﴾ [محمَّد: ٢٨]. ﴿ وَمَن يُبْحَلُ فَقَلْ يَبْعَلُ عَنْ نَشْدِيدٌ ﴾ [محمَّد: ٢٨]. ﴿ وَمَن يَبْحَلُ فَيْ اللّهُ عَنْ نَشْدِيدٌ ﴾ [محمَّد: ٢٨]. ﴿ وَمَن يُبْحَلُ فَقَلْ يَبْعُلُ عَن نَشْدِيدٌ ﴾ [محمَّد: ٢٨].

الآثار: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما خلق الله جنة عدن قال لها: تزيني فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك. فأظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم؛ فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن، ثم قال لها: أظهري سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحليك وحللك وحور عينك. فأظهرت، فنظر إليها فقال: تكلمي فقالت: طوبي لمن دخلني. فقال الله تعالى: وعزتي لا أسكنك بخيلاً. وقالت أم البنين أحت عمر بن عبدالعزيز: أف للبخيل، لو كان البخل قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته. وقال طلحة بن عبدالله رضي الله عنه: إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر. وقال محمد بن المنكلر: كان يقال: إذا أراد الله بقوم شراً أمر الله عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم. وقال علي كرم الله وجهه في خطبته: إنه سيأتي على الناس زمان عضوض، يعض الموسر على ما في يده ولم يؤمر بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسُوا الْقَضَلَ بَيْنَكُم ﴾ [البَقْرَة. ٢٣٧]. وقال عبدالله بن عمرو: الشيح أشد من البخل؛ لأن الشجيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى بأخذه ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل هو البخل؛ لأن الشجيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى بأخذه ويشح بما في يده فيحبسه، والبخيل هو

١٠) - حديث أبي هريرة: الا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبده أخرجه النسائي وفي إساده اختلاف.

 ⁽٢) حديث: فخصلتان لا تجتمعان في مؤمن... الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

٣٠ حديث: الا ينبغي لمؤمن أن يكون جياناً ولا بخيلاً لم أره بهذا اللفظ.

 ⁽³⁾ حديث: فيقول قاتلكم الشحيح أهذر من الظالم وأي ظلم أظلم من الشح. . . ٤ الحديث. وفيه: الا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل الم أجده بتمامة، وللترمذي من حديث أبي بكر «لا يدخل الجنة بخيل» وقد تقدم.

⁽ه) حديث: «كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلا غفرت لي...» الحديث، في ذم الدخل وقيه قال: «إليك هني لا تحرقني بنارك...» الحديث، بطوله، وهو باطل لا أصل له.

كتاب ذم البخل وذم حب المال

الذي يبخل بما في يده. وقال الشعبي: لا أدري أيهما أبعد غوراً في نار جهنم البخل أو الكذب؟ وقيل: ورد على أنوشروان حكيمُ الهند وفيلسوفُ الروم فقال للهندي: تكلم، فقال: خير الناس من ألفي سخياً، وعند الغضب وقوراً، وفي القول متأنياً، وفي الرفعة متواضعاً، وعلى كل ذي رحم مشفقاً. وقام الرومي فقال: من كان بخيلاً ورث عدوّه ماله، ومن قلُّ شكره لم ينل النجح، وأهل الكذب منمومون، وأهل النميمة يموتون فقراء، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعَلَقِهم أَغُلْلًا [يس: ٨] قال: البخل، أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى. وقال كعب: ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان: اللهم عجل لممسك تلفاً وعجل لمتفق خلفاً. وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً وقد وصف رجلاً فقال: لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه. وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا أرى أن أعدل بخيلاً؛ لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة. وقال على كرّم الله وجهه: والله ما استقصى كريم قط حقه، قال الله تعالى: ﴿ عَرَّفَ نَمْضَهُ وَأَغْرَضَ عَنْ نَعْزَكِ [النّحْريم: ٣]. وقال الجاحظ: ما بقى من اللذات إلا ثلاث: ذم البخلاء، وأكل القديد، وحك الجرب. وقال بشر بن الحارث: البخيل لا غيبة له، قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّكَ إِذَا لَبَخِيلٌ﴾. ومدحت امرأة عند رسول الله ﷺ فقالوا: صوّامة قوامة إلا أنَّ فيها بخلاً قال: «فَمَا خُيْرُهَا إِذاً» (أنه بشر: النظر إلى البخيل يقسى القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين. وقال يحيى بن معاذ: ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجاراً، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً. وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه. ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام، إبليس في صورته فقال له: يا إبليس، أخبرني بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك، قال: أحب الناس إلى؛ المؤمن البخيل، وأبعض الناس إلى؛ الفاسق السخي، قال له: لم؟ قال: لأن البخيل قد كفاني بخله، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله، ثم ولي وهو يقول: لولا أنك يحيي لما أخبرتك.

حكايات البخلاء:

قيل: كان بالبصرة رجل موسر بخيل، فدعاه بعض جيرانه، وقدِّم إليه طباهجة ببيض، فأكل منه فأكثر، وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت، فجعل يتلوّى، فلما جهده الأمر وصف حاله للطبيب فقال: لا بأس عليك، تقيأ ما أكلت، فقال: هاه، أتقيّا طباهجة ببيض؟ الموت ولا ذلك.

وقيل: أقبل أعرابي يطلب رجلاً، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه، فجلس الأعرابي، فقال له الرجل: هل تحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، فقرأ ﴿ وَالْيَتُونِ ۞ وَمُورِ مِينِينَ ۞ [التِّين: ٢٠١] فقال: وأين التين؟ قال: هو تحت كسائك.

ودعا بعضهم أخاً له ولم يطعمه شيئاً، فحبسه إلى العصر حتى اشتد جوعه وأخذه مثل الجنون، فأخذ صاحب البيت العود وقال له: بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال: صوت المقلي.

ويحكى: أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه، فقال له قائل: صف لي مائدته فقال: هي فتر في فتر، وصحافة منقورة من حب الخشخاش، قيل: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون. قال: فما يأكل معه أحد؟ قال: بلي، الذباب. فقال: سوأتك

⁽١) حديث: «مدحت امرأة عند النبي ﷺ فقالوا: صوامة قوامة إلا أن فيها بخلاً. . . ٩ الحديث. تقدم في آفات اللسان.

بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق، قال: أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءاً إبراً، ثم جاءه جبريل وميكائيل، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه إبرة، ويسألونه إعارتهم إياها؛ ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ من ذُبُر ما فعل.

ويقال: كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم إليه، فإذا قرم إليه أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله فقيل له: نواك لا تأكل إلا الرؤوس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك؟، قال: نعم، الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام، ولا يستطيع أن يغبنني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه، إن مس عيناً أو أذناً أو خذاً وقفت على ذلك، وآكل منه ألواناً، عينه لوناً، وأذنه لوناً، ولسانه لوناً، وغلصمته لوناً، ودماغه لوناً، وأكفى مؤونة طبخه؛ فقد اجتمعت لي فيه مرافق. وخرج يوماً يريد الخليفة المهدي، فقالت له امرأة من أهله: ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟. فقال: إن أعطبت مائة ألف أعطيتك درهماً، فأعطي ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانق. واشترى مرّة لحماً بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق وقال: أكره الإسراف. وكان للأعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول: لو دخلت فأكلت كسرة وملحاً فيأبي عليه الأعمش، فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الأعمش، فقال: صر بنا، فدخل منزله فقرّب إليه كسرة وملحاً، فجاء سائل فقال له رب فوافق جوع الأعمش، فقال: صر بنا، فدخل منزله فقرّب إليه كسرة وملحاً، فجاء سائل فقال له رب خرجت إليك بالعصا، قال: فناداه الأعمش وقال: اذهب ويحك، فلما سأل الثالثة قال له: أذهب، وإلا والله خرجت إليك بالعصا، قال: فناداه الأعمش وقال: اذهب ويحك، فلما سأل الثالثة قال له: أصدق مواعيد خرجت إليك بالعصا، قال: فناداه الأعمش وقال: اذهب ويحك، فلا والله ما رأيت أحداً أصدق مواعيد منه، هو منذ مدّة يدعوني على كسرة وملح، فوالله ما زادني عليهما.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم: أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجة السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة. وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشد. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن؛ ولو وجدها مجاناً لأكلها. فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة، وذلك يؤثر على نفسه عبره مع أنه محتاج إليه، فانظر ما بين الرجلين؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال: حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال: فَوَلَّ مَنْ نَفْسِهِ غُفِرَ لَهُ الله الله الله عنها: ما شبع رسول الله على ثلاثة أبام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا (٢)، وزل برسول الله على ضبف متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا (٢)، وزل برسول الله على ضبف

 ⁽١) حديث: «أيتما رجل اشتهى شهوة قرد شهوته وآثر على نفسه فقر له». أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو الشيخ في
 الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف، وقد تقدم.

حديث عائشة: «ما شبع رسول الله على ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا تؤثر على أنفسناه. أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ: «ما شبع رسول الله على تفسه». وأول الحديث عند مسلم بلفظ: «ما شبع رسول الله على ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى لسبيله». وللشيخين: «ما شبع آل محمد سد قدم المدينة ثلاثة ليال ثباعاً حتى قض». زاد مسلم: «من طعام».

زحياء فلوم الذين

فلم يجد عند أهله شيئاً، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل، حتى أكل الضيف، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ عَجِبَ الله مِنْ صَنِيعِكُمُ اللّيْلَةَ إِلَى صَنِيعِكُمُ اللّيْلَةَ إِلَى صَنِيعِكُمُ»، ونزلت ﴿ رُبُولِنُونَ فَلما أصبح قال له رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى، والإيثار أعلى درجات السخاء. وكان ذلك من أدب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ نَالَى عَظِيمِ ﴿ إِللَهُ مَا أَدب رسول الله الستري: قال موسى عليه السلام: يا رب، أرني بعض درجات محمد ﷺ وأمته فقال: يا موسى، إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله بعض درجات محمد ﷺ وأمته فقال: يا موسى، إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى، فقال: يا رب، بماذا بلعت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار، يا موسى، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتأ من عمره ولا استحبيت من محاسبته، ويؤاته من جتى حيث يشاء.

وقيل: خرج عبدالله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه؛ إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله، وعبدالله ينظر إليه فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت قال: فلم آثرت به هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبدالله بن جعفر: ألام على السخاء، إنّ هذا الغلام لأسخى مني، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه.

وقال عمر رضي الله عنه: أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج مني إليه فبعث به إليه، فلم يزل واحد يبعث به إلى آخر حتى تداوله سبعة أبيات ورجع إلى الأوّل.

وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله على فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام: إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأبكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختارا كلاهما الحياة وأحباها؛ فأوحى الله عز وجل إليهما: أفلا كنتما كمثل على بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبي محمد على فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبريل عليه السلام يقول: بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب، والله تعالى يهاهي بك الملائكة فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النّاسِ مَن يَشْرِى نَهْسَهُ أَيْنَا اللهِ وَاللهُ وَاللهُ رَهُوكُ إِلْهِ اللهِ اللهِ اللهُ وَاللهُ وَلهُ وَاللهُ وَ

 ⁽١) حديث: «نزل به ضيف علم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب به إلى أهله. . . ٤ الحديث. في نزول قوله تعالى: ﴿ وَزُوْلُهُ وَنَ عَلَيْ أَنْدُسِهُمْ وَلَوْ كَانَ بِيهُ حَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] منفق عليه من حديث أبي هريرة.

⁽٣) حديث: «بات علي على فراش رسول الله ﷺ فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر... الحديث. في نزول قوله تعالى: ﴿ وَبِنَ النّابِ مَن بَشْرِى نَفْسَهُ أَبَعِنَكُ مُهَسَاتِ اللّهِ اللّهَوَّةُ ' ٢٠٧]. أخرجه أحمد مختصراً من حديث ابن عباس: «شرى عليّ نفسه فلبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه .. الحديث. وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل، ولم أقف لهذه الزيادة على أصل، وفيه أبو بلج مختلف فيه والحديث منكر.

وعن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً _ وكانوا في قرية بقرب الريّ _ ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رفع فإذا طعام بحاله، ولم يأكل أحد منه شيئاً؛ إيثاراً لصاحبه على نفسه.

وروي: أن شعبة جاءه وليس عنده شيء؛ فنزع خشبة من سقف بيته فأعطاه، ثم اعتذر إليه.

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم، فإذا رجل يقول: آه... فأشار ابن عمي إليَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه... فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى همي فإذا هو قد مات، وحمة الله عليهم أجمعين.

وقال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث؛ فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه، واستعار ثوباً فمات فيه.

وعن بعض الصوفية قال: كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد، فتبعا كلب من البلد، فلما بلغنا ظاهر الباب إذا نحن بدابة ميتة، فصعدنا إلى موضع عال وقعدنا. قلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً، فجاء إلى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب في الميتة، فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر إليها حتى أكلت الميتة وبقي العظم ورجعت الكلاب إلى البلد، فقام ذلك الكلب وجاء إلى تلك العظام، فأكل مما بقي عليها قليلاً ثم انصرف.

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار وأحوال الأولياء في كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا، وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عزّ وجلّ.

بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما:

لعلك تقول: قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم: هذا بخل، ويقول آخرون ليس هذا من البخل. وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حباً للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً فإذاً لا ينفك أحد عن البخل. وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك؟ وما حد السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها؟. فنقول: قد قال قائلون: عد البخل منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل، وهذا غير كاف؛ فإن من يرد اللحم مثلاً إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعد بخيلاً بالاتفاق. وكذلك من يسلم مثلاً إلى القصاب والخبز للخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعد بخيلاً بالاتفاق. وكذلك من يسلم بخيلاً، ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عد بخيلاً، وقال قائلون: بخيلاً، ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عد بخيلاً. وقال قائلون: البخيل هو الذي يستصعب العطية، وهو أيضاً قاصر، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها، ويستصعب ما فوق ذلك؟ وإن أريد به أنه بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها، ويستصعب ما فوق ذلك؟ وإن أريد به أنه

يستصعب بعض العطايا: قما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم. قهذا لا يوجب الحكم بالبخل، وكذلك تكلموا في الجود، فقيل: الجود عطاء بلا من وإسعاف من غير روية. وقيل: الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل، وقيل: الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن، وقيل: الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل، فيعطي عبد الله على غير رؤية الفقر، وقيل: من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل.

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل، بل نقول: المال خلق لحكمة ومقصود؛ وهو صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلا ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير. ويبنهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه؛ إذ لم يؤمر رسول الله عليه إلا بالسخاء، وقد قيل له: ﴿وَلَا بَعَمَلْ يَدَكُ مَعَلُولَةٌ إِلَى عُنُوكَ وَلا نَبْسُطُهَا كُلُّ اَلْبَسُولِ [الإسراء: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي وَالإَنْ الْفَقُولُ لَمْ يُسْرِقُواْ وَلَمْ يَقَمُّواً وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿ الله وَإِمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو وهو بصابرها فهو متسخ وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

فإن قلت: فقد صار هذا موقوفاً على معرفة الواجب فما الذي يجب بذله؟.

فأقول: إن الواجب قسمان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً مسهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه، فإنه بخيل بالطبع، وإنما يتسخى بالتكلف، أو الذي يتيمم الخبيث من ماله، ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله، أو من وسطه، فهذا كله بخل.

وأما واجب المروءة: فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص. فمن كثر ماله استقبح منه ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه ما لا يستقبح مع الأجانب، ويستقبح من الجار ما لا يستقبح مع البعيد، ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب؛ إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرها، ويستقبح في شراء الكفن مثلاً أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة ما لا يستقبح في غيره من المضايقة. وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجني، وبمن منه المضايقة من صديق أو جاهل أو موسر أو فقير. فالبخيل هو وبمن منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير. فالبخيل هو وبمن منه المضايقة من صبي أن لا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على

مقداره. ولعل حد البخل هو: إمساك المال عن غرض، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال، فإنّ صيانة الدين أهم من حفظ المال، فمانع الزكاة والنفقة بخيل. وصيانة المروءة أهم من حفظ المال، والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل.

ثم تبقى درحة أخرى، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة؛ ولكن معه مال كثير قد جمعه، ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين، فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدّة على نوائب الزمان، وغرض الثواب ليكون رافعاً لدرجاته في الآخرة، وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس، وليس ببخل عند عوام الحلق، وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا؟ فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهماً، وربما يظهر عند العوام أيضاً سمة البخل عليه إن كان في جواره محتاج فمنعه، وقال: قد أديت الزكاة الواجبة وليس على غيرها. ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله، وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه. فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل. نعم، لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات، فإذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير. ودرجات ذلك لا تحصر، وبعض الناس أجود من بعض، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء؛ فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد، فإنه يشتري المدح بماله، والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه، والجود هو بذل الشيء من غير عوض. هذا هو الحقيقة ولا يتصوّر ذلك إلا من الله تعالى، وأما الآدمي فاسم الجود عليه مجاز؛ إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة، أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً، أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود؛ لأنه مضطر إليه بهذه البواعث، وهي أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد، كما روي عن بعض المتعبدات أنها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت: هل نيكم من أسأله عن مسألة؟ فقالوا لها: سلى عما شئت ـ وأشاروا إلى حبان بن هلال ـ فقالت: ما السخاء عندكم؟ قالوا: العطاء والبذل والإيثار، قالت: هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين؟ قالوا: أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة، قالت: فتريدون على ذلك أجراً؟ قالوا. نعم، قالت، ولم؟ قالوا: لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها، قالت: سبحان الله فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأي شيء تسخيتم عليه؟ قالوا لها: فما السخاء عندك يرحمك الله؟ قالت: السخاء عندي: أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين، لا تريدون على ذلك أجراً حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء، ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها أنكم ثريدون شيئاً بشيء؟ إن هذا في الدنيا لقبيح. وقالت بعض المتعبدات: أتحسبون أن السخاء في الدراهم والدينار فقط؟ قيل: ففيم؟ قالت: السخاء عندي في المهج. وقال المحاسبي: السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عزّ وجلّ، ويسخو قلبك ببذلك مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه، ولا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً، وإن كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله، حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختار لنفسك.

بيان علاج البخل:

اعلم: أن البخل سببه حب المال. ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله؛ إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم. ولذلك قال عليه السلام: «الوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ»(١)، فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: أن يحب عين المال؛ فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره، إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف، وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها، يلتذ بوجودها مي يده وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا، فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة، وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه. ومثال صاحبه: مثال رجل عشق شخصاً فأحب رسوله لنفسه ثم نسى محبوبه واشتغل برسوله، فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة لذلك، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ، ثم قد تنسى الحاجات ويصير الدُّهب عنده كأنه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً قهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة. فهذه أساب حب المال. وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران، وطول تعبهم في حمع المال وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد ولم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر، وأن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته إليه. ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم. ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه. ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال، وأنه لماذا خلق؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه، والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله. فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً، فإن تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه.

حكي: أنَّ أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذاً له وقال: انزع عني القميص

 ⁽۱) حديث: «الولد مبخلة» زاد في رواية: «محزنة» ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله: «محزنة» رواه مهذه
 الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبي سعيد، والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح.

وادفعه إلى قلان، فقال: هلا صبرت حتى تخرج؟ قال: لم آمن على نفسي أن تتغير، وكان قد خطر لي بذله. ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً كما لا يزول العشق إلا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقرّه؛ حتى إذا سافر وفارق تكلفاً وصبر عنه مدّة تسلى عنه قلبه، فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبعي أن يفارق المال تكلفاً بأن يبذله، بل لو رماه في الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له. ومن لطاقف الحيل فيه: أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود، فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء، ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال، كما يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب، ولكن لينفك عن الثدي إليه، ثم ينقل عنه إلى غيره، فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها، ويسلط الغضب على الشهوة وتكسر حونتها به، إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء، فيبذل الأقوى بالأضعف، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه، فإنه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها، إلا أن علامة ذلك: أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء، فلذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه، فإن كان البخل أغلب عليه من أنه بذل أن مرض البخل أغلب عليه قله،

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال: إن الميت تستحيل جميع أجزائه دوداً ثم يأكل بعض الليدان البعض، حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت، فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها، ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عن الصفات: أن لا يعمل بمقتضاها، فإنها تقتضي لا محالة أعمالاً، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت. مثل البخل فإنه يقتضي إمساك المال، فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعاً وسقط التعب فيه، فإن علاج البخل بعلم وعمل، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود والبدل على سبيل التكلف، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة، فلم يتيسر العمل فتقى العلة مزمنة؛ كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت.

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريدين: أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم. وكان إذا توهم في مريد فرحه بزاويته وما فيها نقله إلى زاوية غيرها، ونقل زاوية غيره إليه وأخرجه عن جميع ما ملكه، وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه، أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها إلى غيره، ويلبسه ثوباً خلقاً لا يميل إليه قلبه.

فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا. فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها، فإن كان له ألف معبوب، ولذلك إذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له، فإذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة؛ لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك.

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير، ففرح الملك بذلك فرحاً شديداً، فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه مصيبة أو فقراً، قال: كيف؟ قال: إن كسر كان مصيبة لا جبر لها، وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر، ثم اتفق يوماً أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال: صدق الحكيم، ليته لم يحمل إليناه وهذا شأن جميع أسباب الدنيا، فإن الدنيا عدوة لأعداء الله تسوقهم إلى النار، وعدوة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها، وعدوة الله إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوة نفسها، فإنها تأكل نفسها فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس. والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير، فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته حتى يفني، ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح به ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل؛ لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل ولا يحتاج إليه، قلا يتعب نفسه بحفظه فيبدله، بل هو كالماء على شط الدجلة؛ إذ لحاجته فليس ببخل ولا يحتاج إليه، قلا يتعب نفسه بحفظه فيبدله، بل هو كالماء على شط الدجلة؛ إذ لا يخط به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة.

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله:

اعلم: أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه. ومثاله مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري، ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى: أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب، ولا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية: أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة، وكالسؤال الذي فيه الذل وهنك المروءة وما يجري مجراه.

الثالثة: في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل، بل القدر الواجب، ومعياره الحاجة، والمحاجة، والمحاجة ملبس ومسكن ومطعم. ولكل واحد ثلاث درجات: أدنى، وأوسط، وأعلى. وما دام مائلاً إلى جانب القلة ومتقرّباً من حد الضرورة كان محقاً ويجيء من جملة المحقين، وإن جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها، وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد.

الرابعة: أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه والوضع في عير حقه سواء.

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال، ولذلك قال على رضي الله عنه: لو أنّ رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد. فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله، مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة، فإذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة في حقك. وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما

يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حية الممال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه. والعامي إذا تشبه بالعالم في الاستكثار من المال، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبي الذي يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدي به، ويظن أنه أخذها مستحسناً صورتها وشكلها ومستلينا جلدها، فيأخذها اقتداء به فتقتله في الحال، إلا أن قتيل الحية يدري أنه قتيل، وقتيل المال قد لا يعرف. وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل:

هي دنيا كحية تنصث السند م وإنّ كانت المسجسة لانت وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير في تخطي قلل الجبال وأطراف البحر والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل في تناول المال.

بيان ذم الغنى ومدح الفقر:

اعلم: أن الناس قد اختلفوا في تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر ـ وقد أوردنا ذلك في كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه _، ولكنا في هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات إلى تفصيل الأحوال، ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي رضى الله عنه في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء من الأغنياء، حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبدالرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم، والمحاسبي رحمه الله حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغور العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه. وقد قال بعد كلام له في الرد على علماء السوء : بلغنا أنَّ عيسى ابن مريم عليه السلام قال: يا علماء السوء، تصومون وتصلون وتصدّقون ولا تفعلون ما تؤمرون، وتدرسون ما لا تعلمون؛ فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا حلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة؛ كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم. يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدبيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم. بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم؟ فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة؛ فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون؟ ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلحين وتقيمون في محل المتحيرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم؟ كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة متعطلة! يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم، فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادي، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم. ثم قال الحارث رحمه الله: إخواني، فهؤلاء علماً، السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة، وأذلوا

الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين، وفي الآخرة هم الخاسرون، أو يعفو الكريم بفضله.

وبعد: فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصي، وإلى البوار والتلف مصيره، فرح الهالك برجائه فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه: ﴿ عَبِسَ اَلَّذُنِهَا وَٱلْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ ٱلْحُسْرَانُ ٱلْشِينُ﴾ [الحَجّ: ١٦] فيا لها من مصيبة ما أفظعها ورزية ما أجلها، ألا فراقبوا الله _ إخواني _ ولا يغرّنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله، فإنهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج، ويزعمون أنّ أصحاب رسول الله ﷺ كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون. ويحك أيها المفتون، إنَّ احتجاجك بمال عبدالرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك! لأنك متى زعمت أنَّ أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم إلى أمر عظيم، ومتى زعمت أنَّ جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد ازدريت محمداً والمرسلين، ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت، ومتى زعمت أنَّ جمع المال الحلال أعلى من تركه، فقد رعمت أنّ رسول الله ﷺ لم ينصح للأمة إذ نهاهم عن جمع المال(١٠)، وقد علم أنّ جمع المال خير للأمة؛ فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال، كذبت ورب السماء على رسول الله ﷺ! فلقد كان للأمة ناصحاً وعليهم مشفقاً وبهم رؤوفاً. ومتى زعمت أنَّ جمع المال أفضل فقد زعمت أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم أنَّ جمع المال خير لهم؛ أو زعمت أنَّ الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه، وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل، لذلك رغبت في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك، تعالى الله عن جهلك أيها المفتون؛ تدبر بعقلك ما دهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة! ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبدالرحمن بن عوف وقد ودٌّ عبدالرحمن بن عوف في القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتاً؟.

ولقد بلغني: أنه لما توفي عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله على: إنا نخاف على عبدالرحمن فيما ترك، فقال كعب: سبحان الله وما تخافون على عبدالرحمن كسب طيباً وأنفق طيباً وترك طيباً، فبلغ ذلك أبا ذرّ فخرج مغضباً يريد كعباً فمر بعظم لحي بعير فأخذه بيده، ثم انطلق يريد كعباً، فقيل لكعب: إن أبا ذرّ يطلبك، فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر، وأقبل أبو ذرّ يقص الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان، فلما دحل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي درّ، فقال له أبو ذرّ: هيه يا ابن اليهودية! تزعم أن لا بأس بما ترك عبدالرحمن بن عوف، ولقد خرج رسول الله على يوماً نحو أحد وأنا معه فقال: فيا أبا ذرا فقلت: لبيك يا رسول الله فقال «الأكثرون هُمُ الأقلُونَ يَوْمَ القِيامَةِ إلا مَنْ قَالَ لَمُكَذَا وَهُكَذَا عَنْ

⁽¹⁾ حديث: «النهي عن جمع المال». أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود: «ما أوحى الله إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين. .» الحديث، ولأبي نميم والخطيب في التاريخ والبيهةي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث «لا تجمعوا ما لا تأكلون» وكلاهما ضعيف.

يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقُدَّامِهِ وَخَلْفِهِ وَقَلِيلُ مَا هُمُهُ ثُمُ قال: ﴿يَا أَبِا ذَرٌ ۚ قَلْتَ: نَعَم يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: ﴿مَا يَسُرِيلِ اللهُ أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ ۚ قَلْتَ: أَو قَالَ: ﴿مَا يَسُرِيلِ اللهُ أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ ۚ قَلْتَ: أَو قَنْطارين يا رسول الله؟ قال: ﴿بَلْ قَبْراطان ﴾ ثم قال: ﴿يَا أَبُنْ فَرْ أَنْتُ تُرِيدُ الأَكْثَرَ وَأَنَا أُرِيدُ الأَقَلِ ﴿ اللهِ فَرَالُو عَلَى اللهُ وَلَا أَلُو عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ وَلَا أَلَى اللهُ عَلَى اللهُولِينَ عَلَى اللهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى الللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ اللّهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ ع

وبلغنا: أن عبدالرحمن بن عوف قدمت عليه عبر من اليمن فضجت المدينة ضِجة واحدة، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما هذا؟ قيل: عبر قدمت لعبدالرحمن، قالت: صدق الله ورسوله ﷺ، فبلغ ذلك عبدالرحمن فسألها فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فُقْرَاءَ المُهَاجِرِينَ وَالمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ سَعْياً، وَلَمْ أَرَ أَحَداً مِنَ الأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُها مَعَهُمْ إِلا عَبْدَالرَّحُمْنِ بَنَ عَوْفٍ يَدْخُلُها مَعَهُمْ وَال مُنْدَالرَّحُمْنِ بَنَ عَوْفٍ يَدْخُلُها مَعَهُمْ حَبُواًه ﴿ وَال أَرْقَاءَها أَحراراً لعلي أدخلها معهم حَبُواًه ﴿)، فقال عبدالرحمن: إن العبر وما عليها في سبيل الله، وإن أرقاءها أحراراً لعلي أدخلها معهم سعياً.

وبلغنا: أن النبي ﷺ قال لعبدالرحمن بن عوف: الْمَا إِنَّكَ أَوِّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أَغْنِياءِ أُمَّتِي وَمَا كِدُتَ أَنْ تَدْخُلُها إِلاَّ حَبُولًه'٣٠.

ويحك أيها المفتون، فما احتجاجك بالمال وهذا عبدالرحمن في فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الأموال في سبيل الله مع صحته لرسول الله على وبشراه بالجنة (٤) أيضاً يوقف في عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف، وأنفق منه قصداً، وأعطى في سبيل الله سمحاً، منع من السعي إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين، وصار يحبو في آثارهم حبواً؟ فما ظنك بأمثالنا المغرقي في فتن الدنيا؟ وبعد: فالعجب كل العجب لك يا مفتون تتمزغ في تخاليط الشبهات والسحت، وتتكالب على أوساخ الناس، وتتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة، وتتقلب في فتن الدنيا ثم تحتج

⁽١) حديث أبي در: «الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا...» الحديث، متفق عليه، وقد تقدم دون هذه الريادة التي في أوله من قول كعب حين مات عبدالرحمن بن عوف: «كسب طيباً وترك طيباً». وإنكار أبي ذر عليه؟ عليه؟ على هذه الزيادة إلا في قول الحارث بن أسد المحاسبي بلغني كما دكره المصنف، وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولعظ كعب: «إذا كان قضى عنه حق الله علا بأس به، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال: سممت رصول الله ﷺ يقول: «ما أحب لو كان هذا العجل لي ذهباً...» الحديث. وفيه ابن لهيعة.

 ⁽٢) حديث عائشة: قرأيت الجئة قرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون معياً... الحديث. في أن عبدالرحمن بن
عوف يدخل الجنة حبواً. رواه أحمد مختصراً في كون عبدالرحمن يدخل حبواً دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين،
وفيه عمارة بن زاذان مختلف فيه.

 ⁽٣) حديث. أنه قال: «أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت تدخلها إلا حبواً» أخرجه البزار من حديث أنس بسند صعيف والحاكم من حديث عبدالرحمن بن عوف: «يا ابن هوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً». وقال صحيح الإسناد.

قلت: بل ضعيف، فيه خالد بن أبي مالك ضعفه الجمهور.

 ⁽٤) حديث: ابشر النبي الله عبدالرحمن من عوف بالجنة الخرجه الترمذي والنسائي في الكبرى من حديث: البو بكر في الجنة الجنة الحديث من حديث سعيد من زيد قال البخنة من حديث سعيد من زيد قال البخاري والترمذي: وهذا أصع.

بعبدالرحمن، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم؟ ويحك إن هذا من قياس إبليس ومن فتياه لأوليائه! وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف؛ لتعرف فضائحك وفضل الصحابة. ولعمري: لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله، فكسبوا حلالاً وأكلوا طيباً وأنفقوا قصداً، وقدموا فضلاً، ولم يمنعوا منها حقاً، ولم يبخلوا بها، لكنهم جادوا لله بأكثرها، وجاد بعضهم بجميعها، وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيراً، قبالله أكذلك أنت؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم.

وبعد: فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين، ومن خوف الفقر آمنين، وبالله في أرزاقهم واثقين، وبمقادير الله مسرورين، وفي البلاء راضين، وفي الرخاء شاكرين، وفي الضراء صابرين، وفي السراء حامدين، وكانوا لله متواضعين، وعن حب العلو والتكاثر ورعين. لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ورضوا بالبلغة منها، وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها، وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهرتها. فبالله أكذلك أنت؟.

ولقد بلغنا: أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته من الله، وإدا رأوا الفقر مقبلاً قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. وبلغنا: أن بعضهم كان إذا أصح وعند عياله شيء أصبح كثيباً حزيناً، وإذا لم يكن عندهم شيء أصبح فرحاً مسروراً، فقيل له: إن الناس إذا لم يكن عندهم شيء حزنوا، وإذا كان عندهم شيء فرحوا، وأنت لست كذلك! قال: إني إذا أصبحت وليس عند عيالي شيء فرحت؛ إذ كان لي برسول الله على أسوة، وإدا كان عند عيالي شيء اغتممت؛ إذ لم يكن لي بآل محمد أسوة. وبلغنا: أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا: ما لنا وللدنيا وما يراد بها؛ فكأنهم على جناح خوف، وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا: الآن تعاهدنا ربنا. فهذه أحوال السلف ونعتهم، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفناه. فبالله أكذلك أنت؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم.

وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضداً لأحوالهم، وذلك أنك تطغى عند الغنى، وتنظر عند الرخاء، وتمرح عند السراء، وتغفل عن شكر ذي النعماء، وتقنط عند الضراء، وتنسخط عند البلاء، ولا ترصى بالقضاء. نعم، وتبغص الفقر وتأنف من المسكنة؛ وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم. وأنت تذخر المال وتجمعه خوفاً من الفقر؛ وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه، وكمى به إشماء، وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها، ولقد بلغنا: أن رسول الله على قال: فشرار أُمّتي اللهين غُلُوا بِالنّعيم فَرَبَتُ عَلَيهِ أَجْسَامُهُمُ أَنَّ، وبلغنا أنّ بعض أهل العلم قال: ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم: ﴿أَذَهَمُ طَيِّرَكُو لَهُ عَيَاتِكُو الدُّنِيَ وَالمَعْمَ والنِينَة في الدنيا، وقد بلغنا: أنه من طلب ومصيبة! نعم، وعساك تجمع المال لملتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا، وقد بلغنا: أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان، وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أدت التكاثر والعلو. نعم، وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله، فأنت تكره أردت التكاثر والعلو. العم، وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله، فأنت تكره

 ⁽١) حديث: «شرار أمني الذين خذوا بالنعيم. . .» الحديث. تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البحل عند الحديث الرابع منه:
 «من أسف على دنيا فاتته الخرب من النار مسيرة سنة».

لقاء الله والله للقائك أكره، وأنت في غفلة، وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا؛ وقد بلغنا، أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتُهُ اقْتَرَبَ مِنْ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. وَقِيلَ سَنَةٍ، وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله. نعم، ولعلك تخرج منّ دينك، أحياناً لتوفير دنياك وتفرح بإقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سروراً بها، وقَد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ أَحَبُّ الدُّنيَا وَسُرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِه (١)، وبلغنا: أنَّ بعص أهل العلم قال: إنك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى، وعساك تعنى مأمور دنياك وأضعاف ما تعنى بأمور آخرتك، وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك، نعم، وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب، وعساك تبذل للناس ما جمعت من الأوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا، وعساك ترضى المحلوقين مساخطاً لله تعالى كيما تكرم وتعظم. ويحك! فكأن احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس إياك، وعساك تخفى من المخلوقين مساوئك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها، فكأن الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس، فكأن العبيد أعلى عندك قدراً من الله، تعالى الله عن جهلك! فكيف تنطق عند ذوي الألباب وهذه المثالب فيك؟ أف لك! متلوثاً بالأقذار وتحتج بمال الأبرار؟ هيهات هيهات، ما أبعدك عن السلف الأخيار، والله لقد بلغني: أنهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرّم عليكم، إن الذي لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم، وكانوا للزلة الصغيرة أشدّ استعظاماً منكم لكبائر المعاصى، فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم؟ وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم أن لا تقبل؟ ليت صومك على مثال إفطارهم؟ وليت اجتهادك في العبادة مثل فتورهم ونومهم؟ وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم. وقا. بلغني عن بعض الصحابة أنه قال: غنيمة الصدّيقين ما فاتهم من الدنيا، ونهمتهم ما زوي عنهم منها، فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة، فسبحان الله! كم بين الفريقين من التفاوت؟ فريق خيار الصحابة في العلو عند الله، وفريق أمثالكم في السفالة، أو يعفو الله الكريم بفضله.

وبعد: فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك، ويحك! هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم؟ أو تحسب أنك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا، لقد بلغني أن بعض الصحابة قال: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام، أفتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط؟ لا ورب الكعبة ما أحسبك كذلك، ويحك! كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام، وقد بلغنا أن رسول الله تلاق الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك في الحرام، أبها المغرور، أما علمت أنّ خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات، وبذلها في سبيل الله وسبيل البر؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال:

المحارث بن أحب اللغيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه الم أجله إلا بلاغاً للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه.

 ⁽۲) حديث: امن اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرامة متفق عليه من حديث التممان بن بشير نحوه، وقد تقدم
في كتاب الحلال والحرام أول الحديث

لأن تدع درهما واحداً مخافة أن لا يكون حلالاً خير لك من أن تتصدق بالف دينار من شبهة لا تدري أيحل لك أو لا؟ فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبدل في سبيل الله، ويحك! إن كنت كما زعمت بالغاً في الورع فلا تتعرّض للحساب، فإن خيار الصحابة خافوا المسألة، وبلغنا: أن بعض الصحابة قال: ما سرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله، ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجمعة، قالوا: ولم ذاك رحمك الله؟ قال: لأني غني عن مقام يوم القيامة فيقول: عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت؟ فهؤلاء المتقون كانوا في جدّة الإسلام والحلال موجود لديهم، تركوا المال وجلاً من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره، وأنت بغاية الأمن، والحلال في دهرك مفقود. تتكالب على الأوساخ ثم تزعم أنك تحمع المال من الحلال، ويحك أين الحلال فتجمعه؟.

وبعد: فلو كان الحلال موجوداً لديك أما تخاف أن يتغير عند الغني قلبك، وقد بلغنا: أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه؟ أفتطمع أن يكون قلبك أنقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الخلق في أمرك وأحوالك؟ لئن ظننتُ ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الأمّارة بالسوء، ويحك! إنِّي لك ناصح، أرى لك أن تقتع بالبلغة، ولا تجمع المال لأعمال البر، ولا تتعرض للحساب، فإنه بلغنا عن رسول الله على أنه قال: «مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ مُذَّبَه (١)، وقال عليه السلام: ﴿ يُؤْتَى بِرَجُل يَوْمَ القِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَام فَيُقَالُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيُؤْتِنَى بِرَجُلِ قَذِ جَمَعَ مالاً مِنْ حَلالِ وَأَنْفَقَهُ فِي حَرَام فَيْقَالُ: اذْهَبُوا بِّهِ إِلَى النَّادِ، وَيُؤْتَى بِرَجُلِ قَدْ جَمَّعَ مالاً مِنْ حَرَامٌ وَأَنْفَقُهُ فِي حَلالٍ فَيْقَالُ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْنَّارِ، وَيُؤْتَى بِرَجُلِ قَدْ جَمَعَ مالاً مِنْ خَلالٍ وَأَنْفَقَهُ فِي حَلالٍ فَيُقَالُ لَّهُ: قِفُ لَعَلُّكَ قَصَّرْتَ فِي طَلَبِ هٰذا بِشَيْءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ صَلاةٍ لَمْ تُصَلُّها لِوَقْتِها، وَفَرَطَتَ فِي شَيْءٍ مِنْ رُكُوحِهَا وَسُجُودِهَا وَوُضُوبُهَا فَيقُولُ: لا يَا رَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلالٍ وَأَلْفَقْتُ فِي حَلالٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيئاً مِمَّا فَرَضْتِ عَلَيْ، فَهِقَالُ: لَعَلَّكَ اخْتَلْتَ فِي هٰذا المَالِ فِي شَيْءٍ مِنْ مَرْكَبِ أَوْ ثَوْبِ بَاهَيْتَ بِهِ، ۚ فَيَقُولُ : لا يَا رَبِّ لَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أَبَاهِ فِي شَيْءٍ، فَيْقَالُ : لَعَلَّكَ مَنْفُتَ خُقّ أَخْدِ أَمَرْتُكَ أَنْ تُعْطِيهُ مِنْ ذَوِي اَلْقُرْبَىٰ وَاليَتَامَى وَالمَسْاكِينُ وَابْنِ السُّبِيلَ، ۚ فَيَقُولُ : لا يَا رَبِّ كِسَبْتُ مِنْ حَلِالِ وَأَنْفَقْتُ فِي حَلالٍ وَلَمْ أُضَّيِّعْ شَيئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَىٰ وَلَمْ أَخَتَلْ وَلَمْ أَبَاهِ وَلَمْ أَضَيْعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمْرْتَنِي أَنْ أَعْطِيَهُ، قَالَ: فَيَجِيءُ أُولَٰئِكَ فَيْخَاصِمُونَهُ فَيَقُولُونَ : ۚ يَا رَبِّ أَعْطَيْتَهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَجَعَلْتُهُ ۖ بَيْنَ أَظْهُرنَا وَأَمَرْتُهُ أَنْ يُعْطِيَتَا، فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُمْ وَمَا ضَيْعَ مِنْ ذَٰلِكَ شَيْتًا مِنَ الفَرَاثِضِ وَلَمْ يَخْتَلْ فِي شَيْءٍ فَيْقَالُ: قِفْ، الآنَ هَاتِ شُكْرَ كُلُّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُهَا حَلَيكَ مِنْ أَكْلَةِ أَوْ شَرْبَةِ أَوْ لَلَّةٍ فَلا يَرَّالُ يُسْأَلُ (٢٠)، ويحك! فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال، وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها، حوسب هذَّه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقي في فتن الدبيا وتخاليطها وشبهاتها وشهواتها وزينتها؟ ويحك، لأجل هذه المسائل يخاف المتقون أن يتلبسنوا بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال، فلك _ ويحك _ بهؤلاء الأخيار أسوة، فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ من الورع والتقوى، ولم تجمع

 ⁽١) حديث: امن نوقش الحساب عذب، متفق عليه من حديث عائشة، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: اليؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع ماالاً من حرام وأنفقه في حرام فيقال: افهبوا به إلى النار. ١٠ الحديث.
 بطوله، لم أقف له على أصل.

المال إلا من حلال بزعمك للتعفف والبدل في سبيل الله، ولم تنفق شيئاً من الحلال إلا بحق، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما بحب الله، ولم تسخط الله في شيء من سرائرك وعلانيتك، ويحك! فإن كنت كذلك ولست كذلك فقد ينبغي لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوي الأموال إذا وقفوا للسؤال وتسق مع الرعيل الأول في زمرة المصطفى، لا حبس عليك للمسألة والحساب، فإما سلامة وإما عطب. فإنه بلغما أن رسول الله على قال: «يَذْخُلُ صَعَالِيكُ المُهَاجِرِينَ قَبْلُ أَغْنِيَاتِهِمُ الجَنَةَ بِخَمْسِمائةٍ عَامٍ» (١)، وقال عليه السلام: «يَذْخُلُ فَقَرَاءُ المُؤْمِنِينَ الجَنَةَ قَبْلُ أَفْنِيَاتِهِمْ فَيَأْكُونَ وَيَتَمَتَّمُونَ وَالآخَرُونَ جُثَاةً عَلَى رُحِيهِمْ فَيَتُولُ قَبْلُكُمْ طَلْبَتِي أَنْتُمْ حُكَامُ النَّاسِ وَمُلُوكُهُمْ فَأَرونِي مَاذا صَنَعْتُمْ فِيمَا أَعْطَيْتُكُمْ» (١٠).

وبلغنا: أن بعض أهل العلم قال: ما سرني أن لي حمر النعم ولا أكون في الرعيل الأول مع محمد عليه السلام وحزبه. يا قوم، فاستبقوا السباق مع المخفين في زمرة المرسلين عليهم السلام، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله ﷺ وجل المتقين. لقد بلغني أن بعض الصحابة ـ وهو أبو بكر رضى الله عنه ـ عطش فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل، فلما ذاقه خنقته العبرة ثم بكي وأبكي، ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد في البكاء، فلما أكثر البكاء قيل له: أكل هذا من أجل هذه الشربة؟ قال: نعم، بينا أنا ذات يوم عند رسول الله ﷺ وما معه أحد في البيت غيري، فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول: *إليك عني، فقلت له. فداك أبي وأمي، ما أرى بين يديك أحداً فمن تخاطب؟ فقال: «هٰذِهِ الدُّنْيَا تَطَاوَلُتْ إِلَيَّ بِعُنْقِهَا وَرَأْسِهَا فَقَالَتْ لِي: يَا مُحَمَّدُ خُذْنِي، فَقُلْتُ: إلَيْكِ عَنَّي، فَقَالَتْ: إنْ تَنْجُ مِنْي يًا مُحَمَّدُ فَإِنَّهُ لَا يَشْجُو مِنْي مَنْ بَعْدَكَ، فأخاف أن تكون هذه لحقتني تقطعني عن رسول الله ﷺ . يا قوم، فهؤلاء الأخيار بكوا وجلاً أن تقطعهم عن رسول الله ﷺ شربة من حلال! ويحك! أنت في أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع؟ أف لك ما أعظم جهلك! ويحك! فإن تخلفت مي القيامة عن رسول الله ﷺ محمد المصطفى لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء، ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق، ولئن أردت الكثرة لتصيرن إلى حساب عسير، ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن إلى وقوف طويل وصراخ وعويل، ولئن رضيت بأحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين، ولئن خالفت أحوال المتقين لنكوبن من المحتبسين في أهوال يوم الدين. فتدبر ـ ويحك ـ ما سمعت. وبعد: فإن زعمت أنك في مثال خيار السلف، قانع بالقليل، زاهد في الحلال، بذول لمالك، مؤثر على نفسك، لا تخشى الفقر، ولا تدخر شيئاً لغدك، مبغض للتكاثر والغني، راض بالفقر والبلاء، فرح بالقلة والمسكنة، مسرور بالذل

⁽۱) حديث: «يدخل صماليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام» أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد بلفظ «فقواه» مكان «صماليك» ولهما وللنسائي في الكبرى من حديث أبي هريرة: «يدخل الفقواء الجنة . . . » الحديث. ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأفنياء إلى الجنة بأريمين خريفاً».

 ⁽٢) حديث: «يدخل فقراء المؤمنين المجنة قبل أفنيائهم فيتمنعون ويأكلون...» الحديث. لم أر له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: (إن بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتي بشربة ماه وعسل...» الحديث. في دفع النبي ﷺ الدنيا عن نفسه وقوله: (إليك عني. ..) الحديث. أخرجه اليزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال: (كنا عند أبي بكر فدها بشراب فأتي بماه وعسل...» الحديث. قال الحاكم: صحيح الإسناد، قلت: بل ضعيف، وقد تقدم قبل هذا الكتاب.

والضعة، كاره للعلو والرفعة، قوي في أمرك، لا يتغير عن الرشد قلبك، قد حاسبت نفسك في الله، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله، ولمن توقف في المسألة، ولن يحاسب مثلك من المتقين، وإنما تجمع المال الحلال للبذل في سبيل الله، ويحك أيها المغرور فتدبر الأمر وأمعن النظر! أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال، وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكر والفكر والاعتبار أسلم للدين وأيسر للحساب، وأخف للمسألة وآمن من روعات القيامة، وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله أضعافاً. بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال: لو أن رجلاً في حجره دنانير يعطيها، والآخر يذكر الله لكان الذاكر أفضل. وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لأعمال البر، قال: تركه أبر به. وبلغنا: أن بعض حيار التابعين سئل عن رجلين، أحدهما: طلب الدنيا حلالاً فأصابها، فوصل بها رحمه وقدم لنفسه. وأما الآخر: فإنه جانبها قلم يطلبها ولم يتناولها، فأيهما أفضل؟ قال: بعيد والله ما بينهما، الذي جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها. ويحك! فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها، ولك في العاجل إن تركت الاشتغال بمنالمال، وإن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك، وأنعم لعيشك وأرضى لبالك، وأقل لهمومك. فما عذرك في جمع المال وأنت بترك المال أفضل من طلب المال لأعمال البر؟ نعم، وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال في سبيل الله، فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل في الآجل.

وبعد: فلو كان في جمع المال فضل عظيم لوجب عليك في مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك إذ هداك الله به، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا. ويحك! تدبر ما سمعت وكن على يقين أن السعادة والفوز في مجانبة الدنيا، فسر مع لواء المصطفى سابقاً إلى جنة المأوى. فإنه بلغنا أن رسول الله على الفرق المسادّاتُ الفوّمِنِينَ في الجَنَّةِ مَنْ إِفَا تَفَدَّى لَمْ يَجِدْ صَشَاء، وَإِذَا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضاً، وَلَيْسَ لَهُ فَضَلُ كُسُوةٍ السّادَاتُ الفوّمِنِينَ في الجَنَّةِ مَنْ إِفَا تَفَدَّى لَمْ يَجِدْ صَشَاء، وَإِذَا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضاً، وَلَيْسَ لَهُ فَضَلُ كُسُوةٍ الله الفوّمِنِينَ في الجَنَّةِ مَنْ إِفَا تَفَدِّى لَمْ يَجِدْ صَشَاء، وَإِذَا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضاً، وَلَيْسَ لَهُ فَضَلُ كُسُوةٍ الله المنوبِينَ وَالشَّيْلِينَ وَالشَّيْلِينَ وَالشَّيْلِينَ وَكَسُنَ أَوْلَيْكَ رَفِيقاً ﴾ [النِّساء: ٢٩]، (١). ألا يا أخي، متى جمعت هذا المأل بعد هذا البيان فإنك مبطل فيما أدعيت أنك للبر والفضل تجمعه، لا! ولكنك خوفا من الفقر تجمعه، وللتنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه، ثم من الفقر تجمعه، وللتنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظيم والتكرمة تجمعه، ثم منتوعم أنك لأعمال البر تجمع المال! ويحك! راقب الله واستحي من دعواك أيها المغرور. ويحك! إن كنت مفتوناً بحب المال والدنيا فكن مقراً أن الفضل والخير في الرضا بالبلغة ومحانبة الفضول، نعم، وكنت عند جمع المال مزرياً على نفسك معترفاً بإساءتك وجلاً من الحساب، فذلك أنجى لك وأقرب إلى الفضل من أورع الناس وأزهدهم في المباح لهم، ونحن في دهر الحلال فيه مفقودٌ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القود وستر العردة. فأما جمع المال في دهرنا فأعاذنا الله وإياكم منه.

وبعد: فأين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم؟ وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم؟ دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها، وعن قريب يكون الورود. فيا سعادة المخفين يوم النشور، وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط، وقد نصحت لكم إن قبلتم والقابلون لهذا قليل.

⁽١) حديث: «سادات المؤمنين في الجنة من إذا تفدى لم يجد هشاه...» الحديث، عزاه صاحب مسند الفردوس للطيراني من رواية أبي حازم عن أبي هريرة مختصراً بلفظ: «سادة الفقراء في الجنة...» الحديث. ولم أره في معاجم الطيراني.

وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين. هذا آخر كلامه وفيه كفاية في إظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه. ويشهد لذلك جميع الأخبار التي أوردناها في كتاب ذم الدنيا، وفي كتاب الفقر والزهد.

ويشهد له أيضاً: ما روي عن أبي أمامة الباهلي: أن ثعلبة بن حطاب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مِالاً، قال: هيا تُعْلَبُهُ قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كِثِيرٍ لِا تُطِيقُهُ قال: يا رسول إلله، إدع الله أن يرزقني مَالاً، قِال: «يا ثَعْلَبَةُ أَمَا لَكَ فِي أُسْوَةً؟ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيّ الله تَعَالَى؟ أَمَا وَالْذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَوْ شِثْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِي الحِبَالُ ذَهَباً وَفِضَّةً لَسَارَتْ، قال: والذي بعثكَ بالحق نبياً لئن دعوت الله أنّ يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حَقّ حقه، ولأفعلين ولأفعلن، قال رسول الله ﷺ: ﴿اللَّهُمُّ ارْزُقُ تُعْلَبُهُ مَالاً﴾ فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في الجماعة ويدع ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وطفق بلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة، وسأل رسول الله ﷺ عنه فقال: (مَا فَمَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِب؟) فقيل: يا رسول الله، اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة؛ وأخبر بأمره كله، فقال: ﴿ يَا وَيْحَ ثَغَلَبَةً يَا وَيُعَ تَعْلَبَةً بِا وَيُخ تُعْلَبَةً ۗ قال وأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَلِهُمْ صَدَقَةُ تُطَهِّرُهُمْ وَثَرْكِهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَتَكَ سَكَنٌّ لَمُثَّهُۗ [النَّوبَة: ٢٠٠٣ وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم على الصدقة، وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا من المسلمين، وقال: فُمُوًا بِتَعْلَبَةَ بُن خَاطِبِ وَبِفُلانِ ــ رَجُل مِنْ بَنِي سُلَيْم ــ وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَاه: فخرجا حتى أتبا ثعلبة، فسألاه الصدَّقة وأقرآًه كتاب رسول الله على فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى تمرغا ثم تعودا إليّ فانطلقا نحو السليمي فسمع بهما، فقام إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها؛ فلما رأوها قالوا: لا يجب عليك ذلك، وما نريد نأخذ هذا منك، قال: بلي خذوها، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرًا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال: أروني كتابكما، فنظر فيه فقال: هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي عَيْدٌ فلما رآهما قال: (يا وَيْحَ نُعْلَبَةُ، قبل أن يكلماه ودعا للسليمي. فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السليمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَنْهَدَ اللَّهَ لَهِ عَانَتُنَا مِن فَضَّلِهِ. لَنَصَّدَفَقُ وَلَنَكُونَأٌ مِنَ ٱلصَّلِلِحِينَ ۖ فَلَمَّا ٓ وَانتَهُم مِنْ فَضَّلِهِ. بَجِلُوا بِهِ. وَتَوَلُّواْ وَهُم مُعْرِشُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى بَوْرِ بَلِفَوْتَهُ بِمَا أَغْلَقُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا حَكَانُواْ ىَكَٰذِبُوكَ ﷺ [التَّويَّة: ٧٠-٧٧] وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب تُعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال: لا أم لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا كذا، فخرج ثعلبة حتى أتى السبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: ﴿إِنَّ الله مَنْعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِثْكَ صَدَّقَتَكَ، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله على: الهذا عَمَلُكَ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تَطِعْنِي، فلما أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه فأبي أن يقبلها منه، وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبي أن يقبلها منه، وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان (١١)، فهذا

 ⁽۱) حديث أبي أمامة: أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً قال: «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره
 خير من كثير لا تطيقه. . . الحديث. يطوله، أخرجه الطبراني بسند ضعيف.

طغيان المال وشؤمه وقد عرفته من هذا الحديث، ولأجل بركة الفقر وشؤم الغني آثر رسول الله ﷺ الفقر لنفسه ولأهل بيته، حتى روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال: كانت لى من رسول الله منزلة وجاه فقال: «يا حِمْرَانُ إِنَّ لَكَ حِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهاً فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةً بِشْتِ رُسُولِ الله ﷺ فقلت: نعم بأبي أنت وأمِي يا رسول الله، فقَّام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال: «الْسَّلامُ عَلَيْكُمْ أَأَذْخُلُ؟، فقالت: ادخل يا رسول الله، قال: «أنا ومن معي؟، قالت: ومن معك يا رسول الله؟ فقال: ﴿همران بن حصين؛ فقالت: والذي بعثك بالحق نبياً ما عليَّ إلا عباءة: فقال: «اصْنَعِي بِهَا لَهُكَذَا وَلَهُكَذَا» وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي فقد واريته، فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكَ» ثم أذنت له فدخل، فقال: «السُّلامُ عَلَيْكِ يَا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟» قالت: أصبحت والله وجعة، وزادني وجمًّا على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله، فقد أجهدني الجوع، فبكى رسول الله ﷺ وقال: ﴿ لَا تَجْزَعِي يَا بِنْتَاهُ قَوَاللَّهُ مَا ذُقْتُ طَعَاماً مُثَلُ ثَلالَةٍ، وَإِنِّي لَأَكْرَمُ عَلَى اللهُ مِثْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّى لَأَطْعَمَنِي، وَلَكنِّي آثَرْتُ الآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَاهُ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِها وَقَالَ لَهَا: ﴿ أَبْشِرِي فَوَاللَّهِ إِنَّكِ لَسَيْلَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ ا فَالت : فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران؟ فقال: «آسِيَةُ سَيِّلَةُ نِسَاءِ عَالَمِها، وَمَرْيَمُ سَيِّلَةُ نِسَاءِ هَالَمِها، وَخَلِيجَةُ سَيِّلَةُ نِسَاءِ عَالَمِها، وَأَنْتِ سَيْدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ، إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَذَى فِيها وَلا صَخَبَ ثم قال لها: «اقْنَعِي بِابْنِ عَمُّكِ فَوَالله لَقَدْ زَوْجُنُكِ سَيِّداً فِي الْكُنْيَا وَسَيِّداً فِي الْآخِرَةِ» (١)، فانظر الآن إلى حال فاطمة رضي الله عنها وهي بضعة من رسول الله ﷺ كيف آثرت الفقر وتركت المال؟ ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات؛ إذ أقل ما فيه من أداء الحقوق والتوقي من الشبهات والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه وانصرافه عن ذكر الله؛ إذ لا ذكر إلا مع الفراغ، ولا فراغ مع شغل المال.

وقد روي عن جرير عن ليث قال: صحب رجل عيسى ابن مربم عليه السلام فقال: أكون معك وأصحابك، فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، قال: فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها، قال: فدعا أحدهما فأتاه، فذبحه فاشتوى منه فأكل هو وذلك الرجل، ثم قال للخشف: قم بإذن الله، فقام فذهب، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، ثم انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل فعشيا على الماء، فلما جاوزا قال له: أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، فانتهيا إلى مفازة فجلسا، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً ثم قال: كن ذهباً بإذن الله تعالى، فصار ذهباً، فقسمه ثلاثة أثلاث ثم قال: ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف، فقال: أنا الذي أخذت الرغيف، فقال: كله لك، وفارقه عيسى عليه السلام، فانتهى إليه رجلان في فقال: أنا الذي أخذت الرغيف، فقال: كله لك، وفارقه عيسى عليه السلام، فانتهى إليه رجلان في

⁽۱) حديث عمران بن حصين. كانت لي من رسول الله على منزلة وجاه قفال: «قهل لك في عيادة قاطعة بنت رسول الله على على على عبدان وسول الله على التحريث. بطوله وفيه: «ققد زوجتك سيداً في الدنيا وسيداً في الآخرة لم أجده من حديث عمران، ولأحمد والطبراني من حديث معقل بن يسار: وضأت النبي على ذات يوم فقال: «هل لك في قاطمة تعودها. . . الحديث. وفيه: «أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتى سلما وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً وإسناده صحيح.

لمفازة ومعه المال، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه، فقال: هو بيننا أثلاثاً، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله، قال: فبعثوا أحدهم، فقال الذي بعث: لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال؟ لكني ضع في هذا الطعام سماً فأقتلهما وآخذ المال وحدي، قال: ففعل، وقال ذانك الرجلان: لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا، قال: فلما رجع إليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى، فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه: هذه الدنيا فاحذروها.

وحكي: أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبوراً، فإذا أصبح تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها، ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قيض لهم في ذلك معايش من نبات الأرض، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقال له: أجب ذو القرنين، فقال: ما لي إليه حاجة، فان كان له حاجة فليأتني. فقال ذو القرنين: صدق، فأقبل إليه ذو القرنين وقال له: أرسلت إليك لتأتيني فأبيت، فها أنا قد جئت، فقال: لو كان لي إليك حاجة لأتيتك، فقال له ذو القرنين: ما لي أراكم على حال لم أر أحداً من الأمم عليها؟ قال: وما ذاك؟ قال: ليس لكم دنيا ولا شيء، أفلا اتخذَّتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما؟ قالوا: إنما كرهناهما لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه. فقال: ما بالكم قد احتفرتم قبوراً، فإذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها؟ قالوا: أردنا: إذا نظرتا إليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل. قال: وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركيتموها فاستمتعتم بها؟ قالوا: كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها، ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام، وأيما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام؟ ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة؛ فقال: يا ذا القرنين أتدري من هذا؟ قال: لا! ومن هو؟ قال: ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض فغشم وظلم وعتا، فلما رأى الله سبحانه ذلك منه جسمه بالموت فصار كالحجر الملقي، وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته، ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال على ذا القرنين، هل تدري من هذا؟ قال: لا أدري، ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعده؛ قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر؛ فتواضع وخشع لله عزَّ وجلُّ وأمر بالعدل في أهل مملكته، فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله، حتى يجزيه به في آخرته. ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال: وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع؟ فقال له ذو القرنين: هل لك في صحبتي فأتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني الله من هذا المال؟ قال: ما أصلح أنا وأنت في مكَّان ولا أنَّ نكون جميعاً، قال ذو القرنين: ولم؟ قال: من أجل أن الناس كلهم لك عدَّو ولي صديق، قال: ولم؟ قال: يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا، ولا أجد أحداً يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء، قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظماً به. فهذه الحكايات تدلك على آفات الغني مع ما قدّمناه من قبل، وبالله التوفيق.

> تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

[نِسم اللهِ النَّافِ النَّفِيد]

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله علام الغيوب، المطلع على سرائر القلوب، المتجاوز عن كبائر الذنوب، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا، فإنه المنفرد بالملكوت، فهو أغى الأغنياء عن الشرك. والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ، الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمُلَةِ السُّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ فِي اللَّيْلَةِ الْظُلْمَاْءِ» (١١)، ولذلك عجز عن الوَّقوفُ على غوائلها سماسرة العلماء فضلاً عن عامة العباد والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكائدها. وإنما يبتلي به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها، وقطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم؛ فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرَّفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات، وتحمله مشاق العبادات أطلقُوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء، ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام، وتبركوا بمشاهدته ولقائه، ورغبوا في بركة دعائه، وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات، وقدموه في المجالس، وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين، وانقادوا له في أغراضه موقرين، فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات، وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات، لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرصية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق، وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال، وقد أثبتت اسمه في جريدة المنافقين، وهو يظن أنه

كتاب ذم اللجاه والرياء

⁽١) حديث: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الرباء والشهوة الخفية» أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا: «الشرك» بدل اللرباء» وفسراه بالرباء. قال الحاكم: صحيح الإسناد.

قلت: بل ضعيفه، وهو عند ابن العبارك في الزهد ومن طريقه عند البيهقي في الشعب بلفظ المصنف.

عند الله من المقرّبين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصدّيقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقرّبون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة.

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه، ويتضح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين؟ الشطر الأول: في حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول، وبيان دم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوباً أشد من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم. وبيان العلاج في حب الجاه، وبيان علاج حب المدح، وبيان علاج كراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم. فهي اثنا عشر فصلاً، منها تنشأ معاني الرياء فلا بد من تقديمها، والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه.

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

 ⁽١) حديث أنس: «حسب امرى» من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه أخرجه البيهتي في
الشعب بسند ضعيف.

⁽۲) حديث جابر: «بحسب امرىء من الشر. . . ؟ الحديث. مثله وزاد في آخره «إن الله لا ينظر إلى صوركم. . . ٤ الحديث. هو غير معروف من حديث جابر، معروف من حديث أبي هريرة رواه الطبراني في الأوسط والبيهةي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله، ورواه مسلم مقتصراً على الزيادة التي في آخره، وروى الطرائي والبيهةي في الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ: «كفي بالمرم إلماً ورواه ابن يونس في تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ: «هلاك بالرجل» ونسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق، وإسنادهما ضعيف.

ناس فالتفت إليهم فقال: علام تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان. وقال المحسن: إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى. وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا قما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن. وروي: أن رجلاً صحب ابن محيريز في سفر، فلما فارقه قال: أوصني، فقال: إن استطعت أن تُعرف ولا تُعرف وتَمشي ولا يُمشى ولا يُمشى من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عزّ وجلّ، وقال معمر: عاتبت أيوب على طول قميصه فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في تشميره. وقال بعضهم: كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال: إياكم وهذا الحمار الناهق! يشير به إلى طلب الشهرة، وقال الثوري: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديثة؛ إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً. وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: أخمل ذكرك وطيب مطعمك، وكان حوشب يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع. وقال بشر: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح. وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرف الناس. رحمة الله عليه وعليهم أجمعين،

بيان فضيلة الخمول:

قال رسول الله ﷺ: الرّبُ أَشْعَتُ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْيَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرُهُ، الْبَوَاءُ بَنُ مَالِكِ، وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: الرّبُ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْيَهُ لَهُ لَوَ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرُهُ، لَوَ قَالَ: اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةُ لَأَعْطَاهُ الْجَنَّةُ وَلَمْ يُمْطِهِ مِنَ اللَّنْيَا شَيْعًا، (***)، وقال ﷺ: اللّهُ أَنْكُمُ عَلَى أَهُلِ الْجَنَّةِ: كُلُّ ضَعِيفِ مُسْتَضْعَفِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرُهُ وَأَهْلِ النَّارِ كُلُّ مُتَكَبِّرِ مُسْتَكْبِرِ جَوَاظٍ، (***)، وقال أَبُو هريرة: قال ﷺ: اللّه المَجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَتُ أَهْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْيَهُ لَهُ، اللّهِينَ إذا اسْتَأَذَنُوا عَلَى اللّهَ وَلَوْ سَأَلُهُ اللّهُ وَلَوْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَوْ سَأَلُهُ وَلَوْ سَأَلُهُ وَلَوْ سَأَلُهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللهُ اللللهُ الللللهُ اللللهُ اللللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللللهُ اللللهُ اللللهُ اللللهُ اللللهُ الللللهُ اللللهُ اللللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللللهُ اللللهُ اللللهُ اللللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللللهُ الللهُ الللهُ اللللهُ الللهُ اللللهُ اللللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللللهُ اللللهُ اللللهُ اللللهُ الللهُ اللللهُ الللهُ اللللهُ اللللهُ الللهُ اللل

⁽١) حديث: درب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤيه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك، أخرجه مسلم من حديث أبي مريرة درب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره وللحاكم؛ درب أشعث أخبر ذي طمرين تنبو عنه أحين الناس لو أقسم على الله لأبره، وقال: صحيح الإسناد، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف: درب ذي طمرين لا يؤيه له لم أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك، وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال: صحيح الإسناد. قلت: بل ضعيفه.

 ⁽۲) حديث ابن مسعود: الرب ذي طمرين لا يؤيه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئًا، أخرجه ابن أبي الدنيا. ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند القردوس بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «ألا أدلكم على أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف. . . ١ الحديث. متفى عليه من حديث حارثة بن وهب.

 ⁽٤) حديث: «إن من أمني من لو أتى أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه...» الحديث، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله: «ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعها إياه إلا لهوانها عليه».

رسول الله ﷺ فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ الْيَسِيرُ مِنَ الرِّياءِ شركٌ وإِنَّ اللهُ عَبُوا لَمْ يَفْتَقَلُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلُّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ ﴿ `). يَنْجُونَ مِنْ كُلُّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ ﴿ `).

وقال محمد بن سويد: قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له ملازم لمسجد النبي رهج الله على المام في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال: يا رب، أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة، فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام، وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رب، إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم، وسكن، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال: إني أتبتك في حاجة فقال: ما هي؟ قال: تخصني بدعوة، قال: سبحان الله! أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة؟ ثم قال: ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني، فسألت الله فأعطاني. وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل، جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض. وقال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّ أُخْبَطَ أُولِيَائِي عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحَاذِ ذُو حَظُّ مِنْ صَلاةٍ، أَحْسَنَ عِبَانَةُ رَبِّهِ وَأَطَاحُهُ فِي السِّرُّ وكَانٌ غَامِضاً فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِع ثُمٌ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ} قال: *م نقر رسول الله على بيده فقال: «صَجِلَتْ مَنِيْتُهُ وَقُلِّ ثُرَائُهُ وَقُلِّتْ بَوَاكِيهِ ١٤٠٠]. وقال عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء، قال: الفارّون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده؟ ألم أنعم عليك! ألم أسترك! ألم أخمل ذكرك! . وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك. وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء. وقال إبراهيم بن أدهم: ما قرّت عيني يوماً في الدنيا قط إلا مرة، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن، مجرّني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد. وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك ألاّ تعرف، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟. فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

فإن قلت: فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأثمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة المخمول؟ فاعلم: أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم، فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيتجيهم ويثاب على ذلك.

حديث معاذ بن جبل: «إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء. . . الحديث. أخرجه الطبراني
 والحاكم واللفظ له وقال. صحيح الإسناد، قلت: بل ضعيفه فيه عيسى بن عبدالرحمن وهو الزرقي متروك.

⁽٢) حديث أبي أمامة: وإن أخبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ . . .) الحديث . أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسنادين ضعيفين .

بيان ذم الجاه ومعناه:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ النَّارُ ٱلْآخِرَةُ غَمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُوبِدُونَ عُلُوّا فِي ٱلْآرَضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القضص: ١٣] جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً. وقال عز وجلّ : ﴿ مَن كُن يُرِيدُ ٱلْحَيْوَ الدُّبا وَرِبنَهَا نُوفِ إِلْتِهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَمُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ لِلَّا النَّارُ وَحَيَظ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَيَعْلِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ [هود: ١٦٠١٥] وهذا أيضاً متناول بعمومه إلا النَّارُ وَحَيَظ مَا صَنعُوا فِيهَا وَيَعْلِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ [هود: ١٦٠١٥] وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه؛ فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها، وقال رسول الله ﷺ: «حُب المَالِ وَالجَاهِ وَالجَاهِ المُسْلِمِ» (١٠)، وقال ﷺ: معاويمان أرْسِلا فِي دِينِ الرَّجُلِ المُسْلِمِ وَالعالَمِ فِي لَعْلَى كُمِ اللهِ وَجِهِ : وَإِنْمَا هَلاكُ النَّامِ بِاتّبَاعِ الهَوَى وَحُبُ النُّنَاءِ (١٠)، نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه.

بيان معنى الجاه وحقيقته:

اعلم: أن الجاه والمال هما ركنان الدنيا. ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها. وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير ـ أي: يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس ـ فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أخراضه ومآريه. وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفاً من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويدَّعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب. وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أن محبّ المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم، ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم، لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه، ولو خلي ورأيه انسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً، ويبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير. فإذاً: معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، ويقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن

⁽١) حديث: اللمال والجاه يتبتان النفاق. . . ٩ الحديث. تقدم في أول هذا الباب ولم أجده.

⁽٢) حديث: (ما ذئبان ضاريان أرسلا في زرية ضم. . . ١ الحديث. تقدم أيضاً هناك.

 ⁽٣) حديث: النما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء لم أره بهذا اللفظ، وقد تقدم في العلم من حديث أنس. اثلاث مهلكات شع مطاع وهوى متبع... الحديث. ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف: احب الثناء من الناس يعمي ويصم».

ذكر ما يعتقده، فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده؛ فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام، وتسليم الصدر في المحافل، والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب: اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق، أو نسب أو ولاية، أو جمال في صورة أو قوة في بدن، أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب عتكون سبباً لقيام الجاه، والله تعالى أعلم.

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة:

اعلم أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً هو بعينه يقتضي كون النجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المعدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنابير لا غرض في أعيانهما ؛ إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا في المعدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنابير لا غرض في أعيانهما ؛ إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس، وإنما هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه، فكذلك ملك القلوب من الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض، فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرّر له جاه في القلوب لم قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له، فإذاً: الجاه آلة ووسيلة إلى المال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن، ويتطرق إليه أخطار كثيرة، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرّض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب، وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم، ولا يستغني عن المراقبة والحفظ، وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها، والجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها. نعم، إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال، وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله.

الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمى ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فإن القلوب إذا أدعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر، لأن ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له مرد معين، وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه، ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة، والجاه أبداً في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر

الصيت، وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال. وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح.

فإن قلت: فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه. نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم، أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه، فحبه للمال والمجاه معلوم؛ إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز، وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ، وحب ذلك ثابت في الطبع، ويكاد يظن أن ذلك جهل، فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ فنقول: نعم، هذا الحب لا ينفك عنه القلوب. وله سببان؟ أحدهما: جلي تدركه الكافة. والآخر: خفي وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما، وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع؛ لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون.

فأما السبب الأول: فهو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل، ويخطر بباله أنّ المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه، ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، فهو أبداً لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدّر طول الحياة، ويقدّر هجوم الحاجات، ويقدّر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مسول الله ﷺ: فمنهومان لا يشبعن من المال، فلذلك لم يكن لمشله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال رسول الله ﷺ: فمنهومان لا يشبعن من مناه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم، ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم؛ لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

⁽١) حديث: «منهومان لا يشبعان... الحديث. أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف والبزار والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين، وقد تقدم.

⁽٢) حديث: اأنه ﷺ لم يظهر سر الروح؛ أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود، وقد تقدم.

بهيمية كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء؛ وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية: التوحد بالكمال والتفرّد بالوجود على سبيل الاستقلال. فصار الكمال من صفات الآلهية فصار محبوبًا للإنسان، والكمال بالتفردُ بالوجود، فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصاً في حقها؛ إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، فلم يكن موجوداً معه؛ لأن المعية توجب المساواة في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال، بل الكامل من لا نظير له في رتبته. وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الأفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها، فكذلك وجود كل ما في المالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً ولا يكونَ متبعاً، فإذن: معنى الربوبية التفرّد بالوجود وهو الكمال. وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَتَالَ ﴾ [النَّازعَات: ٢٤] ولكنه ليس يجد له مجالاً، وهو كما قال؛ فإن العبودية قهر على النفس. والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك للنسبة الربانية التي أوماً إليها قوله تعالى: ﴿ فَلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْدِ رَبِّي ﴾ [الإسرَاء: ٨٥]، ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته. وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات، فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك، فإن لم يكن منك فأن تكون مستولياً عليه، فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع، لأنه نوع كمال. وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته، ويحب كمال ذاته ويلتذ به، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه. إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته. وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق، كالأفلاك والكواكب وملكوت السموات، ونفوس الملائكة والجن والشياطين، وكالجبال والبحار. وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها، وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات.

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسلموات، أحب الإنسان أن يستولي على السلموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها فإن ذلك نوع استيلاء؛ إذ المعلوم المحاط به كالمداخل تحت العلم، والعالم كالمستولي عليه، فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب، وجميع عجائب السلموات، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها، والاستيلاء نوع كمال. وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها، كمن يعجز عن وضع الشطرنج، فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع؟ وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو

الشعبذة أو جرّ الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه، ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز مثلذذ بكمال العلم إن علمه.

وأما القسم الثاني: وهو الأرضيات التي يُقدر الإنسان عليها، فإنه يحب بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان: أجساد وأرواح.

أما الأجساد: فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادراً عليها يقعل فيها ما شاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فإن ذلك قدرة والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع، فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، وبذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة ؛ حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار، وإن لم يملك قلوبهم، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى بصير محبوباً لها ويقوم القهر منزلته فيها، فإن الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة.

القسم الثاني: نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وفدرة عليها لتكون مسخرة له، متصرفة تحت إشارته وإرادته؛ لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية، والقلوب إنما تتسخر بالحب، ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية، والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان، وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه بالتراب فيأكله، فإنه محل الإيمان والمعرفة، وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه. فإذن معنى الجاه تسخير القلوب، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية. فإذن محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه من أسباب القدرة، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقى معلوم، أو مقدور فالشوق لا يسكن، والنقصان لا يزول. ولذلك قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان» فإذن: مطلوب القلوب الكمال. والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية، فكان محبوباً بالطبع، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى.

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له:

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرّد بالوجود إلا في العلم والقدرة، ولكن الكمال الحقيقي فيه متلبس بالكمال الوهمي، وبيانه: أن كمال العلم لله تعالى، وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث كثرة المعلومات وسعتها، فإنه محيط بجميع المعلومات، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى.

الثاني: من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به، وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات العلوم كان أقرب إلى الله تعالى.

الثالث: من حيث بقاء العلم أبد الآباد؛ بحيث لا يتغير ولا يزول، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى.

والمعلومات قسمان: متغيرات وأزليات.

أما المتغبرات: فمثالها: العلم بكون زيد في الدار، فإنه علم له معلوم، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلاً، نقصاناً لا كمالاً، فكلما اعتقادت اعتقاداً موافقاً وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقادت كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً، ويعود علمك جهلاً، ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم، كعلمك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض، وبعد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات؛ فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب.

القسم الثاني: هو المعلومات الأزلية؛ وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أزلية أبدية؛ إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً، ولا الجائز محالاً، ولا المحال واجبًا. فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له، وما يستحيل في صفاته، ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله تعالى ويصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السلموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت، وتكون هذه المعرفة نوراً للعارفين بعد الموت: ﴿فَرُرُهُمْ يَسْعَىٰ نَبْكَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْسَنِهِمْ بَقُولُونَ رَبُّكَا نِّهِمْ لَنَا ثُوْرَهَا﴾ [التّخريم: ٨] أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور الخفي على سبيل الأستتمام، ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له في ذلك، فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها سل: ﴿ كَشُلُمُنَتِ فِي بَحْرٍ لَّجْنِي يَغْشَنْهُ مَوْجٌ بِّن فَوْقِيهِ، مَوْجٌ بِّن فَوْقِيهِ. سَعَاتٌ ظُلْمَنتُ مَفْسُهَا فَوْق بَعْضٍ ﴿ النَّور: ١٤٠] فإذن: لا سعادة إلا في معرفة الله تعالى، وأما ما عدا ذلك من المعارف قمنها ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما، ومنها ما له منفعة في الإعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار؛ فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعيّن على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهدايا إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿ قُدْ أَلَّامُ مَن رَّكُنهَا ﴾ [الشَّمس: ٩] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَنهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَّتُهُمْ شُبُلَنّا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي قيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات؛ إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى، ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، فهي من تكملة معرفة الله تعالى. وهذا حكم كمال العلم، ذكرناه وإن لم يكن لاثقاً بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

وأما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله عما قررناه في كتاب الصبر والشكر، وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات - فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى. فأما كمال القدرة فلا. . . نعم، له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال، وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للإدراك، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن، وذلك إلى قدر معلوم، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة حلال الله فلا خير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب، ومن ظن ذلك كمالاً فقد جهل، فالخلق أكثرهم هالكون في ضمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة في ضمرة هذا العجل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه؛ فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه؛ فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية.

أما العلم: فما ذكرناه من معرفة الله تعالى.

وأما المحرية: فالخلاص من أسر الشهوات وضعوم الدنيا، والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكمال؛ لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان، فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها، والهلاك نقص في اللذات وفي صفات الكمال.

فإذن: الكمالات ثلاثة ـ إن عددنا (عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالاً) ككمال العلم وكمال المحرية؛ وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية ـ وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العدرة الباقية بعد موته؛ إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار القلوب والأبدان تنقطع بالموت، ومعرفته وحرّيته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالاً فيه ووسيلة إلى القرب من الله تعالى. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال، وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَلَى الشّيَا مَنْ النَّيْكُ أَلَمْ النَّفِي النَّفس، والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال: ﴿ إِنَّا مَنْلُ الْحَيْوَةِ الدُنْيَا كُنَّا أَنْزَلْنَهُ مِنْ السّيَا عَالَى المَنْ عَالَى الله عَلَى النَّسَاء قَالَانَاكُ وَالنَّاكُ كَالَة أَنْزَلْنَهُ مِنْ السّيَا عَالَى عَلَى الله عَلَى المَنْ النَّاكُ كَالَة أَنْزُلْنَهُ مِنْ السّيَاء قالكية والكها على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال: ﴿ إِنْمَا مَثُلُ الْحَيْوَةِ الدُنْيَا كُنَّا أَنْزُلْنَهُ مِنْ السّيَاء قالكية أَنْرُلْنَهُ مِنْ السّيَاء قالكها أَنْ الشّيَاء كَنَّة أَنْزُلْنَهُ مِنْ السّيَاء اللّه عالى المُعلى القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال: ﴿ إِنْمَا مَثُلُ الْمُؤْوِةِ الدُنْيَا كُنَّا أَنْزُلْنَهُ مِنْ السّيَاء اللّه عالى المُعلى ا

ودًا إلى قوله تعالى: ﴿فَأَسْبَحَ هَشِيمًا نَدُرُهُ ٱلرِّبَعَ ﴾ [الكهف: 10] وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات. فقد عرفت بهذا: أن كمال القدرة بالمال والحاه كمال ظني لا أصل له، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل، وإليه أشار أبو الطيب بقوله:

وَمَـنْ يَـنَـفُـقِ السَّـاعِـاتَ فَـي جَـمَـع مـالـه مَــخـافــة فــقــر فــالــذي فــعــل الــفــقــر إلا قدر البلعة منهما إلى الكمال الحقيقي. اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك.

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يدم:

مهما عرفت أنَّ معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها، فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة المدنيا، وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة الآخرة، فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بدّ من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم. وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم. وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال، فلا فوق بينهما. إلا أنَّ التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطرّ إليه لقضاء حاجته، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، فهذا على التحقيق ليس محباً لبيت الماء، فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه. وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أنّ الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة، كما يدفع بيت الماء فضلة الطعام، ولو كُفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته، كما أنه لو كفي قضاء الحاحة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها؛ فهذا هو الحب دون الأوّل، وكذلك الجاه والمال. وقد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين، فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم، وحبهما لأعيانهما قيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمل الحب على مباشرة معصية. وما يتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة، فإنَّ التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي.

فإن قلت: طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان، أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة أوجه؛ وجهان مباحان، ووجه محظور.

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة وهو منفك عنها، مثل العلم والورع والنسب، فيظهر لهم أنه علوي أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك. فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة.

وأما أحد المباحين: فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها؛ كقول يوسف ﷺ فيما أخبر عنه الرب تعالى: ﴿ آجُمَلُنِي عَلَى خَزَآيِنِ ٱلأَرْضِّ إِنِّي حَييظٌ عَلِيدٌ ﴾ [يُوسُف: ٥٥] فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليماً، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه.

والثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا أيضاً مباح، لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح. وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب المخمر ولا يلقي إليه أنه ورع، فإن قوله: إني ورع تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب.

ومن جملة المحظورات: تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء، وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله، فكيف يكون مخلصاً؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه:

اعلم: أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

السبب الأول: وهو الأقوى: شعور النفس بالكمال فإنا بينا أن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ. فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه، فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به أقل، ولكنه لا يخلو عن لذته، فإذا استشعرته لم يخل حدوث اللون، فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم؛ كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحسن المطلق، فإن الإنسان ربما يكون شاكاً في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثاء من بصير بهذه الصفات خبير بها، لا يجازف في القول إلا عن تحقيق، وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه في غاية اللذة، وإن صدر ممن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيراً بذلك الوصف ضعفت اللذة، وبهذه العلة يبغض عن مؤلم، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني: أن المدح بدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشبئته، وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ، وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر، ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير؛ فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم.

السبب الثالث: أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ، فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس.

السبب الرابع: أن المدح بدل على حشمة الممدوح، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته، فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد.

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها. أما العلة الأولى ـ وهي استشعار الكمال ـ فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله، كما إذا مدح بأنه نسيب أو سخي أو عالم يعلم أو متورع عن المحظورات؛ وهو يعلم من نفسه ضد ذلك، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يفوله ويعلم خلوه عن هذه المصفة على اضطرار لسانه إلى طلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء، فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لذة لقوات الأسباب الثلاثة. فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتأملها بسبب الذم. وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة، وفإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته؛ إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض. والله الموفق بكرمه ولطفه، وصلى الله على كل عبد مصطفى.

بيان علاج حب الجاه:

اعلم: أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءات لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بلر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك ـ لا محالة ـ إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتماص القلوب، ولذلك شبه رسول الله على حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاربين، وقال عليه السلام: «إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم، وإلى النظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك هو عين النفاق.

كتاب ذم الجاه والرياء

فحب الجاه إذن من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال؛ وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه؛ وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وقد بينا أنّ ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن فَهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي ـ كما سبق ـ صغر الجاه في عينه، إلا أنَّ ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها، ويستحقر العاجلة، ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبدالعزيز: (أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات). فانظر كيف مدّ نظره نحو المستقبل وقدره كاثناً. وكذلك حال عمر بن عبدالعزيز حين كتب في جوابه: (أما بعد: فكأنك بالدنيا لم تكن، وكأنك بالآخرة لم تزل)، فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى؛ إذ علموا أنَّ العاقبة للمتقين، فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة، لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤَيِّرُونَ ٱلْحَيَوْةَ ٱلذَّيَّا ١ۗ وَٱلْكِنَرَةُ خَيْرٌ وَأَبْغَىٰ ۞ [الاعلى: ١٧،١٦] وقال عزّ وجلّ: ﴿ كُلَّا بَلْ يُجْتُونَ الْعَلِمَةَ ۞ وَتَذَرُّونَ الْاَيْخَةَ ۞ [القيّانة: ٢١،٢٠] فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترز من أن نتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشدّ تغيراً من القدر في غلباتها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يبني على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على أمواج البحر فإنه لا ثبات له، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كُل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه، فلا يفي في الدنيا مرجوِّها بمخوفها فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة. وأما من نفذت بصيرته وقوي إيمامه فلا يلتفت إلى الدنيا، فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما من حيث العمل: فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق، وتفارقه لذة القبول، ويأنس بالخمول، ويرد الخلق، ويقنع بالقبول من الحالق. وهذا هو مذهب الملامتية؛ إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه، وهذا غير جائز لمن يقتدى به فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس؛ كما رُوي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عيمه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني. ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس. وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه، إلا أنّ أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير، كما فعل بغضهم؛ فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره، وخرج فوقف في الطريق بعضهم؛ فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره، وخرج فوقف في الطريق بعضهم؛ فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً ولبس ثياب غيره، وخرج فوقف في الطريق

حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا: إنه طرّار، وهجروه. وأقوى الطرق في قطع الجاه: الاعتزال عن الناس، والهجرة إلى موضع الخمول، فإنّ المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور، لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فدّموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، ويثبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة. ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال، بل هو شر منه فإنّ فتنة الجاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال، فلا لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمن قنع استغنى عن الناس، بإني أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق بإنا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس، ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع. ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل بالمقناعة وقطع الطمع. ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل تولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة. وينظر في أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز، ورضيتهم في ثواب الآخرة، رضي الله عنهم أجمعين.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم:

اعلم: أنّ أكبر الناس إنما هلكوا بخوف ملمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقة ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم.

أما السبب الأول: فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح. فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية؛ فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال المتنبى:

أشد السخسم عسنسدي فسي سسرور تيقن عنه صاحب انتقالا

قلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها، بوجودها، والمدح ليس هو سبب وجودها، وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فبنبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باقي، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح، فإن اللغة في استشعار الكمال والكمال موجود في فضل الله لا من المدح، والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلاً، وإن

كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه، وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاحته، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان، ثم يفرح بذلك. إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل، فإذا: المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من قضل الله عليك، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

وأما السبب الثاني: وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب آخر، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب _ وقد سبق وجه معالجته _ وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تقرح به؟

وأما السبب الثالث: وهو الحشمة التي اضطرَت المادح إلى المدح، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ـ كما نقل ذلك عن السلف ـ؛ لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة .. كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان .. قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه. وقال بعضهم: إذا قبل لك نعم الرجل أنت، فكان أحب إليك من أن يقال لك: بنس الرجل أنت، فأنت والله بنس الرجل. وروي في بعض الأحبار ـ فإن صح فهو قاصم للظهور ـ: أنَّ رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ: اللَّوْ كَانٌ صَاحِبُكَ حَاضِراً فَرَضِيَ الَّذِي قُلْتُ فَمَاتَ صَلَى ذَٰلِكَ دَخَلَ النَّارَه (١٠)، وقال ﷺ مرّة للمادح: وَيِبْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ مَا أَفْلَعَ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ؛ (٢)، وقال عليه السلام: ﴿ الا لا تُمَادَحُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُ المَادِحِينَ فَاحْتُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَآبَ (٣). أَفلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته، وما يدخل على القلب من السرور العظيم به، حتى إن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم، فغضب وقال: إني لم آمرك بأن تزكيني، وقيل لبعض الصحابة: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله، فغضب وقال: إني لأحسبك عراقياً. وقال بعضهم ـ لما مدح ـ: اللهم إن عبدك تقرّب إليّ بمقتك فأشهدك على مقته. وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله تعالى يبغض إليهم مدح الخلق، لأن الممدوح هو المقرّب عند الله، والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله، الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا قرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه؛ إذ ليس أمره بيد الخلق. ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل النفاته إلى مدح الخلق ودمهم، وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه. والله الموفق للصواب برحمته.

 ⁽١) حديث: أن رجلاً أثنى على رجل خيراً فقال: المو كان صاحبك حاضراً فرضي الذي قلت ومات على ذلك دخل الناراا
 لم أجد له أصلاً.

⁽٢) حديث: اوبحك قطعت ظهره...) الحديث. قاله للمادح، تقدم.

 ⁽٣) حديث: «ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المداحين قاحثوا في وجوههم التراب؛ تقدم دون قوله: «ألا لا تمادحوا».

بيان علاج كراهة الذم:

قد سبق: أن العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه. والقول الوحيز فيه: أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال:

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة، وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنت، وإما أن يكون كاذباً.

فإن كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل عيبك إن كنت قد استحسنته وكل فلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة فقد أتبح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة. فمهما قصدت الدخول على ملك وثربك ملوث بالعذرة وأنت تدري، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة، فقال قائل: أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك، فينبغي أن لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة، فقال قائل: أيها الملوث بالآخرة، والإنسان إنما يعرفها من تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة، وجميع مساوىء الأخلاق مهلكة في الآخرة، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن يغتنمه.

وأما قصد العدوّ التعنت فجناية منه على دين نفسه، وهو نعمة منه عليك، فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به؟

الحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك، ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه.

والثاني: أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك، فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك. فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقرّبك إلى الله تعالى، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله.

وأما الثالث: فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله، وأهلك نفسه بافترائه وتعرّض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن ثقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه، كما قال ﷺ: «اللهم أغفِرْ لقومي اللهم أهد قومي فَإِنْهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١)، لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أُحد. ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال: علمت أني مأجور بسببه

 ⁽١) حديث: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» قاله لما ضربه قومه. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وقد تقدم،
 والحديث في الصحيح: «أنه ﷺ قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه».

وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي. ومما يهون عليك كراهة المذمة: قطع الطمع، فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبه، وأصل الدين القناعة، ويها ينقطع الطمع عن المال والجاه، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

أعلم: أنَّ للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح:

الحالة الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم ويحقد على الذام، ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يمتعض في الباطر على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته، ويفرح باطنه، ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الحالة الثالثة: وهي أوَّل درجات الكمال: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فلا تغمه المذمة ولا تسره استثقالاً. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته. وعلاماته: أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجَّة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المآدح، وأن لا يكون موت المادح المطري له أشدّ نكاية في قُلْبه من موت الذام، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام. فمهما خف الذام على قلبه ·كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة، وما أبعد ذلك وما أشدّه على القلوب. وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون؛ حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام، والشيطان يحسن له ذلك ويقول: الذام قد عصى الله بمذمتك، والمادح قد أطاع الله بمدحك، فكيف تسوّي بينهما؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض. وهنا محض التلبيس، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب كبائر المعاصى أكثر مما ارتكب الذام في مذمته، ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم، ويعلم أن المادح الذي مدح لا يخلو عن مذمة غيره. ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه، والمذمة منَّ حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو الملعوم أو غيره. فإذاً: العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه؛ فيزيده ذلك بعداً من الله، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوّت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة، وفيهم قال الله تعالى: ﴿ فُلُّ هَلْ لَلْبَتُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَغْنَلًا ۞ ٱلَّذِينَ صَلَّ سَعَيْهُمْ فِي ٱلْجَيَوْةِ اَلدُّنْهَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنْهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ اللَّهِ اللَّهِ ١٠٤،١٠٣].

الحالة الرابعة: وهي الصدق في العبادة؛ أن يكره المدح ويمقت المادح، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر، مضرة له في الدين، ويحب الذام إذ يعلم أن مهد إليه عيبه، ومرشد له إلى مهمه،

ومهد إليه حسناته، فقد قال ﷺ: قرأسُ التَّواضُعِ أَنْ تَكْرَهَ أَنْ تُذْكَرَ بِالبِرِّ وَالتَّقْوَى ('')، وقد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صع الذروي أنه ﷺ قال: قويلٌ لِلصَّائِم وَوَيْلُ لِلْقَائِم وَوَيْلُ لِلْقَائِم وَوَيْلُ لِلْقَائِم وَوَيْلُ لِلْقَائِم وَوَيْلُ لِلْقَائِم وَوَيْلُ لِلْقَائِم الْمِدْحَةُ وَاسْتَحَبَّ الْمَلْمَةَ ('')، وهذا شديد جداً، وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية، وهو أن يضمر الفرح والكراهية على الذام والمادح، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل، فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نظمع فيها. ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإنها لا تفي بها، لأنها لا بد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد، فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى، فكيف بما بعده من المرتبتين؟ وكل واحدة من هذه الرتب أيضاً فيها درجات.

أما الدرجات في المدح: فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى ميل ذلك بكل ما يمكن حتى يراتي بالعبادات، ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح، وهذا من الهالكين.

ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شرف جرف هار، فإن حلود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً.

ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه، فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها، وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية، وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة؛ فتارة تكون البد له وتارة تكون عليه.

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغنم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص.

ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه، لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له؟ هإن ذلك عين النفاق، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام، وأوّل درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن في قلبه حنق وحقد على نفسه؛ لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيئة فيبغضها بغض العدق، والإنسان يفرح ممن يذم عدوّه، وهذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها، ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها، فيكون ذلك كالتشفي

⁽¹⁾ حديث: «رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى» لم أحد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: فويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف...» الحديث. لم أجده هكذا، وذكر صاحب الفردوس
من حديث أنس: فويل لمن قبس الصوف فخالف فعله قوله وله يخرجه ولده في مسنده.

له من نفسه، ويكون غنيمته عنده إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس، وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوي عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يقسع طعيره، وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

* * *

الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء: وفيه بيان ذم الرياء، وبيان حقيقة الرياء وما يرائى، وبيان درجات الرياء، وبيان الرياء الخفي، وبيان درجات الرياء وبيان الرخصة في الخفي، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط، وبيان دواء الرياء وعلاجه، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق، وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها. وهي عشرة فصول وبالله التوفيق.

بيان ذم الرياء:

اهلم: أن الرياء حرام، والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآبات والأخبار والآثار.

⁽۱) حديث: «نزول قوله تعالى ﴿فَنَ كَانَ رَبُواً لِلْآةَ رَبُور﴾ [الكهف: ١١٠] الآية، فيمن يطلب الآخرة والحمد بعباداته وأعماله». أخرجه الحاكم من حديث طاوس: •قال رجل: إني أقف الموقف أبتني وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية». هكذا في نسختين من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة، وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف «من صام رياء فقد أشرك...» الحديث. وفيه: «أنه ﷺ ثلا هذه الآية».

المقتول في الثلاثة: «المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارى، لكتابه فإن الله تعالى يقول لكل واحد منهم: كذبت، رواه مسلم، وسيأتي في كتاب الإخلاص.

⁽۲) حديث ابن عمر: «من راهى راءى الله به ومن سمع سمع الله به» متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله، وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ: «من سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره» وفي الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منبع: إنه من حديث عبدالله بن عمره.

⁽٣) حديث: «إن الله يقول للملائكة إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين؟ أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلاً، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

⁽٤) حديث: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر... الحديث، أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراي من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج،

حديث: «استعبلوا بالله من جب الحزن؛ قبل: وما هو؟ قال: «واد في جهتم أحد للقراء المراثين؛ أخرجه الترمذي وقال غريب، وابن ماجه من حديث أبى هريرة وضعفه ابن عدي.

 ⁽٦) حديث: «يقول الله من همل لي هملاً أشرك فيه فيري فهو له كله. . . ا الحديث. أخرجه مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله: «وأثا منه بريء» ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضاً، وهي هند ابن ماجه بسند صحيح.

 ⁽٧) حديث: الا يقبل الله همالاً فيه مقدار درة من ريامه لم أجده هكذا.

 ⁽A) حديث معاذ: •إن أدنى الرياء شرك أخرجه الطبراني هكذا والحاكم بلفظ: •إن اليسبر من الرياء شوك، وقد تقدم

 ⁽٩) حديث: «أخوف ما أخاف عليكم الرياء. . . الحديث. تقدم في أول هذا الكتاب.

⁽١٠) حديث: (إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيميته فكاد أن يخفيها عن شماله متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث: اصبعة يظلهم الله في ظله».

ورد: «أَنْ فُضُلَ هَمَلُ السُرِّ عَلَى عَمَلِ الجَهْرِ بِسَبْعِينَ ضِغفاً» (''، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ المُرَائِي يُنَاذَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ يا فَاجِرُ يا خَادِرُ يا مُرَائِي صَلَّ عَمَلُكَ وَحَبِطَ أَجُرُكَ انْهَبْ فَخُذَ أَجْرَكَ مِمَنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ ('')، وقال شدّاد بِ أوس: رأيت النبي ﷺ يَبْكِي فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: ﴿إِنِّي تَخَوَفْتُ عَلَى أُمْتِي الشَرْكَ أَمَا إِنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ صَنَما وَلا شَمْسا وَلا قَمَرا وَلا حَجَرا وَلْكِنْهُمْ يُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ('') وقال ﷺ: ﴿لمَا خَلَقَ اللهُ إِنَّى الْمُعْرِمُ وَلَا شَمْرا وَلا حَجَرا وَلْكِنْهُمْ يُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ('') وقال ﷺ: ﴿ وَاللهُ اللّهُ إِنَّ الْمُلائِكَةُ : ﴿مَا أَمْدُ اللّهُ لِللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الْمُلَاثِكَةُ فَقَالَتْ: نَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى، قَالُوا: يُمْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الْمُلَاثِكَةُ فَقَالَتْ: نَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى، قَالُوا: يَا رَبّ مَا أَشَدُ مَا خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَمْ أَخُلُقُ خَلْقا هُو آشَدُ عَلَى مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ الْمُلائِكَةُ فَقَالَتْ: نَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى، قَالُوا: يَا رَبّ مَا أَشَدُ مَا خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ؟ قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَمْ أَخُلُقُ خَلْقًا هُو آشَدُ عَلَى مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ لَمُ الْهُ لَا اللّهُ تَعَالَى: لَمْ أَشَدُ عَلَقَ الْمَاءَ مِنْ خَلْقا عُولَ اللّهُ عَلَى مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ يَعْلَقُهُ وَاللّهُ الْهُ يَعْلَقُهُ وَلَا اللّهُ عَلْقَا خَلْقَاءُ مُلَقَلُهُ وَاللّهُ الْمُعْمَى مِنْ قَلْهُ الْمَاءَ عَلْقَالُكَ عَلْقَا مُولَا اللّهُ عَلَقَا مُؤْلُوا اللّهُ عَلَقَا عُلَقَالُكَ اللّهُ الْمُعْلِقُ الْمُوا اللّهُ عَلَيْهُ الْمُولُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُؤْلِلُهُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُؤْلُلُ اللّهُ الْمُؤْلُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُؤْلُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُؤْلِلُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ الْمُعْلَى الللّهُ الْمُؤْلُ اللّهُ الْمُؤْلُولُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

وروى عبدالله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال: سمعت النبي ﷺ قال لي: هيا معاذه قلت: لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: هإني مُحَدُنُكُ حَدِيثاً إِنْ أَنْتَ حَفِظْتهُ تَقَعَكَ وَإِنْ الله قَلْتُ ضَيْعَةُ وَلَمْ تَحْفَظْهُ الْفَطَفَتُ حُجِّتُكَ حِنْدَ الله يَوْمَ القِيامَةِ، يا مَعَادُ إِنْ الله تَعَالَى حَلَق السَّمُواتِ وَالأَرْضِ، ثُمُ حَلَق السَّمُواتِ فَجَعَلَ لِكُلَّ سَمَاءِ مِنَ السَّبْمَةِ مَلَكا يَوْاباً عَلَيْها قَدْ جَلَلْها وَلَمْ يَخُلُق السَّمُواتِ وَالأَرْضِ، ثُمُ حَلَق السَّمُواتِ فَجَعَلَ لِكُلَّ سَمَاءِ مِنَ السَّبْمَةِ مَلَكا يَوْاباً عَلَيْها قَدْ جَلَلْها عِظْما فَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِمَعَلِ المَعْدِي الْمُسَلِّى، لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ، حَتَّى إِذَا صَعِدَتُ بِطَمَا فَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِمَعَلِ المَعْدِي وَلَيْ المَعْفَظَةُ بِمَعَلِ الْمُعْدِي وَتُكُورُ المَلْكُ لِلْحَفَظَةِ: الصَّرِي المَّنْفِ المَّمْورِ الشَّمْسِ، حَتَّى المَعْفَظَةُ بِمَعَلِ الْمُعْدِي وَتُكُورُ المَّالِي المَعْلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَوْادَ بِعَمْلِ السَّمَاءِ الثَّانِيةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلْكُ المُوكِلُ السَّمَاءِ الثَّانِيةِ فَيقُولُ لَهُمُ المَلْكُ المُوكَلُ المُعْدِي وَلَيْكُورُهُ حَتَّى قَبْلُغِ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِيَةِ فَيقُولُ لَهُمُ المَلْكُ المُوكَلُ المُوكِّلُ بِعَمْلِ يَبْعَهُمُ لِيَهُمُ وَوَالْ المَعْدِي وَلَيْعَالِ الْمَعْدِي وَلَيْ المَعْدُولُ المُعَلِّ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنْهُ الْكَورُ أَلْولُولُ المَالِي المَدِي وَحْمَا المُعَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنْهُ الْمَلْكُ المُوكِقُ المَالِقَةِ فَيْعُولُ لَهُمُ المَلْكُ المُوكِقُ فَيْجُاوِرُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ النَالِيَةِ فَيقُولُ لَهُمُ المَلْكُ المُوكَلِ الْمَالِ المَعْدِي وَالْمَالِ المَعْدِي وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلْكُ الجَوْرُ أَلْمَوا وَاصْرِوا بِهَا المَمْلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، أَنَا مَلْكُ الجَرْرِ أَمْرُنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ صَمَلُهُ يُعْمُلُ المُعْدِي وَالْمُ المُعْلِقُ المُعْدِلُ الْمَعْدِي الْمَالِقُ الْمَالُولُولُ الْمَالِقُ الْمَالِ الْمَالِ الْمَالِ الْمَالِ الْمَالِ الْمَالِ الْمَالِقُ الْمَالِ الْمَالِولُ الْمَا

⁽١) حديث: اتفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين»، ضعفه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء «إن الرجل ليحمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً» قال البيهقي: هذا من أنراد بقية عن شيوخه المجهولين، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف: «يفضل المذكر المخفية المحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة».

 ⁽٣) حديث: «إن المراثي ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل حملك وحبط أجرك...» الحديث. أخرجه ابن
 أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد: «يا كافر يا خاسر» ولم يقل «يا مرائي» وإسناده ضميف.

 ⁽٣) حديث شداد بن أوس: الني تخوفت على أمتي الشرك. . . • الحديث. أخرجه ابن ماحه والحاكم نحوه، وقد تقدم قريباً.

⁽٤) حديث: «لما خلق الله الأرض مادت بأهلها. . .» الحديث. ونيه: «لم أخلق خلقاً هو أشد من أبن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله، أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال: غريب.

اللُّرَيُّ لَهُ دَويٌّ مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلاةٍ وَحَجٍ وَصُمْرَةٍ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوكِّلُ بِها: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا ٱلْمَمَل وَجْهَ صَّاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، أَنا صَاحِبُ العُجْبِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ إِذَا غَمِلَ عَمَلاً أَذْخَلَ العُجْبَ في عَمَلِهِ» قال: ﴿وَتُصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعْمَلِ العَبْدِ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السُّمَاءَ الحَامِسَةَ كَأَنَّهُ الْمَرُوسُ الْمَزْفُوفَةُ إِلَى أَمْلِهَا فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوكُلُ بَها: ثِغُوا وَاضْرِبُوا بِهَٰذَا الْمُمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنَا مَلَكُ الحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَخْسُدُ النَّاسَ مَنْ يَتَمَلَّمُ وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ خَمَلِهِ وَكُلٌّ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ فَصْلاً مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ أَمْرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَعَ حَمَلَهُ يُجَاوِزُنِيَ إِلَى خَيْرِي، قَالَ: ﴿ وَتَصْمَدُ الْحَفَظَةُ بِمَمَلِ الْمَبْدِ مِنْ صَلَاةٍ وَرَكَاةٍ وَحَجِ وَعَمْرَةٍ وَصِيام فَيُجَاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسةِ فَيَقُولُ لَهُمُ المَلَكُ المُوَكُلُ بِهَا: قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهٰذَا الْعَمْلِ وَجُهَ صَاحِبِةٍ إِنَّهُ كَانَ لَا بَرْحَمُ إنْساناً قَطُّ مِنْ عِبَادِ اللهُ أَصَابَهُ بَلاءَ أَوْ ضُرَّ أَضَرَّ بِهِ بَلْ يَشْمَتُ بِهِ، َ أَنا مَلَكُ ٱلرَّحْمَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لا أَدَّعَ خُمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى خَيْرِي». قال: «وَتَصْعَدُ الحَفَظَةُ بِمَمَلِ المَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْم وَصَلاةٍ وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَويٌّ كَدَوِيّ الرُّعْدِ وَضَوْء كَضَوْءِ الشَّمْس مَعَهُ ثَلاثَةُ ٱلانبَ مَلَكِ فَيُجَأُوزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمُلَكُ الْمُوكُلُ بِهَا: قِقُوا وَاصْرِبُوا بِهَٰذا الْعَمَل وَجْهَ صَاحِبِهِ، اضَّرَبُوا بِهِ جَوَارِحَهُ، اقْفِلُوا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّي أَحْجُبُ عَنْ رَبِّي كُلِّ عَمَل لَمْ يُرَدُّ بِهِ وَجْهُ رَبِّي إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللهَ تعَالَى، إِنَّهُ أَزَادَ رِفَعَةَ حِنْدَ اللَّفُقَهَاءِ وَذِكْراً حِنْدَ المُلِّمَاءِ وَصِيتًا فِي المَدائِن، أَمَرَنِي رَبِّي أَنَّ لا أَدَعَ صَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى فَيْرِي، وَكُلُ عَمَلِ لَمْ يَكُنْ لله خَالِصا فَهُوَ رِياءٌ وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ عَمَلَ المُرَائِي ۗ . قال: "وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاةٍ وَذَكَّاةٍ وَصِبَامٍ وَجَج وَعُمْرَةٍ وَخُلِّقٍ حَسَنٍ وَصَمْتٍ وَذِكْرٍ لله تَعَالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلائِكَةُ السَّمْوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوا بِهِ الحُجُبَ كُلُّهَا إِلَىَّ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَبَيقِـفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بالعَمَل الصَّالِحِ المُخْلَصِ اللهُ. قال: ﴿فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ: أَنْتُم الحَفَظَة عَلَى عَمَلٍ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى نَفْسِه إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي َّ بِهٰذَا الْمَمَّلِ وَأَوَادَ بِهِ خَيْرِي فَعَلَيهِ لَغَنَّتِي، فَتَقُولُ المَلائِكَةُ كُلَّهُمْ: `حَلَيْهِ لَمْنَتُكَ وَلَمْنَتُنَا، وتَقُولُ السُّمَّاوَاتُ كُلُهَا: ۚ عَلَيهِ لَفَنَهُ اللهُ وَلَعْنَتُنَا وَتَلْعَنُهُ السَّمَاوَاتُ السِّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَا قال معاذ: قلت يا رسول الله، أنت رسول الله وأنا معاذ قال: ﴿اقْتَدِ بِي وَإِنْ كَانَّ فِي عَمَلِكَ نَقْصُ، يَا مُعَاذُ حَافِظُ عَلَى لِسَانِكَ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَاحْمِلُ ذُنُوبَكَ حَلَيْكُ وَلا تَحْمِلُها حَلَيْهِمْ، وَلا تُزَكُ نَفْسَكُ بِذُمَّهِمْ، وَلَا تُرْفَعْ نَفْسَكَ حَلَيهِمْ، وَلَا تُدْخِلْ حَمَلَ الدُّنْيَا فِي حَمَلِ الآخِرَةِ، وَلَا تَتَكَبُّرْ فِي مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْلَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءٍ خُلُقِكَ، وَلا ثُنَاجٍ رَجُلاً وَعِنْلَكَ آخَرُ ، وَلا تَتْمَظُّمْ عَلَى النَّاسِ قَينُقُطِعَ عَنْكَ خَيثُر النُّنْيَا، وَلا تُمَرِّقِ النَّاسَ فَتَمَرُّقُكَ كِلابُ النَّارِ يَوْمَ القِيامَةِ فِي النَّارِ. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَالنَّفِيطَاتِ نَسْطَا ١٠٠ [النَّازَمَات: ٢] أَتُذُرِي مَنْ هُنَّ يَا مُعَاذُ؟؛ قلت: ما هن بأبي أنْت وأمي يا رسول الله؟ قال: «كِلابٌ فِي ٱلنَّارِ تَنْشَطُ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ». قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: «يَا مُعَاذُ إِنَّهُ لَيُسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرَهُ الله عَلَيْهِه (١). قال: فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث.

⁽¹⁾ حديث معاذ الطويل: فإن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السلوات والأرض فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً يواباً طليها... الحديث. بطوله في صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل مماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف إلى رواية عبدالله بن المبارك بإسناده عن رجل عن معاذ، وهو كما قال، رواه في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

وأما الآثار: فيروى أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته قال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب، ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك. وقال على كرّم الله وجهه: للمراثي ثلاث علامات؛ بكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذم. وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك. . . الحديث. وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر، فقال له: أتحب أن تمقت؟ قال: لا، قال: فإذا عملت لله عملاً فأخلصه. وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك، ولا يقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له. وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له: اقتص منى فقال: لا بل أدعها لله ولك. فقال له عمر: ما صنعت شيئاً إما أن تدعها لي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده، فقال ودعتها لله وحده، فقال: فنعم إذن. وقال الحسن: لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذي في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة. ويقال: إن المرائي ينادي يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائى يا غادر يا خاسر يا فاجر، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا. وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون. وقال عكرمة: إن الله يعطى العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله؛ لأنَّ النية لا رياء فيها. وقال الحسن رضى الله عنه: المراثي يريد أن يغلب قدر الله تعالى، وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء؟ فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه. وقال قتادة: إذا راءي العبد يقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي يستهزيء بي. وقال مالك بن دينار:القرّاء ثلاثة: قرّاء الرحمن، وقرّاء الدنيا، وقرّاء الملوك، وأن محمد بن واسع من قرّاء الرحمن. وقال الفضيل: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلىَّ. وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار؛ لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان: التوقي عن العمل أشدّ من العمل. وقال ابن المبارك: إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: يحب أن لا يذكر أنه مجاور بمكة. وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أراد أن يشتهر.

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به:

اعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخيرة إلا أنّ الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات. واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها، قحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد، والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك، والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام؛ وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو: البدن، والزي، والقول، والعمل، والأتباع والأشياء الخارجة. وكذلك أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة إلا أنّ

طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأوّل: الرياء في الدين بالبدن: وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدّة الاجتهاد؛ وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين، وعدم التفرّغ لتسريح الشعر. وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة، ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته، أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوته. وعن هذا قال المسيح عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه. وكذلك روي عن أبي هريرة، وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياه؛ ولذلك قال ابن مسعود: أصبحوا صياماً مدهنين. فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن.

فأما أهل الدنيا: فيراؤون بإظهار السمن وصفاء اللون، واعتدال القامة وحسن الوجه، ونظافة البدن وقوّة الأعضاء وتناسبها.

الثاني: الرياء بالهيئة والزي: أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس، وحلق الشارب، وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق، وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كل ذلك يراثي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة قيه، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة، ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن، ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة، وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة. ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم؛ ليوهم أنه من أهل العلم.

والعراؤون بالزي على طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة؛ ليراثي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا، ولو كلف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذيح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا، وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ودهم القراء، ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الذقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والقوط الرفيعة فيلبسونها، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيأته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الموك والأغنياء، ولو كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح؛ خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الديبقي والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الديبقي والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم - وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم؛ لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح: قد رغبوا في زي أهل الدنيا - وكل طبقة منهم وأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه، أو إلى ما فوقه وإن كان مباحة من الملمة.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع، والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت ووفرة الخيول، وبالثياب المصبغة والطيائسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة، ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة.

الثالث: الرياء بالقول: ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لأجل الاستعمال في المحاورة، وإظهاراً لغزارة العلم، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي، وتضعيف الصوت في الكلام، وترقيق الصوت بقراءة القرآن؛ ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ، والدق على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث، والمبادرة إلى المحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين. والرياء بالقول كثير، وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال، والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

الرابع: الرياء بالعمل: كمراءاة المصلي بطول القيام ومدّ الظهر، وطول السجود والركوع وإطراق الرأس. وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالإحبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى إنّ المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى حشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدّد الخشوع له، بل هو لاطلاع انسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة حتى إذا رآه الناس يفتقر إلى التغيير، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً، فإنه إنه إنه إنه وحياء منه.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا، والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين: كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد ليقال: إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال: إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين. وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أبه لقي شيوخاً كثيرة، واستفاد منهم فيباهي بشيوخه، ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً، ودرت البلاد وخدمت الشيوخ، وما يجري مجراه فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه، فكم من واهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة؟ وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدّة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في

قلوب الخلق، ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته؛ لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتذ لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم، ولكنه يحب مجرّد المجاه من فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه من فإنه نوع قدرة وكمال في الحال، وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال، ومن المراثين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه. ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتسجز الحوائج على يده؛ فبقوم له بذلك جاه عند العامة، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامي وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شر طبقات المراثين الذين يراؤون بالأسباب التي ذكرناها، فهذه حقيقة الرباء وما به يقع الرباء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول: فيه تفصيل: فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال، فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما لا يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود، فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿إِنِّ حَفِيطٌ عَلِيمٌ ﴾ [بُرسُف: ١٠٠] وكما أن المال فيه سم نافع وترياق نافع فكذلك الجاه، وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة، فكذلك كثير الجاه بل أشدً، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنّا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً تملك القلوب الكثيرة حرام، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم، انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصى القلب واللسان وغيرها، وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم، فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو ليس بحرام، لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم. والدليل عليه ما روي عن عائشة رضى الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة، فكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ قال: ﴿نَعَمْ إِنَّ اللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لِإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ ﴾(١). نعم، هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة ؛ لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه، فكان يجب عليه أن يطهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم، فإنّ أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر، فكان ذلك قصد رسول الله على، ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولومهم، واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً ، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الأنس بالإخوان. ومهما استثقلوه واستقلروه لم يأنس بهم.

⁽١) حديث هائشة: اأراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره... الحديث. أخرجه ابن عدي في الكامل، وقد تقدم في الطهارة.

فإذن: المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها. ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخى فهذا مراءاة وليس بحرام، وكذلك أمثاله.

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمراثي فيه حالتان؛ إحداهما: أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأنّ الأعمال بالنيات، وهذا ليس بقصد العبادة، ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة، بل يعصي بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات.

والمعنى في أمران:

أحدهما: يتعلق بالعباد: وهو التلبيس والمكر؛ لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطبع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به، لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر.

والثاني: يتعلق بالله: وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزىء بالله. ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته: انظروا إليه يستهزىء بى.

ومثاله: أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم، وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقريب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقريب من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته؟ وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات، ولهذا سماه وسول الله على الشرك الأصغر(١٠).

نعم، بعض درجات الرياء أشد من بعض ـ كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ـ، ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة، ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المراثي عظم في قلبه الناس، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك، إلا أنه قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله، فعن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم، ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على

⁽١) حديث: «سمى الرياء الشرك الأصغر». أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد، وقد تقدم، ورواه الطبرائي من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج فجمله في مسند رافع وتقدم قريباً، وللحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس: «كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر».

صنيعه، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكون لعيرهم هذا في الدنيا؟ فكيف في يوم ﴿لَا يَجْزِى وَالِدُ عَن وَلَدِهِ، وَلَا مَوْلُودُ هُو جَازٍ عَن وَالِدِهِ، شَيّئاً ﴾ [لقمان: ٣٣] بل تقول الأنبياء فيه: نفسي نفسي؟، فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونبل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس؟، فلا ينبغي أن نشك في أن المراثي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً، هذا إذا لم يقصد الأجر، فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص، ويدل على ما مقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصافت: إنه لا أجر له فيه أصلاً.

بيان درجات الرياء:

اعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد وأعلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه. وأركانه ثلاثة: المراءي به والمراءي لأجله ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء؛ وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والشواب، وإما أن يكون مع إرادة الشواب. فإن كان كذلك لا يخلو إما أن تكون إرادة الشواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة، فتكون الدرجات أربعاً:

الأولى: وهي أغلظها: أن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرّد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى. وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب، ولو خلا بنفسه لما أداها، فهذه الدرجة العليا من الرياء.

الثانية: أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل، فهذا قريب مما قبله، وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل، لا ينفي عنه المقت والإثم.

الثالثة: أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين، بحيث لو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل، فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل؛ فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه في كتاب الثواب مثل ما عليه من العقاب، وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم، وقد تكلمنا عليه في كتاب الاخلاص.

الرابعة: أن يكون إطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه، فالذي نظنه ـ والعلم عند الله ـ أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه، أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله ﷺ: فيقول الله تعالى أنا أضى الأغنياء عن الشرك فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به وهو الطاعات؛ وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات، وإلى الرياء أوصافها.

القسم الأول وهو الأغلظ: الرياء بالأصول، وهو على ثلاث درجات.

الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين: وهذا أيضاً عظيم عند الله، ولكنه دون الأول بكثير. وهذاك أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من دمه، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة؛ ولكن خوفاً من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك. فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل، وينشط عند إطلاع الناس، فتكون منزلته عند الخلق أحب لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل، وينشط عند إطلاع الناس، فتكون منزلته عند الخلق أحب ألله من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في محمدتهم أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة؛ لفتور رغبته في ثوابها، ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب، ثم يبعثه الرياء على فعلها، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وغسل المبت، وكالتهجد بالليل، وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الإثنين والخميس. فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض. فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله، فإن الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد المخالق. وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذم المخلق دون ذم المخالق، فكان ذم المخلق أعظم عنده من عقاب الله، وأما هذا أيضاً قد فعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها، وكأنه على شطر من الأوّل وعقابه نصف عقاباً .

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها: وهو أيضاً على ثلاث درجات: الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا

يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود، وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين، وقد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عزّ وجلّ؛ أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة، ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكتاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة؛ كان ذلك منه تقديماً للغلام على السيد، واستهانة بالسيد لا محالة. وهذا حال المراثي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة. وكذلك الذي يعناد إخراج الزكاة من الدنائير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيّد خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن العبية والرفث لأجل الخلق، لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة، فهذا أيضاً من الرياء المحظور؛ لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوّعات.

فإن قال المراثي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية؟ فيقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك على نفسك أكثر، وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها، فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف، ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفاً من مذمة غلمانه، وذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان: إحداهما: أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً. والثانية: أن يقول: ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود، ولو خففت كانت صلاتي عندهم ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم، فأستفيد بتحسين الهيبة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر. والصحيح: أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص، فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة، فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله؛ فإن ذلك استهزاء كما سبق.

الدرجة الثانية: أن يراثي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومدّ القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى، وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السور المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة، وإعتاق الرقبة الغالبة في الكفارة. وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

الثالثة: أن يراثي بزيادات خارجة عن نفس النوافل؛ كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول، وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه. وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائى به؛ وبعضه أشدّ من بعض. والكل مذموم.

الركن الثالث: المراثى لأجله: فإن للمراثي مقصوداً لا محالة، وإنما يراثي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات:

الأولى: - وهي أشدّها وأعظمها - أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات، وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولي القضاء أو

الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها، أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيخترل بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج، ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي، وقد يظهر بعضهم زي التصوّف وهيئة الخشوع، وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير، وإنما قصده التحب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن، يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام. وهؤلاء أبغض المراثين إلى الله؛ لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيتهم، واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم ـ من هو مقترف حريمة اتهم بها وهو مصر عليها، ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة، كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال: إنه يتصدق بمال نفسه، فكيف يستحل مال غيره؟ وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام، فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير؛ لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة، وكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد؛ فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته. فهذا رياء محظور؛ لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا، ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد، ويعتقد أنه من جملة العامة كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال: إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه يعين الاحتقار؛ فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن، ويقول: مَا أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلمُ منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والإثنين، أو يتصدقون فيوافقهم؛ خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله، أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم، وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال: إنه ساتر لعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً؛ بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم، أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أن يعتذر رياءً، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً؛ مثل أن يقول: إن فلاناً محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألح على اليوم ولم أجد بدأ من تطييب قلبه. ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب مشفقة عليَّ، تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن. أما المخلص فإنه لا

كتاب ذم الجاه والرياء

يباني كيف نظر الخلق إليه؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم ـ وقد علم الله ذلك منه ـ فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فبه، غيره، وقد يخطر له أنّ في إظهاره التناء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور ـ وسيأتي شرح ذلك وشروطه ـ.

فهذه درجات الرياء، ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وإن من شدَّته: أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر، يزل فيه فحول العلماء فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب. والله أعلم.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل:

اعلم: أنَّ الرياء جلي وخفي، فالجلى هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه، وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان، وأخفى من ذلك ما لا يؤثره في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجَّلي علاماته: أن يسرّ باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له، وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر فأطهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً وغذاءً للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرّك على نفسه حركة خفية، فيتقاضي تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض، وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى التصريح، وقد يخفي فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشماثل، كإظهار النحول والصفار، وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق، وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد، وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قمع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل(١٠). وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصدّيقون.

حديث: وفي الرباء شوائب أخفى من دبيب النمل؛ أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري: واتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من هبيب النمل؛ ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق، وضعف هو والدارقطني.

وقد روي عن على كرم الله وجهه أنه قال: إن الله عزّ وجلّ يقول للقراء يوم القيامة، ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألَّم تكونوا تبتدرون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث: ﴿لا أَجْرَ لَكُمْ قَدِ اسْتَوْفَيْتُمْ أَجُورَكُمْ». وقال عبدالله بن المبارك: روي عن وهب بن منبه أنه قال: إن رجلاً من السوّاح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنًا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا؟ قيل: هذا الملك قد أظلك، فقال للغلام: ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفاً فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، قال: كيف أنت؟ قال: كالناس، وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير. فانصرف عنه، فقال السائح: الحمد شه الذي صرفك عني وأنت لي ذام. فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدونُ لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملا من الخلق؟ إذ علموا أنَّ الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص، وعلموا شدَّة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزي والد عن ولده، ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كلُّ واحد: نفسي نفسي! فضلاً عن غيرهم، فكانوا كزوّار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص؛ لعلمهم أن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والبهرج، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجى إلا الخالص من النقد، فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزوَّدونه له من التقوى. فإذن: شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقه بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء، فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا، فلو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أنَّ العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب، كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر مفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قلت: فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه منموم؟ فنقول: أولاً، كل سرور فليس بملموم، بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم.

فأما المحمود فأربعة أقسام:

الأوّل: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص فله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية، ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، ولا لطف أعظم من ستر القبيع وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال تعالى: ﴿ الله عَمْلِ الله وَيَرْتَوْيِدِ فَيِلَاكِ فَلَيْدُرَهُوا ﴾ [بُونس: ٥٨] فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به.

الثَّانيُّ: أَنْ يُستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة؛ إذ

قال رسول الله ﷺ: «ما ستر الله على عبد ذنباً إلا ستره عليه في الآخرة» (١) فيكون الأوّل فرحاً بالقبول مي الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفات إلى المستقبل.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً، وأجر السر بما قصده أولاً، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم، وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة؛ إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله. وعلامة الإخلاص في هذا النرع: أن يكون فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم وهو الخامس: فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس؟ حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه، والله تعالى أعلم.

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط:

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار فهذا لا بفسد العمل؛ إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء، فما يطراً بعده فيرجو أن ينعطف عليه أثره، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، ولم يتمن إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه، نعم، لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف.

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط. فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة البقرة، فقال: ذلك حظه منها. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل قال له: صمتُ الدهر يا رسول الله. فقال له: فقال له: طمه منها. وروي عن رسول الله ﷺ ومن ذلك لأنه أظهره وقيل: هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ ومن ابن مسعود استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به؛ إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً لثواب العمل، بل الأقيس أن يقال: إنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً الصلاة فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل. وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً

⁽١) " حديث" فما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

⁽٢) حديث. قال لرجل. قال صمت الدهر: قما صمت ولا أفطرته أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة: قال عمر: يا رسول الله، كيف بمن يصوم الدهر؟ قال: قلا صام ولا أفطره وللطبراتي من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث، فيه: فقال رجل: إني صائم، قال بعض القوم: إنه لا يقطر إنه يصوم كل يوم. قال النبي على: قلا صام ولا أقطر من صام الأبله ولم أجده بلفظ الخطاب.

وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل، وإما أن يكون رياة باعثاً على العمل، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره. ومثاله: أن يكون في تطرّع فتجددت له نظارة، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفاً من مذمة الناس، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة، وقد قال ﷺ: «المَعَلُ كَالوَعَاء إذا طَابَ آخِرُهُ طَابَ آوَلُهُهُ ﴿) أي النظر إلى خاتمته. وروي أنه: «مَنْ رَاءَى بِعَمَلِ سَاعَةٍ حَبِطَ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ قَبْلُهُ ﴾ وهذا مقرده وهذا منزل على الصلاة ولا على القراءة، فإن كل جزء من ذلك مقرده فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي، والصوم والحج من قبيل الصلاة. وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة فقرح بحضورهم وعقد الرياء وصار قصد وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً، فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض باعثاً على الحركات، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً، فهذا أيضاً بنبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنا العبادة مغموراً، فهذا أيضاً بنبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنا العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب، وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا وقال إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس _ يعني سروراً هو كحب المنزلة والجاه _ قال: قد اختلف الناس في هذا؛ فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأوّل، وركن إلى حمد المخلوقين، ولم يختم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العمل بخاتمته، ثم قال: ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل، ولا آمن عليه، وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس، والأغلب على قلبي: أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال: فإن قبل: قد قال الحسن رحمه الله تعالى: إنهما حالتان، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية، وقد روي: أن رجلاً قال للرسول في: يا رسول الله، أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني قال: قلك أجران أَجُرُ السَّرُ وَأَجُرُ العَلاَئِيَةِ (٣)، ثم تكلم على الخبر والأثر فقال: أما الحسن فإنه أراد بقوله: لا يضره، أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل، يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه.

أحدها: أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ، وليس في الحديث أنه قبل الفراغ-

 ⁽١) حديث: «الممل كالوهاء إذا طاب آخره طاب أوله» أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية من أبي سفيان بلفظ: «إذا طاب أسفله طاب أصلام»، وقد تقدم.

 ⁽۲) حدیث: قمن راءی بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله الم أجده بهذا اللفظ، وللشیخین من حدیث جندب: قمن مسع سمع الله به ومن راءی راءی الله به ، ورواه مسلم من حدیث ابن عباس.

⁽٣) حديث: «إن رجلاً قال أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني فقال: فقك أجران . . . ١٩ الحديث . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود، ورواه الترمدي وابن حبان من رواية دكوان عن أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال: قله أجر السر والعلائية ٩ . قال الترمذي : خريب، وقال : إنه روي عن أبي صالح وهو ذكر أنه مرسل .

الثاني: أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل، لا سروراً بسبب حب المحمدة والمنزلة، بدليل أنه جعل له به أجراً، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجراً، وغايته أنه يعفى عنه، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائي أجران؟.

والثالث: أنه قال: أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح، ومنهم من يرفعه، فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء أولى. هذا ما ذكره ولم يقطع به، بل أظهر ميلاً إلى الإحباط.

والأقيس عندنا: أن هدا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً عن باعث الدين، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل؛ لأنه لم ينعدم به أصل نيته، وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام.

وأما الأخبار التي وردت في الرباء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرباء مساوياً لقصد الثراب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة، ولا يبعد أن يقال: إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ـ والخالص ما لا يشوبه شيء ـ فلا يكون مؤدباً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه. وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاماً أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه، فهذا حكم الرباء الطارىء بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ.

القسم الثالث: الذي يقارن حال العقد بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء، فإن استمر عليه سلم، فلا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه:

قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف.

وقالت فرقة: تلزمه إعادة الأنعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة؛ لأن التحريم عقد، والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقداً.

وقالت فرقة: لا يلزم إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة، كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله.

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل، فقالوا: إن الصلاة والركوع والسحود لا تكون إلا لله، ولو سجد لغير الله لكان كافراً، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته. ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جداً، حصوصاً من قال: يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة. وكذلك قول من يقول: لو ختم بالإخلاص صح نظراً إلى الآخر فهو أيضاً ضعيف، لأن الرباء يقدح في النية، وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حال الافتتاح، فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال: إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده، وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجساً أيضاً كان يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين، وههنا لا باعث ولا إجابة. فأما إذا

كتاب ذم الجاه والرياء

كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلى إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان، فهذا إما أن بكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج، فإنَّ كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب، ﴿ فَمَن يَعْمَلُ مِنْقَكَالَ دَرَّةٍ خَيْرًا يَسرُوُ ۞ وَصَ يَعْمَلَ مِثْقَكَالَ ذَرَّةِ شَمًّا يَرَهُ ﴿ ﴾ [الزّلزلة: ٧، ٨]، فله ثواب بقدر قصده الصحيح، وعقاب بقدر قصده الفاسد، ولا يحبط أحدهما الآخر. وإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلَى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضاً أو نفلاً، فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه؛ إذ اجتمع في قلبه الباعثان، ولا يمكن أن يقال: صلاته فاسدة والاقتداء به باطل، حتى إن من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به، فإن المصير إلى هذا بعيد جداً، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص، فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان، وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما؛ فهذا لا يسقط الواجب عنه، لأن الإيجاب لم ينتهض باعثاً في حقه بمجرده واستقلاله، وإن كان كل باعث مستقلاً حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعاً لأجل الرياء فهذا محل النظر، وهو محتمل جداً، فيحتمل أن يقال: إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص، ويحتمل أن يقال: الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه، كما لو صلى في دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة، أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة، مثل من بادر إلى الصلاة في أوَّل الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء، فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت، فهذا أبعد من القدح في النية، هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يُبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة. فهذا ما نراه لائقاً بقانون الفقه، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إنساد العبادات، بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه، والعلم عند الله عزَّ وجلُّ فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

قد عرفت مما سبق: أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشعة، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم؛ إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتدّ العين إلى الخلق، كثير الطمع فيهم؛ فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه، وإنما يشعر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء

في قلبه وترسخ فيه، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات. فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً وفي علاجه مقامان:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله: وأصله حب المنزلة والجاه. وإذا فضل رجع إلى ثلاثة أصول: وهي لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمراثي ما روى أبو موسى: أن أعرابياً سأل النبي على فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل(١٠) حمية ـ ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب ـ قال: والرجل يقاتل ليرى مكانه ـ وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ـ والرجل يقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ فقال ﷺ: امَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ المُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفان مزلت الملائكة فكتبوا الناس على مواتبهم؛ فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك، والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقال عمر رضي الله عنه: يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ﷺ: «مَنْ فَزَا لا يَبْغِي إِلاَّ مِقَالاً فَلَهُ ما نَوَى»(٢)، فهذا إشارة إلى الطمع. وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم، كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقونَ بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفرّ من الزحم خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال. ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد. وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل، ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل، كل ذلك حذراً من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المراثي إلى الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة.

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء، وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة. ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله، وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر؛ حيث ينادى على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، أما استحييت إذا اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله، وتزينت لهم بالشين عند الله، وتقرّبت إليهم بالبعد من الله، وتحمدت إليهم بالتغرض الى الله، وتزينت لهم بالشين عند الله، وتقرّبت إليهم بالبعد من الله، قمهما تفكر بالتذمم عند الله، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله، أما كان أحد أهون عليك من الله، فمهما تفكر

⁽١) حديث أبي موسى: (أن أعرابياً قال: يا رسول الله الرجل يفاتل حمية...؛ الحديث. متفق عليه.

^(*) حديث: فمن فزا لا يبغي إلا مقالاً فله ما نوى. أخرجه النسائي، وقد تقدم.

العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد، والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط من ثواب الأعمال، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجع به ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوي إلى النار. فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره، وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصدّيقين، وقد حط عنهم بسبب الرياء، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنَّ رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضي به فريق يسخط به فريق، ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم أيضاً عليه، ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم؟ ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أنَّ الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه ولًا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والممهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطىء، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه، ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتبه عليه الله، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسىاب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم، كما قال شاعر من بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين فقال له رسول الله ﷺ: «كَلَيْتُ؛ ذَلَكَ الله الَّذِي لا إِنَّهَ إِلاَّ هُوَ")، إذَ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه، فأي خير لك في مدح الناس، وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟ وأي شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقرَّبين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنعصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه، وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح مها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الحلق، واستحقاره للدبيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه، وانحل عنه داعية الرياء، وتدلل له منهج الإخلاص. فهذا وما قدّمناه في الشطر الأوّل هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله، أو إطلاعه على عباداته، ولا تنازعنه النفس إلى طلب علم

⁽١) حديث: قال شاعر من بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين: فقال: «كذبت ذاك الله» أحرجه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل: قذلك» دون قوله: «كذبت» ورجاله ثقات، إلا أني لا أعرف لأبي سلمة بن عبدالرحمن سماعاً من الأقرع، ورواه الترمذي من حديث البراء وحسته بلفظ: فقال رجل: «إن حمدي».

عير الله به. وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالستا بعد هذا. فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدّة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله، وما يمدّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد فرات الله لا يُعَيِّرُ مَا يَقَوْمِ حَقَّ يُعَيِّرُا مَا بِأَنْهُ بِهِمُ الرّعد: ١١] فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب: ﴿ إِنَ الله لا يُشِيعِهُ أَجُر الشّقينِينَ ﴾ [التوبة: ١٧٠] ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً لَعَيْمُ الله الهداية، ومن الله الهداية، ومن الله الهداية، ومن الله فتح الباب: ﴿ إِنَ الله لا يُشِيعِهُ أَجُر الشّقينِينَ ﴾ [التوبة: ١٧٠] ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً لِعَيْمَهُ الله وَيُؤْتِ مِن الله أَبُرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٤].

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة، وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين، واستحقار ملح المخلوقين وذمهم؛ فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزعاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية، فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة - قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد، وقد تترادف على التدريج - فالأول: العلم ماطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه. فالأول: معرفة، والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة، والثالث: فعل يسعى العزم وتصميم العقد. وإنما كمال القوّة في والثاني: منافظر الأوّل وردة قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك دمع الخاطر الأوّل وردة قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله في الهيامة، الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله في الهيامة، الرغاء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة؛ إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة تدعوه إلى الإباء، والنعس تطاوع ـ لا محالة ـ أقواهما وأغلهما.

فإذن: لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والإباء. وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطوياً عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد، واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته؛ إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدّث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب، ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه، فينسى سابقة عزمه ويمتلىء قلبه غيظاً يمنع من تذكرة آفة الغضب ويشغل قلبه عنه، فكللك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب. وإليه أشار جابر بقوله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفر المعرفة مثل مرارة الغضب، فأنسيناها يوم حنين (١٠)، حتى نودي: يا أصحاب الشجرة فرجعوا. وذلك

⁽۱) حديث جابر: «بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفر...» الحديث. أخرجه مسلم مختصراً دون ذكر «يوم حنين» فرواه مسلم من حديث العباس.

لأنّ القلوب امتلأت بالمخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكّروا، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون؛ إذ ينسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان. ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة، فإن الكراهة ثمرة المعرفة. وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرّضه لسخط الله، ولكن يستمر عليه لشدّة شهوته، فيغلب هواه عقله، ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدّة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء المخلق وهو يعلم ذلك، ولكنه يستمرّ عليه فتكون الحجة عليه أوكد؟ إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموماً عند الله، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة. وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوّة الشهوة، وهذا أيضاً لا ينفع بكراهته؛ إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذن: لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث: وهي المعرفة، والكراهة، والإباء. فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضاً ويثمره، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات؛ فهو رأس كل خطيئة، ومنبع كل ذنب، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه، وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم.

فإن قلت: فمن صادّف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء، ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محبب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين؟ فاعلم: أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطبق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها مع معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به. ويدل على ذلك من الأخبار: ما روي أن أصحاب رسول الله على شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الربح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها، فقال عليه السلام: «أو قد وَجَدْتُمُوهُ قالوا: نعم قال: فذلك صَرِيحُ الإيمانِ ال حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة، والرياء كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا الدفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن النبي على فإذا الدفع ضرر أنه قال: فالذ قال: والميمند فلا يضرك ما هو عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذن نفسك فلا يفسك فعاتبها عليه. فإذن نفسك فانفسك فلا يفسك فعاتبها عليه. فإذن

⁽۱) حديث: «شكوى الصحابة ما يعرص في قلوبهم وقوله: قذلك صريح الإيمانه أحرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً. سئل النبي على عن الوسوسة فقال: «ذلك محض الإيمان» والنسائي في البوم والليلة وابن حبان في صحيحه، ورواه النسائي فيه من حديث عائشة.

⁽٣) حديث ابن عباس. «الحمد أله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة» أخرحه أبو دارد والنسائي في اليوم والليلة بلفظ: «كيد».

وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان، والرخبة والمبل بعد تلك الخواطر من النفس، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلا أنّ للشيطان ههنا مكيدة؛ وهي: أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله، فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب:

الأولى: أن يرده على الشيطان فيكذبه، ولا يقتصر عليه، بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه، وهو على التحقيق نقصان؛ لأنه اشتغل عن متاجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك.

الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك، فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلّت؛ بل يكون قد قرّر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمرّ على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة: أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع. يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلاماً يذكرك، فقال، والله لأغيظن من أمره، قيل: ومن أمره؟ قال: الشيطان. اللهم اغفر له - أي لأغيظنه بأن أطبع الله فيه م، ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته. وقال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه وليحدث عند ذلك حيراً، فإذا رآه كذلك تركه. وقال أيضاً: إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك، وإذا رآك مداوماً ملك وقلاك.

وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدّم إلى واحد قمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال ليفوّت عليه غدر تأخره، فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل، فقرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه. ومرّ به الثالث فلم يلتقت إليه ولم يشتغل بلغعه ولا مقتاله، بل استمرّ على ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية. فمرّ الرابع فلم يتوقف له، وأراد أن يفيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير؛ فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله.

فإن قلت: فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه: فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأفرياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان؛ لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم - كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنى - فصارت ملاذ الدنيا عندهم - وإن كانت مباحة - كالخمر والخنزير، فارتحلوا من حبها بالكلية، فلم يبق للشيطان إليهم مبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر.

وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره، ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر، ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر.

وقالت فرقة من أهل المعلم: لا بد من الحذر من الشيطان، وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غروراً؛ إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا، بل في صفات الله تعالى وأسمائه، وفي تحسين المدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَاۤ أَرْسَلْنَا مِنْ قَتْلِكَ مِن رَّسُولِ وَلَا نَبِيَ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطُانُ فِي أَمْنِيَتِهِ. فَيَسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطُانُ ثُعَّ بُحْكِمُ ٱللَّهُ مَايَنِهِ.﴾ [الحج: or]. وقال النبي ﷺ: ﴿إِنَّهُ لَيْغَانَ عَلَى قَلْبِي ﴾ (١)، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير (٢)، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور، ولم يؤمنهم من كيد الشيطان، ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لِّكَ وَلِزُوجِكَ فَلَا يُحْرِحُنُّكُمْ مِنَ ٱلْحَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُرَعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿ وَأَنَّكَ لَا تُطْمَوُا مِيهَا وَلَا نَشْمَعَن ۞﴾ [له. ١١٧،١١٧] ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد، فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المحن والفتن، ومعدن الملاذ والشهوات المنهيّ عنها؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى: ﴿ مَانَا مِنْ عَلِ ٱلنَّيْطَانِ ﴾ [القَصَص: ١٥] ولذلك حذر الله منه جميع الخلق، فقال الله تعالى: ﴿ يَدَيْنِ ءَادَمَ لَا يَقْدِنَكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كُمَّا أَخْرَجَ أَبُويْكُم مِنَ ٱلْحَلَّةِ ﴾ [الأعرَاف: ٢٧] وقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّهُ بَرَنَكُمْ هُوَ وَهَبِيلُمْ مِنْ حَيْثُ لَا نَرْوَتُهُمْ ﴾ [الأعرَاف: ٢٧] والقرآن من أوَّله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله، فإن من الحب له: امتثالُ أمره، وقد أمر بالحذر من العدوّ كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى: ﴿وَلَيَاخُذُواْ حِذْرَهُمٌ وَأَشْلِحَتُهُمُّ﴾ [النِّساء: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَلَيْدُواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُد مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَافٍ ٱلْفَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدق الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك ولا تراه أولى. ولذلك قال ابن محيريز: صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك. فأشار إلى الشيطان، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو

⁽١) حديث: اإنه ليغان على قلبي، تقدم.

 ⁽٢) حديث: (إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير؟، تقدم أيضاً.

شهادة، وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله. وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل، فإن أخذ الترس والسلاح وحمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ، فكيف يقدح في التوكل المخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى: ﴿وَالَيَدُواْ لَهُم مّا السَّكَلَتُ مَن قُوّةً وَمِن رّباط الله المنال المنال التوكل، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيى والمميت مو الله تعالى، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله، ويرى الأسباب وسائط مسخرة، كما ذكرناه في التوكل.

وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رحمه الله، وهو الصحيح الدي يشهد له نور العلم، وما قبله بشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد.

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم: إذا حذرنا الله تعالى العدق فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب في قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا. وقال قوم: إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان؛ وذلك مراد الشيطان منا، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى، ولا ننسى الشيطان وعداوته، والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين، فإنا إن نسياه ربما عرض من حيث لا نحتسب، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا دكر الله، فالجمع أولى، وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسى ذكر الله فلا يخفى غلطه، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدّنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوينا، وهو منتهي ضرر العدوّ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره، وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ـ إبليس وغيره ـ فالحق: أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة، ولا يخطر بباله أمر الشيطان، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له، وعند التنبه يشتغل بدفعه، والاشتعال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزعَة الشيطان، بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح؛ فبلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر، مع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدر إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى، وأحيا فيه نور العقل والعلم، وأماط عنه ظلمة الشهوات، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله، ودفعوا بالذكر شر العدو، واستضاؤوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو. فمثال القلب مثال بثر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب، ولكنه تركه جارياً إليها من جانب آخر؛ فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سداً وملاها بالماء الصافي، فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم: أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء، قال الحسن: قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة، ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال: ﴿إِن تُسَدُوا العَمَدَ فَنَتِ فَيْرِهُمُ اللّهُ مَا اللّهُ مَا اللّهُ مَا اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ اللّهُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَوْلُولُولُ وَلَا اللّهُ وَلّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ ولَا اللّهُ ولا اللّهُ ولا اللّهُ ولا اللّهُ اللّهُ ولا اللّهُ ولا اللّهُ ولا اللّهُ ولا اللّهُ ولا اللّهُ ولا اللّهُ اللّهُ اللّهُ ولا اللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللللللللّهُ اللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللللللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ

والإظهار قسمان:

أحدهما: في نفس العمل.

والآخر: التحدث بما عمل.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها، كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال النبي ﷺ قمن سُنَّ سُنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَيلَ بِها كَانَ لَهُ أَجُرُها وَأَجُرُها وَأَجُرُها وَأَجُرُها وَأَجُرُها وَالحيم الناس بالعطية لما رأوه، فقال الديم من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها، ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب. نعم، الغازي إذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضل له؛ لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به. فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة والأفضل المبادرة إليه، وإظهار الرغبة فيه للتحريض، بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر الفضل لأن الإيذاء حرام. فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدوة الفضل من السر. ويدل على ذلك: أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب فأفضل من السر. ويدل على ذلك: أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب فأفضل من السر. ويدل على وقد روي في الحديث: فإن هَمَلَ السَّرُ يُضَافَفُ عَلَى عَمَلِ العَلانِيَةِ صَبْعِينَ ضِعْفَا النَّرُ بُعْمَافَفُ مَلَ المَلْرِينَ ضِعْفَا فَافُكُ عَمَلَ العَلانِية وقده عَلْم المخلاف فيه؛ ويُفَافَفُ مَلَ المَلْرِينَة إذا المُقْلُ بِعَامِلِهِ عَلَى عَمَلِ السَّرُ مَنْ عَالَ المَلْرِينَة وقده عَلْه المخلاف فيه؛

⁽١) حديث: «من سن سنة حسنة قعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه»، وفي أوله قصة مسلم من حديث جرير بن عبدالله البجلي.

ا حديث: ﴿إِنْ عمل السر يضاعف على عمل العلائية بسبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلائية إذا استن به على عمل السر سبعين ضعفاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحره وقال: هذا من أفراد بقية عن شبوخه المجهولين، وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين، وله من حديث ابن عمر: ﴿عمل السر أفضل من عمل العلائية والعلائية أفضل ثمن أراد الاقتداء وقال: تفرد به بقية عن عبدالملك بن مهران، وله من حديث عائشة: «يفضل به أو يضاعف بالذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفاً» وقال: تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فلا خلاف في أن السر أفضل منه. ولكن على من يظهر العمل وظيفتان:

إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً، ورب رجل يقتدي به أهله دون حيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة. فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به، فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به.

والثانية: أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الإظهار بعفر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبعي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقي فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء في المدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم مدّة مديدة، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء؛ فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض، ومحك الإظهار، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض، ومحك دنك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أحف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرائك لعمل ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر ويكون لك غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم؟ فليحذر العبد خدع النفس، فإن النفس خدرع، والشيطان مترصد، وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبعي أن يعدل بالسلامة شيئاً المعاه في الرخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

القسم الثاني: أن يتحدّث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشدّ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إطهار الدعاوى عظيمة، إلا أنه لو تطرّق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أنّ من قوي قلبه وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز، بل هو مدوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترعيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. قال سعد بن معاذ: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدّث نفسي بغيرها هي قائلة وما هو مقول لها، وما أسلمت فحدّث نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة فحدّث نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها، وما مسمعت النبي على يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر، لأني لا أدري أيهما خير لي؟. وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها. وقال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني مدذ بايعت

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يراثي بها، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به. فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها، فلا ينبغي أذ يسد باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء، بل إظهار المراثي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله؟ وقد روي: أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنف!، فإظهار المراثي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ويأقوام لا خلاق لهم (٢)، كما ورد في الأخبار، وبعض المراثين ممن يقتدى به منهم، والله تعالى أعلم.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له:

اعلم: أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية، كما قال عمر رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية، قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد. ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره إطلاع الناس عليها، لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك. فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك، بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك، فهذا هو ستر المرائي،

وأما الصادق الذي لا يراثي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه في ثمانية أوجه:

الأوّل: أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره، وخاف أن يهتك ستره في القيامة؛ إذ ورد في الخبر: «أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة» ((الله عليه عنه الأخرة (الله عليه عنه الأخرة) وهذا غم ينشأ من قوّة الإيمان.

⁽١) حديث عثمان قوله: «ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ. . > الحديث، أخرجه أبو يعلى الموصلي في معجمه بإسناد ضعيف من رواية أنس عنه في أثناء حديث، وإن عثمان قال: با رسول الله فذكره بلفظ: «منذ بايعتك»، قال: «هو قاك يا عثمان».

 ⁽٢) حديث: (إن الله لبؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم؛ هما حديثان؛ فالأول متفق عليه من حديث أسي
 هريرة وقد تقدم في العذم، والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح، وتقدم أيضاً.

 ⁽٣) حديث: (إن من ستر هليه في الدنيا يستر هليه في الآخرة)، تقدم.

الثاني: أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال ﷺ: "من ارتكب شيئاً من هذه القانورات فليستتر بستر الله الفائل فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله. وهذا ينشأ من قرة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتم بسببه.

الثالث: أن يكره ذم الناس له به من حيث إن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل عن الطاعة، وبهذه العلة أيضاً ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر، وهذا أيضاً من قوّة الإيمان؛ إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان.

الرابع: أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص، وإنما يعصي إذا جزعت نقسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حدراً من ذمهم، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به، نعم، كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه؛ لعلمه أن الضار والنافع هو الله، وأن العباد كلهم عاجزون، وذلك قليل جداً، وأكثر الطباع تتألم بالذم لمما فيه من الشعور بالنقصان، ورب تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء الله، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين، فكيف لا يعتم به؟ نعم. الغم المدموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله، فيكون قد طلب الله ثواباً من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد.

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم، فله الستر حذراً من ذلك، ويتصوّر أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم. وإنما مراده أن يتركه الناس حمداً وذماً، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم؟ إذ الحمد بطلب اللذة، وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد؛ وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله، فإن ذلك غاية المنصان في الدين، بل ينبعي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر.

الخامس: أن يكره الذم من حيث إن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره نفه أن يكره أيضاً، فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع.

السادس: أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم، فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب، قله أن يستر ذلك حذراً منه.

السابع: مجرد الحياء؛ فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر، وهو خلق كريم يحدث في أوّل الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحي من القبائح إذا شوهدت، وهو منه وصف محمود؛ إذ قال

⁽١) حديث َ همن ارتكب من هذه القانورات شيئاً فليستتر بستر الله أخرجه الحاكم في المستدرك، وقد تقدم.

رسول الله ﷺ: ﴿الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُهُ ('')، وقال ﷺ: ﴿الْحَيَاءُ شُغْبَةً مِنَ الْإِيمَانِ ('')، وقال ﷺ: ﴿الْحَيَاءُ لاَ يَأَتِي إِلاَّ بِخَيْرِ ('')، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللهُ يُحِبُ الْحَيِيّ الْحَلِيمَ (أَءُ)، فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق والتهتك والوقاحة فقد الحياء، فهو أشدّ حالاً ممن يستتر ويستحي، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيماً قل من يتفطن له، ويدعي كل مراء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس، وذلك كذب، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم، وتهيج عقبه داعية الرياء وداعية الإخلاص، ويتصوّر أن يخلص معه ويتصوّر أن يرائي معه.

وبيانه: أن الرجل يطلب من صديق له قرضاً ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحيي من رده، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي، ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب، فله عند ذلك أحوال؛ أحدها أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء، وهذا فعل من لا حياء له، فإن المستحى إما أن يتعلل أو يقرض.

فإن أعطى فيتصوّر له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء، بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول: يتبغي أن تعطي حتى يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء، أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسك إلى البخل، فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء، وكان المحرّك للرياء هو هيجان الحياء.

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء، ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء، فيهيج داعي الإخلاص ويقول له: إذّ الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة، ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه.

الثالث: أن لا يكون له رغبة في النواب، ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة اللنوب، والمراثي يستحي من المباحات أيضاً، حتى إنه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوء، أو ضاحكاً فيرجع إلى الانقباض، ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء، وقد قبل: إنّ بعض الحياء ضعف وهو صحيح، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح، كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة، وهو في الصبيان والنماء محمود وفي العقلاء غير محمود، وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شبته أن تنكر عليه؛ لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، وهذا الحياء حسن، وأحسن منه أن يستحي من الله قلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوي يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس، والضعيف قد لا يقدر عليه، فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب.

الثامن: أن يخاف من ظهور ُّذَبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به، وهذه العلة الواحدة فقط هي

 ⁽١) حديث: (الحياء خير كله؛ أخرجه مسلم من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: «الحباء شعبة من الإيمان». منفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: «الحياء لا بأتي إلا بخيرا متفق عليه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم

 ⁽٤) حديث: «إن الله يحب الحيي الحليم» أخرجه الطبرائي من حديث فاطمة، وللبزار من حديث أبي هريرة: «إن الله
 يحب الفني الحليم المتعقف» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة، ويختص ذلك بالأثمة أو بمن يقتدى به، وبهذه العلة ينبغي أيضاً أن يخفى العاصى أيضاً معصبته من أهله وولده؛ لأنهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب: هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائياً كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة.

فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه، وقد قال رجل للنبي ﷺ: دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك (أ؟ ونقول: حبك لحب الناس لك قد يكون مباحاً وقد يكون محموداً وقد يكون مذموماً. فالمحمود؛ أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه تعالى إذا أحب عبداً حببه في قلوب عباده. والمذموم؛ أن تحب حبهم، وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله. والمباح؛ أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات:

اعلم: أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائباً به وذلك غلط وموافقة للشيطان، بل المحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره، وهو أن الطاعات تنقسم إلى: ما لا لذة في عينه؛ كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند اطلاع الناس عليه. وإلى ما هو لذيذ؛ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق، ولما قيه من اللذة.

القسم الأوّل: الطاعات اللازمة للبدن ـ التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها ـ كالصوم والصلاة والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث:

[حداها: ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين، فهذا مما ينبغي أن يترك؟ لأنه معصية لا طاعة فيه، فإنه تدرّع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه ماعث الرياء ويقول لها: ألا تستحيين من مولاك ولا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل.

الثانية: أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأوّلها، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثاً دينياً، فليشرع في العمل، وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الإخلاص بالمعالجات التي ذكرناها؛ من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول. .

الثالثة: أن يعقد على الإخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص، ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتمم العمل، لأن الشيطان يدعوك أوّلاً إلى ترك العمل، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء، فإذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك: هذا

 ⁽١) حديث: قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال * فازهد في الدنيا يحبك الله . . . ٩ الحديث . أخرجه
 ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ: فوازهد فيما في أيدي الناس»، وقد تقدم .

العمل ليس بخالص وأنت مراء، وتعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا تركته فقد حصلت غرضه. ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مراثياً: كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال: خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً. فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنى له. ومن هذا القبيل: أن يترك العمل حوفاً على الناس أن يقولوا: إنه مراء فيعصون الله به. فهذا من مكايد الشيطان لأنه أوّلاً أساء الظن بالمسلمين، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة، وترك العلم خوفاً من قولهم إنه مراء هو عين الرياء، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فما له ولقولهم قالوا: إنه مراء أو قالوا: إنه مخلص؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال: إنه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال: إنه عافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك. فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال، ثم كيف يطمع في أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له: الآن يقول الناس: إنك تركت العمل ليقال: إنه مخلص لا يشتهي الشهرة، فيضطرك بذلك إلى أن تهرب، فإن هربت ودخلت سرماً تحت الأرض ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو أنه ضور في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك، وتستمرّ مع ذلك على العمل ولا تبالى، وإن نزغ العدوّ نازغ الطمع فإنّ ذلك لا ينقطع، وترك العمل لأجل ذلك يجرّ إلى المطالة وترك الخيرات. فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل. فإن قال لك الشيطان: أنت مراء، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يمق باعث ديني بل تجرّد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد، فمن شرع في العمل لله فلا بدّ أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل محافة الشهرة. روي أنّ إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرى هذا أنّا نقرأ كل ساعة. وقال إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت، وإذا أعجبك السكوت فتكلم. وقال الحسن: إن كان أحدهم ليمرّ بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة. وقد ورد في ذلك آثار كثيرة. قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه.

وبالجملة: ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل. والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء، فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدّة الخوف، فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء. وأما إطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله، واستثنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك. وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع

خشبة من الطريق، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا بمجرّد خوف الرياء. وأما قول التيمي إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور، فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه، على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً من طلبها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى، ثم إنفاق المال.

أما الخلافة والإمارة: فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، وقد قال النبي ﷺ: النبي ﷺ: النبوم مِن إمّام عَادِلٍ خَيْرٌ مِن عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ سِتْينَ عَاماً (') فأعظِم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة، وقال ﷺ: الوّلُ مَن يَذْخُلُ الْجَنّة قَلائمةٌ: الإمامُ المُقسِطُه ('' أحدهم. وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: الْقَرْبُ النّاسِ متي مَجْلِساً يَوْمَ القِيامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌه (') رواه أبو سعيد الخدري. فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيه من عظم الخطر؛ إذ تتحرّك بها الصمات الباطنة ويغلب النفس حب الجاه ولدة الاستيلاء وبفاذ الأمر وهو أعطم ملاذ الدنيا؛ فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح على جاهه وولايته وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك في جاهه وولايته وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه. ولهذا الخطر العظيم ويكون عمر رضي الله عنه يقول: من يأخذها بما فيها، وكيف لا، وقد قال النبي ﷺ: هما مِنْ وَالِي عَشَرَة ولا جاء يَوْمُ القِيامَةِ مَغْلُولَة يَدُهُ إِلَى عُنْمَة أَوْ أَوْمَقَهُ جَوْرُهُه (")، رواه معقل بن يسار، وولاه إلا جاء يَوْمُ القِيامَة مَغْلُولَة يَدُهُ إِلَى عُنْمَة أَلُولُهُ أَلُولُهُ مَنْفَة عَوْلُهُ أَلُولُولُهُ مَنْهُ أَلْ أَوْمَقَهُ جَوْرُهُه (")، رواه معقل بن يسار، وولاه إلا جاء يَوْمُ القِيامَة مَغْلُولُة يَدُهُ إِلَى عُنْفِهِ أَلْمُؤَلَّهُ عَنْفُهُ أَلْهُ أَلْ أَوْمَقَهُ جَوْرُهُهُ "، رواه معقل بن يسار، وولاه

الحديث: «ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً... الحديث. أخرجه الطبراي والبيهةي من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث. «أول من ينخل الجنة ثلاثة: الإمام المقسط. . . » الحديث. أخرجه مسلم من حديث عياض بن حماد: «أهل الجنة ثلاث: قو سلطان مقسط. . . » الحديث. ولم أر فيه ذكر الأولية.

⁽٣) حديث أبي هريرة: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل»، تقدم.

 ⁽³⁾ حديث أبي سعيد الخدري: «أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام هادل، أخرجه الأصبهاني في الترغيب والترهيب
 من رواية عطية العرفي وهو ضعيف عنه، وفيه أيضاً إسحاق بن إبراهيم الديباجي ضعيف أيضاً.

٥) حديث: «ما من والي هشرة إلا جاء يوم القيامة يقه مفلولة إلى هنقه لا يفكها إلا هلله أخرجه أحمد من حديث عبادة من الصامت، ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة، وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه، ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبرائي في الأوسط من حديث أبي هريرة، ورواه البزار والطبرائي من حديث بريئة والطبرائي في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان، وله من حديث أبي الدرداء: «ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه. . .» الحديث. وقد عرى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار، والمعروف من حديث معقل بن يسار: «ما من عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بتصبحة إلا لم يرح رائحة الجنة» منفق عليه.

إحياء عُلوم الدّين

عمر ولاية فقال: يا أمير المؤمنين، أشر عليّ، قال: اجلس واكتم عليّ. وروى الحسن: «أنّ رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال للنبي: خر لي قال: «اجْلِشُ»(١)، وكذلك حديث عبدالرحمن بن سمرة إذ قال له النبي ﷺ: «يا عَبْدَالرَّحْمْن لا تَسْأَلُ الإمَارَة قُإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَها مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيها وَإِنْ أُوتِيتُها عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا اللَّهُ ، وقال أبو بكر رضى الله عنه لرافع بن عمر: لا تأمر على اثنين، ثم وأي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع: ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد ﷺ فقال: بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله، يعنى لعنة الله. ولعل قليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك، بل الحق فيه أنَّ الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات، وأنَّ الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا، وأعنى بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم، وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق، وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم، فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق، ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيهم أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة، ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات، ومن جرّب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية، وأن تستحلي الجاه وتستلذُّ نفاذ الأمر فتكره العرل، فيداهن خيفة من العزل؛ فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية؟ فقال قائلون: لا يجب؛ لأن هذا خوف أمر في المستقبل، وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح: أنَّ عليه الاحتراز؛ لأنَّ النفس خدَّاعة مدعية للحق واعدة بالخير، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليه أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد.؟ والامتباع عن قبول الولاية أهون من العزل، بعد الشروع، فالعزل مؤلم وهو كما قيل: العزل طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق وتهوى به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمارة الشر، ولذلك قال ﷺ: ﴿إِنَّا لا نُولَى أَمْرُنَا مَنْ سَأَلْنَا﴾'''، فإذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف علمت أنَّ نهى أبي بكر رافعاً عن الولاية ثم تقلله ألها ليس بمتناقض.

وشهد قتوح العراق. وهو الذي فتح سجستان، وغيرها في خلافة عثمان، ثم نزل البصرة ومات بها سنة خمسين، روى عن النبي ﷺ.

حديث: «إنا لا نولي أمرنا من سألنا) متفن عليه من حديث أبي موسى.

حديث الحسن: أن رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال للنبي ﷺ: خر لي قال: ﴿الجلسِ ٱخْرَجِهِ الطَّيْرَانِي مُوصُولاً من حديث عصمة هو ابن مالك، وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالأماطيل قاله أبو حاتم، ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ: «الزم بيتلك» وفيه الغراب بن أبى الغراب ضعفه ابن معين وابن عدي وقال أبو حاتم: صدوق.

حليث عبدالرحمن بن سمرة: ﴿لا تسل الإمارة. . . الحديث. متفق عليه. عىدالرحمن بن سمرة، كان اسمه عبد حلال وسماه النبي ﷺ عبدالرحمن، أسلم يوم الفتح، وشهد غزوة تبوك،

وأما القضاء: فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناهما، فإن كل ذي ولاية أمير - أي له أمر نافذ - والإمارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق، وقد قال النبي ﷺ: «القضاء تُلاثةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضِ فِي الجَنْةِ» (١٠)، وقال عليه السلام: «مَنْ اسْتُقْضِيَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ (١٠)، فحكمه حكم الإمارة، ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم؛ إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن المتعلقين بهم؛ إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلد فعليه أن يطالبهم بالحقوق، ولا يكون خوف العزل عذراً مرخصاً له في الإهمال أصلاً، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إدن يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثواباً؟ وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية، وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فافترى ما الفترى ما الفترى ما القدر فافترى ما وجدوا إليه سبيلاً، وكانوا يقولون: حدّثنا، باب من أبواب الدنيا، ومن قال: حدثنا، فقد قال: أوسعوا لي. ودفن بشر كذا وكذا قمطراً من الحديث وقال: يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدّث، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت. والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلاً، ويفر عن كل كلام منزلته في قلوبهم، فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم، فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولاً، ثم يقول: إذا أنعم الله علي بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون. فهذا أيضاً مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، وينبغي أن يتركه ويخالف الهوى قمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، وينبغي أن يتركه ويخالف الهوى قبه، إلى أن ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته، ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه.

قإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؟ فقول: قد نهى رسول الله على ظلب الإمارة وتوعد عليها (٣)، حتى قال: ﴿إِنَّكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى الإمَارَةِ وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمُ القِيامَةِ إِلاّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقَّهَاهُ (٤)، وقال: «فِعَمَتِ المُرْضِعَةُ وَبِقْسَتِ

١) حديث الطقضاة ثلاثة. . . * الحديث. أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة، وتقدم في العلم وإسناده صحيح.

 ⁽۲) حديث. (من استقضى فقد ذبح بغير سكين؟ أخرجه أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ: (من جمل قاضياً» وفي رواية: (من ولي القضاء) وإسناده صحيح.

 ⁽٣) حديث: النهي عن طلب الإمارة هو حديث عبدالرحمن بن سمرة: ﴿ لا تسل الإمارة›، وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث.

⁽٤) حديث: «إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا من أخذها بحقها؟ أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله: «إلا من أخلها بحقها» وزاد في آخره «فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» ودون قوله: «حسرة» وهي في صحيح ابن حبان.

الْفَاطِمَةُ»(``، ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعاً، وثار القتال بين الخلق، وزال الأمن، وخربت البلاد، وتعطلت المعايش فَلِمَ نهى عنها مع ذلك؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبي بن كعب _ حين رأى قوماً يتبعونه _ وهو في ذلك يقول: أبي سيد المسلمين، وكان يقرأ عليه القرآن، فمنع من أن يتبعوه وقال: ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه، واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال: أتمنعني من نصح الناس؟ فقال: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا .. إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق _ والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى، وفي كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما. فأما قول القائل: نهيك عر ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط؛ إذ نهى رسول الله ﷺ عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء(٧)، بل الرياسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها، وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس، بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها. وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإنَّ الله لا يضيعهم، وانظر لنفسك، ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه إلا امتماع بعضهم، وإلا فليعلم أنَّ كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة، فإن لم يكن في البلد إلا وأحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمعته في الظاهر، وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه، وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له: اشتغل وجاهد نفسك، فإن قال: لست أقدر على نفسي فنقول: اشتغل وجاهد، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده، فنجعله فداء للقوم ونقول: لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهُ يُؤَيِّدُ هَٰذَا الدِّينَ بأقوام لا خَلَاقً لَهُمْ ١٤٠٠، ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة، ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته. فأماً ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف للمسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصى بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم بواب الدجال وخلفاء الشيطان، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الواردة في حتى علماء السوء ما يبيّن لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله.

ولهذا قال المسبح عليه السلام: يا علماء السوء: تصومون وتصلون، وتتصدّقون ولا تفعلون ما تأمرون، وتدرسون ما لا تعلمون، فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتمُ تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم، يا عبيد

⁽١) حديث: انعمت المرضعة وبنست الفاطمة، أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو بقية الحديث الذي قبله، ورواه ابن حبان بلفظ افيشت المرضعة وبنست الفاطمة»

 ⁽٢) حديث: قالنهي عن القضاء... ، أخرجه مسلم من حديث أبي ذر: «لا تؤمرن على اثنين ولا ثلين مال يتيم»

 ⁽٣) حديث: اإن الله بؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، أخرجه النسائي، وقد تقدم قريباً.

الدنيا: كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم، بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأي ناس أخس منكم لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وتقيمون في محلة المنجبرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة! يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم، فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم نأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوءاتكم، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم. وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس وفتنة على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة، وأذلوا الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين، وفي الأخرة هم الخاصرون.

وبالجملة فالمراتب ثلاث:

الأولى: الولايات؛ والأفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة.

الثانية: الصوم والصلاة والحج والغزو؛ وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة. وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة.

 ⁽١) حديث: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها، متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ: «خير لك من حمر التعم»، وقد تقدم في العلم.

 ⁽۲) حديث الأيما داع دها إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة في
 أوله، ولمسلم من حديث أبي هريرة: قمن دها إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه. . . . الحديث .

الثالثة: وهي متوسطة بين الرتبتين؛ وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء، ومناصب العلم بينهما، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم.

وهاهنا رتبة رابعة وهي: جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين، فإن في الإنفاق وإطهار السخاء استجلاباً للثناء، وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس، والآفات فيها أيضاً كثيرة.

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال: القاعد أفضل؛ لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى. وقال أبو الدرداء: ما يسرني أنني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها، أما إني لا أحرم البيع والشراء، ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وقد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل، وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله أفصل، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله، وقد قال المسيح عليه السلام: يا طالب الدنيا ليبرّ بها، تركك لها أبرّ، وقال: أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله، وذكر الله أكبر وأفضل. وهذا فيمن سلم من الآفات، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبرّ، والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل.

وبالجملة: ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز فليظر وليجتهد وليستفت قلبه، وليزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع.

وبالجملة: ما يُجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه؛ لأن النفس لا تشير إلا بالشر، وقلما تستلذ الخير وتميل إليه، وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينطر فيه لدينه، ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل، ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إمساكه، وإنما المخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب: أن الأفضل الكسب من الآفات، فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال.

فإن قلت: فبأي علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه، غير مريد رياء الناس؟ فاعلم: أن لذلك علامات.

ُ إحداها: أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً أو أغزر منه علماً والناس له أشدّ قبولاً فرح به ولم يحسده. نعم، لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه.

والأخرى: أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه، بل بقي كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعين واحدة.

والأخرى: أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق، والمشي خلفه في الأسواق. ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها.

وقد روي عن سعيد بن أبي مروان قال: كنت جالساً إلى جنب الحسن؛ إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر، فدخل المسجد على برذونه، فجعل بلتفت في المسحد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن، فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها، ثم ثني وركه فنزل ومشى نحو الحسن، فلما رآه الحسن متوجهاً إليه تجافي له عن ناحية مجلسه، قال سعيد: وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه، والحسن يتكلم بكلام له ـ يتكلم به في كل يوم ـ فما قطع الحسن كلامه، قال سعيد: فقلت في تفسى؛ لأبلون الحسن اليوم، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد ني كلامه يتقرّب إليه، أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبرّ، فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقاً وعادة، فإنه بلغني عن رسول الله عليه: ﴿ أَنَّ مُجَالِسَ الذُّكُر رِياضُ الجَنَّةِ»(١٠)، ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها، قال: أثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته، فلما فرغ طفق فقام، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن ـ حين قام الحجاج ـ فقال: عباد الله المسلّمين: ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير، وأني أغزو فأكلف فرساً ويغلاً، وأكلف فسطاطاً، وأن لي ثلاثمائة درهم من العطاء، وأنّ لي سبعً بنات من العيال؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه، والحسن مكب، فلما فرغ الرجُّل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم ـ قاتلهم الله ـ اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دُولاً، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم، فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة، وإذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً راجلاً؟ فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشدِّه، فقام رجل من أهل الشام كان جالساً إلى الحسن فسمى به إلى الحجاج وحكى له كلامه، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجب الأمير، فقام الحسن ـ وأشفقنا عليه من شدّة كلامه الذي تكلم به ـ، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يبتسم، وقلما رأيته فاغراً فاه يضحك إنما كان يتبسم، فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظَّم الأمانة وقال: إنما تجالسون بالأمانة، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم، إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من تار! إني أتيت هذا الرجل فقال: أقصر عليك من لسانك وقولك: إذا غزا عدَّق الله غزا كذا وكذا، وإذا أغزى أخاه: أغزاه كذا! لا أبا لك! تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك، فأقصر عليك من لسانك، قال: فدفعه الله عني.

وركب الحسن حماراً يريد المنزل، فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوماً يتبعونه فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء، وإلا فارجعوا فما يقى هذا من قلب العبد؟ فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن. ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون. اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

 ⁽١) حديث: قأن مجالس الذكر رياض الجنة. تقدم في الأذكار والدعوات.

إحياء عُلوم الدّين

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

اعلم: أنَّ الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم، ولولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يطَّن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لأن كل مؤمر راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العواثق ويمنعه الاشتغال، ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة، قريما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في نعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير، أو تمكنه من التمتع بزوجته، أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الاشتغال بأولاده، أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير، وحصلت له أسباب باعثة على الخير، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله؛ فتتحرّك داعيته للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام، والنفس لا تسمح بالتهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلم منها قوي الباعث. فهذا وأمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول: لا تعمل فإنك تكون مراثياً إذا كنت لا تعمل في بيتك، ولا تزد علَّى صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته، وعند ذلك قد يقول الشيطان: صل فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم، بل لله وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم. وهذا أمر مشتبه إلا على ذوي البصائر، فإذا عرف أنَّ المحرِّكُ هو الرياء فلا ينبغي أن يزبد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق.

وهلامة ذلك: أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حبث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه، هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء. وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى، وقد يتحرّك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد، قمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه

بالكراهية ويشتغل بالعبادة. وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكي، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى ـ تارة رياء وتارة مع الصدق ـ إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً، وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه: أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه، هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم، فإنما خوفه من أن يقال: إنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي.

قال لقمان عليه السلام لابنه: لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر. وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال، تارة تكون من الصدق والحرن والخوف والندم والتأسف، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك، فإن تجرّدت هذه الداعية فهي الرياء، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه. وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرّض لسخط الله تعالى به، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن، ولكن يمدُّه ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء، وهو محظور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له، أو حفظ اللمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء. وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط، ثم يستحي أن يقال له: إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة، فيزعق ويتواجد تكلفاً ليري أنه سقط لكونه مغشياً عليه، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتحزع نفسه أن يقال: حالته غير ثابتة، وإنما هي كبرق خاطف، فيستديم الزعقة والرقص ليري دوام حاله، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال: لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه، فبستديم إظهار الضعف والأنين فيتكيء على غيره يري أنه يضعف عن القيام، ويتمايل في المشي ويقرب الخطأ ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي. فهذه كلها مكايد الشيطان ونزغات النفس. فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميرة لمقتوه، وإن الله مطلع على ضميره وهو له أشدّ مقتاً، كما روى عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال: يا شيخ! ﴿الَّذِي يَرْبِكَ مِينَ نَقُومُ ﴾؟ فجلس الشيخ. وكل ذلك من أعمال المنافقين.

وقد جاء في المخبر: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق»⁽¹⁾ وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع، ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة. فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة، وهي مع تقاربها متشابهة، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك، وانظر ما هو ومن أين هو؟ فإن كان لله

٢) حديث، «تعوذوا بالله من خشوع النفاق». أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق، وفيه الحارث بن عبيد الإبادي ضعفه أحمد وابن معين.

فامضه، واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدّد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً، فإذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقته لك. وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال: يا أيوب، أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته. وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت. وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما: اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي، وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظاً على رياء الناس من نفسي، مضبعاً لما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري، وأفضي إليك بأسوأ عملي، تقرباً إلى الناس بحسناتي، وفراراً منهم إليك بسيئاتي، فيحل بي مقتك، ويجب علي غضبك، أعذني من ذلك يا رب العالمين. وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام: يا أيوب، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم؟ فهذه جمل آفات الرياء. علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسود وجوههم؟ فهذه جمل آفات الرياء. بعض، حتى إن بعضه مثل دبيب النمل، وبعضه أخفى من دبيب النمل، وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يطمع في إدراكه من غير دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه.

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه:

اعلم: أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء وتقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك! فما في الخلق من يقدر على مثله، فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك، وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده، ويعلم أنّ إظهاره لغيره محبب إليه، وسقوط عند الله، وإحباط للعمل العظيم فيقول: وكيف أتبع هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لى على رزق ولا أجل؟

⁽١) حديث: «الرياء سبعون باباً» هكذا ذكر المصنف هذا الحديث هذا، وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه: «الرياء» بالمثناة وإنما هو: «الربا» بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: «الريا سبعون حوياً أيسرها أن يتكح الرجل أمه» وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه، وروى ابن ماجه أيضاً من حديث ابن مسعود عن النبي على قال: «الربا ثلاث وسبعون باباً» وإسناده صحيح. هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات، وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ: «الربا بضع وسبعون باباً والمشرك مثل ذلك»، وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه: «الرباء» بالمثناة لاقترانه مع الشرك. والله أعلم.

فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم، فيترك المجاهدة في الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي؛ لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة، والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجيران بالنوافل، فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج.

وقد روى تميم الداري عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحَاسَبُ العَبُدُ يَوْمَ القِيامَةِ فَإِنَّ نَقَصَ فَرْضُهُ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوَّعُ أَخِذَ بِطَرَفَتِهِ فَٱلْقِيَ فِي انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوَّعُ أَخِذَ بِطَرَفَتِهِ فَٱلْقِيَ فِي الْفَرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوَّعُ أَخِذَ بِطَرَفَتِهِ وَالْقِيَ فِي النَّالِ (١٠)، فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر الفرائض وتكفير السيئات، ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل، وأما المتقي فجهده في زيادة الدرجات، فإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجع على السيئات فيدخل الجنة.

فإذن: ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع عير الله عليه لتصح نوافله، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدّث به، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله، خاتفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكاً في قبوله ورده، مجوزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن يكون متيقناً في الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به، ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشك في أنه هل أفسده برياء؟ فيكون رجاء القبول أغلب، وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات.

قالإخلاص: يقين، والرياء: شك. وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه. والذي يتقرّب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه، فإن ذلك يحبط الأجر. فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو ترددا منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره. نعم، إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذ كان بعلمه ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذ كان لا ينتظره ولا يريده منه، ولا يستبعده منه لو قطعه. ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا، حتى إن بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فأدلوا حبلاً ليرفعوه، فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً، خيفة أن يحبط أجره.

وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوباً فرده عليّ، فقلت له: يا أبا عبدالله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليّ قال: علمت ذاك، ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره.

وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين، وكان أبوء صديقاً لسفيان، وكان سفيان يأتيه كثيراً، فقال

⁽١) حديث تميم الداري: في إكمال فريضة الصلاة بالتطوع. أخرجه أبو داود وابن ماجه، وتقدم في الصلاة.

له: يا أبا عبدالله، في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك ـ كان وكان وأثنى عليه ـ فقال: يا أبا عبدالله: قد عرفت كيف صار هذا المال إليّ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عبالك.

قال: فقبل سغيان ذلك.

قال: فلما خرج قال لولده: يا مبارك الحقه فرده عليّ، فرجع فقال: أحب أن تأخذ مالك، فلم يزل به حتى رده عليه. وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك. قال ولده: فلما خرج لم أملك نفسي أن جثت إليه فقلت: ويلك أي شيء قلبك هذا! حجارة؟ عد أنه ليس لك عيال! أما ترحمني؟ أما ترحم إخوتك؟ أما ترحم عيالنا؟ فأكثرت عليه فقال لي: يا مبارك، تأكلها أنت هنيئاً مريئاً وأسأل عنها أنا.

فإذن: يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه وتيل المنزلة عده، لا عند المعلم وعند الخلق. وربما يظل أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبته، فيتعلم منه، وهو خطأ؛ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال، والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد؟ فكيف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهم علم وذلك غير جائز، بل ينبغي أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله، لا ليكون له في قلبه منزلة، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة، فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره، وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث إن رضا الله عنه في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله عن يبور ريائه، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً. وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله، فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به، وإنما سكوته لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله، فإن ذلك يغرس الرياء لمحله وهو لا يدرى أنه المخفف للعمل عليه.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان، منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال: في كل ليلة حمصة. قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكميك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي، ويطوفون حولها ويعظموني، فكلما تثاقلت نفسي عن العمادة ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك؟ قلت: بلى، قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي: ادحل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير اجتمع علي النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته. قالوا: فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا: ساوم قلت: عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ما الذي صنعت؟ قلت: بعثم منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً والما: أخطأت! لو ساومتهم بعشرين وينار لأعطوك، هذا عز من لا تعبده، فانظر كيف يكون عز من تعبده؟ يا حنيفي، أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة.

والمقصود: أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد

به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته: أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع، ولم يضق به ذرعاً إلا كراهة ضعيفة، إن وجدها في قلبه فيردها في المحال بعقله وإيمانه، فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً، ولم يداخله سرور سبب اطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه، ولكن إذا قدر على رده بكراهة المقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه؛ إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع، والانقباض كي لا ينبسطوا إليه، فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور؛ إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمح نفسه بذلك؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة؛ فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم، ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله، فيعمل عمل من لو عندهم، ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أحد سوى الله، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق.

ومن علامة الصدق فيه: أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه، لا كرامة إلا إذا كان في الغنى زيادة علم أو زيادة ورع، فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغني، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة، ويحبب إلى القلب المسكنة، والنظر إلى الأغنياء بخلافه، فكيف استروح بالنظر إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير؟ وقد حكي: أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري، كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه. نعم، لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة، ولَّكُن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغي عليه في إكرام وتوقير ألبتة، فإن الفقير أكرم على الله من الغني، فإيثارك له لا يكون طمعاً في غناه ورياء له، ثم إذا سوّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي، كما قال ابن السماك لجارية له: ما لي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ لسانك؛ وقد صدقت! فإن اللسان ينطق عند الغني بما لا ينطق به عند الفقير، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير. ومكايد النفسُ وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات، ولكن في بدنه سقم، وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات، وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة، وعود نفسه شرب الأدوية المرة، وصبر على بشاعتها، وهجر جميع اللذات، وصبر على مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً لقلة أكله، ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصاناً لشدّة احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والألام عليه، وأداه ذلك إلى الموت المقرق بينه وبين مملكته، الموجب لشماتة الأعداء به، ومهما اشتدّ عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء ويدن صحيح، وقلب رخي وأمر ثافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وفي لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والمخوف، وترك المؤانسة بالخلق خوفاً من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك، ورجاء أن ينجو من عذابه، فخف ذلك كله عليه عند شدّة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره، وبما أعد له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد، ثم علم أن الله كريم رحيم لعباده المريدين لمرضاته عوناً، وبهم رؤوفاً، وعليهم عطوفاً، ولو شاء لأغناهم عن التعب، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلاً، ثم إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات، ويقويه على إماتة الشهوات، ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته، فإن الكريم لا يضيع سعي الراجي، ولا يخيب أمل المحب، وهو الذي يقول: «من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» ويقول تعالى: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني يقول: «من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً» ويقول تعالى: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني يلى لقائهم أشد شوقاً فليظهر العبد في البداية جدّه وصدقه وإخلاصه، فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

تم كتاب ذم الجاه والرياء والحمد لله وحده



ينسب لقر ألكن ألتضبذ

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الخالق البارىء المصوّر العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه، وارتفع عن حدّ قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه، جل جلاله وتقدّست أسماؤه، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليماً كثيراً.

أَما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: "قَالَ الله تَعَالَى: الكِيْرِياءُ رِدَاثِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِما قَصَمْتُهُ اللهُ وَالْمَالُونِ وَالْمَالُونِ وَالْمَالُونِ وَالْمَالُونِ وَالْمَالُونِ وَالْمَالُونِ وَالْمَالُونِ وَالْمَعْجُ وَالْمَالُونِ وَالْمَعْجُ وَلَهْجَابُ الْمَرْءِ بِتَفْسِهِ (٢٠) ، فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان، وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب؛ فإنهما من قبائح المرديات، ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر، وشطر في العجب.

الشطر الأول من الكتاب: في الكبر؛ وفيه: بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبر وآفته، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر، وبيان علاج الكبر. وبيان امتحان النفس في خلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه.

بيان ذم الكبر:

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه، وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سَأَشْرِقُ عَنْ ءَائِتِيَ ٱلَّذِينَ

كتاب ذم الكبر والمجب

 ⁽١) حديث: ﴿قَالَ اللهُ تَعَالَى الْكبرياء رَدَائي والعظمة إزاري قمن تازعتي قيهما قصمته أخرجه الحاكم في المستدرك دون
 ذكر: ﴿العظمة›، وقال: صحيح على شرط مسلم، وتقدم في العلم، وميأتي بعد حديثين بلفظ آخر.

 ⁽۲) حديث: «ثلاث مهلكات. . . ٤ الحديث. أخرجه البزار والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف،
 وتقدم فيه أيضاً.

يَنْكَبُّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِنَبْرِ ٱلْعَقِيمُ [الأعزاف: ١٤٦] وقال عزّ وجلّ: ﴿ كَنَالِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّي قَلْبٍ مُتَكَثِّرٍ جَبَّارِ﴾ [عافر. ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَأَسْنَفْتَخُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّكَادٍ عَنِيدٍ ﴿ إِلَّهِ ۗ [ابراهيم. ١٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُمِتُ ٱلْسَنَّكَبِينَ﴾ [النحل: ٢٣] وقال تعالى: ﴿ لَقَدِ ٱسْتَكَبِّرُواْ بِيَّ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَدِيرَ﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَنْتَكَّبِرُونَ عَنْ صِادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِخِرِينَ﴾ [غاند: ٦٠] وذم الكبر في القرآن كثير، وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِيْ قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبِّةٍ مِنْ خَرْدُلُ مِنْ كِبْرٍ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدُكِ مِنْ إِيمَانٌ (١٠)، وقال أبو هريرة رضى الله عنه: قاَّل رسول الله ﷺ: ﴿ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ تَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلا أَبَالِي ١٤٠، وعن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: التقي عبدالله بن عمرو وعبدالله بن عمر على الصفا فتواقفًا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبدالرحمن؟ فقال: هذا ـ يعني عبدالله بن عمرو ـ زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: •مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدُلِ مِنْ كِبْرِ أَكْبُهُ الله فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ ٣٠٪، وقال رسول الله ﷺ: ﴿لا يَزَالُ الرُّجُّلُ يَلْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ العَفَابِ (٤)، وقال سليمان بن داود عليهما السلام يومأ للطير والإنس والجنّ والبهائم -: احرجوا، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن، فرفع حتى سمع زجل الملاثكة بالتسبيح في السموات، ثم خفض حتى مسَّت أقدامه البحر، فسمع صوتاً: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرّة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته. وقال ﷺ: ﴿ يَخُرُجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أَذْنَانِ تُسْمَعَانِ وعينانِ تُبْصِرَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ: وُكُلْتُ بِفَلاثَةٍ. بِكُلِّ جَبَّار عَنِيدٍ، وَبِكُلُّ مَنْ دَعَا مَعَ الله إِلْهَا آخَرَ، وَبِالمُصَوْرِينَ، (*)، وقال ﷺ: ﴿لا يَذْخُلُ الجَنَّةُ بَخِيلٌ وَلا جَبَّارُ وَلا سَيِّيءُ المَلَكَةِ، (١)، وقال ﷺ: ﴿ تُحَاجُتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: ما لِي لا يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُمَفَاءُ النَّاسِ وَسُقَّاطُهُمْ وَعَجَزَتُهُمْ؟ فَقَالَ اللهَ لِلْجَنَّةِ :َ إِنْمَا أَنْتِ رَحْمَنِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ ؛ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعَذُبُّ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْوُهَا، (٧)، وقال ﷺ:

⁽۱) حديث: «لا يعخل المجتة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان؟ أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

 ⁽۲) حديث أبي هريرة: ايقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري قمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم، أخرجه
 مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له، وقال أبو داود: اقلفته في الثار، وقال مسلم: «علبته» وقال: «رداؤها واإزاره»
 بالغيبة وزاد مع أبى هريرة أبا سعيد أيضاً.

 ⁽٣) حديث عبدالله بن عمرو: (من كان في قلبه مثقال حبة من كبر أكبه الله في النار على وجهه أخرجه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه بإسناد صحيح

⁽٤) حديث: الا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين. . .) الحديث. أخرجه الترمدي وحسه من حديث سلمة بن الأكرع دون قوله: العن العذاب».

حديث: فيخرج من النار عنى له أذنان. . . ٩ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب.

 ⁽٢) حديث: الا يدخل الجنة جبار ولا يخيل ولا سيء الملكة، تقدم في أسباب الكسب والمعاش والمعروف: «خائن»
 مكان «جبار».

⁽٧) حديث: التحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . . . ؟ الحديث. متثق عليه من حديث أبي هريرة.

"بِشْسَ الْمَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاغْتَدَى وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى، بِشْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالَ، بِشْنَ الْعَبْدُ خَبْدٌ خَفِلَ وَسَهَا وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى ، بِشْنَ الْعَبْدُ عَبْدٌ حَتَا وَيَغَى وَنَسِيَ الْمَبْدُأُ وَالْمُئْتَهَى ۗ (' `، وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل: يا رسول الله، ما أعظم كبر فلان! فقال: ﴿ٱلْيَسَ بَعْدَهُ الْمَوْتُ،(٢)، وقال عبدالله بن عمرو: إنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا حَضَرَتُهُ الوَفَاةُ دَعَا ابْنَتِهِ وَقَالَ: إنِّي آمُرُكُما بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا حَنِ اثْنَتَيْنِ، أَنْهَاكُمَا حَنِ الشَّرْكِ وَالكِبْرِ، وَآمُرُكُمَا بِلا إِلٰهَ إِلاَّ الله. فَإِنَّ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنْ لَوْ وُضِمَتْ فِي كِفَّةِ المِيرَانِ وَوُضِمَتْ لا إِلَّهَ إِلاَّ اللهَ فِي الكِفَّةِ الأَخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ مِنْهُمَا، وَلَوْ أَنَّ السَّمْوَاتِ وَالأَرْضِينَ وَمَا فِيهِنَّ كَانَتًا حَلْقَةً فَوْضِعَتْ لا إِلَّهَ إِلاَّ الله عَلَيْها لَقَصَمتها، وَآمُرُكُما بِسُبْحَانَ الله وَيِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلاةً كُلُّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ (٣٠)، قال المسبح عليه السلام: طوبي لمن عدمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً. وقال ﷺ: ﴿أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيَ جَوَّاظٍ مُّسْتَكْبِرِ جَمَّاع مَنَّاع، وَأَهْلُ الجَنَّةِ الضُّمَفَاءُ المُقِلُّونَ" ۚ ، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الآخِرَةِ أَحَاسِنْكُمْ أَخْلَاقاً، وإنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا النَّرْثَارُونَ المُتَشَلَّقُونَ المُتَفَيْهِقُونَ، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الشرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المُتَكَبِّرُونَ» (هُ)، وقال ﷺ: «يُخشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ فِي مِثْل صُورِ الذُّرْ تَطَوُّهُمُ النَّاسُ، دَرَّا فِي مِثْلِ صُورِ الرِّجَالِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ المصْفَارِ، ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنَ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولُس يَعْلُوهُمْ ثَارٌ الأنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الخَبَالِ عُصَارَةِ أَهْل النَّارِه'``، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: ﴿ يُحْشُرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبّْرُونَ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِي صُوَدِ الذُّرُ تَطَوُّهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى الله تَعَالَىۗۥ (٧)، وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له: يا بلال إن أباك حدَّثني عن أبيه عن النبي عَلَيْ أنه قال: ﴿ إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِياً يُقَالُ لَهُ هَبْهَبْ حَقٌّ عَلَى الله أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ

⁽١) حديث: قبئس العبد هبد تجبر واهتدى. . . ٩ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أسماه بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير، وقال: غريب وليس إسناده بالقري، ورواه الحاكم في المستدرك، وصححه، ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه.

 ⁽٢) حديث ثابت: بلغنا أنه قبل: يا رسول الله، ما أعظم كبر فلان! فقال: «اليس يعده الموتة أخرجه البيهقي في الشعب مكذا مرسلاً بلفظ: فتجرع.

 ⁽٣) حديث عبدالله بن عمرو: الإن توحاً لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما
 عن الشرك والكبر . . . الحديث . أخرجه أحمد والبخاري في كتاب الأدب والحاكم بريادة في نقله قال: صحيح الإسناد .

 ⁽٤) حدیث «أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع» وهذه الزیادة عمدهما من حدیث حارثة بن وهب الخراعی: «ألا أخیركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر».

حدیث اإن أحبكم إلینا وأقربكم منافي الآخرة أحاسنكم أخلاقاً... الحدیث. أخرجه أحمد من حدیث أبي ثعلبة الخشني بلفظ: (إلي و دمني وفیه انقطاع، ومكحول لم يسمع من أبي ثعلبة، وقد تقدم في رياضة النفس أول الحدیث.

 ⁽٩) حديث: «يحشر المتكبرون يوم القيامة ذراً في صور الرجال... المديث. أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب.

 ⁽٧) حديث أبي هريرة: ايحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور اللر. . . ١ الحديث. أخرجه البزار هكذا مختصراً دون قوله «الجبارون» وإسناده حسن.

جَبَّارٍ، فَإِيَّاكَ بِهَا بِلالُ أَنْ تَكُونَ مِمَنْ يَسْكُنُهُ (``، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ فِي النَّارِ قَصْراً يُجْعَلُ فِيهِ المُتَكَبِّرُونَ وَيُطْبَقُ صَلَيْهِمْ (```، وقال ﷺ: ﴿اللَّهُمْ إِنِّي أَهُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الكِبْرِياءِ (`` وقال: ﴿مَنْ فَارَقَ رُوحُهُ جَسَدَهُ وَهُوَ يَرِيءٌ مِنْ ثَلاثٍ دَخَلَ الجَنَّةَ: الكِبْرِ وَالذَّيْنِ وَالغُلُولِ (```

الآثار: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقون أحد أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يوماً ومصعب ماذ رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم، يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات. وقد قبل في ﴿وَقِى ٓ أَشُوكُم ٓ أَلَا نُورُن َ إِن الله المرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبر. وقال النعمان بن بشير على المنبر على عاملي وفخوخة البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله. وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله. نسأل الله تعالى العقو والعاقية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه.

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب:

قال رسول الله ﷺ: الاَ يَنْظُوُ الله إِلَى رَجُلِ يَجُوُ إِزَارَهُ بَطَراًه (°)، وقال ﷺ: ابْيَنَمَا رَجُلُ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَنِهِ إِذْ أَغْجَبَتُهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ الله بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيها إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ» (٦)، وقال ﷺ: "مَنْ جَرَّ ثَوْيَهُ خُيّلاَءَ لا يَنْظُوُ الله إِلَيْهِ يَوْمَ القِيامَةِ». وقال زيد بن أسلم: دخلت على ابن عمر فمرّ به عبدالله بن واقد

⁽١) حديث أبي موسى "إن في جهنم وادياً يقال له: هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار؟ أخرجه أبو يعلى والطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد،

قلت: فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث.

 ⁽۲) حديث: (إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق طبهم، أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال:
 (توابيت، مكان: (قصراً) وقال: (فيقفل، مكان (يطبق، وفيه أبان بن أبي عباش وهر ضميف.

⁽٣) حديث: «اللهم إني أهوذ بك من نفخة الكبرياء» لم أره بهذا اللفظ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم عن النبي ﷺ في أثناء حديث: «أهوذ بالله عن الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه» قال: نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة، ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه، تكلم فيه أبو داود، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب.

⁽٤) حديث: المن قارق روحه جسده وهو بريء من ثلاثة دخل الجنة: الكبر والدين والغلول؛ أخرجه الترمذي والسائي والسائي وابن ماجه من حديث ثوبان، وذكر المصنف لهذا الحديث هبا موافق للمشهور في الرواية أنه الكبر بالموحدة والراء. لكن ذكر أبن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال: إنما هو الكنز بالنون والزاي، وكذلك أيضاً ذكر أبن مردويه الحديث في تفسير ﴿وَالَّذِينَ يَكُنِزُونَ الدَّهَبَ وَالْمِشَتَ﴾ [التربّة: ٣٤].

 ⁽a) حديث: الا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً متفق عليه من حديث أبي هريرة.

 ⁽٦) حديث: ابينما رجل يتبختر في برديه قد أعجته نفسه. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَنْظُوُ الله إلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خُيلَاءً" . وروي: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال: يقول الله تعالى: «ابْنَ آدَمَ أَتُمْجِرُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلٍ لهٰلِهِ! حَتَّى إِذَا سَوْيَتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلاَّرْضِ مِنْكَ وَثِيدٌ جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَقَتِ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ! وَالْنَى أَوَانُ الطَّدَقَةِ» (")، وقال ﷺ: وَلِلاَّرْضِ مِنْكَ وَثِيدٌ جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّى إِذَا بَلَقَتِ التَّرَاقِي قُلْتَ أَتَصَدَّقُ! وَالنِّي أَوَانُ الطَّدَقَةِ» (")، وقال ﷺ: «إذا مَشَت أُمْتِي المُوسِقِ» أمْتِي المُوسِقِ الله وَهُو عَلَيْهِ خَضْبَانَ الأعرابي: هي مشيّة فيها اختيال. وقال ﷺ: همْنَ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ وَاخْتَالَ فِي مَشْيَتِهِ لَقِي اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ خَضْبَانَ " .

الآثار: عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الدسن إذ مر علينا أبن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز، قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر؛ إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف. . . أف . . . شامخ بأنفه ثاني عطفه، مصغر خده ينظر في عطفيه، أي حميق أنت، تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدى حتى الله منها، والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفتة، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتدر إليه فقال: لا تعتدر إلي وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ وَلَا نَتْشِ فِي الْرَضِ مَرَمًا إِنْكُ لَلْ غَمْرِقَ الْلاَرْضَ وَلَن تَنْتُمُ لَلِهَالَ طُولًا ﴿ اللهِ وَاللهِ اللهِ عَوْل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَشِن فِي الْلاَرْضِ مَرَمًا إِنْكُ لَلْ غَمْرِقَ الْلاَرْضَ وَلَن تَنْتُمُ لَلِهَالَ طُولًا ﴿ وَلا اللهِ عَالِه اللهِ اللهِ عَلَا اللهِ اللهِ عَالَى اللهُ اللهُ الله الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْشِ فِي الْلاَرْضِ مَرَمًا إِنْكُ لَلْ غَمْرِقَ اللاَرْضَ وَلَن تَنْتُمُ لَلِهُ اللهُ عَلَا عَلْهِ اللهُ عَلَاه الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْشِ فِي الْلاَرْضِ مَرَمًا إِنْكُ لَلْ غَمْرِقَ اللهُ وَلَا اللهِ عَلَاه اللهِ عَلَى اللهُ عَلَاهُ عَلَاهُ اللهُ اللهِ عَلَاهُ اللهُ عَلَاهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَاهُ عَلْهُ اللهُ اللهُ عَلَاهُ اللهُ عَلَاهُ اللهُ عَلَاهُ اللهُ اللهُ عَلَاهُ اللهُ عَلَاهُ اللهُ اللهُ

ومرَّ بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك داو قلبك؛ فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

وروي: أن عمر بن عبدالعزيز حج قبل أن يستخلف؛ فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه بأصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من في بطنه خراء؟ فقال عمر كالمعتذر: يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله!. ورأى ابن عمر رجلاً يجرّ إزاره فقال: إنّ للشيطان إخواناً - كررها مرتين أو ثلاثاً -، ويروى أن مطرف بن عبدالله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبدالله، هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا عبدالله، هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة! فمضى المهلب وترك مشيته تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَبَ إِلَىٰ آلَيْهِ يَشَكَّ الله العذرة! فمضى المهلب وترك مشيته تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَبَ إِلَىٰ آلَيْهِ يَسَكَّنَ الله العذرة! فمضى المهلب ورزك مشيته تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَبَ إِلَىٰ آلَيْهِ يَسَعَلَى الله الله تعالى عبد الله تعالى أعلى أعلى أعلم.

⁽١) حديث ابن عمر «لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاه» رواه مسلم مفتصراً على المرفوع دون ذكر مرور عبدالله بن واقد على ابن عمر، وهو رواية لمسلم أن المار رجل من بني ليث غير مسمى.

حدیث: إن رسول الله ﷺ بصنی یوماً علی کمه ورضع أصبعه علیها وقال: ایقول الله: ابن آدم أتمجزني وقد خلفتك
 من مثل هذه . . . الحدیث . أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حدیث بشر بن جحاش.

 ⁽٣) حديث: اإذا مشت أمتي المطيطاه. . . الحديث. أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر:
المطيطاء بضم الميم وقتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت مصغراً ولم يستعمل مكبراً.

⁽٤) حديث: قمن تعظم في نفسه واختال في مشيه لقي الله وهو عليه غضيان، أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهتي في الشعب من حديث ابن عمر.

بيان فضيلة التواضع:

قال رسول الله على الله عَبْداً بِعَفْو إلا عِزاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدُ لله إلا رَفَعُهُ الله ('') وقال على: قما مِنْ أَحَدِ إلا وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حَكَمَةً يُمْسِكَانِهِ بِها فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَذَاهَا ثُمَّ قالا: اللّهُمُ ضَعْهُ وَإِنْ وَضَعَ نَفْسَهُ عَالا: اللّهُمُ الْفَعْهُ ('')، وقال على: قطوبى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَرَحِمَ أَهُلَ اللّهُ وَالمَسْكَنَةِ وَخَالَطُ أَهُلَ الفِقْهِ وَالحِكْمَةِهُ ('')، وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله على عندنا بقباء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل، فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال: قما هذا؟ قلنا: يا رسول الله حملنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال: قامًا إني لا أُحَرِّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ للهُ رَفَعَهُ الله ، وَمَنْ بَلْرَ أَفْهَرَهُ الله ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الله آخَيَّهُ الله الله ('').

وروي: أن النبي ﷺ «كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة بتكرّه منها فأذن له، فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على مخذه ثم قال له: «اطْعَمْ» فكأن رجلاً من قريش اشمأز منه وتكرّه، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها (*) وقال ﷺ: «خَيْرَنِي رَبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونُ عَبْلاً رَسُولاً أَوْ مَلِكاً نَبِيّاً فَلَمْ أَدْرِ أَيْهُمَا أَخْتَارُ وَكَانَ صَفِيْي مِنَ المَلايْكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْداً رَسُولاً (*). وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي، وقطع نهاره بذكري، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي، وقال ﷺ: «الكرّمُ النَّقْوَى وَالشَّرَفُ التَّوَاضُعُ وَالْيَقِينُ الْفِنَى» (*)، وقال

⁽١) حديث: (ما زاد الله عبداً بعفو إلا هزأ...) الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: (هما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة بمسكانه بها. . . ؟ الحديث. أخرجه العقيلي في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «طوبي لمن ثواضع في فير مسكنة. . . ١ الحديث. أخرجه المغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب
المصري، والبزار من حديث أنس، وقد تقدم معضه في العلم وبعضه في آفات اللسان.

حديث أبي سلمة المديني عن أبيه على جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً... الحديث. وفيه:

«من تواضع رفعه الله... الحديث. رواه البرار من رواية طلحة بن يحيى بن طلحة بل عبيدالله عن أبيه عن جده
طلحة فذكر نحوه دون قوله: «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله» ولم يقل "بقباء». وقال الذهبي في الميزان: إنه خبر
مكر، وقد تقدم. ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عاتفة قالت: أتي رسول الله ﷺ بقدح فيه لبن وعسل ١٠٠٠
الحديث. وفيه «أما إني لا أزهم أنه حرام ، . ، الحديث، وفيه: «من أكثر ذكر الموت أحبه الله» وروى المرفوع منه
أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعبد دون قوله: «ومن بدر أفقره الله» وذكرا فيه قوله «ومن أكثر ذكر الله أحبه الله»،

 ⁽٥) حديث السائل الذي كان به زمانة منكرة وأنه ﷺ أجلسه على قخله ثم قال: الطعم، الحديث. لم أجد له أصلاً والموجود حديث: الأكله مع مجذوم، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي: غريب.

 ⁽٦) حديث: اخيرني ربي بين أمرين هبداً رسولاً أو ملكاً نبياً... الحديث، أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس، وكلا الحديثين ضعيف،

حديث: «الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلاً، وأسند
 الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الإسناد.

المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة. وقال بعضهم: بلغي أن النبي على قال: ﴿إذا هَدَى الله عَبْداً لِلإسلام وَحَسَّنَ صُورَةُ وَجَمَلَهُ فِي مَوْضِع فَيْرِ شَائِنِ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضُعاً فَلْلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللهُ ('')، وقال على: ﴿أَدُبُعُ لا يُغطِيهُمُ الله إلا مَنْ أَحَبُ: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ المِبَادَةِ، وَالتَّوكُلُ هَلَى الله. وَالتَّوَاضُعُ، وَالزَّهُدُ فِي اللهُنْهَاهُ '')، وقال ابن عباس: قال رسول الله على: ﴿إذا تَوَاضَعَ العَبْدُ رَفَعَهُ الله إلى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ '')، وقال ابن عباس: قال رسول الله على: ﴿إذا تَوَاضَعُ اللهُ ﴿* ويروى: أن رسول الله على علم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر، فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر، فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه بلني على أبي الله عنه عنها الله على الرَجُلُ الشَيْءَ فِي يَدِهِ يَكُونُ مَهْنَةَ لِأَمُلِهُ يَدْفَعُ حَلاوة العِبَادَةِ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا أَرْى عَلَيْكُمْ حَلاوَة العِبَادَةِ قَالُوا: وما حلاوة العبادة ('')؟ وقال النبي على الصحابه يوماً: «ما لي لا أرَى عَلَيْكُمْ حَلاوَة العبَادَةِ قالُوا: وما المُتَواضِعِينَ مِنْ أَمْتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ المُتَواضِعِينَ مِنْ أَمْتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَاذَا رَأَيْتُمُ المُتَواضِعِينَ مِنْ أَمْتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ المُتَواضِعِينَ مِنْ أَمْتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَاذَا رَأَيْتُمُ اللهُ الل

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إنّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال: انتمش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال: اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير، حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير. وقال جرير بن عبدالله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له، وقد جاوزت الشمس النطع فسوّيته عليه، ثم إنّ الرجل استيقظ فإذا هو سلمان

ا حديث: ﴿إِذَا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته. . .) الحديث. أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه ،
 وفيه المسعودي محتلف فيه.

حديث: «أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب: الصمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله والتواضع، والزهد في الدنيا؟
 أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس: «أربع لا يصبن إلا بعجب. الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله
 وقلة الشيءة قال الحاكم: صحيح الإسناد.

قلت: فيه العوام بن جويرية. قال ابن حبان: يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث.

 [&]quot;") حديث ابن عباس: «إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة» أخرجه البيهقي في الشعب نحوه، وفيه
 زمعة بن صالح ضعفه الجمهور.

⁽٤) حديث: «إن التواضع لا يزيد العبد إلا رقعة. . . . الحديث. أخرجه الأصفهائي في الترغيب والترهيب من حديث أتس وفيه بشر بن الحسن وهو ضعيف جداً، ورواه ابن عدي من حديث ابن عمر رقبه الحسن بن عبدالرحمن الاحتياصي وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف.

مديث: كان يطعم فجاءه رجل أسود به جدري فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي ﷺ إلى
 جنبه. لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم. رواه أبو داود والترمذي وقال: فريب، وابن ماجه من حديث جابر
 كما تقدم.

 ⁽٢) حديث: اإنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة الأهله يدفع به الكبر عن نفسها. غريب.

٧٠) حديث: (ما لي لا أرى هلبكم حلاوة العبادة) قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال ' «التواضع» غريب أيضاً.

 ⁽٨) حليث: ﴿إِذَا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا هليهم فإن ذلك لهم مذلة وصفاره غريب أيضاً.

الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير، تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير، أتدري ما ظلمة الناريوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات؛ التواضع. وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد. وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ما هو؟ ـ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبي قبلته، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دولك في نعمة الدنياء حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل. وقال قتادة: من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علماً ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة. وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع بها درجة في الآخرة، وما أنعُم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقاً من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه. وقيل لعبدالملك بن مروان: أي الرجالُ أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصرة عن قوّة. ودخل ابن السماك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ امرأً آتاه الله جمَّالاً في خلقته، وموضعاً في حسبه، وبسط له في ذات يده؛ فعف في جماله، وواسى من ماله، وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتيه بيده. وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين، وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدُّون فكذلك فاكره أن يواك الفقراء في النياب المرتفعة.

روي: أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً. وقال مجاهد: إنّ الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت، وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال أبو سليمان: إنّ الله عزّ وجلّ اطلع على قلوب الأدميين فلم يجد قلباً أشدّ تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام. وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات -: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم، إني أخشى أنهم حرموا يسببي. ويقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه. وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال زياد النمري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن منادياً ينادي وقال زياد النمسجد: ليخرج شركم رجلاً، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوّة أو سعي باب المسجد: ليخرج شركم رجلاً، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوّة أو سعي قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكاً. وقال الفضيل: من أحب الرياسة لم يعلح عبدالله أنت إمامنا فادع الله عز وجلّ لنا، فبكى ثم قال: لينني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت عبدالله أنت إلنوم فقال: إنّ الله عز وجلّ رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وجاء رجل إلى الشبلي النبي بي في النوم فقال: إنّ الله عز وجلّ رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وجاء رجل إلى الشبلي: النبي ققال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته، فقال: أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشبلي:

أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعاً. وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل البهود. ويقال: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب. وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له: يا أبا الحسن عظني، فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغية منهم بالله عز وجلّ. مجالس الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عزّ وجلّ. وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه. وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظنّ أنّ في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعاً؟ قال. إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عزّ وجلّ ومعرفته بنفسه، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصايد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، ويقال: والسفيه إذا تنسك تعاظم، وقال يحيى بن معاذ: التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع، ويقال: التواضع في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح، التواضع في الخلق كلهم عضن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح، وفي الفقراء أقبح، ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عزّ وجلّ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزّ وجلّ، ولا أمن إلا لمن خواف الله عزّ وجلّ، ولا أمن إلا لمن خواف الله عزّ وجلّ، ولا رفعة إلى المن تواضع لله عزّ وجلّ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عزّ وجلّ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزّ وجلّ، ولا أمن إلا لمن أباء نفسه من الله عزّ وجلّ.

وقال أبو علي الجوزجاني: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عزّ وجلّ، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عزّ وجلّ.

وعند الجنيد رحمه الله أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه: لولا أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ زَهِيمُ القَوْمِ أَرْذَلُهُمْ اللهُ مَا تكلمت عليكم. وقال الجنيد أيضاً: التواضع عند أهل التوحيد تكبر. ولعل مراده أنّ التواضع يثبت نفسه ثم يضعها، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنمون الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجملت أنظر إليه وأتأمله فقال لي: ما لك تنظر إليّ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الماس فوصعني الله حيث يترفع الماس. وقال المغيرة: كنا نهاب إبراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول: إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء. وكان عطاء السلمي إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض، وقال: هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وكان بشر الحافي يقول: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم، ودعا رجل لعبدالله بن

⁽١) حديث: «يكون في آخر الزمان زهيم القوم أرذلهم» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة: «إذا اتخذ الفيء دولاً...» الحديث. وفيه دكان زهيم القوم أرذلهم» الحديث. وقال: فريب وله من حديث علي بن أبي طالب: «إذا قعلت أمني خمس مشرة خصلة حل بها البلاء» فذكر منها: «وكان زهيم القوم أرذلهم» ولأبي نميم في الحلية من حديث حديثة عمن التراب الساهة اثنتان وسبعون خصلة فذكرها منها، وفيهما فرج بن فضالة ضعيف.

المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه، فقال: إنّ الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة؟. وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوماً فقال سلمان: لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان، فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم. وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

اهلم: أنّ الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الحوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال: ثكبر، وإذا لم يظهر يقال: في نفسه كبر، فالأصل هو الخلق الذي في النفس، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه، فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب - كما سيأتي -؛ فإنّ العجب لا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجباً، ولا يتصوّر أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى عيره مثل نفسه لم يتكبر، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاث يحصل فيه خلق الكبر، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تفخخ فيه، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح، وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك، العقيدة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر، ولذلك قال النبي ﷺ: فأعُوذً بِكَ مِنْ نَفْحَة عند صلاة وتنفخ والمزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر، ولذلك قال النبي النفية الأبية والمؤد باك عمر: أخشى أن تستفح حتى تبلغ الثريا، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح. فكأن الإنسان مهما رأى نفسه مهذه العين - وهو الاستعظام - كبر وانتفخ وتعزز.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضاً عزة وتعظماً، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُنُورِهِمْ إِلّا كِبْرٌ سًا هُم سَلِخِيةٌ [غَافر: ٥٦] قال: عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بنلك العظمة. ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه، وأقصاه عن نفسه وأبعده، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتذ كبره، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فأنف من مساواته، وتقدّم عليه في مضايق الطرق، وارتفع عليه في المحافل، وانتظر أن يبدأه بالسلام، واستبعد تقصيره في قضاء حواتجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عنف في النصح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب، وإن علم لم يرفق المتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً.

⁽١) حديث: «أهوذ بك من نفخة الكبرياءا، تقدم فيه.

والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة. فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: ﴿لا يَدْخُلُ المَجَنَّةَ مَنْ فِي قُلْبهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْر؟ ١٠٠٠ وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة، والمعض منها داع إلى البعض لا محالة. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلۡكِيكَةُ بَاسِطُوٓا ۚ أَيْدِيهِدَ ﴾ [الانخام: ٣٣] إلى قوله: ﴿وَكُنَّتُمْ عَنْ ءَايَنِيْهِ. نَشَتَّكُورُونَ ﴾ [الانخام: ٣٣] ثسم قال: ﴿ أَنْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّدَ خَلِدِينَ مِبهَا ۚ فِيشَن مَثْوَى ٱلْمُتَكَتِّبِينَ ﴾ [الزُّمَر: ٧٧] ثم أخبر أن أشدّ أهل النار عذاباً أشذهم عتياً على الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَازِعَكَ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى اَلرَّخُنِنِ عِيْنَا ﷺ﴾ [مريّم: ٦٩] وقال تعالى: ﴿ ﴿فَالَّذِيكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآلِخِرَةِ تُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم شُسْتَكَمِّرُةَ ﴾ [النّحل: ٢٣] وقال عزّ وجلّ: ﴿بَـقُولُ الَّذِيكَ اَسْتُضْعِقُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكَثِّرُواْ لَوْلَآ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سَبَه: ٣١] وقبال تبعبالسي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكُمْبُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ حَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غَافَر: ٦٠] وقال تعالى: ﴿سَأَمْرِثُ عَنَّ ءَابَنِيَ ٱلَّذِينَ يَتَّكَّبُّوكَ فِي ٱلأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الاعزاف. ١٤٢] قيل في التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير، سأحجب قلوبهم عن الملكوت. وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. ولذلك قال المسيح عليه السلام: إنَّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت عليُّ الصفاء كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر، ألا ترون أنَّ من شمخ برأسه إلى السقف شجه، ومن طأطأ أظله وأكنه. فهذا مثل ضربه للمتكبرين، وأنهم كيف يحرمون الحكمة، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال: قمَنْ صَفِهَ الْحَقُّ وَغَمَصَ النَّاسَ* ٢٠ .

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه:

اعلم: أنّ المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فإذن: التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

البعث الله عنه المعند من في قلبه مثقال ذرة من كبر، تقدم فيه.

 ⁽٢) حديث الكبر: قمن سفه الحق وضعص الناس، أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال: قبطر الحق
وضعط الناس، ورواه الترمذي فقال: قمن بطر الحق وضعص الناس، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد من حديث
عقبة بن عامر بلفظ المصنف، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا.

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس؛ وذلكُ تارةً يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانَ أنه محق فيه، وثارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله قولهم: ﴿ أَنْوَيْنُ لِيَشَرَيْنِ مِثْلِينَا﴾ [السؤمنون: ٤٧] وقولهم: ﴿ إِنَّ أَسُّدُ إِلَّا بَشَرٌ بَثْلُكُ [إبراهيم: ١٠٠٠. ﴿ وَلَيْنَ أَلَمَقْتُم بَشَرًّا مِثْلَكُمْ إِنَّا لَخَلِيرُونَ ۞﴾ [السومنون: ٣٤] ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا بَرْجُونَ لِقَأْمَا لَوْلَا أَرِلَ عَلَيْسًا ٱلْسَلِتِهِكَةُ أَوْ رَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكَكِّرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَنَوْ خُنُوًّا كَبِبِرَ ۞﴾ [السفْسرقسان: ٢١] ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أَنزِلَ عَلَيْهِ مَكَكُّ﴾ [الأنتمام: ٨] وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿ أَوْ سَلَّةُ مَكُهُ ٱلْمَلَتِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: ٥٣] وقال الله تعالى: ﴿ وَإِسْنَكُبُرُ هُوَ وَحُنُودُمُ فِي ٱلْأَرْضِ بِعَكْبِرِ ٱلْعَقِي [القَصَص: ٣٩] فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً. قال وهب: قال له موسى عليه السلام: آمن ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان، فشاور هامان فقال هامان: بينما أنت رب يعبد إذ صرت عبداً تعبد، فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَنَا الْقُرْبَانُ عَلَى رَجُلِ نِنَ ٱلْقَرْبَاتُيْ عَظِيمٍ﴾ [الترِّخرُف: ٣١] قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طُلبوا من هو أعظُّم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا: غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تِعالَى: ﴿ أَهُرٌ يَفْسِمُونَ رَحُمُتَ رَبِّكُۗ [الرَّخرُف: ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿ لِيَقُولُواْ أَهْدَوُلَا إِمْنَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَّأَ ﴾ [الأنقام: ٥٣] أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدّمهم. وقالت قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم، وتكبروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطَرُّهِ ٱلَّذِينَ يَنَّحُونَ رَيُّهُم بِالْفَدَاوْةِ وَالْمَشْيُّ [الانتمام: ٥٧] إلى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ [الانتمام: ٥٧] وقال تعالى: ﴿ وَآمَهِيرُ نَشْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم فِالْعَـدَوْةِ وَالْفَشِنِي يُرِيدُونَ وَجْهَلِّمْ وَلَا نَعْذُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ثُرِيدُ زِينَـةَ ٱلْحَيَوْةِ ٱلدُّنْيَأَ﴾ [الكهف: ٢٨](١) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذِّين ازدروهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا مَرَىٰ رِيَالًا كُنَّا مُعُدُّمُ مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ [س: ٦٧] قيل: يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة، فجهل كونه ﷺ محقاً، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف، قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿ فَلَمَّا جَكَاتِهُم مَّا عَرَفُواْ كَغَرُواْ بِئِبَ [البَقَرة: ٨٩] وقال: ﴿ وَمَعَمَدُواْ بِهَا وَامْتَيْفَنَتُهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلْزًا﴾ [النَّمل: ١٤] وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجلَّ وإن كان دونه، ولكنه تكبر علَى قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

 ⁽١) حديث: اقالت قريش لرسول الله ﷺ: اكيف نجلس إليك وعندك هؤلاء... الحديث، في نزول قوله تعالى:
 ﴿ وَلا تَطَرُّرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الأنغام: ٥٣] أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال: "فقال المشركون؛ وقال ابن ماجة: «قالت قريش».

القسم الثائث: التكبر على العباد؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم؛ فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله: أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال! وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته. أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه؛ إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حتى الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم يبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه. نعم، الفرق بين هذه المنازعة وسن منازعة نمروذ وفرعون هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعة في أصل الملك.

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين؛ إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وَقَالَ اللَّهِنَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لاَ تَسْمَعُوا لاَ تَسْمَعُوا فَي النَّوْمَانِ وَالْفَحام لا ليغتنم الحق إذ ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِبْلَ لَهُ النَّهِ اللَّهُ تَعَالَى: ٢٠٦]

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ [البّقرة: ١٥٦] قام رجل يأمر بالمعروف فقتل، فقتل المتكبر الدي خالفه والذي أمره كبراً. وقال ابن مسعود: كفي بالرجل إثما إذا قيل له اتن الله قال: عليك نفسك وقال في لرجل: «كُلْ بِيَوِينِكَ» قال: لا أستطيع، فقال النبي في: الا استطعت فما منعه إلا كبره، وقال في لرجل: «كُلْ بِيَوِينِكَ» قال: لا أستطيع، فقال النبي في: الا استطعت فما منعه إلا كبره، قال: فما رفعها بعد ذلك أن إي اعتلت يده. فإذن: تكبره على المخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به، فإنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من الكبر بالنسب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من

⁽۱) حديث: قال لرجل: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع فقال: «لا استطمت» الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجرّه ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه أفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله على الكبر بهاتين الآفتين؛ إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله، إني امرؤ قد حبب إلي من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال على: الا وَلْكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ» أي ازدراهم واستحقرهم وهم النَّاسَ وفي حديث آخر: همنْ سَفِهَ الْحَقِّ (*) وقوله: "وَفَمَصَ النَّاسَ» أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذا الآفة الأولى: "وسفه الحق» هو رده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

بيان ما به التكبر:

اهلم: أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني: هو العلم والعمل، والدنيوي: هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب.

الأول: العلم، وما أسرع الكبر إلى العلماء ولذلك قال ﷺ: «آفّة العِلْم التُحيلاءُ» (١) فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم: يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حتى عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا. أما في أمر الآخرة؛ فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لهم، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة، وحجة الله على العلماء، وعظم خطر العلم فيه ـ كما سيأتي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة، وحجة الله على العلماء، وعظم خطر العلم فيه ـ كما الناس يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة، وحجة الله على العلماء، وعظم خطر العلم فيه ـ كما الناس في طريق معالجة الكبر بالعلم ـ وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً، ويقتضي أن يرى كل الناس

 ⁽١) حديث: قول ثابت بن قيس بن شماس إني امرؤ قد حبب إليّ من الجمال ما ثرى. . . ٩ الحديث. وفيه: «الكبر من
 بطر الحق وغمص الناس». أخرجه مسلم والترمذي، وقد تقدم قبله بحديثين.

 ⁽۲) حديث: االكبر من سفه الحق وضمص الناس»، تقدم معه.

⁽٣) حديث: «أفة العلم الخيلاء».

قلت: هكذا ذكره المصنف والمعروف: «آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء» هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس «آفة الجمال الخيلاء» وفيه الحسن بن عبدالحميد الكوفي لا يدرى من هو حدث عن أبيه بحديث موصوع. قاله صاحب الميزان.

خيراً منه؛ لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم. ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علماً ازداد وجعاً وهو كما قال.

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً؟

فاعلم: أن لذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَغْشَى الله مِن عِبَادِهِ الْفُلْكَتُوَّا ﴾ [فاطر: ٢٨] فأما ما وراء ذلك كعلم الطب واللحاب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرّد الإنسان لها حتى امتلا بها امتلا بها كبراً ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صاعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً.

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سبيء الأخلاق، فإنه لم يشتخل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم ـ أي علم كان ـ صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الحير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها، فيزداد المرّ مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً، فالعلم من أعظم ما يتكبر به؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَأَخْفِشْ جَنَاحَكَ لِنَنِ ٱلْبَعْكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ ۗ [الشُّعَرَاء: ٢١٠] وقال عزْ وجلَّ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلِّبِ لَاَنْفَتُواْ مِنْ خَوْلِكًا ﴾ [آل مِمرَان: ١٥٩] ووصف أولياءه فقال: ﴿ أَنِلَةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَةٍ عَلَى ٱلْكَفْدِينَ ﴾ [المَاندة: ٥٤] وكذلك قال ﷺ فيما رواه العباس رضي الله عنه: «يكون قوم يقرؤون القرآن لايجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا، ثم التفت إلى أصحابه وقال: ﴿ أُولِئُكُ مَنْكُم أَيْهِا الْأُمَّةُ أُولِئُكُ هُمْ وقود النَّارِ ٢٠٠١ . وَلَذَلِكُ قالَ عمر رضي ألله عنه: لَا تكونوا جبابرة العلماء فلا يغي علمكم بجهلكم. ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبي أن يأذن له وقال: إنه الذبح. واستأذنه رجل كان إمام قوم إنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثرياً. وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال: لتلتمسن إماماً غيري أو لتصلنُّ وحدانا؛ فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأحري هذه الأمة؟ فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له: عالمُ ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظرُ إِلَيه عبادةً فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله؛ لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات فأني يسمح آخر الزمان بمثلهم؟ فهم أرباب

⁽۱) حديث العباس: «يكون قوم يقرؤون القرآن لا بجاوز حناجرهم يقولون قد قرأتا القرآن فمن أقرأ منا...» الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق.

الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الأوّل ومن يليهم، بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فللك أيضاً إما معدوم وإما عزيز، ولولا بشارة رسول الله على بقوله: «مَيَأْتِي عَلَى النّاسِ زَمَانٌ مَنْ تَمَسّكَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا أَلْتُمْ عَلَيْهِ نَجَاه (١)، لكان جديراً بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشره، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله، ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد، ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في المعنيا: فهو أتهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم، والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى، وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ ـ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء ـ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً - مهما رأى ذلك _ قال على الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً - مهما رأى ذلك _ قال على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله، آمن من مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شراً احتقاره لغيره. قال على إلكره شراً أن يَحْقِرَ أَخَاه المُسْلِمَه (٢)، وكم من الغرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه، ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه، وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتاعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل!، وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال! كما روي أن رجلاً في بني إسرائيل كان يقال له: خليع بني إسرائيل مل كان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إلي لمل الله يرحمني فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل فكيف يجلس إلي فائف منه وقال له: قم عني، فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت المخليع وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع.

وهذا يعرّفك أنّ الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذلً خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب. وكذلك روي أن رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطىء على رقبته وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك⁽¹⁾،

 ⁽۱) حدیث: «سیأتی علی الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم علیه نجاه أخرجه أحمد من روایة رجل عن أبي ذر-

 ⁽Y) حديث: (إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم، أخرجه مسلم من حديث أبي هربرة.

 ⁽٣) حديث: «كفى بالمرء شرأ أن يحقر أخاه المسلم» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «امرق من الشر».

⁽٤) حديث: «الرجل من بسي إسرائيل الذي وطىء على رقبة عابد من بني إسرائيل وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله الله» الحديث. أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي: «والله لا يغفر الله لك أبداً» وهو بغير هذا السياق وإسناده حسن.

فأوحى الله إليه: أيها المتألي بل أنت لا يغفر الله لك، وكذلك قال الحسن: وحتى إن صاحب الصوف أشدّ كبراً من صاحب المطرّز المخرّ، أي أن صاحب الخزيدل لصاحب الصوف ويرى الفضل له، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه، وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار ودلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب واغترار بالله، وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدّى ويقول: سترون ما يجري عليه؟ وإذا أصبب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهده عقيدة المغترين.

وأما الأكياس من العباد: فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كانت تهب ريح أو تقع صاعقة: ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي، ولو مات عطاء لتخلصوا. وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات: كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم، فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله طاهراً وباطناً وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه، وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به، ثم إنه يمتن على الله بعمله. ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض، وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي على قاقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك، فقال: النبي أن رجلاً ذكر بخير للنبي الشيئوان، فسلم ووقف على النبي الله فقال له النبي بنور النبوة ما استكن في تفسك أنْ لَيْسَ فِي القَوْمِ أَفْضَلَ مِنْكَ، قال: اللهم نعم (١٠)، فرأى رسول الله يخبه بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله.

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أن يجتهد ويتواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس، والتقدّم على الأقران، وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خدّه للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه منزه عن الناس مستقلر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى يقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم؛ إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «المَّقْوَى لهُهُنا» وأشار إلى

حديث: أن رحلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله، هذا الذي ذكرناه لك فقال: "إني أرى في وجهه سقعة من الشيطان» الحديث. أخرجه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس.

صدره (١). فقد كان رسول الله هي أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقاً، وأكثرهم بشراً وتبسماً وانبساطاً (٢). ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله هي يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاء ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله من المسلمين مثله، ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه هي ﴿وَلَقَيْضَ حَنَامَكَ لِنَ النَّهُ عَلَى بِنَ النَّوْمِينِ ﴾ [الشَّمَرَاء: ١٥٥] وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالاً ممن هو في الرتبة الثالثة، وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة، وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات، والتشمر لغلبه الغير في العلم والعمل.

أما العابد: فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد: من هو وما عمله ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثني على نفسه ويقول: إني لم أفطر منذ كذا وكذا، ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم، وفلان ينام سحراً ولا يكثر القراءة، وما يجري مجراه، وقد يزكي نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض، أو ما يجري مجراه؛ يدعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاته: فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجرع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قرّته وعجزهم، وكذلك يشتذ في العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم: فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته: فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه.

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأحلاق من نفسه وسمع قول رسول الله على: ﴿لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبِّةٍ مِنْ خَرْدَلِ مِنْ كِبْرٍ (٣)، كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله على يقول: ﴿إنه من أهل النار؟ وإنما العظيم من خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له: إن لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عندنا. ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً. فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب؛ فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد، ويأنف من

 ⁽۱) حدیث: «التقوی ههنا» وأشار إلى صدره. أخرجه مسلم من حدیث أبي هربرة، وقد تقدم.

⁽٢) حديث: اكان أكرم الخلق وأتقاهم. . . ٤ الحديث. تقدم في كتاب أخلاق النبوة.

 ⁽٣) حديث: (لا يدخل الجنة من في قلبه عثقال حبة من خرط من كبرة. تقدم.

الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء، ويدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك: ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة على النبي على النبي النبي المنتقبة المنتقبة المنتقبة المنتقبة الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت.

الخامس: الكبر بالمال؛ وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم، وبين التجار في بضائعهم، وبين النخامس: الكماقين في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له: أنت مكد ومسكين، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك، ومن أنت؟ وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك؟ وأنا أنفق في اليوم ما لا تأكله في سنة؟ وكل

⁽١) حديث أبي ذر * قاولت رحلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداه... » الحديث. أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه أن الببي ﷺ قال له: فانظر فإنك لست بنخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى!.

 ⁽٢) حديث: فأن رجلين تماحرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان قمن أنت لا أم لك؟...؟
 الحديث. أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المستد من حديث أبي بن كعب بإستاد صحيح، ورواه أحمد موقوفاً على معاذ بقصة موسى فقط.

 ⁽٣) حديث: «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجملان. . . » الحديث .
 أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة.

⁽٤) حديث عائشة (دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا، أي أنها قصيرة...» الحديث. تقدم في آفات الله الله الله المسان

ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَفَقَالَ لِمَنْجِهِ، وَهُو يُمَاوِرُهُۥ أَنَا أَكُثُرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] حتى أجابه فقال: ﴿ إِن تَسَرِّ أَنَا أَقَلَ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] حتى أجابه فقال: ﴿ إِن لَنَا أَقَلَ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَمَسَى رَقِ آن لَوْ يَقِينِ حَدَّرًا مِن حَلَيْكَ وَرُسِلَ عَلَيْهَا حُسْمَانًا مِن السَّمَامِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا وَلَا أَقُلُ مِن الله عَاقبة أمره بقوله: ﴿ يَلَيْنَنِي لَمْ أَشَرُكُ مِنَ أَسَدًا﴾ [الكهف: ٢٤] وكان ذلك منه تكبراً بالممال والولد، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله: ﴿ يَلَيْنَنِي لَمْ أَشْرُكُ مِنَ أَسَدًا﴾ [الكهف: ٢٤] ومن ذلك تكبر قارون، إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره: ﴿ وَمَغَنَ عَن قَرْهِ عِي رِيْنَيْهِ أَقَلُ اللّذِينَ كُولِدُونَ النَّمَا يَكُن لَن اللهُ عَلِيمٍ اللهُ الل

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة: فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرائه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين، لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به؛ لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به، أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده. وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه؛ لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته، إنه على كل شيء قدير.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

اعلم: أن الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن تسمى تكبراً، ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر _ كما سيأتي معناه _، فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه أو بشيء من أسبابه استعظم وتكبر.

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبر فهو: العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه: هو الحقد، والحسد، والذي يتعلق بغيرهما: هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

أما العجب: فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن، والكبر يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأما الحقد: فإنه يحمل على التكبر من غير عجب؛ كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له؟ ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته، وعلى الأنفة من قبول

نصحه، وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك، وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه، فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه، ولا يسأله عما هو جاهل به.

وأما الحسد فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء، وسبب يقتضي الغضب والحقد، ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه؟ فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء: فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى إن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة؛ خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب، ثم يتكبر به على من ليس يتسب إلى ذلك النسب، ويترفع عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار، وهو إن سمي متكبراً فلأجل التشبه بأفعال الكبر. نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

اعلم: أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكناً، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

قمنها: التكبّر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه. وقد قال علّي كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام. وقال أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك (١).

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه عيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه، وكان عبدالرحمن بن عوف لايعرف من عبيده؛ إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد. وكان رسول الله ﷺ في

 ⁽١) حديث أنس: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له...» الحديث. تقدم في
 آداب الصحبة وفي أخلاق النبوة.

بعض الأوقات يمشي مع بعص الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم^(١)، إما لتعليم عيره، أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب، كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنبين^(١).

ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه؟.

ومنها: أن يستكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: جلست إلى عبدالعزيز بن أبي روّاد فمس فخذي فخذه، فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني؟ وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث تشاء (٣).

ومنها: أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو الكبر: دخل رجل ـ وعليه جدري قد تقشر ـ على رسول الله على وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي على إلى جنبه (عنه)، وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه: روي أن عمر بن عبدالعزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقرم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنيه الغلام؟ فقال: هي أوّل نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، ما نقص منى شيءا وخير الناس من كان عند الله متواضعاً.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، وكان رسول الله على يفعل ذلك من كماله ما حمل من شيء إلى عياله، وكان أبو عبيدة بن الجراح .. وهو أمير .. يحمل سطلاً له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومثذ خليفة لمروان،

⁽١) حديث: كان في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم. أخرجه منصور الديلمي في مسند العردوس من حديث أبي أمامة بسند ضميف جدأ: أنه خرج يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال: «إني سمعت تحفق نعالكم فأشققت أن يقع في نفسي شيء من الكبر» وهو منكر، فيه جماعة شمناء

 ⁽٢) حديث: إخراجه الثوب الجديد في الصلاة وإبداله بالخليع.

قلت المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة وليس الأنسجانية، وكلاهما تقدم في الصلاة. (٣) حديث أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ الحديث. تقدم في آداب المعيشة.

⁽٤) حديث: الرجل الذي به جدري وإجلاسه إلى جنبه، تقدم قريباً.

 ⁽٥) حديث: حمله مثاعه إلى سنه. أخرجه أبو بعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله، وتقدم.

فقال: أوسع الطريق للأميريا ابن أبي مالك. وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت علياً رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والنواضع، وقد قال النبي ﷺ: "البَدَاذَةُ مِنَ الإيمانِ" (أب نقال هارون: سألت معناً عن البداذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق ويبده الدرة، وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم. وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب، وقال طاوس: إني لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين، ويروى أنّ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها، فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول: ما أجوده لولا لينه، فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن لي نفساً ذوّاقة، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله عز وجل. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبدالعزيز الجمعة الطبقات تاقت إلى ما عند الله عز وجل. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبدالعزيز الجمعة أن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة، وإن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة، وإن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة، وإن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القوم عند القدرة، وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ فِينَةً لله وَوَضَعَ ثِياباً حَسَنَةً تَوَاضُعاً لله وَابْتِغَاءً لِمَنْ صَابَعُهُ الله أَنْ يَدْجُرُ لَهُ عَبْقَرِيْ الله عَبْ الله أَنْ يَدْجُرُ لَهُ عَبْقَرِيْ الله عَبْ الله وقراء الله فقال: إن أفضل المقو عند القدرة، وقال الله عند الهدة (٢٠٠٠).

فإن قلت: فقد قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب. وقد سئل نبينا على الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال: الأولكن من سغة المحقي وَعَمَصَ النَّاسَه (٢٠ فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم: أنَّ الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله على من حال الله على حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله على حال أبيت بن قيس إذ قال: إني امرؤ حبب إليَّ من الجمال ما ترى (١٤)، فعرف أنّ ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غبره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرضا بالثوب الدون قد يكون من التجمل إذا رآه الناس، ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف قد يكون من التجمل إذا رآه الناس، ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان. وعلامة طالب الجمال: أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته، وحتى في سنور داره، فذلك ليس من التكبر. فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال على أنّ

⁽١) حديث: ﴿البِدَافَةُ مِن الإِيمَانِ أَخْرِجِهُ أَبُو داود وابنَ ماجة من حديث أبي أمامة بن تعلبة، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث. «من قرك زينة فه ووضع ثياباً حسنة تواضعاً فه. . . » الحديث. أخرجه أبو سعيد الماليني في مستد الصوفية.
 وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس: «من قرك زينة فه. . . » الحديث. وفي إسناده نظر.

⁽٣) حديث: صئل عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر؟ فقال: ﴿لاَ الحديث. تقدم غير مرة.

 ⁽٤) حديث: «إن ثابت بن قيس قال للنبي ﷺ: إني امرؤ حب إليّ الجمال...» الحديث. هو الذي قبله سمي فيه السائل وقد تقدم.

قوله: خيلاء القلب؛ يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا ﷺ: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْكِبْرِ، يعني أَنَّ الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر، وبالجملة: عالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللساس، الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال ﷺ: "كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سَرَفٍ وَلا مَخِيلَةٍ، (1). "إِنَّ الله يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ يَعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ (2) وقال بكر بن عبدالله المرني: البسوا ثباب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية، وإنما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبر بثباب أهل الصلاح، وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتوني وعليكم ثباب الرهبان، وقلوبكم بالخشية،

ومنها: أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذي في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة: فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فيه، فينبغي أن يقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم. وقد قال أبُّو سلمة: قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي، كل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ في بيته، كان يعلف الناضح ويعقل البعير، ويقم البيت ويحلب الشاة، ويخصف النعل ويرقع الثوب، ويأكُّل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه، وينقلب إلى أهله يصافح الغنى والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليس له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دعى وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل^(٣)، لَا يرفع غداء لعشاء ولاً عشاء لغداء، هين المؤنة لين الخلق، كريم الطبيعة جميل المعاشرة، طلبق الوجه بسام من غير ضحك، محزون من غير عبوس، شديد في غير عنف، متواضع في غير مذلة، جواد من غير سرف، رحيم لكل ذي قربي ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق، لم يبتسم قط من شبع ولا يمد يده من طمع، قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدَّثتها بِما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر؛ إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتليء قط شبعاً ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغني، وإن كان ليظل جائعاً يلتوي ليلته حتى يصبح، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتي بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمةً له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: •يا حائِشَةُ إِخْوَانِي مِنْ أُولِي الْعَزْم مِنَ الرُّسُل قَدْ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدُ مِنْ لِمَذَا فَمَضَوًّا حَلَى حَالِهِمْ وَقَدِمُوا حَلَى رَبُهِمْ فَأَكْرَمَ مَآيَهُمْ وَأَجَزَلَ ثَوَابَهُمْ

 ⁽١) حديث: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة» أخرجه النسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

 ⁽٣) حديث: (إن الله يحب أن يرى أثر تعمته على هبده أخرجه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضاً، وقد جعلهما المصنف حديثاً واحداً.

⁽٣) الدَّقل: أسوأ أنواع التمر.

فَأَجِدُنِي أَسْتَجِي إِنْ تَرَفَّهُتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يُقَصِّرَ بِي دُونَهُمْ فأصبر أَيَّاماً يَسِيرَةَ أَحَبُ إِلَيْ مِنْ أَنْ يَنْقُمَى حَظِّي غَداً فِي الآخِرَةِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُ إِلَيْ مِنَ اللَّحُوقِ بِإِخْوَانِي وَأَخِلاَئِي؟. قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجلّ (١١).

فما نقل من أحواله ﷺ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محله ﷺ ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشدّ جهله! فلقد كان أعظم خلق الله متصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به، ولذلك قال عمر رضى الله عنه: إنَّا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: اعلم: أنَّ لله عباداً يقال لهم: الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد ﷺ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية، ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن، وتواضع في غير مذلة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون صدَّيقاً أو ثلاثون رجلاً، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، وأعلم يا أخي: إنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه، ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خيراً وألينهم عريكةً وأسخاهم نفساً، علامتهم السخاء، وسجيتهم البشاشة، وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة، ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم قيما بينهم وبين ربهم، لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿أَوْلَتِكَ حِزْبُ ٱللَّهُ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [السجادلة: ٣٧] قال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء، ما سمعت نصفة أشدّ عليَّ من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا، وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة، واعلم يا ابن أخي: أنَّ ذلك في كتاب الله تعالى المنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَٱلَّذِينَ هُم تَحْسِئُونَ ۖ ﴾ [النحل: ١٢٨] قال يُحيى بن كثيرًا: فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذونُ بمثل حب الله وطلب مرضاته. اللهم اجعلنا من محبى المحبين لك يا رب العالمين؛ فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

اعلم: أن الكبر من المهلكات، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان:

أحمدهما: استئصال أصله من سنخه، وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

 ⁽١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة: «قال الخدري الأبي سلمة: عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته كان يعلف الناضح. . . » الحديث. وفيه: قال أبو سلمة: فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبي سعيد فقالت: «ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتليء قط شبعاً. . » الحديث. بطوله لم أقف له على إسناد.

المقام الأوَّل: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإدا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجدَّه فالقول فيه يطول، وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله؛ فإن في القرآن علم الأوُّلين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُئِلَ ٱلْهِنِئَنُّ مَا ٱلْفَرَةُ ۞ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ غَلَقَهُ ۞ بِن ظُلْمَةٍ عَلَقَهُ مَعَذَرُهُ ۚ ۚ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ بَشَرُهُ ۚ ۚ أَمَالَمُ مَّأَمَّرُهُ ۚ ۚ إِمَّا شَاتَهُ أَسْرَهُ ۖ ﴾ [عَبَسَ: ١٧-٢٧] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان: فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وقد كان في حيز العدم دهوراً، بل لم يكن لعدمه أول، وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذَّرها؟ إذ قد خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئاً مذكوراً، فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أحس الأوصاف والنعوت! إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً، بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرّك، ولا ينطق ولا يبطش، ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوّته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، ويصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، ويضلالته قبل هداه، ويفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله: ﴿ بِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ بِن ثُلَفَةٍ خَلَقَهُ فَفَذَرَةً ۞﴾ [عَبَسَ: ١٩،١٨] ومعنى قوله: ﴿ قُلُ أَنَ عَلَى ٱلْإِنسَنِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَتَمْ يَكُنُ شَيْتًا مَّنْكُورًا ۞ إِنَّا حَلَقْنَا ٱلْإِنسَنَ مِن نُّطُمَةٍ أَمْشَاجٍ نَنْتَلِيهِ﴾ [الإنسَان. ٢٠١] كذلك خلقه أولاً ثم امتن عليه فقال: ﴿ثُمُّ ٱلسَّبِيلَ يَتَرَمُ ۞﴾ [عَبسَ: ٣٠] وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدّة حياته إلى الموت. وكذلك قال: ﴿ مِن نَّطَفَةٍ أَنْشَاجٍ بَّتَكِيهِ فَجَمَلَنَهُ سَيِيمًا بَصِيرًا ١ إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كُفُورًا ١٠٠٠ [الإنسان: ٣٠٢] ومعناه: أنه أحياه بعد أن كان جَمَاداً مَّيِّتاً تَراباً أولاً ونطَّفة ثَانياً، وأسمَّعه بعد ما كَان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقوَّاه بعد الضعف، وعلَّمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء ـ بما فيها من العجائب والآيات ـ بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طُغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنكَنُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن نُطَعَةِ فَإِذَا لَهُوَ خَمِسِيمٌ ثُمِينٌ ﴿ ﴿ إِنَّ ﴿ وَمِنْ ءَايَنزِهِۦ أَنَ خَلَقَكُم مِن فُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بِشَرٌّ تَنتَذِيرُونَ ۞﴾ [الرُّوم: ٢٠] فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحياً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وعنياً بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء، وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئاً. وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً؛ ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا. ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ خَتَمَلَ لَمُ عَبَيَّتِن ﴿ وَلِسَانَا وَشَغَنَيْ ۖ ﴾ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْنَيْنِ ﴾ النَّبَلَدُ: ٨-١٠] وعرف خسته أولاً فقال: ﴿أَلَوْ بَكُ نُطْنَةُ بَن تَبِيَّ بَنْنَى ۗ

أم كان عَلَقتُهُ [القيّائة: ٣٨،٢٧] ثم ذكر متته عليه فقال: ﴿ فَنَلَق فَدَوَى جَمَلَ يَهُ الزّوبَيْنِ الذّكر وَالْأَنْيُ ﴿ وَالْمَعْفُ السَّعِفُ الوَيَائة: ٣٩] ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولاً بالاختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء، وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة، والآفات المختلفة والطباع المتضادة، من المرة واللغم والربح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى، وضي أم سخط، فيجوع كرها، ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويلد أن ينسى الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ ولا نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ ولا نفسه وبصره وتفلج أعضاؤه، ويختلس عقله ويختطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل؛ إن ترك بقي وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نهسه ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ ثُمُّ أَمَاتُمُ فَأَنْبُرُ ۗ ۞ ثُمَّ إِنَا شَآةَ أَنْبَرُهُ ۗ ۞﴾ [غَبَنَ: ٢٢،٢١] ومعناه: أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جماداً كما كان أوّل مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرةً كما كان في الأوّل نطفة مذرة، ثم تبلي أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عُظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أحزاءه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما وبخذيه فيقطعهما، ويسائر أحزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدَّة الإنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمل منه البنيان، فيصير مفقوداً بعد ما كان موجوداً. وصار كأن لم يغن بالأمس، حصيداً كما كان في أوّل أمره أمداً مديداً، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً. لا بل يحييه بعد طول البلي ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرّقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة، وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس متكسفة، وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة فيقال له: ﴿ أَقَرَّأُ كِنَّبَكَ ﴾ [الإسراء: ١٤] فيقول: وما هو، فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها، وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطقُ به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير، وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿ يُوَيِّلُنَّا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَابِ لَا يُفَادِرُ صَفِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَنْهَا﴾ [الكهف: ٤٩] فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّا شَاءَ أَشَرُمُ ۗ ﴾ [عَبَىن: ٢٧] فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والأشر؟ فقد ظهر له أوّل حاله ووسطه ولو ظهر آخره ـ والعياذ بالله تعالَى ـ ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً، ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع ؛ إذ أوله التراب وآخره التراب، وهو يمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق، ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة _ إلا أن يعفو الله عنه، وهو على شك من العفو _ كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر، وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بقضله ويجبر الكسر بمنه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظنّ به ولا قوة إلا بالله. أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط، فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملاً من الخلق وليس يدري فحبس إلى السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملاً من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا؟ كيف يكون ذله في السجن، أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى، ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً. فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله هي ، حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول: «إنّما أنّا حَبْدُ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ العَبْدُ» ()، وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد، فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً؟ أشار به إلى العتق في الآخرة. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً، وقيل: الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما قيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه قلا ينحني وأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام: بايعت النبي على أن لا أخر إلا قائماً فبايعه النبي على على منتهى الذلة والضعة؛ أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم، ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر المخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع، في قلوبهم، وبه نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً، فإن نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً، وذلك لخفاء العلاقة بين القلوب والجوارح، وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت، والقلب من عالم الملكوت.

المُمَقَام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي، فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة.

الأوّل: النسب؛ فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين:

⁽١) حديث: كان يأكل على الأرض ويتول: «إنما أنا صد أكل كما يأكل العبده، تقدم في آداب المعيشة.

 ⁽٣) حديث حكيم بن حزام: ابايعت رسول الله ﷺ على أن لا أخر إلا قائماً... اللحديث. رواه أحمد مقتصراً على هذا وفيه إرسال خفي.

أحدهما: أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

المنسن فسخرت بآبساء ذوي شسرف المقد صدقت وللكن بنشس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفات داته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول: الفضل لي: ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي؟ أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات! بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة.

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وجدّه البعيد تراب ذليل، وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿ أَلَذِى آَحْسَنَ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَةٌ وَدَاً خَلَقَ ٱلإِنسَانِ مِن طِينِ ۞ ثَرَّ جَمَلَ نَسْلَمُ مِن شَلَائِم مِن مُلَائِم مِن مَا الله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينة حتى صار حماً مسنوناً كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال: يا أذل من النواب، ويا أنتن من الحماة، ويا أقذر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذن أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل. وهذه غاية خسة النسب، فالأصل يوطأ بالأقدام والفضل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان، ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله - كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه، فلم يزل فيه نخوة الشرف، فبينما هو كذلك، إذ أخبره عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام نتما عن أن يتماطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم، أقترى أن ذلك يبقي شيئاً من كبره؟ لا، بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم، فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن من كبره؟ لا، بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم، فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره، فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله، وعلم أنه من التظاع به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟.

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى الظاهر نظر العقلاء، ولا ينظر إلى باطنه نظر السهائم. ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال، فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دمعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين؛ ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه.

وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور، من النطفة ودم الحيض، وأخرج من مجرى الأقذار. إذ خرج من الصلب، ثم من الذكر مجرى البول، ثم من الرحم مفيض دم الصلب، ثم من مجرى القذار. إذ خرج من الصلب، ثم من مجرى القذر. قال أنس رحمه الله: كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا

ويقول. خرج أحدكم من مجرى البول مرتين: وكذلك قال طاوس لعمر بن عبدالعريز: ما هذه مشية من ني بطنه خراء؟ إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته، وهذا أوّله ووسطه.

ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط. فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن في أقذار، وصبموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار؛ لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذ صار هشيماً تذروه الرياح، كيف ولو كان جماله باقياً، وعن هذه القبائح خالياً لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح؛ إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له، بل هو في كل حين يتصوّر أن يزول بمرض أو حدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوّة والأيدي، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه، وأن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمى يوم تحلّل من قوّته ما لا ينجبر في مدّة. فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة، ولا يقدر على أنّ يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوّته! ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟.

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار، والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنى حارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم. وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر، فإن تغير عليه كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودي! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً معلساً؟ فهذه أسباب ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده، وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه لك، وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء. ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوّته وجماله وماله وحرّيته واستقلاله، وسعة منازله وكثرة حبوله وغلمانه؛ إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأنّ أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به؛ لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكاً، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام، وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله، ولا يعرف طريقاً في الخلاص ألبتة، أفترى من هذا حاله هل يفخر نقدرته وثروته وقرّته وكماله أم يذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير، فإنه حرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض

وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك. فمن هذا حاله لا يتكبر بقوّته وقدرته؛ إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما، ولكن التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدّة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعمل، ولذلك قال كعب الأحبار: إنّ للعلم طغياناً كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: العالم إذا زل زل بزلته عالم، فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل؛ لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن يعلم أنَّ حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش؛ إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال ﷺ: ﴿يُؤْتَى بِالْعَالِم يَوْمَ الْقِيامَةِ فَيَلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كُمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا لَكَ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُ بِالخَيْرِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الشَّرّ وَآتِيهِه (١٠)، وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عزَّ وجلَّ : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُيِنُواْ ٱلنَّوْرَانَةَ ثُمَّ لَمْ يَخْيِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجُمُعَة: ٥] أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم بن باعوراء: ﴿وَأَقُلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيَّ ءَاتَيْنَهُ ءَايَئِنَا فَأَنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] حتى بلغ ﴿فَشَلْمُ كَمْثَلِ ٱلْكُنْبِ إِن تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَتْ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَتْ﴾ [الاعراف: ١٧٦] قبال ابس عبياس رضي الله عنهما: أوتي بلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها فمثله بالكلب: ﴿إِن تَصْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَتْ أَوْ تَنْزُكُهُ يَلْهَتْ﴾ [الأعرَاف: ١٧٦]. أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر، فأي عالم لم يتبع شهوته، وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أنَّ قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه. فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يَكُونَ العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تُلدني أمي، ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة! ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أوكل! ويقول الآحر: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً! كل ذلك خوفاً من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من الطير ومن التراب. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصلده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

 ⁽۱) حديث: ايؤتي بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه. . . ؟ الحديث. متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ: ايؤتي بالرجل؟ وتقدم في العلم.

ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها، فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها، وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبر أنّ سيده أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلاً، ويلقيه على بابه في الحرّ والشمس زماناً طويلاً، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به الممجهود أمر برفع حسابه، وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره، وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من المخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه، وبننوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم بما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عزّ وجلّ وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي، فلا بدّ وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه، وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصور ذلك. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام؛ إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى، وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم: أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه؛ إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان، ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا ينري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره، وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين؟ إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الْفضائل في الدنيا تراد للعاقبة. فإذن: من حق العبد أن لا يتكبر على أحد، بل إن نظر إلى الجاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني. وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إليُّ، كما لم يكن ابتداؤها إليُّ؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا يقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه، ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه. فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرّغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر؛ إذ شغل كل واحد نفسه عن الالتفات إلى هم غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

قإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتراضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم: أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق؛ إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده، وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه، وهو ظان أنه قد غضب لله؛ كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم؟ وذلك لأن الكبر على المطبع ظاهر كونه شرأ، والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير، فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بيئهما إلا الموفقون.

والذي يخلصك من هذا: أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف وتهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك؛ ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك، وعاقبتك أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى، حتى بشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسينك؛ إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال؛ لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرّة عينه، وقد وكّل الغلام بالولد ليراقبه، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به، ويغضب عليه. فإن كان الغلام محباً مطيعاً لمولاه فلا يجد بدأ أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به، ولأنه يريد التقرّب بامتثال أمره إليه، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه، بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام. فإذن: ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع؛ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق، وتظنّ أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك، إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور: فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا صبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد، وسبيله: أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من يتقدّم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان؛ لما عرفه

من فضيلة العلم، وقد قال تعالى ﴿ هَلَ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَهْلَئُنَ وَٱلَّذِينَ لَا يَهْلَئُونَۗ﴾ [الزُّمَر. ٩] وقال ﷺ: فَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَذْنَى رَجُلِ مِنْ أَصْحَابِي، (١١)، إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

َ فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر، فيقال له: أما عرفت أنّ الحسنات يذهبن السيئات، وكما أنّ العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن، وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه التواضع له.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام: *فَضْلُ العَالِم صَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي حَلَى أَدْنَى رَجُلِ مِنْ أَصْحَابِي؟؟ فاعلم: أن ذلك كان ممكناً لو علم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتملُ أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم، وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفًا، فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفًا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فيتبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغى أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوباً وأكثر منه عبادةً وأشد منه حباً لله، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنباً، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة. نعم، يمكن أن تعلم أنّ ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والرياء، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه؛ إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى، وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله، فريما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينمغي أن يكون قريبًا عندك إنَّ كنت مشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك، بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منيه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال: العاشرة وما العاشرة! بها شاد مجده وبها علا ذكره؛ أن يرى الناس كلهم خيراً منه. وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه، إن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو إن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، فلا تراه إلا خائفاً من الماقبة ويقول: لعل برّ هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه الله، ويتوب عليه، ويختم له بأحسن الأعمال، ويرى ظاهره فذلك شر

⁽¹⁾ حديث: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة، وتقدم قي العلم.

لي. فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثم قال: فحينتذ كمل عقله وساد أهل زمانه. فهذا كلامه. وبالجملة: فمن جوّز أن يكون عند الله شقياً وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال.

نعم. إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيراً من نفسه وذلك هو الفضيلة، كما روي أن عابداً آوى إلى جبل فقيل له في النوم: اثت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله، فأتي في النوم ثانياً فقيل له: اثت فلاناً الإسكاف فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقم لى: أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه.

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿ يُوَوُّنُ مَا مَاتُواْ وَقُلْرُهُمْ وَعِلَةٌ أَنَهُمْ إِلَى رَبِمْ رَجِعُونَ﴾ [المومنون: ٢٠] أي أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّ بَنَّ لِي آهَلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا بَنَّ لِي آهَلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [المُومنون: ٢٠]. وقال تعالى عن المُنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤوب بالإشفاق، فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ يُسَيّحُونَ النَّهُ وَالنّبَادُ لا يَغْتُرُونَ ﴿ الانبِيَاء: ٢٠]، ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْبَيْهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الانبياء: ٢٠]، ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْبَيْهِ وَالحَدْر مما سبق به القضاء في الأزل _ وينكشف عند خاتمة الأجل _ غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن والأمن والأمن مهلك، والتواضع دليل الخوف وهو مسعد. فإذن: ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق، والنظر اليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسبت وعدها، فعلى هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل، وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس.

وبيانه: أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة.

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فتقل عليه قبوله والانقياد له، والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق؛ فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم قبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل قبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف الحق، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزال الله خيراً كما نبهتني له! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها. فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الملا فليس فيه كبر وإنما فيه رباء، فليعالج الرباء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرباء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملاً جميعاً ففيه الكبر والرباء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أدوية الرباء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملاً جميعاً ففيه الكبر والرباء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أدوية الرباء. وإن ثقل عليه في الغلوة والملاً جميعاً ففيه الكبر والرباء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أدوية الرباء. وإن ثقل عليه في الخلوة والملاً جميعاً ففيه الكبر والرباء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أدوية الرباء.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه، ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله، فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة، وهو أن يجلس في صف النعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل، فبكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزائته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقاته من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَقَ اللهَ يَقْلُبِ سَلِمِ ﴿ الشّعَرَاء: ٨٩]. ويروى عن عبدالله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له: يا أبا يوسف: قد كان في غلمانك وبنتك ما يكفيك! قال: أجل، ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جرّبها أهي صادقة أم كاذبة؟ وفي الخبر: قمن حمل الفاكهة أو الشيء فقد برىء من الكبره (١٠).

الامتحان المخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه له مسح بلبسه بالليل، وقد قال ﷺ: همن اغتقل البَعِيرَ وَلَبِسَ الصُّوفَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الكِبْرِهِ (٢)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّما أنّا عَبْدُ آكُلُ بِالأَرْضِ وَٱلْبَسُ الصُّوفَ وَأَعْقِلُ البَعِيرَ وَاللهٰ عَلَى الصَّدِقِ المَمْلُوكِ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُتَّتِي فَلَيْسَ مِنِيهُ (٢). وروي: أنّ أبا موسى الأشعري قبل له: إنّ أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس. وهذه مواضع يجتمع فيها الرباء والكبر، فما يختص بالملأ فهو الرباء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر؛ فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

 ⁽١) حديث: امن حمل الشيء والفاكهة فقد يرىء من الكبر؛ أخرجه البيهةي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ: المن حمل بضاعته.

 ⁽٢) حليث: (من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم اليعمري ضعيف جداً.

 ⁽٣) حديث: فإنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف. . .٤ الحديث. تقدم بعضه ولم أجد بقيته.

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة: فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً. والمحمود: أن يتواضع في غير مذلة ومن عير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطهاً. فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع؛ أي وضع شيئاً من قلره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل؛ وهو أن بعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسعي في حاجته، وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره، وهو لا يعرف خاتمة أمره. فإذن: سبيله في اكتساب التواضع، أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان، فليرفع نفسه؛ إذ ليس للمؤمن أن تذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان ـ وهو التملق ـ أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أنَّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان، وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق: هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب، كما يعرف ذلك بالشرع والعادة، ولتقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

الشطر الثاني من الكتاب في العجب: وفيه بيان ذم العجب وآفاته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيان ذم العجب وآفاته:

اعلم: أن العجب مذهوم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُدَيْنٌ إِذَ اللَّهِ مَعْرَضٌ مَلَمُ مَنْ مَنْ عَنَاكُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ مِنْ حَبَّثُ لَرّ يَحْنَسِبُوا ﴾ [المحشر: ٢] فرد على الكفار في ﴿وَظَنُوا أَنْهُم مَالِهُ مُ عَسُونَهُم مِنَ اللَّهِ فَأَنْهُمُ اللَّهُ مِنْ حَبَّثُ لَرّ يَحْنَسِبُوا ﴾ [المحشر: ٢] فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: ﴿وَمُ يَحْسَبُونَ أَنْهُم يُسْتِنُونَ صُنْمًا ﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطى، فيه كما يمجب بعمل هو مصيب فيه. وقال ﷺ: ﴿ وَقَالَ لاّبِي تُعلَمُ مَعْلَعٌ وَهُوى مُتّبَعٌ وَإَعْجَابُ المَرْءِ بِتَفْسِهِ ﴿ اللَّهُ مُهْلِكَاتُ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهُوى مُتّبَعٌ وَإَعْجَابُ المَرْءِ بِتَفْسِهِ ﴿)، وقال لأبي تعلمة م حيث

⁽١) حديث: اللاث مهلكات. . .) الحديث. تقدم فير مرة.

ذكر آخر هذه الأمة فقال: «إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإصجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك، (١). وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لإ يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى. فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له، ومستحيلة في اعتقاد الڤاتط، فمن ههنا جمع بيسهما. وقد قال تعالى: ﴿فَلاَ تُنَرَّقُواْ أَنفُسَكُمْ ۖ [النَّجْم. ٢٧] قال ابن جريج: معناه إذا عملت خيراً فلا تقلَّ: عملت. وقال زيد بن أسلم: لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله ﷺ يوم أُحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه، فكأنه أعجبه فعله العظيم؛ إذ فداه بروحه حتى جرح، فتفرس ذلك عمر فيه فقال: ما زال يعرف في طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله ﷺ (٢). والنأو: هو العجب ـ في اللغة ـ إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلمًا، ولما كان وقت الشوري قال له ابن عباس: أين أنت من طلحة؟ قال: ذلك رجل فيه نخوة. فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟ وقال مطرف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليَّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً. وقال ﷺ: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخِشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ آكْبَرُ مِنْ ذَٰلِكَ العُجْبُ المُجْبُ،^{٣)}، فجعل العجب أكبر الذنوب. وكان بشر بن منصور من الذين إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى والدار الآخرة؛ لمواظبته على العبادة، فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف عن الصلاة قال له: لا يعجبنك ما رأيت مني، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدَّة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه. وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن، وقد قال تعالى: ﴿لَا لَبُطِلُواْ صَدَقَانِيَّكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البَنْزَة: ٢٦٤] والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب. فظهر بهذا أن العجب مذموم جدّاً.

بيان آفة العجب:

اعلم: أنّ آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه ـ كما ذكرناه ـ فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى، هذا مع العباد، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق

 ⁽١) حدیث أبي ثعلبة: «إذا رأیت شحاً مطاعاً وهوی متبماً وإصحاب كل ذي رأي بوآیه قعلیك نفسك»، أخرجه أبو داود
 والترمذي وحسنه وابن ماجه، وقد تقدم،

 ⁽۲) حديث: «وقى طلحة رسول الله ﷺ بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه» أخرجه البخاري من رواية قيس بن أبي
 حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبق ﷺ

⁽٣) حديث: قلو لم تلقبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب؛ أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبي الصهباء. قال البخاري: منكر الحديث. وقال أحمد: حسن الحديث، ورواه أبو مصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً.

والتمكين منها، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائماً فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والمخوف دون العجب، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظن أنه عند الله بمكان، وأنّ له عند الله منة وحقاً بأعماله التي هي نعمة وعطية من عطاياه، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال؛ فيستبد بنفسه ورأيه، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه، ولا يسمع نصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر دنيوي فيحقق فيه، وإن كان في أمر دنيو بعين الاستجهال ويصر على مدارسة العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة لكان واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة لكان واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة لكان في السعي لظنه أنه قد فاز، وأنه قد استغنى، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما:

اهلم: أنَّ العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان.

إحداهما: أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكذَّره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب.

والأخرى: أن لا يكون خائفاً من زواله، لكن يكون فرحاً به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضاً ليس بمعجب.

وله حالة فالله: هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه به من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنه له، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما علب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه. فإذن: العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقاً، وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه ستبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً، فإن استخدمه أو اقترح عليه دالة، وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً، فإن استخدمه أو اقترح عليه دالمة، وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً، فإن استخدمه أو اقترح عليه دالمة،

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا نَتُنُن تَسَكَّكِرُ ﴿ المَدِّلَ : ٢] أي لا تدل بعملك، وفي الخبر: ﴿إِنّ صلاة المعدل لا ترفع فوق رأسه، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك (١٠)، والإدلال وراء العجب. فلا مدل إلا وهو معجب، ورب معجب لا يدل؛ إذ العجب يحصل

⁽١) حديث: فإن صلاة المدل لا ترقع فوق رأسه. . . • الحديث. لم أجد له أصلاً.

بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله، لأنه لا يعجب من رد دعاء الفاسق، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك، فهذا هو العجب والإدلال، وهو من مقدّمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم: أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضدّه، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوّة والنسب، وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه.

فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب، إنما يعجب به من حيث إنه فيه، فهو محله ومجراه، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوّته؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل؛ لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل ويقدرته تم، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله أنها من أين كانت له؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلمي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله؛ إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة، فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لحماله ولا لخدمة، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولا ينبغي أن يعجب بنفسه. نعم، يجوز أن يعجب العبد فيقول: الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب، فلولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها، فيقال: وتلك الصفة أيضاً هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك، من غير وسيلة، أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها، بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجب به. فأعطاك خلاماً فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلاماً لأني صاحب فرس، فأما غيري فلا فرس له، فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يُعطيك الفرسُ والغلام معاً، أو يعطيك أحدهما بعد الآخر! فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك. وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة، وهذا يتصوّر في حق الملوك، ولا يتصوّر في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبى له، فيقال: ومن خلق الحب في قليك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك؛ إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك، وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك! فإذاً: لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه، وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه؛ لأن كل ذلك من فضل الله، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضاً من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي وإني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثواباً، ولولا أنها عملي

لما انتظرت ثواباً، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرته فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين:

أحلهما: هو صريح الحق.

والآخر: فيه مسامحة.

أما صريح الحق: فهو أنك وقدرتك وإرادتك وجوكتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما عملت إذ عملت وما صليت إذ صليت: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِرَ ﴾ الله رَعَلْ الله وخلق الله الله الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من إبصار العين، بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدأ باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا أنه خلقه على ترتيب، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق القلب الذي هو محل إرادة، ولم يخلق الدوكة على أنك أوجدت عملك وقد غلطت. وإيضاح العلم، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك وقد غلطت. وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله؛ سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه.

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة ما، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وسائر أسباب عملك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات، ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة.

أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها، فمددت يدك وأخذتها، كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مدّ اليد وأخذها؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن، لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح. فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكُل بك فالعمل هين عليك، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله، ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكنك من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث المخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك، ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله، وأبعد العاصي وأشقاه بعدله، فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك! فإذن: لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرّك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً، فله الشكر والمنة لا لك - وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه .. والعجب معن يتعجب . إذا رزقه الله عقلاً وأفقره . معن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل، وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل البجاهل؟ حتى يكاد يرى هذا ظلماً، ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال؛ إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب، لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما، فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما؟ وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

والعجب: أنَّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالاً من نفسه، ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضاً عن عقلك وفقرك لامتنع عنه! فإذن : ذلك بدل على أنَّ نعمة الله عليه أكبر؛ فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الدميمة القبيحة فتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح؟ ولا تدري المغرورة أنَّ الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبع مع الغنى لآثرت الجمال؟ فإذن: نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه: يا رب، لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول: أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب الفرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس، فهب أني ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأنَّ العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدَّأه بها قبل الاستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال، ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. ومن عرف هذا لم يتصوّر أنَّ يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أنَّ ذلك من الله تعالى، ولذلك قال داود عليه السلام: يا رب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود صائم ـ وفي رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك؛ إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك ـ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ومن أين لهم ذلك؟ إنَّ ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوني إياك ما قويت، وسأكلك إلى نفسك، قال ابن عباس: إنما أصاب داود ما أصاب من الذُّنب بعجيه بعمَّله؛ إذْ أضافه إلى آل داود مدلاً به حتى وكل إلى نفسه، فأذنب ذنباً أورثه الحزن والندم. وقال داود: يا رب، إنَّ بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: إني ابتليتهم فصبروا، فقال: يا رب، وأنا إن ابتليتني صبرت، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى: فإني لم أخبرهم بأي شيء أبتلبهم ولا في أي شهر ولا في أي يوم، وأنا مخبرك في سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك، فوقع فيما وقع فيه. وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين على قوّتهم وكثرتهم، ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا، لا نغلب اليوم من قلة(١) وكُلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُسَيْنٌ إِذْ أَعْجَبَنْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ ثَغْنِ عَنكُمْ شَيْكًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمُ مُّدْيِرِينَ﴾ [الثوبَة: ٧٥]. روى ابن عبينة أن أيوب عليه السلام قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد

⁽١) حديث: القولهم يوم حنين لا نقلب اليوم من قلة . . . ٤ أخرجه البيهةي في دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلاً: أن رجلاً قال يوم حنين لن نقلب اليوم من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٌ إِذَا أَعْبَسَتُمْ كُنْرُوعُهُ ﴾ [التونة: ٣٥]، ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس: اللما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا: اليوم نقاتل؛ ففروا فيه الفرح بن فضالة ضعفه الجمهور.

على أمر إلا آثرت هواك على هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب، أنّى لك ذلك؛ أي من أين لك ذلك؟ قال: فأخذ رماداً ووضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب، فرجع من نسياته إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نَشَلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَسُمْتُهُ مَا زَكَ مِنكُم مِن أَحد يتجيه عمله قالوا: ولا أَنا اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَيْكُمْ وَاللهُ وَقَلْ اللهِ عَلَيْكُمْ وَوَاللهُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَقَلْ اللهِ عَلَيْكُمْ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ اللهِ عَلَيْكُمْ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ وَاللهُ وَقَلْ وَاللهُ وَقَلْ وَاللهُ وَقَلْ وَاللهُ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ وَاللهُ وَقَلْ اللهُ اللهُ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ وَقَلْ اللهُ وَقَلْ وَقُلْ وَقُل

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

اعلم: أنّ العجب بالأسباب التي بها يتكبر ـ كما ذكرناه ـ، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله، فما به العجب ثمانية أقسام:

الأوّل: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته، وصحته وقوّته، وتناسب أشكاله وحسن صورته، وحسن صورته، وحسن صورته، وحسن صورته، وحسن صوته، وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى، وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال؛ وهو التفكر في أقذار باطنه وفي أوّل أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوّة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا _ فيما أخبر الله عنهم _: ﴿ أَشَدُّ مِنّا قُوّةٌ ﴾ [فُصَلَت: 10] وكما اتكل عوج على قوّته وأعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه، وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما روي عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل إن شاء الله تعالى، فحرم ما أراد من الولد (٢)، وكذلك قول داود عليه السلام: إن ابتليتني صبرت، وكان إعجاباً منه بالقوة، فلما ابتلي بالمرأة لم يصبر، ويورث العجب بالقوة: الهجوم في الحروب، وإلقاء النفس في التهلكة، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه، وهو أن يعلم أنّ حتى يوم تضعف قوته! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل، واستحقاراً لهم وإهانة، وعلاجه: أن يشكر الله تعالى

⁽١) حديث: هما منكم من أحد ينجيه عمله. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

٣١) حديث: قال سليمان: الأطوفن الليلة بمائة امرأة. . . ؛ الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس منهم؟ من علم الله تعالى؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري. فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير، ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجباً.

الرابع: العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية، حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آباته وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه: أن يعلم أنه مهما خالف آباء، في أمعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب، بل الخوف والإزدراء على النفس، واستعظام الخلق ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَنَا أَبُّمَا النَّاسُ إِنَّا حَلَقَنَكُمْ مِن ذَكِّرٍ وَأَنْقَ ﴾ [المُجرَات: ١٣] أي لا تفاوتٍ في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكر فائدة النسب ُفقال: ﴿ وَجَمَلْنَكُمْ شُعُومًا وَقَبَآبِلَ لِتَعَارَقُوا ﴾ [المُعجزات: ١٣] ثم بيَّن أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَّكُمْ عِندَ اللَّهِ أَنْفَنكُمُّ ۗ [الحُجرَات: ١٣] ولما قيل لرسول الله ﷺ: من أكرِم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل: من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: ﴿أَكُوَّمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكُوأَ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداًه (١)، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة: فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة؟ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ آكَرُمُكُرْ عِندَ ٱللَّهِ أَنْقَدَكُمْ ۗ [الحُجرَات: ١٣] وقال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ حَنْكُمْ عَبْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ۦ أَيْ كِبْرَهَا _ كُلِّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ ثَرَابٍ (٢٠) وقال النبيُّ ﷺ: ﴿يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ لا يَأْتِي النَّاسُ بِالأَحْمَالِ يَوْمَ القِبِامَةِ وَوَأَتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَها عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ فَأَقُولُ لَمَكَلَّا ـ أَيْ أُعْرِضُ عَنْكُمْ ﴾ (٣)، فبَيِّن أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لُم ينفعهم نسب قريش. ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرُ عَشِيرَتَكُ ٱلْأَقْرَبِي ١٤ ﴿ السُّمَرَاء: ٢١٤] ناداهم بطِناً بعد بطَّن، حبِّى قال: ﴿ إِنَّا قَاطِمَةُ بِنْتَ مُحِمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ حَبْدِ المُطَّلِبِ عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ اصْمَلا لْأَنْفُسِكُمَا فَإِنِّي لا أُفْنِي حَنْكُمَا مِنَ الله شَيئاًه (1)، فمن عرف

 ⁽١) حديث: لما قيل له: من أكرم الناس من أكيس الناس؟ قال: «أكثرهم فلموت ذكراً...» الحديث. أخرجه ابن ماجه
من حديث ابن عمر دون قوله: «وأكرم الناس» وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب.

 ⁽۲) حديث: (إن الله قد أذهب عتكم عبية الجاهلية...) الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي
 هريرة، ورواه الترمذي أيضاً من حديث ابن عمر وقال: غريب.

 ⁽٣) حديث: «يا معشر قريش لا يأتي الناس بالأصال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم . . . » الحديث .
 أخرجه الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال: «يا معشر بني هاشم» وسنده ضميف.

⁽٤) حديث لما نزّل قوله تعالى: ﴿ وَأَلِدُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِكِ ﴿ وَالشَّعَرَاء: ٢١٤] ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال:
﴿ ﴿ فَاطَمَةُ بِنُتُ مَحْمَدُ بِا صَفْيَةً بِنُتُ هَبِدَالْمَطْلُبِ. . . ﴾ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عائشة.
حديث عائشة.

هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والنواضع، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه ـ بلسان حاله ـ مهما انتمى إليهم، ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

فَإِنْ قِلْتَ: فَقَدَ قَالَ ﷺ بعد قُولُه لَفَاطُمَةً وَصَفَيَةً: "إِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكُمًا مِنَ الله شَيِئاً إلاَّ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُها بِبِلالِها؛ (١)، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "اَأَتَرْجُو سُلَيْمٌ شَفَاعَتِي وَلا يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ المُطْلِب (٢٠)، فذلك بدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة؟ فاعلم: أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله ﷺ، والنسيب أيضاً جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه، فإنه إن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة، كالذنوب عند ملوك الدنيا، فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتذَّ عليه غضب الملك، فمن الذَّنوب ما لا تنجي منه الشفاعة، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِسَ ٱرْتَصَٰىٰ﴾ [الانبياء: ٢٨] ويقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندُهُۥ إِلَّا بِإِذْنِيرٌۥ﴾ [المبتقرَّة: ٥٥٥] ويسقسول ه: ﴿وَلَا نَنْفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنَّ أَدِتَ لَأَمَّ﴾ [تسبّسا: ١٣] ويسقسول ه: ﴿فَنَا تَعَمَّهُمْ شَفَيَّةُ اَشَنِمِينَ ۞﴾ [المدَّثُر: ٤٨]، وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه؛ وجب الخوف والإشفاق لا محالة، ولو كان ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة، ولما نهى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها عن المعصية، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة. فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالاً على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره، وذلك جهل؛ لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها، فلا يحوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرّد الطب، بل للطبيب أثر على الجملة؛ ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج. فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعاً، وذلك لا يزيل الخوف والحذر، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ أصحابه، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم، وصفاء قلوبهم، وما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة خاصة، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة، ولم يتكلوا عليه، ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم؟

المخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل، وعلاجه: أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله، وأنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقدارهم لاستنكف منهم، ولتبرأ من الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقدارهم لاستكف منهم، وللمناب إليهم، ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً واستحقاراً لهم، ولو انكشف له ذلهم في القيامة

 ⁽١) حديث: قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية: الا إن لكما رحماً سأيلها ببلالها، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: فغير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها،

حديث: «أثرجو سليم شفاعتي ولا ترجوها بنو حبد المطلب». أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن جعفر، وفيه أصيرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جداً.

وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد؛ لتبرأ إلى الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة ـ إن عصمهم الله من ظلمهم ـ أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، قأما العجب فجهل محض.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع، كما قال الكفار: ﴿ فَتَنُ أَحَلُ أَتُولًا وَأَوْلَدًا ﴾ [سَيَا ١٥٥] وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم من قلة، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر؛ وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً. و﴿ حَمَم مِن فِئَة قَلِيلَة عَبَتَ فِئَة حَيْبَة أَبِلاً مهينا اللّه البنقرة: ١٤٤٩)، ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهينا وحده، لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير، فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئاً، وفي أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة: وقرم مَن أَنْدَه أَنِي فَي وَلَي وَلِي وَلَي وَمَن مِن والعيان عنه من يملك نفعك وضرك يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط وموتك وفضل الله تعالى؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وحواتك؟

السابع: العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجتيس إذ قال: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَنُ الله عنه وجمع ثيابه، فقال نفرا ﴾ [الكهف: ٣٤] ورأى رسول الله على رجعاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه، فقال عليه السلام: «أخشِيت أنْ يَعْدُو إِلَيْكَ فَقْرُهُ (١) ، وذلك للمجب بالغنى، وعلاجه: أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة، وإلى أن المال غاد وراتح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «بَيْنَمَا رَجُلُ يَتَبْخَتَرُ فِي حلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَقْسُهُ إِذْ أَمَرَ الله الأَرْضَ فَأَخَذَهُ فَهُو يَتَجَلْجَلُ فِيها إلى والسلام: «بَيْنَمَا رَجُلُ يَتَبْخَتَرُ فِي حلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَقْسُهُ إِذْ أَمَرَ الله الأَرْضَ فَأَخَذَهُ فَهُو يَتَجَلْجَلُ فِيها إلى والسلام: «بَيْنَمَا رَجُلُ يَتَبْخَتَرُ فِي حلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَقْسُهُ إِذْ أَمَرَ الله الأَرْضَ فَأَخَذَهُ فَهُو يَتَجَلْجَلُ فِيها إلى المسجد فقال لي: «يَا أَبَا ذَرٌ الله عقوبة إعجابه بماله ونفسه، وقال أبو ذرّ، كنت مع رسول الله عقوبة المسجد فقال لي: «يَا أَبَا ذَرٌ هٰذَا رجل عليه ثباب جلقة فقال لي: «يَا أَبَا ذَرٌ هٰذَا الله خَيْرُ مِنْ قِرَابِ الأَرْضَ مِثْلُ هٰذَاهُ الله عَلَى المنا و كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى، فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بشروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام محقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره خوف من تقصيره في القيام محقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار، فكيف يعجب بماله؟

الثامن: العجب بالرأي الخطأ. قال الله تعالى: ﴿ أَفَنَنَ زُيِّنَ لَمُ سُوَّةً عَسَلِهِ. فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨] وقال

⁽١) حديث: ﴿ وَأَى النَّبِي ﷺ رَجَلاً غَنياً جَلَسَ لَجِنْبِهِ فَقَيْرٍ فَانْقَبْضَ مَنْهُ . . . ﴾ الحديث. رواه أحمد في الزهد.

 ⁽٧) حديث: (بينما رجل في حلة قد أعجبته نفسه. . . ٤ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث أبي در: «كنت مع النبي على فلدخل المسجد فقال لي: «يا أبا ذر ارفع رأسك» فرفعت رأسي . . » الحديث .
 وفيه: «هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا». أخرجه ابن حبان في صحيحه.

تعالى: ﴿وَمُمْ يَغْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُعْسِنُونَ صُنْفًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وقد أخبر رسول الله ﷺ أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة^(١)، وبذلك هلكت الأمم السالفة؛ إذ افترقت فرقاً، فكلُّ معجب برأيه: و﴿ كُلُّ حِزْبِ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرَجُودَ﴾ [المزمنون: ٥٣] وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآراثهم، والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشَّهوة مع ظنَّ كونه حقاً، وعلاج هذا العجب أشدُّ من علاج غيره؛ لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف، فتعسر مداواته جداً. لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجباً برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، فقد سلَّط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه، وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة: أن يكون متهماً لرأيه أبداً، لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشمر في الطلب، وممارسة للكتاب والسنة، ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره في العلم: أن لا يخوض في المذاهب ولا يصغى إليها ولا يسمعها، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه: ﴿ لَيْسَ كُينْلِهِۦ شَيَّةٌ وَهُوَ ٱلسَّيهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١] وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنَّة السلف، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل، بل يقول: آمنا وصدِّقنا، ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات، والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر. هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأول مهم له: معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكبر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى، وهو عزيز الوجود جداً، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال، ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد شه وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



 ⁽۱) حدیث: «أنه یغلب علی آخر هذه الأمة الإهجاب بالرأی» هو حدیث أبی تعلـة المتقدم: •فإذا رأیت شحاً مطاعاً وهوی متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأیه فعلیك بخاصة نفسك» وهو عند أبي داود والترمذي.

ينسم ألمَّر النَّخَيِبِ النِّكِيبِ إِ

کتاب ذم الفرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور، مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور، ومورد أعدائه ورطات الغرور، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور، صلاة نتوالى على ممر الدهور، ومكر الساعات والشهور.

أما بعد: فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم: وكَيْشُكُورْ فِيهَا مِصَبَاحٌ الْمِصَاحُ فِي نُبِّاجَةٌ النَّبِاجَةُ كَأَمًا كَوْبُكُ دُرِيَّ بُوفَدُ مِن شَجَرَةِ بُنَدَكَةِ رَبُونَهُ لَا شَرَقِيْةِ وَلا فَيَامِنُ اللَّمِنَةُ وَلَا لَمُ اللَّمُ اللَم

ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور، الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء، وفرق المغترين كثيرة، ولكن يجمعهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: من العلماء.

الصنف الثاني: من العباد.

الصنف الثالث: من المتصوفة.

الصنف الرابع: من أرباب الأموال. والمغتر من كل صنف قرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المسجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى؛ كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك

الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر؟ كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف، إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة. ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء، ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحده.

بيان ذم الغرور وحقيقته وامثلته:

المثال الأول: خرور الكفار، فمنهم من خرّته الحياة الدنيا ومنهم من غرّه بالله الغرور، أما الذين غرّتهم الحياة الدنيا: فهم الذين قالوا: النقد خير من النسبثة، والدنيا نقد والآخرة نسبثة، فهي إذن خير فلا بد من إيثارها، وقالوا: اليقين خير من الشك، ولذّات الدنيا يقين ولذّات الآخرة شك، فلا نترك اليقين بالشك. وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنَهُ خَلَقْنَيْ مِن نَارٍ وَمَلْقَتَهُ مِن طِيرٍ المُعراف: ١٦] وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوْلَتِكَ اللّهِينَ الْشَيْوَا الْمَهَوَةُ الدُّنِيَا بِالآخِرَةُ فَلا يُعَقَّفُ عَلَهُمُ اللّهُ اللهُ مَن لا يُعرَفُن فَلا يُعَمِّدُون اللهُ والمنان وإما بالبرهان؛ أما المَصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ رَمًا عِندَ أَنَهُ بَاقِ التحل: ١٩] وفي قوله عزّ وجلٌ: ﴿وَالْإَغِرَةُ خَيْرٌ وَالْهِنَى اللهِ اللهِ الاعلى: ١٤]

كتاب ذم الغرور

حديث: احيدًا توم الأكياس وقطرهم. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه وقيه انقطاع، وفي بعض الروايات: أبي الورد، موضع أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً.

⁽Y) حديث: «الكيس من دان تفسه وصمل لما بعد الموت. . . ٢ الحديث. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.

وقعوله: ﴿ وَمَا اَلْحَيَوْةُ الدُّنِيَا ۚ إِلَّا مَتَنَعُ الْفُرُورِ ﴾ [آل عِسمرَان: ١٨٥] وقعوله: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَكُمُ اَلْحَيَوْةُ الدُّنِيَ ﴾ [لقمَان: ٢٣] وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدَّقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان (١) ، ومنهم من قال: نشدتك الله أبعثك الله رسولاً ؟ فكان يقول: «نَعَمُ الله فيصدق (٣) ، وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور، وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور المكتب خير من حضور المكتب خير من

وأما المعرفة بالبيان والبرهان: فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان، فإن كل مغرور فلغروره سبب، وذلك السبب هو دليل، وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه، وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء. فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان.

أحدهما: أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح.

والآخر: قوله: إن النقد خير من النسبة، وهذا محل التلبيس فليس الأمر كذلك، بل إن كان النقد مثل النسبئة في المقدار والمقصود فهو خير، وإن كان أقل منها فالنسبئة خير، فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسبئة، ولا يقول النقد خير من النسبئة فلا أتركه، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل؛ فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة. والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة. فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حذ، وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة، فإذن قد غلط في قوله: النقد خير من النسيئة، فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص، فغفل به المغرور عن خصوص معناه. فإن من قال: النقد خير من النسيئة، أراد به خيراً من نسيئة هي مثله ـ وإن لم يصرح به ـ.

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو: أن اليقين خير من الشك إذا والآخرة شك، وهذا القياس أكثر فساداً من الأول لأن كلا أصليه باطل؛ إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله، وإلا فالتاجر في تعبه على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك، والمتفقه في جهاده على يقين وفي إدراكه رتبة العلم على شك، والصياد في تردده في المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك، وكذا الحزم دأب العقلاء

⁽١) حديث: التصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله ﷺ وإيمانهم من عير مطالبة بالبرهان هو مشهور في السن، من ذلك قصة إسلام الأنصار وبيعتهم، وهي عند أحمد من حديث جابر وفيه: حتى بعشا الله إليه من يشرب فآوياه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه...» الحديث، وهو عند أحمد بإسناد جيد.

⁽٣) حديث: قول من قال له: نشدتك الله أبعثك رسولا؟ فيقول: «نعم» فيصدق. متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة، وقوله للنبي ﷺ: آلله أرسلك للناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم» وفي آخره: فقال الرجل: آمنت بما حثت به، وللطبراني من حديث ابن عباس في ضمام قال: نشدتك به أهو أرسلك بما أثننا كشك وأثننا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى؟ قال: «نعم» الحديث.

بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك، ولكن التاجر يقول: إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضرري، وإن التجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً، وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت، فكذلك من شك في الآخرة قواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذباً؛ فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي، وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم، فأحسب أني بقيت في العدم، وإن كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق. ولهذا قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين: إن كان ما قلته حقاً فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكت؛ وما قال هذا عن شك منه في الآخرة، ولكن كلم الملحد على قدر عقله، وبين له أنه وإن لم يكن متيقناً فهو مغرور.

وأما الأصل الثاني من كلامه: وهو أن الآخرة شك، فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان.

أحدهما: الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك أيضاً يزيل الغرور، وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني، فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم، ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به، ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك، وهو يعلم بالتواثر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب، فيعلم كذبه بقولهم، ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمهم بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً معروراً، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها، والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يتربل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغني الذي استرقته الشهوات لا يشكك يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغني الذي استرقته الشهوات لا يشكك يستحث على العمل لا محالة، والغرور يزول به.

وأما المدرك الثاني لمعرفة الأخرة: فهو الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء، ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه، كما أن معرفتك تقليد للنبي على حتى تكون معرفتك مثل معرفته، وإنما يختلف المقلد فقط وهيهات! فإنّ التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح، والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد. وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى، وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذي يقابل النهي، لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام، وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق، ولله الخلق والأمر، فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الأمر الخلق؛ إذ

التخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان، وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر، وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسرً القدر الذي منع من إفشائه، فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريب، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته، وذلك العارض الغريب ورد على آدم في وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته، فإنها في جوار الرب تعالى، وأنه أمر رباني وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم رباني وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه. ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له: ﴿ وَلَا نَكُونُوا وَلَا الله ومناه الله ومناه الله المناه الفطري. وهذه إشارة إلى ومنانة استحقاقهم. يقال: فسقت الرطبة عن كمامها؛ إذا خرجت عن معدنها الفطري. وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون، وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون، فإنها تضر بهم كما تضر رياح الورد بالجعل، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش. وانفتاح هذا الباب من سر رياح الورد بالجعل، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش. وانفتاح هذا الباب من سر وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء.

ولنرجع إلى الغرض المطلوب، فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي، وإما بيصيرة ومشاهلة من جهة الباطن، والمؤمنون بألسنتهم ويعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور؛ لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، نعم، أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين، ولكنهم أيضاً من المغرورين، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة غير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز قال تعالى: ﴿وَإِنِي لَنَفَّارٌ لِنَن تَانَ وَمَامَن ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز قال تعالى: ﴿وَالْمَسْرِي اللهُ وَالْمَافِ اللهُ وَمَامَن مُم قال النبي اللهُ والمحسان أن تعبد الله كأنك تراه (١٠)، وقال تعالى: ﴿وَالْمَسْرِ اللهُ الْإِيمَانُ والعمل الصالح جميعاً لا بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضاً مغرورون؛ أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها، المترفين بنعيمها المحبين لها، الكارهين للموت خيفة فوات أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها، المترفين بنعيمها المحبين لها، الكارهين للموت خيفة فوات الذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده، فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعاً.

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله: فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبالسنتهم: إنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا، ونحن أوفر حظاً فيه وأسعد حالاً، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال: ﴿وَمَاۤ أَظُنُّ اَلشَاعَةَ فَآيِمةً وَلَهِن رُدِدتُ إِلَى لَهُ لَهُ اللهُ عَنه اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَنه اللهُ اللهُ اللهُ منهما بنى قصراً بألف دينار، وتزوّج امرأة على ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول: الستريت قصراً في الجنة لا يفنى!

 ⁽١) حديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه منفق عليه من حديث ابن عمر، وقد تقدم.

واشتريت بستاناً يخرب ويفني، ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفني، وخدماً لا يفنون ولا يموتون، وزوجة من الحور العين لا تموت! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول: ما هناك شيء، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب! وإن كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا. وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول: ﴿ لَأُونَيْكَ مَالاً وَوَلِدًا ﴾ [مريم: ٧٧] فقال الله تعالى رداً عليه: ﴿ أَطَّلَمُ الْمَبْبُ أَمِ اَتَّقَدُ عِندَ الرَّحْنَيٰ عَلَمُ اللهُ عَلَى العاص بن وائل عَلَى العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت: إني آخذه في الآخرة؛ فقال لي: إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالاً وولداً أقضيك منه. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ أَفَرَهَ يَتَ الذِي حَفَرَ بِعَائِمَنَا وَقَالَ لَأُوتَكُ مَالاً وَلِلاً اللهُ وَلَا اللهُ تعالى قوله: ﴿ أَفَرَهَ يَتَ الذِي حَفَرَ بِعَائِمَةَ لَيُقُولَنَ هَذَا لِي وَمَا أَشَٰنَ اللهُ وَلَا اللهُ تعالى: ﴿ وَلَهِنَّ اللّهِ مَنْ العَرور بالله .

وسببه: قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي آلفُسِمِ لَوَلا بِعَدْبُكُ اللهُ بِمَا يَقُولُ المجادلة: ٨] فقال تعالى جواباً لقولهم: ﴿حَسَّبُهُمُ حَهَنَمُ بَصَلَوْبَا فَيْهُم الله عَلَي جواباً لقولهم: ﴿حَسَّبُهُمُ حَهَنَمُ بَصَلَوْبَا فَيْهِم فقراء شعث غبر؛ فيزدرون بهم ويستحقرونهم، فيقولون: ﴿ لَوَ كَانَ خَيْلَ مَا ويستحقرونهم، فيقولون: ﴿ لَوَ كَانَ خَيْلَ مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١] وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم النها، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضاً في المستقبل، كما قال الشاعر:

لتقد أحسسن الله فسيسمنا منضبى كنذلنك يتحسسن فسيتمنا بنقسي

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول: لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلي. والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب، لا بل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة، بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان. ومثاله: أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الأخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب، ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب، ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه، والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد؛ فيلعب ولا يدخل المكتب، ويأكل كل ما يشتهي، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم؛ لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنعه ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله، «فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه النه عمد الخبر عن سيد البشر.

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، ورأوا ذلك علامة المقت

 ⁽١) حديث خباب بن الأرت: قال: كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه. . . • الحديث. في نؤول قوله تعالى: ﴿أَفَرَيْتُ اللَّهِ عَكُمْرُ بَالِيْنَا﴾ [مرتبم: ٧٧] الآية. أخرجه البخاري ومسلم.

 ⁽۲) حديث: (إن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه... الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان.

والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظنّ أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْلَكَهُ رَبُّهُ مَأْكُرُمُهُ وَنَصَّمُمُ فَيُغُولُ رَئِت أَكْرَبَنِ ﴿ وَأَمَّا ۚ إِذَا مَا آَيْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُمْ فَيَقُولُ رَقِي أَهَسَنِ ﴿ ﴾ [الفحر: ١٠-١٦] فأجاب الله عن ذلك: ﴿كُلَّا ﴾ [الفجر: ١٧] أي ليس كما قال إنما هو ابتلاع نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت، فبيّن أنّ ذلك غرور. قال الحسن: كذبهما جميعاً بقوله: ﴿ كُلُّا ﴾ [الفجر: ١٧] يقول: ليس هذا بإكرامي ولا هذا بهواني، ولكنّ الكريم من أكرمته بطاعتي غنياً كان أو فقيراً، والمهان من أهنته بمعصيتي غنياً كان أو فُقيراً.

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد.

إحياء عُلوم الدّين

أما البصيرة: فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعد عن الله، ووجه كون التباعد عنها مقرّباً إلى الله، ويدرك ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة.

وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق: فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدّق رسوله، وقد قال تعالى: ﴿ أَيَضَبُونَ أَنْمَا شِيْدُمُ بِهِ. مِن مَالٍ وَيَدِينُ ﴿ ثَمَارِعُ لَمُتُمْ فِي ٱلْمَيْرِيْنُ بَل لَا يَتَمُرُنَ ۞ ﴿ السومنون: ٥٦،٥٠] وقـال تـعـالـى: ﴿مُنَنَّدُوبُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَمْلَمُونَ ﴾ [الاعـرَاف: ١٨٢] وقـال تـعـالـى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَبَ كُلُو شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَهُم بَعْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِشُونَ﴾ [الأنمام: ٤٤] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿سَنَسْتُدُرِجُهُم مِّنَّ حَيْثُ لَا يَمْلَمُونَ﴾ [الأعرَاف: ١٨٢] أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى: ﴿إِنَّنَا نُمْلِي لَمُتِمْ لِيَزْدَادُوٓا إِفْسَتُأَ﴾ [آل جِمرَانُ: ٢٧٨]وقال تعالى: ﴿وَلَا نَحْسُبَكَ ٱللَّهَ غَنِفِلًا عَمَّا يُعْسَلُ ٱلظَّالِلُمُونَّ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيُوْمِ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَنْصَنْرُ ۞﴾ [إبراهيم: ٤٣] إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور، فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداءً ثم دمرهم تدميراً فقال تعالى: ﴿ مَلَ يَجِسُ مِنْهُم مِنْ أَسَدِ ﴾ [مريّم: ٩٨] الآية، وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال: ﴿ لَا يَأْمَنُ مَحَكَرَ اللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَسِرُونَ ﴾ [الأعرَاف: ٩٩] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَحَكًا وَمَكَرَّنَا مَحَكُرًا وَقُتُمْ لَا يَنْفُرُونَ ۖ ۚ ۗ [النَّسل: ••) وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَكَدُواْ وَمَكَدُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَنكِرِينَ ۞﴾ [ال عِمرَان: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَكِدُن كَبْدًا ۞ وَآكِدُ كَنْنَا ١ فَهُولِ ٱلْكَفِرِينَ أَمُولَهُمْ رُوَيًّا ١٠ ﴿ الطَّارِقِ: ١٥-١٧] فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكراً منه وكيداً مع أنَّ السيد لم يحذره مكر نفسه، فبأن يحب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى، فإذن: من أمن مكر الله فهو مغتر، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديّق بدلالته على الكرامة، وهذا هو حدّ الغرور.

المثال الثاني: غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه، واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وطنهم أنّ الرجاء مقام محمود في الدين، وأنَّ نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم، وأين معاصى العباد في بحار رحمته وإنَّا موحدون ومؤمنون؟ فنرجوه بوسيلة الإيمان. وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم، كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وظنهم أنهم أكرم على الله من آباتهم؛ إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خاتفين، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون. وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى. فقياس الشيطان للعلوية؛ أنّ من أحب إنسانا أحب أولاده، وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة، وينسى المغرور أنّ نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المغرقين: ﴿فَقَالَ رَبِ إِنَّ آبِنِي مِنْ أَهْلِ﴾ [مُود: 53] فنال تعالى: ﴿يَكُونُ إِنَّهُ لِنَسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلُ عَبُرُ صَلِيهُ المُود: 53] وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه. وأن نبينا صلى الله عليه وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار، فجلس يبكي على قبر أمه لوقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله (١)، فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى، وهذا لأن الله تعالى يحب المطبع ويبغض العاصي، أبكى من حوله (١)، فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى، وهذا لأن الله تعالى يحب المطبع ويبغض العاصي، فكما أنه لا يبغض الأب المطبع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطبع، ولو كان الحب يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أبيه ويروى بشرب أبيه. ويصير عالما أخرى. ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه. ويصير عالما نعلم، أبيه، ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه. فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئا وكذا العكس، وعند الله جزاء التقوى ﴿ يَرْمَ يَرِزُ لَنِهِ ﴿ وَلَيْهِ وَلَهِ عَنِ فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئا سبيل الشفاعة لمن لم يشتذ غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له . كما سبق في كتاب الكبر والعجب ...

قإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة والفجار: إن الله كريم وإنَّا نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب؟ فاعلم: أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما الخدعت به القلوب، ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «الكّيشُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ تَقْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَثَّى عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ وهذا هو التمنّي على الله تعالى، عير الشيطان اسمه فسماه: رجاء، حتى خدع به الجهال. وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَلهَدُواْ فِي سَكِيلِ اللَّهِ أُوْلَتَهِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهُ [البَّمَزَة: ٢١٨] يعني أنَّ الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أنَّ ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال الله تعالى: ﴿جَزَّةٌ بِمَا كَانُواْ بِعَمْلُونَ﴾ [السَّجذ: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا نُوَقَّوَكَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيكُمَةً﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥] أفترى أنَّ من استؤجر على إصلاح أوان وشرط له أجرة عليها، وكان الشَّارطُ كريماً يفي بالرعد مهما وعد ولا يخلف، بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر، ويزعم أنَ المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرّة. قيل للحسن: قوم يقولون: نرجو الله ويضيعون العمل، فقال: هيهات هيهات، تلك أمانيهم يترجحون فيها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه. وقال مسلم بن يسار: لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي! فقال له رجل: إنَّا لنرجو الله! فقال مسلم: هيهات هيهات؟ من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه. وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم ينكح، أو نكح ولم يحامع، أو جامع ولم ينزل فهو معتوه، فكذلك من رجا رحمة الله

ديث، أنه ﷺ استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار. . . الحديث ا أخرجه مسلم من حديث أبي هويرة.

 ⁽٢) حديث: فالكيس من دان نفسه. تقدم قرياً.

إحياء عُلُوم الدّين

وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يعمل صالحاً، أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور. فكما أنه إذا نكح ووطىء وأنزل بقي متردداً في المولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد، ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى متردداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه، وأن لا يدوم علميه، وأن يختم له بالسوء، ويرجو مّن الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصى فهو كيس، ومن عدا هؤلاء فهم السمخرورُون بـالله: ﴿وَسَوْفَ يَعَلَمُونَ حِيكَ يَرُونَ ٱلْمَذَّابَ مَنْ أَضَلُّ سَيِيلًا﴾ (الـشُرفيان: ٤٢) ﴿وَلَنْعَلَشَّ نَبَأَرُ بَعْدُ حِينٍ ۞﴾ [ص: ٨٨] وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: ﴿رَبُّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِمْنَا فَأَرْمِعْنَا نَفْمَلْ صَلِيحًا إِنَّا مُؤَةِنُونَ﴾ [السُّجنَة ١٣] أي علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح؛ فارجعنا نعمل صالحًا فقد علمنا الآن صِدقك في قولك: ﴿وَإِنَ لَيْسُ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَمَن ۞ وَأَنَّ سَعْبَهُمْ سَوْفَ يُرَىٰ ۞﴾ (النجم: ٢٩، ٤٠) ﴿ كُلُمَآ أَلْقِيَ فِيهَا فَرَجٌ مَالْكُمْ خَرَيْتُهُمْ أَلَدْ يَأْتِكُو نَيْيِرٌ ﴿ فَالُوا مِنْ قَدْ جَاءَنَا نَلِيرٌ ﴾ [المثلك: ٩٠٨] أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وَأَنه: ﴿ وَتُوكَ كُلُّ فَفُسِ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [البَقْرَة: ٢٨١] وَأَن: ﴿ كُلُّ فَنْهِي بِنَا كُمِّينَةٌ ﴿ إِلَهَ الْمِدَّلُمِ: ٢٨] فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم؟ ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَشَتُعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا بِيَ أَسْمَتِ السَّعِيرِ ﴿ فَأَعْتَرَفُواْ بِذَلِيْمٌ مُسُحَّفًا لِأَصْحَبِ السِّيدِ ﴿ السَّلَكِ: ١١٠،١٠].

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟ فاعلم: أنه محمود في موضعين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنَّى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالَى؛ فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْضُرُ ٱلدُّنُوبَ جَيعًأَ [الزُّمَر: ٣٠] وأنَّ الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأنَّ النوبة طاعة تكفر الذَّنوب قال الله تعالى: ﴿قُل يَكِمَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَقُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا نَفْسَطُوا مِن رَجْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغَفِرُ اللَّذِينَ أَسْرَقُوا عَلَىٰ أَنْفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ وَآيَبِسُوًّا ۚ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزُّمر: ٣٠،٤٥] أمرهم بالإنابة، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَفَقَّالٌ لِمَن قَابَ وَمَامَنَ وَتَبِمَلَ صَرْلِحًا ثُمَّ أَهْتَدَىٰ۞﴾ [طه: ٨٣] فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان: إنك لا تدرك الجمعة، فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو، وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج، وإن استمرّ على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت، أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين؟ حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى: ﴿فَدُّ أَنْكُمَ ٱلْتُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلابِهِمْ خَنْمِعُونَ ﴾ [السومنون: ٢٠١] إلى قوله: ﴿ أَوْلَتِهَكَ هُمُ ٱلْوَرِثُونَ ﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْيَوْسَ هُمَّ فِهَا خَلِلُدُونَ ١١٠١٠ [المؤمنون: ١١،١٠] فالرجاء الأوّل: يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني: يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر، فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاءً، وكلُّ رجاء أوجبٌ فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطَّالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان: ما لك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم؟ فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرّه، وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد، مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هله سئّته في عباده وقد خوّفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتر به؟

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعى للآخرة، فذلك غرور؛ فقد أخبر ﷺ وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة(١)، وقد كان ما وعد به ﷺ، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمني وينال بالهويني فعلام إذن كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار(٢٠): فيَأْتِي عُلَى النَّاس زَمَانٌ يَخُلُقُ فِيهِ الْقُرْآنُ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ كَمَا تَخْلَقُ النَّيَابُ هَلَى الأَبْدَانِ أَمْرُهُمْ كُلَّهُ يَكُونُ طَمَعاً لا خَوْفَ مَعَهُ، إنْ أُحْسَنَ أَحَلُهُمْ قَالَ: يُتَقَبِّلُ مِنِّي، وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ: يُغْفَرُ لِي (٣٠)، فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه. ويمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى: ﴿فَطَلَفَ مِنْ بَتَدِهِمْ خَلَفْتُ وَرِثُواْ الْكِتَكِ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَنَذَا ٱلْأَدَنَى وَيَقُولُونَ سَيُغَفِّرُ لَنَا﴾ [الأعزاف: ١٦٩] ومعناه أنهم: ﴿وَرِثُواْ ٱلْكِتَبَ﴾ [الأعزاف: ١٦٩] أي هم علماء ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلَّذَٰذَىٰ﴾ [الاعزاف: ١٦٩] أي شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً. وقد قال تعالى: ﴿ وَلِمَنَّ خَافَ مَقَامَ رَقِهِ جَنَّانِ ۞ ﴾ [الرِّحلن: ٤٦] ﴿ وَلِكَ لِمَنَّ خَافَ مَقَالِي وَخَافَ وَعِيدٍ ﴾ [إمراهبم: ١٤] والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه. وترى الناس يهذونه هذّا، يخرجون الحروف من مخارجها، ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل، فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من

 ⁽١) حديث: اإن الغرور بفلب على آخر هذه الأمة، تقدم في آخر ذم الكبر والعجب، وهو حديث أبي تعلبة. في إعجاب
 كل ذي رأي برأيه.

 ⁽٢) معقل بن يسار المزني: أسلم قبل الحديبية وشهد بيعة الرضوان، هو الذي حفر نهر معقل بالبصرة بأمر عمر. نزله
 البصرة ومات بها في خلافة معاوية في أواخرها، روى عن النبي ﷺ.

 ⁽٣) حديث: معقل بن يسار: اليأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجالة الحديث. أخرجه أبو منصور
 الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحره بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل.

الحلال والحرام ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدّق به من أموال المسلمين! وهو يتكل عليه ويظنّ أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدّق بعشرة من الحرام أو الحلال، وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كُفةٍ ميزان وفي الكفة الأخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله. نعم. ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه؛ لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبّح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة، وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحة مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال: ويكون بَلْنِظُ بِن فَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَفِيتٌ عَيْدٌ ﴿ وَقَد كتبه الكرام الكاتبون، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال: ولا بأينظُ بِن فَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَفِيتٌ عَيْدٌ ﴿ وَلَا عَلْهُ مِن الكلام ما لا يضمرونه يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين، يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان. وذلك محض الغرور.

ولعمري: لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه! فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه، ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها. لقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن، وإنا نبراً إلى الله أن نكون من أهل الكفران. فسبحان من صدّنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقي ولا يغتر به اتكالاً على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى، والله أعلى، والله أعلم.

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف:

الصنف الأول: أهل العلم والمغترون منهم فرق:

ففرقة: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحقظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أنّ العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة؛ وهو العلم بالله وبصفاته، المسمى بالعادة: علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلا حذاق الأطباء، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء، وفصّل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن، ورجع إلى

بيته وهو يكرّرها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أنّ ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً؟ هيهات هيهات، لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرّره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً، إلا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته، ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شقائه، فكيف إذا لم يشربه أصلاً؟ فمهما ظن أنّ ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره.

وهكذا العقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور؛ إذ قال تعالى: ﴿قُدْ أَفْلَمَ مَن زَّكَّنَهَا ۞﴾ [الشَّمس: ٩] ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها، وكتب علم ذلك وعلمه الناس، وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرنك هذا المثال فإنّ العلم بالدواء لا يزيل المرض، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب، ويتلو عليه الأخبار الواردة مي فضل العلم. فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً وافق ذلك مراده وهواه فاطمأنّ إليه وأهمل العمل، وإن كان كيساً فيقول للشيطان: أتذكرني فضائل العالم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُمُ كَنْثُلِ ٱلْكُلْبِ﴾ [الأعرَاف: ١٧٦] وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ اَلنَّوْرَيْةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمْنَكِلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجُمْعَة: ٥] فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار؟ وقد قال ﷺ: «مَنِ ازْدَادَ جِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدَى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ الله إلاَّ بُعْداًا (١٠)، وقال أيضاً: «يُلْقَى العَالِمُ فِي النَّارِ فَتَنْذَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فِي الرَّحَى»(٢١)، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «شَرًّ النَّاس المُلَمَاءُ السُّوءُ﴾"، وقول أبي الدرداء: ويل للَّذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات؛ أي أنَّ العلم حجة عليه إذ يقال له: ماذا عملت، فيما علمت وكيف قضيت شكر الله؟ وقال ﷺ: ﴿أَشَدُ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهِ بِعِلْمِهِ ، (٤) فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر، وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور، فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء، وأن حالهم عند الله أشدَ من حال الجهال. فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير ـ مع تأكد حجة الله عليه ـ غاية الغرور.

وأما الذي يدعي علوم المكاشفة: كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به عليه، وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به

 ⁽١) حديث: امن ازداد علماً ولم يزدد هدى. . . الحديث ، تقدم في العلم.

 ⁽٢) حديث: (بلقى العالم في النار فتندلق أقتابه. . . ٩ الحديث . تقدم فير مرة.

⁽٣) حديث: قشر الناس علماء السوء». تقدم في العلم.

 ⁽٤) حديث: «أشد الناس علاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه». تقدم فيه.

متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك، عاطلاً عن جميع ما يحبه، متوسلاً إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته، فهذا مغرور جداً؛ إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه، لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني؛ إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه. فلا يتصوّر أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه، وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع المضاري. نعم، من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي، ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً، ولم تأخذه عليه رقة، ولا اعتراه عليه جزع. ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْفَى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً. واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له: إن كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً. واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال: وهل رأيت فقيها قط؟ الفقيه القائم ليله الصائم نهاره، الزاهد في الدنيا. وقال مرة: الفقيه لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله؛ فإن قبلت منه حمد الله، وإن ردت عليه حمد الله به خيراً يفقهه في المعين، وإذا لم يكن بهذه العمقة ما أحبه وما كرهه وهو العالم. حمد الله به خيراً يفقهه في المعين، وإذا لم يكن بهذه العمقة فهو من المغرورين.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء، وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها، ولا يلتفت إلى قوله عليه الرياء شركُه (۱۱)، وإلى قوله عليه السلام: «لا يَذْخُلُ المَحِنَّةُ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِنْقَال ذَرَّةٍ مِنْ كِبْوِه (۱۲)، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام: «حُبُ الشَّرَفِ وَالمَالِ يُنْبِتَانِ النَّقَاقَ كَمَا يُنْبِثُ المَاءُ البَقْلَ العَعَلَ الحَيْق في وأه عليه الصلاة والسلام: «حُبُ الشَّرَفِ وَالمَالِ يُنْبِتَانِ النَّقَاقَ كَمَا يُنْبِثُ المَاءُ البَقْلَ العَمْل المعلكات في النَّقَاقَ كَمَا يُنْبِثُ المَاءُ البَقْلَ المَعْر ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة. فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله ﷺ: قإن الله لا يَنْظُرُ إلَى قُلُوبِكُمْ وَأَهْمَالِكُمْ (۱۰)، فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب صوركُمْ وَلا إلى أَمْوَالِكُمْ إلَى أَمْوَالِكُمْ والمَعْل المَعْر الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على وباطنها نتن، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه؛ قاستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره، ولا عذبه ونبت ونبت معه المزابل في صدر داره، ولا يخفى أن ذلك غرور، بل أقرب مثال إليه؛ رجل زرع ذرعاً فنبت ونبت معه المزابل في صدر داره، ولا يخفى أن ذلك غرور، بل أقرب مثال إليه؛ رجل زرع ذرعاً فنبت ونبت معه

 ⁽١) حديث: «أدنى الرياء شرك». تقدم في ذم الجاه والرياء.

 ⁽٢) حديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر». تقدم غير مرة.

 ⁽٣) حديث: «الحسد بأكل الحسنات. . . » الحديث. تقدم في العلم وفيره.

⁽٤) حديث: احب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب. . . ١ الحديث. تقدم.

 ⁽a) حديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم. . . ، الحديث. تقدم.

حشيش يفسده، فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله، فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت، لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق النميمة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة، إلا مع الآفات الكثيرة. بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه، فقنع بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في المادة، فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن.

وفرقة أخرى: علموا أنَّ هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا: ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين! وإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك، وكان ذلي ذلاً على الإسلام، ونسي المغرور أن عدوه الذي حذره منه مولاه هو الشيطان، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به، وينسى أنَّ النبي ﷺ بماذا نصر الدين، وبماذا أرغم الكافرين؟ ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال: إنَّا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره، ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم ـ المحرّم ـ والخيول والمراكب، ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين! وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظنّ بنفسه أنّ ذلك حسد ولكن قال: إنما هذا غضب للحقّ وردّ على المبطل في عدوانه وظلمه، ولم يظن بنفسه الحسد، حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكونَ غضبه لله؟ أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع؟ بل ربما يفرح به، فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من خبث باطنه، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه وإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى؛ فيتخلصوا من عقاب الله تعالى، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائه به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضاً ويقول: إنما ذلك لأنهم إذاً اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي، فإنما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق قولي! هذا ما يظنه بنفسه، وألله مطلع من ضَميره على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل؛ حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره. وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمع في مالهم، فأما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم، وتدفع شر أعدائك عن نفسك! والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه، ولو قدر على أن يقبع حاله عند السلطان بالطّعن فيه والكذب عليه لفعل. وكذَّلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم ويك قوام الدين! أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟

فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور:

أحدها: في أنه مال لا مالك له؛ فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخالطها فلا خلاف في أنه مال حرام، ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر.

الثاني والثالث: في قوله إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين، ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرياسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الدين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله، فهو على التحقيق دجال الدين وقوَّام مذهب الشياطين لا إمام الدين؛ إذ الإمام: هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف. والدجال: هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته، وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا أحلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض، وظن أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها وهو يطن أنه قد اقتلعها، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري. فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويدهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها، وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أنَّ باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته. ولعل باعثه الخفي هو طَّلب الذكر، وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء، والمدح بالزهد والورع والعلم، والتقديم له في المهمات، وإيثاره في الأغراض، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد، والتمتع بتحريك الرؤوس إلى كلامه، والبكاء عليه والتعجب منه، والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفيدين، والسرور بالتخصص بهذه الحاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا، لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص. ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوّش عليه

قلبه وتختلط أوراده ووظائفه. وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه، وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه. وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره، وينبو قلبه عمن عرف حدَّ فضله وورعه وإن كان ذلك على وفق حاله. وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشدّ إصغاء إليه وأحرص على خدمته، ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه؛ فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه. وعساه لو وحد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم لمّ يرغب فيه؛ لفقده في العزلة ولاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة، ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان: من زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبائلي. وعساه يصنف ويجتهد فيه ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به، وإنماً يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى مدع تصنيفه ومحاعنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من أدعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحاً بالدعاوي الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره، لبستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علماً، ولقد كان في غنية عن الطعن فيه، ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه فيعزيه إلى قائله، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكة، ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس. وعساه غافلاً عما روي أن بعض الحكماء وضّع ثلاثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه: قل له: قد ملأت الأرض نفاقاً، وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً. ولعل حماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعاً أو غيره، فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإقادة تغايروا وتحاسدوا، ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه، فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثني مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لأفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفتة وسلامته عنها في تلك الفئة، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه، ولعل واحداً منهم إذا تحرّكت فيه مبادىء الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك، ويقول: إنما غضبت لدين الله لا لنفسي. ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه _ يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين _ وسر قلبه راض به ومريد له، والله مطلع عليه في ذلك. فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أنَّ أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال، وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه، الممتن على الله بعمله وعلمه، الظانّ أنه من خيار خلقه، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار، ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال. وهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم، وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه. فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح، ولم يخرسوا اللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات. فهؤلاء مغرورون من وجهين.

أحدهما: من حيث العمل.

والآخر: من حيث العلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم اللواء واستعماله، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول: ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك، وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقة المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال، وقد دهاه الشيطان وما يشعر؛ إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية. هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى، فإنه وإن قصد وقلبه، فهذا غروره من حيث العمل.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك كتاب الله ومنة رسول الله يَهْفِي، وربما طعن في المحدثين وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته، وهو العلم الذي يورث المخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى، فتراه آمناً من الله مغتراً به، متكلاً على أنه لا بد وأن يرحمه فإنه قوام دينه، وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المحقوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى؛ إذ قال تعالى: ﴿ فَاتُولَا عِن مِن مَعْ فَلَهُ مِن مُعَوِّلًا إِلَيْمَ لَمَنَاهُمُ يَعَدُّرُون ﴾ [التوبة. ١٢٢] والذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم: حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة والبدن مركب. وإنما العلم وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة والبدن مركب. وإنما العلم هو معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة؛ فهي الحجاب بين

العبد وبين الله تعالى، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله. فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طربق الحج على علم خرز الراوية والخف، ولا شك في آنه لو لم يكن لتعطل الحج، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله _ وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم _، ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات، ولم يهمه إلا تعلم طربق المجادلة والعلم _، ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب، والتفقد لعيوب الأقران، والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الإنس طبعهم الإيذاء وهمهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة _ كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة _ فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل، وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من المذمومة وتبديلها بالمحمودة _ فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق علاهم عبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً، بل جميع دقائق الجدل مي الفقه بدعة لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسئة ويا الفقار الغلبة والإفحام وإقامة سوق الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية ونهم معانيهما. وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية ونهما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام وإقامة سوق الجدل بها، فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة، واعتقلوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم ومًا سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها.

ثم هم فرقتان: ضالة ومحقة؛ فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنّة، والمحقة هي التي تدعو إلى السنّة، والغرور شامل لجميعهم. أما الضالة: فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً، وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ولم تحكم أوّلاً شروط الأدلة ومنهاجها، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة، وأما الفرقة المحقة: فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أبه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأن من صدّق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرّب عند الله.

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها هي تعلم الجدل، والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة، وأحدهم يظن أنّ اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل، ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرياسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأوّل، فإن النبي على شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات، وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول؛ فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته، وإذا

رأوا مصراً على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر، بل قالوا: إنّ الحق هو الدعوة إلى السنّة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنّة. إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي على أنه قال: قما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» (١).

وخرج رسول الله على العضب على اصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقى وجهه حب الرمان (٢) حمرة من الغضب عقال: «أَلِهَنَا بُعِئْتُم أَبِهُلَا أُعِرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ الله بَعْض انْظُرُوا إِلَى مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاصْمَلُوا وَمَا نُهِيتُمْ صَنْهُ فَاتْتَهُوا، فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال. ثم إنهم رأوا رسول الله على وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة الإلزام وإفحام وتحقيق حجة، ودفع سؤال وإيراد الزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه، الأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم الممتزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه، الأن ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم أصحابه كيفية المجدل والإلزام، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفينا نجاتهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل، وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم، فما لنا نضيع على الصحابة ثم نرى أن المبتدع ليس يتوك بدعته بجداله، بل يزيده التعصب والخصومة تشدّداً في بدعته، فاستغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم أنه عن المجدل والخصومة قكيف وقد نهيت عنه؟ وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة؟ فالأولى أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يجه؛ لأنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات، وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله! فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين، ويرى أنه من الراضين وهو من المرائين. بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائى بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزهد في الذيا

 ⁽١) حديث: اما صل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا المجدلة. تقدم في العلم وفي آفات اللسان

 ⁽۲) حديث: «خرج يوماً على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون، فغضب حتى كأنه فقىء في وجهه حب الرمان...»
 الحديث: تقدم.

لشدة حرصه على الدنيا وقوّة رغبته فيها، فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فارّ، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس، ويقرّب إلى الله وهو منه متباعد، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس، ويقرّب إلى الله وهو منه متباعد، ويحث على الخلق أشد خرصاً ـ لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت ـ، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرائه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غمّاً وحسداً، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرائه لكان أبغض خلق الله إليه.

فهؤلاء أعظم الناس غرَّة وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به، فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف. نعم، إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة، وهو أن يدعى مثلاً حب الله فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله؟ ويدَّعي الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدعي الزهد فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعي الأنس ىالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهلة الخلق؟. لا، بل يرى قلبه يمتليء بالحلاوة إذا أحدق به المريدون، وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى، فهل رأيت محبًا يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره؟ فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة، ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ، والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون، بل يطرحون في النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى، كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه، وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنارل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم قد قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه، وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها، وذهب عليهم أنَّ القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة، فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف، بل ربما زاد أمنه وقل خوفه، وظهر إلى الحلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى؛ وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته، ويصف الصحة والشفاء، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به، وإنما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها، ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور. فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم.

وفرقة أخرى: منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ؛ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله، على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه، فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للإغراب، وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر هممهم بالأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن تكثر في

مجالستهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فإنّ الأوّلين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم. وأما هؤلاء فإنهم يصدّون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا، لا سيما إذا كان الواعظ متزيناً بالثياب والخيل والمراكب، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا، فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلاً، ويضل خلقاً كثيراً ولا يخفى وجه كونه مغروراً.

وفرقة أخرى: منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانبها، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر، وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية؛ إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض، وصار مغفوراً له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه. وغرور هؤلاء أظهر من غبور من قبلهم.

وفرقة أخرى: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث؛ أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان ولقد رأيت فلاناً ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري، وغرورهم من وجوه:

منها: أنهم كحملة الأسفار؛ فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنَّة، فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل، ويظنون أنّ ذلك يكفيهم.

ومنها: أنهم إذا لم يفهموا معانيها ولا يعملون بها، وقد يفهمون بعضها أيضاً ولا يعملون به.

ومنها: أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها، ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك.

ومنها: وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضاً لا يقيمون بشرط السماع، فإن السماع بمجرّده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث، إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم، فالأول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر. وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب، ثم يكتب اسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدّى ليسمع منه، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه، وكل ذلك جهل وغرور. إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله عن الحفظ والحفظ عن السماع، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله على سمعته من الصحابة أو التابعين، وصار سماحك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله الله وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما حفظت، وتحفظ الراوي كسماع من سمع من رسول الله الله وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً، ولو غير غيرك منه حرفاً أو أخطأ علمت خطأه.

ولحفظك طريقان:

أحدهما: أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار، كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال.

والثاني: أن تكتب كما تسمع، وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدّت إليه يد غيرك ربما غيره، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره، فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك، فيكون كتابك مذكراً لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف.

فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس، ثم رأيت سحةً لذلك الشيخ وجوّزت أن يكون ما فيه مغيراً أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجز لك أن تقول: سمعت هذا الكتاب، فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ. عِلْمُرَّا﴾ [الإسرَاء. ٣٦] وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان: إنَّا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح. وأقل شروط السماع: أن يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير، ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والناثم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه، ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ، فالصبي الذي يلعبُ والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس بينهم ولا يحفظ، وإن استجرأ جاهل فقال: يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن، فإن فرّق بينهما بأنّ الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت، فليقتصر إذا صار شيخاً على أن يقول: سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلساً يروى فيه حديث كان يقرع سمعي صوته ولا أدري ما هو؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح، وما زاد عليه فهو كذب صريح، ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً خَفلاً لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل. ومن أين يأخذ هذا؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله ﷺ: النَّصْرَ الله المرَّأ سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَهَاهَا فَأَذَّاهَا كُمَّا سَمِعَها»(١)، وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أفحش أنواع الغرور. وقد بلي بهذا أهل الزمان، ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخاً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة، إلا أنَّ للمحدّثين في ذلك جاهاً وقبولاً، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لَّذَلك في حلقهم فينقص جاههم، وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدمواً ذلك وافتضحوا، فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري؟ وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين؛ لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه، وما ذكرناه مقطُّوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء، ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد، وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وسالك طريقها

⁽۱) حديث: انفر أله أمرأ سمع مقالتي قوهاها...٤ الحديث. أخرجه أصحاب السنن وابن حيان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس.

ربما يكفيه الحديث الواحد عمره، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أوّل حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١)، فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره. فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به، وزعموا أنهم قد غفر لهم وأسهم من علماء الأمة؛ إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو. فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة، ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها، ويزعم أنَّ العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بدَّ من تعلمها وتصحيحها، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أنَّ لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفى من اللغة علم الغريبين في الأحاديث والكتاب، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب، فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضاً مغرور، بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور؛ إذ المقصود من الحروف المعاني وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء، وضيع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين؛ فهو من الجهال المغرورين، فكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتحردوا لها وعرجوا عليها ـ أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين - فاللب الأقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل، وهو كالقشر للعمل وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية، وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة ولب بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف، والقانعون بهذه الدرحات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته، فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجي عمره في حمل النفس عليه، وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات. فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد. وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها. فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم؛ فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محموداً، ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى. والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى، فمن اتخذ القشر مقصوداً وعرج عليه فقد اغتر به.

وفرقة أخرى: عظم غرورهم في فن الفقه، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في

 ⁽١) حديث: امن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلاً، وقد تقدم.

مجلس القضاء، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساؤوا تأويل الألفاظ المبهمة، واغتروا بالظواهر وأخطؤوا فيها. وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتاوي مما يكثر. ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة: فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه وبين الله تعالى، وذلك خطأ بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى طلب الخلاص فتبرىء الزوج لتتخلص منه، فهو إبراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى: ﴿ فَإِن طِنْهُ لَكُمْ عَن شَيْءٍ يُنَّهُ نَنْسًا فَكُلُوهُ هَيِيْمًا مَّرِّيًّا﴾ [النَّساء: ٤]، وطيبة النفس غير طيبة القلب، فقد يريد الإنسان بقلمه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن. نعم، القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر، والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه، ولكن مهما تصدّى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه، فلو طلب من الإنسان مالاً على ملاً من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه، وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال، وردد نفسه بيسهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة؛ إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الألمين، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط، ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر، وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت؛ لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب، وكذلك من يعطي اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام. ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال ـ بعد أن غفر له ـ: يا رب كيف لي بخصمي؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتاً، فأمر بندائه في صخرة بيت المقدّس، فنادى: يا أوريا، فأجابه: لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد؟ فقال: إني أسأت إليك في أمر فهبه لي، قال: قد فعلت ذلك يا نبي الله، فانصرف وقد ركن إلى ذلك، فقال له جبريل عليه السلام: هل ذكرت له ما فعلت؟ قال: لا، قال: فارجع فبيّن له، فرجع فناداه فقال: لبيك يا نبي الله، فقال: إني أذنبت إليك ذنباً، قال: ألم أهبه لك؟ قال: ألا تسألني ما ذلك الذنب؟ قال: ما هو يا نبي الله؟ قال: كذا وكذا، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب، فقال: يا أوريا ألا تجيبني؟ قال: يا نبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله، فستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة. فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلي الإنسان واختياره، حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه، لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والإلزام.

ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لإسقاط الزكاة، فالفقيه يقول: سقطت عنه فقد صدق؛ فإن مطمع يقول: سقطت عنه فقد صدق؛ فإن مطمع نظرهم ظاهر الملك وقد زال، وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال، أو كمن باع لحاجته إلى المبيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الذين وسر الزكاة، فإن سر الزكاة تطهير

القلب عن رذيلة البخل، فإن البخل مهلك قال ﷺ: «ثلاث مهلكات شع مطاع» (1) وإنما صار شحه مطاعاً بما فعله وقبله لم يكن مطاعاً. فقد تم هلاكه بما يظن أنّ فيه خلاصه فإنّ الله مطلع على قلبه وحبه الممال وحرصه عليه، وأنه بلغ من حرصه على الممال أن استنبط الحيل حتى يسدّ على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأماني والفضول والشهوات وبين الحاجات، بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الأخرة، فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته، وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته، ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات، والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإنّ ذلك يطول.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في الرهد، وكذلك كل ومنهم من غروره في الزهد، وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم.

فمنهم فرقة: أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة؛ إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرّة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام، ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منهي عنه (٢)، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت، وإن لم يفته فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سني، ولا يقدر على صدّ العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك.

وفرقة أخرى: غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة، بل يشوّش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتباط فيه، يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم، ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أوّل الصلاة، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم.

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا

⁽١) حديث: الثلاث مهلكات... الحديث، تقدم غير مرة. تمامه: [وهوى متيم، وإعجاب المرم نفسه].

 ⁽٢) حديث: النهي عن الإسراف في الوضوء. أخرجه الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث أبي بن كعب: فإن فلوضوء شيطاناً يقال له الولهان. . . ١ الحديث. وتقدم في عجائب القلب.

يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه، ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره. وهذا من أقبح أنواع المغرود فإنه لم يكلف المخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام.

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجانين ويحكم عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل.

وفرقة آخرى: اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذًا، وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني؛ إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

ومثاله: مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور. نعم، تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بعد لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هي لذته في صوته، ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به دلك الالتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قله فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته.

وفرقة آخرى: اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، وخواطرهم عن الرياء، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه، وذلك غاية الغرور.

وفرقة آخرى: اغتروا بالحج، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء، فيعصي الله تعالى في كسب الحرام أوّلاً، وفي إنفاقه بالرياء ثانياً، فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه، فهو مغرور.

وقرقة آخرى: أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة، وإذا باشر منكراً ورد عليه غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر عليّ؟. وقد يجمع الناس إلى مسجده، ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وإنما غرضه الرياء والرياسة، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله، ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال: لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال: إنه إمام مسجد، فلو تقدّم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه.

وفرقة آخرى: جاوروا بمكة أو المدينة، واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أنّ فلاناً مجاور بذلك، وتراه يتحدّى ويقول: قد جاورت بمكة كذا كذا سنة، وإذا سمع أنّ ذلك قبيع ترك صريح التحدّي وأحب أن يعرفه الناس بذلك، ثم إنه قد يجاور ويمدّ عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس، وإذا جمع من ذلك شيئاً شح به وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدّق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع، وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة، ولكن حب المحمدة وأن يقال: إنه من المجاورين ألزمه المحاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا المحاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضاً مغرور، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وقيها آفات، فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحباء علوم الدين، فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، وفي الحج من كتاب الحج، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب.

وفرقة آخرى: زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرّد الزهد، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين، فإنّ الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب، فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا؛ ولم يدر أنَّ منتهى لذاتها الرياسة، وأنَّ الراغب فيها لا بدِّ وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبراً ومراثياً ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق. نعم، وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور؛ إذ يتطول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام، وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله، ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدري، وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال: بطل زهده، ولو قبل له: إنه حلال فخذه في الظاهر ورده في الخفية لم تسمح به نفسه خوفاً من ذم الناس، فهو راغب في حمد الناس وهو من ألذَ أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور، ومع ذلك فريما لا يخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء، والميل إلى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن الماتلين إلى غيره من الزهاد، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه. وفي العباد من يشدُّد على نفسه في أعمال الجوارح؛ حتى ربما يصلي في اليوم واللبلة مثلاً ألف ركعة ويختم القرآن، وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياه والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدري أنْ ذلك مهلك، وإن علم ذلك فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات! وذرة من ذي تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح، ثم لا يخلو هذا المغرور . مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه ـ عن الرياء وحب الثناء، فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور

بذلك وصدق به وزاده ذلك غروراً، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس مخبائث باطنه.

وفرقة آخرى: حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ثرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتدُ حرصه على المبادرة بها في أَوْلَ الرَّقَتِ، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: "مَا تَقَرُّبَ المُتَقَرِّبُونَ إِلَىٰ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا أَفْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ اللهُ اللهُ الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور. بل قد يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما بفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد؛ إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك» قال: ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك»(٢٠)، فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع. وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدِّم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه. وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه، وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك؛ فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة. وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور. وهذا غرور في غاية الغموض؛ لأنَّ المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها. ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوراح والمتعلقة بالقلب؟ لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه. فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدّم عليهم يعمي عليه حتى يغتر به مع نفسه، ويظنّ أنه مشغول بهم دينه.

الصنف الثالث: المنصوّفة وما أغلب الغرور عليهم! والمغترون منهم فرق كثيرة.

ففرقة منهم: وهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله؛ اغتروا بالزي والهيئة والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم، وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس

 ⁽١) حديث: «ما تقرب المتقربون إلي بمثل آداء ما افترضت هليهم» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ: «ما تقرب إلي هبدي».

 ⁽٣) حليث: من أبر؟ قال: فأمك. . • الحديث أحرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده، وقد تقدم في آداب الصحبة.

وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضاً صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية، كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه. وهؤلاء غرورهم ظاهر، ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة فلبست درعاً ووضعت عَلَى رأسها مغفراً، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها، وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان، وكيف تحريكهم الأبدي، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها في الشجاعة، فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر؟ فقيل لها: أجئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم؟ خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت إلى الفيل. فهكذا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء، وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزي والمرقع بل إلى القلب.

وفرقة آخرى: زادت على هؤلاء في الغرور، إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب والرضا بالدون، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بداً من التزين بزيهم، فتركوا الحرير والإبريسم، وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمةً من الحرير والإبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوّف بمجرّد لون الثوب وكونه مرقعاً، ونسي أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد، فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ أين يشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق؟ إذ يهلك من يقتدي بهم، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة، ويظنّ أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان في الصادقين منهم، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم.

وفرقة آخرى: ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحتى ومجاوزة المقامات والأحوال، والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزدراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والمحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء، فيقول في العباد: إنهم أجراء

متعبون، ويقول في العلماء: إنهم بالحديث عن الله محجوبون، ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يحكم قط علماً ولم يهذب خلقاً، ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه.

وفرقة آخرى: وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام، فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي، وبعضهم يقول: قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن، وإنما يغتر به من لم يحرب، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال. ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والمغضب من أصلهما، بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع. وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية، فنحن مع واصلة إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية، فنحن مع بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرقعون درجة أنفسهم على بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تقوتهم فيها، ويرقعون درجة أنفسهم على عليها وينوون وسنين متوالية. وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك عليها وينوحون سنين متوالية. وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به. وإحصاء أصنافهم يطول.

وقرقة آخرى: جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والمحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله، ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا لما تركه حياء من الفلق، ولم خلا لما تركه حياء من الله تعالى. وليس يدري [أن كل] ذلك يناقض الحب، وبعضهم ربما يميل إلى الفناعة والتوكل؛ فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد، بل كانوا يأخلون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور، وقد اغتر متوكل على سبب من الأسباب واثق به، وما من مقام من الكتاب قلا يمكن إعادتها.

وفرقة آخرى: ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه المحلال الخالص، وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي. فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور.

وفرقة آخرى: ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدّوا لخدمة الصوفية؛ فجمعوا قوماً وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع العال، وإنما غرضهم التكبر، وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع، وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستنباع، وهم يظهرون أن غرضهم المخدمة والتبعية ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالمخدمة اسمهم، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة، وآية ذلك: إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهراً وباطناً، ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه، ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة.

وفرقة آخرى: اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها، فيقولون هذا في النفس عيب والمغفلة عن كونه عيباً عيب، والالتفات إلى كونه عيباً عيب، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها، ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج، فذلك لا يغنيه.

وفرقة آخرى: جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤوا سلوك الطريق وانفتحت لهم أبواب المعرفة، فكلما تشمموا من مبادى المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفاف إليها والتفكر فيها، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

وفرقة آخرى: جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تبسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حدَّ القربة إلى الله تعالى، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلَّطوا، فإن لله تعالى سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل. وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ قال الله تعالى إخباراً عنه: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيثُلُ رَهَا كَوَّكُبًّا قَالَ هَنَذَا رَبِّيُّ ﴾ [الأنتام: ٧٦] وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أمها ليست آلهة وَهَى كثيرة وليست واحداً، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغرَّه الكوكبُ الذي لا يغرّ السوادية. ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عزّ وجلّ وهي على طريق السالكين، ولا يتصوّر الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصوّل إلى هذه الحجب، وهي حجب من نور بعضها أكبر من يعض، وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى: ﴿ وَكَذَالِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمُ مَلَكُوتَ الشَّمَكُوتِ وَٱلأَرْضِ﴾ [الأنغام: ٧٥] يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أوّل ما كان يلقًاه أنه قد وصل، ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيترقى إليه ويقول: قد وصلت فيكشف له ما وراءه، حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده، فقال: ﴿ هَٰذَاۤ أَكُبِّكُ [الانتام ٧٨] فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص والابحطاط عن ذروة الكمال ﴿قَالَ لَا أُمِبُّ ٱلْآيِلِينَ﴾ [الانعام: ٧٦] إلى أن قال: ﴿ إِنِّ وَجَهَتُ وَجَهِيَ لِلَّذِى مَكْرَ ٱلسَّنَاءُتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الانعام: ٧٩].

وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الأول، وأوّل الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضاً أمر ربائي وهو نور من أنوار الله تعالى؛ أعني سر القلب الذي تنجلى فيه حقيقة الحق كله حتى إنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أوّل الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له، فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول: أنا الحق. فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر فضلاً عن الشمس، فهو مغرور وهذا محل الالتباس؛ إذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل:

رق السرنجاج ورقست السخسس فستشابها فستساكل الأمس فسكانسسا خسمسر ولا قسدح وكانسما قسدح ولا خسمسر

ويهذه العين نظر النصارى إلى المسيح؛ فرأوا إشراق نور الله قد تلألاً فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور، وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات، ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة، وذلك مما لا رخصة في ذكره، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه، إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره، والذي لم يسلكه لاينتفع بسماعه، بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم، ولكن فيه قائدة وهو إخراجه من الغرور الذي هو فيه، بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المرخرف، ويصدق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله، ومن عظم غروره ربما أصر مكذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل.

الصنف الرابع: أرباب الأموال؛ والمغترون منهم فرق:

ففرقة منهم: يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالأجر عليها، ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك. وقد اغتروا فيه من وجهين:

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرّضوا لسخطه في انفاقها، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها، فإذن: قد عصوا الله بكسبها، فالواجب عليهم التوية والرجوع إلى الله، وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين، وهم لا يفعلون وارث فالواجب من بنائها الرياء وجلب الثناء، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير.

والوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كلف

واحد منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك.

وفرقة آخرى: ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد؛ وهي أيضاً مغرورة من وحهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ريما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها، وإنما يخف عليهم الصرف على المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

والثاتي: أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم(١)، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعدُّ ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرَّض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره، وقد شوّش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد، وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا، فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله في رقبته؛ إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى. قال مالك بن دينار: أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله، فكتبه الملكان عند الله صديقاً. فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى. وقال الحواريون للمسيح عليه السلام: انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه! فقال: أمتي أمتي بحق أقول لكم: لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئًا، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض، وبها يخرّب إذا كانت على غير ذلك. وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا زَخْرَفْتُمْ مُسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ (٢). وقال الحسن: ﴿إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالَ لَهُ: ابْنِهِ سَبْعَةَ أَذْرُع طُولاً فِي السَّمَاءِ لا تُزَخْرِفُهُ وَلا تَنْقُشُهُ ۗ (٣)، فغرور هذا من حيث َإنه رأى المنكر واتكل عليه.

وفرقة آخرى: يتفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف، ويكرهون التصدّق في السر، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفراناً، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى،

^{...} (١) حديث: «النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش!. أخرجه البخاري من قول عمر بن الخطاب: أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر.

 ⁽٢) حديث وإذا زخرقتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم قائدمار هليكم. آخرجه ابن المبارك في الزهد، وأبو بكر بن أبي
 داود في كتاب المصاحف موقوفاً على أبي الدرداء.

 ⁽٣) حديث الحسن مرسلاً. لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل فقال: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء ولا تزخرفه
 ولا تنقشه. لم أجده.

وربما تركوا جيرانهم جياعاً، ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب، يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه. وقال أبو نصر التمار: إن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث وقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك؟ تزهداً أو اشتباقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله، قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحداً فافعل؛ فإن إدخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسنح التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً فأظهرت عليه وقال الهنا الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل اليقين.

وفرقة آخرى: من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة، كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون؛ لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل يطلب فضائل هو مستغن عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين؟. ولذلك قيل لبشر: إن فلانا الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه، ومن جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وفرقة آخرى: غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه، ويطلبون من الفقراء من يخدعهم ويتردد في حاجاتهم، ومن يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة، أو من لهم فيه على الجملة غرض، أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته، وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر؟ إذ طلب بعبادة الله عوضاً من غيره، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضاً لا يحصى. وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

وفرقة آخرى: من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أنّ لهم على مجرّد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجراً، وهم مغرورون؛ لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها، وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وقضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم، أو نعوذ بالله، أو سبحان الله!، ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور. وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع

ما يجري، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً. فكل عنه من مرضه وجوعه شيئاً. فكل وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئاً، فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا؛ فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً.

فإن قلت: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لايتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه، وهذا يوجب البأس؛ إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات؟ فأقول: الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صبع منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدفيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله، وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه، وإذا أراد أن يتتخرج الذوس المطلقة في البراري والصحارى اقتنصها، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها، وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها، وإذا أراد أن يتخذ الدياج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخراج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات، استخر الفرس للركوب والكلب للصيد، وسخر البازي لاقتناص الطيور، وهيأ الشبكة لاصطياد السمك، فسخر الفرس عليه إلا شغل واحد هو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل، وقال: هذا محال، ومن الذي يقدر عليه؟ وليس ذلك بمحال لو أصبع وهمه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال:

السوا مستح مستنسك السهسوى أرشسدت لسلسحسيسل

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها.

فإن قلت: قد قرّبت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور، فبم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم: أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بد منها.

أما العقل: فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء، فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بدّ منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن. نعم، إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة، قال رسول الله ﷺ: فم بارك الله الله عسم المنها وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما الذي قسم المنه المعقل والكياسة من العقل واليقين. وعن يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد، وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين. وعن أبي الدرداء أنه قيل: يا رسول الله، أرأبت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل وبحج ويعتمر ويتصدّق ويغزو

 ⁽١) حديث: "تبارك الذي قسم العقل بين هباده. . . الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلاً وفي أوله قصة، وإسناده ضعيف ورواه بتحوه من حديث أبى حميد وهو ضعيف أيضاً.

في سبيل الله، ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَلْرِ عَقْلِهِ ﴿ ﴿ وَقَالَ أَنس: أَنني على رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا خيراً، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ كَيْفَ عَقْلُهُ ، قالوا: يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال: ﴿ كَيْفَ عَقْلُهُ فَإِنَّ الأَخْمَقَ يُصِبِبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الفَاجِرِ. وَإِنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلَى قَدْرٍ عُقُولِهِمْ ﴿ ﴾ وقال أبو الدرداء: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدّة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا: حسن قال: ﴿ أَرْجُوهُ وإِن قالوا غير ذلك: قال ﴿ لَنْ يَبْلُغُ ﴿ وَلَى لَهُ سُدّةً عبادة رجل فقال: هَلُوا: ليس بشيء قال: ﴿ لَنْ يَبُلُغُ صَاحِبُكُمْ حَبْثُ تَظُنُونَ ﴾. فالذكاء صحيح وغريزة العقل عمة من الله تعالى في أصل الفطرة، فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها.

الثاني: المعرفة؛ وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الأخرة؛ فيعرف نفسه بالعبودية والفل وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط، فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه، فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة، وفي كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب التفكر، وكتاب الشكر؛ إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله، ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة. وأما معرفة الدنيا والآخرة: فيستعين عليها بما ذكرنا في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت؛ ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة، فإذا عرف نفسه وربه وعرف اللذيا والآخرة ثار من قلبه معرفة الله ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة، فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو تتعالى وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والحاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية، وما دامت الدنيا أحب من الأعراض والنزوع إلى الدنيا والحاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية، وما دامت الدنيا أحب من الأخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرود.

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم؛ أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقرّبه من الله وما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله. (وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم اللين، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله، فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من

⁽١) حديث أبي الدرداء: «أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل. . . ١ الحديث. وفيه: «إنما يجزى على قدر عقله» أخرجه الخطيب في التاريخ وفي أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء.

 ⁽٣) حديث أنس: أثني على رجل عند النبي ﷺ فقال: «كيف عقله؟ . . . » الحديث. أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل وهو ضعيف. وتقدم في العلم.

 ⁽٣) حديث أبي الدرداء: اكان إذا بلغه عن رجل شدة عبادة، سأل عن عقله. . . » الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في
 النوادر، وإبن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه.

ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها)، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله: أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فإن قلت: فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه؟ فأقرل: يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق أو نشر العلم ودعوته الناس إلى ما عرفه من دين الله، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفًّاه من جميع المكذِّرات، واستوى على الصراط المستقيم. وصغرت الدنيا في عينه فتركها، وانقطع طمعه عن الخلق فلّم يلتفت إليهم، ولم يبق إلا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه، وقد عجز الشيطان عن إغرائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه، فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم حياري في أمرهم سكاري في دينهم صماً عمياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون، وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب، فغلب على قلبه الرحمة لهم، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبيّن لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم، فوجد له دواء عفواً صفواً من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبريء وصح؛ فطاب نومه بالليل بعد طول سهره، وهدأ بالنهار بعد شدة القلق، وطاب عيشه بعد نهاية الكدر؛ وأصاب لذة العافية بعد طول السقام، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم، فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان، فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم، فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفي من أمراض القلوب؛ شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم وإشفاؤهم، وسهل عليه دواؤهم؛ فانبعث من ذات النفس عزم جازم في الاشتغال بنصحهم، وحرّضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالاً للفتنة، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاء إلى الرياسة دعاء خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد، فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة، فأقبل الناس إليه يعظمُونه ويبجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك؛ إذ رأوه شآفياً لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، فآثروه بأبدائهم وأموالهم وصاروا له خولاً كالعبيد والخدم، فخدموه وقدّموه في المحافل، وحكموه على الملوك والسلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدّت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تَلكَ اللذة. وأمارة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان: أنه لو أخطأ فردّ عليه بين يدي الخلق غضب، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أنَّ ذلك غضب لله؛ لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور، فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسم، ووقع في الكبر الذي هو تمرّد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات، وكذلك إذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كبلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه، وإنما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة، ولذلك لا نجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه، ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتنم ذلك؛ إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقي من البئر بسببه، فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إحوانه من البئر، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار؛ فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه، أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه النار؛ فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه، أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه الشبطان إلى حميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه. فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواه.

فإن قلت: فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يوذ لو وجد من يعينه، أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم، فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات: فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيراً منه لجهله بالخاتمة، وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع!، بل راعي الماشية إنما عرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم، ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه.

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت لقلوب؟ فأقول: قد قال رسول الله ﷺ: الحبُّ اللَّنْهَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيقَةٍ اللَّهِ وَلَا لَم يحب الناس الدنيا نهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والأبدان جميعاً، إلا أنه ﷺ علم أن حب الدنيا مهلك وأنّ ذكر كونه مهلكاً لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك أنكر كونه مهلكاً لا ينزع الحب من الخطر ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة لتي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَاكِنْ حَقَ ٱلْقَرْلُ مِنْ لَا مُلَانًا سِي السّعاد المياسة عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَاكِنْ حَقَ ٱلْقَرْلُ مِنْ لَا لَا السّنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة جرام، كما لا يدع المخلق الشرب والزئى والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله: إنّ ذلك حرام، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله: إنّ ذلك حرام، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب

⁽١) حديث: «حب الدنيا رأس كل خطيفة» أخرجه البيهتي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً، وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا.

فإن قلت: فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتعل بنفسه وترك النصح، أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه، فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار؟ فاعلم: أنه بقي عليه أعظمه وهو أنّ الشيطان يقول له: قد أعجزتني وأفلتٌ مني بذكائك وكمال عقلك، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك قما أصبرك! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك؛ إذ قوّاك على قهري، ومكنك من النفطن لجميع مداخل غروري! فيصغي إليه ويصدّقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر، فالعجب أعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: يا ابن آدم، إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي.

فإنّ قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من الله تعالى لا منه، وإنّ مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته، ومن عرف ضعص نفسه وعجره عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى، فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب؟ فأقول: يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه المحوف من مكره، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدّاً، بل سبيله أن يكون مشاهداً جملة ذلك من فضل الله، ثم خاتفاً على نفسه أن يكون قد سدّت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه، ويكون خائفاً أن يسلب حاله في كل طرفة عين، غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال: أفلت مني يا فلان؟ فقال: لا، بعد، ولذلك قيل: الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون على خطر عظيم، فإذن: المغرور يا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون على خطر عظيم، فإذن: المغرور هالك، والمخلص الفارة من الغرور على خطر، فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً.

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة، فإنَّ الأمور بخواتيمها.

تم كتاب ذم الغرور، وبه تم ربع المهلكات، ويتلوه في أوّل ربع المنجيات «كتاب التوبة»، والحمد ش أوّلاً وآخراً، وصلى الله وسلّم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.



ينسب أقر الكنب اليجسة

کتاب التوبة

وهو الكتاب الأول من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد ألله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدّر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التوّاب، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب.

ونصلي على نبيه محمد على وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب. وتمهد لنا عند الله زلفي وحسن مآب.

أما بعد: فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وما أحدر بالأولاد، الاقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم، فهي شنشنة نعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سن الندم، وتندُّم على ما سبق منه وتقدم. فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم. بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان؛ فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان. فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان؛ فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجناً محكماً لا يخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان، وإليك الآن اختيار أهون النارين، والمبادرة إلى أخف الشرين، قبل أن يطوي بساط الاختيار، ويساق إلى دار الاضطرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار. وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها، والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان: الركن الأول: في نفس التوبة وبيان حدّها، وحقيقتها وأنها واجبة على الغور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال، وأنها إذا صحت كانت مقبولة.

الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهو الذنوب، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر، وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر.

الركن الثالث: في بيان شروط التوبة ودوامها، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم، وكيفية تكفير الذنوب، وبيان أقسام التاثبين في دوام التوبة.

الركن الرابع: في السبب الباعث على التوبة، وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين. ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عزّ وجلّ.



الركن الأول

في نفس التوبة

بيان حقيقة التوبة وحدها:

اعلم: أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتثم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأوَّل، والحال الثاني، والفعل الثالث. والأوَّل موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطراد سنَّة الله في الملك والملكوت. أما العلم؛ فهو معرفة عظم ضرر الذَّنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى وانبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال، أما تعلقه بالحال: فبالترك للذنب الذي كان ملابساً، وأما بالاستقبال: فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر. وأما بالماضي: فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر، فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات؛ وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب؛ حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب؛ فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالسابق، والمفدّمة

والترك كالثمرة، والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام: «النَّدُمُ تَوْيَةُ» (1). إذ لا يخلو الندم عن علم أرجبه وأثمره، وعن عزم بتبعه ويتلوه؛ فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره، وبهذا الاعتبار قبل في حدّ التوبة: إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ؛ فإن هذا يعرض لمجرّد الألم، ولذلك قبل: هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب، وباعتبار معنى الترك قبل في حدّ التوبة: إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وقال سهل بن عبدالله التستري: التوبة: تبديل الحركات المدمومة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال. وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر، وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتببها عرفت أن جميع ما قبل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجرّدة.

بيان وجوب التوبة وفضلها:

اعلم: أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار (٢) والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره، حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل، مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، وإما بصير يهدى إلى أوّل الطريق ثم يهتدي لنفسه، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام، فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنَّة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحير؛ فسير هذا وإن طال عمره وعظم جدَّه مختصر وخطاه قاصرة. ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فيتنبه بأدني إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة، ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدَّة نور باطنه يجتزيء بأدني بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار؛ فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوية فينظر أوَّلاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والتجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى. وقول الفائل: صار واجباً بالإيجاب حديث محض، فإن ما لا غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرما أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم. وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني، والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً، وعلم أنه لا مقرّب من لقاء الله

حديث: قالندم توية، أخرجه ابن ماجه وابن حبان وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٣) الأخبار الثالة على وجوب التوبة: أخرج مسلم من حديث الأغر المزني: (يا أيها الناس توبوا إلى الله...) الحديث.
 ولابن ماجه في حديث جابر عيا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا...) الحديث. وسنده ضعيف

إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم، والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره، وللمحبُّة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته، وعلم أن الذنوب التي هي إعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى؛ فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يتدم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصَّالحين فقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُواۤ إِلَ اُللَّهِ جَبِعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَقَلْكُرْ تُقْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١] وهذا أمر على العموم، وقال الله تعالى: ﴿يَكَأَبُّهَا ٱلَّذِيكَ ءَامَنُواْ نُوبُوّاْ إِلَى أَتَّهِ تَوْبَةً نَّصُومًا﴾ [التخريم: ٨] الآية. ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب؛ مأخوذ من النصح. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ آلَةَ يُجِبُّ اَلتَّوَّابِينَ وَيُجِبُ ٱلْنَطْهِينَ﴾ (البَقَرَة: ٢٢٧) وقال عليه السلام: «المتاثبُ حَبِيبُ الله وَالتَّاثِبُ مِنَ اللَّذَّبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ " (١)، وقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْيَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلِ نَزَلَ فِي أَرْضِ دَوِيَّةِ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلْتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُه فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَام نَوْمَةٌ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحلَتُهُ فَعَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ حَلَيهِ الحَرُّ وَالْمَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ: ۚ أَرْجِع إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَيَّامُ حَنِّى أَبُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ حَلَى سَاحِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلْتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ؛ قَاللَّهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْيَةِ المَبْكِ المُؤْمِنِ مِنْ هَلَا بِرَاحِلَتِهِ، (٢). وفي بعض الألفاظ: «قال من شلّة فرحه إذ أراد شكر الله: أنا رَبك وأنت عبدي».

ويروى عن الحسن قال: لما ثاب الله عزّ وجلّ على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا آدم، قرّت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال قأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم، ورَثّت ذويك التعب والنصب وورَثتهم التوبة، فمن دعائي منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب، والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها؛ إذ معناه العلم بأنّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه، في الحال

⁽١) حديث: «التاثب حبيب الله والتاثب من اللنب كمن لا ذنب لهه أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول، وأما الشطر الأول فروى ابن أبي المدتيا في التوية، وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف: «إن الله يحب الشاب التائب» ولعبدالله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي: «إن الله يحب العبد المؤمن التواب».

⁽٢) حديث: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض فلاة دوية مهلكة. .» الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس. زاد مسلم في حديث أنس: «ثم قال من شفة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شفة الفرح» ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث التعمان بن شير، ومن حديث أبي هويرة مختصراً.

والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وذلك لا يشك في وجوبه. وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب، وهو روح التوبة، وبه تمام التلاقي، فكيف لا يكون واجباً، بل هو نوع ألم يحصل ـ لا محالة ـ عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار، فكيف يوصف بالوجوب؟ فاعلم: أنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا سعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله ﴿ وَاللَّهُ خُلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ الله والسَّافات: ١٦]. هذا هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال.

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك؟ قلنا: نعم، وذلك لا يناقض قولنا: إنَّ الكل من خلق الله تعالى، بل الاختيار أيضاً من خلق الله، والعبد مضطر في الاختيار الذي له، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة هي أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دور تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول؛ فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختياراً، ولا بدُّ من حصوله عند تمام أسبابه، فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحرّكت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة؛ إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضرورياً، فتحصل الحركة، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة والجزام الإرادة، وهما أيضاً من خلق الله، والجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع، وهما أيضاً من خلق الله تعالى، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيباً جرت به سنَّة الله تعالى في خلقه: ﴿ وَلَن يَجِدَ لِسُنَّةِ أَللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحرَاب ٦٣] فلا يخلق الله حركة البد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة، وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادة مجزومة، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم؛ فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والقدرة والإرادة أبدأ تستردف الحركة، وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض محلوقاته شرط لبعض، فلذلك يجب تقدُّم البعض وتأخر البعض، كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم؛ فيكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة لا أن الحياة تتولد من الجسم، ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم لا أنّ العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يستعدّ المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة لا أنَّ العلم يولد الإرادة، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم، ولا يدخل في الوجود إلا ممكن، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال، فمهما وجد شرط الوصف استعدّ المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد، ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب،

والعبد مجرىً هذه الحوادث المرتبة، وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير، وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقَتُهُ بِقَلَدٍ ۞﴾ [القَمَر: ٤٩] وعن القضاء الكلي الأزلى العبارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَيَحِدَّةُ كَلَنْجِ بِٱلْبَصَرِ ۞﴾ [القَمَر: ٥٠]. وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر: خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت، وقالوا: يا أيها الرجل قد تحرّكت ورميت وكتبت، ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت: ﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِحَ اللَّهُ رَكَيْكُ (الأنفَال: ١٧] وما قتلت إذ قتلت. ولكن ﴿قَتِيْلُوهُمْ يُمَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التّربَة ١٤]. وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة؛ فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط ماثل إلى أنه كسب، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأنَّ القصور شامل لجميعهم. فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه، وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوّة نافذة إلى عالم الغيب، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة، لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء، ومن حرّك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر، وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من الفائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه، وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال؟ فاعلم: أنَّ جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه، فقالوا: لا بدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجليه، ووقع يد بعضهم على نابه، ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا: قد عرفناه، فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرجل: إنَّ الغيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها، وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه، وأملس لا خشونة فيه، وليس في غلظ الأسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود، وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو لين وفيه خشونة، فصدق أحدهما فيه ولكن قال: ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وحه؛ إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أنّ التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وأنَّ الندُّم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله.

بيان أن وجوب التوبة على الفور:

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور والمتقصى عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه، فإنَّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل، بل هي من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي عن عهدته ما لم يصر باعثاً عليه؛ فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً لتركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عليه السلام: ﴿لا يَزْنِي الرَّاني حِينَ يَرْنِي وَهُوَ مَؤْمِنٌ ا(١)، وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإنّ ذلك لا ينفيه الزنى والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزني مبعداً عن الله تعالى، موجباً للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال: تناول وهو غير مؤمن؛ لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيباً وغير مصدّق به، بل المراد أنه غير مصدّق بقوله: إنه سم مهلك؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً. فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان، وليس الإيمان باباً واحداً، بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذي عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذي عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب، مقلوم الأظافر، نقى البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها، وهذا مثال مطابق، فالإيمان كالإنسان، وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الصَعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدُّها وتقوِّيها؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت ووروده؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت. وقول العاصي للمطيع: إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف؛ فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار:

وسسوف تسرى إذا انسجسلس السغسسار أفسرس تسمسسك أم حسمسار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدّماته الهائلة الني لا يثبت عليها إلا الأقلون؛ فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وأن الموت غالباً لا يقع فجأة، فيقال له: الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم

 ⁽١) حديث: الا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

إذا ختم له بالسوء ـ والعياذ بالله ـ وجب الخلود في النار. فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها، إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصى، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور، والمبادرة تلاقياً لبننه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية؛ فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن، ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدّته؛ إذ ليس لمدّته آخر ألبتة. فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختبارهم، ولا ينفع بعده الاحتماء، فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين، ويدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَغْنَفِهِمْ أَغْنَلَا فَهِى إِلَى ٱلأَذْقَانِ فَهُم مُّفْسَحُونَ ۞ وَجَمَلْنَا مِنْ بَيْنِ ٱلْذِبِهِمْ سَكَنًا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكًا فَأَغْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يُبْقِيرُونَ ۞ وَسُوَاةً عَلَيْهِمْ عَأَمْذَرْتَهُمْ أَرْ لَرْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ [بس: ٨-١٠] ولا يغرّنك لفظ الإيمان، فنقول: المراد بالآية الكافر؛ إذ بيَّن لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل؛ فلا بقاء للأصل دونَ الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلاَّ في شيء واحد: وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدَّعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلاَّ يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع، ووجود الفرع بالأصل، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل، فلا يستغني أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها، فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك بزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر، كما أوردنا من الأحبار في كتاب العلم.

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة:

اعلم: أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَبِعاً أَنُّهُ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَمُونَ وَ الطّريق تُفْلِحُونَ ﴾ [اللّور: ٣١] فعمم الخطاب، ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه؛ إذ معنى التوبة: الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، ولا يتصوّر ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان. إذ كمال العقل إما يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومبادئه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإدا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة؛ إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل

فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان، ووقع القلب به أنس، وألف ـ لا محالة ـ مقتضيات الشهوات بالعادة، وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أولياته من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعده حيث قال: ﴿ لاَحْنَنِكُ ذُرِيّتَهُ إِلاَ قَلِيلاً ﴾ [الإسرَاء: ٢٦]، وإن كمل العقل وقوي كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان إلى طريق الله تعالى، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته ـ التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان نبياً كان أو غبياً، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل:

ملا تحسبن هنداً لها الغدرُ وحدها سنجيدة نفس، كل غانية هند

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس، لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدّل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فإذن: كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته نتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم ينفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والانفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة، فدل على أنَّ التوبة فرض عين في حق كل شخص يتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم، فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلاً. وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال: فهو أنَّ كل بشر فلا يخلو عن معصَّية بجوارحه؛ إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب؟ هإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن دكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رحوع عن طريق إلى ضدَّه والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصوّر الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بدُّ منه، ولهذا قال عليه السَّلام: «إِنَّهُ لَيْغَانُ عَلَى قُلْبِي حَتَّى أَسْنَغْفِرَ اللَّهَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١) الحديث، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: ﴿ لِيَنْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمُ بِن دَنْلِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفَنْح: ٢]. وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟.

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص، وأنّ الكمال في الخلو عمه، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال، وأنّ الانتقال

⁽١) حديث: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني، إلا أنه قال: «في اليوم مائة مرة» وكدا عند أبي داود، وللبخاري من حديث أبي هريرة: «إني الأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرقه وفي رواية البيهةي في الشعب: «سبعين» لم يقل: «أكثره، وتقدم في الأذكار والدعوات.

إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع، والرجوع توبة، ولكن هذه فضائل لا فرائض، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال، والتوبُّة عن هذه الأمور ليست بواجبة؛ إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع: فما المراد بقولك: التوبة واجبة في كل حال؟ فاعلم: أنه قد سبق أنَّ الإنسان لا يخلو في مبدًّا خلقته من اتباع الشهوات أصلاً، وليس معنى التوبة تركها فقط، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً، كما قال تعالى: ﴿كُلَّا بَلِّ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَاقُواْ يَكْسِبُونَ ۞﴾ [المطفِّنِين: ١٤]، فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده، وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب، كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور مِن الطاعات وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أَثْبِع السُّيَّقَةُ الحَسَّنَةُ تَمْحُها ١١٤، ، فإذن: لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات؛ هذا في قلب حصل أوّلاً صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة. فأما التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة؛ فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً، وكل ذلك يرجع إلى التوبة، فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجبًا، بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم: أن الواجب له معنيان:

أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق؛ وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرّغ أحد للتقوى، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق حميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار.

والواجب الثاني: هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال: الطهارة واجبة في صلاة التطوّع - أي لمن يريدها -، فإنه لا يتوصل إليه إلا بها. فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها، كما يقال: العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان، يعني أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا، فأما من قنع بأصل الحياة ورضي أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة من السعادات التي بها

 ⁽١) حديث: «أتبع السيئة الحسنة تمحها» أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره، وقال حسن صحيح،
 وقد تقدم في رياضة النفس.

كتاب التوبة

تنتهى الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنهيأ الحياة، وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم، وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال: أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟. فرمي عيسي عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم. أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أنَّ وضع الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمداً ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه (١)، وشغله شراك نعله الذي جدّده حتى أعاد الشراك الخلق(٢)؛ لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة عباده؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟ أفترى أن الصديق رضى الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه؟ فلم تاب عن شرابه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرّفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصدّيقون.

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله، وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرّك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور، فهذه أسرار من استنشق مبادىء روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمَّر عُمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن بحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكي عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشدً، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جوهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيماً، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً. فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإنَّ نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عموك ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلاً، وهو

حديث: نزعه ﷺ الثوب الذي كان عليه في الصلاة: تقدم في الصلاة أيضاً. (1)

حديث: نزعه الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق: تقدم في الصلاة أيضاً. (Y)

أوّل ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْتُمْ وَيَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سَيَا: ٤٥] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَيَنِ قَلْ أَنْ يَأْوَلُ أَلَمْكُونَ وَلَا الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِ وَلَا أَخْرَقِي إِلَا أَجُلُ فَيسٍ الْمَدَّفِ وَأَكُن يَنَ الصَّلِمِينَ ﴿ وَلَنِ عَلْمُ اللّهِ عَلَهُ اللّهُ الموت: أخرني يوما أعتذر فيه إلى ربي، وأتوب وأتزود صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الايام فلا يوم، فيقول: فأخرني ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على التوبية فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه؛ فإن كان سبقت له من الله الحسني خرجت روحه على التوجيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة - والعياذ بالله - خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا يقال: ﴿ وَلَيْسَتِ النَّوْبَةُ عَلَ اللّهِ لِللّهِ عَلَى اللّهُ وَلَاللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى الشّهِ عَلَى اللّه ولا عَصَر أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنَّ يُثِتُ النَّنِ اللّه المناء عن قرب عهد المنافع عليها ويمحو أرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، المنافع قال يقبل المن على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني، لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغنة، ومن ترك السباء الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، ولذلك ورد في الخبر: فإن أكثر صياح أهل النار من التسويف (()، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة؛ إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر.

قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام:

أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك والتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني.

والثاني: عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك؟ هل حفظتها حتى تلقاني على على على على على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإَوْثُواْ عِلَى الْعَهْدِ فِلْهِ الْإِشَارَة بقوله تعالى: ﴿وَإَلَيْنَ هُرٌ لِأَمْنَئَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ۚ ﴿} [المومنون: ٨].

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة:

اطم: أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا: أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا: أن القلب خلق سليماً في

 ⁽۱) حديث: «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف» لم أجد له أصلاً.

الأصل، وكل مولود بولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة نرهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب طلمته السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أنَّ كل ثوب نظيف فهو مُقبول، فإنما عليك التزكية والتطهير. وأما القبول فمُبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحاً في قوله: ﴿فَدُّ أَفْلَحُ مَن زَكَّنْهَا ۞﴾ [الشّمس: ٩] ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثراً متضاداً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأنَّ بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يُبْقِ من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسمارُه، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه؛ إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه، فمن يتوهم أنَّ التوبة تصح ولاً تقبل كمن يتوهم أنَّ الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم، قد يقول باللسان: تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه: قد غسلت الثوب، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْلُ ٱلنَّوْمَةَ عَنْ عِبَايِمِه وَيَعْشُواْ عَنِ ٱلسَّيِّعَاتِ﴾ [الشّورى: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَهُو ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلنَّوْيَةَ﴾ [غافر: ٣] إلى غير ذلك من الآيات. وقال ﷺ: اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْيَةِ أَحَدِكُمْ....، الحديث. والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة. وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهُ حَرُّ وَجَلٌ يَبْسُطُ يَلَهُ بِالغَرْبَةِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ﴾(١)، وبسط اليد: كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وَهو قابل. وقال ﷺ: ﴿ وَقُو عَمِلْتُم الخَطَامِا حَتَى تَبُلُغَ السَّمَاءَ ثُمُّ نَدِمْتُمُ لَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ۚ ۚ ۚ ۚ وَقَالَ أَيْضًا : ۚ إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذُّنْبَ فَيَنْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ، فقيل : كيفَ ذلك يا رسول الله؟ قال:

⁽۱) حديث: «إن الله يبسط بده باقتوبة لمسيء الليل إلى النهار...» الحديث. رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ: «يبسط بده بالليل ليتوب مسيء النهار...» الحديث. وفي رواية للطبراني المسيء الليل أن يتوب بالنهار...» الحديث.

 ⁽۲) حديث: قلو صملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب قله عليكم؟ أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ قلو أخطأتم؟ وقال: قلم تبتم؟.

يَكُونُ نُصْبَ عَينِه ثائباً مِنْهُ فَارَاً حَتَّى يَدْخُلَ الجَنَّة (¹¹)، وقال ﷺ: ﴿كَفَّارَة اللَّنْبِ النَّدَامَة (¹¹)، وقال ﷺ: ﴿كَفَّارَة اللَّنْبِ النَّدَامَة (¹¹)، وقال ﷺ:

ويروى: ﴿أَن حَبِشَياً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهُ، إِنِي كَنْتَ أَعْمَلُ الفَوَاحِشُ فَهِلَ لِي مِنْ تَوْبِهِ؟ قَالَ: «نَعُمُّ اللهُ وَأَنْ أَعْمَلُهَا؟ قَالَ: «نَعُمُّ ، فَصَاحَ الْحَبِشِي صَيْحَة خَرَجِتُ فَوْلَى ثُمْ رَجِعُ فَقَالَ: يَا رَسُولُ اللهُ، أَكَانَ يَرَانِي وَأَنَا أَعْمَلُهَا؟ قَالَ: «نَعُمُّ ، فَصَاحَ الْحَبِشِي صَيْحَة خَرَجِتُ فَوْلَى ثُمْ رَجِعُ فَقَالَ: يَا رَسُولُ اللهُ، أَكَانَ يَرَانِي وَأَنَا أَعْمَلُهَا؟ قَالَ: «نَعُمُّ ، فَصَاحَ الْحَبِشِي صَيْحَة خَرَجِتُ فَهَا رُوحِهِ (**).

ويروى: أن الله عزّ وجلّ لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه (٤).

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُلْهِبنِ السَّيْقَاتِ كَمَا يُلْهِبُ المَاءُ الْوَسَخَ ﴾ (٥)، والأخبار في هذا لا حص.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن المسيب: أنزل قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّبِينَ عَفُولَا ﴾ [الإسرّاء: ٢٠] في الرجل بذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طُلَق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

ويروى: أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لئن عدت لأعذبنك، فقال: يا ربّ أنت أنت وأنا أنا، وعزتك إن لم تعصمني لأعودن، فعصمه الله تعالى.

⁽١) حديث: (إن العبد ليذتب فيدخل به اللجنة. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً، ولأبي تعيم في الحلية من حديث أبي هريرة: (إن العبد ليذنب المذب فإذا ذكره أحزته، فإذا نظر الله إليه أنه أحزته فقر له. . ٩ الحديث. وفيه صالح المري، وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث. ولابن أبي الدنبا في التوبة عن ابن عمر: (إن الله لينفع العبد بالذنب يلنبه) والحديث غير محفوظ، قاله المقيلي.

 ⁽۲) حديث: اكفارة الثنب الندامة أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، وفيه يحيى بن عمرو بن مالك البشكري ضعيف.

 ⁽٣) حديث: أن حبشياً قال: يا رسول الله، إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «نعم» الحديث، لم أحد له
 أصلاً.

⁽³⁾ حديث: إن الله لما لمن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح...» الحديث. أحرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد: «أن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أففر لهم ما استغفروني»، أورده المصنف بصيغة: ويروى كذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ فذكرته احتياطاً.

 ⁽٥) حديث: (إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماه الوسع» لم أجده بهذا اللفظ، وهو صحيح المعنى، وهو بمعنى: (أتبع السيئة الحسنة تمحها) رواه الترمذي، وتقدم قريباً.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقاً منه، فيغفر له.

ويروى: أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان؛ فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس.

وقال عبدالرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبدالرحيم ثوبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ نُخَفُرُ لَهُم مَّا فَذَ سَلَفَ﴾ [الانفال: ٣٨] فقال: إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً، ولقد بلغني: أن ثوبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

وقال عبدالله بن سلام: لا أحدَّثكُم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

وقال عمر رضي الله عنه: آجلسوا إلى التوّابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب عليٍّ.

وقال آحر: أنا من أن أحرم التوبة أخّوف من أن أحرم المغفرة، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة.

ويروى: أنه كان في بني إسرائيل شاب عبدالله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ـ ولا يرى شخصاً ـ: أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء النوبة فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عتى ولا يكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلومهم في الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم، وقرؤوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلاحتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أنَّ قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول: لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وأنه العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وأنّه إذا منع الماء ملة وجب العطش، وأنّه إذا دام العطش وجب الموت، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل

أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة.

فإن قلت: فما من تاثب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه؟ فأقول: شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة، فإنّ للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتي، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال فإنه هل يسهل؟ وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في اللواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة، وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتى في شروطها إن شاء الله تعالى.

李米辛

الركن الثاني

فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم: أنّ التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً، فمعرفة الذنوب إذن واجبة، والذنب: عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل، وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أوّلها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها، والله الموفق للصواب برحمته.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم: أنّ للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة ـ على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله -، ولكن تتحصر مثارات الننوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية ـ وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين آثاراً مختلفة . فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والغنى، وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً: وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصى كما استقصيناه في ربع المهلكات.

الثانية: هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر، وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال.

الثالثة: الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلّب، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنى واللواط والسرقة، وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفة السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجم على الناس بالضرب والشتم

والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرع عنها جمل من الذنوب، وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أوّلاً ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق. فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين وبعضها على البدين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البدين واضح.

قسمة ثانية: اهلم: أنّ الذنوب تقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد العباد. فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر: الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك: فالديوان وأقرب، يغفر: ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: منظالم العباد (١٠). أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها.

 ⁽۱) حديث: اللواوين ثلاثة: ديوان يغفر. . . ٤ الحديث. أحرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره، وله شواهد من حديث سلمان، رواء الطبراني.

 ⁽۲) حديث: العملوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنبت الكبائر؟ رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث عبدالله بن عمرو: اللكبائر الإشراك بالله وعثوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس، رواء البخاري.

رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿ إِن تَجْتَيَبُوا كَبَآبِرَ مَا نُنْبَوْنَ عَنْـهُ ﴾ [النَّساء: ٣١] فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة. وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشر حمعتها من جملة الأخبار (١٠)،

 (1) الأخبار الواردة في الكبائر عكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال: الكبائر سبع عشرة جميعها من جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم: الشَّرك بالله، والإصرار على معصيته، والقبوط من رحمته، والأمن من مكره، وشهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس، والسحر، وشرب الخمر، والمكر، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا، والزني، واللواط، والقتل، والسرقة، والفراد من الزحف، وعقوق الوالدين. انتهى. وسأذكر ما ورد منها مرفوعاً، وقد تقدم أربعة منها في حديث عبدالله بن عمرو، وفي الصحيحن من حديث أبي هزيرة: فاجتنبوا السبع الموبقات؛ قالوا: يا رسول الله، وما هي؟ قال: فالشوك بالله والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الرباء وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقلف المحصنات المؤمنات؛ ولهما من حديث أبي بكرة: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال: «الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور ـ أو قال: قول الزور ـ "، ولهما من حديث أنس: سئل عن الكبائر قال: «الشوك بالله، وقتل النفس، وهقوق الوالدين، وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور، أو قال: شهادة الزور،، ولهما من حديث ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: ﴿أَنْ تَجِعَلُ لَهُ نَدَأُ وَهُو خَلَقْكُ، قَلْتَ؛ ثُمَّ أي؟ قال: ﴿أَنْ تَقْتُلُ ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت ثم أي؟ قال: «أن تزائي حليلة جارك». وللطبراني من حديث سلمة بن قيس ا «إنما هي أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالمحق، ولا تزنوا، ولا تسرقواك، وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت • بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ١٠ وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس: «المخمر أم الفواحش وأكبر الكبائرا وفيه مرقوفاً على عبدالله بن عمرو «أعظم الكبائر شرب الخمر» وكلاهما ضعيف. وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن. أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: اللشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، وله من حديث بريدة: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ومتع قضل الماء، ومنع الفحل؛ وفيه صالح بن حبان صعقه ابن معين والنسائي وغيرهما، وله من حديث أبي هريرة: «الكبائر أولهن الإشراك بالله؛ وفيه: ﴿والانتقال إلى الأحراب بعد هجرته، وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف، وللطيراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حثمة في الكبائر «والتعرب بعد الهجرة» وفيه ابن لهيعة، وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري: «الكبائر سبع» وفيه «والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة» وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني، وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أميه: «الكبائر تسع» فذكر منها قواستحلال البيث الحرام»، وللطبراني من حديث واثلة: ﴿إِنْ مِنْ أَكْبُر الْكبائر أَنْ يقول الرجل على ما لمم أقل، وله أيضاً من حديثه: «إن من أكبر الكيائر أن ينتفي الرجل من ولده»، ولمسلم من حديث جابر: «بين الشوك _ أو الكفر ترك الصلاة»، ولمسلم من حديث عبدالله بن عمروا "من الكبائر شتم الرجل والديم، ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد: «من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: أنه ﷺ مرَّ على قبرين فقال: ﴿إِنهِما لَيعَلْبَانَ وَمَا يَعَلَّبَانَ فَي كبير وإنه لكبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله؛ الحديث. ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة: «أما أحدهما فكان بأكل لحوم الناس؛ الحديث، ولأبي داود والترمذي من حديث أنس: «عرضت عليّ ذنوب أمتى قلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتبها رجل ثم نسيها، سكت عليه أبو داود واستغربه البحاري والترمذي. وروى ابن أبي شببة في التربة من حديث ابن عباس: الا صغيرة مع إصرار، وفيه أبو شببة الخراساني، والحديث منكر يعرف به. وأما الموقوقات فروى الطبراني والبيهتي في الشعب عن أبن مسعود قال: «الكياثر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله.

وروى السيهقي فيه عن ابن عباس قال «الكيائر الإشراك بالله» والميأس من روح الله، والأمن من مكر الله، ومقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله، وقلف المحصنات، وأكل مال البياء =

وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم؛ أربعة في القلب وهي: الشرك نالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربع في اللسان وهي: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس ـ وهي التي يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً، وقيل: هي التي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً ولو سواكاً من أراك. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار ..، والسُّحر ـ وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة ـ. وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم. واثنتان في الفرج وهما: الزنى واللواط. واثنتان في اليدين وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي: الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد وهي: عقوق الوالدين. قال: وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر تسمهما، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما، وإن يسباه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما، هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء؛ إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر، وهي جناية على الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرّض له، وضرب البتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله، كيفُ وفي الخبر: المِنَ الْكَبَائِرِ السَّبْتَانِ بِالسَّبَّةِ وَمِنَ الكَبَائِرِ السَّيْطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ المُسْلِمِ،(١)، وهذا زائد على قذف المحصن. وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدِّها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر(٢). وقالت طائفة: كل عمد كبيرة، وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وكشف الغطاء عن هذا: أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا: لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة، والمراد بها كقول القائل: السرقة حرام أم لا؟ لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أوّلاً ثم البحث عن وجوده في السرقة؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأنَّ الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب

والسحر، والزنى، واليمين الغموس الفاجرة، والغلول، ومنع الزكاة، وشهادة الزور، وكنمان الشهادة، وشرب الخمر،
 وترك العملاة متعمداً وأشياء مما فرضها الله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم».

ودوى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس: «كل ذنب أصر عليه العبد كبيرة»، وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه. ودوى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله: «لا صغيرة مع الإصرار»، وإسناده حيد؛ فقد اجتمع من الممرفوعات والموقوقات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون، إلا أن بعضها لا يصع إسناده كما تقدم، وإنما ذكرت المرقوقات حتى يملم ما ورد في المرفوع وما ورد في الموقوف. وللبيهقي في الشعب عن أبل عباس أنه قيل له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى سبعين أقرب، وروى البيهقي أيضاً فيه عن ابن عباس قال: «كل ما نهى الله عنه كبيرة».

⁽١) حديث. امن الكبائر السبتان بالسبة، ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم، عزاه أبر منصور الديلمي في مسد الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد، والذي عندهما من حديثه: امن أوبي الربا استطالة الرجل في عرض المسلم بغير حقه. كما تقدم.

 ⁽۲) حديث أبي سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله على من الكبائر. أخرجه أحمد والبزار بسند صحيح وقال: امن الموبقات، بدل الكبائر. ورواه البخاري من حديث أنس، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال: صحيح الإستاد

إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزِّني، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه، صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة، ونعني بوصفه بالكبيرة: أنَّ العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أوجب الحدِّ عليه مصيراً إلى أنَّ ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهى عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة؛ إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردّد مين هذه الجهات، ولا يبعد تتريلها على شيء من هذه الاحتمالات، نعم، من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَيْبُواْ كَبَآيِرَ مَا نُنْهَٰوَنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيَعَايَكُمْ﴾ [النِّساء: ٣١] وقول رسول الله ﷺ: «الصَّلَوَاتُ كَمَّارَاتُ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلاَّ الكَبائِرِ» فإن هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك: أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه، فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لم يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله على بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشراً أو حمساً ويفصلها، فإن لم يرد هذا، مل ورد في بعض الألفاظ: «ثَلاثُ مِنَ الكَبَائِرِ، (١)، وفي بعضها: «سَبِّعٌ مِنَ الكَبَائِرِ، (٢)، ثم ورد: «أَنَّ السَّبَّتَيْنِ بِالسَّبَّةِ الوَاحِدَةِ مِنَ الكَبَائِرِ، وهو خارجَ عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟ وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها، نعم، لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق. وأما أعيانها فنعرفها بالمظن والتقريب، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته. وبيانه: أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ لَلِّهِنَ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿ كُ [الذَّاريَات: ٥٦] أي ليكونوا عبيداً لي. ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية، ولا بدُّ أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعنيُّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «اللُّنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ»، فصار حفظُ الدنيا أيضّاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسدُّ باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر، ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس، ويليه باب ما يسدّ المعايش التي بها

 ⁽۱) حديث: اثلاث من الكبائر؟ أخرجه الشيخان من حديث أبي بكرة: «ألا أنبثكم بأكبر الكبائر ـ ثلاث ٢٠ الحديث، وقد تقدم.

⁽٢) حديث: «سبع من الكبائر» رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد: «الكبائر سبع»، وقد تقدم، وله في الكبير من حديث عبدالله بن عمر: «من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر...» الحديث، ثم عدهن سبعاً. وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات».

 ⁽٣) حديث: الله مزرعة الآخرة لم أجده مهذا اللفظ مرفوعاً، وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم
 الأخلاق من حديث طارق بن أشيم: انعمت الغار الله بنا لمن تزود منها لآخرته الحديث. وإسناده ضعيف.

حياة الناس، فهذه ثلاث مراتب. فحفظ المعرفة على القلوب، والحياة على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصوّر أن تختلف فيها الملل، فلا حجوز أنّ الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب:

الأولى: ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر؛ إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله، ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً؛ الأس من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضاً عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً، ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه بأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر، وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل، وإلى ما يشك فيه، وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع.

المرتبة الثانية: النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود؛ إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنى واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود.

وأما الزنى: فإنه لا يفوت أصل الوجود، ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها، بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنى ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنى مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح، ويتبغي أن يكون الزنى في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله، ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل، وينبغي أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته.

المرتبة الثالثة: الأموال؛ فإنها معايش الخلق، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس، إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها، وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها، نعم، إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق:

أحدها: الخفية؛ وهي السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً كيف يتدارك.

الثاني: أكل مال اليتيم؛ وهذا أيضاً من الخفية وأعني به في حق الولي والقيم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف، وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه.

الثالث: تفويتها بشهادة الزور.

الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس؛ فإن هذه طريق لا يمكن فيها الندارك، ولا يجوز أن

إحياء عُلوم الدّين

تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشدّ من بعض، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس. وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها.

وأما أكل الربا: فليس إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع، ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع، وإن عظم الشرع الرّبا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة، والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك، وأكثر ميل الظنّ إلى أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضرورياً في الدين، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين. أما الشرب لما يزيل العقل: فهو جدير بأن يكون من الكبائر، وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً، لأن العقل محظوظ كما أنَّ النفس محظوظة، بل لا خير في النفس دون العقل، فإزَّالة العقل من الكبائر، ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر، فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة، وإنما هو شرب ماء نجس، والقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع، وليس في قوّة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع، ولا فللتوقف فيه مجال. وأما القذف: فليس فيه إلا تناول الأعراض، والأعراض دون الأموال في الريبة، ولتناولها مراتب، وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزني، وقد عظم الشرع أمره، وأظن ظناً غالباً أن الصحابة كانوا يعدّون كل ما يجب به الحدّ كبيرة، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن، ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرِّده لا يدل على كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأنَّ العدل الواحد إذا رأي إنساناً يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته، فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضرورياً في مصالح الدنيا، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات، فإذن: هذا أيضاً يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظن أنّ له أن يشهد وحده، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر.

وأما السحر: فإن كان فيه كفر فكبيرة، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره. وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين: فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزني، وضربهم، والظلم لهم بغصب أموالهم، وإخراجهم من مساكنهم ويلادهم، وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر ـ إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه ـ، فالتوقف في هذا أيضاً غير بعيد، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر. فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع، وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً، وإلى ما ينبغي أن تكفره، وإلى ما يتوقف فيه، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات، وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة، وإذن لا مطمع فيه، فطلب رقع الشك فيه محال.

فإن قلت: فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدِّها، فكيف يردِّ الشرع بما يستحيل معرفة حدِّه؟

فاعلم: أنَّ كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرِّق إليه الإنهام، لأن دار التكليف هي دار الدنيا، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزني وغيرهما، وإنما حكم الكبيرة أنّ الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرؤون على الصغائر اعتماداً على الصلوات المخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَـٰكِوْا كَمَا إِبْرَ مَا لُنْهُونَ عَنْـهُ لُكَفِّرٌ عَنكُمُ سَيِّعَاتِكُمُ ﴾ [النّساء: ٣١] ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغبرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإنَّ مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشدَّ تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه؟ فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنيناً أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز، أو كان قادراً ولكن امتنع نخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم، من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع، فكل هذه أحكام أخروية، ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص، ولم يرد النص بعد ولا حدّ جامع، بل ورد بألفاظ مختلفات، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ الصَّلاَّةُ إِلَى الصَّلاةِ كَفَّارةً ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةً إِلاَّ مِنْ ثَلَاثِ: إِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَتَرْكُ السُّنَّةِ، وَنَكْتُ الصَّفْقَةِ (١٠) ، قيل: ما ترك السنة؟ قيل: الخروج عن الجماعة. ونكث الصفقة: أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حدَّ جامع؛ فيبقى لا محالة مبهماً.

فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة، وهذا من أحكام الدنيا! فاعلم: أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر، فلا خلاف في أنّ من يسمع الملاهي، ويلبس الليباج، ويتختم بخاتم الذهب، ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أنّ هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعي رضي الله عنه: إذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات. كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وسماع الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائداً على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل الغضب زائداً على المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصوّر أن ينقك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرّد لأمور الآخرة، ويجاهد نفسه مدّة بحيث يبقى على سمعته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده وبطلت الأحكام والشهادات. وليس لبس الحرير وسماع

 ⁽١) حديث: «العملاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة.
 الحديث. أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال: صحيح الإسناد.

الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل، فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردّها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أنّ المباح يصير صغيرة بالمواظبة، كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره، فهذا ببان حكم الصغائر والكبائر.

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا:

اعلم: أنّ الدنبا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الغيب والملكوت، وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت، وبالآخرة حالتك بعد الموت، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك، يسمى القريب الداني منها دنيا، والممتأخر آخرة. ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة، فإنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك، وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت، ولا يتصوّر شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَلْكِ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلتَّارِثُ وَمَا يَعْفِلُهَا إِلّا الْمَالِدُونَ في النقل المناس ولذلك قال الله الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت، ولذلك قال على: «النّاسُ نَيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا الْآنَ، وما سيكون في البقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال، وأعني بكثرة الأمثال ما نعرفه من علم التعبير، ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة.

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال: إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر، قال: صدقت. وجاء رجل آخر فقال: رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون، فقال: إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سبيت في صغره. وقال له آخر: رأيت كأني أقلد الدرّ في أعناق الخنازير، فقال: إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال، والتعبير من أوّله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال، وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقاً، وإن نظر إلى صورته وجده كاذباً، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والحتم به على الفروج رآه كاذباً، فإنه لم يختم به قط، وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا يضرب الأمثال، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم، والنائم بضرب الأمثال، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم، والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال على: «قلبُ المثل عادق، ولذلك قال المناه الجاهل قلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً، فيئبت نه تعالى يداً وأصبعاً، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً. وكذلك في قوله على الأمثال الذوم تعبيراً، فيئبت نه تعالى يداً وأصبعاً، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً. وكذلك في قوله على الأم الله المنه الله عن قوله علواً كبيراً. وكذلك في قوله المؤن الله الله عن قوله علواً كبيراً، وكذلك في قوله المؤن الله المناه الله عن قوله علواً كبيراً، وكذلك في قوله المؤن المؤن

حديث: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» لم أجده مرفوعاً، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب.

 ⁽٢) حديث: قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، تقدم.

خَلَقَ آهَمَ عَلَى صُورَتِهِ ۚ ` ، فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك، تعالى الله عن قوله علوًّا كبيرًا. من هأهنا زل من زلَّ في صفات إلهية حتى في الكلام؛ وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات، والقول فيه يطول، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده، كقوله ﷺ: ايْوْتَى بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صُورَةٍ كَبْش أَمْلَحَ فَيُذْبِعُهُ (٢) ، فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول: يا سبحان الله، الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسماً؟ وهل هذا إلا محال، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقي عن معرفة أسراره فقال· ﴿وَمَا يَتَّقِلُهَمَا ۚ إِلَّا ٱلْمَـٰلِلِمُونَ﴾ [القنكبوت: ٤٣]، ولا يدري المسكين أن من قال: رأيت في منامي أنه جيء بكبش وقيل: هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح، فقال المعبر: صدقت، والأمر كما رأيت، وهذا يدل على أن هذا الوباء يتقطع ولا يعود قط، لأن المذبوح وقع اليأس منه، فإذن: المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته، وترجع حقيقة ذلك إلى أنَّ الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرَّفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحًا؛ فالرَّسل أيضاً إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة، حكمة من الله ولطفاً بعباده، وتبسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل، فقوله: النُّؤنِّي بِالمَوْتِ فِي صُورَةٍ كَبْشِ أَمْلُحُ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت، وقد جِبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها، ولذلك عبر القرآن بڤوله: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [الأنعام: ٧٣] عن نهاية القدرة، وعبر ﷺ بقوله: ﴿ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَينِ مِنْ أَصَابِع الرَّحْمُنِ، عن سرعة التقليب. وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في اكتاب قواعد العقائد، من ربَّع العباداتُ فلنرجعُ الآن إلى الغرض، فالمقصود: أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا يضرب المثال، فلتفهم من المثل الذي نضربه معماه لا صورته. فنقول: الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلاً البتة، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأحناس فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين. ومثاله في الدنيا: أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم مذة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون، فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلا يقتل إلَّا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلوَّ درجته، ولا يخلي إلا معترفاً له برثبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولمَّ يخدم ليخلع عليه، ولا يخلع إلا على من أبلي عمره في الخدمة والنصرة، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بجزّ الرقبة أو تنكيلاً

⁽١) حديث: فإن الله خلق آدم على صورتها. تقدم.

⁽٢) حديث: البؤتي بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح. . . ا الحديث. متفى عليه من حديث أبي سعيد.

بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدّة وطول المدّة وقصرها واتحاد أتواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم، فتقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر، فكذلك فافهم أنّ الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك، ومن معذب مدّة، ومن ناج يحل في دار السلامة، ومن فائز. والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر (۱)، وكذلك الهائكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية توزعها عليها.

الرئبة الأولى: وهي رئبة الهالكين ونعني بالهالكين الأيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجرّدين للعنبا المكذبين بالله ورسله وكتبه، فإن السعادة الأخروية في الفرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد؛ وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة، وكل محجوب من محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة، فهو لا محالة يكون مخترقاً نار جهنم بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحور العين، وإنما مطالبنا اللقاء، ومهربنا من الحجاب فقط، وقالوا: من يعبد الله بعوض فهو لئيم؛ كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، قأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها، إذ نار الفراق فلا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد، ولذلك قبل:

وفي فسؤاد السمسحسب نسار جسوى أحسر نسار السجسحسيسم أبسردهسا

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة؛ إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا، فقد رئي من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه، وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال؛ لأنّ الغضب نار في القلب، قال رسول الله على: «الغضب قطعة من الناره (٢)، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه، فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفزق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب، ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحقره

حديث وإن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة، أخرحه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه: وواطولهم مكثاً فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة، وذلك سبعة آلاف سنة.

 ⁽٢) حديث: الغضب قطعة من النار؟ أخرجه الترمدي من حديث أبي سعيد نحوه، وقد تقدم.

بالإضافة إلى ألم الجسم، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان، وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً، ولم يعدّ ذلك ألماً وقال: العدُّو في الميدان مع الصولجان أحب إليَّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لأثر الهريسة والحلواء، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً، ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذاً، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس، كمن لا سمَّع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان، وليس لكل إنسان قلب؛ ولو كان لما صح قُولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكَرَىٰ لِمَن كَانَ لَمُ قَلْبُ﴾ [ق: ٣٧] فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلُّب. ولست أعنى بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر، بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر، واللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته، ولله الخلق والأمر جميعاً، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَسْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] هو الأمير والملك؛ لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيباً، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد. من عرفها فقد عرف نفسه، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، وعند ذلك يشم العبد مبادىء روائح المعنى المطوي تحت قوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ». ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه، وإلى المتعسفين في طريق تأويله، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر، فالحقيقة: فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وحكمته يختص بها من بشاء: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكَمَةَ فَتَدَّ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَفَرَة: ٢٦٩] ولنعد إلى الغرض، فقد أرخينا الطول وطوَّلنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب، فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين، وشهادة ذلك من كتاب الله وسئة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر، فلذلك لم نوردها.

الرتبة الثانية: رتبة المعذبين: وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوقاء بمقتضاه، فإنّ رأس الإيمان هو التوحيد، وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى: ﴿ أَلِي اللهُ ثُمَّ مُرَّهُمْ فِي خَوْضِهمَ يُلْمَبُونَ﴾ بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى: ﴿ اللِّينَ قَالُواْ رَبُّنَا أَلَّهُ ثُمَّ أَسْتَقَنَمُوا﴾ [الانتفام: ٣٠] وهو أن تذر بالكلية غير الله، ومعنى قوله تعالى: ﴿ اللِّينَ قَالُواْ رَبُّنَا أَلَّهُ ثُمَّ أَسْتَقَنمُوا﴾ ولا تقسلت: ٣٠] ولما كان الصراط الموصوف في الآخرة؛ فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير الله إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك المستقيم، فذلك يقتضان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن، فيكون كل ماثل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين، ولكن شدّة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدّة إنما يكون بسبب أمرين: أحدهما: قرّة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته، وإذ لا يخلو بشر في غالم الأمر عن أحدهما: قرّة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته، وإذ لا يخلو بشر في غالم الأمر عن

واحد من الأمرين. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تِنكُمُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَلِّكَ حَتْمًا مَفْضِتَنا ۞ ثُمَّ نُنجِى ٱلَّذِينَ ٱتَّقُواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّلِلِمِينَ فِيهَا جِئِيًّا ۞﴾ [مريّم: ٧٣،٧١]، ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنا نيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي: يا حنان يا منان^(١) قال الحسن: يا ليتني كنت ذلك الرجل. واعلم: أن في الأخبار ما يدل على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة، وأن الاختلاف في المدّة بين اللّحظة وبين سبعة آلاف سنة؛ حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد، وأنَّ الاختلاف بالشَّدَّة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدّة والشدّة وهو اختلاف الأنواع؛ إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد، واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب، والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره؛ فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع؛ وهي بحسب اختلاف قوّة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها. أما شدّة العذاب فبشدّة قبح السينات وكثرتها، وأما كثرته فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات، وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّمِ لِلْغَبِيدِ﴾ [فَصَلَت: ٤٦] ويقولُه تعالى: ﴿ أَلِيُّومَ غُنَّزَىٰ كُلُّ نَفَيِن بِمَا كَسَبَّتْ ﴾ [غَانر: ١٧] ويقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَشَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۞﴾ [النَّجْم: ٣٩] ويقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلُ مِثْقَسَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَسَرَّهُ ۞ وَمَن يَعْمَلُ يثْقَكَالُ ذَرَّةِ شَـرًّا يَكُمُ ۗ ﴿ الرِّنزَلَةِ: ٨٠٧] إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجع؛ إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينًا ﷺ: ﴿ سَبَقَتْ رَحْمَتِي خَصَبِي ۚ () ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن نَكُ حَسَنَةً يُطَلُّوهُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّذُهُ أَجُّرًا عَظِيمًا﴾ [النِّساء: ٤٠] فإذن: هذَّه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً، ومستنده ظواهر الأخبار، ونوع حدس يستمذ من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض ـ أعنى الأركان الخمسة ـ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرّقة لم يصر عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته؛ إذ ورد في الأخبار: أن الصلوات الخمسة والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهنّ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفراً للصغائر، وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية، نعم، التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرّبين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى، فكذلك يتمع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام يصدّقون مما

⁽١) حديث: المن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان، أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملي عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون.

⁽٢) حديث: قسبقت رحمتي غضبي، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

يستمعون ويستمرّون عليه، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله؛ حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، فيتضح أنَّ الكل إلى الله مرجعه ومصيره؛ إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله، فهذا الصنف هم المقرّبون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى، وهم أيضاً على أصناف: فمنهم السابقون ومنهم من دونهم، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى. ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر؛ إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق. وإنما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله، فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم. وأما المؤمن إيماناً تقليدياً فمن أصحاب اليمين، ودرجته دون درحة المقرّبين، وهم أيضاً على درجات؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته الأدنى من درجات المقرّبين، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها؛ أعني الأركان الخمسة التي هي: النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج. فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام، فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجلُّ التحق بمن لم يرتكب؛ لأنَّ التائب من الذَّنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلاً، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت؛ إذ ربما يكون موته على الإصرار سببًا لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإن التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للاتحلال بأدني شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان ـ إلا أن يعفو الله ـ عذاباً يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدّة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء منَّة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليبن: ففي الخبر: «آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّها هَشَرَة أَضْعَافِ، (١)، فلا تظن أَنَّ المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام، كأنَّ يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين؛ فإنّ هذا جهل بطريق ضرب الأمثال، بل هذا كقول القائل: أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار؛ فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها، فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من اللهب والفضة، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال: أعطيته عشرة أمثاله كان صادقًا، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرّد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر، فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول: ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال، ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله: إني أعطيته عشرة أمثاله، والكاذب بالتحقيق هو الصبي، ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال، وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال، فعند ذلك ينكشف له الصدق، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر. صدق

 ⁽١) حديث: (إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها هشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود.

رسول الله ﷺ في هذه الموازنة؛ إذ يقول ﷺ: ﴿الجَنَّةُ فِي السَّمْوَاتِ، ﴿ ۚ ، كَمَا وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة، وكذلك تفهيم البدوي، وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة، فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة، ولذلك قال ﷺ: الرَّحَمُوا ثَلاثَةً: عَالِماً بَيْنَ الجُهَّالِ، وَغَتِيُّ قَوْم افْتَقَرَ، وَعَزِيزَ قَوْمٌ ذَنَّهُ (* أَ، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب، ومقاساتُهم لقصور عقول الأمةُ فتنة لهم وامتحان وَابتلاء من الله؛ وبلاء موكِل بهم سبقِ بتوكيلهِ القضاء الأزلي، وهو المعني بقولُه عليه الصلاة والسلام: «البَلاءُ مُوكَلُ بِالأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ،^(٣)، فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن؛ فإنّ بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم؛ إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً، ولذلك لما تأذي رسول الله على بكلام بعض الناس قالَ: ﴿رَحِمَ اللَّهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ﴾، فإذن: لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين، وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّه يُعْطِي آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مِثْلَ اللُّنْيَا عَشْرَ مَرَّاتٍ»، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس، وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، عكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله؛ إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله ـ لا محالة ـ نفسه، ونزل إلى رتبة البهائم، وترك الترقي إلى الأفق الأعلى، وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرّضاً لنقمته إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة، فإنَّ البهيمة تتخلص بالموت، وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه،

 ⁽١) حديث: «كون الجنة في السنوات»: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه: قفإذا سألتم الله فاسألوه المقردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه هرش الرحمن».

 ⁽۲) حديث: قارحموا ثلاثة: عالماً بين الجهال. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان
عن أنس، وعيسى ضعيف، ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال: «عالم تلاهب به الصبيان» وفيه أبو البحتري
واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين.

⁽٣) حديث: «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، والن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء»؟ فذكره دون ذكر الأولياء» وللطبراني من حديث فاطمة: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون... » الحديث.

⁽٤) حديث: «رحم الله أخى موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر». أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود.

وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة؛ إذ المرجع والمصير للكل إليه؛ إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَيِّ إِدِ ٱلْمُجْرِمُونَ كَاكِمُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [السَّجنة: ١٧] فبين أنهم عند ربهم، إلا أمهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه، فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويُعطىٰ مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر، ولا يخرج من النار إلا موحد. ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه: لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغانمين عن ماله، ومدَّة الرقبة والمال مدَّة الحياة، محيث لا تُبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان، وإنما ينفع الصدق في التوحيد، وكمال التوحيد أن لا برى الأمور كلها إلا من الله. وعلامته: أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه؛ إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل، وهذا التوحيد متفاوت، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال، ومنهم من له مثقال، ومنهم من له مقدار خردلة وذرّة، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أوّل من يحرج من النار. وفي الخبر يقال: ﴿أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قُلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارِ مِنْ إيمَانِ (١٠)، وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان، وما بين المثقال والذرّة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة، والموازنة بالمثقال والذرّة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العبادُ هو الديوان الذي لا يترك، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها؛ ففي الأثر: إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال، لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة: يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقى طالبون كثير، فيقول الله تعالى: ﴿القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار». وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم؛ إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به، وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال: لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها. وقال هو وغيره: ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي ـ فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإنَّ ذلك ظنَّ ا يصيب في أكثر الأحوال، ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم؛ إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها، فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا، وعما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء

 ⁽١) حديث: اأخرجوا من النار من في قلبه مظال دينار من إيمان الحديث. تقدم.

ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها، فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة؛ فإنّ الاعتماد على التقوى وان كثرت سيئاته الظاهرة؛ وان الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب، وهو أضمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره، ولكن قد انكشف لأرباب الغلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّهِ لِلنّبِيدِ﴾ [فصلت: ٢٦] ولا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله لَا يَشْهِ الله الله الله الله الله الله الله على وسعيه هو الذي يرى، وكل نفس بما كسبت رهينة، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله لا يُمّرِهُ مَا يقرِهٍ حَتَى يُفَرّدُوا مَا الشيم، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر؛ إذ البصر يمكن الغلط فيه؛ إذ قد يرى المبعد قريباً والكبير صغيراً، ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْمُؤَادُ مَا الشَّانِ في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْمُؤَادُ مَا الشَّافِ فَي انقتاح بها المَا الشَّافِ المَا المَالِي الشَّهُ مَا اللهُ الله المَالِي الشَّهُ المَا المَالَّدِ المَالِي الشَّهُ المَالَدُ المَالِي الشَّهُ المَالَدِ المَالِي الشَّهُ اللهُ المَالِي الشَّهُ المَالِي المَالِي الشَّهُ المَالَدُ المَالِي المَالِي الشَّهُ المَالَدُ المَالِي المَالَدِ المَالِي المَالِي

الرتبة الثالثة: رتبة الناجين: وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، وعاشوا على البله وعدم المعرقة فلم يكن لهم معرفة ولا جدود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف، وحلول طائفة من المخلق (١) فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار ومن أنوار الاعتبار؛ فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم؛ فهذا مظنون وليس بمستيقن، والاطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوة، ويبعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء، والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة. حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله على وقال: هومًا يُلريك» (٢) لما مات بعض الصبيان أغلب في هذا المقام.

⁽۱) حديث: «حلول طائفة من الحلق الأعراف» أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري: سئل رسول الله مجمع عن أصحاب الأعراف فقال: «هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا اللجنة، وهم على سور بين المجنة والنار. . . ؟ الحديث. وفيه عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبدالرحمن المدني عن أبيه مختصراً، وأبو معشر تجيح السندي ضعيف، ويحيى بن شبل لا يعرف. وللحاكم عن حذيقة قال: «أصحاب الأهراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سبئاتهم عن الجنة . . . ؟ الحديث. وقال: صحيح على شرط الشيخين، وروى الثملي عن ابن عباس قال: «الأهراف موضع هالي في المصراط عليه العباس وحمزة وهلي وجعفر . . . ؟ الحديث، هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين.

 ⁽۲) حديث عائشة: أنها قالت لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك رسول الله وقال: «ما يعريك» رواه مسلم، قال المصنف: والأخبار في حق الصبيان متعارضة.

قلت: روى المخاري من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبيّ ﷺ وفيه: • وأما الرجل الطويل في الروضة فإبراهيم=

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقرّبون السابقون، فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين، وهؤلاء هم المقرّيون وما يلقي هؤلاء يجاوز حدّ البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى: ﴿ فَلَا نَمْلُمُ نَفْشٌ مَّا أَخْفِي لَمُهُم مِّن قُرَّةِ أَعْبُنِ ﴾ [السَّجذة: ١٧] وقوله عزُّ وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم، وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلي والأساور فإنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها، ولا يطلبون إلا نُذَة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات، ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار؛ فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه في حال الاستغراق غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في بدنه، ويعبر على هذه الحالة بأنه فني عن نفسه، ومعناه: أنه صار مستغرقاً بغيره، وصارت همومه هماً واحداً وهو. محبوبه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصوّر أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصوّر أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجابٍ على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطبية: ﴿وَإِنَ أَلَدَّارَ ٱلْآجِرَةَ لَهِي ٱلْحَبِّوَانُ لَقَ كَاتُواْ بَعْ لَمُوبَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]. فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه.

عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة عقيل: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: دوأولاد المشركين، وللطبراني من حديثه: سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «هم خدمة أهل الجنة» وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة، وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب، وقد ضعفه ابن حبان. وللنسائي من حديث الأسود بن سريع: «كنا في غزاة لنا. . . • الحديث - في قتلي الذرية، وفيه «ألا إن خياركم أبناء المشركين» ثم قال: ولا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة. . . > الحديث. وإسناده صحيح، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «كل مولود يولد على الفطرة. . . ، الحديث، وفي رواية لأحمد: «ليس مولود يولد إلا على هذه الملة؛ ولأبي داود في آخر الحديث: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ فقال: «الله أصلم بما كانوا عاملين»، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: سئل النبي على أولاد المشركين فقال: «الله أهلم بما كانوا هاملين، وللطبراني من حديث ثابت بن الحارث الأنصاري: كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فقال النبق ﷺ: «كذبت يهود، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سميد. . . ٤ الحديث. وفيه عبدالله بن لهيعة، ولأبي داود من حديث ابن مسعود: «الوائدة والموؤودة في النار»، وله من حديث عائشة: قلت با رسول الله ذراري المؤمنين؟ فقال: «مع آباتهم» قلت ابلا عمل؟ قال: «الله أهلم بما كانوا عاملين» قلت: فلراري المشركين؟ قال: «مع آباتهم» قلت: بلا عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين، وللطبراني من حديث حديجة: قلت. يا رسول الله، أبن أطفالي منك؛ قال، وفي الجنة، قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أهلم بما كانوا هاملين، قلت: أطفالي قبلك؟ قال: «في النار» قلت: بالا عمل؟ قال: القد علم الله ما كانوا هاملين، وإسناده منقطع بين عبدالله بن الحارث وخديجة. وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين فهم من آبائهم، وفي رواية فهم منهم،.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

اعلم: أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها، ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "خَيْرُ الأَعْمَالِ أَدْوَمُها وَإِنْ قُلُّ ('')، والأشياء تستبان بأضداها، وإن كان النافع من العمل هو المدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أنّ الكبيرة قلما يتصوّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصوّرت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

ومنها: أن يستصغر الذنب، فإنّ الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره كبر عند الله تعالى؛ لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدّة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويله بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة؛ فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر «المؤمن يرى ذنيه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنيه كلباب مرّ على أنفه فأطاره (٢)، وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عطم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة. وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين: وإنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله تخالى من الموبقات؛ إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة رسول الله تعالى من الحبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف؛ لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجع به؛ لشدّة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت

⁽١) حديث: فخير الأعمال أدومها وإن قلته متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: فأحبه، وقد تقدم.

⁽٢) حديث: «المؤمن برى ثنبه كالعبل فوقه. . . » الحديث. أخرجه البخاري من رواية الحاوث بن سويد قال: حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي عليه والآخر عن نفسه، فذكر هذا وحديث: «لله أفرح بتوية العبد» ولم يبين المرفوع من الموقوف، وقد رواه البيهتي في الشعب من هذا.

عرضه، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته، وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته، وكيف استخففت به، وكيف لبست عليه؟. ويقول المعامل في التجارة: أما رأيت كيف روِّجت عليه الزائف، وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟. فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب علبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره؛ بأن يذكره بعد إتبانه أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهبئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الخبر: «كُلُّ النَّاس مُعَافَى إلاَّ المُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبِ قَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيهِ فَيُصْبِحُ فَيَكُشِفُ سِثْرَ اللَّهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْهِ اللهِ وَهذا لأن من صفات الله ونعمه: أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة. وقال بعضهم: لا تذنب، فإن كان ولا مدّ فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنْفِقُونَ وَاللّهُ المرء من أخيه حرمة وَ عَلْمَ من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه.

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين وتردّده عليهم، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، وتعدّيه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا البعاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. وفي الخبر: «من سن سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من صمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً» (٢)، قال تعالى: ﴿وَنَكُنُكُ مَا فَدَعُوا وَوَالَرُهُمُ لا إِس: ١٦] والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل، وقال ابن عباس: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق، وقال بعضهم: مثل زلة العالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق، وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

وفي الإسرائيليات: إنَّ عالماً كان يضل الناس بالبدعة، ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً،

حديث: (كل الناس معافى إلا المجاهرين. ١٠٠ الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة بلمط: (كل أمتيه، وقد تقدم.

 ⁽۲) حدیث: «مَنْ سنْ سنة سیئة قملیه وزرها ووزر من عمل بها. . . ٤ الحدیث، أخرجه مسلم من حدیث جریر بن عبدالله ، وقد تقدم فی آداب الکسب.

فأرحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له: إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أصللت من عبادي فأدخلتهم النار، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى إخفاؤه، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير، ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها.

* * *

الركن الثالث

في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا: أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلاً بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط فلا بدّ من بيانها: أما العلم: فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي. وأما الندم: فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته: طول الحسرة والحزن وانسكاب المدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه، وأي عقوبة أشد من النار، وأي شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي، وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيباً: أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم بأشد من الله كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم: رقة القلب وغزارة الدمع، وفي الخبر: «جَالِسُوا التَّوَابِينَ فَإِنَهُمْ أَرَقُ الْفَعِدَة اللهُ على علامته: أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة.

وفي الإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه _ وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته _ فقال: وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه.

فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟.

⁽١) حديث: فجالسوا التوابين فإنهم أرق أفئد، لم أجده مرفوعاً، وهو من قول عون بن عبدالله. رواه ابن أبي الدنيا في النوية قال: فبالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب، وقال أيضاً: فالموصظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب، وقال أيضاً: فالتائب أسرع دمعة وأرق قلباً».

قأقول: من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه، ثم مرض وطال مرضه وألمه ونتاثر شعره وفلجت أعضاؤه، فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت: لا، فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً لشبهه به، فوجدان التاثب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى، متهاوناً بالذنوب، مصراً عليها، فهذا شرط تمام الندم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في حميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزني بل من حيث إنه من مخالمة أمر الله تعالى، وذلك جار في كل من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزني بل من حيث إنه من مخالمة أمر الله تعالى، وذلك جار في كل ذب. وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحاك؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال. وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط.

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماصي: أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام، ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ونفساً نفساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصى ما الذي قارفه منها؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم: فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض؟ فيتعرّف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة: فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل ملكه ـ لا من زمان البلوع فإن الزكاة واجبة في مال الصسي ـ، فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف، ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء.

وأما الحج: فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإن لم يكن له كسب ولا الخروج، فإن لم يكن له كسب ولا الخروج، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً، قال عليه السلام: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجُ فَلْيَمْتُ إِنْ شَاءَ يَهُودِيّاً وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيّاً»(١٠)، والعجز الطارى، بعد القدرة لا يسقط عنه الحج. فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

⁽١) حديث: (من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً. . .) الحديث. تقدم في الحج.

وأما المعاصى: فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكنائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهٍ وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيُّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا (١٠)، بل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِانَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ [لهود ١١٤] فيكفر سماعَ الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكثرة تقبيله بأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه، وعدَّ جميع المعاصى غير ممكن، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى، ويدل على أن الشيء يكفر بضده: أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها، قلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له؛ إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال ﷺ: "مِنَ النُّنُوبِ ذُنُوبٌ لا يُكَفِّرُها إلاّ الهُمُومُ؛'^(٢)، وفي لفظ آخر: "إِلاّ الهَمّ بِطَلْبِ المَعِيشَةِ» وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه (٢٠٠)، ويقال: إنَّ الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع.

فإن قلت: هم الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كهارة؟ فاعلم: أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة، ولو تمتع به لتمت الخطيئة، فقد روي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له: كيف تركت الشيخ الكئيب؟ فقال: قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال: فما له عند الله؟ قال: أجر مائة شهيد. فإذن: الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

 ⁽١) حديث: «اتن الله حيثما كنت وأتبع السبئة الحسنة تمحها». أخرجه الترمذي من حديث أبي ذر وصححه، وتقدم أوله
 في آداب الكسب ويعضه في أوائل التوبة، وتقدم في رياضة النفس.

 ⁽٢) حديث: •من القنوب لا يكفرها إلا الهموم، وفي لفظ آخر: •إلا الهم في طلب المعيشة، أخرجه الطبراني في
 الأوسط، وأبر نعيم في الحلية، والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، تقدم في النكاح.

 ⁽٣) حديث: اإذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أصال تكفرها أدخل الله عليه الفعوم؟، وتقدم أيضاً في النكاح، وهو عند
أحمد من حديث عائشة بلفظ: البتلاه الله بالعزن».

وأما مظالم العباد: ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى، فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوسَ بإعتاق الرقاب؛ لأن تلك إحياء؛ إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده، والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد، وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد، ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب ـ أعني به الإيذاء المحض ـ.

أما النفوس: فإن جرى عليه قتل خطأ؛ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول، وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله، ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زني أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتَّمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه المحد وقع موقعه، وتكون توبئه صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما روي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني. فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فرده الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فريقين: فقائل يقول: لقد هلك وأحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أصدق من توبته، فقال رسول الله ﷺ: القد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم، (١٠)، وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني. قردها، فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله لم تردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلي فقال على: «أما الآن فاذهبي حتى تضعي» فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدَّته، قال: «اذْهَبِي فَأَرْضِمِيهِ حَتَّى تَفْطُمِيهِ»، فلما فطمَّته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبر فقالت: يا نبي الله، قد فطمته وقد أكل الطعام! قدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر قرمي رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع رسول الله ﷺ سبُّه إياها فقال: "مَهْلاً با خَالِدُ قُوالَّذِي تَفْسِي بيندِهِ لْقَدْ تَابَتْ ثَوْبَةً لَوْ ثَابُها صَاحِبُ مَكْس لَغْفِرَ لَهُ * ثُمَّ أَمَرَ بِها فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِئَتْ (٢٠).

وأما القصاص وحدَ القذف: ۚ فلا بدِّ من تُحليل صاحبه المستحق فيه، وإن كان المتناول مالاً تناوله

حديث: اعتراف ماعز بالزني ورده ﷺ حتى اعترف أربعاً وقوله: «لقد تاب توية...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الخصيب.

حديث الغامدية واعترافها بالزني ورجمها وقوله ﷺ: اللغد تابت توية. . . ، الحديث. أخرجه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

بغصب أو خيانة أو غين في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه؛ لا من حد بلوغه بل من أوّل مدة وجوده، فإنّ ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه، فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به؛ إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أوّل يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقِش قبل أن يناقش، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسامه، فإن حصل مجموع ما عليه بظنّ غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً، وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤه حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه، فإن عجز فلا يبقى له طريق على المظالم، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المطالم فيهلك بسيئات غيره. فهذا طريق كل تائب في رد المظالم، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم، فكف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في منسع فينبغي أن يكون تشميره المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة: فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً، وما لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدّق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدّق بذلك المقدار، كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة، فيطلب كل من تعرّض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته، وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدّيه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوّفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف: فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكى قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له

المال من القبول وعن الإبراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين.

وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله على قال: «كأنَ فِيمنُ كَانَ قَبْلَكُمُ وَجُلُ قَفَلَ بَسْحَةً وَيَسْجِينَ نَفْساً فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ بَسْمَةً وَيَسْجِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْيَةٍ؟ قَالَ: لا. فَقَتَلَهُ فَكُمْلَ بِهِ مَاثَةً، ثُمَّ سَأَلَ مَنْ أَعْلَم الْهَلِ الأَرْضِ فَلُلْ عَلَى رَجُلِ عَالِم فَقَالَ لَهُ: إِنَّهُ قَتَلَ مَاثَةً نَفْسِ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْيَةٍ؟ قَالَ: نَعْم، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَةً وَيَئِنَ النَّوْيَةِ الْطَلِقْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّها أَرْضَ سُوهِ رَجُلِ عَالِم وَكَذَا فَإِنَّ بِها أَنَاساً يَعْبُلُونَ اللَّهِ عَزْ وَجَلَّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّها أَرْضُ سُوهِ فَاللَّوْمِينَ أَنَاهُ المَوْتُ، فَاخْتَصَمَعَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَارَقِكَةُ المَدَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ المَدْبِ: إِنَّه لَمْ يَعْمَلْ عَيْراً قَطْ، فَأَتَاعُمْ مَلَكُ فِي فَاللَّ مَعْهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَيْتِهِمُ فَقَالَتْ مَلَائِكَةً المَدَابِ: إِنَّه لَمْ يَعْمَلُ عَيْراً قَطْ، فَقَالُتْ مَلَائِكَةُ المَدْبِ وَلِي اللّه مَعْهُمْ وَلاَ يَشِعْهُمْ فَقَالُتْ مَلَائِكَةً المَدْبِ وَقَالَتْ مَلَائِكُمْ اللّهُ الْمُوسِلُونَ أَنْ اللّهُ الْمَوْتُ مُ المَوْتُ مُ اللّهُ الْمُؤْمِلُ اللّهُ لَمْ يَعْمُلُ عَيْرا قَطْر اللّهُ الْمُوسِلُونَ اللّهُ الْمُعْمَلِ عَيْمَ لَهُ فَقَالُوا فَوَجَدُوهُ الرَّحْمَةِ وَلَا إِلَى اللّهُ الْمُولِي الْمُولِي الْمَالِحِينَ المَالِحِينَ الْمُولِي الْمَاسِلُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ المُولِلُ الْمُؤْلِلُ اللهُ اللهُولِ المُعْلِقُ اللهُ الله

وأما العزم المرتبط بالاستقبال: فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً، ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصوّر أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال، فإن كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام، فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه، ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات؟ وقد قال بعضهم: من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها. وقال أخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً. ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً: أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة، وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذي يتوب عن الشرب والزئي والغصب مثلاً، وليست هذه توبة مطلقة .

وقد قال بعض الناس: إنّ هذه التوبة لا تصح، وقال قائلون: تصح، ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح: إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك! فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب، وقلتها سبب لقلته. ونقول لمن قال تصح: إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ! بل النجاة والفوز بترك الجميع، هذا حكم الظاهر، ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله، فإن قال من

⁽۱) حديث أبي سعيد الخدري المتمق عليه: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل هن أهلم أهل الأرض. . . . الحديث . هو متفق عليه . كما قال المصنف . من حديث أبي سعيد.

ذهب إلى أنها لا تصح: إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم. وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة؟ ويستحيل أن يندم عليها دون الزّني إن كان توجعه لأجل المعصية، فإنّ العلة شاملة لهما؟ إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين؟ لأنّ توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزّني فكيف يتوجع على البعض دون البعض؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث إنها معصية، فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا للمجرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث بان المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذن: معنى عدم الصحة: أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم مجرّد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمرة الندم تكفير ما سبق، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها، ولا يتصوّر الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء.

فتقول: التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة دون كبيرة دون الحبائر التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن؛ لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسحط الله ومقته، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه، كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خاتفاً من الجناية على الأهل مستحقراً للجناية على الدابة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى. وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التاثبون في الأعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده، وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر.

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض؛ وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أنّ بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه، فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر، لأنّ الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنى مثلاً؛ إذ يتضع له أنّ الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري، فبحسب ترجع شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي.

الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر، فهو أيضاً ممكن، ووجه إمكانه: أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها؛ لأسباب توجب ضعف

الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوَّة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية، وقد تشتدّ ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه: إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية، بل أجاهده في بعض المعاصى، فعسائي أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي. ولو لم يتصوّر هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصلي ويصوم، ولقيل له: إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله تعالى ما لم ﺘﻘﺮّﺏ ﺑﺘﺮﻙ اﻟﻔﺴﻖ؛ وهذا ﻣﺤﺎﻝ ﺑﺄﻥ ﻳﻘﻮﻝ: لله تعالى عليّ أمران، ولي على المخالفة فيهما عقوبتان، وأناملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر، فأنّا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي ِفيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي، فكيف لا يتصوّر هذا وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسُلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته، ولا سبب له إلا هذا، وإذا فهم هذا فهم أنَّ غلبة الخوف للشهوة في بعض الذَّنوب ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم، وقد فال النبي ﷺ: ﴿النُّلُمُ تَوْبَةً ﴾ ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال: ﴿التَّالِيبُ مِنَ اللَّمْنُ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ ولم يقل التائب من الذُّنوب كلها، ويهذه المعاني تبين سقوط قول القائل: إنَّ التوبة عن بعض الذُّنوب عير ممكنة؛ لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرّض إلى سخط الله تعالى، نعم، يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط، ويتوب عن الكثير دون القليل لأنّ لكثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى، كالمريض الدي حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله، بل لا بدّ وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه إما في شدّة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم، فيتصوّر اختلاف حاله في النرك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله نَّي جميع الأوامر والنواهي.

فإن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنى الذي قارفه قبل طريان العنة؟ فأقول: لا، لأنّ التوبة عارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الرنى الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم؛ بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة ونغلبها، فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته؛ إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين، وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتئيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أنّ ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنى لو ظهر قصده، فإذن: لا يستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدّر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله.

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: أحدهما: حرقة الندم والآخر: شدة المجاهدة بالترك في المستقبل. وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا إن النوبة لا تقبل ما لم يعش النائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً.

فإن قلت: إذا فرضنا ثائبين؛ أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل؟ فاعلم: أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني: إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة. وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة.

والحق فيه: أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان:

إحداهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين؛ وأعني بقوة الدين: قوة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً. وقول القائل: إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ. وهو كقول القائل: العنين أفضل من المحل لأنه في أمن من خطر الشهوة، والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعداثه لأن المفلس لا عدو له، والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرّات، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر، غير عالم بأن العز في الأخطار، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار. بل كقول القائل: الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب كقول القائل: السقوط على الأرض، وآمن من الكلب ويعتدي عليه، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد.

الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة؛ إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها، وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد، فإن الجهاد ليس مقصوداً لعينه، بل المقصود قطع ضراوة العدق حتى لا يستجرّك إلى شهواته، وإن عجز عن استجرارك فلا يصلك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت، وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر، ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم، ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما ناثمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والغرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد، ولقد زل في هذا فريق فظنوا أن والمجهاد هو المقصود الأقصى، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق، وظن آخرون أن

قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال: هذا محال، فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة، واسترسل في اتباع الشهوات، وكل ذلك جهل وضلال، وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات.

فإن قلت: فما قولك في تاثبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه فأيهما أفضل؟ فاعلم: أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا على حق، ولكن بالإضافة إلى حالين.

وكلام المتصوّفة أبداً يكون قاصراً، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجدّ؛ حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره؛ إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله، وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم، فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية؟

فأقول: تصور الذنب وذكره والتفجّع عليه كمال في حق المبتدىء، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق، لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله. فهو بالإضافة إلى الغافل كمال، ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان، فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق، بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك، فإن ظهر له مبادىء الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال. بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حَاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل، فلو جلس على شاطىء البحر بعد عبوره يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع. نعم، إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر مها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر؛ ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله، فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك ـ وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات ـ، بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الأخرة لتزيد رغبته، ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور، فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة. بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركاً للشهوة، قالمبتدىء أيضاً قد يستضر به فيكون النسبان أفضل له عند ذلك. ولا يصدّنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج؛ لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم، فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس؛ تسهيلاً للأمر على المريد. ولذلك قال ﷺ: ﴿أَمَّا إِنِّي لَا أَنْسَى وَلَكِنِّي

أنسى لِأَشْرَعُ ('')، وفي لفظ «إنما أسهو لأسنّ». ولا تعجب من هذا، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة. أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولمده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال على المحسن: «كخ كخ "'')، لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في قيه؟ وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فإنها حرام، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته. بل الذي يعلم شاة أو طائراً يصوّت به رغاء أو صفيراً تشبها بالبهيمة والطائر تلطفاً في تعليمه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة:

اعلم: أن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدَّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوَّة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة: التوبة النصوح. واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ: السَّبَقَ المُفْرُدُونَ المُسْتَهِبِّرُونَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَضَعَ الذُّكُرُ هَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا القِيمامَةَ خِفَافاً، (٣). فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم. وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات؛ فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ولم يشغله عن السلوك صرعها، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها وردها، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة، وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته؛ وحال هذا أعلى وأفضل؛ إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسة حتى قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى، واشتراطً هذا بعيد، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض. ولكن لا يتبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن أختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته. بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميشرة له حتى يسد

⁽١) حديث: «أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع» ذكره مالك بلاغاً بغير إسناد، وقال ابن عبدالبر: لا يوحد في الموطأ إلا مرسلاً لا إستاد له، وكذا قال حمزة الكتاني: إنه لم يرد من غير طريق مالك، وقال أبو طاهر الأنماطي: وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للأئمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال: وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً.

 ⁽٢) حديث أنه قال للحسن: «كخ كخ» لما أخد تمرة من الصدقة ووضعها في فيه. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وتقدم في كتاب الحلال والحرام.

 ⁽٣) حديث: قسبق المفردون المستهترون بذكر الله . . . ١ الحديث . أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه، وقد تقدم.

طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كباثر الفواحش كلها. إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلي بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة؛ إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد، وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غايةٍ البعد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْتَنِبُونَ لَّذِيْرَ ٱلْإِنْدِ وَٱلْفَوْدِشَ إِلَّا ٱللَّمَمُّ إِنَّ رَبِّكَ وَسِيعٌ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [التّجم: ٣٢] فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه. قال تعالى: ﴿وَالَّذِيكَ إِنَّا فَمَكُوا فَنَصِمَّةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُتُهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه. وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه: ﴿ فِيَارُكُمْ كُلُّ مُفَتّن تَوَابِ (١٠) ، وفي خبر آخر: «المُؤْمِنُ كَالسُّنْبِلَةِ يَفِيءُ أَحْبَاناً وَيَمِيلُ أَحْبَاناً»، وفي الخبر: ﴿لا بُدُّ لِلْمُؤْمِنَ مِنْ ذَنْبِ يَأْتِيهِ الْفَيْنَة بَعْدَ الْفَيْنَة»^(٣)، أي الحين بعد الحين، فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض ألتوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التاثبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارّة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة. وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه. بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات، قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاؤُونَ وَخَيْرُ الخَطَّاثِينَ النَّوَّابُونَ المُسْتَغْفِرُونَ» ﴿ وَقَالَ أَيضاً: ﴿ المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه» (٥) أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى: ﴿أَوْلَتِكَ يُؤْفِّنَ لَجْرَهُم مَّرَّفَيْنِ بِمَا مَـٰبَرُهُا ۚ وَيَدِّنَهُونَ بِٱلْعَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ [القصم: ٥٤] فما وصفهم بعدم السبثة أصلاً.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة، ثم نغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم

 ⁽١) حديث علي: «خياركم كل مفتن تواب» أخرجه البيهتي في الشعب سند ضعيف.

 ⁽٢) حديث: «المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً» أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس: والطبراني من حديث عمار بن ياسر، والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً وكلها ضعيفة وقالوا: «تقوم» بدل: «تفيم»، وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس.

حديث. ولا يد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة.

 ⁽٤) حديث: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون» أخرجه الترمذي واستغربه، والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال: «التوابون» بدل «المستغفرون». قلت: فيه على بن مسعدة ضعفه البخاري.

حديث: اللمؤمن وأو راقع، فخيرهم من مات على رقعه أخرجه الطبراني والبيهةي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف، وقالا: اقسميدهم، بدل افخيرهم».

عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسوُّل نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم. فهذه النفسِ هي التي تسمى: النفس المسوّلة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خُلَطُواْ عَمَلًا مَلِيمًا وَمَاخَرَ سَيِقًا﴾ [الفرية: ١٠٢] فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تماطاه مرحوّ فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين. فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس، فكما لا يصلح لمنصب الرئاسة والقضاء والتقدّم بالعلم إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير. هكذا سبق في الأِزل بتدبير رب الأرباب. ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَغْشِن وَمَا سَوَّتِهَا ۞ فَأَلْمَمَهَا لَجُوَرَهَا وَنَغُونَهَا ۞ قَدَّ أَلْمَحَ مَن رَّكُنهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا ۞﴾ [الشّمس: ١٠-٧] فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة كان هذا مِن علامات الخذلان. قال ﷺ: ﴿إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلُ أَهْلِ الجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولُ النَّاسُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِها وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَيَبْنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ شِيْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِثَابُ فَيَمْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ قَيْدُخُلُها ١٤٠٤)، فإذن: الخوف من الخاتمة قبل التوبة. وكل نفس فهو خاتمة ما قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به، فليراقب الأنفاس وإلا وقع في المحذور، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يتحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي: النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير؛ ويخاف على هذا سوء المخاتمة وأمره في مشيئة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فيتنظر له المخلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العقو بسبب خفي لا تطلع عليه، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده، وأن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم. فطلب المغفرة بالطاعات كطلب المغرة والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرّد الرجاء مع خراب

⁽١) حديث: (إن العبد ليعمل بعمل الجنة سبعين سنة . . . ١ الحديث . متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله : (سبعين سنة) ولمسلم من حديث أي هريرة: (إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة . . . ١ الحديث . ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة) وشهر : مختلف قيه .

الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم، وليت من اتجر استغنى، وليت من صام وصلى غفر له، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً بجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين ـ وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله ..، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعدّ عند أرباب القلوب من المعتوهين. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول: إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره، ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار، وإذا قيل له: إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك، وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب، فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ويقول: ما هذا الهوس؟ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب، هكذا قدَّره مسبب الأسباب وأجرى به سنته، ولا تبديل لسنة الله، ولا يعلم المغرور أن رب الأخرة ورب الدنيا واحد، وأنَّ سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً، وأنه قد أخبر إذ قال: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِسَائِنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم. ٣٩] فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟ وكيف يقول: ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم، وأنَّ ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة، وهذا يمنعه مع شدَّة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا؟ وينسى قوله تعالى ﴿ وَفِي أَلْتُمَا إِرْفَكُو وَمَا نُوعَدُونَ ﴾ [الذاريّات: ٢٧] فنعوذ بالله من العمى والضلال، فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس، وانغماس في ظلمات الجهل، وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَٰئَ إِذِ ٱلْمُجْرِيُونَ فَاكِسُواْ أَيْمُوسِهمْ عِندَ رَبِهِمْ رَبِّنَا أَبْصَرْنَا وَسَهِمْنَا فَأَرْهِمْنَا نَعْمَلُ صَلِيْحًا﴾ [السَّجنة: ١٧] أي أبصونا أنك صدقت إذ قلت: ﴿وَأَنَ لَيْسَ لِلْإِنكِنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النَّجم: ٣٩] فارجعنا نسعى. وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب، السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب.

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق:

اعلم: أنّ الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب: فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو، ويتذلل تذلل العبد الآبق، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول: رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي

ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ـ كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار ـ.

وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات. وفي الآثار ما يدل على أنّ الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجواً؛ أربعة من أعمال القلوب وهي: النوبة أو العزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له. وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن تصلي عقيب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوماً، وفي بعض الآثار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين (۱٬)، وفي بعض الأخبار: تصلي أربع ركعات (۲٬)، وفي الخبر: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها، السر بالسر والعلائية بالعلائية» (۲٬)، ولذلك قيل: صدقة السر تكفر ذنوب الليل، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار. وفي الخبر الصحيح: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض عليً بحكم الله تعالى فقال ﷺ: «أزمًا صَلَيْتَ مُغنًا صَلاة الغَلَق؟» قال: بلي، فقال ﷺ: «إن الحسنات يلهبن السيئات» (٤)، وهذا يدل على أنّ ما دون الزني من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتصى قوله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائرة، فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع سيئانه ويجتهد في دفعها بالحسنات.

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار، وفي الخبر: «المُسْتَغْفِرُ مِنَ النَّذُبِ وَهُو مُصِرُّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْرِيءِ بِآياتِ اللَّهِ (٥)، وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولي أستغفر الله، وقيل: الاستغفار باللسان توبة الكذابين. وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير؟ فاعلم: أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر - ذكرناها في كتاب الأذكار

⁽١) أثر: اإن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين الخرجه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: قما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له الفظ أبي دارد وهو في الكبرى للنمائي مرفوعاً وموقوفاً، فلعل المصنف عبر بالأثر الإرادة الموقوف فذكرته احتباطاً، وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي.

⁽٢) حديث: التكفير بصلاة أربع ركعاته: أحرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال: «كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوى امرأة...» الحديث. وفيه: فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من أمرأته وحرك دكره فإذا هو مثل الهدية فقام نادماً فأتي النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال له النبي ﷺ: قصل أربع ركعات، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَتِي الشَّلَوْةَ طُرَقُ النّهَارِ﴾ [مُود: ١١٤] الآية. وإسناده جيد.

⁽٣) حديث: اإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالمعلانية، أخرجه البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم، ورواه الطبراني من رواية عطاه بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ: الوها هملت من سوء فأحدث لله فيه توبة، السر بالسر. . . الحديث.

⁽٤) حديث: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس. ٥٠٠ الحديث، في نزول: ﴿إِنَّ الْمُسَيْنَ اللَّيْكَاتُ اللهِ [مُود: ١١٤] متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله: «أو ما صليت معنا صلاة الفداة» ورواه مسلم من حديث أنس وفيه: فهل حضرت معنا المصلاة»؟ قال: نعم، ومن حديث أبي أمامة وفيه: «ثم شهلت الصلاة معنا» قال: نعم. الحديث.

 ⁽٥) حديث: «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله» أخرجه ان أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهتي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: «كالمستهزىء بربه» وسنده ضعيف.

والدعوات ـ حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ أَقَدُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ بَسَنَغْفِرُونَ ١٠٠٠ [الانفال: ٣٣] فكان بعض الصحابة يقول: كان لنا أمانان: ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا^(١). فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرّد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة: أستغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار: نعوذ بالله منها؛ من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرّد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وانتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها، فتصلح لأن تدفع بها السيئة، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال ﷺ: «ما أَصْرٌ مَن اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْبَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةًه^(٢)، وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب. وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الَّفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، ولذلك قال سهل: لا بدَّ للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء؛ فإن عصى قال: يا رب استر عليُّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب عليّ، فإذا تاب قال: يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال: يا رب تقبلَ مني. وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: أوَّل الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم النوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق، ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التبقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة، ولا يستقرّ هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاژه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش. وسئل أيضاً عن قوله عِن النَّائِبُ حَبِيبُ اللَّهِ فقال: إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ النَّهَ إِنْكُ أَلْمُكِدُّونَ ﴾ [التوبَة: ١١٢] الآية. وقال: الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه.

والمقصود أن للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

والثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيباً. وللتكفير أيضاً درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار ـ من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها. بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلُ مِتْهَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَمُ ﴿ ﴾ [الزلزلة: ٧] صدق، وأنه لا تخلو ذرة من المخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرّات وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير

 ⁽١) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى: ﴿وَمَا حَكَاتَ أَلَمْهُ لِكُذِيبُهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنقال: ٣٣] الآية. الكان لنا أمانان ذهب أحدهما اخرجه أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه: الثول الله علي أمائين... السعديث. وضعفه، وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس.

⁽٢) حديث: قما أصر من استغفر... الحديث، تقدم في الدهوات.

إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر فرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب؟ ولا تدري المعتوهة أن ثباب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة. فإذن: التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً. بَل أقول: الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إن لساسي في بعض الأحوال يجري بالذكر، والقرآن وقلبي غافل. فقال: اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوَّده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق؛ فإن تعوِّد الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي، فمن تعوِّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعوَّد فقال: أستغفر الله. ومن تعوَّد الفضول سبق لسانه إلى قول: مَا أحمقك وما أقبح كذبك! ومن تعوِّد الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان: نعوذ بالله، وإذا تعوّد الفضول قال: لعنه الله، فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغِيمِعُ أَجَّرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [النّوبَة: ١٢٠] ومعاني قوله تعالى: ﴿وَإِن نَكُ حَسَنَةً يُعَنَّنِونَهَا وَيُؤَتِ مِن لَذَتُهُ أَجَّرًا عَظِيمًا﴾ [النَّساء: ٤٠] فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف في الدنيًا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة ﴿أَكْبُرُ لَوُ كَانُواْ يَمْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤١] فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روّجها الشيطان بلعنته على المغرورين، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأي خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات. أما السابق فقال: صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلاً. فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين؛ فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب، فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه. وأما الظالم المغرور: فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر، فأسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل: وافق شنّ طبقه وافقه فاعتنقه. وأما المقتصد: فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول، فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير. فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتباً. والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً. والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مقدمة الحياكة، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس، فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة. ولذلك قالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد، فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات

الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة، بل ينبغي أن لا ستحقر ذرات الطاعات والمعاصي. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث؛ رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه، وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى. وزاد: وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.

* * *

الركن الرابع

في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم: أن الناس قسمان: شاب لا صبوة له نشأ على الخير واحتناب الشر، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ؛ التعجب ربك من شاب ليست له صبوةه ()، وهذا عزيز نادر. والقسم الثاني: هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تاثبين، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه. فاعلم: أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء؛ إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلا بضدّه. ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلا العلم، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا الغفلة إلا العلم، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى: ﴿ وَأُولَٰتُهِكَ هُمُ ٱلْفَنْعِلُونَ لا جَكَرَمُ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَرِدُونَ ﴿ وَالنَّعِل الله المهابة دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما، فيقمع الأسباب المهيجة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما، فيقمع الأسباب المهيجة المحفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار. فإذن: لهذا الدواء أصلان: أحدهما العلم والآخر الصبر، ولا بد من بيانهما.

قإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ فاعلم: أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة، ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار. فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق بأمور:

الأول: أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإنّ من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك. وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أنّ للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة وللشقاوة سبباً هو المحصية، وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بدّ من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد، وكلاهما من جملة الإيمان.

⁽١) حديث: اليعجب ربك من الشاب ليست له صبوة؛ أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر، وفيه ابن لهيعة.

الثاني: أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حادق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان. ووزانه مما نحن فيه: العلم بصدق الرسول في والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: أنه لا بد أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء؛ فتكون شدّة الخوف باعثة له على الاحتماء، ووزانه من الدين: الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة؛ حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيماً يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أوّلاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص. ووزانه من الدين: أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة؟ وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى العلم بكيفية التوصل

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين؛ وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فالعاصي إن علم عصبانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أنّ ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك، وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء، ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم، كما أنّ الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة. وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة. وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس دينهم، فإنّ الخلق لا يولدون إلا جهالاً فلا بدّ من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع. والدنيا دار المرضى؛ إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم. ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان. والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العلم يسلم إلى السلطان ليكف شره، كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس.

وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها: أنَّ المريض به لا يدري أنه مريض.

والثانية: أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض البدن فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد. وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والثالثة: وهو الداء العضال؛ فقد الطبيب، فإنّ الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار

مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في حموم المرض حتى لا يظهر نقصاتهم، فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً، لأنّ الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنقسكم؟ فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء، وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا، فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام يستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة، لأن ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة، لأن على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله.

ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائباً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه. فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة. أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية: فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال. وكذلك المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت: يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء وذلك من المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلاً.

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق، فاعلم: أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه. نعم، نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع:

الأوّل: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ: «ما مِنْ يَوْم طَلَعَ فَجْرُهُ وَلا لَيْلَةٍ غَابَ شَفَقُها إلاَّ وَمَلَكَانِ يَتَجَاوَيَانِ مِأْرِيَعَةِ أَصُوَاتٍ بَقُولُ أَحَدُهُمَا: يا لَيْتَهُمْ إذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الآخَرُ: يا لَيْتَهُمْ إذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الآخَرُ: يا لَيْتَهُمْ إذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا وَمِلُوا مِمَا عَلَمُوا تَابُوا مِما عَملُوا وَقَال بعض السلف: الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا وقال بعض السلف: فتذكروا ما علموا ويقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا وقال بعض السلف: فا من عبد يعصي إلا إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه - أن يرفع القلم عنه ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها. وقال بعض السلف: ما من عبد يعصي إلا أن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها. وقال بعض السلف: ما من عبد يعصي إلا أستأذن مكانه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً فيقول الله تعالى للأرض والسماء: كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليً للأرض والسماء: كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليً فَقُر له، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَقَدَ يُشِيلُكُ ٱلسَّنَوْنِ فَالْمُهُ مَنْ وَلُولُهُ وَلُولُولُهُ مَنْ السَمَاءُ مَنْ السماء أن يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَقَدَ يُشْلِكُ ٱلسَّنُونُ اللَّهُ الْمُعْمِلُولُهُ اللَّهُ عَلَيْ الْمُعْمَلُولُهُ الْمُعْمَلُهُ الْمُعْمَلُهُ الْمُعْمِلُولُهُ الْمُعْمُ الْمُعْمُ الْمُعْمَلُهُ اللهُ الْمُعْمُلُهُ اللهُ عَلَيْ الْمُعْمُ الْمُعْمُ الْمُعْمُ الْمُعْمُ الْمُعْمُ الْمُعْمُ الْمُعْمِلُهُ الْمُعْمُ الْ

⁽١) حديث: «ما من يوم طلع ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا... الحديث، غريب، لم أحده هكذا، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف: «إن لله ملكاً ينادي في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده. .» الحديث، وفيه: «ليت المخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ محلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا...» الحديث.

وَالْأَرْضَ أَن تَزُولًا وَلَين زَالْنَا إِنْ أَسَكُهُما مِنَ أَمَدٍ مِّنَ بَعْدِيَهِ [فاطِر: ٤١]. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها (١٠). وفي حديث مجاهد: «القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع (٢). وقال الحسن: إنّ بين العبد وبين الله حدًا من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير.

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ، فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (").

النوع الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل أحوال آدم في في عصياته وما لقيه من الإخراج من الجنة، حتى روي: أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاء جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش: اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصاني. قال: فالتفت آدم إلى حوّاء باكباً وقال: هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب.

وروي. أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً، وقيل: لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال: نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه، فسلب ملكه أربعين يوماً، فهرب تائهاً على وجهه، فكان يسأل بكفه فلا يطعم فإذا قال: أطعموني فإني سليمان بن داود شيج وطرد وضرب. وحكي: أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه، وفي رواية: أخرجت عجوز جرّة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين - أيام العقوبة - قال: فجاءت الطيور فعكفت على رأسه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل، ولا أحمدكم في عذركم الآن، إنّ هذا أمر كان من السماء ولا بدّ منه.

وروي في الإسرائيليات: أنَّ رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها، فجاهدها واستعصم، قال: فنبأه الله بسركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل. وفي

⁽١) حديث عمر: الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فإذا انتهكت الحرمات. . . ، الحديث، أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر.

 ⁽٢) حديث مجاهد: القلب مثل الكف المفتوحة، قلت: هكذا قال المصنف وفي حديث مجاهد، وكأنه أراد به قول مجاهد، وكذا ذكره المفسرون في قوله وليس بمرفوع وقد رويتاه في شعب الإيمان للبيهقي من قول حذيفة.

⁽٣) حديث: «أنه ﷺ ما خلف ديناراً ولا درهماً إنها خلف العلم والحكمة» أخرجه الدخاري من حديث عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة. ولمسلم من حديث عائشة: ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً. وفي حديث أبي الدرداء على الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم.... الحديث. وقد تقدم في العلم.

قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى. وروي: أن الربح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديداً فكأنه أعجبه قال: فوضعته الربح، فقال: لم فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله. وروي: أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرّقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا، قال: لقولك لإخوته: ﴿وَرَأَغَاتُ أَن يَأْكُلُهُ الذِّقِّ وَأَنتُدَ عَنْهُ عَنْهُلُونَ ﴾ [بُوسُف: ١٣] لم خفت عليه الذئب ولم ترجني، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وتدري لم رددته عليك؟ قال: لا، قال: لأنك رجوتني وقلت: ﴿عَنَى اللهُ أَن يَأْتِينِي بِهِمْ عَبِيمًا ﴾ [بُوسُف ٩٨] وبما عليك؟ قال: لا، قال: لأنك رجوتني وقلت: ﴿عَنَى اللهُ أَن يَأْتِينِي بِهِمْ عَبِيمًا ﴾ [بُوسُف طياحب عليه الملك: ﴿أَذْهَبُوا فَتَعَسَسُوا مِن بُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَأْتَسُوا ﴾ [بُوسُف: ١٨] وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك: ﴿أَذْهَبُوا فَتَعَسَسُوا مِن بُوسُف وَيَجِهِ وَلا تَأْتِسُوا ﴾ [بُوسُف: ١٨] وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسُرُوا مِن بُوسُف وَيَعِهُ وَيَهِ وَلِهُ تَأْتَسُونَ وَلَا الله تعالى: ﴿فَأَنْسَنَهُ ٱلشَيْطُنُ فِحَكَرَ رَبِّهِ فَلَيْتُ فِي اللهُ وَيَعْمَ مِعْنِينَ ﴾ [بُوسُف: ٢٤] قال الله تعالى: ﴿فَأَنْسَنَهُ ٱلشَيْطُنُ فِوسِكَ وَيَهِ وَلِينَ فِي اللهُ وَلَهُ وَلَا اللهُ تعالى: ﴿فَأَنْسَنَهُ ٱلشَيْطُنُ وَحَكَرَ رَبِّهِ فَلَيْتُ فِي اللهُ وَنْ إِنْ اللهُ وَلَا اللهُ وَلَهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَا اللهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَوْلُولُ اللهُ وَلَهُ وَلَوْلُولُ اللهُ وَلَهُ وَلَا وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَا وَلَهُ وَ

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر، ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار؛ لتعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟ نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ولأن عذاب الآخرة أشدّ وأكبر. فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرّر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا مؤمها في غالب الأمر، كما أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوف به، فإن الذنوب كلها يتعجل في العبد رزقه يسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه، قال على العبد أيخرَمُ الرِّرْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ (۱)، وقال ابن مسعود: إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه؛ وهو معنى قوله عليه السلام: عمن قارف ذَنْها في المال، فأرقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إليه أَبداً (۱)، وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاً في المال، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه، وهو كما قال؛ لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكل والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد، والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان، وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين، بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون.

وحكي عن بعض العارفين: أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى ذلقت رجله وسقط، فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوضاً. وهو إشارة إلى أنَّ الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر، ولذلك قال الفضيل: ما أنكرتَ من تغير الزمان وجفاء

⁽۱) حديث: «إن العبد لبحرم الرزق بالذنب بصيبه» أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده واللفظ له إلا أنه قال: «الرجل» بدل اللعبد، من حديث ثوبان.

 ⁽٢) حديث: امن قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبدأ، تقدم.

الإخوان فذنوبك ورّثتك ذلك. وقال بعضهم: إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري. وقال آخر: أعرف العقوبة حتى في فأر ببتي. وقال بعض صوفية الشام: نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر إليه، فمرّ بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحبيت منه فقلت: يا أبا عبدالله، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار! فغمز يدي وقال: لتجدن عقوبتها بعد حين، قال: فعموت بها بعد ثلاثين سنة. وقال أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وقال: لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه. وفي الخبر: هما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكمه (۱)، وفي الخبر: «يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاحتي غيرتم من أعمالكمه (۱)، وحكي عن أبي عمرو بن علوان ـ في قصة يطول ذكرها ـ قال فيها: كنت أن أحرمه لذيذ مناجاتي (۱)، وحكي عن أبي عمرو بن علوان ـ في قصة يطول ذكرها ـ قال فيها: كنت قائماً ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال، فوقعت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستنرت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلي فأشخصني من الرقة، فلما أتيته يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلي فأشخصني من الرقة، فلما أتيته قال لي: أما استحييت من الله تعالى، فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون، قال: فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة؟.

واعلم: أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه، فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقياً أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار. والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره. بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة: أن يكسب ما بعده صهته، فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه، وأما المطيع: فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها، وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب؛ كالمخمر والزنى والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد، وكل ذلك مما لا يمكن حصره، وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها، فيستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرّض لما وقف عليه اقتداء برسول الله على حيث قال له واحد: أوصني يا رسول الله ولا تكثر على قال: ﴿لا تَغضَبُ (٣)، وقال له آخر: أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام: ﴿ عَلَيكَ بِاليَاسِ مِمّا فِي أَيْدِي النّاسِ فَإِنّ ذَلِكَ هُوَ الْفِنَى، وإِناكَ وَالطّمَعَ فَإِنّهُ الفَقْرُ المَحَاضِرُ، وَصَلّ صَلاَة مُودِّع، وَإِناكَ وَمَا يُعْتَذُرُ مِنْهُ اللهَ والله رجل لمحمد بن

⁽١) حديث: الما أنكرتم من زماتكم قبما أنكرتم من أحمالكم؟ أخرجه البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال، غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبدالله بن هانيء، قلت: هو متهم بالكدب، قال ابن أبي حاتم: روى عن أبيه بواطيل،

⁽٢) حديث: «يقول الله إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه للة مناجاتي؛ خريب لم أجده.

⁽٣) حديث: قال رجل أوصنى ولا تكثر علي قال: ﴿ لا تغضب . تقدم.

⁽٤) قال له آخر: أوصني قال: «عليك باليأس...» الحديث. أخرجه ابن ماجه والحاكم، وقد تقدم.

واسع: أوصني، فقال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال: وكيف لي بذلك؟ قال: الزم الزهد في الدنيا. فكأنه على توسم في السائل الأوّل مخايل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل. وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا، وقال رجل لمعاذ: أوصني، فقال: كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً. فكأنه تفرّس فيه آثار القظاظة والغلظة. وقال رجل لإبراهيم بن أذهم، أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس، ولا بدّ من الناس فإنّ الناس هم الناس، وليس كل الناس بالناس، ذهب الناس ويقي النسناس، وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء الباس. فكأنه تفرّس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته، وكان الغالب أذاه بالناس. والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. وكتب معاوية رحمه الله بالناس، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. وكتب معاوية رحمه الله معاوية سلام عليك أما بعد: فإني سمعت رسول الله يقي يقول: (مَن التَمَسَ وِضَا اللّه بِسَخَطِ النّاس كَفَاهُ اللّه مؤنة النّاس، وَمَنِ التّمَسَ سَخَطُ اللّه بِرضًا النّاس وَكَلَهُ اللّه ألى النّاس وطلب مرضاتهم. وكتبت إليه مرة أخرى، أما بعد: فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس. وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام.

فإذن: على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة، والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

فإن قلت: فإن كان الواعظَ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل؟ فاعلم: أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه، إما على العموم وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل.

ومثاله ما روي: أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري: أوصني، قال: عليك بتقوى الله عزّ وجلّ فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان، وقال رجل للحسن: أوصني، فقال: أعزّ أمرَ الله يعزك الله. وقال لقمان لابنه: يا بني، زاحم العلماء بركبتيك، ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاخك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاً، وصم صوماً يكسر شهوتك، ولا تصم صوماً يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين. وقال أيضاً لابنه: يا بني، لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك؛ فإن ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني، إن من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يَقُلِ الخير يغتم ومن يَقُلِ الخير عبد، ومن يُقال: كل ما لو جاك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه. وقال موسى عليه فرأيته عصيبة فاجتنبه. وقال موسى جاك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه. وقال موسى

⁽١) حديث عائشة: قمن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس. . . ه الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم، وفي مسئد الترمذي من لم يسم.

للحضر عليهما السلام: أوصني، فقال: كن بساماً ولا تكن غضاباً، وكن نفاعاً ولا تكن ضراراً، وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران. وقال رجل لمحمد بن كرام: أوصني، فقال: اجتهد في رضا خالفك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك. وقال رجل لحامد اللفاف: أوصني فقال: اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات، قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طَّلَب الدنيا إلا ما لا بدِّ منه، وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بدُّ منه، وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بدُّ منه. وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمهُم الله تعالى: أما بعد، فخف مما خوّفك الله، واحذر مما حذّرك الله، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه: أما بعد: فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك، ولا بدُّ لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم: أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك. وكتب مطرف بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أما بعد: فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له، ويها يغتر من لا علم عنده، فكن فيها ـ يا أمير المؤمنين ـ كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء. وكتب عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطأة: أما بعد: فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله، فأما أولياؤه فغمتهم، وأما أعداؤه فمرتهم. وكتب أيضاً إلى بعض عماله: أما بعد: فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قلرة الله عليك، واعلم: أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم: أن الله عزّ وجلُّ آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام.

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته، فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها. ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستشرى الفساد، وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعاً وينشدون أبياتاً، ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم، فسقط عن قلوب العامة وقارهم، ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب، بل القائل متصلف والمستمع متكلف، وكل واحد منهما مدير ومتخلف.

فإذن: كان طلب الطبيب أول علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين. فهذا أحد أركان العلاج وأصوله.

الأصل الثاني الصبر: ووجه الحاجة إليه: أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يتناول ذلك: إما لغفلته عن مضرته، وإما لشدة غلبة شهوته. فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة. فيبقى علاج الشهوة - وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس - وحاصله: أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره، ثم يصبر بقوّة الخوف على الألم الذي يناله في تتركه، فلا بدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته؛ فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله على المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله بي المؤولة المناس المن

اشتذ خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته. ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر إليه، وعلاجه الهرب والعزلة، ومن داخل: تناول لذائذ الأطعمة، وعلاجه الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسيسره الله تعالى لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسيبسره الله للعسرى، فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاد الدنيا مهما هلك وتردى، وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى، وإنما لله الآخرة والأولى.

فإن قلت: فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصير عنه، والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يكون إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان؛ فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن، فاعلم: أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان؛ إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور:

أحدها: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثالث: أنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات،

 ⁽١) حديث: «حفت الجنة بالمكاره...» الحديث. منفق عليه من حديث أبي هريرة.

⁽٢) حديث: «إن الله خلق النار فقال لجريل: اقعب قانظر إليها...» الحديث. أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة.

وقد وعد بأن ذلك يجبره، إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان.

الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى. فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

نعم، قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر، كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض، فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به. فهذا هو الكفر.

فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول: هو الفكر، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب، أن كل ما هو آت آت وأن غداً للناظرين قريب، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزًا، ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال؛ إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظنّ أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال، بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده، ومفارقته للدنيا لا بدّ منها، فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبدأ؟ فلينظر : كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق؟ وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا؟ وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر - وهي أيام قلائل - فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوّف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء، فلعله لا يبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد! فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها. وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق. وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته؛ إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف.

وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى: فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان، وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل، وقال: أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو

عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري، أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار! فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة! وقد حكى في الأسمار أن مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله. فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل؛ إذ قد لا يمكن ولا يكون.

وأما الخامس: وهو شك فهذا كفر، وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك يطول. ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحدّ عقله، فيقال له: ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن؟ أو تقول: أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة، فإن قال: أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء. وإن قال: أنا شاك فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان ألذ الأطعمة؟ فيقول: أتركه لا محالة لأني أقول: إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام، والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب، وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد. فيقال له: يا سبحان الله، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات، وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء _ ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب - عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضاً فيما يقول؟ فليس في العقلاء إلا من صدّق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكذّرة. فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر، إذ لا نسبة لمدَّة العمر إلى أبد الآباد، بلي لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائراً يلتَقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئاً، فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعرّي:

لا تسبعث الأموات قبلت إلىكما قال السمنجم والطبيب كلاهما إن صبح قبوليك منا فيلسبت بنخياسير أو صبح قبولي فبالبخيسيار عبليك منا

ولذلك قال على رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ـ وكان شاكاً ـ: إن صبح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصت وهلكت! أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

فإن قلت: هذه الأمور جلية ولكنها ليست ثنال إلا بالفكر، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته؟ وما علاج القلوب لردِّها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟ فاعلم: أنَّ المانع من الفكر أمران:

أحمهما: أنَّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب؛ فينقر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرّج والاستراحة.

والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخراً لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك.

وأما علاج هذين المانعين: فهو أن يقول لقلبه: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به؟ وأما الثاني: وهو كون الفكر مفوتاً للذات الدنيا؛ فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذات الدنيا سريعة الدثور، وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر. وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به؟ ولو لم يكن للمطبع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟ نعم، هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدناً كما كان الشر ديدناً، فائنفس قابلة ـ ما عوّدتها تعوّد ـ والخير عادة والشر لجاجة.

فإذن أهذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تنفق لا تدخل في الحصر، فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه. ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق؛ إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة. وقد روي في حديث طويل: أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كزم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الكفر على ماذا بني فقال علي رضي الله عنه: بني على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء. ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر، وهذا القدر في التوبة كاف، وإذا كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة فلا بدّ من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى.



بِنْسِيدِ أَمَّو النَّخْفِ الرَّيِّسِيدِ

کتاب الصبر والشکر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله أهل الحمد والثناء، المنفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والعلاء، المؤيد صفوة الأولياء بقوّة الصبر على السراء والضراء، والشكر على البلاء والنعماء، والصلاة على محمد سيد الأنبياء، وعلى أصحابه سادة الأصفياء، وعلى آله قادة البررة الأتقياء، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء.

أما بعد: فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر⁽¹⁾، كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار. وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى؛ إذ سمى نفسه صبوراً وشكوراً، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن، ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان، دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟ والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك ما به الإيمان، فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان. ونحن توضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى.

الشطر الأول: في الصبر: وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوّة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى.



كتاب الصير والشكر

⁽١) حديث: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف.

بيان قضيلة الصبر: وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل: ﴿ وَيَعَمَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَةٌ يَهَدُونَ يِأْتُرِنَا لَمَّا صَبَرُواً ﴾ [السَّجدة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتَ كُلِتُ رَبِّكَ الْخُسَىٰ عَلَى بَيْ اللَّهِ عَلَى الْحَرَّفِ الْحَسَىٰ الْحَلَقُ الْفَصَى: ٥٤] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا لَوَنَ الْجَرُهُ الْمَدِينَ اللَّيْنَ صَبَرُواً الْجَرَهُ بِلَمَّ مَرَّفَىٰ اللَّهَ عَلَى اللَّهُ اللَ

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ: «الصَّبْرُ نِصَفُ الإيمَانِ» (() على ما سيأتي وجه كونه نصفاً وقال ﷺ:
همِن أقلُ ما أُوتَينتُمُ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أَعْطِي حَظّه مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا قَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللّيْلِ وَصِيَامِ
النّهَادِ، وَلأَن تَصْبرُوا عَلَى مَا النّمُ عَلَيْهِ أَحَبُ إِلَيْ مِنْ أَنْ يُوافِينِي كُلُّ امْرِيءِ مِنْكُمْ بِمِثْلِ صَمَلِ جَمِيعِكُمْ
وَلَكِنِي أَخَافُ أَنْ ثُفْتَحَ عَلَيْكُم اللّنْهَا بَعْدِي فَيْنُكِر بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَيُنْكِركُمْ أَهْلُ السّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَنْ صَبَرَ
وَاحْتَسَبَ ظَفْرَ بِكَمَالِ ثُوابِهِ، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿مَا عِدَكُرُ بَعَذُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاثِ وَلَنَجْزِينَ الدِّينَ صَبَرُوا
الْحَبْرُ وَالسَّمَاءُ عَلَيْهِ النَّهَ وَله تعالى: ﴿مَا عِدَكُرُ بَعَثُمُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقُ وَلَنَجْزِينَ الدِّينَ صَبَرُوا
الْجَمْدُ ﴾ [التحل: ٢٦]، الآية ((). وروى جابر أنه سأل ﷺ عن الإيمان فقال: «الصّبرُ والسّمَاحَةُ (())، وقال أيضاً الإيمان؟ فقال: الصبر» (() وهذا يشبه قوله ﷺ:
النصاً: «الصّبرُ كُنْرٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنْقِهُ (١)، وسئل مرة: «ما الإيمان؟ فقال: الصبر» وهذا يشبه قوله ﷺ:
النحمُ عَرَقَةُ (() معناه معظم الحج عرفة وقال أيضاً ﷺ: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ما أَكْرِهَتْ عَلَيْهِ النَّفُوشُ (())
وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تخلق بأخلاقي وإن من أخلاقي أني أنا الصبور. وفي حديث عطاء عن ابن عباس: لما دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «أمؤمنون أنتم»؟ فسكتوا،

 ⁽١) حديث: «الصبر نصف الإيمان) أخرجه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود، وتقدم في الصوم.

 ⁽٢) حديث: «من أقل من أوتيتم اليثين وعزيمة الصبر...» الحديث. بطوله تقدم في العلم مختصراً، ولم أجده هكذا بطوله.

 ⁽٣) حديث جابر: سئل عن الإيمان فقال: «الصبر والسماحة» أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الصعفاء
 وفيه يوسف بن محمد بن الممكدر ضعيف، ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن
 جده.

⁽٤) حديث: االصبر كنز من كنوز الجنة ا غريب. لم أجده.

حديث: سئل مرة عن الإيمان فقال: «الصير» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً: «الصيو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» ويزيد ضعيف.

⁽١) حديث: اللحج مرفقه، تقدم في الحج،

 ⁽٧) حديث: «أفضل الأحمال ما أكرهت عليه النفوس» لا أصل له مرفوعاً، وإنها هو من قول عمر بن عبدالعزيز؛ هكذا رواه ابن أبي اللذيا في كتاب محاسبة النفس.

فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: «وما علامة إيمانكم»؟ قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ: «مؤمنون ورب الكعبة» (١) ، وقال ﷺ: «في الصبر على ما تكرهون. وقال كثيرً ")، وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً والله يحب الصابرين (٣)، والأخبار في هذا لا تحصى.

بيان حقيقة الصبر ومعناه:

اعلم: أن الصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: معارف وأحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال، والأحوال تشمر الأعمال؛ فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار. وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى. واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل ـ كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد ـ، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيمية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم. فإن الصبر حاصية الإنس ولا يتصور دلك في البهائم والملائكة؛ أما في البهائم فلنقصانها، وأما في الملائكة فلكمالها.

. وبيانه: أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة

⁽١) حديث: عطاء عن ابن هباس: قدخل ﷺ على الأنصار فقال: قأمؤمنون أنتم؟! فسكتوا فقال عمر: نعم يا رسول الله...» الحديث، أخرجه الطيراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء.

 ⁽٢) حديث: قني الصبر على ما تكوه خير كثير؟ أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: قلو كان الصبر رجلاً لكان كريماً أخرجه الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي.

والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوّة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً.

وأما الملائكة عليهم السلام: فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان: فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، على الترتيب، وليس له قوة الصبر وليس عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم، ولكنّ الله تعالى يفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم، فوكل به عند كمال شخصه بمقارية البلوغ ملكين؛ أحدهما يهديه، والآخر يقويه، فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين: إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب. وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف. فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط، فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ. وأما الدواء النافع مع كونه مضراً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه، فصار الإنسان بنور الهداية عمرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر، فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه؟ فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه، فوكل الله تعالى به ملكاً آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها، وأمر هذا الجند بقتال جند نفسه، فوكل الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الشهوة، فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد، كما أن نور الشهوة، في الخلق اختلافاً لا ينحصر.

فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثاً دينياً، ولسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى، وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد. ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

فإذن: ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى: الصبر، وهو ثنات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوات ومضاداتها لأسباب مقابلة باعث الشهوات ومضاداتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. فإذا قوي يقينه ـ أعني المعرفة التي تسمى إيماناً؛ وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى ـ قوي ثبات باعث الدين، وإذا قوي ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة. وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها. وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما، وهما من الكرام الكاتبين، وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الأدميين.

إحياء عُلهم الدّين

وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّي لم يخف عليك أنّ جانب اليمين هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست الذي ينبغي أن يكون مسلماً به. فهو إذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال.

وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة. فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيئة، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة. وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه، فهو به مسيء إليه فيئبت عليه سيئة، وبالمجاهدة مستمدٍّ من جنوده فيثبت له به حسنة. وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما فلذلك سميا كراماً كاتبين. أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة، وأما الكاتبون فلإثباتهما الحسنات والسيئات، وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين: مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى، وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت؛ إذ قال ﷺ: "من مات فقد قامت قيامته" ، وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال: ﴿وَلَقَدُ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كُمَا خَلَقَنَّكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ ﴾ [الانقام: ٩٤] وفيها يقال: ﴿كُفِّ سِنَفْسِكَ ٱلْبَرْمَ عَلِنَكَ حَسِبنا﴾ [الإسراء ١٤] أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق، وفيها يساق المتقون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمراً لا آحاداً. والهول الأول هو هول القيامة الصغرى، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإن أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال: قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها، بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره، فحصته من الزّلزلة قد توفرت من غير نقصان. واعلم: أنك أرضي مخلوق من التراب، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط، فأما بدن غيرك فليس بحظك، والأرض التي أنت حالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان، وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه، وإلا فالهواء أبداً متزلزل وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط، فهي أرضك وترابك الخاص بك، وعظامك جبال أرضك، ورأسك سماء أرضك، وقلبك شمس أرضك، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك، وشعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً، فإذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويراً، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكداراً، فإذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقاً، فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيراً، فإذا التفَّت

⁾ حديث: قمن مات فقد قامت قيامته، أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلاً، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدّت؛ حتى ألقت ما فيها وتخلت، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول: بمجرّد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك. فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب، والأعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة، وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره، ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه؛ إذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس، فمن لا رأس له لا سماء له، فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره؟ فهذه هي القيامة الصغرى. والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال.

واعلم: أن هذه الصغرى وإن طوّلنا في وصفها فإنا لم نذكر عشير أوصافها وهي بالنسية إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى؛ فإن للإنسان ولادتين:

إحداهما: الخروج من الصلب والتراتب إلى مستودع الأرحام، فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم، وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم. فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم، ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضاً إلى الرحم، بل أوسع وأعظم، فقس الآخرة بالأولى فرهنا خَلَقُكُم وَلا بَعْنُكُم الله كنسبة فضاء الدنيا

وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنَنْشِتَكُمُ فِي مَا لَا تَمْلُونَ﴾ [الواقِمَة: ٦١] فالمقرّ بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت، والمقرّ بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين؛ وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدجال.

نما أعظم غفلتك با مسكين ـ وكلنا ذلك المسكين ـ وبين يديك هذه الأهوال، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى؟ أو ما سمعت قول سيد الأنبياء: «كَفَى بِالمَوْتِ وَإِعظاً»(١) أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ: «اللَّهُمْ هَوْنُ عَلَى مُحَمَّدِ سَكَرَاتِ المَوْتِ الْمَوْتِ»)، أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين فَحَمَّدِ سَكَرَاتِ المَوْتِ الْمَوْتِ» أَوْ ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين فَمْ يَغِصِّدُنَ فَي فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْسَيَةً وَلَا إِنَّا أَهْلِهُمْ يَرْحِمُونَ فَ فَي فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْسَيَةً وَلَا إِنَّا أَهْلِهُمْ يَرْحِمُونَ فَ فَي فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْسَيَةً وَلَا إِنَّا أَهْلِهُمْ يَرْحِمُونَ فَ فَي فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْسَيَةً وَلَا اللهِ عَبْرون فَ فَي حَسَرَةً عَلَ فَياتِيهِم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون، ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون في ويُحَسَّرَةً عَلَى الْمُوسَى سافروا من عندهم أَهْلَكُنَا مَنْهُم مِن الدُولِ إِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهُرُونَ فَلَى الله وي الدنيا خالدون؟ ﴿ أَلَمْ بَرُولُ كُولُونَ أَنَهُمْ إِلَيْهِمْ لِلْهُمُ لِللهِمْ لَا يَرْجِعُونَ فَلَى السَادِهِ الله الموتى سافروا من عندهم أَهْلَكُنَا مَنْهُمْ مِنَ الْفُولُونِ أَنَهُمْ لِلِيَهِمْ لَا يَرْجِعُونَ فَلَهُ ﴾ [بس: ٣١] أم يحسبون أنّ الموتى سافروا من عندهم

 ⁽١) حديث: «كفى بالموت واعظاً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف، ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر، وهو معروف من قول الفضيل بن عياض، وواه البيهقي في الزهد.

 ⁽٢) حديث: اللهم هون على محمد سكرات الموت، أخرجه الترمذي وقال: غريب والتسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعنى على سكرات الموت.

فهم معدومون كلا ﴿وَإِد كُلُّ لَمُنَا جَمِيعٌ لِّذَيْنَا نُحْضَرُونَ ۞﴾ [يس: ٣٣] ولكن ﴿وَمَا تَأْنِهِم مِنْ ءَايَنو مِنْ عَايَنتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنهَا مُعْرِندِينَ ۞﴾ [الانسخسام: ١٤] وذلسك لأنسا ﴿وَيَعَمَلْنَا مِنْ بَيْنِ ٱبْدِيهِمْ سَكُنَا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَكًا وَمُصَابِنَهُمْ فَهُمْ لَا يُبْعِيرُونَ ۞ وَسَوَلَةً عَلَئيهِمْ ءَالْذَرْفَهُمْ أَمْ لَمَرْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞﴾ [يس: ١٠٠٩].

ولنرجع إلى الغرض، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث اللدين في مقاومة باعث اللهوى، وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين، ولا يكتبان شيئاً على الصبيان والمجانين؛ إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الإعراض عنهما، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض. ولعمري، إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز وتنمو على التدريج إلى سنّ البلغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الذيا، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً ولا يعاقب على تركها في الآخرة، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق ـ إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ـ أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب. فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة؛ فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين، وإليه الإشارة بقوله هي «أنا العالمين كما نالته الملائكة؛ فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين، وإليه الإشارة بقوله هي «أنا العالمين كما نالته الملائكة؛ فيكون مع النبيين والمقربين والعربية.

بيان كون الصبر نصف الإيمان:

اعلم: أنَّ الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها، وتارة يطلق عليهما جميعاً، وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب، ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً. واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات. ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين:

أحدهما: أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً، فيكون للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين، والآخر: الصبر، والمراد باليقين: المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين، والمراد بالصر: العمل بمقتضى اليقين؛ إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر؛ وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل. فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار. ولهذا جمع رسول الله يَظِيَّة بينهما فقال: قعن أقل ما أوتيئم اليقين وَعَزيمَة الصَّبْر...» الحديث، إلى آخره.

الاعتبار الثاني: أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر. فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار، كما أن اليقين أحد

⁽١) حديث: «أنا وكافل البتيم كهاتين» أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد، وتقدم.

الشطرين بالاعتبار الأوّل، وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر، وقد يرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ،

ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين، باعث من حهة الشهوة وباعث من جهة الغضب؛ فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب، قال على بهذا الاعتبار: «الصّومُ يُضفُ الصّبرِ» لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعاً، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان. فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان، والأصل فيه: أن تعرف كثرة أبواب الإيمان، فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة.

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر:

اعلم: أن الصبر ضربان: أحدهما: ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها، وهو إما بالفعل: كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها. وإما بالاحتمال: كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة. وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر: وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى. ثم هذا الضرب إن كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر. فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها. وإن كان في احتمال الغني سمي ضبط النفس، وتضاده حالة تسمى البطر. وإن كان في حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن. وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضاده التذمر. وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر. وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صَّاحبه كتوماً. وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص. وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره. فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال: «العج عرفة»(١٠)، وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبراً فقال تعالى: ﴿ وَالْقَرْدِينَ فِي الْبَأْسَآءِ ﴾ [التقرّة: ١٧٧] أي: المصيبة. ﴿ وَالفَّرَّآءِ ﴾ [البقرّة: ١٧٧] أي: الفقر ﴿ وَسِينَ ٱلْبَأْسُ ﴾ [البقرّة: ١٧٧] أيَّ ۚ ٱلصحاربة ﴿ أُوْلَتِكَ ٱلَّذِينَ صَنَعُوٓاً وَأُولَتِكَ هُمُ ٱلْمُثَقُّونَ ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] فإذن: هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتهاء ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أنَّ هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفة، والذي يُسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالَى يلحظ المعاني أوّلاً فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني. فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التواسع، ومن يطلب الأصول من التوابع لا بدُّ وأن يزل. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَنَ يَتَنِي مُكِنًّا عَلَىٰ وَجَهِدِ: أَهْدَىٰ أَمَّن يَنشِي سَوِتًا عَلَىٰ صِرَاطٍ شُسْتَفِيمٍ ۞﴾ [المُلك· ٢٢] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات. نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه.

⁽١) حديث: اللحج هرفة أخرجه أصحاب السنن من حديث عبدالرحمن بن يعمر، وتقدم في الحج.

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف:

اعلم: أنَّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال: من صبر ظفر، والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون فلا جرم هم الصدّيقون المقربون ﴿ اللَّذِينَ قَالُواْ رَبُّكَ اللَّهُ ثُمَّ اَسْتَقَدْمُو﴾ [فُصَلَت: ٣٠] فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين. وإياهم ينادي المنادي ﴿ يَتَابَّنُهُ النَّفُسُ النَّطُنَيَّةُ ﴿ اللَّهِ الْبُعِينَ إِلَى رَافِينَهُ مَنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّلْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ ال

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمرٍ من أمور الله . واليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِنْنَا ۚ لَانَيْنَا ۚ كُلَّ نَّفِينٌ هُدَنْهَا وَلَكِنْ حَقَّ ٱلْفَوْلُ مِنِي لَأُمْلِكُنَّ حَهَسَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۞ [السَّجَدَة: ١٣] وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم، وقيل لمن قصد إرشادهم: ﴿ فَأَعْرِشْ عَن مَّن نَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَا بُرِدْ إِلَّا الْمَجَزَةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ سُلَنْهُمْ شِرَ ٱلْعِلْمِيُّ [النَّجُم ٢٠٠٢٩] وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني وهو غاية الحمق، كما قال ﷺ: «الكَيْسُ مَنْ دَانْ تَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا يَعْدَ المَوْتِ وَالأَخْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَتَّى عَلَى اللُّهِ (١٠)، وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال: أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علي فلست أطمع فيها، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال: إنَّ الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به إلى توبني. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقاً لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفار، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلماً ويسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم، لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه، وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطاً لما فيه من معرفة الله وباعث الدين، وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطاً عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين، وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه. فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرقّ مسلماً لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه إلى أبغض أعداثه، فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته! لأن الهوى أبغض إله عبد في الأرض عند الله تعالى، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض.

المحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له البد عليها وتارة لها عليه، وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَلِعًا وَمَاخَرَ سَيِّتًا عَسَى اللّهُ المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَلِعًا وَمَاخَرَ سَيَّتًا عَسَى اللّهُ أَنْ يَتُونَ عَلَيْهِم ﴾ [القوتة: ١٠٢] هذا باعتبار القوّة والضعف. ويتطرّق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما

⁽١) حديث: «الكيس من دان نفسه. . . ٥ الحديث. تقدم في ذم الغرور.

يصبر عنه: فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات، أو لا يغلب شيئاً منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَلِمًا وَمَاخَرَ سَيِّعًا ﴾ [التوبّة: ١٠٧] على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى. والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً ؛ إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقاً المدبر يقيناً، ولذلك قيل:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس؛ فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى: ﴿ فَأَنَا مَنْ أَعَلَى رَاتُقَى ﴿ وَصَدَّدَ بِلَيْسَنَ ﴾ والليل: ٥٠٧] الصبر ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأَنَا مَنْ أَعَلَى رَاتُقَى ﴿ وَصَدَّدَ بِلَيْسَ وَ فَيَنَيْسِمُ لِيَهُمَى ﴾ والليل: ٥٠٧] ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره، فإنّ الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوّة، بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر. ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد حهد وعرق جبين. فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا - كما سيأتي وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا - كما سيأتي في كتاب الرضا -، فالرضا أعلى من الصبر، ولذلك قال على: «افبُكِ اللَّهَ عَلَى الرُضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقِي فَي ما تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرً» (١٠).

وقال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات:

أوَّلها: ترك الشهوة وهذه درجة التائبين.

وثانيها: الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين.

وثالثها: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين.

وسنبين في كتاب المحبة أنّ مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، كما أنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. وكأنّ هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا.

واعلم 'أنّ الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم. فالصبر عن المحظورات فرض. وعلى المكاره نفل. والصبر على الأذى المحظور محظور؟ كمن تقطع يله أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتاً. وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة، ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم. والصبر المكروه: هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر. فكون الصبر نصف الإيمان لا بنبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة.

 ⁽۱) حدیث: «اهید الله علی الرضا فإن لم تستطع قفی الصیر علی ما تکوه خیر کثیرا أخرجه الترمذی من حدیث
ابن عباس، وقد نقدم.

بيان مظانً الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال:

اعلم: أنَّ جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين:

أحدهما: هو الذي يوافق هواه.

والآخر: هو الذي لا يوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما. فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر.

النوع الأول: ما يوافق الهوى: وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا. وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، في آلإنكن يَظِئ إلى أن رَبَاهُ أَسْتَمَع في العلق: ٦-٧] حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صدّيق. وقال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر، ولذلك حدر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى: ﴿يَايُّهُا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا عَدُوا المَالِينَ عَلَيْهُ وَاللَّهُ وَالمَنْهُ وَاللَّهُ مَنْهُ فَلَيْهُ وَاللَّهُ وَال

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها: أن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه بنذل الصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه، وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر - كما سيأتي - وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللديذة وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السراء.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه، فهذه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، وهما ضربان:

 ⁽١) حديث: اللولد مجيئة مبخلة محزنة اخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد، وتقدم.

 ⁽٢) حديث: الما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر. . . ، الحديث . أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا: الحسن والحسين، وقال الترمذي: حسن غريب.

الضرب الأوّل: الطاعة، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله ﴿أَنَّا رَبُّكُمُ الْأَغْلَ ﴾ [النَّازعات: ٢٤]، ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه، وما من أحد إلا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعاً من إظهاره فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء الكرياء.

فإذن: العبودية شاقة على النفس مطلقاً. ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس. وقد به عليه صلوات الله عليه إذ قال: اإنما الأحمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى (١١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْمُوا إِلّا لِيَسْدُوا الله يُغْلِينَ لَهُ اللِّينَ الله المنها المال على العمل فقال تعالى: ﴿إِلّا اللِّينَ صَبَرُوا وَعَيلُوا الطّلِحَتِ المُود: ١١].

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَنْمِلِينَ ﴿ الْعَنْمِلِينَ اللَّهِ اللَّهِ الْمَا العمل. أيضاً صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل؛ إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى: ﴿ وَلَا نُبُطِلُوا مُلَكَّرُ ﴾ [البَقَرَة. ٢٦٤] فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اَلْقَدُ بِالْمَدُلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيثَاتِي ذِى الْقُرْفَ﴾ [التحل: ٩٠] فالعدل هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربي هو المروءة وصلة الرحم. وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

الضرب الثاني: المعاصي، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَثَفَنُ عَنِ اَلْفَحْشَاءَ وَاللَّهُ عَنِ الْفَحْشَاءَ وَاللَّهُ عَنِ اللَّمُ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ (٢٠). والمعاصى مقتضى باعث الهوى.

وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المُعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة، فإذا

 ⁽١) حديث: اإنما الأحمال بالنيات، متفق عليه من حديث عمر، وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث: «المهاجر من هجر السوء والممجاهد من جاهد هواه أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائي في الكبرى
بالشطر الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيدالله بإسنادين جيدين، وقد تقدما.

انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس؛ كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً. وأنواع المزح المؤدي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزدراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس. فللنفس فيه شهوتان: إحداهما: نفي الغير، والأخرى: إثبات نفسه. وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه، وهي ضد ما أمر به من العبودية. ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها، وهي أكبر الموبقات حتى بعلل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستعاد ويطلق لسائه طول النهار في أعراض الناس، ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من أن الغيبة أشد من الزنني(۱)، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة.

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعضية في قوّتها وضعفها. وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يعلب على القلب همَّ آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه.

 ⁽١) حديث: «إن الغبية أشد من الزني». تقدم في آفات اللسان.

 ⁽٢) حديث: القسمه مرة مالاً وقول بعض الأهراب: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم.

⁽٣) حديث: «صل من قطعك. . . ٩ الحديث. تقدم.

بالأنف، وأنا أقول لكم: لا تقاوموا الشر بالشر، بل من ضرب خلك الأيمن فحوّل إليه الخدّ الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك، ومن سخرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين. وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى. فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر؛ لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره؛ كالمصائب: مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الأعضاء. وبالجملة سائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله شمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة. وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، قأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك شديد على النفس. ولذلك قال على: «أَسْأَلُكَ مَنْ المَنْ عَلَى به مَصَائِبَ اللَّمْيَا» (١٠)، فهذا صبر مستنده حسن البقين.

⁽۱) حديث: السألك من اليقين ما تهون به هلي مصالب الدنياه أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذي، وقد تقدم في الدعوات.

 ⁽٢) حديث: قال الله: إذا وجهت إلى حبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو وقده أو ماقه ثم استقبل ذلك بصبر جميل . . . ٤ الحديث. أخرجه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف.

⁽٣) حديث: النتظار الفرج بالصبر* القضاعي في مسئد الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله: "بالصبر* وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسئد الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة، وللترمذي من حديث ابن مسعود الأفضل العبادة انتظار الفرج* وتقدم في الدعوات.

 ⁽٤) حديث: (من ما عبد أصبب بمعصيبة فقال كما أمره الله ﴿ إِنَّا يَتِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ وَيَحْوَنَ ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦]... • الحديث. أخرجه مسلم من حديث أم سلمة.

٥) حديث أنس: فإن الله قال: يا جبريل ما جزاه من سلبت كريمتيه. . . الحديث. أحرجه الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسملي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس، ورواه البخاري بلفظ: فإن الله هز وجل قال: إذا لبتليث هبدي بحبيبتيه فصبر حوضته منهما الجنقة. رواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ: فإذا أخذت كريمتي هبدي لم أرض له ثولباً دون الجنقة قلت: يا رسول الله، وإن كانت واحدة قال: فوإن كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم. قال ابن عدى: ضعيف.

أبرأته وَلاَ ذُنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي (١٠)، وقال داود عليه السلام: يا رب، ما جزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك، قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبداً. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله في خطبته: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوَّضه منها الصبر إلا كان ما عوّضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُؤَتَّى ٱلصَّنْبِرُونَ أَجْرَكُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمر: ١٠]. وسئل فضيل عن الصبر فقال: هو الرضا بقضاء الله، قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي لا يتمني فوق منزلته. وقيل: حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحباؤك جاؤوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال: لو كنتم أحبائي لصىرتم على بلائي. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها: ﴿وَأَمْهُرْ لِمُكِّمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِكَا﴾ [الطُّور· ١٤٨. ويقال: إنَّ امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إنَّ لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وقال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات. وقال نبينا ﷺ: "مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ حَقَّه أَنْ لا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ (```. ويروى عن سعض الصالحين: أنه خرح يوماً وفي كمه صرة فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه فقال: بارك الله له فيها، لعله أحوج إليها مني. وروي عن بعضهم أنه قال: مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلي وبه رمق فقلت له: أسفيك ماء؟ فقال: جرّني قليلاً إلى العدرّ واجعل الماء في الترس فإني صائم فإن عشت إلى الليل شربته. فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى.

فإن قلت: فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطر شاه أم أبى؟، فإن كان العراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار؟ فاعلم: أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم، وهذه الأمور داخلة تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرًا على عادته، ويعتقد أنّ ذلك كان وديعة فاسترجعت. كما روي عن الرميصاء أم سليم (١) رحمها الله، أنها قالت: توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت: فسجيته في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ قلت: بأحسن حال بحمد الله ومنه، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا! قال: ما لهم؟ قلت: أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا! فقلت: هذا ابنك كان عارية أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا، فقال: بئس ما صنعوا! فقلت: هذا ابنك كان عارية

⁽١) حديث: فيقول الله إذا ابتليت عبدي ببلاء قصبر ولم يشكني إلى هواده أبغلته لحماً خيراً من لحمه. . . ١ الحديث . أخرجه مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى . وعبد بن كثير ضعيف . ورواه البيهقي موقوفاً على أبي هريرة .

 ⁽٢) حديث. «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنياً في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال: همن الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكى نفسك».

 ⁽٣) هي أم سليم، اشتهرت بكنيتها، وهي أيضاً أم أنس بن مالك رضي عنه عنهما، اشتهرت بكنيتها واختلف في اسمها
 والأشهر أنها سهلة بنت ملحان، تزوجها أبو طلحة الأنصاري وكان صداقها إسلامه. لها أخبار مشهورة، روت عن
 النبي ﷺ، ماتت سنة إحدى وستين.

من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع، ثم عدا على رسول الله على فأخبره، فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهماه (أن قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤوا القرآن، وروى جائر أنه عليه السلام قال: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةُ فَإِذَا أَنَا بِالرَّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةً». وقد قيل: الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع؛ إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأن البكاء توجع القلب على المبت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت، ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي على المبت عيناه فقيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ فقال: فإن هَلِه رَحْمَةٌ وَإِنْمَا يَرْحُمُ اللّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُحَاء، بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه _ وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى _. وكتب بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه _ وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى _. وكتب عنده فيما أبقاه له: واعلم: أنّ الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك. واعلم: أنّ الماضي قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك. واعلم: أنّ أجر الصابرين به فيما يصانون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه.

فإذن: مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين. نعم، من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب. وقد قيل: من كنور البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة. فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أنَّ وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، فإنَّ الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والَّانفراد ظاهراً، وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً. فإن اختلاج الخواطر لا يسكن، وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بدّ وأن يحصل منه ما هو مقدّر، فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسأ بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون، هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصوراً عليه، ولا يكون ذلك غالباً، بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات؛ إذ لا يزال بنازع كل من تحرُّك على خلاف غرضه في جميع عمره، أو من يتوهم أنه بنازعه ويخالف أمره أو عرضه بظهور أمارة له منه، بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه حتى مي أهله وولده، ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته، ولا يزال في شغل دائم، فللشيطان جندان: جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار. وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالفخار، والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين، والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة، فلا يتصوّر نار مشتعلة لا تتحرّك بل لا تزال تتحرّك بطبعها. وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ساجداً لما خلق الله من الطين فأبي واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بأن قال: ﴿خَلَقْنَنِي بِن شَارٍ وَخَلَقْتُهُ مِن طِينِ﴾ [الأعرَاف: ١٦].

فإذن: حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده

 ⁽١) حديث الرميصاء أم سليم: «توفي ابن لي وزوحي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت. . . ٤ الحديث.
 أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية، والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف.

لأولاده، ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقد أظهر انقياده وإذعانه. وانقياده بالإذعان سجود منه - فهو روح السجود -، وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاضطلاح. ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصوّر ذلك، كما أن الانبطاح بين بدي المعظم المحترم يرى استخفافاً بالعادة، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الابوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب! فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب، وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهمومك هم واحد، فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالاً فيك، فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين.

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان. ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَن يَشُن عَن ذِكْر الرَّمَنِ نَفَيِّسٌ لَمُ مُنْطَكناً فَهُو لَمُ عَلَى السَّابُ الفَارِغَهُ (١٠) فين الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً ولم يبق فلبه فارغاً، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ، ثم تزدوج أفراخه أيضاً وتبيض مرة أخرى وتفرخ، وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار، وإذا وجد الحلفاء وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار، وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده، فلا تزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسري شيئاً فشيئاً على الاتصال. فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة، فإذن: إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك الحصف فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة، فإذن: إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شهوتك ما هو؟ فقال: هي نفسك، ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج _ حين كان يصلب _ وقد سئل عن التصوف ما هو؟ فقال: هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك.

فإذن: حقيقة الصبر وكماله: الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه:

اعلم: أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل. فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة، وإذا اختلف العلل اختلف العلاج؛ إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها. واستيفاء ذلك مما يطول، ولكنا نعرف الطريق في بعض الأمثلة.

فنقول: إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً، وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها

⁽١) حديث: ﴿إِنْ اللهُ بِيغَضُ الشَّابِ الفَّارِخِ؛ لَم أَجِدِه.

فرجه، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه، إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة «فنقول»: قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر؛ فلزمنا هاهنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة.

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة ـ من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ـ فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة في الحال، فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة؛ إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية، قال رسول الله ﷺ: •النَّظْرَةُ سَهْمٌ مُسْمُومٌ مِنْ سِهَامٍ إِنْلِيسَ، (1)، وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه. فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبتَ عن صوب الصور لم يصبك سهمه.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه، وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإن قطع المغذاء يضعف عن سائر الأعمال، ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال، ولذلك قال على المنابكُم بِالبَّاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءًا (٢).

فهذه ثلاثة أسباب، فالعلاج الأول ُ وهو قطع الطعام ـ يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته. الثاني: يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها. والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب،

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين:

أحدهما: إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة.

وفي الأثر: إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة؛ إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر. ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال، وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى، فإن قوى قوى باعث الدين وهيجه تهييجاً شديداً وإن ضعف ضعفه، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر.

⁽١) حديث: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، تقدم غير مرة،

 ⁽٢) حديث: عمليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم...» الحديث. تقدم في النكاح.

والثاني: أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرى، عليها وتقوى منته في مصارعتها، فإن الاعتباد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين، وبالجملة: فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقها، والصالحين، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة.

قالعلاج الأوّل: يضاهي أطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة، ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال: ﴿وَإِلَّكُمْ إِنَا لَّيِنَ ٱلْمُقَرِّبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٧].

والثاني: يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه منته. فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه، وإنما أشدّها كف الباطن عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرّغ له بأن قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإن الوسواس لا يزال بجاذبه من جانب إلى جانب. وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء، ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به، ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هما واحداً وهو الله تعالى. ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإن الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها؛ إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدّد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيناء من إنسان وطغيان من مخالط؛ إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه الفكر والذكر من مرض وخوف وإيناء من إنسان وطغيان من مخالط؛ إذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة. فهذا أحد الأنواع الشاغلة.

[الذَّارِيَات: ٢٢] وهذا من أعلى أنواع الرزق. والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق، فما علينا إلا تعريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر ولا يدري متى يقدّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلي سنة عن مطر، فكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات. فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص وعرّضه لمهاب رياح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان، فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء، وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم في أقطار الجبال والبحار، بلي الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجاباً بينك وبينها، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب. وإظهار ماء الأرض بحفر القني أسهل وأقرب من الاسترسال إليها من مكان بعيد منخفض عنها. ولكونه حاضراً في الْقِلْبِ وِمنسِياً بِالشِّخْلُ عنه سمى الله تعالى جميع معارفِ الإيمان تذكراً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَشَنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ رَإِنَّا لَهُ لَحَنِطُونَ ۞﴾ [الحِجر: ٩] وقال تعالى: ﴿ وَلِسَنَكُكُرُ أَوْلُواْ ٱلأَلْبَبِ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَفَدْ بَشَّرْنَا ٱلْقُرَءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَّكِرٍ ١٠﴾ [العّمَد: ١٧] فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو آخر درجات الصبر وإنما الصبر، عن العلائق كلها مقدّم على الصبر عن الخواطر.

قال الجنيد رحمه الله: السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهجران الخلق في حب الحق شديد، والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد والصبر مع الله أشد، فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدّة هجران الخلق.

وأشد العلائق على النفس: علاقة الخلق وحب الجاه. فإنّ لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء، وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية؟ والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿فُلِ الرُّرُحُ مِنْ أَسِر رَبِّ الإسرَاء: ٨٥] وليس القلب مذموماً على حبه ذلك، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللمين المبعد عن عالم الأمر فأضله وأغواه، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة؟ فليس علم الأمر فأضله وأغواه، وكيف يكون مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة؟ فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه، وعزاً لا ذل فيه، وأمناً لا خوف فيه، وغنى لا فقر فيه، وكمالاً لا نقصان فيه، وهذه كلها من أوصاف الربوبية. وليس مذموماً على طلب ذلك، بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيماً لا آخر له، وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة، ولكن الملك ملكان: ملك عشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا، وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل. . . وقد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة . التي في طبعه . فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة، وتوسل إليه بواسطة العجلة . التي في طبعه . فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة، وتوسل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة، ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة، كما قال ﷺ: ﴿وَالاَحْمَقُ مَنْ أَشَيّعُ وَلَهُ الله الأمائي، فانخدع المخذول بغروره، واشتخل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر نقد فواها على قدر المناه على قدر على على الله المناه على قدر على الله المناه على قدر على على الله على قدر على المناه على قدر على الله على قدر على على المناه على قدر على المناه على قدر على المناه على قدر على الله على قدر على المناه على المناه على قدر على المناه على قدر على المناه على المناه على قدر على المناه على

إمكانه، ولم يتدل الموفق بحبل غروره، إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة. فعبر عن المحذولين يقوله تعالى: ﴿كُلَّ بَلْ نَجِيُّورُ ٱلْعَاجِلَةَ ۞ وَتَدَوُنَ ٱلْآخِرَةَ ۞﴾ [القِيَامَة: ٢١،٢٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَاتُولَةَ يُجِنُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَزَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۞﴾ [الإسسان: ٢٧] وقال تبعالى: ﴿فَأَغَرِضْ عَن مَن نَوَلَى عَن دِكْرِما وَلَمْ بُرِدٌ إِلّا الْمُحَمِّدُونَ اللّهُ عَلَيْهُ وَلِكُ مَنْ لَقِيلًا ۞ دَلِكَ مَنْلَعُهُم مِن ٱلْهِلِمُ ﴾ [النجم. ٢٠،٢٦].

ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل، وأوحوا إليهم ما تم على الخلق من إهلاك العدو وإغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازي الذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَاسَنُوا مَا لَكُرُ إِذَا فِيلَ لَكُرُ اَنِسُرُوا فِي سَيِدِ اللّهِ اَثَالَتُهُمَا اللّهِ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ ا

فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة النخلق إلى الملك الدائم المخلد، والمراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة؛ أما ملك الدنيا: فالزهد فيها والقناعة باليسير منها، وأما ملك الآخرة. فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فياء فيه، وقرة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس.

والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به إذ الدنيا والآخرة ضرتان، ولعلمه بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضاً، ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن الممنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه. ثم مهما تسلم وتتم الأسباب ينقضي العمر ﴿حَقَّ إِنَّ أَغَذَتِ الْأَرْضُ رُتُوْفَهَا وَازَيْنَتَ وَطَنَ أَهَلُهَا أَنَهُمْ تَدُرُونَ عَلَيْهَا أَتَهَا أَنْهَا الله الما المنافقة على المنافقة على المنافقة على المنافقة المنافقة على المنافقة على المنافقة على المنافقة المنافقة على المنافقة على المنافقة المنافقة المنافقة على المنافقة المنافقة على المنافقة المن

ومعنى الزهد: أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً. وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخراً مثل السهيمة مملوكاً يستجره زمام الشهوة آخذاً بمختنقه إلى حيث يريد ويهوى. فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكاً! وينال الربوبية بأن يصير عبداً! ومثل هذا هل يكون إلا معكوساً في الدنيا منكوساً في الآخرة؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد: هل من حاجة؟ قال: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ فقال: كيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبد لي! فقال: كيف ذلك؟ قال: أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك ويطنك، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي. فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة. فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعاً.

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية، ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته؛ إذ تصير بتركه ملِكاً في الحال وترجو به ملكاً في الآخرة.

ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف؛ بل لا بدّ وأن يضيف إليه العمل. وعمله في ثلاثة أمور: أحدها: أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة، ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنُّ أَرْضُ اللهِ وَسِمَةً فَلْهَا مِرُوا فِيهَا ﴾ [اللساء: ٩٧].

الثاني: أن يكلف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده، فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع، وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه، فينبغي أن يبدلها بنقائصها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده. فلا معنى للمعالجة إلا المضادة.

الثالث: أن يراعي في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل، فإن الطبع نمور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض، إلى أن يقنع بالبقية، وهكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه، وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله ﷺ: "إنَّ هٰذا الدينَ فَسِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقِ وَلا تَبغُضُ إلى تَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ فَإِنَّ المُنْبَتُ لا أَرْضاً قَطَعَ وَلا ظَهْراً أَبْقى "(1)، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «لا تُشَادُوا هَذَا الدينَ فَإِنْ مَنْ يُشَادُهُ يَغْلِيهُ "".

فإذن: ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل، فإن تفصيل الآحاد يطول. ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر معه، فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوناً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه. وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات، فإن الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهراً، فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر؛ فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب. وإلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد؟ والصبر على اللهب من الله؛ فقال: لا، فقال: لا، فقال: لا، فقال: لا، فقال: لا، فقال: لا، فقال: الصبر عن الله؛ فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف. وقد قبل في معنى قوله تعالى: ﴿أَصْرُوا وَمَارِوا وَرَابِطُوا﴾ (آل عِمران: ٢٠٠) اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله. وقبل: تعالى: والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء. وقد قبل في معنى قوله الصبر بله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء. وقد قبل في معنى:

والتصبير عنتك فتمنذموم عنواقبيه والتصبير في سنافر الأشيباء متحمودُ وقيل أيضاً:

السمب رئي يجسم في السمواطن كلها إلا عملسيك فإنه لا يسجمل المسمل هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصير وأسواره.

⁽١) حديث: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث. أخرحه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جاس، وتقدم في الأوراد.

⁽٢) حديث: الا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده بغلبه. تقدم فيه.

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

رله ثلاثة أركان:

الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه. الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة.

الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

* * *

الركن الأول

في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر:

اعلم: أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال: ﴿وَلَلِكُرُ اللّهِ آَكِيرُ ﴾ [المتكبوت: ٤٥] فقال تعالى: ﴿قَادُرُونِ اللّهُ وَاللّهُ وَال

وأما الأخبار: فقد قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ اللَّهِ ، وروي عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: وأي شأنه لم يكن عجباً؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي _ أو قالت في لحافي _ حتى مس حلدي جلده ثم قال: فيا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي فقالت: قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك فأذنت له، فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على

حديث: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر» علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة، ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سة وفي إسناده اختلاف.

صدره، ثم ركع فىكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ﴿أَفَلَا أكون عبداً شكوراً ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ﴿ إِنَّ بِن عَلْقِ النَّسَدَوْتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البَقَزَه: ١٦٤] الآية»(١). وهذا يدل على أنّ البكاء ينبغي أن لا يتقطع أبداً. وإلى هذا السر يشير ما روي: أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغيرة يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى. ﴿ وَقُودُهُمَا اَلنَّاسُ وَلَلْجِهَارَةٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٤] فأنا أبكى من خوفه، فسأله أن يجيره من النار فأجاره، ثم رآه بعد مدّة على مثل ذلك فقال: لم تبكي الآن؟ فقال: ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور. وقلب العبد كالحجارة أو أشدٌّ قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً. وروي عنه ﷺ أنه قال: (بنادى يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَقُم الحَمَّادُون فَتَقُومُ زُمْرَةً فَيُنْصَبُ لَهُمْ لِوَاءٌ فَيَفْخِلُونَ الجَيَّةَ» قبل: ومن الحمادون؟ قال: «الذينَ يشكرون الله تعالى على كلُّ حال» (٢)، وفي لفظ أخر: «الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى السُّرَّاءِ وَالضَّرَاءِ" وقال ﷺ: "الحَمْدُ رِدَاءُ الرَّحْمُنِ" (٣). وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إنى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ـ في كلام طويل ـ، وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين: أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم، وبالنظر إلى أزيدهم. ولما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام: ﴿ وَلِيَتَّخِذُ أَحَدُكُمْ لِسَاناً ذَاكِراً وَقَلْباً شَاكِراً ﴾ ` فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً من المال. وقال ابن مسعود: الشكر تصف الإيمان.

بيان حدّ الشكر وحقيقته:

اطم: أن الشكر من جملة مقامات السالكين، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل، فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه. ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان، ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قبل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه.

فَالْأَصْلُ الْأَوْلُ: العلم: وهو علم بثلاثة أمور: نعين النعمة، ووجه كونها نعمة في حقه، وبذات

⁽١) حديث: عطاء: «دخلت علي عائشة فقلت لها: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ ققالت: وأي أمره لم يكن عجباً... المحديث. هي بكائه هي صلاة الليل. أخرجه أبو الشيح ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوقاء، وبه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور، ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها: «وأي أمره لم يكن هجباً...» وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث.

 ⁽٧) حديث: ينادى يوم القيامة: «وليهم الحمادون . . . ٤ الحديث . أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: «أول من يدهي إلى الجنة الحمادون . . . ٤ الحديث . وفيه قيس من الربيع ضعفه الجمهور .

⁽٣) حليث: «الحمد رداء الرحمن» لم أجد له أصلاً، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة: «الكبر رداؤه. . . ا الحديث. وتقدم في العلم.

 ⁽٤) حديث عمر: (ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً. . • الحديث، تقدم في النكاح.

المنعم ووحود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه. فإنه لا بد من: نعمة، ومنعم، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة، فهذه الأمور لا بد من معرفتها. هذا في حق غير الله تعالى، فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم، والوسائط مسخرون من جهته.

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها. بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان: التقديس. ثم إذا عرف ذاتاً مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس؛ وهو التوحيد. ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط، فالكل نعمة منه، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة؛ إد ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل، وعن هذا عبر رسول الله على حيث قال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللّهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتِ، وَمَنْ قَالَ لا إِلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَلَهُ عَشْرُونَ حَسَنَة، وَمَنْ قَالَ لا إِلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ مَسْرُونَ اللّهُ وَقَالَ اللّهُ وَقَالَ اللّهُ وَقَالَ اللّهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ اللّهُ اللّهُ وَقَافَلُ الدُّعَاءِ اللّهُ الحَمْدُ لِلّهِ اللّهُ وَقَافَلُ الدُّعَاءِ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَقَافَلُ الدُّعَاءِ اللّهُ اللّهُ عَلْمُ تَعْرَبُ عَلَى المُعْمَدُ لِلّهِ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلْمَ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّ

واعلم: أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك وإيصاله إليه فهو إشراك به في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه، بل منه بوجه ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحداً في حق الملك. نعم، لا يغض من توحيده في حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد الذي كتبه عليه، فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما؛ لأنه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطران من جهة الملك في الإيصال، وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم بخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً، فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى الغازن الموصل كنظره إلى الملك.

وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالعلم مثلاً في يد الكاتب، وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها، فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل مشاءت أم أبت من كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلاً إلى مخالفة الملك، ولو خلى ونفسه لما أعطاك فرة مما في يده. فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر؛ إذ سلط الله عليه الإرادة وهبج عليه الدواعي، وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن

 ⁽١) حديث: (من قال سبحان الله فله عشر حسنات. . .) الحديث. نقدم في الدعوات.

 ⁽٢) حديث: «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدهاء الحمد لله أخرجه الترمذي وحديه، والنسائي في اليوم والليلة،
 وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر.

 ⁽٣) حديث طبس شيء من الأذكار بضاحف الحمد لله لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النحفي. يقال: إن الحمد أكثر الكلام تضعيفاً.

يعطيك ما أعطاك، وأن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به. وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلاً إلى تركه، فهو إذن إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك، ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك، ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نقعك، فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك، فليس منعماً عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة آخرى وهو يرجوها. وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك. فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحداً وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجرّدها شاكراً.

ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي: خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك؟ فقال الله عزّ وجلّ: اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكراً.

فإذن: لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح، وبنقصان فرحك ينقص عملك. فهذا بيان هذا الأصل.

الأصل الثاني: الحال المستمدة من أصل المعرفة: وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع، وهو أيضاً في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر، ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه، وشرطه: أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلاً فنقول: الملك الذي يريد الخروج إلى سفره، فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس، وأنه مال ينتفع به، ومركوب يوافق غرضه، وأنه جواد نفيس، وهذا فرح من لا حظّ له في الملك بل غرضه الفرس فقط، ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح.

الوجه الثاني: أن يُفرح به لا من حبث إنه فرس، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بمجانبه، حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً؛ لاستغنائه عن الفرس أصلاً، أو استحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك.

الوجه الثالث: أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته القرب منه، وربما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب، فهذه ثلاث درجات، فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً؛ لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيلة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر، والثانية: داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم، ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معنى الشكر، والثانية : داخلة في معنى الأنعام في المستقبل، وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه، وإنما الشكر التام في الفرح الثالث، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى،

والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام، فهذا هو الرتبة العليا، وأمارته: أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدّه عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج، بل من حيث إنه يحمله في صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه، ولذلك قال الشبلي رحمه الله: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. وقال الخوّاص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب، وشكر الخاصة على واردات القلوب، وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب، فإنّ القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين، وكما يستبشع بعض المرضي الأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرّة كما قيل:

ومَسنُ يسكُ ذا فسم مسرًّ مسريسض يسجسد مسرّاً بسه السمساء السزلالا

فإذن: هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى، فإن لم تكن إبل فمعزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجة عن كل حساب، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك، وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه.

الأصل الثالث: العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم. وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح، أما بالقلب: فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان: فإظهار الشكر شه تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شكر العينين: أن تستر كل عيب تراه لمسلم، وشكر الأذنين: أن تستر كل عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء، والشكر باللسان: لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به؛ فقد قال الله لرجل: «كَيْفَ أَصْبَحْتُ؟ قال بخير، فأعاد الله السؤال الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به؛ فقد قال الله لرجل: «كَيْفَ أَصْبَحْتُ؟ قال بخير، فأعاد الله السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال الله : «هذا الذي أَرْدُتُ مِنْكَ (١)، وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعاً والمستطق له به مطيعاً وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين، وكيف لا تقبع الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء؛ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على البلاء والقضاء وأفضى به لمولاه عز، والشكرى إلى غيره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح. قال الله تعالى: الله نكري الله يقول عند الله الله تعالى: عن دُونِ الله لا يَسْرُونَ الله عن دُونِ الله لا يَسْرُونَ الله يعاد الله الله تعالى: عن دُونِ الله لا يعره ذل، وإظهار الذل للعبد مع كونه عبداً مثله ذل قبيح. قال الله تعالى: [المنكوى المؤل تعالى: عن دُونِ الله لا يستركون الله الله تعالى: عن دُونِ الله لا يستركون الله الله تعالى: عن دُونِ الله الله تعالى: الله الله تعالى: عن دُونِ الله الله تعالى الله تعالى الله تعالى الله تعالى الله تعالى الله تعالى

⁽١) حليث قال ﷺ لرجل: «كيف أصبحت؟» فقال: بخير، فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة: بخير أحمد الله وأشكره، فقال: «هذا الذي أردت مثك» أخرجه الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعاً نحوه، قال في الثالثة: أحمد الله. ورواه في المعجم الكبير من حديث عبدالله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال: أحمد الله إليث، وفيه راشد بن سعد ضعفه الحمهور لسوء حفظه، ورواه مالك في الموطأ موقوفاً على عمر بإسناد صحيح.

باللسان من جملة الشكر. وقد روي: أن وقداً قدموا على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكبر الكبر! فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك! فقال: تكلم، فقال: لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف. فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

وأما قول من قال: إن الشكر هو الاعتراف بعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب. وقول من قال: إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرّد عمل اللسان. وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع الأكثر معاني الشكر لا يشد منه إلا عمل اللسان. وقول حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيلياً إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكر فقط، وقول الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص، وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين؛ لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالاً بما يهمهم عما لا يهمهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقاً بحالة السائل، اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضاً عما لا يحتاج إليه؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما السائل، اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه، وإعراضاً عما لا يحتاج إليه؛ فلا ينبغي أن تظن أن ما بعاقل أصلاً إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني، أم يتناول بعضها مقصوداً ويقية المعاني تكون من توامعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب المعاني، أم يتناول بعضها مقصوداً ويقية المعاني تكون من توامعه ولوازمه؟ ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء، والله الموفق برحمته.

بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى:

لعلك يخطر ببالك: أنّ الشكر إنما يقعل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم، أو بالملوك إما بالثناء ليزيد معلهم على بعض أغراضهم، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير للخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم، فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك، وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض، مقدّس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعاً سجداً. فشكرنا إياه بما لا حظ فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع؛ إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له، ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها.

الوجه الثاني: أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا؛ إذ جوارحا وقلرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة. ولو أعطانا الملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له وركبناه، أو أعطانا الملك مركوباً آخر لم يكن الثاني شكر للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأوّل، ثم لا يمكن شكر الشكر لا يمكن شكر الشكر المناك من هذين الوجهين. ولسنا نشك

في الأمرين جميعاً، والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع؟ فاعلم: أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام، وكذلك لموسى عليه السلام فقال: يا رب، كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ وفي لفظ آخر: وشكري لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: إذا عرفت هذا فقد شكرتي، وفي خبر آخر: إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكراً.

فإن قلت: فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أرحي إليهم؛ فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى، فأما كون العلم باستحالة الشكر شكراً فلا أفهمه، فإنّ هذا العلم أيضاً نعمة منه فكيف صار شكراً؟ وكأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر، وأنّ قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى، والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه.

فاعلم: أنَّ هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة، ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول: هاهنا نظران: نَظَر بعين التوحيد المحضّ؛ وهذا النظر يُعرّفك قطعاً أنه الشاكر وأنه المشكور، وأنه المحب وأنه المحبوب، وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وأن ذلك صدق في كل حال أزلاً وأبداً، لأن الغير هو الّذي يتصوّر أن يكون له بنفسه قوام، ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد؛ إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه، وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موحود بغيره؛ فإن اعتبر ذَاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة، وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجوداً، فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم، ولا قيوم إلا وأحد، ولا يتصوّرأن يكون غير ذلك؛ فإذن: ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد. فإذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه، فهو الشاكر وهو المشكور، وهو المحب وهو المحبوب، ومن هاهنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ: ﴿ إِنَّا وَجَدَّنَهُ صَارِزاً يِّنَمُ ٱلْمَبَدُّ إِنَّهُۥ أَوَّابٌ﴾ [ص: 23] فقال: واعجباه أعطى وأثنى؛ إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى، فهو المثني وهو المثنى عليه، ومن هاهنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرىء بين يديه: ﴿ يُجُبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُۥ﴾ [الْمَائدة: ٥٤] فقال: لعمري يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه، أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب، وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حدّ عقلك، فلا يخفى عليك أنّ المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه، والصائع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه، والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصيف الله تعالى وصنعته؛ فإن أحبه فما أحب إلا نفسه، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب؛ وهذا كله نظر بعين التوحيد، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة لفناه النفس؛ أي فني عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى، فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول: كيف فني وطول ظله أربعة أذرع ولعله يأكل في كل يوم أرطالاً من الخبز، فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم، وصرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيكَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِشْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَنُّواْ بِهِمْ يَنْفَاضُونَ ۞ وَإِذَا ٱنْقَلَبُواْ نَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَتُؤَكِّرَ لَصَآلُونَ ۞ وَمَاۤ أَرْسِلُواْ عَلَيْمٍ ۚ حَنِظِينَ ۞ وَاللَّهُ السلمنفين: ٢٩-١٣٣ ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم؛ إذ قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضَمَّكُونَ ﴿ عَلَى ٱلْأَرْآبِكِ يَظُرُونَ ﴿ إِلَّهُ المطفِّفِينِ: ٣٥،٣٤] وكذَّلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل

السفينة قال: ﴿إِن تَسْحَرُواْ مِنَا فَإِنَّا سَخَرُ مِنكُمْ كُمَا تَسْخَرُونَ﴾ [لهود: ٣٨] فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه، وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون، وعماهم في كلتا العينين لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً، وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به، ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم، ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم، وإنما وجودهم من حيث أُوجدوا لا من حيث وجدوا، وفرق بين الموجود وبين الموجَد، وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو، والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان، وإذا كان كل من عليها فان، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام. الفريق الثاني: ليس بهم عمى ولكن بهم عور، لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه، والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق؛ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما أنَّ الذي قبله جاحد تحقيقاً. فإن جاوز حد العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين، فأثبت عبداً ورباً، فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حد التوحيد، ثم إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه، وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى، فإن بقي في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلَّى المحو، فينمحي عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلا الله، ليكون قد بلغ كمال التوحيد، وحيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد، وبينهما درجَّات لا تحصي، فبهذا تتفاوت درجات الموحدين، وكتبُ الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذي به يحصل أنوار الأبصار، والأنبياء هم الكحالون، وقد جازوا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول ﴿لا إِلٰهُ إِلَّا اللَّهُ ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون، والجاحدون والمشركون أيضاً قليلون، وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد؛ إذ عبدة الأوثان قالوا: ﴿مَّا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا ۚ إِلَى اللَّهِ زُلِّمَىٰ﴾ [الزُّمُر: ٣] فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولاً ضعيفاً، والمتوسطون هم الأكثرون، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت، وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز.

لسكسل إلى شدأو السعسلا حسركسات ولسكسن عسزيسز في السرجسال تسبسات

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب القرب فقيل له: ﴿ رَالْسَيْدُ رَاقْتَرَب﴾ [المَلق: 19] قال في سجوده:
«أَعُوذُ بِعَفُوكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أَخْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَلْنَيْتَ
عَلَى نَفْسِكُ (١٠) ؛ فقوله ﷺ: ﴿ أَعُوذُ بِعَفُوكَ مِنْ عِقَابِكَ كلام عن مشاهدة فعل الله فقط، فكأنه لم ير
إلا الله وأفعاله، فاستعاذ بفعله من فعله، ثم اقترب ففني عن مشاهدة الأفعال، وترقى إلى مصادر الأفعال
وهي الصفات فقال: ﴿ أعودُ برضاك من سخطك ﴾ وهما صفتان، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب
ورقي من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ﴾ وهذا فرار منه إليه من غير

⁽۱) حديث قال في سجوده: «أهوذ بعفوك من هقابك» وأهوذ برضاك من سخطك. . . « الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة: «أهوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك. . . » الحديث.

رؤية فعل وصفة، ولكنه رأى نفسه فارًا منه إليه ومستعيداً ومثنياً، ففني عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال: «لا أخصِي ثناء عَلَيْكُ أَنْتَ كَمَا أَنْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» فقوله ﷺ: «لا أخصِي خبر عن مشاهدتها، وقوله: «أَنْتَ كَمَا أَنْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» بيان أنه المثني والمثنى عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن كل شيء هالك إلا وجهه؛ فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله، فيستعيذ بفعل من فعل: فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى أرتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق، ولقد كان ﷺ لا يرقى من رتبة إلى الواحد الحق حتى أرتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق، ولقد كان شلا لا يرقى من رتبة إلى سلوكه وتقصيراً في مقامه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «إنّه لَيْفَان عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللّه فِي المَوْق وَاللّمَانِيّة مَنْ الله ويرى ذلك نقصاً في الوالمين مَرّبة الله بنات الخلق ولكن كان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاماً بعضها فوق البعض: أولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها، فكان استغفاره لذلك. ولما قالت عائشة أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى آخرها، فكان استغفاره لذلك. ولما قالت عائشة رضي الله عنها: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» "، معناه: أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات. فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى: ﴿ إِنَ شَكَرَبُمُ لَا يُورِيدُكُمُ الله الماريد في المقامات. فإن

وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول: الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة المخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه، ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة، وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات، وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور، ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول: يمكنك أن تفهم أن ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك، ثم يكون له حالتان:

إحداهما: أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته، ويكون له عناية في خدمته.

والثانية: أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه، بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء، وغيبته لا تنقص من ملكه؛ فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه، فمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى؛ فإن الأولى محال على الله تعالى، والثانية غير محال. ثم اعلم: أن العبد لا يكون شاكراً في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته ما لم يقم بخدمته التي أرادها الملك منه. وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً، ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكراً وكافراً، ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه

 ⁽١) حديث: (إنه ليفان على قلبي . . .) الحديث . تقدم في التوبة ، وقبله في الدعوات .

⁽٢) حديث عائشة لما قالت له: الخفر الله لك ما تقام من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء. . ٩ الحديث، رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث، وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصراً، وكذلك هو في الصحيحين مختصراً من حديث المغيرة بن شعبة.

إليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه، وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه؛ فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه؛ إذ استعمل نعمته في محبته؛ أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه، وإن ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته؛ أيُّ استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه، وإن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته؛ إذ أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون ما لو بعد منه، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته، وإنما سعادتهم في القرب منه، فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال: ﴿ لَقَدْ حَلَقَنَا ٱلْإِسَانَ فِ أَخْسَنِ تَقْوِيمِ ۞ ثُمَّ رَدُدْتُهُ أَسْفَلَ مَنْفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُ﴾ [النِّين: ٤-٦] الآية. فإذن: نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله تعالى عني عنه قرب أم بعد، والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه، وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية، وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للمعمة بالتضييع، وكل ما خلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى. فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر تعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة، وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى؛ فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه. ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه، وقد انحل بهذا الإشكال الأوّل: وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر؛ وبهذا أيضاً ينحل الثاني؛ فإنا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله، فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد، وفعلك عطاء من الله تعالى، ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك؛ فهو الذي أعطى وهو الذي أثنى، وصار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبته، فله الشكر على كل حال، وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا يمعنى أنك موجب له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك؛ فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية لك وأنت شيء؛ إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً وإنما أنت لا شيء إذا كنت أنت ظاناً لنفسك شيئاً من ذاتك. فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شبئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً، فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقاً، وإلى هذا أشار ﷺ حيث قال: «أعملوا فكل ميسر لما خلق له»(١)، لما قبل له: يا رسول الله، ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل؟. فتبين أن الخلق مجاري قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيصاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض. وقوله: «اهملوا؛ وإن كان جارياً على لسان الرسول ﷺ فهو فعل من أفعاله، وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى، والعلم سبب لانبعاث داعية حازمة إلى الحركة والطاعة، وانبعاث الداعية أيضاً من أفعال الله

 ⁽١) حديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له؛ من حديث علي وعمران بن حصين.

تعالى، وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضاً من أفعال الله تعالى، ولكن بعض أفعاله سبب للبعض؟ أي الأوّل شرط للثاني كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله، وخلق الحياة شرط لخلق العلم، وخلق العلم شرط لخلق الإرادة، والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض؟ أي هو شرط، ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعدّ لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلا ذو حياة، ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أنّ بعض أفعاله موجد لعيره بل ممهد شرط الحصول لغيره، وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه.

فإن قلت: فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان، وما إلينا شيء فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى؟ فاعلم: أنَّ هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا، والاعتقاد سبب لهيجان الخوف، وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها، فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة، ويعبر عن مثله بأن كلاّ ميسر لما خلق له، ومن لم يسبق له من الله الحسني بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ وكلام العلماء؛ فإذا لم يسمع لم يعلم، وإذا لم يعلم لم يخف، . وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا، وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى في حزب الشيطان، وإن جهنم لموعدهم أجمعين. فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل؛ فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه. وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل؛ وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه، فالمتقون يساقون إلى الجنة قهراً، والمجرمون يقادون إلى النار قهراً، ولا قاهر إلا الله الواحد القهار، ولا قادر إلا الملك الجبار، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادي ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلَّكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَمِدِ ٱلْقَهَارِ﴾ [غَانر: ١٦]. ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص، ولكنّ الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم، فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف. فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أسباب الهلاك.

بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه:

اعلم: أنّ فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه؛ إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه. ولتمييز ما يحبه الله تعالى مما يكرهه مدركان:

أحلهما: السمع: ومستنده الآيات والأخبار.

والثاني: بصيرة القلب: وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير، وهو لأجل ذلك عزيز. فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق، ومعرفة ذلك تنبئي على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً. وأما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه؛

إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب، وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية: فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار، فيكون النهار معاشاً والليل لباساً فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها، بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق ومرعى للأنعام، وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه؛ إذ قال تعالى: ﴿ أَنَّ سَبَنَا اللَّهُ سَبَا اللَّهُ مَا اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللّهُ

وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة المخلق، والقدُّر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا اَلْمَاآءُ النُّدَيَّا بِزِينَةٍ الْكَوْكِ ٢٠ (الصَّافات: ٦) فجميع أجزاء العالم؛ سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلُّو ذرَّة من ذرّاته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف، وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمتها؛ كالعلم بأن العين للإبصار لا للبطش، واليد للبطش لا للمشي، والرحل للمشي لا للشم، قأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس، والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدراً يسيراً بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى: ﴿وَمَا أُوبِشُه مِّنَ ٱلْمِلْمِ إِلَّا فَلِسَلاً﴾ [الإسرَاء: ٥٨]. فإذن: كل من استعمل شيئًا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد؛ إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره، ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس؛ إذ الإبصار يتم بهما، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقى بهما ما يضره فيهما، فقد استعملها في غير ما أريدتا به، وهذا لأنَّ المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها: أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظأهراً وباطناً، فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية النفس، والراجح إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، فلذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ لَلِّمَنَّ وَٱلْإِنَسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿ مَّا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِّزْفِ﴾ [اللَّاديات ٥٧،٥٦] الآية. فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بدّ منها لإقدامه على تلك المعصية. ولنذكر مثالاً واحداً للحِكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا، وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملسه وسائر حاجاته،

وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه؛ كمن يملك الزعفران مثلاً وهو محتاج إلى جمل يركبه، ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران، فلا بد بينهما من معاوضة ولا بدّ في مقدار العوض من تقدير؛ إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال: يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة. وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار، فهذه الأشياء لا تناسب فيها، فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتتعذر المعاملات جداً، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها يحكم بينهما بحكم عدل، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقرّرت المنازل وترتبث الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطير بين سائر الأموال حتى تقدّر الأموال بهما، فيقال: هذا الجمل يسوى مائة دينار، وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً، ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر، فإذن: خلقهما الله تعالى لنتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما إلى سائر الأشياء، لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأحوال نسبة واحدة، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثرب، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً فاحتيج إلى شيء وهو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيء إنما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها، كالمرآة لا لون لها وتحكي كل لون، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها، فكل من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فإذن: من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسبه. لأنه إذا كنز فقد صيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة؛ إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنهما حجران، وإنما خلقا لتتداولها الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقوّمة للمراتب، فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة في صفحات الموجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة ـ أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله ﷺ حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذي عجزوا عن إدراكه، فقال تعالى: ﴿وَاَلَّذِينَ يَكُنِّرُونَ ٱلذَّهَبَّ وَالْفِضَةَ ﴿ لِا يُنفِقُونَهَا فِي سَهِيلِ اللَّهِ فَكِشِّرَهُم يِعَذَاتٍ أَلِيهِ ﴾ [القوبة: ٣٤] وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز، لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس، والحبس أهون منه؛ وذلك أنَّ الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدُّه، وإنما الأواني لحفظ المائعات، ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي أريد به النقود، فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له: من شرب في آنية من ذهب أو فضة فكأنما

يجرجر في بطنه نار جهنم (١)، وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كهر النعمة وظلم لأمهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما إذ لا غرض في عينهما، فإذا اتجر في عينهما فقد اتخذهما مقصوداً على خلاف وضع الحكمة؛ إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم، ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً ودابة؛ إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب، فهو معذور في بيعه بنقد آخر ليحصل البقد فيتوصل به إلى مقصوده، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانهما، وموقعهما في الأموال كموقع الحرف من الكلام، كما قال النحويون: إنّ الحرف هو الذي جاء لمعنى في غيره، وكموقع المرآة من الألوان. فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النفد غاية عمله فيبقى النقد مقيداً عنده وينزل منزلة المكنوز، وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم، كما أن حبسه ظلم، فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصوداً للادخار وهو ظلم.

فإن قلت: فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر، ولم جاز بيع الدرهم بمثله؟ فاعلم: أن أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل؛ إذ قد يتبسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق في الحاجات قليلاً قليلاً، ففي المنع منه ما يشوّش المقصود الخاص به؛ وهو تيسر التوصل به إلى غيره. وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر، فإنه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، وتحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه، فلا نمنع مما لا تتشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر، وذلك أيضاً لا يتصور جربانه؛ إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد. وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها وردينها سواء، لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينطر إلى مضافات دقيقة في صفاته، وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحقها أن لا تقصد. وأما إذا باع درهماً بدرهم مثله نسيئة فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض، وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأحر. والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر، فهو أيضاً ظلم لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها في معرض المعارضة، وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها، فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقبيدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذيّ أريدت له، فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة، فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها؛ إذ من معه طعام فلم لآ يأكله إن كان محتاجاً ولم يجعله بضَّاعة تجارة؟ وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه. فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضاً مستغن عنه، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب، نعم، بائع البر بالتمر معذور؛ إذ أحدهما لا يسدّ مسدّ الآخر في الغرض، وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج إلى منع لأن النقوس لا تسمح به إلا عند التفاوت

⁽۱) حديث: (من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم، متفق عليه من حديث أم سلمة، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً.

في الجودة، ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد.

وأما جيد برديئين فقد يقصد، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام، فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فإنه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافيات، وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصص بالأطعمة دون المكيلات؛ إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثباب والدواب أولى بالدخول، ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصصه بالأوقات، ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد، وتحديد هذا كان ممكناً بالقوت وكان ممكناً بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء، وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم؛ ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة، ولو لم يحدُّ لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص. فعين المعنى بكمال قرّته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكونُ الحدّ ضرورياً، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدُّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَةً﴾ [الطّلاق: ١]، ولأنّ أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد، كما يحدّ شرع عيسي ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر، وقد حدُّه شرعنا بكونه من جنس المسكر؛ لأنَّ قليله يدعو إلى كثيره، والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية، فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين، فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال، فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها، ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْعِكُمَةُ فَقَدْ أُولَى خَيْرًا كَتُوبُرُا ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩]، ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين، بل لا يتذكر إلا أولو الألباب، ولذلك قال ﷺ: ﴿ لَوْلاَ أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوب بَتِي آدَمَ لنَظَرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ،(١)، وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك، وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصوّر أن ينفك عنهما، وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة ويعضه الحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف الحظر، فأقول مثلاً: لو استنجيت باليمني فقد كفرت نعمة البدين؛ إذ خلق الله لك البدين وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل، وتفضيل الناقص عدول عن العدل، والله لا يأمر بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل، وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم، لأنه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك وقسم الجهات إلى ما لم يشرفها وإلى ما شرفها؟ بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت رىك، وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات، وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق، فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت

⁽١) حديث: (الولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء)، تقدم في الصوم.

نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك، وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت؛ لأن الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل، وهذا عند العارفين كبيرة وإن سماه الفقيه مكروها، حتى إن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة وكان يتصدّق بها، فسثل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفره بالصدقة، نعم، الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام، وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها. فقبيح أن يقال: الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره قد تعذى من وجهين:

أحدهما: الشرب والآخر الأخذ باليسار، ومن باع خمراً في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال: خان من وجهين:

أحدهما: بيع الخمر، والآخر: البيع في وقت النداء. ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه، فالمعاصى كلها ظلمات بعضها فوق بعض، فينمحق بعضها في جنب البعض، فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه، ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه، فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة، وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب، بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقرّ الشياطين، وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد. أما اليد فإنها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة. وأما الشجر فإنه خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوّة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهي نشوه، فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل، فإن كان له غرض صحيح فله ذلك؛ إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان، فإنهما جميعاً فانيان هالكان، فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدّة ما أقرب إلى العدل من تضبيعهما جميعاً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَسَخَرَ لَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّنَوَتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ جَيمًا مِنْتُ﴾ [الخائية· ١٣]، نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً وإن كان محتاجاً، لأنَّ كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة، ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلماً، فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك، فإن نبت ذلك في موات الأرض لا بسعي آدمي اختص بمغرسه أو بغرسه، فلا بدّ من طلب اختصاص آخر وهو السبّق إلى أخله، فللسابق خاصية السبق، فالعدل هو أن يكون أولى به، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك، وهو مجاز محض؛ إذ لا ملك إلا لملك الملوك الذي له ما في السموات والأرض، وكيف يكون العبد مالكاً وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره، نعم، الخلق عباد الله والأرض مائدة الله؛ وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم، كالملك ينصب مائدة لعبيده، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء

عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه؛ لا لأن اللقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد . فإن اليد وصاحب اليد أيضاً مملوك ـ ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص، والأخذ اختصاص ينفرد به العبد، فمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته، فهكذا ينبغى أن تفهم أمر الله في عباده، ولذلك نقول: من أخذ من أموال الدبيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم، وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا؛ إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم، نعم، لا يدخل هذا في حدّ فتاوي الفقه لأن مقادير الحاجات خفية، والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة، وأواخر الأعمار غير معلومة، فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم، وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه، فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو وإباحتنا ذلك إباهم لا يدلُ على أن اللهو واللعب حق، فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار في الإنفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق وقد أشار القرآن إليه؛ إذ قال تعالى: ﴿ إِن يُسْتَلَكُّمُوهَا يَتَّحِيكُمْ تَبْعَلُوا ﴾ [محَمَّد: ٣٧]؛ بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه: أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الديان، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدو، وخارج عن مقصود الحكمة، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة، فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر، واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ثم لا تفي إلا بالقليل، وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي ٱلشَّكُورُ ﴾ [سَيّا: ١٣] وفرح إبليس لعنه الله بقوله: ﴿وَلَا عَبِدُ أَكْثَرُهُمْ شَيْكِينٍ﴾ [الأعرَاف ١٧]، فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأموراً أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير.

فإن قلت: فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة في كل شيء، وأنه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام الحكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل بعض أفعالها مانعاً من تمام الحكمة، فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر، وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، ولكن الإشكال باق: وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يتمم الحكمة وإلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى، فأين العبد في البين حنى يكون شاكراً مرة وكافراً أخرى؟ فاعلم: أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من عنوم المكاشفات، وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها، ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير، ويجحدها من عجز عن الإيضاع في السير، فضلاً عن أن يجول في جوّ الملكوت جولان الطير فنقول: إن لله عزّ وجلّ في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه والاختراع، وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها، فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها واتحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادي إشراقها، فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش

عن نور الشمس، لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش، فاضطرّ الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً حِدّاً، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسب استعارتهم على النطق، فقلنا: لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع، ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات، ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بحصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة، فهي توهم منها أمراً مجملاً عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها، وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدر. ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذي هو غاية حكمتها، وإلى ما يقف دون الغاية، وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاحتلافات، فاستعير لنسبة البالغ عايته عبارة المحبة، واستعير لسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة، وقيل: إنهما جميعاً داخلان في وصف المشيئة، ولكن لكل واحد خاصية أحرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمراً مجملاً عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات. ثم انقسم عباده ـ الذين هم أيضاً من خلقه واختراعه ـ إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها، ويكون ذلك قهراً في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم، وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة، فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب، فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة ريادة في النكال، وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها، فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال، فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثني، وأعطى النكال ثم قبح وأردى، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه، فإذا تمم زينته قال: يا جميل ما أجملك وأجمل ثبابك وأنظف وجهك؛ فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في الأزل، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولم يكن ذلك على اتفاق ويحث، بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء، وقيل: إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب، لفاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعصها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية. وقيل: إنَّ شيئًا من ذلك ليس خارحاً عن القضاء والقدر، فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل، وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل، وكان بعضهم ـ لقصوره ـ لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعًه، فالجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم: اسكنوا فما لهذا خلقتم ﴿لَا يُشْتُلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُشْتُلُونَ ۞﴾ [الانبيّاء: ٢٣]، وامتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض، وكان زيتهم أولاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فمسته نار فاشتعل نوراً على نور، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم منور ربها، فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم: تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا (١)؛ فإن للحيطان آذاناً وحواليكم ضعفاء الأبصار، فسيروا بسير أضعفكم، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار المخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم؛ ليأنس بكم الضعفاء، ويقتبسوا من نقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس، وكونوا كمن قيل فيهم:

شربسنا شراباً طيب عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب شربت المسرب المساب المسرب المسرب المسرب الأرض في الأ

فهكذا كان أوَّل هذا الأمر وآخره، ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له، وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يقودك، والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما، فإذا ضاق الطريق وصار أحدً من السيف وأدقُ من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجرّ وراء، أعمى، وإذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلا بالسباحة، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه، وربما لم يقدر على أن يستحرّ وراءه آخر. فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلم، فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل يتال بقوَّة اليقين؛ ولذلك قيل للنبي ﷺ: إن عيسى عليه السلام يقال: إنه مشى على الماء! فقال ﷺ: اللهِ ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشي عَلَى الهَوَاءِ، (٢)، فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها، وقد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق؛ إذ عرّف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين. ويبغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: ﴿قُلَّ نَزَّلُهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن زَيِّكَ بِٱلْحَقِ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ. عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. ﴾ [خَانر: ١٥] وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى: ﴿لَيْشِيلً عَن سَهِيلِهِۦ﴾ [الزُّمر: ٨] والإغواء: هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في العادة له مثال، فالملك إذا كان محتاجاً إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا

 ⁽١) حديث: القدر فأمسكوا وواه الطبرائي من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في العلم، ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً.

⁽Y) حديث قبل له: يقال: إن عيسى مشى على الماء قال: الو ازداد يقيناً لعشى على المهواء هذا حديث متكر لا يعرف هكذا، والمعروب: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب البقين من قول بكر بن عبدالله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم: توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا إلى البحر إذا هو قد أقبل يعشي على الماء، فذكر حديثاً فيه أن عيسى قال: لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء، وروى أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس بسئد ضعيف من حديث معاذ بن جبل: المو هوفته الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجباله.

يفوّض حمل الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه. ولا ينبغي أن تقول «هذا فعلي، ولم يكون فعله دون فعلي؟ فإنك أخطأت إذا أضفت ذلك إلى نفسك، بل هو الذي صرف داعيتُك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل، فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها، وتارة يتم فيك فإنك أيضاً من أفعاله، فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة، إلا أنك لا ترى إلا نفسك، فتظن أنَّ ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك، وإنما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلاّ إلى لعب المشعبذ الذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤوسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان، فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد. وأما العقلاء: فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الأمر إليه والجاذبة بيده، فكذلك صبيان أهل الدنيا؛ والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء، ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة فبحيلون عليها، والعلماء يعلمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خبوطاً دفيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها، وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات، وشاهدوا أيضاً ملائكة السموات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن وقيل: ﴿ وَفِي النَّمَادِ رِزُّنُكُرُ وَمَا تُوعَدُّونَ ۞ ۗ [الذَّارِبَات: ٢٢] وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل ﴿ كَانَ سَبَّعُ سَنَوْتِ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلُهُنَّ يَنَنَزُلُ ٱلْأَشْ بَيْهُنَّ لِيُعَلِّمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّي شَيْءٍ فَدِيْرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَمَاطَ بِكُلِّي شَيْءٍ عِلْنَا﴾ [الطَّلَاق: ١٣]. وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم، وعبر ابن عباس رصي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى: ﴿ يَنَازَّلُ ٱلْأَثِّنُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٧] فقال: لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني، وفي لفظ آخر: لقلتم إنه كافر.

وليقتصر على هذا القدر فقد حرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه، فلنرجع إلى مفاصد الشكر فتقول:

إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستعملاً في إتمام حكمة الله تعالى، فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب، وما منهم إلا وله مقام معلوم، وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه إسرافيل عليه السلام، وإنما علق درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام، وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض، ويلي درجتهم درجة الأنبياء فإنهم في أنفسهم أخيار، وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته، وأعلاهم رتبة نبينا على وعليهم؛ إذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين، ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فإنهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق، ودرجة كل واحد منهم بقدر

ما أصلح من نفسه ومن غيره، ثم يليهم السلاطين بالعدل؛ لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد على كان أفضل من سائر الأنبياء فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم، ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء، ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم، ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع.

واعلم: أن السلطان به قوام الدين، قلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالماً فاسقاً. قال عمرو بن العاص رحمه الله: إمام غشوم خير من فتنة تدوم. وقال النبي ﷺ: اسْيَكُونُ عَلَيْكُمْ أَمْرَاهُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ، وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللّهُ بهم اكْثَرَ، فَإِنْ أَحْسَنُوا قَلَهُم الأَجْرُ وَعَلَيْكُمْ الشّكُرُ، وَإِنْ أَسَاؤُوا فَعَلَيْهِم الوِزْرُ وَعَلَيْكُمْ الشَّكُرُ، وَإِنْ أَسَاؤُوا فَعَلَيْهِم الوِزْرُ وَعَلَيْكُم الصَّبْرُ الله بهم اكْثَرَ، فَإِنْ أَحْسَنُوا قَلَهُم الأَجْرُ وَعَلَيْكُمْ الشَّبْرُ وَالله بهل السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل. وسئل: أي الناس خير؟ فقال: السلطان، فقيل: كنا نرى أن شر الناس السلطان! فقال: مهلاً، إن الله تعالى له كل يوم نظرتين: نظرة إلى سلامة أموال المسلمين، ونظرة إلى سلامة أبدانهم، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه، وكان يقول: الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصاً يقصون.

* * *

الركن الثاني

من أركان الشكر: ما عليه الشكر

وهو النعمة، فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم؛ فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتُدُواْ نِمْمَتَ اللَّهِ لَا يَحُمُومَا ﴾ [براهيم: ١٣٤، فنقدم أموراً كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم، ثم نشتغل بذكر الآحاد، والله الموقق للصواب.

بيان حقيقة النعمة وأقسامها:

اعلم: أن كل خير وللة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة، ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز، كتسمية السعادة الدنيوية التي

⁽۱) حديث اسيكون عليكم أمراء يفسلون وما يصلح الله بهم أكثر . . . ؟ الحديث اخرجه مسلم من حديث أم سلمة :

المستممل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ورواه الترمذي بلفط: «سيكون عليكم أثمة وقال حسن صحيح وللبزار
بسند ضعيف من حديث ابن عمر : «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من هياده ، فإن عدل كان له
الأجر وكان على الرحية الشكر ، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرحية الصبر ، وأما قوله : «وما
يصلح الله بهم أكثر علم أجده بهذا اللفظ ، إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة
الوليد بن عقبة فقال عبدالله : اصبروا فإن جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر ، فإني سمعت رسول الله الله يقول . . . فذكر حديثاً فيه : «والإمارة الفاجرة عير من الهرج» . رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به .

لا تعين على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض، وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون اطلاقه على السعادة الأخروية أصدق، فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها إما بواسطة واحدة أو بوسائط فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية. والأسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات:

القسمة الأولى: أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً؛ كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيهما جميعاً كالجهل وسوء الخلق، وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المآل؛ كالتلذذ باتباع الشهوات، وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل؛ كقمع الشهوات ومخالفة النفس، فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق، والضار فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدهما، والنافع في الحال المضر في المآل بلاء محض عند ذوي البصائر؛ وتظنه الجهال نعمة ومثاله: الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم فإنه يعلّه نعمة إن كان جاهلاً، وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه. والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهال ومثاله: الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة، فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعلّه نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه، فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها، فإن الأب لكمال عقله يلمح ويأنس العاقبة، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه، ويأنس العاقب، والى شفقتها ويقدر الأب عدواً له، ولو عقل لعلم أن الأم عدواً باطناً في صورة صديق، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة، ولكن الصديق الجاهل شر من العدق إياه من الحجامة يم وكن إنسان فإنه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدق.

قسمة ثانية: اعلم: أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها، فقلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر الأسباب، ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافىء ضرره نفعه. وهذه أمور تختلف بالأشخاص؛ فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات، فهو مع هذه التوفيق نعمة في حقه، ورب إنسان يستضر بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربه طالباً للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقه.

قسمة ثالثة: اصلم: أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره، وإلى مؤثر لغيره، وإلى مؤثر لذاته ولغيره.

فالأوّل: ما يؤثر لذاته لا لغيره؛ كلذة النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انقضاء لها فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها.

الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته؛ كالدراهم والدنانير فإن الحاجة لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة، ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصاً فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في

محبة الرسول محبة الأصل، فيعرض عنه طول عمره، ولا يزال مشغولاً بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده، وهو غاية الجهل والضلال.

الثالث: ما يقصد لذاته ولغيره؛ كالصحة والسلامة فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا، وتقصد أيضاً لذاتها. فإن الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضاً سلامة الرجل من حيث إنها سلامة، فإذن: المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقاً، وما يؤثر لذاته ولعيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأوّل، فأما ما لا يؤثر إلا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة، بل من حيث هما وسيلتان، فيكونان نعمة في حق من يقصد أمر ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مقصله العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة.

قسمة رابعة: أهلم: أنَّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ: هو الذي تدرك راحته في الحال، والنافع: هو الذي يفيد في المآل، والجميل: هو الذي يستحسن في سائر الأحوال. والشرور أيضاً تنقسم إلى ضارّ وقبيح ومؤلم، وكل واحد من القسمين ضربان: مطلق ومقيد، فالمطلق: هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة؛ أما في الخير فكالعلم والحكمة فإنها بافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضارٌ وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة، ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادًان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم، ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة. الضرب الثاني: المقيد: وهو الذي جمع بعض هده الأوصاف دون بعض، فرب نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن. ورب نافع قبيح كالحمق فإنه بالإضافة إلى يعض الأحوال نافع، فقد قيل: استراح من لا عقل له فإنه لا يتهم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه، ورب نافع من وجَّه ضارٌ من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق، فإنه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع قسمان: صروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة؛ وأعنى بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما، وإلى ما لا يكون ضرورياً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء، فإنه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه.

قسمة خامسة: اعلم: أنّ النعمة يعبر بها عن كل لذيذ، واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع: عقلية، وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات. أما العقلية: فكلفة العلم والحكمة؛ إذ ليس يستلفها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج، وإنما يستلفها القلب لاختصاصه مصفة يعبر عنها بالعقل، وهذه أقل اللذات وجوداً وهي أشرفها، أما قلتها: فلأن العلم لا يستلفه إلا عالم، والحكمة لا يستلفها إلا حكيم، وما أقل أهل العلم والحكمة، وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم. وأما شرفها: فلأنها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، ودائمة لا تمل، فالطعام يشبع منه فيمل، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل، والعلم والحكمة قط لا يتصوّر أن تمل وتستثقل، ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد إذا

رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره، وأقل أمر فيه: أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة بخلاف المال؛ إذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالإنفاق، والمال يسرق والولاية بعزل عنها، والعلم لا تمتذ إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل، فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً، ثم العلم نافع ولذيذ وجميل في كل حال أبداً، والمال ثارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سماه خيراً في مواضع. وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم فإما لعدم الذوق، فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق؛ إذ الشوق تبع الذوق، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرّاً، وإما لقصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن، وذلك لا يدل على أنها ليست لذينة، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء.

فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة: إما من لم يحيى باطنه كالطفل، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات: وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضُّ [البَّتَرة: ١٠] إشارة إلى موص العقول. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ لِيُمُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [بس: ٧٠] إشارة إلى من لم يحيى حياة باطنة، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتي بالأبدان. الثانية: للة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلُّـة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر وبعض الحيوانات. الثالثة: ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلَّـة البطن والفرج، وهذه أكثرُها وجوداً وهي أخسها، ولذلك اشترك فيها كل ما دبّ ودرج حتى الديدان والحشرات، ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدّها التصاقأ بالمتغافلين، فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة، لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله، وهذه رتبة الصدّيقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حب الرياسة. وأما شره البطن والمُفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون، وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها إلا الصدّيقون. فأما قمعها بالكلية، حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر. نعم، تغلب لذة معرفة الله تعالى في أحوال لا يقع معها الإحساس بللة الرياسة والغلبة، ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل، وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه. وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية. وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتربه في بعض الأحوال تلذذ بالعلُّم والمعرفة. أما الأول فإن كان ممكناً في الوجود فهو في عاية البعد. وأما الثاني فالدنيا طافحة به. وأما الثالث والرابع فموجدان ولكن على غاية الندور، ولا يتصوّر أن يكون ذلك نادراً شاذاً، وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة، وإنما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام، فلا يزال يزداد العهد طولاً وتزداد مثل هذه القلوب

قلة إلى أن تقرب الساعة ويقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإنما وجب أن يكون هذا نادراً لأنه مبادي ملك الآخرة، والملك عزيز والملوك لا يكثرون، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة، فإنّ الدنيا مرآة الآخرة، فإنها عبارة عن عالم الشهادة، والآخرة عبارة عن عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب. كما أنّ الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك، فإنك لا ترى نفسك، وترى صورتك في المرآة أولاً فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة، فالقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق المعرفة والقلب المتأخر متقدّماً؛ وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والاستكاس ضرورة هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت، فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الحق به فقال: ﴿ فَأَعْتَبِرُوا بِكَأْوَلِي ٱلأَبْصَارِ﴾ [الخشر: ٣]. ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستنفتح إلى حبسه أبواب جهنم، وهذا الحبس مملوء ناراً من شأنها أن تطلع على الأفتلة، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجاباً، فإدا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك، وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا: الجنة والنار مخلوقتان، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين، وعين اليقين لا يكون إلا في الأُخْرِة، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين، فلذلك قال الله تعالى ﴿ كُلَّا لُو تَمَّلُمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۞ لَنُرَوُنَ ٱلْجَحِيمَ ۞﴾ [التكاثر: ٥،٥] أي في الدنيا ﴿ثُمَّ لَنَرَوُنَهَا عَيْرَ ٱلْيَقِينِ ۞﴾ [التّكائر: ٧] أي في الآخرة، فإذن: قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدنيا.

قسمة سادسة: حاوية لمجامع النعم: أعلم: أنّ النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية. أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه؛ وعلم لا جهل معه؛ وغنى لا فقر بعده؛ وهي النعمة الحقيقية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ»(١)، وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس، وذلك في وقت حفر الحندق في شدّة الضر. وقال ذلك مرة في السرور منعاً للنفس من الركون إلى سرور الدنيا؛ وذلك عند إحداق الناس به في حجة الوداع(٣). وقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال النبي ﷺ: «وَهَلْ نَعَلَمُ مَا تَمَامُ النَّعْمَةِ»؟ قال: لا. قال: «تَمَام النَّعْمَةِ دُخُولُ الجَنَّةِ»(٣).

وأما الوسائل: فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس، وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني، وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة، وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية، فهي إذن أربعة أنواع:

⁽١) حديث قوله عند حفر الحندق. ﴿ لا عيش إلا هيش الأحرة؛ متفق عليه من حديث أنس.

 ⁽٢) حديث قوله في حجة الوداع: قلا عيش إلا عيش الآخرة رواه الشافعي مرسلاً، والحاكم متصلاً وصححه، وتقدم في الحج.

٣) حديث: فقال رجل: اللهم إني أسألك تمام النعمة. . . ؟ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث معاذ بسند حسن.

النوع الأول: وهو الأخص؛ الفضائل النفسية: ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق، وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة؛ وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله، وإلى علوم المعاملة. وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة، ومراعاة العدل في الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الدي أنزله الله تعالى على لسان رسوله ﷺ إد قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْفَرًا فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزَكَ بِٱلْقِيتْطِ وَلَا غُنْيِهُوا ٱلْمِيزَانَ ۞﴾ [الرّحلن: ٩٠٨] فمن خصى نفسه لبزيل شهوة النكاح، أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والمكر فقد أخسر الميزان. ومن انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان. وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان، فإذن: الفضائل الخاصة بالنفس المقرّبة إلى الله تعالى أربعة: علم مكاشفة، وعلم معاملة، وعفة، وعدالة. ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني وهو الفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة، والقوّة، والجمال، وطول العمر. ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث؛ وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي أربعة: المال، والأهل، والجاه، وكرم العشيرة، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالسوع الرابع؛ وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة: هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده، فمجموع هذه النعم ست عشرة إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة، وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة. أما الحاجة الضرورية، فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق؛ إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآحرة ألبتة إلا بهما، فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد في الأخرة إلا ما تزوّد من الدنيا، فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضروري. وأما الحاجة النافعة على الجملة: فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل، فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة.

فإن قلت: فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الحارجة من المال والأهل والجاه والعشيرة؟ فاعلم: أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود. أما المال: فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع إلى الهيجا بغير سلاح، وكبازي يروم الصيد بلا جناح، ولذلك قال بين المنال الممال الممال الممال الممال الممال الممال الممال الممال الممال عدم المال صار مستغرق الأقوات في طلب الأوقات وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع إلا بسلاح المال، مم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات.

وقال بعض الحكماء وقد قيل له: ما النعيم؟ فقال: الغني؛ فإني رأيت الفقير لا عيش له. قيل:

⁽١) حديث: النعم المال الصالح فلرجل الصالح» رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد.

 ⁽٣) حديث: انعم العون على تقوى الله العالى، رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر
عن حابر. ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلاً، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب هكذا
مرسلاً.

زدنا؛ قال: الأمن؛ فإني رأيت الخائف لا عيش له. قيل: زدنا، قال: العافية؛ فإني رأيت المريض لا عيش له. قيل: زدنا، قال: الشباب؛ فإني رأيت الهرم لا عيش له. وكأنَّ ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة، ولذلك قال ﷺ: فمَنْ أَصْبَحُ مُعَافَى فِي بَدَنِهِ آمِناً فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا اللَّهُ الأهل والولَّد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما؛ إذ قِال ﷺ: ﴿ فِغُمَ الْعَوْنُ عَلَى اللَّهِنِ الْمَرْأَةُ الصَّالْحَةُ ، (٢) ، وقال ﷺ في الولد: ﴿ إِذَا مَاتَ الْمَبْدُ الْقَطْعَ هَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثِ: وَلَٰدِ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ . . . الحديث (٣) . وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح. وأما الأفارب فمهما كثر أولَّاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال شغله، وكل ما يفرع قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين، فهو إذن نعمة. وأما العز والجاه: فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم، ولا يستغني عنه مسلم فإنه لا ينفك عن عدوّ يؤذيه وظالم يشوّش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه، وقلبه رأس ماله، وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسُّ بَعْضَهُم بِبَعْضِ لَفَسَكَدَتِ ٱلْأَرْشُ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥١] ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب، كما لا معنى للغبي إلا ملك الدراهم، ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه. فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبة تدفع عنه البرد، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته، فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشر به عن نفسه، وعلى هذا القصد كان الأنبياء اللين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائمهم والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم. ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله الله ﷺ حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه، ومكن في القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذي ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة (٤٠).

 ⁽١) حديث. امن أصبح معافى في بدئه آمناً في سريه...> الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث عبيدالله بن محصن الأنصاري، وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث : «نعم العون على الدين العرأة الصالحة» لم أجد له إسناداً، ولمسلم من حديث عبدالله بن عمرو: قالفنيا متاع وخير مناع الدنيا العرأة الصالحة».

 ⁽٣) حديث: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث. . . ١ الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وتقدم في التكاح.

فإن قلت: كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا؟ فأقول: نعم، ولذلك قال رسول الله على: «الأَيْمَةُ مِنْ قُرَيْش» (١) ، ولذلك كان على من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٢) وقال على: «تَخَيْرُوا لِتُطَهِّكُمُ الأَكْفَاءَ» (٣) ، وقال على: «إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاء اللَّمَنِ» فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: «المَرْأَةُ الحَسْنَاءُ فِي المَنْبَتِ السُّوءِ» (١) ، فهذا أيضاً من النعم ولست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله على وإلى أثمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار المتوسمين بالعلم والعمل.

فإن قلت: فما معنى الفضائل البدنية؟ فأقول: لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى طول العمر؛ إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما، ولذلك قال ﷺ: «أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ العُمُرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ العمر؛ إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما، ولذلك قال ﷺ: «أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ العُمُرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى» (٥٠)، وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال، فيقال: يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحري الخيرات، ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضاً، أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها، وأما في الآخرة فعن وجهين:

أحدهما: أن القبيع مذموم والطباع عنه نافرة، وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه؛ إذ هو نوع قدرة؛ إذ يقدر الجميل الوجه على تسجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح، وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها.

والثاني: أنّ الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس؛ لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن، فالمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن فقالوا: الوجه والعين مرآة الباطن. ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم، ولذلك قيل: طلاقة الوجه عنوان ما في النفس، وقيل: ما في الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه، واستعرض المأمون جيشاً فعرض عليه رجل قبيح، فاستنطقه فإذا هو ألكن، فأسقط اسمه من الديوان وقال: الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة، أو على الباطن ففصاحة، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن، وقد قال يُثار وضي الله تعالى عنه: إذا بعثتم رسولاً

⁽١) حديث: «الأئمة من قريش» رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح.

⁽Y) حديث: «كان ﷺ من أكرم الناس أرومة في نسب آدم. الأرومة الأصل، هدا معلوم، قروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: فإن الله اصطفى كناتة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كناتة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفى من بني هاشم، وهي رواية الترمذي: فإن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب بن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه: فإن الله محلق المخلق فجعلني من خيرهم، وفي حديث ابن عباس: قما بال أقوام يبتللون أصلي، قوالله لأنا أقضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً».

 ⁽٣) حديث: التخيروا لتطفكم، أخرجه أبن ماجه من حديث عائشة، وتقدم في النكاح.

⁽٤) حديث: «إياكم وخضراء الدمن»، تقدم فيه أيضاً.

 ⁽٥) حديث: «أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله غرب بهذا الله فله وللترمذي من حديث أبي بكرة أن رحلاً قال:
 يا رسول الله: أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله» وقال: حسن صحيح.

⁽٦) حديث: «اطلبوا الحير عند حسان الوجوه» أخرجه أبو يعلى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة، وخيرة وأمها لا أعرف حالهما. ورواه ابن حبال من وجه آحر هي الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمره وله طرق كلها ضعيفة.

فاطلبوه حسن الوجه حسن الاسم. وقال الفقهاء: إذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة، وقال تعالى ممتناً بدلك: ﴿وَزَادَهُ بَسَطَةً فِى ٱلْصِلْمِ وَٱلْجِسْرِ ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فإن ذلك أنوثة، وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنو الطباع عن النظر إليه.

فإن قلت: فقد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم، وقد ذم الله تعالى الىمال والنجاه، وكذا رسول الله ﷺ (١)، وكذا العلماء. قال تعالى: ﴿ إِنِّ مِنْ أَزْوَبِكُمْ وَأَوْلَابِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ فَأَسْذَرُهُمْمْ﴾ [القغائِن: ١٤] وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ۚ أَمْوَلَّكُمُ وَأَوْلَئَدُكُمْ فِتنَةً ﴾ [القغائِن: ١٠] وقال علي كرَّم الله وجهه في ذم النسب: الناس أبناء ما يحسنون، وقيمة كل امرىء ما يحسنه. وقيل: المرء بنفسه لا بأبيه. فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً؟ فاعلم: أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤوّلة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى؛ فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لا سبيل إلى جحدها، إلا أنّ فيها فتناً ومخاوف؛ فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك، وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآليء، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه، وإن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك، فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيراً، ومدحه رسول الله ﷺ وقال: "نِهْمَ العَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى المَالَ؛ وكذلك مدح الجاه والعز؛ إذ منَّ الله تعالى على رسوله ﷺ بأن أظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق، وهو المعنى بالجاه، ولكن المنقول في مدحهما قليل، والمنقول في ذم المال والجاه كثير، وحيث ذم الرباء فهو ذم الجاه؛ إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب. ومعنى الجاه ملك القلوب، وإنما كثر هذا وقل ذاك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص في بحر الجاه، فوجب تحذيرهم فإنهم يهلكون بسمّ المال قبل الوصول إلى ترياقه، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره، ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوّة الملك كما كان لرسولنا ﷺ ولا أن ينضاف إليها الغني كما كان لسليمان عليه السلام: فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والعارفون معزمون، فقد يضر الصبى ما لا يضر المعزم. نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه، وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض في الترباق وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضرراً كثيراً، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالهرب، ويقبح صورتها في عيثه، ويعرّفه أنّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منه أحد، ولا يحدّثه أصلاً

حديث: ذم المال والجاه. أخرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك: «ما ذتبان جائمان أرسلا في ضم بأفسد لها من
 حب المال والشرف لدينه وقد تقدم في ذم المال والبخل.

بما فيها من نفع الترياق، فإنَّ ذلك ربما يغرّه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة. وكذلك الغوّاص إذا علم أنه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك؛ فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر، فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل؛ فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه. فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء. ولذلكِ قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُم مثل الوالد لولده (١٠)، وقال ﷺ: ﴿إِنَّكُم تَنَهَا نَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافُتَ الفَرَاشِ وَأَنَا آخُذ بِحجَرِكُمُۥ (٢)، وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن المهالك، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك، وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه، فإن الإنفاق فيه الترياق، وفي الإمساك السم، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سم الإمساك ورغبوا عن ترياق الإنفاق، فلذلك قبحت الأموال، والمعنى به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذتها، فأما أخدها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم، وحق كل مسافر أن لا يحملي إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله، فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيم الزاد على الرففاء فلا بأس بالاستكثار. وقوله عليه الصلاة والسلام: "لِيَكُنْ بَلَاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَرَادِ الرَّاكِبِ، معناه لأنفسكم خاصة، وإلا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة. ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدّة استأذنه عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه، فأذن له فنزل جبريل عليه السلام، وقال: «مره بأن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري الضيف...، ﴿ ﴿ اللَّهُ عَال الحديث ـ فإذن: النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوّها بمخوفها ونفعها بضرها ـ فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقياً داءها ومستخرجاً دواءها، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظانَ الأخطار، فلا تعدل بالسلامة شيئاً في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه.

فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد؟ فاعلم: أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد؛ وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره،

⁽١) حديث: ﴿ إِنَّمَا أَنَا فَكُم مثل الواقد لولده أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله: ﴿ فَلُولِده ، وقد تقدم.

⁽٢) حديث: ﴿إِنكُم تَنهافتونَ على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم؟ متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «مثلي ومثل الناس». وقال مسلم ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش بقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون قيه». ولمسلم من حديث جابر: ﴿وَأَنَا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي».

 ⁽٣) حديث: الميكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب، أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفط الحاكم وقال.
 ﴿المغة، وقال: ﴿مثل زاد الراكب، وقال: صحيح الإسناد. قلت: هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين،
 وقال ابن ماجه «عهد إلي أن يكفي أحدكم مثل زاد الراكب».

⁽³⁾ حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الحنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال: قمره أن يطعم المسكين... الحديث. أخرجه الحاكم من حديث عبدالرحمن بن عوف وقال صحيح الإسناد، قلت: كلا، فيه خالد بن مالك ضعيف جداً.

وهذا يشمل الخير والشر، وما هو سعادة وما هو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق، وكذا الارتداد، ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عدون من الله للفتى فأكشر ما يجني عليه اجتهاده

الأولى: معرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَقَدَيْنَةُ أَلَنَّجُدَيْنِ ﴿ وَاللَّهُ البَّلَد: ١٠] وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسل، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَبَّتُهُمّ فَالسّحَبُّوا أَلْمَنَ عَلَى الْمُلْكَ ﴾ [فسّلت: ١٧] فأسباب الهدى: هي الكتاب والرسل وبصائر العقول، وهي مبذولة، ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا، والأسباب التي تعمي القلوب وإن كانت لا تعمي الأبصار، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَا نَشْنَى ٱلْأَبْصَدُرُ وَلَذِي نَشْنَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلشّدُورِ ﴾ [الحَجْ: ٤٤] ومن جملة المعميات: الإلف والعادة وحب استصحابهما، وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُولًا مُؤلًا ٱلْقُرْمَانُ عَلَى رَجُلِ أَلَا الْقُرْمَانُ عَلَى رَجُلِ هَنَا ٱلْقُرْمَانُ عَلَى رَجُلِ اللّهُ وَالعَدَةُ وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُولًا مُؤلًا الْقُرْمَانُ عَلَى رَجُلِ مَنَا الْقَرْمَانُ عَلَى اللّهُ وَعَلَا الْقُرْمَانُ عَلَى رَجُلِ اللّهُ عَلَى اللّهُ وَعَلَا اللّهُ وَقُوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُولُ هَاللّهُ اللّهُ وَلا المعميات هي مَن الاهتداء.

والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة، وهي التي يمدُ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال، وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى: ﴿وَالنَّذِينَ جَهَدُواْ فِينَا لَنَهُدِينَتُهُمْ سُبُلَنّا ﴾ [التنكبوت: ٦٩] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَالنِّينَ المَدَدِينَ اللهُ اللهُولِي اللهُ الله

والهداية الثائثة وراء الثانية؛ وهو النور الذي يشرق في عالم النبوّة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها، إلا ما لا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف، وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى المطلق وما عداه حجاب له ومقدّمات وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَ هُنَى اللّهِ هُوَ الْمُلْكَفَّ ﴾ [البَقرَة: ١٢٠] وهو المسمى حياة في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيْتَا فَأَخَيْنِنَهُ وَجَمَلْنَا لَمُ نُورًا يَمْتِى بِهِ فِ النّاسِ ﴾ [الانقام: ١٢٧] والمعنى بقوله تعالى: ﴿أَفَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَخَيْنِنَهُ وَجَمَلْنَا لَمُ نُورًا يَمْتِى بِهِ فِ النّاسِ ﴾ [الانقام: ٢٧] وأما الرشد: فنعني به العناية الله التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده؛ فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده،

⁽١) حديث: «ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله». متفق عليه من حديث أبي هريرة: «لن يدخل أحدكم همله الجنة». قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» وفي رواية لمسلم: «ما من أحد يدخله همله الجنة...» الحديث. وانفقا عليه من حديث عائشة، وانفرد به مسلم من حديث جابر، وقد تقدم.

ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَانَيْنَآ إِنْزِهِيمَ رُشُدُوُ مِن فَبْلُ وَكُنَّا بِهِ. عَلِيمِن ﴿ الانبيَاء. ٥١] فالرشد: عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها، فالصبي إذا بلغ خبيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيداً؛ لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرّد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة. وأما التسديد: فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجرِّدها لا تكفي، بل لا بد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي، بل لا بدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حنى يتم المراد مما انبعثت الناعية إليه، فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرُّك، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، وأما التأييد فكأنه جامع للكل، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل، وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج، وهو الممراد بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَ أَيُّدَنُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المَاندة: ١١٠] وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر، يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عني بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هُنَّتْ بِهِمْ وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا ۚ أَن رَّمَّا بُرْهَكُنَ رَبِّهِم﴾ [بُوشف: ٢٤] فهذه هي مجامع النعم، ولن تتثبت إلا بما يخوّله الله من الفهم الصافي الثاقب، والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع، والمعلم الناصح، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته، والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء، ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسباباً، وتستدعى تلك الأسباب أسباباً إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين؛ وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب، وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجاً ليعلم به معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن نُفُّدُّواْ نِمْتَ ٱللَّهِ لَا غُصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وبالله التوفيق.

بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم اشتعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء:

اعلم: أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضرباً، وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر علبها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل: فلا يخفى أن الأكل فعل، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة، وكل حركة لا بذ لها من جسم متحرّك هو آلتها، ولا يذ لها من قدرة على الحركة، ولا بد من إرادة للحركة، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له، ولا بد للأكل من مأكول، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل، ولا بد له من صانع يصلحه؛ فلذكر أسباب الإدراك، ثم أسباب الإدراك، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء.

الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك:

اعلم: أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجوداً من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمي ولا تغذي؛ فإنّ النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله

وعروقه التي في الأرض، وهي له آلات، فبها يجتذب الغذاء؛ وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة، ثم تغلظ أصولها، ثم تتشعب، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تعيب عن البصر، إلا أنّ النبات مع هذا الكمال ناقص، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من وضع آخر، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه والنبات عاجز عن ذلك، فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك، فأوَّلها حاسة اللمس؛ وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه، وهذا أوّل حس يخلق للحيوان، ولا يتصوّر حيوان إلا ويكون له هذا الحس، لأنه إذا لم يحس أصلاً فليس بحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما لا يلاصقه ويماسه، فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة، وهذا الحس موجود لكل حيوان، حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب، لا كالنبات فإنَّ النبات يقطع فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع، إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصاً كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك، بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدرى أنها جاءت من أي ناحية، فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه، وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد ثلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً؛ إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب، وتبصر عدوًّا لا حجاب بينك وبينه، وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً، وأما الغاثب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع، فاشتدَّت إليه حاجتك فخلق لك ذلك، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات، وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق؛ إذ يصل الغذاء إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك، كالشجرة يصب في أصلها كل ماثع ولا ذوق لها فتجلبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدّمة دماغك إدراك آخر يسمى حساً مشتركاً تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه، ولوَّلاه لطال الأمر عليك؛ فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر ما لم تذقه ثانياً لولا الحس المشترك؛ إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة، فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بدُّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانياً، وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات؛ إذ للشاة هذه الحواس كلها، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصاً. فإنّ البهيمة بحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص إذا قيدت، وقد تلقى نفسها في بئر ولا تدري أن ذلك يهلكها، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت؛ إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، فأما إدراك العواقب فلا، فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى وهي أشرف من الكل وهو العقل، فبه تدرك

مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب صحتك وهو أحسن فوائد العقل، وأقل الحكم فيه، بل الحكمة الكبرى فيه: معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه، وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس في حقك، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحى المملكة، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به، فواحدة منها بأخبار الألوان، والأخرى بأخبار الأصوات، والأخرى بأخبار الروائح، والأخرى بأخبار الطعوم، والأخرى بأخبار المحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها، وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك، والحس المشترك قاعد في مقدِّمة الدماغ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة ويسلمها؛ إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها، فأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم الانهاءات إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عحيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرّك الجنود وهي الأعضاء؛ مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في إتمام التعبيرات التي تعنّ له، فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات، ولا تظنن أنا استوفيناها؛ فإنَّ الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات، والبصر واحد من جملة الحواس، والعين آلة واحدة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية، وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت ويعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد، ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب، لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم، فهذا في حس واحد، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس. بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة، مع أنّ جملته لا تريد على جوزة صغيرة؛ فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات:

اعلم: أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلاً، فكم من مويض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلاً في حقه، فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة، ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة؛ لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة؛ فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضي الذي يضطرك إلى التناول حتى تتناول وتغتذي فتبقى بالغداء، وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات. ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك، فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، لا كالزرع فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمي يقدّر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى، وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك، ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى

في خلق الرحم وخلق دم الحيض، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذي هو مستقر النطفة، وكيفية انصباب ماء المرأة من التراثب بواسطة العروق، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب؛ تقع النطفة في بعضها فتنشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها في أُطُوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظماً ولحماً ودماً، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب، فضلاً عما تراه الأن، ولكنا لسنا نريد أن نتعرَّض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام، فإذن: شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات، وذلك لا يكفيك، فإنه تأثيك المهلكات من الجوانب، فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء، فإن كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته، وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال، وأما في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة، فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرّف للعواقب، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل؛ إذ كان مجرّد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلاً تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة، وهذه الإرادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب، وقد سمينا هذه الإرادة باعثاً دينياً، وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا.

الطرف الثالث: في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة:

اعلم: أن الحس لا يفيد إلا الإدراك، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب، وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب، فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد بده أو لفلج وخدر فيهما، فلا بدّ من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة؛ لنكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً وبمقتضى الكراهية هرباً، فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها؛ فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للإنسان والجناح للطير والقوائم للدواب، ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان، وفي هذا تعتلف الحيوانات اختلافاً كثيراً؛ فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة، ومنها ما خلق له أربع قوائم، ومنها ما له رجلانً، ومنها ما يدب. وذكر ذلك يطول، فلنذكر الأعضاء التي بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول: رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تكفي ما لم تتمكن من أن تأخذه، فافتقرت إلى آلة باطشة؛ فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدّتان إلى الأشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات، فتمتذ وتىثني إليك فلا تكون كخشبة منصوبة، ثم جعل رأس اليد عريضاً بحلق الكف، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع، وجعلها في صفين بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية، ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك، فوضعها وضعاً إن بسطتها كانت لك مجرفة وإن ضممتها كانت لك مغرفة، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض، ثم خلق لها أظفاراً وأسند إليها رؤوس

الأصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك، ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهي في الباطن، فلا بد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه، فجمل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة، ثم إن وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام، فخلق لك اللحيين من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وطبق الأضراس العليا على السفلي لتطحن بهما الطعام طحناً، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس، وإلى حادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب، ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى، ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهُما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً، وبذلك لا يتم الطحن. فجعل اللحي الأسفل متحرّكاً حركة دورية، واللحى الأعلى ثابتاً لا يتحرّك، فانظر إلى عجبب صنع الله تعالى فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذي صنَّعه الله تعالى؛ إذ يدور منه الأسفل على الأعلى، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سُلطانه وأثم برهانه وأُوسع امتنانه، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرّك الطعام إلى ما تحت الأسنان، أو كيّف تستجرّه الأسنان إلى نفسها، وكيفّ يتصرف باليد في داخل الفم؟ فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحي، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوّة النطق والحكم التي لسنا نطنب بذكرها، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى يتعجن به الطعام، فانظر كيف سخرها لهذا الأمر! فإنك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك، ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا بد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام، فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه فيهوي إلى المعدة في دهليز المريء، فإذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحماً وعظماً ودماً على هذه الهيئة، بل لا بد وأن يطبخ طبخاً تاماً حتى تتشابه أجزاؤه، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، فلا يزال لابثاً فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة؛ إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال، ومن قدّام التراثب، ومن خلف لحم الصلب، فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته، وهو بعد لا يصلح للتغذية؛ فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد، والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكُّبد؛ فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ويبتشر في أجزائها حتى تستولي عليه قوّة الكبد فتصبغه بلون الدم، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آحر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء، إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم

فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد هي جميع ما يطبخ: إحداهما شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي، والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء، ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء، فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفه، فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال العكر السوداوي، فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من المائية، ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية، ولا خرج منها متصاعداً إلى الأعضاء، فخلق الله سبحانه الكليتين، وأخرج من كل واحدة منهما عنقاً طويلاً إلى الكبد.

ومن عجائب حكمة الله تعالى: أن عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدية الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد؛ إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاث نقياً من كل ما يفسد الغذاء، ثم إن الله تعالى أطلع من الكند عروقاً، ثم قسمها بعد الطلوع أقساماً، وشعب كل قسم بشعب، وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهراً وباطناً، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء، ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة، وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها، وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره. ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب السافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة: أما المرارة: فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلقة، ويحدث في الأمعاء لذع يحركها للدفع، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك. وأما الطحال: فإنه يحيل تلُّك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض، ثم يرسل منها كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرّك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل، وأما الكلية: فإنها تغتذي بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة. ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل. ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه، وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام، وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه، بل في الآدمي آلاف من العصلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة، وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرّك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين، فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولاً لتقوى بعدها على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والحمار أيضاً يعلم أنه يجرع فيأكل، ويتعب فينام، ويشتهي فيجامع، ويستنهض فينهض ويرمح، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك؟ وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط، فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه

حذراً من التطويل، وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر، إلا أن من علم شيئاً من هذا أدرك شمة من معاني قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُسُدُواْ نِفْسَتَ أللَّهِ لَا غُمْمُوهَمْ ۚ ﴾ [ابراهيم: ٣٤] ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة ومستقره القلب، ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب، فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوَّله في تَلَكَ الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها، كالسراح الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء الا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه، ولكنه جعل السراج سبباً له بحكمته. وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح؛ ومحله القلب، ومثاله جوم نار السراج والقلب له كالمسرجة، والدم الأسود الذي في باطن القلب له كالفنيلة، والغذاء له كالزيت، والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت، وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه، وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا تقبل الزيت فينطفىء السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفىء مع وجود الغذاء؛ فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تتشبث النار به. وكما أن السراج تارة ينطفىء بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريع عاصف فكذلك الروح تارة تنطفىء بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل. وكما أنَّ انطفاء السراج بفناء الزيت أوَّ بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسياب مقدّرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر؛ فكذلك انطفاء الروح. وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب، فكذلك انطفاء الروح. وكما أنَّ السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أطلم البدن كله وفارقته أنواره التي كان يستفيدها من الروح؛ وهي أنوار الإحساسات والقدر والإرادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة، فهذا أيضاً رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنه ﴿ لَوْ كَانَ ٱلْبَكْرُ مِدَادًا لِكَلِمَكِ رَقَ لَنَيْدَ ٱلْبَكُرُ قَبْلَ أَن نَنفَذَ كُلِمَتُ رَبِّي﴾ [الكيف ١٠٠] عزّ وجلّ: فتعساً لمن كفر بالله تعساً، وسيحقاً لمن كفر نعمته سحقاً. قإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال: ﴿قُلِ

الرُّحُ مِن أَسرِ رَقِي﴾ [الإسراء: ١٥٥] فلم يصفه لهم على هذا الوجه. فاق الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول فاعلم: أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح، فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول لذكرها، ونحن إنما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً، وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به، حتى إدا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدّة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدّة فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء، وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل. وأما الروح التي هي الأصل، وهي الني إلى سائر الأعضاء، وما يرتقي إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل. وأما الروح التي هي الأصل، وهي الني إذا فسدت فسد لها سائر البدن، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه، ولا رخصة في وصفه إلا بأن

⁽١) حديث: أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال: «الروح من أمر ربي، متفق عليه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم في شرح عجائب القلب.

يقال: هو أمر رباني كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّبِحُ مِنْ أَسْدِ رَفِّ﴾ [الإسرَاء: ٨٥] والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق، وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات، وتتزلزل في ذكر مباديء وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض، المحبوسة في مضيقها، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل؛ يشرق ذلك النور في عالم النبوّة والولاية، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال، وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً، فكما بدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءها؛ لأن ذلك طور لم يبلغه بعد، وإنه لمقام شويف ومشرب عذب ورتبة عالية، فبها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد، بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، ولجناب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب، وعلى أوِّل الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرماني. فمن لم يكن له على هذه العثية جواز، ولا لحافظ العتبة مشاهدة، واستحال أن يصل الميدان؛ فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية، ولذلك قيل: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه. وأني يصادف هذا خزانة الأطباء؟ ومن أين للطبيب أن يلاحظه؟ بل المعنى المسمى روحاً عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباس كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك، فمن عرف الروح الطبي فظنّ أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحرّكها صولجان الملك فظن أنه رأى الملك، ولا يشك في أنَّ خطأه فاحش، وهذا الخطأ أفحش منه جدًّا، ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم بأذن الله تعالى لرسوله عُنِيُّ أن يتحدّث عنه، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم، ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئاً، ولكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته، أما نسبته ففي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَسْرِ رَبِّ﴾ [الإسزاء: ٨٥] وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَكَأَيُّمُنَّا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطَمِّينَةُ ۞ ٱرْجِينَ إِلَّا رَبِّكِ كِضِبَةُ مَرْهِيَّةُ ﴾ فَأَدَّنِي فِي عِنْدِي ۞ وَأَدْنِي جَنِّي ۞﴾ [العجر ٧٠-٢٠] ولمنوجع الآن إلى الخرض، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل.

الطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته:

اهلم: أن الأطعمة كثيرة، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، وأسباب متوالية لا تتناهى، وذكر ذلك في كل طعام معا يطول، فإن الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية، فلمأخذ الأغذية فإنها الأصل، ولنأحذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الأغذية فنقول: إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعاً، فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفي بتمام حاجتك، فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك، فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ولا يخالفك في الاغتذاء؛ لأنه يغتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب، ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، ولكن شير إلى غذائه فنقول: كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص، فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه لبس يحيط بها إلا هواء، ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها، ولو تركتها في الماء لم تزد، ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد، بل لا بدّ من أرض فيها

ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينًا، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَيْظُرِ ٱلْإِنْكُنَّ إِلَىٰ طَمَايِيهِ ﴿ أَنَا مَبَبَّنَا ٱلْمَلَّةَ مَنَّا ۞ ثُمَّ مُنَفَقًا ٱلأَرْضَ فَقًا ۞ فَالْبَقَا فِيهَا حُبًّا ۞ رَبِفَهًا رَفَقُهُ ۞ رَرْتُوْفًا رَفَقَلًا ۞ [عَبَسَ: ٢٤-٢٩] الآية، ثم لا يكفي الماء والتراب؛ إذ لو تركت في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّهَاءُ لَوَقِمَ﴾ [الججر: ٢٧] وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشناء شات، فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف؛ فقد بان احتياج غذاته إلى هذه الأربعة، فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد؛ إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي، فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الأنهار، ثم الأرض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع إليها، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب ثقال حوامل بالماء، ثم انظر كيف يرسله مدراراً على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجاً، فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشى، ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها، وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان، فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد، والحر عند الحاجة إلى الحر! فهذه إحدى حكم الشمس، والحكم فيها أكثر من أن تحصى، ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم! ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة ، حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة، وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضاً، ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه، بل نقول: كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب، فلا يخلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثاً وباطلاً ولم يصح قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا مَا خَلَقْتَ هَانَا بَطِلًا﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] وقوله عزّ وجلّ : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَتِ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيَّنَهُمَا لَيْعِيرَ﴾ وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة، والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك، وشرح ذلك يطول، ولا ينبغي أن تظن أنَّ الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأُمر الله سبحانه في أمور جعلت أسباباً لها بحكم الحكمة مخالف للشرع؛ لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم(١) ، بل المنهي عنه في النجوم أمران:

⁽١) حديث: النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم، أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس: «من النيس علماً من النجوم التبس شعبة من السحر، زاد ما زاده وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان: «إذا ذكرت النجوم فأسكوا» وإسنادهما ضعيف، وقد تقدم في العلم. ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية كنا نائي الكهان! قال: «فلا تأثوا الكهان.. » الحديث.

أحدهما: أن تصدّق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها؛ وهذا كفر.

والثاني: تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها، لأنهم يقولون ذلك عن جهل، فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام، ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ؛ فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحاً في الدين بل هو حق، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين، ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك: أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس، وإذا سألت عن تغيير وجه الإنسان فقال: قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك، وقس بهذا سائر الآثار، إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول. فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر؛ فإذن: الكواكب ما خلقت عبثاً، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى، ولهذا نظر رسول الله ﷺ إلى السماء وقرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطِلًا سُبْحَنَكَ فَقِمَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١] ثم قال ﷺ: ﴿ وَيُلِّ لِمَنْ قَرَأُ لِمُلِّهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ (() ، ومعناه: أن بقرأ ويترك التأمل، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضاً، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته، فلله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى؛ فإن من أحب عالماً فلا يزال مشغولاً بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له، فكذلك الأمر في عجائب صتم الله تعالى، فإن العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده، فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرّك حركات موزونة متناسبة، فلا تعجب من اللعب فإنها خرق محرّكة لا متحركة، ولكن تعجب من حلق المشعوذ المحرك لها. بروابط دقيقة خفية عن الأبصار؛ فإذن: المقصود أن غذاه النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات.

الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك:

اعلم: أنَّ هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في

 ⁽۱) حدیث: قرأ قوله تعالى: ﴿رَثَنَا مَا خَلَفْتَ هَادَا بَعْلِلاً سُبْحَنْكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ﴾ [آل صِمرَان: ۱۹۱] ثم قال: ﴿ويل لمن قرأ
هذه الآية ثم مسح بها سبلته أي ثرك تأملها. أخرجه الثملبي من حدیث ابن عباس ملفظ: ﴿وقم يتفكر فيها وفيه أبو
جناب يحيى بن أبي حبة ضعيف.

بعص الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعد عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري، فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع أنهم لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون فإما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين، وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا، فانظر: كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح، ويركبوا الأخطار ويغزروا بالأرواح في ركوب البحر، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها! وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والعمل في البراري! وانظر إلى الإبل كيف خلق، وإلى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة، وإلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب، وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتعلوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش، وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في الر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج! وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من والحيوانات في الر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج! وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من المحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز.

الطرف السادس: في إصلاح الأطعمة:

اعلم: أنَّ الذي ينبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل، وهو كذلك، بل لا يدُّ في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور أخر لا تحصى، واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعين رغيفاً واحداً، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، فأوَّل ما يحتاج إليه الحارث ليزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدَّة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحصاد، ثم الفرك والتنقية، ثم الطحن، ثم العجين ثم الخبز؛ فتأمل عند هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعند الأشخاص القائمين بها، وعند الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره، وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبر من نجار، وحدّاد وغيرهما!، وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرصاص والنحاس!، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والمعادن! وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة! فإن فتشت علمت أنَّ رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع، فابتدىء من الملك الذي يزجى السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع، كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتى إن الإبرة التي هي آلة صغيرة فاثدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة ويتعاطى في كل مرة منها عملاً، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلاً بعد نباته لنفذ عمرك وعجزت عنه، أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة! فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر

فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة، ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض، وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها؛ فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان، وسبحان من منع النبيين مع هذا البيان، فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً، أو عن الحدّاد، أو عن الحجام الذي هو أخس العمال، أو عن الحائك، أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها؟ فسبحان من سخر بعض العباد لعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته. ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء.

الطرف السابع: في إصلاح المصلحين:

اعلم: أن هؤلاء [الصناع] المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبدُّدوا وتباعدُوا ولم ينتفع بعضهم ببعض، بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمُّعهم غرص واحد، فانظر كيف ألفُّ الله تعالى بين قلوبهم وسلط الأنس والمحبة عليهم ﴿لَوْ أَنفَتْتُ مَا بي ٱلأَرْضِ جَيعًا مَّآ ٱلْقَتَ بَايْكَ ݣُلُوبِهِمْ وَلَكِكَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّفَ بَيْنَهُمْۗ﴾ [الانتفال: ٦٣] فـلأجـل الإلـف وتـعـارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والىلاد، ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر، فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدّة والأسباب وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعاً وكرهاً، وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض، فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق، واضطروا الخلق إلى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون؟ حتى صار الحدّاد ينتفع بالقصاب والحباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحدّاد، وصار الحجام ينتفع بالحراث، والحرّاث بالحجام، وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها بنعض. وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا، وعرّفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم، وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدير!، وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرّب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى! ؟ فالخباز يخبز العجين، والطحان يصلح الحب بالطحن، والحرّاث يصلحه بالحصاد، والحدّاد يصلح آلات الحراثة، والنجار يصلح آلات الحَّدَاد، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة، والسلطان يصلح الصناع، والأنبياء يصلحون العلماء الذّين هم ورثتهم، والعلماء يصلحون السلاطين، والملائكة يصلَّحون الأنَّبياء إلى أن يشهي إلى حصرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام، ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهُدِينَتُهُمْ سُبُلَنّاً﴾ [العنكىوت: ٦٩] لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم الفهر والقدرة فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَسُنُّواْ نِمْسَتَ اللهِ لَا عَظْمُ وَالْمَدَرَةُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَسُنُواْ نِمْسَتَ اللهِ لَا عَظْمُ وَلا عُمْسُوهَا ﴾ [براهيم: ٣٤] فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا، وإن سكنا فبقهره انقبضنا؛ إذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى، لأنا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار: ﴿ لِمَنِ النَّهُ اللهِ الْفَهَارِ ﴾ [عافر: ١٦] فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار، وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار.

الطرف الثامن: في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام:

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي إليهم، ولا تظنن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية، والسماوية، وحملة العرَّش، فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيمًا يرجع إلى الأكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما. واعلم: أن كل جّزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك، وبيانه: أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر، ثم يصير لحماً وعظماً، وإذا صار لحماً وعظماً تم اغتذاؤك، والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسِه لا يصير طحيناً ثم عجيناً ثم خبزاً مستديراً مخبورًا إلا بصناع، فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً وعروقاً وعصباً إلا بصناع؛ والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد، وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة، فأقول: لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم، فإن الغذَّاء لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عليه صورة الدم، ولا بد س رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم، ولا بد من خامس يدفع الفضل القاضل عن حاجة الغذاء، ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلاً، ولا بد من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته، فإنه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحدقة مع صفائها وإلى الأفخاذ مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل، وإلا بطلت الصورة وربا بعض المواضع وضعف بعض المواضع، بل لو لم يراع هذا الملك العادل في القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذَّاء ما ينمو به إلاّ إحدى الرجلين مثلاّ لبقيت تلك الرجل كما كانت في حدّ الصّغر وكبر جميع البدن، فكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه ألبتة؛ فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة، ولا تُظنن أنَّ الَّدم بطبعه يهندس شكل نفسه فإنَّ محيَّل هذه الأمور على الطبع جاهل لا

يدري ما يقول؛ فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردده وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم، وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك، تركنا تفصيل ذلك للإبجاز، والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس، المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت، جبار السموات والأرض، مالك الملك ذو المجلال والإكرام، والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينحر من جانب إلى جانب^(١) أكثر من أن تحصى؛ فلذلك تركنا الاستشهاد به.

فإن قلت: فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم أفتقر إلى سبعة أملاك، والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولاً، ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثاً، ثم إلى من يعجن رابعاً، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامساً، ثم إلى من يرقها رغفاناً عريضة سادساً، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعاً، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به. فهلا كانت أصمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً؟ فاعلم: أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس، وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنَا إلا نَمْ مَقَامٌ مَعْلُمٌ ﴿ الصّافات ١٦٤]؛ فلذلك ليس بينهم ونعله مثال الحواس الخمس، فإذ البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعان الشم؛ وليس كاليد والرجل فإنك يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحمها ولا هما يتنازعان الشم؛ وليس كاليد والرجل فإنك الضرب، ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز، فإن هذا نوع من الاعوجاج الضرب، ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل، ولذلك نرى الإنسان يطبع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير وحداني الفعل، ولذلك نرى الإنسان يطبع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير

⁽۱) حديث: الأخبار الواردة في الملاتكة الموكلين بالسلوات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب...؛ ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الإسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا: اقتح، وفيه: أتى السماء الثانية فقال لخازنها: اقتح...» الحديث، ولهما من حديث أبي هريرة: فإن شه ملاتكة سياحين يبلغوني عن أمني السلام، وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل: ففناداتي ملك الجبال إن شت أن أطبق عليهم الأخشيين...» الحديث، ولهما من حديث أنس: فإن الله وكل بالرحم ملكاً...» الحديث، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي: هما من نبت يئبت إلا وقحته ملك موكل حتى يحصد... الحديث، وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو بحر البكراوي واسمه عثمان من عبدالرحمن وكلاهما ضعيف. وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف: فإن فه ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الفزال إلا دابة في عنقها جرس، وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس: قالت اليهود: يا أبا القاسم أخيرنا عن الرعد قال: هملك من الملائكة موكل بالسحاب، ولمسلم من حديث أبي هريرة: فيهنما رجل بفلاة من الأرض سمع صوتاً من سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماه في حرة.. الحديث.

إحياء عُلوم الدّين

ممكن في طباع الملائكة، بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقهم، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، والراكع منهم راكع أبداً، والساجد منهم ساجد أبداً، والقائم قائم أبداً، لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور، ولكلُّ واحد مقام معلوم لا يتعداه، وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك، فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك أخرى، بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلاً بإشارتك، فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه؛ إذ النجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحاً وإطباقاً والملائكة أحياء عالمون بما يعملون؛ فإذن: هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسماوية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها، فإنا لم نطول بذكرها؛ فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات، فإذن: قد أسبخ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة، ثم قال: ﴿وَلَرُوا ظَلَهِرَ ٱلْإِثْمِرِ وَكِالِمَنَهُ ۗ [الانقام: ١٢٠]، فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخُلق من الحسد وسوء الظن والبدعة وإضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة، وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة، بل أقول: كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما، فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه، وإن انتفع غيره أيضاً به فإن لله تعالى في كل تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن؛ إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم اتخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود، ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين؛ إذ البياض يفرّق الضوء والسواد يجمعه، ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفاً واحداً: أن يكون مانعاً للهوام من الدبيب إلى باطن العين، ومتشبثاً للأقذاء التي تتناثر في الهواء، وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها، وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل: وهو أنَّ غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك الشعر، فيكونُ شباك الشعر مانعاً من وصول القذي من خارج، وغير مانع من امتداد البصر من داخل، ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة، فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار، وخرجت الأقذار إلى زوايا العين والأجفان، والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين، فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار، وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب، ولعلنا نستأنف له كتاباً مقصوداً فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى، فلنرجع إلى غرضنا فنقول: من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بعين، ولا أ العين إلا برأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات، ولا السموات إلا بالملائكة، فإنّ الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء المدن بعضها ببعض، فإذن قد كفر كل نعمة في الوجود من منتهي الثريا إلى منتهي الثري؛ فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد إلا ويلعنه، ولذا ورد في الأخبار: أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم (1)، وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر (٢)، وأن الملائكة يلعنون العصاة (٢) في ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها، وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة جنى على حميع ما في الملك والملكوت، وقد أهلك نفسه إلا أن بتبع السيئة بحسنة تمحوها، ويتبدل اللعن بالاستغفار، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه. وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: «يا أيوب، ما من عبد لي من الآدميين إلا ومعه ملكان، فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان: اللهم زده نعماً على نعمائي قال الملكان: وعندي أني أشكر شكرهم، وملائكتي يدعون لهم، والبقاع تحبهم، والآثار تبكي عليهم».

وكما عرفت أن في كل طرفة عين نعماً كثيرة، فاعلم: أن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين؛ إذ بانبساطه يحرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب، ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، مل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وفي كل ساعة قريب من ألف نفس، وكل نفس قريب من عشر لحظات، فعليك في كل لحظة آلاف آلاف نعمة في كل جزء من أجزاء بدنك، بل في كل جزء من أجزاء العالم، فانظر هل يتصوّر إحصاء ذلك أم لا؟ ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى: ﴿وَإِن نَمُ ثُوا يِعْمَتُ اللّهِ لَا يَعْمَدُوا يَعْمَتُ اللّهِ لَا أَمْ يَعْمَدُوا وَلَكُ في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت أصلها، وأن طمست رأسها؟ وكذا ورد في الأثر: أن من لم يعرف نعم الله إلا في مطعمه ومشربه فقل قل علمه وحضر عذابه.

وجميع ما ذكرتاه يرجع إلى المطعم والمشرب؛ فاعتبر ما سواه من النعم يه، فإنّ البصير لا تقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه، فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنه طمع في غير مطمع.

بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر:

اعلم: أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والعفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله. ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عزّ وجلّ فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان.

أما الغفلة عن النعم: فلها أسباب، وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم؛ لأنها عامة للخلق

حديث: إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم؟ لم أجد له أصلاً. .

 ⁽٢) حديث: (إن العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوث في البحر», تقدم في العلم.

⁽٣) حديث: «إن الملائكة يلعنون المصافة أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصاً به فلا يعدّه نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في بيت حمام فيه هواء حار أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غماً؛ فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعصها؛ فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعدّه نعمة، ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه المجاهل نعمة، وهذا المجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائماً، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرّق منة، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذي يتطرّق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: ايسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: ايسرك أنك عشرة آلاف درهم؟ فقال: المسرك أنك عشرون ألفاً؟ فقال: لا، فقال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا، فقال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً.

وحكي: أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له: تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار؟ قال: لا، قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، فعدّد عليه سوراً ثم قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو. فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه، فقال له: عظني. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم، فقال: لو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟ قال: نعم. قال: فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء.

فبهذا تبين: أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة دون العامة _ وقد ذكرنا النعم العامة _ فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول: ما من عبد إلا ولو أمعن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها ألناس كافة، بل يشاركه عدد يسير من الناس ورىما لا يشاركه فيها أحد، وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة أمور: في العقل، والخلق، والعلم.

أما العقل: مما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد أنه أعقل الناس، وقل من يسأل الله العقل، وإنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه، وإن لم يكن ولكنه أنه أعقل الناس فواجب عليه، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه، فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكره عليه، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره؛ لأنه في حقه كالباقى.

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئاً عنها، فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيىء.

وأما العلم: فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لو اطلع الناس كافة! فإذن: لكل عبد علم بأمو خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله، فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي أرسله على وجه مساويه فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد. فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقاً، وإما في بعض الأمور. فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلاً، فنقول. ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أموراً لو سلب ذلك منه وأعطي ما خصص به غيره لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً وحياً لا جماداً وإنساناً لا بهيمة وذكراً لا أنثى وصحيحاً لا مريضاً وسليماً لا معيباً؛ فإنَّ كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضاً، فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها، بل له أمور لا يبدُّلها بأحوال الأدميين أيضاً، وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الأكثر. فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره، وإذا كان لا يعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلاً عن حال نفسه إما على الجملة وإما في أمر خاص؛ فإذن: لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه، وما باله لا يسوي دنياه بدينه، أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة! فينظر أبداً في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه، فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه، وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق، فكيف لا يلزمه الشكر، وإذا قال ﷺ: «مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْبَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي الدِّين إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللَّهُ صَابِراً وَشَاكِراً. وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ قَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ لَمْ يَكُثُبُهُ اللَّهُ صَابِراً وَلا شَاكِراً ﴾ . فإذن: كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعماً كثيرة لا سيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك، ولذلك قيل: من شاء عيشاً رحيباً يستطيل به في دينه ثم في دنياه إقبالا

فسلسيسنسطسرن إلى مسن فسوقسه ورعساً ولسيسنسطسرن إلى مسن دونسه مسالا وقال عليه وقال عليه وقال عليه وقال عليه الله وقال عليه وقا

وَقَالَ ﷺ : "مَنْ لَمْ يَسْتَغُنِ بِآيَاتِ اللَّهِ فَلَا اغْنَاهُ اللَّهُ ""، وهذا إشارة إلى نعمة العلم. وقال عليه السلام: "إنَّ القُرآنَ هُوَ الْخِتَى الَّذِي لَا خِتَى بَعْدَهُ وَلَا فَقُرَ مَعَهُ (""، وقال عليه السلام: "مَنْ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ

 ⁽١) حديث: (من نظر في اللنبا من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو قوقه كتبه الله صابراً شاكراً... الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عبداقه بن عمرو وقال: فريب، وفيه المثنى بن الصباح ضعيف.

 ⁽٢) حديث: امن لم يستفن بآيات الله فلا أفناه الله، لم أجده بهدا اللفظ.

⁽٣) حديث: اإن القرآن هو الغناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معها أخرجه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ: فإن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دوته؛ قال الدارقطني: رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلاً، وهو أشبه بالصواب.

فظن أَنُّ أَحَداً أَغْنَى مِنْهُ فَقَدِ اسْتَهْرَأُ بِآياتِ اللَّهِ اللهِ وقال عَلَيْةِ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وقال عليه السلام: «كَفَى بِاليَقِينِ غِنى الله الله عض السلف: يقول الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: إن عبداً أعنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي ؛ عن سلطان يأتيه، وطبيب يداويه، وعما في يد أخيه. وعبر الشاعر عن هذا فقال:

إذا ما القرق يسأتيك كاذا الصححة والأمسن وأصب حالة السحدة والأمسن وأصب حدد أخساً حرز فالله فالمارقات السحدزة

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد؛ حيث عبر ﷺ عن هذا المعنى فقال: «مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافِيّ فِي بَدَيْهِ جِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ: فَكَأَنَّمَا جِيزَتْ لَهُ اللُّثْيَا بِحَذَافِيرِهَا اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَيْهُم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث؛ مع أنها وبال عليهم، لا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصولهم إلى النعيم المقيم والملك العظيم، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقيس والإيمان، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل نحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له: خذها عوضاً عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه؛ وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى في الآخرة، بل لو قبل له: لك في الآخرة ما ترجوه بكماله، فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدنيا. وفرحك به لكان لا يأخذه؛ لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لا كدورة فيها، ولذات الدبيا كلها ناقصة مكذّرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها، هكذا كانت إلى الآن، وهكذا تكون ما بقى من الزمان؛ إذ ما حلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت؛ كالمرأة الجميل ظاهرها تنزين للشاب الشبق الغني، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره ملذة النظر إليها في لحظة، ولو عقل وغص البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها. ولا يسغي أن نقول: إن المعرض عن الَّدبيا متألم بالصبر عنها، فإنَّ المقبل عليها أيضاً متألم بالصير عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة، وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة، فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى:

⁽۱) حديث: «من آتاء الله القرآن فظن أن أحداً أضني منه فقد استهزأ بآيات الله أخرجه البخاري في التاريح من حديث رجاء الغنري بلفظ: «من آتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحداً أوتي أقضل مما أوتي فقد صغر أعظم النعم»، وقد تقدم في فضل القرآن، ورجاه: مختلف في صحبته، وورد من حديث عبدالله بن عمرو وجابر والبراه نحوه وكلها ضعيفة.

 ⁽٢) حديث: اليس منا من لم يتغن بالقرآن. تقدم في آداب التلاوة.

 ⁽٣) حديث: الكفي بالبقين غتى الطبراني من حديث عقمة بن عامر، ورواه ابن أبي الدنيا في الغناعة موقوفاً عليه الوقد تقدم.

⁽٤) حديث: امن أصبح آمناً في سربه. . . الحديث. تقدم غير مرة.

﴿وَلَا نَهِنُوا فِي آبَيْغَانَهِ ٱلْفَوْرِ إِن تَكُونُوا تَأْلَنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كُمَا تَأْلَنُونَ وَزَجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَجُونَ ﴾ [النّساء: ١٠٤] فإذن: إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا عَلَاجٍ هَذَهُ القَلُوبِ الْغَافِلَةُ حَتَى تَشْعِرُ بِنَعْمُ اللهُ تَعَالَى فعساها تشكر؟ فأقول: أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة. وأما القلوب البليدة التي لا تعدُّ النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها؛ فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية؛ إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود؛ فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم، ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ويشكر الله تعالى، ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات، ويشكر الله تعالى على نعمَّة الأمن، ويحضر المقابر فيعلم أنَّ أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً، أما من عصى الله تعالى فليتدارك، وأما من أطاع فليزد في طاعته، هإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات، وأما العاصي فغنه ظاهر، فإذا شاهد المقابر وعلم أنَّ أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له؛ فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله؛ ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزود من الدنيا للآخرة. فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر. وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة، فكان قد حفر في داره قبراً، فكان يضع غلاً في عنقه وينام في لحده ثم يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿ لَكُمْ أَعْلَلُ الْعَلْ صَلِيحًا﴾ [المؤمنون: ١٠٠،٩٩] ثم يقوم ويقول: يا ربيع، قد أعطيت ما سألت، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر: أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف: النعم وحشية فقيدوها بالشكر. وفي الخبر: «مَا عَظُمَتُ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَبُدٍ إلا كَثُرَتْ حَوَائِحُ النَّاسِ إلَيْهِ فَمَنْ تَهَاوَنَ بِهِمْ عَرَضَ تِلْكَ النَّعْمَةَ فَلْمُونَ بَهِمْ عَرَضَ تِلْكَ النَّعْمَة لِلرَّوَالِهِ أَنَهُ اللَّهُ مَنْ يَعَرِّمُ مَا يَقُومُ حَقَّ يُعَرِّمُ أَمَا بِأَنْشِيمٌ ﴾ [الزعد: ١١]. فهذا تمام هذا الركن.

* * *

حديث: «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حواثج الناس إليه. . .» الحديث. أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل وقال: إنه موضوع على حجاج الأعور.

الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر: فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد:

لعلك تقول: ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلاً فما معنى الصبر إذن؟ وإن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء؟ وقد ادعى مدَّعون أنا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة، فكيف يتصوَّر الشكر على البلاء، وكيف يشكر على ما يصبر عليه، والصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما يتضادان؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ فاعلم: أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة يوجب القول بإثبات البلاء لأنهما متضادان؛ ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء، ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه؛ أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما. وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه؛ كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه، فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد: أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إما مدّة وإما أبداً. وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضى إلى البلاء المطلق. وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة. وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي، نعم، الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصى يعرف أنه عاص فعليه ترك المعصية، بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن: يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه، فلذلك يتصوّر أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر؛ فإن الغني مثلاً يجوز أن يكون سبباً لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده، والصحة أيضاً كذلك. فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حالة؛ فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغي، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطُ اللَّهُ الزِّرَقَ لِيبَادِدِ لَبَعَوَّا فِي ٱلأَرْضِ﴾ [السنسورى: ٧٧] وَفَال تَعَالَى: ﴿كُلَّا إِنَّ ٱلْإِنسَنَ لَيَلَمَنٌّ ۞ أَن زَءَهُ ٱسْتَغَيَّ ۞﴾ [النمان: ٧٠٦] وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَيَحْمِي عَبْلَهُ المُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَخْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ ۗ ۖ ۖ ﴿ وكذلك الزوجة والولد والقريب، وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم ـ سوى الإيمان وحسن

⁽١) حديث: ﴿إِنَ اللهُ لبحمي عبده من الدنيا. . . ؟ الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وقد تقدم.

الخلق ـ فإنها يتصوّر أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضدادها إذن نعماً في حقهم؟ إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فإنها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون فقدها نعمة، مثاله: جهل الإنسان بأجله فإنه نعمة عليه؛ إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه؛ إذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه؟ إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه، فإنه ربما يكون ولياً لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم، فليس من آذى نبياً أو ولياً وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها: إيهام الله تعالى أمر القيامة، وإيهامه ليلة القدر، وساعة يوم الجمعة، وإبهامه بعض الكبائر، فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم. وحيث قلنا إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق، وذلك مطرد في حق كل أحد، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس، وهي أيضاً قد تكون نعمة في حق المتألم بها، فإن لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فإنه يتألم به وهو عاص به، وألم الكفار في النار فهو أيضاً نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد. ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولو كثر فرحهم بها، ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار. أما ترى أهل الدنيا ليس يشتذ فرحهم بنور الشمس مع شدّة حاجتهم إليه من حيث إنها عامة مبذولة، ولا يشتذ فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها، فإذن: قد صح ما ذكرناه من أنَّ الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة، ولا خلق شيئاً إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم، فإذن: في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً إما على المبتلى أو على غير المبتلى، فإذن: كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة، فيجتمع فيها على العبد وظيفتان: الصبر والشكر جميعاً.

فإن قلت: فهما متضادان فكيف يجتمعان؛ إذ لا صبر إلا على غم، ولا شكر إلا على فرح؟ فاعلم: أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر، فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح، وفي كل ففر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها.

أحدها: أن كل مصيبة ومرض فيتصوّر أن يكون أكبر منها؛ إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا.

الثاني: أنه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه. قال رجل لسهل رضي الله تعالى عنه: دخل اللهس بيتي وأخذ متاعي! فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟. ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال: اللهم لا تجعل مصيبتي في ديني. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علي فيه أربع نعم: إد لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به، وإذ أرجو الثواب عليه. وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه، فقال له: اشكر الله، فضربه.

فأرسل إليه يعلمه ويشكر إليه، فقال: اشكر الله، فجيء بمجوسي فحبس عنده وكان مبطوناً فقيد وجعل حلقة من فيده في رجله وحلقة في رجل المجوسي، فأرسل إليه فقال: اشكر الله، فكان المجوسي يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضي حاجته، فكتب إليه بذلك، فقال: اشكر الله، فقال: إلى متى هذا، وأي بلاء أعظم من هذا؟ فقال: لو جعل الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع؟. فإذن: ما من إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أدبه ظاهراً وباطناً في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلاً وآجلاً، ومن استحق عليك أن يقطع يديك عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر، ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر. ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من فترك إحداهما فهو مستحق للشكر، فقيل له: ما هذه السجدة؟ فقال: كنت أنتظر أن تصب على النار، فالاقتصار على الرماد نعمة، وقيل لبعضهم: ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار! فقال: أنتم ستبطنون المطر وأنا أستبطىء الحجر.

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار؟ فاعلم: أن الكافر قد خبىء له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نُتْلِي هُمُّمُ لِيَزْدَادُوّاً إِشْمَا ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٨] وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه، ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنى وسائر المعاصي بالجوارح، ولذلك قال تعالى في مثله: ﴿ وَتَعَسَبُونَهُ هَيّنا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾ [النُّور: ١٥] فمن أبن تعلم أن غيرك أعصى منك، ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وعحلت عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك؟

وهذا هو الوجه الثالث في الشكر: وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصوّر أن تؤخر إلى الآحرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها، ومصيبة الآخرة تدوم، وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلي؛ إذ أسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الآخرة عن المعذبين، ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانياً؛ إذ قال رسول الله ﷺ: قإن العَبْدَ إذا أَذْنَبَ ذَنْباً فَأَصَابَتُهُ شِدةً أَوْ بَلاً فِي الدُنْيَا فَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَلِّبُهُ ثَانِياً» (١٠).

الرابع: أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لا بدّ من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها؛ فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين:

أحدهما: الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض، ويكون المنع من أسباب اللعب بعمة في حق الصبي؛ فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب، فكان يخسر جميع عمره، فكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سبباً لهلاك

⁽١) حديث: اإن العبد إذا أذنب ذنباً فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً اخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي: "من أصاب في الدنيا دنباً عوقب به فائه أعدل من أن يلي حويته على عبده..." الحديث. لفظ ابن ماجه, وقال الترمدي "من أصاب حداً فعجل حقوبته في اللغيا، وقال: حسن. وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت "ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له..." الحديث.

الإنسان في بعض الأحوال، بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سبباً لهلاكه، فالملاحدة غداً يتمنون لو كانوا مجانين أو صبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدّر فيه الخيرة ويشكره عليه، فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد، وغداً يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه؛ إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب، والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد، فقد روي أنّ رجلاً قال لرسول الله على في أوصني قال الا تَتَهم اللّه في شيء قضاه فَلَيْكَ (١٠٠٠). ونظر علي إلى السماء فضحك، فسئل فقال: «هَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللّهِ تَعَالَى لِلمُؤْمِنِ: إنْ قَضَى لَهُ بِالسّرًاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضّرًاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضّرًاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالسّرًاءِ

الوجه الثاني: أنَّ رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور، ومواتاة النعم على وفق المواد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت سجناً عليه، وكانت نجاته منها غاية اللَّذَة كالخلاص من السجر، ولذلك قال ﷺ: ﴿اللَّهْنَيَا سِجْنُ الْمُؤْمِن وَجَنَّةُ الْكَافِرِ ۗ ۖ. والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضي بها واطمأنَ إليها، والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا، شديد الحنين إلى الخروج منها، والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي، ونقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي، بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق. فإذن: في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به، وأما التألم فهو ضروري، وذلك يضاهي فرحك عبد الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجاناً، أو يسقيك دواء نافعاً بشعاً مجاناً، فإنك تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح، فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل، بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة، فرأي وحهاً حسناً لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالأ وبلاء عليه، لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد. فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة. فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصوّر منه الشكر؛ لأنّ الشكر

 ⁽١) حديث: قال له رحل أوصبي قال: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك» رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله، وفي إسناده ابن لهيمة.

⁽۲) حديث: نظر إلى السماء فضحك، فسئل فقال. «صجبت لقضاء الله للمؤمن. . . ٤ الحديث. أخرجه مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء، وضحكه: «صجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص: «صجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر. . . ١ الحديث.

 ⁽٣) حديث: «الفئيا سجن المؤمن وجنة الكافر» أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة، وقد تقدم.

يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة. وحكي: أن أعرابياً عزى ابن عباس على أبيه فقال:

اصبر نكس بك صابرين فإنسا صيدر الرحية بسعد صبير الراس خيد مستك للعباس خيد مستك للعباس

فقال ابن عباس: ما عزاني أحد أحسن من تعزيته.

والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة: قال رسول الله على: المَنْ يُرِدِ اللّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبُ مِنْهُ (۱)، وقال عَلَى: اقال الله تعالى: إذا وَجُهْتُ إلَى عَبْدِ مِن حَبِيدِي مُصِبَةً فِي بَلَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَكِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذٰلِكَ بِصَبْرِ جَميلِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ أَنْصُبَ لَهُ مِيرَاناً أَوْ أَنْشَرَ لَهُ وِيواناً وقال عليه السلام: "ما مِنْ حَبْدِ أُصِيبَ بِمُصِبِيةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا يَقِهُ وَلاَ يَشِعُ وَاللّهُ اللهُ تَعالَى: ﴿ إِنَا اللّهُ تَعالَى: ﴿ إِنَّا اللّهُ تَعالَى: ﴿ إِنَا اللّهُ تعالَى: اللهُ عَمْلُ اللّهُ ذٰلِكَ بِهِ ، وقال الله تعالى: ١٩٦ اللّهُ مَا اللهُ عَرَاهُ اللّهُ وَجُهِي ، وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله فعبداً ابْتَلاهُ وَإِذَا ابْتَلاهُ وَإِنَّ اللّهُ إِنَّ اللّهُ إِذَا أَنْتَلاهُ مَانَى اللهُ عَمْلُ حَتَى يُبْتَلَى بِبَلامِ فِي جَسْمِهِ فَيَبْلُغُها بِلَلْكَ (۱٬)، وعن خباب بن اللهُرَجَةُ عِنْدَ اللّهِ تَعالَى لا يَنْهُعُ إِنْ اللّهُ وَعَلَى اللّهُ وَلا يَسْقَمُ جِسْمُهُ ، إِنَّ اللّهُ إِذَا أَنْتَلاهُ وَإِنْ الرّجُلُ لَتَكُونُ لَهُ اللّهُ وَلا يَسْقَمُ عِسْمُهُ ، إِنَّ اللّهُ إِذَا أَنْتَلاهُ وَإِنَّ النِّهُ عَلَى اللهُ عَلَى مِيلِهِ عَيْبُكُ فِي جَسْمِهِ فَيَبْلُغُها بِلَاكَهُ (۱٬)، وعن خباب بن اللهُ وقال : أتيت رسول الله يَعْمَلُ حَتَى يُبْتَلَى بِيلامٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُها بِلَاكَهُ (۱٬)، وعن خباب بن الأرت قال: أتيت رسول الله إلله قبله وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: يا رسول الله الأرض حَفِيرة وَيُجَاءُ بِالمِنْفَادِ فَيْفِعُمُ فَرْقَتَيْنِ ما يَصْرِفُهُ فَلِكَ مَنْ عِيلِهِ ﴿ . وعن علي الأرض حَفِيرة وَيُجَاءُ بِالمِنْفَادِ فَيْفِعُ عَلَى وَأُسِهِ فَيَجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ ما يَصْرِفُهُ فَلِكَ مُو بِيهِ اللّهُ وَمَعْوفُ مَعْرِقَةً حَقِّهِ أَنْ لا تَشْكُو وَجَعَكَ وَلا تَذُكُرَ مُصِيبَكُكُ ، وقال أبو وقال أبوا عليه السلام: "هِنْ إجلالِ اللّه وَمَعْرِقَةً حَقِّهِ أَنْ لا تَشْكُو وَجَعَكَ وَلا تَذُكُرَ مُصِيبَكُكُ ، وقال أبو

⁽١) حديث: «من يرد الله به خيراً يصب منه» رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

⁽٢) حديث: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب مالي وسقم جسدي فقال: «لا خير في هيد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده، إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري: «إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين.

٣) حديث: «إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك» رواه أبو داود في رواية ابن داسة، وابن العيد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وليس هي رواية اللؤلؤي، ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه، ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي، وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد، وذكر أبو نعيم: أن ابن منده سمي جده اللجلاج بن سليم، قالله أعلم، وعلى هذا قابته خالد بن اللجلاج العامري ذاك مشهور، روى عنه جماعة. ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبدالبر في الصحابة من رواية عبدالله بن أبي فاطمة ذاك عن أبيه عن جده المجاهد.

⁽³⁾ حديث خباب بن الأرت: «أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكرنا إليه. تقدم. خياب بن الأرت: هو الذي كان يقرى « القرآن لفاطمة بنت الخطاب وسعيد بن رائد رضي الله عنهما يوم إسلام عمر، وهو الذي بشر عمر بما قائه النبي ﷺ في دعائه: اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين. استشهد يوم الرجيع، وقع أسيراً وحمل إلى الكوفة وقتله القرشيون في التنعيم.

الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للموت وتعمرون للخراب، وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبغى، ألا حبذا المكروهات الشلاث: الفقر، والمرض، والموت. وعن أنس قال، قال رسول الله على: إذا أزاد الله بعبد غيراً وأزاد أن يُصافية صب عليه البلاء صباً وَقَجُهُ عَلَيهِ عَجْاً، فَإِذَا وَقَالُ قَالُ اللّه تَعَالَى: لَبُهْكَ عَبْدي وَسَعْدَيْكَ دَعَاهُ قَالَن يَا رَبّ قَالَ اللّه تَعَالَى: لَبُهْكَ عَبْدي وَسَعْدَيْكَ لا تَسْأَلُني شَيْئاً إِلاَّ أَعْطِيتكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ ما هُوَ خَيْرٌ وَادَخَرْتُ لَكَ عِنْدِي ما هُوَ أَهْضَلُ مِنْه، فَإِذَا كَانَ يَسَعْلُ إِلاَّ أَعْطِيمُ وَالصَّيْقِ وَالصَّيْامِ وَالصَّيْقِ وَالْحَجْ، ثُمَّ يُؤْتَى يَوْمُ الْقِيَامِ وَالصَّيْقِ وَالْحَجْ، ثُمْ يُؤْتَى الْبَلاهِ فَلَا الله يَعْمَلُ مِيزَانٌ وَلاَ يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوانٌ، يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الأَجْرُ صَبَا كَمَا كان يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْبَلاهِ فَيَوْدُ أَهْلُ العَافِيةِ فِي الدُّنْيا لَوْ أَنْهُمْ كَانَتُ تُقُرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالمَقارِيضِ لِمَا يَرْوَنُ ما يَذْهَبُ عَلَيْهِمُ الْبَلاهِ وَسَالًا فَي الدُّنِيا وَعَرْقُ الْعَلْمُ الْحَرْدُ وَلاَ يَشْرُ لُهُمْ دَيُولُ الْبَلاهِ وَسَالًا عَلَى يُشَرِّ حِسَالٍ فَي الدُّنِيا وَعَلَى عَنْها الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْجَلْمُ الْمَوْدُ وَلَا الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ اللهِ اللهُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الْعَلْمُ الله الله الله الله الله الله وي الله الله الله الله الله وي ويحون المعالى المناء ويكون المؤمن عليه من الذنوب، فأوجي الدنيا وأعرض له البلاء ويجترىء عليك وعلى معاصيك تزوي عنه البلاء ويصل الذنوب، فأوجي الدنيا وأوجي الدنيا وأورى عنه الدنيا وأوجي الدنيا وأورى عنه البلاء ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الروق فيكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الروق فيكون كفارة لذنوبه، حتى يلقاني فأجزيه بحسناته في الدنيا، حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته.

وروي: أنه لما نزل قوله تعالى. ﴿ مَن يَمْمَلَ مُتَوَمَّا يُجَرَّ بِهِ. ﴾ [النّساء ' ١٢٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غَفَرَ اللّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ مَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الأَذَى؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ فَهَذَا مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ اللّهُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللّهُ مَا يُحِبُ وَهُو كَفَارة لَذُنوبك. وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللّهُ مَا يُحِبُ وَهُو مُنْهِم عَلَى مَعْصَبَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنْ ذُلِكَ اسْتِذْرَاحٌ ثُمُ قَرَأ قُولَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحَنّا عَلَيْهِم أَبوابِ الخير ﴿مَقَنَ إِنَا فَرِحُوا مِا أَمُووا بِه فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿مَقَنَ إِنَا فَرِحُوا مِا أَمُووا بِه فتحنا عليهم أبواب الخير ﴿مَقَنَ إِنَا فَرَحُوا ﴾ [الانعَام: ١٤٤] أي بما أعطوا من الخير ﴿لَمَاذَتُهُم بَنْتَذَهُ ﴾.

وعن الحسن البصري رحمه الله: أن رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية، فكلمها ثم تركها، فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه، فأتى

⁽١) حديث أنس: ﴿إِذَا أَرَادَ الله بعبد خيراً وأَرَادَ أَنْ يَصَافِيه صَبِ عليه البلاء صياً... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنسى أخصر منه دون قوله: ﴿ وَإِذَا كَانْ يُومِ القيامة... إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان. ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه، وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضاً ضعيف. الثج. التدفق.

⁽٢) حديث لما نزل قوله تعالى. ﴿ نَ يَعْمَلُ سُوّهُا يُجْرَ بِهِ. ﴾ [النّساء: ١٢٣] قال أبو بكر الصديق: كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال ﷺ: اففر الله لك يا أبا بكر، الست تمرض... الحديث، من رواية من لم يسم عن أبي بكر، ورواه الترمذي من وجه آخر وضعفه. قال: وليس له إسناد صحيح. وقال الدارقطئي: وروي أيضاً من حديث عمر ومن حديث الزبير، قال: وليس فهما شيء يثبت.

 ⁽٣) حديث عقبة بن عامر: ﴿إِذَا رأيتم الرَّجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته قاهلموا أن ذلك استدراج. . . ٤
 ألحديث. رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن.

النبي على المُنبِه فقال على الله الله بعبل خيراً عَجُل لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي اللَّذَيّاه (١)، وقال على كرم الله وجهه: ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا: بلى، فقرأ عليهم: ﴿وَمَا أَمَنَكُم مِن مُّصِيبَةِ فَي اللهُ وَجهه: ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن؟ قالوا: بلى، فقرأ عليهم الدنيا بكسب الأوزار، فإذا فيما كيبر الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً، وإن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «ما تَجَرِّعَ عَبْدٌ قَطَّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةِ فَيْظٍ رَدَّهَا بِحِلْمٍ، وَجُرْعَة مُصِيَبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا. وَلا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَةٍ دَمِ أَهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطْوَتَيْنِ أَحْبُ إِلَى اللَّهِ مَنْ خَطْوَتَيْنِ أَحْبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ خَطْوَةً إِلَى صَلاَةً الفَرِيضَةِ، وَخَطْوَةً إِلَى صِلَةٍ الرَّحِمِ (٢).

وعن أبي الدرداء قال: توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجداً شديداً فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم، فقال أحدهما: بذرت بذراً فلما استحصد مرَّ به هذا فأفسده، فقال للآخر: ما تقول؟ فقال: أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام: ولم بذرت على الطريق، أما علمت أن لا بدّ للناس من الطريق؟ قال: فلم تحزن على ولدك، أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟. فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك.

ودخل عمر بن عبدالعزيز على ابن له مريض، قال: يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك، فقال: يا أبت، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نعي إليه ابنة له، فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قد ساقه الله، ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ما أمر الله تعالى:،قال تعالى: قال تعالى: ﴿ وَالسَّيْسِيُّوا وَالْضَائِمِ وَالْضَلَقِ اللَّهَ اللَّهَ وَاللَّهَ وَالسَّيْسِيُّوا وَالسَّيْسِيُّوا وَالسَّدِينَ وَاللَّهَ وَاللَّهَ وَاللَّهَ وَاللَّهُ وَاللَّ

وعن ابن المبارك: أنه مات له ابن، فعزاه مجوسي يعرفه؛ فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يقعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال ابن المبارك: اكتبوا عنه هذه.

وقال بعض العلماء: إن الله ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما له ذنب. وقال الفضيل: إن الله عزّ وجلّ ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

⁽٢) حديث أنس: الما تجرع هبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرحة غيظ ردها بحلم، وجرحة مصيبة يصبر الرجل لها. . . الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث على بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين، وفيه محمد بن صدقة وهو الفلكي منكر الحديث. وروى ابن ماجه من حديث أبي عمر بإسناد جيد: قما من جرحة أعظم عند الله من جرحة فيظ كظمها حبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث أبي أمامة: قما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله، أو قطرة همع في سواد الليل . . . الحديث. وفيه محمد بن صدقة، وهو القلكي المنكر الحديث.

وقال حاتم الأصم: إن الله عزّ وجلّ يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس؛ على الأغنياء بسليمان، وعلى الفقراء بالمسيح، وعلى العبيد بيوسف، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم.

وروي: أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك، فجيء بالمشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا، فأنَّ منه أنه؛ فأوحى الله تعالى إليه: يا زكريا، لئن صعدت منك أنَّة ثانية لأمحونك من ديوان النبوّة، فعض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين.

وقال أبو مسعود البلخي: من أصيب بمصيبة فمزق ثوباً أو ضرب صدراً فكأنما أخذ رمحاً يريد أن يقاتل به ربه عزّ وجلّ.

وقال لقمان رحمه الله لابنه: يا بني، إن الذهب يجرّب بالنار والعبد الصالح يجرّب بالبلاء، فإذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

وقال الأحنف بن قيس: أصبحت يوماً أشتكي ضرسي، فقلت لعمي: ما نمت الهارحة من وجع المضرس حتى قلتها ثلاثاً، فقال: لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة، وقد ذهبت عيني هده منذ للشرس حتى قلتها ثلاثاً، فقال: لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة، وقد ذهبت عيني هده منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد. وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام: «إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي واشك إلى؛ كما لا أشكوك إلى ملاثكتي إذا صعدت مساويك وفضائحك؛ نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة.

بيان فضل النعمة على البلاء:

لعلك تقول: هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول: لا وجه لدلك، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (١١)، وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «رَبَّنا آتِنَا فِي اللَّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ (٢٠)، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها (٣٠).

وقال علي كرّم الله وجهه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: ﴿لَقَدُ سَأَلُتَ اللَّهَ البِّلَاءَ فَاسْأَلُهُ العَالِيَةَ»(١٠).

⁽۱) حديث. أنه ﷺ كان يستعيد في دعائه من بلاء الذنيا وبلاء الآخرة. رواه مسلم من حديث بشر بن أبي أرطأة بلفط: «أجرمًا من حزي الدنيا وعذاب الآخرة» وإسناده جيد. ولأبي داود من حديث عائشة: «اللهم إني أهوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة» وفيه يقية وهو مدلس، ورواه بالعنعنة.

 ⁽٢) حديث: كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام: «ربنا أتنا في العنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النارة أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي في يقول: «اللهم أثنا في العنيا...» الحديث. ولأبي داود والنسائي من حديث عبدالله بن السائب قال: سمعت رسول الله في يقول ما بين الركنين: «ربنا أتنا...» الحديث.

⁽٣) حديث: كان يستعيذ من شماتة الأعداء: تقدم في الدعوات.

⁽٤) حديث: قال علي رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الصبر، فقال ﷺ: القد سألت الله البلاء فسله العاقبة، رواه الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه، ولم يسم علياً وإنما قال: سمع رجلاً. وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي: «كنت ساكناً فمر بي رسول الله ﷺ وأنا أقول...» الحديث. وفيه. فإن كان بلاء فصبرني، فضريه برجله وقال: «اللهم عافه واشفه» وقال: حسن صحيح.

وروى الصدّيق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله تله أنه قال: اسَلُوا اللّهَ العَافِيَة، فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْ العَافِيّة إلاَّ اليَقِينِ^(۱)، وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك، فعافية القلب أعلى من عافية البدن.

وقال الحسن رحمه الله: الخير الذي لا شر فيه: العافية مع الشكر، فكم من منعم عليه غير شاكر. وقال مطرّف بن عبدالله: لأن أعافي فأشكر أحب إليّ من أن أبتلي فأصبر.

وقال ﷺ في دعائه: ﴿وَعَافِيتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ ا (٢),

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد، وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين: أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكثر منه إما في الدنيا أو في الدين، والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب؛ فينبغي أن نسأل الله تمام النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء، ونسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته؛ فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر.

فإن قلت: فقد قال بعضهم: أود أن أكون جسراً على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار. وقال سمنون رحمه الله تعالى:

ل ب س لي في سرواك حظ فكيفها شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء، فاعلم: أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بلي بعد هذا البيت بعلة الحصر، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب. وأما محبة الإنسان ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة، ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظنّ المحب بنفسه حباً لمثل ذلك، فمن شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها، فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعوّل عليه، كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لأجلك؟ فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال: يا نبي الله، كلام العشاق لا يحكى، وهو كما قال، وقال الشاعر:

أريسد وصالسه ويسريسد هسجسري فأتسرك مسا أريسد لسمسا يسريسه

وهو أيضاً محال، ومعناه؛ أني أريد ما لا يريد؛ لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر، فكيف أراد الهجر الذي لم يرده، بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين.

أحدهما: أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به إلى الوصال في الاستقبال؛ فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى

 ⁽¹⁾ حديث أبي بكر الصديق: «سلوا الله العافية. . . ٥ الحديث. أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة بإسناد جيد،
 وقد تقدم.

⁽٢) حديث: قوهافيتك أحب إلي، ذكره ابن إسحاق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى الطائف بلفظ: قوهافيتك أوسع لي، وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلاً، ورواه أبو عبدالله بن منده من حديث عبدالله بن جعفر مسنداً، وفيه من يجهل.

المحبوب محبوبة، فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهماً في درهمين فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم في الحال.

الثاني: أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنه رضاه فقط، ويكون له للة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته، فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضاء فلذلك قد انتهى حال بعص المحبين إلى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في البلاء صار البلاء أحب إليهم من لذتهم في البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية، وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت، وإن ثبت مثلاً فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال؟ هذا فيه نظر، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه، وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء، فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين.

بيأن الأفضل من الصبر والشكر:

اهلم: أنّ الناس اختلفوا في ذلك، فقال قائلون: الصمت أفضل من الشكر. وقال آخرون: الشكر أفضل. وقال آخرون: الشكر أفضل. وقال آخرون: هما سيان، وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال، واستدل كل قريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل، فلا معنى للتطويل بالنقل، بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى. فنقول: في بيان ذلك مقامان.

المقام الأوّل: البيان على سبيل التساهل: وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالنفتيش بحقيقته، وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة، وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ؛ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات، بل باللبن اللطيف، وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوّته، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول: هذا المقام في البيان يأبي البحث والتفصيل، ومقتضاه النظر إلى الظاهر الدفهوم من موارد الشرع، وذلك يقتضي تفضيل الصبر، فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر، بل فيه ألفاظ صويحة في التفضيل كقوله ﷺ: «مِنْ أَفْضَل ما أُوتَيْتُمُ البَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِهُ ()، وفي الخبر: «يؤتي بأشكر أهل الأرض فيقال له: أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا فيجزيه الله جزاء الشاكر، فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كلا، أنعمت عليه فشكر وابتليتك قصبرت، الأضعفن الشاكر، فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كلا، أنعمت عليه فشكر وابتليتك قصبرت، الأضعفن لك الأجر عليه، فبعطى أضعاف جزاء الشاكر، فيقول: الله تعالى: ﴿إِنَّا يُونَى المَنْرِنَ أَبَرَمُمْ مِينَرِ الشّاكر، فيقول: عام قوله: «الطّاعِمُ الشّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّابِمِ الصَّابِ» (الزُّمَز: ١٠) وأما قوله: «الطّاعِمُ الشّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّابِمُ الصَّابِمُ على أنَّ الفضيلة في

 ⁽١) حديث المن أفضل ما أوتيتم البقين وعزيمة الصبرا. تقدم.

 ⁽۲) حدیث: فیوتی بأشكر أهل الأرض فیجزیه الله جزاء الشاكرین، ویؤتی بأصبر آهل الأرض...» الحدیث. لم أجد له
 أصلاً...

 ⁽٣) حديث: «الطاهم الشاكر بمنزلة الصائم الصاير» أخرحه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

الصبر إذ دكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر، فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر، وهو كقوله ﷺ: «المجتمعة على الشكر، وهو كقوله ﷺ: «ألجمعة المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة، فكذلك قوله ﷺ: «الصّيْرُ نِصْفُ الإيمَانِ» لا يدل على أنّ الشكر مثله، وهو كقوله عليه السلام: «الصّومُ نِصْفُ الطّبْرِ» فإنّ كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت، كما يقال: الإيمان هو العلم والعمل؛ فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أنّ العمل يساوي العلم، وفي الخبر عن النبي ﷺ: «آخِرُ الأنبياءِ دُخُولاً المَجنّة سُلَيْمانُ بَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِما السّلامُ لِمَكَانِ مُنادًهُ ")، وفي اخر: السّلامُ لِمَكانِ مِنَادًهُ ")، وفي خبر آخر: السّلامُ لِمَكانِ مُنَادًهُ عَلَيْها مِصْرَاعَانِ إلاّ بَابُ الطّبْرِ وَيَا لَمُ مَنْ يَذْخُلُهُ أَهْلُ البَلاءِ أَمَامَهُمْ أَيُوبُ عَلَيْهِ السّلامُ ").

وكل ما ورد في فضائل الفقر بدل على فضيلة الصبر؛ لأنّ الصبر حال الفقير، والشكر حال الغي، فهذا هو المقام الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم.

المقام الثاني: هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه: كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما، وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان. والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول: قد ذكونا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة: علوم،

⁽١) حديث: اللجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن النبعل؛ أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسئله بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسئل ضعيف، والطبراني بالشطر الثاني من حديثه بسئل ضعيف أيضاً أن امرأة قالت. كتب الله الجهاد على الرجال دما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ قال: قطاعة أزواجهن، وهي رواية، ما جزاء غزوة المرأة؟ قال. قطاعة الزوج. . . ١ الحديث، وفيه القاسم بن فياض، وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات.

⁽٧) حديث: هشارب المخمر كعابد الوثن؟ أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: «مدمن المخمر» ورواه بلفظ: دشارب، الحارث بن أبي أسامة من حديث عبدالله بن عمر، وكلاهما ضعيف، وقال ابن عدي: إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهاني.

⁽٣) حديث: «آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه، وآخر أصحابي دخولاً الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل: «بدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً» وقال: لم يروه إلا شعيب بن حالد وهو كوفي ثقة. وروى النزار من حديث أنس «أول من يدخل الجنة من أغنياء أمني عبدالرحمن بن عوف» وفيه أغلب بن تميم ضعيف.

 ⁽٤) حديث. ايدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً، تقدم حديث معاذ قبله. ورواه أبو منصور الديلمي مي مسند الفردوس من رواية دينار عن أس بن مالك، ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس، والحديث متكر.

⁽٥) حديث: «أبواب البعنة كلها مصراحان إلا باب العبير فإنه باب واحد...» الحديث. لم أجد له أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة؛ قروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة: «والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراحين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وبصرى»، وفي الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان: ولقد ذكرنا أن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة؛ وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

وأحوال، وأعمال، والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك، وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين في الظواهر أن العلوم ثراد للأحوال، والأحوال تراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك؛ فإن الأعمال تراد للأحوال، والأحوال تراد للعلوم؛ فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال؛ لأن كل مراد لغيره فذلك العبر لا محالة أفضل منه. وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المعارف، وأفضل المعاملة؛ ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة لأنها تراد للمعاملة؛ ففائدتها إصلاح العمل، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر، فنقول: فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب، وفائدة إصلاح حال القلب، وفائدة أصلاح حال القلب، فأدفع علوم المكاشفة: المعرفة الله سبحانه، وهي الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة؛ فهي المعرفة الحرة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها، وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها، فإنها إنما تراد لأجلها. عليها فلا تنقيد بغيرها، وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها، فإنها إنما تراد لأجلها.

ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى، فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة، فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل. وأما الأحوال: فنعني بها أحوال القلب مي تصميته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق، فإذن: فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره، وإعداده لأن تحصّل له علوم المكاشفة، وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أڤرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقرّبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود، وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه، وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مامعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا، وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه. واسم الأول المعصية، واسم الثاني الطاعة، والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة، وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته. فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول: الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة، وأنّ الحج أفضل من الصدقة، وأنّ قيام الليل أفضل من غيره، ولكن التحقيق فيه: أنَّ الغني الذي معه مال وقد عَلَبه البخل وحب المال على إمساكه فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها، أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع، فأما هذا المدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطمه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه، فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره، وهو كالمريص الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتقع به، بل حقه أن ينظر في المهلك الذي استولى عليه، والشح المطاع من جملة المهلكات، ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة، بل لا يزيله إلا إخراج المال؛ فعليه أن يتصدّق بما معه، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه. فإذن: باعتبار هذه الأحوال يختلف، وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب

المطلق فيه خطأ؛ إذ لو قال لنا قائل: الخبز أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حق إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب؛ فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل، فإن تساويا فهما متساويان، وكذا إذا قيل: السكنجبين أفضل، أفضل أم شراب اللينوفر؟ لم يصح الجواب عنه مطلقاً أصلاً، نعم لو قيل لنا: السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء؟ فنقول: عدم الصفراء، لأن السكنجبين مراد له، وما براد لغيره فلذلك الغير أفضل منه الصفراء؟ فنقول: في بذل المال عمل وهو الإنفاق، ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه، فالأفضل المعرفة، الدنيا من القلب، ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه، فالأفضل المعرفة، ودونها الحال، ودونها العمل.

فإن قلت: فقد حث الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله: ﴿ مَن ذَا اللَّهِ يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنَا البّقرَة: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَنِ التّويَة: ١٠٤] فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل? فاعلم: أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء مراد لعينه، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالباً، فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه، فإنه لا يشعر به، ولو ذكر له لا يصدق به، والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البرص، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه، فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه.

ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول: من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظاً لقال: إنه محفوظ ولا حاجة بي إلى تكرار ودراسة، لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً، وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم، فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم، فيشكل عليه الأمر فيقول: ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد، وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به، وأعلم أن لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن، فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه؛ فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري، وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا: إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا، فأي معنى لقوله: ﴿ مِّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ أَنَّهَ فَرْضًا حَسَنَا﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥] ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم، كما قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿ وَإِنَا فِيلَ لَمُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَمُواْ لِلَّذِينَ عَامَنُواْ أَنْظُمِهُمْ مَن لَّوْ يَشَاءُ أَلَقُهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [يسن: ٤٧] وقبالسوا أيسضيًّا: ﴿ لَوْ شَاآة اللَّهُ مَا أَشْرَكُنَا وَكَا مَاجَأَوْكَ ﴾ [الأنعَام: ١٤٨] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل: ﴿ يُضِلُّ بِدِ، كَيْبِرًا وَيَهْدِي بِـدِ. كَذِيرًا ۗ [البَفْرَة: ٢٦] فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى، ثم قالوا: لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبى لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفاً به في استجراره إلى ما فيه سعادته، فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق، فإذن: هذا المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك، فإنه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم المعلكة من باطنك؛ فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام. ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له غرص في أن يصنع شيئاً بالدم، ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله على من أخذها وانتهى عنها(١٠)، كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها(٢٠)، والمقصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة، فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والمعارف.

ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول: في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل، فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال، أو العمل في الآخر، بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب، وبعد التناسب يظهر الفضل، ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة؛ إذ معرفة الشاكر: أن يرى نعمة العبنين مثلاً من الله تعالى. ومعرفة الصابر: أن يرى العمى من الله، وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن احتبرتا في البلاء والمصائب.

وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية، وفيهما يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبراً بالإضافة إلى باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة: وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة، فهما عبارتان عن معنى واحد، فكيف يفضل الشيء على نفسه؛ فإذن: مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة، والمعصية، والبلاء، وقد ظهر حكمها في الطاعة والمعصية، وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة، والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلاً، وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشكر البصير عليهما من ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى، ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشكر البصير عليهما من أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر؛ فإن الأعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها، والبصير حيث العمل بأمرين: أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية، والآخر أن يستعملهما في الطاعة، وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر؛ فإن الأعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها، والبصير أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر كان شاكراً لنعمة العينين، وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين، فقد دخل الصبر في شكره، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضاً فيه من صبر على الطاعة، ثم قد الصبر في شكره، وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضاً فيه من صبر على الطاعة، ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، فيكون هذا الشكر

حديث: امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها. أخرجه مسلم من حديث
عبدالمطلب بن ربيعة: «إن هذه الصدقة لا تحل لمنا إنما هي أوساخ القوم وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد» وني
وواية له: «أوساخ الناس».

⁽٢) حديث: النهي عن كسب الحجام تقدم.

أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلاً وقد كان ضريراً من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلاً، ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جداً؛ لأنَّ كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين، وشكرها باستعمالها فيما هي آلة هيه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبر، وأما ما يقع في محل الحاجة كالريادة على الكفاية من المال فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه، ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر، ووجود الزيادة نعمة، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات، أو أن لا تستعمل في المعصية، فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضاً، وفيه فرح بنعمة الله تعالى، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح، وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض، وهذا فيه خلل إذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضهاً، وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعم المباح فالصبر هاهنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الغنى الممسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغني الصارف ماله إلى الخيرات، لأنَّ الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى، وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوّة. والغني أتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح، والمباح فيه مندوحة عن الحرام، ولكن لا بدّ من قوّة في الصبر عن الحرام أيضاً، إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القرّة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوّة التي يدل العمل عليها، فإنَّ الأعمال لا تراد إلا لأحوال القلوب، وتلك القوَّة حالة للقلب تختلف بحسب قوّة اليقين والإيمان، فما دل على زيادة قوّة في الإيمان فهو أفضل لا محالة، وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص؛ لأن السابق إلى أقهام الناس من النعمة والأموال الغني بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية، لا أن يصرفها إلى الطاعة، فإذن: الصبر أفضل من الشكر، أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة، وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر: أيهما أفضل؟ فقال: ليس مدح الغني بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم، وإتما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما، فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتللذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزعجها أتم حالاً ممن متع صفته ونعمها. والأمر على ما قاله، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الأخير الذي ذكرناه، وهو لم يرد سواه. ويقال: كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال: الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول: دعوة الجنيد أصابتني، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر.

ومهما لاحظت المعاني الني ذكرناها علمت أنّ لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال، فرب فقير صابر، أفضل من غني شاكر كما سبق، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير؛ إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الصرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه، على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين، وإنما ينتطر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، شم

إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة، بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده، فهذا أفضل من الفقير الصابر.

فإن قلت: فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر؛ لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر، فإن كان متألماً بفراق المال فيتجبر ذلك بلذته في القدرة على الإنفاق؟.

قاعلم: أنَّ الذي نراه: أنَّ من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يفتطعه عن نقسه قهراً. وقد ذكرنا تقصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة، فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد، والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابراً على الضرب، ولذلك بحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليهما في النهاية، بل لنهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقه لذيذاً عنده، كما يصير التعلُّم عند الصبي العاقل لذبذاً وقد كان مؤلماً ا أولاً، ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين في البداية _ بل قبل البداية بكثير _ كالصبيان، أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته أفضل، وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق، فإذاً: إذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام. فإذا أردت التحقيق ففصل، فإنَّ للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية، ووراءها الرصا وهو مقام وراء الصبوء ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا؛ إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به، وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها، ويدخل في جملتها أمور دونها؛ فإنّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر، والاعتراف بأنّ المعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر، والعلم بأنَّ الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر، وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر؛ إذ قال عليه السلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله؛ ﴿ أَنَّ وَقَدْ ذَكُرُنَا حَقَيْقَةَ ذَلَكَ فَي كَتَابُ أَسْرَارَ الزَّكَاةَ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر. وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار.

وقد روي عن بعضهم أنه قال: رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن فسألته عن حاله فقال: إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت تهواني، فاتفق أنها زوّجت مني، فليلة زفافها قلت: تعالى حتى نحيي هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعنا، فصليا تلك الليلة ولم يتفرّغ أحدنا إلى صاحبه، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك، فصلينا طول الليل، فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة، أليس كذلك يا فلانة؟ قالت العجوز: هو كما يقول الشيخ. فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أو لو لم يجمع الله بينهما، وانسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل؛ فإذن: لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بغضيل كما سبق، والله أعلم.

⁽١) حديث: قمن لم يشكر الناس لم يشكر الله، تقدم في الزكاة.

ينسب أنَّو ٱلنَّخَيِ ٱلنَّجَدِ

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه، المخوف مكره وعقابه، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه، حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقرّ أعدائه، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته، وصدّهم عن التعرّض لأثمته والتهدّف لسخطه ونقمته، قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته، والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته، وعلى آله وأصحابه وعترته.

أما بعد: فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء. ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات - إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف، فلا بدّ إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما. ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين: الشطر الأوّل في الرجاء، والشطر الثاني في الخوف.

أما الشطر الأوّل: فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء، وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرحاء، والطريق الذي يجتلب به الرجاء.

بيان حقيقة الرجاء:

اهلم: أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض؛ فكذلك صفات القلب تقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب، وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب. وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر المحال، والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة، وبيانه: أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجود أبي الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً، وإنما سمي وجلاً لأنها حالة تجدها من نفسك، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظاراً وتوقعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء؛ فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده،

ولكن دلك المحبوب المتوقع لا بدّ وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب. وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، أما ما يقطع به فلا؛ إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غرويها وقت الغروب، لأنَّ ذلك مقطوع به، نعم، يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه. وقد علم أرباب القلوب أنَّ الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالمذر فيه، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليهاء والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بذرُّ في أرض سبخةً، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوّس، ثم أمدُه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته؛ سمي انتظاره رجاء. وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً، ثم انتظر الحصاد منه؛ سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء. وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً؛ سمي انتظاره تمنياً لا رجاء. فإذن: اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات. فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديَّة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن المخاتمة المفضية إلى المغفرة، وكان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذَّات الدنيا ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور، قال ﷺ: «الأَخْمَقُ مَنْ أَتْبَعْ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةِ» (١)، وقال تعالى: ﴿ فَلَكَ مِنْ بَعْدِجُ خَلَقُ أَضَاعُواْ الصَّلَوَةَ وَاتَّبَعُواْ الظَّهَوَاتِّ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿ ﴾ [مرتم: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ مَخَلَفَ مِنُ بَعَدِهِمَ خَلَفْتُ وَرِثُواْ الْكِنَبَ يَأَخُذُونَ عَرَضَ هَذَا اللَّذَيْنَ وَيَقُونُونَ سَيْغَفُرُ لَنَا﴾ [الاعسزاف: ١٦٩] وذم الله تسعمالسي صاحب البستان إذ دخل جنته وقال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن ثَيِدَ هَدِهِ أَبَدًا ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّنَاعَةَ فَـأَيِمَةَ وَلَهِن زُودتُ إِنْ رَقِ لَأَبِدَةَ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلِنًا ١٩٤٠ [الكهف: ٢٦٠٣]. فإذن: العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة. وأما العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة. وأما قبول التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها؛ فحقيق بأن

⁽١) حديث: الأحمق من أتبع نفسه هواها. . . الحديث. تقدم غير مرة.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تبجري على البيس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أمها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلاً إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرحاء يضاده اليأس، واليأس يمتع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت؛ فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم وهو ضدّه لأنه صارف عن العمل، والحوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة، فإذن: حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له؛ فإن هذه الأحوال لا بدّ وأن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟ فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض الغرور والتمني، فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل، وبدل على إثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل؛ إذ قال لرسول الله ﷺ: جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يويد؟ فقال: (كَيْفُ أَصْبَحْتَ؟) قال: أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحننت إليه. فقال: «هَذِهِ عَلَامَةُ اللَّهِ فِيمِن يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكُ لِلاَخْرَى هَيأَكَ لَها ثُمَّ لا يُبَالِي فِي أيّ أَوْدِيَتِها هَلَكْتَ»(١٠). فقد ذكر ﷺ علامة من أريد به الخير، فمن ارتجى أنْ يكونْ مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور.

⁽١) حديث. قال زيد الحيل: •جنت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد... الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، وفيه أنه قال: «أنت زيد المخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي في الكبير منه حديث، وذكره في حديث يروى: فقام زيد الخير فقال: يا وسول الله ـ الحديث، سمعت أبي يقول ذلك.

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه:

احلم: أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه، ولذلك ورد في الرحاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت: قال تعالى: ﴿لَا نَشَنَطُواْ مِن رَّبُّمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر: ٥٣] فحرم أصل اليأس، وفي أخبار يعقوب عليه السلام: أن الله تعالى أوحى إليه: أندري لم فرقت بينك وبين يوسُّف؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون، لم خفَّت الذَّئب ولم ترجني؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له. وقال ﷺ: ﴿لا يَمُوثَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظُّنَّ باللَّهِ تَعَالَى ا'''، وقال ﷺ: ايقُول الله عزّ وجلّ : أنّا عِنْدَ ظَنُ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَا'''، ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال ﷺ: الما اجتَمَعًا فِي قَلَّبِ عَبَّد في لهٰذا المَوْطِنَ إلاّ أَعْطَاهُ اللَّهُ ما رَجَّا وَامْنَهُ مِمَّا يَخَافُ (٣٠)، وقال عَلي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا، يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك. وقال سفيان: من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدّره عليه ورجا غفرانه غفر الله له ذنبه، قال: لأن الله عزّ وجلّ عيَّر قوماً فقال: ﴿وَذَالِكُمْ ظُلَّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُد مِرَبِّكُمْ أَرْدَىكُمْرَ﴾ للْبضلت: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَطَلَنشُهُ ظَنَ ٱلسَّوْء وَكُنتُمْ فَوْمًا بُولَ﴾ [الفَتْح: ١٧] وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْمَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ: ما مَتَعكَ إِذْ رَأَيْتَ المُنكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فإنْ لَقَّنَهُ اللَّهُ حُجَّتَهُ قَالَ: يا رَبْ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ. قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ غَفَرْتُهُ لَكَ، (٤)، وفي الخبر الصحيح: «أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيراً قط، فقال الله عزّ وجلّ: من أحقِّ بذلك مناه^(ه)، فعفاً عنه لّحسن ظنه ورجائه أن يعفُّو عنه مع إفلاسه عن الطاعات. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتَلُونَ كَنْكَ ٱللَّهِ وَأَنْـَالْمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَنْهُمْ مِكَّرًّا وَعَلَانِيَةٌ يَرْجُونَ يَجَدَرَةً لَّن تَتَبُورَ ۞﴾ [فاطر: ٢٩] ولما قال ﷺ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعَدَاتِ تَلْدِمُونَ صُلُورَكُمْ وَتَجْأَرُونَ إِلَى رَبُّكُمْ و فهبط جبريل عليه السلام مقال: إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم (٦٠). وفي الخبر: «إن الله تعالى

⁽١) حديث: «لا يموثن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» أخرجه مسلم من حديث جابر.

 ⁽Y) حديث: «أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء» أخرجه ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله. «فليظن بي ما شاء».

٣٠) حديث: دخل على رجل وهو في النزع فقال. «كيف تجدك؟» الحديث. رواه الترمذي وقال: عريب، والتسائي
 في الكبرى، وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي: إسناده جيد.

⁽٤) حديث: ﴿إِنَ الله يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكوه... الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد، وقد تقدم في الأمر بالمعروف.

حديث: "إن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر . . . » الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي مسمود:
 «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان بأمر فلمانه أن بتجاوزوا عن المعسر قال الله هز وجل: نحن أحق بذلك ، تجاوزوا عنه . واتفقا عليه من حديث حديثة وأبي هريرة بنحوه .

⁽٦) حديث: الو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً وللكيتم كثيراً.. ا الحديث. وفيه: (فهبط جبريل. ا الحديث. أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هربرة، فأوله متفق عليه من حديث أنس، ورواه بزيادة الولخرجتم إلى الصعدائة أخرجه أحدد والحاكم، وقد تقدم.

أوحى إلى داود عليه السلام: أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي. فقال: يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل"(١). ورثى أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال: أوقفني الله تعالى بين يديه فقال: ما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: أردت أن أحببك إلى خلقك، فقال: قد غفرت لك. ورثي يحيى بن أكثم بعد موته في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني الله بين يديه وقال: يا شبخ السوء، فعلت وفعلت، قال: فأخذني من الرعب ما يعلم الله، ثم قلت: يا رب، ما هكذا حدثت عنك، فقال: وما حدثت عنى؟ فقلت: حدثني عبدالرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك ﷺ عن جبريل عليه السلام أنك قلت: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء، وكنت أظن بك أن لا تعذبني، فقال الله عزّ وجلّ: صدق جبريل وصدق نبيي، وصدق أنس، وصدق الزهري، وصدق معمر، وصدق عبدالرزاق وصدقت قال: فألبست ومشى بين يدي الولدان إلى الجنة، فقلت: يا لها من فرحة، وفي الخبر: «أنَّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدُّد عليهم، قال: فيقول له الله تعالى يوم القيامة: اليوم أُوْيَشِلُك من رحمتي كما كنت نقنط عبادي منهاه(٢)، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ رَجُلاً يَذْخُلُ النَّارَ فَيَمْكُثُ فِيها ٱلْفَ سَنَةٍ يُتَادِي: يَا حَنَّانُ يَا مَنَّانُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَائتِني بِعَبْدِي. قَالَ: فَيَجِيءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانِكَ؟ فَيَقُولُ: شَرَّ مَكَانِ. قَالَ: فَيقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ. قَالَ: فَيَمْشِي وَيَلْتَقِتُ إِلَى وَرَاثِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ هَزَّ وَجَلَّ: إِلَى أَيَّ شَيْءٍ تَلْتَفِفُ فَيَقُولُ: لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لا تُعِيدَنِي إِلَيْهِا بَعْدَ إِذْ أَخْرُجْتَنِي مِنْهَا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَمَالَى: انْعَبُوا بِهِ إِلَى الجَنْةِا(٣)، فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب:

اعلم: أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال. فأما العاصي المغرور المعتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي؛ فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه، وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرادة، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظ المخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا يما يزيد فيها، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها؛ فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين

 ⁽١) حديث: (إن الله تعالى أوحى إلى هبده داود هليه السلام أحبني وأحب من يحبني . . . ، الحديث . لم أجد له أصلاً ،
 وكأنه من الإسرائيليات كالذي قبله .

 ⁽٢) حديث: قان رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط ويشدد هليهم. . . ٩ الحديث. رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم، فذكره مقطوعاً.

 ⁽٣) حديث: (إن رجلاً يلخل النار فيمكث فيها ألف سنة يتادي يا حنان يا منان . . . الحديث . أخرجه امن أبي الدنيا في
 كتاب حسن الظن بالله ، والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس.

كتاب الخوف والرجاء

عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط، وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً. قال على كرَّم الله وجهه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله.

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداه بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ فإنهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعاً؛ لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الأخرق الذي يظن أنّ كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان. وحال الرجاء يغلب بشيئين، أحدهما: الاعتبار، والآخر: استقراء الآيات والأخبار والآثار.

أما الاعتبار: فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعدّ له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء، وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود؛ وإنما كان يفوَّت به مزية جمال، فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أنّ أكثر الخلق قد هيىء له أسباب السعادة في الدنيا، حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدأ مثلاً أو لا يحشر أصلاً فليست كراهتهم للعدم إلا لأنّ أسباب النعم أغلب لا محالة، وإنما الذي يتمنى الموت نادر، ثم لا يتمناه إلا في حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة، فإذا كان حال أكثر الخلق في الذنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلًا، فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد، وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم، فهذا إذا تؤمل حق التأمل قوى به أسباب الرجاء، ومن الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بهاء حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء. فقيل له: وما فيها من الرجاء؟ فقال: الدنيا كلها قليل، ورزق الإنسان منها قليل، والدين قليل عن رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه؟

الفن الثاني: استقراء الآيات والأخبار، فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر. أما الآيات: فقد قال تعالى: ﴿فُلْ يَنِعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَقُواْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا لَقَسْنُطُواْ مِن رَّجْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّا اللَّهُ وَمُو لَّفَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۗ ﴿ الزُّمْرِ: ٥٣] وفي قراءة رسول الله ﷺ: ﴿ وَلا يبالي إنه هو المغفور الرحيم (١٠) وقال تعالى: ﴿ وَالْمَاكَثِيكَةُ لِمُسَيِّحُونَ جِمَدُ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلأَرْضِ ﴾ [الشّورى: ٥] وأخبر تعالى أنّ النار أعدُها

⁽١) حديث: «قرأ قل يا هبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقتطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي، أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال: حسن غريب.

لأعدائه، وإنما خوف بها أولياء فقال: ﴿ لَمْ مِن فَرْفِهِم ثُلْلُلُ مِنَ أَلْتَادِ رَمِن تَعْفِيمٌ ظُلَلُ فَلِكَ بُعُوفُ اللّهُ بِهِ عِلَاتُهُ ﴾ [الرُّمر: ١٦] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الْبَيْ أَعِدَتْ لِلْكَفِينَ ﴿ وَاللّهُ وَاللللّهُ وَاللّهُ وَالللللّهُ وَاللّهُ وَاللللللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَالل

وأما الأخبار: فقد روى أبو موسى عنه على أنه قال: «أمني أمنه مَرْحُومَة لا عَذَابَ عَلَيْهَا في الآخِرَةِ عَجَلَ اللّهُ عِقابَها في الدُّنْيَا: الرَّلازِل وَالفِنن، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلِ مِنْ أُمتِي رَجُلْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ فَقِيلَ: هٰذَا فِذَاوْكَ مِنَ النَّارِ " " . وفي لفظ آخر: "يأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول: هذَا فَدَائِي مِنَ النَّارِ فَيُلقَى فِيها " " ، وقال على المُحتى مِنْ فَنِح جَهَنَّمَ وَهِي خَطُّ المُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ " أَن اللهُ النَّارِ عَلَيْ اللهُ عَلَى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام: إني أجعل حساب أمنك إليك. قال: "لا رَبُ أَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمَ مِنْ مِن أَنس : أَن رسول الله عَلَيْ سأل ربه في ذنوب أمته فقال: "ها رَبُ الجَعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَى لئلاً يَطْلِعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ فَيْرِي " فأوحى الله تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك (" . وقال على خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُولِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمُولِي اللهِ اللهُ الله عَيْرِ لَكُمْ وَمُوتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرُ لِلْكُمْ وَمُوتِي خَيْرُ لَلْكُمْ وَمُوتِي خَيْرُ لَكُمْ وَمُولِي خَيْرُ لَلْ لَا يُعْرُقُونِي فَيْرُ لَيْرُ لَمُ وَمُوتِي فَيْرُولُ فَيْرُ لِي اللهُ عَيْرُ لَكُمْ وَمُولِي الْمُولِي فَيْرُولُ وَلَيْرُ لِي لَهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الل

⁽٢) حديث أبي موسى: قامتي آمة مرحومة لا عذاب عليها عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن. . . ٤ الحديث اخرجه أبو داود دون قوله: قفإذا كان يوم القيامة . . . النخ٤ فرواها أبن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف، وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه .

 ⁽٣) حديث: قيأتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهتم .. الحديث. أخرحه مسلم من حديث أبي موسى: قإذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو تصرانياً فيقول: هذا قداؤك من النار وفي رواية له الالهوت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً».

 ⁽٤) حديث: «الحمى من قيح جهتم وهي حظ المؤمن من النار» أخرجه أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة، وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه.

 ⁽٥) حديث: إن الله أوحى إلى نبيه ﷺ إني أجعل حساب أمتك إليك. فقال: الا يا رب أنت خير لهم مني. . . . الحديث.
 في تفسير قوله تعالى: ﴿ يُوْمَ لا يُغْرِى اللهُ النِّيعَ ﴾ [التّغريم: ٨] أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله.

⁽٦) حديث أنس أنه على سأل ربه في ذنوب أمنه فقال: ايا رب اجعل حسابهم إلى . . . الحديث . لم أقف له على أصل .

حَيَاتِي فَأَشُنُ لَكُم السُّنَنَ وَأُشْرَعُ لَكُم الشَّرَائِينَ. وَأَمَّا مَوْتِي فَإِنَّ أَعْمَالُكُمْ تُمْرَضُ عَلَيْ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيْنَا اسْتَفَفْرَتُ اللَّهَ تَعَالَى لَكُمْ (١)، وقال ﷺ يوماً: "يا كريم العفوا فقال جبريل عليه السلام: أندري ما تفسير: يا كريم العفوا هو إن عفا عن السيئات برحمة بدّلها حسنات بكرمه (١). وسمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة. فقال: "هَلْ تَذْرِي ما تَمَامُ النَّعْمَةِ؟ قال الله فال: "هُوُولُ الجَنِّةِ (١). قال العلماء: قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى: ﴿وَأَثْمَتُ عَلَيْكُمْ وَمَنِي وَرَعِيثُ لَكُمُ الْإِسَلَمُ وَيَنَا ﴾ [المائدة: ٣] وفي الخبر: "إذَ أَل تَعالى: ﴿وَأَثْمَتُ عَنْهُمُ اللهُ عَنْ وَرَعِيثُ لَكُمُ الْإِسَلَمُ وَيَنَا ﴾ [المائدة: ٣] وفي الخبر: "إذَ أَل أَنْبَ الْعَبْدُ حَتَى تَبْلُغَ فُنُوبُهُ عَنْوا اللَّمْونِ وَيَأْخُذُ بِاللَّنْيِ، الشَّهُ وَيُعَلِي وَعَلْ المَلْكُ لَيرفَعُ القَلْمَ عَن العَبْدُ حَتَى تَبْلُغَ فُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ وَالْمَ عَنْ الْعَنْمُ الْمَنْمُ وَاللّهُ عَنْولُ اللّهُ عَلْمُ الْمَلْفُ وَيْ الْحَبْر: "لَوْ الْقَيْمَ عَنْ الْعَبْدُ عَنْ الْعَبْدُ حَتَى تَنْلُغَ فُنُوبُهُ عَنْوا اللّهُ عَلْمُ الْعَلَمَ عَن الْعَبْدِ وَاللّهُ عَنْوالًا لَقْمَ عَنْ الْعَبْدُ إِللّهُ عَلْولُ الْمَلْكُ لَيرفَعُ القَلْمَ عَن الْعَبْدِ إِنْ الْمَلْكُ فُوبُهُ عَنْوا السَّمَاءِ وَعُولَ حَسَنَةٍ وَاللّهُ عَنْ الْعَبْدِ وَعَلِمُ عَنْ الْعَبْدُ وَاللّهُ وَلَو اللّهُ عَنْ الْعَبْدُ وَاللّهُ اللّهُ عَلْهُ السَّمَةُ اللّهُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَنْ الْعَبْدِ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَلْهُ السَّمَةُ اللّهُ عَنْ الْعَبْدِ وَاللّهُ اللّهُ وَاللّهُ عَلْهُ السَّمَةُ اللّهُ الللللهُ عَلْ وَاللّهُ عَلْهُ السَّمَةُ اللّهُ عَلْهُ اللّهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ اللللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ الللهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمُ الللهُ اللّهُ اللللهُ اللهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ عَلْمُ اللللهُ اللّهُ اللّهُ ا

⁽١) حديث. «حياتي خير لكم وموتي خير لكم. . . ٩ الحديث. أخرجه البرار من حديث عبدالله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عبدالمجيد بن عبدالعريز بن أبي داود وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون، ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف.

 ⁽۲) حديث: قال ﷺ يوماً: إيا كريم العفوا فقال جبريل: أتدري ما تفسير يا كريم العفو؟ الحديث. لم أجده عن النبق ﷺ. والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل، هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عته بن الوليد، ورواه البيهقي في الشعب من رواية عنة بن الوليد قال: حدثني بعض الزهاد. . . فذكره.

 ⁽٣) حديث: «سمع رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك تمام النعمة... ؛ الحديث. تقدم.

 ⁽٤) حديث: ﴿إِذَا أَذْنَبِ العبد فاستغفر بقول الله تعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي أَذْنب دُنباً فعلم أن له رباً يغفر
 الذّنب...٤ الحديث، متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: ﴿إِنْ عبداً أصاب دُنباً فقال: أي رب أَذْنبت دُنباً فاغفر
 له...٤ الحديث، وفي رواية ﴿أَذْنب عبد دُنباً فقال...٤ الحديث.

حديث «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنويه عنان السماه. . . ؟ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أنس: «يا ابن آدم لو
بلعث ذنويك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك» وقال: حسن.

 ⁽٦) حديث: «لو لقيتي عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة» أخرجه مسلم من حديث أبي ذر: «ومن لقيني
بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة»، وللترمدي من حديث أسى الذي قبله «با ابن آدم لو
لقيتني. . . » الحديث.

⁽٧) حديث: «إن الملك ليربع القلم من العبد إذا أذب ست ساحات، فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه...» الحديث. قال: وفي لفظ آخر: «فإذا كتبها عليه وحمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه: ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة من تضعيف العشر...» الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول، ورواه أيضاً أطول منه وفيه: «إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال؛ وليس فيه: «أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة»، ولم أجد لذلك أصلاً.

أَنْ پَشْتُغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ مِنَ المَغْفِرَةِ حَتَّى يَمَلُ المَبْدُ مِنَ الاسْتَغْفَارِ؛ فَإِذَا هَمُّ الْمَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَتْ عَشَرَ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعِفُها اللَّهُ الْمَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَتْ عَشْرَ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعِفُها اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَمَالَى اللَّهِ عَلَيْهِ فَإِذَا حَمِلَهَا كُتِبَتْ خَطِيقَةً وَاحِدَةً وَاحِدَةً وَاحِدَةً وَارَاءَها حُسْنُ عَفْوِ اللَّهِ عَزُّ وَجَلَّهُ (').

⁽۱) حديث أنس: ﴿إِذَا أَذَنب ذَنباً كتب هليه فقال أعرابي: فإن تاب عنه؟ قال: ﴿محي هنه قال. فإن عاد؟. الحديث. وفيه إن الله لا يمل من التوية حتى يمل العبد من الاستغفاره الحديث. أخرجه البيهقي في الشعب بلفط: فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنباً. قال: ﴿استغفر ربك قال: ﴿فأستغفر ربك قال: ﴿فأستغفر ربك على المسجور المحسورة وفيه أبو بدر يسار من الحكم مرات أو أربعاً. قال: ﴿قاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسورة وفيه أبو بدر يسار من الحكم المصري منكر الحديث. وروي أيضاً من حديث عقبة بن عامر: أحدنا بذنب؟ قال: ﴿يكتب هليه قال: ثم يستغفر ويتوب؟ قال: ﴿يغنب هليه قال: ثبعود. .. الحديث، وفيه ﴿لا يمل الله حتى تملوا وليس في الحديثين قوله في آخره: ﴿فإذا هم العبد بحسنة . . النع وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: ﴿فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها وهملها كتبها الله عنده حسنت إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هم بها خديه أن هم بها خديث أبى هريرة.

 ⁽٣) حديث: فجاء رجل فقال: يا رسول الله، إني لا أصوم إلا الشهر لا أريد عليه، ولا أصلي إلا الخمس لا أريد عليها،
 وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع . . . ٩ الحديث، تقدم.

 ⁽٣) حديث أنس الطويل: قال أعرابي: يا رسول الله، من يلي حساب الحلق؟ قال: «الله تبارك وتعالى» فقال: هو بنفسه؟
 قال: "نعم» فتبسم الأعرابي... الحديث. لم أجد له أصلاً.

⁽٤) حديث: «المؤمن أفضل من الكعبة؛ أخرجه ابن ماجه من حديث ابن حمر بلفظ: قما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي تفسي بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً» وشيحه نصر بن محمد بن سليمان الحمصي ضعفه أبو حاتم ووقعه ابن حبان، وقد تقدم.

 ⁽٥) حديث: اللمؤمن طيب طاهر؟ لم أجده بهذا اللفظ، وفي الصحيحين من حديث حليفة: «المؤمن لا يتجس».

أَكْرَمُ عَلَى اللّهِ تَمَالَى مِنَ المَلَاكِكَةِ» (')، وفي الخبر: «خَلَقَ اللّهُ تَمَالَى جَهَنْمَ مِنْ فَضَلِ رَحْمَتِهِ سَوْطاً يَسُوقُ اللّهُ بِهِ حِبَادَهُ إِلَى الْجَنِّةِ» ('')، وفي خبر آخر: «يَقُولُ اللّهُ عَزَّ وَجَلُّ: إِنْمَا خَلَقْتُ الْجَلْقَ لِيَرْبَحُوا عَلَيٌ وَلَمْ اللّهُ بِهِ حِبَادَهُ إِلَى الْجَنِّةِ» ('')، وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: هما خَلَقَ اللّهُ تَمَالَى شَيْناً إِلاّ جَمَلُ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ وَجِمَلَ رَحْمَتُهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ» ('). وفي الخبر المشهور: ﴿إِنَّ اللّهُ تَمَالَى كَتَبَ حَلَى تَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِهِ» (')، وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه ﷺ الرَّخْمَة قَبْلَ أَنْ يَخْلُقُ الْجَنْقَ الْجَنْقَ الْكَارُهُ () وَ وَ هَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لا إِلّهُ إِلاَ اللّهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُهُ (')، وني دُمْ وَاللّهُ اللّهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُهُ (') وَ هَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لا إِلّهُ إِلا اللّهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُهُ (') وَ الْمَنْ لَقِي قَلْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ اللّهُ عَلَى الْجَنْقِ النَّارُهُ () . وفي خبر آخر: ﴿ لَلْهُ عَلَمْ النَّهُ النَّارُهُ () . وفي خبر آخر: ﴿ لَوْ عَلِمَ النَّالُهُ اللّهُ مَا أَيسَ مِنْ جَنْتِهِ أَحَلُهُ (') . ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ إِلَى ذَلْكُ أَلْتَكَاءَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ عَلْهُ مَنْ عَلَيْهُ اللّهُ عَلَى الْمَادُ فَي يَوْم هٰذا؟ هٰذا الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَلَى ذَلْهُ لَا يُشَاعَدُ شَيْءٌ عَظِيمٌ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى المَعْرَونَ أَي يَوْم هٰذا؟ هٰذا اللله عَلَيْهُ قوله تعالى: ﴿ وَلَكَ مَالَوْهُ الْمَادُ اللّهُ عَلْمُ الْمَادُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى الْحَلَى الْمُ الْمَعْمُ اللّهُ اللّهُ اللهُ عَلْهُ عَلَى الللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى الْمُعْمَ الْمُلْعُ اللّهُ عَلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى اللّهُ عَلَى الْمُعْلَى اللّهُ عَلَى الْمُعْلَى اللّهُ عَلْمُ اللهُ عَلْمُ الْمُعْلَى الْمُولِقُ اللّهُ عَلَى الْمُعْلَى اللّهُ عَلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى الْمُعْلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ الْمُعْلَى الْمُعْلِمُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ

⁽١) حديث «المؤمن أكرم على الله من الملائكة» أخرجه أبن ماجه من رواية أبي المهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ: «المؤمن أكرم على الله من يعض الملائكة» وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين، ورواه ابن حبان في الضعفاء، والبيهتي في الشعب من هذا الموجه بلفظ المصف.

 ^(*) حديث: «خلق الله من فضل رحمته سوطاً يسوق به عباده إلى الجنة» لم أجده هكذا، ويغني عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة: «عجب ربنا من قوم بجاء بهم إلى الجنة في السلاسل».

[&]quot;) حديث. القال الله إنما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم، لم أقف له على أصل.

حديث أبي سعيد: الما خلق الله شيئاً إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلّب فضيه، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في
الثواب، وفيه عبدالرحمن بن كردم جهله أبو حاتم، وقال صاحب الميزان: ليس بواه ولا بمجهول.

^(*) حديث: «إن الله كتب هلى نفسه بنفسه قبل أن يتحلق الخلق: إن رحمتي تغلب خضيي، متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

⁽٣) حديث معاذ وأنس: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ: «من مات يشهد». وتقدم من حديث معاذ، وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ: «من مات يشهد. . .» وقد تقدم من حديث معاذ، ومن حديث أنس أيضاً، وتقدم في الأذكار.

حديث " همن كأن آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النارا أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلقظ:
 قدخل الجنة الجنة الجنة المحدد الجنة المحدد المحدد المحدد الجنة المحدد الجنة المحدد الجنة المحدد الجنة المحدد الجنة المحدد الجنة المحدد المحدد الجنة المحدد الجنة المحدد المح

⁽١٠) حديث «من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار» أخرجه الشيحان من حديث أنس أنه ﷺ قال لمعاذ: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على المنار» وزاد البخاري: «صادقاً من قلبه» ودي رواية له: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة»، ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ «جمله الله في الجنة»، وللسمائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجب عن النار يوم القيامة».

المحديث: «لا يدخلها من في قلبه وزن فرة من إيمان» أخرجه أحمد من حديث سهل بن بيضاء: «من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار» وفيه انقطاع، وله من حديث عثمان بن عقان: «إني لأعلم كلمة لا يقولها هبد حقاً من قلبه إلا حرم على النار» قال عمر بن الخطاب: هي كلمة الإخلاص، وإسناده صحيح، ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخوله جماعة من الموحدين النار وإخراجهم بالشفاعة، نعم، لا يبقى في النار من في قلبه ذوة من إيمان كما هو متفل عليه من حديث أبي سعيد، وفيه: «قمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه» وقال مسلم: «من خير» بدل؛ «من إيمان».

⁽١١) حديث: قلو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من حنته أحد، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

يَوْمَ يُقَالُ لِآدَمَ عَلَيهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلامُ: قُمْ فَابْمَتْ بعث الثَّارِ مِنْ ذُرِّيتكَ، فَيقُولُ: كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلُّ أَلْف تِسْغُمائَةِ وَتِسْعَةً وَتِسْغُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدُ إِلَى الجَنَّةِ» قال: فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل، فخرح عليهم رسول الله ﷺ وقال: «مَا لَكُمْ لَا تَعْمَلُونَ» فقالوا: ومن يشتغل بعمل بعدما حدثتنا بهذا؟ فقال: ﴿ كُمْ أَنْتُمْ فِي الْأُمْمِ؟ أَيْنَ تَاوِيلُ وَثَارِيتُ وَمَنْسَكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أَمُمْ لاّ يُحْصِيها إلاَّ اللَّهُ تَعَالَى، إِنَّما أَنْشُمْ فِي سَاتِرِ الأَمْمَ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثورِ الأَسْوَدِ، وَكَالرَّفْمَةِ فِي ذِرَاع الدَّابَّةِ»(`` . فانطر كيف كان الخوف يسوقَ الخلق بسياط الحوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالَى؛ إذ ساقهم بسياط الخوف أوْلاً، فلما خرج ذلك بهم عن حدّ الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال، والقصد والآخر لم يكن مناقضاً للأوِّل ولكن ذكر في الأوِّل ما رآه سبباً للشفاء واقتصر عليه، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر ثمام الأمر، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة، وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه، وفي الخبر: ﴿ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقاً يُذْنِبُونَ فَيَغْفِر لَهُمْ»(٣)، وفي لفظ آخر: «لَلْهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقِ ٱخَرَ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ». وفي الخبّر: «لَوْ لَمَّ تُذْنِبُوا لَحَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبَ» قيل: وما هو؟ قال: «العُجْبُ»^(٣)، وقالَ ﷺ: ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَنه للَّه أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِن مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدها () ، وفي الخبر : الَيَغْفِرَنَّ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً ما خُطَرَتْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ لَيَتُطَاوَلُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ" ، وفي الخبر: «إنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مائَةَ رَحْمَةٍ ادَّخَرَ مِثْهَا جِنْلَهُ بَسْماً وَبَسْمِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا رَحْمَةٌ وَاجْدَةٌ فِيهَا يَتْرَاحَمُ الْخَلْقُ، فَتَحِنُّ الوّالِدَةُ عَلَى وَلَدِها وَتَعْطِفُ البّهيمَةُ عَلَى وَلَدِها. فإذَا كانّ يَوْمُ القِيَامَةِ ضِمَّ لَمْلِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التَّسْعِ وَالنَّسْعِينَ ثُمُّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيع خَلْقِهِ وَكُلُّ دَحْمَةٍ مِنْهَا طِيَاقُ السُّمَواتِ والأَرْضُ قَالَ: قَلاَ يَهْلِكُ عَلَىَّ اللَّه يَوْمَئِدُ إِلاَّ هَالِكَا^(١)، وفي النَّخبر: إما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الجَنَّةَ وَلاَ يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ﴿وَلا أَنَا إِلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ،(٧) ، وقال عَلَيه أفضل الصَّلاة والسلام: «اهْمَلُوا وَٱبْشِرُوا وَاهْلَمُوا أَنَّ أَحَداً لَنْ يُنْجِيَهُ عَمَلُهُ ۗ ١٠٠٠ ،

 ⁽١) حديث: الما تلا ﴿إِنَّ رَازَلَةَ النَّاعَةِ ثَنَّ عَظِيرٌ ﴾ [الخبخ ١] قال. أتدرون أي يوم هذا؟... الحديث أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال: حسن صحيح.

قلت: هو من رواية الحس البصري عن عمران ولم يسمع منه، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد.

 ⁽۲) حديث: (لو لم تذنيوا لتحلق الله خلقاً يقتبون فيغفر لهم)، وفي لفظ: (لذهب بكم. . .) الحديث، أخرجه مسلم من حديث أبي أبي هريرة قريباً منه.

 ⁽٣) حديث: (لو لم تذنبوا فخشيت عليكم ما هو شر من القنوب؛ قيل ما هو؟ قال: (العجب؛ أخرجه البزار وأبن حبان في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أنس، وتقدم في ذم الكبر والعجب.

 ⁽³⁾ حديث: ﴿واللَّذِي نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الواقعة الشفيقة بولدها› متفق عليه من حديث عمر بتحوه-

حديث: (ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد. . .» الحديث، أخرجه ابن أبي الدئيا في
 كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف.

 ⁽٦) حليث: اإن لله تعالى ماثة رحمة. . . ؟ الحديث. متفق عليه من حليث أبي هريرة .

 ⁽٧) حديث: الما متكم من أحد يدخله عمله الجنة . . . الحديث. متفتى عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

 ⁽A) حديث: العملوا وأبشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله». ثقدم أيضاً.

وقال ﷺ: ﴿إِنِّي الْحَتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَابُرِ مِنْ أُمَتِي أَتَرُونَهَا لِلْمُطِيعِينَ الْمُتَقِينَ بَلُ هِيَ لِلْمُتَلُوثِينَ الْمُخْلَطِينَ ('')، وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ ('')، وقال ﷺ وعلى كل عبد مصطفى: ﴿أُحِبُ أَنْ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَنَ في دِينِنَا سَمَاحَةً (''). ويدل على معناه استجابة الله تعالى عبد مصطفى: ﴿وَيَعَنَمُ عَنْهُمْ إَهْرُهُمْ وَالْأَغْلَلَ للمؤمنين في قولهم: ﴿وَلا تَحْبِلُ عَلَيْنَا إَسْمَا﴾ [النقرة: ٢٨٦] وقال تعالى: ﴿وَيَعَنَمُ عَنْهُمْ إِمْرَهُمْ وَالْأَغْلَلَ اللّهِ وَمَا الصَفْعِ الْعَمِيلُ ؟ قال: لما نَتِي كَانَتَ عَلَيْهِيَّ ﴾ [الاعراف: ١٥٧] وروى محمد بن الحقية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿فَاضَفَحِ الْجَمِيلُ ؟ الجَعِرِ وَمَا الصَفْعِ الْجَمِيلُ ؟ قال عليه السلام: ﴿إِذَا عَفُوتَ عَمَنَ طَلْمَكُ فَلا تَعَانِهِ اللهِ عَلَى الْمِيكُ اللهِ عَلَى الْمُعِيلُ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى اللهُ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى الْمُعَلِّ عَلَى الْمُوعِ الْمُعَلِّ عَلَى الْمُعْلِقُ الْمُعْمِى اللهُ تعالى الْمُعْلَى الْمُعْلِي الْمُعْلِقِ الْمُعْلِقُ الْمُعْلَى الْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُ الْمُعْلِقُ الْمُوعِقُ عَنْهُ مَا عَلَى السلام ويقول: كيف أعاتب من عقوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي ('').

والأحبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى.

وأما الآثار: فقد قال علي كرّم الله وجهه: من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة، وقال الثوري: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما. وقال بعض السلف: المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه، وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه: إن العبد إذا كان مسرقاً على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول: يا رب، حجبت الملائكة صوته، وكذا الثانية والثالثة، حتى إذا قال الرابعة: يا ربي، قال الله تعالى: حتى متى تحجبون عني صوت عبدي، قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر له الذنوب غيري، أشهدكم أني قد غفرت له، وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت: يا ربّ اعصمني حتى لا أعصبك أبداً، فهتف بي هاتف من المؤمنين يطلون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من البيت: يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلون مني ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل؟ ولمن أغفر؟. وكان الحسن يقول: لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السماوات المسيئين ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين

⁽۱) حديث وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي . . . الحديث . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة: الكل نبي دعوة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، ووراه مسلم من حديث أنس، وللترمذي من حديث وصححه ، وابن ماجه من حديث جابر: اشفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ولابن ماجه من حديث أبي موسى، ولأحمد من حديث ابن عمر: «خيرت بين الشفاعة وبين أن يخل نصف أمتي الجنة ، فاخترت الشفاعة لأنها أحم وأكفى، أترونها للمتقبن . . . الحديث . وقيه من لم يسم

 ⁽٢) حديث: «بعثت بالحثيقية السمحة السهلة» أحرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله: «السهلة» وله
 وللطبراني من حديث ابن عباس: «أحب الدين إلى الله الحنيقية السمحة» وفيه محمد بن إسحاق رواه بالعنمنة.

 ⁽٣) حديث: «أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة» رواه أبو عبيد في عريب الحديث، وأحمد.

⁽٤) حديث محمد بن الحنفية عن علي: لما نزل توله تعالى: ﴿ قَاصَفَح الْشَفْح لَلْبَيلَ﴾ [الجعر: ٨٥] قال: •يا جبريل وما الصفح الجميل؟» قال: إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه. . . » الحديث. أخرجه ابن مردويه في تفسيره موقوفاً على علي مختصراً ، قال: الرضا بغير عتاب، ولم يذكر بقية الحديث، وفي إستاده نظر.

محمد بن خولة الحنفية الن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ينسب محمد إلى أمه تميزاً له عن أولاد قاطمة الزهراء رضى الله عنهما.

بالمحسنين. ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له: إلى كم تحدث الناس بالرخص؟ فقال: يا أبا يحيى، إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح. وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه - وكان من خيار التابعين، وهو ممن تكلم بعد الموت - قال: لما مات أخي سجي شوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعداً، وقال: إني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا، وأن محمداً على ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم. قال: ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت، فحملناه ودفناه.

وفي الحديث: أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى، فكان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره، فكان يقول: دعني وربي، أبُعِثْتَ عليَّ رقيباً، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال: لا يغفر الله لك. قال: فيقول الله تعالى يوم القيامة: أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي، اذهب أنت فقد غفرت لك، ثم يقول للعابد: وأنت فقد أوجبت لك النار. قال: فوالذي نفسى بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته (۱).

وروي أيضاً: أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة، فمرّ عليه عيسى علبه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين، فقال اللص في نفسه: هذا نبي الله يمرّ وإلى حنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً، قال: فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواري ويردري نفسه تعظيماً للحواري ويقول في نفسه: مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد، قال: وأحس الحواري به، فقال في نفسه: هذا يمشي إلى جانبي، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، فمشى بجنبه فبقي اللص خلفه، فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: قل لهما ليستأنفا العمل؛ فقد أحبطت ميئاته ما سلف من أعمالهما؛ أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه، فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجعله من حواريه.

وروي عن مسروق: أن نبياً من الأنبياء كان ساجداً فوطىء عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته، قال: فرقع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضباً فقال: «اذْهَبْ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ»، فأوحى الله تعالى إليه: تتألى عليّ في عبادي، إني قد غفرت له.

ويقرب من هذا: ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿يَسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل مِمرَان: ١٢٨] الآية، فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام (٢٠).

 ⁽١) حديث: (إن رجلين من بني إسرائيل تواخبا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآحر عابداً. . . ا الحديث, رواه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

⁽٢) حديث إبن عباس: «كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَسَ لِكَ بِنَ ٱلأَثْمِ شَيّةً ﴾ [آل مِمرَان: ١٢٨] فترك الدعاء عليهم. . . » الحديث . أخرجه البخاري من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللهم المعن قلاناً وفلاناً وفلاناً» بعدما يقول: «سمع الله فمن حمده ربنا وقلك المحمدة فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَنْ لَكُ بِنَ ٱلْأَثْرِ ثَنْ أَنْ ﴾ [آل مِمرَان: ١٢٨] إلى قوله: ﴿ وَإِلَهُمْ نَقْيْتُ ﴾ [آل مِمرَان: ١٢٨] إلى قوله: ﴿ وَإِلَهُمْ نَقْيْتُ ﴾ [آل مِمرَان: ١٢٨] إلى قوله: ﴿ وَإِلَهُمْ نَقْيْتُ ﴾ [آل مِمرَان: ١٢٨] إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُمْ مَا اللَّهُ عَلَى مِنَ اللَّهُمِ فَلَاللَّهُ وَاللَّهُ مِنْ اللَّهِ وَزَاد: «قَنَاب عليهم قَاللموا فحين إسلامهم» وقال: «فهداهم الله للإسلام» وقال: هنا عرب صحيح.

وروي في الأثر: أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يا رب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته علي في عليين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤله.

وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل، لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف، فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه. ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن، ولذلك قال ﷺ: فسلوا الله الدرجات العلى فإنما تسألون كريماً (١)، وقال: ﴿إِذَا سَأَلَتُم اللَّهَ فَأَغْظِمُوا الرَّغْبَةُ وَاسْأَلُوا الْفِرْدَوْسَ الأَغْلَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءً (٢).

وقال بكر بن سليم الصوّاف: دخلنا على مالك بن أنس في العشية التي قبض فيها فقلنا: يا أبا عبدالله: كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم، إلا أبكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه.

وقال يحيى بن معاذ في مناجاته: يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إياك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

وقيل: إن محوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال: إن أسلمت أضفتك. فمرّ المجوسي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم: لم تطعمه إلا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك؛ فمر إبراهيم يسعى خلف المجوسي فرده وأضافه. فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي المجوسي: ما السبب فيما بدا لك؟ فذكر له؛ فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي الإسلام، فأسلم.

ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد، فقال له: كيف حالك؟ فقال: وجدنا الأمر أهون مما توهمنا.

ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف، فقال له: يا أستاذ، بم نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

وحكي: أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه كأن القيامة قد

حدیث: «سلوا الله الدرجات العلى فإنما تسالون كريماً» لم أجده بهذا اللفظ. وللترمذي من حدیث ابن مسعود:
 دسلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأله وقال: هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافط.

⁽Y) حبيث: "إذا سألتم الله فأعظموا الرفية وأسألوه الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاظمه شيء أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: "إذا دها أحدكم فلا يقل اللهم اففر لي إن شئت، ولكن ليعزم وليعظم الرفية، فإن الله عز وجل لا يتعاظمه شيء أعطاه والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث: "فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط المجتة وأعلى المجتة» ورواه الترمذي من حديث معاذ وعبادة بن الصاحت.

قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجاؤوا، ثم قال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا: يا رب، قصونا وأسأنا. قال: فأعاد السؤال كأنه لم يرص بالجواب وأراد جواباً غيره، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا به فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال.

وقيل: كان رجل شربب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس، فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لفقير شيئاً ويقول: من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات، قال: فدفع الغلام إليه الدراهم، فقال منصور: ما الذي تريد أن أدعو لك؟ فقال: لي سيد أريد أن أتخلص منه، فدعا منصور وقال: الأخرى، قال: أن يخلف الله على سيدي، فدعا، ثم قال: الأخرى، فقال: أن يتفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام فقال له سيده: لم الأخرى، فقال: أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم، فدعا منصور، فرجع الغلام فقال له سيده: لم قال: وأيش الثاني؟ قال: أن يخلف الله على المراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم، وأيش الثالث؟ قال: أن يتوب الله عليك، قال: تبت إلى الله تعالى. قال: وأيش الرابع؟ قال: أن يغفر الله لي ولك وللقوم، قال: هذا الواحد ليس إلي، فلما بات تلك الليلة رأى في الممام كأن قائلاً يقول له: أنت فعلت ما كان إليك، أفترى أني لا أفعل ما إلي؟ قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين.

وروي عن عبدالوهاب بن عبدالحميد الثقفي قال: رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة، قال: فأخذت مكان المرأة وذهبنا إلى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت، فقلت للمرأة: من كان هذا الميت منك؟ قالت: ابني، قلت: ولم يكن لكم جيران؟ قالت: بلى ولكن صغروا أمره، قلت: وأيش كان هذا؟ قالت: مخنثاً، قال: فرحمتها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثياباً، قال: فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني، فقلت: من أنت؟ فقال: المخنث الذي دفتتموني البوم، رحمني ربي، باحتقار الناس إياي.

وقال إبراهيم الأطروش: كنا قعوداً ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة؛ إذ مرَّ أحداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون، فقالوا لمعروف: أما تراهم يعصون الله مجاهرين؟ ادع الله عليهم، فرفع يديه وقال: إلهي كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة. فقال القوم. إنما سألناك أن تدعو عليهم فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تاب عليهم. وكان بعض السلف يقول في دعائه: يا رب، وأي أهل دهر له لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم داراً؟ سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدرّ الرزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب،

فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين، فأما الحمقى الممفرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من دلك، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف؛ كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام. وأما ضدّ ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا.

الشطر الثاني من الكتاب: في الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف، وبيان درجاته، وبيان أقسام المخارف، وبيان فضيلة الخوف، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء، وبيان دواء الخوف، وبيان معنى سوء الخاتمة، وبيان أحوال الخاتفين من الأفضل من الماوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم، ونسأل الله حسن التوفيق.

بيان حقيقة الخوف:

اهلم: أذّ الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء وإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال: الخوف حجاب بين الله وبين العبد. وقال أيضاً: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف. وبالجملة: فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات، ولكنا الآن إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول: حال الخوف ينتظم أيضاً من علم وحال وعمل.

أما العلم: فهو العلم بالسبب المقضي إلى المكروه، وذلك كمن جني على ملك ثم وقع في يده فبخاف القتل مثلاً ويجوّز العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكوں الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً وكونه محفوفاً بمن يحثه على الانتقام خالياً عمن يتشفع إليه في حقه، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدّة تألم القلب، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف؛ كالذي وقع في مخالب سبع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالباً وإن كان افتراسه بالاختيار، وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه، كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإنّ الماء يخاف؛ لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق، وكذا النار على الإحراق؛ فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف، فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً. وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وأنه: ﴿لَا يُسْتَلُ عَنَّا يَفَعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ۞﴾ [الانبباء: ٢٣] فنكون قوّة خوفه. فأخوف الناس لمربه أعرفهم ىنفسه وبربه؛ ولذلك قال ﷺ: ﴿أَمَّا أَخُوفُكُم للهُ (١٠)، وكذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَغْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَةُ ﴾ [فاطِر: ٢٨] ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض

⁽١) حديث: «أنا أخوفكم فه أخرجه المخاري من حديث أنس: •والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لهه وللشيخين من حديث عائشة: •والله إني لأعلمهم بالله وأشقهم له خشبة».

أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات. أما في البدن: فالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء، وقد تنشق به المرارة فيفضي إلى الموت، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل، أو يقوى فيورث القنوط واليأس. وأما في الجوارح: فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيًا لما فرط واستعداداً للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم. من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه. وقيل لذي النون: متى يكون العبد خائفاً؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام. وأما في الصفات: فبأن يقمع الشهوات ويكذِّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أنَّ فيه سماً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرّغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره. هذا حال من غلبه النخوف واستولى عليه، وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين. وقوَّة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة للجلال الله وصفاته وأفعاله ويعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال: أن يمنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً، فإن زادت قوّته كف عما يتطرّق إلّيه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى؛ إذ التقوى: أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى، فإذا انضم إليه التجرّد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسأ من أنفاسه فهو الصَّدق، وصاحبه جدير بأن يسمى صدّيقاً، ويدخل في الصدق التقوى، ويدخل في التقوى الورع، ويدخل في الورع العفة فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة؛ فإذن: المخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدّد له بسبب الكف اسم العفة، وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل محظور، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً، ووراه اسم الصديق والمقرّب، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الأخص من الأعم؛ فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل، كما أنك تقول: الإنسان إما عربي وإما عجمي، والعربي إما قرشي أو غيره، والقرشي إما هاشمي أو غيره، والهاشمي إما علوي أو غيره، والعلوي إما حسني أو حسيني، فإذا ذكرت أنه حسني مثلاً فقد وصفته بالجميع، وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه، فكذلك إذا قلت صدّيق فقد قلت: إنه تقي وورع وعفيف، فلا ينبغي أن تظنّ أنّ كثرة هذه الأسامي تدل على معان كثيرة متباينة، فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ المعاني، فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفاً وإقداماً.

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف:

اعلم: أن الخوف محمود، وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود، فكل ما كان أقوى وأكثر كان أحمد: وهو غلط، بل الحوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى، والأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبي، ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمودة، وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال. والمحمود هو الاعتدال والوسط.

فأما القاصر منه: فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس ورجع القلب إلى الغفلة، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي تضرب به دابة فوية لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها، وهكذا خوف الناس كلهم إلا لعارفين والعلماء، ولست أعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم فإنهم أبعد الناس عن المخوف، بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله، وذلك مما قد عز وجوده الآن؛ ولذلك قال لفضيل بن عياض: إذا قبل لك هل تخاف الله فاسكت، فإنك إن قلت: «لا» كفرت، وإن قلت: «نعم» كذبت، وأشار به إلى أنّ الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً.

وأما المفرط: فإنه الذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى البأس والقنوط، وهو مذموم يُضاً لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل؛ فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل، ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأه الجهل والعجز. أما الجهل فإنه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأنّ المخوف هو الذي يتردد فيه.

وأما العجز: فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه؛ فإذن: هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدمي، وإنما المحمود في نقسه وذاته هو العلم والقدرة، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس بكمال في ذاته، وإنما يصير محموداً بالإضافة يلى نقص هو أعظم منه، كما يكون احتمال ألم النواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت، والموت، فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم، وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الوله والدهشة وزوال العقل، وقد يخرج إلى الموت، وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله على أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور، فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يقضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم، وفائدة الخوف: الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فكل ما يقدح في هذه الأسباب فهو مذموم.

فإن قلت: من خاف فمات من خوفه فهو شهيد، فكيف يكون حاله مذموماً! فاعلم: أنَّ معنى كونه

شهيداً أنّ له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف، فهو بالإضافة إليه فضيلة، فأما فضيلة بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في ظاعة الله وسلوك سبله فليس بفصيلة، بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه، وهو محال، فلا ينبغي أن يظن هذا، بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى؛ فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخر! كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة المتقين والصديقين، فإذن: الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه، مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة، وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره، فإن لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى عبصل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة، فإذا أثمر الورع فهو أعلى، وأقصى درجاته أن يشمر درجات الصديقين؛ وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى درجاته أن يشمر درجات الصديقين؛ وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى الغير الله تعالى فيه متسع، فهذا أقصى ما يحمد منه، وذلك مع بقاء الصحة والعقل، فإن جارز هذا إلى الرجاء وبغيره حتى يزول، ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياماً كثيرة: الحفظوا عقولكم فإنه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل.

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه:

اعلم: أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة، وكما يكره المريض الفواكه المضرة لأدائها إلى الموت، فلا بدّ لكل خائف من أنْ يتمثل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه، ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة، فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره؛ كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة ونكث العهد، أو خوف ضعف القوَّة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى، أو خوف زوال رقة القلب وتبدِّلها بالقساوة. أو خوف الميل عن الاستقامة، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة، أو خوف أن يكِلَه الله تعالى إلى حسباته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء، أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيب العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل. فهذه كلها مخاوف، ولكل واحد خصوص فائدة. وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المحوف، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس، وهكذا إلى بقية الأقسام.

وأغلب هذه المخاوف على البقين خوف الخاتمة، فإن الأمر فيه مخطر، وأعلى الأقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة؛ لأنَّ الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد، فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عماذا يظهر، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته، وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيم من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الَّابد؛ وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمني ثم قال: «هٰذَا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاء آبَائِهِمْ لا يزَادُ قِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ اللهِ قَبِض كُمه اليسرى وقال: الْهَذَا كِتَابُ اللَّهِ كُتِبَ فِيهِ أَهْلِ النَّارُ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاء آبَائِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ وَلَيَعْمَلُنَّ أَهْلُ السَّمَادَةِ بِمَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مَنهم بَلْ هُمْ هُمْ، ثُمَّ يَشْتَنْقِنُهُمُ اللَّهُ قَبْل المَوْتِ وَلَوْ بِفِوَاقِ نَاقَةٍ. وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِمَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالُ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ، ثُمَّ يَشْتَخْرِجُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةِ، السُّعيدُّ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَالشَّقِئُ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّه، وَالأَصَمَالُ بالخَوَاتَيمِ (``. وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنايته، وإلى منْ يَخاف الله تعالى نفسه لصفته وُجلاله وأوصافه التي تقتضي الهيبة لا محالة، فهذا أعلى رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصدّيقين، وأما الآخر فهو في عرصة الغرور والأمن. إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصدِّيقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى، وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية، بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله تعالى ولم يخف معصيته، ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها، ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات، فالعاصى قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى، وكذا المطيع. فالذي يرفع محمداً ﷺ إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله، فإنّ من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضرورياً، والذي عصى عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة، فكان الفعل معد الإرادة والقدرة ضرورياً، فليت شعري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه، وكيف يحال ذلك على العبد؟ وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل، ووراء هذا المعنى سر القدر لا يجور إفشاؤه ولا يمكن أن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن الشرع لم يستجرىء على ذكره ذو بصيرة، فقد جاء

⁽۱) حديث: العقا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم. . . الحديث. أحرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وقال: حسن صحيح غريب.

في الخبر: «إنَّ اللَّه تَعَالَى أَوْحَى إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا دَاوُدُ خَفْنِي كما تَخَافُ السَّبُعَ الضَّارِي» (١٠. فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه؛ فإنَّ الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله. والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه منك بل لصفته ويطشه وسطوته وكبره وهيبته، ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي، فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك، وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك، بل أنت عنده أخس من أنْ يلتفت إليك حياً كنت أو ميتاً بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك نملة عنده على وتيرة واحد؛ إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته، ولله المثل الأعلى، ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة أنه صادق في قوله «هؤلاء إلى الخالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» ويكفيك من موحبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة.

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشدّته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تمالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير، أو الخوف من الصراط وحدّته وكيفية العبور عليه، أو المخوف من النار وأغلالها وأهوالها، أو المخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدرجات، أو المخوف من الحجاب عن الله تعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها. وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك هو خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين، ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق، وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكراً وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وحه الله الكريم لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدّق به لأنه لا يعرف إلا لذة المطن والفرح والعين بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم. فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له، ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره، فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه.

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه:

اعلم: أنَّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار، وتارة بالآيات والأخبار.

أما الاعتبار: فسبيله أنّ فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة؛ إذ لا مقصود سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه؛ فكل ما أعان عليه فله فضيلة، وقضيلته بقدر غايته، وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل

⁽١) حديث: «إن الله تعالى أوحى إلى داود: يا داود، خفتي كما يخاف السبع الضاري» لم أجد له أصلاً، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات، فإنه عبر عنه بقوله: جاء في الخبر، وكثيراً ما يعبر بذلك عن الإسرائيليات التي هي غير مرفوعة.

الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر، ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها، ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات، ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تقمع بنار الخوف؛ فالخوف هو النار المحرقة للشهوات؛ فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه نحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الغاضلة المحمودة التي تقرّب إلى الله زلفي.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار: فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل لجنان، وقال الله تِعالَى: ﴿هُدُى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَي اَللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْقُلْمَنَاتُوا ۚ ﴿ وَاللَّهِ مِهِ ٢٨]. وصفهم بالعلم لَخَشيتهم. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ رَضِي َ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ دَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبُّهُ ﴾ [النَّبُنَة: ٨] وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأنَّ الخوف ثمرة لعلم، ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: وأما الخاتفون فإنَّ لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة لأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء. ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم، ولذلك لما خير رسول الله على الله تعالى كان يقول: ﴿ أَسَالُكُ وَبِينِ القَدُومِ عَلَى اللهُ تَعَالَى كَانَ يَقُولَ: ﴿ أَسَالُكُ الر**فيق الأعلى أ^(١)، فإذن: إن نظر إلى مثمره فهو العلم، وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى، ولا يخفي** ما ورد في فضائلهما، حتى إنّ العاقب صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها، كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى والصلاة برسول الله ﷺ حتى يقال: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة على سيدنا محمد ﷺ وآله أجمعين. وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى: ﴿ نَالَ اللَّهَ لَمُونَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَنكِن بَّالَٰهُ ٱللَّقَرَىٰ مِنكُّمْ ﴾ [الخج: ٣٧] وإنما التقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف ـ كما سبق ـ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكُرَمُكُمْ عِندَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، ولذلك أوصى الله تعالى الأوْلين والآخرين بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدُّ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُونُوا ٱلْكِتَبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنِ أَنَّقُوا آلَةً ﴾ [النساء: ١٣١] وقال عزّ وجلّ : ﴿وَخَافُونِ إِن كُنُّمُ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥] فأمر بالخوف وأرجبه وشرطه في الإيمان، فلذلك لا يتصوّر أن ينفك مؤمنٌ عن خوف وإن ضعف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه، وقال رسول الله ﷺ في فضيلة التقوى: ﴿إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأُوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِميقَاتِ يَوْم مَعْلُوم فَإِذَا هُمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَقْصَاهُمْ كَمَا يُسْمِعُ أَذِنَاهُمْ فَيَقُولُ: يَا إَيُها إلناسُ إني قد أنصتُ لكم منذ خلقتكمُ إلَى يومِكُم هذا فأنصُّوا إليَّ اليوم، إنَّما هِي أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ. أَيُهَا النَّاسُّ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُمْ نَسَبًا، فَوَضَعْتُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُمْ نَسَبَكُمْ، قُلْتُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ جِندَ اَمْدِ أَنْشَنَكُمْ ﴾ [الحُجرَات: ١٣] وَأَبْنِتُمْ إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا فَلانُ بْنُ فَلَانٍ وَفُلَانٌ أَغْنَى مِنْ فُلَانٍ، فَالْبَوْم أَضَعُ نَسَبَكُمْ

⁽۱) حديث: لما حير في مرض موته كان يقول: «أسألك الرفيق الأهلى» منفق عليه من حديث عائشة قالت: كان النبي على يقول وهر صحيح: «إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير» فلما نزل به ورأسه في حجري غشي عليه ثم أفاق فأشخص ببصره إلى سقف البيت ثم قال: «اللهم الرفيق الأهلى» فعلمت أنه لا يختارنا، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح... الحديث.

إحياء عُلُوم الدّين

وَأَرْفَعُ نَسَبِي، أَيْنَ المُتَقُونَ؟ فَيُرْفَعُ لِلْقَوْمِ لِوَاءٌ فَيَتْبَعُ القَوْمُ لِوَاءَهُمْ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فَيَلْخُلُونَ الجَنَّةُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠). وقال عليه الصلاة والسلام: "وأس المحكمة مخافة الله (١٠) وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود: "إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي (١٠)، وقال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير. وقال الشبلي رحمه الله: ما خفت الله يوما إلا رأيت له باباً من الحكمة والعبرة ما رأيته قط. وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان: خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين، وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام: وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحى منهم وأجلهم أن أوقفهم للحساب.

والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف، فإن خلت عن الخوف لم تسمّ بهذه الأسامي، وكذلك ما ورد في قضائل الذكر لا يخفى، وقد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال. وَمَبَدَدُّرُ مَن يَفَتَىٰ ﴿ وَالَامِلُ ١٠٠ وقال تعالى: ﴿ وَلَمْنَ عَانَ مَقَامَ رَبِهِ جَدَانِ ﴿ وَالَاحِمْن ٤١٤ وقال اللهُ عَزْ وَجَلَّ: وَجَرَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدي خَوْفَيْنِ وَلا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنْ أَمِننِي فِي الدُّنْيَا أَعَفَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَال اللهُ عَزْ اللهُ عَوْفَهُ اللهُ عَوْفَهُ اللهُ عَوْفَهُ اللهُ عِنْ كُلِّ شَيْء () وقال على: ﴿ أَتَمْكُمُ عَقْلاً أَشَدُكُمْ خَوْفًا لِلْهِ تَعَالَى اللهُ عَوْفَهُ اللهُ عَنْ لُكُلُ شَيْء () وقال على: ﴿ أَتَمُكُمْ عَقْلاً أَشَدُكُمْ خَوْفًا لِلْهِ تَعَالَى، وَأَحْسَنُكُمْ فِيهِا أَمَر اللهُ عَوْفَهُ اللهُ عَنْ لَكُونَ المَعْرِ وَقَالَ اللهُ عَوْفًا اللهُ عَوْفًا اللهُ عَنْ اللهُ عَوْفًا لِللهُ تَعَالَى اللهُ عَنْ اللهُ عَوْفًا اللهُ عَنْ اللهُ عَنْ اللهُ عَلَاهُ اللهُ عَنْ اللهُ عَنْ اللهُ عَنْ اللهُ عَنْ اللهُ عَلَاهُ اللهُ عَلَاهُ اللهُ عَمَالَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَالهُ اللهُ عَلَالُهُ عَلَالهُ اللهُ عَالَى اللهُ عَلَا اللهُ عَلَالهُ اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَنْ اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَلَا اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ عَلَا اللهُ اللهُ عَلَا اللهُ عَنْ اللهُ إِللهُ عَنْ اللهُ عَلَى اللهُ عَنْ اللهُ عَلَا اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ عَنْ اللهُ اللهُ اللهُ

⁽¹⁾ حديث: «إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أدناهم فيقول: يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلفتكم إلى يومكم هذا فأتصتوا إلي اليوم، إنما هي أعمالكم ترد عليكم، أيها الناس إني جعلت نسباً... الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف والثعلبي في التعسير مقتصراً على آخره: «إني جعلت نسباً...» الحديث. صحديث أبي هريرة،

 ⁽٢) حديث: «رأس الحكمة مخافة الله رواه أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأحلاق، والبيهقي في الشعب، وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضاً.

 ⁽٣) حديث: فإن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي، قاله لابن مسعود: لم أقف له على أصل.

⁽³⁾ حديث: ﴿لا أجمع هلى هبدي خوقين ولا أجمع له آمنين اخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلاً.

 ⁽٥) حديث: امن خاف الله خافه كل شيء. . . ٤ الحديث. رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي
 أمامة يسند ضعيف حداً. ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: «أتمكم عقلاً أشدكم شخوفاً...) الحديث. لم أقف له على أصل، ولم يصح في فضل العقل شيء.

يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ بُؤَتُونَ مَا عَاتُواْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةً﴾ [المومنون: ٦٠]. هو الرجل يسرق ويزني؟ قال: ﴿لاَّ، بَل الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُ اللَّهُ ، والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف، لأنَّ مذمة الشيء ثناء على ضدَّه الذي ينفيه، وضدَّ الخوف الأمن، كما أن ضدّ الرجاء اليأس، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضادله، بل نقول: كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان، فإنَّ كل من رجا محبوباً فلا بدِّ وأن يخاف فوته، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذاً لا يحبه فلا يكون بانتظاره راحياً. فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الأخر، نعم، يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه؛ إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف؛ فإذن: المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة؛ فتقدير وجوده بروح القلب وهو الرجاء، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف، والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلكَ الأمر المنتظر مشكوكاً فيه، نعم، أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظناً، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر، فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه، وكذا بالعكس، وعلى كل حال فهما متلازمان، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَكَا رَغَبُنَا وَرَهَبُنَّا﴾ [الانبيّاء ٩٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبُّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجنة: ١٦] ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء، فقال تعالى: ﴿نَا لَكُو لَا نُرْجُونَ لِلَّهِ وَقَالَ ﷺ ﴿ إِنُوم: ١٣] أي لا تخافون، وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما؛ إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه، بل أقول: كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية، فإنّ البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى: ﴿ فَلْيَضَّكُواْ فَلِلَّا وَلْيَكُواْ كِيْرًا ﴾ [النَّويَة: ٨٣] وقال تعالى: ﴿ يَتَكُونَ ﴿ وَيَزِيدُهُو خُشُوعًا﴾ [الإسرَاء: ١٠٩] وقال عزّ وجلّ: ﴿أَفِنْ هَلَنَا ٱلْمَدِيثِ تَنْجَبُونَ ۞ وَقَشَمَكُونَ وَلَا بَتَكُونَ ۞ وَأَنتُمْ سَنِدُننَ ﴿ ﴾ وقال ﷺ: ﴿مَا مِنْ عَنِدِ مُؤْمِنِ نَخْرُجُ مِنْ عَهِنتِهِ دَمْعَةً وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْس الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةٍ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئاً مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إِلاَّ حَرِّمَهُ اللَّهُ عَلَى الثَّارِه (٢٠)، وقال ﷺ: ﴿إِذَا اقْشَعَرَّ قَلْبُ مُؤْمِن مِنْ خَشْبَةِ اللَّهِ تَحَاتُتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهاه (٣)، وقال ﷺ: ﴿لا يَلِعُ النَّارَ أَخَدٌ بَكَيُّ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودُ اللَّبَنُّ في الضَّرْعه (١٠)، وقال عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال:

حديث عائشة: قلت: يا رسول الله ﴿ وَاللَّذِينَ بُوْتُونَ مَا عَانُوا رُقَالُونَهُمْ وَجِنَّةً ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يسرق ويزني؟ قال الاستاد.
 الاستاد.

قلت: بل متقطع بين عائشة ويس عبد الرحمن بن سعد بن وهب. قال الترمذي: وروي عن عبدالرحمن بن حازم عن أبي هريرة.

٢١) حديث: «ما من مؤمن يخرج من عيته دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب. . . ٤ الحديث. أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

 ⁽٣) حديث: ﴿ إِمَا اقشعر جلد العومن من خشية الله تحاثث عنه ذنويه. . . ٥ الحديث. أخرجه الطبراني والبهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف.

⁽٤) حديث: الا يلج النار عبد بكي من خشية الله. . . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

«أَمْسِك عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعُكَ بَيْتُكَ وَابُكِ عَلَى خَطِيئَتِكَه (١)، وقالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، أيدخل أحد من أمنك الجنة بغير حساب؟ قال: فنَعَمْ مَنْ ذَكَرَ ذُنُوبَهُ فَبَكَى (٢)، وقال ﷺ: «ما مِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُ إِلَى اللّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةٍ دَمْع مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ تَعَالَى أَوْ قَطْرَةٍ دَمْ أَهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللّهِ مُنافَى وَتَعَالَى اللّهِ عَمَالَى أَوْ قَطْرَةٍ وَمَ أَهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللّهِ مُنافَى (٣)، وقال ﷺ: «اللّه وَتَعَالَى اللّهُ يَوْمَ لا ظِلّ إلا ظِلّهُ وَذَكَرَ مَنْهُمْ (رَجُلاً ذَكَرَ اللّهُ خَالِياً فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ (١).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتباك.

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: ما تغرغرت عين بمائها إلا لم يرهق وجه صاحبها قتر ولا ذلة يوم القيامة، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأوّل قطرة منها بحاراً من النيران، ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة.

وقال أبو سليمان: البكاء من الخوف، والرجاء والطرب من الشوق.

وقال كعب الأحبار رضي الله عنه: والذي نفسي بيده؛ لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجنتي أحبّ إليّ من أن أتصدق بجبل من ذهب.

وقالَ عبدالله بّن عمر رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدّق بألف دينار.

وروي عن حنظلة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا، فرجعت إلى أهلي فدنت مني المرأة وجرى ببننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ وأخذنا في الدنيا، ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسي: قد نافقت؛ حيث

⁽¹⁾ حديث عقبة بن عامر: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: «أمسك هليك لسائك ... الحديث، تقدم،

 ⁽٢) حديث عائشة: قلت: أيدخل الحنة أحد من أمتك بغير حساب؟ قال النعم، من ذكر ذنويه فبكي لم أقف له على أصل.

 ⁽٣) حديث: «ما من قطرة أحب إلي من قطرة دمعة من خشية الله. . .» المحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن غريب، وقد تفدم.

حديث: «اللهم ارزقني هينين هطالتين يشفيان القلب بذروف الدمع...» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير في الدعاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن، ورواه الحسين المروزي في زياداته على الزهد، والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبدالله مرسلاً دون دكر ذكر: قالله. وذكر الدارقطني في العلل أن من قال فيه: اهن أبيعه وهم، وإنما هو عن سالم بن عبدالله مرسلاً، وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبدالله المحاربي وليس بابن عمر، انتهى. وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ، ومسلم في الكنى، وأبن أبي حاتم عن أبيه، وأبي أحمد الحاكم فإن الراوي له عن سالم عبدالله أبو سلمة، وإنما ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله اعلم، نهم، حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم المحاربي أو سالم بن عبدالله بن عبدالله عن مر،

⁽٥) حديث: السبعة يظلهم الله في ظله. . . ١ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تفدم.

تحوّل عني ما كنت فيه من الخوف والرقة، فخرجت وجعلت أنادي: نافق حنظلة، فاستقبلني أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: كلا، لم ينافق حنظلة، فلدخلت على رسول الله عنه وأنا أقول: نافق حنظلة، ففال رسول الله عندك فوعظتنا موعظة حنظلة، ففال رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسا، فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسبت ما كنا عندك عليه. فقال على " إنا حَنظَلَة لَوْ أَنْكُمْ كُنتُمْ أَبَداً عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ لَصَافَحَتَكُم المَلائِكَةُ وَسَاحَة وَسَاحَة الله العَلَى فَرَاشِكُمُ وَلَكِنْ يا حَنظَلة سَاحَة وَسَاحَة " .

فإذن: كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف؛ لأنّ جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب.

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما:

اهلم: أنّ الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليها فيعتريه شك في أن الأفضل أيهما، وقول القاتل: المخوف أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القاتل: المخبر أفضل أم الرجاء؟ سؤال فاسد يضاهي قول القاتل: المخبر أفضل للجائع، والماء أفضل للعطشان، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب؛ فإن كان الجوع أغلب فالخبر أفضل، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل، وإن استويا فهما متساويان، وهذا لأنّ كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل، ويجوز أن يقال مطلقاً: المخوف أفضل على التأويل الذي يقال فيه: الخبز أفضل من السكنجبين؛ إذ يعالج مالخبز مرض الجوع، وبالسكنجبين مرض الصفراء، ومرض الحوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل، فبهذا الاعتبار غلبة المخوف أفضل؛ لأنّ المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لانه مستقى من بحر الرحمة، ومستقى المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقام. وأما الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء.

وعلى الجملة: فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول: أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي. فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. وروي: أنّ علياً كرّم الله وجهه قال لبعض ولده: يا بني، خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض غفرها بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك. ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل.

⁽١) حديث حنظلة: كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا. . . الحديث، وليه: النافق حنظلة الحديث. وفيه: (ولكن يا حنظلة ساعة وساعة الخرجه مسلم مختصراً

وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي؛ فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه، فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره.

ِ فإن قلت: مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه، بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوَّة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه، فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين! فاعلم: أن من يأخد المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله، وذلك وإن أوردناه مثالاً فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة؛ إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاؤها، وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها، وإنما مثال مسألتنا بذر لم يجرّب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها، وهي في بلاد ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا، فمثل هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه، والبذر في مسألتنا هو الإيمان ـ وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب ـ وخفايا خبثه وصفائه من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة؛ إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب مثله، والصواعق هي أهوال سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده، وذلك مما لم يجرّب مثله، ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القبامة إلى الحنة وذلك لم يجرّب، فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجانه ـ لا محالة ـ كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين، وإن كان قوي القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه، فأما أن يغلب رجاؤه فلا. ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئًا؛ إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين (١)، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي، وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيبه عنه؟ وِإِن وثق به فمن أين يئق ببقائه على ذلك إلى تمام حسنِ الخاتمة؟ وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَمْلِ الجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لِا يَبْقَى بَيْنَهُ ويَبْنَ الجَنَّةِ إِلاَّ شبر، (°). وفي رواية: ﴿إِلا قُلْرُ فَوَاقِ نَاقَةٍ فَيَسْبِقَ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَخْفُمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر

⁽١) حديث: أن حديمة خصه رسول الله على بعلم المنافقين؛ أخرجه مسلم من حديث حديثة: (في أصحابي اثنا عشر منافقاً» تمامه: (لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط...» الحديث.

٢) حديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» وفي رواية: «إلا قدر فواق ناقة...» الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة شم يختم له بعمل أهل النار» وللبزار وللطبراني في الأوسط: «سبعين سنة» وإسناده حسن، وللشيخين في أثناء حديث لابن مسعود: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل المجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا فراح...» الحديث، ليس فيه تقدير للعمل بخمسين سنة ولا ذكر: «شبر» ولا «فواق ناقة».

يختلج هي القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء، فكيف يؤمن ذلك؟ فإذن: أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة، ولذلك حمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السَّحدة: ١٦] وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَيَدْعُونَ لَ رَعَبُ وَرَهُ الله الله الله المعرف وقال عن وجلّ الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف، بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي، فإن ذلك قنوط وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكذر جميع الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود، دون حديث النفس الذي الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى البأس الموجب للقنوط.

وقد قال يحيى بن معاذ: من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومن عبده سمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة الاذكار.

وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجى،، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

فإذن: لا بد من الجمع بين هذه الأمور، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى، فإن من أحب لقاء الله تعالى، فإن من أحب لقاء الله تعالى، ومن أحب الله لقاءه، والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب، والمقصود من العلوم والأعمال كلها: معرفة الله تعالى حتى تشمر المعرفة المحبة، فإن المصير إليه والقدوم بالموت عليه، ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه المتدت محنته وعذابه.

فمهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا، فالدنيا جنته؛ إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه، ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه، فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا إذن سجنه، لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن، ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكلّر، فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولا تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر، وفضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين من الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، والسلاسل والأغلال وضروب الخزي والنكال، فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من حاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به القلب، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من حاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به القلب، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من حاه ومال ووطن، فالأولى أن تدعو بما دعا به

نبينا ﷺ إذ قال: «اللّهُمّ ارْزُقْنِي حُبُكَ وَحُبٌ مَنْ أَحَبّكَ وَحُبُ مَا يُقَرّبُنِي إِلَى حُبكَ وَأَجَعَلُ حُبّكَ أَحَبّ وَمَا الموت أصلح النه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح الأنه أجلب للمحبة، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح الأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب، ولذلك قال ﷺ: «الا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظّنُ بِرِبِّهِ (")، وقال تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال الابنه: يا بني، حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به. وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه، وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه الابنه عند الموت: اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: أن حببني إلى عبادي، فقال: بماذا؟ قال: بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي، فإذن: غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كالسجن المانع من المحبوب، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير، فسأله؟ فقال: الآن أفلت، فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له: إنه مات البارحة.

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف:

اعلم: أن ما ذكرناه في حال الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا الغرض، لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء، لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار، وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة، والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف، ولذلك قال علي كرم الله وجهه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات. ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرّد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام، ويؤدي دوام الذكر إلى الأتس ودوام الفكر إلى كمال المعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأنس إلى المحبة، ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدهما مقام سوى الصبر، وبه المجاهدة والتجرّد فله ظاهراً وباطناً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس، ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل. فإذن: فيما ذكرناه في علاج الصبر كماية، ولكنا نفرد الخوف بكلام جملي فنقول: الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر، ومثاله: أنَّ الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف، وريما مدّ اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها، فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب

 ⁽١) حنيث: اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك . . . الحنيث . أخرجه الترمذي من حديث معاذ، وتقدم في الأذكار والدعوات.

 ⁽٧) حديث: الا يمونن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه، أخرجه مسلم من حديث جابر، وقد تقدم.

عليه الخوف ووافقه في الهرب؛ فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع ويطشه وقلة مبالاته، وأما خوف الابن فإيمانه بمجرّد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يَخَافُ إلا من سبب مخوف في نفسه، فيعلم أنَّ السبع مخوف ولا يعرف وجهه، وإذا عرفت هذا المثال فاعلم: أن الخوف من الله تعالى على مقامين: أحدهما: الخوف من عدّابه، والثاني: الخوف منه؛ فأما الخُوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى: ﴿رَبُّهُ إِنَّهُ مُلْكُمُّ ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّقُواْ الَّذَ حَقَّ تُقَالِمِهِ ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]. وأما الأوّل: فهو خوف عموم الخلق، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة، وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم، فإنَّ فاتت المشاهدة فالسماع لَّا يخلو عن تأثير، وأما الثاني: وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف، أعني: أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه. قال ذو النون رحمه الله تعالى: خوف النار عند خوف الفِراق كقطرة قطرت في بحر لجيّ، وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَغْشَى أَقَهُ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْفُلَمَنَّوَّأَ ﴾ [فاطر: ٢٨] ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية، ولكن هو بمجرد التقليد أيضاً هي خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه، وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب، حتى إن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر إليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه، والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطَّاعات واجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار. فإذن: من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف، كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعاً في مخالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبي، ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري إلا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه، فلا يحتاج إلى حيلة سواه، فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي، ويحكّم ما يريد ولا يخاف، قرّب الملائكة من غير وسيلة سابقة، وأبعد إبليس من غير جريمة سالفة، بل صفته ما ترجمه قوله تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلَّا على طاعة فتأمل أنه لم يمد العطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبي، ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبي، فإنه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعاً بها بالضرورة، فإن كان أبعده لأنه عصاه فلم حمله على المعصية؟ هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية، أو يقف لا محالة على أوَّل لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل، وعن هذا المعنى عبر ﷺ إذ قال: الحُتَجُ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِما، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السُّلامُ، قال مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكِ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكُتَهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتُهُ ۚ ثُمَّ أَهْبَطَتِ النَّاسَ بِخطِيْتِكَ إلى الأَرْضِ. فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْإِلْوَاحَ فِيهَا قِبْيَانُ كُلُّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِياً، فَبِكُمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ النَّوْرَاةَ قَيْلَ أَنْ أَخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَاماً. قَالَ أَدَمُ: فَهَلْ وَجَلْتَ فِيهَا ﴿ وَعَصَٰىٰٓ عَادَمُ رَبَّهُ فَنَوَىٰ ﴾ [طه: ١٣١] قال: نَعَمَ. قَال:

أَفْتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْ قَبْلَ أَنْ أَصْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنةً، قال ﷺ: فَخجَّ آدَمُ مُوسَى (١٠)، فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر، ومن سمع هذا فآمن به وصدّق بمجرد السماع قهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف. فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع، والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه، وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق، ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقاً، وإن أضيف إلى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقاً، والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع؛ لأنَّ السبع مسخر؛ إن سلط عليه الجوع افترس، وإن سلط علَّيه الغفلة خلي وترك، فإنما يخاف خالَّق السبع وخَالَق صفاته، فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع، بل إذا كشف الغطاء علم أنَّ الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى، لأنَّ المهلك بواسطة السبع هو الله، فاعلم: أنَّ سباع الآخرة مثل سباع الدنيا، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب النواب وخلق لكل واحد أهلاً يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له، فخلق الجنة وخلق لها أهلاً سخروا لأسبابها شاؤوا أم أبوا، وخلق النار وخلق لها أهلاً سحروا لأسبابها شاؤوا أم أبوا، فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر، فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار؛ فيطالع أحوال المخاتفين العارفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والعلماء.

وأما الآمنون: فهم الفراعنة والجهال والأغبياء. أما رسولنا ﴿ فهو سبد الأوّلين والآخرين (٢)، وكان أَشَدُ الناس خوفاً (٢)، حتى روي أنه كان يصلي على طفل، ففي رواية أنه سُمع في دعائه يقول: «اللَّهُمُّ وَهِ عَذَابَ القَبْرِ وَعَذَابَ الثَّارِهِ (٤)، وفي رواية ثانية: أنه سمع قائلاً يقول: هنيئاً لك، عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: «ما يُدْرِيكَ أَنَّه كَذَلِكَ، واللَّهِ إِنِّي رسُولُ اللَّه، وَمَا أَدْرِي ما يُصْنَعُ بِي إِنَّ اللَّه خَلَقَ الجَنَّة وَخَلَق لَهَا أَهُلاً لا يُزَادُ فِيهِمْ وَلا يُنْقَصُ مِنْهِمْهُ (٥). وروي أنه على قال ذلك أيضاً على

⁽١) حديث: الحتج آدم وموسى عند ريهما، فحج آدم موسى. . . ، الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو منفق عليه بألفاظ أحر.

 ⁽٢) حديث: كان سيد الأولين والآخرين. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (أنا سيد ولد آدم ولا فحر. . . ٤ الحديث.

⁽٣) حديث: كان أشد الناس خوفاً. تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثاً. قوله. قوالله إني لأخشاكم فله وقوله: قوالله إلى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

٤) حديث إنه كان يصلي على طفل نسمع في دعائه يقول: «اللهم قه هذاب القبر وهذاب النارة أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس أن النبي على صلى على صبى أو صبية وقال: «لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي» واختلف في إسناده، فرواه في الكبير من حديث أبي أيوب: أن صبباً دفن فقال رسول الله عليه: «لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي».

 ⁽a) حديث: إنه سمع قائلة تقول لطفل مات: هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة، فغضب وقال: «ما يعريك...»
 الحديث. أخرجه مسلم من حديث عائشة قالت: توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة...
 الحديث. وليس فيه فغضب، وقد تقدم.

جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأوّلين لما قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة، فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك: والله لا أزكي أحداً بعد عثمان(١٠). وقال محمد بن خولة الحنفية: والله لا أزكى أحداً غير رسول الله ﷺ ولا أبي الذِّي ولدني، قال: فثارت الشيعة عليه، فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه، وروي في حديث آخر: عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه: هنيئاً لك عصفور من عصافير الجنة، هاجرت إلى رسول الله ﷺ وقتلت في سبيل الله، فقال ﷺ: فَوَمَا يُلْدِيكُ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لا يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ مَا لا يَضُرُّهُ (٢) ، وفي حديث آخر: «أنه دخل ﷺ على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيثاً لك الجنة، فقال ﷺ: «مَنْ هَٰذِهِ المُتَأَلَّيَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؟، فقال المريض: هي أمي يا رسول الله، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكِ، لَعَلُّ قُلاناً كَانَ يَتَكَلُّمُ بِمَا لا يَغْنِيهِ وَيَبْخَلُ بِمَا لا يُغْنِيهِۥ٣٣)، وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم، وهو ﷺ يقول: اشيبتني هود وأخواتها، ؟ سورة الواقعة وإذا الشمس كوّرت وعم يتساءلون فقال العلماء: لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى: ﴿أَلَا بُمُّنَا لِعَادِ فَوْمِ هُودٍ ﴾ [غرد: ٩٠] ﴿ لَا بُعْدًا لِتَسُودَ ﴾ [غرد: ٦٨] ﴿ لَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كُمَّا بَعِدَتْ تَسُودُ ﴾ [غرد: ٩٥] مع علمه ﷺ بأنه لو شاء الله ما أشركوا؛ إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْمَنِهَا كَانِهَةٌ ۞ خَانِصَةٌ زَّايِمَةٌ ۞ ﴿ [الواقعة: ٣-٣] أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة: إما خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدنيا، وإما رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدنيا. وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وإنكشاف الخاتمة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِهَا الْجَيِّمُ شُوِّرَتْ ۞ وَلِهَا الْخَتَّةُ أَنْلِفَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ خَصْرَتْ ﴿ ﴾ [التكوير: ١٢ ـ ١٤] وفي عـم يتساءلون: ﴿ وَوْمَ يَظُرُ ٱلْمَرَهُ مَا فَذَّمَتْ يَكَاهُ ﴾ [النّبَإ: ٤٠] الآية، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَتَكُلُّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحَنُّ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النَّبَا: ٣٨] والقرآن من أوَّله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر، ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَنَفَّارٌ لِيَن تَابَ وَمَامَنَ وَعِمَلَ مَنْلِمًا ثُمَّ ٱلْمَنْدَىٰ ۖ ﴾ [لله: ٨٧] لكان كافياً؛ إذ على المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها، وأشدّ منه قوله تعالى: هِمْأَمَّا مَن نَابَ وَيَامَنَ وَعَمِلَ صَحَلِمًا فَمَسَى أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُقْلِمِينَ ۞﴾ [القَصَص: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿لِيَمْتَلَ ٱلصَّدْدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزَاب: ٨] وقوله تعالى: ﴿مَنَفَرُغُ لَكُمْ أَيُّدُ ٱلثَّفَلَانِ ۚ ۖ ﴾ [الرَّحمْن: ٣١] وقوله عزّ وجلَّ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَحَكَرَ اللَّهِ ﴾ [الامرَاف: ٩٩] الآية. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْذُ رَبِّكَ إِذَا أَغَذَ الشُّرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةً إِنَّ أَخَذَتُهُ أَلِيدٌ شَنْوِيدُ ۞ ﴿ الْهُودُ؛ ١٠٢] وقوله تِعالى: ﴿ وَتَمْ نَعَشُرُ ٱلْمُتَقِينَ إِلَى ٱلرَّحْنِنِ وَفْدًا ۞ ﴾ [مريّم: ٨٥] الأيتين. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُرْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريَم: ٧١] الآية. وقوله: ﴿أَعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ﴾ [فصلت: ٤٠]

⁽١) حديث: لما توفي عثمان بن مظمون قالت أم سلمة: هنيئاً لك الجنة. . . الحديث. أخرجه البخاري من حديث أم العلاء الأنصارية وهي الفائلة: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، قال: قوما يدريك؟ الحديث، وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد، ولم أجد فيه ذكر أم سلمة.

 ⁽٢) حديث: إن رجلاً من أهل الصفة استشهد فقالت أمه: هنيئاً لك يا بني الجنة. رواه البيهقي في الشعب، إلا أنه قال: فقالت أمه: هنيئاً لك الشهادة وهو عند الترمذي، إلا أنه قال: إن رجلاً قال له: أبشر بالجنة، وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

⁽٣) حديث: دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول: هنيئاً له الجنة. . . الحديث. تقدم أيضاً.

 ⁽٤) حديث: فشيبتني هود وأخواتها. . . الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه من حديث ابن عباس،
 وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة. وقد نقدم في كتاب السماع.

الآية. وقوله: ﴿مَن كَانَكَ يُرِيدُ حَرَّتَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدٌ لَمُ فِي حَرْثِينَ﴾ [الشّورى: ٢٠] الآية. وقوله: ﴿فَمَن يَعْـمَلْ مِثْفَكَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَسَرَمُ ۞﴾ [الزّلزَلة: ٧] الآيتين. وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا ۚ إِلَّىٰ مَا عَبِلُواْ مِنْ صَمَلٍ﴾ [اللّهرفان ٢٣] الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَصَّرِّ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَنِي خُسِّرٍ ۞ [العصر: ٢٠١] إلى آخرَ السورة. فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران، وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكَمَرَ اللَّهِ إِلَّا ٱلْفَوْمُ ٱلْخَسِرُونَ﴾ [الأعرَاف: ٩٩] حتى روي أن النبي وجبريل عليهما السلام بكيا خوفاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما: لم تبكيان وقد أمنتكما؟ ففالا: ومن يأمن مكرك؟(١). وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور، لم يأمنا أن يكون قوله: «قد أمنتكما؛ ابتلاء وامتحاناً لهما ومكراً بهما، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما، كما أنَّ إبراهيم ﷺ لما وضع في المنجنيق قال: حسبي الله، وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء، حتى قال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله، فأخبر الله تعالى عنه فقال: ﴿ وَإِبْرَهِبِمَ ٱلَّذِي وَفَّ ۞ [اللَّجُم ٣٧] أي يِموجب قوله: حسبي الله، وبمثل هذا أخبر عن موسى حيث قال: ﴿ إِنَّنَا غَنَكُ أَن يَفُرُكُمْ عَانِنَا أَوْ أَن يَطْنَىٰ ۞ قَالَ لَا تَخَافَا ۚ إِنَّنِي مَعَكُمًا أَسْمَعُ وَأَرَف ۞ ومع هذا لها ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة؛ إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدّد عليه الأمن وقيل له: ﴿ لَا تَخَفُّ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [ط: ٢٦] ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال ﷺ: ﴿اللَّهُمُّ إِنْ تَهْلِكُ لَهْ لِيهِ المِصَابَةَ لَمْ يَبُقَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدُ يَعْبُدُكُه (٢)، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك، فكان مقام الصدّيق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله، وكان مقام رسول الله ﷺ مقام المخوف من مكر الله وهو أتم؛ لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر، وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى، ومن عرف حقيقة المعرفة قصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة، ولذلك قال المسيح ﷺ لما قيل له: ﴿ مَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِ وَأَيِّيَ إِلَكَهِّينِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قَالَ مُسْبَحَنكَ مَا يَكُونُ لِيَّ أَنَّ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّيًّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِيْمَتُمْ نَصْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاّ أَعْلَدُ مَا فِي نَفْسِكُ [السمائية: ١١٦] وقال: ﴿ إِن تُمَدِّيُّهُمْ فَإِنُّهُمْ عِبَادُكُّ وَإِن تَنْفِرْ لَهُمْ ﴾ [الماعدة: ١١٨] الآية، فوّض الأمر إلى المشيئة، وأخرج نفسه بالكلية من البين؛ لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن حدّ المعقولات والمألوفات، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلاً عن التحقيق والاستيقان، وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين؛ إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصلي ولم يزل في الدنيا يعذبهم بأنواع الآلالم والأمراض، ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق، ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد، ثم يخبر عنه ويقول: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَنْيَنَا كُلَّ فَقْسِ هُدَنِهَا وَلَكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ

 ⁽١) حديث: أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفاً من الله عز وجل، فأوحى الله إليهما: لم تبكيان؟ الحديث.
 أخرحه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر، رويناه في مجلس من أمان أبي سعيد النقاش بسند ضعيف.

 ⁽۲) حديث قال يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبن على وجه الأرض أحد يعبدك». أخرجه البخاري من حديث ابن عباس بلفظ: «اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم. . .» الحديث.

أَجْمَوِرِكَ ۞﴾ [السَّجدَة: ١٣] وقال تعالى: ﴿ وَتَشَّنْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمَّلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [لهود: ١١٩] الآية. فكيف لا يخاف ما حق من القول في الأزل ولا يطمع في تداركه، ولو كان الأمر آنفاً لكانت الأطماع تمتذ إلى حيلة فيه، ولكن ليس إلا التسليم فيه واستقراء خفي السابقة من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح؛ فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة؛ إذ كل ميسر لما خلق له، وإن كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعاً وبظاهره وباطنه على الله مقبلاً كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقاً به، ولكنّ خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالاً ولا يمكنها من الانطفاء، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، وأن القلب أشدُّ تقلباً من القدر في غليانها، وقد قال مقلب القلوب عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ عَذَبَ رَبَّمْ عَبُّر مَأْمُودِ ﴿ ﴾ [المغارج: ٢٨] فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلويهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف. فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب. قال بعض العارفين: لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد، لأني لا أدري ما ظهر له من التقلب. وقال بعضهم: لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الإسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار. وكان أبو الدرداء يحلف بالله؛ ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه. وكان سهل يقول: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَنَّهُ ۗ [المؤمنون: ٦٠].

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبدالله، عليك بالرجاء فإنّ عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أو على ذنوبي أبكي؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا.

وحكي عن بعض الخائفين: أنه أوصى بعض إخوانه فقال: إذا حضرتني الوفاة فاقعد على رأسي، فإن رأيتني مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزاً وسكراً وانثره على صبيان أهل البلد، وقل: هذا عرس المنفلت، وإن مت على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من أحب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة. قال: وبم أعلم ذلك؟ فذكر له علامة، فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه.

وكان سهل يقول: المريد يخاف أن يبتلي بالمعاصى، والعارف يخاف أن يبتلي بالكفر.

وكان أبو زيد يقول: إذا توجهت إلى المسجد فكأن في وسطي زناراً أخاف أن يذهب بي إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عني الزنار، فهذا لي في كل يوم خمس مرات.

وروي عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال: يا معشر الحواريين، أنتم تخافون المعاصي، ونحن ـ معاشر الأنبياء ـ نخاف الكفر.

وروي في أخبار الأنبياء: أنّ نبياً شكى إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف، فأوحى الله تعالى إليه: عبدي: أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى، قد رضيت يا رب فاعصمني من الكفر.

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخاف الضعفاء؟ ولسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المدمومة، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن: لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس. وما عنوا به النفاق الذي هو ضد أصل الإيمان، بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً، وله علامات كثيرة: قال ﷺ: قاربة عن كُنْ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلّى وَصَامَ وَزَصَمَ أَنَه مُسْلِمٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةً مِنْهُنْ فَفِيهِ شُغبةً مِنَ النّفاقِ حَتَّى يَدَعَها: مَنْ إِذَا حَدَّتَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ تَلَى اللّهُ اللّهُ الْمَرْدِ : قَوَاذًا عَامَدَ فَدَرَه.

⁽١) حديث: «أربع من كن فيه فهو منافق. . . » الحديث منفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو، وقد تقدم في قواعد العقائد.

 ⁽٢) حديث حذيفة: (إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقاً... الحديث. أخرجه أحمد من حديث حديفة، وقد تقدم في قواعد العقائد.

⁽٣) حديث أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿إلكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر. . . ٩ الحديث. أخرجه البخاري من حديث أنس وأحمد، والبزار من حديث أبي سعيد، وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وصحح إسناده، وتقدم في التوية.

 ⁽٤) حديث: «قال رجل لابن عمر: إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون...» الحديث, رواه أحمد
والطبراني، وقد تقدم في قواعد العقائد.

⁽٥) حديث: السمع ابن عمر رجلاً يلم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضراً. . الحديث. تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج.

⁽٣) حديث: «إن نفراً قعدوا عند باب حليفة ينتظرونه، فكانوا بتكلمون في شيء من شأنه، فلما خرج سكتوا. . . ٤ الحديث، لم أجد له أصلاً.

وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق، وكان يقول: إنه يأتي على القلب ساعة يمتلى، بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة، ويأتي عليه ساعة يمتلى، بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة، ويأتي عليه ساعة يمتلى، بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة. فقد عرفت بهذا: أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة، وأنّ سببه أمور تتقدّمه: منها البدع، ومنها النفاق، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك! وإن ظنّ أنه خلا عنه فهو النفاق؛ إذ قيل: من أمن النفاق فهو منافق. وقال بعضهم لبعض العارفين: إني أخاف على نفسي النفاق، فقال: لو كنت منافقاً لما خفت النفاق، فلا يزال العارف بين الالنفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما. ولذلك قال يُخْتِن المألفة صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ وَلَذَلك قال يَخْتِي ما اللّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللّهُ صَانِعٌ فِيهِ، وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لا يَدْرِي ما اللّهُ قاض فِيهِ، قَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَهِهِ مَا بَعْدَ المَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتُهِ، ولا بَعْدَ الدُنْهَا مِنْ دَارٍ المُحْدَة أَو النَّارَة (١٠)، والله المستعان.

بيان معنى سوء الخاتمة:

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة، فما معىي سوء الخاتمة؟

فاعلم: أن سوء الحاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم من الأخرى. فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك، وإما الجحود، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبدًا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد. والثانية: وهي دونها؛ أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها. ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب؛ إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه، فأما المؤمن السليم قلبه من حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار: جز يا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي. فمهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا، فالأمر مخطر، لأن المرء يموت على ما عاش عليه، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه؛ إذ لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال؛ فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك، وعند ذلك تعظم الحسرة، إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت؛ فإن كان إيمانه في القوة إلى حدّ مثقال أخرجه من النار في زمان أقرب، وإن كان أقل من ذلك طال مكثه في النار، ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بدِّ وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين.

فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته، فما باله يؤخر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة؟.

⁽١) حديث: «العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى. . . الحديث، أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي عليه وقد تقدم في ذم الدنيا: ذكره ابن المبارك في كتاب الزهد بلاغاً، وذكره صاحب الفردوس من حديث حابر ولم يخرجه ولده في مسئد الفردوس.

فاعلم: أنّ كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان، بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحت به الأخبار وهو: أنّ القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (۱) وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم (۲) كما وردت به الأخبار، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة. وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات، فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر (۱) والتعذيب بعده (۱) منافسالمناقشة في الحساب (۱) والافتضاح على ملا من الأشهاد في القيامة (۱) ثم بعد ذلك خطر الصراط (۱) المناقشة في الحساب (۱) والافتضاح على ملا من الأشهاد في القيامة (۱) ثم بعد ذلك خطر الصراط (۱) وهول الزبانية (۱) . . . إلى آخر ما وردت به الأخبار، فلا يزال الشقي متردداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته، ولا تظنن أن محل الإيمان لا يأكله التراب، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد التراب، بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الأجزاء المتفرقة وتعاد اليها الروح التي هي محل الإيمان، وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية .

فإن قلت: فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة؟

فاعلم: أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها: أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين:

أحدهما: يتصوّر مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال: كالمبتدع الزاهد فإنّ عاقبته مخطرة جداً، وإن كانت أعماله صالحة ولست أعني مذهباً فأقول إنه بدعة؛ فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه، بل أعني بالبدعة: أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه، إما برأيه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصم وعليه يعوّل وبه يغتر، وإما أخذاً بالتقليد ممن هذا حاله، فإذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادىء سكراته

 ⁽۱) حديث: «القبر إما حفرة من حقر النار أو روضة من رياض الجنة» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: غريب، وتقدم في الأذكار.

 ⁽٢) حديث: (إنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم». لم أحد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر. تقدم في قواعد العقائد.

⁽٤) حديث: عذاب القبر: تقدم فيه.

⁽٥) حديث: المناقشة في الحساب: تقدم فيه.

⁽٦) حديث: الاقتضاح على ملأ الأشهاد في القيامة: رواه أحمد والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد: *من انتفى من ولله فيفضحه في اللغيا قضحه الله على رؤوس الأشهاده وفي الصحيحين من حديث ابن عمر: *وأما الكافر والمنافق فينادي بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهمه، والطبراني والعقيلي في الضعفاء من حديث فينادي بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهمه، والطبراني والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياس: *قضوح المدنيا أهون من فضوح الآخرة، وهو حديث طويل منكر.

⁽٧) حديث خطر الصراط: تقدم في قراعد المقائد.

 ⁽٨) حديث: هول الزبانية أخرجه الطبراني من حديث أنس: «الزبائية يوم القيامة أسرع إلى قسقة حملة القرآن منها إلى هيئة الأوثان والشيران، قال صاحب الميزان: حديث منكر. وروى ابن وهب عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم معضلاً في خزنة جهنم: ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب.

منه، فقد ينكشف به بعض الأمور؛ فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقناً له عند نفسه، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لالتجاثه فيه إلى رأيه الفاسد وعقله الناقص، بل ظن أنَّ كُلُّ مَا اعتقده لا أصل له؛ إذ لم يكن عنده فرق في إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة ربين اعتقاده الفاسد، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببًا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها، فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه، فهؤلاء هم المرادون يقوله تعالى: ﴿وَيَدَا لَمُهُمْ أَيْنَ ٱللَّهِ مَا لَمُ يَكُونُواْ بَخْتَسِتُونَ﴾ [الزُّمر: ٤٧] ويقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هَلْ لَلِتَكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْنَلًا ﷺ وَلَذَيْنَ سَتَهُمْمْ فِي الْحَيْوَةِ النُّهَا وَلُمْ يَخْتَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُّنَّعًا ﴿ ﴾ [الكهف. ١٠٤،١٠٣] وكما أنه ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب؛ فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور؛ إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت، فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الأمور على ما هي عليه، فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف، ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقدات، وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إما تقليداً وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر، بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق، والبله بمعزل عن هذا الخطر، أعنى: الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام؛ الذين لم يخوضوا في البحث والنظر، ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً، ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة، ولذلك قَالَ ﷺ: ﴿ أَكُفُّرُ أَهُلُ الجَنَّةِ البُّلْهُ ﴾ (١). ولذلك منع السلف من البحَّث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور، وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عزَّ وجلَّ جميعاً وبكلُّ ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه، ومنعوهم عن الخوص في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جيلت عليه من حب الدنيا محجوبة، وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض، والقلوب لما ألقى إليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة، والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الأمر، ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة، وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة، فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول ـ مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ـ انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين إليهم، وتأكد ذلك بطول الإلف فيهم، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم، فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم. ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذبان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظنّ وحسبان، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان، وأنه صفو الإيمان، ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ﴿ وَلَنَمَلُنَّ مَآ أُو بَعْدَ حِينِ ﴿ إِنَّ لَا مِن اللَّهُ عَنْدُ كَشَفَ الغطاء:

⁽١) حديث: «أكثر أهل الجنة البله» أخرجه النزار من حديث أنس، وقد تقدم.

أحسنت ظننك بالأيام إذ حَسُنَتُ ولم تخف سُوء ما يأتي به القدرُ وسالستك الليالي يحدث الكَدرُ

واعلم يقيناً: أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتمه وخاض في البحث فقد تعرّض لهذا الخطر، ومثاله مثال من انكسرت سفيته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد، والهلاك عليه أغلب. وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إما مع الأدلة التي حرروها في تعصباتهم أو دون الأدلة، فإن كان شاكاً فيه فهو فاسد المدين، وإن كان واثقاً فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين المحالتين، إلا إذا جاوز حدود المعقول إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر، وأنى يتيسر، وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول. فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة.

وأما السبب الثاني: فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب. ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلبُ ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريناً، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب _ أعنى: حب الله _ ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب، كما أنَّ الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً، والسبب الذي يفضى إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لمضعف حب الله تعالى؛ فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضاً فهو أبعد عن هذا الخطر، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الداء العضال، وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى؛ إذ لا يُحبهُ إلا من عرفه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُلُ إِن كَانَ مَابَاؤَكُمْ وَأَبْنَازُكُمْ وَإِخْوَنَكُمْ وَأَزْوَمُكُمْ وَعَثِيرُنْكُو وَأَشْوَلُ ٱقْتَرْفَتُمُوهَا وَيَجَدَرُةُ غَفْشُونَ كُسَادَهَا وَمَسَدِكُ تَرْضُونَهَا ۚ أَحَبَّ إِلَيْكُمُ مَن كُاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَيِيلِهِمَ نَتَرَبَقُهُواْ حَتَّى يَأْتِكَ اللَّهُ بِأُمْرِهِيْكُهِ [النَّوبَة: ٢٤]. فإذن: كل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله وظهر بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه، فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً فلا يخفي ما يستحقه من الخزي والنكال، وأما الذي يتوفي على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه، فلا يخفي ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرّد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام.

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار، فلها أيضاً سببان:

أحدهما: كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت المعاصى، وذلك لأن مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أُكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت. فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فيتقيد بها قليه ويصير محجوباً عن الله تعالى، فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جداً عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جداً، ونعرَّف هذا بمثال: وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره، حتى إنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهدته في البقظة، وحتى إن المراهق الذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة، ولو بقي كذلك مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع، ثم لا ينخفي أن الذي قضي عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة، والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه، لأنه إنما يظهر في حال النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو بسبب آخر من الأسباب، والموت شبيه النوم ولكنه فوقه، ولكن سكرات الموت وما بتقدُّمه من الغشية قريب من النوم، فيقتضي ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب، وأحد الأسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف، فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجع، وكذلك تخالف أيضاً منامات الصالحين مامات الفساق، فتكون غلبة الإلف سبب لأن تتمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه، فريما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته، وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها، وكما أن ما يخطر في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها، كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء إلى ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه.

أما بالمشابهة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلاً آخر، وأما بالمضادة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحاً ويتأمل في شدة التفاوت بينهما، وأما بالمقارنة: فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان، وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له، وإنما يكون ذلك بواسطة وواسطتين، مثل أن ينتقل من شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني، ولا يكون بين الثائث والأول مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة، فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت، فعلى هذا ـ والعلم عند الله ـ من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك ثراه يومىء إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها وببل إصبعه التي لها عادة بالكستبان ويأخذ الإزار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمد يده إلى المقراض، ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات، فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في فطامة نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب، فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر من الشر عدّة وذخيرة

لحالة سكرات الموت؟ فإنه يموت المرء على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه، ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة ستة أربعة، فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت.

وقال بعض العارفين من السلف: العرش جوهرة تتلألاً نوراً، فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها، فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش؛ فريما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف، وما ذكره صحيح، وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك، فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوّة، فإذاً: رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله، والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولاً كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير، فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة، لأنه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة، حتى سمعت الشيخ أبا على الفارمذي رحمة الله عليه يصف لى وجوب حسن أدب المريد لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال: حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت: رأيتك قلت لي كذا. فقلت: لم ذاك؟ قال: فهجرني شهراً ولم يكلمني وقال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال؛ إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه.

فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة، وقد ظهر لك بهذا أنّ الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه س غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية، فإن كنت تعلم أنّ ذلك محال أو عسير فلا بدّ وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك، كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك، وقد عرفت بهذا أنّ أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح، وإن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جداً، ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول: إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا! ولذلك قال عامد اللفاف: إذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على الخير والإسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا: كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا. وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له: علام تبكي؟ منه وقالوا: كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا. وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له: علام تبكي؟

وبالجملة: من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التظاماً من أمواج البحر، وإنما المخوف عند المموت خاطر سوء يخطر فقط، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ:
﴿إِنَّ الرَّجِلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَمَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَمَّةِ إِلاَّ فَوَاقُ نَاقَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ بِمَا

كتاب الخوف والرجاء

سبَقَ بِهِ الكِتَابُ اللهِ الخاطف. وقال الناقة لأعمال توجب الشقاوة، بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف. وقال سهل: رأيت كأني أدخلت الجنة، فرأيت ثلاثمائة نبي فسألتهم: ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا؟ قالوا: سوء الخاتمة. ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها، وكانت موت الفجأة مكروها، أما الموت فجأة؛ فلأنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلاته على القلب لا يخول عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة. وأما الشهادة؛ فلأنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب؛ إذ لا يهجم على صف القتال موطناً نفسه على الموت إلا حباً لله وطلباً لمرضاته، وبائعاً دنياه بآخرته وراضاً بالبيع الذي بايعه الله به؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَلَّتُ أَشَرَىٰ مِن القلب في من القلب، ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه، ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في جمع الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها، فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة، فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصبت بالشجاعة، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الراتة كما دلت عليه الأخبار (**).

وإدا بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها؛ فواطب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك، وإياك أن تسوّف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة، فإن كل نفس من أنفاسك حاتمتك؛ إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كل تطريعة، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا ما دمت في يقظتك، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك، لست أقول على لسائك فإنّ حركة اللسان بمجرّدها ضعيفة الأثر.

واعلم قطعاً: أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليها، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه، وتحقق قطعاً ويقيناً أنّ الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك، وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين وبور البصيرة، وراقب أنفاسك ولحظاتك، وإباك أن تغفل عن الله طرفة عين؛ فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر

⁽١) حديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة. . . ، الحديث. تقدم.

⁽٢) حديث: «المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد هن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشمري: «إن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرحل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ ، فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وفي رواية: «الرجل يقاتل شحاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء». وفي رواية فضباً،

عظيم فكيف إذا لم تفعل. والناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمود كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون، والمعاملون على خطر عظيم.

واعلم: أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك، وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول، والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك، فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك؛ إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه؛ فهما ضرورتان في الجبلة، وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك.

واعلم: أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك، وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه، أما الوقت: فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة وأحدة فيواظب على الصوم، وأما قدره: فبأن لا يزيد على ثلث البطن، وأما جنسه: فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقنع بما يتفق، فإن قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤونة الشهوات واللذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله، فإنّ الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات، وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة؛ فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة، وقس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك؛ فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده. بل كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً والأرض مستقراً، فإن غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد، فإن طلبت مسكناً خاصاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك، وعمرك هو بضاعتك، ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبصار، ومن السقف سوى كونه دافعاً للأمطار؛ فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورّطت في مهواة يبعد رقيك منها. وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله، وقدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك، وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك. فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج إلى النصيحة منك.

واعلم: أنّ مسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير، فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك، فإن كنت لا تقدر على ملارمة ما أرشدت إليه بصعف خوفك إذا لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإنا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك، فإنك تتحقق أنّ عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك، فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم؛ لم اشتدّ بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق، وبعضهم يدهش، وبعضهم يسقط مغشياً عليه، وبعضهم يخرّ ميناً إلى الأرض، ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك؛ فإنّ قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْمِجَارَةِ لَمَا يَنْجُمُ مِنْهُ الْمَاتُ فَيْ مِنْهُ الْمَاتُ مِنْ لَلْهُ مِنْ اللهُ بِعَنْفِل عَنَا لَمُ اللهُ بِعَنْفِل عَنَا اللهُ بِعَنْفِل عَنَا اللهُ بِعَنْفِل عَنَا اللهُ يَنْهُ الْمَاتُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ اللهُ عِنْ عَشْيَةِ اللهُ وَمَا اللهُ بِعَنْفِل عَنَا لَمَا المُعْلَقُ وَإِنْ مِنْهَ الْمَاتَةُ وَإِنْ مِنْهُ الْمَاتُ اللهُ بِعَنْفِل عَنَا اللهُ يَنْفِل عَنَا اللهُ يَوْمَلُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ

بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف:

وعن محمد بن المنكدر قال: لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق بنو آدم عادت.

وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل: «مَا لِي لا أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ؟» فقال جبريل: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار^(٦).

ويقال: إنّ لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار؛ مخافة أن يغضب الله عليهم فبعذمهم بها.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار، عجعل يلتقط من النمر ويأكل، فقال: «يا ابْن عُمرَ، مَا لَكَ لا تَأْكُلُ؟» فقلت: يا رسول الله، لا أشتهيه، فقال: «لَكِنِّي أَشْتَهِيهِ وَهٰذَا صُبْعُ رَابِعَةٍ لَمْ أَذَقَ طَعَاماً وَلَمْ أَجِدْهُ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لاَّعْطَانِي مُلْكَ قَيْصَرَ وَكَسْرَى

⁽١) حديث عائشة: •كان إذا تغير الهواه وهبت ربح عاصفة تغير وجهه. . . ٤ الحديث. متفق عليه من حديث عائشة.

 ⁽٢) حديث. قرأ في سورة الحاقة فصعق، الممروف فيما يروى من هذه القصة أنه قرىء عنده ﴿إِنْ لَذَيّا أَنْكَالًا رَجَيــًا ۞ وَطَمَانًا ذَا عُشَوْ رَغَذَا أَلِيمًا ۞ [المُرْمَل: ١٣٠١٢] فصعق، كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلاً، وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم.

^(*) حديث: إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند جيد: سأل النبي الله جبريل أن يراه في صورته؟ فقال: ادع ربك، فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فحعل يرتفع وبسير، فلما رآه صعق. ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلاً بلفظ: فغشي عليه. وفي الصحيحين عن عائشة: رأى جبريل في صورته مرتين، وهما عن ابن مسعود: رأى جبريل له مشمائة جناح.

⁽٤) حديث كان إذا دحل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأريز المرجل. رواه أبو داود والترمذي في الشمائل، والنسائي من حليث عبدالله بن الشخير، وتقدم في كتاب السماع.

حديث: «ما جامني جبريل قط إلا وهو ترتعد فرائعيه من الجبار» لم أجد هذا اللفط. وروى أبو الشيخ في كتاب
العطمة عن ابن عباس قال: إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقاً
من عذاب الله. . . » الحديث. وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته.

⁽٩) حديث أنس أنه ﷺ قال لجبريل: (هما لي لا أرى ميكائيل بضحك، فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار. رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد، ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسلاً، وورد ذلك أيضاً في حق إسرافيل. رواه البيهقي في الشعب، وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين.

فَكَيْفَ بِكَ يَا ابْنَ عُمَرَ إِذَا بَقِيتَ فِي قَوْمِ يَخُبُؤُونَ رِزْقَ سَنَتِهِمْ وَيَضْعُفُ الْيَقِينُ فِي قُلُوبِهِمْ ؟ قال: فوالله مَا برحنا ولا قَـمـنا حـتـى نـزلـت: ﴿وَكَاأِنْ مِن دَآبَةِ لَا غَيِلُ رِزْقَهَا اللّهَ يَرْزُقُهَا وَإِنَّاكُمْ [المتكبوت: ٦٠] قال: فقال رسول الله يَتِظِيُّر: ﴿إِنَّ اللّهَ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِكَنْزِ المَالِ وَلا بِاتْبَاعِ الشَّهَوَاتِ، مَنْ كَنْزَ دَنَانِيرَ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً فَانِيَةً فَإِنَّ الحَيَاةَ بِيَدِ اللّهِ، أَلاَ وَإِنِّي لا أَكْنِزُ دِيناراً وَلا دِرْهَماً وَلا أَخْبَا رِزْقاً لِغَدِهُ (١٠).

وقال أبو الدرداء: كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن ﷺ إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه.

وقال مجاهد: بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه، فنودي: يا داود: أجائع أنت فتطعم؟ أم ظمآن فتسقى؟ أم عار فتكسى؟ فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حرّ جوفه، ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال: يا رب، اجعل خطيتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة، فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته، قال: وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه. ويروى عنه عليه السلام: أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عزّ وجل، وكان يقول في مناجاته: إلهي، إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدّت إلي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني، فيؤساً للقائطين من رحمتك.

وقال الفضيل: بلغني أنّ داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم، إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا البكاء، ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء. وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتغال الحشا، وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقال عبدالعزيز بن عمر: لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال: إلهي، بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين. وروي: أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتذ غمه، فقال: يا رب، أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، نسبت ذنبك وذكرت بكاءك، فقال: إلهي وسيدي، كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه، وسكن هبوب الربح، وأظلني الطير على رأسي، وأنست الوحوش إلى محرابي، إلهي وسيدي، فما هذه الوحشة التي بيني وبينك، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود، ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، يا داود، آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي السجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بناج وقاري، وشكا لي الوحدة فزوجته حواء أمتي وأسحنته جنتي، عصاني فطردته عن جواري عريانا ذليلاً، يا داود، اسمع مني والحق أقول: أطعننا فأطعناك، وسألتنا فأعطيناك، وصعيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك. وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا، أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك مبعاً لا يأكل يعيى بن أبي كثير: بلغنا، أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك مبعاً لا يأكل

 ⁽١) حديث ابن عمر: خرجت مع رسول الله على حتى دخل على حيطان الأنصار قجعل يلتقط من التمر ويأكل.
 الحديث. أخرجه ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر، قال البيهقي: هدا إسناد مجهول، والجراح بن منهال ضعيف.

الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر إلى البرية، فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع، فينادي فيها: ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت، قال: فتأتي الوحوش من البراري والأكام، وتأتي السباع من الغياض، وتأتي الهوام من الجبال، وتأتي الطير من الأوكار، وتأتي العذاري من خدورهن، وتجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه. فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون عالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سلمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه، قد مزقت المستمعين كل ممزق، وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام، فيأخذ في الدعاء، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل: با دارد، عجلت بطلب الجزاء على ربك قال: فيخرّ داود مغشياً عليه، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر منادياً ينادي: ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله؛ فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار، فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول: يا من قتله ذكر النار، يا من قتله حوف الله، ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول: يا إله داود، أغضبان أنت على داود؟ ولا يزالُ يناجي ربه، فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول: يا أبتاه، تقوّ بهذا على ما تريد، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم. وقال يزيد الرقاشي: خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوّفهم، فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلا في عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان انخذهما، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف، ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدّوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس، فهاله ذلك، فرجع إلى أبويه فمر بصبيان يلعبون، فقالوا له: يا يحيى، هلم بنا لنلعب فقال: إني لم أخلق للعب، قال: فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا، فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة، فخرج ولزم أطواد الأرض وَغِيرانَ الشعاب، فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه في الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول: وعزتك وجلالك؛ لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك، فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه، فمدح بالبر، فرده أبواه إلى بيت المقدس، فكان إذا قام يصلي بكى من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه، فمدح بالبر، فرده أبواه إلى بيت المقدس، فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه، فلم يزل يبكي حتى حتى يبكي معه الشجر والمدر، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه، فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خدّيه وبدت أضراسه للناظرين، فقالت له أمه: يا بني، لو أذنت لي أن أتخذ لك شيئاً تواري به أضراسك عن الناظرين فأذن لها، فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدّيه، فكان إذا شعاي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أنت إليه أمه فعصرتهما، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال: اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين، فقال له زكريا يوما: ذراعي أمه قال: اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين، فقال له زكريا يوما:

يا بني، إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقرّ عيناي بك، فقال يحيى: يا أبت، إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار معازة لا يقطعها إلا كل بكّاء. فقال زكريا عليه السلام: يا بني، فابك.

وقال المسيح عليه السلام: معاشر الحواريين، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا، بحق أقول لكم: إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل.

وقيل: كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه، ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل، فيأتيه جريل فيقول له: ربك يقرئك السلام ويقول: هل رأيت خليلاً بخاف خليله؟ فيقول: يا جبريل، إني إذا ذكرت خطيئتي نسبت خلتي، فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله وصفاته، صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف:

روي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر: ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً. وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: وددت لو أني شجرة تعضد، وكذلك قال طلحة.

وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث.

وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت أني كنت نسياً منسياً.

وروي: أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه، فكان يعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً، يا ليتني كنت نسباً منسباً، يا ليتني لم تلدني أمي. وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من اللدموع وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. ولما قرأ عمر رضي الله عنه: ﴿إِذَا النَّمْسُ كُورَتَ ﴿ وَالنَّهُ وَمِن الله يال التكوير: ١١ وانتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النَّعُورِ الله وهو يصلي ويقرأ سورة: ﴿وَالنَّاوِرِ ﴾ [التكوير: ١٠] خرّ مغشياً عليه، ومرّ يوماً بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة: ﴿وَالنَّاوِرِ ﴾ [التُّور: ١٠] فوقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَقِمٌ ﴾ ويقرأ سورة: ﴿ وَالنَّاوِرِ ﴾ [الطُّور: ١٠] نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زماناً، ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه.

وقال علي كرّم الله وجهه ـ وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده ـ: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين، ثم قام. فما رئي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وقال عمران بن حصين: وددت أن أكون رماداً تنسفني الرياح في يوم عاصف.

وقال أبو عبيدة من الجراح رضي الله عنه: وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقى. وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟.

وقال موسى بن مسعود: كنا إذا جلستا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه.

وقىراً منضر المقارىء يسوماً: ﴿ هَلَنَا كِنَشَا يَظِقُ عَلَيْكُمْ بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُمَّا مَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُر تَشْتَلُونَ ﴿ وَالْجَائِبَةِ: ٢٩] الأَية. فبكى عبدالواحد بن زيد حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: وعزبِّك لا عصيتك جهدي أبداً، فأعني بتوفيقك على طاعتك.

وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئاً من القرآن لشدّة خوفه، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصبح الصيحة فما يعقل أياماً، حتى أنى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه: ﴿ يَوْمَ غَشُرُ الْحرف والآية فيصبح الصيحة فما يعقل أياماً، حتى أنى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه: ﴿ يَوْمَ عَشُرُ اللّهِ مَهَمّ وَرَبّا فَيْكُ إِلَى جَهَمّ وَرَبّا فَيْكُ آمريّم: ٨٦٠٨٥] فقال: أنا من المجرمين ولست من المتقين، أعد على القول أيها القارىء، فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة.

وقرىء عند يحيى المكَّاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الانعَام: ٣٠] فصاح صيحة مكث منها مريضاً أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة.

وقال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول: يا رب، كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها، يا رب، أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار؟ ونبكي. فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر، قال مالك: فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخاً أقول: ثكلت مالكاً أمه.

وروي: أن الفضيل رئي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلي المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن غفرت، ثم انقلب مع الناس.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين؟ فقال: قلوبهم بالخوف فرحة، وأعيثهم باكية، يقولون: كيف نفرح والموت من وراثنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله ربنا موقفنا.

ومرّ الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكه وهو جالس مع قوم في مجلس، فقال له الحسن: يا فتى: هل مررت بالصراط؟ قال: لا. قال: فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ قال: لا. قال: فما هذا الضحك؟ قال: فما رُثي ذلك الفتى بعدها ضاحكاً.

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزاً على قدميه، فيقال له: لو اطمأننت؟ فيقول: تلك جلسة الآمن، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى.

وقال عمر بن عبدالعزيز: إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموثوا من خشية الله تعالى.

وقال مالك بن دينار: لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده.

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فبها ما لقي! ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي! ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم، فانظر ماذا لقي! ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى ﷺ ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه!

وقال السري: إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهي. وقال أبو حفص: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلي نظر السخط وأعمالي تدل على ذلك.

وخرج ابن المبارك يوماً على أصحابه فقال: إني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة.

وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها: يا بني، إني أعرفك صغيراً طيباً وكبيراً طيباً، وكأنك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليلك ونهارك! فقال: يا أماه، ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال: وعزتي وجلالي لا غفرت لك.

وقال الفضيل: إني لا أغَبط نبياً مرسلاً، ولا مُلكاً مقرّباً، ولا عبداً صالحاً، أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة! إنما أغبط من لم يخلق.

وروي: أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت، فجاء النبي ﷺ فدخل عليه واعتنقه فخرً ميتًا، فقال ﷺ: «جهّزوا صاحبكم فإن الفرق من النار فتت كبده (۱).

وروي عن ابن أبي ميسرة: أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول: يا ليت أمي لم تلدني، فقالت له أمه: يا ميسرة، إن الله تعالى قد أحسن إليك؛ هداك إلى الإسلام، قال: أجل، ولكن الله قد بيَّن لنا أنا واردوا النار ولم يبين لنا أنا صادرون عنها.

وقيل لفرقد السبخي: أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل! فقال: بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعاً في يوم واحد.

وكان عطاء السلمي من الخائفين، ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً إنما كان يسأل الله العفو. وقبل له في مرضه: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعاً للشهوة. إنه ما رفع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة. وأنه رفع رأسه يوماً ففزع فسقط فانفتق في طنه فتق، وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ. وكان إدا أصابتهم ربح أو برق أو غلاء طعام قال: هذا من أجلي يصيبهم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وقال عطاء: خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء، قد توزمت أقدامهم من طول القيام، وغارت أعينهم في رؤوسهم، ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين، فببنما هم يمشون وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين، فببنما هم يمشون عرقاً، فجاؤوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره؟ فقال: إني ذكرت أني كنت عصبت الله في ذلك المكان.

وقال صالح المري: قرأت على رجل من المتعبدين: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّتُ وُجُوهُهُمْ فِ اَلنَّادِ بَقُولُونَ يَكَلِّتُنَّ أَطْمَنَا اَلَّهَ وَأَطْمُنَا ٱلرَّسُولَا ﴿ إِللَّا وَإِلا عَزَابِ: ٦٦] فصعتى ثم أفاق فقال: زدني يا صالح فإني أجد غماً،

 ⁽١) حديث: (أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت... الحديث. أحرجه ابن أبي الدنيا
 في الخالفين من حديث حليفة، والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر.

فقرأت: ﴿ كُلُّمَا ۚ أَرَادُواْ أَن يَخْرَجُواْ مِنْهَا ۚ أَعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السَّجدَة: ٧٠] فخرَّ ميتاً.

وروي: أن زرارة بن أبي أوفى^(١) صلى بالناس الغداة فلما قرأ: ﴿ فَإِنَا نُقِرَ بِي ٱلنَّاقُرِّرِ ﴿ المَّذَنَّر: ٨] خرّ مغشياً عليه، فحمل ميتاً.

ودخل يزيد الرقاشيّ على عمر بن عبدالعزيز فقال: عظني يا يزيد. فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لست أوّل خليفة يموت، فبكى ثم قال: زدني، قال: يا أمير المؤمنين، ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت، فبكى ثم قال: زدني يا يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين، ليس بينك وبين الجنة والنار منزل، فخرّ مغشياً عليه.

وقال ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَتُوَعِدُهُمُ أَمْمَيِنَ ﴿ الجِعر: ٤٣] صاح سلمان الفارسي ووضع بده على رأسه وخرج هارباً ثلاثة أيام لا يقدرون عليه (٢).

ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول: يا ابناه، ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولاً؟ فصعق داود وسقط مكانه.

وقيل: مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال: هذا رجل قطع الخوف كبده، ثم جاء وجس عروقه ثم قال: ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله.

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: سألت الله عزّ وجلّ أن يفتح عليّ باباً من الخوف، ففتح مخفت على عقلى؛ فقلت: يا رب، على قدر ما أطيق، فسكن قلبى.

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالذي نفسي بيده؛ لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه، وكأنه أشار إلى معنى قوله ﷺ: الْمَوْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمُ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»(٣).

وقال العنبري: اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض، فاطلع عليهم من كوّة وهو يبكي ولحيته ترجف، فقال: عليكم بالقرآن، عليكم بالصلاة، ويحكم! ليس هذا زمان حديث، إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق، إنما هذا زمان: احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر.

ورثي الفضيل يوماً وهو يمشي، فقيل له: إلى أين؟ قال: لا أدري. وكان يمشي والهاً من الخوف.

وقالَ ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل حانب، فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلي كالنائحة المستأجرة.

وحكي: أنَّ قوماً وقفوا بعامد وهو يبكي فقالوا: ما الذي يبكيك يرحمك الله؟ قال: قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم. قالوا: وما هي؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله عزَّ وجلَّ.

وكانَّ الخوَّاصُ يبكي ويقول في مناجاته: قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني.

وقال صالح المري: قدم علينا ابن السماك مرة فقال: أرني شيئاً من بعض عجائب عبادكم،

⁽¹⁾ زرارة بن أبي أوفى تابعي معروف ثقة. كان قاضياً بالبصرة.

 ⁽۲) حديث ميمون بن مهران: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمُ لَتُوْعِدُكُمُ أَبْقَيِنَ ﴾ [الججر: ٤٣] صاح سلمان العارسي، لم
 أقف له على أصل.

 ⁽٣) حديث: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، تقدم في قواعد العقائد.

قذهبت به إلى رجل في بعض الأحباء في خص له، فاستأذنا عليه، فإذا رجل يعمل خوصاً، فقرأت عليه: ﴿إِو الْأَفْلُلُ فِي أَعْسَبِهِمْ وَالسَّلَسِلُ يُسْحَبُونُ ﴿ فَي الْمَسِيرِ ثُمَّ فِي الْنَارِ يُسَجَرُونَ ﴿ اَفَافِر: ١٧، ١٧١ فشهق الرجل شهقة وخرّ مغشياً عليه، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله، وذهمنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخرّ مغشياً عليه، فذهبنا واستأذنا على ثالث، فقال: ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا، فقرأت ﴿ وَلِكَ لِمَنْ غَافَ مَفْلِي وَخَانَ وَعِيدٍ ﴾ [براهيم: ١٤] فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه، وجعل يتشخط في دمه حتى يبس. فتركناه على حاله وخرجنا فأدرته على منة أنفس كل تخرج من عنده وتتركه مغشياً عليه. ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخص تقول: ادخلوا، فدخلنا فإذا شبخ فان جالس في مصلاه، فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا، فقلت بصوت عال: ألا إنّ للخلق غذا مقاماً، فقال الشبخ: بين يدي من ويحك! ثم بقي مبهوتاً فاتحاً فاه شاخصاً بصره، يصبح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت، فقالت امرأته: اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة، فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم؛ فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى. وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أما على حالته مبهوتاً متحيراً لا يؤدي فرضاً، فلما كان بعد ثلاث عقل.

وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أن لا يضحك أبداً، ولا ينام مضطجعاً، ولا يأكل سمناً أبداً، فما رئي ضاحكاً ولا مضطجعاً ولا أكل سمناً حتى مات رحمه الله.

وقال الحجاج لسعيد بن جبير: بلغني أنك لم تضحك قط! فقال. كيف أضحك وجهنم قد سعرت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدّت.

وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة؟ على أي حال يكون؟ قال الرجل: على حال شديدة. قال الحسن: حالي أشد من حالهم.

ودخلت مولاة لعمر بن عبدالعزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها؛ فرقدت فاستبكت في منامها، ثم انتبهت فقالت: يا أمير المؤمنين، إني والله رأيت عجباً، قال: وما ذلك؟ قالت: رأيت النار وهي تزفر على أهلها، ثم جيء بالصراط ووضع على متنها، فقال: هيه، قالت: فجيء بعبدالملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم فقال عمر: هيه، قالت: ثم جيء بالوليد بن عبدالملك فحمل عليه فما مضى إلا يسير حتى انكفأ به العراط فهوى إلى جهنم، فقال عمر: هيه، قالت: ثم جيء بسليمان بن عبدالملك فما مضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك، فقال عمر: هيه، قالت: ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين؛ فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة خرّ مغشياً عليه، فقامت إليه فجعلت تنادي في أذنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيتك والله قد نجوت، إني رأيتك والله قد نجوت! قال: وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه. ويحكى: أنّ أويساً القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقاً فيتبعه الناس فيقولون: مجنون مجنون.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إنَّ المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه.

وكان طاوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى، ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طير ذكر جهنم نوم الخائفين.

وقال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، يا ليتني كنت ذاك الرجل، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروي أنه ما ضحك أربعين سنة؛ قال: وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قد قدّم لتضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخر عن مشاهدتها، فإذا سكت كأنّ النار تسعر مين عينيه. وعوت في شدّة حزنه وخوفه فقال: ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع فيً على بعض ما يكره فمقتني فقال: اذهب فلا غفرت لك؛ فأنا أعمل في غير معتمل.

وعن ابن السماك قال: وعظت يوماً في مجلس، فقام شاب من القوم فقال: يا أبا العباس، لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها. قلت: وما هي رحمك الله؟ قال: قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يعاد، فأتيته أعوده فقلت: يا أخي، ما الذي أرى بك؟ فقال: يا أبا العباس، ذلك من قولك؛ لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. قال: ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت: يا أخي، ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة. قلت: بماذا؟ قال: بالكلمة.

فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء والصالحين، ونحن أجدر بالخوف منهم، لكن ليس المخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة، وإلا فليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادننا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا، وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا، فلا قرب الرحيل ينبهنا، ولا كثرة الذنوب تحرّكنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخرّفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد يفعا.

ومن العجائب أنا إدا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا. وإن أردنا طلب رتبة العلم فقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وشهرنا، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نشق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول: اللهم ارزقنا، ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بأن نقول بالسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول: ﴿ وَأَن لِنَّلَ لِلْإِسَانِ إِلّا مَا سَكَن الله اللهم اغفر لنا وارحمنا، والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول: ﴿ وَأَن لِنَّلَ اللهِ سَنَ إِلَى اللهُ الله الله الله الله الله الله أن يتول الله الله على التعلم على الله الله على الله على الله الله تعالى أن يتوب علينا، بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا، فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل، إدا سمعنا الوعظ بكينا، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا، فلا علامة للخدلان أعظم من هذا. فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنه وقضله.

ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه. فإنّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغني. ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني و وكان من خيار العباد - أنه رآه على باب بيت المقدس واقفاً كهيئة المحزون من شدّة الوله، ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء، فقال عيسى: لما رأيته هالني منظره، فقلت: أيها الراهب، أوصني بوصية أحفظها عنك، فقال: يا أخي، بماذا أوصيك، إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حدر يخاف أن يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام؛

فهو مذعور القلب وجل، فهو في المخالفة لبله وإن أمن المعترون، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون. ثم ولى وتركني فقلت: لو زدتني شيئاً عسى أن ينفعني؟ فقال: الظمآن بجزيه من الماء أيسره. وقد صدق فإن القلب الصافي يحرّكه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواحظ، وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق؛ فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحوناً بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها، وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة، إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وإنما هي في صفاتك الموافقة لمعانيها، فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وإنما هي في صفاتك المحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها، فإن أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلاً عن ظاهر بشرتك، والسلام.



بنسب أقر الأثن النجسة

كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الظلال، وتتدكدك من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدة والآصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بعرر العبرة حتى لاحظ بصيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال؛ ما استقبح دون مبادي إشراقه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال، وتمثل له نظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طيئة المخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلفلفة بجلبابها لتحفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال، ثم لا تجتزيء معهم بلخطف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال؛ زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل.

أما بعد: فإنّ الدنيا عدوّة لله عزّ وجلّ، بغرورها ضل من ضل، وبمكرها زل من رل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها أم الطاعات ورأس القربات. وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والعد منها، لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة. ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما، ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول:

الشطر الأول من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقاً، وبيان خصوص فضيلة الفقراء، وبيان فضيلة الفقير على الغني، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغني المحزم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق بلطفه وكرمه.

بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه:

اعلم: أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه، أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقراً، وإن المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً، وإذا فهمت هذا لم تشك في أنّ كل موجود سوى الله تعالى فهو فقيرا لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال، ودوام وجود مستفاد من فضل الله تعالى وجوده، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاداً له من غيره فهو الغني المطلق، ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحداً، فليس في الوجود إلا غني واحد، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدّوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ٱلمِّي وَأَنشُهُ وَأَنشُهُ وَانشُهُ وَانشُهُ وَانشُهُ وَلَمُ الله الله الله الله الله الله من المال على الخصوص، وإلا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر، لأنّ حاجاته لا حصر لها. ومن المال على جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط، فنقول: كل فاقد للمال فإنا تسميه فقيراً بالإضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقه، ثم يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر. ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها:

الحالة الأولى: وهي العليا؛ أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشقله وهو الزهد، واسم صاحبه الزاهد.

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فبه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه صفواً عفواً أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه المحالة نسميه قانعاً؛ إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة.

الرابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطرة إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرة كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقلما تمك هذه الحالة عن الرغبة، فهذه خمسة أحوال: أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه، ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره؛ إذ هو يرى الأموال في خوانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى حاصب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً، وليفهم من هذا الاسم معنى وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه، فهو وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده، وإنما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه، فهو

إذن فقير من وجه، وأما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضاً، فإنه ليس يتأذى به ليحتاج إلى إخراجه، وليس يفرح به ليحتاج إلى بقائه. وليس فاقداً له ليحتاج إلى الدخول في يده، فغناه إلى العموم أميل، فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى أقرب. وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان، ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنياً بل مستغنياً؛ ليبقى الغني المما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء. وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجوداً أو عدماً فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي وجوداً زين الله به قلبه، فإن القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغني عنه حرّ، والله تعالى هو الذي أعتقه من هذا الرق فهو محتاج إلى دوام هذا العتق، والقلوب متقلبة بين الرق والحرّية في أوقات متقاربة؛ لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن، فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلا مجاراً.

واعلم: أن الزهد درجة هي كمال الأبرار، وصاحب هذه الحالة من المقرّبين، فلا جرم صار الزهد في حقه نقصاناً؛ إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا لأن الكاره للدنيا مشغول بالدنيا، كما أن الراعب فيها مشغول بها، والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى؛ إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجاباً، فإنه أقرب إليك من حبل الوريد، وليس هو في مكان حتى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه، فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره، وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك ويشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوباً عنه، فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى، والمشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله تعالى بكل ما سوى الله، مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قليه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه، ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه. فكما أن النظر إلى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص، ولكن أحدهما أخف من الآخر، بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى عير المحبوب بغضاً وحباً، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضاً بغض وحب في حالة واحدة. فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها، إلا أن المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد، والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب؛ إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود؛ فالكمال له مرتقب لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله، فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها، ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها، فهما سيان بالإضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها، وليس محموداً بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى ينتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها، فلا ينبغي أن تظنّ أن بغض الدنيا مقصود في عينه، بل الدنيا عائق عن الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة، بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة؛ فبين أن سلوك طريق الأخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج، فإذن: قد ظهر أن الزهد في اللنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال، وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني، بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء، وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر، ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة، مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه، فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير، بل تقول: أشرب منه بقدر الحاجة، ولا أبخل به على أحد، فهكذا ينبغي أن يكون المال؛ لأن الخبز والماء واحد في الحاجة، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر، وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما دمت حياً كما يأتيك قدر حاجتك من المنه تعالى.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها، قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية؛ قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها، فبين أنّ كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان.

فإن قلت: فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار؟ فأقول: كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ففروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يدبرونه مع أنفسهم، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه، لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله بي والى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (11)؛ إذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر، وما نقل عنهم من امتناع فإما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه إلى الشهوات، وهذا حال الضعفاء، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال، وهذا حكم جميع الحلق، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء، وإما أن ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك؛ إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا، كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون، والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء، فقد عرفت إذن أن المراتب ست، فياهما رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي ثم القانع ثم الحريص. وأما المضطر فيتصور في حقه أيضا الزهد والرضى والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير يطلق على هذه الزهدى والرضى والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال، واسم الفقير يطلق على هذه

⁽¹⁾ حديث: إن خزائن الأرص حملت إلى رسول الله على وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف، وقد نقدم في آداب المعيشة من عند البحاري تعليقاً مجزوماً به من حديث أنس: أتي النبي على بمال من البحرين وكان أكثر مال أتي به، فخرج رسول الله الله الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فقلما كان يرى أحداً إلا أعطاه. ووصله عمر بن محمد البحيري في صحيحه من هذا الوجه. وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف: قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدومه. . الحديث، ولهما من حديث جابر: لو حاءنا مال البحرين أعطبتك هكذا ثلاثاً، فلم يقدم حتى توفي رسول الله على رسول الله على رسول الله على وعدني، فحثا لي ثلاثاً.

الخمسة. أما تسمية المستغني فقيراً فلا وجه لها بهذا المعنى، بل إن سمي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة، فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقرّ بها؛ فإنه أحق باسم العبد من الغافلين. وإن كان اسم العبد عاماً للخلق فكذلك اسم الفقير عام، ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير، واسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين، وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله ﷺ: ﴿أَعُوذُ بِكَ الفقير مِسْكِيناً وَأَمِثْتِي مِسْكِيناً وَأَمِثْتِي مِسْكِيناً وَأَمِثْتِي مِسْكِيناً وَأَمْوْتُهُمْ أَنْ يَكُونَ كُفُراً الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار الى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه ﷺ وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء.

بيان فضيلة الفقر مطلقاً:

أما من الآيات: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿ لِلْفَفَرَآةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَنرِهِمْ وَأَمْوَلِهِمْ ﴾ [الخشر: ١٨] الآية. وقال تعالى: ﴿ لِلْلَفَرَآءِ الَّذِينَ أُخْرِسُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ لَا يَسْتَطِيفُونَ ضَرَبًا فِي الْمَحْرَةِ اللّهِ اللّهُ وَلَا يَسْتَطِيفُونَ طَيْ وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر.

وأما الأخبار في مدح الفقر: فأكثر من أن تحصى: روى عبدالله بن عمر رصي الله عنهما قال: قال رسول الله على حق الله من نفسه وماله. رسول الله الله المسحابه: «أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟» فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: «نعم الرجل هذا وليس به» قالوا: فمن خير الناس يا رسول الله؟ قال: هتَقِيرٌ يُغطِي جُهْدَهُه (أ)، وقال الله يُحِبُ الفَقِيرِ المُتَعَفِّفَ أَبَا وقال الله يُحِبُ الفَقِيرِ المُتَعَفِّفَ أَبَا الْحِيالِ (أ) ، وفي الخبر المشهور: «يَلْحُلُ قُقْرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةُ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِاتَةٍ عَامٍ (٧)، وفي حديث الحِيالِ (أ) ، وفي الخبر المشهور: «يَلْحُلُ قُقْرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةُ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخَمْسِمِاتَةٍ عَامٍ (٧)، وفي حديث آخر "بِأَرْبَعِينَ خُوِيفَهُ (١) ، أي أربعين سنة ، فيكون المراد به تقدير تقدّم الفقير الحريص على الغني

⁽١) حديث: «أعوذ بك من الفقره، تقدم في الأذكار والدعوات.

⁽٢) حديث: «كاد الفقر أن يكون كفراً». تقدم في ذم الحسد.

 ⁽٣) حديث: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً» رواه الترمذي من حديث أنس وحسنه، وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

⁽٤) حديث: ابن عمر أنه ﷺ قال الأصحابه: «أي الناس خير؟» فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله من نفسه وماله. فقال: «نعم الرجل هذا وليس به» قالوا: فمن خير الناس؟ قال: «نقير يعطي جهده»، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصراً على المرفوع منه دون سؤاله الأصحابه وسؤالهم له.

حدیث قال لملال. «اللق الله فقیراً ولا تلقه غنیاً» أخرجه الحاكم في كتاب علامات أهل التحقیق می حدیث بلال.
 ورواه الطبراني من حدیث أبي سعید بلفظ: «مت فقیراً ولا تمت غنیاً» وكلاهما صعیف.

حديث، (إن الله يحب الفقير المتعقف أبا العيال؛ أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين، وقد تقدم.

 ⁽٧) حديث: فيدخل فقراء أمني البحنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عامه أخرجه الترمذي من حديث أبي هويرة وقال: حسن صحيح، وقد تقدم.

 ⁽٨) حديث: دخولهم قبلهم بأربعين خريفاً: أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمروء إلا أنه قال: افقراء المهاجرين،
 والترمذي من حديث جابر وأنس،

الحريص، والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدّم الفقير الزاهد على الغني الراغب، وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرّفك بالضرورة تفاوتاً بين الفقراء في درجاتهم، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد؛ إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة، ولا تظنن أن تقدير رسول الله على يحري على لسانه جزافاً وبالاتفاق، بل لا يستنطق على إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وهذا كقوله على: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءُ مِنْ سَتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النّبَوْقِ» (أن عرف عله تلك النسبة إلا بتخمين، النّبُوقِة (أن يعرف عله تلك النسبة إلا بتخمين، فأما بالتحقيق فلا؛ إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره، وهو يختص بأنواع من الخواص:

أحدها: أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة، لا كما يعلمه غيره بل مخالفاً له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف.

والثاني: أن له في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم المحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا؛ وهي القدرة، وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى.

والثالث: أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات.

والرابع: أن له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب إما في اليقظة أو في المنام؛ إذ بها يطالح اللوح المحفوظ فيرى ما قيه من العيب، فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام، وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين، ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين، فلا ندري تحقيقاً أنه الذي أراده رسول الله على أم لا، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها، وذلك لا يرشدنا إلى معرقة علة التقدير، فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق، فأما لم كان هذا المقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى المجنوب والتخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف من التخمين ولا وثوق به، والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله على منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور، فإن الضعيف ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال على حرفيني أشفية المنافية أخبيني وَمَن أبغضها تَضَجُعاً في الجنة في الجنة والمنهذ؟"، وقال على عرون : أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله على منهان الله على فقال المحمد، إن الله عن فقال الم محمد، إن الله عن فقال الم محمد، إن الله عن فقال الم محمد، إن الله عن

 ⁽١) حديث: اللوقيا الصالحة جزء من سنة وأربعين جزءاً من النبوة أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد، ورواه هو
 ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ: «رقيا المؤمن جزء، ١٠٠ الحديث، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: «خير الأمة فتراؤها، وأسرعها تضجماً في الجنة ضعفاؤها». لم أجد له أصلاً.

⁽٣) حديث: (إن لي حرفتين الشين. . .) الحديث. وفيه (الفقر والجهاد). لم أجد له أصلاً.

وجلّ يقرأ عليك السلام ويقول: «أتحبّ أن أجعل هذه الجبال ذهباً» (⁽¹⁾ وتكون معك أينما كنت، فأطرق رسول الله ﷺ ثم قال: «يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ الدُّنْيَا ذَارُ مَنْ لا هَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لا مَالُ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا مَقْلَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لا مَالُ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا مَقْلَ لَهُ عَقَلَ لَهُ عَلَابِت.

وروي: أن المسيح ﷺ مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة، فأيقظه وقال: يا نائم، قم فاذكر الله تعالى، فقال: ما تريد مني؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له: فَنَم إذن يا حبيبي.

ومر موسى ﷺ برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة، ووجهه ولحبته في التراب وهو منزر بعباءة، فقال: يا رب، عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وعن أبي رافع أنه قال: ورد على رسول الله على ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر وقال: «قُلْ لَهُ يَهُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلِفْنِي أَوْ بِعْنِي دَقِيقاً إِلَى هِلالِ رَجَبِ قال: فأتبته فقال: لا والله إلا رهن، فأخبرت رسول الله على بذلك فقال: «أَمَا واللهِ إِنِّي لأَمِينُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينُ فِي أَهْلِ اللَّمَاءِ أَمِينُ فِي أَهْلِ اللَّمَاءِ أَمِينُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَتِي لأَدْبَتُ إِلَيْهِ، انْهَبْ بِيرْعِي هُذَا إِلَيْهِ فَارْهَنَهُ ، فَلَمَّا خَرَجْتُ نَزَلَتُ هَيْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ فَارْهَنَهُ اللَّهُ اللَّهُ وَهُمَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عِن الللهُ اللهُ عَن الللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَن اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ ا

وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى، إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مر نبي من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيناناً، فقال: بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء، ثم مرَّ بآخر فقال: باسم الشبطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتفاعس من كثرتها. فقال النبي على الله الله تعالى الملائكة: اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما، فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذك من الهوان قال: رضيت يا رب.

⁽١) حديث: «أن جبريل نزل فقال: إن الله يقرأ عليك السلام ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً...» الحديث، وفيه: «إن الفتيا دار من لا دار له...» الحديث. هذا ملفق من حديثين فروى الترمذي من حديث أبي أمامة: «عرض علي ربي لمبجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً» الحديث. وقال: حسن. ولأحمد من حديث عائشة: «العديا دار من لا دار له...» الحديث. وقد تقدم في ذم الدنيا.

 ⁽۲) حدیث أبي رافع: ورد على رسول الله ﷺ ضیف قلم یجد عنده ما یصلحه، فأرسلني إلى رجل من یهود خیبر...
الحدیث في نزول قوله تعالى. ﴿وَلاَ تَمُدُنَّ عَنْیْكَ إِلَٰ مَا مُنْفًا بِهِ أَرْفَها مِتْهُم ﴾ [طه: ۱۳۱]. أخرجه الطبراني بسند ضعیف.

 ⁽٣) حديث: الفقر أزين بالمؤمن من العدار الحسن على خد الفرس، رواه الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف، والمعروف أنه من كلام عبدالرحمن بن زياد بن أنعم، رواه ابن عدي في الكامل هكذا.

 ⁽٤) حديث: قمن أصبح منكم معافى في جسمه. . . ٣ الحديث. أخرجه الترمذي، وقد تقدم.

وقال نبينا ﷺ: «اطَّلَمْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقْرَاءَ، وَاطَّلَمْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقْرَاءَ، وَاطَّلَمْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَهْلِهَا الأُفْتِيَاءُ؟ فَقِيلَ: حَبَسَهُمْ الجَدَّ، وفي حديث آخر: «فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ فَقُلْتُ: مَا شَأَلُهُنَّ؟ فقيل: شَغَلَهُنَّ الأَحْمَرَانِ النِّهَبُ وَالزَّمْفَرَانُ (١٠)، وقال ﷺ: وُتُحْفَةُ المُؤْمِنِ فِي الذُّنِيَا الفَقْرُه (٢٠)، وفي الخبر: «آخِرُ الأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِما السَّلامُ لِمَحْدِدِ، وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولاً الجَنَّةَ عَبْدُالرَّحُمْنِ بَنْ عَوْفِ لأَجْلِ غِنَاهُه (٣)، وفي حديث آخر: «رَأَيْتُهُ لِمَحْدُلُ الجَنَّةَ رَخْفًا» (١٠).

وقال المسيح ﷺ: بشدة يدخل الغني الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ قال: "إذا أَحَبُّ اللَّهُ عَبْداً ابْقَلَاهُ، فَإِذَا أَحَبُّهُ الحُبُّ البَالِغَ اقْتَنَاهُ* قبلَ: وَمَا اقْتَنَاهُ؟ قالَ: «لَمْ يَتُولُكُ لَهُ أَهْلاً وَلا مَالاً»(**).

وفي الخبر: «إذا رأيت العقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته، (٦٠).

وقال موسى عليه السلام: يا رب، من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك؟ فقال: كل فقير فقير؛ فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يراد به الشديد الضر.

⁽١) حديث: فاطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء. . . • الحديث. تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره -

 ⁽٣) حديث: «تحقة المؤمن في الدنيا الفقر» رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر، وأبو منصور الديلمي في
 مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به، ورواه أبو منصور أيضاً فيه من حديث ابن عمر بسند
 صعف جداً.

⁽٣) – حديث: اآخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان.» الحديث. تقدم، وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد، وفيه كارة.

 ⁽٤) حديث: ارأيته يعني هبدالرحمن بن هوف دخل البعنة زحفاً». تقدم، وهو ضعيف.

 ⁽a) حديث: اإذا أحب الله عبداً ابتلاه. . . ٥ الحديث. أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة المخولاني.

⁽٦) حديث: ﴿إِذَا رأيت الْفَقْر مَقْبِلاً فَقَل مرحباً بشعار الصالحين ، وإِذَا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب مجلت عقويته أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال: قال رسول الله ﷺ: الوحى الله تعالى إلى موسى هليه السلام. . ٥ فذكره بزيادة في أوله. ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحيار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

إلى قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن زَيِّكُمْ ۚ فَمَن شَلَّة فَلْبُؤُمِن وَمَن شَلَّة فَلْيَكُمُرُ ﴾ [الكهف: ٢٩] الآية (١٠).

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش، فشق ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تتعالى: ﴿عَبَسَ وَنَوَلَقُ ۞ أَن جَاتُهُ اللَّهَمَىٰ ۞ وَمَا يُدْرِبِكَ لَمَلَمُ يَزَلَقُ ۞ أَوْ يَذَكُرُ فَنَغَمَهُ اللِّيْكُرَىٰ ۞ أَنْتَ لَمُ سَنَكُ ۞ أَوْ يَنَفَعُهُ اللَّهُمَىٰ ۞ أَمَّتَ لَمُ سَنَكُ ۞ [عَبَسَ: ٦٠٥](٢) يعني: هذا الشريف.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤْمَى بِالعَبْد يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعْتَلِرُ اللَّهُ ثَمَانَى إِلَيْهِ كَمَا يَعْتَلِرُ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ فِي الدَّنْيَا فَيَقُولُ: وَهِزْيِي وَجَلَالِي مَا زَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لِهَوَائِكَ عَلَيْ وَلْكِنْ لِمَا أَعْدَتُ لَكَ مِنَ الكَرَامَةِ وَالفَّضِيلَةِ، اخْرُجْ يَا عَبْدِي إِلَى هٰذِهِ الصَّفُوفِ، فَمَنْ أَطْعَمَكَ فِيْ أَوْ كُسَاكَ فِي يُرِيدُ بِنَاكِ وَجُهِي فَخُذْ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ فَهُو لَكَ، وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَدْ أَلْجَمَهُم العَرَقُ فَيَتَخَلَّلُ الصَّفُوفَ وَيَتْظُرُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُدْخِلُهُ الجَنْهُ "".

وقال عليه السلام: الْكَثِرُوا مَعْرِفَة الفُقرَاءِ وَاتَّخِذُوا عِنْدَهُم الْآيَادِي فَإِنَ لَهُمْ دَوْلَةٌ قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: "إذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قِيلَ لَهُم انْظُرُوا مَنْ أَطْعَمَكُمْ كِشْرَة أَوْ سَقَاكُمْ شَرْيَةً أَوْ كَسَاكُمْ ثَوْباً فَخُذُوا بِيَدِهِ ثُمَّ الْمُضُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ "⁽²⁾، وقال ﷺ: وَخَلْتُ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ حَرَكَةُ أَمَامِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا بِلالٌ، وَنَظَرْتُ فِي أَعْلَاهَا فَإِذَا فَقرَاء أَنْتِي وَأَوْلاَدُهُمْ، وَنَظَرْتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ وَالنَّسَاء فَلْوَتُ فِي أَسْفَلِهَا فَإِذَا فِيهِ مِنَ الأَغْنِيَاء وَالنَّمِ اللهُ عَلَى النَّسَاء فَأَضَرَّ بِهِنَّ الأَحْمَرَانِ النَّعَبُ وَالحَرِيرُ، وَأَمَّا النَّسَاء فَلْنَدُ اللهِ فَالْنَحْمُ اللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِللَّهُ مَا وَالْحَرِيرُ، وَأَمَّا النَّسَاء فَاشْتَعُلُوا بِطُولِ الحِسَابِ، وَتَفَقَدْتُ أَصْحَابِي فَلَم أَر حَبْدَالرَّحْمَن بْنَ عَوْفِ، ثُمَّ جَاءَنِي بَعْدَ ذَلِكَ الثَّمِي وَلَقَلْتُ أَنْ النَّسَاء فَالْدَ إِلَى مَنْ اللَّعَبُ وَالْمَعِقْ عَلَيْ وَالْمُ وَاللّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى لَقِيتُ المُشَيِّبَات وَطَنْتُ أَنِّي لا أَرَاكَ، فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَى هذا وعبدالرحمن صاحب وَظَنَنْتُ أَنِّي لا أَرَاكَ، فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كُنْتُ أُحَاسَبُ بِمالِيه (٥). فانظر إلى هذا وعبدالرحمن صاحب

⁽١) حديث: «قال سادات العرب وأغنياؤهم للبي ﷺ: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً...» الحديث. في نزوله تعالى: ﴿ وَاَسْبِرْ غَسْكَ مَعَ الَّذِينَ بَنَعُونَ كَنَهُم بِالْمُدَوْةِ وَالْفَشِيّ بُرِيدُونَ وَجُهُمٌ وَلَا تَقَدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ رُبِدُ رِسَمَة الْحَبُوةِ الدُّيَا ۖ وَلاَ لَمُنْ فُرِكًا عَلَىٰ اللهِ ا

 ⁽٢) حديث: استئذان ابن أم مكتوم على النبي ﷺ وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى: ﴿ عَسَ وَقُولُةٌ ﴿)
 [عَبَسَ: ١] أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال: غريب قال: ورجاله رجال الصحيح.

⁽٣) حديث "بوثى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتلر الرجل إلى الرجل في المغياء فيقول: وعزتي وجلالي ما زويت عنك الدنيا لهوانك علي الحديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثراب من حديث أنس بإسناد ضعيف: "يقول الله عز وجل يوم القيامة. أدنوا مني أحباثي، فنقول الملائكة: ومن أحباؤك؟ فيقول: فقراء المسلمين، فيدنون منه فيقول: أما إني لم أزو الدنيا منكم لهوان كان بكم علي ولكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي الليوم، فتمنوا علي ما شئتم اليوم . . . الحديث. دون آخر الحديث، وأما أول الحديث فرواه أبو تعيم في الحلية، وسيأتي في الحديث الذي بعده .

 ⁽٤) حديث: «أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا حندهم الأيادي فإن لهم دولة...» الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من
 حديث الحسين بن علي بسند ضعيف: «اتخذوا حند الفقراء أيادي، فإن لهم دولة يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة
 نادى مناد: سيروا إلى الفقراء، فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في المدنيا».

 ⁽٥) حديث: «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي، فنظرت فإذا بلال، ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمني وأولادهم. . . ٤
 الحديث. أخرحه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه، وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر.

السابقة العظيمة مع رسول الله ﷺ، وهو من العشرة المحصوصين بأنهم من أهل الجنة (١٠) ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: ﴿إِلاّ مَنْ قَالَ بِالْمَالِي هُكَذًا وَهَكَذُا اللهُ ٢٠) ، ومع هذا فقد استضر بالغني إلى هذا الحدّ.

ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال: اللَّوْ قُسِمَ نُورُ لَهٰذَا عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَوَسِعَهُمُهُ (٣٠).

وَقَالَ ﷺ: ﴿ أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّة؟ ﴿ قَالُوا: بِلَى يَا رَسُولَ اللهُ قَالَ: ﴿ كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفِ أَغْبَرَ أَشْمَتُ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْيَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ ﴾ .

وقال عَمْرانُ بِن حَصِينَ: كانت لي من رسول الله على منزلة وجاه، فقال: «يا عَمْرَانُ، إِنْ لَمُكَ عِنْدَنَا مَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ عَلَيْكُمْ أَأَذَخُلُ؟ فقالت: ادخل مقام وقمت معه حتى وقف بباب فنظمة، فقرع الباب وقال: «السلامُ عَلَيْكُمْ أَأَذَخُلُ؟ فقالت: ادخل يا رسول الله قال: «حَمْرَانُ فقالت فاظمة: يا رسول الله قال: «حِمْرَانُ فقالت فاظمة: والذي بعثك بالدق نبياً ما علي إلا عباءة. قال: «اصْتَعِي بِها له كَذَا وَله كَذَا وَهُرَانُ وأشار بيده، فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال: «شدّي على رأسك» ثم أذنت له فدحل فقال: «السّلامُ عَلَيْكُمْ بِا إَنْتَنَاهُ، كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟» قالت: أصبحت والله وجعة ورادني وجعاً على ما فذك له أني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع، فبكى رسول الله عَلَيْ وقال: «لا تَجْزَعِي يا ابْتَنَاهُ وَلُو سَالَتْ رَبِّي لأَطَعَمْنِي وَلْكِن آثَرَتُ الآخِرَةُ عَلَى اللهِ مِنْكِ، وَلُو سَالْتُ رَبِّي لأَطَعَمْنِي وَلْكِن آثَرَتُ الآخِرَةُ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى الله عَلَى المُنتَاءُ بَنَاهُ وَمُو بَلُ الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَى الله عَلَى الله المَنْ وَي لللهِ عَلَى الله المَنْ وَلَى الله المَناءِ والله المَنْ وَلَى الله المَنْ وَلُو سَالُهُ وَلُكِ اللهُ عَلَى الله المَنْ أَنْ الله المَنْ وَالله المَنْ أَلُكُمْ الله وَلُو الله الله المَنْ أَنْ الله الله الله الله الله الله الله المَن الله عَلَى وَلا نَصَبُ وَالله وَالله الله الله الله الله الله الله النيا وسيداً في الآخرة في الله الله الله الله المَن المَن الله المَن المَن المَن المَن المَن المَن المَن المَن المَن الله المَن الله المَن الله المَن المَن

وروي عن على كرم الله وجهه: أنَّ رسُول الله عَلَى قال: «إِذَا أَبْغَضَ النَّاسُ فُقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عمَارَةُ النَّنْيَا وَتَكالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِم رَمَاهُم اللَّهُ بِأَرْبَعِ خِصَالِ: فَالْقَحْطُ مِنَ الرَّمَانِ، وَالجَوْرُ مِنَ السُّلْطَانِ، وَالخِيَانَةُ مِن ولاةِ الأَحْكَامِ، وَالشَّوْكَة مِنَ الأَغْذَاءِ اللَّهِ .

 ⁽١) حديث: إن عبدالرحس بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة. رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد، قال الترمذي: حسن صحيع.

 ⁽٢) حديث: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا؛ متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم.

⁽٣) حديث: دخل على رجل فقير ولم ير له شبئاً فقال: ﴿لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده.

 ⁽³⁾ حديث: «ألا أخيركم عن ملوك الجنة...» الحديث، متمق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصراً ولم يقل:
 «ملوك» وقد تقدم، ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاد: «ألا أخيركم عن ملوك الجنة...» الحديث، دون قوله
 «أخير أشعث».

حدیث عمران بن حصین. کانت لي من رسول الله ﷺ منزلة رجاه، فقال: قیا صعران، إن لك عندنا منزلة وجاها،
 فهل لك في عیادة فاطمة؟٤ الحدیث. تقدم.

⁽٣) حديث: «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة اللنياء..» الحديث، أخرجه أبو منصور النيلمي بإسناد فيه جهالة، وهو منكر.

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشدّ حبساً أو قال: أشدّ حساباً من ذي الدرهم.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزيناً كثيباً فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشد من ذلك، ثم قال أريني درعك الخلق فشقه وجعله صرراً وفرقه، ثم قام يصلي ويبكي لى الغداة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عِلَمَ الْعَدَاة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غِمَارِهِمْ فَيُؤخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ ('').

 وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه، ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له: أيها تريد.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخطّ، لو كنت غنياً لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل: ما رأيت المغنى أذل منه في محلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم؛ لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الباطن كما يخاف خلقه في الطاهر لسعد في الدارين جميعاً.

وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغني وأهان بالفقر.

[وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرنَ أحداً لخلقان ثيابه فإن ربك وربه واحد].

وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكنب السالفة: أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صباً.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرّق مائة ألف درهم في يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإنّ درعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه! وكانت صائمة، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت، وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: ﴿إِنْ أَرَدْتِ اللَّحُوقَ بِي فَعَلَيْكِ بِمَيْشِ الفُقَرَاءِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلا تُلزَعَي دِرْعَكِ حَتَّى تَرْقَعِيهُ (٢٠).

تُ وجاءً رجَل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم؛ لا أفعل ذلك أبداً. له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً. رضى الله عنه.

⁽١) حديث سعيد بن عامر: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام. . . * الحديث. وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كثيباً حزيناً وعرقها، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال: «تسعين عاماً» وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه، وفي رواية له . «بأربعين سنة» وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث قال لعائشة: «إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإياك ومجالسة الأغنياء. . . ه الحديث . أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم وصححه نحوه من حديثها، وقد تقدم.

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين:

قال رسول الله ﷺ: «طُوبى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيشُهُ كَفَافاً وقَنِعَ بِهِ (') وقال ﷺ: «يا مَعْشَرَ الفَقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفُرُوا بِثَوَّابٍ فَقْرِكُمْ وَإِلاَّ فَلاَه '' ، فالأول القائع وهذا الراضي، ويكاد يشعر هذا بمفهومه أنّ الحريص لا ثواب له على فقره، ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أنّ له ثواباً كما سيأتي تحقيقه، فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، وربّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله، فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ لِكُل شَيْءٍ مِفْتَاحاً وَمِفْتَاحُ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣٠ُ. الْمَسَاكِينِ وَالفُقَرَاءِ لِصَبْرِهِمْ؛ هُمْ جُلَسَاءُ اللهِ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣٠ُ.

وروي عن علي كرم الله وجهه: عن النبي على أنه قال: «أَحَبُ العِبَادِ إِلَى اللّهِ تَعَالَى الْفَقِيرُ الْقَائِمُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللّهِ تَعَالَى اللّهِ تَعَالَى اللّهُمَّ الْجَعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدِ كَفَافَاه (°). وقال: «ما مِنْ أَحَدِ غَنِيْ ولا فَقِيرِ إِلاَّ وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْهُ كَانَ أُوْتِي قُوتاً فِي الدُّنْيَاه (٢)، وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال: ومن هم؟ قال: الفقراء الصادقون. وقال على اللهُ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِيلَه (٧)، وقال عَلَيْ: «لاَ أَحَدَ أَفْضَلُ مِنَ الفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِيلَه (٧)، وقال عَلَيْ: «يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ صَفْوتِي مِنْ خَلْقِي؟ أَفْضَلُ مِنَ الفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِيلَه (٧)، وقال عَلَيْ: المَسْلِمِينَ القَانِمُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي، أَذْخُلُوهُمُ فَتَقُولُ المَلاثِكَةُ: وَمَنْ هُمْ يَا رَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: فَقَرَاءُ المُسْلِمِينَ القَانِمُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدَرِي، أَذْخُلُوهُمُ الْبَعْدَةَ. فَيَذْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ يَتَرَدُّدُونَه (١٨)، فهذا في القانع والراضي. وأما الناه الله تعالى.

وأما الآثار: في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أنّ القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر واليأس غنى، وإنه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم.

 ⁽١) حديث: (طويس لمن هدي للإسلام وكان عبشه كفافاً وقنع به) رواه مسلم، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلويكم. . .٩ الحديث، رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف جداً، فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث.

 ⁽٣) حديث: •إن لكل شيء مفتاحاً ومفتاح الجنة حب المساكين. . . ٤ الحديث. رواه الدارقطني في غرائب مالك، وأبو
 بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر.

 ⁽³⁾ حديث: «وأحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي عن الله» لم أجده بهذا اللفظ، وتقدم عند ابن ماجه حديث:
 «إن الله يحب الفقير المتعفف».

حديث: «اللهم اجعل وزق آل محمد كفافأ» أحرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ: «قوثاً»، وقد تقدم.

 ⁽٦) حديث: قما من أحد فني ولا فقير إلا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا، أخرجه ابن ماجه من حديث أنس،
 وقد تقدم.

 ⁽٧) حديث: (لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً»، لم أجده بهذا اللفظ.

 ⁽A) حديث: (يقول الله يوم القيامة: أبن صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: ومن هم يا ربنا؟ فيقول: ققراه المسلمين. . » الحديث. وواه أبو منصور الديلمي في مستد الفردوس.

وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش؛ يا ابن آدم: قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: ما من أحد إلا وفي عقله نقص، وذلك أنه إذا أتنه الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك، ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغني؟ قال: قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان؟ فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم؛ إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل، أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبعت؟ قال: نعم. قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

ومرَّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبدالله، أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلي. قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج حبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدّقوه، ثم قرأ: ﴿وَفِي الشَّمَاةِ رِلْفَكُرْ وَمَا نُوْعَدُونَ ۞ فَوَرَبِ ٱلنَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَاۤ أَنَّكُمْ نَطِقُونَ ۞﴾ [الذّاريَات: ٣٣،٣٢].

وكان أبر ذرّ رضي الله عنه يوماً جالساً في الناس فأتته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة، فقال: يا هذه، إن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلا كل مخف، فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مما في أيدي الناس.

وروي: أنّ الله عزّ وجلّ قال في بعض الكتب السالفة المنزلة: يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن إليك.

وقد قبل في القناعة:

اضرع إلى الله لا تسفسرع إلى السناس واستسفس عسن كل ذي قربسي وذي رحم

وقد قيل في هذا المعنى أيضاً:

يا جامعها مانيعا والدهر يرمقه مفكراً كيف تأتسيه منيسته جمعت مالاً فقل لي: هل جمعت له السمال عنددك مخورة ليوارثه

واقستع بسيساس فسإن السعسزَّ فسي السيساسِ إنَّ السغسنسي مسن اسستسغسنسي عسن السنَّساسِ

مسقدراً أي بساب مسنسه يسغسلسفُسه أغساديساً أم بسهسا يسسري فستسطرقُسه يسا جسامسع السمسال أيسامساً تسفسرَقُسه مسا السمسالُ مسالسك إلا يسوم تسنسفسفُسه

أرف بسال فتى يخدو على ثقة فالبجروش من مصون ما يدنسه إن القناعة من بحلل بساحتها

أنّ السني قسسم الأرزاق يسرزقه والموجه منه جمليدً ليس يخلفه لم يسبن قي ظملها هَمَمُ يسؤرُقُه

بيان فضيلة الفقر على الغني:

اعلم: أنّ الناس قد اختلفوا في هذا، فذهب الجنيد والخوّاص والأكثرون إلى تفضيل الفقر، وقال ابن عطاء العني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر، ويقال: إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته محنة، وقد ذكرما ذلك في كتاب الصبر، وبينا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأنّ ذلك لا يمكن إلا بتفصيل.

فأما الفقر والغنى إذا أخذا مطلقاً لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر، ولا بدّ فيه من تفصيل فنقول: إنما يتصوّر الشك في مقامين.

أحدهما: فقير صابر ليس بحريص على الطلب، بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصاً على إمساك المال.

والثاني: فقير حريص مع غني حريص؛ إذ لا يخفى أنّ الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص، أما الأوّل فريما يظن أن الغني أفضل من الفقير، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال، والغني متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه، وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه، فأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا ينصور أن يفضل على العقير القانع، وقد يشهد له ما روي في الخبر: أنّ الفقراء شكوا إلى رسول الله على سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد، فعلمهم كلمات في التسبيح، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء، فتعلم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه، فعاد الفقراء إلى رسول الله على فأخبروه، فقال عليه السلام: «ذلك قَصْلُ اللّه يُؤثِيهِ مَنْ يَشَاءُه".

وقد استشهد ابن عطاء أيضاً لما سئل عن ذلك فقال: الغني أفضل لأنه وصف الحق، أما دليله الأوّل ففيه نظر؛ لأنّ الخبر قد ورد مفصلاً تفصيلاً يدل على خلاف ذلك: وهو أنّ ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الغني، وأنّ فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء، فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث الفقراء رسولاً إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رسول الفقراء إليك؛ فقال: همَرْحَباً بِكَ وَبِمَنْ جِثْتَ مِنْ عِنْدِهِمْ قَوْمٌ أُحِبُهُمْ، قال: قالوا: يا رسول الله، إنّ الفقراء الإغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه، ويعتمرون ولا نقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم؛ فقال النبي ﷺ: هبَلَغْ عَنِي الفَقرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ قَلاثَ خِصَالِ لَيْسَتُ لِلأَغْنِيَاءِ. أما خَصْلةً وَاحِلةً: قَإِنْ فِي الْبَحَنِّةِ غُرَفاً يَنْظُرُ إِلَيْها أَهُلُ الجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهُلُ الْأَرْضِ إِلَى نُجُومِ السَّمَاءِ، لا يَدْخُلُها إِلاَّ نَبِيُ فَقِيرٌ، أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ، أَوْ شَهِيدٌ فَقِيرٌ، وَالنَّانِيَةُ: يَذْخُلُ الفُقرَاءَ الجَنَّة قَبْلَ

 ⁽١) حديث: شكا الففراء إلى رسول الله ﷺ سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات... الحديث. وفي آخر: فقال: فذلك
 فضل الله يؤتيه من يشاء، منفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه.

الأُغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَهُوَ خَمْسُمِاتَةِ مَامٍ، وَالثَّالِئَة: إِذَا قَالَ الغَنِيُّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرٍ، وَقَالَ الْفَقِيرِ، وَقَالَ الْفَقِيرِ، وَقَالَ الْفَقِيرِ، وَقَالَ الْفَقِيرِ، وَقَالَ الْفَقِيرِ، وَلَوْ أَنْفَقَ فِيها هَشَرَةَ آلافِ دِرْهَم، وَكَذَٰلِكَ أَهْمَالُ اللّهِ كُلُها، فرجع إليهم فأخبرهم مما قال رسول الله ﷺ فقالوا: رضينا رضينا (، فهذا يدُل على أنْ قوله: «فَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُه أي مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم.

وأما قوله: إنَّ الغني وصف الحق، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال: أترى أنَّ الله تعالى غني بالأسباب والأعراض، فانقطع ولم ينطق، وأجاب آخرون فقالوا: إنَّ التكبر من صفات المحقَّ فينبغي أنَّ يكون أفضل من التواضع، ثم قالوا: بل هذا يدل على أنَّ الفقر أفضل؛ لأن صفات العبودية فضل للعبد كالخوف والرجاء، وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها، ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا ﷺ: الكِبْرِيَاءُ رِدَاثِي وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاجِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ،(٧). وقال سهل: حب العز والبقاء شرك ُفي الربوبَية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى؛ فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الغنى والفقر، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها؛ إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب تعالى، والجهل والغفلة وصف العبد، وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم، فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر؛ وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، ولا الفقر مطلوباً لعينه لكن لأنَّ فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه، وكم من غني لم يشغله الغني عن الله عزّ وجلّ مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما، وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد، وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن، والفقر قد يكون من الشواغل كما الغني قد يكون من الشواغل، وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا؛ إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى في القلب، والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله، وربما يكون شغله في الفراق أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، المحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. فإذن: إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد؛ إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده؛ إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرَّفة. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد؛ إذ فتَّنة السراء أشدَّ من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا يقدر، ولذلك قال الصحابة رضى الله تعالى عنهم: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وبلينا

⁽١) حديث زيد بن أسلم عن أنس: بعث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولاً: أن الأغنياء ذهبوا بالجنة، يحجون ولا نقدر عليه. . الحديث، وفيه: قبلغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء...» الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر: اشتكى فقراء الم أجده هكذا بهذا السياق، والمعروف في هذا المعنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر: اشتكى فقراء المؤمنين المهاجرين إلى رسول الله ﷺ ما فضل الله به عليهم أغنياءهم، فقال: فيا معشر الفقراء ألا أبشركم إن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنياتهم بنصف يوم خمسمائة عام، وإسناده ضعيف.

 ⁽٢) حديث: قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري. تقدم في العلم وغيره.

كتاب الفقر والزهد

بفتنة السراء فلم نصبر. وهذه خلقة الأدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا . نادراً.

ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر _ والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر _ زجر الشرع عن الغنى وذمه، وفضل الفقر ومدحه، حتى قال المسيح عليه السلام: لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم.

وفي الخبر: «إنّ لكل أمة عجلاً وعجل هذه الأمة الديتار والدرهم»(١١)، وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيصاً، واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصوّر للأنبياء عليهم السلام والأولياء، ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة؛ إذ كان النبي ﷺ يقول للدنيا: ﴿ إِلَيْكِ مَنِّي ٣٠ ﴾. إذ كانت تتمثل له بزينتها، وكان على كرم الله وجهه يقول: يا صفراء، غرّي غيري، ويا بيضاء غرى غيري، وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادىء الاغترار بها لولا أن رأى برهان ريه، وذلك هو الغنى المطلق؛ إذ قال عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الْغِنَى مِنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسه(٣). وإذا كان ذلك بعيداً فإذن الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدَّقوا به وصرفوه إلى الخيرات، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنَّس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم، وبقدر ما يأنّس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة، وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه، ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها، والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمناً بالله انصرف لا محالة إلى الله؛ إذ لا يتصوّر قلب فارغ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره، فمن أقبل على غيره فقد تجافي عنه ومن أقبل عليه تجافي عن غيره، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر، ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنهما جهتان، فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر، فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى، فينبغي أن يكون مطمح نطر العارف قلبه في عروبه عن الدنيا وأنسه بها، فإذن: فضل العقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط، فإن تساويا فيه تساوت درجتهما، إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور، فإنّ الغني ربما يظنّ أنه منقطع القلب عن المال، ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به، وإنما يشعر به إذا فقده، فليجرّب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه، فإن وجد لقلبه إليه التفاتأ فليعلم أنه كان معروراً، فكم من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه، فتحقق إذن أنه كان مغروراً، وأنَّ العشق كان مستكناً في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد، وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء. وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل، لأنّ علاقة الفقير وأنسه بالدنيا

⁽١) حديث: «لكل أمة هجل، وهجل هذه الأمة الدينار والدرهم» رواه أبر منصور الديلمي من طريق أبي عبدالرحمن السلمي من حديث حذيقة بإسناد فيه جهالة.

⁽٣) حديث: كان يقول للدنيا: ﴿إِلٰمِكَ صَنَّى، . . ؟ المحديث، رواه الحاكم مع اختلاف. وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: اليس الغني عن كثرة العرض . . ؟ الحديث. متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

أضعف ويقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته، فإنّ حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول، ولذلك قال بعض السلف: مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفىء النار مالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى. تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام.

وعن الضحاك قال: من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهيه فصبر واحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى.

وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله: ادع الله لي فقد أضرّ بي العيال، فقال: إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت، فإنّ دعاءك أفضل من دعائي. وكان يقول: مثل الغني المتعمد مثل روضة على مزيلة، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء. وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء. وقد قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: اللهم إني أسألك الذل عند النصف من نفسي، والزهد فيما جاوز الكفاف. وإذا كان مثل الصدّيق رضي الله عنه في كماله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أنَّ فقد المال أصلح من وجوده هذا، مع أن أحسن أحوال الغني أن بأخذ حلالاً وينفق طيباً، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره، ومن نوقش الحساب فقد عذب، ولهذا تأخر عبدالرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولاً بالحساب كما رآه رسول الله ﷺ، ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما أحب أنَّ لي حانوتاً على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين ديناراً وأتصدّق بها في سبيل الله تعالى. قيل: وما تكره؟ قال: سوء الحساب، ولذلك قال سفيان رحمه الله: اختار الفقراء ثلاثة أشياء، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء. اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب، واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدّة الحساب. وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح، ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوي عنده كلاهما، فأما إذا كان غنياً بوجّوده ومفتقراً إلى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى؛ لأن الله تعالى غني بذاته لا بما يتصوّر زواله، والمال يتصوّر زواله بأن يسرق، ومَا ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنياً بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد لقاء المال، وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح، بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد، بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وقد سمعت بعض المشايخ يقول: إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له: أي يكون له من كل واحد تصيب، وأما التكبر فلا يليق بالعبد، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى، وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطبع على العاصي فيليق به. نعم، قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى، وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك، والعبد مأمور به بأنه يطلب أعلى المراتب إن فدر عليه، ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس، فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر، والمطبع أكبر من العاصي، والعالم أكبر من الجاهل، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات، وأقرب إلى الله تعالى منها. فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولاثقة به وفضيلة في حقه، إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فإن ذلك موقوف على الخاتمة، وليس يدري المخاتمة كيف تكون وكيف تتفق؟ فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر؛ إذ ربما يختم للكافر بالإيمان، وقد يختم له بالكفر، فلم يكن ذلك لاثقاً به لقصور علمه عن معرفة العاقبة. ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالاً في حقه لأنه في صفات الله تعالى، ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصاناً في حقه إذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تنصور في العبد من صفات الله تعالى، فلا جرم هو منتهى القضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء، فإذن: لو استرى عنده وجود المال وعلمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه وتعالى فهو فضيلة، أما الغني بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً. فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغني الشاكر.

杂卷袋

المقام الثاني: في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص

ولنقرض هذا في شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده، فله حالة الفقد وحالة الوجود، فأي حالتيه أفضل؟ فنقول: ننظر فإن كان مطلوبه ما لا بدّ منه في المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل، لأنّ الفقر يشغله بالطلب، وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخوله بشغل، والمكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: ﴿ اللَّهُمُّ الْجُمَلُ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كُفَافاً، وقال: «كاد الفقر أن يكون كفراً» أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بدّ منه، وإن كان المجلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح؛ لأنهما استويا في الحرص وحب المال، واستويا في أنَّ كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرّض لمعصية بسبب الفقر والغني، ولكن افترقا في أنّ الواجد بأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي يبغي الخلاص منه، ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشدّ ركوناً إلى الدنيا، فحاله أشدّ لا محالة؛ إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: ﴿إِنَّ رُوحَ القُدُس نَفَتُ فِي روعِي: أَحْبِبْ مَنْ أَخْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُه^(١)، وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه. وكل من فارق محبوباً فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد أنسه، وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وإن كان حريصاً عليها، فإذن: قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين: أحدهما: غني مثل غني عائشة رضي الله عنها يستوي عنده الوجود والعدم، فيكون الوجود مزيداً له؛ إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم؛ والثاني: الفقر عن مقدار الضرورة

 ⁽١) حديث: (إن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحبت فإنك مفارقه). تقدم.

فإن ذلك يكاد أن يكون كفراً، ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبقي حياته ثم يستعين بقوّته وحياته على الكفر والمعاصي، ولو مات جوعاً لكانت معاصيه أقل، فالأصلح له أن يموت جوعاً ولا يجد ما يضطر إليه أيضاً. فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر. ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه، وفي غني دونه في الحرص على حفظ المال، ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بُعدهما عن الله تعالى بقدر قوّة نفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده؛ والعلم عند الله تعالى فيه.

بيان آداب الفقير في فقره:

اعلم: أنَّ للفقير آداباً في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها.

فأما أدب باطنه: فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر، أعني أنه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ـ وإن كان كارها للفقر _ كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام، بل ربما يتقلد منه منة، فهذا أقل درجاته وهو واجب، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر، وهو معنى قوله عليه السلام: إيا مَعْشَرَ الفُقرَاءِ أَعْطُوا اللَّة الرَّضَا مِن قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابٍ فَقْرِكُمْ وَإِلا فَلا وأرفع من هذا أن لا يكون كارها للفقر بل يكون راضياً به، وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعلمه بغوائل الغنى، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى، واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة، ويكون كارها للزيادة على الكفاف. وقد قال علي كرّم الله وجهه؛ إنّ لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة: أن يحسن عليه خلقه ويطبع به تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر؛ من علامات الفقر إذا كان مثوبة: أن يحسن عليه خلقه ويطبع به ربه ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علاماته إذا كان عقوبة: أن يسوء عليه خلقه ويعصي ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء، وهذا يدل أنّ كل فقير فليس بمحمود، بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر لعلمه بثمرته؛ إذ قيل: ما أُعطي عبد شيئاً من الدنيا إلا المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر لعلمه بثمرته؛ إذ قيل: ما أُعطي عبد شيئاً من الدنيا إلا قبل له: خذه على ثلاث أثلاث: شغل، وهم، وطول حساب.

وأما أدب ظاهره: فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر، بل يستر فقره ويستر أنه يستره ففي الحديث: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجِبُ الفَقِيرَ المُتَعَفِّفَ أَبا المِيالِ» وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ الْمَنْعَفِّفَ أَبا المِيالِ» وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ الْمَنْعَفِّفِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَقَالَ بعضهم: أَضِيانَ أَنْفُلُ اللَّهُ مَن كُنُوزُ اللِهِ .

وأما في أعماله فأدبه: أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، بل يتكبر عليه. قال علي كرّم الله وجهه: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى، وأحسن منه تبه الفقير على الغني ثقة بالله عزّ وجلّ، فهذه رتبة، وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادىء الطمع. قال الثوري رحمه الله: إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه مراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين: إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء.

وأما أدبه في أفعاله: فألاً يفتر بسبب العقر عن عبادة، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه، فإنّ ذلك جهد المقل، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غني. روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله على: فيزهَم مِنَ العَمْدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللّهِ مِنْ مائة اللّهِ وزهَم، قيل: وكيف ذلك

يا رسول الله؟ قال: «أَخْرَجَ رَجُلٌ مِنْ عَرْضِ مَالِهِ مائَةَ أَلْفِ دِرْهَم فَتَصَدَّقَ بِهَا، وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَماً مِنْ دِرْهَمَيْنِ لا يَمْلِكَ غَيْرِهُمَا طَيْبَةً بِهِ نَفْسُهُ، فَصَارَ صَاحِبُ الدَّرْهَمِ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِ المائَةِ أَلْفَ (١)، وينهغي ألاً يدّخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الناقي وفي الادخار ثلاث درجات.

إحداها: أن لا يدّخر إلا ليومه وليلته وهي درجة الصدّيقين.

والثانية: أن يدّخر لأربعين يوماً فإنّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل، وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة في أمل الحياة أربعين يوماً. وهذه درجة المتقين.

والثالثة: أن يذخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين، ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية، فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته، وغنى الخصوص في أربعين يوماً، وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة، وقد قسم النبي على نساءه على مثل هذه الأقسام. فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل، وبعضهن قوت أربعين يوماً، وبعضهن يوماً وليلة وهو قسم عائشة وحفصة.

بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال:

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال: فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب.

وأما غرض المعطي: فلا يخلو: إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة، والذكر والرباء والسمعة إما على التجرّد، وإما ممزوجاً ببقية الأغراض.

أما الأوّل: _ وهو الهدية _ فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ ولكن ينبغي ألأ يكون فيها منة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض؛ فقد أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش، فقبل السمن والأقط ورد الكبش (٣٠) وكان ﷺ يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٤٠)، وقال: القَدْ هَمَنْتُ أَلاَّ أَتَّهِبَ إِلاَّ مِنْ قُرَشِيَ أَوْ تُقَقِيَ وَكَانَ ﷺ يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٤٠)، وقال: القَدْ هَمَنْتُ أَلاَّ أَتَّهِبَ إِلاَّ مِنْ قُرَشِيَ أَوْ تُقَقِيَ وَالَّا اللهِ فَتَح الموصلي صرة فيها خمسون

⁽١) حديث زيد بن أسلم. قدرهم من الصدقة أفضل عند الله من ماثة ألف قبل: وكيف يا رسول الله؟ قال: "أخرج رجل من عرض ماله ماثة ألف... الحديث. أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة منصلاً، وقد تقدم في الزكاة، ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلاً.

⁽٢) حديث: أن قبول الهدية سنة: تقدم أنه ﷺ كان يقبل الهدية.

⁽٣) حديث: أهدي إلى النبي على سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد الكبش. أخرجه أحمد في أثناء حديث ليعلى بن مرة: وأهديت إليه كبشين وشيئاً من سمن وأقط، فقال النبي على: «خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد هليها الآخرة وإسناده جيد. وقال وكيم: مرة عن يعلى بن مرة عن أبيه.

 ⁽٤) حديث: كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض، رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة: قواهم الله لا
 أقبل بعد يومي هذا من أحد هدية إلا أن يكون مهاجرياً. . . الحديث. نيه محمد بن إسحاق ورواه بالعنعنة.

 ⁽٥) حديث: «لقد هممت أن لا أتهب إلا من قرشي أو ثقفي أو أتصاري أو دوسي» أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: روي من غير وجه عن أبي هريرة، قلت: ورجاله ثقات.

درهماً فقال: حدّثنا عطاء عن النبي هي أنه قال: «مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ هَيْرِ مَسْأَلَةٍ قَرَهُهُ فَإِنّما يَرُدُهُ عَلَى اللّهِهُ(١)، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهماً ورد سائرها. وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضاً، ولكن حمل إليه رجل كيساً ورزمة من رقيق ثياب خراسان، فرد ذلك وقال: من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق. وهذا يدل على أنّ أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء. وقد كان الحسن يقبل من أصحابه. وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول: انركه عندك وانظر إن كنت معد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه وإلا فلا، وأمارة هذا: أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في فبول صديقه هديته، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكمه مكروه عند الفقراء الصادقين. وقال بشر: ما سألت أحداً قط شيئاً والا سريا السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا، فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب. وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال: أفرقه على الفقراء، فقال: ما أريد هذا. قال: ومني أعيش حتى آكل هذا؟ قال: ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوات والطيبات، فقبل ذلك منه، فقال الخراساني: ما أجد في بغداد أمنً على منك، فقال الجنيد: ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك.

الثاني: أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة. وإن كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرّب إلى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه، كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن، فإنّ أخذه حرام محض لا شبهة فيه.

الثالث: أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله؛ إد يكون معيناً له على غرضه الفاسد. وكان سعيان الثوري يرد ما يعطى ويقول: لو علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت. وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال: إنما أرد صلتهم إشفاقاً عليهم ونصحاً لهم؛ لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم.

وأما غرضه في الأخذ: فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بدّ منه أو هو مستغن عنه، فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ، قال النبي على: هما المُعْطِي مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْراً مِنَ الآخِذِ إذا كَانَ مُحْتَاجاً (٢٠)، وقال على: همَنْ أَتَاهُ شَيْءً

⁽۱) حديث عطاه مرسلاً: قمن أثاه رزق من فير وسيلة فرده فإنما يرد على الله عز وجل، لم أجده مرسلاً هكدا، ولأحمد وأبي يملى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني: قمن بلغه معروف من أخيه من فير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده فإنما هو رزق ساقه الله هز وجل إليه، وأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة: قمن آتاه الله من هذا المال شيئاً من فير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر: قما أتاك من هذا المال وأنت فير مشرف ولا سائل فخله. . . . الحديث.

 ⁽٣) حديث: «ما المعطي من سعة بأعظم أجرأ من الآخذ إذا كان محتاجاً» رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وقد تقدم في
الركاة.

مِنْ لهذا المالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا اسْيَشْرَافٍ فَإِثْمَا لهُو رِزْقٌ سَاقَهُ اللّهُ إِلَيهِ (1)، وفي لفظ آخر: "فلا يرده، وقال بعض العلماء: من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يعط. وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئاً فرده مرة، فقال له السري: يا أحمد، احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ، فقال له أحمد: أعد علي ما قلت! فأعاده، فقال أحمد: ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر، فاحبسه لي عدك، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إليّ. وقد قال بعض العلماء: يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره، فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو: إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة، فإنّ ذلك محض اتباع الهوى، وكل عمل ليس لله فهو سبيل الشيطان أو داع إليه، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ثم له مقامان:

أحدهما: أن يأخذ في العلانية ويرد في السر، أو يأخذ في العلانية ويفرّق في السر، وهذا مقام الصديقين، وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة.

والثاني: أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه، فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية. وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه؟ في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه. وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطى رحمهما الله. فإنما كان لاستغنائه عنه؛ إذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره؛ فإنَّ في ذلك آفات وأخطاراً، والورع يكون حذراً من مظانَّ الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه. وقال بعض المجاورين بمكة: كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله، فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي: أنا جائع كما ترى عريان كما ترى. فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى، فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه، فقلت في نفسي: لا أجد للراهمي موضعاً أحسن من هذا؛ فحملتها إليه، فنظر إليها ثُم أخذ منها خمسة دراهم وقال: أربعة ثمن متزرين، ودرهم أنفقه ثلاثاً فلا حاجة بي إلى الباقي فرده. قال: فرأيته الليلة الثانية وعليه متزران جديدان، فهحس في نفسي منه شيء، فالتفت إلى فأخذ بيدي، فأطافني معه أسبوعاً كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين؛ منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر، ولم يظهر ذلك للناس، فقال: هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنَّ هذه أثقال وفتنة، وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة، والمقصود من هذا: إن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وفتة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه، وقدر الحاجة يأتيك رفقاً بك، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَمَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَمَّا لِنَبْلُوكُرْ أَيُّهُمْ أَخْسَنُ عَسَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقد قال ﷺ: ﴿لا حَقَّ لابْنِ آدَمَ إلاَّ في ثَلاثِ: طَعَام يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبِ يَوَارِي عَوْرَتُهُ، وَبَيْتِ يُكِنُّهُ، فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ اللهُ

حدیث: «من أثاه شيء من هذا المال من غیر مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إلیه» وفي لفط آخر: «قلا یرده»، تقدما قبل هذا بحدیث.

 ⁽۲) حديث: «لاحق لابن آدم إلا في ثلاث: طعام يقيم صلبه، وثوب يواري عورته، وبيت يكنه فما زاد فهو حساب، أخرجه
 الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال: «وجلف الخبز والعاء» بدل قوله: «طعام يقيم صلبه» وقال: صحيح

فإذن : أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب، وإن عصيت الله فأنت متعرّض للعقاب.

ومن الاختبار أيضاً: أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقرّباً إلى الله تعالى وكسراً لصلة النفس فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن بها قوّة عقلك، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها، فرد ذلك مهم وهو الزهد، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد، ولا يقدر عليه إلا الصدِّيقون: وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخد ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدّخره، فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار، فريما يحلو في قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك، وقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك، ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظنّ بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة، فإن رزقه الله من حلال قضاه، وإن مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد، بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة، ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقصِي من مال بيت المال ومن الزكاة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِرْقُتُم فَلِمُنفِقَ مِمَّآ مَانَنَهُ أَللَهُ﴾ [الطّلاَق: ٧] قيل معناه: لببع أحد ثوبيه. وقيل معناه: فليستقرض مجاهه، فذلك مما آتاه الله. وقال بعضهم: إن لله تعالى عباداً ينفقون على قدر بضائعهم، ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف: الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقيل: من هؤلاء؟ فقال: أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى، وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله تعالى، وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى، فإذن: مهما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطى فليأخذه، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى؛ لأنَّ المعطى واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطر إليه بما سلط عليه من الدواعي والإرادات والاعتقادات، وقد حكي أن بعض الناس دعا شقيقاً في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل ماثدة حسنة، فلما قعد قال الأصحابه: إن هذا الرجل يقول: من لم يرن صنعت هذا الطعام وقدَّمته قطعامي عليه حرام، فقاموا كلهم وخرجوا إلا شاباً منهم كان دونهم في الدرجة، فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال: أردت أن أختبر توحيد أصحابي كلهم، وقال موسى عليه السلام: يا رب، جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً ويعشيني هذا ليلة! فأوحى الله تعالى إليه هكذا أصنع بأوليائي، أجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطى إلا من حيث إنه مسخر مأجور من الله تعالى، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه.

بيان تحريم السؤال من غير ضرورة؛ وآداب الفقير المضطر فيه:

اعلم: أنه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات، وورد فيه أيضاً ما يدل على الرخصة؛ إذ

قال ﷺ: «لِلسَّائِلِ حَقَّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ» (١٠)، وفي الحديث: ﴿ وُدُوا السَّائِلَ وَلَوْ بِظِلْفِ مُحَرَّقِ (٢٠)، ولو كان السؤال حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المتعدّي على عدوانه والإعطاء إعانة، فالكاشف للغطاء فيه: أن السؤال حرام في الأصل وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بدّ فهو حرام، وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا يتقك عن ثلاثة أمور محرمة.

الأول: إظهار الشكوى من الله تعالى؛ إذ السؤال إظهار للفقر ودكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى، وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعاً على سيده، فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا لضرورة كما تحل الميتة.

الثاني: أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل نفسه لغير الله، بل عليه أن يذل لهم إلا لضرورة، وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

الثالث: أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤول غالباً؛ لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ، وإن منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البخلاء، ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه، وكلاهما مؤذيان، والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلا بضرورة، ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله على: «مَسْأَلَةُ النّاسِ مِنَ الفَوَاحِشِ ما أُحِلِّ مِنَ الفَوَاحِشِ فَيرُهَا» من فانظر كيف سماها فاحشة، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره. وقال على: «مَنْ سَأَلَ مَنْ خِنَى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَغْرِ جَهَنَّمَ» (ف)، «وَمَنْ سَأَلُ وَلَهُ مَا يُغْيِهِ جَاءً يَوْمَ عَره. وقال على الأفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبايع رسول الله على الإسلام فاشترط وَجْهِهِهُ " وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد. وبايع رسول الله على الإسلام فاشترط

⁽۱) حديث: اللسائل حق وإن جاء على قرس وواه أبو داود من حديث الحسين بن علي، ومن حديث علي، ومن حديث علي، ومي حديث علي، وعي الأول يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان، وفي الثاني شيخ لم يسم، وسكت عليهما أبو داود، وما ذكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه بلغه عن أحمد بن حنبل قال: أربعة أحاديث تدور في الأسواق لبس لها أصل منها: اللسائل حق.... الحديث، فإنه لا يصح عن أحمد، فقد أخرج حديث الحسين بن على في مسنده.

 ⁽٣) حديث: اردوا السائل ولو بظلف محرق، رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي واللفظ له من حديث أم بجيد. وقال ابن عبدالبر: حديث مضطرب.

 ⁽٣) حديث: «مسألة الناس من الفواحش، وما أحل الله من الفواحش غيرها». لم أجد له أصلاً.

٤) حديث: امن سأل عن غنى فإنه يستكثر من جمر جهنم. . . ٤ الحديث. رواه أبو داود وابن حبال من حديث سهل بن الحنظلية مقتصراً على ما دكر منه وتقدم في الزكاة، ولمسلم من حديث أبي هريرة: «من يسأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً. . . ٤ الحديث. وللبزار والطبراني من حديث مسعود بن عمر: «ولا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه» وفي إسناده لين، وللشيخين من حديث ابن عمر: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم» وإسناده جيد.

 ⁽٥) حدیث: قمن سأل وله ما یغنیه کانت مسألته خدوشاً وکدوحاً في وجهه رواه أصحاب السنن من حدیث ابن مسعود،
وتقدم في الزکاة.

عليهم السمع والطاعة ثم قال ِلهم كلمة خفية: ﴿ولا تَسْأَلُوا النَّاسُ شَيْئًا ۖ () ، وكانِ ﷺ يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال ويقول: «مَنْ سَأَلْنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا» (٧٠)، وقال ﷺ: ﴿السُّتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ فَهُوَ خَيْرٌ﴾ قالوا: ومنك يا رسول الله؟ قال: *وَمِنْيِ* (٢٠٠٠ وسمع عمر رَضي ألله عنه سائلاً يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه: عشَّ الرجل، فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال الم أقل لك عش الرجل؟ قال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت بده مخلاة مملوءة خبزاً فقال: لست سائلاً ولكن تاجر، ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربه بالدرّة، وقال: لا تعد. ولولا أنّ سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته، ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول: أما ضربه فهو تأديب وقد ورد المشرع بالتعزير، وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه، فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إواطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده؟ أفترى أنه لم يعلم أنّ المصادرة بالمال غير جائزة، أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضياً في معصية الله وحاشاه، أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبيي الله، وهيهات فإن ذلك أيضاً معصية، بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنياً عن السؤال، وعلم أن من أعطاه شيئاً فإنما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج، وقد كان كاذباً فلم يدخل في ملكه بأخذه، مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه؛ إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم، فبقي مالاً لا مالك له، فوجب صرفه إلى المصالح، وإيل الصدقة وعلفها من المصالح، ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذباً كأخذ العلوي بقوله: إني علوي وهو كاذب. فإنه لا يملك ما يأخذه، كأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه ـ وقد ذكرنا في مواضع: أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم، ويجب عليهم الرد إلى مالكه _ فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء، وقد قرّرناه في مواضع، ولا تستدل بغفلتك عن هدا الفقه على بطلان فعل عمر.

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطراً إليه، أو محتاجاً إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة. أو مستغنى عنه؛ فهذه أربعة أحوال.

أما المضطرّ إليه: فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً، والمسؤول

العديث بايع قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً». أخرجه مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي.

حديث: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أفناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا، أخرجه ابن أبي الدنيا في الثناعة،
 والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الحدري، وفيه حصن بن هلال لم أر من تكلم فيه، وباقيهم
 ثقات.

⁽٣) حديث: «استغنوا هن الناس وما قل من السؤال فهو خير...» الحديث. أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس: «استغنوا هن الناس ولو بشوص السوالك»، وإسناده صحيح، وله في حديث: «فتعففوا ولو بحزم الحطب» وفيه من لم يسم، وليس فيه: «وما قل من السؤال...» الخ.

منه بكونه راضياً في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب، فإن القادر على الكسب وهو بطال له السؤال إلا إذا استعرق طلب العلم أوقاته، وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة.

وأما المستغني: فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله وأمثاله، فسؤاله حرام قطعاً، وهذان طرفان واضحان.

وأما المحتاج حاجة مهمة: فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف، وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي إلى حذ الضرورة، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة، فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضاً حاجة محققة، ولكن الصبر عنه أولى، وهو بالسؤال تارك للأولى، ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال: ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني أذى أطبقه ولكن يشق على، فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لمؤاله إن شاء الله تعالى.

وأما العاجة الخفيفة: فمثل سؤاله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه على أعين الناس، وكمن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز، وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار، أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام، وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإبداء المسؤول فهو حرام، لأنّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات، وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة.

فإن قلت: فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات؟ فاعلم: أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الحلق ولا يسأل سؤال محتاج، ولكن يقول: أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو قضلة عن الحاجة وقصول من النفس، فيخرج به عن حدّ الشكوى، وأما الذل فبأن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله، أو الرجل السخي الذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك، فإنّ الذل لازم للمنة لا محالة. وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصاً بالسؤال بعينه، بل يلقي الكلام عرضاً بحيث لا يقدم على المذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يقدم على المذل إلا متبرع بصدق الرغبة، وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان لو قدر عليه من غير الملامة، وأما إذا كان يسأل شخصاً معيناً فينبغي ألاً يصرح بل يعرض تعريضاً يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد، فإذا لم يتغافل عنه، فإنّ الحياء من السائل يؤذي متأذ به، وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لو رده أو تغافل عنه، فإنّ الحياء من السائل يؤذي.

فإن قلت: فإذا أخد مع العلم بأن باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرام محض لا خلاف قيه بين الأمة، وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة؛ إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام، وضرب الباطن أشد تكاية في قلوب العقلاء، ولا يجوز أن يقال: هو في

الظاهر قد رضي به، وقد قال ﷺ: اإنّما أَحْكُمُ بِالظّاهِرِ وَاللّه يَتَوَلّى السّرَاثِرَ، (١)، فإنّ هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات؟ إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب، ولكن الضرورة دعت إليه، وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى، والحاكم فيه أحكم الحاكمين، والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك، فإنّ المفتي معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة، وبفتواهم النجاة من سلطان الآخرة، كما أنّ بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذاً: ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده النجاة من سطوة سلطان الدنيا، فإذاً: ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه، فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك إلى ورثته، فإن تلف معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن عهدته، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فإن تلف معرض الهدية والمقابلة ليتقصى عن عهدته، فإن لم يقبل هديته فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته، فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى، وهو عاص بالتصرف فيه بالسؤال الذي حصل به الأذى.

فإن قلت: فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه، فكيف السبيل إلى المخلاص منه، فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضياً؟ فأقول: لهذا ترك المتقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً، فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السري رحمة الله عليهما، وقال: لأبي علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فأنا أعينه على ما يحب، وإنما عظم النكير في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف بهذا، لأنّ الأذى إنما يحل بضرورة؛ وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص، ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى، فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة، فكان الامتناع طريق الورعين، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض، ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه، ومنهم من كان يأحذ ما يعطى بعضاً ويرد بعضاً، كما فعل رسول الله يشخ في الكبش والسمن والأقط، وكان هذا يأتيهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو وكان هذا يأتيهم من غير سؤال، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة، ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك، فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين:

أحدهما: الضرورة؛ فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة: سليمان، وموسى، والخضر عليهم السلام. ولا شك في أنهم ما سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم.

والثاني: السؤال من الأصدقاء والإخوان؛ فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان، لأن أرباب القلوب علموا أنّ المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان، وقد كانوا وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يهرحون بمباسطتهم، فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال، وحدّ إباحة السؤال: أن تعلم أنّ المسؤول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا بتعريف حاجتك، فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا، ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن، وحالة لا يشك في الكراهة، ويعلم ذلك بقرينة الأحوال، فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق، وفي الثانية سحت، ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فإنه الإثم، وليدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وإدراك ذلك

 ⁽١) حديث: "إنما تحكم بالظاهر والله يتولى السرائر"، لم أجد له أصلاً، وكذا قال المزي لما سئل عنه.

بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته، فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءي له ما يوافق غرضه، فلا يتفطل للقرائل الدالة على الكراهة، وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله على أون أطنيب مَا أكلَ الوّجُلُ مِنْ كَسِيهِهُ ، وقد أوتي جوامع الكلم، لأنّ من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فليأكل من أيدي الناس، وإن أعطي بغير سؤال فإنما يعطى بدينه، ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراماً، وإن أعطي بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة، فإذا فتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أنّ جميع ما يأكله أو أكثره سحت، وأنّ الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بحلالك أنت أو موزنك، فإذن: بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس. فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده، فإنه على ما يشاء قدير.

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال:

احلم: أن قوله على: "مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ خِنِي فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً فَلْيَسْتَقِلٌ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكُثِر، صريح في التحريم، ولكن حدّ الغني مشكل وتقديره عسير، وليس إلينا وضع المقادير، بل يستدرك ذلك بالتوقيف، وقد ورد في الحديث: السُّتَغْنُوا بِفِنْي اللَّهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ * قالوا: وما هو؟ قال: اغَدِّاءُ يَوْم وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ (٢)، وفي حديثِ آخر: «مَنْ سَأَلَ وَلَهُ خَمْسُونَ دِرْهَما أَوْ عِلْلَهَا مِنَ النَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافاً (٣)، وورد في لفظ آخر: ﴿ أَرْبُعُونَ دِرْهُماً ﴾ ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة، فإنَّ الحق في نفسه لا يكون إلا واحداً والتقدير ممتنع، وغاية الممكن فيه تقريب، ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول: قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا حَقَّ لَابْنِ آدَمَ إِلاَّ فِي ثَلاث: طَعَام يُقِيمُ صُلَّبَهُ وَثَوْبٍ يُوَارِي بِهِ عَوْرَتُهُ، وَبَيْتٍ يُكِنَّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ، فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات، فأما الأجناس: فهي هذه الثلاث، ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي، وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضاً. وأما المقادير: فالثوب يراعي فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس، وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه، وليقس على هذا أثاث الببت جميعاً، ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف، فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد من النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة. وأما الطعام: فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدَّره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير. والأدم على الدوام فضلة، وقطعه بالكلية

 ⁽١) حديث: «إن أطبب ما أكل الرجل من كسبه»، تقدم.

⁽٧) حديث: «استغنوا بغنى الله» قائوا: وما هو؟ قال: «غداء يوم وعشاء ليلة»، تقدم في الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية قائوا: ما يغنيه؟ قال: «ما يغليه أو يعشيه» والأحمد من حديث علي بإسناد حسن: قائوا: وما ظهر غني؟ قال: «عشاء ليلته» وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب المردوس من حديث أبي هريرة.

 ⁽٣) حديث: «من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من اللهب فقد سأل إلحافاً» وفي لفط آخر: «أربعون درهماً»، تقدما
 في الزكاة.

إضرار، ففي طلبه في بعض الأحوال رخصة. وأما المسكن: فأقله ما يجزىء من حيث المقدار وذلك من غير زينة، فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى، وأما بالإضافة إلى الأوقات: فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يسكنه فلا شك فيه، فأما سؤاله للمستقبل: فهذا له ثلاث درجات.

إحداها: ما يحتاج إليه في غد.

والثانية: ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين يوماً.

والثالثة: ما يحتاج إليه في السنة، ولنقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام، فإن ذلك غاية الغني وعليه ينزل التقدير بخمسين درهماً في الحديث، فإن خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة إذا اقتصد، أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة، فإن كان قادراً على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال؛ لأنه مستغن في الحال، وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة، وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر. وإن كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال، لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطراً عاجزاً عما يعينه، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدّة التي فيها يحتاج إلى السؤال، وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى، فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكاً طريق الآخرة، وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم، وقناعته بقوت الوقت أظهر؛ فدرجته عند الله تعالى أعلى، فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان، وقد قال تعالى: ﴿نَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٠] وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلشَّيْطَكُ يَمِلُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ ۖ وَاللَّهُ يَوْدُكُم مَّفْغِرَةً مِّنْهُ وَفَضَّلًا ﴾ [النفزة: ٢٦٨] والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة، وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشدٌ من حال من ملك مالاً موروثاً وادخره لحاجة وراء السنة، وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله، وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان أحوال السائلين:

كان بشر رحمه الله يقول: الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ؛ فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أُعطي أَخذ؛ فهذا مع المقرّبين في جنات الفردوس. وفقير يسأل عند الحاجة؛ فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين.

فإذن: قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة.

قال شقيق البلخي لأبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال: تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا. وظن أنه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء، فقال شقيق: هكذا تركت كلاب بلخ عندنا، فقال له إبراهيم: فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: العقراء عندنا إن متعوا شكروا، وإن أعطوا آثروا. فقبُّل رأسه وقال: صدقت يا أستاذ.

فإذن: درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة، فلا بدُّ لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد إلى أسفل سافلين، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين، ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعاً، وإنما الشك فيمن عرف ذلك، فإنه ربما لا يقدر عليه، وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيداً لهم في درجاتهم ولكن بالإضافة إلى حالهم فإنّ مثل هذه الأعمال بالنيات، ودلك كما روي: أنَّ بعضهم رأى أبا إسحاق الثوري رحمه الله يمدُّ يده ويسأل الناس في بعض المواضع، قال: فاستعظمت ذلك واستقبحته له، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال: لا يعظم هذا عليك، فإنّ الثوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم، وإنما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم، وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ: «يَدُ المُغطِي هِيَ العُلْيَا»(١)، فقالَ بعضهم: يد المعطي هي يد الآخذ للمال لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه، ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال: احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره، فكيف خلط به مجهولاً وهو رجل حكيم؟ واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى الثوري فقال: هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له: أنا لا أقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على المائة قال: فزاد تعجبي، فسألتُه فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه: وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عزّ وجلٌ، فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه. قال: فرددتها إلى الجنيد فبكي وقال: أخذ ماله ورد مالنا، الله المستعان.

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم، وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الديا والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه. ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن يشرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعلة في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً، وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل. بل البصير أحد رجلين: إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم؛ فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين، وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به؛ فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين. ولعلم البقين أيضاً رتبة بذلك وصدق به؛ فهو صاحب علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين، ويحشر وإن كان دون عين اليقين، ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين، ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين؛ الذين هم قتلى القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القاتلين: ﴿ يَكُنُ يَهُ مِنْ عَيْدً وَيَهُ وَمَا يَكُنُ إِلاَ أَوْلُوا الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القاتلين: ﴿ يَكُنُ يَهِ كُنُّ قِنْ عِنْدٍ رَبِّناً وَهَا يَكُنُ إِلَا أَوْلُوا الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القاتلين: ﴿ يَكُنَا يَهِ كُنُّ قِنْ عِنْدٍ رَبِّناً وَهَا يَلَكُنُ إِلَا أَوْلُوا الله قالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القاتلين: ﴿ يَكُنُ الله عَنْدُ الله عَنْدُ عَنْ أَلَهُ وَالْحِلْ الله الله عَنْدُ وَالله الله عَنْدُ وَالْعُلْهُ الله وَلَهُ الله وَالله القاتلين الله وقل العلم القاتلين الله عن المؤلى المؤلى الله عن الله والمؤلى الكه والمؤلى المؤلى المؤلى

⁽١) حديث: قيد المعطي هي العليا، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

الشطر الثاني من الكتاب: في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد، وبيان فضيلة الزهد، وبيان درجات الزهد وأقسامه، وبيان تفصيل الزهد في المطعم والمليس والمسكن والأثاث وضروب المعيشة، وبيان علامة الزهد.

بيان حقيقة الزهد:

اعلم: أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، لأن أبواب الإيمان كلها ـ كما قال السلف ـ ترجع إلى عقد وقول وعمل، وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن وإلا فليس القول مُراداً لعينه، وإن لم يكن صادراً عن حال سمي إسلاماً ولم يسم إيماناً، والعلم هو السبب في حال يجري مجرى المثمر، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة، فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل أما الحال: فتعني بها ما يسمى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحباً، فإذن: يستدعي حال الزهد مرغوباً عنه ومرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه، وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً؛ إد تارك الحجر والتراب وما أشيهه لا يسمى زاهداً، وإنما يسمى زاهداً من ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة، وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة، فالبائع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من المبيع، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زاهداً فيه، وَبَالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحباً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ مِثْمَنِ بَغْسِ دَرَيْهِمَ مَعْدُودَةِ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّهِدِينَ ۞ ﴿ إِبُوسُف: ٢٠] معناه باعوه، فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه؛ إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم، وكان ذلك عنلهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعاً في العوض، فإذن: كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة بالدميا فهو أيضاً زاهداً ولكن في الآخرة، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة، وإن كان هو للميل في وضع اللسان. ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصوّر إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال، والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق، والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآحرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه دون الأول، والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقاً، ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين، وهو زهد صحيح، كما أنَّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة، فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات، والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات.

فإذن: الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا، وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، فإن ترك ما لا يقدر عليه محال، وبالترك يتبين زوال الرغبة، ولذلك قبل لابن يكون مقدوراً عليه، فقال: الزاهد عمر بن عبدالعزيز؛ إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففي ماذا زهدت؟.

وأما العلم: الذي هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه، وما لم يتحقق هذا العلم لم يتصوّر أن تزول الرغبة عن المبيع، فكذلك من عرف أنَّ ما عند الله باق وأنَّ الآخرة خير وأبقى، أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى، كما تكون الجواهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً، ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآليء، فهكذا مثال الدنيا والآخرة، فالدنيا كالثلُّج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض، والأخرة كالجوهر الذي لا فناء له، فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة، حتى إنَّ من قوي يقينه يبيع نفسه وماله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشْتَكُنْ مِكَ ٱلنَّيْدِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمَوْلُكُم وَأَتَ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النَّوبَة: ١١١] ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى: ﴿ فَأَسَّ تَبْيِّرُواْ بِبَيْمِكُمُ ٱلَّذِى بَايَضُمُ بِيرًا ﴾ [النّوية: ١١١] فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر، وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا، إما لضعف علمه ويقينه، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت. وإلى تعريف خساسة الدنيا الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلَ مَنْتُمُ الدُّنِّيَا قَلِيلٌ﴾ [النَّساء: ٧٧] وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله عزّ وجلُّ: ﴿وَقَكَالَ ٱلَّذِينَ أُونُّوا ٱلْمِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَّابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القَصَص: ٨٠] فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه، ولما لم يتصوّر الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه قال رجل في دعائه: اللهم أرنى الدنيا كما تراها، فقال له النبي عَين: ﴿ لا تَقُلُ هٰكَذَا وَلَكِنْ قُلْ: أَرنِي الدُّنيَا كَمَا أَرَّيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَه (¹¹)، وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد براها حقيرة في نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له، ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً؛ لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس، والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله، ويراه متفاوتاً بالإضافة إلى غيره، والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره. وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد؛ لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى، فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدِّماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين والبدُّ ما أخرجه من القلب، ويوظف على البد

⁽١) حديث: قال رجل: اللهم أرني الدنيا كما تراها، فقال له ولا تقل هكذا، ولكن قل: أرتي الدنيا كما أريتها الصالحين من هبادك ذكره صاحب الفردوس مختصراً: واللهم أرني العنيا كما تربها صالح عبادك من حديث أبي القصير ولم يخرجه ولده.

والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات، وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن، فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به؛ فإن الذي بايعه بهذا البيع وفي بالعهد، فمن سلم حاضراً في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد، وما دام ممسكاً للدنيا لا يصح زهده أصلاً، ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنًّا﴾ [يُرسُف: ٦٨، وعزموا على إبعاده كما عزموا على بوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك، ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه، بل عند التسليم والبيع، فعلامة الرغية الإمساك، وعلامة الزهد الإخراج؛ فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ولست راهداً مطلقاً، وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد، لأن ما لا يقدر عليه لا يقوى على تركه، وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها، فلا ينبغي أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله، فإنك إذا لم تجرّب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها، فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصى عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكذّر ولا خوف من الخلق وقع فيها، وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإياك أن تثق بوعدها في المباحات، والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها: أن تجرّبها مرة بعد مرة في حال القدرة، فإذا وفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ما، ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر، فإنها سريعة النقض للعهد، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع.

وبالجملة: فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضافة إلى ما ترك فقط وذلك عند القدرة. قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة: ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفتي في مسألة إلا رد علينا _ يعني أبا حنيفة _ فقال ابن شبرمة: لا أدري أهو ابن الحائك أم ما هو؟ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها، وهربت منا فطلبناها، وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله وهي : إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنّا كَنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ أَقْتُلُوا أَنْكُسَكُمْ أَوِ اَغْرَبُوا مِن دِيَكِكُمْ مَا فَعَلُوهُ محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى: ﴿ مِنْكُمُ اللّه عَنْهِ اللّه عَنْهِ اللّه عَنْهُ اللّه عَنْهُ اللّه عَنْهُ اللّه عَلَيْهُ اللّه عَلَيْهُ أَلُو اللّه عَنْهُ وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿ مِنكُمُ المَالُ وبذله على سبيل من الزهد ترك المالُ وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات ولكن الأخرة. فأما كل نوع من الترك فإنه يتضور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق، ولكن لا يكون زهداً؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنا من وحسن خلق، ولكن الا يكون زهداً؛ إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنا من وحسن خلق، ولكن الميء من الترك فيا الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنا من وحسن خلق، ولكن المنواء وهي ألذ وأهنا من الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنا من المناه المناه المناه المناه المناه المناه المناه المناه الذها المناه المناه المناه الذها الذها المناه القلوب عن حظوظ العاجلة وهي ألذ وأهنا من المناه المناه المناه المناه الذهاء المناه المناه

 ⁽١) حديث: قال المسلمون: إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء محمته لفعلناه، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كُلَبْكَا
 كُلَّتِيمٌ أَنِ اَقْتُلُوا أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النّساء: ٦٦]، لم أقف له على أصل.

 ⁽۲) حديث ابن مسعود: ما عرفت أن فينا من بحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى: ﴿ مِنحِكُم مِّن يُربِيدُ الدُّنِيَا﴾ [آل عمران: ١٩٥١]، أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن.

المال، وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعاً في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالاً له لما في حفظ المال من المشقة والعناء. والحاجة إلى التذلل للسلاطين والأغنياء ليس من الزهد أصلاً، بل هو استعجال حظ آخر للنفس؛ بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفواً عفواً وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس، فتركها خوفاً من أن يأنس بها، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره. أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآحرة، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة، وترك التمنع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين، وترك التفرُّج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها. وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة، وترك المطاعم اللذيذة طمعاً في فواكه الجنة، وخوفاً من أن يقال له: ﴿أَذَهَبْتُمْ طَيِّبَنِكُمْ فِي حَبَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الاحقاف: ٧٠] فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً؛ لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى. وأن ما سوى هذا فمعاملات دنبوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

بيان فضيلة الزهد:

إحياء عُلوم الدّين

قال الله تعالى ﴿ فَخَرَّجُ عَلَىٰ فَوْمِهِ. فِي زِينَتِهِ ۖ ﴾ [الفصص ٧٩].. إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَــَالَ ٱلَّذِبَ أُوثُواْ ٱلْمِلْمَ وَيْلَحَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ﴾ [القصص. ٨٠] فَنَسَبَ الرُّهْدَ إِلَى العُلْمَاءِ وَوصَفَ أَهْلَهُ بِالعِلْمِ وَهُوَ غَايَةَ النُّنَاءِ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوْلَتِكَ بُؤَيِّنَ أَجْرَهُم مَّزَّيِّينِ بِنَا صَبَرُواۚ﴾ [القصص: ١٠] وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا جَمَلْنَا مَا عَلَى ٱلأَرْضِ زِينَةً لَمَّا لِنَبْلُوكُمْ أَيُّهُمْ أَحَسَنُ عَمَلًا ﴿ الكهف: ٧] قيل: معناه أيهم أزهد فيها، فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نُزِدٌ لَهُ فِي حَرْثِيِّ. وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنِيَا نُؤْتِهِ. وَمُهَا وَمَا لَهُ فِي ٱلْكَحِمَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿ إِلَيْ وَمِن لَا مَا أُوقَالُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا نَمُدُّنَّ عَيَّنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّمَنَا بِهِ ۚ أَزْفَاحًا مِنْهُمُ رَهُرَهُ لَلْمَبَوْعُ ٱلدُّنْبَا لِلْمَيْهُمْ مِبَّةٍ وَدِنْقُ رَبِّكَ حَبِّرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿ وَلَمْهِ والمد ١٣١] وقدال تسعى السي : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوْةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْكَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣] فوصف الكفار بذلك، فمفهومه أنَّ المؤمن هو الدي يتصف بنقيضه؛ وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

وأما الأخبار: فما ورد منها في ذم الدنيا كثير، وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا مع ربع المهلكات؛ إذ حب الدنيا من المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فإنه من المنجيات، وهو المعنى بالزهد، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَقَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَقَرَّقَ حَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هَمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيهِ ضَيْمَتُهُ، وَجَعَلُ غِنَاهُ فِي قُلْبِهِ، وَأَتَنْهُ اللُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، ﴿ اللَّ اللَّهُ الْعَبْدَ وَقَدْ أَعْطِيَ صَمْتاً وَزُهْداً فِي اللُّنْيَا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّى العِكْمَةَّ، (٢٠). وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ اللَّهِكَمْةَ

حديث: «من أصبع وهمه الغنيا شتت الله عليه أمره. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد، والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف تحوه.

حديث: ﴿إِذَا رأيتِم الجمِد قد أُوتِي صمتاً ورَهداً في الدنيا فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة، رواء ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند قيه ضعف.

فَقَدْ أُونَى خَيْرًا حَكَثِيرًا ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] ولذلك قبل: من زهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال: قلناً: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قَال: **اكُلُ** مُؤْمِن مَخْمُوم القَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِه قلنا: يا رسول الله، وما مخموم القلب؟ قال: ﴿النُّقِيُّ الْلِّبِي لا غِلُّ فِيهِ وَلا غَِشُّ وَلَا بَغْيَ وَلا حَسَدَه قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟ قال: ﴿الَّذِي يشَنَّأُ الدُّنيا ويحب الآخرة»(١٠)، ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا. وقال ﷺ: ﴿إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَجِبُّكَ اللَّهُ فَازْهَدْ فِي الدُّنْيَا،(٢٢)، فجعل الزهد سبباً للمحبة، فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات، ومفهومه أيضاً أن محب الدنيا متعرَّض لبغض الله تعالى، وفي خبر من طريق أهل البيت: «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة، فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا، (٣)، ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ: أنا مؤمن حقاً قال: (وَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِك؟، قال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها، وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً، فقال ﷺ: «عَرَفْتَ فَالْرَمْ، عَبْدٌ نَوْرَ اللَّهُ قُلْبَهُ بالإيمَانِ»(٤)، فانظر: كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين، وكيف زكاه رسول الله ﷺ إذ قال: اعبد نؤر الله قلبه بالإيمانه. ولما سنل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدَدَهُ لِلْإِسْلَيْرِ ﴾ [الانتام: ١٢٥] وقيل له: ما هذا الشرح؟ قال: ﴿إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ فِي القَلْب انْشَوَحَ لَهُ الصَّدُرُ وَانْفَسَعٌ * قيل : يا رسول الله ، وهل لذلك من علامة ؟ قال النَّعَمُ ، التَّجَافِي عَنْ ذَار الغُروب ، وَالإِنَابَةُ إِنِّي دَارٍ الخُلُودِ، وَالاَسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولَهِ، (°)، فانظر: كيف جعْل الزهد شرطاً للإسلام وهُو التجاني عن دار الغرور؟ وقال ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» قالوا: إنا لنستحيي منه تعالى، فقال: «لَيسَ كَذْلِكَ، تَبْنُونَ ما لا تَسْكنُونَ، وَتَجْمَعُونَ مَا لا تَأْكلُونَ»، قبين أن ذلَّك يناقض الحياء من الله تعالى، ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا: إنا مؤمنون. قال: "وَمَا حَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ" فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشمائة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَجْمَعُوا مَا لاَ تَأْكُلُونَ وَلاَ تَبْتُوا مَا لاَ تَسْكُنُونَ، وَلاَ تَنَافَسُوا فِيمَا

⁽١) حديث: قلنا: يا رسول الله، وما مخموم القلب؟ قال ٔ «الثقي النقي...» الحديث. رواه ابن ماحه بإسناد صحيح من حديث عبدالله بن عمرو دون قوله: يا رسول الله، فمن على أثره، وقد ثقدم، ورواه بهذه الزيادة بالإسناد المذكور الخرائطي في مكارم الأحلاق.

 ⁽۲) حدیث: (إن أردت أن بحبك الله فازهد في الدنیا) رواه ابن ماجه من حدیث سهل بن سعد بستد ضعیف نحوه، وقد تقدم.

حديث: «الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة، فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلاء لم أجد له أصلاً.

 ⁽³⁾ حديث: لما قال له حارثة: أنا مؤمن حقاً، فقال: «وما حقيقة إيمانك. . .» الحديث. أحرجه البزار من حديث أنس،
 والطبرائي من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف.

 ⁽٥) حديث: سئل عن قوله تعالى: ﴿فَنَن يُرِو اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ [الأنفام: ١٢٥]... الحديث. أخرجه الحاكم، وقد تقدم.

 ⁽٦) حديث: «استحيوا من الله حق الحياء. . . ٤ الحديث. رواه الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بنت الخطاب باسناد ضعف.

عَنْهُ تَوْحَلُونَ اللهُ إِلاَّ اللهُ لا يَخْلِطُ بِهَا غَيْرُهَا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ ، فقام إليه علي كرّم الله وجهه، فقال: يأبي المَن جَاء بِلا إلله إلاَّ اللهُ لا يَخْلِطُ بِهَا غَيْرُهَا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ ، فقام إليه علي كرّم الله وجهه، فقال: يأبي أنت وأمي يا رسول الله على المخلط بها غيرها وصفه لنا فسره لنا، فقال: هحُبُ الدُّنْيَا طَلَباً لَهَا وَاتّباعاً لَهَا، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ صَملَ الجَبَابِرَةِ، فَمَنْ جَاء بِلا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ لَيْسَ فِيها شَيْءٌ مِنْ لَمُنَا لَهَا، وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ صَملَ الجَبَابِرَةِ، فَمَنْ جَاء بِلا إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ لَيْسَ فِيها شَيْءٌ مِنْ لَمُنَا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَةُ اللهُ وَلِي الخَيْلُ مِنَ الشَّكَ وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ، وَالبُخلُ مِنَ الشَكَّ وَلا يَدْخُلُ النَّارِ مُوقِنٌ، وَالبُخلُ مِنَ الشَكَ وَلا يَدْخُلُ النَّارِ مَوْقِنٌ، وَالبُخلُ مِنَ الشَكَ وَلا يَدْخُلُ النَّارِ مُوقِنٌ، وَالبُخلُ مِن الشَكَ وَلا يَدْخُلُ النَّالَ مُوسَانَ عَلَى الشَعْد، والنَاء اللهُ عَلَى النَّاسِ قريب من الناره (أَنَّ)، والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد، والثناء على المشر لا محالة.

وروي عن ابن المسيب عن أبي ذرّ عن رسول الله عن أنه قال: «مَنْ رَهدَ فِي الدُّنْيا أَدْخَلَ اللَّهُ الجَكْمَة قَلْبُهُ فَأَنْطَنَّ بِها لِسَاتَة وَعَرَّفَة دَاءَ الدُّنْيَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْها سَالِماً إلى دَارِ السَّلَامِ، (٥) وروي: أنه على مرّ في أصحابه بعشار من النوق حفل، وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسها عندهم الأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَا الْمِشَارُ عَلِمَا اللهِ عَلَيْكَ اللهُ عَنْ فَلِكَ اللهُ عَنْ فَلِكَ التَكوير: ٤] قال: فأعرض عنها رسول الله على وغض بصره، فقيل له: يا رسول الله انفس أموالنا لم لا تنظر إليها؟ فقال: «قَدْ نَهانِي اللهُ عَنْ ذَلِكَ» ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَنَّ عَبَيْكَ إِلَى اللهُ عَنْ فَلِكَ اللهِ عنها قالت: قلت: يا رسول الله؟ ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع؟ فقال: لا يا حائشة؛ والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض؛ ولكن اخترت جوع الدنيا لو سألت ربي أن يجري معي جبال الدنيا على قرحها؛ يا حائشة إن الدنيا على خناها وحزن الدنيا على قرحها؛ يا حائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد؛ يا عائشة إن الله لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم؛ فقال: ﴿قَاسَيرَ كُمَا صَبَرَ أُولُوا الدَيْهِ والصَبر عن محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم؛ فقال: ﴿قَاسَيرَ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الدَيْهِ والصَبر عن محبوبها، ثم لم يرض لي إلا أن يكلفني ما كلفهم؛ فقال: ﴿قَاسَيرَ كَمَا صَبْرَ أُولُوا الْمَرْهِ وَلَهُ اللهُ وَالْمَالِ المُنْهُ عَنْها عَلْهُ وَلَهُ اللهُ وَالَهُ وَلَهُ اللهُ وَاللهُ وَاللهُ وَاللهُ اللهُ اللهُ عَنْها وحول اللهُ عناها وحول اللهُ اللهُ

 ⁽۱) حدیث: لما قدم علیه بعض الوفود قالوا، اوما علامة إیمانکم... ۴ الحدیث. رواه الخطیب وابن عساکر في تاریخهما بإسناد ضعیف من حدیث جابر.

 ⁽۲) حديث: «من جاء بالا إله إلا أفته لا يخلط معها شيئاً وجبت له الجنة» لم أره من حديث جابر، وقد رواه الترمدي الحكيم في التوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.

 ⁽٣) حديث: «السخاء من البقين ولا يدخل النار موقن. . .» الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء،
 ولم يخرجه ولده في مسنده.

⁽٤) حديث: «السخي قريب من الله . . . الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبى هريرة، وقد تقدم

حديث أبي ذر قمل زهد في الدنيا أدخل الله العكمة قليه. . . ٩ الحديث. لم أره مل حديث أبي ذر، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث أبي صفوان بن صليم مرسلاً، ولابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري: قمن زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها العيادة أجرى الله ينابيع العكمة من قلبه على لسانه، وقال: حديث منكر. وقال الذهبي باطل: ورواه أبر الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصراً من حديث أبي أيرب: قمن أخلص شي وكلها ضعيفة.

 ⁽٦) حديث: «مرّ في أصحابه بعشار من النوق حفل. . . » الحديث. وفيه: ثم ثلا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدُنَّ عَيْبَكَ ﴾ [طه: ١٣١] لم أجد له أصلاً.

[الأحناف: ٣٥] والله ما لمي بد من طاعته وإني والله لأصبرنّ كما صبروا بجهدي ولا قوّة إلا بالله؟^(١).

وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها: البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصتعة طعام تطعمه وتطعم من حضر، فقال عمر: يا حفصة: ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته؟ فقالت: بلى. قال: فاشتك الله، هل تعلمين أن رسول الله في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا جاعوا عشية إلا جاعوا غدوة، وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبي لله لبث في النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله في قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة ورفعت ووضع المطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله على كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له لبلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال: "مَنَعْتُمُونِي يضع ثبابه ليتعسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثبابه فيخرج بها إلى الصلاة حتى تبعف ثبابه فيخرج بها إلى الصلاة أمن بني ظفر كساءين إذاراً ورداء وبعثت إلى بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره وقد عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما ذال يقول حتى أبكاها وبكي عمر رضي الله عنه وانتحب حتى عقد طرفيه إلى عنقه فصلى كذلك؟ فما ذال يقول حتى أبكاها وبكي عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (٢٠). وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طننا أن نفسه ستخرج (٢٠).

⁽¹⁾ حديث مسروق عن عائشة قلت: يا رسول الله: ألا تستطعم ربك فيطعمك، قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع . . . الحديث . وفيه: "يا عائشة، إن الله لم يرضى لأولى العزم من الرسل إلا العبر . . . الحديث . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من طريق أبي عبدالرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصراً:

"يا حائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا العبر على مكروهها والعبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم"، فقال تعالى " ﴿ قَاصَيْرٌ كُلُ صَبْرٌ أَوْلُوا أَلْمَرْدِ بِنَ الرُسْلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ومجالد مختلف في الاحتجاج به .

حديث: أن عمر لما قتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة: البس لين التياب إذا قدمت عليك الوقود. . . الحديث بطوله ، وفيه : ناشدتك الله هل تعلمين كذا: يذكرها ما كان عليه النبي على حتى أبكاها وبكى. . . الخ. لم أجده هكذا مجموعاً عيدانه وهو معرق في عدة أحاديث؛ فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال: ما شبع رسول الله على وأهله عداء وعشاء من خبر وشعير حتى لقي ربه، وفيه عمرو بن عبدالله القدري متروك الحديث، وللترمدي من حديث عائشة قالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قلت: لم؟ قالت: أدكر الحال التي فارق رسول الله على الدنيا عليها، والله ما شبع من خبر ولحم مرتين في يوم، وقال: حديث حسن. وللشيخين من حديثها: ما شبع آل محمد منذ قدم المديئة من طعام ثلاث ليال تباعاً حتى قبض، وللمخاري من حديث أنس: كان لا يأكل على خران . . الحديث، وتقدم في آداب الأكل، وللترمذي في الشمائل من حديث حقصة أنها لما مئلت: ما كان فراش النبي على عسمة تثنيه ثتين فينام عليه . . . الحديث، وتقدما في الحديث. ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة: أنها كانت تفرش للنبي على عباءة باثنتين . . الحديث، وتقدما في الحديث. ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة: أنها كانت تفرش للنبي الله عامة باثنتين . . الحديث، وتقدما في اداب المعيشة، وللمزار من حديث أبي المرداء قال كان رسول الله الله لا ينخل له المذقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، قال بونس بن بكير: قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكري بأحاديث لم ينابع عليها واحتملت على ما فيها . قلت : فيه سعيد بن ميسرة فقد كلبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم . ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت: صلى في شملة قد عقد عليها . زاد الغطريغي في جزئه المشهور: فعقدها في عنه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف، وتقدم في آداب المعيشة .

طريقاً، فإن سلكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد.

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿لَقَدْ كَانَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالفَقْرِ فَلا يَلْبَسُ إِلاَّ العَبَاءةَ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالقَمْلِ حَتَّى يَقْتَلُهُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبُ إِلَيْهِمْ مِنَ العَطَاءِ إِلَيْكُمْ، (١).

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الهزال؛ فهذا ما كان قد اختاره أنسياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة.

وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه فال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكُنْزُونَ اللَّهَبَ وَالْفِضْكَةَ وَلَا يُنفِئُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالنَّوْمَهِ فَقَلْنَا: يَا رسول الله نَفْوَنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهُ وَالنَّوْمَهِ فَقَلْنَا: يَا رسول الله نَفْوَنَهُ فَي اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى أَمْرِ الْخِرَةِهِ (٣). وَقَلْباً شَاكِراً وَقُلْباً فَيْكُونُونَ وَعُرْبُونَ وَاللّا اللهُ عَلَى اللّائِينَةُ فَلَى أَمْرِ الْفِيلِيلِ الللهِ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلْمُ اللّهُ عَلْمَ اللّهُ عَلَى الللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «مَنْ آثَرَ اللُّنْيَا عَلَى الآخِرَة ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِثَلاثِ: هَمَا لا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبْداً وَفَقُراً لا يَسْتَغْنِي أَبِداً وَحِرْصاً لا يَشْبَعُ أَبْداً».

ُ وقال النبي ﷺ: ﴿ لا يَسْتَكُمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لا يُعْرَفُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ؛ وَحَتَّى يَكُونَ قِلْةُ الشَّيْءِ أَحَبٌ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ (٤٠).

وقال المسيح ﷺ. «اللُّنْيَا قَنْطَرَةٌ فَاعْبُرُوهَا ولا تَعْمُرُوهَا». وقيل له: يا نبي الله، لو أمرتنا أن نبني بيتاً نعبد الله فيه؟ قال: «اذْهَبُوا فَابْنُوا بِيْتاً عَلَى المَاءِ»، فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: «وَكَيْفَ تَسْتَقِيمُ عِبَادَةٌ مَعَ حُبُ الدُّنْيَا»؟.

وقال نبينا ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً فَقُلْتُ: لاَ يا رَبّ

 ⁽١) حديث أبي سعيد الخدري: «كان الأتبياء ببتلي أحدهم بالفقر فلا بجد إلا العباء». الحديث. بإسناد صحيح في أثناء حديث أوله: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك دون قوله: «وإن كان أحدهم لمبتلي بالقمل».

⁽٣) حديث عمر الما نزل قوله تعالى: ﴿ وَاللَّذِي يَكُنِّرُونَ اللَّهَبَ وَالْفِسَةَ ﴾ [التّويّة: ٣٤] الآية، قال: التبأ لملدينار والدوهم... المحديث، وفيه: فأي شيء ندخر؟ أخرجه الترمذي وابن ماجه، وتقدم في النكاح دون قوله: التبأ للدينار والدوهم، والزيادة رواها الطرائي في الأوسط وهو من حديث ثوبان، وإنما قال المصف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي ﷺ: أي المال يتخذ؟ كما في رواية ابن ماجه، وكما رواه البزار من حديث ابن عباس.

⁽٣) حديث حذيفة: (من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث...» الحديث. لم أجده من حديث حذيفة، أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن: (من أشرق في قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث: شقاء لا ينفد عناه، وحرص لا يبلغ فناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وفي آخره زيادة.

⁽³⁾ حديث: «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، وحتى يكون قلته أحب إليه من كثرته» لم أجد له إسناداً، وذكره صاحب الفردوس من رواية على بن أبي طلحة مرسلاً: «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته، وحتى يكون أن يعرف ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرحه ولده في مسئد الفردوس، وعلي بن أبي طلحة أخرج له مسلم. وروي عن ابن عباس، لكن روايته عنه مرسلة، فالحديث إذن معضل.

وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً، فَأَمَا الْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَاتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْهُوكَ، وَأَمَا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَاتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْهُوكَ، وَأَمَا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَاتَضَرَّعُ إِلَيْكَ وَأَدْهُوكَ، وَأَمَا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَالْحَمْدُكُ وَالنِّي عَلَيْكَ».

وعن ابن عباس رصي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له اللهي ﷺ: "يا جِبْرِيلُ، وَالَّذِي بَعَنَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمْسَى لآلِ مُحَمَّدٍ كَفُ سَوِيتٍ وَلا سَفَّةُ دَقِيقٍ»، فَلَمْ يَكُنْ كَلامُهُ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنَّ سَمِعَ هَذَّةً مِنَ السَّمَاءِ أَفْزَعَتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَمَرَ اللَّهُ القِيامَةَ أَنْ تَقُومَ؟» قَال لا وَلَكِنْ هَذَا إِسرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ نَزَلَ إِلَيْكَ حِينَ سَمِعَ كَلاَمَكَ، فَأَتَاهُ إِسْرَافِيلُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهُ عَزْ وَجَلَّ سَمِعَ مَا ذَكَرْتَ فَبَعَنْنِي بِمَقَاتِيحِ الأَرْضِ وَأَمْرَنِي أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أَنْ أَوْبِقُ مِبْلُكَ إِنْ أَنْ عَبْداً، وَإِنْ شِفْتَ نَبِياً عَبْداً، وَإِنْ شِفْتَ نَبِيالً اللهِ جَبْرِيلُ أَنْ تَوَاضَعْ لِلْهِ فَقَالَ: " فَهَالًا عَبْداً، ثَلاتًا لا إِنْ شِقْتَ نَبِياً مَلِكاً، وَإِنْ شِفْتَ نَبِياً عَبْداً،

وقالَ ﷺ: ﴿إِذَا أَرَادُ اللَّهُ بِعَبْدِ خَيْراً زَهْدَهُ فِي الدُّنْيَا وَرَغَّبَهُ فِي الآخِرَةِ وَبَصْرَهُ بِمُنِوبِ نَفْسِهِ (٢٠). وقال ﷺ لرجل: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَنْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ (٣٠).

وقال صلوات الله عليه: أَمَنُ أَرَادَ أَنْ يُؤْتِيهُ اللَّهُ عِلْماً بِغَيْرِ تَعَلَّمَ وَهُدَّى بِغَيْرِ هَدَايَةٍ فَلْيَزْهَدُّ فِي الدُّنْيَاءُ '' ، وقال ﷺ: «مَن اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ سَارِعَ إِلَى الخَيْرَاتِ، وَمَنْ خَافَ مِنَ النَّارِ لَهَى غَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ المَوْتَ تَرَكَ اللَّذَاتِ، وَمَنْ زَهدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ المُصِيبَاتُ (').

ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام: «أَرْبَعُ لا يُدْرَكُنَ إِلاَّ بِتَعَب: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوْلُ الْعِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُعُ، وَكَثَرَةُ الذَّكْرِ، وَقِلْةُ الشَّيْءِ النَّانِ وَمِ الدُنيا وَلَمْ الدُنيا وَلَمْ الدُنيا وَلَمْ الدُنيا وَلَمْ الدُنيا وَلَمْ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللللَّامُ اللللْمُ اللَّهُ اللللِّلِمُ الللْمُولِمُ اللللِّ الللللِّ الللللْمُ اللللْمُ اللللْمُ الللِمُولِمُ اللللْمُ الللْ

وأما الآثار: فقد جاء في الأثر: لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عزّ وجلّ ما لم يسألوا ما نقص من دنياهم». وفي لفظ آخر: «ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا: لا إله إلا الله، قال الله تعالى: كذبتم، لستم بها صادقين.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها قلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا.

 ⁽١) حديث ابن عباس: اخرج رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل معه قصعد على الصفا. . . الحديث. في نرول إسرافيل. وقوله: إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرذاً وياقوتاً وذهباً وقضة. . . الحديث، تقدم مختصراً.

 ⁽٢) حديث: (إذا أواد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره معيوب نفسه (واه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله: (ورغبه في الآخرة) وزاد: (فقهه في الدين) وإسناده ضعيف.

⁽٣) حديث: قازهد في الدنيا يحبك الله. . . ٩ الحديث، تقدم،

 ⁽³⁾ حديث: «من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» لم أجد له أصلاً.

⁽a) حديث: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات. . . » الحديث. رواه ابن حبان في الصعفاء في حديث علي بن أبي طالب.

 ⁽٣) حديث: «أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادة...» الحديث. رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس،
 وقد تقدم.

وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله على وكانوا خيراً منكم.

وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

وقال بلال بن سعد: كفي به ذنباً أنَّ الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها.

ُ وقال رجل لسفيان: أشتهي أن أرى عالماً زاهداً، فقال: ويحك؛ تلك ضالة لا توجد.

وقال وهب بن منبه: إنّ للجنة ثمانية أبواب، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوّابون يقولون: وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة.

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله: إني لأشتهي من الله ثلاث خصال: أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم، ولا يكون عليّ دين، ولا على عظمي لحم، فأعطى ذلك كله.

وروي: أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه: قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعاً خير لكم من أن تذبحوها فضيلاً.

وقال عبيد بن عميرة: كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر، وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يذخر لغد، أينما أدركه المساء نام.

وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم: هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بدّ لنا من الطعام والثياب والحطب! فقال لها أبو حازم: من هذا كله بدّ، ولكن لا بدّ لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار.

وقيل للحسن: لم لا تغسل ثيابك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وقال إبراهيم بن أدهم: قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح؛ فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ركعتين من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً سرمداً.

وقال بعض السلف: نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا، وكأنه التفت إلى معنى قوله ﷺ: قَانَ اللّهُ يَحْمِي عَبْلَهُ المُؤْمِنَ مِنَ اللّهُ نَيَا وَهُوَ يَحِبُّهُ كُمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُم الطّعَامَ وَالشّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ (١٠)، فإذا فهم هذا علم أن النعمة في المنع المؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدي إلى السقم.

وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، من عرفها لم يقرح برخاء ولم يحزن على شقاء.

⁽١) حديث: «إن الله يحمي عبده المؤمن من الدنيا. . . الحديث. تقدم.

وقال سهل: لا يخلص العمل لمتعبد حتى يفرغ من أربعة أشياء: الجوع، والعري، والفقر، والذل.

وقال الحسن البصري: أدركت أقواماً وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب؛ كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطله ثوب ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً، ولا أمر من في بيته بصتمة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم. كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك، والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضواته.

بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه؛ وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فنه:

اعلم: أنَّ الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قرَّته على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: - وهي السفلى منها -: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها ماثل ونفسه إليها ملتفتة، ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد، والمتزهد يذيب أوّلاً نفسه ثم كيسه، والزاهد أولاً يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه، والمتزهد على خطر، فإنه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الاستراحة بها في قليل أو كثير.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهماً لأجل درهمين، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل، ولكن هذا الزاهد برى لا محالة زهده ويلتفت إليه، فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده، ويظن في نفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده؛ إذ لا يرى أنه ترك شيئاً؛ إذ عرف أنّ الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة، فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً. والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هو الكمال في الزهد. وسببه كمال المعرفة، ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا، كما أنّ تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع.

قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبدالرحيم: في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء؟ قال: في الدنيا، فنفض يده وقال: طننت أنه يتكلم في شيء، والدنيا لا شيء، إيش يزهد فيها.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته، أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟ فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح

والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة خبر إن أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع، ثم يبغى ثقلها في المعدة، ثم تنتهي إلى النتن والقذر، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل، فمن تركها لينال عز الملك كيف يلنفت إليها، ونسبة الدنيا كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا؛ إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له، والدنيا منناهية على القرب، ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد، نعيم الأبد، فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكذرة غير صافية، فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذن: لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه، ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته، قسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة، فهذا تفاوت درجات الزهد، وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات؛ إذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته إلى زهده.

وأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات:

الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر، ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار؛ إذ فيها: «إن الرجل لميوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لعبدرت رواء» (١)، فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم.

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله وتعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها، وهدا زهد الراجين؛ فإنّ هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم، بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له.

اللرجة الثالثة - وهي العليا - أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق الهم بالله تعالى؛ وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد، وهو الموحد الحقيقي الدي لا يطلب غير الله تعالى؛ لأن من طلب غير الله فقد عبده، وكل مطلوب معبود، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه، وطلب غير الله من الشرك المخفي، وهذا زهد المحبين وهم العارقون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرقه، وكما أن من عرف الله عرف الله الدينار والمدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بين تلك اللذة وبين لدة التنعم بالحور العين والنظر وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لدة التنعم بالحور العين والنظر إلى تقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يحب إلا لذة النظر ولا يؤثر غيره، ولا تظنن أنّ أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة الى لذة نعيم أهل الحنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الحنة على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الاستيلاء على عصفور واللعب به، والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي

⁽۱) حديث: إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بمير عطاشاً على عرقه لصدرت رواه أخرجه أحمد من حديث ابن عباس: «التقي مؤمنان على باب البجئة: مؤمن فني، ومؤمن فقير...» الحديث. وفيه: ﴿إِني حيست بعدك محبساً نظيماً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير أكلة حمض لصدرت عنه رواء»، وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته، قال أحمد: حديثه مثله.

الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك، لا لأنّ اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق.

وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل، ولعل المذكور فيه يزيد على مائة تول فلا نشتغل بنقل الأقاويل، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أنَّ أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل. فنقول: المرغوب عنه بالزهد له إحمال وتفصيل، ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمل للجمل. أما الإجمال في الدرجة الأولى: فهو كل ما سوى الله، فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضاً، والإجمال في الدّرجة الثانية: أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها. وفي الدرجة الثالثة: أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس. وفي الدرجة الرابعة: أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه؛ إذ الأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب؛ إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها، كما أنَّ معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها، فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر. وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال: ﴿ لِيَيْنَ لِلنَّاسِ مُبُّ ٱلثَّمَهَوَتِ مِرَكَ ٱللِّسكَاةِ وَٱلبَّــنِينَ وَٱلْفَنَنطِيرِ الْمُقَاطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِعْبَةِ وَٱلْغَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْسَةِ وَٱلْحَرْثِ ذَالِكَ مَتَكَعُ ٱلْحَيَوْةِ ٱلدُّنيَّا﴾ [آل عِمرَان: ١٤] لَم رده في آية أخري إلى خمسة فقال عزّ وجلّ: ﴿ آعَلُمُوٓا أَنَّنَا ٱلْحَيْوَةُ ٱلدُّنيَا لَوِتُ وَلَمْقٌ وَزِينَةٌ وبَفَاحُرٌ بَيْنَكُمْ وَتُكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمُولِ وَٱلْأَوْلَكِ ﴾ [الحديد: ٧٠] ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا لَلْمَيْوَةُ ٱلدُّنْيَا لَمِبُّ وَلَهُو ﴾ [مخنَّد: ٣٦] ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفَسُ عَنِ اَلْمَوَىٰ ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النَّازغات ١٠٤٠] فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا، فيتبغى أن يكون الزهد قيه. وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنَّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى.

فالحاصل: أنّ الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها، ومهما رغب عن حظوط النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة، لأنه إنما يريد المقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء؛ فإنّ من أراد شيئاً أراد دوامه. ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة، فإذا رغب عنها لم يردها، ولذلك لما كتب عليهم القتال: ﴿وَقَالُواْ رَبّنا لِرْ كَبّتَ عَيْتَا الْفِنَالُ الْوَلَا أَفْوَلا أَنْوَلَ أَلَوْ أَلِنَ أَبِل وَبِب ﴿ النّساء: ٧٧] فقال تعالى: ﴿ وَلَا مَنْعُ اللّهُ اللّه الذاهدون المحبون لله اللهاء إلا لمتاع الدنيا، فظهر عند ذلك الزاهدون وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال تعالى: فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا إحدى الحسنيين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة، وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى إنَّ حالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول: كم عررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعاً في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز، فلما مات عدّ على جسده ثمانمانة ثقب من آثار الحراحات. هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأما المنافقون: ففروا من الزحف خوفاً من الموت فقيل لهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُوتَ اللّذِي فَيْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمٌ ﴾ [الجُمُعَة م] فإيثارهم البقاء خوفاً من الموت فقيل لهم: ﴿ إِنَّ ٱلْمُونَ اللّذِي وَيْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمٌ ﴾ [الجُمُعَة م] فإيثارهم البقاء

كتاب الفقر والزهد

على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ﴿ أُوَلَتِكَ ٱلَّذِينَ اَشَتَرُواْ ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَحِتَ يَجْنَرُنَّهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهَتَدِيكَ ﴿ الْبَقْرَة: ١٦]. وأما المخلصون: فإنَّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة، فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً أو ثلاثين سنة بنمتع الأبد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به، فهذا بيان المزهود فيه.

وإذا فهمت هذا علمت أنَّ ما ذكره المتكلمون في حدّ الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه أو على من كان يخاطبه، فقال بشر رحمه الله تعالى: الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة. وقال قاسم الجوعي: الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف؛ فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة، ولعمري، هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي المهيجة لأكثر الشهوات. وقال الفضيل: الزهد في الدنيا هو القناعة، وهذا إشارة إلى المال خاصة. وقال الثوري: الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات، فإنَّ من يميل إلى الشهوات يحدّث نفسه بالبقاء فيطول أمله، ومن قصر أمله فكأنه رَغب عَن الشهوات كلها. وقال أويس: إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه، وما قصد بهدا حدّ الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد. وقال أويس أيضاً: الزهد هو ترك الطلب للمضمون، وهو إشارة إلى الرزق، وقال أهل الحديث: حب الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول، والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة، وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح، ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض ما هو من فضول الشهوات، فإنَّ من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة، وقد طوّلوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها، فشرط الزاهد أن يكون الفضول أوّل مرغوب عنه عنده، وقال الحسن: الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال: هذا أفضل مني، فذهب إلى أنّ الزهد هو التواضع، وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد، وقال بعضهم: الزهد هو طلب الحلال، وأين هذا ممن يقول: الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال، وقد كان يوسف بن أسباط يقول: من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد.

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة، فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة، وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه، فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته، وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة، والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف، وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف، فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحداً ولا يتصوّر أن يختلف، وإنما الجامع من المخبرة عنها تختلف، وإنما الجامع من كلاماً كثيراً، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عزّ وجلّ، وقد فصل مرة وقال: من تزوج أو سافر كلاماً كثيراً، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجلّ، وقد فصل مرة وقال: من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضداً للزهد، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى: ﴿ إِلّا مَنْ أَلَى الدّيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة. فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف وقال: إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة. فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف

المزهود فيه؛ فأما بالإضافة إلى أحكامه فيتقسم إلى فرض ونفل وسلامة، كما قاله إبراهيم بن أدهم، فالفرض: هو الزهد في الحرام. والنفل: هو الزهد في الحلال. والسلامة: هو الزهد في الشبهات. وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد؛ إذ قيل لمالك بن أنس: ما الزهد؟ قال: التقوى، وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه فلا نهاية للزهد فيه؛ إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات، لا سيما خفايا الرياء فإنَّ ذلك لا يطلع عليه إلا سماسرة العلماء، بلُّ الأحوال الظاهرة أيضاً درجات الزهد فيها لا تتناهى، فمن أقصى درجاته زَّهد عيسي عليه السلام؛ إذ توسد حجراً في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك؟ قال: وما الذي تجد؟ قال: توسدك الحجر، أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمي الحجر وقال: خذه مع ما تركته لك. وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركاً للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس، فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحبى، آثرت على الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه. وقال أحمد رحمه الله تعالى: الزهد زهد أويس، بلغ من العري أن جلس في قوصرة. وجلس عيسي عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط، فقال: ما أقمتني أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط، فإذن " درجات الزهد ظاهراً وباطناً لا حصر لها، وأقل درجاته: الزهد في كل شبهة ومحظور. وقال قوم: الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور، فليس ذلك من درجاته في شيء، ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنية فلا يتصوّر الزهد الآن.

فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أنّ الزهد ترك ما سوى الله، فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى؟

فاعلم: أنَّ معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكراً وفكراً، ولا يتصوّر ذلك إلا مع البقاء، ولا بقاء إلا بضروريات النفس؛ فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرصك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله، فإنَّ ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه؛ فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضاً عن الحج، ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج، ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات، بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصلك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب، وعن الحرّ والبرد المهلك باللباس والمسكن، فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوي على طاعة الله تعالى، فذلك لا يناقض الزهد، بل هو شرط الزهد، وإن قلت: فلا بدُّ وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع؛ فاعلم: أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ، فإنّ شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش، ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصوداً عنده ومطلوباً بالقصد، فلا يكون القلب منصرفاً إليه؛ فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الأسحار وصوت الأطيار، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره، ولقد كان في الخائفين من طلب موضعاً لا يصيبه فيه نسيم الأسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه، فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله، ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس، ويشرب الماء الحارّ ويقول: من وجد للة الماء البارد شق عليه مفارقة

الدنيا. فهده مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط، فإنه وإن كان شاقاً فمدّته قريبة والاحتماء مدّة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة:

اعلم: أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم؛ فالفضول كالخيل المسوّمة مثلاً؛ إذ غالب الناس إنما يفتنيها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي، والمهم كالأكل والشرب، ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضاً يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بدّ من بيان وجه الزهد فيه، والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض، وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

الأول المطعم: ولا بدّ للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد؛ فأما طوله: فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به، وأما عرضه: ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله، أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل، وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض، ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدّخر من غذائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا.

الدرجة الثانية: أن يدّخر لشهر أو أربعين يوماً.

الدرجة الثائثة: أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزهاد، ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهداً محال؛ لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدّاً فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي فإنه ورث عشرين ديناراً فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة؛ فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد، وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار، وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل، وأوسطه رطل، وأعلاه مدّ واحد؛ وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به، ومن لم يقدر على الاقتصار على مد ما لم يكن له من الزهد في البطن نصيب، وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله لم يقدر على الخبر من النخالة، وأوسطه خبر الشعير والذرة، وأعلاه خبر البر غير منخول، فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلاً عن أوائله.

وأما الأدم: فأقله الملح أو البقل والخل، وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان، وأعلاه اللحم أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين، فإن صار دائماً أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهداً في البطن أصلاً، وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائماً، وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام أو أسبوعاً وما زاد عليه، وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات، ولينظر إلى أحوال رسول الله عليهم والصحابة رضوان الله عليهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كانت تأتي علينا أربعون لبلة وما يوقد في بيت رسول الله هي مصباح ولا نار. قبل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء (١٠). وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الأرض. ويقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ العَبِيدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ العَبِيدُ، '''.

وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم: إنه من طلب الفردوس فخبز الشعير له، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير.

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبرَ البر (٣٠).

وكان المسيح ﷺ يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره. وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نميده.

ولما أتى النبي ﷺ أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل، فوضع القدح من يده وقال: هأمًا إنّى لَسْتُ أَحَرَّمُهُ وَلَكِنْ أَتْرَكُهُ تَوَاضُعاً لِلَّهِ تَعَالَى»(٤٠).

وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال: اعزلوا عني حسابها. وقد قال يحيى بن معاذ الرازي: الزاهد الصادق قوته ما وجد، ولباسه ما ستر، ومسكنه حيث أدرك، الدنيا سجنه، والقبر مضجعه، والخلوة مجلسه، والاعتبار فكرته، والقرآن حديثه، والرب أنيسه، والذكر رفيقه، والزهد قريته، والحزن شأته، والحياء شعاره، والجوع إدامه، والحكمة كلامه، والتراب فراشه، والتقوى زاده، والصمت غنيمته، والصبر معتمده، والتوكل حسبه، والعقل دليله؛ والعبادة حرفته، والحنة مبلغه إن شاء الله تعالى.

المهم الثاني: الملبس: وأقل درجته: ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطى به. وأوسطه: قميص وقلنسوة ونعلان. وأعلاه: أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد. وشرط الزاهد: أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه، بل يلزمه القعود في البيت. فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار. أما الجنس: فأقله المسوح المخشنة، وأوسطه: الصوف الخشن، وأعلاه: القطن الغليظ. وأما من حيث الوقت: فأقصاه ما يستر مسة، وأقله ما يبقى يوماً، حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه، وأوسطه ما يتماسك عليه شهراً وما يقاربه، فطلب ما يبقى أكثر من سنة

 ⁽١) حديث عائشة. «كانت تأتي أربعول ليلة وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا بار...، الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة: «كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان...» الحديث. وفي رواية له: ما يوقد فيه بيار. ولأحمد: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار. وفي رواية له: ثلاثة أهلة.

 ⁽٣) حديث الحسن: «كان رسول الله علي يركب الحمار . . • الحديث، تقدم دون قوله: «إنما أنا عبد» فإنه ليس من حديث الحسن، إنما هو من حديث عائشة، وقد تقدم.

حديث: "ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر". تقدم.

⁽٤) حديث: «لما أتي أهل قباء أتوه بشربة من لمن بمسل فوضع القدح من يده... الحديث، تقدم.

خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد، إلا إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوّته ودوامه؛ فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدّق به، فإن أمسكه لم يكن زاهداً بل كان محباً للدنيا، ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس؛ قال أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله على هذين (١). وقال على: "إنَّ اللَّه تَعَالَى بُحِبُ المُتَبَلِّلُ الَّذِي لا يُبَالِي مَا لَبِسَ (٢). وقال عمرو بن الأسود العنسي: لا ألبس مشهوراً أبداً، ولا أنام بليل أبداً على دثار أبداً، ولا أركب على مأثور أبداً، ولا أملاً جوفي من طعام أبداً، فقال عمر: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله على غيزهه وإن كان عنده حبيباً (١٠)، وفي الخبر: "ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أحرض الله عنه حتى ينزهه وإن كان عنده حبيباً (١٠)، واشترى رسول الله على ثوباً بأربعة دراهم (١٠).

وكانت قيمة ثوبيه عشرة $(1)^3$ وكان إزاره أربعة أذرع ونصفاً واشترى سراويل بثلاثة دراهم وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف $(1)^3$ وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفي الخبر: كان قميص رسول الله على كأنه

حديث: أخرجت عائشة كساء ملبدأ وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين. رواه الشبخان، وقد تقدم في آداب المعيشة.

⁽٢) حديث: (إن الله يحب المتبذل لا يبالي ما لبس؛ لم أجد له أصلاً.

⁽٣) - حديث عمر: «من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدي عموو بن الأسودة رواه أحمد بإسناد جيد.

⁽٤) حديث: الما من هبد لبس ثوب شهرة. . . » الحديث، رواه ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله: اوإن كان عنده حبيباً».

⁽٥) حديث: «اشترى رسول الله ﷺ ثوباً بأربعة دراهم. أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة، قال: دخلت يوماً السوق مع رسول الله ﷺ فجلس إلى النزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم. . . ٤ الحديث، وإسناده ضعيف.

⁽٩) حديث كان قيمة ثوبيه عشرة دراهم، لم أجده.

⁽٧) حديث: كان إزاره أربعة أذرع ونصفاً. أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله على من رواية عروة بن الزبير مرسلاً: كان رداه رسول الله على أربعة أذرع، وعرضه ذراعان ونصف. . . الحديث، وفيه ابن لهيعة. وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة: كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر، وفيه محمد بن عمر الواقدي.

 ⁽٨) حديث: اشترى سراويل بثلاثة دراهم. المعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم تقدم عند أبي يعلى، وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر مقدار ثمنه، قال الترمذي: حسن صحيح.

حديث: كان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد، وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الفلاظ، تقدم في آداب وأخلاق النيوة لبسه للشملة والبرد والحبرة. وأما لبسه المحلة ففي الصحيحين من حديث البراء: رأيته في حلة حمراه، ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى المحرورية وعليه أحسن ما يكون من حلل اليمن وقال: رأيت على رسول الله على أحسن ما يكون من الحلل. وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه ينه قبض في ثوبين أحدهما إذار غليظ مما يصنع باليمن، وتقدم في آداب المعيشة. ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رمثة: وعليه بردان أخضران، سكت عليه أبو داود واستغربه الترمذي. وللبزار من حديث قدامة الكلابي: وعليه حلة حبرة، وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف؛ قاله الذهبي.

قميص زيات (١٠). ولبس رمول الله على يوماً واحداً ثوباً سيراء من سندس قيمته مائتا درهم (١٠) فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله: أنزل عليك هذا من الجنة تعجباً، وكان قد أهذاه إليه المقوقس ملك الإسكندرية، فأراد أن يكرمه بلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرم لبس الحرير والديباج. وكأنه إنما لبسه أولاً تأكيداً للتحريم، كما لبس خاتماً من ذهب يوماً ثم نزعه (١٠)، فحرم لبسه على الرجال، وكما قال لعائشة في شأن بريرة: «اشترطي الأهلها الولاء» (١٠)، فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرّمه، وكما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرّمها لتأكيد أمر النكاح (٥٠)، وقد صلى رسول الله عليه السلام المنبر فحرّمه، وكما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرّمها لتأكيد أمر الذهبوا بها إلى أبي جهم واثتوني بأنبجانيته (١٠) يعني كساءه، فلما سلم قال: «شغلني النظر إلى هذه، وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه، فلما سلم قال: «أَعِيدُوا الشّرَاكُ الحَلقَ وَانْزَعُوا فَمَا المَبْرِينَ عُلْمَا فَلَوْ السّرَاكُ المَنور فرمى به فقال: «أَعِيدُوا الشّرَاكُ المَنور فرمى به فقال: «أَعِيدُوا السّرَاكُ المَنور فرمى به فقال: «أَعْبَني هُفا مَنْ فلا صلم قال: «أَعِيدُوا الشّرَاكُ المَنور تطرة فرمى به فقال: «أَعْبَني مُفا مَنْ فلا منذم الله على المنبر نظرة فرمى به فاعجبه حسنهما، فخر ساجداً وقال: «أَعْجَبْني حُسْنُهُمَا فَقَوْاضَعْتُ لِرِّبِي خَشْنِةَ أَنْ يَمْقتني " ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه (٨٠).

وعن سنان بن سعد قال: حيكت لرسول الله على جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: «اتظُرُوا مَا أَخْسَنَها ومَا أَلْيَنَها، قال: فقام إليه أعرابي فقال: يا رسول الله، هبها لي، وكان رسول الله على إذا سئل شيئاً لم يبخل به، قال: فدفعها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى، فمات على وهي في المحاكة (٩٠).

وعن جابر قَال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فلما نظر إليها بكى وقال: «يا فَاطِمَةُ؛ تَجَرَّعِي مَرَارَةَ اللَّمْنِيَا لِنَعيم الأَبَد،، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَــَوْفَ يُمْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرُضَىٰ ۞﴾ [الضحى: ٥](١٠) وقال ﷺ: ﴿إِنَّ مِنْ خِيارِ أُمْتَي فِيمَا

 ⁽۱) حديث: كان قبيصه كأنه قميص زيات. أخرجه الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف: كان يكثر دهن رأسه وتسريح
 لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات.

 ⁽٢) حديث: البس يوماً واحداً ثوباً سيراه من سندس قيمته مائتا درهم أهداه له المقوقس ثم نزعه ٢٠٠٠ الحديث.

 ⁽٣) حديث: اللبس يوماً خاتماً من ذهب ثم نزعه. متفق عليه، وقد تقدم.

⁽٤) حديث قال لعائشة في شأن بريرة: فاشترطي لأهلها. . . ٩ الحديث. متفق عليه من حديثها.

 ⁽٥) حديث: «أباح المتعة ثلاثاً ثم حرمها». أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع.

 ⁽٦) حديث: اصلى في خميصة لها علم... الحديث. متغنى عليه، وقد تقدم في الصلاة.

 ⁽٧) حديث: لبس خاتماً فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال: فشغلني هذا عنكم. . . الحديث تقدم.

 ⁽A) حديث: «احتذى تعلين جديدين فأهجه حسنهما...» الحديث، تقدم.

 ⁽٩) حديث سنان بن سعد: «حيكت لرسول الله ﷺ جبة صوف من صوف أنمار...» الحديث، رواه أبو داود الطيالسي
 والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله: وأمر أن يحاك له أخرى، فهي عند الطبراني فقط، وفيه زمعة بن
 صالح ضعيف، ويقع في كثير من نسخ الإحياء: سيار بن سعد وهو غلط.

⁽١٠) حليث جابر: قدخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى. . . ا الحديث. أخرجه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق بإسناد ضعيف الآية.

أَنْبَأَنِي المَلاُّ الأَغْلَى قَوْماً يَضْحَكُونَ جَهْراً مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيبْكُونَ سِرّاً مِنْ خَوْفٍ عِذَابِهِ، مُؤْنَتُهُمْ عَلَى النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الخُلْقَانَ وَيَثْبَمُونَ الرُّهْبَانَ؛ أَجْسَامُهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَثْثِكَنَّهُمْ عِنْدَ الْعَرْشِيهُ (١)، فهذه كانت سيرة رسول الله ﷺ في الملابس، وقد أوصى أمته عامة باتباعه؛ إذ قال: «مَنْ أَحَبُّني فَلْيَسْتَنَ بِسُنْتِي»(٢)، وقال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ مِنْ بَعْدِي، عَضُوا عَلَيْهَا بِالسَّوَاجِدْ ۗ (٣). وقَال تَعالى: ﴿قُلْ إِن كُسُنُرُ تُعِبُّونَ ٱللَّهَ ۚ قَانَبُهُونِ بِمُثِبَكُمُ ٱللَّهُ ۗ [آل عِمرَان: ٣١] وأوصى رُسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها خاصة وقال: ﴿إِنْ أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلا تَنْزَعِي ثَوْياً حَتَّى تَرْقَعِيهِ (أَ). وعدَ على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رفعة بعضها من أدم. واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه. وقال الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال، وكان يقول: إن الفقير ليمرّ بي وأنا أصلي فأدعه يجوز، ويمرّ بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم: قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته. وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة؛ ثوب لله وهو ما يستر العورة، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه، وثوب للىاس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم: من رق ثوبه رق دينه. وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهماً، وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومتزر تحته، وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه. وقال بعض السلف: أوَّل النسك الزي، وفي الخبر: «البَذَاذَةُ مِنَ الإيمَانِ» وفي الخبر: «مَنْ تَرَكَ ثَوْبَ جَمَالٍ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ تَوَاضُعا لِلَّهِ تَعَالَى وَابْتِغَاءَ لِوَجْهِهِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ مِنْ عَبْقَرِيُّ الْجَنَّةِ فِي تَخَاتِ الْيَاقُوتِ، وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبياته: قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي. ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ، فقال: انظروا إلى أميركم؛ يعظ الناس وعليه ثياب الفساق _ وكان عليه ثياب رقاق. وجاء عبدالله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذرّ في بزته، فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبي ذرّ راحته على فيه، وجعل يضرط به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة. وقال علي كرّم الله وجهه: إن الله تعالى أخذ على أثمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدي بهم الغثي ولا يزري بالفقير فقره. ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدي به المسلم.

 ⁽١) حديث: اإن من خيار أمتي فيما آتاني العلي الأعلى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم، ويبكون سراً من خوف مذابه... الحديث. تقدم، وهو عند الحاكم والبيهتي في الشعب وضعفه.

 ⁽٢) حديث: امن أحبني فليستسن بسنتي ا تقدم في النكاح.

 ⁽٣) حديث: اهليكم يستني وسنة الخلفاء الراشدين. . . ، الحديث. رواه أبو داود والترمذي وصححه، وابن ماجه من حديث العرباض بن سارية.

 ⁽٤) حديث قال لعائشة: فإن أردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الأغنياء» أخرجه الترمذي وقال: غريب، والحاكم وصححه من حديث هائشة، وقد تقدم.

ونهي ﷺ عن التنعم وقال: «إنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَاداً لَيْسُوا بِالمُتَنَعِّمِينَ»(١)، ورئي فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافياً فقيل له: أنت الأمير وتفعل هذا؟ فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاء، وأمرنا أن محتفي أحياماً (٢). وقال على لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع. وقال عمر: احشوشنوا وإياكم وزي العجم كسرى وقيصر، وقال على كرم الله وجهه: من تزيا بزي قوم فهو منهم. وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ مِنْ شِرَادِ أُمَّتِي الَّذِينِ خُذُوا بِالنِّعِيمِ يَطْلُبُونَ ٱلْوَانَ الطَّعَامِ وَٱلْوَانَ النِّيابِ وَيَتَشَدُّنُونَ فِي الكَلامِ (٣). وقال عَلَمْ: ﴿ إِزْرَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ ، وَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيما يَنِنَهُ وَبَيْنَ الكَعْبَيْنِ ، وَمَا أَسْفُلَ مِنْ ذَٰلِكَ فَفِي النَّار ، وَلا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَراً ۗ (٤)، وقال أبو سليمان الداراني: قال رسول الله ﷺ: ﴿ لا يَلْبِسُ الشُّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلاَّ مُرَاءِ أَوْ أَخْمَق، (٥) ، وقال الأوزاعي: لباس الصوف في السفر سنَّة، وفي الحضر بدعة. ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف؛ فقال له قتيبة: ما دعاك إلى مدرعة الصوف؟ فسكت، فقال: أكلمك ولا تجيبني، فقال: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو فقراً فأشكو ربي. وقال أبو سليمان: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً أوحى إليه: أن وار عورتك من الأرض، وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحداً سوى السراويل؛ فإنه كان يتخذ سراويلين فإذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة، وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: مالك لا تلبس الجيد من الثياب؟ فقال: وما للعبد والثوب الحسن، فإذا عتق فله والله ثباب لا تبلي أبداً. ويروى عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلي. وقال الحسن لفرقد السبخي تحسب أن لك فضلاً عن الناس بكسائك، بلغني أنّ أكثر أصحاب النار [أصحاب] الأكسية نفاقاً. وقال يحيى بن معين: أرأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها، فقلت: إنك تكسى خبراً من هذا فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى بن معين يحدَّث بها ويبكي.

المهم الثالث: المسكن، وللزهد، فيه أيضاً ثلاث درجات.

أعلاها: أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه مثل كوخ مبني من سعف أو خص أو ما يشبهه.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إحارة؛ فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإن طلب التشبيد

⁽١) حديث: نهى عن التنعم وقال: «إن لله هباداً ليسوا بالمتنعمين» أخرجه أحمد من حديث معاذ، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث فصالة بن عبيد نهانا رسول الله ﷺ عن الإرفاه، وأمرنا أن نحتفي أحياناً. أخرحه أبو داود بإسناد جيد.
 فصالة بن عبيد الأوسي الأنصاري أسلم قديماً، لم يشهد بدراً وشهد أحداً وما بعدها. وشهد فتح مصر والشام.
 وسكن الشام. ولاه معاوية قضاء دمشق بعد أبي الدرداء، توفي سنة ثلاث وخمسين.

 ⁽٣) حديث: «إن من شوار أمتي الذين غذوا بالنعيم. . . » الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف
 «سيكون رجال من أمتي بأكلون ألوان الطعام. . . » الحديث. وآخره: «أولئك شرار أمتي» وقد تقدم.

 ⁽٤) حديث: (إزرة المعرمن إلى أنصاف ساقيه. . . ١ الحديث. رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حيان من حديث أبي سعيد، ورواه أيضاً النسائي من حديث أبي هريرة. قال محمد بن يحيى الذهلي: كلا الحديثين محفوظ.

 ⁽a) حديث أبي سليمان: الايلبس الشعر من أمنى إلا مواء أو أحمق لم أجد له إسناداً.

والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حدّ الزهد في المسكن؛ فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكاً أو مستأجراً أو مستعاراً، والزهد مدخل في جميع ذلك. وبالجملة: كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدّ الضرورة، وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين، والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا، وطالب المفضول والساعي له بعيد من الزهد جداً، وقد قيل: أوّل شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله الله التدريز والتشييد، يعني بالتدريز: كف دروز الثباب فإنها كانت تشل شلاً. والتشييد: هو البنيان بالجص والآجر، وإنما كانوا يبنون بالسعف والجريد (۱٬۰)، وقد جاء في الخبر: «يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية، وأمر رسول الله الله العباس أن يهدم علية كان قد علا زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية، وأمر رسول الله العباس أن يهدم علية كان قد علا فلم يكن يقبل عليه كما كان، فسأل الرجل أصحابه عن تغيير وجهه الله فأخبر، فذهب فهدمها، فمر رسول الله الله بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير وجهه بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير وجهه بالموضع فلم يرها. فأخبر بأنه هدمها فدعا له بخير (۱٬۰).

وقال الحسن: مات رسول الله على ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة". وقال النبي النبي الذا أرَادَ الله بِعَبْدِ شَرَا أَهْلَكَ مَالَهُ فِي المَاء وَالطّبنِ (٥)، وقال عبدالله بن عمر: مرّ علينا رسول الله الله ونحن نعالج خصاً، فقال: «ما هذا؟» قلنا: خص لنا قد وهي فقال: «أرى الأَمْرَ أَعْجَلَ رسول الله الله ونحن نعالج خصاً، فقال: «ما هذا؟» قلنا: خص لنا قد وهي فقال: هذا كثير لمن بموت. وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن معيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو وقال الحسن: دخلنا على صفوان بن معيريز وهو في بيت من قصب قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحته؟ فقال: كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله، وقال النبي على: «مَنْ بَتَى فَوْقَ ما يَكْفِيهِ

⁽۱) حديث: كانت الثباب تشل شلاً وكانوا يبنون بالسعف والجريد. أما شل الثياب من غير كف قروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ. وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة: «فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضادتيه الحجارة...» الحديث. ولهما من حديث أبي سعيد: كان المسجد على عريش قوكف المسجد.

 ⁽۲) حديث: أمر العباس أن يهدم علية له كان قد علاها. رواه الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له
 النبق ﷺ: «اهدمها. . ٤ الحديث. وهو منقطع.

 ⁽٣) حديث: مرّ بجنبذة معلاة فقال المعن هذه؟ فقالوا: لفلان، فلما جاءه الرجل أعرض عنه ١٠٠٠ الحديث، أخرجه أبو
 داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: قرأى قبة مشرفة الحديث، والجنبذة: القبة.

 ⁽٤) حديث الحسن: «مات رسول الله ﷺ ولم يضع لينة على لينة...» الحديث. رواه ابن حبان في الثقات، وأبو نعيم
 في الحلية هكذا مرسلاً. وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة: «من سأل عني أو سوء أن ينظر إلئ قلينظر إلى
 أشعث شاحب مشمر لم يضع لينة على لينة...» الحديث. وإسناده ضعيف.

 ⁽٥) حديث: اإذا أراد الله بعيد شراً أهلك ماله في الماء والطين» رواه أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد: الخضو له في الطين واللبن حتى يبني».

حدیث عندالله بن عمر: «مز علینا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاً قد وهي...» الحدیث. رواه أبو داود والترمذي
 وصححه واین ماجه.

كُلْفَ أَنْ يَحْمِلُهُ يَوْمِ القِيَامَةِ (١٠)، وفي الخبر: (كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إلا مَا أَتَفَقّهُ فِي المَاءِ وَالطُّينَ (٢)، وفي قوله تعالى: ﴿ يَاكَ الذَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَمَـُلُهُمَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلْوًا فِ ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَأَدًا ﴾ [الْقَصَص: ٨٣] إنه الرئاسة والتطاول في البنيان. وقال ﷺ ﴿ لَالُّ بِنَاءٍ وَيَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمُ القِيامَةِ إلاّ مَا أَكُنَّ مِنْ حَرٍّ أَوْ بَرُدٍ»(٣)، وقال ﷺ للَّرجلُ الذي شكا إلَيه ضيق مُنزله: «اتَّسعَ فِي السَّمَاءِ»(٤)، أي في الجنة. ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بني بجص وآجر، فكبّر وقال: ما كنت أظنّ أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون؛ يعني قول فرعون ﴿فَأَوْفِدٌ لِي يَنهَنْمَنُنُ عَلَ ٱلطِّيرِ﴾ [القَضَص: ٣٨] بعني به الآجر، ويقال: إنّ فرعون هو أوّل من بني له بالجص والآجر، وأوّل من عمله هامان، ثم تبعهما الجبابرة، وهذا هو الزخرف. ورأى بعض السلف جامعاً في بعض الأمصار فقال: أدركت هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف، ثم رأيته مبنياً من رهص، ثم رأيته الآن مبنياً باللبن، فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص، وكان أصحاب الرهص خيراً من أصحاب اللبن. وكان في السلف من يبني داره مراراً في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في إحكام البنيان، وكان منهم من إذا حج أو غزًا نزع بيته أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده، وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ ضربت بيدي إلى السقف. وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك: إلى أين يا أفسق الفاسقين؟ وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال: لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر إليه معين عليه. وقال الفضيل: إنى لم أعجب ممن بني وترك، ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين، ويستعملون البراذين، يصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير دينكم.

المهم الرابع: أثاث البيت، وللزهد فيه أيضاً درجات:

أهلاها: حال عبسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى؛ إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز فرأى إنساناً يمشط لحبته بأصابعه، فرمى بالمشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز، وهذا حكم كل أثاث، فإنه إنما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة. وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو المخزف في كل ما يكفي فيه الخزف، ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به.

حدیث: «من بنی فوق ما یکفیه کلف یوم القیامة أن یحمله» رواه الطبراني من حدیث ابن مسعود بإسناد فیه لین واقطاع.

 ⁽٢) حديث: «كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه في الماء والطين» رواه ابن ماجه من حديث خباب بن الأرت بإسناد جيد بلفظ: «إلا في التراب» أو قال: «في البناه».

 ⁽٣) حديث: فكل بناء وبال على صاحبه إلا ما أكن من حر أو برد، رواه أبر داود من حديث أنس بإسناد جيد بلفظ: فإلا
 ما لا، يعنى: ما لا بد منه.

⁽٤) حديث: قال للرجل الذي شكا إليه ضيق منزله: «اتسع في السماه» قال المصنف: أي في الجنة، رواه أبو داود في المراسيل من رواية البسع بن المغيرة قال: شكا خالد بن الوليد فذكره، وقد وصله الطبراني فقال: عن البسع بن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد، إلا أنه قال: «ارفع إلى السماء واسأل ألله السعة»، وفي إسناده لين.

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

وأدناها: أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج على جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول، ولينظر إلى سيرة رسول الله على وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله على الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف(١). وقال الفضيل: ما كان فراش رسول الله على الاعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف(١).

وروي: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو نائم على سربر مرمول بشريط، فجلس، فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عبنا عمر، فقال له النبي ﷺ: قما الذي أَبْكَاكُ يَا ابْنَ الخطَّاب؟ قال: ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك، وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط؟ فقال ﷺ: «أَمَا تَرْضَى يا حُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُم اللَّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ قال: بلى يا رسول الله؟ قال: قفلك كذلك "". ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر، ما أرى في بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا، فقال: إنه لا بدّ لك من متاع ما دمت هاها، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له: ما معك من الدنيا؟ فقال: معي عصاي أنوكا عليها وأقتل بها حية إن لقيتها، ومعي جرابي أحمل فيه طعامي، ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي. ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي، فقال عمر: صدقت رحمك الله، وقدم رسول الله على من منفر فدخل عليها على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة، فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله على فسأله أبو رافع فقال: «مِنْ أَجُلِ السَّنْرِ وَالسَّوَارَلِنِ؟ أبو رافع وهي تبكي، فأخبرته برجوع رسول الله على فسأله أبو رافع فقال: «مِنْ أَجُلِ السَّنْرِ وَالسَّوَارَلِنِ؟ فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله على وقالت: قد تصدّقت بهما فضعهما حيث ترى، فقال: «اذْهَبُ فَيِعْهُ وَادْفَعْهُ إِلَى أَهْلِ الصَّفْقِ»، فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدّق بهما عليهم، فدخل عليها على ققال: «كُلْمًا رَأَيْتُهُ ذَكُرْتُ وبأبي أنّت قَدُ أَحْسَنْتَهُ (الله ورأى رسول الله على على باب عائشة ستراً فهتكه وقال: «كُلْمًا رَأَيْتُهُ ذَكُرْتُ وبأبي أنّت قَدُ أَحْسَنْتَهُ (الله ورأى رسول الله على على باب عائشة ستراً فهتكه وقال: «كُلْمًا رَأَيْتُهُ ذَكُرْتُ

حدبث عائشة کان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف. رواه أبو داود والترمذي وقال.
 حسن صحيح، وابن ماجه.

 ⁽۲) حديث: ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف. رواه الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة، وقد تقدم، ومن حديث عائشة بقصة الوسادة، وقد تقدم قبله بعض طرقه.

⁽٣) حديث: «دحل عمر على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس فرأى أثر الشريط على جنبه، . . ، الحديث، متفق عليه من حديثه، وقد تقدم.

⁽³⁾ حديث: اقدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها ستراً وفي يديها قلبين من فضة قرجع... الحديث. لم أره مجموعاً، ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفيتة بإسناد جيد: أنه ﷺ جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع، فقالت فاطمة لعلي: انظر فأرجعه... الحديث، رواه النسائي من حديث ثوبان بإسناد جيد قال: جاءت ابنة هبيرة إلى النبي ﷺ وفي يدها فتخ من ذهب... الحديث، وفيه: أنه وجده

النُّنْيَا أَرْسِلِيهِ إلى آكِ فُلانِ ""، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشاً جديداً ـ وقد كان ﷺ ينام على عباءة مثنية ـ فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال لها: «أَجِيدِي العَبَاءَةَ الخَلْقَةَ ونَحْي هٰذَا الْفِرَاشَ عَنِي قَذْ أَشْهَرَنِي اللَّيْلَةَ"، وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلاً فبيتها، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل . قالت عائشة رضي الله عنها: فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال: «مَا ظُنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهٍ لَوْ لَقِيَ الله وَهْذِهِ عِنْدَهُ"، وقال الحسن . أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلا ثوبه وما وصع أحدهم بيسه وبين الأرض ثوباً قط؛ كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه .

المهم المخامس: المنكح، وقد قال قاتلون: لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبدالله وقال: قد حبب إلى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عبينة وقال: كان أزهد الصحابة على بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية. والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال: كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤوم، والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله. وكشف الحق فيه: أنه قد تكون العزوبة أفصل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح، فيكون ترك النكاح من الزهد، وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا أفضل بدفع الشهوة الغالبة فهو واجب، فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا من الزهد، فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً، فإنّ الولد مقصود لبقاء نسله، وتكثير أمة محمد على من القربات، واللذة الذي تلحق الإنسان فيما هو من صرورة الوجود لا تضره؛ إد لم تكن هي المقصد والمطلب، واللذة الذي تلحق أكل الخبز وشرب الماء احترازاً من لذة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء، ولأن في ترك ذلك فوات بدنه، فكذلك في ترك الذكاح انقطاع نسله، فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح وسول الله على، وإذا ثبت لذة من حاله صال رسول الله ملى أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتعال القلب بإصلاحهن والإنفاق هذا فمن حاله حال رسول الله محالة الله كرة النسوة ولا اشتعال القلب بإصلاحهن والإنفاق هذا فمن حاله حال رسول الله في أنه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتعال القلب بإصلاحهن والإنفاق

قي يد فاطمة سلسلة من ذهب. وفيه: "يقول الناس قاطمة منت محمد في يدها سلسلة من نار" وأنه خرج ولم يقعد،
 فأمرت بالسلسلة فبيعث فاشترت شمنها عبداً فأعتقته، فلما سمع قال "(الحمد لله الذي تجي فاطمة من النار".

⁽١) حديث الرأى على باب عاتشة ستراً فهتكه ... الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه؛ والنسائي في الكبرى من حديثها.

⁽۲) حديث: «فرشت له ذات ليلة فراشاً جديداً. وهيه: كان ينام على عباءة مثنية...» الحديث. رواه ابن حبان في كتاب أخلاق النبي على من حديثها قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله على عباءة مثنية فانطلقت فبعثت إلي بفراش حشوه صوف، فدخل علي رسول الله على فقال: «ما هذا...» الحديث. أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته، وهيه مجالد بن سعيد محتلف فيه، والمعروف حديث حفصة المتقدم ذكره من الشمائل.

٣) حديث: "أتته دبانير خمسة أو سنة عشاء فبيتها فسهر ليله. . . " الحديث. وفيه: "ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده"، أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات قيه: "با عائشة، ما فعلت باللهجة فجاء ما بين الخمسة إلى الثمانية إلى النسعة فجعل يقلبها بيده ويقول: "ما ظن محمد. . . " الحديث. وزاد «أنفقها» وفي رواية: سبعة أو تسعة ذنانير، وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح: دخل عليٌ رسول الله ﷺ وهو شاهم الوحه، قالت: فحسست ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله، ما لك شاهم الوجه؟ فقال: "من أجل الدنانير السبعة التي أثننا أمس، أمسينا وهي في خصم القراش، وفي رواية: «أمسينا ولم ننفقها».

عليهن (١)، فلا معنى لزهده فيهن حذراً من مجرّد لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر الناس يشغله، وإن لم يشغله ولا ولن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك.

قال أبو سليمان: الزهد في النساء: أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجنيد رحمه الله: أحب للمريد المبتدى، أن لا يشغل قلبه بثلاث وإلا تغير حاله: التكسب، وطلب الحديث، والتزوّج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهمه؛ فإذا ظهر أن لذة النكاح كلدة الأكل هما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً.

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والحاه. أما الجاه: فمعناه ملك القلوب بطلب محلُّ فيها ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال، وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى من يخدمه افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم مخدمته، وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه، وهذا له أول قريب ولكن يتمادي به إلى هاوية لا عمق لها، ومن حام حول الحمي يوشك أن يقع فيه، وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم، فأما النفع: فيغنى عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للمستأجر قدر، وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة، وأما دفع الضر: فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جبران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان، وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب، والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك، بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً؛ فإن اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذي ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين، فأما التوهمات والتقديرات التي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة؛ إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال، فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن: طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلاً، واليسير منه داع إلى الكثير، وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره. وأما المال: فهو ضروري في المعيشة أعى القليل منه، فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إدا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام، هذا شوط الزهد؛ فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعاً، وإن كانت له ضبيعة ولم يكن له قوّة يقين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدّق بكل ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله، فلا يكون هذا من الزهاد. وقولنا: إنه خرج من حدّ الزهاد نعني به: أن ما وعد للزاهدين في الدار الأخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة، وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل، وقد قال أبو سليمان: لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء؛ معناه: أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه. كل

⁽١) حديث: كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن، تقدم في النكاح.

ذلك في عياله، نعم، لا ينبغي أن يجيبهم أيضاً فيما يخرج عن حدّ الاعتدال، وليتعلم من رسول الله على انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين، لأنّ ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذاً: ما يضطرّ الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحلور، بل الزائد على الحاجة سم قاتل، والمقتصر عن الضرورة دواء نافع، وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلاً فهو مضر، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعاً لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة. والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين؛ لأنه شرط الدين والشرط من جملة المشروط.

ويدل عليه ما روي: أنَّ إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئاً فلم يقرضه، فرجع مهموماً، فأوحى الله تعالى إليه: لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب، عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيئاً، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا. فإذن، قدر الحاجة من الدين، وما وراء ذلك وبال في الآخرة، وهو في الدنيا أيضاً كذلك يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه، وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه، وربما يكونون أعداء له، وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معيناً لهم عليها، ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لايزال ينسج على نفسه حياً ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه، فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراءاة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنياء فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيداً بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها، ولو ترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة، فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنياء ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة، فيكون أهون أحواله عند الموت: أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل المؤلم ببدنه ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره، فما ظنك بألم يتمكن أوّلاً من صميم القلب مخصوصاً به لا بطريق السراية إليه من غيره، فهذا أوَّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى، وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم؛ إذ النار غير مسلطة إلا على محجوب. قال الله تعالى: ﴿ لَا إِنَّهُمْ عَن زَّيِّهُمْ يَوْمِلِ لَّتَحْبُونُونَ ١ أُمَّ إِنَّهُمْ أَسَالُوا اللَّهُ عَالَيْ ﴿ ﴿ المطفِّفِينَ: ١٦،١٥] فرتب العدَّاب بالنار على ألم الحجاب، وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار، فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه؟ فنسأل الله تعالى أن يقرّر في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله ﷺ حيث قيل له: أحبب من أحببت فإنك مفارقه(١٠). وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر:

 ⁽۱) حديث: نفث في روعه «أحبب من أحبيت فإنك مفارقه»، تقدم.

كدود كدود السقر يسسج دائها ويهلك غيماً وسط ما هو تاسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله وانباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكلية، حتى قال الحسن: رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم عيما حرّم الله عليكم، وفي لفظ آخر: كانوا بالبلاء أشد فرحاً منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم: مجانين، ولو رأوا خياركم قالوا: ما يؤمن هؤلاء من خلاق، ولو رأوا أشراركم قالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم مجانين، ولو رأوا أشراركم قالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول: أخاف أن يفسد على قلبي، فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده، والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى: ﴿وَيَصُوا بِللَّيْنِ اللَّهُ عَلَيْهُ وَلَا يَهُ اللَّهِ عَنْهُ مُؤلًّا وَالنَّبِ عَنْهُ وَلَا عَنْهُ وَجَلًّا وَالنَّهُ مَنْ يُؤلًّا وَالنَّبُ مَنْ يُؤلًّا وَالنَّبُ مَنْ يُؤلًّا وَالنَّهُ الله عنهم إذ قال يعالى: ﴿وَقَالَ تعالى: ﴿وَقَالَ تعالى: ﴿وَقَالَ عَنْ مَنْ يُؤلًّا وَلا يُعْلَى الله عنه المنالة وعلم وَلَمْ وَلَا يُولُمُ وَلَا الله الله والحقني. وقل المنال والحقني العلم، ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: أخرج مالك والحقني. فقال: لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: احملني معك في سياحتك، فقال: أخرج مالك والحقني. مقال: لا أستطيع، فقال عيسى عليه السلام: بعجب يدخل الغني الجنة ـ أو قال بشدة ـ . وقال بعضهم: ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الأفاق بأربعة أصوات: ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب؛ أحدهما: لدوا للموت وادوا للخراب. ويقول الآخر: كلوا وتمتعوا لطول الحساب.

بيان علامات الزهد:

اعلم: أنه قد ظنّ أن تارك المال زاهد، وليس كذلك؛ قإنّ ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له، فغلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة، بل لا بدّ من الزهد في المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا، بل قد يدعي جمال الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة، كما قال الخوّاص في وصف المدعين إذ قال: وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم، لثلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين، ويحتجون لنفوسهم بأتباع العلم وأنهم على السنة، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعلة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضايق، وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين؛ لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالاً لهم، فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى. فهذا كله كلام الخواص رحمه الله، فإذن: معرفة الزهد أمر مشكل، بل الزهد على الزهد مشكل. بل

وينبعي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات:

العلامة الأولى: أن لا يفرح مموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿ لِكُبِّنَاكُ تَأْسُواْ عَلَ مَا

\$1099\$

فَاتَكُمُّ وَلَا نَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَنكُمُ ۗ [الحديد: ٢٣] بل ينبغي أن يكون بالضدِّ من ذلك؛ وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده.

العلامة الثانية: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، فالأوّل علامة الزهد في المال؛ والثاني علامة الزهد في الجاه.

العلامة الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة؛ إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان. وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره، ولذلك قبل لبعضهم: إلى ماذًا أفضى بهم الزهد؟ فقال: إلى الأنس بالله. فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان.

وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والأخرة جميعاً وعمل لهما، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها، ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام: اللهم إني أسألك إيماناً يباشر قلبي.

وقال أبو سليمان: من شغل بنفسه شغل عن الناس ـ وهذا مقام العاملين. ومن شغل بربه شغل عن نفسه _ وهذا مقام العارفين. والزاهد لا بدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين، ومقامه الأوّل أن يشعل نفسه بنفسه، وعند ذلك يستوي عنده المدح والذم والوجود والعدم، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً.

قال ابن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان: أكان داود الطائي زاهداً؟ قال: نعم. قلت: قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً فأنفقها في عشرين سنة، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير؟ فقال: أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد، وأراد بالحقيقة الغاية، فإنّ الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس. ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها. فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى دينه هله مدخل في الزهد بقدر ما تركه، وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجراً كما فعله المسيح عليه السلام، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيباً وإن قلُّ، فإن أمثالنا لا يستجرىء على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه. وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه شيء، فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتماداً على الجواد المجاوز

فإذن: علامة الزهد: استواء الفقر والغني والعز والذل والمدح والذم، وذلك لغلبة الأنس بالله. ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة؛ مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها.

وقيل: علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول: أبني رباطاً أو أعمر مسجداً.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد: السخاء بالموجود.

وقال ابن خفيف: علامته: وجود الراحة في الخروج من الملك. وقال أيضاً: الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف.

وقال أبو سليمان: الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم.

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزهد: قصر الأمل. وقال سري: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه، ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه. وقال النصرأباذي: الزاهد غريب في الدنيا، والعارف غريب في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد ثلاث: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رئاسة. وقال أيضاً: الزاهد لله يعطك الخل والخردل، والعارف يشمك المسك والعنبر. وقال له رجل: متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حدّ لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضع. وقال أيضاً: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها. وقال السري: مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم ألمغه ولم أطقه.

وقال الفضيل رحمه الله: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل ممتاحه الزهد في الدنيا.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه، وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.



ينسب أنَّهِ النَّابِ النَّهَا النَّهَا إ

کتاب التوحید والتوکل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت، الرافع للسماء بغير عماد، المقدر فيها أرزاق العباد. الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع هممهم عن الالتفاف إلى ما عداء والاعتماد على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقاً بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغي عندهم الرزق، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها، وما من دابة الا على الله رزقها؛ فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

والصلاة على محمد قامع الأباطيل، الهادي إلى سواء السبيل، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقرّبين وهو في نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل، ووجه غموضه من حيث الفهم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة وقدح في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير في وجه العقل، وانغماس في غمرة الجهل. وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع في غاية الغموض والعسر، ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدّة الخفاء إلا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا. ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة، ثم نردفه بالتوحيد في الشطر الأول من الكتاب، ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني.

**

بيان فضيلة التوكل:

أما من الآيات: فقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وقال عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلِينَوَكُلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَوَن يَتَوَّكُلُ عَلَى اللَّهِ فَهُو حَسْبُهُمْ ۖ الطّلاق: وأما الأخبار: فقد قال على فيما رواه ابن مسعود: «أربت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئاتهم، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: نعم، قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «اللّين لا يَكْتَوُونَ وَلاَ يَتَطَيّرُونَ وَلاَ اللهُ يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ، فقام عكاشة وقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله على: «اللّه مَ بُخمَلُهُ مِنْهُمْ» فقام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال نقال على: «اللّه مَ تَوَكّلِهِ لَرَوْقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ لِقَالَ عَلَيْهِ وَمَنْ المُعْمَ وقال عَلَى: «مَن الْقَطَعَ إلَى اللّهِ عَرَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللّهُ تَعَالَى كُلَّ مُؤْتَةِ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْقَبُهُ اللّهُ أَوْتَى مِنْهُ إلى اللّهُ إلَيْهَا» (٢) وقال عَنْ وجلُ كَفَاهُ اللّهُ يَعَالَى كُلُّ مُؤْتَةٍ وَرَدَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْقَبِهُ وَمَنْ الْقَطَعَ إلَى اللّهُ إلَيْهَاه (٣) وقال عَنْ وجلُ كَفَاهُ اللّهُ يَعَالَى كُلُّ مُؤْتَةٍ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْقَبِهُ وَمَنْ الْقَطَعَ إلَى الدُّلْيَا وَكَلَهُ اللّهُ إلَيْهَاه (٣) وقال عَنْ وجلُ اللهُ يَعْدَلُوهُ وَمَلْ اللّهُ إلْهَاللهُ إلْيَهَاه (٣) وقال عَنْ وجلُ اللهُ إلْهَاهُ عَلَى عَلْ وقال عَنْ اللهُ إللهُ اللهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْ أَنْهُ كَا إلَا أَوْلُولُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَنْهُ إلَهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَنْ وجلُ اللهُ ال

⁽١) حديث ابن مسعود: «أريت الأمم في الموسم فرأيت أمني قد ملؤوا السهل والجبل...) الحديث. رواه امن منيع بإسناد حسن، واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس.

عكاشة: هو عكاشة بن محسن الأسدي رضي الله عنه، أما الآخر: ففي رواية أنه أنصاري لم يذكر اسمه.

 ⁽۲) حديث: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير... الحديث. أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمره وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: (من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة. . .) الحديث. أخرجه الطبرائي هي الصغير وابن أبي الدنيا، ومن طريقه
 البيهقي في الشعب من رواية الحسن هن عمران بن حصين ولم يسمع منه، وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم.

 ⁽٤) حديث: امن سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده، رواه الحاكم والبيهةي في الزهد من حديث ابن هباس بإسناد ضعيف.

مِالصَّلَوْةِ وَاصْطَدِرُ عَلَيْهًا ﴾ [له ١٣٧](١) الآية. وقال ﷺ: «لَمْ يَتَوَكَّلُ مَنْ اسْتَرْقَى وَاكْتَوى،(٢).

وروي: أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام ـ وقد رمي إلى النار بالمنجنيق ـ ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وفاء بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل؛ إذ قال ذلك حين أُخذ ليرمى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْزُهِيمَ الَّذِى وَفَّ ۞﴾ [النِّجم ٢٦].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً.

وأما الآثار: فقد قال سعيد بن جبير: لدغتني عقرب فأقسمت على أمي لتسترقين، فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ.

وقرأ الخوّاص قوله تعالى: ﴿وَقَوَّكُلْ عَلَ ٱلْذَيِّ ٱلَّذِى لَا يَنُوتُ﴾ [الفُرقان: ٨٥] إلى آحرها، فقال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

وقيل لبعض العلماء في منامه: من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته. وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل؛ فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ: في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أنَّ الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال إبراهيم بن أدهم: سألت بعض الرهبان: من أين تأكل؟ فقال لي: ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني؟.

وقال هرم بن حيان لأويس القرني: أين تأمرني أن أكون؟ فأوماً إلى الشام. قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أويس: أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة.

وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً. نسأل الله تعالى حسن الأدب.

بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل:

اعلم: أن التوكل من أبواب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل.

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم، وإذا قوي سمي يقيباً، ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) والإيمان

⁽١) حديث: كان إذا أصاب أهله خصاصة قال «قوموا إلى المصلاة» ويقول. «بهذا أمرني وبي» قال تعالى: ﴿وَأَثْرُ أَهْلَكَ يَالْشَلُوةَ وَاسْطَوْرَ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]. رواه الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبدالله بن حال النبي ﷺ إذا نرل بأهله الضبق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية. ومحمد بن حمرة بن يوسف بن عبدالله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه.

 ⁽۲) حديث: «لم يتوكل من استرقى واكتوى» أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي في الكبير والطبراني واللفظ له، إلا أنه قال: أو من حديث المغيرة بن شعبة، وقال الترمذي: «من اكتوى أو استرقى فقد برى» من التوكل» وقال النسائي: ما توكل من اكتوى أو استرقى.

بالقدرة التي يترجم عنها قولك: (له الملك)، والإيمان بالجود والحكمة الذي يدل عليه قولك: (وله الحمد) فمن قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل، أعني: أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول، وهو من علم المكاشفة، ولكن بعض علوم المكاشفات متملق بالأعمال بواسطة الأحوال، ولا يتم علم المعاملة إلا بها، فإذن: لا نتعرض إلا للقدر الذي يتملق بالمعاملة، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له، فنقول: للتوحيد أربع مراتب؛ وينقسم إلى لب، وإلى قشر، وإلى قشر القشر. ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإنّ له قشرتين، وله لب، وللب دهن هو لب اللب.

فالرتبة الأولى من التوحيد: هي أن يقول الإنسان بلسانه (لا إله إلا الله) وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين.

والثانية: أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام.

والثالثة: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقرّبين، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار.

والرابعة: أن لا يرى في الوجود إلا واحداً، وهي مشاهدة الصدّيقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده، بمعنى أنه فني عن رؤية نفسه والخلق؛ فالأوّل موحد بمجرّد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان. والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة، وله حيل بقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف، ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة وشدِّها على القلب وتسمى كلاماً، والعارف به يسمى متكلماً، وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام، وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقدته. والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحق كما هو عليه. ولا يرى فاعلاً بالحقيقة إلا واحداً وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه، لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإنَّ تلك رتبة العوام والمتكلمين؛ إذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة. والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوي في التوحيد؛ فالأوَّل كالقشرة العليا من الجوز، والثاني كالقشرة السفلي، والثالث كاللب، والرابع كالدهن المستخرج من اللب. وكما أنَّ القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مرَّ المذاق، وإن نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر، وإن اتخذ حطباً أطفأ النار وأكثر الدخان، وإن ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح إلا أن يترك مدَّة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه؛ فكذلك التوحيد بمجرّد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن، لكنه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلي إلى وقت الموت، والقشرة السفلي هي القلب والبدن. وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب،

والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة، وإنما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب، وكذلك محرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرّد نطق اللسان تاقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه وإشراق نور الحق فيه؛ إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَنَن يُرِد اللهُ أَن يَهْدِيهُ يَثْمَ صَكَدَهُ لِلإِسْلَائِكِ الانتمام: ١٢٥] وبقوله عزّ وجل: ﴿أَفَنَن تَرَحَ اللهُ صَدَرُهُ لِلإِسْلَائِد فَهُو عَلَى نُورٍ مِن رَبِّهِ ﴾ [الزَّمر: ٢٢] وكما أنّ اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر وكله المقصود، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من ليشاهد سوى الواحد الحق.

فإن قلت: كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وساثر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟

فاعلم: أنَّ هذه غاية علوم المكاشفات. وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر، ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة. نعم، ذكر ما يكسر سورة استبحادك ممكن. وهو أنّ الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أنَّ الإنسان كثير إن التَّفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد؛ فهو بالإصافة إلى الإنسانية واحد، وكم من شخص يشاهد إنساناً ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه، والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع، والملتفت إلى الكثرة في تفرقه، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتباراتٌ ومشاهدات كثيرة مختلفة، فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، وباعتبارات أخر سواه كثير، وبعضها أشدّ كثرة من بعض، ومثاله الإنسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً، ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوّة وإن لم تكن نبياً كان لك نصيب منه بقدر قوّة إيمانك. وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر، والدوام نادر عزيز. وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخوّاص يدور في الأسفار فقال: فيماذا أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل _ وقد كان من المتوكلين ٤٠ فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ فكأنّ الحَوَّاص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد، فطالبه بالمقام الرابع، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال.

فإن قلت: فلا بدُّ لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه

فأقول: أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه، ولبس التوكل أيضاً مبنياً عليه، بل يحصل حال

التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأوّل: وهو الفاق فواضح، وأما الثاني: وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في عالم الكلام، وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه. وأما الثالث: فهو الذي يبنى عليه التوكل، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب.

وحاصله: أن يكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما يتطلق عليه اسم فالمنفرد بإبداعه واختراعه هو الله عزّ وحلُّ لا شريك له فيه، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره، مل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره، وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة من ملكوت السموات والأرض، وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر، وإنما يصدَّك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين: أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات. والثاني: الالتفات إلى الجمادات، وأما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه، وعلى الغيم في نزول المطر، وعلى البرد في اجتماع الغيم، وعلى الربح في استواء السهينة وسيرها. وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِجُبُواْ فِي ٱلْفَلَافِ دَعَوْاً اللَّهَ مُغْلِعِينَ لَهُ ٱللِّينَ فَلَمَّا جَمَّنَـهُمْ إِلَى ٱلْبَرْ إِذَا هُمَّ يُشْرِكُونَ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ مَعْنَاهُ أَنْهُم يَقُولُونَ لُولًا استواء الربح لما نحونًا. ومن انكشف له أمر العلم كما هو عليه علم أنَّ الريح هو الهواء والهواء لا يتحرِّك بنفسه ما لم يحرِّكه محرَّك، وكذلك محرّكه، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأوّل الذي لا محرّك له ولا هو متحرك في نفسه عزّ وجلُّ؛ فالتمات العبد في النجاة إلى الربح يضاهي التفات من أحذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه وتخليته، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول: لولا القلم لما تخلصت، فيرى نجاته من القلم لا من محرّك القلم وهو غاية الجهل. ومن علم أنّ القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب، بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يحطر بباله القلم والحير والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض، وكل حيوان وجماد مسحرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب، بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أنَّ الملك الموقع هو الكاتب التوقيع، والحق أنَّ الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِكِرَ ۖ اللَّهُ رَمَّنَّهُ [الانفال: ١٧] فإذا الكشف لك أنَّ جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خاتباً وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك، فأتاك في المهلكة الثانية؛ وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول: كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره؛ فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك، وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك ىسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك، فكيف لا تخافه؟ وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه؟ ويقول له أيضاً: نعم، إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له؟ وعند هذا زل أقدام الأكثرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً مضطراً، كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخراً، وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسوّد الكاغد، ولم يمتدّ بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً عن صاحب اليد

فغلطت وظنت أنّ القلم هو المسود للبياض، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه فاهراً وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات، فإنّ الحمار شربك فيه، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم، وإنما أريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي.

فإن قلت: فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل؛ فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت، وكيف سبحت وقدّست، وكيف شهدت على نفسها بالعجز؟

فاهلم: أنّ لكل ذرّة في السماوات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى، فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له: ﴿قُل لَوْ كَانَ ٱلْبَحُرُ عِدَاذًا لِكَلِمْتِ رَبِي لَيْدَ ٱلْبَحُرُ وَالكهف: ١٠٩] الآية، ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السر لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قط أميناً على أسرار ملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسره على ملأ من الخلق؟ ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَجِحُتُمْ قَلِيلاً وَلَيْكَيْتُمْ كَثِيراً» من الخلق؟ ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَجِحُتُمْ قَلِيلاً وَلَيْكَيْتُمْ كَثِيراً» أَن الله عن إفشاء سر القدر (٢) ولما قال: "إذا ذُكِرَ النَّجُومُ فَأَمْسِكُوا وَإِذا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا وَإِذا ذُكِرَ القَدر (٢)، ولما خص حديفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٢٠). فإذن عن حكايات مناجاة ذرّات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان:

أحدهما: استحالة إفشاء السر.

والثاني: خروج كلماتها عن الحصر والنهاية، ولكنا في المثال الذي كنا فيه .. وهي حركة القلم ـ نحكي من مناجاتها قدراً يسيراً يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن حروفاً وأصواتاً، ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول: قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ـ وقد رآه اسود وجهه بالحبر ـ: ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر عليه السواد؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه؟ فقال الكاغد: ما أنصفتني في هذه المقالة، فإني ما سؤدت وجهي ينفسي ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر

⁽١) حديث: (لو تعلمون ما أعلم لضبحكتم قليلاً. . .؟ الحديث. تقدم غير مرة.

 ⁽۲) حديث النهي عن إفشاء سر القدر: رواه ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر: االقدر سر الله فلا تفشوا فله هؤ
 وجل سره ففظ أبي نعيم ، وقال ابن عدي الا تكلموا في القدر فإنه سر الله الحديث . وهو ضعيف، وقد تقدم .

 ⁽٣) حديث: اإذا ذكر التجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث، أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء،
 وتقدم في العلم.

⁽٤) حديث: أنه خص حذيفة بعض الأسرار، تقدم.

حَذَيْفَةٌ بِنَ الْيَمَانُ رَضِي اللهُ عَنْهُ كَانَ صَاحَبَ سَرَ الرَّسُولَ اللهِ ﷺ كما هُو مَعْرُوف ومشهور.

عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً فقال: صدقت، فسأل الحبر عن ذلك؟ فقال: ما أنصفتني فإني كنت في المحبرة وادهاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها، فاعتدى عليَّ القلم بطمعه الفاسد، واختطفنی من وطنی وأجلانی عن بلادي وفرق جمعی ویدّدنی کما تری علی ساحة بیضاء، فالسؤال علیه لا عَلَيُّ! فقال: صدقت، ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه وإخراجه الحبر من أوطانه فقال: سل اليد والأصابع؛ فإني كنت قصباً نابتاً على شط الأنهار متنزهاً بين خضرة الأشجار، فجاءتني اليد بسكين فنحت عنى قشري ومزقت عنى ثيابي، واقتلعتني من أصلى وفصلت بين أنابيبي، ثم برتني وشقت رأسي، ثم غمستني في سواد الحبر ومرارته، وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي، ولقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك، فتنح عني وسل من قهرني، فقالٌ: صدقت، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له، فقالت اليد: ما أنا إلا لحم وعظم ودم، وهل رأيت لحماً يطلم أو جسماً يتحرّك بنفسه؟ وإنما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له: القدرة والعزة، فهي التي ترددني، وتجول بي في نواحي الأرض، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه ولا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر، أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم، ثم لا معاملة بينها وبين القلم، فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم، فسل القدرة عن شأني فإني مركب أزعجني من ركبني، فقال: صدقت، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها، فقالت: دع عنك لومي ومعاتبتي، فكم من لاثم ملوم، وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمري؟ وكيفُّ ظننت أني ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك، وما كنت أحرّكها ولا استسخرها، بل كنت نائمة ساكنة نوماً ظنّ الظانون بي أنى ميتة أو معدومة، لأني ما كنت أتحرّك ولا أحرّك حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني إلى ما تراه مىي، فكانت لى قوّة على مساعدته، ولم تكن لى قوّة على مخالفته، وهذا الموكل يسمى الإرادة، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله؛ إذ أزعجني من غمرة النوم وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي، فقال: صدقت، ثم سأل الإرادة: ما الذي جرَّأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقاً لم تجد عنه مخلصاً ولا مناصاً، فقالت الإرادة: لا تعجل على فلعل لنا عذراً وأنت تلوم، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد على من حضرة الفلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار، فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل، ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته، لكني أدري أني في دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد القاهر، وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفاً وألزمت طاعته إلزاماً، بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة، لعمري ما دام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه، فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك، فإني كما قال القائل:

متى تسرحلت عسن قسوم وقسد قُدروا أن لا تسفدارقهم فالسراحسلون هُمهُ فقال: صدقت، وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة، فقال العقل: أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت، وقال

القلب: أما أنا قلوح ما انبسطت بنفسي ولكني بسطت، وقال العلم: أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي، فكم كان هذا اللوح قبل خالياً عني، فسل القلم عني لأنّ الخط لا يكون إلا بالقلم، فعند ذلك تتعتم السائل ولم يقنعه جواب وقال: قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره، ولكني كنت أطبب نفساً بكثرة المترداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال. فأما قولك: إني خط ونقش، وإنما خطني قلم فلست أفهمه فإني لا أعلم قلماً إلا من القصب، ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب، ولا خطأ إلا بالحبر، ولا سراجاً إلا من النار، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئاً، أسمع جعجعة ولا أرى طحناً، فقال له القلم: إن صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف، واعلم أن المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة؛ فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هدا بعشك، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له، وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد.

واصلم: أنَّ العوالم في طريقك هذا ثلاثة: عالم الملك والشهادة أوَّلها، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة، والثاني عالم الملكوت وهو وراثي؛ فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله وفيه المهامة والفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة، ولا أدرى كيف تسلم فيها، والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت؛ لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرص والماء، فلا هي في حدّ اضطراب الماء ولا هي في حدّ سكون الأرض وثباتها، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة، فإن جاوزت قوّته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشى في عالم الجبروت، فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع. فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي، وأوّل عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء، أما سمعت قول رسول الله على غيس عليه السلام الله الدُّدَادَ يَقِيناً لمشي عَلَى الهَوَامِ،(١٠)، لما قيل له إنه كان يمشي على الماء، فقال السائك السائل: قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق، ولست أدري أطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا؟ فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، افتح بصرك واجمع ضوء عينيكَ وحدَّقه نحوي؛ فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أنَّ تكون أهلاً لهذا الطريق، فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع باباً من أبواب الملكوت كوشف بالقلم، أما ترى أنَّ النبي علي في أول أمره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه: ﴿ آثِوا وَرَبُّكُ ٱلْأَكُومُ ﴾ الَّذِي مَلَّم بِالْقَلِم ﴾ مَلَم الرِينكن مَا تَر يَبِتُم ﴿ ﴾ [العلق: ٣-٥] فقال السالك: لقد فتحت بصري وحدقته، فوالله ما أرى قصباً ولا خشباً، ولا أعلم قلماً إلا كذلك، فقال العلم: لقد أبعدت النجعة، أما سمعت أنَّ متاع البيت يشبه رب البيت، أما علمت أنَّ الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا

⁽١) حديث: قبل له إن عيسى بمشي على الماه، قال: قلو ازداد ياتيناً لمشى على الهوامة، تقدم.

تشبه يده الأيدي ولا قلمه الأقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان يخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رقم ورسم، ولا حبره زاج وعفص، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مُخنثاً بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، مدبذباً بين هذا وذا، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيف نزهت داته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها؟ ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه؟ فإن كنت قد فهمت من قوله على: ﴿إِنَّ الله خَلَقَ آدَمُ عَلَى صُورَتِهِ ، الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقاً، كما يقال: كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتوراة، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزهاً صرفاً ومقدّساً فحلاً، واطو الطريق فإنك بالواد المقدَّس طوى، واستمع بسر قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العرش تنادي مما نودي به موسى: ﴿ إِنِّ أَنَّا رَبُّكَ﴾ [له: ١٣]، فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه، فاشتعل قلبه ناراً من حدَّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه بكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فلما نفخ فيه العلم بحدَّته اشتعل زيته فأصبح نوراً على نور، فقال له العلم: اغتنم الآن هده القرصة وافتح بصركَ لعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه؛ ما هو من خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكأن له في كل قلب رأساً ولا رأس له، فقضى منه العجب وقال: نعم الرفيق العلم، فجزاه الله تعالى عني خيراً؛ إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم؛ فإني أراه قلماً لا كالأقلام. فعند هذا ودع العلم وشكره وقال: قد طال مقامي عندك ومرادتي لك، وأنا عازُم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه، فسافر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما نبعث به الإرادات إلى إشخاص القدر وصرفها إلى المقدورات؟ فقال: أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على البد؟ قال: لم أنس ذلك. قال: فجوابي مثل جوابه. قال: كيف وأنت لا تشبهه؟ قال القلم: أما سمعت أنَّ الله تعالَى خلق آدم على صورته؟ قال: نعم. قال: فسل عن شأني الملقب بيمبن الملك فإني في قبضته، وهو الذي يرددني وأنا مقهور مسخر؛ فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة. فقال: فمن يمين الملك؟ فقال القلم: أما سمعت قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَوَتُ مَطَّوِيَّتُتُ ۚ بِسَيسِيهِ ﴾ [الزُّمر: ١٦]؟ قال: نعم. قال: والأقلام أيضاً في قبضة يمينه هو الذي يرددها. فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه، بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان، ويد لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع؛ فرأى القلم محرّكاً في قبضته، فظهر له علر القلم، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم؟ فقال: جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة؛ إذ اليد لا حكم لها في نفسها وإنما محرّكها القدرة لا محالة. فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت: إنما أنا صفة فاسأل القادر؛ إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت

ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة: ﴿لَا يُشْئُلُ عَمَّا يَفَعَلُ وَهُمْ يُشْئُلُوكَ ۞﴾ [الانبيّاء: ٢٣] فغشيته هيبة الحضرة، فخر صعفاً يضطرب في غشيته، فلما أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك وبرصاك من ممخطك، وما لي إلا أن أسألك وأتضرع إليك وأبتهل بين يديك، فأقول: اشرح لي صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأثني عليك؛ فنودي من وراء الحجاب: إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، بل ارجع إليه، فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته عنه، وما قاله لك فقله؛ فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: «سُبْحَاتَكَ لا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكُ (١) ، فقال: إلهي، إن لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك، فنودي: إياك أن تتخطى رقاب الصدّيقين، فارجع إلى الصدّيق الأكبر فاقتد به؛ فإن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، أما سمعته يقول: العجز عن درك الإدراك إدراك، فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاحز عن ملاحظة حمالنا وجلالنا. فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعدها: اقبلوا عذري فإنى كنت غريباً حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داحل دهشة، فما كان إنكاري عليكم إلا عن قصور وجهل، والآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي أنّ المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته، مرددون في قبضته وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن؛ فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له: كيف يكون هو الأوِّل والآخر وهما وصفان متناقضان، وكيفٌ يكون هو الظاهر والباطن؛ فالأول ليس بآخر، والظاهر ليس بباطن؟ فقال: هو الأوّل بالإضافة إلى الموجودات؛ إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحداً بعد واحد، وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه فإنهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة، فيكون ذلك آخر السفر، فهو آخر في المشاهدة أوَّل في الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس، ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت، فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل ـ أعنى من انكشف له أنَّ الفاعل واحد ـ..

فإن قلت: قد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتني على الإيمان بعالم الملكوت، فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟

فأقول: أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له: إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الحمس، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس، فإن قال: وأنا منهم؛ فإني لا أهتدي إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه، فيقال: إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس، فإنهم قالوا: ما نراه لا نثق به، فلعلنا نراه في المحسوسات فيقال: هذا شخص فسد مزاجه في المنام، فإن قال: وأنا من جملتهم فإني شاك أيضاً في المحسوسات فيقال: هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه، فيترك أياماً قلائل، وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء. هذا حكم الجاحد، وأما

⁽١) حديث: «سبحانك اللهم لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، تقدم.

الذي لا يجحد ولكن لا يههم. فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت، فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك على بخواص أصحابه، فإن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرّات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإن في عالم الشهادة أيضاً توحيداً؛ إذ يعلم كل أحد أنّ المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد بأميرين، فيقال له على حد عقله: إله العالم واحد والمدر واحد؛ إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق لفسدتا، فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق العرب على حد عادتهم في المحاورة.

فإن قلت: فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل وأصلاً فيه؟

فأقول: نعم؛ فإن الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال، إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالباً، ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده. وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك، بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً وإن كان يزداد وضوحاً، كما أنّ الذي يرى إنساناً في وقت الإسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته، وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا السامري؛ فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا في موسى عليه السلام، ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون: من موسى عليه السلام، ما جاوز حدود السحر وانكشف يمنع التغيير. وأما أصحاب السامري لما فَانُ إِنَّ البيان والكشف يمنع التغيير. وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان، فلما نظروا إلى عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا فوله: ﴿ هَذَا إِنَهُ عَلَى الله الله الله الله عجل السامري وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل، لأنّ كليهما من عالم الشهادة والاختلاف فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل، لأنّ كليهما من عالم الشهادة والاختلاف وتضاداً أصلاً.

فإن قلت: ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أنّ الوسائط والأسباب مسخرات، وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان فإنه يتحرّك إن شاء ويسكن إن شاء، فكيف يكون مسخراً؟

فاعلم: أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء؛ لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط، ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه؛ إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية، وإذا لم تكن المشيئة إليه فمهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة، فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة، والقدرة متحرّكة ضرورة عند انجزام المشيئة؛ فالمشيئة تحدث ضرورة في القلر. فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة

إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة، فهو مضطر في الجميع.

فإن قلت : فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً؟ فأقول: لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور، فهو إذن مجبور على الاختيار، فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار، فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما ذكره متطفلاً وتابعاً؛ فإنَّ هذا الكتاب لم نقصد به إلاَّ علم المعاملة، ولكني أقول لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه؛ إذ يقال: الإنسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحدة، ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات: فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً، ونسمى تنفسه فعلاً إرادياً، ونسمى كتابته فعلاً اختيارياً، والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي؛ لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لا محالة وقد يكون الخرق بعد التخطي ضرورياً، والتنفس في معناه؛ فإنَّ نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن، فمهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده، وليس الثقل إليه، وكذلك لإرادة ليست إليه، ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراراً، ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أنّ تغميض الأجفان اضطراراً فعل إرادي، ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها، ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً. وأما الثالث ـ وهو الاختياري ـ: فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق، وهو الدي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وتارة يشاء وتارة لا يشاء؛ فيظن من هذا أنَّ الأمر إليه، وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه: أنَّ الإرادة تسع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك، والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنَّه يوافقك من غير تحير وتردد، وإلى ما قد يتردد العقل فيه؛ فالذي تقطع به من غير تردد: أن يقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف، فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق، فلا جرم تنبعث الإرادة بالعلم. والقدرة بالإرادة، وتحصل حركة الأجفان بالدفع، وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة، ويكون ذلك بالإرادة، ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية فكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك، فإذا حصل بالفكر والروية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية فكر، فانبعثت الإرادة هاهنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان؛ فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير، أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة، ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه، إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية، فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقف، وعن هذا قيل: إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين، ولا يتصور أن تنبعث الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحز رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه لا لعدم القدرة في اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة، وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعث لحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً، وقتل نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوَّة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق؛ فإنّ

العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد؛ لأن تردده بين شر الشرين؛ فإن ترجح له بعد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه، كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمي بنفسه من السطح مثلاً وإن مهلكاً ولا يبالي ولا يمكنه أن لا يرمي نفسه، فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي، فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث له داعية ألبتة، لأنَّ داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس، والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدّر بالضرورة فيه من حيث لا يدري، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور، فأما أن يكون منه فكلا ولا، فإذن: معنى كونه مجبوراً: أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه، ومعنى كونه مختاراً: أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقلُّ بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً حبراً فإذا هو مجبور على الاختيار، ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة، لأنه ثما كان فناً ثالثاً واقتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للحبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه، وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد، فإنّ ذلك في حقه محال، وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه.

فإن قلت: فهل تقول إن العلم ولد الإرادة، والإرادة ولدت القدرة، والقدرة ولدت الحركة، وأن كل متأخر حدث من المتقدّم؟ فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى، وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على المعض؟

فاعلم: أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على معنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية، وهو الأصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم فإنهم وقفوا على كنه معناه، والكافة وقفوا على مجرّد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو يعيد عن الحق، وبيان ذلك يطول، ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب الممسروط على الشرط؛ فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة، وكما لا يجوز أن يقال: الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب، ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق وإلا فلا يتقدّم متفدّم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق واللزوم، وكذلك جميع أفعال الله تعالى، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين - تعالى الله عن قول الحاهلين علواً تعالى، ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين - تعالى الله عن قول الحاهلين علواً تعالى؛ ﴿ وَمَا حَلَقْتُهُ اللهِ يَالَمُونَ وَاللهُ اللهُ اللهُ عن قول الحاهلين علواً عبالى في من النافقة إلا يتقدم والدخان. ١٩٩٨، والمحال ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث، وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر مناخر إلا لانتظار شرطه، والمشروط قبل الشرط محال، والمحال لا يوصف بكونه مقدوراً، فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم، وكل ذلك معهاج الواجب وترثيب الحق، ليس في شيء من ذلك لعب

كتاب التوحيد والتوكل

واتفاق، بل كل ذلك بحكمة وتدبير، وتفهيم ذلك عسير، ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وحود الشرط مثالاً يقرب مبادىء الحق من الأفهام الضعيفة، وذلك بأن نقدّر إنساناً محدثاً قد الغمس في الماء إلى رقبته، فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان الماء هو الرافع وهو ملاق له. فقدر الفدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه، فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث، فربما يظن الجاهل أنَّ الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لأنه حدث عقيمه؛ إذ يقول: كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل، بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فإذن غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرداة والإرادة بالعلم، وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه، والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء، ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة، فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدّرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة، وهذا قرع باب آحر لعالم آخر من عوالم المكاشفات، فلنترك جميّع ذلك فإنّ مقصودت التنبيه على طريق التوحيد في الفعل، فإنَّ الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد، واستيفاء ذلك في عمر نوح محال، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه، وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله، وما أخف مؤنته على اللسان! وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب! وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم.

فإن قلت: فكيف الجمع بين التوحيد والشرع، ومعنى التوحيد: أن لا فاعل إلا الله تعالى. ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد؛ فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً؟ وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيفّ يكون العبد فاعلاً؟ ومفعول بين فاعلين غير مفهوم. فأقول: نعم، ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد، وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملاً مردداً بينهما لم يتناقض، كما يقال: قتل الأمير فلاناً، ويقال: قتله الجلاد، ولكن الأمير قاتل بمعنى، والجلاد قاتل بمعنى آخر؛ فكذلك العبد فاعل بمعنى، والله عزّ وجلّ فاعل بمعنى آخر؛ فمعنى كون الله تعالى فاعلاً أنه المخترع الموجد، ومعنى كون العبد فاعلاً: أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلَّق فيه العلم، فارتبطت الفدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط، وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع، وكل ما له ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلاً له كيفما كان الارتباط، كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً؛ لأنَّ القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين، فلذلك سمى فعلاً لهما، فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين، ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه، فقال تعالى في الموت: ﴿ قُلُ يَنْوَنَكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السَّجدة: ١١] ثم قال عزّ وجلّ: ﴿أَفَهُ يَنْوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهِكَ ﴾ [الزُّمر: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ أَزَرَيْمُ مَّا غَرُونَ ٢٠ ﴾ [الرابعة: ٦٣] أضاف إلينا ثم قال تعالى: ﴿ أَنَّا مَبَّنَا ٱللَّهُ مَبًّا ٱلاَرْضَ شَقًا ۞ فَالْكِنَا بِيهَا حَبًّا ۞ رَبِينًا وَقَفْهًا ۞ ﴿ اعْبَسَن ٢٠-٢٨] وقدال عدزٌ وحسلٌ: ﴿فَأَرْسَلْنَا ۚ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلُ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم ١٧] ثم قال تعالى: ﴿ فَنَفَغْكَا فِيهِكَا مِن زُوجِنَكَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] وكان النافخ

جبريل عليه السلام، وكما قال تعالى: ﴿ فَإِنَا قَرَأَتُهُ أَنَّائِهُ ﴿ إِلَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ على في التفسير: معناه إذا قرأه عليك جبريل. وقال تعالى: ﴿ قَنْيَلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ۖ [التّوبَة: ١٤] فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه، والتعذيب هو عين القتل، بل صرح وقال تعالى: ﴿ مَلَمْ تَفْتُلُوهُمْ وَلَكِكِ ۖ اللَّهَ قَنْلَهُمَّ [الأنفَال: ١٧] وقال تعالى: ﴿ وَمَا رَمَّيْتَ إِذْ رَمَّيْتَ وَلَذِكِكَ أَنَّهُ رَكَنَّ [الأنفَال: ١٧] وهو جمع بين النفى والإثبات ظاهراً، ولكن معناه: وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به رامياً إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به رامياً؛ إذ هما معنيان مختلفان. وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِالْفَلْمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنكَنَ مَا لَا يَعْمُ ۞﴾ [العَلَق: ٤،٥] ثم قال: ﴿ ٱلرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُـرُهَانَ ۞﴾ [الرَّحش: ٢٠١] وقال: ﴿ عَلَمُهُ ٱلْسَيَانَ ۞﴾ [الرَّحشن: ٤] وقـال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَمُ ۞﴾ [البقينامة: ١٩] وقـال: ﴿أَوْزَيْتُمْ مَّا تُشْتُونَ ۞ مَأْتُنَرُ غَلْقُونَهُ، أَمْ يَحْلُ اَلْحَنِيقُونَ ﴿ الواتِنة: ٥٩،٥٨) ثم قال رسول الله ﷺ في وصف ملك الأرحام: ﴿إِنَّهُ يَدْخُلُ الرَّحِمَ فَيَأْخُذُ النُّطْفَةَ فِيْ يَدِهِ ثُمَّ يُصَوِّرُها جَسَداً، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، أَذَّكُرُ أَمْ أُنْثَى، أَسَوِيٌّ أَمْ مُعْوَجٌ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ما شَاءَ وَيَّخُلُقُ المُمَلَكُ» (١)، وفي لفظ آخر: «وَيُصَوَّرُ المَلَكُ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيدِ الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّفَاوَةِ». وقد قال بعض السلف: إنَّ الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحاً يلج في جسم، ولذلك سمي روحاً، وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم، فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل، والحكم به دون النقل تخمين مجرّد، وكذلك ذكر الله تعالَى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات، ثم قال: ﴿ أَوْلَمْ بَكْفِ بِرَبِكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيلً﴾ [فصّلت: ٥٣] وقال: ﴿ شَهِـ دَ اللَّهُ أَنَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عِمْرَان: ١٨] فبين أنه الدليل على نفسه؛ وذلك ليس متناقضاً بل طرق الاستدلال مختلفة، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم: عرفت ربي بربي، ولولا ربي لما عرفت ربي، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ أُوَّلَمْ يَكُون بِرَيِّكَ أَنَّةً هَلَىٰ كُلِّي شَيْءٍ شَهِيلًا﴾ [فُصّلَت: ٥٣]. وقد وصف الله تعالَى نفسه بأنه المحيي والمميت، ثم فوَّض الموت والحياة إلى ملكين، ففي الخبر: ﴿أَنَّ ملكي الموت والحياة تناظرا، فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء، وقال ملك الحياة: أنا أحيى الموتى، فأوحى الله تعالى إليهما: كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع، وأنا المميت والمحيى لا يميت ولا يحيى سواي (٢)، فإذن: الفعل يستعمل على وجوه مختلفة، فلا تتناقض هذه المعاني إذًا فهمت، ولذلك قال ﷺ للذي ناوله التمرة: ﴿خُذُهَا لَوْ لَمْ تَأْتِها لِأَتَنْكَ (٣)، أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة، ومعلوم أنّ التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي

⁽١) حديث: وصف ملك الأرحام: «أنه يدخل الرحم فيأخذ النطقة بيده ثم يصورها جسداً...» الحديث، رواه البزار وابن عدي من حديث عائشة: «إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكاً فيدخل الرحم فيقول: يا رب ماذا...» الحديث. وفي آخره: «فما من شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم» وفي سنده جهالة، وقال ابن عدي: إنه منكر، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه.

 ⁽٢) حديث: (إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت: أنا أميت الأحياء، وقال ملك الحياة: أنا أحيي الأموات، فأوحى الله إليهما: أن كونا على هملكما...» الحديث، لم أجد له أصلاً.

 ⁽٣) حديث: قال للذي ناوله التمرة: هخذها لو لم تأتها لأتتك أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل، ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح.

فإن قلت: فقد ظهر الآن أن الكل جبر، فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضاء وكيف غضبه على فعل نفسه؟ .

فاعلم: أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته، فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة، فإن التوحيد بورث النظر إلى مسبب الأسباب، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم حال التوكل - كما سبأتي - إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل، وهذا الإيمان أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول، فلنذكر حاصله ليعتقده الطلب لمقام التوكل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه: وهو أن يصدّق تصديقاً يقيناً لا ضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق المخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرّفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم، به على الدنير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا

 ⁽١) حديث: أنه قال للذي قال: أترب إلى الله ولا أتوب إلى محمد: • عرف الحق الأهله، تقدم في الزكاة.

 ⁽٣) حديث قاصدق بيث قالته العرب بيت لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ: «قاله الشاعر» وفي رواية لمسلم: «أشعر كلمة تكلمت بها العرب».

وهذا شطر من بيت وتمامه:

صدق القائل من الشطر الأول وكذب في الثاني لأن نعيم الجنة لا يزول.

والآخرة جناح بعوضة ولا أن ينقص منها جناح بعوضة، ولا أن يرفع منها ذرّة ولا أن يخفض منها ذرّة، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلي به، ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض ـ إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ـ ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور، وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية، فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل، ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهية، بل كل فقر وضر في الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نقص في الأحرة بالإضافة إلى شخص فهو تعيم بالإضافة إلى غيره؛ إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار، ولولا المرض لما تنعم الأصحاء بالصحة، ولولا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة. وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم، بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل، وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل، ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس؛ فإنَّ الكمال والنقص يظهر بالإضافة، فمقتصى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعاً، وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل؛ لأنه فداء كامل بناقص، فكذلك الأمر في النفاوت الذي بين الخَّلق في القسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه. وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين، ولم يعلموا أن ذلك غامص لا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفوں.

والحاصل: أن الخير والشر مقضيّ به، وقد كان ما قضي به واحب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل، ولنرجع إلى علم المعاملة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل.

朱安华

الشطر الثاني من الكتاب: في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل، وبيان ما قاله الشيوخ في حدّ التوكل، وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والمعيل، وبيان التوكل بترك الادخار، وبيان التركل في دفع المضارّ، وبيان النوكل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره، والله الموفق برحمته.

بيان حال التوكل:

قد ذكرنا أنَّ مقام التوكل ينتظم من: علم، وحال، وعمل. وذكرنا العلم.

قاما الحال: فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته، وقد أكثر الخائضون في بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كما جرت عادة أهل التصوّف به، ولا فائدة في النقل والإكثار، فلنكشف الغطاء عنه ونقول:

التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكُّل أمره إلى فلان. أي: فوَّضه إليه واعتمد عليه فيه، ويسمى الموكول إليه: وكيلاً، ويسمى المفوض إليه: متكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً. فالتوكل: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده. ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول: من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله، إلا إدا اعتقد فيه أربعة أمور: منتهى الهداية، ومنتهى القوّة، ومنتهى الفصاحة، ومنتهى الشفقة. أما الهداية: فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً. وأما القدرة والقوّة؛ فليستجرى، على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبر عليه أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به. وأما الفصاحة؛ فهي أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه، فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس، وأما منتهى الشفقة؛ فيكون باعثاً على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود، فإنّ قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لا يهمه أمره ولا يبالي به، ظفر خصمه أو لَم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك؛ فإن كان شاكاً في الأربعة أو في واحدة منها أو جوَّزَ أن يكون خصمه في هده الأربعة أكمل منه لم تطمئر نفسه إلى وكيله، بل بقي منرعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير؛ ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه، ويكون نفاوت درجة أحواله في شدَّة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال فيه، والاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوّة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه، كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية، وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقدرهم بياناً وأقدرهم على تصرة الحق، بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق. فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى، فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتفاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهي قدرته قدرة ولا وراء منتهي علمه علم ولا وراء منتهى عنايته ىك ورحمته لك عناية ورحمة، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوّته، فإنه لا حول ولا قوّة إلا بالله ـ كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ـ فإنّ الحول عبارة عن الحركة، والقوة عبارة عن القدرة، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضعف اليقير بإحدى هذه الخصال الأربعة، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين، فإنّ من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله، ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جماد في الحال،

وأنّ سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحييه وإن كان قادراً عليه، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السنور أسداً وإن كان قادراً عليه، ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة المبت في فراش أو المبيت معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل، وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه، فإذن: لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً؟ إذ بهما يحصل مكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَيْمَ نُوْسَ قَالُ بَلُنُ وَلَذِينَ لِقَلْمَهِنَ فَلَي ﴾ [البَقرة: ٢٧٠] باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً، باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة؛ وذلك لا يكون في البداية أصلاً، النصراني ولا يقين لهم أصلاً، وإنما يتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو وكم من مطمئن لا يقين لهم أصلاً، وإنما يتبعون الظنّ وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين به إلا أنهم معرضون عنه. فإذن: الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معها، فهي أحد الأسباب، وإذا اجتمعت هذه الأسباب التي تضاد حال التوكل، كما أنّ ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب، وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى؛ وقد قيل: مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته إنسان مثله، وقد قال ﷺ: همن المبتعز بالعبيد أذله الله تعالى؛ وقد قيل: مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته إنسان مثله، وقد قال اللهذي المبتوب المنتوب المبتوب من المتوب من نقته إنسان مثله، وقد قال المباب عصلت الثقة بالله تعالى؛ وقد قيل: مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته إنسان مثله، وقد قال المباب عملية المبتوب المبتوب أن البياب على المبتوب المبتوب

وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوّة والضعف ثلاث درجات:

المسرجة الأولى: ما ذكرناه؛ وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.

الثانية: وهي أقوى؛ أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه: يا أماه، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه؛ فإنها مفزعه، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه، ولكن كل ذلك وراء الإدراك، قمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً؛ فإن الطفل متوكل على أمه. والفرق بين هذا وبين الأول: أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله؛ إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته، بل إلى المتوكل عليه نقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الأول: فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانياً عن توكله؛ لأن له التفاتا إلى توكله وشعوراً به، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل: ما أدناه؟ قال: ترك الأماني. قيل: وأوسطه؟ قال: ترك الأماني. قيل: وأوسطه؟ قال: ترك الأماني. قيل المربة إلى الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل: ما أدناه؟ قال: ترك الأماني. قيل الم من بلغ أوسطه.

حديث: قمن احتز بالعبيد أقله الله أخرجه المقبلي في الضعفاء، وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر، أورده العقبلي في
ترجمة عبدالله والأموي وقال: لا يتابع على حديثه، وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال: يخالف في روايته.

الثالثة: وهي أعلاها؛ أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحرّكه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات، وأن كلا يحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه، ويعارق الصبي فإنّ الصبي يفزع إلى أمه ويصبح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها، بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه. وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته، وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسأل، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء ويغير الاستحقاق! والمقام الثاني لا يقتضي ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط.

فإن قلت: فهذه الأحوال هل يتصور وجودها؟.

فاعلم: أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر، والمقام الثاني والثالث أعزها، والأوّل أقرب إلى الإمكان، ثم إذا وجد الثالث والثاني فداومه أبعد منه، بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجل، فإنّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوّة والأسباب طبع وانقباضه عارض، كما أنّ انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض. والوجل: عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حنى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة، فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوّة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم. وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم، فإنه قد يدوم يوماً ويومين. والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول.

فإن قلت: فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال؟.

فاعلم: أنَّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية، بل يكون صاحبها كالمبهوت. والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط. والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسئنه دون صريح إشارته، فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له: لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه؛ إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوّته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له؛ إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر؛ فقوله: وأما المعلوم من عادته واطراد سنته: فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحاج الخصم إلا من السجل، فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه: أن يكون معولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها؛ وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاصمته؛ فإذن لا يستغني عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل، ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكله فكيف يكون فعله نقصاً فيه؟ نعم، بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظراً إلى محاجته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوّته؛ إذ لم يبق له حول ولا قوّة، وقد كان فزعه إلى حوله وقوّته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته، وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري. وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس

من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل، وأنَّ كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال، فإذا فزع المثوكل إلى حوله وقوّته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل؛ لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعبًّا محضًّا بلا جدوى؛ فإذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوّته بل من حيث إنّ الوكيل جعله معتمداً لمحاجته، وعزّفه ذلك بإشارته وسنته، فإذن: لا حول ولا قوّة إلا بالوكيل، إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل؛ لأمه ليس خالقاً حوله وقوته، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله، وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى؛ إذ هو خالق الحول والقوّة ـ كما سبق في التوحيد ـ وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد. فإذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصدقاً، ومن شاهد هدا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله(١٠)، وذلك قد يستبعد فيقال: كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها؟ وهيهات فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد، ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة (لا إله إلا الله) وثوابها كنسبة معنى إحداهما إلى الأخرى؛ إذ في هذه الكلمة إضافة شبئين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه، فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب (لا إله إلا الله) بالإضافة إلى هذا، وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين، فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات، وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا إلى اللبين، وإلى اللبين الإشارة بقوله ﷺ: ﴿مَنْ قَالَ لا إنه إلاَّ اللَّهُ صَادِقاً مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصاً وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»(٣)، وحيث أطلق من غير الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع، والمراد به المقيد بالعمل الصالح، فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضاً حديث ولكنه حديث نفس، وإنما الصدق والإخلاص وراءهما. ولا ينصب سرير الملك إلا للمقرّبين وهم المخلصون. نعم، لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهى إلى الملك، أما نرى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسوير الملك فقال: ﴿ مَلْ شُرُرِ مَّوْشُونَةٍ ۞ مُّثِّكِمِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِيلِينَ ۞﴾ [الواقِمَة: ١٦٠١٥] ولما انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد في ذكر الماء والظل والفواكه والأشجار والحور العين، وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح، ويتصور ذلك للبهائم على الدوام، وأين لذات البهائم من لذة الملك، والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين، ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة، أفترى أنّ أحوال البهائم ـ وهي مسيبة في الرياض متنعمة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد .. أعلى وألذ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوطة _ من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين، هيهات هيهات! ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حماراً أو

⁽١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله: تقدمت في الدعوات.

 ⁽٣) حديث: امن قال لا إله إلا الله صادقاً مخلصاً من قلبه وجبت له الجنة، رواه الطبراني من حديث زيد بن أرقم، وأبو يعلى من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام! وليس يخفى أنّ شمه كل شيء منجذب إليه، وأنّ النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الاساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب، وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من تروعها إلى نيل لذات الملائكة، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة، وهؤلاء هم الذين يقال فبهم: ﴿ أَوْلَتِكَ كَالْأَنْهُ لِي بُلُ هُمْ أَضَلُ ﴾ [الأعراف. ١٧٩] وإنما كانوا أضل؛ لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة، فتركها الطلب للعجز، وأما الإنسان ففي قوته دلك، والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال. وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود، فقد بيّنا معنى قول: (لا إله إلا الله) ومعنى قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل.

فإن قلت: ليس في قولك: (لا حول ولا قوة إلا بالله) إلا نسبة شيئين إلى الله، فلو قال قائل: السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟

فأقول: لا؛ لأن الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين، ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جار وصفهما بالصغر تجوزاً، فليست الأمور بعظم الأشخاص بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى، فأما الحول والقوة: فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعي أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره، فهي مهلكة مخطرة، ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون؛ إذ أثبتوا لأنفسهم أمراً، وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق سوى الله تعالى، فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذي يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله. وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان:

[حداهما: النظر إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات.

والثانية: النظر إلى اختيار الحيوانات، وهي أعظم العقبتين وأخطرهما ويقطعهما كمال سر التوحيد، فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة. أعني: ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها؛ فإذاً: رجع حال التوكل إلى التبري من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق، وسيتضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى.

بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل:

لبتبين أنّ شيئاً منها لا يخرج عما ذكرناه ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال، فقد قال أبو موسى الديلي: قلت لأبي يزيد: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت؟ قلت: إن أصحابنا يقولون: لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ما تحرّك لذلك سرك. فقال أبو يزيد: نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة في الجنة يتنعمون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل. فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثائث، وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة، وأن ما قعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الحنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة. وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك

الاحتراز عن الحيات شرطاً في المقام الأوّل من التوّكل؛ فقد احترز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سدّ منافذ الحيات (أ إلا أن يقال: فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره، أو يقال: إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله على لا في حق نفسه، وإنما يزول التوّكل بتحرّك سره وتغيره لأمر يرجع إلى نفسه، وللنظر في هذا مجال، ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوّكل؛ فإنّ حركة السر من الحيات هو الخوف، وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات؛ إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله، فإن احترر لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير.

وسئل ذو النون المصري عن التوكل؟ فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب. فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال، وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفط يتضمنه فقيل له: زدنا! فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية. وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط.

وسئل حمدون القصار عن التوكل؟ فقال: إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك. وهذا إشارة إلى مجزد الإيمان بسعة القدرة، وأن في المقدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة.

وسئل أبو عبدالله القرشي عن التوكل؟ فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال، فقال السائل: زدني! فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك. فالأوّل عام للمقامات الثلاث، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة، وهو مثل توكل إبراهيم في إذ قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا؛ إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له، فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك، فيكون هو المتولي لذلك، وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره، وهو حال عزيز في نفسه، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز.

وقال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب. ولعله يشير إلى المقام الثاني، فسكونه بلا اضطراب: إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به، واضطراب بلا سكون: إشارة إلى فزعه إليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها.

وقال أبو على الدقاق: التوكل ثلاث درجات: التوكل، ثم التسليم، ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، والمسلم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه، فإنّ العلم هو الأصل، والوعد يتبعه، والحكم يتبع الوعد، ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك. وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل. فهذا ما يتعلق بحال التوكل، والله الموقق برحمته ولطفه.

⁽١) حديث: ﴿إِنْ أَبَا بِكُر سَدُّ مَنَافَذَ الْحَيَاتِ فِي الغَارِ شَفْقَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، تقدم.

بيان أعمال المتوكلين:

اعلم: أن العلم يورث الحال، والحال يثمر الأعمال. وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإنّ ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين! بل نكشف الغطاء عنه ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وسعي العبد باختياره: إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالاذخار، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة: وهو جلب النافع أو حفظه، أو دفع الضار أو قطعه، فلنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقروناً بشواهد الشرع.

الفن الأوّل: في جلب النافع: فنقول فيه: الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات: مقطوع به، ومظنون ظناً يوثق به، وموهوم وهماً لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن إليه.

المعرجة الأولى: المقطوع به، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف، كما أنّ الطعام إذا كان موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمدّ اليد إليه وتقول أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي ومذّ اليد إليه سعي وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله، فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء، فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعاً دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يحلق الله تعالى نباتاً من غير بنر، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مربم عليها السلام، فكل ذلك جنون، وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه. فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم. أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك. وأما الحال: فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام، وكيف تعمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج؟ وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك؟ وكيف تعول على حضور الطعام، وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك؟ وكيف تعول على حضور الطعام، وربما المند تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك؟ وإذا يشط الله تعالى ذلك ولم يكن لها علاج إلا يفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول، فإذا كان هذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا يفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول، فإذا كان هذا حاله وعلمه فليمذ البد فإنه متوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أنّ المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيداً، كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطاً في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق، ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص.

فإن قلت: فهذا سعى في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة.

فاعلم: أنَّ ذلك يخرج عن كونه حراماً بشرطين:

أحدهما: أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسوّاها على الصبر عن الطعام أسبوعاً وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوّش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى.

والثاني: أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة؛ فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجتزىء به فيحيا به مجاهداً نفسه. والمجاهدة عماد التوكل، وعلى هذا كان يعول الخوّاص ونظراؤه من المتوكلين. والدليل عليه: أنّ الخواص كان لا يفارقه الإبرة والمقراض والحبل والركوة ويقول: هذا لا يقدح في التوكل. وسببه: أنه علم أنَّ البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض، وما جرت سنة الله تُعالَى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش، والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة؛ فإنَّ المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام، وكذلك يكون له ثوب واحد وربِما يتخرّق فتنكشفُ عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالباً عند كل صلاة، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي، فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضاً يلتحق بالدرجة الثانية؛ لأنه مظنون ظناً ليس مقطوعاً به؛ لأنه يحتمل أن لا يتخرّق الثوب أو يعطيه إنسان ثوباً أو يجد على رأس البئر من يسقيه، ولا يحتمل أن يتحرّك الطعام ممضوعًا إلى فيه، فسين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأوَّل. ولهذا نقول: لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلاً، فهو آثم به ساع في هلاك نفسه، كما روي: أنَّ زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعاً وقال: لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربى برزقي، فقعد سبعاً فكاد يموت ولم يأته رزق، فقال: يا رب إن أحييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك، فأوحى الله جل ذكره إليه: وعزتي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس، فدخل المصر وقعد، فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب، فأكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تذهب حكمتى بزهدك في الدنيا! أما علمت أنى أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتي. فإذن: التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عزّ وجلّ دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلاً في الوكيل بالخصومة من قبل، ولكنّ الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية، فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب.

فإن قلت: ما قولك في القمود في البلد بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟.

فاعلم: أن ذلك ليس بحرام؛ لأنه كفعل صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه، فهذا كيف كان لم يكن مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً، بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله دلك حرام، وإن فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس قعله حراماً إلا أن يشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب، وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل، وهو من مقامات التوكل؛ وهو أن يشتغل

بانة تعالى ولا يهتم برزقه، فإنّ الرزق يأتيه لا محالة، وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء: وهو أنّ العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه، وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استحاب وكان عاصياً، ولقال له: يا جاهل، كيف أخلقك ولا أرزقك؟ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى. وقال على: "قو توكُلتُمْ عَلَى اللهِ حقّ تُوكُلِهِ لَرَزَقُكُمْ كُما يَرْزُقُ الطير تغفو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً وَلَرَاكَ بِدُحَائِكُمُ الْجِبَالُهُ(). وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم؛ فإن قلتم: نحن أكسر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكلون تجري أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون. وقال بعضهم: العبيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار، وبعصهم بامتهان كالصناع، وبعصهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة.

المدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسبات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها؛ وهو الذي فيه الناس كلهم، أعني: من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح. فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدبيا والاتكال على الأسباب، فلا يخفى أن ذلك ببطل التوكل، وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطير والكي بالإضافة إلى إزالة الضار، فإن النبي فلا وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئاً، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب. وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها. وقال سهل في التوكل: إنه ترك التدبير، وقال: إنّ الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه، وإنما حجابهم بتدبيرهم، ولعله أراد به استنباط الأسباب المعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية. فإذن: قد ظهر أن الأسباب منقسمة: إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج، وأن الذي يخرج ينقسم: إلى مقطوع به وإلى مظنون، وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عمد وجود حال التوكل، وعلمه؛ وهو الاتكال على مسبب الأسباب، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل. وأما المظنونات: فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً، والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات:

الأوّل: مقام الخواص ونظرائه؛ وهو اللّذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً وما فوقه، أو تيسير حشيش له أو قوت، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك، فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بعيره ويموت جوعاً، فذلك ممكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده.

⁽١) حديث: «لو توكلتم على الله حق توكله. .» الحديث. وزاد هي آخره. «ولزالت بدعائكم البجال». وقد تقدما قريباً دول هذه الزيادة، فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل بإسناد قيه لين: «لو عرفتم الله حق معوفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال» ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب المكي مرسلاً دون قوله: «لمشيتم على البحور» وقال: هذا منقطع.

المقام الثاني: أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار، وهذا أضعف من الأوّل، ولكنه أيضاً متوكل؛ لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرّض لأسباب الرزق؛ فإن ذلك من الأسباب الجالبة، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسخر له سكان البلد لإيصال رزقه إليه لا إلى مكان البلد؛ إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم.

المقام الثالث: أن يخرج ويكتسب اكتساباً على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب، وهذا السعي لا يخرجه أيضاً عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوّته وجاهه وبضاعته، فإنّ ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له، بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الملك الموقع، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرّك؟ وإلى ماذا يميل؟ وبم يحكم؟ ثم إنّ كان هذا المكتسب مكتسباً لعياله أو ليفرّق على المساكين فهو ببدنه مكتسب ويقلبه عنه منقطع؛ فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته، والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبن؛ أن الصدّيق رضي الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذا الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي، حتى كرهه المسلمون وقالوا: كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوّة؟ فقال: لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى، ويستحيل أن يقال: لم يكن الصديق في مقام التوكل! فمن أولى بهذا المقام منه؟ فدل على أنه كان متوكلاً لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب، وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا. نعم، يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد. وقال أبو جعفر الحداد ـ وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما _ وكان من المتكلمين: أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق، كنت أكتسب في كل يوم ديناراً ولا أبيت منه دانقاً ولا أستريح منه إلى قيراط أدخل به الحمام، بل أخرجه كله قبل الليل. وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرته وكان يقول: أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي واعلم: أن الجلوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل، فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصبح معه التوكل إلا على ضعف، ولكن يقوى بالحال والعلم، كتوكل المكتسب؟ وإن لم يسألوا بل قُنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم، لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقاً، فهو كدخول السوق، ولا يكون داخل السوق متوكلاً إلا بشروط كثيرة كما سبق.

فإن قلت: فما الأفضل أن يقعد في بيته، أو يخرج ويكتسب؟.

فاعلم: أنه إن كان يتفرّغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى. وإن كان يضطرب قلبه في

البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى؛ لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم، كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطي بعض الفقراء شيئاً فضلاً عما كان استأجره عليه، فرده، فلما ولّى قال له أحمد: المحقه وأعطه فإنه يقبل، فلحقه وأعطاه فأخذه، فسأل أحمد عن ذلك؟ فقال: كان قد استشرفت نفسه فرد، فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ، وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئاً. وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره: رأيت الخضر ورضي بصحبتي ولكني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصاً في توكلي، فإذن: المكتسب إذا راعى آداب الكسب وهو: أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلاً.

فإن قلت: فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية؟.

فأقول: علامته؛ أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضياً به ولم تطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً، فإنّ من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه. وكان بشر يعمل المغازل فتركها؛ وذلك لأنّ البعادي كاتبه قال: بلغني أنك استعنت على رزقك بالمغازل، أرأيت إن أخذ الله سمعك وبصرك، الرزق على من؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها، وقيل: تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها، وقيل: فعل ذلك لما مات عياله، كما كان لسفيان خمسون ديناراً يتجر فيها، فرقها.

فإن قلت: فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أنَّ الكسب بغير بضاعة لا يمكى؟.

قاقول: بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة، وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه، فإن أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سبباً لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به، وغايته أن يموت جوعاً، فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعاً خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته، فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها، ففي الخبر: "إنَّ العَبْدَ لَيَهُمُّ مِنَ اللّيْلِ بِأَمْرِ مِنْ أَمُورِ التَبَارَةِ مِمًا لَوْ فَعَلَهُ لكانَ فِيهِ هَلاكُهُ فينظر اللّهُ تعالى إلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عرشهِ فيصوفه عنه فيصبح كثيباً حَزِيناً يَتَطَيرُ بجاره وابن عمه: مَنْ سَبَقَني؟ مَنْ دَعَانِي؟ وما هِيَ إلاّ رَحْمَةٌ رَحِمَهُ اللّهُ بهاه أن ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً، فإني لا أدري أيهما خير لي. ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل؛ ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري: لي يفينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل المبارك فإني ما شممت منه رائحة. هذا كلامه مع علق قدره، ولم من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك فإني ما شممت منه رائحة. هذا كلامه مع علق قدره، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال: ما أدركته، ولعله أراد إدراك أقصاه، وما لم يكمل الإيمان ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال: ما أدركته، ولعله أراد إدراك أقصاه، وما لم يكمل الإيمان

⁽۱) حديث: فإن العبد ليهم من الليل يأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق حرشه فيصرفه عنه . . . ٤ الحديث . أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جداً نحوه إلا أنه قال:
قيصرفه عنى حاجة من حاجات الدنيا . . . ٤ الحديث، بنحوه.

بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدّره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خبر له مما يتمناه العبد، لم يكمل حال التوكل؛ فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور _ كما سبق _ وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبني على أصولها من الإيمان. وبالجملة: التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين، ولذلك قال سهل: من طعن على التكسب فقد طعن على السنة، ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد.

فإن قلت: فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظنُّ بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية؟.

فأقول: نعم، هو أن تعرف أنّ سوء الظن تلقين الشيطان، وحسن الظن تلقين الله تعالى:
قال الله تعالى: ﴿الشّيَطُانُ يَهِدُكُمُ الْفَقْرُ وَيَأْشُوكُمُ إِلْفَحْسُكُمْ وَاللّهُ يَهِدُكُم مَّمْفِرَةً وَنَهُ وَفَقْلاً ﴾ [البقرة: ٢٦٨] قال الله تعالى: ﴿الشّيطان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان؛ ولذلك قبل: الشفيق بسوء الظن مولع. وإذا انضم البه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضاً تبطل التوكل، فقد حكى عن عابد: أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم، فقال له الإمام: لو اكتسبت لكان أفضل لك، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثاً، فقال في الرابعة: يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين، فقال؛ إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك، فقال: يا هذا، لو لم تكن إماماً تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك؛ إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق. وقال إمام المسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي بالرزق. وقال إمام المسجد لبعض المصلين: من أين تأكل؟ فقال: يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك.

وينفع حسن الظن بمجيء الرزق من فصل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية: أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب فهر الله تعالى في إهلاك التي فيها عجائب فهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعاً، كما روي عن حذيفة المرعشي وقد كان خدم إبراهيم بن أدهم، فقيل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إليّ إبراهيم وقال: يا حديفة، أرى بك الجوع، فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: عليّ بدواة وقرطاس، فجئت به إليه فكتت: بسم الله الرحمٰن الرحيم، أت المقصود إليه بكل حال، والمشار إليه بكل معنى، وكتب شعراً:

أنا حسامه أنا شهاكه أنا ذاكه والمستد وأنا النصمين لنصفها مدحى لغيرك لهب نار خضتها

أن جائع أنا ضائع أنا عاري فكن الضمين لنصفها يا باري فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليَّ الرقعة فقال: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، فخرحت فأول من لقيني كان رجلاً على بغلة، فناولته الرقعة فأخذها، فلما وقف عليها بكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليَّ صرة فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة فقال: هذا نصراني، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمسها فإنه يجيء الساعة، فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم.

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري: جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفاً، فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت إلى الوادي لعلي أجد شيئاً يسكن ضعفي، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها، فوجدت في قلبي منها وحشة وكأن قائلاً يقول لي: جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة، فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت، فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال: هده لك، فقلت: كيف خصصتي بها؟ قال: اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق، فنذرت إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين، وأنت أول من لقيته، فقلت: افتحها، ففتحها فإذا فيها سمبد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت: رد الباقي إلى أصحابك هدية مني إليكم، وقد قبلتها، ثم قلت في قبضي: رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي.

وقال ممشاد الدينوري: كان عليّ دين فاشتغل قلبي بسببه، فرأيت في النوم كأن قائلاً يقول: يا بخيل، أخذت علينا هذا المقدار من الدين، خذ، عليك الأخذ وعلينا العطاء، فما حاسبت بعد ذلك بقالاً ولا قصاباً ولا غيرهما.

وحكي عن بنان الحمال قال: كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد؛ فجاءتني امرأة وقالت لي: يا بنان، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتتوهم أنه لا يرزقك، قال: فرميت بزادي، ثم أتى عليّ ثلاث لم أكل، فوجدت خلخالاً في الطريق فقلت في نفسي: أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شبئاً فأرده عليه، فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لي: أنت تاجر تقول: عسى يجيء صاحبه فآخذ منه شئاً! ثم رمت لي شيئاً من الدراهم وقالت: أنفقها، فاكتفيت بها إلى قريب من مكة.

وحكي: أن بناناً احتاج إلى جارية تخدمه، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا: هو ذا يجيء النفير فنشتري ما يوافق، فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا: إنها تصلح له، فقالوا لصاحبها: بكم هذه؟ فقال: إنها ليست للبيع، فألحوا عليه فقال: إنها لبنان الحمال أهدتها إليه امرأة من سمرقند، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة.

وقيل: كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص فقال: إن أكلته مت، فوكّل الله عزّ وجلّ به ملكاً وقال: إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه عيره، فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقى القرص عنده.

وقال أبو سعيد الخراز: دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فاقة، فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت، ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره، وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة وواريت جسدي فيها إلى صدري، فسمعت صوتاً في نصف الليل عائباً: يا أهل المرحلة، إن لله تعالى ولياً حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه، فجاه جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية.

وروي أن رجلاً لازم باب عمر رضي الله عنه فإذا هو بقائل يقول: يا هذا، هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى؟ اذهب فتعلم القرآن فإنه سيعنيك عن باب عمر، فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر، فإدا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة، فجاءه عمر فقال له: إني قد اشتقت إليك فما الذي شغلك عني؟ فقال: إني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر، فقال عمر: رحمك الله فما الذي وجدت فيه؟ فقال وجدت فيه: ﴿وَفِ اَلنَّهُمْ وَنَا مُوعَدُونَ ﴿ الذَّريَات: ٢٢] فقلت: رزقي في السماء وأنا أطلبه في

الأرض، فبكى عمر وقال: صدفت، فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه.

وقال أبو حمزة الخراساني: حججت سنة من السنين قبينا أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بثر فنازعتني نفسي أن أستغيث، فقلت: لا والله لا أستغيث، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان، فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نسد رأس هذا البئر لثلا يقع فيه أحد، فأتوا بقصب وبارية وطموا رأس البئر، فهممت أن أصبح فقلت في نفسي: إلى من أصبح هو أقرب منهما، وسكنت، فبينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول: تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك، فتعلقت به فأخرجني، فإذا هو سبع، فمر وهتف بي هاتف: يا أبا حعزة ألبس هذا أحسن، نجيناك من التلف بالتلف، فمشيت وأنا أقول:

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى تططفت في أمري فأبديت شاهدي ترايت لي بالغيب حتى كأنما أراك وبي من هيبتي لك وحشة وتحيى محباً أنت في الحب حتفه

وأغنيتني بالفهم منك عن الكشفِ إلى غائبي واللطف يبدرك باللطفِ تبشرني بالغيب أنك في الكفِ فتؤنسني باللطف منك وبالعطفِ وذا عجب كون الحياة مع الحتفِ

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر، وإذا قوي الإيمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عزّ وجلّ ولذلك حسه عنه، تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات، وإلا فلا يتم أصلاً.

بيان توكل المعيل:

اهلم: أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد؛ لأنّ المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين: أحدهما: قدرته على الجوع أسبوعاً من غير استشراف وضيق نفس.

والآخر: أبواب من الإيمان ذكرناها، من جملتها: أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأته رزقه، علماً بأن رزقه المموت والجوع، وهو إن كان نقصاً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة، فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له: وهو رزق الآخرة، وأنّ هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضياً بذلك، وأنه كذا قضى وقدر له، فيهذا يتم التوكل للمنفرد. ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد وأنّ الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادراً، وكذا ماثر أبواب الإيمان، فإذن: لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث، كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب، فأما دخول البوادي وترك العيال توكلاً في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلاً في حقهم فهذا حرام، وقد يفضي إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخلاً بهم، بل التحقيق: أنه لا فرق بينه وبين عياله، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدّة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع مرّة وعلى الاعتداد ولا يجوز له أن يصيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدّة، فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوّش عليه عبادته لم يجز له التوكل؛ ولذلك روي: أنّ أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام، فقال له: لا يصلح لك التصوّف، الزم السوق. أي: لا تصوّف إلا مع

التوكل. ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام، وقال أبو علي الروذباري: إذا قال الفَقير بعد خُمَّسة أيام: أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب، فإذن: بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدئه كتوكله في عياله؛ وإنما يقارقهم في شيء واحد: وهو أن له تكليف نفسه الصير على الجوع وليس له ذلك في عباله، وقد انكشف لك من هذا: أن التوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدَّة، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً، وملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تحلو عن حشيش وما يجري مجراه، فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذي؛ إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر، والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي، وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدُّوا تلك أسبامًا، وذلكُ لضعف إيمانهم وشدّة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل، ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب. فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه، أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطراراً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضع، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأذَّر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم! فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضخ، فإذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة، فجبنه بعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت، فإنه لم يكن قادراً على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته، نعم، كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جداً فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين، وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق عليه واحداً والآن المشفق عليه ألف وزيادة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجاً، ولو رأوه يتبماً لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه، فما رئي إلى الآن في سني الخصب بتيم قد مات جوعاً مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان المشفق واحداً والمشفق الآن ألف، نعم، كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض، فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالاً هو أحسن من حال من له أب وأم! فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة، ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

جسرى قسأسم المقصصاء بسمسا يسكسون جسنسون مسنسك أن تسسعسى لسرزق

فسيسيئسان الستسحسرك والسسكسون ويسرزق فسي غسشاوته السجسسيسن فإن قلت: الناس يكملون اليتيم لأنهم يرونه عاجزاً بصباه، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون: هو مثلنا فليجتهد لنفسه؟.

فأقول إن كان هذا القادر بطالاً فقد صدقوا فعليه الكسب، ولا معنى للتوكل في حقه فإنّ التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرّغ لله تعالى؛ فما للبطال والتوكل. وإن كان مشتغلاً بالله ملازماً لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك، بل اشتغاله بالله تعالى يقرّر حبه في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته، وإنما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس، وما رئى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فمات جوعاً ولا يرى قط، بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه، فإن من كان لله تعالى كان الله عرَّ وجلَّ له، ومن اشتغل بالله عرَّ وجلَّ ألقي الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها، فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيراً كافياً لأهل الملك والملكوت. فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب، نعم، ما دبره تدبيراً يصل إلى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة، وقد يقع ذلك أيضاً في بعض الأحوال، لكن دبره تدبيراً يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة، والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية، فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة، وليس ذلك من طريق الآخرة، وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب، وهو في الغالب أيضاً ليس يحصل مع الاصطراب وإنما يحصل نادراً، وفي النادر أيضاً قد يحصل بغير اضطراب؛ فأثر الاضطراب ضعف عدد من انفتحت بصيرته، فلذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيراً لا يجاوز عبداً من عباده رزقه، وإن سكن إلا نادراً ندوراً عظيماً يتصور مثله في حق المضطرب. فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال: وددت أن أهل البصرة في عيالي، وأن حبة بدينار. " وقال وهيب بن الورد: لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً واهتممت برزقي لظننت أني مشرك، فإدا فهمت هذه الأمور فهمت أنَّ التوكل مقام مفهوم في نفسه، ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه، وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين: الإفلاس عن وجود المقام ذوقاً، والإفلاس عن الإيمان به علماً. فإذن: عليك بالقناعة بالنزر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه، وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحتسب، فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجرية مصداق قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّق اللَّهَ يَهْمَل لَّهُ عَمْرَهًا ١ وَمَرْزُقَهُ مِنْ حَبِّكُ لَا يَعْلَيبُ إلطَّلَاق: ٣٠٢، الآية. إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ ٱلأطعمة؛ فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته، وهذا المضمون ميذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه؛ فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدي إليها، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء. قال الله تعالى: ﴿ وَقَ ٱلنَّمَا وَزُنْكُو وَمَا تُوعَدُونَ ﴿ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ والسَّاء الا يطلع عليها، ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال: ماذا تطلبون؟ قالوا: نطلب الرزق، فقال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه. قالوا: نسأل الله. قال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه، فقالوا: ندخل البيت ونتركل وننظر ما يكون. فقال: التوكل على التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة، وقال أحمد بن عيسى الخزاز: كنت في البادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاماً، فقلت: ليس هذا من أفعال المتوكلين، فطالبتني أن أسأل الله صبراً، فلما هممت بذلك سمعت هاتفاً يهتف بي ويقول:

ويستزعهم أنه مسنسا قسريسب وأنسا لا سيضسيسع مسن أتسانسا ويستراه ولا يسسرانسا

فقد فهمت أنَّ من انكسرت نفسه وقوي قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبداً واثقاً بالله عزّ وجلَّ؛ فإنّ أسوأ حاله أن يموت، ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئناً، فإذن: تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من حانب، والذي ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التي ديرها صادق، فاقنع وجرّب تشاهد صدق الوعد تحقيقاً بما يرد عليك من الأرزاق العجيبة التي لم تكن في ظنك وحسابك، ولا تكن في توكلك منتظراً للأسباب بل لمسبب الأسباب، كما لا تكون منتظراً لقلم الكاتب بل لقلب الكاتب فإنه أصل حركة القلم، والمحرِّك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه، وهدا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد أو يقعد في الأمصار وهو خامل. وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم فإذا قنع في اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائذ، وثوب خشن يليق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام، بل يأتيه أضعافه، فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور، فإن اشتهاره بسبب طاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب، فالاهتمام بالرزق قبيح مذوي الدين وهو بالعلماء أقمح؛ لأنّ شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسم، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن. فإنّ الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن، فاشتغاله بالسلوك مع الأحذ من يد من يتقرّب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ـ لأنه تفرغ لله عز وجل ـ وإعانة للمعطى على نيل الثواب، ومن نظر إلى مجاري سنة الله تعالى علم أنَّ الرزقُ ليس على قدر الأسباب، ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيماً عن الأحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال: أراد الصانع أن يدل على نفسه، إذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أنَّ العقل رزق صاحبه، فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم، قال الشاعر:

ولو كَانَّتِ الأرزَاقُ تجري على الحِجَا فَلَكُن إذن من جهلهنَّ البهائِمُ

بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال:

اعلم: أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام، فأخرج إليهم غلماناً كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رعيفين وغيفين وبعضهم رغيفاً وغيفاً ويجتهدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم، وأمر منادياً حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلماني إذا خرجوا إليكم، بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فإن الغلمان مسخرون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم، قمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلاً به إلى أن أتقدم لعقوبته في ميعاد معلوم

عندي ولكن أخفيه، ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أناه من يد الغلام وهو ساكن فإني أختصه بخلعة سنية في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر، ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلعة له، ومن أخطأه غلماني فما أوصلوا إليه شيئاً فبات الليلة جائعاً غير متسخط للغلمان ولا قائلاً ليته أوصل إلى رغيفاً فإني غدا أستوزره وأفوض ملكي إليه، فانقسم السؤال إلى أربعة أقسام: قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة وقالوا: من اليوم إلى غد فرج! ونحن الأن جائعون فبادروا إلى الخلمان فأذوهم وأخذوا الرغيفين، فسبقت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم، وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة، وقسم قالوا: إنا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذا أعطونا رغيفاً واحداً ونقنع به؛ فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة، وقسم رابع اختفوا في زوايا الميدان والحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا: إن اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد، وإن أخطؤونا قاسينا شدَّة الجوع الليلة، فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك، فما نفعهم ذلك، إذا اتبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفاً واحداً، وجرى مثل ذلك أياماً حتى انفق على الندور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد، فقال اثنان منهم: ليتنا تعرّضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر، وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة، فهذا مثال الخلق، والميدان هو الحياة في الدنيا، وباب الميدان الموت، والميعاد المجهول يوم القيامة، والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائعاً راضياً من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة، لأنَّ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، والمتعلق بالغلمان هو المعتدي في الأسباب، والغلمان المسخرون هم الأسباب، والجالس في ظاهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون، والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور، فإن مات واحد منهم جائماً راضياً فله الشهادة والقرب من الله تعالى. وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرّضين للسبب بمجرّد حضورهم واشتهارهم، وساح في البوادي ثلاثة، وتسخط منهم اثنان، وفاز بالقرب واحد، ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة، وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف.

الفن الثاني: في التعرّض لأسباب الادخار: فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعاً، ويلبس إن كان عارياً، ويشتري مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يذخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية. فهذا هو الوفي بموجب التركل تحقيقاً وهي الدرجة العليا.

الحالة الثانية: المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل: أن يدّخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً؛ وقد قيل: لا يدّخر من الحيوانات إلا ثلاثة: الفأرة، والنملة، وابن آدم.

الحالة الثالثة: أن يدّخر لأربعين يوماً فما دونها، فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود

الموعود في الآخرة للمتوكلين؟ اختلفوا فيه: فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حدّ التوكل. وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوماً ويخرج بما يزيد على الأربعين. وَقَالَ أَبُو طَالَبُ الْمُكُي: لا يخرج عن حدّ التوكل بالزيادة على الأربعين أيضاً. وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار، نعم، يجوز أن يظن ظان أنَّ أصل الادخار يناقض التوكل، فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له، وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوّزع على تلك الرتبة، وتلك الرتبة لها بداية ونهاية، ويسمى أصحاب النهايات السابقين، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين، ثم أصحاب اليمين أيضاً على درجات، وكذلك السابقون، وأعالى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين، فلا معنى للتقدير في مثل هذا؛ بل التحقيق أنّ التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل؛ وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس، فإنَّ ذلك كالممتنع وجوده. أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره، وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دوته من الساعات، وأقصاه ما يتصوّر أن يكون عمر الإنسان، وبينهما درجات لا حصر لها. فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة، وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد؛ فإنَّ تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه، ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوماً لِسِرّ جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور، كما قال عليه السلام: ﴿إِنَّ الله خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِهِيهِ أَرْبَعِينَ صَبَّاحًا ۗ (١)، لأنّ استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفاً على مدّة مبلغها ما ذكر، فإذن: ما وراء السنة لا يدّخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب، فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب، فإنّ أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرّر بتكرّر السنين غالباً، ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله، ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهراً ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر، بل هو بينهما في الرتبة، ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل، فالأفضل أن لا يدّخر أصلاً وإن ضعف قلبه فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر، وقد روى: في الفقير الذي أمر ﷺ علياً كرِّم الله وجهه وأسامة أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته، فلما دفنه قال لأصحابه: «إنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَجْهُهُ كَالشَّمْرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَلَوْلا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبُمِثَ وَوَجْهُهُ كالشَّمْس الضَّاحِيَةِ، فلنا: وما هي يا رسول الله؟ قال: ۚ «كَانَ صَوَّاماً قَوَّاماً كَثِيرَ الذُّكُر لِلَّهِ تَمَالَى غَيرَ أَنَّهُ كَانَ إذَا جَاءَ الشَّنَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيفِّ لِصَيْفِهِ، وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ اذْخَرَ حُلَّةَ الشُّقَاءِ لِشِتَّائِهِ، ثم قال ﷺ: بَلْ أَقَلُ مَا أُوتيتُمُ اليَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ»(٢٠). الحديث، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك، فإنَّ ادخاره لا يَّمْصُ الدَّرْجَةُ، وأمَا تُوبِ الشَّتَاءُ فلا يَحْتَاجُ إليه في الصيف، وهذا في حق من لا يَنزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق، بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق، فإن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى، بل لو أمسك ضيعة يكون

⁽١) حديث: «خمّر طيئة آدم بيده أربعين صباحاً» رواه أبو منصور الديلمي في مستد الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جداً، وهو باطل.

 ⁽٢) حديث: أنه قال في حق الفقير الذي أمر علياً أو أسامة فقسله وكفنه ببردته: «أنه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر لبلة
البدر...» الحديث. وفي آخره: «من أقل ما أوثبتم البقين وهزيمة الصبر» لم أجد له أصلاً، ونقدم في آخر الحديث
قبل هذا.

دخلها وافياً بقدر كفايته وكان لا يتفرّغ قلبه إلا به فذلك له أولى، لأنّ المقصود إصلاح القلب ليتجرّد لذكر الله، ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه، والمحذور ما يشغل عن الله عزّ وجلَّ، وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها، ولذلك بعث رسول الله ﷺ إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات، فلم يأمر الناجر بنرك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما، بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أنّ فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى، وعمدة الاشتغال بالله عزَّ وجلَّ القلب، فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته، كما أنّ صواب القوي ترك الادخار، وهذا كله حكم المنفرد. فأما المعيل فلا يخرج عن حدّ التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم، وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل، لأنّ الأسباب تتكرّر عند تكرّر السنين، فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه، وذلك يناقض قوّة التوكل، فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى، واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة. وقد ادخر رسول الله ﷺ لعياله قوت سنة (١)، وُنهى أم أيمن وغيرها أن تدّخر له شيئاً لغد (٢)، ونهى بلالاً عن الادخار في كسرة خبر ادحرها ليفطر عليها، فقال ﷺ: «أَنْفِقْ بِلالا ولا نَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشُ إقلالا؛ (٣)، وقال ﷺ: ﴿إِذَا شُئِلْتَ فَلا تَمْنَعُ وَإِذَا أُخْطَيتَ فَلا تَخْبَأُه (٤)، اقتداء بسيد المتوكلين ﷺ، وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول: هما يُدْرِينِي لَعَلَي لا أَبْلُغُهُ» (°)، وقد كان ﷺ لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذ كان لا يثق بما ادخره. ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعليماً للأقوياء من أمته، فإنَّ أقوياء أمته ضعفاء بالإضافة إلى قوَّته، وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله، ولكن ليسنَّ ذلك للضعفاء من أمته، بل أحبر: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَمَالَى يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى هَزَائِمُهُه (١٠)، تطبيباً لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات، فما أرسل رسول الله ﷺ إلا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم، وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي: أن بعص أصحاب الصفة توفى فما وجد له كفن، فقال ﷺ: ﴿فَتُشُوا تُؤيُّهُ فُوجِدُوا فَيه دينارين في داخل إزاره فقال ﷺ:

⁽١) حديث: ادخر لعياله قوت سنة. متفق عليه، وتقدم في الزكاة.

⁽٢) حديث: نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لغد. تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها.

⁽٣) حديث: نهى بالالاً عن الادخار وقال: النّفق بالالا ولا تخشى من ذي العرش إقلالا> رواه النزار من حديث ان مسعود وأبي هريرة وبالال: دخل عليه النسي ﷺ وعنده صبر من تمر، فقال ذلك. وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبى هريرة، وكلها ضعيفة. وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبر، فلم أره.

 ⁽٤) حديث قال لبلال. «إذا سئلت قلا تمنع، وإذا أعطيت فلا تخبأ» رواه الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد، وهو ثقة.

حديث أنه ﷺ بال وتيمم مع قرب الماء ويقول: قما يدريني لعلي لا أبلغه أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من
 حديث ابن عباس بسند ضعيف.

⁽٣) حديث: ﴿إِنَ اللهُ يحب أَن تَوْتَى رحُصه. . . ؟ الحديث. أخرجه أحمد والطبراني والبيهةي من حديث أم عمر، وقد تقدم.

العدهما: أنه أراد كيتين من النار، كما قال تعالى: ﴿فَتُكُوُّكَ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوْبُهُمْ وَظُهُرُهُمْ ۗ ﴾ [القونة: ٣٠] وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل مع الإهلاس عنه فهو نوع تليس.

والثاني: أن لا يكون ذلك عن تلبيس، فيكون المعنى به النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه، وذلك لا يكون عن تلبيس، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الأخرة؛ إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا بقص بقدره من الآخرة. وأما بيان أن الادحار مع مراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل، فيشهد له ما روي عن بشر، قال الحسين المغازلي من أصحابه: كنت عنده ضحوة من النهار، فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين، فقام إليه بشر، قال: وما رأيته قام لأحد غيره، قال: ودفع إلي كفا من دراهم وقال: اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب، وما قال لي قط مثل ذلك، قال: فجئت بالطعام فوضعته فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، قال: فأكل معه وما وحمله معه وانصرف، فعجبت من ذلك وكرهته له، فقال لي بشر: لعلك أنكرت فعله؟ قلت: نعم، أخذ بقية الطعام من غير إذن، فقال: ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فإنما أراد أن يعلمنا أنّ التوكل إذا صح لم يضر معه الادخار.

الفن الثالث: في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف: اعلم: أنَّ الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو ماَّل وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً؛ أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجاري السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر، فكل ذلك منهى عنه، وصاحبه قد عرّض نفسه للهلاك بغير فائدة. نعم، تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها، ومظنونة، وإلى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضور نسبة الكي والرقية؛ فإنَّ الكي والرقية قد يقدم به على المحذور دفعاً لما يتوقع، وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة، ورسول الله ﷺ لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يُلبسوا جبة، والجبة تلبس دفعاً للبرد المتوقع، وكذلك كل ما في معناها من الأسباب. نعم، الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهبيجاً لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة، ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر، قال الله تعالى: ﴿ مَا يَّفِذُهُ وَكِيلًا ﴿ إِنَّ وَأَصْبِرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ (الشَّرْمَل: ١٠٠٩) وقال تعالَى: ﴿ وَلَقَسْبَرَنَّ عَلَنْ مَا مَاذَيْتُكُونًا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ عَلَيْنَكِّلُ ٱلْمُتَوِّكُونَ﴾ [ابراهيم: ١٣] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَعْ أَذَنَهُمْ وَنَوَحَتُمْلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ١٤٨] وقال سبحانه وتَعالَى: ﴿ فَاشْيِرَ كُمَّا صَبَرَ أَوْلُواْ ٱلْعَرْبِي مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الاصفياف: ٣٥] وقبال تبعمالسي: ﴿ يَعْمَ أَخَرُ ٱلْعَنْدِلِينَ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الفنكبوتُ: ٥٩،٥٨] وهذا في أذي الناس، وأما الصبر على أذى الحيّات والسباع والعقاربُ، فترك دفُّعها

⁽¹⁾ حديث أبي أمامة: توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخلة إزاره، فقال ﷺ: «كيتان» رواه أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه.

فإن قلت: فقد حكي عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرّك.

فأقول: وقد حكي عن جماعة: أنهم ركبوا الأسد وسخروه فلا ينبغي أن يغرّك ذلك المقام؛ فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطاً في التوكل، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها.

فإن قلت: وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها؟

فأقول: الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات، ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه: أن يسخّر لك كلباً هو معك في إهابك يسمى الغضب، فلا يزال يعضك ويعض غيرك، فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك وكان مسخراً لك، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع، وكلب دارك أولى بأن يكون مسخراً لك من كلب البوادي، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك، فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر.

فإن قلت: فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدرٌ وأغلق بابه حذراً من اللص وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق، فبأي اعتبار يكون متوكلاً؟

فأقول: يكون متوكلاً بالعلم والحال، فأما العلم: فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه؛ فكم من باب يغلق ولا ينفع، وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت، وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب؛ فلا تتكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبب الأسباب، كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل يتكل على كفاية الوكيل وقوّته، وأما الحال: فهو أن يكون راضياً بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول: اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك؛ فإني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها، أو عاربة ووديعة فتستردها، ولا أدري أنه

 ⁽۱) حديث: «اعقلها وتوكل» أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان: منكر. ورواه ابن خزيمة في التوكل،
 والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد «قيدها».

⁽٧) حديث: اختفى رسول الله ﷺ عن أعين الأعداء دفعاً للضرر، تقدم في قصة اختفائه في الغار عبد إرادة الهجرة.

رزقي أو سبقت مشيئتك في الأزل بأنه رزق غيري، وكيفما قضيت فأنا راض به، وما أخلقت الباب تحصناً من قضائك وتسخطاً له؛ بل جرياً على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب، فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب، ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى، وإن لم يجده بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه، فإن وجده راضياً أو فرحاً بذلك، عالماً أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صع مقامه في التوكل وظهر له صدقه، وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقاً في دعوى التوكل؛ لأن التوكل مقام بعد الزهد، ولا يصح الزهد إلا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي، بل يكون على العكس منه، فكيف يصح له التوكل؟ نعم، قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس، وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه، فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوى، فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها؛ فإنها خذاعة أمارة بالسوء مدعية للخير.

فإن قلت: فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟

فأقول: المتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه، وإناء يتوضأ منه، وجراب يحفظ به زاده، وعصا يدفع بها عدوّه، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت. وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلاً لتوكله، وليس من شرط التوكل إخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده، وإنما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة؛ لأنّ سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد، وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع، والخروج عن سنة الله عزّ وجلّ ليس شرطاً في التوكل، ولذلك كان الخوّاص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد، لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين.

فإن قلت: فكيف يتصوّر أن لا يحزن إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه، فإن كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأعلق الباب عليه، وإن كان أمسكه لأنه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟

فأقول: إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع، ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه، فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعاً به؛ إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر، فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه، لأنه في حميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به، فيقول: لولا أنّ الله عز وجلّ علم أنّ الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني، فبمثل هذا الظن يتصوّر أن يندفع عنه الحزن؛ إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب، بل من حيث إنه المغيب الشفيق بما يفعه، فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنه يعرف أنّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله برضى بما يفعله، فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنه يعرف أنّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله

لما قربه إليّ، وإن أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيصاً فرح وقال: لولا أنّ الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه، وكل من لا يعتقد لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلاً. ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له، كما قال عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً فإني لا أدري أيهما خير لي؛ فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق؛ فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان! وكم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول يا ليتني كنت فقيراً!

بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم:

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه:

الأوّل: أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الحيران الحفظ مع الغلق، وكجمعه أغلاقاً كثيرة. فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشدّه بشريط ويقول: لولا الكلاب ما شددته أيضاً.

الثاني: أن لا يترك في البيت متاعاً يحرّض عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم، ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركوة قال: خذها لا حاجة لي إليها. قال، لم؟ قال: يوسوس إلي العدو أن اللص يأحذها، فكأنه احترز من أن يعصي السارق، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها، ولذلك قال أبو سليمان: هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها.

المثالث: أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه مس تسليط سارق عليه ويقول: ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى، وإن كان فقيراً فهو عليه صدقة، وإن لم يشترط الفقر فهو أولى، فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير.

إحداهما: أن يكون ماله مانعاً من المعصية، فإنه ربما يستغني به فيتوانى عن السرقة بعده، وقد زال عصياته بأكل الحرام لما أن جعله في حل.

والثانية: أن لا يظلم مسلماً آخر فيكون ماله فداءاً لمال مسلم آخر، ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوي دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله على النُصُرُ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً (١)، ونصر الظالم: أن تمنعه من الظلم، وعفوه عنه إعدام للظلم ومنع له، وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي، ولكن يتحقق بالزهد بيته، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمانة درهم لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضاً، كما روي عن رسول الله على فيمن ترك العزل فأقر النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وإن لم يولد له (٢)، لأنه ليس أمر الولد إلا

 ⁽١) حديث: (انصر أخاك طالماً أو مظلوماً) متفق عليه من حديث أس، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: (من ترك العزل وأقر النطقة قرارها كان له أجر غلام. . • الحديث. لم أجد له أصلاً.

الرقاع، فأما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه، فلو خلق لكان ثوابه على قعله، وفعله لم ينعدم، فكذلك أمر السرقة.

الرابع: أنه إذا وجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول: لولا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى، ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عزّ وجلّ، فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين، وإن كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه، فإنه قد قدّمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة، فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عزّ وجلّ، وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم؛ لأن الملك لا يزول بمجرّد تلك النية، ولكه غير محبوب عند المتوكلين.

وقد روي: أنّ ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا، ثم قال: في سبيل الله تعالى، فدحل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال: يا أبا عبدالرحمن: إنّ ناقتك في مكان كدا فلبس نعله وقام، ثم قال: أستغفر الله وجلس، فقيل له: ألا تذهب فتأخذها فقال: إنى كنت قلت في سبيل الله.

وقال بعض الشيوخ: رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لك وأدخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها، قال: وهو مع ذلك كئيب حزير فقلت: قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزير! فتنفس الصعداء ثم قال: نعم إني لا أزال حزيناً إلى يوم القيامة. قلت: ولم؟ قال إني لما رأيت منازلي في الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت، ففرحت بها، فلما هممت بدخولها نادى منادي من فوقها: اصرفوه عنها فليست هذه له إنما هي لمن أمضى السبيل، فقلت: وما إمضاء السبيل؟ فقيل لي: كنت تقول للشيء إنه في سبيل الله ثم ترجع فيه، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك.

وحكي عن بعض العباد بمكة: أنه كان نائماً إلى جنب رجل معه هميانه، فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به، فقال له: كم كان في هميانك؟ فذكر له، فحمله إلى البيت ووزنه من عنده، ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحاً معه، فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب، فأبى وقال خذه حلالاً طيباً، فما كنت لأعود في مال أخرجته في سبيل الله عزّ وجلّ، فلم يقبل، فألحوا عليه، فدعا ابنه وجعل يصره صرراً ويبعث به إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء.

فهكذا كانت أخلاق السلف، وكذلك من أخذ رغيماً ليعطيه فقيراً فغاب عنه كان يكره رده إلى الببت بعد إخراجه فيعطيه فقيراً آخر، وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات.

الخامس: _ وهو أقل الدرجات _ أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات، وبطل زهده، ولو بالغ بطل أجره أيضاً فيما أصيب به: ففي الخبر: "من دعا على ظالمه فقد انتصره" . وحكي: أنّ الربيع بن خثيم سرق فرس له وكان قبمته عشرين ألفاً وكان قائماً يصلي، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه، فجاءه قوم يعزونه فقال: أما إني قد كنت رأيت وهو يحله. قيل: وما منعك أن تزجره؟ قال: كنت فيما هو أحب إليّ من ذلك _ بعنى الصلاة _ فجعلوا يدعون عليه فقال: لا تفعلوا وقولوا خيراً فإنى قد جعلتها صدقة عليه.

وقيل لبعصهم في شيء قد كان سرق له: ألا تدعو على طالمك. قال: ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه. قيل: أرأيت لو رد عليك؟ قال: لا آخذه ولا أنظر إليه لأس كنت قد أحللته له.

⁽١) حديث: امن دها على من ظلمه نقد انتصر ا تقدم.

وقيل لآخر: ادع الله على ظالمك، فقال: ما ظلمني أحد، ثم قال: إنما ظلم نفسه، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شراً.

وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه، فقال: لا تغرق في شتمه؛ فإنَّ الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه.

ُ وفي الخبر: "إنَّ العبد ليظلم المظلمة فلا يزال بشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم»(١).

السادس: أن يغتم لأجل السارق وعصيانه وتعرّضه لعذاب الله تعالى، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً، وجعل ذلك نقصاً في دنياه لا نقصاً في دينه، فقد شكا بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال: إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك قما نصحت للمسلمين.

وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال: أعلى الدنانير تبكي؟ فقال: لا والله، ولكن على المسكين أن يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة.

وقيل لبعضهم: ادع على من ظلمك، فقال: إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه. فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين.

الفن الرابع: في السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله: اعلم: أنّ الأسباب المزيلة للمرض أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبر المزيل لضرر الجوع، وإلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب. أعني: معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب، وإلى موهوم كالكي والرقية. أما المقطوع فليس من التوكل تركه، بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الموهوم فشرط التوكل تركه؛ إذ به وصف رسول الله على المتوكلين، وأقواها الكي، ويليه الرقية، والطيرة آخر درجاتها، والاعتماد عليها والاتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب، وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ففعه ليس مناقضاً للتوكل بخلاف الموهوم، وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين، ويدل على أنّ التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله على وقوله وأمره به. أما قوله فقد قال عليه السلام: ويدل على أنّ التداوي غير مناقض للتوكل فعل رسول الله على الموت. وقال عليه السلام:

⁽١) حديث: ﴿إِن المبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى بكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم حليه مطالبة . . . > الحديث. تقدم .

٧) حديث: «ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام» رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله: فإلا السام» وهو عند ابن ماحه مختصراً دون قوله: «هرفه... إلى آخره» وإسناده حسن، وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك: فإلا الهرم» وللطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف، والبخاري من حديث أبي هريرة: «ما أنزل الله داء إلا أثرل له شفاء» ولمسلم من حديث جابر «لكل داء دواء».

«تَذَاوُوا عِبَاذَ اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ خَلَقَ الدّاء وَالدّواء والرواء والرقي هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قدر اللله ألله عن الحيار المشهور: هما مورت بما أمن الملائكة إلا قالوا مُز أمتك بالحجامة (٢٠)، وفي الحديث أنه أمر بها وقال: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين بالحجامة (٢٠)، وفي الحديث أنه أمر بها وقال: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يتبيغ بكم المام فيقتلكم (٤٠)، فذكر أنّ تبيغ الدم سبب الموت وأنه قاتل بإذن الله تعالى، وبين أن إحراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب وإخراج الحية من البيت، وليس من شرط التوكل ترك ذلك، بل هو كصب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلاً. وفي خبر مقطوع: «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (٥٠)، وأما أمره بين فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي وبالحمية (٢٠)، وقطع لسعد بن معاذ عرقاً (١٠) أي فصده، وكوى سعد بن زرارة (٨٠)، وقال لعلي رضي الله عنه وكان رمد العين: «لا تَأْكُلُ مِنْ هَذَا الله يعني الرطب وجع العين: «تأكل تمراً وأنت أرمد» فقال: «إني آكل من الجانب الآخر، فتبسم عليه (١٠)، وأما فعله وجع العين: «تأكل تمراً وأنت أرمد» فقال: «إني آكل من الجانب الآخر، فتبسم عليه (١٠)، وأما فعله عيه الصلاة والسلام: فقد روي في حديث من طريق أهل البيت: أنه كان يكتحل كل ليلة، ويحتجم كل

 ⁽۱) حديث. انتداووا عباد الله. . . ، رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك.

 ⁽۲) حدیث: سئل عن الدواء والرقي هل برد من قدر الله؟ فقال: ۱هي من قدر الله. . . ۴ أخرجه الترمذي وأبن ماجه من حديث أبي خزامة، وقيل عن أبي خزامة عن أبيه، قال الترمذي: وهذا أصح.

 ⁽٣) حديث: قما مررت بملأ من الملائكة إلا قالوا: مر أمتك بالحجامة وواه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال: حسن خريب، ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف.

⁽٤) حديث: «احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين...» الحديث، أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفاً، ورقعه الترمذي بلفظ: «إن خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة...» الحديث، دون ذكر التبيغ، وقال: حسن غريب، وقال البزار: إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق، ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف: «من أراد الحجامة فليتحر سبعة عشر...» الحديث. يتبيغ بكم: يشرر.

⁽ه) حديث الممن احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة؛ رواه الطبراني من حديث معقل بن يسار، وابن حبان في الضعفاء، من حديث أنس وإسنادهما واحد احتلف على رواية في الصحابية، وكالاهما فيه زين العمى وهو ضعيف.

 ⁽٢) حديث: أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة. أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوه: «تداووا...» الحديث. وسيأتي في قصة علي وصهيب في الحمية بعده.

حدیث: قطع عرقاً لسعد بن معاذ، أخرجه مسلم من حدیث جابر قال: رمي سعد في أكحله فحسمه النبي عليه بيده
 بمشقص. . . الحدیث.

حدیث: أنه كوى أسعد بن زوارة، رواه الطبراني من حدیث سهل بن حنیف بسند ضعیف، ومن حدیث أبي
 أسامة بن سهل بن حیف دون ذكر سهل.

 ⁽٩) حديث: قال لعلي وكان رمداً: ﴿لا تَأْكُلُ مِنْ هَذَا. . . ، الحديث. رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب، وانن ماجه من حديث أم المنذر.

 ⁽۱۰) حديث: قال لصهيب ـ وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين ـ: «تأكل نمراً وأنت رمد. . . ه الحديث. تقدم
 في آفات اللسان.

شهر، ويشرب الدواء كل سنة (١)، وقيل: ألسنا المكي. وتداوي على غير مرة من العقرب وغيرها (٧). وروي: أنه كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء (٣). وفي خبر: أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء، وقد جعل على قرحة خرجت ببده تراباً (٤)، وما روي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر، وقد صنف في ذلك كتاب وسمي طب النبي الله (١٠)، وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات: أن موسى عليه السلام اعتل يعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته، فقالوا له: لو تداويت مكذا لبرئت، فقال: لا أتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء، فطالت علته فقالوا له: إن دواء هذه العلة معروف مجرّب، وإنا نتداوى به فنبرأ، فقال: لا أتداوى، وأقامت علته، فأوحى الله تعالى البه: وعزتي وجلالي: لا أبرأتك حتى تنداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داووني بما ذكرتم، فداووه فبرأ، فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟.

وروي في خبر آخر: أنّ نبياً من الأنبياء عليهم السلام شكا علة يجدها، فأوحى الله تعالى إليه: كل البيض. وشكا سبي آخر الضعف، فأوحى الله تعالى إليه: كل اللحم باللبن فإن فيهما القوّة، قيل: هو الضعف عن الجماع.

وقد روي: أنْ قوماً شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم، فأوحى الله تعالى إليه: مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع؛ إذ فيه يصور الله تعالى الولد، وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل، والنفساء الرطب.

فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة، والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب، فكما أن الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء، والسقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلا في أحد أمرين:

أحدهما: أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح يدركه كافة الناس، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص، فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول.

⁽١) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة، أخرجه ابن عدي من حديث عاتشة وقال: إنه مكر، وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

⁽٢) حديث: أنه تداوى عبر مرة من العقرب وغيرها، رواه الطبراني بإسباد حسن من حديث جبلة بن الأزرق: أن رسول الله ﷺ لدغته عقرب فغشي عليه فرقاه الناس... الحديث. وله في الأوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى تقمح كما من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً، ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبدالله بن جعفر: أن النبي ﷺ احتجم بعد ما سم، وفيه جابر الجعفى ضعفه الجمهور.

⁽٣) حديث: كان إذا نزل عليه الوحي صدع رأسه فيغلفه بالحناه، أخرجه البزار وابن عدي في الكامل من حديث أمي هريرة، وقد اختلف في إستاده على الأحوص بن حكيم: كان إذا خرجت به قرحة حمل عليها حناء، رواه الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى، قال الترمذي: غريب.

⁽٤) حديث: جعل على قرحة خرحت بيده تراماً، رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان الشيء منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي عليه سيده هكذا، ووضع سفيان بن عيبة الراوي سبابته بالأرص ثم رفعها وقال "بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا بشفى سقيمناه.

⁽٥) ليس طب النبي عليه، وإنما: (الطب البوي).

والثاني: أن الدواء يسهل، والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر في الباطن وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها، وربما يفوّت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الإسهال. وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطاً كثيرة، وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبداً ينحصر في هذين الشيئين، وإلا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب، وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره، وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته، فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء؛ فقد روي عن موسى عنى: أنه قال: يا رب، ممن الداء والدواء؟ فقال تعالى: مني. قال: فما يصنع الأطباء؟ قال: يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتى يأتي شفائي أو قضائي؛ فإذن: معنى التوكل مع المنداوي بأسل شرطاً فيه.

فإن قلت: فالكي أيضاً من الأسباب الظاهرة النقع.

فأقول: ليس كذّلك؛ إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقي المبردات للمحرور. وأما الكي فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه، وقلما يعتاد الكي في أكثر الملاد، وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب؛ فهذا من الأسباب الموهومة كالرقى، إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فإنه ما من وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق، فالإحراق بالنار جرح مخرّب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه، بخلاف النصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما، ولذلك نهى رسول الله على عن الكي دون الرقى (۱). وكل واحد منهما بعيد عن التوكل. وروي: أنّ عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكي فامتنع، فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتى اكتوى، فكان يقول: كنت أرى نوراً وأسمع صوتاً ونسلم عليّ الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عني، وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت ولا أنجحت، ثم تاب من ذلك وأناب إلى الله تعالى، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبدالله: ألم تر أن الملائكة التي كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى عليّ بعد أن أخبره بفقدها. فإذن: الكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل؛ لأنه يحتاج في استنباطه كان أخبره بفقدها. فإذن: الكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل؛ لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها، والله أعلم.

اعلم: أنّ الذين تداووا من السلف لا ينحصرون، ولكن قد ترك النداوي أيضاً جماعة من الأكابر، فربما يظن أنّ ذلك نقصان، لأنه لو كان كمالاً لتركه رسول الله ﷺ إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله.

وقد روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له: لو دعونا لك طبيباً؟ فقال: الطبيب قد نظر إلي

⁽١) حديث نهى رسول الله ﷺ عن الكي دون الرقى، رواه السخاري من حديث ابن عباس: «وأنهى أمني عن الكي» وفي الصحيحين من حديث عائشة: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من كل ذي حمة.

وقال: إني فعال لما أريد. وقبل لأبي الدرداء في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قبل: فما تشتهي؟ قال: مغفرة ربي. قالوا: ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني.

وقيل لأبي ذرّ وقد رمدت عيناه: لو داويتهما؟ قال الني عنهما مشغول؛ فقيل: لو سألت الله تعالى أن يعافيك فقال: أسأله فيما هو أهم عليّ منهما.

وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج، فقيل له: لو تداويت؟ فقال: قد هممت ثم ذكرت عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكان فيهم الأطباء، فهلك المداوي والمُداوَى، ولم تغن الرقى شيئاً.

وكان أحمد بن حنبل يقول: أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره وإن كان به علل، فلا يخبر المتطبب بها أيضاً إذا سأله.

وقيل لسهل: متى يصح للعبد التوكل؟ قال: إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنقص في ماله فلم يلتفت إليه شغلاً بحاله وينظر إلى قيام الله تعالى عليه.

فإذاً: منهم من ترك التداوي وراءه، ومنهم من كرهه، ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله الله وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التداوي. فنقول: إن لترك التداوي أسباباً:

السبب الأول: أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه، ويكون ذلك معلوماً عنده تارة برؤيا صادقة، وتارة بحدس وظنّ، وتارة بكشف محقق، ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوي من هذا السبب، فإنه كان من المكاشفين، فإنه قال لعائشة رضي الله عنها في أمر الميراث: إنما هنّ أختاك، وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملاً فولدت أنثى، فعلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضاً بانتهاء أجله، وإلا فلا يظن ربه إنكار التداوي وقد شاهد رسول الله علي تداوى وأمر به.

السبب الثاني: أن يكون المريض مشغولاً بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه، فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوي شغلاً بحاله، وعليه بدل كلام أبي ذرّ إذ قال: إني عنهما مشغول. وكلام أبي الدرداء إذ قال: إنما أشتكي ذنوبي، فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض، ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته، أو كالخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قبل له: لا تأكل وأنت جائع؟ فيقول: أنا مشغول عن ألم الجوع، فلا يكون ذلك إنكاراً لكون الأكل نافعاً من الجوع ولا طعناً فيمن أكل، ويقرب من هذا اشتخال سهل حيث قبل له: ما القوت؟ فقال: هو ذكر الحي القيوم، فقبل: إنما سألناك عن القوام؟ فقال: القوام هو العلم. قبل: سألناك عن العناء؟ قال: مالك وللجسد، دع من تولاه أولاً يتولاه آخراً: إذا دخل عليه علة فرده إلى صائعه، أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردوها إلى صائعها حتى يصلحها.

السبب المثالث: أن تكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع جار مجرى الكي والرقية، فيتركه المتوكل؛ وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال: ذكرت عاداً وثمود وفيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوى. أي: أن الدواء غير موثوق به، وهذا قد يكون كذلك في نفسه، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له، فلا يغلب على ظنه كونه نافعاً، ولا شك يكون عند المجرّب أشد اعتقاداً في الأدوية من غيره، فتكون الثقة والظنّ بحسب الاعتقاد، والاعتقاد

بحسب التجربة، وأكثر من ترك التداوي من العباد والزهاد، هذا مستندهم لأنه يبقى الدواء عنده شيئاً موهوماً لا أصل له، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في المعض. ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظراً واحداً، فيرى التداوي تعمقاً في الأسباب كالكي والرقى، فيتركه توكلاً.

السبب الرابع: أن يقصد العبد بترك التداوي استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى، أو ليجرّب نفسه في القدرة على الصبرِ . فقد ورد في ثواب المرض ما يكثر ذكره . فقد قَالَ ﷺ: ﴿ فَخُنُ مَمَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ إِيمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صُلُبَ الإيمَانِ شُدَّدَ عَلَيْهِ الْبَلاءُ. وَإِنْ كَانَ فِي إيمَانِهِ ضَعْفٌ خُفْفَ عَنْهُ البَلاء، (١)، وفي الخبر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُجِرِّبُ عَبْدَهُ بِالبَلَاءِ كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فَمَنهم من يخرجُ كالنَّهَبِ الإبريزِ لا يزبد، ومنهم دُونَ الْتَلَاهُ، فإنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ، فإنْ رَضِيَ اصْطَفَّاهُ (")، وقال ﷺ: اتَّحِبونَ أَنْ تَكُونُوا كَالحُمُرِ الضَّالَّةِ لا تَمْرَضُونَ وَلا تَسْقَمُونَه (1). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تجد المؤمن أصح شيء قلباً وأمرضه جسماً، وتجد المنافق أصح شيء جسماً وأمرضه قلباً، فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسي العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم أنَّ الحق أغلب على قلبه من أنْ يشغله المرض عنه، وإنما يمنع المرض جوارحه، وعلموا أنَّ صلاتهم قعوداً مثلاً مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياماً مع العادية والصحة، ففي الخبر: «إن الله تعالى يقول لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمله فإنه في وثَّاقي إن أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي الأهـ، وقال ﷺ: ﴿ أَفْضَلُ الْأَصْمَالِ مَا أَكُرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ (١٠)، فقيل: معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب، وإليه الإشارة بقوله تُعالى: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَنكُّرُهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيرٌ لَّكُمُّ ۗ [البَقَرَة: ٢١٦]. وكان

⁽١١) حديث: انحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل. . . ٤ الحديث. رواه أحمد وأمو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف، وقد تقدم مختصراً، ورواه الحاكم أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص وقال: صحيح على شرط الشيخين.

 ⁽٢) حديث: إن الله تمالى يجرب هبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهيه. . . ؟ الحديث. رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

٣٠) حديث: من طريق أهل البيت: ٩إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه. . . ٩ الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرجه ولده في مسنده، وللطبراني من حديث أبي عنبة: ٩إذا أراد الله بعبد خبراً ابتلاه، وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالاً ولا ولداً وسنده ضعيف.

⁽٤) حديث: «تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون» أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، وأبو نميم وابن عبدالبر في الصحابة، والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة، وهو صدر حديث: «إن الرجل تكون له المنزلة عند للله. . . ١ الحديث. وقد تقدم.

⁽٥) حديث: «إن الله يقول للملائكة: اكتبوا لعيدي صالح ما كان يعمل فإنه في وثاقي. . . » الحديث، أخرجه الطبراني من حديث عبدالله بن عمر، وقد تقدم.

 ⁽٦) حديث: «أفضل الأهمال ما أكرهت عليه النفوس؛ تقدم، ولم أجده مرفوعاً...

سهل يقول: ترك التداوي وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائص أفضل من التداوي لأجل الطاعات. وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها، وكان يداوي الناس منها، وكان إذا رأى العبد يصلي من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يعجب من ذلك ويقول: صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوي للقوة والصلاة قائماً، وسئل عن شرب الدواء فقال: كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف، ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل، لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسأل عنه لم أخذه؟ ومن لم يأخذ فلا سؤال علبه. وكان مذهبه ومذهب المصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال القلوب عقوبة.

السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها، فيرى المرض إذا طال تكفيراً فيترك التداوي خوفاً من أن يسرع روال المرض فقد قال على: «لا تُوالُ الحُمَّى وَالمَلِيلَةُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ كَالْيَرَدَةِ ما عَلَيْهِ ذَنْبٌ ولا خَطِيئَةٌ (١٠)، وفي الخبر: هُحُمِّى يَوْم كَفَارةً سَتَةٍ أَنَّ مَنْ يَفْم الحَبْرِ الْحَمَى في كَفَارةً سَتَةٍ أَنَّ ، فقيل: لأنها تهد قوّة سنة، وقيل للإنسان ثلاثماثة وستون مفصلاً فتدخل الحمى في جميعها ويجد من كل واحد ألماً فيكون كل ألم كفارة يوم. ولما ذكر على كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عزّ وجل أن لا يزال محموماً فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله، وسأل ذلك طائعة من الأنصار فكانت الحمى لا تزايلهم (٣)، ولما قال على: «مَنْ أَذْهَبَ اللّهُ كَرِيمَتَيْهِ لَمْ يَرْضَى لَهُ ثُوابًا وَنَ الجَمْهِ عَلَى على على عليه السلام: لا يكون عالماً من يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطاياه.

⁽¹⁾ حديث: ﴿لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى بمشي على الأرض كالبردة ما عليه خطيئة» أخرجه أبو يعلى واس عدي من حديث أبي هريرة، والطرائي من حديث أبي الدرداء نحوه وقال: ﴿الصداع، بدل: ﴿الحمى» وللطرائي في الأوسط من حديث أنس: ﴿مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفائها ولونها» وأسانيده ضعفة.

 ⁽٣) حديث: الحمى يوم كفارة سنة، رواه القصاعي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند صعيف وقال: الميلة،
 بدل: اليوم،

حديث: لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل ريد بن ثابت أن لا يرال محموماً... الحديث. وسأل ذلك طائفة من الأنصار: أحرجه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الحدري بإسناد جيد: أن رجلاً من المسلمين قال: يا رسول الله: أرأيت هذه الأمراض تصبينا ما لنا فيها. قال: «كفاوات» قال أبي: وإن قلت؟ قال: «فإن شوكة فما فوقها» قال: فدعا أبي أن لا يفارقه الرعك حتى يموت... الحديث. وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن قما فوقها» قال: يا رسول الله، ما جزاء الحمى؟ قال: «تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب كعب أنه قال: اللهم إبي أسألك حمى لا تمنعي خروجاً في سبيلك ولا خروجاً إلى بيتك ولا لمسحد نبيك... الحديث. والإسناد مجهول، قاله علي بن المديني.

⁽٤) حديث: المن أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثواباً دون الجنة؛ نقدم المرفوع منه دون قوله: اقلقد كان في الأنصار من يتمنى العمي».

وروي: أنّ موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال: يا رب، ارحمه فقال تعالى: كيف أرحمه فيما به أرحمه ـ أي به أكفر ذنوبه ـ وأزيد في درجاته.

السبب السادس: أن يستشعر العدد في نفسه مبادى، البطر والطغبان بطول مدّة الصحة فيترك التناوي خوفاً من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغبان، أو طول الأمل والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات، فإنّ الصحة عبارة عن قوّة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرّك الشهوات وتدعو إلى المعاصي، وأقلها أن تدعو إلى الننعم في المباحات، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات، وإذا أراد الله بعبد خيراً لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب، ولذلك قيل: لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة. وقد روي: «أن الله تعالى يقول: الفقر سجني والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأي خير يزيد عليه؟ ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على عن الطغيان وركوب المعاصي، فقد قال بعض العارفين الإنسان: كيف كنت بعدي؟ قال: في عافية، فإلن كنت لم تعصي الله عرّ وجرّ فأنت في عافية، وإن كنت قد عصيته فأي داء أدوأ من المعصية؟ ما عوفي من عصى الله. وقال علي كرّم الله وحهه لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد عن مه الذي أطهروه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، هذا يوم عيد لهم، فقال: كل يوم لا يعصى الله عزّ وجلّ فبه فهو لنا عيد.

وقبال تسعمالسي: ﴿ أَوْلَا يَرَوْنَ أَنْهُمُ يُمْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامِ مَّنَوَّ أَوْ مَرَّيَّيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمَّ يَذَكَّرُونَ ۚ ﴾ [التّوبَة: ١٢٦] قيل: يفتنون بأمراض يحتبرون بها. ويقال العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت: يا غافل، جاءك مني رسول بعد رسول فلم تجب.

وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال. وقالوا: لا يحلو المؤمن في كل أربعين يوماً أن يروّع روعة أو يصاب بىلية حتى روي: أنّ عمار بن ياسر تزوّج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها، وأنّ النبي على عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوّجها، فقيل: وإنها ما مرضت قط، فقال: الا حاجة لي فيها (۱)، وذكر رسول الله على الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع ما أعرفه؟ فقال على: «إِلَيْكَ عَنِي مَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ

⁽١) حديث: «أكثروا ذكر هادم اللذات، أخرجه الترمذي وقال: حس غريب، والسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم،

 ⁽۲) حديث. عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها، فقيل: فإنها ما مرضت قط، فقال: اهما حاجة في فيها أخرجه أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جياء.

مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى لهٰذَا وَهٰذَاهُ(١)، لأنه ورد في الخبر: «الحُمَّى حَظُّ كُلُّ مُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ»(٣).

وفي حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال: هنّعَمْ مَنْ ذَكرَ المَوْتَ كُلِّ يَوْم عِشْرِينَ مَرَّةً (٢٠) وفي لفظ آخر: «الَّذِي يَدْكُو فُنُويَهُ فَتُحْزِنُهُ الله ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها؛ إذ رأوا الأنفسهم مزيداً فيها لا من حيث رأوا التداوي نقصاناً وكيف يكون نقصاناً وقد فعل ذلك ﷺ.

بيان الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال:

فلو قال قائل: إنما فعله رسول الله على الله الله الله الله الله الله و حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء؟ فيقال: ينبغي أن يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدء.

فإن قبل: إنّ ذلك أيضاً شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه؛ إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأي فرق بينهما؟. فإن قال: وذلك أيضاً شرط التوكل؟ فيقال: ينبغي أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة. وهذا لا قائل به.

ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته. ويدل على أنّ ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون؛ فإنهم لما قصدوا الشام وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتاً عظيماً ووباء ذريعاً، فافترق الناس فرقتين، فقال بعضهم: لا ندخل على الوباء فنلقي بأيدينا إلى التهلكة، وقالت طائفة أخرى: بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى، ولا نفر من الموت فتكون كمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَلْمَ شَرَ إِلَى البَّهُونَ ؛ ٢٤٣] فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه، فقال: نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له المخالفون في رأيه: أنفر من قدر الله فسألوه عن رأيه، فقال: أرأيتم لو كان تعالى، قال عمر: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط وادياً له شعبتان: إحداهما مخصبة: والأخرى مجدبة، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى؟ فقالوا: نعم، ثم طلب عبدالرحمن بن عوف بقدر الله تعالى وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى؟ فقالوا: نعم، ثم طلب عبدالرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه ـ وكان غائباً _ فلما أصبحوا جاء عدالرحمن فسأله عمر عن ذلك، فقال: عندي فيه

 ⁽١) حديث: ذكر رسول الله على الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره، فقال رجل: وما الصداع، ما أعرفه؟ فقال: «إليك عني. . . * الحديث. رواه أبو داود من حديث عامر البرام أخي الخصر بنحوه، وفي إسناده من لم يسم.

 ⁽٢) حديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار» رواه البزار من حديث عائشة، وأحمد من حديث أبي أمامة والطبراتي في
الأوسط من حديث أنس، وأبو منصور الديلمي في مستد الفردوس من حديث ابن مسعود، وحديث أنس ضعيف
و ناقها حسان.

 ⁽٣) حديث أنس وعائشة: قبل: يا رسول الله، هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم؟ فقال: قتعم من ذكر الموت كل يوم عشرين موقة لم أقف له على إسناد.

يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله ﷺ فقال عمر: الله أكبر، فقال عبدالرحمن: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضِ فَلا تَقْدُمُوا صَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضِ وَأَنْتُمْ بِها فَلا تَخْدُجُوا فِرَاواً مِنْهُ الله على الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذا وافق رأيه، ورجع من الجابية بالناس، فإذن: كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل؟.

فإن قلت: فلم نهي عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء، وسبب الوباء في الطب الهواء، وأظهر طرق التداوي الفرار من المضر، والهواء هو المصر فلم يرخص فيه؟. فاعلم: أنه لا خلاف في أن الفرار عن المضر غير منهي عنه؛ إذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح، وهذا لا يدل على المقصود. ولكن الذي ينقدح فيه . والعلم عند الله تعالى . أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له، فإنه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن، فالخروج من البلد لا يخلص غالباً من الأثر الذي استحكم من قبل، ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما، ولو تجرّد هذا المعنى لكان مناقضاً للتوكل ولم يكن منهياً عنه، ولكن صار منهياً عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر؛ وهو أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعياً في إهلاكهم تحقيقاً، وخلاصهم منتظر كما أنَّ خلاص الأصحاء منتظر؛ فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطعة بالموت، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعاً بالخلاص وهو قاطع في إهلاك الباقين، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه. فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فإنه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم. نعم، لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول هاهنا لأجل الإعانة، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرّض لضرر موهوم على رجاء دفع ضور عن بقية المسلمين، وبهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار بالفرار من الزحف(٢)؛ لأَنَ فيه كسراً لقلوب بقية المسلمين وسعياً في إهلاكهم. فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه، وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير، وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك.

فإن قلت: ففي ترك التداوي فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله على التداوي لينال الفضل؟ فنقول: فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها، أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة، أو احتاج إلى نيل ثواب الصابوين لقصوره عن

 ⁽١) حديث عبدالرحمن بن عوف: وإذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا. . .» الحديث، وفي أوله قصة خروج عمر
 بالناس إلى الجامية، وأنه بلغهم أن بالشام وباء. . » الحديث، رواه البخاري.

 ⁽٢) حديث: تشبيه القرار من الطاعون بالفار من الزحف. رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد، ومن حديث جابر بإسناد صعيف، وقد تقدم.

مقامات الراضين والمتوكلين، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوماً كالرقى، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي وكان التداوي يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع؛ فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوي، وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ونقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله ﷺ، بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها؛ إد كان حاله يقتضي أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدها، فإنه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب، ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب كما أنَّ الرغبة في المال نقص، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالاً فهي أيضاً نقص بالإضافة إلى من يستوي عنده وجود المال وعدمه، فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر، وكان حاله ﷺ استواء المدر والذهب عنده، وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم لا لخوفه على نفسه من إمساكه، فإنه كان أعلى رتبة من أن تغرّه الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها(١٠)، فكذلك يستوي عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة، وإنما لم يترك استعمال الدواء جرياً على سنَّة الله تعالى وترخيصاً لأمته فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الأموال فإنّ ذلك يعظم ضرره. نعم، التداوي لا يصر إلا من حيث رؤية الدواء نافعاً دون خالق الدواء وهذا قد نهي عنه، ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصى وذلك منهى عنه، والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك، وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعاً بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سبباً للنفع كما لا يرى الماء مروياً ولا الخبز مشبعاً، فحكم التداوي في مقصوده كحكم الكسب، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها، وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه، فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها: أن ترك التداوي قد يكون أفضل في بعض الأحوال، وأن التداوي قد يكون أفضل في بعض، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والنيات، وأن واحداً من الفعل والترك ليس شرطاً في التوكل إلا ترك الموهومات كالكي والرقي، فإن ذلك تعمق في الثدبيرات لا يليق بالمتوكلين.

بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه:

اعلم: أن كتمان المرض وإخفاء الفقر، وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات؛ لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلاثه معاملة بينه وبين الله عزّ وجلّ فكتمانه أسلم عن الآفات.

ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت به النية والمقصد. ومقاصد الإظهار ثلاثة:

الأول: أن يكون غرضه التداوي فيحتاج إلى ذكره للطبيب، فيذكره لا في معرض الشكاية بل في معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى. فقد كان بشر يصف لعبدالرحمن المطبب أوجاعه، وكان أحمد بن حنبل يخر بأمراض يجدها ويقول: إنما أصف قدرة الله تعالى فيّ.

الثاني: أنْ يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكيناً في المعرفة، فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها،

 ⁽۱) حليث: أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يشلها تقدم، ولفظه عرضت عليه مفاتيح خرائن السماء وكنوز
 الأرض فردها.

فبتحدّث به كما يتحدّث بالنعم. قال الحسن البصري: إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى.

الثالث: أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى، وذلك يحسن ممن تليق به القوّة والشجاعة ويستبعد منه العجز، كما روي: أنه قبل لعلي في مرضه رضي الله عنه: كيف أنت؟ قال: بشرّ، فنظر بعضهم إلى بعص كأنهم كرهوا ذلك وطنوا أنه شكاية، فقال: أتجلد على الله؟ فأحب أن يظهر عجزه و فتقاره مع ما علم به من القوّة والضراوة وتأدب فيه بأدب النبي على إياه حيث مرض علي كرّم الله وحهه فسمعه عليه السلام وهو يقول: اللهم صبرني على البلاء، فقال له على: «لَقَدْ سَأَلْتَ الله تَعَالَى الله المنافِيةَ» (١).

فبهذه النيات يرحص في ذكر المرض، وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام - كما ذكرته في تحريم السؤال على الفقراء إلا بضرورة - ويصير الإظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى، فإن خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه، لأنه ربما يوهم الشكاية، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموحود من العلة، ومن ترك الثداوي توكلاً فلا وجه في حقه للإظهار لأن الاستراحة إلى الإفشاء، وقد قال بعضهم: من بث لم يصبر، وقيل في معنى قوله: ﴿ وَمَسَبِّرٌ جَيِيلٌ ﴾ [يُوسُف ١٨] لا شكوى فيه. وقيل ليعقوب عليه السلام: ما الذي أذهب بصرك؟ قال: مُر الزمان وطول الأحزان: فأوحى الله تعالى إليه: تفرغت لشكواي إلى عبادي، فقال: يا رب، أتوب أليك. وروي عن طاوس ومحاهد أنهما قالا: يكت على المريض أنينه في مرضه، وكانوا يكرهون أنين المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل: ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا المرض لأنه إظهار معنى يقتضي الشكوى حتى قيل: ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه، فجعل الأبين حظه منه.

وفي الخبر: «إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعوّاده فإن حمد الله وأثنى بخير ادعوا له وإن شكا وذكر شراً قالا: كذلك تكونه (٢٠)، وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وحوف الزيادة في الكلام، فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم، منهم: فضيل ووهيب وبشر، وكان فضيل يقول: أشتهي أن أمرض بلا عوّاد، وقال: لا أكره المعلة إلا لأجل العواد، رضى الله عنه وعنهم أجمعين.

خُمُل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه. يتلوه إن شاء الله تعالى: كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق.



 ⁽١) حديث: مرض علي فسمعه رسول الله في وهو يقول: اللهم صبرني على البلاء، فقال: «لقد سألت الله البلاء قسل الله العافية» تقدم مع اختلاف.

٢) حديث: ﴿إِذَا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده. . ١ المحديث. تقدم.

بنسب الله الكنب التيسير

کتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد أله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتها، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت يتار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال: صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته، ومحترقة بنار محبته، والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأثمته، وقادة الحق والمحرة والم

أما بعد: فإنّ المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدّمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها، وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال: لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال، ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ولا بدّ من كشف المعاء عن هذا الأمر.

ونحن نذكر في هذا الكتاب: بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى، ثم بيان الخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المعقية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم المغول في علامات محبة العبد الله تعالى، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى، ثم بيان

معنى الانبساط في الأنس، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه، وكذا الفرار من المعاصي، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة. فهذه جميع بيانات هذا الكتاب.

بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى:

اعلم: أنّ الأمة مجمعة على أنّ الحب لله تعالى ولرسوله على فرض، وكيف يفرض ما لا وجود لله، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بدّ وأن يتقدّم الحب ثم بعد ذلك يطبع من أحب. ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عزّ وجلّ: ﴿يُكُمُّمُ وَيُبُونِهُ ﴾ [المنائدة: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَالَذِينَ عَامَنُوا أَشَدُ مَنَ يَقُو ﴾ [البَعْرَة: ١٦٥] وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه. وقد جعل رسول الله، ما الإيمان؟ قال: ﴿أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُ إِلَيْكَ مِمّا سِواهُمَاهُ ﴿)، وفي حديث آخر. با يؤمنُ أَحَدُكُمْ حَتَى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُ إِلَيْكِ مِمّا سِواهُمَاهُ ﴿)، وفي حديث آخر: بالا يُؤمنُ العَبْدُ حَتَى الْحَدِ إلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَاللَّهِ وَالنَّسِ أَجْمَعِينَ ﴿ وَفِي رواية: قومِن نَفْسِه كِف وقد قال تعالى: ﴿قُلُ إِنْ كَانَ المَالَحُمُ وَالْمَوْلُهُ أَحَبُ إِلَيْهِ مِنْ الْمَهِ وَاللَّهِ وَاللَّهُ إِلَى المَعْدِ والمِنْ الْمُعْدُ وَالمَا أَجرى ذلك في موسل الله إلى المنوبة: ١٤٤ الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار. وقد أمر رسول الله على المحبة فقال: ﴿أَجِبُوا اللَّهُ لِمُا يَغْفُوكُمْ فِي الْمَعْدُ وَاللَّهُ إِلَى الْحَبُ اللَّهُ إِلَى الْحَبُ اللَّهِ إِلَى اللهُ إِلَى المَعْدُ اللهُ إِلَى المَعْدُ وَاللهُ إِلَى المُعْدُ وَاللهُ إِلَى الْحَبُولُ اللهُ إِلَى المُعْدُ وَاللهُ إِلَى المَعْدُ وَاللهُ إِلَى الْحَبُ اللهُ وَاللّهُ إِلَى الْحَبُ اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ إِلَى الْمُعْمُ وَاللّهُ وَاللّهُ إِلَى الْحَبُولُ اللّهُ وَاللّهُ وَللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَالل

 ⁽١) حديث أبي رزين العقيلي: أنه قال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما»
 أخرجه أحمد بزيادة في أوله.

حديث: الا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما عنفق عليه من حديث أنس بلفظ: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله» وذكره نزيادة.

⁽٣) حديث: «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين». وفي رواية "ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس، واللمظ لمسلم دون قوله: "ومن نفسه»، وقال البخاري: "من والله وولمه وله من حديث عبدالله بن هشام: قال عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال: «لا والذي نفسي بيله حتى أكون أحب إليك من نفسي، فقال: «الآن يا عمر».

⁽٤) حديث: وأحبوا الله فما يغلوكم به من نعمه الحديث، أحرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال: حس غريب،

 ⁽٥) حديث: إن رحلاً قال: يا رسول الله إني أحمك، فقال: فاستعد للفقر. . . ١ الحديث. أخرجه الترمذي من حديث عمدالله بن مغفل بلفظ: افأحد للفقر تجفافاً دون آخر الحديث وقال: حسن غريب.

⁽٢) حديث عمر قال: انظر النبي يناية إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به . . . ا الحديث . أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد حسن.

وفي الخبر المشهور: "إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض، (۱۱)، وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه.

وقد قال نبينا على في دعانه: «اللّهُمُّ ارْزُفْني حُبُكَ وَحُبُ مَنْ أَحَبُّكَ وحبُ ما يُقَرِّبُني إلَى حُبُكَ وَاجْعَلْ حُبُكُ وَحَبُ مَنْ أَحَبُّ إلَى النبي عَلَيْ فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما أَعَدَدْتَ لَهَا» فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله عَنْ: «المَمْرُءُ مَعَ مَنْ أَحَبٌ (٢)، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق مِن خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر، وقال الحسن: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن، وقال أبو سليمان الداراني: إن من خلق الله خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشتغلون عنه بالدنيا؟.

ويروى: أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدائهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حقّ على الله أن يؤمن الخاتف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً فقال. ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً كأن على وجوههم المراثي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: نحب الله عزّ وجلّ، فقال: أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون. وقال عبدالواحد بن زيد: مررت برجل قائم في الثلج، فقلت أما تجد البرد؟ فقال: من شغله حب الله لم يجد البرد. وعن سري السقطي: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام فيقال: يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد، غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون: يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً.

وقال هرم بن حيان: المؤمل إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة، وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة. وقال يحيى بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الأمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه؟. وفي بعض الكتب: عبدي أنا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محباً. وقال يحيى بن معاذ: مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب. وقال يحيى بن معاذ: إلهي إني مقيم بفنائك مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال، وقلبتني

 ⁽۱) حديث: «إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يقبص خليله. . . » الحديث. لم أجد له أصلاً.

 ⁽۲) حديث: «اللهم اوزقني حبك وحب من يحبك. . . ٩ الحديث. تقدم.

 ⁽٣) حديث: قال أحرابي: يا رسول الله مثى الساعة؟ قال: قما أصدت ثها. . .» الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود يتحوه.

في الأعمال ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ورضاً وحباً، تسقيني من حياضك، وتهملني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغوفاً يقولك، ولما طرّ شاربي ولاح طائري، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً وقد اعتدت هذا منك صغيراً؟ فلي ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأني محب، وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر، وإنما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به.

بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى:

اعلم: أنّ المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسابها، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى:

فأوّل ما ينبغي أن يتحقق: أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك؛ إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك. ثم المدركات في انفسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فبه بإيلام وإلذاذ. فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً. فإذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به، ومعنى كونه مبغوضاً: أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً: أن في الطبع نفرة عنه. فالحب: عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً. فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته.

الأصل الثاني: أن الحب لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم ـ لا محالة ـ بحسب انقسام المدركات والحواس، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات، ولكل واحد منها لدة في بعض المدركات، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم، فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة اللمس في اللين والنعومة.

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة، أي كان للطبع السليم ميل إليها، حتى قال رسول الله على: هحبّب إلَيّ مِنْ تُنْيَاكُمْ ثلاث: الطّيبُ وَالنّسَاءُ وَجَعَلَ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصّلاقِه ('') فسمى الطيب محبوبا، ومعلوم أنه لا حظ للعين والسمع فيه؛ بل للشم فقط، وسمى النساء محبوبات ولا حظ فيهن إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع، وسمى الصلاة قرّة عين وجعلها أبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس، بل حس سادس مظته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب. ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان، فإن كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس حتى يقال: إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا

 ⁽١) حديث: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء...» الحديث. أخرجه النسائي من حديث أس دون قوله:
 «ثلاث»، وقد تقدم.

يحب - فإذن: قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس؛ الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شنت من العبارات، فلا مشاحة فيه وهيهات، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والمقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة للة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة - كما سيأتي تفصيله -، فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً.

الأصل الثالث: أنّ الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه، وهل يتصوّر أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنوا أنه لا يتصوّر أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته. والحق: أنّ ذلك متصوّر وموجود، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها، وبيانه: أنّ المحبوب الأوّل عند كل حي: نفسه متصوّر وموجود، فلنبين أسباب المحبه ميلاً إلى دوام وجوده، ونفرة عن عدمه وهلاكه، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب، وأي شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده؟ وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل، لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت، ولا لمجرّد الحذر من سكرات الموت، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك، ولا يحب الموت والعدم الميحب الأن فيه ألحياة ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم، بل لأنّ فيه الوجود أيضاً محبوب؛ لأن الناقص فاقد للكمال، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك الوجود أيضاً محبوب؛ لأن الناقص فاقد للكمال، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه. والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود كما أنّ دوام الوجود معبوب فكمال الذات، ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب. وهذه غريزة في الطباع بحكم ورجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب. وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى: ﴿وَرَانَ يَهِدَ لِأَسُنَةً اللَّهُ اللَّمُ اللَّهُ اللَّهُ

فإذن: المحبوب الأوّل للإنسان ذاته، ثم سلامة أعضائه، ثم ماله رولده وعشيرته وأصدقاؤه، فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة؛ لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها، والمال محبوب لأنه أيضاً آلة في دوام الوجود وكماله وكنا سائر الأسباب. فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لأجله؛ لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً. نعم، لو خير بين قتله وقتل ولمه ـ وكان طبعه باقياً على اعتداله ـ آثر بقاء نفسه على بقاء ولده، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه؛ فإنه يرى نفسه كثيراً بهم قوياً بسببهم متجملاً بكمالهم، فإنّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة. فإذن: المحبوب الأوّل عند كل حي المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة. فإذن المحبوب الأوّل عند كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله، والمكروه عنده ضدّ ذلك. فهذا هو أوّل الأسباب.

السبب الثاني: الإحسان؛ فإن الإنسان عبد الإحسان، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن

إليها ويغض من أساء إليها، وقال رسول الله على: الللّهُمُ لا تَجْعَلْ لِقَاجِرِ عَلَيْ يَداً قَيْحِيهُ قَلْبِيهِ (1) إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطراراً لا يستطاع دفعه، وهو جبلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها، وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة. وهذا إذا حقّق رجع إلى السبب الأوّل، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب، ولكن قد يكون سبباً له كالطبيب يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الطبحة؛ إذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة، وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وميلة إلى الطعام. فإذن يرجع الفرق إلى تقاوت الرتبة، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه. فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقاً، بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقاً، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب العدب مع بقاء ذاته تحقيقاً، ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب العدب ويو زاد زاد، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب ريادة الإحسان ونقصانه.

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه، وذلك كحب الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصوّر إلا لأجل قضاء الشهوة، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها، وإدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية؟. وقد كان رسول الله على يعجبه الخضرة والماء الجاري (٢)، والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان، الحسنة النقش، المتناسبة الشكل، حتى إن الإنسان لننفرج عنه الخموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر. فهذه الأسباب ملذة وكل لذيذ محبوب، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله يَشِيد: فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله يَشِيد: فإن المهموم المحبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله يَشِيد فإن المهموم الله محبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله يَشهر المهموم الله وجبيل يُجبُ المجميل المهموم المهموم المهموم عنه الخموم عنه المحبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله يضربه المخارية المهموم اله وبالمها المهموم الكربية المحبوباً عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله المهموم المهمو

الأصل الرابع: في سيان معنى الحسن والجمال؛ اعلم: أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون

⁽۱) حديث: «اللهم لا تجعل لكاقر علي بدأ فيحبه قلبي» رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس: من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع، وقد تقدم.

حديث: كان يعجبه الخضرة والماء الجاري... أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس: أن النبي على كان يعب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري، وإسناده ضعيف.

حديث: قإن الله جميل يحب الجمال؛ رواه مسلم في أثناه حديث لابن مسعود.

البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان، فإنَّ الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصراً ولا متخيلاً ولا منشكلاً ولا متلوناً مقدّر فلا يتصوّر حسنه، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذة فلم يكن محبوباً. وهذا خطأ ظاهر فإنّ الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة. فإنا نقول: هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن، بل نقول: هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن، فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة؟. ومعلوم أنّ العين تستلذ بالنظر إلى الحط الحسن، والأدن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة. وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشباء؟ فلا بدِّ من البحث عنه. وهذا البحث يطول، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه، فنصرح بالبحق ونقول: كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كز وفرّ عليه، والخط الحسن كل ما جمع ما يلبق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليُّق به وقد يليق بغيره ضدَّه، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به. فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

فإن قلت: فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس؟.

فاهلم: أنّ الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصهات لا يعرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته، وآية ذلك وأنّ الأمر كذلك: أنّ الطباع مجبولة على حب الأنبيء صلوات الله عليهم، وعلى حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا، بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعي وأبي حنيفة ومالك وغيرهم؛ حتى إنّ الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مدهبه حذ العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه، فكم من دم أربق في نصرة أرباب المذاهب، وليت شعري من يحب الشافعي مثلاً فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة، فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين، وانتهاضه المراب، وإنما يحبه لصفاته المنزرات في العالم، وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بور البصيرة، فأما الحواس فقاصرة عنها، وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويقضله على غيره، أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم يحب علياً رضي الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب أبه بكر الصديق ومن الله عنه ويقضله من العلم والعثم من العلم ما العلم العلم المعلم المعام على غيره العدم العلم على غيره العلم المعلم المعام المعلم المعلم

والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره، فمعلوم أنّ من يحب الصدّيق رضي الله تعالى عنه مثلاً ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله؛ إذ كل ذلك زال وتبدّل وانعدم، ولكن بقي ما كان الصدّيق مه صديقاً؛ وهي الصفات المحمودة التي هي مصادر السير الحميلة، فكان الحب باقياً ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور. وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين، وهما غير مدركين بالحس، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة. وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوباً لأجله، فإذن: الجمال موجود في السَّيَّر، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حباً فالمحبوب مصدر السير الجميلة، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة، وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس، حتى إن الصبى المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائباً أو حاضراً حياً أو ميتاً لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة. فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه، فهل غلب حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أي جهل وبغض إليس لعنه الله إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقايح التي لا تدرك بالحواس؟. بل لما وصف الناس حاتماً بالسخاء ووصفوا حالداً بالشجاعة أحبتهم القلوب حباً ضرورياً، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب، مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لمعد المزار ونأي الديار. فإذن: ليس حب الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه، بل المحسن في نفسه محبوب وإذ كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب، والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر، والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشاً مصوّراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة.

السبب المخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب؛ إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرّد تناسب الأرواح كما قال على: الحقياء التقلف ومنها التقلف وما تفاكر منها المختلف المناه وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه؛ لأنه أيضاً من عجائب أسباب الحب، فإذن: ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب: وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقاءه، وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه، وحبه من كان محسناً في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسناً إليه، وحبه لكل ما هو جميل في ذاته؛ سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة، وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن. فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الوالد كان محبوباً لا محالة غاية الحب،

⁽١) حديث: «قعا تعارف منها التلف» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم في آداب الصحبة.

وتكون قرّة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قرّة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه الصفات في أعلى الدرجات. فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى، فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى.

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده:

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى، وحب الرسول على معمود لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأنقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه. وإيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حق الله تعالى، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل، وهو مجاز محض لا حقيقة له، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً، وبان أن التحقيق يقتضي أن لا تحب أحداً غير الله تعالى.

فأما السبب الأوّل: وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي، ولا يتصوّر أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى، فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله، فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له وهو المكمل لوجوده يخلق صفات الكمال، وخلق الأسباب الموصلة إليه، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإبجاد، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته. وبالجملة: فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به، فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقبوماً بنفسه ومقوّماً لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقؤتها. ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها. وكيف يتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟. ومعلوم أن المبتلى بحرّ الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر، والنور بالإضافة إلى الشمس، فإنَّ الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام؛ إذ تخيلوا أنَّ النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها، وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار؛ أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق. فإذن: إن كان

حب الإنسان نفسه ضرورياً فحبه لمن به قوامه أوّلاً ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضروري إن عرف ذلك كذلك، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه رشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته، وقصر نظره على شهواته ومحسوساته، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه البهائم في التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذي لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم.

وأما السبب الثاني: وهو حبه من أحسن إليه؛ فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدَّه بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده، وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أنَّ المحسن إليه هو الله تعالى فقط، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدَّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُسُدُواْ نِمْمَتَ ٱللَّهِ لَا تَحْشُوهَا ۚ ﴾ [يراهيم: ٣٤]، وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر، ولكنا نقتصر الآن على بيان أنَّ الإحسان من الناس غير متصوّر إلا بالمجاز، وإنما المحسن هو الله تعالى. ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فإنك تظن أنَّ هذا الإحسان منه، وهو غلط فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته، ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أنَّ صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله. ومهما سلط الله عليه الدواعي وقرّر في نفسه · أنّ صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطرّاً في التسليم لا يستطيع مخالفته، فالمحسن هو الذي اضطرّه لك وسخره، وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك، وصاحب اليد مضطرّ في ذلك اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر، فإنه لا يتصوّر الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه، أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل إما آجل وهو الثواب، وإما عاجل وهو المنة والاستسخار، أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم، أو جذب قلوب الحلق إلى الطاعة والمحبة، وكما أنَّ الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده، وأما أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القيض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو انشكر أو الثواب بسبب قبضك المال، فقد استسخرك في القبض للتوصل إلى غرض نفسه، فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة. فإذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين:

أحدهما: أنه مضطرّ بتسليط الله الدواعي عليه فلا قدرة له على المخالفة، فهو جار مجرى خازن الأمير فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه، لأنه من جهة الأمير مضطرّ إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه، وألقى في نفسه أنّ حظه ديناً ودنيا في بذله فبذله لدلك.

والثاني: أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفي عنده وأحب مما بذله، فكما لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر، وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها، فالإحسان في الجود، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل، وذلك محال من غير الله سبحانه، فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ولأجلهم، لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض، فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز، ومعناه في يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض، فلفظ الجود والإحسان والطول حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان، فإن كان في الطبع حب المحسن، فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى؛ إذ الإحسان من غيره محال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده، وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته.

وأما السبب الثالث: وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه. وهذا أيضاً موجود في الطباع. فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضاً بعيد عنك؛ فإنك تجد في قلبك تقرقة بينهما؛ إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأوّل وهو الحب، ونفرة عن الثاني وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأوّل وآمن من شر الثاني؛ لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن إليك، وهذا أيضاً يقتضي بلادهما، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث يتعلق منه بسبب، فإنّ الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق؛ أولاً: بإيجادهم، وثانياً: بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم، وثالثاً: بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظانً زينتهم حاجاتهم وإن لم تكن في مطان الضرورة، ورابعاً: بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم.

ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب والكبد، ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل. ومثال الزينة: استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة.

ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان: الماء والغذاء. ومثال الحاجة: الدواء واللحوم والقواكه. ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ القواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة.

وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش. فإذن هو المحسن؛ فكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان، فالحب بهذه العلة لغيره أيضاً جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى.

وأما السبب الرابع: وهو حب كل جميل لذات الجمال، لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال: فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع، وأن الجمال يتقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة، والأول يدركه الصبيان والبهائم، والثاني

يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عد مدرك الجمال، فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب. ومثال هدا في المشاهدة: حب الأنبياء والعلماء وذوي المكارم السنية والأخلاق المرضية، فإن ذلك متصور مع تشوّش صورة الوجه وسائر الأعضاء، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحسن لا يدرك. نعم، يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه، فمن يحب رسول الله في أو الصديق رضي الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال؛ إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل، المعدور كلما كان أعطم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدراً. وأجل المعلومات هو الله تعالى، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى، وكذلك ما يقاربه ويختص المعلومات هو الله تعالى، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى، وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به.

فإذن: جمال صفات الصدّيقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور:

أحدها: علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه.

والثاني: قدرتهم على إصلاح أنفسهم، وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة.

والثالث: تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الدين هم أهل العدل والكرم، فانسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى.

أما العلم: فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية؛ حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل : ﴿وَمَا أُونِيتُهُ مِن ٱلْمِلْمِ إِلّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن بحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك: ﴿وَلَا يُجِعْلُونَ بِثَنَى مِن عِلْمِهِ الْحَلامُ وَسَرَهُ أَلْبَيْانُ مِن عَلَى اللهِ علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى: ﴿ عَلَمُ اللّهِ عَلَمُهُ أَلْبَيَانَ فَ ﴾ [الرَّحَمْن: ٣٠٤] فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً، وكان خهل بالإضافة إلى علمه، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم حلى بالإضافة إلى علمه، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته. والتفاوت بين علم أهلم وبين علم أهلم الخلائق وأجهلهم، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية، يتصور في الإمكان أن بنالها الأجهل بالكسب والاجتهاد، وفضل علم الله تعالى على على على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية؛ إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية.

وأما صفة القدرة: فهي أيضاً كمال، والعجز نقص، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ، حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً

ضرورياً بمجرّد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة، ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً للمتصف به، فإنه نوع كمال، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، فأعظم الأشخاص قوّة وأوسعهم ملكاً، وأقواهم بطشاً، وأقهرهم للشهوات، وأقمعهم لخبائث النفس، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته؟ وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في يعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك لنقسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضراً ولا نفعاً، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولسانه من الخرس، وأذنه من الصمم، وبدنه من المرض، ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته، فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها، والأرض وجبالها ويحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها، فلا قدرة له على ذرّة منها. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضاً على أعطم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوكُ الأرض ذي القرنين إذ قال: ﴿ إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي ٱلْأَرْنِي﴾ [الكهف: ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض، والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم، وجميع الولايات التي يحظي بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة، ثم تلك الغبرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكيبه، فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فهو الجبار القاهر والعليم القادر، السموات مطويات بيمينه، والأرض وملكها وما عليها في قبضته، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة. وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته، فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء، فإن كان يتصوّر أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلاً.

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدّس عن الرذائل والخبائث: فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة، والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصوّر كمال التقدّس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدّوس ذي الجلال والإكرام.

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص، بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسحراً مضطراً هو عين العيب والنقص، فالكمال لله وحده، وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله، وليس في المقدور أن يتعم بمنتهى الكمال على غيره، فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبداً مسخراً لغيره قائماً بغيره وذلك محال في حق غيره، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدّس عن العيوب. وشرح وجوه التقدّس والتنزه في حقه عن النقائص يطول، وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطوّل بدكره، فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً فلا تتم حقيقته إلا له، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقاً بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصاناً، كما أنّ للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس. وأصل النقص شامل للكل، وإنما يتفاوتون في درجات النقصان.

فإن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندَّ له، الفرد الذي لا ضدَّ له، الصمد الذي لا منازع له، الغنى الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه،

ولا معقب لقضائه، العالِم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السموات والأرض، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة، الأزلى الذي لا أول لُوجوده، الأبدي الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به، جبار السموات والأرض، خالق الجماد والحيوان والنبات، المنفرد بالعزة والجبروت، والمتوحد بالملك والملكوت، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول، وتخرس في وصفه الألسنة، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهي نبوّة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين: (لا أخصِي ثَنَاءٌ عَلَيْكَ، أَنْتُ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ (١٠)، وقال سبد الصديقين رضي الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك. سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقاً ويجعله مجازاً؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن؟ أينكر كون الله تعالى موصوفاً بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه؟ **مسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه** الحسني؛ الذين هم عن نار الحجاب مبعدون، وترك الخاسرين في ظلمات العمي يتيهون، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان؛ لأنّ الإحسان يزيد وينقص. ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنّ أود الأوداء إلي: من عبدني بغير نوال لكن ليعطي الربوبية حقها. وفي الزبور: من أظلم ممن عبدني لجنة أو بار، لو لم أخلق جنة ولا تاراً ألم أكن أهلاً أن أطاع. ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا: نخاف النار وترجو الجنة فقال لهم: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم. ومرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا: نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال: أنتم أولياء الله حقاً، معكم أمرت أن أقيم. وقال أبو حازم: إني لاستحي أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يحمل، وكالأجير السوء إن لم يعمل، وكالأجير السوء إن لم يعمل. وفي الخبر: «لا يَكُونَنَ أَخَدُكُمْ كَالأَجِيرِ السُوءِ إنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلُ» (قلا كَالْعَبْدِ السُوءِ إنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلُ» (*).

وأما السبب المخامس للحب: فهو المناسبة والمشاكلة؛ لأن شبه الشيء منجذَّب إليه، والشكل إلى الشكل أميل، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح. وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار، كما استقصيناه في باب الأخوّة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه. وإذا كانت المناسبة سبب المحبة، فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي الصبي الصبي في معنى الصبا، وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه، كما ترى من الاتحاد الذي يتفق مين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي عليه إذ قال: «الأزوّاحُ جُنُودٌ

⁽١) حديث: ﴿ لا أحمى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك؛ تقدم.

 ⁽٢) حديث: الا يكون أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل؛ لم أجد له أصلاً.

مُجَنَّدَةً فَمَا تُعَارَفَ مِثْهَا اتْتَلَفَ وَمَا تُنَاكَرَ مِنْهَا الْحُتَلَفَ، فالتعارف هو التناسب، والتناكر هو التباين، وهذا السبب أيضاً يفتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة، يجوز أن ينجوز أن ينجوز أن ينطر، بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك.

فالذي يدكر هو قرب العبد من ربه عزّ وجلّ في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء، والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل: تخلقوا بأخلاق الله، وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية؛ من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير، والرحمة على الخلق والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة. فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات.

وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الآدمي فهي التي يومىء إليها قوله تعالى: ﴿ وَيَشْتَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَشْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء. ٨٥] إذ بيَّن أنه أمر رباني خارج عن حدّ عقول الخلق. وأوضح من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَيْتُكُمُ وَنَفَخْتُ يْبِهِ بِن تُوجِي﴾ [الجمبر: ٢٩] ولّذلك أسجد له ملائكته. ويشبر إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَكَ خَلِفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦] إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة وإليه يرمز قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الله خلق آدم على صورتهـ (¹)، حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوّروا، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً. وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام: «مرضت فلم تعدني فقال: يا رب وكيف ذلك؟ قال: مرض عبدي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتني عنده، (٢)، وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى: ﴿لا يَزَالُ يَتَقُرُب المعبد إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق بهه (٣). وهدا موضع يجب قبض عنان القلم فيه؛ فقد تحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر، وإلى عالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول، حتى قال بعضهم: أنا الحق. وضل النصاري في عيسى عليه السلام فقالوا: هو الإله، وقال آخرون منهم: تذرع الناسوت باللاهوت، وقال آخرون: اتحد به. وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون. ولعل أبا الحسن النوري عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل:

لا زليت أنسزل مسن ودادك مستسزلاً تستحميس الألساب عسنه نسزولسه

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقي أصوله، حتى تشققت قدماه وتوزّمتا ومات من ذلك. وهذا هو أعظم أسباب الحتّ وأقواها، وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجوداً، فهذه هي

⁽١) حديث: اإن الله خلق آدم على صورته، تقدم.

⁽٢) حديث: قوله تعالى: امرضت فلم تعدني، فقال: وكيف ذاك قال: مرض فلان. . . ، ، الحديث تقدم.

⁽٣) حديث قوله تعالى: الا يزال يتقرب العبد إلي بالنوافل حتى أحبه. . . • الحديث، أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة • وقد تقدم.

المعلومة من أسباب الحب، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً، وفي أعلى المعلومة من أسباب الحب، وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى نقط، كما أن المعقول المدرجات لا في أدناها، فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى نقط، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب، والشركة نقصان في الحب وغض من كماله، ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال، ولا شريك له في ذلك وجوداً، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكاناً، فلا جرم لا يكون في حبه شركة، فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته، فهو المستحق ـ إذ الأصل المحبة ـ ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة اش تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى من حرم هذه اللذة:

اعلم: أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوّة وغريزة لذة، ولذتها في نيلها المقتضي طبعها الذي خلقت له، فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان عبثاً بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع. فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضي طبعها. وغريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها، وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها. فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿ أَفَهَن شَرَعَ ٱللَّهُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَايِ فَهُو عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّيِّهِ؞﴾ [الزُّمَر: ٢٧] وقد تسمى العقل، وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للاشتغال بالأسامي فإنّ الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظنّ أن الاختلاف واقع في المعاني؛ لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة، كإدراكه خلق العالم، أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية، ولنسم تلك الغريزة عقلاً بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم، وهذه الغريزة حلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها، وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الدي ينسب إلى العلم والمعرفة ـ ولو في شيء خسيس ـ يفرح به، والذي ينسب إلى الجهل ـ ولو في شيء حقير ـ يغتم به، وحتى إن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدِّي بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة. فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهي منتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذِّكاء وغزارة العلم؛ لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه؛ فيعجب بنفسه ويلتذ به، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلَّذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السمُّوات والأرض، بل لذَّة العلم بقدر شرف

العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رئاسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك، فإن اطلع على أسوار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس، فإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير، وكان تمدِّحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشدً، وحبه له أكثر؛ لأن لذته فيه أعظم. فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها. وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟ وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية؛ التي لا يحيط بمبادىء جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين؟ فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار، وبهذا تبين أنَّ العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته ـ من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين .. فينبغي أن يعلم أنّ لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات . أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس .. فإنَّ اللذات مختلفة بالنوع أوَّلًا، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع، ولذة المعرفة للذة الرئاسة. وهي مختلفة بالضعف والقوّة كمُحالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال. وإنما تعرف أقوى اللذات بأن نكون مؤثرة على غيرها، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة؛ إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمرّ اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل؛ فيعلم به أنّ لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل. فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات، فنعود ونقول:

اللذات تنقسم إلى طاهرة كلذة الحواس الخمس، وإلى باطنة كلدة الرئاسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها؛ إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق، والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة الدحاج السمين واللوزينج وبين لذة الرئاسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة، وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرئاسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياماً كثيرة. فاختياره للرئاسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة. نعم، الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي، أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على من جاوز نقصان الصبا المطعومات على من جاوز نقصان الصبا والعته، فلذة الرئاسة، وكما أنّ لذة الرئاسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته، فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرئاسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿ فَلَا نَعْلَمُ نَفْشٌ مَا أُخْفِي هُمُ

مِن نُمَّةِ أَعَبُو﴾ [السَّجدَة: ١٧] وأنه أعدّ لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرّد والفكر والذكر، ويتغمس في سحار المعرفة ويترك الرئاسة، ويستحقر الخلق الذين يرأسهم لعلمه بقناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته. وكونه مشوباً بالكدورات التي لا يتصوّر الخلو عنها، وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بدّ من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها؛ فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى علبين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم بكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها؛ إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، ثم هي أبدية سرمديَّة لا يقطعها الموت؛ إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي، وإنما الموت يغيّر أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فأما أن يعلمها فلا، ﴿وَلَا يَقْسَنَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَنَّا بَلَّ أَخْيَأَةُ عِندَ رَبِهِمْ كُرْزَقُونَ ١ فَيْحِينَ بِمَا ءَاتَنهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْنِبُرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمُ يَلْحَقُواْ بَهِم مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [ال عِمْرَانَ: ١٧٩، ١٦٩] الآية. ولا تظنن أنَّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد، وفي الخبر: «إنّ الشهيد يتمنى في الآخرة أن يردّ إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء الاً.

فإذن: جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض. وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منزهاتهم بقدر تفاوتهم هي اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله، ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، فقد ظهر أن للة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرئاسة ولكن يؤثرون الرئاسة، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات نذلك عند من لا قلب له؛ لأن القلب معدن هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثبات وجحان لذة الوقاع على لذة اللهب بالصولجان عند الصبيان، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين، لأنه فقد الصفة التي نها تدرك هذه اللذة، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال: من ذاق عرف. ولعمري: طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات، وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشف له من أسرار ملك الله وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشف له من أسرار ملك الله - ولو الشيء اليسبر - فإنه يصادف في قلبه فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله - ولو الشيء اليسبر - فإنه يصادف في قلبه فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله - ولو الشيء اليسبر - فإنه يصادف في قلبه

⁽۱) حديث: «إن الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقتل مرة أخرى...» الحديث. متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم، وليس فيه: «وإن الشهداه بتمنون أن يكونوا طماه...» الحديث.

عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به، ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى، فهذا القدر ينبهك على أنّ معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها.

ولهذا قال أبو سليمان الداراني: إن لله عباداً ليس يشعلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرني يا أبا محفوظ، أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت وقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده؛ إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. وفي أخبار عيسى عليه السلام: إذا رأيت الفتى مشغوفاً بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه. ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال: ما فعل أبو نصر التمار وعبدالوهاب الوراق؟ فقال: تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان، قلت: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه. وعن علي بن الموفق قال: رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة، فرأيت رجلاً قاعداً على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلاً قائماً على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضاً ويرد بعضاً، قال: ثم جاوزتهما إلى حديقة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف، ففلت لرضوان: من هذا؟ فقال: معروف الكرخي؛ عبد الله لا خوفًا من ناره ولا شوقًا إلى جنته بل حباً له، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة. وذكر أن الآخرين: بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل. ولذلك قال أبو سليمان: من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غداً مشغول بربه. وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته؛ فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه، وقالت في معنى المحبة نظماً:

وحسب الأنسك ألمسل لسذاكسا فسين سواكسا فكشفك لي الحبجب حمتى أراكسا ولكن المحمد فسي ذا وذاكسا

ولعلها أرادت بحب الهوى: حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكياً عن ربه تعالى: «أَعَدَدْتُ لَعِبَادِي الصَّالِحِينَ ما لا عَينْ رَأَتُ وَلا أَذَنُ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ» (١)، وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قليه إلى الغاية، ولذلك قال بعضهم: إني أقول: يا رب يا الله، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال؛ لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه؟ وقال: إذا بلغ الرجل

أحببك حبيين حب السهوى

فأما الذي هدو حب السهدوي

وأما السلي أنست أهال لسه

فسلا السحسمسد فسي ذا ولا ذاك لسي

 ⁽١) حديث: قال ﷺ حاكياً عن ربه تعالى: اأعددت لعبادي الصالحين ما لا هين وأت. . . ؟ الحديث. أخرجه البخاري
 من حديث أبي هريرة.

في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة، أي يخرج كلامه عن حدٌّ عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً. فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط، فهي قرّة العين التي لا تعلم نفس ما أخفي لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقاً بنعيمها، فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، وليت شعري، من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يأمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وما له صورة ولا شكل؟ وأي معنى لو عدّ الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم؟ بل من عرف الله عرف أنَّ اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم:

كانت للقطبي أهواء منفرقة فاستجمعت مذرأتك العين أهوائي فصار يحسدني من كنت أحسده تسركست لسلسنساس دنسيساهسم وديسنسهسم

وصرت مولى الورى منذ صرت مولائي شمغسلا بسذكسرك يساديسنسي ودنسيسانسي

ولللك قال بعضهم:

وه جسره أعظم مسن نساره ووصلمه أطبيب مسن جسنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإنّ الجنة معدن تمتع الحواس، فأما القلب فلذنه في لقاء الله فقط.

ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما نذكره: وهو أن الصبي في أوّل حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو، حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرئاسة والعلو والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى: ﴿أَعْلَمُونَا أَنْمَا ٱلْخَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَمِبُّ وَلَمْقٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَنَكَاثُرٌ ﴾ [المحديد: ٢٠] الآية. ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر فهو أقوى، وهذا هو الأخير؛ إذ يظهر حب اللعب في سنّ التمييز، وحب النساء والزينة في سنّ البلوغ، وحب الرئاسة بعد العشرين، وحب العلوم بقرب الأربعين، وهي الغاية العليا، وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعة النساء وطلب الرئاسة؛ فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرئاسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى. والعارفون يقولون ﴿ إِن نَسْخُرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخُرُ مِنكُمْ كَمَّا نَسْخُرُونَ ﴿ أَنِي فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴾ [غود: ٣٩،٣٨].

بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا:

اعلم: أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال؛ كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة، والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات، وإلى ما لا يدحل في الخيال، كذات الله تعالى وكل ما لبس بجسم كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها. ومن رأى إنساناً ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين؛ لأن الصورة المرثية تكون موافقة للمتخيلة، وإنما الاقتراق بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورة المرئى صارت بالرؤية أتمّ انكشافاً ووضوحاً، وهو كشخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رُئي عند تمام الضوء؛ فإنه لا يفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف. فإذن: الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف، وسمي ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه في العين، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية.

وإذا فهمت هذا في المتخيلات فاعلم: أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان إحداهما: أولى. والثانية: استكمال لها. وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئي، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية. وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأحقان يمنع من تمام الكشف بالرؤية، ويكون حجاباً بين البصر والمرثى، ولا بدّ من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرّد التخيل، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار. والقول في سبب كونها حجاباً يطول ولا يليق بهذا العلم. ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ لَن تُرَنِّي﴾ [الأعرَاف: ١٤٣] وقال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَدُرُ﴾ [الانتام: ١٠٣] أي في الدنيا، والصحيح أن رسول الله ﷺ ما رأى الله تعالى ليلة المعراج (١٠)، فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا، غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ـ نعوذ بالله من ذلك ـ، ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع، ولم يخرج عن قبول النزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضاً يقمع منه الخبث الذي هو متدنس به، ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية، وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين ـ كما وردت به الأخبار ـ سبعة آلاف سنة(٧)، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما، وإن قلَّت، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاْ كَانَ عَلَ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْأَ وَّنَذَرُ ٱلظَّليمِينَ فِهَا جِيْبًا ۞ [مربّم: ٧٣،٧١] فكل نفس مستبقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها، فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافي استحقاق الجنة ـ وذلك وقت

⁽١) حديث: أنه هي ما رأى الله تعالى ليلة المعراج في الصحيح، هذا الذي صححه المصنف وهو قول عائشة، ففي الصحيحين: أنه هي ما رأى الله تعالى ليلة المعراج في الصحيحين، ولمسلم من حديث أبي ذر. سألت رسول الله هي هل رأيت ربك؟ قال: «نور آئى أراه» وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له، وعائشة لم توو ذلك عن النبي هي وحديث أبي ذر قال فيه أحمد: ما زئت له منكراً. وقال ابن خزيمة: في القلب من صحة إسناده شيء، مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر: «رأيته نوراً أنى أراه» ورجال إسناده رجال الصحيح.

⁽٢) حديث: ﴿إِنْ أَقْصَى المكث في النار في حق المؤمنين صبعة آلاف سنة الخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة. ﴿إِنْمَا الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي . . » الحديث. وفيه: ﴿وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف.

مبهم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه فإنه واقع بعد القيامة؛ ووقت القيامة مجهول ـ فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لأنّ فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى، فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تخيله. وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، فإذن: الرؤية حق، بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصوّر مخصوص بجهة ومكان، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً، بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة، فتراه في الآخرة كذلك. بل أقول: المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح، كما ضربناه من المثال في استكمال الخيال بالرؤية. فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضاً جهة وصورة؛ لأنها هي بعينها لا تفترق منها إلا في زيادة الكشف، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَرُؤُورُهُمْ يَسْعَن بَيْكَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَكَ أَتْقِيمٌ لَنَا نُورَفَا ﴾ [التحريم: ٨] إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعاً، ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل؟ ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل الزرع؟ فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر؛ إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوَّتها وضعفها، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِي بَكُر خَاصَّةً (`` ، فلا ينبغي أن يظنّ أنّ غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره، ولما فضل من الناس بسر وقر في صدره فضّل ـ لا محالة ـ بتجل انفرد به، وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح؛ وترى من يؤثر للة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعاً؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة؛ إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة، والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب؛ وسائر الخلق مشغولون به. ولذلك لما قيل لرابعة: ما تقولين في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار. فبينت أنه ليس في قلبها الثفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة. وكل من ئم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة، وكل من لم يجد للة المعرفة في الدنيا فلا يجد للة النظر في الآخرة؛ إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه مِن الدنيا، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا

 ⁽١) حديث وإن الله يتجلى للناس عامة والأبي بكر خاصة احرجه ابن عدي من حديث جابر. وقال: باطل بهذا الإسناد
 وفي الميزان للذهبي: أن الدارقطني رواه عن المحاملي عن علي بن عبدة وقال الدارقطني: أن علي بن عبدة كان يضع الحديث، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة.

يحشر المرء إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه فقط، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به؛ كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإنّ ذلك منتهى لذته، وإنما طيبة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهي، فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره، بل ربما يتأذى به، فإذن: نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر معرفته؛ فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان.

فإن قلت: فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها، لأنّ لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حدّ قريب لا ينتهي في القوّة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فها؟.

فاعلم: أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها؟ وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها؟ فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا لذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع.

وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول: لذة النظرة إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب:

أحدها: كمال جمال المعشوق ونقصاته، فإنَّ اللَّذة في النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة.

والثاني: كمال قوّة الحب والشهوة والعشق؛ فليس التذاذمن اشتدّ عشقه كالتذاذمن ضعفت شهوته وحبه. والثالث: كمال الإدراك، فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعده كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل

كإدراكها مع التجرّد. والرابع: اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب؛ فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات.

فقد عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلاغه وتشغل قلبه، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه، فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء، واندفع عنه المؤذيات، وبقي سليماً فارغاً، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة. فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن، وضعف الشهوة، والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصائها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى العب بالعصفور، والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها ألبتة. نعم، قد تضعف هذه العوائق في معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها ألبتة. نعم، قد تضعف هذه العوائق في

بعض الأحوال ولا تدوم، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلّما يدوم؛ بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوّشه وينغصه، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى المعوت، وإنما الحيث وإنما العيش عيش الآخرة: ﴿وَإِنَى الدَّرَ الْخَوْرَةُ لَهِى الْمَوْنُ لَنَ المعرفة؛ وإنها العيش عيش الآخرة وإنها الله يعب الموت، وإنها العيش عيش الآخرة والله الله تعالى فيحب الموت، ولا يكره إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة؛ فإنّ المعرفة كالبذر، ويحر المعرفة لا ساحل له، فالإحاطة بكنه جلال الله محال، فكلما كثرت المعرفة بالله ويصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا السندر إلا في الدنيا، ولا يزرع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ السَّعَادَاتِ طُولُ العُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ» (أن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتسع في الحمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب، ويتمل الموت أحبه؛ لأنه رأى نفسه واقفاً في المعرفة بالغاً إلى منتهى ما يسر له، ومن كره الموت كرهه؛ لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصيل له بطول العمر، ورأى نفسه ما يسر له، ومن كره الموت كرهه؛ لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصيل له بطول العمر، ورأى نفسه ما يسر له، ومن كره الموت كرهه؛ لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصيل له بطول العمر، ورأى نفسه مقصراً عما تحتمله قوّته لو عمر، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة.

وأما سائر الخلق؛ فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا، إن اتسعت أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت. وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة. فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة. والعلم والمعرفة أسباب كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة، ومعنى العشق فإنه المحبة المفرطة القوية، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال، وإن لم تكن كذلك عند ذوي النقصان، كما لم تكن الرئاسة ألذ من المطعومات عند الصبيان.

فإن قلت: فهذه الرؤيا محلها القلب أو العين في الآخرة؟ .

فاهلم: أنّ الناس قد اختلفوا في ذلك، وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف، ولا ينظرون فبه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له، والحق فيه أنّ القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا في حكم الجواز، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع فله رائحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع: أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ

⁽١) حديث: «أقضل السعادات طول العمر في طاعة الله أخرجه إبراهيم الحربي هي كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهيعة عن ابن المعلم عن أبيه عن أبيه عن النبي يَنْ قال: «السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبدالله بن حنطب مختلف هي صحبته ولأحمد من حديث جابر: «إن من سعادة المره أن يطول همره ويرزقه الله الإتابة» والترمذي من حديث أبي بكرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «من طال همره وحسن همله قال: هذا حديث حسن صحيح» وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: قرقية الله في الآخرة حقيقية، متفق عليه من حديث أبي هريرة: أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى رمنا
 يوم القيامة؟ قال: همل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر...» الحديث.

الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره؛ إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لمضرورة والله تعالى أعلم.

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى:

اهلم: أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القلوم على الله تعالى ودرك سعادة لقاته، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من دوام مشاهدة أبد الآباد من غير منقص ومكدر، ومن غير رقيب ومزاحم، ومن غير خوف انقطاع! إلا أن هذا النعيم على قدر قوّة الحب؛ فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة، وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا، وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن؛ لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوّة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذي يسمى عشقاً فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بسببين.

أحدهما: قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب، فإنَّ القلب مثل الإناء لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء: ﴿ مَّا جَعَلَ آتَهُ لِرَجْلِ مِّن قُلْبَيْنِ فِي جَوْفِيكُ [الأحرَاب: ١٤ وكمال الحب في أن يحب الله عزّ وجلّ بكل قلبه. وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله، وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه. وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى: ﴿ قُل اللَّهُ ثُمَّ ذَرْكُمْ فِي خُونِهِمْ ﴾ [الانغام: ٩١] وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيرَ ۚ قَالُواْ رَبُّنَا آلِلَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَائِمُولَ [فُصَّلَت ٣٠] بل هو معنى قولك: ﴿لا إِلٰهِ إِلا اللهِ أَي لا معبود ولا محبوب سواه، فكل محبوب فإنه معبود، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به، وكل محب فهو مقيد بما يحبه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَرْبَيْتَ مَنِ ٱغْمَدُ إِلَيْهُمْ هُوَيْنُهُ ۗ [الفُرفان. ٤٣] وقال ﷺ: «أَبْغَضُ إِلَٰهٍ عُبِدَ فِي الأَرْضِ الْهَوَى»، ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ قَالَ لا إِلَّه إِلاَّ اللَّهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الجُنَّةُ (١٠)، ومعنى الإخلاص: أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه، وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد، وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلى من السجن، ومكن من المحبوب، وروّح بالأمن أبد الآباد، فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوّة حب الدنيا؛ ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمتنزهات حتى إن المنفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا، ومتعرّض لنقصان حب الله تعالى بسببه، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها، فالدنيا والآخرة ضَرَّتَانِ، وهما كالمشرق والمغرب، وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب: سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء. فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدِّمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله، وأوَّله الإيمان بالله واليوم الأَّخر والجنة والنار، ثم يتشعب منه

 ⁽١) حديث: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل البجنة». تقدم.

الخوف والرجاء، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما. ثم ينجرّ ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والمجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه؛ فكل ذلك مقدّمات تطهير القلب وهو أحد ركثي المحبة. وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «الطهور شطر الإيمان» (1)، كما ذكرناه في أوّل كتاب الطهارة.

السبب الثاني: لقوة المحبة، قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وحلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني، ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة، وهي الكلمة الطببة التي ضرب الله بسها مشلاً حيث قبال: ﴿ مَرَبَ اللهُ مَثَلاً كِلَيهَ طَيّبَةٌ كَثَبَكرَةً طَيّبَةٍ أَصَلُها ثَايِثٌ وَوَعُها في ضرب الله بسها مشلاً حيث قبال: ﴿ مَرَبَ اللهُ مَثَلاً كِلَيهَ الْكِلْمُ النَّيْبُ إِللهِ المُعرفة وَكَالْحَام، وإنما المعرفة وَلَاتَمَلُ الصَّلِح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته، فلا يراد المعمل إلا لهذه المعرفة، وأما العمل بكيفية العمل فيراد للعمل، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر، وإنما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل، بكيفية العمل فيراد للعمل، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر، وإنما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة، وأمركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه، ومهما أحبه حصلت اللذة، فاللذة تبع المحبة بالضرورة، والمحبة بالضرورة، والمحبة بالفرورة، والمحبة المحبة بالفرورة، والمحبة بالفرورة، والمحبة بالمحبة بالمحبة بالمحبة بالفرورة، والمحبة بالفرورة، والمحبة بالفرورة، والمحبة بالفرورة، والمحبة بالمحبة بعد المحبة بالمحبة بالمحبة بالمحبة بعد المحبة بعد المحبة بعد المحبة بعد المحبة بعد المحبة بع

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى: الأقوياء: ويكون أوّل معرفتهم بالله تعالى، ثم به يعرفون غيره. وإلى الضعفاء: ويكون أوّل معرفتهم بالأفعال، ثم يترقون منها إلى الفاعل. وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُفِ رَوْكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءِ شَهِيدُ ﴾ [مُعتلت: ٣٠] وبقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ إِلّا هُو ﴾ [آل عِمرَان: ١٨] ومنه نظر بعضهم حيث قبل له: بم عرفت ربك؟ قال: عرفت ربي، ولولا ربي لما عرفت ربي، وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَدْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُونِ السَّمَونِ وَالْوَرْضِ وَمَا ﴾ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَوْقُ فِي مَلَكُونِ السَّمَونِ وَالْوَرْضِ وَمَا ﴾ [الاعراف: ١٨٥] وبقوله تعالى: ﴿ قُلُ الشَّمَونِ وَالْوَرْضِ ﴾ [يُونس: ١٠١] وبقوله تعالى: ﴿ اللهُمْ اللهُمْ مَلَكُونِ طِلْمَا وَهُو تعالى: ﴿ اللهُمْ مَلَكُونِ طِلْمَا مَلُونِ فَالْمَرْ عَلَى الشَّمَونِ وَالْمَرْضِ وَالْمَرْضِ وَالْمَرْضِ عَلَى السَّمَونِ عِلْمَا وَلَا اللهُمْ مَلْمُولِ ﴾ [الممللة على الأكثرين، وهو مَنْهُ اللهُمُرُ خَلِينًا وَهُو حَسِيرٌ ﴿ وَاللهُمْ اللهُمْ اللهُمْ والاعتبار، والنظر في آيات اللهوس على السالكين، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار، والنظر في آيات خارجة عن الحصر.

فإن قلت: كلا الطريقين مشكل، فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة.

فاعلم: أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض، والكلام فيه

الطهور شطر الإيمان، أخرجه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري، وقد تقدم.

خارج عن حدّ فهم أكثر الخلق، فلا فائدة في إيراده في الكتب، وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حدّ الأفهام؛ وإنما قصرت الأفهام عنه؛ لإعراضها عن التدبر، واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية؛ إذ ما من ذرّة من أعلى السَّمُوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته، ومنتهى جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى: ﴿فُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَكُّرُ بِدَادًا لِكَالِمَتِ رَقِ لَفِدَ أَلْبَصُرُ قَبْلُ أَن لَنَفَدَ كَلِمَتُ رَقِيهِ [الكهف: ١٠٩] فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة، ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجار ليقع التنبيه لجنسه فنقول: أسهل الطريقين: النظر إلى الأفعال فلنتكلم فيها ولنترك الأعلى، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ـ أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ـ فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص، فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض ماثة ونيفاً وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هو مركوزة فيه، فإنه لا نسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة، وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك. فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار، فقد قال رسول الله ﷺ: «الأَرْضُ فِي البَحْرِ كَالإِصْطَبْلِ فِي الأَرْضِ، (١١)، ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة، وعلم أن المكشوف في الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض، ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب ـ الذي هو جزء من الأرض ـ وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، ودع عنك جميع ذلك، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطوماً مثل خرطومه، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحه، وأخرج يده ورجله، وشق سمعه وبصره، ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دىره في سائر الحيوانات، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات، هذا في شكله وصفاته، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه، وعرَّفه أنْ غذاءه دم الإنسان، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان! وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدّد الرأس! وكيف هداه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها! ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم! وكيف علمه المص والتجرّع للدم! وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوّفاً حتى يجري فيه الدم الرقيق، وينتهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه! ثم كيف عرّفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته! وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد ـ وهي بعد بعيدة منه ـ فيترك المص ويهرب! ثم إذا سكنت اليد يعود! ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه. وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجمّان لصغره، وكانت الأجمّان

⁽١) حديث: الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض؛ لم أجد له أصلاً.

مصقلة لمرآة الحدقة عن القذي والغبار؛ خلق للبعوض والذباب يدين؛ فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه. وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأحفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر، وأطراقهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين، وتعين على الإبصار، وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار؛ فينظر من وراء شباك الأهداب، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار. وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان، وعلمها كيفية التصقيل باليدين، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لأنَّ بصره ضعيف فهي تطلب ضوء النهار، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل طنَّ أنه في بيت مظَّلم، وأنَّ السراج كوَّة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء، فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه، فإذا جاوزه ورأى الطلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق، ولعلك تظن أن هذا لنقصائها وجهلها، فاعلم: أنَّ جهل الإنسان أعطم من جهلها، بل صورة الآدمي في الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار؛ إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها، ولا يدري أنّ تحتها السم الناقع القاتل، فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً، فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال، والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة، ولذلك كان ينادي رسول الله ﷺ ويقول: ﴿إِنِّي مُمْسِكٌ بِحُجَرْكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ نَتَهَافَتُونَ فيها تَهَافُتَ الفَرَاشِ"(١٠)، فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأوّلون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته، ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته، فأما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى.

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره، فانظر إلى النحل وعجائبها، وكيف أوحى الله تعالى إلبها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل، وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شعاء، ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار، وطاعتها لواحد من جملتها؛ هو أكبرها شخصاً وهو أميرها، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها محتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة ملقضيت منها عجباً آخر العجب إن كنت بصيراً في نفسك، وفارغاً من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقوانك وموالاة إخوانك. ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدّس، فلا تبني بيتاً مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدّساً، لخاصية في الشكل المسدّس يقصر فهم المهندسين عن دركها، وهو أنّ أوسع الأشكال وأحواها: المستديرة وما يقرب منها، فإنّ المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإنّ الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من

⁽١) حديث: الني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيه تهافت الفراش، متفق عليه من حديث أبي هريرة: امثلي ومثل أمثي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه. لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله، ولمسلم من حديث جابر اوأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يديه.

المستدير، ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى اجتماعها فرجة إلا المسدس، وهذه خاصية هذا الشكل، فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفاً به وعناية بوجوده، وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه!

فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محفرات الحيوانات، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات، فإنّ القدر الذي ملغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى معلمه، بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله تعالى، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة، فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك، واستغرق العمر في الذكر النائم والفكر اللازم، فعساك تحظى منها بقدر يسير، ولكن تنال بذلك اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له.

بيان السبب في تفاوت الناس في الحب:

اعلم: أنَّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب الشتراكهم في أصل المحبة، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا؛ إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها، وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين، والمتخيلون هم الضالون، والعارفون بالحقائق هم المقرّبون. وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة في قوله تعالى: ﴿ فَأَنَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُغَرِّبِينُ ﴿ فَرَيُّ وَرَقِهَانٌ وَيَعَنُّتُ نَبِيدٍ ۞ ۚ [الواقِعَة: ٨٩،٨٨] الآية. فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالاً فنقول: أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي ـ رحمه الله ـ الفقهاء منهم والعوام، لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله، ولكن العامي يعرف علمه مجملاً والفقيه يعرفه مفصلاً، فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وحمه له أشدً، فإنَّ من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحمه لا محالة ومال إليه قلبه، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه، وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حباً، وكذا سائر الصناعات والفضائل. والعامي قد يسمع أنَّ فلانآً مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف؛ فيكون له معرفة مجملة ويكون له محسبه ميل مجمل، والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف. والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه، والعامي يعلم ذلك ويعتقده، وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه، حتى يرى في البعوض ـ مثلاً ـ من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله، ويتحير فيه لبه ويزداد بسببه ـ لا محالة ـ عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه فيزداد له حباً، وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعاً استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله، وازداد به معرفة وله حبًا. وبحر هذه المعرفة ـ أعني معرفة عجائب صنع الله تعالى ـ بحر لا ساحل له، فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لا حصر له، ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب، فإنّ من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه منعماً عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته؛ إذ تتغير بتغير الإحسان، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنعماء. وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه. فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة، والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِنَرُهُ آكَبُرُ مُنْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه:

اهلم: أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أوّل المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول، وترى الأمر بالضدّ من ذلك، فلا بدّ من بيان السبب فيه. وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال: وهو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلاً كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات، فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة؛ إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه؛ كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته. أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته، فما عليه إلا دليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح. ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا، وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة، وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته. والموجودات المدركة لا حصر لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس لها يشهد إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده؛ فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصوّر في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله؟ إذ كل ذرّة فإنها تنادي بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرِّك لها، يشهد بذلك أوَّلاً تركيب أعضائنا وائنلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وساثر أجزائنا الظاهرة والباطنة، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها، كما نعلم أنَّ يد الكاتب لم تتحرَّك بنفسها، ولكن لما لم يبتي في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه.

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان:

أحدهما: خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله.

والآخر: ما يتناهى وضوحه، وهذا كما أنّ الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره ولكن لشدّة ظهوره، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا ترى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره.

فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الطهور، فإنّ الأشياء تستبان بأضدادها، وما عم وجوده حتى إنه لا ضدّ له عسر إدراكه، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر. ومثاله، نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظنٌ أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما، فإنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض، فأما الضوء فلا تدركه وحده، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين، فعلمنا أنَّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور يعدمه، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور، هذا مع أنَّ النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضدَّه؟ فالله تعالى هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدَّت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين. ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدَّة الظهور خفاء، فهذا هو السبب في قصور الأفهام.

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره؛ يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله. وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له، فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها. ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزاً له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف، ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاح مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف، وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله، وعرفه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظراً إلا في الله ولا عارفاً إلا بالله ولا محباً إلا له، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبداً لله، فهذا الذي يقال فيه: إنه فني في الترحيد وإنه فني عن نفسه، من حيث نفسه بل من حيث إنه عبداً لله، فقذا الذي يقال فيه: إنه فني في الترحيد وإنه فني عن نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا قفنينا عنا فبقينا بلا نحن. فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر، الشكلت لضعف الأفهام عن دركها، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعارة مفهمة موصلة أشكلت لضعف الأفهام عن دركها، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعارة مفهمة موصلة

لنغرض إلى الأعهام، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم. فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله تعالى خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال: «سبحان الله» وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاه وسائر الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها، ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ثم انقشعت غشاوة عينه فامتذ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة، لخيف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من شهادة العجائب لخالقها.

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سدّ على الحلق سبيل الاستضاءة بالمعرفة والسباحة في بحارها الواسعة، فالناس في طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكباً لحماره وهو يطلب حماره، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة، فهذا سرهذا الأمر فليحقق. ولذلك قيل:

إلا عبلى أكتمه لا يتعترف التقتمرا فكينف يعرف من بالعرف قد سترا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى:

فيقيد ظيهبرت فيمنا تبخيفي عيليي أحيد ليكنن ينطينت يسمنا أظيهبرت منحشجيباً

اعلم: أنّ من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بدّ وأن ينكر حقيقة الشوق؛ إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب، ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى، وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار. أما الاعتبار: فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحب، فكل محبوب يشتاق إليه في غيبته لا محالة، فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر والموجود لا يطلب. ولكن بيانه أنّ الشوق لا يتصور إلا إلى شيء، أدرك من وجه ولم يدرك من وجه، فأما ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه، فإنّ من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه ولا يتصور أن يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق، ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وحه، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات.

فنقول مثلاً: من غاب عنه معشوقه وبقي هي قلبه خياله فيشناق إلى استكمال خياله بالرؤية، فلو المحمى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصوّر أن يشتاق إليه، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية، فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه.

والثاني: أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته، وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية، ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية؛ فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط. والوجهان جميعاً متصوران في حتى الله تعالى، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية ـ وإن كان في غاية الوضوح ـ فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات، فإنّ الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مكدرات للمعارف ومنغصات، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلي، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، وذلك بالضرورة يوجب الشوق، وهو استكمال الوضوح بالضرفين، فهذا أحد نوعي الشوق، وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحاً ما.

الثاني: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة. والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة الله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، قلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة.

والشوق الأول: ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا. وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال: قلت ذات يوم: يا رب إن أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضر بي القلق، قال: فرأيت في النوم أنه أوقمني بين يديه وقال: يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيه؟ فقلت: يا رب تهت في حبك فلم أدر ما أقول، فاغفر لي وعلمني ما أقول، فقال: قل: اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك. فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة.

وأما الشوق الثاني: فيشبه: أن لا يكون له نهاية لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لا نهاية له. ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة، إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال، فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم، ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشفُّ والنظر متوالية إلى غير نهاية، فلا يزال النعيم واللذة متزايداً أبد الآباد، وتكون لذة ما يتجدّد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى ما لم يحصل، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلاً، فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفاً على حدَّ لا يتضاعف ولكن يكون مستمرًا على الدوام. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُورُكُمْ يَسْنَىٰ بَيْنَ ۚ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْدَئِهِمْ بَقُولُونَ رَبَّنَا ۖ أَتَّهِمْ لَىا نُورَكَ﴾ [التّخريم: ٨] محتمل لهذا المعنى. وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزوّد من الدنيا أصل النور، ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق، فيكون هو المراد بتمامه. وقوله تعالى: ﴿الطُّرُونَا نَفْيَشْ مِن تُوكِمُ فِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْقِيمُوا تُرَّاكُ [الحديد ١٣] يدل على أنَّ الأنوار لا بدَّ وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزداد في الآخرة إشراقاً، فأما أن يتجدُّد نور فلا، والحكم في هذا برجم الظنون مخطر، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً ويرينا الحق حقاً. فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى، فمما اشتهر من دعاء رسول الله أنه كان يقول: «اللّهُمُ إِنِي أَسْأَلُكَ الرّضَا يَعْدَ القَضَاءِ وَبَرْدَ المَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ وَلَدْةَ النّظْرِ إِلَى وَجُهِكَ الكَرِيمِ وَالشّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ الْمَالِ اللهِ الدرداء لكعب: أخبرني عن أخص آية _ يعني في التوراة _ فقال: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وإني إلى لقائهم لأشد شوقاً. قال: ومكتوب إلى جانبها: من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله علي يقول هذا. وفي أخبار داود عليه السلام: إنّ الله تعالى قال: يا داود، أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدّمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومصاحبتي ومجالستي، وانتسوا فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وانتسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طيئة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجبي ومحمد صفبي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي.

وروي عن بعض السلف: أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين: إن لي عباداً من عبادي يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، فإن حلوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك، قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند العروب، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليَّ أقدامهم، وافترشوا إلي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوا إلى بإنعامي، فبين صارخ وباك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أحبر عنهم، والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيها من موازينهم لاستقللتها لهم. والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، فترى من أقبلت عليه بعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى أوحى إليه: يا داود، إلى كم تذكر الجهة ولا تسألني الشوق إليّ، قال: يا رب من المشتاقون إليك؟ قال: إن المشتاقين إليّ الذين صفيتهم من كل كدر، ونهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إلي خرقاً ينظرون إلي، وإني لأحمل قلوبهم بيدي وأضعها على سمائي، ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول: إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي، وأباهي بكم أهل الشوق إلي؛ فإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض، يا داود، إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ونعمتها بنور وجهي فاتخذتهم لنفسي محدّثي، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلي يزدادون في كل يوم شوقاً، قال داود: يا رب أرنى أهل محتك، فقال:

 ⁽۱) حديث: أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت. . . » الحديث. أخرجه أحمد والحاكم وتقدم في الدعوات.

يا داود، ائت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول، فإذا أتيتهم فأقرئهم منى السلام وقل لهم: إن ربكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألون حاجة فإنكم أحباثي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عرَّ وجلَّ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرَّقوا عنه، فقال داود: إنى رسول الله إليكم، جنتكم لأبلغكم رسالة ربكم، فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: إني رسول الله إليكم، جئتكم يقرئكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم فإنكم أحبائي وأصفيائي وأوليائي أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة؟ قال: فجرت الدموع على خدودهم، فقال شيخهم: سبحانك سبحانك محن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك، فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك. وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجتري، على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتمم بذلك المنة علينا. وقال الآخر: نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بجودك. وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننت علينا بالتفكر في عظمتك، أفيجتريء على الكلام من هو مشتعل بعظمتك متفكر في جلالك؟ وطلبتنا الدنو من نورك. وقال الآخر: كلت ألسنتنا من دعائك لعظم شأنك، وقريك من أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك. وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرّغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك. وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا؛ إنما هي النظر إلى وجهك. وقال الآخر. كيف يجترىء العبد على سيده؟ إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهب لنا نوراً نهتدى به في الظلمات من أطباق السموات، وقال آخر: ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا. وقال الآحر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا. وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك. وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآحرة. وقال الآخر: قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك، فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك. فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم: قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سرباً فإنى كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي. فقال داود: يا رب، بم نالوا هذا منك؟ قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها، والخلوات بي ومناجاتهم لي، وإنَّ هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها، وفرّغ قلبه لي، واحتارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبيته حتى ينظر إليَّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتي في كل ساعة، وأقرّبه من نور وجهي، إن مرض مرّضته كما تمرّض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم وأما أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقي لا يري غيري ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه، وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمم بذكري، أباهي به ملائكتي وأهل سمواتي يزداد خوفاً وعبادة، وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنه في الفردوس، ولأشفين صدره من النظر إلىَّ حتى يرضي وفوق الرضا. وفي أخبار داود أيضاً: قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضركم إذا احتجبت عن خلقي، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليَّ بعيون قلوبكم، وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائي.

في أخبار داود أيضاً: إن الله تعالى أوحي إليه: تزعم أنك تحبني، فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك فإنَ حبى وحبها لا يجتمعان في قلب. يا داود خالص حبيبي مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال، أما ما استبان لك مما وافق محبثي فتمسك به، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقاً على أني أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكن قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني وأعيـك على الشدائد، وإني قد حلفت على نفسي أني لا أثيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته و رادته إلفاء كنفه بين يدي وأنه لا عني به عني، فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك وأسكن الغنى قلبك، فإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها، أضف الأشياء إلي لا تضاد عملك فتكون متعنياً ولا ينتفع بك من يصحيك ولا تجد لمعرفتي حدّاً فليس ُهَا غَاية، ومتى طلبت مني الزيادة أعطك ولا تجد للزيادة مني حدّاً، ثم أعلم بني إسرائيل: أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ضعني بين عينيك وانظر إلي ببصر قلبك، ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عني فأمرجوها وسخت بانقطاع ثوابي عنها؛ فإني حلفت بعزتي وجلالي لا أفتح ثواسي نعبد دخل في طاعني للتجربة والتسويف، تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها. يا داود: لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيداً، ومن كتبته عندي جهيداً لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين. يا داود: تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فأحجب عنك محنتي لا تؤيس عبادي من رحمتي، اقطع شهوتك لي فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تىقص حلاوة مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني فإي لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها. يا داود: لا تجعل بيني وبينك عالماً يحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم، وزياك والتجربة في الإفطار فإنّ محبتي للصوم إدمانه. يا داود: تحبب إلي بمعاداة نفسك امنعها الشهوات أنطر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة، إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت عليك به، وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي.

وأوحى الله تعالى إلى داود: يا داود، لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبليس عليّ. يا داود: أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلى. فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق.

بيان محبة الله للعبد ومعناها:

اعلم: أنَّ شواهد القرآن متظاهرة على أنَّ الله تعالى يحب عبده فلا بدَّ من معرفة معنى ذلك، ولنقدم

الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى: ﴿ عُيُّهُمْ وَيُحِيُّهُمْ وَيُعُونُهُ وَالمَاتِدة ٤٠] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ التَّوَيِنَ وَيُحِبُّ الْسَلَقِينَ ﴾ [المَتَدة ٤٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ يُحِبُ النَّوَيِنَ وَيُحِبُ الْسَلَقِينَ ﴾ [المَتَدة ٢٢١] وقد روى ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال: ﴿ وَتُلَ فَلِمَ يُعَلِّمُ مِنْ النَّائِينِ مِنَ النَّنْ النَّنْ عِنْ اللَّهُ عَلَى اللهُ تَعَالَى عَبْداً لَمْ يَشُرُهُ ذَنْبٌ وَالنَّاقِبُ مِنَ النَّنْ النَّنْ عَمَنَ لا ذَنْبَ لَهُ مُم تلا: ﴿ إِنَّ التَّوْمِينَ ﴾ [البَقرَة: ٢٧٧] (١٠ ومعناه: إنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال: ﴿ وَنْ اللّهُ تَعَالَى يُعْطِي الثَّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُ وَمَنْ لا يُحِبُ وَلا يُمْطِي الإيمَانَ إلا مَنْ يُحِبُ (١٠) وقال رسول الله ﷺ: ﴿ إِنْ اللّهُ تَعَالَى يُعْطِي الثَّنْيَا مَنْ يُحِبُ وَمَنْ لا يُحِبُ وَلا يُمْطِي الإيمَانَ إلا مَنْ يُحِبُ (١٠) وقال رسول الله ﷺ: ﴿ إِنْ اللّهُ تَعَالَى يُعْطِي الثَّنْيَا مَنْ يُحِبُ وَمَنْ لا يُحِبُ وَلا يُمْطِي الإيمَانَ إلا مَنْ يُحِبُ (١٠) وقال وقال مليه السلام: ﴿ قَالَ اللّهُ تَعَالَى يُعْطِي الْمُؤْلُقِ يَقَرُبُ إِلَيْ بِالنَّوْافِلِ حَتَّى أُجِبَّةُ فَإِذَا أَحْبَيْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وقال عليه السلام: ﴿ قَالَ اللّهُ تَعَالَى: لا يَرَالُ الْمَبُدُ يَتَقَرْبُ إِلَيْ بِالنَّوْافِلِ حَتَّى أُجِبَّةُ فَإِذَا أَحْبَيْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وقال عَلَى الله المحبة خارج عن الحصر . وقال زيد بن أسلم: إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه أن يقول: اعمل ما شتت فقد غفرت لك. وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر .

وقد ذكرنا: أنّ محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز؛ إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط. وقد بينا أنّ الإحسان موافق للنفس، والجمال موافق أيضاً، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر، وتارة يدرك بالبصيرة، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر.

فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسامي كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنظأت عليهما بمعنى واحد أصلاً، حتى إن اسم «الوجود» ـ الذي هو أعم الأسماء اشتراكاً ـ لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد، بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع. وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نطيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم؛ إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر، ولبس كذلك اسم الوجود لله أحدهما لأن يكون فيه أصلاً، فليست الجسمية لأحدهما ما والإرادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق، وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق، وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامي أولاً للخلق؛ فإنّ الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق، فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوّز والتقل، والمحبة في وضع اللسان،

 ⁽١) حديث أنس: الذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده في مسنده، وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود، وتقدم في التوبة.

 ⁽۲) حديث: إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب...» الحديث. أخرجه الحاكم وصحح إسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود.

 ⁽٣) حديث: (من تواضع فه رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله: (ومن أكثر... إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة، وفيه ابن لهيعة.

⁽٤) حديث: قال الله تعالى: لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. . ٤ الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالاً فتلتذ بنيله، وهذا محال على الله تعالى، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبداً وأزلاً، ولا يتصور تجدّه ولا زواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط، وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرىء عليه قوله تعالى: ﴿ يُجُبُّهُم المُومُومُ المائمة والله الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرىء عليه قوله تعالى: ويجبُهُم ويُومُومُ المائدة: ١٥٤ فقال: بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه، على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره، فمن لا يحب إلا بعسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذن لا يحب إلا نفسه، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤوّل ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أضيف مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى: *لا يزال عبدي يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبه فيكون تقرّبه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع تعالى: *لا يزال عبدي يتقرّب إلى بالنوافل حتى أحبه فيكون تقرّبه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حيه.

ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرّب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيىء أسباب طعامه وشرابه، فيقال: إن الملك يحبه، ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له. وقد يقرب عبداً ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق المرضية، والخصال المحميلة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظ من قربه، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال: قد أحبه، وإذا اكتسب من المخصال المحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال: قد توصل وحبب نفسه إلى الملك. فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك يكون بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدّد القرب، فإنّ الحبيب هو القريب من الله تعالى، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية، فهو قرب بالصفة لا بالمكان، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير، قربما يظن بهذا أن القرب لما تجدّد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً؛ إذ صار قريباً بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى؛ إذ التغير عليه محال، بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال.

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر، بل القرب في الصفات أيضاً كذلك، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله، والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرّك بالنزول إلى درجة تلميذه، والتلميذ متحرّك مترق من حضيض الحهل إلى ارتفاع العلم، فلا يزال دائباً في التغير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه، والأستاذ ثابت غير منغير، فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب، فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشيطان وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشيطان وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من بحقائق الأمور وأثبت قوّة في قهر الشيطان وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل على درجة الكمال، ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله، نعم، قد يقدر التلميذ على

القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال، فإنه لا نهاية لكماله، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي إلا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتهاء النهاية عن ذلك الكمال.

فإذن: محبة الله للعبد: تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه.

وأما محبة العبد لله: فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه فاقد له، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته، وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

قإن قلت: محبة الله للعبد أمر ملتبس قبم يعرف العبد أنه حبيب الله؟ فأقول: يستدل عليه بعلاماته. وقد قال على الله عبداً أبتلاه فإذا أحبه العبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره. قبل لعبسى عليه السلام: لم لا تشتري حماراً فتركبه؟ فقال: أنا أعز على الله تعالى من أن يشخلني عن نفسه لعبسى عليه السلام: لم لا تشتري حماراً فتركبه؟ فقال: أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار، وفي الخبر: «إذا أحب الله تَعَالَى عَبْداً ابْتَلاهُ فإنْ صَبِرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ (٢). وقال بعض العلماء: إذا رأبتك تحبه ورأبته يبتليك؛ فاعلم: أنه يريد أن يصافيك، وقال بعض المريدين لأستاذه: قد طولعت بشيء من المحبة فقال: يا نني، هل ائتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه؟ قال: لا، قال: فلا تطمع في المحبة؛ فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه، وقد قال رسول الله على: "إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً بصره بعيوب تفسه (٤). وأخص علاماته: حبه لله تعالى؛ فإن ذلك يدل على حب الله تعالى له.

وأما الفعل الدال على كونه محبوباً: فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره ا فيكون هو المشير عليه والمدبر لأمره والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه والمسدّد لظاهره وباطنه، والجاعل همومه هما واحداً، والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره، والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله تعالى فإنها أيضاً من علامات حب الله تعالى للعبد.

القول في علامات محبة العبد لله تعالى:

اعلم: أنَّ المحبة يدَّعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهيس

 ⁽١) حديث: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه...) الحديث. أخرجه الطرائي من حديث أبي عتبة الخولاني، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: ٩إذا أحب الله عبداً ابتلاه قإن صبر اجتباه...) الحديث. ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب، ولم يخرجه ولده في مستده.

 ⁽٣) حديث: •إذا أحب الله حبداً جعل له واعظاً من نفسه . . . • الحديث ، أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ: •إذا أراد الله يعبد خبراً .

⁽٤) حديث: ﴿إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعِيدُ حَيِراً بِصِرهُ بِعِيوبِ نَفْسَهُا أَخْرِجِهُ أَبُو مَنْصُورَ الديلمي في مستد الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف.

والأدلة. والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار وهي كثيرة.

فمنها: حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهلة في دار السلام، فلا يتصوّر أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفاوقتها بالموت؟ فينبغي أن يكون محبًّا للموت غير فارّ منه، فإنّ المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المشاهدة. قال ﷺ: ﴿مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ١٠٠ . وقال حذيفة عند الموت: حبيب حاء على فافة لا أفلح من ندم. وقال بعض السلف: ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود، فقدّم حب لقاء الله على السجود. وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله، حيث قالوا: إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيبلِهِ. صَفًّا﴾ [الصَّف: ٤] وقال عزّ وجلّ : ﴿ يُقْدَنِلُوكَ فِي سَبِيبلِ ٱللَّهِ فَيَقْـنُلُونَ وَيُفْـنَلُونَ ۖ﴾ [النّويَة: ١١١]. وفي وصية أسي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما: الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء، والباطل خفيف وهو مع خفته وبيء، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من المُّوت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي سم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه. ويروى عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدَّثني أبي أنَّ عبدالله بن جحش قال له يوم أحُد: ألا ندعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال: يا رب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حَرَده، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني ويبقر بطني، فإذا لقيتك غداً قلت: با عبدالله من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك يا رب وفي رسولك، فتقول: صدقت. قال سعد: فلقد رأيته آخر النهار وإنَّ أنفه وأذنه لمعلقتان في خيط^(٧). قال سعيد بن المسيب: أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبر أوّله. وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان: لا يكره الموت إلا مريب، لأنَّ الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه. وقال البويطي لمعض الزهاد: أتحب الموت؟ فكأنه توقف فقال: لو كنت صادقاً لأحببته، وتلا قوله تِعالَى: ﴿فَتَمَنُّوا ٱلْمُؤْتَ إِن كُنُّمْ صَدِيْتِكَ﴾ [البَّقَرَة ٩٤] فقال الرجل: فقد قال النبي ﷺ: ﴿لا يَتَمَنَّيْنَ أَحَدُكُمُ المَوْتَ^{»(٣)}، فقال: إنما قاله لضر نزل به؛ لأنَّ الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه.

فإن قلت: من لا يحب الموت فهل يتصوّر أن يكون محباً لله؟ فأقول: كراهة الموت قد تكون لحب الله تعالى؛ لأنّ الحب المنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد، وهذا ينافي كمال حب الله تعالى؛ لأنّ الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من

 ⁽١) حديث: (من أحب ثقاء الله أحب الله لقاءها متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة.

⁽٢) حديث اسحاق بن سعد بن أبي وقاص قال: حدثني أبي أن عبدالله بن جحش قال له يرم أحد: ألا مدعو الله؟ فخلوا في ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال: يا رب، إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غداً فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجدع أنهي وأذني . . . الحديث. أخرجه الطبراني، ومن طريقه أبو بعيم في الحلية وإسناده جيد.

⁽٣) حديث: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به. . . ١ الحديث. متفق عليه من حديث أس، وقد تقدم.

حب الله تعالى ضعيفة، فإنّ الناس متفاوتون في الحب. ويدل على التفاوت ما روي: أن أبا حذيفة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا: أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى؟ فقال: والله لقد أنكحته إياها وإني لأعلم أنه خبر منها، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله، فقالوا: وكيف وهي أختك وهو مولاك؟ فقال: سمعت رسول الله على يقول: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْظُرُ إِلَى سَالِم،" . فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضاً غيره، فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه لها.

وأما السبب الثاني للكراهة: فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب، وهو كالمحب الذي وصله المخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا، وعلامته الدؤوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرّباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبومه، وقد وصف الله تعالى المحبيين بالإيشار فقال: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَكَةً يَمّا أُوثُوا وَيُؤْمُرُونَ عَلَى المحبين بالإيشار فقال: ﴿ يُحِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَكَةً يَمّا أُوثُوا وَيُؤْمُرُونَ عَلَى المحبيم وَلَق كَانَ يَهِمْ خَصَاصَةً ﴾ [الخشر: ٩] ومن بقي مستقراً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه، بل يترك المحب هوى نفسه كما قبل:

أربعة وصالحه ويسريسد هسجسري فأتسرك مسا أريعد لسمسا يسريسة

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب، كما روى: أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوّفت به إلى النهار وقالت: يا يوسف، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلاً، حتى قال لها: إن الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين، فقالت: أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقاً إليه فطاعة لأمر الله تعالى، فعندها سكنت إليه، فإذن من أحب الله لا يعصيه، ولذلك قال ابن المبارك فيه:

تعسي الألب وأنب تنظيهر حبب هنذا لنعيمري في النفيعال بنديع لنو كنان حبيك صيادقاً لأطبعيت إن التصحب لنمين ينحب منظيم

⁽١) حديث أبي حذيمة بن عتبة: أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك. وفيه: فقال سمعت رسول الله عليه يقول: امن أراد أن ينظر إلى رجل يحب بكل قلبه فلينظر إلى سالمه لم أره من حديث حذيفة. وروى أبو نعيم في الحلية المرفوع منه من حديث عمر: •أن سالماً يحب الله حقاً من قلبه وفي رواية له: •أن سالماً شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما حصاه ونيه عبدالله بن لهيعة.

وفي هذا المعنى قيل أيضاً:

وأتسرُك مسا أهبوي لسمسا قسد هسويستسه فأرضى بلما ترضى وإن سَخِطَتْ نَفْسي

وقال سهل رحمه الله تعالى: علامة الحب إيثاره على نفسك، وليس كل من عمل بطاعة الله عزّ وجلّ صار حبيباً، وإنما الحبيب من اجتنب المناهي. وهو كما قال، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى: ﴿ يُعَبُّونَهُ ﴾ [المَائدة: ٤٥]، وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه، وإنما عدوّه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته. ولذلك قال تعالى: ﴿ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعَدَآبِكُمُ وَكُفَىٰ بِاللّهِ وَلِيهِ اللّهِ وَلا يكله إلى هواه وشهواته. ولذلك قال تعالى: ﴿ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعَدَآبِكُمُ وَكُفَىٰ بِاللّهِ وَلِيهِ اللّهِ وَلا يكله إلى هواه وشهواته.

فإن قلت: فالعصبان هل يضاد أصل المحبة؟.

فأقول: إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره؟ وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه. ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة. ويدل عليه ما روي: أنّ نعيمان كان يؤتى به رسول الله على كل قليل فيحدّه في معصية يرتكبها إلى أن أتي به يوماً فحدّه، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به رسول الله على فقال على فقال على في العبر الله وقال المعصية عن كمال الحب. وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان بالمعصية عن المحبة. نعم، تخرجه المعصية عن كمال الحب. وقد قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حباً متوسطاً، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي، وبالجملة: في دعوى المحبة خطر، ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك أتحب الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت. فاسكت، فإنك إن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت. ولقد قال بعض العلماء: ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشدً من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك.

 ⁽١) حديث: أتي بنعيمان يوماً فحده فلعنه رجل قال. ما أكثر ما يؤتى به؟ فقال: ﴿لا تلمنه فإنه يحب الله ورسوله، أخرجه
البحاري، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: «أحبوا الله لما يغلوكم به من نعمه. . ٤ الحديث، تقدم.

فإنما أحب الله، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله. وحكي عن بعض المريدين قال: كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلاً ونهاراً، ثم لحقتني فترة فانقطعت عن التلاوة قال: فسمعت قائلاً يقول في المنام: إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي، أما تدبرت ما فيه من نطيف عتابي، قال: فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالي. وقال ابن مسعود: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله. وقال سهل وحمة الله تعالى عليه عن علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب النبي على حب السئة، وعلامة القرآن، وعلامة حب الآخرة، وعلامة حب النبي الخذ منها إلا زاداً على الآخرة، وعلامة إلى الآخرة،

ومنها: أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد ويغتنم هد، الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته، فمن كان النوم والاشتغال بالحدّيث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته؟ قيل لإبراهيم بن أدهم ـ وقد نزل من الجبل ـ: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله. وفي أخبار داود عليه السلام: لا تستأنس إلى أحد من خلقي، فإني إنما أقطع عني رجلين؛ رجلاً استبطأ ثوابي فانقطع، ورجلاً نسيني فرصى بحاله، وعلامة ذلك: أن أُكِلَهُ إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشاً من الله تعالى ساقطاً عن درجة محبته. وفي قصة برخ .. وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام ـ أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: إنّ برَّخاً نعم العبد هو لي إلا أنّ فيه عيباً، قال: يا رب وما عيبه؟ قال: يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء. وروي: أنَّ عابداً عبد الله تعالى في غيضة دهراً طويلاً فنظر إلى طائر وقد عشش َّفي سُجرة يأوي إليها ويصفر عندها، فقال: لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال: ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: قل لفلان العابد: استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً. فإذن: علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به، وكمال الاستبحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن للة المناجاة. وعلامة الأنس: مصير العقل والفهم كله مستغرقاً بللة المناجاة، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه، وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشعر به، ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرّة عينه يدفع بها جميع الهموم، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرّر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه. فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَهِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرٍ ٱللَّهِ أَلَا بِنِكِرٍ ٱللَّهِ نَطْمَعٍنُّ ٱلْمُثْلُوثُ ﴿ ﴾ [الزعد: ٢٨] قالُّ: هشت إليه واستأنست به. وقالَ الصدّيق رضّي الله تعالى عنّه: من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال مطرف بن أبي بكر: المحب لا يسأم من حديث حبيبه، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قد كذب من ادّعى محبتي إذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه، فها أنا ذا موجود لمن طلبني. وقال موسى عليه السلام: يا رب، أين أنت فأقصدك؟ فقال الذا قصدت فقد وصلت. وقال يحيى بن معاذ: من أحب الله أبغض نفسه. وقال أيضاً: من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب؛ يؤثر كلام الله تعالى على خلام الله تعالى على كلام الخلق، والعبادة على خدمة الخلق.

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عزّ وجلّ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة. قال بعض العارفين: إنّ لله عباداً أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاماً، وما شاء كان، فما كان لهم فهو واصل إليهم، وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم. وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته: أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب، ويسأله ويقول: رب، بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك، وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة، وتكون هفوته سبباً لتجدد ذكره وصفاء قلبه. ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف ولم يشك، واستقبل الكل بالرضا، وعلم أن المحبوب لم يقدّر له إلا ما فيه خيرته، ويذكر قوله: ﴿وَعَكَنَ يَشُونُ خَيْرٌ لَهُ وَلَهُ وَلَهُ النَّرَهُ وَاللَّهُ وَلَّهُ وَاللَّهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَهُ وَاللَّهُ وَلَهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّمُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّهُ وَلَّ اللَّهُ وَلَهُ وَلَهُ وَلَا اللَّهُ وَلَهُ وَلَّهُ وَلَهُ وَلَّ اللَّهُ وَلَّهُ وَلَّمُ وَلَّهُ وَلَهُ وَلَا مَلْ وَلَّهُ وَلَا لَاللَّهُ وَلَّا اللَّهُ وَلَّهُ وَلَهُ وَلَّهُ وَلَّكُ وَلَّهُ وَلَّا ف

ومنها: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعست به عشرين سنة. وقال الجنيد: علامة المحب: دوام النشاط والدؤوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه. وقال بعضهم: العمل على المحبة لا يدخله الفتور. وقال بعض العلماء: والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل. فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات، فإن العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقاً على بدنه، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتعل به، فهكذا يكون حب الله تعالى، فإن كل حب صار غالباً قهر لا محالة ما هو دونه، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خلمته، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه. وقيل لبعض المحبين ـ وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ـ: ما كان سبب حالك هذه في المحبة؟ فقال: سمعت يوماً محباً وقد خلا بمحبوبه وهو يقول: أنا والله أحبك بقلبي كله، وأنت معرض عني بوجهك كله، فقال له المحبوب: إن كنت تحبني فأيش تنفق علي؟ قال: يا سيدي أُمَلكُكَ ما أملِكُ، ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك، فقلت: هذا خلق لخلق وعبد لعبد، فكيف بعبيد لمعبود؟ فكل هذا بسبه.

ومنها: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحيماً بهم، شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى: ﴿ أَشِدَانُهُ عَلَى اَلْكُفّارِ رُحَمانُهُ بَيْنَهُم ﴾ [الفنح: ٢٩]، ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف، ويه وصف الله أولياءه إذ قال: الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء؛ ويأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره، ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد؛ فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا، فانظر إلى هذا المثال، فإنّ الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلاً، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه، فإن نام أخذه معه في ثيابه، فإذا انتبه عاد وتمسك به، ومهما فارقه بكي ومهما وجده ضحك، ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه. وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه، فهذه علامات المحبة، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه؛ فصفا في الآخرة شرابه علام مشربه، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه؛ إذ يمزج شرابه بقدر من شراب

المقرّبين، كما قال تعالي في الأبرار: ﴿ إِنَّ أَلاَّتُرَارَ لَنِي نَبِيعِ ۞ [الانفِطار: ١٣] ثم قال: ﴿ يُسْفَرِّنَ بِن رَّحِيقٍ مَّختُومٍ ۞ خِتَنْمُمُ مِسْكُنَّ وَفِي ذَلِكَ مُلْيَتَنَافِس ٱلْمُنَنَفِسُونَ ۞ وَمِرَاجُمُو مِن تَسْنِيمٍ ۞ حَيْنَا يُشْرَبُ بِهَا ٱلْمُغَرِّئُونَ ۞﴾ [العطفين: ٢٥-٢٨] فإذا طاب شراب الأبرار لشرب الشراب الصرف الذي هو للمقرّبين. والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال: ﴿ إِنَّ كِنْكُ ٱلأَبْرَارِ لَفِي عِلْتِينَ﴾ (المطفين: ١٨) ثم قال: ﴿ يَثْهَدُهُ المُنْهُونَ ١٨﴾ [المطفين: ٢١] فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقرَّبون، وكما أنَّ الأبرار يجدون المزيد في حالهم ومعرِفتهم بقربهم من المقرّبين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالهم في الآخرة: ﴿ مَّا خَلْتُكُمُّ وَلَا بَشَّتُكُمْ إِلَّا كُنَّفُونَ وُحِدَةً ﴾ القنان: ٢٨]. ﴿ كَمَّا بَدَأَنُاۚ أَوَّلَ حَمَانِي نَّمِيدُوُّ ۗ [الانسيّاء: ١٠٤] وكسما قبال تبعالى: ﴿جَزَآهُ وِفَاقًا ١٠٤﴾ [النبيا: ٢٦] أي وافيق أعمالهم، فقويل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب. وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله: ﴿ فَكُن يَعْمَلُ مِثْقَكَالَ ذَرَّةٍ حَبْرًا يَدَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلُ مِثْقَكَالَ ذَرَّةٍ شَسَرًا يَسَرُهُ ۞﴾ [الزّلزَلة. ١٨٠٧ ـ ﴿ إِنَ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يِقَوْمِ حَتَّى يُقَرِّدُواْ مَا بِأَنْسِيمِهُ [الرّعد: ١١] ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَطْلِمُ مِثْقَالَ دَّرَقُرُ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَنَّوفَهَ﴾ [الـنَّـــاء: ٤٠] ـ ﴿ وَلِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَسَتُم مِنْ خَرْدُلٍ أَلَيْنَا بِهَأَ وَكُفَنَ بِنَا حَسِبِينَ﴾ [الانتياء: ٤٧] فمن كان حبه في الدنيا رجاءه لنعيم الجنة والحور العين والقصور؛ مكن من الجنة ليتبوَّأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان؛ فهناك تنتهي لذته في الآخرة، لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه. ومن كان مقصده رَّب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق، أنزل: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكِ مُّقْنَدِدٍ ﴿ ﴿ وَالنَّمَر. ٥٠] فالأبرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان. والمقرّبون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها، يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرّة منها، فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشِغُولُونَ، وَلَلْمُجَالِسَةَ أَقُوامُ آخَرُونَ، وَلَذَلَكَ قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَكْثَرُ أَهْلَ الْجَنَّةِ البُّلْهُ وَعَلْمُونَ لِلْوِي الألْبَابِ (١١)، ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال: ﴿ وَمَا أَدَّرَكَ مَا عِلْيُونَ ﴿ [المطنَّفِين: 19] كما قال تعالى: ﴿ ٱلْفَــَارِعَةٌ ۞ مَا ٱلْفَارِعَةُ ۞ وَمَا ۚ أَذْرَبُكَ مَا ٱلْفَارِعَةُ ۞﴾ [القارعَةُ: ١-٣].

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وقد يظنّ أنّ الخوف يضاد الحب وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أنّ إدراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض، فأوّلها خوف الإعراض، وأشدّ منه خوف الحجاب، وأشدّ منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى في سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين (٢) إذ سمع قوله تعالى: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِتَسُودَ﴾ [هُود: ١٦] ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَانَى كَمَا بَوَدَتْ تَسُودُ﴾ [هُود: ١٥] وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به، فحديث البعد في حق المبعدين يشبب سماعه أهل القرب في القرب، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد، ولا يبكي لخوف البعد من لم يشبب سماعه أهل القرب، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فإنا قدّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها، يمكن من بساط القرب، ثم خوف الوقوف وسلب المزيد، فإنا قدّمنا أن درجات القرب لا نهاية لها، وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قرباً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَن اسْتَوَى يَوْماهُ

 ⁽١) حديث: «أكثر أهل اللجنة البله وعليون للوي الألباب» أخرجه اليزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصراً على الشطر الأول، وقد تقدم، والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الحواري ولعله أدرج فيه.

⁽٣) حديث: اشببتني هودة أخرجه الترمذي، وقد تقدم غير مرة.

فَهُوَ مَغْبُونٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ (١) وكذلك قال عليه السلام: "إلله لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهُ سَبْعِينَ مَرَّةً (٢) ، وإنما كان استغفاره من القدم الأوّل فإنه كان بعداً بالإضافة إلى القدم الثاني، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب، كما روي أنّ الله تعالى يقول: إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي، فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرّد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادىء اللطف، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته. سمع إبراهيم بن أدهم قائلاً يقول ـ وهو في سياحة وكان على الجبل _:

كــــل شـــيء مـــنـــك مـــغـــفــو رســــوى الإعـــــراض عـــــنـــا تــــد وهــــبـــنـــالـــك مـــا فـــا ت فــهـــب لـــنــا مــا فــات مــنــا

فاضطرب وغشي عليه، فلم يفق يوماً وليلة، وطرأت عليه أحوال ثم قال: سمعت النداء من الجبل؛ يا إبراهيم كن عبداً. فكنت عبداً واسترحت.

ثم خوف السلو عنه، فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد، ولا يتسلى إلا بلطف جديد، فإن تسلى عن ذلك كان دلك سبب وقوفه أو سبب رجعته. والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوَّة البشر الاطلاع عليها، فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء، ويغتر بحسن النظر أو يغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان، وكما أنَّ من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب؛ وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة، فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء، وذلك من مقدّمات المكر والشقاء والحرمان. ثم خوف الاستبدال به، فانتقال القلب من حبه إلى حب غيره، وذلك هو المقت، والسلو عنه مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب مقدمة السلو، وضيق الصدر بالبر، وانقباضه عن دوام الذكر، وملاله لوظائف الأوراد، أسباب هذه المعاني ومقدماتها. وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت ـ نعوذ بالله منه ـ، وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب، فإنَّ من أحب شيئاً خاف لا محالة فقده، قلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته. وقد قال بعض العارفين: من عبد الله تعالى بمحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحب الله تعالى فقرّبه ومكنه وعلمه، فالمحب لا يخلو عن خوف، والخائف لا يخلو عن

حديث: امن استوى يوماه قهو مقبون ومن كان يومه شراً من أمسه قهو ملمون؛ لا أعلم هذا إلا في منام لعبد
العزيز بن أبي رواد قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله، أوصني، فقال ذلك بريادة في آخره، رواه
البيهقي في الزهد.

⁽٢) حديث: (إنه ليغان على قلبي، متفق عليه من حديث الأغر، وقد تقدم.

محمة، ولكن الذي غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال: هو في مقام المحبة ويعد من المحبين، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب. فقد روي مي بعض الأخبار: أنّ بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته، ففعل ذلك، فهام في الجبال وحار عقله ووله قلبه، وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه تعالى فقال: يا رب، أنقصه من الذرة بعضها، فأوحى الله تعالى إليه، إنما أعطيناه جزءاً من مائة ألف جزء من المعرفة، وذلك أنّ مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألني هذا، فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أطيته، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من دلك، فقال: سبحانك، من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن، وصار كسائر من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن، وصار كسائر العارفين، وقد قبل في وصف حال العارف:

قسريب السوجة ذو مسرمي بسعيد غسريب السوصة ذو عسلم غسريب لسقد عسزت مسعسانسيسه وجسلست يسرى الأعسيساد فسي الأوقسات تسجسري ولسلاحسبساب أفسراح بسعسيسد

عن الأحسرار مستهم والمعسبية كسأن فسؤاده زبسر السحسديسة عسن الأبسمسار إلا لسلسههيسة لسه فسي كسل يسوم ألسف عسيسة ولا يسجسد السسرور لسه بسعسيسة

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتاً يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره. وهي هذه الأبيات:

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم عراصاً بقرب الله في ظل قدسه مواردهم فيها على العز والنهى تروح بسعيز منفرد من صنفاته ومن بسعيد هنذا ما تنق صنفاته سأكتم من علمي به ما يصونه وأعطي عبياد الله منه حقوقهم على أن للرحمن سراً يصونه

فحلوا بقرب الساجد المتفضل تحجول بها أرواحهم وتنقل ومصدرهم عنها لما هو أكمل وفي حلل التوحيد تمشي وترفل وما كتسمه أولى للديه وأعدل وأبذل منه ما أرى الحق يبذل وأمنع منه ما أرى المنع يقضل إلى أهله في السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها، ولا يجوز أن يظهرها من الكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا، فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوماً لخربت الدنيا لزهدهم فيها، وبطلت الأسواق والمعايش، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقلام عن كثير مما انتشر من العلوم، ولكن فله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم، كما أن

له في الخير أسراراً وحكماً، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته.

ومنها: كتمان الحب واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار الوجد والمحبة، تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيره على سره، فإن الحب سر من أسرار الحبيب، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء، وتعظم العقوبة عليه في العقبى، وتتعجل عليه البلوي في الدنيا. نعم، قد يكون للمحب سكرة في حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيصانه. هالقادر على الكتمان يقول:

وقالوا: قريب، قبلت: ما أنها صانع بقرب شعاع الشمس لوكان في حجري

فسما لبي مسنمه غميسر ذكسر بسخاطس يهيج نبار النحبب والمشوق في صدري

والعاجز عنه يقول:

وينظمهس السوجمة عملميمه المنفسس يسخمفى فسيسبدي السدمسع أمسراره ويقول أيضاً:

ومن قبلينه منع غييره كنينف حياليه ... ومن سنره في جنفينه كنيف يسكتُم؟

وقد قال بعض العارفين: أكثر الناس من الله بعداً أكثرهم إشارة به. كأنه أراد: من يكثر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عزّ وجلّ. ودخل ذو النون المصري على بعض إخواته ـ ممن كان يذكر المحبة ـ فرآه مبتلى ببلاء فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره، فقال الرجل: لكني أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره، فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه.

فإن قلت: المحبة منتهى المقامات، وإظهارها إظهار للخير، فلماذا يستنكر؟

قاعلم: أنَّ المحبة محمودة وظهورها محمود أيضاً، وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار، وحق المحب أن ينم على حبه الخفي أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله. وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب، بل ينبغي أن يكون قصد المحب إطلاع الحبيب فقط، فأما إرادته إطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه، كما ورد في الإنجيل: إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك. فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك. فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه.

حكي: أن رجلاً رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه، فأخبر ذلك معروفاً الكرخي رحمه الله فتبسم ثم قال: يا أخي، له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين! فهدا الذي وأيته من مجانينهم. ومما يكره: التظاهر بالحب، بسبب أنّ المحب إن كان عارفاً . وعرف أحوال الملائكة في حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذي به يسمحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ـ لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه، وعلم قطعاً أنه من أخس المحبين في مملكته، وأنّ حبه أنقص من حب كل محب لله. قال بعض المكاشفين من المحبين: عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أنّ لي عند الله شيئاً، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات في قصة طويلة قال في آخرها: فبلغت صفاً من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: نحن المحبون لله عزّ وجلّ، نعبده هاهنا منذ ثلاثمائة ألف سنة ما حطر على قلوبنا قط سواه ولاذكرنا غيره، قال: فاستحييت من أعمالي فوهبتها لمن حق عليه الوعيد؛ تخفيفاً عنه في جهنم.

فإذن: من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى. نعم، يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته؛ كما حكي عن الجبيد أبه قال: مرض أستاذنا السريّ رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سبباً، فوصف لنا طبيب حاذق. فأخذ قارورة مائه، فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليها ملياً ثم قال لي: أراه بول عاشق! قال الجنيد: فصعقت وغشي علي ووقعت القارورة من يدي، ثم رجعت إلى السري فأخبرته، فتبسم وقال: قاتله الله ما أبصره، قلت: يا أستاذ وتبين المحبة في البول؟! قال: معم، وقد قال السري مرة: لو شئت أقول: ما أيبس جلدي على عظمي ولا سل جسمي إلا حبه، ثم غشي عليه، وتدل الغشية على أنه أفصح في غلبة الوجد ومقدمات الغشية. فهذه مجامع علامات الحب وثمراته.

ومنها: الأنس والرضا ـ كما سيأتي ـ.

وبالجملة: جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق، نعم، قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه. والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين، ولذلك قال الجنيد: الناس في محبة الله تعالى عام وخاص، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان؛ فأما الخاصة قنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرّد بالملك. ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه، إذ استحق عندهم المحبة بذلك، لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم، من الناس من يحب هواه. وعدو الله إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل _ فيظن أنه محب لله عزّ وجلّ، وهو الذي فقلت فيه هذه العلامات، أو يلبس بها نفاقاً ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا، وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه، وكان سهل إذا تكلم مع إنسان خلاف ذلك، كعلماء السوء وقراء السوء أولئك بغضاء الله في أرضه، وكان سهل إذا تكلم مع إنسان حلي ينخلو إما أن يكون مؤمناً أو منافقاً فإن كان مؤمناً فهو حبيب الله عزّ وجلّ، وإن كان منافقاً فهو حبيب إلله عزّ وجلّ، وإن كان منافقاً فهو حبيب إليس. وقد قال أبو تراب الخشبي _ في علامات المحبة _ أبياتاً:

لا تخدوس فللحبيب دلائل منها تشعيمه بسمر بالائه فالمسع منه عطية مقبولة ومن الدلائل أن ترى من صورمه ومن الدلائل أن يرى منتبسماً ومن الدلائل أن يرى منتبسماً

ولديه من تحف الحبيب وسائل وسروره في كمل ما همو فعاعمل والمفقد إكسرام وبسر عساجمل طوع المحبيب وإن ألسح المعاذل والقالم من يحظى لديه المسائل لمكلام من يحظى لديه المسائل

ومسن السدلائسل أن يسرى مستسقسشفاً وقال يحيى بن معاذ:

ومس السدلائسل أن تسراه مسسمسراً ومسن السدلائسل حسزنسه ونسحسسافسراً ومسن السدلائسل أن تسراه مسسافسراً ومسن السدلائسل زهسد، فسيسما يسرى ومسن السدلائسل أن تسراه بساكسيساً ومسن السدلائسل أن تسراه مسسلسماً ومسن السدلائسل أن تسراه واضسيساً

ومسن السدلائسل أن يسرى مستنقسشات مستنحفظاً من كبل منا هنو قنائبل

في خرقتين على شطوط الساحل جيوف البطلام فيمنا ليه من عناذل تحدو البجهاد وكيل فيعيل فياضيل من دار ذل والسنيعييم البزائيل أن قيد رآه عبلي قيبيح فيعائيل كيل الأمور إلى المعليك البعادل يسك البعادل والقيليب منازل والقيليب محزون كقيلب الشاكيل والتقيليب الشاكيل

بيان معنى الأنس بالله تعالى:

فقد ذكرنا أنّ الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة، إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتقت إلى ما لم يدركه بعد؛ استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة، وخطر إمكان الزوال استبشاره أنسا، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وهده الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، والمعلاحظات، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها، فالأنس معناه استبشار القلب فرحه بمطالعة الجمال، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته، ومن هنا نظر بعضهم حيث قبل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا، إنما الشوق إلى غائب، فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله، غير ملتفت غائب، فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله، غير ملتفت إلى ما يقي في الإمكان من مزايا الألطاف.

ومن علب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، كما حكي أنّ إبراهيم بن أدهم نرل من الجبل فقبل له: من أين أقبلت؟ فقال: من الأنس بالله، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله، بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان، لأن الحب بوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره؛ فيخرج من القلب عذوبة ما سواه. ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه: يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه. وقال الله عزّ وجلّ لداود عليه السلام: كن المحتماء في دعائه: يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه. وقال الله عزّ وجلّ لداود عليه السلام: كن لم مشتاقاً وبي متأنساً ومن سواي مستوحشاً. وقيل لرابعة: بم نلت هذه المنزلة؟ قالت: بتركي ما لا يعنيني، وأنسي بمن لم يزل. وقال عبدالواحد بن زيد: مروت براهب فقلت له: يا راهب، لقد

فإن قلت فما علامة الأنس؟.

أعجبتك الوحدة؟ فقال: يا هذا، لو ذقت حلاوة الرحدة لاستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة، فقلت: يا راهب، ما أقل ما تجده في الوحدة؟ قال: الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم، قلت: يا راهب، متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود وخلصت المعاملة، قلت: ومتى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم فصار هما واحد في الطاعة، وقال بعض الحكماء عجباً للخلائق كيف أرادوا بك بدلاً؟ عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك؟.

قاعلم: أنّ علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق، والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر، وإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة وغائب في حضور، مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر، كما قال على كرّم الله وجهه في وصفهم: هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر؛ فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعر المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه. فهذا معنى الأنس بالله، وهذه علامته وهذه شواهده.

وقد دهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه، وجهله مأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ومنهم أحمد بن غالب، يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكر بعضهم مقام الرضا، وقال: ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصوّر. وهذا كله كلام ناقص قاصر، لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور، فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراؤه اللب المطلوب، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور ولكن عدم غير مقبول، وقد قبل:

الأنسس بسالله لا يسحسويسه بسطسال ولسيس يسدركسه بسالسحول مسحشسال والآنسسسون رجسال كسلسهسم نسجسب وكسلسهسم صسفسوة لله محسمسال

بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس:

اعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوّشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب، فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر.

ومثاله: مناجاة برخ الأسود؛ الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لمني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفاً، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم، سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له: برخ، فقل له يخرج حتى أستجيب له، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود، في شملة قد عقدها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عزّ وجلّ فسلم

عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فأنت طُلبتنا منذ حين اخرج فاستسق لنا. فخرج فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك؟ وما الذي بدا لك! أنقصت عليك عيونك، أم عاندت الرياح عن طاعتك، أم نفد ما عندك، أم اشتد غضبك على المذنبين؟ ألست كنت عفاراً قبل خلق الخطائين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطف، أم تُرينا أنك ممتنع، أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة، قال: فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر، وأنبث الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، قال: فرجع برح فاستقبله موسى عليه السلام فقال: كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني؟ فهمّ موسى عليه السلام به، فأوحى الله تعالى إليه: إن برخاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن قال: احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة، فأخبر مدلك فبعث إلى صاحب الخص، قال: فأتي بشيخ فقال: يا شيخ، ما بال خصك لم يحترق؟ قال: إني أقسمت على ربي عزِّ وجلّ أن لا يحرقه، فقال أبو موسى رضي الله عنه: إني سمعت رسول الله على يقول: ﴿ يَكُونُ فِي أُمِّتِي قَوْمُ شَعِئةٌ رُوُوسُهُمْ، دَنِسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللَّهِ لاَبْرَهُمْ (١٠)، قال: ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار، فقال له أمير البصرة: انظر لا تحترق بالنار، فقال: إني أقسمت على ربي عزّ وجلّ أن لا يحرقني بالنار، قال: فاعزم على النار أن تطفأ، قال: فعزم عليها فطفئت. وكان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش، فقال له أبو حفص: ما أصابك؟ فقال: ضل حماري ولا أملك غيره، قال: فوقف أبو حفص وقال: وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره، قال: فظهر حماره في الوقت، ومرّ أبو حفص رحمه الله.

فهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله: أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة: لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك. وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

فوم تخالبجهم زهو بسبيدهم والمعبد يرهو على مقدار مولاه تساهوا بسرويتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما، ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني، ولو فطنت وفهمت، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولي البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار، فإنما هي عند ذوي الاعتبار من الأسماء.

فأوّل القصص، قصة آدم عليه السلام وإبليس، أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا في الاجتباء والعصمة. أما إبليس فأبلس عن رحمته، وقبل إنه من المبعدين. وأما آدم عليه السلام فقيل فيه: ﴿وَعَصَىٰ عَادَمُ رَبَّمُ فَمَوَىٰ ﴿ اللَّهُ مُ لَعَبْنِهُ رَبُّهُ فَنَابٌ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿ اللَّهُ ﴾.

وقد عاتب الله نبيه ﷺ في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد، وهما في العبودية سيان، ولكن في الحال مختلفان، فقال: ﴿وَأَنَا مَن جَلَقَ يَسَئَنْ ﴿ وَهُوَ يَمَثَنَىٰ ۞ وَاللَّهُ عَنْهُ نَلَقَنَ ۞﴾ [عَبَسَ: ١٠-٨] وقال في الآخر: ﴿أَنَا مَنِ اسْتَمَنَىٰ ۞ وَأَنَا مَنْ ضَلَاعَة، فقال عزّ

 ⁽۱) حديث الحسن عن أبي موسى: «يكون في أمتي قوم شعثة رؤوسهم دنسة ثبابهم لو أقسموا على الله لأبرهم؛ أخرجه
 ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة.

وجلّ: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ اللَّذِينَ يُؤْمِنُونَ عِكَائِنِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الاستمام: ٥٤] وأمره بالإعراض عن غيرهم، فقال: ﴿ وَإِذَا زَلَيْتَ اللَّذِينَ يَغُوضُونَ فِي عَلَيْنِنَا فَأَعَمِ مُ عَنْهُم ﴾ [الانتمام: ٢٨] حتى قال: ﴿ فَلَا نَقَعُدُ بَعَدُ الذِّكَرَىٰ مَعَ الْفَلِينِ ﴾ [الانتقام: ٢٨] وقال تسعالي : ﴿ وَآسْيِرَ نَفْسَكَ مَعَ اللَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالفَدَوْةِ وَالْشِيّ ﴾ [الكهف: ٢٨].

فكذلك الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض. فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِنْفَكُ تُوسِلُ بِهَا مَن نَشَاءُ وَتَهْلِك مَن تَشَاهُ وَالاعتذار لما قبل له: ﴿إِنَّ هِي إِلَّا فِنْفَكُ تُوسِلُ بِهَا مَن نَشَاءُ وَتَهْلِك مَن تَشَاهُ وَوَلَمْم عَلَ ذَبُ ﴾ [الشّعراء: ١٤] وقوله: ﴿إِنَّ الشّعراء: ١٣،١٢] وقوله: ﴿إِنَّ عَلَانُ أَن يَقْرُطَ عَلَيْناً أَوْ أَن يُكَلِّعُونِ وَيَعِينُ صَدْرِى وَلا يَعْلَلِنُ لِسَالِي ﴾ [الشّعراء: ١٣،١٢] وقوله: ﴿إِنَّنَا غَنَاكُ أَن يَقْرُطَ عَلَيْناً أَوْ أَن يَطَلِقُ لِسَالِي ﴾ [الشّعراء: ١٣،١٢] وقوله: ﴿إِنَّنَا غَنَاكُ أَن يَقْرُطَ عَلَيْناً أَوْ أَن يَطَلِقُ لِسَالِي ﴾ [الشّعراء: ١٣٠٤] وقوله: ﴿إِنَّنَا عَنَاكُ أَن يَقْرُطُ عَلَيْناً أَوْ أَن يَعْرَبُونِ وَيَعِيم عليه السلام من صوء الأدب؛ لأن الذي أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت _ في ظلمات ثلاث _ وبودي عليه إلى يوم القيامة: ﴿أَوْلاَ أَن تَذَرَكُمُ فِيمَةٌ مِن رَبِيد اللهِ أَنْ يَقتدى به، وقبل له: ﴿ وَاللهِ مِنْ وَلِهِ وَلَا تَكُن كُمُ الحِن الذي الذي أَلَا يَدُونُ مَكُمُومٌ ﴿ إِلَا اللّهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ الحرب العراء هو القيامة. ونهى نبينا ﷺ أن يقتدى به، وقبل له: ﴿ وَاللهِ الْكُمْ رَبِّكُ وَلَا تَكُن كُمُ اللهِ الْمُونِ إِذْ نَادَى وَهُو مَكَمُومٌ ﴿ إِلَا اللّهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ المُعْلَمُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ المُعْلَمُ اللهُ ا

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والمقاوت في القسمة بين العباد، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَشَلْنَا بَعَنَ النَّبِكِينَ عَنَ بَقَوْتُ ﴾ [الإسراء، ٥٥] وقد قال: ﴿ وَلَقَدْ مَشَلْنَا بَعَنَ النَّبِكِينَ عَنَ بَقَوْتُ ﴾ [الإسراء، ٥٥] قال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَا لَكُمْ وَلَا الله مله على نفسه، فقال: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أَبْعَتُ حَيًّا ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وَلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أَبْعَتُ حَيًّا ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وَلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أَبْعَتُ حَيًا ﴿ وَالسَّلَامِ وَاللَّهُ عَلَى يَوْمَ وَلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أَبْعَتُ حَيًّا ﴿ وَاللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى الْمَعْلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى الللللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى الل

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥].

وانظر: كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه بيوسف، وقد قال بعض العلماء: قد عددت من أوّل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَكُوسُكُ وَالْخُوهُ آَمَبُ إِلَى آبِنَا بِنَا﴾ (يُوسُف: ٨] إلى رأس العشرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفاً وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع، فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل محي من ديوان النبوّة، وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء، فأكل الدنبا بالدين فلم يحتمل له ذلك. وكان آصف من المسرفين، وكانت معصيته في الجوارح فعفا عنه. فقد روي: أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام: يا رأس العابدين، ويا ابن محجة الزاهدين، إلى كم يحصيني ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرّة بعد مرّة، فوعزتي وجلالي لئن أخذته عصفة من عصفاتي عليه لأتركته مثلة لمن معه ونكالاً لمن بعده، فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا كثيباً من رمل، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال: إلهي وسيدي أنت أنت وأنا أنا، فكيف أنوب إن لم تتب علي، وكيف أستعصم؟ إن لم تعصمني لأعودن، فأوحى الله تعالى إليه: صدقت يا آصف، أن لم تتب علي، وكيف التوب الرحيم. وهذا كلام مدل به عليه وهارب أنت أنت وأنا أنا، استقبل التوبة وقد تبت عليك، وأنا التواب الرحيم. وهذا كلام مدل به عليه وهارب أنه إليه وناظر به إليه.

وني الخبر: «إنَّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة: كم من ذنب

واجهتني به غفرته لك قد أهكلت في دونه أمة من الأمم، فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الأزلية.

وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرّف إليهم بالتقديس فيقول: ﴿ قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدُ ۚ إِلَا اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي: الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس؛ وازنها رسول الله على بثث القرآن فقال: قمَنْ قَرَأ شُورة الإخلاص فَقَدْ قَرَأ فُلْتُ القُرْآنِ الله وهو التقديس؛ وازنها رسول الله على واحداً في ثلاثة أمور؛ لا يكون حاصلاً منه من هو نظيره وشبهه، ودل القرآن عليه قوله: ﴿ يَكِدُ ﴾ [الإخلاص: ٣] ولا يكون حاصلاً ممن هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله: ﴿ يَلَمْ يَكِنُ لَهُ حَكُونُا أَحَدُ الله ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلاً له ولا فرعاً من هو مثله، ودل عليه قوله: ﴿ يَلَمْ يَكُنُ لَهُ حَكُونُا أَحَدُ الله والإخلاص: ٤] ويجمع جميع ذلك قوله مثله، ودل عليه قوله: ﴿ لَا لِلهُ إِلا الله ألا الله فهذه أسرار مثله: ولا يكون أكر رَشْ ولا يكين إلَّا في كِنْنِ يُبِينٍ ﴾ [الإخلاص: ٤] ويجمع جميع ذلك قوله القرآن، ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين. وهو المقرآن، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفاً له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كما قال، ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته فكره وصفاً له فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلم جبار قاهر مليك قادر، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر، وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي كلم جبار قاهر مليك قادر، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر، وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي كلم خورة الخارجة عنه. فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عاد الله فيه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته:

اعلم: أنّ الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقرّبين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا: إنّ أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي، وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق، وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى. ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع

 ⁽۱) حديث: (من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن) أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح، ورواه
 البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدوداء نحوه.

ظواهر الشرع لما دعا رسول الله ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللّهُمُّ فَقَهُهُ فِي الدَّينِ وَعَلَّمُهُ التَّأْوِيلُ» (١٠)، فلنبدأ ببيان فضيلة الرضاء ثم بحكايات أحوال الراضين، ثم نذكر حقيقة الرضاء وكيفية تصوّره فيما يخالف الهوى، ثم نذكر ما يظنّ أنه من تمام الرضا وليس منه؛ كترك الدعاء والسكوت على المعاصي.

بيان فضيلة الرضا:

أما من الآيات: فقوله تعالى: ﴿ رَضِى اللّهُ عَنْهُمْ وَرَشُواْ عَنَهُ ﴿ [النائدة: ١١٩] وقد قال تعالى: ﴿ مَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلّا الْإِحْسَانُ ﴿ وَاللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهِ عَن عبده، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى. وقال تعالى: ﴿ وَمَسَدِكُنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّتِ عَنَوْ وَرِضُونَ فَي بَنَ اللّهِ آكِمَ اللّهِ اللّهِ اللهِ الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال: ﴿ إِنَ السَّكَاوَةُ تَنْفَىٰ عَنِ رَفِع اللهُ الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال: ﴿ إِنَ السَّكَاوَةُ تَنْفَىٰ عَنِ السَّكَاةُ وَلَيْكُرُ اللّهُ وَلَيْكُرُ اللّهُ وَالْحَالَة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة، بل هو غاية مطلب سكان الجنان.

وفي الحديث: «إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني فيقولون: رضاك (٢)، فسؤالهم الرضا بعد النظر بهاية التفضيل، وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته، وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه، ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه. وعلى الجملة: فلا رتبة فوق النظر إليه، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه، وعلموا أنّ الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب. وقال الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَرِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قال بعض المفسرين: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين؛

إحداها: هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا نَعْلَمُ مَنْسُّ مَّا ٱلْمُغِنَى لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعَيُنِ﴾ [السَّجذة: ١٧].

والثانية: السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً؛ وهو قوله تعالى: ﴿ سَلَمٌ قَوْلًا مِن رَّبٍ رَّحِيدٍ ﴿ إِنَا ١٠٨].

والثالثة: يقول الله تعالى: إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى: ﴿ وَرِضَوَنَ قَرِبَ اللَّهِ أَكُبُرُ ۗ [التّوبَة: ٧٧] أي من النعيم الذي هم فيه. فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد.

وأما من الأخبار: فقد روي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: «مَا أَنْشُمْ؟؛ فقالوا: مؤمنون،

 ⁽۱) حديث: دعائه لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» متفق عليه دون قوله: «وعلمه التأويل» ورواه أحمد بهذه الزيادة، وتقدم في العلم.

حديث: «إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول: سلوني فيقولون: رضاك أخرجه البزار والطبراني في الأوسط من حديث أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه: «فيتجلى لهم يقول: أنا الذي صدقتكم وحدي وأتممت نعمتي وهذا محل إكرامي فسلوني فيسألونه الرضا. . . ٩ الحديث، ورواه أبو يعلى بلفظ: «ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رضاك. . . ٩ الحديث، ورجاله رجال الصحيح.

فقال: الما عَلَامَةُ إِيمَائِكُمْ؟ فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء وأنرضى بمواقع القضاء. فقال: المُؤْمِنُونَ وَرَبُ الكَفْيَةِ ('' وفي خبر آخر أنه قال: الحُكَمَاء عُلَمَاءُ كادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ ('')، وفي الخبر: الطوبي لمن هذي للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به ('')، وقال أيضاً: اإذا أحبُّ الله تَمَالَى مِنهُ بِالقَلِيلِ مِنَ المَمَلُ ('')، وقال أيضاً: اإذا أحبُّ الله تَمَالَى لِطَائِفَةٍ مِن عَبْداً النَّلَا فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ، وقال أيضاً: اإذا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ أَثْبَتُ الله تَمَالَى لِطَائِفَةٍ مِن أَنْتُ مَنْ أَجْتِبُهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ، وقال أيضاً: اإذا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ أَثْبَتُ الله تَمَالَى لِطَائِفَةٍ مِن أُمْتِهِ أَجْدِحَةً فَيَطِيرُونَ مِنْ قَبُورِهِمْ إلَى الجِنَانِ يَسْرَحُونَ فِيها وَيَتَنَعَّمُونَ فِيها كَيْفَ شَاؤُوا، فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَالِمُ وَاللهُ تَمَالَى لِطَائِفَةٍ مِن أَمْتِهُ المَلائِكَة عَلَى الجَنَانِ يَسْرَحُونَ فِيها وَيَتَنَعَّمُونَ فِيها كَيْفَ شَاؤُوا، فَتَقُولُ لَهُمُ اللهَ عَمْلُونَ عَلْ رَأَيْتُمُ الحِسَابَ؟ فَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا شِيئاً، فَتَقُولُ لَهُمْ: هَلَّ الْمُؤْتُمُ الطُورَاطُ؟ فَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا شِيئاً، فَتَقُولُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْتُولُونَ: مَا رَأَيْنَا شِيئاً، فَتَقُولُ المَلائِكَة فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا شِيئاً، فَتَقُولُ المَا فَيْقُولُونَ: وَمَا لَمُنْ أَنْ المُعْرَاءِ فَقُولُ اللّهَ الرَّمَا مِنْ قُلُومُ مِنْ اللهَ عَلَى المَلائِكَةُ وَمَا اللهُ الرَّمَا اللهُ الرَّمَا مِنْ قُلُومُ مِنْ النَّهُ الْمُنْ الفُقْرَاءِ أَعْفُوا اللهَ الرَّمَا اللهُ الرَّمَا مِنْ قُلُومُ مِنْ الْمَاهُ وَلَا المَلائِكَةُ وَلَا المَالِولَة المُولِ اللهَ الرَّمَا المَا مِنْ قُلُومُ مُ اللهَ مَنْ المَالِكَةُ مُ والاً قَلَا المَلائِكَةُ وَاللهُ اللهُ الرَّمَا اللهُ الرَّمَا مِنْ قُلُومُ مُ الْمُؤْمُ وإِلاَ قَلْمُ وإِلاَ قَلَا المُولِدُ المُؤْمِ اللهُ المُؤْمِ اللهُ المُؤْمُ اللهُ المُؤْمُ اللهُ اللهُ الرَّمَا مِنْ قُلُومُ مُنْ اللهُ المُؤْمِ اللهُ المُؤْمُ اللهُ المُؤْمِ اللهُ المُؤْمُ اللهُ المُؤْمِلُهُ المُؤْمِ اللهُ المُؤْمِقُولُ المُعْمَالِ المُؤْمُ المُؤْمُ اللهُ المُؤْمِلُ المُقْلُولُ

وفي أخبار موسى عليه السلام: إن َ بني إسرائيلَ قالوًا له : سُل لنا ربك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى، قل لهم يرضون عني حتي أرضى عنهم. ويشهد لهذا ما روي عن نبينا ﷺ أنه قال: همَنْ أَخَبُ أَنْ يَعْلَمَ ما لَهُ هِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ أَنْ يَعْلَمَ ما لَهُ هِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ أَنْ يَعْلَمُ ما لِلَّهِ عَزَّ وَبَعَلَ عَلَى يُنْزِلُ العَبْدُ مِنْ أَنْزَلُهُ العَبْدُ مِنْ فَشِيهِ اللهُ تَبَارَكُ وَتَعَالَى يُنْزِلُ العَبْدُ مِنْ أَزْزَلُهُ العَبْدُ مِنْ فَشِيهِ اللهُ اللهُ تَبَارَكُ وَتَعَالَى يُنْزِلُ العَبْدُ مِنْ أَزْزَلُهُ العَبْدُ مِنْ فَلْسِهِ اللهُ اللهُ عَلَى يُنْزِلُ العَبْدُ مِنْ أَزْزَلُهُ العَبْدُ مِنْ فَلْسِهِ اللهِ عَنْ اللهُ اللهُ تَبَارَكُ وَتَعَالَى يُنْزِلُ العَبْدُ مِنْ أَزْزَلُهُ العَبْدُ مِنْ فَلْسِهِ اللهِ اللهِ اللهِ عَلَى اللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ

وفي أخبار داود عليه السلام: ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود، إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانبين لا يغتمون.

وروي أنّ موسى عليه السلام قال: يا رب، دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه: إنّ رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره، قال: يا رب دلني عليه، قال: فإنّ رضاي في رضاك بقضائي. وفي مناجاة موسى عليه السلام: أي رب أي خلقك أحب إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني، قال: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر فإذا

حديث: سأل طائفة من أصحابه: ‹ما أشم، فقالوا: مؤمنون فقال ‹ما علامة إيمانكم... الحديث. تقدم.

 ⁽٢) حديث: إنه قال في حديث آخر: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أبياء أتقدم أيضاً.

حدیث: اطویی لمن هدی للإسلام و کان رژقه کفافاً و رضي به ا أخرجه الترمذي من حدیث فضالة بن عبید بلقظ:
 اوقتع وقال: صحیح، وقد تقدم.

⁽٤) حديث: المن وضي من الله بالقليل من الرزق وضي منه بالقليل من العمل؛ رويناه أي أمالي المحاملي بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب، ومن طريق المحاملي رواه أبو منصور الديلمي في سند الفردوس.

حدیث: وإذا كان يوم القیامة أنبت الله لطائفة من أمني أجنحة فیطیرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فیها وواه ابن
 حبان في الضعفاء وأبو عبدالرحمن السلمي من حدیث أنس مع اختلاف، وفیه حمید بن علي القیسي ساقط هالك والحدیث منكر مخالف للقرآن، وللأحادیث الصحیحة في الورود وغیره.

 ⁽٦) حديث: «أهطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلاه تقدم.

حديث: المن أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده . . . الحديث . أخرج الحاكم من حديث جابر وصححه لفظ : المنزلة الله . .

قضيت له سخط قضائي. وقد روي ما هو أشد من ذلك وهو أنّ الله تعالى قال: «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربّاً سوائي (١٠)، ومثله في الشدّة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا على أنه قال: «قَالَ اللّهُ تَعَالَى: قَدْرْتُ المَقادِيرَ وَدَبَرْتُ التَّنْبِيرَ وَأَخْكَمْتُ الطَّنْعَ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِي حَتِّى يَلْقَانِي، وَمَنْ سَخطَ فَلَهُ السَّخط مني حَتِّى يَلْقَانِي، وَمَنْ سَخطَ فَلَهُ السَّخط مني حَتِّى يَلْقَانِي، (٣)، وفي الخبر المشهور: «يقول الله تعالى: خلقت الخير والشر قطوبي لمن خلقته للخير وأجريت الخير على بديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على بديه، وويل ثم ويل لمن قال: لم وكيف، (٣).

وفي الأخبار السالفة: أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله عزّ وجلّ الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو، هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعد خلق الدنيا من أجلك، أم تريد أن أبدل ما قدّرته عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون أعبد خلق الدنيا من أجلك، أم تريد أن أبدل ما قدّرته عليك، فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون النبوّة. وروي: أنّ آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعلون على بدنه وينزلون - يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كذلك، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه - فقال له بعض ولده: يا أبت! أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا! لا ينطق ولا يرفع رأسه - فقال له بعض ولده: يا أبت! أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا! الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: خدمت رسول الله يشي عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلته، ولا قال في شيء كان: ليته لم يكن، ولا في شيء لم يكن؛ ويروى: أن الله نعلى، وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول: «دهوه لو قضي شيء لكان» أريد، فإن داود عليه السلام؛ يا داود، إنك تريد وأريد، وإنما يكون ما أريد، فإن سلمت لما أريد. تما تريد، وإن الم أريد، وإن الم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، وإنما يكون إلا ما أريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوَّل من يدعى إلى الجنة يوم القيامة: الذين يحمدون الله تعالى على كل حال. وقال عمر بن عبدالعزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر، وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله. وقال ميمون بن مهران: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه

⁽١) حديث: «قال الله: أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي...» الحديث. أخرجه الطبراني في الكبير وابن حبان في الصعفاء من حديث أبي هند الداري مقتصراً على قوله: «من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليلتمس رباً سواي» وإسناده ضعيف.

 ⁽٢) حديث: قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع قمن رضي قله الرضا. . . الحديث لم أجده بهذا اللفط، وللطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة: قطلق الله المخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين . . . الحديث وإسناده ضعيف .

 ⁽٣) حديث: ايقول الله: خلقت الخير والشر قطوبي لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه. . . الحديث، أخرجه
 ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف.

⁽٤) حديث أنس: خدمت النبي ﷺ فما قال لي لشيء فعلته: ﴿ لَمْ فَمَلْتُهُ . . ٤ الحديث. متفق عليه، وقد تقدم.

دواء. وقال الفضيل: إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك. وقال عبدالعزيز بن أبي رواد: ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر، ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجلّ. وقال عبدالله بن مسعود: لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلي من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن لبته كان. ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع، فقال: إني لأرحمك من هذه القرحة، فقال: إني لأشكرها منذ خرجت؛ إذ لم تخرج في عيني،

وروي في الإسرائيليات: أن عابداً عبد الله دهراً طويلاً فأري في المنام؛ فلانة الراعية رفيقتك في المجنة؛ فسأل عنها إلى أن وحدها فاستضافها ثلاثاً ينظر إلى عملها، فكان يبيت قائماً وتبيت نائمة ويظل صائماً ونظل مفطرة. فقال: أما لك عمل غير ما رأيت؟ فقالت: ما مو والله إلا ما رأيت، لا أعرف غيره، فلم يزل يقول: تدكري، حتى قالت: خصيلة واحدة هي فيّ؛ إن كنت في شدّة لم أتمن أن أكون في رخاء، وإن كنت في الشمس لم أتهن أن أكون في رحاء، وإن كنت في على رأسه وقال: أهذه خصيلة؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد.

وعن بعض السلف: إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقصائه. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان: الصبر للحكم والرضا بالقرري يوماً عند رابعة: اللهم ارض ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رحاء. وقال الثوري يوماً عند رابعة: اللهم ارض عني، فقالت: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض؟ فقال: أستغفر الله، فقال جعفر بن سليمان الضبعي: فمتى يكون العبد راضياً عن الله تعالى؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة. وكان الفضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى، وقال أحمد بن أبي الحواري: قال أبو سليمان الداراني: إن الله عزّ وجلّ من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من واليهم قلت: وكيف ذاك؟ قال: أليس مراد العبد من الحلق أن يرضى عنه مولاه؟ فلت: نعم، قال: فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه، وقال سهل: حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عزّ وجلً. وقد قال النبي ﷺ: إنّ الله عزّ وجلً بحكمتِه وَجَلالِه جَعَلَ الرُّوحَ وَالفَرَحَ فِي الرُضَا وَالبَهْينِ، وَجَعَلَ المَمْ وَالحُونَ فِي الشَّكُ عَلَى السَّكُ عَلَى المَّوَى وَالفَرَحَ فِي الرُضَا وَالبَهْينِ، وَجَعَلَ المَامُ وَالحُونَ فِي الشَّكُ وَالمَاء والسَّحُونَ فِي السُّكَ المَامَ وَالمَوْنَ فِي الشَّكُ المَامَ وَالمَوْنَ فِي السُّكَ المَامَ وَالمَوْنَ فِي السُّكُ عَلَى المَامَ وَالمَوْنَ فِي السُّكُ المَامَ وَالمَوْنَ فِي السُّكَاء اللهَ وَالحَوْنَ فِي السُّكَاء اللهَاء وَالمَوْنَ فِي السُّكَاء اللهَاء وَالمَوْنَ فِي السُّكَاء اللهَاء وَالمَاء وَالمَاء وَالمَوْنَ فِي السُّكَاء وَالمَاء وَالمَوْنَ فِي السُّكَاء وَالمَاء وَالمَامِونَ فَي السُّكَاء وَالمَاء وَلمَاء وَالمَاء و

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى:

اعلم: أنّ من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؛ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين.

أحدهما: أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك المها. ومثاله: الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس

 ⁽¹⁾ حديث: (إن الله يحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا. . . ٩ الحديث . أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود
 إلا أنه قال: «بقسطه» وقد تقدم.

بألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحمه، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف؛ تصور في الألم العظيم بالحب العظيم، فإنّ الحب أيضاً يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة المسردة، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يتاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس مما يجري عليه. فقد روي: أن امرأة فتح الموصلي عثرت، فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين يجري عليه. فقد روي: أن امرأة فتح الموصلي عثرت، فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه. وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالم غيره منها ولا يعالج نفسه، فقبل له في ذلك فقال: يا دوست، ضرب الحبيب لا يوجع!.

وأما الوجه الثاني: فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه مريداً له ـ أعنى بعقله ـ وإن كان كارهاً بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة؛ فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه، ومتقلد من الفصاد به منَّة بفعله، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها. ومهما أصابه بلية من الله تعالى، وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه، وشكر الله عليه. هذا إن كان بلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه، ويجوز أن يغلب الحب؛ بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً، وكل ذَّلك موجود في المشاهدات في حب الخلق، وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث، بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة. وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كبيراً، فترى الصغير كبيراً والكبير صغيراً، والبعيد قريباً والقبيح جميلاً، فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب، فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلى الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط، ولا يدور بها الموت، بل تبقى بعد الموت حية عند الله، فرحة برزق الله تعالى، مستفيدة بالموت مزيد ننبيه واستكشاف؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم.

فقد قال شفيق البلخي: من يرى ثواب الشدّة لا يشتهي المخرج منها. وقال الجنيد: سألت سرياً السقطي هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا. قلت: وإن ضرب بالسيف! قال: نعم، وإن ضرب بالسيف معين ضربة، ضربة على ضربة. وقال بعصهم: أحببت كل شيء يحبه، حتى لو أحبّ النار أحببت دخول النار، وقال بشر بن الحارث: مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس، فتبعته فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشق، فقلت له: ولم سكت؟ قال: لأن معشوقي كان بحدائي ينظر إليّ، فقلت: فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر. قال:

قزعق رعقة خرّ ميتاً. وقال يحيى بن معاذ الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى دهبت عيونهم في قلوبهم ـ من لذة النظر إلى الله تعالى ـ ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم، فما ظنك مقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟؛ إذا لاحظت جلاله هابت، وإذا لاحظت جماله تاهت! . وقال بشر: قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صع والنمل يأكل لحمه، فرفعت رأسه فوضعته في حجري وأنا أردد الكلام، فلما أفاق قال: مَنْ هذا العضولي الذي يدخل بيني وبين ربي لو قطعني إرباً إرباً ما ازددت له إلا حباً؟ قال بشر: فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها. وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث: إنّ أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام، كانوا إذا جاعوا نظروا لى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع، بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك. وقال سعيد بن يحيى: رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك. وقال سعيد بن يحيى: رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شاماً، وفي يده مدية، وهو ينادي بأعلى صوته والناس حوله، وهو يقول:

يسومُ السفراق مسن السقسيامية أطبولُ والسموتُ من السم الستفرق أجسمالُ قبالوا الرحيل فقلت لسبت براحيل ليكن منهنجتني الستني تسترحيلُ

ثم بقر بالمدية بطنه وخرّ ميتاً، فسألت عنه وعن أمره فقيل لي: إنَّه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوماً واحداً. ويروى: أنَّ يونس عليه السلام قال لجبريل: دلنلي على أعبد أهل الأرض. فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره، فسمعه وهو يقول: إلهي: متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل يا بر يا وصول. ويروى عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أنه اشتكي له ابن فاشتدّ وجده عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشبُّخ إن حدث بهذا الغلام حدث، فمات الغلام فخرج ابن عمر في جُنازته وما رجل أشدَّ سروراً أبدأ منه، فقيل له في ذلك، فقال ابن عمر: إنما كان حزني رحمة له، فلما وقع أمر الله رضينا به. وقال مسروق: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم، والكلب يحرسهم، قال: فحاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحاً فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم جاء دئب فخرق بطن الحمار فقله فحزنوا عليه، فقال الرجل. عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك، فقال: عسى أن يكون خيراً، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم ويقوا هم، قال: وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قلْمره الله تعالى. فإذن: من عرف خَفَيَ لطفُ الله تعالى رضي بفعله على كل حال. ويروى: أنَّ عبسي عليه السلام مرَّ برجل أعمى أبرص مقعد، مضروب الجنبين بفائج، وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلي به كثيراً من خلقه، فقال له عيسى: يا هذا أي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟ فقال: يا روح الله، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال له: صدقت، هات يدك، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة، وقد أذهب الله عنه ما كان إه، فصحب عيسي عليه السلام وتعبد معه. وقطع عروة بن الزبير رجله ـ من ركبته ـ من أكلة خرجت بلها ثم قال: الحمد لله الذي أخذ مني واحدة، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيتها، ثم لم يدع ورده تلك الليلة. وكان ابن مسعود يقول: الفقر والغني مطيّتان ما أبالي أيتهما ركبت؛ إن كان الفقر فإنّ فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل. وقال أبو سليمان الداراني: قلت قد نلت من كل مقام حالاً إلا الرضا فما لي منه إلا مشام الربح، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضياً. وقيلٌ لعارف آخر: هل نَلت غاية الرضا عنه؟ فقال: أما الغاية فلا، ولكن مقام الرضا قد نلته، لو جعلني جسراً على جهنم يعبر الخلائق على إلى الجنة ثم ملاً بي جهنم ـ تحلة لقسمه وبدلاً من خليقته ـ؛ لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه. وهذا كلام من علم أنَّ الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار، فإن بقى إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار. واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان بعيداً من أحوالنا الضعيفة، ولكن لا ينتغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء، ويظنّ أنّ ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء. وقال الروذباري: قلت لأبي عبدالله بن الجلاء الدمشقى، قول فلان: وددت أنَّ جسدي قرض بالمقاريض، وأن هذا الخلق أطاعوه؛ ما معناه؟ فقال: يا هذا، إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف، وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف، قال: ثم غشي عليه. وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ـ قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ..، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء فحعل يبكى لما يراه من حاله، فقال: لم تبكى؟ قال: لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة!. قال: لا تبك، فإنَّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إليَّ! ثم قال: أحدَّثك شيئاً لعل الله أن ينفعك به، واكتم عليَّ حتى أموت، إنَّ الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلم على فأسمع تسليمها، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة! فمن يشاهد هذا في بلائه كيف لا يكون راضياً به؟. قال: ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده، فرأينا ثوباً ملقى فما ظننا أن تحته شيئاً حتى كشف، فقالت له امرأته: أهلى فداؤك ما نطعمك، ما نسقيك؟ فقال: طالت الضجعة ودبرت الحراقيف. وأصبحت نضواً لا أطعم طعاماً ولا أسيغ شراباً منذ كذا، فذكر أياماً، وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة _ وقد كان كف بصره _ جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعو لهذا ولهذا _ وكان مجاب الدعوة _ قاله عبدالله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعزفت إليه فعرفني وقال: أنت قارىء أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم، فتعزفت إليه فعرفني وقال: أنت قارىء أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عم، أحسن من بصري. وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر، فقيل له: لو سألت الله أعالى أن يرده عليك، فقال: اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي. وعن بعض العباد أنه قال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة _ وكان: قد اجتهد في العبادة لأجل التوية من اللذب _ فقيل له: وما هو؟ قال: قلت مرة لشيء كان، ليته لم يكن. وقال بعض السلف: لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه. وقيل لعبد الواحد بن بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه. وقيل لعبد الواحد بن يا دبيبي أخبرني عنك هل قنعت به؟ قال: لا، قال: أنست به؟ قال: لا، قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا، قال: فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة! ومعناه: أنك لم يفتح لك نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة! ومعناه: أنك لم يفتح لك نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأحبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة! ومعناه: أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت تعذ في طبقات أصحاب البمين؟ لأن

مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم. ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه، وقد جمع بين يديه حجارة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: محبوك، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال: ما بالكم ادعيثم محبتي، إن صدقتم فاصبروا على بلاثي!.

وللشبلي رحمه الله تعالى:

إن السمحيسة للرحمين أسكرني وهمل وأيت محيماً غيير سكوان؟

وقال بعض عباد أهل الشام: كلكم يلقى الله عزّ وجلّ مصدّقاً ولعله قد كذبه، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها، ولو كان بها شلل ظل يواريها؛ يعني بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه. وقيل: إنه وقع الحريق في السوق فقيل للسري: احترق السوق وما احترق دكانك فقال: الحمد لله، ثم قال: كيف قلت: الحمد لله على سلامتي دون المسلمين! فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره؛ توبة واستغفاراً من قوله الحمد لله.

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعاً أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين. ومهما كان ذلك ممكناً في حق حب الخلق وحظوظهم كان ممكناً في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعاً. وإمكانه من وجهين.

أحمهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود، كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء.

والثاني: الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له؛ فقد يغلب الحب بحيث يغمر مراد المحب في مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه، ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه. كما قبل:

فسلمسا لسجسرح إذا أرضساكسم ألسم

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم، وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه!؛ لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائه. فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه.

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال: كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي، وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية، وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت:

فقال لها الفتى: أحسنت والله يا سيدتي أفتأذنين لي أن أموت! . فقالت: مت راشداً! . قال: فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه، فحركناه فإذا هو ميت. وقال الجنيد: رأيت رجلاً متعلقاً بكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة، فالتفت إليه الصبي وقال له: إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي؟ فقال: قد علم الله أني صادق فيما أورده، حتى لو قلت لي: مت لمت، فقال: إن كنت صادقاً فمت، قال: في جيراننا رجل صادقاً فمت، قال: في جيراننا رجل وغمض عينيه فوجد ميتاً. وقال سمنون المحب: كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب، فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيساً، فبينا هو يحرّك القدر إذ

قالت الجارية: آه قال: فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرّك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه! فقالت الجارية: ما هدا؟ قال: هذا مكان قولك: آه. وحكي عن محمد بن عبدالله البغدادي قال: رأيت بالبصرة شاباً على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول:

من مات عشقاً فليمت هكذا الاخيسر في عشق بالا موت!

ثم رمى بنفسه إلى الأرض؛ فحملوه ميتاً. فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى، لأن البصيرة الباطنة أصدق من المصر الظاهر، وجمال الحضرة الربائية أوفئ من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم، الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضاً هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا:

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضاً. وقد غلط في ذلك بعض البطالين المغترين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عزّ وجلّ فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل، وغفلة عن أسرار الشرع.

 ⁽١) حديث: «الدال على الشر كفاعله» أحرجه أبو منصور الديلمي في مستد الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف حداً.

 ⁽۲) حديث: «لو أن رجلاً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر في المغرب كان شريكاً في قتله» لم أجد له أصلاً بهذا اللفظ
 ولابن عدي من حديث أبي هريرة: «من حضر معصية فكرهها فكأنما خاب هنها ومن غاب عنها فأحيها فكأنما
 حضرها»، وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف.

 ⁽٣) حديث: «لا حسد إلا في اثنتين. . . » الحديث. أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ، ومسلم من حديث ابن مسعود ، وقد تقدم في العلم.

الثَّرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آمَاء اللَّيْلِ وَالنَّهَادِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ: لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ ما آتِي هٰذا لَفَعَلْتُ مِثْل ما يَغْعَلُه.

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم: فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: ﴿ لَا يَتَغِذِ الْتُوْبِنُونَ الْكَوْبِينَ الْلِيَاءَ بِن دُونِ الْمُوْبِينَ ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ يَكَنَاكُ ثُولُكُ بُعْضَ الظَّالِمِينَ بَعَمَّا ﴾ ﴿ يَتَغِذُوا الْبَهُودَ وَالْعَمَرَى الْلِيَّةُ ﴾ [المائدة: ٥١] وقال تعالى: ﴿ وَكَنَاكِ ثُولُكُ بُعْضَ الظَّالِمِينَ بَعَمًا ﴾ [الأنقام: ٢٩] وفي الخبر: ﴿ إِن الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أخبً قوماً وَوَالاهُمُ أَن يبغض كل مؤمن الله وقال عليه السلام: ﴿ الممره مع من أحب وقال: ﴿ مَنْ أَخبُ قَوماً وَوَالاهُمُ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ وقال عليه السلام: ﴿ أَوْفَقُ عُرَى الإيمانِ الحُبُ فِي اللّهِ وَالبُغْضُ فِي اللّهِ وَالبُغْضُ فِي اللّهِ وَالبُغْضُ وَي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ تعالى من كتاب الصحبة، ومي كتاب الأمر وسواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة، ومي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلا نعيده.

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٥)، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، وكيف يمكن الجمع بين لقضاء الله تعالى، وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟.

قاعلم: أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض، بل نقول: الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وحه واحد، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه؛ إذ قد يموت عدوّك الذي هو أيضاً عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوّ عدوّك وترضاه من حيث إنه مات عدوّك. وكذلك المعصبة لها وجهان: وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته؛ فيرضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتاً عند الله وبغيضاً عنده حيث سلّط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال:

⁽١١) حديث: «إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق. . . • الحديث، لم أجد له أصلاً.

⁽٢) حديث: اللمرء مع من أحب، تقدم،

 ⁽٣) حديث المن أحب قوماً ووالاهم حشر معهم أخرجه الطرائي من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر:
 امن أحب قوماً على أعمالهم حشر في زمرتهم زاد ابن عدي: ايوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضعيف.

 ⁽٤) حديث • أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله) رواه أحمد، وتقدم في آداب الصحبة.

⁽٣) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله رواها الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص: «من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل. . . » الحديث. وقال عريب وتقدم حديث: «ارض بما قسم الله تكن أهنى الناس» وحديث: «ارض الله عند بعض الروح والقرح في الرضا». وتقدم في حديث الاستخارة: «واقدر لي المحير حيث كان ثم رضني به وحديث: «من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل». وحديث: «أسألك الرضا بالقضاء . . . » الحديث. وغير ذلك.

فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبيه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو أنى أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي. حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًا لي، فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدّوي، وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبّي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة. فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة؛ فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك. وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم. ولكنه كان مرادك منه؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك وتعويقاً في مرادك، وأنا كاره لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدران وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك؛ إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه، ومن حيث هو وصفّ له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك. وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك، وأنا على موافقتك أيضاً مبغض له، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيباً ولعدوّه عدوّاً. وأما بغضه لك فإني أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك، ويغضه ومقته لك أيضاً عندي مكروه من حيث إنه وصفه، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي. وإنما التناقض أن يقول: هو من حيث إنه مرادك مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه، وأما إذا كان مكروهاً لا من حيث إنه فعله ومراده، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه، ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه، ونظائر ذلك لا تحصي.

فإذن: تسليط الله دواعي الشهوة والمعصبة عليه حتى يجرّه ذلك إلى حب المعصية ويجرّه الحب إلى قعل المعصبة يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاً؛ ليجرّه الضرب إلى الغصب والغضب إلى الشتم. ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصبته بتدبيره، يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه، وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده - أعني تسليط دواعي المعصبة عليه - يدل على أنه سبقت مشبئته بإبعاده ومقته، فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله، ويمقت من مقته الله، ويعادي من أبعده الله عن حضرته - وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته - فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة، وإن كان بعيداً بإبعاده قهراً ومطروداً بطرده واضطراره، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيناً بغيضاً إلى جميع المحبين - موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده.

بهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عزّ وجلّ. وهذا كله يستمد من سر القدر ــ الذي لا رخصة في إفشائه ــ وهو أنّ الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضي به. فمن قال: ليس الشر من الله فهو جاهل، وكذا من قال: إنهما جميعاً منه من غير افتراق في الرضا والكراهة منه فهو أيضاً مقصر. وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه؛ فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال ﷺ: «القَدَرُ سِرُ اللهِ فَلا تَفْشُوهُهُ "، وذلك يتعلق بعلم المكاشفة، وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا مقضاء الله تعالى، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه.

وبهذا يعرف أيضاً أنّ الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف. كما أنّ حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش، وشرب الماء طلباً لإزالة لعطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به. وقد ذكرنا أن لتمسك بالأسباب جرياً على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به. نعم، إظهار البلاء في معرض الشكوى، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا. وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض. وقد قال بعض السلف: من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول: هذا يوم حار وفي معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما الثناء فهو شكر، والشكوى تناقض الرضا بكل حال، وثم الأطعمة وعيسها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى؛ لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع، والكل من صنع الله تعالى. وقول القائل: الفقر بلاء ومحنة، والعيال هم وتعب، والاحتراف كد ومشقة. كل ذلك قادح في الرضا، بل ينبغي أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه: لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً، فإني لا أدري أيهما خير لي.

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مطانٌ المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا:

اعلم، أنّ الضعيف قد يظن أن نهي رسول الله على عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون (٢) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال؛ بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزالاً وضراً، ولذلك شبهه رسول الله عني في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢). ولو كان ذلك للعرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف _ وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل _. وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار منه البلاد التي هي مظان المعاصي ليس قراراً من القضاء بل من القضاء الفرار مما لا بدّ من الفرار منه.

١١) حديث: «القدر سر الله قلا تقشوه» أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن همر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف.

⁽٢) حديث: النهي عن الخروج من بلد الطاعون. تقدم في آداب السفر.

 ⁽٣) حديث: إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف. تقدم فيه.

إحياء عُلوم الدّين

وكدلك مدمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها ـ لأجل التنفير عن المعصية ـ ليست مذمومة. فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها، فقال ابن المبارك: قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد! قيل: وكيف؟ قال: هو بلد تزدري فيه نعمة الله، وتستصغر فيه معصية الله. ولما قدم حراسان قيل له: كيف رأيت بغداد؟ قال: ما رأيت بها إلا شرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارئاً حيران!. ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة؛ لأنه لم يتعرَّض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به، وإنما قصد بذلك تحذير الناس، وكان يخرج إلى مكة ـ وقد كان مقامه بمغداد ـ يرقب استعداد القافلة سنة عشر يوماً، فكان يتصدّق بستة عشر دينار لكل يوم دينار كفارة لمقامه. وقد ذم العراق جماعة: كعمر بن عبدالعزيز وكعب الأحبار. وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له: أين تسكن؟ فقال: العراق، قال: فما تصنع به؟ بلغني أن ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قريناً من البلاء. وذكر كعب الأحبار يوماً العراق فقال: فيه تسعة أعشار الشر، وفيه الداء العضال. وقد قيل: قسم الخير عشرة أجزاء؛ فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق، وقسم الشر عشرة أجزاء؛ على العكس من ذلك. وقال بعض أصحاب الحديث: كنا يوماً عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة، فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال: أين تسكن؟ فقال: بغداد. فأعرض عنه وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان فإدا سألناه أين تسكن قال: في عش الظلمة؟. وكان بشر بن الحارث يقول: مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش. وكان يقول: لا تقتدوا بي في المقام بها!، من أراد أن يخرج فليخرج. وكان أحمد بن حنيل يقول: لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي، قيل: وأبن تختار السكني؟ قال: بالثغور. وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد .: زاهدهم زاهد وشريرهم شرير.

فهذا يدل: على أنّ من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها، بل ينبغي أن يهاجر، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنّ أَرْضُ اللّهِ وَسِمَةٌ فَلْهَاجِرُواْ فِياً ﴾ [النّساء: ٢٧] فإن مَنْعَهُ عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئن النفس إليه، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلاً على الدوام: ﴿ رَبّنا آخَرِجْنَا مِن هَلُوهِ ٱلفَرْيَةِ ٱلظَّالِرِ آهَلُها ﴾ [النّساء: ٢٥] وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطبعين، قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ فِنْنَةً لَا تُوسِينَ ٱلّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَدَهُ ﴾ [الأسمال: ٢٥] فإذن: ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال.

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث؛ رجل يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله تعالى، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى، ورجل قال: لا أختار شيئاً بل أرضى بما اختاره الله تعالى. ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين، فقال: صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولاً. واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط، فقال الثوري: كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، واليوم وددت أني مت، فقال له يوسف: لم؟ قال: لما أتخرف من الفتنة، فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء، فقال سفيان: لم؟ قال: لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأحمل صالحاً، فقيل لوهيب: إيش تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئاً، أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله سبحانه وتعالى، فقبله الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة.

بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم:

قيل لبعض العارفين: إنك محب فقال: لست محباً إنما أنا محبوب والمحب متعوب، وقيل له أيضاً: الناس يقولون إنك واحد من السبعة؟ فقال: أنا كل السبعة. وكان يقول: إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلاً، قيل: وكيف وأنت شخص واحد؟ قال: لأني رأيت أربعين بدلاً وأخذت من كل بدل خلقاً من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الحضر عليه السلام؟ فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه!

وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حدّثت نفسي يوماً قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولياً لم أعرفه. وقيل لأبي يريد البسطامي مرة: حدّثنا عن مشاهدتك من الله تعالى، فصاح ثم قال: ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك! قيل: فحدّثنا بأشد مجاهدتك لنمسك في الله تعالى، فقال: وهدا أيضاً لا يجوز أن أطلعكم عليه. قيل: فحدّثنا عن رياضة نفسك في بدايتك، فقال: نعم، دعوت نفسي إلى الله فجمحت عليّ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لى بذلك.

ويحكى عن يحيى بن معاذ: أنه رأى أبا يزيد ـ في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع المعجر _ مستوفزاً على صدور قدميه، رافعاً أخمصيه مع عقبيه عن الأرض، ضارباً بذقنه على صدره شاخصاً بعينيه لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال: اللهم إنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم شاخصاً بعينيه لا يطرف، قال: ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال: اللهم إنّ قوماً طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، وإن قوماً طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك، حتى عدّ نيفاً وعشرين مقاماً من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآني فقال: يحيى فقلت: نعم يا سيدي؛ فقال: منذ متى أنت هاهنا؟ قلت: منذ حين، فسكت، فقلت: يا سيدي حدّثني بشيء فقال: أحدّثك بما يصلح لك، أدخلني في الفلك الأسفل فدوّرني في الملكوت السفليّ وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك؟ فقلت: يا سيدي البعنان إلى العرش، ثم أوقفني بين يديه فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً، لأفعلن بك ولأفعلن ما رأيت شيئاً استحسنته فأسألك إياه! فقال: أنت عبدي حقاً تعبدني لأجلي صدقاً، لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشباء. قال يحيى: فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت: يا سيدي، لم لا سألته المعرفة فذكر أشباء. قال لك ملك الملوك: سلني ما شئت، قال: فصاح بي صبحة وقال: اسكت ويلك! غرت عليه مى حتى لا أحب أن يعرفه سواه.

وحكي: أنّ أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته، فقال له أبو تراب يوماً: لو رأيت أبا يزيد؟ فقال: إني عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا زيد، هاج وجد المريد فقال: ويحك ما أصنع بأبي يزيد، قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد؟ قال أبو تراب: فهاج طبعي ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغتر بالله عزّ وجلّ، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة! قال: فهت الفتى من قوله وأنكره فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره؟ فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه، فذكر قصة قال في

آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة _ وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع _ قال: فمرّ بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى: هذا أبو يزيد فانظر إليه. فنظر إليه الفتى فصعق، فحركناه فإذا هو ميت، فتعاونا على دفنه فقلت لأبي يزيد: يا سيدي نظره إليك قتله، قال: لا، ولكن كان صاحبكم صادقاً، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله، لأنه في مقام المريدين، فقتله ذلك.

ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم؟ فسكت ثم قال: إنّ لله عباداً في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في لبلة واحدة؛ ولكن لا يفعلون، قيل: لم؟ قال: لأنهم لا يحبون ما لا يحب، ثم ذكر من إجابة الله تعالى أشياء لا يستطاع ذكرها، حتى قال: ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها، وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها؛ فإن القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له، ولذلك كان أبو يزيد يقول: إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك، فإنّ عنده قوق ذلك أضعافاً مضاعفة، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به، وهذا بلاء مثلهم ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين في الهواء، عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن، فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوماً، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال، وقيل لي: انظر إليهن، قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي حوراء فوقهن في الحسن والمناه، وقيل لي: انظر اليهن، قال: فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن وقلت: أعوذ بك مما سواك! لا حاجة لي بهذا، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن اللا عني.

فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسي لضاق مجال الإيمان عليه، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص، وإخراج حظوظ النفس، وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهراً وباطناً، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصناً بحصن الخمول. فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم، وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس. وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادي الحق، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجري مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة، فنظر المنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكي صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئي فيها عند ظهور جوهرها، وإنكار ذلك غاية المجل والضلال.

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء، إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه، وبنس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئاً ولو من مباه: مبادي الطريق، كما قبل لبشر: بأي شيء بلغت هذه المنزلة؟ قال: كنت أكاتم الله تعالى حالي. معناه: أسأله أن يكتم علي ويخفي أمري، وروي أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له: ادع الله تعالى لي، فقال: يسر الله عليك طاعته، قلت: زدني، قال: وسترها عليك. فقيل: معناه سترها عن الخلق، وقبل: معناه سترها عن الخلق، وقبل:

وبالجملة: فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني: القلوب المتكبرة، المعجبة بأنفسها، المستبشرة بعملها وعلمها. وأقرب القلوب إليها: القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعاراً إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه، فإذا لم يحس بالذِّل ولم يشعر أيضاً بعدم التفاته إلى الذل، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلاً في حقه، بل يرى نفسه دون ذلك، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته. فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادىء هذه الروائح، فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله، فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محباً لأولياء الله مؤمناً بهم فعسى أن يحشر مع من أحب. ويشهد لهذا ما روي: أن عيسى عليه السلام قال لبني إسرائيل: أين ينبت الزرع؟ قالوا: في التراب، فقال: بحق أقول لكم: لا تنبت الحكمة إلا في قلب مثل التراب. ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة، حتى روي: أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات، ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرّة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال: قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت. وعنه أيضاً أنه قال: نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح، فتشتت علي قلبي، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت، وجعلت أمشي قليلاً قليلاً. فلحقوني فنزعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربأ، فمصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسى.

فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس، فإن الممتنت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى، وشغله بنفسه حجاب له، قليس بين القلب وبين الله حجاب بُعَد وتخلل حائل، وإنما بُعْدُ القلوب شغلها بغيره أو بنفسها، وأعظم الحجب شغل النفس.

⁽١) حديث: قرب أشمث أقبر ذي طعرين، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

ولذلك حكى: أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد، فقال له يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً وأنا أصدق به وأحبه، فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثماثة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرّة! قال: ولم؟ قال: لأنك محجوب بفسك، قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم، قال: قل لي حتى أعمل، قال: اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصيان حولك وقل كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل: سبحان الله! تقول لي مثل هذا! فقال أبو يزيد: قولك: قسبحان الله، شرك، قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك! فقال: هذا لا أفعله ولكن دلني على غيره! فقال: ابتدىء بهذا قبل كل شيء. فقال: لا أطيقه، قال: قد قلت لك إنك لا تقبل؟. فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواه من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه، ولا ينحي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله، فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من داوى نفسه بعد المرض، أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً. فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً.

⁽۱) حديث: «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف، ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة، وعلى هذا فهر معضل فعلي بن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجد له أصلاً.

 ⁽۲) حديث: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم. ، ، ۱ الحديث . أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه عبدالواحد.

 ⁽٣) حديث: (لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال: إذا فضب لم يخرجه فضبه هن الحق. . . » الحديث.
 أخرجه الطيراني في الصغير بلفظ: وثلاث من أخلاق الإيمان و إسناده ضعيف.

 ⁽³⁾ حديث: فثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل حاود: العدل في الرضا والغضب، خريب يهذا اللفظ، والمعروف:
 قالات منجيات . . . ».

أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: إنما أتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري، ولا يكون له هم غيري، ولا يؤثر عليَّ شيئاً من خلقي، وإن حُرِق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألماً. فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات؟ وكل ذلك وراء الحب، والحب وراء كمال الإيمان، ومقامات الإيمان وثفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له. ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ اللهُ تَعَالَى فَي الزيادة والنقصان لا حصر له. ولذلك قال عليه السلام للصديق رضي الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَمِن آمَن بِي مِن أُمِّتِي وَأَعْطَانِي مِثْلَ إِيمانِ كُلِّ مَن آمَن بِهِ مِنْ وَلَد آدَمَه (١٠)، وفي حديث آخر: ﴿إِنَّ لللهِ تَعَالَى اللهُ تَعَالَى اللهُ عَلَى اللهُ بَعْلَى إِلهُ بَكُو وَاحْبُها إلى اللّهِ تَعَالَى السّخاء» (١٠)، وقال عليه السلام: ﴿ وَأَيْتُ مِيزَاناً دُلِي مِن السّمَاءِ فَوْضِعْتُ فِي كِفُةٍ وَوْضِعَتْ أُمْتِي فِي كِفُةٍ فَرَجَعْت المِيهُ، وَوُضِعَ بِهِمْ، وَوُضِعَ أُبُو بَكُر فِي كِفُةٍ وَجِيءَ بِأُمْتِي فَوْضِعَتْ فِي كِفَةٍ فَرَجَعَ بِهِمْ، ومع هذا كله فقد كأن استغراق رسول الله يَعْق بِلهَ وَعِيء بِأُمْتِي فَوْضِعَتْ فِي كِفَةٍ فَرَجَعَ بِهِمْ، ومع هذا كله فقد كأن استغراق رسول الله يَعْق بِلهَ وَلهِ للخلة مع غيره فقال: ﴿ فَوْ كُنْتُ مُتَخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا وَلْكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللّهِ تَعَالَى، فَا يعني نفسه.

خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها:

قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله على وقال غيره: دوام الذكر، وقال غيره: إيثار المحبوب، وقال بعضهم: كراهية البقاء في الدنيا. وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة، فأما نفس المحبة فلم يتعرّضوا لها، وقال بعضهم: المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عمارته، وقال المجنيد: حرّم الله تعالى المحبة على صاحب المعلاقة. وقال: كل محبة تكون بعوض فإذا عمارته، وقال المحبة، وقال ذو النون: قل لمن أظهر حب الله: احذر أن تذلّ لغير الله، وقيل للشبلي رحمه الله: صف لنا العارف والمحب، فقال: العارف إن تكلم هلك، والمحب إن سكت هلك، وقال الشبلي رحمه الله:

يسا أيُسها السسيِّدُ السكسريسمُ حبيّك بسيسن السحسسا مسقيدمُ يسا وافسعَ السنسوم عسن جسفونسي أنست بسمسا مسرّ بسبي عسلسيسمُ

 ⁽١) حديث: إنه قال للصديق: ﴿إِن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي... الحديث, أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير، والحارث ضعيف.

⁽٢) حديث «إن أنه تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً من الله: «خلقت بضمة عشر وثلاثمائة خلق من جاه بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا ألله دخل الجنة»، ومن حديث ابن عباس. «الإسلام ثلاثمائة شريعة وثلاث عشرة شريعة»، وفيه وفي الكبير من رواية المخيرة بن عبدالرحم بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ: «الإيمان»، وللبزار من حديث عثمان بن عقان: «إن أنه تعالى مائة وسبعة عشرة شريعة ...» الحديث، وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضغيفة.

 ⁽٣) حديث: الرأيت ميزاناً علي من السماء قوضعت في كفة ووضعت أمتي في كفة فرجعت بهم...> الحديث. أخرحه
أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف.

 ⁽٤) حديث: الوكنت متخلاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكو خليلاً...» الحديث. متفق عليه، وقد تقدم.

ولغيره:

عببت لمن يقول ذكرت إلى في المسود إذا ذكرت المسود إذا ذكرت السم أحسبا في أحسبا بالمستدى وأمود شوقاً شربت السحب كالسا بسعد كاس فيليت خياله نعسب لعيني

وهدل أنهسسى فدأذكر مدا نسسيستُ ولدولا حسسن ظهندي مدا حديديتُ فكرم أحديدا عدلمديدك وكدم أمدوتُ فدمدا ندفدد الدشدراب ومدا رويدت؟ فدإن قدصدرت فدي نسظري عدمديدتُ

وقالت رابعة العدوية يوماً: من يدلنا على حبيبنا، فقالت خادمة لها: حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه. وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: إني إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والأخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي. وقيل: تكلم سمنون يوماً في المحبة فإذا بطائر نزل بين يديه؛ فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات، وقال إبراهيم بن أدهم: إلهي: إنك تعلم أنَّ الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك. وقال السري رحمه الله: من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عبوبه فتاش، وقيل لرابعة: كيف حبك للرسول ﷺ؟ فقالت: والله إني لأحبه حباً شديداً، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين. وسئل عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال: الرضا عن الله تعالى والحب له. وقال أبو يزيد: المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاه مولاه. وقال الشبلي: الحب: دهش في لذة، وحيرة في تعظيم. وقبل: المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك. وقبل: المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح. وقال الخوّاص: المحبة محو الإرادات واحتراق الصفات والحاجات. وسئل سهل عن المحبة فقال: عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه. وقيل: معاملة المحب على أربع منازل: على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم، وأفضلها التعظيم والمحبة؛ لأنَّ هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما. وقال هرم بن حبان: المؤمن إذا عرف ربه عزّ وجلّ أحبه، وإذا أحبه أقبل علبه، وإدا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الأخرة بعين الفترة، وهي تحسره في الدنيا وتروَّحه في الآخرة. وقال عبدالله بن محمد: سمعت امرأة من المتعبدات تقول ـ وهي باكية والدموع على خدها جارية ـ: والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تَعالى وحباً للقائه، قال: فقلت لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولكن لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلىّ وتقطعت أوصالهم من محمتي. يا داود، هذه إرادتي في المدبرين عليٌّ فكيف إرادتي في المقبلين عليٌّ، يا داود، أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجل ما يكون عبدي إذا رجع إليّ. وقال أبو خالد الصفار: لقي نبي من الأسبياء عابداً فقال له: إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق. وقال الشبلي رحمه الله: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ذكري للذاكرين، وجنتي للمطيعين، وزيارتي للمشتاقين، وأنا خاصة

للمحبين، وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام: يا آدم، من أحب حبيباً صدّق قوله، ومن أنس بحبيبه رضي فعله، ومن اشتاق إليه جدّ في مسيره، وكان الخوّاص رحمه الله يضرب على صدره ويقول: واشوقاه لمن يراني ولا أراه، وقال الجنيد رحمه الله: بكى يونس عليه السلام حتى عمي، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد، وقال: وعزتك وحلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقا مني إليك، وعن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «المَعْرِقَةُ مَرْكَبي وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسي وَالثَّقَةُ كَنْزِي وَالحُرْن رَفِيقي رَأْس مَالي وَالعَقْلُ أَصْلُ دِيني وَالحُبُ أَسَاسِي وَالشَّوقُ مَرْكَبي وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسي وَالثَّقَةُ كَنْزِي وَالحَدْقُ شَفِيعي رَاس مَالي وَالعَقْلُ أَصْلُ دِيني وَالحَدْقُ أَسَاسِي وَالشَّوقُ مَرْكَبي وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسي وَالثَّقَةُ كَنْزِي وَالحَدْقُ شَفِيعي وَالعَلْمُ سِلاَحِي وَالعَقِلُ أَصْلُ دِيني وَالرَّضَا غَنِيمَتِي وَالعَجْرُ فَخْرِي وَالرَهْدُ حِرْفَتِي وَاليَقِين قُوتِي وَالصَّدْقُ شَفِيعي وَالعَلْمُ سِلاَحِي وَالعَقِلُ أَصْلُ دِيني وَالرَّضَا غَنِيمَتِي وَالعَجْرُ فَخْرِي وَالرَهْدُ حِرْفَتِي وَاليَقِين تُولِي وَالصَّدُقُ شَفِيعي وَالعَقْرُ مَن جعل الأرواح جنوداً وَالطَّاعَةُ حُبِي وَالْحِهادُ خُلْقِي وَقُرَّةً عَيْنِي فِي الصَّلاةِ اللهِ الله تعالى، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك اشتاقوا إلى الدنيا، وقال بعض المشايخ: رأيت في جبل حنوا إلى الجنة، وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا، وقال بعض المشايخ: رأيت في جبل حنوا إلى المورة أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول:

ويقال: الشوق نار الله أشعلها في قلوب أولياته حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات، فهذا القدر كاف في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا، فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب.

تم كتاب المحبة والشوق والأنس، يتلوه كتاب النية والإخلاص والصدق.



⁽١) حديث علي: سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال: «المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني. . . ٤ الحديث. ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب، ولم أجد له إسناداً.

بند أَهُ النَّفِ النَّهَدُ

﴿ كتاب النية والإخلاص والصدق



وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانيته إقرار الصادقين، ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، وخالق السموات والأرضين، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقرّبين؛ أن يعبدوه عبادة المخلصين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرُمُوا إِلّا لِيَعَبُدُوا أَلَتَ عُلِينَ لَهُ اللّبِينَ [البَيْنَة: ٥] فما لله إلا الدين المخالص المتين، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين، وعلى جميع النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أما بعد: فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون، والعالمون، والعاملون، والعاملون، والعاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نيئة عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنفاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء، وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوماً مفموراً: ﴿ وَقَيْمُنَا إِلَىٰ مَا عَبِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَمَلَنَاهُ هَبَا أَنَهُ مَناؤُوا الله تعالى في الله من صحح النية القرقان: ٢٢] وليت شعري: كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ فالوظيفة الأولى على كل عبد أواد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلنا العبد إلى النجاة والخلاص.

ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: في حقيقة النية ومعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائقه.

الباب الثالث: في الصدق وحقيقته.

الباب الأول

في حقيقة النية ومعناها

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيراً من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيان فضيلة النية:

قال الله تعالى: ﴿وَلا تَطُرُو الّذِينَ يَدْعُونَ رَبُهُم إِلْفَدَوْ وَالْمَيْقِ بُرِيدُونَ وَجَهَمٌ ﴾ [الانتام: ٢٥] والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا الأَصْمَالُ بِالنيَّاتِ وَلِكُلُ الْمَرِيءِ مَا فَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى مُنْيَا يُصِيبُهَا أَو الْمَرْأَةِ يَلْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ اللّهُ أَعْلَمُ بِيَبِيهِ أَنْ وَقالَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى مُنْيَا يُصِيبُهَا أَو الْمَرْقِ يَلْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِللّهُ أَعْلَمُ بِيئِتِهِ أَنْ وَقالَ اللّهُ عَلَى اللّهُ أَعْلَمُ بِيئِتِهِ أَلَهُ مَنْ وَرُبُ قَنِيلٍ بَيْنَ الطَّمَّقِينِ اللّهُ أَعْلَمُ بِيئِتِهِ أَنْ اللّهُ تَعَالَى لا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُومِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ أَنْ اللّهُ مَاللّهُ مَا يَنْهُ اللّهُ مَا يَنْهُ إِلَى القلوب لأَنها اللّهُ تَعَالَى فَيْعَلُ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ يَنْهِ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ وَلَا اللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ وَلَكُولُونَ اللّهُ مَنْ أَنْهُ لَمْ يَعْمَلُ شَيْئًا مِنْ وَلَهُ الْمُلْوكُةُ الْمُنْفِقُ اللّهُ تَعَالَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلْ وَلَا اللّهُ مَنْ اللّهُ مَا أَنْهُ اللّهُ عَلَى مَالّهِ فَيْقُولُ وَجَلّ عِلْما فَهُمَا فِي الْمُحْرَقُ اللّهُ عَمْلُ مَنْ اللّهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْما فَهُو اللّهُ مَنْ اللّهُ مَا أَنَاهُ اللّهُ تَعَالَى مَالاً وَلَوْلَا أَلْهُ مَنْ مَالِكُ وَلَمْ يَوْتِهِ عِلْما فَهُو اللّهُ عَمْلُ مَا اللّهُ تَعَالَى مَالاً وَلَمْ يَوْتِهِ عِلْما فَهُو اللّهُ عَمْلُ وَاللّهُ مَنْ اللّهُ مَنْ اللّهُ عَمْلُ فَهُمَا فِي الْورْرِ سَوّاء أَنْ اللّهُ عَمْلُ مَا اللّهُ عَمْلُ مَا اللّهُ عَلَى مَالِهُ وَلِمُ اللّهُ عَمْلُ فَهُمَا فِي الْورْرِ سَوّاء أَنْ اللّهُ عَمْلُ وَاللّهُ عَمْلُ فَهُمَا فِي الْورْرِ سَوّاء أَنْ اللّهُ عَمْلُ فَلَمُ الللهُ عَمْلُ مَا اللّهُ عَلَى الللهُ عَلَى الللهُ الللهُ عَلْ الللهُ عَلَى الللهُ عَلْ الللهُ اللّهُ عَلْ الللهُ اللهُ اللهُ عَلْ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الل

⁽١) حديث: ﴿إِنَّمَا الْأَمْمَالُ بِالنَّبِاتِ. . . ٤ الحديث. متفق عليه من حديث عمر، وقد تقدم.

 ⁽۲) حدیث: «أكثر شهداه أمتي أصحاب الفرش ورب قتبل بین الصفین الله أعلم بنیته» أخرجه أحمد من حدیث ابن مسعود وفیه عبدالله بن لهیمة.

 ⁽٣) حديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم.. » الحديث. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

⁽٤) حديث: فإن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة. . . » الحديث. أخرجه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حس.

حديث: «الناس أربعة: رجل آتاه الله علماً ومالاً...» الحديث. أخرجه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ: «مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر...» الحديث. وقد تقدم، ورواه الترمذي بزيادة وفيه: «وإنما الدنيا لأربعة نفر...» الحديث. وقال: حسن صحيح.

⁽٢) حديث أنس: ﴿ إِنْ بِالمَدِينَةُ أَقُواماً مَا قَطَعَنا وَلَدِياً . . ﴾ الحديث. أخرجه المخاري مختصراً وأبو داود.

شَيْناً فَهُوَ لَهُ، فَهَاجَر رجل فتزوّج امرأة منا فكان يسمى مُهَاجِرَ أُم قَيْسٍ (''). وكذلك جاء في الخبر: ﴿إنَّ رَجُلاً قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكَانَ يُدْعَى قَتِيلَ الْجِمَارِ ('')، لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نبته. وفي حديث عبادة عن النبي ﷺ: قمَنْ خَزَا وَهُوَ لا يَنْوِي إلاّ عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى (")، وقال أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال: لا، حتى تجعل لي جعلاً، فجعلت له، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «لَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخرَتُهُ إلا مَا جَعَلْتَ لَهُ (').

وروي في الإسرائيليات: أن رجلاً مرَّ بكثبان من رمل في مجاعة فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له: إن الله تعالى قد قبل صدقتك، وقد شكر حسن نيتك، وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدقت به، وقد ورد في أخبار كثيرة: همَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلُها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ (٥). وفي حديث عبدالله بن عمرو: «مَنْ كانَتِ الدُّنْيا نِيْتَهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ مَيْنَيْهِ وَفَارَقَها أَرْغَبُ مَا يَكُونُ فِيها وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيْتَهُ جَعَلَ اللَّهُ تَمَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَةُ وَفَارَقَها أَرْغَبُ مَا يَكُونُ فِيها وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيْتَهُ جَعَلَ اللَّهُ تَمَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتُهُ وَفَارَقَها أَرْغَبُ مَا يَكُونُ فِيها وَمَنْ تَكُنِ الآخِرَةُ نِيْتَهُ جَعَلَ اللَّهُ تَمَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتُهُ وَفَارَقَها أَرْهَبُ مَا يَكُونُ فِيها المَكره والأجير فقال: «يُحْشَرُونَ عَلَى نِتَاتِهِمْ» (٧)، وقال عمر رضي الله فقلت: يا رسول الله، يكون فيهم المكره والأجير فقال: «يُحْشَرُونَ عَلَى نِتَاتِهِمْ» (٧)، وقال عمر رضي الله عنه: سمعت رسول الله يَسْ يقول: «إِنِّما يَقْتَتِلُ المُقْتَتِلُونَ عَلَى النَبْاتِ» (٨)، وقال عليه السلام: «إذا الْتَقَى على مَرَائِيهِمْ فُلانً يُقَاتِلُ طِلْمَانً يُقَاتِلُ حَمِيّةَ فُلان يُقَاتِلُ عَمِينِ الله فَي سَبِيلِ اللهِ فَمَنْ قَاتَلُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْمُلْيَا فُلانٌ يُقَاتِلُ حَمِي سَبِيلِ اللهِ الله إلله وَى المُعْتَلُ الله فِي المُعْلَى الله عَلَى المُعْتَلُ وَلَوْلُوا: فُلانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَمَنْ قَاتَلُ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ المُعْلَى الْمُعْتِ فِي سَبِيلِ الله إلله (١٠)، وعن

⁽۱) حديث ابن مسمود: قمن هاجر بيتقي شبئاً فهو قه هاحر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى: مهاحر أم قيس، أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

 ⁽۲) حديث: إن رجلاً قتل في سبيل الله فكان بدعى قتيل الحمار؟ لم أجد له أصلاً في الموصولات، وإنما رواه أمو
إسحاق الفراوي في السنن من وجه موسل.

 ⁽٣) حديث: (من فزا وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوى أخرجه السائي من حديث عبادة بن الصامت، وتقدم غير مرة.

⁽³⁾ حديث أبي: استعنت رجلاً يغزو معي فقال: لا، حتى تجعل لي جعلاً فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: اليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلته له، أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية: أنه استأجر أجيراً للغزر وسمى له ثلاثة دنائير فقال النبي ﷺ: وما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره الذي سمى.

⁽٥) حديث: امن همُّ بحسنة قلم يعملها كتبت له حسنة. متفق عليه، وقد تقدم.

⁽١) حديث عندالله بن عمرو: امن كاتت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه . . . » الحديث . أخرجه ابن ماجه من حليث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله: «وفارقها أرغب ما يكون فيها» وفيه زيد بن ثابت بإسناد جيد دون عمره . وفارقها أرغب ما يكون فيها وفيه زيادة، ولم أجده من حديث عبدالله بن عمره .

 ⁽٧) حديث أم سلمة: في الجيش الذي يخسف بهم البحشرون على نياتهما أخرجه مسلم وأبو داود، وقد تقدم.

 ⁽A) حديث: «إنما يقتنل المقتنلون على النيات» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد
ضعيف بلفظ: «إنما ببعث»، ورويناه في فوائد تمام بلفظ: «إنما يبعث المسلمون على النيات» ولابن ماجه من حديث
أبي هريرة «إنما يبعث الناس على نياتهم» وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه.

⁽٩) حديث: ﴿إِذَا التَّلَى الْمِنْفَانِ نَزَلْتُ المَلِائُكَةُ تَكْتَبِ الْحُلِقُ مَلَى مَرَاتِبِهم: فلان يقاتل للفئيا. . ٩ الحديث . أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففي الصحيحين من حديث أبي موسى: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

جابر: عن رسول الله على أنه قال: النبعث كُلُ عَبْدِ عَلَى ما مَاتَ عَلَيهِ ('')، وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة: اإذا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بَسَيفَيهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ قَيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: الأنه أزَادَ قَتْلُ صَاحِبِهِ (''). وفي حديث أبي هريرة: «مَنْ تَزَوَّجُ امْرَأَةُ عَلَى صَدَاقِ وَهُوَ لا يَنْوِي قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ (''')، وقال عَيْدٍ: هَمْنُ تَطَيْبَ لِلّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيْبَ لِغَيْرِ اللّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيْبَ لِغَيْرِ اللّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيْبَ لِغَيْرِ اللّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيْبَ لِغَيْرِ اللّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَنْ تَطَيْبَ لِغَيْرِ اللّهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَنْتُنُ مِنَ الْجِعَةَةِ ('').

وأما الآثار: فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرّم الله تعالى، وصلق النية فيما عند الله تعالى. وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز: اعلم: أنَّ عون الله تعالى للعبد على قدر النية؛ فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره، وقال بعص السلف: رب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية. وقال داود الطائي: البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة، وكذلك الجاهل معكس ذلك. وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل. وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمت ثنوي الخير فأنت بخير. وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى؛ فإني لا أحب أن يأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله، فقيل له: قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهمّ بعمله فإنّ الهام بعمل الخير كعامله. وكذلك قال بعض السلف: وإنّ نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها، وإنّ ننوبكم أخفى من أن تعلموها، ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك. وقال عيسى عليه السلام: طوبي لعين نامت ولا تهم بمعصية وانتبهت إلى غير إثم. وقال أبو هريرة: يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ: ﴿وَلَنْبَلُونَّكُمْ حَنَّن مَلْزَ ٱلْمُجَهِدِينَ مِنكُرُ وَالصَّدِهِينَ وَبَنْلُوا لَغَبَارَكُرُ ۞﴾ [مخمَّد: ٣١] يبكي ويرددها ويقول: إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. وقال الحسن: إنما خلَّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات. وقال أبو هريرة: مكتوب في المتوراة: ما أريد به وجهي فقليله كثير، وما أريد به غيري فكثيره قليل. وقال بلال بن سعد: إنَّ العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عزَّ وجلَّ وقوله حتى ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه، فإن تورّع لم يدعه حتى ينظر ماذا نوى، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك، فإذن: عماد الأعمال النيات، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً، والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بعائق.

⁽١) حديث جابر: البحث كل هيد على ما مات هليه، رواه مسلم.

 ⁽٢) حديث الأحنف عن أبي بكرة: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» متفق عليه.

 ⁽٣) حديث أبي هريرة: (من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أدامه فهو زان، أخرجه أحمد من حديث صهيب، ورواه
 ابن ماجة مقتصراً على قصة: الدين، دون ذكر: الصداق.

⁽٤) حديث: قمن تطبب لله جاء يوم القيامة وربحه أطبب من المسك. . . ٤ المحديث. أخرجه أبو الوليد الصفار في كتاب المصلاة من حديث إسحاق بن أبى طلحة مرسلاً.

بيان حقيقة النية:

اعلم: أنَّ النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حالة وصفه للقلب يكتنفها أمران: علم، وعمل.

العلم: يقدمه؛ لأنه أصله وشرطه.

والعمل: يتبعه؛ لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأنَّ كل عمل ـ أعني كل حركة وسكون ـ اختياري فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم، وإرادة، وقدرة. لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه فلا بدّ وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يرد فلا بدّ من إرادة. ومعنى الإرادة: انبعاث القلب إلى ما يراه موافقاً للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ويلاثم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فيمحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار المنافي عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع؛ حتى يجلب هذا ويهرب من هذا، قإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرقه لا يمكنه أن يتناول، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسباباً وهي الحواس الظاهرة والباطنة ـ وليس ذلك من غرضنا ـ، ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه؛ إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحرّكة إليه، فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والإرادة ـ وأعني به نزوعاً في نفسه إليه وتوجهاً في قلبه إليه ـ، ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه مريد تناوله عاجزاً عنه لكونه زمناً؟ فخلقت له القدرة والأعضاء المتحرّكة حتى يتم به التناول، والعضو لا يتحرِّك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعية الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد؛ وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له، فإذا جزمت المعرفة بأنَّ الشيء موافق ولا بد وأن يفعل، وسمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء. فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة. فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل. فالمحرّك الأوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنوي، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل، إلا أنّ انتهاض القلرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين أجتمعا في فعل واحد، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع؟ وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً. فيخرج من هذا القسم أربعة أقسام: فلنذكر لكل واحد مثالاً واسماً.

أما الأوّل: فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرّد، كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع فإنه رأى السبع وعرفه ضارًا فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث، فيقال: نبته الفرار من السبع لا نبة له في القيام لغيره، وهذه النبة تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها "إخلاصاً" بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه: أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالإنهاض لو انفرد. ومثاله من المحسوس: أن

يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوّة كان كافياً في الحمل لو انفرد. ومثاله في غرضنا: أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته، وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرّد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرّد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته، وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه. وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأوّل فلنسم هذا «مرافقة للبواحث».

والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس: أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله في غرضنا: أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه، ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدّق بين الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر. وكذلك الرجل يتصدّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لا يبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء، على العطاء، ولو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدّق عليه لكان لا يبعثه مجرّد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب. ولنسم هذا الجنس «مشاركة».

والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لما انضاف إلبه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل، ومثاله في المحسوس: أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل، ولو انفرد القوي لاستقل، ولو انفرد الضعيف لم يستقل، فإن ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه، ومثاله في غرضنا: أن يكون للإنسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس، فصار الفعل أخف علة بسبب مشاهدتهم، وعلم من نفسه أنه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرباء يحمله عليه، فهو شوب تطرّق إلى النية، ولنسم هذا الجنس «المعاونة».

قالباعث الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً. وسنذكر حكمها في باب الإخلاص. والمغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه. ولذلك قيل: «إنما الأعمال بالنيات، لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وإنما الحكم للمتبوع.

بيان سر قوله ﷺ: «نِيَّةُ المُؤْمنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ»^(١):

اعلم: أنه قد يظن أنّ سبب هذا الترجيع: أنّ النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى، والعمل الظاهر ولعمل السر فضل، وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد؛ لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيراً من التفكر، وقد يظن أنّ سبب الترجيح: أنّ النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف، لأنّ ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك، فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم، والعموم يقتضي أن تكون نيته خيراً من عمله. وقد يقال: إنّ معناه: أنّ النية بمجرّدها

حديث: النية المؤمن خير من همله أخرجه الطبراتي من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواس بن مممان،
 وكلاهما ضعيف.

خير من العمل بمجرّده دون النية، وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد؛ إذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلاً، والنية بمجرّدها خير؛ وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير، بل المعنى: أنّ كل طاعة ننتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض أن للعبد اختياراً في النية وفي العمل، فهما عملان والنية من الجملة خيرهما؛ فهذا معناه.

وأما سبب كونها خيراً ومترجحة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد، وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود. فمن قال: الخبز خير من الفاكهة، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أنَّ للغذاء مقصداً وهو الصحة والبقاء، وأنَّ الأعذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض، فالطاعات غذاء للقلوب، والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة، وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط، ولن يتنعم بلقاء الله إلا من مات محباً لله تعالى عارفاً بالله، ولن يحبه إلا من عرفه، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له. فالآنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة، ولن يتفرّغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنبا، ولن يتفرّغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير ماثلاً إلى الخير مريداً له، نافراً عن الشر مبغضاً له، وإنما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنَّ سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما. وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه، فإنَّ المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها. فالماثل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفاً، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكُّد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع، وإن خالف مقتضى ميله ضعف مبله وانكسر ورمما زال وانمحق. بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي.

وهكذا جميع الصفات والخيرات والظلمات كلها هي التي تراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة. وميل النفس إلى المخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرّغها للذكر والفكر، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح، لأنّ بين الجوارح وبين القلب علاقة؛ حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون، إلا أنّ القلب هو الأصل المتبوع فكأنه الأمير والراعي، والجوارح كالخدم والرعايا والأتباع. فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: قانٌ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتُ صَلَحَ لها سَائِرُ

المَجَسَدِهُ (1). وقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِي وَالرَّعيَةَ (٢). وأراد بالراعي القلب. وقال تعالى: ﴿ لَنَ يَنَالُ اللَّهُ مَا لَكُمْ اللَّهُمُ اللَّهُ اللَّقَوَىٰ يَنكُمُّ ﴾ [النّجَ: ٢٧] وهي صفة القلب. فمن هذا الوجه يجب ان الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح. ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له.

وغرضنا من الأعمال بالجوارح: أن يعود القلب إرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من مفس المقصود، وهذا كما أنّ المعدة إذا تألمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر، وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضاً إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة، فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع.

فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها؛ إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أنّ في وضع الجبهة على الأرض غرضاً من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب، فإنّ من يجد في نفسه تواضعاً، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد ثواضعه، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبّله تأكدت الرقة في قلبه، ولهذا لم يكن إلعمل بغير نية مفيداً أصلاً، لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه يمسح ثوباً لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك من يسجد غافلاً وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلاً، فيقال: العبادة بغير نية باطلة. وهذا معناه إذا فعل من غفلة، فإذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب يكن وجوده كعدمه بل زاده شراً، فإنه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب يكن وجوده كون النية خير من العمل.

 ⁽١) حديث: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسدة متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، وقد تقدم.

٢) حديث: «اللهم أصلح الراعي والرعية». تقدم ولم أجده.

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

اعلم: أنَّ الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام: معاص وطاعات ومباحات.

القسم الأوَّل: المعاصي، وهي لا تتغير عن موضعها بالنية، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات؛ فيطن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يغتاب إنسانًا مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً أو رباطاً بمال حرام؛ وقصده الخير. فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية. بل قصده الخير بالشر _ على خلاف مقتضى الشرع _ شرّ آخر، فإن عرفه فهو معائد للشرع، وإن جهله فهو عاص يجهله؛ إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم، والخيرات إنما يعرف كونها خيرات للشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً؟ هيهات، بل المروّج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى؛ فإنَّ القلب إذا كان ماثلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل! قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئاً أشد من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل. وهو كما قال، لأنَّ الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم، فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم، ورأس العلم: العلم بالعلم، كما أنّ رأس الجهل: الجهل بالجهل، فإنّ من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الغنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم، والمقصود: أنَّ من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة للنعلم. وقد قال الله سبحانه: ﴿فَشَـٰتُواْ أَهْـٰلَ ٱلذِّكَرِ إِن كُنْتُهِ لَا تَمْلُمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وقال النبي ﷺ: ﴿لا يُعْذَرُ الجَاهِلُ عَلَى الجَهلِ، وَلا يَحِلُ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ، وَلا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ (١٠).

ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرّب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور؛ القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء، واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا، وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائباً عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى، ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى، ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضاً آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد ثبته وقصده، ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، ثم العجب من جهله حيث

⁽١) حديث: «لا يعدر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله...» الحديث، أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله: «لا يعدر الجاهل على الجهل» وقال: «لا ينبغي» بدل: «ولا يحل»، وقد تقدم في العلم.

يقول: ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنَّيَاتِ ﴿ وَقَدْ قَصَدْتَ بِذَلِكَ نَشْرَ عَلَمَ الَّذِينَ ۚ فَإِنْ استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير. وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك في قلبه، والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه. وليت شعري، ما جوابه عمن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده؛ ويقول: إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأُخلاق الله الجميلة، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله تعالى، فإن إعداد الخيل والرباط والقوَّة للغزاة من أفضل القربات، فإن هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي، وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى؛ حتى قال رسول الله على: «إنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلاثَمِاثَةٍ خَلْقِ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ مِوَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الجَنَّةَ وَأَحَبُّها إِلَيْهِ السَّخَاءُ ٢٠٠٠. فليت شعري: لم حرم هذا السخاء؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم، فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمدُّه بغبره؟ والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله تعالى، وقد يعاون به أعداء الله عزَّ وجلَّ وهو الهوى! فمن لا يزال مؤثّراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته؟ بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالى يتفقدون أحوال من يتردد إليهم، فلو رأوا منه تقصيراً في نفل من النوافل؛ أنكروه وتركوا إكرامه، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلال حرام؛ هجروه ونفوه عن محالسهم، وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوِّذ جميع السلف بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل، حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنيل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه، فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره، حتى قال: بلغني أتك طينت حائط دارك من جانب الشارع، وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم. فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم. وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدّم على الأقران.

فإذن: قوله عليه السلام: ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنَّيَاتِ، يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي؛ إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً، نعم، للنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها - كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة -.

القسم الثاني: الطاعات: وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها. أما الأصل؛ فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل: فبكثرة النيات الحسنة، فإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب؛ إذ كل

⁽١) حديث، قإن أن ثلاثمائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء، تقدم في كتاب المحبة والشوق.

واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها(١٠). كما ورد به الخبر.

ومثاله: القعود في المسجد؛ فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصبر من فضائل أعمال المتقين، ويبلغ به درجات المقرّبين.

أوّلها: أن يعتقد أنه بيت الله وأنّ داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله ﷺ حيث قال: «مَنْ قَعَدَ فِي المَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللّهَ تعالى وَحَقٌّ عَلَى المَزُودِ أَنْ يُكُرِمَ زَائِرَهُه (٢٠٠٠)

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ [آل عِمران: ٢٠٠].

وثالثها: الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات، فإنّ الاعتكاف كف وهو في معنى الصوم وهو نوع ترهب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي القُعُودُ في المُسَاجِدِ» .

ورابعها: عكوف الهم على الله، ولزوم السر للفكر في الأخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

وخامسها: التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روي في الخبر: «من خدا إلى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى (٤٠).

وصادسها: أن يقصد إفادة العلم بأمر بمعروف ونهي عن منكر؛ إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له؛ فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين، فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يستفيد أخاً في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك المحرمة، وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال: أخا مستفاداً في الله، أو رحمة مستنزلة، أو علماً مستظرفاً، أو كلمة تدل على هدى، أو تصرفه عن ردى، أو يترك الذنوب خشية أو حياء.

فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات والمباحات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات

⁽١) حديث: تضعيف الحسنة بعشر أمثالها، تقدم.

 ⁽٢) حديث: «من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره» أخرجه ابن حبان في الضعفاء من
حديث سلمان وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإستاد صحيح، وقد تقدما في
الصلاة.

 ⁽٣) حديث: (رهبائية أمتي القعود في المساجدة لم أجد له أصلاً.

٤) حديث: امن خدا إلى المسجد بذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى، هو معروف من قول كعب الأحبار، رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة: "من خدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج ناماً حجه، وإسناده جيد، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: "من خدا إلى المسجد أو راح أحد الله في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه. فبهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

الفسم الثالث: المباحات: وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة، ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات والخطوات واللحظات فكل فلك يسأل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال يشيخ: «حَلالُها حِسَابٌ وَحَرَامُها عِقَابُ (۱)، وفي حديث معاذ بن جبل: أن النبي على قال: «إن العَبْدَ قَلْ الْعَبْدَ لَيْسَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلُ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحلٍ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتَاتِ الطيئةِ بِاصْبَعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ لَيْسَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَنْ كُلُ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحلٍ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتَاتِ الطيئةِ بِاصْبَعَيْهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ لَيْسَالُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ وَمَنَ تَطَيْبَ لِلّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ وَمَنْ تَطَيْبَ لِنْهِ مَن الجِيفَةِ» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية.

فإن قلت: فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس، وكيف يتطبب لله؟.

قاعلم: أنّ من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التنعم بلذات اللنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أخرى لا تحصى. وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة إلا القصد الأوّل وهو التلذذ والتنعم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسأل عنه، ومن نوقش الحساب عذب. ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له يقدره، وناهيك خسرانا بأن يستعجل ما يفنى، ويخسر زيادة نعيم لا يفنى، وأما النية الحسنة فإنه ينوي به اتباع سنة رسول الله على يوم الجمعة ". وينوي بذلك أيضاً تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه، وأن يقصد حسم باب الغيبة وأن يقصد حسم باب الغيبة وأن يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل:

إذا تسرحسلست عسن قسوم وقسد قسدروا أن لا تسفسارقسهم فسالسراحسلسون مُسمُ وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُوا اللَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَبَسُبُوا اللَّهَ عَذْوًا بِفَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الانغام: ١٠٨]

حديث: «حلالها حساب وحرامها علاب»، تقدم. (أي: المباحات).

حدیث معاذ: «إن العبد لیسال بوم القیامة عن كل شيء حتى عن كحل عبتیه وعن فتات الطین بأصبعیه وعن لمسه
ثوب أخیه». لم أجد له إسناد.

⁽٣) حديث: «إن لبس الثباب الحسنة يوم الجمعة سنة» أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد: فمن اقتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان هنده ولبس أحسن ثبابه . . . الحديث. ولأبي داود وإبن ماجه من حديث عدائله بن سلام: فما على أحدكم لو اشترى ثومين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته»، وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين: «أن عمر رأى حلة سيراه عند باب المسجد فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة . . . » الحديث.

أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر، وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه. وإذا لم يغلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات، وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس، وليس ذلك من النية في شيء.

والمباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النبات فيها، فقس بهذا الواحد ما عداه، ولهذا قال بعض العارفين من السلف: إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن إلى الله تعالى، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين، فمن قصده من الأكل التقوّي على العبادة، ومن الوقاع تحصين دينه وتطبيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد ونقلب على مطبعاً بأكله ونكاحه، وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة، ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول: هو في سببل الله، وإذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه مأنه سيحمل سبئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته، ولينوي سنوجب الثار، ثم ينشؤ له من الأحمال الشالحة ما يستوجب به المجنّة فيتعجب ويقول: يا ربّ هفيه يستوجب الثار، ثم ينشؤ له من الأحمال الفيل الفيلي اغنابوك وآذرك وظلموك (١٠)، وفي الخبر: «إنّ العَبْدَ لَيتَعالَى ما عَمِلْتُها قَطْ؟ فيقال: هذه أحمال الذين اغنابوك وآذرك وظلموك (١٠)، وفي الخبر: «إنّ العَبْد فيتصل لهذا في العند: هذه أحمال الذين اغنابوك وآذرك وظلموك (١٠)، وفي الخبر: «إنّ العَبْد فيتصل لهذا من تعدل المخارة عن المخبر: «إنّ العَبْد فيقول الملائكة: قد فَنِيْتُ حسناته لهذا في طالون فيقول الملائكة: قد فَنِيْتُ حسناته ويقي طالون فيقول الملائكة: قد فَنِيْتُ حسناته ويقي طالون فيقول الملائكة عمالى: ألْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيْتُهُ عِلْ مُنْ صُكُوا لَهُ صَكا إلى النالم المنالية في المنالية وقد فَنِيْتُ حسنانه ويقول المنالة في طالون فيقول المائة عَمَالَى الله والمناله العَبْه عِنْ سَيْتُلُوه مَنْهُ صُكُوا لَهُ صَكاً إلى الناله المنالية والمناله المناله المناله والمناله المناله المناله المناله والمناله المنالة والمناله المناله والمناله المناله المنالة المناله المنالة المنال

وبالجملة: فإياك ثم إياك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحترز من غرورها وشرورها ولا تعدّ جوابها يوم السؤال والحساب، فإنّ الله تعالى مطلع عليك وشهيد ﴿ مَا يَلْهِظُ مِن فَوْلٍ إِلَّا لَدَبِهِ رَفِئُ عَيندٌ ﴿ مَا يَلُهِظُ مِن فَوْلٍ إِلَّا لَدَبِهِ رَفِئُ عَيندٌ ﴿ مَا يَلْهُ مِن السلف: كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جار لي فتحرّجت ثم قلت: تراب وما تراب! فتربته فهتف بي هاتف: صبعلم من استخف بتراب جاره ما يلقى غداً من سوء الحساب، وصلى رجل مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمذ يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوّه، فسأله عن فلك فقال: إني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله. وقد قال الحسن: إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله! فيقول: والله ما أعرفك؟ فيقول: بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطاً من ثوبي! فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين، فإن كنت من أولي العزم والنهى،

⁽١) حديث: (إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة . . . ٤ الحديث . وفيه: «هذه أعمال الذين افتابوك . . . ٤ الحديث . أخرجه أبو مصور الديلمي في مستد الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصراً : «إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه قيرى حسنات لم يعملها فيقول: هذا لى ولم أهملها فيقال: بما افتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة .

 ⁽٧) حديث: ﴿إِن العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال» وفيه: ﴿وَيَأْتِي قد ظلم هذا وشتم هذا. . . الحديث. تقدم مع
 اختلاف.

ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك، وراقب أحوالك، ولا تسكن ولا تتحرّك ما لم تتأمل أوّلاً أنك لم تتحرك وماذا تقصد، وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك من الآخرة، ويماذا ترجح الدنيا على الأخرة؛ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأمض عزمك وما خطر ببالك وإلا فأمسك، ثم راقب أيضاً قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بذ له من نية صحيحة، فلا يتبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه، ولا يغرنك ظواهر الأمور ومشهورات الحيرات، وافطن للأعوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار.

فقد روي عن زكريا عليه السلام: أنه كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجيراً لقوم فقد موا لم رغيفاً - إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده - فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ، فتعجبوا منه لما علموا من سخاته وزهده، وظنوا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام، فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة وقد موا إليّ الرغيف لأتقوى به على عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم. فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله، فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض. وقال بعضهم: دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال: لولا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه. وقال سفيان: من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فإن أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد، وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكره لو علمه. فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية، فإن لم تحضره النية توقف؛ فإنّ النية لا تدخل تحت الاختيار.

بيان أنَّ النية غير داخلة تحت الاختيار:

اعلم: أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنَّيَاتِ، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: نويت أن أدرّس لله أو آكل لله، ويظنّ ذلك نية وهيهات! فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر، أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك. وإنما النية: انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً.

والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرّد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: بويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه وأعظمه بقلبي، فذلك محال. بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه. وإنما تنبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملاثم لها، وما لم يعتقد الإنسان أنّ غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده. وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال. فإذا غلبت شهوة النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة؛ إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة منة هي إجابة الباعث ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يغلب على قلبه أن إقامة منة

النكاح (١) اتباعاً لرسول الله على يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه، وهو حديث محض ليس بنية. نعم، طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوي أوّلاً إيمانه بالشرع ويقوي إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد على ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره، فإذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحرّكه تلك الرغبة وتتحرّك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرة المحرّكة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً، فإن لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان.

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضرنا فيه نية، حتى إن ابن سيرين لم يصلٌ على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نية، ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى، فقالت: أجيء بالمرآة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم، فقيل له في ذلك فقال: كان لي في المملري نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى، ومات حماد بن سليمان - وكان أحد علماء أهل الكوفة - فقيل للثوري: ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كان لي نية لفعلت. وكان أحدهم إذا سئل عملاً من أعمال البر يقول: إن رفقي الله تعالى نية فعلت. وكان طاوس لا يحدّث إلا بنية، وكان يسأل أن يحدّث فلا يحدّث، ولا يسأل فيبتدىء! فقيل له في ذلك قال: أفتحبون أن أحدّث بغير نية؟ إذا حضرتني نية فعلت. وحكي: أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صفحاً ورده فقال: ما لك؟ قال: فيه أسانيد ضعاف، فقال له داود: أنا لم أخرجه على الأسانيد فانظر فيه بعين الخبر، إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت، قال أحمد: فرده عليّ حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعت به. وقبل لطاوس: ادع لنا! فقال: حتى أخرد معيم بن فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال: جزاك الله خيراً فقد انتفعت به. وقبل لطاوس: ادع لنا! فقال: حتى أخرد، مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ كثير: مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألا تعرض عليه العشاء؟ قال: ليس من نيتي.

وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النطر تغيرت النية، وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية لعلمهم بأن النية روح العمل، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف، وهو سبب مقت لا سبب قرب، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه: نويت، بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى، فقد تتيسر في بعض الأوقات وقد تتعلر في بعضها. نعم، من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية للخيرات فإن قلبه ماثل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً. ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد، وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه يقدر رغبته ونيته. وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا، وهذه أعز النيات وأعلاها، وبعز على بسيط الأرض من يفهمها

 ⁽١) حديث: (إن النكاح سنة رسول الله عليه. تقدم في أداب النكاح.

فضلاً عمن يتعاطاها. ونيات الناس في الطاعات أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار. ومنهم من يعمل إجابة لـاعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة، وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جملة النيات الصحيحة لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة، فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه ـ كالأجير السوء ـ.، ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله؛ إذ أكثر أهل الجنة البله. وأما عبادة ذوي الألباب فإنها لا تجاور ذكر الله تعالى والفكر فيه حبًّا لجماله وحلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعوم في الجنة فإنهم لم يقصدوها، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط، وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم، ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العيل ممن يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشدً، فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشدُّ وأعظم كثيراً من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين، بل استعظام النقوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها وإلفها لها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء، فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه، ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستحسنت عقل من يلتفت إليهنِّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُغْنَلِفِينَ ﴾ [مُود: ١١٨] - ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَّيْهِمْ لَرِحُونَ ﴾ [السومنون: ٥٣] ـ ﴿ وَلِلنَّالِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [تمود: ١١٩].

حكي: أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عزّ وجلّ في المنام فقال له: كل الناس يطلبون مني الجنة إلا أبا يزيد فإنه يطلبني، ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال: يا رب، كيف الطريق إليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال إليّ، ورُثي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد: قلت يوماً: أي خسارة أعظم من خسران الجنة؟ فقال: أي خسارة أعظم من خسران لقائي.

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها. ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء، فإنا نقول: من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لأن الأعمال بالنيات. وذلك مثل العفو فإنه أفضل من الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل. ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل، وليس تنبعث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم والنوم هو الأفضل له ، بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة. قال أبو الدرداء: إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق. وقال علي كرم الله وجهه: روّحوا القلوب فإنها إذا أكرهت عميت. وهذه دقائق لا يدركها إلا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم، بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وإنما يبتغي به أن يعيد أوّلاً قوته ليحتمل المعالجة بالضد، والحاذق في لعب الشطرنح مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس مجاناً ليتوصل بذلك إلى

الغلبة، والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه. وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيكر عليه فيقهره. فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب، والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته، وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما، ومن الله حسن التوفيق.

الباب الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَمُوا إِلَّا إِيَّهُوا الله عَلِينَ لَهُ اللِّينَ ﴾ [البَيْنَة وا وقال : ﴿ وَالْ الله اللَّهِ عَالَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَالْحَلَمُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللللللّهُ اللللللّهُ

⁽١) حديث: «ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل شه أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن يشير.

حديث مصعب بن سعد عن أبيه: أنه طن أن له فضلاً على من دونه من أصحاب النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "إنما نصر الله عده الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم" رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ: «هل تتصرون وترزقون إلا بضعفائكم».
 مصعب بن سعد بن أبي وقاص.

٣) حديث الحسن مرسلاً: فيقول الله تعالى: الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من هيادي، رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواته: سألت فلاتاً عن الإخلاص فقال: وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبدالواحد بن زيد عن حليفة عن النبي على عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبدالواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث على بن أبي طالب بسند ضعيف.

 ⁽٤) حديث: أنه قال لمعاذ: • أخلص العمل يجزك منه القليل أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذه وإسناده منقطع.

يُخْلِصُ لِلّٰهِ الْمَمَلَ أَرْبَحِينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَة مِنْ قَلْيِهِ عَلَى لِسَانِهِ ('). وقال عليه الصلاة والسلام: "أَوْلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاَثَةً: رَجْلُ آنَاهُ اللّٰه الْمِلْمَ فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ وَتَقُولُ المَّلَاثِكَةُ: كَذَبْتَ بَلْ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَقُومُ آنَاءَ اللّٰيلِ وَأَطْرَافَ النّٰهُ اللّٰهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ وَتَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى: فَلانٌ عَالِمُ الاَّ فَقَدْ قِيلَ ذَٰلِكَ. وَرَجُلُ آنَاهُ اللّٰهُ مَالاً فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى: لَقَدْ أَتْعَمْتُ عَلَيْكَ فَمَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ آنَاءَ اللّٰيلِ وَأَطْرِافَ النّهَارِ. فيقول الله تعالى: كذبت وتقول الملاتكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد ألا فقد قيل ذلك. وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبَيلِ اللّٰهِ تَعَالَى فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى فَيقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى فَيقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ فَيَقُولُ اللّٰهِ تَعَالَى فَيقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى مَاذَا صَنَعْتَ فَيقُولُ اللّٰهِ تَعَالَى فَيقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى عَلْهُ عَلَيْتُ مَا فَيْعُولُ اللّٰهُ تَعَالَى فَيقُولُ اللّٰهُ الْمُنْفِقُ اللّٰهُ عَلَيْكُ أَلْ خَلْقَ تُسْعَلُ عَلْ أَلْهُ عَلَيْ اللّٰهِ عَلَى اللّٰهِ عَلَى اللّٰهِ عَلَيْ تُعَلِّى أَلْكَ عَلَى اللّٰهِ الْمُنْ عَلَى اللّٰهِ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ الْمُؤْلِقُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ عَلَى اللّٰهِ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهُ الْمُؤْلُقُ اللّٰهُ الْمُؤْلِقُ أَولُ خَلْقُ اللّٰهُ عَلَى اللّٰهِ الْمُؤْلِقُ اللّٰهُ الْمُؤْلِقُ اللّهُ اللّٰهُ اللّٰهُ الللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ الللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ الللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ اللّٰهُ الللّٰهُ الللّٰهُ اللللّٰهُ الللّٰهُ الللّهُ اللّٰهُ اللّٰهُ الللّٰهُ الللّٰهُ الللللّٰهُ الللّٰهُ اللّٰهُو

وفي الإسرائيليات: أن عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا: إنَّ هاهنا قوماً يعبدون شحرة من دون الله تعالى، فغضب لذلك وأخذ فأسه على عائقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة، قال: وما أنت وذاك! تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرّغت لغير ذلك! فقال: إنَّ هَذَا من عبادتي، قال: فإني لا أتركك أن تقطعها، فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس: أطلقني حتى أكلمك، فقام عنه فقال إبليس: يا هذا، إنَّ الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك! وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك، وله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها! فقال العابد: لا بدُّ لي من قطعها، فنابذه للقتال فعلبه العار وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له: هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خبر لك وأنفع؟ قال: وما هو؟ قال: أطلقني حتى أقول لك، فأطلقه فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كلُّ على الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس! قال: نعم، قال: فارجع عن هذا الأمر ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كلِّ ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت علَّى نفسك وعيالك وتصدّقت على إخوانك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئاً، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها! فتفكر العابد فيما قال وقال: صدق الشيخ! لست ىنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها، وما ذكره أكثر منفعة، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلى متعبده فبات، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئاً. فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له: إلى أين؟ قال: أقطع تلك الشجرة فقال: كذبت، والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها، قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أوَّل مرة

 ⁽١) حديث: (ما من عبد يخلص لله أربعين يوماً) أخرجه ابن عدي، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى، وقد تقدم.

 ⁽٢) حديث: قاول من يسأل يوم القيامة ثلاثة: رجل آناه الله العلم. . . ١ الحديث. قد تقدم.

فقال: هيهات، فأخذه إبليس وصرعه، فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال: لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك؟ فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، قال: يا هذا، غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أوّلاً وغلبتني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أوّل مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك، وهذه المرّة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك.

هذه الحكايات تصديق قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُعْلَمِينَ ١٤٠ [الججر: ٤٠] إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص، ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول: يا نفس، أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيثانه. وقال سليمان: طوبي لمن صحت له خطوة واحدة لا يربد بها إلا الله تعالى. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس. وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل. وقال أيوب السختياني: تخليص النيات على العمال أشدّ عليهم من جميع الأعمال. وكان مطرف يقول: من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه. ورُئي بعضهم في المنام فقيل له: كيف وجدت أعمالك؟ فقال: كل شيء عملته لله وجدته، حتى حبة رمان لقطتها من طريق، وحتى هرّة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات، وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثواباً فقلت: موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها؟ فقيل لي: إنه قد وجه حيث بعثت به، فإنه لما قيل لك: قد مات، قلت: في لعنة الله، فبطل أجرك فيه، ولو قلت: في سبيل الله، لوجدته في حسناتك. وفي رواية قال: وكنت قد تصدّقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم إلى فوجدت ذلك لا على ولا لي. قال سفيان ـ لما سمع هذا ـ: ما أحسن حاله؟ إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه. وقال يحيى بن معاذ: الإخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم. وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم، فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش، فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله تعالى بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا: أن أطلقوا الحرّة فقد وجدنا

وقال بعض الصوفية: كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشيء فقال أبو عبيد: لا، فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أن أحج معه، قلت: لا، قلت: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نية وقد نويت أن أتمم هذه الأرض العشية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرّضت لمقت الله تعالى، لأني أدخل في عمل الله شيئاً غيره، فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة.

ويروى عن بعضهم قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت: أشتريها فأنتفع بها في غزوي، فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأنّ شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة، فأملي عليه: خرج فلان متنزهاً وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله، ثم نظر إلي وقال: اكتب فلان خرج تاجراً، فقلت. الله الله في أمري! ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت إلا للغزو، فقال: يا شيخ، قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجراً فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال: اكتب خرج فلان غازياً إلا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عزّ وجلّ فيه بما يرى. وقال سري السقطي رحمه الله تعالى: لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو. وقال بعضهم في إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز. ويقال: العلم بذر والعمل زرع وماؤه الإخلاص. وقال بعضهم: إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ومنعه ثلاثاً؛ أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها، وقال الجنيد: إن لله عباداً الصدق فيها، وقال الجنيد: إن لله عباداً عقلوا فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع. وقال محمد بن سعيد المروزي: الأمر كله يرجع إلى أصلين: فعل منه بك، وقعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل. فإذن: أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين.

بيان حقيقة الإخلاص:

اهلم: أنّ كل شيء يتصوّر أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصاً. قال الله تعالى: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْدِ وَدَرِ لَنَا خَالِصاً اللّهِ النّعلين النّعل المصفى المبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به، والإخلاص يضاده اللبراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي ومنه جلي، وكذا الإخلاص، والإخلاص، وضد يتواردان على القلب فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات، وقد ذكر حقيقة النية وأنها يترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته المادة بالميل عن الحق، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل أموره ما ورد في الخبر من: قانَّ المُراثِي يُدْمَى يَوْمَ القِيامَةِ يَأَرُبُع أَسَامٍ: يا مُراثِي يا مُشركُ ها كَافِرُهُ").

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده، أو ليهرب عن عدو له في منزله، أو يتبرم بأهله وولده، أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياماً، أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقلر به على تهبئة العساكر وجرها، أو

⁽١) حديث: «إن المراثي يدعى يوم القيامة: يا مراثي يا مخادع...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والإخلاص، وقد تقدم.

يصلي بالليل وله غرص في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة، أو ليكون عقاره أو ماله محروساً بعز العلم عن الأطماع، أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث، أو تكفل بخدمة العلماء الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقاً في الدنيا، أو كتب مصحفاً ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه، أو حج ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء، أو توضأ ليتنظف أو يتبرد، أو اغتسل لتطيب رائحته، أو روى الحديث ليعرف بعلو الإسناد، أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبغ الطعام أو ليتفرغ الأشغاله فلا يشغله الأكل عنها، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه، أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة ليشيع جناز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمهما كان باعثه هو التقرب إلى انة تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور؛ فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك. وقد قال تعالى: «أنّا أغنى الشّركاء عن الشّركة».

وبالجملة: كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ـ قل أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكذر به صفوه وزال به إخلاصه. والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس. فلذلك قيل: من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا. وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى. وهذه الحظوط إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفي شدَّة الأمر على صاحبه فيها، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلى هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة ـ كما سبق في النية ـ. وبالجملة: فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف، ولكل واحد حكم آخر ـ كما سنذكره ـ، وإنما الإخلاصّ تخليص العمل عنّ هذه الشوائب كلها ـ قليلها وكثيرها ـ حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه. وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستهتر بالله، مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كفي شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى. فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً حتى يربح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الندور، وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبث حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصاً، فالذي يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ـ وبالجملة غير الله _ نقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة، فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادراً. فإذن: علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص. وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنها خالصة

لوجه الله ويكون فيها مغرور؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، كما حكي عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأوَّل لأني تأخرت يوماً لعذر فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أنَّ نظر الناس إليٌّ في الصف الأوَّلَ كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر. وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتهم كلِّها في الآخرة سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَهَا لَمُمْ قِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَعْتَسِبُونَ ۞ وَيَدَا لَمُثُمَّ سَيِّقاتُ مَا كَمْ سَكُواْ﴾ [الزمر: ٤٧ ـ ٤٨] ويسقسول ه تسعى الحسن : ﴿ فَلْ هَلْ نُلْتِكُمْ إِلْاَخْسَرِينَ أَعْمَلًا ۞ الَّذِينَ صَلَّ سَعْيَهُمْ فِي لَلْتِزَةِ الدُّنْيَا وَكُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُمْسِنُونَ شُنْمًا ۞﴾ [الكهف: ١٠٤،١٠٣] وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين علمي نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ. وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره. ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب علك، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك؛ إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده. ولبت شعري: لو اغتم عمر رضي الله عنه بتصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محموداً أو مذمومًا؟ ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذمومًا، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر. فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك؟ وقد يتخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به، وإخباره بللك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد. وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمُ ٱلْمُعْلَمِينَ ۞﴾ [العِجر: ١٤٠]، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص:

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب؛ وهو من جملة الآفات، والخالص: ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعزض لآفة واحدة، وقال سهل رحمه الله تعالى: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة، وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض، وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم: الإخلاص صدق النية مع الله تعالى. وقبل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب، وقال رويم:

الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين. وهذا إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجِلاً وعاجلاً، والعابد لأجل التنعم بالشهوات في الجُّنة معلول، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين وهو الإخلاص المطلق. فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج، وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب وجه الله تعالى فقط، وهو القائل: لا يتحرَّك الإنسان إلا لحظ، والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية، ومن ادعى ذلك فهو كافر. وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدّعي البراءة من الحظوظ وقال: هذا من صفات الإلهية وما ذكره حق، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظاً، وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذذ بمحرِّد المعرفة والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء، وهذا لا يعدُّه الناس حظاً بل يتعجبون منه. وهؤلاء لو عوَّضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة السجود للحضرة الإلهية سراً وجهراً جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا إليه؛ فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره. وقال أبو عثمان: الإخلاص نسبان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط. وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط؛ ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه؛ فإنه إشارة إلى مجرّد الإخفاء. وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الخلق وصفا عن العلائق. وهذا أجمع للمقاصد. وقال المحاسبي: الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب. وهذا إشارة إلى مجرّد نفي الرياء. وكذلك قول الخوّاص: من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية. وقالُ الحواريون لعيسى عليه السلام: ما الخالص من الأعمال؟ فقال: الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد. وهذا أيضاً تعرّض لترك الرياء، وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوّشة للإخلاص. وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات. وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعانيك الله منهما. وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها. وهذا هو البيان الكامل. والأقاويل في هذا كثيرة، ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة .

وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين ﷺ؛ إذ سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت أن أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت، وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقاً.

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص:

اعلم: أن الآفات المشوّشة للإخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال. وأظهر مشوّشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالاً.

⁽١) حديث: سئل عن الإخلاص فقال: «أن تقول: ربي الله ثم تستقيم كما أمرت؛ لم أره بهذا اللفظ، وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به قال: «قل ربي الله ثم استقم» وهو عند مسلم بلفظ: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم».

فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصاً في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك! فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته؛ وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته كما كان. فيأتيه في معرض الخبر ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضاً عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرضى لغيره تركه، فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محص التلبيس، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه، وأما هو فيطالب بتلبسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

المرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها؛ أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان، ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحس صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضاً كذلك. فهذا أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد قرق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق. بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المراثبن، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلا والملأ وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملأ جميعاً، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملأ والخلا جميعاً، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى؛ أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه، واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى حلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحاجة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة: أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سبباً، فما دام يفرق في أحواله بعن مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص، مدنس الباطن بالشرك الخفي من

الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصحرة الصماء(١٠)، كما ورد في الخبر. ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى، لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإنَّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستثناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حَدّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرّك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص، لعمري: الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة. فمنها ما يغلب، ومنها ما يقل لكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير. وغش القلب ودخل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرًا، ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموَّه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغرّ الغبي. فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم. ومداخل الأفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فلينتفع بما ذكرتاه مثالاً، والفطن يغنيه القليل عن الكثير، والبليد لا يغنيه التطويل أيضاً. فلا فائدة في التفصيل.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به:

اعلم: أنّ العمل إذا لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لا يقتضي شيئاً أصلاً فلا يكون له ولا عليه؟ أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعاً وهو سبب المقت والعقاب. وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (٢). وليس

 ⁽١) حديث: «الشرك أختى في قلب أبن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة». تقدم في العلم وفي
 ذم الجاه والرياء.

الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل العشوب لا ثواب له قال: وليس تخلو الأخبار عن تعارض، رواه أبو داود من حديث أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا فقال رسول الله على: «لا أجر له. . .» الحديث. وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن، أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال: «لا شيء له » ثا قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي يه وجهه وللترمذي وقال: غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة: الرجل يعمل العمل نيسره فإذا اطلع عليه أعجه قال: «له أجران أجر السر وأجر العلائية». وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

تخلو الأخبار عن تعارض فيه. والذي ينقدح لما فيه ـ والعلم عند الله ـ أن ينظر إلى قدر قوّة الباعث. فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب. نعم، العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرّد للريّاء ولم يمتزج به شائبة التقرّب. وإن كان قصد التقرّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَمْسَمَلْ مِثْقَسَالَ ذَرَّةِ خَيْرًا يَسِرَهُ ۞ وَمَن يَعْسَمَلْ مِثْقَسَالَ ذَرَّةِ شَسَّرًا بَرَهُ ۞ ﴿ الزّلزلة: ١٨٠٧ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ آلَةَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَنعِفُهَا﴾ [النَّساء: ٤٠] فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإنَّ كان مغلُّوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. وكشف الغطاء عن هذا: أنَّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها. فداعية الرياء من المهلكات وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه. وداعية الخير من المنجيات وإنما قوتها بالعمل على وفقها. فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضي الرياء فقد قوى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضاً تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج، فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما؛ فكان كالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من الميردات ما يقاوم قدر قوّته، فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر، فكما لا يضيع مثقال ذرّة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرّة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثيره في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقرّبه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقرّبه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لا محالة شبر، وقد قال النبي ﷺ: ﴿أَتَّبِعِ السَّيْئَةُ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، (١٠)، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه، فإذا اجتمعا جميعاً فلا بدِّ وأن يتدافعا بالضرورة. ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس. نعم، يمكن أن يقال: إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب ما. وعندي: أَن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحيط بالكلية ثواب جهادهم، بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم، لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً؛ فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ، فقد روى طاوس وغيره من التابعين: أن رجلاً سأل النبي على عمن يصطنع المعروف ـ أو قال: يتصدّق ـ فيجب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما

 ⁽١) حديث: «أثبع السيئة العصنة تمحها». تقدم في رياضة النفس وفي النوبة.

يقول له حتى نزلت: ﴿ فَنَ كَانَ بَرُهُ الْ اللّهِ مَلِكُ مَنْكُ اللّهِ عِبَادَةِ رَبِهِ الْمَنْكُ اللّهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ عَزُ وَجُلَّ يَقُولُ: أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشَّرِكَةِ مِنْ عَمِلَ لَهُ اللهُ عَرْ وَجُلَّ يَقُولُ: أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشَّرِكَةِ مَنْ عَمِلَ لَهِ عَمَلا فَأَشْرَكَ مَعِي غَيْرِي وَدَفْتُ نَصِيبِي لِشَريكِي اللهُ وروى أبو موسى: أن أعرابيا أنى رسول الله عَلَى اللهِ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ

فنقول: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه، بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله: المن هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا» وكان ذلك هو الأغلب على همه، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان، لا لأن طلب الدنيا حرام، ولكن طلبها بأعمال الدين حرام؛ لما قيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها، وأما لفظ الشركة حيث ورد فعطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة أبداً في خطر، فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاً، ولذلك قال تعالى: ﴿فَن كَانَ يَبْعُواْ لِقَلَة رَبِّهِ هَلِيمَنلَ عَبَلاً وَلا يُشَالُ وَلَا يُشَرِق بِيمَاتُو رَبِّهِ أَلدًا اللهاء (المناقط، الشركة التي أحسن أحوالها التساقط، ويجور أن يقال أيضاً: منصب الشهادة لا ينال إلا بالإخلاص في الغزو، وبعيد أن يقال: من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلى مجرّد الغزو و وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار إحداهما فنية والأخرى فقيرة فمال إلى جهة الأغنياء و لإعلاء كلمة الله وللغنيمة و لا ثواب له على غزوه البتة، ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك؛ فإن هذا حرج في الدين ومدخل للياس على المسلمين، لأن أمثال ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك؛ فإن هذا حرج في الدين ومدخل للياس على المسلمين، لأن أمثال أن يكون في إحباطه فلا. نعم، الإنسان فيه على خطر عظيم؛ لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء. فلا يحصل أن يكون في إحباطه فلا. نعم، الإنسان فيه على خطر عظيم؛ لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله، ويكون الأغلب على سره الحظ النفسي، وذلك مما يخفى غاية الخفاء. فلا يحصل

 ⁽١) حديث طاوس وعدة من التابعين: أن رجلاً سأل السبي ﷺ عمن يصطنع المعروف ـ أو قال: يتصدق ـ فيجب أن يحمد ويؤجر فنزلت: ﴿فَنَ كَانَ يَرْمُواْ لِنِلَةَ رُبُوبِ﴾ [الكهف: ١١٠]. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلاً، وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

 ⁽٢) حديث معاذ: قادني الرياء شرك أخرجه الطبراني والحاكم، وتقدم.

 ⁽٣) حديث أبي هريرة: «يقال ثمن أشرك في عمله: خذ أجرك ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد،
 وتقدم فيه حديث أبي هريرة: «من عمل عملاً أشرك فيه معي خيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ: «فهو
 له كله».

 ⁽٤) حديث أبي موسى: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». تقدم فيه.

 ⁽a) حديث ابن مسمود: (من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فهو له». تقدم في الباب الذي قبله.

الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نقسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردداً بين الرد والقبول، خاتفاً أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها. وهكذا كان الخاتفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة. ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتد بما ظهر من عملي. وقال عبدالعزيز بن أبي روّاد: جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي. ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الأفة والرياء؛ فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص. ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعاً. وقد حكي: أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الإخلاص يوماً يريد إخلاص الحركات ـ فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص فتعذر عليه قضاء الحواتج واستضر الشيخ بذلك، فسأله عن أمره فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها، فقال أبو سعيد: لا تفعل؛ إن العمل وإنما قلت لك: أخلص العمل. وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل العمل وإنما قلت لك: أخلص العمل. وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل العمل وإنما قلت لك: أخلص العمل. وقد قال الفضيل: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك.

华华保

الباب الثالث

في الصدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصدق:

قال الله تعالى: ﴿ رَبَالٌ صَدَقُواْ مَا عَهَدُواْ الله عَلَيْ ۖ [الاحزاب: ٢٣] وقال النبي ﷺ: ﴿ وَإِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْجَنِّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صدَّيقاً وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْجَنِّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كُذَّاباً ﴾ () و يكفي في فضيلة إلى الفُجُورِ وَالفُجُورِ وَالْفُجُورِ وَالْفُعُورِ وَالْفُجُورِ وَالْفُهُ وَالْفُجُورُ وَالْفُجُورُ وَالْفُجُورُ وَالْفُجُورُ وَالْفُولِ وَالْفُجُورُ وَالْفُجُورُ وَالْفُجُورُ وَالْفُولُ اللْفُورِ وَالْفُجُورُ وَالْفُرَالُونِ وَالْفُجُولُونِ الْفُولِ وَالْفُولُ وَالْفُولُولُولُ وَالْفُولُ وَالْفُولُولُولُولُول

الباب الثالث في المدق

⁽١) حديث: فإن الصدق يهدي إلى البر. . . ، الحديث. متفق عليه من حديث ابن مسمود، وقد تقدم.

العبد به إلى الله ماذا؟ قال: الصدق، وأقبح ما توجه به الكذب. وقال أبو سليمان: اجعل الصدق مطيتك، والحق سيفك، والله تعالى غاية طلبتك. وقال رجل لحكيم: ما رأيت صادقاً! فقال له: لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين. وعن محمد بن علي الكناني قال: وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان؛ على الحق والصدق والعدل، فالحق على الحوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول. وقال الشوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِينَكَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَنْبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وَبُحُوهُهُم مُسْوَدَّةً ﴾ [الزَّمر: ٦٠] قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، من صدقني في سريرته صدقته عند المخلوقين في علانيته. وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمي نفسه في دجلة، فقال الشبلي: إن كان صادقاً فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام، وإن كان كاذباً فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون. وقال بعضهم أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة _ ولا يتم بعضها إلا ببعض _؛ الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله تعالى في الأعمال، وطيب المطعم. وقال وهب بن منبه: وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفاً كان صلحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها: لا كنز أنفع من العلم، ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوى، ولا كرم أوفي من ترك الهوى، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلى من الصبر، ولا سيئة أحزى من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخرق، ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر أذل من الطمع، ولا غني أشقى من الجمع، ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العقة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت، ولا غائب أقرب من الموت. وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة. وقال أبو بكر الورَّاق: احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق. وقيل لذي النون: هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل؟ فقال:

قد بقينا من النفروب حيارى نطالب النصدق ما إلى سبيلُ فدعاوى النهاوى تنخف عالينا وخلاف النهاوى عالينا ثنقيلُ

وقيل لسهل: ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه؟ فقال: الصدق والسحاء والشجاعة. فقيل: زدنا، فقال: التقى والحياء وطيب الغذاء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي على ستل عن الكمال فقال: «قَوْلُ الحَقِّ وَالْمَمَلُ بِالصَّلْقِ»(١)، وعن الجنيد في قوله تعالى: ﴿ لِيَسْئَلُ الصَّدِيقِينَ عَن صِدَقِهم عند ربهم، وهذا أمر على خطر.

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه:

اعلم: أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها.

⁽¹⁾ حديث ابن عباس: سئل عن الكمال فقال · «قول الحق والعمل بالصدق». لم أجده بهذا اللفظ.

فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق. ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه.

الصدق الأول: صدّق اللسان؛ وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إمّا أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه. وحق على كل عبد أن يحفظ الفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها. فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ولكن لهذا الصدق كمالان:

أحدهما: الاحتراز عن المعاريض؛ فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب؛ إذ المحذور من الكذب تفهيم على خلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أنَّ ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظلمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك، فمن اضطرّ إلى شيَّء من ذلك فصدقه فيه أنَّ يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه، لأنَّ الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم، في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً. كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره (٦٦)، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد، وليس هذا من الكذب في شيء، قال رسول الله عَيْمَ: ﴿ لَيْسَ بِكَذَّابِ مَنْ أَصْلَحَ بَينَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً أَوْ نَمَى خَيْراً» ، ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان، ومن كان في مصالح الحرب. والصدق هاهنا يتحوّل إلى النية فلا يراعي فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجرّدت للخير إرادته صار صادقًا وصديقًا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولَى. وطريقه: ما حكي عن بعضهم: أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي: ليس هو هاهنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدق وأفهم الظالم أنه ليس في الدار. فالكمال الأول في اللفظ: أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضاً إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني: أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله: ﴿إِنِّ وَجَهَّتُ وَجَهِىَ لِللَّذِى فَطَرَ الشَّيُوْتِ وَالْأَرْثُ ﴾ [الانقام: ٧٩] فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب. وكقوله: ﴿إِيَّاكُ نَعْبُدُ ﴾ [النابئة: ٥] وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز تحقيقه؛ فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله. وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عبسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ النَّيَادِ تَعِسَ عَبْدُ النَّيَادِ تَعِسَ عَبْدُ الدَّمِيادِ تَعِسَ عَبْدُ الدُمِيادِ وَعَالَ نبينا ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ النَّيَادِ تَعِسَ عَبْدُ الدَيْاءِ وَعَالَ نبينا ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ اللَّيَادِ تَعِسَ عَبْدُ النَّيَادِ تَعِسَ عَبْدُ الدَّمِيادِ تَعِسَ عَبْدُ الدَّمِيادِ عَبْدُ الدَّمِيادِ عَبْدُ الدَّمِينَةِ وَعَبْدُ النَّعِيمَةِ وَعَبْدُ النَّعِيمَةِ اللهِ اللهِ عَلْمَ عَبْدُ اللهُ عِبْدُ اللهُ الْعَبْدِ عَبْدُ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ عَبْدُ اللهُ عنه الله اللهُ الله

⁽١) حديث: كان إذا أراد سفراً ورى بغيره. متفق عليه من حديث كعب بن مالك.

 ⁽۲) حديث: «ليس بكاذب من أصلح بين الناس. . . ٤ الحديث. منفق عليه من حديث أم كلئوم بنت عقبة بن أبي معيط،
 وقد تقدم.

⁽٣) حديث: «تمس عبد الدينار . . . » الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم . (الخميصة: كساء أسوء معلّم).

وإنما العبد الحق ـ شه عز وجل ـ من أعتى أوّلاً من غير الله تعالى فصار حرّاً مطلقاً، فإذا تقدّمت هذه الحرّية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته، وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى، ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرّية؛ وهو أن يعتى أيضاً عن إرادته لله من حيث هو، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى. وهذا عبد عتى عن غير الله فصار حرّاً، ثم عاد وعتى عن نفسه فصار حرّاً. وصار مفقوداً لنفسه موجوداً لسيده ومولاه، إن حرّكه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه رضي، لم يبق فيه متسع لطلب والنماس واعتراض، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى، فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درحة الصديقين. وأما الحرّية عن غير الله فدرجات الصادقين، وبعدها تتحقق العبودية لله تعالى، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقاً ولا

الصدق الثاني في النية والإرادة؛ ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في المحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذماً - كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسأل العالم: ما عملت فيما علمت؟ فقال: فعلت كذا وكذا، فقال الله تعالى: كذبت بل أردت أن يقال: فلان عالم (١٠ - فإنه لم يكذبه ولم يقل له: لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته. وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد. وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَلَثُهُ يَتُهَدُ إِنَّ ٱلْمُنْفِقِينَ لَكَدُبُونَ ﴾ [المتافِقون: ١] وقد قالوا: إنك لرسول الله وهذا صدق، ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر. وهذا القول يتضمن إخباراً بقرينة الحال؛ إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعنقد ما يقول فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به، فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلا بدّ وأن يكون مخلصاً.

الصدق الثالث: صدق العزم؛ فإن الإنسان قد يقلّم العزم على العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه، أو بشطره، أو إن لقيت عدواً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال: لفلان شهوة صادقة. ويقال: هذا المريض شهوته كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى. والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا صعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكو رضي الله عنه .. فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

⁽١) حديث الثلاثة: قحين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت... ٤ الحديث. تقدم،

ومراتب الصدّيقين في العزائم تختلف؛ فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلي ورأيه لم يقدّم، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه، بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب من حياة أبي بكر الصدّيق.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم؛ فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ يُمَانُّ صَدَقُواْ مَا عَنهَدُواْ أَنَّهُ عَلَيْكِ ﴾ [الاحزَاب: ٢٣] فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراسي الله مشهداً مع رسول الله على ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أُحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أما عمرو، إلى أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة! إني أجد ريحها دون أُحُد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر٬ ما عرفت أَحْسي إلا بسبننانه، فننزلت هذه الآية: ﴿ يَهَالُّ صَنَفُواْ مَا عَنْهَدُواْ أَشَّهَ عَلِيَّةً ﴾ [الاحرَاب: ٢٣] (ووقيف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير - وقد سقط على وجهه يوم أُحُد شهيداً، وكان صاحب لواء رسول الله عَنْدُ مَ فَعَالَ صليه السلام: ﴿ وَعَالُ صَدَقُواْ مَا عَهَدُواْ اللَّهَ عَلَيْدٌ فَيَنْهُم مَّن فَضَى فَسَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنْظِرُّ ﴾ [الأحرَاب: ٢٣] * . وقال فضالة بن عبيد: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللشَّهَدَاءُ أَرْبَعَةً: رَجُلُ مُؤْمِنْ جَيِّدُ الإيمَانِ لَقِيَ العَدُوَّ، فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيِنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ لهٰكَذَاء وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وقعت قلنسوته ـ قال الراوي: فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ ، وَرَجُلٌ جَيَّدُ الإيمان إذا لقي العَدُقُ فَكَأَنْمًا يُضْرَبُ وَجُههُ بِشَوْكِ الطُّلُح أَتَاهُ سَهُمْ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدُّرَجَةِ الثَّائِيةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلاً صَالِحَاً وَآخَرَ سَيِّئاً لَقِيَ المَدُقّ فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَلْلِكَ في الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَرَجُلُ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ العَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهُ حَتَّى قُتِلَ فَذَاكَ فِي الدُّرَجَةِ الرَّابِعَةِ، (٣) ، وقال مجاهد: رجلان خرجا على ملا من الناس قعود فقالا: إن رزقنا الله تعالى مَالاً لنتصدْقنَ فبخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَنهَدَ ٱللَّهَ لَـ بِنْ مَاتَىنَا مِن فَضْلِهِ. لَمَذَذَقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّلِحِينَ ۞ ﴿ النَّرَبَّةِ: ٧٠ وقال بعضهم: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَنهَدَ ٱللَّهَ لَـ بِنَ مَاتَنَنَا مِن فَضَّلِهِ، لَنَصَّذَقَنَّ وَلَنَكُونَزُ مِنَ ٱلصَّلِحِينَ ۞ فَلَنّا مَاتَنْهُم ثِن فَضْلِهِ، يَخِلُوا بِهِ، وتُوَلُّوا وَّهُم مُمْرِضُونَ ۞ فَأَعْفَتُهُمْ نِفَافًا فِ فُلُوبِهِمْ إِلَا يَوْرِ يُلْفَوْنَهُ بِمَا أَخْلَمُوا أَلَلَهُ مَا وَعَدُوهُ وَبِيمَا كَانُوا يَكُدِبُونَ ﴿ ﴿ التَّوْبَةُ: ٧٧-٧٧] فجعل العزم عهداً، وجعل الخلف فيه كذباً، والوفاء به صدقاً. وهذا الصدق أشدَّ

⁽١) حديث أنس: «أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ . . » الحديث وفي قتاله بأحد حتى قتل فوحد في جسده بضع وشمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول ﴿ عَالُ صَنَّوْاً ﴾ [الأحرَاب: ٢٣] الآية . أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى، وهو عند البحاري مختصراً أن هذه الآية نزلت في أنس بن النصر.

 ⁽۲) حديث: وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية. أحرجه أبو نعيم في البحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلاً.

 ⁽٣) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب: «الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان...» الحديث، أخرجه الترمذي وقال: حسن.

من الصدق الثالث، فإنّ الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء؛ لشدّته عليها ولهبجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب. ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال: لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن، لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها. أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم. وقال أبو سعيد الخرّاز: رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد، فقالا لي: صدقت، وعرجا إلى السماء.

الصدق الخامس: في الأعمال؛ وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر، وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال، وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره. ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره، ويكون كاذباً في دلالة الظاهر على الباطن.

إذن: مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص؛ وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق.

إذا السرّ والإعلان في المؤمن استوى فقد عزّ في الدارين واستوجب الشنا فإن خالف الإعلان سراً فعما له على سعيه فضلٌ سوى الكذّ والعنا فما خالص الدينار في السوق نافقٌ ومغشوشه المردود لا يقتضي المنا

وقال عطية بن عبدالغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علائيته باهى الله به الملائكة يقول: هذا عبدي حقاً. وقال معاوية بن قرة: من يدلني على بكاء بالليل بسّام بالنهار، وقال عبدالواحد بن زيد: كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه. وكان أبو عبدالرحمن الزاهد يقول: إلهي: عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة، ويبكي. وقال أبو يعقوب النهرجوري: الصدق موافقة الحق في السر والعلانية.

فَإِذَنَ: مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

⁽١) حديث: اللهم اجعل صريرتي خيراً من علائيتي...» الحديث. تقدم ولم أجده.

الصدق السادس: وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً فيه، كما يقال: فلان صدق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُرْبِئُونَ ٱلَّذِينَ مَامَواً بِأَلَقِهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمّ بَرْتَابُولِ المُجرَات: ١٥] إلى قوله: ﴿أَوْلَكِكَ مُم الْعَسَدِقُونَ اللهِ اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ عَلَى اللهِ اللهِ عَلَى الإيمان فقرأ هذه الآية!). الآية فقيل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: مالت رسول الله عليه عن الإيمان فقرأ هذه الآية!).

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا ينتفع به أهمله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء مِن ذلك عند جريان معصية عليه. ولذلك قال ﷺ: ﴿ لَمْ أَرْ مِثْلُ النَّادِ نَامَ هَارِيُها وَلا مِثْلُ الجَنَّةِ نَّامَ طَالِبُهَاهُ ٢٠)، فالتحقيق في هذه الأمور عريز جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه، فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها، ولذلك قال النبي ﷺ لحبريل عليه السلام: الْجِبُ أَنْ أَرَاكُ فِي صُورَتِكَ الْبِي هِيَ صُورَتُكَ، فقال: لا تطيق ذلك قال: (بل أرني)، فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأناه فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سدّ الأفق ـ يعني جوانب السماء ـ فوقع النبي ﷺ مغشياً عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى، فقال النبي ﷺ : «ما ظننت أن أحداً من خلق الله هكذا؛ قال: وكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن العرش لعلى كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تحت تخوم الأرض السفلي، وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع^(٣) يعني كالعصفور الصغير، فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع إلى ذلك الحد؟ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر: قال رسول الله على: مردت ليلة أسري بي وجبريل بالملا الأعلى كالحلس البالي من خشية الله تعالى»^(٤). يعني الكساء الذي يلقى على ظهر البعير، وكذلك الصحابة كانوا خائفين، وما كانوا

 ⁽١) حديث أبي ذر: سألته عن الإيمان فقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَ ٱلْهِرَ مَنْ مَامَنَ بِأَلَةٍ وَٱلْهِرْدِ ٱلْأَحِرِ ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿ وَلَكِنَ ٱلْهِرَ مَنْ مَامَنَ بِأَلَةٍ وَٱلْهِرِ ﴾ [البَقرَة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿ وَلَكِنَا اللَّهِ مَا أَجْدُ لَهُ إِسْمَاداً.
 اللَّذِينَ سَكُنُوا ﴾ [المبقرة: ١٧٧] رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجد له إسناداً.

⁽٢) حديث: «لم أر مثل النار نام هاربها» الحديث. تقدم.

 ⁽٣) حديث: قال لجبريل: •أحب أن أواك في صورتك التي هي صورتك، فقال: •لا تطبق ذلك. . . • الحديث. تقدم في
 كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا، والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين.

الحديث: «مررت ليلة أسري بي وجيريل بالملأ الأهلى كالحلس البالي من خشية الله . . . الحديث. أخرجه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور، وقال البيهقي: ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عطارد وهذا مرسل. الحلس: وشع يُبسط في البيت وتجلل به الدابة.

بلغوا خوف رسول الله ﷺ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حمقي في دين الله. وقال مطرف: ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أِنْ بِعَضَ الحَمَّقُ أَهُونُ مِنْ بَعْضٍ، وقال النبي ﷺ: ﴿لا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالأَبَاعِرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ثُمُّ يَرْجِع إِلَى نَفْسِهِ قَيَجَلُها أَخْقَرَ حَقِيرٍ ۖ (١)، فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز . ثُم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صَّدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً. قال سعد بن معاذ: ثلاثة أنا فيهنّ قوي وفيما سواهن ضعيف؟ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفسي حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها، وما سمَّعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علَّمت أنه حق، فقال ابن المسيب: ما ظننت أنَّ هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام. فهذا صدق في هذه الأمور، وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ؟ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرض إلا لآحاد هذه المعاني، نعم، قد قال أبو بكر الوراق: الصَّدق ثلاثة؛ صدق التوحيد، وصدق الطاعة، وصدق المعرفة. فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِمِ أُوْلَيْكَ هُمُ اَلْصِّدَيْشُونَ﴾ [الحَديد: ١٩] وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض ـ وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام ... وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱجْنَبُنَكُمْ ﴾ [الحَج: ٧٨] وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه، فإن وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبيباً، وإن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولا أبالي. فإذن: من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً وكراهة اطلاع الخلق عليها.

تم كتاب الصدق والإخلاص، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة، والحمد شه



حدیث: «لا پبلغ عبد حقیقة الإیمان حتی ینظر إلی الناس كالأباعر في جنب الله ثم یرجع إلی نفسه فیجدها أحقر
 حقیر» لم آجد له آصالاً في حدیث مرفوع.

ينسب الله الأثن التقسير

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السموات والأرض تحرّكت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت، وتنظر فيما قدّمت وأخرت، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القبامة وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت، فسبحان من عثمت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت، وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات وييمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأبيده ونصرته انقطعت مكايد الشبطان واندفعت، وبلطف عنايته تترجع والإبعاد والإسعاد والإشقاء، والصلاة والسلام على محمد صيد الأنبياء، وعلى آله والإبعاد والإدناء، والإسعاد والإشقاء، والصلاة والسلام على محمد صيد الأنبياء، وعلى آله سادة الأصفياء، وعلى أصحابه قادة الأتنياء.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: ﴿ وَنَسَعُ الْنَوْنِ الْسِسْطَ لِلْوَرِ الْفِيسَةِ قَلَا نُظْلَمُ نَسْسُ شَبْئًا وَإِن كَانَ مِنْفَالَ حَسَيْنِ ﴾ [الانبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ وَوَضِعَ الْكِنَ فَنْزَى الْمُعْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوْيَلَنَا مَالِ هَذَا الْسَحِبَ لَا يَنَادِدُ صَفِيرةً وَلَا كَيْبِرَةً إِلّا أَحْصَنْها وَرَجَدُواْ مَا عَيلُواْ حَامِراً وَلَا يَطَلِمُ رَبُّكَ أَحَلَا إِلَى السَحَبِ اللهِ عَلَى اللهُ وَسُورً وَاللهُ عَلَى اللهُ وَسُورً وَاللهُ عَلَى كُلُ فَيْءِ شَهِيرةً وَلَا يَعلَمُ اللهُ وَسُورً وَاللهُ عَلَى كُلُ فَيْءٍ شَهِيدُ لَا يَعلَمُ اللهُ وَسُورً وَاللهُ عَلَى كُلُ فَيْءٍ شَهِيدُ وَلَا اللهِ وَاللهُ وَسُورً وَاللهُ عَلَى كُلُ فَيْءٍ شَهِيدُ وَاللهُ وَسُولًا اللهُ وَسُورًا أَعْمَلُهُمُ وَلَا اللهُ عَلَى اللهُ وَسُولُ وَاللهُ عَلَى اللهُ وَسُلُوا اللهُ يَعْلَى اللهُ وَسُلُوا اللهُ وَاللهُ وَا

وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿يَكَأَيُّهُا الَّذِينِ عَامَلُوا أَصَرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بدّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

المقام الأوّل من المرابطة: المشارطة:

اعلم: أنَّ مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح، وكما أنّ التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى: ﴿وَقَدُّ أَقَلَحُ مَن زَّكُنَهَا ۞ رَقَدُ خَابُ مَن دَسَّنْهَا ۞﴾ [الشمس: ١٠٠٩] وإنـما فـلاحـها بالأعمال الصالحة. والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة؛ إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أنَّ الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً؛ فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أوَّلاً؛ فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخاتن إذا خلا له الجو وانفرد مالمال. ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تلقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبي، ثُم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرُّم والآنقضاء، ولاَّ خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير، ولذلك قيل:

عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها. فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هاثل لا تسمح به نفس عاقل، فإذا أصبح العبد وفرغ من قريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرع المجلس لمشارطته، فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني ققد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به ولو توفائي لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم؛ فإنّ كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس: أنّ اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وقد ورد في الخبر: «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظَّلمة يعوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءها^(١)، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبناً، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار. وقد قال بعضهم: هب أنَّ المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة، وقال الله تعالى: ﴿ وَمُرْمَ يَجْسَفُكُمُ لِيَوْمِ ٱلْجَنَعُ ذَلِكَ يَوْمُ ٱلنَّمَائِنُ ﴾ [التّغابُن: ١٩ فهذه وصيته لنفسه

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة: وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها، فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة. وإنّ لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين: فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، فإنّ الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما

كتاب المحاسبة والمراقبة

 ⁽١) حديث: فينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فنفتح له منها خزانة فيراها مملوءة من حسنائه... المحديث. بطوله لم أجد له أصلاً.

يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن.

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك _ مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله _ مع أنه خلق للذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين وسائر خيراته، فليشترط على نمسه: أن لا يحرّك اللسان طول النهار إلا في الذكر: فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة و: ﴿مَا بَلِفِظُ مِن فَولِ إِلَّا لَدَبّه لَلْسَانَ طُولَ النهار إلا في الذكر:

وأما البطن: فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة. ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها. هكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء. واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرّر عليه في اليوم والليلة، ثم النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها. وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعوَّد الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق. ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس؛ إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقصي حق الله فيها، فعليه أن يشترط على نفسه: الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها، ويحذرها مغبة الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرّد؛ فإن النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها: ﴿وَذَكِّرُ فَإِنَّ ٱلْذِّكْرَىٰ لَنَفَعُ ٱلْتُؤْمِيينَ ۞﴾ [الذاريَات: ٥٠] فهذا وما يحري مجراه هو أوَّل مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل. والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُواۤ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٓ أَنفُسِكُمْ فَأَخْذُرُوهُ ۗ [البَقَرَة ٢٣٠] وهذا للمستقبل. وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة وتقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي ألعبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامُنَّوا إِنَّا ضَرَبَتُمْ فِ سَبِيلِ اللَّهِ فَتَنَيَّنُواْ ﴾ [النِّساء: ٩٤] وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوّا إِن جَآءَكُمُ فَاسِنٌ بِنَهَإِ فَسَنَيْنُواْ أَن﴾ [الحجرات: ٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقَنَا ٱلْإِنسَانَ وَسَلَمُ مَا تُوسُوسُ بِهِ نَمْسُمُّ ﴾ [ق: ١٦] ذكر ذلك تحذيراً وتنسيهاً للاحتراز منه في المستقبل. وروى عبادة بن الصامت: أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه: ﴿إِذَا أَرَدْتُ أَمْراً فَتَنَبِّر هَاقِبَتهُ فَإِنْ كَانَ رَشَعاً فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ غَيَاً فَانْتَهِ غَنْهُ^(۱). وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون

⁽١) حديث عبادة بن صامت: ﴿إِذَا أُردت أمراً فتدبر عاقبه. . . الحديث، تقدم،

العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة، وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة، وروى شدّاد بن أوس عنه في أنه قال: «الكيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَة وَعَمِلَ لِمَا بَعَدَ المَوْتِ وَالأَحْمَقُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَة عَوَاها وَتَمَنِّى عَلَى اللّهِ اللهِ اللهِ اللهِ قال: «أَيْنَ لَمَينُونَ القَّاقات: ١٥] أي لمحاسبون، وقال نفسه: أي حاسبها، ويوم الدين: يوم الحساب، وقوله: ﴿أَيْنَ لَمَينِونِ ﴾ [القَّاقات: ١٥] أي لمحاسبون، وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيؤوا للعرض الأكبر، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدّة، وقال لكعب: كيف تجدها في كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء؛ فعلاه بالدرّة وقال: إلا من حاسب نفسه، وهذا كله إشارة كعب: يا أمير المؤمنين، إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف؛ إلا من حاسب نفسه، وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: من دان نفسه يعمل لما بعد الموت، ومعناه: وزن الأمور أولاً وقدرها، ونظر فيها وتدبرها، ثم أقدم عليها فباشرها.

المرابطة الثانية: المراقبة:

إدا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة؛ فإنها إن تركت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

أما الفضيلة. فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أَنْ تَغَبّدُ اللَّهُ كَأَنَّكُ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَيْرَاكُ (")، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ نَشِي بِنَا كَسَبَتُ ﴾ [الرّعد: ٣٣] وقال تعالى: ﴿ وَالّذِينَ هُرُ لِأَمْنَتَهُمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ ﴿ وَالله تعالى الله تعالى الله عن تفسيره ﴿ وَاللّذِينَ مُ لِلْمَنتَيْهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ ﴿ وَالله عن تفسيره ﴿ وَاللّذِينَ مُ لِللّمَ الله عن تعلى الله عن تفسيره فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل. وقال ابن المبارك لرجل: إذا كان سيدي رقيباً علي فلا أبالي فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل. وقال عبدالواحد بن زيد: إذا كان سيدي رقيباً علي فلا أبالي بغيره، وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة: المحاسبة والمراقبة بغيره، وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة: المحاسبة والمراقبة أمرنا هذا مبني على أصليس: أن تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل، ويكون العلم على ظاهرك قائماً. وقال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرّنك اجتماعهم أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرّنك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكي: أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدّمه، فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدّة طيور، وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد، ودفع إلى الشاب مثل ذلك، وقال له كما قال لهرم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً، ورجع الشاب والطائر حي في يده، فقال: مالك لم تذبح كما

⁽١) حديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموث. . .» الحديث. تقدم.

حديث: سأل جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عمر، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: «اهبد الله كأنك تراه...» الحديث. تقدم.

ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد؛ إذ الله مطلع عليٌ في كل مكان، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرَّم.

وحكي: أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار!. وحكي عن يعض الأحداث: أنه راود جارية عن نفسها فقالت له: ألا تستحي؟ فقال: ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟. وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر، فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة: من يخاف على فوت حظه من ربه عزّ وجلّ. وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة، قيل له: ومن يسكنها؟ قال: يقول الله عزّ وجلّ: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين الثنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أوَّلها علم القلبُ بقرب الله تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى: أنَّ الله تعالى قال لملاتكته: أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطَّن. وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لـمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لممن لا تخرج عن ملكه وسلطانه. وقال سهل: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرفٍ من علم العبد بأنَّ الله شاهده حيث كان. وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَضِى ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَصُواْ عَنْهُ ذَالِكَ لِمَنْ خَشِي رَبِّيُّ ﴾ [النِّيَّة: ٨] فقال: معناه: ذلك لمن راقب ربه عزّ وجلّ وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده. وسئل ذو النون: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس؛ استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب، وقد قيل:

> إذا ما خلوت اللهمر يبوماً فلا تقل ولا تسعسبن الله يسغفل ساعسة ألسم تسرر أن السيسوم أسسرع ذاهسب

خملوت ولكسن قسل عملسيُّ رقسيبُ ولا أن مما تمخفيمه عمله يسخميبُ وأن غمداً لمماسنماظمريمن قسريسبُ

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت. وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحدر ممن يملك العقوبة. وقال فرقد السنجي: إنّ المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى. وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راع من الجبل فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذا الغنم، فقال: إني مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب؟ قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر رضي الله عنه، ثم غذا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم: أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب قلاناً ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة، وتشمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب. أما الحالة: فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه. وأما المعرفة التي تشمر هذه الحالة: فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك. فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً - أعني أنها خلت عن الشك - ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته؛ قرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جاب فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى الصديقين وإلى الرقيب وصرفت همه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين، فمراقبتهم على درجتين.

الدرجة الأولى: مراقبة المقربين من الصديقين؛ وهي مراقبة التعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة؛ فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب، أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد. بل يسدّد الرعية من ملك كلية الراعي، والقلب هو الراعي، فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم. ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحصر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به، وقد يمرّ على ابنه مثلاً فلا يكلمه، حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه: إذا مررت بي فحركني. ولا تستبعد هذا؛ فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعطمة لملوك الأرض، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي، فربما يجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له. وقد قيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق؟ فقال: ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة! فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام، فقال له عبدالواحد بن زيد: من أبن جئت يا عتبة؟ فقال: من موضع كذا ـ وكان طريقه على السوق ـ فقال: من لقيت في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحداً. ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام: أنه مرّ بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما طننتها إلا جداراً. وحكي عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم، فتقدّمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى! فقلت: أنت وحدك؟ فقال: معي ربي وملكاي! فقلت: من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشى وقال: أكثر خلقك شاغل عنك. فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى؛ لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه، فهذا

لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرّك إلا بما هو فيه. ودخل الشبلي على أبي الحسين النووي وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرّك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من ستور كانت لنا، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرّك لها شعرة. وقال أبو عبدالله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي على الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري ـ المعروف بالزاهد ـ: إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما؟ فدخلت صوراً وأنا جائع عطشان، وفي وسطي خرقة، وليس على كتفي شيء، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما عليّ السلام. فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلي وقال: يا ابن خفيف، الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل، فخذ من القليل الكثير، يا ابن خفيف، ما أقل شغلك حتى تتفرّغ إلى لقائنا. قال: فأخذ بكليتي. ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلما كان وقت العصر قلت: عظني. فرفع رأسه إليَّ وقال: يا ابن خفيف، نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة، فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا، فلما كان اليوم الثالث قلت في سري: أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما، فرفع الشاب رأسه وقال لي: يا ابن خفيف، عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك، يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله، والسلام؛ قم عنا!. فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانبة: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين؛ وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل نقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة، نعم، غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم، بل عن حياء، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك. وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى نترك كل ما أنت فيه شغلاً به، لا حياء منه، فهكذا تختلف مواتب العباد في مراقبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته. وبالجملة: جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل.

أمّا قبل العمل: فلينطر أن ما ظهر له وتحرك بفعله حاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لله استحيا من الله وانكف عنه، ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه، وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها، وأنها عدوّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته. وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حدّ

البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه، فإن في الخبر: إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الديوان الأوّل: لم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن(١٠)؟ ومعنى اللّم»: أي لم فعلت هذا؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا، فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدوك قدر. ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظنَّ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت؟ ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك: «لا إله إلا الله» فيكون أجرك على الله، أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه، أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا، أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك، وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي؛ إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقسول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ مَنْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الاحتراف: ١٩٤]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ مَنْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَسْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقَنَا فَابْنَغُواْ عِندَ اللَّهِ ٱلرِّزْفَ وَأَعْبُدُوهُ ﴾ [الغنكبوت: ١٧] ويحك: أما سمعتني أقول: ﴿الآ يَقِي ٱلدِّبنُ اَلْخَالِصُ ﴾ [الزُّمَر: ٣] فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب، وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً، فلا يبدىء ولا بعيد إلا بعد التثبت، ولا يحرِّك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل. وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: ﴿إِنَّ الرَّجُلَ لَئِسْأَلُ عَنْ كُحْلٍ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فَتْهِ الطّينَ بِأَصْبُعَنِهِ وَهَنْ لَمْسِهِ ثُوْبَ أَخِيهِه (٢٠). وقال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه. وقال الحسن: رحم الله تعالى عبداً وقف عند همه؛ فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر. وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان: قاتق الله عند همك إذا هممت (٣) ، وقال محمد بن علي: إنَّ المؤمن وقَّاف متأنَّ يقف عند همه ليس كحاطب ليل. فهذا هو النظر الأوِّل في هذه المراقبة.

ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعلوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نبته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة، بلى الأكثرون يحبه الله ويرضاه في نبته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة، بلى الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ولا تظنن أنّ الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر! هيهات، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقي أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان منه في فرح وشماتة، ذلك، والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة؛ فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. فحكم الله تعالى على كل عبد فنعوذ بالله من الجهل والغفلة؛ فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران. فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة، فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه، ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به، فإن

 ⁽١) حديث: اينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول: قم. والثاني: كيف. والثالث: لمن لم أقف له على أصل.

 ⁽٢) حديث: قال لمعاذ: ﴿إِن الرجل لِسَالُ عَنْ كَحَلَ عَيْنِهِ...﴾ الحديث. تقدم في الذي قبله.

حديث سعد حين أوصاه سلمان أن: «اتق ألله عند همك إذا هممت» أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع، تقدم.

الخطوة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهم، والهم يورث جزم القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث البوار والمقت، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأوَّل وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه. ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر ني ذلك بنور العلم ويستميذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى، فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين، وليفرّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدّ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي؟ أولئك قطاع الطريق على عبادي. فالقلوب المظلمة بحبُّ الدنيا وشدَّة الشرء والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدرُها، وعشق بغيضها ومقيتها وهي شهوات الدنيا؟ فلتكن همة المريد أوَّلاً في أحكام العلم، أو في طلب عالم، معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها. وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبهَاتِ وَالْمَقْلِ الكَّامِلِ هِنْدَ لَمُجُومِ الشَّهَوَاتِ، (١٠)، جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً؛ فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات. ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا قَارَقَهُ عَقْلٌ لا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدأً (٢)، فما قدر العقلّ الضعيف الذي سعد الآدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب، ومعرفة آقات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار، فإنَّ الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه. وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم، وتجرّدوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرّغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه. وفي الخبر: «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبت، (٣)، ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر؛ كسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة وغيرهم. فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه، وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذ قال: ﴿فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوَى مُثَّبَعًا وَإِغْجَابَ كُلُّ ذِي رَأَي بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةٍ نَفْسِكَ، وكلُّ من خاص في شبهةٍ بغير تحقيقٍ فقد خالف قوله تعالى: ﴿ وَلَا نَقُفُ مَا لَيْسَ لَكَ يِدِ عِلْمُ [الإسرَاء: ٣٦](٤) وقوله عليه السلام: ﴿إِيَّاكُمْ وَالظُّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، (٠)، وأراد به ظناً بغير دليل؛ كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه وينبع ظنه. ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه: اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه؛ ولا تجعله متشابهاً علي فأتبع الهوى. وقال عيسى عليه السلام: «الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه،

 ⁽١) حديث: قإن الله يحب البصر الناقد هند ورود الشبهات. . . • الحديث. أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين، وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور.

 ⁽٢) حديث: امن قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبدأه. تقدم، ولم أجده.

 ⁽٣) حديث: «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المثبت لم أجده.

⁽٤) حديث: فؤزا رأيت شحاً مطاماً وهوى متهماً. . ، ٥ الحديث، تقدم.

⁽ه) حديث: «إياكم والظن. . . » الحديث. تقدم.

وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكِله إلى عالمه (١٠)، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمُّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي اللَّهِنِ بِغَيْرِ عِلْم (٢٠)، فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم؛ وكذلك قال تعالى امتناناً على عبده: ﴿وَكَالَ نَشَلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَالإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم؛ وكذلك قال تعالى امتناناً على عبده: ﴿وَكَالَ نَشَلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَلَيْكَ السّمان ١٩٣] وأراد به العلم وقال تعالى: ﴿وَنَائِزْ أَهَلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُر لا تَفَانُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] وقال: ﴿مَا إِنَّ عَلَيْنَا بِيَانَامُ ﴿ اللّيَانَة؛ ١٩] وقال: ﴿وَقَالَ تَعَالَى: وَقَالَ تَعَالَى: وَقَالَ اللّهِ قَمْدُ النّبِيلِ ﴾ [القيانة؛ ١٩] وقال: ﴿ قَالُ تَعَالَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّ

وقال علي كرم الله وجهه: الهوى شريك العمى، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة، ويغم طارد الهم اليقين، وعاقبة الكذب الندم، وفي الصدق السلامة، رب بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب، والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن، نعم الخلق التكرم، والحياء سبب إلى كل جميل، وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك، وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك، واستدل على ما لم يكن بما كان فإنما الأمور أشباه، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دياك فلا تكثرن به فرحاً، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلفت، وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت. وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله: «ومن ما خلفت، وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت. وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله: «ومن قال ﷺ: «فَلاتُ مَن كُن فِيهِ اسْتَكُمَلُ إِيمَاتُهُ: لا يَخُونُ فِي اللّهِ لَوْمَة لائِم، وَلا يُرَائِي بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِه، قال ﷺ: «فَلاتُ مَن كُن فِيهِ اسْتَكُمَلُ إِيمَاتُهُ: لا يَخُونُ آلَن النَّغِومُ عَلَى النَّفُومُ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْ فِيركه لقوله ﷺ: «هَنْ حُسْنِ إسْلام المَنْ وَلا يُرَاثِي يشيءٍ مِنْ عَمَلِه، وَلا يَمْ وَلا يَمْ وَلا يُرَاثِي بِنَعْنِهِ مِنْ عَمَلِه، وَلا مَرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْ يَا اللَّهُ فِي اللَّهِ لَوْمَ عَلَى النَّنْ اللَّهُ مَن كُنُ فِيهِ النَّهُ فَي قَلْكُ المَّهُ وَلَا يُمْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ فِيهِ اللَّهُ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يُعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يُعْ وَلا عَلْهُ وَلا يُعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يُعْ وَلا عَلْكُ وَلا اللّهُ وَلا يُعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يُعْ وَلا يَعْ وَلا يَعْ وَلا يُعْ وَلا يَعْ وَلا عَلْكُ وَلا عَلْهُ وَلا لا يَعْ وَلا عَلْمُ الله وي اللّهُ وَلا عَرْكُ وَلا عَلْ عَلْهُ وَلا يُعْ عَلْهُ اللهُ وَلا يُعْ وَلا يُعْ وَلا يُعْ وَلا يُعْ وَلا يُعْ وَلا يُعْ وَل

النظر الثاني: للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل؛ ليقضي حق الله فيه، ويحسن السية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه، وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب. فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله على المحتوليس ما المنتقبل به القبلة القوله على المدوك عليه، قال المنتقبل به القبلة الموك مطلع عليه، قال المنتقبل به القبلة أنه ، ولا يجلس متربعاً ؛ إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك؟ فلم أجلس بعد إبراهيم بن أدهم رحمه الله : جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول : هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعاً . وإن كان يتام فينام على البد اليمني مستقبل القبلة _ مع سائر الآداب التي ذكرناها في موضعها . ، فكل ذلك داخل في المراقبة ، بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة .

⁽۱) حديث: فقال عيسى: الأمور ثلاثة. . . ١ الحديث. أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف.

⁽٢) حديث: فاللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم». لم أجده.

 ⁽٣) حديث: اثلاث من كن فيه استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم ... الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسئد الفردوس من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

 ⁽٤) حديث: امن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، تقدم.

 ⁽٥) حديث: اخبر المجالس ما استقبل به القبلة، أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

فإذن: لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة، أو في معصية، أو في مباح. فمراقبته في الطاعة: بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات. وإن كان في معصية: فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر.

وإن كان في مباح: فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بدّ له من الصبر عليها، ونعمة لا بدّ له من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تركه، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته. ولكل واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة: ﴿ وَمَن يَتَعَدّ شُدُودَ اللّهِ فَقَدَ ظَلَمَ نَفْسَلُم الفلاق: ١] فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليستغل بها؛ فإنّ من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون، والأرباح تنال بمزايا الفضائل؛ فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسَى نَصِيبَكَ مِنَ الدُنيَّ اللهُ الفضائل؟ الفضائل والفضور: ٧٧].

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة. فإنّ الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية. وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها? وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه. فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى. ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته كأنه في الخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه؛ وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام: ولا يَكُونُ المُؤمِّنُ ظَاعِناً إِلاَّ فِي ثُلاثِ: تُزَوُّدٍ لمَعَادٍ أَوْ مَرَمُّةٍ ساعات أَوْ مَرَمُّةٍ بياجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر فيها مشغول الحوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح، والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار: فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه، وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ـ كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر ـ، وهذا مقام ذوي الألباب.

حديث أبي ذر الا يكون المؤمن ظاهناً إلا في ثلاث: تزود لمعاد. . . ٤ الحديث . أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم ومحمد أنه على قال: اإنه في صحف موسى، وقد تقدم.

⁽٢) حديث: العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي بها ربه ٤٠٠ الحديث، وهي نقية حديث أبي ذر الذي قبله.

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة: ويلاحظون وجه الاضطرار إليه، وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته، وهذا مقام الزاهدين.

وقسم يرون في الصنعة الصانع: ويترقون منها إلى صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين؛ إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جداً.

وقسم رابع: ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى، وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تَسُبُوا الدَّهْرَ فإنَّ اللَّه هُوَ الدَّهْرُ»(١)، فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال، وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول.

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل. ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها:

أما الفضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّ الَّذِي َ اَمَنُوا الله وَلَدُكُ فَالَ مَهُ مِلْ الله تعالى الله تعالى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا. وفي الخبر: أنه عليه السلام جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أوصني، فقال: قأتشتؤص أنت؟ فقال: نعم، قال: ﴿ إِذَا هَمَمْتُ بِأَمْو فَتَلَبَّزُ عَاقِبَتُهُ فَقَالَ: يا رسول الله، أوصني، فقال: قأتشيق عَنْهُ ، وفي الخبر: وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات؛ فإن كَانَ رَشَدا فأمْضِهِ وَإِنْ كَانَ فَهَا فَاللهِ عَنْهُ ، وفي الخبر: وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات؛ ساعة يحاسب فيها نفسه، وقال تعالى: ﴿ وَنُونُوا إِلَى اللهِ حَيدًا أَنَّهُ اللهُونُونِ لَعَلَمُ اللهُونُونِ اللهُونِ الله تَعالَى وَأَنُوبُ إِلَيْهِ فِي النبوم مانية مَرَةٍ الله تَعالَى وَأَنُوبُ إِلَيْهِ فِي النبوم مانية مَرَةٍ الله تَعالى والله عليه الله ويقول الله عليه الله تعالى عنها الله عليه الله عليه الله تعالى عنها الله الله عليه الله عليه الله تعالى عنها: أن لنفسه: ماذا عملت اليوم. وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل. وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل. وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن أنب بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إليَّ من عمر، شم قال لها: كيف قلد ما قال فقال: لا أحد أعز علي من عمر، فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة قديم وأبدلها بكلمة غيرها!. وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته - فتدبر ذلك -، فجعل عندا طعله صدقة لله تعالى، ندما ورجاء للعوض مما فاته (٣٠).

 ⁽١) حديث: ﴿ لا تسبوا الدهر قإن الله هو الدهر؟ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

 ⁽٢) حديث: (إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم ماثة مرة). تقدم غير مرة.

⁽٣) حديث أبي طلحة: حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديثته صدقة، تقدم غير مرة.

وفي حديث ابن سلام: أنه حمل حزمة من حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرّب نفسي هل تنكره؟. وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي، ولكن هيهات حيل بيني وبينك! وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله. وقال أنس بن مالك: صمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً، فسمعته يقول _ وبيني وبينه جدار _ وهو في الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ! والله لتنقين الله أو ليعذبنك. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَتْيَمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللِّوَامَةِ ﴾ [الفِيَامَة: ٢] قال: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتى؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه، وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها، ثم ألزمها كتابُ الله تعالى فكان له قائداً. وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه. وقال ميمون بن مهران: التقي أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح. وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تريدين؟ فقلت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً! قلت: فأنت في الأمنية فاعملي. وقال مالك بن دينار: سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرأ نظر في مكياله، رحم الله امرأ نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني. وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيءً إلى المصاح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل:

اعلم: أنّ العبد كما يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فيتبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها. كما يفعل التجار هي الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته! ولو حصل ذلك لهم قلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه بما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك. ومعنى المحاسبة مع الشريك، أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بصمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي. وموسم هذه التجارة جملة النهار، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أوّلاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإنّ فوتها فيحاسبها على الفرائض أوّلاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها، وإنّ فوتها

من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها؟ ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرّط ـ كما يصنع الناجر بشريكه ـ، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خدّاعة ملبسة مكارة، فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لِم سكت؟ وعن سكونه لم سكن؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه، كان ذلك القدر محسوباً له، فيظهر له الباقي على نفسه فليشته عليها، وليكتبه على صحيقة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون. أما بعضها: فبالغرامة والضمان، وبعضها: برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء. ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة ابن الصمة ـ وكان بالرقة وكان محاسباً لنفسه _ فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف ذنب! فكيف وفي كل ألف يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى. فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتلأت داره في مذة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك ﴿ أَحْصَانُهُ أَنَّهُ وَسُوهُ } [المغادة: ٢].

المرابطة الرابعة في معاقبة النفس على تقصيرها:

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها؛ فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها، وكان دلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدئه ممنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة. فقد روي عن منصور بن إبراهيم: أن رجلاً من العباد كلم امرأة، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست، وروي: أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبد في صومعته فمكث كذلك زماناً طويلاً، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها، فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله سابقة فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات! رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي؟ لا يكون والله ذلك أبداً! فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت؛ فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره.

ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبي يقول: أصابتني ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة، فوجدت في نفسي تأخراً وتقصيراً، فحدّثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء

أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت: واعجباً، أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له علي حق، فلا أجد في المسارعة وأجد الوقوف والتأخر! آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه! وآليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه! وآليت أن لا أغتسل ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس. ويحكى: أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال: إنك للحاظة إلى ما يضرك. ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينفص على نفسه العيش.

ويحكى: أن حسان بن أبي سنان مرّ بغرفة فقال: متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة فصامها. وقال مالك بن ضيغم: جاء رباح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر فقلنا: إنه نائم، فقال: أنوم هذه الساعة! هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له: ألا نوقظه لك! فجاء الرسول وقال: هو أشغل من أن يفهم عني شيئاً، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلت وقت نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليك؟ ينام الرجل متى شاء، وما يدريك أنّ هذا ليس وقت نوم؟ تتكلمين بما لا تعلمين؟ أما إن لله علي عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل، سوأة لك، أما تستحين كم توبخين؟ وعن غيك لا تتهين؟ قال: وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني، قلما رأيت ذلك انصرفت وتركته.

ويحكى عن تميم الداري: أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد؛ فقام سنة لم ينم فيها، عقوبة للذي صنع. وعن طلحة رضي الله تعالى عنه قال: •انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه: ذوقي ونار جهنم أشدّ حرّاً!، أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي ﷺ في ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي! فقال له النبي ﷺ: ﴿ أَلَمْ يَكُنُ لَكَ بُدُّ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ أَمَا لَقَدْ فُتِحتْ لَكَ أَبْوَابُ السَّماءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللَّهُ بِكَ المَلائِكَةَ» ثم قال لأصحابه: «تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ» فجعل الرجل يقول له: يا فلان، ادع لي! يا فلان، ادع لي! فقال النبي ﷺ: «حمهم» فقال: اللهم اجعل التقوي زادهم، واجمع على الهدى أمرهم. فجعل النبي ﷺ يقول: ﴿اللَّهُمُ سَدِّدُهِ فَقَالَ الرجل: اللَّهُم اجعلُ الجنة مُآبِهم، (١٠). وقال حذيفة بن قتادة: قيلُ لرجَل: كيف تصنع بنفسك في شهواتها؟ فقال: ما على وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها؟ ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات _ وهو في بيته على التراب _ فقال: يا داود، سجنت نفسك قبل أن تسجن، وعذبت نفسك قبل أن تعذب، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له. وعن وهب بن منبه: أن رجلاً تعبد زماناً، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطها، فرجع إلى نفسه وقال: منك أتبت، لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك! فنزل إليه ملك وقال: يا ابن آدم، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله حاجتك. وقال عبدالله بن قيس: كنا في غزاة لنا فحضر العدو، فصبح في الناس، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الربح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! ألم أشهد

⁽١) حديث طلحة: «انطلق رجل ذات يوم فنزع ثبابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه: ونار جهنم أشد حراً...» الحديث. بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية لبث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل، ولا أدري من طلحة هذا.

مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك! فقلت: لأرمقنه اليوم، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوائله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعاً، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة. وقد ذكرنا حديث أبي طلحة: لما اشتخل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك. وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول: ماذا عملت اليوم؟. وعن مجمع: أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة؛ فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء ما دام في الدنيا، وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا؟. وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عطم ألمه ثم جعل يقول لنفسه: ويحك! إنما أريد بك الخير- ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح! فقال له: لو أكلته بملح! فقال: إن نفسي لتدعوني إلى الملح منذ سنة، ولا ذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا.

فكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم، والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نصلك وهي أعظم عدو لك وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أؤلى من غيرها.

المرابطة الخامسة: المجاهدة:

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد فارقت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط؛ فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم، وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك اللبلة، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين، وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة. وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصدق بجميع ماله، كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟. فأقول: سبيلك في ذلك: أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين(١). ومن أنفع

⁽١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أخرجها أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين، ولم وللنسائي وابن ماحه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: "ورحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، وللترمذي من حديث بلال: "هليكم بقيام اللبل فإنه دأب الصالحين قبلكم.. " الحديث. وقال: غريب ولا يصح، وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك.

أسباب العلاج: أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة؛ فتلاحط أقواله وتقتدي به. وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً. إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة احتهاد الأولين، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة! ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ا نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «رَجِمَ اللّهُ أَقُواماً يَحْسَبُهُمُ النّاسُ مَرْضَى وَ مَا هُمْ بِمَرْضَى الله المحسن: يعملون أجهدتهم العبادة! قال الله تعالى: ﴿وَالَذِينَ بُوْنُونَ مَا آاتُوا وَالْوَبُهُمْ وَسِلَةٌ ﴾ [المومنون. ٢٠] قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله اوقال رسول الله ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ صَمَلُهُ (٢٠). ويروى: أن الله تعالى يقول لملائكته: ما بال عبادي مجتهدين، فيقولون: إلهنا خوفتهم شيئاً فخافوه، وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه! فيقول الله تبارك وتعالى: فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشد اجتهاداً. وقال الحسن: أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء عبادي لكانوا أشد اجتهاداً. وقال الحسن: أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم، ما كانوا يفرحون بشيء عبادي المنون على شيء منها أدبر، ولهي كانت آهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا خعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم. إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا المعتمة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى: أنّ قوماً دخلوا على عمر بن عبدالعزيز يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل المجسم، فقال عمر له: يا فتى، ما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله إلا صدقتني! فقال: يا أمير المؤمنين، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها، وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه.

وقال أبو نعيم: كان داود الطاثي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز. فقيل له في ذلك فقال: بين مضغ الخبر وشرب الفتيت قراءة خمسين آية. ودخل رجل عليه يوماً فقال: إنّ في سقف بيتك جذعاً مكسوراً فقال: يا ابن أخي، إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول

 ⁽۱) حديث ورحم الله أقواماً تحسبهم مرضى وما هم بمرضى لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع. لكن رواه أحمد في
الرهد موقوفاً على علي في كلام له قال قيه: ينظر إليهم فيقول مرضى وما بالقوم من مرض.

 ⁽٢) حديث: «طوبي لمن طال حمره وحسن عمله» أخرجه الطبراني من حديث عبدائه بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة: (صن)
 وهو مدلس، وللترمذي من حديث أبي بكرة: فخير الناس من طال عمره وحسن عمله، وقال عسن صحيح، وقد
 تقدم.

النظر كما يكرهون فضول الكلام. وقال محمد بن عبدالعزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة! فقيل له في ذلك فقال: إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة. وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة! وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له. وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر. وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحرّ حتى يخضر حسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذّب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد. وكان يصوم حتى يخضر حسده ويصلى حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالًا له: إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا؟ فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئاً إلا جئت به. وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد من رجليه فكان يصلي جالساً ألف ركعة، فإذا صلى العصر احتبى ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك! عجبت للخليقة كيف أنِسَت بسواك! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك!. وكان ثابت البناني قد حبيت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري. وقال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري؛ أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رئى مضطجعاً إلَّا في علة الموت! وقال الحارث بن سعد: مرّ قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدَّة اجتهاده، فكلموه في ذلك فقال: وما هذا عندما يراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون، قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم؟ فبكي القوم عن آخرهم. وعن أبي محمد المغازلي قال: جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يمدّ رجليه، فعبر عليه أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له: يا أبا محمد، بم قدرت على اعتكافك هذا؟ فقال: علم صدق باطني فأعانني على ظاهري، فأطرق الكتاني ومشى ممكراً. وعن بعضهم قال: دخلت على فتح الموصلي فرأيته قد مدّ كفيه يبكي ـ حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه ـ فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة! فقلت: ولم بالله يا فتح بكيت الدم؟ فقال: لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك، نعم، بكيت دماً فقلت له: على ماذا بكيت الدموع؟ فقال: على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع؟ قال: فرأيته بعد موته في المنام فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت له: فماذا صنع في دموعك؟ فقال: قرّبني ربي عزّ وجلّ وقال لي: يا فتح؛ الدمع على ماذا؟ قلت؛ يا رب على تخلفي عن واجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ فقلت: على دموعي أن لا تصح لي، فقال لي: يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة يصحيفتك ما فيها خطيئة.

وقيل: إنّ قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته، فقالوا: يا راهب، إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق؟ فأوماً برأسه إلى السماء، فعلم القوم ما أراد، فقالوا: يا راهب، إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال. سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث، فعجب القوم من كلامه، فقالوا: يا راهب، علام الخلق عداً عند مليكهم؟ فقال: على نياتهم، فقالوا: أوصنا، فقال: تزودوا على قدر سفركم فإنّ خير الزاد ما للغ البغية. ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته.

وقال عبدالواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته: يا راهب، فلم يجبني عناديته الثانية فلم يجبني، فناديته الثالثة فأشرف علي وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه، وعظمه في كبريائه، وصبر على بلائه، ورضي بقضائه، وحمده على آلائه، وشكره على نعمائه، وتواضع لعظمته وذلّ لعزته، واستسلم لقدرته وخضع لمهابته، وفكر في حسابه وعقابه؛ فنهاره صائم وليله قائم، قد أسهره ذكر البار ومسألة الجبار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم! فقلت: يا راهب، فما الذي قطع الخلق عن الله تعالى بعد أن عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله تعالى من ذنبه، وأقبل على ما يقربه من ربه.

وقيل لداود الطائي: لو سرحت لحيتك. فقال: إني إذن لفارغ. وكان أويس القرني يقول: هذه ليلة الركوع فيحيى الليل كله في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال: هذه ليلة السجود فيحيى الليل كله في سجدة. وقيل: لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك! قال: الرفق أطلب! دعيني أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً. وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً. وكان سفيان الثوري يقول: عند الصباح يحمد القوم السرى، وعند الممات يحمد القوم التقي. وقال عبدالله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه؛ أي كان لا ينام طول الليل، وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه: قومي يا مأوى كل شرا فلما ضعف اقتصر على خمسمائة، ثم كان يبكي ويقول: ذهب نصف عملي. وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنتُ لا تنام؟ فيقول: يا ابنتاه إنّ أباك يخاف البيآت. ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته: يا بني لعلك قتلت قتيلاً قال: نعم يا أماه، قالت: فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك، فيقول: يا أماه هي نفسي. وعن عمر ـ ابن أخت ىشر بن الحارث ـ قال: سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي: يا أختي جوفي وخواصري تضرب عليٌّ، فقالت له أمي: يا أخي أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك فقال لها: ويحك! أخاف أن يقول: أين لك هذا الَّدقيق؟ فلا أدري إيش أقول له. فبكت أمي ويكي معها وبكيت معهم. قال عمر: ورأت أمي ما ببشر من شدّة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمي: يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك! فسمعته يقول لها: وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديها عليَّ. قال عمر: وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار.

وقال الربيع: أتيت أويساً فوجدته جالساً حتى صلى الفجر، ثم جلس فجلست فقلت: لا أشغله عن التسبيح؛ فمكث مكانه حتى صلى الظهر، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نؤامة ومن بطن لا تشبع! فقلت: حسبي هذا منه، ثم رجعت. ونظر رجل إلى أويس فقال: يا أبا عبدالله، ما لي أراك كأنك مريض؟ فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأويس غير طاعم، وينام المريض وأويس غير نائم. وقال أحمد بن حرب: يا عجباً لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما، وقال رجل من النساك: أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة، ولم يحدث وضوءاً

فحاك ذلك في صدري فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعاً ثم لم تجدّد الوضوء، فقال: كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم؟

وقال ثابت البناني: أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبواً. وقيل: مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يصع جنبه على فراش، ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله. وقيل: كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة. وعن أبي بكر المطوعي قال: كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه: قل هو الله أحد؛ إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة ـ شك الراوي ـ. وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لا تسكت، لعلك يا بني أصبت نفساً لعلك قتلت قتبلاً؟ فيقول: يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي. وقيل لعامر بن عبدالله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ يقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر، فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى النار نام هاربها، وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حرّ وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها، وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: أذهب حرّ النار النوم فما ينام حتى يصبح، فإذا جاء النهار قال: أدهب حرّ النار النوم فما رأيته نام بليل ولا نهار.

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقالُ: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم؛ كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجَّداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الربح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، وكأن القوم باتوا غافلين _ يعني من كان حوله .. وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوّف به نفسه وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحض بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا مني، فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتي. وكان يقول: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا. كلا والله لنزاحمهم عليه زحاماً حتى يُعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً. وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: القيامة غداً؛ ما وجد متزايداً، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحرّ فلا ينام، وأنه مات وهو ساجد، وأنه كان يقول: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي. وقال القاسم بن محمد: غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها أسلم عليها، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ: ﴿فَنَنَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَنَا عَذَابَ ٱلنَّشُورِ ۞﴾ [الطُّور: ٢٧] وتبكي وتدعو وتردد الآية، فقمت حتى مللت وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو.

وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبدالرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء، وقال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل، وقال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: سيما الصالحين صفرة

الألوان من السهر، وعمش العيون من البكاء، وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين. وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره. وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهي: خلقتني ولم تؤامرني، وتميتني ولا تعلمني، وخلقت معي عدوّاً وجعلته يجري مني مجرى الدم وجعلته يراني وَلا أراه، ثم قُلْت لي: أستمسك، إلَّهي كيف أستمسُّك إن لم تمسكني؟ إلهي: في الدنيا الهموم والأحزان وفي الآخرة العقاب والحساب فأيَّن الراحة والفرح؟. وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة، ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة، قال جعفر بن محمد: فحدَّثت به بعض البصريين فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح!. وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب ـ وكان له أهل وبنات _ وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون! أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون؛ فيسمع من هاهنا باك ومن هاهنا داع ومن ههنا قارىء ومن هاهنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعض الحكماء: إنَّ لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه؛ فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيُّوناً للحكمة، وتوابيت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلق مقبلون ومديرون، وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوم، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفاً أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً وهم الظاهر مناديل، مبذولون لمن أرادهم تواضعاً. وهذه طريقة لا يُبلغ إليها بالتكلف، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك، فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال، فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية: ﴿ وَوَمَ تَجِدُ حَكُلُّ نَفْسٍ مَّا عَجِلَتُ مِنْ خَيْرٍ غَتَمَلُكُ الله بعران: ٢٨] قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ مغشياً عليه، فقلت: وا أسفاه هذا لشقائي. ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين، أعوذ بك من أعمال البطالين، أعوذ بك من إعراض الغافلين. ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين، وإليك فزعت آمال المقصرين، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نقل: لك خشعت قلوب الخائفين، وإليك فزعت آمال المقصرين، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين، ثم نقض يده فقال: ما لي وللدنيا وما للدنيا ولي؟ عليك يا دنيا بأبناء جنسك ألأف نعيمك! إلى محبيك فاذهبي، وإياهم فاخدعي، ثم قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة، في التراب يبلون، وعلى الزمان يفنون، فناديته: يا عبدالله، أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فرافك! فقال: وكيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها، ثم لهي عني ساعة وقرأ: ﴿ وَبَلاً لَمُم مِن الله عليه عني ساعة وقرأ: ﴿ وَبَلاً لَمُم مَن الله إساءتي من وحد، فدنوت منه فإذا هو يضطرب، ثم أفاق وهو يقول: من أنا، ما خاطري؟ هب لي إساءتي من فضلك، وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك. فقلت له: بالذي ترحوه فضلك، وجللني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك. فقلت له: بالذي ترحوه

لنفسك! وتثق به إلا كلمتني فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه، ودع كلام من أوبقته ذنوبه، إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدنني فلم يحد عوناً علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك؟ فإليك عني يًا مخدوع فقد عطلت عليّ لساني، ومبلت إليّ حديثك شعبة من قلبي! وأنا أعوذ بالله من شرك، ثم أرجو أن يعيدنني من سخطه ويتفضل عليّ برحمته. قال: فقلت: هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا! فانصرفت وتركته.

وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا سيخ قد أشرف علي فقال لي: يا هذا، قم فإن الموت لم يمت، ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول: ﴿كُلُّ نَفْسِ ذَابِقَةٌ ٱلدَّتِ ﴾ [آل عِمرَان ١٨٥] اللهم بارك لي في الموت، فقلت: وفيما بعد الموت، فقال: من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر، ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه، بيض وجهي بالنظر إليك واملاً قلبي من المحبة لك، وأجرئي من ذل التوبيخ غداً عندك؛ فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي، وقد أنشدوا في هذا المعنى "

نحيالُ البحسمِ مكتئبُ الفوادِ يستوحُ عسلى معاص فاضحات فسإن هساجست مسخساوفه وزادت فأست بسما ألاقسيسه عسلسيم وقيل أيضاً:

تسراه بسقسمة أو بسطسن وادي يكذر ثقالها صفو الرقاد في في كند ثقالها صفو الرقادي في عام مادي كثير الصفح عن ذلال العسباد

ألسة مسن الستسلسة في بسالسغسوانسي مسنسيسب فسر مسن أهسل ومسال لسيسخسمسل ذكسره ويسعسيسش فسردا تسمسة في وأسسى وأسسى وعسنسد السمسوت يسأتسيسه بسشسيسر فسيسطوك مسا أراد ومسا تسمسنسي

إذا أقبيلين في حسلي حسيان يستح إلى مكان من مكان ويستح إلى مكان من مكان وينظ هير في التعبيادة بالأماني وذكير بالمفواد وبالملسيان وذكير بالمنتجاة من التهاوان من السهاوان من الساحات في غيرف التجانان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات، ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له: قد أجهدت نفسك! فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقيل. خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم؟ يعني: أنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيراً وكنت بالرغبة فيه جديراً، فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها؟. فهكذا كانت سبرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها، فمهما تمرّدت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء؛ فليس الخبر كالمعاينة، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء، فإن لم تكن إبل فمعزى، وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم

وغمارهم ـ وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين ـ وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقي وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء.

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس، لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة، فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها! ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات: فقد روي عن حبيبة العدوية: أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي، قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهي، هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر؛ فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها علي فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت؛ لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

ويروى عن عجرة: أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر، فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين، وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين، وأن تلحقني بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم، ثم تخرّ ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر،

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها؟ فقال: أنت وذاك، قال: فأتيناها، فقلت لها: لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين؟ قال: فبكت، ثم قالت: والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي، ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي، وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء. فلم تزل تردد: «وأنى لي بالبكاء عشي عليها.

وقال محمد بن معاذ: حدثتني امرأة من المتعبدات قالت: رأيت في منامي كأني أدخلت الحنة فإذا أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها! فقلت: ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها: شعوانة. قالت: فقلت: أختي والله، قالت: فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت: يا أختي، أما ترين مكاني من مكانك، فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك؟ قالت: فتبسمت إلي وقالت: لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين: ألزمي الحزن قلبك، وقدمي محبة الله على هواك، ولا يضرك متى مت.

وقال عبدالله بن الحسن: كانت لي جارية رومية وكنت بها معجباً، فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبي، فقلت لها: لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك، فقالت: يا مولاي، بحبه لي أحرجني من الشرك إلى الإسلام، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشي: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها: سرية؛ فنزلت في بعض دبارنا، قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً، فقلت يوماً لخادم لي: أشرف على هذه المرأة، ماذا تصنع؟ قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً، غير أنها لا تردّ طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال، وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة، بعد فلتة: أثراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير.

وقال ذو النون المصري: خرجت ليلة من وادي كنعان، فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليً وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَمُم مِنَ السواد إذا هي وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَمُم مِنَ السواد إذا هي المرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة مني، فقلت: رجل غريب، فقالت: يا هذا، وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت: ما الذي أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله، والصادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب، فسكتُ متعجباً من قولها.

وقال أحمد بن علي: استأذنا على عفيرة فحجبتنا، فلازمنا الباب، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول: اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها: يا أمة الله ادعي لنا، فقالت: جعل الله قراءكم في بيتي المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء، فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه فأصابه فتق في بطنه، فيا ليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص! ويا ليتها إذا عصت لم تعد!. وقال بعض الصالحين: خرجت يوما إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت: لا تبرحي حتى أنصرف إليك، قال: فانصرفت فلم أجدها في الموضع، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت: يا مولاي، لا تعجل منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت: يا مولاي، لا تعجل علي؛ إنك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع!. فعجب لقولها وقلت لها: أنت حرّة. فقالت: ساء لي ما صنعت؛ كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة، تعبدت، وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنر عمها: انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعذلها في كثرة البكاء قال: فدخلنا عليها فقلنا: يا بريرة، كيف أصبحت؟ قالت: أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب، فقلنا لها: ما هذا للبكاء قد ذهبت عيناك منه؟ فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا؟ ثم أعرضت. قال: فقال القوم: قوموا بنا، فهي والله في شيء غير ما نحن فيه، وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيها فتصلي حتى تصبح.

وقال أمو سليمان الداراني: بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها، وقمت أنا إلى ناحية من البيت، فلم نزل قائمة إلى السحر، فلما كان السحر قلت: ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن تصوم له غداً. وكانت شعوانة تقول في دعائها: إلهي، ما أشوقني إلى لقائك، وأعظم رجائي لجزائك، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين، إلهي: إن لجزائك، وأنت الكريم الذي همل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي؛ فإن عفوت فمن أولى

منك بذلك، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك، إلهي: قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسعدها، إلهي: إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي، ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه، إلهي: كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي، إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني؛ فتول من أمري ما أنت أهله، وعد بفضلك على من غره جهله، إلهي: لو أردت معنتي لم تسترني، فمتعني بما له هديتني، وأدم لي ما به سترتني، إلهي: ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري، إلهي: لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك.

وقال الخواص: دخلنا على رحلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى السودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت؛ وكانت تصلي قاعدة، فسلمنا عليها، ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر، قال: فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي، والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً، ثم أقبلت على صلاتها.

فعليك _ إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك _ أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين؛ لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك؛ فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله. وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتسر. وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب: ٥حلية الأولياء٥ فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك ويعد أهل عصرك من أهل الدّين. فإن حدّثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه؛ فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عمت طابت، فإياك أن تتدلى بحيل غرورها وتنخدع بتزويرها، وقل لها: أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق، فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت؟ أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق ـ وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ـ فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا رَبَعُدُنَّا ءَاكَامَنَا عَلَنَ أُشَّةٍ وَإِنَّا عَلَى مَاشَرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرُف: ٣٣] فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت: أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها.

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها:

اعلم: أن أعدى عدوك نصبك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر فرّارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوّامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس

المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغل بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك. أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا ابن مريم، عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرٌ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نَنفُعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذّاريَات: ◘◘]. وسبيلك: أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها، وأنها أبدأ تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتدُّ أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك؛ تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدّ الناس غباوة وحمقاً! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً، فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً؟ أما تعلمين أن كل ما هو آتٍ قريب وأن البعيد ما ليس بآت؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف، ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل، ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب، ولا في الشباب دون الصباء بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة. ثم يفضي إلى الموت. فمالك لا تستعدّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب؟ أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿ أَفُرُكَ لِلنَّاسِ حِسَائِهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةِ مُعْرِصُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِن وَكُو مِن رَّبِهِم شُمَكَتِ إِلَّا ٱسْتَمَنُّوهُ وَكُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لَاهِبَةً قُلُوبُهُمْ ۗ [الانبيّاء: ١-٣] ويحك يا نفس؟ إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادكُ أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقل حياءك، ويحك يا نفس؛ لو واجهك عبد من عبيدك بلُّ أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين أتك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات! جزبي نفسك! إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربي أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك، فما لك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهفتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا يتقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا! وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ويحك يا نفس؛ ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة، فإنك تدَّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك، ألم يقل لك سيدك ومِولاك: ﴿وَمَا مِن
 ذَنَهُ في ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ بِزُفْهَا﴾ [غسود. ٦] وقسال فسي أمسر الآخسرة: ﴿وَإِنَّ لَيْسَنَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ ﴿ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ ﴿ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَىٰ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَيْ إِلَيْ مَا سَعَىٰ إِلَيْ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَّهُ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَيْ إِلَّهُ مَا سَعَىٰ إِلَيْ إِلَيْ مَا سَعَىٰ إِلَيْ إِلَيْ مَا سَعَىٰ إِلَيْ إِلَيْ مَا سَعَىٰ إِلَيْ إِلَّهُ مِنْ إِلَيْ مَا سَعَىٰ إِلَّهُ إِلَيْ مَا سَعَىٰ إِلَّهُ مَا أَعْمَلُوا أَنْ إِلَّهُ مِنْ إِلَّهُ مِنْ إِلَّهُ عَلَيْ إِلَّهُ عَلَيْ أَيْنِ إِلَّهُ عَلَيْ إِلَيْ إِلَّهُ إِلَيْ إِلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَيْ إِلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَيْ إِلَا عَلَى اللَّهُ مِنْ إِلَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَيْ إِلَيْ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَيْ إِلَيْ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَيْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَيْ إِلَّا عَلَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَيْ إِلَيْكُوا مِنْ إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ إِلَّهُ إِلَّهُ إِلَيْكُوا مِنْ إِلَيْكُمْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَلِهُ إِلَّهُ إِلَّهُ إِلَّهُ عَلَى اللَّهُ إِلَيْكُوا مِنْ إِلَّهُ عَلَيْكُوا مِلْ إِلَّهُ إِلَّ عَلَى اللَّهُ إِلَيْكُوا عَلَى اللَّهُ إِلَى اللَّهُ عَلَيْكُوا مِنْ إِلَّا عَلَى اللَّهُ عَلَيْكُوا مِنْ إِلَّ عَلَى اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُوا عَلَى الْ [النَّجْم: ٣٩] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر! ما هذا من علامات الإيمان؟ لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك يا نفس؛ كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات! أتحسبين أنك تُتركين سدى! ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك! أما تتفكرين أنه من ماذا خلقك؛

من نطقة خلقك فقدرك، ثم السبيل يسرك، ثم أماتك فأقبرك، أفتكذبينه في قوله؛ ثم إذا شاء أنشرك؟ فإن لم تكوني مكذبة فمالك لا تأخذين حذرك؟ ولو أن يهودياً أخبرك في أَلذ أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبُّك عقرباً لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان! أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقلُّ عندك من قول صبى من جملة الأغبياء! أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه! ما هذه أفعال العقلاء! بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوقين العمل والموت لك بالمرصاد، ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الأجل؟ وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك. أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً بعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدّة قريبة، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غبر تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى! ثم هبي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوَّحي إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة، وما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه؛ فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وهذا محال وجوده، أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين: غداً غداً؛ فقد جاء الغد وصار يوماً فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس، لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز؛ لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شابٌ قوي فأحرها إلى سنة أخرى، مع العلم بأن طول المدّة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ويزيد القالع ضعفاً ووهناً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب. والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا حف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك، فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية وتركنين إلى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تريد على هذه الحماقة؟

ولعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات، فما أشد غاوتك وأقبح اعتذارك! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد، ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام؛ حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم؟ وجميع

عمرك بالإضافة إلى الأبد - الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار - أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته. وليت شعري: ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟ ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي. أما الكفر الخفي: فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجلي: فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل - وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله على حيث قال: «الكيّسُ مَنْ دَانَ بُعْمِهِ وَعَمِلَ لِمَا يَعْدُ المَوْتِ، وَالأَخْمَلُ مَنْ أَنْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها وَتَمَنِّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي».

ويحك يا نفس؛ لا ينبغي أن تغرَّك الحيَّاة الدنيا ولا يغرّنك بالله الغرور، فأنظري لنفسك فما أمرُك بمهم لغيرك ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة؛ فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت، واستعدي للآحرة على قدر بقائك فيها. يا نفس: أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته؛ فتحمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدّة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدّة والبرودة! أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وساثر الأسباب فلا يندقع حرّ النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في أن عرَّفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق اُستخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشترينه لنفسك؛ إذ خلقه سبباً لاستراحتك، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مُستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين. ويحك يا نفس؛ انزعي عن جهلك وقيسي آخرتك بدنياك: ﴿مَمَا خَلْفُكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنفُوسِ وَجِدَةٍ ﴾ [لقمان: ٢٨] و ﴿كُمَّا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَمَلْقِ نُجِيدُونِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] و﴿ كُمَّا بَدَّأَكُمْ نَتُودُونَ ﴾ [الأعرَاف: ٢٩]. وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً.

ويحك يا نفس؛ ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكدين في نفسك مودّتها، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالمعوت المفرق بينك وبين محابك، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى؟ أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك وما لك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت، ولذلك قال سيد البشر عنه: ﴿إِنْ رُوحَ القُدُس نَفَتَ فِي روعِي، أَخبِبُ مَنْ أَخبَبْت فَإِنَّكَ مُفَارِقُه وَاعمَل ما شِشْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيً بِهِ وَعِشْ ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مَهَارِقُه وَاعمَل ما شِشْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيً بِهِ وَعِشْ ما شِئْتَ فَإِنَّكَ مَهَارِقُه وَاعمَل ما شِشْتَ فَإِنَّكَ مَهْرَبُ

⁽١) حديث: فإن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإنك مقارقه. . . ١ الحديث. تقدم في العلم وغيره.

ويحك يا نفس؛ أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لايدري؟ أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم، أما ترينهم كيف ينجمعون ما لا يأكلون؛ ويبنون ما لا يسكنون، ويؤملون ما لا يدركون؛ يبني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ومقرّه قبر محفور تحت الأرض، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً. أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقي على حماقتهم، واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والاقتداء؛ فقيسي عقلَ الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا واقتدي من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء. يا نفس: ما أعجب أمرك وأشدّ جهلك وأظهر طغيانك، عحباً لك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة! ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من يعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسنجد لك، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فـ ﴿ مَلْ يُحِشُ مِنْهُم يِّنْ أَمَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْنَ اللهِ الربَم ١٩٨. فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب. كيف ويأبي إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلاً عن محلتك؟ فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الأُخرة لجهلك وعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها، وتنزهاً عن كثرة عنائها، وتوقياً من سرعة فنانها؟ أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها، وما لُك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها، فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء! فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رُغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من النبيين والصدّيقين في جوار رب العالمين أبد الآبدين؛ لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل. فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين! فبادري ـ ويحك ـ يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير. فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت.

ويحك يا نفس؛ ما لك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضبعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضبعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك، فكيف إذا ضبعت البقية وأصررت على عادتك؟ أما تعلمين يا نفس: أنّ الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس: أنّ عسكر الموتى عندك على باب البلد ينظرونك، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم؟ أما تعلمين يا نفس: أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت معهم؟ أما تعلمين يا نفس: أنهم منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين في أميتهم، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك في المغلة والبطالة؟ ويحك يا نفس: أما تستحيين؟ تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السر

بالعظائم، أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق؟ ويحك؛ أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنا متلطخة بالردَائل، تدعين إلى الله وأنت عنه فارّة؛ وتذكرين بالله وأنت له ناسية؟ أما تعلمين يا نفس: أنَّ المذنب أنتن من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها؛ فلم تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك؟ ويحك يا نفس؛ لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك! ويحك يا نفس؛ قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عُبده مائتي ألف سنة، وأخرج أدم من الحبنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه؟ ويحك يا نفس، ما أغدرك، ويحك يا نفس، ما أوقحك ويحك يا نفس، ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي! ويحك؛ كم تعقدين فتنقضين، ويحك؛ كم تعهدين فتعدرين، ويحك يا نفس، أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيم كانوا جمعوا كثيراً وبنوا مشيداً وأملوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً؟ ويحك يا نفس، أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة، أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟ هيهات هيهات، ساء ما تتوهمين! ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك؛ فابني على وجه الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك! أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه ويشرى بالعذاب فهل ينفعك حينثذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدّعين البصيرة والفطنة، ومن قطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص؟.

ويحك يا نفس، تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك! فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه، فأنت تشاهدين ذُلَكُ في إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك؟ فاحذري أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله، وبأي لسان تجيبين، وأعدّي للسؤال جواباً وللجواب صواباً، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر، قويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً، وسعيك لها اضطراراً، ورفضك لها اختياراً، وطلبك للآخرة انتداراً، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهى الناس ولا ينتهي، واعلمي يا نفس: أنه ليس للدين عوض، ولا للإيمان بدل، ولا للجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يُسار به وإن لم يسر. فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة؛ فإنَّ من أعرض عن الموعطة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام، فإن لم يزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن

لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أنَّ الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وبأطنه، فوطني نفسك على النار؛ فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فكل ميسر لما خلق له، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك ـ والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ـ فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء، فانظري الآن: هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت ـ فمستقى الدمع من بحر الرحمة ـ فقد بقي فيك موضع للرجاء، فواظبي على النياحة والبكاء واستعيني بأرحم الراحمين، واشتكي إلى أكرم الأكرمين، وأدَّمني الاستغاثة ولا تملِّي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قد عظمت، وبليتك قد تفاقمت، وتماديك قد طال، وقد انقطعت منك الحيل، وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزعي إليه بالتضرع، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرّة وإلى رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وانقطعت منك الحيل، ولم تنجع فيك العظات، ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم والعسؤول جواد والمستغاث به برّ رؤوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي: يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر، أنا الجري، الذي لا أقلع، أنا المتمادي الذي لا أستحي، هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق، فعجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوّة عظمتك يا أرحم الراحمين. اقتداء بأبيك آدم عليه السلام. فقد قال وهب بن منبه: لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة، فاطلع الله عزّ وجلّ عليه في اليوم السابع وهو محزون كثيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم، ما هذا الجهد الذي أرى بك؟ قال: يا رب، عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي قصرت في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار التصب بعد الراحة، وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيتني؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم، ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي، ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي؛ فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي، فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلُّهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. فبكي آدم عليه السلام عند ذلك ثلاثمائة عام.

وكان عبيدالله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله: إلهي: أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي، أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى، واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى، واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى! واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ! واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى، وقال منصور بن عمار: سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول: يا رب، وعزتك ما أود بمعصيتك مخالفتك، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف،

ولكن سوّلت لي نفسي، وأعانني على ذلك شقوتي، وغرني سترك المرخي علي، فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي؛ فمن عذابك الآن من يستنقذني، أو يحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا، أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي، ويلي كلما طال عمري كثرت معاصيّ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود؟ أما آن لي أن أستحي من ربي!.

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم، وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعباً، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام.

تم كتاب المحاسبة والمراقبة. يتلوه كتاب التفكر إن شاء الله تعالى، والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه.



ينسد الله النكي النكيد

کتاب التفکر کتاب التفکر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

الحمد لله الذي لم يقدّر لانتهاء عزته نحواً ولا قطراً، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام ومرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى، بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسراً، وإذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً، ثم قبل لها: أجيلي في ذل العبودية منك فكراً لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدراً، وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك أمراً فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت على العالمين عليك تترى، وجدّدي لكل نعمة منها ذكراً وشكراً، وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً وشراً، ونفعاً وصراً، وعسراً ويسراً، وفوزاً وخسراً، وجبراً وكسراً، وطياً ونشراً، وإيماناً وكفراً، وعرفاناً وبكراً، فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمراً إمراً، وحاطرت بفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلماً وجوراً، فقد انبهرت العقول دون مبادىء إشراقه وانتقصت على بغضبك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلماً وجوراً، فقد انبهرت العقول دون مبادىء إشراقه وانتقصت على أعقابها اضطراراً وقهراً، والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعدّ سيادته فخراً، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة وذخراً، وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدراً ولطوائف المسلمين صدراً، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد وردت السنة بأن: «تفكر ساهة خير من هبادة سنة» (١)، وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار. ولا يخفى أنّ الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورثبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته، ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه؟ فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً؟ وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أوّلاً فضيلة التفكر، ثم حقيقة التفكر وثمرته، ثم محاري الفكر ومسارحه، إن شاء الله تعالى.

فضيلة التفكر

قد أمر الله تعالى بالتفكر والمتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذَكُّرُونَ اللَّهَ فِينَمَّا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ رَبَّنَاكُؤُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

كتاب التفكر

⁽١) حديث: «تفكر صاعة خير من هبادة سنة» أخرجه ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ: «ستين سنة» بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ملفظ: «ثمانين سنة» وإسناده ضعيف جداً، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ: «ثمير من قيام ليلة».

وعن عطاء قال: «انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبينها وبينها حجاب فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا»؟ قال: قول رسول الله على: «أَرْ فِباً تَزْدُهُ حُباً»، قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله على قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاسي في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: «فريني أتعبد لربي عزّ وجلّ فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكي حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال ثم قام يصلاة الصبح، فقال يا رسول الله: ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «وَيَحَكُ يا بِلال وَمَا يَمْتَمُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللّهِلَةِ: ﴿ إِنَ فِي غَلْنِ السّكوتِ فقال: «وَيَحَكُ يا بِلالُ وَمَا يَمْتَمُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللّهِلَةِ: ﴿ إِنَ فِي غَلْنِ السّكوتِ فقال: «وَيَحَكُ يا بِلالُ وَمَا يَمْتَمُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللّهِلَةِ: ﴿ إِنَ فِي غَلْنِ السّكوتِ فَالَارْضِ وَآفَيْتَكِنِ النّهِ وَالْتَهُ لِللّهُ عَلَى فِي أَلْ اللّهُ عَلَى فِي هَنِهِ اللّهِ لَهُ لَا لَهُ وَلَمْ اللّهُ عَلَى فِي هَنْ وَيعقلهن.

وعن محمد بن واسع: أنّ رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذرّ ـ بعد موت أبي ذرّ ـ فسألها عن عبادة أبي ذرّ فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وعن الفضيل قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل. وكان سفيان بن عبينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا الــمــر على كــانــت لــه فــكــرة فــفــي كــل شــي ولــه عــبــرة

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله، هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم، من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي. وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو، وفي قوله

⁽١) حديث ابن عباس: إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ: •تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهةي في الشعب من حديث ابن عمر وقال: هذا إسناد فيه نظر. قلت: فيه الوازع بن ثافع متروك.

 ⁽۲) حديث: خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: (ما لكم لا تتكلمون؛ فقالوا: نتفكر في خلق الله...»
 الحديث. رويناه في جزء من حديث عبدالله بن سلام.

⁽٣) حديث عطاء: «انطلقت أنا وهبيد بن عمير إلى عائشة. . . ، الحديث. قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ . . الحديث. في نزول ﴿إِنَّ فِي خَلِق النَّسَكُوْتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المبَقَرَة: ١٩٤] وقال: «وبل لمن قواها ولم يشكر فيها» نقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء.

تعالى: ﴿ اللهُ عَنْ مَا يَتِي اللَّذِينَ يَتَكَبُّرُونَ فِي اللَّرْضِ بِفَيْرِ الْعَقِّ ﴾ [الاعراف: ١٤٦] قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ أَعْطُوا أَعْيُنَّكُمْ حَظُّهَا مِنَ العِبَادَةِ ۗ ، فقالوا: يا رسول الله، وما حطها من العبادة؟ قال: «النَّظَرُ فِي المُصْحَفِ وَالنَّفَكُرُ فِيهِ وَالاغْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ»(١)، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالَّت: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصفُ لهم في الدنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدنيا عين. وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان: إنَّ طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة. وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرى، قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل، وقال عمر بن عبدالعزيز: الفكرة في نعم الله عزّ وجلّ من أفضل العبادة. وقال عبدالله بن المبارك يوماً لسهل بن على ورآه ساكناً متفكراً: أين بلغت! قال: الصراط. وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عزَّ وجلَّ. وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب. وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له: مَا يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي. وقال أبو سليمان: عوَّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر. وقال أبو سليمان: المفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحبي القلوب، وقال حاتم ' من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف. وقال ابن عباس التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه. ويروى: أنَّ الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهواه فإذا كان همه وهواه لى جعلت صمته نفكراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلم.

وقال الحسن أنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة. وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطائي رحمه الله تعالى على مطع في ليلة قمراء، فنفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له، قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً وبيده سيف وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال: من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال: ما شعرت بذلك. وقال الجنيد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحجة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عزّ وجلّ، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبي لمن رزقه. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالمكر. وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة أبسيرة، ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم، وقال أيضاً: الفضائل أربع:

⁽۱) حديث أبي سعيد الخدري: «أهطوا أهينكم حظها من العبادة. . .» الحديث، أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف.

إحداها: الحكمة وقوامها في الفكرة.

والثانية: العفة وقوامها في الشهوة.

والثالثة: القوّة وقوامها في الغضب.

والرابعة: العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس.

فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها.

بيان حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم: أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة. ومثاله: أنّ من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيقلده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجّرد قوله، وهذا ما يسمى تقليداً ولا يسمى معرفة.

والطريق الثاني: أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أنّ الآخرة أبقى. فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين.

فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكراً واعتباراً وتذكراً ونظراً وتأملاً وتدبراً. أما التدبر والتأمل والتفكر: فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة. وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر: فهي مختلفة المعاني، وإن كان أصل المسمى واحد؛ كما أنّ اسم: الصارم، والمهند، والسيف؟ يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة. فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد.

فكذلك الاعتبار: ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث أنه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة، وإن لم يقع العبور ولم يمكن إلا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم: التذكر، لا اسم: الاعتبار. وأما النظر والتفكر؛ فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظراً، فكل متفكر فهو متذكر، وليس كل متذكر متفكراً. وقائدة التذكار: تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب. وفائدة التفكر: تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة. فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة. فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت، أو بالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير. وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم، ولكن ليس يحسن استعمائها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها.

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار: تارة تكون بنور إلهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ـ وذلك عزيز جداً ـ وقد تكون بالتعليم والممارسة وهو الأكثر، ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد. فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين: وهو أنّ الأبقى أولى بالإيثار وأنّ الآخرة أبقى من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة: وهو أنّ الآخرة أولى بالإيثار، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة.

وأما ثمرة الفكر: فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة، العلم، لا غير. نعم، إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذن: هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن الفكر ذكر وزيادة. وذكر القلب خير من الحوارح، بل شرف العمل لما فيه من الذكر. فإذن: التفكر أفضل من جملة الأعمال. ولذلك قبل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، فقيل: هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص ألى الزهد والقناعة، وقبل: هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿لَمَلَهُمْ يَلَّقُونَ أَوَّ يُحْلِثُ اللهُ كُو فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الأخرة والزهد في الدنيا. وهذا ما عنيناه بالحال؛ إذ كان للقلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها، والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها.

وبهذه المعرفة تغير حال القلب، وتبدلت إرادته ورغبته، ثم أثمر تغير الإرادة أعمال الجوارح في اطراح الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة. فهاهنا خمس درجات:

أولاها: التذكر: وهو إحضار المعرفتين في القلب.

وثانيها: التفكر: وهو طلب المغرفة المقصودة منهما.

والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها.

والرابعة: تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة.

والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدّد له من الحال.

فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة: هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه. ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب، كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره. فإذن ثمرة الفكر: العلوم والأحوال، والعلوم لا نهاية لها، والأحوال التي تتصور أن تنقلب على القلب لا يمكن حصرها. ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه في ماذا يتفكر لم يقدر عليه؛ لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. نعم، نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة عليه؛ لأن مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية. نعم، نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة

إلى مهمات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطاً جملياً، فإنّ تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها، فإنها مشتملة على علوم، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة، فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجاري الفكر.

بيان مجاري الفكر:

اعلم: أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بغير الدين، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر. ونعني بالدين: المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى؛ فجميع أفكار العبد: إما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله؛ لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين، وما يتعلق بالعبد: إما أن يكون نظراً فيما هو محبوب عند الرب تعالى، أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين. وما يتعلق بالرب تعالى: إما أن يكون فو أفعاله وأسمائه وأسمائه الحسنى، وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما.

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال، وهو أن حال السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يضاهي حال العشاق فلتتخذ العاشق المستهتر مثالنا، فنقول: العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه.

فإن تفكر في معشوقه: فإما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته؛ ليتنعم بالفكر فيه ويمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته؛ ليكون ذلك مضعفاً للذة ومقوياً لمحبته.

وإن تفكر في نفسه: فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها، أو في الصفات التي تقرّبه منه وتحببه إليه حتى يتصف بها.

فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام: فذلك خارج عن حدّ العشق، وهو نقصان فيه؛ لأن العشق التام الكامل؛ ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره. فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه، ومهما كان تفكره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبة أصلاً. فلنبدأ بالقسم الأوّل: وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر: هو الذي تعلق بعلم المعاملة الذي هو مقصوده بهذا الكتاب، وأما القسم الآخر: فيتعلق بعلم المكاشفة.

ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله، أو محبوب ينقسم إلى ظاهر؛ كالطاعات والمعاصي، وإلى باطن؛ كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلها القلب ـ وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات.

والمعاصي: تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة، وإلى ما ينسب إلى جميع البدن؛ كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام. ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور.

الأوّل: التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا؟ فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر. والثاني: التفكر في أنه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه؟.

والثالث: أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فليتركه؟ أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه؟ أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه؟ وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات، فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في الأقسام على مائة، والعبد مدفوع إلى الفكر، إما في جميعها أو في أكثرها. وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول، ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع: الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات، فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه.

النوع الأول: المعاصي: ينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها؟ أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم؟ أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتباعد عنها؟.

فينظر في اللسان ويقول: إنه متعرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممارة والمخوض فيما لا يعني، إلى غير ذلك من المكاره، فيقرّر أوّلاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى، ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدّة العذاب فيها، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد، أو بأن لا يجالس إلا صالحاً تقياً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله، وإلا فيضع حجراً في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكراً له، فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز.

ويتفكر في سمعه: أنه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر.

فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه؛ أنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب؛ إما بكثرة الأكل من الحلال، فإن ذلك مكروه عند الله ومقوّي للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدوّ الله؛ وإما بأكل الحرام أو الشبهة، فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه؟. ويتفكر في طريق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها صائعة مع أكل الحرام، وإن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام(١) كما ورد الخبر به.

فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء. فمهما حصل بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء منها.

وأما النوع الثاني: وهو الطاعات: فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير؟ أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل؟ ثم يرجع إلى عضو عضو، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً:

إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر

⁽۱) حديث: «إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام؛ أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول، وقد تقدم.

في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله؟.

وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة ودكر، فما لي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لأشكره؟ فما لي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله؟.

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح، وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة.

وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فإني مستغن عنه، ومهما احتجت إلىه ذلك احتجت إلى ذلك المال. المال.

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله، بل عن دوابه وغلمانه وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظانّ الاستحقاق حتى يزكو بها عمله، وقس على هذا سائر الطاعات.

وأما النوع الثالث: فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب، فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات: وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغملة والغرور وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات: فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تعد بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم، وإذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره، ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات. وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا؟ ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات، فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة وخيث الدخلة.

كما لو رأى في نفسه عجباً بالعمل، فيتفكر ويقول: إنما عمل ببدئي وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إلي وإنما هو من خلق الله وفضله علي، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرّك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وإرادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي؟

فإذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها: لم ترين نفسك أكبر؟ والكبير من هو عند الله كبير؛ وذلك يتكشف بعد الموت، وكم من كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقياً بتغير حاله عند الموت بسوء المخاتمة؟.

فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة، فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين.

وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه؛ تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال؛ لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولما انصف به البهائم، ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد. وكذلك يقرّر على نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب، فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب.

وأما المنوع الرابع: وهو المنجيات: فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص، والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له. وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته. فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى؟ فإدا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يشمرها إلا علوم، وأن العلوم لا يشمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم: فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى، حتى ينبعث له حال الندم. وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر: فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه ـ على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك ـ وإذا أراد حال المحبة والشوق: فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه ـ كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر ـ وإذا أراد حال الخوف: فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ومكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقته وحدَّته، ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار، أو يصرف إلى اليمين فينرل دار القرار، ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها، وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بهاء وأنهم كلما نضجت جلودهم بذلوا جلوداً غيرها، وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وهلم جراً، إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها. وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء: فلينظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم.

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة، أو التنزه عن صفات مذمومة. وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر، أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين، وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فيبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة! فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم، فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة، فإن تحت كل كلمة منها أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن

صفاء القلب بعد صدق المعاملة، وكذلك مطالعة أخبار رسول الله في فإنه قد أوتي جوامع الكلم (۱)، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره. وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله في: ﴿إِنَّ رُوحَ القُلسِ نَفَتَ فِي روعي: أُحبِبُ مَنْ أُخْبَبْتَ فَإِنِّكَ مُفَارِقَة وَعِشْ مَا شِفْتَ فَإِثْكَ مَيْتُ وَاعْمَل مَا شِفْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٍّ بِهِ (۱). فإن هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين، وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر؛ إذ لو وقفوا على معانبها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم، ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية.

فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى، أو مكروهة، والمبتدىء: ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب، بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين؛ وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى، وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه؛ أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب؛ كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه؛ وهو منتهى لذة العشاق.

قاما ما ذكرناه: فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال، فإذا ضيم جميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب؟ ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل، فقال الحسين: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟ فالفناء في الواحد الحق: هو غاية مقصد الطالبين، ومنتهى نعيم الصديقين. وأما التنزه عن الصفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح، وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها؛ فإن استغرقت جميع عمرها، في تبرئة الرحم وتزبين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة، وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفاً من الضرب وطمعاً في الأجرة فدونك وإتعاب البدن بالأعمال الظاهرة، فإنّ بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الحنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون. وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحاً ومساء، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى. بل كل مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ـ فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ـ وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدّة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء،

⁽١) حديث: أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم، تقدم.

 ⁽٢) حديث: اإن روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنك مفارقه. . ٤ الحديث. تقدم غير مرة.

واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع له.

فهذه عشرون خصلة؛ عشرة مذمومة، وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته، ويدع الفكر فيها، ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه، فيقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات؛ فإذا تصف بواحدة منها؛ كالتوبة والندم مثلاً خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمر.

وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة؛ كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها. مثاله: العالم الورع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهّرة وانتشار الصيت، إما بالتدريس أو بالوعظ، ومن فعل ذلك تصدَّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصدِّيقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب ثم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع، وذلك من المهلكات. وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من يرده، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إنّ غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد، على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد، أو الإعراض لم يخلُ عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد، حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله. فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرائه فهو مخدوع، وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين! ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلقائه أشدّ فرحاً واستبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره، وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء، فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه. وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، ففتنة العالم عظيمة وهو إما مالك وإما هالك، ولا مطمع له في سلامة العوام.

فمن أحس في نفسه بهذه الصفات، فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل. فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جميعاً من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم مفتون، وكانوا يتدافعون الفتوى. وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره. وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا: لا تفعل هذا؛ فإن هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من

بين الخلق، وليقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فإنه قد كان معموراً قبلي وكذلك يكون بعدي، وأما أنا فلست مستغنياً عن إصلاح قلبي. وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل، فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرئاسة والعلق يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم، فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرئاسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة. بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله على: "إنَّ الله يُؤيدُ هَذا الدِّينَ بِأَقْوَام لا خَلاق فَهُمُّ". وإنَّ الله لَيُؤيدُ هَذا الدِين بِالرَّجُلِ الفَاحِرِ» أن فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في الدين بِالرَّجُلِ الفَاحِرِ» أن فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق. قال على في أيبن أرسِلا في زَرِيبَةِ هَنَم بِأَكْثَر القلب كما يُشبِث المَاءُ البَقْلَ أن وقال رسول الله على: "هَا نِثْبَانِ ضَارِيانِ أَرْسِلا فِي زَرِيبَةِ هَنَم بِأَكْثَر أَلْهَ لَكُونَا فيها مِن حُبُ الجَاهِ وَالمَالِ فِي دِينِ المَرْءِ المُسْلِمِ (أَنَّ). ولا ينقلع حب الجاه من القلب إلا المائل عن الناس، والهرب من مخالطتهم، وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم.

فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، وفي استنباط طريق المخلاص منها، وهذه وظيفة العالم المتقي. فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوّي إيماننا بيوم الحساب؛ إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب، فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار! فإن من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه، وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها. فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في المحرص على الدنيا والتكالب عليها، ويقال: لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا. فليتنا كنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا، فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا.

فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات، وإن ظهر شيء منه قبل دلك كان مدخولاً معلولاً مكدراً مقطوعاً، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة، ولا طريق له في كمال التنعم إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه. وهذه الصفات المذمومة عقارب وهي مؤذيات ومشوشات، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات. فهذا القدر كافٍ في التنبيه

⁽١) حديث: (إن الله يؤيد هذا اللين بأقوام لا خلاق لهم، تقدم.

 ⁽٢) حديث: (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)، تقدم في العلم.

 ⁽٣) حديث: «حب المال والجاه بنيت النفاق في القلب. . ، ١ الحديث، تقدم،

⁽٤) حديث: هما دُثبان جاثمان أرسلا في زريبة غنم. . . ، الحديث. تقدم.

على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عنه ربه تعالى.

المقسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه؛ وفيه مقامان: المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه، وهذا مما منع منه حيث قيل: تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله، وذلك؛ لأنّ العقول تتحير فيه فلا يطيق مدّ البصر إليه، إلا الصدّيقون ثم لا يطيقون دوام النظر، بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس، فإنه لا يطيقه البتة، بل يختفي نهاراً وإنما يتردد ليلاً ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض. وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس، فإنه يقدر على النظر إليها ولاّ يطيق دوامه ويخشى على بصره لو أدام النظر، ونظره المختطف إليها يورث العمش ويفرق البصر. وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل، فالصواب إذن: أن لا يتعرّض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته، فإنّ أكثر العقول لا تحتمله، بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهُو: أنَّ الله تعالى مقدَّس عن المكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه؛ قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته، بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو، وأن يكون جسماً مشخصاً له مقدار وحجم، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله، حتى قال بعض الحمقى من العوام: إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الْإِله! لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء؛ وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه؛ نعم، غايته أن يقدّر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك في حق الله - تعالى وتقدُّس - حتى يفهم العظمة، بل لو كان للذباب عقل وقيل له: ليس لخالقك جناحاًن ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟ أفيكون مقصوص الجناح؟ أو يكون زمناً لا يقدر على الطيران؟ أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالفي ومصوري؟. وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل، وإن الإنسان لَجهول ظلوم كفار، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون.

ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته خطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلى المقام الثاني: وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه، فإنها تدل على جلاله وكبريائه وتقدّسه وتعاليه، وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلى صفاته من آثار صفاته، فإنا لا نطيق النظر إلى صفاته كما أنّا نطيق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس. ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر. وجميع موجودات اللنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته، بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود. ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته ـ تعالى وتقدس ـ إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيوم بنفسه، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها، ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى نرى الشمس فيه ويمكن النظر إليها، فيكون الماء واسطة يغض قليلاً من نور الشمس

حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأموار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال، فهذا سر قوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في ذات الله تعالى».

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى:

اعلم: أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن؛ لأنه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره، ولكنا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه.

فتقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها؛ فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْلَقُ مَا لَا نَمْلَمُونَ﴾ [التحل. ٨] ﴿ سُبَّعَنَ ٱلَّذِي خَلَقَ الْمَوجودات التي لا نعلمها كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُشِتَكُمُ فِي مَا لَا اللّهُ وَمَا لَا يَصَلّها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر في تقصيلها. وهي منقسمة: إلى ما أدركناه بحس البصر، وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر في هذه الأشياء مما بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك. ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغمض. فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر: وذلك هو السموات يضيق ويغمض، فلنعدل إلى الأفهام وهي المدركات بحس البصر: وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما، فالسلوات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونماتها، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها.

فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع، وكل نوع ينقسم إلى أقسامه في وكل نوع ينقسم إلى أقسام، ويتشعب كل قسم إلى أصناف، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك مجال الفكر، فلا تتحرّك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه.

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَفِ النَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَنَتِ لِإَوْلِ ٱلْأَلْبَبِ ﴿ ﴾ [آل صِمْرَان: ١٩٠]. وكما قبال تسعالسي: ﴿ وَمِنْ هَايَنِهِ ﴾ [الرُّوم: ٢٠]. من أول القرآن إلى آحره، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات.

فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة ـ وأقرب شيء إليك نفسك ـ وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه. فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَيَ اَهْبِكُ اللهِ تَعالَى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَيَ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ الله

تَنَثِرُونَ ۞﴾ [السرَّوم: ٢٠]، وقال تسعالسى: ﴿ أَلَوْ بَكُ ثُلْفَةُ بِن نَيْقِ بُنَنَ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَهُ فَعَلَقَ مَسُوَى ۞﴾ [الفِبَامَة: ٢٨،٣٧]، وقال تعالى: ﴿ أَلَوْ غَلْقَكُم بِن ثَاوَ مَهِبِ ۞ مَجَمَلَتُهُ فِي فَإِرِ تَكِيبِ ۞ إِلَى فَدْرِ مَعْلُومِ ۞﴾ [الفِبَامَة: ٢٠-٢٧]، وقال: ﴿ أَوْلَا يَرَ ٱلْإِنسَانُ أَنَا خَلْقَتُهُ مِن ثُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَسِسِتُ ثُمِينٌ ۞﴾ [يس: ١٧] وقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن ثُطُفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسَان: ٢]. ثم ذكر: كيف جعل النطقة علقة، والعلقة مضغة، والمصغة، والمعلقة عظاماً، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن شُلِكَةٍ مِن طِيبٍ ۞ ثُمَّ جَمَلَتُهُ ثُطُفَةً فِي فَرَادٍ مَنْ عَلَيْهِ ۞ ثُمَّ جَمَلَتُهُ نُطْفَةً فِي فَرَادٍ مَنْ فَلِي ۞ ثُمَّ جَمَلَتُهُ نُطْفَةً فِي فَرَادٍ هَا مُنْ اللّهِ وَالْعَلَقَ عَلَقَهُ ﴾ [المومنون. ١٦-١٤] الآية.

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز، ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر في معناه، فانظر الآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء قدرة لو تركت ساعة ليضر بها الهواء فسدت وأنتنت ـ وكيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والتراثب؟ وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الإلفة والمحبة في قلوبهم؟ وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع؟ وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع؟ وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم؟.

ثم كيف خلق المولود من النطقة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر؟ وكيف جعل النطقة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء؟ ثم كيف جعلها مضغة؟ ثم كيف قسم أجزاء النطقة وهي متساوية متشابهة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم؟ ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق: الأعضاء الظاهرة، فدوّر الرأس وشق السمع والبصر والأنف والقم وسائر المنافذ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل؟ ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمئانة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص؟ ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر؟ فركب العين من مخصوص لعمل منها أو زالت صفة من منها تعطلت العين عن الإبصار، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا نقضي فيه الأعمار.

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له، ثم قدّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوّف ومصمت وعريض ودقيق؟. ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه، مفتقراً للتردد في حاجاته، لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنظبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس؟ وكيف جمعها وركبها؟ وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس ـ كما تراه ـ فمنها ستة تخص الفحف، وأربعة عشر للحي الأعلى، واثنان للحي الأسفل، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع: وهي الأنياب والأضراس والثنايا، ثم جعل الرقبة مركباً

كتاب التفكر

ثم ركب الرقبة على الظهر، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة، فيتصل به من أسفله عظم العصعص؛ وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام البدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين، فلا نطول بذكر عدد ذلك. ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان ماثتا عظم وثمانية وأربعون عظماً، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل. فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة.

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها، فإن هذا علم قريب يعرف الأطباء والمشرِّحون، إنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالفها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها؟ وخصصها بهذا العدد المخصوص؛ لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحداً؛ لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها؛ ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها، فشتان بين النظرين.

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام؟ وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة ـ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ـ وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها ـ

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أوّلاً وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجنّ والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليه: كأنه إنسان! عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما

تمت بالصبغ والقلم والبد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه.

وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة، فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام فى أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وياطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سب بقائها، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة. وخلق لها الظهر أساسأ لبدنها والبطن حاويأ لآلات غذائها والرأس جامعأ لحواسها، ففتح العيبين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها، ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرأ ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها، وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها، وحعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم. ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروايح على مطاعمه وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه. وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عما في القلب. وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدَّد رؤوسها وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب؛ كأنها الدرّ المنظوم، وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسدُّ منفذه وليتم بها حروف الكلام. وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت، وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها. ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الحوهر ورخاوته والطول والقصر، حتى اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقاً حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة. ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ، وزين الوجه باللحية والحاجبير، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل، وزين العينين بالأهداب.

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كلِّ واحد لفعل مخصوص؛ فسخر المعدة لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم، والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد. فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها، والمرارة تخدمها بجذب الصغراء عنها، والكلية تخدمها لجذب المائية عنها، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها، ثم تخرجه في طريق الإحليل. والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن. ثم خلق اليدين وطوّلهما لتمتد إلى المقاصد، وعرّض الكف، وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع. ولو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضماً غير تام كانت مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له. ثم خلق

الأظهار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه. ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل. ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصوّر ولا آلته! فهل رأيت مصوّراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأطهر برهانه!.

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك، وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل نصير بما يحتاج إليه؟

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي؟ ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً؟ وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيفاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً، فإنّ الطفل لا يطبق منه إلا القليل؟ ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدّة الجوع؟.

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين؟ لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستعني عن السنّ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللئات اللينة؟! ثم حن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه؛ فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمبيز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل؟ فصار مراهقاً ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً؛ إما كفوراً أو شكوراً مطيعاً أو عاصباً مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ هَلَ أَقَ عَلَ اللهِ نَهُ عَلَى اللهِ مُعَلَّنَهُ سَيِعاً بَصِيرًا ﴿ وَلَا خَنَفَنَا اللهِسَنَ مِن شُلْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَيهِ فَجَعَلْنَهُ سَيِعاً بَصِيرًا ﴾ اللهنسن الله الله الله الله والكرم، ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية.

والعحب كل العجب ممن يرى خطأ حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه! ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوّره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته؟.

فهذه نبذة عن عجائب بدنك الني لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع متأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغصب فتقاتل. والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب

الآفاق والأنفس؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين ويحشر في زمرة النبيين والصدّيقين مقرّباً من حضرة رب العالمين. وليست هذه المنزلة لليهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم فإنه شر من البهائم بكثير؛ إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك، فتفكر في الأرض التي هي مقرّك، ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات؛ أما الأرض: فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها، وجعلها قارّة لا تتحرك، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم، فقال تعالى: ﴿ وَالسَّالَةِ بَنِيْنَهَا بِأَيْدِ وَإِنَّا لَتُوسِئُونَ ۞ وَالْأَرْضَ فَرَشَنَهَا نَعْمَ النَّرَضَ دَوْلَا فَانشُوا في مَنَاكِبًا﴾ السَّيدُونَ ۞ [النَّاريَات: ٤٨٠٤]، وقال تعالى: ﴿ هُو النَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ دَوْلَا فَانشُوا في مَنَاكِبًا﴾ [البَقرَة: ٢٧]، وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض لينفكر في عجائبها فظهرها مقرّ للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْمَلُ الْأَرْضَ كِنَانًا فَيْ اللَّرْسَ لَا اللَّرْسَ كِنَانًا فَيْ اللَّرْسَلات: ٢٢٥٠٤].

فانظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات. ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان، وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرابيح، يفضل بعضها على بعض في الأكل، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة؟.

فإن قلت: إنّ اختلافها باختلاف بذورها وأصولها؟ فمتى كان في النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة؟ ثم انظر إلى أرض البوادي وفتش ظاهرها وباطنها فتراها تراباً متشابها، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهبج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه، لكل واحد طمم وريح ولون وشكل يخالف الآخر، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة؟.

فهذا النبات يغذي وهذا يقوي وهذا يحيي وهذا يقتل، وهذا يبرد وهذا يسخن، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق، وهذا يستحيل إلى الصفراء، وهذا يقمع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دماً، وهذا يفرّح وهذا ينوّم وهذا يقوّي وهذا يضعف! فلم تنبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها. وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص؛ فالنخل تؤبر والكرم يكسح والرزع ينقى عنه الحشيش والدغل، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض وبعضه بغرس الأغصان وبعضه يركب في الشجر. ولو الردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك؛ فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات.

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض. ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل؟ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها. ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها، وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطييب الطعام، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر، فيستحيل ملحاً مالحاً محرقاً لا يمكن تناول مثقال منه، ليكون ذلك تطيباً لطعامك إذا أكلته فيتهناً عيشك. وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا المجنس. ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه، ولذلك قال خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّدَوْتِ وَالْمَا الْمَا الْمِيْلِ الْمَا الْمَا اللها الها اللها اللها اللها اللها الها الها الها اللها اللها اللها اللها اللها اللها الها اللها اللها اللها اللها الها الها اللها الها اللها اللها الها الها الها اللها اللها الها الها

ومن آياته: أصناف الحيوانات: وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشى. وانقسام ما يمشى: إلى ما يمشي على رجلين، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة، كما يشاهد في بعض الحشرات. ثم أنقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت؛ ـ وهي من صغار الحيوانات ـ في بناتها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر على ذلك. فتري العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أؤلأ موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه، ثم يبتدىء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يغدو إلى الجانب الأخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بيتهما متناسباً تناسباً هندسياً، حتى إذا أحكم مقاعد القمط ورتب الخيوط كالسدي اشتغل باللحمة، فيضع اللحمة على السدي ويضبف بعضه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدي، ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخله وأكله، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير؛ فإذا طارت رمي بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله. وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى. أفتري أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كوّنه آدمي أو علمه أو لا هادي له ولا معلم؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟ بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوته، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالفه القادر العليم. فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات. وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة. نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجدّد تعجبه وقال: سبحان الله ما أعجبه! والإنسان أعجب الحيوانات، وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصواناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها، فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة لوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقل الفليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمن ذا للخلق إنه العالمي أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته.

ومن آياته: البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء قال النبي ﷺ: «الأرض في البَحْو كَالإِصْطَبْلِ فِي النَّرْض» (١)، فانسب إصطلاً إلى جميع الأرض، واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله.

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف صحائب ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرّك ويعلم أنها حيوان. وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر. وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء؟ وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات على هيئة شجرة ينبت من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن، ثم عرّف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها؟! ولا يستقصي على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات. وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر! وهو كيفية قطره الماء، وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنه منفصل، مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماه ومنع منها لمذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا

⁽١) حديث: «الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض؛ تقدم، ولم أجده.

في إخراجها! فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء، إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها! فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال. وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب: أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي؟ أتطن أني كوّنت نفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وحهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط، ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه.

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون: توهمني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي، فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخذي وشفتي، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشاً ولا خارجها، ولا داخل الرحم ولا خارجه، ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للمطفة ولا للرحم! فما هذا النقاش بأعجب مما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته، فهل نقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها أنّ الذي صوّر ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصوّر، كما أنّ نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصع - فبين الفاعلين من العباينة والنباعد ما بين الفعلين - فإن كنت لا تتعجب من هذا الوضوح ومنعك من التبيين مع هذا الربيان جدير بأن تتعجب من كل عجب؟ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في حميع ذرّات العالم وأجزائه، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه، فله المخلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب عليه لقصائه.

ومن آياته: الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح حسمه، ولا يرى بالعين شخصه، وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرّك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نشراً بين يدي رحمته كما قال سبحانه: ﴿ وَأَرْسَلُنَا الرِيْنَحَ لَوَقِحَ البحر: ٢٢]، فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا الْكِلَا عَلَيْمٌ رَبِّ اللَّهُ مَنْ مُرْكًا لِ بَرْدِ عَتِى شَعْمَ لِ الله اللهواء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي انظر إلى لطف الهواء، ثم شدّته وقوّته مهما ضغط في الماء، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي الغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه. فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء قلا ينفصل عن السطح مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء؛ لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء قلا ينفصل عن السطح مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء؛ لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء قلا ينفصل عن السطح

كتاب التفكر

الداخل من السفينة، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بثر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوى في البئر؛ فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوى والغوص في الماء! فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد.

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق؛ فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا حَلَقْنَا ٱلسَّمَوَ تِهِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيِّنَهُمَا لَعِيتَ ١٠٥ [الدِّخان: ٣٨]؛ وهذا هو الذي بينهما. وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَابِ ٱلْسُكَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وحيث تعرّض للرعد والبرق والسحاب والمطر، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى، فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه. فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رخاوته حامل للماء التثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن في إرسال الماء وتقطيع القطرات، كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدُّم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الأرض قطرة قطرة، فلو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن يخلقوا منها أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها. ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني! هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى. كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سبيه وعلته، فيقول الجاهل المغرور: إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها، ولو قيل له: ما معنى الطبع وما الذي خلقه؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل؟ وما الذي رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق، فيغذي كل جزء من كل ورقة، ويجري إليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار ـ فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة - فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه. فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذي سخر ذلك المجاذب؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أوّل الأمر؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل.

ومن آياته: ملكوت السلموات والأرض وما فيها من الكواكب، وهو الأمر كله، ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقاً. فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر. ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ ٱلْمَبْرُوجِ ۚ إِلَا السِّبُ رُوجِ: ١] _ ﴿ وَالسَّلَةِ وَاللَّادِقِ ۞ ﴾ [السطسارق: ١] _ ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُسُكِ ۞ ﴾ [الـذاريَات: ٧] ـ ﴿وَالنَّمَاءِ وَمَا بَلَنْهَا ۞﴾ [الـشـمـس: ٥] وكــقــولــه تــعــالــى: ﴿وَالنَّمْيِن وَضَّمَنَهَا ۞ وَالْقَمَرِ لِهَا لَنَهَا ۞﴾ [الشَّمس: ٢٠١]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا أَثْنِمُ إِلْمُنِّنِ ۞ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنِّنِ ۞﴾ [التّحوير: ١٦٠١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجَدِ إِنَا هَوَىٰ ۞﴾ [النَّجْم: ١] ـ ﴿مَلَا أَقْسِـدُ بِمَوْفِعِ ٱلنُّخُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَوْ تَمْلَمُونَ عَظِيتُ ١ الواقِعَة: ٧٦،٧٠]، فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون والآخرون ـ وما أقسم الله بها ـ فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلنَّمَآةِ رِزَلْكُمُ رَمَّا تُوعَدُّونَ ۗ ﴿ رَبَّعَكُونَ وَ الذَّارِيَاتِ. ٢٢] وأثنى على المفكرينِ فيه فقال: ﴿ رَبَّعَكُونَ فِي حَلْقِ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْصِ﴾ [آل جمزان: ١٩١] وقال رسول الله ﷺ: ﴿ وَيُلُ لِمَنْ قُرَأَ لَهُ إِلاَّيَةَ ثُمَّ مُسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ، (١)، أي تجاوزها من غير فكر؛ وذم المعرضين عنها فقال: ﴿ وَبَعَمَلُنَا ٱلسَّبَأَةُ سَقَفًا تَحْفُوطَكَ وَهُمُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿ الْأَنبَيَاء: ٣٦]، فأي نسبة لحميع البحار والأرض إلى السماء وهي متغيرات على القرب، والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سماه الله تعالَى محفوظاً فقال: ﴿ وَيَحَمُلُنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا غَمُوظَآ ﴾ [الإنبياء: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَبَلِيمَا فَوْفَكُمْ سَبَّمَا شِمَادًا ﴾ [السَّبَهِ: ١٧]، وقبال: ﴿ مَأْنَتُمْ أَنَدُ خَلَقًا أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَهَا ۞ رَهُمَ سَتَكَمًا مَسَوَّهَا ۞﴾ [السَّارَحَمات: ٢٨٠٣٧]، فانظر إلى الملكوت؛ لترى عجائب العز والجبروت. ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشاركك في هذا النظر. فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله: ﴿ وَكَذَاكِ نُرِى إِبْرَهِيدَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَنَوَتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنغام: ٧٠)، لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو ﴿ وَعَلِيمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ الْمَدَّا ﴿ إِلَّا مَن اَرْتَضَيٰ مِن رَّسُولِ﴾ [الجنّ: ٢٧،٢٦].

فأجِل أيها العاقل فكرَك في الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن، فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: رأى قلبي ربي؛ وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى، وأدنى شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرك، ثم الهواء المكتنف لك، ثم النبات والحيوان وما

 ⁽۱) حديث: (ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته، أي: قوله تعالى: ﴿ رَتَفَعَظُرُهُ فِي عَلَقِ التَبَوَّتِ وَالآرُونِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. تقدم.

على وجه الأرض، ثم عجائب الجو؛ وهو ما بين السماء والأرض، ثم السموات السبع بكواكبها، ثم الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذي هم حمّلة العرش وخزان السموات، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما، فبينك وبين هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعي معرفة ربك وتقول: قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر وإلى ماذا أتطلع؟.

فارفع الآن رأسك إلى السماء، وانظر فيها وفي كواكيها وفي دوراتها وطلوعها وغرويها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤويها في الحركة على الدوام ـ من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها، بل تجري جميعاً في منارل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى طي السجل للكتاب .، وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي. ثم انظر كيفية أشكالها: فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان، وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء. ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب محصوص. وانظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتدّ القيظ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان. وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر، واعتقد على طريق الجملة: أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه، ثم في مقداره، ثم في شكله، ثم في لونه، ثم في وضعه من السماء، وقربه من وسط السماء ويعده، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك؛ إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة، وأمر السماء أعظم، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه. وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض؛ فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة، وفي الأخبار ما يدل على عظمها ٢٠٠ ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض ثماني مرات وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها؛ إذ للبعد صارت ترى صغاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: ﴿ رَفَعَ سَتَكُهَا فَسَوَّنْهَا ﴿ ﴾ [النَّازَعَات: ٢٨].

⁽¹⁾ الحديث الذال على عظم الشمس رواه أحمد من حديث عبداقه بن عمر: رأى رسول الله ﷺ الشمس حين غربت فقال: «في ثار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلكت ما على الأرض؛ وللطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة: «وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أثت على شيء إلا أحرقته.

وفي الأخبار: أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام(١١)، فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافاً فانظر، إلى كثرة الكواكب. ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها. ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب؛ لأن الزمان من طلوع أوَّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه، وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي ﷺ: ﴿ هَلْ زَالَتِ الشَّمْسُ؟ ﴿ فَقَالَ : لا . . . نعم ، فقال : ﴿ كَيْفَ تَقُولُ لا . . . نَعَمْ افقال : من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام (٢). فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها. فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارثها كيف حُلقها، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب منك أنك تدخل بيت غني فتراه مزوّقاً بالصبغ مموّهاً بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبدأ تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه، ثم لا تتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه! فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت! ومع هذا فلا تنظر إليه؛ ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك؟ نيس لك هم إلا شهوتك أو حشمتك. وغاية شهوتك أن تملأ بطنك، ولا تقدر على أن تأكل عشر ها تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درحات. وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وقد يكون في بلدك من أغنياء البهود والنصاري من يزيد جاهه على جاهك، وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر في حمال ملكوت السموات والأرض، ثم غفلت عن التنعم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك. وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذاتها وكيفية ادخارها. فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها. وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وساتر بنيانه

⁽١) حديث: (بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام) أخرجه الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال: غريب، قال: ويروى عن أبوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصرة عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصرة سماع من أبي ذر.

 ⁽۲) حدیث: أنه قال لجبریل: «هل زالت الشمس؟» فقال: لا... نمم، فقال: «کیف تقول لا... تعم؟» فقال: من حین
قلت: لا، إلى أن قلت: نعم، سارت الشمس مسیرة خمسمائة عام. لم أجد له أصلاً.

وغفلت أيضاً عن سكانه، فأنت أيضاً غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته اللين هم سكان سماواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك. نعم، ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائح صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه. ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخِر له، ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء، وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجملة ما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما، ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى دهشاً وحيرة وقصوراً وعجزاً أقرب، فسيحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال: ﴿وَمَا أَنْ أَنِيْتُم تِنَ ٱلْمِلْمِ إِلّا قَلِيلًا ﴾ [الاسراء، هم].

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم. وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطلع على غريبه من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك. فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصيفه وتأليفه، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهى أبداً، وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق، فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر، فإنا نظرنا فيه ذلك الكتاب نظرنا فيه من حيث الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته. وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ومعادته. فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به، ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وارتدى فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنبنا مؤلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته.

تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه، يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده، وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه.

ينسم ألقر الكنب التحتسة

﴿ كتاب ذكر الموت وما بعده



وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين.

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد بالحق فأرداهم في الحافرة، فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والفلمان إلى مقاساة الهوام والديدان، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً، واتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً؟ وانظر: ومن أيس مِثْم يَنَ أَحَدٍ أَذِ تَسَعُ لَهُم رِكَنًا المناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت واستأثر باستحقاق البقاء، وأطل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأثقياء وموعداً في حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً صبقاً عليهم إلى مخلصاً للأثقياء وموعداً في حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً صبقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السموات والأرض. وله الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة على محمد ذي المعجزات السموات والأرض. وله الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

كتاب ذكر الموت وما بعده

 ⁽١) حديث: «الكيس من دان نفسه وحمل لما بعد الموت، نقدم غير مرة.

بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون ﴿ أَفْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَائُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْ اللَّهِ مُعْرِضُونَ ۞﴾ [الانبياء. ١]، ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين:

* * *

الشطر الأول

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول: في فضل ذكر الموت والترغيب فيه.

الباب الثاني: في ذكر طول الأمل وقصره.

الباب الثالث: في سكرات الموت وشدَّته، وما يستحب من الأحوال عند الموت.

الباب الرابع: في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

الباب المخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين.

الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور.

الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور.

الياب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام.

* * *

الباب الأول

في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر المموت فلا يذكره، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلُ إِنَّ اَلْمَوْتَ الَّذِى اللّهِ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْ اللّهُ وإنما يخاف فوت قوله ﷺ: «مَنْ كَوهُ لِلمّاهُ اللّهُ وإنما يخاف فوت الله وإنما يخاف فوت

الباب الأوّل: في ذكر الموت والترعيب فيه

 ⁽١) حديث: امن كره لقاء الله كره الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة.

لقاء الله لقصوره وتقصيره؛ وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارهاً للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا، وأما العارف: فإنه يذكر الموت دائماً؛ لأنه موعد لقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستطىء مجيء الموت ويحب مجيئه؛ ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين. كما روي عن حذيفة: أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم؛ اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، والموت أحب إلي من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك. فإذن: التائب معذور في كراهة الموت، وهذا أحب إلي من العب والولاء إلى مقام معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما رتبة من فرّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موناً ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه. فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى، وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا؛ إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته. وكل ما يكذر على يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا؛ إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته. وكل ما يكذر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان:

قال رسول الله على الله تعالى وقال على الله المنافرة ومعناه نغصوا بذكره اللذات، حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى وقال على الله عنها: «لو تغلم البهائم مِن المَوْتِ ما يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ ما أَكُلْتُمْ مِنَ المَوْتِ ما يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ ما أَكُلْتُمْ مِنَ المَوْتِ ما يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ ما أَكُلْتُمْ مِنَ المَوْتَ فِي اليَوْم وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً ﴿ وإنما سبب هذه الفضيلة كلها؛ أنْ ذكر الموت يوجب يَذْكُرُ المَوْتَ فِي اليَوْم وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً ﴿ وإنما سبب هذه الفضيلة كلها؛ أنْ ذكر الموت يوجب المتجافي عن دار المغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا وقال على الأنهماك في شهوات في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعه شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعه شيطانه، فالموت إطلاق له من هذا العذاب، والإطلاق يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمم والصخائر، فالموت يطهره منها ويكهرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض، قال عظاء الخراساني: مراسول الله على محلس قد استعلى فيه الضحك فقال: "شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَلِّرِ اللَّذَاتِ». قالوا: وما

 ⁽۱) حدیث «أكثروا من ذكر هاذم اللذات». أخرجه الترمذي، وقال: حسن والنسائي وابن ماجه من حدیث أبي هریرة، وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث: «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً» أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم
 حبيبة الجهنية وقد تقدم.

⁽٣) حديث. قالت عائشة: هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم من ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»، تقدم.

⁽٤) حديث: «تحقة المؤمن الموت». أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبدالله بن عمر مرسلاً بسند حسن.

 ⁽٥) حديث: «الموت كفارة لكل مسلم». أخرجه أبو نعيم في الحلية والسيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين: إنه حسن وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء.

مكدر اللذات؟ قال: «المَوْتُ» ((). وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ فَإِنَّهُ يُمَحُصُ الذُّنُوبَ وَيُرَعِّدُ فِي الدُّنْيَا» ((). وقال ﷺ: «كَفَى بِالمَوْتِ مُفرُقاً» (())، وقال عليه السلام: «كفى بالموت واعظاً» (())، وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدّثون ويضحكون، فقال: «اذْكُرُوا المَوْتَ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَلِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكُتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً» ((). وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟ قال: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت! قال: «فإن صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُقَالِكَ» (()، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت نسمعه يذكر الموت! قال: «فإن صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُقَالِكَ» (()، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة - فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال: «أَكْرُهُمْ ذِكْراً لِلْمَوْتِ وَأَشَدُهُمْ اسْتِعْدَاداً لَهُ أُولَئِكَ هُم الأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ اللهُنْيَا وَكَرَامَةِ الآخِرَةِ» (().

وأما الآثار: فقد قال الحسن رحمه الله تعالى: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً، وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خبراً له من الموت. وكان يقول: لا تشعروا بي أحداً وسلوني إلى ربي سلاً. وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده. وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه. وكان عمر بن عبدالعزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة. وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجلّ. وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها. وقال مطرف: رأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول ـ في وسط مسجد البصرة ـ: قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين. وقال أشعث: كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت. وقالت صفية رضي الله تعالى عنها: إنَّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكر راموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها. وكان عيسى عليه السلام الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها. وكان عيسى عليه السلام الموت يرق قلبك، ففعلت فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها. وكان عيسى عليه السلام

⁽١) حديث عطاء الخراساني: مر النبي ﷺ بمجلس قد استعلاه الضحك فقال. اشويوا مجلسكم يذكر مكدر اللذات... ا الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مرسلاً ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح.

 ⁽٢) حديث أنس: «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحمى اللنوب ويزهد في الدنيا؛ أخرجه ابن الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جداً.

 ⁽٣) حديث: الكفي بالموت مفرقاً أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف. ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبدالرحمن الحملي مرسلاً.

 ⁽٤) حديث: «كفى بالموت واعظاً» أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف؛ وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد.

⁽ه) حديث: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإدا قوم يتحدثون ويضحكون فقال «اذكروا الموت...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف.

 ⁽٦) حديث: ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال: «كيف كان ذكر صاحبكم للموت...» الحديث.
 أحرجه ابن أبي الدبيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال: أخبرنا مالك بن معول فذكره بلافاً بزيادة فيه.

 ⁽٧) حديث ابن عمر: «أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة ـ فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس. . . ٩ الحديث . أخرجه
 ابن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد .

إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً. وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه. وقال الحسن: ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حذراً وعليه حزيناً. وقال عمر بن عبدالعزيز لعض العلماء: عظني، فقال: لست أوّل خليفة تموت. قال: زدني، قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك، فبكى عمر لذلك. وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت، وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد. وقال مطرف بن عبدالله بن الشخير: إنّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه، وقال عمر بن عبدالعزيز لعنبسة: أكثر ذكر الموت فإن كنت ضيق العيش وسعه عليك. وقال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون؛ أتحبين الموت؟ قالت: لا، قلت: لم؟ قالت: لو عصيت آدمياً ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته.

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب:

اهلم: أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارخ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه؛ فالطريق فيه، أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت في قلبه، فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه، وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرائه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبدّت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت وانخذاعه بمؤاتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو ونسيانه للموت وانخذاعه بمؤاتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينبر دوبين الموت إليه عشر سنين م في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه الذاء إما بالجنة أو بالنار؛ فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفاتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره. وقال عمر بن عبدالعزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عزّ وجلّ تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى: هو الذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك بوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه

بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال، أنه لا بد له من مفارقته. نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكي فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكي بكاء شديداً حتى ارتفع صوته.

* * *

الباب الثاني

في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل، وسبب طوله وكيفية معالجته

فضيلة قصر الأمل:

الباب الثاني في طول الأمل

 ⁽۱) حديث: قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء . . . » الحديث . أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث: «كن في الدنيا كأنك فريب».

 ⁽٣) حديث على: (إن أشد ما أخاف هليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل. . .) الحديث. بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا
 في كتاب قصر الأمل ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكالاهما ضعيف.

⁽٣) ﴿ أَمُ المنذَرِ) الأنصارية سلمي بنت قيس، هكذا قيل. وقال ابن إسحاق: اسمها رعينة بنت زرارة، (الإصابة).

 ⁽٤) حديث أم المنذر: «أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى». قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تجمعون ما لا
تأكلون...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

بِمُعْجِينَ ﴿ إِنَّا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ عَلَى اللهِ عَنْهُمَا: أَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانْ يَخْرَج يهريق الماء فينمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: «ما يُمُرِينِي لَعَلِّي لا أَبْلُغُهُ (٢)، وروي: أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: ﴿ هَلْ تَدَرُونَ مِا هَذَا ۗ قَالُوا: اللهُ ورسوله أعلم ، قال: ﴿ هَٰذَا الْإِنْسَانُ وَهٰذَا الْأَجَلُ وَذَاكَ الْأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ إِنْنُ آدِمَ وَيَخْتَلِجُهُ الأَجَلُ دُونَ الأَمْلِ ۚ (** ، وقال عليه السلام: "مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعُ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إِنْ أَخْطَأَتُهُ المَنَايا وَقَعَ فِي الهَرَم) (عَن الله عَل الله عَل الله عَل الله عَل الله عَل الله عل الله على وراء الحتوف، والأمل وراءً الهرم، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل. قال عبدالله: خط لنا رسولَ الله ﷺ خطأ مربعاً، وخط وسطه خطأ، وخط خطوطاً إلى جنب الخط، وخط خطأ حارجاً وقال: ﴿أَتُقَرُونَ مَا هَٰذَا؟؛ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ﴿ لَهُ نَسَانُ _ لِلْخَط الَّذِي فِي الرَّسَطِ _ وَلِمُذَا الأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ، وَلَهْذِهِ الأَعْرَاضُ _ للخطوط التي حوله _ تَنْهَشُهُ إِنْ أَخْطَأَه لهٰذَا نهشَه لهَذَا، وَذَاكَ الأَمَلُ _ يَعْنِي الخط الخارج، (٥)، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: فَيْهُرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعْهُ اثْنَتَانِ: الحِرْصُ وَالأَمْلُ (٢). وفِي رواية: ﴿وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر". وقال رسول الله عَيْدُ: «تَجَا أُوَّلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ بِاليَقِين وَالزُّهٰدِ وَيُهْلِكُ آخِرُ هٰذِهِ الأُمَّةِ بِالبُحْلِ وَالأَمْلِ (٧٠)، وقيل: بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض، فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: اللهم اردد إليه الأمل، فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال: بينما أنّا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير! فألقيت المسحاة واضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقمت إلى مسحاتي. وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ

 ⁽١) حديث أبي سعيد: اشترى ابن ريد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار _ إلى شهر _ فسمعت وسول الله الله يقول:
 وألا تعجبون من أسامة . . . ٩ الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهتي في الشعب يستد ضعيف .

 ⁽٢) حديث ابن عباس: كان يخرج بهريق العاء فيمسح بالتراب فأقول: الماء منك قريب فيقول: الها يغويني لعلي لا أبلغه. أخرجه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والنزار بسند ضعيف.

⁽٣) حديث: «أنه أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه. . . أ الحديث. أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والملفظ له والرامهومژي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حس، ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي المتوكل مرسلاً.

⁽٤) حديث. قمثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية... الحديث. أخرجه الترمدي من حديث عبدالله بن الشحير وقال: حسن.

⁽٥) حديث ابن مسعود: ٥خط لنا رسول الله ﷺ خطأ مربعاً وخط وسطه خطاً. . . ٥ الحديث. رواه البخاري.

⁽٦) حديث أنس: فيهرم ابن آدم ويبقى معه الثان: الحرص والأمل، وفي رواية: فويشب معه الثان: المحرص على الممال والحرص على العمر، ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح.

 ⁽٧) حديث: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل؛ أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيمة عن حمرو بن شميت عن أبيه عن جده.

يَدْخُلَ الجَنْة؟» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «قَصْرُوا مِنَ الأَمَلِ وَتَبْتُوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَخْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»(١)، وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ دُنْيا تَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَةِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ العَمَلِ (٢).

الآثار: قال مطرف بن عبدالله: لو علمت متى أجلي لخشيت علي ذهاب عقلي؟ ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق. وقال الحسن: السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري: بلغني أن الإنسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش وقال أبو سعيد بن عبدالرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني، مؤمل الدنيا والموت يطلبه. وغافل وليس يغفل عنه، وضاحك مل فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، فراق الأحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار. وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت: أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل. وقال الثوري: الزهد في المنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة. وسأل المفضل بن فضالة ربه: أن يرفع عنه الأمل فقيمت عنه شهوة الطعام والشراب، ثم دعا ربه فرد عليه الأمل، فرجع إلى الطعام والشراب. وقيل للحسن: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال: الأمر أعجل من ذلك. وقال الحسن: الموت معقود عنه والدنيا تطوى من ورائكم، وقال بعضهم: أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه. وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمل ذلك وأرى عنقه، وقال داود الطائي: لو أملت أن أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ماعات الليل والنهار؟.

وحكي: أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له: أبو هاشم الرماني ـ وفي طرف كساته شيء مصرور _ فقال له أستاذه: أيش هذا معك؟ فقال: لوزات دفعها إلي أخ لي وقال: أحب أن تفطر عليها، فقال: يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبداً. قال: فأغلق في وجهي الباب ودخل. وقال عمر بن عبدالعزيز في خطبته: إن لكل سفر زاداً لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى، وكونوا كُمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغتراً، وإنما تقرّ عيس من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة، فأما من لا يداوي كلماً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أبهى عنه نفسي فتحسر صفقتي وتظهر عيبتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة، لقد عنيتم بأمر لو

 ⁽١) حديث الحسن: «أكلكم يحب أن بدخل الجنة؟» قائوا: بعم يا رسول الله قال، «قصروا من الأمل. . » الحديث، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلاً.

⁽٣) حديث: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: اللهم إني أهوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأهوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل؛ أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي ﷺ وفي إسناده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب.

عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما.

وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد: فإن الدنيا حلم والآخرة بقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام. وكتب آخر إلى أخ له: إن الحزن على الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل، والسلام. وقال الحسن: كان آدم عليه السلام - قبل أن يخطىء - أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره. وقال عبدالله بن سميط: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدّه، بطول صحته أما رأيت ميناً قط من غير سقم، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير حدّه أم الموت تأمنون، أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط، ثم يقال: رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت، رحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول الموت. وقال أبو زكريا التيمي: بينما سليمان بن عبدالملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور، فطلب من يقرؤه، فأنى بوهب بن منبه ملك ولقصرت من حرصك وحبلك، وإنما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك عملك وفارقك الوائد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك وحشمك وفارقك الوائد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك وحشمك وفارقك الوائد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك وحشمك وفارقك الوائد والقريب ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك

وقال بعضهم: رأيت كتاباً من محمد بن يوسف إلى عبدالرحمن بن يوسف، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإني أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك، فتصبر في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك، فإن يكن الله محك فلا يأس ولا وحشة ولا فاقة، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، فكم من مفتضح ومستور، وكم من هالك وناج، وكم من معذب ومرحوم، فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومثذ فقي هذا ما هدم اللذات وأسلى وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين، قإنما بحن به وله والسلام.

وخطب عمر بن عبد العزيز، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقي غداً عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السموات والأرض، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف واتقى وباع قليلاً بكثير وفانياً بباق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيحلف بعدكم الباقون. ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عزّ وجلّ، قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب، وايم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما

أعلم من نفسي، ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله، ووضع كمه على وجهه وجعل يبكي حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات.

وقال القعقاع بن حكيم: قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة، فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء. وقال الثوري: رأيت شيخاً في مسجد الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي، ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء، ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندى شيء. وقال عبدالله بن ثعلبة: تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار. وقال أبو محمد بن على الزاهد: خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ فقعد ناحية وهي تدفن، فجئت فقعدت قريباً منه فتكلم فقال: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب. واعلم يا أخي: أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، وأعلم: أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون. وروي: أن معروفاً الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة، قال محمد بن أبي توبة: فقال لي: تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل. وقال عمر بن عبدالعزيز في خطبته: إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها الظعن عنها، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوي، إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قرير العين؟ إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما نضر إنها تسر قليلاً وتحزن طويلاً. وعن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه: أنه كان يقول في خطبته: أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصلحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجأ النجا!

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه:

اعلم: أنَّ طول الأمل له سببان، أحدهما الجهل، والآخر: حب الدنيا.

أما حب الدنيا: فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه معارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه. والإنسان مشغوف بالأماني المناطلة فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كمر فيقول: إلى أن تصير شيخاً. فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفرة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوّف ويؤخر، ولا يخوض في شغل إلا

ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل الله أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون: واحزناه من سوف. والمسوف المسكين لا يدري أنّ الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدّة قوة ورسوخاً، ويظنّ أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات! فما يفرغ منها إلا من طرحها.

فسمنا قسفسي أحدد مستنهما لسانستيه ومسينا انستسهسي أرب إلا إلسبي أرب

وأصل هذه الأماني كلها: حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله ﷺ «أحبب من أحببت فإنك مفارقه»(١).

وأما الجهل: فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد، وإنما قلوا؛ لأنّ الموت في الشباب أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب. وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة، ولا يدري أنّ ذلك غير بعيد، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد، وكل مرض فإنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً. ولو تفكر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكن الجهل جهله بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبداً يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه، وهو أبداً يظن أنه يشيع المجتائز ولا يقدر أن تشيع جنازته؛ لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره، فأما موت نفسه علم يألفه ولم يتصوّر أن يألفه فإنه لم يقع، وإذا وقع في دفعة أخرى بعد هذه، فهو الأوّل وهو الآخر. وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللّب الذي يغطي وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لا بدّ وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللّب الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض.

وإذا عرفت أنَّ سببه الجهل وحب الدنيا، فعلاجه دفع سببه.

أما الجهل: فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حب اللغيا: فالعلاج في إخراجه من القلب شديد، وهو الداء العضال الذي أعيا الأوّلين والأخرين علاجه؛ ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير. فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منغص، فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده، ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم من عباده، ولا علاج في وقت لم يحتسبوا. أما من كان مستعدًا فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من كان مفروراً طول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً. فلينظر الإنسان كل ساعة في أطراقه وأعضائه، وليتدبر أنها

⁽١) حديث: فأحبب من أحببت فإنك مفارقه. . . ٩ الحديث. تقدم غير مرة.

كيف تأكلها الديدان لا محالة؟ وكيف تتفتت عظامها؟ وليتفكر أنّ الدود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلاً أو اليسرى؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى، وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر. فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له.

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره:

اصلم: أنَّ الناس في ذلك يتفاوتون؛ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلَفَ سَتَتَعَ﴾ [البَّقَرَة: ١٩٦، ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم، وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً، قال رسول الله عليه: «الشَّيْخُ شَابَ فِي حُبُّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنْ التَّفُّتَ مِنَ الكِبْرِ إِلاَّ الَّذِينَ اتَّقُوا وَقَلِيلٌ مَا هُمُهِ (١٠)، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدّر لنفسه وجوداً في عام قابل، ولكن هذا يستعدُّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتخل بالعبادة. ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء، فلا يدخر في الصيّف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف، ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة، فلا يستعدُّ إلا لنهاره وأما للغدُّ فلا. قال عيسى عليه السلام: لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم، وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لأجال غيركم. ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ: ﴿ إِنَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدُّثُ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَحدَثُ نَفْسَكُ بِالصَّبَاحِ». ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله ﷺ يتيمم مع القدرة على المأء قبل مضي ساعة ويقول: ﴿لَعَلِّي لَا أَبُلُغُهُ ۗ ، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال: ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى^(٢). وكما نقل عن الأسود؛ وهو حبشي أنه كان يصلي ليلاً ويلتفت يميناً وشمالاً، فقال له قائل: ما هذا؟ قال: انظر ملك الموت من أي جهة يأتيني.

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله تعالى، فه ﴿إِنَّ اللهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النَّاه: ٤٠] • ﴿فَمَن يَمْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَسَرُمُ ۚ ﴾ [الزَّلزَلة: ٧]، ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل، وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب، وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في

 ⁽۱) حديث: «الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التقت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقلبل ما هم» لم أجده بهذا اللفظ
 وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «قلب الشيخ شاب هلى حب اثنين طول الحياة وحب المال».

 ⁽۲) حديث: سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال: اما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى أخرجه أبو تعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف.

سنة، فيدل ذلك على طول أمله. وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضبع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح؛ وهكذا إذا أصبع. ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكل نفس أمهلت فيه.

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:

اعلم: أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غداً. فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار. فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها الميوم الذي مضى، وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً يرى لنفسه متسعاً في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال رسول الله على : اما يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّنْيَا إلا فِنْي مُطْفِياً أَوْ فَقْراً مُنْسِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ اللَّجَال، فَاللَّجُالُ شَرْ عَاتِب يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَة وَالسَّاعَة أَدْعَى وَأَمرُ اللهُ مَنْ اللَّبُها إلا فِنْي مُطْفِياً أَوْ فَقْراً مُنْسِياً أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً أَوْ هَرَماً مُقْتِداً أَوْ مَوْتاً مُجْهِزاً أَوْ اللَّجُال، فَاللَّجُالُ شَرْ عَاتِب يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَة وَالسَّاعَة أَدْعَى وَأَمرُ اللهُ وَقَلْ مَنْ اللهُ المَنْقِقَ وَالسَّاعَة وَالسَّاعَة وَالسَّاعَة وَالمَّونِ وَمَعَتَكُ مُعْساً قَبْل حَمْس : شَبَابَكَ قَبْل هَرَمِكَ، وَحِيعَتك وَالله المَنْ اللهُ المَنْقِقَ وَالله المَنْقِقَ وَاللهُ المَنْقِقَ وَالله اللهُ اللهُ وَلَكَ اللهُ المَنْقِقَ وَالله المَنْقِقَ وَالله وَلَكَ اللهُ المَنْقُونَ وَمَا اللهُ المَنْقِقُ وَالله المَنْقُونَ وَمَا اللهُ المَنْقُ وَالله المَنْقُونَ وَمَا اللهُ المَنْقُونَ وَمَا السَّعَة الله والمَنْقُ المَنْ وَالله المَنْقِقَ وَلِما بسعادة أَنْ عَلَى المَنْ الله المَنْقِقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْ وَلَا السَّعْقِ اللهُ المَنْقُ المَنْ وَالله المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ الله المَنْقُ الله المَنْقُ الله المَنْقُ وَالله المَنْقُ الله عَلَى الله المَنْقُونُ وَلِما الله المَنْقُ الله والمَنْقُ الله المَنْقُ الله المَنْقُ الله والمَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ المَنْقُ الله المُنْقُ الله المَنْقُ الله المُنْقُونُ الله المُنْقُ الله المَنْقُ الله المَنْقُ الله المُنْقُ الله المَنْقُ المُنْقُ المُنْقُ المُنْقُ الله المُنْقُونُ الله المُنْقُ الله الم

⁽١) حديث: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا فنى مطنياً أو فقراً منسياً...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ: «هل ينتظرون إلا فناء...» الحديث. وقال: حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم.

 ⁽٢) حديث ابن عباس: الفتنم خمساً قبل خمس: شبايك قبل هرمك. . . ٩ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد
 حسن ورواه ابن السارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلاً.

 ⁽٣) حديث: العميثان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ، أخرجه البخاري من حديث ابن عباس، وقد تقدم.

⁽٤) حديث: «من محاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل؛ أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال: حسن.

 ⁽٥) حديث: •جاءت الراجفة تتبعها الرادفة. . . ؟ الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب.

⁽٣) حديث: اكان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع: أتتكم المنية...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السليمي مرسلاً.

 ⁽٧) حديث أبي هريرة: وأثنا التثير، والموت المغير، والساعة الموعد، أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغري بإسناد فيه لين.

وقال سحيم ـ مولى بني تميم ـ: جلست إلى عامر بن عبدالله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل علي فقال: أرحني بحاجتك فإني أبادر، قلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت رحمك الله، قال: فقمت عنه وقام إلى صلاته. ومر داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال: دعني إنما أبادر خروج نفسي. قال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة. وقال المنذر: سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه: ويحك بادري قبل أن يأيتك الأمر؛ ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر! ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر! حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة المبادرة الأمرأ وإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عزّ وجلّ، رحم الله امرأ نفر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية: ﴿ إِنّمَا نَفَدُ لَهُمْ عَدَهُ الربَم: ١٨٤]. يعني الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فولك في قبرك - واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته احتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل الألمري قبل موته احتهاداً شديداً، فقيل لامرأته: شدي رحلك فليس على جهنم معبر. وقال بعض يزل على ذلك حتى مات. وكان يقول لامرأته: شدي رحلك فليس على جهنم معبر. وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوماً صبح بهم فانتبهوا، واعلموا أن الدنيا الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوماً صبح بهم فانتبهوا، واعلموا أن الدنيا

 ⁽١) حديث ابن عمر: خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف المعف فقال، الها بقي من الدنيا إلا مثل ما يقي من
يومنا هذا في مثل ما مضى منه أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن وللترمذي نحوه من حديث أبي سعيد
وحسنه.

⁽٢) حليث: «مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره. . . ٩ الحديث، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا

 ⁽٣) حديث جابر: «كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه. . .» الحديث. أخرجه مسلم وابن أبي اللذيا في قصر الأمل واللفظ له.

 ⁽٤) حديث ابن مسعود: ثلا رسول الله ﷺ ﴿ نَهُن يُردِ اللهُ أَن يَهْدِينُهُ يَشْرَجُ صَدْدَوُ الْإِسْلَدَيُ [الأنقام: ١٢٥].
 فقال النور إذا دخل القلب انفسع... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك، وقد تقدم.

ليست لهم بدار فاستبدلوا، واستعدّوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جدّ بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يجدّ به الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، وإن قادماً يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدّة، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه، وقدّم توبته وغلب شهوته؛ فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له، والشيطان موكل به يمينه التوبة ليسوّفها ويزين إليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيا لها حسرة على ذي غفلة أو يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة الله معصية، ولا بحل به بعد الموت حسرة، إنه سميع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فعّال لما يشاء.

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ فَنَنْتُمْ أَنْسُكُمْ ﴾ [الخديد: ١٤]. قال: بالشهوات واللذات ﴿ وَفَرَيْمَتُمُ ﴾ [الخديد: ١٤]. قال: شككتم ﴿ حَتَىٰ جَآةَ أَمَّ اللهِ ﴾ [الخديد: ١٤]. قال: شككتم ﴿ حَتَىٰ جَآةَ أَمَّ اللهِ ﴾ [الخديد: ١٤]. قال: المموت. ﴿ وَعَرُورُ مُ النَّوْرُ ﴾ [الخديد: ١٤]. قال: الشيطان: وقال الحسن: تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم، وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله عارية؛ والضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وقال أبو عبيدة الباجي: دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال: مرحباً بكم وأهلاً حياكم الله بالسلام وأحلنا وإياكم دار المقام، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن، فإن من رأى محمداً على فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر إليه ألواحاً ألواحاً النجا النجا علام تعرجون، أتيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معاً، رحم الله عبداً جعل العيش واحداً فأكل كسرة ولبس خلقاً ولزق بالأرض واجتهد في العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك أن . وقال عاصم الأحول: قال لي فضيل الرقاشي - وأتا سائله ـ: با هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب هاهنا وهاهنا فينقطع عنك النهار في لا شيء، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم .

الباب الثالث

في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم: أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن

 ⁽١) حديث أمي عبيدة الباحي: «دخلتا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال: مرحباً بكم... الحديث. أخرجه اس
 أبي الدنيا في قصر الأمل، وابن حبان في الثقات، وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه.

يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك. وقال لقمان لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو، فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه عليه ملك المعوت بسكرات النزع وهو عنه غافل، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور. واعلم: أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه. فأما القياس الذي يشهد له: فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده!

والنزع: عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق؛ لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار، فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم،

وأما الجراحة: فإنما تصيب الموضع الذي مسه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجلوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، فلا تسأل عن كربه وألمه، حتى قالوا: إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض؛ لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟ وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه؛ لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه، وبلغ كل موضع منه فهذ كل الميت وضيعًف كل جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة.

أما العقل: فقد غشيه وشوّشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد ضعفها، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله وخارجه، حتى ثرتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه، وتتقلص الشفتان، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما، وتخضر أنامله.

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه! ولو كان المجذوب عرقاً واحداً؛ لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم؟ لا من عرق واحد بل من جميع العروق. ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً فتبرد أوّلاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط

به الحسرة والندامة، وقال رسول الله ﷺ: «تُقْبَلُ تَوْيَةُ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرِّخِرَهُ ('). وقال مجاهد في قوله تحسالسي: ﴿ وَلَيْسَتِ الْقَوْسَةُ لِللَّذِينَ يَمْسَلُونَ السَّيِّعَاتِ حَيَّ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِي نَبْتُ الْكَنَ السَّاء: ١٨]. قال: إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة المموت وكربه عند ترادف سكراته! ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمُ هَوَنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكُراتِ المَوْتِ» (٢). والناس إنما لا يستعيدون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوّة والولاية، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت، حتى قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن علي هذه السكرة - يعني الموت - فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفي من الموت على الموت.

وروي: أن نفراً من بني إسرائيل مروا بمقبرة، فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسالونه؟ فدعوا الله تعالى، فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال: يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة المموت من قلبي. وقالت عائشة رضي الله عنها: لا أغبط أحد يهوّن عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله في وروي أنه عليه السلام كان يقول: «اللّهُمْ إِنِّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْن المَعَبِ وَالقَصَبِ وَالأَنَّامِلِ. اللّهُمُ قَامِني عَلَى المَوْتِ وَهَوْلُهُ عَلَيْ ("). وعن الحسن: أن رسول الله في ذكر الموت وشدّته فقال: «هُو قَدْرُ قُلاَيمائِة ضَرَيةٍ بِالسَّيفِ» (")، ومثل في عن الموت وشدّته فقال: «إن أَهْوَنَ المَوْتِ بِمَنْزِلَةِ حَسَكَة فِي صُوفٍ فَهَلْ نَخْرُجُ الحَسَكَةُ مِنَ المَوْتِ عَلَى جِلَيْهِهِ ")، وكان ودخل في على مريض ثم قال: «أني أَهْلَمُ ما يَلْقَى، ما مِنْهُ عِرْقٌ إلاَّ وَيَالُمُ لِلْمَوْتِ عَلَى جِلَيْهِهِ ")، وكان على عريض ثم قال: «أني أَهْلَمُ ما يَلْقَى، عا مِنْهُ عِرْقٌ إلاَّ وَيَالُمُ لِلْمَوْتِ عَلَى جَلَيْهِ ")، وكان على على مريض ثم قال: «أني أَهْلَمُ ما يَلْقَى، عا مِنْهُ عِرْقٌ إلاَّ وَيَالُمُ لِلْمَوْتِ عَلَى جَلَيْهِ ")، وكان على عرب الموت على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت على فراش. وقال الأوزاعي: بلغنا أنّ الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره. وقال شذاء بن أوس: الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشدٌ من نشر بالمقاريض وغلي في القدور، ولو أنّ الميت نشر فأخبر أهل الذيا بالموت ما انتفعوا بيش ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعيش ولا لذوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بالمؤمن من درجاته شيء لم يبلغها

الله على الله يقبل توبة العبد ما لم يقرفر، أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر.

⁽٢) حديث كان يقول: «اللهم هون هلى محمد سكرات الموت»، تقدم.

 ⁽٣) حديث كان يقول: «اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأتامل...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا
 قي كتاب الموت من حديث صعمة بن غيلان الجعفي وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي.

⁽٤) حديث الحسن أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وعصته وألمه، فقال: «هو قدر ثلاثماثة ضربة بالسيف». أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلاً ورجاله ثقات.

 ⁽٥) حديث: سئل عن الموت وشدته، فقال: (إن أهون الموت بمنزلة حسكة. . .) الحديث. أحرجه ابن أبي الدبيا فيه من
رواية شهر بن حوشب مرسلاً.

⁽٢) حديث: دخل على مريض فقال: الني الأعلم ما يلقى ما منه حرق إلا ويألم للموت على حدثه أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من وواية عبيد بن عمير مرسلاً مع اختلاف ورجاله ثقات.

بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هوّن عليه في الموت؛ ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار. وعن بعضهم: أنه كان يسأل كثيراً من المرضى كيف تجدون الموت؟ فلما مرض قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض؛ وكأنَّ نفسي يخرج من ثقب إبرة. وقال ﷺ: الموت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر»(١٠). وروي عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «لُوْ أَنْ شَعْرَةً مِنْ شَعْر المَيْتِ رُضِعَتْ عَلَى أَهْلَ السَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لأنَّ فِي كُلِّ شَعْرَةِ المَوْتَ وَلا يَقَعُ الْمَوْتُ بِشَيْءٍ إلاّ مَاتَ (٢٠). ويروى: «لَوْ أَنْ قَطْرَةٌ مِنْ أَلَم العَوْتِ وُضِعَتْ عَلَى جِبَالِ الدُّنْيَا كُلُها لَذَابَتْ ۖ"، وروي: ۚ أنّ إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالَى له: كيف وجدت الموت يا خليلي؟ قال: كسفود جعل في صوف رطب ثم حذب. فقال: أما إنا قد هرتا عليك. وروي عن موسى عليه السلام: أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه على موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسى كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فبطير، وروى عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب. وروي عن النبي ﷺ: أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللُّهُمُّ هَوَّنُ عَلَيَّ سَكَرَاتِ المُؤتِ اللَّهُ . وفاطمة رضى الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبناه! وهو يقول: ﴿لا كُرْبَ هَلَى أَبِيكَ بَعْدَ اليَوْمِ (﴿). وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب حدثنا عن الموت؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين: إنَّ الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخدَت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى. وقال السبي ﷺ: ﴿إِنَّ الْعَبْدُ لَيْعَالِمُ كُرَبَ الْمَوْتِ وَسَكُراتِ الْمَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلُهُ لَيْسَلُمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْض تَقُولُ: هَلَيْكَ السَّلامُ تُفَارِقُنِي وَأَفَارِقُكَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ۗ (٦).

فهذه سكراتُ المُوتُ على أولياء الله وَأحبابه. فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فإن دواهي الموت ثلاث:

⁽١) حديث: «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر». أخرجه أحمد من حديث عائشة بإسناد صحيح قال: «وأخذة أسف». أسف» والأبي داود من حديث خالد السلمي: «موت الفجأة أخذة أسف».

⁽٢) حديث مكحول: «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السنوات والأرض لماتوا...» الحديث. أخرجه ابن أبي المنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه: «لو أن ألم شعرة» وزاد: «وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف» وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الإمناد.

⁽٣) حديث: المو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت الله أجد له أصلاً ولعل المصنف لم يورده حديثاً ، فإنه قال: ويروى.

⁽٤) حديث: «إنه كان عنده قدح من ماء عند الموت» فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول: «اللهم هؤن على سكرات الموت» متفق عليه من حديث عائشة.

حديث: «إن قاطمة قالت: واكرباه لكربك يا أبت...» الحديث. أخرجه البخاري من حديث أنس بلفظ: واكرب أبتاه، وفي رواية لابن خزيمة: واكرباه.

⁽٦) حديث العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض. . .» الحديث. رويناه في الأربعين لأبي هذبة إبراهيم بن هذبة عن أنس وأبو هذبة هالك.

الأولى: شدة النزع كما ذكرناه.

الداهية الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب؛ فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لم يطق رؤيته. فقد روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام: أنه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطبق ذلك. قال: بلى، قال: فأعرص عني فأعرض عنه، ثم التفت فإدا هو برجل أسود قاتم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان؛ فغشي على إبراهيم عليه السلام، ثم أفاق وقد عاد الموت إلى صورته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت الاصورة وجهك لكان حسبه. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: قان دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ كانَ رُجُلاً غَيُوراً وكانَ إِذْ اللهِ عَلَى اللهُ فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مَنْ النبي وَرَمَلَ دَاوُدُ فَلَهُ عَلَهُ مَنَى الحِجَابُ، فَقَالَ: فَأَنْتَ وَاللّهِ إِذَنْ مَلَكُ المَوْتِ وَزَمَلَ دَاوُدُ فَلَيْهِ السَّلامُ مَكَانَةً (١٠). المُلُوكَ وَلاَ يُمْتَعُ مِنْى الحِجَابُ، فَقَالَ: فَأَنْتَ وَاللّهِ إِذَنْ مَلَكُ المَوْتِ وَزَمَلَ دَاوُدُ هَلَيْهِ السَّلامُ مَكَانَةً (١٠).

وروي: أنّ عيسى عليه السلام مرّ بجمجمة فضربها برجله فقال: تكلمي بأذن الله فقالت: يا روح الله، أنا ملك زمان كذا وكذا وبينما أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي؛ إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله، ثم خرجت نفسي إليه، فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة! ويا لبت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة! فهذه داهية بلقاها العصاة ويكفاها المطبعون، فقد حكى الأنبياء مجرّد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك، ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره! فكيف برؤيته في مثل تلك الحال؟.

وأما المطبع: فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها! فقال: أنا ربها، فقال: أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال: من أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت، قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض عني، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين. قال وهيب: بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعاً قالا له: جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا، وإن كان فاجراً قالا له: لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيراً. فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً.

الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة؛ فإنهم في حال

 ⁽١) حديث أبي هريرة: اإن داود كان رجلاً قيوراً... الحديث. أخرجه أحمد بإسناد جيد نحوه وامن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه.

السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين: إما أبشر يا عدوّ الله بالنار، أو أبشر يا ولي الله بالجنة. ومن هذا كان خوف أرباب الألباب، وقد قال النبي ﷺ: ﴿ لَنْ يَخْرُجُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا خَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَلَهُ مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ،(١) ، وقال ﷺ : •مَنْ أَحَبُّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبُّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرةَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرة اللَّهُ لِقَاءَهُ فِقالُوا: كِلنَا نَكُرُهُ الْمُوتَ قال: ﴿لَيْسَ ذَاكَ بِلَـٰاكَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ إذا قُرجَ لَهُ صَمَّا هُوَ قَادِمٌ صَلَيْهِ أَحَبُّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَخَبُ اللَّهُ لِقَاءَهُا ۗ . وروي: أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود ـ وهو لما به من آخر الليل: قم فانظر أي ساعة هي؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال: قد طلعت الحمراء، فقال حليفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ودخل مروان على أبي هريرة، فقال مروان: اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد! ثم بكي أبو هريرة وقال: والله ما أبكي حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار . وروي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ إِذَا رَضِيَ عَنْ عِنْدٍ. قَالَ: يَا مَلِكَ الْمَوْتِ اذْهَبْ إِلَى فُلانِ فَأَتِنِي بِرُوحِهِ لأربيحَهُ، حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَيْثُ أَحِبُ، فَيَنْزِلَ مَلْكُ المَوْتِ وَمَعْهُ خَمْسُمِائَةٍ مِنَ الْمَلَاثِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبانُ الزَّيْحَانِ وَأُصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم يُبَشِّرُهُ بِبِشَارَةِ سِوَى بِشَارَةِ صَاحِبِهِ، وَتَقُومُ المَلائِكَةُ صَفَّيْنِ لِخُروج رُوحِهِ، مَعَهُمْ الرَّيْحَانُ، فإذا نَظَرَ إِلْيُهِمْ إِبليس وَضَعَ يَلَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَحَ. قَالَ: فَيَقُولَ لَهُ جُنُودُهُ: مَا لَكَ يا سَيْلنا فيقولُ: أَمَا تَرَوْنَ مَا أَصْطِيَ لهٰذَا الْعَبْدُ مِنَ الْكَرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ لهٰذَا؟ قالوا: قَدْ جَهِدُنَا بِهِ فكانَ مَعْصُوماً (٣٠). وقال الحسن: لا راحةً للمؤمن إلا في لقاء الله، ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه. وقيل لجابر بن زيد ـ عند الموت ـ: ما تشتهي؟ قال: نظرة إلى الحسن، فلما دخل عليه الحسن قيل له: هذا الحسن! فرفع طرفه إليه ثم قال: يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة. وقال محمد بن واسع ـ عند الموت ـ: يا إخواناه عليكم السلام! إلى النار أو يعفو الله. وتمنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدأ ولا يبعث لثواب ولا عقاب. فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين؟ وهو من الدواهي العظيمة عند الموت. وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع، ولكننا لا نطول بذكره وإعادته.

⁽١) حديث: الن يخرج أحدكم من اللغيا حتى بعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النارة. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفاً: الا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النارة، وفي رواية: احرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النارة، وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك: اإن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وعلى الحديث.

 ⁽۲) حديث: قمن أحب لقاء الله أحب الله لقاؤه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه... الحديث. متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

حديث: «إن الله إذا رضي على هيد قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه الأربحه...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة، ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع، وللنسائي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح: «إذا حضر الميت أنته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية هنك إلى روح الله وريحان ورب واض غير غضبان...» الحديث.

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت:

اعلم: أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر؛ هو الهدوء والسكون! ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى.

أما الصورة: فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ازقُيُوا المَيتَ عِنْدَ ثَلاثٍ: إذا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبِسَتُ شَفْتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قَدْ تَزَلَتْ بِهِ، وَإِذا غَطَّ غَطِيطَ المَخْنُوقِ وَاحْمَرَّ لَوْنَهُ وَأَزْبَيتْ شَفْتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ ١٠٠٠.

وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة: فهي علامة الخير. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ:
القَّنُوا مَوْتَاكُمْ: لا إِلٰهُ إِلا اللَّهُ اللهُ الْفَهِ مِن رواية حذيقة: (الفَإِنَّهَا تَهْدِمُ ما قَبْلُهَا مِنَ الخَطَايَاه (اللهُ عَمْلُن) قال عشمان: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاّ الله وَحَلَ الْجَنْة (الله عيد الله الله عند موته إلا كانت وقال عشمان: إذا احتضر الميت فلقنوه: الا إله إلا الله فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة. وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله وقال عمر رضي ألله عنه: احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم: لا إله إلا الله وقال عمر رضي أله عنه: احضروا الله على يقول: «حَضَر مَلَكُ الْمَوْتِ رَجُلاً يَمُوتُ فَنَظَرَ لَهُ فِي قَلْمِ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَفَكَ لَحْيَيْهِ فَوْجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لاصِقاً بِحَتَكِهِ يقولُ: لا إِلهُ إلا الله ، فَنْفِرَ لَهُ يَكِلْمَةِ الإخلاص (٥٠).

وينبغي للملقن أن لا يلح في التلقين ولكن يتلطف، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

وإنما معنى هذه الكلمة: أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه. وإن كان القلب مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليه متأسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها، وقع الأمر في خطر المشيئة، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول.

وأما حسن الظنّ: فهو مستحب في هذا الوقت ـ وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء ـ وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظنّ بالله. دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ قال: أغرقتني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكني أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال: الله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنّ عَبْدِي بِي قَلْيَظُنّ بِي ما

⁽١) حديث الرقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينه وذرفت عيناه. . .» الحديث. أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح.

⁽٢) حديث: القنوا موتاكم: لا إله إلا الله، تقدم.

 ⁽٣) حديث حذيفة: (فإنها تهدم ما قبلها)، نقدم.

⁽٤) حديث: قمن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة؛ تقدم.

⁽٥) حديث أبي هريرة: احضر ملك الموت رجلاً يموت تنظر في قلبه قلم يجد فيه شيئاً... الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي وجلاً لم يسم، وسمي في رواية الطبراني إسحاق بن يحيى بن طلحة وهو ضميق.

كتاب ذكر الموت وما بعده

شَاءًه (١) ودخل النبي ﷺ على شاب وهو يموت فقال: «كيف تجدك». قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال النبي ﷺ: «ما اجْتُمَعًا فِي قُلْبِ عَبْدِ فِي مِثْلِ لهٰذَا الْمَوْطِنِ إِلاّ أَعْطَاهُ اللَّهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ» (١).

وقال ثابت الباني: كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له: يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك، فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له: يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً، فقال: يا أمه إن لي ربّاً كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعدمني اليوم بعض معروفه. قال ثابت: فرحمه الله بحسن ظنه بريه، وقال جابر بن وداعة: كان شاب به رهق فاحتضر، فقالت له أمه: يا بني توصي بشيء؟ قال: نعم، حاتمي لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني، فلما دفن رئي في المنام فقال: أخبروا أمي أن الكلمة قد نفعتني وأن الله قد غفر لي، ومرض أعرابي فقيل له: إنك تموت، فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يرى المخير إلا منه، وقال أبو المعتمر بن سليمان: قال أبي لما حضرته الوفاة: يا معتمر حدّثني بالرخص لعلي ألقى الله عزّ وجلّ وأنا حسن الظنّ به، وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه.

بيان الحسرة عند لقاء مَلَّك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها:

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ـ واسمه عزرائيل وله عينان: عين في وجهه وعين في قفاه ـ فقال: يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع؟ قال: أدعوا الأرواح بإدن الله فتكون بين أصبعي هاتين، وقال: قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء، قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجلّ. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام: ما لي لا أراك تعلل بين الناس نأحذ هذا وتدع هذا؟ قال: ما أنا بذلك بأعلم منك! إنما هي صحف أو كتب تلقى إليّ فيها أسماء. وقال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه ـ بعد مرات ـ وكدلك طلب داية فأتي بها فلم تعجبه، حتى أتي بدواب فركب أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبراً. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى أحسنها؛ فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة فملأه كبراً. ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى تعاطيت أمراً عظيماً! قال: إن لي إليك حاجة قال: اصبر حتى أنزل قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها! قال: هو سر، فأدنى له رأسه فسارة وقال: أنا ملك الموت، فتغير لون الملك واصطرب للناه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضي حاجتي وأودعهم، قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك لسانه ثم قال: ومن حتى أرجع إلى أهلي وأقضي عاجتي وأودعهم، قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال: هات فسارة وقال: أنا ملك الموتا فقال: أهداك هله ومرحباً فقال: أبا ملك الموتا فقال: أهداك والملام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال: هات فسارة وقال: أنا ملك الموتا فقال: أهداك وهد عليه فرد عليه فاله ومرحباً فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال: هات فسارة وقال: أنا ملك الموتا فقال: أهداك ومرحباً فقال: أبا ملك الموتا فقال: أهداك ومرحباً فقال: أبا ملك الموتا فقال: أبا ملك الموتا فقال: أبا ملك الموتا فقال: أبا ملك ومرحباً فقال: أبا ملك الموتا فقال الموتا فقال: أبا ملك الموتا فقال الموتا فقال الموتا فقال الموتا

⁽١) حديث: دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنك بالله؟ وفيه: ايقول الله أنا هند ظن همدي بي فليظن بي ما شاءا أخرجه ابن حبان بالمرفوع منه، وقد تقدم وأحمد والبيهتي في الشعب به جميعاً.

 ⁽٢) حديث: دخل النبي على شاب وهو بموت فقال: «كيف تجدك؟» فقال أرحو الله وأخاف ذنوبي. . . الحديث. تقدم.

بمن طالت غيبته عليَّ قوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليَّ أن ألقاه منك! فقال ملك الموت. اقض حاجتك التي خرجتُ لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى! قال: فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك؟ فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إني أمرت بذلك، قال: قدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم اقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد.

وقال أبو بكر بن عبدالله المزني: جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي؟ فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره، فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له: ما يبكيك؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال: فالمهلة حتى أفرقه قال: هيهات انقطعت عنك المهلة، فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك؟ فقبض روحه.

وروي: أنَّ رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذه، وابتنى فصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرساً من غلمانه، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون فلما فرغواً. قال: يا نفس انعمي لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك. فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين، فقرع الباب بشدّة عظيمة قرعاً أفرَعه وهو على فراشه، فوثب إليه الغلمان وقالوا: ما شأنك؟ فقال: ادعوا إليُّ مولاكم فقالوا: وإلى مثلك يخرج مولانا؟ قال: نعم فأخبروه بذلك، فقال: هلا فعلتم به وفعلتم، فقرع الباب قرعة أشدٌ من الأولى، فوثب إليه الحرس فقال: أخبروه أني ملك الموت، فلما سمعوه ألقي عليهم الرعب، ووقع على مولاهم الذل والتخشع، فقال: قولوا له قولاً ليناً وقولوا هل تأخذ به أحداً؟ فدخل عليه وقال: اصنع في مالك ما أنت صانع، فإني لست بخارج منها حتى أخرج روحك، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه: لعنك الله من مال: أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن أتخلى لربي، فأنطق الله المال، فقال: لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد المتقي عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بي، وتجلس مجالس الملوك بي وتنفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو أنفقتني في سبيل المخير نفعتك؟ خلقت يا ابن آدم من تراب فمنطلق بير ومنطلق بإثم، ثم قبض ملك الموت روحه فسقط. وقال وهب بن منبه: قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة: لمن كنت أشدّ رحمة ممن قبصت روحه؟ قال: أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره، وكونه في فلاة لا متعهد له بها. فقالت الملائكة: الجبار الذي قبضت الآن روحه: هو ذلك المولود الذي رحمته، فقال ملك الموت: سبحان اللطيف لما يشاء! قال عطاء بن يسار: إذا كانت ليلة التصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة، فيقال: اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة. قال: فإنَّ العبد ليغرس الغراس وينكع الأزواج ويبني البنيان وإنَّ اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري.

وقال الحسن: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه، فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء، فيأخذ ملك الموت بعضادتي الباب فيقول: والله ما أكلت له رزقاً ولا أفنيت له عمراً ولا انتقصت له أجلاً، وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقي منكم أحداً. قال الحسن: فواقه لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن

ميتهم ولبكوا على أنفسهم، وقال يزيد الرقاشي: بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله قد خلا ببعض أهله؛ إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً، فقال له: من أنت ومن أدخلك داري؟ فقال: أما الذي أدخلني الدار فربها، وأما أنا فالذي لا يمنع من الحجاب ولا أستأذن على المملوك ولا أخاف صولة المتسلطين ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد. قال: فسقط في يد الجبار وارتعد حتى سقط منكباً على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجدياً متذللاً له، فقال له: أنت إذن ملك الموت! قال: أما هو. قال: فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهداً؟ قال: هيهات! انقطعت مذتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك، فليس إلى تأخيرك سبيل! قال: فإلى أبن تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته. قال: فإني لم أقدم عملاً صالحاً ولم أمهد بيتاً حسناً. قال: فإلى لظى نزاعة للشوى، ثم قبض روحه فسقط ميتاً بين أهله، فمن بين صارخ وباك. قال يزيد فإلى الموت على سليمان بن داود عليه السلام، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلما خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليّ كأنه يريدني قال: فماذا تريد؟ قال: أريد أن تخلصني منه فتأمر الربح، حتى تحملني إلى أقصى الهند! ففعلت الربح ذلك، ثم تريد؟ قال الموت بعد أن آتاه ثانياً: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال: نعم، كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة، وكان عندك فعجبت من ذلك!

* * *

الباب الرابع

في وفاة رسول الله على والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله ﷺ:

اعلم: أن في رسول الله على أسوة حسنة _ حياً وميناً وفعلاً وقولاً _ وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين؛ إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه، إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه، وكان صفيه ورمبوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته، وهل أخره لحظة بعد حضور منيته؟ لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان، وخيرات حسان، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن، فاشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه، وترادف قلقه وارتفع حنينه، وتغير لونه وعرق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شمائه ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً؟ وهل راقب الملك فيه أهلاً وعشيراً؟ وهل سامحه إذا كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً؟ هيهات! بل امتثل ما كان به مأموراً واتبع ما وجده في اللوح مسطوراً. فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود، وهو أول من تنشق عنه الأرض، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة أول من تنشق عنه الأرض، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة

فيما ثلقاه بل نحن أسراء الشهوات! وقرناء المعاصي والسيئات! فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين، لعلنا نظن أننا مخلدون، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون، هيهات! هيهات! بل نتيقن أنا جميعاً على النار واردون، ثم لا ينجو منها إلا المتقون، فنحن للورود مستيقنون، وللصدور عنها متوهمون، لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين، فما نحن والله من المتقين، وقد قال الله رب العالمين: ﴿وَإِن يَنكُرُ إِلاَّ وَارِدُعاً كَانَ عَلَى الظن منتظرين، فما نحن والله من المتقين؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين، نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين؟ فانظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين؛ إذ كان سيد النبيين وقائد المنتين، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا! وكيف اشتذ أمره عند الانقلاب إلى سيد النبيين وقائد المنتين، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا! وكيف اشتذ أمره عند الانقلاب إلى حبنة المماوى. قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلنا على رسول الله من في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه في، شم قال: فمَرْحَباً بِكُمْ حَباكُم الله، وأوكم الله، يُقي بكم منه نلير مبين، ألا تعلوا واكم الله في بلاده وعباده وقد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى على الأوفى، فأقرؤوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله (١٠).

وروي: أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: «مَنْ لأَمْتِي بَعْدِي»؟ فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته. فقال: «الآنَ قَرَّتُ عيني» (٢٠). وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أُحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال: «أمّا بَعْدُ: يا مَعْشَر المُهَاجِرِينَ فَإِنْكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الأَنْصَارُ لا تَزِيدُ عَلَى هيئتها التي هِيَ عَلَيْها اليَوْمَ، وإنَّ الأَنْصَارَ عيبَتِي النّي أَوَيْتُ إلَيْها فَأَكْرَمُوا كَرِيمَهُمْ - يَعْنِي مُحْسِنَهُمْ - وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ، ثم قال: «إنَّ عَبْداً حُيْرَ بَيْنَ النّي أَوَيْتُ إلَيْها فَأَكْرَمُوا كَرِيمَهُمْ - يَعْنِي مُحْسِنَهُمْ - وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ، ثم قال: «إنَّ عَبْداً حُيْرَ بَيْنَ النّي الْقَيْنَ ما جِنْدَ اللّهِ فَاخْتَارَ ما جِنْدَ اللّهِ، فبكى أبو بكر رضي الله عنه، وظن أنه يريد نفسه، فقال النبي يَشِي بَكْرِ فَإِنِي لا أَعْلَمُ النبي يَشِي دَعْلَى دِسْلِكَ يا أَبا بَكْرِ سُدُوا هُذه الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي المَسْجِدِ إلا بَابَ إلِي يَكْرِ فَإِنِي لا أَعْلَمُ النبي يَشِي : «هَلَى رسْلِكَ يا أَبا بَكْرِ سُدُوا هُذه الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي المَسْجِدِ إلا بَابَ إلى يَكْرِ فَإِنِي لا أَعْلَمُ النبي يَشِي : «هَلَى رسْلِكَ يا أَبا بَكْرِ سُدُوا هُذه الأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي المَسْجِدِ إلا بَابَ إلى يَكْرِ فَإِنِي لا أَعْلَمُ النّه يَوْلُ

الباب الرابع في وفاة النبي ﷺ

⁽١) حديث ابن مسعود: الدخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق. . . ؟ الحديث. رواه البزار، وقال: هذا الكلام قد روي عن مرة عن عبدالله من غير وجه وأسانيدها متقاربة، قال: وعبدالرحمن الأصبهائي لم يسمع هذا من مرة وإنما هو همن أخره عن مرة. قال: ولا أعلم أحداً رواه عن عبدالله غير مرة.

قلت: وقد روي من غير ما وجه. رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود. ورويناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعيفان، والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط.

٢) حديث أنه ﷺ قال لجبريل عند موته. "من لأمتي بعدي" فأوحى الله تعالى إلى جبريل: «أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته..." الحديث. أخرجه الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه: "من لأمتي المصطفاة من بعدي". قال: أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول: وقد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال: «الآن طابت نفسى». وإسناده ضعيف.

أَمْراً أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصُّحْبَةِ مِنْ أَبِي بَكُر اللّهِ عائشة رضي الله عنها: فقبض ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريفي وريقه عند الموت، فدخل عليّ أخي عبدالرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك، فقلت له: آخذه لك، فأوماً برأسه أن: نعم، فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت: ألينه لك؟ فأوماً برأسه أن: نعم، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول: «لا إله إلا الله إن لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتِ»، ثم نصب يده يقول: «الرَّفِيقَ الأَعْلَى، الرَّفِيقَ الأَعْلَى،

وروى سعيد بن عبدالله عن أميه قال: لما رأت الأنصار أنَّ النبي ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس رضي الله عنه على النبي على فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثمّ دخل عليه على رّضي الله عنه فأعلمه بمثله، فمدّ يده وقال اها، فتناولوه، فقال: «ما تقولون» قالوا: نقول: نخشي أن تموت، وتصايح نساؤهم؛ لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ فشار رسول الله ﷺ فخرج متوكئاً على على والفضل، والعباس أمامه، ورسولٌ الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبِر، وثاب الناس إِلَيْهُ فَحَمَدُ اللهِ وَأَثْنَى عَلَيْهُ، وَقَالَ: «أَيُهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَغَنِي آَنْكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ الْمَوْتَ كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارُ مِنْكُم لِلْمُوْتِ، وَمَا تُنْكُرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيّكُمْ أَلَمْ أَنْعَ إِلَيْكُمْ وَتَنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ؟ هَلْ خُلْدَ نَبِيَّ قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثَ أَلَمْ أَنْعَ إِلَيْكُمْ وَتَنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ؟ هَلْ خُلْدَ نَبِي قَبْلِي فِيمَنْ بُعِثُ فَاخَلُدَ فِيكُمْ؟ أَلَا إِنِّي لَاحِقَ بربُي وإِنْكُمْ لاحِقُونَ بِهِ وَإِنِي أوصيكُمْ بالمَهَاجِرِينَ الأَوْلِينِ خَيْراً بُعِثُ فَاخُلُهُ وَاللّهُ عَرْ وَجِلٌ قَالَ: ﴿وَالْمَصْرُ إِلَى إِلّا اللّهِ اللّهِ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلْ وَإِلَى اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ مَامَنُونَ﴾ [العَمر: ١-٣] ـ إلى آخرها ـ وإنَّ الأُمُورَ قَجْرِي بإنِّنِ اللَّهِ فَلا يَحْمِلُنَّكُم اسْتِبْطَاءُ أَمْرِ عَلَى اسْتِمْجَالِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ مَنْ غَالَبَ الله غَلْبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللَّهَ خَدْعَهُ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن ثَوَلَيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْمَامَكُمْ ﴿ اللَّهِ المَحَدُدِ: ٢٧]. وَأُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ خَيْواً فَإِنَّهُم الَّذِينَ تَبَوْءُوا الدَّارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا ٓ إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُوكُمْ الثَّمَارَ ٱلنَّمَ يُوسَعُوا عَلَيْكُمْ فِي الْدِّيَارِ أَلَمْ يُؤْثِرُوكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الْخَصَاصَةُ؟ أَلَا فَمَنْ وَلِيَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبِلْ مِنْ مُخْسِنِهِمْ وَلٰيَتَجَاوَزُ عَنْ مُسَيِئْهِمْ، ۚ أَلَا وَلَا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ أَلَا وَإِنِّي فَرَّطٌ لَكُمْ وَٱلْتُمْ لَآحِتُونَ بِي، أَلَّا وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ، حَوْضِي أَغْرَضُ مِمَّا بَيْنَ بُصْرَى الشَّام وَصَنْعَاءِ الْيَمَنِ، يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابٌ الْكَوْثُو، مَاؤُهُ أَشَدُ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَالْيَنُ مِنَ الزُّبُدِ وَأَخلَى مِنَ الشُّهٰدِ، مَنْ شَرِبٌ مِنْهُ لَمْ يَظُمَأْ أَبُداً، حَصْبَاؤُهُ اللَّوْلُقُ ويَطْحَاقُهُ المِسْكُ، مَنْ حُرِمَهُ فِي الْمَوْقِفِ غَلاَ حُرِمَ الْخَيْرَ كُلُّهُ، أَلا فَمَنْ أُخَبُّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيْ غَداً فَلْيَكْفُف لِسَانه وَيَدَهُ إِلاَّ مِمَّا يَنْبَغِي ، وقال العباس: يا نَبي الله أوص بقريش فقال: «إنَّمَا أوصِي بِهٰذا اِلْأَمْرِ قُرَيْشاً وَالنَّاسُ تَبْعٌ لِقُرَيْشِ بَرُّهُمْ لِبَرِّهُمْ وَفَاجِرُهمْ لِفَاجِرِهمْ، فَاسْتَوْصُوا آلَ قُرَيْشِ بِالنَّاسِ خَيْراً، يا أَيُها النَّاسُ إِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النَّمَمَ وَتُبَدِّلُ القِسْمِ، غَلِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّهُمْ أَيْمَتُهُمْ وَإِذَا فَبَحَرَّ النَّاسُ عَقُوهُمْ قالَ

⁽۱) حديث عائشة: «أمرنا أن تغسله بسبم قرب من مسعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة، فخرج قصلي بالناس واستغفر لأهل أحد..» الحديث. أخرجه الدارمي في مسنده وفيه إيراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحاق؛ وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة.

 ⁽۲) حديث عائشة: «قبض في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت. . . ٤٠٠ الحديث. مثق عليه. سحري: صدري. ونحري: عُنقي.

اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكُذَاكِ وَلِّي بَعْضَ ٱلظَّالِينَ بَعْمَنَّا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿ الاَنفام: ١٢٩] (١).

وروى ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي على قال فقال: لبي الله عنه: الله عنه: الله ما عدد الله فقال: يا رسول الله دنا الأجلى؟ فقال: القَدْ دَنا الأجَلُ وَتَلَلَى، فقال: لبهنك يا نبي الله ما عدد الله فليت شعري عن منقلبنا، فقال، الله قالى الله قالى سِلْرَةِ المُنْتَهَى ثُمَّ إلَى جَنَّةِ المَأْوَى وَالفِرْدَوْسِ الأَهْلَى فليت شعري عن منقلبنا، فقال، الله قال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: ارجال مِنْ أَهْلَ بَنِي الأَوْنَى وَالرَّفِقِ الأَوْنَى، قال: ففيم نكفنك؟ فقال: الني ثِيَابِي هٰلِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَائِئَةٍ وَفِي بَيَاضِ مِنْ أَهْلَ بَغْيَى الْأَوْنَى فَالأَدْنَى، قال: ففيم نكفنك؟ فقال: الني ثِيَابِي هٰلِهِ وَفِي حُلَّةٍ يَمَائِئَةٍ وَفِي بَيَاضِ مِسْرَة، فقال: وفي الله فَقَل الله فَل الله عَلَيْ مِنْ الْمُعْرَة، فَمْ الحَرْبُوا عَني سَرِيوي فِي بَيْتِي هٰذَا عَلَى شَفِير قَبْرِي، ثُمْ الحَرْبُوا عَني سَرِيوي فِي بَيْتِي هٰذَا عَلَى شَفِير قَبْرِي، ثُمْ الحَرْبُوا عَني سَرِيوي فِي بَيْتِي هٰذَا عَلَى شَفِير قَبْرِي، ثُمُ الحَرْبُوا عَني سَاعَة، فَإِنَّ أَوَّل مَنْ يُصَلَى عَلَيْ الله وَيُصَلّى عَلَيْ جِنْرِيلُ ثُمْ مِيكَاثِيل ثُمْ إِسْرَافِيلُ الله عَلْيَهِمْ أَجْمَعِينَ، ثُمْ الشَمْ إلله وَيُصَلّى عَلَيْ جِنْرِيلُ ثُمْ مِيكَاثِيل ثُمْ إِسْرَافِيلُ الْمُ مَلْكُ المَوْتِ مَعْ جِنُودِ كَثِيرَة، ثُمْ المَلائِكَة بِأَجْمَعِها صَلّى الله عَلْيَهِمْ أَجْمَعِينَ، ثُمُ الشَمْ والله وَلَيْكُمْ وَمُولِ فَلْقُول عَلَيْ وَلَوْنَ وَلَهُ مَنْ يَعْلُى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، ثُمْ الشَمْ والْعَلْ بَيْتِي الْأَدْنَى فَالأَدْنَى مَعْ مَلائِكَة كَثِيرة لا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرُونَكُمْ قُومُوا فَأَدُوا عَني إلَى مَنْ بَعْدِي الْنَالَة وَلَا ذَنِي الْمُلْ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى مَعْ مَلائِكَةً كَثِيرة لا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرونَكُمْ قُومُوا فَأَدُوا عَني إلَى مَنْ بَعْدِي الْنَالَة وَلَا السَرِيمُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَمُولُ الْمُنْ الْمُوتِ عَلَى الْأَدُى فَالأَدْنَى فَالأَدْنَى مَعْ مَلائِكَةً كَثِيرة لا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرونَكُمْ قُومُوا فَأَدُوا عَني إلَى مَنْ بَعْدِيهِ اللهُ عَلْيَهُ الْمُولُ عَلَى اللهُ عَلَيْهِ الْمُولِي الْمُؤْلُولُ عَنْ الْمُولُ الْمُولُولُ عَلْمُ اللهُ عَلْمُ وَالْمُولُولُ عَلَى الْمُولُولُ

وقال عبدالله بن زمعة: جاء بلال في أوّل شهر ربيع الأوّل، فأذن بالصلاة. فقال رسول الله ﷺ: المُرُوا أَبَا يَكُو يُصَلِّي بِالنَّاسِ. فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام عمر فلما كبر وكان رجلاً صيتاً سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير فقال: «أَيْنَ أَبُو بَكُو يَ يَأْبِي اللّهُ فَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ. قالها ثلاث مرات، «مُرُوا أَبا بَكُو فَلْيَصَلِّ بِالنَّاسِ. فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن أيا بكر رجل رقيق القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء! فقال: «إنْكُنْ صُونِجِباتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبا بَكُو قَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». قال: فصلى أبو بكر بعد غلبه البكاء! فقال: وإنَّكُنْ صُونِجِباتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبا بَكُو قَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». قال: فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر، فكان عمر يقول لعبدالله بن زمعة ـ بعد ذلك ـ: ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت. فيقول عبدالله: إني لم أر أحداً أولى بذلك منك! قالت عائشة رضي الله عنها: وما قلت ذاك ولا صوفته عن أبي بكر؛ لا رغبة به عن الدنيا، ولما في قالت عائشة رضي الله عنها: وما قلت ذاك ولا صوفته عن أبي بكر؛ لا رغبة به عن الدنيا، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله، وخشيت أيضاً أن لا يكون الناس يحبون رجلاً صلى في مقام النبي ﷺ وهو حي أبداً إلا أن يشاء الله، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله مقام النبي ﷺ وهو حي أبداً إلا أن يشاء الله، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله

⁽١) حديث سعيد بن عبدالله عن أبيه قال. الما رأت الأنصار رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس فأعلمه سكانهم وإشفاقهم فذكر... الحديث. في خروجه متوكناً معصوب الرأس يخط رجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المتبر. فذكر خطبته بطولها هو حديث مرسل صعيف وقيه بكارة ولم أجد له أصلاً وأبوه عبدالله بن ضرار بن الأرور تابعي، روى عن ابن مسعود. قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سميد: ليس بالقوي.

⁽٢) حديث ابن مسعود: أن النبي على قال الأبي بكر: «سل يا أبا بكر». نقال: با رسول الله دنا الأجل؟ نقال: «قد دنا الأجل. ..» الحديث. في سؤالهم له: «من يلي غسلك وفيم نكفتك؟ وكيفية الصلاة عليك». رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر؛ وهو الواقدي بإسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود؛ وهو مرسل ضعيف كما تقدم.

والقضاء قضاؤه، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١٠).

وقالت عائشة رضي الله عنها: فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحواثجهم مستبشرين، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ: «اخرجن صني! هذا الملك يستأذن عليَّ. فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجي الملك طويلاً، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة: «ادخلن، فقلت: ما هذا بِحس جبريل عليه السلام؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ﴿أَجَلُّ يَا عَائِشَةُ هٰذَا مَلَكُ الْمَوْتِ جَاءَتِي فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ عَزّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِي وَأَمَرِنِي أَنُ لَا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلاّ بِإِذْنِ، فَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لِي أَرجعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِي دَخَلْتُ، وَأَمَرَنِي أَنْ لا أَقْبِضَكَ خَتَّى تَأْمُرَنِي فَمَاذًا أَمْرُكَ؟ فَقُلْتُ: أَكْفُفْ خَتَى خَتَى بَأْتِينِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فهذه ساعة جبريل عليه السلامه، فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئاً وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا. قالت: وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال: إن الله عزّ وجلّ يقرأ عليك السلام ويقول: كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنَّة في أمتك فقال: ﴿ أَجِدْنِي وَجِعاً ﴾ . فقال: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال: ﴿يَا جَبِرِيلَ إِن ملك المعوت استأذن عليُّهُ، وأخبره الخبر، فقال جبريل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك؟ لا والله تعالَى ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبداً، إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك مشتاق. قال: "قَلا تَبْرَحُ إِذَنْ حَشَّى يَجِيءَ»، وأذن للنساء، فقال: «يا فَاطِمَة ادْنِي» فاكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها ندمع وما تطيق الكلام، ثم قال: ﴿أَدْنِي مِنِّي رَأْمَكِ، فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام، فكان الذي رأينا منها عجباً، فسألتها بعد ذلك. فقالت: أخبرني وقال: ﴿إِنِّي مَيِّتٌ الْيَوْمُ فبكيت ثم قال: «إنِّي دَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُلْحِقَكِ بِي فِي أَوَّلِ أَهْلَى وَأَنْ يَجْعَلَكِ مَمِيٍّ، فضحكت، وأدنت أبنيها منه فشمهما. قالت: وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك: ما تأمرنا يا محمد؟ قال: وَٱلْحِقْنِي بِرَبِّي الْآنَ؟. فقال: بلي من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج. قالت: وجاء جبريل، فقال: السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدأ، طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك، وما لي فيها حاجة إلا حضورك، ثم لزوم موقفي لا والذي بعث

⁽¹⁾ حديث عبدالله بن زمعة: قجاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي ﷺ: قمروا أبا يكر فليصل بالناس؟ فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر. . . » الحديث. أخرجه أبو داود بإسناد حيد نحوه مختصراً دون قوله: ققالت عاتشة: إن أبا يكر رجل رقيق . . . إلى آخره . ولم يقل: في أول ربيع الأول ، وقال: قمروا من يصلي بالناس» ، وقال: قيلي الله قلك والمؤمنون عرتين وفي رواية له فقال: قلا لا لا . . . فيصل للناس ابن أبي قحافة » يقول ذلك مغضباً ، وأما ما في آحره قول عائشة ففي الصحيحين من حديثها ، فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ا فقال: قائكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس».

محمداً بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا، قالت: فقمت إلى النبي على حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره، وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشع رشحاً ما رأيته من إنسان قط، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له _ إذا أفاق _: بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح؟ فقال: «يا عَائِشَةُ إِنَّ نَفْسَ المُؤْمِنِ تَخْرُجِ بِالرُشْعِ وَنَفْسُ الكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شَدْقُنِهِ كَتَفَسِ الجمارِه، فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا، فكان أوّل رجل جاءنا ولم يشهده أخي، بعثه إلى أبي، فمات رسول الله على قبل أن يجيء أحد، وإنما صدهم الله عنه؛ لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أخمي عليه قال: «بَل الرَّفِيقِ الأَهْلَى» كأن الخيرة تعاد عليه، فإذا أطاق الكلام قال: «الصّلاة وجعل إذا أخمي عليه قال: «بَل الرَّفِيقِ الأَهْلَى» كأن الخيرة تعاد عليه، فإذا أطاق الكلام قال: «الصّلاة الصّلاة الصّلاء الصّلاة الصّلاء الصّلاء السّلاة الصّل السّلاء الصّلاء الصّلاء

قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين (٢٠). قالت فاطمة رضي الله عنها: ما لقبت من يوم الإثنين، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم ـ يوم أصيب على كرّم الله وجهه بالكوفة ـ مثلها: ما لقيت من يوم الإثنين، مات فيه رسول الله ﷺ وفيه قتل علي، وفيه قتل أبي، فما لقيت من يوم الإثنين. وقالت عائشة رضي الله عنها: لما مات رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه ـ لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه عاضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعلى بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعلى

⁽١) حديث عائشة: «لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منارلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالتا في الرجاء والفرح قبل ذلك. قال رسول الله ﷺ: ﴿أخرجِن عني، هذا ملك يستأذن عليّ. . . ٣ الحديث. بطوله في مجيء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجيء جبريل ثم مجيء ملك الموت ووفاته ﷺ؛ أخرجه الطبراني في الكبير من حديث جابر وامن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه: فلما كان يوم الإثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك المعرث أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد ﷺ في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه. وفيه: *دخول ملك الموت واستثلانه في قبضه فقال: «يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل؟ قال: خلفته في سماء الدنبا والملائكة يعزونه فيك، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له، وفيه: «ادن يا ملك الموت قانته إلى ما أمرت به. . . » الحديث. وفيه: فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبي ﷺ وذكر كربه لذلك، إلى أن قال. فقبض رسول أله ﷺ وهو حديث طويل في ورقتين كبار؛ وهو منكر، وفيه عبدالمنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه. قال أحمد: كان يكذب على وهب بن منبه، وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطني، ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي: أن جبريل جاءه أولاً، فقال له عن ربه. كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأدن ملك الموت. وقوله: «امض لما أمرت به». وهو سكر أيضاً فيه عبدالله بن ميمون القداح. قال البخاري: ذاهب الحديث، ورواه أيضاً من حديث ابن عباس في مجيء ملك الموت أولاً واستثذاته وقوله: اإن ربك يقرتك السلام فقال: قأين جبريل، فقال: هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل. . . • الحديث. وفيه المختار بن نافع منكر الحديث.

حديث عائشة: مات رسول لله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين. رواه ابن عبدالبر.

فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس. فخرج عمر على الناس، وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وليرجعنه الله عزّ وجلّ، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت، إنما واعده الله عزّ وجلّ كما واعد موسى وهو آتيكم(١).

وفي رواية أنه قال: يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله على فإنه لم يمت، والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله على قد مات إلا علوته بسيفي هذا. وأما على فإنه أقعد فلا يبرح البيت. وأما عثمان فجعل لا يكلم أحداً _ يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به _ ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعماس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان الناس لم يرعووا إلا بفول أبي بكر حتى جاء العباس فقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله على الموت، ولقد قال وهو بين أظهركم: ﴿إِنَّكَ مُبِيِّ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ فَي أَدَّ إِنَّكُم بَوْمَ الْقِينَمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ مَ مَنْ السُومَر:

وملغ أبا بكر الخبر، وهو في بني الحارث بن الخزرح فجاء ودخل على رسول الله على فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله تعالى ليذيقك الموت مرتبن، فقد والله توفي رسول الله على ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمّدُ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن مَالَى عَبِدُ رَبُ مُحمد فإنه حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمّدُ إِلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن مَالًا اللهُ ال

وفي رواية: أن أبا بكر رضي الله تعالى عه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ - وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: بأبي وأنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حياً وميتاً انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوّة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع

⁽¹⁾ حديث عائشة الما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة نثوبه ـ عاختلموا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته، وعلي فيمن أقعد، وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت. . . * الحديث. إلى قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ عَنتَهِمُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٣١]. لم أجد له أصلاً وهو منك .

¹⁾ حديث: البلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج هجاء فدخل على رسول الله في فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال: بأبي أنت وأمي ما كان الله لينيقك الموت مرتين. . . الحديث. إلى آخر قوله: «وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئله. أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة: أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكمه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله في وهو مغشى بثوب حيرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه وبكى، ثم قال: بأبي وأمي أنت، والله لا يجمع الله عليك موتنين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. ولهما من حديث ابن عباس: أن أبا يكر خرج وعمر يكلم الناس. . . المحديث، وفيه: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآبة حتى تلاها أبو بكر. لفظ البخاري فيهما.

نفيه عنا فكمد واذكار محالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا^(١).

وعن ابن عمر: أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجاً سمعه أهل المصلى، كلما ذكر شيئاً ازدادوا، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال: السلام عليكم يا أهل البيت ﴿ كُلُّ نَفْسِ ذَآبِقَةُ ٱلْمُرْتُ ﴾ [آل عِمرَان؛ ١٨٥] الآية. إن في الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة، فالله تعالى فارجوا وبه فثقوا. فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء، فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحداً. ثم عادوا فبكوا فناداهم منادٍ آخر لا يعرفون صوته: يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين، إن يعرفون صوته: يا أهل البيت اذكروا الله تعالى واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين، إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغيبة، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي من المخلدة المناهدة والمسع عليهما السلام حضرا النبي الله المخلدة واليسع عليهما السلام حضرا النبي الله المناهدة المناهدة والمراه فاعملوا.

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال: قام أبو بكر في الناس خطيباً حيث قضى الناس عجيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي على فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده، فلله الحمد وحده، وأشهد أن الكتاب كما شرع وأن الدين كما شرع

⁽١) حديث •إن أبا مكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ. وهو يصلي على البي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال ـ فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه . . . • الحديث . إلى قوله: •واحفظه فينا . • أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإستاد ضعيف: •جاء أبو بكر ورسول الله ﷺ مسجى فكشف الثوب عن وجهه . . • الحديث . إلى آخره .

⁽Y) حديث ابن عمر في سماع التعزية به ﷺ: إن في الله خلفاً من كل مصيبة وعوضاً من كل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا. ثم سمعوا آخر بعده: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغيبة فلله فأطبعوا ويامره فاعملوا. فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع. لم أجد له ذكر: «اليسم» وأما ذكر: «الخضر» في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال: إنما ذكره الأصحاب. فلت: بلى قد رواه الحاكم في المستدرك في حليث أنس ولم يصححه ولا يصح، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضاً قال: لما قبض رسول الله ﷺ حتى أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء بتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعضادتي باب البيت، فبكى على وسول الله ﷺ، ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوصاً من كل فائت وخلفاً من كل هالك قالى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم في البلاء عانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب. ثم ذهب الرجل. فقال أبو بكر: علي بالرجل، فنظروا بميناً وشمالاً فلم يروا أحداً، فقال أبو بكر: لعلى هذا الخضر أخو نبينا عليه السلام جاه يعزينا، ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضعيف جداً ورواه ابن أبي لعلم المنا أبي طالب، لما قبض رسول الله ﷺ جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه. قال: العنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب: لما قبض رسول الله ﷺ جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه. قال: السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته إن في الأواب والسلام عليكم. فقال على: تدرون من هذا؟ هو الخضر، وفيه فتقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم. فقال على: تدرون من هذا؟ هو الخضر، وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه، وفيه انقطاع مين على بن الحسين وبين جده علي، والمعروف عن على بن الحسين مرسلاً من غير ذكر علي كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر، «الخضر».

وأن المحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحق المبين، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام المخير ورسول الرحمة، اللهم قرّب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون، والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد. أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يمت، وإن الله قد تقدّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً، فإن الله عز وجلّ قد اختار لنبيه على ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه في فمن وجلّ قد اختار لنبيه على ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه في فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر. ﴿ يَكَا يُهُ اللَّهُ الَّذِينَ مَا مَنُوا لَهُ وَلَهُ وَيَهِينَ بِالْقِسَولِ ﴾ [النّساء ١٥٥]. ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتننكم عن دينكم، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه، ولا يشتنظروه فيلحق بكم ويفتنكم.

وقال ابن عباس: لما فرغ أبو بكر من خطبته قال: يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله على أما ترى أن نبي الله على قال يوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا: كذا وكذا، وقال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيْتُ وَإِنَّهُم تَبَتُونَ ﴿ قَلَ ﴾ [الزُّمَر: ٣٠]. فقال: والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما أنزل، وأن الحديث كما حدث، وأن الله حي لا يموت ﴿إِنَّا بِقَهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجِعُونَ ﴾ [النقرَة: ٢٥٦]، وصلوات الله على رسوله وعند الله نحسب رسوله هي ثم جلس إلى أبي بكر.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما اجتمعوا لغسله قالوا: والله ما ندري كيف نغسل رسول الله على أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه؟ قالت: فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائماً ثم قال قائل - لا يدرى من هو -: غسلوا رسول الله على في ثيابه، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله في قميصه، حتى إذا فرغوا من غسله كفن. وقال علي كرم الله وجهه: أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله تله ثيابه، فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقياً ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه، وإن معنا لحقيفاً في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله في فإنكم ستكفون. فهكذا كانت وفاة رسول الله في ولم يترك سبداً ولا لبداً إلا دفن معه. قال أبو حعفر: فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثبابه عليها التي كان يلبس يقطان على القطيفة والمفرش، ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أن ففي وفاته على قصبة على قصبة على قصبة على قصبة أنه وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أن ففي وفاته على قصبة أنه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أنه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أنه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أنه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أنه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أنه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة أنه فلم يترك بعد وماته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على في المقورة على المقورة على المقورة على المورة حسنة المورة حسنة المورة حسنة المورة على المورة حسنة المورة على المورة المورة على المورة المورة المورة المورة الم

⁽١) حديث أبي جعمر: ورش لحده بمفرشة وقطيفة، وفيه: فلم يترك بعد وفاته مالاً ولا بنى في حياته لبنة على لبنة وضع وضع قصبة على قصبة، أما وضع المفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيمة شقران مولى رسول الله على وليس ذكر ذلك من شرط كتامنا، وأما كونه لم يترك مالاً فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بنى في حياته، فتقدم أيضاً.

وفاة أبي بكر الصديق رضى الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعسرك ما يغنني الشراء عن المستى إذا حشرجت ينوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه، وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وَمَآدَتْ سَكُرَةُ ٱلۡمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنُهُ عَبِدُ﴾ [ق: ١٩]. انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت. وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته:

وأسيض يستسقى الخمام بوحهم ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر: ذاك رسول الله ﷺ ودخلوا عليه فقالوا: ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ قال: قد نظر إليّ طبيبي وقال: إني فعال لما أريد. ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال: يا أبا بكر أوصنا فقال: إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك، واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك.

ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف، فاستخلف عمر رضي الله عنه، فقال الناس له: استخلفت علينا فظاً غليظاً فماذا تقول لربك؟ فقال: أقول استخلفت على خلقك خير خلقك، ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه فجاء فقال: إني موصيك بوصية؛ اعلم: أن لله حقاً في الليل لا يقبله في النهار، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا بالحق أن يثقل. وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف، وإن الله ذكر أهل النار أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: أنا دون هؤلاء ولا أبلغ هؤلاء؛ فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا، فيقول القائل: أنا أفضل من هؤلاء، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ولا يلقي بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق. الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ولا يلقي بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بذلك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بذلك منه، وإن ضيعت وصيتي هلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بذلك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بذلك منه، وإن ضيعت وصيتي ولا بدلك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه، وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه، وإن ضيعت وصيتي هلكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه، وإن ضيعت وصيتي ولا بدلك منه وإن ضيعت وصيتي ولا بدلك منه وإن ضيعت وصيتي هلكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه وإن ضيعت وصيتي وليكون غائب أحد الميكون غائب أحد الميكون غائب أحد الكون غائب أحد الميكون غائب أكون غائب أكون غائب أكون

وقال سعيد بن المسيب: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا: يا خليفة رسول الله و نام في المنافقة في الأفق المبين، فالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي العرش فيه رياص الله وأنهار وأشجار، يغشاه كل يوم مائة رحمة، فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان. «اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم، ثم جعلتهم فريقين فريقاً للنميم وفريقاً للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير. اللهم إنك خلقت الخلق فرقاً وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقياً وسعيداً وغوياً ورشيداً، فلا تشقني بمعاصيك، اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت، فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك. اللهم إن أحداً لا يشاء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك. اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرّك شيء إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في يقربني إليك. اللهم إنك خلفت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به، فاجعلتي من خير تقواك. اللهم إنك خلفت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به، فاجعلتي من خير تقواك. اللهم إنك خلفت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به، فاجعلتي من خير

القسمين. اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً، فاجعلني من سكان جنتك، اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم، فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك، فأحيني بعد الموت حياة طيبة وقرّبني إليك زلفي. اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك، فأنت ثقتي ورجائي ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال أبو بكر: هذا كله في كتاب الله عزّ وجلّ.

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

قال عمرو بن ميمون: «كنت قائماً غداة أصيب عمر وما بيني وبينه إلا عبدالله بن عباس، وكان إذا مرُّ بين الصفين قام بينهما، فإذا رأى خللاً قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدّم فكبر. قال: وربما قرأ سورة يوسف أو النحل . أو نحو ذلك . في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول؛ قتلني ـ أو أكلني ـ الكلب، حين طّعنه أبو لؤلؤة، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمرّ على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، فمات منهم تسعة ـ وفي رواية سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساء فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه. وتناول عمر رضي الله تعالى عنه عبدالرحمن بن عوفٌ فقدّمه، فأما من كان يلي عُمر فقد رأى ما رأيت، وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله! فصلى بهم عبدالرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا. قال: يا ابن العباس انظر من قتلني قال: فغاب ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة بن شعبة، فقال عمر رضي الله عنه: قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً. ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل مسلم، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة! وكان العباس أكثرهم رقيقًا، فقال ابن عباس: إن شئت فعلت؛ أي إن شئت قتلناهم. قال: بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال: وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ! قال: فقائل يقول: أخاف عليه، وقائل يقول: لا بأس. فأتي بنبيذ فشرب فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشرب فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت. قال: فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشري من الله عزّ وجلِّ؛ قد كان لك صحبة من رسول الله على وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: وددت أن ذلك كان كفافاً لا عليّ ولا لي. فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض، فقال: ردوا على الغلام، فقال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك، ثم قال: يا عبدالله انظر ما عليَّ من الدين؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه. فقال: إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، وأدَّ عني هذا المال وانطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل: حمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فذهب عبدالله فسلم واستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي! فلما أقبل قيل: هذا عبدالله بن عمر قد جاء فقال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت. قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك! فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر! فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

وعن النبي عَنَى قال: فَقَالَ لِي جِنْوِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: لِيَبْكِ الإسْلامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرًا (١). وعن ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعني إلا رجل قد أخذ بمنكبي فالنفت، فإذا هو على بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحد أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك! وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيراً أسمع النبي على يقول: «ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكُو وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكُو وَعُمَرُ وَخَمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكُو وَعُمَرُ الله معهما.

وفاة عثمان رضى الله عنه:

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبدالله بن سلام: أتبت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور، فدخلت عليه، فقال: مرحباً يا أخي! رأيت رسول الله على الليلة في هذه الخوخة ـ وهي خوخة في البيت ـ فقال: هيا عُثْمَانُ حَصْرُوكَ؟». قلت: نعم قال: «عَطْشُوكَ». قلت: نعم، فأدلى إلي دلواً فيه ماه فشربت حتى رويت ـ حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي ـ وقال لي: «إنْ شِثْتَ نُصِرُتَ عَلَيْهِمْ فشربت حتى رويت ـ حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي ـ وقال لي: «إنْ شِثْتَ نُصِرُتَ عَلَيْهِمْ وَإِنْ شِثْتَ أَفْطُرْتَ عِنْدَنَا». فاخترت أن أفطر عنده! فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه. وقال عبدالله بن سلام لمن حضر: تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط؟ قالوا: سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد على الموت عنه والدي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة.

حديث: قال لي جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر؟ أخرجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب يستد ضعيف جداً وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

 ⁽۲) حديث ابن عباس قال: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون، فذكر قول علي بن أبي طالب: كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: فذهبت أنا وأبو بكر وهمر. . . . الحديث. متفق عليه.

وعن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال: التوني بصاحبيكم الللين ألباكم علي قال: فجيء بهما كأنما هما حملان أو حماران، فأشرف عليهما عثمان رضي الله عنه فقال: أنشدكم بالله والإسلام؛ هل تعلمون أنّ رسول الله على قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بتر رومة فقال: من يشتري رومة، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين، بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام؛ هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: نعم، قال: أنشدكم الله والإسلام؛ هل تعلمون أنّ المسجد كان ضاق بأهله فقال رسول الله على: «مَنْ يَشْتَرِي بُقَعَة أَنَ المُسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْها فِي الجَنَّةِ؟» فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين؟ قالوا: اللهم نعم؛ قال: أنشدكم الله والإسلام؛ هل تعلمون أنّ رسول الله على أبير بمكة ومعه أبو بكر وحمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال: فركضه برجله وقال: «اسّكُنْ نَبِيرُ فَمَا هَلَيْكَ إلا نَبِي وصَدِيقٌ وَشَهِيدانِ؟» قالوا: اللهم نعم، قال: الله أكبر شهدوا لي ورب الكعبة أني شهيد أنى شهيد إلى ورب الكعبة أني شهيد أنه.

وروي عن شيخ من ضبة: أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول: ﴿لَا إِلَنَهُ إِلَّهُ أَنْتَ سُبْحَنَنَكَ إِنِّ حَصُنتُ مِنَ الظَّلِلِينَ﴾ [الأنبَاء: ٨٧] اللهم إني استعديك عليهم وأستعينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني.

وفاة علي كرم الله وجهه:

قال الأصبخ الحنظلي: لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام علي يمشي وهو يقول:

اشدد حيازيمك لسلمو ت فيان السموت لاقييكا ولا ترجيزع مين السموت إذا حيل بيواديك

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن ملجم فضربه. فخرجت أم كلئوم ابنة علي رضي الله عنه فجعلت تقول ما لي ولصلاة الغداة! قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة؛ وقتل أبي صلاة الغداة.

وعن شيخ من قريش: أنّ علياً كرم الله وجهه لما ضوبه ابن ملجم قال: فزت ورب الكعبة. وعن محمد بن علي: أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض.

ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما دخل عليه الحسين رضي الله عنه فقال: يا أخي، لأي شيء تجزع؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى على بن أبي طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك! قال: يا أخي، أقدم على أمر لم أقدم على مثله.

 ⁽١) حديث ثمامة بن حزن القشيري: «شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان. . . • الحديث، أخرجه الترمذي وقال:
 حسن والنسائي.

وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال: لما نزل القوم بالحسين رضي الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه، قام في أصحابه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد نزل من الأمر ما ترون! وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء، ألا حسبي من عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى، وإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا جرماً.

* * *

الباب الخامس

في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال: أقعدوني، فأقعد، فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال: تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان، وبكى حتى علا بكاؤه وقال: يا رب، ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك.

وروي عن شيخ من قريش: أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غضوناً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: فهل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بحدّتنا وباستلذاذنا بعيشنا، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالاً بعد حال وعروة بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا، أفّ للديا من دار، ثم أفّ لها من دار.

ويروى: أنّ آخر خطبة خطبها معاوية أن قال: أيها الناس، إني من زرع قد استحصد، وإني وليتكم ولن يليكم أحد من بعدي إلا وهو شر مني، كما كان من قبلي خيراً مني! ويا يزيد: إذا وفي أجلي فول غسلي رجلاً لبيباً، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي في وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفي وفمي وأذني وعيني، واجعل الثوب على جلدي دون أكفاني، ويا يزيد: احفظ وصية الله في الوالدين، فإذا أدرجتموني في جديدي ووضعتموني في حفرتي فخلوا معاوية وأرحم الراحمين. وقال محمد بن عقبة: أما نزل بمعاوية الموت قال: يا ليتني كنت رجلاً من قريش بذي طوى وإني لم أل من هذا الأمر شيئاً.

ولما حضرت عبدالملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوي ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة، فقال عبدالملك: ليتني كنت غسالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئاً، فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد فه الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه. وقيل لعبدالملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المومنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدُ جِمْتُمُوناً فُرْدَىٰ كُما حَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكَّمُ مَا حَوَلْنَكُمْ وَرَاتً فَهُ إِلَانَعَام: ١٤٤ الآية. ومات.

وقالت قاطمة بنت عبدالملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبدالعزيز ـ: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار. فلما كان اليوم الذي قبض فيه حرجت من عنده فجلست في بيت آخر ـ بيني وبينه باب وهو في قبة له ـ فسمعته يقول: ﴿ يَلْكَ ٱلنَّارُ اللَّهِ مَنْ فَبَعَلُهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّا عَلَى اللَّهُ عَلْمُ عَلَّا عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَّا عَلَى الللّهُ عَلَّا عَلَى اللّهُ عَلْمُ عَلَّا عَلَى اللّهُ عَلَّا عَلْمُ عَ

وروي: أنه لما ثقل عمر بن عبدالعزيز دعي له طبيب فلما نظر إليه قال. أرى الرجل قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال: ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يسق السم! قال الطبيب: هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قد عرفت ذلك حين وقع في بطني قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك، قال: ربي خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته. اللهم خير لعمر في لقائك. فلم يلبث إلا أياماً حتى مات، وقيل: لما حضرته الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله بك سنناً وأظهر بك عدلاً! فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق؟ فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقنها الله حجتها؛ فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات. ولما قرب وقت موته قال: أجلسوني! فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحد النظر فقيل له في ذلك فقال: إني لأرى خضرة؛ ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رحمه الله.

وحكى عن هارون الرشيد: أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَيْ مَالِيَّةٌ ﴿ هَا خَلَكَ عَيْ سُلَطَنِيَةً ﴿ إِلَىٰهُ اللَّهُ ٢٩،٢٨].

وفرش المأمون رماداً واضطجع عليه وكان يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه. وكان المعتصم يقول عند موته: لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت.

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس إلا هذا؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة.

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ـ وقد نظر إلى صناديق لبنيه ـ: من يأخذها بما فيها، ليته كان بعراً. وقال الحجاج عند موته: اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي. فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها، ولما حكي ذلك للحسن قال: أقالها؟ قيل: نعم. قال: عسى.

张张张

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوّف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذاً رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكاملة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر. ولما اشتد به النزع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد

كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال: رب، ما أخنقني خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبي يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعاً على الدنيا، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بُلْغَةُ أحدنا من الدنيا كزاد الراكب^(١). فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهماً.

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه! غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

وقيل: فتح عبدالله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿لِينْلِ هَنَا فَيَعْمَلِ ٱلْمَنْيِلُونَ﴾ [الصّافات: ٦١]. ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أنتظر من الله رسولاً يبشرني بالجنة أو بالنار.

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتبته؛ ولكن أخاف أنى أتبت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم.

ولما حضرت عامر بن عبدالقيس الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء.

ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابعد سفراه! واقلة زاداه!

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب، فبكى نصر فقال له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً! قال: اسكت! فإني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء، ثم قال له: لقنّي ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان.

وقال عطاء بن يسار: تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له: نجوت، فقال: ما آمنك بعد. وبكى بعضهم عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله تعالى قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَنَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ ٱلْمُنَّةِينَ﴾ [النائدة ٢٧].

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال: إن أمراً هذا أوله لجدير أن يتقى آخره، وإن أمراً هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله. وقال الجريري: كنت عند الجنيد في حال نزعه ـ وكان يوم الجمعة ويوم النيروز ـ وهو يقرأ القرآن فختم، فقلت له: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي؟

وقال رويم: حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول:

حنيانُ قلوب العارفيان إلى اللكر أديسرت كووسُ الممنايا عليهم هماومهم جوالة بمعسكر فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه فعما عرسوا إلا بقرب حبيبهم

وت ذك ارهم وقت المناجاة للسر فأغفوا عن الدنبا كإغفاء ذي الشكر به أهل وذ الله كالأنسجم السزهر وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري وما عسرجوا من مسل بوس ولا ضررً

حدیث: الما حضرت سلمان الوفاة بكی، وفیه عهد إلینا رسول الله ﷺ أن یكون بلغة أحدثا من الدنیا كزاد الراكب،
 أخرجه أحمد والحاكم وصححه، وقد تقدم.

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقاً. وقيل لذي النون ـ عند موته ـ: ما تشتهي؟ قال: أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

وقيل لبعضهم وهو في النزع: قل: الله، فقال: إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله. وقال بعضهم: كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال: السلام عليكم؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه؟ قال: فأشاروا إليه بمكان ـ وكان ثم عين ماء ـ فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله، ومضى إلى ذلك المكان ومد رجليه ومات. وكان أبو عباس الدينوري يتكلم في مجلسه، فصاحت امرأة تواجداً فقال لها: موتي، فقامت المرأة، فلما بلغت الله التفتت إليه وقالت: قد مت ووقعت ميتة. ويحكى عن فاطمة ـ أخت أبي علي الروذباري ـ قالت: لما قرب أجل أبي علي الروذباري ـ وكان رأسه في حجري ـ فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول: يا أبا علي قد بلغناك الرثبة القصوى وإن لم تردها ثم أنشأ يقول:

وحسقك لا نسطسرت إلى سيواكسا بسعسيسن مسودة حستسى أراكسا أراك مسعد ذبسي بسف تتسور لسحط وبسالسخد السمسورد مسن حسيساكسا

وقيل للجنيد: قل لا إله إلا الله، فقال: ما نسبته فأذكره. وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري ـ خادم الشبلي ـ ما الذي رأيت منه؟ فقال: قال علي درهم مظلمة، وتصدقت عن صاحبه بألوف، فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال: وضئني للصلاة؛ ففعلت فنسبت تخليل لحيته ـ وقد أمسك على لسانه ـ فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة؟

وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر - وكان يشق عليه -: كأنك تحب الحياة؟ فقال: القدوم على الله شديد. وقيل لصالح بن مسمار: ألا توصي بابنك وعيالك؟ فقال: إني لأستحي من الله أن أوصى بهم إلى غيره!

ولما احتضر أبو سليمان الدارامي أتاه أصحابه فقالوا: أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم، فقال لهم: ألا تقولون: احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير؟

ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له: أوصنا. فقال: احفظوا مراد الحق فيكم.

واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: عليك أبكي! فقال: إن كنت باكية فابكي على نفسك! فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة. وقال الجنيد: دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت: كيف تجدك؟ فأنشأ يقول:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروْحه نقال: كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق؟ ثم أنشأ يقول:

والكرب مجتمع والمسسر مفترقُ مما جناه المهوى والمسلوق والقلقُ في المستون والمقلقُ في المستون والمقلق والمقلق

التقلب محترق والدمغ مستبق كيف التقرار على من لا قراد له يا رب إن يك شيء فسيه لي فسرج وحكي: أنّ قوماً من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له: قل لا إله إلا الله، فأنشأ يقول:

غسيسر مسحستساج إلسى السسسرج يسوم يسأتسي السنساس بسالسحسجج يسسوم أدعسو مسنسك سالسفسرج

وحكي: أنّ أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه، ثم أجاب بعد ساعة وقال: اعذرني فإني كنت في وردي! ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبّر ومات. وقيل للكناني لما حضرته الوفاة: ما كان عملك؟ فقال: لو لم يقرب أجلي ما أخبرتكم به! وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه. وحكي عن المعتمر قال: كنت فيمن حضر الحكم بن عبدالملك حين جاءه الحق، فقلت: اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ـ فذكرت محاسنه ـ فأفاق فقال: من المتكلم؟ فقلت: أنا! فقال: إنّ ملك الموت عليه السلام يقول لي: إني بكل سخي رفيق، ثم طفىء.

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوحده قلقاً فقال: يا أبا محمد، هذا أوان القلق والجزع؟ فقال: يا أبا عبدالله، وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني صدقت الله في شيء من عملي! فقال حذيفة: واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازلي قال: دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة _ وهو عليل _ وهو يقول: يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بي. ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في وقت وفاته فقال له: فعل الله تعالى وصنع _ من باب الدعاء _ فضحك ثم قال: منذ ثلاثين سنة تعرض علي الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي، وقيل لرويم عند الموت: قل: لا إله إلا الله، فقال: لا أحسن غيره. ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: لا أحسن غيره. ولما حضرت الثوري الوفاة قيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: ألبس ثم أمر؟، ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها؟ ثم أنشاً يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي تعاظمني ذنبي فلما قرنته فما رئت ذا عفو عن الذنب لم تزل ولولاك لم يغوى بالسليس عابد

جعلت دحالي نحو عفوك سُلَما بعفوك دبي كان عفوك أعظها تجدود وتعفو منة وتدكرما فكيسف وقد أغوى صغيك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال: يا بني، باب كنت أدقه خمساً وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لي، لا أدري أيفتح بالسعادة أو الشقاوة؟ فآن لي أوان الجواب.

فهذه أقاويلهم، وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب، فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

الباب السادس

في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور

اعلم: أنّ الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون، ولا يتفكرون أنّ المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولاً عليها، فإنه محمول عليها على القرب وكأن قد، ولعله في غد أو بعد غد.

ويروى عن أبي هريرة: أنه كان إذا رأى جنازة قال: امضوا فإنا على الأثر. وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأوّل والآخر لا عقل له. وقال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة فحدّثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه. ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا أعلم ما دمت حيّاً.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي؟ لحزن الجميع. وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً باكياً.

فهكذا كان خوفهم من الموت. والآن! لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم . إلا ما شاه الله . في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل عليها. ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين أيدينا قصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا. فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة؛ فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت. نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال: لو ترحمون على أنفسكم لكان خيراً لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف خيراً لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الحنائز، وأنشأ يقول:

تروعات السجائية معقب معارد وسله وحين تفعيب معابرات

فمن آداب حضور الجنائز: التفكر والتنبه والاستعداد والمشي أمامها على هيئة التواضع - كما ذكرنا آدابه وسنته في فن الفقه - ومن آدابه: حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان طاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة لا تدري حقيقتها. ولذلك روي عن عمر بن ذرّ: أنه مات واحد من جيرانه، وكان مسرفاً على نفسه، فتجافى كثير من الناس عن جنازته، فحضرها هو وصلى عليها، فلما دلي في قبره وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا أبا فلان، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا مذنب وذو خطايا؟ فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا؟.

ويحكى: أنّ رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه، فأستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد، فحملتها إلى الصحراء للدفن؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلي عليها، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال: قبل لي في المنام: انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصل عليه فإنه مغفور له، فزاد تعجب الناس! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته؟ قالت: كما عُرف، كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر! فقال: انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخبر؟ قالت: نعم؛ ثلاثة أشياء: كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالهسق.

والثاني: أنه كان أبداً لا يخلو بيته من ينيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده، وكان شديد التفقد لهم.

والثالث: أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول: يا رب، أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه. فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره. وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره:

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فهانسي لا إخسالسك نساجسيا

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور:

قال الضحاك: قال رجل: يا رسول الله، من أزهد الناس؟ قال: «مَنْ لَمْ يَشْسَ القَيْرَ وَالبِلَى وَتَرَكَ فَضُلَ زِينَةِ اللَّنْيَا وَآثَرَ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى وَلَمْ يَعُدُّ هَذَا مِنْ أَيْامِهِ وَعَدَّ نَفْسَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِهُ ، وقيل لعلي كرّم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال: إني أجدهم خير جيران، أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة. وقال رسول الله على : هما رَأَيْتُ مَنْظَراً إلا وَالقَبْرُ أَفْظَع مِنْهُ الله عنه الله عنه : خرجنا مع رسول الله على إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه، المخطاب رضي الله عنه : خرجنا مع رسول الله على إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه، فبكى وبكيت وبكوا فقال: هما يُبْكِيكُمْ ؟ قلنا: بكينا لبكاتك! قال: «لهذا قَبْرُ أَشَي آمِنَة بِنْت وَهَبِ السُتَأَذَنْتُ وَبَى المُتَالَفُةُونَ لَهَا فَأَبَى عَلَيْ، فَأَذْرَكِنِي مَا يُدْرِكُ المُولَدَ مِنَ الرَّقْقَةُ ، وكان رشي الله عنه إذا وقف على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على الله عنه إذا وقف على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على الله عنه إذا وقف على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على الله عنه إذا وقف على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على المنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على المقال: هول: هون المؤالة القبر أول القبر والنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على المنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على المها الله الله المنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله المنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله على المنار فلا تبكي! وتبكي إذا وقفت على قبر ؟ فقال المنار فلا تبكي المنار فلا تبكي المنار فلا تبكي إن القبر عمل الله عنه إن المنار فلا تبكي إن المؤلد المنار المنار فلا تبكي إن المؤلد المؤلد

⁽١) حديث الضحاك: قال رجل: يا رسول الله، من أزهد الناس؟ قال: «من لم ينس القيور والبلي... ، الحديث. تقدم.

 ⁽٢) حديث: (ما رأيت منظراً إلا والغير أفظع منه) تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة

⁽٣) حديث عمر: «خرجتا مع رسول الله ﷺ إلى المقامر فحلس على قبر وكنت أدنى القوم. ١٠٠ الحديث. وفيه: «هذا قبر آمنة بنت وهب استأذشت ربي في زيارتها فأذن لي ١٠٠٠. وتقدم في آداب الصحبة أيضاً، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب، وآخره عند ابن ماجه مختصراً وفيه أيوب بن هائىء ضعفه ابن معين وقال أبو حاتم: صالح.

مَتَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ صَاحِبَهُ فَمَا بَعْلَهُ أَيْسَر مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُهُ ')، وقيل: إنّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين، فقيل له: هذا شيء لم تكن تصنعه؟ فقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرّب إلى الله بهما. وقال مجاهد: أوّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول: أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟ وقال أبو ذرّ: ألا أخبركم بيوم فقري، يوم أوضع في قبري. وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يذكروني معادي وإذا قمت لم يغتابوني. وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلاً ويقول: يا أهل القبور، ما لي إذا دعوتكم لا تجيبوني! ثم يقول: حيل والله بينهم وبين جوابي وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر. وقال عمر بن عبدالعزيز لبعض جلسائه: يا فلان، لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه، وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام ويجري فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الربح ونقاء الثوب، قال: ثم شهق شهقة خرّ مغشياً عليه. وكان يزيد الرقاشي يقول: أيها المقبور في حفرته، والمتخلي في القبر بوحدته، المستأنس في بطن الأرض بأعماله، ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي إخوانك اغتبطت؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ثم يقول: استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى، وكان إذا نظر إلى القبور حار كما يخور الثور. وقال حاتم الأصم: من مرَّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم. وكان بكر العابد يقول: يا أماه، ليتك كنت بي عقيماً، إن لابنك في القبر حبساً طويلاً، ومن بعد ذلك منه رحيلاً. وقال يحيى بن معاذ: يا ابن آدم، دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها، وإن أجبته من قبرك منعتها. وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقاس يقول: ما أحسن ظواهرك! إنما الدواهي في بواطنك!، وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل خرح إلى المقبرة ثم يقول: يا أهل القبور، متم فواموتاه! وعاينتم أعمالكم فواعملاه! ثم يقول: غداً عطاء في القبور، غداً عطاء في القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح. وقال سفيان: من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومَن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار. وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبراً، فكان إذا رجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: ﴿رَبِّ آرْجِعُونِ ﴿ لَكُ إِنَّ أَغْمَلُ صَلِحًا فِيمَا مُرَّكُتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] يرددها، ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فأعمل. وقال أحمد بن حرب: تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوي فراشه للنوم، فتقول: يا ابن آدم، لم لا تذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء! وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكي ثم أقبل عليَّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم! أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم اللي، وأصابت الهوام مقيلاً في أبدائهم؟ ثم بكي وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله. وقال ثابت الساني: دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول: يا ثابت، لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها. ويروى: أن فاطمة بنت

⁽١) حديث عثمان: كان إذا وقف على قبر يكى حتى يبل لحيته. وفيه: إن القبر أول منازل الآخرة. أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه، وتقدم في آداب الصحبة.

الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت:

وكسانسوا رجساء ثسم أمسسوا رزيسة للقيد عيظيميت تبليك البرزاييا وجبليت

وقيل: إنها ضربت على قبره فسطاطاً واعتكفت عليه سئة. فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة، فسمعوا صوتاً من جانب البقيع: هل وجدرا ما فقدوا؟ فسمعوا من الجانب الآخر: بل يئسوا فانقلبوا؟ وقال أبو موسى التميمي: توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة ـ وفيهم الحسن ـ فقال له الحسن: يا أبا فراس، ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة. فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال:

أخساف وراء السقسبسر إن لسم تسعسافسنسي إذا جساءنسي يسوم السقسيسامسة قسائسدٌ لسقسد خساب مسن أولاد آدم مسن مسشسى

وقد أنشدوا في أهل القبور:

قِفَ بالقبود وقل على ساحاتها ومن المكرم منكم في قعرها أما السكون لذي البعيون فواحد لدو جاوبوك لأخبروك بالسن أما السمطيع فنازل في دوضة والمحجرم الطاغي بها متقلب وعقارب تسمعي إليسه فروحه

أشد من القبر التهاباً وأضيها عنسية وسواق يسسوق المفرزدق

مَنْ منكم المغمور في فلكماتها قد ذاق برد الأمن من روعاتها لا يستبين الفضل في درجاتها تعمف الحقائق بعد من حالاتها يغضي إلى ما شاء من دوحاتها في حغرة يأوي إلى حيّاتها في شدّة التعديب من لدخاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول:

عدمت السحياة ولا نطعها فكرى

كسرى وأنست بسيسمناك قد وسدوكا الدود؟ فصعق داود مكانه وخر مغشياً عليه. وقال مالك بن

ثم قالت: يا ابناه، بأي خديك بدأ الدود؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشياً عليه. وقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

أتسيست السقسيسور فسنساديستها وأيسن السمسدل بسسسلسطانسه

فسأين المسعطم والمسحت قسرً وأيسن السمسزكسي إذا مسا افستسخر

إذا كسنست فسى السقسيسر قسد ألسحمدوكما

قال: فنوديت من بينها، أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً وهو يقول:

ر ومساتسوا جسمسيسماً ومسات السخسيسر ، فستسمسحسو مسحساسسن تسلسك السعسور ا أمسا لسك فسيسمسا تسرى مسعستسبسر

تسفسانسوا جسميسمساً فسمسا مسخسسرى تسروح وتستغسساق السشسرى فسيسيا سسائسلسي عسن أنساس مستضسوا

قال: فرجعت وأنا باك.

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

ووجد مكتوباً على قبر:

تسنساجسيسك أجسدات وهسن صسمسوت أيسا جسامسع السدنسيسا لسغسيسر بسلاغسه

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

أيسا غسانسم أمسا ذراك فسواسسع ومنا ينتفع التمقيسور عنمنوان قبيره

وقال ابن السماك: مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب:

يسمسر أقساريسي جسنسبسات قسبسري ذوو السميراث يسقسسمون مسالسي وقسد أخسذوا سسهسامسهسم وعساشسوا

ووجد على قبر مكتوباً:

إن الحبيب من الأحباب مختلسً فكيف تمفرح ببالمنيبا وللنسها أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً لا يسرحسم السعسوت ذا جسهمل لسغسرتسه كم أخرس الموت في قبس وقفت به قسد كسان فسطسرك مسعسمسوراً لسه شسرف

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

وقدفدت عسلسي الأحبشية حسيسن صسفست فسلسمسا أن بسكسيست وفساض دمسعسي

ووجد على قبر آخر مكتوباً:

قدد فسلست لسمسا قسال لسي قسائسل فسأيسن مسيا يستوصيف مسن طسبشيه هميمسات لا يسدفسع عبسن خميسره ووجد على قبر آخر مكتوباً:

يسا أيسها السنساسُ كسان لسى أمسل

وسكمانها تبحبت البتراب خنفوث للمن تنجمع اللنسيا وأثلث تسموث

وقبيرك محمصور البجوانيب متحكمة إذا كسان فسيسه جسسمسه يستسهسدم

كسأن أقساريسي لسم يسعسرف ونسي ومسا يسألسون أن جسحسدوا ديسونسي فسيسالة أسسرع مسا نسمسونسي

لا يسمسنسع السمسوت بسواب ولا خسرّسُ يها من يعدّ عليه اللفظ والنُّفُسُ وأنست دهسرك فسي السلسذات مستسغسمس ولا البذي كبان مبنبه المعمليم ينقبتبيس عن البجدواب لسساناً منا بنه خَسرَسُ فعبرك السيوم في الأجداث مُسنسدرسُ

قحبصورهما كسأفصراس الصرهسان رأت مسيسنساي بسيستههم مسكسانسي

صار لتقامان إلى رمسسه وحسذقمه فسي السمساء مسع جسسبه مسن كسان لا يسدنسع عسن نسفسسه

قسصدر بسي عسن بسلسوغسه الأجسل أمكنيه في حياته التعميل مباأنا وحدي نعقلت حيث ترى كل إلى مشله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت. والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم؛ فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب، فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة، ولعلك إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه، فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة، ولعلك الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار. فقد قال بعض الصالحين: رأيت أخاً لي الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار. فقد قال بعض الصالحين: وأيت أخاً لي في الله - فيما يرى النائم - فقلت: يا قلان، عشت المحمد بله رب العالمين، قال: لأن أقدر على أن أفولها - يعني الحمد بله رب العالمين - أحب إلي من الدنيا وما فيها، ثم قال: ألم تر حيث كانوا بدفنونني فإن فلاناً قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليً من الدنيا وما فيها.

بيان أقاويلهم عند موت الولد:

حقّ على من مات ولمه أو قريب من أقاربه أن ينزله - في تقدمه عليه في الموت - منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب، وليس بينهما إلا تقدّم وتأخر. وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر، وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه، لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزي به كل مصاب، قال رسول الله عن الأن أقدّم سِقطاً أَحَبُ إلَيْ مِنْ أَنْ أَخَلْفَ مِاقة فَارِسٍ كُلُهُمْ يُقاتِلُ فِي سَبيلِ اللهِهُ(۱)، وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر محل الولد من سبيلِ اللههُ(۱)، وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب. وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له: ما كان عدله عندك؟ قال: مل الأرض ذهباً! قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك، وقال رسول الله عند دسول الله عنه: أو اثنان؟ قال: «أو اثنانه أنه وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة.

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي، ووقف أبو سنان على قبر ولده فقال: اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه ماغفر له ما وجب لك عليه فإنك أجود وأكرم، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من بري فهب له ما قصر فيه من طاعتك، ولما مات ذرّ بن عمر بن ذرّ قام أبوه عمر بن ذرّ

 ⁽١) حديث: ولأن أقدم سقطاً أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجد فيه ذكر: «مائة فارس»
 وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة: «لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خلفي».

⁽٢) حديث: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد. . . ، الحديث. تقدم في النكاح.

بعد ما وضعه في لحده .. فقال: يا ذرّ، لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك. قليت شعري، ماذا قلت وماذا قبل لك؟ ثم قال: اللهم إن هذا ذرّ متمتني به ما متمتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، اللهم ما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه. فأبكى الناس ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة، فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك. ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال: ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن! فقالت: يا عبدالله، إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد، قال: فكيف؟ قالت: إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر: أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة؟ قال: نعم، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطاً في دمه، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه ذئب فأكله، فخرج أبوه يطلبه فمات عطشاً من شدة الحر، قالت: فأرادني الدهر كما ترى. فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع، فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في حال فهو الأكثر.

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به:

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد(١).

روي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ اللَّهُبُودِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُذَكَّرُكُمُ الآخِرَةَ غَيْرَ أَنْ لا تَقُولُوا هُجُراً (٢)، وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكياً أكثر من يومتذ (٣)، وفي هذا اليوم قال: «أَذِنَ لِي فِي الزِّيارَةِ دُونَ الاسْتِغْفَارِ (٤). كما أوردنا من قبل. وقال ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة رضي الله عنها يوماً من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين، من أبن أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبدالرحمن، فقلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم، ثم أمر بها (٥)،

⁽١) حديث: نهيه عن زيارة القبور ثم إذنه في ذلك، أخرجه مسلم من حديث بريدة، وقد تقدم.

⁽٣) حديث علي: اكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا نقولوا هجراً وواه أحمد وأبو يعلى: اغير أن لا تقولوا هجراً وفيه يعلى في مسنده وابن أبي الدنبا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى: اغير أن لا تقولوا هجراً وفيه على بن زيد بن حدعان عن ربيعة بن النابغة، قال البخاري: لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات.

 ⁽٣) حديث: زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكياً أكثر من يومئذ. أخرحه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور
من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخنس متروك، ورواه بنحوه من وجه آخر: كنا معه قريباً من ألف راكب
وفيه. أنه لم يأذن له في الاستغفار لها.

⁽٤) حديث: وقال في هذا اليوم: «أذن لي في الزيارة دون الاستغفار» تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة. أنه لم يؤذن له في الاستغمار لها. ورواه مسلم من حديث أبي هريرة: «فاستأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم بأذن لي، واستأذنت أن أزور قبرها فأذن في».

⁽ه) حديث ابن أبي مليكة: أقبلت عائشة يوماً من المقابر فقلت: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبدالرحمن، قلت: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها؟ قالت: نعم ثم أمر بها. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد.

ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر، فإنهن يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا ينبغي خير زيارتهن بشرها، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها. نعم، لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر.

وقال أبو ذرّ: قال رسول الله ﷺ: ﴿ وَلِ القُبُورِ تَذْكُرْ بِهَا الآخِرَةَ، وَاضْبِلِ الْمَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةً جَسِدِ خِلْو مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ، وَصَلَّ عَلَى الجَنَائِوْ لَمَلْ ذَٰلِكَ أَنْ يُحْوِنَكَ فَإِنَّ الْحَوِينَ فِي ظِلِّ اللَّهِ (''). وقال ابن أبي مليكة: قال رسول الله ﷺ: ﴿ وَوُوا مَوْتَاكُمْ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِبْرَةٌ ('') وعن نافع: أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه. وعن جعفر بن محمد عن أبيه: أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام، فتصلي وتبكي عنده. وقال النبي ﷺ: فَمَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ بَرَّهُ (''). وعن ابن سيرين قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ وقال النبي ﷺ: فَمَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي ('')، وقال النبي ﷺ: فَمَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي '')، وقال كعب بقيده أي شَهِيعاً وَشَهِيداً يَوْمَ القِيَامَةِ ('')، وقال كعب وقال عنه النبي ﷺ: «مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي '')، وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك، حتى إذا أنشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه.

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلاً بوجهه الميت، وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله، فإن ذلك من عادة النصارى. قال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف. وعن أبي أمامة قال: رأيت أنس بن مالك أنى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف. وقالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: قما مِنْ رَجُل

 ⁽¹⁾ حديث أبي ذر: «زر القبور تذكر الآخرة واضل الموتى، فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة... الحديث. أخرجه
 ابن أبى الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد.

 ⁽۲) حديث ابن أبي مليكة: فزوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم. . . ١ الحديث، أخرجه ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلاً وإسناده حسن.

⁽٣) حديث: امن زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برأه أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان يرفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك.

⁽٤) حديث ابن سيرين: «إن الرجل ليموت والداء وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين» أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإساد ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عقبة أبي الغيزار عن محمد بن جحادة عن أنس قال: ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جحادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف.

⁽a) حديث: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» تقدم في أسرار الحج.

حديث: امن زارئي بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة؛ تقدم فيه.

يَرُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ هِنْدَهُ إِلاَّ اسْتَأْتَسَ بِهِ وَرَدَّ هَلَيْهِ حَتَّى يَقُومٍ (١٠ وقال سليمان بن سحيم: رأيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: «نعم وأردُ عليهم». وقال أبو هريرة: إذا مرّ الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام. وقال رجل من آل عاصم الجحدري: رأيت عاصماً في منامي بعد موته بستتين فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلي، فقلت: أين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبدالله المزنى فنتلاقى أخباركم. قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال: نعم، نعلم بها عشية المجمعة ويوم المجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قلت: وكيف ذاك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل: لو أخرت إلى يوم الإثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوراهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده. وقال الضحاك: من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته، قيل: وكيف ذاك؟ قال: لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم، لا يزيد على هذه الكلمات. قال الرجل: فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلي ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو، فبينما أنا ناثم إذا بخلق كثير قد جاؤوني فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر. قلت: ما جاء بكم؟ قالوا ا إنك قد عوّدتنا منك هدية عند الصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو لنا بها، قلت: فإني أعود بذلك، فما تركتها بعد ذلك. وقال بشار بن غالب النجراني: رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي: يا بشار بن غالب، هداياك تأتينا على طبق من نور مخمرة بمناديل الحرير. قلت: وكيف ذاك؟ قالت: وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق من نور وخمر ومناديل الحرير، ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك. قال رسول الله ﷺ: ﴿مَا الْمَيْتُ فِي قَبْرِهِ إِلاَّ كَالغُريقِ المُغَوِّثِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةً تَلْحَقُّهُ مِنَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقَ لَهُ، فإذا لَحِقَتْهُ كَانَتْ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللُّنْيَا وَمَا فِيها، وَإِنَّ هَدَايا الأُحْيَامِ لِلأَمْوَاتِ الدَّعَاءُ وَالاسْبِغْفَارُ ٢٠٠٠).

وقال بعضهم: مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت: ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟ قال: أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لي لرأيت أنه سيضربني به.

ومن هذا يستحب تلقين الميت معد الدفن والدعاء له. قال سعيد بن عبدالله الأزدي: شهدت أبا

⁽١) حديث عائشة: الما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم الخرجه ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبدالله بن سمعان ولم أقف على حاله، ورواه ابن عبدالبر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبدالحق الإشبيلي.

٢) حديث: «ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له. . . ٤ الحديث. أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن عبدالواحد، قال الذهبي: حدث عن هشام بن عمار محديث باطل.

أمامة الباهلي وهو في النزع فقال: يا سعبد، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله على فقال: فإذا مات أحدكم فسوّيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره، ثم يقول: يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب، ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوي قاعداً ثم ليقل: يا فلان ابن فلانة الثائثة فإنه يقول: أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد على تبياً وبالقرآن إماماً، فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول: انطلق بنا ما يقعلنا عند هذا وقد لقن حجته، ويكون الله عزّ وجلّ حجيجه دونهماه، فقال رجل: يا رسول الله، فإن لم يعرف اسم أمه؟ قال: فألْيَنْسُبُهُ إلَى حَوَّاتَه (١٠).

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور. روي عن علي بن موسى الحداد قال: كنت مع أحمد بن حبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا، فلما دفن المبت جاء رحل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد: يا هذا، إن القراءة عند القبر بدعة، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد: يا أبا عبدالله، ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي؟ قال: ثقة. قال: هل كتبت عنه شيئاً؟ قال: نعم، قال: أخبرني مبشر بن اسماعيل عن عبدالرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: سمعت ابن عمر يوصي بذلك، فقال له أحمد: فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ، وقال محمد بن أحمد المروزي: سمعت أحمد بن حنبل أحمد: فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ، وقال محمد بن أحمد المروزي: سمعت أحمد بن حنبل لأهل المقابر فإنه يصل إليهم، وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: للركعتان وصليت ركعتين بليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: للدكتان وتعني منذ الليلة، ثم قال: إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال: للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال: جزى الله عنا أهل الدنيا خيراً أقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نوراً مثل الجبال.

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه. فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره؟ وأنه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال: كانت عجوز في عبدالقيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور، فبلغني أنها عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت: إنّ القلب القاسي إذا جاء النهار خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيا لها من نظرة لو أشربها لعباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للانفس وأشد تلفها للأبدان، بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبدالعزيز؛ حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهاد والعبادة فقال له: يا فلان، لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على المخلين وتقلصت يا فلان، لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على المخلين وتقلصت

⁽١) حديث سعيد بن عبدالله الأزدي قال: شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في النزع فقال: يا سعيد، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله ﷺ ققال: •إذا مات أحدكم في عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول عا فلان أبن قلانة الحديث . في تلقين الميت في قبره . أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف .

الشفتان عن الأسنان. وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن.

ريستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: "إذا مات صَاحِبُكُمْ قَدْعُوهُ وَلا تَقْعُوا فِيهِ" ، وقال ﷺ: "لا تَسُبُوا الأَمُواتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضُوا إِلَى ما قَدْمُوا مِنْ أَهْلِ الجَنْقِ قَالَمُوا اللهُ اللهُ

* * *

الباب السابع

في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت:

اعلم: أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطؤوا فيها.

فظنَّ بعضهم: أنَّ الموت هو العدم، وأنه لا حشر له ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر، وأنَّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات. وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وظنّ قوم: أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر.

حدیث: «إذا مات صاحبكم قدهوه ولا تقعوا فیمه أخرجه أمو داود من حدیث عائشة بإسناد جید.

 ⁽٢) حديث: الا تسبوا الأموات فإنهم قد ألفوا إلى ما قدمواه أخرجه البخاري من حديث عائشة أيضاً.

⁽٣) حديث: الا تذكروا موتاكم إلا بخير. . . ١ الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة بإسناد جيد مقتصراً على ما دكر منه هنا بلفظ: الهلكاكم، وذكر الزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني.

 ⁽٤) حديث أنس: مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شراً فقال: (وجبت، الحديث، متفق عليه.

حديث أبي هريرة: اإن العبد لهموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه فير ذلك. . . ١ الحديث أخرجه أحمد من رواية شبخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي بينية يرويه على ربه عز وجل: اما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث أبيات من جيرانه الأدنين بخير إلا قال الله عز وجل: قد تبلت شهادة عيادي على ما علموا وفقرت له ما أهلم».

وقال آخرون: إنّ الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد، وإنّ الأجساد لا تعث ولا تحشر أصلاً.

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق. بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أنَّ الموت معناه تغير حال فقط، وأنَّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بحروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ههنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء. فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث. والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده. وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ويشدَّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها. وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها، وأعنى بالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذات الأفراح. ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا بطل منها الأفراح والغموم، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات. والإنسان ـ بالحقيقة ـ هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ـ أي لا ينعدم ـ ومعمى الموت: انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له، كما أنَّ معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة. فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية.

نعم، تغير حاله من جهتين:

إحداهما: أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق تسلب هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالتين. وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه، ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقته، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل؛ إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة.

والثاني: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم. والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأوّل ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل

الدنيا، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له: ﴿ كُنَى بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبًا﴾ أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له: ﴿ كُنَى بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبًا﴾ [الإسراء 12] وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن، وتشتعل فيه نيران الفراق ـ أعني ـ: فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفائية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه، وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه، فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه، وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن.

ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه، ولكن حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتماداً على أنّ الملك بتساهل في أمره، أو على أنّ الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قبيح أفعاله، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دوّنت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه، وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في العصاة عليه. فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم. فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به، بل عند موته نعوذ بالله منه، فإنّ الخزي والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما. فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة.

نعم، لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت؛ إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها، ولم يؤذن لرسول الله في أن يتكلم فيها، ولا أن يزيد على أن يقول: ﴿الرَّوحُ مِنَ أَمْرِ رَبِي﴾ [الإسراء: ٨٥](١٠)، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت.

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة.

أما الآبات: فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى: ﴿ وَلاَ غَسَبَنَ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ الْمَوْتَا بَلُ الْعَبَاءُ عِندَ رَبِهِمْ يُرْدَوُنَ ﴿ فَلَ عَلَيْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ اللَّهُ مِن فَضْيهِ وَيَسْتَبْشُرُونَ بِاللَّهِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم قِنَ خَلْفِهِمْ اللَّا خَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا لَهُمْ يَحْذَنُونَ ﴾ [ال مسسران: ١٦٩، ١٧٠] ولسسا قستسل صسنساديسد قسريسش يسوم بسدر نساداهسم رسول الله عَلَى فقال: فيا فلان يا فلان قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ وَثَوَا اللهُ عَلَى اللَّهُ النَّاديهم وهم أموات؟ فقال عَلَى اللّهِ الله عَلَى اللّهُ النّهمُ لا يَقْدَرُونَ عَلَى اللّهَوَابِ (٢٠)، فهذا نص في روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص في أرواح الشهداء. ولا يخلو المبت عن سعادة أو شقاوة. وقال عَلَى: «الْقَبْرُ إِمَّا مُفْوَةً مِنْ

 ⁽١) حديث: إنه لم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم في الروح. متفق عليه من حديث ابن مسعود في سؤال اليهود عن
الروح ونزول قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَلُونَكُ عَنِ ٱلرَّفِيُ ۖ [الإسراء: ٨٥]، وقد تقدم.

 ⁽۲) حديث: ندانه من قتل من صناديد قريش يوم بدر٬ فيا قلان قد وجدت ما وهدني ربي حقاً. . . • أخرجه مسلم من حديث همر بن الخطاب.

خُفَرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنَّةِ ا^(۱)، وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن ما سيكون من شقاوة المبت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخير، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله.

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته» (٢)، وقال ﷺ ﴿إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ خُدْوَةً وَعَشِيَةً إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّار فَمِنْ النَّارِ وَيُقَالُ: ﴿ لَمُوا مَقْعَلُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣٠)، وَليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال: كنا مع علقمة في جنازة فقال: أما هذا فقد قامت قيامته. وقال علي كرم الله وجهه: حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار؟ وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ غَربياً مَاتَ شُهيداً وَوَقِيَ فَتُانِي القَبْرِ وَغُدِيَ وَربيحَ عَلَيْهِ بِوِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ»(٢٠) وقال مسروق: ما غبطت مؤمناً في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى. وقال يعلى بن الوليد: كنت أمشى يوماً مع أبي الدرداء فقلت له: ما تحب لمن تحب؟ قال: الموت، قلت: فإن لم يمت؟ قال: يقل ماله وولده وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن، والموت إطلاق المؤمن من السجن. وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا، والأنس بمن لا بد من فراقه غاية الشقاء. فكل ما سوى الله وذكره والأنس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة. ولهذا قال عبدالله بن عمرو: إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الأرض ويتقلب فيها. وهذا الذي ذكره حال من تجافي عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه؛ فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات، والفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع.

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؟ لأنهم ما أقدموا على الفتال إلا قاطعين النفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلى لفاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعاً بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوّق إليها، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه! وتجرّد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير، والقتال سبب للموت فكان سبياً لإدراك الموت على مثل هذه الحالة؛ فلهذا عظم النعيم؛ إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده قال الله تعالى: ﴿وَلَهُم مَا يَشَتُهُونَ﴾ [النّعل: ٧٥] فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة، وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى: ﴿ وَجِلَ يَبْتُهُمْ وَيَنَ مَا يَشَتُهُونَ﴾

حديث: فالقبر إما حقرة من حقر النار أو روضة من رياض الجنة؛ أخرجه الترمدي من حديث أبي سميد، وتقدم في الرجاء والخوف.

٧٧) - حديث أنس: ﴿الْمُوتِ الْقَيَامَةِ، مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتُ قَيَامَتُهُ أَخْرِجُهُ ابْنَ أَبِي الدُنيا في المُوت بإسناد ضعيف، وقد تقدم.

 ⁽٣) حديث: الإذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي . . . ٤ الحديث. متفق عليه من حديث ابن عمر .

⁽٤) حديث أبي هريرة: «من مات خريباً مات شهيداً ووقي فتاني القبر» أخرجه ابن ماجه بسند ضميف وقال: «فتنة القبر» وقال ابن أبي الدنيا: «فتان».

إحياء عُلوم الدّين

[سَبا: ٤٥] فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم. وهذا النعيم يدركه الشهيد ـ كما انقطع نفسه ـ من غير تأخير. وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين. وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجعيع أحاديث الشهداء تدل عليه، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله على لجابر: «ألا أبشرك يا جابر» ـ وكان قد استشهد أبوه يوم أُحُد ـ فقال: بلى بشرك الله بالخير فقال: «إن الله عزّ وجلّ قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال: تمن علي يا حبدي ما شتت أعطيكه فقال: يا رب ما عبدتك حق حبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له: إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع وقال عبدي وأن كعب: يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له: لم تبكي وأنت في الجنة؟ قال: أبكي لأني لم أقتل في الله إلا قتلة واحدة! فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات.

واعلم: أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور، فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم، وقد ضرب له رسول الله على مثلاً فقال لرجل مات: وأَصَبَعَ لهذا مُرْتَجِلاً عَنِ اللهُ فَيَا وَتَرَكَها لأَهْلِها فَإِنْ كَانَ قَلْ صبح الرَّضِيَ فَلا يُسرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُنيا كَمَا لا يُسَرُ أَحَدُكُمُ أَنْ يَرْجِعَ إلى بَطْنِ أَمُهِ اللهُ فِي اللهُ إلى الدُنيا كَمَا لا يُسَرُ أَحَدُكُمُ أَنْ يَرْجِعَ إلى المُؤمِن فِي اللهُ إلى المُنيا كَمَا الا يُسرَ أَحَدُكُمُ أَنْ يَرْجِعَ إلى المُؤمِن فِي اللهُ اللهُ عَلَى مَخْرَجِه حَتَى إذا رَأَى الضَّوة وَوُضِعَ لَمْ يُحِبُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدنيا كما لا المَخبِن فِي يَطْنِ أَمُّهِ إذا خَرَجَ مِنْ يَطْنِها بَكَى عَلَى مَخْرَجِه حَتَى إذا رَأَى الضَّوة وَوُضِعَ لَمْ يُحِبُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدنيا كما لا المَخبِن أَن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه. وقال أبو عمر صاحب الحنين أن يرجع إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه. وقال أبو عمر صاحب السقيا: مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال: عمرو بن دينار قال: ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه عمرو بن دينار قال: ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده، وإنهم ليغسلونه ويكفنونه

⁽¹⁾ حديث عائشة: قالا أبشرك يا جابر... الحديث. وفيه: قإن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه... الحديث. أخرجه الن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر: قالا أبشرك بما لقي الله يه أباك قال: قبلي يا رسول الله... الحديث. وفيه قال: قيا عبدي ثمن علي أعطك قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم لا يرجعون».

 ⁽۲) حديث: قال لرجل مات: «أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي قلا يسره أن يرجع إلى الدنيا
 كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه أحرجه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً ورجاله ثقات.

⁽٣) حديث: «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكاته أخرجه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن عائم السلفي عن سليم عن عامر الجنائزي مرسلاً هكذا.

^(\$) حديث: قبل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً قد مات فقال: «مستريح أو مستراح منه» منفق عليه من حديث أبي قتادة بلفظ: مر عليه بجنازة فقال ذلك، وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف.

وإنه لينطر إليهم. وقال مالك بن أنس: بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت. وقال النعمان بن يشير: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: ﴿ أَلَّا إِنَّهُ لَمْ يَبْقُ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مِثْلُ الذَّبَابِ يَمُورُ فِي جَوِّها فاللَّهَ اللَّه فِي إِخْوَاتِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ فَإِنَّ أَعْمَالكُمْ تُمْرَضُ عَلَيْهِمْ ۗ (١)، وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: ﴿ لا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيْتَاتِ أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّهَا تُعْرَضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ ۗ (٧)، ولذلك قال أبو الدرداء: اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبدالله بن رواحة ـ وكان قد مات وهو خاله ... وسئل عبدالله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال: في حواصل طير بيض في ظل العرش، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ المَنِتَ يَعْرِفُ مَنْ يغسِلُهُ وَمَنْ يَحْمِلُهُ وَمَنْ يُدَلِّيهِ في قَبْرِهِۥ ٣٠٪. وقال صالح المري: بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم: كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث؟ وقال عبيد بن عمير: أهل القبور يترقبون الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم.. أو ما قدم عليكم؟ فيقولون: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا ۚ إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ [البَّغَرَة. ١٥٦] سلك به غير سبيلنا. وعن جعفر بن سعيد قال: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب. وقال مجاهد: إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره. وروي أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ نَفْسَ المُؤْمِن إِذَا قُبِضَتْ تَلَقَاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا يَتَلَقَّى البَشِيرُ فِي الدُّنْيا يَقُولُونَ: أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتِرَيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبِ شَدِيد فَيَسْأَلُونَهُ: ماذا فَعَلَ فُلانّ وَمَاذَا فَعَلَّتْ فُلانَةٌ؟ وَهَلُ تَزَوَجَتْ فُلانَة؟ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلِ مَاتَ قَبْلَهُ وَقَالَ: مَاتَ قَبْلِي قَالُوا: ﴿ إِنَّا يَتْهِ وَالْمَا ۚ إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦] ذُهِبَ بِهِ إِلَى أَمَهُ الهَاوِيَةِ، (١٠).

بيان كلام القبر للميت:

وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال؛ التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال

⁽¹⁾ حديث النعمان بن بشير «ألا إنه لم يبق من الدنيا مثل الذباب يمور في جوفها فاقد الله في إخوانكم من أهل القبور، فإن أعمالكم تعرض عليهم، أخرجه ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدي عن المعمان من قوله: «الله الله» ورواه بكماله الأزدي في الصعفاء وقال: لا يصح إسناده، ودكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكماله في ترجمة أبي إسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدي ونقل عن أبيه: أن كلاً منهما مجهول، قال الأزدي: لا يصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدي.

⁽٢) حديث أبي هريرة: الا تفضحوا موتاكم بسيئات أحمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور؟ أخرجه ابن أبي الدنيا والمحاملي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وهشائركم من الأموات. . . ؟ الحديث.

حديث أبي سعيد الخدري: «إن اللميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يثليه في قبره؟ رواه أحمد من رواية رجل
 عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبدالملك بن حسن.

⁽٤) حديث أبي أيوب: «أن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من هند الله كما يتلقى البشير يقولون: انظروا أخاكم حتى يستريع أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف، ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي أيوب بإسناد جيد، ورقعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد.

في تفهيم الأحياء. قال رسول الله ﷺ: ﴿يَقُولُ الْفَبْرُ لِلْمَبْتِ حِينَ يُوْضَعُ فِيهِ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا خَرَّكَ بِي! ٱلَّمْ تَمْلَمْ أَنِّي بَنِتُ الفِئْنَةِ وَيَنِتُ الظَّلْمَةِ وَبَئِتُ الوَحْدَةِ وَبَئِتُ الدُّودِ ما خَرَّكَ بِي إذ كُنْتَ تَمُرُّ بِي فَذَاذاً؟ فإن كَانَ مُصْلِحاً الْجانَبَ عَنْهُ مُجِيبُ القَبْرِ فيقولُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُوّلُ الْقَبْرُ: إِنّي إذاً أَتْحَوَّلُ عَلَيْهِ خَصْراً وَيَعُودُ جَسَدُهُ نوراً وَتَصْعَدُ رُوحُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، (١٠). والَّفذاذ: هُو الذي يقدُم رَجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي. وقال عبيد بن عمير الليثي: ليس من ميت يموت إلا فادته حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد، فإن كنت في حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة، وإنَّ كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة، أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً، ومن دخلني عاصياً خرج مثبوراً. وقال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره عذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى: أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه، أما كان لك فينا معتبر، أما كان لك في متقدّمنا إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فهلا استدركت ما فات إخوانك؟ وتناديه مقاع الأرض: أيها المغتر بظاهر الدنيا؛ هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرّته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولاً تهاداه أحبته إلى المنزل الذي لا بدُّ له منه؟ وقال يزيد الرقاشي: بلغني أنَّ الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت: أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا. وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة. قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه، فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا صبيل لكم عليه فقد أطال بي الفيام لله عليهما، فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه، فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه. قال: فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئًا طبت حياً وطبت ميتًا. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة ويفسح له في قبره مدّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره. وقال عبدالله بن عبيد بن عمير في جنازة: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ الْمَنْتَ بِفُعدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشَيِّمِيهِ فَلا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إِلاَّ قَبْرُهُ وَيَقُولُ: وَيُحَكَّ يا الْنَ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حَدْرُتَنِي وَحَدْرُتَ ضِيقِي وَنَتَنِي وَهَوْلِي وَدُودِي فَمَاذًا أَعْدَدْتَ لِيَ^{٣٠}٠٠.

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال: «اللَّهُمّ إنّي أَهُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ». ثلاثاً، ثم قال: «إنّ

⁽١) حديث: فيقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أني بيت القتنة . . . » الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحاكم هي الكنى من حديث أبي الحجاج الثمالي بإسناد ضعيف.

⁽٢) حديث عبدالله بن عبيد بن عمير: بلغني أن رسول الله على قال: «إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول: ويحك يا ابن آدم...» الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلاً ورجاله ثقات، ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال: بلغني ولم يرفعه.

المُؤْمِنِ إذا كانَ فِي قبلِ مِنَ الآخِرَةِ بَعَثَ اللَّهُ ملائِكَةٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمِ الشَّمْسُ مَعَهُمْ حَنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِشُونَ مَدَّ بَصَرِهِ، فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلِيْهِ كُلُّ ملكِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكِ فِي السَّمَاءِ، وَفتحَتْ أَبْوَابُ السَّمَّاءِ فَلَئِسَ منها بابِّ إلا يُحِبُّ أَنْ يُذْخَلَ بِرُوجِه مِنْهُ، فإذا صُعِدَ بِرُوجِه قِبلَ: أَيْ رَبِّ عَبْدُكَ فلانُ فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ فَأَرُوهُ مَا أَعْدَدْتُ لَهُ مِنَ الْكَرِامَةِ فَإِنِّي وَعَدْتُهُ ﴿ رِنْهَا سَلَقَنَكُمْ وَفِهَا نُصِدُكُمْ وَيَنَهَا غُرْجُكُمْ تَارَةً أَخْرَتُهُ [له: ٥٠٠٠ وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلُوَا مُذَبِّريَّنَ حَتَّى يُقَالُ: يا هٰذا مَنْ رَبُّكَ ومَا دِينُكَ وَمَنْ نِبِيكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي الإِسْلامُ وَنبِينِي مُحَمَّدٌ ﷺ. قال: ﴿فَيَنْتَهَرَانِهِ انْتِهَاراً شَدَيداً وَهِيَ آخِرُ فرصةً تُغرَّضُ عَلَى المَيْتِ، فإذا قَالَ ذَٰلِكَ فَادَى مِمْنَادِ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَهِيَ مَغْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يُثَيِّتُ اللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلتَّالِيِّ﴾ [ابراهيم: ٢٧]. ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الوَجْهِ طَيَّبُ الرَّبِح حَسَنُ الثَّيَابِ فيقولُ: أَبْشِرْ بِرَحْمَةٍ رَبُّكَ وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، فيقول: وَأَنْتَ فَبَشَرَكَ اللَّهُ بِخَيرِ مَنَّ أَنْتَ؟ فيقولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحَ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنْ كُنْتَ لَسَرِيعاً إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئاً عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيراً». قال: اثمَّ يُنَادِي مُنَادِ أَنِ الْمُرْشُوا لَهُ مِنْ فَرشِ الْجَنَّةِ وافْتَحُوا لَهُ بِاباً إلى الجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فَرشِ الْجَنَّةِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابُ إِلَى الْجَنَّةِ فيقولُ: اللَّهُمْ عَجُّلُ قِبِامَ السَّاعَةِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمالي». قال: ﴿ وَأَمَّا الكافِرُ فِإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي قَبل مِنَ الآخِرَةِ وانقطاع مِنَ الدُّنيا بزلت إلَيْهِ مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِيدًادٌ مَعهم ثيابٌ مِنْ نارٍ وَسَرَابِيلُ مِنْ قطرَانٍ فَيَحْتَوشُونَهُ فإذا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكِ بَينَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وكلُّ مَلكِ فِي السَّمَاء وَخُلْفَتْ أَبُوَابُ السِّماءِ فَلَيسَ مِنْهَا بَابٌ إِلاَ يَكُرُهُ أَنْ يَدُخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ، فِإِذَا صَمِدَ بِرَوحِهِ نُبِذَ وَقَيلَ: آئي رَبٌ خَبْلُكَ فلانْ لم تَقْبَلْهُ سَمَاءٌ وَلإ أَرْضٌ، فيقول اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْجِعُوهُ فَأَرُوهُ ما أعَددت لهَ من الضَّرُّ إِنِّي وَعَدْتُه: ﴿ ينَهُ خَأْتَكُمْ رَفِيهَا نُعِيدُكُمْ رَيِّنَهَا غُنْرِجُكُمْ تَارَةٌ أَخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وإنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا وَلَوْا مُدْبِرِينَ حَتَّى يقال لهُ: يا هٰذا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيْكِ وَمَا دِينُكَ؟ فيقولُ: لا أَدْرِي فِيقَالُ: لا دَرَيْتَ، ثُمَّ يأتيهِ آتٍ قَبَيِحُ الوجهِ مُنْتِنُ الرِّيح قبيحُ النِّيابِ فيقولُ: أَيْشِرْ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَيِعَلَابِ أَلِيمٍ مُقِيم فيقولُ: يَشْرَكِ اللَّهُ شَرَّا مِن أَنْتَ؟ فيقولُ: إِنَا حَمَلُكَ النَّحِيثُ، واللَّهِ إِنْ كَنْتَ لِسَرِيعاً فَي مَعْصِيَةِ اللَّهِ بطيئاً عن طاعةِ اللَّهِ فجزاك اللَّهُ شَرّاً، فيقولُ: وَأَنتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، شم يُقَيِّضُ له أَعْمَى أَصَمُّ أَبَّكُمُ مَعَهُ مرزبةٌ مِنْ حديدٍ لو اجتمعَ عليها النَّقلانِ على أنْ يُقِلُّوها لم يَسْتَطِيعُوا، لَوْ ضُرِبَ بها جبلٌ صَارَ تُراباً، فيضربُهُ بها ضربةَ فَيَصِيرُ ترآباً، ثم تَعُودُ فيه الرُّوحُ فيضربهُ بها بين حينيه ضربة يَسْمَعُهَا مَنْ خَلَى الأَرْضِينَ، ليسَ اللَّفْلَينِ؟. قال: الله يُنادِي مُنادِ أَن افرشوا له لَوْحَينِ مِنْ نَارِ وَافْتَحُوا لَهُ بِابِاً إِلَى النَّارِ فَيُقْرَشُ لَهُ لَوْحَانِ مِن نارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ باب إِلَى النَّارِهِ ``

وقال محمد بن علي: ما من ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة. قال: فيشخص إلى حسناته، ويطرق عن سيئاته.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ المُؤْمِن إِذَا احْتَضِرَ أَتَنَهُ المَلائِكَةُ بِحَرِيرَةِ فيه مِسْكَ وَضَيَائِرُ الرَّيْحَانِ قَشَلُ رُوحُهُ كُمَا تُسَلُ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ ويقالُ: أَيْتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَةُ الحُرْجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِيَا عَنْكِ إِلَى رُوحِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وَضِعَتْ صَلَى ذَٰلِكَ المِسْكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُويَتْ عَلَيْهَا الْحَرِيرَةُ وَيُعِثَ بِهَا إِلَى صَلَّيْنَ وإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتَفِيرَ أَتَتُهُ المَلائِكَةُ بِمسحِ فِيهِ جَمْرَةُ فَتَنْزَعُ رُوحَة

⁽۱) حديث البراء: خرجا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره متكساً رأسه ثم قال: فاللهم إني أهوذ بك من هذاب القبر . . . ٩ الحديث . بطوله أخرجه أبو داود والحاكم بكماله، وقال: صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حيان ورواه النسائي وابن ماجه مختصراً .

انْتِزَاعاً شَدِيداً ويقال: أَيْتُها النَفْسُ الخَبِيئَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطاً عَلَيْكِ إِلَى هَوَانِ اللَّهِ وَعَذَائِهِ فَإِذَا أَنْتُوبَ رُوحُهُ وُضِعَتْ على تِلْكَ الجَمْرَةِ وإِنَّ لَها نَشِيشاً وَيُطُوَى عَلَيها الْمِسْحِ وَيُذْعَبُ بِها إلَى سِجِينٍ (١٠).

وعنِ محمد بن كعب القِرظي: أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدُهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونَو ﴿ لَمَلَىٰ أَعْمَلُ مَلِيحًا فِيمَا زَكِّكُ ﴾ [المومنون: ١٠٠،٩٩]. قال: أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار؟ قال: لا، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت، قال: فيقول الجبار: ﴿كُلَّا ۚ إِنَّهَا كَّلِمَةً مُو فَآلِهُمّا ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. أي: ليقولنها عند الموت. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «المُؤْمِن فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَصْرَاءَ وَيُرْحَبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعاً وَيُضِيءُ حَتَّى يَكُونَ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، هَلْ تُلْرُونَ فِي مَاذَا أَنْزِلَتْ: ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَبِيشَةً شَكَّأَ﴾ [ط: ١٢٤]٠. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ﴿صَلَابُ الكافِرِ فِي قَيْرُهِ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ تِسْعَة وَتِسْعُونَ تِنْيتاً هَلْ تَذْرُونَ ما التُّنْينُ، تسعةٌ وتِسْعُونَ حَيَّةً لكلِّ حَيَّةٍ تسعةُ رؤوسَ يخلشونهُ ويلحسونهُ وينفخونَ فِي جِسْمِهِ إلى يَوْمَ يُبْغَنُونَه^(٣). ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فإن لها أصولاً معدودة، ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام. وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وأنشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوّة. فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خمية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم.

فإن قلت: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة؟ فاعلم: أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا.

أحدها: وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدّق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت. أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملاتكة والوحي أهم عليك، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في الميت؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جس آخر وتدرك بحاسة أخرى.

المقام الثاني: أن تتذكر أمر النائم، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه

 ⁽١) حديث أبي هريرة: «إن المؤمن إذا حضر أتنه الملائكة بحريرة فيه مسك وضبائر الريحان. . ، الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبزار بلفظ المصنف.

⁽٢) حديث أبي هويرة: «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراهاً. . . ٤ الحديث - ورواه أبن - داد

يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه، وكل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى المقظان، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى حواليه حية، والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد. وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد.

المقام الثالث: أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقائد منها وهو السم، ثم السم ليس هو الألم، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم؟ لكان العذاب قد توفر، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة، فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه؟ لتكون الإضافة للتعريف بالسبب، وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب، والسبب، والسبب، والسبب، والسبب يراد لثمرته لا لذاته.

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات. وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق، فإنه كان لذيذاً فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلماً، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال، بل هذا بعينه؛ هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه، فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه، ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتذ عذابه ويتمنى ويقول: ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط، فكنت لا أتأذى بفراقه؟ فالموت: عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة.

مساحسال مسن كسان لسه واحسد غسيس عسنسه ذلسك السواحسة

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا، فتؤخذ منه وتسلم إلى أعدائه؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عزّ وجلّ، فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم م، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى، وذلك هو العذاب الذي يعذب به؛ إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى: ﴿ كُلَّ إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ بَوْمَيرِ لَمَحْجُونُونَ ﴿ ثُمّ لَمَالُوا المُبْرِمِ ﴿ وَلَا السَطفَينِ : ١٦٠،١٥]. وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقاً إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

والمقصود: أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر انصبر على لدغ العقرب، فإذن: ألم فراق الفرس عنده أعظم من العقرب، وحبه الفرس؟ هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه. فليستعد لهذه اللدغات؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه، ويأخذ منه جاهه وقبوله، بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك إليه. فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه فكذلك إذا مات؛ لأنا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشذ؛ لأنه في الحياة بتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من

مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت؛ إذ قد انسد عليه طرق التسلي وحصل اليأس. فإذن: كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفاً عليه ومعذباً به، فإن كان مخفاً في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم: نجا المخفون، وإن ان مثقلاً عظم عذابه. وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير، فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين؛ وهو المعنى بقوله على الدرهم أخف من حال من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة، وإن امتقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك.

وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وفرحوا بها واطمأنوا إليها. فهذه مقامات الإيمان في حيّات القبر وعقاربه وفي سائر أنواع عذابه.

رأى أبو سعيد الخدري ابناً له قد مات في المنام، فقال له: يا بني عظمي. قال: لا تخالف الله تعالى فيما يربد. قال: لا تجعل بينك وبين الله قميصاً، فما لبس قميصاً ثلاثين سنة.

فإن قلت: فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث؟ فاعلم: أن في الناس من لم يثبت إلا الأوّل وأنكر ما بعده، ومنهم من أنكر الأوّل وأثبت الثاني، ومنهم من لم يثبت إلا الثالث. وإنما الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار: أن كل ذلك في حيز الإمكان، وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله مبحانه وعجائب تدبيره، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور. بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب. ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره.

هذا هو الحق فصدّق به تقليداً فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً، والذي أوصيك به: أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك، ولا تشتغل بمعرفته، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان. فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموس؟ وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت مس عذاب عظيم أو نعيم مقيم، فينبغي أن يكون الاستعداد له، فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب فقضول وتضييع زمان.

بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر:

قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: ﴿إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يَقَالُ لأَحْلِهِمَا مُنْكُرُ وَلِلاَّغَرَ نَكِيرٌ، فيقولان لهُ: مَا كُنتَ تَقُولُ في النَّبِيِّ؟ فَإِنْ كَانَ مَوْمَناً قال: هُوَ عَبْدُ الله ورسولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلْهُ إِلاَّ اللهُ وَأَنْ مَحمداً رسولُ اللهُ، فيقولان: إِنْ كُنَا لَتَعْلَمُ أَنْكَ تَقُولُ ذَلْك، ثم يُفسح له في قبرِه سبعون ذِراعاً في سبعين ذراعاً ويُتؤر له في قبره، ثم يقال له: نمْ فيقولُ: دَعُونِي أَرْجِعْ إلى أهلي

⁽١) حديث: دصاحب الدرهم أخف حساباً من صاحب الدرهمين، لم أجد له أصلاً.

فَأَخْبِرهُمْ، فيقالُ له: نَمْ فينامُ كَنَوْمَةِ العروس الذي لا يُوقِظُهُ إِلا أَحَبُّ أَهلهِ إِلَيهِ، حَتَّى بِبعثُهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلْكَ. وإن كان مُنافقاً. قال: لا أَدْرِي كنتُ أَسْمَعُ الناسَ يقولونَ شَيْئاً وكنتُ أقوله، فيقولان: إنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنْكَ تقولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: الْتَثِيمِ عَلَيهِ فَتَلْتَثِم حَلِيهِ، حتى تَخْتَلِفَ فِيها أَصْلاعُهُ فلا يزالُ مُقذباً حَتَّى يَبعثُهُ اللَّهُ مِنْ مَصْجَعِهِ ذَلِكِهُ (١٠).

وعن عطاء بن يسار قال: قال رسول الله على لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: الها حمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاقة أذرع في ذراع وشبر، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القير منكر ونكير أصواتهما كالرحد القاصف وأبعمارهما كالبرق الخاطف يجزان أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترتراك، كيف بك عند ذلك يا عمر؟». فقال عمر: ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال: «تَعَمّ قال: «إذن: أكفيكهما»(٢). وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء. فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان، لا يتغير من عقله شيء. وليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض؛ بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء. ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ، ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم.

وقال محمد بن المنكدر: بلغني أنّ الكافر يسلط عليه في قبرُه دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة، لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه.

وقال أبو هريرة: إذا وضع المبت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن، وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه، وإن أتاه من قبل يده، قالت اليدان: والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه، وكذلك تقب الصلاة والصبر ناحية، فيقول: أما إني لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبه. قال سفيان: تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده، ثم يقال له عند ذلك: بارك الله لك في مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك.

وعن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر، ثم جعل ينظر فيه، ثم قال. • يُضغَطُ المُؤْمِنُ فِي هٰذا ضَغْطَةً تُرَدُّ مِنْهُ حَمَاتِلُهُ» (٣٠). وقالت عائشة رضي الله عنها: قال

اخرجه أبي هريرة: اإذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال الأحدهما منكر وللآخر نكير...» الحديث. أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف.

⁽٢١) حديث عطاء بن يسار: قال: قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: ايا همر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أقرع في دراع وشير...> الحديث. أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا موسلاً ورجاله ثقات. قال البيهفي في الاعتقاد: رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلاً.

قلت: ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن هباس، ورواه البيهةي في الاعتقاد من حديث عمر، وقال: غريب بهذا الإسناد تفرد به مفصل، والأحمد وابن حبان من حديث عبدالله بن عمر؛ فقال عمر: أيرد إلينا عقولنا؟ فقال: قمم كهيئتكم اليوم، فقال عمر: بفيه الحجر.

 ⁽٣) حديث حذيفة: اكنت مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه. . . ا الحديث. رواه أحمد بسند ضعيف.

رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ (١). وعن أنس قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ فساءنا حاله، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة، فلما خرج أسفر وجهه، فقلنا: يا رسول الله رأينا منك شأناً فمم ذلك؟ قال: ﴿ذكرتُ ضَغْطَةُ ابْنَتِي وَشِدَّةً عَذَابِ القَبْرِ، فَاتَنِتُ فَأَخْبِرتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَفْفَ عَنْها وَلَقَدْ ضُغِطَتُ ضَغْطَةً سَمِعَ صَوْتَهَا ما بَينَ الخَافِقَيْنِ (٢).

**

الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم: أن أنوار البصائر ـ المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ومن مناهج الاعتبار ـ تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف أصلاً ، فإنا إن عوّلنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له؟ وإن عوّلنا على صلاحه الظاهر ، فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَغَبِّلُ أَلِنَهُ مِنَ ٱلمُنْقِبَنِ ﴾ [المائدة: ٧٧]. فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه ، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه .

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام، فلا حرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه، والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا. ولذلك رأى رسول الله على ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ، وفي حق زينب ابنته (٢). وكذلك حال أبي جابر لما استشهدا إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه وليس بينهما ستر. ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم.

⁽١) حديث عائشة: (إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معادًا). رواه أحمد بإسناد جيد.

⁽۲) حديث أنس: توفيت زينب بنت رسول الله على وكانت امرأة مسقامة. . . الحديث. وفيه القد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين». أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم بسمع منه . سقامة: كثيرة السقم، أي المرص.

الباب الثامن فيما هرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

 ⁽٣) حليث: رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جامر لما استشهد، تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله.

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة، إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام؛ وهي من أنوار النبوّة. قال رسول الله ﷺ: "الرّوقة الصّالِحة جُزّة مِنْ سِتّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزّهاً مِنَ النّبَوّةِه (١٠). وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح المصادق. ومن كثر كليه لم تصدّق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (١٠). وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة النتمة والتكملة لها. ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة النتمة والتكملة لها. ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة النوم، حتى نزل قوله تعالى: ﴿ لَقَدَ صَدَفَ اللّهُ رُسُولُهُ الرُّيَا بِالْمَقِ ﴾ [القلم: ١٧٥] (٣). وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة، والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي؛ وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة، فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة.

ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا، مثال يفهمك المقصود؛ وهو أن تعلم: أنّ القلب مثاله مثال مرآة تتراءي فيها الصور وحقائق الأمور، وأنَّ كل ما قدَّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح، وتارة بالكتاب المبين، وتارة بإمام مبين؛ كما ورد في القرآن. فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين. ولا تظنن أنَّ ذلك اللوح من خشَّب أو حديد أو عطم، وأنَّ الكتاب من كاغد أو رق، بل ينبغي أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم، بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثنونت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه، حتى كأنه حين يقرۋه ينظر إليه، ولو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرقاً. وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر قمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدّره الله تعالى وقضاه. واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أحرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب، فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت، فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب ورفعته تلألاً في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف، وقد يثبت ويدوم، وقد لا يدوم وهو الغالب. وما دام متيقطاً فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة، وهو حجاب عن عالم الملكوت.

 ⁽١) حديث: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»، تقدم.

⁽٢) حديث: أمره بالطهارة عند النوم، متفق عليه من حديث النواء: «إذا أثبت مضجمك فتوضأ وضوءك للصلاة...» العديث.

 ⁽٣) حديث: انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ في النوم. أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسلاً.

ومعنى النوم: أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما، إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه، فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيل والمعاني، وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير. ويكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين: رأيت كأن بيدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء. فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان، قال: صدقت! فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم. وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشرب، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية.

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه! وكيف لا وهو أخو الموت، وإنما المموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب، حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وإما مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء: ﴿ لَقَدَ كُنتَ فِي غَفَلَوْ مِن فَلاَ فَكَثَفَا عَنكَ غِطَانَكَ فَمَرُكَ الْيَرْمَ حَدِيدٌ ﴿ وَمَا لَمُ اللَّهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا أَمُ أَنتُم لا بُعِيرُونَ فَى أَمْلُونًا عَنكَ غِطانَكَ ﴿ وَبَدًا فَكُمُ مِن العجائب والآيات ما لم يخطر تماله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع؟ وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة؟ لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر.

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا! وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا بل بأعضائنا وسمعنا وبصرنا مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقيناً، ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه، فيقول ما قال لسيد النبيين: «أحبب من أحبيت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي بهه (۱)، فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة (۱)، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً (۱)، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً (۱)، ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً، نعم، قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَخِدًا خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبا يَكُم خَلِيلاً وَلْكِنْ صَاحِبَكُمُ

⁽١) حديث: (إن روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فإتك مفارقه. . . ٤ الحديث. تقدم .

⁽٢) حديث: لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، تقدم أيضاً.

⁽٣) حديث: لم يخلف ديناراً ولا درهماً، تقدم أيضاً.

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصدده فقد امتدّ عنان الكلام إلى غير مقصده، ولنذكر الآن من المنامات. الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به؛ إذ ذهبت النبوّة ويقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات.

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة:

فمن ذلك رؤيا رسول الله على وقد قال عليه السلام: المَنْ رَآتِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآتِي حَقّاً فَإِنْ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثّلُ بِي (٢)، وقال عمر بن الخطاب رصي الله عنه: رأيت رسول الله على في المنام فرأيته لا ينظر إلي فقلت: يا رسول الله ما شأني! فالتفت إلي وقال: «ألست المقبّل وأنت صائم؟» قال: والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً. وقال العباس رضي الله عنه: كنت وداً لعمر فاشتهيت أن أراه في المنام، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح المعرق عن جبينه وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كان عرشي ليهد لولا أتي لقيته رؤوفاً رحيماً، وقال الحسن بن علي: قال لي علي رضي الله عنه: إنّ رسول الله على سنع لي الليلة في منامي، فقلت: يا رسول الله ما لقيت من أمتك؟ قال: «الدع عليهم»، فقلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني! فخرج فضربه ابن ملجم. وقال بعض الشيوخ: رأيت رسول الله على فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فأعرض عني فقلت: يا رسول الله إن سفيان بن عبينة حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن فأعرض عني فقلت: يا رسول الله إن سفيان بن عبينة حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله: إنك لم تسأل شيئاً قط فقلت: لا، فأقبل علي فقال: «قَفَرَ اللّهُ لَكُ» (٣).

وروي عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنت مؤاخباً لأبي لهب مصاحباً له، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حرنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام قال: فرأيته يلتهب ناراً فسألته عن حاله فقال: صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروّح إلا ليلة الإثنين في كل الأيام والليالي! قلت: وكيف ذلك؟ قال: ولد في تلك الليلة محمد ﷺ فجاءتني أميمة

⁽١) حديث. اللو كنت متخفاً خليلاً لاتخفت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن، تقدم أيضاً.

 ⁽۲) حديث: امن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتخيل بي١، متفق عليه من حديث أبي هريرة.

⁽٣) - حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جانر: ما سئل النبئ ﷺ شيئاً قط فقال: ﴿لاُّهُ. رواه مسلم وقد تقدم.

فبشرتني بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لي فرحاً به، فأثابني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة إثنين.

وعلى عمر بن عبدالعزيز. قال: رأيت رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان عنده ـ فسلمت وجلست، فبينما أنا جالس؛ إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي رضي الله عنه وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة.

واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال تتل الحسين والله! _ وكان ذلك قبل قتله _ قانكره أصحابه، فقال: رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال: ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدي؟ قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى. فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه.

ورثي الصديق رضي الله عنه فقيل له: إنك كنت تقول أبداً في لسانك: هذا أوردني الموارد، فماذا فعل الله بك؟ قال: قلت به لا إله إلا الله فأوردني المجنة.

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين:

قال بعض المشايخ: رأيت متمماً الدورقي في المنام فقلت: يا سيدي ما فعل الله بك؟ فقال: دير بي في الجنان فقيل لي: يا متمم هل استحسنت فيها شيئاً؟ قلت: لا يا سيدي، فقال: لو استحسنت منها شيئاً لوكلتك إليه ولم أوصلك إلي. ورئي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي؛ قيل: بماذا؟ قال: ما خلطت جداً بهزل. وعن منصور بن إسماعيل. قال: رأيت عبدالله المبزار في النوم. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فإني استحييت أن أقرّ به، فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي، فقلت: ما كان ذلك الذنب؟ قال: نظرت إلى غلام جميل، فاستحسته فاستحييت من الله أن أذكره.

وقال أبو جعفر الصيدلاني: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وحوله جماعة من الفقراء، فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما: بيده طشت، وبيد الآخر: إبريق، فوضع الطشت بين يدي رسول الله ﷺ فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا، ثم وضع الطشت بين يدي فقال أحدهما للآخر: لا تصب على يده فإنه ليس منهم! فقلت: يا رسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّه؟ قال: بلى، قلت: يا رسول الله فإني أحبك وأحب هؤلاء الفقراء، فقال ﷺ: «صُبِّ حَلَى بَدِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».

وقال الجنيد: رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس، فوقف على ملك فقال; أقرب ما تقرّب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا؟ فقلت: عمل خفي بميزان وفي! فولّى الملك، وهو يقول: كلام موفق والله، ورثي مجمع في النوم فقيل له: كيف رأيت الأمر؟ فقال: رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة، وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد: رأيتك في النوم كأنك في الجنة! فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال: لعل الشيطان أراد أمراً فعصمت منه فأشخص رجلاً يقتلني! وقال محمد بن واسع: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره، وقال صالح بن بشير: رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له: رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، قال: أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً، وحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، قال: أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً، فقلت: في أي الدرجات أنت؟ فقال: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْهُمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّيِّيَّانَ وَالْهَلِيَقِينَ وَالشَّهَدَاء وَالسَّلِحِينَ فَلَكَ رَفِيقًا ﴾ [السَّاء: 19].

وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام: أي، الأعمال أفضل عندكم؟ فقال: الرضا وقصر الأمل. وقال يزيد بن مذعور: رأيت الأوزاعي في المنام فقلت: يا أبا عمرو دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى! قال: ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين. قال: وكان يزيد شيخاً كبيراً، فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه. وقال ابن عيينة: رأيت أخي في المنام فقلت: يا أخي ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي. وقال علي الطلحي: رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الديا فقلت: من أنت؟ فقالت: حوراء، فقلت زوجيني نفسك، قالت: اخطني إلى سيدي وأمهرني، قلت: وما مهرك؟ قالت: حبس نفسك عن آفاتها. وقال بيراهيم بن إسحاق الحربي: رأيت زبيدة في المنام فقلت التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي. ما أنفقت في طريق مكة؟ قالت: أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها، وغفر لي بنيتي. ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وضعت أول قلمي على الصراط ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وضعت أول قلمي على الصراط والثاني في الجنة، وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيت فيما يرى النائم جارية ـ ما رأيت أحسن منها وكان يتلألا وجهها نوراً ـ فقلت لها: مماذا ضوء وجهك؟ قالت: تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها؟ قلت: نعم، قالت: أخذت دمعك فمسحت به وجهي، فمن ثم ضوء وحهي كما ترى.

وقال الكتاني: رأيت الجنيد في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل. ورئيت زبيدة في المنام فقيل لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي بهذه الكلمات الأربع: لا إله إلا الله أفني بها عمري، لا إله الا الله أدخل بها قبري، لا إله إلا الله ألقى بها ربي. ورئي بشر في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني ربي عزّ وجلّ وقال: يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف. ورئي أبو سليمان في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني وما كان شيء أضر عليّ من إشارات القوم إلي، وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في النوم شاباً لم أر أحسن منه فقلت له: من أنت؟ قال: التقوى! قلت: فأين تسكن؟ قال: كل قلب حزين! ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت: من أنت؟ قالت: أنا السقم قلت: فأين تسكنين؟ قالت: كل قلب فرح مرح! قال: فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة. وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن إبليس وثب عليّ، فأخذت العصا؛ لأضربه فلم يفزع منها، فهتف بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من فأخذت العصا؛ لأضربه فلم يفزع منها، فهتف بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من فأدر يكون في القلب. وقال المسوحي: رأيت إبليس في النوم يمشي عرباناً فقلت: ألا تستحي من نور يكون في القلب. وقال المسوحي: رأيت إبليس في النوم يمشي عرباناً فقلت: ألا تستحي من

الناس؟ فقال: بالله هؤلاء ناس! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية، وقال أبو سعيد الخراز: كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي على جاءني متكناً على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فجاء فوقف على وأنا أقول شيئاً من الأصوات وأدق في صدري، فقال: شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عبينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول: ﴿لِيتُلِ هَنَا فَلَيْمُنَلِ الْمَنْمِلُونَ ﴿ السَّافَاتِ: ٦١]، فقلت له: أوصني، قال: أقلل من معرفة الناس، وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة. قال: رأيت سفيان الثوري فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي مقد كنت قواماً إذا أظلم الدجى فدونك فاختر أي قصر أردته

هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد بعبرة مشتاق وقلب عميد وزرني فإني منك غيير بعيد

ورئي الشبلي بعد موته بثلاثة أيام فقبل له: ما فعل الله بك؟ قال: ناقشني حتى أيست، فلما رأى يأسي تغمدني برحمته. ورئي مجنون بني عامر بعد موته في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وجعلني حجة على المحبين، ورئي الثوري في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: رحمني، فقيل له: ما حال عبدالله بن المبارك؟ فقال: هو ممن يلج على ربه في كل يوم مرتين، ورئي بعضهم فستل عن حاله فقال:

حساسب ونسا فسلقسوا ثسم مسنسوا فسأعست قسوا

ورثي مالك بن أتس فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحي الذي لا يموت. ورثي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري كأن أبواب السماء مفتحة، وكأن منادياً ينادي: ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض. ورثى الجاحظ فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

ولا ترك تسب برخطتك غييسر شريء يسسرك فسي السقسيامية أن تسراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عرياناً فقال: ألا تستحي من الناس؟ فقال: وهؤلاء ناس! الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدي وأحرقوا كبدي! قال الجنيد: فلما انتبهت عدوت إلى المسجد، فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون، فلما رأوني. قالوا: لا يغزنك حديث الخبيث. ورئي النصر آباذي بمكة بعد وفاته في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت: يا أبا القاسم، أبعد الاتصال انفصال؟ فقلت: لا يا ذا الجلال، فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي. ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة، فقالت: يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئاً فيحال بيني وبينك، فقال عتبة: طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعة لي عليها حتى ألقاك. وقيل: رأى أيوب السختياني جنازة عاص، فدخل الدهليز كيلا يصلي عليها. فرأى الميت بعضهم في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وقال: قل لأيوب ﴿ قُل لَوْ أَنتُمْ تَمُلِكُونَ المهيت بعضهم في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وقال: قل لأيوب ﴿ قُل لَوْ أَنتُمْ تَمُلِكُونَ وَاللَّهُ مِن نُوراً، وملائكة نزولاً وملائكة صعوداً؟ فقلت: أي ليلة هذه؟ فقالوا: ليلة مات فيها داود داود الطائي نوراً، وملائكة نزولاً وملائكة صعوداً؟ فقلت: أي ليلة هذه؟ فقالوا: ليلة مات فيها داود

الطائي، وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه. وقال أبو سعيد الشحام: رأيت سهلاً الصنعلوكي في المنام، فقلت: أيها الشيخ! قال: دع التشييخ، قلت: تلك الأحوال التي شاهدتها، فقال: لهم تغن عنا! فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بمسائل كان يسأل عنها العجز. وقال أبو بكر الرشيدي: رأيت محمداً الطوسي المعلم ـ في النوم ـ فقال لي: قل لأبي سعيد الصفار المؤدب:

وكسنا عملسي أن لا نسحمول عن المهوى فقد وحياة الحب وحلتم وما حلنا

قال: فانتبهت فذكرت ذلك له فقال: كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة. وقال ابن راشد: رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته، فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: ببخ بخ فاك: ﴿مَعَ النِّينَ أَنَّمَ النَّهِ عَلَيْهِم مِن ٱلنَّيْيَةَ وَالسِّبْ اللّه عليه الله عليه الله عليه بن سليمان: رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام، فقلت: يا أبا عبدالله ما صنع الله بك؟ قال: أجلسني على كراسي من ذهب ونش على المؤلق الرطب، ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن منادياً ينادي: _ ﴿إِنَّ السَّالَمَةُ وَاللّهُ إِنَّى رَجِل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن منادياً ينادي: _ ﴿إِنَّ السَّالَمَةُ وَاللّهُ إِنَّى رَجِل من أصحاب العين البصري ليلة مات الحسن كأن منادياً ينادي: _ ﴿إِنَّ السَّالَمَةُ وَاللّهُ إِنَّى رَجِل من أصحاب القربي، وأَنْتُ عَلَى ٱلْفَلَيْمِينَ عَلَى منامي رجلاً آدم طوالاً والناس يتبعونه على أهل زمانه. وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي: رأيت في منامي رجلاً آدم طوالاً والناس يتبعونه فقلت: من هذا؟ قالوا: أويس القربي، فأتيته فقلت: أوصني رحمك الله، فكلح اني وجهي فقلت: مسترشداً فأرشدني أرشدك الله، فأقبل علي وقال: اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولي وتركني.

وقال أبو بكر بن أبي مريم: رأيت ورقاء بن بشر الخضرمي فقلت: ما فعلت يا ورقاء؟ قال: نجوت بعد كل جهد. قلت: فأي الأعمال وجدتموها أفضل؟ قال: البكاء من خشية الله. وقال يزيد بن نعامة: هلكت جارية في الطاعون الجارف، فرآها أبوها في المنام، فقال لها: يا بنية، أخبريني عن الآخرة؟ قالت: يا أبت قدمنا على أمر عظيم، نعلم ولا نعمل وتعلمون ولا تعملون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إليّ من الدنيا وما فيها. وقال بعض أصحاب عتبة المخلام: رأيت عتبة في المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: دخلت الجنة بتلك المدعوة المكتوبة في بيتك! قال: فلما أصبحت جثت إلى بيتي، فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت: (يا هادي المضلين ويا بيتك! قال: فلما أصبحت جثت إلى بيتي، فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت: (يا هادي المضلين ويا واحملن ويا مقبل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم، والمسلمين كلهم أجمعين، واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والمسالحين آمين يا رب العالمين). وقال موسى بن حماد: رأيت سفيان التوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن يا رب العالمين). وقال موسى بن حماد: رأيت سفيان التوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت: فما بال علي بن عاصم؟ قال: على بن يا كاد يرى إلا كما يرى الكوكب، ورأى رجل من التابعين النبي تلي في المنام فهال: يا رسول الله عظني، قال: نعم، من لم يتفقد النقصان، فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له.

وقال الشافعي رحمة الله عليه: دهمني في هذه الأيام أمر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عزّ وجلّ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي، فقال لي: يا محمد بن إدريس، قل: اللهم إني لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية؛ فلما أصبحت أعدت ذلك

فلما ترحل النهار أعطاني الله عزّ وجلّ طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه، فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها. فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقرّبة إلى الله زلفي، فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أو في النار، والحمد لله حمد الشاكرين.

* * *

الشطر الثاني

من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار.

وفيه بيان نفخة الصور، وصفة أرض المحشر وأهله، وصفة طول يوم القيامة، وصفة يوم القيامة وحيامة ودواهيها وأساميها، وصفة المساءلة عن الذنوب، وصفة الميزان، وصفة الخصماء ورد المظالم، وصفة الصراط، وصفة الشفاعة، وصفة الحوض، وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحياتها وعقاربها، وصفة الجنة وأصناف تعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسردهم، وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان، وصفة النظر إلى وجه الله تعالى، وياب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى.

صفة نفخة الصور:

قد عرفت فيما سبق تأثير أحوال الميت في سكرات الموت، وخطره في خوف العاقبة، ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه، ثم لمنكر وتكير وسؤالهما، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه. وأعظم من ذلك كله؛ الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط مع دقته وحدّته، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بدّ لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفتدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشناء وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم، فقال لصاحبه ـ الذي أخبر ـ: صدقت، ثم مدّ يديه لتناوله؛ كان مصدقاً بلسانه بديه من الطعام مسموم، فقال لصاحبه ـ الذي أخبر ـ: صدقت، ثم مدّ يديه لتناوله؛ كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان. وقد قال النبي ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنْ يَشْتُمْنِي، وَكَا بَهْنِي وَمَا يَنْبَنِي لَهُ أَنْ يُكَذّبُنِي، أَمّا شَتْمُهُ إِيّاكِي فَيَقُولُ: إِنْ إِي وَلَمْ وَالنشور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور تكذيبه فقولُهُ: لَنْ يُعِيدُنِي كُمَا بَدَأَنِي، ". وإنما فنور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور والنشور

⁽١) حديث: عمّال الله تعالى: شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي أن يكذبني. . . » الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

لقلة الفهم في هذا العالم؛ لأمثال تلك الأمور، ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات وقيل له: إن صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف؛ لاشتد نفور باطنه عن التصديق به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنكَنُ أَنَا عَلَقْنَهُ مِن نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ شُبِنُ ۖ ﴿ ايس: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَنُ أَن يُتْرَكَ سُنَّكَ ۞ أَلَدَ بَكُ ظُلْفَةً بِن تَبِيِّ يُبْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً مَعْلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿ لَهُ مُلَلُ مِنْهُ ٱلزَّوْبَائِينَ ٱلذَّكُرُ وَٱلْأَنْوَةِ ۞﴾ [القِيَامَة: ٣٦-٣٩]. ففي خلق الآدمي ـ مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه ـ أعاجيب تزيد على الأعاجيب مي بعثه وإعادته، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته؟ فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار، وتفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة. فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً يدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك ميهوتاً من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدَّة الانتظار لعاقبة الأمر. كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُهِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَنَوَتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّهُ مَن شَآءَ اَللَّهُ ثُمَّ لُهِخَ بِيهِ أَخَرَىٰ هَإِذَا هُمْ قِيَامٌ بَظُلُرُونَ ۞﴾ [الـزُّنـر: ٦٨]، وقـال تـعـالـى: ﴿فَإِنَا نُبِرَ بِي اَلنَّاقُرْ ۞ مَنَاكِكَ يَوْمِهِذِ يَوْمٌ غَسِيرٌ ۞ عَلَى ٱلكِمْعِدِينَ غَيْرٌ يَسِيرٍ ۞﴾ [المدِّلُر: ١٠،٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَقَىٰ هَادَا ٱلْوَعْدُ إِل كُنتُمْ صَدِدِيْنَ ۞ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً رَجِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِمُونَ ۞ فَلَا بَسْتَطِيعُونَ فَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يُرْجِعُونَ ۞ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَمْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۞ قَالُواْ يَوَيْلَنَا مَنْ بَعْشَنَا مِن مَّرْقَدِيَّا ۖ هَنذَا مَا وَعَدَ الرَّمْءَنُ وَصَدَّفَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞﴾ [بس. ١٨-٥٧]. فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض ـ يعني يموتون بها ـ إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعُمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَّم القَوْنَ وَحَنَى الجَبْهَةَ وَأَصْغَى بِالأَذْنِ يَتْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُهُ (١٠).

قال مقاتل: الصور هو القرن؛ وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السموات والأرض؛ أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت. ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يحييي الله تعالى إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى: ﴿ثَمْ نَنْحَ فِيهِ أَخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزُّمَز: ١٦]؛ على أرجلهم ينظرون إلى البعث، وقال رسول الله ﷺ: هجيئ بُعِثَ إلَى صَاحِبِ الصَّورِ فَأَهْوَى بِهِ إلَى ينظرون إلى البعث، وقال رسول الله ﷺ: هجيئ بُعِثَ إلَى صَاحِبِ الصَّورِ فَأَهْوَى بِهِ إلَى ينظرون إلى البعث، وقال رسول الله ﷺ: هجيئ بُعِثَ إلَى صَاحِبِ الصَّورِ فَأَهْوَى بِهِ إلَى

⁽١) حديث: «كيف أنعم وصاحب العبور قد التقم القرن وحنى الجبهة. . . ٩ الحديث، أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد، وقال: حسن. ورواه ابن ماجه للفظ: «إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان بلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطأة مختلف فيه.

فيه وَقَدْمَ رِجْلاً وَأَخْرَ أُخْرَى مَتَى يُؤْمَرُ بِالنّفْحِ ألا فَأَتّقُوا النّفُخَةَه (١)، فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث؛ خوفاً من هذه الصعقة، وانتظاراً لما يقضى عليه من سعادة أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم. بل إن كنت في الدنيا من الممترفهين والأغنياء المتنعمين، فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطؤون بالأقدام مثل الذرة، وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها، ولكن عشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِنَ الْوَحُوثُ عُيْرَتُ ﴿ التَكْوِي: ٥]. ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعنوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَرَبِكَ لَنَحْمُرَبُهُمْ وَالشّيطِينَ الْمُولَ جَهَمْ عَلِيلُ الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَالنّ جَهَمْ مُنِيدًا ﴿ الله على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَالنّ جَهَمْ مَولًا حَهْمُ الله عنالك .

صفة أرض المحشر وأهله:

قال الراوي: والعفرة: بياض ليس بالناصع. والنقي: هو النقي عن القشر والنخالة. ومعلم: أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر.

ولا تَظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم. قال تعالى: ﴿ بَوْمَ نُبُدُّكُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَالسَّكَوْتُ ﴾ [يراهيم: ٤٨](٢٠). قال ابن عباس: يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها

⁽۱) حديث: «حين بعث إلى بعث إلى صاحب المصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلاً وأخر أخرى الحديث. لم أجده هكذا بل قد ورد: أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري مي التاريخ وأبر الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة: «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السلموات والأرض خلق المصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على قبه شاخص ببصره إلى المرش ينتظر متى يؤمر». قال البخاري: ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ: «ما طرف صاحب المصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن حينيه كوكبان دريان»، وإسنادها جيد.

 ⁽٢) حديث: المحضر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كفرص النقي لبس فيها معلم الأحدة. متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخاري قوله: الليس فيها معلم الأحدة فجعلها من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه.

 ⁽٣) حديث: «ببعث الناس حفاة عراة غرالاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان» قالت سودة راوية الحديث:
 «واسوأتاه ..» الحديث. أخرجه الثعلبي والبغري وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي القائلة: «واسوأتاه» ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائلة: «واسوأتاه».

وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدّ مدّ الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها. فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشُلَّته، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر، وأظلمت الأرض لخمود سراجها. فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدَّتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدّتها! ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن. واشتبك الناس كالفراش المبنوبُ وهم حفاة عراة مشاة. قال رسول الله ﷺ: ﴿يُبْعَثُ النَّاسُ خُفَاةً عُرَاةً غُرُلاً قَدْ ٱلْجَمَهُم المَرَقُ وَبَلُغَ شُحُومَ الآذانِ». قالت سودة ـ زوج النبي ﷺ راوية الحديث ـ: قلت: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: قشغل الناس عن ظك بهم: ﴿لِكُلِّ أَمْرِي مِنْهُمْ يَوْمَهِذِ شَأَذٌّ يُنْبِهِ ١٣٧ [عَمَس: ٣٧]». فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات. كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوهم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم. قال أبو هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُحْشُرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ: رَكْبَاناً وَمُشَاةً وَعَلَى وُجُوهِهم، فقال رجل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: الَّذِي أَمْشَاهُمْ مَلَى ٱقْدَامِهِم قَادِرٌ مَلَى أَنْ يُمْشِيهُمْ عَلَى وُجُوهِهُمْ اللَّهُ عَلَى طَبِعِ الأَدْمِي إنكار كل ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحية؛ وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوّر المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكاراً لها، فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة.

صفة العرق:

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجنّ وشيطان ووحش وسبع وطير، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عما كانت عليه من خفة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين. ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقرّبون، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضع لحرّ الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها، ثم تدافعت الخلاثق ودفع بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختراء عند العرض على جبار السماء، فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاص العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة. ثم ارتفع على بنار الحياء والخوف ففاص العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة.

⁽١) حديث أبي هريرة: البحشر الناس يوم القيامة ركباناً ومشاة على وجوههم. . . ، الحديث رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس: أن رجلاً قال با نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

أمدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه. قال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: "يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذْنِيهِ ('). وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ قَيْة فيعَرَقُ النّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي سَبْعَينَ بَاعاً وَيَلْجُمَهُمْ وَيَبُلُغَ أَذْقَنهمُ ('')، كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح. وفي حديث آخر: قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شلة الكرب ('')، وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: الثّذُنُو الشَّمْسُ مِنَ الأَرْضِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَعُرَقُ النّاسُ، فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَبُلُغُ عَرَقُهُ عَتِهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبُلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبُلُغُ رَكُبُنَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبُلُغُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبُلُغُ فَاهُ _ وَأَشار بيده فأله مَنْ يَبُلُغُ مَوْتُهُمْ مَنْ يَبُلُغُ فَاهُ _ وَأَشار بيده فأله المحشر وشدة كربهم، وفيهم من فَخرب بيده على رأسه هكذا عه (الكرب والانتظار ولو إلى النار، وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا ينادي فيقول: رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار، وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا ينادي فيقول: رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار، وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا ينادي فيقول: وحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق؟.

واعلم: أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله ـ من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر _ فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمراً وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة، فإنه يوم عظيمة شدته طويلة مدته.

صفة طول يوم القيامة:

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم، يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم. قال كعب وقتادة: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْمَلِينَ ﴿ إِلَى المطفّفِين: ٦]. قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام. بل قال عبدالله بن عمرو: تلا رسول الله على هذه الآية ثم قال: «كَيْفَ بِكُمْ إِنْ جَمَعَكُم اللَّهُ كُمّا تُجْمَعُ النَّبُلُ فِي الكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ صَنَةٍ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْكُمُهُ (٥). وقال التحسن: ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف

١) حديث ابن عمر: اليوم يقوم الناس قرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه، متفق عليه.

 ⁽٢) حديث أبي هريرة عيمرق الناس يوم القيامة حتى يلهب عرقهم في الأوض سبعين ذراعاً... الحديث. أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف.

 ⁽٣) حديث: «قياماً شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء بلجمهم العرق من شدة الكرب، أحرجه ابن عدي م حديث
 ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدي: لا أظن أنه كان يتعمد الكذب
 لكن لعله تشبه عليه.

 ⁽²⁾ حديث عقبة بن عامر: الثدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس قمتهم من يبلغ عرقه عقبه. . . ٤ الحديث.
 رواه أحمد وفيه ابن لهيمة.

 ⁽٥) حديث ابن عمر تلا هذه الآية: ﴿ يَرْمَ بَقُومُ النّاسُ لِيَ الْتَلْمِينَ ﴿ } [المطفّفِين: ٦]، ثم قال: "كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم".

قلت: إنما هو عبدالله بن عمر، ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبدالرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راوياً غير ابن وهب ولهم غير عبدالرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآحرون شاميون.

سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً واحترقت أجوافهم جوعاً انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم، فلم يتعلقوا بببي إلا دفعهم وقال: دعوني! نفسي نفسي؟ شغلني أمري عن أمر غيري. واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال: قد غضب اليوم ربنا غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب معده مثله، حتى يشفع نبينا على لمن يؤذن له فيه: ﴿لاَ نَنفُعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّخَنُ وَرَفِي لَمُ وَلاَ } [المه وسلة الانتظار فيه، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر.

واعلم: أنّ من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في دلك اليوم خاصة. قال رسول الله على لله السلام عن طول ذلك اليوم، فقال: قواللّهي نَفْسِي بِينِهِ إنّه ليَخفَفُ عَلَى المُوّمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَهُونَ عَلَيْهِ مِنَ الصّلاةِ المَكْتُوبَةِ يُصَلّيها فِي الدُّنْياه (١)، فاجتهد أن تكون من أُرلئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره، واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفاً لكان ربحك كثيراً وتعبك بسيراً.

صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه:

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سجرت، والعشار قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والبجال قد سجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زوّجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدّت، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً لبروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة، يوم ترج الأرض فيه رجاً وتبس الجبال بساً فكانت هماء منبئاً، يوم يكون الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض فير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يوم ترى الحبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يوم ترى الحبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مر

⁽١) حديث: سئل عن طول ذلك اليوم، فقال: ﴿والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من المسلاة المكتوبة يصليها في الدنيا». أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة، وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد: ﴿يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال: أظنه رفعه بلفظ: ﴿إِن الله ليخفف على من يشاء من حباده طوله كوقت صلاة مفروضة».

السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام، ولا يسأل فيه عن الإجرام بل يؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدّمت وأخرت يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين، إذ قال له الصدّيق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله قال: فشَيَبَتْنِي هُوه وَأَخُواتُهاه (۱). وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كوّرت، فيا أيها القارىء العاجز: إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرّك به اللسان، ولو كنت متفكراً فيما تقرؤه لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن، فالقيامة أحد ما ذكر فيه، وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لنقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الغرض تنبيه أولي الألباب، فتحت معانيها، فليس من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى، فاحرص على معرقة معانيها.

ونحن الآن نجمع لك أساميها. وهي: يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساملة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم المنافسة، ويوم الزلزلة، ويوم الدمدمة، ويوم الصاعقة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة، ويوم الرادفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية، ويوم الآزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة، ويوم التلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم المآب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القرار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم الفضاء، ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء، ويوم الحشر، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم، ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم البعث، ويوم الفتح، ويوم الخزي، ويوم عظيم، ويوم عقيم، ويوم عسير، ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم المصير، ويوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرجفة، ويوم الرجة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة، ويوم الفزع، ويوم المنتهي، ويوم الجزع، ويوم المأوى، ويوم الميقات، ويوم الميعاد، ويوم المرصاد، ويوم القلق، ويوم العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم الانشقاق، ويوم الوقوف، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم موعود، ويوم مشهود، ويوم لا ريب فيه، ويوم تبلي فيه السرائر، ويوم لا تجزي نفس عن نفس شيئًا، ويوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا، ويوم يسحبون في النار على وجوههم، ويوم تقلب وجوههم في النار، ويوم لا يجزي والد عن ولده، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، يوم لا مرد له من الله، يوم هم بارزون، ويوم هم على النار يفتنون، يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار. يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار. يوم تخشع فيه الأبصار، وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات، وتبرز الخفيات، وتظهر الخطيئات، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويشيب الصغير ويسكر الكبير، فيومئذ وضعت الموازين

⁽١) حديث: اشيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت، أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه، وقد تقدم.

ونشرت الدواوين، ويرزت الجحيم وأغلي الحميم، وزفرت النار ويشس الكفار، وسعرت النيران وتغيرت الألوان، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان.

فيا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك؟ فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين، يرسل لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرّفنا غفلتنا ويقول: ﴿ أَفَرَبَ لِلنّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي عَفْسَافِهِ مُّكْرِشُونَ ۚ مَا يَأْلِيهِم مِّن فِحَرِ مِّن رَبِّهِم عَمْ فَي عَفْسَافِهُ مُونَدُونَ فَي مَا يَأْلِيهِم مِّن فِحَرِ مِّن رَبِّهِم عَمْ وَمُعْ مَلْ عَلَيْهُمْ وَهُمْ فِي عَفْسَافِهُ مُؤْمَنُونَ فَي مَا يَأْلِيهِم مِّن فِحَدِ مِن رَبِّهِم الله عَلَيْهُمْ وَهُمْ فِي عَفْسَافِهُ وَالنّبُهُمْ وَهُمْ فِي عَنْسَاعَةُ وَالنّبُونَ فَي يَلْمَالُونَ فَي لَاهِمَ وَالنّبُهُمْ وَهُمْ بَيْهَا فَي وَزَنَهُ فَيَبًا فَي المعارج: ٢٠٦] وَهَا يُدَيكُ السّاعَةُ وَالنّبُ الله القرآن عملاً فلا نتدبر أَلسّاعَةُ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحرَاب: ٢٣] ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلا نتدبر معانيه ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

صفة المساءلة:

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان، فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير. فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى مواقف العرض على الجبار. قال رسول الله على: «إن يلله عَزَّ وَجَلَّ مَلَكاً مَا بَينَ شَفْرَيْ عَيْنَهِ مَسيرة بِاللهِ عام () فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلاً هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده. وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون الأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين. فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين؟ وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع، فيقولون للملائكة: أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع يبادر أقوام من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا: سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد! وعند ذلك تقوم الملائكة لشدة البوم.

وعند ذلك بصدق الله تعالى قوله: ﴿ وَلَنَسْتَانَ الَّذِينَ أَرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَانَ النّرْسِلِينَ ﴿ وَلَمُسْتَانَ اللّهِمِينَ اللّهُ مِلْمُ وَمَا كُنّا غَابِينَ ﴾ [الاعسراد: ١٠٥]، وقسول، : ﴿ وَلَرَبِكَ لَنَسْلَهُمْ أَجْمَينَ ﴾ قالاعسراد: ١٥٣،٩٠]، وقسول، : ﴿ وَلَوْرَبِكَ لَنَسْلُهُمْ الْجَبَيْنَ ﴾ والإعسراد بالأنبياء: ﴿ وَلَمْ يَجْمَعُ اللّهُ الرّسُلَ فَيَعُولُ عَاذَا أَجِمَتُمُ قَالُوا لا عِلْمَ اللّهُ الرّسُلُ فَيَعُولُ عَاذَا أَجِمَتُمُ عَلَيْهُ اللّهُ الرّسُلُ فَيعُولُ عَاذَا أَجِمَتُمُ عَلَومَهُم مِن لَنّا إِنّاكَ أَنْ عَلَى اللّهُ الرّسُولُ فَتِهُ عَلَى اللّهُ الرّسُولُ فَي وَلِي اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللللللهُ اللّهُ اللللهُ اللللهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللّهُ اللللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللللهُ الللهُ الللهُ اللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللله

⁽١) حديث: فإن لله عز وجل ملكاً ما بين شفري عينيه. مسيرة مائة عام، لم أره بهذا اللفظ.

صادقون، إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى، فيدعى نوح عليه السلام فيقال له: هل بلغت، فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له: ﴿ مَأْنَتَ قُلْتَ الِنَّاسِ الْغَنْدُونِ وَأَنِى إِلْهَبْنِ مِن دُونِ اللهِ [المائدة: ١١٦] فيبقى متشحطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين، فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال، ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً: يا فلان بن فلانة، هلم إلى موقف العرض. وعند دلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار، ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق.

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِثُورِ رَبِّها ﴾ [الزُّمر: ٢٩]، وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وأنه المقصود بالأخد والسؤال دون من عداه، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك: يا جبريل اثنني بالنار، فيجيء لها جبريل ويقول: يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك. فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها، فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره، فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاً ورعباً فتساقطوا جثياً على الركب، وولوا مدبرين: يَوْمَ ﴿ وَرَكَىٰ كُلُّ أَنْتَوْ جَائِينَا ﴾ [الجائية: ٢٨]، وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادي العصاة والظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون نفسي نفسي. فبينما هم كذلك، إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون، ثم زفرت الثائثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع، وانهضمت عند ذلك قلوب الخلائق على وخوههم وتحاهمن، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين.

ويعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل، وقال: ماذا أجبتم؟ فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة، ففر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته، وبقي كل واحد منتظراً لأمره، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه. قال أبو هريرة: قالوا: يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: همّل تُضَارُونَ فِي رُوْيَةٍ الشَّمْسِ فِي الظّهِيرَة لَيْسَ دُونَها سَحَابٌ». قالوا: لا. قال: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُوْيَةٍ ربّكُمْ؛ الشّمَرِ لَيْلَة البّدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ». قالوا: لا. قال: «فَوَاللّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضَارُونَ فِي رُوْيَةٍ ربّكُمْ؛ الشّمَرِ لَيْلَة البّدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ». قالوا: لا. قال: «فَوَاللّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تُضَارُونَ فِي رُوْيَةٍ ربّكُمْ؛ فَيَلْقى العَبْدَ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أَكُومُكَ وَأَسُونُكَ وَأُزَوُجُكَ وَأُسَخُرُ لَكَ الخَيْلَ وَالإبِلَ وَأَذْرُكَ تَرْأُسُ وَتَرْبُعُ، فَيَقُولُ العَبْدُ: بَلَى؛ فَيقُولُ: أَظَنَتُ أَنْكَ مُلاقِئَ؟ فَيقُولُ: لا، فَيقُولُ: فَأَنَا أَنْسَاكَ كُمَا نَسِيتَنِي» (١٠).

فترهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها، فيقول لك: ألم أنعم عليك بالشباب ففي ماذا أبليته؟ ألم أمهل لك في العمر ففي ماذا أفنيته؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفي ماذا أنفقته؟ ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك؟ فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك. قال أنس رضي الله عنه: كنا مع رسول الله على فضحك ثم قال: فأتذرُونَ مِمَّ أَضْحَكُه.

⁽١) حديث أبي هريرة: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: فهل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب. . . ٢ الحديث. متفق عليه دون قوله فيلقى العبد. . . الغ؟، فانفرد بها مسلم.

قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مَنْ مُخَاطَبةِ العَهْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَا رَبُّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ». قال: «يَقُولُ: بَلَى». قال: «فَإِنِّي لا أَجِيرُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِداً مِنِّي فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ النِوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُوداً». قال: «فَتَنْظِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلِّى وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُوداً». قال: «فَتَنْظِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلِّى وَبِالكِرَامِ الكَاتِينَ شُهُوداً». قال: «فَتَنْظِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخَلِّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَامِ اللهِ اللهِ مَن الافتضاح بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَامِ مِنْ اللهِ عَلَى عَلَى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره.

سأل ابن عمر رجل، فقال له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوي؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «يَدْنُو أَحَدُّكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضْعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: هَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: نَمَمْ فَيَقُولُ: هَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ: نَمَمْ، فَمَ قَيْهُولُ: إِنِّي سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِي اللَّنْيا وَإِنِي أَفْفُوهَا لَكَ الْيَوْمَ» (٢٠)، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَتَرَ عَلَى مؤمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ» (٢٠). فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم في عيبتهم بما يكرهون لو سمعوه، فهذا جدير بأن يجازي بمثله في القيامة، وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض؟ فيكفيك تلك الروعة جزًّاء عن ذنوبك؛ إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وقؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدّة الهول مظلم، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمْن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه: يا ابن آدم ادن مني، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها؟ وكم من طاعة غفلت عن أفاتها فانكشف لك عن مساويها؟ فكم لك من خجل وجبن؟ وكم لك من حصر وعجز؟ فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول؟ ثم تفكر في عظم حيائك إذا ذكرك ذنوبك شفاهاً، إذ يقول: يا عبدي. أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل، أكنت أهون عليك من سائر عبادي؟ استخففت بنظري إليُّك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري، ألم أنعم عليك؟ فماذا غرّك بي أظننت أني لا أراك وأنك لا تلقاني؟ قال رسول الله ﷺ: هما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدِ إِلاَّ وَيَسْأَلُهُ اللَّهُ رَبُّ الْمَالَمِينَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلا ترْجَمَانَ (١). وقال رسول الله ﷺ: الْيَقِفَلُ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَى اللَّهِ هَزَّ وَجَلَّ لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فيقول لَهُ: أَلَمْ أَنْعِم هَلَيْكَ أَلَمْ أُوتِكَ مَالاً؟ فَيَقُولُ: بَلَى قَيَقُولُ: أَلَمْ أَرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً؟ فَيَقُولُ: بَلَى: ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ بَمِينِهِ فَلا يَرَى إِلاّ النَّارَ ثم يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلا يَرَى إِلاَّ النَّارِ، فَلْيَنَتِي أَحَدُكُمُ النَّارِ وَلَوْ بِشَقَّ تَمْرَةٍ فَإِن لَمْ يَجِدُ فَبِكَلِمَةٍ طَيْبَةٍه ^(ه). وقالُ ابن مسعود: ما

⁽١) حديث أنس: (أتدرون مم أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "من مخاطبة العبد ربه...» الحديث. رواه مسلم.

⁽٢) حديث: «سأل ابن عمر رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في التجوى...» الحديث. رواه مسلم.

⁽٣) حديث: امن ستر على مؤمن هورته ستر الله هورته يوم القيامة، تقدم.

⁽٤) حديث: •ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين. . . » الحديث. متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ: •إلا سيكلمه الحديث.

حديث: الميثفن أحدكم بين بدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان. . .)، أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم.

منكم من أحد إلا سيخلو الله عزّ وجلّ به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول: يا ابن آدم ما غرّك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت، يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين، يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك ألم أكن رقيباً على أذنيك، وهكذا حتى عد سائر أعضائه، وقال مجاهد: لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عزّ وجلّ حتى يسأله عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل فيه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفي ماذا أنفقه؟ فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فإنك بين أن يقال لك: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم - فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأولون والآخرون - وإما أن يقال للملائكة: خلوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديراً بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك!.

صفة الميزان:

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق:

فرقة: ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب، وينطوي عليهم ويلقيهم في النار، فتبتلعهم النار وينادى عليهم: شقاوة لا سعادة بعدها.

وقسم آخر: لا سيئة لهم، فينادي مناد: ليقم الحمادون لله على كل حال؛ فيقومون، ويسرحون إلى الجنة، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى. وينادى عليهم: سعادة لا شقاوة بعدها.

ويبقى قسم ثالث: وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله إلا أن يعرّفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب، فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في البعين أو في الشمال؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جاب السيئات أو إلى جانب السيئات أو إلى جانب العينات؟ وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق.

وروى الحسن: أن رسول الله على خد رسول الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة فبكت، حتى الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة فبكت، حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله على، فانتبه فقال: «ما يُبْكِيكِ يا عَائِشَةُ؟؟ قالت: ذكرت الآخرة، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «والَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ فِي قَلاَتُةِ مَوَاطِنَ فَإِنْ أَحَداً لا يَذْكُرُ إِلاَ نَفْسه: إِذَا وُضِعَت المَوَازِينُ وَوُزِنَت الأَصْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ الْبِنَ آدَمَ أَيَخَفَ مِيرَانُهُ أَمْ يَنْقُلُ، وَعِنْدَ الصَّراطِ» (١٠).

وعن أنس: ايؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك، فإن

⁽١) حديث الحسن: «أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت. .» الحديث. وفيه، فقال: «ما يبكيك با عائشة». قالت: «ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة...» الحديث. أخرجه أبو داود من رواية الحسن: أنها ذكرت النار فبكت، فقال: «ما يبكيك» دون كون رأسه ﷺ في حجرها وأنه نعس وإسناده جيد.

ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائن: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى بصوت بسمع الخلائن: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار". قال رسول الله على في يوم القيامة: "إنّه يَومٌ يُنَادِي اللّه تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السّلامُ فَيَقُولُ لَه: قُمْ يا آدَمُ فَابِعَتْ وَبَسْعَةٌ وَبَسْعُونَ فَلما سمع فَابِعَتْ النّارِ عَيْقُولُ: مِنْ كُلُ أَلْفٍ بِسْعُماتَةٍ وَبَسْعَةٌ وَبَسْعُونَ فلما سمع الصحابة دلك أبلسوا، حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى رسول الله على ما عند أصحابه، قال: «اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيدِهِ إِنْ مَعَكُمْ لَخَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتا مَعَ أَحَدٍ قَطُ إِلاَ كَثرَقَاهُ مَعَ مَنْ هَلكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسٌ». قالوا: وما هما يا رسول الله؟ قال: «يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ». قال: فسري عن القوم، فقال: «اعَمَلُوا وَأَبْشِرُوا فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيدِهِ ما أَنتُمْ فِي النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَ كَارَقَامَةِ فِي قَرَاعِ الدَّابَةِ» (١٠).

صفة الخصماء ورد المظالم:

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُتَ مَوَزِيـنُهُۥۗ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَــَةِ زَاضِـــيَةِ ﴿ وَأَنَا مَنْ خَفَّتْ مَوَرِيـــُهُۥ ﴿ فَتَأْتُمُ هَـَـَاوِبَةٌ ۞ وَمَا أَدْرَنكَ مَا هِــيَةُ ۞ نَـازُ حَايِــةٌ ۞﴾ القارعَة: ٦-١١).

واهلم: أنه لا ينحو من خطر العيزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته. كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه؛ أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصيره من فوائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه، وبطيب قلوبهم، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق بلببه. هذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: يتعلق بلببه. هذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: خرتني في الغيبة بما يسوءني، وهذا يقول: ماستعتك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا الظلم عني، فداهنت الظالم وما راعبتني. فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم، وأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم. حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم - إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله: ﴿ إَنَوْرَ كُلُّ نَفْيِس بِكَا كُسَبَتُ لَا ظُلُمَ الْيُوْمَ ﴾ إفاقر: ١١). فعند ذلك ينخلع نداء الجبار جل جلاله: ﴿ إِنْهُ مَنْ يَنْ كُلُ نَفْيِس بِكَا كُسَبَتُ لَا ظُلُمَ الْيُوْمَ ﴾ إفاقر: ١١٤).

 ⁽١) حديث: ايقول الله: يا آدم قم قابعث بعث النار فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسع
 وتسعون . . . الحديث . متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه، وقد

قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَكَ اللّهَ غَنفِلًا عَمَا يَصْمَلُ الظَّلْلِمُونَ إِنَمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَرْمِ نَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَدُرُ ۚ ۚ شَهْطِيبَ مُقْنِي رُءُوسِمِمْ لَا يَرَنَدُ إِلَيْهِمْ مُلَوْلُهُمُ ۗ وَأَفِيدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۖ ۚ ۚ وَأَلَذِرِ النّاسَ﴾ [يراهيم: ٤٢-٤٤] الآية.

فما أشد قرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم! وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل، وشوفهت بخطاب السياسة، وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً؟ فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك وتنفل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تَلْرُونَ مَنِ المُفْلِسِ». قلنا: المُفلس فينا يا رسول الله عن لا درهم له ولا دينار ولا متاع. قال: المُفلس من أمّيي من يأتي يتوم المقال فينا يا رسول الله عنها وَرَكاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ لهذَا وَقَذَفَ هٰذَا وَأَكُلَ مَالَ هٰذَا وَسَفَكَ دَمَ لهٰذَا وَضَرَبَ لهٰذَا القِيامَةِ وَصِيَام وَزَكاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ لهٰذَا وَقَذَفَ هٰذَا وَأَكُلَ مَالَ هٰذَا وَسَفَكَ دَمَ لهٰذَا وَضَرَبَ لهٰنَا القِيامَةِ وَعَيْدٍ وَهُذَا مِن حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ قَنَيتُ حَسَنَاته قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مَا عَلَيهِ أَحَدُ مِن خَطَايَاهُمْ فَيْعُطى هٰذَا أَبِي مَسْنَاتِهِ وَهُذَا مِن حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ قَنَيتُ حَسَنَاته قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مَا عَلَيهِ أَحَدُ مِن خَطَايَاهُمْ فَلَيْو حَمَايا البَعْمِ وَلَى النَّالِ اللَّهِ مِن المُنْ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى العَلْ وَلَا العَلْمَ اللهُ المُنْ عَلَى المنان، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك! فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من والمشرناء؟ فقد روى أبو ذرّ: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان، فقال: هيا أبا ذرّ أتَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْتَهُمَا يَوْمُ القِيَامَةِ الْهُ أَلَى فَرَدُ أَن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان، فقال: هيا أبا ذرّ أتَدْرِي وَسَيَعُون؟ . قلت: لا، قال: هو أَكِنَ الله يَرْدِي وَسَيَقُومِي بُيْتَهُمَا يَوْمُ القِيَامَةِ الْبَلَى أَنْ الْمُولِ الْمَلَى المَدْولِ الْمُعْلَاء اللهُ الْمُولِ الْمُولِ الْمُؤْلُ اللّهُ يَلْمُ الْهُولُ الْمُولُ الْمُؤْلُ اللّه وَلَا الْمُؤْلُ اللّهُ يَلْمُ اللّهُ ال

وقال أبو هربرة في قوله عز وجل : ﴿ وَمَا بِن دَابَةٌ في الآرَضِ وَلا طَايَر بِهِ بَلَمَتِهِ إِلاَ أَمُمُ النّالُمُ ﴾ [الأنغام: ٣٨]. إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ـ البهائم والدواب والطير وكل شيء ـ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فذلك حين يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً. فكنت أنت يا مسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك، فتقول: أين حسناتي؟ فيقال: نقلت إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك واشتذ بسبب الكف عنها عناؤك، فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط! فيقال: هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قَال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُغَبَدَ الأَصْنَامُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَلَٰكِنْ سَيْرْضَى مِنْكُمْ بِمَا هُو دُونَ ذَٰلِكَ بِالمُحَقَّرَاتِ وَهِيَ المُوبِقَاتُ، فَاتَقُوا الظَّلْمَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الجِبَالِ مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهُنَّ سَيْنِجِينَهُ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ: رَبِّ إِنَّ فَلاتاً ظَلَمَنِي بِمَظْلَمَةٍ فِيقُولُ: النَّحُ مِنْ حسناتِهِ فَما يَزالُ كَلْكَ حَتَّى لا يَبْقَى لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ، وإنَّ مَثَلَ ذَٰلِكَ مَثَلُ شَفْرٍ نَزَلُوا بِفلاةٍ مِنَ الأَرْضِ لَيْسَ مَمَهُمْ حَطَّبٌ فَتَفَرَّقَ القَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَعْظَمُوا نَارَهُمْ

⁽١) حديث أبي هريرة: •هل تدرون من المقلس؟» قالوا: المقلس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع. . . الحديث. تقدم.

 ⁽۲) حدیث: ایا آبا ذر أتدري فیم پنتطحان۱. قلت: لا، قال: اولكن ربك پدري وسیقضي بینهما۱. أخرجه أحمد من
روایة أشیاخ لم یسموا عن أبي ذر.

وصَنَعُوا مَا أَرَادُواهُ^٬ ، وكذلك الذنوب. ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتُ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ ۞ نُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ َلْقِيَكُمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿ ﴾ [الزُّمر ٢١،٣٠]. قال الزبير: يا رسول الله، أيكرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصَ النَّنوب؟ قال: "نَعَمُ لَيْكُرُرُنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤدُّوا إِلَى كُلِّ ذِي حَقّ حَقُّهُا(٢). قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. فأعظم بشدَّة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة، حتى ينتقم للمظلوم من الظالم! قال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿يَحْشُو اللَّهُ العِبَادَ عُرَاةً خُبراً بهماً؟. قال: قلنا: ما بهماً؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن بدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه؛ حتى اللطمة». قلنا: وكيف وإنما نأتى الله عزّ وجلّ عراة عبراً بهماً! فقال: ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيتَاتِ (٣) فاتقوا الله عباد الله، ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة، فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم، فليكثر من حسناته ليوم القصاص، وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى، فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم، كما روي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه يضحك، حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَفَيا بَيْنَ يَدَيُ رَبِّ المِزَةِ فَقَالَ أَحَدهُمَا: يا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْطِ أَحَاكُ مَظْلَمَتُهُ. قالَ: يا رَبّ لم يَبْقَ مِنْ حَسَناتِي شيءٌ، فقال الله تعالى لِلْطَالب: كَيْفُ تصنعُ وَلَمْ يبتَى مِنْ حسناته شَيْءٌ. قالَ: يا ربُ يَتَحَمَّل عَني مِنْ أَوْزَارِي». قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: «إِنَّ ذَٰلِكَ اليومَ عَظِيمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلُ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ» قال: «فقالَ اللَّهُ للطالبِ: ارْفَعْ رَأْسَكَ فانْظُرْ في الجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فقالَ: يا ربِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ فِضَّةٍ مُرتفعة وقصوراً مِنْ ذهب مُكَلِّلَةً بِاللؤلؤ لأَيُّ نَبِيَ لهٰذَا أو لأي صلِّيق لهٰذا؟ أو لأيّ شهيدٍ لهذا؟ قال: لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ، قالَ: يَا ربِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ثُمَّنه؟ قالَ: أَنْتَ تُمْلِكُهُ، قالَ: وَمَا هُوَ؟ قال: حَفْوْكَ حَنْ أَخِيكَ، قالى: يا رَبِّ إنِّي قَدْ حَفَوْتُ عَنْهُ، قال اللَّهُ تمالى: خُذْ بيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلهُ الجَنَّةَ، ثُمُّ قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ عندَ ذلكَ: ﴿ «اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَينِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بَينَ

⁽۱) حديث ابن مسعود: «إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما دون ذلك المحقرات وهي المويقات... الحديث، رواه أحمد والبيهقي المويقات... الحديث، رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصراً على آخره: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله في ضرب لهن مثلاً... الحديث، وإسناده جيد قاما أول الحديث فرواه مسلم مختصراً من حديث جابر: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم».

 ⁽٣) حديث: أنس: البحشر العباد عراة غبراً بهماً قلنا: ما بهما؟ قال: (ليس معهم شيء...) الحديث.
 قلت: ليس من حديث أنس وإنما هو عبيدالله بن أنيس رواه أحمد بإسناد حسن، وقال: (غرلاً) مكان (غبراً».

المُوْمِنِينَ ١٠٤، وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله؛ وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق.

فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم، أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد. كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء، وقد حلع عليك خلعة الرضاء وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء، وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء؟ وعند ذلك طار قلبك سروراً وفرحاً وابيض وجهك واستنار وأشرق، كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألاً من حبينك، وخلق الأولين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك في حسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك، ومن خلفك وينادون على رؤوس الأشهاد: هذا قلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه، وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً! أفترى أن هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك ومداهنتك وتشعك وتزينك؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه، فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به.

وإن تكن الأحرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هيئة، وهي عند الله عظيمة فمقتك لأجلها، فقال: عليك لعنتي يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى، فيقولون: وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك تنثال إليك الزبانية، وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة، فأحذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملا الخلق، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك، وأنت تنادي بالويل والثبور، وهم يقولون لك: لا تدع اليوم ثبوراً واحداً وادع ثبوراً كثيراً وتنادي الملائكة، ويقولون: هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله، أو طلباً للمكانة في قلوبهم، أو خوفاً من الافتضاح عندهم، فما أعظم جهلك، إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملإ العظيم مع التعرّض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم، فهذه أحوائك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط.

صفة الصراط:

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى: ﴿يَوَمَ غَشُرُ ٱلْمُتَقِينَ إِلَى ٱلرَّخَيْنِ وَقَدًا ۞ وَنَسُونُ ٱلْمُجْمِينَ إِنَى جَهَنَمَ وِرْدًا ۞﴾ [مريم: ٨٢٠٨٥]، وفي قوله تعالى: ﴿ين دُونِ اللّهِ فَأَهْدُوكُمْ إِنّى سِرَطِ ٱلْهَجِيمِ إِنَّهُم تَسْقُولُونَ ۞﴾ [الصَّافات: ٢٤٠٣٣]. فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط ـ وهو جسر ممدود على متن النار أحدٌ من السيف وأدق من الشعر ـ فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف

⁽۱) حديث أنس: بينما رسول الله على جالس، إذ رأيناه ضحك، حتى بدت ثناياه فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ قال: الرجلان من أمتي جليا بين يدي رب العالمين...». الحديث بطوله أخرجه ابن أبي الدنيا في حسر الظن بالله والحاكم في المستدرك وقد تقدم.

على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى؛ تعثر في أوَّل قدم من الصراط وتردى. فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل طهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساطً الأرض فضلاً عن حدّة الصراط، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسستُ بحدّته، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رؤوسهم وتعلو أرجلهم، فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك، تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق، وهم يتهافتون في النار والرسول عليه السلام يقول: «يا رَبِّ سَلَّمْ سَلِّمْ» والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك؟ فناديت بالويل والثبور، وقلت: هذا ما كنت أخافه فيا ليتني قدَّمت لحياتي! يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً! يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً! يا ليتني كنت تراباً! يا ليتني كنت نسياً منسياً! يا ليت أمي لم تلدني! وعند ذلك تختطفك النيران _ والعياذ بالله _ وينادي المنادي: ﴿ لَغَسُّواْ فِهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه! فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتباع قلبك من خطر الجواز عليه _ وإن سلمت _ فناهيك به هولاً وفزعاً ورعباً! قال رسول الله عليه: ﴿ يُضِّرَّبُ الصَّرَاط بَيْنَ ظَهْرَاني جَهَتْمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجُيرُ بِأَمَّتِهِ مِنَ الرُّسُلِ، ولا يَتَكَلَّمُ يَوْمَثِذِ إِلاّ الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَومَثَذِ: اللَّهُمُّ سَلَّمُ اللَّهُمْ سَلَّمْ، وَفِي جَهَتُم كلالِيبُ مثل شَوكِ السَّغدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوكَ السّغدَانِ؟٢. قالُوا: نَعَمْ يا رسول الله. قال: ﴿فَإِنَّهَا مَثُلُ شُوَّكِ السَّعْدانِ فَيْرَ أَنَّهُ لا يَعَلَمُ قَدْرَ عَظْمَهَا إلاَّ اللَّهُ تعالى تَخْتَطِفُ النَّاسَ بأعمالهمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُويَقُ بِعَمَلِهِ ومنهمْ مَنْ يُخَرْدَلُ ثُمُّ يَنْجُوهُ (١)

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «يَمُوُ النَّاسُ هَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ وَهَلَيْهِ حَسَكٌ وَكلالِيبٌ وَخَطَاطِيفُ تَخْتَطِفُ النَّاسَ يميناً وشِمالاً وعلى جَنْبَتَنِهِ ملائكة يقولونَ: اللَّهُمَّ سَلَمُ اللَّهُمَّ سَلُمْ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُو كَالرَّبِعِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُو كَالْفَرَسِ الْمُجْرى، ومنهم مَنْ يسعى سَعياً، ومنهم مَنْ يحثي مَنْ يَرحف رَحفاً، فأمّا أهلُ النارِ الذينَ هُمُ أهلُها فلا يموتون ولا يَخيَونَ، وأمّا ناسٌ فَيُؤْخَلُونَ بِنْنوبٍ وخطايا فَيَحْتَرِقُونَ فَيكونونَ فَحْماً ثُمَّ يُؤْذَنُ في الشَّفَاعَةِ، (*). وذكر إلى آخر الحديث.

 ⁽۱) حديث: قينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز؟. متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث طريل.

 ⁽۲) حديث أبي سعيد: فيحشر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف. . . ٩ الحديث، متفق عليه مع
 اختلاف ألفاظ.

إحياء عُلوم الدّين

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه على قال: التبخيم الله الأولين والأخرين لميقات يوم معلوم قياماً أَرْبَعِينَ سَنة شَاخِصَة أَبصارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ ينتظرونَ فَصْلَ القَضَاءِ». وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين. قال: اللم يقولُ للمؤمنين المفين المؤمنين يتنه، ومنهم مَنْ يُعْطَى تُورَهُ أَصْغَرَ من ذلك، أَعْمَالِهِمْ فمنهم مَنْ يُعْطَى تُورَهُ الْعَبْلِ العظيم يَسْمَى بَيْنَ يَتَيْهِ، ومنهم مَنْ يُعْطَى تُورَهُ أَصْغَرَ من ذلك، ومنهم مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ من ذلك، حتى يكون آجَرُهُمْ رَجُلاً يُعْطَى نُورَهُ على إيهام قَدَمِهِ فيضيءُ مَرَّةً ويحبو مرة فإذا أضاء قدمَ قَدَمَهَ فَمَشَى وإذا أَظَلَم قَامَ». ثم دكر مرورهم على الصراط على قَدْرِ نُورِهِمْ: الفمنهمُ من يُمُرُّ كَطَرْفِ المَيْنِ، ومنهم مَنْ يَمرُّ كَشَدُ الفَرْسِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدُ على الصراط على قَدْرِ نُورِهِمْ: الفمنهمُ من يُمرُّ كَطَرْفِ المَيْنِ، ومنهم مَنْ يَمرُّ كَالبرقِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدُ الفَرْسِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كَشَدُ وتعلنُ أَلْدِي أَعطيَ نُورَهُ على إيهام قدمهِ يَحْبُو على وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ ورجليهِ تجرُّ مِنْ يمرُّ كَشَدُ الْهُ يَوْلُلُكُ حتى يخلصَ فإذا خَلَصَ وَقَفَ عليها مُمْ قَالَ: الحَمْدُ إِلَهُ لَقَدْ أَعْطَاتِي اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَداً إذ نَجَانِي مِنْها بَعْدَ إذْ رَأَيْهَا فَينْطَلَقُ بِهِ إلى وَقَفَ عليها مُمْ قَالَ: الجَعْدُ فَيْفُولُ اللهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَداً إذ نَجَانِي مِنْهَا بَعْدَ إذْ رَأَيْهَا فَينْطَلَقُ بِهِ إلى قَدِيرَ بَابِ الجَنَّةِ فَيَعْتَسِلُ» (١٠٠).

وقال أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصَّرَاطُ كُحَدٌ السَّيْفِ أَوْ كَحَدُ الشَّعْرَةِ وَإِنْ المَلائِكَةَ يِنجُونَ المؤمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَإِنَّ جِبْرِيلَ عَليْهِ السَّلامُ لآخِذٌ بِحُجْزَتِي وَإِنِّي لأَقُولُ: يَا رَبِّ سَلَّمُ سَلِّمْ فَالرَّالُونَ والزَّالاَّتُ يَوْمَثِذِ كَثِيرٌ" (*).

فهذه أهوال الصراط وعظائمه، فطول فيه فكرك فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة. ولست أعني بالمخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك، ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب، وتعود إلى لهوك ولعبك؟ فما هذا من المخوف في شيء؟ بل من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه. فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته. وأبعد من رقة النساء خوف المحمقي، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة، فقال أحدهم: استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم. وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذتهم، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد. قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه؟ فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغني عنه ذلك من السبع. وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: «لا إله إلا الله صادقاً ومعنى صدقه؛ أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر سوى الله تعالى ولا معبود غيره. ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر

⁽١) حديث ابن مسعود: البجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاءا. قال: وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث بطوله رواه ابن عدي والحاكم، وقد تقدم بعضه مختصراً.

⁽٢) حديث أنس: «المعراط كحد السيف، أو كحد الشعرة. . الحديث، أخرجه البيهةي في الشعب، وقال: هذا إسناد ضعيف قال: وروي عن زياد النميري عن أنس مرفوعاً «المعراط كحد الشعرة أو كحد السيف»، قال: وهي رواية صحيحة ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة.

في نفسه، فإن عجزت عن ذلك كله فكن محباً لرسول الله على تعظيم سننه، ومتشوّقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركاً بأدعيتهم، فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة..

صفة الشفاعة:

اعلم: أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين، بل شفاعة العلماء والصالحين، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه، فكن حريصاً على أن تكتسب لنقسك عندهم رتبة الشفاعة؛ وذلك بأن لا تحقر آدمياً أصلاً، فإن الله تعالى خبأ ولايته في عباده؛ فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله، ولا تستصغر معصية أصلاً؛ فإن الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه، ولا تستحقر أصلاً طاعة؛ فإن الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه؛ ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه.

وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة: قال الله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَخَنَ ﴿ الفَسَى: ٥]. روى عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِ إِنَّهُ مَنْ النَّائِقُ فَنَن يَمْنِي فَإِنَّمُ مِنَافَّةُ وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ عَنُورٌ رَّحِبهُ ﴿ إِلَيه وقال: قامتي أمني ، ثم بكى فقال الله عزّ السلام: ﴿ إِن تُمَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائذة: ١٩٥]، ثم رفع يديه وقال: قامتي أمني ، ثم بكى فقال الله عزّ وجلّ : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سترضيك في أمتك ولا نسوه ك (١٠). وقال ﷺ: ﴿ أَعْطِيتُ خَنساً فِيا جبريل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سترضيك في أمتك ولا نسوه ك (١٠). وقال ﷺ: ﴿ أَعْطِيتُ الشّفاعَة ، وَكُلُّ نَبِي الْفَتَائِمُ وَلَمْ تَحِلٌ لَأَحَدِ قَبْلِي ، وَجُعِلْتُ لِي النّبينِي الْفَتَائِمُ وَلَمْ تَحِلُ اللّهِ عَنْ إِلَى النّسِ عَامَّة هُ (١٠) ، وقال الله عَنْ إِنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله الله عَنْ الله الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله عَنْ الله الله عَنْ الله الله عَنْ الله الله عَنْ الله عَلْ الله عَلْ الله عَنْ الله عَلْ الله عَلْ الله عَلْ الله عَلْ الله عَلْ الله عَلْ ا

⁽١) حديث عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَ أَضْلُنَ كَثِيرًا مِنَ النَايِنَ مَنَ يَعَنى فَإِنَّمُ عَلَا وَلَا إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام. ﴿ إِن تُعَيِّبُمُ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكُ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام. ﴿ إِن تُعَيِّبُمُ عَبَادُكُ ﴾ [المائدة. ١١٨]، ثم رفع بديه، ثم قال. ﴿ أَمْتِي أَمْتِي اللهِ بكى، وفيه: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سرضيك ولا نسوءك في أمتك.

قلت: ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبدالله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبدالله من بعض النساخ.

 ⁽۲) حديث: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي. . . » الحديث، وفيه «وأعطيت الشفاعة»، متفق عليه من حديث جائر:
 «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من فير فخر». أخرجه الترمذي وأبن ماجه من حديث أبي بن كعب. قال الترمذي: حسن صحيح

 ⁽٣) حديث الأنا سيد ولد آدم ولا فخر . . 4 الحديث . أخرجه الترمذي، وقال: حسن . وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري .

مُسْتَجَابَةً فَأَرِيدُ أَن أَختبىءَ دَهْوَتِي شفاعةً لأُمْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ» (١)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: ايُنْصَبُ لِلأَنْبِيَاءِ منابِرُ مِنْ ذَهَبِ فَيَجْلِسُونَ هَليها، وَيَبْقَى مِنْبَرِي لا أَجْلِسُ عليه قائِماً بَيْنَ يَدِي رابِي الله ﷺ وَيَبْقَى مِنْبَرِي لا أَجْلِسُ عليه قائِماً بَيْنَ يَدِي رابِي مَتصباً مخافة أَن يبعث بي إلى الجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمِّتِي بَعْدِي، فَأَقُولُ: يا ربِّ أُمِّيلُ عَنْ يَعْولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلْ عِسَابِهُمْ فَمَا أَرْالُ أَشْفَعُ حتى أَعْطَى وَجَلْ : يا محمدُ ومَا تريدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأَمْتِكَ؟ فَأَقُولُ: يا رَبِّ عَجْل حِسَابِهُمْ فَمَا أَرْالُ أَشْفَعُ حتى أَعْطَى صِكَاكاً برجال قد بُمِثَ بهمْ إلى النَّارِ وحتَّى إنَّ مَالكاً خازِنَ النَّارِ يقولُ: يا محمدُ مَا تَرَكت للنَّار لغضب مِكَاكاً برجال قد بُمِثَ بهمْ إلى النَّارِ وحتَّى إنَّ مَالكاً خازِنَ النَّارِ يقولُ: يا محمدُ ما تَرَكت للنَّار لغضب ربك في أمتك من بَقِيَةٍ الأَكْرَ مِمَّا عَلَى عليه وسلم: "إنِّي الأَشْفَعُ يوم القِيَامَةِ الأَكْرَ مِمَّا عَلَى وَجُو الأَرْضِ مِنْ حَجَرِ وَمَلَو، (٣).

وقال أبو هريرة: أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: ﴿ أَنَا سَيْدُ الْمُرْسَلِينَ يُومُ الْقَيَامَةِ ، وَهُلُ تَدْرُونَ مِمْ ذَلْك؟ يَجْمُعُ اللهُ الأولين والآخرين في صميد واحد يسمعهم الداحي وينفذهم البصر ، وتدنو المشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله تعالى بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغتا؟ فيقول لهم آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته؛ نفسى نفسى! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولونَّ: يا نوح أنت أول الرسل إلَّى أهلَّ الأرض وقد سماكُ الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي؛ نفسي افهبوا إلى غيري افهبوا إلى إبراهيم خليل الله. فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى عليه السلام. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول هيسى عليه السلام: إنّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بمده مثله، ولم يذكر ذنباً؛ نفسي نفسي! اذهبوا إلى غيري

حدیث: «لکل نبی دهوة مستجابة فأرید أن أختبیء دهوتی شفاعة الأمتی بوم القیامة». متفق علیه من حدیث أنس ورواه مسلم من حدیث أبی هریرة.

 ⁽٢) حديث ابن عباس: «ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي
 منتصباً...» الحديث. أخرجه الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت الناني ضعيف.

⁽٣) حديث: فإني الشفع يوم القيامة الأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر». أخرجه أحمد والطبراني من حديث بريدة بسد حسن.

اذهبوا إلى محمد على فيأتون فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآني تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله لي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي أمتي يا رب؟ فقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كما بَيْنَ مَكةً وَجِمْيَرَ أَوْ كَما بَيْنَ مَكَةً وَجِمْيَرَ أَوْ كَما بَيْنَ مَكَةً وَجُمْيَرَ أَوْ كَما بَيْنَ مَكَةً وَجُمْيَرَ أَوْ كَما بَيْنَ مَكَةً

وفي حديث آخر: هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم؛ وهو قوله في الكواكب هذا ربي، وقوله لآلهتهم بل معله كبيرهم هذا، وقوله: إلي سقيم. فهذه شفاعة رسول الله ﷺ، ولآحاد أمته من المعلماء والصالحين شفاعة أيضاً، حتى قال رسول الله ﷺ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةٍ رجل مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رَبِيعَةً وَمُضَرَهُ (٢)، وقال ﷺ: «يُقَالُ لرُجُلِ: قُمْ يا فلانُ فاشفع فيقوم الرَّجلُ فيشفع لِلْقَبِيلَةِ ولِأَهْلِ البيتِ وَللرَّجُلِ وَالرَّجُلِ وَللْمُ

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَسْرِفُ يَومَ القيامَةِ على أَهْلِ النَّارِ فيناديهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ويقولُ: يا فلانُ هَلْ تَعْرِفْتِي؟ فَيَقُولُ: لا واللَّهِ ما أَعرِفْكُ مَنْ أَنتَ؟ فيقولُ: أَنَا الَّذِي مَرَرْتَ بِي فَي اللَّنَيا فاسْتَسْقَيْتُنِي شربة ماءٍ فَسَقَيْتُكَ، قال: قد عَرَفْتُ، قال: فاشْفَعْ لَي بِها عند رَبِّكَ فيسألُ اللَّه تعالى ذكره ويقولُ: إنِّي أَشْرَفْتُ على أَهْلِ النَّارِ قَنادانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِها فقال: هل تعرفني؟ فيسألُ اللَّه تعالى ذكره ويقولُ: أنا الذي استسقيتني في النَّنيا فسقيتكَ فاشفعْ لي عند رَبِّكَ فَشَغْمَنِي فيهِ، فقلتُ: لا مَنْ أَنْتَ؟ فقالَ: أنا الذي استسقيتني في النَّنيا فسقيتكَ فاشفعْ لي عند رَبِّكَ فَشَغْمَنِي فيهِ، فيشَغْمُن فيهُ اللَّهُ فيه فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيَخْرَجُ مِنَ النَّارِ * أَنَا أَوْلُ النَّاسِ خروجاً إذا بُعِنُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إذا وَقَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إذا يَيْسُوا، ثواء الحَمْدِ يومَنْذِ بِيَدِي وَأَنَا أَكُرَمُ وَلَدِ آدَمَ

⁽١) حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ أني بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منه نهشة ثم قال: «أنا سيد الناس. .. الحديث. يطوله في الشفاعة، قال: وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم.

⁽٢) حديث " فيدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر» رويناه في جزء أبي عمر بن السماك من حديث أبي أمامة إلا أنه قال: «مثل أحد الحيين ربيعة ومضر» وديه: فكأن المشيخة برون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان وإسناده حسن وللترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبدالله بن أبي الجدعاء: «يدحل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم». قالوا: سواك، قال. «سواي» قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح، قبل: أدد بالرجل أوساً.

⁽٣) حديث: «يقال لرجل: قم يا قلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد «أن من أمني من يشفع للفتام ومنهم من يشفع للقبيلة...» الحديث. قال: حسن. وللبزار من حديث أنس: «أن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة».

⁽٤) حديث أنس: ﴿إن رجلاً من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول: يا قلان هل تمرقني؟ فيقول: لا والله ما أهرقك من أنت؟ فيقول: أنا الذي مررت بي في الغنيا يوماً فاستسقيتني شربة فسقيتك...» الحديث. في شفاعته فيه وإخراجه من النار، أخرجه أبو منصور الديلمي في مستد الفردوس بسند ضعيف.

عَلَى رَبِّي ولا فَلِحُرَ» (١٠). وقال رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي أقومُ بِينَ يَدَيْ رَبِّي عَرِّ وَجَلْ فَأَكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الجَنَّةِ ثم أقومُ عن يمينِ العَرْشِ ليسَ أَحَدٌ مِنَ الخلائِقِ يقُومُ ذلك المقامَ غَيْرِي ۚ (١٠).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً إنّ الله عزّ وجلّ اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً! وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليماً! وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه! وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم ﷺ فسلم وقال: «قَدْ سَمِغتُ كلامَكُمْ وَتَعَجَّبُكُمْ إِنَّ إبراهيم خليلُ اللّهِ وَهُو كَذْلِكَ، وَمُوسَى نَجِيُّ اللّهِ وَهُو كَذْلِكَ، وَعِيسى روحُ اللّه وَكَلِمَتُهُ وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله تمالى وهو كذلك، ألا وأنا حبيبُ الله ولا فَخْرَ، وأنا حامِلُ لواهِ الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّلُ شافع وأول مُشَفَّع يوم القيامة ولا فَخْرَ، وأنا أوّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حلقَ الجَنَّةِ فيفتحُ اللّهُ لِي فأدخلها ومعي فقراء المُؤمِنِينَ ولا فَخْرَ، وأنا أكرمُ الأولينَ والاَجْرِينَ وَلا فَخْرَ، فَا المُؤمِنِينَ ولا فَخْرَ، وأنا أكرمُ الأولينَ والاَجْرِينَ وَلا فَخْرَ، "

صفة الحوض:

 ⁽١) حديث أنس: (أنا أول الناس خروجاً إذا يعثوا. . ٩ الحديث أخرجه الترمذي. وقال: حسن غريب.

 ⁽٢) حديث: الفأكسى حلة من حلل اللجنة ثم أقوم عن يمين العرش. . . اللحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن غريب صحيح.

 ⁽٣) حديث ابن عباس: اجلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم، فقال بعضهم عجباً: إن الله اتحذ من حلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً. . . الحديث رواه الترمذي وقال: غريب.

 ⁽³⁾ حديث أنس: أغمي رسول الله ﷺ إعفاءة فرفع رأسه متبسماً، فقالوا له: يا رسول الله، لم ضحكت؟ فقال: (آية نزلت هلي آنفاً». وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْلَيْنَاكَ ٱلْكَوْنَرُ ﴿إِنَّا آَنْمَالِيَنَاكَ الْكَوْنَرُ رَبُّ ﴾ [الكوثر: 1]، رواه مسلم.

 ⁽٥) حديث أنس: قبينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف. . . ؟ الحديث. أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح ورواه البخاري من قول أنس: قلما عرج بالنبي الله إلى السماء. . . ٤ الحديث، وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي الله

⁽١) حديث أنس: قما بين الأبتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وهمان، رواه مسلم.

وروى ابن عمر: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا آَعَطَيْنَكَ ٱلْكُوْثَرَ ﴿ آلَهُ اللّهُ وَالْمَرْجَانِ اللّهُ عَلَى الْمُسَلِّ وَالْحَلَى مِنَ الْعَسَلِ وَالْحَلِي الْمُعَلِّ وَالْمَرْجَانِ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللّهُ الللهُ الللهُ الللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللّهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ الللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ الللهُ اللهُ اللهُ

وعن أبي ذرّ قال: قلت يا رسول الله: ما آنية الحوض؟ قال: قوالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا فِي اللَّهَاةِ المُطلّمةِ المُضْحِيَةِ، مَنْ شَربَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأ. آخِر ما عَلَيْهِ يشخبُ فيهِ من الجنةِ عَرْضُه مثلُ طُولِهِ ما بينَ مُمَانَ وَأَيْلَةَ، ماؤهُ أَشدُّ بِياضاً مِنَّ النَّبِن وَأَخْلَى مِنَ المَسَل، (٣٠).

وعن سمرة قال: قال رسول الله على: ﴿إِنَّ لِكُلِّ نَبِي حَوْضاً وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهُونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وإنِّي لاَرْجُو أَن أَكُونَ أَكْفَرَهُمْ وَارِدَةٌ (أُن بكون في جملة لواردين، وليحذر أن يكون متمنياً ومغتراً وهو يظن أنه راج، فإن الراجي للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد. فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنفية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراحين في شيء، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى. نعوذ بالله من الغرور والخفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَشَرَنَكُمُ ٱلْمَيُونُ ٱلدُّيْلَ وَلاَ يَنْرَدُكُ التَّهُ الذَّيْلَ وَلاَ يَشَرَادُ بِاللهُ اللهُ اللهُ تعالى: ﴿ فَلَا تَشَرَادُ بِاللهُ أَن يُلْكُونُ الدُّيْلَ وَلاَ يَشَرَادُ فِي اللهُ اللهُ عَمالَى: ﴿ فَلَا تَشَرَادُ بِاللهُ أَن يُلِكُونُ الدُّيْلَ وَلاَ اللهُ تعالى: ﴿ فَلَا تَشَرَادُ بِاللهُ أَن يُلِكُونُ الدُّيْلَةُ الدُّيْلَ وَلاَ اللهُ عَمالَى: ﴿ فَلَا تَشَرَادُ بِاللهُ أَنْ اللهُ عَمالَى اللهُ عَمالَى اللهُ عَمَالَى اللهُ ال

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها:

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿ وَلِن يَسَكُمُ إِلَّا وَارِدُهَا كُنَ كُلُ وَلِكَ حَتْمًا مَقْضِبًا ۞ ثُمَّ نُنَتِى الَّذِينَ التَّقَوْ وَنَذَرُ الظّلِيرِينَ فِيهَا جِئِيًّا ۞ [مريم: ٧٢،٧١]. فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك. فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك

⁽١) حديث ابن عمر: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْلَبْنَكَ ٱلْكُوتُـرَ ﴿ الْلَكُوتُر: ١] قال رسول الله ﷺ: دهو نهر في الجنة حافتاه من ذهب. . . ٩ الحديث, أخرجه الترمذي مع اختلاف لفظ وقال: حسن صحيح ورواه الدارمي في مسنده وهو أقرب إلى لفظ المصنف.

 ⁽٢) حديث ثوبان: (إن حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء. . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب وابن ماجه.

⁽٣) حديث أبي فر: قلت يا رصول الله ما آنية الحوض؟ قال: اوالذي نفسي بيده الآنيته أكثر من عدد نجوم السماء...» الحديث، رواه مسلم.

⁽٤) حديث سمرة: «إن لكل نبي حوضاً وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة. . . ٤ الحديث. أخرجه الترمذي وقال: غريب. قال: وي الأشعث بن عبدالملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي على المسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح.

تستعدُ للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدَّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البراء من سوء المنقلب. وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان، المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشُّديد، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولُون له: ﴿ ذُنِّقَ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَنْزِيرُ ٱلْكَرِيمُ ۞ [الذَّخان: ٤٩] فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرّهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها؛ يا مالك، قد حق علينا الرعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نصحت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الزمانية: هيهات لات حين أمان! ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون؛ فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا يتجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين. النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقي في التار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلحلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل. ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أقواههم وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شمورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، قد عرّيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون! فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سوّدت وجوههم أشد سواداً من الحميم. وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم. وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب التار سارٍ في بواطن أجزائهم، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، هذا بعض جملة أحوالهم.

وانظر الآنُ في تفصيلُ أهرالهم وتفكر أيضاً في أودية جهنم وشعابها، فقد قال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعينَ ٱلفَ وَادِ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ ٱلفَ شِغْبِ فِي كُلِّ شِعْبِ سَبْعُونَ ٱلْفَ ثُعْبَانٍ وَسَبْعُونَ ٱلْفَ عَقْرَبِ لا يَنْتَهِي الكافِرُ وَالمُنَافِقُ حَتَّى بُواقع ذلك كُلَّهُ (١٠)، وقال على كرم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا

⁽١) حديث سمرة بن جندب: «إن في جهنم سبعين ألف واد كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمتافق حتى يواقع ذلك كلفه لم أجده هكذا بجملته، وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب.

باللّهِ مِنْ جُبُ الحزنِ - أَوْ وَادِي الحزنِ القبل: يا رسول الله، وما وادي - أو جب - الحزن؟ قال: اوَإِدِ فِي جَهَنّمَ تَتَعَوَدُ مِنهُ جَهِنمُ كُلَّ يوم سبعينَ مرَّةً أَعَلَهُ اللّهُ تعالى لِلْقُرَّاءِ المُرَاتِينَ (')، فهذه سعة جهنم وانشعاب أودينها وهي بحسب عدد أودية للذنيا وشهواتها. وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض؛ الأعلى جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية فانظر الآن في عمن الهاوية فإنه لا حدّ لعمقها كما لا حدّ لعمق شهوات الدنيا، فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها. قال أبو هريرة: كنا مع رسول الله عَلَى الله الله على قال: الله ورسوله أعلم، قال: «لهذا حجَرّ أَرْسِلَ فِي جَهَلُمْ منذُ سبعينَ علما الآنَ النّتهي إلى قَعْرِهاه (۲).

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان، بل لكل واحد حدِّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه. قال رسول الله ﷺ: "إن أذنى أهل النار عفاباً يوم القيامة ينتعلُ بنعلين مِن قار يَغلِي من شدة ما هو فيه. والمر أن فانطر الآن إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه. ومهما تشككت في شدة عذاب النار فقرب أصبعك من التار وقس ذلك به. ثم اعلم أنك أخطأت في القياس؛ فإن نار الدنيا لا عذاب النار عوف عذاب جهنم بها وهيهات! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هرباً مما هم فيه. وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قبل: "إن نار العنيا فسلت بسبعين ماء من مياء الرحمة حتى أطاقها أهل الدنياة (أن بل صرح وجد أهل الغنيا فقال: "أمَرَ اللّهُ تعالى أنْ يُوقَدَ على الثار الفَ عام حتى احمرت، ثمَّ أَوْقِدَ رسول الله تشي بصفة نار جهنم فقال: "أمَرَ اللّهُ تعالى أنْ يُوقَدَ على الثار الفَ عام حتى احمرت، ثمَّ أَوْقِدَ على الثَّار إلى ربّها فقالت: يا ربّ أكلَ بَعْضِي بعضاً قانِنْ لها في تَقسَينِ تَفَس في الشّتاء، وتَفَسٍ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّيْف، فَأشَدُ ما تَجِدُونَهُ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّيف، فَأشَدُ ما تَجِدُونَهُ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّتَاء، وتَفَسُ في الشّتَاء، وتَفَسٍ في الشّيفِ، فَأشَدُ ما تَجِدُونَهُ في الشّتَاء، وتَفَسُ في الشّتَاء، وتَفَسُ في الصّيف، وتَفَسُ في الشّتَاء، وتَفَسُ في الشّيف مَن حُرْها وأشَد ما تَجِدُونَهُ في الشّتَاء، وتَفَسُ في الشّتَاء، وتَفْسُ في الشّتَاء، وتَفْسُ في الشّتَاء، وتَفْسُ في الشّتَاء، وتَفْسُ اللّه ا

⁽١) حديث علي: «تعوذوا بالله من جب المعزن - أو وادي المحزن . . .) الحديث . رواه ابن عدي بلفظ الوادي الحزن وقال وقال : عربب وابن ماحه من حديث أبي هربرة بلفظ: «جب الحزن، وضعفه ابن عدي وتقدم في ذم الجاء والرياء .

 ⁽٢) حديث أبي هريرة: «كنا مع رسول ألله ﷺ فسمعناً وجبة... الحديث. وفيه: (هذا حجر أرسل في جهنم...)
 الحديث. رواه مسلم.

حديث: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة من ينتعل بنعلين من نار. . ؟ الحديث. متفق عليه من حديث النعماد بن بشير.

⁽٤) حديث: (إن قار الدنيا فسلت بسيعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا، ذكر ابن عبدالبر من حديث ابن عباس: (وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد، وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف: (وما وصلت إليكم، حتى أحسبه قال: (نضحت بالماء فتضيء طليكم».

⁽٥) حديث: «أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت. . .) الحديث. تقدم.

 ⁽٦) حديث: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين. . » الحديث. متفق عليه من حديث أبى هريرة.

كتاب ذكر الموت وما بعده

وقال أنس بن مالك: يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار فيقال: اغمسوه في النار غمسة ثم يقال له: هل رأيت نعيماً قط فيقال: لا. ويؤتى بأشد الناس ضراً في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة ثم يقال له: هل رأيت ضراً قط؟ فيقول: لا. وقال أبو هريرة: لو كان في المسجد ماثة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا. وقد قال بعض العلماء في قوله: ﴿ تَلْنَحُ وَجُومَهُمُ النَّارُ ﴾ [المؤمون: ١٠٤] إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته عند أعقابهم.

 ⁽١) حديث أبي سعيد الخدري: (لو أن دلواً من فساق ألغي في الدنيا الأنثن أهل الأرض) أخرجه الترمذي وقال: إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف.

 ⁽۲) حديث ابن عباس الله أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أنسدت على أهل الأرض معاشهم. ١٠٠٠ الحديث الخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجة .

⁽٣) حديث أنس: الرغبوا فيما رغبكم فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من هذاب الله وهقابه من جهنم. . . الحديث . لم أجد له إسناداً .

إِلَّا فِي صَلَالٍ ﴿ ﴾ [غانر: ٥٠،٤٩] قال: ﴿ فَيَقُولُونَ ادْعُوا مَالِكاً فيدعونَ فَيَقُولُونَ: ﴿ يَنَابِكُ لِنَفِي عَلَيْنَا وَرَبُّكُمُ عَلَيْنَا وَيُعَالِنُونَ الْأَعُوا مَالِكاً فيدعونَ فَيَقُولُونَ: ﴿ يَنَابِكُ لِيَفُونَ عَلَيْنَا وَيُونَا ﴿ كَا مُنْ اللَّهُ مَا كِفُونَ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنُ اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنِ اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنِ اللَّهُ عَلَيْنَا عَلَيْنَا عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنِ اللَّهُ عَلَيْنِ عَلَيْنَا عَلَيْنَالِ عَلَيْهُ لَكُنُونَ عَلَيْنَاكُمُ عَلَيْنَا عَلَيْنَ عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْنَالِكُ عَلَيْكُ إِلَّا عَلَيْنَا عَلَيْنَا اللَّهُ عَلَيْكُمُ عَلَيْنَا عَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْنِ عَلَيْنِ عَلَيْنِ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُونَ اللَّهُ عَلَيْنَا عَلَيْنَا عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلْمُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُونُ وَاللَّهُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُولُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمُ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَيْكُمْ عَلَي

قال الأعمش: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال: فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيعقولون: ﴿ رَبّنَا عَلَبَتَ عَلَيْمَا شِفْرَتُنَا وَكُنّا فَرْمًا صَآلِينَ ﴿ وَلِنّا مَنْمَ اللهُ عَلَمْ اللهُ اللهُ وَمَا صَآلِينَ ﴾ المومنون: ١٠٧،١٠٦ قال: فيجيبهم: ﴿ قَالَ أَخَنُواْ فِهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ المدومنون: ١٠٧،١٠٦. قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل، وقال أبو أمامة: قال رسول الله عَنْ في قوله تعالى: ﴿ وَلُمْ قَلْ مِن مّالَةٍ صَكِيلٍ ﴿ اللهُ يَنْجَرّعُهُمُ وَلا يَكُلُهُ وَلا اللهِ أَمامة عَلَى اللهُ عَنْ مَا أَوْنُ مِنْ اللهُ وَمُحَلِيلًا اللهُ عَنْ وَوَهُ رَأْسِهِ. فَإِذَا شَرِيهُ قَطْعَ أَمَامَهُ حَتَّى اللهُ اللهُ تعالى: ﴿ وَلُمْ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ

فانظر الآن إلى حيات جهتم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغربت بهم، فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة! قال أبو هريرة: قال رسول الله على أهلها وأغربت بهم، فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة! قال أبو هريرة: قال رسول الله على أخَذُ له وَيَهَ الله عالاً فَلَمْ يُؤَدُ زَكَاتَهُ مُثَلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعاً أَثْرَعَ لَهُ رَبِيبَنَانِ يَطَوْقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمْ يَأْخُذُ بِلهَازِمِهِ يعني أشداقه _ فَيَقُولُ: أنا مَالُكُ أنّا كَنْزُك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَلا يَمْنَبُنَ النَّهُمُ الله ين فَشَاهِ مِن فَشَاهِ مِن النَّالِ عِمران: ١٨٠] الآية (٢٠ وقال الرسول على النَّالِ فِي النَّالِ عِمران: ١٨٠) الآية (٢٠ وقال الرسول على النَّالِ المُوكَفَةِ يَلْمَعْنَ اللَّهُ عَنْ اللَّهُ عَلَى مَنْ سُلُطَ على مَنْ سُلُطَ عليه فِي يَلْمَعْنَ اللسعة فيجدُ حموتها أربعين خريفاً وَهُبِهِ الحَيَاتِ وَالعَقَارِبُ إِنَّما تُسَلَّطُ على مَنْ سُلُطَ عليه فِي النَّالِ المُوكَفَةِ النَّالِ وَمَنْ وُقِي ذَلِكَ وُقِي هٰذه الحَيَاتِ قَلَمْ تَمْثُلُ لَهَ الله عَلَى مَنْ سُلُطَ عليه فِي النَّالِ مِثْلُ الله عَلَى مَنْ سُلُطَ عليه عَن الله الله عَلَى مَنْ الله عليه عَلَى يَزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: هَنْ عَنْهُ السُّقُلُ سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ خَطَتْ وجْهَهُ الله وقال عليه السلام: رسول الله ﷺ: «شَقَتُهُ السُّقُلُى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ خَطَتْ وجْهَهُ وَالله وقال عليه السلام:

⁽١) حديث أبي الدرداء "فيلقى على أهل النار البعوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام». الحديث. أحرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال الدارمي والناس لا يعرفون هذا الحديث، وإنما روي عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله.

 ⁽۲) حديث أبي أمامة: في قوله تعالى، ﴿وَرُمْنَقَن بِن مَّأَوْ سَكِيْلُو ﴿ اللَّهِ بَنْجَرَّمُمُّهُ وَلَا يَحَكُّادُ بُيسِئُهُ ﴾ [إبراهيم: ١٧،١٦]
 قال: يقرب إليه... الحديث أخرجه الترمذي وقال: غريب.

 ⁽٣) حديث أبي هريرة: قمن آتاه الله مالاً قلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاهاً أقرع. . . » الحديث . أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وإمسلم من حديث جابر تحوه.

⁽٤) حديث: «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسمن اللسعة. . . » الحديث. أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبدالله بن الحارث بن جزة.

 ⁽٥) حديث أبي هريرة: «ضرس الكافر في المنار مثل أحد. . . ٤ الحديث، رواه مسلم.

 ⁽٩) حديث: «شفته السفلي ساقطة على صدره والعليا قالصة قد خطت وجهه» أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال:
 حسن صحيح غريب.

النّ الكَافِرَ لَيَجُرُ لِسَانَهُ فِي سِجُين يَوْمَ القِيَامَةِ يَتَوَاطُوهُ النّاسُ (١) ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدّد جلودهم ولحومهم. قال الحسن في قوله تعالى: ﴿ كُلّا نَضِهَتُ جُلُودُهُم بَدَّلَتُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النّساء: ٥٦] قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا.

ثم تفكر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور، فإن ذلك يسلط عليهم في أوّل إلقائهم في النار قال رسول الله ﷺ: ﴿ يُؤْتِّى بِجَهَنَّمْ يَوْمَثِلْ لِهَا سَبَعُونَ ٱلْفَ زَمَامٍ مَعَ كُلّ زَمَام سَبْعُونَ ٱلْفَ مُلَكِ»(٢) ، وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: وَيُوْسَلُ حَلَي أَهْلِ النَّارِ البُكَاءُ فيبكُونَ حتى تتقطُّعَ الدُّموعُ ثم يبكِونَ الدُّمَ حنى يُرَى في وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأُخْلُودِ لُوْ أَرْسِلَتْ فِيهَا السُّفُنُ لَجَرَتْ وما دام يُؤْذُنُ لَهُمْ فِي البُكَاءِ وَالشَّهِيقِ وَالزَّفِيرِ وَٱلدَّعْوَةِ بِالوَّيْلِ وَالثَّبُورِ فَلَهُمْ فِيهِ مُسْتَروَحٌ وَلْكِنَّهُمْ يُمْنَعُونَ أيضاً مِنْ لَٰذِكَ ۗ (٣) ، ۚ قالْ محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عزّ وجلُّ في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون: ﴿رَبُّنَا أَشَنَا آلْشَايَنِ وَأَحْبَيْتَنَا ٱلْنُنَايُّنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلَ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلِ﴾ [غانر: ١١] فيعول الله تعالى مجيباً لهم: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُۥ إِذَا دُعِي اللَّهُ وَخَدَمُ كَفَرْتُدْ وَإِن بَّشْرَكَ بِهِ. تُؤْسُؤاْ فَأَلْحُكُمْ لِلَّهِ ٱلْعَبَلِي ٱلْكَبِيرِ ۞﴾ [غـانـــر: ١٧] ثــم يــقــولــون: ﴿رَنَّنَا أَخِرْنَا إِلَّتِ أَحَكِلِ قَرِب ثُجِبْ دَعْوَنَكَ وَنَشَجِعِ ٱلرُّسُلُّ﴾ [إبراهبم: ٤٤] فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَفْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالِ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيقولون: ﴿ رَبُّنَا ۚ أَخُرِهُنَا نَعْمَلُ مِنْلِمًا غَيْرَ أَلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧] فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوْلَر نْمَيْرَكُم مَا يَنذَكُرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَيَمَاءَكُمُ ٱلنَّـذِيرُ﴾ [فسلمر: ٣٧] شم يسفسولسون: ﴿قَالُوا رَبُّنَا غَلَبَتَ عَلَيْسَنَا شِفْرَتُنَا وَكُنَّا فَوْمًا مَنَالِينَ ﴿ رَبُّنَّا لَغَرِجْنَا يِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَلِلْتُونَ ﴾ [السومنون: ١٠٧،١٠٦] فيجيبهم الله تعالى: ﴿ قَالَ الْمُسَوُّا فِهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المومنون: ١٠٨] فلا يتكلمون بعدها أبداً وذلك غاية شدّة العذاب. قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سَوَآءُ عَلَيْتَنَا ۚ أَجَرِعْنَاۚ أَمْ صَكَرَا مَا لَنَا مِن مَجِمِينِ﴾ [إبراهيم: ٢١] قال: صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا: ﴿سَوَآةُ عَلَيْسِنَا ۚ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ [ابراميم: ٢١]، وقال ﷺ: ﴿يُؤْمِّي بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنه كَبْشُ أَمْلُحُ فَيُذَّبَحُ بِينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيَعْالُ: يَا أَهُلَ الجَنَّةِ خَلُودٌ بِلا مَوْتِ وَيَا أَهُلَ النَّارِ خَلُودٌ بلا مَوْتٍ، (٤). وعن الحسن قال: يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتني كنت ذلك الرجل. ورثي الحسن رضي الله صنه جالساً في زاوية وهو يبكي فقيل له: لم تبكي؟ فقال: أخشى أن يطرحني في النَّار ولا يبالي.

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة، وتفصيل عمومها وأجزاتها ومحنها وحسرتها لا نهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة: فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى

حديث: (إن الكافر ليجر ئساته قرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس؛ أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال. غريب وأبو المخارق لا يعرف.

 ⁽۲) حديث: فيؤتى بجهتم يومثل لها سيعون ألف زمام. . . ٩ الحديث. أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود.

 ⁽٣) حديث أنس: اليرسل على أهل النار البكاء فبيكون حتى تنقطع اللموع. . . ٤ الحديث. أخرجه ابن ماجه من رواية الرقاشي عن أنس، والرقاشي ضميف.

⁽٤) حديث: الهوتي بالموت بوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح الخرجه المخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد، وقد تقدم.

وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياماً قصيرة وكانت غير صافية، بل كانت مكذرة منفصة فيقولون في أنفسهم: واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا؟ وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياماً قلائل، ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان؟ فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها، ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تفظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم، فقد قال رسول الله على: المؤتى يوم القيامة بناس مِنَ النّارِ إلى الجنّة خيّى إذا نَنوا مِنها وَاسْتَنشَقُوا رَائِحَتها وَنَظَرُوا إلى قُصُورها وإلى ما أَعَدُّ اللهُ لأَهْلِها فيها لُودُوا أنِ اصروقُوهُمْ عَنْها لا تُعِيبَ لَهُمْ فِيها فَيَرْجِعُونَ بِحسرة ما رَجَعَ الأولونَ والآخرُونَ بعِئْلِها، فَيَقُولُونَ: يا رَبّنا أَل الْجَنّة النّارَ قبلُ أَنْ تُربَنا ما أَربتنا من ثوابكَ وما أَعَدُث فيها لأوليائك كان أَهْوَنَ عَلَيْنا، فيقولُ اللهُ تعالى: ذلك النّارَ قبلُ أَنْ تُربّنا ما أربتنا من ثوابكَ وما أَعَدُثت فيها لأوليائك كان أَهْوَنَ عَلَيْنا، فيقولُ اللهُ تعالى: ذلك النّرَتُ بِكُمْ مُنْتُم إلنَّامِ وَلَمْ تَهَابُونِي وَأَجْلَلْمُ النّاسَ لَقِينَهُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُواقُونَ النّاسَ بعلاقِ النّاسَ فينه ينه الله الله ولم تُجلوني وَتَرَكْتُمْ لِلنّاسِ وَلَمْ تَعْرُقُوا لِي النّاسَ لَقِينَهُوهُمْ مُخْبِتِينَ تُواقُونَ النّاسَ بعلاقِ النّابِي على على حرّ شمسك فكيف طي السالم على على حرّ شمسك فكيف صبي على حر شمسك فكيف على صوت عذابك؟ .

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرُهُمْ يَوْمَ لَلْمُسْرَةِ إِذْ شُوىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يَنْفِسُونَ وَأَنْ يُوْمَ لَلْمُسْرَةِ إِذْ شُوى ٱلأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَمُ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴿ وَأَنْذِرُهُمْ يَوْمَ القيامة ، بل في أرل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك!.

فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كلاً ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضيً عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَيْرَارَ لَنِي نَبِيهِ ﷺ وَإِنَّ اللَّيْرَارَ لَنِي نَبِيهِ ﴾ [الانهطار: ١٤،١٣] فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم.

القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها:

اعلم: أن تلك الدار التي هرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى. فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال

 ⁽۱) حديث: قيؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها. . . الحديث. رويناه في
 الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هدية هالك.

الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم، فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر، متكثين على أراثك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان؛ كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان، إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار، مكلللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان، قاصرات الطرف عين، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون، في مقام أمين في جنات وعيون، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة، بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً في أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من وراثه برقته وحمرته، لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته، في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه. فيا عجبًا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها؟ والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها! وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته؛ كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرير ممتعون، لهم فيها كل ما يشتهون، وهم في كل يوم بقناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون، وهم من زوالها أمنون. قال أبر هريرة: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ إِنْ تَصِحُوا فَلا تَسْقَبُوا أَبْدَأُ وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فلا تَمُونُوا أَبْداً وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلا تَهْرَمُوا أَبْداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبَداً: فَذَلْكُ قُولُهُ عَزْ وَجَلّ : ﴿ وَنُودُوٓا أَن يَلَكُمُ لَلَكُمُ لَلَكُمُ لَلَكُمُ لَلْكُمُ لَكُمْ لَا اللّهُ اللّهُ وَالْعَرَافِ: ٤٣] (١٠).

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله

⁽١) حديث أبي هريرة: البنادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً. . . الحديث أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد.

كتاب ذكر الموت وما بعده

تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانِ ۞﴾ [الرَّحلن: ٤٦] إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور، وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها، وتأمل أوّلاً عدد الجنان. قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَّنْ عَافَ مَقَامٌ رَبِّهِ حَنَّانِ ﴿ [الرُّحَمْن. ٤٦] قال: فجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدنه(١٠)، ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصى.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَينِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ كُلُّها وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةً أَبْوَاب، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْصَّلاّةِ، وَمَنْ كَانُ مِنْ أَهْلِ الصَّيَام دُهِيَ مِنْ بَابِ الصَّيامِ، وَمَٰنْ كَانَ مَنَ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، ومن كان من أهل الجَهاد دعيَّ من باب الجُهاده. فقال أبو بكر رضي أنه عنه: والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: النعم، وأرجو أن تكون منهم، (*).

وعن عاصم بن ضمرة عن على كرم الله وجهه: أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكراً لا أحفظه ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّفَوَّا رَبُّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمُرًّا﴾ [الزُّمر: ٧٠] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبداً، ولا تشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها: ﴿ سَلَنَّمُ عَلَيْكُمْ طِنْتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣] ثم تلقاهم الوالدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة، يقولون له: أبشر أعدّ الله لك من الكرامة كذا، قال: فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: قد جاء فلان ـ باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا ـ فتقول: أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته وهو بأثري، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيائه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق، ولولا أن الله تعالى قدَّره لألم أن يذهب بصره، ثم يطأطىء رأسه فإذا أزواجه ﴿وَأَكُوبَ مَّوْشُوعَةً ۞ وَغَارِقُ مَصْفُونَةً ۞ وَزَرَائِيُّ مَبْثُونَةً ۞﴾ [الفاشِيَة: ١٤-١٦] ثم انكا فقال: ﴿ اَلْحَدْدُ بِلَّهِ الَّذِي هَدَمْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِبَهْنَدِي لَوْلَا أَنَّ هَدَننَا اللَّه ﴿ الْامْرَاف: ٤٣] ثم ينادي مناد: تحيون فلا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تظعنون أبداً، وتصحون فلا تمرضون أبداً، وقال رُسول الله ﷺ: اِآتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بابَ الجَنَّةِ فَأَسْتَغْثِحُ فَبَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدُ فَيَقُولُ: بِكَ أَمِرْتُ أَنْ لا أَفْتَحَ لأَحَدِ قَبْلَكَ، (٣).

ثم تأمل الآن في غرف البعنة واختلاف درجات العلو فيها، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر

١١) حديث: «جنتان من فضة آنيتهما،وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما. . .> الحديث. متفق عليه من حديث آبی موسی.

حديث أبي هريرة: قمن أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دهي من أبواب البجنة. . . 4 الحديث. متفق عليه.

حديث: «أتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت فأقول محمد. . . الحديث. أخرجه مسلم من حديث أنس.

تفضيلاً. وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر، فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓا إِنَّ مَنْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُرٌ ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى: ﴿ وَفِي ذَالِكَ مُلِيَّنَاهِ مِن ٱلْمُنْكَفِسُون﴾ (المعلقفين: ٢٦) والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها، فقد قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ فَوْقَهُمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الغائِرَ فِي الأُفِّقِ مِنَ الْمَشْرِقِ إلى المَغْرِبِ لتَفَاضُل ما بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله، ثلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: ﴿بَلَى وَالَّذِي تَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ (١)، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَهْلَ السُّرَجَاتِ العُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كُمَا تَرَوْنَ النَّجْمَ الطَّالِع في أَفْقِ مِنْ آفاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرِ وَحُمَرَ مِنْهُمْ وَالْمَمَا ﴾ (٢)، وقال جابر: قال لنا رسول الله على: ﴿ أَلَا أَحَلُثُكُمْ بِغُرَفِ الجَنَّةِ ﴾ قال: قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليك، بأبينا أنت وأمنا قال: ﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً مِنْ أَصْنَافِ الْجَوْهَرِ كُلُّهُ يُرَى ظَاهِرُها مِنْ بَاطِنها وَباطِئها مِنْ ظَاهِرِهَا وَفيها مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسُّرُورِ ما لا عَيْنُ رَأْتُ وَلا أَذَنَّ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرِه قال: قلت: يا رسول الله، ولمن هذه الغرف؟ قال: ﴿لِمَنْ أَفْشَى السَّلامَ وَأَطْمَم الطَّمَامَ وَأَذَامَ الصَّيَامَ وَصَلِّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاس نِيامٌ، قال: قلنا: يا رسول الله، ومن يطيق ذلك؟ قال: ﴿أُمَّتِي تُطِيقُ ذَٰلِكَ وَسَاخْبِرَكُمْ عَنْ ذَٰلِكَ. ۚ مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدٌّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى السَّلامَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِبَالَهُ مِنَ الطَّمَامَ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطُّعَامَ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَمَنْ كُلِّ شَهْرٍ ثُلالَةَ أَيَّام فَقَذْ أَدَامَ الصّيَامَ، وَمَنْ صَلَّى العِشَاءَ الآخِرَةَ وَصَلَّى الغَلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ٣٠٠، يعنِّي اليهودُ والنصاري والمجوس. وسئل رسول الله عن قوله: ﴿وَمَسَاكِنَ كَلِيَّـبُّهُ فِ جَنَّاتٍ عَلَابُ ۗ [الثَّرَبَّة: ٧٧] قال: ﴿قُصُورٌ مِنْ لُؤلُو، فِي كُلِّ قَصْرِ سبعونَ داراً مِنْ ياقوتِ أَحْمَرَ، في كلِّ دارِ سبعونَ بيتاً من زُمُرُّدِ أَخْضَرَ، في كُلِّ ببت سَرِيرَ، على كلِّ سريرٍ سبعونَ فِراشاً مِنْ كلِّ لَوْنٍ، على كُلِّ فِرَاشٍ رَوجةٌ مِنَ الحُورِ العِين، في كلُّ بيتِ سبعُونَ ماثلةً. على كُلُّ ماثلةِ سبعونَ لوناً مِنَ الطُّعَام، فِي كلُّ بيتِ سبعونَ وَصِيفَة، وَيُغْطَى المُؤْمِنُ فِي كُلِّ خَدَاةٍ _ يعني من القوّة _ ما يأتي على ذَٰلِكَ أَجْمَعَهُ (١٠٠٠).

حديث أبي سميد: «إن أهل اللجنة ليترامون أهل الغرف قوقهم كما ترامون الكوكب. . . ، الحديث. متفق علبه، وقد

حديث: ﴿إِنْ أَهِلَ القرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطائع؛ رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من **(Y)** حديث أبى سعيد.

حديث جاءر: «ألا أحدثكم بغرف الجنة» قلت: بلي يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا قال: «إن في الجنة فرفاً من أصناف الجوهر. . . ٤ الحديث. أخرجه أبو نميم من رواية الحسن عن جابر.

حديث: منثل عن قوله تعالى: ﴿وَمُسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّتِ عَنْنِ﴾ [التوبّة: ٧٧] قال: قصور من ثؤلؤ . . . الحديث. أخرجه أبو الشيخ بن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولم يصح، والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم، والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور.

صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها:

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضاً عنها فقد قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ حَائِطَ الجَنَّةِ لَبِّنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِّنَةٌ مِنْ فَعَب تُرَابُهَا زَضْفَرَانَ وَطِيتُها مِسْكَه (١)، وسئل ﷺ عن تربة الجنة فقال: هنزمكة بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ (٢)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: امْنُ شَرَّه أَنْ يَسقِيَهُ اللَّهُ عَرُّ وَجَلُ الخَمْرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَتْرُكُها فِي الدُّنْيا، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوهُ اللَّهُ الحَرِيرَ فِي الآخِرَةِ فَلْيَنْرُكُهُ فِي الذُّنْيا، (٣)، وقال: ﴿أَنْهَارُ الجَنَّةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ تَحْتِ تِلال - أَوْ تَحْتَ جِبَالِ ـ المِسْكِ(٤٠)، ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله هز وجلٌ به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها، (٥)، وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يُسيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلُّها مِاتَّةَ عَام لا يَقْطَعُها اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ وَظِلْ مَمْدُودِ ۞﴾ [الوافِعَة: ٣٠]، وقال أبو أمامة: كان أصحاب رسوّل الله ﷺ يقولون: إنَّ الله عزَّ وجلَّ ينفعنا بالأعراب ومسائلهم؛ أقبل أعرابي فقال: يا رسول الله، قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أدري أنَّ في الجِنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿مَا هِيَ؟﴾ قال: السدر فإن لها شوكاً، فقال: ﴿قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فِي سِدْرٍ غُضُورٍ ۞ ﴾ [الواقِعَة: ٧٨] يَخْضُدُ اللَّهُ شَوْكَهُ فَيَجْعَلُ مَكَانٌ كُلُّ شَوْكَةٍ فُمَرَةً ثُمُّ تَثْفَتِقُ الشَمَرَةُ مِنْهَا عَنُ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْناً مِنَ الطُّمَام ما مِنْها لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ^{،(٧)}. وقال جرير بن عبدالله:` نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه، فقلت للغلام: انطلق بهذا النطع فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال: يا جرير، تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة، هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري! قال: ظلم الناس بعضهم بعضاً، ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من صغره فقال: يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده، قلت: يا أبا عبدالله فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الشمر.

⁽١) حديث أبي هريرة: اإن حائط الجنة لينة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زهفران وطينها مسكة أخرجه الترمذي بلفظ: «وملاطها المسك» وقال: ليس إسناده بذلك القوي وليس عندي بمتصل ورواه البرار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً بإسناد صحيح.

 ⁽۲) حديث: سئل عن تربة الجنة ققال: «درمكة بيضاء مسك خالص» أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره. درمكة: الدرمك: التراب الناعم.

⁽٣) حديث أبي هريرة: امن سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنياء أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح: امن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة.

 ⁽³⁾ حديث: «أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك» أخرجه العقبلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة.

حديث: (لو كان أدنى أهل الجنة حلية حدلت بحلبة أهل الدنيا جميعها فكان ما يحليه الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن.

 ⁽٦) حديث: (إن في الجنة شجرة بسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها. . .) الحديث، متفق عليه عن حديث أبي هريرة.

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم:

قال الله: ﴿ عُمَّلُونَ فِيهَا مِنَ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبِ وَلُوْلُونًا وَلِمَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣] والآيات في ذلك كثيرة، وإنما تفصيله في الأخبار؛ فقد روى أبو هريرة أن النبي على قال: همن يَدْخُل الجَنْةَ يَنْعَم وَلا يَبْأُس لا تَبْلَى ثِيابُهُ وَلا يَهْنَى شَبَابُهُ، فِي الجَنْةِ ما لا عَيْنُ رَأَتْ وَلا أَذَنْ سَمِعَتْ ولا خَطَر عَلَى قَلْبِ بَشُوءُ (١)، وقال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق تخلق أم نسج تنسج؟ فسكت رسول الله على وضحك بعض القوم، فقال رسول الله على وقال أبو هريرة: قال رسول الله على: وإنَّ قال رسول الله على: وقال أبو هريرة: قال رسول الله على: وإنَّ قَلْل رَمْرَةِ الْمَعْنُ مِنْ المَعْنُ مُورَةِ الْمَعْنُ لَهُ الْمَعْنُ فِيها وَلا يَمْعَعُونَ وَلا يَتَعْوُطُونَ وَلا يَتَعْمُ وَأَمْمُ مِنَ النَّهُ بِعُنَ مَنُ الْمَعْنُ وَلَهِ الْمَعْنُ وَالِم يَعْمُ وَوَاعِ لِمُنْ مُورَاءِ اللهُ عُمْنَ اللّهُ بِعُرْنَ عَلَيْهُمْ وَاللّهُ الْمُعْنُ وَاعِدُ مِنْهُمْ وَوْجَتَانِ يُرَى مُحُ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ اللّهُ مِنَ اللّهُ بِحُرْةً وَمُشِيّقُهُمْ عَلَى قَلْب وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَوْجَتَانِ يُرَى مُحْ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَوْجَتَانِ يُرَى مُحْ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ وَعِي رَواية: (هَمُ لَى وَاحِدُ مِنْهُمْ وَلَو اللّهُ بِحُرْةً وَصَلْمَ اللّهُ بِحُرْقً وَصَلْمِ اللّهُ اللهُ بُحْرَةً وَصَلْم اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللّهُ اللهُ اللهُ اللهُ وَاحِدُ مِنْ المَعْلُونَ وَاللّهُ اللهُ وَلَا اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ الله

صفة طعام أهل الجنة:

بيان طعام أهل النجنة مذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن شَمَرَةِ رَزَقًا ۚ قَالُواْ هَـٰذَا الَّذِى رُزِقُنَا مِن قَبْلٌ وَأْتُواْ بِهِ. مُتَتَنْبِهَا ۚ ﴾ [البَقَرَة: ٢٥] وذكر الله تعالى شراب أهل النجنة في مواضع كثيرة، وقد قال ثوبان

⁽۱) حديث أبي هريرة: قمن يفخل الجنة ينعم ولا ييأس لا تبلى ثيابه...» الحديث. رواه مسلم دون قوله: قني الجنة ما لا لا عين رأت...» فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت...» الحديث.

 ⁽۲) حديث: قال رجل: «يا رسول الله، أخبرتا عن ثياب أهل الجنة أتخلق خلقاً أم تنسج نسجاً...» الحديث. أخرجه النسائي من حديث هبدالله بن همرو.

⁽٣) - حديث أبي هريرة: ﴿أَوْلُ زَمْرَةُ تَدْخُلُ الجُّنَّةِ صَوْرَتُهُمْ عَلَى صَوْرَةُ الْقَمْرُ لَيلة البقور. . ١ الحديث. متفق عليه.

⁽٤) حديث: في قوله تعالى: ﴿ مُلَّنَ هِمَا مِنْ أَسَاوِدُ مِنْ ذَهَبِ ﴾ [الكهف: ٣١] قال: •إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب، أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال: لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

 ⁽٥) حديث: «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميالاً...» الحديث. عزاه المصنف للبخاري، وهو متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعري.

 ⁽٢) حديث أبي سعيد: في قوله تعالى: ﴿وَثُرُّتُ مُّرُّمُونَ﴾ [الواقِعَة: ٣٤] قال: هما بين الفراشين كما بين السماء والأرض؛ أخرجه الترمذي بلفظ: «ارتفاعها لكما بين السماء والأرض؛ وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

ـ مولى رسول الله ﷺ ـ: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال: فمن أوَّل إجازة ـ يعني على الصراط .؟ فقال: "فَقَرَاهُ المُهَاجِرِينَ" قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: ﴿زِيَادَةُ كَبِدِ الحُوثِ، قال: فما غداؤهم على أثرها؟ قال: ﴿يُتُحَرُّ لَهُمْ ثَوْرُ الجِّنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ فِي أَطْرَافِها﴾ قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «مِنْ عَيْن فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ فقالَ: صدقت'`` وقال زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقال: يا أبا القاسم، ألست نزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقرّ لي بها خصمته، فقال رسول الله ﷺ: ﴿يَلَى وَالَّذِي نَّفَسْي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُعْطَى قُوَّةً مِاثَةٍ رَجُل فِي المَطْعَم وَالمَشْرَبِ وَالجِمَاعِ؛ فقال اليهودي: فإنَّ الذي يأكلُ ويشرب يكون لَه الحاجة؟ فقال رسولُ الله ﷺ: ﴿حَاجَتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضٌ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلَ المِسْكِ فإذا البَطْنُ قَدُ ضَمرً (() ، وقال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ في الجنة فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيّاً (٣⁾، وقال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْراً مِثْلَ البُحَاتِيِّ». قال أبو بكر رضي الله عنه: إنها لناعمة يا رسول الله؟ قال: «أَلْهَم مِنْها مَنْ يَأْكُلُها وَأَنْتَ مِمَّنْ يَأْكُلُها يا أَيا بَكُو^{» (١٤)}، وقال عبدالله بن عمر في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم يُصِحَافِ﴾ [الزّخرُف: ٧١] قال: يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى مثله. وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: ﴿ وَيَزَاجُهُمُ مِن تَسْنِيمِ ﴿ الْمَعْفَقِينَ: ٧٧] قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقرّبون صرفاً. وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: في قوله تعالى: ﴿ خِتَنْهُمْ مِسْكٌ ﴾ [المعلقين: ٢٦] قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم وقال: لو أنَّ رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها.

صفة الحور العين والولدان:

قد تكرّر في القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه. روى أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ فَقُوسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ اللَّهُ بَيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِع قَدَمِهِ مِنَ الجَنّةِ اطْلَمَتْ إلى الأَرْضِ مَوْضِع قَدَمِهِ مِنَ الجَنّةِ اطْلَمَتْ إلى الأَرْضِ

⁽۱) حديث ثوبان: جاء حبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال: فمن أول الناس إجازة؟ يعني على الصراط فقال:
فقراء المهاجرين، قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: ﴿وَيَادَةَ كَبِدَ الْحُوتَ... الحديث، رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره.

 ⁽۲) حديث زيد بن أرقم: جاء رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم، ألست تزهم أن أهل الجنة يأكلون قيها ويشربون... الحديث. وفيه: احاجتهم هرق يقيض من جلودهم مثل المسك أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد صحيح.

 ⁽٣) حديث ابن مسعود: (إنك أتنظر إلى الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً) أخرجه النزار بإسناد صحيح.

أ) حديث حذيفة: •إن في الجنة طيراً أمثال البخاتي... الحديث. غريب من حديث حذيفة والأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح: •إن طير الجنة كأمثال البخت ترصى في شجر الجنة ال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه الطير ناعمة قال الأكلتها أنعم منها قالها ثلاثاً: •وإني أرجو أن تكون ممن بأكل منها وهو عند الترمذي من وحه آخر ذكر فيه نهر الكوثر وقال: •فيه طير أعناقها كأمناق الجزرة قال عمر: إن هذه لناعمة... الحديث، وليس فيه ذكر الأبي بكر وقال: حسن، البخاتي: الجمال.

لأَضَاءَتْ وَلَمَلاَتْ مَا بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَنَصِيغُها عَلَى رَأْسِها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا بَمَا فِيهاه (۱)، يعني الخمار، وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَ اَلْبَاقُتُ وَالْمَرْبَاتُ ۞﴾ [الرَّحلُن: ٥٨] قال: اتنْظرُ إِلَي وَجُهِهَا فِي خِدْرِها أَصْفَى مِنَ العِرآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤلُؤةٍ عَلَيْها لَتضِيءُ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِب وَإِنَّهُ يَكُون عَلَيْهَا صَبْعُونَ ثُوبًا يَنْفُلُهَا بَصَرُهُ حَتَّى يرَى مُخ سَاقِها مِنْ وَرَاءِ ذَٰلِكَه (٢).

وقال أنس: قال رسول الله عَيْنَ: اللّهَا أُسْرِيَ بِي دَخَلْتُ فِي الجَنْةِ مَوْضِعاً يُسَمَّى البَيْدَخَ حَلَيْهِ خِيَامُ اللَّوْلُو وَالزَّبْرُجَدِ الأَخْضَر وَاليَاقُوتِ الأَخْمَر فَقُلْنَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقُلْتُ: يا جِبْرِيل مَا لَهٰذَا النَّدَاءُ؟ قَالَ: لَمُولاهِ المَقْصُورَاتُ فِي الجِيامِ اسْتَأْذَنْ رَبِّهُنَّ فِي السَّلامِ عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَهُنَّ، فَطَفِقْنَ يَقُلْنَ: نَحْنُ البَّائَةُ وَلَا يَعْفَى أَبْداَهُ وَقَرْ رسول الله عَلَيْ قوله تعالى: ﴿ مُرِّدُ الرَّاضِيَاتُ وَلا تَعْلَى: ﴿ مُرَدُّ وَمِنْ رَسُولَ الله عَلَيْ قوله تعالى: ﴿ مُرَدُّ مِنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ الرَّامُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ وَقُولُ وَعَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَيْكَ فَلْ مَنْ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَيْكَ فَا لَوْمَا لَا اللّهُ عَلَيْكُ فَالْوَلَا لَهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكُ فَالْمَاءُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَيْكُ فَاللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكُ فَلْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَيْكُ فَالْمَانُ اللّهُ عَلَيْكُ عَلَيْكُ فَالْمَامُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْكُ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلْمُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللللّهُ الللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللللّهُ اللللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ الللّهُ ال

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَذْفَحُ مُطَهَكُوهُ ﴾ [آل عِمرَان: ١٥] قال: من الحيض والغائط والبول والبول والبصاق والنخامة والممني والولد. وقال الأوزاعي: ﴿فِي شُغُلِ فَكِهُونَ ﴾ [يس: ٥٥] قال: شغلهم افتضاض الأبكار، وقال رجل: يا رسول الله، أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ مِنَ الْقُوّةِ فِي الْمَوْمِ اللهُ وَاللهُ الْمُؤَمِّ وَمَا اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى عمل الله على عمل ليس عليه صاحبه. وقال رسول الله على: «إنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ خَمْسمائةِ حَوْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلاف بِكُرِ وَثَمَانِيَةَ آلافِ ثَيْبٍ يُعَانِقُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمْرِهِ فِي الدُّنْيَاهُ (٥٠). وقال

⁽١) حديث: اغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها. ٤٠ الحديث. أخرجه البخاري من حديث أنس.

⁽٢) حديث أبي سعيد الحدري: في قوله تعالى: ﴿ كَأَبُّنَ ٱلْيَاقُتُ وَٱلْمَرَانُ ۚ ۚ ۚ ۚ [الرحمن: ٥٨] قال: «تنظر إلى وجهها في خصرها أصفى من المرآة...» الحديث. أخرجه أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسس ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة، ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسلاً دون ذكر أبي سعيد وللترمذي من حديث ابن مسعود: ﴿إِن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض مخ ساقها من وراء سبعين حلة...» الحديث، ورواه عنه موقوفاً قال: وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هربرة: ﴿الكُلُ أمرى منهم روجان الثنان يرى منح سوقهما من وراء اللحم».

ك حديث أنس: «لما أسري بي دخلت في الجنة موضعاً يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والباقوت الأحمر...) الحديث. وفيه: «أن جبريل قال: هؤلاء المقصورات في الخيام؛ وفيه: فقطفقن بقلن نحن الراضيات فلا تسخطه لم أجده هكذا بتمامه. وللترمذي من حديث علي: «إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم تسمع المخلائق مثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نيأس ونحن الراضيات فلا نسخط طويي لمن كان لنا وكنا له، وقال: غريب، ولأبي الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند صحيح: «فيجتمعن في كل مبعة أيام فيقلن بأصوات...» الحديث،

⁽३) حديث: قال رجل: يا رسول الله، أيباضع أهل الجنة؟ قال: «يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم» أخرجه الترمذي وصححه، وإبن حبان من حديث أنس: «يعطى المؤمن في الجنة كقوة كذا وكذا من الجماع» فقيل: أو يطبق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة».

حديث: فإن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن
مقدار عمره في الدنياة أخرجه أبر الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال:
قمائة حوراء، ولم يذكر فيه عاقه لهن، وإسناده ضميف، وتقدم قبله بحديث.

النبي ﷺ: دإنَّ فِي الْجَنَّةِ سُوقاً مَا فِيها بَيْعٌ وَلا شِرَاةً إِلاَّ الصُّورُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنَسَاءِ، فَإِذَا اشْتَهَى الرَّجُلُ صُورَةً دَخَلَ فِيها، وَإِنَّ فِيها لَمُجْتَمَعَ الْحور الْمِينِ بَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَع الْحَلاثِقِ مِثْلُها يَقُلنَ: نَحْنُ الْحَالِدَاتُ فَلا نَسْخُطُ فَطْوِيَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنا لَهُ (١) الْخَالِدَاتُ فَلا نَسْخُطُ فَطُويَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنا لَهُ (١) وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: وإنَّ الحُور الْجِسَانُ خُبِيْنَا لأَزْوَاجٍ كِرَامٍ (٢)، وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى: ﴿ فِي رَوْضَكُو بُحَبُوكِ ﴾ [الرَّوم: ١٥] قال: خُبِيْنَا لأَزْوَاجٍ كِرَامٍ (٢)، وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى: ﴿ فِي رَوْضَكُو بُحَبُوكِ ﴾ [الرَّوم: ١٥] قال: السماع في الجنة. وقال أبو أمامة الباهلي: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدِ يَذْخُلُ الْجَنَّةُ إِلاَ وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجُلَيْهِ الْمُعْلَى إِلَى يَعْلَى يُعْلَيْنِهِ بِأَحْسَن صَوْتٍ سَمِعَهُ الإِنْسُ وَالْجِنُّ وَلَئِيسَ بِمِزْمَادِ الشَّيْطَانِ وَلْكِنَ: بِتَحْمِيدِ اللّهِ وَتَقْدِيسِهِ (٣).

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار:

روى أسامة بن زيد: أنّ رسول الله على قال الأصحابه: «ألا هَلْ مِنْ مُشَمَّرٍ لِلْجَنَّةِ إِنَّ الجَنَّةَ الا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبُ الكَعْبَةِ فُورٌ يَتَلاَّلاً وَرِيحَانةً تَهْتَرْ وَقَصْرٌ مُشيدٌ وَنَهْرٌ مُطُّردٌ وَفَاكِهَةً كَثِيرةً نَضِيجَةً وَرَوْجَةً حَسْنَاهُ جَمِيلَةً فِي حَبِرَةٍ وَبَعْمَةً فِي مُقَامٍ أَبداً وَنَضْرَةً فِي دَارِ عَالِيَةٍ بَهَيَةٍ سَلِيمَةٍ» قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: «قُولُوا: إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى». ثم ذكر الجهاد وحض عليه (١٠٠ وحاء رجل إلى رسول الله على وقال: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: «إِنْ أَحْبَيْتَ ذَٰلِكَ أَتِيتَ بِفَرسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرًاءَ فَنَطِيرُ بِكَ فِي الجنة من إبل؟ فقال: هِنْ الإبل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال: هيا عَبْدَ اللّهِ إِنْ أَدْجِلْتَ الجَنْةَ فَلْكَ فِيهَا ما اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَتْ عَيْنَاكَ (٥٠).

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الوَلَد كُمَا يَشْتَهِي، يَكُونُ حَمْلُهُ وَيْضَالُهُ وَشَبَابُه فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ (^(١). وقال رسول الله ﷺ: ﴿اسْتَقَرَّ أَهْلُ الجَنَّةِ فِي

⁽١) حديث: فإن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء. . . الحديث. أخرجه الترمذي فرقه في موضعين من حديث علي، وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين.

 ⁽٢) حديث أنس: (إن الحور في الجنة يتغنين فيقلن: نحن الحور الحسان خبئنا الأزواج كرام). أخرجه الطبراني في
 الأوسط وفيه الحسن بن داود بن المنكدر. قال البخاري: يتكلمون فيه، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

⁽٣) حديث أبي أمامة: عما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه اثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه؛ أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

حديث أسامة بن زيد. «ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها. . . ٩ الحديث. أخرجه ابن ماجه وابن حبان.

⁽a) حديث: جاء رجل إلى النبي على فقال له: هل في الجنة خيل فإنها تعجبني. . . 4 الحديث. أخرجه الترمذي من دواية حديث بريدة مع اختلاف لفظ، وفيه المسعودي مختلف فيه، ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبدالرحمن بن سابط مرسلاً، قال الترمذي: وهذا أصح، وقد ذكر أبو موسى المديني عبدالرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له صحبة.

⁽٩) حديث أبي سعيد: (إن الرجل من أهل الجنة لبولد له الولد كما يشتهي، ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة أخرجه ابن ساجه والترمذي وقال: حسن غريب، قال: وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد، انتهى. ولأحمد من حديث لأبي رزين: (بلذ وبلم مثل لماتكم في الدنيا ويتلذن بكم غير أن لا تدالله.

المَّنَةِ اشْتَاقَ الإِخْوَانُ إلى الإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُ لَمْذَا إلى سَرِيرِ لَمْذَا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّنَانِ مَا كَانَ بَينَهُمَا فِي دَاللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الْحَنِّةِ اللَّهُ عَلَى الْحَنِّةِ جُرْدٌ مُرَدٌ بِيضَ جِمَادٌ مَكْحُولُونَ أَبناء ثلاثِ وَثلاثينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ سِتونَ ذِرَاعاً فِي عَرْضِ سَبْعَةِ أَنْرُعِه (١)، وقال رسول الله عَنْ: «أَذْنَى أَهْلِ الجَنِّةِ اللّٰذِي لَهُ ثَمَاتُونَ النَّفَ خَادِم وثنتان وَسَبْعُونَ زَوْجَةَ وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَةٌ مِنْ لؤلؤ وزيرجدِ وياقوتِ كما بينَ الجابيةِ إلى صَنْعَاهُ وإنْ مَلْنِهِم النّٰيجانَ وإنَّ أَدْنَى لُولؤةٍ مِنْهَا لَنْضِيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِه (١٠٠. وقال عَنْ الجابيةِ إلى صَنْعَاهُ الجَنْةِ فَإِذَا الرَّمَاتُةُ مِنْ رَمَّانِها كجلد البَعِيرِ المُقتَّبِ وَإذَا طَيْرُها كالبُخْتِ، وإذَا فيها جَارِيَةٌ فقلتُ: يا جَارِيَةُ الجَارِيَةُ وَإِذَا فَي الجَنْةِ ما لا عَيْنُ رَأْتُ ولا أَذَنَ سَمِعَتُ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ المُعْتَى الجَارِيةُ وَإذَا الرَّمَاتَةُ مِنْ رَمَّانِها كجلد البَعِيرِ المُقتَّبِ وَإذَا طَيْرُها كالبُخْتِ، وإذَا فيها جَارِيَةٌ فقلتُ: يا جَارِيَةُ لِمَنْ الرَّمَاتَةُ مِنْ رَمَّانِها كجلد البَعِيرِ المُقتَّبِ وَإذَا طَيْرُها كالبُخْتِ، وإذَا فيها جَارِيَةٌ فقلتُ: يا جَارِيَةُ لِمِنْ الْحَالِقُ وَلَوْلُولُ وَيَعْمُ عَلَى قَلْبِ الْعَيْرُونَ الْحَالُ واللّهُ عَنْ رَأْتُ ولا أَذَنْ سَمِعَتُ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ السَالِهُ عَنْ رَأْتُ ولا أَنْ سَمِعَتُ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبُ اللّهَ اللّهُ اللّه اللّه عَنْ رَأْتُ ولا أَنْ سَمِعَتُ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْمِ اللّه واللّه اللّه اللّه اللّه اللّه عَنْعُولُهُ اللّه عَلْمُ اللّه الللّه اللّه الللّه اللّه الللّه الللّه اللّه الللّه الللّه الللّه الللّه الللّه اللّه الللّه الللّه الللّه الللللّه اللّه الللّه اللللّه الللللّه اللللللله اللللله الللله

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال: إنّ رمانها مثل الدلاء، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الأحلام ولا تصدع منها الرؤوس، وإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد، طولهم ستون ذراعاً في السماء، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها إلا الله تعالى، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة، وإن لهم فيها خيلاً وإبلاً هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها، وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة، قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت، لا يمتخطون فيها وكرة وعشياً، أما إنه ليس

⁽١) حديث: «إذا استقر أهل الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا» أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس انتهى. والربيع بن صبيح ضعيف جداً، ورواه الأصفهاني في الترقيب والترهيب مرسلاً دون ذكر أنس.

⁽۲) حديث: «أهل البحنة جرد مرد بيض جماد مكحلون أبناه ثلاث وثلاثين. . . » الحديث. أحرجه الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله: ابيض جماد» ودون قوله: اعلى خلق آدم» إلى آخره ورواه أيصاً من حديث أبي هريرة مختصراً: «أهل البحنة جرد مود كحل» وقال: غريب. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: دعلى صورة أبيهم آدم ستون قراعاً».

 ⁽٣) حديث: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم...» الحديث. أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد
 منقطماً من أوله إلى قوله: «وإن عليهم التيجان» ومن هنا بإسناه أيضاً وقال: لا تعرفه إلا من حديث رشد بن سعد.

⁽³⁾ حديث: انظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كجلد البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت... الحديث، رواه التعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد، وأبو هارون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جداً، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: البقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا هين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشره.

ليل يكرّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ، وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدّ له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلو، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، يغذي عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها، في كل صحفة لون ليس في الأخرى مثلة، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوّله، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب. وقال مجاهد: إن أدنى أهل لجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه. وأرقعهم الذي ينظر إلى ربه بالغداة والعشي، وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة؛ سوار من ذهب، والعشي، وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة؛ سوار من ذهب، وسوار من لؤلو، وسوار من فضة. وقال أيو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها: وسوار من لؤلو، وسوار من فضة. وقال أيو هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة حوراء يقال لها: والناهون عن المنكر؟. وقال يحيى بن معاد: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر والناهون عن المنكر؟. وقال يحيى بن معاد: ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الأخرة. وقال أيضاً: في طلب الدنيا ذل النفوس، وفي طلب الآخرة عز النفوس، فيا عجباً لمن يختار المذلة في طلب ما يغنى ويترك العزا في طلب ما يبقى.

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى:

قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَمْسَنُوا لَلْمُسْنَى وَزِيبَادَةٌ ﴾ [بُوس: ٢٦] وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة ـ وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة ـ، وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة. قال جرير بن عبدالله البجلي: كنا جلوساً عند رسول الله على فرأى القمر ليلة البدر فقال: ﴿إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لا تُضَامُونَ فِي رُوْيَتِهِ فَإِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تَعْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُروبِهَا فَافْعَلُوا ثم قرأ: ﴿وَسَيْتُ يَحَدِ رَبِّكَ فَبَلَ مُنْ الصحيحين.

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قرأ رسول الله على قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ آَعُسُوا لَلْمُنْنَ وَرَبَادَ ﴾ [يُونس ٢٦] قال: ﴿ إِذَا دَخَلُ أَهُلُ الجَنَّةِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ النَّارِ النَّارِ نادَى مُنادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ وَنِبَادَ ﴾ [يُونس ٢٦] قال: ﴿ فَهُ وَعَلَى الْجَنَّةِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ النَّارِ النَّارِ عَلَى الْجَنَّةِ وَيُدَخُلُنَا وَيُبَيِّضُ وَجُوهَنا وَيُدُخُلُنَا وَيُبَيِّضُ وَجُوهَنا وَيُدُخُلُنَا الْجَنَّةِ وَيُجرنَا مَنِ النَّارِ؟ وَال فَهُ الْجَعَابُ وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجُهِ اللَّهِ هَزِّ وَجَلَّ هَمَا أَهْطُوا شَيئاً أَحَبُ الْجَنَّةِ وَيُجرنَا مَنِ النَّارِ؟ وَقَد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة، وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النهمى، وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعمة ينسى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء النعمى، بل لا نسبة نشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء: وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب منتهى، بل لا نسبة نشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء: وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى. وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى.

⁽١) حديث جرير: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ قرأى القمر ليلة البدر فقال: الإنكم ترون ويكم...؟ الحديث. هو في الصحيحين كما ذكر المصنف.

⁽٢) حديث صهيب: في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَمْسَنُوا لَلْمُسُنَّى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يُونس: ٢٦] رواه مسلم كما ذكره المصنف.

نَحْتُم الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك:

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما رلت به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوائنا التي لا توافقها أعمالنا، ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض. ونحن خلق من خلق الله عزّ وجلٌ لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه. فقد قال رسول الله ﷺ: "إنَّ لِلَّهِ تَعَاطفُونَ وَبِها يَتَعَاطفُونَ وَبِها يَتَعَاطفُونَ وَبِها يَتَعَاطفُونَ وَبِها يَتَرَاحَمُونَ وَاخْرَ يَسْعاً وَيَسْعِينَ رَحْمَةٌ يَرْحَمُ بِها عِبَادَهُ يَوْمَ اللها أَدُى مَنها وَرَحْمَةٌ يَرْحَمُ بِها عِبَادَهُ يَوْمَ اللها أَدَالًا.

ويروى: «أنه إذا كانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَخْرَجَ اللَّهُ تعالى كِناباً مِنْ تحتِ الْعَرْشِ فِيهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ خَضَبِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِبِينَ فيخرجُ مِنَ النَّارِ مثلا أَهْلِ الجَنَّةِ» (٣). وقال رسول الله ﷺ: «يَتَجَلَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لنا يومَ القِيامَةِ ضاحِكاً فيقولُ: أَبْشِرُوا مَعْشَرَ المسلمينَ فإنهُ ليسَ منكم أَحَدُ إِلاَ وَقَدْ جَعلتُ مكانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيّاً أَوْ نَصْرَانِياً» (٤)، وقال النبي ﷺ: «يُشَفَّعُ اللَّهُ تَعالَى آدمَ يومَ

(٢) حديث : فإن لله تمالى مائة رحمة أثرًا منها رحمة واحدة بين الجنّ والإنس، ٤٠٠ الحديث، أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وسلمان.

 ⁽۱) حديث: كان رسول الله ﷺ يحب التفاؤل. متفق عليه من حديث أنس في أثناء حديث: اويعجبني الفأل الصالح والكلمة الحسنة؛ ولهما من حديث أبي هريرة اوخيرهما الفأل؟؛ تالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

 ⁽٣) حديث وإذا كان يوم القيامة أخرج الله كتاباً من تحت العرش فيه أن رحمتي سيقت فضيي . . . الحديث . متفق عليه من حديث أبي هريرة: المما قضى الله المخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت فضيي الفظ البخاري وقال مسلم: اكتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب فضيي» .

 ⁽٤) حديث. ويتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول: أبشروا معشر المسلمين فإنه لبس منكم أحد إلا وقد جملت مكانه في النار يهودياً أو نصراتياً. أخرجه مسلم من حديث أبي موسى " فإذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل=

القيّامَةِ مِنْ جَبِيعٍ ذُرِيّتِهِ في مِائةِ الْفِ الْفِ وَعَشَرَةِ آلافِ الْفِهِ '' وقال ﷺ: اإنَّ اللَّهُ عَزِّ وَجَلَّ يَوَمُ القيامةِ للمؤمنين: هَلَ أَخْبَتُمُ لِقَائِي فيقولونَ: ثَمَمُ يَا رَبّنا فيقولُ: لِمَ فَيُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَفُوكَ وَمَمْفِرَتَكَ. فيقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَفُولُ وَمَمْفِرَتُكَ. فيقولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَفُولُ وَمَمْفُورَيْ يَوْما أَوْ خَافَتِي فِي مَقَامِه '''، وقال رسول الله ﷺ: المِعْقَلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعْهُمْ مِنْ أَهْلِ الفِيْلَةِ قالُ الكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَمْ مَكُونُوا الْجَنَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَعْمَمُ مِنْ أَهْلِ الفِيْلَةِ قالُ الكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ: أَلَمْ مَكُونُوا الْجَنَمَ عَلَى النَّارِ فِيقولُونَ: مَا أَهْنَى عنكم إسلامُكُمْ إِذْ أَنتُم مَعَنَا فِي النَّارِ فيقولُونَ: كَانَتُ لنا مُسْلِمِينَ عَنْا فِي النَّارِ فيقولُونَ: كَانَتُ لنا مُسْلِمِينَ عَنْا فِي النَّارِ فيقولُونَ: كَانَتُ لنا مُشْلِمِينَ فَنْخُرَجَ كُمَا أُخْرِجُوا"، ثم قرأ فَيْونُ عِنْ اللَّهِ فَيْ وَجَلُ مَا قالُوا فيأَمْرُ بِإِخْرَاجٍ مَن كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ فَيْحَرَجُونَ فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ الكَفَارُ قالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنًا مُسْلِمِينَ فَنْخُرَجَ كُمَا أُخْرِجُوا"، ثم قرأ وقسال وسول الله ﷺ: وقلْه أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنَ الوَالِدَةِ الشَفِيقَةِ بِولَدِها الجنة بغير حساب، ومن استوت رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

ويروى: أنّ الله عزّ وجلّ قال لموسى عليه السلام: يا موسى، استغاث بك قارون فلم تغثه، وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه. وقال سعد بن بلال: يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار، فيقول الله تبارك وتعالى: ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد، ويأمر بردهما إلى النار، فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيأمر بردهما ويسألهما عن فعلهما، فيقول الذي عدا إلى النار: قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية، ويقول الذي

مسلم يهودباً أو نصرانياً فيقول: هذا فغاؤك من الناوا، والأبي داود: «أمتي أمة مرحومة لا عذاب حليها في الآخرة...) الحديث، وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى أيضاً: «بتجلي الله وبنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول: ارفعوا رؤوسكم قليس هذا يوم هيادته وفيه على بن زيد بن جدعان.

⁽١) حديث: فيشقع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف» أخرجه الطبراني من حديث أنس بإسناد ضميف.

⁽٢) حديث: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين: هل أحبيتم لقائي فيقولون: نعم. . . ٩ الحديث. أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف.

حدیث، «یقول الله عز وجل یوم القیامة، أخرجوا من النار من ذكرتي یوماً أو خافني في مقامه أخرجه الترمذي من حدیث أنس وقال: حسن غریب.

⁽٤) حديث: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى فيقولون: ما أخنى حتكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار. . . ٥ الحديث. في إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿زُينَا يُودُ اللَّهِ حَكَفَرُا لَوْ كَالُوا مُسْلِمِينَ ﴿ الحجر: ٢] أخرجه النسائي في الكبرى من حديث جابر بإسناد صحيح.

حديث: قاله أرحم بعيده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها، متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفي أوله: قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته ببطنها فأرضعته.

تلكاً: حسن ظني بك كان يشعرني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها، فيأمر بهما إلى الجنة، وقال رسول الله ﷺ: النَّهُ عُنَادِ مِنْ تَحْتِ الْمَرْشِ يَوْمَ القِيَامَةِ: با أَمَّةَ مُحَمَّدِ أَمَّا ما كانَ لِي قبلكُمْ فَقَدْ وَهَبْنُهُ لَكُمْ وَيَقِيَتُ النَّبَعاتُ فَتَوَاهَبُوها وَادْخُلُوا الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي (١٠).

ويىروى: أنْ أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةِ مِنَ ٱلنَّادِ فَأَنقَذَكُم يَنْهُۗ ال عِمرَان: ١١٠٣؛ فقال الأعرابي: فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها، فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه. وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال: مهلاً. . . لم تبكى؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدّثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدَّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: • مَنْ شَهدَ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمِّداً رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ النَّارَ عَلَيْهِه (٧)، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: قال رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهُ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أَمْتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلاثِقِ يَوْمَ القِبَامَةِ فَينْشُرُ عَلَيْهِ يْسْعَةُ وَيُسْعِينَ سِجِلاً كُلُّ سِجِلٌ مِنْهَا مِثْلِ مَدَّ البَصَرِ، ۚ ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنكُرُ مِنْ لَهٰذَا شَيئاً أَظَلَمَتْكَ كَتَبَيِّي الحَافِظُونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقُولُ: لا يا رَبِّ. فيقولُ: بَلَى إنَّ لَكَ جِنْدَنَّا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ حَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرِجُ بطاقَةً فيها: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَّهِ إلاّ اللَّهُ وَأَشْهَد أَنْ مُحَمَّداً رسولُ اللَّهِ فَيِقُولُ يَا رَبِّ مَا هَٰذِهِ البِّطَاقَةُ مَعَ هَٰذِهِ السَّجِلاَّتِ؟ فيقُولُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ ۗ قال: «فَتُوضَعُ السَّجِلاَّتِ نِي ُكِفَّةٍ ۚ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ» قَال: «فَطَّاشَتِ السَّجِلاَثُ وَثَقَلَتِ البِطَاقَةُ فَلا يَثْقُلُ مِعَ اسْم اللَّهِ شَيْءٌ ^(٣)» وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصفُ فيه القيامة والصراط: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلْمَلَاتِكَةِ: مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دَيِنارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كثيراً ثم يقولونَ: يا رَبُّنا لم نَذَرْ فيها أحداً مِمِّنَ أَمَرْتَنَا بِهِ، ثم يقولُ: ارْجَعُواً فَمَنْ رَجَدْتُمْ فِي قلبهِ مثقالَ نصف دينار مِنْ خَيْرِ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خِلقاً كثيراً، ثمُّ بِقُولُونَ: ِ يَا رَبُّنا لَمْ نَلْزُ فِيها أَخَداً مِمَّنْ أَمَرْتُنا بِه ثُمَ يقولُ: ارْجَعُوا فَمَنْ وَجِنْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْمَالَ ذَرَةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ فَيَخْرُجُونَ خَلَقاً كَثيراً ثُمَّ يقولونَ: يا رَبَّنا لم نَذَرْ فِيها أحداً مِمِّنْ أَمْرْتُنَا بِهِهِ. فكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ إِنَّ أَلَّهَ لَا يَطْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٌ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُغَنّعِفُهَا وَيُؤْمِتُ مِن قَدَّةُ أَجْرًا عَظِيمًا ۞﴾ [النّساء: ١٤٠] قال: فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في جميل السيل، ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر، وما يكون منها إلى الظل أبيض، قالوا: يا رسُول الله: كأنك كنت

⁽١) اينادي مناد من نحت المرش يوم القيامة: يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد ففرته لكم وبقيت النبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتي وويناه في سباعيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس، وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب: ليس بثقة.

 ⁽۲) حديث الصنايحي عن عبادة بن الصامت: امن شهد أن لا إله إلا الله وأن محملاً رسول الله حرمه الله على النار؟
 أخرجه مسلم من هذا الوجه، واتفقا عليه من غير رواية الصنايحي بلفظ آخر.

 ⁽٣) حديث عبدالله بن عمرو: الن الله يستخلص رجالاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القبامة فينتشر له تسعة وتسعون سجالاً فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال: حسن غريب.

وعَن عمرو بن حَزم الأنصاري قال: تغيّب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا: يا رسول الله، احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال: فلَمْ يَحْدُثْ إلا خَيرٌ إنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلِّ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلُ الْجَنَّة مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي هٰنِهِ الثَّلاَثَةِ أَيَّامِ المَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّي ماجداً وَاجداً كَرِيماً فَأَعْطَانِي مَعَ كُلُّ وَاجِدِ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفاً سَبْعِينَ أَلْفاً قَالَ: فَقَلْتُ: يا رَبُّ وَتَبَلَّغُ أُمَّتِي هٰذا؟ قالَ: فَقَلْتُ: يا رَبُّ وَتَبَلَّغُ أُمَّتِي هٰذا؟ قالَ: الْحَبُلُ لَكُ العَدَدَ مِنَ الْأَفْرَابِهُ (٣٠٠).

وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: ﴿ هَرَضَ لِي جِبْرِيل في جَانِب الْحَرَّةِ فَقَالَ: بَشْرُ أُمُّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْتًا دَخَلَ الْجَنَّة، فَقُلْتُ: يا جِبْرِيلُ وإنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنى؟ قَالَ: نَعَمْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى، قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قَالَ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى، قَلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى؟ قَالَ: وإنْ سَرَقَ

⁽١) حديث: ﴿إِن اللهُ يقول للملائكة من وجلتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً... ا الحديث. في إخراج الموحدين وقوله تعالى لأهل الجنة الخلا أسخط عليكم بعده أبدأه أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد.

 ⁽۲) حديث ابن صباس: اهرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد. . . ٤ الحديث . إلى قوله: اسبقك بها حكاشة رواه البخاري.

وَإِنْ زَنِي وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ اللهِ وَقَالَ أَبُو الْدَرَدَاء : قرأ رسولَ الله ﷺ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَسَّانِ ﴾ [الرَّحمْن: ٤٦] فقلت : وإن سرق وإن زني فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانِ ﴾ [الرَّحمْن: ٤٦] فقلت : وإن سرق وإن زني فقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانِ ﴾ [الرَّحمْن: ٤٦] فقلت : وإن سرق وإن زني يا رسول الله ؟ قال : ﴿ وَإِنْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ فَقِيلَ لَهُ : هٰذَا فِذَا وَلَا لِي مِنْ النَّارِ اللهِ عَلَى رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ فَقِيلَ لَهُ : هٰذَا فِذَا وَكُولُ مِنَ النَّارِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ عَلَى اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ

وروي: أنه وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد - في يوم صائف شديد الحرّ - فيصرت به امرأة في خباء القوم فأقبلت تشتد وأقبل أصحابها خلفها، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ، وقالت: ابني ابني! فبكى الناس وتركوا ما هم فيه، فأقبل رسول الله على حتى وقف عليهم فأخبروه فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال: هأَعَجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هَذِهِ لاَبْنِها؟ قالوا: نعم، قال على: ﴿ فَإِنْ اللّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْحَمُ بِكُمْ جَميعاً مِنْ هَذِهِ بِابْنِهَا ﴾ (٥) فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة.

َ فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه، ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته.

 ⁽۱) حديث أبي در: • عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال: بشر أمتك بأنه من مات لا يشوك بالله شيئاً دخل الجنة... الحديث. منفق عليه بلفظ: • أتاني جبريل فبشرني وفي رواية لهما: • أتاني آت من ربي. .

 ⁽٢) حديث أبي الدرداء: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَلِنَنْ عَالَ مَقَامَ رَبِّهِ جَمَّانِ ﴿ الرَّحَمَٰنِ: ٤٦]، فقلت: اوإن زنى وإن سرق. . . ٤ الحديث. رواه أحمد بإسناد صحيح.

 ⁽٣) حديث: وإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له: هذا فقاؤك من النار» رواه مسلم من حديث أبى موسى تحوه، وقد تقدم.

 ⁽٤) حديث أبي بردة: أنه حدث عمر بن عبدالعريز عن أبيه أبي موسى عن النبي ﷺ قال. «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه التار يهودياً أو تصراتياً» عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك.

⁽⁶⁾ حديث: قوقف صبي في بعض المغازي، ينادي عليه: فيمن يزيد، في يوم صائف شديد الحر، فبصرت به امرأة...» الحديث. وقيه: قائم أرحم بكم جميعاً من هذه بابتها» متفق عليه مختصراً مع اختلاف من حديث عمر بن الخطاب قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصفته بيطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ قاترون هذه المرأة طارحة وقلها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: قائم أرحم بعباده من هذه بولدها الفظ مسلم وقال المخاري: قفإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها إذ وجدت صبياً... الحديث.

والمحمد لله تعالى عوداً على بدء والصلاة والتسليم على سيدنا محمد في كل حركة وهدء.

يقول مؤلفه عبدالرحيم بن الحسين العراقي: إنني أكملت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٦١، وأكملت تبييض هذا المختصر منها في يوم الانتين ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ٧٩٠ انتهى.



الصفحة	•		الموضوع
° '	• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •		ترجمة الإمام أبي حامد الغزالم ترجمة العلامة الحافظ العراقي خطبة كتاب إحياء علوم الدين
		كتاب العلم	
11	والعقل	والتعليم والتعلم وشواهده من النقل	الباب الأول: في فضل العلم فضيلة العلم
\			فضيلة التعلم فضيلة التعليم
14 Y1		ود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما	
Y1 Y£	******		بيان العلم الذي هو فرض
47 47 51			بيان علة ذم العلم المذموم
21	سار آفات المناظرة والحدل	1	بيان ما بدل من ألفاظ العلا بيان القدر المحمود من ال الباب الرابع: في سبب إقبا(
٥Y			وشروط إباحنها
٥٣	فاوضات السلف	، المناظرات بمشاورات الصحابة وم	بيان التلبيس في تشبيه هذ
٥٦		لد منها من مهلكات الأخلاق	-
7.		ملم والمعلم	الباب الخامس: في آداب المت

الصفحة	العوضوع
٦.	أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل
٦٧	بيان وظائف المرشد المعلم
٧١	الباب السادس: في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء
4.4	البابُ السابع: في العقل وشرفهٰ وحقيقته وأقسامه
44	بيان شرف العقل
1	بيان حقيقة العقل وأقسامه
1.4	بيان تفاوت النفوس في العقل
	كتاب قواعد العقائد
1.7	الفصل الأول: في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام.
111	الفصل الثاني: في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد
177	الفصل الثالث: من كتاب قواعد العقائد في لوامع الأدلة لِلعقيدة التي ترجمناها بالقدس
	الرَّكن الأول: من أركانُ الإيمان في معرفة ذات اللَّه سبحانه وتعالى وأنَّ اللَّه تعالى
144	واحد، ومداره على عشرة أصول
177	الركن الثاني: العلم بصفات اللَّه تعالى، ومداره على عشرة أصول
14.	الركن الثالث: العلم بأفعال الله تعالى، ومداره على عشرة أصول
148	الركن الرابع: في السمعيات وتصديقه ﷺ فيما أخبر عنه، ومداره على عشرة أصول ٠٠٠
	القصل الرابع: من قواعد العقائد في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما
177	يتطرِّق إلَّيه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه، وفيه ثلاث مسائل
1747	مسألة: اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره
131	مسألة: فإن قلت فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص
154	مسألة: فإن قلت ما وجه قول السلف: «أنا مؤمن إن شاء الله؛
	كتاب اسرار الطهارة
101	القسم الأول: في طهارة الخبث، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة
101	الطرف الأوّل: في المزال الطرف الأوّل: في المزال
101	الطرف الثاني: في المزال به
104	الطرف الثالث: في كيفية الإزالة
108	القسم الثاني: طهارة الأحداث، ومنها الوضوء والغسل والتيمم، ويتقدمها الاستنجاء
102	باب آداب قضاء الحاجة
100	كيفية الاستنجاء كيفية الاستنجاء
101	كيفية الوضوءكيفية الوضوء

الصفحا	الموضوع
109	فضيلة الوضوء
17.	كيفية الغسل كيفية الغسل
17.	كيفية التيمم
171	القسم الثالث من النظافة: التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نوعان: أوساخ وأجزاء
171	النُّوع الأول: الأوساخ والرطوبات المترشحة وهي ثمانية "
170	النوع الثاني: فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية
174	فصل: في اللحية
	كتاب أسرار الصلاة ومهماتها
177	الباب الأول: في فضائل الصلاة والسجود والجماعة والأذان وغيرها
171	فضيلة الأذان
177	فضيلة المكتوبة
	فضيلة إتمام الأركان
175	فضيلة الجماعة فضيلة الجماعة
170	فضيلة السجود
177	فضيلة الخشوع
174	فضيلة المسجد وهو موضع الصلاة
14.	لباب الثاني: في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله
184	القراءة
141	الركوع ولواحقه
184	السجود السجود
144	التشهد
188	المنهات
147	تمييز الفرائض والسنن
188	لباب الثا ل ث: في الشروط الباطنة من أعمال القلب
144	بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب
141	بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة
198	بيان الدواء النافع في حضور القلب
140	بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة
Y • Y	حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم
	أباب الرابع: في الإمامة والقدوة وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان
Y • £	الصلاة وبعد السلام

الصفحة	لموضوع
4 . £	أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فستة
Y • Y	وأما وظائف القراءة فثلاثة
Y • 9	وأما وظائف الأركان فثلاثة
Y1 +	وأما وظائف التحلل فثلاثة
۲1۰	الباب الخامس: فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها ممامين فضل المجمعة وآدابها وسننها
414	نضيلة الجمعة نضيلة الجمعة
YYY	بيان شروط الجمعة
717	بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر جمل
Y14	بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعمّ جميع النهار، وهي سبعة أمور
444	الباب السادس: في مسائل متفرقة تعم بها البلوي ويحتاج المريد إلى معرفتها
444	فأما المسائل التي تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه
YYV	الباب السابع: في النوافل من الصلوات
	مب به المسلم الأول: ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية، خمسة هي رواتب الصلوات
AYY	الخمس، وثلاثة وراءها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجد
	القسم الثاني: ما يتكرر بتكرر الأسابيع وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل
777	ليلةليلة
1 " V	القسم الثالث: ما يتكرر بتكرر السنين
71.	القسمُ الرابع: من النوافل: ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلّق بالمواقيت وهي تسعة
	كتاب اسرار الزكاة
	الفصل الأول: في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها، والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع:
Y£A	زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر
101	الفصل الثانيُ: في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة
707	بيان دفائق الآداب الباطنة في الزكاة
771	الفصل الثالث: في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه
177	ييان أسباب الأستحقاق بيان أسباب الأستحقاق
777	بيان وظائف القابض وهي خمسة
Y77	الفصل الرابع: في صدَّقة التَّطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها
411	بيان فضيلة الصدقة
۸۶۲	بيان إخفاء الصدقة وإظهارها
777	بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

الموضوع

	كتاب أسرار الصوم	
Y V0	في الواجبات والسنن الظاهرة واللوازم بإفساده والسنن الظاهرة فستة	4
770 777	ت الطاهرة فسنة	
YVV YA•	في أسرار الصوم وشروطه الىاطنة	الفصل الثاني:
		v
	كتاب أسرار الحج	
ሃ ለዮ	: في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى، وشأ , المساجد	
YA *		وضيلة الحد
FAY	ت ومكة المشرفة	-
YAY	ام بمكة حرسها الله تعالى وكراهيته	فضيلة المق
AAY	ينة الشريفة على سائر البلاد	فضيلة المد
44 +	في شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته	-
747	في ترتيب الأعمال الظاهرة من أوّل السّفر إلى الرجوع، وهي عشر جمل	
747	لمى: في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية	
3 9 7	نية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة	ألجملة الثاة
440	لثة: في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة	
747	بعة: في الطواف	
Y4A	المسة: في السعي , , , , , , , , , , , , , , , , , , ,	
744	أدسة: في الوقوف وما قبله	
٣٠٢	لمابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلة	
4.0	منة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع	والطواف المراثراليا
7.0	منه: في صفه العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع	
4.0	شرة: في زيارة المدينة وآدابها	
4.4	سن الرجوع من السفر	
W1 •	في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة	الباب الثالث:
٣١٠	الأداب وهي عشرة	

الصفحة	الموضوع
418	بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة، وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره
	كتاب آداب تلاوة القرآن
***	الباب الأول: في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته
***	ب ب الوق على المراق والمعاري في المواقع الموا
444	الأثار
377	في ذُم تلاوة الغافلين
۲۲٦	البابُ الثاني: في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة
T TY	الْبَابُ الثالث: فَي أَصَمَالُ البَاطَن في التلاُّوة وهي عشرة
451	البَّابِ الرابع: فيُّ فهم القرآن وتُفسَّيره بالرأي منْ خير نقل
	كتاب الأذكار والدعوات
۳٤۸	الباب الأول: في فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار
40.	فضيلة مجالس الذكر الذكر المستعدد
401	فضيلة التهليل فضيلة التهليل
408	فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار
	الباب الثاني. في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار
44.	والصلاة على رسول الله ﷺ
41.	فضيلة اللعاء
441	آداب المدعاء وهي عشرة داب المدعاء وهي عشرة
٣٦٦	فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠
779	فضيلة الاستغفار
	الباب الثالث: في أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب أن يدعو بها السرء
TVY	صباحاً ومساء وبعقب كل صلاة
۳۷۲	فمنها: دعاء رسول الله ﷺ بعد ركعتي الفجر
۳۷۳	دعاء عائشة رضي الله عنها أن المستحدد المستحدد الله عنها المستحدد الم
۳۷۳	دعاء فاطمة رضيَّ الله عنها
۳۷۳	دعاء أبي بكر الصَّديق رضي الله عنه
3 ٧٣	دعاء بريَّدة الأسلمي رضي الله عنه
47 £	دعاء قبيصة بن المنخارق ً
47 5	دعاء أبي المدرداء رضي الله عنه
۳۷۵	دعاء الخليل إداهيم عليه الصلاة والسلام

المبنح	الموضوع
400	دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام
440	دعاء الخضر عليه السلام
440	دعاء معروفُ الكرخي رضي الله عنه
* **	دعاء عتبة الغلام
7 77	دعاء آدم عليه الْصلاة والسلام
* **	دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه
**	دعاء ابن المعتمر وهو سليمان التيمي وتسبيحاته رضي الله عنه
* *VV	دعاء إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه
	الباب الرابع: في أدعية مأثُّورة عن النبي علي وعن أصحابه رضي الله عنهم محذوفة
	الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر
۳۷۸	رحمهم الله
۳۸۲	أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي ﷺ
474	الباب الخامس: في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث
	كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل
4	الباب الأول: في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها
444	فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى
448	بيان أعداد الأوراد وترتيبها
٥٠٤	بيان أوراد الليل وهي خمسة
313	بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال
	الباب الثاني: في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحياؤها وفي فضيلة
£\A	إحياء الليل وما بين العشاءين، وكيفية قسمة الليل
£1A	فضيلة إحياء ما بين العشاءين فضيلة إحياء ما بين العشاءين
+73	فضيلة قيام الليل
373	بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل
277	بيان طرق القسمة لأجزاء الليل
£4.	بيان الليالمي والأيام الفاضلة
	كتاب آداب الأكل
{TT	لباب الأول: فيما لا بد للمنفرد منه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه

الصفحة	الموضوع
٤٣٣	القسم الأول: في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة
£4.0	القسمُ الثاني: في آداب حالة الأكل (
٤٣٧	القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام
ξ٣Λ	الباب الثأني: فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة
٤٤٠	الْبَابُ الثَّالَثُ: في آداب تقديم الطعام إلَى الإخوان الزَّائرين
133	الباب الرابع: في آداب الضيافة
٤٤٥	وللإجابة خمسة آداب وللإجابة خمسة آداب
££A	وَأَمَأُ إِحْضَارِ الطَّعَامِ، فله آداب خمسة
201	فأما الانصراف، فله ثلاثة آداب
207	فصل يجمع آدَّاباً ومناهي طبية وشرعية متفرقة
	كتاب أداب النكاح
207	وو بالأواد في المنظم
£07	الباب الأول: في الترغيب في النكاح والترغيب عنه
£74	الترغيب في النكاح الترغيب في النكاح الترغيب في النكاح
EVY	أما آفات النكاح فثلاث أما آفات النكاح فثلاث أما آفات المتا
•••	الباب الثاني: فيما يراعى حالة المقد من أحوال المرأة وشروط العقد
٤٨٠	الباب الثالث: في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما
£4V	على الزوجة النظر في حقوق الزوج عليها هذا الباب: النظر في حقوق الزوج عليها
	كتاب آباب الكسب والمغاش
۳۰٥	الباب الأول: في فضل الكسب والحث عليه
	الباب الثاني: في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة، وبيان
0 *V	شروط الشَّرعُ في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع
0 + V	العقد الأول: البيع العقد الأول: البيع
011	العقد الثاني: عقد الربا
914	العقد الثالث: السلم
۹۱۳	المقد الرابع: الإجارة
910	العقد البخامس: القراض الغراض
010	العقد السادس: الشركة
710	البابِ الثالث: في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

المفحة	الموضوع
017	القسم الأول: فيما يعم ضوره، وهو أنواع
014	القسم الثاني: ما يخص ضرره المعامل
oyi	الباب الرابع: في الإحسان في المعاملة
۸۲٥	الباب الخامس: في شفقة التأجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته
	كتاب الحلال والحرام
	الباب الأول: في فضيلة المحلال ومذمة الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام
040	وهرجات الورع فيه
040	فضيلة الحلال ومذمة الحرام
044	أصناف الحلال ومداخله أأسلس أستال المخالل ومداخله أستاله المعالم المعال
944	القسم الأول: الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما
o į .	القسم الثاني: ما يحرم لخلل في جهة إثبات اليد عليه
011	درجات الحلال والحرام
ofY	أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها
P\$7	الباب الثاني: في مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام
οįγ	المثار الأول: الشك في السبب المحلل والمحرم
•••	المثار الثاني للشبهة: شُّك منشؤه الاختلاط
004	المثار الثالث للشبهة: أن يتصل بالسبب المحلل معصية
٥٦٠	وأما المقدمات: فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات
476	وأما المعصية: في العوض فله أيضاً درجات
370	المثار الرابع: الأُختلاف في الأدلة
٧٢٥	الباب الثالث: في البحث والسُّوال والهجوم والإهمال، ومظانها
٥٦٧	المثار الأول: أحوال المالك
٥٧٠	المثار الثاني: ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك
۷۷۵	الباب الرابع: في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية
٥٧٧	
٥٨٠	النظر الأول: في كيفية التمييز والإخراجالنظر الثاني: في المصرف
010	الباب الخامس: في إدرارات السلاطين وصِلاتهم، وما يحل منها وما يحرم
٥٨٥	النظر الأول: في جهات الدخل للسلطان
٥٩٠	النظرُ الثاني من هذا الباب: في قدر المأخوذ وصفة الأخذ
	الباب السادس: فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم وحكم غشيان مجالسهم
094	والدخول عليهم والإكرام لهم

المبقحة	
	لموضوع
7.0	لباب السابع: في مسائل متفرقة يكثر مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى
	كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق
111	لباب الأول: في فضيلة الألفة والأخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها
111	فضيلة الالفة والاخوة فضيلة الالفة والاخوة
710	بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا
171	بيان البغض في الله
775	بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم
777	بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته
777	الباب الثاني: في حقوق الأخوة والصحبة
444	الحق الأول: في المال
71"1	الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على
744	الحاجات الخاصة السكوت مرة وبالنطق أخرى المعابدة عني اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى
777	الحق الدابع: على اللسان بالنطقالحق الحرى المسان بالنطق المسان بالنطق الدابع: على اللسان بالنطق
781	الحق المخامس: العفو عن الزلات والهفوات
738	الحق السادس: الدعاء للأخ في حياته ويعد مماته
188	اللحق السابع: الوفاء والإخلاص
787	المحتى الثامن: التخفيف وترك التكلف والتكليف
	خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من
70.	عرم بعش المحتمد المنازية المنا
1	الباب الْثَالَثُ: في حق المسلم والرحم والجوار والملك، وكيفية المعاشرة مع من يدلي بهذه
701 704	الأسباب الأسباب
191 170	حقوق المسلم
174	حقوق الجوار ۱۱
774	حقوق الأقارب الرحم
۲۸۳	حقوق المملوك
	كتاب أباب العزلة
147	الباب الأول: في نقل المذاهب والأقاويل، وذكر حجج الفريقين في ذلك
144	ذكر حجج الماثلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

ال	لموضوع
	ذكر حجج الماثلين إلى تفضيل العزلة
	لباب الثاني: في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها
	الْفائدة الأولمي: التفرغ للعبادة والفكر إلخ
	الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها إلخ
•	الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس إلخ
,	الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس
	الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس
	الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم
	آفات العزلة آفات العزلة
	الفائدة الأُولَى: التعليم والتعلم
	الفائدة الثانية: النفع والانتفاع أ الفائدة الثانية:
	الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب
	الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس الفائدة الرابعة:
	الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته
	الفائدة السادسة: من فوائد المخالطة التواضع
	الفائدة السابعة: التجارب
	كتاب آداب السفر
	لباب الأوّل: في الأداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع، وفي نية السفر وفائدته وفيه
	فصلات بالألم و درس المناه و ال
	الفصل الأول: في فوائد السفر وفضله ونيته
	الفصل الثاني: في آداب المسافر من أول نهرضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدباً
	لباب الثاني: فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات
	القسم الأول: العلم برخص السفر
	القسم الثاني: ما يتجدُّد من الوظيفة بسبب السفر
	كتاب آداب السماع والوجد
	لباب الأول: في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه
	بيان أقاويل العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه
	بيان الدليل على إباحة السماع، مواضع إباحة السماع وأنواع الرخص
	بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها
	ماب الثاني: آثار السماع وآدابه

الصفحة	الموضوع
V7. V7. VV0	المقام الأوّل: في الفهم
	كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
	الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والملمة في إهماله
YAY	وإضاعته
YAA	الباب الثاني: في أركان الأمر بالمعروف وشروطه
VAA	الركن الأولى: المحتسب
۸۰۱	الركن الثاني: للحسبة ما فيه الحسبة
۸۰٤	المركن الثالث: المحتسب عليه
7• A	المركن الموابع: نفس الاحتساب
۸۱۱	باب آداب المحتسب
۸۱۳	الباب الثالث: في المنكرات المألوفة في العادات
711	منكوات الأسواق
۸۱۷	منكرات الشوارع
ANV	منكرات الحمامات
۸۱۸	منكرات الضيافة
۸۲۰	المنكرات العامة ا
AYI	الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر
	كتاب آداب المعيشة واخلاق النبوة
۸۳۸	بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً ﷺ بالقرآن
41	بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار
4 £ ¥	بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه
۸0+	بيان كلامه وضحكه ﷺ
۸٥٣	بيان أخلاقه وآدابه في الطعام
۸۰۸	بيان آدابه وأخُلاقه في اللباس
ላግዮ	بيان عفوه ﷺ مع قدرته
374	بيان إغضائه ﷺ عما كان بكرهه
470	باز سخارته وحدده الله

ضوعات	فهرس المو	€1401}	إحياء قُلُوم الدِّين
الصفحة			الموضوع
A77 A7V A7A AV+		رُّ الله على صدقه	بيان شجاعته ﷺ بيان تواضعه ﷺ بيان صورته وخلقته ﷺ بيان معجزاته وآياته الد
		كتاب شرح عجائب القلب	
YYA PYA YAA AAA AYA 3PA TPA	خروية	ىنودە الباطنة	بيان جنود القلب مع ج بيان أمثلة القلب مع ج بيان خاصية قلب الإنس بيان مجامع أوصاف ال بيان مثل القلب بالإض بيان حال القلب بالإض بيان الفرق بين الإلهام و بيان الفرق بين المقامي بيان شواهد الشرع عل
4.4	*********	ى القلب بالوساوس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ئىيطان إلى القلب	بيان تسلط الشيطان عا بيان تفصيل مداخل النا
414 477 477 47£		د من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصود يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا؟ وانقسام القلوب في التغير والثبات	ولا يؤاخذ به بيان أن الوسواس هل والوسواس أصناف . بيان سرعة تقلب القلم
		كتاب رياضة النفس	
97° 97° 97° 42° 42°		ق ومذمة سوء الخلقق ق وسوء الخلق	بيان حقيقة حسن الخل بيان قبول الأخلاق للة بيان السبب الذي به ين

الصفح	· ·	الموضو
480	، علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة	بيار بيار
454	ة الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه	بياد
	ن شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على أن الطريق في معالجة أمراض	بياد
488	ب ترك الشهوات وأن مادة أمراضها هي اتباع الشهوات	
401	، علامات حسن الخلق نام علامات حسن الخلق	بياز
400	، الطريق في رياضة الصبيان في أول نشؤهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم	بياد
401	، الطريق في رياضة الصبيان في أول نشؤهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم ن شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة	بياد
	كتاب كسر الشهوتين	
.		
470) فضيلة الجوع وذم الشبع	
474) فوائد الجوع وآفات الشبع	
478	ن طريق الرياضة في كسر شهوة البطن	
444	ن اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
440	ن آفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام	بياز
447	ل في شهوة الفرج	القو
4AY	ن ما على المريد في ترك التزويج وفعله	
111	، فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين	بياد
	كتاب آفات اللسان	
147	ن عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت	بياد
	لأولى: الكلام فيما لا يعنيك لأولى: الكلام فيما لا يعنيك	الأقة ا
1 - • ٢	نثانية: فضولُ الكلامنانية: فضولُ الكلام	الأفة اا
3	لثالثة: الخوض في ألباطل ألباطل المناه	الأنة ا
10	لرابعة: المراء والجدال	波賀
Y 1	لخامسة: الخصومة	ı Bğı
1 - 1 9	لسادسة: التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة الخ	וצנג ו
1.1.	لسابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان	الأندا
111	لثامنة: اللعن الله الله الله الله الله الله ال	الآنة ا
111	لتاسعة: الغناء والشعر	超到
1+17	لعاشرة: المزاح	الآنة ا
	لحادية عشرة: السخرية والاستهزاء	
144	لثانية عشرة: إفشاء السر السر المنابعة عشرة المنابعة عشرة المنابعة السر المنابعة	الأنة ا

الصمحة	العوضوع
۱۰۲۳	الآقة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب
1.75	الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين
1.44	بيان ما رخص فيه من الكذُّب
	بيان الحذر من الكذب بالمعاريض
	الآفة الخامسة عشرة: الغيبة الناس المستمالة الغيبة ال
	بيان معنى الغيية وحدودها
	بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان
	بيان الأسباب الباعثة على الغيبة
	بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة
73 • 1	بيان تحريم الغيبة بالقلب
1+66	بيان الأعُذار المرخصة في الغيبة
73.1	بيان كفارة الغيبة
٧٤٠	الآفة السادسة عشرة: النميمة الذي المسادسة عشرة: النميمة المسادسة عشرة النميمة المسادسة عشرة النميمة المسادسة
	بيان حد النميمة وما يجب في ردها
1.01	الاقة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين
1-08	الآقة الثامنة عشرة: المدح
1.00	بيان ما على الممدوح
1.00	الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام
1.04	الأفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه
	كتاب ذم الغضب والحقد والحسد
1.7.	بيان ذم الغضب
1.11	
	بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة: أم لا؟
1.17	بيان الأسباب المهيجة للغضب
1.11	بيان علاج الغضب بعد هيجانه
1441	فضيلة كظّم الغيظ
1.74	بيان فضيلة الحلم
	بيان القدر الذي يُجوز الانتصار والتشفي به من الكلام
1.44	القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والمرفق
1.74	فضيلة العفو والإحسان فضيلة العفو والإحسان
1 · AY	ند الا الله الله الله الله الله الله الله

وضوعات	قهرس الم	€1908}	إحياء عُلوم الدّين
الصمحة			الموصوع
1.40	* * * * * * * * *	في حقيقته وأسبابه ومعالجته وعاية الواجب في إزالته	
1.41		كمه وأقسامه ومراتبه	بيان أساب الحسد وال
1 • 97	أقارب وتأكده	الحسد بين الأمثال والأقران والإخوة وبني العم والا نه	بيان السبب في كثرة وقلته في غيرهم وضعا
1 • 9 0		مرض الحسد عن القلب	بيان الدُّواء الذَّيْ ينفي
		كتاب دم الدنيا	
11.4			ر بيان ذم الدنيا
1117			بيان المواعظ في ذم ال بيان صفة الدنيا بالأمثلا
1111		بتها في حق العبد	بيان حقيقة الدنيا وماهب
1177	سهم انفسهم	نفسهاً وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنه موردهم	بيان حفيقه الدليا في وخالقهم ومصدرهم وا
		كتاب دُم البخل ودم حب المال	
1150			بيان ذم المال وكراهة .
1177		ع بينه وبين الذم	بيان مدح المال والجم بيان تفصيل آفات المال
1121		ع، ومدح الفناعة واليأس مما في أيدي الناس طمع، والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة	
1121			بيان فضيلة السخاء .
1170	• • • • • • • • •	ل وحقیقتهما	بيان حدّ السخاء والبخ
		التي على العبد في ماله	
1171		نقر ـــــنندناه المالية ال	بيان ذم الغنى ومدح ال

المنحة

العوضوع

كتاب ذم الجاه والرياء

1144	بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
1145	بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت
1147	يان ذم الحاه ومعناه
1147	بيان معنى الجاه وحقيقته
1147	بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة
1144	وأما السبب الثاني وهو الأقوى
119+	بيان الكمال الحقْيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له
1197	بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم
	بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم
3711	ونفرتها منه
1140	بيان علاج حب المجاه
1197	بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم
1144	بيان علاج كراهة الذم
17++	بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم
17+71	الشطر الثاني من الكتَّاب: في طلُّب الجآه والمنزلة بالعبادات
17.7	بيان دُم الرياء ,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,
17.7	بیان حفیقة الریاء وما یراءی به به المیان حفیقه الریاء وما یراءی به
1111	بيان درجات الرياء
1710	بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل
1717	بيان ما يحبط العَّمل من الرياء الَّخفي والجلي ومَّا لا يحبط
177.	بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه
1774	بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات
174.	بيان الرَّخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها وكراهة ذمهم له
1744	بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات
1744	ويالجملة فالمراتب ثلاث
737 /	بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح
337/	بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه
	كتاب ذم الكبر والعجب
1714	بيان ذم الكبر
1404	بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب

الصفحة		الموضوع
1408	سيلة التواضع	بيان فظ
1404	ةيقة الكبر وَآفته	
1704	متكبر علميه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه	بيان الم
7771	به التكبر	بيان ما
AFY 1	واعث على التكبر وأسبابه المهيجة له	بيان البر
1774	نلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر	بيان أخ
۱۲۷۳	طريق في معالجة الكبر وآكتساب التواضع له	بيان الع
٩٨٢١	ية الرياضة في خلق التواضع	
1740	العجب وآفاته	بیان ذم
7871	العجب العجب	بيان آفة
1747	نيقة العجب والإدلال وحدّهما	بيان حف
***	لاج العجب على الجملةلج العجب على الجملة	بيان علا
1741	ساّم ما به العجب وتفصيل علاجه	بيان أق
	كتاب ذم الغرور	
1747	الغرور وحقيقته وأمثلته	بيان ذم
14.4	سنافُ المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف	
	كتاب التوبة	
	r the second	Su - 10
1444	ن: في نف س التوبة	
1441	نيقة التوية وحدها	
۱۳۳۷	بعوب التوبة وفضلها	
1371	وجوب التوبة على الفور وجوب التوبة على الفور	
	وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة	
1481	التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة	بيان أن
140.	ي: فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها	المركن الثانم
	سَّام الذنوب بالإضافة إلَى صفات العبد	
۸۳۵۸	نيةُ توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا	بيان كيف
	تعظم به الصغائر من الذنوب تعظم به الصغائر من الذنوب	
۱۳۷۰	ب. ث: في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر	الركن الثال
	سام العباد في دوام التوية	_

الصفحة	الموضوع
	بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن
١٣٨٣	المام بحكم الاتفاق المام بحكم الاتفاق
1444	الركن الرابع: في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار
	كتاب الصبر والشكر
12	بيان فضيلة الصبر
18-1	بيان حقيقة الصبر ومعناه
12.0	بيان كون الصبر نصف الإيمان
16.7	بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر
11.7	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
12.4	بيان مظانٌ الحاجَّة إلى الصبر وأن العبُّد لا يستغني عنه في حال من الأحوال
1610	بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
1271	الشطر الثاني من الكتاب: في الشكر
1441	الركن الأولُّ: في نفس الشكّر
1271	بيان فضيلة الشكر الشكر
1277	بيان حدّ الشكر وحقيقته
7731	بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى
1271	بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
1221	الركن الثاني: من أركان الشكر: ما عليه الشكر
1331	بيان حقيقة النعمة وأقسامها
1607	بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء
1207	الطرف الأول: في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
1101	الطرف الثاني: في أصناف النعم في خلق الإرادات
1500	الطرف الثالث: في نعم الله تعالَى في خلق القدرة وآلات الحركة
	المطرف الرابع: في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة وتصير صالحة
1209	لأنْ يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته
1271	الطرف الخامس: في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك
1277	الطرّف السادس: في إصلاح الأطعمة
1276	الطرف السابع: في إصلاح المصلحين
3751	الطرف الثامن: في بيان تعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام
1277	بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر
127T	وَلَا كُوهُ الْطَالَتُ: مِن كِتَابِ الصِيرِ وَالشِّكِيِّ : فيما شِيْدِكُ فيه الصِيرِ والشِّكِ ويرتبط احلاهما بالاحر

الصفحة	موضوع
1277	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد
1274	بيان فضل النعمة على البلاء
15.41	بيان الأنفضل من الصبر والشكر
	كتاب الخوف والرجاء
1 £ 1 1	بيان حقيقة الرجاء
1841	بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
1597	بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب
10.7	بيان عواء من الكتاب: في الخوف
10.4	بيان حقيقة الخوف
10.0	بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف
10.7	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
10.4	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
1014	بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
1017	بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف
1011	بيان معنى سوء الخاتمة
1071	· · ·
1071	بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف
1012	بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف
	كتاب الفقر والزهد
1011	شطر الأول من الكتاب: في الفقر
1014	بيان حقيقة الفقر واختلافُ أحوال الفقير وأساميه
1020	بيان فضيلة الفقر مطلقاً
1007	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين
	بيان فضيلة الفقر على الغني
1001	المقام الثاني: في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغني الحريص
	بيان أَداب الفقير في فقره
107.	بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال
1074	بيان تحريم السؤال من غير ضرورة؛ وآداب الفقير المضطر فيه
	بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال
	بيان أحوال السائلين
1041	شطر الثاني من الكتاب: في الزهد

الصفحة	الموضوع
1041	بيان حقيقة الزهد
1048	بيان فضيلة الزهد
1041	بيان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه؛ وإلى المرغوب عنه، وإلى المرغوب فيه
1017	بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
1044	بيان علامات الزهد
	كتاب التوحيد والتوكل
17-1	بيان فضيلة التوكل
17.4	بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل
1217	الشطر الثاني من الكتاب: في أحوال التوكل وأعماله
1718	بيان حال التوكل
1777	بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل ,,
1770	بيان أعمال المتوكلين
1744	بيان توكل المعيل
1740	بيان أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال
1727	بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم
	بيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل وأن ذلك
1757	لا يناقض فعل رسول الله ﷺ
1707	بيان الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال
3071	بيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه
	كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا
1707	بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى
1704	بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى
3777	بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
	بيان أن أجلّ اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن
1771	لا يؤثر عليها للة أخرى من حرم هذه اللذة
1770	بيان السبب في زيادة النظر في لذَّة الآخرة على المعرفة في الدنيا
17.61	بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى
3721	بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
1780	بيان السبب في قصور أفهام الخُلق عن معرفة الله سبحانه
1747	بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

الصفحة	الموضوع
1741	بيان محبة الله للعبد ومعناها
1748	القول في علامات محبة العبد لله تعالى
14.0	بيان معنى الأنس بالله تعالى
۲۰۷۱	بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس
14.4	القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته
171.	بيان فضيّلة الرضا
1717	بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
1414	بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا
1771	بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظانٌ المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا
۱۷۲۳	بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم
1777	خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها
	كتاب النية والإخلاص والصدق
۱۳۲۱	الباب الأوّل: في حقيقة النية ومعناها
	بان فضلة النة
١٧٣٤	بيان حقيقة النية
۱۷۳۵	بيان سر قوله ﷺ: ﴿نِيْهُ المُؤْمن خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِۥ
۱۷۳۸	بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية
۲۷٤۳	بيان أنّ النية غير داخلة تحت الاختيار
1727	الباب الثاني: في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته
1727	فضيلة الإخلاص
1711	بيان حقيقة الإخلاص
1401	بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص
1401	بيان درجات الشوائب والأفات المكدرة للإخلاص
	بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به
	الباب الثالث: في الصدق وفضيلته وحقيقته
	فضيلة الصدق فضيلة الصدق
1404	بيان حقيقة المصدق ومعناه ومراتبه
	كتاب المراقبة والمحاسبة
1777	المقام الأوّل من المرابطة: المشارطة
	المرابطة الثانية: المراقبة

الصفحة	الموضوع
1771	بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
1777	المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل. ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها
1774	بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل
1774	المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس على تقصيرها
1741	المرابطة الخامسة: المجاهدة
174.	المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها
	كتاب التفكر
1744	
14+1	بيان حقيقة الفكر وثمرته
۱۸۰۳	بيان مجاري الفكر
١٨١١	بيان كيفية اَلتفكر في خلق الله تعالى
	كتاب ذكر الموت وما بعده
1771	الشطر الأوّل: في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور، وفيه ثمانية أبواب
	الباب الأول: في ذكر الموتُ والترغيب في الإكثار من ذكره
۱۸۲۷	بيان فضل ذكر الموت كيفما كان
1414	بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
144.	الباب الثاني: في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل، وسبب طوله وكيفية معالجته
۱۸۳۰	فضيلة قصر الأمل
344	بيان السببُ في طول الأمل وعلاجه
1441	بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره
	بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
1444	الباب الثالث: في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عنده
١٨٤٥	بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
1381	بيان الحسرة عند لقاء مَلَك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها
١٨٤٨	الباب الرابع: في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده
1381	وفاة رسول الله ﷺ
۱۸۵۷	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
۱۸۵۸	وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

الصفحة	الموضوع
1404	وفاة عثمان رضي الله عنه
٠٢٨٢	وفاة علي كرم الله وجهه
1771	الباب الخامس: في كلام المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين
	بيان أقاويل حماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل
177/	التصوّف رضي الله عنهم أجمعين
1771	الباب السادس: في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر، وحكم زيارة القبور
٧٢٨١	بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور
144+	أبيات وجدت مكتوبة على القبور
1441	بيان أقاويلهم عند موت الولد
YYAF	بيان زيارة القُبور والدعاء للميت وما يتعلق به
7441	الباب السابع: في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور
1441	بيان حقيقة الموت
١٨٨١	بيان كلام القبر للميت
YAAI	بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير
۲۸۸۱	بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر ويقية القول في عذاب القبر
۱۸۸۸	الباب الثامن: فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام
1841	بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافّعة في الآخرة
1441	بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين
	الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال المبت من وقت نفخة الصور إلى آخر
1841	الاستقرار في الجنة أو في النار وتفصيلٌ ما بين يديه من الأهوال والأخطار
1881	صفة نفخة الصور
1444	صفة أرض المحشر وأهله
1444	صفة العرق
14	صفة طول يوم القيامة ,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,
1111	صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه
14.4	صفة المساءلة
14.7	صفة الميزان
14.7	صفة الخصماء ورد المظالم
1111	صفة الصراط
1417	صفة الشفاعة
	صفة الحوض
1117	القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

الصنحا		الموضوع
1444	، في صفة الجنة وأصناف نعيمها	ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
1447	حاَّنط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها	صفة
1444	لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأراتكهم وخيامهم	صفة
1111	طعام أهل الجنة طعام أهل الجنة	صفة
	الحور العين والولدان	
1441	جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار	بیان
1444	الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى	صفة
1446	الكتاب بباب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك	نختم
	مرضوعات	

